

مَعْنَى الْمُرِيدِ

الْجَامِعُ لِشُرُوحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّهْمَنِ

« ١١١٥ - ١٢٠٦ هـ »

تَأَلَّفَ

عَبْدُ الْمُنْعِمِ الْإِبْرَاهِيمِيُّ

المجلد الأول

النَّاشِرُ

مَكْتَبَةُ نَزَارِ مَصْطُوفِي الْبَزْازِ

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

جميع الحقوق محفوظة للناس



مكتبة

نزار مصطفى الباز

المملكة العربية السعودية

مكة المكرمة: الشامية- المكتبة ٢٢٠٥٧٤٩٠٤٤/٥٧٤٥٠٤٤

المنوع: ٥٣٧٢٣٧٤ ص. ب: ٣٠٩

الرياض: شارع السويدي العام للمقاطع مع شارع

كعب بن زهير- خلف أسواق الراحي ص. ب: ٦٦٩٣٠

المكتبة: ٤٢٤٠٣٥٣ المنوع: ٢٤٢١٩١١ الرز البري: ١١٥٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الدنّ وما كان معه من إله، إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض لا إله إلا هو ولا خالق غيره ولا رب سواه، المستحق لجميع أنواع العبادة ولذا قضى ألا يعبد إلا إياه ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (١).

الحمد لله الذى رضى الإسلام للمؤمنين ديناً، ونصب الأدلة على صحته وبينها تبييناً: وغرس التوحيد فى قلوبهم فأثمرت بإخلاصها فنوناً، وأعانهم على طاعته هداية منه وكفى بربك هادياً ومعيناً.

الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الدنّ وكبره تكبيراً.

الحمد لله العلى العظيم، الحليم، الكريم، السميع، البصير، اللطيف، الخبير، ذى النعم السوانغ، والفضل الواسع، والحجج البوالغ، تعالى ربنا عن صفات المحدودين وتقّس عن شبه المخلوقين، وتنزه عن مقالة المعطلين، علا ربنا فكان فوق سبع سماواته عالياً، ثم على عرشه استوى، يعلم السر وأخفى، ويسمع الكلام والنجوى، لا يخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، ولا فى لجج البحار ولا فى الهواء.

الحمد لله الذى أنزل القرآن بعلمه وأنشأ خلق الإنسان من تراب بيده، ثم كونه بكلمته، واصطفى رسوله إبراهيم - عليه السلام - بخلته، ونادى كلمته موسى صلوات الله عليه فقربه نجياً وكلمه تكليماً، وأمر نبيه نوحاً - صلوات الله عليه - بصنعة الفلك على عينه، وخبرنا أن أنثى لا تحمل ولا تضع إلا بعلمه كما أعلمنا أن كل شئ هالك إلا وجهه، وحذر عباده نفسه التى لا تشبه أنفس المخلوقين.

الحمد لله الذى نصب الكائنات على ربوبيته ووحدانيته حججاً، وحجب العقول والأبصار أن تجد إلى تكيفه منهجاً.

(١) الحج الآيه (٦٢).

وأشهد أن لا إله إلا الله إلهاً واحداً فرداً صمداً قاهراً قادراً رؤفاً رحيماً لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، ولا شريكاً في ملكه، ولا سميَّ له ولا كفؤ له، العدل في قضائه، الحليم في فعاله، القائم بين خلقه بالقسط، الممتن على المؤمنين بفضله، بذل لهم الإحسان، وزين في قلوبهم الإيمان، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وأنزل على نبيه الفرقان، علم القرآن، فتمت نعماء ربنا - جل وعلا - وعظمت آلاؤه على المطيعين له قربنا - جل ثناؤه - المعبود موجوداً والمحمود ممجداً ولا يحصى أحدٌ ثناءً عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما أثنى عليه خلقه، شهادة من أصبح قلبه بالإيمان بالله، وأسمائه وصفاته مبتهجاً، ولم يدع إلى شبه الجاحدين المعطلين معرجاً.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ المصطفى ونبيه المرتضى، اختاره الله لرسالته، ومستودع أمانته، وجعله خاتم النبيين، وخير خلق رب العالمين، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على كل دين، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل وفرض على العباد طاعته ومحبة وتعزيه وتوقيره والقيام بحقوقه، وسد إلى جنته جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه فشرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، بعثه بالكتاب المسطور في اللوح المحفوظ فبلغ عن الله - عز وجل - حقائق الرسالة، وأنقذ به أمته من الردى والضلالة، ففتح برسالته أعيناً عمياً وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، حيث دعا إلى الله على بصيرة، وسار في الأمة - بالعدل والإحسان والخلق العظيم - أحسن سيرة، إلى أن أشرقت الأرض برسالته بعد ظلماتها، وتآلفت القلوب بها بعد شتاتها، وسارت دعوته سير الشمس في الأقطار، وبلغ دينه القيم ما بلغ الليل والنهار، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة وكشف الغمة وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى قبضه إلى كرامته، ومنزلة أهل ولايته، الذين رضى أعمالهم، حميداً رضى سعيدهم، سبق له منه السعادة في اللوح المحفوظ، والإمام المبين قبل أن ينشئ الله نسمة فعليه صلوات الله وسلامه حياً محموداً وميتاً مفقوداً أفضل صلاة وأنماها وأزكاها وأطيبها صلاة تملأ أقطار الأرض والسماء وجزاء الله عن أمته أفضل الجزاء وأبقى في العالمين محبته، وفي المقربين مودته، وجعل في أعلى عليين

درجته، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين، أبى بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم أجمعين .
أما بعد

فإن الله سبحانه غرس شجرة محبته ومعرفته وتوحيده في قلوب من اختارهم لربوبيته واختصهم بنعمته وفضلهم على سائر خليقته فهي ﴿كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ (٢٤) تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴿١﴾ فكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في القلب وفروعها الكلم الطيب والعمل الصالح في السماء فلا تزال هذه الشجرة تخرج ثمرها كل وقت بإذن ربها من طيب القول وصالح العمل، من ذلك:

هذا الكتاب، للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، أحسن الله له المآب، وأجزل له الثواب، وفتح لدعوته الأبواب. فهو قرة عيون دعاة التوحيد، الذين سلكوا النهج السديد. فهدوا إلى القول المفيد. والعمل الرشيد. حيث أرشدتهم الكتاب إلى أول واجب من الله على عبده، وهو معرفته - عز وجل - بإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته وتوحيده بذلك، ومعرفة ما يناقضه أو بعضه من الشرك والتعطيل والتشبيه واجتناب ذلك، والإيمان بالقدر خيره وشره وتوحيد الطريق إلى الله - عز وجل - بمتابعة كتابه وسنة خير خلقه، ومعرفة ما يناقض ذلك من البدع المضلة، والأهواء المذلة، فلذا خلق الله الخلق وأخذ عليهم الميثاق، وخلق الدنيا والآخرة والجنة والنار، وبه حقت الحاققة ووقعت الواقعة وفي شأنه تنصب الموازين.

لذلك ولغيره كان «كتاب التوحيد» من الكتب التي أقبل عليها العلماء مشمرين عن سواعد الجهد، مجتهدين في إخراجه في صورة أجند. فكم من باسط له ومختصر، ومنافع عنه ومتنصر، حتى كثر بحمد الله شروحه، وعمت بفضل الله فتوحه. فاشتاققت الطلبة والإخوان إلى جمع لهذه الشروح على شرح واحد، يفي بجميع المقاصد. ذلك لأن أغلبهم أصبح أمام هذه الشروح مشتت وشارد، فأحببت أن أسعفهم بمراهم على حسب طاقتي وقلة بضاعتي، وعدم أهليتي، يدفعني إلى ذلك ما دفع سلفي وقدوتي، وهو قوله ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» (٢)، فسلكت في الشرح

(١) إبراهيم: ٢٤، ٢٥

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (١٧/٢١ ٢٢ النوى) وأحمد (٢/٢٥٢)، وأبو داود (٤٩٤٦)، والترمذي (٢٩٤٥)، والنسائي في «الكبرى» (٧٢٨٨)، وابن ماجة (٢٢٥).

من حديث أبى هريرة رضى الله عنه
وانظر «جامع العلوم والحكم» (٣٦ بتخریجنا).

مسلكهم واتبعت طريقتهم في التنبيه على بعض ما تضمنه الكتاب من بعض أنواع التوحيد وهو المقصود بالأصالة هنا ولم أخله أيضاً من التنبيه على بعض ما يتمضنه من غير ذلك.

إلا أن الأولي بنا هو بيان ما وضع لأجله، الكتاب لعموم الضرر والفساد الواقع لمخالفة ما فيه من العباد، كذا قال الشيخ سليمان، وتبعه الشيخ عبدالرحمن. وكذلك من المعاصرين، الشيخ ابن عثيمين، فتجدهم في مسائل التوحيد مطوّلين، وعن غيره من المسائل غير معرضين، سواء كان من الفروع أو من أصول الدين.. فبدأت بما بدأوا به من شرح الترجمة والتبويب، وعلاقة ذلك بالتوحيد وبالباب البعيد أو القريب، مراعيًا في ذلك البدء بالكبير منهم ثم الذي يليه على الترتيب، وقد أذكر كلامهم على طوله وأختصر وأقرب إذا لزم الاختصار والتقريب، ثم أختتم بكلامي إن كان لي في الكلام نصيب.

وميزت بين كلامي وكلام أهل العلم بقولي: [قال الفقير] هذا إذا كان الكلام على رأس مسألة أو فائدة أما إذا كان تعليقاً أو استدراكاً في وسط الكلام ويتعذر كتابة [قال الفقير] فأكتب [قلت] فإن كان (قلت) لغيري ذكرت بعده [أي فلان] اسم العالم أو الشيخ الذي قال هذا الكلام حتى لا يخلط القارئ بين قلت المنسوب إلى العلماء والمنسوبة إليّ. هذا إذا تسنى التمييز بـ [قلت] أو [قال الفقير] أما إذا لم يتسن فيتميز كلامي بعدم نسبته لأحد من أهل العلم.

ثم أكرّ على شرح الأدلة التي أوردتها المصنف من الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة فإن كان الدليل من القرآن التزمت في تفسيري الطرق الحسان كما قررها مشايخ الإسلام بأن نبدأ التفسير بالقرآن ثم بالسنة ثم بفهم سلف الأمة حتى يتبين المطلوب خير بيان، مستعيناً في ذلك بأمهات التفسير.

من لدن «الطبري» «وابن أبي حاتم» إلى «ابن كثير»، حتى «أضواء البيان» وبين ذلك من كتب تفسير القرآن الكثير. ولم أنس أن أذكر ما أوردته شراح كتاب التوحيد، من لدن «تيسير العزيز الحميد»، إلى آخر ما وقفت عليه من شروح. ككتاب «الجديد». وإن كان الدليل من السنة جمعت شروحه من الكتب التي عنت بشرح الأمهات، وكذلك ما تقدم ذكره من كتب شراح الكتاب الثقات، على الترتيب الذي فات، أو غيرهم ممن أفردوا لبعض مسائل الكتاب بحوثاً ومصنفات. كالشيخ ابن باز والألباني ومقبل بن هادي، وغيرهم ممن كان عليهم في هذا المجموع - بعد الله - اعتماد. هذا وقد أكرر شرح الحديث الواحد

من كلام العلماء جميعاً وإن كان متقارباً، أو متشابهاً أحياناً أو غالباً. ضماناً للفهم الصحيح السلفي المسلسل إلى علماء اليوم من التحريف، أو التبديل أو غير ذلك وفي نهاية كل باب، نأتى بشرح مسائل الباب. من كلام الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، إلا ما كان من قولى فى شرح بعض هذه المسائل فأصدره بقولى: [قلت] وإني إن جردت ذكرهم - أي الشراح - من شريف ما لهم من الألقاب طلباً للاختصار، ومعلوم: أن الأصل إنزال كل منزلة، فلهم ما لزمهم من شريف ما لهم من الألقاب العلمية والرتب العلية، لكن لم ألزم ذكرها - غالباً - للإختصار ومقامهم فى قلوبنا يُجلى عن الوصف وهذه حقيقة إنزالهم منزلتهم.

وقد التزمتُ - جهدي - ما هو أنفع لنا ولهم، وهو: الدعاء لهم رقماً أو نطقاً، فيما أسوقه من كلامي أما في حال النقل لكلام غيري فاتبع الأصل المنقول منه، فإن كان فيه ذلك كتبه، وإلا اكتفيت بالنطق به محافظة على الأصل.

فجزاهم الله عن الأمة والدين أحسن الجزاء وأوفاه ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين.

وكذلك فعلت في تلك الفوائد والمسائل التى يستنبطها المصنّف مما أورده من حجج ودلائل ليقرب للطالب الثمرة، وقدمت بين يديّ ذلك كله بالتعريف بمبادئ هذا العلم العشرة، وجعلت لكل مبدأ فقرة، لتأصل عند القارئ الفكرة. ولم يفوتنى التعريف بصاحب الكتاب وبعض شراحه، وبالكتاب على الجملة. ولما كان هذا المجموع مغنياً لكلّ مريد، لشرح أيّ مسألة فى كتاب التوحيد، سميته: -

مغنى المريد، شرح كتاب التوحيد.

وهو لهذا ولغيره روحي ومن مشاريع عمري.

وجملته (تقييدات كما تقدم) ليس لي فيها من عمل سوى: الجمع، ثم الترتيب، ثم التعبير ثم التلخيص والتذييل وهي أدنى مراتب التأليف، أما أن تكون تأليفاً على نفس المتقدمين، بالإبداع، فهذا لطرّاز شغَرَ منهم الزمان، وطوّري بساطه عنا منذ أزمان، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العزيز الحكيم^(١) وعلى العلاّت فأمل أن يكون محتواها مشوقاً معلماً يجلو عوارض الظلم،

(١) التأصيل لأصول التخريج وقواعد الجرح والتعديل ص ١١ وما بين القوسين زيادة.

ويكسِفُ العِصِيَّةَ على السُّنَنِ، لما هنا من نُقُولٍ مستخرجة من معدنها موثقة على أصولها، عن أهل الفضل والفضيلة، والرتب الرفيعة، نجوم الهدى، رجوم العدى، أمناء الله على حفظ دينه وسنة نبيه، الذين هم عُمَدٌ في هذا الفن، من مؤلفاتهم الجامعة في «التوحيد» وعلومه، مما أغنوا به الناظر وشرحوا به الخواطر، وعقدوا للعلم الأواصر، فجزاهم الله عن حسن صنيعهم جزاء شاكر^(١).

جَمَالَ ذِي الْأَرْضِ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ وَهُمْ بَعْدَ الْمَمَاتِ جَمَالَ الْكُتُبِ وَالسَّيْرِ
فِي أَيَّهَا الْقَارِئُ لَهُ وَالنَّاظِرُ فِيهِ، هَذِهِ بَضَاعَةٌ صَاحِبِهَا الْمَرْجَاةُ مَسْوُوقَةٌ إِلَيْكَ،
وَهَذَا فَهْمُهُ وَعَقْلُهُ مَعْرُوضٌ عَلَيْكَ، لَكَ غَنَمُهُ وَعَلَى مُؤَلِّفِهِ غَرَمُهُ وَلَكَ ثَمَرَتُهُ
وَعَلَيْهِ عَائِدَتُهُ، فَإِنْ عَدِمَ مِنْكَ حَمْدًا وَشُكْرًا، فَلَا يَعْدَمُ مِنْكَ مَغْفِرَةٌ وَعِذْرًا وَإِنْ
أَبَيْتَ إِلَّا الْمَلَامَ فَبَابُهُ مَفْتُوحٌ. وَقَدْ:

اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِالشَّنَاءِ وَبِالْحَمْدِ وَوَلَّى الْمَلَامَةَ الرَّجُلَا
وَإِنْ تَجَدَّ عَيْبًا فَسُدَّ الْخُلُلَا فَجَلَّ مِنْ لَا عَيْبَ فِيهِ وَعَلَا^(٢)
وَاللَّهُ الْمُسْتَوَّلُ أَنْ يَجْعَلَهُ لَوَجْهَهُ خَالِصًا، وَيَنْفَعَهُ بِهِ مُؤَلِّفُهُ وَقَارِئُهُ، وَكَاتِبُهُ
وَيَنْفَعَهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنَّهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، وَأَهْلُ الرِّجَاءِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنَعْمَ
الْوَكِيلُ^(*).

عبد المنعم إبراهيم

(١) انظر النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح للطاهر بن عاشور: ص ٥ نقلًا عن كتاب التأصيل بكر أبو زيد ص ٢٠ مع حذف كلمة الحديث ووضع مكانها التوحيد.

(٢) الطب للذهبي: ص ٣٧ بتخريجنا.

(*) وقد استفدنا في مقدمتنا هذه من مقدمات الكتب الآتية [شفاء العليل / لابن القيم، وطريق الهجرتين له، وتيسير العزيز الحميد، ومعارج القبول، وكتاب التوحيد لابن خزيمة].

خطة عملنا في / مغنى المريد شرح كتاب التوحيد

- أولاً: وضعنا مقدمة عامة للكتاب.
- ثانياً: المبادئ العشرة لعلم التوحيد.
- ثالثاً: أهمية كتاب التوحيد - لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وذكر منهجة فى تصنيف الكتاب.
- رابعاً: ترجمة لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.
- خامساً: ذكر شروح كتاب التوحيد.
- سادساً: تراجم مشاهير شراح كتاب التوحيد.
- سابعاً: وضع متن كتاب التوحيد كاملاً قبل الشرح ليسهل حفظه على الطلاب وليكون كالفهرس المساعد على الوصول إلى أى مسألة من مسائل الكتاب.

ثامناً نظام الشرح فى الكتاب كما يلى :-

- (أ) مستوى أول ، وفيه متن الكتاب .
- (ب) مستوى ثانى ، وفيه الشرح الجامع .
- (ج) مستوى ثالث ، وفيه تخريجات المتن والشرح .
- تاسعاً: الشرح ، جاء بالترتيب الآتى :
- (١) مناسبة الباب لما قبله ، أو بالنسبة للأبواب السابقة له (خاصة) .
- (٢) مناسبة الباب لكتاب التوحيد (عامة) . وربما قدمنا بعض هذه العناصر الثلاثة على بعض لمصلحة شرح الباب .
- (٣) شرح الترجمة والتبويب وماذا أراد المصنف بهذا الباب .
- (٤) إذا كان الباب مُصَدِّراً بآية قرآنية ، أو جاءت يعد ذلك فإنه يأتى تفسيرها على الصفة الآتية :-

أ - علاقة الآية بالباب - وعلاقتها بكتاب التوحيد عامة .

ب - إعراب الآية .

ج - تفسير الآية، على منهج المفسرين المعروف (بالقرآن - ثم السنة - ثم الصحابة - ثم أقوال التابعين).

د - تفسير الآية بأقوال أهل التفسير، ثم شرح كتاب التوحيد.

هـ - ترتيب أقوال أهل التفسير، حسب الأقدم، فيكون الترتيب كالآتي:
- ابن جرير - الجصاص - البغوى - الزمخشري مع الاحتراز من بدعته ومخالفته لأهل السنة واعتزاله - ابن الجوزى مع التحذير من تفويضه وإضطراره به فى الأسماء والصفات - الفخر الرازى مع التحذير أيضاً من تأويله وأشعريته - القرطبى مع التنبيه على أشعريته - ابن كثير - الشوكانى - ناصر السعدى - الشنقيطى - ظلال القرآن(*) مع التنبيه على ما يفهم منه التأويل أو الخطأ فى الدليل لا المدلول أحياناً - الإعراب المعاصر لمحيى الدين درويش مع ملاحظة تقديم قوله فى الإعراب على كل المفسرين معتبرين فى ذلك والتدرج فى فهم الآية فبمعرفة الإعراب نعلم ما علمه الصحابة أول وهلة من الآية ثم علموه بما معهم من قرآن وبما نزل بعد ذلك ثم علموه بقول النبى - ﷺ.

وربما أجمع أقوال المفسرين فى قول، فإن زاد أحدهم أضفنا الزيادة.

عاشراً: شرح أحاديث المتن:

(١) النظر فى الأحاديث من حيث الصحة والضعف وجمع الطرق لذلك وغالباً من نضعه من كلام سليمان آل الشيخ وإلا فمن كلامنا إن لم يكن له كلام.

(٢) مناسبة الحديث للباب والكتاب.

(٣) وضعنا شرحنا للحديث من كلام أهل العلم والشرأح كالآتى:
النووى - ابن حجر - تحفة الأحوذى - عون المعبود - ومعالم السنن - سليمان آل الشيخ / «تيسير العزيز» - حامد بن محمد بن حسن / «فتح الله الحميد المجيد» - عبد الرحمن آل الشيخ / «فتح المجيد» - «وقرة عيون الموحدين» - ناصر السعدى / «القول السديد» - ابن باز / «التعليق المفيد» - ابن عثيمين / «القول المفيد» - عبد الله

(*) راجع مقدمة كتابنا (فتح ذى الحلال فى تخريج أحاديث الظلال) وخاصة فصل (هل فى ظلال القرآن

كتاب تفسير؟).

ابن جبار الله / «الجامع الفريد» - محمد القرعاوى / «الجديد» -
ياسر برهامى / «فضل الله الغنى الحميد».

(٤) فوائد الحديث إن وجد للشرح قوائد.

الحادى عشر: وضع مسائل الباب وشرحها فى نهاية كل باب، وغالباً ما تكون
من القول المفيد، ثم تعليقى عليه.

الثانى عشر: قد يحدث تقديم وتأخير فى هذا الترتيب السابق؛ وذلك لما
تقتضيه مصلحة الشرح، فعند ذلك أراعى تقديم الأهم فالهم، والأنسب
فالأنسب.

الثالث عشر: التخرىج:

أ - قمنا بتخرىج أحاديث متن كتاب التوحيد وعزوناها لمصادرنا.

ب - غالباً ما نحكم على أحاديث المتن، ونظهر ما فيها من كلام أهل
العلم من جرح أو تعديل.

ج - خرجنا أحاديث الشرح تخرىج مختصر، وحكمنا على بعضها
بالصحة أو الضعف.

د - خرجنا آيات المتن والشرح.

هـ - خرجنا أو عزونا كلام أهل العلم من الشراح إلى مصادرنا فى
كتبهم.

و - وربما استفدنا من بعض حواشى شروح كتاب التوحيد.

تنبيه: وضعنا ترقيم «تفسير ابن أبى حاتم» معتمدين على النسخة
المطبوعة، وما لم نرقمه وعزونا لتفسير ابن أبى حاتم فإنه من نسختنا
المحققة الجارى طبعها - إن شاء الله تعالى -.

الرابع عشر: مصادر ومراجع الكتاب.

الخامس عشر: فهرس الكتاب

فهارس موضوعات الكتاب

مقدمات لكتاب «مغني المريـد» شرح كتاب التوحيد» وفيها:

- * مبادئ علم التوحيد
- * أهمية كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ومنهجه في الكتاب.
- * ترجمة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.
- * شروح كتاب التوحيد.
- * بعض تراجم الشراح.

* مبادئ علم التوحيد *

باعتبار «علم التوحيد» فناً مستقلاً ، فلا بد من معرفة مبادئه العشرة التي ينبغي لقاصد كلِّ فنٍّ أن يعرفها ، لتَصور ذلك الفنَّ قبل الشروع فيه .
وقد جمعها الصَّبان نظماً بقوله (١) :

إِنَّ مَبَادِيَّ كُلِّ عِلْمٍ عَشْرَةٌ	الْحَدَّ وَالْمَوْضُوعَ ثُمَّ الثَّمَرَةَ
وَنَسَبَهُ وَفَضْلَهُ وَالْوَاضِعَ	وَالْأَسْمَ الْإِسْتِمْدَادَ حُكْمَ الشَّارِعِ
مَسَائِلَ وَالْبَعْضَ بِالْبَعْضِ اكْتَفَى	وَمَنْ دَرَى الْجَمِيعَ حَازَ الشَّرْفَا

زاد بعضهم: المبدأ الحادى عشرو هو: شرفه وعليه فهذه مبادئ «علم التوحيد» هي :

المبدأ الأول من مبادئ علم التوحيد

حده: أى تعريفه أو معناه

علم التوحيد له معنيان.

(١) معنى إضافى: فعلم مضاف والتوحيد مضاف إليه .

والعلم: هو إدراك الشيء على ما هو عليه فى الواقع إدراكاً جازماً وهو بخلاف الجهل (٢).

أما التوحيد: مصدر وحد يوحد توحيداً، ومعنى وحدت الله أى اعتقدته واحداً وسيأتى مزيد تفصيل عند شرح قول المصنف (كتاب التوحيد).

(٢) علم التوحيد اللقى: وهو علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية من الأدلة الثابتة المرضية (صريح المعقول) (وصحيح المنقول).

وسيأتى الكلام على هذه العقائد فى المبدأ الثانى .
مسئلة

هل الإيمان هو التوحيد:

قال ابن عثيمين (٣):

(١) نقلاً عن كتاب التأصيل للشيخ بكر أبو زيد ص ٣٧ .

(٢) نقلاً من كتابنا «حاشية على شرح الورقات» .

(٣) «مجموع رسائل وفتاوى فضيلة الشيخ ابن عثيمين» ٢٦/١ .

التوحيد: إفراد الله - عز وجل - بما يختص به ويجب له، والإيمان: هو «التصديق المتضمن للقبول والإذعان».

وبينهما عموم وخصوص فكل موحد مؤمن، وكل مؤمن موحد بالمعنى العام.

ولكن أحياناً يكون التوحيد أخص من الإيمان، والإيمان أخص من التوحيد، والله أعلم.

المبدأ الثانى من مبادئ علم التوحيد:

موضوعه

الكلام على ذات الله من حيث ما يتصف به وما يتنزه عنه ومن حيث ما يجب له.

والكلام على ذات الرسول ﷺ من حيث ما يتصف به وما يتنزه عنه ومن حيث ما يجب له.

والسمعيات وهى الأخبار التى لا نعرفها إلا عن طريق السمع كذكر الملائكة والجنة والنار.

المبدأ الثالث من مبادئ علم التوحيد «ثمرته».

أهمية علم التوحيد والهدف من تعلمه وشرحه

* وستكلم بين يدى هذا المبدأ الثالث - ثمرته - عن أهمية هذا العلم، والهدف من تعلمه؛ ذلك لأننا وجدنا أن هذا أنسب المواضع لهذا الفصل الذى هو بمثابة تجديد النية، أو تصحيح النية حتى نستمر فى هذا العمل ونثاب عليه^(١) فلانستمر إلا بنية خالصة لله ولانصبر على هذا العمل إلا بنية، ولانؤجر ونثاب ولايصح منا هذا العمل إلا بنية، وهذا ما فهمه العلماء من قول النبى ﷺ الثابت فى الصحيح «إنما الأعمال بالنيات»^(٢) فوجود العمل بنية، فلا يوجد صبر على عمل ولاصبر على علم إلا بنية، ولايصح ولا يقبل إلا بنية صحيحة، ولايستمر إلا بنية طيبة، ولايأتى هذا العمل ثماره إلا بنية طيبة كما تقدم فى شجرة التوحيد: أنها تؤتى ثمارها كل حين بإذن ربها.

(١) كان هذا الكلام فى أول المحاضرات فى شرح الكتاب.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩١)، ومسلم (٥٣/٣ - الإمارة) وانظر «رياض الصالحين» (١).

بتخريجنا).

- ولأن قضية التوحيد قضية دائمة في حياة البشرية -

فقضية لا إله إلا الله قضية دائمة في حياة البشرية. . لا يدعى إليها الكفار وحدهم لكي يؤمنوا، ولا المشركون وحدهم ليصححوا اعتقادهم، ولكن يدعى إليها المؤمنون بها كذلك ويذكرون بها، لكي تظل حية في قلوبهم، راسخة في ضمائرهم، عاملة في واقع حياتهم لا يفترون عنها، ولا يغفلون عن مقتضياتها: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾^(١).

ومن ثم جاء ﷺ وأرسل إلينا بشرع مجيد يحقق هذا التوحيد، ويجدد لنا في كل وقت وفي كل حين في قلوبنا هذا الإيمان، فمثلاً:

نجد أن الواجب الأول على ولي الأمر تجاه ولده الذي قارب النطق أن يلقيه لا إله إلا الله. قال ابن القيم^(٢): فإذا كان وقت نطقهم فليلقنوا لا إله إلا الله وليكن أول ما يقرع مسامعهم معرفة الله سبحانه وتوحيده وأنه سبحانه فوق عرشه ينظر إليهم ويسمع كلامهم وهو معهم أينما كانوا.

ونجد أن اليوم يبدأ بأذان الفجر والأذان كله توحيد وأخرج الطبراني عن عكرمة في قوله - عز وجل - ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾^(٣). قال المؤذن: حين يقول لا إله إلا الله^(٤).

وأيضاً بعد صلاة الفجر تُعلن كلمة التوحيد من قال دبر صلاة الصبح وهو ثان رجله قبل أن يتكلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، عشر مرات كُتب له عشر حسنات، ومحى عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، وكان يومه ذلك في حرز من كل مكروه وحرس من الشيطان ولم ينبغ لذنب أن يدركه في ذلك اليوم إلا الشرك بالله تعالى»^(٥).

(١) النساء: الآية (١٣٦) وانظر «مفاهيم ينبغي أن تصحح» (١٨، ١٩).

(٢) تحفة المودود (١٦٤).

(٣) فصلت: الآية (٣٣).

(٤) «الدعاء للطبراني» (١٥٤٩).

(٥) [ضعيف] أخرجه الترمذي، والنسائي (٩٩٥٥) وقال الترمذي: حسن صحيح غريب قلت: وفيه

شهر بن حوشب وهو ضعيف.

وانظر «الأذكار» (١٨٢) - بتخريننا.

وأيضاً دبر كل صلاة لما أخرجه مسلم عن بن الزبير - رضى الله عنهما - أنه كان يقول دبر كل صلاة حين يُسَلِّم «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لاحول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين وله كره الكافرون»^(١).

وأيضاً فى أذكار الصباح والمساء، ومنها «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت...»^(٢). وهو فى الصحيح وغيرها من الأذكار وأيضاً عند الوضوء - يعنى بعد الوضوء - فلقد روى مسلم عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»^(٣).

وأيضاً عند افتتاح الصلاة لما ثبت فى الصحيح «... اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربى وأنا عبدك ظلمت نفسى واعترفت بذنبى» الحديث^(٤).

وأيضاً فى أذكار الركوع والسجود لما روى مسلم عن عائشة قالت: تفقدت النبى ﷺ ذات ليلة فتجسست فإذا هو راعع أو ساجد يقول «سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت»^(٥).

وفى التشهد الثانى لما فى الصحيحين من حديث ابن مسعود فى التشهد وفيه «... أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله»^(٦).

وفى الدعاء بعد التشهد الأخير لما رواه مسلم كان رسول الله ﷺ يقول بين التشهد والتسليم: «اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٩١/٥ - المساجد). وانظر «الأذكار» (١٦٧ - بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٣٠٦) عن شداد بن أوس به.

وانظر «الأذكار للنوى» (١٨٦ - بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم (١١٨/٣ - الطهارة).

وانظر «الأذكار» (٧٤ - بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (٣٠٩/٣ - صلاة المسافرين).

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم (٢٠٣/٤ - الصلاة).

وانظر «الأذكار للنوى» (١٣٨ - بتخريجنا).

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٨٣١)، ومسلم (١١٥/٤ - الصلاة).

وانظر «الأذكار للنوى» (١٤٨ - بتخريجنا).

أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منى، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت» (١).

وأيضاً ما يقال فى صبيحة يوم الجمعة

من قال صبيحة يوم الجمعة قبل صلاة الغداة استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر» (٢).

ما يقوله بعد صلاة المغرب فعن أنس وأيضاً عن عمارة بن شبيب قال: قال رسول الله ﷺ من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير على أثر المغرب، بعث الله مسلحة يتكفلونه من الشيطان حتى يصبح وكتب الله له بها عشر حسنات موجبات، ومحا عنه عشر سيئات موبقات، وكانت له بعدل عشر رقاب مؤمنات (٣) رواه الترمذى (ومسلحة) هم الحرس.

وأيضاً فيما يقول إذا أراد النوم اضطجع على فراشه «من قال حين يأوى إلى فراشه: استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله تعالى له ذنبه وإن كانت مثل زبد البحر، وإن كانت عدد رمل عاليج وإن كانت عدد أيام الدنيا» (٤) رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى.

وفى الباب أيضاً «اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٦٠/٦ - صلاة المسافرين) عن على - رضى الله عنه - .

وانظر «الأذكار للنووى» (١٥٩ - بتخريجنا).

(٢) [ضعيف] أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (ص: ٤٦) عن أنس - رضى الله عنه - بإسناد

فيه ضعف.

وانظر «الأذكار للنووى» (١٠٩ - بتخريجنا).

(٣) [مرسل ضعيف] أخرجه الترمذى (٣٥٣٤)، والنسائى (١٠٤٣).

قال الترمذى: حسن غريب ولا تعرف لعمارة سماعاً من النبى ﷺ.

وانظر «الأذكار للنووى» (٢٣٠ - بتخريجنا).

(٤) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٣٣٩٧) عن أبى سعيد رضى الله عنه - بإسناد ضعيف قلت: فيه

الوصافى عبيد الله بن الوليد، وعطية العوفى وكلاهما ضعيف (التقريب).

وانظر «الأذكار للنووى» (٢٥٠ - بتخريجنا).

كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفس وشر الشيطان
وشركه، قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا اضطجعت»^(١) أبو داود والترمذى
بإسناد صحيح عن أبي هريرة.

وأيضاً ما يقول إذا استيقظ فى الليل وأراد النوم بعده
عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ «من تعار من الليل فقال: لا إله الله
وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ...» الحديث
البخارى^(٢).

وعن عائشة مرفوعاً (إذا تعار من الليل قال: لا إله إلا الله الواحد القهار رب
السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار)^(٣) ابن السنى.
وأيضاً هناك أذكار تقال فى أوقات الشدة وعند الأمور المهمة (من الهم)
لتربيننا على التوحيد لله عز وجل.

فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب «لا إله إلا الله
العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات
 ورب الأرض ورب العرش الكريم»^(٤) رواه البخارى ومسلم.

وعن على قال «لَقِىَ رسول الله ﷺ هؤلاء الكلمات، وأمرنى أن نزل بى
كرب أو شدة أن أقولها: لا إله إلا الله الكريم العظيم....»^(٥) رواه ابن السنى.
وفيما يقول إذا خاف سلطاناً.

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧)، والترمذى (٣٣٩٢).

قال الترمذى: حسن صحيح.

وانظر «الأذكار» (١٩٣ - بتخريجه).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (١١٥٤).

وانظر «الأذكار للنوى» (٢٦٤ - بتخريجه).

(٣) أخرجه النسائى (١٠٧٠٠)، وابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» (٧٦٢) وابن حبان فى «صحيحه»
(٤٢٤/٧).

وانظر «الأذكار» (٢٦٦ - بتخريجه).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٣٤٥، ٦٣٤٦)، ومسلم (٤٧/١٧) - الذكر والدعاء.

وانظر «الأذكار» (٣١٥ - بتخريجه).

(٥) [صحيح] أخرجه النسائى (١٠٤٦٥، ١٠٤٦٧)، وابن السنى (٣٤٣).

وانظر «الأذكار» (٣١٩ - بتخريجه).

ثبت عن ابن عمر وقال رسول الله ﷺ «إذا خفت سلطاناً أو غيره فقل: لا إله إلا الله الحليم الحكيم سبحانه الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم، لا إله إلا أنت، عز جارك وجل ثناؤك»^(١) ابن السنن.

وهناك أذكار المرض والموت وما يتعلق بهما أيضاً فعن أبي سعيد وأبي هريرة عن الرسول ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله والله أكبر صدقه ربه فقال: لا إله إلا أنا وأنا أكبر، وإذا قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال: يقول: لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي، وإذا قال: لا إله إلا الله له الملك وله الحمد قال: لا إله إلا أنا لى الملك ولى الحمد، وإذا قال: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله قال لا إله إلا أنا ولا حول ولا قوة إلى بى» وكان يقول «من قالها فى مرضه ثم مات لم تطعمه النار»^(٢).

وفى الباب من حديث معاذ مرفوعاً «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٣).

رواه أبوداود والحاكم وقال: صحيح الإسناد

وعن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»^(٤) مسلم والنسائى.

وهكذا نجد أن الشرع الخفيف ما جاء إلا مذكراً معلناً مريئاً عباده من أول خروجهم إلى هذه الدنيا إلى أن يخرجوا على هذه الكلمة، فكان لابد من تعلمها وما تقتضيه والعمل بها، فالكلمة وحدها لا تربي ولا تزكى ولا تدخل الجنة

(١) [ضعيف] أخرجه ابن السنن فى «عمل اليوم والليلة» (٣٤٧) بإسناد ضعيف قلت: والحديث فيه محمد بن عبدالرحمن البيهقي، وأبو عبدالرحمن البيهقي كلاهما ضعيف «التقريب».

وانظر «الأذكار» (٣٢٩) - بتخریجنا.

(٢) أخرجه الترمذی (٣٤٣٠)، وابن ماجه (٣٧٩٤).

قال الترمذی: حسن غريب.

(٣) [إسناده ضعيف] أخرجه أبوداود (٣١١٦)، والحاكم (٣٥١) قلت: فيه صالح بن أبى غريب جهله

ابن القطان وله شواهد بصححه مثله.

وانظر «الأذكار للنووى» (٣٨٦) - بتخریجنا وانظر أيضاً كتابنا بغية الفاتر الجامع لأحكام الجنائز.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (٢١٩/٦) - الجنائز.

وانظر «الأذكار للنووى» (٣٨٧) - بتخریجنا وانظر كتابنا بغية الفاتر الجامع لأحكام الجنائز.

ولكنها من المعانى ما يجعل صاحبها من أهل الجنة وهذه المعانى والمقتضيات لأبد من تعلمها حتى نعمل بها ونكون من أهلها بهذا وغيره يظهر أهمية علم التوحيد.

ومن أهمية هذا العلم وثمراته لتجديد الإيمان فى قلوبنا

لتجديد الإيمان فى قلوبنا ولكى لا يَخْلُقَ ويقسو القلب ويغتر بطول الأمد. روى الطبرانى والحاكم بأسانيد صحيحها البعض أن النبى ﷺ قال: «إن الإيمان ليَخْلُقُ فى جوف أحدكم كما يخلق الثوب فجددوا إيمانكم»^(١).

وهذا الحديث يجيب على إشكال يدور فى ذهن البعض، هل ندرس التوحيد لأننا كفرة، فتعلمه حتى ندخل فى الدين؟

هذا الإشكال أجاب عنه النبى ﷺ: «إن الإيمان ليخلق يعنى لِيَلِي كما يلى الثوب»^(٢).

فربما يطول الأمد ويقسو القلب كما حدث فى بنى إسرائيل يحصل فى هذه الأمة، كما أخبر النبى ﷺ فى الصحيح «لتركن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر»^(٣) والله - عز وجل - حذرنا من ذلك فقال: «وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا»^(٤).

فكما أن الإيمان يخلق فى جوف أحدنا والله يُحْيِي الأرض بعد موتها، فكذلك يُحْيِي الإيمان فى قلوبنا بعد أن طالت مدة الإلترام وأصبحت أمور الإلترام بالنسبة لنا أمور روتينية ليست عبادية.

فنحن نعتقد بأننا جميعاً مسلمون، ولكن هذا الإيمان يلى ويخلق فلا بد من تجديده فلهذا ندرس التوحيد.

وقد قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ»^(٥) الآية يدعوهم لزيادة وترسيخ وتثبيت الإيمان.

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرک» (٤/١) وصححه

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥٢/١) ونسبه للطبرانى فى «الكبير» وحسن إسناده.

(٢) تقدم فيما قبله.

(٣) سيأتى تخريجه فى «شرح الكتاب».

(٤) النساء: الآية (١٣٦).

(٥) الحديد: الآية (١٦، ١٧).

ومن عوامل تجديد الإيمان بعد المواظبة على دروس الرحمن هو أن نسأل الرحمن سبحانه وتعالى أن يجدد لنا هذا الإيمان.

لذلك صدق من قال: «أن دروس الإيمان أو دروس التوحيد لا تنقطع»، أى ينبغي على الموحّد ألا يقطعها إن كان موحّداً.

لذلك لما قال النبي ﷺ «فجددوا إيمانكم»^(١) سأله الصحابة قالوا «وكيف نجدد إيماننا؟» فى رواية أخرى فى المسند، قال: «أكثرُوا من قول لا إله إلا الله»^(٢) وهو يوجه هذا الكلام لخير الناس وهم أعلم بمعناها ومقتضياتها وقاموا بها ووفوا بشروط هذه الكلمة، ومع ذلك لما علم الرسول ﷺ أثر هذه الكلمة على نفوسهم ونفوس كل من علم حقيقة الكلمة، ومقتضياتها، أمرهم بتجديد الإيمان بقول لا إله إلا الله على النحو المتقدم فى المبدأ الماضى فكأن هذه الكلمة بمجرد ذكرها ممثّلين ستشعل فىنا الإيمان، أو ربما تُجدد فىنا ذكريات هذه الكلمة، ومعناها.

- ولأن السلف حرصوا على تعلم التوحيد

ومن عظيم ما يبين أهميته حرص السلف على تعلم التوحيد وتعليمه يحدوهم فى ذلك الأسوة الحسنة فى أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام حيث قال الله تعالى فى حقه ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾^(٣) وها هو لقمان الحكيم ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لَبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٤).

وحديث ابن عباس فى المسند وغيره.

«يا غلام إنى أعلمك كلمات إحفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»^(٥).

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٥٩/٢) عن أبى هريرة.

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥٢/١) وجود إسناده.

(٣) البقرة: الآية (١٣٣).

(٤) لقمان: الآية (١٣).

(٥) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٩٣/١)، والترمذى (٢٥١٦).

وعن عبادة بن الصامت كان يعلم ابنه فيقول في مسائل القدر: «إنك لن تذوق حلاوة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطئك لم يكن ليصيبك»^(١).

والناظر في كتبهم يرى ذلك جلياً .

قال البيهقي^(٢): (الستون من شعب الإيمان)

وهو باب في حقوق الأولاد والأهلين . . فإذا بلغ أحدهم حدَّ العقل عُرِفَ الباري جلّ جلاله إليه بالدلائل التي توصله إلى معرفته من غير أن يسمعه من مقالات الملحدّين شيئاً ويذكرهم له في الجملة أحياناً ويحذره إياهم وينفره عنهم ويبغضهم إليه ما استطاع ويبدأ من الدلائل بالأقرب الأجلّ ثم ما يليه وكذلك يفعل بالدلائل الدالة على نبوة نبينا ﷺ بهدية فيها إلى الأقرب الأوضح ثم الذى يليه وبسط الحليمى الكلام فى كلّ فصل من فصول هذا الباب من أراد الوقوف عليه رجع إليه إن شاء الله تعالى أ. هـ.

قال الغزالي^(٣):

فصل فى وجه التدرّج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

اعلم أن ما ذكرناه فى ترجمة العقيدة ينبغى أن يقدم إلى الصبى فى أول نشوه ليحفظه حفظاً ثم لا يزال ينكشف له معناه فى كبره شيئاً فشيئاً، فابتدأه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به، وذلك مما يحصل فى الصبى بغير برهان.

فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه فى أول نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مبادئها التلقين المحض، نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع

= قال الترمذى: حسن صحيح .

وانظر «رياض الصالحين» (٦٣ - بتخرجنا) وانظر «جامع العلوم والحكم» بتخرجنا أيضاً

(١) الشريعة للأجرى ص ٢١١ .

(٢) «الشعب» (٣٩٧/٦) .

(٣) «الإحياء» (١/١٢٣ ، ١٢٤) .

من الضعف فى الابتداء، على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقى إليه، فلا بد من تقويته وإثباته فى نفس الصبى والعامى حتى يترسخ ولا يتزلزل، وليس الطريق فى تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام، بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره، وقراءة الحديث ومعانيه، ويشغل بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها، وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم، وسيماهم وسماعهم وهياتهم فى الخضوع لله عزوجل والخوف منه والإستكانة له، فيكون أول التلقين كإلقاء بذر فى الصدر، وتكون هذه الأسباب كالسقى والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها فى السماء.

ثم قال:

ثم الصبى إذا وقع نشوه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم يفتح له غيرها، ولكنه يسلم فى الآخرة باعتقاد أهل الحق، إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلاً.

وإن أراد أن يكون من سالكى طريق الآخرة، وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل، ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى، واشتغل بالرياضة والمجاهدة، انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهى يقذف فى قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده. عزوجل، إذ قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١). وهو الجوهر النفيس الذى هو غاية إيمان الصديقين والمقربين، وإليه الإشارة بالسرى الذى قرئ فى صدر أبى بكر الصديق رضى الله عنه حيث فضل به الخلق وانكشف ذلك السرى بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن، فى النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى، وفى الاستضاءة بنور اليقين، وذلك كتفاوت الخلق فى أسرار الطب والفقه وسائر العلوم، إذ يختلف ذلك باختلاف

(١) العنكبوت: الآية (٦٩).

الاجتهاد واختلاف الفطرة في الذكاء والفطنة وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه.

- ولأنه معقد النجاة في الدنيا والآخرة

لأنه بالإقرار بالتوحيد والرسالة يثبت عقد الإسلام. وتعصم الدماء والأموال إلا بحقه. قال ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قال: لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»^(١) رواه البخارى.

وقال ابن حجر^(٢): أما بالنظر إلى ما عندنا فالإيمان هو الإقرار فقط، فمن أقرّ أجريت عليه أحكام الدنيا، ولم يحكم عليه بالكفر إلا إن اقترن به فعلٌ ما يدلُّ على كفره كالسجود لصنم.

فكل من أقرّ بالتوحيد والرسالة إقراراً إلزامياً، قاصداً به الإجابة إلى الإيمان. فقد ثبت له عقد الإسلام، ووجب له بمقتضاه عصمة دمه وماله إلا بحق الإسلام، من ردة بعد الإسلام، أو زنا بعد إحصان، أو قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ونحوه. اهـ.

وأما أنه معقد النجاة في الآخرة، فلقلوه ﷺ وقد سُئل: ما الموجبتان؟ فقال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار»^(٣) وقوله ﷺ «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٤) رواه مسلم وقوله ﷺ لمعاذ: «يا معاذ، أتدرى ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قال: قلتُ: الله ورسوله أعلم قال: «فإن حق الله على العباد، أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله - عز وجل - ألا يُعذَّب من لا يشرك به شيئاً» قال: قلت: يا رسول الله، أفلا أبشُرُ الناس؟ قال: «لا تبشروهم فيتكلوا»^(٥) رواه مسلم.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٥)، ومسلم (٢١١/١ - الإيمان).

وانظر منار السبيل، «والسبيل»، و«جامع العلوم والحكم» بتخريجاتنا. (٢) «الفتح» (٤٦/١).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم (٩٢/٢ - الإيمان).

وانظر «رياض الصالحين» (٤١٥ - بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (٢٤٩/١ - الإيمان) عن عثمان - رضى الله عنه -.

(٥) سيأتى تخريجه.

قال النووي رحمه الله^(١): [إنَّ مذهب أهل السنة بأجمعهم، من السلف الصالح، وأهل الحديث والفقهاء؟ والمتكلمين علي مذهبهم من الأشعريين، أنَّ أهل الذنوب في مشيئة الله تعالى، وأنَّ كلَّ من مات على الإيمان وتشهد مخلصاً من قلبه بالشهادتين فإنه يدخل الجنة، فإن كان تائباً أو سليماً من المعاصي دخل الجنة برحمة ربه، وحرَّم على النار بالجملة، وإن كان هذا من المخلَّطين، بتضييع ما أوجب الله تعالى عليه، أو بفعل ما حرَّم عليه، فهو في المشيئة، لا يقطع في أمره بتحريمه على النار، ولا باستحقاقه الجنة لأوّل وهلة، بل يقطع بأنه لا بد من دخوله الجنة آخرأ، وحاله قبل ذلك في خطر المشيئة، إن شاء الله تعالى عذِّبه بذنبه، وإن شاء عفا عنه بفضله] ا. هـ.

- ولأن التوحيد هو دعوة الرسل أجمعين

لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٢).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٣).

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾^(٤).

وقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٥).

وقوله: ﷺ «الأنبياء إخوة لعلات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد»^(٦).

(١) النووي شرح مسلم ١/ ١٩٦.

(٢) الأنبياء: الآية (٢٥).

(٣) النحل: الآية (٣٦).

(٤) الأحقاف: الآية (٢١).

(٥) آل عمران: الآية (٦٤).

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٤٤٣)، ومسلم (٨/ ١٣٠ - النضائل) عن أبى هريرة

فالدِّينَ واحد وهو التوحيد، والشرائع متفاوتة، لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾^(١)، وقد انعقد على هذا المعنى إجماع المسلمين.

قال ابن تيمية: ^(٢) وعبادة الله وحده هي أصل الدين، وهو التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب، فقال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٥).

باقية من الثمرات والوعود الطيبات

إن الله وعد عباده المؤمنين بباقة من الوعود الطيبة في الدنيا: كالحياة الطيبة والهداية والعزة والتمكين والنجاة، وولايته لهم ودفاعه عنهم ونصرهم على أعدائهم وعدم تسلط الكافرين عليهم، وهي وعود لاتزال مبدولة لكل من بقى على عهد الله وميثاقه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وأنسى لأدعوكم - إخواني - إلى تأمل هذه المعاني من خلال هذه الآيات:-

- لقد وعد الله عباده بالحياة الطيبة فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهَ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾^(٦).

- ووعدهم بالهداية فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٧).

- ووعدهم بالعزة والتمكين فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٨).

(١) المائدة: الآية (٤٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/٣٩٧) وذلك نقلاً من كتاب الشواهد والمتغيرات للدكتور صلاح

الصاوي.

(٣) الزخرف: الآية (٤٥).

(٤) النحل: الآية (٣٦).

(٥) الانبياء: الآية (٢٥).

(٦) النحل: الآية (٩٧).

(٧) الحج: الآية (٥٤).

(٨) المنافقون: الآية (٨).

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ (١).

— ووعدهم بنصرهم والدفاع عنهم وألا يجعل للكافرين سبيلا عليهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نَنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (٥).

هذا بعض ما وعد الله به عبادة المؤمنين في الدنيا، أما ما وعدوا به في الآخرة فحسبهم قول الله. جل وعلا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ (٧).

هذا بالاضافة إلى ما ذكرناه من ثمرات التوحيد في باب: من حقق التوحيد دخل الجنة - بغير الحساب وباب فضل التوحيد.

وإذا كان واقع المسلمين في هذه الأيام لم تتحقق فيه هذه الوعود فإنَّ مردَّ ذلك إلى ما أصاب إيمانهم من الضعف. وما شاب اعتقاد كثير منهم من الخلل، وإنَّ استمرار هذا الضعف ينذر بكارثة مروعة وقد يخسر أصحابه ما وعد به

(٢) الحج: الآية (٣٨).

(٤) يونس: الآية (١٠٣).

(٦) يونس: (الآية) (٩).

(١) النور: الآية (٥٥).

(٣) الروم: الآية (٤٧).

(٥) النساء: الآية (١٤١).

(٧) الكهف: الآية (١٠٧، ١٠٨).

المؤمنون فى الآخرة كما خسروا ما وعدوا به فى الدنيا! ومن هنا كانت أهمية دراسة هذه المادة، والتحقق بها علماً وعملاً واستفاضة البلاغ بها بين الناس قاطبة، فإنَّ هذا هو الطريق لإستعادة الهوية، والخروج من شعاب التيه التى منيت بها الأمة تحت خيمة التغريب والعلمانية ١. هـ (١).

المبدأ الرابع من مبادئ علم التوحيد

نسبته إلى غيره

هو من العلوم الشرعية بمشابة الرأس من الجسد فلا تنفع العلوم الشرعية صاحبها إلا إذا علم وعمل بعلم التوحيد.

المبدأ الخامس من مبادئ علم التوحيد

فضله:

وسياتى مفصلاً فى شرح باب: «فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب» وهو على الإجمال.

١- أنه أكبر دعامة للرغبة فى الطاعة، قال بعض السلف: «إنى لأود أن أتقرب إلى الله بطاعة لا يعلمها إلا هو».

٢- أن الموحدين لهم الأمن وهم مهتدون؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٢).

٣- كثرة ثواب التوحيد عند الله لقوله ﷺ فى حديث البطاقة «مالت بهنَّ لا إلا إلا الله» (٣).

٤- تكفيره للذنوب لقوله تعالى فى الحديث القدس «لأتيتك بقربها مغفرة» (٤).

وسياتى مزيدٌ من ذلك فى شرح الباب.

(١) «أصول الإيمان» للدكتور صلاح الصاوى.

(٢) الأنعام: الآية (٨٢).

(٣) سياتى تخريجه فى موضعه فى شرح الكتاب.

(٤) [حسن بشواهد] أخرجه الترمذى (٣٥٤٠) عن أنس - رضى الله عنه -.

وانظر «رياض الصالحين» (٤٤٣ - بتخريجنا).

المبدأ السادس من مبادئ علم التوحيد

واضعه:

علماء التوحيد.

المبدأ السابع من مبادئ علم التوحيد (اسمه):

علم التوحيد وتقدم فى الحد والتعريف شرحه.

المبدأ الثامن من مبادئ علم التوحيد (استمداده):

الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة وهو ما تقدم التعبير عنه بلفظ صحيح المنقول وصريح المعقول.

المبدأ التاسع من مبادئ علم التوحيد (حكمه):

فرض عين كما جاء فى حديث البراء فى المسند وغيره وفيه «إنَّ العبد أوَّل ما يستل فى قبره من ربك وما دينك ومن الرجل الذى بعث فيكم»^(١).

- ولأنه أوَّل ما بدأ به النبى ﷺ وأوَّل ما يخاطب به الناس من أمور الدين.

قال البخارى: باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

وقول الله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٢).

وأُسند عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دُنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(٣).

قال ابن حجر^(٤): ونقل ابن بطلال عن أبى عبد الله بن النجار قال: التوبيع يتعلّق بالآية والحديث معاً، لأن الله تعالى أوحى إلى الأنبياء ثم إلى محمد ﷺ أن الأعمال بالنيات لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٥).

(١) أخرجه أبو داود (٣٢١٢)، وابن ماجه (١٥٤٨).

وانظر كتابنا «بغية الفائز الجامع لأحكام الجنائز».

(٢) النساء: الآية (١٦٣) وانظر البخارى فى بدء الوحي (١٣/١) - الفتح.

(٣) تقدم تخريجه فى الحديث السابق.

(٤) الفتح (١٧، ١٦/١).

(٥) البينة: الآية (٥).

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ (١). قال وصاهم بالإخلاص في عبادته.

وعن أبي عبد الملك اليونى قال: مناسبة الحديث للترجمة أن بدء الوحي كان بالنية، لأن الله تعالى فطر محمد على التوحيد وبغض إليه الأوثان ووهب له أول أسباب النبوة وهى الرؤيا الصالحة، فلما رأى ذلك أخلص إليه فى ذلك فكان يتعبد بغار حراء فقبل الله عمله وأتم له النعمة.

وقال المهلب ما محصله: قصد البخارى الإخبار عن حال النبى ﷺ فى حال منشئه وأن الله بغض إليه الأوثان وحبب إليه خلال الخير ولزوم الوحدة فراراً من قرناء السوء، فلما لزم ذلك أعطاه الله على قدر نيته ووهب له النبوة كما يقال الفواتح عنوان الخواتم. أهـ ولخصه بنحو من هذا القاضى أبوبكر ابن العربى.

وأما كونه أول ما يخاطب به الناس من واجبات الدين.

فلصنيع البخارى أيضاً:

فى باب ما جاء فى دعاء النبى ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٢).

حيث أسند عن ابن عباس يقول: لما بعث النبى ﷺ معاذاً إلى نحو أهل اليمن قال له: «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى إن يوحدوا الله تعالى فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقرؤا بذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس» أ. هـ (٣).

وقال حافظ حكمى (٤):

أول واجب على العبيد معرفة الله بالتوحيد
إذ هو من كل الأوامر أعظم وهو نوعان أيا من تفهم

- ولأنه حق الله علينا

(٢) البخارى (١٣/٣٥٩ - الفتح).

(١) الشورى: الآية (١٣).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٣٧١، ٧٣٧٢)، ومسلم (١/٩٦ - الإيمان) وسياقته تخريجه عنه شرح

الكتاب.

(٤) «معارج القبول» (١/٥٣).

أسند البخارى عن معاذ بن جبل قال: قال النبى ﷺ: يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدرى ما حقهم عليه؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أن لا يعذبهم (١).
- ولأننا سنسأل عنه

لما رواه الطبرانى بسنده عن أنس بن مالك وابن عمر ومجاهد فى قوله - عز وجل - ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢). قالوا: عن لاله إلا الله (٣).

المبدأ العاشر من مبادئ علم التوحيد (مسألة):

القضايا المتعلقة بحق الله ورسوله وحق العبد والسمعيات.

المبدأ الحادى عشر من مبادئ علم التوحيد:

(شرفه)

أنه إذا كان شرف العلم بشرف المعلوم فلا يخفى أن علم التوحيد هو أشرف العلوم على الإطلاق بل ولا يراد بكلمة علم إذا أطلقت إلا علم التوحيد والعقيدة فهو أشرف العلوم على الإطلاق لتعلقه بمعرفة الله تعالى وإفراده بالعبادة، والكفر بكل ما يعبد من دونه مع ما يقتضيه ذلك من فعل الخيرات وترك المنكرات.

وإذا كانت أهمية العلم تتناسب مع ما يجلبه، للإنسان من خير أو يدفعه عنه من شر، فإن علم توحيد هو أهم العلوم على الإطلاق لما يترتب عليه من تحقق الحياة الطيبة فى الأرض والفوز بنعيم الخلد وجنة الأبد فى الآخرة، ولما يدفعه عن الإنسان من ضنك المعيشة فى الأرض وعذاب الأبد فى الآخرة قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي

(١) سياىى تخريجه أيضاً.

(٢) الحجر: الآية (٩٢).

(٣) «الدعاء للطبرانى» (١٤٩٢ و ١٤٩٣ و ١٤٩٤ و ١٤٩٢ و ١٤٩٦ و ١٤٩٧) بأسانيد فيها ضعف.

(٤) النحل: الآية (٩٧).

أعني وقد كنتُ بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى^(١)
ا.هـ (٢).

عظيم لشرف موضوعه، النابع من النبوة ومعدن الرسالة كما تقدّم مجملاً
وكما سيأتى تفصيلاً.

أهمية كتاب التوحيد - لشيخ الإسلام -

محمد بن عبد الوهاب وذكر منهجه في الكتاب

قال الوليد عبد الرحمن بن محمد الفريان^(٣)

كان لكتاب التوحيد وقعاً بعيد في نفوس العلماء الذين عاصروه؛ لما اشتمل
عليه من بيان ما بعث الله به رسوله من أنواع التوحيد، بالأدلة من كلام الله
وكلام رسوله وكلام سلف الأمة. مع الإيجاز والسلامة من التعقيد والتكلف،
الذي سيطر على معظم كتابات ذلك العصر. إلى جانب ما اصطبغ به من
الصدق والإخلاص والجاذبية والتأثير. واستطاع بفضل الله، أن يضع يده على
كثير مما كان فاشياً في وقته، من الأمراض العقدية الوييلة.

وقد أعتبر هذا الكتاب بمثابة الوثيقة أو البيان العام، الذي أعلن فيه مبادئ
دعوته، ورسم فيه المنهج الذي سار عليه وطبقه.

قلتُ: وأيضاً تبرز أهمية الكتاب من كثرة الشروح عليه فلقد نقل الوليد لهذا
الكتاب تسعة عشر شرحاً وستأتي ومن الشروحات التي لم يذكرها القول المفيد
لفضيلة الشيخ ابن عثيمين ويجمع كل هذه الشروح هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

قال الزركشي^(٤): ... أن كل من وضع من البشر كتاباً فإنما وضعه ليفهم
بذاته من غير شرح، وإنما احتيج إلى الشروح لأمر ثلاثة:

أحدها: كمال فضيلة المصنّف، فإنه لقوته العلمية يجمع المعاني الدقيقة في

(١) طه: الآية (١٢٣).

(٢) «أصول الإيمان» للدكتور صلاح الصاوي.

(٣) فتح المجيد ٣/١٢، ١٣ ط دار الصميعي

(٤) نقلاً عن كتاب «النكت الممتعة لمقدمة ابن تيمية» بتأليفنا

اللفظ الوجيز، فربما عسّر فهم مراده، فقُصِد بالشرح ظهور تلك المعاني الخفية، ومن هنا كان شرح بعض الأئمة تصنيفه أدلّ على المراد من شرح غيره له. اهـ.

قال: سليمان بن عبد الله في وصف كتاب التوحيد: هو كتاب فرد في معناه لم يسبقه إليه سابق، ولا لحقه فيه لاحق.

قال: عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ صاحب «فتح المجيد»: فإن كتاب التوحيد الذي ألفه الإمام شيخ الإسلام (محمد بن عبد الوهاب) أجزل الله له الثواب، وغفر له لمن وأجاب دعوته إلى يوم الحساب قد جاء بديعاً في معناه: من بيان التوحيد وبراهينه، وجمع جملاً من أدلته لإيضاحه وبينه فصار علماً للموحدين وحجة على المسلمين، فانتفع به الخلق الكثير، والجم الغفير.

قال: محمد حامد الفقى: ولقد خلف شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب - رحمه الله - تركة قيمة من المؤلفات العلمية النافعة، التى أضاءت للناس طريق الهداية، وأنقذ الله بها كثيراً من الضلالة، وهدى بها إلى الدين الخالص وأجمعها وأنفعها «كتاب التوحيد» فإنه جمع فأوعى؟ بين توحيد الإلهية والعبادة، وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات أتم بيان وأجلاه، وبين نواقض كل منهما كذلك أعظم بيان.

قال د: الوليد الفريان^(١): اجتهد المؤلف فى أن يستوعب فى كتابه أهم مسائل العقيدة التى يحتاج الناس إليها مع الإستدلال لها من الكتاب والسنة وأقوال السلف باختصار وعقد لذلك ستة وستين باباً، ترجم بها ما نقل من الآيات والأحاديث والأثار بأسلوب واضح وعبرة مشرقة وربما اتخذ بعض النصوص الخالصة، عناوين لأبوابه. ولم يذكر من الأحاديث والأثار، إلا ما كان ثابتاً فى نفسه أو كان مما ثبت معناه من أدلة كثيرة مع الإشارة إلى من خرّجه، وذكر فى حدود ما يسمح به المختصر. ثم يختم كل باب بجملّة من المسائل المستنبطة من هذه الأدلة. التى تؤكد فقه هذا الإمام، وعمق فهمه، وقدرته الفائقة على تلمس مقاصد النصوص. اهـ.

(١) كتاب التوحيد - فيما نعلم - فى مجلدين.

التحريف بالكتاب وأبوابه

وبعد تعريف العلماء للكتاب على الإجمال بقى أن نعرفه على التفصيل المختصر لأبوابه لنعطى صورة أكثر وضوحاً لهذا السفر النفيس الذى يجمع بين طياته دعوة شاملة لكل أنواع التوحيد وليس فقط كما يتوهم البعض أنه للقبورين فنقول وبالله التوفيق: بدء الشيخ محمد بتعريف التوحيد على طريقته قال: «كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد» وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ليوضح أن التوحيد المقصود هو توحيد العبادة وهو حق الله على العبيد كما وضحه الرسول ﷺ في حديث معاذ (١) الذى أورده المصنف فى آخر هذا الباب ثم ثنى بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ليبين أيضا أن التوحيد المقصود هو الكفر بالطاغوت مهما كان نوعه بعد إفراد الله عز وجل بالعبادة هذا وقد بين الشيخ هذا البيان المعرف بالتوحيد حتى إذا ما بين فضله وما يكفر من الذنوب لا يتطرق إلى أذهان المتبدعين من المرجئة وغيرهم ممن فرطوا في فهم التوحيد أنه يقصد بالتوحيد ما فهموا من فهم خاطيء مغاير لفهم السلف لهذا قدم بين يدي بيان فضيلة التوحيد بتعريفه أولاً حتى يعلم من يستحق هذه الفضيلة وهو فى ذلك قد خالف بعض السلف - من الفقهاء وغيرهم - فى تصانيفهم حيث كانوا يبدؤون بفضل العمل والترغيب فيه ثم بالعمل نفسه لكنه خالف لهذه الفائدة التى أسلفناها. ثم بعد أن بين فضل التوحيد ورغب فيه بما أورده من آيات وأحاديث فى هذا الشأن. بين فى الباب التالى كمال التوحيد وفضل من حققه وهو فى ذلك يبين تفاوت الناس فى هذا الأمر ثم بعد هذا الترغيب بدأ بالترهيب فى باب سماه «باب الخوف من الشرك» حتى تعتدل النظرة لقضية التوحيد ولا يستهان بها لاسيما من قول الخليل إبراهيم عليه السلام ﴿وَاجْتَنِبْ وَبَنِيَّ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٢) فيسير العبد إلى ربه بالرغبة والرهبه والخوف والرجاء إمتثالاً لقوله تعالى ﴿وَيَدْعُونَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ فبدأ لذلك ببيان الفضل والترغيب ثم شنى ببيان الترهيب بعد أن عرف التوحيد وفضله ودرجاته وفضل

(١) سيأتى تخريجه

(٢) إبراهيم: الآية (٣٥).

من كمل توحيده والترهيب من الشرك والتخويف منه انتقل إلى مرحلة حتمية بعد هذه المراحل لمن علمها وأيقنها وهى مرحلة الدعوة هذه المرحلة وفيها ما فيها من الفوائد للداعى إلى هذا الأمر فهى تجعله أكثر ثباتاً ورسوخاً على قضية التوحيد هذه المرحلة هى مرحلة «الدعاء إلى لا إله إلا الله» وفيه قوله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾^(١) الآية ولما كان الداعى إلى الله دائماً على بصيرة فكان لابد أن يفسر له التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله لذلك بوب المصنف هذا الباب «باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله» والتفسير للتوحيد غير بيان معناه ففى هذا الأخير بيان لمجمل معنى التوحيد وفى التفسير بيان تفصيلى للتوحيد لذلك تعرض فيه لعبادة الأحرار والرهبان ولموالاة الكفار وتبرؤ إبراهيم منهم، ولأنناد الذين يحب كحب الله ولهذا أيضاً تلا هذا الباب أبواباً كثيرة، جداً تفسر التوحيد ببيان ضده من الشرك. فجاء ذلك فى «باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما» لرفع البلاء أو دفعه» و«باب ما جاء فى الرقى والتائم» وباب «من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما» و«باب الذبح لغير الله» و«باب من الشرك النذر لغير الله» وكذلك «باب من الشرك الاستعاذة بغير الله» وكذلك باب «من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره» كل هذه الأبواب بينت أنواعاً من الشرك يبين المصنف من خلالها أن التوحيد خلاف هذه الأمور الشركية، وأن مقتضاه أن لا يأتى العبدُ بمثل هذه الأمور المغايرة للتوحيد. بعد ذلك وقف وقفة المتعجب من هؤلاء المشركين وقفت المنكر عليهم حيث قال «باب قوله تعالى ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾»^(٢) يتعجب من هؤلاء القوم حيث عبدوا من لا يخلق وهو مخلوق ولا يرزق وهو مرزوق وليس له من الأمر شيء قليل أو كثير حيث قال الله تعالى لأعظم البشر ﷺ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(٣).

فهم من باب أولى لا يملكون من قطمير فيا للعجب ممن استبدل الذى هو أدنى

(١) يوسف: الآية (١٠٨).

(٢) الأعراف: الآية (١٩١).

(٣) آل عمران: الآية (١٢٨).

بالذى هو خير. ثم ثنى هذا الباب بباين عظيمين «باب حتى» إذا فزع عن قلوبهم» «وباب الشفاعة» يبين فيهما للمشركين الذين تعلقوا بالمخلوقين أنكم إذا كنتم تعلقتم من أجل غيب يعلمونه فهذا باطل فلا يعلم الغيب إلا الله حتى الرسول عليه الصلاة والسلام قال ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾^(١) أما هؤلاء الطواغيت إخوان الجان الذين يسترقون السمع فيذهبون بالكلمة إليهم فيضيفون عليها مائة كذبة فهم لا يعلمون الغيب بل هم كاذبون أفأكون كل ذلك بينه المصنف فى «باب حتى» إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير^(٢) وفى «باب الشفاعة نفى عن هؤلاء الأنداد الشفاعة وأثبتها لرب العالمين ولمن أذن له بالحق وهم يعلمون. حتى الرسول ﷺ نهى فى الدنيا عن الإستغفار لعمة الذى وقف بماله بجوار النبى ﷺ؛ لأنه مات على الشرك فلم يؤذن له بالاستغفار له فى الدنيا وكذلك لن يؤذن له بالشفاعة فيه فى الآخرة وهذا بينه المصنف فى باب «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ»^(٣) فلو كان سبب العبادة غيب فهو منفى إلا عن الله أو طمع فى شفاعته كذلك فهى منفية إلا عن الموحدين الذين لم يتخذوا الأنداد، وإذا كانت طمعاً فى هداية، فهم مفتقدون لها كذلك؛ لأن النبى ﷺ لا يهدى، فهم أولى وأولى، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٤).

وأرى أن الأبواب التى تلى هذا الباب يصح أن تأتى تحت عنوان ما جاء فى حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك» فهذا واضح فى باب «إن سبب كفر بنى وتركهم دينهم هو الغلو فى الصالحين» وفى نهى الله عن ذلك بقوله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾^(٥) وقول الرسول ﷺ «إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»^(٦) وكذلك باب ما جاء «فى التغليظ فى من عبده عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده» وكذلك فى باب

(٢) سبأ: الآية (٢٣).

(٤) يونس: الآية (٣٥).

(٦) سياتى تخريجه.

(١) الأعراف: الآية (١٨٨).

(٣) القصص: الآية (٥٦).

(٥) المائدة: الآية (٧٧).

«أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله» فيبين الرسول ﷺ كل ذلك حماية لجناب التوحيد وحذر أمته من أنه سيأتي عليهم زمانٌ يعبدون فيه الأوثان اتباعاً لسُنن من كان قبلهم حذو القذة بالقذة وبهذا المعنى بوب المصنف ثم تلا ذلك بأبواب أيضاً تؤكد حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد من ذلك «باب ما جاء في السحر» «باب بيان شيء من أنواع السحر»، «باب ما جاء في الكهان ونحوهم»، «باب ما جاء في النشرة»، «باب ما جاء في التطير»، «باب ما جاء في التنجيم»، والقاسم المشترك بين هذه الأبواب أن هذه الأنواع كلها فيها ما هو شرك أكبر وما هو شرك أصغر وفيها ما هو مباح على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله وأيضاً لأن ورائها جميعا الطاغوت الأكبر رأس كل ضلاله إبليس هذا وقد بين أيضاً الأمام بعد ذلك في فصوله بعض أنواع الشرك كشرك التحليل والتحريم «الحاكمية» وذلك في باب من «أطاع العلماء والأمرأ في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم به فقد اتخذهم أرباباً» وباب قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ (١). الآية.

أيضاً والناظر إلى كتاب التوحيد يجد أن الشيخ لم ينس أن يذكر شيئاً من توحيد الأسماء والصفات وذلك في «باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات» وإن كان قد ضمن مسأله توحيد الأسماء والصفات بعض أبوابه ولكن لم يكتف بهذا بل أفرد لها أبواباً مستقلة، وليكون الكتاب أكثر شمولاً لمسائل التوحيد فقد تعرض لمسألة القدر والإيمان به في أبواب كثيرة منها باب «ما جاء في منكرى القدر» وباب «ما جاء في اللو» وغير ذلك ثم بعد ذلك بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب في أبواب كتابه بعض الألفاظ التي تجرى على السنة العامة بسبب تخلفهم عن التوحيد وتجرعهم الشرك بطريقة أو بأخرى فمن ذلك باب قول «ما شاء الله وشئت» وباب «من سب الدهر فقد أذى الله» وباب «التمس بقاضى القضاة» وباب «لا يقال السلام على الله» وباب قول الله «اللهم اغفر لى إن شئت» وباب «لا يقول عبدى وأمتى» وباب «ما جاء في اللو» وباب «النهى عن سب الرياح» وكل هذه الأبواب يبين فيها الشيخ كما ذكرنا ما ينبغى على الناس أن يحترزوا عنه من الكلام الذى يجرى على ألسنتهم وهو يتنافى مع مطلق التوحيد أو التوحيد المطلق ثم ختم كتابه رحمه الله بقوله باب «ما جاء في قول الله وما قدروا الله حق قدره» وفيه بيان عظمة الله وعظيم قدرته وعظمة

(١) النساء: الآية (٦٠).

ملكه وخلقه فهو سبحانه الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً
أحداً لانحصى ثناء عليه بل كما أثنى هو على نفسه فله الحمد فى الأولى وفى
الآخرة وله الحكم وإليه المرجع والمآب.

ملاح أخرى من منهج المصنف فى الكتاب.

ومما يجدر الذكر به فى هذا المقام أن الإمام اقتفى أثر السلف من المصنفين
مثل الإمام البخارى فى تربيته ذلك لأنه يقطع بالحكم فى التبويب إذا كان الأمر
ليس فيه خلاف كقوله «باب من الشرك النذر لغير الله» وتارة يترك المسئلة دون
جزم بالحكم لوجود الخلاف فى المسئلة أو التفصيل كقوله «باب ما جاء فى
الرقى والتمائم».

وتارة يوب بالآية كقوله: باب قول الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ
اللَّهِ أَندَادًا﴾ (١). الآية.

ثم يأتى بأدلة التبويب من القرآن والسنة ثم يأتى بأقوال السلف وفهمهم
للآية والحديث، وهو منهج قيم لمن وعاه وقد أشار إلى بعضه الدكتور الوليد -
فيما تقدم.

وأيضاً يظهر لكل دارس لهذا الكتاب أن كتاب التوحيد كتاب وعظى دعوى
أكثر منه علمى ومما يدل على ذلك أنه جمع فيه بين مسائل العقيدة كالإيمان بالله
وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومسائل التوحيد وهو ما يختص بأسماء
الله وصفاته وأفعاله، وهذا مما لم يفعله السلف فى كتب العلم، فإنهم أفردوا
مسائل الايمان فى كتب بمفردها ككتاب الإيمان فى صحيح البخارى ومسائل
التوحيد فى كتب بمفردها ككتاب التوحيد أيضاً فى صحيح البخارى والتوحيد
لابن خزيمة ولعل مقصد الإمام محمد بن عبد الوهاب فى ذلك جمع المسائل
التي ينبغى أن يعتقدها الدعاة وأهل التوحيد وأن يبين لهم المسلك الصحيح فى
طريقهم إلى الله ودعوتهم إليه.

ومن ثم فإنه يصح أن يقال: يقصد بقوله «كتاب التوحيد» أى كتاب مسلك
أهل التوحيد أو كتاب دعاة التوحيد. والله تعالى أعلم ومما يدل على أن الكتاب
وعظى ودعوى أكثر منه علمى.

(١) البقرة: الآية (١٦٥).

أنَّ الإمام - رحمه الله - قد يستدل ببعض أحاديث في الإسلام الحقيقي «مناط الانتفاع» على الإسلام الحكمي «مناط الحكم» ولا يفصل ولا يكون ذلك إلا في مقام الوعظ والترهيب والترغيب، وهو محق في ذلك لاشك لأنَّ أدلة الإسلام الحقيقي تشمل الحكمي وزيادة مثل استدلالهم بأدلة الكفر الأكبر على الأصغر لأنها تشمله. وسيأتيك في الشرح أدلة أخرى على ذلك والله الموفق.

ويدل على ذلك أيضاً تفريقه لأبواب متشابهه، وكان الأنسب الجمع بينها على نسق وترتيب واحد، مثل باب ماجاء في السحر والذي بعده باب بيان شيء من أنواع السحر ثم ما جاء في الكهان، ثم النشره ثم التطير، وكان الأولى أن يقدم النشره على ما جاء في الكهان لأنها إلى أبواب السحر أقرب وبها الضق والتطير بالكهانة أنسب، وكذلك؛ الأبواب التي تكلم فيها عن الأسماء الحسنی لم يأت بها على الترتيب.

وكذلك الأبواب التي تكلم فيها عن حماية المصطفى لجباب التوحيد جاءت في بابين متباعدين جداً، وكان الأنسب والأقرب أن يأتي بكل باب خلف الآخر كما فعل في باب ماجاء في الرياء والذي يليه العمل للدنيا، وهذا في كتابه غير قليل، ولكن الأمر كما قال بعض الدعاة والمشايخ، أن هذا الكتاب إلى الترتيب الدعوى والوعظي أقرب منه إلى الترتيب العلمی.

• ترجمة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب^(١).

- نسبه وميلاده:

هو العلامة المجدد، الإمام شيخ الإسلام أبو الحسين، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن مشرف آل معضاد الوهبي، من بني حنظلة بن مالة التميمي. ولد في العيينة من بلاد عارض اليمامة، في وسط الجزيرة العربية، سنة ١١١٥ هـ.

- أسرته ونشأته:

نشأ في أحضان أسرة فاضلة وبيت علم وبين أبوين كريمين، فوالده الأدنى، الشيخ عبد الوهاب بن سليمان (ت ١١٥٣) من علماء نجد المعروفين، وقضاة العيينة فإنه تولى القضاء في عدة جهات.

(١) بتصرف من كتيب من مشاهير المجددين للدكتور صالح بن فوزان ومقدمة الدكتور/ وليد آل فريان.

وجده الشيخ سليمان بن علي (ت ١٠٧٩ هـ) كان عالماً جليلاً وإماماً في الفقه وهو المفتى في البلاد في وقته وقد تخرج على يديه عدد كبير من العلماء وطلبة العلم. وعمه الشيخ إبراهيم بن سليمان كان من أجلة العلماء، فنشأ الشيخ محمد في هذا الجو العلمي وكان حاد الذهن متوقد الذكاء سريع الحفظ، حفظ القرآن الكريم قبل سن العاشرة ودرس على والده كتب الفقه الحنبلي وكان كثير المطالعة والقراءة للكتب إلى جانب قراءته على والده، فقرأ في كتب التفسير والحديث والأصول، وعني عناية خاصة بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وكتب العلامة ابن القيم، وكان لكتب هذين الإمامين أكبر الأثر في تكوين شخصيته العلمية المتميزة والأخذ بيده إلى مصادر العلم الصحيحة فتكون لديه الاتجاه السليم منذ صغره وتركزت في قلبه العقيدة الصحيحة، وتخرج على كتب هذين الإمامين المحققين.

- شيوخه:

أخذ عن كثير من العلماء في بلده، وفي رحلاته المتعددة إلى الحجاز والبصرة والأحساء، ومنهم:

- ١- والده الشيخ، عبد الوهاب بن سليمان.
- ٢- الشيخ عبدالله بن إبراهيم بن سيف.
- ٣- الشيخ محمد حياة السندی (ت ١١٦٥ هـ).
- ٤- الشيخ محمد المجموعى البصري.
- ٥- الشيخ المسند، عبدالله بن سالم البصري [ت ١١٣٤ هـ].
- ٦- الشيخ عبداللطيف العفالقى، الأحسائي.

- رحلاته العلمية:

ولما استوعب ما يدرس في بلدته من علوم الفقه والعربية والحديث والتفسير تطلع إلى الزيادة وعزم على الرحلة إلى علماء البلاد المجاورة للاستفادة من علومهم فرحل إلى البصرة وإلى الأحساء وإلى مكة والمدينة والتقى بعلماء تلك البلدان وأخذ عنهم واستحصل على الكتب والمراجع، ولترك المجال لحفيده الشيخ عبدالرحمن بن حسن ليحدثنا عن تلك الرحلات المباركة، قال:

إنه نشأ في طلب العلم وتخرج على أهله في سن الصبا، ثم رحل لطلب العلم للبصرة مراراً ولالأحساء ثم إلى المدينة. ثم قال في تفصيل ذلك: فظهر

شيخنا بين لبيه وعمه فحفظ القرآن وهو صغير، وقرأ في فنون العلم وصار له فهم قوي وهمة عالية في طلب العلم فصار يناظر أباه وعمه في بعض المسائل بالدليل على بعض الروايات عن الإمام أحمد والوجه عن الأصحاب، فخرج عليهما في الفقه وناظرهما في مسائل قرأها في الشرح الكبير والمغني والإنصاف لما فيهما من مخالفة ما في متن المنتهى والإقناع، وعلت همته إلى طلب التفسير والحديث فسافر إلى البصرة غير مرة، كل مرة يقيم بين من كان بها من العلماء، فأظهر الله له أصول الدين ما خفي على غيره وكذلك ما كان عليه أهل السنة في توحيد الأسماء والصفات والإيمان... إلى أن قال: فصنف في البصرة كتاب التوحيد الذي شهد له بفضلته بتصنيفه القريب والبعيد، أخذه من الكتب التي في مدارس البصرة من كتب الحديث... إلى أن قال: ثم إن شيخنا رحمه الله تعالى بعد رحلته إلى البصرة وتحصيل ما حصل بنجد وهناك رحل إلى الأحساء وفيها فحول العلماء منهم عبدالله بن فيروز أبو محمد الكفيف، ووجد عنده من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ما سر به، وأثنى على عبدالله هذا بمعرفته بعقيدة الإمام أحمد، وحضر مشايخ الأحساء ومن أعظمهم عبدالله بن عبداللطيف القاضي فطلب منه أن يحضر الأول من فتح الباري على البخاري ويبين له ما غلط فيه الحافظ في مسألة الإيمان، وبين أن الأشاعرة خالفوا ما صدر به البخاري كتابه من الأحاديث والآثار، وبحث معهم في مسائل وناظر، وهذا أمر مشهور يعرفه أهل الأحساء وغيرهم من أهل نجد... إلى أن قال: ثم إن شيخنا رحمه الله رجع من الأحساء إلى البصرة وخرج منها إلى نجد قاصداً الحج فحج رحمه الله تعالى، وقد تبين له بما فتح الله تعالى عليه ضلال من ضل باتخاذ الأنداد وعبادتها من دون الله في كل قطر وقرية إلا ما شاء الله، فلما قضى الحج وقف في الملتزم وسأل الله تعالى أن يظهر هذا الدين بدعوته وأن يرزقه القبول من الناس، فخرج قاصداً المدينة مع الحاج يريد الشام فتعرض له بعض سراق الحجيج فضربوه وسلبوه وأخذوا ما معه وشجوا رأسه، وعاقه ذلك عن مسيره مع الحجاج فقدم المدينة بعد أن خرج الحاج منها فأقام بها وحضر عند العلماء إذ ذاك منهم محمد حياة السندی وأخذ عنه كتب الحديث إجازة في جميعها وقراءة لبعضها ووجد فيها بعض الحنابلة، فكتب كتاب الهدي لابن القيم بيده وكتب متن البخاري وحضر في النحو وحفظ ألفية ابن مالك - حدثني بذلك حماد بن حمد عنه رحمه الله ثم رجع إلى نجد وهم على الحالة التي لا يحبها الله، انتهى المقصود^(١).

(١) «الدرر السنية» (٩/٢١٥ - ٢١٦) نقلاً عن الصدر السابق.

فأنت ترى أيها القارئ في هذا السياق قوة الأسباب التي بذلها الشيخ لتحقيق العلم: كثرة الحفظ وكثرة القراءة والاطلاع وكثرة الرحلات في طلب العلم للتلقي عن العلماء مع شدة الذكاء والنية الصالحة، إن هذه الأسباب مع توفيق الله تعالى كفيلة بتوفر التحصيل وهذا ما حصل.

- حال المسلمين عند ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

لقد ذكر المؤرخون كابن غنام وابن بشر وغيرهما عن حالة أهل نجد خصوصا والعالم الإسلامي عموما الشيء الكثير من ظهور البدع والخرافات والشركيات والجهل بحقيقة الدين الصحيح، ففي نجد كانت القبور والأشجار والأحجار والمغارات تعبد من دون الله بأنواع من القربات، وفي الحجاز واليمن وغيرهما من البلاد من ذاك الشيء الكثير، يقول العلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني في قصيدة له يصف المظاهر الشركية في البلاد الإسلامية وهو معاصر للشيخ محمد وقد وصف مايفعل ويمارس حول القبور من الشرك الأكبر فيثني على دعوة الشيخ:

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه	يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدي
وينشر جهرا ما طوى كل جاهل	ومبتدع منه فوافق ما عندي
ويعمر أركان الشريعة هادما	مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سواع ومثله	يغوث وود بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها	كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم عقروا في سوحها من عقيرة	أهلت لغير الله جهرا على عمد
وكم طائف حول القبور مقبل	ومستلم الأركان منهن باليد

ويقول الإمام الشوكاني وهو من المعاصرين لدعوة الشيخ أيضا، يقول في وصف مايفعل عند القبور من الشرك: وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام، منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام، وعظم ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر، فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج وملجأ لنجاح الطالب، وسألوا منها ما يسأله العباد من ربهم وشدوا إليها الرجال وتمسحوا بها واستغاثوا، وبالجملة إنهم لم يدعوا شيئا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لانجد من يغضب الله ويغار

حمية للدين الخفيف لا عالماً ولا متعلماً ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملكاً، وقد توارد إلينا من الأخبار مالا يشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف بالله فاجراً، فإذا قيل له بعد ذلك: إحلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق، وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال: إنه تعالى ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة، فيا علماء الدين ويا ملوك المسلمين أي درء للإسلام أشد من الكفر، وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله، وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة، وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجبا.

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو ناراً نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد^(١)

وقد ألف كل من هذين الإمامين رسالة في التحذير من هذا الشرك الذي فشا في البلدان في عصرهما فألف الصنعاني رسالة اسمها «تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد»، وألف الشوكاني رسالة اسمها «شفاء الصدور بتحريم البناء على القبور» وكلتا الرسالتين مطبوعة ومتداولة.

وإليك ما قاله فاضلان من أهل العلم معاصران للشيخ محمد ودعوته، قالوا رحمهما الله:

من محمد بن غيهب ومحمد بن عيدان إلى عبدالله المويس، الباعث للكتاب إخبارك عن ديننا قبل أن يجعل هذا الشيخ لهذا القرن يدعوهم إلى الله وينصح لهم ويأمرهم وينهاهم حتى أطلع الله به شمس الوحي وأظهر به الدين وفرق به أهل الباطل من السادة والكهان والمرتشين فهو غريب في علماء هذا الزمان هو في شأن وهم في شأن آخر، رفع الله له علم الجهاد فشمر إليه فأمر ونهى ودعا إلى الله تعالى ونصح ووفى العهد لما نقضوه وشمر عن ساعد الجد لما تركوه وتمسك بالكتاب المنزل لما نبذوه فبدعوه وكفروه، فديننا قبل هذا الشيخ المجدد لم يبق منه إلا الدعوى والإسم فوقعنا في الشرك فقد ذبحنا للشياطين ودعونا الصالحين ونأتي الكهان ولا نفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ولا بين توحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب وتوحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، ولا نفرق بين السنة والبدعة فنجتمع لليلة النصف من شعبان

(١) «نيل الأوطار» (٩٠ / ٤) نقلاً عن المصدر السابق.

لصلاتها الباطلة التي لم ينزل بها من سلطان ونضيع الفريضة، ونقدم قبل الصلاة الوسطى - صلاة العصر - من الهذيان ما يفوتها عن وقت الاختيار إلى وقت الضرورة، هذا وأضعافه من البدع لم ينهنا عنه علماؤنا بل أقرونا عليه وفعلوه معنا فلا يأمرهم بمعروف ولا ينهون عن منكر ولا ينصحون جاهلاً ولا يهدون ضالاً والكلام من جهتهم طويل عصمنا الله وإياك من الاقتداء بهم واتباع طريقتهم فكن منهم على حذر إلا القليل منهم ويكفيك عن التطويل أن الشرك بالله يخطب به على منابرهم ومن ذلك قول الكهمري: اللهم صل على سيدنا ووليننا ملجانا منجانا معاذنا ملاذنا. وكذلك تعطيل الصفات في خطب الطيبي فيشهد أن الله لا جسم ولا عرض ولا قوة.

فقبل هذا الشيخ لا تؤدى أركان الإسلام كالصلاة والزكاة فلم يكن في بلدنا من ينزكي الخارج من الأرض حتى جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

- عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

قال رحمه الله جواباً لمن سألته عن عقيدته^(١):

بسم الله الرحمن الرحيم

أشهد الله ومن حضرني من الملائكة وأشهدكم أنني اعتقد ما اعتقدته الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره، ومن الإيمان بالله بما وصف به نفسه في كتابه على لسان رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، بل أعتقد أن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فلا أنفي عنه ما وصف به نفسه، ولا أحرف الكلم عن مواضعه ولا ألحد في أسمائه وآياته، ولا أكيف ولا أمثل صفاته تعالى بصفات خلقه؛ لأنه تعالى لا سمي له ولا كفؤ له ولا ند له ولا يقاس بخلقه، فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قیلاً وأحسن حديثاً، فتره نفسه عما وصفه به المخالفون من أهل التكيف والتمثيل وعما نفاه عنه النافون من أهل التحريف والتعطيل فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٢) والفرقة الناجية وسط في باب أفعاله تعالى بين القدرية والجبرية، وهم وسط في باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية، وهم وسط في باب الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية، وهم وسط في باب أصحاب رسول الله بين الرافضة

(١) «الدرر السنية» (١/ ٢٨ - ٣٠) نقلاً عن المصدر السابق. (٢) الصفات: الآية (١٨٠ - ١٨٢).

والخوارج، وأعتقد أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، وأنه تكلم به حقيقة وأنزله على عبده ورسوله وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده نبينا محمد ﷺ، وأؤمن بأن الله فعال لما يريد ولا يكون في ملكه شيء إلا بإرادته ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس شيء في العالم يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تدبيره، ولا محيد لأحد عن القدر المحدود، ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المسطور، وأعتقد الإيمان بكل.

بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت فأؤمن بفتنة القبر ونعيمه وبإعادة الأرواح إلى الأجساد، فيقولون للناس لرب العالمين حفاة عراة غرلاً، تدنو منهم الشمس وتنصب الموازين وتوزن بها أعمال العباد: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١﴾ وتنشر الدواوين فأخذ كتابه شماله، وأؤمن؟؟؟ نبينا محمد ﷺ بحرصه القيامة، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، أنيته عدد نجوم السماء، من شرب منه شربه لن يظماً بعدها أبداً وأؤمن بأن الصراط منصوب على سفير جهنم يمر به الناس على قدر أعمالهم الناس على قدر أعمالهم وأؤمن بشفاعته النبي ﷺ وأنه أول شافع وأول مشفع، ولا ينكر شفاعته النبي إلى أهل البدع والضلال ولكنها لا تكون إلا بعد الإذن والضرى كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (٤) إلا التوحيد ولا بأذن إلا لأهله، وأما المشركون فليس لهم من الشفاعات نصيب كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (٥) وأؤمن بأن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما اليوم موجودتان، وأنهما لا يفنيان وأن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم يوم القيامة كما يرون القمر ليلة

(١) المؤمنون : ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) الأنبياء ٢٨ .

(٣) البقرة ٢٥٥ .

(٤) النجم ٢٦ .

(٥) المدثر ٤٨ .

البدر لا يضامون في رؤيته وأؤمن بأن نبينا محمداً ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، ولا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ويشهد بنبوته، وأن أفضل أمته أبو بكر ثم عمر الفاروق ثم عثمان ذو النورين، ثم على المرتضى، ثم بقية العشرة، ثم أهل بدر، ثم أهل الشجرة أهل بيعة الرضوان،

ثم سائر الصحابة رضي الله عنهم.

وأتولى أصحاب رسول الله ﷺ وأذكر محاسنهم وأترضى عنهم وأستغفر لهم وأكف عن مساوئهم وأسكت عما شجر بينهم وأعتقد فضلهم عملاً بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١) وأترضى عن أمهات المؤمنين المطهرات من كل سوء، وأقر بكرامات الأولياء وما لهم من المكاشفات إلا أنهم لا يستحقون من حق الله تعالى شيئاً، ولا يطلب منهم مالا يقدر عليه إلا الله، ولا أشهد لأحد من المسلمين بجنة ولا نار إلا من شهد له رسول الله ﷺ، ولكني أرجو للمحسن وأخاف على المسيء، ولا أكفر أحداً من المسلمين بذنوب ولا أخرجه من دائرة الإسلام، وأرى الجهاد ماضياً مع كل إمام برأ كان أو فاجراً، وصلاة الجماعة خلفهم جائزة. والجهاد ماض منذ بعث الله محمداً ﷺ إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل، وأرى وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين برهم وفاجرهم مالم يأمروا بمعصية الله، ومن ولي الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به وغلبهم بسيفه حتى صار خليفة وجبت طاعته وحرم الخروج عليه، وأرى هجر أهل البدع ومبايئتهم حتى يتوبوا، وأحكم عليهم بالظاهر وأكل سرائرهم إلى الله، وأعتقد أن كل محدثة في الدين بدعة، وأعتقد أن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجنان، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهو بضع وسبعون شعبة. أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، وأرى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ما توجهه الشريعة المحمدية الطاهرة، فهذه عقيدة وجيزة حررتها وأنا مشغل البال لتطلعوا على ما عندي، والله على ما نقول وكيل. انتهى.

(١) الخسر: الآية (١٠).

بدء دعوة الشيخ محمد رحمه الله:

في وسط هذا الجو المظلم الذي سبق وصفه سطعت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ورفع صوته منكرًا هذا الشرك داعيًا الناس إلى التوحيد الذي بعث الله به رسوله محمدًا ﷺ فلقي من الناس ما يلقاه أمثاله من الدعاة إلى الله من الأذى وأطاعه من وفقه الله لقبول الحق، يقول حفيده الشيخ عبدالرحمن بن حسن رحمه الله: ثم رجع إلى نجد وهم على الحالة التي لا يحبها الله ولا يرضاها من الشرك بعبادة الأموات والأشجار والأحجار والجن، فقام فيهم يدعوهم إلى التوحيد وأن يخلصوا العبادة بجميع أنواعها لله، وأن يتركوا ما كانوا يعبدونه من قبر أو طاغوت أو شجر أو حجر، والناس يتبعن الواحد منهم والإثنان فصاح به الأكثرون وحذروا منه الملوك وأغروهم بعدواته^(١).

وهذا لا يعني أنه لا يوجد علماء في هذا العصر، بل يوجد منهم الكثير، ولكنهم ما بين مستحسن لهذا الوضع السيء، أو غير مستحسن لكنه لا يملك الشجاعة لمقاومته.

أصول دعوة الشيخ رحمه الله:

لقد أوضح أصول دعوته في إحدى رسائله حيث قال^(٢):

- ١- أما ما نحن عليه من الدين فعلى دين الإسلام الذي قال الله فيه: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣).
- ٢- وأما ما دعونا الناس إليه فندعوهم إلى التوحيد الذي قال الله فيه خطاباً لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(٥).
- ٣- وأما ما نهينا الناس عنه فنهيناهم عن الشرك الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّهُ مَنْ

(١) «الدرر السنية» (٢١٦/٩) نقلاً عن المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق (١٢ - ٦٤).

(٣) آل عمران: الآية (٨٥).

(٤) يوسف: الآية (١٠٨).

(٥) الجن: الآية (١٨).

يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ^(١) وقوله تعالى لنبيه ﷺ على سبيل التغليظ، وإلا فهو منزّه هو وإخوانه عن الشرك: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ * بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ^(٢) وغير ذلك من الآيات، ونقاتلهم عليه كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾^(٣) أي شرك، ثم ساق الأدلة على ذلك إلى أن قال:

٤- وأما ما ذكرتم من حقيقة الاجتهاد فنحن مقلدون الكتاب والسنة وصالح سلف الأمة وما عليه الاعتماد من أقوال الأئمة الأربعة أبي حنيفة النعمان بن ثابت ومالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل رحمهم الله.

٥- وما جئنا بشيء يخالف النقل ولا ينكره العقل. . نقاتل عباد الأوثان^(٤) كما قاتلهم ﷺ ونقاتلهم على ترك الصلاة وعلى منع الزكاة كما قاتل مانعها صديق هذه الأمة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، انتهى.

وقال في رسالة أخرى من رسائله^(٥):

٦- وأما التكفير فإنما أكفر من عرف دين الرسول ثم بعدما عرفه سبه ونهى الناس عنه وعادى من فعله فهذا الذي أكفره، وأكثر الأمة والله الحمد ليسوا كذلك.

٧- وأما القتال فلم نقاتل أحدا إلا دون النفس والحرمة، فإنما نقاتل على سبيل

(١) المائدة: الآية (٧٢).

(٢) الزمر: الآية (٦٥، ٦٦).

(٣) الأنفال: الآية (٣٩).

(٤) وقال في بعض أجوبته: نقاتلهم بعدما نقيم الحجة عليهم من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع السلف الصالح من الأئمة ممثلين قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ انتهى. الدرر السنية (٥٨/١) نقلاً عن المصدر السابق.

(٥) «الدرر السنية» (٥٦/١) نقلاً عن المصدر السابق.

المقابلة: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾^(١) وكذلك من جاهر بسبب دين الرسول بعد ما عرفه .
وقال أيضا^(٢).

٨ - وأيضا ألزمت من تحت يدي بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من فرائض الله، ونهيتهم عن الربا وشرب المسكر وأنواع المنكرات.

المراحل التي مرت بها دعوة الشيخ محمد رحمه الله:

بدأ الشيخ دعوته في بلدة حريملا لوجود والده فيها، ولكن لما كانت الظروف غير مواتية ترك هذه البلدة بحثا عن غيرها فاتجه إلى العيينة واتصل بأmirها عثمان بن معمر فساعدته في أول الأمر واجتمع حوله طلبة وبدأ بتنفيذ الأحكام الشرعية فهدم بعض القباب الشركية ورجم في الزنا، ثم إن ابن معمر تخلى عنه خوفا من تهديد بعض الرؤساء، فترك الشيخ العيينة وبحث عن غيرها فاتجه إلى الدرعية واتصل بأmirها محمد بن سعود وعرض عليه دعوته فقبلها وبايعه على مناصرته وصدق في ذلك، وهنا استقر الشيخ رحمه الله وانعقدت حوله حلقة الدروس ووفد إليه الطلاب من مختلف الجهات وتكونت في هذه البلدة ولاية إسلامية أميرها الإمام محمد بن سعود وموجهها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وامتدت الدعوة إلى البلاد المجاورة ونشأ الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة التوحيد وقمع الشرك، وما هي إلا فترة وجيزة حتى انتشرت الدعوة وتوحدت جميع البلدان النجدية تحت رايته، وامتدت فيما بعد ذلك إلى الحجاز وعسير وشمال الجزيرة، وكان ذلك بفضل الله وحده ثم بمؤازرة آل سعود لهذه الدعوة المباركة، وصدق الله وعده: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٣) ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٤) ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾^(٥).

(١) الشورى: الآية (٤٠).

(٢) «الدرر السنية» (١/ ٥٤) نقلاً عن المصدر السابق.

(٣) محمد: الآية (٧).

(٤) الصافات: الآية (١٧٣).

(٥) الحج: الآية (٤٠).

- ثمرات دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وآثارها:

إن كل دعوة من الدعوات وكل عمل من الأعمال إنما تعرف قيمته من ثمراته المترتبة عليه ومن أثره الذي يتركه، وإن دعوة الشيخ والله الحمد لما كانت دعوة خالصة لله مترسمة منهج رسول الله ﷺ مستمدة علمها من الكتاب والسنة صار لها أطيّب الأثر واستمر نفعها وبقي أثرها وأنتجت للأمة خيرات كثيرة منها:

١- قيام دولة إسلامية هي دولة آل سعود الذين آزرُوا هذه الدعوة وجاهدوا في سبيلها، ولا تزال هذه الدولة والله الحمد تحكم بشريعة الله وتخدم الحرمين الشريفين وتشد أزر المسلمين في كل مكان من بقاع العالم بعمارة المساجد والمراكز الإسلامية والتعليمية.

٢- تصحيح العقيدة الإسلامية مما علق بها من الشراكيات والبدع والخرافات وإرجاعها إلى منبعها الصافي من كتاب الله وسنة رسوله، وقد طهر الله كل البلاد التي صار لهذه الدعوة المباركة فيها نفوذ وسلطة من جميع مظاهر الشرك والبدع والخرافات.

٣- امتداد أثر هذه الدعوة المباركة خارج بلادها حتى انتفع بها من هدفه الحق في مختلف بلدان العالم الإسلامي في الشام ومصر والمغرب العربي وأفريقيا والسودان واليمن والعراق والهند والباكستان وأندونيسيا وغيرها.

٤- وجود حركة علمية واعية متحررة من التقليد الأعمى، فانتشر التعليم في المساجد في مختلف مناطق البلاد حتى تخرج فيه علماء أفذاذ في حياة الشيخ وبعدها قاموا بنشر هذه الدعوة ورعايتها إلى يومنا هذا، ثم أسست لهذا التعليم جامعات إسلامية تخرج الأفواج تلو الأفواج من مختلف العالم الإسلامي مسلحين بالعقيدة الصحيحة والفكر السليم ينتشرون في العالم الإسلامي وغيره للدعوة إلى الله.

٥- نشاط حركة التأليف والنشر، فقد قدم علماء هذه الدعوة للأمة الإسلامية رصيда من الكتب النافعة في الأصول والفروع ومن ذلك:

١- مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب إمام الدعوة ويتكون مجموعها من اثني عشر مجلدا في الفقه والعقائد والتفسير والحديث والسيرة.

- ٢- مجموع الفتاوى والرسائل لعلماء الدعوة ويتكون من أحد عشر مجلداً.
- ٣- كتب ألفها أئمة الدعوة في مختلف العصور للرد على خصوم الدعوة تبلغ العديد من المجلدات وهي مطبوعة ومتداولة.
- ٤- نشر كتب السلف وتوزيعها على المسلمين في موسم الحج وغيره.
- ٥- نشر كل مفيد من المؤلفات العصرية وتوزيعها مجاناً.

- الشبه التي أثرت حول دعوة الشيخ:

تعرضت دعوة الشيخ كغيرها من دعوات المصلحين للنقد من قبل خصومها وأثيرت حولها شبهات ربما تروج على من لم يعرف حقيقتها، وقد أثير كثير من هذه الشبهات في حياة الشيخ ورد عليها بنفسه، وأثير البعض الآخر أو بالأصح أعيدت إثارة نفس تلك الشبه بعد وفاته فرد عليها تلامذته وغيرهم من محققي علماء المسلمين الذين لا يروج عليهم البهرج والكذب ولا تأخذهم في الله لومة لائم ومن هذه الشبه:

- ١- أنه يبطل كتب المذاهب الأربعة وأن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء.
- ٢- أنه يدعي الاجتهاد وأنه خارج عن التقليد وأنه يقول اختلاف العلماء نقمة.
- ٣- أنه يحرم زيارة قبر الرسول ﷺ وزيارة قبر الوالدين وغيرهما.
- ٤- أنه يكفر من حلف بغير الله.

وقد أجاب الشيخ عن هذه بقوله: جوابي عن هذه المسائل أني أقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، وقبله من بهت النبي ﷺ أنه يسب عيسى ابن مريم ويسب الصالحين فتشابعت قلوبهم بافتراء الكذب وقول الزور قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ (١) الآية بهتوه ﷺ بأنه يقول إن الملائكة وعيسى وعزيراً في النار فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (٢) الآية (٣).

- ٥- قالوا إنه ينهى عن الصلاة على النبي ﷺ وأنه يقول لو أن لي أمراً هدمت

(٢) الأنبياء: الآية (١٠١).

(١) النحل: الآية (١٠٥).

(٣) «الدرر السنية» (١/ ٣٠، ٣١).

قبة النبي ﷺ وأنه يتكلم في الصالحين وينهى عن محبتهم.. وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: هذا كذب وبهتان افتراه علي الشياطين الذين يريدون أن يأكلوا أموال الناس بالباطل^(١).

٦- قالوا: إنه يكفر جميع الناس إلا من اتبعه وأن أنكحتهم غير صحيحة.. وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: يا عجباً كيف يدخل هذا في عقل عاقل وهل يقول هذا مسلم، إني أبرأ إلى الله من هذا القول الذي ما يصدر إلا من مختل العقل فاقد الإدراك، فقاتل الله أهل الأغراض الباطلة^(٢).

٧- قالوا إنه يكفر بالعموم ويوجب الهجرة إليه على من قدر على إظهار دينه.. وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: كل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله، وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على قبر عبدالقادر والصنم الذي على قبر أحمد البدوي وأمثالهما لأجل جهلهم وعدم من ينبههم فكيف نكفر من لم يشرك بالله ولم يهاجر إلينا أو لم يكفر ويقاتل؟ سبحانه هذا بهتان عظيم^(٣).

٨- قالوا إنه ينكر الشفاعة، فرد الشيخ على ذلك بقوله: ثم بعد هذا يذكر لنا أن أعداء الإسلام الذين ينفرون الناس عنه يزعمون أننا ننكر شفاعة الرسول ﷺ، فنقول: سبحانه هذا بهتان عظيم، بل نشهد أن رسول الله ﷺ الشافع المشفع صاحب المقام المحمود نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يشفعه فينا، وأن يحشرنا تحت لوائه، هذا اعتقادنا وهذا الذي مشى عليه السلف الصالح من المهاجرين والأنصار والتابعين وتابع التابعين والأئمة الأربعة رضي الله عنهم أجمعين وهم أحب الناس لنبينهم وأعظمهم في اتباعه وشرعه، فإن كانوا يأتون عند قبره يطلبونه الشفاعة فإن اجتماعهم حجة، والقائل إنه يطلب الشفاعة بعد موته يورد علينا الدليل من كتاب الله أو من سنة رسول الله أو من إجماع الأمة والحق أحق أن يتبع^(٤).

٩- وأما اتهام الشيخ أنه يكفر بالعموم ويقاتل المسلمين، فقد أجاب عنه الشيخ

(١) «الدرر السنية» (٥٢/١) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

(٢) «الدرر» (٥٥/١) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

(٣) «الدرر» (٦٦/١) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

(٤) «الدرر» (٤٦/١) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

بقوله: وأما التكفير فأنا أكفر من عرف دين الرسول ثم بعد ما عرفه سبه ونهى عنه وعادى من فعله فهذا هو الذي أكفر، وأكثر الأمة والله الحمد ليسوا كذلك، وأما القتال فلم نقاتل أحداً إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة وهم الذين أتونا في ديارنا ولا أبقوا ممكننا، ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المراقبة: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾^(١)، وكذلك من جاهر بسبب دين الرسول بعد ما عرف فإننا نبين لكم أن هذا هو الحق الذي لا ريب فيه وأن الواجب إشاعته في الناس وتعليمه الرجال والنساء^(٢). انتهى.

وقال أيضاً: لما بين بطلان الذي يفعله القبوريون: فهذا الذي أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر إلى أن كفرونا وقاتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفروا بهم، وهو الذي ندعو الناس إليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع السلف الصالح من الأئمة ممثلين لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾^(٣) فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٤) انتهى^(٥).

وقال ابنه الشيخ عبدالله بن محمد مجملاً هذه الشبه مع الرد عليها: وأما ما يكذب علينا ستراً للحق وتليساً على الخلق بأننا نفسر القرآن برأينا ونأخذ من الحديث ما وافق فهمنا من دون مراجعة شرح ولا معول على شيخ وأنا نضع من رتبة نبينا محمد ﷺ بقولنا: النبي رمة في قبره وعصا أحدنا أنفع له منه وليس له شفاعاة، وأن زيارته غير مندوبة وأنه كان لا يعرف معنى لا إله إلا الله

(١) الشورى: الآية (٤٠).

(٢) «الدرر» (٥١/١) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

(٣) الأنفال: الآية (٣٩).

(٤) الحديد: الآية (٢٥).

(٥) «الدرر» (٥٨/١) نقلاً عن نفس المصدر السابق.

حتى أنزل الله عليه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١) مع كون الآية مدنية وأنا لانتعتمد على أقوال العلماء ونتلف مؤلفات أهل المذاهب لكون فيها الحق والباطل، وأنا مجسمة، ومن فروع ذلك أننا لانقبل بيعة أحد إلا بعد التقرير عليه بأنه كان مشركاً وأن أبويه ماتا على الإشراك بالله وأنا ننهى عن الصلاة على النبي ﷺ، ونحرم زيارة القبور المشروعة مطلقاً، وأن من دان بما نحن عليه سقطت عنه جميع التبعات حتى الديون، وأنا لانرى حقاً لأهل البيت رضوان الله عليهم وأنا نجبرهم على تزويج غير الكفاء لهم، وأنا نجبر بعض الشيوخ على فراق زوجته الشابة لتتكح شاباً إذا ترفعوا إلينا، فلا وجه لذلك فجميع هذه الخرافات وأشباهها لما استفهمنا عنها من ذكر أولاً (يعنى علماء مكة) كان جوابنا في كل مسألة من ذلك: سبحانه هذا بهتان عظيم، فمن روى عنا شيئاً من ذلك أو نسبته إلينا فقد كذب علينا ومن شاهد حالنا وحضر مجالسنا وتحقق ما عندنا علم قطعاً أن جميع ذلك وضعه وافتراه علينا أعداء الدين وإخوان الشياطين تنفيراً للناس عن الإذعان بإخلاص التوحيد لله تعالى بالعبادة وترك أنواع الشرك الذي نص الله عليه بأن الله لا يغفره: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾^(٢) فإننا نعتقد أن من فعل أنواعاً من الكبائر كقتل المسلم بغير حق والزنا وشرب الخمر وتكرر منه ذلك أنه لا يخرج بفعله ذلك عن دائرة الإسلام ولا يخلد به في دار الانتقام إذا مات موحدًا بجميع أنواع العبادة، والذي نعتقد أن رتبة نبينا محمد ﷺ أعلى مراتب المخلوقين علي الإطلاق وأنه حي في قبره حياة برزخية أبلغ من حياة الشهداء المنصوص عليها في التنزيل، إذ هو أفضل منهم بلاريب، وأنه يسمع سلام المسلم عليه وتسبب زيارته إلا أنه لا يشد الرحل إلا لزيارة المسجد والصلاة فيه وإذا قصد مع ذلك الزيارة فلا بأس، ومن أنفق نفيس أوقاته بالاشتغال بالصلاة عليه الصلاة والسلام الواردة عنه فقد فاز بسعادة الدارين وكفى همه وغمه كما جاء في الحديث عنه، ولا ننكر كرامات الأولياء ونعترف لهم بالحق وأنهم على هدى من ربهم مهما ساروا على الطريقة الشرعية والقوانين المرعية، إلا أنهم لا يستحقون شيئاً من أنواع العبادات

(١) محمد: الآية (١٩).

(٢) النساء: الآية (١١٦).

لا حال الحياة ولا بعد الممات، بل يطلب من أحدهم الدعاء في حال حياته بل ومن كل مسلم فقد جاء في الحديث: «دعاء المسلم مستجاب لأخيه»^(١) الحديث، وأمر ﷺ عمر وعلياً بسؤال الاستغفار من أويس ففعلا^(٢).

ونثبت الشفاعة لنبينا محمد ﷺ يوم القيامة حسب ما ورد، وكذلك نثبتها لسائر الأنبياء والملائكة والأولياء والأطفال حسب ما ورد أيضاً، ونسألها من المالك لها والأذن فيها لمن يشاء من الموحدين الذين هم أسعد الناس بها كما ورد بأن يقول أحدنا متضرعاً: (اللهم شفّع نبينا محمداً ﷺ فينا يوم القيامة) اللهم شفّع فينا عبادك الصالحين أو ملائكتك أو نحو ذلك مما يطلب من الله لا منهم، فلا يقال يا رسول الله أو يا ولي الله أسألك الشفاعة أو غيرها كأدركني أو أغثني أو اشفني أو انصرني على عدوي ونحو ذلك مما ذكر في أيام البرزخ كان من أقسام الشرك، إذ لم يرد بذلك نص من كتاب أو سنة ولا أثر من السلف الصالح في ذلك، بل ورد الكتاب والسنة وإجماع السلف أن ذلك شرك أكبر قاتل عليه رسول الله ﷺ. انتهى^(٣).

هذا وقد انبرى كثير من العلماء بعد وفاة الشيخ رحمه الله للإجابة عن هذه الشبهات وألفوا في ذلك مؤلفات ضخمة أشهرها:

١- (مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام وتسب إليه تكفير أهل الإسلام) في مجلد وهو للشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن من آل الشيخ رحمهم الله.

٢- (معارج القبول)، للشيخ الحسين بن مهدي النعمي من علماء اليمن في مجلد.

٣- (غاية الأمان في الرد على النبهاني) للشيخ محمود شكري الألوسي من علماء العراق وهو في مجلدين.

٤- (صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان) للشيخ محمد بشير السهسواني

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٥٨/٩ - الذكر والدعاء).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم (٣٣٤/٨ - فضائل الصحابة).

(٣) «الدور السنية» (١٢٧/١ - ١٢٩) نقلاً عن المصدرين المشار إليها في أول الترجمة.

الهندي في مجلد، وغير ذلك من الكتب التي ألفت في الذب على دعوة الشيخ حتى من غير المسلمين.

وهكذا يقبض الله سبحانه للحق أنصاراً في كل زمان تقوم بهم حجة الله على خلقه، فله الحمد والمنة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

- طلابه ومصنفاته -

أخذ عنه جموعاً كثيرة من الطلاب، تولوا من بعده مهمة الدعوة ورعاية الدولة، ومنهم:

- ١- الإمام المجاهد، عبدالعزيز بن محمد بن سعود (ت ١٢١٨هـ).
- ٢- الأمير، سعود بن عبدالعزيز بن محمد (ت ١٢٢٩هـ).
- ٣- أنجائه: الشيخ حسين (ت ١٢٢٤هـ)، والشيخ علي (ت ١٢٤٥هـ)، والشيخ عبدالله (ت ١٢٤٣هـ)، والشيخ إبراهيم.
- ٤- حفيده الشيخ، عبدالرحمن بن حسن، مؤلف فتح المجيد.
- ٥- الشيخ، حمد بن ناصر بن مَعمر (ت ١٢٢٥هـ).
- ٦- الشيخ، عبدالعزيز بن عبدالله الحُصَيْن (ت ١٢٣٧هـ).
- ٧- الشيخ، حسين بن غَنَام (ت ١٢٢٥هـ).

أما مؤلفاته:

فكان له مشاركة في فُنون كثيرة: في التفسير، والحديث، والعقيدة، والفقه، والوعظ. مع ما كان فيه من انشغال بأعباء الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمشاركة في الجهاد كما هو دأب علماء الدعوة، ومن هذه المؤلفات:

- ١- كتاب التوحيد، مطبوع.
- ٢- أصول الإيمان، مطبوع.
- ٣- مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، أو شرح حديث عمر بن عبسة مطبوع.

- ٤- كشف الشبهات، مطبوع.
- ٥- ثلاثة الأصول، مطبوع.
- ٦- مُختصر السيرة، مطبوع.
- ٧- مختصر فتح الباري، مخطوط.
- ٨- مختصر زاد المعاد، مطبوع.
- ٩- مسائل الجاهلية، مطبوع.
- ١٠- فضائل الصلاة، مطبوع.
- ١١- كتاب الاستنباط، مطبوع.
- ١٢- آداب المشي إلى الصلاة، مطبوع.
- ١٣- مجموعة الحديث، مطبوع.

- وفاته:

مات رحمه الله تعالى في أواخر سنة ١٢٠٦ هـ عن إحدى وتسعين سنة، قضاها في ميدان العلم، والجهاد والدعوة، ودُفن بمقبرة الدرعية شمال البلدة القديمة، وقد كُتب في رثائه قصائد كثيرة تنضح بالوفاء والحب.

شروح كتاب التوحيد

اهتم العلماء بهذا الكتاب، واحتفلوا به في بلاد مختلفة قديماً وحديثاً، فدرّسوه في حلّقتهم، وكتبوا عليه الشروح والخواشي والإيضاحات المفيدة، التي أسهمت في تبين مقاصده، وحل ألفاظه وبسط معانيه، كما تُرجم إلى لغات متعددة، ومن هذه المؤلفات، ما يلي:

١- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد.

تأليف الشيخ، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٣٣هـ) ومات قبل تمامه، والموجود منه، ينتهي عند باب ما جاء في المصورين. طُبِع سنة ١٣٨٢هـ عن ثلاث نسخ، كما يقول الناشر، وله نسخ خطية أخرى في بعض مكتبات الرياض، منها في مكتبة الرياض السعودية برقم ٨٣,٣٦٥ عملنا على طبعة عام ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٢- حاشيةُ كتاب التوحيد.

للشيخ، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب المتقدّم.

٣- شرحُ كتاب التوحيد.

للشيخ، علي بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٣٤هـ) وهو مفقود منذ زمن طويل، يقول ابنُ بشر: ذكر لي أنه علّق شرحاً على كتاب التوحيد، تأليف جده محمد بن عبد الوهاب.

٤- فتح الحميد في شرح كتاب التوحيد.

لعثمان بن منصور الناصري التميمي (ت ١٢٨٢ هـ) في مجلّدين، وفيه من الدواهي والمنكرات ما لا يُحصيه إلاّ الله.

٥- شرحُ كتاب التوحيد.

للشيخ، عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين العائذي (ت ١٢٨٢هـ).

٦- فتحُ المجيد لشرح كتاب التوحيد.

للشيخ، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب وكان عملنا على طبعة مؤسسة قرطبة عام ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٧- قُرّة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين.

للشيخ، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب المتقدّم، مطبوعة سنة ١٣٤٦ هـ، ولها نسخٌ جيدة في بعض مكتبات الرياض، منها في مكتبة الرياض السعودية برقم ٣٢٠.

٨- إبطال التنديد باختصار شرح التوحيد.

للشيخ، حمد بن عتيق (ت ١٣٠١ هـ)، أخذه من شرح الشيخ سليمان بن عبد الله، طبع سنة ١٣٨٩ هـ.

٩- تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد.

تأليف الشيخ، عبد الهادي بن محمد بن عبد الهادي البكري العُجيلي. مختصر، وربما كتبه لصغار الطلاب، ولم يُطبع بعد.

١٠- حاشية في كتاب التوحيد.

للشيخ إسحاق بن محمد بن عتيق (ت ١٣٤٣ هـ) مختصر، ولا يزال مخطوطاً.

١١- الدر النضيد شرح كتاب التوحيد.

للشيخ، أحمد بن حسن النجدي، مطبوع سنة ١٣١١ هـ في دهلي.

١٢- فتحُ الله الحميد المجيد شرح كتاب التوحيد.

للشيخ، حامد بن محمد بن حسن، مطبوع سنة ١٣١٧ هـ في امرتسار، وقد طبع طبعة حديثه بتحقيق فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد - عام ١٤١٧ هـ، ١٩٩٦ م.

١٣- القولُ السديد في مقاصد التوحيد.

للشيخ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت ١٣٧٦ هـ)، مطبوع سنة ١٣٨٢ هـ.

١٤- حاشيةُ كتاب التوحيد.

للشيخ، عبد الرحمن بن قاسم (ت ١٣٩٢ هـ)، مطبوع سنة ١٣٩٦ هـ.

١٥- الدر النضيد على أبواب التوحيد.

للشيخ، سُليمان بن عبد الرحمن الحمدان (ت ١٣٩٧ هـ)، مطبوع سنة ١٣٩٦ هـ.

١٦- الدر النضيد علي كتاب التوحيد

للشيخ، سعيد الجندول، مطبوع سنة ١٣٩٨ هـ.

١٧- إفادة المستفيد بشرح كتاب التوحيد.

للشيخ، عبد الرحمن الخطيلي (ت ١٤٠٦ هـ) مطبوع سنة ١٤٠٣ هـ.

١٨- الجديد في شرح كتاب التوحيد.

للشيخ، محمد القرعاوي، مطبوع سنة ١٤٠٤ هـ.

وكان عملنا على الطبعة الثانية عام ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ هـ.

١٩ - التوضيح المفيد لمسائل كتاب التوحيد

للشيخ ، عبد الله الدويش (ت ١٤٠٨) ، مطبوع سنة ١٤١١هـ.

٢٠ - التعليق المفيد لفضيلة الشيخ ابن باز ت ١٤٢٠هـ.

٢١ - القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ بن عثيمين. مطبوع سنة (١٤١٨هـ)

٢٢ - فضل الله الغنى الحميد: لياسر برهاس.

٢٣ - الجامع الفريد: لعبد الله بن جار الله مطبوع سنة (١٤٠٨هـ) ط.

٢٤ - مغنى المريد شرح كتاب التوحيد وهو الذي بين أيدينا.

بعض تراجم مشاهير الشراح

- ترجمة الشيخ سليمان آل الشيخ^(١):

نسبه ونشأته:

هو الحافظ المحدث الفقيه المجتهد الثقة أرحم الحفاظ تاج عصره وجمال زمانه: الشيخ سليمان بن الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولد سنة ١٢٠٠ هـ - كان آية في العلم والحلم، والحفظ والذكاء ، له المعرفة التامة في الحديث، ورجاله وصحيحه، وحسنه، وضعيفه، والفقه والتفسير، والنحو ، وكان في معرفة رجال الحديث يسامي أكابر الحفاظ، وضرب به المثل في زمنه بالذكاء والزكاء، وكان حسن الحظ، ليس في زمنه من يكتب بالقلم مثله .

شيوخه:

أخذ العلم عن أبيه، والشيخ حمد بن معمر، وعن عميه: الشيخ حسين، والشيخ علي، والشيخ حسين بن غنام، والشيخ عبد الله بن فاضل، والشيخ عبد الرحمن بن خميس، والشيخ عبد الله الغريب، وغيرهم، وأجازته الشيخ محمد بن علي الشوكاني.

أعماله ومصنفاته:

برع في الفنون، وكانت له اليد الطولى في الحديث ورجاله، يروى عنه أنه

(١) كتبها الشيخ إبراهيم بن محمد إبراهيم الشيخ نقلاً عن "تيسير العزيز الحميد".

كان يقول : أنا برجال الحديث أعرف مني برجال الدرعية ، لم ير شخص في زمنه حصل له من الكمال والعلوم والصفات الحميدة سواء على صغر سنه .

صنّف شرح «كتاب التوحيد» لجدّه ، فمن بعده عيال عليه فيه ، لكنه لم يكمله . وله حاشية على شرحه والدلائل في حكم موالاة أهل الإشراف كان طلبة العلم يحفظونها عن ظهر قلب ، ورسالة في عدد الجمعة لم ينسخ على منوالها .

وله فتاوي كثيرة طبعت ضمن مجموع فتاوي أئمة الدعوة رحمهم الله ، ومن وقف على كلامه شهد له بالشهامة والجودة والذكاء ، والحفظ وحسن الفهم ، أخذ عنه العلم عدد كثير من أهل الدرعية وغيرهم ، ومنهم الشيخ محمد بن سلطان وغيره .

وفاته:

وكان رحمه الله آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، فلا يتعاضم رئيساً في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ولا يتصاغر ضعيفاً أتى إليه بطلب فائدة . وقد أكرمه الله تعالى بالشهادة سنة ١٢٣٣ هـ ، وذلك عندما وشي به بعض المنافقين إلى إبراهيم باشا بن محمد علي باشا بعد دخول الدرعية واستيلائه عليها فأحضره إبراهيم باشا وأظهر بين يديه آلات اللهو والمنكر إغاضة له ، ثم أخرج به إلى المقبرة وأمر الجند أن يطلقوا عليه الرصاص فمزقوا جسمه ، وفاضت روحه إلى ربه ، رحمه الله ، وأجزل مثوبته ، وأسكنه فسيح جناته .

ترجمة الشيخ: عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ^(١)

نسبه وميلاده:

هو العلامة المُجدّد الثاني ، الشيخ أبو الحسن ، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ، ولد في الدرعية ، الواقعة إلى الشمال ، من مدينة الرياض سنة ١١٩٣ هـ ، قبل وفاة جده الإمام محمد بن عبد الوهاب بثلاث عشرة سنة .

(١) من مصادر ترجمته: المؤلف ، ومجموعة الرسائل والمسائل (٢/ ٢٠-٢٤) . وابن بشر «عنوان المجدد في تاريخ نجد» (١/ ١٩١ ، ٤٦٠/٢) ، وابن عيسى «عقد الدرر» (٥٤-٦٢) وإسماعيل باشا ، «إيضاح المكنون» (٢/ ١٧٢) و«هدية العارفين» (١/ ٥٥٨) وابن قاسم ، «الدرر السنية» (٦٠) ، والزركلي «الأعلام» (٣/ ٣٠٤) وكحالة ، «معجم المؤلفين» (٥/ ١٣٥) ، وعبد الرحمن بن عبد اللطيف ، «مشاهير علماء نجد» (٧٨) . نقلاً عن كتاب الدكتور الوليد الفرياني .

نشأته:

مات والده وهو صغير، فتولَّى رعايته والعناية به جدُّه الإمام محمد بن عبد الوهاب، ثم وجهه إلى طلب العلم في وقت مبكر، فحفظ القرآن في التاسعة، وأخذ عنه بعض (كتاب التوحيد) إلى أبواب السحر، وجملة من كتاب (آداب المشي إلى الصلاة) وحضر القراءة عليه في كُتب التفسير والحديث والأحكام، ولم يزل يتقلب في تلك الأفياء الوارفة الظليلة، حتى أدرك علماً غزيراً في مدة قصيرة، لما حباه الله من الذكاء وجودة الفهم، والصبر على المطالعة.

أخذ العلم عن طائفة من علماء عصره، في نجد ومصر، ومنهم:

- ١- جدُّه الإمام، محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦هـ).
- ٢- العلامة الشيخ، عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٤٣هـ).
- ٣- الشيخ الجليل، حمد بن ناصر بن معمر (ت ١٢٢٥هـ).
- ٤- المؤرخ الشيخ، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي (ت ١٢٤٠هـ).
- ٥- النحوى المؤرخ، حسين بن غنام (ت ١٢٢٥هـ).
- ٦- الشيخ، إبراهيم الباجورى (شيخ الأزهر) (ت ١٢٧٧هـ).

أعماله:

عينه الأمير سعود بن عبد العزيز بن محمد (ت ١٢٢٩هـ) في قضاء الدرعية عاصمة الدولة آنذاك، ثم نقله الأمير عبد الله بن سعود (ت ١٢٣٤هـ) إلى مكة.

ولما اجتاحت جيوش محمد على (باشا) الدرعية سنة ١٢٣٣هـ انتقل إلى مصر مع أفراد أسرته، واستقروا هناك.

وفى سنة ١٢٤١هـ تمكَّن من العودة إلى نجد، بعد استعادة الإمام تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود (ت ١٢٤٩هـ) الحكم، فأعادته إلى القضاء، واتخذ منه مستشاراً فيما يعرض له من الأمور الخاصة والعامة، وساهم معه في إحياء الدعوة وتطهير البلاد مما أصابها من الشرور والفتن، واشترك في معظم الغزوات التي خاضها الإمام تركي تحت راية التوحيد.

وما برح كذلك فى ولاية الإمام فيصل (ت ١٢٨٢ هـ) وعهد الأمير عبد الله (ت ١٣٠٦ هـ) حتى فارق الدنيا.

مصنفاته:

ألّف رحمه الله مجموعة من الكتب، التى تشهد بطول باعه فى التفسير والحديث والفقه، مع أنه كان مشغولاً بالقضاء، والتدريس والدعوة، وغير ذلك.

وقد ذكر له ما يلي:

- ١- فتحُ المجيد.
 - ٢- قُرّةُ عيون الموحدين.
 - ٣- القول الفصل النفيس.
 - ٤- المقامات فى تاريخ الدعوة.
 - ٥- المحجّة.
 - ٦- بيانُ كلمة التوحيد.
 - ٧- مُختصر العقل والنقل.
 - ٨- مختصر تفسير سورة الإخلاص.
 - ٩- حجة التحذير فى المنع من لبس الحرير.
 - ١٠- تفسير سورة الفاتحة.
 - ١١- الرد والردع.
 - ١٢- المورد العذب الزُّلال.
 - ١٣- مُلخص منهاج السنة.
 - ١٤- إرشاد طالب الهدى.
 - ١٥- مجموعة كبيرة من الرسائل والفتاوى.
- أبناء ووظلايه.**

أنجب خمسة أولاد محمد وإسماعيل، وعبد اللطيف، وإسحاق، وعبد الله

ولهؤلاء الثلاثة عقب، وقد أخذوا عنه، وأخذ عنه أعدادٌ كبيرة من الطلاب في الدرعية يوم أن كانت عاصمة الدولة، وفي الرياض لما انتقل إليها، وتوافدوا عليه من كل مكان.

يقول ابنُ بشر: أخذ عنه العلم خلقٌ كثير، لا يُحصى، فنفع الله الطالب بعلمه، بحيث لا يلبث عنده إلاَّ يسيراً حتى يكون فائقاً بفهمه، وضربت إليه آباط الإبل من جميع نواحي نجد والأحساء، وظهرت أثر البركات في تعليمه. فتخرجَ في حلقاته الجامعة، الكثير من العلماء والقضاة وأهل الفضل والسابقة منهم:

- ١- نجله العلامة الكبير، عبد اللطيف بن عبد الرحمن (ت ١٢٩٣ هـ).
- ٢- القاضي الجليل، حسن بن حسين بن محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٤٥ هـ).
- ٣- الشيخ، حمد بن علي بن عتيق (ت ١٢٨٥ هـ).
- ٤- الشيخ، عبد الرحمن بن عدوان (ت ١٢٨٥ هـ).
- ٥- الشيخ، سليمان بن سحمان (ت ١٣٤٩ هـ).
- ٦- الشيخ، محمد بن إبراهيم بن عجلان (ت ١٢٩٣ هـ).
- ٧- الشيخ، محمد بن إبراهيم بن محمود (ت ١٣٣٣ هـ).

أخلاقه وسجاياه:

كان رحمه الله معروفاً بصدقه وإخلاصه، وعزيمته التي لا تلين، شهماً كريماً حازماً، حليماً متواضعاً عطوفاً ناصحاً، متعففاً يكتسب من الزراعة، شديد الغيرة على حرمة الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، متنبهاً لدسائس أهل البدع، منافحاً عن العقيدة، بلسانه وقلمه، شجاعاً، وقف مع رجال الدرعية وقفات مشهودة، في وجه عدوان إبراهيم (باشا) الغاشم.

يقول ابنُ عيسى: وكان رحمه الله تعالى: ورعاً تقياً صالحاً، ملازماً للتدريس، مرغباً للعلم، معيئاً عليه، كثير الإحسان للطلبة، لين الجانب كريماً سخياً ساكناً، وقوراً كثير العبادة، ويقول أحدُ تلاميذه، في قصيدة رثائية طويلة:

فلا يبعدنك الله من شيخ طاعة
قوى بأمر الله شهم مهذب
ولما طغى عِلجُ العراق بجهله
رماه كما يرمى الرجيم بثاقب
لقد بان فينا النقصُ من بعد موته
وموت أهيل العلم قاصمة الظهر
وفاته،

امتد به العمر ممتعاً بكامل حواسه، إلى أن أدركه الأجلُ عشية يوم السبت
حادى عشر ذى القعدة، من عام ١٢٨٥ هـ فى مدينة الرياض، وصلى عليه
بجامعها الكبير، ودفن فى مقبرة العود.

فأصيب الناس بفقده، وبكاء العلماء والعامّة، وأسفوا عليه، وكُتبت فى
رثائه القصائد، رحمه الله رحمة واسعة، وجمعنا به فى مستقر رحمته.
ثناء العلماء عليه،

نال الشيخ عبد الرحمن بن حسن فى حياته الثناء والتقدير البالغ، من صفوة
أهل عصره، فمدحوه، وأشادوا بمواقفه ومواهبه، وأظهروا له التبجيل
والاحترام.

يقول ابن بشر: الشيخُ العالم النحرير، والبحر الزاخر الغزير، مُفيد الطالبين
ومرجع الفقهاء والمتكلمين، المحفوف بعناية رب العالمين. جامعُ العلوم الشرعية
ومحقق العلوم الدينية، والأحاديث النبوية والآثار السلفية، وارث العلم، كابرًا
عن كابر، الذى قصرت عن استنباطه العلماء والأكابر، وصارت الأصاغر
بإفاداته شيوخًا أكابر، ورجع العلم به غضًا، بعد ما كان دابر، ناصر شريعة
سيد المرسلين، الموفق للصواب فى الجواب، الحافظ المُتقن.

وقال فى موضع آخر: الشيخُ العالم الفاضل، وعين الأمائل، الذى أحيا
مدارس العلم بعد ما عطلت المحابر، وردَّ عصره فى الشباب بعد ما كان داب،
الذى تزيّنت بدروسه المساجد والمجالس، واحتاج إلى تفرغ منطوقه كل مذاكرة

ومدارس، مجد الفضلاء والمدرسين، من قارنه فى أقواله وأفعاله السداد والصواب.

وقال الشيخُ عبد اللطيف بن عبد الرحمن: نصب نفسه بحمد الله ومنته لحماية هذا الدين، والذب عنه ومراغمة أعدائه، وقام فى وجوه أهل البدع.

وقد منَّ عليه بنشر العلم، وانتفع الناس به بعد ما كاد يعدم فى البلاد النجدية، بعد المحنة المصرية، فجدد الله به آثار سلفه الصالح.

وجمهورٌ من له معرفة بالعلم وما جاءت به الرسل، من أهل هذه البلاد النجدية إنما تخرج عليه، وسمع منه وتربى بين يديه، وقد عرف العامة والخاصة مناصحته لولاة الأمور، وحثهم على تحكيم كتاب الله والجهاد لإعلاء كلمته، ونصحهم عن الإصغاء إلى أهل الريب، وهو قائم على قضاة تلك البلاد، وقد أنطق الله ألسن المسلمين بالثناء والدعاء لهذا الشيخ.

ويقول ابن عيسى: الشيخُ الإمام العالم الفاضل القدوة، رئيس الموحدين، وقامع الملحدين، كان إماماً بارعاً، محدثاً فقيهاً، له اليد الطُّولى، فى جميع العلوم الدينية.

كما كان محلَّ حفاوة زُعماء نجد، فى وقته، وهو المتصدِّر للدروس، التى كانت تُعقد فى مجالس الإمام تركى والإمام فيصل، فى الحل والترحال.

ترجمة الشيخ ابن باز^(١)

تفضل سماحة الشيخ عبد العزيز بإملاء نبذة عن حياته وقرئت عليه بعد كتابتها فأقرها.

أنا عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز. ولدت بمدينة الرياض فى ذى الحجة سنة ١٣٣٠ هـ، وكنت بصيراً فى أول الدراسة ثم أصابنى المرض فى عينيَّ عام ١٣٤٦ هـ، فضعف بصرى بسبب ذلك. . ثم ذهب بالكلية فى مستهل محرم من عام ١٣٥٠ هـ والحمد لله على ذلك، وأسأل الله جل وعلا أن يعوضنى عنه بالبصيرة فى الدين والجزاء الحسن

(١) نقلًا عن كتابه: «التعليق المفيد».

فى الآخرة؁ كما وعد بذلك سبحانه على لسان نبيه محمد ﷺ؁ كما أسأله سبحانه أن يجعل العاقبة حميدة فى الدنيا والآخرة.

وقد بدأت الدراسة منذ الصغر وحفظت القرآن الكريم قبل البلوغ ثم بدأت فى تلقى العلوم الشرعية؁ والعربية على أيدى كثير من علماء الرياض من أعلامهم:

١- الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله.

٢- الشيخ صالح بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قاضى الرياض رحمهم الله.

٣- الشيخ سعد بن حمد بن عتيق - قاضى الرياض).

٤- الشيخ حمد بن فارس (وكيل بيت المال بالرياض).

٥- الشيخ سعد وقاص البخارى (من علماء مكة المكرمة) أخذت عنه علم التجويد فى عام ١٣٥٥ هـ.

٦- سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ؁ وقد لازمت حلقاته نحواً من عشر سنوات وتلقيت عنه جميع العلوم الشرعية ابتداء من سنة ١٣٤٧ هـ إلى سنة ١٣٥٧ هـ حيث رشحت للقضاء من قبل سماحته. جزى الله الجميع أفضل الجزاء وأحسنه؁ وتغمدهم جميعاً برحمته ورضوانه.

وقد توليت عدة أعمال هي:

١- القضاء فى منطقة الخرج مدة طويلة استمرت أربعة عشر عاماً وأشهرُ وامتدت بين سنتى ١٣٥٧ هـ إلى عام ١٣٧١ هـ؁ وقد كان التعيين فى جمادى الآخرة من عام ١٣٥٧ هـ؁ وبقيت إلى نهاية عام ١٣٧١ هـ.

٢- التدريس فى المعهد العلمى بالرياض سنة ١٣٧٢ هـ. وكلية الشريعة بالرياض بعد إنشائها سنة ١٣٧٣ هـ. فى علوم الفقه والتوحيد والحديث واستمر عملى على ذلك تسع سنوات انتهت فى عام ١٣٨٠ هـ.

٣- عينت فى عام ١٣٨١ هـ. نائباً لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة؁ وبقيت فى هذا المنصب إلى عام ١٣٩٠ هـ.

٤- توليت رئاسة الجامعة الإسلامية فى سنة ١٣٩٠ هـ بعد وفاة رئيسها شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله فى رمضان عام ١٣٨٩ هـ وبقيت فى هذا المنصب إلى سنة ١٣٩٥ هـ.

٥- وفى ١٤/١٠/١٣٩٥ هـ صدر الأمر الملكى بتعيينى فى منصب الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد برتبة «وزير» . أسأل الله العون والتوفيق والسداد.

ولى إلى جانب هذا العمل فى الوقت الحاضر عضوية فى كثير من المجالس العلمية والإسلامية من ذلك :

- ١- عضوية هيئة كبار العلماء بالمملكة.
 - ٢- رئاسة اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء فى الهيئة المذكورة.
 - ٣- عضوية ورئاسة المجلس التأسيسى لرابطة العالم الإسلامى.
 - ٤- رئاسة المجلس الأعلى العالمى للمساجد.
 - ٥- رئاسة المجمع الفقهى الإسلامى بمكة المكرمة التابع لرابطة العالم الإسلامى.
 - ٦- عضوية المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة.
 - ٧- عضوية الهيئة العليا للدعوة الإسلامية فى المملكة.
- أما مؤلفاتى فمنها :

- ١- الفوائد الجلية فى المباحث الفرضية.
- ٢- التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة «توضيح المناسك».
- ٣- التحذير من البدع، ويشتمل على أربع مقالات مفيدة «حكم الاحتفال بالمولد النبوى وليلة الإسراء والمعراج وليلة النصف من شعبان وتكذيب الرؤيا المزعومة من خادم الحجرة النبوية المسمى الشيخ أحمد».
- ٤- رسالتان موجزتان فى الزكاة والصيام.
- ٥- العقيدة الصحيحة وما يضادها.
- ٦- وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ وكفر من أنكرها.
- ٧- الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة.

- ٨- وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه.
 - ٩- حكم السفور والحجاب ونكاح الشغار.
 - ١٠- نقد القومية العربية.
 - ١١- الجواب المفيد فى حكم التصوير.
 - ١٢- الشيخ محمد بن عبد الوهاب «دعوته وسيرته».
 - ١٣- ثلاث رسائل فى الصلاة:
الأولى : كيفية صلاة النبى ﷺ.
الثانية: وجوب أداء الصلاة فى جماعة.
الثالثة: أين يضع المصلى يديه حين الرفع من الركوع.
 - ١٤- حكم الإسلام فيمن طعن فى القرآن أو فى رسول الله ﷺ.
 - ١٥- حاشية مفيدة على فتح الباري.
 - ١٦- رسالة الأدلة الثقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب.
 - ١٧- إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدق الكهنة والعرافين.
 - ١٨- الجهاد فى سبيل الله.
 - ١٩- الدروس المهمة لعامة الأمة.
 - ٢٠- فتاوى تتعلق بأحكام الحج والعمرة والزيارة.
 - ٢١- وجوب لزوم السنة والحذر من البدعة(*).
- ترجمة الشيخ محمد بن صالح العثيمين^(١)؛**
اسمه ونسبه؛

هو أبو عبد الله، محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين المقبل الوهيبي التميمي.

(*) توفى سماحة الشيخ بعد انتهائهما من جمع الكتاب وخلال مراجعته ٢٤ محرم ١٤٢٠ هـ.
(١) نقلاً عن كتاب شرح العقيدة الواسطية بقلم تلميذه وليد بن أحمد الحسين أبو عبد الله الزبيرى رئيس تحرير مجلة الحكمة.

ولد الشيخ أبو عبد الله في مدينة عنيزة، إحدى مدن القصيم، عام ١٣٤٧هـ، في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك، في عائلة معروفة بالدين والاستقامة، بل تتلمذ على بعض أفراد عائلته، أمثال جدّه من جهة أمه، الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دماغ، رحمه الله، فقد قرأ عليه القرآن، فحفظه، ثم اتجه إلى طلب العلم، فتعلم الخط والحساب، وبعض فنون الآداب.

وكان الشيخ قد رزق ذكاء وزكاء، وهمة عالية، وحرصاً على التحصيل العلمى فى مزاحمته الركب لمجالس العلماء، وفى مقدمتهم الشيخ العلامة المفسر الفقيه عبد الرحمن بن ناصر السعدى وكان الشيخ عبد الرحمن قد أقام اثنين من طلابه لتعليم الصغار، وهما الشيخ على الصالحى، والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع، فقرأ الشيخ محمد بن صالح العثيمين عليهما «مختصر العقيدة الواسطية» للشيخ عبد الرحمن السعدى، و«منهاج السالكين فى الفقه» للشيخ السعدى أيضاً، و«الآجرومية»، و«الألفية» فى النحو والصرف، وهكذا كانت نشأة الشيخ بين أحضان العلماء.

ولم يرحل الشيخ لطلب العلم إلا إلى الرياض، حيث فتحت المعاهد العلمية عام ١٣٧٢ هـ فالتحق بها.

وبعد وفاة شيخه عبد الرحمن السعدى، الذى توفى فى عنيزة عام ١٣٧٦ هـ، عن عمر يناهز التاسعة والستين، رشح بعض المشايخ لإمامة الجامع الكبير، إلا أنهم لم يستمروا على ذلك إلا مدة قصيرة جداً، فرشح الشيخ محمد بن صالح العثيمين لإمامة الجامع الكبير، عندها تصدى للتدريس مكان شيخه، ولم يتصدّ للتأليف إلا عام ١٣٨٢ هـ، حين ألف أول كتاب له، وهو «فتح رب البرية بتلخيص الحموية»، وهو تلخيص لكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية «الحموية فى العقيدة».

واستغل الشيخ وجوده فى الرياض بالدراسة على الشيخ عبد العزيز بن باز، فقرأ عليه من «صحيح البخاري» وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وبعض الكتب الفقهية.

وقد عرض على الشيخ تولى القضاء من قبل مفتى المملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، رحمه الله، الذى ألح على فضيلته بتولى القضاء، بل أصدر قراره بتعيينه رئيساً للمحكمة الشرعية بالأحساء، فطلب منه الإعفاء، وبعد مراجعات واتصالات سمح بإعفائه من منصب القضاء.

مشايخه:

استفاد الشيخ أبو عبد الله فى طلبه للعلم من عدة شيوخ منهم.

١- الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، المتوفى عام ١٣٧٦ هـ، المفسر المشهور، صاحب التفسير المعروف بـ «تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان» فى ثمان مجلدات.

٢- الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، المفتى العام للمملكة العربية السعودية، ورئيس هيئة كبار العلماء.

٣- الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكنى الشنقيطي، المتوفى عام ١٣٩٣ هـ، المفسر واللغوي، صاحب التفسير المشهور والمعروف بـ «أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن».

٤- الشيخ على بن حمد الصالحي، ولا يزال على قيد الحياة، أطل الله عمره، وأحسن عمله.

٥- الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع، رحمه الله.

٦- الشيخ عبد الرحمن بن على بن عودان، رحمه الله.

٧- الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ رحمه الله. جد الشيخ من جهة أمه.

تلاميذه:

لا يمكن حصر جميع من تتلمذ على الشيخ، لأنهم ازدحموا فى مجلسه - لا سيما فى السنوات الأخيرة - بما يزيد على الخمسمائة طالب فى بعض الدروس، على اختلاف مستوياتهم، وقد ذكرت مجموعة من طلابه البارزين فى ترجمته المفصلة فى «مجلة الحكمة» العدد الثانى لا على سبيل الحصر فارجع إليها.

لقد أوضّح الشيخ حفظه الله منهجه، وصرّح به مرّات عديدة، أنه يسير على الطريقة التى انتهجها شيخه العلامة الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدى، يقول شيخنا أبو عبد الله: «لقد تأثرت كثيراً بشيخى عبد الرحمن السعدى فى طريقة التدريس، وعرض العلم، وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني».

والمناهج الذى سلكه الشيخ عبد الرحمن السعدى هو منهج خرج به عن المنهج الذى يسير عليه علماء الجزيرة - علماء نجد - عامتهم أو غالبتهم، حيث اعتماد المذهب الحنبلى فى الفروع من مسائل الأحكام الفقهية، والاعتماد على كتاب «زاد المستقنع» فى فقه الإمام أحمد بن حنبل، فكان الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدى معروفاً بخروجه عن المذهب الحنبلى، وعدم التقيد به فى مسائل كثيرة.

ومنهج الشيخ السعدى هو أنه كثيراً ما يتبنى آراء شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ويرجحها على المذهب الحنبلى، فلم يكن عنده الجمود تجاه مذهب معين، بل كان متجرباً للحق، وقد انطبعت فيه هذه الصفة وانتقلت إلى تلميذه محمد الصالح العثيمين.

ولا بأس فى أن نذكر أمثلة لبعض المسائل التى خالف شيخنا أبو عبد الله العثيمين فيها شيخ الإسلام ابن تيمية منها:

- ١- يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن الجماعة شرط لصحة الصلاة، ويرى شيخنا أنها واجبة.
- ٢- يرى شيخ الإسلام أن المتمتع فى الحج يكفيه سعى العمرة عن سعى الحج، ويرى شيخنا أن سعى العمرة لا يكفى عن سعى الحج.
- ٣- يرى شيخ الإسلام جواز سفر المرأة بلا محرم مع الأمن، ويرى شيخنا عدم جواز سفر المرأة بلا محرم مطلقاً.
- ٤- يرى شيخ الإسلام جواز الجمع بين الأختين من الرضاع، ويرى شيخنا التحريم لعموم حديث: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».
- ٥- يرى شيخ الإسلام جواز دفع الزكاة فى قضاء دين الميت الذى لم يخلف وفاء، ويرى شيخنا عدم الجواز.

٦- يرى شيخ الإسلام جواز تعفير الوجه بالتراب تذللًا لله تعالى - ذكرها في الاختيارات- ويرى شيخنا ضعف هذا القول ، لأن الأصل في العبادات المنع والحظر، حتى يقوم دليل على المشروعية.

٧- يرى شيخ الإسلام أن للأُم الثلث مع الإخوة المحبوبين بالأب، ويرى شيخنا أن للأُم السدس، أى إن الأخوة، وإن كانوا محبوبين بالأب، لكن تأثيرهم على الأُم يظل باقياً، فيحبسونها حجب نقصان من الثلث إلى السدس، وهو قول الجمهور.

٨- يرى شيخ الرسالة جواز الزيادة بين الربوبين من جنس واحد فى مقابل الصنعة، ويرى شيخنا عدم الجواز للعمومات الدالة على أن الذهب بالذهب لا بد فيه من التساوى وزناً وبوزن، سواء بسواء، يداً بيد.

٩- يرى شيخ الإسلام أن المأموم تكفيه قراءة إمامه فى الصلاة الجهرية ، وهو المذهب ويرى شيخنا وجوب قراءة الفاتحة على المأموم فى الجهرية.

طبيعة الدرس عند الشيخ؛

إن طبيعة الدرس التى التزمها الشيخ، وسار عليها، واتخذها منهجاً له منذ توليه التدريس فى الجامع الكبير خلقاً لشيخه منذ أكثر من خمس وثلاثين سنة تكمن فى نمط معين، ذلك أن الشيخ يركز كثيراً على حفظ المتون، ويطالب التلميذ ويتابعه على الحفظ فى كل درس. بل إن الشيخ ينكر على من يحضر درسه ولا يلتزم الحفظ، وقد حفظنا على الشيخ كثيراً من المتون المثورة والمنظومة.

ومن آثاره العلمية؛

ذكرت من آثاره العلمية خمسة وخمسين مؤلفاً، وأكثرها عبارة عن رسائل صغيرة، فارجع إلى التفصيل فى ذكرها إلى مجلتنا «مجلة الحكمة» فى عددها الثانى، فى ترجمة الشيخ حفظه الله. فقد أطلنا فى ترجمته إلى ثلاثين صفحة فارجع إليها.

هذا ما تيسر كتابته وتدوينه باختصار عن ترجمة المؤلف، والله أسأل أن يمدَّ فى عمره، ويحسن عمله، وينفع به الأمة إنه سميع قريب مجيب والحمد لله رب العالمين.

متن.

كتاب التوحيد

تأليف المصلح المجدد شيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب رحمه الله
المتوفي سنة ١٢٠٦ هـ

قال شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى:

كتاب التَّوْحِيدِ

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾. الآية. [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية. [الإسراء: ٢٣].

وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية. [النساء: ٣٦].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآيات: [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ النَّبِيِّ عَلَيْهَا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾.. الآية.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: «كَنتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ لِي: يَا مُعَاذُ؟ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَكَبَّلُوا» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ.

الثانية: أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ، لِأَنَّ الْخُصُومَةَ فِيهِ.

الثالثة: أَنَّ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ فَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣].

الرابعة: الْحِكْمَةُ فِي إِرْسَالِ الرُّسُلِ.

الخامسة: أَنَّ الرِّسَالََةَ عَمَّتْ كُلَّ أُمَّةٍ.

السادسة: أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ.

السابعة: الْمَسْأَلَةُ الْكَبِيرَةُ: أَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْكَفْرِ بِالطَّاغُوتِ. فَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾. الْآيَةُ: [البقرة: ٢٥٦].

الثامنة: أَنَّ الطَّاغُوتَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

التاسعة: عِظَمُ شَأْنِ الثَّلَاثِ آيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ السَّلَفِ، وَفِيهَا عَشْرُ مَسَائِلَ. أُولَاهَا: النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ.

والعاشرة: الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ.

وَفِيهَا ثَمَانِيَّةُ عَشْرَ مَسْأَلَةٍ بَدَأَهَا اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]. وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩] وَنَبَّهَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩].

الحادية عشرة: آيَةُ سُورَةِ النَّسَاءِ الَّتِي تُسَمَّى آيَةَ الْحُقُوقِ الْعَشْرَةِ بَدَأَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

الثانية عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ.

الثالثة عشرة: مَعْرِفَةُ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْنَا.

الرابعة عشرة: مَعْرِفَةُ حَقِّ الْعِبَادِ عَلَيْهِ إِذَا أَدَّوْا حَقَّهُ.

الخامسة عشرة: أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ لَا يَعْرِفُهَا أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ.

السادسة عشرة: جَوَازُ كِتْمَانِ الْعِلْمِ لِلْمَصْلَحَةِ.

السابعة عشرة: اسْتِحْبَابُ بَشَارَةِ الْمُسْلِمِ بِمَا يَسِرُّهُ.

الثامنة عشرة: الْخَوْفُ مِنَ الْإِثْكَالِ عَلَى سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ.

التاسعة عشرة: قَوْلُ الْمَسْئُولِ عَمَّا لَا يَعْلَمُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

العشرون: جَوَازُ تَخْصِيصِ بَعْضِ النَّاسِ بِالْعِلْمِ دُونَ بَعْضٍ.

الحادية والعشرون: تَوَاضُعُهُ ﷺ لِرُكُوبِ الْحِمَارِ مَعَ الْإِرْدَافِ عَلَيْهِ.

الثانية والعشرون: جَوَازُ الْإِرْدَافِ عَلَى الدَّابَّةِ.

الثالثة والعشرون: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

الرابعة والعشرون: فَضِيلَةُ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ.

١. بَابُ

فَقِضَ التَّوْحِيدُ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]

عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ. وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ: أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ. أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِثْبَانَ: (فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُبْتِغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَبِّ عَلَّمَنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ. قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ يَا رَبِّ. كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا؟ قَالَ: يَا مُوسَى لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَغَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالْأَرْضَيْنِ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ وَ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فِي كِفَّةٍ: مَالَتْ بِهِنَّ لِإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ» رواه ابن حبان والحاكم وصححه.

وللتِّرْمِذِيِّ وَحَسَنُهُ عَنْ أَنَسٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تَشْرِكُ بِي شَيْئاً لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً.

فِيهِ مَسَائِلُ

الاولى: سِعَةُ فَضْلِ اللَّهِ.

الثانية: كَثْرَةُ ثَوَابِ التَّوْحِيدِ عِنْدَ اللَّهِ.

الثالثة: تَكْفِيرُهُ مَعَ ذَلِكَ لِلذُّنُوبِ.

الرابعة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ.

الخامسة: تَأَمُّلُ الْخَمْسِ اللَّوَاتِي فِي حَدِيثِ عِبَادَةِ.

السادسة: أَنَّكَ إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَدِيثِ عِثْبَانَ وَمَا بَعْدَهُ تَبَيَّنَ لَكَ مَعْنَى قَوْلِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَتَبَيَّنَ لَكَ خَطَاؤُ الْمُغْرُورِينَ.

السابعة: التَّنْبِيهُ لِلشَّرْطِ الَّذِي فِي حَدِيثِ عِثْبَانَ.

الثامنة: كَوْنُ الْأَنْبِيَاءِ يَحْتَاجُونَ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

التاسعة: التَّنبِيهُ لِرُجْحَانِهَا بِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَقُولُهَا يَخْفُ مِيزَانُهُ.

العاشر: النَّصُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْضِينَ سَبْعٌ كَالسَّمَوَاتِ.

الحادية عشرة: أَنَّ لَهُنَّ عُمَارًا.

الثانية عشرة: إِبْطَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ.

الثالثة عشرة: أَنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ حَدِيثَ أَنَسٍ، عَرَفْتَ أَنَّ قَوْلَهُ فِي حَدِيثِ عَتَبَانَ: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» أَنَّ تَرْكَ الشِّرْكِ، لَيْسَ قَوْلُهَا بِاللِّسَانِ.

الرابعة عشرة: تَأْمُلُ الْجَمْعَ بَيْنَ كَوْنِ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَبْدَيِ اللَّهِ وَرَسُولَيْهِ.

الخامسة عشرة: مَعْرِفَةُ اخْتِصَاصِ عِيسَى بِكَوْنِهِ كَلِمَةَ اللَّهِ.

السادسة عشرة: مَعْرِفَةُ كَوْنِهِ رُوحًا مِنْهُ.

السابعة عشرة: مَعْرِفَةُ فَضْلِ الْإِيمَانِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

الثامنة عشرة: مَعْرِفَةُ قَوْلِهِ «عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»

التاسعة عشرة: مَعْرِفَةُ أَنَّ الْمِيزَانَ لَهُ كِفَتَانِ.

العشرون: مَعْرِفَةُ ذِكْرِ الْوَجْهِ.

٢. بَابُ

مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[النحل: ١٢٠].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

وعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ: وَلَكِنِّي لُدِغْتُ. قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثُ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: «لَا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنِ أَوْحَمَةَ» قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ، فَرَأَيْتِ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ فَظَنَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ.. ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ - فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا.. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ. وَلَا يَتَطَيَّرُونَ. وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

فيه مسائل

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

الثانية: ما معنى تحقيقه.

الثالثة: ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين.

- الرابعة: ثَنَّاؤُهُ عَلَى سَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ بِسَلَامَتِهِمْ مِنَ الشَّرِّ.
- الخامسة: كَوْنُ تَرْكِ الرُّقِيَّةِ وَالْكَيِّ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ.
- السادسة: كَوْنُ الْجَامِعِ لِتِلْكَ الْخِصَالِ هُوَ التَّوَكُّلُ.
- السابعة: عُمُقُ عِلْمِ الصَّحَابَةِ بِمَعْرِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا ذَلِكَ إِلَّا بِعَمَلٍ.
- الثامنة: حِرْصُهُمْ عَلَى الْخَيْرِ.
- التاسعة: فَضِيلَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْكَمِّيَّةِ وَالْكِيفِيَّةِ.
- العاشرة: فَضِيلَةُ أَصْحَابِ مُوسَى.
- الحادية عشرة: عَرْضُ الْأَمَمِ عَلَيْهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -.
- الثانية عشرة: أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تُخْشَرُ وَحْدَهَا مَعَ نَبِيِّهَا.
- الثالثة عشرة: قِلَّةُ مَنْ اسْتَجَابَ لِلْأَنْبِيَاءِ.
- الرابعة عشرة: أَنَّ مَنْ لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ يَأْتِي وَحْدَهُ.
- الخامسة عشرة: ثَمَرَةُ هَذَا الْعِلْمِ، وَهُوَ عَدَمُ الْإِغْتِرَارِ بِالْكَثَرَةِ، وَعَدَمُ الزُّهْدِ فِي الْقِلَّةِ.
- السادسة عشرة: الرُّخْصَةُ فِي الرُّقِيَّةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحِمَّةِ.
- السابعة عشرة: عُمُقُ عِلْمِ السَّلَفِ؛ لِقَوْلِهِ: «قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ كَذًا كَذًا»؛ فَعِلْمُ أَنَّ الْحَدِيثَ الْأَوَّلَ لَا يُخَالِفُ الثَّانِي.
- الثامنة عشرة: بُعْدُ السَّلَفِ عَنْ مَدْحِ الْإِنْسَانِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ.
- التاسعة عشرة: قَوْلُهُ (أَنْتَ مِنْهُمْ) عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ النَّبَوَّةِ.
- العشرون: فَضِيلَةُ عُكَّاشَةٍ.

الحادية والعشرون: اسْتَعْمَالُ الْمَعَارِضِ.

الثانية عشرة: حُسْنُ خُلُقِهِ ﷺ

٣. بَابُ

الْخَوْفُ مِنَ الشَّرِّ

وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾
[النساء: ١١٦]

وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاجْتَنِبِي وَبَنِي أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]
وَفِي الْحَدِيثِ: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشَّرَّكَ الْأَصْغَرَ» فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقَالَ:
«الرِّيَاءُ»

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو
مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدَاءً دَخَلَ النَّارَ). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.
وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا؛ دَخَلَ
الْجَنَّةَ. وَمَنْ لَقِيَهِ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا؛ دَخَلَ النَّارَ).

فِيهِ مَسَائِلُ

الاولى: الْخَوْفُ مِنَ الشَّرِّ.

الثانية: أَنَّ الرِّيَاءَ مِنَ الشَّرِّ.

الثالثة: أَنَّهُ مِنَ الشَّرِّ الْأَصْغَرِ.

الرابعة: أَنَّهُ أَخَوْفُ مَا يُخَافُ مِنْهُ عَلَى الصَّالِحِينَ.

الخامسة: قُرْبُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

السادسة: الجَمْعُ بَيْنَ قُرْبِهِمَا فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ.
 السابعة: أَنَّهُ مَنْ لَقِيَهِ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ.
 الثامنة: الْمَسْأَلَةُ الْعَظِيمَةُ سُؤَالُ الْخَلِيلِ لَهُ وَلَبْنِيهِ وَقَايَةِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.
 التاسعة: اعْتِبَارُهُ بِحَالِ الْأَكْثَرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾
 [إبراهيم: ٣٥]

العاشرة: فِيهِ تَفْسِيرُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) كَمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ.
 الحادية عشرة: فَضِيلَةُ مَنْ سَلِمَ مِنَ الشُّرْكِ.
 ٤. بَابُ

الدُّعَاءُ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]
 وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى
 الْيَمَنِ؛ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ
 شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. (وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَى أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ)، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ
 لَذَلِكَ؛ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ
 هُمْ أَطَاعُوكَ لَذَلِكَ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فَتُرَدُّ
 عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لَذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ،
 فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ) أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ:
 «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى
 يَدَيْهِ، فَبَاتَ النَّاسُ يَدْعُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا، غَدَا عَلَى

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا. فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟ « فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأَتِي بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ ...

فَبَرَأَ كَأَن لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّأْيَةَ، فَقَالَ: (انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللَّهِ، لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ) (يُدْكُونُ)، أَيْ: يَخَوْضُونَ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ طَرِيقٌ مِنْ اتِّبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

الثانية: التَّنْبِيهِ عَلَى الْإِخْلَاصِ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَوْ دَعَا إِلَى الْحَقِّ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ.

الثالثة: أَنَّ الْبَصِيرَةَ مِنَ الْفَرَائِضِ.

الرابعة: مِنْ دَلَائِلِ حُسْنِ التَّوْحِيدِ كَوْنُهُ تَنْزِيهًا لِلَّهِ تَعَالَى عَنِ الْمَسَبَّةِ.

الخامسة: أَنَّ مِنْ قُبْحِ الشِّرْكِ كَوْنُهُ مَسَبَّةٌ لِلَّهِ

السادسة: وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا: إِبْعَادُ الْمُسْلِمِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، لِثَلَاثِ بَصِيرٍ مِنْهُمْ وَلَوْ لَمْ يُشْرِكْ.

السابعة: كَوْنُ التَّوْحِيدِ أَوَّلَ وَاجِبٍ.

الثامنة: أَنَّهُ يَدَّأُ بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى الصَّلَاةِ.

التاسعة: أَنَّ مَعْنَى «أَنْ يُوحَّدُوا لِلَّهِ» مَعْنَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

العاشرة: أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهَا أَوْ يَعْرِفُهَا وَلَا يَعْمَلُ بِهَا.

الحادية عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى التَّعْلِيمِ بِالتَّذْرِيعِ.

الثانية عشرة: الْبَدَاءُ بِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمُّ.

الثالثة عشرة: مَصْرِفُ الزَّكَاةِ.

الرابعة عشرة: كَشْفُ الْعَالَمِ الشَّبْهَةِ عَنِ الْمُتَعَلِّمِ.

الخامسة عشرة: النَّهْيُ عَنْ كِرَائِمِ الْأَمْوَالِ.

السادسة عشرة: اتِّقَاءُ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ.

السابعة عشرة: الْإِخْبَارُ بِأَنَّهَا لَا تُخَجَّبُ.

الثامنة عشرة: مِنْ أَدَلَّةِ التَّوْحِيدِ مَا جَرَى عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَسَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْجُوعِ وَالْوَبَاءِ.

التاسعة عشرة: قَوْلُهُ: «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ...» إلخ: عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ.

العشرون: تَقْلُهُ فِي عَيْنِهِ عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِهَا أَيْضًا.

الحادية والعشرون: فَضِيلَةُ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثانية والعشرون: فَضْلُ الصَّحَابَةِ فِي دَوْكِهِمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَشُغْلِهِمْ عَنْ بَشَارَةِ الْفَتْحِ.

الثالثة والعشرون: الْإِيْمَانُ بِالْقَدْرِ لِحُصُولِهَا لِمَنْ لَمْ يَسْعَ لَهَا وَمَنْعِهَا عَمَّنْ سَعَى.

الرابعة والعشرون: الْأَدَبُ فِي قَوْلِهِ: «عَلَى رِسْلِكَ»

الخامسة والعشرون: الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْقِتَالِ.

السادسة والعشرون: أَنَّهُ مَشْرُوعٌ لِمَنْ دُعُوا قَبْلَ ذَلِكَ وَقَوْلُوا.

السابعة والعشرون: الدَّعْوَةُ بِالْحِكْمَةِ لِقَوْلِهِ: «أَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ».

الثامنة والعشرون: المعرفة بِحَقِّ اللَّهِ فِي الْإِسْلَامِ.

التاسعة والعشرون: ثَوَابُ مَنْ اهْتَدَى عَلَى يَدَيْهِ رَجُلٌ وَاحِدٌ.

الثلاثون: الْحَلْفُ عَلَى الْفُتْيَا.

٥. بَابُ

تَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾
الآية. [الزخرف: ٢٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَإِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ حَرَّمَ مَا لَهُ وَدَمَهُ، وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ).

وَشَرَحَ هَذِهِ التَّرْجُمَةَ مَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَبْوَابِ.

فِيهِ مَسَائِلُ

فِيهِ أَكْبَرُ الْمَسَائِلِ وَأَهْمُهَا.

وَهِيَ تَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ وَتَفْسِيرُ الشَّهَادَةِ.

وَبَيْنَهُمَا بَأْمُورٌ وَأَضِحةٌ.

وَمِنْهَا آيَةُ الْإِسْرَاءِ: بَيَّنَّ فِيهَا الرَّدَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الصَّالِحِينَ؛
فَقِيهَا بَيَانٌ أَنَّ هَذَا هُوَ الشَّرْكُ الْأَكْبَرُ.

وَمِنْهَا آيَةُ (بِرَاءة) بَيَّنَّ فِيهَا أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ اتَّخَذُوا أَجْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا
مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وَبَيَّنَّ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوا إِلَّا بِأَنْ يَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا، مَعَ أَنَّ تَفْسِيرَهَا الَّذِي لَا
إِشْكَالَ فِيهِ طَاعَةُ الْعُلَمَاءِ وَالْعِبَادِ فِي الْمَعْصِيَةِ، لَادْعَاؤِهِمْ إِيَّاهُمْ.

وَمِنْهَا قَوْلُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْكَفَّارِ ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦)﴾ إِلَّا الَّذِي
فَطَرَنِي ﴿الْآيَةُ. [الزخرف: ٢٦].

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذِهِ الْبِرَاءَةَ وَهَذِهِ الْمُوَالَاةُ هِيَ تَفْسِيرُ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،
فَقَالَ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].

وَمِنْهَا آيَةُ الْبَقَرَةِ فِي الْكَفَّارِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾
[البقرة: ١٦٧]. ذَكَرَ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْدَادَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ
حُبًّا عَظِيمًا، وَلَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ أَحَبَّ النَّدَّ أَكْبَرَ مِنْ حُبِّ
اللَّهِ؟! وَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ يُحِبَّ إِلَّا النَّدَّ وَحْدَهُ وَلَمْ يُحِبَّ اللَّهَ؟!.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ (ﷺ) «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ حَرَّمَ مَالَهُ
وَدَمُّهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ».

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يُبَيِّنُ مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ التَّلَفُظَ بِهَا عَاصِمًا
لِلدِّمِ وَالْمَالِ، بَلْ وَلَا مَعْرِفَةَ مَعْنَاهَا مَعَ لَفْظِهَا، بَلْ وَلَا الْإِقْرَارَ بِذَلِكَ، بَلْ وَلَا كَوْنَهُ

لَا يَدْعُو إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، بَلْ لَا يَحْرُمُ مَالَهُ وَدَمَهُ حَتَّى يُضِيفَ إِلَى ذَلِكَ الْكُفْرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ. فَإِنْ شَكَّ أَوْ تَوَقَّفَ؛ لَمْ يَحْرُمُ مَالَهُ وَلَا دَمَهُ. فَيَا لَهَا مِنْ مَسْأَلَةٍ مَا أَعْظَمَهَا وَأَجَلَّهَا! وَيَا لَهُ مِنْ بَيَانٍ مَا أَوْضَحَهُ! وَحُجَّةٍ مَا أَقْطَعَهَا لِلْمُنَازَعِ!

٦. بَابُ

مِنْ الشَّرْهِكِ لِبَسِّ الْحَلَقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبِلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ الآية [الزمر: ٣٨].

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلَقَةً مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ. فَقَالَ انزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَوَمِتَ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ. وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً؛ فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ».

وَلَا بِنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَى، فَقَطَعَهُ وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: التَّغْلِيزُ فِي لِبَسِّ الْحَلَقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِمِثْلِ ذَلِكَ.

الثانية: أَنَّ الصَّحَابِيَّ لَوْ مَاتَ وَهِيَ عَلَيْهِ؛ مَا أَفْلَحَ. فِيهِ شَاهِدٌ لِكَلَامِ
الصَّحَابَةِ: أَنَّ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ أَكْبَرُ مِنَ الْكِبَائِرِ.

الثالثة: أَنَّهُ لَمْ يُعْذَرْ بِالْجَهَالَةِ.

الرابعة: أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ فِي الْعَاجِلَةِ؛ بَلْ تَضُرُّ، لِقَوْلِهِ: «لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا».

الخامسة: الْإِنْكَارُ بِالتَّغْلِيظِ عَلَى مَنْ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ.

السادسة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا؛ وَكُلَّ إِلَيْهِ.

السابعة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ.

الثامنة: أَنَّ تَعْلِيْقَ الْخَيْطِ مِنَ الْحُمَى مِنْ ذَلِكَ.

التاسعة: تِلَاوَةُ حُذِيفَةَ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّحَابَةَ يَسْتَدْلُونَ بِالآيَاتِ الَّتِي فِي
الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ عَلَى الْأَصْغَرِ؛ كَمَا ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ.

العاشرة: أَنَّ تَعْلِيْقَ الْوَدْعِ مِنَ الْعَيْنِ مِنْ ذَلِكَ.

الحادية عشرة: الدُّعَاءُ عَلَى مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً أَنَّ اللَّهَ لَا يُتِمُّ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً
فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ؛ أَيْ: تَرَكَ اللَّهُ لَهُ.

٧. بَابُ

مَا جَاءَ فِي الرَّقَى وَالتَّمَائِمِ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ

(ﷺ) فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا: «أَنْ لَا يَبْقَيْنَ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ
وَتَرَأَوْ قِلَادَةً إِلَّا قَطَعْتُ».

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتَّوَلَةَ شِرْكٌ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ.

«التَّمَائِمُ» شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الْأَوْلَادِ يَتَّقُونَ بِهِ الْعَيْنَ. لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يَرْخُصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، مِنْهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. «وَالرُّقَى»: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مِنَ الْعَيْنِ وَالْحِمَةِ.

وَالْتَّوَلَةُ: هِيَ شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يَحْبِبُ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا وَالرَّجُلَ إِلَى أُمْرَأَتِهِ.

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ؛ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «يَا رُوَيْفِعُ لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيٌّ مِنْهُ».

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؛ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعَدَلِ رَقَبَةٍ» رَوَاهُ وَكَيْعٌ وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ؛ قَالَ:

«كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ.

الثانية: تَفْسِيرُ التَّوَلَةِ.

الثالثة: أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ كُلُّهَا مِنَ الشِّرْكِ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ.

الرابعة: أَنَّ الرُّقَةَ بِالْكَلامِ الْحَقِّ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحِمَةِ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ.

الخامسة: أَنَّ التَّمِيمَةَ إِذَا كَانَتْ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ؛ هَلْ هِيَ مِنْ ذَلِكَ أَمْ لَا؟

السادسة: أَنَّ تَعْلِيْقَ الْأَوْتَارِ عَلَى الدَّوَابِّ مِنَ الْعَيْنِ مِنْ ذَلِكَ.

السابعة: الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى مَنْ تَعَلَّقَ وَتَرَأَ.

الثامنة: فَضْلُ ثَوَابٍ مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ.

التاسعة: أَنَّ كَلَامَ إِبْرَاهِيمَ لَا يُخَالِفُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْاِخْتِلَافِ؛ لِأَنَّ مُرَادَهُ أَصْحَابَ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

٨. بَابُ

مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَتَحَوَّاهِمَا

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ [الآيَاتِ النِّجْمِ: ١٩].

عن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَنَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ! وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكِفُونَ عِنْدَهَا وَيُنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ! فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ! قُلْتُمْ - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) لَتَرَكِبَنَّ سُنَنٌ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النِّجْمِ.

الثانية: مَعْرِفَةُ صُورَةِ الْأَمْرِ الَّذِي طَلَبُوا.

الثالثة: كَوْنُهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا.

الرابعة: كَوْنُهُمْ قَصَدُوا التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ بِذَلِكَ؛ لِظَنِّهِمْ أَنَّهُ يُحِبُّهُ.

الخامسة: أَنَّهُمْ إِذَا جَهِلُوا هَذَا؛ فَغَيَّرُهُمْ أَوْلَى بِالْجَهْلِ.

السادسة: أَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالْوَعْدِ بِالْمَغْفِرَةِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ.

السابعة: أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) لَمْ، يَعْذُرْهُمْ بَلْ رَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: «اللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ! لَتَتَّبِعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»؛ فَعَلَّظَ الْأَمْرَ بِهَذِهِ الثَّلَاثِ.

الثامنة: الْأَمْرُ الْكَبِيرُ - وَهُوَ الْمَقْصُودُ - أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ طَلَبَهُمْ كَطَلَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا قَالُوا لِمُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا.

التاسعة: أَنَّ نَفْيَ هَذَا مِنْ مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) مَعَ دِقَّتِهِ وَخَفَائِهِ عَلَى أَوْلَئِكَ.

العاشرة: أَنَّهُ حَلَفَ عَلَى الْفُتْيَا، وَهُوَ لَا يَحْلِفُ إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ.

الحادية عشرة: أَنَّ الشَّرْكَ فِيهِ أَكْبَرُ وَأَصْغَرُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْتَدُّوا بِهَذَا.

الثانية عشرة: قَوْلُهُمْ (وَنَحْنُ حُدَنَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ)؛ فِيهِ أَنَّ غَيْرَهُمْ لَا يَجْهَلُ ذَلِكَ.

الثالثة عشرة: التَّكْبِيرُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ؛ خِلَافًا لِمَنْ كَرِهَهُ.

الرابعة عشرة: سَدُّ الذَّرَائِعِ.

الخامسة عشرة: النَّهْيُ عَنِ التَّشْبِيهِ بِأَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

السادسة عشرة: الْغَضَبُ عِنْدَ التَّعْلِيمِ.

السابعة عشرة: الْقَاعِدَةُ الْكُلِّيَّةُ. لِقَوْلِهِ: «إِنَّهَا السُّنَنُ».

الثامنة عشرة : أَنْ هَذَا عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ لِكَوْنِهِ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ.

التاسعة عشرة : أَنْ كُلَّ مَا ذَمَّ اللَّهُ بِهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فِي الْقُرْآنِ؛ أَنَّهُ لَنَا.

العشرون : أَنَّهُ مُتَقَرَّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْعِبَادَاتِ مَبْنَاهَا عَلَى الْأَمْرِ، فَصَارَ فِيهِ التَّنْبِيهُ عَلَى مَسَائِلِ الْقَبْرِ: أَمَّا (مَنْ رَبُّكَ؟) فَوَاضِحٌ وَأَمَّا (مَنْ نَبِيِّكَ؟)؛ فَمِنْ إِخْبَارِهِ بِأَنْبَاءِ الْغَيْبِ، وَأَمَّا (مَا دِينُكَ) فَمِنْ قَوْلِهِمْ: (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا الْخ) إِلَى آخِرَةِ.

الحادية والعشرون : أَنْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَذْمُومَةٌ كَسُنَّةِ الْمُشْرِكِينَ.

الثانية والعشرون : أَنْ الْمُتَّقِلَ مِنَ الْبَاطِلِ الَّذِي اعْتَادَهُ قَلْبُهُ لَا يُؤْمِنُ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ بَقِيَّةٌ مِنْ تِلْكَ الْعَادَةِ؛ لِقَوْلِهِ: «وَنَحْنُ حُدْنَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ».

٩. بَابُ

مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِخَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا

شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: «حَدَّثَنِي (رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَوَى مُحَدَّثًا، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ: «دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ» قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَرَّ رَجُلَانِ

عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يَقْرُبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ.
 قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أَقْرَبُهُ. قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا. فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ،
 فَدَخَلَ النَّارَ. وَقَالُوا لِلْآخَرِ: قَرِّبْ. فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَقْرَبُ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ عَزَّ
 وَجَلَّ. «فَضْرِبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ». رَوَاهُ أَحْمَدُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَي﴾ [الأنعام: ١٦٢].

الثانية: تَفْسِيرُ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

الثالثة: الْبَدَاءَةُ بِلَعْنَةٍ مِنْ ذَبَحَ لغيرِ الله.

الرابعة: لَعْنُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَمِنْهُ أَنْ تَلْعَنَ وَالِدِي الرَّجُلِ فَيَلْعَنَ وَالِدِيكَ.
 الخامسة: لَعْنُ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا، وَهُوَ الرَّجُلُ يُحَدِّثُ شَيْئًا يَجِبُ فِيهِ حَقُّ اللَّهِ؛
 فَيَلْتَجِئُ إِلَى مَنْ يُجِيرُهُ مِنْ ذَلِكَ.

السادسة: لَعْنُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْمَرَاسِيمُ الَّتِي تَفَرِّقُ بَيْنَ حَقِّكَ
 وَحَقِّ جَارِكَ مِنَ الْأَرْضِ، فَتَغْيِيرُهَا بِتَقْدِيمٍ أَوْ تَأْخِيرٍ.

السابعة: الْفَرْقُ بَيْنَ لَعْنِ الْمُعَيَّنِ وَلَعْنِ أَهْلِ الْمَعَاصِي عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ.

الثامنة: هَذِهِ الْقِصَّةُ الْعَظِيمَةُ، وَهِيَ قِصَّةُ الذُّبَابِ.

التاسعة: كَوْنُهُ دَخَلَ النَّارَ بِسَبَبِ ذَلِكَ الذُّبَابِ الَّذِي لَمْ يَقْصِدْهُ، بَلْ فَعَلَهُ
 تَخَلُّصًا مِنْ شَرِّهِمْ.

العاشرة: مَعْرِفَةُ قَدْرِ الشَّرِّكَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ؛ كَيْفَ صَبَرَ ذَلِكَ عَلَى الْقَتْلِ
 وَلَمْ يُؤَافِقْهُمْ عَلَى طَلَبِهِمْ مَعَ كَوْنِهِمْ لَمْ يَطْلُبُوا إِلَّا الْعَمَلَ الظَّاهِرَ؟!.

الحادية عشرة : أَنَّ الذِّي دَخَلَ النَّارَ مُسْلِمٌ؛ لَأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَافِرًا؛ لَمْ يَقُلْ :
«دَخَلَ النَّارَ فِي ذُبَابٍ».

الثانية عشرة : فِيهِ شَاهِدٌ لِلْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ
شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ».

الثالثة عشرة : مَعْرِفَةُ أَنَّ عَمَلَ الْقَلْبِ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ، حَتَّى عِنْدَ عِبْدَةِ
الْأَصْنَامِ.

١٠. بَابُ

لَا يُذَبِّحُ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذَبِّحُ فِيهِ لِخَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ
تُقَامَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ [التوبة ١٠٨].

وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِوَانِهِ،
فَسَأَلَ النَّبِيَّ (ﷺ)؟ فَقَالَ: (هَلْ كَانَ فِيهَا وَثْنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟) قَالُوا: لَا.
قَالَ: (فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟) قَالُوا: لَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) (أَوْفِ
بِنَذْرِكَ فَإِنَّهُ لَا وِفَاءَ لِنَذْرِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ).
رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرَطِهِمَا.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾.

الثانية: أَنَّ الْمَعْصِيَةَ قَدْ تَوَثَّرَتْ فِي الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ الطَّاعَةُ.

الثالثة: رَدُّ الْمَسْأَلَةِ الْمُشْكِلَةِ إِلَى الْمَسْأَلَةِ الْبَيِّنَةِ؛ لِيُزُولَ الْإِشْكَالُ.

الرابعة: استِفْصَالُ الْمُفْتِي إِذَا احتَاجَ إِلَى ذَلِكَ.

الخامسة: أَنَّ تَخْصِيصَ الْبُقْعَةِ بِالنَّذْرِ لَا بَأْسَ بِهِ إِذَا خَلَا مِنَ الْمَوَانِعِ.

السادسة: الْمَنْعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ وَثْنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ.

السابعة: الْمَنْعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ، وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ.

الثامنة: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ بِمَا نَذَرَ فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ لِأَنَّهُ نَذْرٌ مَعْصِيَةٌ.

التاسعة: الْحَذَرُ مِنْ مُشَابَهَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَعْيَادِهِمْ، وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ.

العاشر: لَا نَذَرَ فِي مَعْصِيَةٍ.

الحادية عشرة: لَا نَذَرَ لِابْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ.

١١. بَابُ

مِنَ الشُّرُكِ النَّذْرُ لِخَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان ٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة ٢٧٠].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ؛ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ، اللَّهَ فَلَا يَعْصِيهِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: وَجُوبُ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ.

الثانية: إِذَا ثَبَتَ كَوْنُهُ عِبَادَةً لِلَّهِ، فَصَرَفَهُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ.

الثالثة: أَنَّ نَذْرَ الْمَعْصِيَةِ لَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ بِهِ.

١٢. بَابُ

مِنَ الشَّرْكِ الْإِسْتِحْجَاجَةُ بِخَيْرِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وَعَنْ حَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا، فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْجِنِّ.

الثانية: كَوْنُهُ مِنَ الشَّرْكِ.

الثالثة: الْإِسْتِدْلَالُ عَلَى ذَلِكَ بِالْحَدِيثِ، لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى أَنَّ كَلِمَاتِ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، لِأَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ بِالْمَخْلُوقِ شَرْكٌ.

الرابعة: فَضِيلَةُ هَذَا الدُّعَاءِ مَعَ اخْتِصَارِهِ.

الخامسة: أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ بِحَصْلِ بِهِ مَنَفَعَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ، مِنْ كَفِّ شَرٍّ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ، لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشَّرْكِ.

١٣. بَابُ

مِنَ الشَّرْكِ أَنَّ يَسْتَحْيِثَ بِخَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُو غَيْرَهُ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٠) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴿الْآيَةُ [يونس: ١٠٦: ١٠٧]

وَقَوْلُهُ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ الآية : [العنكبوت: ١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

[الأحقاف : ٥]

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]

رَوَى الطَّبْرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَعِثْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: النَّبِيُّ ﷺ إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنَّ عَطْفَ الدُّعَاءِ عَلَى الاستِغَاثَةِ مِنْ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ.

الثانية: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ (وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ).

الثالثة: أَنَّ هَذَا هُوَ الشَّرْكُ الْأَكْبَرُ.

الرابعة: أَنَّ أَصْلَحَ النَّاسِ لَوْ فَعَلَهُ إِِرْضَاءً لِغَيْرِهِ، صَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ.

الخامسة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا.

السادسة: كَوْنُ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا مَعَ كَوْنِهِ كُفْرًا.

السابعة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الثَّالِثَةِ.

الثامنة: أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ لَا يَنْبَغِي إِلَّا مِنْ اللَّهِ، كَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ لَا تُطْلَبُ إِلَّا مِنْهُ.

التاسعة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الرَّابِعَةِ.

العاشرة: أَنَّهُ لَا أَضَلَّ مِمَّنْ دَعَا غَيْرَ اللَّهِ.

الحادية عشرة: أَنَّهُ غَافِلٌ عَنْ دُعَاءِ الدَّاعِي لَا يَدْرِي عَنْهُ.

الثانية عشرة : أَنْ تِلْكَ الدَّعْوَةُ سَبَبٌ لِبُغْضِ الْمَدْعُوِّ لِلدَّاعِي وَعَدَاوَتِهِ لَهُ.

الثالثة عشرة : تَسْمِيَةُ تِلْكَ الدَّعْوَةِ عِبَادَةً لِلْمَدْعُوِّ.

الرابعة عشرة : كُفْرُ الْمَدْعُوِّ بِتِلْكَ الْعِبَادَةِ.

الخامسة عشرة : هِيَ سَبَبُ كَوْنِهِ أَضَلَّ النَّاسِ.

السادسة عشرة : تَفْسِيرُ الْآيَةِ الْخَامِسَةِ.

السابعة عشرة : الْأَمْرُ الْعَجِيبُ ، وَهُوَ إِفْرَارُ عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ أَنَّهُ لَا يُجِيبُ الْمَضْطَرَّ إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا أَجَلَ هَذَا يَدْعُوْنُهُ فِي الشَّدَائِدِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .

الثامنة عشرة : حِمَايَةُ الْمُصْطَفَى ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ وَالتَّادِبُ مَعَ اللَّهِ.

١٤ - بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ الْآيَةُ

[الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

وَقَوْلُهُ : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ الْآيَةُ : [فاطر: ١٣].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ ، قَالَ : «شَجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أَحُدَ وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ ، فَقَالَ: كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟ فَتَنَزَّلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾» [آل عمران:

١٥٢].

وَفِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرُّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ «اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا» بَعْدَمَا يَقُولُ : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وفي رواية: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَسَهِيلَ بْنِ عَمْرٍو وَالْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ،
فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ .

وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ
عَلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ (أَوْ
كَلِمَةً نَحْوَهَا) - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنُ
عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا أَغْنِيكَ مِنَ
اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! سَلِّينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتَ، لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ.

الثانية: قِصَّةُ أَحَدٍ.

الثالثة: قُنُوتُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَخَلْفَهُ سَادَاتُ الْأَوْلِيَاءِ يُؤْمِنُونَ فِي الصَّلَاةِ.

الرابعة: أَنَّ الْمَدْعُوَّ عَلَيْهِمْ كُفَّارٌ.

الخامسة: أَنَّهُمْ فَعَلُوا أَشْيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ الْكُفَّارِ، مِنْهَا: شَجُّهُمْ نَبِيَّهُمْ،
وَحَرْصُهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، وَمِنْهَا التَّمَثِيلُ بِالْقَتْلِ مَعَ أَنَّهُمْ بَنُو عَمَّتِهِمْ.

السادسة: أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ .

السابعة: قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ فَتَابَ عَلَيْهِمْ، فَأَمَّنُوا .

الثامنة: الْقُنُوتُ فِي النَّوَازِلِ.

التاسعة: تَسْمِيَةُ الْمَدْعُوِّ عَلَيْهِمْ فِي الصَّلَاةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ.

العاشرة: لَعْنُ الْمُعَيَّنِ فِي الْقُنُوتِ.

الحادية عشرة: قِصَّتُهُ ﷺ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ..

الثانية عشرة: جِدُّهُ ﷺ فِي هَذَا الْأَمْرِ، بِحَيْثُ فَعَلَ مَا نُسِبَ بِسَبِّهِ إِلَى الْجُنُونِ، وَكَذَلِكَ لَوْ يَفْعَلُهُ مُسْلِمٌ الْآنَ.

الثالثة عشرة: قَوْلُهُ لِلْأَبْعَدِ وَالْأَقْرَبِ: «لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» حَتَّى قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا». فَإِذَا صَرَخَ - وَهُوَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ - بِأَنَّهُ لَا يُغْنِي شَيْئًا عَنْ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَأَمَّنَ الْإِنْسَانُ بِأَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ، ثُمَّ نَظَرَ فِيمَا وَقَعَ فِي قُلُوبِ خَوَاصِّ النَّاسِ الْيَوْمَ، تَبَيَّنَ لَهُ تَرْكُ التَّوْحِيدِ وَغُرْبَةُ الدِّينِ.

١٥- بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ

الْكَبِيرُ﴾ [سَبَأُ: ٢٣]

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ؛ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفَذُهُمْ ذَلِكَ. ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سَبَأُ: ٢٣] فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سُفْيَانٌ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخِرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ

يُذَرِّكُهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِثَّةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعْتَ مِنَ السَّمَاءِ».

وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ؛ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ؛ أَخَذَتِ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً» (أَوْ قَالَ: رَعْدَةً شَدِيدَةً) خَوْفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ. فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

الثانية: مَا فِيهَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَى إِبْطَالِ الشِّرْكِ، خُصُوصًا مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الصَّالِحِينَ، وَهِيَ الْآيَةُ الَّتِي قِيلَ: إِنَّهَا تَقْطَعُ عُرُوقَ شَجَرَةِ الشِّرْكِ مِنَ الْقَلْبِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: (قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ).

الرابعة: سَبَبُ سُؤْلِهِمْ عَنْ ذَلِكَ.

الخامسة: أَنَّ جِبْرِيلَ يُجِيبُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: (قَالَ كَذَا وَكَذَا).

السادسة: ذِكْرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ.

السابعة: أَنَّهُ يَقُولُ لِأَهْلِ السَّمَوَاتِ كُلِّهِمْ لِأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ.

الثامنة: أَنَّ الْغَشْيَ يَعُمُّ أَهْلَ السَّمَوَاتِ كُلَّهُمْ.

التاسعة: ارْتَجَافُ السَّمَوَاتِ لِكَلَامِ اللَّهِ.

العاشرة: أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يَنْتَهِي بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ.

الحادية عشرة: ذِكْرُ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ.

الثانية عشرة: صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

الثالثة عشرة: إِرْسَالُ الشُّهُبِ.

الرابعة عشرة: أَنَّهُ تَارَةٌ يُدْرِكُهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَتَارَةٌ يُلْقِيَهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ مِنَ الْإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ.

الخامسة عشرة: كَوْنُ الْكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ.

السادسة عشرة: كَوْنُهُ يَكْذِبُ مَعَهَا مِثْلَ كَذِبِهِ.

السابعة عشرة: أَنَّهُ لَمْ يَصْدَقْ كَذِبُهُ إِلَّا بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ.

الثامنة عشرة: قَبُولُ النَّفُوسِ لِلْبَاطِلِ! كَيْفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِمِثْلَةِ؟!

التاسعة عشرة: كَوْنُهُمْ يَتَلَقَّى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضِ تِلْكَ الْكَلِمَةِ وَيَحْفَظُونَهَا وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا.

العشرون: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ الْمُعْطَلَةِ.

الحادية والعشرون: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ تِلْكَ الرَّجْفَةَ وَالْغَشْيَ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

الثانية والعشرون: أَنَّهُمْ يَخِرُّونَ لِلَّهِ سُجَّدًا.

١٦. بَابُ الشَّفَاعَةِ

وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ٢٢-٢٣].

قال أبو العباس: «نَفَى اللَّهُ عَمَّ سِوَاهُ كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَتَفَى أَنْ يَكُونَ لغيرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا، اللَّهُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَدْنَىٰ لَهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ هِيَ مُتَفَتَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ - لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا - ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يَسْمَعُ، وَسَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ».

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَهُ ﷺ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ

إِلَّا اللَّهَ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ «فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَدْنَى لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِكُرِّمَهُ، وَيَنَالِ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاها الْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شَرَكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ. وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ. انْتَهَى كَلَامُهُ.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَاتِ.

الثانية: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمُنْفِيَةِ.

الثالثة: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمُثْبِتَةِ.

الرابعة: ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ الْكُبْرَى، وَهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ.

الخامسة: صِفَةُ مَا يَفْعَلُهُ ﷺ أَنَّهُ لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ، بَلْ يَسْجُدُ، فَإِذَا أَدْنَى لَهُ، شَفَعَ.

السادسة: مَنْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهَا؟

السابعة: أَنَّهَا لَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

الثامنة: بَيَانُ حَقِيقَتِهَا.

١٧ - بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ الْآيَةُ

[القصص: ٥٦]

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ؛ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَمُّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنْتَ عَنْكَ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]. وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الْآيَةَ.
- الثانية: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾ الْآيَةَ.
- الثالثة: وَهِيَ الْمَسْأَلَةُ الْكَبِيرَةُ، تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ مَنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ.
- الرابعة: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا قَالَ لِلرَّجُلِ: قُلْ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ فَقَبَّحَ اللَّهُ مَنْ أَبُو جَهْلٍ أَعْلَمَ مِنْهُ بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ.
- الخامسة: جِدُّهُ ﷺ وَمُبَالِغَتُهُ فِي إِسْلَامِ عَمِّهِ.
- السادسة: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ إِسْلَامَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَسْلَافِهِ.
- السابعة: كَوْنُهُ ﷺ اسْتَغْفَرَ لَهُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، بَلْ نُهِِيَ عَنْ ذَلِكَ.
- الثامنة: مَضَرَّةُ أَصْحَابِ السُّوءِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

التاسعة: مَضَرَّةُ تَعْظِيمِ الْأَسْلَافِ وَالْأَكَابِرِ.

العاشرة: الشُّبْهَةُ لِلْمُبْطِلِينَ فِي ذَلِكَ؛ لِاسْتِدْلَالِ أَبِي جَهْلٍ بِذَلِكَ.

الحادية عشرة: الشَّاهِدُ لِكَوْنِ الْأَعْمَالِ بِالْخَوَاتِيمِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَهَا لَنَفَعَتْهُ.

الثانية عشرة: التَّأَمُّلُ فِي كِبَرِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فِي قُلُوبِ الضَّالِّينَ؛ لِأَنَّ فِي الْقِصَّةِ أَنَّهُمْ لَمْ يُجَادِلُوهُ إِلَّا بِهَا، مَعَ مِبَالِغَتِهِ ﷺ وَتَكْرِيرِهِ؛ فَلِأَجْلِ عَظَمَتِهَا وَوُضُوحِهَا عِنْدَهُمْ اقْتَصَرُوا عَلَيْهَا.

١٨ - بَابُ مَا جَاءَ آخِرُ سَبَبِ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْخَلْوُ فِي الصَّالِحِينَ

وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. قَالَ: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنْ انْصَبُّوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمَوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنَسِيَ الْعِلْمُ عُبْدَتَهُ».

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ لَمَّا مَاتُوا، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَائِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ».

وَعَنْ عُمَرَ . أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَبَ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» أَخْرَجَاهُ.

وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوَّ». وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنَّ مَنْ فَهِمَ هَذَا الْبَابَ وَبَيَّنَّ بَعْدَهُ، تَبَيَّنَ لَهُ غُرْبَةُ الْإِسْلَامِ، وَرَأَى مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ وَتَقْلِيهِ لِلْقُلُوبِ الْعَجَبَ.

الثانية: مَعْرِفَةُ أَوَّلِ شَرِكٍ حَدَثَ فِي الْأَرْضِ كَانَ بِشَبْهَةِ الصَّالِحِينَ.

الثالثة: مَعْرِفَةُ أَوَّلِ شَيْءٍ غُيِّرَ بِهِ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَا سَبَّبَ ذَلِكَ، مَعَ مَعْرِفَةِ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُمْ.

الرابعة: قَبُولُ الْبِدْعِ مَعَ كَوْنِ الشَّرَائِعِ وَالْفِطْرِ تَرُدُّهَا.

الخامسة: أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلَّهُ مَزْجُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ.

فَالأَوَّلُ مَحَبَّةُ الصَّالِحِينَ.

وَالثَّانِي فِعْلُ أَنْاسٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ شَيْئًا أَرَادُوا بِهِ خَيْرًا فَظَنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ غَيْرَهُ.

السادسة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ نُوحٍ.

السابعة: جِبَلَةُ الْآدَمِيِّ فِي كَوْنِ الْحَقِّ يَنْقُصُ فِي قَلْبِهِ وَالْبَاطِلُ يَزِيدُ.

الثامنة: فِيهِ شَاهِدٌ لِمَا نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّ الْبِدْعَ سَبَبُ الْكُفْرِ.

التاسعة: مَعْرِفَةُ الشَّيْطَانِ بِمَا تَوَلَّى إِلَيْهِ الْبِدْعَةُ وَلَوْ حَسَنَ قَصْدُ الْفَاعِلِ.

العاشرة: مَعْرِفَةُ الْقَاعِدَةِ الْكُلِّيَّةِ، وَهِيَ النَّهْيُ عَنِ الْغُلُوِّ وَمَعْرِفَةُ مَا يُوَلِّ إِلَيْهِ.

الحادية عشرة: مَضَرَّةُ الْعُكُوفِ عَلَى الْقَبْرِ لِأَجْلِ عَمَلٍ صَالِحٍ.

الثانية عشرة: مَعْرِفَةُ النَّهْيِ عَنِ التَّمَاثِيلِ وَالْحِكْمَةِ فِي إِزَالَتِهَا.

الثالثة عشرة: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَشِدَّةُ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْهَا.

الرابعة عشرة: وَهِيَ أَعْجَبُ الْعَجَبِ: قِرَاءَتُهُمْ إِيَّاهَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِمَعْنَى الْكَلَامِ، وَكَوْنُ اللَّهِ حَالِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ حَتَّى اعْتَقَدُوا أَنَّ فِعْلَ قَوْمِ نُوحٍ هُوَ أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ مَا نَهَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ فَهُوَ الْكُفْرُ الْمُبِيحُ لِلدَّمِّ وَالْمَالِ.

الخامسة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ.

السادسة عشرة: ظَنُّهُمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ صَوَّرُوا الصُّورَ أَرَادُوا ذَلِكَ.

السابعة عشرة: الْبَيَانُ الْعَظِيمُ فِي قَوْلِهِ: «لَا تَطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ» فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، بَلَّغَ الْبَلَاحِ الْمُبِينِ.

الثامنة عشرة: نَصِيحَتُهُ إِيَّانَا بِهَلَاكِ الْمُنْتَطَعِينَ.

التاسعة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُمَا لَمْ تُعْبَدْ حَتَّى نُسِيَ الْعِلْمُ، فَفِيهَا بَيَانُ مَعْرِفَةِ قَدْرِ وَجُودِهِ وَمَضَرَّةِ فَقْدِهِ.

العشرون: أَنَّ سَبَبَ فَقْدِ الْعِلْمِ مَوْتُ الْعُلَمَاءِ.

مَا جَاءَ فِي التَّخْلِيضِ فِيمَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِبَادًا

قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟!

فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا
بَارِضِ الْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّورِ، فَقَالَ: أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ
أَوْ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، أُولَئِكَ
شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ «فَهُؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةُ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةُ التَّمَاثِيلِ.

وَلَهُمَا عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفَقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى
وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى،
اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ؛ أَبْرَزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ
خَشِيَ أَنْ يَتَّخِذَ مَسْجِدًا» أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ
بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ (إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي
خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ
خَلِيلًا. أَلَا وَإِنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا
تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْتَهَاكُمُ عَنْ ذَلِكَ).

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ،
وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَبْنِ مَسْجِدًا، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «خَشِيَ أَنْ يَتَّخِذَ
مَسْجِدًا» فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتْ

الصَّلَاةُ فِيهِ، فَقَدْ اتَّخَذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ، يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ «جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا».

وَلَا حَمْدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ شَرِّ أَرِ النَّاسِ مَنْ تُذَكِّرُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ» وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي «صَحِيحِهِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: مَا ذَكَرَ الرَّسُولُ فِيمَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُعْبَدُ اللَّهُ فِيهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، وَلَوْ صَحَّتْ نِيَّةُ الْفَاعِلِ.

الثانية: النَّهْيُ عَنِ التَّمَاثِيلِ وَغِلْظِ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ.

الثالثة: الْعِبْرَةُ فِي مُبَالَغَتِهِ ﷺ فِي ذَلِكَ كَيْفَ بَيْنَ لَهُمْ هَذَا أَوَّلًا، ثُمَّ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ قَالَ مَا قَالَ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي السِّيَاقِ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا تَقَدَّمَ.

الرابعة: نَهْيُهُ عَنْ فِعْلِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ الْقَبْرُ.

الخامسة: أَنَّهُ مِنْ سُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ.

السادسة: لَعْنُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

السابعة: أَنَّ مُرَادَهُ ﷺ تَحْذِيرُهُ إِيَّانَا عَنْ قَبْرِهِ.

الثامنة: الْعِلَّةُ فِي عَدَمِ إِبْرَازِ قَبْرِهِ.

التاسعة: فِي مَعْنَى اتِّخَاذِهَا مَسْجِدًا.

العاشرة: أَنَّهُ قَرَنَ بَيْنَ مَنْ اتَّخَذَهَا مَسْجِدًا وَبَيْنَ مَنْ تَقُومُ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ، فَذَكَرَ الذَّرِيعَةَ إِلَى الشِّرْكِ قَبْلَ وَقُوعِهِ مَعَ خَاتِمَتِهِ.

الحادية عشرة: ذَكَرَهُ فِي خُطْبَتِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسِ الرَّدِّ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا أَشَرُّ أَهْلِ الْبِدْعِ، بَلْ أَخْرَجَهُمْ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الثَّلاثِينَ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً، وَهُمْ الرَّاغِبُونَ وَالْجَهْمِيُّ، وَبِسَبَبِ الرَّاغِبِينَ حَدَثَ الشِّرْكَ وَعِبَادَةُ الْقُبُورِ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ بَنَى عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ.

الثانية عشرة: مَا بَلَّيَ بِهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ النَّزْعِ.

الثالثة عشرة: مَا أَكْرَمَ بِهِ مِنَ الْخُلَّةِ.

الرابعة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا أَعْلَى مِنَ الْمَحَبَّةِ.

الخامسة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الصَّدِيقَ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ.

السادسة عشرة: الْإِشَارَةُ إِلَى خِلَافَتِهِ.

٢٠. بَابُ

مَا جَاءَ أَنَّ الْخُلُوفَ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا

أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

رَوَى مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَتَنَّا يُعْبَدُ. اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»

وَلابْنُ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى) قَالَ: «كَانَ يَلْتُ لَهُمُ السَّوِيقُ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ».

وَكَذَا قَالَ أَبُو الْجَوَزَاءِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ يَلْتُ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ» وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَخَذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ» رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الْأَوْتَانِ.

الثانية: تَفْسِيرُ الْعِبَادَةِ.

الثالثة: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْتَعِذْ إِلَّا مِمَّا يُخَافُ وَقُوعُهُ.

الرابعة: قَرْنُهُ بِهَذَا اتِّخَاذُ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ مَسَاجِدَ.

الخامسة: ذِكْرُ شِدَّةِ الْغَضَبِ مِنَ اللَّهِ.

السادسة: وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا: مَعْرِفَةُ صِفَةِ عِبَادَةِ اللَّاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ

الْأَوْتَانِ.

السابعة: مَعْرِفَةُ أَنَّهُ قَبْرُ رَجُلٍ صَالِحٍ.

الثامنة: أَنَّهُ اسْمُ صَاحِبِ الْقَبْرِ، وَذِكْرُ مَعْنَى التَّسْمِيَةِ.

التاسعة: لَعْنُهُ زَوَارَاتِ الْقُبُورِ.

العاشرة: لَعْنُهُ مَنْ أَسْرَجَهَا.

٢١ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي جِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جِنَابَ التَّوْحِيدِ

وَسَيِّدِهِ كُلِّ طَرِيقٍ يُوَصِّلُ إِلَى الشَّرْهِكَ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾. الْآيَةُ

[التوبة: ٢٨].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنتُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ وَرَوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةِ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَتَنَاهَا.

وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَخَذُوا قُبُورِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ لِي بَلُغُنِي أَيْنَ كُنتُمْ» رَوَاهُ فِي «الْمُخْتَارَةِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (بَرَاءَةٍ).

الثانية: إِبْعَادُهُ أُمَّتَهُ عَنْ هَذَا الْحِمَى غَايَةَ الْبُعْدِ.

الثالثة: ذِكْرُ حِرْصِهِ عَلَيْنَا وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

الرابعة: نَهْيُهُ عَنْ زِيَارَةِ قَبْرِهِ عَلَى وَجْهِ مَخْصُوصٍ، مَعَ أَنَّ زِيَارَتَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ.

الخامسة: نَهْيُهُ عَنِ الْإِكْثَارِ مِنَ الزِّيَارَةِ.

السادسة: حُثُّهُ عَلَى النَّافِلَةِ فِي الْبَيْتِ.

السابعة: أَنَّهُ مُقَرَّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَا يُصَلِّي فِي الْمَقْبَرَةِ.

الثامنة: تَعْلِيلُ ذَلِكَ بِأَنَّ صَلَاةَ الرَّجُلِ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِ يَبْلُغُهُ وَإِنْ بَعُدَ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى مَا يَتَوَهَّمُهُ مَنْ أَرَادَ الْقُرْبَ.

التاسعة: كَوْنُهُ ﷺ فِي الْبَرْزَخِ تُغْرَضُ أَعْمَالُ أُمَّتِهِ فِي الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ.

٢٢ - بَابُ

مَا جَاءَ أَجْ بَعْضِ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَحِبُّهُ الْإِسْلَامُ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ
وَالطَّاغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ
وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ ﴾ [المائدة: ٦٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمُ مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١]
وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَتَبْعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ
قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ
اللَّهِ ! الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ «فَمَنْ؟» أخرجاه.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَىٰ لِي
الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مُشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَلِّغُ مُلْكُهَا مَا زَوَىٰ لِي مِنْهَا،
وَأَعْطَيْتُ الْكَزْزَيْنِ: الْأَحْمَرَ، وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا
بِسَنَةِ بَعَامَةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنْ
رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ
لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ بَعَامَةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ
بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَأْطَارَهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا،
وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِي فِي «صَحِيحِهِ»، وَزَادَ: «وَأِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأُتَمَّةِ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ، لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمَشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِتْنَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْتَانِ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَابُونَ، ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا نَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النَّسَاءِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الْمَائِدَةِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ.

الرابعة: وَهِيَ أَهْمُهَا: مَا مَعْنَى الْإِيمَانِ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ؟ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هَلْ هُوَ اعْتِقَادُ قَلْبٍ؟ أَوْ هُوَ مُوَافَقَةُ أَصْحَابِهَا مَعَ بَعْضِهَا وَمَعْرِفَةُ بَطْلَانِهَا؟

الخامسة: قَوْلُهُمْ: إِنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ كُفْرَهُمْ أَهْدَى سَبِيلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

السادسة: وَهِيَ الْمَقْصُودُ بِالترجمة: أَنَّ هَذَا لَا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ.

السابعة: تَصْرِيحُهُ بِوُقُوعِهَا - أَعْنِي: عِبَادَةَ الْأَوْتَانِ - فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي جُمُوعٍ كَثِيرَةٍ.

الثامنة: العَجَبُ الْعُجَابُ: خُرُوجُ مَنْ يَدْعِي النُّبُوَّةَ، مِثْلُ الْمُخْتَارِ مَعَ تَكْلِمِهِ
بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَتَصَرُّيهِ بِأَنَّهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَأَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ
وَفِيهِ أَنَّ مُحَمَّدًا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَمَعَ هَذَا يُصَدَّقُ فِي هَذَا كُلِّهِ مَعَ التَّضَادِّ الْوَاضِحِ،
وَقَدْ خَرَجَ الْمُخْتَارُ فِي آخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وَتَبِعَهُ فِتْنَامٌ كَثِيرَةٌ.

التاسعة: الْبَشَارَةُ بِأَنَّ الْحَقَّ لَا يَزُولُ بِالْكُلِّيَّةِ كَمَا زَالَ فِيمَا مَضَى، بَلْ لَا تَزَالُ
عَلَيْهِ طَائِفَةٌ.

العاشرة: الْآيَةُ الْعُظْمَى: أَنَّهُمْ مَعَ قَلَّتِهِمْ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ
خَالَفَهُمْ.

الحادية عشرة: أَنَّ ذَلِكَ الشَّرْطَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

الثانية عشرة: مَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ: مِنْهَا إِخْبَارُهُ بِأَنَّ اللَّهَ زَوَى لَهُ
الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ، وَأَخْبَرَ بِمَعْنَى ذَلِكَ، فَوَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ بِخِلَافِ الْجَنُوبِ
وَالشَّمَالِ، وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ أُعْطِيَ الْكَنْزَيْنِ وَإِخْبَارُهُ بِإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ لِأُمَّتِهِ فِي الْإِثْنَيْنِ
وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ مُنِعَ الثَّلَاثَةَ، وَإِخْبَارُهُ بِوُقُوعِ السَّيْفِ، وَأَنَّهُ لَا يُرْفَعُ إِذْ وَقَعَ، وَإِخْبَارُهُ
بِإِهْلَاكِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَسَبْيِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَخَوْفُهُ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْأُتَمَّةِ
الْمُضِلِّينَ وَإِخْبَارُهُ بِظُهُورِ الْمُتَنَبِّئِينَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَإِخْبَارُهُ بِبَقَاءِ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ،
وَكُلُّ هَذَا وَقَعَ، كَمَا أَخْبَرَ، مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مِنْ أَبَعَدَ مَا يَكُونُ فِي الْعُقُولِ.

الثالثة عشرة: حَصْرُ الْخَوْفِ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْأُتَمَّةِ الْمُضِلِّينَ.

الرابعة عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

٢٣ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي السَّحْرِ

وَقَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قَالَ عُمَرُ: «الْجِبْتُ: السَّحَرُ، وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ».

وَقَالَ جَابِرٌ: «الطَّوَاعِيتُ كُفَّانُ، كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ». وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ».

وَعَنْ جُنْدَبٍ مَرْفُوعًا: «حَدَّثَ السَّاحِرُ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: «الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ».

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنْ أَقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ». قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ».

وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، «أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا. سَحَرَتْهَا، فَقُتِلَتْ». وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ.

قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ السَّاءِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ الْجَبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا.

الرابعة: أَنَّ الطَّاغُوتَ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْجِنِّ وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِنْسِ.

الخامسة: مَعْرِفَةُ السَّعِّ الْمُوَبَّقاتِ الْمَخْصُوصَاتِ بِالنَّهْيِ.

السادسة: أَنَّ السَّاحِرَ يَكْفُرُ.

السابعة: أَنَّهُ يُقْتَلُ وَلَا يُسْتَتَابُ.

الثامنة: وَجُودُ هَذَا فِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَكَيْفَ بَعْدَهُ؟!

٢٤- بَابُ

بَيَانُ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السَّحْرِ

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بْنِ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجَبْتِ».

قَالَ عَوْفٌ: الْعِيَافَةُ زَجَرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ الْخَطُّ يُخَطُّ بِالْأَرْضِ، وَالْجَبْتِ: قَالَ الْحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ. إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

وَلَأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِي، وَابْنُ حَبَّانَ: فِي «صَحِيحِهِ» لَهُمُ الْمُسْنَدُ مِنْهُ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ؛ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَاللِّسَانِي مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ «مَنْ عَقَدَ عَقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وَكُلَّ إِلَيْهِ».

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا هَلْ أَنْبِئُكُمْ مَا الْعِصَةُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجِبْتِ.

الثانية: تَفْسِيرُ الْعِيَافَةِ وَالطَّرْقِ.

الثالثة: أَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ نَوْعٌ مِنَ السَّحْرِ.

الرابعة: الْعَقْدُ مَعَ النَّفْثِ مِنْ ذَلِكَ.

الخامسة: أَنَّ النَّمِيمَةَ مِنْ ذَلِكَ.

السادسة: أَنَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضُ الْفَصَاحَةِ.

٢٥- بَابُ

مَا جَاءَ فِي الْكُفْهَانِ وَتَحْوِهِمْ

رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ - وَقَالَ: «صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا» - عَنْ «أَبِي هُرَيْرَةَ»: «مَنْ
 أَتَى عَرَّافًا، أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ
 وَلَا بِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلَهُ مَوْفُوقًا.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ حُصَيْنٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تَطَيَّرَ لَهُ، أَوْ تَكْهَنَ أَوْ
 تَكْهَنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا
 أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» رَوَاهُ الْبَزَّازُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، دُونَ قَوْلِهِ:
 «وَمَنْ أَتَى...» إِلَى آخِرِهِ.

قَالَ الْبَغَوِيُّ: «الْعَرَّافُ: الَّذِي يَدْعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى
 الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ».

وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُنْغِيَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.
 وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: الْعَرَّافُ اسْمٌ لِلْكَاهِنِ، وَالْمَنْجَمُ وَالرَّمَّالُ،
 وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ.

وَقَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ) وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: «مَا أَرَى مَنْ
 فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الْأُولَى: أَنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ تَصْدِيقُ الْكَاهِنِ مَعَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ.

الثَّانِيَةِ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ كُفْرٌ.

الثَّالِثَةِ: ذِكْرُ مَنْ تَكْهَنَ لَهُ.

الرابعة: ذَكَرُ مَنْ تُطِيرَ لَهُ.

الخامسة: ذَكَرُ مَنْ سُحِرَ لَهُ.

السادسة: ذَكَرُ مَنْ تَعَلَّمَ أَبَا جَادٍ.

السابعة: ذَكَرُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْكَاهِنِ وَالْعَرَّافِ.

٢٦ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ: (هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ).
رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ.

وَقَالَ: «سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؟ فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ».

وَفِي «الْبُخَارِيِّ» عَنْ قَتَادَةَ: «قُلْتُ لَابْنِ الْمُسَيَّبِ رَجُلٌ بِهِ طَبٌّ أَوْ يُؤْخَذُ عَنْ
أَمْرَاتِهِ، أَيُحْلَلُ عَنْهُ أَوْ يُنْشَرُ؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا
يَنْفَعُ، فَلَمْ يَنْفَعْ عَنْهُ».

وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ، أَنَّهُ قَالَ: «لَا يُحْلَلُ السَّحَرُ إِلَّا سَاحِرٌ».

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «النُّشْرَةُ: حُلُّ السَّحَرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا حُلُّ
بِسَحَرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ
النَّاسُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيْطَانِ، بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطَلُ عَمَلُهُ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَالثَّانِي:
النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالْأَذْوِيَةِ وَالِدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: النَّهْيُ عَنِ النُّشْرَةِ.

الثانية: الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُنْهَيِّ عَنْهُ وَالْمُرْخَصِ فِيهِ مِمَّا يُزِيلُ الْإِشْكَالَ.

٢٧. باب

مَا جَاءَ فِي الطَّيْرِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا عَدْوَى، وَلَا طَيْرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ» أَخْرَجَاهُ.

زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلَا نَوْءَ وَلَا غُولَ».

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا عَدْوَى وَلَا طَيْرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَالُ». قَالُوا: وَمَا الْفَالُ؟ قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

وَلِأَبِي دَاوُدَ بَسَنَدٌ صَحِيحٌ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: «ذُكِرَتِ الطَّيْرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الْفَالُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدَكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «الطَّيْرَةُ شَرُّكَ، الطَّيْرَةُ شَرُّكَ، وَمَا مَتَا إِلَّا.. وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَلَأَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ» قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ يَقُولَ اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ».

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ: «إِنَّمَا الطَّيْرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: التَّنْبِيهُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] مَعَ قَوْلِهِ ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس: ١٩].

الثانية: نَفْيُ الْعَدَوَى.

الثالثة: نَفْيُ الطَّيْرَةِ.

الرابعة: نَفْيُ الْهَامَةِ.

الخامسة: نَفْيُ الصَّفْرِ.

السادسة: أَنَّ الْفَالَ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مُسْتَحَبٌّ.

السابعة: تَفْسِيرُ الْفَالَ.

الثامنة: أَنَّ الْوَاقِعَ فِي الْقُلُوبِ مِنْ ذَلِكَ مَعَ كَرَاهَتِهِ لَا يَضُرُّ بَلْ يُذْهِبُهُ اللَّهُ بِالتَّوَكُّلِ.

التاسعة: ذِكْرُ مَا يَقُولُ مَنْ وَجَدَهُ.

العاشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الطَّيْرَةَ شِرْكٌ.

الحادية عشرة: تَفْسِيرُ الطَّيْرَةِ الْمَذْمُومَةِ.

٢٨ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لثَلَاثِ زِينَةٍ

لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ، يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ؛
أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِييَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ». انتهى.

وَكَرِهَ قِتَادَةُ تَعْلَمَ مَنَازِلَ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ. ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا.
وَرَخِّصَ فِي تَعْلَمَ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُذْمَنُ
الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقُ بِالسَّحْرِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي
«صَحِيحِهِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ النُّجُومِ.

الثانية: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ غَيْرَ ذَلِكَ.

الثالثة: ذِكْرُ الْخِلَافِ فِي تَعْلَمَ الْمَنَازِلِ.

الرابعة: الْوَعِيدُ فِيمَنْ صَدَّقَ بِشَيْءٍ مِنَ السَّحْرِ، وَلَوْ عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ.

٢٩- بَابُ

مَا جَاءَ فِي الْإِسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي
أَمْتِي مَنْ أَمْرُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ، فِي الْأَنْسَابِ،
وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةِ».

وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ
قَطْرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : « صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى أَثَرِ سَمَاءَ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ ، فَلَمَّا انصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ ، فَقَالَ : (هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟) قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكُوكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنَوَاءِ كَذَا وَكَذَا ، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ » .

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ ، وَفِيهِ : « قَالَ بَعْضُهُمْ : لَقَدْ صَدَقَ نَوَاءُ كَذَا وَكَذَا . فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ (٢٨) »

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى : تَفْسِيرُ آيَةِ الْوَاقِعَةِ .

الثانية : ذِكْرُ الْأَرْبَعِ الَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ .

الثالثة : ذِكْرُ الْكُفْرِ فِي بَعْضِهَا .

الرابعة : أَنَّ مِنَ الْكُفْرِ مَا لَا يُخْرِجُ عَنِ الْمِلَّةِ .

الخامسة : قَوْلُهُ : « أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ » ، بِسَبَبِ نَزُولِ النِّعْمَةِ .

السادسة : التَّفَقُّنُ لِلْإِيمَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ .

السابعة : التَّفَقُّنُ لِلْكَفْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ .

الثامنة : التَّفَقُّنُ لِقَوْلِهِ : « لَقَدْ صَدَقَ نَوَاءُ كَذَا وَكَذَا » .

التاسعة: إخراج العالم للمتعلّم المسألة بالاستفهام عنه لقوله: «أندرون ماذا قال ربكم؟».

العاشرة: وعيد النائحة.

٣٠- باب

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ، مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثٌ مِنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ.

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى ..» إِلَى آخِرِهِ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَابْتَغَضَ فِي اللَّهِ، وَوَالَى فِي اللَّهِ، وَعَادَى فِي اللَّهِ، فَلَيْتَمَا تُنَالُ، وَلَايَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ - حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُوَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا» رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قَالَ:
(المَوْدَّةُ).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (البَقَرَةِ).

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ (بِرَاءَةِ).

الثالثة: وَجُوبُ مَحَبَّتِهِ ﷺ عَلَى النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ.

الرابعة: أَنَّ نَفْيَ الْإِيمَانِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلَامِ.

الخامسة: أَنَّ لِلْإِيمَانِ حَلَاوَةً قَدْ يَجِدُهَا الْإِنْسَانُ وَقَدْ لَا يَجِدُهَا.

السادسة: أَعْمَالُ الْقَلْبِ الْأَرْبَعِ الَّتِي لَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللَّهِ إِلَّا بِهَا، وَلَا يَجِدُ أَحَدٌ

طَعْمَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِهَا.

السابعة: فَهَمُّ الصَّحَابِيِّ لِلْوَاقِعِ، أَنَّ عَامَّةَ الْمُؤَاخَاةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا.

الثامنة: تَفْسِيرُ ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

التاسعة: أَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ يَحِبُّ اللَّهَ حُبًّا شَدِيدًا.

العاشرة: الْوَعِيدُ عَلَى مَنْ كَانَ الثَّمَانِيَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِهِ.

الحادية عَشْرَةَ: أَنَّ مَنْ اتَّخَذَ نَدًا تُسَاوِي مَحَبَّتَهُ مَحَبَّةَ اللَّهِ، فَهُوَ الشَّرُّكُ الْأَكْبَرُ.

٣١ - بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ

مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كِرَاهِيَةُ كَارِهِ».

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ التَّمَسَّ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسُ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسُ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي (صَحِيحِهِ).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (آلِ عِمْرَانَ).

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ (بَرَاءة).

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ (الْعَنْكَبُوت).

الرابعة: أَنَّ الْيَقِينَ يَضْعُفُ وَيَقْوَى.

الخامسة: عَلَامَةُ ضَعْفِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ: هَذِهِ الثَّلَاثُ.

السادسة: أَنَّ إِخْلَاصَ الْخَوْفِ لِلَّهِ مِنَ الْفِرَائِضِ.

السابعة: ذِكْرُ ثَوَابِ مَنْ فَعَلَهُ.

الثامنة: ذِكْرُ عِقَابِ مَنْ تَرَكَهُ.

٣٢- بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ..﴾ [الأنفال: ٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ .. الآية [الأنفال: ٦٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ .. الآية: [الطلاق: ٣].

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ إِيْمَانًا﴾ الآية .. [آل عمران: ١٧٣] رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنَّ التَّوَكَّلَ مِنَ الْفَرَائِضِ.

الثانية: أَنَّهُ مِنْ شُرُوطِ الْإِيْمَانِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ (الْأَنْفَالِ).

الرابعة: تَفْسِيرُ آيَةِ فِي آخِرِهَا.

الخامسة: تَفْسِيرُ آيَةِ (الطَّلَاقِ).

السادسة: عَظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمُحَمَّدٍ ﷺ فِي الشَّدَائِدِ.

٣٣- بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَقَامُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

[الأعراف: ٩٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ؟ فَقَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ».

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الْإِشْرَاقُ بِاللَّهِ وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الْحِجْرِ.

الثالثة: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِيمَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللَّهِ.

الرابعة: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي الْقُنُوطِ.

٣٤- بَابُ

مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ».

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كَفَرٌ: الطَّغْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ».

وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَى بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ».

وَعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ عَظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَاءُ، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السُّخْطُ» حَسَنَةُ التِّرْمِذِيِّ.

فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ التَّعَابُنِ.
- الثانية: أَنَّ هَذَا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ.
- الثالثة: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ.
- الرابعة: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِيمَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ.
- الخامسة: علامة إِرَادَةِ اللَّهِ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ.
- السادسة: علامة إِرَادَةِ اللَّهِ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ.
- السابعة: علامة حُبِّ اللَّهِ لِلْعَبْدِ.
- الثامنة: تَحْرِيمُ السُّخْطِ.
- التاسعة: ثَوَابِ الرِّضَا بِالْبَلَاءِ.

٣٥ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ الْآيَةُ [الكهف: ١١٠].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكَتُهُ وَشِرْكُهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ «الشُّرْكَ الْخَفِيُّ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزِينُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ.

الثانية: الْأَمْرُ الْعَظِيمُ فِي رَدِّ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا دَخَلَهُ شَيْءٌ لغيرِ اللَّهِ.

الثالثة: ذِكْرُ السَّبَبِ الْمَوْجِبِ لِذَلِكَ، وَهُوَ كَمَالُ الْغِنَى.

الرابعة: أَنَّ مِنَ الْأَسْبَابِ أَنَّهُ تَعَالَى خَيْرُ الشُّرَكَاءِ.

الخامسة: خَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الرِّيَاءِ.

السادسة: أَنَّهُ فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَنَّ الْمَرْءَ يُصَلِّي لِلَّهِ، لَكِنْ يُزَيِّنُهَا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ.

٣٦. بَابُ

مِنَ الشُّرْكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ يَحْمِلَهُ الدُّنْيَا

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَتْهَا نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾

الآيَةُ [هُود: ١٥].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَعَسَّ عَبْدُ الدُّنْيَارِ، تَعَسَّ

عَبْدُ الدَّرْهِمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْحَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ، رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ، سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا أَنْتَقَشَ. طُوِيَ لِعَبْدٍ أَخَذَ بَعْنَانَ فَرَسَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسَهُ، مُغْبِرَةً قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ. وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ هُودٍ.

الثالثة: تَسْمِيَةُ الْإِنْسَانِ الْمُسْلِمِ عَبْدَ الدِّينَارِ وَالْدَّرْهِمِ وَالْخَمِيصَةِ.

الرابعة: تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ.

الخامسة: قَوْلُهُ (تَعِسَ وَانْتَكَسَ).

السادسة: قَوْلُهُ «وَإِذَا شَيْكَ، فَلَا أَنْتَقَشَ».

السابعة: الثَّنَاءُ عَلَى الْمُجَاهِدِ الْمَوْصُوفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ.

٣٧. بَابُ

مَنْ أَطْلَعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأَمْرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ

أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ فَقَدْ أَخَذَهُمْ أَرْبَابًا.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!».

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصَحَّحَتْ يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سَفِيَّانَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشُّرْكُ. لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضُ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الرِّيزِغِ فَيَهْلِكُ!!

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ:

﴿اتَّخَذُوا أَجْدَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] .. فَقُلْتُ لَهُ إِنَّا لَسَنَّا نَعْبُدُهُمْ. قَالَ: أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنُهُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (النور).

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ (براءة).

الثالثة: التَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى الْعِبَادَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا عَدِيٌّ.

الرابعة: تَمَثِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَتَمَثِيلُ أَحْمَدَ بِسَفِيَّانَ.

الخامسة: تَغْيِيرُ الْأَحْوَالِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، حَتَّى صَارَ عِنْدَ الْأَكْثَرِ عِبَادَةُ الرُّهْبَانِ هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، وَتَسَمَّى الْوِلَايَةُ، وَعِبَادَةُ الْأَخْبَارِ هِيَ الْعِلْمُ وَالْفِقْهُ، ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ إِلَى أَنْ عَبْدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَعَبْدَ بِالْمَعْنَى الثَّانِي مَنْ هُوَ مِنَ الْجَاهِلِينَ.

٣٨. بَابُ

قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝﴾ [الآيات [النساء : ٦٠-٦٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]
وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].
وقوله ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». قال النووي: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ «الْحُجَّةِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ».

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: «كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ؛ عَرِفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ؛ لَعَلِمَهُ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَنَّةٍ، فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [النساء: ٦٠].

وَقِيلَ: «نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: تَرَأَفْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ الْآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَأَفَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكْذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضْرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النَّسَاءِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِعَانَةِ عَلَى فَهْمِ الطَّاغُوتِ .

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

الرابعة: تَفْسِيرُ ﴿أَفْحَكَمَ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ﴾.

الخامسة: مَا قَالَهُ الشَّعْبِيُّ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ الْأُولَى.

السادسة: تَفْسِيرُ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ.

السابعة: قِصَّةُ عُمَرَ مَعَ الْمُنَافِقِ.

الثامنة: كَوْنُ الْإِيمَانِ لَا يَخْصُلُ لِأَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ.

٣٩. بَابُ

مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الْآيَةُ: [الرعد: ٣٠]

وفي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»: قَالَ عَلِيٌّ: «حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!».

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ ابْنِ طَاوُوسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَقَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ اسْتِنكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ: مَا فَرَقَ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟!» انتهى.

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد : ٣٠].

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: عَدَمُ الْإِيمَانِ بِجَحْدِ شَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الرَّعْدِ.

الثالثة: تَرْكُ التَّحْدِيثِ بِمَا لَا يَفْهَمُ السَّامِعُ.

الرابعة: ذِكْرُ الْعِلَّةِ؛ أَنَّهُ يُفْضَى إِلَى تَكْذِيبِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَوْ لَمْ يَتَعَمَّدِ الْمُتَكَبِّرُ.

الخامسة: كَلَامُ ابْنِ عَبَّاسٍ لِمَنْ اسْتَنْكَرَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَهُ.

٤٠. بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل : ٨٣].

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثَتُهُ عَنْ آبَائِي».

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: «يَقُولُونَ: لَوْلَا فَلَانٌ؛ لَمْ يَكُنْ كَذَا».

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: «يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا».

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ: «وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ:

«أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ». الْحَدِيثُ وَقَدْ تَقَدَّمَ: «وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضَيِّفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ».

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِمْ كَانَتْ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَأُ حَادِقًا... وَنَحْوِ

ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرَةٍ».

فيه مسائل

الأولى: تفسيرُ معرفةِ النعمةِ وإنكارِها.

الثانية: معرفةُ أنَّ هذا جارٍ على السنةِ كثيرةٍ.

الثالثة: تسميةُ هذا الكلامِ إنكاراً للنعمةِ.

الرابعة: اجتماعُ الضدينِ في القلبِ.

٤١. بَابُ

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قال ابنُ عباسٍ في الآية: «الأنداد هو الشرك، أخفى من ديبِ النملِ على صفةِ سوداءٍ في ظلمةِ الليل، وهو أن تقول: والله، وحياتك يا فلان، وحياتي، وتقول: لولا كلبيةٌ هذا؛ لأننا اللصوص، ولولا البطُّ في الدار، لأنى اللصوص، وقول الرجلٍ لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً، هذا كله به شرك» رواه ابنُ أبي حاتم.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أن رسولَ الله ﷺ قال: من حلفَ بغيرِ الله فقد كفر أو أشرك» رواه الترمذی وحسنه، وصححه الحاكم..

وقال ابنُ مسعودٍ: «لأنَّ أحلفَ بالله كاذباً أحبُّ إليَّ من أن أحلفَ بغيره صادقاً».

وعن حذيفةَ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء الله شاء فلان ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسندٍ صحيح.

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ «أَنَّهُ يُكْرَهُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ»، قَالَ «وَيَقُولُ لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فَلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ فِي الْأُنْدَادِ.

الثانية: أَنَّ الصُّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُفَسِّرُونَ الْآيَةَ النَّازِلَةَ فِي الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ أَنَّهَا تَعُمُّ الْأَصْغَرَ.

الثالثة: أَنَّ الْحَلْفَ بغيرِ اللَّهِ شِرْكٌ.

الرابعة: أَنَّهُ إِذَا حَلَفَ بغيرِ اللَّهِ صَادِقًا فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْيَمِينِ الْغُمُوسِ.

الخامسة: الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَائِ وَ(ثُمَّ) فِي اللَّفْظِ.

٤٢. بَابُ

مَا جَاءَ فِي مَنْ لَمْ يَقْتَحِ بِالْحَلْفِ بِاللَّهِ

عَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ، فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ، فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ (رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: النَّهْيُ عَنِ الْحَلْفِ بِالْآبَاءِ.

الثانية: الْأَمْرُ لِلْمَحْلُوفِ لَهُ بِاللَّهِ أَنْ يَرْضَى.

الثالثة: وَعِيدُ مَنْ لَمْ يَرْضَ.

٤٣. بَابُ

قَوْلُ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ

عَنْ قُتَيْبَةَ: (أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ. وَالْكَعْبَةِ: فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبَّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: [مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ]. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ.

وَلَهُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدَاءً؟! بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ».

وَلِابْنِ مَاجَةَ عَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَةَ لَأَمَّهَا؛ قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ؛ قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ: عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ. قَالُوا: وَأَنْتُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ. قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ؛ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ؛ قَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ. وَأَنْكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا؛ فَلَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولي: مَعْرِفَةُ الْيَهُودِ بِالشَّرْكِ الْأَصْغَرِ.

الثانية : فَهَمُ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ هَوًى.

الثالثة : قَوْلُهُ ﷺ : «أَجَعَلْتَنِي اللَّهُ نَدًا؟!» فَكَيْفُ بِمَنْ قَالَ: يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مِنْ أَلُوذٍ بِهِ سِوَاكَ...» وَالْبَيْتَيْنِ بَعْدَهُ؟

الرابعة : أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الشَّرْكِ الْأَكْبَرِ، لِقَوْلِهِ «يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا».

الخامسة : أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ مِنْ أَقْسَامِ الْوَحْيِ.

السادسة : أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ سَبِيحًا لَشَرْعٍ بَعْضِ الْأَحْكَامِ.

٤٤. بَابُ

مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ، فَقَدْ آذَى اللَّهَ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾
الآيَةُ [الجاثية: ٢٤].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ ، وَأَنَا الدَّهْرُ، أَقْلِبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ».
وَفِي رِوَايَةٍ «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى : النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ.

الثانية : تَسْمِيَتُهُ أَذَى اللَّهِ.

الثالثة : التَّأَمُّلُ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ».

الرابعة : أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَابًّا ، وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِقَلْبِهِ.

٤٥. بَابُ

التَّسْمِي بِقَاتِلِي الْقِصَّةِ وَنَحْوِهِ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنْ أَخْنَعَ اسْمٌ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاقِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ».

قال سفيان: «مِثْلُ شَاهَانُ شَاهٌ».

وفي رواية: «أَغِيظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبُهُ». قوله: (أَخْنَعَ) يَعْنِي: أَوْضَعَ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولي: النَّهْيُ عَنِ التَّسْمِي بِمَلِكِ الْأَمْلَاقِ.

الثانية: أَنَّ مَا فِي مَعْنَاهُ مِثْلُهُ. كَمَا قَالَ سُفْيَانُ.

الثالثة: التَّفْطَنُ لِلتَّغْلِيظِ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ. مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الْقَلْبَ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

الرابعة: التَّفْطَنُ أَنَّ هَذَا لِأَجْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

٤٦. بَابُ

اجْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَخْيِيرِ الْإِسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ؛ أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ». فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ، أَتُونِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ. فقال: مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَالِكَ مِنَ الْوَلَدِ؟ قُلْتُ: شُرَيْحٌ،

وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ. قَالَ: فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟ قُلْتُ: شُرَيْحٌ. قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ. وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

الثانية: تَغْيِيرُ الْأَسْمَاءِ لِأَجْلِ ذَلِكَ.

الثالثة: اخْتِيَارُ أَكْبَرِ الْأَبْنَاءِ لِلْكُنْيَةِ.

٤٧. بَابُ

مَنْ هَوَّلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الْآيَةُ

[التوبة: ٦٥].

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةَ؛ دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ: «أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَائِنَا هَؤُلَاءِ؛ أَرْغَبَ بَطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ (يَعْنِي: رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءَ). فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ؛ لِأَخْبَرَنَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ».

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «كَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِسَعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّ الْحِجَارَةَ

تَنكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَأَيَّاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥] مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: وهى العَظِيمَةُ؛ أَنَّ مَنْ هَزَلَ بِهِذَا فَهُوَ كَافِرٌ.

الثانية: أَنَّ هَذَا تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَائِنًا مَنْ كَانَ.

الثالثة: الْفَرْقُ بَيْنَ النَّمِيمَةِ وَالنَّصِيحَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ.

الرابعة: الْفَرْقُ بَيْنَ الْعَفْوِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَبَيْنَ الْغِلْظَةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ.

الخامسة: أَنَّ مِنَ الْإِعْتِذَارِ مَا لَا يَتَّبِعِي أَنَّ يُقْبَلَ.

٤٨. بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى

﴿وَلَمَّا أَذْقَنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ الآية [فصلت: ٥٠]

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مُحَقَّقٌ بِهِ».

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ «يُرِيدُ: مِنْ عِنْدِي».

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]

قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ».

وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيْتُهُ عَلَى شَرَفٍ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنْ ثَلَاثَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصٌ وَأَفْرَعٌ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَلَّيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا: فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْ أَنَّ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَدَّرَنِي النَّاسُ بِهِ». قَالَ «فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَدَرُهُ، فَأَعْطِي لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ أَوْ الْبَقَرُ (شَكَّ إِسْحَاقُ). فَأَعْطِي نَاقَةَ عَشْرَاءَ، وَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا». قَالَ: «فَأَتَى الْأَفْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَدَّرَنِي النَّاسُ بِهِ. فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأَعْطِي شَعْرًا حَسَنًا. فَقَالَ أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْبَقَرُ أَوْ الْإِبِلُ. فَأَعْطِي بَقَرَةً حَامِلًا، قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

وَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ. فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ. فَأَعْطِي شَاةً وَالِدًا. فَأَنْتَجَ هَذَانِ وَوَلَدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ».

قَالَ: «ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مُسْكِينٌ وَأَبْنٌ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْحِبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ؛ بَعِيرًا أَتَبْلُغُ بِهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ: الْحَقُّوْقُ كَثِيرَةٌ فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ بِقَدْرِكَ النَّاسُ، فَقِيرًا، فَأَعْطَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَيَّ مَا كُنْتَ». قَالَ: «ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَفْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ

كُنْتُ كَاذِبًا؛ فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ قَالَ : «وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ : رَجُلٌ مُسَكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْحِبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَاعَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؛ شَاءَ أَتَبْلُغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ : كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ . فَوَاللَّهِ؛ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ اللَّهُ. فَقَالَ : أَمْسِكْ مَا لَكَ ؛ فَإِنَّمَا ابْتَلَيْتُمْ؛ فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخَطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ». أَخْرَجَاهُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى : تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

الثانية : مَا مَعْنَى : (لَيَقُولَنَّ . هَذَا لِي)

الثالثة : مَا مَعْنَى قَوْلِهِ : (أَوْ تَيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي).

الرابعة : مَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ مِنَ الْعِبَرِ الْعَظِيمَةِ.

٤٩ . بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ الْآيَةُ [الأعراف : ١٩٠].

قال ابن حزم : «اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدَ الْمُطَلَّبِ».

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ؛ قَالَ : «لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ؛ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ : إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجَكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، لَتُطِيعَانِي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قُرْنِي

إِلَّ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ، فَيَشْقُهُ، وَلَا فَعْلَنَ؛ يُخَوِّفُهُمَا، سَمِيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ فَخَرَجَ مَيِّتًا. ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الْوَلَدِ، فَسَمِيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ؛ قَالَ: شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ. وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَنْ آتَيْنَا صَالِحًا﴾؛ قَالَ: أَشْفَقَا أَنْ لَا يَكُونَ إِنْسَانًا.

وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الْحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَحْرِيمُ كُلِّ اسْمٍ مُعْبَدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ.

الثانية: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

الثالثة: أَنَّ هَذَا الشِّرْكَ فِي مُجَرَّدِ تَسْمِيَةٍ لَمْ تُقْصَدْ حَقِيقَتُهَا.

الرابعة: أَنَّ هِبَةَ اللَّهِ لِلرَّجُلِ الْبِنْتِ السَّوِيَّةِ مِنَ النِّعَمِ.

الخامسة: ذِكْرُ السَّلَفِ الْفَرَقَ بَيْنَ الشِّرْكِ فِي الطَّاعَةِ وَالشِّرْكِ فِي الْعِبَادَةِ.

٥٠. بَابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الْآيَةُ

[الأعراف: ١٨٠]

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : (يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) : يُشْرِكُونَ وَعَنْهُ :
 سَمَّوُا اللَّاتَ مِنَ الْإِلَهِ ، وَالْعَزَى مِنَ الْعَزِيزِ .
 وَعَنْ الْأَعْمَشِ : «يَدْخُلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا» .

فِيهِ مَسَائِلُ

الأول : إثباتُ الأسماءِ .

الثانية : كونُها حُسْنَى .

الثالثة : الأمرُ بدعائه بها .

الرابعة : تركُ مَنْ عَارَضَ مِنَ الْجَاهِلِينَ الْمُلْحِدِينَ .

الخامسة : تَفْسِيرُ الْإِلْحَادِ فِيهَا .

السادسة : وَعَيْدُ مَنْ أَلْحَدَ .

٥١ . بَابُ

لَا يَقَالُ : السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ " قَالَ : كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ [النَّبِيِّ ﷺ] فِي الصَّلَاةِ ؛ قُلْنَا : السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ [وَفُلَانٍ] . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « لَا تَقُولُوا : السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ » .

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى : تَفْسِيرُ السَّلَامِ .

الثانية : أَنَّهُ تَحِيَّةٌ .

الثالثة : أَنَّهَا لَا تَصْلُحُ لِلَّهِ.

الرابعة : الْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ.

الخامسة : تَعْلِيمُهُمُ التَّحِيَّةَ الَّتِي تَصْلُحُ لِلَّهِ.

٥٢. بَابُ

قَوْلُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ . اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ . لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرَهَ لَهُ» .
وَلِمُسْلِمٍ «وَلْيُعْظَمِ الرَّغْبَةُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ أُعْطَاهُ» .

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى : النَّهْيُ عَنِ الْإِسْتِثْنَاءِ فِي الدُّعَاءِ .

الثانية : بَيَانُ الْعِلَّةِ فِي ذَلِكَ .

الثالثة : قَوْلُهُ «لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ» .

الرابعة : إِعْظَامُ الرَّغْبَةِ .

الخامسة : التَّعْلِيلُ لِهَذَا الْأَمْرِ .

٥٣. بَابُ

لَا يَقُولُ : عِبَادِي وَأَمَتِي

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : أَطْعِم

رَبِّكَ، وَضَىءُ رَبِّكَ. وَلَيَقُلُّ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ. وَلَا يَقُلُّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمْتِي.
وَلَيَقُلُّ فَنَائِي وَفَنَائِي وَغَلَامِي».

فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى: النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ: عَبْدِي وَأَمْتِي.
الثانية: لَا يَقُولُ الْعَبْدُ: رَبِّي، وَلَا يَقَالُ لَهُ: أَطْعِمَ رَبِّكَ.
الثالثة: تَعْلِيمُ الْأَوَّلِ قَوْلَ: فَنَائِي وَفَنَائِي وَغَلَامِي.
الرابعة: تَعْلِيمُ الثَّانِي قَوْلَ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ.
الخامسة: التَّنْبِيهُ لِلْمُرَادِ، وَهُوَ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ حَتَّى فِي الْأَلْفَاظِ.

٥٤. بَابُ

لَا يَرْكَ مِنْ سَأَلَ بِاللَّهِ

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ؛
فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ؛ فَأَعِذُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ؛ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ
مَعْرُوفًا؛ فَكَافَتْوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِتُوهُ؛ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ
كَافَأْتُمُوهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى: إِعَاذَةُ مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ.
الثانية: إِعْطَاءُ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ.
الثالثة: إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ.

الرابعة: المكافأة على الصنعة.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

السادسة: قوله: حتى تروا أنكم قد كافأتموه.

٥٥. باب

لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ

عن جابر قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: النَّهْيُ عَنْ أَنْ يُسْأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا غَايَةُ الْمَطَالِبِ.

الثانية: إِبْطَاتُ صِفَةِ الْوَجْهِ.

٥٦. باب

مَا جَاءَ فِي اللُّو

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ الْآيَةُ [آل

عمران ١٥٤] وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ الْآيَةُ [آل

عمران: ١٦٨].

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اٰخِرُ صُنْ

عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي

فَعَلْتُ كَذَا؛ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ

عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ فِي آلِ عِمْرَانَ.
- الثانية: النَّهْيُ الصَّرِيحُ عَنْ قَوْلِ: «لَوْ» إِذَا أَصَابَكَ شَيْءٌ.
- الثالثة: تَعْلِيلُ الْمَسْأَلَةِ بِأَنَّ ذَلِكَ يَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ.
- الرابعة: الْإِرْشَادُ إِلَى الْكَلَامِ الْحَسَنِ.
- الخامسة: الْأَمْرُ بِالْحِرْصِ عَلَى مَا يَنْتَفِعُ مَعَ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ.
- السادسة: النَّهْيُ عَنْ ضِدِّ ذَلِكَ. وَهُوَ الْعَجْزُ.

٥٧. بَابُ

النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ؛ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا. وَخَيْرِ مَا أُمِرْتُ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرْتُ بِهِ» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ.
- الثانية: الْإِرْشَادُ إِلَى الْكَلَامِ النَّافِعِ إِذَا رَأَى الْإِنْسَانُ مَا يَكْرَهُ.
- الثالثة: الْإِرْشَادُ إِلَى أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ.
- الرابعة: أَنَّهَا قَدْ تُوْمَرُ بِخَيْرٍ وَقَدْ تُوْمَرُ بِشَرٍّ.

٥٨ . بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الآية [الفتح: ٦].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى:

فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيُضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ.

فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ وَإِنْكَارِ أَنْ يَتِمَّ أَمْرُ رَسُولِهِ ﷺ . وَأَنَّ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ.

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنُّ السَّوْءِ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرٍ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقَرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الْحَقُّ أَوْ أَنْكَرَ أَنْ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قُدْرُهُ لِحِكْمَةٍ بِالْغَةِ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ ؛ فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ

بغيرهم وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ. وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ
وَحَمْدِهِ.

فليعتن اللَّيْبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى اللَّهِ، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ
ظَنِّ السَّوِّءِ.

وَلَوْ فَتَشْتَمَنْ مَنْ فَتَشْتَمَ؛ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَى الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ. وَأَنَّهُ كَانَ
يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَاً وَكَذَا؛ فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثَرٌ، وَفَتَشَ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟
فَإِنْ تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجَّ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالَكَ نَاجِيَا

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الْفَتْحِ.

الثالثة: الْإِخْبَارُ بِأَنَّ ذَلِكَ أَنْوَاعٌ لَا تُخْصَرُ.

الرابعة: أَنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ وَعَرَفَ نَفْسَهُ.

٥٩. بَابُ

مَا جَاءَ فِي مَتَكْرِي الْقَدَرِ

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أَحَدٍ ذَهَبًا،
ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُ، حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ اسْتَدَلَ بِقَوْلِ النَّبِيِّ
ﷺ «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ
خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ؛ أَنَّهُ. قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: أَكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ يَا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي».

وفي رواية لأحمد: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَيْ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَاتِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وفي رواية لابن وهب: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ».

وفي «المُسْنَدِ» والسُّنَنِ عَنْ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ؛ قَالَ: «أَتَيْتُ أَبِي بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدْرِ؛ فَحَدَّثَنِي بِشَيْءٍ، لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي. فَقَالَ: لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أَحَدِ ذَهَبًا، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتُ مِنَ أَهْلِ النَّارِ، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ. وَحَدَّثَنِي بِنِ الْيَمَانِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ؛ فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «صَحِيحِهِ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: بَيَانُ فَرَضِ الْإِيمَانِ بِالْقَدْرِ.

الثانية: بَيَانُ كَيْفِيَةِ الْإِيمَانِ بِهِ.

الثالثة : إِحْبَاطُ عَمَلٍ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ

الرابعة : الإِخْبَارُ أَنَّ أَحَدًا لَا يَجِدُ طَعْمَ الإِيمَانِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِهِ.

الخامسة : ذِكْرُ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللَّهُ.

السادسة : أَنَّهُ جَرَى بِالْمَقَادِيرِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

السابعة : بَرَاءَتُهُ ﷺ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنَ بِهِ.

الثامنة : عَادَةُ السَّلَفِ فِي إِزْلَةِ الشُّبْهَةِ بِسُؤَالِ الْعُلَمَاءِ.

التاسعة : أَنَّ الْعُلَمَاءَ أَجَابُوهُ بِمَا يُزِيلُ شُبْهَتَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَسَبُوا الْكَلَامَ إِلَى

رَسُولِ اللَّهِ فَقَطُّ.

٦٠. بَابُ

مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؛ فَلِيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً». أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهَتُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ.

وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوْرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا : «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا؟ كُتِّفَ أَنْ يَنْفَخَ فِيهَا الرُّوحَ

وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ؛ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: «أَلَا أْبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا؛ إِلَّا سَوَّيْتُهُ».

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: التَغْلِيظُ الشَّدِيدُ فِي الْمَصُورِينَ.

الثانية: التَّنْبِيهُ عَلَى الْعِلَّةِ وَهِيَ تَرْكُ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَمَا خَلَقْتُ﴾

الثالثة: التَّنْبِيهُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَجْزِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ شَعِيرَةً﴾.

الرابعة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا.

الخامسة: أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ بَعْدَ كُلِّ صُورَةٍ نَفْسًا يُعَذِّبُ بِهَا الْمَصُورَ فِي جَهَنَّمَ.

السادسة: أَنَّهُ يُكَلِّفُ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ.

السابعة: الْأَمْرُ بِطَمْسِهَا إِذَا وُجِدَتْ.

٦١. بَابُ

مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْحَلْفِ

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْحَلْفُ مَتَفَقَةٌ لِلسَّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ» أَخْرَجَاهُ.

وَعَنْ سَلْمَانَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ

عَذَابُ الْيَمِّ: أَشْمِطُ زَانَ، وَعَائِلُ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهُ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ». رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمِّي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ (قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَذْرِي أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟)، ثُمَّ إِنْ بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُؤْفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ» وَفِيهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ». وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: الوَصِيَّةُ بِحِفْظِ الْإِيمَانِ.

الثانية: الإِخْبَارُ بِأَنَّ الْحَلْفَ مُتَّفَقٌ لِلسَّلَعةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ.

الثالثة: الوَعِيدُ الشَّدِيدُ فِيمَنْ لَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ.

الرابعة: التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الذَّنْبَ يَعْظُمُ مَعَ قِلَّةِ الدَّاعِي.

الخامسة: ذَمُّ الَّذِينَ يَخْلِفُونَ وَلَا يَسْتَحْلِفُونَ.

السادسة: ثَنَاؤُهُ ﷺ عَلَى الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ أَوْ الْأَرْبَعَةِ، وَذِكْرُ مَا يَحْدُثُ بَعْدَهُمْ.

السابعة: ذَمُّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ وَلَا يَسْتَشْهَدُونَ.

الثامنة: كَوْنُ السَّلَفِ يَضْرِبُونَ الصَّغَارَ عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ.

٦٢ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي خِدْمَةِ اللَّهِ وَخِدْمَةِ نَبِيِّهِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾

الآية . [النحل: ٩١].

عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا.

فَقَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا، وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ (أَوْ: خِلَالٍ)، فَأَيُّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ: ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ» فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى. وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفِيءِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَاسْأَلْهُمْ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حَصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ

تَخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ ، وَإِذَا حَاصَرَتْ أَهْلَ حِصْنٍ ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ ، فَلَا تُنْزِلُهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أُنْصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللَّهِ أَمْ لَا .
رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى: الفرقُ بَيْنَ ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ، وَذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ.
- الثانية: الإرشادُ إِلَى أَقْلِ الْأُمُورِ خَطَرًا.
- الثالثة: قَوْلُهُ: «اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».
- الرابعة: قَوْلُهُ: «قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ».
- الخامسة: قَوْلُهُ: «اسْتَعِينِ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ».
- السادسة: الفرقُ بَيْنَ حُكْمِ اللَّهِ وَحُكْمِ الْعُلَمَاءِ.
- السابعة: فِي كَوْنِ الصَّحَابِيِّ يَحْكُمُ عِنْدَ الْحَاجَةِ بِحُكْمٍ لَا يَدْرِي أَيْوَاقَ حُكْمِ اللَّهِ أَمْ لَا؟

٦٣- بَابُ

مَا جَاءَ فِي الْإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ،
أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: التَّحْذِيرُ مِنَ التَّالِيِّ عَلَى اللَّهِ.

الثانية: كَوْنُ النَّارِ أَقْرَبَ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ.

الثالثة: أَنَّ الْجَنَّةَ مِثْلُ ذَلِكَ.

الرابعة: فِيهِ شَاهِدٌ لِقَوْلِهِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ ...» إِلَى آخِرِهِ.

الخامسة: أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يُغْفَرُ لَهُ بِسَبَبٍ هُوَ مِنْ أَكْرَهٍ الْأُمُورِ إِلَيْهِ.

٦٤ - بَابُ

لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: (جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نَهَكَتِ الْأَنْفُسُ وَجَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبِّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللَّهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! سُبْحَانَ اللَّهِ!» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ أَصْحَابِهِ. ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ.. وَذَكَرَ الْحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: إِنكَارُهُ عَلَى مَنْ قَالَ: «نَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ».

الثانية: تَغْيَرُهُ تَغْيَرًا عُرِفَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

الثالثة: أَنَّهُ لَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ».

الرابعة: التَّنْبِيهِ عَلَى تَفْسِيرِ «سُبْحَانَ اللَّهِ!».

الخامسة: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَسْأَلُونَهُ ﷺ الْإِسْتِسْقَاءَ.

٦٥ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي جِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ

جِمَى التَّوْحِيدَ وَتَسَدَّ طَرِيقَ الشِّرْكِ

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا. فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجِرِبَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا! فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَحْذِيرُ النَّاسِ مِنَ الْغُلُوِّ.

الثانية: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ مَنْ قِيلَ لَهُ: «أَنْتَ سَيِّدُنَا».

الثالثة: قوله: «لَا يَسْتَجِرُّكُمْ الشَّيْطَانُ» مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِلَّا الْحَقَّ.

الرابعة: قوله: «مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنَزَلَتِي».

٦٦ - بَابُ

مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ . الآية :

[الزمر: ٦٧].

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: (جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْثَرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ . الآية : [الزمر: ٦٧].

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهْزُهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا اللَّهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: (وَيَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالْثَرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ) أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا: (يَطْوِي اللَّهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي

الْأَرْضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيُّنَ
الْمُتَكَبِّرُونَ؟

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ
الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: «حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ:
حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كدِرَاهِمٍ
سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تَرَسٍ» قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
يَقُولُ: (مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرِي فَلَاةٍ مِنَ
الْأَرْضِ).

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ
سَّمَاءٍ وَسَّمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ
الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى
عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ
زُرِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَرَوَاهُ بَنُخُوهُ الْمَسْعُودِيُّ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ،
قَالَهُ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: قَالَ: (وَلَهُ طُرُقٌ).

وَعَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ
تَذَرُونَ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ «قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ
خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَّمَاءٍ إِلَى سَّمَاءٍ، مَسِيرَةُ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَثِفُ كُلِّ
سَّمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ

وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

الثانية: أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ وَأَمْثَالَهَا بَاقِيَةٌ عِنْدَ الْيَهُودِ الَّذِينَ فِي زَمَنِهِ ﷺ وَلَمْ يُنْكِرُوهَا وَلَمْ يَتَأَوَّلُوهَا.

الثالثة: أَنَّ الْحَبَرَ لَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ صَدَقَهُ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِتَقْرِيرِ ذَلِكَ.

الرابعة: وَقُوعُ الضَّحِكِ مِنْهُ ﷺ لَمَّا ذَكَرَ الْحَبَرَ هَذَا الْعِلْمَ الْعَظِيمَ.

الخامسة: التَّصْرِيحُ بِذِكْرِ الْيَدَيْنِ، وَأَنَّ السَّمَوَاتِ فِي الْيَدِ الْيُمْنَى وَالْأَرْضَيْنِ فِي الْيَدِ الْأُخْرَى.

السادسة: التَّصْرِيحُ بِتَسْمِيَّتِهَا الشَّمَالَ.

السابعة: ذِكْرُ الْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ عِنْدَ ذَلِكَ.

الثامنة: قَوْلُهُ «كَخَرَدَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ».

التاسعة: عِظَمُ الْكُرْسِيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّمَوَاتِ.

العاشرة: عِظَمُ الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ لِلْكُرْسِيِّ.

الحادية عشرة: أَنَّ الْعَرْشَ غَيْرُ الْكُرْسِيِّ، وَالْمَاءِ.

الثانية عشرة: كَمْ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ.

الثالثة عشرة: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ.

الرابعة عشرة: كَمْ بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ.

الخامسة عشرة: أَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ.

السادسة عشرة: أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ.

السابعة عشرة: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

الثامنة عشرة: كَثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ.

التاسعة عشرة: أَنَّ الْبَحْرَ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ بَيْنَ أَغْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ مَسِيرَةُ

خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ

أَجْمَعِينَ.

مغنى المريد
شرح كتاب التوحيد

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم

قوله - «بسم الله».

متعلقة بمحذوف قدره الكوفيون فعلاً مقدماً والتقدير ابداً بسم الله وقدره البصريون اسماً مقدماً والتقدير ابتدائي كائننا أو مستقراً بسم الله فعلى الأول فالجار والمجرور في موضع نصب وعلى الثاني فالجار والمجرور في موضع رفع وذكر ابن كثير أن القولان متقاربان وكلاً قد ورد به القرآن فعلى الأول أى تقديره بسم الله ابتدائى فلقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ (١) ومن قدره بالفعل نحو أبداً بسم الله أو ابتديت بسم الله فلقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (٢) وكلاهما صحيح فإن الفعل لا بد له من مصدر فلك أن تقدر الفعل ومصدره وذلك بحسب الفعل الذى سميته قبله إن كان قياماً أو أكلاً أو صلاة فالمشروع ذكر اسم الله تعالى فى ذلك كله تبركاً وتيمناً واستعانة على الاتمام والتقبل. وذكر ابن القيم لحذف العامل فى بسم الله فوائد عدة منها انه موطن لا ينبغى ان يتقدم فيه سوى ذكر الله تعالى ومنها ان الفعل اذا حذف اصح الابتداء بالتسمية فى كل عمل قولاً وحركة وليس فعلاً أولى بها من فعل فكان الحذف أعم من الذكر فأى فعله ذكرته كان المحذوف أعم منه.

الحكمة من البدء بالبسملة

والبدء بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ ومعنى بسم الله الرحمن الرحيم أى أبداً مستعيناً ومتبركاً بكل اسم من أسماء الله تعالى الموصوف بالرحمة الواسعة.

وقد استقر عمل الأئمة المصنفين على افتتاح كتب العلم بالبسملة وكذا معظم كتب الرسائل تأسيساً بالكتاب العزيز وسنة المصطفى ﷺ كما ثبت ذلك عنه فى حديث هرقل وهو فى البخارى (٣) وفى قصة سهيل بن عمرو فى صلح الحديبية (٤) وغير ذلك من

(١) هود: ٤١.

(٢) العلق: ١.

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٧)، ومسلم (٣٤٦/٦) والجهاد) وانظر «فتح المجيد» (٧ - بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٦٩٩)، ومسلم (٣٧٧/٦) - الجهاد).

الأحاديث وكان الصحابة رضى الله عنهم يفتتحون كتابة الإمام الكبير بالتسمية ويتبعوها بالحمد وتبعهم جميع من كتب المصحف بعدهم فى جميع الأمصار.

والحكمة من البدء بها غير ما تقدم هى مراعاة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(١) فلم يقدم على كلام الله ورسوله شيئاً من كلامه.

هذا وقد قال الشراح انه ابتداء بالبسملة لبعض ما سبق وعملاً بحديث (كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بيسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع)^(٢) ولأبى داود وابن ماجه (كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أو بالحمد فهو أقطع)^(٣) ولأحمد (كل أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله فهو أتر أو أقطع)^(٤) وللدارقطنى عن أبى هريرة مرفوعاً (كل امر ذى بال لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع)^(٥).

ولكن قد يتعقب عليهم بأن الشيخ لم يقصد إلى ذلك لضعف هذه الروايات وأن ضعفها إما بسبب الاضطراب فى الفاظها أو بسبب الارسال فى بعض أسانيدھا أو بسبب مقالات قيلت فى بعض رواياتها كما بين ذلك الحفاظ من السلف والخلف.

قوله: (الله).

قال ابن عثيمين: [الله] لفظ الجلالة، عُلِّمَ على الذات العالیه، لا يسمى بها غيره، وهو مشتق من (إله)، لكن حذفت الهمزة، وعوض عنها (بأل) فصارت (الله) وقيل: بل إنه مشتق من (الإله) وأن (أل) موجودة فى بنائه من الأصل وحذفت الهمزة للتخفيف كما حذفت من (الناس) وأصلها (الأناس) وكما حذفت الهمزة من (خير وشر) وأصلها (أخير ، وأشر) ومعنى الله مؤخوذة من الألوهية، وهو التعبد بحب وتعظيم، يقال: آلَ إليه، أي: اشتاق إليه وأحبه، وأتاب إليه وعظم، فهي مشتقة من الألوهية، وهي المحبة والتعظيم، وعليه فيكون (إله) بمعنى مألوه، أي: معبود، وهو فعَال تأتي مفعول؟

(١) الحجرات: ١.

(٢) [ضعيف] ذكره السيوطى فى «الدر» (٣١/١) ونسبه للحافظ عبد القادر الرهاوى فى الاربعين.

وانظر «فتح المجيد» (١ - بتخريجنا).

(٣) [ضعيف] أخرجه أبو داود (٤٨٤٠) ، وابن ماجه (١٨٩٤) وانظر فتح المجيد (ح٣) بتخريجنا.

(٤) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٥٩/٢) وانظر فتح المجيد (ح٤) بتخريجنا.

(٥) [ضعيف] أخرجه الدارقطنى فى «سننه» (٢٢٩/١).

وانظر الكلام على طرقه فى «فتح المجيد» (٥ - بتخريجنا).

نقول: نعم، مثل فراش بمعنى مفروش، وبناء، بمعنى مبنوء. اهـ (١).

قوله «الله» علم على الرب تبارك وتعالى وذكر سيبويه أنه اعرف المعارف ويقال ان الاسم الأعظم لانه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾ فأجرى الاسماء الباقية كلها صفات لهذا الاسم.

قال ابن القيم والقول الصحيح أن الله أصله: الإله كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم، وإن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معانى الاسماء الحسنى والصفات العلى. وقال الكسائى والفراء أصله الإله حذفوا الهمزة وادغموا اللام الأولى فى الثانية، وعلى هذا فالصحيح انه مشتق من آله الرجل اذا تعبد كما قرأ ابن عباس ﴿وَيَذَرُكَ وَالْهَتَّكَ (٣)﴾ أى عبادتك وأصله الإله أى المعبود.

قوله «الرحمن الرحيم»..

قال ابن كثير: اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ورحمن أشد مبالغة من رحيم.

قال ابن عباس: (٤) وهما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، أى أوسع رحمة. وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب.

قال ابن القيم: إن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثانى للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته والثانى، دال على أنه يرحم خلقه برحمته. وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٥)﴾ ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٦)﴾ ولم يجئ قط رحمن بهم فعلم أن رحمن هو الموصوف، والرحيم هو الراحم برحمته، والرحمن الرحيم نعتان لله تعالى.

(١) شرح المنظومة البيقونية (١٢).

(٢) الحشر: ٢٢/٢٣

(٣) الأعراف: ١٢٧.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٩/١) ونسبه للبيهقى فى «الاسماء والصفات».

(٥) النساء: ٤٣.

(٦) التوبة: ١١٧.

قوله: «الحمد لله».

معنى الحمد هو ذكر أوصاف المحمود الكاملة وأفعاله الحميدة مع المحبة والتعظيم له. أو هو الثناء على الله بالجميل الاختياري، أو هو وصف المحمود بصفات الكمال وتنزيهه عن كل نقص مع بذل المحبة له ومع بذل التعظيم له.

● فلماذا قيد العلماء بأنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم؟

الجواب: لكي يفرقوا بين الحمد والمدح، إذ المدح قد يصاحبه تعظيم وقد لا يصاحبه، وقد يكون في الغالب بخوف من المدوح، لا محبة له ولا تعظيماً، لكن الحمد لا يكون غالباً إلا مع تعظيم ومحبة للمحمود.

وهذا المعنى مستقر في أكثر من آية مثل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (١) فذكر العالمين ذكر لأوصافه الكاملة ومالك يوم الدين لأفعاله الحميدة.

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ (٢) فأفعاله الحميدة كإنزاله الكتاب ولم يجعل له عوجاً.

وأيضاً كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ (٣).

وكقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ (٤).

وكقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥).

ومن معاني الحمد أيضاً ذكر المحمود بمحاسنه والثناء بالكامل على الإحسان والجميل.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الحمد لله على الإحسان والحمد بذكر المحاسن.

والحمد على الإحسان مثل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (٦).

(٢) الكهف ١.

(٤) النمل ٥٩.

(٦) إبراهيم: ٣٩.

(١) الفاتحة ٢-٤.

(٣) فاطر ١.

(٥) الزمر ٢٩.

والمحاسن: أن يرزق الله الشيخ الكبير والعقيم بالولد.

والإحسان: حيث أحسن الله على إبراهيم ووهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق. والرزق في حد ذاته إحسان كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها» فالحمد هنا على الإحسان. ومن هنا قال بعض أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية: رأس الحمد شكر الله - عز وجل - أو الحمد رأس الشكر، فمن لم يحمد الله - عز وجل - لم يشكره.

الفرق بين الحمد والشكر

والأحاديث في الحمد والشكر تبين أن هناك شبه بين الحمد والشكر. وذكر شيخ المفسرين الطبري أن الحمد بمعنى الشكر والشكر بمعنى الحمد. ولكن ذكر بعض أهل العلم فروقاً بين الحمد والشكر منها أن الحمد يكون على الإحسان وعلى غير الإحسان فيكون في السراء والضراء.

ففي السراء تحمده على المحاسن والإحسان وفي الضراء تحمده على المحاسن فقط. فالله يذل له الحمد في كل حال في المصيبة والنعمة. ولأنه له الأسماء الحسنى التي تناهت في الحسن، وله الصفات العلى في السماوات والأرض ولذلك له الحمد على أى حال، أما الشكر فيكون على الإحسان فقط يعنى على السراء فقط. وفرق آخر أن الحمد باللسان والقلب والشكر بالقلب واللسان والجوارح كما قال تعالى ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾^(١) فالشكر فى مقابل العمل الذى اختص به آل داود فالشكر يكون فى القلب واللسان والجوارح.

فينبغي أن نقدم بين يدي العمل بالحمد والثناء على الله بما هو أهله بأن وفقنا الله -عز وجل- لشرح هذا الكتاب ولقوله ﷺ «كل خطبة لا يبدأ فيها بالحمد فهي كاليد الجذماء»^(٢).

وجاءت أحاديث كثيرة في فضل الحمد منها ما أخرجه أحمد والنسائي «أما إن ربك يحب الحمد»^(٣).. وهذا لأن الله أهلاً لذلك فنحمدك ربنا كما تقول وخيراً مما نقول ولا نحصى ثناء عليك.

وأيضاً ما رواه ابن ماجه والحديث أخرجه الترمذى وحسنه عن جابر مرفوعاً أفضل

(١) سبأ ١٣.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٠٢/٢)، وأبو داود (٤٨/٤١)، والترمذى (١١٠٦) عن أبى هريرة. وانظر كتابنا «التيسير والتأصيل والسلفية في شرح البيقونية»، وانظر تخريجه أيضاً في كتابنا «فقه الخطابة».

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٣٥/٣)، والنسائي (٧٧٤٥) عن الأسود بن سريع.

وصلى الله على محمد وعلي آله وسلم

الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله^(١) ويشهد لصحة ذلك أنه هو دعاء أهل الجنة قال تعالى: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) ولذلك كان من المناسب ان يبدأ المصنفون بعد البسملة بالحمد.

وقال تعالى ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾^(٣) لذلك فنحن نحتاج إلى الحمد فى بداية العمل الذى نرجو له القبول والتوفيق.



قوله: «وصلى الله على محمد وعلي آله وسلم»

[قلت]: بوب البخارى باب الصلاة على النبي ﷺ وأسند عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال «لقينى كعب بن عجرة فقال: ألا أهدى لك هدية؟ إن النبى ﷺ خرج علينا فقلنا: يارسول الله ، قد علمنا كيف نسلم عليك ، فكيف نصلى عليك؟ قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»^(٤).

وأسند عن أبى سعيد الخدرى قال: قلنا يارسول الله، هذا السلام عليك فكيف نصلى؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم»^(٥).

قال ابن حجر^(٦) قوله «باب الصلاة على النبي ﷺ» هذا الإطلاق يحتمل حكمها وفضلها وصفتها ومحلها والاختصار على ما أورده فى الباب يدل على إرادة الثالث، وقد يؤخذ منه الثانى. اهـ.

● حكم الصلاة على النبي ﷺ:

قال ابن حجر: أما حكمها فحاصل ما وقفت عليه من كلام العلماء فيه عشرة مذاهب اهـ.

[قلت]: وقد عقد الإمام ابن القيم فى كتابه «جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام»، باباً فى [مواطن الصلاة على النبي ﷺ] التى يتأكد طلبها إما وجوباً وإما

(١) أخرجه الترمذى (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠) - وانظر الاذكار للنووى بتخريجنا).

(٢) يونس: ١٠

(٣) إبراهيم: ٧

(٤) [صحح] أخرجه البخارى (٦٣٥٧).

(٥) [صحح] أخرجه البخارى (٦٣٥٨).

(٦) «الفتح» (١٥٧/١١)

استحساناً مؤكداً]. فذكر أربعين موطنًا بتفصيل مفيد، يرجع إليه لأهميته - وأما الحافظ ابن حجر فإنه استفاد من كلام ابن القيم في حكم الصلاة علي النبي ، فذكر مذاهب العلماء العشر فقال:

أولها: قول ابن جرير الطبري إنها من المستحبات وادعى الإجماع على ذلك.
ثانيها: مقابله وهو نقل ابن القصار وغيره الإجماع على أنها تجب في الجملة بغير حصر لكن أقل ما يحصل به الإجزاء مرة.

ثالثها: تجب في العمر في صلاة أو في غيرها وهي مثل كلمة التوحيد قاله أبو بكر الرازي من الحنفية وابن حزم وغيرهما. وقال القرطبي المفسر: لا خلاف في وجوبها في العمر مرة وأنها واجبة في كل حين وجوب السنن المؤكدة، وسبقه ابن عطية.
رابعها: تجب في القعود آخر الصلاة بين قول التشهد وسلام التحلل قاله الشافعي ومن تبعه.

خامسها: تجب في التشهد وهو قول الشعبي وإسحق بن راهوية.
سادسها: تجب في الصلاة من غير تعيين محل نقل ذلك عن أبي جعفر الباقر.
سابعها: يجب الإكثار منها من غير تقييد بعدد قاله أبو بكر بن بكير من المالكية.

ثامنها: كلما ذكر. قاله الطحاوي وجماعة من الحنفية والحنابلة وجماعة من الشافعية، وقال ابن العربي من المالكية إنه الأحوط وكذا قال الزمخشري.
تاسعها: في كل مجلس مرة ولو تكرر ذكره مراراً حكاها الزمخشري.
عاشرها: في كل دعاء حكاها أيضاً.

وأما محلها: فيؤخذ مما أوردته من بيان الآراء في حكمها وسأذكر ما ورد فيه عند الكلام على فضلها.

● وأما صحتها: فهي أصل ما يعول عليه في حديثي الباب.

● معنى صلاة الله وملائكته عليه ﷺ

قال ابن حجر^(١) عن أبي العالية أن معنى صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه عند ملائكته، ومعنى صلاة الملائكة عليه الدعاء له^(٢).

(١) «الفتح» (١٦٠/١١)

(٢) [صحيح] علقه البخاري (٣٩٢/٨ - الفتح) ووصله ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٧٦٨) وانظر «فتح المجيد» (١٧ - بتخريجنا)

وعند ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: صلاة الله مغفرته وصلاة الملائكة الاستغفار. وعن ابن عباس ان معنى صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار. وقال الضحاك بن مزاحم: صلاة الله رحمته، وفي رواية عنه مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء أخرجهما اسماعيل القاضي عنه، وكأنه يريد الدعاء بالمغفرة ونحوها. وقال المبرد: الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة رقة تبعث على استدعاء الرحمة. وتعقب بأن الله غاير بين الصلاة والرحمة في قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ (١) وكذلك فهم الصحابة المغايرة من قوله تعالى ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا﴾ (٢) حتى سألوا عن كيفية الصلاة مع تقدم ذكر الرحمة في تعليم السلام حيث جاء بلفظ «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» (٣) وأقرهم النبي ﷺ، فلو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقال لهم قد علمتم ذلك في السلام، وجوز الحلبي أن تكون الصلاة معنى السلام عليه، وفيه نظر وحديث الباب يرد على ذلك؛ ، وأولى الأقوال ما تقدم عن أبي العالية (٤) أن معنى صلاة الله علي نبيه ثناؤه عليه وتعظيمه، وصلاة الملائكة وغيرهم عليه طلب ذلك له من الله تعالى والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة.

● أنواع صلاة الله على خلقه.

عقد ابن القيم في الباب الثالث من «جلاء الأفهام» باباً في معنى الصلاة على النبي ﷺ، ولخص ابن حجر بعض ذلك.

فقال الحافظ (٥) وقيل صلاة الله على خلقه تكون خاصة وتكون عامة فصلاته على أنبيائه هي ما تقدم من الثناء والتعظيم، وصلاته على غيرهم الرحمة فهي التي وسعت كل شيء.

ونقل عياض عن بكر القشيري قال: الصلاة على النبي ﷺ من الله تشريف وزيادة تكرمه وعلى من دون النبي رحمة، وبهذا التقرير يظهر الفرق بين النبي ﷺ وبين سائر المؤمنين حيث قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ (٦) وقال قبل ذلك في السورة المذكورة ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ (٧) ومن المعلوم أن القدر الذي يليق

(٢) الأحزاب : ٥٦

(١) البقرة : ١٥٧

(٣) [صحيح] متفق عليه أخرجه البخاري (٦٢٢٨) ومسلم ٣٥١/٢٠ - الصلاة.

(٤) تقدم قريباً.

(٦) الأحزاب : ٥٦.

(٥) الفتح ١١ / ١٦٠.

(٧) الأحزاب : ٤٣.

بالنبي ﷺ من ذلك أرفع مما يليق بغيره والإجماع منعقد على أن في هذه الآية من تعظيم النبي ﷺ والتنويه به مالميس في غيرها.

- معنى الصلاة على النبي ﷺ.

قال ابن القيم: لا خلاف أن لفظة (اللهم) معناها (يا الله) ولهذا لا تستعمل إلا في الطلب^(١).

ثم قال: (بيان معنى الصلاة علي النبي ﷺ) وأصل هذه اللفظة يرجع إلى معنيين:

[أحدهما]: الدعاء والتبريك.

[والثاني]: العبادة^(٢).

ثم قال: معنى الصلاة هو الثناء على الرسول، والعناية به، وإظهار شرفه وفضله وحرمة^(٣) اهـ.

قال ابن حجر: (٤) وقال الحلبي في «الشعب» معنى الصلاة على النبي ﷺ تعظيمه، فمعنى قولنا اللهم صل على محمد عظم محمداً. والمراد تعظيمه في الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار دينه وإبقاء شريعته وفي الآخرة بإجزال مثوبته وتشفيعه في أمته وإبداء فضيلته بالمقام المحمود، وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ ادعوا ربكم بالصلاة عليه انتهى.

ولا يعكر عليه عطف آله وأزواجه وذريته عليه فإنه لا يمتنع أن يدعى لهم بالتعظيم، إذ تعظيم كل أحد بحسب ما يليق به، وما تقدم عن أبي العالية أظهر، فإنه يحصل به استعمال لفظ الصلاة بالنسبة إلى الله وإلى ملائكته وإلى المؤمنين المأمورين بذلك بمعنى واحد ويؤيده أنه لا خلاف في جواز الترحم على غير الأنبياء.

قوله: (آل):

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»^(٥): واختلف في الآل النبي ﷺ على أربعة أقوال:

[فقليل]: هم الذين حرمت عليهم الصدقة.

[القول الثاني]: هم ذريته، وأزواجه خاصة.

[القول الثالث]: آله ﷺ أتباعه إلى يوم القيامة.

(١) «جلاء الأفهام» (٧٢، ٨١، ٨٥).

(٢) «جلاء الأفهام» (٧٢، ٨١، ٨٥).

(٣) «الفتح»: (١٦١/١١).

(٤) «جلاء الأفهام» (١١٤-١٢٦).

[القول الرابع] هم الأتقياء من أمته.

ثم ذكر فصل [في ذكر حجج هذه الأقوال وبين ما فيها من الصحيح والضعيف ثم قال: والصحيح هو القول الأول، يليه القول الثاني، وأما الثالث والرابع فضعيفان. اهـ مختصراً.

قال ابن حجر: ^(١) واختلف في المراد بآل محمد في هذا الحديث، فالراجح أنهم من حرمت عليهم الصدقة منه، وهذا نص عليه الشافعي واختاره الجمهور، ويؤيده قول النبي ﷺ للحسن بن علي «إنا آل محمد لا نحل لنا الصدقة» ^(٢) ولمسلم من حديث عبد المطلب ابن ربيعة في أثناء حديث مرفوع «إن هذه الصدقة إنما هي أوساخ الناس وإنها لا نحل لمحمد ولا لآل محمد» ^(٣).

وقال أحمد: المراد بآل محمد في حديث التشهد أهل بيته.

وعلى هذا فهل يجوز أن يقال أهل عوض آل؟ روايتان عندهم.

وقيل المراد بآل محمد أزواجه وذريته لأن أكثر طرق هذا الحديث جاء بلفظ «وآل محمد» وجاء في حديث أبي حميد موضعه «وأزواجه وذريته» ^(٤) فدل على أن المراد بالآل الأزواج والذرية وتسعّب بأنه ثبت الجمع بين الثلاثة كما في حديث أبي هريرة فيحمل على أن بعض الرواة حفظ ما لم يحفظ غيره فالمراد بالآل في التشهد الأزواج ومن حرمت عليهم الصدقة ويدخل فيهم الذرية، فبذلك يجمع بين الأحاديث وقد أطلق على أزواجه ﷺ آل محمد في حديث عائشة «ما شيع آل محمد من خبز مأدوم ثلاثاً» ^(٥) وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» ^(٦).

وكان الأزواج أفردوا بالذكر تنويها بهم وكذا الذرية.

وقيل المراد بالآل ذرية فاطمة خاصة حكاه النووي في «شرح المذهب».

وقيل هم جميع قریش حكاه ابن الرفعة في «الكفاية».

وقيل المراد بالآل جميع الأمة أمة الإجابة وقال ابن العربي: مال إلى ذلك مالك

(١) «الفتح» (١١/١٦٤، ١٦٥)

(٢) [صحيح] متفق عليه أخرجه البخاري (١٤٩١)، ومسلم (٧/٧٥ - الزكاة)

وانظر السلسيل (١٠٥٣ - بتخریجنا)

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم (٤/١٩١ - الزكاة).

(٤) [صحيح] متفق عليه أخرجه البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم في الصلاة (٢/٣٦٠ - ٦٩).

(٥) [صحيح] أخرجه البخاري (٦٤٥٤)، ومسلم (٩/٣٢٨ - الزهد).

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم (٩/٣٢٧ - الزهد)

واختاره الأزهرى وحكاه أبو الطيب الطبرى عن بعض الشافعية، ورجحه النووى فى شرح مسلم وقيده القاضى حسين والراغب بالانتقاء منهم، وعليه يحمل كلام من أطلق. ويؤيده قوله تعالى ﴿إِنْ أُولَآئِهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ وقوله ﷺ «إِنْ أُولِيَائِي مِنْكُمْ الْمُتَّقُونَ» (١) «وفى نوادر أبى العيناء إنه غرض من بعض الهاشميين فقال له أنغض منى وأنت تصلى على فى كل صلاة فى قولك اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، فقال: إنى أريد الطيبين الطاهرين ولست منهم ويمكن أن يحمل كلام من أطلق على أن المراد بالصلاة الرحمة المطلقة فلا تحتاج إلى تقيد.

وقد استدلل لهم بحديث أنس رفعه «آل محمد كل تقى» (٢) أخرجه الطبرانى ولكن سنده واه جداً، وأخرج البيهقى عن جابر نحوه (٣) من قوله بسند ضعيف اهـ.

● مسألة: هل يصلى على غير النبى - ﷺ - .

قال البخارى باب هل يصلى على غير النبى ﷺ ؟ وقوله تعالى: ﴿وصل عليهم، إن صلاتك سكن لهم﴾

وأسند عن ابن أبى أوفى قال: كان إذا أتى رجل للنبي ﷺ بصدقة قال: اللهم صل عليه. فأتاه أبى بصدقة فقال: اللهم صل على آل أبى أوفى» (٤).

وأسند عن عمرو بن سليم الزرقى قال: «أخبرنى أبو حميد الساعدى أنهم قالوا: يارسول الله ، كيف نصلى عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد» (٥).

قال ابن حجر (٦): قوله (باب هل يصلى على غير النبى ﷺ) أى استقلالاً أو تبعاً

(١) ذكره السيوطى فى «الدر (٣/ ٣٣١) ونسبه للبخارى فى «الأدب المفرد»، والطبرانى، والحاكم وصححه عن رفاعه بن رافع.

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٣٣٣٢)، والبيهقى فى «الكبرى» (١٥٢/٢).

ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٣٢) ونسبه لابن مردويه والطبرانى والبيهقى فى «سننه».

(٣) أخرجه البيهقى فى «الكبرى» (١٥٢/٢) بنحوه.

(٤) [صحيح] متفق عليه أخرجه البخارى (٦٣٥٩)، ومسلم فى الزكاة (١٨٤/٧، ١٨٥ - النووى)

وانظر الأذكار للنووى بتخريجنا).

(٥) تقدم قريباً جداً.

(٦) الفتحة (١١/ ١٧٤ و ١٧٥)

ويدخل فى الغير الأنبياء والملائكة والمؤمنون فأما مسألة الأنبياء فورد فيها أحاديث: أحدها حديث على فى الدعاء بحفظ القرآن ففيه «وصل على وعلى سائر النبيين» أخرجه الترمذى والحاكم^(١) وحديث بريدة رفعه «لا تترك فى التشهد الصلاة على وعلى أنبياء الله» الحديث أخرجه إسماعيل القاضى بسند ضعيف، وحديث ابن عباس رفعه «إذا صليتم على فصلوا على أنبياء الله، فإن الله بعثهم كما بعثنى» أخرجه الطبرانى ورويناه فى «فوائد العيسوى» وسنده ضعيف أيضاً وقد ثبت عن ابن عباس اختصاص ذلك بالنبي ﷺ أخرجه ابن أبى شيبة من طريق عثمان بن حكيم عن عكرمة عنه قال «ما أعلم الصلاة تنبغى على أحد من أحد إلا على النبي ﷺ» وهذا سند صحيح.

وحكى القول به عن مالك وقال: ما تعبدنا به وجاء نحوه عن عمر بن عبد العزيز، وعن مالك يكره.

وقال عياض: عامة أهل العلم على الجواز وقال سفيان يكره أن يصلى إلا على نبي، ووجدت بخط بعض شيوخى مذهب مالك لا يجوز أن يصلى إلا على محمد وهذا غير معروف عن مالك، وإنما قال أكره الصلاة على غير الأنبياء وما ينبغى لنا أن نتعدى ما أمرنا به. وخالفه يحيى بن يحيى فقال: لا بأس به، واحتج بأن الصلاة دعاء بالرحمة فلا يمنع إلا بنصر أو إجماع، قال عياض: والذى أميل اليه قول مالك وسفيان وهو قول المحققين من المتكلمين والفقهاء قالوا: يذكر غير الأنبياء بالرضا والغفران والصلاة على غير الأنبياء يعنى استقلالاً لم تكن من الأمر المعروف وإنما أحدثت فى دولة بنى هاشم.

● وأما الملائكة فلا أعرف فيه حديثاً نصاً، وإنما يؤخذ ذلك من الذى قبله إن ثبت، لأن الله تعالى: سماهم رسلاً.

قلت: كذا قال ابن حجر وعند ابن ماجه قال ﷺ: «علمني جبرائيل الوضوء ﷺ...»^(٢) الحديث وفيه التصريح بالصلاة على النبي ﷺ.

● وأما المؤمنون فاختلف فيه فقيل: لا تجوز إلا على النبي ﷺ خاصة، وحكى عن مالك كما تقدم وسيأتى الراجح من قول ابن القيم.

● وقالت طائفة لا تجوز مطلقاً استقلالاً وتجوز تبعاً فيما ورد به النص أو الحق به لقوله

(١) أخرجه الترمذى (٣٥٧) واستغربه من حديث الوليد بن مسلم.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٦٢) وضعفه البوصيرى فى الزوائد لضعف ابن لهيعة.

تعالى ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ ولأنه لما علمهم السلام قال «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ولما علمهم الصلاة قصر ذلك عليه وعلى أهل بيته، وهذا القول اختاره القرطبي في «المفهم» وأبو المعالي من الحنابلة، هو اختيار ابن تيمية من المتأخرين.

● وقالت طائفة: تجوز تبعاً مطلقاً ولا تجوز استقلالاً، وهذا قول أبي حنيفة وجماعة.
● وقالت طائفة تكره استقلالاً لا تبعاً وهي رواية عن أحمد، وقال النووي: هو خلاف الأولى.

● وقالت طائفة: تجوز مطلقاً، وهو مقتضى صنيع البخاري فإنه صدر بالآية وهي قوله ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ثم علق الحديث الدال على الجواز مطلقاً وعقبه بالحديث الدال على الجواز تبعاً، فأما الأول وهو حديث عبد الله بن أبي أوفى^(١) ووقع مثله عن قيس بن سعد بن عباد أن النبي ﷺ رفع يديه وهو يقول: «اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عباد»^(٢) أخرجه أبو داود والنسائي وسنده جيد.

وفي حديث جابر «إن امرأته قالت للنبي ﷺ صل على وعلى زوجي ففعل»^(٣) أخرجه أحمد مطولاً ومختصراً وصححه ابن حبان.

وهذا القول جاء عن الحسن ومجاهد ونص عليه أحمد في رواية أبي داود وبه قال إسحق وأبو ثور وداود والطبري. واحتجوا بقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً «أن الملائكة تقول لروح المؤمن صلى الله عليك وعلى جسدك».

● وأجاب المانعون عن ذلك كله: بأن ذلك صدر من الله ورسوله ولهما أن يخصا من شاء بما شاء وليس ذلك لأحد غيرهما.

وقال البيهقي: يحمل قول ابن عباس بالمنع إذا كان على وجه التعظيم لا ما إذا كان على وجه الدعاء بالرحمة والبركة. اهـ.

(١) تقدم في أول المسألة.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٢١/٣)، وأبو داود (٥١٨٥)، والنسائي في «الكبرى» (١٠١٥٧).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٥٧/٣)، وابن حبان في «صحيحه» (١٣٥/٢).

وذكره السيوطي في «الدر» (٤٩٢/٣) ونسبه لابن أبي شيبة.

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»: وفصل الخطاب في هذه المسألة:

أن الصلاة على غير النبي ﷺ إما أن يكون [آله وأزواجه وذريته] أو غيرهم.

● فإن كان الأول: فالصلاة عليهم مشروعة مع الصلاة على النبي ﷺ، وجائز مفردة.

● وأما الثاني: فإن كان الملائكة وأهل الطاعة عموماً الذين يدخل فيهم الأنبياء وغيرهم جاز ذلك أيضاً، فيقال: (اللهم صلى على ملائكتك المقربين، وأهل طاعتك أجمعين).

وإن كان شخصاً معيناً أو طائفة معينة، كره أن يتخذ الصلاة عليهم شعاراً لا يخل به. ولو قيل بتحريمه لكان له وجه، ولا سيما إذا جعلها شعاراً له، ومنع منها نظيره، أو من هو خير منه، وهذا كما تفعل الرافضة بعلي رضي الله عنه، فإنه حيث ذكروه قالوا: (عليه الصلاة والسلام) ولا يقولون ذلك فيمن هو خير منه، فهذا ممنوع، لا سيما إذا اتُخذ شعاراً لا يخل به، فتركه حيثئذ متعين.

وأما إن صلى عليه أحياناً بحيث لا يجعل ذلك شعاراً، كما يصلى على دافع الزكاة، وكما قال ابن عمر للميت (صلى الله عليه)، وكما صلى النبي ﷺ على المرأة وزوجها، وكما روى عن عليٍّ من صلاته على عمر - رضي الله عنهما - فهذا لا بأس به. وبهذا التفصيل تتفق الأدلة، وينكشف وجه الصواب. والله الموفق. اهـ.

(تنبيه): اختلف في السلام على غير الأنبياء بعد الاتفاق على مشروعيته في تحية الحي فقيل: يشرع مطلقاً، وقيل بل تبعاً، ولا يفرد لواحد لكونه صار شعاراً للرافضة، ونقله النووي عن الشيخ أبي محمد الجويني.



«كتاب التوحيد» (*)

قوله: [كتاب التوحيد]: زاد فى نسخة مجموعة التوحيد قوله «الذى هو حق الله على العبيد».

وقد استقر عمل الأئمة المصنفين من الشراح على البدء بشرح معنى كلمة كتاب لغة فقالوا كتاب. مصدر يقال كتب يكتب كتابة وكتاباً ومادة كتب دالة على الجمع والضم وأصل الكتب فى اللغة الضم ومنه كتيبة الخيل لتبعتها واجتماعها فسمى كتاباً لضم حروفه ومسائلة بعضها إلى بعض والكتاب إسم للمكتوب مجازاً وهو من باب تسمية المفعول بالمصدر وهو كثير وقد استعملوا لفظ الكتاب فيما يجمع اشياء من الأبواب والفصول الجامعة للمسائل وهذا فى اصطلاح المصنفين فالكتاب عندهم هو كالجنس المستقل الجامع لأبواب تلك الأبواب أنواع فكتاب التوحيد يشمل باب الدعوة إلى التوحيد والخوف من الشرك وفضل من حقق التوحيد وغير ذلك من الأبواب المتعلقة بالتوحيد.

وقوله كتاب التوحيد خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا كتاب التوحيد.

قوله: (... التوحيد)

قال أبو القاسم: (١) فى كتاب «الحجة» والتوحيد مصدر وحد يوحّد، ومعنى وحدت الله اعتقده منفرداً بذاته وصفاته لانظير له ولا شبيهه، وقيل معنى وحدته علمته واحداً، وقيل سلبت عنه الكيفية والكمية فهو واحد فى ذاته لانقسام له، وفى صفاته لاشبيه له، فى إلهيته وملكوته وتديره لاشريك له ولارب سواه ولا خالق غيره. (٢).

ونقل ابن حجر قول أهل السنة فى تفسيرهم بأنه نفى التشبيه والتعطيل ومن ثم قال الجنيد التوحيد «أفراد القديم من المحدث» حكاه عنه أبو القاسم القشيري (١).

أقسام التوحيد وسبب تقسيم العلماء له على هذا النحو

[قلت]: وقد قسم العلماء التوحيد إلى نوعين حتى لا يلتبس على العامة أمرهم ويخلطون بين «توحيد الألوهية» «العبادة» و«توحيد الرب» فيعتقدون أن من أتى بهذا الأخير وأقر بأن لهذا الكون خالق ومدبر فقد أتى بالتوحيد كله وإن كان مشركاً فى

(١) أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التميمي توفي ٥٣٥ من علماء القرن السادس للهجرة. ترجمة البداية والنهاية ٢١٧/١٢.

(٢) الفتح ١٣/ ص ٣٥٧.

(*) تنبيه: لم نجد من شراح كتاب التوحيد أحداً رقم أبواب الكتاب من هنا إلا الشيخ عبد الله بن جار الله، وتبعاً لغالب الشراح لم نرقم من هنا إنما رقمنا الباب الأول هو (فضل التوحيد) الآتى بعد هذا. والله الهادى للصواب.

توحيد العبادة وهذا هو عين اللبس الذى كان عليه مشركى مكة فאלله عزوجل بين أنهم أقرؤا بتوحيد الرب أو الربوبية وأشركوا فى توحيد الألوهية أو العبادة فقال تعالى ﴿وَلَّيْن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (١) ﴿وَلَّيْن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٢) فلهذا الخلط واللبس لجأ السلف إلى هذا التقسيم للتوحيد.

قال ابن تيمية: فى تقسيمه التوحيد الذى جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا الله. لا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يؤالى إلاه، ولا يعادى إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله. وذلك يتضمن إثبات ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات قال تعالى ﴿وَالْهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٣) ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٤) وقال تعالى عن المشركين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَنَّا لَنَارِكُوا آلِهَتَنَا لَشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (٥) وفى القرآن كثير من هذا وليس المراد بالتوحيد : مجرد توحيد الربوبية وهو اعتقاد أن الله وحده خالق العالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد . وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه فقد فنوا فى غاية التوحيد فإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزهه عن كل ما ينزه عنه. وأقر بأنه وحده خالق كل شىء لم يكن موحداً حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده . فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة ويلتزم بعبادة الله وحده لاشريك له وإن مشركى العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شىء وكانوا مع هذا مشركين. قال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (٦)

قالت طائفة من السلف تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره. فليس كل من أقر بأن الله تعالى رب كل شىء وخالقه يكون عابداً له دون ما سواه داعياً له دون ماسواه راجياً له دون ما سواه يوالى فيه ويعادى فيه ويطيع رسله ويأمر بما أمره وينهى عما نهى عنه. وعامة المشركين أقرؤا بأن الله خالق كل شىء واثبتوا الشفعاء الذين يشركون به. وجعلوا له أنداداً قال تعالى ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ

(٢) الزخرف : ١٩.

(١) الزخرف : ٨٧.

(٤) المؤمنون : ١١٧.

(٣) البقرة : ١٦٣.

(٦) يوسف : ١٠٦.

(٥) الصافات : ٣٥.

شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ . اهـ .

فهم آمنوا فى جانب الربوبية قال تعالى ﴿وَلَقِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ .

وأيضاً ما اشتقوا العزة إلا من اسم الله «العزیز»

وما اشتقوا مناة إلا من اسم الله «المنان»

وما اشتقوا اللآت إلا من اسم الله «الله» وهذا إلحاد فى أسماء الله .

ولكن هذا الإلحاد متضمن للإيمان فى جانب الربوبية .

ولذلك قال جد النبی ﷺ حينما غزا أبرهة الكعبة :

اللهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فافعل ما بدا لك .

وقال : أنا ربُّ الإبل ولليبت ربُّ سيمنعه .

فكان عند هؤلاء المشركين إيمان وإعتقاد وتوحيد - والله - أعظم من كثير من
السلاطين والأمراء حينما تنتهك حرمت المسلمين ومقدساتهم لم نسمع أن أحدهم دعى
الله عزوجل أن يمنع هذه المقدسات من أولاد القردة والخنازير كما لجأ جد الرسول ﷺ
إلى الله فى وقت الشدة .

وأما الرب فى اللغة : هو المدبر أو هو المربى وهو السيد .

ومن هنا سُمى الوالد : رب البيت . مدبر البيت .

وسميت الوالدة : ربة البيت .

وجاء فى الأثر من علامات الساعة «أن تلد الأمة ربتها» «سيدتها» .

فلذلك ذهب أهل العلم إلى التفريق بين توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية لاختلاط
الحابل بالنابل فى رؤوس كثير من الناس .

وحتى يعرف أنه إذا أتى بتوحيد الربوبية لا يدخل فى دائرة المسلمين حتى يأتى

بتوحيد الإلهية وكما قالت امرأت العزيز ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا

رَحِمَ رَبِّي﴾ (٢) وقال صواحب يوسف ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ (٣) .

(٢) يوسف : ٥٣ .

(١) الزمر : ٤٤ .

(٣) يوسف : ٥١ .

﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ﴾ (١) فكانوا يعرفون الملائكة ويعرفون الله .

ورغم معرفتهم بذلك وإقرارهم بنقضوا هذا الإقرار حيث صرفوا العبادة لغيره سبحانه وتعالى ولذلك جاء في الحديث القدسي

«إني والجن والإنس لفي نأبأ عظيم أخلق ويبعد غيري وأرزق ويشكر سواي» (٢) أو كما قال الله ، ومعناه صحيح .

فكما له الخلق له الأمر قال تعالى : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣)

وقال ابن القيم: في تقسيمه للتوحيد: وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب فهو نوعان:

توحيد في المعرفة والأبواب أى توحيد الربوبية والأسماء والصفات وتوحيد فى الطلب والقصد أى توحيد الألوهية والعبادة. فالأول هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه وتكلمه بكتبه لمن شاء من عباده؟ وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمته، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح، كما فى أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر الحشر، وأول تنزيل السجدة وأول آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها، وغير ذلك .

النوع الثانى: ما تضمنته سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٥) وغالب سور القرآن بل كل سورة فى القرآن فهى متضمنة لنوعى التوحيد، شاهدة به داعية إليه. فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله، فهو التوحيد العلمى الخبرى وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادى الطلبى. وإما الأمر والنهى، والزام بطاعته وأمره ونهيه، فهو حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة، فهو جزاء توحيد، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا من النكال وما يحل بهم فى العقاب من العذاب. فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد فالقرآن كله فى التوحيد، وحقوقه وجزائه، وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم ا. هـ.

(١) يوسف : ٣١

(٢) [ضعيف] ذكره الديلمى فى «الفردوس» (٤٥٠/٦) وذكره السيوطى فى «الدر» (١٤٢/٦)

وانظر «فتح المجيد» (٥٧ - بتخریجنا)

(٣) الأعراف : ٥٤

(٤) الكافرون : ١

(٥) آل عمران : ٦٤

وقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١).

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى: (٢) حيث دلت الآية الكريمة على أن الحكمة من خلق الجن والإنس هي إفراد الله بالعبادة والكفر بما سواه.

الإعراب:

قال محمد بن حسن بن محسن (٣): ويجوز في إعراب قوله الرفع على أنه عطف على كتاب، أي هذا كتاب التوحيد، وهذا قوله تعالى، ويجوز فيه الجر على أنه عطف على التوحيد، أي كتاب في بيان التوحيد.

قال الشوكاني (٤): وجملة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ مستأنفة مقررلة قبلها أن كون خلقهم لمجرد العبادة مما يُنشط رسول الله ﷺ للتذكير وينشطهم للإجابة. أهـ.

قال صاحب إعراب القرآن (٥): ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الواو عاطفة، وما نافية، وخاتمت فعل وفاعل، (والجنّ) مفعول به، (والإنس) عطف على الجن، وإلا أداة حصر واللام للتعليل أو للعاقبة، ويعبدون فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون، والنون المذكورة لـلو قاية، والواو فاعل، وباء المتكلم المحذوفة، نصب مفعول به، ولام التعليل ومدخولها متعلقان بخلقت. وسيأتي مزيد بحث لهذه الآية التي شجّر الخلاف حولها. أهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من السنة:

[أولاً]: من الأحاديث المرفوعة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: ابن آدم تفرغ لعبادتي أملاً صدرك غني، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك» (٦).

(١) الذرايات ٥٦.

(٢) الجديد ١٩.

(٣) فتح الله الحميد المجيد ٤٦.

(٤) فتح القدير ٩٢/٥.

(٥) إعراب القرآن (٩/ ٣٢٣).

(٦) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وانظر «الدر» (٦/ ١٤٢) وهذا الحديث والذي بعده فيهما

نظر.

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري» (١).

[ثانياً]: من الموقوف:

عن ابن عباس قال: ليقرؤا بالعبودية طوعاً أو كرهاً (٢).

وعن ابن عباس أيضاً قال: على ما خلقتهم عليهم من طاعتي ومعصيتي، وشقاوتي وسعادتني (٣).

وعن علي بن أبي طالب قال: إلا لآمرهم أن يعبدوني، وأدعوهم إلى عبادتي. ويؤيده قوله عز وجل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ (٤).

وقرأ ابن مسعود وأبى بن كعب: وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون (٥).

وكذلك قرأ ابن عباس

[ثالثاً]: من أقوال التابعين ومن بعدهم:

عن زيد أسلم في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: ما جبلوا عليه من الشقاء والسعادة (٦).

وعن أبي الجوزاء قال: أنا أرزقهم وأنا أطعمهم، وما خلقتهم إلا ليعبدون (٧). وعن سفيان قال: من خلق للعبادة (٨).

وعن السدي قال: خلقتهم للعبادة، فمن العبادة ما ينفع، ومنها ما لا ينفع (٩).

وقال الكلبي والضحاك وسفيان: هذا خاص لأهل طاعته من الفريقين (١٠).

وقال مجاهد: إلا ليعرفوني قال البغوي: وهذا حسن - ونقل القرطبي هذا التحسين عن الثعلبي -؛ لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده وسيأتي (١١).

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين والحاكم في التاريخ والبيهقي في «الشعب» والديلمي في مسند الفردوس، وانظر المصدر السابق.

(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم، المصدر السابق.

(٣) أخرجه ابن المنذر، المصدر السابق. (٤) معالم التنزيل (٥/ ٢٣٠).

(٥) انظر فتح القدير (٩٢/٥) وانظر «معالم التنزيل» (٥/ ٢٣٠).

(٦) (٨) أخرجه ابن جرير (٨/ ٢٧/ ١١) وابن المنذر، كما في «الدر».

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة، كما في «الدر».

(٩) فتح الباري (٤٤٦/٨).

(١٠) (١١) معالم التنزيل (٥/ ٢٣٠).

وقال سعيد بن المسيب: ما خلقتُ من يعبدني إلا ليعبدني^(١).

وقال مجاهد: إلا لأمرهم وأنهاهم^(٢).

وعن الكلبي: إلا ليوحدون، أما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء^(٣).

وعن عكرمة قال: إلا ليعبدون ويطيعون، فأثبت العابد، وأعاقب الجاحد^(٤).

وقال ابن جريج: إلا ليعرفون^(٥).

وقال الربيع بن أنس: إلا للعبادة^(٦).

وقال السدي: من العبادة ما ينفع، ومنها ما لا ينفع ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع الشرك^(٧). وسيأتي مناقشة هذه الآثار لما بينها من اختلاف.

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين.

قال الطبري^(٨): قال بعضهم: معنى ذلك: وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتي، والأشقياء منهم لمعصيتي. وذكر من قال بذلك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلا ليدعوا لى بالعبودة. وذكر من قال بذلك.

ثم قال: وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرنا عن ابن عباس، وهو ما خلقت الجن والإنس إلا لعبادتنا، والتذلل لأمرنا.

● فإن قال قائل: فكيف كفروا وقد خلقهم للتذلل لأمره؟

قيل: أنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم، لأن قضاءه جار عليهم لا يقدرّون من الامتناع منه إذا نزل بهم، وإنما خالفه من كفر به في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه. اهـ.

(١) زاد المسير (٧/٢٥٩).

(٢) ٣ - ٤) انظر تفسير القرطبي (٩/٦٢٢٦).

(٥) ٦ - ٧) تفسير ابن كثير (٤/٢٣٠).

(٨) تفسير الطبري (١١/٢٧٨).

قال البغوى^(١): قيل: إلا ليخضعوا لى ويتذلّلوا.

ومعنى العبادة فى اللغة: التذلّل والانقياد، فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله، متذلّل للمشيئة، لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق عليه قدر ذرة من نفع ولا ضرر.

وقال قبل هذا - عن قول مجاهد المتقدم إلا ليعرفونى -: وهذا حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لم يُعرف وجوده وتوحيده، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾. اهـ.

قال الزمخشرى^(٢): أى وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها.

● فإن قلت: لو كان مريداً للعبادة منهم لكانوا عباداً؟

قلت: إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لامضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين فاخترار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريداً لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعه. يريد شأنى مع عبادى ليس كشأن السادة مع عبيدهم، فإن ملاك العبيد إنما يملكونهم لستعينوا بهم فى تحصيل معاشهم وأرزاقهم، فإما مجهز فى تجارة ليفى ربحاً، أو مرتب فى فلاحه ليغتنل أرضاً، أو مسلم فى حرفة ليتنفع بأجرته، أو محتطب، أو محتش، أو مشتق أو طابخ أو خابز، وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التى هى تصرف فى أسباب المعيشة وأبواب الرزق، فأما مالك العبيد وقال لهم اشتغلوا بما يسعدكم فى أنفسكم، ولا أريد أن أصرفكم فى تحصيل رزقى ولا رزقكم، وأنا غنى عنكم وعن مرافقتكم، ومتفضل عليكم برزقكم، وبما يصلحكم ويعيشكم من عندى، فما هو إلا أنا وحدى. اهـ.

وقال ابن الجوزى^(٣): اختلفوا فى الآية على أربعة أقوال:

[أحدها]: إلا لأمرهم أن يعبدونى. قاله على بن أبى طالب، واختاره الزجاج.

[الثانى]: إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً. قاله ابن عباس، وبيان هذا قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

(١) معالم التنزيل (٥/ ٢٣٠).

(٢) الكشف (٤/ ٣٢).

(٣) زاد المسير (٧/ ٢٥٨، ٢٥٩).

[الثالث]: أنه خاص في حق المؤمنين. قال الضحاك والفراء وابن قتيبة: هذا خاص لأهل طاعته، وهذا اختيار القاضي أبي يعلى، فإنه قال: معنى هذا الخصوص لا العموم، لأن البُله والأطفال والمجانين لا يدخلون تحت الخطاب وإن كانوا من الإنس، فكَذلك الكفار يخرجون من هذا بدليل قوله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ فمن خلق للشقاء ولجهنم لم يخلق للعبادة.

[الرابع]: إلا ليخضعوا إلى ويتذلّلوا.

ومعنى العبادة في اللغة: الذل والانقياد، وكل الخلق خاضع ذليل لقضاء الله عزوجل، لا يملك خروجاً عما قضاه عزوجل، هذا هو مذهب جماعة من أهل المعاني اهـ.

وقال الرازي^(١): ما العبادة التي خلق الجن والإنس لها؟

قلنا: التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، فإن هذين النوعين لم يخل الشرع منهما وأما خصوص العبادات، فالشرائع مختلفة فيها بالوضع والهيئة والقلة والكثرة والزمان والمكان والشرائط والأركان، ولما كان التعظيم اللائق بذى الجلال والإكرام لا يعلم عقلاً لزم اتباع الشرائع فيها والأخذ بقول الرسل عليهم السلام فقد أنعم الله على عباده بإرسال الرسل، وإيضاح السبل في نوعي العبادة، وقيل: إن معناه ليعرفوني. اهـ.

قال القرطبي^(٢): وقيل: إلا لأستعبدهم. والمعنى متقارب، تقول: عبداً بين العبودة والعبودية.

وأصل العبودية: الخضوع والتذلّل. والتعبيد التذليل، يقال: طريق معبد.

- قال طرفة بن العبد -: [وظيفاً وظيفاً فوق مورٍ مُعَبَّد]

والتعبد: الاستعباد، وهو أن يتخذ عبداً. وكذلك الاعتباد، والعبادة: الطاعة، والتعبد: التنسك.

فمعنى ﴿لِيَعْبُدُون﴾ ليزلّوا ويخضعوا ويعبدوا. اهـ.

قال ابن كثير^(٣): ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب. اهـ.

(١) التفسير الكبير (١٤/٢٨/٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) تفسير القرطبي (٩/٦٢٢٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/٢٣٠).

قال الشوكاني^(١): جملة «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» مستأنفة مقررة لما قبلها أن كون خلقهم لمجرد العبادة مما ينشط رسول الله ﷺ للتذكير وينشطهم للإجابة. ثم عرض الشوكاني الأقوال المتقدم ذكرها وقال: وقال جماعة: إلا ليخضعوا لى ويتذلّلوا. اهـ.

وقال صاحب الظلال^(٢): إن هذا النص الصغير ليحتوى حقيقة ضخمة هائلة، من أضخم الحقائق الكونية التى لاتستقيم حياة البشر فى الأرض بدون إدراكها واستيقانها، سواء كانت حياة فراد أم جماعة، أم حياة الإنسانية كلها فى جميع أدوارها وأعصارها. ثم قال: هذه الوظيفة المعينة التى تربط الجن والإنس بناموس الوجود هى العبادة لله، أو هى العبودية لله. اهـ.

● خلاصة الأقوال السابقة فى تفسير الآية «إِلَّا لِيَعْبُدُونِ».

[قلت]: (الأول): ليقروا بالعبادة طوعاً أو كرهاً.

(الثانى): إلا لآمرهم أن يعبدون وأدعوهم إلى عبادتى.

(الثالث): خاصة بالمؤمنين دون الكافرين.

(الرابع): على ما خلقتهم عليهم من طاعى ومعصيتى، وشقوتى وسعادتى.

(الخامس): خلقهم للعبادة، فمن العبادة ما ينفع، ومنها ما لاينفع.

(السادس): إلا ليوحدون.

(السابع): إلا ليعرفونى.

(الثامن): ليخضعوا لى ويتذلّلوا.

(التاسع): لاستعبدهم. وسيأتى تفصيل ذلك من كلام أهل العلم والراجح من

هذه الأقوال. والله المستعان.

وقال البخارى فى تفسيره من «الصحيح»^(٣): «إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»: ما خلقت أهل السعادة من أهل الفريقين إلا ليوحدون.

وقال بعضهم: خلقهم ليفعلوا، ففعل بعض، وترك بعض وليس فيه حجة لأهل القدر. اهـ.

(١) فتح القدير (٩٢/٥).

(٢) (٣٣٨٧، ٣٣٨٦/٦).

(٣) فتح البارى (٤٦٣/٨، ٤٦٤).

وقال ابن حجر: هو كلام الفراء. وحاصل التأويلين أن الأول محمول على أن اللفظ العام مراد به الخصوص، وأن المراد أهل السعادة من الجن والإنس، والثانى باق على عمومته، لكن بمعنى الاستعداد، أى خلقهم معدين لذلك، لكن منهم من أطاع، ومنهم من عصى، وهو كقولهم: الإبل مخلوقة للحرث، أى قابلة لذلك لأنه قد يكون فيها ما لا يحترث.

وأما قوله: (وليس فيه حجة لأهل القدر) فيريد المعتزلة، لأن محصل الجواب: أن المراد بالخلق خلق التكليف لا خلق الجبلة، فمن وفقه عمل لما خلق له، ومن خذله خالف والمعتزلة احتجوا بالآية المذكورة على أن إرادة الله لا تتعلق به.

والجواب: أنه لا يلزم من كون الشيء معللاً بشيء أن يكون ذلك الشيء، وألا يكون غيره مراداً.

ويحتمل أن يكون مراده بقوله: (وليس فيه حجة لأهل القدر) أنهم يحتجون بها على أن أفعال الله لا بد وأن تكون معلولة فقال: لا يلزم من وقوع التعليل فى موضع وجوب التعليل فى كل موضع.

ونحن نقول بجواز التعليل لا بوجوبه، أو لأنهم احتجوا بها على أن أفعال العباد مخلوقة لهم لإسناد العبادة إليهم فقال لا حجة لهم فى ذلك، لأن الإسناد من جهة الكسب وفى الآية تأويلات أخرى يطول ذكرها اهـ.

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن (١):

قوله تعالى: (الجن والإنس) الألف واللام فيهما للماهية، أى ما خلقت ماهية الجن والإنس إلا للعبادة، ويحتمل أن يكون لاستغراق صنوف الجن وصنوف الإنس، لأن كل نوع من نوعي الجن والإنس مشتمل على أصناف متغايرة متعددة، وهذا أليق بالمقام؛ لدلالة تعدد الأجناس والأنواع والأصناف على كمال القدرة، وكمال العلم بالجزئيات، والكليات، واللذين هما فى الدلالة على الألوهية كما قيل: كأنه علم فى رأسه نار. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٢)

واعلم أن كل مصنوع لا بد فيه من تصور أربع علل : علة الفاعلية، وعلة الصورية،

(١) فتح الله الحميد المجيد ٤٨/٤٩.

(٢) الطلاق : ١٢.

وعلة المادية ، وعلة الغائية ، فإذا عرفت ذلك أن الجن والإنس مصنوعان من مصنوعات الله ، قال تعالى ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (١) فيلزم فيهما ما يلزم في غيرهما .
 فالفاعل الله وحده ، جل جلاله ، وعمّ نواله قال تعالى : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ (٢) والآلة في الإنس : الطين ، قال تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ (٣) والآلة في الجن : النار ، قال تعالى : ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (٤) والصورة ، هذه الصورة الحسنة المثلثة في الإنس ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٥) والصورة في الجن : الجسم اللطيف المخفى عن الأعين ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (٦) والغاية من خلقهما العبادة ، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ . أهـ .
 قال ابن عثيمين (٧) : قوله : ﴿خَلَقْتُ﴾ ؛ أي : أوجدت ، وهذا للإجابة مسبوق بتقدير ، وأصل الخلق التقدير .

قال الشاعر :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعض الناس يخلق ثم لا يفرى

● قوله ﴿الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ .

قال ابن عثيمين : قوله : ﴿الْجِنَّ﴾ : هم عالمٌ غيبيٌّ مخفىٌ عنا ، ولهذا جاءت المادة من الجيم والنون ، وهما يدلان على الخفاء والاستتار .
 ومنه الجنة ، والجنة ، والجنة قلت : والجنين ومنه قوله تعالى ﴿فلما جن عليه الليل﴾ .
 قول : ﴿الْإِنْسَ﴾ سُموا بذلك ؛ لأنهم لا يعيشون بدون إناس ؛ فهم يأنس بعضهم ببعض ، ويتحرك بعضهم إلى بعض . أهـ .

(١) النمل : ٨٨ .

(٢) الرحمن : ١٤ ، ١٥ .

(٣) الصافات : ١١ .

(٤) الحجر : ٢٧ .

(٥) التين : ٤ .

(٦) الأعراف : ٢٧ .

(٧) القول المفيد (١/٢٦) .

● قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُون﴾.

قال الفقير: ذكر العلماء من أهل السنة ومن غيرهم في هذه الآية تسعة أقوال ذكر الطبري منها قولين وذكر ابن الجوزي أربعة وذكر القرطبي نحو ما ذكر ابن الجوزي وجمع ابن تيمية كل هذه الأقوال وتعقبها وجاء بالدليل القاطع على الراجح - وهو ما سلكه المصنف وعليه الجمهور كما سيأتي - وسأذكر كلامه بنصه مع شيء من الترتيب وإضافة بعض الألفاظ أو العناوين للتوضيح.

[القول الأول]: قول نفاة الحكمة والرد عليهم.

قال ابن تيمية^(١): وأما «نفاة الحكمة» كالأشعري وأتباعه كالقاضي أبي بكر وأبي يعلى وغيرهم، فهؤلاء أصلهم أن الله لا يخلق شيئاً لشيء، فلم يخلق أحداً للعبادة ولا غيرها، وعندهم ليس في القرآن لام كي، لكن قد يقولون: في القرآن لام العاقبة، كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وكذلك يقولون في قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ يعنون كان عاقبة هؤلاء جهنم، وعاقبة المؤمنين العبادة من غير أن يكون الخالق قصد أن يخلقهم لا لهذا ولا لهذا، ولكن أراد خلق كل ما خلقه. لالشيء آخر فهذا قولهم، وهو ضعيف لوجوه:

(أحدها) أن لام العاقبة التي لم يقصد فيها الفعل لأجل العاقبة إنما تكون من جاهل أو عاجز. فالجاهل كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لم يعلم فرعون بهذه العاقبة، والعاجز كقولهم: «لدوا للموت»، وابنوا للخراب». فإنهم يعلمون هذه العاقبة؛ لكنهم عاجزون عن دفعها، والله تعالى عليم قدير. فلا يقال: إن فعله كفعل الجاهل العاجز.

(الثاني) أن الله أراد هذه الغاية بالاتفاق. فالعبادة التي خلق الخلق لأجلها هي مرادة له بالاتفاق، وهم يسلمون أن الله أرادها، وحيث تكون اللام للعاقبة لا يكون الفاعل أراد العاقبة، وهؤلاء يقولون خلقهم وأراد أفعالهم، وأراد عقابهم عليها فكلما وقع فهو مراد له؛ ولكنه عندهم لا يفعل مراداً أصلاً لأن الفعل للعلة يستلزم الحاجة، وهذا ضعيف بين الضعف، وأهل الخصوص قالوا: مثل هذا الجواب.

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٤ ، ٤٥).

[القول الثانى]: أنه خاص فى حق المؤمنين.

قال ابن تيمية^(١): قالوا: وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هو مخصوص بمن وقعت منه العبادة، وهذا قول طائفة من السلف والخلف. قالوا: والمراد بذلك من وجدت منه العبادة، فهو مخلوق لها، ومن لم توجد منه فليس مخلوقاً لها؛ وعن سعيد بن المسيب قال: ما خلقت من يعبدنى إلا ليعبدنى؛ وكذلك قال الضحاك والفراء وابن قتيبة - وهذا قول خاص بأهل طاعته - قال الضحاك: هي للمؤمنين؛ وهذا قول الكرامية. كما ذكره محمد بن الهيصم. قال: ويدل عليه قوله قبل ذلك: (فتول عنهم) ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى هؤلاء المؤمنين الذين تنفعهم الذكرى.

قالوا: وهي غاية مقصودة واقعة، فإن العبادة وقعت من المؤمنين، وهذا القول اختيار أبى بكر بن الطيب: والقاضى أبى يعلى وغيرهما عن يقول: إنه لا يفعل لعله.

قالوا: - واللفظ للقاضى أبى يعلى -: هذا بمعنى الخصوص لا العموم؛ لأن البه والأطفال والمجانين لا يدخلون تحت الخطاب. وإن كانوا من الإنس. وكذلك الكفار يخرجون من هذا بدليل قوله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾^(٢). فمن خلق للشقاء ولجهنم لم يخلق للعبادة.

[قلت]: - أى ابن تيمية - قول هؤلاء الكرامية ومن وافقهم. وإن كان أرجح من قول الجهمية والمعتزلة، فيما أثبتوه من حكمة الله؛ وقولهم فى تفسير الآية، وإن وافقوا فيه بعض السلف فهو قول ضعيف مخالف لقول الجمهور، ولما تدل عليه الآية.

فإن قصد العموم ظاهر فى الآية، وبين بياناً لا يحتمل النقيض، إذ لو كان المراد المؤمنين فقط لم يكن فرق بينهم وبين الملائكة؛ فإن الجميع قد فعلوا ما خلقوا له ولم يذكر الإنس والجن عموماً. ولم تذكر الملائكة، مع أن الطاعة والعبادة وقعت من الملائكة دون كثير من الإنس والجن.

و(أيضاً) فإن سياق الآية يقتضى أن هذا ذم وتوبيخ لمن لم يعبد الله منهم لأن الله

(١) مجموع الفتاوى ٣٩/٨

(٢) الأعراف: ١٧٩.

خلقه لشيء فلم يفعل ما خلق له، ولهذا عقبا بقوله: ﴿مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ (١) فإثبات العبادة ونفسى هذا يبين أنه خلقهم للعبادة، ولم يرد منهم ما يريد السادة من عبيدهم من الإعانة لهم بالرزق والإطعام؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ (٢) أى نصيباً ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ (٢) أى المتقدمين من الكفار . أى نصيباً من العذاب وهذا وعيد لمن لم يعبد من الإنس والجن؛ فذكر هذا الوعيد عقيب هذه الآية من أولها إلى آخرها يتضمن وعيد من لم يعبد.

وذكر عقابه لهم فى الدنيا والآخرة فقال فى أولها: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ (٣) إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ (٤) ثم ذكر قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ﴾ (٥) ثم ذكر وعيد الآخرة بقوله: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (٦) ثم ذكر وعده للمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصَرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ (٧) ثم ذكر قصص من آمن فنفعه إيمانه، ومن كفر فعذبه بكفره. فذكر قصة إبراهيم ولوط وقومه وعذابهم. ثم قال: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٨) أى فى قصة موسى آية أيضاً فهذا كله يتضمن أمر الإنس والجن بعبادته وطاعته وطاعة رسله واستحقاق منافع العقوبة فى الدنيا والآخرة فإذا قال بعد ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

(١) الذاريات : ٥٦

(٢) الذاريات : ٥٩.

(٣) الذاريات : ١١

(٤) الذاريات : ٥ .

(٥) الذاريات : ٨

(٦) الذاريات : ١٠-.

(٧) الذاريات : ٢٣/١٥

(٨) الذاريات : ٣٧، ٣٨.

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿١﴾ كان هذا مناسباً لما تقدم مؤتلفاً معه: أى هؤلاء الذين أمرتهم، إنما خلقتهم لعبادتي ما أريد منهم غير ذلك، لارزقا ولاطعاماً.

فإذا قيل لم يرد بذلك إلا المؤمنين، كان هذا مناقضاً لما تقدم يعنى فى السورة وصار هذا كالعذر لمن لايعبده ممن ذمه الله ووبخه، وغايته يقول : أنت لم تخلقنى لعبادتك وطاعتك، ولو خلقتنى لها لكنت عابداً، وإنما خلقت هؤلاء فقط لعبادتك، وأنا خلقتنى لأكفر بك وأشرك بك، وأكذب رسلك، وأعبد الشيطان واطيعه، وقد فعلت ماخلقتنى له كما فعل أولئك المؤمنون ماخلقتهم له، فلا ذنب لى ولا استحق العقوبة؛ فهذا وأمثاله ممايلزم أصحاب هذا القول، وكلام الله منزّه عن هذا، وهم إنما قالوا هذا؛ لأن الله تعالى فعال لما يريد، قالوا فلو كان أراد منهم ان يطيعوه لجعلهم مطيعين ، كما جعل المؤمنين.

ثم يبين السبب الذى جعلهم يسلكون هذا المسلك فى تفسير الآية إلى الخصوص فقال: والقدرية يقولون : لم يرد من هؤلاء ولا هؤلاء إلا الطاعة؛ لكن هو لم يجعل لا هؤلاء ولاهؤلاء مطيعين؛ بل الإرادة بمعنى الأمر يأمر بها الطائفتين، فهؤلاء عبوده بأن أحدثوا إرادتهم وطاعتهم، وهؤلاء عصوه بأن أحدثوا إرادتهم، ومعصيتهم وأولئك الكرامية وغيرهم علموا قول القدرية من جهة أن الله خالق كل شئ وربّه ومليكه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون فى ملكه إلا ماشاء، ولا يكون فى ملكه شئ إلا بقدرته وخلقه ومشيئته. كما دل على ذلك السمع والعقل، وهذا مذهب الصحابة قاطبة، وأئمة المسلمين وجمهورهم، وهو مذهب أهل السنة؛ فلاجل هذا عدل أولئك فى تفسيره الآية إلى الخصوص، فإنهم لم يمكنهم الجمع بين الإيمان بالقدر وبين أن يكون خلقهم لعبادته، فلم تقع منهم العبادة له، وقالوا : من ذرأه لجهنم لم يخلقه لعبادته، فمن قال: خلق الخلق ليعبده المؤمنون منهم سلك هذا المسلك وسيأتى وجه الجمع [القول الثالث]: هى على العموم واختلفوا على خمسة أقوال.

(الأول) إلا ليخضعوا إلىّ ويتذلّلوا.

قال ابن تيمية: (١) وطائفة أخرى قالوا: هي على العموم لكن المراد بالعبادة تعبيده لهم. وقهره لهم، ونفوذ قدرته ومشيتته فيهم. وأنه أصارهم الى ما خلقهم له، من السعادة والشقاوة، هذا جواب زيد بن أسلم وطائفة، وهذا القول الثاني في تفسير الآية. اهـ.

قلت: وهو أحد القولين الذين ذكرهما ابن جرير.

ثم قال: وروى ابن أبي حاتم عن ابن جريج، عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: جبلهم على الشقاوة والسعادة (٢) وقال وهب بن منبه: جبلهم على الطاعة، وجبلهم على المعصية، وهذا يشبه قول من قال في تفسير قول النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» (٣) أى: على ما كتب له من سعادة وشقاوة، كما قال ذلك طائفة منهم ابن المبارك وأحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه، وقد قيل لمالك: أهل القدر يحتجون علينا بهذا الحديث، فقال احتجوا عليهم بآخره، وهو قوله: «الله أعلم بما كانوا عاملين» (٤) وهذا الجواب يصلح أن يجاب به على من انكر العلم كما كان على ذلك طائفة من القدماء وهم المعروفون بالقدرية في لغة مالك.

إلى أن قال: ومن فسر هذه الآية بأن المراد بـ(يعبدون) هو ما جبلهم عليه، وما قدره عليهم من السعادة والشقاوة وأن ذلك هو معنى الحديث، فإن هؤلاء جعلوا معنى يعبدون بمعنى يستسلمون لمشيئتي وقدرتي، فيكونون معبدين مذللين كي يجرى عليهم حكمي ومشيتي لا يخرجون عن قضائي وقدرى، فهذا معنى صحيح فى نفسه، وإن كانت القدرية تنكره فيبتكارهم لذلك صاروا من أهل البدع، بل الله خالق كل شيء وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وفى استعاذة النبي ﷺ (أعوذ بكلمات الله التامة التى لا يجاوزها برولا فاجر من شر ما ذراً وبرأ وأعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده» (٥) فكللماته التامة هى التى كون بها الأشياء كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ

(١) مجموع الفتاوى ٤٥/٨ : ٤٨.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدرة» (١٤٢/٦) ونسبه لابن جرير وابن المنذر.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (ح ٤٧٧٥) ومسلم (٢٠٧/١٦) ، ٢٠٨ - القدر، وأبو داود (ح ٤٧١٤) والترمذى (ح ٢١٣٨) من حديث أبى هريرة

وانظر فتح ذى الجلال: (ح ٤٠٨) بتخریجنا.

(٤) تقدم فيما قبل.

(٥) أخرجه أبو داود (٣٨٩٣) ، والترمذى (٣٥٢٨).

شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١﴾ لا يجاوزها بر ولا فاجر ولا يخرج أحد عن القدر المقدور ولا يتجاوز ما خط له في اللوح المسطور وهذا المعنى قد دل عليه القرآن في غير موضع كقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ (٢) الآية وقوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (٣). ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٤) وقوله في السحر: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٥) ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ (٦) ونحو ذلك.

ولكن قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لم يرد به هذا المعنى الذى ذهبوا اليه وحاموا حوله - من أن المخلوقات كلها تحت مشيئته وقهره وحكمه. فالمخلوقات كلها داخلة فى هذا لايشذ منها شيء عن هذا. وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٧) وَأَنْ اعْبُدُونِي ﴿٧﴾ الآية. وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (٨) ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ (٩) ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (١٠) وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ (١١).

فهذا ونحوه كثير فى القرآن. لم يرد بعبادة الله إلا العبادة التى أمرت بها الرسل،

= قال الترمذى: حسن غريب

وانظر الأذكار للنووى (٢٧٢) - بتخریجنا

(١) يس الآية (٨٢)

(٢) الأعراف الآية (١٧٩)

(٣) الأنعام الآية (١١١)

(٤) الحج الآية (٧٠)

(٥) البقرة الآية (١٠٢)

(٦) الأنعام: الآية (١٢٥)

(٧) يس: الآية (٦٠ ، ٦١)

(٨) النساء: الآية (٣٦)

(٩) الزمر: الآية (١٧)

(١٠) الزمر: الآية (٣)

(١١) يونس: الآية (١٨)

وهي عبادته وحده لا شريك له، والمشركون لا يعبدون الله، بل يعبدون الشيطان وما يدعونه من دون الله. سواء عبدوا الملائكة أو الأنبياء والصالحين، أو التماثيل والأصنام المصنوعة فهؤلاء المشركون قد عبدوا غير الله تعالى، كما أخبر الله بذلك. فكيف يقال: إن جميع الإنس والجن عبدوا الله؟ لكون قدر الله جارياً عليهم، والفرق ظاهر بين عبادتهم إياه التي تحصل بإرادتهم واختيارهم وإخلاصهم الدين له وطاعة رسوله. وبين أن يعبدهم هو وينفذ فيهم مشيئته، وتكون عبادتهم لغيره: للشيطان وللأصنام، من المقدور.

وهذا يشبه قول من يقول من المتأخرين: أنا كافر برب يعصى، فيجعل كلما يقع طاعة، كما جعله هؤلاء عبادة لله تعالى، لكونهم تحت المشيئة، وكان بعض شيوخهم يقول عن إبليس: إن كان عصى الأمر، فقد أطاع المشيئة، لكن هؤلاء مباحية، يسقطون الأمر.

وأما زيد بن أسلم، ووهب بن منبه، ونحوهم، فحاشاهم من مثل هذا: فإنهم كانوا من أعظم الناس تعظيماً للأمر والنهي، والوعد والوعيد، ولكن قصدوا الرد على المكذبين بالقدر. القائلين: بأنه يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء وهؤلاء حقيقة قولهم: إنه لا يقدر على تعبيدهم، وتصريفهم تحت مشيئته، فأرادوا إبطال قول هؤلاء ونعم ما أرادوا! لكن الكلام فيما أريد بالآية.

وقول أولئك؛ الإباحية يشبه قول من قال: إن العارف إذا شهد المشيئة سقط عنه الملام، وإنه إذا شهد الحكم - يعنى المشيئة - لم يستحسن ولم يستقبح سببه، ونحو هذا من أقوال هؤلاء الذين تشبه أقوالهم أقوال المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ (١) كما قد بسط الكلام عليه. وبين أن إثبات القدر السابق حق، لكن ذلك هو الذى يصير العبد إليه، ليس هو الذى فطر عليه، كما قال النبى ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» (٢). فقد بين النبى ﷺ بمثل ضربته أن البهيمة تولد سليمة ثم تجدد، والجدع كان مقدراً عليها. كذلك العبد يولد على الفطرة سليماً، ثم يفسد بالتهود والتنصير، وذلك كان مكتوباً أن يكون. وصاحب هذا القول إنما قاله ليبين ما خلقوا له.

(١) الأنعام: الآية (١٤٨)

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(الثاني) إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً ورجحه الطبري.

قال ابن تيمية^(١): وصاحب هذا القول إنما قاله ليبين ما خلقوا له وقد قصد هذا طائفة.

فسروا العبادة بأمر واقع عام، وليست هي العبادة المأمور بها على ألسن الرسل. ففي تفسير ابن أبي طلحة المضاف الى ابن عباس: إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً^(٢) وهذه العبودية كقوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾^(٣) وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾^(٤) والصحيح انه انقيادهم لحكمه القدرى بغير اختيارهم. كاستسلامهم عند المصائب وانقيادهم لما يكرهون من أحكامه الشرعية، فكل أحد لابد له من انقياده لحكمه القدرى والشرعى، فهذا معنى صحيح. قد بسط فى غير هذا الموضع، لكن ليس هو العبادة.

ثم قال وقد ذكر أبو الفرج قول ابن عباس هذا. قال: وبيان هذا قوله ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِهِمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٥) وهذه الآية توافق من قال: إلا ليعرفون؛ كما سيأتى. وهؤلاء الذين أفروا بأن الله خالقهم لم يقرؤا بذلك كرهاً، بخلاف إسلامهم وخضوعهم له فانه يكون كرهاً، وأما نفس الاقرار فهو فطرى فطروا عليه وبذلوه طوعاً.

(الثالث) قال ابن تيمية^(٦): روى ابن أبى حاتم عن زائدة عن السدى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: خلقهم للعبادة، فمن العبادة عبادة تنفع ومن العبادة عبادة لا تنفع ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع شركهم، وهذا المعنى صحيح، لكن المشرك يعبد الشيطان، وما عدل به الله لا يعبد، ولا يسمى مجرد الاقرار بالصانع عبادة لله مع الشرك بالله، ولكن يقال كما قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾^(٧) فايما نهم بالخالق مقرون

(١) «مجموع الفتاوى» (٤٨/٨)، (٤٩)

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٨٦٦٨) فانظره بتخريجنا

(٣) آل عمران: الآية (٨٣)

(٤) الرعد: الآية (١٥)

(٥) الزخرف: الآية (٨٧)

(٦) «مجموع الفتاوى» (٨/٥٠)

(٧) يوسف: الآية (١٠٦)

بشركهم به، وأما العبادة ففي الحديث «يقول الله: انا اغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء، وهو كله للذى أشرك»^(١) فعبادة المشركين وإن جعلوا بعضها لله لا يقبل منها شيئاً، بل كلها لمن أشركوه. فلا يكونون قد عبدوا الله سبحانه، ومثل هذا قول من قال: إلا ليوحدون فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء، دون النعمة والرخاء، بيانه في قوله: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»^(٢).

(الرابع): قال ابن تيمية:^(٣) ذكر ابن ابي حاتم عن ابن جريج، قال: ليعرفون، قال: وروى عن قتادة، وذكره البغوى عن مجاهد. قال: وقال مجاهد إلا ليعرفون قال: وهذا قول حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده، ودليله قوله: «وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»^(٤) فيقال: هذا المعنى صحيح؛ وكونه إنما عرف بخلقهم يقتضى أن خلقهم شرط فى معرفتهم، لا يقتضى أن يكون ما حصل لهم من المعرفة هو الغاية التى خلقوا لها، وهذا من جنس قول السدى، فان هذا الاقرار العام هم مشركون فيه، كما قال: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَى آدَمَ»^(٥) لكن ليس هذا هو العبادة.

ثم عقب على هذه الأقوال الأربعة بقول:

فهذه «الأقوال الأربعة»: قول من عرف أن الآية عامة فأراد أن يفسرها بعبادة تعم الإنسان والجن، واعتقد أنه (إن) فسرهما بالعبادة المعروفة، وهى الطاعة لله والطاعة لرسله، لزم أن تكون واقعة منهم، ولم تقع؛ فأراد أن يفسرها بعبادة واقعة، وظن أنه إذا فسرهما بعبادة لم تقع لزمه قول القدرية، وأنه خلقهم لعبادته فعصوه بغير مشيئته وغير قدرته، ففروا من قول القدرية وهم معذرون فى هذا الفرار؟ لكن فسروها بما لم يرد بها، كما يصيب كثير من الناس فى الآيات التى يحتج أهل البدع بظاهرها، كاحتجاج الرافضة بقوله: «وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ»^(٦) على مسح ظهر القدمين، فترى المخالفين

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الزهد» (٥٩٢/٢ - الحلبى) وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٦١٩ - «فتح المجيد» (ح ٧٠٠) بتخريجنا).

(٢) العنكبوت: الآية (٦٥)

(٣) مجموع الفتاوى (٥٠ / ٨)

(٤) الزخرف: الآية (٨٧)

(٥) الاعراف: الآية (١٧٢)

(٦) المائدة: الآية (٦)

لهم يذكرون أقوالاً ضعيفة، هذا يقول مجروراً بالمجاورة كقولهم «جحر ضب خرب»، ونحو هذا من الأقوال الضعيفة، كذلك ما قالوه في قوله «فحج آدم موسى»^(١) وأمثال ذلك.

(الخامس) وهو قول الجمهور وعليه عامة أهل العلم وانتصر له ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب والشنقيطي وغيرهم كما سيأتى من أقوالهم وما استدلوا به.

قال ابن تيمية:^(٢) الذى عليه جمهور المسلمين، أن الله خلقهم لعبادته وهو فعل ما أمروا به، ولهذا يوجد المسلمون قديماً وحديثاً يحتجون بهذه الآية على هذا المعنى حتى فى وعظهم وتذكيرهم وحكاياتهم، كما فى حكاية إبراهيم بن أدهم؛ ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت؛ وفى حديث إسرائيل «يا ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، فاطلبنى تجدنى؛ فان وجدتنى وجدت كل شيء؛ وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء» وهذا هو المأثور عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب؛ وغيره من السلف فذكروا عن على بن أبى طالب أنه قال: إلا لأمرهم أن يعبدون، وأدعواهم الى عبادتى.

قالوا: ويؤيده قوله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ دِينَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾^(٣) وهذا اختيار الزجاج وغيره. وهذا هو المعروف عن مجاهد بالاسناد الثابت.

قال ابن أبى حاتم: ثنا أبو سعيد الأشج، ثنا أبو اسامة عن شبل، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لأمرهم وأنهاهم^(٤) كذلك روى عن الربيع بن أنس قال: «وما خلقتهم إلا للعبادة»^(٥).

ويدل على هذا مثل قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(٦) يعنى لا يؤمر ولا

(١) سيأتى تخريجه

(٢) مجموع الفتاوى ٥/٨ : ٥٣

(٣) البينة: الآية (٥).

(٤) التوبة: الآية (٣١)

(٥) ذكره القرطبي فى «تفسيره» (٩/٦٢٢٥) وانظر «فتح المجيد - بتخریجنا» (٢١)

(٦) القيامة: الآية (٣٦).

ينهى. وقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾^(١) أى لولا عبادتكم وقوله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾^(٢) وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟﴾ إلى قوله: ﴿وَأَهْلَهَا غَافِلُونَ﴾^(٣) وقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٤) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٥) الآيات. وما بعدها. وقالت الجن لما سمعوا القرآن: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾^(٦) الآية. وما بعدها وقالت الجن: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾^(٧) الآية. وما بعدها.

وقد قال فى القرآن فى غير موضع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾^(٨) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾^(٩) فقد أمرهم بما خلقهم له وأرسل الرسل إلى الانس والجن، ومحمد أرسل إلى الثقلين، وقرأ القرآن على الجن، وقد روى انه لما قرأ عليهم سورة الرحمن. وجعل يقرأ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(١٠) يقولون: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد^(١١). فهذا هو المعنى الذى قصد بالآية قطعاً، وهو الذى تفهمه جماهير المسلمين، ويحتجون بالآية عليه: ويعترفون بأن الله خلقهم ليعبدوه. لا ليضيعوا حقه.

قال الشنقيطى: (١٠) التحقيق إن شاء الله فى معنى هذه الآية الكريمة ﴿لَا لِعِبَادُونَ﴾

(١) الأعراف: الآية ٧٧.

(٢) النساء: الآية ١٤٧.

(٣) الأنعام: الآية ١٣١.

(٤) يس: الآية ٦٠.

(٥) الأحقاف: الآية ٣٠.

(٦) الجن: الآية ١٤.

(٧) البقرة: الآية ٢١.

(٨) النساء: الآية ١.

(٩) [مقارب للحسن] أخرجه الترمذى (٣٢٩١)، والحاكم فى «المستدرک» (١٥٠/٢)، والبيهقى فى

«الدلائل» (٢٣٢/٢) عن جابر به.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (١٠١٣).

(١٠) أضواء البيان (٧/٤٤٥ و ٤٤٦).

أي إلا لأمرهم بعبادتي وابتليهم أي اختبرهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وإنما قلنا إن هذا هو التحقيق في معنى الآية، لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتلهم أيهم أحسن عملاً، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم.

قال تعالى في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾^(١) ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(٢) وقال تعالى في سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٣) وقال تعالى في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٤) فتصريحه جل وعلا في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق، هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً، يفسر قوله ﴿لَعَبْدُونَ﴾ وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

ومعلوم أن نتيجة العمل المقصود منه لا تتم إلا بجزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولذا صرح تعالى بأن حكمة خلقهم أولاً وبعثهم ثانياً، هو جزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وذلك في قوله تعالى في أول يونس: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾^(٥) وقوله في النجم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾^(٦).

وقد أنكر تعالى على الإنسان حسابانه وظنه أنه يترك سدى، أي مهملاً، لم يؤمر ولم ينه، وبين أنه ما نقله من طور إلى طور حتى أوجده إلا ليعثه بعد الموت أي

(١) هود : ٧ .

(٢) هود : ٧ .

(٣) الملك : ٢ .

(٤) الكهف : ٧ .

(٥) يونس : ٤ .

(٦) النجم : ٣١ .

ويجازه على عمله، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكْ نُطْفِئْ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنًى﴾ - إلى قوله - ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ (١).

والبراهين على البعث دالة على الجزاء وقد نزه تعالى نفسه عن هذا الظن الذى ظنه الكفار به تعالى، وهو أنه لا يبعث الخلق ولا يجازيهم منكرًا ذلك عليهم فى قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ * وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٢).

وأيد ابن تيمية هذا القول أيضاً بحديث معاذ الذى ذكر المصنّف وغيره فقال (٣). وفى الصحيحين عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ قال له: «يامعاذ! أتدرى ما حق الله على عباده؟ قال: الله ورسوله أعلم قال: فإن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حقهم عليه أن لا يعذبهم» (٤).

وفى المسند عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقى تحت ظل رمحى. وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى، ومن تشبه بقوم فهو منهم» (٥).
(تنبيه)

قال ابن تيمية (٦) قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إن كانت هذه اللام للضرورة فى عاقبة الأمر فما صار ذلك؟ وإن كانت اللام للغرض لزم أن لا يتخلف أحد من المخلوقين عن عبادته؟ وليس الأمر كذلك فما التخلص من هذا المضيق؟!.

فيقال: هذه اللام ليست هى اللام التى يسميها النحاة لام العاقبة والضرورة ولم يقل ذلك أحد هنا. كما ذكره السائل من أن ذلك لم يصر الا على قول من يفسر (يعبدون)

(١) القيامة: ٣٦ : ٤٠.

(٢) المؤمنون: ١١٥/١١٦.

(٣) مجموع الفتاوى ٥٣/٨.

(٤) سيأتى تخرجه إن شاء الله تعالى.

(٥) [إسناده صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥٠/٢) وصححه أحمد شاكر - رحمه الله -

(٥١١٤)

(٦) مجموع الفتاوى ١٨٦/٨ : ١٩٠.

بمعنى يعرفون، يعنى المعرفة التى أمر بها المؤمن والكافر؛ لكن هذا قول ضعيف، وانما زعم بعض الناس ذلك فى قوله: ﴿وَلَذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ التى فى آخر سورة هود. فان بعض القدرة زعم ان تلك اللام لام العاقبة والصيرورة: أى صارت عاقبتهم الى الرحمة، والى الاختلاف، وان لم يقصد ذلك الخالق، وجعلوا ذلك كقوله: (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً)^(١) وقول الشاعر.

لدوا للموت وابنوا للخراب

وهذا أيضاً ضعيف هنا لأن لام العاقبة إنما تحيى فى حق من لا يكون عالماً بعواقب الأمور ومصايرها فيفعل الفعل الذى له عاقبة لا يعلمها كآل فرعون، فأما من يكون عالماً بعواقب الأفعال ومصايرها فلا يتصور منه أن يفعل فعلاً له عاقبة لا يعلم عاقبته، وإذا علم أن فعله له عاقبة فلا يقصد بفعله ما يعلم أنه لا يكون فإن ذلك تمن وليس بإرادة.

ثم قال^(٢) فى موطن آخر فى نفس الآية

ولكن اللام لبيان الجملة الشرعية، المتعلقة بالإرادة الشرعية، كما فى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٣) وقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾^(٤) الآية .

وقد تكون لبيان العاقبة الكونية كما فى قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾^(٥) الآية ؛ هذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ (١١٨) إِلَّا مِنْ رَحِمٍ وَتُكْ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(٦) أى خلق قوماً للاختلاف، وقوماً للرحمة، وقال: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ فاللام فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾^(٧) وإن كانت هى اللام فى هذه الآية فإن مدلولها لام إرادة الفاعل ومقصوده، ولهذا تنقسم فى كتاب الله إلى إرادة دينية، وإرادة كونية؛ كما تنقسم فى كتاب الله تعالى الكلمات، والأمر والحكم والتحریم والإذن، وغير ذلك.

(١) القصص: ٨.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣٦/٤)

(٣) البقرة: ١٨٥.

(٤) النساء: ٢٦.

(٥) الأنعام: ١٢٥.

(٦) هود: ١١٨، ١١٩.

(٧) الأعراف: ١٧٩.

وفصل هذا الكلام في موطن آخر موضحاً تفسير الإرادة في القرآن فقال (١)؟

ينبغي أن يعرف أن الإرادة في كتاب الله على نوعين:

(أحدهما): الإرادة الكونية، وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد. التي يقال فيها: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذه الإرادة في مثل قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (٤) وأمثال ذلك.

وهذه الإرادة هي مدلول السلام في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ (٥) قال السلف خلق فريقاً للاختلاف، وفريقاً للرحمة، ولما كانت الرحمة هنا الإرادة، وهناك كونية وقع المراد بها، فقوم اختلفوا وقوم رحموا.

أما (النوع الثاني): فهو الإرادة الدينية الشرعية، وهي محبة المراد ورضاه ومحبة أهله والرضا عنهم وجزاهم بالحسنى، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ (٦) وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ (٧) وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٨) فهذه الإرادة لاستلزام وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة ولهذا كانت الأقسام أربعة:

(أحدها): ما تعلقت به الإرادتان، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة، فإن الله أَرَادَهُ إرادة دين وشرع؛ فأمر به واحبه ورضيه، وأرادة إرادة كون فوقه؛ ولولا ذلك لما كان.

(١) مجموع الفتاوى (١٨٧/٨ - ١٩٠)

(٢) هود: ٣٤

(٣) البقرة: ٢٥٣

(٤) الكهف: ٣٩

(٥) هود: ١١٨، ١١٩

(٦) البقرة: ١٨٥

(٧) المائدة: ٦

(٨) النساء: ٢٦، ٢٧.

(والثاني): ماتعلقت بها الإرادة الدينية فقط. وهو مأمَر الله به من الأعمال الصالحة فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين وهو يحبها ويرضاها لو وقعت ولو لم تقع.

(والثالث): ماتعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهوما قدره وشاء من الحوادث التي لم يأمر بها: كالمباحات والمعاصي فإنه لم يأمر بها ولم يرضاها ولم يحبها، إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(والرابع): ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه، فهذا مالم يكن من أنواع المباحات والمعاصي، وإذا كان كذلك فمقتضى اللام في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه الإرادة الدينية الشرعية، وهذه قد يقع مرادها وقد لا يقع، والمعنى أن الغاية التي يحب لهم ويرضى لهم والتي أمروا بفعلها هي العبادة، فهو العمل الذي خلق العباد له: أي هو الذي يحصل كمالهم وصلاحهم الذي به يكونون مرضيين محبوبين، فمن لم تحصل منه هذه الغاية كان عادماً لما يحب ويرضى ويراد له الإرادة الدينية التي فيها سعادته ونجاته، وعادماً لكماله وصلاحه العدم المستلزم فسادة وعذابه، وقول من قال: العبادة هي العزيمة (أو) الفطرية: فقولان ضعيفان فاسدان يظهر فسادهما من وجوه متعددة.

ثم قال ابن تيمية: (١) ثم الناس على هذا القول أي الذي سبق ترجيحه - قولان: قول أهل السنة المثبتة للقدر، وقول نفاته فصارت الأقوال في الآية «سبعة» وفي الحكمة «خمسة».

فأما أهل السنة المثبتون للقدر فيقولون: قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لا يستلزم وقوع العبادة منهم، كما قال أصحاب هذه الأقوال المتقدمة، ولا يستلزم نفى المقدور أن يكون في ملكه مالا يشاء أو يشاء مالا يكون، كما قالت القدرية، فهؤلاء يقولون: لم يقع ما خلقهم له لكونه يشاء مالا يكون، ويكون مالا يشاء. أولئك قالوا: إذا كان ما يشاء كان، ومالم يشأ لم يكن فما لم يقع لم يشأ، فما

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٧-٥٤). وسيأتى بيان للفرق بين الإرادة الكونية والقدرية في أبواب كثيرة من

لم يقع من العبادة لم يشأها، وهذا معنى صحيح ، ثم قالوا : وما خلقهم له فلا بد أن يشاء أن يخلقه فلما لم يشأه أن يخلق هذا لم يخلقهم له .

فالطائفتان أصل غلطهم ظنهم إنما خلقهم له يشاء وقوعه، وأولئك يقولون يشاء أن يخلقه، وهؤلاء يقولون يشاء وقوعه منهم، بمعنى يأمرهم به، وما عندهم أن له مشيئة في أفعال العباد غير الأمر وهم يعصون أمره؛ فلهذا قالوا: يكون مالا يشاء، ويشاء مالا يكون، كما يقولون: يفعلون ما نهاهم عنه، ويتركون ما أمرهم به، وهذا المعنى صحيح إذا أريد الأمر الشرعي؛ لكن القدرية النفاة لا يقولون: إنه شاء إلا بمعنى أمر، فعندهم مالميس طاعة من أفعال العباد مالا يشاءه، فإنه لا يخلقه عندهم، وإذا لم يخلقه لم يشأه فإنه ما شاء أن يخلقه خلقه باتفاق المسلمين .

والقدرية لاتنازع في هذا، لا ينازعون في أنه ما شاء أن يفعله هو فعله، وأنه قادر على أن يفعل ما يشاء أن يفعله، لكن عندهم أن أفعال العباد لا تدخل في خلقه، ولا في قدرته، ولا في مشيئته، ولا في مشيئته أن يفعل، لكن المشيئة المتعلقة بها بمعنى الأمر فقط . فيقولون: خلقهم لعبادته أن يفعلوهاهم، وقد أمرهم بها، فإذا لم يفعلوها كان ذلك بمنزلة عصيان أمره .

وأما المثبتون للقدر فيقولون: أنه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، وهو سبحانه خالق كل شيء ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَوْا﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ وأمثال ذلك، فإذا خلقهم للعبادة المأمور بها ولم يفعلوها لم يكن قد شاء أن تكون، إذ لو شاء أن تكون لكونها، لكن أمرهم بها، وأحب أن يفعلوها، ورضى أن يفعلوها، وأراد أن يفعلوها، إرادة شرعية تضمنها بأمره بالعبادة .

ومن هنا يتبين معنى الآية، فإنه قوله: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ يشبه قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ (١) وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ (٢) وقوله: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ (٣) وقوله: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٤) وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (٥) الآية . وكذلك

(١) البقرة: ١٨٥ (٢) الحج: ٣٧

(٣) الخشر: ٣٧ (٤) المائدة: ٩٧

(٥) الطلاق: ١٢ .

قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾^(١) فهو لم يرسله إلا ليطاع ثم قد يطاع وقد يعصى .

وكذلك ما خلقهم إلا للعبادة، ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون . ومثل هذا كثير في القرآن ، يبين أنه فعل مافعل ليكبروه وليعدلوا، ولا يظلموا، وليعلموا ما هو متصف به، وغيره مما أمر الله به العباد، واجبه لهم ورضيه منهم، وفيه سعادتهم وكما لهم وصلاحتهم وفلاحهم إذا فعلوه . ثم منهم من يفعل ذلك ومنهم من لا يفعله .

وهو سبحانه لم يقل أنه فعل الأول ليفعل هو الثاني، ولا ليفعل بهم الثاني فلم يذكر أنه خلقهم ليجعلهم هم عابدين؛ فإن مافعله من الأسباب لما يفعله هو من الغايات يجب أن يفعله لامحالة، ويمتنع أن يفعل أمراً ليفعل أمراً ثانياً ولا يفعل الأمر الثاني، ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثاني؛ فيكونون هم الفاعلين له فيحصل بفعلهم سعادتهم، وما يحبه ويرضاه لهم، فيحصل ما يحبه هو وما يحبونه هم، كما تقدم أن كل ما خلقه وأمر به غايته محبوبة لله ولعباده . وفيه حكمة له، وفيه رحمة لعباده .

فهذا الذى خلقهم له لو فعلوه لكان فيه ما يحبه وما يحبونه، ولكن لم يفعلوه فاستحقوا ما يستحقه العاصى المخالف لأمره، التارك فعل ما خلق لأجله من عذاب الدنيا والآخرة، وهو سبحانه قد شاء أن تكون العبادة بمن فعلها ، فجعلهم عابدين مسلمين بمشيئته وهداه لهم، وتجيبة إليهم الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾^(١) فهؤلاء (أراد) العبادة منهم خلقاً وأمراً أمرهم بها؛ وخلقاً جعلهم فاعلين .

والصنف الثانى: لم يشأ هو أن يخلقهم عابدين وإن كان قد أمرهم بالعبادة . والله سبحانه أعلم .

تعريف العبادة:

وقد تقدم كلام المفسرين فى تعريف العبادة أولاً، وتقدم تفسير على بن أبى طالب للعبادة فى الآية وأنه: إلا لأمرهم أن يعبدونى وأدعوهم إلى عبادتى^(٢) وكذلك تفسير مجاهد حيث قال: إلا لأمرهم وأنهاهم^(٣) .

وقال ابن تيمية أيضاً:^(٤) العبادة هى طاعة الله بامثال ما أمر به على السنة الرسل

(٢) الحجرات : ٧ .

(١) النساء: ٦٤

(٥) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٣١/٣٢ .

(٣، ٤) تقدما .

وقال أيضاً العبادة إسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة.

قال ابن القيم: ومدارها على خمس عشر قاعدة من كملها كمل مراتب العبودية، بيان ذلك أن العبادة منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح. والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهن لكل واحد من القلب واللسان والجوارح.

وقال القرطبي: أصل العبادة: التذلل والخضوع، وسميت وظائف الشرع على المكلفين عبادات، لانهم يلتزمون بها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى.

وقال ابن كثير: (١) العبادة في اللغة من الذلة. يقال: طريق معبد وغير معبد، أى مذل. وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، وهكذا ذكر غيرهم من العلماء.

ومعنى الآية: أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الإنس والجن إلا لعبادته، فهذه هي الحكمة في خلقهم، ولم يرد منهم ما تريده السادة من عبيدها من الإعانة لهم بالرزق والإطعام، بل هو الرزاق ذو القوة المتين، الذي يُطعم ولا يُطعم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَأُطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطَعَّمُ وَلَا يُطَعَّمُ﴾

وعبادته هي طاعته بفعل المأمور، وترك المحذور، وذلك هو حقيقة دين الإسلام لأن معنى الإسلام هو الإستسلام. المتضمن غاية الانقياد، في غاية الذل والخضوع.

قال ابن حجر: المراد بالعبادة عمل الطاعات واجتناب المعاصي (٢).

قال حامد بن محمد بن حسن: (٣) والعبادة اسم لما شرعه الله تعالى في كتابه المنزل على لسان رسوله المرسل ﷺ، وما خالفه من النسك والأعمال والأقوال والنيات فبدعة يستوجب صاحبه النار. عن عائشة - رضي الله عنه - قالت: قال رسول الله ﷺ «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد» (٤) وقال ﷺ في حديث العرياض: «إن من يعيش

(١) تفسير القرآن العظيم.

(٢) الفتح ١١/٣٤٧.

(٣) فتح الله الحميد المجيد ٤٩

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم في الأفضية (١٦/١٢ - النووي).

وانظر تخرجه في كتابنا «فتح ذي الجلال في تخرير أحاديث الظلال» (١٣٥)، وانظر «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٠ - بتخريجنا).

منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بستی وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» (١). أهـ.

قال ابن عثيمين: (٢) فهذه هى الحكمة من خلق الجن والإنس. ولهذا أعطى الله البشر عقولاً، وأرسل إليهم رُسلًا، وأنزلَ عليهم كُتُبًا، ولو كان الغرض من خلقهم كالغرض من خلقِ البهائم؛ لضاعت الحكمة من إرسال الرُسل، وإنزال الكتب؛ لأنَّه فى النهاية يكون كشجرة نبتت، ونمت، وتحطمت.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ﴾؛ فلا بدَّ أن يردَّكَ إلى معادٍ تُجازى على عملك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وليست الحكمة من خلقهم نفع الله، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾.

فهذا ليس إقراضاً لله سبحانه، بل هو غنى عنه، لكنَّه سبحانه شَبَّه معاملته عبده له بالقرض؛ لأنَّه لا بدَّ من وفائه، فكأنَّه التزم من الله سبحانه أن يُوفَّى العامل أجر عمله كما يُوفَّى المقرض من أقرضه أهـ.

قال الفقير: ومما يؤيد إختيار ابن تيمية وغيره ممن وافقه من أهل العلم السابق ذكرهم من العبادة: هى الأمر والنهى.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾

قال الشافعى: لا يؤمر ولا ينهى. ذكره الشوكانى فى «فتح القدير» وغيره. تقدم شىء من ذلك.

● عبادة الهوى:

قال الفقير: ويتأيد هذا الإختيار بأدلة كثيرة أخرى منها قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ

(١) أخرجه أحمد فى «مستدركه» (٤/١٢٦، ١٢٧) وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذى (٢٦٧٨) وابن ماجه، (٤٣)

قال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح». وانظر كتابنا «فقه الخطابة».

(٢) القول المفيد/٢٦، ٢٧.

إِلَهَ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿١﴾ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَفَىٰ لِقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمِنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢)
قال ابن كثير: أى إنما يأنمر بهواه فمهما رآه حسناً فعلة ومهما رآه قبيحاً تركه ونقل
عن مالك رحمه الله قال: لا يهوى شيئاً إلا عبده قال فى «البحر» أى هو مطوع لهوى
نفسه يتبع ما تدعوه إليه فكأنه يعبد كما يعبد الرجل إلهه.

قال ابن عباس: «وذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه فلا يهوى شيئاً إلا ركه» (٣).

وهذه التفسيرات للآية يؤيد اختيار ابن تيمية لتفسير على ومجاهد لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وإن العبادة هى الأمر والنهى والحكم والتشريع.

● عبادة العلماء والعباد:

ويتأيد هذا الاختيار أيضاً لقوله تعالى ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ

اللَّهِ﴾ (٤)

وقد فسرها الرسول ﷺ لعدى بن حاتم فقال عدى أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب؟ فقال يا عدى اطرح عنك هذا الوثن: قال ابن حاتم. وسمعت يقرأ سورة براءة ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ...﴾ فقلت يا رسول الله، «والله لم يكونوا يعبدوهم، فقال ﷺ: أليسوا يحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه ويحلون ما حرم الله تعالى فيستحلونه؟ قلت بلى قال: فذلك عبادتهم إياهم» (٥).

وفى لفظ «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت بلى: قال فتلك عبادتهم» (٦) والحديث دليل على أن طاعة الأحرار والرهبان فى معصية الله عبادة لهم من دون الله و من الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ونظير ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (٧).

(١) الفرقان : الآية ٤٣ .

(٢) الجاثية : الآية ٢٣

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٨٥٣٨) فانظره بتخريجنا .

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا -

(٤) التوبة : الآية ٣١ .

(٥) (٦، ٥) سياتى تخريجه .

(٧) الأنعام : ١٢١

● عبادة الشيطان:

ويتأيد هذا الاختيار أيضاً بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع وهو تقريع الكفرة والمجرمين أى ألم أوصيكم وأمركم يا بنى آدم على السنة الرسل ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أى لاتطيعوهم فيما دعاكم إليه من معصيتي» ولذلك قال الله تعالى بعد هذه الآية ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى اعبدوني بتوحيدي وطاعتي وامتنال أمري وهذا هو الدين الصحيح والطريق الحق المبين.

وهذا التفسير السلفي للآية يبين أن عبادة الشيطان لم تكن بصلاة أونسك^(١) يقدم له ولكن بالطاعة له فيما شرطه للناس من أحكام تغاير وتباين أحكام الله عزوجل ولذلك قال لهم لما قضى الأمر ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾^(٢).

● عبادة الحكام:

ويتأيد اختيار ابن تيمية لتفسير الآية أيضاً بقوله الله تعالى ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ هذا فى شأن فرعون حيث قال لأهل مصر ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وفى مقام آخر قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ فلم يراجعوه بل وافقوه وأطاعوه فيما قال، لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله فبينت الآية أن العبادة التى كانت تصرف لفرعون هى الطاعة والحكم والأمر والنهى والتشريع وليست نسك وشعائر وصلوات كما تبين أجهزة الإعلام تليساً منها على العامة والجهال، هذا وقد ذهب إلى هذا الاختيار لمعنى العبادة المستنبط من الآية موضوع الشرح جمع غفير من السلف الصالح منهم ابن كثير كما تقدم حيث قال «و عبادته وهى طاعته فعل المأمور وترك المحظور وذلك حقيقة دين الإسلام لان معنى الإسلام الاستسلام لله تعالى المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع.

وتقدم أن صرح ابن تيمية بها فقال: هى طاعة الله بامتنال ما أمر به على ألسنه الرسل وتقدم ذلك فى أول تعريف العبادة .

(١) وإن كنا نسمع فى هذا العصر أن بعض الناس يصلى للشيطان وبعده عبادة صريحة سواء مانسمع عنهم فى العراق أو إسرائيل ولها بعض المريدين هنا من أبناء مصر الجديدة.

(٢) إبراهيم : ٢٢

● عبادة الدنيا والزوجة والدرهم والدينار وغيرهما:

ويزداد الاختيار تأييداً بعد هذا الفهم السلفي المجمع عليه المعنى العبادة بقوله الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ففى هذه الآية جعل الله كلمة حكم مرادفة لكلمة العبادة والعبادة مرادفة لكلمة حكم مما يؤيد اختيار ابن تيمية لتفسير الآية كما جاء عن على ومجاهد .

وكذلك من السنة لحديث أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ «تعس عبدالدينار، وتعس عبدالدرهم، وتعس عبد الخميصة، وتعس عبد الحميلة إن اعطى رضى؟ وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله اشعث راسه، مغبرة قدماء إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع» (١).

قال ابن تيمية: فسماء النبى ﷺ عبدالدينار والدرهم، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر فيه ماهو دعاء وخبر وهو قوله تعس وانتكس وإذا شيك فلا أنتقش، وهذه حال من أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولاخلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال . وقد وصف ذلك بأنه إن أعطى رضى وأن منع سخط كما قال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (٢). فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة، أو نحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضى، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية فى الحقيقة هو رق القلب وعبوديته أهـ (٣) .

- ويؤيد هذا أيضاً حديث عائشة «من أَرْضَى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» (٤) فهذا هو المتعوس الذى لم ينل رضا الله ولا رضا الناس وكذلك كل من جعل ولائه لغير الله أو ركن لغير الله ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (٥) الآية فهو يرضى الظلمة رجاء الأمن والنصرة - واستعبده، فهو عبده إلى أن قال: وهكذا

(١) سيأتى تخريجه.

(٢) التوبة: ٦٠.

(٣) نقلاً عن كتابنا «فقه الخطابة» الطبعة الثانية (ص ١٨٣ - ١٨٧)

(٤) سيأتى تخريجه.

(٥) هود: ١١٣

أيضاً طالب المال فإن ذلك يستعبده ويسترقه. وهذه الأمور نوعان، فمنها ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلى طعامه وشربه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه فيكون المال عنده، يستعمله في حاجته بمنزلة حمارة الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه من غير أن يستعبده فيكون هلوياً. وفيها ما لا يحتاج إليه العبد، فهذه ينبغي أن لا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها وربما صار مستعبداً معتمداً على غير الله فيها، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله، ولأحققة التوكل عليه، بل شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، وتعس عبد الحمصة، وتعس عبد الحميلة»^(١) وهذا هو عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله فإن الله إذا أعطاه إياه رضى، وإن منعه إياها سخط. وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله، ويسخط ما يسخط الله، ويحب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ما يبغض الله ورسوله، ويوالى أولياء الله، ويعادى أعداء الله.

فهذا الذى استكمل الإيمان . أ. هـ ملخصاً^(٢).

وسياتى مزيد شرح للحديث أن شاء الله .

قال الفقير: والعبودية لهؤلاء لا تتصور أن تكون بتقديم شعائر لهم بل لا تتصور إلا أن تكون طاعة وإنقياد.

ومن وحى هذا الفهم للآية قسم ابن القيم فى . . «إعلام الموقعين عن رب العالمين» العبادة إلى نوعين عبادة عامة وهى امتثال الأوامر التى يشترك فيها كل مكلف مثل الخوف من الله والرغبة فيه والتوكل عليه وما شاكل ذلك والعبادة الخاصة وهى الأوامر الخاصة ببعض المكلفين دون بعض مثل العبادة الخاصة بالحكام فهى تطبيق أمر الله عز وجل وإقامة حدوده وما شاكل ذلك.

وجماع هذا الفهم فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فكما أن الصلاة والنسك لا بد وأن تكون لله على وفق ما شرع كذلك الحياة والمات يكونا لله على ما وفق ما شرع.

فهذا هو الفهم الكامل للعبادة وكمال الدين ويزداد الأمر إيضاحاً بما قرره صاحب كتاب «المفاهيم». فقال:

كان المفهوم الصحيح من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ومن

(١) تقدم وسياتى تخريجه

(٢) تيسير العزيز الحميد (٥٤٠)

ثم لم ينحصر مفهوم للعبادة فى حس الأجيال الأولى أن عبادة الله هى غاية الوجود الإنسانى كله كما فهموا العبادة فى حسهم فى نطاق الشعائر التعبدية وحدها، كما انحصر فى حس الأجيال المتأخرة التى جاءت بفهم للإسلام غريب عن الإسلام. إن شعائر التعبد لا يمكن بداهة أن تكون هى كل «العبادة» المطلوبة من الإنسان. فما دامت غاية الوجود الإنسانى كما تنص الآية الكريمة محصورة فى عبادة الله. فأنى يستطيع الإنسان أن يوفى العبادة المطلوبة بالشعائر التعبدية فحسب؟! كم تستغرق الشعائر من اليوم واللييلة؟ وكم تستغرق من عمر الإنسان، وبقية العمر؟!.

وبقية الطاقة، وبقية الوقت؟ اين تنفق وأين تذهب؟ تنفق فى العبادة أم فى غير العبادة؟ وإن كان فى غير العبادة فكيف تتحقق غاية الوجود الإنسانى التى حصرتها الآية حصراً كاملاً فى عبادة الله؟ وكيف يجوز للإنسان من عند نفسه أن يجعل لوجوده - أو لجزء من وجوده - غاية لم يأذن بها الله ؟ إن الإنسان لا يستطيع - مهما حاول - أن يقضى واجب العبادة المفروض عليه نحو الله من خلال الشعائر التعبدية وحدها - من صلاة وصيام وزكاة وحج.. ليس الإنسان ملكاً... ولن يكون. والملائكة - وحدهم فيما نعلم - هم ذلك الخلق النوارنى الشفيف الذى يسبح الليل والنهار لا يفترون ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿١﴾ وهم - وحدهم الذين لا يعصون الله فى أمر من الأمور ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أ. هـ..

وقد طبق السلف الصالح هذه الآية بهذا الفهم أيضاً لذا يؤثر عن بعضهم انه كان يقول إنى لا احتسب نومتى كما احتسب قومتى يعنى كما يصلى قيام الليل فيحتسب قيامه لله كذلك يجعل نومه لله لانه ما نام إلا امثال لأمر الرسول «إن لبدنك عليك حق» (٢) وكذلك طبقوه فى جماع الزوجة وإطعامه إياها حتى صرح بذلك الرسول ﷺ فقال «إن فى بضع أحدكم صدقة قيل يارسول يأتى الرجل منا شهوته ويأخذ على ذلك اجراً قال: «أرايت إن وضعها فى حرام» (٣) أى أرايته خالف الأمر ولم يمثل أكان مأزوراً أم مأجوراً وإن كان مأزوراً بالمخالفة فلا بد أن يكون مأجوراً بالامثال والطاعة التى هى عين العبادة.

(١) الأنبياء ١٩ - ٢٠.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٩٧٦)، ومسلم فى الصيام (٣٩/٨ - النووى) عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٢ - بتخریجنا).

(٣) [صحیح] أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» (٢٢٨)، ومسلم (٩١/٧ - الزكاة)

انظر «رياض الصالحين» (١٢١ - بتخریجنا).

وقال صاحب الظلال: (١) ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التى هى غاية الوجود الإنسانى أو التى هى وظيفة الإنسان الأولى، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلية فى مدلول العبادة قطعاً.

وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن فى أمرين رئيسيين

[الأول]: هو استقرار معنى العبودية لله فى النفس. أى استقرار الشعور على أن هناك عبداً ورباً . وعبداً يَعْبُد، ورباً يُعْبَد. وأن ليس وراء ذلك شىء ؛ وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار، ليس فى هذا الوجود إلا عابد ومعبود؛ وإلا رب واحد والكل له عبيد.

[والثانى]: هو التوجه إلى الله بكل حركة فى الضمير، وكل حركة فى الجوارح ، وكل حركة فى الحياة التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر ؛ ومن كل معنى غير معنى التعبد لله.

وبهذا وذلك يتحقق معنى العبادة؛ ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهد فى سبيل الله، والجهد فى سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله . . كلها عبادة؛ وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التى خلق الله الجن والإنس لها؛ وكلها خضوع للناموس العام الذى يتمثل فى عبودية كل شىء لله دون سواه.

عندئذ يعيش الإنسان فى هذه الأرض شاعراً أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى، جاء لينهض بها فترة طاعة لله وعبادة له لا أرب له هو فيها، ولا غاية له من ورائها، إلا الطاعة، وجزاؤها الذى يجده فى نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله، ومن أنس برضى الله عنه، ورعايته له. ثم يجده فى الآخرة تكريماً ونعيماً وفضلاً عظيماً.

وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقاً. يكون قد فر من أوهاق هذه الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملتفة. ويكون قد تحرر بهذا الفرار. تحرر حقيقة من الأوهاق والأثقال. وخلص لله، واستقر فى الوضع الكونى الأصيل: عبداً لله. خلقه الله لعبادته. وقام بما خلق له. وحقق غاية وجوده. فمن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالخلافة فى الأرض ، وينهض بتكاليفها، ويحقق أقصى ثمراتها؛ وهو فى الوقت ذاته نافض يديه

(١) (١٠/٦ ٣٣٨٦ ٣٣٨٨)

منها؛ خالص القلب من جواذبها ومغرياتها. ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولا لذاتها ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها، ثم الفرار إلى الله منها. !
ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لامن نتائجها. فلتكن النتائج ماتكون. فالإنسان غير معلق بهذه النتائج. إنما هو معلق بأداء العبادة في القيام بهذه الأعمال؛ ولأن جزاءه ليس في نتائجها، إنما جزاؤه في العبادة التي أداها. أ. هـ.

● احتراز:

قد يفهم مما سبق في شرح معنى العبادة وأنها الطاعة التي تصرف إلى الله عزوجل وأنها لو صرفت لغيره كان ذلك شركاً فقد يفهم مما سبق أن أى طاعة تقدم لغير الله فهي شرك مخرج عن الملة لأنها عبادة قُدمت لغير الله، نعم هذا الذي فعل هذا لاشك أن له حظ ونصيب من الآيات التي تُبين عبادة الهوى وعبادة الشيطان ذلك لأن ابن تيمية قال: إن الإيمان أصل وله شعب والكفر أصل وله شعب فكما أن الطاعات من شعب الإيمان فالمعاصي من شعب الكفر.

وقال ابن عثيمين: فالمعاصي من حيث المعنى العام أو الجنس العام يمكن أن نعتبرها من الشرك، وأما بالمعنى الأخصو فتتقسم إلى أنواع:

(١) شرك أكبر. (٢) شرك أصغر.

(٣) معصية كبيرة (٤) معصية صغيرة. أهـ.

لكن متى يخرج بهذا الحظ من الدين ومتى لا يخرج؟

يخرج إذا كانت هذه الطاعة منبعا للإعراض والاستكبار على أوامر الله عزوجل

كمعصية إبليس حيث قال تعالى عنها: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١) أما إذا كانت المعصية لله عزوجل التي صارت طاعة لغيره أو عبادة له إذا كانت متبعا الشهوة فهذه لا تخرج من الملة أو من الدين وذلك كمعصية آدم حينما قبل حكم الله ولم يردّه وارتضى به ولكن لغلبة الشهوة وإستدلال الشيطان له وقع فى طاعته ومعصية الله لكن هذا الحظ الذى ناله من عبادة الشيطان لايزيد على كونه معصية لله ولم يخرج من الملة به لأنه لم يرد ولم يستكبر ولم يستحل فلذلك لم يسمه الله بالكفر كما وسم إبليس به، وهذا كله فى فاعل المعصية. والله تعالى أعلم.

مسألة (١):

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الجان المؤمنين: هل هم مخاطبون «بفروع الإسلام» كالصوم، والصلاة، وغير ذلك من العبادات؟ أو هم مخاطبون بنفس التصديق لا غير؟

فأجاب:

لاريب أنهم مأمورون بأعمال زائدة على التصديق، ومنهيون عن أعمال غير التكذيب؛ فهم مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم، فإنهم ليسوا بمائلى الإنس فى الحد والحقيقة؛ فلا يكون مأموروا به ونهوا عنه مساويا لما على الإنس فى الحد؛ لكنهم مشاركون الإنس فى جنس التكليف بالأمر والنهى والتحليل والتحرير. وهذا ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين.

وكذلك لم يتنازعوا أن أهل الكفر والفسوق والعصيان منهم يستحقون لعذاب النار، كما يدخلها من الآدميين؛ لكن تنازعوا فى أهل الإيمان منهم؛

● مسألة

وجه تقديم الجن على الإنس فى الآية:

قال الرازى: (٢) فإن قيل تقديم الجن على الإنس لأية حكمة؟ نقول هو أن العبادة سرية وجهرية، وللسرية فضل على الجهرية لكن عبادة الجن سرية لا يدخلها الرياء العظيم، وأما عبادة الإنس فيدخلها الرياء فإنه قد يعبد الله لأبناء جنسه، وقت يعبد الله ليستخبر من الجن أو مخافة منهم ولا كذلك الجن أ.هـ.

قال الفقير: ليس هناك دليل على أن عبادة الجن سرية وليس كوننا لانراهم لايعنى ذلك أنهم لايرى بعضهم بعضاً، فتحقق فيهم ما تحقق فى الأنس. وإن كان يقصد سرية بالنسبة لنا فهذا لا يكون عليه إنما التعويل على الواقع بينهم والله أعلم.

قال الشوكانى: (٣) ووجه تقديم الجن على الإنس ها هنا تقدم وجودهم.

قال الفقير: وهو مشهور عن كثير من المفسرين كابن عباس وغيره وهو أولى من قول الرازى.

(إشكال):

قال الرازى (٤): قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ

(٢) التفسير الكبير ٢٨/١٤/٢٣٣.

(١) مجموع الفتاوى ٤/٢٣٣-٢٣٧.

(٤) التفسير الكبير ٢٨/١٤/٢٣٤.

(٣) فتح القدير ٥/٩٢.

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا»^(١) وقال (ليعبدون) فهل بينهما اختلاف؟ نقول ليس كذلك فإن الله تعالى علل جعلهم شعوباً بالتعارف، وههنا علل خلقهم بالعبادة وقوله هناك ﴿أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ﴾ دليل على ما ذكره ههنا وموافق له، لأنه إذا كان اتقى كان أعبد وأخلص عملاً، فيكون المطلوب منه أتم فى الوجود فيكون أكرم وأعز، كالشئ الذى منفعتة فائدة، وبعض أفراده يكون أنفع فى تلك الفائدة، مثاله الماء إذا كان مخلوقاً للتطهير والشرب فالصافى منه أكثر فائدة فى تلك المنفعة فيكون أشرف من ماء آخر، فكذلك العبد الذى وجد فيه ماهو المطلوب منه على وجه أبلغ أ هـ .

● إشكال قريب من الذى قبله

قال الشنقيطى: (٢) اعلم أن الآيات الدالة على حكمة خلق الله للسموات والأرض وأهلها وما بينهما قد يظن غير المتأمل أن بينهما اختلافاً، والواقع خلاف ذلك. لأن كلام الله لا يخالف بعضه بعضاً، وإيضاح ذلك أن الله تبارك وتعالى ذكر فى بعض الآيات أن حكمة خلقه للسموات والأرض هى إعلام خلقه بأنه قادر على كل شئ، وأنه محيط بكل شئ علماً، وذلك فى قوله تعالى فى آخر الطلاق: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(٣).

وذكر فى مواضع كثيرة فى كتابه أنه خلق الخلق ليبين للناس كونه هو المعبود وحده، كقوله تعالى ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٤)، ثم أقام البرهان على أنه إله واحد بقوله بعده: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله ﴿لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٥) لما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾^(٦) بين أن خلقهم برهان على أنه المعبود وحده بقوله بعده: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) أضواء البيان ٤٤٦/٧، ٤٤٧ .

(٣) الطلاق : ١٢ .

(٤) البقرة : ١٦٣ .

(٥) البقرة : ١٦٤ .

(٦) البقرة : ٢١ .

وذكر في بعض الآيات أنه خلق السماوات والأرض ليعتلى الناس، وذلك في قوله ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (١).

وذكر في بعض الآيات أنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم وذلك في قوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ (٢) وذكر في آية الذاريات هذه أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبده، فقد يظن غير العالم أن بين هذه الآيات اختلافاً مع أنها لا اختلاف بينها، لأن الحكم المذكور فيها كلها راجع إلى شيء واحد، وهو معرفة الله وطاعته ومعرفة وعده ووعيده فقوله: ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) وقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ (٤) راجع إلى شيء واحد هو العلم بالله، لأن من عرف الله أطاعه ووحده.

وهذا العلم يعلمهم الله إياه ويرسل لهم الرسل بمقتضاه ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، فالتكليف بعد العلم، والجزاء بعد التكليف، فظهر بهذا اتفاق الآيات لأن الجزاء لا بد له من تكليف، وهو الابتلاء المذكور في الآيات والتكليف لا بد له من علم، ولذا دل بعض الآيات على أن حكمة الخلق للمخلوقات هي العلم بالخالق، ودل بعضها على أنها الابتلاء، ودل بعضها على أنها الجزاء، وكل ذلك حق لا اختلاف فيه، وبعضه مرتب على بعض أهـ.

ثم قال في موطن آخر (٥): وإذا تقرر أن قوله تعالى ﴿وَلَذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (٦) معناه أنه خلقهم لسعادة بعض وشقاوة بعض، كما قال ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ (٧) الآية وقال ﴿هُوَ

(١) هود: ٧

(٢) يونس: ٤

(٣) الطلاق: ١٢

(٤) البقرة: ٢١

(٥) أضواء البيان: ١٠/١١٠ و١١١

(٦) هود: ١١٩

(٧) الأعراف: ١٧٩

الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ^(١) فلا يخفى ظهور التعارض بين هذه الآيات مع قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: ونقله ابن جرير عن زيد بن أسلم وسفيان: أن معنى الآية ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى يعبدنى السعداء منهم ويعصينى الأشقياء، فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق التى هى عبادة الله حاصلة بفعل السعداء منهم. كما أشار له قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾^(٢).

وغاية ما يلزم على هذا القول أنه أطلق المجموع وأراد بعضهم، وقد بينا أمثال ذلك من الآيات التى أطلق فيها المجموع مراداً بعضه فى سورة الأنفال.

الوجه الثانى: هو ما رواه ابن جرير عن ابن عباس واختاره ابن جرير أن معنى قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى إلا ليقروا إلى بالعبودية طوعاً أو كرها^(٣) لأن المؤمن يطيع باختياره، والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبراً عليه.

الوجه الثالث: ويظهر لى أنه هو الحق، لدلالة القرآن عليه: أن الإرادة فى قوله ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إرادة كونية قدرية والإرادة فى قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إرادة شرعية دينية، فبين فى قوله ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، وقوله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ أنه أراد بإرادته الكونية القدرية صيرورة قوم إلى السعادة، وآخرين إلى الشقاوة.

وبين بقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أنه يريد العبادة بإرادته الشرعية الدينية من الجن والإنس، فيوفق من شاء بإرادته الكونية فيعبده ويخذل من شاء فيمتنع من العبادة.

ووجه دلالة القرآن على هذا أنه تعالى بينه بقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ

(١) التغابن: ٢.

(٢) الأنعام: ٨٩.

(٣) تقدم تخريجه. فى تفسير: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

اللَّهِ^(١) فعمم الإرادة الشرعية بقوله ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ وبين التخصيص فى الطاعة بالإرادة الكونية بقوله ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فالدعوة عامة والتوفيق خاص.

وتحقيق النسبة بين الإرادة الكونية القدرية والإرادة الشرعية الدينية أنه بالنسبة إلى وجود المراد وعدم وجوده، فالإرادة الكونية أعم مطلقاً . لأن كل مراد شرعاً يتحقق وجوده فى الخارج إذا أريد كوناً وقدرأً، كإيمان أبى بكر، وليس يوجد مالم يرد كوناً وقدرأً ولو أريد شرعاً كإيمان أبى لهب، فكل مراد شرعى حصل فبالإرادة الكونية وليس كل مراد كونى حصل مرادأً فى الشرع.

وأما بالنسبة إلى تعلق الإرادتين بعبادة الإنس والجن لله تعالى، فالإرادة الشرعية أعم مطلقاً والإرادة الكونية أخص مطلقاً، لأن كل فرد من أفراد الجن والإنس أراد الله منه العبادة شرعاً ولم يردها من كلهم كوناً وقدرأً، فتعم الإرادة الشرعية عبادة جميع الثقلين، وتختص الإرادة الكونية بعبادة السعداء منهم كما قدمنا من أن الدعوة عامة والتوفيق خاص. كما بينه تعالى بقوله : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢) فصرح بأنه يدعوا الكل ويهدى من شاء منهم.

وليست النسبة بين الإرادة الشرعية والقدرية العموم، لخصوص من وجه بل هى العموم والخصوص المطلق، كما بينا إلا أن إحداهما أعم مطلقاً من الأخرى باعتبار، والثانية أعم مطلقاً باعتبار آخر، كما بينا. والعلم عند الله تعالى.

مسئلة:

والآية تدل على أن الله تعالى منفرد بخلق كل شىء.

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن:^(٣) فيه أعظم دليل على أنه المنفرد للخلق، لأنه - تعالى - ذكر . بصيغة الأفراد وهو كذلك، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾^(٥) ففيه ردٌ شاف على المجوس، حيث

(٢) يونس : ٢٥

(١) النساء : ٦٤ .

(٣) فتح الله الحميد المجيد ٤٦/٤٨ .

(٤) الزمر : ٦٢

(٥) الأعراف : ٥٤ .

ذهبت إلى تقديس البارى عن تخليق الشر على زعمهم، كالجابرة، والظلمة، والأشياء
المفسدة، والسباع، والحيات، وأشباهها، مما هو مضر على الإطلاق، وصاروا كالمستعيز من
الرمضاء إلى النار، أرادوا تقديس البارى عن تخليق الشر، ووقعوا فى شرك الربوبية،
فجعلوا منها للبارى تعالى، وجعلوا منها لإبليس عدو الله فأفضى ذلك إلى الشرك
والتعجيز، والقول بأن من شاء منهم فتنفذ مشيئته، والبارى لم تنفذ مشيئته. ومعلوم
عند كل عاقل بالضرورة أن أحص صفات الربوبية القدرة، وتبعهم على ذلك جماعة
من ينتسب إلى الإسلام، وهم المعتزلة، فقالوا: تقديس الله عن تخليق المعاصى،
وتكوين الزنا، واللواط، وإثبات الكفر والشرك، وإرادة قتل الأنبياء. فلزمهم ما لزم
المجوس من الشرك، وأهل الحق يقولون: هو الله وحده فى ربوبيته، وعبادته، وأفعاله،
لاشريك له فى تخليقه، ولانظير له فى تكوينه، ولا راد لإرادته، ولا مضاد لمشيئته،
ولا يعجز عن شىء، ولا ينفذ عليه أمر حى.

وأما تخليق هذه الأشياء، فالنظر فيه من وجوه:

أحدها: إن قصرت عقولنا عن إدراك الحكمة فيها لاتعجز عن إدراك أن الإله
لا يوصف بالعجز، فعلينا أن نعمل بالقضية المدلول علماً، ولا نتركها لماخذ لانقف عليه.

الثانى: أن فيها ضرراً وفساداً إضافياً لآذاتياً فالحية لا ضرر فى ذاتها بل فى ريقها، كما
يضرها ريقنا وريق الصائم يميت الله العقرب به فكان ريقنا سبباً لضرر الحيات
والعقارب.

والثالث: فيها منافع من وجوه كثيرة، كالترىاق المتخذ من لحوم الأفاعى دافع ضرر
السموم، وغير ذلك من الفوائد، إن أردتها انظر إلى كتب الطب.

الرابع: إظهار القهر تذكرة للعذاب والنار، كما جعل الصورة الحسنة، والبساتين
المزهرة، تذكرة من الجنة، استدعاء إلى الطاعة، وزجراً عن المعصية.

الخامس: تبغيض الدنيا وتكدير عيشها والتشويق إلى مفارقتها.

السادس: إظهار الاستغناء عن الخلق وعدم الالتفات إليهم أهد.

وسياتى مزيد شرح هذا الكلام فى أبواب الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

مناسبة الآية للتوحيد.

قال الشنقيطي (٢): ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه بعث في كل أمة رسولا بعبادة الله وحده، واجتناب عبادة ماسواه. وهذا هو معنى «لا إله إلا الله» لأنها مركبة من نفى وإثبات، فنفيها هو خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات، وإثباتها هو إفراده جل وعلا بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم صلوات الله وسلامه.

قال عبدالرحمن آل الشيخ (٣) ودلت هذه الآية على الحكمة في إرسال الرسل: دعوتهم أمهم إلى عبادة الله وحده والنهي عن عبادة ما سواه، وأن هذا هو دين الأنبياء والمرسلين، وإن اختلفت شريعتهم، كما قال تعالى ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (٤) وأنه لا بد في الإيمان من عمل القلب والجوارح أهد.

قال ابن عثيمين (٥) ودلالة الآية على التوحيد: أن الأصنام من الطواغيت التي تُعبد من دون الله.

وقال أيضاً ووجه الاستشهاد بهذه الآية لكتاب التوحيد: أنها دالة على إجماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى التوحيد، وأنهم أرسلوا به؛ لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

قال القرعاوي (٦) حيث دلت الآية الكريمة على أن عبادة الله لا تصلح إلا إذا كفر بما سواه.

قال الفقير: وقول القرعاوي هو ما قصده المصنف فعلاً ويتضح ذلك من كلامه كما سيأتي في كتابه.

(١) النحل: ٣٦.

(٢) أضواء البيان ٢/ ٣٠٢.

(٣) فتح المجيد ٢٦.

(٤) المائدة ٤٨.

(٥) «القول المفيد» ١/ ٣١ و ٣٢.

(٦) «الجديد» ٢٢.

الإعراب:

قال محمى الدين درويش: (١) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ الواو عاطفة و اللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وبعثنا فعل وفاعل وفى كل أمة متعلقان ببعثنا ورسولاً مفعول به .

﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أن يجوز أن تكون مصدرية وهى مع مدخولها نصب بتزج الخافض والجار والمجرور متعلقان ببعثنا ويجوز أن تكون مفسرة لأن البعث فيه معنى القول وأعبدوا فعل أمر وفاعل ولفظ الجلالة مفعول به واجتنبوا الطاغوت فعل أمر وفاعل ومفعول به أهـ.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (٢) معنى الآية أن الله تعالى يخبر أنه بعث فى كل أمة، أى فى كل طائفة وقرن من الناس رسولاً بهذه الكلمة ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أى اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه، فلهذا خلقت الخليقة وأرسلت الرسل، وانزلت الكتب. كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَثَابِ﴾ (٤) وهذه الآية معنى قول لا إله إلا الله، فإنها تضمنت النفى والإثبات كما تضمنته لا إله إلا الله، ففى قوله ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الإثبات، وفى قوله ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النفى فدلّت الآية على أنه لا بد فى الإسلام من النفى والإثبات، فثبت لله وحده وينفى عبادة ماسواه وهو التوحيد الذى تضمنته ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (٥) وهذا مؤدى قول الطبرى وابن الجوزى والرازى وغيرهم من أهل التفسير كالشنقيطى .

تنبيه: سيأتى فى باب أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان، وباب: ما جاء فى السحر، وباب قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾، من هذا الكتاب، سيأتى تفسير الطاغوت من القرآن والسنة، وأقوال المفسرين، فتتبع هذه المواضع مع هذه المواضع إتماماً للفائدة .

قوله: ﴿الطَّاغُوتِ﴾.

فعلوت من طغى يطفئ ويطفو: اذا جاوز الحد: قال سيويه: هو اسم يذكر مفرد: أى اسم جنس يشمل القليل والكثير وقال أبو على الفارس إنه مصدر كرهوت وجبروت يوصف به الواحد والجمع، وقلبت لامة إلى موضع العين وعينه إلى موضع اللام كجبن وجذب، ثم تقلب الواو ألفا لتحركها وتحرك ما قبلها، فقليل طاغوت واختار هذا القول النحاس. وقيل أصل الطاغوت فى الفقه مأخوذ من الطغيان يؤدى معناه من غير اشتقاق كما قيل لآلىء من اللؤلؤ. وقال المبرد: هو جمع قال ابن عطية: وذلك مردود.

قال الجوهري ، والطاغوت : الكاهن والشیطان وكل رأس فى الضلال وقد يكون واحداً قال الله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾^(١) وقد يكون جمعاً قال الله تعالى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾ والجمع الطواغيت: أى فمن يكفر بالشیطان أو الاصنام أو أهل الكهانة ورءوس الضلالة أو بالجميع قوله ﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ عزوجل بعد ما تبين له الرشد من الغي فقد فاز وتمسك بالحبل الوثيق أى المحكم.

وجاء فى «جامع البيان» وأرى أن أصل الطاغوت الطغوت من قول القائل طغا فلان يطفو إذا عدا قدره فتجاوز حده كالجبروت من التجبر والخلبوت من الخلب ونحو ذلك من الإسماء التى تأتى على تقدير فعلوت بزيادة الواو والتاء ثم نقلت لامة أعنى لام الطغوت فجعلت له عيناً وحولت عينه فجعلت مكان لامة كما قيل جذب وجبذ وجابذ وجاذب وصاعقة وصاقعة وما أشبه ذلك من الأسماء التى على هذا المثال^(٢).

الطاغوت اصطلاحاً

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه :- الجبت السحر، والطاغوت الشيطان^(٣).

وقال جابر كانت الطواغيت التى يتحاكمون إليها، فى جهينة واحد، وفى أسلم واحد، وفى كل حى واحد، كهان ينزل عليهم الشيطان^(٤).

(١) النساء: ٦٠

(٢) جامع البيان (١٣/٣)

(٣) علقه البخارى فى التفسير (٨/ ١٠٠ - الفتح) أخرجه ابن جرير (٨٣/٥)، وابن ابى حاتم (٥٤٤٩) وانظر فتح المجيد (ح ٤٨١) بتخريجنا وأيضاً انظر «فتح القدير» (٣٥٠٠ بتخريجنا)

(٤) [صحيح] علقه البخارى فى التفسير (٨/ ١٠٠ - الفتح) أخرجه ابن ابى حاتم (٥٤٥٢) بتخريجنا انظر فتح المجيد (ح ٢٥) بتخريجنا.

وقال ابن عباس الجبت الاصنام، والطواغيت الذين كانوا يعبرون عن الاصنام بالكذب^(١).

قال : وزعم رجال أن الجبت الكاهن، والطاغوت رجل من اليهود يدعى كعب بن الأشرف ومن طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: الجبت حيي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف^(٢).

قال عكرمة: الجبت بلسان الحبشة شيطان، والطاغوت الكاهن^(٣).

وروى الطبرى عن مجاهد مثل قول عمر وزاد والطاغوت شيطان فى صورة إنسان يتحاكمون إليه^(٤).

وروى الطبرى من طريق سعيد بن جبير وأبى العالية قال: الجبت الساحر والطاغوت الكاهن^(٥).

وقال مالك: كل ماعبد من دون الله تعالى^(٦).

قال ابن تيمية: والجبت السحر، والطاغوت الشيطان والوثن^(٧).

واختار الطبرى أن المراد بالجبت والطاغوت جنس من كان يعبد من دون الله سواء كان صنماً أو شيطاناً جنيّاً أو إنسياً فيدخل فيه الساحر والكاهن والله أعلم^(٨).

قال ابن جرير: والصواب من القول عندى فى الطاغوت أنه كل ذى طغيان على الله فعبد من دونه إما بقهر منه لمن عبده وإما بطاعة ممن عبده له إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كان ماكان من شىء^(٩).

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٨٣/٤) من طريق العوفى عن ابن عباس، ذكره الحافظ فى «الفتح» (١٠١/٨).

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس، ذكره الحافظ فى الموضع السابق.

(٣) علقه البخارى فى التفسير (٨/ ١٠٠ - الفتح)، أخرجه عبد بن حميد بإسناده وصححه ابن حجر فى «الفتح» (١٠٠/٨).

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٨٣٠/٤) عن مجاهد به وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٥٨٤) ونسبه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

(٥) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٨٤/٤).

(٦) [صحيح] أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٥٤٥٦/٩٧٦/٣) عن مالك فأنظره بتخریجنا وانظر «الدر» (١/ ٥٨٤) وانظر «فتح المجيد» (ح ٢٦) بتخریجنا.

(٧) مجموع الفتاوى (١٧٩/٢٧) (٨) «الفتح» (١٠١/٨).

(٩) جامع البيان ١٣/٣

قال ابن القيم رحمه الله: الطاغوت ماتجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله.

فهذه طواغيت العالم، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله ﷺ إلى الطاغوت ومتابعته (١).

قال المصنف محمد بن عبد الوهاب: أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله أهـ.

وقد استثنى بعض العلماء كالشيخ محمد بن عبد الوهاب من هذا العموم ما عبد وهو غير راض وهذا الاستثناء محمول على استثناءهم من دخول النار؛ لأن من عبد وهو راضى مع من عبده يوم القيامة أى الاتباع والمتبعين كما ذكر ابن كثير عن أبى إسحاق مرفوعاً «كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده» (٢) لأنهم يعبدون الشياطين. فيفهم أن الاستثناء إنما ذكر من أجل نفى العذاب وليس من أجل نفى العبادة كما هو واضح من قصه ابن الزبير فى قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (٣).

قال ابن عثيمين(*) : المراد من كان راضياً بعبادتهم إياه، أو يقال: هو طاغوت باعتبار عابديه، لأنهم تجاوزوا به حده، حيث نزلوه فوق منزلته التى جعلها الله له فتكون عبادتهم لهذا المعبود طغياناً؛ لمجاوزتهم الحد بذلك أهـ وسيأتى ذكر ذلك مرة أخرى فى الباب الثانى والعشرين.

فصل

فى كيفية الكفر بالطاغوت

قال الله تعالى مبيّناً الكفر بالطاغوت ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ

(١) ابن القيم فى إعلام الموقعين عن رب العالمين ١ / ٥٠

(٢) ذكره ابن كثير فى «تفسيره» (٣ / ١٩٩) عن ابن إسحاق.

(٣) انظر تفسير ابن كثير فى الموضوع السابق وسيأتى أيضاً تفسير الطاغوت فى باب ما جاء أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان.

(*) القول المفيد (١ / ٥٨٧، ٥٨٨).

وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿١﴾ أى اتركوا عبادته واجتنبوها كما قال تعالى أيضاً ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ (١) وهذا المعنى القرآنى لكيفية الكفر بالطاغوت هو الذى أجمع عليه السلف - قال الطبري - فمن يجحد ربوبية كل معبود من دون الله فيكفر به ويؤمن بالله يقول ويصدق بالله أنه إلهه وربّه ومعبوده فقد استمسك بالعروة الوثقى .

قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾. أى من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ووحيد الله فعبدّه وحده وشهد أن لا إله إلا هو أهـ.

وقال عبدالله بن عبدالرحمن أبو بطين: إن كان الرجل يقر بأن هذه الأمور الشركية التى تفعل عند القبور وغيرها من دعاء الأموات والغائبين وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات والتقرب إليهم بالنذور والذبايح أن هذا شرك وضلال، ومن انكره هو المحق ومن زينه ودعا إليه فهو شر من الفاعل فهذا يحكم بإسلامه لأن هذا معنى الكفر بالطاغوت والكفر بما يعبد من دون الله (٢).

وقال سليمان بن عبدالله: بل التوحيد اسم لمعنى عظيم. وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني. وحاصله هو: البراءة من عبادة كل ما سوى الله، والإقبال بالقلب والعبادة على الله، وذلك هو معنى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله وهو معنى لا إله إلا الله (٣).

وقال ابن عثيمين: ﴿وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أى ابتعدوا عنه بأن تكونوا فى جانب وهو فى جانب (٤).

وهذه المعانى لصفة الكفر بالطاغوت هى المتفقة مع المعنى اللغوى لمادة: كفر، فمعناها يدور حول التغطية والستر والجحود والتكران والبراءة قلت: أى بكفر العبادة التى تقدم للطاغوت وجحدها ونكرانها والبراءة منها وليس معناه - كما تقدم من كلام الشراح والمفسرين - تكفير الطاغوت نفسه فهذا ليس بلازم ولا استفاد من باب الكفر بعبادته.

(١) الزمر: ١٧

(٢) مجموعة الرسائل النجدية ٦٧٩: ٦٨٧ ج القسم الثالث عن رسالة الدر والياقوت.

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ١٣٩ - وأنظر «فتح المجيد» (١/ ٢٥).

(٤) القول المفيد (١/ ٣٠).

مسألة: التابع للطاغوت ليس طاغوتاً.

قال ابن عثيمين: فهؤلاء طواغيت والفاعل تابع للطاغوت قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الآية ولم يقل إنهم طواغيت أهر (١).

فجعل

هل تكفير الطواغيت من أجل الدين أم الكفر بهم فقط؟

اعلم رحمك الله وإياي أن أصل دين الله هو التوحيد ونفى الشريك المعبر عنه في كتاب الله تعالى في غير ما آية وفي غير موضع كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (١) وقوله الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (٢) وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (٥).

فهذه الآيات قد دلت دلالة واضحة على أصل دين الإسلام وهو التوحيد ولا إله إلا الله أو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله أو عبادة الله وحده، فهذه معاني مطردة في كل آية من الآيات ولا نجد أن هذه الآيات إن تحمل معنى آخر وهو تكفير الطواغيت أو تكفير من لم يكفرهم والذي يقول بهذا من هذه الآيات فقد حملها مالا تحمل واتى ببهتان صريح ومثله في ذلك كمثّل الذي يستدل بقوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ على قطع يد السارق أو ما شاكل ذلك ثم اعلم رحمك الله أنه لو تعددت أسماء لمسمى واحد فلا بد وحتماً أن كل اسم من هذه الأسماء يدل على مسماه دلالة واضحة مثل القمر والهلل والبدر والشهر فكلها دلت على الكوكب الذي يظهر في السماء في أول كل شهر وكذلك هذه الآيات برغم اختلاف ألفاظها إلا أنها عبرت تعبيراً واحداً مطرداً عن أصل الدين وهو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله فكما قلنا لم نجد

(١) القول المفيد (١/ ٣٠).

(٢) الأنبياء: ٢٥.

(٣) النحل: ٣٦.

(٤) البقرة: ٢١.

(٥) البقرة: ٢٥٦.

(٦) هود: ٥٠.

الآيات عبرت عن تكفير الطواغيت أو تكفير من شك فى كفرهم مما يبرهن على أن ذلك ليس من أصل الدين. ولهذا الموضوع بحث مستقل فليرجع إليه - لمن شاء - (*).

فصل

فى تقرير ما قد سبق من كلام السلف

ثم اعلم رحمك الله وإياى أنه لو كان تكفير الطواغيت أو تكفير من لم يكفرهم من أصل الدين لكفر السلف بعضهم بعضاً فى كثير من المواقف منها مثلاً اختلافهم فى أمر الحجاج فمنهم من كفره ومنهم من لم يكفره ومع ذلك لم نسمع عنهم أنهم كفر بعضهم بعضاً من أجل هذه القضية ودليل ذلك ما جاء فى كتاب الإيمان لابن أبى شيبة: أخبرنا قبيصة عن سفيان عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال: عجباً لإخواننا من أهل العراق يسمون الحجاج مؤمناً!

ثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن إبراهيم. أنه كان إذا ذكر الحجاج قال: «ألا لعنة الله على الظالمين» (١).

حدثنا أبو بكر بن عباس عن الأجلح عن الشعبي قال: اشهد أنه مؤمناً بالطاغوت كافر بالله يعنى الحجاج.

حدثنا وكيع عن سفيان عن منصور عن إبراهيم قال: «كفى بمن يشك فى أمر الحجاج لحاء الله» (٢).

[قلت]: فانظر كيف يتعجب طاوس من إخوانه أهل العراق من تسميتهم الحجاج مؤمناً، وهو عنده كافر، كذلك يصرح بها الشعبي، ومع ذلك فإن طاوساً رحمه الله لم يكفر أهل العراق، وقال مخاطباً إياهم على أنهم إخوانه، فلو كان تكفير الطواغيت أو تكفير من لم يكفرهم أو شك فى كفرهم من أصل الدين لم يتوان طاوس فى تكفير أهل العراق والله والمستعان.

فصل من سمي من عبدة من الأصنام طواغيت

أخرج أحمد وابن ماجه عن ميمونة بنت كردم أن أباهما سأل النبى ﷺ فقال يارسول الله اننى نذرت أن اتحر ببوانه فقال: «أبها وثن أو طاغية قال لا قال: فأوف بنذرك» (٣).

(*) (وهو بحث رفع الالتباس فى الحكم على الناس) يرس الله نشره.

(١) هود : ١٨

(٢) الإيمان لابن أبى شيبة ص ٣٢ ٩٥ ٩٨ - وصححها الشيخ الألبانى حفظه الله.

(٣) سيأتى تخريجه

روى الحميدى فى «مسنده» عن عائشة . . إنما كان من أهل لمناة الطاغية التى بالمشلل لايطوفون بين الصفا والمروة فأنزل الله عزوجل ﴿أَن الصفا والمروة من شعائر الله﴾^(١).

وروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها . . ولكنها نزلت فى الإنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون بمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها عند المشلل^(٢).

وروى أبو داود عن عثمان بن أبى العاص أن النبى ﷺ أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كان طواغيتهم^(٣).

روى البخارى عن سعيد بن المسيب قال البحيرة التى يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس والسائية كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء قال وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قصبته فى النار كان أول من سيب السوائب» والوصيلة الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الإبل بأنثى ثم تنثى بعد بانثى وكانوا يسيبونها لطواغيتهم أن وصلت إحداها بالآخرى ليس بينهما ذكر والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعداد فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي^(٤).

وقد بوب البخارى باب لا يحلف بالله ولا بالطواغيت، وأورد فيه حديث «من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله»^(٥).

قال ابن حجر: وأما الطواغيت فوقع فى حديث أخرجه مسلم والنسائى وابن ماجه عن عبدالله بن سمرة مرفوعاً «لا تحلفوا بالطواغيت ولا بأبائكم»^(٦) وفى رواية مسلم وابن ماجه بالطواغى وهو جمع طاغية والمراد الصنم ومنه الحديث الآخر «طاغية دوس»^(٧) أى صنمهم سمي باسم المصدر لطغيان الكفار بعبادته لكونه السبب فى طغيانهم وكل من جاوز الحد فى تعظيم أو غيره فقد طغى ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾^(٨).

(١) الحميدى فى . . مسنده (٢١٩) وانظر «فتح القدير» بتخريجنا

(٢) [صحيح] البخارى (١٦٤٣) وانظر تخريجه فى «فتح القدير» - بتخريجنا

(٣) أخرجه أبو داود (٤٥٠) وضعفه الألبانى .

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٦٢٣ / ٨) (٥) أخرجه البخارى (٦٦٥٠)

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم (٦ / ١٢٠ - إيمان)، والنسائى (٧ / ٧ - الصغرى) وابن ماجه (٢٠٩٥)

(٧) سيأتى تخريجه (٨) الحاقة ١١

ثم قال ابن حجر: واقتصر المصنف على لفظ الطواغيت لكونه الاصل وعطفه على اللات والعزى لاشتراك الكل فى المعنى (١).

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «لا تقوم الساعة حتى تضطرب آليات نساء دوس على ذى الخلصة» (٢).

قال البخارى: طاغية دوس التى كانوا يعبدون فى الجاهلية.

قلت: وإطلاق الطواغيت على كل ما يعبد من أصنام وغيرها لاشك يدخل فيه من عبدوهم من الاولياء والأنبياء لأنهم صرحوا بعبادتهم لهم كما صرح القرآن بذلك بل صرحت السيرة بأنهم صنعوا لبعض الانبياء صنماً مثل إبراهيم وهو يستقسم بالأزلام وكذبهم الرسول ﷺ فى فتح مكة فى هذا وهؤلاء دخلوا فى عموم الطواغيت باعتبار عابديهم وتابعيهم ومطيعيهم لأنهم تجاوزوا بهم الحد حيث أنزلوهم منزلة فوق منزلتهم التى جعلها الله لهم فتكون عبادتهم لهذا المعبود واتباعهم لمتبعيهم طغياناً لمجاوزته الحد بذلك (*). وعلى هذا فلا يلزم من الكفر بعبادة من عبد من الانبياء تكفيرهم وكذلك الاولياء والله أعلم.

فصل

فى صور عبادة الطاغوت من القرآن

(١) التحاكم إليه.

لقوله الله تعالى «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا» (٣) هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسله وعلى الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم فى فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله كما ذكر فى سبب نزول هذه الآية أنها فى رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما فجعل اليهودى يقول بينى وبينك محمد - ﷺ وذاك يقول بينى وبينك كعب بن الأشرف، وقيل فى جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام أرادوا

(١) «الفتح» (١١/٥٤٥)

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٧١١٦) وانظر «فتح المجيد» (ح ٤٦٣) بتخريجنا.

(*) أنظر القول المفيد للشيخ ابن عثيمين (١/ ٣٠).

(٣) النساء : ٦٠

أن يتحاكموا إلى أحكام الجاهية والآية أعم من ذلك فإنها دامة كل من عدل عن كتاب الله وسنة رسوله. وتحاكموا إلى سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هذا ولذلك قال الله تعالى ﴿وَأِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ * أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ﴿(١) الآية.

وسيأتي في الباب الثامن والثلاثين من هذا الكتاب تفصيل ذلك في باب قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾

(٢) القتال في سبيله.

لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ أى أن الكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان.

وفي «صفوة التفاسير» قال أما الكافرون فيقاتلون في سبيل الشيطان الداعى إلى الكفر والطغيان، فلذلك سئل ﷺ «الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل رياء» أى ذلك فى سبيل الله؟ قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى فهو فى سبيل الله ﴿(٢)﴾.

(٣) العبادة من دون الله.

ومن أصرح الصور أنه عبد لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ وأيضاً ﴿وجعل منهم القردة والخنازير وعبداء لطاغوت﴾ وأيضاً ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ ففى تفسير آية الزمر نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل وأبى ذر وسلمان الفارسي (٣) والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم فمن اجتنب عبادة الطاغوت والأوثان وأتاب إلى عبادة الرحمن فهؤلاء هم الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. ولقد وسم الله تعالى عبدة الطاغوت بأخس وأحط وسم فهم احط من القردة والخنازير فالله - عز وجل - مسخ أقواماً قردة ومسخ أقواماً خنازير ومسخ أقواماً. (عبدة الطاغوت) مسخ ثالث.

وأيضاً هذا المسخ يصدق على تارك الصلاة لأنه أحط من الحمر والبهائم والنصوص دلت على ذلك (*).

(١) النور: ٥٠

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٢٣)، ومسلم (٤٩/١٣) - النووي

وانظر رياض الصالحين (٩) - بتخریجنا

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦٠٧/٥) ونسبه لابن جرير، وابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم

وانظر تمام تخریجه فى تفسير ابن أبى حاتم. بتخریجنا.

(*) وانظر كتابى «فته الخطابة وزاد الخطيب» (خطبة المسخ الثالث وتارك الصلاة).

(٤) الموالاة والحب والنصرة والقرب.

أيضاً من صور عبادته أنه يحب ويتولى من دون الله ويخرج أوليائه من النور إلى الظلمات ﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أى أن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك .

● من فوائد الآية:

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن^(١).

فى قوله تعالى ﴿ولقد بعثنا﴾ الآية . فوائد لمن تدبرها:

الأولى : أنه تعالى بعث فى كل أمة رسولاً ، ولاخصص أمة دون أمة ، لإظهار عدله ، وإتمام حجته على الناس كلهم .

الثانية : أنه ماتركهم هملاً ، بل أرسل إليهم رسلاً يرشدونهم إلى التى هى أقوم وأصلح من أمر دينهم الذى به سعادة الأبدية .

الثالثة : أنه تعالى ماخلقهم عبثاً ، بل لعبادته خلقهم قال تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فتعالى الله الملك الحق^(٢) نزه الله نفسه عن خلقهم عبثاً وتركهم هملاً لايبعث الرسل إليهم ولاينزل معهم الكتب ولايبين لهم مراده .

الرابعة : اختلاف الناس فى الألوهية أى فى أفعالهم ، ليس اختلافهم فى الربوبية ، أى أفعال الله ؛ لأنه لو كان الاختلاف فى الربوبية لذكره الله تعالى كما ذكر اختلافهم فى الألوهية كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٣) وقوله تعالى ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ * ألا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ^(٤) وقوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٥) فبين الله تعالى

(١) فتح الله الحميد المجيد ٦٢ - ٦٤ .

(٢) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦ .

(٣) النحل : ٣٦ .

(٤) هود : ١ ، ٢ .

(٥) الكهف : ١١٠ .

أن الذى أوجب إرسال الرسل شرك الألوهية، وهوشرك فى العبادة، ليس شركاً فى الربوبية، بل إن الكفار مقرون بالربوبية، كما حكى الله تعالى عنهم قال تعالى ﴿وَلَّيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٣) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ^(٤) وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٥) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(٦) وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَيُمِيتُهُ وَمَنْ يُنَادِي بِعِلَّةٍ يُسْتَجَابُ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَوَّلَ دَعْوَةٍ﴾^(٧) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ^(٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ^(٩) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ^(١٠)

الخامسة: أن اجتناب الطواغيت فرض وحق على العباد، وكما أن عبادة الله فرض وحق على العباد، ولا يتم التوحيد إلا باجتناب الطواغيت، كما قال الله تعالى عن إمام الحنفاء ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٠) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾^(٦) وقال تعالى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾^(٧) هذا بل الكفر بالطواغيت مقدم على الإيمان بالله تعالى عقلاً ونقلاً، أما النقل؛ فقد قال تعالى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾^(٨) وأما العقل؛ فمعلوم بالضرورة أن الصبغ لا يؤثر فى المتدنس والمتوسخ من كل نوع حتى ينظف، أما ترى الصفارين والصباعين أكثر جهدهم فى زوال الأعراض المانعة من الصبغ؟ وهى الأدناس والأوساخ، فكذلك

(١) الزخرف: ٩. (٢) يونس: ٣١.

(٣) المؤمنون: ٨٦، ٨٧. (٤) المؤمنون: ٨٤، ٨٥.

(٥) المؤمنون: ٨٨، ٨٩. (٦) الزخرف: ٢٦، ٢٧.

(٧) الممتحنة: ٤. (٨) البقرة: ٢٥٦.

الدين والإيمان ينبغي أن يزيل عن القلوب الأوساخ التى وقعت عليها، من عبادة الطواغيت، وحباها أولاً، ثم يصبغ بصبغة الله تعالى وهو التوحيد والإخلاص، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ (١).

قال البيضاوى فى «تفسيره»: سماه صبغة لأنه ظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ، وتداخل فى قلوبهم الإيمان تداخل الصبغ الثوب انتهى. وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم.

والسادسة: أن دعوتهم فى أصل الدين واحدة، ولا تغاير بين دعوتهم، ولا تخالف بين كلمتهم إلا فى الفروع، وهى الشرائع، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (٢). وقال ﷺ: «نحن الأنبياء أولاد علات أبونا واحد وأمهاتنا متفرقة» (٣).

قال ابن عثيمين (٤) مبيّناً فوائد آخر: -

● والحكمة من إرسال الرسل:

أ- إقامة الحجّة: قال تعالى ﴿رِسَالًا مَبْشُرِينَ وَمُنْذِرِينَ لئَلَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾

ب - الرحمة: لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

ج - بيان الطريق الموصل إلى الله تعالى؛ لأنَّ الإنسان لا يعرف ما يجب لله على وجه التفصيل إلا عن طريق الرُّسل.

(١) البقرة: ١٣٨.

(٢) المائدة: ٤٨.

(٣) تقدم تخريجه فى أول الكتاب.

(٤) القول المفيد ٢٩/١.

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (١).

● مناسبة الآية للتوحيد (٢).

حيث دلت الآية الكريمة على وجوب إفراد الله بالعبادة

● وقوله «وقضى ربك»

إعرابها (٣).

(وقضى ربك) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان منزلة الوالدين ووجوب معاملتهما من قبل الأبناء معاملة لائقة وقضى ربك فعل وفاعل ومعنى قضى أمر أمراً قاطعاً وقيل أوصى.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ قال: التزقت الواو بالصاد، وأنتم تقرؤونها ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ (٤).

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أنزل الله هذا الحرف على لسان نبيكم ﷺ «ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه» فالتصقت إحدى الواوين بالصاد، فقرأ الناس ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ ولو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد (٥).

عن الأعمش قال: كان عبدالله بن مسعود رضى الله عنه يقرأ «ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه» (٦).

عن حبيب بن أبى ثابت قال: أعطانى ابن عباس رضى الله عنه مصحفا فقال: هذا على قراءة أبى بن كعب رضى الله عنه، فرأيت فيه: «ووصى ربك» (٧).

(١) الإسراء : الآية ٢٣

(٢) القرعاوى ٢٤

(٣) إعراب القرآن (٥/٤١١)

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/٢٥٧) ونسبه للفريابى، وسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأثير فى «المصاحف»

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/٢٥٧ - ٢٥٨) ونسبه لأبى عبيد، وابن منيع، وابن المنذر، وابن

مردويه.

(٦) [منتظم] أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٨٦٧٩) وضعفه الهيثمى فى «المجمع» (٧/١٥٥)

وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا (ط نزار الباز).

(٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٤٧/١٥) (ح ٢٩).

وانظر «فتح المجيد» (ح ٢٨) بتخريجنا (ط نزار الباز).

عن قتادة قال: فى حرف ابن مسعود رضى الله عنه «ووصى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه»^(١)..

عن الضحاك بن مزاحم أنه قرأها «ووصى ربك» قال: انهم ألصقوا إحدى الواوين بالصاد فصارت قافاً^(٢).

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله «وَقَضَىٰ رَبُّكَ» قال أمر^(٣).

عن مجاهد فى قوله: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» قال: عهد ربك أن لاتعيدوا إلا إياه^(٤).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبري^(٥): وقد اختلفت ألفاظ أهل التأويل فى تأويل قوله «وَقَضَىٰ رَبُّكَ» وإن كان معنى جميعهم فى ذلك واحد.

قال ابن الجوزى^(٦):

ونقل عن الضحاك أنه قال: إنما هى «ووصى ربك» فالتصقت إحدى الواوين بـ «الصاد» وكذلك قرأ أبى بن كعب^(٧)، وأبو المتوكل، وسعيد بن جبیر: «ووصى» وهذا على خلاف ما انعقد عليه الإجماع، فلا يلتفت إليه.

قال الرازى^(٨) معلقاً على قراءة «ووصى ربك».

وأعلم أن هذا القول بعيداً جداً لأنه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق إلى القرآن، ولو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن القرآن وذلك يخرج عن كونه حجة ولاشك أنه طعن عظيم فى الدين.

قلت: ولكن من جمع بين القراءتين أولى كما قال الطبرى وغيره من المعاصرين كالسعدى^(٩) «وقضى ربك» قضاء دينياً وأمرأً شرعياً.

(١) تقدم فى الحديث قبل السابق.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٥٨/٥) ونسبه لأبى عبيد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٣) [منقطع] أخرجه ابن جرير (٤٦/١٥)

وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٠) بتخريجنا

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٥٨/٥) ونسبه لابن المنذر.

(٥) «تفسير الطبرى» (٤٦/١٥) (٦) «زاد المسير» (١٧/٥)

(٧) تقدم قريباً (٨) التفسير الكبير (١٠/ ١٨٦/٢٠)

(٩) تيسير الكريم الرحمن (٧٣/٣)

● معنى القضاء.

قال الشنقيطي^(١) : وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ معناه أمر والأمر، وأوجب ووصى الاتعبدوا إلا إياه.

وقال صاحب «ظلال التفسير»^(٢) أمر في صورة قضاء . فهو أمر حتمي حتمية القضاء.

قال ابن الجوزي^(٣).

قال ابن الأباري : هذا القضاء ليس من باب الحتم والوجوب، لكنه من باب الأمر والفرض، وأصل القضاء فى اللغة: قطع الشيء بإحكام وإتقان، قال الشاعر يرثى عمر:

قَضَيْتَ أُمُورًا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا بَوَاتِقٍ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تُفْتَقِ

قال الرازي^(٤):

القضاء معناه الحكم الجزم البت الذى لا يقبل النسخ. والدليل عليه أن الواحد منا إذا أمر غيره بشيء فإنه لا يقال إنه قضى عليه، أما إذا أمره أمرا جزما وحكم عليه بذلك الحكم على سبيل البت والقطع، فهنا يقال: قضى عليه ولفظ القضاء فى أصل اللغة يرجع إلى إتمام الشيء وانقطاعه أ. هـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

أقسام القضاء وأنواعه

قال ابن عثيمين^(٥):

قوله ﴿وَقَضَىٰ﴾ قضاء الله - عز وجل - ينقسم إلى قسمين:

١- قضاء شرعي.

٢- قضاء كوني.

فالقضاء الشرعي: يجوز وقوعه من المقتضى عليه وعدمه، ولا يكون إلا فيما يحبه الله.

مثال ذلك: هذه الآية ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ؛ فتكون قضى بمعنى :

شرع، أو بمعنى : وصى، وما أشبههما.

(١) أضواء البيان (٣/ ٣٦٥)

(٢) (٤/ ٢٢٢١)

(٣) زاد المسير ١٧/ ٥

(٤) التفسير الكبير ١٠ / ٢٠ / ١٨٦

(٥) القول المفيد ١/ ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦.

والقضاء الكوني: لا بد من وقوعه، ويكون فيما أحبه الله، وفيما لا يحبه.
مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (١).

فالقضاء هنا كوني؛ لأن الله لا يشرع الفساد في الأرض، ولا يحبه.

إشكال وجوابه

قال ابن عثيمين (٢) إذا قيل: ثبت أن الله قضى كوناً ما لا يحبه؛ فكيف يقضى الله ما لا يحبه؟

والجواب: أن المحبوب قسمان:

١- محبوب لذاته.

٢- محبوب لغيره.

فالمحبوب لغيره قد يكون مكروهاً لذاته، ولكن يُحبُّ لما فيه من الحكمة والمصلحة؛ فيكون حينئذٍ محبوباً من وجه، مكروهاً من وجه آخر.

مثال ذلك: الفساد في الأرض من بنى إسرائيل في حدّ ذاته مكروه إلى الله؛ لأنَّ الله لا يُحب الفساد، ولا المُفسدين، ولكن للحكمة التي يتضمنها يكون بها محبوباً إلى الله - عز وجل - من وجه آخر.

ومن ذلك: القحط، والجذب، والمرض، والفقر؛ لأنَّ الله رحيم لا يُحب أن يؤذى عباده بشيء من ذلك، بل يريد بعباده اليسر، لكن يُقدره للحكم المترتبة عليه؛ فيكون محبوباً إلى الله من وجه، مكروهاً من وجه آخر.

قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٣).

فإن قيل: كيف يتصور أن يكون الشيء محبوباً من وجه مكروهاً من وجه آخر؟
فيقال: هذا الإنسان المريض يعطى جرعة من الدواء مرة كراهة الرائحة واللون،

(١) الإسراء ٤

(٢) القول المفيد ١/٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦.

(٣) الروم: ٤١

فيشربها، وهو يكرهها لما فيها من المرارة واللون والرائحة، ويحبها لما فيها من الشفاء، وكذا الطبيب يكرى المريض بالحديدة المَحْمَّاة على النار، ويتألم منها؛ فهذا الألم مكروه له من وجه، محبوب له من وجه آخر.

فإن قيل: لماذا لم يكن قوله: [وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه] من باب القضاء القدرى أجيب بأنه لا يمكن، إذ لو كان قضاء قدرياً لَعَبَدَ الناسُ كلهم ربهم، لكنه قضاء شرعى قد يقع وقد لا يقع. والخطاب فى الآية للنبي ﷺ. لكن قال ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، ولم يقل: «أن لاتعبد»، ونظير ذلك فى القرآن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ (١) فالخطاب الأول للرسول ﷺ والثانى عام؛ فما الفائدة من تغيير الأسلوب؟.

أجيب: إن الفائدة من ذلك.

١- التنبيه؛ إذ تنبيه المخاطب أمر مطلوب للمتكلّم، وهذا حاصل هنا بتغيير الأسلوب.

٢- أن النبي ﷺ زعيم أمته، والخطاب الموجه إليه موجه لجميع الأمة.

٣- الإشارة إلى أن ما حُوطب به الرسول ﷺ فهو له ولأُمته؛ إلا ما دلّ الدليل على أنه مختص به.

٤- وفى هذه الآية خاصة الإشارة إلى أن النبي ﷺ محبوب لاربِّ، عابد لا معبود؛ فهو داخل فى قوله ﴿تَعْبُدُوا﴾، وكفى به شرفاً أن يكون عبداً لله - عزوجل -، ولهذا يصفه الله تعالى بالعبودية فى أعلى مقاماته؛ فقال فى مقام التحدى والدفاع عنه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ (٢)، وقال فى مقام إثبات نبوته ورسالته إلى الخلق ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ (٣).

وقال فى مقام الإسراء والمعراج: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ (٤) ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (٥).

(٢) البقرة: ٢٣

(٤) الإسراء: ١

(١) الطلاق: ١

(٣) الفرقان: ١٠

(٥) النجم: ١٠

قال الشنقيطي^(١): والواقع أن الخطاب الموجه للنبي ﷺ على ثلاثة أقسام.

الأول: قد يتوجه الخطاب إليه ﷺ ولا يكون داخلاً فيه قطعاً، وإنما يراد به الأمة بلا خلاف من ذلك قوله تعالى في بر الوالدين: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢)

فكل صيغ الخطاب هنا موجهة للنبي ﷺ وهو قطعاً ليس مراد بذلك لعدم وجود والدين. ولا أحدهما عند نزولها كما هو معلوم.

قلت: لكن الأمة مخاطبة في شخص رسولها.

الثاني: أن يكون خاصاً به لا يدخل معه غيره قطعاً. نحو قوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣).

والثالث: هو الشامل له ﷺ ولغيره بدليل هذه الآية يقصد بها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الآية: وأول السورة التي بعدها في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ﴾ (٤) فهذا كله خطاب موجه له ﷺ.

وجاء بعدها مباشرة ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بخطاب الجميع ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ (٥) فدلّت أن الآية داخلية في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ وهذا باتفاق أ. هـ. قلت وهذه الآية من هذا القسم الثالث: فتنبه.

قوله ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾

الإعراب:

قال ابن عثيمين^(٦) قوله «أن لاتعبدوا»

(٢) الإسراء: ٢٣، ٢٤.

(٤) التحريم: ١

(٦) القول المفيد ١/ ٣٣.

(١) أضواء البيان ٨/ ٢٢٠.

(٣) الأحزاب: ٥٠.

(٥) التحريم: ٢

(أن) هنا مصدرية بدليل حذف النون من تعبدوا، والاستثناء هنا مُفْرَغٌ، لأن الفعل لم يأخذ مفعوله، فمفعوله مابعد إلا قوله ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ضمير نصب منفصل واجب الانفصال، لأن المتصل لا يقع بعد إلا، قال ابن مالك.

وذواتصال منه ما لا يبدأ ولا يلي إلا اختياراً أبداً

قال محيي الدين درويش^(١) و«أن» يحتمل أن تكون مصدرية فلا نافية وتعبدوا منصوب بها والمصدر منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بقضى وقيل مفسرة لأن قضى فيه معنى القول دون حروفه أو مخففة من الثقيلة فلا على الحاليين ناهية وتعبدوا مجزوم بها وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل وإلا أداة حصر وإياه مفعول أ. هـ

● من أقوال المفسرين:

قال الطبري^(٢) يعنى بذلك تعالى ذكره حكم ربك يا محمد بأمره إياكم ألا تعبدوا إلا الله فإنه لا ينبغي أن يعبد غيره. أ. هـ.

قال الرازي^(٣) اعلم أنه لما ذكر في الآية الأولى وهي - ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ - ما هو الركن الأعظم في الإيمان اتبعه بذكر ما هو من شعائر الإيمان وشرائطه وهي أنواع قلت: وذكر نحو ذلك السعدى وسيأتي

ثم قال: (٣) أى الرازى.

قد ذكرنا أن هذه الآية تدل على وجوب عبادة الله تعالى وتدل على المنع عن عبادة غير الله تعالى وهذا هو الحق، وذلك لأن العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لاتليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الانعام، ونهاية الانعام عبارة عن إعطاء الوجود والحياة، والقدرة والشهوة والعقل، وقد ثبت بالدلائل أن المعطى لهذه الأشياء هو الله تعالى لا غيره، وإذا كان المنعم بجميع النعم هو الله لا غيره، لاجرم كان المستحق للعبادة هو الله تعالى لا غيره، فثبت بالدليل العقلى صحة قوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.

(١) تفسير الطبري ٤٦/١٥/٨.

(٢) التفسير الكبير ١٠/٢٠/١٨٦، ١٨٥.

(٣) التفسير الكبير ١٠/٢٠/١٨٦.

قال السعدى^(١): لما نهى تعالى عن الشرك به أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ قضاء دينياً، وأمرأً شرعياً.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أحداً من أهل الأرض والسموات والأحياء والأموات.

﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى له كل صفة كمال، وله من كل صفة أعظمها، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدبر لجميع الأمور.

فهو المنفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء. أهـ.

وذكره بنحوه صاحب «الظلال» فقال^(٢):

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

فهو أمر بتوحيد المعبود بعد النهى عن الشرك أمر فى صورة قضاء . فهو أمر حتمى حتمية القضاء. ولفظة «قضى» تخلع على الأمر معنى التوكيد، إلى جانب القصر الذى يفيد النفى والاستثناء «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» فتبدو فى جو التعبير كله ظلال التوكيد والتشديد.

فإذا وضعت القاعدة، وأقيم الأساس، وجاءت التكاليف الفردية والاجتماعية، ولها فى النفس ركيزة من العقيدة فى الله الواحد، توحد البواعث والأهداف من التكاليف والأعمال. أهـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد: أقسام العبودية^(٣).

قال ابن عثيمين: تنقسم العبودية إلى ثلاثة أقسام:

١- عامة، وهى عبودية الربوبية، وهى لكل الخلق، قال تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا﴾، ويدخل فى ذلك الكفار.

٢- عبودية خاصة، وهى عبودية الطاعة العامة، قال تعالى ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا﴾، وهذه تعم كل من تعبد لله بشريعة.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٧٣ .

(٢) ٢٢٢١/٤ (٢)

(٣) القول المفيد ١/ ٣٦، ٣٧

قال الفقير : وبهذا يتأيد قول من قال أن هناك ما يسمى بتوحيد الطاعة والإنقياد (١) وسيأتى مزيد من الشرح فى باب طاعة العلماء والأمراء فى تحرير ما أحل الله . . وفى باب قوله تعالى ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا﴾ الآية .

٣- خاصة الخاصة، وهى عبودية الرُّسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى عن نوح : ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، وقال عن محمد ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا﴾، وقال فى آخرين من الرُّسل: ﴿وأذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار﴾.

فهذه العبودية المضافة إلى الرسل خاصة الخاصة؛ لأنه لا يبارى أحد هؤلاء الرسل فى العبودية .

قوله : «وبالوالدين إحساناً»
الإعراب (٢).

وبالوالدين جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره وأحسنوا، وإحساناً مفعول مطلق ناصبه الفعل المحذوف، وإنما علقناهما بالفعل المحذوف لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته . اهـ .

● ما جاء فى تفسير الآية السنة

قال سليمان آل الشيخ (٣) . ولم يخص تعالى نوعاً من أنواع الإحسان ليعم أنواع الإحسان . وقد تواترت النصوص عن النبى ﷺ بالأمر ببر الوالدين والحث على ذلك، وتحرير عقوقهما كما فى القرآن، ففى صحيح البخارى :

عن ابن مسعود قال: سألت النبى ﷺ أى العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال «الصلاة على وُفئها» قلتُ : ثم أى؟ قال : «ثم برُّ الوالدين» قلتُ : ثم أى؟ قال «الجهادُ فى سبيلِ الله» حدثنى بهنَّ وكوِ استزدته لَرَادَنِى (٤) .

(١) انظر كتاب أصول الإيمان للدكتور صلاح الصاوى .

(٢) إعراب القرآن: ٤١١/٥ .

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٥، ٣٦ .

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٢٧)، ومسلم فى الإيمان (٧٣/٢ - النووى) وانظر «رياض

الصالحين» (٣١٤ - بتخريجنا) .

وعن أبي بكرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الْإِشْرَافُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ». وكان مُتَكِنًا فجلس فقال: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فما زال يُكْررها حتى قلنا: ليته سكت (١).
رواه البخارى ومسلم.

وعن أبي هريرة قال: قال رجلٌ يارسولَ الله! مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ» (٢) أخرجه.

وعن عبدالله بن عمرو، قال:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَضِيَ الرَّبُّ فِي رَضَى الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطَهُ فِي سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ» (٣) رواه الترمذى، وصححه ابن حبان والحاكم.
وعن أبي أسيد الساعدى قال:

ينا نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاء رجل من بنى سلمة فقال يا رسول الله هل بقي من برِّ أبوي شيء أبرَّهُما به بعد موتيهما؟ فقال: «نعم. الصلاةُ عليهما والاستغفارُ لهما وإنفاذُ عهدهما من بعدهما وصلةُ الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرامُ صديقيهما» (٤).
والأحاديث في هذا كثيرة قد افردا العلماء بالتصنيف وذكر البخارى منها شطراً صالحاً فى كتاب «الأدب المفرد».

وأخرج بن أبى حاتم عن الحسن فى قوله تعالى ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ يقول برأ (٥).

(١) البخارى (٢٦٥٤) ومسلم فى الإيمان (٨١/٢) - النووى) وانظر «رياض الصالحين» (٣٣٨) - بتخريجه).

(٢) [متفق عليه] البخارى (٥٩٧١) مسلم فى البر والصلة (١٠٢/١٦) - النووى) وانظر «رياض الصالحين» (٣١٨) - بتخريجه).

(٣) الترمذى (١٨٩٩) وابن حبان (٣٢٨/١) والحاكم (١٥١/٤)

ورجح الترمذى الموقوف.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٩٨/٣) أبو داود (٥١٤٢) ابن ماجه (٤٦٦٤) البخارى فى «الأدب

المفرد» (٣٥)

وانظر «رياض الصالحين» (٣٤٤) - بتخريجه).

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٣٢٣٠) - بتخريجه)

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

● حكمة اقتران بر الوالدين بعبادة الله - عزوجل - فى الآية الكريمة

قال الرازي^(١): اعلم أنه تعالى أمر بعبادة نفسه ، ثم أتبعه بالأمر ببر الوالدين وبيان المناسبة بين الأمر بعبادة الله تعالى وبين الأمر ببر الوالدين من وجوه:

الوجه الأول: أن السبب الحقيقى لوجود الإنسان هو تخلق الله تعالى وإيجاده، والسبب الظاهرى هو الأبوان، فأمر بتعظيم السبب الحقيقى، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري.

الوجه الثانى: أن الموجود إما قديم وإما محدث، ويجب أن تكون معاملة الإنسان مع الإله القديم بالتعظيم والعبودية، ومع المحدث بإظهار الشفقة وهو المراد من قوله عليه السلام «التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله» وأحق الخلق بصرف الشفقة إليه هما الأبوان لكثرة إنعامهما على الإنسان فقوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله وقوله ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله.

الوجه الثالث: أن الاشتغال بشكر المنعم واجب، ثم المنعم الحقيقى هو الخالق سبحانه وتعالى. وقد يكون أحد من المخلوقين منعماً عليك، وشكره أيضاً واجب لقوله عليه السلام «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»^(٢) وليس لأحد من الخلائق نعمة على الإنسان مثل ما للوالدين وتقديره من وجوه

أحدها: أن الولد قطعة من الوالدين قال عليه السلام «فاطمة بضعة مني»^(٣) وثانيها: أن شفقة الأبوين على الولد عظيمة وجدهما فى إيصال الخير إلى الولد كالأمر الطبيعى واحترازهما عن إيصال الضرر إليه كالأمر الطبيعى، ومتى كانت الدواعى إلى إيصال الخير مستوفرة، والصوارف عنه زائلة لاجرم كثير إيصال الخير، فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة أكثر من كل نعمة تصل من إنسان إلى إنسان.

وثالثها: أن الإنسان حال ما يكون فى غاية الضعف ونهاية العجز، يكون فى إنعام الأبوين فأصناف نعمهما فى ذلك الوقت واصله إليه، وأصناف رحمة ذلك الولد واصله

(١) التفسير الكبير ١٠ / ٢٠ / ١٨٧، ١٨٨.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٢/٣)، والترمذى (١٩٥٥) عن أبى سعيد رضى الله عنه - بإسناد ضعيف فيه عطية العوفى.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٢٣٠)، ومسلم فى الفضائل (٨/٢٣٩/٩٤).

إلى الوالدين فى ذلك الوقت، ومن المعلوم أن الإنعام إذا كان واقعا على هذا الوجه كان موقعه عظيما.

ورابعها: إن إيصال الخير إلى الغير قد يكون لداعية إيصال الخير إليه وقد يمتزج بهذا الغرض سائر الأغراض، وإيصال الخير إلى الولد ليس لهذا الغرض فقط، فكان الإنعام فيه أتم وأكمل، فثبت أنه ليس لأحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد، فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ثم أرفده بشكر نعمة الوالدين وهو قوله ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ والسبب فيه ما بينا أن أعظم النعم بعد إنعام الإله الخالق نعمة الوالدين.

فإن قيل: الوالدان إنما طلبا تحصيل اللذة لنفسيهما فلزم منه دخول الولد فى الوجود وحصول فى عالم الآفات والمخافات، فأى انعام للأبوين على الولد؟ حكى أن واحد من المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول: هو الذى أدخلنى فى عالم الكون والفساد وعرضنى للموت والفقر والعى والزمانة، وقيل لأبى العلاء المعري: ماذا نكتب على قبرك؟ قال اكتبوا عليه؛

هذا ماجتاه أبى على وما جنيت على أحد

وقال فى ترك الزوج والولد:

وتركت أولادى وهم فى نعمة العدم التى سبقت نعيم العاجل

ولو أنهم ولدوا لعانوا شدة ترمى بهم فى موبقات الآجل

وقيل للأسكندر: أستاذك أعظم منة عليك أم والدك؟ فقال: الأستاذ أعظم منة، لأنه تحمل أنواع الشدائد والمحن عند تعليمى أرتعنى فى نور العلم، وأما الوالد فإنه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه، وأخرجنى إلى آفات عالم الكون والفساد. ومن الكلمات المشهورة المأثورة: خير الآباء من علمك.

والجواب: هب أنهما فى أول الأمر طلبا لذة الوقاع إلا أن الاهتمام بإيصال الخيرات، وفى دفع الآفات من أول دخوله فى الوجود إلى وقت بلوغه الكبر أليس أنه أعظم من جميع ما يتخيل من جهات الخيرات والمبرات، فسقطت هذه الشبهات والله أعلم.

قال الشنقيطي^(١): وجعله بر الوالدين مقروناً بعبادته وحده جل وعلا المذكور هنا ذكره فى آيات أخرى؛ كقوله تعالى فى سورة النساء ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(٢).

(٢) النساء: ٣٦.

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٦٤، ٣٦٥.

وقوله فى البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(١) الآية، قوله فى سورة لقمان: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾^(٢)، وبين فى موضوع آخر أن برهما لازم ولو كانا مشركين داعيين إلى شركهما، كقوله فى «لقمان»: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(٣)، وقوله فى «العنكبوت»: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾^(٤) الآية.

وذكره جل وعلا فى هذه الايات: بر الوالدين مقرونًا بتوحيده جل وعلا فى عبادته، يدل على شدة تأكيد وجوب بر الوالدين، وجاءت عن النبى ﷺ فى ذلك أحاديث كثيرة(*) .

وقوله جل وعلا فى الآيات المذكورة: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ بينه بقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِلَٰهَهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(٥) لأن هذا من الإحسان إليهما المذكور فى الآيات.

قال صاحب «الظلال»^(٦):

والرابطة الأولى بعد رابطة العقيدة، هى رابطة الأسرة، ومن ثم يربط السياق بر الوالدين بعبادة الله، إعلانًا لقيمة هذا البر عند الله:

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

بهذه العبارات الندية، والصورة الموحية، يستجيش القرآن الكريم وجدان البر والرحمة فى قلوب الأبناء ذلك أن الحياة، وهى مندفعة فى طريقها بالأحياء، توجه اهتمامهم

(٢) الآية: ١٤ .

(١) الآية: ٨٣ .

(٤) الآية: ٨ .

(٣) الآية: ١٥ .

(*) تقدم بعضها وسيأتى بعض منها أيضاً .

(٦) ص/ ٢٢٢١ .

(٥) الاسراء ٢٣، ٢٤ .

القوى إلى الأمام، إلى الذرية، إلى الناشئة الجديدة، إلى الجيل المقبل، وكلما توجه اهتمامهم إلى الوراء، إلى الأبوة، إلى الحياة المولية، إلى الجيل الذاهب! ومن ثم تحتاج البنية إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف، وتتلفت إلى الآباء والأمهات.

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد، إلى التضحية بكل شىء حتى بالذات، وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء فى الحبة فإذا هى فتات، ويمتص الفرخ كل غذاء فى البيضة فإذا هى قشر، كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلهما الأجل - وهما مع ذلك سعيدان!

فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله، ويندفعون بدورهم إلى الأمام، إلى الزوجات والذرية.. وهكذا تندفع الحياة.

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء . إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذى أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف!

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين فى صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين (١):

وفى قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ بعد قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ دليل على أَنَّ حق الوالدين بعد حق الله عز وجل -.

فإن قيل: فأين حق الرسول ﷺ؟

أجيب: بأن حق الله متضمن لحق الرسول ﷺ لأنَّ الله لا يُعبد إلا بما شرع الرسول ﷺ.

أقوال أهل التأويل فى الآية:

قال الرازى (٢):

الآية مشتملة على قيود كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة فى الإحسان إلى الوالدين:

(٢) التفسير الكبير ١٠ / ٢٠ / ١٨٩.

(١) القول المفيد ١٠ / ٣٧.

(أحدهما): أنه تعالى قال في الآية المتقدمة ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ثم إنه تعالى أردفه بهذه الآية المشتملة على الأعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة فذكر من جملة البر بالوالدين، وذلك يدل على أن هذه الطاعة من أصول الطاعات التي تفيد سعادة الآخرة.

(وثانيها) أنه تعالى بدأ بذكر الأمر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى وثالث بالبر بالوالدين وهذه درجة عاليه ومبالغة عظيمة في تعظيم هذه الطاعة.

(وثالثها): أنه تعالى لم يقل: وإحساناً بالوالدين، بل قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام.

(ورابعها): أنه قال ﴿إِحْسَانًا﴾ بلفظ التنكير والتذكير يدل على التعظيم، والمعنى وقضى ربك أن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً عظيماً كاملاً، وذلك لأنه لما كان إحسانهما إليك قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسانك إليهما كذلك، ثم على جميع التقديرات فلا تحصل المكافأة، لأن إنعامهما عليك كان على سبيل الابتداء. وفي الأمثال المشهورة أن البادئ بالبر لا يكافأ.

قال ابن عثيمين^(١):

الوالدان : يشمل الأم، والأب، ومن فوقهما، لكنه في الأم والأب أبلغ، وكلما قربا منك كانا أولى بالإحسان، والإحسان بذل المعروف.

قوله: ﴿إِمَّا يَلْفَنَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾.

الإعراب^(٢):

إن شرطية زيدت عليها ما تأكيداً لها ويبلغن فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم فعل الشرط وعندك ظرف متعلق بمحذوف حال وأحدهما فاعل يبلغن والميم والألف حرفان دالان على التثنية وأو حرف عطف وكلاهما عطف على أحدهما وعلامة رفعه الألف لأنه ملحق بالثنى ومعنى عندك أى حالة كونهما في كفالتك يتولى منهما ما كانا يتوليان منه إبان الطفولة وفي ذلك منتهى التوصية باستعمال لين الجانب ودماثة الخلق معهما في هذه الحال.

(١) القول المفيد ١/ ٣٧.

(٢) إعراب القرآن ٥/ ٤١٢.

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين.

قال ابن الجوزى (١):

قوله تعالى : ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ على التوحيد، وقرأ حمزة، والكسائى، وخلف: «يبلغان» على التثنية. قال الفراء: جعلت ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ فعلاً لأحدهما وكرت عليهما ﴿كِلَاهُمَا﴾، ومن قرأ «يبلغان» فإنه ثنى، لأن الوالدين قد ذكرا قبل هذا، فصار الفعل على عددهما، ثم قال: ﴿أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ على الاستئناف، كقوله: ﴿عَمُوا وَصَمُوا﴾ (٢) ثم استأنف فقال: ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾.

قال الطبرى (٣): وأولى القراءتين بالصواب عندى فى ذلك قراءة من قرأه إما يبلغن على التوحيد على أنه خبر عن أحدهما لأن الخبر عن الأمر بالإحسان فى الوالدين قد تنهى عند قوله وبالوالدين إحساناً ثم ابتداء قوله ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾.

قال الرازى (٤): قوله : ﴿يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ معناه : أنهما يبلغان إلى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أول العمر.

قال صاحب الظلال (٥): ثم يأخذ السياق فى تظليل الجو كله بأرق الظلال، وفى استجاشة الوجدان بذكريات الطفولة ومشاعر الحب والعطف والحنان ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ .. والكبر له جلاله، وضعف الكبر له إبحاؤه، وكلمة «عندك» تصور معنى الالتجاء، والاحتماء فى حالة الكبر والضعف ..

قوله: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ﴾.

الإعراب (٦):

الفاء رابطة للجواب ولا ناهية وتقل فعل مضارع مجزوم بلا ولهما متعلقان بتقل وأف اسم فعل مضارع بمعنى التضجر، وفاعله مستتر تقديره أنا والجملة مقول القول.

(١) زاد المسير ١٧/٥ .

(٣) تفسير الطبرى ٨/٤٧ .

(٥) ٢٢١/٤ .

(٢) المائدة: ٧١ .

(٤) التفسير الكبير ١٠/٢٠ / ١٩٠ .

(٦) إعراب القرآن ٥/ ٤٢٠، ٤٢١ .

وذكر المفسرون للفظ : أف: أكثر من قراءة أجملها محيى الدين درويش فقال (١):

وفيه أربعون لغة وحاصلها: أن الهمزة إما أن تكون مضمومة أو مكسورة أو مفتوحة فإن كانت مضمومة فاثنتان وعشرون لغة وحاصل ضبطها أنها إما مجردة عن اللواحق أو ملحقة بزائد والمجردة إما أن يكون آخرها ساكناً أو متحركاً والمتحركة إما أن تكون مشددة أو مخففة وكل منها مثلث الآخر مع التنوين وعدمه فهذه اثنتا عشرة والساكنة إما مشددة أو مخففة فهذه أربع عشرة واللواحق لها من الزوائد إما هاء السكت أو حرف المد فإن كان هاء السكت فالفاء مثلثة مشددة فهذه سبع عشرة وإن كان حرف مد فهو إما واو أو ياء أو ألف والفاء فيهن مشددة والألف إما مفخمة أو بالإمالة المحضة أو بين فهذه خمس أخرى مع السبع عشرة وإن كانت مكسورة فإحدى عشرة مثلثة الفاء مخففة مع التنوين وعدمه فهذه ست، وفتح الفاء وكسرهما بالتشديد فيها مع التنوين وعدمه، فهذه أربع لغات والحادية عشرة أفى بالإمالة وإن كانت مفتوحة فالفاء مشددة مع الفتح والكسر والتنوين وعدمه والخامسة أف بالسكون والسادسة أفى بالإمالة والسابعة آفاه بهاء السكت فهذه السبع مكملة للأربعين وقد قرئ من هذه اللغات بسبع: ثلاث فى المتواتر وأربع فى الشواذ وقراءة حفص وهى قراءتنا أف بالكسر والتنوين مع التشديد. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من السنة:

أولاً المرفوع: عن الحسن بن على - رضى الله عنهما - مرفوعاً، «لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من ﴿أف﴾ لَحَرَّمَهُ» (٢).

عن عائشة رضى الله عنها - قالت : أتى رجل رسول الله ﷺ - ومعه شيخ فقال: «من هذا معك؟» قال : أبى. قال : «لا تمشين أمامه، ولا تقعدن قبله، ولا تدعه باسمه، ولا تستب له» (٣).

ثانياً: من الوقوف: عن عروة فى قوله «وقل لهما قولاً كريماً» قال : لا تمنعهما شيئاً أراد (٤).

(١) إعراب القرآن ٤١٢/٥.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٥٨/٥) ونسبه للدليمى عن الحسن بن على.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن مردويه.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٥٩/٥) ونسبه لسعيد بن منصور، وابن أبى شيبة، وابن

المنذر، وابن أبى حاتم.

ثالثاً: من التابعين ومن بعدهم: عن الحسن أنه سئل ما بر الوالدين؟ قال : أن نبذل لهما ما ملكت، وأن تطيعهما فيما أمراك به، إلا أن يكون معصية^(١).

عن الحسن أنه قيل له: إلى ما ينتهى العقوق؟ قال: أن يحرمهما ويهجرهما ويحد النظر إلى وجههما^(٢).

عن الحسن فى قوله: ﴿وقل لهما قولا كريماً﴾ قال: يقول: يا أبت، يا أمه، ولا يسميهما باسمائهما^(٣).

عن زهير بن محمد فى قوله: ﴿قل لهما قولا كريماً﴾ قال: إذا دعواك فقل لبيكما وسعديكما^(٤).

عن قتادة فى قوله: ﴿وقل لهما قولا كريماً﴾ قال: قولا لنا سهلاً^(٥).

وعن مجاهد: ﴿إما يبلغان عندك الكبر فلا تقل لهما أف﴾ حين ترى الأذى وتغيظ عنهما الخلاء والبول كما كانا يميطنانه عنك صغيراً ولا تؤذهما^(٦).

وعن مجاهد فى قوله: ﴿فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما﴾ قال إن بلغا عندك من الكبر ما يبولان ويخران فلا تقل لهما أف تقذرهما^(٧).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(٨) وقوله: ﴿فلا تقل لهما أف﴾

يقول فلا تؤفف من شئ تراه من أحدهما أو منهما مما يتأذى به الناس ولكن اصبر على ذلك منهما واحتسب الأجر فى صبرك عليه منهما كما صبرا عليك فى صغرك.

قال ابن الجوزى^(٩): فأمام معنى ﴿أف﴾ ففيه خمسة أقوال

(أحدهما): أنه وسخ الظفر، قاله الخليل.

(الثانى) وسخ الأذن قاله الأصمعى .

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٥٩/٥) ونسبه لعبد الرزاق.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن أبى شيبه.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» نسبه لابن أبى حاتم عن الحسن

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن أبى حاتم.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن جرير، وابن أبى حاتم.

(٦) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (٤٧/١٥)

(٧) المصدر السابق.

(٨) تفسير الطبرى (٤٧/١٥).

(٩) زاد المسير ١٩، ١٨/٥.

(الثالث) قلامة الظفر، قاله ثعلب.

(الرابع) أن «أف» الاحتقار والاستصغار، ومن «الأفف»، والاقف عند العرب: القله، ذكره ابن الأنباري.

(الخامس) أن «الأف» مافعته من الأرض من عود أو قصبة، حكاه ابن فارس اللغوي. وقرأت على شيخنا أبي منصور قال: معنى «الأف» النتن والتضجر، وأصلها: نفخك الشيء يسقط عليك من تراب ورماد، وللمكان تريد إماطه الأذى عنه، فقيلت لكل مستثقل.

قال المصنف: وما قولهم: «تف»، فقد جعلها قوم بمعنى «أف» فروى عن أبي عبيد أنه قال: أصل «الأف» و«التف» الوسخ على الأصابع إذا قتلت. وحكى ابن الأنباري فرقاً، فقال: قال اللغويون: أصل (الأف) في اللغة: وسخ الأذن، و«التف»: وسخ الأظفار فاستعملتهما العرب فيما يكره ويستقذر ويضجر منه. وحكى الزجاج فرقاً آخر، فقال: قد قيل: إن «الأف»: وسخ الأظفار، و«التف» الشيء الحقير نحو وسخ الأذن، أو الشظية تؤخذ من الأرض ومعنى (أف) النتن ومعنى الآية: لا تقل لهما كلاماً تبرم فيه بهما إذا كبرا وأسنا فينبغي أن تتولّى من خدمتهما مثل الذي توليا من القيام بشأنك وخدمتك.

قال الرازي^(١): المنع من التأفيف إنما يدل على المنع من الضرب بواسطة القياس الجلى الذى يكون من باب الاستدلال بالأدنى على الأعلى. والدليل عليه: أن التأفيف غير الضرب، فالمنع من التأفيف لا يكون منعا من الضرب، وأيضاً المنع من التأفيف لا يستلزم المنع من الضرب عقلاً، لأن الملك الكبير إذا أخذ ملكاً عظيماً كان عدواً له، فقد يقول للجلاد إياك أن تستخف به أو تشافهه بكلمة موحشة لكن أضرب رقبتك، وإذا كان هذا معقولاً فى الجملة علمنا أن المنع من التأفيف مغاير للمنع من الضرب وغير مستلزم أيضاً للمنع من الضرب عقلاً فى الجملة، إلا أننا علمنا فى هذه الصورة أن المقصود من هذا الكلام المبالغة فى تعظيم الوالدين بدليل قوله «وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا» (٣٣) وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ فكانت دلالة المنع من التأفيف على المنع من الضرب من باب القياس بالأدنى على الأعلى، والله أعلم.

(١) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠/ ١٩٢.

قال السعدي (١): «فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أَفٍ» وهذا أدنى مراتب الأذى، نبه به على ماسواه.
والمعنى، لا تؤذهما أدنى أذية.

قال صاحب «الظلال» (٢): «فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا» وهى أول مرتبة من مراتب الراعية والأدب ألا يند من الولد ما يدل على الضجر والضيّق، وما يشى بالإهانة وسوء الأدب..

ما جاء فى الآية كلام شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين (٣): فى الآية إشارة إلى أنهما إذا بلغا الكبر صار عبئاً على وكدهما؛ فلا يتضجر من الحال، ولا ينهرهما فى المقال إذا أساء فى الفعل أو القول.
لمحة فى الحقوق

قال محبى الدين درويش (٤): وما جاء فى العقوق ما يروى عن جرير فقد كان أعق الناس بأبيه وكان بلال ابنه كذلك فراجع جرير بلالاً فى الكلام فقال له الكاذب بينى وبينك... أمه، فأقبلت أمه عليه وقالت: يا عود الله تقول هذا لأبيك فقال جرير: دعيه فكأنه سمعها منى وأنا أقولها لأبى.

ومن شهر عنه العقوق بوالديه الخطيئة الشاعر المخضرم قال يهجو أباه:

فنعم الشيخ أنت لدى المخازى وبئس الشيخ أنت لدى الفعال
جمعت اللؤم لحيّاك ربي وأبواب السفاهة والضلال
وقال يهجو أمه:

لحاك الله ثم لحاك أمأ ولقاك العقوق من البنينا
أغربالاً إذا استودعت سرأ وكانونا على المتحدثينا
ومن هجا أباه على بن بسام، قال فى أبيه:

هبك عمّرتَ عُمَرَ عشرين نسرأ أترى أننى أموت وتسبقى؟
فلئن عشتُ بعد موتك يوماً لأشقنّ جيب مالك شقأ

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٧٣.

(٢) ٢٢٢١/ ٤

(٣) القول المفيد ١/ ٣٧/ ٣٨.

(٤) إعراب القرآن ٥/ ٤٢١، ٤٢٢.

فنعوذ بالله من هؤلاء وأقوالهم.

قوله ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾

الإعراب (١): عطف على لا تقل لهما أف.. والنهر الزجر.

● ما جاء فى تفسير الآية بالمأثور:

وروى ابن جرير (٢): عن عطاء بن أبى رباح فى قوله: ﴿وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ قال: لا تنغض يدك على والدك يقال منه نهره ينهره نهراً وانتهره ينتهره انتهاراً.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين.

قال الطبرى: وقوله ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ يقول جلّ ثناؤه: ولا تزجرهما.

قال ابن الجوزى (٣): ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أى لا تكلمهما ضجراً صائحاً فى وجوههما.

قال الرازى (٤):

﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ المنع من إظهار المخالفة فى القول على سبيل الرد عليه والتكذيب له.

قوله: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾

الإعراب (٥): وقُل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ولهما متعلقان بقُل وقولا مفعول مطلق وكريما صفة.

● ما جاء فى تفسير الآية بالمأثور:

وروى ابن جرير

عن ابن جريج ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ قال: أحسن ما تجد من القول (٦).

عن عمر بن الخطاب: ﴿قولا كريما﴾ قال: لا تمتنع من شيء يريدانه (٧).

عن قتادة: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أى: قولا لنا سهلا (٨).

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٤٨/١٥)

(٤) التفسير الكبير ١٩٢/٢٠/١٠

(١) إعراب القرآن ٤١٢/٥

(٣) زاد المسير ١٩/٥

(٥) إعراب القرآن ٤١٢/٥

(٦) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٤٨/١٥).

(٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٤٨/١٥) وضعفه ابن جرير.

(٨) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

عن ابى الهذاج التجيبى قال: قلت لسعيد بن المسيب: كل ما ذكر الله - عز وجل - فى القرآن من بر الوالد فقد عرفته إلا قول ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ما هذا القول الكريم؟ فقال ابن المسيب: قول العبد المذنب للسيد الفظ^(١).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين.

قال الطبرى^(٢): ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ فإنه بقول جل ثناؤه وقل لهم قولاً جميلاً حسناً.

قال ابن الجوزى^(٣): ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أى: لينا لطيفاً أحسن ما تجدد.

قال الرازى^(٤): قوله تعالى ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وأعلم أنه تعالى لما منع الإنسان بالآية المتقدمة عن ذكر القول المؤذى الموحش، والنهى عن القول المؤذى لا يكون أمراً بالقول الطيب، لاجرم أردفه بأن أمره بالقول الحسن والكلام الطيب فقال ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ والمراد منه أن يخاطبه بالكلام المقرون بأمارات التعظيم الاحترام.

قلت: وأوضح هذا الكلام فأقول: كما قال الأصوليون الأمر بالشئ نهى عن ضده والنهى عن الشئ أمر بضده وعلى ذلك فالمنع عن القول المؤذى أمرٌ بشيئين. بالسكوت عن القول المؤذى وبالتلفظ بالقول الطيب فكان قوله تعالى ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ من باب عطف الخاص على العام لتأكيد أنه الكف عن إيذاءهما ليس هو المراد فقط بل المراد الكف عن الإيذاء والأمر بالقول الكريم وحتى لا يقول قائل أناأبرهما بالكف عن إيذاءهما وهذا ما أمرت به.

قال السعدى^(٥): وقل لهما قولاً كريماً بلفظ يحبانه وتأدب وتلطف معهما، بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما وتطمئن به نفوسهما وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

قال صاحب الظلال^(٦): ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وهى مرتبة أعلى إيجابية أن يكون كلامه لهما يشى بالإكرام والاحترام.

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٢) تفسير الطبرى ٤٨/١٥/٨

(٣) زاد المسير ١٩/٣

(٤) التفسير الكبير ١٠/٢٠/١٩٢، ١٩٣.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ٧٤، ٧٣/٣

(٦) ٢٢٢١/٤.

وقوله ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (١)

قال سليمان آل الشيخ (٢): هكذا اثبت في نسخة بخط شيخنا ولم يذكر الآية.
مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٣): حيث دلّت الآية الكريمة على وجوب إخلاص العبادة لله وحده والكفر بما سواه قلت: وهو ما أراده المصنّف فعلاً وسيظهر من كلامه إن شاء الله.

قال عبد الرحمن الشيخ (٤): وهذه الآية هي التي تُسمى آية الحقوق العشرة، وفي بعض النسخ المعتمدة من نسخ هذا الكتاب تقديم هذه الآية على آية الانعام، ولهذا قدمتها لمناسبة كلام ابن مسعود الآتي لآية الانعام، ليكون ذكره بعدها أنسب.

قال ابن عثيمين (٥):

قوله : ﴿وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أى: لئنا حسناً بهدوء وطمأنينة؛ كقولك: أعظم الله أجرك، أبشرى يا أمى، أبشر يا أبى، وما أشبه ذلك؛ فالقول الكريم يكون فى صيغته، وأدائه، والخطاب به؛ فلا يكون مزعجاً كرفع الصوت مثلاً، بل يتضمّن الدعاء والإناس لهما.

والشاهد من هذه الآية: قوله تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾؛ فهذا هو التوحيد لتضمنه للنفى والإثبات.



قوله ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية .

الإعراب (٦): ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لبيان حقوق الأبوين والأقارب والجيران وما الى ذلك. واعبدوا فعل أمر والواو فاعله والله مفعوله ولا تشركوا عطف على ماتقدم وبه متعلقان بتشركوا وشيئاً مفعول به أى شيئاً من الأشياء أو مفعو مطلق أى شيئاً من الإشراك.

(١) النساء: ٣٦.

(٢) تفسير العزيز الحميد ٤٣.

(٣) الجديد: ٢٧.

(٤) فتح المجيد (٢٩/١) مؤسسة قرطبة.

(٥) القول المفيد ٣٨/١.

(٦) إعراب القرآن ٢١٤/٢.

قال الطبري (١): معنى بذلك - جَلَّ ثَنَاؤُهُ

وذلوا لله بالطاعة واخضعوا له بها وأفردوه بالربوبية واخلصوا له الخضوع والذلة بالإنتهاء إلى أمره والانزجار عن نهيه ولا تجعلوا له فى الربوبية والعبادة شريكا تعظمونه تعظيمكم إياه.

قال ابن كثير رحمه الله (٢): فى هذه الآية يأمر الله تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه فى جميع الحالات، وهو المستحق منهم أن يوحدوه، ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، انتهى.

قال السعدى (٣):

يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رقب عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة، وذلاً، وإخلاصاً له، فى جميع العبادات الظاهرة والباطنة .

وينهى عن الشرك به شيئاً، لا شركاً أصغر، ولا أكبر، لا ملكاً، ولا نبياً، ولا ولياً ولا غيرهم، من المخلوقين، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً.

بل الواجب المتعين، إخلاص العبادة، لمن له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل، الذى لا يشركه، ولا يعينه عليه أحد.

قال صاحب «الظلال» (٤):

هذه الفقرة تبدأ بالأمر بعبادة الله وحده، والنهى عن إشراك شيء به . . تبدأ بحرف عطف يربط بين هذا الأمر، وهذا النهى، والأوامر السابقة الخاصة بتنظيم الأسرة فى أواخر الدرس الماضى يعنى الآيات التى تقدمت فى سورة النساء - فيدل هذا الربط بين الموضوعين على الوحدة الكلية الشاملة المتكاملة فى هذا الدين . فليس هو مجرد عقيدة تستكن فى الضمير؛ ولا مجرد شعائر تقام وعبادات؛ ولا مجرد تنظيم دنيوى منقطع الصلة بالعقيدة وبالشعائر التعبدية . . إنما هو منهج يشمل هذا النشاط كله، ويربط بين جوانبه، ويشدها جميعاً إلى الأصل الأصيل . وهو توحيد الله . والتلقى منه وحده - فى هذا النشاط كله - دون سواه . توحيداً إلهياً معبوداً . وتوحيداً مصدراً للتوجيه والتشريع لكل

(١) تفسير الطبري ٥٠ / ٥ / ٤

(٢) فتح المجيد / ٢٩ مؤسس قرطبة.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ١ / ٣٣١.

(٤) ٦٦٠ ، ٦٥٦ ، ٦٥٨ / ٢

النشاط الإنساني أيضاً . لا ينفك هذا التوحيد عن ذاك في الإسلام وفي دين الله الصحيح على الإطلاق ويلى الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك، الأمر بالإحسان إلى تلك المجموعات من الأسرة الخاصة، والأسرة الإنسانية؛ وتقبيح البخل والخيلاء والفخر وأمر الناس بالبخل، وكتمان فضل الله من أى نوع سواء كان من المال أم من العلم والدين - والتحذير من إتباع الشيطان؛ والتلويع بعذاب الآخرة، ومافيه من خزي وافتضاح . - لربط هذا كله بالتوحيد؛ وتحديد المصدر الذى يتلقى منه من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً وهو مصدر كذلك واحد لا يتعدد ولا يشاركه أحد فى التوجيه والتشريع؛ كما لا يشاركه أحد فى الألوهية وعبادة الناس له بلا شريك .

ثم قال: «وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» . .

الأمر الأول بعبادة الله . . والنهى الثانى لتحريم عبادة أحد - معه سواء نهياً باتاً، شاملاً، للأنواع المعبودات التى عرفتها البشرية: «وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» . . شيئاً كائناً ما كان، من مادة أو حيوان أو إنسان أو ملك أو شيطان . . فكلها مما يدخل فى مدلول كلمة شيء، عند إطلاق التعبير على هذا المنوال .

قال القرطبي^(١): أجمع العلماء على أن هذه الآية من المُحَكَّم المتفق عليه، وليس منها شيء منسوخ .

وكذلك هى فى جميع الكتب . ولو لم يكن كذلك لَعُرف ذلك من جهة العقل وإن لم ينزل به الكتاب وقد مضى معنى العبودية وهى التذلل والافتقار، لمن له الحكم والاختيار؛ فأمر الله تعالى عباده بالتذلل له والإخلاص فيه . فالآية أصل فى خلوص الأعمال لله تعالى وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره؛ قال الله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٢) حتى لقد قال بعض علمائنا: إنه من تطهر تَبَرُّدًا أو صام مُحِمًّا لِمَعْدَنِهِ وَتَوَى مع ذلك التَقَرُّبَ لم يُجْزِهِ؛ لأنه مزج فى نية التقرب نية دنياوية وليس لله، إلا العمل الخالص؛ كما لقال تعالى ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾^(٣) وقال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٤) وكذلك إذا أحس الرجل بداخله فى الركوع وهو إمام لم ينتظره؛ لأنه يُخرج ركوعه بانتظاره من كونه خالصاً لله تعالى . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته

(٢) الكهف: ١١٠

(٤) البينة: ٥

(١) تفسير القرطبي ٣/ ١٧٥٠، ١٧٥١، ١٧٥٢ .

(٣) الزمر: ٣

وَشِرْكُهُ»^(١) وروى الدارقطني عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «يُجاء يوم القيامة بصحف مختمة فتُنصب بين يدي الله تعالى فيقول الله تعالى للملائكة ألقوا هذا واقبلوا هذا فتقول الملائكة وعزتك مارأينا إلا خيراً فيقول الله عز وجل وهو أعلم إن هذا كان لغيري ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما ابتغى به وجهي»^(٢).

وروى أيضاً عن الضحاك بن قيس الفهري قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول أنا خير شريك فمن أشرك معي شريكاً فهو لشريكي يأبىها الناس أخلصوا أعمالكم لله تعالى فإن الله لا يقبل إلا ما خلص له ولا تقولوا هذا لله وللرحم فإنها للرحم وليس لله منها شيء ولا تقولوا هذا لله ولوجهكم فإنها لوجهكم وليس لله تعالى منها شيء». ثم قال:

مسألة: إذا ثبت هذا فاعلم أن علماءنا رضى الله عنهم قالوا: الشرك على ثلاث مراتب وكله مُحَرَّم. وأصله اعتقاد شريك لله في ألوهيته، وهو الشرك الأعظم وهو شرك الجاهلية، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٣). ويليهِ في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل، وهو قول من قال: إن موجوداً ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل إيجاده وإن لم يعتقد كونه إلهاً كالفردية مجوس هذه الأمة، وقد تبرأ منهم ابن عمر كما في حديث جبريل عليه السلام^(٤). ويلي هذه الرتبة الإشراك في العبادة وهو الرياء؛ وهو أن يفعل شيئاً من العبادات التي أمر الله بفعلها له لغيره. وهذا هو الذي سيقّت الآيات والأحاديث لبيان تحريمه، وهو مبطل للأعمال وهو خفي لا يعرفه كل جاهل غبي.

ورضى الله عن المحاسبي فلقد أوضحه في كتابه «الرعاية» وبين إفساده للأعمال. وفي سنن ابن ماجه عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري وكان من الصحابة قال قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى من: من كان أشرك في عمل عمله الله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»^(٥).

(١) تقدم تخريجه .

(٢) ذكره المنذرى في «الترغيب والترهيب» (٣١/٧٣/١) وقال: رواه البزار والطبراني بإسنادين، رواية أحدهما رواية الصحيح، والبيهقي.

(٣) النساء ١١٦: (٤) أخرجه مسلم في الإيمان (١/١٧٧/١).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٦٦/٣)، (٢١٥/٤)، والترمذي (٣١٥٤)، وابن ماجه (٤٢٠٣) قال الترمذي: حسن غريب.

وفيه عن أبى سعيد الخدرى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى من المسيح الدجال؟» قال فقلنا بلى يا رسول الله؛ فقال: «الشرك الحفى أن يقوم الرجل يصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»^(١) وفيه عن شداد بن أوس قال قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أتخوف على أمتى الإشراك بالله أما إنى لست أقول يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ولكن أعمالاً لغير الله وشهوة خفية»^(٢) خرجه الترمذى الحكيم وفيه بيان الشهوة الخفية. وروى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب قال سئل رسول الله ﷺ عن الشهوة الخفية فقال: «هو الرجل يتعلم العلم يحب أن يجلس إليه».

قال سهل بن عبدالله التستري رضى الله عنه: الرياء على ثلاثة وجوه: أحدهما: أن يعقد فى أصل فعله لغير الله ويريد به أن يعرف أنه لله، فهذا صنف من النفاق وتشكك فى الإيمان. والآخر - ويدخل فى الشيء الله فإذا اطلع عليه غير الله نشط، فهذا إذا تاب يريد أن يعيد جميع ما عمل.

والثالث: دخل فى العمل بالإخلاص وخرج به لله فعرف بذلك ومُدح عليه وسكن إلى مدحهم؛ فهذا الرياء نهى الله عنه.

قال سهل قال لقمان لابنه: الرياء أن تطلب ثواب عملك فى دار الدنيا، وإنما عمل القوم للآخرة. قيل له: فما دواء الرياء؟ قال: كتمان العمل، قيل له: كيف يكتُم العمل؟ قال: ما كلفت إظهاره من العمل فلا تدخل فيه إلا بالإخلاص، وما لم تتكلف إظهاره أحب إلا يطلع عليه إلا الله. قال: وكل عمل اطلع عليه الخلق فلا تعدّه من العمل. وقال ايوب السخيتي: ما هو بعقل من أحب أن يعرف مكانه من عمله.

قلت: - أى القرطبي - قول سهل «والثالث دخل فى العمل بالإخلاص» إلى آخره، إن كان سكونه وسروره إليهم لتحصل منزلته فى قلوبهم فيحمدوه ويجلّوه ويبروه وينال ما يريد منهم من مال أو غيره فهذا مذموم؛ لأن قلبه مغمور فرحاً باطلاعهم عليه، وإن كانوا قد اطلعوا عليه بعد الفراغ. فأما من أطلع الله عليه خلقه وهو لا يحب أطلاعهم

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤) قال فى الزوائد: إسناده حسن.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٥) قال فى الزوائد: فى إسناده عامر بن عبد الله لم أر من تكلم فيه وباقي رجال الإسناد ثقات.

عليه فيسر بصنع الله وبفضله عليه فسوره بفضل الله طاعة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١). وبسط هذا وتتميمه في كتاب «الرعاية للمحاسبى» فمن أرادته فليقف عليه هناك. وقد سئل سهل عن حديث النبي ﷺ «إني أسر العمل فيطلع عليه فيعجبني» قال: يعجبه من جهة الشكر لله الذى أظهره عليه أونحو هذا. فهذه جملة كافية فى الرياء وخلوص الأعمال. والحمد لله. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان الشيخ (٢):

هذا أول أمر فى القرآن، وهو الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهى عن الشرك، كما فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٣) وتأمل كيف أمر تعالى بعبادته أى فعلها خالصة له، ولم يخص بذلك نوعاً من أنواع العبادة لادعاء ولا صلاة ولا غيرهما، ليعم جميع أنواع العبادة، ونهى عن الشرك به ولم يخص أيضاً نوعاً من أنواع العبادة بجواز الشرك فيه، فى هذه الآية واللواتى قبلها دليل على أن العبادة هى التوحيد، لأن الخصومة فيه، وإلا فكان المشركون يعبدون الله ويعبدون غيره، فأسروا بالتوحيد، وهو عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وفيهن دليل على أن التوحيد أول واجب على المكلف، وهو الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله المستلزم لعبادته وحده لا شريك له، وأن من عبد غير الله بنوع من أنواع العبادة فقد أشرك، سواء كان المعبود ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو صنماً.

قال ابن عثيمين (٤): ﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾

﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾ فى مقابل «لا إله» ؛ لأنها نفى.

وقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا﴾ فى مقابل «إلا الله» ؛ لأنها إثبات.

وقوله: ﴿شَيْئاً﴾ نكرة فى سياق النهى؛ فتعم كل شىء: لا نبياً، ولا ملكاً، ولا ولياً، بل ولا أمراً من أمور الدنيا؛ فلا تجعل الدنيا شريكاً مع الله، والإنسان إذا كان همه الدنيا كان عابداً لها؛ كما قال ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخِمْلَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ» (٥).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٣

(١) يونس : ٥٨ .

(٤) القول المفيد ١/ ٣٨ .

(٣) البقرة : ٢١ .

(٥) سيأتى تخريجه .

قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (١)

مناسبة الآية التوحيد : حذرت الآية من الشرك بجميع صوره وأشكاله (٢).

الإعراب (٣):

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ كلام مستأنف مسوق لأمره ﷺ بأن يتلو عليهم ما حرم ربهم عليهم حقيقة لازماً، وقيناً لاحدساً. وجملة تعالوا في محل نصب مقول القول، وهو فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، وأتل فعل مضارع مجزوم لأنه جواب لطلب، وابن هشام يؤثر أن يقال: إنه جواب الشرط مقدّر، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به، وجملة حرم عليكم لامحلّ لها لأنها صلة الموصول، والعائد محذوف، أي الذي حرّمه. ويجوز أن تكون «ما» مصدرية، أي: اتل تحريم ربكم. و التحريم لايتلى، ولكنه مصدر واقع موقع المفعول به. وربكم فاعل حرم، وعليكم جار ومجرور متعلقان بحرم أو بأتل، على أن المسألة من باب التنازع. اهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من الأحاديث:

عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ «أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى ثلاث آيات، ثم قال: فمن وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فادركه الله فى الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه» (٤).

وعن على أبى طالب قال: «لما أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج إلى منى وأنا معه وأبو بكر، وكان أبو بكر رجلاً نساباً، فوقف على منازلهم ومضاربهم بمنى، فسلم عليهم وردوا السلام، وكان فى القوم مفروق بن عمرو، وهانىء بن قبيصة، والمنثى بن حارثة، والنعمان بن شريك، وكان أقرب القوم إلى أبى بكر مفروق، وكان مفروق قد غلب عليهم بياناً ولساناً، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال

(١) الأنعام ١٥١- ١٥٣

(٢) الجديد : ٣٠

(٣) إعراب القرآن ٤/٢٦٧، ٢٦٨

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٣٨٢) ونسبه لعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، وأبى

الشيخ، وابن مردويه والحاكم

له: إلام تدعو يا أبا قريش؟ فتقدم رسول الله ﷺ فجلس وقام أبو بكر يظله بشو به، فقال النبي ﷺ: «ادعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأناى رسول الله، وأن تأوونى وتنصرونى وتمنعونى حتى أؤدى حق الله الذى أمرنى به، فإن قريشا قد تظاهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغنى الحميد. قال له: وإلام تدعو أيضاً يا أبا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله ﴿تَتَّقُونَ﴾ فقال له مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أبا قريش فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه، فتلا رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (١) الآية. فقال له مفروق: دعوت - والله يا قرشى إلى مكارم الإخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك؟ وقال هانىء بن قبيصة: قد سمعت مقاتلك واستحسنت قولك يا أبا قريش، ويعجبني ما تكلمت به، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: أن لم تلبثوا الا يسيرا حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم - يعنى أرض فارس وأنهار كسرى - ويفرشكم بناتهم، أتسبحون الله وتقصدونه؟ فقال له النعمان بن شريك: اللهم وإن ذلك لك يا أبا قريش - فتلا رسول الله ﷺ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ الآية. ثم نهض رسول الله قابضاً على يد أبى بكر (٢).

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

وعن ابن مسعود قال: من سره أن ينظر إلى وصية محمد التى عليها خاتما فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٣).

عن كعب قال: أول ما نزل من التوراة عشر آيات، وهى العشر التى أنزلت من آخر الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخرها (٤).

عن عبيد الله بن عبد الله بن عدى بن الخيار قال: سمع كعب رجلا يقرأ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فقال كعب: والذى نفس كعب بيده أنها لأول آية

(١) النحل: ٩٠.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٨١) ونسبه لأبى نعيم والبيهقى فى «الدلائل».

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٨١، ٣٨٢) ونسبه للترمذى وحسنه، وابن المنذر، وابن

أبى حاتم، والطبرانى، وأبى الشيخ، وابن مردويه، والبيهقى فى «الشعب». وسيأتى تخريجه.

(٤) ذكره السيوطى فى المصدر السابق ونسبه لابن أبى شيبه، وابن الضريس، وابن المنذر.

فى التوراة، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآيات (١).

عن منذر الثورى قال: قال الربيع بن خيشم: أيسرك أن تلقى صحيفة من محمد ﷺ بخاتم؟ قلت: نعم. فقرأ هؤلاء الآيات من آخر سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآيات (٢).

عن مزاحم بن زفر قال: قال رجل للربيع بن خيشم: أوصنى قال: ائتنى بصحيفة فكتب فيها ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾ الآيات. قال: إنما أتيتك لتوصينى؟! قال: عليك بهؤلاء (٣).

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين.

قوله «قل» الخطاب للنبي - ﷺ - أمره الله أن يقول لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله. قال الطبرى (٤):

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان الأصنام الزاعمين أن الله حرم عليهم ما هم محرّموه من حروثهم وأنعامهم على ما ذكرت لك فى تنزلى عليك تعالوا أيها القوم اقرأ عليكم ما حرم ربكم حقا يقينالا الباطل تخرصا كخرصكم على الله الكذب والفرية ظناً ولكن وحيًا من الله أوحاه إلى وتنزيلا أنزله على أ. هـ. قوله: «تعالوا» الإعراب (٥):

(تعال) من الخاص الذى صار عاماً، وأصله أن يقوله من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه، ثم كثر واتسع حتى عم. وهو فعل أمر مفتوح الآخر دائماً، ومن ثم لحنوا إيا فراس الحمدانى بقوله:

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا
تعالى أقاسمك الهموم تعالى

● ما جاء فى الآية من كلام المفسرين.

وذكر نحو كلام صاحب الإعراب المتقدم الرازى نقلا عن صاحب الكشف والقرطبى.

وقال الأخير (٦) «تعالوا»

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لأبى الشيخ.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٨١) ونسبه لعبد بن حميد، وأبى عبيد، وابن المنذر،

(٣) ذكره السيوطى فى المصدر السابق ونسبه لابن سعد.

(٤) الطبرى ٥/ ٨/ ٦٠ (٥) الإعراب ٣/ ٢٦٧

(٦) القرطبى ٤/ ٢٥٦٦، ٢٥٦٧.

أى تقدموا وأقروا حقاً. يقينا كما أوحى إلى ربي، لاظناً ولا كذباً كما زعمتم. ثم بين ذلك فقال: ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ يقال للرجل: تعال؛ أى تقدم، وللمرأة تعال، وللأثنين والأثنتين تعالياً، ولجماعة الرجال تعالوا، ولجماعة النساء تعالين؛ قال الله تعالى ﴿فَتَعَالَيْنِ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ (١) وجعلوا التقدم ضرباً من التعالى والارتفاع، لأن المأمور بالتقدم فى أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعداً فقيل له تعال، أى أرفع شخصك بالقيام وتقدم، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشى؛ قاله ابن الشجرى.

قال القرطبي (٢): هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيه عليه السلام بأن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله. وهكذا يجب على من بعده من العلماء أن يبلغوا الناس ويبينوا لهم ما حرم عليهم مما حل. قال الله ﴿لَتَبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ (٣).

قوله «اتل ما»

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن الجوزى (٤): «ما بمعنى الذى.

قال الرازى (٥): وما فى قوله ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ منصوب وفى ناصبه وجهان الأول: أنه منصوب بقوله (اتل) والتقدير: اتل الذى حرمه عليكم، والثانى: أنه منصوب بحرّم. والتقدير: اتل الأشياء التى حرم عليكم.

وذكر نحو ذلك القرطبي ولكن بأسلوب آخر أذكره للإفادة.

قوله ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين.

قال ابن الجوزى (٦) قولان :

أحدهما: أنها إغراء، كقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ (٧) فالتقدير عليكم أن لاتشركوا، ذكره ابن الأبارى.

والثانى أن يكون معنى: فُرض عليكم، ووجب عليكم أن لاتشركوا.

(٢) تفسير القرطبي ٤/٢٥٦٧، ٢٥٦٨.

(٤) زاد المسير ٣/١١٣.

(٦) زاد المسير ٣/١١٣.

(١) الأحزاب : ٢٨

(٣) آل عمران ١٨٧

(٥) التفسير الكبير ٧/١٣/٢٤٣.

(٧) المائدة : ١٠٥.

قال السعدي: (١) ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ تحريماً عاماً، شاملاً لكل أحد، محتوياً على سائر المحرمات، من المأكّل، والمشارب، والأقوال، والأفعال.

قوله «ربكم»

وقال «ربكم» ولم يقل ما حرّم الله، لأنّ الرب هنا انسب حيث إنّ الرب له مطلق التصرف في المربوب، والحكم عليه بما تقتضيه حكمته. قاله ابن عثيمين في القول المفيد.

قوله ﴿أَلَا تَشْرِكُوا﴾

الإعراب (٢): في «أن» أوجه عديدة، والمختار منها وجهان أولهما: أنها مفسرة، لأنه تقدمها ماهو معنى القول دون حروفه.

قلت: هو مارجحة ابن عثيمين.

ولانهاية، وتشركوا فعل مضارع مجزوم بها، والجملة لامحل لها لأنها مفسرة. والوجه الثاني: أنها مصدرية، وهى وما فى حيزها بدل من «ما حرم»، وبه جار ومجرور متعلقان بتشركوا، وشيئاً مفعول به أوبمعنى المصدر، فهى مفعول مطلق. وقد تقدمت الإشارة إلى مثيله.

● ماجاء فى الآية من كلام المفسرين:

قال ابن الجوزى (٣) وفى «لا» قولان:

أحدهما: أنها زائدة، كقوله: ﴿أَلَا تَسْجُدُ﴾

والثاني: أنها ليست زائدة، وإنما هى نافية.

فعلى هذا القول، فى تقدير الكلام ثلاثة أقوال.

أحدها: أن يكون قوله ﴿أَلَا تَشْرِكُوا﴾، محمولاً على المعنى؛ فتقديره: أتلى عليكم أن لا تشركوا، أى: أتلى تحريم الشرك.

والثاني: أن يكون المعنى: أوصيكم أن لا تشركوا، لأن قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ محمول على معنى: أوصيكم بالوالدين إحساناً، ذكرهما الزجاج.

والثالث: أن الكلام تم عند قوله (حرّم ربكم).

قال الفقير: وذكر نحو هذه الأقوال القرطبي وظاهر كلامه أنه مال للتقدير الأول، ولكن صرح الشنقيطى بترجيح التقدير الثانى وهو ما ذهب إليه ابن كثير أيضاً فقال الشنقيطى (٤):

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨.

(٤) أضواء البيان ٢/ ٢٠٩.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٥.

(٣) زاد المسير ٣/ ١١٣.

الظاهر فى قوله : محرم ريكم عليكم، أنه مضمن معنى ما وصاكم به فعلاً، أو تركاً؛ لأن كلا من ترك الواجب، وفعل الحرام حرام، فالمعنى وصاكم ألا تشركوا، وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً.

وقد بين تعالى أن هذا هو المراد بقوله : ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ (١) أهـ.

قال الرازى (٢): وأعلم أنه تعالى قد شرح فرق المشركين فى هذه السورة على أحسن الوجوه، وذلك لأن طائفة من المشركين يجعلون الأصنام شركاء لله تعالى، وإليهم الإشارة بقوله حكاية عن إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣).

والطائفة الثانية: من المشركين عبدة الكواكب، وهم الذين حكى الله عنهم، أن إبراهيم عليه السلام أبطل قولهم بقوله ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (٤).

والطائفة الثالثة : الذين حكى الله تعالى عنهم ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ (٥). هم القائلون بيزدان وأهرمن .

والطائفة الرابعة: الذين جعلوا لله بنين وبنات، وأقام الدلائل على فساد اقوال هؤلاء الطوائف والفرق، فلما بين بالدليل فساد قول هؤلاء الطوائف . قال ههنا ﴿أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

قال السعدى: (٦) وحقيقة الشرك بالله: أن يعبد المخلوق، كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية.

وإذا ترك العبد الشرك كله، صار موحداً، مخلصاً لله فى جميع أحواله .

فهذا حق الله على عباده، أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً.

قال صاحب «الظلال»: (٧) ﴿أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ القاعدة التى يقوم عليها بناء العقيدة؛ وترجع إليها التكاليف والفرائض، وتستمد منها الحقوق والواجبات. . القاعدة التى يجب أن تقوم أولاً قبل الدخول فى الأوامر والنواهى؛ وقبل الدخول فى التكاليف

(٢) التفسير الكبير ٧/ ١٣/ ٢٤٤

(٤) الأنعام : ٧٦

(٦) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٨٥

(١) الأنعام : ١٥١.

(٣) الأنعام : ٧٤.

(٥) الأنعام : ١٠٠

(٧) فى ظلال القرآن : ٣/ ١٢٢٩ ، ١٢٣٠.

والفرائض، وقبل الدخول فى النظام والأوضاع؛ وقبل الدخول فى الشرائع والأحكام..
يجب ابتداء أن يعترف الناس بربوبية الله وحده لهم فى حياتهم كما يعترفون بألوهيته وحده
فى عقيدتهم؛ لا يشركون معه أحداً فى ألوهيته، ولا يشركون معه أحداً فى ربوبيته كذلك.
يعترفون له وحده بأنه المتصرف فى شؤون هذا الكون فى عالم الأسباب والأقدار؛
ويعترفون له وحده بأنه المتصرف فى حسابهم جزائهم يوم الدين؛ ويعترفون له وحده بأنه
هو المتصرف فى شؤون العباد فى عالم الحكم والشرعية كلها سواء.

إنها تنقية الضمير من أوشاب الشرك وتنقية العقل من أوشاب الخرافة، وتنقية المجتمع
من تقاليد الجاهلية، وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد..

إن الشرك - فى كل صوره - هو المحرم الأول لأنه يجبر إلى كل محرم. وهو المنكر
الأول الذى يجب حشد الإنكار كله له؛ حتى يعترف الناس أن لا إله لهم إلا الله، ولا رب
لهم إلا الله، ولا حاكم لهم إلا الله، ولا مشرع لهم إلا الله. كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر
لغير الله. أهـ.

قال ابن الجوزى: (١) وفى هذا الشرك قولان.

أحدهما: أنه ادعاء شريك مع الله عز وجل.

والثانى: أنه طاعة غيره فى معصيته.

قوله «شيئاً»

أى لا قليلاً ولا كثيراً. قاله السعدى وغيره.

قال الفقير: وهى أيضاً نكره فى سياق نهى تدل على العموم.

● قوله «وبالوالدين إحساناً».

الإعراب (٢): بالوالدين جار ومجرور متعلقان بفعل المصدر المحذوف، أى أحسنوا
بالوالدين وإحساناً مفعول مطلق للفعل المحذوف، .

● ماجاء فى الآية من كلام المفسرين:

قال السعدى: (٣) ثم بدأ بآكد الحقوق بعد حقه فقال: «بالوالدين إحساناً» من
الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٨

(١) زاد المسير ٣/ ١١٣

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٨٥.

﴿لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (*) .

فكل قول وفعل، يحصل به منفعة للوالدين، أو سرور لهما، فإن ذلك، من الإحسان، وإذا وجد الإحسان، انتفى العقوق أهـ.

● ماجاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين: (١) أى واتل عليكم الأمر بالإحسان إلى الوالدين .

قال الفقير: وقد تقدم ذكر ماورد فى بر الوالدين والإحسان إليهم عند قوله ﴿وقضى ربك إلا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ بما يغنى عن إعادته هنا.

قال السراى (٢): وإنما ثنى بهذا التكليف لأن أعظم أنواع النعم على الإنسان نعمة الله تعالى، ويتلوها نعمة الوالدين لأن المؤثر الحقيقى فى وجود الإنسان هو الله سبحانه وفى الظاهر هو الأبوان، ثم نعمهما على الإنسان عظيمة وهى نعمة التربية والشفقة والحفظ عن الضياع والهلاك فى وقت الصغر. أهـ.

● قوله : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾

الإعراب (٣).

الواو عاطفة، ولانهاية، وتقتلوا فعل مضارع مجزوم بلا، وأولادكم مفعول به، ومن إملاق جار ومجرور متعلقان بتقتلوا، أى : لأجل الإملاق، فمن سبية، ولم ينصب المفعول لأجله لاختلال شرطه، لأن الإملاق مصدر غير قلبى، ونحن مبتدأ وجملة نرزقكم خبر، وجملة نحن نرزقكم مستأنفة لتعليل النهى قبله، وإياهم عطف على الضمير فى نرزقكم. أهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:

قال الشنقيطى: (٤) نهى الله تعالى فى هذه الآية الكريمة عن قتل الأولاد من أجل الفقر الواقع بالفعل؛ ونهى فى سورة الإسراء عن قتلهم خشية الفقر المترقب المخوف منه، مع أنه غير واقع فى الحال بقوله : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ (٥) وقد أوضح ﷺ

(١) القول المفيد ٤١/١ .

(٢) إعراب القرآن ٣/٢٦٨ .

(٥) الإسراء : ٣١

(*) الأنعام : ١٥١ .

(٢) التفسير الكبير ٧/١٣، ٢٤٤، ٢٤٥ .

(٤) أضواء البيان ٢/٢٠٩ .

معناه حين سأله عبدالله بن مسعود رضى الله عنه: «أى الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قال: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: ثم أى؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية (١)(٢).

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن ابن عباس: قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ الإملاق الفقر قتلوا أولادهم خشية الفقر. (٣)

وعن قتادة: فى قوله ولا تقتلوا أولادكم من إملاق أى خشية الفاقة (٤).

وعن السدى: ولا تقتلوا أولادكم من إملاق قال الإملاق الفقر (٥).

قال ابن جريج قوله من إملاق قال شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خيفة العيلة (٦).

عن الضحاك: فى قوله من إملاق يعنى من خشية فقر (٧).

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام بالمفسرين:

قال الجصاص: (٨) قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ كانت العرب تدفن أولادها أحياء البنات منهن خوف الإملاق، وهو الإفلاس؛ ومنه حديث النبى ﷺ: «أعظم الذنوب أن تجعل لله نداً وهو خلقك، وأن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك، وأن تزني بحليلة جارك» (٩).

وهى الموءودة التى ذكرها الله تعالى فى قوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (١٠) فنهاهم الله عن ذلك مع ذكر السبب الذى كانوا من أجله يقتلونهم، وأخبر أنه رازقهم ورازق أولادهم أهد.

(١) الفرقان: ٦٨. (٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٨/ ٦١) عن ابن عباس به.

(٤) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق عن قتادة.

(٥) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق عن السدى.

(٦) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره».

(٧) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق بإسناد منقطع. (٨) أحكام القرآن ٣/ ٣٦.

(٩) [متفق عليه] البخارى (٧٥٢٠)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٣٥٧/ ١٤٢) عن ابن مسعود.

(١٠) التكوير: ٨، ٩.

وبنحوه قال ابن الجوزى (١).

قال الرزاي: (٢) قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فأوجب بعد رعاية حقوق الأبوين رعاية حقوق الأولاد وقوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ أى من خوف الفقر وقد صرح بذكر الخوف فى قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ والمراد منه النهى عن الوأد، إذ كانوا يدفنون البنات أحياء، بعضهم للغيرة، وبعضهم خوف الفقر؛ وهو السبب الغالب، فينبى تعالى فساد هذه العلة بقوله ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأنه تعالى إذا كان متكفلاً برزق الوالد والولد، فكما وجب على الوالدين تبقية النفس والاتكال فى رزقها على الله، فكذلك القول فى حال الولد. قال شمر: أملك، لازم ومتعد. يقال: أملك الرجل، فهو مملك، إذا افتقر، فهذا لازم، وأملك الدهر ماعنده، إذا أفسده، والإملاق الفساد. اهـ.

وبنحو ذلك ذكر القرطبى: (٣) قال النقاش عن مَوْجَّ أنه قال: الإملاق الجوع بلغة لحم. وذكر منذرين سعيد أن الإملاق الإنفاق؛ يقال: أملك ماله بمعنى أنفق. وذكر أن علياً قال لامراته: أملكى من مالك ماشئت. ورجل ملى يعطى بلسانه مالىس فى قلبه. فالملك لفظ مشترك بيانه فى موضعه. اهـ.

قال القرطبى: (٤) وقد كان منهم من يفعل ذلك بالذكور والإناث كما هو ظاهر الآية. اهـ.

قلت وذكره السعدى أيضاً ثم قال (٥). وإذا كانوا منهيين عن قتلهم فى هذه الحال، وهم أولادهم، فنهىهم عن قتلهم، لغير موجب، أو قتل أولاد غيرهم، من باب أولى، وأحرى.

﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أى: قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق. اهـ.

(١) زاد المسير (٣/١١٣).

(٢) التفسير الكبير ٧/١٣/٢٤٥.

(٣) القرطبى ٤/ ٢٥٦٨.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ٢/١٥.

وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ....

● ماجاء فى الآيه من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين: (١) وبدأ هنا برزق الوالدين ، وفى سورة الإسراء بدأ برزق الأولاد، والحكمة فى ذلك أنه قال هنا: ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ ؛ فالإملاق حاصل ، فبدأ بذكر الوالدين اللذين أملقا، وهناك قال: ﴿خَشِيَّةَ إِمْلَاقٍ﴾ ؛ فهما غنيان، لكن يخشيان الفقر، فبدأ برزق الأولاد قبل رزق الوالدين.

وتقييد النهى عن قتل الأولاد بخشية الإملاق بناءً على واقع المشركين غالباً؛ فلا مفهوم له. أ. هـ.

● قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

الإعراب: (٢)

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الواو حرف عطف، ولاناهية، وتقربوا فعل مضارع مجزوم بلا، والواو فاعل ، والفواحش مفعول به، وما إسم موصول فى محل نصب بدل من الفواحش، وهوبدل اشتمال، وجملة ظهر لامحل لها لانها صلة الموصول؛ ومنها جار ومجرور متعلقان بظهر، ومابطن عطف على ماظهر. اهـ.

● ماجاء فى تفسير الآيه من الأحاديث.

وفى الصحيحين : عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ «لأحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن» (٣).

وقال - عبدالله بن عمير عن وراد عن مولاة المغيرة قال: قال سعد بن عبادة لو رأيت مع امرأتى رجلا لضربتة بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال:

«أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير من سعد والله أغير منى من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن» (٤) أخرجاه.

قال كامل أبو العلاء عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قيل يارسول الله إنا نغار قال:

(١) القول المفيد: ٤١/١، ٤٢.

(٢) إعراب القرآن: (٢٦٨، ٢٦٩).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٢٢٠)، ومسلم فى التوبة (٣٣/٨٩/٩).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٨٤٦)، ومسلم فى اللعان (١٧/٣٨٤/٥).

«إني لأغار والله أغير مني ومن غيرته نهى عن الفواحش» رواه ابن مردويه ولم يخرججه أحد من أصحاب الكتب الستة.

● ماجاء فى تفسير الآية من الآثار.

عن ابن عباس قوله: ﴿لَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قال كانوا فى الجاهلية لا يرون بالزنا بأسا فى السر ويستقبحونه فى العلانية فحرم الله الزنا فى السر والعلانية^(١).

عن السدى: ﴿لَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أماماظهر منها فزواني الحوانيت وأماما بطن فماخفى^(٢).

عن الضحاك: قوله: ﴿لَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كان أهل الجاهلية يستسرون بالزنا ويرون ذلك حلالا ما كان سرا فحرم الله السر منه والعلانية ما ظهر منها يعنى العلانية وما بطن ويعنى السر^(٣).

وعن قتادة: ﴿لَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ سرها وعلانيها^(٤).

وقال آخرون ماظهر نكاح الأمهات وحلائل الآباء ومابطن الزنا.

عن مجاهد: ﴿لَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قال ماظهر مع بين الأختين وتزويج الرجل امرأة أبيه من بعده وما بطن الزنا^(٥).

● ماجاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين.

● تعريف الفواحش، والحكمة من ذكرها بعد الوالدين والأولاد.

قال صاحب الظلال: ^(٦) والفواحش كل ما أفحش - أى تجاوز الحد - وإن كانت أحيانا تخص بنوع منها هو فاحشة الزنا. ويغلب على الظن أن يكون هذا هو المعنى المراد

(١) أخرجه ابن جرير (٦١/٨) من طريق على بن أبى طلحة عنه

(٢) أخرجه ابن جرير (٦١/٨) من طريق أسباط عن السدى. تفسير القرطبي (٦١/٨/٥).

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق بإسناد منقطع.

(٤) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق عن قتادة.

(٥) أخرجه ابن جرير (٦١/٨) عن خصيف عن مجاهد.

(٦) الظلال - (١٢٣١/٣)

فى هذا الموضوع . لأن المجال مجال تعديد محرمات بذاتها، فتكون هذه واحدة منها بعينها . وإلا فقتل النفس فاحشة، وأكل مال التيمم فاحشة، والشرك بالله فاحشة الفواحش . فتخصيص «الفواحش» هنا بفواحش الزنا أولى بطبيعة السياق . وصيغة الجمع، لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها . فالتبرج، والتهتك، والاختلاط المثير، والكلمات والإشارات والحركات والضحكات الفاجرة، والإغراء والتزيين والاستشارة . . . كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة . وكلها فواحش منها الظاهر ومنها الباطن . منها المستسرفى الضمير ومنها البادى فى الجوارح . منها المخبوء المستور ومنها المعلن المكشوف! وكلها مما يحطم قوام الأسرة، وينخر فى جسم الجماعة، فوق ما يلطخ ضمائر الأفراد، ويحقر من اهتماماتهم، ومن ثم جاءت بعد الحديث عن الوالدين والأولاد أهـ.

قال الطبرى: (١) يقول تعالى ذكره ولا تقربوا الظاهر من الأشياء المحرمة عليكم التى هى علانية بينكم لاتتأكرون ركبوها والباطن منها الذى تأتونه سرا فى خفاء لاتجاهرون به فإن كل ذلك حرام وقد قيل إنما قيل لاتقربوا ما ظهر من الفواحش وما بطن لأنهم كانوا يستقبحون من معانى الزنا بعضا وليس ما قالوا من ذلك بمبدفوع غير أن دليل الظاهر من التنزيل على النهى عن ظاهر كل فاحشة وباطنها ولاخبر يقطع العذر بأنه عنى به بعض دون جميع وغير جائز إحالة ظاهر كتاب الله إلى باطن إلا بحجة يجب التسليم لها أهـ.

وقال ابن الجوزى (٢):

فيه خمسة أقوال:

أحدها: أن الفواحش : الزنا، وماظهر منه: الإعلان به، ومابطن : الاستسار به، قاله ابن عباس ، والحسن، والسدى.

والثانى: أن ماظهر: الخمر ونكاح المحرمات . ومابطن: الزنا، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد.

والثالث: أن ماظهر: الخمر، ومابطن : الزنا، قاله الضحاك.

والرابع: أنه عام فى الفواحش . وظاهرها: علانيتها، وباطنها: سرُّها قاله قتادة.

والخامس: أن ماظهر : أفعال الجوارح، وما بطن : اعتقاد القلوب، ذكره الماوردى فى تفسير هذا الموضوع، وفى تفسير قوله ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ (٣).

(١) تفسير الطبرى (٦١ / ٨) .

(٣) الأنعام : ١٢٠ .

(٢) زاد المسير ٣ / ١١٣، ١١٤ .

قال الرازي: (١) والأولى أن لا يخص هذا النهى بنوع معين، بل يجرى على عمومته في جميع الفواحش ظاهرها وباطنها لأن اللفظ عام. والمعنى الموجب لهذا النهى وهو كونه فاحشة عام أيضاً ومع عموم اللفظ والمعنى يكون التخصيص على خلاف الدليل.

وفى قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دقيقة، وهى : أن الانسان إذا احترز عن المعصية فى الظاهر ولم يحترز عنها فى الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته، ولكن لأجل الخوف من مذمة الناس، وذلك باطل، لأن من كان مذمة الناس عنده اعظم وقعا من عقاب الله ونحوه فإنه يخشى عليه من الكفر، ومن ترك المعصية ظاهراً وباطناً، دل ذلك على أنه إنما تركها تعظيماً لأمر الله تعالى وخوفاً من عذابه ورغبة فى عبوديته.

وذكر نحو ما ذكره الرازي القرطبي فقال (٢):
قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نظيره «وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ» (٣) فقوله : «ما ظهر» نهى عن جميع أنواع الفواحش وهى المعاصى. «وما بطن» ماعقد عليه القلب من المخالفة. وظهر وبطن حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء. أهـ.

وذكر نحو ذلك السعدى فقال (٤):
﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أى : لا تقربوا الظاهر منها، والخفى، أو المتعلق منها بالظاهر، والمتعلق بالقلب والباطن.

والنهى عن قربان الفواحش، أبلغ من النهى عن مجرد فعلها، فإنه يتناول النهى عن مقدماتها، ووسائلها الموصلة إليها. أهـ.

قال صاحب «الظلال» (٥): ولأن هذه الفواحش ذات إغراء وجاذبية، كان التعبير: «ولا تقربوا». . . للنهى عن مجرد الاقتراب، سداً للذرائع، واتقاء للجاذبية التى تضعف معها الإرادة. . . لذلك حرمت النظرة الثانية - بعد الأولى غير المتعمدة - ولذلك كان الاختلاط ضرورة تتاح بقدر الضرورة. ولذلك كان التبرج - حتى بالتعطر فى الطريق - حراماً، وكانت الحركات المثيرة، والضحكات المثيرة، والإشارات المثيرة، ممنوعة فى

(٢) تفسير القرطبي ٢٥٦٩/٤

(١) التفسير الكبير ٢٤٥/١٣/٧

(٣) الأنعام : ١٥١

(٥) (١٢٣١/٣)

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٨٦/٢

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾

الحياة الإسلامية النظيفة . . فهذا الدين لا يريد أن يعرض الناس للفتنة ثم يكلف أعصابها عتسا في المقاومة! فهو دين وقاية قبل أن يقيم الحدود . . ويسوق العقوبات . وهو دين حماية للضمائر والمشاعر والخواص والجوارح . وربك أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير .

وكذلك نعلم ما الذى يريده بهذا الدين، وبحياة المجتمع كله وبحياة الأسرة، من يزينون للناس الشهوات، ومن يطلقون الغرائز من عقالها بالكلمة والصورة والقصة والفيلم وبالمعسكر المختلط وبسائر أدوات التوجيه والإعلام! أهـ.

● قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

الإعراب (١): ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ عطف على ما تقدم، داخل فى حيزه، لاستيفاء المحرمات، وهى عشرة أشياء، ولانهاية وتقتلوا فعل مضارع مجزوم بلا، والنفس مفعول به، والتى اسم موصول فى محل نصب صفة، وجملة حرم الله لامحل لها لأنها صلة الموصول، وإلا أداة حصر، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، أى : لا تقتلونها فى حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق، فالباء للملابسة، وهى ومجرورها متعلقان بمحذوف حال من الواو فى «تقتلوا» ويجوز أن يكون الاستثناء المفرغ من الفعل نفسه، فيكون الجار والمجرور مفعولاً مطلقاً، أى : إلا القتل الملتبس بالحق: كالقود وحذ الردة ورجم المحصن. أ. هـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من آثار:

أخرج ابن أبى حاتم (٢) عن سعيد بن جبير فى قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾ يعنى نفس المؤمن التى حرم الله قتلها إلا بالحق.

وستأتى الأحاديث الخاصة بتفسير الآية خلال كلام الجصاص والقرطبى.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الطبرى: (٣) يقول تعالى ذكره ﴿لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعنى بالنفس التى حرم الله قتلها نفس مؤمن أو معاهد، وقوله ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعنى بما أباح قتلها به من أن تقتل نفساً قوداً بها أو تزنى وهى محصنه فترجم أو ترتد عن دينها الحق فتقتل فذلك الحق الذى أباح الله جل ثناؤه قتل النفس التى حرم على المؤمنين قتلها به. أهـ.

(٢) الدر ٣/ ٣٨٣

(١) إعراب القرآن ٣/ ٣٩٦.

(٣) تفسير الطبرى ٥/ ٦٢/ ٨.

قال ابن الجوزى^(١): والنفس التى حرم الله نفس مسلم أو معاهد، والمراد بالحق: إذن الشرع. أ. هـ.

قال الجصاص^(٢): إلا بالحق قال أبو بكر روى عن النبي ﷺ أنه قال:

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولون لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»^(٣).

ولما أراد أبو بكر قتال مانعى الزكاة قالوا له: إن النبي ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها» فقال أبو بكر: هذا من حقها، لو منعوني عقلاً مما كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه^(٤).

وقال النبي ﷺ «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: زنا بعد إحصان وكفر بعد إيمان وقتل نفس بغير نفس»^(٥) وهذا عندنا ممن يستحق القتل ويتقرر عليه حكمه. وقد يجب قتل غير هؤلاء على وجه الدفع، مثل قتل الخوارج ومن قصد قتل رجل وأخذ ماله فيجوز قتله على جهة المنع من ذلك؛ لأنه لو كف عن ذلك لم يستحق القتل. أ. هـ.

قال الرازى: ^(٦) وأعلم أن هذا داخل فى جملة الفواحش إلا أنه تعالى أفرده بالذكر لفائدتين:

إحدهما: أن الأفراد بالذكر يدل على التعظيم والتفخيم، كقوله ﴿وملائكته وجبريل وميكال﴾.

والثانية: أنه تعالى أراد أن يستثنى منه، ولا يتأتى هذا الاستثناء فى جملة الفواحش. ثم قال ^(٧) والحاصل أن الأصل فى قتل النفس هو الحرمة وجله لا يثبت إلا بدليل منفصل.

قال القرطبي: ^(٨) وهذه الآية نهى عن قتل النفس المحرمة، مؤمنة كانت أو معاهدة

(١) زاد المسير ١١٤/٣. (٢) أحكام القرآن ٣٧/٢.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الإيمان (ح ٢٥) ومسلم فى الإيمان (١/٢١١) وانظر تخريجنا «رياض الصالحين» حديث رقم (٣٩١). (٤) ما قبله.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الديات (ح ٦٧٧٨) ومسلم فى القسامة (١١/١٦٤) وانظر تمام تخريجنا «جامع العلوم والحكم» الحديث الرابع عشر.

(٦) التفسير الكبير ١٣/٧، ٢٤٥. (٧) التفسير الكبير ١٣/٧، ٢٤٩.

(٨) تفسير القرطبي ٤/٢٥٦٩، ٢٥٧٥.

إلا بالحق الذى يوجب قتلها وهذا الحق أمور: منها منع الزكاة وترك الصلاة؛ وقد قاتل الصديق مانعى الزكاة . وفى التنزيل ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ (١) وهذا بين . وقال عليه السلام: «إذا بويع لخيفتين فأقتلوا الآخر منهما» (٢) أخرجه مسلم .

وروى أبو داود عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فأقتلوا الفاعل والمفعول به» (٣) .

وفى التنزيل: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ (٤) وقال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ (٥) الآية: وكذلك من شق عصا المسلمين وخالف إمام جماعتهم وفرق كلمتهم وسعى فى الأرض فساداً بانتهاب الأهل والمال والبغى على السلطان والامتناع من حكمه يقتل . فهذا معنى قوله «إلا بالحق» .

وقال عليه السلام : «المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد فى عهده ولا يتوارث أهل ملتين» (٦) وروى أبو داود والنسائى عن أبى بكره قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من قتل معاهدا فى غير كُنهه حرم الله عليه الجنة» (٧) وفى رواية أخرى لأبى داود قال: «من قتل رجلا من أهل الذمة لم يجد ربح الجنة وإن ربحها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً» وفى البخارى فى هذا الحديث «وإن ربحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً» (٨) أخرجه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص . قال صاحب «الظلال» (٩) ويكثر فى السياق القرآنى مجيء النهى عن هذه المنكرات الثلاثة متتابعة: الشرك، الزنا، وقتل النفس . . ذلك أنها كلها جرائم قتل فى الحقيقة!

[الجريمة الأولى] جريمة قتل للفطرة؛

[الثانية] جريمة قتل للجماعة .

(١) التوبة : ٥

(٢) مسلم فى الإمارة (٦/٤٨٤/٦١) .

(٣) أبو داود (٤٤٦٢) وأنظر تخريجه فى «منار السبيل»، و«السلسيل» بتخريجنا .

(٤) المائدة : ٣٣ (٥) الحجرات : ٩ .

(٦) [صحيح] أخرج أحمد (١/١١٩ ، ١٢٢) والنسائى فى القسامة (٨/٢٠ ، ٢٤) من

حديث على رضى الله عنه .

(٧) أخرجه أبوداود (ح ٢٧٦٠) ، والنسائى فى «الكبرى» (ح ٦٩٤٩) .

(٨) [صحيح] أخرجه البخارى (٣١١٦) و (٦٩١٤) .

(٩) ١٢٣٢/١٢٣١/٣ .

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[الثالثة] قتل للنفس المفردة. إن الفطرة التي لاتعيش على التوحيد فطرة ميتة والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة، منتهية حتماً إلى الدمار. والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية. شواهد من التاريخ. ومقدمات الدمار والإنهيار فى الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب لأمم ينخر فيها كل هذا الفساد والمجتمع الذى تشيع فيه المقاتل والثارات، مجتمع مهدد بالدمار.

ومن ثم يجعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم هى أقسى العقوبات لأنه يرى حماية مجتمعه من عوامل الدمار أهم.

● قوله ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

الإعراب (١): ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الإشارة مبتدأ، والجملة مستأنفة مسوقة للإشارة إلى ماتقدم، وجملة وصاكم خبر ذلكم، وبه جار ومجرور متعلقان بوصاكم، ولعلكم تعقلون لعل واسمها وخبرها، وجملة الرجاء حالية، أى: لعلكم تستعملون عقولكم التى تعقل نفوسكم، وتحبسها عن اجتراح هذه المنهيات.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الرزاي (٢): ثم أنه تعالى لما بين أحوال هذه الأقسام الخمسة أتبعه باللفظ الذى يقرب إلى القلب القبول، فقال ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ لما فى هذه اللفظة من اللطف والرافة، وكل ذلك ليكون الكلف أقرب إلى القبول، ثم أتبعه بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى لكى تعقلوا فوائد هذه التكاليف، ومنافعها فى الدين والدنيا.

قال القرطبي (٣): قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى هذه المحرمات «وَصَّاكُمْ» الوصية الأمر المؤكد المقدور.

روى مطر الوراق عن نافع عن ابن عمر أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أشرف على أصحابه فقال: عَلَامَ تَقْتُلُونِ! فَإِنِى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَحِلُّ دَمُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثَ رَجُلٍ زَنَى بَعْدَ حَصَانَةٍ فَعَلِيهِ الرَّجْمُ أَوْ قَتَلَ عَمْدًا فَعَلِيهِ الْقَوْدُ أَوْ ارْتَدَّ بَعْدَ إِسْلَامِهِ فَعَلِيهِ الْقَتْلُ» فَوَاللَّهِ مَا زَنَيْتُ فِى جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، وَلَا قَتَلْتُ أَحَدًا فَأَقِيدُ

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٦٩،

(٢) التفسير الكبير ٧/ ١٣/ ٢٤٦.

(٣) تفسير القرطبي ٤/ ٢٧٥٠.

نفسى به، ولا ارتددت منذ اسلمت، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ذلكم الذى ذكرت لكم وصاكم به لعلكم تعقلون^(١).

قال السعدى^(٢) قوله: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ عن الله وصيته، ثم تحفظونها، ثم تراعونها، وتقومون بها.

ودلت الآية، على أنه بحسب عقل العبد، يكون قيامه بما أمر الله به. وذكر نحوه ابن عثيمين فقال^(٣).

العقل هنا: حسن التصرف، وأما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فمعناه: تفهمون.

وفى هذا دليل على أن هذه الأمور إذا التزم بها الإنسان؛ فهو عاقل رشيد، وإذا خالفها؛ فهو سفيه ليس بعاقل. أهد.

قال صاحب «الظلال»^(٤). ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهذا التعقيب يجيء وفق المنهج القرآنى فى ربط كل أمر وكل نهى بالله. تقريراً لوحدة السلطة التى تأمر وتنهى فى الناس، وربطاً للأوامر والنواهى بهذه السلطة التى تجعل للأمر والنهى وزنه فى ضمائر الناس!

كذلك تجيء فيه الإشارة إلى التعقل. فالعقل يقتضى أن تكون هذه السلطة وحدها هى التى تعبد الناس لشرعها. وقد سبق أنها سلطة الخالق الرازق المتصرف فى حياة الناس! وهذا وذلك فوق ما فى الطائفة الأولى من التجانس. وما بين الطائفة الثانية كذلك من التجانس. فجعل هذه فى آية، وتلك فى آية، وبينهما هذا الإيقاع.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين: ^(٥) وقد تضمنت هذه الآية خمس وصايا.

الأولى: توحيد الله.

الثانية: الإحسان بالوالدين.

الثالثة: أن لا تقتل أولادنا.

الرابعة: أن لا تقرب الفواحش.

الخامسة: أن لا تقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق.

(٤) أخرجه أبوداود (ح ٤٥٠٢) والترمذى (٢١٥٨) والنسائى (٣٤٨٢) وانظر تمام تخريجه

«جامع العلوم والحكم» (ح ١٤) بتخريجنا.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٨٦/٢. (٣) القول المفيد ٤٣/١، ٤٤.

(٤) ١٢٣٢/٣ (٥) القول المفيد ٤٤/١.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾

● قوله : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾
الإعراب (١).

الواو عاطفة ، ولا ناهية ، وتقربوا فعل مضارع مجزوم بلا ، والواو فاعل ، ومال اليتيم مفعوله . أهـ .

● ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث .

قال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أنزل الله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ الآية فانطلق من كان عنده يتييم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشئ فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ قال فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم رواه أبو داود (٢) .

● ما جاء فى تفسيرها من الآثار :

أخرج ابن أبى حاتم عن عطية فى قوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال طلب التجارة فيه والربح فيه (٣) .

عن الضحاك فى قوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال : يبتغى لليتيم فى ماله (٤) .

عن ابن زيد فى قوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال التى هى أحسن أن يأكل بالمعروف ، إن افتقر وإن استغنى فلا يأكل . قال الله ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٥) . فسئل عن الكسوة؟ فقال : لم يذكر الله كسوة وإنما ذكر الأكل (٦) .

(١) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٧ .

(٢) أخرجه أبو داود (٢٨٧١) وانظر تمام تخريجه فى «فتح القدير» بتخريجنا ، وابن أبى حاتم بتخريجنا .

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٨٤) ونسبه لابن أبى حاتم عن عطية

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٣٨٤) ونسبه لابن أبى حاتم عن الضحاك .

(٥) النساء : ٦ .

(٦) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم أيضاً .

عن عكرمة: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ قال: ليس له أن يلبس من ماله قلنسوة ولا عمامة ولكن يده مع يده^(١).

● ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الجصاص^(٢):

إنما خص اليتيم بالذكر فيما أمرنا به من ذلك لعجزه عن الانتصار لنفسه ومنع غيره عن ماله، ولما كانت الاطماع تقوى في أخذ ماله أكد النهي عن أخذ ماله بتخصيصه بالذكر. أهـ.

وذكر ذلك بنحوه ابن الجوزي.

قال الرازي^(٣): أعلم أنه تعالى ذكر في الآية الأولى خمسة أنواع من التكليف، وهي أمور ظاهرة جلية لا حاجة فيها إلى الفكر والاجتهاد، ثم ذكر تعالى في هذه الآية أربعة أنواع من التكليف، وهي أمور خفية يحتاج المرء العاقل في معرفته بمقدارها إلى التفكير، والتأمل والاجتهاد.

فالنوع الأول: من التكليف المذكورة في هذه الآية قوله ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

وأعلم أنه تعالى قال في سورة البقرة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾^(٤).

قال السعدي^(٥): ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ بأكل، أو معارضة على وجه المحاباة لأنفسكم، أو أخذ من غير سبب.

قال صاحب «الظلال»: ^(٦) واليتيم ضعيف في الجماعة، يفقده الوالد الحامي والمربي. ومن ثم يقع ضعفه على الجماعة المسلمة - على أساس التكافل الاجتماعي الذي يجعله الإسلام قاعدة نظامه الاجتماعي - وكان اليتيم ضائعاً في المجتمع العربي في

(١) ذكره السيوطي في «الدر» ونسبه لأبي الشيخ.

(٢) أحكام القرآن ٣٧/٢.

(٣) التفسير الكبير ٧/١٣/٢٤٦.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٨٦/٢.

(٦) في ظلال القرآن ٣/١٢٣٢.

الجاهلية . وكثرة التوجيهات الواردة فى القرآن وتنوعها وعنفها أحياناً تشي بما كان فاشياً فى ذلك المجتمع من ضيعة اليتيم فيه ؛ حتى انتدب الله يتيماً كريماً فيه فعهد إليه بأشرف مهمة فى الوجود . حين عهد إليه بالرسالة إلى الناس كافة، وجعل من آداب هذا الدين الذى بعثه به رعاية اليتيم وكفالاته على النحو الذى نرى منه هذا التوجيه : ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ .
قوله ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ .

الإعراب^(١) : إلا أداة حصر ، وبالتى إسم الموصول نعت لمصدر محذوف ، والجار والمجرور متعلقان بتقربوا . أى : إلا بالخصلة التى هى أحسن وهى مبتدأ ، وأحسن خبره . والجملة الاسمية لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وأتى بصيغه اسم التفضيل تنبيهاً على أن يتحرى فى ذلك غايه التحرى ويفعل الأحسن . أهـ .

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين :

قال الجصاص :^(٢) وقوله تعالى ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يدل على أن من له ولاية على اليتيم يجوز له دفع مال اليتيم مضاربة ، وأن يعمل به هو مضاربة فيستحق ربحه إذ رأى ذلك أحسن ، وأن يبضع ويستأجر من يتصرف ويتجر فى ماله ، وأن يشتري ماله من نفسه إذا كان خيراً لليتيم ، وهو أن يكون ما يعطى اليتيم أكثر قيمة مما يأخذه منه . وأجاز أبو حنيفة شراء مال اليتيم لنفسه إذا كان خيراً لليتيم بهذه الآية أهـ .

وفصل ابن الجوزى فقال^(٣) .

وفى قوله ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أربع أقوال :

أحدها : أنه أكل الوصى المصلح للمال المعروف وقت حاجته ، قاله ابن عباس ، وابن زيد .

والثانى : التجارة فيه ، قاله سعيد بن جبیر ، ومجاهد ، والضحاك ، والسدى .

والثالث : أنه حفظه له إلى وقت تسلميه إليه ، قاله ابن السائب .

والرابع : أنه حفظه عليه ، وتثمينه له ، قاله الزجاج . قال : و«حتى» محمولة على المعنى ؛ فالمعنى : احفظوه عليه حتى يبلغ أشده ، فإذا بلغ أشده ، فادفعوه إليه .

(١) إعراب القرآن ٢٧٧/٣ .

(٢) أحكام القرآن : ٣٧/٢ .

(٣) زاد المسير ١١٤/٣ .

ومال الرازي إلى القول الأول فقال : (١). والمعنى ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ إلا بأن يسعى في تنميته وتحصيل الربح به، ورعاية وجوه الغبطة له، ثم إن كان القيم فقيراً محتاجاً أخذ بالمعروف، وإن كان غنياً فاحترز عنه كان أولى فقوله ﴿يَا لَيْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ معناه كمعنى قوله ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٢).

ومال القرطبي للثاني فقال (٣):

﴿إِلَّا بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى بما فيه صلاحه وتثميته، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه، وهذا أحسن الأقوال فى هذا؛ فإنه جامع، قال مجاهد: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالتجارة فيه، ولا تشتري منه ولا تستقرض أهـ.

ومال صاحب «الظلال» إلى الثالث فقال (٤)

فعلى من يتولى اليتيم ألا يقرب ماله إلا بالطريقة التى هى أحسن لليتيم. فيصونه ويثميته، حتى يسلمه له كاملاً نامياً عند بلوغه أشده. أهـ (٥)

قال السعدى: ﴿إِلَّا بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى : إلا بالحال التى تصلح بها أموالهم، ويتشفعون بها. فدل هذا، على أنه لا يجوز قربانها، والتصرف بها، على وجه يضر اليتامى، أو على وجه لامضرة فيه ولا مصلحة.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين: (٦) والحسن هنا يشمل : الحسن الدنيوى، والحسن الدينى، فإذا لاح تصرفان أحدهما أكثر ربحاً وفيه ربا، والآخر أقل ربحاً وهو أسلم من الربا؛ فنقدم الأخير؛ لأن الحسن الشرعى مقدم على الحسن الدنيوى المادى.

قوله : ﴿حَتَّى يَلْغَ أَشُدُّهُ﴾.

(١) التفسير الكبير (٧ / ١٣ / ٢٤٦).

(٢) النساء : (٦).

(٣) تفسير القرطبي ٢٥٧٠. (٤) ١٢٣٢/٣.

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٢ / ٨٦).

(٦) القول المفيد ١ / ٤٤.

الإعراب (١).

(حتى) حرف غاية وجر، (ويبلغ) فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى، والجار والمجرور متعلقان بتقربوا، (أشدّه) مفعول به. أهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار.

عن الشعبي فى قوله ﴿حَتَّى يَلْغَ أَشُدُّهُ﴾ قال: الأشد: الحلم إذا كتبت له الحسنات وكتبت عليه السيئات (٢).

وعن محمد بن قيس فى قوله ﴿حَتَّى يَلْغَ أَشُدُّهُ﴾ قال خمس عشرة سنة (٣).

وعن ربيعة بن أبى عبدالرحمن. إنه كان يقول فى هذه الآية: الأشد الحلم لقوله ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ (٤).

عن زيد بن أسلم قال: الأشد: الحلم (٥).

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين.

قال ابن جرير: وفى الكلام محذوف، ترك ذكره اكتفاء بدلالة ما ظهر عما حذف، لأن المعنى: يبلغ أشده؛ فإذا بلغ أشده فأنستم منه رشداً، فادفعوا إليه ماله.

ثم قال: إن أراد بما ظهر مظهر فى هذه الآية، فليس بصحيح؛ وإنما استفيد إيناس الرشد والإسلام من آية أخرى؛ وإنما أطلق فى هذه الآية ما قيد فى غيرها، فحمل المطلق على المقيد.

قال الرازى (٦): وأما قوله ﴿حَتَّى يَلْغَ أَشُدُّهُ﴾ فالمعنى: احفظوا ماله حتى يبلغ أشده فإذا بلغ أشده فادفعوا ماله أهـ.

قال ابن الجوزى: (٧) وللمفسرين فى الأشد ثمانية أقوال:

أحدها: أنه ثلاث وثلاثون سنة، رواه ابن جبير عن ابن عباس.

(١) إعراب القرآن (٣ / ٢٧٧).

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٣٨٤) نسبة لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم عن محمد بن قيس

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لأبى الشيخ.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لأبى الشيخ عن زيد بن أسلم.

(٦) «التفسير الكبير» (٧ / ١٣ / ٢٤٧)

(٧) «زاد المسير» (٣ / ١١٥).

والثاني: ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أربعون سنة، روى عن عائشة عليها السلام.

والرابع: ثمانى عشرة سنة، قاله سعيد بن جبير، ومقاتل.

والخامس: خمس وعشرون سنة، قاله عكرمة.

والسادس: أربع وثلاثون سنة، قاله سفيان الثوري.

والسابع: ثلاثون سنة، قاله السدي.

وقال: ثم جاء بعد هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾^(١) فكأنه يشير إلى النسخ.

والثامن: بلوغ الحلم، قاله زيد بن أسلم، والشعبي، ويحيى بن يعمر، وربيعة، ومالك بن أنس وهو الصحيح.

ولا أظن بالذين حكينا عنهم الأقوال التي قبله فسروا هذه الآية بما ذكر عنهم، وإنما ظن أن الذين جمعوا التفاسير، نقلوا هذه الأقوال من تفسير قوله تعالى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾^(٢) إلى هذا المكان؛ وذلك نهاية الأشد، وهذا ابتداء تمامه؛ وليس هذا مثل ذلك.

قال الرازي:^(٣) بلوغ الأشد: مبلغ الرجل الحكمة والمعرفة.

قال القرطبي:^(٤) قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يعني قوته، وقد تكون في البدن، وقد تكون في المعرفة بالتجربة، ولا بد من حصول الوجهين؛ فإن الأشد وقعت هنا مطلقة. وقد جاء بيان حال اليتيم في سورة «النساء» مقيدة، فقال: ﴿وَابْتََلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد؛ فلو مكن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعد حصول القوة لأذهبه في شهواته وبقي صعلوكًا لا مال له.

وخص اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه وافتقار الآباء لابنائهم فكان الاهتمام بفقيد الأب أولى.

قال الشنقيطي:^(٥) والتحقيق أن المراد بالأشد في هذه الآية البلوغ، بدليل قوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾^(٦).

والبلوغ يكون بعلامات كثيرة، كالإنبات، واحتلام الغلام، وحيض الجارية،

(٢) يوسف: ٢٢، والقصص: ١٤.

(٤) تفسير القرطبي (٤/ ٢٥٧٠).

(٦) النساء: ٦.

(١) النساء: ٦.

(٣) التفسير الكبير (٧/ ١٣/ ٢٤٧).

(٥) أضواء البيان (٢/ ٢١٠).

وحملها، وأكثر أهل العلم على أن سن البلوغ خمسة عشرة سنة.

ومن العلماء من قال: إذا بلغت قامته خمسة أشبار، فقد بلغ، ويروى هذا القول عن علي، وبه أخذ الفرزدق في قوله يرثي يزيد بن المهلب.

مازال منذ عقدت يده إزاره فسمأ فأدرك خمسة الأشبار
يدنى خوافق من خوافق تلتقى فى ظل معتبط الغبار مشار

قال الشنقيطى: قال مالك وأصحابه: إن الرشد الذى يُدفع به المال إلى من بلغ النكاح، هو حفظ المال وحسن النظر فى التصرف فيه، وإن كان فاسقاً شريعاً، كما أن الصالح التقى إذا كان لا يحسن النظر فى المال لا يدفع إليه ماله، قال ابن عاصم المالكي فى «تحفته»:

وشارب الخمر إذا مائماً لمايلى من ماله لن يحجراً
وصالح ليس بجيد النظراً فى المال إن خيف الضياع حجراً

وقال الشافعى ومن وافقه: لا يكون الفاسق العاصى رشيداً، لأنه لاسفه أعظم من تعريضه نفسه لسيخط الله وعذابه بارتكاب المعاصى، والله تعالى أعلم.

● شبهة الرد عليها

قال الشنقيطى: (١) قد يتوهم غير العارف من مفهوم مخالفة هذه الآية الكريمة، أعنى مفهوم الغاية فى قوله: ﴿حَتَّى يَلْغَ أَشُدُّهُ﴾ إنه إذا بلغ أشده، فلا مانع من قربان ماله بغير التى هى أحسن، وليس ذلك مراداً بالآية، بل الغاية ببلوغ الأشد يراد بها: أنه إن بلغ أشده يدفع إليه ماله، إن أنس منه الرشد، كما بينه تعالى بقوله: ﴿فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ (٢). وقد سبق إلى هذا المعنى القرطبى رحمه الله.

قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾

الإعراب: (٣) الجملة معطوفة، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والميزان: مفعول به معطوف على ﴿الْكَيْلَ﴾، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال من المفعول به، أى مقسطين عادلين، ويجوز أن يكون حالاً من المفعول به، أى: تآمين.

(٢) النساء: ٦.

(١) أضواء البيان ٢/ ٢١٠.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٢٧٧.

● ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:

قال الشنقيطى: (١) أمر تعالى فى هذه الآية الكريمة بإيفاء الكيل والميزان بالعدل، وذكر أن من أحل بايافته من غير قصد منه لذلك، لاجرح عليه لعدم قصده، ولم يذكر هنا عقاباً لمن تعمد ذلك ولكن توعده بالويل فى موضع آخر، ووبخه بأنه لا يظن البعث ليوم القيامة، وذلك فى قوله ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦). وذكر فى موضع آخر أن إيفاء الكيل والميزان خير لفاعله، وأحسن عاقبة، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٣) أمه.

● ما جاء فى تفسير الآية بالسنة.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ يا معشر التجار أنكم قد وليتم أمر هلكت فيه الأمم السالفه قبلكم (المكيال والميزان) (٤).

من أقوال التابعين: عن قتادة فى قوله ﴿بالقسط﴾ قال بالعدل (٥).

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الطبرى: (٦) يقول تعالى ذكره ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ لا تبخسوا الناس الكيل إذا كلتموهم، والوزن إذا وزنتموهم لكن أوفوهم حقوقهم. وإيفاؤهم ذلك إعطاؤهم حقوقهم تامه (بالقسط) يعنى بالعدل.

قال الجصاص: (٧) فيه أمر بإيفاء الحقوق على الكمال

قال الرازى: (٨) واعلم أن كل شىء بلغ تمام الكمال، فقد وفى وتم. يقال: درهم واف، وكيل واف، وأوفيته حقه، ووفيته إذا أتمته، وأوفى الكيل إذا أتمه ولم ينقص منه شيئاً.

(٢) المطففين: ١ - ٦.

(١) أضواء البيان (٢/٢١١، ٢١٢).

(٣) الإسراء: ٣٥.

(٤) ذكره السيوطى فى الدر (٣/١٨٥) ونسبه للترمذى وضعفه، وابن عدى، وابن مردويه، والبيهقى فى «الشعب» وأخرجه الترمذى (١٢١٧) وصححه موقوفاً للترمذى (١٢١٧).

(٥) ذكره فى الدر (٣/٣٨٥) ونسبه لأبى شيخ.

(٧) أحكام القرآن (٣/٣٨).

(٦) تفسير الطبرى (٥/٦٣).

(٨) التفسير الكبير (٧/١٣/٢٤٧).

وقوله ﴿وَالْمِيزَانَ﴾: أى الوزن بالميزان.

وقوله ﴿بِالْقِسْطِ﴾: أى بالعدل لا بخس ولا نقصان.

فإن قيل: إيفاء الكيل والميزان، هو عين القسط، فما الفائدة فى هذا التكرير؟

قلنا: أمر الله المعطى بإيفاء ذى الحق حقه من غير نقصان، وأمر صاحب الحق بأخذ حقه من غير طلب الزيادة.

وأقر ذلك القرطبي فقال (١): قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالإعتدال فى الأخذ والعطاء عند البيع والشراء. اهـ.
وذكر نحوه ابن كثير.

قال صاحب «الظلال» (٢): وهذه فى المبادلات التجارية بين الناس فى حدود طاقة التحرى والإنصاف. والسياق يربطها بالعقيدة لأن المعاملات فى هذه الدين وثيقة الارتباط بالعقيدة. والذى يوصى بها ويأمر هو الله. ومن هنا ترتبط بقضية الألوهية والعبودية، وتذكر فى هذا المعرض الذى يبرز فيه شأن العقيدة، وعلاقتها بكل جوانب الحياة.

ولقد كانت الجاهليات - كما هى اليوم - تفصل بين العقيدة والعبادات، وبين الشرائع والمعاملات. من ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن قوم شعيب: «قالوا: يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آبائنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء»!؟

ومن ثم يربط السياق القرآنى بين قواعد التعامل فى المال والتجارة والبيع والشراء، وبين هذا المعرض الخاص بالعقيدة، للدلالة على طبيعة هذا الدين، وتسويته بين العقيدة والشريعة، وبين العبادة والمعاملة، فى أنها كلها من مقومات هذا الدين، المرتبطة كلها فى كيانه الأصيل. اهـ.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين: (٣) قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾.

أى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ إذا كلمت فيما يكال من الأطعمة والحبوب.

وأوفوا الميزان: إذا وزنتم فيما يوزن؛ كاللحوم مثلاً.

والأمر بالإيفاء شامل لجميع ما تتعامل به مع غيرك؛ فيجب عليك أن توفى بالكيل والوزن وغيرهما فى التعامل. اهـ.

(٢) (٣/١٢٣٣).

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٥٧٢).

(٣) القول المفيد (١/٤٥).

قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

الإعراب: (١) ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

الجملة معترضه بين المتعاطفين لا محل لها، للتنبيه على أن أمر الكيل والميزان ومراعاة العدل فيهما يتطلب دقة ومغالبه للسهو و(لا): نافية، (ونكلف) فعل مضارع مرفوع، ونفساً مفعول به، (وإلا) أداة حصر، و(وسعها) مفعول به ثانى، كأنه قيل: أعملوا كل ما فى وسعكم وطاقتكم أ هـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من السنة:

عن سعيد بن المسيّب قال. تلا رسول الله ﷺ ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ (٢).

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فقال: من أوفى على يديه فى الكيل والميزان الله يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما لم يؤاخذ، وذلك تأويل وسعها.

● ما جاء فى الآية من كلام المفسرين:

قال الطبرى: (٣) وأما قوله ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فإنه: يقول لانكلف نفساً من إيفاء الكيل والوزن إلا مايسعها، فيحل لها ولا تخرج فيه. وذلك أن الله جل ثناؤه علم من عباده أن كثيراً منهم تضيق نفسه عن أن تطيب لغيره بما لا يجب عليها له فأمر المعطى بإيفاء رب الحق حقه الذى هو له، ولم يكلفه الزيادة لما فى الزيادة عليه من ضيق نفسه بها وأمر الذى له الحق بأخذ حقه ولم يكلفه الرضا بأقل منه لما فى النقصان عنه من ضيق نفسه فلم يكلف نفساً منهما إلا ما لا حرج فيه ولا ضيق، فلذلك قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

قال الجصاص (٤): ولما كان الكيل والوزن يتعذر فيهما التحديد بأقل القليل علمنا أنه لم يكلفنا ذلك وإنما كلفنا الاجتهاد فى التحرر دون حقيقة الكيل والوزن، وهذا أصل فى جواز الاجتهاد فى الأحكام وأن كل مجتهد مصيب وإن كانت الحقيقة المطلوبة بالاجتهاد واحدة؛ لأننا قد علمنا أن للمقدار المطلوب من الكيل حقيقة معلومة عند الله تعالى قد أمرنا بتحريها والاجتهاد فيها ولم يكلفنا إصابتها، إذ لم يجعل لنا دليلاً عليها، فكان كل ما أدانا إليها اجتهادنا من ذلك فهو الحكم الذى تعبدنا به.

(١) إعراب القرآن (٣/٢٧٧). (٢) ذكره فى الدرر (٣/٣٨٤) ونسبه لابن مردويه.

(٣) تفسير الطبرى (٥/٨/٦٣). (٤) أحكام القرآن (٣/٣٨).

وقد يجوز أن يكون ذلك قاصراً عن تلك الحقيقة أو زائداً عليها؛ ولكنه لما لم يجعل لنا سبيلاً إليها أسقط حكمها عنا.

ويدلك على أن تلك الحقيقة المطلوبة غير مدركة يقينا أنه قد يكال أويوزن ثم يعاد عليه الكيل أو الوزن فيزيد أو ينقص لاسيما فيما كثر مقداره؛ ولذلك قال الله تعالى ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (١) في هذا الموضع، يعنى أنه ليس عليه أكثر مما يتحراه بجتهاده وقد استدل عيسى بن أبان بأمر الكيل والوزن على حكم المجتهدين في الأحكام وشبهه به.

قال الرازى: (٢) واعلم أنه لما كان يجوز أن يتوهم الإنسان أنه يجب على التحقيق وذلك صعب شديد في العدل أتبعه الله تعالى بما يزيل هذا التشديد فقال ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (٣) أى الواجب فى إيفاء الكيل والوزن هذا القدر الممكن فى إيفاء الكيل والوزن. أما التحقيق فغير واجب.

قال القرطبي: (٤) وهذا يقتضى أن هذه الأوامر . إنما هى فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز، ومالا يمكن الاحتراز عنه من تفاوت ما بين الكيلين، ولا يدخل تحت قدرة البشر فمَعَفُوا عنه.

ثم قال (٥) وفى موطأ مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه عن عبد الله بن عباس أنه قال: ما ظهر الغسل فى قوم قط إلا ألقى الله فى قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنا فى قوم إلا كثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قُطِعَ عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم، ولا حقر قوم بالعهد إلا سلط عليهم الله العدو. وقال ابن عباس أيضاً: إنكم معشر الأعاجم قد وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم (٦).

قال السعدى (٧): وبهذه الآية استدل الأصوليون، بأن الله لا يكلف أحداً، مالا يطيق، وعلى أن من اتقى الله، فيما أمر، وفعل ما يمكنه من ذلك، فلا حرج عليه فيما سوى ذلك.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين: (٨) ولما كان قوله ﴿بِالْقِسْطِ﴾ قد يشق بعض الأحيان، لأن الإنسان

(٢) التفسير الكبير (٧/ ١٣/ ٢٤٧).

(٤) تفسير القرطبي (٤/ ٢٥٧٣).

(٦) تقدم قريباً.

(٧) القول المفيد (١/ ٤٥).

(١) البقرة: (٢٨٦).

(٣) الأنعام: (١٥٢).

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٨٧).

قد يفوته أن يوفى الكيل أو الوزن أحياناً، أعقب ذلك بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى طاقتها، فإذا بذل جهده وطاقته وحصل التقص، فلا يعد مخالفاً لأن ما خرج عن الطاقة معفو عنه فيه وكما أن هذه الجملة تفيد العفو من وجه، وهو ما خرج عن الوسع؛ فإنها تفيد التغليظ من وجه، وهو أن المرء أن يبذل وسعه فى الإيفاء بالقسط، ولكن متى تبين الخطأ وجب تلافيه لأنه دال فى الوسع.

قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾.

الإعراب: (١)

الواو عاطفه، (وإذا) شرطية ظرفية، وجملة (قلتم) فى محل جر بالإضافة، و(الفاء) رابطة، و(اعدلوا) فعل أمر مبنى على حذف النون، والواو حالية، و(لو) شرطية غير جازمة، و(كان) فعل ماضى ناقص، واسمها ضمير مستتر، و(ذا) قرى خبرها.

● ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:

قال ابن كثير: (٢) وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ كقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ الآية، وكذا التى تشبهها فى سورة النساء يأمر تعالى بالعدل فى الفعال والمقال على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد فى كل وقت وكل حال.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ يعنى ولو كان قرابتك فقل فيه الحق (٣).

وأخرج أيضاً عن ابن زيد فى قوله ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ قال قولوا الحق (٤). قال ابن عثيمين: (٥) وقد أقسم أشرف الخلق. وسيد ولد آدم. وأعدل البشر؛ محمد ﷺ وقال وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها (٦).

(١) إعراب القرآن (٣/ ٢٧٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٨٢).

(٣) ذكره فى الدر (٣/ ٣٨٥) ونسبه لابن أبى حاتم، فانظره بتخریجنا.

(٤) ذكره فى الدر (٣/ ٣٨٥) ونسبه لابن أبى حاتم. فأنظر بتخریجنا.

(٥) القول المفيد (١/ ٤٦).

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الانبياء، ومسلم فى الحدود.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الطبرى: (١) يعنى تعالى ذكره بقوله ﴿قُلْتُمْ فَأَعْدِلُوا﴾ وإذا حكمتم بين الناس فتكلمتم فقولوا الحق بينهم واعدلوا وأنصفوا ولا تجوروا ولو كان الذى يتوجه الحق عليه والحكم ذا قرابة به لكم ولا يحملنكم قرابة قريب أو صداقة صديق حكمتم بينه وبين غيره أن تقولوا غير الحق فيما احتكم إليكم فيه.

قال الرازى: (٢) واعلم أن هذا أيضاً من الأمور الخفية التى أوجب الله تعالى فيها أداء الأمانة.

والمفسرون حملوه على أداء الشهادة فقط، والأمر والنهى فقط.

قال القاضى: وليس الأمر كذلك بل يدخل فيه كل ما يتصل بالقول.

فيدخل فيه ما يقول المرء فى الدعوة إلى الدين وتقرير الدلائل عليه بأن يذكر الدليل ملخصاً عن الحشو والزيادة بألفاظ مفهومة معتادة، قريبة من الأفهام.

ويدخل فيه: أن يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واقعاً على وجه العدل من غير زيادة فى الإيذاء والإيحاء، ونقصان عن القدر الواجب، ويدخل فيه الحكايات التى يذكرها الرجل حتى لا يزيد فيها ولا ينقص عنها، ومن جملتها تبليغ الرسالات عن الناس، فإنه يجب أن يؤديها من غير زيادة ولا نقصان ويدخل فيه: حكم الحاكم بالقول، ثم إنه تعالى بين أنه يجب أن يسوى فيه بين القريب والبعيد، لأنه لما كان المقصود منه طلب رضوان الله تعالى لم يختلف ذلك بالقريب والبعيد.

قال السعدى: (٣) ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولاً تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم

الخطاب، وتكلمون به على المقالات والأحوال ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فى قولكم، بمراعاة الصدق فيمن تحبون، ومن تكرهون والإنصاف وعدم كتمان ما يلزم بيانه.

فإن الميل، على من تكره بالكلام فيه، أو فى مقالته، من الظلم المحرم.

بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع، فالواجب عليه، أن يعطى كل ذى حق حقه، وأن يبين مافيه، من الحق والباطل، ويعتبر قريبها من الحق، وبعدها منه.

وذكر الفقهاء أن القاضى يجب عليه العدل بين الخصمين، فى لحظه، ولفظة.

قال صاحب «الظلال» (٤): وهنا يرتفع الإسلام بالضمير البشرى - وقد ربطه بالله

ابتداء - إلى مستوى سامق رفيع، على هدى من العقيدة فى الله ومراقبته. : فهنا منزلة من مزلات الضعف البشرى. الضعف الذى يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر

(١) تفسير الطبرى (٥/٦٣).

(٢) التفسير الكبير (٧/١٣/٢٤٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢/٨٧).

(٤) (٣/١٢٣٣).

والتكامل والامتداد؛ بما أنه ضعيف ناقص محدود الأجل؛ وفي قوة القرابة سند لضعفه وفي سعة رقعتها كمال لوجوده، وفي امتدادها جيلاً بعد جيل ضمان لامتداده! ومن ثم يجعله ضعيفاً تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم، أو القضاء بينهم وبين الناس.. وهنا في هذه المزية يأخذ الإسلام بيد الضمير البشرى ليقول كلمة الحق والعدل، على هدى الاعتصام بالله وحده. أهـ.

وقوله ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ وَأَوْفُوا﴾

الإعراب: (١) و(بعهد الله) جار ومجرور متعلقان بـ(أوفوا) وأوفوا فعل أمر مبنى على حذف النون.

● ما جاء في تفسير الآية بالقرآن.

قال الجصاص: (٢) قوله تعالى ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوفُوا﴾ عهد الله يشتمل على أوامره وزواجره، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾ (٣) وقد يتناول المنذور وما يوجبه العبد على نفسه من القرب، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ (٤)

قال الشنقيطي: (٥) أمر تعالى في هذه الآية الكريمة بالإيفاء بعهد الله، وصرح في موضع آخر أن عهد الله سيسأل عنه يوم القيامة بقوله ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ (٦). أى عنه.

قال ابن عثيمين: (٧) ﴿وعهد الله﴾ ما عهد به إلى عباده، وهى عبادته سبحانه وتعالى والقيام بأمره؛ كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ (٨).

هذا ميثاق من جانب المخلوق، وقوله تعالى: ﴿لَا كُفْرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (٩) هذا من جانب الله - عز وجل -.

(١) إعراب القرآن (٣/٢٧٧، ٢٧٨).

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٩.

(٣) يس: (٦٠).

(٤) النحل: (٩١).

(٥) أضواء البيان (٢/٢١٢).

(٦) الإسراء: (٣٤).

(٧) القول المفيد (١/٤٦، ٤٧).

(٨) المائدة: (١٢).

(٩) آل عمران: (١٩٥).

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الطبرى: ^(١) ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ يقول بوصية الله التى أوصاكم بها فأوفوا وإيفاء ذلك أن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم، وأن يعملوا بكتابه وسنه وسوله ﷺ وذلك هو الوفاء بعهد الله.

قال ابن الجوزى: ^(٢) وعهد الله يشتمل على ماعهده إلى الخلق وأوصاهم به. وعلى ما أوجبه الإنسان على نفسه من نذر وغيره.

قال الرازى: ^(٣) قوله تعالى ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ وهذا من خفيات الأمور لأن الرجل قد يحلف مع نفسه، فيكون ذلك الحلف خفياً، ويكون بره وحشه أيضاً خفياً، ولما ذكر تعالى هذه الأقسام قال ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قال القرطبى: ^(٤) ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ عام فى جميع ماعهد الله إلى عباده ويحتمل أن يراد جميع ماعقد بين إنسانين، وأضيف ذلك العهد إلى الله حيث أمر بحفظه والوفاء به.

قال الفقير: وهذا أظهر وأجمع للمعانى.

قال صاحب «الظلال»: ^(٥) ومراقبة الله وحده، اكتفاء به من مناصرة ذوى القربى، وتقوى له من الوفاء بحق القرابة دون حقه؛ وهو - سبحانه - أقرب إلى المرء من جبل الوريد..

لذلك يعقب على هذا الأمر - وعلى الوصايا التى قبله - مذكراً بعهد الله. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾

ومن عهد الله قوله الحق والعدل ولو كان ذا قربى. ومن عهد الله توفية الكيل والميزان بالقسط. ومن عهد الله ألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن. ومن عهد الله حرمة النفس إلا بالحق.. وقبل ذلك كله.. من عهد الله ألا يشركوا به شيئاً. فهذا هو العهد الأكبر، المأخوذ على فطرة البشر، بحكم خلقها متصلة بمبدعها، شاعرة بوجوده

(١) تفسير الطبرى (٦٣/٨/٥)، وآخرناه هنا لمصلحة المعنى.

(٢) زاد المسير (١١٦/٣). (٣) التفسير الكبير (٢٤٨/١٣/٧).

(٤) القرطبى (٢٥٧٣/٤). (٥) الظلال (١٢٣٣/٣).

فى النواميس التى تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين: (١) قوله ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوفُوا﴾ قَدَمَ المتعلق ؛ للإهتمام به .

قوله ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

الإعراب: تقدم إعراب نظيرها.

قال الطبرى: (٢) وأما قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ يقول تعالى ذكره لنبى محمد ﷺ قل للعادلين بالله الأوثان والأصنام من قومك هذه الأمور التى ذكرت لكم فى هاتين الآيتين هى الأشياء التى عهد الينا ربنا، ووصاكم بها ربكم، وأمركم بالعمل بها، لا بالبحائر، والسوائب، و الوصائل، والحام، وقتل الأولاد، وواد البنات، واتباع خطوات الشيطان ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول أمركم بهذه الأمور التى أمركم بها فى هاتين الآيتين، وصاكم بها وعهد إليكم فيها؛ لتذكروا عواقب أمركم وخطأ ما أنتم عليه مقميون. فتزجروا عنها وترتدعوا وتنبوا إلى طاعة ربكم.

قال القرطبي: (٣) تذكرون تتعظون.

وقال ابن كثير: (٤) وتنتهون مما كنتم فيه قبل هذا.

وقرأ بعضهم بتشديد الذال، وآخرون بتخفيفها.

● فائدة:

قال الرازى: (٥) فإن قيل: فما السبب فى أن جعل خاتمة الآية الأولى بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وخاتمة هذه الآية الثانية ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

قلنا: لأن التكاليف الخمسة المذكورة فى الأولى - أى قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية - أمور ظاهرة جلية، فوجب تعقلها وتفهمها.

(٢) تفسير الطبرى (٥/٨/٦٣، ٦٤).

(١) القول المفيد (١/٤٦).

(٣) تفسير القرطبي (٤/٢٥٧٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/١٨٢).

(٥) التفسير الكبير (٧/١٣/٢٤٨).

وأما التكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية - أى قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الآية - فأمور خفية غامضة، لا بد فيها من الاجتهاد والفكر حتى يقف على موضع الاعتدال، فلهذا السبب قال ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف، وللباقون ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتشديد الذال في كل القرآن وهما بمعنى واحد.

قال صاحب «الظلال»: (١) ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ والذكر ضد الغفلة . والقلب الذاكر غير الغافل، وهو يذكر عهد الله كله ويذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد ولا ينساها.

● ما جاء في الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين: (٢) قوله ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

هذه الآية الكريمة فيها أربع وصايا من الخالق عز وجل:

الأولى: أن لا تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

الثانية: أن نوفي الكيل والميزان بالقسط.

الثالثة: أن نعدل إذا قلنا.

الرابعة: أن نوفي بعهد الله.

والآية الأولى فيها خمس وصايا . صار الجميع تسع وصايا أهـ.

قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾

الإعراب (٣).

عطف على ماتقدم، و(أن) واسمها و(صراطى) خبرها و(مستقيماً) حال مؤكدة من (صراطى)، والعامل فيها معنى الإشارة والفاء الفصيحة، و(اتبعوه) فعل أمر وفاعل ومفعوله، والجملة لامحل لها.

والمعنى: إذا أردتم الفوز والنجاة من مهاوى البدع ومساقط الضلالات و(اتبعوه) فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة لامحل لها. أ. هـ.

(٢) القول المفيد (١/٤٧).

(١) (١٢٣٣/٣، ١٢٣٤).

(٣) إعراب القرآن (٣/٢٧٨).

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الطبرى: ^(١) يقول تعالى ذكره: وهذا الذى وصاكم به ربكم أيها الناس فى هاتين الآيتين من قوله ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾. وأمركم بالوفاء به هو صراطه يعنى طريقه ودينه الذى ارتضاه لعباده ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ يعنى قويمًا لا اعوجاج به عن الحق فاتبعوه، يقول فاعملوا به واجعلوه لأنفسكم منهاجًا تسلكونه فاتبعوه.

قال الجصاص: ^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية.

فإن المراد بالصراط: الشريعة التى تَعَبَّدَ الله بها عباده، والصراط: هو الطريق، وإنما قيل للشرع الطريق لأنه يؤدى إلى الثواب فى الجنة فهو طريق إليها وإلى النعيم، وأما سبيل الشيطان فطريق إلى النار - أعاذنا الله منها -، وإنما جاز الأمر باتِّباع الشرع بما يشتمل عليه من الوجوب والنفل والمباح كما جاز الأمر باتِّباعه مع ما فيه من التحليل والتحریم، وذلك لأن اتِّباعه إنما هو اعتقاد صحته على ترتيبه من قُبْح المحظور ووجوب الفرض والرغبة فى النفل واستباحة المباح والعمل بكل شيء من ذلك على حسب مقتضى الشرع له من إيجاب أو نفل أو إباحة.

قال ابن الجوزى: ^(٣) وفى الصراط قولان: أحدهما: أنه القران، (والثانى): الإسلام.

قال السعدى: ^(٤) ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ أى: هذه الأحكام وما أشبهها، مما بينه الله فى كتابه، ووضحه لعباده، صراط الله الموصل إليه، وإلى دار كرامته، المعتدل السهل المختصر.

﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ لتنالوا الفوز والفلاح، وتدرکوا الآمال والأفراح.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين ^(٥): والصراط يضاف إلى الله - عز وجل - ويضاف إلى سالكه، ففى قوله تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ^(٦) هنا أضيف إلى سالكه، وفى قوله تعالى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ^(٧) هنا أضيف إلى الله -

(١) تفسير الطبرى (٥/٨/٦٤).
(٢) زاد المسير (٣/١١٦).
(٣) زاد المسير (٣/١١٦).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٢/٨٧).
(٥) القول المفيد (١/٤٧، ٤٨).
(٦) الفاتحة: (٧).
(٧) الشورى: (٥٣).

عز وجل لأنه موصل إليه، ولأنه هو الذى وضعه لعباده جلا وعلا، - فإضافته إلى الله - عز وجل - وإضافته إلى سالكه لأنهم هم الذى سلكوه.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

الإعراب^(١): الواو عاطفة، و(لا) ناهية، و(تتبعوا) فعل مضارع مجزوم بلا، والواو فاعل، و(السبل) مفعول به، (فتفرق): الفاء السببية هو تفرق أصله تتفرق فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء فى جواب النهى، و(بكم): جار ومجرور متعلقان بتفرق، و(عن سبيله) جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أى: متناثرة عن سبيله. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من السنة والآثار.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطأ بيده ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً»، وخط عن يمينه وشماله ثم قال «هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(٢).

وقال الحاكم: وشاهد هذا الحديث حديث الشعبى عن جابر من غير وجه معتمد. يشير إلى الحديث الذى قال الإمام أحمد وعبد بن حميد جميعاً، واللفظ لأحمد عن الشعبى عن جابر قال: كنا جلوساً عند النبى ﷺ فخط خطأ هكذا أمامه فقال: «هذا سبيل الله» وخططين عن يمينه وخططين عن شماله وقال: «هذه سبل الشيطان» ثم وضع يده فى الخط الأوسط ثم تلا هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية^(٣).

ورواه أحمد وابن ماجة فى كتاب السنة من سننه والبخارى عن أبى سعيد عبد الله بن سعيد عن أبى خالد الأحمر^(٤)، قلت - يعنى ابن كثير: ورواه الحافظ ابن مردويه من طريقين عن أبى سعيد الكندى حدثنا أبو خالد عن مجاهد عن الشعبى عن جابر قال:

(١) إعراب القرآن (٣/٢٧٨).

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/٤٣٥، ٤٦٥)، والنسائى فى «تفسيره» (١٩٤، ١٩٥).

وانظر تخريجه فى «فتح القدير» (٤٨٦٧ - بتخريجتنا) وفتح المجيد (ح٤٧) بتخريجتنا.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/٣٩٧)، وابن ماجة (١١) عن ابن مسعود به.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/١٠٦) وزاد نسبه لابن مردويه.

وانظر تخريجه فى «فتح القدير» (٤٨٦٨ - بتخريجتنا).

(٤) تقدم فيما قبله.

خط رسول الله ﷺ خطأ وخط عن يمينه خطأ، وخط عن يساره خطأ، ووضع يده على الخط الأوسط، وتلا هذه الآية ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (١) ولكن العمدة على حديث ابن مسعود مع ما فيه من الاختلاف إن كان مؤثراً، وقد روى موقوفاً على.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن أبان بن عثمان أن رجلاً قال لابن مسعود ما الصراط المستقيم؟ قال: «تركنا محمد ﷺ في أدناه وطره في الجنة وعن يمينه جواد وعن يساره جواد، ثم رجال يدعون من مر بهم فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهت به إلى الجنة. ثم قرأ ابن مسعود ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (٢) الآية.

وقال ابن مردويه: عن عبد الله بن عمر سأل عبد الله عن الصراط المستقيم فقال ابن مسعود تركنا محمد ﷺ في أدناه وطره في الجنة (٣) . . . وذكر تمام الحديث كما تقدم والله أعلم.

وقد روى من حديث النواس بن سمعان نحوه قال الإمام أحمد عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعن جنبى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ولا تفرقوا وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه فالصراط الإسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم (٤). اهـ.

وعن قتادة في قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ قال:

(١) تقدم قبل حديث.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦٥/٨) وذكره السيوطى في «الدر» (١٠٦/٣) وزاد نيبته لعبدالرزاق وابن مردويه.

وانظر تمام تخريجه في «فتح القدير» (٤٨٦٩ - بتخريجنا).

(٣) تقدم فيما قبله.

(٤) أخرجه ؟؟؟ في «مسنده» (١٨٢/٤)، والترمذى (٢٨٥٩).

وانظر تمام تخريجه في «فتح القدير» (١١٠ - بتخريجنا).

اعلموا إنما السبيل سبيل واحد جماعه الهدى ومصيره الجنة، وأن إبليس اشترع سبلاً متفرقة جماعها الضلالة ومصيرها النار^(١).
قال القرطبي^(٢):

قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾ قال: البدع^(٣).
روى الأئمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهاوا»^(٤) وروى ابن ماجة وغيره عن العرياض بن سارية قال: وَعَظَنَا رسول الله ﷺ موعظة ذَرَفَتْ منها العيون، ووجلّت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، إن هذه لموعظة مودّع، فما تَعَهّد إلينا؟ فقال: «قَدْ تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك من يعش منكم فسيروا اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتي وستة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى عَصُوا عليها بالنواجذ وإياكم والأموال المحدثات فإن كل بدعة ضلالة وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشياً فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد»^(٥) أخرجه الترمذى بمعناه وصححه.

وروى أبو داود قال حدثنا ابن كثير قال أخبرنا سفيان قال: كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر، فكتب: أما بعد: فأني أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره واتباع سنة رسول الله ﷺ، وترك ما حدث المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكفوا مؤونته، فعليك بلزوم الجماعة فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرة فيها، فإن السنة إنما سنّها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل، والحقq والتعمق، فارض لنفسك ما رضى به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفا، وببصر نافذ كفوا، وإنهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى. فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم إنما حدث بعدهم فما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون، قد تكلموا فيه بما يكفى ووصفوا ما يشفى، فما دونهم من مقصر،

(١) ذكره السيوطى (٣/٣٨٥) ونسبه لعبد بن حميد، الشيخ.

(٢) القرطبي: (٤/٢٥٧٤، ٢٥٧٥، ٢٥٧٦).

(٣) [صحيح] أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/١٠٦) وزاد نسبة لابن

، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وأبى الشيخ.

وأنظر «فتح المجيد» (ح ٤٨) بتخريجنا.

(٤) أخرجه البخارى (٨٢٨٨)، ومسلم فى «الفضائل» (١٥/١٠٩، ١١٠- النووى) وأنظر «جامع العلوم

والحكم» (٩- بتخريجنا).

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/١٢٦)، والميو داود (٤٦٠٧)، والترمذى (٢٦٧٦)، وابن ماجة

(٤٣).

وما فوقهم من مجسر، وقد قصر قوم دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فَعَلُوا وإنهم مع ذلك لَعَلَى هُدَى مستقيم، وذكر الحديث.

وقال سهل بن عبد الله التُسْتَرِي: عليكم بالاعتداء بالآثر والسنة، فإنني أخاف أنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذُكر إنسانُ النبي ﷺ والاعتداء به في جميع أحواله ذَمُّوه ونفروا عنه وتبرءوا منه وأذلوه وأهانوه.

قال سهل: إنما ظهرت البدعة على يدي أهل السنة لأنهم ظاهروهم وقاولوهم، فظهرت أقاريلهم وفَسَّتْ في العامة فسمعه من لم يكن يسمعه، فلو تركوهم ولم يكلموهم لمت كل واحد منهم على ما في صدره ولم يظهر منه شيء وحمله معه إلى قبره.

وقال سهل: لا يُحدث أحدكم بدعةً حتى يحدث له إبليس عبادة فيتعبد بها ثم يُحدث له بدعة، فإذا نطق بالبدعة ودعا الناس إليها نزع منه تلك الخدمة.

قال سهل: لا أعلم حديثاً جاء في المستدعة أشدَّ من هذا الحديث: «حجب الله الجنة عن صاحب البدعة».

قال: فاليهودى والنصراني أرجى منهم.

قال سهل: من أراد أن يكرم دينه فلا يدخل على السلطان، ولا يخلون بالنسوان وليخاصمن أهل الأهواء.

وقال أيضاً: اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كُفِيتُم.

وفي مسند الدارمي: إن أبا موسى الأشعري جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنى رأيت في المسجد أنفاً شيئاً أنكرته ولم أر والحمد لله إلاخيراً قال: فما هو؟ قال: إن عشت فستراه، قال: رأيت في المسجد قومًا حلقًا حلقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصى فيقول لهم: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هَلُّوا مائة فيهللون مائة، ويقول: سَبِّحُوا مائة فيسبحون مائة، قال: فماذا قلتَ لهم؟ قال: ما قلتُ لهم شيئاً، انتظاراً رأيك وانتظاراً أمرى. قال: أفلا أمرتهم أن يَعُدُّوا سيئاتهم وضَمَّنَتْ لهم ألا يضيع من حسناتهم، ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلقة، فوقف عليهم فقال: ما هذا الذى تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصى نَعُدُّ به التكبير والتهليل، قال: فعُدُّوا سيئاتكم وأنا ضامن لكم ألا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد! ما أسرعَ هَلِكْتُمْ، أوْمُتْ حَتَّى باب ضلالة؟! قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير فقال: وكم من مرید للخير لن يصيبه.

وعن عمر بن عبد العزيز وسأله رجل عن شيء من أهل الأهواء والبدع، فقال: عليك بدين الأعراب والغلام في الكتاب، وأله عما سوى ذلك.

وقال الأوزاعي قال إبليس لأوليائه، من أي شيء تأتون بني آدم؟ فقالوا: من كل شيء. قال: فهل تأتونهم من قبل الاستغفار؟ قالوا: هيهات! ذلك شيء قُرِنَ بالتوحيد قال: لأبشَ فيهم شيئاً لا يستغفرون الله منه. قال: فبش فيهم الأهواء.

وقال مجاهد: ولا أدري أي النعمتين على أعظم: إن هداني للإسلام، أو عافاني من هذه الأهواء.

وقال الشعبي: إنما سُموا أصحاب الأهواء: لأنهم يهونون في النار، كله عن الدارمي.

وسئل سهل بن عبد الله عن الصلاة خلف المعتزلة والنكاح منهم وتزويجهم؟ فقال: لا، ولا كرامة! هم كفار، كيف يؤمن من يقول: القرآن مخلوق، ولا جنة مخلوقة ولانار مخلوقة ولا لله صراط ولا شفاعة ولا أحد من المؤمنين يدخل النار ولا يخرج من النار من مذنبى أمة محمد ﷺ، ولا عذاب القبر، ولا منكر ولا نكير، ولا رؤية لربنا في الآخرة، ولا زيادة، وأن علم الله مخلوق، ولا يرون السلطان ولا جمعة، ويكفرون من يؤمن بهذا.

وقال الفضيل بن عياض: من أحبَّ صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه.

وقد تقدم هذا من كلامه وزيادة.

وقال سفيان الثوري: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يتاب منها. والبدعة لا يتاب منها، وقال ابن عباس: النظر إلى الرجل من أهل السنة يدعو إلى السنة وينهى عن البدعة، عبادة.

وقال أبو العالية: عليكم بالأمر الأول الذى كانوا عليه قبل أن يفتروا قال عاصم الأخوك: فحدثت به الحسن فقال: قد نصحك والله وصدقك.

وقد مضى فى «آل عمران» معنى قوله عليه السلام: «ففرقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملة وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين» الحديث.

وقد قال بعض العلماء العارفين: هذه الفرقة التى زادت فى فرق أمة محمد ﷺ هم قوم يعادون العلماء ويغضون الفقهاء، ولم يكن ذلك قط فى الأمم السالفة.

وقد روى رافع بن خديج أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يكون فى أمتى قوم يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون كما كفرت اليهود والنصارى». قال فقلت: جعلت فداك يا رسول الله! كيف ذاك؟ قال: «يقرون ببعض ويكفرون ببعض» قال قلت:

جعلت فداك يا رسول الله! وكيف يقولون؟ قال: «يجعلون إبليس عدلاً في خلقه وقوته وورقه ويقولون الخير من الله والشر لإبليس» قال: فيكفرون بالله ثم يقرءون على ذلك كتاب الله، فيكفرون بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة؟ قال: «فما تلقى أمتي منهم من العداوة والبغضاء والجدال أولئك زنادقة هذه الأمة» وذكر الحديث.

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال القرطبي^(١): قال ابن شهاب: وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْياً﴾ الآية. فالهرب الهرب، والنجاء النجاء! والتمسك بالطريق المستقيم، والسنن القويم، الذى سلكه السلف الصالح، وفيه المتجر الرابع.

قال ابن كثير^(٢): وعن ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وفى قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ونحو هذا فى القرآن قال أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات فى دين الله^(٣).

ونحو هذا قاله مجاهد وغير واحد. اهـ.

قال الطبرى^(٤): ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾ يقول: ولا تسلكوا طريقاً سواه ولا تركبوا منهجاً غيره، ولا تبغوا ديناً خلافاً من اليهودية والنصرانية والمجوسية وعبادة الأوثان وغير ذلك من الملل فإنها بدع وضلالات ﴿فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يقول فيشتت بكم إن اتبعتم السبل المحدثه التى ليست لله بسبل ولا طرق ولا أديان، اتباعكم إياها (عن سبيله) يعنى عن طريقه ودينه الذى شرعه لكم وارتضاه وهو الإسلام الذى وصى به الأنبياء وأمر به الأمم قبلكم.

قال الرازى^(٥): هذه الآية تدل على أن كل ما كان حقاً فهو واحد، ولا يلزم منه أن يقال: إن كل ما كان واحد فهو حق، فإذا كان الحق واحداً كان كل ما سواه باطلاً،

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٥٧٤). (٢) تفسير ابن كثير (٢/١٨٢-١٨٣).

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره»، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/١١٠) ونسب لها.

(٤) تفسير الطبرى (٥/٨/٤٦٠).

(٥) التفسير الكبير (٧/١٤/٤).

وما سوى الحق أشياء كثيرة، فيجب الحكم بأن كل كثير باطل، ولكن لا يلزم أن يكون باطل كثيراً بعين ما قرناه في القضية الأولى.

قال ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾ إنما وُحِدَ سبيله؛ لأن الحق واحد ولهذا أجمع السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قال القرطبي^(٢): ومضى في «النساء» وهذا السورة النُّهى عن مجالسة أهل البدع، والأهواء، وأن من جالسهم حكمه حكمهم فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾^(٣) ثم بين في سورة «النساء» - وهى مدنية - عقوبة من فعل وخالف ما أمر الله به فقال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾^(٤) الآية، فألحق من جالسهم بهم.

وقد ذهب إلى هذا جماعة من أئمة هذه الأمة وحكم بموجب هذه الآيات فى مجالس أهل البدع على المعاشرة والمخالطة منهم: أحمد بن حنبل والأوزاعى وابن المبارك فإنهم قالوا فى رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا: يُنهى عن مجالستهم، فإن انتهى وإلا ألحق بهم، يعنون فى الحكم، وقد حمل عمر بن عبد العزيز الحد على مجالسة شربة الخمر، وتلا ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾، قيل لهم: «فإنه يقول إنى أجالسهم لأباينهم، وأردّ عليهم، قالوا: يُنهى عن مجالستهم، فإن لم ينته ألحق بهم.

ما جاء فى الآية من كلام شراح التوحيد

قال ابن عثيمين^(٥): وهنا قال: ﴿السَّبِيلَ﴾: جمع سبيل، وفى الطريق التى أضافها الله إلى نفسه قال: ﴿سَبِيلِهِ﴾ سبيل واحد، لأن سبيل الله - عز وجل - واحد، وأما ما عده، فسبل متعددة، ولهذا قال النبى ﷺ: «وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها فى النار، إلا واحدة»^(٦) فالسبيل المنجى واحد، والباقية متشعبة متفرقة، ولا يرد على هذا قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾^(٧) لأن «سُبُل»

(٢) تفسير القرطبي (٤/٢٥٧٨).

(١) تفسير ابن كثير (٢/١٨٤).

(٥) القول المفيد (١/٤٨، ٤٩).

(٤) النساء: (١٤).

(٣) الأنعام: (٦٨).

(٦) أخرجه أحمد (٢/٣٣٢)، أبو داود (٤٥٩٦)، وابن ماجه (٣٩٩١). وانظر تخريجه فى «فتح القدير»

- بتخريجنا -.

(٧) المائدة: (١٦).

فى الآفة الكرفمة؁ وإن كانت مجموعة؁ لكن أضففت إلى السلام فكانت منجفة؁ وفكون المراد بها شرائع الإسلام. اهـ.

قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

● ما جاء فى الآفة من كلام المفسرفن.

قال الطبرى^(١): ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ فقول تعالى ذكره هذا الذى وصاكم به ربكم من قوله لكم ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فقول لتتقوا الله فى أنفسكم فلا تهلكوها وتحذروا ربكم فىها فلا تسخطوه ففحل بكم نقمته وعذابه.

قال السعدى^(٢): ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإنكم إذا قمتم بما فبنه الله لكم؁ علمًا وعملاً صرتم من المتقفن؁ وعباد الله المفلحن.

قال صاحب «الظلال»^(٣): هذه القواعد الأساسية الواضحة التى تكاد تلخص العقفدة الإسلامية وشرفعتها الاجتماعية مبدوءة بتوففد الله ومختومة بعهد الله؁ وما سبقها من فدفث الحاكمة والتشرفع... هذه هى صراط الله المستفقم... صراطه الذى ففس وراءه إلا السبل المتفرقة عن السفل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

وهكذا ففخم القطاع الطوفل من السورة الذى ففأ بقوله تعالى: ﴿أَفَغَفَرَ اللَّهُ أَتَبَغْفَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾.

وانتهى هذه النهاية؁ بهذا الإفقاع العرفض العمفق...

وضم ففن المطلع والفخام قضية الحاكمة والتشرفع؁ كما تبدو فى مسألة الزروع والأنعام؁ والذبائف والنذور إلى كل الفضافا العقفدية الأساسية؁ لفدل على أنها من هذه القضافا؁ التى أفرد لها السفاق القرأنى كل هذه المساحة وربطها بكل محتوفات السورة السابقة التى تتحدث عن العقفدة فى مفطها الشامل؁ وتتاول قضية الألوهفة والعبودفة ذلك التناول الفرففد.

(١) ففسفر الطبرى ٥/٨/٦٤.

(٢) ففسفر الكرفم الرحمن ١/٨٧.

(٣) ٣/١٢٣٤.

إنه صراط واحد - صراط الله - وسبيل واحدة تؤدي إلى الله . . أن يفرد الناس الله - سبحانه - بالربوبية ويدينوا له وحده بالعبودية، وأن يعلموا أن الحاكمية لله وحده، وأن يدينوا لهذه الحاكمية في حياتهم الواقعية . .

هذا هو صراط الله وهذا هو سبيله . . وليس وراءه إلا السبيل التي تتفرق بمن يسلكونها عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون .

فالتقوى هي مناط الاعتقاد أو العمل، والتقوى هي التي تقيء بالقلوب إلى السبيل أ.هـ.

ولذلك ختم بها الآية.

● ما جاء في الآية من كلام شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين^(١): وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى: ذلك: أى المذكور وصَّاكم لتتألوا به درجة التقوى، والالتزام بما أمر الله به ورسوله ﷺ.

فصل في بيان كيفية الاستقامة على عبادة الله

والكفر بالطاغوت من خلال هذه الآيات

كان لابد للمصنف بعد أن بين معنى العبادة وقدرها وبين الطاغوت وحمية الكفر به مراعيًا ترتيب الآية الذي ساقه الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ كان لابد أن يبين كيفية الاستقامة على عبادة الله واجتناب عبادة غيره من الطواغيت فثنى بهذه الآيات لهذا الغرض والتي فيها بيان الاستقامة على عبادة الله التي هي أمره ونهيه واتباع شرعه، فكانت الآيات خير موضح لغرض المصنف - رحمه الله - .

فآيات الإسراء تبين بعد الوصية بعبادة الله وعدم الإشراك به عدة أوامر ونواهي مبدوءة بالإحسان والبر بالوالدين، وكذلك الحال في آيات سورة الأنعام بدأت بحرمه الشرك وبالإحسان بالوالدين وأوامر ونواهي تحمل في طياتها الاستقامة على منهج الله عز وجل الذي هو شرعه ومنهجه وحكمه والذي به لا نلجأ إلى عبادة الطواغيت واتباع شرائعهم وأحكامهم فنقع بذلك في عبادتهم.



بَيَانُ الْإِخْلَاقِ وَمَكَاتِهَا بِالنِّسْبَةِ لِلْحَقِيقَةِ.

وقد يمكن القول بأن الإمام «محمد بن عبد الوهاب» قصد إلى أشياء أخرى غير الذى ذكرت وهى بيان مقام الأخلاق ومكاتها فى هذا الدين، وأنها تلى فى المكانة والمرتبة مرتبة العقيدة، ولذلك بعد أن قضى وأمر ووصى، وحكم بعبادته أمر ببر الوالدين ذلك لأنه من أكرم الأخلاق وأرفعها، ذلك لأن صلاح الأبناء فى الغالب يرجع الفضل فيه بعد الله عز وجل إلى الوالدين لأنهما هما اللذان يوجهانه إلى هذه الاستقامة وإلى هذا الصلاح؛ فكان الجزاء لهما من جنس عملهما، فقال تعالى - مجازياً إياهم لأنهما جعلاً الله غاية الولد ومقصوده الأول فجزاهم من جنس عملهما بأن جعل شكرهما فى المقام الأول بعد شكره - فقال: ﴿أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ وهذا الذى قررناه وضحته سورة لقمان فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لِقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١) لذا ثنى الله عز وجل بعد ذلك بالوصية بالوالدين جزاءً من جنس عملهم فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾.

والأحاديث التى تربط بين عبادة الله وعدم الإشراك به وبر الوالدين وعدم عقوقهما كثيرة منها.

عن أبى بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أَنْبِتُكُمْ بِكَبِيرِ الْكِبَائِرِ؟» قلنا: بلى يا رسول الله قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت» (٢).

● ومن أهمية الأخلاق وعلاقتها بالعقيدة كما بينها القرآن فى غير هذا الموضع: أن الله حين ينسب خلقاً ما قبيحاً ينسبه إلى الكفار والمنافقين، ولا ينسبه إلى المسلمين أبداً كما فى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، ﴿هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بَنِيمٍ﴾، ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾.

(١) لقمان: ١٣.

(٢) تقدم تخريجه فى قوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾.

وقوله تعالى فى بيان صفة اللغو: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ فى حين أنه نفى هذه الصفة عن المؤمنين قال: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾.

معالجة الأخلاق الجاهلية بالحقيقة الصحيحة.

ومن الفوائد التى ينبغى الإشارة إليها أيضاً فى العلاقة بين العقيدة والأخلاق أن القرآن كان يعالج الأخلاق الجاهلية عند العرب بالاعتقاد كخلق قتل الأولاد فقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾.

السنة تربط بين الأخلاق والعقيدة أيضاً

وكما ربط القرآن بين مسألتى الأخلاق والعقيدة وجعلهما فى مكان واحد وأهمية واحدة كذلك ربطت السنة بين العقيدة والأخلاق فى غير حديث منها.

ما رواه البخارى، وغيره... «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه»^(١) وكذلك حديث «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(٢). وحديث أبى موسى رضى الله عنه قال: قالوا يا رسول الله: أى الإسلام أفضل؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٣)، وأيضاً حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أى الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتنفى السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(٤) وكذلك «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٤٧٥)، ومسلم فى الإيمان (١٨/٢) - النووى .

وأنظر «رياض الصالحين» (٣١٠) - بتخريجنا

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٠)، ومسلم فى الإيمان (١٠/٢) - النووى عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

وأنظر «رياض الصالحين» (٢١٣) - بتخريجنا

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١١)، ومسلم فى الإيمان (١٢/٢) - النووى

وأنظر «رياض الصالحين» (١٥١٥) - بتخريجنا

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٨، ١٢)، ومسلم فى الإيمان (٩/٢) - النووى

وأنظر «رياض الصالحين» (٥٥١) - بتخريجنا

خلقاً»^(١) وأيضاً «الحياء شعبة من الإيمان»^(٢) وأيضاً «حسن العهد من الإيمان»^(٣)، وأيضاً «الدين النصيحة»^(٤) و«أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»^(٥).

● هذا وقد وسم القرآن والسنة من تشبه وتخلق بالأخلاق القبيحة بالنفاق أو بالجاهلية أو بالكفر كقول الرسول ﷺ: «آية المنافق ثلاثة، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف؟ وإذا أؤتمن خان»^(٦) متفق عليه، وأيضاً، «ثلاثة من أمر الجاهلية» وفي رواية «في أمتي لا يدعهن الطعن في الأنساب، والنياحة والأنواء»^(٧) وقول الرسول ﷺ: «ما هو بمؤمن من بات شبعمان وجاره طأو إلى جانبه»^(٨) وأيضاً . «ليس منا من شق الجيوب»^(٩).. إلخ وقوله ﷺ: «ومن أتى حائضاً أو امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٧٢/٢)، والترمذي (١١٦٢) عن أبي هريرة وأنظر «رياض الصالحين» (٢٨٠ - بتخريجنا).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٩)، ومسلم في الإيمان (٣/٢ - النووي) عن أبي هريرة. وانظر «رياض الصالحين» (١٢٧ - بتخريجنا).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩/٢٢) عن عائشة رضي الله عنها. وانظر كتابنا «فقه الخطابة» خطبة «حسن العهد من الإيمان».

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (٣٦/٢ - النووي) عن تميم بن أوس الداري. وانظر «رياض الصالحين» (١٨٣ - بتخريجنا).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٦/٤) عن البراء بن عازب. وانظر «فقه الخطابة» (٣٩٨/١) الطبعة الأولى.

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم في الإيمان (٤٦/٢ - النووي) عن أبي هريرة. وانظر «رياض الصالحين» (٢٠١ - بتخريجنا).

(٧) [صحيح] أخرجه الترمذي (١٠٠١) عن أبي هريرة بلفظ «أربع في أمتي» وزاد: «والعدوى» وأخرجه مسلم في الإيمان (٥٧/٢ - النووي) بلفظ شعبتان من أمر الجاهلية بدون ذكر الأنواء.

(٨) بنحوه أخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٥٣٦، ٩٥٣٧) عن ابن عباس.

(٩) [صحيح] أخرجه البخاري (٤٨٠٩) عن ابن مسعود. وانظر «رياض الصالحين» (١٦٦١ - بتخريجنا).

على محمد ﷺ» (١).

● فهذه النصوص من السنة أيضاً توضح القاعدة التي أصلها العلماء بتلازم الظاهر بالباطن فإذا كان الظاهر طيباً نَمَّ عن باطن طيب والعكس بالعكس لذلك.

حرص الإسلام على الاهتمام بقضية الأخلاق لما فى ذلك من حماية جناب التوحيد وترغيب العامة فى دين الإسلام كما فعل الجيل الأول من الصحابة رضى الله عنهم حيث كانوا جميعاً قرآناً يمشون على الأرض، فلم يجعلوا القرآن نظريات ومبادئ وأسساً وقوانين تدرج فى المكتبات كحال أصحاب المناهج الأخرى الساقطة بل جعلوه سلوكاً عملياً، وهذا مؤدى كلام صاحب فى «ظلال التفسير» فى معنى العقيدة.

وبهذا الذى تقرر يتضح لك معنى قول الله تعالى ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ ومعناه طاعته فى أمره والانتهاء عما نهى عنه وزجر وبهذا ابتلى كل أحد من الناس ومن هنا نعرف تفسير قوله تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أى بالأوامر والنواهي.

كذلك تفسير الإمام الشافعى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ أى لا يؤمر ولا ينهى وبهذا يوفى من يوفى ويغدر من يغدر، ويخون من يخون.

ومن كلمة «أوفوا» نعرف معنى الأمانة التى حملناها ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

وقال أبو العالية: الأمانة: «ما أمروا به ونهوا عنه، فلا بد من الوفاء بالميثاق وكذلك الوفاء بأداء الأمانة التى ابتلانا الله بحملها».

● هذا وقد يستفاد أمر آخر غير ما تقدم من فوائد الثنية بآيات الإساءة والأنعام وهو تعلم الإيمان قبل القرآن كما ثبت ذلك عن عائشة وغيرها من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.



والنسائي فى «الكبرى» (١٧-٩٠) عن أبى هريرة.

وأُنظر «منار السبيل» (٢١٧٣) - بتخريجنا

(١) الأنعام (١٥١).

قال ابن مسعود: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾ (١) الآية (٢).

مناسبة الأثر للترجمة:

قال ابن عثيمين: مناسبة الحديث للترجمة: فضيلة التوحيد، وأنه مانع من عذاب الله أهـ.

قوله: قال ابن مسعود: «من أراد... إلخ».

قال ابن عثيمين (٣): اللام في قوله: «فليقرأ» للإرشاد.

وعبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن: صحابي جليل من السابقين الأولين وأهل بدر وبيعة الرضوان وأحد والخندق، ومن أفاضل الصحابة مكانة وعلمًا، مات سنة اثنتين وثلاثين. رضى الله عنه.

قوله: «وصية محمد: الوصية بمعنى العهد، ولا يكون العهد وصية إلا إذا كان في أمر هام.

قوله: محمد ﷺ:

أى رسول الله محمد ﷺ بن عبد الله الهاشمي القرشي ﷺ وهذا التعبير من ابن مسعود يدل على جواز مثله، مثل: قال محمد رسول الله ﷺ ووصية محمد ﷺ... ولا ينافي قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ (٤) لأن دعاء الرسول هنا أى مناداته، فلا تقولوا عند المنادة: يا محمد! ولكن قولوا: يا رسول الله أما الخبر؟ فهو أوسع من باب الطلب، ولهذا يجوز أن تقول: أنا تابع لمحمد ﷺ أو اللهم! صلى على محمد، وما أشبه ذلك.

(٢) [حسن] أخرجه الترمذى فى التفسير / باب: ومن سورة الأنعام (٥/٢٦٤/ح ٣٠٧٠) قال: حدثنا الفضل بن الصباح البغدادى، والطبرانى فى الكبير (١٠/١١٤/ح ١٠٠٦٠) قال: حدثنا جعفر بن أحمد بن سنان الواسطى ثنا أبو كريب، وابن أبى حاتم فى تفسيره (٥/١٤١٤/ح ٨٠٥٦) والبيهقى فى «الشعب» (٧٩١٨) من طريق الحسن بن عرفة العبدى.

جميعاً عن محمد بن فضيل عن داود الأودى عن عامر عن علقمة عن عبد الله بن مسعود وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/١٠٣) وزاد نسبه بن المنذر وأبى الشيخ وابن مردويه وأنظر «فتح المجيد» (ح ٤٩) بتخریجنا

(٤) النور / (٦٣).

(٣) القول المفيد ١/٤٩ و ٥١، ٥٠.

قوله: «التي عليها خاتمة»

الخاتم بمعنى التوقيع:

وقوله: «وصية محمد ﷺ»: ليست وصية مكتوبة مختومة عليها لأن النبي ﷺ لم يوص بشيء ويدل لذلك أن أبا جحيفة سأل على بن أبي طالب: هل عهد إليكم النبي ﷺ بشيء؟ فقال: لا . والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يؤتيه الله تعالى في القرآن، وما في هذه الصحيفة. . . قيل وما في هذه الصحيفة؟ قال: «العقل وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»^(١).

فلا يظن أن النبي ﷺ أوصى بهذه الآيات وصية خاصة مكتوبة، لكن ابن مسعود- رضى الله عنه- يرى أن هذه الآيات قد شملت الدين كله، فكأنها الوصية التي ختم عليها رسول الله ﷺ وأبقاها لأئمة.

وهي آيات عظيمة، إذا تدبرها الإنسان وعمل بها، حصلت له الأوصاف الثلاثة الكاملة: العقل، والتذكر، والتقوى.

وقوله: «فليقرأ قوله تعالى...» إلخ الآيات سبق الكلام عنه.

● قال الفقير: وبهذا أيضاً يتضح لك سبب إيراد الأثر الذي جاء عن ابن مسعود:

«من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِمْ...﴾» إلخ فشبه هذه الآيات بالوصية وهي آخر ما يؤثر عن الإنسان فلا تحتل النسخ ولا يرد عليها التأويلات فكان الرسول ﷺ يوصي أمته بالاستقامة على هذا المنهج منهج التحليل والتحريم وعدم اللجوء إلى غيره فهذا هو المنهج الذي لا عوج فيه.

وغیره معوج وهذا الأمر لا يدانيه أى أمر فى أهميته وهذا مفهوم من معنى الوصية من الموصى الذى يحرص على إيصال هذا الأمر لمن خلفه فيوصى به، ويفهم منه أيضاً أنه ينبغي للموصى له أن يموت عليه كما مات عليه الموصى وكان آخر ما يؤثر عنه، كما جاء عن يعقوب عليه السلام «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي» وكذلك قوله: «وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ

(١)[صحيح] أخرجه البخارى (١١١)

وعن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال: «كنت رديف النبي ﷺ على حمار ، فقال لى : «يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله لا أن يُعَذَّبَ من لا يشرك به شيئاً . قلت : يا رسول الله ! أفلا أبشر الناس ؟ قال : «لا تبشرهم فيتكلوا» أخرجاه فى «الصحيحين»^(١).

اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» فهذه وصية الأنبياء الحنفاء وهذا هو معنى الصراط المستقيم وأنه هو الإسلام كما يستفاد من كلام العلماء لا سيما ابن القيم حيث قال : هو إفراده بالعبادة وإفراده رسله بالطاعة ، أى : تجريد العبادة لله وتجرید الطاعة للرسول ﷺ وهذا مدلول شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله وهذا معنى عبادة الله والكفر بالطاغوت ، هذا والله الموفق ولا رب سواه .



وقوله: «وعن معاذ.. قال : كنت رديف النبي ﷺ على حمار..... الحديث»

● مناسبة الحديث لكتاب التوحيد:

قال الفقير: «وقد أورد المصنف رحمه الله هذا الحديث لمناسبة اسم الكتاب الذى عنوانه بكتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد» فناسب أن يذكر من النصوص ما يبين بياناً صريحاً واضحاً حق الله على العبيد فذكر الحديث .

الكلام على الحديث وفى طريقه فى الصحيحين ما يؤكد ما ذهب إليه المصنف من أن التوحيد هو حق الله على العبيد فعن أنس رضى الله عنه قال: «أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على حمار قال : ... الحديث ، وفيه «ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرم الله عليه النار»^(٢) وزاد البخارى «صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار»^(٣) فقد عبر ﷺ فى هذا الحديث المروى بالمعنى عن حق الله على العبيد بأنه

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى التوحيد / باب دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله - عز وجل - (١٣/٣٥٩) ومسلم فى الإيمان / باب : من مات على التوحيد (١/٢٣٢ - النووى) وأحمد فى «مسنده» (٥/٢٣٨) والنسائى فى «الكبرى» فى عمل اليوم والليلة / باب : ما يقول إذا ناداه (٦/٥٥٠ ح ١٠٠٤) وابن ماجه فى «الزهد» / باب : ما يرجى من رحمة الله تعالى (٢/١٤٣٥ ح ٤٢٩٦) وأبو نعيم فى «الحلية» (٨/١٢٢) .

من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه وانظر «رياض الصالحين» (ح ٤٢٧) بتخريجنا ، «وفتح المجيد» (ح ١٥٤) بتخريجنا .

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٢٨)، ومسلم فى الإيمان / باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (١/٢٥٤ ح ٥٣) عن أنس به .

وانظر «فتح المجيد - بتخريجنا»

(٣) أنظر ما قبله .

كلمة التوحيد والصدق في النطق بها.

وفي الحديث الآخر الذي يروى من غير طريق أنس ع^ر النبي ﷺ عن حق الله على العبيد بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ولعل الراوى في حديث أنس رواه بالمعنى وفي الثاني باللفظ بمعنى أنه من شهد أن لا إله إلا الله صدقاً من قلبه فقد عبد الله ولم يشرك به شيئاً والعكس أن من عبد الله ولم يشرك به شيئاً فقد أقر بلا إله إلا الله صدقاً من قلبه وبهذا يكون قد وفى بحق الله عليه، فحقه على الله - كما أوجبه على نفسه - أن لا يعذبه ويدخله الجنة إذا مات على ذلك وهذا ههنا موافقة للحميدى وغيره، حيث جعلوا هذا الحديث بهذا اللفظ والحديث الآخر بلفظ حق الله على العبيد حديثاً واحداً فعلى هذا فلا وهم على الحميدى حيث ذهب هذا المذهب، لا سيما وأن البخارى قد أورد الحديثين في باب واحد باب - من خص بالعلم قوماً دون قوم، فهذه إشارة منه إلى أنهما حديثان.

● هذا وقد ذهب ابن حجر إلى أنهما حديثان لأن الأول وهو حديث أنس متعلق بمن لقي الله لا يشرك به شيئاً، وحديث معاذ متعلق بحق الله على العبيد وهذا الجمع الذى قرئناه آنفاً يرد هذه الدعوى حيث لم نفرق بين حق الله على العبيد وبين من لقيه لا يشرك به شيئاً واعتبرهما الحافظ شيئاً والأول أولى والعلم عند الله.

(ذلك بأن) وجه الجمع بين أنه لا غضاضة من أن يكون ما يلقي العبد به ربه هو هو حق الله عليه، فهو إن لقي الله لا يشرك به شيئاً فقد أتى بحق الله عليه.

فالحديثان يجوز الجمع بينهما على هذا النحو فلا داعى لتوهم بعض الحفاظ كما وهما بن حجر الحميدى لا سيما أن الحديثين لمعاذ وأحدهما عن أنس عن معاذ، وأن الاثنين على الرحل وهو رديف للنبي ﷺ فالحديثان مخرجهما واحد.

قوله: «عن معاذ بن جبل»: هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى أبو عبد الرحمن صحابى مشهور من أعيان الصحابة، شهد بدرًا وما بعدها، وكان إليه المنتهى فى العلم بالأحكام والقرآن رضى الله عنه، وقال النبى ﷺ «معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء برتوة»^(١) أى بخطوة ومات معاذ سنة ثمان عشرة بالشام فى طاعون عمواس، وقد استخلفه النبى ﷺ على أهل مكة يوم الفتح يعلمهم دينهم وحديث الباب يبين فضيلة معاذ أيضاً.

(١) ابن كثير ٢ / ٥٩٠.

(٢) [حسن بغير هذا اللفظ] أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١ / ٢٩١ / ٤٠، ٤١)، وأبو نعيم فى «الجليه»

(٢٢٩ / ١) مرسلًا

وأخرجه أبو نعيم من وجه آخر عن عمر بإسناد منقطع .

وأنظر «فتح المجيد» (ح ٥٥) بتخريجنا

وذكر ابن كثير: (٢) من فضائل معاذ عن ابن مسعود قال: «إن معاذ كان أمة قانتا لك حنيفاً» فقال نوفل الأشجعي: فقلت في نفسي غلط أبو عبد الرحمن وقال: إنما قال الله ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ فقال تدرى ما الأمة وما القانت؟ قلت: الله أعلم. فقال الأمة الذي يعلم الناس الخير والقانت المطيع لله ورسوله وكذلك كان معاذ (١).

وقد رواه ابن جرير من غير وجه عن ابن مسعود. ا.هـ.

وفى رواية أخرى قال: ما نسيت أنا كنا نشبهه بإبراهيم عليه السلام (٢). وأيضاً فى فضائل ومناقب معاذ، قوله ﷺ: «أعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ بن جبل» (٣). وقوله: س «يا معاذ والله إنى أحبك لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» (٤).

قوله: «كنت رديف النبي ﷺ»

وفى رواية «كنت ردف النبي ﷺ» «الردف والرديف: الراكب خلف الراكب بإذنه، وردف كل شيء: مؤخره وردفت الرجل: إذا ركب وراءه. وأردفته: إذا ركبت وراءه.

وفى رواية - بينا أنا رديف النبي ﷺ هذا وقد أفرد ابن منبه أسماء من أردفهم النبي ﷺ خلفه فبلغوا ثلاثين نفساً.

قال الفقير: فقد وقع بعض أسماءهم فى الصحيحين كإردافه الفضل بن العباس (٥)،

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الإصابة: أخرجه محمد بن عثمان بن أبى شيبة فى تاريخه من مرسل أبى عون الشافى وأورده ابن عساكر فى تاريخ دمشق من طرق عن محمد بن الخطاب. وسيأتى فى أول الباب الثانى.

(٢) قاله ابن التيمى فى التحرير نقلاً عن ابن حجر «فى الفتح» ٣٤٧/١١.

(٣) [ضعيف موصول] أخرجه أحمد (٢٨١/٣)، والترمذى (٣٧٩١)، وابن ماجه (١٥٤) عن أنس به. قال الحافظ: وأعل بالإرسال.

وأنظر الكلام عليه فى «بلوغ المرام» بتخريجنا.

وأنظر كتابنا «قفوا الأثر فى شرح بلوغ المرام بكلام ابن حجر» (١١٦٣/٣).

(٤) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائى فى «الكبرى» (١٩٣٧)

وأنظر «الأذكار للنووى» (١٧٤) بتخريجنا)

(٥) أخرجه البخارى (١٥١٣)، ومسلم فى الحج (٩٨/٩ - النووى).

نار السيل (١٠٧٦ - بتخريجنا).

(٦) أخرجه مسلم فى النكاح (٨٨/٢٣٨/٥) عن أنس به.

وهو فى البخارى (٥٩٦٨) بدون أنيصرح باسم المرأة.

وهذا من رواية ابن عباس نفسه، وإردافه صفية وهو قادم من خير^(١)، وإردافه ابن عباس، وأردف أسامة^(٢) وراءه وهو فى الصحيح أيضاً «باب الإرداف على الدابة» هذا وقد أردف أبا ذر الغفارى وأيضاً ما أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع قال: لقد قُدت بنبى الله ﷺ والحسن والحسين بغلته الشهباء حتى أدخلتهم حجرة النبى ﷺ هذا قدماه، وهذا خلفه^(٣) وإردافه قثم بن عباس^(٤) وكان العباس ينشد لابنه قُثم :

قُثم قُثم شبيه بذى الأنف الأشم نبى ذى النعم برغم من زعم
وفيه جواز الإنشاد للأطفال وقد مات قُثم وهو صغير (*).

● وفى رواية «ليس بينى وبينهم إلا آخرة الرحل» فبين صفة الإرداف والرحل كالسرج للفرس، وآخرة الرحل، هى العود الذى يجعل خلف الراكب يستند إليه .
وفائدة ذكره المبالغة فى شدة قربه ليكون أوقع فى نفس سامعه أنه ضبط ما رواه، وفى رواية مسلم بلفظ - مؤخرة الرحل - .

ويمكن الجمع بأن المراد بآخرة الرحل موضع آخرة الرحل .
وإلى ذلك أشار السنوى، ولكن يعكر على هذا حديث أنس بلفظ «أن النبى ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل^(٥) فكان معاذ والرسول ﷺ كلاهما على الرحل .
ولكن قد يجمع جمعاً آخر بأن المراد بآخرة الرحل أو مؤخرته مقدار المسافة التى تفصل بين النبى ومعاذ وليس المراد ظاهر الخبر بأن مؤخرة الرحل كانت بينهما بالفعل .
وفيه: فضل معاذ وجواز الإرداف وتواضع النبى ﷺ وفيه: جواز الإرداف على الدراجات العادية والبخارية أو غيرها فلا حرج إذا ما كان بين الراكبين مثل مؤخرة الرحل .

رغم أن هذه المسافة لا تمنع من مس الفخذ بالفخذ لهذا قال أهل العلم لا حرج فى هذه الحالة لأن بينك وبينه حائل وهو اللباس والزى لذلك ذكره البخارى فى كتاب

(١) أخرجه البخارى (٥٩٦٤) عن سلمة بن زيد به .

(٢) أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة (٨٢٠٧ / ٦٠) .

(٣) ذكره ابن الأثير فى «أسد الغابة» (٣٩٢ / ٤)، وكذا ذكره الحافظ فى الأصابة. (٢١٩ / ٣) ونسبه

للبخارى فى التاريخ الكبير

(*) انظر فى ذلك كتابى «تربية البنات فى الإسلام» .

(٤) تقدم تخريجه فى أول شرح الحديث . (٥) (٤٠٩ / ١٠ - الفتح)

اللباس فى باب الإراداف على الدابة^(٥) لأنه لولا اللباس ما جاز الإراداف لهذا قال بعض أهل العلم بجواز الإراداف على هذه الصفة.

قوله: على حمار:

جاء التصريح باسمه عند البخارى فقال: «على حمار يقال له عفير»^(١) فى باب - اسم الفرس والحمار»^(٢).

قال ابن عثيمين^(٣): (على حمار) أى أهلى، لأن الوحشى لا يُركب. أهـ.

قال ابن حجر: أى مشروعية تسميتها وكذا غيرها من الدواب بأسماء تخصها غير أسماء أجناسها بشرط ألا تسمى بأسماء أعلام الصحابة والمسلمين مثل إطلاق اسم (سعد) على الخروف وأسماء أمهات المؤمنين على (القردة) كميونة وقد جاءت لعفير هذا تراجم بينها ابن حجر فى «الفتح» فليرجع إليها لمن شاء.

قوله: (يا معاذ): زاد البخارى: «يا معاذ بن جبل» وزاد أيضاً لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ومعناه: لباً لك وإسعاداً لك ولكنهما تن على معنى التأكيد والتكثير.

أى: إجابة بعد إجابة وإسعاداً بعد إسعاد.

وفيه: تكرار العلم لتأكيدهِ وتفهمه، وعرضه على طريقة السؤال والجواب؛ ليكون ذلك أدعى فى التثبيت والتمكين وفيه: تنويه بشرف هذه القضية؛ لأنه لم يقلها ابتداء وخص بها قوم دون قوم.

قوله: «أندرى ما حق الله على العباد» فى رواية: «هل تدري ما حق الله على العباد» وفى رواية «هل تدري حق الله على عباده».

والحق كل موجوداً متحقق وجوده أو ما سيوجد لا محالة ويقال للكلام الصدق حق لأن وقوعه متحقق لا تردد فيه، وكذا الحق المستحق على الغير إذا كان لا تردد فيه. والمراد هنا: من حق الله على عباده ما يستحقه الله على عباده مما جعله محتملاً^(٤)

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٨٥٦)

(٢) (٦٩/٦ - الفتح)

(٣) القول المفيد (٥١/١)

(٤) تيسير العزيز الحميد (٤٦) وفتح المجيد (٤٠/١).

عليهم كما قال صاحب «المعارج» ، أول واجب على العبيد معرفة الرحمن بالتوحيد، فالجنة حق والنار حق يعنى أنها موجودة حقاً وما ليس بوجود لكن سيوجد لا محالة: كالساعة والحشر والحساب ولذلك قال النبي ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وأن الجنة حق والنار حق..» (١).

قوله: «قلت الله ورسوله أعلم».

قال سليمان آل الشيخ: فيه حسن أدب المتعلم وأنه ينبغي لمن سُئل عما لا يعلم أن يقول ذلك بخلاف أكثر المتكلمين أهـ (٢).

فيها حسن أدب في القول والعلم برد ما لم يحط بحقيقته إلى علم الله ورسوله وفيه فوائد ستأتى فى المسألة التاسعة عشر فى هذا الباب.

قوله: قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً».

قد تقدم أن المراد بالعبادة: عمل الطاعات واجتناب المعاصى وعطف عليها عدم الشرك لأنه تمام التوحيد، والحكمة فى عطفه على العبادة أن بعض الكفرة كانوا يدعون أنهم يعبدون الله، ولكنهم كانوا يعبدون آلهة أخرى فاشتراط نفى ذلك «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ».

وتقدم أن الجملة حالية والتقدير يعبدونه فى حال عدم الإشراك به.

قال ابن حبان: عبادة الله إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح، ولهذا قال فى الجواب فما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك «فعبّر بالفعل ولم يعبر بالقول وفيه رد على المرجئة الذين قالوا أن الإيمان قول بلا عمل. أما أهل السنة قصدوا بالإيمان الإسلام الحقيقى المدخل الجنة والمنجى من النار ولم يقصدوا الإسلام الحكيمى يعنى القدر الذى نحكم به على الشخص أنه مسلم أى الإسلام بالنظر لما عندنا.

قوله: «وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً».

قال ابن تيمية: كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل ليس هو استحقاق مقابلة كما يستحق على المخلوق، فمن الناس من يقول : لا معنى للاستحقاق زائداً على هذا كما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: «وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» ولكن أهل السنة يقولون: هو الذى «كتب على نفسه الرحمة» وأوجب هذا الحق على نفسه لم يوجب عليه مخلوق، والمعتزلة: يدعون أنه واجب عليه بالقياس على

(١) الفتح ١/ ٢٧٤.

(٢) سيأتى تخريجه

الخلق، وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب، وغلطوا في ذلك، وهذا الباب غلطت فيه القدرة والجبرية أتباع جهم والقدرية النافية.

وقال ابن حجر: اقتصر على نفى الإشراك، لأنه يستدعى التوحيد بالاقتضاء، ويستدعى إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذب رسول الله ﷺ فقد كذب الله، ومن كذب الله فهو مشرك، وهو مثل قول القائل: من توضأ صحت صلاته، أى مع سائر الشروط اهـ.

قوله: «قلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس»: وفي رواية «قال يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا».

وفيه: استحباب بشارة المسلم بما يسره ثبت عن أبي بكر في قصة الثلاثة الذين خُلِفوا كان أول من بشر كعب هو أبو بكر.

وفيه: ما كان عليه الصحابة من قبل هذا.

وفيه: جواز كتمان العلم عن بعض الناس كراهية ألا يفهموا وتخصيص بعض الناس بالعلم دون بعضهم.

وفيه: استئذان طالب العلم في أن يشيع ما يعلم به وحده وما اختص بعلمه.

وفيه: أدب معاذ رضى الله عنه في هذا الاستئذان. اهـ

قال ابن عثيمين (١): والبشارة هي الإخبار بما يسر، وقد تستعمل في الإخبار بما

يضر، ومنه قوله تعالى «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» لكن الأكثر الأول. اهـ

قوله: «لا تبشرهم فيتكلموا» في رواية: قال: «لا إني أخاف أن يتكلموا».

وفي رواية بلفظ: «إذا يتكلموا»

قال ابن رجب في شرحه «لأوائل البخارى»: قال العلماء، يؤخذ من منع معاذ من تبشير الناس ألا يتكلموا أن أحاديث الرخص لا تشاع في عموم الناس لئلا يقصر فهمها عن المراد بها، وقد سمعها معاذ فلم يزد إلا اجتهد في العمل وخشية الله عز وجل فأما من لم يبلغ منزلته فلا يأمن أن يقصر اتكالا على ظاهر هذا الخبر.

ورجح ابن حجر بأن هذا النهي ليس للتحريم بل هو للمصلحة بما ثبت، عند مسلم

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ أمره أن يبشر كل ما وجده خلف هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله بالجنة فلقية عمر فدفعه وقال ارجع يا أبا هريرة

(١) القول المفيد (١/ ٥٤)

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١/ ٢٥٣/ ٥٢)

ودخل على أثره فقال يا رسول الله لا تفعل فإنى أخشى أن يتكل الناس فخلهم يعملون فقال (فخلهم) (١) فكان قول النبي ﷺ لمعاذ «أخاف أن يتكلوا» كان بعد قصة أبى هريرة.

قال الفقير: بل الراجح أن النبي ﷺ قال ذلك لمعاذ بعد أن أذن له فى التبشير لحرصه ﷺ فى إيصال الخير لأمته والمسارة فيما يدخل السرور عليهم ثم كان ما كان من عمر فرجع النبي ﷺ لقوله.

وذلك لما رواه البزار - بإسناد حسنه ابن حجر فى الفتح (٢) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى هذه القصة أن النبي ﷺ أذن لمعاذ فى التبشير، فلقيه عمر فقال: لا تعجل ثم دخل فقال: يا نبي الله أنت أفضل رأياً؟ إن الناس إذا سمعوا ذلك اتكلوا عليها، قال فرده: وهذا معدود من موافقات عمر للوحى .

وفيه: جواز الاجتهاد بحضرته ﷺ.

قال ابن عثيمين (٣): معنى الحديث أن الله لا يعذب من لا يشرك به شيئاً وأن المعاصى تكون مغفورة بتحقيق التوحيد، ونهى ﷺ عن إخبارهم لئلا يعتمدوا على هذه البشرى دون تحقيق مقتضاها لأن تحقيق التوحيد يستلزم اجتناب المعاصى، لأن المعاصى صادرة عن الهوى، وهذا نوع من الشرك قال الله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أهـ قوله: «أخبر به معاذ عند موته تأثماً» وهذا ما يؤكد ما ذهب إليه الحافظ من أن النهى ليس للتحريم ولو كان للتحريم ما أخبر به معاذ ولكن معاذ رأى أن الأفضل هو نشر العلم، وكتمان العلم فرع وليس بأصل وإن كتم فلا يكون إلا لمصلحة وهذه المصلحة انتفت فلا يجوز له أن يكتم هذا العلم.

ومعنى قوله: «وأخبر به معاذ عند موته تأثماً» أى تخرجاً من الوقوع فى إثم وإثماً خشى معاذ من الإثم المترتب على كتمان العلم وهذا ما رجح به ابن حجر أن هذا النهى ليس للحرمة.

قوله: «أخرجاه» أى البخارى ومسلم.

فائدة

* روى البخارى هذا الحديث فى (باب من أجاب بلبيك وسعديك) وفى لفظه عن أنس «عن معاذ قال: بينا أنا رديف النبي ﷺ فقال: يا معاذ؟ قلت لبك وسعديك - ثم قال مثله ثلاثاً - هل تدري ما حق الله على العباد؟ قلت: لا قال: حق الله على العباد أن

(٢) القول المقيد (١/ ٥٥)

(١) الفتح / ٢٧١

(٣) تقد تخريجه فى أول شرح الحديث .

يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، ثم سار ساعة فقال يا معاذ، قلت: لبيك وسعديك قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم»^(٣) وهذا الحديث يبين أدباً آخر وفضيلة أخرى لمعاذ حيث أجاب بلا عما لا يُشك في أنه يعلمه وهو حق الله على العبد حيث لا يتصور أن مثل معاذ يجهل حق الله على العبد وأجاب بهذا الجواب امتثالاً لقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وقد ثبت من غير معاذ من الصحابة رضى الله عنهم عن مثل هذا الجواب في أمور مقطوع بعلمها كما سألهم ﷺ أى شهر هذا؟ أى بلد هذه»^(١) فكانوا يسكتون خشية أن يسميه الرسول ﷺ بغير اسمه فيكونوا قد افتاتوا عليه وقدموا بين يديه وكانوا يقولون الله ورسوله أعلم هذا وبالله التوفيق وله الحمد والمنة.

وفى الحديث من القوائد غير ما تقدم.

- ١- جواز الإرداف على الدابة.
- ٢- جواز مس العورات مع وجود حائل (كاللباس).
- ٣- مشروعية لبس اللباس.
- ٤- تواضعه ﷺ.
- ٥- فضيلة معاذ رضى الله عنه.
- ٦- جواز تسمية الدابة.
- ٧- جواز قول الشخص لبيك يا فلان بعكس ما قد يفهم البعض أنها لا تقال إلا لله فى الحج « فى قول معاذ لبيك رسول الله ».
- ٨- قوله ﷺ «حق» الله و«حق» العباد تفيد اليقين وعدم الشك فى هذا الأمر.
- ٩- فى كلام النبى ﷺ لمعاذ بصيغة السؤال: فهذا أوقع فى النفس وأدعى إلى الانتباه.
- ١٠- سؤاله ﷺ لمعاذ عن مسألة يعلمها وهى حق الله على العباد تفيد التنبيه لأهمية المسألة.
- ١١- مسألة حق العباد على الله لا يعرفها أكثر الصحابة.
- ١٢- معرفة حق الله على العباد وهو حق فرض ووجوب.
- ١٣- معرفة حق العباد وهو حق منة وفضل.
- ١٤- تقديم السؤال (بحق الله على العباد) على (حق العباد على الله) دليل على توقف الحق الثانى على أداء الحق الأول.

(١) متفق عليه أخرجه البخارى (٦٧)، ومسلم فى القسامة (١١/١٦٧) عن أبى بكره به.

وأنظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٨٥٩)

- في قول معاذ (الله ورسوله أعلم) فوائد ثلاثة .
- ١٥- تأدب معاذ وعمله بقول الله ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ .
- ١٦- طلب الاستزادة بالعلم .
- ١٧- جواز قول الله ورسوله أعلم لمن كان في عهد النبي أما بعد وفاته فالقول هو الله أعلم . (وفيه تفصيل سيأتى فى المسألة التاسعة عشر) .
- ١٨- معرفة أن حمد الله يستلزم أمران :
أ- عبادة الله .
ب- عدم الإشراك به وهذا معنى لا إله إلا الله .
- ١٩- أن السبيل للنجاة من النار وعذاب الله هو عبادته وعدم الإشراك به .
- ٢٠- استئذان معاذ النبي ﷺ تبشیر الناس يفيد التأدب . مع المعلم واستئذانه قبل تبليغ شيء خاصنا بمعرفته دون غيرنا .
- ٢١- قول معاذ «أفلا أبشر الناس» ولم يقل: «أفلا أخبر الناس» أو «أفلا أقول للناس» دليل على أن العلم بهاتان المسألتان فيهما من البشـرى للناس وهذه البشـرى فى شيئين :
أ- أن عبادة الله وعدم الإشراك به فقط هما المطلوبان من الناس لتحقيق التوحيد وحق الله .
ب- أن من أتى بهما وحدهما أدخله الله الجنة ونجاه من عذاب النار .
- ٢٢- استحباب بشارة المسلم بما يسره .
- ٢٣- جواز كتمان العلم للمصلحة .
- ٢٤- جواز تخصيص العلم لبعض الناس دون البعض وقد أتى هذا التخصيص فى موضعين :
أ- تخصيص النبي ﷺ لمعاذ .
ب- تخصيص معاذ لبعض الناس دون البعض قبل موته «تأثماً» .
- «فقد خص بها الأكياس من الناس دون الجهال الذين قد يحملهم جهلهم على سوء الأدب بترك الخدمة فى الطاعة» من كلام الوزير بن المظفر .
- ٢٥- الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله .
- ٢٦- عظم شأن هذه المسألة .
- ٢٧- عدم عرض الرخص على عامة الناس قاله ابن رجب كما تقدم .
- ٢٨- الأصل عدم جواز كتمان العلم بدليل أن معاذ أخير بالمسألة قبل موته تأثماً .
- ٢٩- رواية «ليس بينه وبينه إلا مؤخرة الرحل» تفيد عدم جواز التصاق الرجل بالرجل ولا المرأة بالمرأة فى وسائل المواصلات ومن باب أولى الرجل بالمرأة .

قوله: « وفيه مسائل »

الأولى: الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.
الثانية: أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ، لِأَنَّ الْخُصُومَةَ فِيهِ.

قال ابن عثيمين: ومعنى الحديث: أن الله لا يعذب من لا يُشركُ به شيئاً، وأن المعاصي تكون مغفورة بتحقيق التوحيد، ونهى ﷺ عن إخبارهم، لئلاً يعتمدوا على هذه البشرى دون تحقيق مقتضاها، لأنَّ تحقيق التوحيد يستلزم اجتناب المعاصي، لأنَّ المعاصي صادرة عن الهوى، وهذا نوع من الشرك، قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ (١).

المسائل:

● الأولى: الحكمة من خلق الجن والإنس.

أخذها رحمه الله من قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٢) فالحكمة هي عبادة الله لا أن يتمتعوا بالآكل والشارب والمناكح.

● الثانية: أَنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ التَّوْحِيدُ.

أى: أَنَّ الْعِبَادَةَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّوْحِيدِ، فكل عبادة لا توحيد فيها ليست بعبادة، لا سيما أن بعض السلف فسروا قوله تعالى: ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾: إلا ليوحدون.

وهذا مطابق تماماً لما استنبطه المؤلف رحمه الله من أن العبادة هي التوحيد، فكل عبادة لا تبني على التوحيد فهي باطلة، قال ﷺ: « قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيره، تركته وشركه. » (*)

وقوله: «لأن الخصومة فيه».

أى: في التوحيد بين الرسول ﷺ وقريش، فقريش يعبدون الله يطوفون له ويصلون، ولكن على غير الإخلاص والوجه الشرعي، فهي كالعدم لعدم الإتيان بالتوحيد، قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ (٣).

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) التوبة: ٥٤.

(*) سيأتي تخريجه

الثالثة: أَنَّ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ، لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ، فَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (١).

الرابعة: الْحُكْمَةُ فِي إِرْسَالِ الرُّسُلِ.

الخامسة: أَنَّ الرِّسَالََةَ عَمَّتْ كُلَّ أُمَّةٍ.

السادسة: أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ.

● وقوله في الثالثة: ففيه معنى قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

لستم عابدين عبادتي، لأنَّ عبادتكم مبنية على الشرك، فليست بعبادة الله تعالى.

● الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل.

أخذها رحمه الله تعالى من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (٢).

فالحكمة هي: الدعوة إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت.

● الخامسة: أَنَّ الرِّسَالََةَ عَمَّتْ كُلَّ أُمَّةٍ.

أخذها من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ (٣).

● السادسة: أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ.

أخذها من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَّاغُوتَ﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٤).

وهذا لا ينافي قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (٥) لأن الشريعة العملية

تختلف باختلاف الأمم والأماكن والأزمنة، وأما أصل الدين، فواحد، قال تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (٦).

(١) الكافرون: ٣. (٢) النحل: ٣٦.

(٣) النحل: ٣٦. (٤) الأنبياء: ٢٥.

(٥) المائدة: ٤٨. (٦) الشورى: ١٣.

السابعة: الْمَسْأَلَةُ الْكَبِيرَةُ أَنْ عِبَادَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْكَفْرِ بِالطَّاغُوتِ،
فَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾^(١). الْآيَةُ.
الثامنة: أَنَّ الطَّاغُوتَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا عُبدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

● السابعة: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت.

ودليله قوله تعالى: ﴿وَأَجْتَبِوا الطَّاغُوتَ﴾، فمن عبد الله ولم يكفر بالطاغوت، فليس بموحد، ولهذا جعل المؤلف رحمه الله هذه المسألة كبيرة، لأن كثيراً من المسلمين جهلها في زمانه وفي زماننا الآن.

● تنبيه:

لا يجوز إطلاق الشرك أو الكفر أو اللعن على من فعل شيئاً من ذلك، لأن الحكم بذلك في هذه وغيرها له أسباب وله موانع، فلا نقول لمن أكل الربأ: ملعون، لأنه قد يوجد مانع يمنع من حلول اللعنة عليه، كالجهل مثلاً، أو الشبهة، وما أشبه ذلك، وكذا الشرك لا نطلقه على من فعل شركاً، فقد تكون الحجة ما قامت عليه بسبب تفريط علمائهم، وكذا نقول: من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه، ولكن لا نحكم بهذا لشخص معين.

إذ إن الحكم المعلق على الأوصاف لا ينطبق على الأشخاص إلا بتحقيق شروط انطباقه وانتفاء موانعه.

فإذا رأينا شخصاً يبرز في الطريق، فهل نقول له: لعنك الله؟

الجواب: لا، إلا إذا أريد باللعن في قوله: «اتقوا الملاعن»^(٢) أن الناس أنفسهم يلعنون هذا الشخص ويكرهونه، ويرونه مخلأً بالأدب مؤذياً للمسلمين، فهذا شيء آخر. فدعاء القبر شرك، لكن لا يمكن أن نقول لشخص معين فعله: هذا مشرك، حتى نعرف قيام الحجة عليه، أو نقول: هذا مشرك باعتبار ظاهر حاله.

● الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله.

فكل ما عبد من دون الله، فهو طاغوت، وقد عرفه ابن القيم: بأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

فالمعبود كالصنم، والمتبوع كالعالم، والمطاع كالأمير.

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) [حسن] أخرجه أبو داود (٢٦)، وابن ماجه (٣٢٨) عن معاذ بن جبل به.

وأنظر «منار السبيل» (٧٢) بتخريجنا

التاسعة: عَظُمُ شَأْنُ الثَّلَاثِ آيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ السَّلَفِ، وَفِيهَا عَشْرُ مَسَائِلَ، أُولَاهَا النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ.

العاشرة: الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، وَفِيهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مَسْأَلَةً، بِدَآئِهَا اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ (١). وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (٢). وَنَبَّهَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ (٣).

● التاسعة: عَظُمُ شَأْنُ الثَّلَاثِ آيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ.

المحكمات، أى: التى ليس فيها نسخ، أخذ ذلك من قول ابن مسعود رضى الله عنه.

● العاشرة: الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ .

وهى قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (٤) وفيها ثمانى عشرة مسألة
بداها بقوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ وختمها بقوله
تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ .

وقد نبهنا الله - سبحانه - على عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ بِقَوْلِهِ تعالى : ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى
إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ .

فبدأها الله بالنهي عن الشرك بقوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا
مَّخْذُولًا﴾ والقاعدُ ليس قائمًا، لأنه لا خيرَ لمن أشرك بالله (مذمومًا) عند الله وعند
أوليائه، (مخذولًا) لا ينتصر فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وختمها بقوله : ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ فهذه
عقوبته عندما يُلْقَى فى النَّارِ كُلُّ يُلُومِهِ وَيَدْحَرُهُ فَيَنْدَحِرُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ .

(٢) الإسراء: ٣٩ .

(١) الإسراء: ٢٢ .

(٤) الإسراء: ٢٣ .

(٣) الإسراء: ٣٩ .

الحادية عشرة: آية سُورَةِ النَّسَاءِ الَّتِي تُسَمَّى آيَةَ الْحُقُوقِ الْعَشْرَةِ، بِدَآهَا
اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (١).

الثانية عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ عِنْدَ مَوْتِهِ.

الثالثة عشرة: مَعْرِفَةُ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْنَا.

الرابعة عشرة: مَعْرِفَةُ حَقِّ الْعِبَادِ عَلَيْهِ إِذَا أَدَّوْا حَقَّهُ.

الخامسة عشرة: أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ لَا يَعْرِفُهَا أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ.

● الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة بدآها بقوله تعالى:
﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

فأحقَّ الحقوق حقَّ الله، ولا تنفع الحقوق إلا به، فبُدِثَتْ هذه الحقوق به، ولهذا لما
سأل النبي ﷺ حكيمُ بنُ حزامَ عَمَّنْ كان يتصدق ويعتق ويصل رحمه في الجاهلية هل له
من أجر؟ فقال النبي ﷺ: «أُسْلِمْتَ عَلَى مَا أُسْلِفْتَ مِنَ الْخَيْرِ» (٢) فدلَّ على أَنَّهُ إِذَا لم
يسلم لم يكن له أجر، فصارت الحقوق كُلُّهَا لا تنفع إلا بتحقيق حق الله.

● الثانية عشرة: التنبية على وصية رسول الله ﷺ عند موته.

وذلك من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ولكنَّ النبي ﷺ لم يوصِ بِهَا حَقِيقَةً،
بل أشار إلى أننا إِذَا تَمَسَّكْنَا بِكِتَابِ اللَّهِ، فَلَمَّا نَضَلَّ بَعْدَهُ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا جَاءَ بِهِ كِتَابُ
اللَّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ (٣).

● الثالثة عشرة: مَعْرِفَةُ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْنَا.

وذلك بأن نعبده ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا.

● الرابعة عشرة: مَعْرِفَةُ حَقِّ الْعِبَادِ عَلَيْهِ إِذَا أَدَّوْا حَقَّهُ.

وذلك بأن لا يُعَذَّبَ مَنْ لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، أَمَّا مَنْ أَشْرَكَ، فَلِأَنَّهُ حَقِيقٌ أَنْ يُعَذَّبَ.

● الخامسة عشرة: أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ لَا يَعْرِفُهَا أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ.

(١) النساء: ٣٦

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٩٩٢) ومسلم فى الإيمان (١/١٧١/١٩٤)

(٣) الأنعام: ١٥١.

- السادسة عشرة: جَوَازُ كِتْمَانِ الْعِلْمِ لِلْمَصْلَحَةِ.
- السابعة عشرة: اسْتِحْبَابُ بَشَارَةِ الْمُسْلِمِ بِمَا يَسْرُهُ.
- الثامنة عشرة: الْخَوْفُ مِنَ الْاِتِّكَالِ عَلَى سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ.

وذلك أن معاذًا أخبر بها تأثمًا، أى خروجًا من إثم الكتمان عند موته بعد أن مات كثيرٌ من الصحابة (١).

● السادسة عشرة: جَوَازُ كِتْمَانِ الْعِلْمِ لِلْمَصْلَحَةِ.

هذه ليست على إطلاقها، إذ إن كتمان العلم على سبيل الإطلاق لا يجوزُ لأنه ليس بمصلحة، ولهذا أخبر النبي ﷺ معاذًا ولم يكتُم ذلك مطلقًا، وأما كتمان العلم في بعض الأحوال، أو أن بعض الأشخاص لا على سبيل الإطلاق، فجائزٌ للمصلحة، كما كتُم النبي ﷺ ذلك عن بقية الصحابة خشية أن يتكلموا عليه، وقال لمعاذ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَكَلَّمُوا».

ونظير هذا الحديث قوله ﷺ لأبى هريرة: «بَشِّرِ النَّاسَ أَنْ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالصًا مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ» (٢).

بل قد تقتضى المصلحة ترك العمل، وإن كان فيه مصلحة لرجحان مصلحة الترك، كما همَّ النبي ﷺ أن يهدم الكعبة وبينها على قواعد إبراهيم، ولكن ترك ذلك خشية افتتان الناس، لأنهم حديثوا عهد بكفر (٣).

● السابعة عشرة: اسْتِحْبَابُ بَشَارَةِ الْمُسْلِمِ بِمَا يَسْرُهُ.

لقوله: «أَفَلَا أَبَشِّرُ النَّاسَ؟» وهذه من أحسن الفوائد.

● الثامنة عشرة: الْخَوْفُ مِنَ الْاِتِّكَالِ عَلَى سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ.

وذلك لقوله «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَكَلَّمُوا»؛ لأن الاتكال على رحمة الله يسبب مفسدة عظيمة هي الأمن من مكر الله.

وكذلك القنوط من رحمة الله يبعد الإنسان من التوبة، ويسبب اليأس من رحمة الله، ولهذا قال الإمام أحمد: «ينبغي أن يكون سائرًا إلى الله بين الخوف والرجاء؛ فأيهما غلب هلك صاحبه».

(١) لأن معاذًا رضى الله عنه علم أن النبي ﷺ كان يخشى أن يفتتن الناس بها ويتكلموا عليها، ولم يرد كتُمها مطلقًا، لأنه لو أراد ذلك ما أخبر بها معاذًا. - القول المفيد -

(٢) تقدم تخريجه قبل سرد فوائد الحديث.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٥٨٥)، ومسلم فى الحجر (٣٩٨/٩٨/٥).

التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

فإذا غلب الرجاء أدى ذلك إلى الأمن من مكر الله، وإذا غلب الخوف أدى ذلك إلى القنوط من رحمة الله.

وقال بعض العلماء: إن كان مريضاً غلب جانب الرجاء، وإن كان صحيحاً غلب جانب الخوف.

وقال بعض العلماء: إذا نظر إلى رحمة الله وفضله غلب جانب الرجاء، وإذا نظر إلى فعله وعمله غلب جانب الخوف لتحصل التوبة.

ويستدلون بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ (١)؛ أى خائفة أن لا يكون تقبل منهم لتقصير أو قصور، وهذا القول جيد.

وقيل: يغلب الرجاء عند فعل الطاعة ليحسن الظن بالله، ويغلب جانب الخوف إذا هم بالمعصية لئلا ينتهك حرمت الله.

وفى قوله «أفلا أبشر الناس؟» دليل على أن التبشير مطلوب فيما يسر من أمر الدين والدنيا، ولذلك بشرت الملائكة إبراهيم، قال تعالى ﴿وَبَشِّرُوهُ بَعْلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (٢) وهو إسحاق، والحليم إسماعيل، وبشر النبی ﷺ أهله بابنه إبراهيم، فقال: «ولد لى الليلة ولد سميته باسم أبى إبراهيم» (٣) فيؤخذ منه أنه ينبغي للإنسان إدخال السرور على إخوانه المسلمين ما أمكن بالقول أو بالفعل؛ ليحصل له بذلك خير كثير، وراحة وطمأنينة قلب وانشرح صدر.

وعليه؛ فلا ينبغي أن يدخل السوء على المسلم، ولهذا يروى عن النبی ﷺ «لا يحدثنى أحد عن أحد بشيء؛ فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» (٤).

وهذا الحديث فيه ضعف، لكن معناه صحيح؛ لأنه إذا ذكر عندك رجل بسوء؛ فسيكون فى قلبك عليه شيء ولو أحسن معاملتك، لكن إذا كنت تعامله وأنت لاتعلم عن سيئاته، ولامحذور فى أن تتعامل معه؛ كان هذا طيباً، وربما يقبل منك النصيحة أكثر، والنفوس ينفر بعضها من بعض قبل الأجسام، وهذه مسائل دقيقة تظهر للعاقل بالتأمل.

● التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم.

(١) المؤمنون: ٦٠.

(٢) الذاريات: ٢٨.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٦٢/٢/٨)

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٩٥/١) أبوداود (٤٨٦٠) والترمذى (٣٩٨٦)

العشرون: جَوَازُ تَخْصِيصِ بَعْضِ النَّاسِ بِالْعِلْمِ دُونَ بَعْضٍ.

قال حامد بن محمد بن حسن: [قال معاذ: قلت الله ورسوله أعلم] وهذا الجواب هو الحقيقة وهو الصواب؛ لأن الله هو عالم غيب السموات والأرض، وأنه قد أحاط بكل شيء علماً، ثم رسول الله ﷺ أعلم الخلق؛ لأنه يوحى إليه من الله تعالى - هذا في زمن حياته - لتوالى الوحي عليه شيئاً فشيئاً فى بيان كل شيء، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (١) وأما بعد موته فلا، بل يحرم بأنه لا علم لأحد دون الله بكلّيات الأمور ولا جزئياتها ولا تفاصيلها على الحقيق إلا الله وحده، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿٣﴾ وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (٤). أهـ.

وقال ابن عثيمين: وذلك لإقرار النبي ﷺ معاذاً لما قالها، ولم ينكر النبي ﷺ على معاذ، حيث عطف رسول الله ﷺ على الله بالواو، وأنكر على من قال: «ماشاء الله وشئت»، وقال: «أجعلتنى لله نداً؟! بل ماشاء الله وحده» (٥).

فيقال: إن الرسول ﷺ عنده من العلوم الشرعية ما ليس عند القائل؛ ولهذا لم ينكر الرسول ﷺ على معاذ.

بخلاف العلوم الكونية القدريّة؛ فالرسول ﷺ ليس عنده علم منها.

فلو قيل: هل يحرم صوم العيدين؟

جاز أن نقول: الله ورسوله أعلم، ولهذا كان الصحابة إذا أشكلت عليهم المسائل ذهبوا إلى رسول الله ﷺ فيسئنها لهم.

ولو قيل: هل يتوقع نزول مطر فى هذا الشهر؟ لم يجوز أن نقول: الله ورسوله أعلم؛ لأنه من العلوم الكونية.

● العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

(١) النحل / ٨٩.

(٢) الجن / ٢٦، ٢٨.

(٣) الأنعام / ٥٩. (٤) النمل / ٦٥.

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢١٤/١) وابن ماجه (٢١١٧). والنسائى فى «الكبرى» (١٠٨٢٥) عن ابن عباس به.

الحادية والعشرون: تَوَاضَعُهُ ﷺ لِرُكُوبِ الْحِمَارِ مَعَ الْإِرْدَافِ عَلَيْهِ.

الثانية والعشرون: جَوَازُ الْإِرْدَافِ عَلَى الدَّابَّةِ.

الثالثة والعشرون: عَظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

الرابعة والعشرون: فَضِيلَةُ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ.

وذلك أن النبي ﷺ خص هذا العلم بمعاذ دون أبي بكر وعمر وعثمان وعلى .

فيجوز أن نخصص بعض الناس بالعلم دون بعض، حيث إن بعض الناس لو أخبرته بشيء من العلم افتتن، قال ابن مسعود: «إنك لن تحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»^(١) وقال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون»^(٢).

● الحادية والعشرون: تَوَاضَعُهُ ﷺ لِرُكُوبِ الْحِمَارِ مَعَ الْإِرْدَافِ عَلَيْهِ.

النبي ﷺ أشرف الخلق جاهاً، ومع ذلك هو أشد الناس تواضعاً، حيث ركب الحمار وأردف عليه، وهذا في غاية التواضع؛ إذ إن عادة الكبراء عدم الإرداف، وركب ﷺ الحمار، ولو شاء لركب ما أراد، ولا منقصة في ذلك؛ إذ أن من تواضع لله عز وجل - رفعه .

● الثانية والعشرون: جَوَازُ الْإِرْدَافِ عَلَى الدَّابَّةِ.

وذلك أن النبي ﷺ أردف معاذاً، لكن يشترط للإرداف أن لا يشق على الدابة، فإن شق؛ لم يجز ذلك .

[قلت]: وبشرط آخر تقدم وهو عدم تماس العورات وذلك ببعد المسافة بينهما أو بالثياب .

● الثالثة والعشرون: عَظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

حيث أخبر النبي ﷺ معاذاً، وجعلها من الأمور التي يبشر بها .

● الرابعة والعشرون: فَضِيلَةُ مُعَاذِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وذلك أن النبي ﷺ خصه بهذا العلم، وأردفه معه على الحمار .

(١) أخرجه مسلم في المقدمة (١/١٠٨).

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري . (١٢٧)

١) بَابُ

فَضْلُ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

● تنبيه (*):

قوله: (باب) فيها التنوين وتركه والإسكان، قال ابن حجر: حكى عياض ومن تبعه: فيه التنوين وتركه. وقال الكرمانى: يجوز فيه الإسكان على سبيل التعداد للأبواب فلا يكون له إعراب. اهـ.

● مناسبة هذا الباب لما قبله: -

قال سليمان آل الشيخ^(١): ولما ذكر معنى التوحيد ناسب ذكر فضله وتكفيره للذنوب ترغيباً فيه وتحذيراً من الضد. اهـ.

وقال نحوه ناصر السعدى فى «القول السديد» حيث قال^(٢): -

لَمَّا ذَكَرَ فِي التَّرْجُمَةِ السَّابِقَةِ وَجُوبَ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّهُ الْغَرَضُ الْأَعْظَمُ عَلَى جَمِيعِ الْعَبِيدِ، ذَكَرَ هُنَا فَضْلَهُ وَهُوَ: آثَارُهُ الْحَمِيدَةُ وَنَتَاجِجُهَا الْجَمِيلَةُ وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَهُ مِنَ الْآثَارِ الْحَسَنَةِ وَالْفَضَائِلِ الْمُتَنَوِّعَةِ مِثْلَ التَّوْحِيدِ، فَإِنَّ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ ثَمَرَاتِ هَذَا التَّوْحِيدِ وَفَضَائِلِهِ. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله^(٣): - لَمَّا ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ [وَجُوبَ التَّوْحِيدِ] ذَكَرَ هُنَا فَضْلَهُ وَأَنَّهُ يَكْفِرُ الذُّنُوبَ. اهـ.

● مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

قلت: هى واضحة من التوبيخ.

● ماذا أراد المصنّف بهذا الباب:

قال ابن باز^(٤): أراد المؤلف بيان شيء من فضل التوحيد وأنه أعظم الأعمال فى تكفير الذنوب؛ (لأنه أساس الأعمال وأصلها، والأعمال لاتصح إلا بعد وجوده). وذكر ذلك حتى يعرفه المؤمن ويكون أكثر إقبالا عليه وتشوقاً إليه. اهـ.

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٤٨).

(٢) «الجامع الفريد» (١٤).

(*) فتح البارى (١/١٣).

(٢) «القول السديد» (١٦).

(٤) «التعليق المفيد» (٣٣).

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾^(١).....

قال نحوه ابن عثيمين وزاد فقال^(٢): -

وعقد هذا الباب لأمرين:

الأول: بيان فضل التوحيد.

الثاني: بيان ما يكفره من الذنوب؛ لأن من آثار فضل التوحيد تكفير الذنوب.

• شرح الترجمة والتبويب:

قال حامد بن محمد بن حسن^(٣): باب في بيان فضل التوحيد عند الله وما يكفر من الذنوب بالكتاب والسنة.

قوله: «باب» خبر مبتدأ محذوف، تقديره هذا باب بيان فضل التوحيد^(٤).

والباب في اللغة هو المدخل إلى الشيء^(٥).

قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾

قوله «فضل التوحيد».

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٦): والمراد بالتوحيد. توحيد العبادة وهو إفراد الله تعالى بأنواع العبادة الباطنة والظاهرة كالدعاء والذبح والنذر (وغير ذلك) كما قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٧) وقال تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٨).

قوله: «وما يكفر من الذنوب».

يعنى: وبيان ما يكفر من الذنوب، و(ما) يجوز أن تكون موصولة. أى: وبيان ما يكفره من الذنوب. ويجوز أن تكون مصدرية، أى: وبيان تكفيره الذنوب، وهذا أرجح، لأن الأول يوهم أن ثم ذنوباً لا يكفرها التوحيد، وليس بمراد^(٩) اهـ.

ومال إلى الأول ابن عثيمين.

(٢) «القول المفيد» (١/ ٧١).

(١) الأنعام: (٨٢).

(٤) «تيسير العزيز الحميد» (٤٨).

(٣) «فتح الله الحميد المجيد» (١٠٥).

(٦) «قرة عيون الموحدين» (٢٣).

(٥) «قرة عيون الموحدين» ٢٣.

(٨) غافر: (٦٥).

(٧) غافر: (١٤).

(٩) قاله سليمان الشيخ في «تيسير العزيز الحميد».

قال ناصر السعدى^(١): فقول المؤلف. رحمه الله (وما يكفر من الذنوب) من باب عطف الخاص على العام، فإن مغفرة الذنوب وتكفير الذنوب من بعض فضائله وآثاره كما ذكر شواهد ذلك فى الترجمة.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾.



● مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): -مطابقة الآية للترجمة، دلت على فضل التوحيد وتكفيره للذنوب؛ لأن من أتى به تاماً فله الأمن التام والاهتداء التام، ودخل الجنة بلا عذاب، ومن أتى به ناقصاً بالذنوب التى لم يتب منها، فإن كانت صغائر كفرت باجتناى الكبائر - كما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ فقل اللمم صغائر الذنوب، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، لآية (النساء) و(النجم) وإن كانت كبائر فهو فى حكم المشيئة، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه، ومآله إلى الجنة، والله أعلم. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): أن الله أثبت الأمن لمن لم يشرك، والذي لم يشرك يكون موحدًا؛ فدلّ على أن من فضائل التوحيد استقرار الأمن. اهـ.

فمن أراد فى الدنيا والآخرة الأمن لنفسه أو لأهله أو لبلده فعليه بالتوحيد تعلمًا وتعليمًا وعملاً.

قال عبد الله بن جار الله^(٤): ومناسبتها للباب: أن من مات على التوحيد ولم يصّر على الكبائر فله الأمن من العذاب فى الآخرة وهذا من فضل التوحيد. اهـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى^(٥): حيث دلت الآية على أن من مات على التوحيد وتاب من

(١) «القول السديد» ١٦.

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٥٠).

(٣) «القول المفيد» (٧٤/١).

(٤) «الجامع الفريد» (١٥).

(٥) «الجديد» (٣٥).

الكبائر سَلِمَ من عذاب النار. ومن مات مصراً على الكبائر مع التوحيد سلم من الخلود في النار. اهـ



قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾.
الاعراب^(١) :

(الذين) خبر لمبتدأ محذوف، بناء على أن الكلام مسوق من إبراهيم جواباً عن السؤال في قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ؟ ويجوز أن تكون مبتدأ بناء على أن الكلام من الله تعالى وهو ما رجحه الطبري، وجملة (آمنوا) صلة، (ولم) الواو عاطفة، تعطف ما نفى على ما أثبت وفيه معنى لا إله إلا الله (ولم) (تجزم فعل واحد) حرف نفى وقلب وجزم، (ويلبسوا) فعل مضارع مجزوم بلم استمرار حدوث الفعل، معطوف على الصلة، وبظلم جار ومجرور متعلقان بلبسوا أ.هـ.

● ماجاء في تفسيره بالقرآن الكريم: -

قال الشنقيطي^(٢): المراد بالظلم هنا: الشرك كما ثبت عن النبي ﷺ في صحيح البخارى وغيره من حديث عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - ^(٣)وقد بينه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٤) وقوله ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٥) وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٦).

روى ابن جرير عن ابن إسحاق قال: يقول الله تعالى ذكره ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى الذين أخلصوا كاخلاص إبراهيم ﷺ لعبادة الله وتوحيده^(٧).

(١) الإعراب (٣/ ١٦٠).

(٢) «أضواء البيان».

(٣) أخرجه البخارى (٣٢)، ومسلم فى الإيمان (١٤٣/٢- النوى) وانظر كتابنا «فتح أى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٣٦٩).

(٤) لقمان: (١٣).

(٥) البقرة: (٢٥٤).

(٦) يونس: (١٠٦).

(٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٦٧/٧).

وروى أيضاً عن ابن جريج ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أمن يعبد رباً واحداً أم من يعبد أرباباً كثيرة؟ يقول قومه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ عبادة الأوثان وهى حجة إبراهيم ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (١).

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين :

قال الطبرى (٢): وقال آخرون هذا جواب من قوم إبراهيم ﷺ لابراهيم حين قال لهم: أى الفريقين أحق بالأمن فقالوا له: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله فوحده أحق بالأمن إذ لم يلبسوا إيمانهم بظلم.

قال ابن جرير: وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب: قول من قال هذا خبر من الله تعالى عن أولى الفريقين بالأمن، وفصل قضاء منه بين إبراهيم ﷺ وبين قومه.

وذلك أن ذلك لو كان من قول قوم إبراهيم الذين كانوا يعبدون الأوثان ويشركونها فى عبادة الله لكانوا أقروا بالتوحيد واتبعوا إبراهيم على ما كانوا يخالفونه فيه من التوحيد ولكنه كما ذكرت من تأويله بدأ. أهـ

وعلى تقدير أنه خبر لمبتدأ محذوف ففيه أن قوم إبراهيم كانوا كفاراً مع معرفتهم بتحقيق التوحيد فلا يكون الإنسان مؤمناً إلا بمعرفة حقيقة ما يؤمن به، والعمل بهذه المعرفة.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن (٣): -

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله أى صدقوا وأذعنوا بأنه الرب الملك المعبود وحده لا شريك له فى ربوبيته وملكوته وعبادته ولا فى أسمائه وصفاته وأنه قيم السموات والأرضين ومن فيهن قائم بذاته فهو الغنى عمن سواه، وقيوم بالخلق والخلق فقراء إليه قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٤) وأيضاً وآمنوا بملأنته على ما وصفهم رسول الله ﷺ لاسيما جبريل فإنه أمين على السوحى، وميكائيل موكل على الأقطار، وعزرائيل (٥)، فإنه موكل على قبض الأرواح، وإسرافيل فإنه موكل على نفخ الصور، وآمنوا بكتبه أنها مائة صحيفة وأربع كتب: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، وكلها كلام الله منزلة غير مخلوقة.

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» فى الموضع السابق. (٢) تفسير الطبرى (٥/١٦٧، ١٦٨).

(٣) «فتح الله الحميد المجيد» (١٠٥، ١٠٦). (٤) فاطر: (١٥).

(٥) لو قال: وملك الموت، فإنه... لكان أولى: لأن تسميته باسم: «عزرائيل» لم يثبت فيه شىء مرفوع. وانظر: حرف العين من كتاب: «معجم المناهى اللفظية». (فتح الله الحميد المجيد).

وَأَمَنُوا بِرُسُلِهِ وَأَنبِيَائِهِ مَجْمُوعِهِمْ مِائَةَ أَلْفٍ وَأَرْبَعٍ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، وَالرُّسُلُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَثَلَاثَةٌ عَشْرَ رُسُلًا، وَأَوَّلُو الْعِزْمِ مِنْهُمْ خَمْسَةٌ: نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَقَدْ نَظَّمْتُ الْجَمِيعَ مَجْمَلًا.

الأنبياء كلهم عجم وأولهم	نوح وآخرهم من كان من مضر
جا عُرْبُهُمْ سِتَّةُ نُوحٍ وَصَالِحُهُمْ.	هود ولوط شعيب سيد البشر
أيضاً أولو عزمهم موسى وآدمهم	عيسى محمد إبراهيم فادكر
ما أنزل الله تَمَّا سُمِّيَ الصَّحَفُ	عدت لنا مائة بالنقل والخبر
وما أتى كتباً فى العد أربعة	هذا التجاميل والنقصان واختبر

وَأَمَنُوا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ؛ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ.

وَأَمَنُوا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ: أَنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: وَمَاذَا أَكْتُبُ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ فَجَرَى الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَاتِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (٢) أَهـ.

قوله: «وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ».

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ بَكْرِ بْنِ سَوَادَةَ قَالَ: حَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْعَدُوِّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَتَلَ رَجُلًا، ثُمَّ حَمَلَ فَقَتَلَ آخَرَ، ثُمَّ حَمَلَ فَقَتَلَ آخَرَ، ثُمَّ قَالَ: أَيْنَعْنَى الْإِسْلَامَ بَعْدَ هَذَا؟ قَالُوا: مَا نَدْرِي؛ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: نَعَمْ. فَضْرَبَ فَرْسَهُ فَدَخَلَ فِيهِمْ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَتَلَ رَجُلًا، ثُمَّ آخَرَ، ثُمَّ قَتَلَ قَالَ: فَيَرُونَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ (الآية (٣)).

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣١٧/٥) وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٣١٩) وَانْظُرْ تَخْرِيجَهُ فِي «تَفْسِيرِ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ - بِتَخْرِيجِنَا وَ«فَتْحِ الْقَدِيرِ» - بِتَخْرِيجِنَا أَيْضًا.

(٢) الْحَدِيدُ: ٢٢.

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» وَذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ فِي «الدَّرِّ» فِي الْمَوْضِعِ السَّابِقِ وَشَبَّهَ إِلَيْهِ، فَانْظُرْهُ بِتَخْرِيجِنَا.

● ما جاء فى تفسير الآية من السنة:

أولاً: بالمرفوع:

عن جرير بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا، فانتهى إلينا فسلم، فقال له النبى ﷺ «من أين أقبلت؟» فقال: من أهلى وولدى وعشيرتى أريد رسول الله. قال: قد أصبته. قال: علمنى ما الإيمان؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت. قال: قد أقررت. ثم إن بعيره دخلت يده فى شبكة جردان فهوى ووقع الرجل على هامته فمات^(١).

فقال رسول الله ﷺ: هذا من الذين عملوا قليلاً وأجرؤا كثيراً، هذا من الذين قال الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ إني رأيت حور العين يُدخلن فى فيه من ثمار الجنة، فعلمت أن الرجل مات جائعاً.

وعن ابن عباس قال: «كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير ساره، إذ عرض له أعرابى فقال: والذى بعثك بالحق لقد خرجت من بلادى وتلادى لا هتدى بهداك وآخذ من قولك فأعرض على، فعرض عليه الإسلام فقبل، فزادحما حوله فدخل خف بكره فى ثقب جردان، فتردى الأعرابى فانكسرت عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «أسمعتم بالذى عمل قليلاً وأجر كثيراً هذا منهم؟ أسمعتم بالذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم هذا منهم»^(٢).

وعن إبراهيم التيمى «أن رجلاً سأل عنها النبى ﷺ فسكت حتى جاء رجل فأسلم، فلم يلبث إلا قليلاً حتى قاتل فاستشهد، فقال النبى ﷺ: «هذا منهم من الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم»^(٣).

وعن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا:

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده ٤٠/٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٢.

ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٣٠٨) وزاد نسبه للطبرانى، وأبى الشيخ، وابن مردويه، والبيهقى فى «الشعب».

(٢ - ٣) ذكرهما السيوطى فى الدر (٣٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠) ونسب الأول للحكيم الترمذى، وابن أبى حاتم، ونسب الثانى لعبد بن حميد.

يارسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟! قال: «إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعو ما قال
العبد الصالح ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إنما هو الشرك»^(١).

● ثانياً: التفسير بالاثار الموقفة

عن أبى بكر الصديق. أنه سئل عن هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ
بِظُلْمٍ﴾ قال: ما تقولون؟ قالوا: لم يظلموا. قال: حملتم الأمر على أشده، بظلم:
بشرك، ألم تسمع إلى قول الله (ان الشرك لظلم عظيم)^(٢).

و عن عمر بن الخطاب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال: بشرك^(٣).

و عن حذيفة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال: بشرك^(٤).

و عن سلمان الفارسى. أنه سئل عن هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ
بِظُلْمٍ﴾ قال: إنما عنى به الشرك، ألم تسمع الله يقول (إن الشرك لظلم عظيم)^(٥).

عن أبى بن كعب فى قوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال: ذاك
الشرك^(٦).

و عن ابن عباس. أن عمر بن الخطاب كان إذا دخل بيته نشر المصحف يقرأه، فدخل
ذات يوم فقرأ سورة الأنعام، فأتى على هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾
الى آخر الآية، فانتقل وأخذ رداءه ثم أتى أبى بن كعب، فقال: يا أبا المنذر أتيت على
هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ وقد نرى أنا نظلم ونفعل ونفعل؟
فقال: يا أمير المؤمنين إن هذا ليس بذاك. يقول الله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ
بِظُلْمٍ﴾ إنما ذلك الشرك^(٧).

(١) تقدم عن شرح الآية فى أول الباب.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه للفريابى، وابن أبى شيبة، والحكيم الترمذى،
وابن جرير، وابن المنذر، وأبى الشيخ، وابن مردويه، وانظر «فتح القدير» (٤٦٠٦ - بتخریجنا).

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

وانظر فتح القدير (٤٦٠٧ - بتخریجنا).

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق، ونسبه للفريابى، وعبد بن حميد، وابن أبى شيبة، وأبى
عبد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبى الشيخ. وانظر «فتح القدير» (٤٦٠٨٠ - بتخریجنا).

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣٠٩) ونسبه للفريابى، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبى الشيخ،

وانظر «فتح القدير» (٤٦٠٩ - بتخریجنا).

(٦) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وأبى الشيخ. وانظر «فتح

القدير» (٤٦١٠ - بتخریجنا).

(٧) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن المنذر، والحاكم، وابن مردويه وانظر «فتح القدير»

(٤٦١١ - بتخریجنا).

و عن ابن عباس ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ قال: بشرك^(١).
وابن مردويه عن علي بن أبي طالب فى قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال: نزلت هذه الآية فى إبراهيم وأصحابه خاصة، ليس فى هذه الأمة^(٢).

● ما جاء فى سبب النزول:

وعن مجاهد ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال: بعبادة الأوثان^(٣).
وعن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ يقول: لم يخلطوا إيمانهم بشرك^(٤).



● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(٥): اختلف أهل التأويل فى المعنى الذى عناه الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ فقال بعضهم بشرك، ثم أسند ذلك عن ابن مسعود وعلقمة، وأبى بكر، وزيد بن صوحان، وحذيفة وابن عباس، وعمر بن الخطاب، وأبى مسيرة وإبراهيم النخعى، وقتادة، ومجاهد، وابن زيد.

ثم قال^(٦): وقال آخرون: بل معنى ذلك ولم يخلطوا إيمانهم بشئ من معانى الظلم وذلك فعل مانهى الله عن فعله، أو ترك ما أمر الله بفعله.

وقالوا: الآية على العموم لأن الله لم يخص به معنى من معانى الظلم.

قالوا: فإن قال لنا قائل أفلا أمن فى الآخرة إلا لمن لم يعص الله فى صغيرة ولا كبيرة؟ والامن لقى الله ولا ذنب له؟

قلنا: إن الله عنى بهذه الآية خاصا من خلقه دون الجميع منهم، والذى عنى بها

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبى الشيخ وانظر «فتح القدير» (٦٤١٢-٦٤١٣) بتخریجنا.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه للفریابی، وعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وأبى الشيخ.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم، فانظره بتخریجنا.

(٥- ٦) «تفسير الطبرى» (٥/ ١٦٩، ١٧٠، ١٧١).

وأراد به خليله إبراهيم عليه السلام فأما غيره فإنه إذا لقي الله لا يشرك به شيئاً فهو فى مشيئته، إذا كان قد أتى بعض معاصيه التى لا تبلغ أن تكون كفراً فان شاء لم يؤمنه من عذابه. وإن شاء تفضل عليه فعفا عنه.

قالوا: وذلك قول جماعة من السلف وإن كانوا مختلفين فى المعنى بالآية.

فقال بعضهم: عنى بها إبراهيم، وقال بعضهم: عنى بها المهاجرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم قال وأولى القولين بالصحة فى ذلك ما صح به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الخبر الذى رواه ابن مسعود^(١) عنه أنه قال الظلم الذى ذكره الله تعالى فى هذا الموضع هو الشرك.

قال الرازى^(٢): والمعنى: أن الذين حصل لهم الأمن المطلق هم الذين يكونون مستجمعين لهذين الوصفين:

أولهما: الإيمان وهو كمال القوة النظرية.

وثانيهما: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ وهو كمال القوة العملية.

ثم قال: أعلم أن أصحابنا يتمسكون بهذه الآية من وجه والمعتزلة يتمسكون بها من وجه آخر أما وجه تمسك أصحابنا فهو أن نقول إنه تعالى شرط فى الإيمان الموجب للأمن عدم الظلم، ولو كان ترك الظلم أحد أجزاء مسمى الإيمان لكان هذا التقيد عبثاً، فثبت أن الفاسق مؤمن وبطل به قول المعتزلة، وأما وجه تمسك المعتزلة بها فهو أنه تعالى شرط فى حصول الأمن حصول الأمرين، الإيمان وعدم الظلم، فوجب أن لا يحصل الأمن للفاسق وذلك يوجب حصول الوعيد له.

وأجاب أصحابنا عنه من وجهين:

الوجه الأول: أن قوله ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ المراد من الظلم الشرك، لقوله تعالى حكاية عن لقمان إذ قال لابنه ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فالمراد ههنا الذين آمنوا بالله ولم يشبوا لله شريكاً فى العبودية.

والدليل على أن هذا هو المراد أن هذه القصة من أولها الى آخرها إنما وردت فى نفى الشركاء والأضداد والأنثداد، وليس فيها ذكر الطاعات والعبادات، فوجب حمل الظلم ههنا على ذلك.

(١) تقدم عن شرح الآية فى أول الباب.

(٢) «التفسير الكبير» (٧/ ١٣ / ٦٤).

الوجه الثانى: فى الجواب: أن وعيد الفاسق من أهل الصلاة يحتمل أن يعذبه الله، ويحتمل أن يعفو عنه، وعلى كلا التقديرين: فالأمن زائل والخوف حاصل، فلم يلزم من عدم الأمن القطع بحصول العذاب؟ والله أعلم. أهـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): والذى شق عليهم ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد لنفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فبين لهم النبى ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم فى كتاب الله، وحينئذ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، فمن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الاصطفاء فى قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾^(٢) وهذا لا ينفى أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنوب إذا لم يتب، كما قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٣).

وقد سأل أبو بكر رضى الله عنه النبى ﷺ عن ذلك فقال: يارسول الله، وأينا لم يعمَلْ سوءاً؟ فقال: «يا أبا بكر أَلَسْتَ نَنْصَبُ، أَلَسْتَ تَحْزَنُ، أَلَيْسَ تُصَيِّكُ اللَّأْوَاءُ؟! فَذَلِكَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ»^(٤) فبين أن المؤمن الذى إذا مات دخل الجنة، قد يجزى بسيئاته فى الدنيا بالمصائب التى تصيبه.

قال: فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة، يعنى: الظلم الذى هو الشرك، وظلم العباد، وظلمه لنفسه بما دون الشرك، كان له الأمن التام، والاهتداء التام ومن لم يسلم من ظلم نفسه، كان له الأمن والاهتداء مطلقاً، بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة، كما وعد بذلك فى الآية الأخرى، وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الذى تكون عاقبته فيه إلى الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء، بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه.

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٤٩ و ٥٠).

(٢) سورة فاطر آية: ٣٢.

(٣) سورة الزلزلة (٨، ٧).

(٤) [حسن] أخرجه أحمد فى «مسنده» (١١/١)، وابن جرير فى «تفسيره» (١٨٩/٥)، والحاكم فى

«المستدرک» (٧٤/٣ - ٧٥).

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٢٦٣).

قال صاحب: «فضل الغنى الحميد»^(١): وقوله: مطلق الأمن والاهتداء أى: أصله لاكماله، فالظلم التام المطلق، وهو الشرك رافع لمطلق الأمن والاهتداء، مزيل لأصلهما، ومطلق الظلم أى (مادون الشرك). رافع للأمن المطلق والاهتداء المطلق، أى: كاملين تامين. والشرك: ظلم العبد لنفسه، بوضعها فى غير موضعها، فبدلاً من عبوديتها لله، جعلها تعبد من سواه، وليس ظلماً لله، فالله أعلى وأجل وأعز من أن يقدر العباد على ظلمة أو ضره أو نفعه، بل لا يبلغون ضره فيضروه، ولا يبلغون نفعه فينفعوه وعقائدهم الفاسدة لاتغير من الحق شيئاً، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢) وهذا الأمن والاهتداء لأهل الإيمان الخالص من الشرك يكون فى الدنيا والآخرة ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٣) قال تعالى حاكياً عن إبراهيم - عليه السلام - ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تَشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئاً﴾^(٤) فالؤمن لا يخاف إلا الله، وهو آمن من كل ما سواه، وإذا خاف شيئاً لجأ إلى الله فدافع الله عنه، وهو مهتد فى الأقوال والأعمال، ويوم القيامة يؤمنه الله من فرع يوم القيامة، ويهديه إلى طريق الجنة، ويعرفه منازلها فيها، وأما الكافر فلا أمن له فى الدنيا ولا فى الآخرة، فهو فى الدنيا كما قال تعالى: ﴿سَنَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾^(٥) فهم - والله مهما كثرت جنودهم وامتدت حراستهم - فى رعب، وخوف دائم، إذ القلب لا يطمئن إلا مع التوحيد فمن لم يوحد الله أخافه الله من كل شئ، ويوم القيامة هم فى فرع عظيم، نعوذ بالله منه، ولايتهى ولايزول إذ لا يقف عذابهم عند حد، قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾^(٦) وكذلك هم فى الدنيا لا يهتدون إلى صدق ولاعدل، وهم فى الآخرة أضل عن طريق الجنة، بل لا يهتدون إلا إلى صراط الجحيم - نعوذ بالله من ذلك - اهـ.

قال سليمان آل الشيخ: ^(٧)

ثم قال شيخ الإسلام: ليس مراد النبى ﷺ بقوله: «إِنَّمَا هُوَ الشَّرْكَ»^(٨) أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام، فان أحاديثه الكثيرة مع نصوص

(٢) البقرة/ ٥٧.

(٤) الأنعام/ ٨٠.

(٦) النبأ/ ٣٠.

(١) «فضل الغنى الحميد» ١٥، ٥٢.

(٣) الرعد/ ٢٨.

(٥) آل عمران/ ١٥١.

(٧) تيسير العزيز الحميد ٥.

(٨) سبق تخريجه عند شرح الآية فى أول الباب.

القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف، لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام الذى يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم - صراط الذين أنعم الله عليهم - من غير عذاب يحصل لهم، بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط ومعهم أصل نعمة الله عليهم، ولا بد لهم من دخول الجنة.

وقوله: «إِنَّمَا هُوَ الشَّرْكَ» إن أراد به الأكبر فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة، وهو مهتد إلى ذلك، وإن كان مراده جنس الشرك فيقال: ظلم العبد نفسه، كبخله - لحب المال - ببعض الواجب هو شرك أصغر، وجهه ما يبغض الله حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر، ونحو ذلك، فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب فى هذا الظلم بهذا الاعتبار. انتهى ملخصاً.

قال ابن القيم^(١) رحمه الله: قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ قال الصحابة: وأينما يارسول الله لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال: «ذلك الشرك». ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) لما أشكل عليهم المراد بالظلم فظنوا أن ظلم النفس داخل فيه، وأن من ظلم نفسه - أى ظلم كان - لم يكن آمناً ولا مهتدياً: أجابهم صلوات الله وسلامه عليه بأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك.

وهذا والله هو الجواب الذى يشفى العليل ويروى الغليل. فإنَّ الظلم المطلق التام هو الشرك. الذى هو وضع العبادة فى غير موضعها.

والأمن والهدى المطلق: هما الأمن فى الدنيا والآخرة. والهدى إلى الصراط المستقيم.

فالظلم المطلق التام رافع للأمن وللاهتداء المطلق التام. ولا يمنع ذلك أن يكون مطلق الظلم مانعاً من مطلق الأمن ومطلق الهدى. فتأمل. فالمطلق للمطلق، والخاصة للخاصة. هـ ملخصاً.

قال حامد بن محمد بن حسن^(٣): (لم يلبسوا إيمانهم بظلم) أى لم يشوبوه ولم يخلطوه بشرك بل أخلصوا لله تعالى أعمالهم وأقوالهم وإراداتهم ونياتهم ولم يقربوا حمى الشرك بل ابتعدوا منه أشد الابتعاد حذراً من وقوعهم فيه.

(٢) سبق تخريجه.

(١) فتح المجيد ٤٨ ط مؤسسة قرطبة.

(١) «فتح الله الحميد المجيد» (١٠٦).

قال ابن عثيمين^(١): قوله: ﴿لَمْ يَلْبِسُوا﴾.

أى: يخلطوا.

قوله: ﴿يُظْلَمُ﴾

الظلم هنا ما يقابل الإيمان، وهو الشرك.

● والظلم أنواع:

١ - أظلم الظلم، وهو الشرك فى حق الله.

٢ - ظلم الإنسان نفسه؛ فلا يعطيها حقها، مثل أن يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا ينام.

٣ - ظلم الإنسان غيره، مثل أن يتعدى على شخص بالضرب، أو القتل، أو أخذ مال، أو ما أشبه ذلك.

وإذا انتفى الظلم؛ حصل الأمن، لكن هل هو أمنٌ كامل؟

الجواب: إنه إن كان الإيمان كاملاً لم يخالطه معصية؛ فالأمنُ أمنٌ مطلق، أى كامل، وإذا كان الإيمانُ مطلقَ إيمانٍ - غير كامل -؛ فله مطلق الأمن؛ أى: أمن ناقص.

مثال ذلك: مرتكبُ الكبيرة، آمنٌ من الخلود فى النار، وغير آمن من العذاب، بل هو تحت المشيئة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٢).

وهذه الآية قالها الله تعالى حكماً بين إبراهيم وقومه حين قال لهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ.....﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣)؛ فقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ.....﴾^(٤) الآية، على أنه قد يقول قائل: إنها من كلام إبراهيم ليعين لقومه، ولهذا قال بعدها: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾^(٥).



(١) «القول المفيد» ٧١/١ - ٧٣.

(٢) سورة النساء آية: ٤٨

(٣) سورة الأنعام آية: ٨١.

(٤) سورة الأنعام آية: ٨٢.

(٥) سورة الأنعام آية: ٨٣.

﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

● قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

الإعراب: ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ، و﴿لَهُمُ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، و﴿الْأَمْنُ﴾ مبتدأ مؤخر ثان، والجملة الإسمية خبر اسم الإشارة، وجملة الإشارة وما في حيزه في محل نصب مقول قول محذوف على الوجه الأول أو مرفوعة على أنها خبر الذين على الوجه الثاني والواو حرف عطف وهم مبتدأ و﴿مُهْتَدُونَ﴾ خبره والجملة عطف على ما تقدم اهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من الأحاديث:

وعن سخبرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من ابتلى فصر، وأعطى فشكر، وظلم فغفر، وظلم فاستغفر، ثم سكت النبي ﷺ ف قيل: يا رسول الله ماله؟ قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾»^(١).

● ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الطبري: أما قوله ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ فإنه يعنى هؤلاء الَّذِينَ آمَنُوا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ يوم القيامة من عذاب الله ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يقول وهم المصيون سبيل الرشاد والساكون طريق النجاة. اهـ^(٢).

قال ناصر السعدي^(٣): قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ أى: يخلطوا: ﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأمن من المخاوف، والعذاب والشقاء والهداية إلى الصراط المستقيم. فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً لا بشرك، ولا بمعاصي حصل لهم الأمن التام والهداية التامة.

وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٣١٠) ونسبه للبغوي في «معجمه»، وابن أبي حاتم، وابن قانع، والطبري، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب».

وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخريجنا.

(١) تفسير الطبري (٥/ ١٧١).

(٢) تفسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٩، ٤٠).

ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمان، لم يحصل لهم هداية ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء. أهـ وتقدم كلام شيخ الإسلام وتلميذه في ذلك.

● ما جاء في تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن^(١): أولئك لهم الأمن في الدارين:

أما في الدنيا فيدفع عنهم بأمره الكوني وأمره الشرعي السوء، أما أمره الشرعي فيأمرهم بتوحيده وطاعته لئلا يقعوا في غضبه وناره، وأما أمره الكوني إما عامًّا يعم الأسواء والشرور كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٢).

وإما خاصًّا بشيء كما يدفع عنهم الذل والخذلان ويؤيدهم بالعز والنصر كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(٣). ويدفع عنهم الضلال قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤) ويدفع عنهم كيد العدو والكرب قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾^(٥) ويدفع عنهم الضر والأذى قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الضُّرَّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٦) فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرٍّ وآتيناهُ أهله ومثلهم معهم رحمةً من عندنا وذكرى للعابدين^(٧) ^(٨٤) ^(٨). ويدفع عنهم الهم والغم قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٩) فاستجبنا له ونجينا من الغم وكذلك ننجي المؤمنين^(١٠) ^(٨٨) ^(٧). ويدفع عنهم السوء والفحشاء قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(١١) ^(٨). ويدفع عنهم عند الأجل الخوف والحزن ببشارة يرسل إليهم ملائكته يبشرونهم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(١) «فتح الله الحميد المجيد» (١٠٦ - ١١١).

(٢) الحج: ٣٨.

(٣) غافر: ٥١.

(٤) العنكبوت: ٦٩.

(٥) الأنبياء: ٧٦.

(٦) الأنبياء: ٨٣، ٨٤.

(٧) الأنبياء: ٨٧، ٨٨.

(٨) يوسف: ٢٤.

قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١﴾. ويدفع عنهم الضيق والكرب عند نزول الروح من الجسد كما في مسند الإمام أحمد من حديث البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولمَّا يُلْحَد، فجلس رسول الله ﷺ، فجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعينوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة أنزل الله ملائكته من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: اخرجي أيتها النفس الطيبة المطمئنة إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج كأطيب نفحة مسك وجدت في الأرض، فيصعدون فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء التي تليها حتى ينتهوا إلى السماء السابعة، فيقول الله - عز وجل -: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه في الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها نخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول رسول الله ﷺ فيقولان: ما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت به، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً من الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول له: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت تُوعَد، فيقول له: من أنت، فوجهك الوجه الذي بجىء بالخير؟ فيقول: أنا عمك الصالح، فيقول: ربِّ أقم الساعة، ربِّ أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى ﴿٢﴾.

ويدفع عنهم في الآخرة عسر الحساب، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ (٧) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٣﴾ ويدفع عنهم

(١) فصلت: ٣٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٧/٤) وانظر كتابنا «بيغة الفائز الجامع لأحكام الجنائز».

(٣) الإنشاق: ٧ - ٩.

كرب الموقف ويدخلهم الجنة، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (١).

فبين الله أن المؤمن آمنٌ من كل ضر وسوء ومكروه في الدنيا إلا إذا أراد الله استخباره بما هو خير له وصلاح، إما رفعاً لدرجته وكفارة لسيئاته أو أنه يؤول إلى حسن العاقبة استخبره بالبلايا والمحن، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِن نَّصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٤). وفي الحديث قال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله سبحانه إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فعليه السخط» (٥). رواه الترمذى.

وهذا فى الحقيقة خيرة لهم ولكن أكثر الناس لا يعلمون، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦). وأما غير المؤمن فبعكس ما هو للمؤمن، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (٧) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (٨) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ (٩). فبين أنه فى سوء حال فى الدنيا والآخرة، ولو زخرت لهم الدنيا فهم فى ضنكها وشقائها وعنائها.

قال ابن القيم رحمه الله: «اعلم أن يقال تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة بالحرص على تحصيلها والتعب العظيم فى جمعها، ومقاساة أنواع المشاق.

كما قال بعض السلف: من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب، ومحبتها

(٢) العنكبوت: ٣/١.

(٤) سيأتي تخريجه فى باب «الإيمان بالله: الصبر على قدر الله».

(٦) طه: ١٢٤/١٢٦.

(١) الزمر: ٧٣.

(٣) البقرة: ٢١٤.

(٥) البقرة: ٢١٦.

لا ينفك من ثلاث: همَّ لازم، وتعبٌ، وحسرة لا تنقضى، وذلك أن محبتها لا ينال منها شيئاً إلا طمحت نفسه إلى ما هو فوقه كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً»^(١). فطالبها لا تستريح نفسه من التعب كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروهه، سرورها مشوب بالحزن، أمانها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها إلى كدور، وعيشها نكد كما قيل:

فما فى الأرض أشقى من محب وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً فى كل حال مخافة فرقة أو اشتياق
فيبكى إن نأى شوقاً إليه ويبكى إن دنا حذر الفراق
فتسخن عينه عند التلاقى وتسخن عينه عند الفراق

ولهذا قال النبي ﷺ، في الحديث الذى رواه الترمذى وغيره: «الدنيا معلونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه»^(٢).

الحاصل: أن مؤثر الدنيا على الآخرة فى شقاء وعناء لا يكاد يوصف فى الدنيا وفى الآخرة فى عذاب مقيم.

قال ابن القيم - رحمه الله -: وقد دل العقل، والنقل، والفطر السليمة، وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها، وأهلها، ونحلها: أن التقرب إلى رب العباد، وطلب مرضاته، والبر، والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب لكل خير وأضدادها من أكبر الأسباب لكل شر، فما استجلبت نعم قط ولا استدفعت نقم بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه وقد رتب الله تعالى حصول الخيرات فى الدنيا والآخرة على الطاعات ورتب حصول الشر والمكروهات فى الدنيا والآخرة على المعاصى.

وفى بعض الآثار عن الله تبارك وتعالى: «وعزتى وجلالى لا يكون عبد من عبيدى على ما أحبه ثم ينتقل إلى ما أكره إلا انتقلت له ما يحب إلى ما يكره ولا يكون عبد من عبيدى على ما أكره ثم ينتقل عنه إلى ما أحب إلا انتقلت له ما يكره، إلى ما يحب» فإن الطاعة حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الأمنين من عقوبات الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف فى حقه مأمناً، ومن عصاه انقلبت مآمناً مخاوف وذلك قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» أ.هـ.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم في الزكاة (١١٦/١٥٠/٤) عن أنس به، وانظر «الإتقان في علوم القرآن» - بتخريجنا -.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٧٧/١)، والترمذى (٢٣٢٨) عن ابن مسعود به وانظر «رياض الصالحين» (٤٨٠ - بتخريجنا).

عن عبادة بن الصّامِت (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)؛ قال: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ (مَنْ شَهِدَ أَنَّ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ

وقد تقدّم شيئاً من كلام ابن تيمية وابن القيم في تأويل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا
إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ في معنى الأمن والهداية. فليرجع إليه.

قال ابن عثيمين^(١): قوله: ﴿الْأَمْنُ﴾.

أل فيها للجنس، ولهذا فسرنا الأمن بأنه إما أمنٌ مطلق، وإما مطلق أمن حسب
الظلم الذي تلبس به.

قوله: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

أى: فى الدنيا إلى شرع الله بالعلم والعمل؛ فالاهتداء بالعلم هداية الإرشاد.

والاهتداء بالعمل: هداية توفيق، وهم مهتدون فى الآخرة إلى الجنة.

هذه هداية الآخرة، وهى للذين ظلموا إلى صراط الجحيم، فيكون مقابلها أن الذين
آمَنوا ولم يظلموا يهدون إلى صراط النعيم.

وقال كثير من المفسرين فى قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾: إن الأمن فى الآخرة،
والهداية فى الدنيا، والصواب أنها عامّة بالنسبة للأمن والهداية فى الدنيا والآخرة. أهد
وسياتي فى الباب الثانى مسائل تتعلق بالأمن، منهم هل الأمن غاية أم وسيلة،
وعلاقته بالنصر والتمكين، وغير ذلك فانظره.



هذا لفظ البخارى الذى برّب عليه باب قوله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾
الآية.

ولفظ مسلم: «من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده
ورسوله، وأنّ عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنّ الجنة حق،
وأنّ النار حق، أدخله الله من أى أبواب الجنة الثمانية. شاء».

وفى لفظ: «أدخله الله الجنة على ما كان من عمل» ولم يذكر أى أبواب الجنة الثمانية
شاء».

(١) «القول المفيد» (١/ ٧٣).

وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرَوْحٌ مِنْهُ. وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ: أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ). أَخْرَجَاهُ^(١).

● مناسبة الحديث للباب :-

قال النووي^(٢) :- هذا حديث عظيم جليل الموقع وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد. فإنه - ﷺ - جمع فيه ما يخرج عن ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها، فاقصر - ﷺ - في هذه الأحرف على ما يبين به جميعهم. أهـ.

قال عبد الله بن جبار الله^(٣) : هي ان من شهد بهذه الخمس المذكورة في الحديث عن علم ويقين تكفر ذنوبه ويدخل الجنة وهذا من فضل التوحيد.
قوله: «عن عبادة».

قال سليمان آل الشيخ^(٤) : عبادة هو ابن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أبو الوليد، أحد النقباء، بدرى مشهور من جلة الصحابة، مات بالرملة سنة أربع وثلاثين وله اثنتان وسبعون سنة. وقيل: عاش إلى خلافة معاوية.
قوله «من شهد أن لا إله إلا الله».

قال ابن عثيمين^(٥) : الشهادة لا تكون إلا عن علم سابق، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٦)، وهذا العلم قد يكون مكتسباً وقد يكون غريزياً.
فالعلم بأنه لا إله إلا الله غريزى، قال ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة»^(٧).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى «أحاديث الأنبياء» باب: «يا أهل الكتاب لا تغلو فى دينكم» (٥٤٦/٦ ح/٣٤٣٥)، ومسلم فى «الإيمان» /باب: من مات على التوحيد (٢٢٦/١ - النووي) وأحمد فى مسنده (٣١٣/٥) والترمذى فى «الإيمان» /باب: فيمن يموت وهو بشهد أن لا إله إلا الله (٢٣/٥) ح (٢٦٣٨)، والنسائى فى «الكبرى» فى التفسير /باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ (٢٣٠/٦ ح/١١١٣٢)، وابن حبان فى «صحيحة» (٢١٤/١ ح/٢٠٧ - الإحسان).
من طريق جنادة بن أبى أمية عن عبادة بن الصامت.

قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وانظر «رياض الصالحين» (ح/٤١٣) «فتح المجيد» (ح/٦٤) بتخريجنا.
(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٥١.

(٣) الجامع الفريد ١٧. (٤) «تيسير العزيز الحميد» (٥٠).

(٥) «القول المفيد» (١/٧٤ - ٧٦). (٦) الزخرف: ٨٦.

(٧) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم فى القدر (٢٠٧/١٦ - النووي) عن أبى هريرة.

وانظر كتابنا «فتح ذي الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٤٠٥).

وقد يكون مُكْتَسَباً، وذلك بتدبر آيات الله، والتفكير فيها.

ولا بد أن يوجد العلم بلا إله إلا الله ثم الشهادة بها.

قوله: ﴿أَنْ﴾.

مخففة من الثقيلة، والنطق بأن مُشَدَّدة خطأ؛ لأنَّ المشددة لا يمكن حذف اسمها، والمخففة يمكن حذفه.

قوله: ﴿لَا إِلَهَ﴾

أى: لا مألوه، وليس بمعنى لا آله، والمألوه: هو المعبود محبة وتعظيماً، تحبه وتعظمه لما تعلم من صفاته العظيمة وأفعاله الجليلة.

قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾.

أى: لا مألوه إلا الله، ولهذا حكى عن قريش قولهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾^(١).

أما قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ فهذا الثالثة باطل؛ لأنه بغير حق، فهو منفي شرعاً، وإذا انتفى شرعاً؛ فهو كالمنتفى وقوعاً؛ فلا قرار له ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾^(٢).

وبهذا يحصل الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾ وقوله تعالى حكاية عن قريش: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً﴾، وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ فهذه الآلهة مجرد أسماء لا معانى لها ولا حقيقة؛ إذ هى باطلة شرعاً، لا تستحق أن تُسمى آلهة؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق؛ كما قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

ثم قال^(٣): قوله: «من شهد أن لا إله إلا الله».

من: شرطية، وجواب الشرط: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

والشهادة: هى الاعتراف باللسان، والاعتقاد بالقلب، والتصديق بالجوارح، ولهذا لما

(٢) إبراهيم: ٢٦٠.

(١) ص: ٥.

(٣) «القول المفيد» (١/٧٨، ٧٩).

قال المنافقون للرسول ﷺ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ وهذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: الشهادة، وإن، واللام، كذبهم الله بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١) فلم ينفعهم هذا الإقرار باللسان لأنه خال من الاعتقاد بالقلب، وخال من التصديق بالعمل، فلم ينفع؛ فلا تتحقق الشهادة إلا بعقيدة في القلب، واعتراف باللسان، وتصديق بالعمل.

وقوله: «لا إله إلا الله».

أى: لا معبود على وجه يستحق أن يُعبد إلا الله، وهذه الأصنام التى تُعبد لا تستحق العبادة؛ لأنه ليس فيها من خصائص الألوهية شىء.

قال سليمان آل الشيخ (٢): «من شهد أن لا إله إلا الله» أى من تكلم بهذه الكلمة عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً، كما دل عليه قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (٣). وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤).

أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها، فإن ذلك غير نافع بالإجماع، وفى الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله: ﴿مَنْ شَهِدَ﴾ إذ كيف يشهد وهو لا يعلم، ومجرد النطق بشىء لا يسمى شهادة به.

قال بعضهم: أداة الحصر لقصر الصفة على الموصوف قصر أفراد، لأن معناه: الألوهية منحصرة فى الله الواحد فى مقابلة من يزعم اشتراك غيره معه، وليس قصر قلب لأن أحداً من الكفار لم ينفها عن الله، وإنما أشرك معه غيره).

قال القرطبي (٥): فى «المفهم على صحيح مسلم»: (باب لا يكفى مجرد التللفظ بالشهادتين، بل لابد من استيقان القلب): «هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة، القائلين بأن التللفظ بالشهادتين كاف فى الإيمان، وأحاديث هذا الباب تدل على فساده، بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها، ولأنه يلزم منه تسويع النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح، وهو باطل قطعاً» ١. هـ.

(١) سورة المنافقون آية: (١)

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٥١).

(٣) سورة محمد آية: (١٩).

(٤) الزخرف: ٨٦.

(٥) وانظر عن «فتح المجيد» (٤٩ و ٥٠) ط مؤسسة قرطبة.

قال عبدالرحمن آل الشيخ: وفي هذا الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله: ﴿مَنْ شَهِدَ﴾، فإن الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علم ويقين وإخلاص وصدق. أهد.

قال سليمان آل الشيخ^(١): ومعنى لا إله إلا الله، أى: لا معبود بحق إلا إله واحد، وهو الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٢) مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٣) فصح أن معنى الاله هو المعبود، ولهذا لما قال النبي ﷺ لكفار قريش «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾^(٤) وقال قوم هود: ﴿أَحْمِتْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذِرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾^(٥)

وهو إنما دعاهم إلى لا إله إلا الله، فهذا هو معنى لا إله إلا الله، وهو عبادة الله وترك عبادة ما سواه، وهو الكفر بالطاغوت، وإيمان بالله، فتضمنت هذه الكلمة العظيمة إن ما سوى الله ليس بآله وأن ألوهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه كما لا تصلح الألوهية لغيره فتضمنت نفى الألوهية عما سواه، وإثباتها له وحده لا شريك له وذلك يستلزم الأمر باتخاذها إلهاً وحده، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهاً وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلاً يستفتى أو يستشهد من ليس أهلاً لذلك ويدع من هو أهل له، فتقول: هذا ليس بمفتي ولا شاهد المفتي فلان، والشاهد فلان، فإن هذا أمر منه ونهي، وقد دخل في الألوهية جميع أنواع العبادة الصادرة عن تأله القلب لله بالحب والخضوع والانقياد له وحده لا شريك له، فيجب إفراد الله تعالى بها، كالدعاء والخوف والمحبة، والتوكل والإنابة، والتوبة، والذبح، والنذر، والسجود، وجميع أنواع العبادة فيجب صرف جميع ذلك لله وحده لا شريك له، فمن صرف شيئاً مما لا يصلح إلا لله من العبادات لغير الله فهو مشرك ولو نطق بـ لا إله إلا الله، إذ لم يعمل بما تقتضيه من التوحيد والإخلاص.

● ذكر نصوص العلماء في معنى الإله: قال ابن عباس رضى الله عنه: الله ذو الأولوية والعبودية على خلقه أجمعين، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٥١، ٥٢).

(٢) الأنبياء: ٢٥.

(٣) النحل: ٣٦.

(٤) ص: ٥.

(٥) الأعراف: ٧٠.

وقال الوزير أبو المظفر فى «الإفصاح» قوله: شهادة أن لا إله إلا الله، يقتضى أن يكون الشاهد عالماً بأن لا إله إلا الله.

كما قال: الله عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وينبغى أن يكون الناطق بها شاهداً فيها، فقد قال الله عز وجل ما أوضح به أن الشاهد بالحق إذا لم يكن عالماً بما شهد به، فإنه غير بالغ من الصدق به مع من شهد من ذلك بما يعلمه فى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال: واسم الله تعالى مرتفع بعد الأمن حيث إنه الواجب له الألوهية، فلا يستحقها غيره سبحانه.

قال: واقتضى الاقرار بها أن تعلم أن كل ما فيه أمانة للحدث، فإنه لا يكون إلهاً، فإذا قلت: لا إله إلا الله، فقد اشتمل نطقك هذا على أن ما سوى الله ليس بإله فيلزمك إفراده سبحانه بذلك وحده.

قال: وجملة الفائدة فى ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة هى مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله سبحانه، كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله.

وقال ابن القيم^(١): فى «البدائع» ردّاً لقول من قال: إن المستثنى مخرج من المستثنى منه.

قال: «بل هو مخرج من المستثنى منه وحكمه» (*). فلا يكون داخلياً فى المستثنى؛ إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل فى الإسلام بقوله: «لا إله إلا الله» لأنه لم يثبت الإلهية لله تعالى. وهذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفى الإلهية عما سوى الله، وإثباتها له بوصف الاختصاص. فدلالته على إثبات إلهيته أعظم من دلالة قولنا: «الله إله» ولا يستريب أحد فى هذا البتة. انتهى بمعناه.

قال سليمان آل الشيخ^(٢):- وقال أبو عبد الله القرطبى فى «التفسير»: لا إله إلا هو، أى: لا معبود إلا هو.

وقال الزمخشري: الإله من أسماء الأجناس - كالرجل والفرس - اسم يقع على كل معبود بحق أو بباطل، ثم غلب على المعبود بحق.

(١) نقلاً عن «فتح المجيد» (٥١) ط مؤسسة قرطبة.

(*) هكذا فى المطبوع.

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٥٢ - ٥٧).

وقال شيخ الإسلام: الإله هو المعبود المطاع. وقال أيضاً فى لا إله إلا الله إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد. فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذى يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التى تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع.

وقال ابن القيم رحمه الله: الإله هو الذى تأله القلوب محبة وإجلالاً وإنابة وإكراماً وتعظيماً وذلاً وخضوعاً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً.

وقال ابن رجب رحمه الله: الإله هو الذى يطاع فلا يعصى هبة له وإجلالاً ومحبة وخوفاً ورجاءً وتوكلاً عليه وسؤالاً منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقاً فى شئ من هذه الأمور التى هى من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً فى إخلاصه فى قوله: لا إله إلا الله، ونقصاً فى توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك.

وقال البقاعي: لا إله إلا الله، أى انتفى انتفاء عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً، وإنما يكون نافعاً إذا كان الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهل صرف.

وقال الطيبي: الإله فعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من آله إله، أى عبد عبادة، وهذا كثير جداً فى كلام العلماء، وهو إجماع منهم أن الإله هو المعبود. خلافاً لما يعتقد عباد القبور وأشباههم فى معنى الإله أنه الخالق أو القادر على الاختراع أو نحو هذه العبارات ويظنون أنهم إذا قالوها بهذا المعنى فقد أتوا من التوحيد بالغاية القصوى، ولو فعلوا ما فعلوا من عبادة غير الله، كدعاء الأموات، والاستغاثة بهم فى الكربات، وسؤالهم قضاء الحاجات، والنذر لهم فى الملمات، وسؤالهم الشفاعة عند رب الأرض والسموات، إلى غير ذلك من أنواع العبادات، وما شعروا أن إخوانهم من كفار العرب يشاركونهم فى هذا الإقرار، ويعرفون أن الله هو الخالق القادر على الاختراع، ويعبدونه بأنواع من العبادات، فليهن أبا جهل وأبا لهب ومن تبعهما الإسلام بحكم عباد القبور، وليهن أيضاً إخوانهم عباد ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، إذ جعل هؤلاء دينهم هو الإسلام المبرور، ولو كان معناها ما زعمه هؤلاء الجهال، لم يكن بين الرسول ﷺ وبينهم نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابته، ويلبون دعوته، إذ يقول لهم: قولوا:

لا إله إلا الله، بمعنى أنه لا قادر على الاختراع إلا الله. فكانوا يقولون: سمعنا وأطعنا. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (١) ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٢) ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ (٣) الآية، إلى غير ذلك من الآيات، لكن القوم أهل اللسان العربى علموا أنها تهدم عليهم دعاء الأموات والأصنام من الأساس، وتكب بناء سؤال الشفاعة من غير الله وصرف الإلهية لغيره لأمر الرأس، فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (٤) ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُبْتُونَ اللَّهَ﴾ (٥) ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾.

فتباً لمن كان أبو جهل ورأس الكفر من قريش وغيرهم أعلم منه به: لا إله إلا الله. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ (٦) فعرفوا أنها تقتضى عبادة ما سوى الله، وإفراد الله بالعبادة، وهكذا يقول عباد القبور إذا طلبت منهم إخلاص الدعوة والعبادة لله وحده: أترك سادتنا وشعفاءنا فى قضاء حوائجنا. فيقال لهم: وهذا الترك والإخلاص هو الحق، كما قال تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧) ف: لا إله إلا الله اشتملت على نفى وإثبات، نفتت الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلاً عن غيرهم فليس بإله، ولا له من عبادة شىء؛ وأثبتت الإلهية لله وحده، بمعنى أن العبد لا يآله غيره، أى لا يقصده بشىء من التآله وهو تعلق القلب الذى يوجب قصده بشىء من أنواع العبادة، كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك.

(١) الزخرف: ٨٧.

(٢) الزخرف: ٩.

(٣) يونس: ٣١.

(٤) الزمر: ٣.

(٥) يونس: ١٨.

(٦) الصافات: ٣٥، ٣٦.

(٧) الصافات: ٣٧.

وبالجملة: فلا ياله إلا الله، أى لا يعبد إلا هو، فمن قال هذه الكلمة عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها، من نفى الشرك وإثبات الوحدانية لله مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به، فهذا هو المسلم حقاً، فإن عمل به ظاهراً من غير اعتقاد فهو المنافق، وإن عمل بخلافها من الشرك فهو الكافر ولو قالها، ألا ترى أن المنافقين يعملون بها ظاهراً وهم فى الدرك الأسفل من النار، واليهود يقولونها وهم على ما هم عليه من الشرك والكفر، فلم تنفعهم، وكذلك من ارتد عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها، فإنه لا تنفعه، ولو قالها مائة ألف، فكذلك من يقولها ممن يصرف أنواع العبادة لغير الله، كعباد القبور والأصنام فلا تنفعهم ولا يدخلون فى الحديث الذى جاء فى فضلها، وما أشبهه من الأحاديث (*).

وقد بين النبى ﷺ ذلك بقوله: «وحده لا شريك له» تنبيهاً على أن الانسان قد يقولها وهو مشرك، كاليهود والمنافقين وعباد القبور، لما رأوا أن النبى ﷺ دعا قومه إلى قول: لا إله إلا الله، ظنوا أنه إنما دعاهم إلى النطق بها فقط، وهذا جهل عظيم، وهو عليه السلام إنما دعاهم إليها ليقولوها ويعملوا بمعناها ويتركوا عبادة غير الله، ولهذا قالوا: ﴿أَنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً﴾ فلهذا أبو عن النطق بها، وإلا فلو قالوها وبقوا على عبادة اللات والعزى ومناة لم يكونوا مسلمين، ولقاتلهم عليه السلام حتى يخلعوا الأنداد ويتركوا عبادتها، ويعبدوا الله وحده لا شريك له، وهذا أمر معلوم بالاضطرار من الكتاب والسنة والإجماع.

وأما عباد القبور فلم يعرفوا معنى هذه الكلمة، ولا عرفوا الإلهية المنفية عن غير الله الثابتة له وحده لا شريك له، بل لم يعرفوا من معناه إلا ما أقر به المؤمن والكافر واجتمع عليه الخلق كلهم من أن معناها لا قادر على الاختراع، أو أن معناها الإله، هو الغنى عما سواه، الفقير إليه كل ما عداه، ونحو ذلك، فهذا حق، وهو من لوازم

(*) وسيأتى فى باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، والباب الذى قبله تقسيم الإسلام إلى نوعين (الأول) الإسلام الحقيقى أو المنجى من عذاب الله يوم القيامة والنافع عند الله. وهذا التقسيم سيهل فهم كثير من الأدلة التى تشترط للشهادتين شروط، والأدلة التى تكفى فقط بتلفظ بالشهادتين وانظر أيضاً (ص) فى الفرق بين الإسلام الحكيم والإسلام المنجى الحقيقى.

الإلهية، ولكن ليس هو المراد بمعنى لا إله إلا الله، فإن هذا القدر قد عرفه الكفار، وأقروا به ولم يدعوا في آلهتهم شيئاً من ذلك، بل يقرون بفقرهم، وحاجتهم إلى الله، وإنما كانوا يعبدونهم على معنى أنهم وسائط وشفعاء عند الله في تحصيل المطالب ونجاح المآرب، وإلا فقد سلموا الخلق والملك والرزق والإحياء والإماتة، والأمر كله لله وحده لا شريك له، وقد عرفوا معنى لا إله إلا الله وأبوا عن النطق والعمل بها، فلم ينفعهم توحيد الربوبية مع الشرك في الإلهية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١).

وعباد القبور نطقوا بها وجعلوها معناها، وأبوا عن الإتيان به، فصاروا كاليهود الذين يقولونها ولا يعرفون معناها ولا يعملون بها، فتجد أحدهم يقولها وهو يؤله غير الله بالحُب والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء والتوكل والدعاء عند الكرب، ويقصده بأنواع العبادة الصادرة عن تأله قلبه لغير الله مما هو أعظم مما يفعله المشركون الأولون، ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الإيمان صادقاً أو كاذباً، ولو قيل له: احلف بحياة الشيخ فلان أو بترته ونحو ذلك، لم يحلف إن كان كاذباً، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أعظم في قلبه من رب الأرباب، وما كان الأولون هكذا، بل كانوا إذا أرادوا التشديد في اليمين حلفوا بالله تعالى كما في:

قصة القسامة التي وقعت في الجاهلية، وهي في «صحيح البخارى» (٢) وكثير منهم وأكثرهم يرى أن الاستغاثة بالله الذي يعبد عند قبره أو غيره أنفع وأنجح من الاستغاثة بالله في المسجد، ويصرحون بذلك، والحكاية عنهم بذلك فيها طول، وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين، وكلهم إذا أصابتهم الشدائد أخلصوا للمدفونين في التراب، وهتفوا باسمائهم ودعواهم ليكشفوا ضر المصاب في البر والبحر والسفر والإياب.

وهذا أمر ما فعله الأولون، بل هم في هذه الحال يخلصون للكبير المتعال، فاقراً قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (٣) الآية.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ﴾ * ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٤).

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٨٤٥) عن ابن عباس به.

(٣) العنكبوت: ٦٥.

(٤) النحل: ٥٣، ٥٤.

وكثير منهم قد عطلوا المساجد وعمروا القبور والمشاهد، فإذا قصد أحدهم القبر الذى يعظمه أخذ فى دعاء صاحبه باكياً خاضعاً ذليلاً خاضعاً، بحيث لا يحصل له ذلك فى الجمعة والجماعات وقيام الليل وإدبار الصلوات، فيسألونهم مغفرة الذنوب وتفريج الكرب والنجاة من النار، وأن يحطوا عنهم الأوزار، فكيف يظن عاقل فضلاً عن عالم أن التلفظ ب: لا إله إلا الله مع هذه الأمور تنفعهم؟ وهم إنما قالوها بالسستهم وخالفوها باعتقادهم وأعمالهم، ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين ونطق أيضاً بشهادة أن محمداً رسول الله ولم يعرف معنى الإله ولا معنى الرسول وصلى وصام وحج ولا يدري ما ذلك إلا أنه رأى الناس يفعلونه فتابعهم ولم يفعل شيئاً من الشرك، فإنه لا يشك أحد فى عدم إسلامه، وقد أفتى بذلك فقهاء المغرب كلهم فى أول القرن الحادى عشر أو قبله فى شخص كان كذلك كما ذكره صاحب «الدر الثمين فى شرح المرشد المعين» من المالكية، ثم قال شارحه: وهذا الذى أفتوا به جلى فى غاية الجلاء، لا يمكن أن يختلف فيه اثنان. انتهى^(١). ولا ريب أن عباد القبور أشد من هذا لأنهم اعتقدوا الإلهية فى أرباب متفرقين.

فإن قيل: قد تبين معنى الإله والإلهية، فما الجواب عن قول من قال: بأن معنى الإله القادر على الإختراع ونحو هذه العبارة؟

قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذا قول مبتدع لا يعرف أحد قاله من العلماء ولا من أئمة اللغة، وكلام العلماء وأئمة اللغة هو معنى ما ذكرنا كما تقدم فيكون هذا القول باطلاً.

الثانى: على تقدير تسليمه فهو تفسير باللازم للإله الحق فإن اللازم له أن يكون خالفاً قادراً على الإختراع، ومتى لم يكن كذلك، فليس بإله حق وإن سمي إلهاً، وليس مراده أن من عرف أن الإله هو القادر على الإختراع، فقد دخل فى الإسلام وأتى بتحقيق المرام من مفتاح دار السلام، فإن هذا لا يقوله أحد، لأنه يستلزم أن يكون كفار العرب مسلمين، ولو قدر أن بعض المتأخرين أرادوا ذلك فهو مخطئ يرد عليه بالدلائل السمعية والعقلية. أ. هـ.

● التوحيد عند المتكلمين:

(١) وما قاله الشيخ رحمه الله تعالى فيه نظر، وانظر باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله وباب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله. وانظر ص ٣٨٠ (فى الفرق بين الإسلام الحكيم والإسلام النجى عند الله تعالى) فى هذا الباب.

قال ابن عثيمين^(١):

يقولون: إنَّ معنى إله: آله، والآله: القادر على الإختراع؛ فيكون معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الإختراع إلا الله.

والتوحيد عندهم: أن توحيد الله، فتقول: هو واحد فى ذاته لا قسيم له، وواحد فى أفعاله لا شريك له، وواحد فى صفاته لا شبهة له، ولو كان هذا معنى لا إله إلا الله؛ لما أنكرت قريش على النبي ﷺ دعوته ولأمنت به وصدقت؛ لأنَّ قريشاً تقول: لا خالق إلا الله، و(لا خالق) أبلغ من كلمة (لا قادر)؛ لأنَّ القادر قد يفعل وقد لا يفعل، أمَّا الخالق؛ فقد فعل وحقق بقدرة منه، فصار فهم المشركين خيراً من فهم هؤلاء المتكلمين والمتنسبين للإسلام؛ فالتوحيد الذى جاءت به الرُّسل فى قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٢)؛ أى: من إله حقيقى يستحق أن يُعبد، وهو الله.

ومن المؤسف أنَّه يوجد كثير من الكتاب الآن الذين يكتبون فى هذه الأبواب تجدهم عندما يتكلمون على التوحيد لا يقرُّون أكثر من توحيد الربوبية، وهذا غلط ونقص عظيم، ويجب أن نغرس فى قلوب المسلمين توحيد الألوهية أكثر من توحيد الربوبية؛ لأنَّ توحيد الربوبية لم يُنكره أحد إنكاراً حقيقياً، فكوننا لا نقرر إلا هذا الأمر الفطرى المعلوم بالعقل، ونسكت عن الأمر الذى يغلب فيه الهوى هو نقص عظيم؛ فعبادة غير الله هى التى يسيطر هوى الإنسان على نفسه حتى يصرفه عن عبادة الله وحده، فيعبد الأولياء ويعبد هواه، حتى جعل النبي ﷺ الذى همَّ الدرهم والدينار ونحوهما عابداً^(٣)، وقال الله - عز وجل -: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾^(٤).

فالمعاصى من حيث المعنى العام أو الجنس العام يمكن أن نعتبرها من الشرك.

وأما بالمعنى الأخص؛ فتنقسم إلى أنواع:

- ١ - شرك أكبر.
- ٢ - شرك أصغر.
- ٣ - معصية كبيرة.
- ٤ - معصية صغيرة.

(١) «القول المفيد» (١/ ٧٦ - ٧٨).

(٢) سورة الأعراف آية: ٥٩.

(٤) سورة الجاثية آية: ٢٣.

(٣) سيأتى تخريجه.

وهذه المعاصي منها ما يتعلّق بحق الله، ومنها ما يتعلّق بحق الإنسان نفسه، ومنها ما يتعلّق بحق الخلق.

وتحقيق لا إله إلا الله أمر فى غاية الصعوبة، ولهذا قال بعض السلف: «كل معصية؛ فهى نوع من الشرك».

وقال بعض السلف: «ما جاهدت نفسى على شىء مجاهدتها على الإخلاص»، ولا يعرف هذا إلا المؤمن، أما غير المؤمن؛ فلا يُجاهد نفسه على الإخلاص. قلت: وهذا مؤدى كلام سفيان حين قال ما جاهدت شيئاً أشد على من نيتى.

ولهذا قيل لابن عباس: «إن اليهود يقولون: نحن لا نوسوس فى الصلاة. قال: فما يصنع الشيطان بقلب خرب؟!»؛ فالشيطان لا يأتى ليخرّب المهدوم، ولكن يأتى ليخرّب المعمور، ولهذا لما شكى إلى النبى ﷺ أن الرجل يجد فى نفسه ما يستعظم أن يتكلّم به؛ قال: «وجدتم ذلك؟» قالوا: نعم. قال: «ذاك صريح الإيمان»^(١)؛ أى: أن ذاك هو العلامة البينة على أن إيمانكم صريح؛ لأنّه ورد عليه، ولا يرد إلا على قلب صحيح خالص.

● شروط لا إله إلا الله حتى تنفع صاحبها يوم القيامة^(٢).

ذكر صاحب «معارج القبول» شروطاً سبعة لهذه الكلمة حتى تنفع صاحبها فى الآخرة وهى مستنبطة من الكتاب والسنة وهى:

(الأول) - العلم بمعناها نفيّاً، وإثباتاً: نفيّاً للألوهية، واستحقاق العبادة عن غير الله، وهو الكفر بالطاغوت. وإثباتاً للألوهية لله وحده وهو - الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾^(٣) فبدأ بالعلم قبل العمل، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ﴾^(٤)، فسرّها غير واحد من السلف أنها: لا إله إلا الله.

الثانى - اليقين المتافى للشك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٤٣٠/ ٢٠٩) عن أبى هريرة به.

(٢) فضل الغنى الحميد ٥٤ - ٦٠.

(٣) البقرة: ٢٥٦.

(٤) محمد: ١٩.

ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١﴾، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة» (٢).

الثالث - القبول المنافى للاستكبار، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣).

الرابع - الانقياد لما دلت عليه، المنافى للإباء والرد، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (٤)، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥)، وقال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦).

والمقصود بالانقياد - الذى هو شرط فى أصل الإيمان: انقياد القلب، وهو شئ زائد على مجرد المعرفة والتصديق، فهو رؤية العبد أن عليه أن يطيع الله عز وجل، وإذا قصر فى الطاعة، أو عصى؛ فهو ظالم لنفسه، وأما الانقياد بالجوارح، وترك المعاصى فهو شرط فى كمال الإيمان الواجب، لا فى أصل الإيمان، وتأمل قصة آدم وإبليس لتعرف الفرق: فآدم عليه السلام عصى ربه، وأكل من الشجرة، ولكنه لم يفقد من قلبه الانقياد فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٧). وإبليس عصى، ورد الأمر على الله فقال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ﴾ (٨). مع كونه كان مصدقاً بالأمر، عارفاً بوجود الله، وربوبيته، فكفر بذلك الإباء والرد لانتفاء الانقياد الباطن، واستحلال المعصية، وترك الواجب، فمعصية آدم لم تكن كفراً، ومعصية إبليس كانت كفراً، فتنبه لهذا الفرق.

ولا خلاف بين أهل السنة فى ذلك: أن من انتفى عنه الانقياد الظاهر مع بقاء الانقياد الباطن لا يكفر، إلا ما كان من اختلافهم فى تكفير تارك الصلاة تكاسلاً، وكذا الصوم، والزكاة والحج وإن كان الراجح - وهو قول جمهور أهل السنة - ألا يكفر، لما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «يقول الله عز وجل: شفعت

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الإيمان» (١/٢٤٩/٤٤).

(٤) لقمان: ٢٢.

(٦) البقرة: ٣٤.

(٨) الحجر: ٣٣.

(١) الحجرات: ١٥.

(٣) الصافات: ٣٥.

(٥) النساء: ٦٥.

(٧) الأعراف: ٢٣.

الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط» - الحديث، وفي آخره قال رسول الله ﷺ: «هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه»^(١).

وهو من أصرح الأدلة على ذلك، ولا يصح حمله على من يكون في آخر الزمان ممن لم يبلغهم فرض الصلاة وغيره، فإن هؤلاء - إذ لم يبلغهم وجوب هذه الأشياء - لا يستحقون عذاباً، إذ من شروط التكليف العلم، أو التمكن منه، وهؤلاء عاجزون؛ لاندثار الشرائع كلها، والأحاديث الواردة إنما هي في خروج عصاة الموحدين من النار.

وكذلك لا يصح تقييدها بالأحاديث الواردة في وجوب الأعمال، وكفر تارك الصلاة؛ لأن مقتضى ذلك التقييد؛ أن يكون من يحافظ على الصلوات الخمس في مواقيتها؛ لم يعمل خيراً قط، وأى خير أكثر من الصلاة؟! وأحاديث التكفير يصح حملها على: كفر دون كفر. ويؤيد ذلك قول أبى بكر رضى الله عنه: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»^(٢)، فهو دليل واضح على عدم الفرق بينهما عند الصحابة، وهى قريبتها فى القرآن، مع ما قد ورد فى مانع الزكاة أنه يعذب يوم القيامة؛ لقوله ﷺ: «ثم يرى سبيله: إما إلى الجنة، وإما إلى النار»^(٣). والله تعالى أعلم.

هذا إذا مات تارك الصلاة على التوحيد، وإلا فما أقرب الفتنة إليه، وما أسهل تسلط الشيطان عليه خاصة عند الموت، وأبواب الكفر مفتوحة عليه، وسوء الخاتمة أقرب إليه، نعوذ بالله من ذلك.

واعلم أن هذا الخلاف فى تكفير تارك الصلاة، وباقي المباني الأربعة تكاسلاً من الخلاف السائغ عند أهل السنة؛ لا يُبدع ولا يُضلل فيه المخالف عند أحد من أهل العلم.

الخامس - الصدق المنافى للكذب، قال الله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ»^(٤)، وفى الصحيحين عن معاذ - رضى الله عنه - مرفوعاً: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار»^(٥).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٤٣٩)، ومسلم فى الإيمان (٢/٢٤/٣٠٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٤٠٢)، ومسلم فى الزكاة (٧/٦٤-النووى)، وانظر «رياض

الصالحين» (١٢١٧- بتخريجنا) ..

(٥) تقدم تخريجه تحت شرح حديث معاذ السابق ..

(٤) البقرة: ٨

السادس - الإخلاص، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(١)، وقال النبي ﷺ: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»^(٢).

السابع - المحبة: محبة الله، ورسوله، والمؤمنين، وبغض الكافرين والمنافقين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾^(٣)، وقال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده، وولده، والناس أجمعين»^(٤).

● تنبيهات هامة:

١ - اعلم: أن شروط كلمة التوحيد ليست منحصرة في الشروط السبعة السابقة، بل كل عمل من أعمال القلب الواجبة شرط في قبولها يوم القيامة كذلك، كما يدل عليه القرآن.

فالتوكل من شروطها: قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٥). والخوف من الله من شروطها: قال تعالى: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٦). والرجاء والرجبة إلى الله من شروطها، قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾^(٧). ولا يتصور مؤمن ليس في قلبه ولو مشقال ذرة من التوكل، والخوف، والرجاء، وشكر نعمة الله، والصبر، والرضا، وسائر أعمال القلوب - التي سبق بيانها في عبادات القلب - وكذا النطق بالشهادتين باللسان مع القدرة؛ من شروط نفعها في الآخرة فلا يكفي الاعتقاد الباطن دون نطق.

٢ - هذه الشروط يتفاوت الناس فيها: زيادة، ونقصاناً؛ لأنها من الإيمان، والإيمان يزيد وينقص عند أهل السنة، كما دل عليه القرآن، والسنة، وإجماع السلف، فمثلاً، العلم يتفاوت: فحقيقة العلم بمعنى لا إله إلا الله على الكمال: هو العلم بالدين كله، إذ معناها: لا معبود بحق إلا الله. والعبادة تشمل الدين كله، وكلما ازداد الإنسان علماً

(١) البينة: ٥.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) المائدة: ٥٤.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٥)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٢٩٠ / ٧٠). عن أنس به.

(٥) المائدة: ٢٣.

(٦) آل عمران: ١٧٥.

(٧) الأنبياء: ٩٠.

بشيء من الدين؛ ازداد تحقيقاً لمعنى لا إله إلا الله، وقد يكون الإنسان جاهلاً بأن الأمر
الفلاني عبادة، ثم يعلم الآية أو الحديث؛ فيصير بهما عالماً، وكان قبل ذلك جاهلاً،
ولم يكن كافراً، فالذي هو شرط في أهل الإيمان - أى: في قبول لا إله إلا الله من
العبد يوم القيامة لنجاته من الخلود في النار - أهل كل شرط من هذه الشروط.

فأصل التعلم شرط، أو على الصحيح ركن من أركان الإيمان، ونعني به العلم
الإجمالي ومعناه أن لا يُعبد إلا الله.

وأصل الانقياد شرط أو ركن من أركان الإيمان ونعني به الانقياد القلبي والخضوع
الباطن لله سبحانه.

وأصل اليقين شرط أو ركن من شروط أو أركان الإيمان ونعني به زوال الشك
والتكذيب. وهكذا، وإلا فاليقين أيضاً يتفاوت وليس كل نقص فيه يكون شكاً، قال
تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ
لَيُظْمِنَنَّ قَلْبِي﴾^(١)، وكمال هذه الشروط؛ شرط في كمال الإيمان وجوباً واستحباباً.

● الفرق بين الاسلام الحكيم والاسلام المنجى عند الله تعالى:

٣ - هذه الشروط ليست شروطاً في قبول الإسلام الظاهر في الدنيا بل في نفع
صاحبه في الآخرة وتأمل جميع الأدلة التي ذكرت في كون هذه الأعمال شروطاً تجدها
إنما هي في أمر الآخرة «حرمه الله على النار»، و«دخل الجنة»، ونحو ذلك، وليس في
ثبوت عصمة الدم، والمال، بل النطق بها مع شهادة أن محمداً رسول الله، كاف في
عصمة الدم، والمال، وثبوت حكم الإسلام ظاهراً، وجريان أحكام الإسلام على صاحبها
في الدنيا، كما سيأتي له مزيد بيان - إن شاء الله - واحذر مما وقع فيه أهل البدع من
الخلط بين الأمرين^(٢) لكن من صرح بعد نطقه بكلامه الواضح الصريح أنه قد انتفى من
قلبه شيء من هذه الشروط، كمن سمعناه يقول بلسانه أنه يشك في صدق هذه الكلمة،
أو في صدق الرسول، والقرآن، فهو مرتد بهذا الكلام، وليس كافراً أصلياً، وبينهما من
الفروق ما يذكر تفصيله في كتب الفقه، وذلك أنه ثبت له حكم الإسلام ظاهراً بالنطق
المجرد ثم لما قال ذلك صار مرتدّاً، وإن كان هو عند الله، وفي الآخرة - إذا كان شكه
من أول نطقه بالشهادين - كافراً من البداية لأن اليقين وغيره من الشروط، شرط في

(١) البقرة: ٢٦٠.

(٢) يعني: قبول الإسلام ظاهراً في الدنيا ونفع صاحبه في الآخرة.

صحة الإسلام، والإيمان، باطناً، وهذا الأمر لا علم لنا به؛ لأننا لم نؤمر أن ننشق عن قلوب الناس، وإنما صاحبه الذى يخبر به، فهو إن كان كذلك كان من المنافقين، وهم مسلمون فى الظاهر، فلو أن ذمياً - يهودياً أو نصرانياً - نطق الشهادتين، ودخل فى الإسلام، ثم قال بعد ذلك: أنه عند قوله لهما لم يكن صادقاً، أو لم يكن محباً لله، ولرسوله ﷺ، لم يقبل قوله ذلك حتى يجعل ذمياً يقر بالجزية كما كان، بل هو مرتد لا يقبل منه إلا الإسلام أو السيف.

٤ - لا يلزم المسلم حفظ هذه الشروط وعدها، بل المقصود وجودها فى قلبه، ووجود كمالها الواجب فى قلبه، ولسانه، وجوارحه، وما أحسن ما مقاله الشيخ أحمد حسمى فى «معارج القبول» حيث قال: «ومعنى استكمالها اجتماعها فى العبد والتزامه إياها بدون مناقضة لشيء منها، وليس المراد من ذلك عد ألفاظها، وحفظها فكم من عامى اجتمعت فيه، والتزمها، ولو قيل له أعددها لم يحسن ذلك، وكم حافظ لألفاظها يجرى فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها، والتوفيق بيد الله والله المستعان» اهـ. قوله: «وحده لا شريك له».

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): قوله: (وحده) تأكيد للإثبات، «لا شريك له» تأكيد للنفى. قاله الحافظ. كما قال تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٢). وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٣). وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(٤). فأجابوه رداً عليه بقولهم: ﴿أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾^(٥)؟ وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾^(٦).

فتضمن ذلك نفى الإلهية عما سوى الله. وهى العبادة، وإثباتها لله وحده لا شريك له، والقرآن من أوله إلى آخره يبين هذا ويقرره ويرشد إليه.

فالعبادة بجميع أنواعها إنما تصدر عن تأله القلب بالحب والخضوع والتذلل. رعباً ورهباً، وهذا كله لا يستحقه إلا الله تعالى: كما تقدم فى أدلة هذا الباب وما قبله. فمن صرف من ذلك شيئاً لغير الله فقد جعله الله ندأ، فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل.

(٢) البقرة: ١٦٣.

(٤) الأعراف: ٦٥.

(٦) الحج: ٦٢.

(١) «فتح المجيد» (٥٠ و ٥١).

(٣) الأنبياء: ٢٥.

(٥) الأعراف: ٧٠.

قال ابن عثيمين^(١): ولهذا كان النبي ﷺ وغيره من المؤمنين يلجؤون إلى الله تعالى عند الشدائد؛ فقد جاء إعرابى إلى النبي ﷺ وعنده أصحابه، وقد علّق سيفه على شجرة فاخترطه الأعرابى، وقال: من يمنعك منى؟ قال: «يمنعني الله»^(٢)، ولم يقل أصحابى، وهذا هو تحقيق توحيد الربوبية؛ لأن الله هو الذى يملك النفع، والضّر، والخلق، والتدبير، والتصرف فى الملك، إذ لا شريك له فيما يختص به من الربوبية والألوهية. والأسماء والصفات.

وقولنا فيما يختص به حتى نسلم من شبهات كثيرة، منها شبهات النافين للصفات؛ لأنّ النّافين للصفات زعموا أنّ إثبات الصفات إشراك بالله - عز وجل -، حيث قالوا: يلزم من ذلك التمثيل، لكننا نقول: للخالق صفات تختص به، وللمخلوق صفات تختص به.

قوله: «وأنّ محمداً عبده ورسوله».

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): أى: وشهد بذلك، وهو معطوف على ما قبله على نية تكرار العامل، ومعنى «العبد» هنا: المملوك العابد، أى: إنه مملوك لله تعالى. والعبودية الخاصة وصفه، كما قال تعالى: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ»^(٤) فأعلى مراتب العبد العبودية الخاصة والرسالة، فالنبي ﷺ أكمل الخلق فى هاتين الصفتين الشريفتين. وأما الربوبية والإلهية، فهما حق الله تعالى، لا يشركه فى شىء منهما ملكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نبيٌ مرسل.

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قيل: وقدم العبد هنا على الرسول ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، وجمع بينهما لدفع الإفراط والتفريط الذى وقع فى شأن عيسى عليه السلام.

وقد أكد النّبي ﷺ هذا المعنى بقوله: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(٦) وذلك يتضمن تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما

(١) «القول المفيد» (١/٧٩ و ٨٠).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤١٣٦)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٣/٣٨٩/٣١١).

(٣) «فتح المجيد» ٥٤ ط مؤسسة قرطبة.

(٤) الزمر: ٣٦.

(٥) «تيسير العزيز الحميد» (٥٧).

(٦) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٤٥) عن عمر به.

وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ٣٤٣) بتخريجنا.

أمر، والانتهاه عما نهى عنه وزجر، فلا يكون كامل الشهادة له بالرسالة من ترك أمره وأطاع غيره، وارتكب نهيه.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): فإن كثيراً من يدعى أنه من أمته أفرط بالغلو قولاً وفعلًا، وفرط بترك متابعتة، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به، وتصف في تأويل أخباره وأحكامه، بصرفها عن مدلولها، والصُدوف عن الانقياد لها مع إطراحها، فإن شهادة أن محمداً رسول الله تَقْتَضِي الإيمان به، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاه عما نهى عنه وزجر، وأن يعظم أمره ونهيه، ولا يُقدّم عليه قول أحد كائناً من كان. والواقع اليوم وقبله - ممن يتسبب إلى العلم من القضاة والمفتين - خلاف ذلك، والله المستعان.

وروى الدارمي في «مسنده» عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه كان يقول: «إنّا لنجد صفة رسول الله ﷺ: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَحَرِزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمِيَّتُهُ الْمُتَوَكِّلُ، لَيْسَ يَفْظَ وَلَا غَلِيظَ، وَلَا صَخَّابَ بِالْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَتَجَاوَزُ، وَلَنْ أَقْبِضَهُ حَتَّى يُقِيمَ الْمِلَّةَ الْمُتَعَوِّجَةَ، بَأَنْ يَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَفْتَحُ بِهِ أَغْنِيَا عُمِيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»^(٢) قال عطاء بن يسار: وأخبرني أبو واقد الليثي: أنه سمع كعباً يقول مثل ما قال ابن سلام.

قال ابن عثيمين^(٣): فالرسول ﷺ عبدٌ مربوب، جميع خصائص البشرية تلحقه ما عدا شيئاً واحداً، وهو ما يعود بأسافل الأخلاق؛ فهو ممنوع منه، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾^(٥) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا^(٥).

فهو بشرٌ مثلنا؛ إلا أنه يُوحى إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾^(٦).

ومن قال: إنَّ الرسول ﷺ ليس له ظل، أو أن نوره يطفىء ظله إذا مشى في الشمس؛ فكله كذب باطل، ولهذا قالت عائشة رضى الله عنها: «كنت أمدّ رجلى بين

(١) تيسير العزيز الحميد.

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري (٢١٢٥) وأخرجه أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص. وانظر تمام تخريجه في «فتح المجيد» (٦٦) بتخريجنا.

(٣) القول المفيد ٨٠ / ٨٤ - ٨٨.

(٤) الأعراف: ١٨٨.

(٥) البجن: ٢٢ / ٢١.

(٦) الكهف آية: ١١٠.

يديه، وتعتذر بأن البيوت ليس فيها مصابيح»^(١)، فلو كان النبي ﷺ له نور؛ لم تعتذر رضى الله عنها، ولكنه الغلو الذى أفسد الدين والدنيا، والعياذ بالله.

ومن الغلو قول البوصيرى فى «البردة» المشهورة:

يا أكرم الخلق ما لى من ألوذه سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن آخذاً يوم المعاد يدى فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

قال ابن رجب وغيره: إنه لم يترك الله شيئاً ما دامت الدنيا والآخرة من جود الرسول

ﷺ.

ونشهد أن من يقول هذا؛ ما شهد أن محمداً عبد الله، بل شهد أن محمداً فوق الله! كيف يصل بهم الغلو إلى هذا الحد؟!.

وهذا الغلو فوق غلو النصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن الله، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة.

هم قالوا فوق ذلك، قالوا: إن الله يقول: «من ذكرنى فى ملاً ذكرته فى ملاً خير منه، وأنا مع عبدى إذا ذكرنى»^(٢)، والرسول معنا إذا ذكرناه، ولهذا كان أولئك الغلاة ليلة المولد إذا تلى التالى «المُخَرَّف» كلمة المصطفى قاموا جميعاً قيام رجل واحد، يقولون: لأنَّ الرسول الله ﷺ حضر مجلسنا بنفسه، فقمنا إجلالاً له، والصحابة رضى الله عنهم أشدَّ إجلالاً منهم ومناً، ومع ذلك إذا دخل عليهم الرسول ﷺ وهو حىَّ يكلمهم لا يقومون، وهؤلاء يقومون إذا تخللوا أو جاءهم شيخ إن كانوا يشاهدون شيئاً؛ فانظر كيف بلغت بهم عقولهم إلى هذا الحد! فهؤلاء ما شهدوا أن محمداً عبد الله ورسوله، وهؤلاء المخرفون مساكين، إن نظرنا إليهم بعين القدر؛ فنرقُّ لهم، ونسأل الله لهم السلامة والعافية، وإن نظرنا إليهم بعين الشرع؛ فإننا يجب أن ننازلهم بالحجة حتى يعودوا إلى الصراط المستقيم، والرسول ﷺ أشدَّ الناس عبودية لله، أخشاهم لله، وأتقاهم لله، قام يصلى حتى تورمت قدماءه، وقيل له فى ذلك؛ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٣)، وقد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، هذا تحقيق العبادة العظيمة.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥١٣)، ومسلم فى الصلاة (٢/٤٦٩/٢٧٢).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٤٥)، ومسلم فى الذكر والدعاء (٢/٣١٥ - النووى).

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٤٤١).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٨٣٧)، ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (١٧/١٦٢ - النووى).

عن عائشة به.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٩٩).

أما الرسالة؛ فهو رسول أرسله الله - عز وجل - بأعظم شريعة إلى جميع الخلق، فبلغها غاية البلاغ، مع أنه أودى وقوتل، حتى إنهم جاؤوا بسلا الجزور وهو ساجد عند الكعبة ووضعوه على ظهره، كل ذلك كراهية له ولما جاء به، ومع ذلك صبر، يلقون الأذى والأتان والأقذار على عتبة بابنه، لكن هذا للنبي الكريم امتحان من الله - عز وجل -؛ لأجل أن يتبين صبره وفضله، يخرج ويقول: «أى جوار هذا يابنى عبد مناف من قبل قريش؟»^(١)، فصبر ﷺ حتى فتح الله عليه، وأنذر أم القرى ومن حولها، ثم إنه حمل هذه الشريعة من بعده أشد الناس أمانةً وأقواهم على الاتباع؛ الصحابة رضی الله عنهم، وأدّوها إلى الأمة نقيّة سليمة، والله الحمد.

ونحبُّ الرسول ﷺ لله وفي الله؛ فحبُّ الرسول ﷺ من حبِّ الله، ونقدّمه على أنفسنا وأهلنا وأولادنا والناس أجمعين، وأحبيناه من أجل أنه رسول الله ﷺ. ونحقق شهادة أن محمداً رسول الله، وذلك بأن نعتقد ذلك بقلوبنا، ونعترف به باللسان، ونطبّق ذلك في متابعتنا ﷺ بجوارحنا، فنعمل بهديه، ولا نعمل له. أما ما ينقض تحقيق هذه الشهادة؛ فهو:

١ - فعل المعاصي؛ فالمعصية نقص في تحقيق هذه الشهادة؛ لأنك خرجت بمعصيتك من اتباع النبي ﷺ.

٢ - الابتداع في الدين ما ليس منه؛ لأنك تقربت إلى الله بما لم يشرعه الله ولا رسوله ﷺ، والابتداع في الدين في الحقيقة من الاستهزاء بالله؛ لأنك تقربت إليه بشيء لم يشرعه.

فإن قال قائل: أنا نويت التقرب إلى الله بهذا العمل الذي أبتدعه. قيل له: أنت أخطأت الطريق؛ فتعذّر على نيتك، ولا تعذر على مخالفة الطريق متى علمت الحق.

فالمبتدعون قد يقال: إنهم يثابون على حسن نيتهم إذا كانوا لا يعلمون الحق، ولكننا نُخطئهم فيما ذهبوا إليه، أما أئمتهم الذين علموا الحق، ولكن ردّوه لييقوا جاههم؛ ففيهم شبه بأبى جهل، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، وغيرهم الذين قابلوا رسالة النبي ﷺ بالرد إبقاءً على رئاستهم وجاههم.

أما بالنسبة لاتباع هؤلاء الأئمة؛ فينقسمون إلى قسمين:

(١) ذكره ابن هشام في «السيرة» (٢/٢٥).

القسم الأول: الذين جهلوا الحق، فلم يعلموا عنه شيئاً، ولم يحصل منهم تقصير فى طلبه، حيث ظنوا أن ما هم عليه هو الحق؛ فهؤلاء معذورون.

القسم الثانى: من علموا الحق، ولكنهم ردّوه تعصباً لأنتمهم؛ فهؤلاء لا يعذرون، وهم كمن قال الله فيهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ﴾ (١).

قوله: «وأن عيسى عبد الله ورسوله».

قال ابن حجر^(٢): زاد ابن المدينى فى روايته «وابن أُمته» قال القرطبى: مقصود هذا الحديث التنبيه على ما وقع للنصارى من الضلال فى عيسى وأمه، ويستفاد منه ما يلقيه النصرانى إذا أسلم.

قال النووى: هذا حديث عظيم الموقع، وهو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد فإنه جمع فيه ما يخرج عنه جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدهم. وقال غيره: فى ذكر عيسى تعريض بالنصارى وإيذان بأن إيمانهم مع قولهم بالتثليث شرك محض، وكذا قوله «عبد» وفى ذكر «رسوله» تعريض باليهود فى إنكارهم رسالته وقذفه بما هو منزّه عنه وكذا أمه، وفى قوله «وابن أُمته» تشريف له، وكذا تسميته بالروح ووصفه بأنه «منه» كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ فالمعنى أنه كائن منه كما أن معنى الآية الأخرى أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه، أى أنه مكون كل ذلك وموجده بقدرته وحكمته. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): قوله: «وأن عيسى عبد الله ورسوله» أى: خلافاً لما يعتقده النصارى: أنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذَّاهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ (٤) فلا بد أن يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله على علم ويقين بأنه مملوك لله، خلقه من أنثى بلا ذكر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥) فليس رباً ولا إلهاً. سبحان الله عما يشركون. قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِى الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ * قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِى الْكِتَابَ وَجَعَلْنِى نَبِيًّا * وَجَعَلْنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِى وَلَمْ

(١) الزخرف: ٢٣. (٢) فتح البارى ٦/ ٥٤٧.

(٣) فتح المجيد ٥٥ و ٥٦ ط مؤسسة قرطبة.

(٤) آل عمران: ٥٩.

(٥) المؤمنون: ٩١.

يَجْعَلُنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١﴾. وقال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (٢) ويشهد المؤمن أيضاً ببطلان قول أعدائه اليهود: إنه ولد بغى، لكنهم الله تعالى. فلا يصح إسلام أحد علم ما كانوا يقولونه حتى يبرأ من قول الطائفتين جميعاً في عيسى عليه السَّلام، ويعتقد ما قاله الله تعالى فيه: أنه عبد الله ورسوله. أهـ.

قال ابن عثيمين (٣): - قوله: «وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ».

الكلام فيها كالكلام في شهادة أن محمداً رسول الله، إلا أننا نؤمن برسالة عيسى، ولا يلزمنا اتباعه إذا خالفت شريعته شريعتنا.

فشريعة من قبلنا لها ثلاث حالات:

الأولى: أن تكون مخالفة لشريعتنا؛ فالعمل على شرعنا.

الثانية: أن تكون موافقة لشريعتنا؛ فنحن متبعون لشريعتنا.

الثالثة: أن يكون مسكوتاً عنها في شريعتنا، وفي هذه الحال اختلف علماء الأصول: هل نعمل بها، أو ندعها؟

والصحيح أنها شرع لنا، ودليل ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدْ﴾ (٤).

٢ - قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٥) وقد تطرف في عيسى طائفتان:

الأولى: اليهود كذَّبوه، فقالوا بأنه ولد زنى، وأن أمه من البغايا، وأنه ليس بنبي، وقتلوه شرعاً؛ أى: محكوم عليهم عند الله أنهم قتلوه في حكم الله الشرعى؛ لقول تعالى عنهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ (٦)، وأما بالنسبة لحكم الله القدرى؛

(٢) النساء: ١٧٢.

(١) مريم: ٣٦: ٢٩.

(٤) الأنعام: ٩٠.

(٣) القول المفيد ١/ ٨٥ - ٥٩.

(٦) النساء: ١٥٧.

(٥) يوسف: ١١١.

فقد كذبوا، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، ولكن شُبِّهَ لهم، فقتلوا المُشَبَّهَ لهم وصلبوه.

الثانية: النصارى قالوا: إِنَّ ابن الله، وإنه ثالث ثلاثة، وجعلوه إلهاً مع الله، وكذبوا فيما قالوا.

أما عقيدتنا نحن فيه: فنشهد أنه عبد الله ورسوله، وأن أمه صديقة؛ كما أخبر الله تعالى بذلك، وأنها أحصنت فرجها، وأنها عذراء، ولكن مثله عند الله كمثله آدم، خلقه من تراب ثم قال له: كن؛ فيكون.

وفى قوله: «عبد الله».

رد على النصارى.

وفى قوله: «ورسوله».

رد على اليهود.

قوله: «كلمته».

قال ابن حجر^(١): إشارة إلى أنه حجة الله على عباده أبده من غير أب وأنطقه في غير أوانه وأحبى الموتى على يده، وقيل: سمي كلمة الله لأنه أوجده بقوله: «كن»، فلما كان بكلامه سمي به كما يقال: سيف الله وأسد الله، وقيل: لما قال فى صغره: إني «عبد الله».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): إنما سمي عليه السلام كلمة الله، لصدوره بكلمة كن بلا أب قاله قتادة وغيره من السلف.

قال الإمام أحمد فيما أملاه فى الرد على الجهمية: الكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له: ﴿كن﴾ فكان عيسى بـ﴿كن﴾، وليس عيسى هو كن، ولكن بـ: «كن» كان، فـ: «كن» من الله قول، وليس: «كن»، مخلوقاً، وكذب النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالت: عيسى روح الله وكلمته، إلا أن الكلمة مخلوقة. وقالت النصارى: عيسى روح الله من ذات الله، وكلمة الله من ذات الله، كما يقال: إن هذه الخرقه من هذا الثوب. وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة انتهى. يعنى به ما قال قتادة وغيره. أهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): أطلق الله عليه كلمة؛ لأنه خلق بالكلمة عليه السلام؛

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٨.

(١) فتح البارى ٥٤٧/٦.

(٣) القول المفيد ٨٦/١ - ٨٧.

فالحديث ليس على ظاهره؛ إذ عيسى عليه السلام ليس كلمة؛ لأنه يأكل، ويشرب، ويبول، ويتغوط، وتجري عليه جميع الأحوال البشرية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١).

وعيسى عليه السلام ليس كلمة الله؛ إذ أن كلام الله وصف قائم به، لا بائن منه، أمّا عيسى؛ فهو ذات بائنة عن الله - سبحانه -، يذهب ويجيء، ويأكل الطعام ويشرب. قوله: «ألقاها إلى مريم».

قال سليمان آل الشيخ (٢): قال ابن كثير: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبرائيل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسى بإذن الله عز وجل، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها، بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله عز وجل، ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه، لأنه لم يكن له أب يولد منه وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له: كن، فكان، والروح التي أرسل بها جبرائيل عليه السلام. أهـ.

قال ابن عثيمين (٣): قوله: ﴿أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾. أى: وجَّهَهَا إليها بقوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

ومريم ابنة عمران ليست أخت موسى وهارون عليهما السلام كما يظنه بعض الناس، ولكن كما قال الرسول ﷺ كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم (٤)، فهارون أخو مريم، ليس هارون أخا موسى، بل هو آخر يسمى باسمه وكذلك عمران سمي باسم أبي موسى. أهـ.

قوله: ﴿وَرَوْحٌ مِنْهُ﴾.

قال ابن حجر (٥): وأما تسميته بالروح فلما كان أقدره عليه من إحياء الموتى، وقيل لكونه ذا روح وجسد من غير جزء من ذى روح. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ (٦): قال أبي بن كعب: عيسى روح من الأرواح التي خلقها

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٨.

(٤) [صحيح] رواه مسلم (٣/١٦٨٥).

(٦) تيسير العزيز الحميد ٥٨ و٥٩.

(١) آل عمران : ٥٩

(٣) القول المفيد ١/٨٧.

(٥) فتح الباري ٦/٥٤٧ و٥٤٨.

الله عز وجل واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى مَرْيَمَ فَدَخَلَ فِيهَا (١).

وقال أبو روق: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أى نفخة منه، إذ هى من جبرائيل بأمره، وسمى روحاً لأنه حدث من نفخة جبرائيل عليه السلام.

وقال الإمام أحمد: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ يقول: من أمره كان الروح فيه، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ يقول: من أمره.

قال ابن عثيمين (٢): قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أى: صار جسده عليه السلام بالكلمة، فنفخت فيه هذه الروح التى هى من الله، أى: خلق من مخلوقاته أضيفت إليه تعالى للتشريف والتكريم.

وعيسى عليه السلام ليس روحاً، بل جسد ذو روح، قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ (٣).
فبالنفخ صار جسداً، وبالروح صار جسداً وروحاً.
قوله: ﴿مِنْهُ﴾.

هذه هى التى أضلّت النصارى، فظنوا أنه جزء من الله فضلوا وأضلوا كثيراً، ولكننا نقول: إن الله قد أعمى بصائرهم، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور، فمن المعلوم أن عيسى عليه السلام كان يأكل الطعام، وهذا شئ معروف، ومن المعلوم أيضاً أن اليهود يقولون: إنهم صلبوه، وهل يمكن لمن كان جزءاً من الرب أن ينفصل عن الرب ويأكل ويشرب ويدعى أنه قُتل وصلب؟

وعلى هذا تكون «من» للابتداء، وليست للتبعيض، فهى كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾، فلا يمكن أن نقول: إن الشمس والقمر والأنهار جزء من الله، وهذا لم يقل به أحد.

(١) [صحيح] أخرجه عبد الله بن أحمد فى «زوائد السنن» (١٥٣/٥).

ذكر السيوطى فى «الدر» (٢٦٠/٣) وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن منده فى كتاب «الرد على الجهمية والبالكانى»، وابن مردويه، والبيهقى فى «الاسماء والصفات»، وابن عساكر فى «تاريخه».

وانظر «فتح القدير» (٥٣٤٩ - بتخريجنا) و«فتح المجيد». (ح ٦٨ بتخريجنا).

(٢) المائدة ٧٥.

(٢) القول المفيد ١/ ٨٧ و٨٨.

فقلوه: ﴿مِنْهُ﴾ أى: روح صادرة من الله - عز وجل - وليست جزءاً من الله كما تزعم النصارى.

قال شيخ الإسلام^(١): المضاف إلى الله تعالى: إذا كان معنى: لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات، وجب أن يكون صفة لله تعالى قائماً به، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب، وإن كان المضاف عيناً قائماً بنفسها، كعيسى وجبرائيل عليهما السلام وأرواح بنى آدم، امتنع أن تكون صفة لله تعالى، لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره، لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين:

أحدهما: أن تكون تضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها، فهذا شامل لجميع المخلوقات، كقولهم: سماء الله، وأرض الله، ومن هذا الباب فجميع المخلوقين عبيد الله، وجميع المال مال الله، وجميع البيوت، والنوق لله.

الوجه الثانى: أن يضاف إليه لما خصه به من معنى يحبه ويأمر به ويرضاه كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون فى غيره، وكما يقال عن مال الفىء والخمس: هو مال الله ورسوله، ومن هذا الوجه، فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره، فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه انتهى ملخصاً.

والمقصود منه أن إضافة روح إلى الله هو من الوجه الثانى، والله أعلم أهـ.

وشرح ذلك ابن عثيمين فقال^(٢): واعلم أن ما أضافه الله إلى نفسه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: العين القائمة بنفسها، وإضافتها إليه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وهذه الإضافة قد تكون على سبيل عموم الخلق، كقلوه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾^(٣) وقلوه تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَأَسْعَى﴾^(٤).

وقد تكون على سبيل الخصوص لشرفه، كقلوه تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِى لِلطَّائِفِينَ﴾^(٥) وكقلوه تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾^(٦)، وهذا القسم مخلوق.

الثانى: أن يكون شيئاً مضافاً إلى عين مخلوقة يقوم بها، مثاله قلوه تعالى: ﴿رُوحٌ مِّنْهُ﴾، فإضافة هذه الروح إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه تشريقاً، فهى روح من الأرواح التى خلقها الله، وليست جزءاً أو روحاً من الله، إذ أن هذه الروح حلت فى عيسى عليه السلام، وهو عين منفصلة عن الله، وهذا القسم مخلوق أيضاً.

(٢) القول المفيد ١/ ٨٨ و٨٩ و٩٠.

(٤) العنكبوت: ٥٦.

(٦) الشمس: ١٣.

(١) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٥٩.

(٣) الجنّة: ١٣.

(٥) الحج: ٢٦.

الثالث: أن يكون وصفاً غير مضاف إلى عين مخلوقة.

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ (١).

فالرسالة والكلام أضيفا إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فإذا أضاف الله لنفسه صفة، فهذه الصفة غير مخلوقة، وبهذا يتبين أن هذه الأقسام الثلاثة قسما منها مخلوقان، وقسم غير مخلوق.

فالأعيان القائمة بنفسها والمتصل بهذه الأعيان مخلوقة، والوصف الذي لم يذكر له عين يقوم بها غير مخلوق، لأنه يكون من صفات الله، وصفات الله غير مخلوقة.

وقد اجتمع القسمان في قوله : «كلمته، وروح منه» فكلمته هذه وصف مضاف إلى الله، وعلى هذا، فتكون كلمته صفة من صفات الله.

وروح منه: هذه أضيفت إلى عين، لأن الروح حلت في عيسى، فهي مخلوقة أهد.

قلت: وعلى هذا فالرد على النصارى سهل في الحلول والتثليث أن تسألهم هل عيسى عليه السلام ذات أم صفة؟! فإن قالوا ذات قلنا يستحيل عقلاً ونقلاً أن يتحد ذاتان في ذات واحدة فضلاً عن ثلاثة في واحد فإن قالوا بل هذا مثل الشمس لها قرص وشعاع وضياء والثلاثة واحد.

والجواب من وجهين:

(الأول) أنكم شبهتهم الخالق بالمخلوق والله ليس كمثله شيء.

(الثاني) أن الشعاع والضياء صفات للشمس وليست ذوات قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي

جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ فلو كان الضياء هو هو الشمس لكان تكرار بلا فائدة.

فإن قالوا بل عيسى صفة فالجواب: لا بد للصفات من ذات تقوم فيها فلا يقول عاقل أن إنساناً ما يكون في بيته مثلاً وبعض صفاته تتمشى وحدها في الطريق وعيسى انفصل عن الذات فيبعد أن يكون صفة. والله أعلم.

قوله : «والجنة حق والنار حق».

قال سليمان آل الشيخ (٢): أى وشهد أن الجنة التي أخبر الله بها في كتابه أنه أعدها لمن آمن به وبرسوله حق، أى ثابتة لا شك فيها، وشهد أن النار التي أخبر الله في كتابه أنه أعدها للكافرين به وبرسوله حق كذلك، كما قال تعالى : ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ (٣) الآية، وقال تعالى : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٤)،

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٩ و ٦٠.

(٤) البقرة : ٢٤.

(١) الأعراف: ٤٤.

(٣) سورة الحديد : ٢١.

وفيهما دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، خلافاً لأهل البدع الذين قالوا : لا يخلقان إلا في يوم القيامة، وفيه دليل على المعاد وحشر الأجساد. أهـ.

قوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

قال ابن حجر (١): قوله: «أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة شاء» يقتضى دخوله الجنة وتخيره فى الدخول من أبوابها، وهو بخلاف ظاهر حديث أبى هريرة فى بدء الخلق فإنه يقتضى أن لكل داخل الجنة باباً معيناً يدخل منه، قال: ويجمع بينهما بأنه فى الأصل مخير، لكنه يرى أن الذى يختص به أفضل فى حقه فيختاره فيدخله مختاراً لا مجبوراً ولا ممنوعاً من الدخول من غيره.

قلت - أى: ابن حجر - ويحتمل أن يكون فاعل شاء هو الله، والمعنى أن الله يوفقه لعمل يدخله برحمة الله من الباب المعد لعامل ذلك العمل.

ثم قال: قال البيضاوى فى قوله: «على ما كان عليه من العمل» دليل على المعتزلة من وجهين: دعواهم أن العاصى يخلد فى النار، وأن من لم يتب يجب دخوله فى النار لأن قوله: «على ما كان من العمل» حال من قوله: «أدخله الله الجنة» والعمل حينئذ غير حاصل، ولا يتصور ذلك فى حق من مات قبل التوبة إلا إذا أدخل الجنة قبل العقوبة.

وأما ما ثبت من لازم أحاديث الشفاعة أن بعض العصاة يعذب ثم يخرج فيخص به هذا العموم، وإلا فالجميع تحت الرجاء، كما أنهم تحت الخوف وهذا معنى قول أهل السنة: إنهم فى خطر المشيئة. أهـ.

قال حامد بن محمد بن محسن (٢): على ما كان من العمل بعد أداء الفرائض وذلك لأنه تاركها أو بعضها إما مستحل لتركها فكافر على الإطلاق وإما مستهين بها فكافر أيضاً. وإما متكامل عنها فقد أوعده بالويل فى فرض الصلاة قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٣).

فسر بثلاثة تفاسير: فُسر بتضييع الأوقات، وقد أمر الله بمحافظتها، قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٤).

وفسر بتضييع الأركان لا يطمئن فى أركانها ولا يأتى بها على المشروع، قال رسول الله ﷺ: «أسرق السرقة من يسرق من صلاته» قالوا: كيف يسرق من صلاته؟ قال: «لا

(٢) فتح الله الحميد المجد ١١٢: ١١٤.

(١) الفتح ٥٤٨/٦.

(٤) البقرة: ٢٣٨.

(٣) الماعون: ٥، ٤.

يتم ركوعها ولا سجودها»^(١).

وفسر بعدم حضور القلب، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ^(٢) أخرجه أى البخارى ومسلم.

ثم استدل الشيخ رحمه الله بما يدل على أن المراد ليس من لا إله إلا الله، لقلقة اللسان، وقعقة الحروف، بل إنها لا تنفع قائلها إلا إذا قالها وهو يتغنى بذلك وجه الله أى يقولها إيماناً واحتساباً وإذا فى كل عمل كما قال ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً»^(٣) بمعنى أن يفعله عبادة لا عادة أى الباعث له حب الله وخوفه ورجاؤه وإلا مجرد لفظها بلا معرفة معناها والعمل بمقتضاها لا تنفع فإن المنافقين قالوها وشهدوا أن محمداً رسول الله وكذبهم الله قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾^(٤). وقالت الأعراب: آمنا، قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(٥) فبان أن القول باللسان من دون اعتراف بالجنان، وعمل بالأركان لا ينفع، كما قيل:

ما احترق لسان أحد بقول نار ولا استغنى أحد بقوله ألف دينار

وكل قول له حقيقة فإن جنت بحقيقته فصَدَقَتْ وصدقت، وقبل منك وإلا فلا.

ويزيدك وضوحاً ما ذكر أن وفد الأزد لما وفدوا على رسول الله ﷺ قال ﷺ: «من الوافد ومن القوم»؟ قالوا: إنا مؤمنون، قال ﷺ: «لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانكم»؟ قالوا: إنا مؤمنون بخمسة عشر خصلة، خمس أمرتنا رسولك أن نؤمن بها، وخمس أمرتنا رسولك أن نفعلها، وخمس كنا عليها فى الجاهلية، قال ﷺ: «ما الخمس التى أمرتكم رسلى أن تؤمنوا بها»؟ قالوا: أمرتنا رسولك أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، قال: «وما الخمس التى أمرتكم رسلى أن تفعلوها»؟ قالوا: أمرتنا رسولك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن نصلى ونزكى ونصوم ونحج، قال ﷺ: «وما الخمس التى كتتم عليها فى الجاهلية»؟ قالوا: الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضاء بمر القضاء، والثبات عند اللقاء، وترك شماتة الأعداء، قال:

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرک» (٢٢٩/١) والبيهقى فى «الكبرى» (٣٨٦/٢).

(٢) المؤمنون: ١، ٢.

(٣) أخرجه البخارى (١٩٠١)، ومسلم فى صلاح المسافرين (٦/٤٠ - النووى).

(٤) المنافقون: ١٤.

(٥) الحجرات: (١).

قال: ولهما من حديث عتبان: فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَنَغَّى بِذَلِكَ وَجَهَ اللَّهُ» (١).

«حكماء فقهاء كادوا يكونون من فقههم أنبياء»، قال ﷺ: «أنا أزيدكم بخمس: لا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، وازهدوا فيما عنه راحلون، وارغبوا فيما عليه مقبلون، وتوبوا إلى الله الذي أنتم إليه ترجعون» فتأمل.

قال ابن عثيمين (٢): قوله: «أدخله الله الجنة». إدخال الجنة ينقسم إلى قسمين:

الأول: إدخال كامل لم يسبق بعذاب من أتم العمل.

الثاني: إدخال ناقص مسبوق بعذاب من نقص العمل.

فالؤمن إذا غلبت سيئاته حسناته إن شاء الله عذبه بقدر عمله، وإن شاء لم يعذبه،

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٣). أهـ.

قوله: «ولهما من حديث عتبان: فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ... إلخ»

● مناسبة الحديث للباب:

قال عبد الله بن جابر الله (٤): ومناسبته للباب أن من وحد الله قولاً واعتقاداً وعملاً حرم الله عليه دخول النار وذلك من فضل التوحيد.

قال القرعاوي (٥): حيث دل الحديث على أن من مات مخلصاً لله التوحيد سلم من النار.

قوله: «ولهما».

أي البخاري ومسلم في «صحيحهما» وهذا الحديث طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان كما قال المصنف.

قلت: ولقد ذكره البخاري في اثني عشر موضعاً في صحيحه ولم أذكرها هنا على

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري في الصلاة: باب: المساجد في البيوت (١/٦١٨ ح ٤٢٥) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة: باب: الرخصة في التخلف عن الجماعة لعذر (٥/١٥٩ - النووي) وأحمد في مسنده (٤/٤٤)، (٥/٤٤٩).

من طريق ابن شهاب عن محمود بن الربيع الأنصاري، عن عتبان بن مالك وانظر رياض الصالحين (ح ٤١٨) بتخريجنا. و«فتح المجيد» (ح ٧٠) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ١/ ٩٠. (٣) النساء: ٤٨.

(٤) الجامع الفريد ١٧. (٥) الجديد: ٤٠.

غير العادة لعدم الإطالة وأيضاً لأن معظم هذه التبويبات بحسب فوائد الحديث وهو طويل والشاهد منه ما ذكره المصنّف فقط.

قوله: من حديث عتبان

قال ابن عثيمين^(١): هو عتبان بن مالك الأنصاري رضى الله عنه، كان يصلى بقومه، فضعف بصره، وشقَّ عليه الذهاب إليهم، فطلب من النبي ﷺ أن يخرج إليه وأن يصلى فى مكان من بيته ليتخذَه مصلىً، فخرج إليه النبي ﷺ ومعه طائفة من أصحابه، منهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، فلما دخل البيت، قال: «أين تريد أن أصلى؟» قال: صل ها هنا، وأشار إلى ناحية من البيت فصلَّى بهم النبي ﷺ ركعتين، ثم جلس على طعام صنعوه له، فجعلوا يتذاكرون، فذكروا رجلاً يقال له: مالك بن الدُخْشُم، فقال بعضهم: هو منافق، فقال رسول الله ﷺ: «لا تغل هكذا، أليس قال: لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله؟!» ثم قال: «فإن الله حرم على النار...» الحديث.

فنهاهم أن يقولوا هكذا، لأنهم لا يدرون عمّا فى قلبه، لأنّه يشهد أن لا إله إلا الله، وهنا الرسول قال هكذا، ولم يبرئ الرجل، إنّما أتى بعبارة عامة بأنّ الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يتغنى بذلك وجه الله، ونهى أن نطلق الستتة فى عباد الله الذين ظاهريهم الصلاح، ونقول: هذا مراء، هذا فاسق، وما أشبه ذلك، لأننا لو أخذنا بما نظنّ فسدت الدنيا والآخرة، فكثير من الناس نظنّ بهم سوءً، ولكن لا يجوز أن نقول ذلك وظاهريهم الصلاح، ولهذا قال العلماء: يحرم ظنّ السوء بمسلم ظاهريه العدالة. اهـ.

قال الفقير: وهذا الحديث يدل على ما تقدم من الفرق بين الإسلام الحكىمى، والحقيقى المنجى فالأول الإسلام الذى به يحكم للناس بإسلام فى الدنيا والثانى الذى له شروط سبعة بل وأكثر تنجيهم عند الله تعالى يوم القيامة، وعلى ذلك يتبين كثير من الإشكالات التى تأتى فى ظواهر الأحاديث.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): اعلم أنّه قد وردت أحاديث ظاهريها أنه من أتى بالشهادتين حرم على النار، كذا الحديث.

- وحديث أنس قال: كان النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرّحْلِ، فَقَالَ: «يَا مَعَاذُ قَالَ: لَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ

(١) القول المفيد ١/ ٩٠ و٩١.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٦٠: ٦٤.

إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ» قال: يا رسول الله ألا أخبر بها الناسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قال: «إِذَا يَتَكَلَّمُوا» فَأَخْبِرَ بِهَا مَعَاذَ مَوْتِهِ تَأْتِمًا^(١) أخرجه .

ولمسلم عن عبادة مرفوعاً: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ»^(٢).

ووردت أحاديث فيها أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة، وليس فيها أنه يحرم علي النار.

منها حديث عبادة^(٣) الذي تقدم قبل هذا.

- وحديث أبي هريرة أنهم كانوا مع النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ . . الحديث، وفيه: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهِمَا [عبد] غَيْرَ شَاكٍ فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ»^(٤) رواه مسلم.

وحديث أبي ذر في الصحيحين مرفوعاً: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ» . . الحديث^(٥).

وأحسن ما قيل في معناه ما قاله شيخ الإسلام وغيره أن هذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها ومات عليها كما جاءت مقيدة، وقالها خالصاً من قلبه مستيقناً بها قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين، فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك.

فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة وما يزن ذرة، وتواترت بأن كثيراً ممن يقول: لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها^(٦)، وتواترت بأن الله حرام على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم^(٧)، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرم على

(١) تقدم تخريجه في موضعه. (٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (١/٢٥١/٤٧).

(٣) تقدم تخريجه في موضعه. (٤) تقدم تخريجه في موضعه.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٨٢٧) ومسلم في الإيمان (١/٣٧١/١٥٤).

(٦) تقدم تحت شرح شروط لا إله إلا الله.

(٧) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم في الإيمان (١/٢٩٩/٢١) عن أبي هريرة. وانظر

تخريجنا أيضاً في «فتح المجيد» (ح٧٤) بتخريجنا.

النار من قال: لا إله إلا الله ، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله^(١) .

لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال ، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ولا اليقين ، ومن لا يعرف ذلك يخشى عليه أن يفتن عنها عند الموت ، فيحال بينه وبينها ، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة ، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء كما في الحديث :

«سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُ»^(١) وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم وهم أقرب الناس من قوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ وحینئذ فلا منافاة بين الأحاديث ، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام ، لم يكن في هذه الحال مصراً على ذنب أصلاً ، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء ، فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهية لما أمر الله ، وهذا هو الذي يحرم من النار ، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك ، فإن هذا الإيمان ، وهذه التوبة ، وهذا الإخلاص ، وهذه المحبة ، وهذا اليقين ، لا يتركون له ذنباً إلا يمحي كما يمحي الليل بالنهار ، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر فهذا غير مصر على ذنب أصلاً ، فيغفر له ويحرم على النار ، وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك ، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات فيرجح بها ميزان الحسنات . كما في حديث البطاقة^(٢) فيحرم على النار ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه ، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته على حسناته ومات مصراً على ذلك ، فإنه يستوجب النار ، وإن قال : لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر ، ولكنه لم يمت على ذلك ، بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيد ، فإنه في حال قولها كان مخلصاً ، لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته ، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك ، بخلاف المخلص المستيقن ، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته ، ولا يكون مصراً على سيئة ، فإن مات على ذلك دخل الجنة ، وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئات راجحة يضعف إيمانه ، فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات ، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر ، فإن سلم من الأكبر بقى معه من الأصغر فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك ، فيرجح جانب السيئات ، فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين ، فيضعف بذلك قوله : لا إله إلا الله فيمتنع الإخلاص في القلب ، فيصير المتكلم بها

(١) تقدم تحت شرح حديث معاذ السابق .

(٣) سيأتي تخريجه .

(٢) تقدم تحت شرح قوله تعالى : ﴿ أولئك لهم الأمن... ﴾ الآية

كالهاذى أو النائم، أو من يُحسِّن صوته بآية من القرآن من غير ذوق طعم ولا حلاوة، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقص ذلك الصدق واليقين، بل يقولونها من غير يقين وصدق، ويموتون على ذلك ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة، وإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها. وقسى القلب عن قولها، وكره العمل الصالح، وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر بذكر غيره واطمأن إلى الباطل واستحلى الرفث ومخالطة أهل الغفلة، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس فى قلبه، وبفيه ما لا يصدق عمله، كما قال الحسن: ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال، فمن قال خيراً وعمل خيراً قبل منه، ومن قال شراً وعمل شراً لم يقبل منه^(١).

وقال بكر بن عبد الله المزني: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صياها ولا صلاة، ولكن بشيء وقر فى قلبه^(٢)، فمن قال: لا إله إلا الله ولم يقر بموجبها، بل اكتسب مع ذلك ذنوباً وسيئات، وكان صادقاً فى قولها موقناً بها، لكن ذنوبه أضعف أضعاف صدقه و يقينه، وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملى، رجحت هذه الأشياء على هذه الحسنة، ومات مصراً على الذنوب، بخلاف من يقولها بيقين وصدق تام، فإنه لا يموت مصراً على الذنوب، إما أن لا يكون مصراً على سيئة أصلاً أو يكون توحيدة المتضمن لصدقه و يقينه رجح حسناته، والذين يدخلون النار ممن يقولها قد فاتهم أحد هذين الشرطين: إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التامين المنافيين للسيئات، أو لرجحان السيئات، أو قالوها واكتسبوا بعد تلك سيئات رجحت على حسناتهم، ثم ضعف لذلك صدقهم و يقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق و يقين تام، لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات بل ترجح سيئاتهم على حسناتهم، انتهى ملخصاً، وقد ذكر معناه غيره كابن القيم، وابن رجب والمنذرى، والقاضى عياض وغيرهم.

وحاصله: أن لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار. ومقتضى لذلك، ولكن المقتضى لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه، وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع، ولهذا قيل للحسن: إن ناساً يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قال: لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة.

(١) [جيد] أخرجه الخطيب فى «اقتضاء العلم والعمل» (٥٦) وحسنه شيخنا الفاضل «محمد عمرو بن عبد اللطيف» فى تبيض الصحيفة» (١٠١/١) وانظر «فتح المجيد» (ح ٧٨) بتخريجنا.
(٢) [صحيح] ذكره الغزالي فى «الإحياء» (٢٣/١) ونسبه العراقى فى تخريج الإحياء للترمذى الحكيم فى «نوادير الأصول» وانظر «تبيض الصحيفة» (١١٠/١).
وانظر «فتح المجيد» (ح ٧٩) بتخريجنا.

وقال وهب بن منبه لمن سألته: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جثت بمفتاح له أسنان فتحت لك وإلا لم يفتح، ويدل على ذلك أن الله رتب دخول الجنة على الإيمان والأعمال الصالحة، وكذلك النبي ﷺ كما في «الصحيحين».

- عن أبي أيوب، أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة فقال: «تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ»^(١) وفي «المسند»

- عن بشر بن الخصاصية قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ لِأُبَايِعَهُ، فَاسْتَرَطَ عَلَيَّ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنْ أُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَأَنْ أُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَأَنْ أُحْجَّ حَجَّةَ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَصُومَ رَمَضَانَ، وَأَنْ أُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَا أَتُسَيِّئُ؟ فَوَاللَّهِ مَا أَطِيقُهُمَا الْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، فَقَبَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ ثُمَّ حَرَكَهَا وَقَالَ: «فَلَا جِهَادَ وَلَا صَدَقَةَ، فِيمَ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِذَا؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبَايَعُكَ عَلَيْهِنَ كُلَّهُنَّ»^(٢) ففي الحديث أن الجهاد والصدقة شرط في دخول الجنة مع حصول التوحيد، والصلاة، والحج، والصيام، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

وفي الحديث دليل على أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد، وبالعكس، وفيه تحريم النار على أهل التوحيد الكامل، وفيه أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصاً لله تعالى: ١. هـ.

وذكر هذا الكلام الشيخ عبد الرحمن مختصراً^(٣) فزاد

«تنبيه» قال القرطبي في «تذكرته»: قوله في الحديث «من إيمان» أى من أعمال الإيمان التى هى من أعمال الجوارح، فيكون فيه دلالة على أن الأعمال الصالحة من شرائع الإيمان، والدليل على أنه أراد الإيمان ما قلناه، ولم يرد مجرد الإيمان الذى هو التوحيد ونفى الشركاء والإخلاص بقول: لا إله إلا الله: ما فى الحديث نفسه من قوله «أخرجوا ثم بعد ذلك يقبض سبحانه قبضة فيخرج قومًا لم يعملوا خيراً قط» يريد بذلك: التوحيد المجرد من الأعمال». أ. هـ ملخصاً من شرح سنن ابن ماجة.

قال الفقير: وفى هذا أيضاً ما تقرر فى أكثر من موضع بالتفريق بين الإسلام الحكمى والإسلام المنجى عند الله تعالى يوم القيامة والذى له شروط سبعة وفيه قول ابن منبه السابق. فتنبه لذلك ولا تغفل عنه لعظم فائدته. وراجع المواضع السابقة.

(١) أخرجه البخارى فى (٥٩٨٣) ومسلم فى الإيمان (١/١٢/٢٠٤).

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٢٤/٥). (٣) فتح المجيد ٦٣: ٦٤.

وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى يا ربِّ علِّمني شيئاً أذكركُ وأدعوكُ به، قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله، قال: كلُّ عبادك يقولون هذا؟ قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهنَّ غيري، والأرضون السبع، في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالتَ بهنَّ لا إله إلا الله» رواه ابن حبان، والحاكم وصححه^(١).

● فائدة:

قال ابن عثيمين^(٢): وفي الحديث ردٌّ على المرجئة الذين يقولون: يكفي قول: لا إله إلا الله، دون ابتغاء وجه الله.

وفيه ردٌّ على الخوارج والمعتزلة، لأنَّ ظاهر الحديث أنَّ مَنْ فعل هذه المحرَّمات لا يُخلَّد في النار، لكنه مستحقٌّ للعقوبة، وهم يقولون: إن فاعل الكبيرة مخلَّد في النار. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): وقال المصنف: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان تبين لك معنى قول لا إله إلا الله، وتبين لك خطأ المغرورين وفيه أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على معنى قول لا إله إلا الله، وفيه التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه، وفيه أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قوله في حديث عتبان: «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يستغنى بذلك وجه الله»^(٤) إذا ترك الشرك، ليس قولها باللسان. انتهى ملخصاً. أهـ.

قوله: (وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: قال موسى) الحديث.

● مناسبة الحديث للباب:

(١) [ضعيف] أخرجه النسائي في «الكبرى» في عمل اليوم والليلة «٢٠٨/٦/١٠٦٧»، وابن حبان في «صحيحه» «٣٠٤/٨/٦١٨٤» والحاكم في «المستدرک» «٥٢٤/١»، وأبو نعیم في «الخليّة» «٣٢٨/٨»، والبخاری في «شرح السنة» «١٢٧٣/٥٤/٥» من طريق ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن دراج أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد به.

قال: الهيثمي في «المجمع» «٨٢/١٠»: رواه أبو يعلى ورجاله وثقوا وفيهم ضعف.

[قلت]: وفي إسناده دراج بن سمعان أبو السمح قال أبو داود: أحاديثه مستقيمة إلا ما كان عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، وانظر ترجمته في «تهذيب الكمال» والحديث صححه الحافظ في «الفتح» «٢١١/١١» على ما بيناه فيه.

وانظر «فتح المجيد» (ح ٨١) بتخريجنا..

(٢) القول المفيد: ٩٣/١.

(٣) تيسير العزيز الحميد: ٧٠.

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

قال عبد الله بن جابر الله^(١): ومناسبة الحديث للباب: أن من قال لا إله إلا الله عن صدق وإخلاص رجح ميزانه وحصل له الفوز والسعادة وهذا من فضل التوحيد أهد.

قال القرعاوي^(٢): حيث دلّ الحديث على أن كلمة التوحيد لا إله إلا الله هي أفضل الأذكار وأثقلها في الميزان. أهد.

قوله: (عن أبي سعيد):

قال سليمان آل الشيخ^(٣): أبو سعيد: اسمه سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل، وأبوه أيضاً كذلك، استصغر أبو سعيد بأحد، ثم شهد ما بعدها، مات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين. وقيل: أربع وسبعين. أهد.

قوله: «قال موسى يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قوله: «أذكرك». هو بالرفع خبر مبتدأ محذوف، أي أنا أذكرك، وقيل بل هو صفة، وأدعوك معطوف عليه، أي أثنى عليك وأحمدك به، وأدعوك، أي أتوسل به إليك إذا دعوتك. أهد.

قال ابن عثيمين^(٥): قوله: «أذكرك وأدعوك به».

صفة لشيء، وليست جواب الطلب، فموسى عليه السلام طلب شيئاً يحصل به أمران:

١- ذكر الله.

٢- دعاؤه.

فأجابه الله بقوله: «قل لا إله إلا الله». أهد.

قوله: «قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله».

قال سليمان آل الشيخ^(٦): فيه أن الذاكر بها يقولها كلها، ولا يقتصر على لفظ الجلالة كما يفعله جهال المتصوفة، ولا يقول أيضاً هو كما يقول غلاة جهالهم، فإذا أرادوا الدعاء قالوا: يا هو، فإن ذلك بدعة وضلالة، وقد صنف جهالهم في المسألتين، وصنف ابن عربي كتاباً سماه كتاب: الهو. أهد.

(١) الجامع الفريد (١٩).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٦٥.

(٣) القول المفيد ٩٣/١.

(٤) الجديد ٤٢.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٦٥.

(٦) تيسير العزيز الحميد ٦٥.

قال ابن عثيمين^(١): «قل لا إله إلا الله» وهذه الجملة ذكر متضمن للدعاء، لأنَّ
الذاكر يريد رضا الله عنه، والوصول إلى دار كرامته، إذاً، فهو ذكر متضمن للدعاء، قال
الشاعر:

أذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك إن شيمتك الحباء (*)
يعنى: عطاؤك.

واستشهد ابن عباس على أنَّ الذكر بمعنى الدعاء بقول الشاعر:

إذا أثنى عليك العبد يوماً كفاه من تعرضه الثناء

قلت: ويستدل له بقوله فى الحديث القدسى من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته
أفضل ما أعطى السائلين^(٢) وبقوله ﷺ: «خير الدعاء دعاء عرفة» وأفضل ما قلت: أنا
والنبون «لا إله إلا الله»^(٣) أخرجه الترمذى وسيأتى قال ابن حجر: الذاكر يحصل له ما
يحصل للداعى إذا شغله الذكر عن الطلب.

قوله: قال: «كل عبادك يقولون هذا».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): هكذا ثبت بخط المصنف. يقولون بالجمع مراعاة لمعنى
كل، والذي فى الأصول يقول بالإنفراد مراعاة للفظها دون معناها، لكن قد روى الإمام
أحمد عن عبد الله بن عمرو هذا الحديث بهذا اللفظ الذى ذكره المصنف أطول منه.

وفى «سنن النسائي» و«الحاكم» و«شرح السنة» بعد قوله: «كل عبادك يقولون هذا»،
إنما أريد أن تخصني به، أى بذلك الشيء من بين عموم عبادك فإن من طبع الإنسان أن
لا يفرح فرحاً شديداً إلا بشيء يختص به دون غيره، كما إذا كانت عنده جوهرة ليست
موجودة عند غيره، مع أن من رحمة الله وسنته المطردة أن ما اشتدت إليه الحاجة
والضرورة، كان أكثر وجوداً، كالبر والملاح، والماء ونحو ذلك دون الياقوت واللؤلؤ، ولما
كان بالناس بل بالعالم كله من الضرورة إلى لا إله إلا الله مالا نهاية فى الضرورة فوّه
كانت أكثر الأذكار وجوداً، وأيسرها حصولاً، وأعظمها معنى، والعوام والجهال يعدلون
عنها إلى الأسماء الغريبة والدعوات المتدعة التى لا أصل لها فى الكتاب والسنة
كالأحزاب والأوراد التى ابتدعها جهلة المتصوفة. أهـ.

(١) القول المفيد ٩٣/١ و٩٤. (*) كذا فى القول المفيد، وفى فتح البارى (حباؤك) بالياء.

(٢) ذكره الحافظ فى «الفتح» (١٣٨/١١) ونسبه للطبرانى وليه.

(٣) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٣٥٨٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

وانظر «الأذكار للنووى» (٤٥٦ - بتخرجنا).

(٤) تيسير العزيز الحميد ٦٥.

قال ابن عثيمين^(١): ليس المعنى أنها كلمة هيئة كلُّ يقولها، لأن موسى عليه الصلاة والسلام يعلم عظم هذه الكلمة، ولكنه أراد شيئاً يختصُّ به، لأنَّ تخصيص الإنسان بالأمر يدل على متبعية له ورفعة، فبين الله لموسى أنَّه مهما أعطى فلن يعطى أفضل من هذه الكلمة، وأنَّ لا إله إلا الله أعظم من السموات والأرض وما فيهن، لأنها تميل بهن وترجح، فدلَّ ذلك على فضل لا إله إلا الله وعظمها لكن لا بد من الإتيان بشروطها، أمَّا مجرد أن يقولها القائل بلسانه، فكم من إنسان يقولها لكنها عنده كالريشة لا تساوى شيئاً؛ لأنَّه لم يقلها على الوجه الذى تمت به الشروط وانتفت به المواع. اهـ.

قوله: قال: ياموسى لو أنَّ السموات السبع وعامرهن غيرى».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «وعامرهن غيرى». هو بالنصب عطف على السموات، أى: لو أنَّ السموات السبع ومن فيهن من العمار غير الله والأرضين السبع ومن فيهن وضعوا فى كفة الميزان، ولا إله إلا الله فى الكفة الأخرى، مالت بهن لا إله إلا الله.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ: «أَنَّ نُوْحًا عَلَيْهِ السَّلَامَ قَالَ لَا إِلَهَ عِنْدَ مَوْتِهِ: أَمْرُكَ بِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كَفَّةٍ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كَفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلَقَةً مُبْهِمَةً قَصَمْتُهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وفيه دليل على أن الله تعالى فوق السموات»^(٣). اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «والأرضين السبع». فى بعض النسخ بالرفع، وهذا لا يصلح؛ لأنَّه إذا عطف على اسم أن قبل استكمال الخبر وجب النصب.

قوله: «مالت».

أى: رجحت حتى يملن.

قوله: «عامرهن».

أى: ساكنهن؛ فالعامر للشئ هو الذى عمَّر به الشئ.

قوله: «غيرى».

(١) القول المفيد ١/ ٩٤ و ٩٥. (٢) تيسير العزيز الحميد ٦٥ و ٦٦.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٧٠ / ٢) وصححه أحمد شاكر (٦٥٨٣).

وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ٨٤) بتخريجنا.

(٣) القول المفيد ١/ ٩٥.

استثنى نفسه تبارك وتعالى؛ لأنَّ قول لا إله إلا الله ثناء عليه، والمثنى عليه أعظم من الثناء، وهنا يجب أن تعرف أن كون الله تعالى فى السماء ليس ككون الملائكة فى السماء؛ فكون الملائكة فى السماء كون حاجى، فهم ساكنون فى السماء لأنهم محتاجون إلى السماء، لكن الرب تبارك وتعالى ليس محتاجاً إليها، بل إنَّ السماء وغير السماء محتاج إلى الله تعالى؛ فلا يظن ظانُّ أنَّ السماء تقل الله أو تظله أو تحيط به، وعليه؛ فالسموات باعتبار الملائكة أمكنة مقلدة للملائكة، وما فوقهم منها مظلٌّ لهم، أما بالنسبة لله؛ فهى جهة لأن الله تعالى مستوٍ على عرشه، لا يُقلُّه شيء من خلقه. قلت: أى هى الإثبات صفة العلو لله تعالى.

قوله: «والأرضون السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «فى كفة» بكسر الكاف وتشديد الفاء من كفة الميزان. قال بعضهم: ويطلق لكل مستدير. اهـ.

قوله: «مالت بهن لا إله إلا الله».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «مالت بهن لا إله إلا الله»، أى: رجحت عليهن، وذلك لما اشتملت عليه من توحيد الله الذى هو أفضل الأعمال، وأساس الملة، ورأس الدين، فمن قالها بإخلاص ويقين، وعمل بمقتضاها ولوازمها، واستقام على ذلك فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ (*).

والحديث يدل على أن لا إله إلا الله أفضل الذكر، كما فى:

حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» رواه أحمد والترمذى^(٣). وعنه أيضاً مرفوعاً.

(١) تيسير العزيز الحميد ٦٦.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٦٦ و ٦٧.

(*) فصلت: ٣٠ - ٣٢.

(٣) تقدم تخريجه قريباً.

«يُصَاحُّ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنْشَرُّ لَهُ تِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِنْهَا مَدَ الْبَصَرِ، ثُمَّ يُقَالُ: أَتَنْكُرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبُّ، فَيُقَالُ: أَلَيْكَ عَذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ، فَيَهَابُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لَا، فَيُقَالُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ، فَيُخْرِجُ لَهُ بَطَاقَةً فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: يَا رَبُّ، مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، فَتُوضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبَطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ»^(١) رواه الترمذى وحسنه، والنسائى، وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. وقال الذهبى فى «تلخيصه»: صحيح.

قال ابن القيم: فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب، فتكون صورة العمل واحدة، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض. قال: تأمل حديث البطاقة التى توضع فى كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة، وتطيش السجلات، فلا يعذب. ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه.

وعن أبى هريرة مرفوعاً: «مَا قَالَ عَبْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصاً قَطً إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ حَتَّى تَفْضِيَ إِلَى الْعَرْشِ مَا أُجْتَنِبَتِ الْكِبَائِرُ»^(٢) رواه الترمذى وحسنه والنسائى، والحاكم وقال على شرط مسلم. أه.

قلت: ويوب البخارى فى صحيحه باب فضل التهليل وأورد فيه حديث أبى هريرج وغيره^(٣).

قوله: «رواه ابن حبان، والحاكم وصححه».

قال الشيخ سليمان آل الشيخ^(٤): قوله: «رواه ابن حبان، والحاكم». ابن حبان إسمه محمد بن حبان - بكسر المهملة وتشديد الموحدة - ابن أحمد بن حبان أبو حاتم التميمى البستى الحافظ صاحب التصانيف «كالصحيح» و«التاريخ» و«الضعفاء» و«الثقات»

(١) [صحيح] أخرجه الترمذى (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم فى «المستدرک» (٦/١) قال الترمذى: حسن غريب.

وانظر «فتح المجيد» ح ٨٦ - بتخریجنا -.

(٢) أخرجه الترمذى (٣٥٩٠)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠٦٦٩) عن أبى هريرة.

قال الترمذى: حسن غريب.

(٣) البخارى مع الفتح (١١/٢٠٤ ح ٦٤٠٣، ٦٤٠٤). (٤) التيسير ٦٧ - ٦٨.

وللترمذى وحسنه عن أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم! لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة»^(١).

وغير ذلك قال الحاكم: كان من أوعية العلم فى الفقه واللغة والحديث والوعظ ومن عقلاء الرجال، مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة بست بالهملة.

وأما الحاكم فاسمه محمد بن عبد الله بن محمد الضبى النيسابورى أبو عبد الله الحافظ، ويعرف بابن البيع. ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وصنف التصانيف «كالمستدرک» و«تاریخ نيسابور» وغيرهما، ومات سنة خمس وأربعمائة. أهـ.



● مناسبة الحديث للباب:

قال ابن عثيمين^(٢): مناسبة الحديث للترجمة: أن فى هذا الحديث فضل التوحيد، وأنه سبب لتكفير الذنوب، فهو مطابق لقوله فى الترجمة وما يكفر من الذنوب أهـ.

قال عبد الله بن جار الله^(٣): ويستفاد من هذا الحديث.

(١) سعة فضل الله.

(٢) كثرة ثواب التوحيد عند الله وتكفيره للذنوب. وهذه هى مناسبة الحديث للباب.

(١) [صحيح] بغير هذا الإسناد أخرجه الترمذى فى الدعوات/ باب فضل التوبة والاستغفار (٥/٥٤٨/٣٥٤).

من طريق بكر بن عبد الله المزنى، عن أنس به.

قال الترمذى: حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه والحديث فيه كثير بن فائد وهو مقبول كما قال عنه الحافظ فى «التقريب» والحديث له شواهد من حديث أبى ذر عند مسلم والبيهقى وغيرهما من حديث ابن عباس عند الدارمى وغيره فالحديث حسن بشواهد. قال ابن رجب: وإسناده لا بأس به. وسعيد بن عبيد، هو الهنائى: ذكره ابن حبان فى الثقات. وقال الدارقطنى تفرد به كثير بن فائد عن سعيد بن عبيد مرفوعاً.

قال ابن رجب: وتابعه على رفعه أبو سعيد بمولى بنى هاشم، فرواه عن سعيد بن عبيد مرفوعاً، وقد رواه الإمام أحمد من حديث أبى ذر بمعناه، وأخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ.

وانظر «رياض الصالحين» (ح ٤٤٣) بتخريجنا.

وانظر «فتح المجيد» (٨٧ - بتخريجنا).

(٢) القول المفيد ١/ ١٠٠. (٣) الجامع الفريد ١٩.

قال القرقاوى^(١): حيث دلّ الحديث على أن من مات خالصاً من الشرك بجميع أنواعه دخل الجنة ولو كانت ذنوبه ملء الأرض. أهـ.
قوله: «وللترمذى وحسنه».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): الترمذى اسمه محمد بن عيسى بن سورة - بفتح المهملة - ابن موسى بن الضحاك السلمى أبو عيسى صاحب «الجامع» وأحد الأئمة الحفاظ، كان ضريّر البصر روى عن قتيبة وهناد والبخارى وخلق، ومات سنة تسع وسبعين وميتين. أهـ.

قوله: «عن أنس».

قال سليمان آل الشيخ^(٣): وأنس هو ابن مالك بن النضر الأنصارى الخزرجى، خادم رسول الله ﷺ خدمه عشر سنين.

ودعا له النبى ﷺ. فقال: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ»^(٤) ومات سنة اثنتين وقيل: ثلاث وتسعين. وقد جاوز المائة والحديث قطعة من حديث رواه الترمذى من طريق كثير بن فائد: حدثنا سعيد بن عبيد، سمعت بكر بن عبد الله المزنى يقول: حدثنا أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك، يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض...» الحديث^(٥).

وروى مسلم من حديث أبى ذر عن النبى ﷺ قال: «يَقُولُ اللَّهُ: مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّى شَبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا... الحديث» وفيه «وَمَنْ لَقِنِى بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً، لَا يُشْرِكُ بى شَيْئاً لَقِيْتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً»^(٦).

قوله: «قال الله تعالى: يا ابن آدم.... إلخ».

(١) الجديد: ٤٤. (٢) تيسير العزيز الحميد ٦٨.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٦٨.

(٤) أخرجه البخارى (٦٣٧٨)، ومسلم الفضائل (٨/٢٧٧/١٤١).

وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ٨٩) بتخريجنا.

(٥) تقدم تخريجه قريباً.

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء (٩/١٦/٢٢). وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد»

(ح ٩٠) بتخريجنا.

قال ابن عثيمين^(١): هذا من الأحاديث القدسية، والحديث القدسي: ما رواه النبي ﷺ عن ربه، وقد أدخله المحدثون في الأحاديث النبوية، لأنه منسوب إلى النبي ﷺ تبليغاً، وليس من القرآن بالإجماع، وإن كان كل واحد منهما قد بلغه النبي ﷺ أمته عن الله - عز وجل -.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله في لفظ الحديث القدسي: هل هو كلام الله تعالى، أو أن الله تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ معناه واللفظ لفظ رسول الله ﷺ؟ على قولين:

القول الأول: أن الحديث القدسي من عند الله لفظه ومعناه؛ لأن النبي ﷺ أضافه إلى الله تعالى، ومن المعلوم أن الأصل في القول المضاف أن يكون بلفظ قائله لا ناقله، لاسيما والنبي ﷺ أقوى الناس أمانة وأوثقهم رواية.

القول الثاني: أن الحديث القدسي معناه من عند الله ولفظه لفظ النبي ﷺ، وذلك لوجهين:

الوجه الأول: لو كان الحديث القدسي من عند الله لفظاً ومعنى؛ لكان أعلى سنداً من القرآن؛ لأن النبي ﷺ يرويه عن ربه تعالى بدون واسطة؛ كما هو ظاهر السياق، أما القرآن؛ فنزل على النبي ﷺ بواسطة جبريل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾. وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾.

الوجه الثاني: أنه لو كان لفظ الحديث القدسي من عند الله؛ لم يكن بينه وبين القرآن فرق؛ لأن كليهما على هذا التقدير كلام الله تعالى، والحكمة تقتضي تساويهما في الحكم حين اتفاقاً في الأصل.

ومن المعلوم أن بين القرآن والحديث القدسي فروق كثيرة:

منها: أن الحديث القدسي لا يتعبد بتلاوته، بمعنى أن الإنسان لا يتعبد لله تعالى بمجرد قراءته؛ فلا يشاب على كل حرف منه عشر حسنات، والقرآن يتعبد بتلاوته بكل حرف منه عشر حسنات.

ومنها: أن الله تعالى تحدى أن يأتي الناس بمثل القرآن أو آية منه، ولم يرد مثل ذلك في الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن محفوظ من عند الله تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، والأحاديث القدسية بخلاف ذلك؛ ففيها الصحيح والحسن، بل أضيف إليها ما كان ضعيفاً أو موضوعاً، وهذا وإن لم يكن منها لكن نسب إليها وفيها التقديم والتأخير والزيادة والنقص.

ومنها: أن القرآن لا تجوز قراءته بالمعنى بإجماع المسلمين، وأما الأحاديث القدسية؛ فعلى الخلاف في جواز نقل الحديث النبوي بالمعنى والأكثرون على جوازه.

ومنها: أن القرآن تشرع قراءته في الصلاة ومنه مالا تصح الصلاة بدون قراءته، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يمسح إلا طاهر على الأصح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يقرؤه الجنب حتى يغتسل على القول الراجح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن ثبت بالتواتر القطعي المفيد للعلم اليقيني، فلو أنكر منه حرفاً أجمع القراء عليه؛ لكان كافراً، بخلاف الأحاديث القدسية؛ فإنه لو أنكر شيئاً منها مدعياً أنه لم يثبت؛ لم يكفر، أما لو أنكره مع علمه أن النبي ﷺ قاله؛ لكان كافراً لتكذيبه النبي ﷺ.

وأجاب هؤلاء عن كون النبي ﷺ أضافه إلى الله، والأصل في القول المضاف أن يكون لفظ قائله بالتسليم أن هذا هو الأصل، لكن قد يضاف إلى قائله معنى لا لفظاً؛ كما في القرآن الكريم؛ فإن الله تعالى يضيف أقوالاً إلى قائليها، ونحن نعلم أنها أضيفت معنى لا لفظاً، كما في «قصص الأنبياء» وغيرهم، وكلام الهدهد والنملة؛ فإنه بغير هذا اللفظ قطعاً.

وبهذا يتبين رجحان هذا القول، وليس الخلاف في هذا كالخلاف بين الأشاعرة وأهل السنة في كلام الله تعالى؛ لأن الخلاف بين هؤلاء في أصل كلام الله تعالى؛ فأهل السنة يقولون: كلام الله تعالى كلام حقيقي مسموع يتكلم سبحانه بصوت وحرف، والأشاعرة لا يشبتون ذلك، وإنما يقولون: كلام الله تعالى هو المعنى القائم بنفسه، وليس بحرف وصوت، ولكن الله تعالى يخلق صوتاً يعبر به عن المعنى القائم بنفسه، ولاشك في بطلان قولهم، وهو في الحقيقة قول المعتزلة؛ لأن المعتزلة يقولون: القرآن مخلوق، وهو كلام الله، وهؤلاء يقولون: القرآن مخلوق، وهو عبارة عن كلام الله؛ فقد اتفق الجميع على أن ما بين دفتي المصحف مخلوق.

ثم لو قيل في مسألتنا - الكلام في الحديث القدسي - إن الأولى ترك الخوض في

هذا؛ خوفاً من أن يكون من التنطع الهالك فاعله، والاختصار على القول بأن الحديث القدسي ما رواه النبي ﷺ عن ربه وكفى؛ لكان ذلك كافياً، ولعله أسلم والله أعلم.

● (فائدة).

إذا انتهى سند الحديث إلى الله تعالى سمي (قدسياً)؛ لقدسيته وفضله، وإذا انتهى إلى الرسول ﷺ سمي مرفوعاً، وإذا انتهى إلى الصحابي سمي موقوفاً، وإذا انتهى إلى التابعي فمن بعده سمي مقطوعاً. اهـ.

قوله: «لو أتيتني بقراب الأرض».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قراب الأرض. بضم القاف. وقيل بكسرهما، والضم أشهر وهو ملؤها أو ما يقارب ملأها. اهـ.

وبنحوه - قال ابن عثيمين^(٢): قوله «خطايا»:

قال ابن عثيمين^(٣): جمع خطيئة، وهي الذنب، والخطايا الذنوب؛ ولو كانت صغيرة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾^(٤).

قوله: «ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً».

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قوله: «ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً». شرط ثقيل في الوعد بحصول المغفرة، وهو السلامة من الشرك كثيره وقليله، صغيره وكبيره، ولا يسلم من ذلك إلا من سلمه الله، وذلك هو القلب السليم. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۖ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٦). اهـ.

قال ابن رجب: من جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة، لكن هذا مع مشيئة الله عز وجل، فإن شاء غفر له، وإن شاء أخذه يذنبه، ثم كان عاقبته أن لا يخلد في النار، بل يخرج منها ثم يدخل الجنة، فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكلية، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه، أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيماً وإجلالاً ومهابة

(٢) القول المفيد ٩٩/١.

(٤) البقرة: ٨١.

(٦) الشعراء: ٨٨.

(١) تيسير العزيز الحميد ٦٩.

(٣) القول المفيد ٩٩/١ - ١٠٠.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٦٩ و ٧٠.

وخشية وتوكلًا، ويستند تحرق ذنوبه وخطاياها كلها ولو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها حسنات، فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، فلو وضع منه ذرة على جبال الذنوب والخطايا لقلبها حسنات. أهـ.

وقال ابن تيمية: الشرك نوعان: أكبر، وأصغر، فمن خلص منهما وجبت له الجنة، ومن مات على الأكبر وجبت له النار، ومن خلص من الأكبر وحصل له بعض الأصغر مع حسنات راجحة على ذنوبه دخل الجنة، فإن تلك الحسنات توحيد كثير مع يسير من الشرك الأصغر، ومن خلص من الأكبر، ولكن كثر الأصغر حتى رجحت به سيئاته دخل النار، فالشرك يؤخذ به العبد إذا كان أكبر أو كان كثيراً أصغر، والأصغر القليل في جانب الإخلاص الكثير لا يؤخذ به. أهـ.

قال ابن عثيمين^(١):- قوله: «لاشرك بى شيئاً». جملة «لاشرك» فى موضع نصب على الحال من التاء؛ أى: لقيتني فى حال لا تشرك بى شيئاً.

قوله: «شيئاً» نكرة فى سياق النفى تفيد العموم؛ أى: لا شركاً أصغر ولا أكبر. وهذا قيد عظيم قد يتهاون به الإنسان، ويقول: أنا غير مشرك وهو لا يدري؛ فحب المال مثلاً بحيث يلهى عن طاعة الله من الإشراك، قال النبى ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الذهب، تعس عبد الخصمية، تعس عبد الخميعة...» الحديث^(٢). فسمى النبى ﷺ من كان هذا همه سماً: عبداً له.

قوله: «لأيتك بقرابها مغفرة».

أى: أن حسنة التوحيد عظيمة تُكفّر الخطايا الكبيرة إذا لقي الله وهو لا يشرك به شيئاً، والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه. أهـ.

● كلمة فى خاتمة أحاديث الباب:

قال سليمان آل الشيخ^(٣): وفى هذه الأحاديث كثرة ثواب التوحيد، وسعة كرم الله وجوده ورحمته، حيث وعد عباده أن العبد لو أتاه بملء الأرض خطايا وقد مات على التوحيد فإنه يقابله بالمغفرة الواسعة التى تسع ذنوبه، والرد على الخوارج الذين يكفرون المسلم بالذنوب، وعلى المعتزلة الذين يقولون بالمنزلة بين المنزلتين وهى منزلة الفاسق،

(٢) سيأتى تخريجه.

(١) القول المفيد ١/ ١٠٠.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٧٠.

فيقولون: ليس بمؤمن ولا كافر ويخلد في النار والصواب في ذلك قول أهل السنة أنه لا يسلب عنه اسم الإيمان على الإطلاق، ولا يعطاه على الإطلاق، بل يقال: هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن عاص أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته. وعلى هذا يدل الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

قال الفقير: * وفي القرآن من فضائل التوحيد غير ما تقدم.

(١) * تكفيره للسيئات: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (١) * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

(٢) * الهداية والثبات والأمن وعدم الخوف والزيغ والحزن: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٣)، ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ ثَمَرِ النَّخْلِ وَمَنْ تَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ ﴾ (٤)، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٥)، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (٦)، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٧)، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ (٨).

(٣) * السكينة زيادة الإيمان: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (٩).

* التمكن في الأرض: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (١٠).

(٢) المائدة: ٦٦.

(٤) سبأ: ٤٦.

(٦) فصلت: ٣٠ - ٣٢.

(٨) يونس: ٩.

(١٠) النور: ٥٥.

(١) المائدة: ٦٥.

(٣) إبراهيم: ٢٧.

(٥) الأنعام: ٨٢.

(٧) فصلت: ٣٣.

(٩) الفتح: ٤.

(٤) * النصر: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

(٥) * الولاية: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (٢).

(٦) * الشفاعة: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٣).

(٧) * شرح الصدر وعدم الاضطراب وصلاح الحال والبال: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (٤). ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥).

(٨) * الرزق: ﴿وَلَوْ أَن أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٦).

(٩) * العزة: ﴿يَقُولُونَ لِنَن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَهَا الْأَذْلَ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧).

(١٠) * الرفعة: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (٨).



(١) الروم: ٤٧.

(٢) البقرة: ٢٥٧.

(٣) الزخرف: ٨٦.

(٤) الأنعام: ١٢٥.

(٥) الزمر: ٢٩.

(٦) الاعراف: ٩٦.

(٧) المنافقون: ٨.

(٨) المجادلة: ١١.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: سَعَةُ فَضْلِ اللَّهِ.

الثانية: كَثْرَةُ ثَوَابِ التَّوْحِيدِ عِنْدَ اللَّهِ.

الثالثة: تَكْفِيرُهُ مَعَ ذَلِكَ لِلذُّنُوبِ.

الرابعة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ.

الخامسة: تَأْمُلُ الْخُمْسَ اللَّوَاتِي فِي حَدِيثِ عُبَادَةَ.

السادسة: أَنَّكَ إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَدِيثِ عُبَّانَ وَحَدِيثِ ابْنِ سَعِيدٍ وَحَدِيثِ أَنَسٍ تَبَيَّنَ لَكَ مَعْنَى قَوْلٍ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَتَبَيَّنَ لَكَ خَطَأُ الْمَغْرُورِينَ.

قوله: «فيه مسائل».

● الأولى: «سعة فضل الله» قال ابن عثيمين^(١): لقوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

● الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله. لقوله: «مالت بهن لا إله إلا الله».

● الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب. لقوله: «لأنتيك بقرابها مغفرة»؛ فالإنسان قد تغلبه نفسه أحياناً؛ فيقع في الخطايا، لكنه مخلص لله في عبادته وطاعته؛ فحسنة التوحيد تكفر عنه الخطايا إذا لقي الله بها.

● الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام: وهى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾؛ فالظلم هنا الشُّرْكُ؛ لقوله ﷺ: «ألم تسمعوا قول الرجل الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

● الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عُبَادَةَ.

١ - ٢ - الشهادتان.

٣ - أَنَّ عِيسَى عَبْدَ اللَّهِ، وَرَسُولَهُ، وَكَلِمَتَهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحَ مِنْهُ.

٤ - أَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ.

٥ - أَنَّ النَّارَ حَقٌّ.

● السادسة: أَنَّكَ إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَدِيثِ عُبَّانَ، وَحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ، وَحَدِيثِ أَنَسٍ؛ تَبَيَّنَ لَكَ مَعْنَى قَوْلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَتَبَيَّنَ لَكَ خَطَأُ الْمَغْرُورِينَ.

(٢) تقدم تخريجه.

(١) القول المفيد ١/ ١٠١ - ١٠٨.

السابعة: التَّنبِيْهُ لِلشَّرْطِ الَّذِي فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ.

الثامنة: كَوْنُ الْأَنْبِيَاءِ يَحْتَاجُونَ لِلتَّنبِيْهِ عَلَى فَضْلِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

التاسعة: التَّنبِيْهُ لِرُجْحَانِهَا بِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَقُولُهَا يَخْفُ مِيزَانُهُ.

العاشر: النَّصُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْضِينَ سَبْعٌ كَالسَّمَاوَاتِ.

لأنَّه لا بد أن يتغنى بها وجه الله، وإذا كان كذلك؛ فلا بد أن تحمل المرء على العمل الصالح.

● السابعة: التنبية للشرط الذي في حديث عتبان.

وهو أن يتغنى بقولها وجه الله، ولا يكفي مجرد القول؛ لأنَّ المنافقين كانوا يقولونها ولم تنفعهم.

● الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبية على فضل لا إله إلا الله. فغيرهم من باب أولى. قلت: ليس على أصل فضلها إنما على كمال فضلها.

● التاسعة: التنبية لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أنَّ كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه. فالبلاء من القائل لا من القول؛ لأنَّه قد يكون اختلَّ شرط من الشروط أو وجد مانع من الموانع؛ فإنَّها تخف بحسب ما عنده، أمَّا القول نفسه؛ فيرجح بجميع المخلوقات.

● العاشرة: النص على أنَّ الأرضين سبع كالسماوات.

لم يرد في القرآن تصريح بذلك، بل ورد صريحاً أنَّ السماوات سبع بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ﴾^(١)، لكن بالنسبة للأرضين لم يرد إلا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾^(٢)؛ فالمثلية بالكيفية غير مرادة لظهور الفرق بين السماء والأرض في الهيئة، والكيفية، والارتفاع، والحسن؛ فبقيت المثلية في العدد.

أمَّا السنَّة؛ فهي صريحة جداً بأنَّها سبع؛ مثل قوله ﷺ: «من اقتطع شبراً من الأرض؛ طوقه يوم القيامة من سبع أرضين»^(٣).

وقد اختلف في قوله ﷺ: «من سبع أرضين»؛ كيف تكون سبعا؟.

(١) المؤمنون ٨٦ (٢) الطلاق: ١٢.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٣٧/٥٣/٦) عن سعيد بن زيد.

وانظر «كتابنا فقه الخطابة».

الحادية عشرة: أَنْ لَهُنَّ عُمَارًا.

الثانية عشرة: إِبْثَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ.

الثالثة عشرة: أَنْكَ إِذَا عَرَفْتَ حَدِيثَ أَنَسٍ، عَرَفْتَ أَنَّ قَوْلَهُ فِي حَدِيثِ عَتَبَانَ: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُبْتَغَى بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» أَنَّ تَرْكَ الشُّرْكِ، لَيْسَ قَوْلُهَا بِاللِّسَانِ.

الرابعة عشرة: تَأْمَلُ الْجَمْعَ بَيْنَ كَوْنِ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَبْدَيِ اللَّهِ وَرَسُولَيْهِ.

فَقِيلَ: الْمُرَادُ: الْقَارَاتِ السَّبْعُ، وَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّ هَذَا يَمْتَنِعُ بِالنِّسْبَةِ لِقَوْلِهِ: «طَوْقُهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»، وَقِيلَ: الْمُرَادُ الْمَجْمُوعَةُ الشَّمْسِيَّةُ، لَكِنْ ظَاهِرُ النُّصُوصِ أَنَّهَا طَبَاقُ كَالسَّمَاوَاتِ، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَقُولَ إِلَّا مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَنْ هَذِهِ الْأَرْضِينَ؛ لِأَنَّا لَا نَعْرِفُهَا.

● الحادية عشرة: أَنْ لَهُنَّ عُمَارًا.

أَيُّ: السَّمَاوَاتِ، وَعِمَارُهُنَّ الْمَلَانِكَةُ.

● الثانية عشرة: إِبْثَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافًا لِلْأَشْعَرِيَّةِ.

وَفِي بَعْضِ النُّسخِ خِلَافًا لِلْمُعْطَلَةِ، وَهَذِهِ أَحْسَنُ؛ لِأَنَّهَا أَعَمُّ، حَيْثُ تَشْمَلُ الْأَشْعَرِيَّةَ وَالْمُعْتَزِلَةَ الْجَهْمِيَّةَ وَغَيْرَهُمْ؛ فَفِيهِ إِبْثَاتُ الْوَجْهِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: «يُبْتَغَى بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»، وَإِبْثَاتُ الْكَلَامِ بِقَوْلِهِ: «وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا» وَإِبْثَاتُ الْقَوْلِ فِي قَوْلِهِ: «قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

● الثالثة عشرة: إِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ حَدِيثَ أَنَسٍ؛ عَرَفْتَ أَنَّ قَوْلَهُ فِي حَدِيثِ عَتَبَانَ: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُبْتَغَى بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» أَنَّ تَرْكَ الشُّرْكِ. وَفِي بَعْضِ النُّسخِ: إِذَا تَرَكَ الشُّرْكَ.

أَيُّ: أَنَّ قَوْلَهُ: «حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُبْتَغَى بِذَلِكَ» (يَعْنِي: تَرَكَ الشُّرْكَ)، وَلَيْسَ مُجَرَّدُ قَوْلِهَا بِاللِّسَانِ؛ لِأَنَّ مَنْ ابْتَغَى وَجْهَ اللَّهِ فِي هَذَا الْقَوْلِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُشْرِكَ أَبَدًا.

● الرابعة عشرة: تَأْمَلُ الْجَمْعَ بَيْنَ كَوْنِ كُلِّ مِنْ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَبْدَيِ اللَّهِ وَرَسُولَيْهِ.

عَبْدِي: مُنْصَوِّبٌ عَلَى أَنَّهُ خَبِرَ كَوْنُ؛ لِأَنَّ كَوْنَ مُصْدَرٍ كَانَ وَتَعْمَلُ عَمَلُهَا.

الخامسة عشرة: مَعْرِفَةُ اخْتِصَاصِ عِيسَى بِكَوْنِهِ كَلِمَةَ اللَّهِ.

السادسة عشرة: مَعْرِفَةُ كَوْنِهِ رُوحاً مِنْهُ.

السابعة عشرة: مَعْرِفَةُ فَضْلِ الْإِيمَانِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

الثامنة عشرة: مَعْرِفَةُ قَوْلِهِ «عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»

وعيسى ومحمد: اسم كون.

وتأمل الجمع من وجهين:

الأول: أنه جمع لكل منهما بين العبودية والرسالة.

الثاني: أنه جمع بين الرجلين؛ فَيُبَيِّنُ أَنَّ عِيسَى مِثْلَ مُحَمَّدٍ، وَأَنَّهُ عَبْدٌ وَرَسُولٌ، وَلَيْسَ رَبًّا وَلَا ابْنًا لِلرَّبِّ - سبحانه -.

وقول المؤلف: «تأمل»؛ لَأَنَّ هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى تَأْمُلٍ.

قلت: والمراد الرد على اليهود والنصارى وغلاة المبتدعة في هذه الأمة كما تقدم.

● الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.

أى: أَنَّ عِيسَى انْفَرَدَ عَنْ مُحَمَّدٍ فِي أَصْلِ الْخَلْقَةِ؛ فَقَدْ كَانَ بِكَلِمَةٍ، أَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فَقَدْ خُلِقَ مِنْ مَاءِ أَبِيهِ.

قلت: والكلمة كما تقدم هى «كن» وليس «هوكن».

● السادسة عشرة: معرفة كونه روحاً مِنْهُ.

أى: أَنَّ عِيسَى رُوحٌ مِنَ اللَّهِ، وَ«مِنْ» هُنَا بَيَانِيَّةٌ أَوْ لِلابْتِدَاءِ، وَلَيْسَتْ لِلتَّبْعِيضِ؛ أَى: رُوحٌ جَاءَتْ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ وَلَيْسَتْ بَعْضاً مِنَ اللَّهِ، بَلْ هِىَ مِنْ جَمَلَةِ الْأَرْوَاحِ الْمَخْلُوقَةِ.

● السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار.

لقوله فى حديث عبادة: «وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ»، والفضل أنه من أسباب دخول الجنة.

● الثامنة عشرة: معرفة قوله: «على ما كان من العمل».

أى: عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَلَوْ قَلَّ، أَوْ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ السَّيِّئِ وَلَوْ

التاسعة عشرة: مَعْرِفَةُ أَنَّ الْمِيزَانَ لَهُ كِفَتَانِ.

العشرون: مَعْرِفَةُ ذِكْرِ الْوَجْهِ.

كثُرَ، بشرط أن لا يأتى بما ينافى التوحيد ويوجب الخلود فى النار، لكن لا بد من العمل.

ولا يلزم استكمال العمل الصالح كما قالت المعتزلة والخوارج. ولم تُذكر أركان الإسلام هنا؛ لأنَّ منها ما يكفر الإنسان بتركه، ومنها ما لا يكفر، فإنَّ الصحيح أنَّه لا يكفر إلا بترك الشهادتين والصلاة، وإن كان روى عن الإمام أحمد أنَّ جميع أركان الإسلام يكفر بتركها؛ لكن الصحيح خلاف ذلك.

● التاسعة عشرة: معرفة أنَّ الميزان له كفتان.

أخذها المؤلف من قوله: «لو أن السماوات.... إلخ، وضعت فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة».

والظاهر أن الذى فى الحديث تمثيل، يعنى أنَّ قوله: لا إله إلا الله أرجح من كل شىء، وليس فى الحديث أنَّ هذا الوزن فى الآخرة، وكأنَّ المؤلف رحمه الله حصل عنده انتقال ذهنى؛ فانتقل ذهنه من هذا إلى ميزان الآخرة.

● العشرون: معرفة ذكر الوجه.

يعنى: وجه الله تعالى، وهو صفة من صفاته الخبرية الذاتية التى مسماهم بالنسبة لنا أبعاد وأجزاء؛ لأنَّ من صفات الله تعالى ما هو معنى محض، ومنه ما مسماهم بالنسبة لنا أبعاد وأجزاء، ولانقول بالنسبة لله تعالى أبعاد؛ لأننا نتحاشى كلمة التبعض فى جانب الله تعالى.

قلت: وفى الحديث من الفوائد بخلاف ما تقدم.

(١) علو همة الأنبياء واجتهادهم فى العبادة حيث لم يكتف موسى بما أوحى إليه بل طلب المزيد فلهم فى الآخرة الحسنَى وزيادة.

(٢) فضيلة من يطلب التميز فى أمور الآخرة.

(٣) إثبات العلو والفوقية لله تعالى وأنه فى السماء وذلك لقوله تعالى: ﴿وَعَامِرْهُمْ غَيْرِ﴾ ولم يقل ذلك فى الأرض.



باب ٢

مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

● مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال ناصر السعدى^(١): - وهذا الباب تكميل للباب الذى قبله وتابع له ثم شرح ذلك وبينه ابن عثيمين فقال^(٢) .

هذا الباب كالمتمم للباب الذى قبله؛ لأن الذى قبله: «باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب»، فمن فضله هذا الفضل العظيم الذى يسعى إليه كل عاقل، وهو دخول الجنة بغير حساب.

قال الفقير: هذا الباب فى فضل التوحيد المطلق الكامل المحقق والذى قبله فى فضل من أتى بمطلق التوحيد فناسب أن يأتى بها على نسق واحد والله أعلم.

● شرح الترجمة والتبويب ومناسبته للتوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٣): من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب أى: ولا عذاب وتحقيق التوحيد هو معرفته، والاطلاع على حقيقته، والقيام بها علماً وعملاً، وحقيقة ذلك هو انجذاب الروح إلى الله محبة وخوفاً، وإنابة وتوكلأً، ودعاء وإخلاصاً وإجلالاً وهيبه، وتعظيماً وعبادة. وبالجمله فلا يكون فى قلبه شئ لغير الله، ولا إرادة لما حرم الله ولا كراهة لما أمر الله؟ وذلك هو حقيقة لا إله إلا الله فإن الإله هو المألوه المعبود.

وما أحسن ما قال ابن القيم:

فلو أحد كن واحداً فى واحد أعنى سبيل الحق والإيمان

وذلك هو حقيقة الشهادتين، فمن قام بهما على هذا الوجه فهو من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب. أ. هـ

قال حامد بن محمد بن حسن^(٤) بن محسن: - باب فى بيان أدلة من الكتاب والسنة تدل على أن من حقق التوحيد الذى أرسل الله به الرسل وألزم به العبيد وهو إقبال العبد على الله بقلبه وقالبه فى عبادته ودعائه وتوكله واستعانت به ولا يساوى معه تعالى فى حبه ورجائه وخوفه لا إله إلا هو دخل الجنة بغير حساب. أ. هـ

(١) القول السديد ٢٠.

(٢) القول المفيد/ ١٠٩.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٧٠.

(٤) فتح الله الحميد المجيد ١٥٢.

قال ناصر السعدى^(١): فإن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية الاعتقادية والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي، وذلك بكمال الإخلاص لله فى الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المتنافى لكماله وبالسلامة من البدع والمعاصى التى تكدر التوحيد وتمنع كماله وتعوقه عن حصول آثاره. فمن حقق التوحيد بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت إلى أوامر الله طائعة منيية مخبئة إلى الله، ولم يجرح ذلك بالإصرار على المعاصى؛ فهذا الذى يدخل الجنة بغير حساب، ويكون من السابقين إلى دخولها وإلى تبوء المنازل منها.

ومن أخص ما يدل على تحقيقه كمال القنوت لله وقوة التوكل على الله، بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين فى شأن من شؤونه، ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقال أو حاله، بل يكون ظاهره وباطنه وأقواله وأفعاله ووجهه وبغضه وجميع أحواله كلها مقصوداً بها وجه الله متبعاً فيها رسول الله.

والناس فى هذا المقام العظيم درجات **﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾** وليس تحقيق التوحيد بالتمنى ولا بالدعاوى الخالية من الحقائق، ولا بالخلقى العاطلة، وإنما ذلك بما وقر فى القلوب من عقائد الإيمان وحقائق الإحسان وصدقته الأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة الجليلة.

فمن حقق التوحيد على هذا الوجه حصلت له جميع الفضائل المشار إليها فى الباب السابق بأكملها والله أعلم.

وقال نحوه ابن باز فى «التعليق»، وعبدالله بن جار الله فى «الجامع الفريد». أهـ.

قال ابن عثيمين^(٢):

قوله: «من».

شرطية، وفعل الشرط: «حقق»، وجوابه: «دخل»، قوله: «بلا حساب»، أى: لا يحاسب لا على المعاصى ولا على غيرها.

وتحقيق التوحيد: تخليصه من الشرك، ولا يكون إلا بأمور ثلاثة:

الأول: العلم؛ فلا يمكن أن تحقق شيئاً قبل أن تعلمه، قال الله تعالى: **﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا**

إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (٣).

(٢) القول المفيد (١/ ١٠٩، ١١٠).

(١) القول السديد ٢٠، ٢٣.

(٣) محمد: ١٩.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١).

الثانى: الاعتقاد، فإذا علمت ولم تعتقد واستكبرت؛ لم تحقق التوحيد، قال الله تعالى عن الكافرين: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ (٢) فما اعتقدوا انفراد الله بالالوهية.

الثالث: الانقياد، فإذا علمت واعتقدت ولم تنقد؛ لم تحقق التوحيد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَتَّارِكُوا آلِهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (٣).

فإذا حصل هذا وحقق التوحيد؛ فإنَّ الجنة مضمونة له بغير حساب، ولا يحتاج أن نقول إن شاء الله؛ لأنَّ هذا حكاية حكم ثابت شرعاً، ولهذا جزم المؤلف رحمه الله تعالى بذلك فى الترجمة دون أن يقول: إن شاء الله. أما بالنسبة للرجل المعين؛ فإننا نقول: إن شاء الله. أ هـ.

قال الفقير: «باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب» أى من أتى بالتوحيد على الحقيقة بشروطه السبعة وقد خلص هذا التوحيد من شوائب الشرك والبدع والمعاصى فإنه ولا بد دخل الجنة ولكن بفضيلة زائدة على أهل الديانة الذين ربما جاءوا بشرك أصغر أو بمعاصى هذه الفضيلة أنهم يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب وقد اكتفى المصنف رحمه الله بكلمة بغير حساب لأنها تقتضى أنه لا يعذب أيضاً ذلك لأنَّ النبى ﷺ قال: «من نوقش الحساب عذب» وهذا يقتضى أنه من لم يحاسب لم يعذب ولهذا استغنى باحدهما عن الآخر.

وهذا جزاؤهم فى الآخرة ولهم فضيلة أخرى فى الدنيا وهى كونهم صاروا أئمة ممكنين كما سيأتى مزيد شرح لهذا والله أعلم.



● مناسبة الآية للترجمة:

قال سليمان آل الشيخ (٤): مناسبة الآية للترجمة من جهة أن الله تعالى وصف إبراهيم عليه السلام فى هذه الآية بهذه الصفات الجليلة التى هى أعلى درجات تحقيق التوحيد، ترغيباً فى اتباعه فى التوحيد، وتحقيق العبودية باتباع الأوامر، وترك النواهى،

(١) النحل: ١٢٠.

(٢) ص: ٥.

(٣) الصافات: ٣٦.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٧١.

فمن اتبعه فى ذلك فإنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب كما يدخلها إبراهيم عليه السلام.

وقال نحوه عبدالله بن جابر الله والقرعاوى وقال الأخير^(١) حيث دلت الآية الكريمة أن من اتصف بهذه الصفات الأربع فقد استحق الجنة كما استحقها إبراهيم بغير حساب ولا عقاب.

قال الفقير: بين المصنف رحمه الله من حقق التوحيد، وكيف حققه، وكيف تحقيقه، ومقصود التحقيق، كل ذلك يبينه بإرادته لهذه الآية والتي تليها والحديث كما سنوضح فى الشرح بعون الله فحينما يذكر إبراهيم عليه السلام والآيات التى تنص على إمامته إنما يذكر المثل الأعلى لكل مسلم والأسوة الحسنة التى تمثل فيه تحقيق التوحيد؛ لبلوغه صفات الكمال البشرى، وذلك بإتمامه كلمات الله لما ابتلاه الله بها، فذكره عليه السلام - تتضح الغاية، وهى تحقيق التوحيد، وكيف حققه، هذا الأسوة، وهذا الإمام كما وصفه الله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ والأمة هو القدوة الذى يؤتم به، وقال ابن مسعود (الأمة) : المعلم للخير، وسيأتى تفسيره بأوسع من ذلك

قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.
الإعراب: (٤).

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إن واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو أى إبراهيم وأمة خبر كان أى كان وحده أمة بذاتها لأنه اجتمعت فيه من صفات الكمال ما يجتمع فى أمة مصدق فيه قول أبى نواس:

ليس على الله بمستكر أن يجمع العالم فى واحد

وقانتا خبر ثان لكان والله متعلقان بقانتا وحنيفاً خبر ثالث. ولم يك: لم حرف نفى وقلب وجزم ويك فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون وحذفت النون للتخفيف واسم يك مستتر تقديره هو ومن المشركين خبر يك.

● ماجاء فى تفسيره الآية من السنة:

(١) الجديد ٤٦.

(٢) إعراب القرآن ٥/ ٣٨٢ و ٣٨٣.

أولاً: بالمرفوع:

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يشهد له أمة إلا قبل الله شهادتهم». والأمة، الرجل فما فوقه إن الله يقول ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١).

ثانياً: بالموقوف:

وعن أبي العبيد أنه جاء إلى عبدالله فقال من نسأل إذا لم نسألك فكان ابن مسعود رق له فقال أخبرني عن الأمة قال الذى يعلم الناس الخير (٢)

وعن عبدالله بن مسعود عن الأمة القانت قال الأمة معلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله (٣).

وعنه أن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً فقلت فى نفسى غلط أبو عبد الرحمن إنما قال الله تعالى ان إبراهيم كان أمة قانتاً لله، فقال تدرى ما الأمة وما القانت؟ قلت الله أعلم: قال: الأمة الذى يعلم الخير والقانت المطيع لله ولرسوله، وكذلك كان معاذ بن جبل كان يعلم الخير وكان مطيعاً لله ولرسوله (٤).

وعنه عن عبدالله بن مسعود أنه قال أن معاذ كان أمة قانتاً لله قال: فقال رجل من أشجع يقال له فروة بن نوفل: نسى إنما ذاك إبراهيم، قال: فقال عبدالله: ما نسى إنما كنا نسبهم لإبراهيم قال وسئل عبد الله عن الأمة فقال معلم الخير والقانت المطيع لله ورسوله (٥).

وعن مسروق قال: قرأت عند عبد الله هذه الآية ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ فقال كان معاذ أمة قانتاً قال هل تدرى ما الأمة؟ الأمة الذى يعلم الناس الخير والقانت الذى يطيع الله ورسوله (٦).

وعنه أن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين فقال له رجل نسيته؟ قال: لا ولكنه شبيه إبراهيم والأمة معلم الخير والقانت المطيع (٧).

عن ابن عباس فى قوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ قال: كان على الإسلام ولم يكن

(١) ذكره السيوطى فى الدر (١٧٦/٢) ونسبه لابن مردويه.

(٢، ٣) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (١٢٨/٧، ١٢٩).

(٤، ٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٢٨/٧، ١٢٩).

في زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره، فلذلك قال الله ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ (١).

عن ابن عباس في قوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قال: إماماً في الخير ﴿قَانِتًا﴾ قال: مطيعاً (٢).

عن ابن عمرو قال: صلى إبراهيم الظهر والعصر بعرفات ثم وقف، حتى إذا غابت الشمس دفع. ثم صلى المغرب والعشاء بجمع، ثم صلى به الفجر كاسرع ما يصلى أحد من المسلمين، ثم وقف به حتى إذا كان كأبطأ ما يصلى أحد من المسلمين، دفع ثم رمى الجمرة ثم ذبح وحلق، ثم أفاض به إلى البيت فطاف به فقال الله لنيه ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ والله تعالى أعلم (٣).

ثالثاً: أقوال التابعين ومن بعدهم:

عن شهر بن حوشب قال: لم يبق في الأرض إلا وفيها أربعة عشر يدفع الله بهم عن أهل الأرض ويخرج بركتها، إلا زمن إبراهيم فإنه كان وحده (٤).

عن قتادة في قوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قال: إمام هدى يقتدى به وتتبع سته (٥).

عن مجاهد في قوله ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال: لسان صدق (٦).

● ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الطبري (٧): يقول تعالى ذكره ان إبراهيم خليل الله كان معلّم خير يأتّم به أهل الهدى قانتاً يقول مطيعاً لله حنيفاً يقول مستقيماً على دين الإسلام ولم يك من المشركين يقول ولم يك يشرك بالله شيئاً فيكون من أولياء أهل الشرك به وهذا إعلام من الله تعالى أهل الشرك به من قريش أن إبراهيم منهم برىء وأنهم منه برآء. اهـ.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (١٧٦/٥) ونسبه لابن أبي حاتم فانظره بتخريجنا.

(٢) ذكره السيوطي في الموضوع السابق ونسبه لابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطي في الموضوع السابق ونسبه للبيهقي في «الشعب».

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (١٧٦/٥ ، ١٧٧) ونسبه لابن جرير.

(٥) ذكره السيوطي في الموضوع السابق ونسبه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

(٦) ذكره السيوطي في الموضوع السابق ونسبه لابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي

حاتم.

(٧) تفسير الطبري ١٢٨/١٤/٧.

قال الرازى:- اعلم إنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام بصفات:

الصفة الأولى: أنه كان أمة، وفى تفسيره وجوه:

الأول: أنه كان وحده أمة من الأمم لكمالها فى صفات الخير كقوله:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

الثانى: قال مجاهد: كان مؤمنا وحده، والناس كلهم كانوا كفارا فلهذا المعنى كان وحده أمة وكان رسول الله ﷺ يقول فى زيد بن عمرو بن نفيل: «يبعثه الله أمة وحده»^(١).

والثالث: أن يكون أمة فعلة مفعول كالرحلة والبغية، فالأمة هو الذى يؤتم به، ودليله قوله «إنى جاعلك للناس إماما» وذكر هؤلاء الثلاثة ابن الجوزى.

الرابع: أنه عليه السلام هو السبب الذى لأجله جعلت أتمته ممتازين عمن سواهم بالتوحيد والدين الحق، ولما جرى مجرى السبب لحصول تلك الأمة سماه الله تعالى بالأمة إطلاقا لاسم المسبب على السبب، وعن شهر بن حوشب لم تبق أرض إلا وفيها أربعة عشر يدفع الله بهم عن أهل الأرض إلا زمن إبراهيم عليه السلام فإنه كان وحده. أهـ .

قال الرازى(٢):

أعلم أنه تعالى لما زيف فى هذه السورة مذاهب المشركين فى أشياء:

منها: قولهم باثبات الشركاء والأنداد لله تعالى، ومنها طعنهم فى نبوة الأنبياء والرسول عليهم السلام، وقولهم: لو أرسل الله رسولا لكان ذلك الرسول من الملائكة.

ومنها: قولهم بتحليل أشياء حرمها الله، وتحريم أشياء أباحها الله تعالى، فلما بالغ فى إبطال مذاهبهم فى هذه الأقوال، وكان إبراهيم عليه السلام رئيس الموحدين وقادة الأصوليين، وهو الذى دعا الناس إلى التوحيد وإبطال الشرك وإلى الشرائع، والمشركون كانوا مفتخرين به معترفين بحسن طريقته مقرين بوجوب الاقتداء به، لا جرم ذكره الله تعالى فى آخر هذه السورة، وحكى عنه طريقته فى التوحيد ليصير ذلك حاملا لهؤلاء المشركين على الإقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك. أهـ .

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ١٨٨)، والطبرانى فى «الكبير» (١/ ١٥١ / ٣٥٠) عن سعيد بن زيد

به.

(٢) «التفسير الكبير» (١٠ / ١٣٧)

قال القرطبي^(١): دعا عليه السلام مشركى العرب إلى ملة إبراهيم إذ كان أباهم وبانى البيت الذى به عزهم. أهـ.

قال ابن كثير^(٢): يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الخفاء ووالد الأنبياء ويورثه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية. أهـ.

● الفرق بين الأمة والإمام:

قال ابن القيم: والفرق بين الأمة والإمام من وجهين:

أحدهما: أى الإمام كل ما يؤتم به سواء بقصده وشعوره أولاً، ومنه سمي الطريق إماماً، كقوله تعالى ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَانْتَقِمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لِلْإِمَامِ مَبِينٌ﴾ أى بطريق واضح لا يخفى على السالك. ولا يسمى الطريق أمة.

الثانى: أى الأمة فيه زيادة معنى وهو الذى جمع صفات الكمال فى العلم والعمل وهو الذى بقى فيه فرداً وحده، فهو الجامع لخصال تفرقت فى غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها فى غيره ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى فيضم عند النطق بها وأتى بالتاء الدالة على الموحدة كالغرفة واللقمة، ومنه حديث «إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده» فالضم والاجتماع لازم المعنى الأمة، ومنه سميت الأمة التى هى آحاد الأمم، لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو فى عصر واحد. أهـ^(٣).

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٤): أنه كان أمة، أى قدوة وإماماً معلماً للخير، وإماماً يقتدى به. روى معناه عن ابن مسعود. وما كان كذلك إلا لتكميله مقام الصبر واليقين اللذين بهما تنال الإمامة فى الدين. كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(٥).

قال ابن عثيمين^(٦):

(١) تفسير القرطبي (٦/٣٨١٣).

(٢) ابن كثير ٥٧٢/٢.

(٣) تفسير العزيز الحميد ٧١.

(٤) «مفتاح دار السعادة».

(٥) السجدة: ٢٤.

(٦) القول المفيد ١/ ١١٠ - ١١٢.

قوله: ﴿أُمَّةٌ﴾.

أى: إماماً، وقد سبق أن أمة تأتي فى القرآن على أربعة أوجه: إمام، ودهر، وجماعة، ودين.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

هذا ثناء من الله - سبحانه وتعالى - على إبراهيم بأنه إمام متبوع؛ لأنه أحد الرسل الكرام من أولى العزم، ثم إنه ﷺ قدوة فى أعماله وأفعاله وجهاده؛ فإنه جاهد قومه وحصل منهم عليه ما حصل، وألقى فى النار فصبر.

ثم ابتلاه الله - سبحانه وتعالى - بالأمر بذبح ابنه، وهو وحيد، وقد بلغ معه السعى (أى: شب وترعرع)؛ فليس كبيراً قد طابت النفس منه، ولا صغيراً لم تتعلق به النفس كثيراً، فصار على منتهى تعلق النفس به.

ثم وفق إلى ابن بار مطيع لله، قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^(١)، لم يحث والده ويتمرد ويهرب، بل أراد من والده أن يوافق أمر ربه، وهذا من برّه بأبيه وطاعته لمولاه سبحانه وتعالى، وانظر إلى هذه القوة العظيمة مع الاعتماد على الله فى قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

فالسبب فى قوله: ﴿سَتَجِدُنِي﴾ تدل على التحقيق، وهو مع ذلك لم يعتمد على نفسه، بل استعان بالله فى قوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾.

وامتثلاً جميعاً وأسلماً، وانقاداً لله - عز وجل -، وتلّ للجبين؛ أى: على الجبين، أى جبهته؛ لأجل أن يذبحه وهو لا يرى وجهه، فجاء الفرج من الله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢)، ولا يصح ما ذكره بعضهم من أن السكين انقلبت، أو أن رقبته صارت حديداً، ونحو ذلك. أهـ.



(١) الصافات: ١٠٢.

(٢) الصافات: ١٠٤ - ١٠٥.

قوله: ﴿قَانِتًا﴾

● ماجاء فى تفسيرها من القرآن:

أتى القنوت فى القرآن على معانى:

(الأولى): الطاعة.

(والثانى): الإقرار بالعبادة.

(والثالث): الامساك عن الكلام فى الصلاة.

(الرابع) طول القيام فى الصلاة. قال تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(١) وقال ﴿أَمِنْ هُوَ

قَانِتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾^(٢).

(الخامس): الخاشع.

ومدح الله القانتين مع جملة من الأخلاق الآخرة فقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ
وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ
وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًا﴾^(٣). وسيأتى من كلام ابن الجوزى وغيره.

● ماجاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن ابن مسعود: (القانت): المطيع لله ورسوله. وتقدم الأثر.

وعن ابن عباس: (القانت): مطيعاً. وتقدم الأثر أيضاً.

وروى ابن جرير عن مجاهد؛ قال: ﴿قَانِتًا﴾ مطيعاً لله فى الدنيا.

● ماجاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال ابن جرير^(٤): قال بعضهم: مطيعون. ثم ذكر الآثار فى ذلك عن قتادة ومجاهد وغيرهما ممن تقدم وقال بعضهم: الإقرار بالطاعة.

قال: وأولى معانى القنوت: الطاعة والاقرار لله عز وجل بالعبودية. اهـ مختصراً.

وقال البغوى^(٥): (قانتاً لله) مطيعاً له. وقيل: قائماً بأوامر الله تعالى. اهـ.

(٢) الزمر : ٩.

(٤) تفسير الطبرى (١/١٠٢-٤) (٧/٤١٢٩).

(١) البقرة: ٢٣٨.

(٣) الأحزاب: ٣٥.

(٥) معالم التنزيل (٣/٤٥٦).

وقال الزمخشري^(١): والقانت: القائم بما أمره الله. اهـ.

وقال ابن الجوزي^(٢): المراد بالقنوت في تفسير قوله (كل له قانتون) ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنه الطاعة. قاله ابن عباس، وابن جبير، وقتادة.

الثاني: أنه الإقرار بالعبادة. قاله عكرمة والسدي.

الثالث: القيام، قاله الحسن والربيع.

وقال في قوله (وقوموا لله قانتين) ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الطاعة، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد..

الثاني: أنه طول القيام في الصلاة قاله ابن عمر، والربيع بن أنس.

الثالث: أنه الإمساك عن الكلام في الصلاة، قاله زيد بن أرقم.

ثم قال ابن الجوزي في تفسير قوله (قانتاً) شرحنا «القنوت» في البقرة. اهـ.

وعنى بذلك ما قدمناه من كلامه.

قال الرازي^(٣): الصفة الثانية: كونه قانتاً لله والقانت بما أمره الله تعالى به، قال ابن

عباس رضى الله عنهما: معناه كونه مطيعاً لله كما تقدم أهـ.

قال ابن كثير: القانت: هو الخاشع.

قال ابن تيمية: (قانتاً) دوام الطاعة. وقال ابن القيم: والقنوت يفسر بأشياء كلها

ترجع إلى دوام الطاعة.

● ما جاء في الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٤): أنه كان قانتاً لله، أى خاشعاً مطيعاً، دائماً على عبادته

وطاعته كما قال شيخ الإسلام: القنوت في اللغة: دوام الطاعة. والمصلى إذا طال قيامه

أو ركوعه أو سجوده فهو قانت في ذلك كله. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ

سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ فجعله قانتاً في حال السجود والقيام.

انتهى.

(١) الكشف (٢/ ٣٤٨).

(٢) زاد المسير (١/ ١١٨)، (٢٣٦) (٤/ ٣٨٤).

(٣) التفسير الكبير ١٠ / ١٣٧.

(٤) القول المفيد ١/ ١١٢.

فوصفه فى هاتين الصفتين بتحقيق العبودية فى نفسه أولاً: علماً وعملاً.
 وثانياً: دعوة وتعليماً واقتداء به، وما كان يقتدى به إلا لعلمه به فى نفسه، ووصفه
 فى الثانية بالاستقامة على ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ
 وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فتضمنت العلم والعمل والاستقامة والدعوة أهـ.
 قال ابن عثيمين^(١): قوله: ﴿قَانِتًا﴾ القنوت: دوام الطاعة، والاستمرار فيها على
 كل حال؛ فهو مطيع لله، ثابت على طاعته، مديم لها فى كل حال.
 كما أن ابنه محمداً ﷺ يذكر الله على كل أحيانه: إن قام ذكر الله، وإن جلس
 ذكره، وإن نام، وإن أكل، وإن قضى حاجته ذكر الله؛ فهو قانت آناء الليل
 والنهار. أهـ.



● قوله [حنيفاً]:

الإعراب: قال القرطبي: «فى تفسيره» قال الزجاج: هو حال من إبراهيم . أهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).

وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣).

وقال: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤).

وقال: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾^(٥).

وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^(٦).

(١) تيسير العزيز الحميد ٧١.

(٢) البقرة: ١٣٥.

(٣) آل عمران: ٦٧.

(٤) آل عمران: ٩٥.

(٥) البقرة: ١٣٠.

(٦) النساء: ١٢٥.

وقال ابن كثير: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ كما قال ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (١).

وكما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (٢).

وقال: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣).

وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ (٤).

وغير ذلك من الآيات التي تنصف على أن (الحنيف) هو المستقيم على دين الإسلام، وأن الله أمرنا بها وهي دين أبينا إبراهيم.

● ما جاء في تفسير الآية من السنة:

عن ابن ابزى عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين».

وإذا أمسى قال مثل ذلك (٥).

وفى «صحيح مسلم»: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم» (٦).

وفى «صحيح البخارى»: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» (٧).

وفى «المسند» «بعثت بالحنيفية السمحة» (٨).

وفى حديث التبوخي فى «المسند» «هل لك فى الإسلام الحنيفية، ملة أبيك إبراهيم» (٩).

والتبوخي هذا رسول هرقل إلى رسول الله . وهو صحابى .

(١) الأنعام: ١٦١ . (٢) الروم: ٣٠ .

(٣) يونس: ١٠٥ . (٤) البينة: ٥ .

(٥) أخرجه أحمد وأبو الشيخ وابن مردويه وكذا فى «الدر» . (١٢٣/٣) .

(٦) [صحيح] مسلم / صفة الجنة (٦٢) وأحمد (١٦٢/٤) .

(٧) [صحيح] البخارى فى الإيمان (٢٩) والترمذى فى المناقب (٣٢) وأحمد (٢٢٦/١) .

(٨) أحمد (٢٦٦/٥) (١١٦/٦) ، (٢٢٢) .

(٩) أحمد (٤٤٢/٣) .

وفي صحيح البخارى من حديث ابن عمر: أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود فسألهم عن دينهم فقال: إني لعلى أن أدين دينكم فأخبرني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً، وإني أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى. فذكر مثله.

فلما رأى زيد قولهم فى إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه فقال: «اللهم إني أشهد أنى على دين إبراهيم»^(١).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(٢): (حنيفاً) يقول: مستقيماً على دين الإسلام. اهـ.

قال البغوى^(٣): وقيل: مخلصاً. اهـ.

وقال الزمخشري^(٤): المائل إلى ملة الإسلام، غير الزائل عنه. اهـ.

قال الرازى^(٥): الصفة الثالثة: كونه حنيفاً والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام ميل الا يزول عنه.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: إنه أول من اختن وأقام مناسك الحج وضحى، وهذه صفة الحنيفية أهـ.

قال القرطبي^(٦): (حنيفاً) مائلاً إلى الحق. أهـ.

وقال ابن كثير^(٧): (الحنيف) المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال ﴿ولم يكن من المشركين﴾.

قال ابن القيم: الحنيف المقبل على الله المعرض عن كل ما سواه.

(١) [صحيح] البخارى فى مناقب الأنصارى (ح ٣٨٢٧).

(٢) تفسير الطبرى (١٢٨/١٤/٧).

(٣) معالم التنزيل (٤٥٦/٣).

(٤) الكشف (٣٤٨/٢).

(٥) «التفسير الكبير» (١٠/ ٢٠ / ١٣٧).

(٧) تفسير ابن كثير (٥٧٢/٢).

(٦) تفسير القرطبي (٢٤٦٤/٤).

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): انه كان حنيفاً؛ والخنف الميل، أى مائلاً منحرفاً قصداً عن الشرك كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢)، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾^(٣) الآية أهـ.

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن^(٤): حنيفاً - أى مائلاً من الباطل الى الحق ومن الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الايمان ومن النفاق إلى الإخلاص ومن المعاصى إلى الطاعات، قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذى وفى﴾. قال ابن عثيمين^(٥):

قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أى: مائلاً عن الشرك، مجانِباً لكل ما يخالف الطاعة؛ فوصف بالإثبات والنفى؛ أى: بالوصفين الإيجابى والسلبى أهـ.
قوله: «ولم يك من المشركين».

الإعراب: وبعض وجوه القراءة:

قال القرطبى^(٦): ﴿وما أنا من المشركين﴾ اسم (ما) وخبرها، وإذا وقفت قلت: (أنا) زدت الألف لبيان الحركة، وهى اللغة الفصيحة.

قال الأخفش: ومن العرب من يقول (أن). وقال الكسائى: ومن العرب من يقول (أنه) ثلاث لغات.

وفى الوصل ثلاث لغات أيضاً «أن تحذف الألف فى الإدراج، لأنها زائدة لبيان الحركة فى الوقف ومن العرب من يثبت الألف فى الوصل كما قال الشاعر:

[أنا سيف العشرة فاعرفونى]

وهى لغة بعض بنى قيس وربيعة؛ عن الفراء. ومن العرب من يقول فى الوصل: (آن) فعلت مثل (عان) فعلت؛ حكاة الكسائى عن بعض قضاة. أهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الرازى^(٧): الصفة الرابعة: قوله ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ معناه أنه كان من

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٧١)

(٢) «الأنعام»: (٧٩)

(٣) «الروم»: (٣٠)

(٤) «فتح الله الحميد المجيد» (١٥٥).

(٥) «القول المفيد» (١/ ١١٢).

(٦) تفسير القرطبى (٤/ ٢٤٦٤).

(٧) «التفسير الكبير» (١٠/ ٢٠ / ١٣٧ و ١٣٨)

الموحدين في الصغر والكبر والذي يقرر كونه كذلك أن أكثر همته عليه السلام كان في تقرير علم الأصول فذكر دليل إثبات الصانع مع ملك زمانه وهو قوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ ثم أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله ﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ثم كسر تلك الأصنام حتى آل الأمر إلى أن القوه في النار، ثم طلب من الله أن يريه كيفية إحياء الموتى ليحصل له مزيد الطمأنينة، ومن وقف على علم القرآن علم أن إبراهيم عليه السلام كان غارقاً في بحر التوحيد أمه.

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): أنه ما كان من المشركين. أي هو موحد خالص من شوائب الشرك مطلقاً فنفي عنه الشرك على أبلغ وجوه النفي، بحيث لا ينسب إليه شرك وإن قل، تكذيباً لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام. وقال المصنف في الكلام على هذه الآية. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لثلاث استوحش سالك الطريق من قلة السالكين: ﴿قَاتِنًا لِلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يميناً ولا شمالاً كفعل العلماء المفتونين: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خلافاً لمن كثر سوادهم وزعم أنه من المسلمين.

قلت - سليمان -: وهو من أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية. لكنه ينبه بالأدنى على الأعلى. وقوله: لثلاث استوحش تنبيه على بعض معاني الآية. وهو المنفرد وحده في الخير. وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتِنًا﴾^(٢) كان على الإسلام ولم يكن في زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره، فلذلك قال الله: ﴿كَانَ أُمَّةً قَاتِنًا﴾ ولا تنافي بينه وبين كلام ابن مسعود المتقدم.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): يوضح هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^(٤) أي على دينه من إخوانه المرسلين، قاله ابن جرير رحمه الله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٥) وذكر تعالى عن خليله عليه السلام أنه

(٢) تقدم تخريجه في تفسير الآية

(٤) و (٥) الممتحنة: ٤.

(١) تيسير العزيز الحميد (٧٢).

(٣) فتح المجيد (٧٦).

قال لاييه آزر ﴿وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (٤٨) قَلَّمَا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (١) فهذا هو تحقيق التوحيد. وهو البراءة من الشرك وأهله واعتزالهم، والكفر بهم وعداوتهم وبغضهم. فالله المستعان.

قال المصنف رحمه الله في هذه الآية: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لثلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين: ﴿قَانَتَا لِلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يميناً ولا شمالاً، كفعل العلماء المفتونين ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خلافاً لمن كثر سوادهم وزعم أنه من المسلمين.

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ على الإسلام. ولم يَكُ في زمانه أحدٌ على الإسلام غيره» أهـ. كما تقدم (٢)

قلت: ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم: من أنه كان إماماً يقتدى به في الخير. قال ابن باز (٣): أكد الكلام بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. بل فارقهم في عقيدته وأعماله وأقواله ومنزله، وهذا الذي ينبغي للمسلم أن يستقيم ويحقق توحيدة، ولا يخالط المشركين ويكثر سوادهم. فلهذه الصفات حقق إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كمال التوحيد أهـ.

وفصل ذلك حامد بن محمد بن حسن بن محسن.

قال ابن عثيمين (٤): قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

تأكيد، أي لم يكن مشركاً طول حياته؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام معصوماً عن الشرك، مع أن قومه كانوا مشركين، فوصفه الله بامتناعه عن الشرك استمراراً في قوله: ﴿حَنِيفًا﴾، وابتداءً في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، والدليل على ذلك: أن الله جعله إماماً، ولا يجعل الله للناس إماماً من لم يحقق التوحيد أبداً.

(١) «مريم»: (٤٨ - ٤٩).

(٢) التعليق المفيد ٣٩.

(٣) القول المفيد ١١٣/١ - ١١٥.

(٤) تقدم تخريجه

ومن تأمل حال إبراهيم عليه السلام وما جرى عليه وجد أنه فى غاية ما يكون من مراتب الصبر، وفى غاية ما يكون من مراتب اليقين؛ لأنه لا يصبر على هذه الأمور العظيمة إلا من أيقن بالثواب، فمن عنده شك أو تردد لا يصبر على هذا؛ لأن النفس لاتدع شيئاً إلا لما هو أحب إليها منه، ولا تحب شيئاً إلا ما ظنت فائدته، أو تيقنت. ويجب أن نعلم أن ثناء الله على أحد من خلقه لا يقصد منه أن يصل إلينا الثناء فقط، لكن يقصد منه أمران هاما:

الأول: محبة هذا الذى أثنى الله عليه خيراً، كما أن من أثنى الله عليه شراً؛ فإننا نبغضه ونكرهه، فنحب إبراهيم عليه السلام؛ لأنه كان إماماً حنيفاً قاتلاً لله ولم يكن من المشركين، ونكره قومه؛ لأنهم كانوا ضالين، ونحب الملائكة وإن كانوا من غير جنسنا؛ لأنهم قائمون بأمر الله، ونكره الشياطين؛ لأنهم عاصون لله وأعداء لنا والله، ونكره أتباع الشياطين؛ لأنهم عاصون لله أيضاً وأعداء لله ولنا.

الثانى: أن تقتدى به فى هذه الصفات التى أثنى الله بها عليه؛ لأنها محل الثناء، ولنا من الثناء بقدر ما اقتدينا به فيها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لأُولَى الْأَلْبَابِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(٣).

وهذه مسألة مهمة؛ لأن الإنسان أحياناً يغيب عن باله الغرض الأول، وهو محبة هذا الذى أثنى الله عليه خيراً، ولكن لا ينبغى أن يغيب؛ لأن الحب فى الله، والبغض فى الله من أوثق عرى الإيمان.

● فائدة:

قال ابن عثيمين: أبو إبراهيم مات على الكفر، والصواب الذى نعتقه أن اسمه آزر؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾^(٥)؛ لأنه قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾^(٦)، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٧)، وفى سورة إبراهيم قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾^(٨)، ولكن فيما بعد تبرأ منه.

(٣) المتحفة: ٦.

(٦) مريم: ٤٧.

(٢) المتحفة: ٤.

(٥) التوبة: ١١٤.

(٨) إبراهيم: ٤٠.

(١) يوسف: ١١١.

(٤) الأنعام: ٧٤.

(٧) التوبة: ١١٤.

أما نوح؛ فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (١)، وهذا يدل على أن أبوى نوح كانا مؤمنين.

● فائدة أخرى:

قال ابن عثيمين: قال الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها أصل: المغازي، والملاحم، والتفسير؛ فهذه الغالب فيها أنها تذكر بدون إسناد، ولهذا؛ فإن المفسرين يذكرون قصة آدم، ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ (٢)، وقليل منهم من ينكر القصة المكذوبة في ذلك.

قلت: وستأتى القصة وتضعيف الحافظ ابن كثير لها في باب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾

فالقاعدة إذاً: أنه لا أحد يعلم عن الأمم السابقة شيئاً إلا من طريق الوحى، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ (٣).

فصل

فى جزاء الأئمة والمحسنين فى الدنيا

قال الفقير: ولما كان من طبائع الناس التى جبلت عليها حب العاجلة وتقديمتها على الآخرة لاستبعادهم إياها أحياناً أولحهم واستعجالهم الخير لما كان هذا حال الناس ناسب أن نذكر لهم جزاء الأئمة والمحسنين ممن حققوا التوحيد فى الدنيا كما بينت الآيات ثم بعد ذلك نذكر جزاءهم فى الآخرة كما بينت السنة. ذلك أن الله عز وجل لم يجعل جزاء الأئمة الجنة بغير حساب فقط بل جعل أى - الأمانة شرط من شروط الاستخلاف والتمكين وإقامة الدول وقد بين الله ذلك فى غير موضع فقال ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكِنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (٤) وقد فعل الله تعالى ذلك بهم بعد ابتلائهم وصبرهم على هذا البلاء بربط الله على قلوبهم وتثبيتته إياهم حتى يوقنوا بأن العقوبة لهم فبلغوا بذلك الأمانة فى الدين فأورثهم الله عرش فرعون كما

(٣) إبراهيم: ٩.

(٢) الاعراف: ١٩٠.

(١) نوح: ٢٨.

(٤) القصص: ٦٥.

قال تعالى . ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (١) وكما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (٢) فلما كملوا مقام الصبر ومقام اليقين نالوا كما نال إبراهيم من قبل مقام الأئمة وفي حق إبراهيم قال تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (٣) ولقد عبر عن هذا كله صاحب «الظلال» عن كيفية إقامة المجتمع المسلم فقال: إن هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده، وأنها لاتدين بالعبودية لغير الله. لاتدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور ولاتدين بالعبودية لغير الله في العبادات والشعائر. . ولاتدين لغير الله في النظام والشرائع. . ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها عن أساس هذه العبودية الخالصة. . تنقى ضمائرهما من الاعتقاد في ألوهية أحد غير الله - معه أو من دونه - وتنقى شعائرها من التوجه بها لأحد غير الله - معه أو دونه وتنقى شرائعها من التلقى عن أحد غير الله - معه أو من دونه - عندئذ - وعندئذ فقط - تكون هذه الجماعة مسلمة، ويكون هذا المجتمع الذي أقامته مسلماً كذلك - فأما قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله - على النحو الذي تقدم - فإنهم لا يكونون مسلمين وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هذا الأساس فلا يكون مجتمعهم مسلماً. . ذلك أن القاعدة الأولى التي يقوم عليها الإسلام والتي يقوم عليها المجتمع الإسلامي هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - لم تقم بشرطها - وإذن فإنه قبل التفكير في إقامة نظام اجتماعي إسلامي وإقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام. . ينبغي أن يتجه الاهتمام أولاً إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله - في أية صورة من صورها التي أسلفنا وأن يتجمع الأفراد الذين نخلص ضمائرهم من العبودية لغير الله في جماعة مسلمة. . وهذه الجماعة التي خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله اعتقاداً وعبادة وشرعية هي التي ينشأ منها المجتمع المسلم وينضم إليها من يريد أن يعيش هذا المجتمع بعبادته وعقيدته

(١) الأعراف : ١٣٧

(٢) السجدة : ٢٤

(٣) البقرة : ١٢٤

وشريعته التى تتمثل فيها العبودية لله وحده ثم قال هكذا نشأت الجماعة المسلمة الأولى التى أقامت المجتمع المسلم الأول وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة وهكذا يكون كل مجتمع مسلم والحاصل أن الله عزوجل جعل الإقامة فى الدين شرط فى الاستخلاف وفى التمكين فقال «ونجعلهم أئمة» وهى المنة الأولى التى بها تأتى المنة الثانية وهى الورث والتمكين وإقامة دولة المسلمين «نجعلهم الوراثين» وقد بين الله تعالى للناس كيف يكونوا أئمة بعرضه لهذا القدوة والمثل فى القرآن فقال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فبين سبحانه وتعالى أنه لا بد من الابتلاء والفتن حتى يصل العبد إلى درجة الأئمة بصبره على ذلك والابتلاء والفتن تأتى بمعنى الأوامر والنواهي كما فى قوله تعالى ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (١) وقوله تعالى - ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٢) أى لا يؤمر ولا ينهى كما قال ذلك الشافعى وفى الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم قال ابن كثير كلمات أى بشرائع وأوامر ونواهي فهذه شروط الإمامة الابتلاء والصبر عليه وعدم الجزع من حكم الله واليقين بأن العاقبة للمتقين وكذلك التمكين لذا قال تعالى فى بنى إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ وقال ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ ولقد بين المفسرون الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم عليه السلام فقال ابن عباس الكلمات التى ابتلى الله بهن إبراهيم فراقه قومه فى الله حين أمر بمفارقتهم ومحاجته غرود فى الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذى فيه خلافه، وصبره على قذفه إياه فى النار ليحرقوه فى الله على هول ذلك من أمرهم والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده فى الله حين أمره بالخروج عنهم وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه فلما مضى على ذلك من الله كله واخلفه للبلاء ﴿قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣) على ما كان من خلاف الناس وفراقهم (٤)

وعنه أيضاً ابتلاء الله بالمناسك وقيل غير ذلك فأتمهن أى قام بهن ولهذا قال تعالى: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (٥) فبالإمامة فى الدين وحقق كذلك مقام اليقين المجيد بالقيادة وإذعانه لشرع رب العالمين وخلع شرائع وقوانين المضلين فقال تعالى ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وهذه كلمات الله لا تبدل فمن وفى بهذا الشرط وفى الله له

(٣) البقرة: ١٣١

(٢) القيامة: ٣

(١) العنكبوت: ٢

(٥) النجم: ٣٧

(٤) ابن كثير ١/١٦٥

بالثاني كما قال تعالى في حق يوسف عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا
 وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١) فبعد الإحسان - وهذا تعبير آخر عن درجة الأئمة فبعد
 بلوغها يأتي الحكم ويأتي الاستخلاف ثم قال إبراهيم ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي
 الظَّالِمِينَ﴾ أي المشركين غير الخالص الذين لم يبلغوا درجة المحسنين وكانوا في ريب من
 وعد رب العالمين وهذه مشيئته الشرعية ألا يكون اماماً ظالماً أو مشركاً كما بين سعيد بن
 جبیر قال المراد به المشرك لا يكون اماماً ظالماً لا يكون اماماً مشركاً ويؤيده قوله تعالى ﴿إِنَّ
 الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٢) فمن رضى بغير شرع الله شرع ورضى بغير أمر الله أمر فقد
 دخله من الظلم والشرك بقدر هذا الرضى وتخلف عن الإمامة بهذا القدر وكذلك من
 شك أو لم يصبر على بلاء الله عزوجل يكون قد نقص من امامته في الدين بقدر هذا
 الريب وبقدر هذا الجزع وعدم الصبر فيكون له حصة من الإمامة في الدين بقدر ما صبر
 على بلاء الله الذي هو شرعه وأمره ونهيه ويكون له مطلق الإمامة الدينية الشرعية إذا
 أتى بمطلق الصبر واليقين فالمطلق للمطلق والحصة للحصة. هذا في أمر الدنيا وفي أمر
 الآخرة كذلك يحاسب بقدر ما أتى من جزع وعدم صبر وقلة يقين أو شك. وامثل
 الرسول ﷺ لقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ فكان يقتدى به
 ﷺ في الوصول إلى الإمامة بنفسه ثم في منهجه مع أصحابه فابتلى هو ﷺ بمثل ما
 ابتلى به إبراهيم فصبر وأيقن وكان لنافيه الأسوة الحسنة وكذلك الصحابة مستهم البساء
 والضراء وزلزلوا وأذوا في الله وتركوا أموالهم وأولادهم وذويهم مهاجرين إلى الله
 عزوجل فبلغوا من الصبر على بلاء الله ومن اليقين بوعده الله منازل الأئمة فمن الله
 عليهم بالتمكين والاستخلاف وجعلهم الوارثين ولعل هذا من حكم الإتيان بحديث
 السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب لأنهم اقتدوا بالنبي الذي اقتدى بأبيه
 إبراهيم فحقق الجميع أعلى مراتب التوحيد ودخول الجنة بغير حساب .
 فالأئمة : (الغبراء) و(السواد الأعظم)، و(الطائفة المنصورة)، و(الفرقة الناجية)، أهل
 العلم

قال الإمام أحمد: أبو حمزة السكري جماعة.
 وهذه كلمات الله لا تبديل لها في كل عصر ومصر وما أرى تخلف هذه السنة عنا

(١) يوسف : ٢٢

(٢) لقمان : ١٣

وحرماننا من هذه المنة إلا أننا لم نفى بالشرط ولم نحقق التوحيد فينا بمعنى أن نرفع شعار الحكم لله عزوجل ففى كل مناحى الحياة ولا نشترى بذلك ثمناً قليلاً من عرض زائل أو منصب تافه ونصبر على ذلك كله موقنين بأن العقابة للمتقين.

أرى أننا فعلاً لم نبطل بلاء الأولين وإن ابتلينا لم نصبر صبرهم فلهذا مازلنا فى استضعاف وهوان إلى أن نفى للرحمن عزوجل بهذا الشرط والله الموفق لا رب سواه. وهو الحنان المنان.



سؤال : ما الفرق بين النصر والتمكين

الجواب الفرق الأول: النصر بخلاف التمكين لأنه لايلزم أن يكون مع النصر تمكين، ولايلزم من النصر نفسه تمكين قال ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

فحيب النجار - مؤمن يس - انتصر لأنه مات مسلماً، ودخل الجنة، ولم يمكن له. وكذا قصة أصحاب الأخدود ولأن الله وعد المؤمنين بذلك كما تقدم وجعل ذلك حق عليه لهم بقوله تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لكن النصر قد يتبعه تمكين أحياناً قال تعالى ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ الآية فهذا نصر تبعه تمكين فى المدينة.

الفرق الثانى: النصر قد يكون على مستوى فردى، أما التمكين فيكون على مستوى الأمة أو الجماعة، أو الطائفة.

سؤال: هل المطلوب النصر أم التمكين؟

الجواب: التمكين لأنه فى هذه الحالة يدخل الناس فى الإسلام فى أمن وأمان، ونخرجهم من عبادة غير الله إلى عبادة الله. والدليل قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ وفى الحديث «بعثت بالسيف بين يدى الساعة ليعبد الله وحده وجعل رزقى تحت ظل «رمحى» (١)، (٢). فالإمامة وسيلة إلى غاية والغاية هى الإرث والتمكين للدين.

(١) فى المسند

(٢) قال ربى: ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد فالرسول بُعث بالسيف ولم يشهره إلا بعد ١٣ سنة بعد أن أذن الله له فلا بد وأن يكون دليل شرعى للقتال

الدليل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية

ذلك حتى يُقام الدين لأن الدين لا يُقام في حالة استضعاف.
قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ فلو أحس الناس بالأمن لدخلوا في دين الله أفواجاً ولا لتزموا بدين الله أفواجاً فالإمامة ليست مطلوبة لدخول الجنة بغير حساب فقط، وإن كنا حولها ندندن. بل لإقامة دين الله في الأرض الذي لا يقوم إلا بالتمكين ولا تمكين إلا بالأئمة.

فائدة: أبو جهل ربط سمية من رجلها وهددها بقذفها في حياتها وكان الصحابة يمشون عليها ومعهم سلاحهم ولا يفعلون أى شيء في أبى جهل فلو ارتبطت دعوة النبي ﷺ بالسلاح وبالقتل لكان ذلك أكبر شيء للصد عن دعوته ﷺ.

وقد كان النبي ﷺ يصلى في الكعبة فيقول أحد الكفار من يأتي بسلا جزور فلان ويوضع على ظهره وهو يصلى . لكن الصحابة كان بلاؤهم أن يصبروا وليس أن يعملوا عمليات من شأنها أن تصد عن الدعوة وتعوق خطوات التمكين.

فهدفنا ليس نصر، ولكن تمكين وإرث.

والذى يفعل هذه العمليات هو مخطئ عندنا؛ لأن لم يراع المفسد والمصالح التي اعتبرها رسول الله ﷺ بقوله «حتى لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» وكذلك يتحدث الناس الآن أننا نقتل مسلمين أو معاهدين فالواجب علينا السعى إلى التمكين، لا إلى النصر، وقد يائس من قام بنصر فردى محدود يعوق خطوات التمكين.

سؤال: كيف تمكّن؟ وما السبيل إلى التمكين؟

هو تربية الأئمة: أى نتربى نحن أن نكون هكذا، وكذا نربى غيرنا لا نبيع بها ولكن تكون معنا ونتصورها (١).

(١) إذن دورنا هو صناعة الأئمة فالترية صناعة لها اصول وأسس ولها تدرج مسلم - متعلم - داعى - معلم - يصل إلى ذروة سنام الإسلام يصبح مجاهد . هذه هى الشخصية الكاملة التى قارت الكمال البشرى قال ﷺ «والعالم والمتعلم شريكان فى الأجر» وماسوى ذلك فهمج لآخر فيهم» وهذا هو الإمام الربانى الذى تعلم وعمل وعلم كما تقدم وهؤلاء هم المجاهدون فى وقت الجهاد المعلمون المربون فى وقت الاعداد : فابن قدامة المقدسى وعبد الغنى المقدسى الذين كانوا بجانب صلاح الدين فى فتح بيت المقدس كانوا مجاهدين وكانوا أئمة وكذا ابن تيمية ألب الناس على التار ووقت الجهاد كانوا على رؤوس المجاهدين ووقت السلم كانوا على رؤوس المعلمين الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر.

فلن تقوم قائمة للمسلمين ولا يأتيتهم وعد الله إلا أن يكملوا هذين المقامين - الصبر واليقين - ويلتزموا بالإيمان والعمل الصالح.

كما قال تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾
فلهم الإرث والتمكين، ولهم الأمن والاهتداء بشرط عدم الشرك بالله كما قال تعالى : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أى : المشركين.

● فلماذا نريد الأمن؟

الجواب: نطلب الأمن لوجوه:

الأول: لكى نأمن فى عبادتنا، فنعبد الله بأمن، ولانطلب الأمن لكى نتكاسل أو ننام أو لنسرف على أنفسنا، بل للعبادة فى أمن واطمئنان.

الثانى: نطلب الأمن لإقامة ماجاء به الكتاب العزيز ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

● وهل طلب الأمن غاية أم وسيلة؟

الجواب: أنت لاتطلب الأمن لذاته، وإنما تطلبه لتحقيق الغاية التى ما خلقت إلا لإجلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وهذا الدين لايقام وأنت خائف فزع قلق، إنما يقام بأمن واطمئنان، وهذا الأمن لايحصل عليه إلا من بلغ درجة الأئمة.

وإذا أنعم الله على العبد بالأمن لايوفى شكرها إلا بالطاعة والعبادة الدائمة، كما قال الله تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ولما ثبت فى الصحيح عن خباب بن الارت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعونا، فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله، والذئب على غنمه،

وكلنكم تستعجلون»^(١).

فالواجب أن نوفي شكر النعمة التي نحن فيها بالعبادة الدائمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في البيت والطريق والعمل و... إلخ.

ولما روى عن النبي ﷺ «من أصبح معافى في بدنه، آمناً في سربه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا»^(٢).

فَالْخِلَافَةُ: أن الأمن الذي وعد الله به في الآية «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» بعد الاستخلاف سيكون ولا بد من حدوث ذلك كله بشروط الآية (الإيمان - عمل الصالحات) فبعد الإرث والتمكين يأتي الأمن، وهذا الأمن يقتضى الشك، وهذا الشكر لا يكون إلا بإخلاص الطاعة والعبادة لله وحده لا شريك له، بل والدوام عليها. كما قال تعالى ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

سؤال: هل نحن الآن على اعتاب هذه الإمامة، وهل حققنا منها شيء.. وهل وقفنا على أول الدرج أم نحن تحت الدرج؟ وهل نحن رؤوس أم ذبيل؟

بين النبي ﷺ أن الإمام لابد أن يكون رأساً ولا يكون إماماً لما أخرج الترمذى من حديث حذيفة مرفوعاً «لا تكونوا إمامة، تقولون إن أحسن الناس أحسناً، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»^(٣).

أى: إن أحسن الناس يحسن معهم، وإن أساءوا أساء معهم، فهذا هو الإمامة، فيجب أن نعمل لله، لا نعمل لأحد من المخلوقين، ولا اتباعاً لأحد أو تبعاً لأحد، بل نتبع ما جاء به الرسول ولا نقلد ديننا الرجال.

فالإمام (الرأس) لا يكون ذنباً لأحد، ولا يقلد أحداً تقليداً أعمى، بل يعلم ويعمل بحق وتحركاته تكون من رأسه بالحق.

فالإمام لابد وأن يكون على علم (على الحق)، لما ثبت عنه ﷺ في الصحيح من

(١) [صحيح] أخرجه البخارى، والنسائى، وأبو داود، وأحمد، والحميدى، من حديث خباب.

(٢) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٢٣٤٦) وابن ماجه (٤١٤١) والبخارى فى الأدب المفرد (٣٠٣).

وانظر تخريجنا «الطلب النبوى» للذهبى وهو ضعيف فيه سلمة بن عبيد الله بن محصن فجھول ولا يتابع على حديثه.

(٣) أخرجه الترمذى (٢٠٠٧) وقال: حسن غريب.

حديث معاوية قال قال ﷺ «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين والله المعطى وأنا القاسم، ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم» وفي رواية : «ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون»^(١).

ففي أول الحديث : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وفي آخره : «لا تزال .. ظاهرون» فالجمع بين أول الحديث وآخره أنهم هم المصلحون إذا فسد الناس، وهم أهل العلم، وهم الغرباء.

كما في حديث حذيفة في الصحيح «كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»^(٢). وفي بعض روايته قال : «يا حذيفة تعلم كتاب الله واتبع ما فيه»^(٣) ثلاثاً.

وفي حديث العرباض بن سارية مرفوعاً «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة .. فعليكم بستی، وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ»^(٤).

وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً : «كيف بك يا عبد الله بن عمر إذا بقيت في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم، واختلفوا فصاروا هكذا وشبك بين أصابعه، قال : فما تأمرني؟ قال : عليك بخاصتك ودع عنك عوامهم»^(٥). أصله في الصحيح إلى قوله «من الناس»^(٦).

وعند أحمد «تأخذ ما تعرف وتدع ما تنكر، وتقبل على خاصتك، وتدع عوامهم». فقلوه : «وتدع ماتنكر» أى : بما خالف الحق مما علمته.

وقال ابن مسعود في ذم التقليد : ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة في الشر»^(٧).

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (ح ٣١١٦).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى، ومسلم، وانظر كتابى «كيف الأمر إن لم تكن جماعة» يسر الله طبعه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٤٦)، وأبو نعيم (٢٧١/١).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذى (٢٦٦٧)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣).

وانظر رياض الصالحين بتخريجنا (١٥٩).

(٥) أخرجه الطبرى وصححه ابن حبان. كذا قال الحافظ في الفتح (٤٢/١٣).

(٦) [صحيح] أخرجه البخارى (ح ٤٨٠).

(٧) أخرجه ابن عبد البر في جامعه.

وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾^(١).

قال الغزالي : من عادة ضعفاء العقول أنهم يعرفون الحق بالرجال ، والعاقل من اقتدى بأمر المؤمنين على بن أبى طالب: « لاتعرف الحق بالحق بالرجال ، ولكن أعرف الحق تعرف أهله»^(*).

قال الشوكاني عن التقليد المذموم: اتباع من ليس بحجة بغير حجة.

فهذا هو التقليد الذى أجمعت الأمة على حرمة.

وسياتى - إن شا الله - بحث مطول فى التقليد فى الباب السابع والثلاثين من هذا الكتاب.

أكر دليل على أننا لم نخرج من الإمعيه والتعصب للمذاهب والاحزاب ولو بالباطل هو أننا مازلنا نقلد.

فمن أسباب أننا لم نخرج من حالة الاستضعاف هو التقليد الأعمى فالتقليد الأعمى الذى أجمعت الأمة على حرمة هو اتباع من ليس بحجة بغير حجة.

وهذا الموضوع الناس فيه طرفان ووسط:

(أ) طرف يقبح العلماء بالكلية بل فى بعض الأحيان يكفرونهم.

(ب) طرف يعظم العلماء بالكلية ويجعل كلامهم كالدليل.

(ج) طرف وسط: نحترمهم ونقدرهم ونعتد بأفهامهم المستنبطة من الدليل لقوله ﷺ: «فعليكم بستی وسنة الخلفاء الراشدون...» أى فَهُمْ الخلفاء لها وعملهم بها.

قول: [وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾].

● مناسبة الآية للترجمة:

قال سليمان آل الشيخ^(**):

مناسبة الآية للترجمة من جهة أن الله تعالى وصف المؤمنين السابقين إلى الجنات بصفات، أعظمها الشناء عليهم بأنهم بربهم لا يشركون، أى شيئاً من الشرك فى وقت من الأوقات فإن الإيمان النافع مطلقاً لا يوجد إلا بترك الشرك مطلقاً. ولما كان المؤمن قد يعرض له ما يقدح فى إيمانه من شرك جلى أو خفى، نفى عنهم ذلك، ومن كان كذلك فقد بلغ من تحقيق التوحيد النهاية، وفاز بأعظم التجارة، ودخل الجنة بلا حساب ولا عذاب.

(*) «المنقذ من الضلال والموصل إلى ذى العزة والجلال»

(**) تيسر العزيز حميد.

قال عبد الرحمن الشيخ^(١): وصف المؤمنين السابقين إلى الجنة، فأثنى عليهم بالصِّفات التي أعظمها: أنهم بربهم لا يشركون. ولما كان المرء قد يعرض له ما يقدح في إسلامه: من شرك جليٍّ أو خفي نفى ذلك عنهم، وهذا هو تحقيق التوحيد، الذي حَسُنَتْ به أعمالهم، وكملت ونفعتهم.

قلت - عبد الرحمن آل الشيخ -: (قوله: «حَسُنَتْ وَكَمَلَتْ») هذا باعتبار سلامتهم من الشُّرك الأصغر، وأمَّا الشُّرك الأكبر فلا يقال في تركه ذلك، فتدبر. ولو قال الشَّارح: صَحَّت، لكان أقوم أهد.

قال ابن باز^(٢): هذا صفات أهل التوحيد والإيمان أنهم كانوا موحدين لله مخلصين له خالصين من الشرك مع عبادتهم وخوفهم لله وهذا كمال التوحيد.

وقال عبد الله بن جار الله إن هؤلاء المؤمنين دخلوا الجنة بسبب تخليصهم التوحيد والسلامة من الشرك^(٣). اهـ.

وقال نحو ذلك القرعاوي فقال^(٤): مناسبة الآية للباب: حيث دلَّت الآية الكريمة على أن من اتصف بهذه الصفات وطهر نفسه من الشرك المحيط من الأعمال فقد استوجب الجنة بلا حساب ولا عذاب لأنه بذلك قد حقق التوحيد وهذا جزاء من حققه.

قال ابن عثيمين^(٥): هذه الآية سبقها آية، وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾^(٦).

لكن المؤلف ذكر الشاهد. و﴿مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ﴾؛ أى: من خوفهم منه على علم، و﴿مُشْفِقُونَ﴾؛ أى: خائفون من عذابه إن خالفوه.

فالمعاصي بالمعنى الأعم - كما سبق - شرك؛ لأنها صادرة عن هوى مخالف للشرع، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾^(٧).

(١) فتح المجيد ٧٧.

(٢) التعليق المفيد ٤٠.

(٣) الجامع الفريد ٢١.

(٤) الجديد ٤٨.

(٥) القول المفيد ١١٦/١ و ١١٧.

(٦) المؤمنون: ٤.

(٧) الفرقان: ٤٣.

أما بالنسبة للمعنى الأخص؛ فيقسمها العلماء قسمين:

٢ - فسوق.

١ - شرك.

وقوله: ﴿لَا يَشْرِكُونَ﴾.

يُراد به الشرك بالمعنى الأعم؛ إذ تحقيق التوحيد لا يكون إلاً باجتناب الشرك بالمعنى الأعم، ولكن ليس معنى هذا ألا تقع منهم المعاصي؛ لأن كل ابن آدم خطاء، وليس بمعصوم، ولكن إذا عصوا؛ فَإِنَّهُمْ يَتُوبُونَ ولا يستمرون عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ فَغُفِرَ لَهُ﴾. اهـ.

● لماذا اختار المصنف هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ مع أن هناك في القرآن آيات كثيرة تنفى الشرك عن المؤمنين الموحدين الذين كمل توحيدهم؟

قال الفقير: الجواب: بالنظر إلى سياق هذه الآية في الآيات قبلها وبعدها يتضح لماذا اختارها ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أى مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله حائفون منه وجلون من مكر ربهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أى يؤمنون بآيات الله الكونية والشرعية وایقنوا أن كل ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه وما شرعه الله فهو إن كان امراً فمما يحبه ويرضاه وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه وإن كان خيراً فهو حق.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أى لا يعبدون معه غيره بل يوحّدونه ويعلمون أن لا إله إلا هو أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا نظير له ولا كفاء له.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ أَنْهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أى يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخرقهم أن يكونوا. قد قصروا في القيام بشرط الإعطاء وهذا من باب الإشفاق والاحتياط.



● ماجاء فى تفسير الآية من السنة:

عن عائشة قالت: قلت يارسول الله قوله الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ أهو الرجل يسرق ويغنى ويشرب الخمر، وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال: «لا، ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلى، وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يقبل منه» (١).

وعن الحسن قال: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة، تم تلا ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ إلى قوله ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ قال المنافق: ﴿إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (٢).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى (٣): ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ يقول: والذين يخلصون لربهم عبادتهم، فلا يجعلون له فيها لغيره شركاً، كالوثن ولا لصنم، ولا يراؤن بها أحداً من خلقه، ولكنهم يجعلون أعمالهم لوجهه خالصاً، وإياه يقصدون بالطاعة والعبادة دون كل شيء سواه. اهـ.

وقال الرازى (٤): ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفى الشريك لله تعالى لأن ذلك داخل فى قوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ بل المراد منه نفى الشرك الخفى وهو أن يكون مخلصاً فى العبادة لا يقدم عليها إلا لوجه الله تعالى وطلب رضوانه والله أعلم. اهـ.

وقال القرطبى (٥): قال الحسن: يؤتون الإخلاص، ويخافون ألا يقبل منهم. اهـ.

(١) أخرجه القريابى وأحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجه وابن أبى الدنيا فى «نعت الخائفين» وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى «الشعب». كذا فى «الدر» (٢١/٥).

(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم. كما فى «الدر» (٢١/٥).

(٣) تفسير الطبرى (١٨/٩، ٢٤، ٢٥).

(٤) التفسير الكبير (١٢/٢٣، ١٠٨).

(٥) تفسير القرطبى (٧/٤٥٢٤).

وقال ابن كثير^(١): ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أى لا يعبدون معه غيره، بل يوحّدونه، ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة، ولا ولداً، وأنه لانظير له، ولا كفاء له. اهـ.

وقال الشوكاني^(٢): لما نفى سبحانه الخيرات الحقيقية عن الكفرة المتنعمين أتبع ذلك بذكر من هو أهل للخيرات عاجلاً وأجلاً فوضعهم بصفات أربع:

الأول: قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾.

والصفة الثانية: قوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

والصفة الثالثة: قوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أى يتركون الشرك تركاً كلياً ظاهراً وباطناً.

والصفة الرابعة: قوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾. اهـ مختصراً.

● ماجاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

تقدم قول سليمان آل الشيخ فيها فى مناسبتها للباب، وكذلك قول عبد الرحمن آل الشيخ وابن باز وابن عثيمين.

وقال حامد بن محمد^(٣): ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ فكل من لا يشرك بربه فالآية تشمله.

وقال عبد الله بن جار الله^(٤): أى لا يعبدون مع الله غيره، بل يوحّدونه ويفردونه بالعبادة ويعلمون أنه لا إله إلا هو. اهـ.



(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٣٧).

(٢) فتح التقدير (٣/٤٨٥).

(٣) فتح الله الحميد المجيد (١٥٨).

(٤) الجامع الفريد (٢١).

وَعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا ثُمَّ قُلْتُ: أَمَّا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ: وَلَكِنِّي لُدَغْتُ. قَالَ فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: اسْتَرَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثُ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ الشَّعْبِيُّ؟ قُلْتُ حَدَّثَنَا عَنْ بَرِيدِ بْنِ حَصِيبٍ (الْأَسْلَمِيُّ) أَنَّهُ قَالَ: «لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنِ أَوْحَمَةٍ» قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ مَعَ الرَّجُلِ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي إِلَى الْأَفْقِ الْآخَرِ فَنَا سَوَادٌ عَظِيمٌ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ فَتَنْظُرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخَرِ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ.. ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسَ فِي أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا.. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ. وَلَا يَتَطَيَّرُونَ. وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فَقَامَ عُكَاشَةُ بْنُ مُحْصَنٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اذْعُ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ. فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: اذْعُ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ» (١).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري في «الطب» / باب: من اکتوی أو کوی غيره (١٠/١٦٣ - ١٦٤ ح / ٥٧٠٥ - الفتح) ومسلم في «الإيمان» / باب: الدليل على دخول الجنة طوائف من المسلمين بغير حساب ولا عذاب (١/٣/٩٤) السنوي وأحمد في «مسنده» (١/٢٧١) وابن حبان في «صحيحه» (٨/١١٤ ح / ٦٣٩٦ - الإحسان). من طريق: سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وفى الباب عن ابن مسعود وعقبه بن عامر وعمران بن حصين.
وانظر «رياض الصالحين» (ح ٧٥) وفتح المجيد (ح ٩٦) بتخريجنا.

وهذا لفظ مسلم وقد رواه البخارى عن حصين قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: حدثني ابن عباس قال: قال النبي ﷺ - .

عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمْرُؤًا مَعَهُ الْأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرُؤًا مَعَهُ النَّفَرُ وَالنَّبِيُّ يَمْرُؤًا مَعَهُ الْعَشِيرَةُ. وَالنَّبِيُّ يَمْرُؤًا مَعَهُ الْخُمْسَةُ وَالنَّبِيُّ يَمْرُؤًا وَحْدَهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ هَؤُلَاءِ أَمْتِي؟ قَالَ: لَا وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قَدَّامَهُمْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ. قُلْتُ: وَلَمْ؟ قَالَ: كَانُوا لَا يَكْتُونُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَنْطِيرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. فَقَامَ إِلَيْهِ عَكَاشَةُ بْنُ مَحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ. قَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ. ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ. قَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ^(١).

ثم رواه بلفظ آخر تحت نفس الباب عن سهل بن سعد قال: قال النبي ﷺ - لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا - أَوْ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ، شَكٌّ فِي أَحَدِهِمَا - مَتَمَاسِكِينَ، آخِذٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، حَتَّى يَدْخُلَ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمُ الْجَنَّةَ وَوُجُوهُهُمْ عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ^(٢).

وبوّب عليه أيضاً. . باب «ومن يتوكل على الله فهو حسبة» ولفظه «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب: هم الذين لا يسترقون، ولا ينطيطون، وعلى ربهم يتوكلون». أهـ .

قوله: «وعن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأي الكوكب..... الحديث».

● مناسبة الحديث للباب: -

قال عبد الله بن جابر^(٣): - مناسبة للباب: أن هؤلاء المؤمنين الموصوفين بتلك الصفات دخلوا الجنة بغير حساب لقوة توكلهم وتوحيدهم وإخلاصهم وإعتمادهم على الله وحده. أهـ .

● قال القرعاوي^(٤): - حيث دلّ الحديث على أن من أحرز الخصال الأربعة المذكورة في الحديث فقد حقق توحيده ودخل الجنة بغير حساب ولا عذاب. أهـ .

● قوله: «عن حصين بن عبد الرحمن».

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قوله: «عن حصين بن عبد الرحمن هو السلمي أبو

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٥٤١). (٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٥٤٣).

(٣) الجامع الفريد ٢٣. (٤) الجديد ٥٣. (٥) تيسير العزيز الحميد ٧٣.

الهذيل الكوفي ثقة، تغير حفظه في الآخر؛ مات سنة ست وثلاثين ومائة، وله ثلاث وتسعون سنة. أهـ.

● قوله: «كنت عند سعيد بن جبير».

قال سليمان آل الشيخ^(١): وسعيد بن جبير هو الإمام الفقيه من جلة أصحاب ابن عباس، روايته عن عائشة، وأبي موسى مرسله، وهو كوفي مولى لبنى أسد، قتل بين يدى الحجاج سنة خمس وتسعين، ولم يكمل الخمسين وقصته مع الحجاج مشهورة - أهـ قوله: «فقال: أيكم رأى الكوكب الذى انقض البارحة».

● لطيفة: (قال الفقير):

وهنا لطيفة تدل على علاقة السند بالمتن، وهى أن راوى هذه الحديث (سعيد بن جبير) ترجم له المزي ترجمة مطولة، ذكر فيها ما يبين إمامته فى الدين، وقوة ثباته، وسعة علمه، وتحقيقه للتوحيد. وذكر قصته مع الحجاج وثباته ورسوخ قدمه أمام الحجاج إلى أن قتله. وبهذا اللطيفة يتبين لك علاقة السند بالمتن وبالباب.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: «انقض البارحة».

أى: سقط البارحة، والبارحة: أقرب ليلة مضت، وقال بعض أهل اللغة: تقول فعلنا الليلة كذا إن قلته قبل الزوال، وفعلنا البارحة كذا إن قلته بعد الزوال.

وفى عرفنا؛ فمن طلوع الشمس إلى الغروب نقول: البارحة لليلة الماضية، ومن غروب الشمس إلى طلوعها نقول: الليلة لليلة التى نحن فيها بل بعض العامة يتوسع متى قام من الليل قال البارحة؛ وإن كان فى ليلته.

● قوله: «قلت: أنا» أى حصين^(٣)

● قوله: «ثم قلت: أما إني لم أكن فى صلاة»

قال سليمان آل الشيخ^(٤): القائل هو حصين، خاف أن يظن الحاضرون أنه ما رأى النجم إلا لأنه يصلى، فأراد أن ينفى عن نفسه إيهام العبادة - فيتزين بما ليس فيه ويرائى - وأنه يصلى مع أنه لم يكن فعل ذلك، وهذا يدل على فضل السلف الصالح وحرصهم على الإخلاص، وشدة ابتعادهم عن الرياء بخلاف من يقول: فعلت وفعلت ليوهم الأغمار أنه من الأولياء، وربما علق السبحة فى عنقه أو أخذها فى يده يمشى بها بين الناس إعلاماً للناس أنه يسبح عدد ما فيها من الخرز.

(٢) القول المفيد ١/ ١١٧.

(١) نفس المصدر السابق.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٧٤.

(٣) القول المفيد ١/ ١١٨.

وقد قال الإمام محمد بن وضاح: حدثنا أسد عن جرير بن حازم عن الصلت بن يرهام قال: مر ابن مسعود بامرأة تُسَبِّحُ بِهِ فَقَطَعَهُ وَأَلْقَاهُ؛ ثُمَّ مَرَّ بِرَجُلٍ يُسَبِّحُ بِحَصَى فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ جِئْتُمْ بِبِدْعَةٍ ظُلْمًا، أَوْ: لَقَدْ غَلَبْتُمْ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ علماً؟^(١) أهـ.

● قوله: «ولكنني لدغت».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): هو بضم أوله وكسر ثانية مبنى لما يسم فاعله أى لدغته عقرب أو نحوها. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): والظاهر أنها شديدة، لأنه لم ينم منها.

● قوله: «قال: فماذا صنعت؟»

القاتل هو سعيد بن جبير:

قوله: «قلت: استرقيت».

قال سليمان آل الشيخ^(٤):

قوله: «قلت ارتقيت» لفظ مسلم: «استرقيت» أى طلبت من يرقيني.

● قوله: «قال: فما حملك على ذلك؟».

قال سليمان آل الشيخ^(٥): فيه طلب الحجة لصحة المذهب.

قال ابن عثيمين^(٦): أى: قال سعيد: ما السبب أنك استرقيت.

● قوله: «قلت حديث حدثناه الشعبي».

قال سليمان آل الشيخ^(٧):

أى حملنى عليه حديث حدثناه الشعبي، واسمه عامر بن شرحبيل الهمداني - بسكون الميم - الشعبي. ولد فى خلافة عمر وهو من ثقات التابعين وحفاظهم وفقهائهم، مات سنة ثلاثة ومائة.

(١) تقدم تخريجه عن ابن مسعود بمعناه فى قصة أخرى.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٧٤.

(٣) القول المفيد ١١٨/١.

(٤)(٥) تيسير العزيز الحميد ٧٤.

(٦) القول المفيد ١١٩/١.

(٧) تيسير العزيز الحميد

قال ابن عثيمين^(١): وهذا يدل على أن السلف رضى الله عنهم يتحاورون حتى يصلوا إلى الحقيقة.

فسعيد بن جبير لم يقصد الانتقاد على هذا الرجل، بل قصد أن يستفهم منه ويعرف مستنده.

● قوله: «قال: وما حدثكم الشعبي؟ قلت: حدثنا عن بُريده بن حصيب الأسلمي أنه قال».

قال سليمان آل الشيخ^(٢):

● قوله: (عن بريده) - بضم أوله وفتح ثانيه - تصغير برده بن الحصيب - بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين - ابن عبد الله بن الحارث الأسلمي، صحابي شهير. مات سنة ثلاث وستين. قاله ابن سعد. اهـ.

● فائدة:

قلت: ولم يقل (قال رسول الله ﷺ لا رقية إلا من عين أو حمة)، ويسكت بل ذكر الحديث بسنده، وهذا دليل سلفي على أنه من يذكر الدليل (الحديث) يذكره بسنده بمخرجه، ومن أخرجه، كان يقول: (أخرجه البخاري أو مسلم أو أحد أصحاب السنن).

فالعلاقة جمال الدين القاسمي في كتاب «قواعد التحديث»، نقل فتوى ابن حجر الهيتمي، قال في فتاواه الحديثية ما نصه: «وسئل - رضى الله عنه - في خطيب يرقى المنبر في كل جمعة، ويروى أحاديث كثيرة، ولم يبين مخرجها، ولا رواها، فما الذي يجب عليه؟

فأجاب بقوله: ما ذكره من الأحاديث في خطبه من غير أن يبين رواها، أو من ذكرها فجائز بشرط أن يكون من أهل المعرفة في الحديث، أو بنقلها من مؤلفه كذلك، وأما الاعتماد في رواية الأحاديث على مجرد رؤيتها في كتاب ليس مؤلفه من أهل الحديث أو في خطب ليس مؤلفها كذلك، فلا يحل ذلك، وفي فعله عزر عليه التعزير الشديد، وهذا حال أكثر الخطباء فإنه بمجرد رؤيتهم خطبة فيها أحاديث حفظوها،

(١) القول المفيد ١/ ١١٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٧٤.

وخطوبها من غير أن يعرفوا أن لتلك الأحاديث أصلاً أم لا؟! فيجب على حكام كل بلد أن يزجروا خطباءها عن ذلك. ويجب على حكام بلد هذا الخطيب منعه من ذلك إن ارتكبه، - ثم قال - فعلى هذا الخطيب أن يبين مستنده في روايته، فإن كان مستنداً صحيحاً فلا اعتراض عليه، وإلا ساء الاعتراض عليه، بل وجاز لولى الأمر - أيد الله به الدين، وقمع بعدله المعاندين - أن يعزله من وظيفة الخطابة زجراً له عن أن يتجراً على هذه المرتبة السنية بغير حق» انتهى ملخصاً(*).

● قوله: «لا رقية إلا من عين أو حمة».

قال ابن حجر: العين نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنتظر منه ضرر، وقد وقع عند أحمد من حديث أبي هريرة رفعه «العين حق ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم»^(١). ثم قال: نقل عن بعض من كان معيناً أنه قال: إذا رأيت شيئاً يعجبني وجدت حرارة تخرج من عين؛ وقال الخطابي: في الحديث أن للعين تأثيراً في النفوس ثم قال: الذي يتمشى على طريقة أهل السنة أن العين إنما تضر عند نظر العائن بعبادة أجراها الله^(٢).

وقال ابن الأثير: الحمة بالتحفيف: السم، وقد يشدد، وأنكره الأزهري، ويطلق على إبرة العقرب للمجاورة، لأن السم منها يخرج، وأصلها حُمُوٌّ، أو حُمَىٌّ بوزن صُرْدٍ، والهاء فيها عوض من الواو المحذوفة أو الياء. أهد.

قال النووي: وقال الفزاز: قيل هو شوكة العقرب، وكذا قال ابن سيده: إنها الإبرة التي تضرب بها العقرب والزنبور، وقال الخطابي: الحمة كل هامة ذات سم من حية أو عقرب وقد أخرج أبو داود من حديث سهل بن حنيف مرفوعاً: «لارقية إلا من نفس أوحمه أو لدغه»^(٣) فغاير بينهما أى بين اللدغة بعدها من العام بعد الخاص وقد تقدم أن هذه زيادة عند أحمد ومسلم من طريق هشيم.

وقال ابن حجر: والتحقيق أنه عنده - أى عند البخارى - عن عمران بن حصين، وعن بريدة أى موقوفاً عليهما. ووقع لبعض رواة البخارى قال حديث الشعبي

(*) انظر «قواعد التحديث» للقاظمي (ص ١٦١)، وانظر كتابي «فقه الخطابة» الطبعة الثانية.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٣٩/٢) بإسناد منقطع.

(٢) فتح الباري (١٠/٢١٠).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٨٦)، وأبو داود (٣٨٨٨).

مرسل . والمسند حديث ابن عباس فأشار بذلك إلى أنه أورد حديث الشعبي أستطرداً ولم يقصد إلى تصحيحه، وقد روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : رخص الرسول ﷺ فى الرقية من الحية والعقرب^(١) قال النووى: الحمة هى باسم العقرب وشبهها، وقيل: فوعة السم وحدته وحرارته، والمراد: أو ذى حمة كالعقرب وشبهها أى لارقة إلا من لدغ ذى حمة أهـ^(٢).

قال سليمان آل الشيخ^(٣): هكذا روى هنا موقوفاً، وقد رواه أحمد وابن ماجه عنه مرفوعاً^(٤)، ورواه أحمد وأبو داود والترمذى عن عمران بن حصين به مرفوعاً^(٥) قال الهيثمى: رجال أحمد ثقات. والعين هى إصابة العائن غيره بعينه، والحمة - بضم المهملة وتخفيف الميم - سم العقرب وسببها قاله ثعلب قال الخطابى: ومعنى الحديث: لا رقية أشفى أو أولى من رقية العين والحمة. وقد رقى النبى ﷺ ورقى. اهـ. قلت: وسيأتى ما يتعلق بالرقى إن شاء الله تعالى.

قال ابن عثيمين^(٦):

- قوله: «لارقة». أى: لا قراءة أو لا استرقاء على مريض أو مصاب.
- قوله: «إلا من عين». ويسمى العامة الآن: «النحاتة»، وبعضهم يسميها «النفس»، وبعضهم يسميها «الحسد».
- قلت: تقدم فى حديث سهل: «لا رقية إلا من نفس».
- قوله: «حمة». وهى كل ذات سم، والمعنى لدغته إحدى ذوات السموم، والعقرب من ذوات السموم.
- قوله: «فقال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع».

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٧٤١) ومسلم فى السلام (٥٢/٤٣٩/٧) بلفظ «رخص النبى ﷺ الرقية من كل ذى حمة».

أما هذا اللفظ فأخرجه ابن ماجه (٣٥١٧) عن عائشة رضى الله عنها.

(٢) مسلم يشرح النووى (٩٣/٣).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٧٤ و ٧٥.

(٤) [صحيح] أخرجه ابن ماجه (٣٥/٣) وانظر «فتح المجيد» (ح ٩٨) بتخريجنا.

(٥) [صحيح] أخرجه أحمد (٤٣٦/٤)، وأبو داود (٥٨٨)، والترمذى (٢٠٥٧).

وانظر «الطب النبوى للذهبي» ٥٥٢ بتحقيقنا - وأيضاً «فتح المجيد» (ح ٩٩) مرفوعاً.

(٦) القول المفيد ١/ ١١٩

قال سليمان آل الشيخ^(١):

قوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع»، أى من أخذ بما بلغه من العلم وعمل به فقد أحسن، لأنه أدى ما وجب، وعمل بما بلغه من العلم، بخلاف من يعمل بجهل أو لا يعمل بما يعلم فإنه مسيء آثم. وفيه فضيلة علم السلف وحسن أدبهم وهديهم وتلطفهم فى تبليغ العلم، وإرشادهم من أخذ بشيء وإن كان مشروعاً إلى ما هو أفضل منه، وإن من عمل بما بلغه عن الله وعن رسوله فقد أحسن، ولا يتوقف العمل به على معرفة كلام أهل المذاهب أو غيرهم أمة.

قال ابن عثيمين^(٢):

فقال سعيد بن جبير: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس... إلخ.

إذن؛ فحُصِن استند على حديث: «لا رقية إلا من عين أو حمة»، وهذا يدل على أن الرقية من العين أو الحمة مفيدة، وهذا أمر واقع؛ فإن الرقى تنفع بإذن الله من العين ومن الحمة أيضاً، وكثير من الناس يقرؤون على المددوغ فيبرأ حالاً، ويدل لهذا قصة الرجل الذى بعثه النبى ﷺ فى سرية، فاستضافوا قوماً، فلم يضيّفوهم، فلدغ سيدهم لدغته عقرب، فقالوا: من يرقى؟ فقالوا: لعل هؤلاء الركب عندهم راقٍ، فجاءوا إلى السرية، قالوا: هل فيكم من راقٍ؟ قالوا: نعم، ولكن لا نرقى لكم إلا بشيء من الغنم. فقالوا: نعطيكم. فاقطعوا لهم من الغنم، ثم ذهب أحدهم يقرأ عليه الفاتحة، قرأها ثلاثاً أو سبعاً، فقام كأنما نشط من عقال، فانتفع اللدغ بقراءتها، ولهذا قال ﷺ: «وما يدريك أنها رقية؟» (يعنى: الفاتحة)^(٣)، وكذا القراءة من العين مفيدة.

ويستعمل للعين طريقة أخرى غير الرقية، وهو الاستغسال، وهى أن يؤتى بالعائن، ويطلب منه أن يتوضأ، ثم يؤخذ ما تنثر من الماء من أعضائه، ويصب على المصاب، ويشرب منه، ويبرأ بإذن الله.

وهناك طريقة أخرى، ولا مانع منها أيضاً، وهى أن يؤخذ شيء من شعاره، أى: ما

(١) تيسير العزيز الحميد: ٧٥.

(٢) القول المفيد ١/ ١١٩ - ١٢١.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى: (٥٧٣٦)، ومسلم فى اللباس (١٤/ ١٨٧ - النووى).

وانظر «الطب النبوى للذهبي» (٤٣١ - بتخریجنا).

يلى جسمه من الثياب؛ كالثوب، والطاقيّة، والسروال، وغيرها، أو التراب إذا مشى عليه وهو رطب، ويصب على ذلك ماء يرش به المصاب أو يشره، وهو مُجْرَبٌ.

وأما العائن؛ فينبغي إذا رأى ما يعجبه أن يُبرِّك عليه؛ لقول النبي ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيك «هلا برّكت عليه»^(١)؛ أى: قلت: بارك الله عليك أهد.

● قوله: «ولكن حدثنا»

قال ابن عثيمين^(٢): القائل سعيد بن جبير.

قال سليمان آل الشيخ^(٣):

قوله: «ولكن حدثنا ابن عباس». هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي ابن عم النبي ﷺ دَعَا لَهُ النبي ﷺ فقال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ»^(٤). فكان كذلك. قال عمر: لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عِشره منا أحد، أى ما بلغ عشره فى العلم، مات بالطائف سنة ثمان وستين.

قال المصنف: فيه عمق علم السلف، لقوله: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا، فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثانى أهد.

قلت: قوله (ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ قال...) فيه استدراك كأنه يقول: إن ما قلته حق وصحيح - مرجوح - وإن كان الذى معى أحق وأصح - أرجح منه - فلم ينكر عليه - سعيد - وإن كان لأول وهلة يظهر أن الحديثين متعارضان، فالحديث الأول «لا رقية إلا من عين أوحمه»، والثانى: «لا يسترقون ولا يكتون، ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»، فلماذا إذا لم ينكر سعيد على حصين - وسأيت وجه الجمع بينهما عند قوله «لا يسترقون» - وذكر المصنف - محمد بن عبد الوهاب - أن هذا يدل على عمق علم السلف، أى: رسوخ أقدامهم فى العلم حتى علم أن ما مع حصين لم يخالف ما معه، حتى وإن كان ما معه هو الأرجح والأصوب، إلا أنه أقره، وقال: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع)، بل فيه أيضاً عمق أدب السلف لاسيما فى مواطن الاختلاف فمن صور الاختلاف فى الواقع:

(١) [صحيح أخرجه: مالك فى «الموطأ» (٧١٦/٢)، ابن ماجه (٣٥٠٩).

وانظر «الطب النبوى» للذهبي (٥٤٦، ٥٤٧ بتحقيقنا).

(٢) القول المفيد ١/١٢١. (٣) تيسير العزيز الحميد: ٧٥.

(٤) [صحيح بغير هذا اللفظ] أخرجه أحمد (٢٦٦/١) عن ابن عباس وأخرجه البخارى (١٤٣)،

ومسلم فى الفضائل (٣٧/١٦ - النووى) بدون «وعلمه التأويل». وانظر «فتح المجيد» (ح ١٠٠) بتخريجنا.

مثال: لو أن شخصاً يرى أن حديث، «من أدرك الركوع فقد أدرك ركعة» ضعيف، والآخر يرى أنه صحيح - صححه الشيخ الألباني - وهذا الآخر مقلد له، فتقوم الدنيا ولا تقعد على هذه المسألة، ومن الممكن أن يعمل فرق وأحزاب مع أن المسألة فيها راجح وأرجح منه، وقد يكون كلا الأمرين معتبر، إذاً فلماذا نختلف، بل ونقول: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع).

ومثال آخر: في حديث «لا صلاة لمن لم يقرأ بأَم القرآن»، وحديث: «من أدرك الركوع فقد أدرك الركعة»، فالأول معه أدلته المعتمدة، وإن كان بالنظر إلى الأدلة الأخرى مرجوح إلا أنها معتبرة ولا ننكر على من يأخذ بذلك لأن معه أدلة يتبعها، ونقول له: أحسنت.

وفيه أدب الاختلاف الناشئ عن علم، وأما سوء الأدب فنشأ عن جهل، فالجهل العميق يؤدي إلى سوء أدب عميق، فتكون كما قال النبي ﷺ: «حِثَالَةٌ مِنَ النَّاسِ مَرَجَتْ عُهُودَهُمْ وَأَمَانَتَهُمْ»، والحديث تقدم، فهم حِثَالَةٌ لعمق جهلهم، وسوء أدبهم.

ومثال ثالث: في التشهد الأوسط، هل نقول: التشهد كله في التشهد الأوسط، أم نقول: نصفه، فهذا ثبت وهذا ثبت وهذا ثبت، فهذا جائز.

ومثال الاختلاف في البسملة، هل يجهر بها أم يُسر بها، وهذه سنة وهذه سنة، ففي القاعدة التي قعدها ابن تيمية - تبعاً للإمام أحمد رحمه الله -

علماء الحديث يعملون بكل ما ثبت عن النبي ﷺ وإلا لو عملنا ببعض وتركنا البعض، لصارت السنة بدعة والبدعة سنة، فإذا جهرنا بالبسملة - مثلاً - ، فهذا وارد، وإذا لم نجهر فهذا وارد، ولكن إذا أسررنا بها دائماً ثم جاء شخص وجهر بها سنقول: هذه بدعة، وهذا بسبب الاستمرار على سنة واحدة من السنن التي ثبت فيها عن النبي ﷺ في الباب الواحد أكثر من وجه.

ومثال آخر: بعض الناس يقول: نصلي قيام مع قراءة القرآن، ونربي الناس على ذلك، وآخرون يقولون: نربي الناس على العقيدة، وآخرون يقولون: نربي الناس على العلم والفقه، وآخرون يقولون: نربي الناس على الدعوة.

فيُظَنُّ أن هذا فُرقة وخلاف وهذا من سوء جهلنا، وسوء الأدب والهوى ولكن هذا كله صواب، ولكن إذا كان لكل منهم دليل، فلا يوجد فرقة، وكل منهم (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع).

وهذا الاختلاف يسمى اختلاف تنوع، أي: هذا كله حق.

أما اختلاف التضاد فهو خلاف بين حق وباطل.

وذلك لأن الطائفة المنصورة تشمل ذلك كله، كما قال النوى: الطائفة المنصورة ما بين عالم وزاهد وفقه وشجاع وبصير بالحرب ومحدث... إلخ.

فسعيد بن جبير يقول للمختلف معه: قد أحسنت إذا استمسكت بدليل ولكن معنى دليل آخر: (لكن حدثنا ابن عباس قال... الحديث).

● قوله: «عرضت على الأم».

قال ابن حجر (١):

قوله: (عرضت) بضم أوله على البناء للمجهول.

قوله: (على) بالتشديد (الأمم) بالرفع، وقد بين عبثر بن القاسم - بموحدة ثم مثناة وزن جعفر - فى روايته عن حصين بن عبد الرحمن عند الترمذى والنسائى أن ذلك كان ليلة الإسراء ولفظه «لما أسرى بالنبي ﷺ جعل يمر بالنبي ومعه الواحد» الحديث.

قال ابن حجر: فإن كان ذلك محفوظاً كانت فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء وأنه وقع بالمدينة أيضاً غير الذى وقع بمكة، فقد وقع عند أحمد والبزار بسند صحيح قال: «أكرينا الحديث عند رسول الله ﷺ ثم عدنا إليه فقال: عرضت على الأنبياء الليلة بأعماها، فجعل النبي يمر ومعه الثلاثة والنبي يمر ومعه العصابة» (٢) فذكر الحديث.

وفى حديث جابر عند البزار «أبطأ رسول الله ﷺ عن صلاة العشاء حتى نام بعض من كان فى المسجد» (*) الحديث والذى يتحرر من هذه المسألة أن الإسراء الذى وقع بالمدينة ليس فيه ما وقع بمكة من استفتاح أبواب السماوات باباً باباً ولا من التقاء الأنبياء كل واحد فى سماء ولا المراجعة معهم ولا المراجعة مع موسى فيما يتعلق بفرض الصلوات ولا فى طلب تخفيفها وسائر ما يتعلق بذلك وإنما تكررت قضايا كثيرة سوى ذلك رآها النبي ﷺ، فمنها بمكة البعض ومنها بالمدينة بعد الهجرة البعض ومعظمها فى المنام، والله أعلم أهـ.

قال ابن عثيمين (٣):

● قوله: «عرضت على الأم».

(١) فتح البارى ١١١/٤١٤ و ٤١٥.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٠١/١)، (٤٢٠) عن ابن مسعود به.

(*) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٤٠٧/١٠) ونسبه للبزار وقال: رجاله الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وثق.

(٣) القول المفيد ١/١٢١.

العارض لها الله - سبحانه وتعالى- ، وهذا فى المنام فيما يظهر . والامم: جمع أمة ، وهى أمم الرسل . أهـ .

● قوله: «فرأيت النبىؐ ومعه الرهط» .

قال ابن حجر: الرهط: عدد من الرجال من ثلاثة إلى عشرة .

قال القزاز: وربما جاوزا ذلك قليلاً ، ولا واحد له من لفظه ورهط الرجل: بنو أبيه الأدنى .

وقيل : قبيلته . والإسماعيلى من طريق ابن أبى ذئب: أنه جاءه رهط فسألوه فأعطاهم ، فترك رجلاً منهم . أهـ (١) .

قال سليمان آل الشيخ (٢): هو الجماعة دون العشرة قاله النووى .

قال ابن عثيمين (٣): الرهط من الثلاثة إلى التسعة .

● قوله: «والنبىؐ ومعه الرجل والرجلان والنبىؐ وليس معه أحد» .

قال ابن حجر (٤): ووقع فى رواية ابن فضيل «فجعل النبىؐ والنبيان يمرّون ومعهم الرهط» زاد عثّر فى روايته «والشئ» وفى رواية حصين بن غمر نحوه لكن بتقديم وتأخير .

وفى رواية سعيد بن منصور التى أشرت إليها آنفاً «فرأيت النبىؐ ومعه الرهط ، والنبىؐ ومعه الرجل والرجلان ، والنبىؐ ليس معه أحد والنبىؐ معه الخمسة .

وفى حديث ابن مسعود «فجعل النبىؐ يمرّ ومعه الثلاثة ، والنبىؐ يمرّ ومعه العصابة والنبىؐ يمرّ وليس معه أحد» (٥) .

قال ابن حجر: والحاصل من هذه الروايات أن الأنبياء يتفاوتون فى عدد أتباعهم . أهـ (٦) .

قال سليمان آل الشيخ (٧): «وفيه الرد على من احتج بالأكثر وزعم أن الحق محصور فيهم ، وليس كذلك ، بل الواجب اتباع الكتاب والسنة مع من كان وأين كان .

(١) فتح البارى (١/ ١٠٠/ ح ٢٧) . (٢) تيسير العزيز الحميد ٧٥ .

(٣) القول المفيد ١/ ١٢١ . (٤) الفتح ٤١٥/ . (٥) تقدم قريباً .

(٦) وفيه عدم استعجال الداعى استجابة الناس والصبر عليهم وألا ينتظر فتحاً فى الدعوة فى حياته ، فإن كان فيها ونعمت ، وإلا فالأنبياء يجرى بعضهم يوم القيامة وليس معهم أحد من أمة الإجابة . . الله أعلم .

(٧) تيسير العزيز الحميد ٧٥ و ٧٦ .

قال ابن عثيمين^(١): الظاهر أنَّ الواو بمعنى أو؛ أى: ومعه الرجل أو الرجلان؛ لأنه لو كان معه الرجل والرجلان صار يغنى أن يقول: ومعه ثلاثة، لكن المعنى: والنبى ومعه الرجل، والنبى الثانى ومعه الرجلان.

● قوله: «والنبى وليس معه أحد». أى: يبعث ولا يكون معه أحد، لكن يبعثه الله لإقامة الحجة، فإذا قامت الحجة حيثئذ؛ يعذر الله من الخلق، ويقيم عليهم الحجة. أهـ.

قلت: فالنبى بجلالة قدره وارتفاع منزلته ومكانته وحسن منهجه يأتى ومعه الرجل أو الرجلان أو يأتى وليس معه أحد.!!

ماهى الفائدة من ذلك؟

(١) أن الداعى يدعو وليس عليه إلا البلاغ وليس عليه ثمرة البلاغ. قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾. أى أن النبى لا يعلم النتيجة ولكن عدم علمه بها لم يشبطه عن دعوته. ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ ﴿مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مِنْ يَخَافُ وَعِيدٍ﴾.

(٢) قلة الناجين وكثرة الهالكين فى كل عصر ومصر.

(٣) أن الكثرة ليست حجة ولا يصح الاستدلال بها. مثلاً فى مسألة [عدم المواظبة على الدعاء فى آخر كل خطبة جمعة] يستدل من يستدل على المواظبة بأن كل الخطباء يفعلون هذا ولا حجة فى ذلك. وإن جاز الاستدلال بالكثرة فإنما يستدل بها على الباطل غالباً.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ لَيُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد.....﴾ والحديث «والنبى وليس معه أحد...» وحديث «قم فابعث بعث النار من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين إلى النار، وواحد فى الجنة».

(٤) الصبر على الدعوة وعدم استعجال الثمرة.

(٥) أن ثمرات الأعمال لاتدل على فسادها ولا صلاحها.

الدليل: أن نبياً يدعو ومنهجه سليم ونيته صالحة خالصة ولكن لم تأت الدعوة

(١) القول المفيد ١٢١/١ و ١٢٢.

بشارها فلم يثنه هذا عن منهجه فيخالف المنهج ويعدل عنه إلى منهج غيره لكسب أفراد لدعوته.

● ولكن قد يكون العمل باطلاً وله ثمرة.

الدليل: السامري لما صنع لهم عجلاً جسداً له خوار تبعه أكثر الناس وكان عمله باطلاً.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب «اقتضا الصراط المستقيم» أن الصوفي قد يجد رقة في قلبه من الذكر الباطل لا يجدها السني من قراء القرآن. فيقول الصوفي: إن الذكر الذي أقوله أفضل من قراءة القرآن فهل هذا يصح؟ الجواب: لا يصح.

لأن ثمرات العمل لا تدل على صلاح العمل ولا فساد.

أو مثلاً كما يقول بعضهم: ذهبنا إلى باكستان وذهبنا إلى الهند وذهبنا إلى كنيسة كذا وكذا واستجاب لنا أناس كثيرون.

هذا شيء طيب ولكن ليس دليلاً على صلاح العمل ولا على فساد، فالصلاح والفساد مرده إلى الكتاب والسنة ولا نحتج بالثمرة، كما تقدم من حديث العرباض بن سارية: «فعليناكم بستى وستة الخلفاء الراشدين المهديين». وكما في الحديث: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً كتاب الله وستى».

● قوله: «إذ رفع لي سواد عظيم».

قال ابن حجر^(١): في رواية «حصين بن غمير فرأيت سواداً كثيراً سد الأفق»، والسواد ضد البياض هو الشخص الذي يرى من بعيد، ووصفه بالكثير إشارة إلى أن المراد بلفظ الجنس لا الواحد، ووقع في رواية ابن فضيل «ملاً الأفق» الأفق الناحية، والمراد به هنا ناحية السماء. أهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: «إذ رفع لي».

هذا على تقدير محذوف؛ أي: بينما أنا كذلك؛ إذ رفع لي.

قوله: «سواد عظيم».

المراد بالسواد هنا الظاهر أنه الأشخاص، ولهذا يقال: ما رأيت سواده؛ أي: شخصه، أي أشخاصاً عظيمة كانوا من كثرتهم سواداً.

قوله: «فظننت أنهم أمتي».

وذلك لأنهم كانوا باعدين عنه، وفي رواية البخاري (قلت: يا جبريل: هؤلاء أمتي؟ قال لا) وقد تكون ظننت بمعنى رجوت، كما جاء في البخاري بلفظ «فرجوت أن تكون أمتي» (*).

(١) فتح الباري ١١/٤١٥.

(٢) القول المفيد ١/١٢٢.

(*) ح (٥٧٥٢) وهذا أفضل ما يشرح به غريب الحديث، أن يشرح بما جاء من طريق أخرى بلفظ آخر قاله النووي.

قال ابن حجر^(١): وفى رواية ابن فضيل «إذا سواد قد ملأ الأفق، فقل لى: انظر ههنا وههنا فى آفاق السماء» وفى حديث ابن مسعود «إذا الأفق قد سد بوجوه الرجال» وفى لفظ لأحمد «فأريت أمتى قد ملأوا السهل والجبل، فأعجبني كثرتهم وهيتهم، فقل أراضيت يا محمد؟ قلت: نعم أى رب». اهـ.

● إشكال وجوابه:

وقد استشكل الإسماعيلي كونه عليه السلام لم يعرف أمته حتى ظن أنهم أمة موسى، وقد ثبت من حديث أبى هريرة كما تقدم فى الطهارة «كيف تعرف من لم تر من أمتك؟ فقال: إنهم غر محجلون من أثر الوضوء»^(٢) وفى لفظ «سيماً ليست لأحد غيرهم»^(٣) وأجاب بأن الأشخاص التى رأها فى الأفق لا يدرك منها إلا الكثرة من غير تمييز لأعيانهم، وأما ما فى حديث أبى هريرة فمحمول على ما إذا قربوا منه، وهذا كما يرى الشخص شخصاً على بعد فيكلمه ولا يعرف أنه أخوه، فإذا صار بحيث يتميز عن غيره عرفه. ويؤيده أن ذلك يقع عند ورودهم عليه الخوض.

وكما فى حديث الفجر «لا يعرفن من الغلس» أى لا يعرف أشخاصهن، أما إذا أزددن قرباً فقد تعرف أعيانهن وفى رواية البخارى «فنظرت فإذا سواد كثير».

● قوله: «فقل لى: هذا موسى وقومه».

وفى حديث ابن مسعود عند أحمد (حتى مر على موسى فى كبكة من بنى إسرائيل، فأعجبني، فقلت: من هؤلاء فقل: هذا أخوك موسى معه بنو إسرائيل).

قال ابن عثيمين^(٤): وهذا يدل على كثرة أتباع موسى عليه السلام وقومه الذين أرسل إليهم. اهـ.

قوله: «ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم، فقل لى: انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقل لى: هذه أمتك».

وفى حديث ابن مسعود: «إذا الأفق قد سد بوجوه الرجال» وهذا يؤيد قول من قال: إنهم فى هذه الحالة قد قربوا منه فعرف أعيانهم ويؤيده ما رواه أحمد: «فأريت أمتى قد ملئوا السهل والجبل فأعجبني. كثرتهم وهيتهم فقل أراضيت يا محمد؟! قلت: نعم أى رب».

قال ابن عثيمين^(٥): وهذا أعظم من السواد الأول؛ لأن أمة النبى عليه السلام أكثر بكثير من أمة موسى عليه السلام.

● قوله: «ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب».

(١) الفتح ٤١٥/١١ و٤١٦.

(٢)، (٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الطهارة (٢/١٣٧/٣).

(٤) القول المفيد ١/١٢٢.

(٥) القول المفيد ١/١٢٣.

قال النووي: معناه ومع هؤلاء سبعون ألفاً من أمتك فكونهم من أمته لاشك فيه، وأما تقديره فيحتمل أن يكون معناه وسبعون ألفاً من أمتك غير هؤلاء وليسوا مع هؤلاء فيحتمل أن يكون معناه في جملتهم سبعون ألفاً، ويؤيد ذلك رواية البخاري «ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفاً» والله أعلم أهـ.

قال ابن حجر^(١): والمراد بالمعية المعنوية فإن السبعين ألفاً المذكورين من جملة أمته، لكن لم يكونوا في الذين عرضوا إذ ذاك فأريد الزيادة في تكثير أمته بإضافة السبعين ألفاً إليهم. أهـ.

● قوله: «بغير حساب ولا عذاب».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قلت: وما قاله يعني الحافظ ليس بظاهر فإن في رواية ابن فضال: «ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً».

وقد ورد في حديث أبي هريرة في «الصحيحين» وصف السبعين ألفاً بأنهم تُضِيءُ وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر^(٣).

وفيها عنه مرفوعاً: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ وَالَّذِينَ عَلَى آثَارِهِمْ كَأَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرَى فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً»^(٤). وجاء في أحاديث آخر أن مع السبعين ألفاً زيادة عليهم.

فروى أحمد والبيهقي في البعث حديث أبي هريرة في السبعين ألفاً فذكره وزاد. قال «فَاسْتَزِدْتُ رَبِّي فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا»^(٥). قال الحافظ: وسنده جيد وفي الباب عن أبي أيوب عند الطبراني^(٦)، وعن حذيفة عند أحمد^(٧)، وعن أنس عند البزار^(٨)، وعن ثوبان عند ابن أبي عاصم^(٩) قال: فهذه طرق يقوى بعضها بعضاً. قال: وجاء في أحاديث آخر أكثر من ذلك.

(١) فتح الباري ١١/٤١٦.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٨١١) ومسلم في الإيمان (٣٦٩/٩١/٢) وانظر «فتح المجيد»

(ج ١٠ - ٤).

(٤) تقدم قبله.

(٥) رواج أحمد في «مسنده» (٣٥٩/٢)، وانظر «فتح المجيد» (ج ١٠ - ٥) بتخريجنا.

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤١٣/٥)، والطبراني في «الكبير» (٣٨٨٢/١٢٧/٤) بإسناد ضعيف.

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٩٣/٥) بإسناده فيه ابن لهيعة وهو ضعيف وحسنه الهيثمي في

«المجتمع» (١٠/٦٨ - ٦٩).

(٨) ذكره الهيثمي في «المجتمع» (٤٨/١٠) ونسبه البزار. وإسناد فيه متروك.

(٩) ذكره الهيثمي في «المجتمع» (٤٠٧/١٠) ونسبه لأحمد، الطبراني بدون لفظ الزيادة.

فأخرج الترمذى وحسنه والطبرانى وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى أمامة رفة: «وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ كَذَا أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، وَثَلَاثَ حَيَّاتٍ مِنْ حَيَّاتِ رَبِّي» (١).

وروى أحمد وأبو يعلى من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيَتْ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَرَأَدْنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا» (٢). قال الحافظ وفى سنده راويان، أحدهما: ضعيف الحفظ والآخر لم يسم.

قلت: وفيه أن كل أمة تحشر مع نبيها.

قال ابن حجر (٣): وقد وقع فى رواية ابن فضيل «ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفا بغير حساب» وفى رواية عبث بن القاسم «هؤلاء أمتك، ومن هؤلاء من أمتك سبعون ألفا» والإشارة بهؤلاء إلى الأمة لا إلى خصوص من عرض، ويحتمل أن تكون مع بمعنى من فتألف الروايات. أ هـ.

قال ابن عثيمين (٤): أى: لا يُعَذَّبُونَ ولا يُحَاسِبُونَ كرامةً لهم، وظاهره أنه لا فى قبورهم ولا بعد قيام الساعة. اهـ.

قوله: «ثم نهض فدخل منزله».

قال ابن حجر: وفى رواية «فتفرق الناس ولم يبين لهم» أى تركهم ودخل منزله بغير بيان لسبب دخول هؤلاء الجنة بغير حساب.

قال سليمان آل الشيخ (٥): ثم نهض، أى قام.

قوله: «فخاض الناس فى أولئك».

قال النووى (٦): هو بالخاء والضاد المعجمتين، أى تكلموا وتناظروا. قال: وفى هذا إباحة المناظرة فى العلم والمباحثة فى نصوص الشرع على جهة الإستفادة وإظهار الحق. أ هـ.

(١) رواه أحمد (٢٦٨/٥) والترمذى (٢٤٣٧). وابن ماجه (٤٢٨٦) قال الترمذى: حسن غريب.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/١)، وأبو يعلى فى مسنده (١٠٧) بإسناد فيه رجل لم يسم.

(٣) الفتح ٤١٦/١١.

(٤) القول المفيد ١٢٣/١.

(٥) شرح مسلم النووى (٩٥٠٩٥/٣) وانظر تيسير العزيز الحميد ٧٨.

قلت: فمن طلب العلم للجدل أو للتباهى أو للانتصار للأهواء؛ فليتبوأ مقعده من النار، لما روى أبو داود عن أبي هريرة مرفوعاً «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»(*) . وفى الحديث «من تعلم العلم ليمارى به السفهاء أو يباهى العلماء» - وفيه - «فليتبوأ مقعده من النار».

وفيه عمق علم السلف لمعرفة أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعلم، وفيه حرصهم على الخير؛ ذكره المصنف. أهـ

قال ابن عثيمين^(١): هذا الخوض للوصول إلى الحقيقة نظرياً وعملياً حتى يكونوا منهم.

● قوله: «فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ».

قال ابن عثيمين^(٢): «يحتمل أن المراد الصحبة المطلقة، ويؤيده ظاهر اللفظ. ويحتمل أن المراد الذين صحبوه فى هجرته، ويؤيده أنه لو كان المراد الصحبة المطلقة؛ لقالوا: نحن؛ لأن المتكلم هم الصحابة، ويدل على هذا قول الرسول ﷺ لخالد بن الوليد: «لاتسبوا أصحابي»^(٣)؛ فإن المراد بهم الذين صحبوه فى هجرته، لكن يمنع منه أن المهاجرين لا يبلغون سبعين ألفاً.

ويمنع الاحتمال الأول: أن الصحابة أكثر من سبعين ألفاً، ويحتمل أن المراد من كان مع الرسول ﷺ إلى فتح مكة؛ لأنه بعد فتح مكة دخل الناس فى دين الله أفواجا. وهذه المسألة تحتاج إلى مراجعة أكثر. أهـ

قلت: فقال بعضهم لعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقيل أنها الصحبة الخاصة الذين صحبوه قبل الهجرة وهذا هو الراجح أى منذ بعثته حتى الهجرة، فهم يعنون الصحبة الخاصة وليست المطلق، ويدل على ذلك قوله لخالد بن الوليد «لاتسبوا أصحابي» فهى الصحبة الخاصة أى من صحبوه فى هجرته أو صحبة معنية كبيعة الرضوان أو فى بدر أو صحبوه فى المواضع التى قطع لأصحابه فيها بالمغفرة ففى الحديث: «لعل الله اطلع

(١) القول المفيد ١/ ١٢٣ و ١٢٤.

(٢) القول المفيد ١/ ١٢٣.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣/ ٣٦٧)، ومسلم فى الفضائل (٨/ ٢٢٢/ ٢٢٣) عن أبى سعيد به.

(*) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤) وانظر تمام تخريجه «رياض الصالحين» بتخريجنا (ح ١٣٩٤).

إلى أهل بدر فغفر لهم». وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فهذه هي الصحبة الخاصة كآبي بكر وعمر.

قوله: «وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله».

قال ابن عثيمين^(١): أى: من ولد بعد البعثة وأسلم، وهؤلاء كثيرون، ولو قلنا: ولدوا في الإسلام من الصحابة ما بلغوا سبعين ألفاً.

قوله: «وذكروا أشياء».

قال ابن حجر^(٢): وفى رواية ابن فضيل «فأفاض القوم فقالوا: نحن الذين آمنّا بالله واتبعنا الرسول، فتحن هم، أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام فإنّا ولدنا في الجاهلية، فبلغ النبى ﷺ فخرج فقال» وفى رواية حصين بن نمير «فقالوا: أما نحن فولدنا في الشرك ولكنّا آمنّا بالله وبرسوله، ولكن هؤلاء هم أبناؤنا» وفى حديث جابر «وقال بعضنا: هم الشهداء»^(٣) وفى رواية له «من رق قلبه للإسلام»^(٤). أهـ .

قال الفقير: وحاصل كلام الصحابة فى هؤلاء أنهم هم الذين لم يصابوا بلوثة من لوثات الشرك، وأنهم هم الذين حققوا التوحيد بقيامهم بأعمال ذروة سنام الإسلام، ولذلك قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: وفيه عمق علم الصحابة لمعرفة أنهم لم ينالوا ذلك إلا بالعمل أى لن يحققوا مقام التوحيد إلا بالعمل .

قوله: «فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: ما الذى تخوضون فيه؟ فأخبروه».

قال ابن عثيمين^(٥): أى: أخبروه بما قالوا وما جرى بينهم .

● قوله: «فقال: هم الذين لا يسترقون» .

قال ابن حجر^(٦): اتفق على ذكر هذه الأربع معظم الروايات فى حديث ابن عباس وإن كان عند البعض تقديم وتأخير، وكذا فى حديث عمران بن حصين عند مسلم^(٧)،

(١) القول المفيد ١/ ١٢٤ .

(٢) الفتح ١١/ ٤١٦ .

(٣) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٤٠٧/ ١٠) ونسبه للبخارى وقد تقدم .

(٤) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٤٠٧/ ١٠) ونسبه للبخارى عن شيخه عمر بن إسماعيل بن مجالد وهو

مجمع على ضعفه . اهـ .

(٥) القول المفيد ١/ ١٢٤ .

(٦) الفتح ١١/ ٤١٦ و ٤١٧ .

(٧) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢/ ٩٢) / (٣٧٢) .

وفي لفظ له سقط «ولا يتطيرون» هكذا في حديث ابن مسعود^(١)، وحديث جابر^(٢).

ووقع في رواية سعيد بن منصور عند مسلم «ولا يرقون» بدل «ولا يكتون»^(٣).

وقد أنكر الشيخ تقي الدين ابن تيمية هذه الرواية وزعم أنها غلط من راويها، واعتل بأن الراقي يحسن إلى الذي يرقيه فكيف يكون ذلك مطلوب الترك؟!

وأيضاً فقد رقى جبريل النبي ﷺ^(٤) ورقى النبي أصحابه^(٥) وأذن لهم في الرقى وقال «من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل»^(٦) والنفع مطلوب.

قال: وأما المسترقى فإنه يسأل غيره ويرجو نفعه، وتام التوكل ينافي ذلك..

قال: وإنما المراد وصف السبعين بتمام التوكل فلا يسألون غيرهم أن يرقيههم ولا يكوئهم ولا يتطيرون من شيء..

وأجاب غيره بأن الزيادة من الثقة مقبولة وسعيد بن منصور حافظ وقد اعتمده البخاري ومسلم واعتمد مسلم على روايته هذه وبأن تغليط الراوي من إمكان تصحيح الزيادة لا يصار إليه.

والمعنى الذي حمله على التغليط موجود في المسترقى لأنه اعتل بأن الذي لا يطلب من غيره أن يرقيه تام التوكل فكذا يقال له والذي يفعل غيره به ذلك ينبغي أن لا يمكنه منه لأجل تمام التوكل، وليس في وقوع ذلك من جبريل دلالة على المدعى ولا في فعل النبي ﷺ له أيضاً دلالة لأنه في مقام التشريع وتبيين الأحكام. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٧): وهو خطأ من وجوه:

الأول: أن هذه الزيادة لا يمكن تصحيحها إلا بحملها على وجوه لا يصح حملها عليها

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٠٣/١، ٤١٧، ٤٥٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (٣٧٤/٩٢/٢).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (٧١٦/٦) ونسبه لعبد بن حميد في «مسنده» عن زيد بن أسلم مرسلًا. ثم نسبه لابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن عائشة - رضى الله عنها -.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٧٤٥)، ومسلم في السلام (١٨٣/١٤ - النووي) عن عائشة رضى الله عنها. وانظر «الطب النبوي للذهبي» (٥٥٩ - بتحقيقنا).

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم في السلام (١٨٦/٤ - النووي) عن جابر به.

وانظر «الطب النبوي» للذهبي (٤٣٥ - بتحقيقنا).

(٧) تيسير العزيز الحميد ٧٨ و ٧٩.

كقول بعضهم: المراد لا يرقون بما كان شركاً، أو احتمله، فإنه ليس في الحديث ما يدل على هذا أصلاً وأيضاً فعلى هذا لا يكون للسبعين مزية على غيرهم؛ فإن جملة المؤمنين لا يرقون بما كان شركاً.

ثم قال سليمان آل الشيخ: الثاني: قوله: فكذا يقال الخ لا يصح هذا القياس، فإنه من أفسد القياس وكيف يقاس من سأل وطلب على من لم يسأل؟! مع أنه قياس مع وجود الفارق الشرعى، فهو فاسد الاعتبار، لأنه تسوية بين ما فرق الشارع بينهما. بقوله: «مَنْ اكْتَوَى أَوْ اسْتَرْقَى فَقَدْ بَرِيَ مِنَ التَّوَكُّلِ»^(١) رواه أحمد والترمذى وصححه وابن ماجة، وصححه ابن حبان والحاكم أيضاً وكيف يجعل ترك الإحسان إلى الخلق سبباً للسبق إلى الجنان؟ وهذا بخلاف من رقى أو رقى من غير سؤال، فقد رقى جبريل النبی ﷺ^(٢). ولا يجوز أن يقال: إنه عليه السلام لم يكن متوكلاً فى تلك الحال.

الثالث: قوله: ليس فى وقوع ذلك من جبريل عليه السلام، الخ، كلام غير صحيح بل هما سيدا المتوكلين، فإذا وقع ذلك منهما دل على أنه لا ينافى التوكل فاعلم ذلك. أهـ.

قلت: هناك وجه من الوجوه يمكن حمل اللفظ عليه، وهذا الوجه صحيح ومعتبر، ويمكن أن يُحمل على أنهم لا يرقون الرقى التى تقدح فى كمال توكلهم على الله مثال: كأن تجر هذه الرقية الراقى لغرور أو عجب، فالراقى يكون عاجز كماً كبيراً من الحالات، فمجرد أن يضع يده ويقرأ الفاتحة يشفى المرقى ويبرء بإذن الله تعالى، فيعجب الراقى بنفسه، ويصير يعتمد على أسبابه ويده، فهذا قدح فى تمام توكله على الله، وكان أول الأمر تام التوكل على الله سبحانه وتعالى، ثم نقص توكله وأصبح فيه شئ وثقة فى نفسه لافى ربه سبحانه وتعالى، إذا هم حينما يرقون يكونون فى حال رقيتهم لغيرهم كما ملئ التوكل على ربهم.

وهناك وجه آخر يمكن أن يُحمل اللفظ عليه، وهو: الذين لا يرقون، أى: لا يرقون الرقى البطنية، بمعنى: أنه مردد، ويعلم أن السبب ضعيف وظنى الشفاء، فعندما يرقى، يرقى بعدم اكتراث، وعدم إهتمام، فتكون الرقية قاذحة فى كمال التوكل وليس فى أصل التوكل.

(١) رواه أحمد فى «مسنده» (٤/٢٤٩، ٥١) والترمذى (٢٠٥٥) وابن ماجة (٣٤٨٩) وابن حبان فى «صحيحه» (٧/٦٢٩ - الإحسان) عن المغيرة بن شعبة.
(٢) تقدم قريباً.

وهناك وجه ثالث: وهو لأنه أعان الرقى على عدم التوكل فى بعض الصور كما تقدم فجوزى بجزء من جنس عمله، كمن حجم صائماً، وهو صائم، قال ﷺ: «أفطر الحاجم والمحجوم».

والخلاصة فى هذا الموضوع:

(لا يرقون) (١) أن يرقى فيعتمد على نفسه ولا يفوض الأمر كله لله أو يغتر أو يعجب بأسبابه.

(٢) لا يرقون الرقى الظنية، فكلما كان السبب قوى كان التوكل على الله قوى والعكس، وضربنا مثل، لشخص ترك دابته بالخارج، وآخر عقلها بعقال شديد، وثالث عقلها بعقال ضعيف، وآخر لم يعقلها، وتوكلوا جميعاً، فلا شك أن أعلاهم توكلأ الذى عقلها بعقال شديد.

والصواب فى هذه المسألة والراجع: أن هذه اللفظة صحيحة، وأنه لا يصار لتخطئة الراوى إلا إذا تعذر الجمع بين ما قاله باقى الحفاظ، أو إذا تعذر حملت هذه اللفظة على المحمل الشرعى، أما إذا لم يتعذر حملها على معنى صحيح - كما تقدم - فلا يصار لتخطئة الحافظ سعيد بن منصور الذى اعتمد عليه مسلم فى هذه الرواية، والبخارى فى غيرها.

قال ابن حجر^(١): ويمكن ان يقال إنما ترك المذكورون الرقى والاسترقاء حسماً للمادة لأن فاعل ذلك لا يأمن أن يكل نفسه إليه وإلا فالرقية فى ذاتها ليست ممنوعة وإنما منع منها ما كان شركاً أو احتمله ومن ثم قال ﷺ «اعرضوا على رقاكم، ولا بأس بالرقى ما لم يكن شرك»^(٢) ففيه إشارة إلى علة النهى، وقد نقل القرطبى عن غيره أن استعمال الرقى والكس قاذح فى التوكل بخلاف سائر أنواع الطب، وفرق بين القسمين بأن البرء فيهما أمر موهوم وما عداهما محقق عادة كالأكلى والشرب فلا يقدر، قال القرطبى وهذا فاسد من وجهين: أحدهما أن أكثر أبواب الطب موهوم.

والثانى أن الرقى بأسماء الله تعالى تقتضى التوكل عليه والاتجاء إليه والرغبة فيما عنده والتبرك بأسمائه، فلو كان ذلك قاذحاً فى التوكل لقدح الدعاء إذ لا فرق بين الذكر والدعاء، وقد رقى النبى ﷺ ورقى وقعله السلف والخلف، فلو كان مانعاً من اللحاق

(١) فتح البارى ١١/٤١٧.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (١٤/ ١٨٧ - النووى) عن عوف بن مالك به.

وأنظر «الطب النبوى» للذهبي (٢٤٤ - بتحقيقنا).

بالسبعين أو قاصداً في التوكل لم يقع من هؤلاء وفيهم من هو أعلم وأفضل ممن عداهم.

وتعقب بأنه بنى كلامه على أن السبعين المذكورين أرفع رتبة من غيرهم مطلقاً، وليس كذلك لما سألته.

وجوز أبو طالب بن عطية في «موازنة الأعمال» أن السبعين المذكورين هم المراد بقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فإن أراد أنهم من جملة السابقين فمسلم وإلا فلا.

وقد أخرج أحمد وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث رفاعة الجهني قال «أقبلنا مع رسول الله ﷺ فذكر حديثاً وفيه «وعلني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب، وإنى لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوؤا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة»^(١).

فهذا يدل على أن مزية السبعين بالدخول بغير حساب لا يستلزم أنهم أفضل من غيرهم، بل فيمن يحاسب في الجملة من يكون أفضل منهم وفيمن يتأخر عن الدخول ممن تحققت نجاته وعرف مقامه من الجنة يشفع في غيره من هو أفضل منهم، وفي حديث أم قيس بنت محصن أن السبعين ألفاً ممن يحشر من مقبرة البقيع بالمدينة^(٢) وهي خصوصية أخرى. أهـ

قال شيخ الإسلام^(٣): «... فمدح هؤلاء بأنهم لا يسترقون؛ أي: لا يطلبون من أحد أن يرقهم، والرقية من جنس الدعاء؛ فلا يطلبون من أحد ذلك، وقد روى فيه: «ولا يرقون»، وهو غلط؛ فإن رقيهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة، وكان النبي ﷺ يرقى نفسه وغيره، ولم يكن يسترقي؛ فإن رقية نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره،

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦/٤)، وابن ماجه (٤٢٨٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٢١٧/١) ورواية ابن ماجه مختصرة.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٤٠٨/١٠) ونسبه للطبراني والبزار وقال: رجال بعضهم عنه الطبراني والبزار رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤٤٥/١٨١/٢٥) وقال الهيثمي في «المجمع» (١٣/٤): وفيه من لم أعرفه.

(٣) انظر حاشية القول المفيد ١/١٢٥، وانظر «مجموع الفتاوى» (١٨٢/١).

وهذا مأمور به؛ فإن الأنبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذكر الله ذلك فى قصة آدم وإبراهيم وموسى وغيرهم.

قال ابن عثيمين^(١):

قوله «لا يسترقون». واستفعل بمعنى طلب الفعل، مثل: استغفر؛ أى: طلب المغفرة، واستجار: طلب الجوار، وهنا استرقى؛ أى: طلب الرقية، أى لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم؛ لما يلى:

١ - لقوة اعتمادهم على الله.

٢ - لعزة نفوسهم عن التذليل لغير الله.

٣ - ولما فى ذلك من التعلّق بغير الله. اهـ.

قال الفقير: وقد يقال أنهم لا يسترقون الرقى التى تتنافى وكمال التوكل وهى الرقية ظنية الشفاء، أما قطعية الشفاء فهى سبب قوى الأخذ به مع التوكل ينم عن غاية التوكل عليه سبحانه وتعالى.

* كيف نجمع بين دليل حصين بن عبد الرحمن «لا رقيه إلا من عين أو حمة» وقوله النبى ﷺ: «لا يسترقون»؟

وجه الجمع: أنهم لا يسترقون الرقى ظنية الشفاء فهى سبب للشفاء ضعيف، أما إذا كان الرقية قطعية الشفاء وتعينت سبيلاً لشفاء هذا الداء طلبوا من يرقيه كما فعل حصين بن عبد الرحمن حينما رقى من الحمى لأنه لارقية أشفع ولا أنفع من رقية العين أو الحمى كما تقدم.

ومثال للرقية ظنية الشفاء شخص عنده روماتيزم فى ساقه، إذا رقيناه هل سيذهب الروماتيزم؟ إحتمال يذهب واحتمال ألا يذهب، فلذلك هى ظنية الشفاء بخلاف الملدوغ أو المسحور.

ومثال للرقية قطعية الشفاء:

قول النبى ﷺ: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين». والحديث فى الصحيح. وقال فى الجارية التى رأى فى وجهها تغيراً وسواداً - سفة - فقال: «استرقوا لها فإن بها النظرة» وهو فى الصحيح أيضاً وسيأتى فى الرقى فالرسول ﷺ طلب الرقية وطلب من يرقى لما كانت الرقية قطعية الشفاء، وعينت سبيلاً للشفاء من هذا الداء وهو الحسد.

(١) القول المفيد ١/ ١٢٥.

وأقر رقية الحمى كما فى حديث أبى عباس فى الصحيح فى الرقية بفاتحة الكتاب أن نقرأ من أصحاب النبى مروا بماء فيه لديغ فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال: هل فيكم من راق... الحديث وفيه أن النبى ﷺ قال: «إن أحق ما أخذتم عليه كتاب الله» فهذا مفسر لحديث: «لا رقية إلا من عين أو حمة» فلا رقية أنفع ولا أقطع ولا أشفى من عين أو حمة لأنها تعينت سبباً للشفاء كما فعل حصين ولذلك لم ينكر عليه سعيد بن جبير، فطلب حصين لها لا يتنافى مع كمال التوكل على الله - عز وجل - لأنه قال: «لا يسترقون» إلى قوله: «وعلى ربهم يتوكلون» والدافع لترك الاسترقاء هنا هو كمال التوكل.

● متى لا يتنافى الاسترقاء مع كمال التوكل؟

إذا كانت الرقية فى هذه الحالة قطعية الشفاء فهذا لا يتنافى مع كمال التوكل فهو هنا أخذ بالأسباب، والأخذ بالأسباب من التوكل.

مثال الرجل الذى سأل النبى يعقل ناقته ويتوكل أم يتركها ويتوكل؟ فقال له: «اعقلها وتوكل».

وسياتى تفصيل وتوسع فى هذا عند شرح الباب السابع: ماجاء فى الرقى والتمايم.

● قوله: «لا يكتون».

قال ابن حجر: فى التعليق على تبويب البخارى لهذا الحديث باب (من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو) قال: كأنه أراد الكى الجائز للحاجة، وأن الأولى تركه إذا لم يتعين، وأنه إذا جاز كان أعم أن يباشر الشخص ذلك بنفسه أو بغيره لنفسه أو لغيره.

وعموم الجواز مأخوذ بنسبة الشفاء إليه فى حديث جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ «إن كان فى شىء من أدويتكم شفاء ففى شرطة محجم، أو لذعة نار، وما أحب أن أكتوى»^(١).

وفضل تركه: «وما أحب أن أكتوى». أهـ.

قال الفقير: [الراجع] أنه أخذ فضل من لم يكتوى من قوله ﷺ من حديث

(١) أخرجه البخارى (٥٦٨٣)، ومسلم فى السلام (١٤/١٩٢ - النووى).

وأظن «الطب النبوى» للذهبى (٢٧١) وفتح المجيد (ح ١٩٦) بتحقيقاً.

السبعين ألفاً، حيث قال : «لا يكتون». وأما حديث عمران مرفوعاً: «نهى ﷺ عن الكى، فأكتونا فما أفلحنا، ولا أنجحنا»^(١) وفى لفظ: «فلم يصلحنا ولم ينجحنا».

قال ابن حجر: بعد أن جود سنده : والنهى فيه محمول على الكراهة، أو على خلاف الأولى، لما يقتضيه مجموع الأحاديث، وقيل : أنه خاص بعمران؛ لأنه كان فيه الباسور، فنهاه عن كيه، فلما اشتد كواه، فلم ينجح. اهـ.

قلت: وفيه حالة ثالثة: ترك الكى (مندوب) عندما يكون الكى ظنى الشفاء فيكون تركه مندوباً وثواب تركه هنا أن يدخل فى زمرة السبعين ألفاً وقد باشر النبي ﷺ الكى فى أسعد بن زرارة وأقر أنساً قال أنس: «أكتويت فى زمن النبي». وفى حاله الفعل أو مباشرته لم يقدح فى كمال توكله لأن هذا الكى كان متعيناً سبباً للشفاء، بل أقول: إذا تعين سبباً للشفاء فلزم أو استحب الكى على خلاف بين أهل العلم هل تعطى الدواء واجب أم مندوب؟.

وقال ابن قتيبة الكى نوعان:

[الأول]: كى للصحيح لئلا يعتل.

فهذا الذى قيل فيه : لم يتوكل من اكتوى؛ لأنه يريد أن يدفع القدر والقدر لا يدافع.

[والثانى]: كى الجرح، إذا نغل - أى فسد - ، والعضو إذا قطع، فهو الذى يشرع التدأوى به فإن كان لأمر محتمل فهو خلاف الأولى لما فيه من تعجيل التعذيب بالنار لأمر غير محقق. اهـ.

قلت: ثم ذكر ما قاله ابن قتيبة أن الكى نوعان: كى الصحيح لئلا يعتل - مثل التطعيم - فهو صحيح فيكتوى حتى لا يعتل - فهذا الذى قيل فيه : «لم يتوكل من اكتوى» قلت: يغنى - توكلأ كاملاً - فهو صحيح والمرض محتمل.

قال ابن قتيبة: «لأنه يريد أن يدفع القدر، والقدر لا يدافع».

قلت: وهذه مصيبة أخرى أنه يريد دفع القدر ولكن إذا كان قصده أنه يأخذ بالأسباب معتقداً أن قدر الله نافذ فهذا ليس فيه شيء لكن يقدح فى كمال توكله.

(١) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/٤٤٤)، وأبو داود (٣٨٦٥)، والنسائى فى «الكبير»

(٧٦٠٢)، والترمذى (٣٤٩)، وابن ماجه (٣٤٩٠) من رواية الحسن عن عمران به.

وانظر «الطب النبوى» (٥٠٠ - بتحقيقنا).

ثم قال: «والثاني كى الجرح إذا فسد» يعنى إذا قُطع يده ولم يتعين شفاؤه إلا بالكى فهذا يشرع التداوى فيه، ثم قال: «إذا كان الكى لا مر يحتمل فهذا خلاف الأولى لما فيه من التعجيل بالتعذيب بالنار لأمر غير محقق» فذكر علة أخرى. وهذا الفهم من ابن قتيبة يؤيد أنهم لا يكتون الكى الظنى وهذا يؤيد مذهبنا إليه.

قال ابن حجر: وحاصل الجمع أن الفعل يدل على الجواز، وعدم الفعل لا يدل على المنع، بل يدل على أن تركه أرجح من فعله، وكذا الثناء على تاركه.

وأما النهى عنه فإما على سبيل الاختيار والتنزيه، وإما عما لا يتعين طريقاً إلى الشفاء. والله أعلم. أهـ.

قال الفقير: قول ابن حجر: «وحاصل الجمع أن الفعل يدل على الجواز» إلا أن هذا الجواز مشروط بأنه ما فعل إلا فى حالتين يتعين فيهما الكى.

وقلنا ذلك جمعاً بين الروايات لأنه نهى: «وعدم الفعل لا يدل على المنع بل يدل على أن تركه أرجح» وكذا الثناء على تاركه «وأما النهى عنه فإما على سبيل الاختيار والتنزيه وإما عما لا يتعين طريقاً للشفاء» فأننى عليهم لأنهم تركوا المرجوح فليس لأن هذه الأسباب محرمة بل لأنها خلاف الأولى، وذهب الحافظ إلى أنه إذا اكتوى فى حالة لا يتعين فيها الكى فكأنه فعل محرماً وليس مكروهاً، أما إذا تعين فهذا مندوب، وأما إذا كان محتملاً فهذا خلاف الأولى، وأما إذا لم يتعين فهو محرم، إلا أنه يعكر عليه أن عمران بن الحصين لم يفهم هذا. فعلى هذا الفهم قلنا: نورد الإيرادات التى تمسك بها بعض العلماء فى أن هذا الحديث أصل فى كراهة الرقى والكى من بين سائر الأدوية. فبعض الصوفية قالوا بكراهة التداوى نهائياً لأنه يقدر فى التوكل على الله والبعض قال: إن التداوى مشروع إلا الكى والرقي.

وأجاب العلماء على ذلك بأجوبة فإذا حملنا الأحاديث على مذهبنا إليه لعلمنا أن الأحاديث لاتنهى عن كى أورقى، وسعيد بن جبير لم ينكر على حصين بن عبد الرحمن حينما ارتقى وقال: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع» على الرغم من أنه راوى حديث: «لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتون» فلو كان يعلم النهى أصلاً عن الكى لأنكر عليه.

لكن تنمة للموضوع نورد الشبه والردود:

كره بعض الناس الرقى والكى من سائر الأدوية، فأجاب العلماء بأجوبة منها:
الجواب الأول:

ما قاله الطبرى والمازرى وطائفة من أهل العلم أنه محمول على من جانب اعتقاد
الطبايعين فى أن الأدوية تنفع بطبعها.

فكانه لا يكتون الكى الذى فيه اعتقادات جاهلية ولا يرقون الرقى التى فيها اعتقادات
جاهلية بأن الأدوية تنفع بنفسها وليست بقدر الله وهذا الكلام يرد أن السبعين ألفاً لهم
ميزة عن بقية المسلمين، لأن معظم المسلمين يعتقدون أن الشافى هو الله والمقصود من
كلام الطبرى أنه غير صحيح أن نقول بأن الرقى والكى مكروه عن سائر الأدوية سواء
هو منطقى أو لا. لكن هذه تأويلات تبين أن هذا الفهم خاطئ.

الجواب الثانى: أن المراد بترك الرقى والكى الاعتماد على الله فى دفع الداء والرضا
بقدره.

فأنا راضٍ بقدرك وعلامة رضى أنى لا أتسبب فى رفع هذا القدر كما قال بعض
السلف وهو يعاد فى مرضه ويشفعون عليه فقال: «أحبه له أحبه لى» فأرادوا أن يمعنوا
فى الرضا فلم يباشروا أى سبب يدفع هذا القدر.

قالوا: «والرضا بقدر لا القدح فى جواز ذلك» يعنى لم يقدحوا فى جواز ذلك،
وقلنا: إن الترك فى حالات وليس فى كل حالة: ولو كان فى كل شيء إذن لعطلنا
الأسباب وكانت دعوة للتواكل. قال: «لا القدح فى جواز ذلك لثبوته فى الأحاديث وعن
السلف الصالح لكن مقام الرضا والتسليم أعلى من تعاطى الأسباب». ولهذا ذهب
الخطابى وطائفة من العلماء ورجحه النووى فقال: «وحاصله أن هؤلاء كمال تفويضهم
إلى الله عز وجل فلم يتسببوا فى دفع ما أوقعه بهم ولا شكوا فى فضيلة هذا ورجحان
صاحبها، أما تطيب النبى ﷺ ففعله ليبين لنا الجواز والله أعلم.

إلا أن ابن حجر رحمه الله قال: والحق أن من وثقه بالله وأيقن أن قضاءه عليه
ماضى وأنه راضٍ بقضائه خيره وشره، لا يقدح فى توكله تعاطيه الأسباب القطعية اتباعاً
لسته». فسنه النبى ﷺ مضرب المثل فى الأخذ بالأسباب فقد حارب النبى ﷺ بين
درعين ولبس على رأسه المغفر وأقعد الرماة على فم الشعب وخندق حول المدينة وأذن
فى الهجرة للحبشة وهاجر للمدينة، وتعاطى أسباب الأكل والشرب وادخر لأهله قوت
سنة كما هو ثابت فى الصحيح، ولم ينتظر أن تمطر عليه السماء ذهباً وقد كان أحق
بذلك من غيره، وقال للذى سأل أعقل ناقتى أم أدعها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل»
فدل على أن الاحتراز لا يدفع التوكل والله أعلم.

فكلام النووى والخطابى محمول على أنه إذا لم تتعين الأدوية سبيلاً للشفاء وإلا إذا تعينت فمستحب لهن أن يتعاطوا الأسباب وإذا قلت بالأمر بالتداوى فى قوله النبى: «تداووا عباد الله» والأمر يحمل على الوجوب فيصبح تعاطى الأسباب واجباً ولا أعلم أحداً من العلماء حمل هذا الحديث على الوجوب والذي يؤكد أن الكى والرقيه فى الحديث أن السبعين ألفاً لا يكتون ولا يسترقون الرقى والكى السطنى الذى يؤكد ذلك قول النبى ﷺ فى ذات الحديث «ولا يتطيرون» كيف ذلك؟ فربطه بالطيرة الكى والرقيه المنفية يدل على الكى الظن والرقيه الظنية كالطيرة تماماً بتمام. فالطيرة أمر ظنى فكان الجاهليون إذا أرادوا أمراً قاموا للطير فإن ذهب يمنية تيمنوا، وفعلوا وإن ذهب يسرة تشائموا ورجعوا.

هذا الكلام ظنى فمن الممكن أن تطير جهة اليمن ويحصل الشر والعكس فكونها طارت جهة اليمن وحصل الخير أحياناً فهذا أمر محتمل وظنى.

الطيرة: هى التشاؤم وهى من الأمور الجاهلية وهناك أحاديث لاتخلوا من ضعف إلا أنه ربما بجمع الطرق تحسن ومنها «ثلاثة لا يسلم منهم أحد الطيرة والظن والحسد».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «ولا يكتون» أى لا يسألون غيرهم أن يكونهم، كما لا يسألون غيرهم أن يرقاهم استسلاماً للقضاء وتلذذاً بالبلاء. أما الكى فى نفسه فجائز كما فى «الصحيح».

عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ، بعث إلى أبى بن كعب طيباً، فَقَطَعَ لَهُ عِرْقاً وَكَوَاهُ. (٢)

وفى «صحيح البخارى» عن أنس: أَنَّهُ كَوَى مِنْ ذَاتِ الْجَنْبِ وَالنَّبِى ﷺ حَى (٣).
وروى الترمذى وغيره عن أنس: أَنَّ النَّبِى ﷺ كَوَى أَسْعَدَ بْنَ زَرَّارَةَ مِنَ الشَّوْكَةِ (٤).

(١) تيسير العزيز الحميد ٧٩.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (٧/٤٤٨/٧٣) وانظر فتح «المجيد» (ح ١١٢) بتخريجنا.

(٣) [صحيح] رواه البخارى (٥٧٢١) وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ١١٣) والطب النبوى للذهبي بتخريجنا.

(٤) [المحفوظ مرسل] رواه الترمذى (٢٠٥٠) قال الترمذى: حسن غريب، وانظر «فتح المجيد» (ح ١١٤) بتخريجنا.

وفى «صحيح البخارى»: عن ابن عباس مرفوعاً: «الشفاء فى ثلاث: شربة عسل، وشربة مُحجَم، وكَيَّة نَار. وأنهى أمتى عن الكى»^(١).
وفى لفظ: «وما أحبُّ أن أكتوى»^(٢).

قال ابن القيم: فقد تضمنت أحاديث الكى أربعة أنواع: أحدها: فعله، والثانى: عدم محبته له. والثالث: الشاء على من تركه. والرابع: النهى عنه. ولا تعارض بينهما بحمد الله، فإن فعله له يدل على جوازه؛ وعدم محبته له لا يدل على المنع منه. وأما الشاء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل. وأما النهى عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهية. أهـ

قال ابن عثيمين^(٣):

والصحيح:

١ - أن ما علم أو غلب على الظن نفعه مع احتمال الهلاك بعده؛ فهو واجب.

٢ - ما غلب على الظن نفعه، لكن ليس هناك هلاك محقق بتركه؛ فهو أفضل.

٣ - ما تساوى فيه الأمران؛ فتركه أفضل.

● مسألة:

قال ابن عثيمين: وإذا طلب منك إنسان أن يريقك؛ فهل يفوتك كمال إذا لم تمنعه؟
الجواب: لا يفوتك؛ لأنَّ النبى ﷺ لم يمنع عائشة أن تريقه^(٤)، وهو أكمل الخلق تركاً على الله وثقةً به، ولأنَّ هذا الحديث: «لا يسترقون...» إلخ إنما كان فى طلب هذه الأشياء، ولا يخفى الفرق بين أن تحصل هذه الأشياء بطلب وبين أن تحصل بغير طلب أهـ

[قلت]: قوله: «ولا يكتون»: لا يطلبون الكى من غيرهم بعكس لا يكونون: لا يكونون أنفسهم لماذا؟ لأن الكى فى هذه الحالة لا يتعين سبباً للشفاء؟ بل كان الشفاء به محتملاً أو بعيداً فلم يعذب نفسه ولم يحرق نفسه بدواء المصلحة فيه محتملة، وحسماً

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٦٨٠) وانظر «الطب النبوى» (٤٩٧) وفتح المجيد (ح ١١٥) بتحقيقنا.

(٢) تقدم قريباً عن جابر.

(٣) انظر القول المفيد (١/١٢٩).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٠١٦)، ومسلم فى السلام (١٤/١٨٢ - النووى)

وانظر «الطب النبوى» (٥٦٣ - بتحقيقنا).

للمادة وسدًا للذرائع ولكمال توكله على الله لم يأخذ بسبب ضعيف، وترك الكى فى هذه الحالة.

● لماذا كان هذا التأويل لقوله: ﴿لا يكتون﴾؟

الجواب من وجوه:

النبي ﷺ باشر الكى كما قال ابن القيم فى الطب وأقره ونهى عنه وكرهه؟ فمرة أقره ومرة باشره ومرة نهى عنه ومرة كرهه.

قال النبي ﷺ: «الشفاء فى ثلاث: شربة عسل وشرطة محجم وكية نار».

والحديث فى الصحيح. وقال النبي: «وما أحب أن أكتوى». وفى رواية: «نهى عن الكى» وفى رواية: «أنهى أمتى عن الكى» فالنهي هنا نهى كراهة. فلما نهى كان النهى للكرهة فقوله: «وما أحب أن أكتوى» أو: «إنى أنهى أمتى عن الكى» لأن النهى أول ما يحمل يحمل على التحريم، ويصرف من التحريم إلى الكراهة بقرينة، وهنا توجد قرينة وهى قوله ﷺ «الشفاء فى ثلاث...» الحديث.

فقوله ﷺ: «الشفاء فى ثلاث: شربة عسل أو شرطة محجم أو كية نار» يجيز النبي ﷺ الكى فى بعض الأحيان بغير كراهة إذا تعين سبباً للشفاء كما قال الشراح. ككى الجرح إذا فسد فلا يلتئم إلا بالكى أو شخص قُطع عضو منه، ولا سبيل لغلق الجرح إلا بالكى «فهو جائز بغير كراهة» أو مستحب والدليل: «الشفاء فى ثلاثة».

ولما باشر عندما تعين سبباً للشفاء فجائز بغير كراهة لأن النبي ﷺ لا يفعل الكراهة ففعله يدل على أنه جائز لذلك فإن الأصوليين يكرهون أن يسموا فعل النبي ﷺ مكروهاً وإن كان لا بد فيسمى [خلاف الأولى].

فإذا لم يتعين سبباً للشفاء جائز لكن مع الكراهة لأنه ظنى الشفاء ولأنه عذب نفسه بغير فائدة، بل الفائدة ظنية محتملة ودليله قوله: «وما أحب أن أكتوى» وقوله: «أنهى أمتى عن الكى»، والثناء على تارك الكى وقوله فى الحديث «لا يكتون».

ومن لم يتركه فى هذه الحالة هل يحرم عليه؟

الجواب: لا يحرم: لكن الأفضل له والمستحب ترك الكى فى هذه الحالة لأنه بالترك سيدخل فى السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

ويكره له الكى فى هذه الحالة لأن الشفاء به ظنى وسيحرمه من الدخول فى السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

٣- وإذا استوى الطرفان هل يشفى أم لا ؟ هل يكتوى أيضاً؟

الجواب: أن الأولى تركه لكمال التوكل.

● **علاقة الكى والرقى بالطيرة فى الحديث:**

قال الفقير: لبين ويؤكد أن الكى والرقى فى الحديث المقصود بهما الكى الظنى والرقى الظنى ويؤكد ذلك قوله: «لا يتطيرون».

كيف ذلك؟

الجواب: أنه ربط بالطيرة الكى والرقى المنفية، يدل على الكى الظنى والرقى الظنى، كالطيرة تماماً بتمام، فالطيرة أمر ظنى فكان أهل الجاهلية إذا أرادوا أمراً قاموا للطير فإن ذهب بمنة تيمنوا واستبشروا وفعلوا، وإن ذهب يسرة تشاءموا ورجعوا، هذا كله أمر ظنى، فمن الممكن أن تطير جهة اليمين ويحصل لهم البشر والعكس، فكونها طارت جهة اليمين وحصل الخير أحياناً فهذا أمر محتمل وظنى. وخلاصة القول:

لماذا فصل العلماء هذا التفصيل بالنسبة للرقى والكى إلى [قطعية الشفاء وظنية

الشفاء]؟

قال الفقير: الجواب من وجوه:

(١) للجمع بين الأحاديث

(٢) لاختلاف الناس فى درجات الإيمان.

(٣) لكلمة «ولا يتطيرون»

والطيرة ظنية.

إذن هؤلاء السبعين ألف لم يتعلقوا بظنون أصلاً ولكن تعلقوا بقطعيات استمدوا قطعيتهما من الشرع أو من الواقع الذى لا يخالف الشرع (الطب- التجربة).

فالقاسم المشترك بين الرقى والكى والطيرة المنفى عنهم أن الجميع ظنى الدلالة على المطلوب. فالجاهلية لا تتعلق إلا بظنون ولا تتعلق إلا بأماني.

(٤) ولقوله أيضاً: «وعلى ربهم يتوكلون»

لصدق التجائهم إليه وصدق توكلهم عليه لم يأخذوا إلا بأسباب قطعية قوية لا تقدر في كمال توكلهم لهذا لم يأخذوا بأقوال أو أسباب بدعية أو حتى ظنية «تضعف كمال توكلهم على الله عز وجل».

التوكل على الله أن نعتقد قول الله تعالى ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ والتوكل لا يكمل إلا بأخذ سبب قوى ويضعف إذا كان السبب ضعيفاً ويفنى ويتلاشى بالكلية إذا لم يكن ثمة سبب.

ولهذا أمرنا النبي ﷺ بالتداوى كأسباب للعلاج وهذا الحديث (السبعين ألف) لا ينفي التداوى ولكن يثبت التداوى بالقطعيات لمن آمن برب السموات. أصل التداوى حتى بالظنى مباح ولكنه مكروه إذا كان يقدر في كمال التوكل.

● قوله: «ولا يتطيرون».

قال ابن حجر^(١): والمراد أنهم لا يتشاءمون كما كانوا يفعلون في الجاهلية. أهـ

قال ابن عثيمين^(٢):

قوله: «ولا يتطيرون».

مأخوذ من الطير، والمصدر منه تطير، والطيعة اسم المصدر، وأصله: التشاؤم بالطير، ولكنه أعم من ذلك؛ فهو التشاؤم بمرئى، أو مسموع، أو زمان، أو مكان.

وكانت العرب معروفة بالتطير، حتى لو أراد الإنسان منهم خيراً ثم رأى الطير سنحت يميناً أو شمالاً حسب ما كان معروفاً عندهم، تجده يتأخر عن هذا الذي أراده.

ومنهم من إذا سمع صوتاً أو رأى شخصاً تشاءم.

ومنهم من يتشاءم في شهر شوال بالنسبة للنكاح، ولذا قالت عائشة رضى الله عنها: «عقد على رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال؛ فأبى أن كان أحظى عنده»^(٣).

(١) الفتح ٤١٧/١١.

(٢) القول المفيد ١٢٦/١.

(٣) أخرجه مسلم في النكاح (٥/٢٢٥-٢٢٦ / ٧٣٧).

ومنهم من يتشاءم بيوم الأربعاء، أو بشهر صفر.
وهذا كله مما أبطله الشرع؛ لضرره على الإنسان عقلاً وتفكيراً وسلوكاً، وكون الإنسان لا يبالى بهذه الأمور، هذا هو التوكل على الله، ولهذا ختم المسألة بقوله: «وعلى ربهم يتوكلون».

قال الفقير: هناك تشاؤم شرعى (من الجائز أن يتشاءم المرء به) إذا كان التشاؤم قطعى السبب.

● الإدلة من القرآن:

الدليل الأول: قال تعالى: «قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ...» فهذا قول الكفار للرسول، فقالت الرسل: «طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ».

فأثبتوا أن هناك تطير، لكن ليس بالرسول، بل تطير بالكفر والكفار، يعني: «طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ» وماذا معهم؟ الكفر، فجاز التشاؤم بالكفر.

وهناك تشاؤم غير مشروع، بل هو ممنوع، وهو ما كان سببه ظني، وليس له أساس شرعي، فهو ظني الدلالة، والثمرة أنه ليس عليه آثاره من علم، فهذا هو المحرم أو الشرك.

الدليل الثاني: قال تعالى: «فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيِّرُوا بِمُؤْسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ» فشؤمهم عند الله هو عذابهم، فلما كان كفرهم شؤم على الأرض، فكان جزاؤهم الشؤم يوم القيامة حيث أفسدوا في الأرض.

● الإدلة من السنة:

قوله ﷺ: «إن من شقاء المرء في الدنيا سوء الدار والمرأة والدابة» والحديث عند الطبراني من حديث أسماء^(١)، وأصله في الصحيح من حديث ابن عمر قال: «ذكروا الشؤم عند النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس»^(٢) وكذلك أثبت اليُمن في نفس الثلاثة، فقال ﷺ: «من سعادة ابن آدم ثلاثة: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح»^(٣).

(٣، ٢، ١) [صحيح] البخارى مع الفتح (٩/ ٤٠، ٤١، ٤٤/ ٥٠٩٤٤).

والحديث فى المسند وغيره وصححه ابن حبان من حديث سعد مرفوعاً.

فإذا كانت الزوجة صالحة فيسعد، وإن كانت غير ذلك فإشؤمه وويله منها، فالمرأة نفسها وعاء لليمن والشؤم، وسيأتى فى التبرك المشروع وجود البركة فى بعض النساء، كما قالت عائشة رضى الله عنها: «ما رأيت امرأة أكثر بركة على أهلها من جويرية» لأنها أعتق بسبب زواجها من النبى ﷺ الكثير، فكان هذا من بركتها، وسبب البركة كان سبب شرعى، وخير لمسه أهلها، وكذلك الشؤم تكون نكد على زوجها وأهلها.

أما الدار فيكون شؤم بشأن تكون بعيدة عن المسجد لا يسمع الآذان، أو يكون فى الطابق السادس فيكسل عن النزول للمسجد ويصلى فوق، أو ضيقة فلا يضيف الضيفان عنده، أو لا يعرف يستر عورته عن أولاده، وغير ذلك بما يحرمه من تحصيل خير كثير.

فالتشاؤم بالسيئات وأسبابها من التشاؤم المشروع، أما التشاؤم التى بأسباب ليس عليها علم شرعى فهذا ممنوع، فمثلاً شخص حدث له مصيبة، فقال: هذا بشؤم ذنبى فهذا مشروع مشروع، وأما إذا كان خارج للسعى على رزقه، ولم يفتح عليه الله فقال: أنها أغلقت أبواب الرزق فى وجهى اليوم لأنى رأيت الإسعاف، أو قطة سوداء، أو غير ذلك، فهذا ممنوع، ولكن يجوز أن يقول أنها لأنى كنت أأعب طاولة أو شاهدت التلفاز، أو لأنى سببت الدين فى الصباح، فهذا الاعتقاد شىء طيب.

مثال: أصحاب الجنة الذين هموا بذنب ولم يفعلوه، ولكن حرمهم الله الرزق حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ وهذا مصداق ما جاء فى الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق قد كان هياً له بالذنب يصيبه» فلو رجع شؤم حرمان الرزق لذنب ارتكبه فهذا الشؤم المشروع وعن ابن مسعود «أن المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخشى أن يقع عليه أما المنافق يرى ذنبه كالذبابة وقفت على أنفه فقال لها هكذا».

فلكون الرجل يرى ذنبه كالجبل، ويخاف أن يعاقبه الله ويتنظر ذلك فى نفسه أو فى أولاده، أو يسلط عليه الظلمة، وغير ذلك فهذه ظاهرة صحة الإيمان

وفى الحديث: «فإذا تشاءمت فلا ترجع» فأى أمر تشاءم منه إذا كان شؤم ظنى أما إذا كان قطعى مثلاً: تشاءمت بالمعصية، فهل يجوز التشاؤم بالمعصية أم لا؟ نعم يجوز ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ قَالُوا...﴾.

قالت الرسل: طائركم معكم، أى: شؤمكم معكم، وهو شركهم ومعصيتهم، فلك

أن تطير بالمعصية والمخالفة كيف ذلك؟ توقن أن الله آخذك بهذا الذنب، فتستغفر وتخشى وفي الحديث «علم عبدي أن له رب يأخذ بالذنب» كيف علم ذلك؟ علم ذلك بذنبه فهل هذا الشوم قطعي؟ نعم لأنه منضبط بضابط شرعي، فيرجع عن فعله لعل الله أن يغفره له.

فالرسول يقول: «إذا تطيرت فلا ترجع» فإذا تطيرت تطيراً جاهلياً، مثل قطة سوداء، أو بوليس النجدة، أو شخص بعينه، فهذا تشاؤم ظني، فإذا كنت متوكلاً على الله حق التوكل فلا ترجعك هذه الظنون عن أمور أنت مطالب بها فانت مطالب بالخروج لطلب الرزق، أو بالخروج للدعوة أو لطلب العلم، وأنت تمثل فلما ترجع، ترجع لأمر جاهلي، فيكون تحاكم لأمر جاهلي.

قال النبي ﷺ: «إذا تطيرت فلا ترجع، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق» وهذا مرسل، أو معضل، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة عند البيهقي في الشعب، وأخرج أيضاً ابن عدي عن أبي هريرة بسند لين مرفوعاً «إذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا» كما قال الله تعالى في وصف الرسل ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ فلم يتشاءموا بالكفرة ولم يرجعهم هذا الأذى أن يرجعوا لأنهم متوكلون ومهتدون، يعتقدون أن ما يفعلونه أموراً شرعية، وكيف يتنازلون عنها من أجل أمور شركية أو جاهلية وقد بين ابن القيم في «مدارج السالكين» أن أساس الأمور كلها هدايتك للحق ثم توكلك على الحق سبحانه وتعالى فهذا رأس كل خير، فتوقن أن ما أنت عليه حق ومعك أدلتك، فإذا عرض لك عارض فانظر فيه هل لك أن تتشاءم به، فإن كان جاهلي فليس لك أن تتشاءم به، وليس لك أن ترجع عن هدى وليس لك إلا أن تتوكل على الله عز وجل، وفي الحديث «إذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا» وعن ابن مسعود مرفوعاً «الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن يذهب الله بالتوكل». فهي شرك، لأن فيها صرف عبادة لغير الله، وفيها نوع تحكم وتحاكم لغير الله، وقد يكون أكبر أو أصغر على التفصيل.

وقد بين أيضاً الحافظ ابن حجر أن في الخبر جعل ذلك شركاً لاعتقادهم أن هذه الطيرة تجلب نفعا أو تدفع ضرراً، فهذا الاعتقاد إن كانوا يعتقدون أن هذه الطيرة تنفع كنفع الله عز وجل، أو تدفع ضرراً كدفع الله، فهذا شرك أكبر، ولا بد إما أن كانوا يعتقدون أن النافع على الحقيقة هو الله، وأن بيده النفع ودفع الضرر، ولكن هذه قد تكون أسباب فهذا شرك أصغر لأنهم أخذوا بأسباب غير شرعية فوقعوا في شرك أصغر.

وسياتى تفصيل وبيان لمسائل الطيرة، وما يتعلق بها فى الباب السابع والعشرين إن شاء الله تعالى .

● قوله: «وعلى ربهم يتوكلون».

قال الفقير: معنى التوكل:

قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب.

وقيل: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد.

وقيل: انطراح القلب بين يدى الرب كانطراح الميت بين يدى الغاسل بقلبه كيف يشاء.

قال بشر الحافي: يقول أحدهم توكلت على الله يكذب على الله لو توكل على الله رضى بما يفعل الله.

وسئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلاً فقال: إذا رضى بالله وكياً.

ومنهم من يفسره بالثقة بالله والطمأنينة إليه والسكون إليه .

روى أبو نعيم فى «الحلية» أن بشراً سئل عن التوكل فقال:

اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب، فقال له السائل فسر له فقال:

اضطراب بلا سكون: رجل تضطرب جوارحه وقلبه ساكن إلى الله لا إلى عمله،

وسكون بلا اضطراب رجل ساكن إلى الله بلا حركة وهذا عزيز^(١).

وقيل التوكل أن يستوى عندك الإكثار والإقلال.

● حقيقة التوكل: قال ابن رجب:

حقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل فى استجلاب المنافع ودفع

المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، ووكلت الأمور كلها إليه وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطى ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه.

قال سعيد بن حبيب: التوكل جماع الإيمان، وقال وهب بن منبه: الغاية القصوى التوكل.

قال الحسن: أن توكل العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته ، وفى الحديث عن

ابن عباس عن النبى ﷺ «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله».

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الجزء (٢) ص ٧٧٥.

فائدة:

قال ابن رجب: المتوكل على الله حق التوكل لا يأتي بالتوكل ويجعله سبباً لحصول الكفاية له من الله بالرزق وغيره، فإنه لو فعل ذلك لكان كمن أتى بسائر الأسباب لاستجلاب الرزق والكفاية بها وهذا نوع نقص في تحقيق التوكل. وإنما التوكل حقيقة هو أن يعلم أن الله قد ضمن لعبده رزق وكفايته فيصدق الله فيما ضمنه ويثق بقلبه ويحقق الاعتماد عليه فيضمنه من الرزق من غير أن يخرج التوكل فخرج الأسباب في استجلاب الرزق والرزق مقسوم لكل أحد بر وفاجر مؤمن وكافر ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ﴿كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾.

فما دام العبد حياً فزرقه على الله، وقد يسره الله له بكسب، وبغير كسب فمن توكل على الله لطلب الرزق فقد جعل التوكل سبب وكسباً ومن توكل عليه لشقته بضمانه، فقد توكل عليه ثقة به وتصديقاً بوعده. اهـ.

ومعنى هذا الكلام السابق أنه لا يصلح توكل بدون مباشرة الأسباب ولا الركون للأسباب بدون توكل بل لا بد من السعى والتوكل هذا معنى حديث «اعقلها وتوكل» (*).

قال ابن رجب: في جامع العلوم والحكم:

واعلم أن تحقيق التوكل لا يتنافى السعى في الأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك فإن الله أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل ﴿مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فالسعى في الأسباب بالجوارح طاعة له والتوكل بالقلب عليه إيمان به. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ ﴿إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾.

قال سهل التستري: من طعن في الحركة (السعى والكسب) فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، فالتوكل حال النبي ﷺ، والكسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يترك سنته.

(*) الترمذی من ح انس وقال غریب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ونقل عن یحیی بن القطان أنه منکر لکن معناه صحیح صحیح.

والأعمال التي عملها العبد ثلاثة أقسام:

الأول: الطاعات التي أمر الله بها وجعلها سبباً للنجاة من النار ودخلوها الجنة، فهذا لا بد من فعله مع التوكل على الذين فيه والاستعانة به عليه، فإنه لا حول ولا قوة إلا به، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فمن قصر في شيء في واجب عليه استحق العقوبة في الدنيا والآخرة.

الثاني: ما أجرى الله العادة به في الدنيا وأمر عباده بتعاطيه كالإكل عند الجوع، والشرب عند العطش، والاستظلال من الحر، والتدفؤ من البرد فهذا واجب على المرء تعاطي أسبابه ومن قصر فيه حتى تضرر بتركه مع القدرة على استعماله فهو مفرط يستحق العقوبة، ولكن الله سبحانه قد يقوى بعض عباده ما لا يقوى عليه غيره كالوصال للنبي في الصيام.

الثالث: ما أجرى الله به العادة في الأعم الأغلب، وقد يخرق العادة في ذلك لمن شاء من عباده فقلوه عليه السلام: «لو توكلتم على الله حق توكله» يبين أن الناس يؤتون من قلة تحقيق لتوكل، ووقوفهم مع الأسباب الظاهرة بقلوبهم ومساكنتهم لها، فلو حققوا التوكل على الله بقلوبهم لساق إليهم أرزاقهم مع أدنى سبب، كما يسوق إلى الطير أرزاقها بمجرد الغدو والرواح، وهو نوع من الطلب، والسعى لكنه طلب يسير، وربما حرم الإنسان رزقه بالذنوب يصيبه كما تقدم في الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه»

درجات التوكل (١):

ذكر ابن القيم: الدرجة الأولى: معرفة بالرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيومته وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته.

فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف كان توكله أصح وأقوى.

الدرجة الثانية: إثبات في الأسباب والمسببات. نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها.

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل:

(١) مدارج السالكين.

فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيد بل حقيقة التوكل توحيد القلب.
وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل.

والتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب وتعلق الجوارح بها.

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه المتوكل كالطفل الرضيع في إعماده وسكونه وطمانيته بثدى أمه لا يعرف غيره وليس في قلبه إلتفات إلى غيره.

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل.

فعلى قدر حسن ظنك بربك رجائك له يكون توكلك عليه.

الدرجة السادسة: استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل.

الدرجة السابعة: التفويض هو روح التوكل ولبه وحقيقته وهو القاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلباً واختياراً لا كرهاً واضطراً.

بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه.

الدرجة الثامنة: الرضا ثمرة التوكل:

فإذا توكل العبد حق التوكل رضى بما يفعله وليكن. (وكيله) يقول ابن القيم.

وكان شيخنا أي ابن تيمية يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله والرضى بعده فمن توكل على الله قبل الفعل ورضى بالمقضى له بعد الفعل فقد قام بالعبودية.

قلت: أي ابن القيم: وهذا معنى قوله ﷺ: «اللهم انى استخيرك بعلمك واستقدرتك بقدرتك واسألك من فضلك العظيم. فهذا توكل وتفويض.

قوله: «فإنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولا أقدر وانت علام الغيوب».

فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون.

ثم مسألة ربه أن يقضى له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته وإن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته.

فلم يبق عليه إلا الرضى بما تقضيه له فقال: «واقدر لى الخير حيث كان ثم رضى

به».

● فائدة مناسبة ذكر هذه الصفة بعد الخصال المتقدم ذكرها:

قال ابن حجر (١):

قوله (وعلى ربههم يتوكلون) يحتمل أن تكون هذه الجملة مفسرة لما تقدم من ترك الإسترقاء والاكثواء والطيرة، ويحتمل أن تكون من العام بعد الخاص لأن صفة كل واحدة منها صفة خاصة من التوكل وهو أعم من ذلك.

وقال القرطبي وغيره: قالت طائفة من الصوفية لا يستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى، حتى لو هجم عليه الأسد لا ينزعج، وحتى لا يسعى في طلب الرزق لكون الله ضمنه له. وأبى هذا الجمهور.

وقالوا: يحصل التوكل بأن يثق بوعده الله ويوقن بأن قضاءه واقع، ولا يترك اتباع السنة في ابتغاء الرزق مما لا بد له منه من مطعم ومشرب وتحرز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعاً ولا تدفع ضرراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى السبب قدح في توكله، وهم مع ذلك فيه على قسمين: واصل وسالك، فالأول صفة الواصل وهو الذي لا يلتفت إلى الأسباب ولو تعاطاها، وأما السالك فيقع له الالتفات إلى السبب أحياناً إلا أنه يدفع ذلك عن نفسه بالطرق العلمية والأذواق الحالية إلى أن يرتقى إلى مقام الواصل.

وقال أبو القاسم القشيري: التوكل محله القلب، وأما الحركة الظاهرة فلا تنافيه إذا تحقق العبد أن الكل من قبل الله، فإن تيسر شيء فبتيسيره وإن تعسر فبتقديره.

ومن الأدلة على مشروعية الإكتساب حديث أبي هريرة رفعه «أفضل ما أكل الرجل من كسبه، وكان داود يأكل من كسبه» فقد قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لَتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَاخْذُوا حِذْرَكُمْ﴾. وأما قول القائل كيف تطلب ما لا تعرف مكانه فجوابه أنه يفعل السبب المأمور به ويتوكل على الله فيما يخرج عن قدرته فيشق الأرض مثلاً ويلقى الحب ويتوكل على الله في إنباته وإنزال الغيث له، ويحصل السلعة مثلاً وينقلها ويتوكل على الله في إلقاء الرغبة في قلب من يطلبها منه، بل ربما كان التكسب واجباً كقادر على الكسب يحتاج عياله للنفقة فمتى ترك ذلك كان عاصياً.

(١) الفتح ١١/٤١٧ - ٤١٩.

وسلك الكرماني في الصفات المذكورة مسلك التأويل فقال: قوله «لا يكتون» معناه إلا عند الضرورة مع اعتقاد أن الشفاء من الله لا من مجرد الكى، وقوله «ويسترقون» معناه بالرقى التي ليست في القرآن والحديث الصحيح كرقى الجاهلية وما لا يؤمن أن يكون فيه شرك، وقوله: «ولا يتطيرون» أى لا يتشاءمون بشيء فكان المراد أنهم الذين يتركون أعمال الجاهلية في عقائدهم.

● إشكال وجوابه.

قال - أى الكرماني -: فإن قيل إن المتصف بهذا أكثر من العدد المذكور فما وجه الحصر فيه؟

وأجاب باحتمال أن يكون المراد به التكثير لا خصوص العدد.

قلت يعنى ابن حجر: الظاهر أن العدد المذكور على ظاهره، فقد وقع في حديث أبى هريرة وصفهم بأنهم «تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر»^(١) وفي بدء الخلق عند البخارى من طريق عبد الرحمن بن أبى عمرة عن أبى هريرة رفعه «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر، والذين على آثارهم كأحسن كوكب درى في السماء إضاءة»^(٢).

وأخرجه مسلم من طرق عن أبى هريرة: منها رواية أبى يونس وهمام عن أبى هريرة «على صورة القمر».

وله من حديث جابر «فتنجد أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر سبعون ألفاً لا يحاسبون»^(٣).

سؤال: هل هذه نذارة أم بشارة؟

الجواب: (قال الفقير): أنها نذارة، وليس بشارة، لأنه لو لم يكن إلا هذا العدد الذى يدخل الجنة بغير حساب، فنقطع بأننا جميعاً سنحاسب، ورذا كان هذه العدد فقط هو الذى يدخل الجنة بغير عذاب فنقطع جميعاً أننا سنعذب، لكن اقتضت حكمة الحكيم حيث أن شرعه أيضاً «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» أننا لا نقطع بجنة أو نار ولا نقنط أحداً من رحمة الله، بل نسير كما كان سلفنا بين الخوف والرجاء. فنحن لانرجو لدرجة التفريط، ولا نقنط لدرجة الإفراط واليأس والقنوط من رحمة الله عز وجل، بل نكون بين الخوف والرجاء، وهذان هما الجناحان اللذان بهما ندخل الجنة إن شاء الله.

(١)، (٢) تقدم تخريجهما.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (٤٧٢/٣١٦).

وهذا الحديث ليس به رجاء بل به خوف . وفيه أننا نقطع الآن أننا داخلون جهنم جميعاً إن لم يكن من السبعين ألفاً، لكن بالاستقراء والجمع لطرق هذا الحديث ولغيره من الطرق كما فعل ابن حجر في شرح الحديث، حيث قال: وقد وقع فى أحاديث أخرى أن مع السبعين ألفاً زيادة عليهم، ففي حديث أبى هريرة عند أحمد والبيهقى فى البعث من رواية سهيل بن أبى صالح عن أبىه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال «سألت ربى فوعدنى أن يدخل الجنة من أمتى»^(١).

فذكر الحديث نحو سياق حديث سعيد بن المسيب عن أبى هريرة ثانياً أحاديث الباب وزاد «فاستزدت ربى فزادنى مع كل ألف سبعين ألفاً» وسنده جيد.

وفى الباب عن أبى أيوب عند الطبرانى^(٢) وعن حذيفة عند أحمد^(٣) وعن أنس عند البزار^(٤) وعن ثوبان عند ابن أبى عاصم^(٥) فهذه طرق يقوى بعضها بعضاً.

وجاء فى أحاديث أخرى أكثر من ذلك: فأخرج الترمذى وحسنه والطبرانى وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى أمامة رفعه «وعدنى ربى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفاً مع كل ألف سبعين ألفاً لأحساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حثيات من حثيات ربى»^(٦).

وفى صحيح ابن حبان أيضاً والطبرانى بسند جيد من حديث عتبة بن عبد نحوه بلفظ «ثم يشفع كل ألف فى سبعين ألفاً، ثم يحثى ربى ثلاث حثيات بكفيه» وفيه «فكبر عمر، فقال النبى ﷺ: «إن السبعين ألفاً يشفعهم الله فى آبائهم وأمهاتهم وعشائهم وإنى لأرجو أن يكون أدنى أمتى الحثيات»^(٧) وأخرجه الحافظ الضياء وقال: لا أعلم له علة.

قلت يعنى ابن حجر: علته الاختلاف فى سنده، فإن الطبرانى أخرجه من رواية أبى سلام حدثنى عامر بن زيد أنه سمع عتبة، ثم أخرجه من طريق أبى سلام أيضاً فقال: «حدثنى عبد الله بن عامر أن قيس بن الحارث حدثه أن أبا سعيد الأمارى حدثه» فذكره وزاد «قال قيس فقلت لأبى سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: وقال رسول الله ﷺ: وذلك يستوعب مهاجرى أمتى ويوفى الله بقيتهم من أعرابنا».

(١) تقدم تخريجه.

(٢ - ٦) تقدم تخريجهم.

(٧) أخرجه ابن حبان فى «صحيحه» (١٨٤/٩ - ١٨٩ - الإحسان) والطبرانى فى «الكبير» (٣١٢/١٧).

(١٢٦/١٧).

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (٤٠٩/١٠) ونسبه للطبرانى فى «الأوسط» والكبير.

وفى رواية لابن أبي عاصم قال أبو سعيد «فحسبنا عند رسول الله ﷺ فبلغ أربعة آلاف ألف وتسعمائة ألف» يعنى من عدا الخثيات.

وقد وقع عند أحمد والطبرانى من حديث أبى أيوب نحو حديث عتبة بن عبد وزاد «والخبيثة - بمعجمة ثم موحدة وهمزة وزن عظيمة - عند ربى»^(١).

وورد من وجه آخر ما يزيد على العدد الذى حسبه أبو سعيد الأنصارى، فعند أحمد وأبى يعلى من حديث أبى بكر الصديق نحوه بلفظ «أعطانى مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً»^(٢) وفى سنده راويان أحدهما ضعيف الحفظ والآخر لم يسم. وأخرج البيهقى فى «البعث» من حديث عمرو بن حزم مثله وفيه راو ضعيف أيضاً، واختلف فى سنده وفى سياق متنه. وعند البزار من حديث أنس بسند ضعيف نحوه^(٣)، وعند الكلاباذى فى «معانى الأخبار» بسند واه من حديث عائشة «فقدت رسول الله ﷺ ذات يوم فاتبعته فإذا هو فى مشربة يصلى، فرأيت على رأسه ثلاثة أنوار، فلما قضى صلاته قال: «رأيت الأنوار»؟ قلت: نعم. قال: إن آتيا أثنى من ربى فبشرنى أن الله يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب، ثم أثنى فبشرنى أن الله يدخل من أمتى مكان كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب، ثم أثنى فبشرنى أن الله يدخل من أمتى مكان كل واحد من السبعين ألفاً المضاعفة سبعين ألفاً بغير حساب ولا عذاب، فقلت يارب لا يبلغ هذا أمتى قال أكملهم لك من الأعراب ممن لا يصوم ولا يصلى».

قال الكلاباذى: المراد بالامة أولا أمة الإجابة، ويقول آخر أمتى أمة الإتيان، فإن أمته ﷺ على ثلاثة أقسام:

أحدها: أخص من الآخر أمة الأتباع.

ثم أمة. الإجابة ثم أمة الدعوة.

فالأولى أهل العمل الصالح والثانية مطلق المسلمين والثالثة من عداهم ممن بعث إليهم، ويمكن الجمع بأن القدر الزائد على الذى قبله هو مقدار الخثيات، فقد وقع عند أحمد من رواية قتادة عن النضر بن أنس أو غيره عن أنس رفعه «إن الله وعدنى أن يدخل الجنة من أمتى أربعمائة ألف»، فقال أبو بكر: زدنا يا رسول الله، فقال: هكذا وجمع

كفيه، فقال: زدنا. فقال وهكذا. فقال عمر حبسك أن الله إن شاء أدخل خلقه الجنة بكف واحدة، فقال النبي ﷺ: «صدق عمر»^(١) وسنده جيد لكن اختلف على قتادة في سنده اختلافاً كثيراً. ١. هـ.

سؤال: لماذا لم يذكر الرسول الله ﷺ هذه الزيادة ابتداءً وذكر هذه البشارة بعد هذا التدرج وهذه المرحلية؟

الجواب:

قال الفقير: السبعون ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ولكن يحتمل أن يكون بينهم وبين الزمرة الأولى حوالى خمسمائة سنة، فهم لا يعذبوا ووجبت لهم الجنة ورأوا مقاعدهم فيها، ونجو من النار، ولكنهم لن يدخلوا فى الأول، فأول زمرة كما ثبت فى الصحيح فى كتاب الرقاق: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر: سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب» وهم السابقون، كأبى بكر وعمر، ومن كان على شاكلتهم، ولكن هناك أناس سيدخلون الجنة حساباً أيضاً، والنبي ﷺ بشرهم، ولكن عملهم لا يساوى عمل أبى بكر وعمر، فهل هم سيدخلون الجنة مع أول زمرة؟!.

الجواب: لا. مثال: الرجل الذى أسلم فدعى إلى الجهاد فقال: ما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن أكل هذه الثمرات فرمى الثمرات، وحارب وقاتل وقتل، ودخل الجنة. فالنبي ﷺ ذكر أنه دخل الجنة، ولم يعمل خيراً قط، فبالله عليك، هذا هو النبي ﷺ بشره بالجنة، وإن قلنا لن يدخل النار ولا عذاب عليه ولا حساب، فهل هذا الرجل سيكون فى الزمرة الأولى مثل أبى بكر وعمر. صحيح أن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، والله يضاعف حتى يصير كأبى بكر وعمر؟! هذا لا يتصور. والشاهد على هذا من الحديث أن النبي ﷺ: «إني لأرجو أن يكون أدنى أمتى الحثيات» إذن فهناك درجة دنيا من الذين سيدخلون الجنة بغير حساب إذن أهل الإيمان تتفاوت درجاتهم «السابقون» «الأبرار»... وغيرهم، فهل هؤلاء كلهم يدخلون الجنة فى أن واحد؟

الجواب: لا، ليس من الممكن أن ينعم هذا مثل ذلك أبداً، ولكن فى النهاية كلهم سيدخلون الجنة، ولكن بحسب الدرجات، وإلا لم يكن النبى ﷺ يقول: «فقرأ أمتى سيدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عاماً».

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ١٦٥)، وابن أبى عاصم فى «السنن» (٥٩٠) وصححه الألبانى - رحمه الله - فى «ظلال الجنة».

فقد يقول قائل ولكنهم كلهم سيدخلون الجنة وليس هناك شيء فى أن ينتظر خمسمائة سنة؟ سبحانه الله!! هذا الانتظار فى حد ذاته عذاب.

ولكن هذا من كمال فضله وكمال عدله - عز وجل - تأخير هؤلاء وتقديم هؤلاء، فهذا من عدله تبارك وتعالى، ولهذا لم يذكر النبى ﷺ هذا التفضيل ابتداءً، بل ذكره بهذا التدرج لهذا التفاوت فى العمل ودرجات الآخرة. والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ (١):

قوله: (وعلى ربهم يتوكلون) ذكر الأصل الجامع الذى تفرعت عنه هذه الأفعال وهو التوكل على الله، وصدق الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه، الذى هو خلاصة التفريد، ونهاية تحقيق التوحيد الذى يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء، والرضى به رباً وإلهاً، والرضى بقضائه. بل ربما أوصل العبد إلى التلذذ بالبلاء، وعده من النعماء فسبحانه من يتفضل على من يشاء بما يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً كما يظنه الجهلة، فإن مباشرة الأسباب فى الجملة أمر فطرى ضرورى لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أى كافيه إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلأً على الله، كالاسترقاء، والاكتهاء فتركهم له ليس لكونه سبباً لكن لكونه سبباً مكروهاً، لاسيما المريض يتشبث بما يظنه سبباً لشفائه بخيط العنكبوت. أما نفس مباشرة الأسباب، والتداوى على وجه لا كراهية فيه، فغير قاذح فى التوكل؛ فلا يكون تركه مشروعاً.

كما فى «الصحيحين»: عن أبى هريرة مرفوعاً: «مَا أُنْزِلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أُنْزِلَ لَهُ شِفَاءٌ» (٢).

وعن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبى ﷺ وجاءت الأعراب، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أُنْتَدَاوَى؟ فَقَالَ: «نَعَمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوُوا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ

(١) تيسير العزيز الحميد: ٨٠ و ٨١.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٦٧٨).

وانظر «الطب النبوى» للذمى (٣٨٨) وفتح المجيد (ح ١١٧) بتحقيقنا.

شَفَاءٌ، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ» قالوا: مَا هُوَ؟ قال: «الْهَرَمَ» رواه أحمد^(١) قال ابن القيم: فقد تَصَمَّنَتْ هذه الْأَحَادِيثُ إثبات الأسباب والمسببات، وإبطال قول من أنكرها والأمر بالتداوي؛ وأنه لا ينافي التوكل كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً، وإن تعطيلها يقدح بمباشرته في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى من التوكل، فإنَّ تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه. ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للأمر والحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه تركلاً ولا توكله عجزاً. وقد اختلف العلماء في التداوي؛ هل هو مباح وتركه أفضل، أو مستحب أو واجب؟ فالمشهور عن أحمد الأول لهذا الحديث وما في معناه، ولكن على ما تقدم لا يتم الاستدلال به على ذلك؛ والمشهور عند الشافعي الثاني، حتى ذكر النووي في «شرح مسلم» أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف. واختاره الوزير أبو المظفر قال: ومذهب أبي حنيفة أنه مؤكد حتى يدانى به الوجوب قال: ومذهب مالك أنه يستوى فعله وتركه فإنه قال: لا بأس بالتداوي ولا بأس بتركه. وقال شيخ الإسلام: ليس بواجب عند جماهير الأئمة إنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد. أهـ

قال ابن عثيمين: فانتفاء هذه الأمور عنهم يدل على قوة توكلهم.

وهل هذه الأشياء تدل على أن من لم يتَّصف بها فهو مذموم، أو فاته الكمال؟
الجواب: أن الكمال فاته إلا بالنسبة للتطير؛ فإنه لا يجوز؛ لأنه ضرر وليس له حقيقة أصلاً.

أما بالنسبة لطلب العلاج؛ فالظاهر أنه مثله لأنه عام، وقد يقال: إنه لولا قوله: «ولا يسترقون»؛ قلت: إنه لا يدخل؛ لأنَّ الاكتواء ضرر محقق: إحراق بالنار، وألم للإنسان، ونفعه مرتجى، لكن كلمة «يسترقون» مشكلة؛ فالرقية ليس فيها ضرر، إن لم تنفع لم تضر، وهنا نقول: الدواء مثلها؛ لأنَّ الدواء إذا لم ينفع لم يضر، وقد يضر أيضاً؛ لأنَّ الإنسان إذا تناول دواء وليس فيه مرض لهذا الدواء فقد يضره.

(١) [صحيح] أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٨/٤)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والنسائي في «الكبرى» (٧٥٥٣).

وانظر «الطب النبوي» للذهبي (٣٩٠) وفتح المجيد (ح ١١٨) بتحقيقنا.

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث، وهل نقول مثلاً، ما تؤكّد منفعته إذا لم يكن فى الإنسان إذلال لنفسه؛ فهو لا يضر، أي: لا يفوت المرء الكمال به، مثل الكسر وقطع العضو مثلاً، أو كما يفعل الناس الآن فى الزائدة وغيرها.

ولو قال قائل بالاعتصار على ما فى هذا الحديث، وهو أنّهم لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون، وأنّ ما عدا ذلك لا يمنع من دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ للنصوص الواردة بالأمر بالتداوى والثناء على بعض الأدوية؛ كالعسل^(١) والحبة السوداء^(٢)؛ لكان له وجه^(٣).

● شبهات تشبه بالتوكل:

قال الفقير: فغلى هذا قوله «وعلى ربهم يتوكلون» جامع لهذه الخصال، «لا يكتون ولا يسترقون ولا يتطيرون» فالجامع لها «وعلى ربهم يتوكلون»، والتوكل على الله يتوقف على أن تفهم هذه الآية، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وبيننا شيئاً من صور التوكل من كلام ابن القيم، وهناك فى صور التوكل المرضى، وصور التوكل الذى اشتبه على الناس أنها توكل، منها: أنه يثق بالسبب، ولا استمرار السبب يكون ثقته بالسبب، وهو يعتقد أنه متوكل على الله، وذكر أن بعض السلف كان قد جاور زمزم فترة كبيرة حتى جاء له رجل، وقال له: رذا غارت زمزم فماذا ستفعل؟ فقال له: جزاك الله خيراً لقد كنت أعبد زمزم هذه الفترة.

فجلوسه جانب زمزم ليس ثقة فى الله، وإنما لأنه ماء زمزم، فهو واثق أنها لن تجف أو تغور، فثقته كانت فى استمرار السبب، لكن لو كان السبب هو، وظن أنه سينقطع فسيظهر لنا، أكان متوكلاً أم متواكلاً؟

مثال: الموظف كل يوم يقول: أنه متوكل على الله، ولكن هو نائم ومطمئن أنه آخر الشهر سوف يقبض الراتب، فالثقة والرضا فى السبب، وعدم انقطاعه، لكن لو كان هذا الرجل أرزقى، يخرج يتوكل على الله فى عمله، فهنا سوف يظهر، هل هو نائم مطمئن راضياً على الرزق، أم ساخط على الله سبحانه وتعالى؟

(١) تقدم تخريجه عن جابر، وابن عباس.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٦٨٨)، ومسلم فى السلام (١٤/٢٠١ - النووى) عن أبى هريرة.

وانظر «الطب النبوى» للذهبي (١٦٩ - بتخريجنا).

(٣) تقدم من كلام الشيخ سليمان.

ذكر ابن القيم في «مدارج السالكين»: صورة، وستأتي في باب «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا» **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**، ومن هذه الصور: العلم بحقيقة التوكل، فقد يظن أحدنا أنه نظراً لأنه علم حقيقة التوكل، فيظن أنه بذلك متوكل، مثلنا عندما عرفنا حقيقة التوحيد، وكيفية تحقيقه، فهل نحن بالعلم فقط حققنا التوحيد؟ لا، لأن العلم شيء، والتطبيق شيء آخر، فإياك أن تظن لأنك تعرف معنى التوكل أنك متوكل، لأن هذا العلم يستلزم عمل، فمن علم مثلاً أن الفاتحة - إذا كان يرى - أنها شرط في صحة الصلاة، ولم يأت بها، فهل تصح صلاته؟ لاتصح، فالعلم ليس له قيمة بدون العمل.

كذلك ذكرنا علامة التوكل الحقيقي، وعلامة التوكل الزائف.

علامة التوكل هو أن تأخذ بالأسباب مع عدم ثقتك بها، وإنما بمسبب الأسباب الذي وضع الحكم في هذه الأسباب، ففرق بين التفويض والأخذ بالأسباب. فالتفويض: هو عدم الثقة في السبب، تفويض الحول والقوة لله، وفيه خلط الناس فناس قالوا: لكى نفرض لن نأخذ بالأسباب، وهذا هو المتواكل، الذى قال فيه الإمام أحمد - رحمه الله: «رجل جهل العلم» وذلك عندما قيل له عن رجل قال: اجلس فى بيتى وسيأتينى رزقى».

وقد قال الرسول ﷺ: «وجعل رزقى تحت ظل رمحي» فليس هناك وظيفة أصعب من ذلك حيث كان متعرضاً للموت فى كل لحظة.

وذكر فى الطير التى هى كاملة التوكل قال ﷺ «تغدو خماصاً وتروح بطائناً» فذكر أنها تغدو، وتروح، وليس فى منازلها تجلس، ويأتى الرزق، فالتفويض أن تأخذ بالسبب ولا تثق فيه، وإذا فرطت ولم تأخذ بالسبب فأنت متواكل، فى حين أنه لو كان يجوز ترك السبب لأحد لجاز لنبينا ﷺ الذى كان يأخذ بالأسباب، وترك قوت سنة لأهله، وكان يحارب مخالفاً بين درعين فكان له درع، فلو جاز ترك السبب لأحد لجاز تركه لنبينا ﷺ، ولما أخذ به ﷺ كان ذلك كمال التفويض لله وثمره ذلك، الرضا عن الله بعد حصول النتائج، والدليل على ذلك حديث دعاء الاستخارة، وفيه التفويض لله بالعلم والقدر والحكمة، وفيه «واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به» فأياً كانت النتائج أرضنى بها يا رب.

وأيضاً إذا استرقى أو اكتوى شخص ما، وكانت قطعة الشفاء ثم لم يشف فماذا ستكون النتيجة؟ هل سيرضى أم سيسخط؟ إذا كان محسن سيرضى، كما فى حديث

أبى سعيد «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخى يشتكى بطنه ، فقال: اسقه عسلاً، ثم أتاه الثانية فقال: اسقه عسلاً، ثم أتاه الثالثة فقال: اسقه عسلاً، ثم أتاه فقال: فعلت، فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً فسقاه فبراً»^(١).

فعندما نفعل السبب، وثقتنا فى الله ولم يتم الأمر فصدق الله وكذبت أعضائنا ، وإنما إذا ما مرض شخص، وجاء له أخ، وقال: لا تأخذ هذا الدواء لأنه ظنى الشفاء وليس قطعى فتوكل على الله واتركه، فتركه وزاد الألم عليه، فيقول: سامحك الله لو كنت أخذ الدواء ، ولو ... ، ولو... ، وهنا دخل لو، ودخل عمل الشيطان، وهو الجزع وعدم الرضا، وذلك لأنه فى الأصل لم يتوكل على الله حتى تركه وكان صورة عدم توكله أنه لم يجتهد، وأخذ بالسبب الضعيف، وقال: أخذت بالسبب وفوضت أمرى لله، فهذا اشتباه ثالث، وصورة ثالثة من صور التوكل التى تعرض للمتوكلين الذين يظنون أنهم متوكلون.

مثال: الطالب الذى يفتح الكتاب نصف ساعة للمذاكرة، والأولى أن يذاكر عشر ساعات، ويقول: لقد أخذت بالسبب، فهذا سبب الكسالى، ويقول: لماذا لم أنجح؟ فهذا غير متوكل، ولكن التوكل كما فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز..» الحديث^(٢).

فالمؤمن النشيط فى الأخذ بالسبب القوى أحب لله من الضعيف الكسلان الذى يأخذ بالأسباب الضعيفة.

مثال: لو أن رجلاً يعمل (نقاشاً)^(٣)، فخرج متوكلاً على الله ، وذهب للعمل، ثم وجد أن الكهرباء انقطعت من محل العمل، فقال (بركة يا جامع)^(٤) ورجع.

أو أرسل مساعده فى العمل إلى المحل، لشراء أدوات العمل كالغراء أو غيرها، فوجد المحل مغلق ، فقال: نعمل غداً، فهذا غير متوكل، وفى الحقيقة إنما هو يريد أن ينام، والتوكل إنما هو أن يبحث هنا وهناك، ومجتهد حتى يأخذ بأقوى الأسباب ومثال آخر: شخص سائق سيارة، خرج للعمل وذهب يشغل السيارة فلم تتحرك، فرجع، فهذا توكل.

(١) [صحيح] البخارى مع الفتح (١٠/١٤٦ ح ٥٦٨٤).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم (٨/٤٦٦ ح ٢٦٦٤)، وانظر كتابى «قفوا الأثر فى شرح بلوغ المرام من

كلام ابن حجر».

(٣ - ٤) وضعنا هذه الألفاظ للتسهيل.

فهذه الأمور يشبهه على الناس، ولكن المتوكل الذى يطلب العون من الله، ولم يعجز، ويحاول بكل السبل حتى إذا فاتته شيء من الخير لا يقول: لو أننى فعلت كذا وكذا، فمثلاً: السائق الذى رجع ونام، لو اتصل به رجل ثري، وقال له: إننى كنت منتظرك توصلني، ففي هذه الحالة سيندم، ويقول: لو فعلت كذا وكذا فى السيارة وذهبت، كنت سأكسب كذا وكذا من المال، وربما يصاب بالجزع والضيق، وهو بذلك لم يكن متوكلاً، فالمتوكل لا ينظر للتأنيج، فهو راض بكل شيء، وهؤلاء المتوكلون حققوا التوحيد على أكمل وجهه، حيث تجده راضياً، لا تجده عليه غم ولا هم، ولا بؤس، ولذلك كان ابن تيمية - برغم أنه كان أكثر الناس فى زمانه بلاءً - حكى ابن القيم أنه كان لا يرى إلا مبتسماً، ويقول: كان إذا ضاقت بنا الدنيا ذهبنا ننظر فى وجهه، فيذهب ما أصابنا فى صدورنا.

● قوله: «فقام عكاشة بن محصن».

قال ابن حجر^(١): بضم المهملة وتشديد الكاف ويجوز تخفيفها يقال عكش الشعر ويعكش إذا التوى حكاه القرطبي، وحكى السهيلي أنه من عكش القوم إذا حمل عليهم وقيل العكاشة بالتخفيف العنكبوت، ويقال أيضاً لبيت النمل. ومحصن بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين ثم نون آخره هو ابن حراثن بضم المهملة وسكون الراء بعدها مثلة من بنى أسد بن خزيمه ومن حلفاء بنى أمية. كان عكاشة من السابقين إلى الإسلام وكان من أجل الرجال وكنيته أبو محصن وهاجر وشهد بدرًا وقاتل فيها، قال ابن إسحق بلغنى أن النبى ﷺ قال: «خير فارس فى العرب عكاشة» وقال أيضاً: قاتل يوم بدر قتلاً شديداً حتى انقطع سيفه فى يده فأعطاه رسول الله ﷺ جزلاً من حطب فقال «قاتل بهذا» فقاتل به فصار فى يده سيفاً طويلاً شديداً المتن أبيض فقاتل به حتى فتح الله فكان ذلك السيف عنده حتى استشهد فى قتال الردة مع خالد ابن الوليد سنة اثنتى عشرة^(٢) أھـ.

● قوله: «فقال ادع الله أن يجعلنى منهم».

قال ابن حجر^(٣): وعند البيهقى من طريق محمد بن زياد عنه - وساق مسلم سنده - قال «فدعا» ووقع فى رواية حصين بن غير ومحمد بن فضيل «قال: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال له: نعم» ويجمع بأنه سأل الدعاء أولاً فدعا له ثم استفهم قيل أجبت.

(٢) ذكره ابن الأثير فى «أسد الغابة» (٤/٦٨).

(١) الفتح ٤١٩/١١.

(٣) الفتح ٤١٩/١١.

● قوله: «فقال أنت منهم».

قال ابن عثيمين^(١): وقوله الرسول الله ﷺ هذا هل هو بوحي من الله إقرارى، أروحي إلهامى، أو وحي رسول؟

مثل هذه الأمور يحتمل أنها وحي إلهامى، أو بواسطة الرسول، أو وحي إقرارى بمعنى أن الرسول يقولها، فإذا أقره الله عليه؛ صارت وحيًا إقرارياً.

لكن رواية البخاري: «اللهم اجعله منهم» تدل على أن الجملة: «أنت منهم» خبر بمعنى الدعاء. أهـ

قوله: «ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلنى منهم».

قال ابن حجر^(٢): قوله: «ثم قام إليه رجل آخر».

(وقع فيه من الاختلاف هل قال «ادع لى» أو قال «أمنهم أنا» كما وقع فى الذى قبله. ووقع فى حديث أبى هريرة الذى بعده «رجل من الأنصار» وجاء من طريق واهية أنه سعد بن عبادة أخرجه الخطيب فى المبهمات» من طريق أبى حذيفة إسحق بن بشر البخارى أحد الضعفاء من طريقين له عن مجاهد أن رسول الله ﷺ لما انصرف من غزاة بنى المصطلق، فساق قصة طويلة وفيها أن النبى ﷺ قال: «أهل الجنة عشرون ومائة صف؛ ثمانون صفاً منها أمتى وأربعون صفاً سائر الأمم، ولى مع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب» «قيل من هم» فذكر الحديث، وفيه «فقال: اللهم اجعل عكاشة منهم، قال فاستشهد بعد ذلك. ثم قام سعد بن عبادة الأنصارى فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم» الحديث، وهذا مع ضعفه وإرساله يستبعد من جهة جلالة سعد بن عبادة، فإن كان محفوظاً فلعله آخر باسم سيد الخزرج واسم أبيه ونسبته، فإن فى الصحابة كذلك آخر له فى مسند بقرى بن مخلد حديث، وفى الصحابة سعد بن عمار الأنصارى فلعل اسم أبيه تحرف). أهـ.

● قوله: «سبقك بها عكاشة».

قال ابن حجر^(٣): اتفق جمهور الرواة على ذلك إلا ما وقع عند ابن أبى شيبه والبخاري وأبى يعلى من حديث أبى سعيد فزاد: فقام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلنى منهم وقال فى آخره: «سبقك بها عكاشة وصاحبه، أما لو قلت لقلت ولو قلت

(١) القول المفيد ١٢٩/١ - ١٣٠

(٢) الفتح ٤٢٠/١١

(٣) فتح البارى ٤٢٠/١١ و ٤٢١.

لوجبت^(١) وفي سنده عطية وهو ضعيف.

● الحكمة في قوله ﷺ: «سبقك بها عكاشة».

وقد اختلفت أجوبة العلماء في الحكمة في قوله: «سبقك عكاشة» فأخرج ابن الجوزي في «كشف المشكل» من طريق أبي عمر الزاهد أنه سأل أبا العباس أحمد بن يحيى المعروف بشعلب عن ذلك فقال: كان منافقاً، وكذا نقله الدارقطني عن القاضي أبي العباس البرقي بكسر الموحدة وسكون الراء بعدها مثناة فقال: كان الثاني منافقاً، وكان ﷺ لا يسأل في شيء إلا أعطاه، فأجابه بذلك. ونقل ابن عبد البر عن بعض أهل العلم نحو قول ثعلب، وقال ابن ناصر قول ثعلب أولى من رواية مجاهد لأن سندها واه واستبعد السهيلي قول ثعلب بما وقع في مسند البزار من وجه آخر عن أبي هريرة «فقام رجل من خيار المهاجرين» وسنده ضعيف جداً مع كونه مخالفاً لرواية الصحيح أنه من الأنصار.

وقال ابن بطلال: معنى قوله: «سبقك» أى إلى إحراز هذه الصفات وهى التوكل وعدم التطير وما ذكر معه، وعدل عن قوله: «لست منهم أو لست على أخلاقهم» تلطفاً بأصحابه ﷺ وحسن أدبه معهم.

وقال ابن الجوزي: «يظهر لى أن الأول سأل عن صدق قلب فأجيب، وأما الثانى فيحتمل أن يكون أريد به حسم المادة، فلو قال للثاني نعم لأوشك أن يقوم ثالث ورابع إلى ما لا نهاية وليس كل الناس يصلح لذلك.

وقال القرطبي: لم يكن عند الثانى من تلك الأحوال ما كان عند عكاشة، فلذلك لم يجب إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضراً فيتسلسل، فسد الباب بقوله ذلك، وهذا أولى من قول من قال كان منافقاً لوجهين:

أحدهما: أن الأصل فى الصحابة عدم النفاق فلا يثبت ما يخالف ذلك إلا بنقل صحيح.

والثانى: أنه قل أن يصدر مثل هذا السؤال إلا عن قصد صحيح ويقين بتصديق الرسول، وكيف يصدر ذلك من منافق؟ وإلى هذا جنح ابن تيمية. وصحح النووي أن النبى ﷺ علم بالوحي أنه يجاب فى عكاشة ولم يقع ذلك فى حق الآخر.

(١) ذكره الهيثمى فى «المجتمع» (٤٠٧/١٠) ونسبه للبزار وقال: وفيه عطية وهو ضعيف وقد وثقه ومحمود بن بكر له أعرفه.

فيه مسائل

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

وقال السهيلي: الذي عندي في هذا أنها كانت ساعة إجابة علمها ﷺ واتفق أن الرجل قال بعد ما انقضت، وبينه ما وقع في حديث أبي سعيد «ثم جلسوا ساعة يتحدثون» وفي رواية ابن إسحق بعد قوله سبقك بها عكاشة «وبردت الدعوة» أي انقضت وقتها.

قلت - أي ابن حجر: فتحصل لنا من كلام هؤلاء الأئمة على خمسة أجوبة والعلم عند الله تعالى. ثم وجدت لقول ثعلب ومن وافقه مستنداً وهو ما أخرجه الطبراني ومحمد بن سنجر في مسنده وعمر بن شبة في «أخبار المدينة» من طريق نافع مولى حمزة عن أم قيس بنت محصن وهي أخت عكاشة أنها «خرجت مع النبي ﷺ إلى البقيع فقال: يحشر من هذه المقبرة سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب كأن وجوههم القمر ليلة البدر، فقام رجل فقال: يا رسول الله، وأنا؟ قال وأنت. فقام آخر فقال أنا؟ قال: سبقك بها عكاشة قال قلت لها: لم لم يقل للآخر؟ فقالت: أراه كان منافقاً»^(١) فإن كان هذا أصل ما جزم به من قال كان منافقاً فلا يدفع تأويل غيره إذ ليس فيه إلا الظن. اهـ

قال ابن عثيمين (٢):

قوله: «فيه مسائل».

أي: في هذا الباب مسائل: قلت: أي فوائد.

● المسألة الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

وهذه مأخوذة من قوله: «يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» ثم قال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يكتون، ولا يتطيرون». اهـ

[قلت]: فائدة من الباب كله أن الناس منهم من حقق التوحيد فيدخل الجنة بغير حساب، ومنهم من لم يحققه كاملاً فيدخل الجنة بعد الحساب.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القول المفيد ١/ ١٣١ - ١٣٨.

الثانية: مَا مَعْنَى تَحْقِيقِهِ.

الثالثة: ثَنَاؤُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بِكَوْنِهِ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

الرابعة: ثَنَاؤُهُ عَلَى سَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ بِسَلَامَتِهِمْ مِنَ الشُّرْكِ.

● الثانية: ما معنى تحقيقه؟

أى: تحقيق التوحيد، وسبق لنا فى أول الباب أن تحقيقه: تخليصه من الشرك.
[قلت]: معنى تحقيقه: أن يأتى بالإيمان بشروطه مع انتفاء موانعه الشروط التى ذكره العلماء السبعة أو أكثر العلم، اليقين، الصدق، المحبة، الانقياد، الإخلاص، القبول.

فالعلماء عندما وضعوا هذه الشروط قالوا العلم المنافى للجهل، واليقين المنافى للشك، والصدق المنافى للجهل، والانقياد المنافى للإعراض، والقبول المنافى للرد والإخلاص المنافى للشرك.

فلماذا لم يقولوا المحبة المنافية للكره؟ وذلك لأن الله عز وجل لا يكره حتى الكافر لا يكره.

فلذلك قالوا المحبة المنافية لصددها كما قال الشاعر:

تعصى الإله وأنت تزعم حبه

وفيه: أن المحب لمن أحب مطيع.

فإذا أطاع الله أتى بما يضاد هذه المحبة.

فهذه هى الشروط النافعة عند الله تعالى.

● الثالثة: ثَنَاؤُهُ - سُبْحَانَهُ - عَلَى إِبْرَاهِيمَ بِكَوْنِهِ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

وهو ظاهر فى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١)؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَأَشْكُ أَنَّهَا سَبَقَتْ لِلثَّنَاءِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَإِذَا كَانَ مَنْطَا الثَّنَاءِ انْتِفَاءُ الشُّرْكِ عَنْهُ؛ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ انْتَفَى عَنْ الشُّرْكِ فَهُوَ مُحَلٌّ ثَنَاءٍ مِنَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قُلْتُ: وَمَنْ لَمْ يَنْتَفِ عَنْ الشُّرْكِ فَهُوَ مُحَلٌّ ذَمٍّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

● الرابعة: ثَنَاؤُهُ عَلَى سَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ بِسَلَامَتِهِمْ مِنَ الشُّرْكِ.

(٢) النحل: ١٢٠.

الخامسة: كَوْنُ تَرْكِ الرِّقَةِ وَالْكَيِّ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ.

السادسة: كَوْنُ الْجَامِعِ لِتِلْكَ الْخِصَالِ هُوَ التَّوَكُّلُ.

السابعة: عُمُقُ عِلْمِ الصَّحَابَةِ بِمَعْرِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا ذَلِكَ إِلَّا بِعَمَلٍ.

لقله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾، وهذه الآية فى سياق آيات كثيرة ابتدأها الله بقله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿١﴾؛ فهؤلاء هم سادات الأولياء، وكلام المؤلف من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، أى: الأولياء السادات، وليس يريد - رحمه الله - السادات من الأولياء، بل يريد الأولياء الذين هم سادات الخلق.

● الخامسة: كون ترك الرقية والكى من تحقيق التوحيد.

لقله: «الذين لا يسترقون ولا يكتون»؛ فالمراد بقل المؤلف: «الرقية والكى»: الاسترقاء والاكْتَوَاء. اهـ

[قلت: قوله: (كون ترك الرقية والكى من تحقيق التوحيد).

الدليل (لا يسترقون ولا يكتون) لكن الرقية التى تقدح فى كمال التوحيد على النحو الذى بيناه وهى الرقية والكى الظنية أو الضعيفة أو التى لم تتعين سبيلاً للشفاء- أما إذا تعينت وكانت سبباً قوياً فى الشفاء وأخذ بها المتوكل على الله ذلك علامة على قوة توكله.

● السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.

الجامع لتلك الخصال، والخصال هى: ترك الاسترقاء، وترك الاكْتَوَاء، وترك التطيُّر، يعنى أن العامل لهذه الأشياء هو قوة التوكل على الله - عز وجل -.

● السابعة: عمق علم الصحابة لمعرفة أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.

أى: لم ينل هؤلاء السبعون ألفاً هذا الثواب إلا بعمل، ووجهه أن الصحابة خاضوا فيمن يكون له هذا الثواب العظيم وذكروا أشياء اهـ.

الثامنة: حَرَصُهُمْ عَلَى الْخَيْرِ.

التاسعة: فَضِيلَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْكَمِّيَّةِ وَالْكَيفِيَّةِ.

العاشرة: فَضِيلَةُ أَصْحَابِ مُوسَى.

الحادية عشرة: عَرَضُ الْأَمَمِ عَلَيْهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -.

قلت: وهذه الأشياء القاسم المشترك بينها أنها عمل وعمل غير عادى مثل الشهادة أو السبق إلى الإسلام أو فى الإسلام، أو الصُّحبة، ... وهذا يدل على أنهم فهموا أنهم لن ينالوا ذلك إلا بعمل.

● الثامنة: حرصهم على الخير.

وجهه خوضهم فى هذا الشيء؛ لأنَّهم يريدون أن يصلوا إلى نتيجة حتى يقوموا بها. اهـ.

قلت: وأيضاً سؤالهم النبى أن يدعو لهم بهذه الدرجة.

● التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكميَّة والكيفيَّة.

أما الكمية؛ فلأن النبى ﷺ رأى سواداً عظيماً أعظم من السواد الذى كان مع موسى، وأما الكيفية؛ فلأن معهم هؤلاء الذين لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون. اهـ.

● العاشرة: فضيلة أصحاب موسى.

وهو مأخوذ من قوله: «إذ رفع لى سواد عظيم»، ولكن قد يقال: إنَّ التعبير بقول: كثرة أتباع موسى أنسب لدلالة الحديث؛ لأنَّ الحديث يقول: «سواد عظيم فظننت أنَّهم أمتى»، وهذا يدل على الكثرة. اهـ.

قلت: أى فضيلة أصحاب موسى فى الكم دون کیف.

● الحادية عشرة: عرض الأمم عليه - عليه الصلاة والسلام -.

وهذا له فائدتان.

الفائدة الأولى: تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث رأى من الأنبياء من ليس معه إلا الرجل والرجلان، ومن الأنبياء من ليس معه أحد؛ فيتسلى بذلك عليه الصلاة والسلام، ويقول: ﴿مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ﴾.

- الثانية عشرة: أَنْ كُلُّ أُمَّةٍ تُحْشَرُ وَحْدَهَا مَعَ نَبِيِّهَا.
- الثالثة عشرة: قَلَّةٌ مَنِ اسْتَجَابَ لِلْأَنْبِيَاءِ.
- الرابعة عشرة: أَنْ مَنْ لَمْ يَجِبْهُ أَحَدٌ يَأْتِ وَحْدَهُ.
- الخامسة عشرة: ثَمَرَةُ هَذَا الْعِلْمِ، وَهُوَ عَدَمُ الْاِغْتِرَارِ بِالكَثَرَةِ،

الفائدة الثانية: بيان فضيلته عليه الصلاة والسلام وشرفه، حيث كان أكثرهم أتباعاً وأفضلهم؛ فصار في عرض الأمم عليه هاتان الفائدةان. اهـ.

قلت : بل في ذات العرض تشريقاً له أيضاً.

● الثانية عشرة: أَنْ كُلُّ أُمَّةٍ تُحْشَرُ وَحْدَهَا مَعَ نَبِيِّهَا.

لقوله : «رَأَيْتَ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلَ وَالرَّجُلَانِ»، ولولا أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ مُمْتِيزٌ عَنِ النَّبِيِّ الْآخَرِ؛ لاختلط بعضهم ببعض، ولم يعرف الأتباع من غير الأتباع، ويدل على ذلك قوله سبحانه تعالى: ﴿وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ (١)؛ فإنه يدل على أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تَكُونُ وَحْدَهَا.

قلت : والأولى الاستدلال بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾. اهـ.

● الثالثة عشرة: قَلَّةٌ مَنِ اسْتَجَابَ لِلْأَنْبِيَاءِ.

وهو واضح من قوله: «وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلَ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ».

● الرابعة عشرة: أَنْ مَنْ لَمْ يَجِبْهُ أَحَدٌ يَأْتِ وَحْدَهُ.

لقوله: «وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ».

● الخامسة عشرة: ثَمَرَةُ هَذَا الْعِلْمِ، وَهُوَ عَدَمُ الْاِغْتِرَارِ بِالكَثَرَةِ.. إلخ.

فإنَّ الكثرة قد تكون ضللاً، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٢). اهـ.

(١) الجاثية: ٢٨.

(٢) المؤمنون: ٥٧ - ٦١.

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة.

السابعة عشرة: عمق علم السلف؛ لقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا»؛ فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

قلت: ولقوله تعالى ﴿وما أكثر الناس وحرصت بمؤمنين﴾ وقوله ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن جدنا أكثرهم لفاسقين﴾.

ثم ابن عثيمين: وأيضاً الكثرة من جهة أخرى إذا اغتر الإنسان بكثرته وظن أنه لن يغلب أو أنه منصور؛ فهذا أيضاً سبب للخذلان اهـ.

قلت: لقوله تعالى: ﴿ويوم نحين إذ أعجبكم كثرتم فلم تغنى عنكم من الله شيئاً﴾ ثم قال: فالكثرة إن نظرنا إلى أن أكثر أهل الأرض ضال لا تغتر بهم، فلا تقل: إن الناس على هذا، كيف أنفرد عنهم؟

كذلك أيضاً لا تغتر بالكثرة إذا كان معك أتباع كثيرون على الحق؛ فكلام المؤلف له وجهان.

الوجه الأول: أن لانغتر بكثرة الهالكين فنهلك معهم.

الوجه الثاني: أن لانغتر بكثرة الناجين فيلحقنا الإعجاب بالنفس وعدم الزهد في القلة، أى أن لا نزهد بالقلة؛ فقد تكون القلة خيراً من الكثرة.

● السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة.

مأخوذة من قوله: «لا رقية إلا من عين أو حمة». اهـ

قلت: وكأن المصنف يرى أن الأصل عدم الرقية لأن الرقص هي إباحة فعل حرام أو ترك واجب لسبب اقتضى ذلك (١).

● السابعة عشرة: عمق علم السلف؛ لقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا»؛ فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

لأن قوله: لا رقية إلا من عين أو حمة لا يخالف الثاني؛ لأن الثاني إنما هو في الاسترقاء، والأول في الرقية؛ فالإنسان إذا أتاه من يرقيه ولم يمنعه؛ فإنه لا ينافي قوله: «ولا يسترقون»؛ لأن هناك ثلاث مراتب:

(١) انظر حاشيتي على شرح الورقات ص ٥٧ ط نزار الباز.

الثامنة عشرة: بُعِدُ السَّلَفَ عَنْ مَدْحِ الْإِنْسَانِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ.
التاسعة عشرة: قَوْلُهُ (أَنْتَ مِنْهُمْ) عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ النَّبَوَّةِ.
العشرون: فَضِيلَةُ عُكَّاشَةٍ.

المرتبة الأولى: أن يطلب من يرقيه، وهذا قد فاته الكمال.
المرتبة الثانية: أن لا يمنع من يرقيه، وهذا لم يفته الكمال؛ لأنه لم يسترق ولم يطلب.
المرتبة الثالثة: أن يمنع من يرقيه، وهذا خلاف السنة؛ فإن النبي ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه^(١)، وكذلك الصحابة لم يمنعوها أحداً أن يرقيههم؛ لأنَّ هذا لا يؤثر في التوكُّل. اهـ.
قلت: لأنهم لم يختلفوا فدل ذلك على عمق علمهم لأن الخلاف أصله جهل أو هو^(٢).

● الثامنة عشرة: بُعِدُ السَّلَفَ عَنْ مَدْحِ الْإِنْسَانِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ.
يؤخذ من قوله: «أما إنى لم أكن فى صلاة ولكنى لدغت»؛ لأنه إذا كان رأى الكوكب الذى انقضى استلزم أن يكون يقظاناً، واليقظان: إما أن يُصلى، وإما أن يكون له شغل آخر، وإما يكون لديه مانع من النوم.

● التاسعة عشرة: قوله: «أنت منهم» علم من أعلام النبوة.
يعنى: دليلاً على نبوة الرسول ﷺ، وكيف ذلك؟ لأنَّ عُكَّاشَةَ بن محصن رضى الله عنه بقى محروساً من الكفر حتى مات على الإسلام، فيكون فى هذا علم، يعنى: دليلاً من دلائل نبوة الرسول ﷺ، هذا إذا قلنا: إنَّ الجملة خبرية وليست جملة دعائية، فإن قلنا: إنها جملة دعائية؛ فقد نقول أيضاً: فيه علم من أعلام النبوة، وهو أن الله استجاب دعوة الرسول ﷺ، لكن استجابة الدعوة ليست من خصائص الأنبياء؛ فقد تجاب دعوة من ليس بنبي، وحيث لا يمكن أن تكون علماً من أعلام النبوة إلا حيث جعلنا الجملة خبرية محضة.

● العشرون: فضيلة عُكَّاشَةٍ.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) مؤدى قول شيخ الإسلام وانظر «النكت الممتعة لمقدمة ابن تيمية» للمؤلف.

الحادية والعشرون: استعمال المعارض .

الثانية والعشرون: حُسْنُ خُلُقِهِ ﷺ

يكونه ممن يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهل نشهد له بذلك؟ نعم؛ لأنَّ الرسول ﷺ شهد له بها.

● الحادية والعشرون: استعمال المعارض.

وفي المعارض مندوحة عن الكذب، وذلك لقول الرسول ﷺ: «سبقك بها عكاشة»؛ فإن هذا في الحقيقة ليس هو المانع الحقيقي، بل المانع ما أشرنا إليه في الشرح: إما أن يكون هذا الرجل منافقاً فلم يُرد النبي ﷺ أن يجعله مع الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وإما خوفاً من انفتاح الباب؛ فيسأل هذه المرتبة من ليس من أهلها.

● الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ.

وذلك لأنه ردَّ هذا الرجل وسدَّ الباب على وجه ليس فيه غضاضة على أحد ولا كراهة.



باب ٣ الخوف من الشرك

- مناسبة هذا الباب للباين قبله: -

قال ابن عثيمين^(١): مناسبة هذا الباب للباين قبله.

فى الباب الأول ذكر المؤلف رحمه الله تحقيق التوحيد، وفى الباب الثانى ذكر أن من حق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث بهذا الباب رحمه الله تعالى، لأن الإنسان يرى أنه قد حقق التوحيد وهو لم يحققه، ولهذا قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسى على شىء مجاهدتها على الإخلاص».

قلت: وهو نظير قول سفيان الثورى: «ما عاجلت شيئاً أشدَّ علىَّ من نيتى» ثم قال ابن عثيمين: ذلك أن النفس متعلقة بالدنيا تريد حظوظها من مال أو جاة أو رئاسه وقد تريد بعمل الآخرة الدنيا، وهذا نقص فى الإخلاص، وقل من يكون غرضه الآخرة فى كل عمله، ولهذا أعقب المؤلف رحمه الله ما سبق من الباين بهذا الباب، وهو الخوف من الشرك. اهـ.

قال الفقير: لماذا أتى المصنف بهذا الباب بعد الأبواب السابقة؟

الجواب: لعدة فوائد منها

الفائدة الأولى: بعد أن بين التوحيد ورغب فيه رهب من ضده والدليل ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فقبل النذارة لابد من البشارة، وقبل الترهيب لابد من الترغيب؛ وذلك لقول الله تعالى؛ ولفعل الرسول، وكذلك كان هذا منهج الأمة سواء من الأمم السابقة أو من هذه الأمة حيث لم يتقدموا بعبادة لربهم إلا رغبة فيما عند الله من ثواب ورهبة من العقاب.. يقول الله تعالى فى وصف من قام بهذا المنهج من الموحدين ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

الفائدة الثانية: ولأنه بالضد تبين الضد، فلا يُعرف الخير إلا بالشر ولا يعرف الإسلام إلا بالجاهلية كما قال عمر. «لا ينقض الإسلام عروة عروة إلا من نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية». كيف ذلك؟

أى: إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الشرك والجاهلية. لذلك كان النبى ﷺ يحمد

(١) القول المفيد ١/ ١٣٩ و ١٤٠.

ذلك فى بعض أصحابه بل يقره على ذلك أن يعرف على الشر أو الجاهلية كما ثبت فى الصحيحين من حديث حذيفة «كان الناس يسألون الرسول ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى وفى رواية «كسى ما أعرفه فأنتقيه» فحينما تتعلم الشر أو تدرسه إنما لأمرين:-

كى تعرفه فتتقيه، أو حتى لا تقع فيه بجهل.

الفائدة الثالثة: هو أن تنكر لأنك لو لم تعرف الشر والجاهلية ربما ترض به ولا تنكره فأقل ما يقال عنك أنك ناقص الإيمان لأن النبى ﷺ قال «وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان». فلكى تنكر بالقلب - وهو أقل درجات الإنكار - فلا بد أن تعرف الشر فتكره أو تعرف فضائل التوحيد. والله أعلم.

- مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١):

لما كان الشر أعظم ذنب عصى الله به، ولهذا رتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه من إباحة دماء أهله وأموالهم وسبى نسائهم وأولادهم، وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه نبه المصنف بهذه الترجمة على أنه ينبغي للمؤمن أن يخاف منه ويحذره ويعرف أسبابه ومبادئه وأنواعه لئلا يقع فيه، ولهذا قال حذيفة: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه^(٢)؛ رواه البخارى وذلك أن من لم يعرف إلا الخير قد يأتيه الشر ولا يعرف أنه شر فاما أن يقع فيه، وإما أن لا ينكره كما ينكره الذى عرفه، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية.

قال شيخ الإسلام: وهو كما قال عمر فإن كمال الإسلام هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتماز ذلك بالجهاد فى سبيل الله، ومن نشأ فى المعروف فلم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عنده من علمه، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم؛ ولهذا يوجد الخير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه والجهاد لهم ما ليس عند غيره. ولهذا كان الصحابة أعظم إيماناً وجهاداً

(١) تيسير العزيز الحميد ٨٢ و ٨٣.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٠٨٤).

من بعدهم لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر لما علموه من حسن حال الإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي. اهـ.

قال حامد بن محمد بن حسن^(١): باب فى بيان ما يدل على أن الخوف من الشرك من لوازم المسلم.

وذلك لما كان الشرك أظلم الظلم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾^(٢).

وأنه أعظم الظلم قال تعالى عن لقمان فى وصيته لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. وفى الحديث وقد رواه الإمام أحمد والترمذى من حديث الحارث الأشعري عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد أن يطيء بها فقال له عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى أخشى إن سبقتنى بها أن يخسف بى أو أعذب، فجمع الناس فى بيت المقدس فامتلأ له المسجد وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم بهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن مثل من أشرك به كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال: هذه دارى وهذا عملى فاعمل وأدلى فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك الحديث^(٣).

فأى ظلم أعظم من أن يخلقك ربك من تراب ثم من نطقة ثم سواك رجلاً فى أحسن صورة ورزقك من كل نعمة ودفع عنك كل نقمة فتشكر غيره وتعبد غيره كما فى الحديث القدسي: «أنا والثقلين فى نأبأ عظيم أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري، خيري إليهم نازل، وشرهم إلى صاعد»^(٤) الحديث.

فالشرك أبح المنكرات وأعظم الذنب كما فى البخاري، قال رجل: يا رسول الله أى الذنب أعظم؟ وفى آخر: أكبر بدل أعظم، قال: «أن تدعو لله نداً وهو خلقك». قال ثم

(١) فتح الله الحميد المجيد ١٦٤ و ١٦٥.

(٢) الأحقاف: ٦، ٥.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ١٣٠، ٢٠٢) الترمذى (٢٨٦٣ و ٢٨٦٤).

(٤) تقدم تخريجه.

أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». ثم قال: أي؟ قال: «أن تزني» وفي رواية: «أن تزاني بحليلة جارك»^(٢) فأنزل الله تصديقها ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ ﴿(٣)﴾

وأنه أكبر الكبائر. في البخارى ثنا عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وشهادة الزور ثلاثاً أو قول الزور»^(٤). فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. وأنه أبغض المعاصى إليه تعالى وأكبرها عنده وأشد عقوبة ومقتاً.

قال ناصر السعدى^(٥): فإذا كان الشرك ينافى التوحيد ويوجب دخول النار والخلود فيها وحرمان الجنة إذا كان أكبر ولا تتحقق السعادة إلا بالسلامة منه كان حقاً على العبد أن يخاف منه أعظم خوف وأن يسعى فى الفرار منه ومن طرقه ووسائله وأسبابه ويسأل الله العافية منه كما فعل ذلك الأنبياء والأصفياء وخيار الخلق. وعلى العبد أن يجتهد فى تنمية الإخلاص فى قلبه وتقويته وذلك بكمال التعلق بالله تالهاً وإنابة وخوفاً ورجاءاً وطمعاً وقصداً لمرضاته وثوابه فى كل ما يفعله العبد وما يتركه من الأمور الظاهرة والباطنة فإن الإخلاص بطبيعته يدفع الشرك الأكبر والأصغر وكل من وقع منه نوع من الشرك فلضعف إخلاصه.

وقال نحوه الشيخ: عبد الله بن جار الله^(٦).



● شرح الترجمة:

قال ناصر السعدى: وهو - يعنى الشرك - نوعان: شرك أكبر جلبي، وشرك أصغر خفي.

(١) النساء: ٤٨.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الفرقان: ٦٨ - ٧٠.

(٤) تقدم تخريجه أيضاً.

(٥) الجامع الفريد (٢٥).

(٥) القول السديد ٢٥.

وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ

يَشَاءُ﴾^(١).

فأما الشرك الأكبر: فهو أن يجعل لله نداً يدعو كما يدعو الله أو يخافه أو يرجوه أو يحبه كحب الله، أو يصرف له نوعاً من أنواع العبادة فهذا الشرك لا يبقى مع صاحبه من التوحيد شيء وهذا الشرك الذي حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

ولا فرق في هذا بين أن يسمى تلك العبادة التي صرفها لغير الله عبادة أو يسميها توسلاً أو يسميها بغير ذلك من الأسماء فكل ذلك شرك أكبر لأن العبرة بحقائق الأشياء ومعانيها دون ألفاظها وعباراتها. وأما الشرك الأصغر: فهو جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها إلى الشرك كالغلو في المخلوق الذي لا يبلغ رتبة العبادة فالخلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك^(١) اهـ.

قال ابن باز: أى باب وجوب الخوف من الشرك فيجب على المؤمن أن يخاف من الشرك والمعاصي ويتعد عنها وخاصة الشرك ولا يأمن من ذلك على نفسه. والشرك هو تشريك غير الله في العبادة أياً كانت ولذلك سمي شركاً، والعبادة حق الله وحده^(٢) اهـ.



قوله [وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية]

● مناسبة الآية للباب:

قال عبد الله بن جار الله^(٣): مناسبة الآية للباب. أنها جاءت مخوفة ومحذرة من الشرك، وأبانت أن الله لا يغفر هذا النوع من المعاصي. اهـ

قال القرعاوى^(٤) مناسبة الآية للباب.

حيث دلت الآية الكريمة على أن الله لا يغفر الشرك لصاحبه، فأوجب ذلك الخوف منه والحذر اهـ.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

(١) القول السديد ٢٤ و ٢٥.

(٢) التعليق المفيد ٥٧.

(٣) الجامع الفريد ٢٦.

(٤) الجديد ٥٥.

قال صاحب الإعراب^(١): كلام مستأنف مسوق لبيان ما تستحيل المغفرة بدونه اهـ.
قال ابن عثيمين^(٢): لانا فيه: أن يشرك به: فعل مضارع مقرون بأن المصدرية فيحول إلى مصدر تقديره إن الله لا يغفر الإشراك به، أو لا يغفر إشراكاً به فالشرك لا يغفره الله أبداً، لأنه جناية على حق الله الخاص وهو التوحيد اهـ.

ثم قال صاحب الإعراب: وإن واسمها، وجملة لا يغفر خبرها وأن وما في حيزها مصدر مؤول في محل نصب مفعول به ليغفر وبه متعلقان بيشرك.

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الواو عاطفة ويغفر معطوف على المنفى فهو مثبت، والأحسن أن تكون استثنائية ويغفر مستأنف مرفوع دفعاً للالتباس، وما اسم موصول مفعول به ودون ظرف مكان متعلق بمنحذوف صلة الموصول وذلك مضاف إليه والاشارة للشرك المفهوم من يشرك ولمن متعلقان بيغفر وجملة يشاء لا محل لها لأنها صلة الموصول اهـ.

● تفسير القرآن بالقرآن:

قال الشنقيطي^(٣): ذكر في هذه الآية الكريمة أنه تعالى لا يغفر الإشراك به وأنه يغفر غير ذلك لمن يشاء وأن من أشرك به فقد افترى إثماً عظيماً.

وذكر في مواضع آخر: أن محل كونه لا يغفر الإشراك به إذا لم يتب المشرك من ذلك، فإن تاب غفر له كقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾^(٤) الآية فإن الاستثناء راجع لقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾^(٥) وما عطف عليه: لأن معنى الكل جمع في قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾^(٦) الآية. وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾^(٧) وذكر في موضع آخر: أن من أشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً عن الحق، وهو قوله في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ

(١) اعراب القرآن ٢/ ٢٣٣.

(٢) القول المفيد: (١/ ١٤٠).

(٣) أضواء البيان ١/ ٢٥٩ و ٢٦٠.

(٤) الفرقان: ٧٠.

(٥) الفرقان: ٦٨.

(٦) الفرقان: ٦٨.

(٧) الأنفال: ٣٨.

أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١﴾
 وصرح بأن من أشرك بالله فالجنة عليه حرام وماواه النار بقوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢) وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٣).

وذكر في موضع آخر: أن المشرك لا يرجى له خلاص، وهو قوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٤). وصرح في موضع آخر: بأن الإشراك ظلم عظيم بقوله عن لقمان مقررًا له: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٥).

وذكر في موضع آخر: أن الأمن التام والاهتداء، إنما هما لمن لم يلبس إيمانه بشرك، وهو قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٦) وقد صح عنه ﷺ أن معنى بظلم بشرك أ. هـ.

● ما جاء في سبب النزول:

وعن ابن عمر قال: «لما نزلت ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ...﴾ الآية. فقام رجل فقال: والشرك يا نبي الله؟ فكره ذلك النبي ﷺ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية (٧).

عن أبي مجلز قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ (٨) الآية. قام النبي ﷺ على المنبر فتلاها على الناس، فقام إليه رجل قال: والشرك بالله؟ فسكت

(١) النساء: ١١٦

(٢) المائدة: ٧٢.

(٣) الأعراف: ٥٠.

(٤) الحج: ٣١.

(٥) لقمان: ١٣.

(٦) الأنعام: ٨٢.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر» (٥٥٨/٢) ونسبه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

وانظر «فتح القدير» (٣٤٨٢) - بتخريجنا.

(٨) الزمر/ ٥٣.

مرتين أو ثلاثاً، فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فأثبتت هذه في الزمر وأثبتت هذه في النساء^(١).

● سبب النزول: -

●● قال البغوي^(٢): قال الكلبي: نزلت في وحشى بن حرب وأصحابه، وذلك أنه لما قتل حمزة، كان قد جعل له على قتله أن يعتق، فلم يوف له بذلك، فلما قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ إنا قد ندمنا على الذى صنعنا، وإنه ليس بمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناك تقول وأنت بمكة ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآيات، وقد دعونا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس الذى حرم الله، وزيننا، فلولا هذه الآيات لاتبعناك، فنزلت: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآيتين، فبعث بهما رسول الله ﷺ إليهم، فلما قرأوا كتبوا إليه إن هذا شرط شديد، نخاف أن ألا نعمل صالحاً، فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فبعث بها إليهم، فبعثوا إليه: إنا نخاف أن لا نكون من أهل المشيئة، فنزلت، ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، فبعث بها إليهم، فدخلوا فى الإسلام، ورجعوا إلى النبى ﷺ، فتقبل منهم. وذكر تمام الأثر^(٣). اهـ.

وقال فى الموضع الثانى: عن الضحاك عن ابن عباس: نزلت فى شيخ من الأعراب^(٤). فذكر قصته اهـ.

وكذلك ذكر ابن الجوزى^(٥): أن فى سبب نزولها هذين القولين.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لابن المنذر وانظر «فتح القدير» (٣٤٨٣ - بتحريجنا).

(٢) معالم التنزيل (٨٥/٢) (١٥٧/٢)، (١٥٨).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦٢٠/٥) وسبه للطبرانى وابن مردويه، والبيهقى فى «شعب الإيمان» بسند لين.

(٤) ذكره الحافظ فى تخريج الكشاف (٤٠٣) وقال هو منقطع ولم ينسبه لأحد.

(٥) زاد المسير (١٢١/٢).

وقال الرازي^(١) بعد أن ذكر قصة وحشى وأصحابه فى سبب النزول: -

وطعن القاضى فى هذه الرواية وقال إن من يريد الإيمان لا يجوز منه المراجعة على هذا الحد؛ ولأن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ لو كان على إطلاقه لكان ذلك إغراء لهم بالثبات على ما هم عليه.

والجواب عنه: لا يبعد أن يقال: إنهم استعظموا قتل حمزة وإيذاء الرسول إلى ذلك الحد، فوقعت الشبهة فى قلوبهم أن ذلك هل يغفر لهم أم لا، فلهذا المعنى حصلت المراجعة. وقوله هذا إغراء بالقيح، فهو إنه إنما يتم على مذهبه، أما على قولنا: إنه تعالى فعال لما يريد، فالسؤال ساقط والله أعلم. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من السنة: أولاً: بالمرفوع:

● وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «ما من عبد يموت لا يشرك بالله شيئاً إلا حلت له المغفرة، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، إن الله استثنى فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾»^(٢).

● عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجزه له، ومن وعده على عمل عقاباً فهو بالخيار»^(٣).

● عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «ذنب لا يغفر، وذنب لا يترك، وذنب يغفر. فاما الذى لا يغفر فالشرك بالله، وأما الذى يغفر فذنب بينه وبين الله عز وجل، وأما الذى لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً»^(٤).

● عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدواوين عند الله ثلاثة. ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله. فاما الديوان الذى لا يغفره الله فالشرك، قال الله ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾» وقال الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من

(١) التفسير الكبير (٥/٥/١٢٨).

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لآبى يعلى وابن أبى حاتم فانظر الأخير بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لآبى يعلى.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للطبرانى.

صوم يوم تركه، أو صلاة تركها، فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز عنه إن شاء، وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص لا محالة»^(١).

● وعن أبى ذر: قال أنيت رسول الله ﷺ فقال: «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: وإن زنى وإن سرق ثلاثاً، ثم قال فى الرابعة: على رغم أنف أبى ذر»^(٢).

● وعن أبى ذر عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقول: يا عبدى ما عبدتنى ورجوتنى فإنى غافر لك على ما كان فيك، ويا عبدى لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ما لم تشرك بى شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة»^(٣).

● وعن أبى ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات لا يعدل بالله شيئاً ثم كانت عليه من الذنوب مثل الرمال غفر له»^(٤).

● وعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة»^(٥).

● وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: من علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي، ما لم يشرك بى شيئاً»^(٦).

● وعن سلمة بن نعيم قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق».

● وعن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٤٠/٦)، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٦٦٤٣)، والحاكم فى «المستدرک» (٥٧٥/٤)، والبيهقى فى «الشعب» (٧٤٧٣).

وانظر «تفسيره» ابن أبى حاتم بتخریجنا.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٤٨٧) بنحوه، ومسلم فى الإيمان (١٥٤/٣٧١) وتقدم تخريجه.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣٠٣/٢) ونسبه لأحمد، وابن مردويه.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الوضع السابق ونسبه لابن مردويه.

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٧٩/٣) بإسناد ضعيف فيه عطية العوض.

(٦) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١١/٢٤١/١١٦١٥)، والحاكم فى «المستدرک» (٢٦٢/٤) وذكره

السيوطى فى «الدر» (٣٠٣/٢) وزاد نسبته للبيهقى فى «الأسماء والصفات».

وإن سرق؟! قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي الدرداء. قال: فخرجت لأنادى بها فى الناس، فلقينى عمر فقال: ارجع فان الناس إن علموا بهذه اتكلوا عليها. فرجعت، فأخبرته عليه السلام فقال: صدق عمر^(١).

وعن أبي أيوب الأنصارى قال: «جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: «إن لى ابن أخ لا ينتهى عن الحرام قال: وما دينه؟ قال: يصلى ويوحى الله. قال: استوهب منه دينه فإن أبى فابتعه منه. فطلب الرجل ذلك منه فأبى عليه، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال: وجدته شحيحاً على دينه. فتزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٢).

وعن ابن عمر قال: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وقال: انى أذخرت دعوتى شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى، فامسكنا عن كثير مما كان فى أنفسنا، ثم نطقنا بعد ورجونا^(٣).

● ثانياً: تفسير الآية بالموقوف:

وعن ابن عمر قال: كنا لا نشك فيمن أوجب الله له النار فى كتاب الله حتى نزلت علينا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فلما سمعنا هذا كففتنا عن الشهادة وأرجأنا الأمور إلى الله^(٤).

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٤٢/٦) بإسناد فيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٤/١٧٧/٤٠٦٣).

قال الهيثمى فى «المجمع» (٥/٧): وفيه واصل بن السائب وهو ضعيف

وانظر «فتح القدير» (٣٤٨٠ - بتخريجنا).

(٣) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥/٧) ونسبه لابی يعلى وقال: رجاله رجال الصحيح غير حرب بن

سريع وهو وثقة.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٣٠٢/٢) وزاد نسبه لابن الضريس، وابن المنذر، وابن عدى قال: نسبه

صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» (٣٠٢/٢) ونسبه إليه فانظره

بتخريجنا.

وعن ابن عمر قال: كنا معشر أصحاب النبي ﷺ لانشك في قاتل النفس، وآكل مال اليتيم، وشاهد الزور، وقاطع الرحم، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فامسكنا عن الشهادة (١).

وعن المعتمر بن سليمان بن عتبة البارقى قال: حدثنا إسماعيل بن ثوبان قال: شهدت في المسجد قبل الداء الأعظم، فسمعتهم يقولون ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا﴾ إلى آخر الآية فقال المهاجرون والأنصار: قد أوجب له النار. فلما نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ قالوا: ما شاء الله يصنع الله ما يشاء (٢).

وعن ابن عباس قال في هذه الآية: إن الله حرم المغفرة على من مات وهو كافر وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته فلم يؤيسهم من المغفرة (٣).

وعن علي قال: أحب آية إلى في القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٤).

● ثالثاً: تفسير الآية بأقوال التابعين ومن بعدهم:

وعن أبي الجوزاء قال: اختلفت إلى ابن عباس ثلاث عشرة سنة، فما من شيء من القرآن إلا سألته عنه، ورسولي يختلف إلى عائشة، فما سمعته ولا سمعت أحدا من العلماء يقول: إن الله يقول للذنوب لا أغفره (٥).

عن بكر بن عبد الله المزني: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ قال: ثنيا (٦) من ربنا على جميع القرآن (٦) ١. هـ

● ذكر ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين: -

(١) ذكره السيوطي في «الدر» في الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وابن أبي حاتم، والبرزاز فانظره في ابن أبي حاتم وتخريجنا.

(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (٣٠٢/٢) ونسبه لأبي داود في ناسخه وابن أبي حاتم.

وانظر «فتح القدير» (٣٤٨٤ - بتخريجنا).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٠٣٧) وقال: حسن غريب.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر» (٣٠٣/٢) ونسبه لابن جرير.

(٦) كذا في «الدر» وفي تفسير ابن أبي حاتم (تيننا). فانظره بتخريجنا.

● فائدة/ ما جاء في حكمة تكرار الآية مرتين، وفي سورة واحدة: -

قال الرازي^(١): اعلم أن هذه الآية مكررة في هذه السورة، وفي تكرارها فائدتان: الأولى: أن عمومات الوعيد وعمومات الوعد متعارضة في القرآن، وأنه تعالى ما أعاد آية من آيات الوعيد بلفظ واحد مرتين، وقد أعاد هذه الآية دالة على العفو والمغفرة بلفظ واحد في سورة واحدة. وقد اتفقوا على أنه لا فائدة في التكرير إلا التأكيد، فهذا يدل على أنه تعالى خص جانب الوعد والرحمة بمزيد التأكيد، وذلك يقتضى ترجيح الوعد على الوعيد.

والفائدة الثانية: أن الآيات المتقدمة إنما نزلت في سارق الدرع، وقوله ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ إلى آخر الآيات إنما نزلت في ارتداده، فهذه الآية إنما يحسن اتصالها لما قبلها لو كان المراد أن ذلك السارق لو لم يرتد لم يصير محروماً عن رحمتي، ولكنه لما ارتد وأشرك بالله صار محروماً قطعاً عن رحمة الله، ثم إنه أكد ذلك بأن شرح أن أمر الشرك عظيم عند الله فقال ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ يعنى ومن لم يشرك بالله لم يكن ضلاله بعيداً، فلا جرم لا يصير محروماً عن رحمتي، وهذه المناسبات دالة قطعاً على دلالة هذه الآية على أن ما سوى الشرك مغفور قطعاً سواء حصلت التوبة أو لم تحصل أهد.

قال الشوكاني^(٢): بمثل كلام الفخر الرازي.

قال الطبري: في الموضع الأول من سورة النساء: -

يعنى بذلك جلّ تناؤه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فإن الله لا يغفر الشرك به والكفر ويغفر مادون ذلك الشرك لمن يشاء من أهل الذنوب والآثام وإذ كان ذلك معنى الكلام فإن قوله: ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ في موضع نصب يوقع يغفر عليها وإن شئت بفقد الخافض الذى كان يخفضها لو كان ظاهراً وذلك أن يوجه معناه إلى أن الله لا يغفر بـ ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ على تأويل الجزاء كأنه قيل إن الله لا يغفر ذنباً مع شرك أو عن شرك وعلى هذا التأويل يتوجه أن تكون أن في موضع خفض في قول بعض أهل العربية.

(١) «التفسير الكبير» (٤٦/٥/٦).

(٢) فتح القدير (٦٠٨/١).

ثم قال: وقد أبانت هذه الآية أن كلَّ صاحب كبيرة ففى مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليها ما لم تكن كبيرته شركاً بالله اهـ.

وقال فى الموضع الثانى من سورة النساء: يعنى بذلك جل ثناؤه إن الله لا يغفر لطعمة - بن الابرق الذى أبى التوبة - إذا أشرك، ومات على شركه بالله، ولا لغيره من خلقه بشركهم وكفرهم به. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ من الذنوب ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ يعنى بذلك جل ثناؤه أن طعمة لولا أنه أشرك بالله ومات على شركه لكان فى مشيئة الله على ما سلف من خيائته ومعصيته. وكان إلى الله أمره فى عذابه والعفو عنه، وكذلك حكم كل من اجترم جرماً فإلى الله أمره إلا أن يكون جرماً شركاً بالله وكفراً فإنه ممن حتم عليه أنه من أهل النار. ثم ذكر أثر السدى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ يقول: من يجتنب الكبائر من المسلمين. اهـ (١).

قال ابن الجوزى (٢): والمراد من الآية: لا يغفر لمشرك مات على شركه. فى قوله (لمن يشاء) نعمة عظيمة من وجهين: [أحدهما] أنها تقتضى أن كل ميت على ذنب دون الشرك لا يقطع عليه بالعذاب، وإن مات مصرأ.

[والثانى] أن تعليقه بالمشيئة فيه نفع للمسلمين، وهو أن يكونوا على خوف وطمع. اهـ.

تقدم قول الطبرى فى حكم مرتكب الكبيرة فى الآية

وقال الفخر الرازى: هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على العفو عن أصحاب الكبائر. واعلم أن الاستدلال بها من وجوه:

[الوجه الأول]: أن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ معناه لا يغفر الشرك على سبيل التفضل لأنه بالاجماع لا يغفر على سبيل الوجوب، وذلك عندما يتوب المشرك عن شركه، فإذا كان قول: إن الله لا يغفر الشرك هو أنه لا يغفره على سبيل التفضل، وجب أن يكون قوله ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ هو أن يغفره على سبيل التفضل؛ حتى يكون النفى والإثبات متواردين على معنى واحد. ألا ترى أنه لو قال: فلان لا يعطى أحداً تفضلاً، ويعطى زائداً فإنه يفهم منه أنه يعطيه تفضلاً، حتى لو صرح وقال: لا يعطى أحداً شيئاً على سبيل التفضل ويعطى أزيد على سبيل الوجوب، فكل عاقل

(١) تفسير الطبرى ٤/ ٥/ ٨٠.

(٢) زاد المسير (٢/ ٦٣).

يحكم بركاة هذا الكلام، ثبت أن قوله ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ على سبيل التفضل.

إذا ثبت هذا فنقول: وجب أن يكون المراد منه أصحاب الكبائر قبل التوبة، لأن عند المعتزلة غفران الصغيرة وغفران الكبيرة بعد التوبة واجب عقلاً، فلا يمكن حمل الآية عليه، فإذا تقرر ذلك لم يبق إلا حمل الآية على غفران الكبيرة قبل التوبة وهو المطلوب.

[الثاني]: أنه تعالى قسم المنهيات على قسمين: الشرك وما سوى الشرك، ثم إن ما سوى الشرك يدخل فيه الكبيرة قبل التوبة، والكبيرة بعد التوبة والصغيرة، ثم حكم على الشرك بأنه غير مغفور قطعاً، وعلى ما سواه بأنه مغفور قطعاً، لكن في حق من يشاء، فصار تقدير الآية أنه تعالى يغفر كل ما سوى الشرك، لكن في حق من شاء. ولما دلت الآية على أن كل ما سوى الشرك مغفور، وجب أن تكون الكبيرة قبل التوبة أيضاً مغفورة.

[الثالث]: أنه تعالى قال: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فعلق هذا الغفران بالمشيئة، وغفران الكبيرة بعد التوبة وغفران الصغيرة مقطوع به، وغير معلق على المشيئة، فوجب أن يكون الغفران المذكور في هذه الآية هو غفران الكبيرة قبل التوبة وهو المطلوب، واعتراضوا على هذا الوجه الأخير بأن تعليق الأمر بالمشيئة لا يتنافى وجوبه، ألا ترى أنه تعالى قال بعد هذه الآية (بل الله يزكى من يشاء) ثم إنا نعلم أنه تعالى لا يزكى إلا من كان أهلاً للتزكية، وإلا كان كذباً، والكذب على الله محال، فكذب ههنا.

واعلم أنه ليس للمعتزلة على هذه الوجوه كلام يلتفت إليه إلا المعارضة بعمومات الوعيد، ونحن نعارضها بعمومات الوعد. وروى الواحدى فى «البيسط» بإسناده عن ابن عمر قال: كنا على عهد رسول الله ﷺ إذا مات الرجل منا على كبيرة شهدنا أنه من أهل النار، حتى نزلت هذه الآية فأمسكنا عن الشهادات^(١).

ثم قال الرازى: اعلم أن الله تعالى لما هدد اليهود على الكفر، وبين أن ذلك التهديد لا بد من وقوعه لا محالة بين أن مثل هذا التهديد من خواص الكفر، فأما سائر الذنوب التى هى مغايرة للكفر فليست حالها كذلك، بل هو سبحانه قد يعفو عنها، فلا جرم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

(١) «التفسير الكبير» (٥/٥/١٢٨ و ١٢٩).

* فائدة/ فى تسمية اليهودى النصرانى مشرك ودخولهما فى الشرك المذكور فى الآية:
قال الرازى^(١): هذه الآية دالة على أن اليهودى يسمى مشركاً فى عرف الشرع، ويدل
عليه وجهان: .

الأول: أن الآية دالة على أن ما سوى الشرك مغفور، فلو كانت اليهودية مغايرة
لشرك لوجب أن تكون مغفورة بحكم هذه الآية، وبالإجماع هى غير مغفورة، فدل على
أنها داخلية تحت اسم الشرك.

الثانى: أن اتصال هذه الآية بما قبلها إنما كان لأنها تتضمن تهديد اليهود، فلولا أن
اليهودية داخلية تحت اسم الشرك، وإلا لم يكن الأمر كذلك.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾
عطف المشرك على اليهودى، وذلك يقتضى المغايرة.

قلنا: المغايرة حاصلة بسبب المفهوم اللغوي، والاتحاد حاصل بسبب المفهوم الشرعي،
ولابد من المصير إلى ما ذكرناه دفعا للتناقض. إذا ثبتت هذه المقدمة فنقول: قال الشافعى
رضى الله عنه المسلم لا يقتل بالذمي، وقال أبو حنيفة: يقتل. حجة الشافعى أن الذمى
مشرك لما ذكرناه، والمشرك مباح الدم لقوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾. فكان الذمى
مباح الدم على الوجه الذى ذكرناه ومباح الدم هو الذى لا يجب القصاص على قاتله،
ولا يتوجه النهى عن قتله ترك العمل بهذا الدليل فى حق النهي، فوجب أن يبقى
معمولاً به فى سقوط القصاص عن قاتله. اهـ.

قال القرطبى^(٢): - قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾. وهذا من المحكم
المتفق عليه الذى لا اختلاف فيه بين الأمة. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من المتشابه
الذى قد تكلم العلماء فيه. قال محمد بن جرير الطبرى: قد أبانت هذه الآية أن كل
صاحب كبيرة ففى مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه ذنبه، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن
كبيرته شركاً بالله تعالى - تقدم ذكره.

وقال بعضهم: قد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ
عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾. فاعلم أنه يشاء أن يغفر الصغائر لمن اجتنب الكبائر ولا يغفرها لمن

(١) «التفسير الكبير» (٥/٥/١٢٨ و ١٢٩).

(٢) تفسير القرطبى (٣/١٨١٥).

أتى الكبائر. وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه الآية ناسخةٌ لتي في آخر «الفرقان». قال زيد ابن ثابت: نزلت سورة «النساء» بعد «الفرقان» بستة أشهر.

والصحيح أن لا نسخ؛ لأن النسخ في الأخبار يستحيل اهـ.

[قلت]: وأيضاً ودعوى النسخ لا تثبت إلا بدليل صريح.

قال في الموضع الثاني^(١): قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ رد على الخوارج حيث زعموا أن مرتكب الكبير كافر.

ثم قال: قال ابن فورك: وأجمع أصحابنا على أنه لا تخليد إلا للكافر وأن الفاسق من أهل القبلة إذا مات غير تائب فإنه إن عذب بالنار فلا محالة أنه يخرج منها بشفاعة الرسول، أو بإبتداء رحمة من الله تعالى. أ. هـ.

قال الشوكاني^(٢): قول ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ هذا الحكم يشمل جميع طوائف الكفار، من أهل الكتاب وغيرهم، ولا يختص بكفار أهل الحرب، لأن اليهود قالوا عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالوا: ثالث ثلاثة. أ. هـ.

[قلت]: ثم ذكر ماذكره الطبري في حكم صاحب الكبيرة إذامات ولم يتب منها.

● فائدة/ أيهما أرجى هذه الآية، أم آية (الزمر):

تابع ابن كثير من سبقه من المفسرين، وذكر في الموضع الأول للآية^(٣) جملة كبيرة من الأحاديث، ثم ذكر مقارنة بين الآية هذه، وبين آية تنزيل (الزمر) أيهما أرجى، فقال: هذه الآية التي في سورة تنزيل مشروطة بالتوبة، فمن تاب من أى ذنب، وإن تكرر منه تاب الله عليه، ولهذا قال ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ أى بشرط التوبة، ولولم يكن كذلك لدخل الشرك فيه، ولا يصح ذلك، لأنه تعالى قد حكم ههنا بأنه لا يغفر الشرك، وحكم بأنه يغفر ماعداه

(١) تفسير القرطبي (٣/١٩٥٦).

(٢) فتح القدير (١/٥٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير (١/٤٨١) - (١/٥٢٧).

لمن يشاء، أى ولم يتب صاحبه، فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه، والله أعلم
١.هـ.

فاطال ابن كثير فى الموضع الأول للآية، واختصر فى الموضع الثانى^(١) فى تفسيرها.

● ذكر أقوال شراح التوحيد فى الآية

قال ابن تيمية - رحمه الله^(٢)؛ «وأعظم الذنوب عند الله الشرك به، وهو - سبحانه - لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، والشرك منه جليل ودقيق وخفى وجلي».

وقال فى «الرد على البكري»^(٣) «وقد يقال : الشرك لا يغفر منه شيء لا أكبر ولا أصغر على مقتضى القرآن، وإن كان صاحب الشرك - أى : الأصغر - يموت مسلماً، لكن شركه لا يغفر له، بل يعاقب عليه وإن دخل بعد ذلك الجنة».

وقال ابن القيم : فى «إغاثة اللهفان»^(٤) : «فأما نجاسة الشرك؛ فهى نوعان : نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة؛ فالمغلظة: الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله، فإن الله لا يغفر أن يشرك به، والمخففة: الشرك الأصغر كيسير الرياء»^(*). ١.هـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٥) : فتبين بهذا أن الشرك أعظم الذنوب، لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره أى إلا بالتوبة منه، وماعداه فهو داخل تحت مشيئة الله إن شاء غفره بلاثوبة وإن شاء عذب به. وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا الذنب الذى هذا شأنه عند الله، وإنما كان كذلك لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم إذ مضمونه تنقيص رب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره، وعدل غيره به كما قال تعالى ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^(٦).

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٨١) - (١/ ٥٢٧).

(٢) جامع الرسائل (٢/ ٢٥٤).

(٣) (ص ١٤٦).

(٤) (١/ ٩٨).

(*) انظر حاشية القول المفيد (١/ ١٤٠، ١٤١).

(٥) انظر تيسير العزيز الحميد ٨٣ و ٨٤.

(٦) الأنعام: ١.

ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر مناف له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة
لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته والذل له، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم
إلا بذلك. فمتى خلا منه حرب وقامت القيامة.

كما قال ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ اللَّهُ اللَّهُ» (١) رواه مسلم. ولأن
الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية من ملك الضر
والنفع، والعطاء والمنع الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل وأنواع العبادة
كلها بالله وحده. فمن علق ذلك لمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه
ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فضلاً عن غيره شبيهاً بمن له الخلق كله، وله
الملك كله وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله. فأزمت الأمور كلها بيديه سبحانه،
ومرجعها إليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع،
الذي إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها وما يمك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز
الحكيم، فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات، ومن خصائص
الآلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، ولذلك
يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء
والإنابة والتوكل والتوبة والاستعانة وغاية الحب مع غاية الذل كل ذلك يجب عقلاً
وشرعاً وفطرة أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره، فمن فعل
شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثل له ولا ند له، وذلك
أقبح التشبيه وأبطله، فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه أنه لا يغفره مع أنه كتب على
نفسه الرحمة، هذا معنى كلام ابن القيم وفي الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب
وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يدخلون النار ولا بد، ولا يخرجون منها،
وهم أصحاب المتزلة بين المتزلتين.

وجه ذلك أن الله تعالى جعل مغفرة ما دون الشرك معلقة بالمشيئة، ولا يجوز أن
يحمل هذا على التأكيد، فإن التائب لا فرق في حقه بين الشرك وغيره كما قال تعالى في
الآية الأخرى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ (٢) فهنا عمم وأطلق، لأن المراد به التائب، وهناك خص وعلق لأن
المراد به ما لم يتب. قاله شيخ الإسلام. اهـ.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (١/٤٥٥/٢٣٤) أنس به.

وانظر فتح المجيد (ح ١٢٠) بتخریجنا).

(٢) الزمر (٥٣).

وينحو هذا القول قال عبد الرحمن آل الشيخ^(١).

قال حامد بن محمد بن حسن^(٢): واعلم أن الشرك أكبر وأصغر:

- فالأكبر: يحبط الأعمال كلها ويخرج الإنسان من إسلامه، قال الله تعالى خطاباً للنبي ﷺ وتبنيها لعبادة: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

- وأما الأصغر: فيحبط العمل الذي هو فيه؛ كالرياء والسمعة، وكثيراً ما يجرى في الإنسان إلا من عصمه الله وحماه نسأل الله حمايته من كل ما يكره. اهـ.

وقال عبد الله بن جابر الله^(٣): تفيد الآية أن الشرك أعظم الذنوب. اهـ.

وقال ابن باز^(٤): فيه - يعنى قوله الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ بيان عظم الشرك وخطورته أما الشرك فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٥): فالشرك لا يغفره الله أبداً، لانه جناية على حق الله الخاص وهو التوحيد.

أما المعاصي، كالزنا والسرقة، فقد يكون للإنسان فيها حظ نفس بما نال من شهوة، أما الشرك؛ فهو اعتداء على حق الله تعالى وليس للإنسان فيه حظ نفس، وليس شهوة يريد الإنسان أن ينال مراده، ولكنه ظلم، ولهذا قال الله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٦). اهـ.

هل المراد بالشرك هنا الأكبر أم مطلق الشرك؟

قال ابن عثيمين؟ قال بعض العلماء: إنه مطلق يشمل كل شرك ولو أصغر؛ كالحلف بغير الله، فإن الله لا يغفره، أما بالنسبة لكبائر الذنوب؛ كالسرقة، والخمر؛ فإنها تحت المشيئة، فقد يغفرها الله، وشيخ الإسلام ابن تيمية المحقق في هذه المسائل

(١) فتح المجيد (٩٣/١) وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/٤٧٥، ٤٧٦).

(٢) فتح الله الحميد المجيد (١٦٦). (٣) الجامع الفريد (٢٥).

(٤) التعليق المفيد (٤٧).

(٥) القول المفيد ١/ ١٤٠ و ١٤١.

(٦) لقمان (١٣).

.....
اختلف كلامه في هذه المسألة؛ فمرة قال: الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، ومرة قال: الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك الأكبر وعلى كل حال؛ فيجب الحذر من الشرك مطلقاً؛ لأنَّ العموم يحتمل أن يكون داخلاً فيه الأصغر؛ لأنَّ قوله: ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أن وما بعدها في تأويل مصدر، تقديره: إشراكاً به؛ فهو نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم (١). ١. هـ

قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾.

المراد بالدون هنا: ما هو أقل من الشرك، وليس ما سوى الشرك.

قال القرعاوي (٢): الفوائد (يعنى من الآية): -

(١) - من مات على الشرك الأكبر وجبت له النار.

(٢) من مات على التوحيد وعنده كبائر، فمغفرة ذنوبه تحت مشيئة الله سبحانه وتعالى.

(٣) في الآية رد على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب، وعلى المعتزلة الذين يرون تخليد صاحب الكبائر في النار.

(٤) إثبات صفة المشيئة.



(١) القول المفيد ١/ ١٤٠ و ١٤١.

(٢) الجديد (٥٥).

وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاجْتَنِبِي وَبَنِيَّ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (١).

- مناسبة الآية للباب وللتوحيد:

قال سليمان آل الشيخ (٢): فإذا كان إبراهيم - عليه السلام - يسأل الله أن يجنبه ويجنب بني عبادة الأصنام، فما ظنك بغيره؟. كما قال إبراهيم التيمي: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟! رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وهذا يوجب للقلب الحي أن يخاف من الشرك لا كما يقول الجهال: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة، ولهذا آمنوا الشرك فوقعوا فيه، وهذا وجه مناسبة الآية للترجمة.

وقال حامد بن محمد بن حسن (٣) أيضاً: واعلم أنه كلما زادت معرفة العبد بالله وعلمه به وبأحكامه وعقابه وثوابه كان خوفه أشد.

- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. ولما كان إمام الحنفاء إبراهيم ومحمد سيد المرسلين، أعلم الناس بالله، كان خوفهم أشد وأعظم وطلبهم من الله النجاة أكثر.

- قال الخليل عليه السلام ﴿وَاجْتَنِبِي وَبَنِيَّ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

- وقال ﷺ ﴿رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾.

- وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

- وقال سليمان: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ اهـ.

وقال عبد الله بن جابر الله (٤): مناسبتها للباب هي أنه إذا كان خليل الرحمن الذي كان يكسر الأصنام بيده اشتد خوفه على نفسه، وعلى بنييه من الشرك بسبب الافتتان بالأصنام فسأل الله له ولبنيه وقاية عبادتها فنحن أولى منه لضعف إيماننا. اهـ.

وقال ابن باز (٥): لأن سيد الأنبياء بعد نبينا كان يخاف من الشرك فوجب التأسي بهم، وأن نكون أولى بالخوف منهم اهـ.

(١) إبراهيم: ٣٥.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٨٥.

(٣) فتح الله الحميد المجيد (١٦٦).

(٤) الجامع الفريد (٢٦).

(٥) التعليق المفيد (٤٧، ٤٨).

وقال ابن عثيمين^(١): فإبراهيم عليه السلام يخاف الشرك على نفسه، وهو خليل الرحمن، وإمام الخفاء، فما بالك بنا نحن إذن؟! اهـ.

وبنحو ذلك قال القرعاوي^(٢): أن إبراهيم مع قوة إيمانه يخشى على نفسه وأبنائه من الشرك، فأوجب علينا ذلك أن نخاف منه من باب أولى اهـ.

قوله: [وقال الخليل عليه السلام ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ الآية]

الإعراب^(٣): «وأجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام».

وأجنبني فعل دعاء والنون للوقاية والياء مفعوله وبنيَّ عطف على الياء أو مفعول معه وأن نعبد أن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب يتزع الخافض كما قال الراغب أى عن أن نعبد والجار والمجرور متعلقان بأجنبني والأصنام مفعول به لتعبدته. اهـ.

● ماجاء في تفسير الآية بالقران:

قال الشنقيطي^(٤): لم يبين هنا هل أجاب دعاء نبيه إبراهيم هذا ولكنه بين في مواضع آخر أنه أجاب في بعض ذريته دون بعض كقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾^(٥) وقوله ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾^(٦) وروى بن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله - ﷺ - تلا قول إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٨) وقال عيسى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيْزُ الْحَكِيمُ﴾^(٩) ورفع يديه ثم قال: «اللهم أمتي»، وبكى. فقال الله تعالى: «يا جبرائيل اذهب إلى محمد وركب أعلم فاسأله ما ييكه» فاتاه جبرائيل فسأله، فأخبره رسول الله - ﷺ - ما قال. فقال الله: «يا جبرائيل؛ اذهب إلى محمد وقل له إنا سنرضيك في أمتك ولانسوك». اهـ.

(١) القول المفيد (١/١٤٢).

(٢) الجديد (٥٧).

(٣) إعراب القرآن ١٩٨/٥.

(٤) أضواء البيان ٨٣/٣.

(٥) الصافات: ١١٣.

(٦) الزخرف: ٢٨.

(٧) إبراهيم: ٣٦.

(٨) المائدة: ١١٨.

(٩) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» تفسير الطبري (١٣/ ١٥١ و ١٥٢)

● ماجاء فى تفسير الآية بالسنة:

أولاً: بالمرفوع

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى دعوت للعرب، فقلت: اللهم من لقيك منهم مؤمناً موقناً بك مصداقاً بلفائك، فاغفر له أيام حياته، وهى دعوة آيينا إبراهيم، ولواء الحمد بيدى يوم القيامة، ومن أقرب الناس إلى لوائى يومئذ العرب» (١).

● ثانياً: بأقوال السلف:

وعن مجاهد فى قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ قال: فاستجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام دعوته فى ولده، فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد دعوته، وجعل هذا البلد آمناً، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إماماً، وجعل من ذريته من يقيم الصلاة، وتقبل دعاءه، وأراه مناسكه وتاب عليه (٢).

وعن إبراهيم التيمى قال: ما يأمن البلاء بعد قول إبراهيم ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٣).

وعن سفيان بن عيينة قال: لم يعبد أحد من ولد إسماعيل الأصنام لقوله ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ قيل: فكيف لم يدخل ولد اسحق وسائر ولد إبراهيم؟ قال: لأنه دعا لأهل هذا البلد أن لا يعبدوا الأصنام ودعا لهم بالأمن. فقال: ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ ولم يدع لجميع البلدان بذلك. وقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ فيه وقد خص أهله وقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ (٤). اهـ (٥).

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين: -

- (١) ذكره السيوطي فى « الدر » (٤ / ١٦٠) ونسبة للحكيم الترمذي.
- (٢) ذكره السيوطي فى الدر (٥ / ٤٦) ونسبه لابن جرير
- (٣) إبراهيم: ٣٤. والأثر ذكره السيوطي فى « الدر فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير وابن ابى حاتم
- (٤) إبراهيم: ٣٧.
- (٥) ذكره السيوطي فى الدر (٥ / ٤٦).

● قوله (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا).

- قال الطبري^(١): يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمد إذ قال إبراهيم (رب اجعل هذا البلد آمناً) يعني الحرم ببلد آمناً أهله، وسكانه. اهـ.

- قال البغوي^(٢): (آمناً) ذا أمن يؤمن فيه. اهـ.

- وقال الزمخشري^(٣): بنحو ذلك.

- وقال ابن الجوزي^(٤): البلد: صدر القرى، والبالد: المقيم بالبلد، والبلدة: الصدر، ووضعت الناقة بلدتها: إذا بركت، والمراد بالبلد هاهنا مكة.

ومعنى (آمناً) ذا أمن، وأمن البلد مجاز، والمراد: أمن من فيه. وفي المراد بهذا الأمن ثلاثة أقوال: -

(أحدها) أنه سأله الأمن من القتل.

(الثاني) من الخسف والقذف.

(الثالث) من القحط والجذب. اهـ.

- وقال القرطبي^(٥): (آمناً) يعني مكة. اهـ كما قال الطبري.

- وقال ابن كثير^(٦): يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لاشريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه أهله تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ وقد استجاب الله له، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ الآية وقال: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾. اهـ.

قال الشوكاني^(٧): وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده؛ لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشيء آخذ من أمور الدين والدنيا. اهـ.

(١) تفسير الطبري (٥١/١٣/٧).

(٢) معالم التنزيل (٣٨٢/٣).

(٣) الكشاف (٣٠٤/٢).

(٤) زاد المسير (١٢٤/١، ١٢٥).

(٥) تفسير القرطبي (٣٥٩٧/٥).

(٦) تفسير ابن كثير (٥٢٢/٣).

(٧) فتح القدير (١١٣/٣).

[قلت] : وتقدم في الباب الذي قبل هذا أن الأمن وسيلة لا غاية في تحقيق العبادة والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة شعائر الله، ولا يكون أمن إلا بتمكين كما قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ فأنظر هذا الموضع في الباب السابق.

● ذكر الفخر الرازي مسألة تتعلق بالأمن فقال:

المسألة الثالثة: اختلفوا في الأمن المستول في هذه الآية على وجوه

(أحدها) سألته الأمن من القحط لأنه أسكن أهله بواد غير ذي زرع ولا ضرع .

(وثانيها) سألته الأمن من الخسف والمسخ .

(وثالثها) سألته الأمن من القتل وهو قول أبي بكر الرازي، واحتج عليه بأنه عليه السلام سألته الأمن أولاً، ثم سألته الرزق ثانياً، ولو كان الأمن المطلوب هو الأمن من القحط لكان سؤال الرزق بعده تكراراً فقال في هذه الآية ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وقال في آية أخرى ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ ثم قال في آخر القصة ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ إلى قوله ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ واعلم أن هذه الحجة ضعيفة فإن لقائل أن يقول: لعل الأمن المستول هو الأمن من الخسف والمسخ، أو لعله الأمن من القحط، ثم الأمن من القحط قد يكون بحصول ما يحتاج إليه من الأغذية وقد يكون بالتوسعة فيها فهو بالسؤال الأول طلب إزالة القحط وبالسؤال الثاني طلب التوسعة العظيمة.

المسألة الرابعة: اختلفوا في أن مكة هل كانت آمنة محرمة قبل دعوة إبراهيم عليه السلام أو إنما صارت كذلك بدعوته فقال قائلون: إنها كانت كذلك أبداً لقوله عليه السلام «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض». وأيضاً قال إبراهيم ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ وهذا يقتضي أنها كانت محرمة قبل ذلك، ثم إن إبراهيم عليه السلام أكد بهذا الدعاء، وقال آخرون: إنها إنما صارت حراماً آمناً بدعاء إبراهيم عليه السلام وقبلة كانت كسائر البلاد والدليل عليه قوله عليه السلام: «اللهم إني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة»

.....
والقول الثالث) إنها كانت حراماً قبل الدعوة بوجه غير الوجه الذي صارت به حراماً

بعد الدعوة

(فالأول) يمنع الله تعالى من الاصطلام وبما جعل في النفوس من التعظيم

(والثاني) بالأمر على السنة الرسل.

قوله (واجبني):

- قال الطبري^(١): يقال منه: جنبته الشر، فأنا أجنبه جنباً وجنبته تحجباً وأجنبته

ذلك فأنا أجنبه اجتناباً، ومن جنبت قول الشاعر:

وتنفض معهد شققاً عليه وتجنبه فلا يصحى الصعابا

ومعنى ذلك، أبعدي، وبني من عبادة الأصنام. اهـ.

- وكذا قال البغوي^(٢).

- وقال الزمخشري^(٣): وقرئ وأجنبني، وفيه ثلاث لغات: جنبه الشر، وجنبه

وأجنبه فأهل الحجاز يقولون جنبني شره بالتشديد، وأهل نجد: جنبني وأجنبني والمعنى

ثبتنا وأدمننا على اجتناب عبادتها. اهـ.

- وبنحوه قال ابن الجوزي^(٤)، وأما الفخر الرازي^(٥) فنقل ما قاله الزمخشري

نصاً: وتبعهم القرطبي^(٦) حيث قال: اجعلني جانباً عن عبادتها. اهـ.

● ما جاء فيها من كلام شراح التوحيد:-

- قال سليمان آل الشيخ^(٧): أى اجعلني وبني في جانب عن عبادة الأصنام،

وباعد بيني وبينها.

- وبنحوه قال باقي الشراح متابعين للمفسرين.

(١) تفسير الطبري (١٣/٧) / ١٥٠.

(٢) معالم التنزيل (٣/٣٨٣).

(٣) الكشف (٢/٣٠٤).

(٤) زاد المسير (٤/٢٧٨).

(٥) التفسير الكبير (١٠/١٣/١٣٩).

(٧) تفسير العزيز الحميد (٨٥).

(٦) تفسير القرطبي: (٥/٣٥٩٧).

قال ابن عثيمين^(١): (اجنبهى) أبلغ مما لو قال: امتنعنى، وبنى من عبادة الأوثان، لأنه إذا كان في جانب عنها كان أبعد. اهـ.
قوله: (وبنى).

- **قال الزمخشري^(٢):** أراد بنيه من صلبه، وسئل ابن عينة كيف عبدت العرب الأصنام فقال: ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنماً، واحتج بقوله: (واجنبى وبنى أن نعبد الأصنام). اهـ.

- **قال القرطبي^(٣):** بنيه من صلبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنماً، وقيل: هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له. اهـ.

- **قال ابن كثير^(٤):** ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولو الديه ولذريته. اهـ.

- **وقال الشوكاني^(٥):** قيل أراد بنيه من صلبه وكانوا ثمانية - كقول القرطبي - ، وقيل: أراد من كان موجوداً حال دعوته من بنيه، وقيل: أراد جميع ذريته ما تناسلوا، ويؤيد ذلك ما قيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنماً. اهـ.

وبنحو ذلك قال السعدي^(٦).

● **ما جاء فيها من كلام شراح التوحيد:**

- **قال سليمان آل الشيخ^(٧):** قيل أراد بذلك بنيه وبناته من صلبه، ولم يذكر البنات لدخولهم تبعاً فى البنين، وقد استجاب الله دعاءه...
ثم قال: وهذا يوجب للقلب الحي أن يخاف من الشرك. اهـ كما تقدم كلامه فى مناسبة الباب.

- **وباقى الشراح تابعوا المفسرين على هذا.**

- **وقال ابن عثيمين^(٨):** وقيل: المراد ذريته وما توالد من صلبه، وهو الأرجح؛ وذلك للآيات التى دلت على دعوته للناس من ذريته، ولكن كان من حكمة الله أن

(٢) الكشف (٢/٣٠٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/٥٢٢).

(١) القول المفيد (١/١٤٢).

(٣) تفسير القرطبي (٥/٣٥٩٧).

(٥) فتح القدير (٣/١١٣).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٢/٤٧١).

(٧) تيسير العزيز الحميد (٨٤ - ٨٥).

(٨) القول المفيد (١/١٤٢).

لا تهاب دعوته في بعضهم، كما أن الرسول ﷺ: دعا أن لا يجعل بأس أمته بينهم، فلم يجب الله دعاءه^(١).

وأيضاً يمنع من الأول - بنوه لصلبه - أن الآية بصيغة الجمع، وليس لإبراهيم من الأبناء سوى إسحاق وإسماعيل. اهـ.

وسيأتى تفصيل المسألة في الإشكال الأول.

قوله: (الأصنام).

● ماجاء فيها من كلام المفسرين.

- قال ابن جرير الطبري^(٢):-

والأصنام جمع صنم والصنم هو التمثال المصور كما قال رؤبة بن العجاج في صفة امرأة.

وهناة كالزون يجلى صنمه تضحك عن أشنب عذب ملثمه.

عن مجاهد «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ» قال: فاستجاب الله لإبراهيم دعوته في ولده قال: فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته^(٣).

والصنم التمثال المصور مالم يكن صنماً فهو وثن اهـ.

قال الزمخشري^(٤): إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم قالوا البيت حجر، فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت، فكانوا يدورون بذلك ويسمون الدوار، فاستحب أن يقال: طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت. اهـ.

- وذكر القرطبي^(٥) أثر إبراهيم التيمي المتقدم في أول تفسير الآية حيث قال: من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول: «وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ» كما عبدها أبى وقومى. اهـ.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الفتن (٩/ ١٩٠/ ٢٤٠) عن ثوبان.

(٢) «تفسير الطبري» (٧/ ١٣/ ١٥).

(٣) تقدم تخريجه قريباً

(٤) «الكشاف» (٢/ ٣٠٤).

(٥) «تفسير القرطبي» (٥/ ٣٥٩٧).

● ماجاء في تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد

- قال سليمان آل الشيخ(*) : الصنم : ما كان منحوتاً على صورة البشر . والوثن :

ما كان على غير ذلك . ذكره الطبري . اهـ . وتقدم المعنى

ثم قال : والظاهر أن الصنم ما كان مصوراً على أى صورة ، والوثن بخلافه كالحجر والبنية ، وإن كان الوثن قد يطلق على الصنم ، ذكر معناه غير واحد ، ويروى عن بعض السلف ما يدل عليه . اهـ .

وينحو من هذا قال عبد الله بن جابر الله (١) :

قال ابن باز (٢) : والمشركون كانوا أقساماً : منهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد غير الأصنام كالشجر والبحر والشمس والقمر ، وكلهم يجمعهم صرف العبادة لغير الله عز وجل ويطلق على الصنم وثن . اهـ .

قال ابن عثيمين (٣) : فإبراهيم عليه السلام يخاف الشرك على نفسه ، وهو خليل الرحمن وإمام الخنفاء ؛ فما بالك بنا نحن إذن ؟!

فلا تأمن الشرك ، ولا تأمن النفاق ، إذ لا يأمن النفاق إلا منافق ، ولا يخاف النفاق إلا مؤمن ، ولهذا قال ابن أبي مليكة : « أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ ، كلهم يخاف النفاق على نفسه » (٤) .

وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه خاف على نفسه النفاق ؛ فقال لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي أَسْرَ إليه النبي ﷺ بأسماء أناس من المنافقين ؛ فقال له عمر رضي الله عنه : « أنشدك الله ؛ هل سماني لك رسول الله ﷺ مع من سمى من المنافقين ؟ . فقال حذيفة رضي الله عنه : لا ، ولا أزكي بعدك أحداً » (٥) أراد عمر بذلك زيادة الطمأنينة ، وإلا فقد شهد له النبي ﷺ بالجنة .

ولا يقال : إن عمر رضي الله عنه أراد حث الناس على الخوف من النفاق ولم يخفه على نفسه ؛ لأن ذلك خلاف ظاهر اللفظ ، والأصل حمل اللفظ على ظاهره ، ومثل هذا

(*) تيسير العزيز الحميد

(١) الجامع الفريد (٢٦)

(٢) التعليق المفيد (٤٨) .

(٣) القول المفيد (١/ ١٤٢ و ١٤٣)

(٤) [معلق] علقه البخاري في الإيمان (١/ ١٣٥) الفتح

(٥)

القول يقول بعض العلماء فيما يضيفه النبي ﷺ إلى نفسه في بعض الأشياء، يقولون: هذا قصد به التعليم، وقصد به أن يبين لغيره، كما قيل: إن الرسول ﷺ لم يقل: رب اغفر لي لأن له ذنباً، ولكن لأجل أن يعلم الناس الاستغفار، وهذا خلاف الأصل، وقول بعضهم: إنه جهر بالذكر عقب الفريضة ليعلم الناس الذكر، لا لأن الجهر بذلك من السنة ونحو ذلك أه.

● إشكالات في الآية وأجوبتها: -

● اشكال أول وجوابه:

قال البغوي^(١): فإن قيل: قد كان إبراهيم معصوماً من عبادة الأصنام، فكيف يستقيم السؤال؟! وقد عبد كثير من بنيه الأصنام؟! فأين الإجابة؟!
الجواب: قيل: الدعاء في حق إبراهيم لزيادة العصمة والتثبيت، وأما دعاؤه لبنيه فأراد بنيه من صلبه، ولم يعبد منهم أحد الصنم.
وقيل: إن دعاءه لمن كان مؤمناً من بنيه. اهـ.

● وجعل الفخر الرازي هذا الاشكال من جزئين:

الأول: أن الأنبياء عليهم السلام لا يعبدون الوثن البتة، وإذا كان كذلك فما الفائدة في قوله ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

الثاني: أنه طلب من الله أن لا يجعل أبنائه من عبدة الأصنام والله تعالى لم يقبل دعاءه، ولأن كفار قريش كانوا من أولاده، مع أنهم كانوا يعبدون الأصنام.

فان قالوا: إنهم ما كانوا أبناء إبراهيم وإنما كانوا أبناء أبنائه، والدعاء مخصوص بالأبناء، فنقول: فإذا كان المراد من أولئك الأبناء أبنائه من صلبه، وهم ما كانوا إلا إسماعيل وإسحاق، وهما كانا من أكابر الأنبياء، وقد علم أن الأنبياء لا يعبدون الصنم، فقد عاد السؤال في أنه ما الفائدة في ذلك الدعاء؟

● الجواب: عن السؤال قال الزجاج: معناه ثبتني على اجتناب عبادتها كما قال ﴿وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ أي ثبتنا على الاسلام.

ولقائل أن يقول: السؤال باق لأنه لما كان من المعلوم أنه تعالى يثبت الأنبياء عليهم السلام على الاجتناب من عبادة الأصنام فما الفائدة في هذا السؤال؟

(١) «معالم التنزيل» (٣/ ٣٨٣).

والصحيح عندى في الجواب وجهان:

[الأول]: أنه عليه السلام وإن كان يعلم أنه تعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أن ذكر ذلك هضماً للنفس وإظهاراً للحاجة والفاقة إلى فضل الله في كل المطالب.

[والثاني]: أن الصوفية يقولون: إن الشرك نوعان: شرك جلي وهو الذي يقول به المشركون، وشرك خفي وهو تعليق القلب بالوسائط وبالأسباب الظاهرة. والتوحيد المحض هو أن ينقطع نظره عن الصوفية ولا يرى متصرفاً سوى الحق سبحانه وتعالى فيحتمل أن يكون قوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ المراد منه أن يعصمه عن هذا الشرك الخفي والله أعلم بمراده.

● والجواب عن السؤال الثاني من وجوه:

(الأول): قال صاحب الكشاف: قوله (وبني) أراد بنيه من صلبه والفائدة في هذا الدعاء عين الفائدة التي ذكرناها في قوله (واجنبي)

(والثاني) قال بعضهم أراد من أولاده وأولاد أولاده كل من كانوا موجودين حال الدعاء ولا شبهة أن دعوته مجابة فيهم.

(الثالث) قال مجاهد: لم يعبد أحد من ولد إبراهيم عليه السلام صنماً، والصنم هو التمثال المصور وما ليس بمصور فهو وثن. وكفار قريش ما عبدوا التمثال وإنما كانوا يعبدون أحجاراً مخصوصة وأشجاراً مخصوصة؛ وهذا الجواب ليس بقوي، لأنه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء إلا عبادة غير الله تعالى والحجر كالصنم في ذلك

(الرابع): أن هذا الدعاء مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال في آخر الآية ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه، ونظيره قوله تعالى لنوح: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾.

(والخامس): لعله وإن كان عموماً في الدعاء إلا أن الله تعالى أجاب دعاءه في حق البعض دون البعض وذلك لا يوجب تحقير الأنبياء عليهم السلام، ونظيره قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. اهـ.

● فائدة في الرد على المعتزلة:

قال الفخر الرازي: احتج أصحابنا بقوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ على

.....
أن الكفر والإيمان من الله تعالى، وتقرير الدليل أن إبراهيم عليه السلام طلب من الله أن يعجنه ويجنب أولاده من الكفر فدل ذلك على أن التباعد من الكفر والتقريب من الإيمان ليس إلا من الله تعالى، وقول المعتزلة إنه محمول على الألفاظ فاسد، لأنه عدول عن الظاهر.

● إشكال آخر وجوابه: أن إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يجعل مكة آمناً، وما قبل الله دعاءه، لأن جماعة خربوا الكعبة وأغاروا على مكة.

● والجواب عن السؤال من وجهين:

الأول: أنه نقل أنه عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة ذكر هذا الدعاء، والمراد منه: جعل تلك البلدة آمنة من الخراب.

والثاني: أن المراد جعل أهلها آمنين، كقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أى أهل القرية، وهذا الوجه عليه أكثر المفسرين: وعلى هذا التقدير فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: ما اختصت به مكة من حصول مزيد في الأمن، وهو أن الخائف كان إذا التجأ الى مكة أمن، وكان الناس مع شدة العدواة بينهم يتلاقون بمكة فلا يخاف بعضهم بعضاً، ومن ذلك أمن الوحش فإنهم يقربون من الناس إذا كانوا بمكة، ويكونون مستوحشين عن الناس خارج مكة، فهذا النوع من الأمن حاصل في مكة فوجب حمل الدعاء عليه.

والوجه الثاني: أن يكون من قوله: ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ أى بالأمر والحكم بجعله آمناً وذلك الأمر والحكم حاصل لا محالة.

● اشكال آخر وجوابه:

قال الزمخشري^(١): فإن قلت: أى فرق بين قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ وبين قوله: ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾؟

الإجابة: قلت: قد سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها ولا يخافون. وفى الثانى أن يخرج من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف فاجعله آمناً. اهـ.

(١) الكشاف (٢/ ٣٠٤).

وَفِي الْحَدِيثِ: «أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ» فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقَالَ:
«الرِّبَاءُ» (١).

وكذا قال الفخر الرازي (٢): إنما قال في هذه السورة ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ على التذكير وقال
في سورة إبراهيم ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ على التعريف لوجهين

(الأول) أن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلداً، كأنه قال: اجعل هذا
الوادي بلداً آمناً لأنه تعالى حكى عنه أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي
زَرْعٍ﴾ فقال: ههنا اجعل هذا الوادي بلداً آمناً، والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلداً،
فكانه قال: اجعل هذا المكان الذي صيرته بلداً ذا أمن وسلامة، كقولك: جعلت هذا
الرجل آمناً

(الثاني) أن تكون الدعوتان وقعتا بعدما صار المكان بلداً، فقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا
بَلَدًا آمِنًا﴾ تقديره: اجعل هذا البلد بلداً آمناً، كقولك: كان اليوم يوماً حاراً، وهذا إنما
تذكره للمبالغة في وصفه بالحرارة، لأن التذكير يدل على المبالغة، فقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ
هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ معناه: اجعله من البلدان الكاملة في الأمن، وأما قوله ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ
آمِنًا﴾ فليس فيه إلا طلب الأمن لا طلب المبالغة.



هكذا أورد المصنف هذا الحديث مختصراً غير معرف، وقد رواه الإمام أحمد
والطبراني، وابن أبي الدنيا، والبيهقي في «الزهد»، وهذا لفظ أحمد قال: حدثنا
يونس، ثنا ليث عن يزيد، يعني ابن الهاد، عن عمرو عن محمود بن ليث أن رسول الله
ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر
يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى
الذين كنتم تراؤن في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء».

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٢٨/٥)، والبيهقي في «الشعب» (٣٣٣/٥).
(٦٨٣١).

من طريق عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن عمرو بن أبي عمرو، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن
محمود به.

وأخرجه أحمد أيضاً في (٤٢٨/٥).

قال: حدثنا يونس، قال: ثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو عن محمود بن ليث به.

قال الهيثمي في «المجمع» (١٠٢/١): رجاله رجال الصحيح.

وزنظر «فتح المجيد» (١٢٣) بتخريجنا.

وأنظر كتابنا «فتو الأثر» شرح بلوغ المرام بكلام ابن حجر

(٢) التفسير الكبير (١٠/١٣/١٣٩) (٦٠/١/٢)

قال المنذري ومحمود بن لبيد رأى النبي ﷺ ولم يصح له منه سماع فيما أرى.
وذكر ابن أبي حاتم أن البخاري قال: له صحبة. قال: وقال أبي: لا تعرف له
صحبة.

ورجح ابن عبد البر والحافظ أن له صحبة وقال رجل: روايته عن الصحابة، وقد رواه
الطبراني بإسناد جيد عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج. وقيل إن حديث محمود
هو الصواب دون ذكر رافع.

مات محمود سنة ست وتسعين. وقيل: سنة سبع، وله تسع وتسعون سنة^(١) اهـ.

قوله: [وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم...» الحديث]

● مناسبة الحديث للباب:

[قلت] مناسبة ظاهرة، ومع ذلك فقد صرح بعض الشراح بذلك.

فقال عبد الله بن جابر الله^(٢): علاقة الحديث بالباب أنه إذا كان الشرك الأصغر
مخوفاً على الصحابة مع كمال إيمانهم فينبغي لك أيها المسلم أن تخاف من الأكبر
والأصغر لضعف الإيمان. اهـ.

قال القرعawy^(٣): حيث دلَّ الحديث على أن النبي ﷺ - يخاف على أصحابه
مع قوة إيمانهم؛ من الشرك الأصغر فنحن مع ضعف إيماننا وقلة معرفتنا يجب أن نخاف
من الشركين الأصغر والأكبر من باب أولى.

* كلام شراح التوحيد في الحديث:

● قوله: (وفي الحديث):

قال ابن عثيمين^(٤): الحديث: ما أضيف إلى الرسول.

والخبر: ما أضيف إليه وإلى غيره.

(١) تيسير العزيز الحميد (٨٥)

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٦).

(٣) الجديد (٥٦).

(٤) القول المفيد (١/١٤٤).

والأثر: ما أضيف إلى غير الرسول ﷺ؛ أي: إلى الصحابي فمن بعده، إلا إذا قُيدَ
فقيل: وفي الأثر عن رسول الله ﷺ؛ فيكون على ما قُيدَ به اهـ.

● قوله: (أخوف ما أخاف عليكم):

قال ابن عثيمين^(١): الخطاب للمسلمين؛ إذ المسلم هو الذي يُخاف عليه الشرك
الأصغر، وليس لجميع الناس. اهـ

قال القرعاوي^(٢): أي أشد شيئاً أخافه عليكم. اهـ.

قوله: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر).

قال سليمان آل الشيخ^(٣): هذا من رحمته ﷺ لأُمَّته وشفقته عليهم، وتحذيره مما
يخاف عليهم، فإنه ما من خير إلا دلهم عليه وأمر به، وما من شر إلا وأخبرهم به
وحذرهم عنه.

كما قال ﷺ فيما صح عنه: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ
عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ عَنْ شَرٍّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ»^(٤).

ولما كانت النفوس مجبولة على محبة الرياسة والمنزلة في قلوب الخلق إلا من سلم
الله، كان هذا أخوف ما يخاف على الصالحين، لقوة الداعي إلى ذلك، والمعصوم من
عصمه الله، وهذا بخلاف الداعي إلى الشرك الأكبر، فإنه إما معدوم في قلوب المؤمنين
الكاملين، ولهذا يكون الإلقاء في النار أسهل عندهم من الكفر. وإما ضعيف. هذا مع
العافية، وإما مع البلاء، فـ «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ». فلذلك صار خوفه ﷺ على أصحابه
من الرياء أشد لقوة الداعي وكثرته، دون الشرك الأكبر لما تقدم، مع أنه أخبر أنه لا بد
من وقوع عبادة الأوثان في أُمَّته، فدل على أنه ينبغي للإنسان أن يخاف على نفسه الشرك
الأكبر إذا كان الأصغر مخوفاً الصالحين من الصحابة مع كمال إيمانهم، فينبغي للإنسان
أن يخاف الأكبر لتقصان إيمانه ومعرفته بالله، فهذا وجه إيراد المصنف له هنا مع أن
الترجمة تشمل النوعين. اهـ.

(٢) الجديد (٥٧).

(١) القول المفيد (١/١٤٤)

(٣) تيسير العزيز الحميد (٨٥ - ٨٦).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (١٨٤٤).

وأنظر تمام تخريجه في «فتح المجيد» (١٢٦) بتخريجنا

وقال حامد بن محمد^(١): وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه يقول: «قال الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري فأنا بريء منه، وهو كله للذي أشرك»^(٢).

واعلم أن من حكمة الله وعدله يعامل الذي يقصد غيره في عمل أو قول بنقيض قصده، وذلك لأنه تعالى ينظر إلى العامل، فإن كان عمله لله خالصاً يجازيه به، وإن أشرك معه غيره يرجعه إذا خائباً خاسراً، قال تعالى: «وَعَنَتِ الرَّجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا»^(٣) وأيضاً يريد المرائي أن يعظم في أعين الناس بعمله أو قوله فيرائي الله به فيسقط من عين الله أولاً ثم من عيونهم.

وفي الحديث عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمع سمع الله به، ومن رأى رأى الله به»^(٤) أخرجاه في الصحيحين. اهـ.

قال السعدي^(٥) في قوله: (الشرك الأصغر) هو جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها إلى الشرك كالغلو في المخلوق الذي لا يبلغ رتبة العبادة كالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك. اهـ.

وسيأتي تفصيل ذلك وضوابط الشرك الأصغر وكذلك الأكبر في باب الرقي والتمايم.

● قوله: (فستل عنه؟ فقال الرياء):

قال ابن حجر^(٦): الرياء: بكسر الراء وتخفيف التحتانية والمد، وهو مشتق من الرؤية، والمراد به: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها. والسمعة: مشتقة من سمع، والمراد بها نحو ما في الرياء، لكنها تتعلق بحاسة السمع والرياء بحاسة البصر.

(١) فتح الله الحميد المجيد (١٦٧).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الزهد (٥٩٢/٢ - الحلبي) وأنظر «رياض الصالحين» (١٦١٩ - بتخريجنا). وتقدم تخريجه

(٣) طه: (١١١).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم في الزهد (١٨ / ١١٦ - النووي).

وأنظر «كتابنا فقه الخطابة». وأنظر «رياض الصالحين» (١٦٢٢ - بتخريجنا)

(٥) القول السديد (٢٤).

(٦) فتح الباري (٣٤٤/١١، ٣٤٥).

وقال الغزالي: المعنى طلب المتزلة في قلوب الناس؛ بأن يريهم الخصال المحمودة. والمرائي هو العامل

وقال ابن عبد السلام: الرياء: أن يعمل لغير الله. والسمعة: أن يخفى عمله لله، ثم يحدث به الناس.

ثم قال في شرح قوله ﷺ: «من سمع سمع الله به ومن يراى يراى الله به».

قال: ولابن المبارك في «الزهد» من حديث ابن مسعود: «من سمع سمع الله به، ومن يراى يراى الله به، ومن تطاول تعاضماً خفضه الله، ومن تواضع تخشعاً رفعه الله» (١).

وعند الطبراني من حديث جابر: «ومن كان ذا لسانين في الدنيا جعل الله له لسانين من نار يوم القيامة» (٢)

قال الخطابي: معناه من عمل عملاً على غير إخلاص، وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه؛ جوزى على ذلك بأن يشهر الله، ويفضحه، ويظهر ما كان يبطنه. وقيل: من قصد بعمله الجاه والمتزلة عند الناس، ولم يرد به وجه الله، فإن الله، يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المتزلة عندهم، ولا ثواب له في الآخرة.

ومعنى يرائي يطلعهم على أنه فعل ذلك لهم لا لوجهه

ومنه قوله تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ» إلى قوله: «مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» وقيل: المراد من قصد بعمله أن يسمعه الناس ويروه ليعظموه وتعلو منزلته عندهم حصل له ما قصد، وكان ذلك جزاء عمله، ولايات عليه في الآخرة.

وقيل: المعنى: من سمع بعيوب الناس وأذاعها أظهر الله عيوبه وسمعه المكروه.

وقيل: المعنى من نسب إلى نفسه عملاً صالحاً لم يفعله وادعى خيراً لم يصنعه فإن الله يفضحه ويظهر كذبه.

وقيل: المعنى من يرائي الناس بعمله أراه الله ثواب ذلك العمل وحرمة إياه.

وقيل معنى سمع الله به شهره، أو ملأ أسماع الناس بسوء الثناء عليه في الدنيا أو في القيامة بما ينطوى عليه خبث السريرة.

(١) بنحوه أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٤٠) عن ابن عمر .

(٢) الذي في الطبراني إنما هو عن أنس أخرجه في الأوسط (٨ / ٣٦٥ / ٨٨٨٥).

[قلت: - ابن حجر -] ورد في عدة أحاديث التصريح بوقوع ذلك في الآخر، فهو

المعتمد.

ثم قال: وفي الحديث استحباب إخفاء العمل الصالح، لكن قد يستحب إظهاره ممن يقتدى به على إرادته الاقتداء به، ويقدر ذلك بقدر الحاجة.

قال ابن عبد السلام: يستثنى من استحباب إخفاء العمل من يظهر ليقتدى به أو ليتتبع به ككتابة العلم، ومنه حديث سهل: «لتأتموني ولتعلموا صلاتي» قال الطبري: كان ابن عمر وابن مسعود وجماعة من السلف يتهجّدون في مساجدهم ويتظاهرون بحاسن أعمالهم ليقتدى بهم.

قال: فمن كان إماماً يستن بعمله عالماً بالله عليه قاهراً لشیطانه استوى ما ظهر من عمله وما خفى لصحة قصده، ومن كان بخلاف ذلك، فالإخفاء في حقه أفضل وعلى ذلك جرى عمل السلف اهـ.

- قال عبد الله بن جبار الله^(١): الرياء، مأخوذ من الرؤية، وهو أن يتظاهر الإنسان بالأعمال الصالحة ليحمده الناس، وخافه النبي ﷺ على أصحابه، لأنه أكثر موافقة للنفس ومحبة لها، وأسهل للتنفوذ إليها. اهـ.

- قال ابن باز^(٢): وله شواهد قوية - لهذا الحديث - تدل على وجوب الحذر من الرياء، وأنه خطير ويستلّ به الصلحاء، لأنه قد يرأى بصلاته وزكاته وأمره بالمعروف ونهية عن المنكر.

- قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «الرياء» مشتق من الرؤية مصدر رآه يرأى، والمصدر رياء؛ كقاتل يقاتل قتلاً.

والرياء: أن يعبد الله ليراه الناس فيمدحوه على كونه عابداً، وليس يريد أن تكون العبادة للناس؛ لأنه لو أراد ذلك؛ لكان شركاً أكبر، والظاهر أن هذا على سبيل التمثيل، وإلا؛ فقد يكون رياءً، وقد يكون سماعاً، أي يقصد بعبادته أن يسمعه الناس فيشروا عليه، فهذا داخل في الرياء فالتعبير بالراء من باب التعبير بالأغلب.

(١) الجامع الفريد (٢٧).

(٢) التعليق المفيد (٤٨).

(٣) القول المفيد (١/١٤٥، ١٤٦).

أماً إن أراد بعبادته أن يقتدي الناس به فيها؛ فليس هذا رياءً، بل هذا من الدعوة إلى الله - عز وجل -، والرسول ﷺ يقول: «فعلت هذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي»^(١).

والرياء ينقسم باعتبار إبطاله للعبادة إلى قسمين:

الأول: أن يكون في أصل العبادة، أي ما قام يتعبد إلأ للرياء؛ فهذا عمله باطل مردود عليه لحديث أبي هريرة في «الصحيح» مرفوعاً، قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غير تركته وشركه»^(٢).

الثاني: أن يكون الرياء طارئاً على العبادة، أي أصل العبادة لله، لكن طرأ عليها الرياء؛ فهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يدافعه؛ فهذا لا يضره.

مثاله: رجل صلى ركعة، ثم جاء أناس في الركعة الثانية، فحصل في قلبه شيء بأن أطال الركوع أو السجود أو تباكى وما أشبه ذلك، فإن دافعه؛ فإنه لا يضره لأنه قام بالجهاد.

وإن استرسل معه؛ فكل عمل ينشأ عن الرياء، فهو باطل؛ كما لو أطال القيام، أو الركوع، أو السجود، أو تباكى؛ فهذا كل عمله حابط، ولكن هل هذا البطان يمتد إلى جميع العبادة أم لا؟

نقول: لا يخلو هذا من حالين:

الحال الأول: أن يكون آخر العبادة مبنياً على أولها، بحيث لا يصح أولها مع فساد آخرها؛ فهذه كلها فاسدة.

وذلك مثل الصلاة؛ فالصلاة مثلاً لا يمكن أن يفسد آخرها ولا يفسد أولها، وحيث تبطل الصلاة كلها إذا طرأ الرياء في أثنائها ولم يدافعه.

الحال الثانية: أن يكون أول العبادة منفصلاً عن آخرها، بحيث يصح أولها دون آخرها، فما سبق الرياء؛ فهو صحيح، وما كان بعده؛ فهو باطل.

مثال ذلك: رجل عنده مئة ريال، فتصدق بخمسين بنية خالصة، ثم تصدق بخمسين بقصد الرياء؛ فالأولى مقبولة، والثانية غير مقبولة؛ لأن آخرها منفك عن أولها.

(١) [متفق عليه] أخرجه (٩١٧)، ومسلم في المساجد (٥ / ٢٣ - لنووي).

وأنظر «منار السبيل» (٦٠١ - بخريجتنا)

(٢) تقدم قريباً

فإن قيل: لو حدث الرياء في أثناء الوضوء؛ هل يلحق بالصلاة فيبطل كله، أو بالصدقة فيبطل ما حصل فيه الرياء فقط.

فالجواب: يحتمل هذا وهذا؛ فيلحق بالصلاة لأن الوضوء عبادة واحدة ينبنى بعضها على بعض، ليس تطهير كل عضو عبادة مستقلة، ويلحق بالصدقة لأنه ليس كالصلاة من كل وجه ولا الصدقة من كل وجه؛ لأننا إذا قلنا يبطلان ما حصل فيه الرياء. فأعاد تطهيره وحده لم يضر؛ لأن تكرار غسل العضو لا يبطل الوضوء ولو كان عمداً، بخلاف الصلاة؛ فإنه إذا كرر جزءاً منها كركوع أو سجود لغير سبب شرعي؛ بطلت صلاته، فلو أنه بعد أن غسل يديه رجع وغسل وجهه؛ لم يبطل وضوؤه، ولو أنه بعد أن سجد رجع وركع؛ لبطلت صلاته، والترتيب موجود في هذا وهذا، لكن الزيادة في الصلاة تبطلها، والزيادة في الوضوء لا تبطله، والرجوع مثلاً إلى الأعضاء الأولى لا يبطله أيضاً، وإن كان الرجوع في الحقيقة لا يعتبر وضوءاً لأنه غير شرعي، وربما يكون بالأولى غسل وجهه على أنه واحدة، ثم غسل يديه، ثم قال: الأحسن أن أكمل الثلاثة في الوجه أفضل، فغسل وجهه مرتين، وهو سرتب أي سيفعل يديه ثم وجهه؛ فوضؤه صحيح.

ولو ترك التسبيح ثلاث مرّات في الركوع، وبعدما سجد قال: فوت على نفسي فضيلةً، سأرجع لأجل أن أصبح ثلاثة مرّات؛ فتبطل صلاته؛ فالهمُّ أن هناك فرقاً بين الوضوء والصلاة، ومن أجل هذا الفرق لا أبت فيها الآن حتى أراجع وأتأمل إن شاء الله تعالى^(١). أهـ

[قلت]: وسيأتي في الباب الخامس والثلاثين (ما جاء في الرياء) فانظره.

(١) القول المتيد (١/١٤٥ : ١٤٨).

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نَدَاً دَخَلَ النَّارَ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١).

قوله: [وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من مات وهو يدعو من دون الله ندأً دخل النار]

هذا الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير باب: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله).

ولفظه: «عن عبد الله: قال النبي - ﷺ - كلمةً وقلت أخري: قال النبي - ﷺ - «من مات وهو يدعو من دون الله ندأً دخل النار» وقلت أنا: من مات وهو لا يدعو الله ندأً دخل الجنة». وأخرجه أيضاً في كتاب الجنائز/ باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله، ولفظه قال رسول الله ﷺ: «من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار» وقلت أنا من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة].

وأخرجه في كتاب الإيمان والنذور في باب إذا قال والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ أو سبح أو كبر أو حمد أو هلل فهو على نيته ولفظه ما ذكره في كتاب التفسير.

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوي: حيث دلّ الحديث على أن من مات وهو يدعو من دون الله ندأً دخل النار فأوجب ذلك أن نخاف من الشرك^(٢).

● قوله: (من).

قال ابن عثيمين: هذه شرطية تفيد العموم للذكر والأنثى^(٣).

● قوله: «من مات وهو يدعو من دون الله ندأً»

● الجمع بين ألفاظ الحديث.

في رواية للبخاري: (من مات يشرك بالله) قال ابن حجر: في رواية أبي حمزة عن

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري في «التفسير» / باب: «ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً» (٨/ ٢٥) ح ٤٤٩٧ وطرقه في (ح ١٢٣٨) ومسلم في «الإيمان» / باب: من مات لا يشرك بالله . . . (١/ ٣٦٩) ح ٩٢ بلفظ: «من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار». من حديث ابن مسعود.

وأخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٨٢، ٤٤٣، ٤٦٤)

وأنظر «فتح المجيد» (ح ١٢٨) بتخريجنا

(٢) الجديد ٦٠.

(٣) القول المقيّد ١/ ١٤٨.

الأعمش في تفسير البقرة: «من مات وهو يدعو من دون الله ندا» وفي أوله: «قال النبي ﷺ كلمة وقلت أنا أخرى»، ولم تختلف الروايات في الصحيحين في أن المرفوع الوعيد والموقوف الوعد. وزعم الحميدى في «الجمع» وتبعه مغلطى في شرحه ومن أخذ عنه أن في رواية مسلم من طريق وكيع وابن نمير بالعكس بلفظ: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، وقلت أنا من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار» وكأن سبب الوهم في ذلك ما وقع عند أبي عوانة والإسماعيلي من طريق وكيع بالعكس، لكن بين الإسماعيلي أن المحفوظ عن وكيع كما في البخارى، قال: وإنما المحفوظ أن الذى قلبه أبو عوانة وحده وبذلك جزم ابن خزيمة في صحيحه، والصواب رواية الجماعة، وكذلك أخرجه أحمد من طريق عاصم وابن خزيمة من طريق يسار وابن حبان من طريق المغيرة كلهم عن شقيق، وهذا هو الذى يقتضيه النظر لأن جانب الوعيد ثابت بالقرآن وجاءت السنة على وفقه فلا يحتاج إلى استنباط، بخلاف جانب الوعد فإنه في محل البحث إذ لا يصح حمله على ظاهره. وكان ابن مسعود لم يبلغه حديث جابر الذى أخرجه مسلم بلفظ «قيل: يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار»^(١).

وقال النووي: الجيد أن يقال سمع ابن مسعود اللفظتين من النبي ﷺ ولكنه في وقت حفظ إحدهما وتيقنها ولم يحفظ الأخرى فرفع المحفوظة وضم الأخرى إليها، وفي وقت بالعكس، قال: فهذا جمع بين روايتي ابن مسعود وموافقة لرواية غيره في رفع اللفظتين. انتهى.

وهذا الذى قال محتمل بلاشك، لكن فيه بعد مع اتحاد مخرج الحديث، فلو تعدد مخرجه إلى ابن مسعود لكان احتمالاً قريباً مع أنه يستغرب من انفراد راو من الرواة بذلك دون رفقة وشيخهم ومن فوقه، فنسبة السهو إلى شخص ليس بمعصوم أولى من هذا التعسف.

(فائدة) حكى الخطيب في «الدرج» أن أحمد بن عبد الجبار رواه عن أبي بكر بن عياش عن عاصم مرفوعاً كله وأنه وهم في ذلك.

وفي حديث ابن مسعود دلالة على أنه كان يقول بدليل الخطاب، ويحتمل أن يكون أثر ابن مسعود أخذه من ضرورة انحصار الجزاء في الجنة والنار.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (٢ / ٩٢ - النووي)

وأنظر «رياض الصالحين» (٤١٥ - بتخرجنا)

وفيه إطلاق الكلمة على الكلام الكثير^(١).

قال سليمان آل الشيخ: قال ابن القيم: الند: الشبه. يقال: فلان ند فلان ونديده، أي مثله انتهى.

وهذا كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلُومًا تَمَتَّعَ بِكُفْرِكُمْ لِقِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾^(٣) أي من مات وهو يدعو لله نداً، أي يجعل لله نداً فيما يختص به تعالى ويستحقه من الربوبية والإلهية دخل النار، لأنه مشرك، فإن الله تعالى هو المستحق للعبادة لذاته، لأنه المألوه المعبود الذي تأله القلوب وترغب إليه، وتفرغ إليه عند الشدائد، وما سواه فهو مفتقر إليه، مقهور بالعبودية له، تجري عليه أقداره وأحكامه طوعاً وكرهاً، فكيف يصلح أن يكون نداً؟ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾^(٤) وقال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾^(٥) الآيتان: وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٦) فبطل أن يكون له نديد من خلقه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٧).

واعلم أن دعاء الند على قسمين: أكبر وأصغر، فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو الشرك الأكبر. والأصغر كيسير الرياء، وقول الرجل ما شاء الله وشئت، ونحو ذلك.

فقد ثبت أن النبي ﷺ لما قال له رجل: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ. قَالَ: «أَجَعَلْتَنِي اللَّهُ نِدَاءً؟! بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَخَدَهُ»^(٨) رواه أحمد وابن أبي شيبة، والبخاري في «الأدب المفرد» والنسائي، وابن ماجه، وقد تقدم حكمه في باب فضل التوحيد^(٩).

- | | | |
|-----------------------|-----------------|---------------|
| (١) الفتح ٨/ ١٣٤. | (٢) البقرة: ٢٢. | (٣) الزمر: ٨. |
| (٤) الزخرف: ١٥. | (٥) مريم: ٩٣. | (٦) فاطر: ١٥. |
| (٧) المؤمنون: ٩١، ٩٢. | | |
| (٨) يتقدم تخريجه | | |

وأنظر تمام تخريجه أيضاً في «فتح المجيد» (ح ١٢٩) بتخريجنا
(٩) تيسير العزيز الحميد (٨٦ و ٨٧).

قال ابن عثيمين: قوله: «يدعون من دون الله ندًا».

أى: يتخذ الله ندًا سواء دعاه دعاء عبادة أم دعاء مسألة؛ لأنَّ الدعاء ينقسم إلى قسمين:

الأول: دعاء عبادة، مثاله: الصوم، والصلاة، وغير ذلك من العبادات، فإذا صلى الإنسان أو صام؛ فقد دعا ربه بلسان الحال أن يغفر له، وأن يجيره من عذابه، وأن يعطيه من نواله، وهذا في أصل الصلاة، كما أنَّها تتضمن الدعاء بلسان المقال.

ويدلُّ لهذا القسم قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ (١)؛ فجعل الدعاء عبادة، وهذا القسم كلُّه شرك، فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله؛ فقد كفر كفرًا مُخرجاً له عن الملَّة، فلو ركع لإنسان أو سجد لشيء يعظمه كتعظيم الله في هذا الركوع أو السجود؛ لكان مشركاً، ولهذا منع النبي ﷺ من الانحناء عند الملاقاة لما سئل عن الرجل يلقي أخاه أن ينحني له؟ قال: «لا» (٢).

خلافًا لما يفعله بعض الجهال إذا سلَّم عليك انحنى لك؛ فيجب على كلِّ مؤمن بالله أن ينكره؛ لأنَّه عظمك على حساب دينه.

الثاني: دعاء المسألة؛ فهذا ليس كلُّه شركاً، بل فيه تفصيل، فإن كان المخلوق قادراً على ذلك؛ فليس بشرك؛ كقولك: اسقني ماء لمن يستطيع ذلك. قال ﷺ: «من دعاكم فأجيبوه» (٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ (٤).

فإذا مدَّ الفقير يده، وقال: ارزقني؛ أى: أعطني؛ فهو جائز، كما قال تعالى: ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾، وأما إن دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله؛ فإنَّ دعوته شرك مخرج عن الملَّة.

مثال ذلك: أن تدعو إنساناً أن يُنزِّل الغيث معتقداً أنَّه قادر على ذلك.

(١) غافر آية: ٦٠.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٨/٣)، والترمذى [٢٧٢٨]، وابن ماجه (٣٧٠٢). قال الترمذى:

حديث حسن

وانظر «رياض الصالحين» (٨٩٠ - بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرج مسلم في النكاح (٢٣٦/٩ - النووى) عن أبى هريرة بلفظ «إذا دعى أحدكم

فليجب».

(٤) النساء: ٨.

والمراد بقول الرسول ﷺ: «من مات وهو يدعو لله ندّاً» المراد الندّ في العبادة، أما الندّ في المسألة، ففيه التفصيل السابق.

ومع الأسف؛ ففي بعض البلاد الإسلامية من يعتقد أن فلاناً المقبور الذي بقي جثة أو أكلته الأرض ينفع أو يضرّ، أو يأتي بالنّسل لمن لا يولد لها، وهذا - والعياذ بالله - شرك أكبر مُخرج من الملّة، وإقرار هذا أشد من إقرار شرب الخمر والزّنا واللواط، لأنّه إقرار على كفر، وليس إقراراً على فسوق فقط.

قوله: «دخل النار».

أي: خالداً، مع أن اللفظ لا يدلّ عليه؛ لأن دخل فعل، والفعل يدلّ على الإطلاق.

وأيضاً قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (١)، وإذا حرّمت الجنّة؛ لزم أن يكون خالداً في النار أبداً؛ فيجب أن نخاف من الشّرك ما دامت هذه عقوبته؛ فالشّرك خسر الآخرة؛ لأنّه في النار خالداً، وخسر الدنيا أيضاً؛ لأنّه لم يستفد منها شيئاً، وقامت عليه الحجة، وجاءه النذير، ولكنه خسر - والعياذ بالله -، ما استفاد شيئاً من الدنيا، قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا تَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ (٢)، وقال الله - عز وجل - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعِدُّ اللّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٤).

فخسر نفسه؛ لأنّه لم يستفد منها شيئاً، وخسر أهله؛ لأنّهم إن كانوا من المؤمنين فهم في الجنّة، فلا يتمتع بهم في الآخرة، وإن كانوا في النار فكذلك؛ لأنّه كلما دخلت أمة لعنت أختها، والشّرك خفي جداً؛ فقد يكون في الإنسان وهو لا يشعر إلا بعد المحاسبة الدقيقة، ولهذا قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص».

فالشّرك أمره صعب جداً ليس بالهين، ولكن يسر الله الإخلاص على العبد وذلك بأن يجعله الله نصب عينيه، فيقصد بعمله وجه الله لا يقصد مدح الناس أو ذمّهم أو

(١) المائدة آية: ٧٢.

(٢) فاطر: ٣٧.

(٣) الحج: ١١.

(٤) الزمر: ١٥.

وَلَمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ. وَمَنْ لَقِيَهِ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا؛ دَخَلَ النَّارَ) (١).

ثناءهم عليه، فالناس لا ينفعونه أبداً، حتى لو خرجوا معه لتشيع جنازته لم ينفعه إلا عمله، قال - ﷺ - يخرج مع الميت أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله».

وكذلك أيضاً من المهم أن الإنسان لا يفرحه أن يقبل الناس قوله لأنه قوله، لكن يفرحه أن يقبل الناس قوله إذا رأى أنه الحق لأنه الحق، لا أنه قوله: وكذا لا يحزنه أن يرفض الناس قوله لأنه قوله؛ لأنه حينئذ يكون قد دعا لنفسه، لكن يحزنه أن يرفضوه لأنه الحق، وبهذا يتحقق الإخلاص.

فالإخلاص صعب جداً. إلا أن الإنسان إذا كان متجهاً إلى الله اتجاهًا صادقاً سليماً على صراطٍ مستقيم؛ فإنَّ الله يعينه عليه ويسيره له (٢).



قوله : [ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: ... إلخ].

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوي (٣): حيث دلَّ الحديث الشريف على أن كل من مات على الشرك دخل النار فأوجب ذلك علينا أن نخاف من الشرك بجميع أنواعه.

● قوله: [ولمسلم عن جابر]

قال سليمان آل الشيخ (٤): جابر هو ابن عبد الله بن عمرو بن حرام - بمهملتين - الأنصاري ثم السلمي بفتحتين، صحابي جليل مكثر، ابن صحابي، له ولأبيه مناقب مشهورة رضي الله عنهما. مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كف بصره وله أربع وتسعون سنة.

● قوله: (من).

قال ابن عثيمين: شرطية تفيد العموم، وفعل الشرط: «لقي» وجوابه قوله: «دخل»

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في «الإيمان» / باب: من مات لا يشرك بالله (١/ ٣٧٠ / ح ٩٣) وأحمد في «مسنده» (٣/ ٣٢٥، ٣٤٥، ٣٧٤) وابن خزيمة في كتاب «التوحيد» (٣٦٢). من حديث جابر. وانظر «فتح المجيد» (ح ١٣٠) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ١/ ١٤٨: ١٥٢.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٨٧ و ٨٨.

(٣) الجديد ٦١.

الجنة» وهذا الدخول لا يتأفى أن يعذب بقدر ذنوبه إن كانت عليه ذنوب، لدلالة نصوص الوعيد على ذلك وهذا إن لم يغفر الله له؛ لانه داخل تحت المشيئة^(١).

● قوله [من لقي الله لا يشرك به شيئاً].

قال ابن عثيمين: قوله: «لا يشرك».

فى محل نصب على الحال من فاعل «لقي».

قوله: «شيئاً» نكرة فى سياق الشرط؛ فيعم أي شرك حتى ولو أشرك مع الله أشرف الخلق، وهو الرسول - ﷺ - دخل النار. فكيف بمن يجعل الرسول ﷺ أعظم من الله، فيلجأ إليه عند الشدائد ولا يلجأ إلى الله بل ربما يلجأ إلي ما دون الرسول ﷺ وهناك من لا يبالي بالحلف بالله صادقاً أم كاذباً، ولكن لا يحلف بقوميته إلا صادقاً، ولهذا اختلف فيمن لا يبالي بالحلف بالله، ولكنه لا يحلف بملته أو بما يعظمه الا صادقاً فلزمته يمين، هل يحلف بالله أو يحلف بهذا فقيل: يحلف بالله ولو كذب، ولانعان على الشرك، وهو الصحيح: وقيل: يحلف بغير الله؛ لأن المقصود الوصول إلى بيان الحقيقة، وهو إذا كان كاذباً لا يمكن أن يحلف، لكن نقول: إن كان صادقاً حلف وحصل الشرك^(٢). أهـ.

● مسألة:

هل يلزم من دخول النار الخلود لمن أشرك؟

قال ابن عثيمين: هذا بحسب الشرك، إن كان الشرك أصغر، فإنه لا يلزم من ذلك الخلود فى النار، وإن كان أكبر، فإنه يلزم منه الخلود فى النار.

لكن لو حملنا الحديث على الشرك الأكبر فى الموضعين فى قوله: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة»^(٣) وفى قوله: «ومن لقي الله يشرك به شيئاً دخل النار»^(٤) قلنا: من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، وإن عذب قبل الدخول فى النار بما يستحق، فيكون مآله إلى الجنة، ولا حاجة إلى أن نقول، ولننظر إلى النصوص الأخرى الدالة على أنه يُعذب، لأنه دخلها دخولاً مطلقاً مخلصاً، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار، ولا حاجة أن نقسم ونقول، دخولاً مطلقاً، أو مطلق دخول.

(١) القول المفيد ١/ ١٥٢.

(٢) القول المفيد ١/ ١٥٣.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

فيه مسائل

الأولى: الخوف من الشرك.

الثانية: أن الرياء من الشرك.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر.

أما إذا قسمنا الشرك إلى قسمين، أصغر وأكبر، فإننا أيضاً نقسم الدخول إلى قسمين دخول مطلق، ومطلق الدخول^(١). اهـ.

فيه مسائل:

● الأولى: الخوف من الشرك.

قال ابن عثيمين^(١):

لقلوه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ﴾، ولقلوه: ﴿وَأَجْنِبِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾^{أ.هـ.}

[قلت]: قوله (الخوف من الشرك) أتى بها المصنف من قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا...﴾ أى معصية تغفر إلا الشرك وكذلك عن قوله ﴿وَأَجْنِبِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

إذا كان إمام الحنفاء والموحدين خش على نفسه وبنيه من الشرك الأكبر الظاهر فمن باب أولى نحن نحاف على أنفسنا.

وكذلك قوله «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار» «ومن مات وهو يشرك بالله شيئاً دخل النار»

● الثانية: أن الرياء من الشرك.

لحديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». فسئل عنه فقال: «الرياء» وقد سبق بيان أحكامه بالنسبة إلى إبطال العبادة.

● الثالثة: أنه من الشرك الأصغر؛ لأن النبي ﷺ لما سئل عنه قال: «الرياء»، فسماه شركاً أصغر.

وهل يمكن أن يصل إلى الأكبر؟

ظاهر الحديث لا يمكن؛ لأنه قال: «الشرك الأصغر»، فسئل عنه؛ فقال: «الرياء».

(١) القول المفيد ١/ ١٥٤.

الرابعة: أَنَّهُ أَخَوْفُ مَا يُخَافُ مِنْهُ عَلَى الصَّالِحِينَ.

الخامسة: قُرْبُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

السادسة: الْجَمْعُ بَيْنَ قُرْبِهِمَا فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ.

السابعة: أَنَّهُ مَنْ لَقِيَهِ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ النَّارَ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ.

الثامنة: الْمَسْأَلَةُ الْعَظِيمَةُ سُؤَالُ الْخَلِيلِ لَهُ وَلِبْنِيهِ وَقَايَةُ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

لكن في عبارات ابن القيم رحمه الله - أنه إذا ذكر الشرك الأصغر قال: كيسيير الرياء؛ فهذا يدل على أن كثيره ليس من الأصغر، لكن إن أراد بالكمية؛ فنعم؛ لأنه لو كان يرثي في كل عمل لكان مشركاً شركاً أكبر لعدم وجود الإخلاص في عمل يعمله، أما إذا أراد الكيفية؛ فظاهر الحديث أنه أصغر مطلقاً أ.هـ.

[قلت]: وسيأتى في (باب: ما جاء في الرياء) تفصيلاً لما أجمل هنا في هذا الموضوع

● الرابعة: أَنَّهُ أَخَوْفُ مَا يُخَافُ مِنْهُ عَلَى الصَّالِحِينَ.

وتؤخذ من قوله: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، ولأنه قد يدخل في قلب الإنسان من غير شعور لحفائه وتطلع النفس إليه، فإن كثيراً من النفوس تحب أن تمتدح بالتعبد لله.

● الخامسة: قُرْبُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

لقوله: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً؛ دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً؛ دخل النار» أ.هـ. قلت: ويؤيده أيضاً قوله تعالى ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ الآية.

● السادسة: الْجَمْعُ بَيْنَ قُرْبِهِمَا فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ.

«من لقي الله لا يشرك به شيئاً...» الحديث.

● السابعة: أَنَّهُ مَنْ لَقِيَهِ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ النَّارَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ.

تؤخذ من العموم في قوله: «من لقي الله»؛ لأن «من» للعموم، لكن إن كان شركه أكبر؛ لم يدخل الجنة وإن كان أعبد الناس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾، وإن كان أصغر؛ عُدَّ بقدر ذنوبه ثم دخل الجنة. قلت: وعلي هذا فمقصد المصنف - رحمه الله - بقوله: «دخل النار» أي مخلد بغير خروج أو مؤقت ثم يخرج

● الثامنة: الْمَسْأَلَةُ الْعَظِيمَةُ سُؤَالُ الْخَلِيلِ لَهُ وَلِبْنِيهِ وَقَايَةُ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر؛ لقوله: ﴿رَبُّ إِنْهُمْ أَضَلَّنَا كَثِيرًا مِّنْ نَّاسٍ﴾ .
 العاشرة: فيه تفسير (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) كَمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ .
 الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ .
 [قلت]: فإذا كان خليل الله وأبر الأنبياء، وهو مع ذلك يخشى على نفسه، فنحن من باب أولى أن نخاف الشرك..

● التاسعة: اعتباره بحال الأكثر لقوله: ﴿رَبُّ إِنْهُمْ أَضَلَّنَا كَثِيرًا مِّنْ النَّاسِ﴾ .
 وفيه إشكال؛ إذ المؤلف يقول: بحال الأكثر، والآية: ﴿كَثِيرًا مِّنْ النَّاسِ﴾، وفرق بين كثير وأكثر، ولهذا قال تعالى في بني آدم: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(١)؛ فلم يقل على أكثر الخلق، ولا على الخلق؛ فالآدميون فضّلوا على كثير ممن خلق الله، وليسوا أكرم الخلق على الله، ولكنه كرمهم.

[قلت]: وتقدم الكلام على الأكثرية - في الباب الذي قبل هذا - أنها لا تدل على الحق، وأنها ليست في ذاتها حجة على الناس إنما الحجة قول الله وقول رسوله يفهم السلف الصالح، ولا تدل - الكثرة - على حق أو باطل، ولا تدل على صلاح ولا فساد المنهج، وتقدم في حديث السبعين ألف (وفيه): «والنبي وليس معه أحد» فانظره تجد فوائد جمة، والله الموفق للصواب.

● العاشر: فيه تفسير لا إله إلا الله كما ذكره البخاري.
 الظاهر أنها تؤخذ من جميع الباب؛ لأن لا إله إلا الله فيها نفي وإثبات أ.هـ.

[قلت]: وسيأتى تفسير الشهادتين
 ما يتعلق بها من أحكام في الباب الخامس.
 ● الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك.

لقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾، وقوله: ﴿مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا؛ دخل الجنة﴾. اهـ (٢).



(١) إبراهيم: ٣٦. (٢) الإسراء آية: ٧٠.

(٣) القول المفيد ١/ ١٥٥: ١٥٨.

٤ باب: الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

● ويحتوى على:-

- ١- مناسبة الباب لما قبله من الأبواب ولكتاب التوحيد.
- ٢- شرح الترجمة
- [٣] قول الله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ مناسبتها للباب، وتفسيرها، وكلام شراح التوحيد عليها.
- ٤- قوله: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ وذكر تفسيرها.
- ٥- شروط ومواصفات الداعي - الذى يدعوا على بصيرة.
- [٦] حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن ... الحديث.
- (١) مناسبتها للباب.
- (٢) فائدة قوله «فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله» من كلام شيخ الإسلام.
- (٣) شبهات لبعض الجماعات والرد عليها من كلام الحافظ قوله: «فليعرفوا الله».
- (٤) مسألة/ لماذا ذكر المصنف هذه الروايات (شهادة أن لا إله إلا الله) وفى رواية «إلى أن يوحدوا الله».
- (٥) فائدة/ حكم الدعوة إلى الله، وأدلة ذلك.
- (٦) إشكال/ عدم ذكر الصوم والحج فى حديث بعث معاذ، وجواب ذلك.
- [٧] حديث سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً... الحديث».
- (١) مناسبتها للباب.
- (٢) شرح ألفاظه
- (٣) فائدة/ اختصاص على - رضى الله عنه - بهذه البشارة.
- (٤) فائدة دعوية/ من قوله «انفذ على رسلك».
- (٥) فائدة دعوية/ من قوله «خير لك من حمر النعم».
- ٨- مسائل الباب



٤ باب: الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

● مناسبة الباب لما قبله من الأبواب ولكتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ: (١) لما بين المصنف - رحمه الله - الأمر الذي خلقت له الخليقة وفضله وهو التوحيد، وذكر الخوف من ضده الذي هو الشرك، وأنه يوجب لصاحبه الخلود في النار، نبه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه كما يظن الجهال؛ ويقولون: اعمل بالحق واترك الناس وما يعنيك من الناس، بل يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، كما كان ذلك شأن المرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين، وكما جرى للمصنف وأشباهه من أهل العلم والدين والصبر واليقين.

وإذا أراد الدعوة إلى ذلك، فليبدأ بالدعوة إلى التوحيد الذي هو معنى شهادة أن: لا إله إلا الله، إذ لاتصح الأعمال إلا به فهو أصلها الذي تبنى عليه، ومتى لم يوجد لم ينفع العمل بل هو حابط، إذ لاتصح العبادة مع الشرك، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِهِمْ خَالِدُونَ﴾ (٢).

وقال عبدالرحمن آل الشيخ (٣): بعد أن نقل قول سليمان آل الشيخ السابق: يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم، كما قال الحسن البصري لما تلا هذه الآية ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فقال: هذا حبيب الله هذا ولي الله، هذا صفة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله؛ أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال إنني من المسلمين. هذا خليفة الله. أهـ (٤).

قال ناصر السعدي: (٥) وهذا الترتيب الذي صنعه المؤلف في هذه الأبواب في غاية المناسبة فإنه ذكر في الأبواب السابقة وجوب التوحيد فضله والحث عليه وعلى تكميله والتحقيق به ظاهراً وباطناً والخوف من ضده وبذلك يكمل العبد نفسه.

(١) تيسير العزيز الحميد (٨٨ و٨٩).

(٢) سورة التوبة آية (١٧).

(٣) فتح المجيد (١/١٠١).

(٤) أخرجه ابن جرير (٧٥/٢٤).

(٥) القول السديد ٢٥ - ٢٩.

ثم ذكر في هذا الباب تكميله لغيره بالدعوة إلى شهادة (أن لا إله إلا الله) فإنه لا يتم التوحيد حتى يكمل العبد جميع مراتبه، ثم يسعى إلى تكميل غيره - وهذا هو طريق جميع الأنبياء - فإنهم أول ما يدعون قومهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له وهي طريقة سيدهم وإمامهم ﷺ لأنه قام بهذه الدعوة أعظم قيام ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن - لم يفتر ولم يضعف حتى أقام الله به الدين وهدى به الخلق العظيم ووصل دينه ببركة دعوته إلى مشارق الأرض ومغاربها - وكان يدعو بنفسه ويأمر رسله وأتباعه أن يدعوا إلى الله وإلى توحيدهِ قبل كل شيء لأن جميع الأعمال متوقفة في صحتها وقبولها على التوحيد.

فكما أن على العبد أن يقوم بتوحيد الله فعليه أن يدعو العباد إلى الله بالتي هي أحسن - وكل من اهتدى على يديه فله مثل أجورهم من غير أن يتقص من أجورهم شيء.

وإذا كانت الدعوة إلى الله، وإلى شهادة أن لا إله إلا الله فرضاً على كل أحد كان من الواجب على كل أحد بحسب مقدوره.

فعلى العالم من بيان ذلك والدعوة والإرشاد والهداية أعظم مما على غيره من ليس بعالم.

وعلى القادر بيده ويده أو ماله أو جاهه وقوله أعظم مما على من ليست له تلك القدرة.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ورحم الله من أعان على الدين ولو بشطر كلمة - وإنما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين أهـ.

قال عبد الله بن جابر الله: (١) لما ذكر المؤلف رحمه الله وجوب التوحيد وفضله وما يوجب الخوف من ضده نبه بهذا الباب على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم. أهـ.

قال ابن عثيمين (٢): هذا الترتيب الذي ذكره المؤلف من أحسن ما يكون؛ لأنه لما ذكر توحيد الإنسان بنفسه ذكر دعوة غيره إلى ذلك؛ لأنه لا يتم الإيمان إلا إذا دعا إلى

(١) الجامع الفريد (٢٩)

(٢) القول المفيد (١/١٥٩).

التوحيد، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ (١).

فلابد مع التوحيد من الدعوة إليه، وإلا؛ كان ناقصاً، ولاريب أن هذا الذى سلك سبيل التوحيد لم يسلكه إلا وهو يرى أنه أفضل سبيل، وإذا كان صادقاً فى اعتقاده؛ فلا بد أن يكون داعياً إليه، والدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله من تمام التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به.

قال الفقير: فبعد أن بين المصنف فى أول الكتاب معنى التوحيد، وأنه هو توحيد العبادة، وأنه هو حق الله على العبد، وأنه ما خلق الجن والإنس إلا لذلك، ثم بين فضل التوحيد، سواء كان كاملاً أو ناقصاً وذلك فى باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، ثم بين أيضاً فى باب آخر فضل التوحيد. الكامل، وكيف أن صاحبه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، ثم رهب من الشرك الذى هو ضد التوحيد، وبين أن الله عزوجل يغفر ما دونه لمن يشاء حتى وإن كان كبيرة فهى تحت خطر المشيئة وهى مغفورة - إن شاء الله - فتبين من ذلك أن الشرك أكبر من هذه الكبائر، لأنه لو كان يساويها أو يقاربها لغفر كما غفرت هذه الكبائر حتى وإن كانت قتلاً للنفس بغير حق، ثم بينت فصولاً وأصولاً متعلقة بهذا الباب (باب الخوف من الشرك) فإن المصنف بعد أن رغب ورهب وبين فضل التوحيد، بل وبين حقيقته وماهيته بقى للداعى أن يتحرك، أو للذى تعلم بقى له أن يتحرك بهذا الذى تعلمه، وبقى أن يدعو الناس إلى فهم وما تعلم، وما أيقن ما استيقن، فلذلك ناسب أن يسوب المصنف هذا الباب (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله) يعد هذه الابواب. والله المستعان.

● شرح الترجمة:

● ماذا أراد المصنف بهذا الباب:

- قال سليمان آل الشيخ^(٢): نبه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه كما يظن الجاهال. أهـ. وتقدم نص كلامه سابقاً.

- قال حامد بن محمد بن حسن^(٣): باب فى بيان ما يدل على أن الدعاء إلى

(١) سورة العصر

(٢) تيسير العزيز الحميد (٨٨).

(٣) فتح الله الحميد المجيد (١٧٣).

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾^(١).

شهادة أن لا إله إلا الله هو أحسن الأقوال، وهو الطريقة المرضية عند الله، وهو سبيل الرسول ﷺ ومن تبعه من الكتاب والسنة. أهـ.

- قال ابن باز^(٢): أى باب وجوب فضيلة الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ لأنها أختها، فمراد المؤلف الدعوة إلى التوحيد، وإلى اتباع الرسول وهذا واجب على العلماء وفرض عليهم. أهـ.



وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾.

- مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ^(٣): ويظهر ذلك إذا كان قوله: ﴿وَمَنْ اتَّبَعْنِي﴾ عطفاً على الضمير فى ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ فهو دليل على أن أتباعه هم الدعوة إلى الله تعالى، وإن كان عطفاً على الضمير المنفصل فهو صريح فى أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين، فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله. أهـ.

قال عبدالله بن جار الله^(٤): ومناسبة الآية للباب أن الدعوة إلى الله على بصيرة وعلم هى طريق الرسول ﷺ وأتباعه فعلينا أن نفعل ذلك لنكون من أتباعه. أهـ.

قال القرعاوى^(٥): حيث دلت الآية أن سبيل النبى ﷺ ومن أتبعه هى الدعوة إلى دين الله وهذا متضمن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

الإعراب^(٦):

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي﴾ هذه مبتدأ وسبيلي خبر وجملة أَدْعُو الله تفسير للسبيل وإلى الله متعلقان بأدعو ويجوز أن تكون الجملة حالية من الياء والأول أولى وعلى بصيرة متعلقان بأدعو أو بمحذوف حال من فاعل أدعو وأنا تأكيد لفاعل أدعو المستتر ومن اتبعنى عطف على فاعل أدعو المستتر ويجوز أن يكون من مبتدأ وخبره محذوف أى ومن اتبعنى يدعو أيضاً ويجوز أن يكون أنا مبتدأ مؤخراً وعلى

(١) يوسف (١٠٨).

(٢) «التعليق المفيد» (٥١).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٨٩.

(٤) الجامع الفريد (ط مكتبة الهدى ص ٢٧).

(٥) الجديد ٦٣.

(٦) إعراب القرآن/ ٦٨.

بصيرة خيراً مقدماً ومن اتبعني عطفاً على ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وسبحان مفعول مطلق لفعل محذوف أى وأسبح سبحان الله وما الواو حرف عطف وما نافية حجازية وأنا اسمها ومن المشركين خبرها.

[قلت] قول الله عز وجل: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. لذلك قال الله تعالى فى هذا الذى دعا على بصيرة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. دعا إلى الله على علم وعمل، بعد أن دعى إلى الله فأجاب.

كما قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ فدُعِيَ فأجاب. ثم دعا الناس إلى ما أجاب الله فيه. ثم هو فى حال دعوته إلى الناس عمل صالحاً وقال إننى من المسلمين.

كما قالها بلسان المقال قالها بلسان الحال.

ولذا أثنى الله عليه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ...﴾.

استجاب ودعا وعمل صالحاً فيما أجاب الله فيه. كما تقدم ذلك فى أثر الحسن البصرى الذى أخرجه الطبرى بسند صحيح^(١).

ما جاء فى تفسير قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ من المأثور.

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ قال: دعوتى^(٢).

عن الربيع بن أنس رضى الله عنه مثله^(٣).

عن ابن عباس رضى الله عنهما ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ قال: صلاتى^(٤).

عن ابن زيد رضى الله عنه فى قوله ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ قال: أمرى وسنتى ومنهاجى^(٥).

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٠٤٧) وذكره السيوطى فى «الدر» (٧٥/٤) ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وأبى الشيخ.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٠٤٨) وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه إليه ولابن جرير.

● تفسير الآية من أقوال المفسرين

قال الطبري^(١): يقول تعالى ذكره لنبى محمد ﷺ: قل يا محمد هذه الدعوة التى أدعو إليها، والطريقة التى أنا عليها، من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، دون الآلهة والأوثان، والإنتهاء إلى طاعته، وترك معصيته ﴿سَبِيلِي﴾ وطريقتى ودعوتى. أهـ.

قال البغوى^(٢): قوله تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَذِهِ﴾ الدعوة التى أدعو إليها، والطريقة التى أنا عليها. أهـ كذا قال بنحو كلام الطبري المتقدم ذكره.

قال الزمخشري^(٣): بنحو من هذا وزاد: ﴿سَبِيلِي﴾ والسييل والطريق يذكران ويؤنثان، ثم فسر سييله بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾. أهـ.

● وكذا قال ابن الجوزي^(٤) كقول الزمخشري.

وقال الرازى^(٥): قال المفسرون: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم هذه الدعوة التى أدعو إليها. والطريقة التى أنا عليها سبيلى وستى ومنهاجى، وسمى الدين سبيلا لأنه الطريق الذى يودى إلى الثواب، ومثله قوله تعالى: ﴿ادْع إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

واعلم أن السبيل فى أصل اللغة الطريق. وشبهوا المعتقدات بها لما أن الإنسان يمر عليها إلى الجنة. أهـ.

وقال القرطبي^(٦): قوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ ابتداء وخبر، أى قل يا محمد هذه طريقي وستى ومنهاجى.

قال الربيع: دعوتى، وقال مقاتل: دينى، والمعنى واحد.

أى الذى أنا عليه وادعو إليه يودى إلى الجنة. أهـ.

وقال ابن كثير^(٧): ﴿سَبِيلِي﴾ هى الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، يدعوا إلى الله بها.

وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعى إليه رسول الله ﷺ على بصيرة. أهـ.

قال الشوكانى^(٨): اسم الإشارة مبتدأ وخبره سبيلى، وفسر ذلك بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾. أهـ. وهذا القول بنحو ما قال الزمخشري والقرطبي.

(٢) معالم التنزيل (٣/٣٣٢).

(٤) زاد المسير (٤/٢٢٧).

(٦) تفسير القرطبي (٥/٣٥٠٣).

(٨) فتح القدير (٣/٦١).

(١) تفسير الطبري (٧/١٣/٥٢).

(٣) الكشف (٢/٢٧٧).

(٥) التفسير الكبير (٩/١٨/٢٢٩).

(٧) تفسير ابن كثير (٢/٤٧٨).

قال في الظلال^(١): ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ واحدة مستقيمة، لا عوج فيها ولا شك ولا شبه.

أهـ.

[قلت] إفراد ﴿سَبِيلِي﴾ يشهد له قوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾. والله أعلم.

● تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): بعد أن ذكر قول ابن كثير: قلت: فتبين وجه المطابقة بين الآية والترجمة.

قيل: ويظهر ذلك إذا كان قوله ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ عطفًا على الضمير في ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله تعالى. وإن كان عطفًا على الضمير المنفصل فهو صريح في أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به ودون من عداهم، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين، فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله. أهـ. وتقدم كلامه في مناسبة الباب.

قال حامد بن محمد بن حسن^(٣): قلت: فيها فوائد:

الأولى: قوله: ﴿قُلْ﴾ دل على أنه لا إله إلا هو لأنه إذا عرفت أن الرسول ﷺ هو أفضل الخلق وأعلامهم درجة عند الله وأحبهم إليه ومع ذلك مأمور منهي، يتبع ما يؤمر به ويتجنب ما ينهى عنه فدل ذلك على أنه العبد وأن الأمر الناهي هو المعبود لا إله إلا هو.

الثانية: قوله: ﴿هَذِهِ﴾ دل على أن الدين المرضي واحد كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(٤).

الثالثة: قوله: ﴿سَبِيلِي﴾، دل على أن ما للرسول ﷺ سبيل إلا القرآن فمن عمل بغير ما جاء به الرسول ﷺ فقد ضل، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٥).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٨٩).

(٤) الأنعام (١٥٣).

(١) الظلال (٤/٢٠٣٤).

(٣) فتح الله الحميد المجيد (١٧٨).

(٥) النساء (٦٥).

الرابعة: قوله: ﴿أَدْعُو﴾ دل أن أنه مرسل إلى الخلق يدعوهم إلى الله.

الخامسة: قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ دل على أن الدعوة تتنوع إلى: الدعوة إلى النفس ليعظم ويوقر ويصرف وجوه الناس إليه ويعطى ويملك وغير ذلك والكل باطل إلا الدعوة التي لوجه الله الكريم. أ هـ.

قال ابن باز^(١): الخطاب للنبي ﷺ ولأمته، أى: قل هذه طريقتى ومحجتى التى أنا عليها من توحيد الله والإخلاص له وإيتاء الزكاة وغيرها، وهذا هو سبيل الله وصراطه، وهو الإسلام والهدى والإيمان. أ هـ.

قول الله عز وجل (إلى الله):

قال ابن عثيمين^(٢): لأن الدعوة إلى الله ينقسمون إلى قسمين:

١- داع إلى الله.

٢- داع إلى غيره.

فالداعى إلى الله تعالى هو المخلص الذى يُريد أن يُوصل الناس إلى الله تعالى. والداعى إلى غيره قد يكون داعياً إلى نفسه، يدعو إلى الحق لأجل أن يُعظَّم بين الناس ويُحترم، ولهذا تجده يغضب إذا لم يفعل الناس ما أمر به، ولا يغضب إذا ارتكبوا نهياً أعظم منه، لكن لم يدع إلى تركه.

وقد يكون داعياً إلى رئيسه كما يوجد فى كثير من الدول من علماء الضلال من علماء الدول، لا علماء الملل، يدعون إلى رؤسائهم.

من ذلك لما ظهرت الاشتراكية فى البلاد العربية قام بعض علماء الضلال بالاستدلال عليها بآيات وأحاديث بعيدة الدلالة، بل ليس فيها دلالة؛ فهؤلاء دعوا إلى غير الله.

ومن دعا إلى الله ثم رأى الناس فارّين منه؛ فلا يأس، ويترك الدعوة، فإن الرسول ﷺ قال لعلى: «انفذ على رسلك؛ فوالله؛ لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»^(٣)، يعنى: أن اهتداء رجل واحد من قبائل اليهود خير لك من حمر النعم، فإذا دعا إلى الله ولم يُجب؛ فليكن غضبه من أجل أن الحق لم يُتبع، لا لأنه لم يُجب، فإذا كان يغضب لهذا؛ فمعناه أنه يدعو إلى الله، فإذا استجاب واحد؛ كفى، وإذا لم يستجب أحد؛ فقد أبرأ ذمته أيضاً، وفى الحديث: «والنبي وليس معه أحد»^(٤).

(١) التعليق المفيد (٥١).

(٢) القول المفيد (١/ ١٦٠ - ١٦١).

(٣) سيائى تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

ثم إنه يكفي من الدعوة إلى الحق والتحذير من الباطل أن يتبين للناس أن هذا حق وهذا باطل؛ لأن الناس إذا سكتوا عن بيان الحق، وأقرَّ الباطل مع طول الزمن؛ ينقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً.

قوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾.

● التفسير بالمأثور عن التابعين

* أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن قتادة رضى الله عنه فى قوله: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أى على هدى ﴿أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾^(١).

● تفسير الآية من أقوال المفسرين

● قال الطبرى^(٢): أدعو إلى الله وحده لاشريك له، ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ بذلك،

ويقين علم منى به، (أنا)، ويدعو إليه على بصيرة أيضاً. أهـ.

● وزاد البغوى^(٣): البصيرة: هى المعرفة التى يميز بها بين الحق والباطل.

أهـ.

● وقال الزمخشرى^(٤): أدعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء. أهـ.

● وقال ابن الجوزى^(٥): قال ابن الأثير، وكل مسلم لا يخلو من الدعاء إلى

الله عزوجل، لأنه إذا تلا القرآن، فقد دعا إلى الله بما فيه، ويجوز أن يتم الكلام عند قوله ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ ثم ابتداء قال: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾. أهـ.

● وقال الرازى^(٦): ادعو الله على بصيرة وحجة وبرهان أنا ومن اتبعنى إلى سيرتى وطريقتى وسيرة أتباعى الدعوة إلى الله، لأن كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول وعلى هدى ويقين، فإن لم يكن كذلك فهو محض الغرور أهـ.

● وقال القرطبى^(٧): ﴿بَصِيرَةٍ﴾ يقين وحق، ومنه (فلان مستبصر بهذا). أهـ.

وينحو هذه الأقوال قال ابن كثير^(٨)، والشوكانى^(٩) وزاد.

وفى هذا دليل على أن كل متبع لرسول الله ﷺ حق عليه أن يقتدى به فى الدعاء إلى الله، أى الدعاء إلى الإيمان به وتوحيده، والعمل بما شرعه لعباده. أهـ.

(١) الدر المنثور (٧٦/٤).

(٢) تفسير الطبرى (٥٢/١٣/٧).

(٣) معالم التنزيل (٣٣٢/٣).

(٤) زاد المسير (٢٢٧/٤).

(٥) تفسير القرطبى (٣٥٠٣/٥).

(٦) تفسير الكبير (٢٢٩/١٨/٩).

(٧) فتح القدير (٦١/٣).

(٨) تفسير ابن كثير (٤٧٩/٢).

● تفسير الآية من كلام شرح التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): وفي الآية مسائل نبه عليها المصنف.

منها: التنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.
ومنها: أن البصيرة من الفرائض، ووجه ذلك أن اتباعه ﷺ واجب، وليس أتباعه حقاً إلا أهل البصيرة، فمن لم يكن منهم فلبس من أتباعه، فتعين أن البصيرة من الفرائض.

ومنها: دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه الله عز وجل عن المسبة.

ومنها: أن من أقبح الشرك كونه مسبة لله.

ومنها: إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير معهم ولو لم يشرك، وكل هذه الثلاث في قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ الآية. أهـ.

قال حامد بن محمد بن حسن^(٢): قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ دل على أن العلم لا يستلزم البصيرة بل رب عالم ليس له بصيرة في الدعوة على ما يريد الله من الداعي وعلى ما مشى عليه رسول الله ﷺ.

ثم قال: الحاصل أن البصيرة عليها مدار الدعوة إلى الله وقد ذكر عن الرسول ﷺ أن الداعي ينبغي له أن يكون عليمًا فيما يأمر به، عليمًا فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، وقال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(٣)، وقال تعالى لموسى وهارون لما أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٤). وقال الرسول ﷺ: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا ذهب عن شيء إلا شأنه»^(٥) وقال ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وسكّنوا ولا تنفروا»^(٦).

(١) تيسير العزيز الحميد (٨٩). (٢) فتح الله الحميد المجيد (١٠٢/١، ١٠٣).

(٣) آل عمران/ ١٥٩. (٤) طه/ ٤٤.

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم في البر والصلة (٤٦/١٦ - النووي) عن عائشة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٦٣٦ - بتخریجنا).

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٩) ومسلم في الجهاد والسير (٤٢/١٢ - النووي) عن أنس به وانظر

«رياض الصالحين» (٦٣٨ - بتخریجنا).

وقد وصف الله إبراهيم عليه السلام بالحلم فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (١). هذا ومن البصيرة تقديم الأهم فالأهم في الدعوة كالطبيب الحاذق إذا رأى في شخص مرضاً في الرأس ومرضاً في الأصبع بدأ بتداوى مرض الرأس، لأن الرأس هو الأصل لحياته وفيه الحواس العشرة فلو اختل الرأس لاختلفت كلية الإنسانية، وأما الأصبع لو عدم من أصله ما اختل من الإنسانية شيء.

فينبغي أن يكون الداعي كالطبيب الحاذق الذي يداوى الأضر قبل الضار، فكَذلك الداعي يبدأ بالتوحيد قبل الصلاة وبالصلاة قبل الزكاة، وبالزكاة قبل الصوم والحج، وبأركان الإسلام والإيمان قبل سائر الأعمال، كما أرشد رسول الله ﷺ معاذاً. أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ (٢): قال في «شرح المنازل» يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم وهى البصيرة التى تكون نسبة المعلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئى إلى البصر وهذه هى الخصيصة التى اختص بها الصحابة من سائر الأمة، وهى أعلى درجات العلماء قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ إلخ. أهـ (٣).

[قلت] «وكلمة المرئى فى بعض النسخ مصحفة» المائى.

هذه نسبة المعلوم فيها إلى القلب واضحة جداً ومؤثرة جداً فيه لأنه لم يتعلم فقط بل تعلم وعمل. فهذا نسبة المعلوم فيه كنسبة المرئى إلى البصر.

كذلك سائر العلوم بالنسبة لقلبه يراها كما يرى البصر الأمور المرئية له.

فهذه هى البصيرة. فهل يتصور أن يصل إلى البصيرة بعلم فقط؟!!

بل لابد لكى يصل إليها من ثمرة العلم وهى العمل.

يشهد لهذا الفهم قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

قال ابن عثيمين (٤): قوله: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾.

أى: علم؛ فتضمنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم؛ لأن أكثر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص، أو عدم العلم، وليس المقصود بالعلم فى قوله: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ العلم بالشرع فقط، بل يشمل: العلم بالشرع، والعلم بحال المدعو، والعلم بالسبيل الموصل إلى المقصود، وهو الحكمة.

(٢) فتح المجيد (١/ ١٠٢ - ١٠٣).

(١) هود/ ٧٥.

(٤) القول المفيد (١/ ١٦١ - ١٦٢).

(٣) المدارج (٢/ ٤٨١ - ٤٨٢).

فيكون بصيراً بحكم الشرع، وبصيراً بحال المدعو، وبصيراً بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلُ كِتَابٍ»^(١).

وهذه ليست كلها من العلم بالحكم الشرعي؛ لأنَّ علمي أَنَّ هذا الرجل قابل للدعوة بالآيين، وهذا قابل للدعوة بالشدة، وهذا عنده علم يمكن أن يقابلني بالشبهات أمر زائد على العلم بالحكم الشرعي، وكذلك العلم بالطرق التي تجلب المدعوين كالترغيب بكذا والتشجيع؛ كقوله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا؛ فَلَهُ سَلْبُهُ»^(٢). أو بالتأليف؛ فالنبي ﷺ أعطى المؤلف قلوبهم في غزوة حنين إلى مئة بعير.

فهذا كله من الحكمة؛ فالجاهل لا يصلح للدعوة، وليس محموداً، وليست طريقته طريقة الرسول ﷺ، لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح. أهـ.

فصل في شروط ومواصفات الداعي

ذكر ابن باز في رسالته «الدعوة إلى الله» شروط ومواصفات الداعي من وحي هذه الآية منها:-

الصفة الأولى: أَنْ يَكُونَ مُخْلِصًا: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ.....﴾.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ.....﴾.

﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فلا تدعو لنفسك أو لسمعة أو لشهرة.....

أو تبتغي وجه غير الله أو..... أو جدال أو مباحة.....

لا لنفس ولا حزب ولا فرقة..... هذا هو الأمر الأول.

الصفة الثانية: على بصيرة: قال ابن باز: أَنْ تَكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ دَعْوَتِكَ، أَيْ عَلَى عِلْمٍ، لَا تَكُنْ جَاهِلًا بِمَا تَدْعُو إِلَيْهِ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ فلا بد من العلم، فالعلم فريضة، وإياك أَنْ تَدْعُو عَلَى جَهَالَةٍ، وإياك أَنْ تَتَكَلَّمَ فِيهَا لَا تَعْلَمُ، فالجاهل يفسد ولا يصلح، ويهدم ولا يبني.... والبصيرة هو ما قاله الله ورسوله، فلا بد من بصيرة وهي العلم، فعلى طالب العلم وعلى الداعية أَنْ يَتَبَصَّرَ فِيهَا يَدْعُو إِلَيْهِ وَأَنْ يَنْظُرَ فِيهَا يَدْعُو إِلَيْهِ وَدَلِيلُهُ، فَإِنْ ظَهَرَ لَهُ الْحَقُّ وَعَرَفَهُ وَدَعَا إِلَى ذَلِكَ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ فِعْلًا أَوْ تَرْكًا فَيَدْعُو إِلَى الْفِعْلِ إِذَا كَانَ طَاعَةً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَدْعُو إِلَى تَرْكِ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ عَلَى بَيِّنَةٍ وَبَصِيرَةٍ. أهـ. والبصيرة ليست هي العلم فقط.

[قلت]: بل البصيرة هي العلم والعمل لأن البصيرة نظر القلب كما قال ابن القيم «أَنْ تَكُونَ نِسْبَةَ الْعِلْمِ إِلَى الْقَلْبِ كَنِسْبَةِ الْمَرْتِي إِلَى الْبَصَرِ» وقد سبق.

(٢) سيأتي تخريجه.

(١) [صحيح] أخرج مسلم في الجهاد (١/٣٠١/٤١).

فالبصيرة ثمرة العلم أى العلم والعمل ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾.

فدعا على بصيرة وعلم وعمل. ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾.

أى على علم وعمل - على ثمرة العلم - كما قال الأمام أحمد رحمه الله:

وهل العلم إلا ما وصل إليه معروف أى: الإسكافى.

أحد عباد أهل السنة يقول ذلك لأنه يقصد أن العلم ما وصل إليه معروف من زهد وعبادة وعمل فهل العلم إلا ذلك المعروف.

كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى كتاب «اقتضاء العلم للعمل»:

العلم علمان علم اللسان وعلم القلب فعلم المنافق فى لسانه وعلم المؤمن فى قلبه.

وقال القرطبى فى تفسير الآية ﴿اتَّامُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ ذم الله تعالى الذى ينسى نفسه فى حال اهتمامه بالناس، وهذا لا يكون دافعاً لأن نترك الأمر بالمعروف ولكن دافع لإصلاح النفس والاهتمام بها كاهتمامنا بالناس وإلا نحترق نحن عياذا بالله.

وحذر الرسول ﷺ من هذا الصنف ففى الحديث «إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم اللسان»^(١)... علمه فى لسانه فقط. أما المؤمن فعلمه فى قلبه، الذى هو محل البصيرة أى: علم وعمل ﴿أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

لذلك نعى الله عزوجل على طوائف من الدعاة الذين كانوا على علم. ولم يعملوا بما علموا ودعوا إلى هذا العلم دون عمل.

وقال الله عن شعيب: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنِ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ونعى على طائفة أخرى قائلاً: ﴿اتَّامُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تُلَوِّنُونَ كِتَابَ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾. ولذلك أشرط فى الداعى العلم.

وأنا أقول البصيرة «العلم والعمل» لكن فى الحقيقة هذا الشرط ليس شرط صحة وإنما هو شرط كمال. يعنى قد يصح أن يدعو الداعى إلى شىء لايعمله.

لكن الذى ذم أنه نسى نفسه، دعا الناس إلى شىء ثم هو لم يعمل به.

وكما قال القرطبى فى تفسير هذه الآية ﴿اتَّامُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ اعلم وفقك الله تعالى

(١) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١٧/٢٩٥/٨١٥).

أن التوبيخ في الآية بسبب ترك الفعل لا بسبب الأمر بالبر، ولهذا ذم الله تعالى في كتابه قوماً كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها. أمه^(١). فإنه لم يته أو يقبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولأنه محمود على كل حال سواء عمل الداعي أو لم يعمل ولكن الذي ذم هو أنه يدعو إليه ولا يعمل به.

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان. مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمراً بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر آتية^(٢).

لكن هذا ليس شرط أن تدعو بما تعمل بل يجوز أن تدعو وإن كنت مقصراً فقديمًا قال الشاعر:

لئن لم يعظ العاصين من هو مذب فممن يعظ العاصين بعد محمد

لأنه لا يتصور معصوم إلا هو ﷺ فإن كان يشترط للداعي أن يكون معصوماً من الذنب ما دعا أحد بعد النبي ﷺ.

وأيضاً كما قال الشاعر:

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

وهو مؤدى كلام الحسن وعمر بن عبدالعزيز رحمهما الله أيضاً قال: «ود الشيطان وتمنى أن لو ظفر بذلك».

أى ود الشيطان أن يظن الناس أنه لا يدعو إلا معصوم فلا يدعو أحد ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويعطلون هذه الفريضة ويعطلون هذا الواجب فود الشيطان لو ظفر بذلك.. وقال ذلك الحسن لمطرف بن عبدالله بن الشخير.

خطب عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - يوماً فقال في موعظته: إني لاقول هذه المقالة، ولا أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندى، فأستغفر الله وأتوب إليه.

وكتب إلى بعض نوابه على بعض الأمصار كتاباً يعظه فيه، وقال في آخره: «وإني لأعظك بهذه، وإني لكثير الإسراف على نفسى، غير محكم لكثير من أمرى، ولو أن

(١) تفسير القرطبي (١/٣١٢/٣١٤١).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٢٦٧)، ومسلم فى الزهد (١٨/١١٧ - النووى).

وانظر «رياض الصالحين» (٢٠٠ - بتخريجنا). وانظر «كتابنا فقه الخطابة»

المرء لا يعظ أخاه حتى يحكم نفسه إذا تواكل الخير، وإذا لرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذا لأستحلت المحارم، وقل الراعظون والمسارعون لله بالنصيحة فى الأرض، والشيطان وأعوانه يودون أن لا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر، وإذا أمرهم أحد أو نهاهم عابوه، بما فيه وبما ليس فيه»(*) .

قوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ .

والناس فى هذه البصيرة طرفان ووسط . عند جانب العلم .

هناك من يدعو بجهل ويقول .

«بلغوا عنى ولو آية»^(١) ويتمسك بهذا الحديث حجة على ذلك . ويقول: لا داعى لأن أتعلم لكى أَدعو - فهذا النشاط فى الدعوة شىء طيب أن يرغب الناس فى الدعوة، ولكن القبيح أن يرغبهم فى الدعوة على جهل . فهذا طرف أول وهذه سيئة .

والطرف الآخر قال: لا ندعو حتى نتعلم . وعندهم العلم لا يقصدون به من كان فى درجة الوعاظ أو طلبة العلم . ولعلى أظنهم يقصدون أن نكون فى درجة العلماء حتى ندعوا فهذا طرف آخر . وسيئة أخرى .

والوسطية وأهل السنة هما الحسنة بين السيتين .

قالوا للناس ادعوا وليس شرط فى الدعوة أن تكونوا علماء

بل شرط فى الدعوة أن تعلم ماتدعوا إليه وبه .

وأيضاً لم يشترطوا للدعوة العلم المطلق بل دعوا وندبوا إلى العلم مع الدعوة ولم يشترطوا للدعوة كمال العلم، وأجابوا على الطائفتين بأجوبة - أما الطائفة الأولى فقالوا: أن النبى ﷺ لم يقصد بهذا الحديث أن يرخّص للجاهل فى الدعوة وإلا فهذا الحديث يصطدم مع قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ.....﴾ .

فلا بد من الجمع بين الحديث والآية بوجه من وجوه الجمع وهو أن الرسول ﷺ يشجع على الدعوة ولو من القليل مما عندك من العلم . فأنت عندك علم كثير . فبلغ عنه ولو آية مما عندك من الآيات التى تحفظها .

ولا يقول ﷺ: احفظ آية فقط ثم ادعوا، أو احفظ حديث فقط ثم ادعوا .

(*) راجع فى هذا كله كتابى «فقه الخطابة وزاد الخطيب» فصل: «لا يشترط للداعى أو الواعظ العصمة

من الذنوب» .

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٦١) عن عبدالله بن عمرو وانظر «رياض الصالحين» (١٣٨٣) -

بتخريجنا) .

كما قال ﷺ: «اتق النار ولو بشق ثمرة»^(١) يعنى معنى ذلك يتصدق بشق ثمرة؟! ويقول صاحب هذا رأى أن النبى ﷺ قال ذلك فالجواب: هو أيضاً ﷺ كان يقول: «تصدق ولا تحقرن من المعروف شيئاً» وإن كنت فقيراً فتصدق ولو بشق ثمرة.

وإن كنت غنياً وعلمت ذلك فانظر ما الذى يقيك من النار وما تنفقه.

فكان هذا الحديث يقول «بلغوا» ويحثهم على الدعوة والتبليغ ولو بآية.

وأجابوا على الآخرين: بأنه من الصحابة رضى الله عنهم من دعا قومه وكان لم يتعلم بعد فروع الإسلام وفروع الدين.

الجواب: أن الصحابة رضى الله عنهم كان منهم من تعلم الأصول ثم دعا بها. وأخذ يدعو الناس إلى أصول التوحيد وقواعده، ولم يشترط له الرسول ﷺ أن يكون عالماً. ومثال هذا «أبو ذر رضى الله عنه».

ولا يعكر على هذا أنه بعث معاذاً إلى اليمن وهو أعلم الصحابة؛ لأن معاذاً ذهب إلى اليمن لأهل الكتاب لعلماء بنى إسرائيل. لذلك قال له النبى ﷺ: «إنك تأتى قوماً أهل كتاب»^(٢) فناسب أن يكون الداعى فى هذا الموضع على قدر كبير من العلم.

فالحاصل: أن الناس بالنسبة للعمل على البصيرة طرفان ووسط.

أيضاً من يقول أنا طالب علم لكن مقصر فى العمل فلن أعلم. فهذا نحذره لأن الرسول ﷺ قال فيهم «من كنتم علماً الجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»^(٣).

فمن كان عنده علم ويكتمه الجمه الله بلجام من نار يوم القيامة.

فيقول أنا مقصر. فنقول له: أصلح من نفسك ولكن لاتترك الدعوة.

فالتقصير ليس سبباً لترك هذا الأمر فليس شرط فى الدعوة أن تكون معصوماً.

وطرف آخر: يدعو دون عمل أبداً ويقول ليس مهم العمل.

مثال: خطيب مسجد يجلس على المقهى ويلعب الطاولة، ثم يذهب ليكون إماماً للمسجد.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٠٢٣)، ومسلم فى الزكاة (١٠/١٠١ - النووى).

وانظر «رياض الصالحين» (١٤١ - بتخريجنا).

(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/٢٦٣، ٣٠٥)، وأبوداود (٣٦٥٨)، والترمذى (٢٦٤٩)، وابن ماجه

(٢٦١).

وانظر كتابى «فقه الخطابة وزاد الخطيب».

والطرف الثانى: وهو الحسنة بين السيتين وهو من يدعو ويقر بالتقصير فى حال دعوته مع النهوض بنفسه لإصلاحها وجبر نقصه وجبر التقصير الذى يقع منه .
الصفة الثالثة: الصبر على الدعوة .

قال ابن باز: من الأخلاق التى ينبغى لك أن تكون عليها أيها الداعية أن تكون حليماً فى دعوتك رفيقاً محتملاً صبوراً كما فعل الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإياك والعجلة، إياك والعنف والشدة، عليك بالصبر، عليك بالحلم، عليك بالرفق فى دعوتك . أهـ .

الصبر على المدعوين والرفق بهم، والحلم بهم .
ولكن أحياناً يحتاج الداعى أن يشد على واحد من المدعوين وهذا بخلاف مالا يصبر عليها .

فالأول يحتاج إلى شىء من الشدة فى مرحلة أكبر لدى طلبه للعلم .
فالرسول ﷺ أغلظ العقوبة على الثلاثة الذين خلفوا وأما المنافقون قال لهم: «اذهبوا غفر الله لكم»^(١) قال ذلك لمنافق؟! .

وآخر آلان له الكلام - والرسول ﷺ شد على عمر وقال له «هلا تركتم لى صاحبى» . وأبو بكر يقول يارسول الله أنا الذى كنت أظلم، لأن عمر يتحمل الشدة ولكن للرفق واللين ثمرة بالمدعوين . كما ذكر ابن القيم فى زاد المعاد «سيرة رسول الله» فإنه ذكر قصة البيعة الأولى، كيف أنهم كانوا ستة أو ثمانية، ثم جاءوا فى العام القادم .
إثنى عشر فقط أى بعد سنة كاملة دعوا ستة فقط .

وفى حديث السبعين يأتى النبى وليس معه أحد^(٢) .
الصفة الرابعة لم يذكرها الشيخ ابن باز، ولعله يراها داخلية فى البصيرة لكن لأهميتها أفردتها وهى:

(١) العلم بواقع المدعوين وأحوالهم .

حتى أنصحهم بما يليق بهم ولكل مقام مقال .
فالجهد بحال المدعوين كالجهد فى أساليب الدعوة بل كالجهد بالأدلة على الدعوة .
وأيضاً لا يقل خطورة عن الجهد بالحكمة أو بالكتاب والسنة .

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٤/٨)، ومسلم فى الذكر والدعاء والإستغفار (٨٧/١٧) - (النوى)
وانظر «رياض الصالحين» (٢٢) - (تخريجنا) .
(٢) تقدم تخريجه .

هذا ما ذكره الشيخ ابن باز فى «رسالة الدعوة إلى الله».

وقد ذكرت فى شرح كتاب زاد المعاد أن الناس أقسام ترتبها من أعلى إلى أسفل:
العالم ثم طالب العلم، ثم الداعى، ثم الواعظ، ثم القاص.

(١) أما العالم فهو من حصل أدوات العلم كلها مثل حفظ القرآن. الأحاديث،
الأصول... إلخ^(١).

(٢) أما طالب العلم فهو من حصل بعض أدوات العلم وفى طريقه إلى تحصيلها
كلها.

(٣) أما الداعى فهو من حصل القدر الذى يجعله داعياً على بصيرة، فهو مرتبة دون
طالب العلم ولا يدعو إلا للمسائل التى يفهمها فإنه يدعو إلى ما تعلمه فقط.

ولكن يجب أن يتعلم باب الطهارة وباب الصلاة ليعرف كيف يصلى، مثل من يتعلم
فقه البيع ليعرف ما يحل وما يحرم فى البيع.

(٤) أما الواعظ: من حفظ أحاديث مثلاً فى الترغيب والترهيب ثم ذكرنا بها.

(٥) أما القاص: أخص من الواعظ فهو من يحفظ حكايات وأيام الناس وقصصهم
ثم يقصها، وإما أن يكون صادقاً أو كاذباً فإن كان صادقاً فهو المحمود وإن كان كاذباً
فهو المذموم. فالقاص أخص من الواعظ، والواعظ أعم فعنده ما عند القاص وزيادة.
فالناس فى ذلك طرفان ووسط وقد تقدم شرحه.

قوله تعالى ﴿أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾.

● التفسير بالقرآن.

كما قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾. (٢)

● التفسير بالمأثور.

● عن زيد بن أسلم فى قول الله ﴿ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾
قال: وحق والله على من اتبعه أن يدعو إلى مثل ما دعى إليه ويذكر بالقرآن، والحكمة،
والموعظة الحسنة، وينهى عن معاصى الله^(٣).

وذكر البغوى عن ابن عباس فى قوله ﴿أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ قال:

(١) انظر شروط المجتهد فى كتب الأصول وحاشيتنا على شرح الورقات.

(٢) النحل: (١٢٥)

(٣) تفسير ابن أبى حاتم (٧/٢٢٠٩ ح ١٢٠٥٠) فانظره بتخريجنا.

يعنى أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة، واقصد هداية معدن العلم وكثر الإيمان، وجند الرحمن^(١).

قال عبدالله بن مسعود: من كان مستأ فليست بمن قد مات، فإن الحى لاتؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم^(٢). أه.

قوله: ﴿أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾

● أقوال المفسرين

قال الطبرى^(٣) (على بصيرة) بذلك ويقين علم منى به (أنا) ويدعو إليه على بصيرة أيضاً ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ وصدقنى وآمن بى. أه.

قال البغوى^(١): أى ومن آمن بى وصدقنى أيضاً يدعو إلى الله، هذا قول الكلبي، وابن زيد قال: حق على من اتبعه أن يدعو إلى مادعا إليه، ويذكر بالقرآن. أه. وذكر قول ابن مسعود وابن عباس السابقين فى أول تفسير الآية.

قال الزمخشري^(٤): (أنا) تأكيد للمستتر فى أدعو ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ عطف عليه، يريد أدعوا إليها أنا، ويدعو إليها من اتبعنى، ويجوز أن يكون أنا مبتدأ (على بصيرة) خبر مقدماً و(من اتبعنى) عطفاً على (أنا) إخباراً مبتدأ بأنه ومن اتبعه على حجة وبرهان لاعلى هوى، ويجوز أن يكون (على بصيرة) حالاً من (أدعو) عاملة فى الرفع (أنا ومن اتبعنى). أه.

وتقدم شئ من ذلك فى مواضع من شرح الآية.

وبنحو هذا قال ابن الجوزى^(٥)، والرازى^(٦)، والقرطبى^(٧)، وابن كثير^(٨)، والشوكانى^(٩).

(١) ذكره البغوى فى «تفسيره» فى الموضع السابق.

(٢) الكشف (٢/٢٧٧).

(٣) التفسير الكبير (٩/١٣/٢٢٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/٤٧٩).

(١) معالم التنزيل (٣/٣٣٢).

(٢) تفسير الطبرى (٧/١٣/٥٢).

(٣) زاد المسير (٤/٢٢٧).

(٤) تفسير القرطبى (٥/٣٠٣).

(٥) فتح القدير (٣/٦١).

أقوال شراح كتاب التوحيد فى تفسيرها.

تقدم قول سليمان آل الشيخ^(١): حيث قال فى من هم أهل الاتباع فى قوله «أَدْعُو

إِلَى اللَّهِ» قال : فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله تعالى . . هم أهل البصيرة ، فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله .

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون إلى الله تعالى ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى . أهـ من كلام ابن القيم المتقدم .
وينحو هذا قال عبدالله بن جار الله^(٣).

قال ابن باز^(٤): فأتباعه هم أهل البصائر والعلماء الذين يدعون، ودعوتهم على بصيرة ومن لم يدع إلى سبيل الله من العلماء فليس من أتباعه على الحقيقة، فأتباعه لا يسيئون، ولا يدعون على جهالة كما قال تعالى «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ» أى بالعلم، وهذه هى وظيفة الأنبياء كلهم والعلماء الصالحين، وهذا هو الواجب على من عنده علم ويدعو فى كل مكان فى المسجد وغيره ويصبر أهـ.

قال ابن عثيمين^(٥): قوله: «أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي».

ذكروا فيها رأيين:

الأول: «أنا» مبتدأ، وخبرها «على بصيرة» ، «ومن اتبعنى» معطوفة على «أنا» ؛ أى : أنا ومن اتبعنى على بصيرة ؛ أى : فى عبادتى ودعوتى .

الثانى: «أنا» تأكيد للواو فى قوله: «أدعو» ؛ أى : أدعو أنا إلى الله ومن اتبعنى يدعو أيضاً ؛ أى : قل هذه سبيلى أدعو إلى الله ويدعو من اتَّبَعَنِي ، وكلانا على بصيرة .

[قلت]: وكما قال ابن القيم رحمه الله: فليس من أتباعه على الحقيقة هذا الذى لم يدعو إلى الله وأما أولى الناس بهذه الأوصاف هم صحابته رضى الله عنهم لأنهم هم الداعون إليه على بصيرة .

فليس من أتباعه على الحقيقة هذا الذى دعا إلى غير الله أو لم يدعو إلى الله يعنى أنه متسبب له بالزور وإن ادعى هذه النسبة فإن هذه الدعوة باطلة، وحتى يكون من أتباعه

(١) تيسير العزيز الحميد (٨٩).

(٢) فتح المجيد (١/١٠٢).

(٣) الجامع الفريد (٣٠).

(٤) التعليق المفيد (٥٣/٥٢).

(٥) القول للمفيد (١/١٦٢ - ١٦٣).

على الحقيقة فلا بد من الموافقة في هذه الطريقة وهي داعي على علم وعمل وإن كان العمل ليس شرطاً في صحة الدعوة ولكن هو شرط في كمالها كما تقدم معنا فلا يشترط في الداعي العصمة من الذنوب كما لا يشترط في الداعي أن يعمل بكل ما يدعو إليه وإن كان هذا من باب الكمال الدعوى.

قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾.

- قال الطبري^(١): يقول تعالى ذكره: وقل تنزيهاً لله، وتعظيماً له من أن يكون له شريك في ملكه. أو معبود سواه في سلطانه. أهـ.

- وكذا قال البغوي^(٢):

- وقال الزمخشري^(٣): وأنزهه من الشركاء. أهـ.

- وقال بنحو ذلك ابن الجوزي^(٤).

وقال الرازي^(٥): وقوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ عطف على قوله ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي قل هذه سبيلي. وقل سبحان الله. تنزيهاً لله عما يشركون. أهـ.

وقال القرطبي^(٦): قوله ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾.

قال ابن كثير^(٧): وقوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسّه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

● كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين^(٨): قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾.

أي: وسبحان الله أن أكون أدعو على غير بصيرة!

(٢) «معالم التنزيل» (٣/٣٣٢).

(٤) زاد المسير (٤/٢٢٧).

(٦) تفسير القرطبي (٥/٣٥٠٣).

(٨) القول المفيد (١/١٦٣).

(١) «تفسير الطبري» (٧/١٣/٥٣).

(٣) الكشف (٢/٢٧٧).

(٥) التفسير الكبير (٩/١٣/٢٢٩).

(٧) تفسير ابن كثير (٢/٤٧٩).

وإعراب «سبحان»: مفعول مطلق عامله محذوف تقديره أسبح أهـ.

وقال القرعاوى^(١): أنزه الله، وأعظمه من أن يكون له شريك أو نديد. أهـ.

قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

- قال الطبري^(٢): يقول: وأنا برىء من أهل الشرك به لست منهم، ولا هم منى أهـ.

- ولم يذكر البغوى^(٣) فيها شيئاً، وكذلك الزمخشري^(٤) وابن الجوزي^(٥) وابن كثير^(٦).

- وقال الرازي^(٧): ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين اتخذوا مع الله ضدّاً ونداً وكفوّاً وولداً، وهذه الآية تدل على أن حرفة الكلام وعلم الأصول حرفة الأنبياء عليهم السلام وأن الله ما بعثهم إلى الخلق إلا لأجلها.

- وقال القرطبي^(٨): ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يتخذون من دون الله أنداداً. أهـ.

- وقال الشوكاني^(٩): بنحو كلام القرطبي وقريب من لفظه.

● كلام شراح كتاب التوحيد:

- قال حامد بن محمد^(١٠): والمخالف على هذا على أنواع:-

(١) منهم من يجهل الشريعة لغفلته عما أنزل على رسوله ﷺ وأوامره ونواهيه. فهو كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا

(١) الجليد (٦٣).

(٢) تفسير الطبري (٥٣/١٣/٧).

(٣) معالم التنزيل (٣٣٢/٣).

(٤) الكشف (٢٧٧/٢).

(٥) زاد المسير (٢٢٧/٤).

(٦) تفسير ابن كثير (٤٧٩/٢).

(٧) التفسير الكبير (٢٢٩/١٣/٩).

(٨) تفسير القرطبي (٣٥٠٣/٥).

(٩) فتح القدير (٦١/٣).

(١٠) فتح الله أحمد المجدد (١٤٧٣-١٧٤٠).

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُصِرُّونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٥﴾

(٢) منهم من يعلم الشريعة، ولكن تعلمها للدنيا وللجاء والمنصب، لا لله تعالى: فهو كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسِرُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ.

- وعن كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلب العلم ليجارى به العلماء أو يمارى به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار» (١).

- وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» (٢).

(٣) ومنهم من يعلم الشريعة قاصداً وجه الله لكن لا يعلم غيره لأمر من الأمور وقصد من المقاصد التي ليست شرعية، فهو كما قال الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾.

(٤) ومنهم من يعلم ويتعلم لله ويعلم غيره، ولكن لا يصبر على ما يصيبه في الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾. ولا يسلم من هذه المخاطر إلا من تعلم الشريعة لله، وعمل بها وعلم غيره وصبر على ما أصابه في نفسه وماله ويعلم أن لكل شيء عوضاً إذا فاته، وما من الله عوض. كما قيل:

لكل شيء إذ أفوته عوض وما من الله إن فوته عوض أهـ

- قال عبدالله بن جابر الله (٣): يستفاد من الآية.

(١) أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع النبي ﷺ.

(٢) التنبيه على الإخلاص في الدعوة إلى الله.

(٣) أن البصيرة، وهي العلم من الواجبات على الداعي إلى الله.

(٤) إبتعاد المسلم عن المشركين، لأن لا يصير منهم ولو لم يشرك. أهـ.

(١) أخرجه الترمذى (٢٦٥٤). وانظر «فقه الخطابة».

(٢) رواه أحمد (٢/٣٣٨) وأبو داود (٣٦٦٤) وابن ماجه (٢٥٢). وانظر كتابي «فقه الخطابة» وانظر «رياض الصالحين» (١٣٩٤ - بتخريجنا).

(٣) الجامع الفريد ٣٠.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن؛ قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

(وفى رواية: إِلَى أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ)، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لَذَلِكَ؛ فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لَذَلِكَ فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَاءِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقَرَاءَتِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لَذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» أَخْرَجَاهُ^(١).

- قال ابن عثيمين^(٢): «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» محلها مما قبلها فى المعنى تأكيد، لأن التوحيد معناه نفى الشرك. أهـ.

- قال القرعاوى^(٣): الفوائد:

فذكر خمس فوائد منها:-

- يجب أن تكون الدعوة قائمة على الحجة والبرهان

- وجوب البراءة من الشرك وأهله.

- لا يصح العمل إلا موافقاً لما جاء به الرسول ﷺ.

- وجوب تنزيه الله عما لا يليق بجلاله. أهـ.



قوله: [وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن].

مناسبة الحديث للباب:

ومناسبة الحديث للباب ظاهرة جليلة فى قوله ﷺ: «فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله».

(١) القول المفيد (١/١٦٣).

(٢) الجديد (٦٣).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الزكاة/ باب وجوب الزكاة (٣/٣٠٧، ١٤٥٨، ١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧، ٧٣٧٢)، ومسلم فى الإيمان/ باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١/١٩٦ - ٢٠٠ - النووى)، وأحمد فى «مسنده» (١/٣٣)، وأبوداود فى الزكاة (٢/١٠٧، ١٥٨٤)، والترمذى فى الزكاة (٣/١٢، ٦٢٥)، والنسائى فى الزكاة (٢/٥، ٢٢١٥)، وابن ماجة فى الزكاة (١/٥٦٨، ١٧٨٣). عن ابن عباس به. وانظر «منار السبيل» - بتخریجنا - وأيضاً «فتح المجید» (ح ١٣٢) بتخریجنا.

ولذلك لم ينص أحد من شراح كتاب التوحيد على المناسبة؛ لأنها مذكورة نصاً فى الحديث والله أعلم ولذا فإن ابن عثيمين^(١) قال: والظاهر أنه يريد أن يبين أن أول مايكون هى الشهادة، وإذا كان كذلك، يكون (أول) مرفوعاً على أنه اسم يكن، أى: أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله. أهـ.

● سبب اختيار المصنف هذه الرواية على غيرها:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): أشار المصنف - رحمه الله - بإيراد هذه الرواية إلى التنبيه على معنى شهادة أن لا إله إلا الله، إذ معناها توحيد الله بالعبادة، وترك عبادة ما سواه فلذلك جاء الحديث مرة بلفظ (شهادة أن لا إله إلا الله) ومرة (إلى أن يوحدوا الله) ومرة (فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله). أهـ.

قلت هذا الحديث أخرجه البخارى فى «صحيحه» مستشهداً به فى أكثر من كتاب وباب، ويأتى به مختصراً فى مواضع وكاملاً فى مواضع، ولأهمية ما يحويه من فوائد جعله فى:-

- الموضع الأول: كتاب الزكاة: باب/ وجوب الزكاة - وفيه «ادعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله....».

- الموضوع الثانى: كتاب الزكاة: باب/ لا تؤخذ كرائم أموال الناس فى الصدقة وفيه «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله».

- الموضع الثالث: كتاب الزكاة: باب/ الإتياء والحذر من دعوة المظلوم مختصراً بدون ذكر هذه اللفظة.

- الموضع الرابع: كتاب المظالم: باب/ أخذ الصدقة من الأغنياء، وترد فى الفقراء حيث كانوا وفيه «فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

- الموضع الخامس: كتاب المغازى: باب/ بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع. وفيه «إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ».

- الموضع السادس والسابع: كتاب التوحيد: باب/ ما جاء فى دعاء النبى ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى وفيه «إلى أن يوحدوا الله»، والآخر مختصراً.

● الجمع بين هذه الألفاظ:

قال ابن حجر^(٣): «وجه الجمع بينهما أن المراد بالعبادة: التوحيد، والمراد

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٩١).

(١) القول المفيد (١/ ١٦٤ - ١٦٥).

(٣) فتح البارى (١٣/ ٣٦٧).

بالتوحيد: الإقرار بالشهادتين، والإشارة بقوله ذلك إلى التوحيد، وقوله: «فإذا عرفوا الله» أى عرفوا. توحيد الله، والمراد بالمعرفة الإقرار والطوعية، فبذلك يجمع بين هذه الألفاظ المختلفة فى القصة الواحدة والله ولى التوفيق أهـ. الفتح وسيأتى تفصيل ذلك.

قوله: [وعن عبدالله بن عباس] ذكره البخارى فى «صحيحه»^(١) فى فضائل الصحابة، وذكر فيه قول ابن عباس ضمنى النبى ﷺ إلى صدره، وقال: «اللهم علمه الحكمة» وبلطف آخر: «اللهم علمه الكتاب»^(٢).

قال ابن حجر: هو عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم، ابن عم النبى ﷺ، يكنى أبا العباس ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، ومات بالطائف سنة ثمان وستين، وكان من علماء الصحابة، حتى كان عمر يقدمه مع الأشياخ وهو شاب.

فدعا له النبى ﷺ بتعلم الحكمة: وهى الإصابة فى القول، وقيل الفهم عن الله، وقيل: ما يشهد العقل بصحته، وقيل نور يفرق به بين الإلهام والوسواس، وقيل: سرعة الجواب، وقيل غير ذلك ودعا له «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل»^(٣) وفى رواية «اللهم علمه تأويل القرآن»^(٤) وكان ابن عباس من أعلم الصحابة بتفسير القرآن، وروى يعقوب بن سفيان فى «تاريخه» بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال: «لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عاشه منا رجل»^(٥) وكان يقول: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس»^(٦) وروى يعقوب أيضاً بإسناد صحيح عن أبى وائل قال: «قرأ على ابن عباس سورة النور ثم جعل يفسرها، فقال رجل: لو سمعت هذا الديلم لأسلمت»^(٧) أهـ. ومناقبه كثيرة، لا يمل من ذكرها، فانظرها فى كتب التراجم فالمراد هنا إلقاء نبذة عنه رضى الله عنه.

قوله: [أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن]:

قال ابن حجر^(٨): أى إلى جهة أهل اليمن، وهذه الرواية تقيد الرواية المطلقة بلفظ

(١) فتح البارى (١٢٦/٧).

(٢) (٤، ٣، ٢) تقدم تخريجه

(٥) تقدم.

(٦) أخرجه ابن أبى شيبة فى «مصنفه» (٥/٥١٩/٧)، وابن جرير فى «تفسيره» (١٢/١)، والحاكم فى

«المستدرک» (٣/٣٧٧).

وانظر كتابنا «النكت الممتعة» (٩٢).

(٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢٨/١)، والحاكم فى «المستدرک» (٣/٥٣٧).

وانظر «النكت الممتعة» (٩٣).

(٨) فتح البارى (٣٦١/١٣).

«حين بعثه إلى اليمن» فينت هذه الرواية أن لفظ اليمن من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أو من إطلاق العام وإرادة الخاص، أو لكون اسم الجنس يطلق على بعضه كما يطلق على كله.

والراجع أنه من حمل المطلق على المقيد كما صرحت به هذه الرواية، وفي «المغازي» من رواية أبي بردة بن أبي موسى «وبعث كل واحد منهما على مخالف» قال «واليمن مخالفان».

ثم قوله: «إلى أهل اليمن» من إطلاق الكل وإرادة البعض، لأنه إنما بعثه إلى بعضهم لا إلى جميعهم.

ويحتمل أن يكون الخبر على عمومته في الدعوى إلى الأمور المذكورة وإن كانت إمرة معاذ إنما كانت على جهة من اليمن مخصوصة. أهـ.

وقال أيضاً^(١) (قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن) كذا جميع الطرق إلا ما أخرجه مسلم، عن أبي بكر بن أبي شيبة وأبي كريب وإسحاق بن إبراهيم ثلاثتهم عن وكيع، قال فيه: «عن ابن عباس عن معاذ بن جبل قال: بعثنى رسول الله ﷺ فإن ثبتت هذه الرواية فهو من مرسل ابن عباس، لكن ليس حضور ابن عباس لذلك بعيد؛ لأنه كان في أواخر حياة النبي ﷺ وهو إذ ذاك مع أبويه بالمدينة.

● متى بعث معاذاً إلى اليمن؟

قال ابن حجر: وكان بعث معاذ إلى اليمن سنة عشر قبل حج النبي ﷺ كما في رواية البخاري في المغازي.

وقيل: سنة تسع عند مصرفه ﷺ من تبوك. رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك، ثم ذكر ابن سعد أنه كان في ربيع الآخر سنة عشر، وقيل بعثه عام الفتح سنة ثمان واتفقوا على أنه لم يزل على اليمن إلى أن قدم في عهد أبي بكر، ثم توجه إلى الشام فمات بها.

● واختلف هل كان معاذاً والياً أم قاضياً؟

قال ابن حجر: فجزم ابن عبد البر بالثاني، والغساني بالأول. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): [قلت]: الظاهر أنه كان والياً قاضياً. أهـ.

[قلت]: وفيه أيضاً منقبة لمعاذ بن جبل رضي الله عنه نص عليها ابن تيمية أنه ﷺ بعثه إلى اليمن مبلغاً عنه ومفقهاً ومعلماً وحاكماً وقاضياً وبعث لمن؟

(١) فتح الباري (٤١٩/٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٠).

لعلماء بنى إسرائيل . لعلماء أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وهذا دليل على مكانة معاذ لذلك ثبت عن النبى ﷺ أنه يقدم العلماء برتوة^(١) - وأنه أعلم الأمة بالحلال والحرام^(٢)، وأن ابن مسعود كان يقرأ هذه الآية ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ . فكان يقول (إن معاذاً كان أمة) بدلاً من (إبراهيم).

فقال بعض أصحاب ابن مسعود: أخطأ أبو عبد الرحمن؟ فقال له أتدرى ما الأمة وما القانت؟ أجابه ثم قال: وهكذا كان معاذ ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾^(٣).

لذلك الرسول ﷺ بعثه إلى اليمن.

قوله: (قال له: إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب) ورواية البخارى فى التوحيد «إنك تقدم».

قال ابن حجر^(٤): هم اليهود، وكان ابتداء دخول اليهودية اليمن فى زمن أسعد ذى (*) كرب وهو تبع الأصغر كما ذكره ابن إسحاق مطولاً فى السيرة.

فقام الإسلام وبعض أهل اليمن على اليهودية، ودخل دين النصرانية إلى اليمن بعد ذلك لما غلبت الحبشة على اليمن، وكان منهم أبرهة صاحب الفيل الذى غزا مكة وأراد هدم الكعبة حتى أجلاهم عنها سيف بن ذى يزن، كما ذكره ابن إسحاق مبسوطاً أيضاً. ولم يبق بعد ذلك باليمن أحد من النصارى أصلاً إلا بنجران وهى بين مكة واليمن، وبقي ببعض بلادها قليل من اليهود. أهـ.

وفى رواية كتاب الزكاة: «ستأتى قوماً أهل كتاب».

قال ابن حجر^(٥): هى كالتوطئة للوصية لتستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم فى الجملة فلا تكون العناية فى مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان، وليس فيه أن جميع من يقدم عليهم من أهل الكتاب، بل يجوز أن يكون فيهم من غيرهم، وإغما خصهم بالذكر تفضيلاً لهم على غيرهم. أهـ.

قلت: والرسول يقول إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب أى (اليهود والنصارى) هذه من التوطئة والتنبيه ليجمع همته العلمية للتصدى لهؤلاء العلماء الضلال المضلين (فهم إما

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم أيضاً.

(٣) تقدم فى الباب الأول.

(٤) فتح البارى (١٣/٣٦١).

(*) وسأتى من كلام ابن حجر أيضاً أنه (أسعد أبى كرب).

(٥) فتح البارى (٣/٤١٩، ٤٢٠).

ضلال وإما مضلين) فهم على أية حال علماء ذلك بأن الله سبحانه وتعالى وصفهم بالعلم.

ويقول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾.

فوصفهم بهذا ووصف بعضهم بقوله:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾.

وهو بلعام بن باعوراء وقصته معروفة في كتب التفسير^(١).

أن هذا الرجل كان من علماء بني إسرائيل فَفُتِنَ فتنه قومه بالنساء والهدايا) وقد كان أوتي اسم الله الأعظم الذي إذا ادعى به أجاب سبحانه وتعالى ورغم ذلك قال الله سبحانه وتعالى عنه ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ﴾، نسأل الله العفو والعافية.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): في قوله (من أهل الكتاب): قال القرطبي: يعني اليهود والنصارى؛ لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب أو أغلب، وإنما نبهه على هذا ليتأهب لمناظرتهم، ويعد الأدلة لإمتحانهم، لأنهم أهل علم سابق بخلاف المشركين وعبداء الأوثان. ١ هـ وتقدم بمعناه للحافظ ابن حجر.

[قلت]: سليمان آل الشيخ: وفيه أن مخاطبة العالم ليست كمخاطبة الجاهل والتنبيه على أنه ينبغي للإنسان أن يكون على بصيرة في دينه، لئلا يتلى بمن يورد عليه شبهة من علماء المشركين، ففيه التنبيه على الإحتراز من الشبه، والحرص على طلب العلم. أهـ.

وقال ابن عثيمين^(٣) في قوله ﷺ: (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب):

قال ذلك مرشداً له، وهذا دليل على معرفته ﷺ بأحوال الناس، وما يعلمه من أحوالهم، - قلت: وهذا ما يسميه البعض الواقع أوفقه الواقع قال ابن عثيمين: فله طريقان:

١- الوحي ٢- العلم والتجربة.

ثم قال: وأخبره النبي ﷺ بذلك لأمرين:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» وانظر «الدر المنثور» (٢٦٦/٤)، وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٠ - ٩١).

(٣) القول المفيد (١/١٦٤).

[الأول]: أن يكون بصيراً بأحوال من يدعو. قلت: كما تقدم من أن ذلك يسميه البعض فقه الواقع.

[الثاني]: أن يكون مستعداً لهم، لأنهم أهل كتاب، وعندهم علم. اهـ.

قال ابن حجر^(١): تنبيهان:

أحدهما: كان أصل دخول اليهودية في اليمن في زمن أسعد أبي كرب وهو تبع الأصغر كما حكاه ابن إسحق في أوائل السيرة النبوية.

ثانيهما: قال ابن العربي في شرح الترمذى: تبرأت اليهود في هذه الأزمان من القول بأن العزيز ابن الله وهذا لا يمنع كونه كان موجوداً في زمن النبي ﷺ لأن ذلك نزل في زمنه واليهود معه بالمدينة وغيرها فلم ينقل عن أحد منهم أنه رد ذلك ولا تعقبه.

والظاهر أن القائل بذلك طائفة منهم لا جميعهم بدليل أن القائل من النصارى إن المسيح ابن الله طائفة منهم لا جميعهم فيجوز أن تكون تلك الطائفة انقرضت في هذه الأزمان كما انقلب اعتقاد معظم اليهود عن التشبيه إلى التعطيل وتحول معتقد النصارى في الابن والأب إلى أنه من الأمور المعنوية لا الحسية، فسيحان مقلب القلوب. اهـ.

[قلت]: وتنبيه ثالث: أن الله تعالى أنزل التوراة على اليهود والإنجيل على النصارى، ومع ذلك قال ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ولم يقل (كتابين) وكذا قال الرسول ﷺ هنا لمعاذ (تأني قومًا من أهل الكتاب).

لأن عيسى عليه السلام لم يأت بشرع مستقل وإنما جاء ليحل لهم بعض الذي حرم عليهم أو ليضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت في أعناقهم، فهو متمم لشريعة موسى عليه السلام ويسمونه - كما هو معلوم والله الحمد والمنة لدى طلبة العلم من المسلمين - أسفار العهد القديم وأسفار العهد الجديد والسفران يسميان عندهما بالكتاب المقدس، والصليبي النصراني مطالب أن يذعن وينقاد إلى الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) ولذلك قاله عز وجل يخاطب النصارى واليهود قائلاً: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ ولم يقل يا أهل الكتابين لأن التوراة والإنجيل كتاب واحد.

قوله: [فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله]

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: وقد علم بالاضطرار

(١) فتح الباري (٣/ ٤٢٠).

(٢) تفسير العزيز الحميد (٩٣).

من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فبذلك يصير الكافر مسلماً، والعدو ولياً، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال، ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان، وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان، وفيه البداءة في الدعوة والتعليم بالأهم فالأهم، واستدل به من قال من العلماء إنه لا يشترط في صحة الإسلام النطق بالتبى من كل دين يخالف دين الإسلام لأن اعتقاد الشهادتين يستلزم ذلك وفي ذلك تفصيل.

وفيه: أنه لا يحكم بإسلام الكافر إلا بالنطق بالشهادتين.

قال شيخ الإسلام: فأما الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطناً وظاهراً عند سلف الأمة وأئمتها، وجماهير علمائها.

قلت أى سليمان: هذا والله أعلم فيمن لا يقر بهما أو بإحدهما أما من كفره مع الإقرار بهما ففيه بحث، والظاهر أن إسلامه هو توبته عما كفر به.

وفيه أن الإنسان قد يكون قارئاً عالماً وهو لا يعرف معنى لا إله إلا الله، أو يعرفه ولا يعمل به، نبه عليه المصنف.

وقال بعضهم: هذا الذى أمر به النبى ﷺ معاداً، هو الدعوة قبل القتال التى كان يوصى بها النبى ﷺ أمراءه.

قلت أى سليمان: فعلى هذا فيه استحباب الدعوة قبل القتال لمن بلغته الدعوة، أما من لم تبلغه فتجب دعوته. اهـ.

● **فائدة فى شرح بعض كلام ابن تيمية على قوله ﷺ «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله».**

قلت: فإن ابن تيمية بين أن هذه الكلمة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. أول ما يؤمر بها الخلق فبذلك يسير الكافر مسلماً إلا إذا أتى بمناقض العدو ولياً، والمباح دمه معصوم الدم والمال، ثم إذا كانت من القلب دخل في الإيمان.

وإذا كانت من اللسان ولم تدخل القلب دخل في الإسلام الحكى ومن هنا قال فى كتاب «الإيمان الأوسط» أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

يعنى كلمة إيمان وكلمة إسلام إذا اجتمعا فى موضع واحد. افترقا فى المعنى.

كما قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ

مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۖ

فهنا دل على أن الإيمان غير الإسلام.

فالإيمان هنا الأعمال القلبية، والإسلام أعمال الجوارح الظاهرة. ومثل حديث «أخبرني ما الإيمان، أخبرني ما الإسلام».

وإذا افترقا في حديث (فالإسلام هو الإيمان، والإيمان هو الإسلام) مثل حديث جبريل في تعليم أمور الدين^(١)، وحديث «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله...»^(٢)

فهنا كلمة المسلم تشمل المسلم والمؤمن.

وحديث «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(٣).

أيضا من حسن إيمانه.

فمن هنا قال شيخ الإسلام.

من هنا سار الكافر مسلماً ومباح الدم معصوم الدم... إلخ.

كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

وهذا مقصد شيخ الإسلام. والله أعلم.

وفى رواية للبخارى «فادعوهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

قال ابن حجر^(٤): كذا للأكثر، وفى أول الزكاة بلفظ «وأنى رسول الله» كذا فى رواية زكريا بن إسحاق لم يختلف عليه فيها، وأما إسماعيل بن أمية فى رواية روح بن القاسم عنه «فأول ماتدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله» وفى رواية الفضل بن العلاء عنه «إلى أن يوحدوا الله، فإذا عرفوا ذلك».

ويجمع بينها بأن المراد بعبادة الله توحيده وتوحيده الشهادة له بذلك والتبنيه بالرسالة، ووقعت البداءة بهما لأنهما أصل الدين الذى لا يصح شئ غيرهما إلا بهما

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٢١ - النووى) عن أبى هريرة.

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٣٠ - بتخريجنا).

(٣) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦) وأرسله مالك فى «الموطأ» (٢/ ٦٨٩/ ٣).

وانظر «السلسلة» (١١٨٤ - بتخريجنا).

(٤) فتح البارى (٣/ ٤٢٠).

فمن كان منهم غير موحد فالمطالبة متوجهة إليه بكل واحدة من الشهادتين على التعيين، ومن كان موحداً فالمطالبة بين الإقرار بالوحدانية والإقرار بالرسالة، وإن كانوا يعتقدون ما يقتضى الإشراك أو يستلزمه كمن يقول بنوة عزيز أو يعتد التشبيه فتكون مطالبتهم بالتوحيد لنفى ما يلزم من عقائدهم.

واستدل به من قال من العلماء إنه لا يشترط التبرى من كل دين يخالف دين الإسلام خلافاً لمن قال إن من كان كافراً بشيء وهو مؤمن بغيره لم يدخل فى الإسلام إلا بترك اعتقاد ما كفر به.

والجواب أن اعتقاد الشهادتين يستلزم ترك اعتقاد التشبيه ودعوى بنوة عزيز وغيره فيكتفى بذلك.

واستدل به على أنه لا يكفى فى الإسلام الاقتصار على شهادة أن لا إله إلا الله حتى يضيف إليها الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة وهو قول الجمهور.

وقال بعضهم: يصير بالأولى مسلماً ويطلب بالثانية. وفائدة الخلاف تظهر بالحكم بالردة. أهـ.

● من استدل بهذا الحديث على أن أول واجب المعرفة أو النظر أو القصد إليه. والرد على ذلك كله.

وفى رواية البخارى فى التوحيد «فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله فإذا عرفوا ذلك».

قال ابن حجر^(١): فى الزكاة من طريق إسماعيل بن أمية عن يحيى بن عبد الله بلفظ «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله» وكذا أخرجه مسلم عن الشيخ الذى أخرجه عنه البخارى.

وقد تمسك به من قال أول واجب المعرفة كإمام الحرمين واستدل بأنه لايتأتى الإتيان بشيء من المأمورات على قصد الإمتثال، ولا الانكفاف عن شيء من المنهيات على قصد الإنزجار إلا بعد معرفة الأمر والنهى.

واعترض عليه بأن المعرفة لايتأتى إلا بالنظر والاستدلال، وهو مقدمة الواجب فيجب فيكون أول واجب النظر.

(١) فتح البارى (١٣ / ٣٦٠).

.....
وذهب إلى هذا طائفة كابن فورك.

وتعقب بأن النظر ذو أجزاء يترتب بعضها على بعض، فيكون أول واجب جزأ من النظر وهو محكى عن القاضي أبى بكر بن الطيب وعن الأستاذ أبى إسحق الأسفرينى أول واجب القصد إلى النظر.

وجمع بعضهم بين هذه الأقوال بأن من قال أول واجب المعرفة أراد طلباً وتكليفاً، ومن قال النظر أو القصد أراد امتثالاً لأنه يسلم أنه وسيلة إلى تحصيل المعرفة، فيدل ذلك على سبق وجوب المعرفة.

وفي «كتاب الإيمان» من أعرض عن هذا من أصله وتمسك بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وحديث «كل مولود يولد على الفطرة» فإن ظاهر الآية والحديث أن المعرفة حاصلة بأصل الفطرة، وأن الخروج عن ذلك يطرأ على الشخص لقوله عليه الصلاة والسلام «فأبواه يهودانه وينصرانه»^(١) وقد وافق أبو جعفر السمنانى وهو من رءوس الأشاعرة على هذا وقال: إن هذه المسئلة بقيت فى مقالة الأشعرى من مسائل المعتزلة؛ وتفرع عليها أن الواجب على كل أحد معرفة الله بالأدلة الدالة عليه، وأنه لا يكفى التقليد فى ذلك انتهى.

● الناس فى هذه المسألة طرفان ووسط. فطرف اكتفى بالتقليد وحرّم النظر، والطرف الآخر بالغ فى النظر حتى كفر العوام الذين لم يؤهلوا للنظر

قال ابن حجر^(٢): قرأت فى جزء من كلام شيخ شيخنا الحافظ صلاح الدين العلانى ما ملخصه: أن هذه المسألة مما تناقضت فيها المذاهب وتباينت. بين مفرط ومفرط ومتوسط.

فالتطرف الأول: قول من قال يكفى التقليد المحض فى إثبات وجود الله تعالى ونفى الشريك عنه، وعمن نسب إليه إطلاق ذلك عبید الله بن الحسن العنبرى وجماعة من الحنابلة والظاهرية، ومنهم من بالغ فحرّم النظر فى الأدلة واستند إلى ما ثبت عن الأئمة الكبار من ذم الكلام.

والطرف الثانى: قول من وقف صحة إيمان كل أحد على معرفة الأدلة من علم الكلام، ونسب ذلك لأبى إسحق الأسفرينى.

(١). [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٣٨٥)، ومسلم فى القدر (٢٧/١٦). النووى) عن أبى هريرة به وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٤٠٥) وتقدم تخريجه.
(٢) فتح البارى (١٣/٣٦١، ٣٦٢).

وقال الغزالي: أسرفت طائفة فكفروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لم يعرف العقائد الشرعية بالأدلة التي حرروها فهو كافر، فضيقوا رحمة الله الواسعة وجعلوا الجنة مختصة بشرذمة يسيرة من المتكلمين.

وذكر نحوه أبو المظفر بن السمعاني وأطال في الرد على قائله، ونقل عن أكثر أئمة الفتوى أنهم قالوا: لا يجوز أن تكلف العوام إعتقاد الأصول بدلائلها، لأن في ذلك من المشقة أشد من المشقة في تعلم الفروع الفقهية.

وأما المذهب المتوسط، فذكره وسأذكره ملخصاً بعد هذا.

‘ وقال القرطبي في المفهم: في شرح حديث «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(١).

وهو في أوائل كتاب العلم من صحيح مسلم هذا الشخص الذي يبغضه الله هو الذي يقصد بخصومته مدافعة الحق وردّه بالأوجه الفاسدة والشبه الموهمة، وأشد ذلك الخصومة في أصول الدين، كما يقع لأكثر المتكلمين المعارضين عن الطرق التي أرشد إليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسلف أمته، إلى طرق مبتدعة واصطلاحات مخترعة وقوانين جدلية وأمور صناعية مدار أكثرها على آراء سوفسطائية، أو مناقضات لفظية ينشأ بسببها على الأخذ شبه ربما يعجز عنها، وشكوك يذهب الإيمان معها، وأحسنهم انفصالاً عنها أجدلهم لا أعلمهم، فكم من عالم بفساد الشبهة لا يقوى على حلها، وكم من منفصل عنها لا يدرك حقيقة علمها ثم إن هؤلاء قد ارتكبوا أنواعاً من المحال لا يرتضيها البله والأطفال، لما بحثوا عن تحيز الجواهر والألوان والأحوال، فأخذوا فيما أمسك عنه السلف الصالح من كيفيات تعلقات صفات الله تعالى وتعديدها واتحادها في نفسها، وهل هي الذات أو غيرها وفي الكلام: هل هو متحد أو منقسم.

وعلى الثاني: هل ينقسم بالنوع أو الوصف، وكيف تعلق في الأزل بالمأمور مع كونه حادثاً، ثم إذا انعدم المأمور هل يبقى التعلق، وهل الأمر لزيد بالصلاة مثلاً هو نفس الأمر لعمره بالزكاة إلى غير ذلك مما ابتدعوه مما لم يأمر به الشارع وسكت عنه الصحابة ومن سلك سبيلهم، بل نهوا عن الخوض فيها لعلمهم بأنه بحث عن كيفية ما لا تعلم كيفيته بالعقل، لكون العقول لها حد تقف عنده، ولا فرق بين البحث عن كيفية الذات وكيفية الصفات، ومن توقف في هذا فليعلم أنه إذا كان حجب عن كيفية نفسه مع

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم في العلم (٨/٤٧١/٥) عن عائشة - رضي الله

عنها - به.

(*) كذا في الأصل ولعل الصواب : بها.

وجودها، وعن كيفية إدراك ما يدرك به فهو عن إدراك غيره أعجز، وغاية علم العالم أن يقطع بوجود قائل لهذه المصنوعات منزّه عن الشبه مقدس عن النظر متصف بصفات الكمال، ثم متى ثبت النقل عنه بشيء من أوصافه وأسمائه قبلناه واعتقدناه وسكتنا عما عداه، كما هو طريق السلف، وما عداه لا يأمن صاحبه من الزلل، ويكفى في الردع عن الخوض في طرق المتكلمين ما ثبت عن الأئمة المتقدمين كعمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس والشافعي.

وقد قطع بعض الأئمة بأن الصحابة لم يخوضوا في الجواهر والعرض وما يتعلق بذلك من مباحث المتكلمين، فمن رغب عن طريقهم فكفاه ضللاً.

قال: وأفضى الكلام بكثير من أهله إلى الشك، وبيعضهم إلى الإلحاد وبيعضهم إلى التهاون بوظائف العبادات، وسبب ذلك إعراضهم عن نصوص الشارع وتطلبهم حقائق الأمور من غيره، وليس في قوة العقل ما يدرك في نصوص الشارع من الحكم التي استأثر بها.

وقد رجع كثير من أئمتهم عن طريقهم، حتى جاء عن إمام الحرمين أنه قال «ركبت البحر الأعظم، وغصت في كل شيء نهى عنه أهل العلم في طلب الحق فراراً من التقليد والآن فقد رجعت واعتقدت مذهب السلف» هذا كلامه أو معناه وعنه أنه قال عند موته «يا أصحابنا لا تشغلوا بالكلام، فلو عرفت أنه يبلغ بي ما بلغت ما تشاغل به».

إلى أن قال القرطبي: ولو لم يكن في الكلام إلا مسئلتان هما من مبادئه لكان حقيقاً بالذم:

إحدهما: قول بعضهم إن أول واجب الشك إذ هو اللازم عن وجوب النظر أو القصد إلى النظر، وإليه أشار الإمام بقوله ركبت البحر.

ثانيتهما: قول جماعة منهم إن من لم يعرف الله بالطرق التي رتبوها والأبحاث التي حرروها لم يصح إيمانه، حتى لقد أورد على بعضهم أن هذا يلزم منه تكفير أهلك وأسلافك وجيرانك، فقال لا تشنع على بكثرة أهل النار.

قال: وقد رد بعض من لم يقل بهما على من قال بهما بطريق من الرد النظري وهو خطأ منه، فإن القائل بالمسئلتين كافر شرعاً، لجعله الشك في الله واجباً، ومعظم المسلمين كفاراً حتى يدخل في عموم كلامه السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وهذا معلوم الفساد من الدين بالضرورة، وإلا فلا يوجد في الشرعيات ضرورة.

وختم القرطبي كلامه بالاعتذار عن إطالة النفس في هذا الموضوع لما شاع بين الناس

من هذه البدعة حتى اغتر بها كثير من الأغمار فوجب بذلك النصيحة، والله يهدي من شاء انتهى.

● قلت: وبرغم طوله ذكرناه لحاجة طلبة العلم إليه في هذه الأيام، ليعرفوا أصل كلام من اشترط لإسلام العوام تعلم التوحيد أو تعلمه على أيديهم، وكذلك يعرفوا طرق الرد على هؤلاء والله المستعان

قال ابن حجر^(١): وقال الآمدي في أبنكار الأفكار: ذهب أبو هاشم من المعتزلة إلى أن من لا يعرف الله بالدليل فهو كافر، لأن ضد المعرفة النكرة والنكرة كفر.

قال: وأصحابنا مجمعون على خلافه وإنما اختلفوا فيما إذا كان الاعتقاد موافقاً لكن عن غير دليل.

فمنهم: من قال إن صاحبه مؤمن عاص بترك النظر الواجب.

ومنهم: من اكتفى بمجرد الاعتقاد الموافق وإن لم يكن عن دليل وسماه علماً، وعلى هذا فلا يلزم من حصول المعرفة بهذا الطريق وجوب النظر.

وقال غيره: من منع التقليد وأوجب الاستدلال لم يرد التعمق في طريق المتكلمين، بل اكتفى بما لا يخلو عنه من نشأ بين المسلمين من الاستدلال بالمصنوع على الصانع، وغايته أنه يحصل في الذهن مقدمات ضرورية تتألق تألقاً صحيحاً وتنتج العلم، لكنه لو سئل كيف حصل له ذلك ما اهتدى للتعبير به.

وقيل الأصل في هذا كله المنع من التقليد في أصول الدين وقد انفصل بعض الأئمة عن ذلك بأن المراد بالتقليد أخذ قول الغير بغير حجة، ومن قامت عليه حجة بثبوت النبوة حتى حصل له القطع بها، فمهما سمعه من النبي ﷺ كان مقطوعاً عنده بصدقه فإذا اعتقده لم يكن مقلداً لأنه لم يأخذ بقول غيره بغير حجة، وهذا مستند السلف قاطبة في الأخذ بما ثبت عندهم من آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ فيما يتعلق بهذا الباب، فأمنوا بالمحكم من ذلك وفوضوا أمر المتشابه منه إلى ربهم، وإنما قال من قال إن مذهب الخلف أحكم بالنسبة إلى الرد على من لم يثبت النبوة، فيحتاج من يريد رجوعه إلى الحق أن يقيم عليه الأدلة إلى أن يدعن فيسلم أو يعاند فيهلك، بخلاف المؤمن فإنه لا يحتاج في أصل إيمانه إلى ذلك، وليس سبب الأول إلا جعل الأصل عدم الإيمان فلزم إيجاب النظر المؤدى إلى المعرفة وإلا فطريق السلف أسهل من هذا كما تقدم إيضاحه من الرجوع إلى ما دلت عليه النصوص حتى يحتاج إلى ما ذكر من إقامة الحجة على من ليس بمؤمن، فاختلط الأمر على من اشترط ذلك والله المستعان اهـ.

(١) فتح الباري (١٣/٣٦٢، ٣٦٣).

شبهات أخرى والرد عليها:

ثم قال: واحتج بعض من أوجب الاستدلال باتفاقهم على ذم التقليد، وذكروا الآيات والأحاديث الواردة في ذم التقليد، وبأن كل أحد قبل الاستدلال لا يدري أى الأمرين هو الهدى، وبأن كل ما لا يصح إلا بالدليل فهو دعوى لا يعمل بها، وبأن العلم إعتقاد الشيء على ما هو عليه من ضرورة أو استدلال وكل مالم يكن علماً فهو جهل، ومن لم يكن عالماً فهو ضال.

والجواب: عن الأول أن المذموم من التقليد أخذ قول الغير بغير حجة، وهذا ليس منه حكم رسول الله ﷺ فإن الله أوجب اتباعه في كل ما يقول، وليس العمل فيما أمر به أو نهى عنه داخلاً تحت التقليد المذموم اتفاقاً، وأما من دونه ممن اتبعه في قول قاله واعتقد أنه لو لم يقله لم يقل هو به فهو المقلد المذموم، بخلاف ما لو اعتقد ذلك في خبر الله ورسوله فإنه يكون ممدوحاً.

وأما احتجاجهم بأن أحداً لا يدري قبل الاستدلال أى الأمرين هو الهدى فليس بمسلم، بل من الناس من تطمئن نفسه وينشرح صدره للإسلام من أول وهلة، ومنهم من يتوقف على الاستدلال، فالذى ذكره هم أهل الشق الثانى، فيجب عليه النظر ليقى نفسه النار لقوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ ويجب على كل من استرشده أن يرشده ويبرهن له الحق وعلى هذا مضى السلف الصالح من عهد النبى ﷺ وبعده.

وأما من استقرت نفسه إلى تصديق الرسول ولم تنازعه نفسه إلى طلب دليل توفيقاً من الله وتيسيراً. فهم الذين قال الله في حقهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الآية. وقال ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الآية وليس هؤلاء مقلدين لأبائهم ولا لرؤسائهم. لأنهم لو كفر آبائهم أو رؤسائهم لم يتابعوهم بل يجدون النفرة عن كل من سمعوا عنه ما يخالف الشريعة.

وأما الآيات والأحاديث فإنما وردت في حق الكفار الذين اتبعوا من نهوا عن اتباعه وتركوا اتباع من أمروا باتباعه.

وإنما كلفهم الله الإتيان ببرهان على دعواهم بخلاف المؤمنين فلم يرد قط أنه أسقط اتباعهم حتى يأتوا بالبرهان. وكل من خالف الله ورسوله فلا برهان له أصلاً وإنما كلف الإتيان بالبرهان تبكيتاً وتعجيزاً. وأما من اتبع الرسول فيما جاء به فقد اتبع الحق الذى أمر به وقامت البراهين على صحته، سواء علم هو بتوجيه ذلك البرهان أم لا.

وقول من قال منهم إن الله ذكر الاستدلال وأمر به: مسلم لكن هو فعل حسن

مندوب لكل من أطاقه، وواجب على كل من لم تسكن نفسه إلى التصديق كما تقدم
تقريره وبالله التوفيق اهـ.

الرد على من زعم أن طريقة الخلف أحكم وطريقة السلف أسلم في هذا الباب.

نقل ابن حجر: قول من قال طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أحكم ثم رده بقوله
أنه: ليس بمستقيم، لأنه ظن أن طريقة السلف مجرد الإيمان بالفاظ القرآن والحديث من
غير فقه في ذلك، وأن طريقة الخلف هي إستخراج معاني النصوص المصروفة عن
حقائقها بأنواع المجازات، فجمع هذا القائل بين الجهل بطريقة السلف والدعوى في طريقة
الخلف، وليس الأمر كما ظن، بل السلف في غاية المعرفة بما يليق بالله تعالى، وفي غاية
التعظيم له والخضوع لأمره والتسليم لمراه، وليس من سلك طريق الخلف واثقاً بأن الذي
يتأوله هو المراد ولا يمكنه القطع بصحة تأويله.

وأما قولهم في العلم فزادوا في التعريف عن ضرورة أو استدلال وتعريف العلم،
انتهى عند قوله عليه: فإن أبوا إلا الزيادة فليزدادوا عن تيسير الله له ذلك وخلقه ذلك
المعتقد في قلبه، وإلا فالذي زادوه هو محل النزاع فلا دلالة فيه وبالله التوفيق.

وقال أبو المظفر بن السمعاني: تعقب بعض أهل الكلام قول من قال إن السلف من
الصحابة والتابعين. لم يعتنوا بإيراد دلائل العقل في التوحيد بأنهم لم يشتغلوا
بالتعريفات في أحكام الحوادث وقد قبل الفقهاء ذلك واستحسنوه فدونه في كتبهم،
فكذلك علم الكلام، ويمتاز علم الكلام بأنه يتضمن الرد على الملحددين وأهل الأهواء،
وبه تزول الشبهة عن أهل الزيغ ويثبت اليقين لأهل الحق، وقد علم الكل أن الكتاب لم
تعلم حقيقته، والنبي لم يثبت صدقه إلا بأدلة العقل.

وأجاب: أما أولاً: فإن الشارع والسلف الصالح نهوا عن الابتداع وأمروا بالإتباع،
وصح عن السلف أنهم نهوا عن علم الكلام وعدوه ذريعة للشك والإرتياب.

وأما الفروع فلم يثبت عن أحد منهم النهى عنها إلا من ترك النص الصحيح وقدم
عليه القياس.

وأما من اتبع النص وقاس عليه فلا يحفظ عن أحد من أئمة السلف إنكار ذلك، لأن
الحوادث في المعاملات لا تنقضى وبالناس حاجة إلى معرفة الحكم، فمن ثم تواردوا على
إستحباب الإشتغال بذلك بخلاف علم الكلام.

وأما ثانياً: فإن الدين كمل لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فإذا كان أكمله
وأتمه وتلقاه الصحابة عن النبي ﷺ واعتقده من تلقى عنهم واطمأنت به نفوسهم، فأى
حاجة بهم إلى تحكيم العقول والرجوع إلى قضايها وجعلها أصلاً، والنصوص

الصحيحة الصريحة تعرض عليها فتارة يعمل بضمونها، وتارة تحرف عن مواضعها لتوافق العقول.

وإذا كان الدين قد كُمل فلا تكون الزيادة فيه إلا نقصاناً في المعنى، مثل زيادة أصبع في اليد فإنها تنقص قيمة العبد الذي يقع به ذلك.

وقد توسط بعض المتكلمين فقال: لا يكفي التقليد بل لابد من دليل ينشرح به الصدر. وتحصل به الطمأنينة العلمية، ولا يشترط أن يكون بطريق الصناعة الكلامية بل يكفي في حق كل أحد بحسب ما يقتضيه فهمه إنهى.

والذي تقدم ذكره من تقييد النصوص كاف في هذا القدر. أهـ.

● الخلاصة ومذهب أهل التوسط، والحسنة بين السيتين، وأدلتهم

قال ابن حجر^(١): وقال بعضهم المطلوب من كل واحد التصديق الجزمى الذي لا ريب معه بوجود الله تعالى والإيمان برسله وبما جاءوا به كيفما حصل وبأى طريق إليه يوصل، ولو كان عن تقليد محض إذا سلم من التزلزل.

قال القرطبي: هذا الذى عليه أئمة الفتوى ومن قبلهم من أئمة السلف، واحتج بعضهم بما تقدم من القول فى أصل الفطرة وبما تواتر عن النبى ﷺ ثم الصحابة أنهم حكموا بإسلام من أسلم من جفاة العرب ممن كان يعبد الأوثان، فقبلوا منهم الإقرار فأسلم بسبب وضوحه له، فالكثير منهم قد أسلموا طوعاً من غير تقدم استدلال، بل بمجرد ما كان عندهم من أخبار أهل الكتاب بأن نبياً سيبعث ويتنصر على من خالفه، فلما ظهرت لهم العلامات فى محمد ﷺ بادروا إلى الإسلام، وصدقوه فى كل شىء قاله ودعاهم إليه من الصلاة والزكاة وغيرهما، وكثير منهم كان يؤذن له فى الرجوع إلى معاشه من رعاية الغنم وغيرها، وكانت أنوار النبوة وبركاتها تشملهم فلا يزالون يزدادون إيماناً و يقيناً.

وقال أبو المظفر بن السمعاني أيضاً ما ملخصه: إن العقل لا يوجب شيئاً ولا يحرم شيئاً، ولا حظ له فى شىء من ذلك، ولو لم يرد الشرع بحكم، ما وجب على أحد شىء، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقوله: ﴿لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وغير ذلك من الآيات.

فمن زعم أن دعوة رسل الله عليهم الصلاة والسلام إنما كانت لبيان الفروع، لزمه أن يجعل العقل هو الداعى إلى الله دون الرسول ويلزمه أن وجود الرسول وعدمه بالنسبة إلى الدعاء إلى الله سواء، وكفى بهذا ضلالاً. ونحن لانكر أن العقل يرشد إلى

(١) فتح البارى (١٣/٣٦٥، ٣٦٦).

التوحيد وإنما ننكر أن يستقل بإيجاب ذلك حتى لا يصح إسلام إلا بطريقه، مع قطع النظر عن السمعية لكون ذلك خلاف ما دلت عليه آيات الكتاب والأحاديث الصحيحة التي تواترت ولو بالطريق المعنوي، ولو كان كما يقول أولئك لبطلت السمعية التي لا مجال للعقل فيها أو أكثرها، بل يجب الإيمان بما ثبت من السمعية، فإن عقلناه فبتوفيق الله وإلا أكتفينا باعتقاد حقيقته على وفق مراد الله سبحانه وتعالى إنتهى.

ويؤيد كلامه ما أخرجه أبو داود عن ابن عباس «أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ أنشدك الله: آله أرسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن ندع اللات والعزى؟ قال: نعم فأسلم». وأصله في الصحيحين في قصة ضمام بن ثعلبة^(١).

وفى حديث عمرو بن عبسة عند مسلم أنه «أتى النبي ﷺ فقال ما (*) أنت؟ قال: نبي الله. قلت: آله أرسلك؟ قال: نعم. قلت: بأى شيء؟ قال: أوحده الله لا أشرك به شيئاً» الحديث^(٢).

وفى حديث أسامة بن زيد فى قصة قتله الذى قال لا إله إلا الله فأنكر عليه النبى ﷺ^(٣) وحديث المقداد فى معناه^(٤). وهما عند البخارى فى «كتاب الديات».

وفى كتب النبى ﷺ إلى هرقل وكسرى وغيرهما من الملوك يدعوهم إلى التوحيد^(٥)؛ إلى غير ذلك من الأخبار المتواترة التواتر المعنوي الدال على أنه ﷺ لم يزد فى دعائه المشركين على أن يؤمنوا بالله وحده ويصدقوه فيما جاء به عنه، فمن فعل ذلك قبل منه سواء كان إذعانه عن تقدم نظر أم لا، ومن توقف منهم نبهه حينئذ على النظر، أو أقام عليه الحجة إلى أن يذعن أو يستمر على عناده.

وقال البيهقى فى «كتاب الاعتقاد»: سلك بعض أئمتنا فى إثبات الصانع وحدث العالم طريق الإستدلال بمعجزات الرسالة فإنها أصل فى وجوب قبول ما دعا إليه النبى ﷺ. وعلى هذا الوجه وقع إيمان الذين استجابوا للرسول.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٣)، ومسلم فى الإيمان (١/٢٠١) عن أنس به.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٣/٣٧٦/٢٩٤) وانظر «منار السيل - بتخریجنا».

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٢٦٩)، ومسلم فى الإيمان (٢/١٠٠ - النووى).

وانظر «رياض الصالحين» (٣٩٤ - بتخریجنا).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٠١٩)، ومسلم فى الإيمان (٢/٩٨ - النووى).

وانظر «رياض الصالحين» (٣٩٣ - بتخریجنا).

(٥) تقدم فى أول الكتاب.

(*) هكذا فى الأصل ولعل الصواب: من أنت؟

ثم ذكر قصة النجاشي وقول جعفر بن أبي طالب له «بعث الله إلينا رسولا نعرف صدقه فدعانا إلى الله وتلا علينا تنزيلا من الله لا يشبهه شيء فصدقناه وعرفنا أن الذي جاء به الحق» الحديث بطوله^(١).

وقد أخرجه ابن خزيمة في «كتاب الزكاة» من صحيحه من رواية ابن إسحق وحاله معروفة وحديثه في درجة الحسن.

قال البيهقي: فاستدلوا بإعجاز القرآن على صدق النبي، فأمنوا بما جاء به من إثبات الصانع ووحدانيته وحدوث العالم وغير ذلك مما جاء به الرسول ﷺ في القرآن وغيره، واكتفاء غالب من أسلم بمثل ذلك مشهور في الأخبار، فوجب تصديقه في كل شيء ثبت عنه بطريق السمع، ولا يكون ذلك تقليداً بل هو اتباع والله أعلم.

وقد استدل من اشترط النظر بالآيات والأحاديث الواردة في ذلك، ولا حجة فيها لأن من لم يشترط النظر لم ينكر أصل النظر، وإنما أنكر توقف الإيمان على وجود النظر بالطرق الكلامية، إذ لا يلزم من الترغيب في النظر جعله شرطاً، واستدل بعضهم بأن التقليد لا يفيد العلم إذ لو أفاده لكان العلم حاصلًا لمن قلد في قدم العالم ولمن قلد في حدوثه. وهو محال لإفضائه إلى الجمع بين النقيضين. وهذا إنما يتأتى في تقليد غير النبي ﷺ.

وأما تقليده ﷺ فيما أخبر به عن ربه فلا يتناقض أصلاً واعتذر بعضهم عن اكتفاء النبي، والصحابة بإسلام من أسلم من الأعراب من غير نظر بأن ذلك كان لضرورة المبادئ.

وأما بعد تقرر الإسلام وشهرته فيجب العمل بالأدلة ولا يخفى ضعف هذا الاعتذار والعجب أن من اشترط ذلك من أهل الكلام ينكرون التقليد وهم أول داع إليه حتى استقر في الأذهان أن من أنكر قاعدة من القواعد التي أصلوها فهو مبتدع ولو لم يفهمها ولم يعرف مأخذها وهذا هو محض التقليد فالأمرهم إلى تكفير من قلد الرسول عليه الصلاة والسلام في معرفة الله تعالى والقول بإيمان من قلدهم وكفى بهذا ضلالاً وما مثلهم إلا كما قال بعض السلف: إنهم كمثل قوم كانوا سفراً فوقعوا في فلاة ليس فيها ما يقوم به البدن من المأكول والمشروب ورأوا فيها طرقاً شتى فانقسموا قسمين فقسم وجدوا من قال لهم أنا عارف بهذه الطرق وطريق النجاة منها واحدة فاتبعوني فيها تنجوا فتبعوه فنجوا، وتخلفت عنه طائفة فأقاموا إلى أن وقفوا على أمانة ظهر لهم أن في العمل بها النجاة فعملوا بها فنجوا وقسم هجموا بغير مرشد ولا أمانة فهلكوا، فليست نجاة من اتبع المرشد بدون نجاة من أخذ بالأمانة إن لم تكن أولى منها.

ونقلت من جزء الحافظ صلاح الدين العلائي يمكن أن يفصل فيقال: من لا أهلية له لفهم شيء من الأدلة أصلاً وحصل له اليقين التام بالمطلوب إما بنشأته على ذلك أو لتوريقذه الله في قلبه، فإنه يكتفي منه بذلك، ومن فيه أهلية لفهم الأدلة لم يكتف منه إلا بالإيمان عن دليل، ومع ذلك فدليل كل أحد بحسبه وتكفي الأدلة المجملة التي تحصل بأدنى نظر، ومن حصلت عنده شبهة وجب عليه التعلم إلى أن تزول عنه.

قال فبهذا يحصل الجمع بين كلام الطائفة المتوسطة.

وأما من غلا فقال لا يكفي إيمان المقلد فلا يلتفت إليه، لما يلزم منه من القول بعدم إيمان أكثر المسلمين، وكذا من غلا أيضاً فقال لا يجوز النظر في الأدلة لما يلزم منه من أن أكابر السلف لم يكونوا من أهل النظر أنتهى ملخصاً. أه كلام الحافظ.

● إشكال وجوابه

قال ابن حجر^(١): واستدل بقوله: «إذا عرفوا الله» بأن معرفة الله بحقيقة كتبه ممكنة للبشر.

الجواب: فإن كان ذلك مقيداً بما عرف به نفسه من وجوده وصفاته اللاتقة من العلم والقدرة والإرادة مثلاً، وتزييه عن كل نقیصة كالحادث فلا بأس به، فأما ما عدا ذلك فإنه غير معلوم للبشر وإليه الإشارة بقوله تعالى: «وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً» فإذا حمل قوله فإذا عرفوا الله على ذلك كان واضحاً مع أن الاحتجاج به يتوقف على الجزم بأنه ﷺ نطق بهذه اللفظة وفيه نظر؛ لأن القصة واحدة ورواة هذا الحديث اختلفوا: هل ورد الحديث بهذا اللفظ أو بغيره؟

فلم يقل ﷺ إلا بلفظ منها، ومع احتمال أن يكون هذا اللفظ من تصرف الرواة لا يتم الإستدلال، وقد بينت في أواخر «كتاب الزكاة» أن الأكثر رويه بلفظ «فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك».

ومنهم من رواه بلفظ «فادعهم إلى أن يوحدوا الله فإذا عرفوا ذلك».

ومنهم من رواه بلفظ: «فادعهم إلى عبادة الله، فإذا عرفوا الله».

وجه الجمع بينهما أن المراد بالعبادة: التوحيد، والمراد بالتوحيد: الإقرار بالشهادتين، والإشارة بقوله ذلك إلى التوحيد.

وقوله: «إذا عرفوا الله» أى عرفوا توحيد الله، والمراد بالمعرفة الإقرار والطوعية فبذلك يجمع بين هذه الألفاظ المختلفة في القصة الواحدة وبالله التوفيق. أه. قلت: تقدم هذا مراراً وأعيد هنا لهذه الفائدة.

(١) فتح الباری (١٣/٣٦٦).

لماذا ذكر هذه الروايات فى باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

الجواب: تقدم كلام سليمان آل الشيخ فى سبب اختيار المصنف هذه الرواية على غيرها فى أول الكلام على حديث ابن عباس، وأيضاً لأن إختلاف هذه الروايات إختلاف تفسير أو تنوع فبعضهم رواه بلفظ والآخر بلفظ آخر، فهما يؤديا نفس المعنى ورغم أن المقام واحد إلا أنه ذكر الروايات جميعاً ليبين أن معنى التوحيد عند النبى ﷺ والسلف هو إفراد الله بالعبادة، فمرة يقول «أن يوحدوا» ومرة يقول «إلى شهادة لا إله إلا الله» والمعنى واحد فمعنى التوحيد هو إفراد الله بالعبادة.

وكلاهما يبين أن العبادة هى الحكم والنهى والأمر والتشريع.

مثل المسألة التى أكد عليها المصنف فى أول الكتاب وهى حق الله على العباد.

وذلك بقوله: كتاب التوحيد وحق الله على العباد وقوله الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

فما هو التوحيد الذى تدعو إليه؟

وتوحيد العبادة الذى هو حق الله على العبد وإفراد الله بالعبادة كما هو مبين فى حديث معاذ ولذا أورد المصنف هذه الروايات فى هذا الباب.

هذا هو التوحيد الذى أمرنا أن ندعوا إليه فى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾، وفى قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾

ذلك لأن توحيد الله فى العبادة: هو جامع لكل أنواع التوحيد وأصوله. فالموحد فى هذا يقر بالربوبية ويقر بالأسماء والصفات فلولا أنه يعلم أنه مدبر رازق ماعبده. وما أخلص العبادة له فالخلق يقتضى الأمر وترك الأمر له والرزق يقتضى ترك الشكر له. فلما شكره وامثل لأمره أقر أنه الخالق والرازق والمدبر وأتى بمقتضيات هذا الأفراد.

وما صرف له هذا الأمر والنهى وهذا التوحيد إلا لعلمه بأن الله له صفات الكمال وله الكمال فى الصفات؛ ولذلك ظاهر صنيع البخارى فى كتاب التوحيد فى آخر الصحيح

يبين أن المشبه أو المعطل لا يوحد في الحقيقة لأنه إما أنه جعل له شبيه أو نظير أو بتعدد نظائره وأشباهه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

فهذا في الحقيقة لا يوحد ولما كانت الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة هي دعوة إلى التوحيد بكل صوره وأنواعه التي فسرّها العلماء ناسب أيضا أن تذكر هذه الروايات: «فليكن أول ما تدعوهم إليه هو شهادة لا إله إلا الله».

«فليكن أول ما تدعوهم إليه هو توحيد الله».

«فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يعبدوا الله، والله أعلم».

● فائدة: في حكم الدعوة إلى الله تعالى

ذكرنا في مقدمة الباب أن ناصر السعدى^(١) قال: إذا كانت الدعوة إلى الله، وإلى شهادة أن لا إله إلا الله فرضاً على كل أحد كان من الواجب على كل أحد بحسب مقدوره.

فعلى العالم من بيان ذلك والدعوة والإرشاد والهداية أعظم مما على غيره ممن ليس بعالم.

وعلى القادر ببدنه ويده أو ماله أو جاهه وقوله أعظم مما على من ليس له تلك القدرة. قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ورحم الله من أعان على الدين ولو بشطر كلمة، وإنما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين. أهـ.

وقال ابن باز^(٢) في أول الباب: أى باب وجوب فضيلة الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، لأنها أختها، فمراد المؤلف الدعوة إلى التوحيد، وإلى اتباع الرسول وهذا واجب على العلماء وفرض عليهم. أهـ.

ذكر ابن باز أن الأصل أنها واجب على الكفاية، إن قام بها البعض سقطت عن الباقيين شريطة أن تكون الأمة أو الطائفة التى تدعو تكفى فإذا لم تكن تكفى تعين على الجميع أن يسدوا هذا الواجب.

الجهاد واجب على الكفاية الدليل ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ الآية. فإذا الذين نفروا لم يكفى لسد ثغر المسلمين.. تعين على الباقي أن يقوم حتى تقوم طائفة تكفى لسد هذه الأمر.

واجب الكفاية لا يسقط إلا بقيام القدر الكافى بهذا الواجب لكن إذا لم يقم القدر الكافى به تعين على الباقي أن يقوموا لأداء هذا الواجب.

(٢) التعليق المفيد (٥١).

(١) القول السديد (٢٩).

ومن هذا المنطلق قال ابن باز فإن الدعوة إلى الله عز وجل اليوم أصبحت فرضاً عاماً وواجباً على جميع العلماء وعلى جميع الحكام الذين يدينون بالإسلام . أهـ. أن الدعوة إلى الله الآن واجب عيني لأن الطائفة الأولى التى قامت تدعو لم تكف بعد؛ لكثرة الإباحية والتبشير والملل الأخرى والفساد والإفساد ولأن من قام يدعو لم يسد هذا الثغر ولم يقم بعد بهذا الواجب على الوجه الواجب .

فلذا كانت الدعوة واجب على كل مسلم واجب عيني كل بحسب قدرته وطاقته .

● الأدلة على وجوب الدعوة وعلى الوجوب على الكفاية:

والآيات فى ذلك:

(١) ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أمر يحمل على الوجوب .

(٢) ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ .

أمر الطائفة من الأمة تقوم للدعوة لتسد حاجة المسلمين فإذا لم تكف تعين على المسلمين أن يقوموا لمعاونتهم .

(٣) ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

وحديث معاذ: فى الباب «وليكن أول ما تدعوهم إليه لا إله إلا الله» .

الخلاصة: أن الدعوة واجب عيني والذى لا يدعو بعد سماع هذا الحكم يأثم .

يدعو فى متجره ، ومصنعه - مدرسته - جامعته - أهله - قومه - حسب قدرته واستطاعته فإذا لم يقم بالدعوة فهو آثم .

وهذا ما ذهب إليه الشيخ عبدالعزيز بن باز حيث قال: فعند قلة الدعاة وعند كثرة المنكرات وعند غلبة الجهل كحالنا اليوم تكون الدعوة فرض عين على كل واحد بحسب طاقته . أهـ. ثم ذكر أننا الآن مع قلة الدعاة وانتشار الفساد والأفكار الشريكية يجب على كل مسلم وجوباً عينياً أن يدعو على قدر استطاعته .

قوله: «فإن هم أطاعوك لذلك» .

وفى رواية البخارى^(١) فى الزكاة «فإن هم أطاعوك لذلك» .

(١) فتح البارى (٣/ ٤٢٠ - ٤٢١) .

قال ابن حجر: أى شهدوا وانقادوا، وفى رواية ابن خزيمة «فإن هم أجابوا لذلك» وفى رواية الفضل بن العلاء كما تقدم «فإذا عرفوا ذلك» وعدى أطاع باللام وإن كان يتعدى بنفسه لتضمنه معنى إنقاد، واستدل به على أن أهل الكتاب ليسوا بعارفين وإن كانوا يعبدون الله ويظهرون معرفته لكن قال حذاق المتكلمين: ما عرف الله من شبهه بخلقه أو أضاف إليه اليد أو أضاف إليه الولد^(١) فمعبودهم الذى عبده ليس هو الله وإن سموه به.

واستدل به على أن الكفار غير مخاطبين بالفروع حيث دعوا أولاً إلى الإيمان فقط، ثم دعوا إلى العمل، ورتب ذلك عليها بالفاء. وأيضاً فإن قوله «فإن هم أطاعوا فأخبرهم» يفهم منه أنهم لو لم يطيعوا لا يجب عليهم شئ.

وفيه نظر لأن مفهوم الشرط مختلف فى الإحتجاج به. وأجاب بعضهم عن الأول بأنه استدلال ضعيف، لأن الترتيب فى الدعوة لا يستلزم الترتيب فى الوجوب، كما أن الصلاة والزكاة لارتتيب بينهما فى الوجوب، وقد قدمت إحداهما على الأخرى فى هذا الحديث ورتبت الأخرى عليها بالفاء، ولا يلزم من عدم الإتيان بالصلاة إسقاط الزكاة. وقيل: الحكمة فى ترتيب الزكاة على الصلاة أن الذى يقر بالتوحيد ويجحد الصلاة يكفر بذلك فيصير ماله فيئاً فلا تنفعه الزكاة، وأما قول الخطابى إن ذكر الصدقة آخر عن ذكر الصلاة لأنها إنما تجب على قوم دون قوم وأنها لا تكرر تكرار الصلاة فهو حسن، وتامه أن يقال بدأ بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف فى الخطاب لأنه لو طالبهم بالجميع فى أول مرة لم يأمن النفرة.

وقوله فى المرة الثانية «فإن هم أطاعوك لذلك». **قال ابن حجر^(٢)** «فإن هم أطاعوا لك لذلك» قال ابن دقيق العيد: يحتمل وجهين.

(١) قال ابن باز فى الحاشية: لاشك من شبه الله بخلقه أو أضاف إليه الولد جاهل به سبحانه ولم يقدره حق قدره، لأنه سبحانه لاشييه له ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً. وأما إضافة اليد إليه سبحانه فمحل تفصيل، فمن أضافها إليه سبحانه على أنها من جنس أيدي المخلوقين فهو مشبه ضال، وأما من أضافها إليه على الوجه الذى يليق بجلاله من غير أن يشابه خلقه فى ذلك فهذا حق، وإثباته لله على هذا الوجه واجب كما نطق به القرآن وصحت به السنة، وهو مذهب أهل السنة، فتنبه. والله الموفق.

(٢) فتح البارى (٣/ ٤٢١).

أحدهما: أن يكون المراد إقرارهم بوجوبها عليهم والتزامهم لها.
والثاني: أن يكون المراد الطاعة بالفعل.

وقد يرجح الأول بأن المذكور هو الإخبار بالفريضة فتعود الإشارة بذلك إليها.
ويترجح الثاني بأنهم لو أخبروا بالفريضة فبادروا إلى الإمتثال بالفعل لكفى
ولم يشترط التلفظ بخلاف الشهادتين، فالشرط عدم الإنكار والإذعان للوجوب.
أنتهى.

والذى يظهر أن المراد القدر المشترك بين الأمرين، فمن امتثل بالإقرار أو بالفعل كفاء
أو بهما فأولى، وقد وقع فى رواية الفضل بن العلاء بعد ذكر الصلاة «فإذا صلوا» وبعد
ذكر الزكاة «فإذا أقروا بذلك فخذ منهم».

قوله: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة».
قال ابن حجر^(١): قوله: «خمس صلوات» استدل به على أن الوتر ليس بفرض
أهـ.

وقال سليمان آل الشيخ^(٢): لاسيما وهذا فى آخر الأمر.
وقال أيضاً: فيه أن الصلاة بعد التوحيد والإقرار بالرسالة أعظم الواجبات وأحبها.
واستدل به على أن الكفار غير مخاطبين بالفروع حيث دعاهم أولاً إلى التوحيد فقط،
ثم دعوا إلى العمل ورتب ذلك عليها بالفاء. أهـ.
[قلت]: وقد تقدم كلام الحافظ على ذلك فى قوله «فإن هم أطاعوك لذلك».
وفيه أن الصلاة أوجب الواجبات بعد التوحيد، وليس الجهاد بل الجهاد من وسائل
نشر التوحيد.

وفيه مؤدى كلام النووى أن المطالبة بالفرائض لا تكون إلا بعد الإسلام.
وفيه بيان لأخطاء القائمين على تربية بعض الشباب لبعدهم عن مرحلية الدعوة
وتدريجهم وسيأتى فى نهاية هذا الباب مزيد تفسير لحكمة الداعى فى دعوته.
قوله: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم».
وعليه بوب البخارى «لاتؤخذ كرائم أموال الناس فى الصدقة».

(١) فتح البارى (٤٢١/٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٣).

قال ابن حجر^(١): هذه الترجمة مقيدة لمطلق الحديث لأن فيه «وتوق كرائم أموال الناس» بغير تقييد بالصدقة، وأموال الناس يستوى التوقى لها بين الكرائم وغيرها فقيدها فى الترجمة بالصدقة وهو بين من سياق الحديث لأنه ورد فى شأن الصدقة. والكرائم جمع كريمة يقال ناقة كريمة أى غزيرة اللبن، والمراد نفائس الأموال من أى صنف كان.

وقيل له نفيس لأن نفس صاحبه تتعلق به وأصل الكريمة كثيرة الخير.

وقيل للمال النفيس كريم لكثرة منفعته. أهـ.

قال ابن حجر^(٢): قوله «صدقة» وفى رواية الفضل بن العلاء «افترض عليهم زكاة فى أموالهم تؤخذ من غنيهم فتد على فقيرهم».

ثم قال قوله: «تؤخذ من أغنيائهم» استدل به على أن الإمام هو الذى يتولى قبض الزكاة وصرفها إما بنفسه وإما بنائبه، فمن امتنع منها أخذت منه قهراً.

قوله: «على فقرائهم» استدل به لقول مالك وغيره إنه يكفى إخراج الزكاة فى صنف واحد، وفيه بحث كما قال ابن دقيق العيد لإحتمال أن يكون ذكر الفقراء لكونهم الغالب فى ذلك وللمطابقة بينهم وبين الأغنياء.

وقال الخطابى: وقد يستدل به من لا يرى على المدينون زكاة ما فى يده إذا لم يفضل من الدين الذى عليه قدر نصاب؛ لأنه ليس بغنى إذا كان إخراج ماله مستحقاً لغرمائه. وبوب البخارى^(٣) عليه فى موضع آخر: «باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد فى الفقراء حيث كانوا»

قال ابن حجر: ظاهر حديث الباب أن الصدقة ترد على فقراء من أخذت من أغنيائهم.

وقال ابن المنير: اختار البخارى جواز نقل الزكاة من بلد المال لعموم قوله: «فتد فى فقرائهم» لأن الضمير يعود على المسلمين، فأى فقير منهم ردت فيه الصدقة فى أى جهة كان فقد وافق عموم الحديث انتهى.

(١) فتح البارى (٣/٣٧٨).

(٢) فتح البارى (٣/٤٢١).

(٣) فتح البارى (٣/٤١٨ - ٤١٩).

والذى يتبادر إلى الذهن من هذا الحديث عدم النقل، وأن الضمير يعود على المخاطبين فيختص بذلك فقراؤهم.

لكن رجح ابن دقيق العيد الأول وقال: إنه وإن لم يكن الأظهر إلا أنه يقويه أن أعيان الأشخاص المخاطبين في قواعد الشرع الكلية لا تعتبر، فلا تعتبر في الزكاة كما لا تعتبر في الصلاة فلا يختص بهم الحكم وإن اختص بهم خطاب المواجهة. إنتهى.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة فأجاز النقل الليث وأبو حنيفة وأصحابهما، ونقله ابن المنذر عن الشافعى واختاره، والأصح عند الشافعية والمالكية والجمهور ترك النقل فلو خالف ونقل أجزاً عند المالكية على الأصح، ولم يجزىء عند الشافعية على الأصح إلا إذا فقد المستحقون لها، ولا يبعد أنه اختيار البخارى لأن قوله: حيث كانوا يشعر بأنه لا ينقلها عن بلد وفيه من هو متصف بصفة الإستحقاق.

قال ابن حجر^(١): قوله: «فإياك وكرائم أموالهم» كرائم منصوب بفعل مضمر لا يجوز إظهاره.

قال ابن قتيبة: ولا يجوز حذف الواو، والكرائم جمع كريمة أى نفيسة وتقدم بأعلاه ففيه ترك أخذ خيار المال، والنكته فيه أن الزكاة لمواساة الفقراء فلا يناسب ذلك الإجحاف بمال الأغنياء إلا إن رضوا بذلك أهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): فيه أنه يحرم على العامل أخذ كرائم المال في الزكاة، بل يأخذ الوسط، ويحرم على صاحب المال إخراج شر المال بل يخرج الوسط، فإن طابت نفسه بإخراج الكريمة جاز أهـ.

قال ابن حجر^(٣): قوله «واتق دعوة المظلوم» أى تجنب الظلم لشلا يدعو عليك المظلوم. وفيه تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم، والنكته في ذكره عقب المنع من أخذ الكرائم الإشارة إلى أن أخذها ظلم.

وقال بعضهم: عطف واتق على عامل إياك المحذوف وجوباً، فالتقدير اتق نفسك أن تتعرض للكرائم، وأشار بالعطف إلى أن أخذ الكرائم ظلم، ولكنه عمم إشارة إلى التحرز عن الظلم مطلقاً. أهـ.

(١) فتح البارى (٣/ ٤٢٠).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٣).

(٣) فتح البارى (٣/ ٤٢١ - ٤٢٢).

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «فإنه» أى الشأن: «إذ ليس بينها وبين الله حجاب» أى لا تحجب عن الله تعالى، بل ترفع إليه فيقبلها وإن كان عاصياً.
كما فى حديث أبى هريرة عند أحمد مرفوعاً: «دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه»^(٢) إسناده حسن.

قاله ابن حجر وقال أبو بكر بن العربى: هذا وإن كان مطلقاً فهو مقيد بالحديث الآخر أن الداعى على ثلاث مراتب: إما أن يجعل له ما طلب وإما أن يدخر له أفضل منه، وإما أن يدفع عنه من السوء مثله وهذا كما قيد مطلقاً قوله: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ» بقوله تعالى: «فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ» وفى الحديث أيضاً قبول خبر الواحد العدل ووجوب العمل به، وأن الإمام يبعث العمال لجباية الزكاة وأنه يعظ عماله وولاته ويأمرهم بتقوى الله ويعلمهم ما يحتاجون إليه، وينهاهم عن الظلم، ويعرفهم قبح عاقبته والتنبيه على التعليم بالتدريج، ذكره المصنف.

● إشكال:

قال سليمان آل الشيخ^(٣): واعلم أنه لم يذكر فى هذا الحديث ونحوه الصوم والحج، مع أن بعث معاذ كان فى آخر الأمر كما تقدم، فأشكل ذلك على كثير من العلماء.

قال شيخ الإسلام: أجاب بعض الناس أن الرواة اختصر بعضهم الحديث وليس الأمر كذلك، فإن هذا طعن فى الرواة لأن هذا إنما يقع فى الحديث الواحد مثل حديث عبد القيس^(٤) حيث ذكر بعضهم الصيام وبعضهم لم يذكره. فأما الحديثان المفضلان فليس الأمر فيهما كذلك.

ولكن عن هذا جوابان:

● أحدهما: أن ذلك بحسب نزول الفرائض، وأول ما فرض الله الشهادتان ثم الصلاة، فإنه أمر بالصلاة فى أول أوقات الوحى، ولهذا لم يذكر وجوب الحج فى عامة

(١) تيسير العزيز الحميد (٩٤).

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٦٧/٢).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٩٥).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٣٩٨)، ومسلم فى الإيمان (٢٣/٢١٢/١) عن ابن عباس.

الأحاديث إنما جاء فى الأحاديث المتأخرة. قلت: وهذا من الأحاديث المتأخرة ولم يذكر فيها الجواب(*)).

الثانى: أنه كان يذكر فى كل مقام ما يناسبه، فيذكر تارة الفرائض التى يقاتل عليها كالصلاة والزكاة، ويذكر تارة الصلاة والصيام إن لم يكن عليه زكاة، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصيام. فإما أن يكون قبل فرض الحج كما فى حديث عبد القيس ونحوه، وإما أن يكون المخاطب بذلك لاحق عليه.

وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض، ولهذا ذكر الله تعالى فى كتابه القتال عليهما لأنهما عبادتان ظاهرتان بخلاف الصوم، فإنه أمر باطن وهو مما اتّمن عليه الناس، فهو من جنس الوضوء والإغتسال من الجنابة ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد، فإن الإنسان يمكنه أن لا ينوى الصوم وأن يأكل سرّاً، كما يمكنه أن يكتم حديثه وجنابته، بخلاف الصلاة والزكاة؛ وهو ﷺ يذكر فى الإعلام الأعمال الظاهرة التى يقاتل الناس عليها، ويصيرون مسلمين بفعلها، فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصيام، وإن كان واجباً كما فى آيتى «براءة» فإن «براءة» نزلت بعد فرض الصيام بإتفاق الناس. وكذلك لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن لم يذكر فى حديثه الصيام لأنه تبع وهو باطن ولا ذكر الحج لأن وجوبه خاص ليس بعام، وهو لا يجب فى العمر إلا مرة واحدة. أنتهى ملخصاً. أهـ.

وقال ابن حجر^(١): قال شيخنا شيخ الإسلام: إذا كان الكلام فى بيان الأركان لم يخل الشارح منه بشىء كحديث ابن عمر «بنى الإسلام على خمس»^(٢) فإذا كان فى الدعاء إلى الإسلام اكتفى بالأركان الثلاثة الشهادة والصلاة والزكاة، ولو كان بعد وجود فرض الصوم والحج كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ فى موضعين من براءة مع أن نزولها بعد فرض الصوم والحج قطعاً، وحديث ابن عمر «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة»^(٣) وغير ذلك من

(١) فتح البارى (٤٢٢/٣).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٥١٥)، ومسلم فى الإيمان (١/١٧٧ - النوى) وانظر «رياض الصالحين» (١٠٧٧ - بتخريجنا).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٥)، ومسلم فى الإيمان (١/٢١١ - النوى).

وانظر «رياض الصالحين» (٣٩١ - بتخريجنا) وفتح «المجيد» (ح ١٧٧) بتخريجنا.

(*) هكذا فى الأصل ولعل الصواب: الوجوب.

الأحاديث قال: والحكمة في ذلك أن الأركان الخمسة: اعتقادي وهو الشهادة، وبدني وهو الصلاة، ومالي وهو الزكاة اقتصر في الدعاء إلى الإسلام عليها لتفرع الركنين الأخيرين عليها فإن الصوم بدني محض والحج بدني مالي، وأيضاً فكلمة الإسلام وهي شاقة على الكفار، والصلاة شاقة لتكرارها والزكاة شاقة لما في جبلة الإنسان من حب المال، فإذا أذعن المرء لهذه الثلاثة كان ما سواها أسهل عليه بالنسبة إليها، والله أعلم.

فوائد: قال ابن حجر^(١):

[الفائدة الأولى] وفي حديث ابن عباس من الفوائد غير ما تقدم: الإقتصار في الحكم بإسلام الكافر إذا أقر بالشهادتين، فإن من لازم الإيمان بالله ورسوله التصديق بكل ما ثبت عنهما والتزام ذلك، فيحصل ذلك لمن صدق بالشهادتين.

وأما ما وقع من بعض المبتدعة من إنكار شيء من ذلك فلا يقدح في صحة الحكم الظاهر، لأنه إن كان مع تأويل فظاهر، وإن كان عناداً قدح في صحة الإسلام، فيعامل بما يترتب عليه من ذلك كإجراء أحكام المرتد وغير ذلك.

[الفائدة الثانية] وفيه: قبول خبر الواحد وجوب العمل به، وتعقب بأن مثل خبر معاذ حفته قرينة أنه في زمن نزول الوحي فلا يستوى مع سائر أخبار الآحاد.

[وقد ذكر الحافظ في باب إجازة خبر الواحد ما يغني].

[الفائدة الثالثة] وفيه: أن الكافر إذا صدق بشيء من أركان الإسلام كالصلاة مثلاً يصير بذلك مسلماً، وبالعكس من قال كل شيء يكفر به المسلم إذا جحدته يصير الكافر به مسلماً إذا اعتقده، والأول أرجح كما جزم به الجمهور، وهذا في الاعتقاد أما الفعل كما لو صلى فلا يحكم بإسلامه وهو أولى بالمنع لأن الفعل لا عموم له، فيدخله احتمال العبث والإستهزاء.

[الفائدة الرابعة] وفيه: وجوب أخذ الزكاة ممن وجبت عليه، وقهر الممتنع على بذلها ولو لم يكن جاحداً، فإن كان مع امتناعه ذا شوكة قوتل، وإلا فإن أمكن تعزيره على الإمتناع عزر بما يليق به، وقد ورد عن تعزيره بالمال حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده مرفوعاً ولفظه «ومن منعها - يعني الزكاة - فإننا آخذوها، وشرط ماله عزيمة من

(١) فتح الباري (١٣/٣٦٧ - ٣٦٨).

عزمت ربنا»^(١) الحديث أخرجه أبو داود والنسائي وصححه ابن خزيمة والحاكم، وأما ابن حبان فقال فى ترجمة بهز بن حكيم لولا هذا الحديث لأدخلته فى «كتاب الثقات» وأجاب من صححه ولم يعمل به بأن الحكم الذى دل عليه منسوخ وأن الأمر كان أولاً كذلك ثم نسخ.

وضعف النووى هذا الجواب من جهة أن العقوبة بالمال لاتعرف أولاً حتى يتم دعوى النسخ ولأن النسخ لا يثبت إلا بشرطه كمعرفة التاريخ ولا يعرف ذلك، واعتمد النووى ما أشار إليه ابن حبان من تضعيف بهز وليس بجيد لأنه موثق عند الجمهور حتى قال إسحق بن منصور عن يحيى بن معين: بهز بن حكيم عن أبيه عن جده صحيح إذا كان دون بهز ثقة.

وقال الترمذى: تكلم فيه شعبة وهو ثقة عند أهل الحديث، وقد حسن له الترمذى عدة أحاديث، واحتج به أحمد وإسحق والبخارى خارج الصحيح وعلق له فى الصحيح. وقال أبو عبيدة الأجرى عن أبى داود وهو عندى حجة لاعد الشافعى فإن اعتمد من قلد الشافعى على هذا كفاه ويؤيده إطباق فقهاء الأمصار على ترك العمل به فدل على أن له معارضاً راجحاً.

وقول من قال بمقتضاه يعد فى ندرة المخالف.

[الفائدة الخامسة] وقد دل خبر الباب أيضاً على أن الذى يقبض الزكاة الإمام أو من أقامه لذلك، وقد أطبق الفقهاء بعد ذلك على أن لأرباب الأموال الباطنة مباشرة الإخراج، وشذ من قال بوجوب الدفع إلى الإمام وهو رواية عن مالك، وفى القديم للشافعى نحوه على تفصيل عنهما فيه أهـ.

[قلت] وفيه أيضاً فوائد أخرى بخلاف ما تقدم فيها:

١- تقدم أن ابن حجر قال: «واستدل به من قال من العلماء أن لا يشترط التبرى من كل دين يخالف دين الإسلام خلافاً لمن قال: إن من كان كافراً بشيء وهو مؤمن بغيره لم يدخل الإسلام إلا بترك اعتقاد ما كفر به.

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/٢، ٤)، وأبو داود (١٥٧٥)، والنسائي (٢٥١٥ - السيوطى). وانظر «السلسلة» (٩٧٨ - بتخريجنا) والكلام عليه.

قال ابن حجر: والجواب أن اعتقاد الشهادتين يستلزم ترك إعتقاد التشبيه ودعوة بنوة عزيز وغيره، فيكتفى بذلك اهـ.

[قلت]: وهذا الجواب غير مطابق لأن الذى يقول بهذا القول - أى اشتراط التبرى من كل أعتقاد تسبب فى كفره - إنما اشترط ذلك زيادة على الإقرار بالشهادتين فيبقى قول العلماء واستدلالهم بغير تعقب، والله الموفق.

٢- أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة. حيث دعوا أولاً إلى الإيمان فقط ثم دعوا إلى العمل «وفيه نظر لأن مفهوم الشرط مختلف فى الاحتجاج به وتقدم تفصيل الرد على ذلك».

٣- الدعاء إلى التوحيد قبل القتال، وتوجيه الإمام عامله فيما يحتاج إليه من الأحكام وغيرها.

٤- بعث السعاة لأخذ الزكاة.

٥- إيجاب الزكاة فى مال الصبى والمجنون لعموم قوله «من أغنيائهم» قاله عياض وفيه بحث.

٦- أن الزكاة لاتدفع إلى الكافر «لعود الضمير» فى فقرائهم إلى المسلمين سواء قلنا بخصوص البلد أو بالعموم.

٧- أن الفقير ليس عليه زكاة.

٨- أن من ملك نصاباً لايعطى من الزكاة لأنه غنى.

٩- قال البغوى: وفيه أن المال إذا تلف قبل التمكن سقطت الزكاة.

١٠- قبول الإسلام بغير إشتراط نظر كما قالت الرافضة وغيرهم من المتفلسفة ولايشترط أيضاً قراءة فى التوحيد حتى يقبل إسلامه.

١١- إجابة دعوة المظلوم وإن كان ظالماً.

١٢- وفيه دليل لمن قال: عدم وجوب الوتر.

١٣- وفيه أنه لايحكم بالإسلام إلا بالنطق بالشهادتين وهذا مذهب أهل السنة كما تقدم تفصيل ذلك.

١٤- حرمة كرائم المال على الساعى ويحرم على صاحب المال إخراج شره.

قال: وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِينَ الرَّأْيَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُنَّ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا، غَدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا. فَقَالَ: أَيْنَ عَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأَتَى بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَن لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّأْيَةَ، فَقَالَ: (انْفُذْ عَلَى رِسَالِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللَّهِ، لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ) ^(١) (يَدُوكُنَّ)، أَيْ: يَخُوضُونَ ^(٢).

مناسبة الحديث للباب:

قال عبد الله بن جابر الله ^(٢): الشاهد من الحديث للباب قوله: (ثم ادعهم إلى الإسلام) أهـ.

قال ابن باز ^(٣): قوله (ثم ادعهم إلى الإسلام) ولو كانوا قد دعوا من قبل من باب إقامة الحجة وكمال المذرة. أهـ.

قال قرعاوى ^(٤): مناسبة الحديث للباب حيث دل الحديث على أن أول ما يتبدئ به الداعي الدعوة إلى الإسلام وأول ركن في الإسلام هما الشهادتان أهـ.

● هذا الحديث أخرجه البخاري في «صحيحه» مستشهداً به في أكثر من موضع، لأهمية ما يحويه من فوائد فيها:

الموضع الأول: كتاب الجهاد والسير / باب: دعوة اليهود والنصارى، وعلى ما يقاتلون عليه؟

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري في «الجهاد» / باب: فضل من أسلم على يديه رجل (١٦٨/٦) ح (٣٠٠٩) (ج ٤٢٠٩، ٤٢١٠) ومسلم في «الفضائل» / باب فضائل علي بن أبي طالب (١٧٦/١٥/٥)، ١٧٧، ١٧٩ - النووي) وأحمد في «مسنده» (٣٣٣/٥). والترمذي في «المنقب» / باب: مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه من حديث سهل بن سعد.

وانظر «لعة الاعتقاد» (ص ٤٧ «فتح المجيد» (ح ١٣٩) بتخریجنا).

(٢) الجامع الفريد (٣٢). (٣) التعليق المفيد (٥٤).

(٤) الجديد (٧٠).

الموضع الثاني: كتاب الجهاد والسير/ باب: فضل من أسلم على يديه رجل.

الموضع الثالث: كتاب فضائل الصحابة/ باب: مناقب على بن أبى طالب.

الموضع الرابع: كتاب المغازى/ باب: غزوة خيبر.

وذاث الحديث من حديث سلمة بن الأكوع أخرجه البخارى فى ثلاث مواضع.

قال سليمان آل الشيخ^(١): قال شيخ الإسلام: هذا الحديث أصح ما روى لعلّى رضى الله عنه من الفضائل أخرجاه فى «الصحيحين» من غير وجه.

(قوله: عن سهل): هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد الأنصارى الخزرجى الساعدى أبو العباس صحابى شهير. وأبوه صحابى أيضاً. مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة.

قوله: [يوم خيبر]

قال ابن حجر^(٢): وهى مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على ثمانية برد من المدينة من جهة الشام وذكر أبو عبيد البكرى أنها سميت باسم رجل من العمالق نزلها. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): وقوله: قال يوم خيبر، أى فى غزوة خيبر. فى الصحيحين، واللفظ لمسلم عن سلمة بن الأكوع قال: كان على رضى الله عنه قد تخلف عن النبى ﷺ فى خيبر، وكان رمداً، فقال: أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ؟! فخرج على رضى الله عنه فلاحق بالنبى ﷺ؛ فلما كان مساء الليلة التى فتحها الله عزّ وجلّ فى صباحها قال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية أو ليأخذن بالراية غداً رجل يحبّه الله ورسوله» أو قال: «يحبّ الله ورسوله يفتح الله عليه» فإذا نحن بعلى وما نرجوه. فقالوا: هذا على: فأعطاه رسول الله ﷺ الراية، ففتح الله عليه^(٤). وهذا يبين أن عليّاً رضى الله عنه لم يشهد أول خيبر، وأنه عليه السلام قال هذه المقالة مساء الليلة التى فتحها الله فى صباحها.

قوله [لأعطين الراية] قال ابن القيم^(٥): كانت له راية سوداء يقال لها: العقاب،

(١) تيسير العزيز الحميد (٩٦).

(٢) فتح البارى (٧/ ٥٣٠).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٩٦).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٧٠٢)، ومسلم فى الفضائل (١٨٩/٨/ ٣٥).

(٥) زاد المعاد (١/ ١٣١، ١٣٢).

وفى سنن أبى داود عن رجل من الصحابة قال: رأيت راية رسول الله ﷺ صفراء^(١)، وكانت له ألوية بيضاء، وربما جعل فيها الأسود. اهـ.

وعقد البخارى: (باب ما قيل فى لواء النبى ﷺ).

قال ابن حجر^(٢): اللواء بكسر اللام والمد هى الراية، ويسمى أيضاً العلم، وكان الأصل أن يمسكها رئيس الجيش ثم صارت تحمل على رأسه.

وقال أبو بكر بن العربى: اللواء غير الراية، فاللواء ما يعقد فى طرف الرمح ويلوى عليه، والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح.

وقيل اللواء دون الراية، وقيل اللواء العلم الضخم. والعلم علامة لمحل الأمير يدور معه حيث دار، والراية يتولاها صاحب الحرب.

وجنح الترمذى إلى التفرقة فترجم بالألوية وأورد حديث جابر «أن رسول الله ﷺ دخل مكة ولواؤه أبيض»^(٣).

ثم ترجم للرايات وأورد حديث البراء «أن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء مربعة من مرة»^(٤).

وحديث ابن عباس «كانت رايته سوداء ولواؤه أبيض»^(٥) أخرجه الترمذى وابن ماجه، وأخرج الحديث أبو داود والنسائى أيضاً.

ومثله لابن عدى من حديث أبى هريرة، ولأبى يعلى من حديث بريدة، وروى أبو داود من طريق سماك عن رجل من قومه عن آخر منهم: «رأيت راية رسول الله ﷺ صفراء»^(٦).

ويجمع بينها باختلاف الأوقات، وروى أبو يعلى عن أنس رفعه «أن الله أكرم أمتى بالألوية» إسناده ضعيف.

(١) أخرجه أبوداود (٢٥٩٣) من طريق سماك عن رجل من قومه عن آخر منهم قال ... فذكره.

(٢) فتح البارى (١٤٧/٦).

(٣) أخرجه أبوداود (٢٥٩٢)؛ والترمذى (١٦٧٩) وابن ماجه (٢٨١٧) استغربه الترمذى.

(٤) أخرجه أبوداود (٢٥٩١)، والترمذى (١٦٨٠) وقال الترمذى: حسن غريب.

(٥) أخرجه الترمذى (١٦٨١)، وابن ماجه (٢٨١٨) وقال الترمذى: حسن غريب.

(٦) تقدم قريباً.

وروى أبو الشيخ من حديث ابن عباس «كان مكتوباً على رايته: لا إله إلا الله محمد رسول الله» وسنده واه.

وقيل كانت له راية تسمى العقاب سوداء مربعة، وراية تسمى الراية البيضاء، وربما جعل فيها شيء أسود اهـ.

قوله: (لأعطين الراية غداً) قال ابن حجر^(١): وقع في هذه الرواية اختصار وهو عند أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث بريدة بن الحصيب قال: «لما كان يوم خيبر أخذ أبو بكر اللواء فرجع ولم يفتح له، فلما كان الغد أخذه عمر فرجع ولم يفتح له، وقتل محمود بن مسلمة، فقال النبي ﷺ: «لأدفعن لوائي غداً إلى رجل» الحديث^(٢).

وعند ابن إسحق نحوه من وجه آخر، وفي الباب عن أكثر من عشرة من الصحابة سردهم الحاكم في «الإكليل» وأبو نعيم والبيهقي في «الدلائل».

وفي رواية البخاري: (لأعطين الراية غداً أو ليأخذن غداً) قال ابن حجر^(٣): هو شك من الراوى، وفي حديث سهل الذى بعده «لأعطين هذه الراية غداً رجلاً» بغير شك، وفي حديث بريدة «إني دافع اللواء غداً إلى رجل يحب الله ورسوله»^(٤) والراية بمعنى اللواء وهو العلم الذى فى الحرب يعرف به موضع صاحب الجيش، وقد يحمله أمير الجيش، وقد يدفعه لمقدم العسكر، وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما، لكن روى أحمد والترمذى من حديث ابن عباس «كانت راية رسول الله ﷺ سوداء ولواؤه أبيض»^(٥) ومثله عند الطبرانى عن بريدة، وعند ابن عدى عن أبى هريرة وزاد «مكتوباً فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله» وهو ظاهر فى التغاير، فلعل التفرقة بينهما عرفية، وقد ذكر ابن إسحق وكذا أبو الأسود عن عروة أن أول ما وجدت الرايات يوم خيبر، وما كانوا يعرفون قبل ذلك إلا الألوية اهـ.

قال ابن عثيمين^(٦):-- قوله: «الراية».

العَلَم، وسُمِّي راية؛ لأنه يُرى، وهو ما يتخذه أمير الجيش للعلامة على مكانه.

(١). فتح البارى (٧/٥٤٤، ٥٤٥).

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٥٣/٥) والنسائى فى الكبرى (٨٤٠٣)، والحاكم فى «المستدرک» (٤٣٧/٣).

(٣) فتح البارى (٧/٥٤٤، ٥٤٥).

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) القول المفيد (١/١٦٧، ١٦٨).

واللواء قيل: إنه الراية، وقيل: ما لُرى أعلاه، أو لُرى كله؛ فيكون الفرق بينهما: أن الرّاية مفلولة لأنطوى، واللواء يُطوى إما أعلاه أو كله، والمقصود منهما الدلالة، ولهذا يُسمى علماً. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «لأعطين» هذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكّدات: القسم المقدّر، واللام، والنون، والتقدير: والله لأعطين.
قوله: «غدًا».

يُراد به ما بعد اليوم، والأمس يراد به ما قبله.
والأصل أنه يراد بالغد ما يلي يومك، ويُراد بالأمس الذي يليه يومك، وقد يُراد بالغد ما وراء ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَتَنْتَظِرُنَّ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾^(٢)؛ أى: يوم القيامة.
وكذلك بالأمس قد يُراد به ما وراء ذلك؛ أى: ما وراء اليوم الذى يليه يومك اهـ.
فائدة: قلت: فى اختصاص على دون غيره من الصحابة بهذه البشارة مع أنهم جميعاً يحبون الله ورسوله ويحبهم الله ورسوله منقبة عظيمة.

فقد يقول قائل فلماذا خص الرسول ﷺ علياً أن كان قد أحب وبشر غيره بهذه البشارة والمنقبة كهذا الرجل الذى كان، كثيراً ما يؤتى به فى شرب الخمر ويجلد هذا الرجل - شارب الخمر - ومع ذلك قال ﷺ فى حقه انه يحب الله ورسوله^(٣) وكذلك سائر الصحابة من باب أولى فلماذا خص علياً فى هذه الحالة بهذه الخصية وهذه المنقبة؟ وهل هذا الاختصاص يعنى أنه أفضل الصحابة؟!

الجواب: بالاختصار أن الخصوصية لاتعنى الأفضلية وأنه ربما يختص بعض الصحابة ببعض المناقب ولا يكون دليلاً على أنه أفضل ممن هو أفضل منه بإجماع الأمة (المسلمين) فقد اختص النبي فى الحديث أبا بكر وعمر وعثمان وعلي . . «فقال أرحم أمتى بأمتى أبا بكر، وأشدهم فى دين الله عمر وأصدقهم حياءً عثمان وأقضاهم على وأعلمهم بالحلل والحرام معاذ وأفرضهم زيد - أعلمهم بالفرائض - قال وما أقلت الغبراء وما أظلت الخضراء على ذى لهجه أصدق من أبى ذر أشبه عيسى ابن مريم فى زهده».

الحديث^(٤).

(١) القول المفيد (١/١٦٨).

(٢) الحشر آية ١٨.

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٧٨٠) عن عمر به.

(٤) تقدم تخريجه فى الباب الأول.

فهل اختصاص زيد مثلاً بأنه أفرضهم يعنى أنه أفضل من أبى بكر؟

الجواب: لا ففى حديث أن الجنة ثمانية أبواب وأن أبى بكر يدعى منهم جميعاً.

ومثال آخر ابن عمر ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ سأل سؤالا فلم يعرفه إلا ابن عمر وكان أصغر الموجودين وكان موجوداً فى المجلس أبو بكر وعمر هذا السؤال عن الشجرة التى لا يسقط ورقها صيفاً ولا شتاءاً^(١)؟ فوقع فى نفسه الجواب.

فهل معنى هذا أنه أفضل من أبيه ومن أبى بكر.

الجواب: لا فإن الخصوصية لاتعنى الأفضلية فهذا جواب.

وجواب آخر أن الرسول ﷺ اختص عليه ليس محابة منه لعلى، فقد يقول قائل إن لم يكن له خصوصية وتميز وهو كسائر الصحابة فلماذا يخصه النبى بالراية فهذا اتهام للرسول بالمحابة حاشاه. فإن لم يعدل هو فمن يعدل؟

الجواب أن علياً له مزية وفضل فى هذا العمل على الصحابة فى هذه الموقعة؟ فما هى المزية؟ ثبت فى الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع أنه قال: إن النبى ﷺ قال «ادعوا لى علياً» قال فهو أرمدم^(٢).

وفى الحديث أن علياً قال حينما ذهب الرسول إلى خيبر وترك علياً لأنه أرمدم فقال «أنا أتخلف عن النبى ﷺ فى غزوة؟! كبر عليه ذلك حتى وهو مريض وله رخصة فى القعود عن الغزو والصحابة كلهم يعلمون أنه مريض فى المدينة فلحق بالنبى ﷺ حتى حينما أصبحوا فاصبحوا كلهم يرجو أن يعطاها فإذا هو على ومانرجوه.. مانأمل أن يكون معنا لأنه من ذوى الأعذار. فلكونه معذوراً مريضاً له رخصة فى التخلف، ومع هذا أخذ بالعزيمة وأتى فهو فضل بهذا العمل - فلذلك استحق على الراية من دون سائر الصحابة عليهم رضوان الله وفيها تعقب على - شيخ الإسلام - المصنف فى المسائل والفوائد. حيث قال: وفيه الإيمان بالقدر والتسليم له حيث أنها لم تعطى لمن سعى لها وأعطيت لمن لم يسع لها.

لا والله ابن أبى طالب سعى لها واستحق هذا بسعيه له لابنومه!!.

قوله: (يحب الله ورسوله) قال ابن حجر^(٣): زاد فى حديث سهل بن سعد «ويحب

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٢)، ومسلم فى صفة الجنة (٩/١٦٧/٦٣) عن ابن عمر.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الفتح (٧/٥٤٥).

الله ورسوله» وفي رواية ابن إسحق «ليس بفرار» وفي حديث بريدة «لا يرجع حتى يفتح الله له» (١). اهـ.

قال ابن حجر (٢): وفي حديث سلمة بن الأكوع «أن علياً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» (٣) أراد بذلك وجود حقيقة المحبة، وإلا فكل مسلم يشترك مع علي في مطلق هذه الصفة.

وفي الحديث تلميح بقوله تعالى: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» فكانه أشار إلى أن علياً تام الاتباع لرسول الله ﷺ حتى اتصف بصفة محبة الله له، ولهذا كانت محبته علامة الإيمان وبغضه علامة النفاق كما أخرجه مسلم من حديث علي نفسه قال: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي أن لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق» (٤) وله شاهد من حديث أم سلمة عند أحمد (٥). اهـ.

قال سليمان آل الشيخ (٦): قوله: «يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» فيه فضيلة عظيمة لعلي رضي الله عنه، لأن النبي ﷺ شهد له بذلك، ولكن ليس هذا من خصائصه.

قال شيخ الإسلام: ليس هذا الوصف مختصاً بعلي ولا بالأئمة، فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقى يحب الله ورسوله، لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتج به على النواصب الذي يتبرأون منه ولا يتولونه، بل قد يكفرونه أو يفسقونه كالخوارج. لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم، فإن الخوارج تقول في علي مثل ذلك، لكن هذا باطل فإن الله ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم أنه يموت كافراً. وفيه إثبات صفة المحبة لله.

وفيه إشارة إلى أن علياً تام الاتباع لرسول الله ﷺ حتى أحبه الله، ولهذا كانت محبته علامة الإيمان، وبغضه علامة النفاق؛ ذكره الحافظ بمعناه. اهـ. قلت: وقد تقدم.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الفتح (٨٩/٦).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (١/٣٤١/١).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/٢٩٢)، والترمذي (٣/٣٧م).

(٦) تيسير العزيز الحميد: (٩٧).

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله».

أثبت المحبة لله من الجانبين، أى أن الله تعالى يُحِبُّ وَيُحَبُّ، وقد أنكر هذا أهل التعطيل، وقالوا: المراد بمحبة الله للعبد إثابته أو إرادة إثابته، والمراد بمحبة العبد لله محبة ثوابه، وهذا تحريف للكلام عن ظاهره مخالف لإجماع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى من بعدهم، ومحبة الله تعالى ثابتة له حقيقة، وهى من صفاته الفعلية، وكل شيء من صفات الله يكون له سبب؛ فهو من الصفات الفعلية، والمحبة لها سبب؛ فقد يبغض الله إنساناً فى وقت ويحبه فى وقت لسبب من الأسباب. اهـ.

قلت: وفيه رد على الشيعة الذين قالوا أن الولاية لعلى لانه اختص بهذه المنقبة وهو كان أولى بالخلافة من أبى بكر وعمر وقد كفرا لأنهما لم يولياه الخلافة.

الجواب على ذلك من وجوه أولها: أنه بشر من هو دونه من الصحابة وهو عبد الله ويلقب حماراً كان يشرب الخمر فيؤتى به فيقيم عليه الحد فلعله بعض الصحابة فقال لاتلعه فإنه يحب الله ورسوله.

فمن باب أولى العشرة المبشرون بالجنة فإن كانت هذه البشارة سبب لأولية على رضى الله عنه بالخلافة فقد بشر أبو بكر وعمر بأكثر من ذلك فهم أولى وأولى وكذلك هذا الشارب للخمر أفيكون أولى بالخلافة؟!

الثانى وهو رد على الشيعة والنواصب أن يقال: أما على رضى الله عنه فكيف يقبل أن يزوج ابنته من كافر وهذا (رد على الشيعة) أما عمر فكيف يقبل أمير المؤمنين أن يتزوج من ابنة كافر وهذا (رد على النواصب والخوارج) فهما أجل عندنا من أن يفعل ذلك.

وسياتى انقسام الناس لثلاثة أقسام فى على بن أبى طالب، وذلك فى كلام الحافظ عند قول المصنف [أين على].

قوله: [يفتح الله على يديه].

قال سليمان آل الشيخ^(٢): صريح فى البشارة بحصول الفتح على يديه، فكان الأمر كذلك، فيه دليل على شهادة أن محمداً رسول الله اهـ.

وكذلك قال ابن عثيمين^(٣):

(١) القول المفيد (١/١٦٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٩٨).

(٣) القول المفيد (١/١٦٩).

قوله: [فبات الناس يدوكون ليلتهم].

وعند البخارى بلفظ (فتحن نرجوها) قال ان حجر^(١): فى حديث سهل هنا: «فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها» وقوله: «يدوكون» بمهملة مضمومة أى باتوا فى اختلاط واختلاف، والدوكة بالكاف الاختلاط، وعند مسلم من حديث أبى هريرة «أن عمر قال: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ»^(٢) وفى حديث بريدة «فما منا رجل له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل، حتى تطاولت أنا لها، فدعا علياً وهو يشتكى عينه فمسحها، ثم دفع إليه اللواء»^(٣).

ولمسلم من طريق إياس بن سلمة عن أبيه قال: «فأرسلنى إلى على قال: فجئت به أقوده أرمد فبزق فى عينه فبرأ»^(٤) اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٥): [قوله: فبات الناس يدوكون ليلتهم]، هو بنصب ليلتهم على الظرفية، ويدوكون قال المصنف: يخوضون. والمراد أنهم باتوا تلك الليلة فى خوض واختلاف فيمن يدفعها إليه.

وفيه حرص الصحابة على الخير ومزيد اهتمامهم به، وذلك يدل على علو مراتبهم فى العلم والإيمان.

قال سليمان آل الشيخ^(٦): [قوله: أيهم يعطاها] فهو يرفع أى على البناء.

[قلت] فى قوله: «فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها»، فائدة: - فكله بات يفكر أيهم يعطاها ليس للإمارة فى حد ذاتها وإنما لحب الله ورسوله لمن يعطاها فإذا نظرنا إلى حالنا وحالهم نجد فرقاً كما بين السماء والأرض فى علو همتهم وحرصهم على الخير وفى نومنا وعدم حرصنا على الخير فارق عظيم بيننا وبينهم والأمر كما قال ابن عباس «إنى لأراكم أشد الناس شبهاً ببنى إسرائيل». وبنى إسرائيل مضرب المثل فى الكسل فى كل شىء فإن الله سبحانه وتعالى لما حكى عن موسى عليه السلام حينما قال لهم.

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. قالوا ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وقبل ذلك قالوا. ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ حتى الكلام ممل محيت نسأل الله العفو والعافية.

(١) فتح البارى (٧/٥٤٥).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/١٨٨/٣٣).

(٣) تقدم.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجهاد (٦/٤١٤/١٣٢).

(٥) (٦) تيسير العزيز الحميد (٩٧).

ولما قال لهم سبحانه وتعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ ما هان عليهم أن يسجدوا ودخلوا على إستمعهم من أجل ذلك هم ملوك العالم في الربا من قديم لا يحبون أن يتبعوا في أى شىء كما قص الله علينا من أخبارهم لكن الصحابة عكس ذلك تماماً والأمثلة على ذلك كثيرة.

فلذلك كان النبي ﷺ يتعوذ من الكسل. فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل»^(١). وهذا الكسل يشبه حالنا الآن.. والرسول ﷺ تعوذ من الكسل وأسباب الكسل والفتور.

والله المستعان.

قوله: [كلهم يرجو أن يعطاها].

تقدم كلام ابن حجر في القول قبل السابق مباشرة أن عمر كان أيضاً يرجوها وفي رواية أبي هريرة عند مسلم: أن عمر قال: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ^(٢).

قال سليمان آل الشيخ^(٣) فإن قلت: إن كانت هذه الفضيلة لعللى رضى الله عنه ليست من خصائصه؛ فلماذا تمنى بعض الصحابة أن يكون له ذلك؟

قيل الجواب كما قال شيخ الإسلام أن فى ذلك شهادة النبى ﷺ لعللى بإيمانه باطناً وظاهراً، وإثباتاً لمولاته لله ورسوله، ووجوب موالاته المؤمنين له، وإذا شهد النبى ﷺ لمعين بشهادة أو دعا له بدعاء أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة، ومثل ذلك الدعاء، وإن كان النبى ﷺ يشهد بذلك لخلق كثير ويدعو به لخلق كثير، وكان تعيينه لذلك المعين من أعظم فضائله ومناقبه.

قلت: وفى هذه الجملة أيضاً حرص الصحابة على الخير. اهـ.

قوله: [أين على بن أبى طالب]

بواب البخارى: (باب مناقب على بن أبى طالب) قال ابن حجر^(٤): أى ابن عبد المطلب (القرشى الهاشمى أبى الحسن) وهو ابن عم رسول الله ﷺ شقيق أبيه واسمه عبد مناف على الصحيح. ولد قبل البعثة بعشر سنين على الراجح وكان قد رياه النبى ﷺ من صغره لقصة المذكورة فى السيرة النبوية، فلازمه من صغره فلم يفارقه إلى أن مات.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٣٦٧)، ومسلم فى الدعاء (٢٩/١٧) عن أنس به.

وانظر «منار السبيل» (١٤٧٧ - بتخريجنا) أنظر «فتح المجيد» (ح ١٤١) بتخريجنا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٤) فتح البارى (٨٩/٧).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٩٨).

وأمة فاطمة بنت أسد بن هاشم، وكانت ابنة عمة أبيه وهى أول هاشمية ولدت لها شمسى، وقد أسلمت وصحبت وماتت فى حياة النبى ﷺ، قال أحمد وإسماعيل القاضى والنسائى وأبو على النيسابورى لم يرد فى حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء فى على وكان السبب فى ذلك أنه تأخر، ووقع الاختلاف فى زمانه وخروج من خرج عليه، فكان ذلك سبباً لانتشار مناقبه من كثرة من كان بينها من الصحابة ردّاً على من خالفه، فكان الناس طائفتين، لكن المبتدعة قليلة جداً. ثم كان من أمر على ما كان فنجمت طائفة أخرى حاربوه، ثم اشتد الخطب فتتقصوه واتخذوا لعنه على المنابر سنة، ووافقهم الخوارج على بغضه وزادوا حتى كفروه، مضموماً ذلك منهم إلى عثمان.

● انقسام الناس فى على على ثلاثة طوائف:

قال ابن حجر: فصار الناس فى حق على ثلاثة: أهل السنة والمبتدعة من الخوارج والمحاربين له من بنى أمية وأتباعهم فاحتاج أهل السنة إلى بث فضائله فكثر الناقل لذلك لكثرة من يخالف ذلك، وإلا فالذى فى نفس الأمر أن لكل من الأربعة من الفضائل إذا حرر بميزان العدل لا يخرج عن قول أهل السنة والجماعة أصلاً.

وروى يعقوب بن سفيان بإسناد صحيح عن عروة قال: «أسلم على وهو ابن ثمان سنين»^(١) وقال ابن إسحق «عشر سنين» وهذا أرجحها، وقيل غير ذلك. (وقال النبى ﷺ له أنت منى وأنا منك)^(٢) وهو طرف من حديث البراء بن عازب فى قصة بنت حمزة، وقد وصله البخارى فى الصلح وفى عمرة القضاء مطولاً.

وفى رواية للبخارى^(٣): (فقبل هذا على) كذا وقع مختصراً، وبيانه فى رواية إياس بن سلمة عند مسلم^(٤)، وفى حديث سهل بن سعد: «فلما أصبح الناس غدو على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين على بن أبى طالب؟ قالوا: يشتكى عينيه، قال: فأرسلوا إليه، فأتوا به» وقد ظهر من حديث سلمة بن الأكوع أنه هو الذى أحضره، ولعل علياً حضر إليهم بخير ولم يقدر على مباشرة القتال لرمده، فأرسل إليه النبى ﷺ فحضر من المكان الذى نزل به، أو بعث إليه إلى المدينة فصادف حضوره.

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قال بعضهم كأنه استبعد غيبته عن حضرته فى مثل هذا الموطن، لاسيما وقد قال: «لأعطين الراية».

(١) ذكر القولين ابن الأثير فى «أسد الغابة» (٩١/٤) وزاد أقوالاً أخرى.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٢٥١) عن البراء به.

(٣) فتح البارى (٥٤٦/٧).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تيسير العزيز الحميد (٩٨).

وفيه سؤال الإمام عن رعيته وتفقدته أحوالهم وسؤاله عنهم في مجامع الخير . اهـ .
[قلت] وفيه أيضاً فائدة لطيفة : استعمال المعارض حتى لا يصد من يأمل منه
الخير ، وفيه : كرم خلقه ﷺ . والله المستعان .

قوله : [ف قيل هو يشتكى] أى من الرمد كما فى «صحيح مسلم» عن سعد بن أبى
وقاص ، فقال : «ادعو لى علياً» فأتى به أرمد فبصق فى عينيه (١) . اهـ .

قوله : [فأرسلوا إليه] بهمزة قطع من أمر من الإرسال ، أمرهم بأن يرسلوا إليه يدعوه
له ولمسلم من طريق إياس بن سلمة عن أبيه قال : فأرسلنى إلى على ، فجئت به أقوده
أرمد فبصق فى عينيه فبرأ (٢) .

قوله : (فبرأ) قال ابن حجر (٣) : بفتح الراء والهمزة بوزن ضرب ، ويجوز كسر الراء
بوزن علم ، وعند الحاكم من حديث على نفسه قال : «فوضع رأسى فى حجره ثم بزق
فى إلية راحته فذلك بها عيني» وعن بريدة فى «الدلائل» للبيهقى «فما وجعها على حتى
مضى لسبيله» أى مات . وعند الطبرانى من حديث على «فما رمدت ولا صدعت منذ دفع
النبي ﷺ إلى الراية يوم خيبر» (٤) وله من وجه آخر «فما اشتكىتها حتى الساعة» . قال :
ودعا لى فقال : «اللهم اذهب عنه الحر والقر» ، قال فما اشتكىتهما حتى يومى هذا
اهـ (٥) .

قال سليمان آل الشيخ (٦) : قوله : (فبرأ) وهو بفتح الراء والهمزة ، بوزن ضرب ،
ويجوز الكسر بوزن علم ، أى عوفى فى الحال عافية كاملة ، كأن لم يكن به وجع من رمد
ولا ضعف بصر أصلاً .

فعند الطبرانى من حديث على : «فما رمدت ولا صدعت منذ دفع إلى النبي ﷺ
الراية» (٧) .

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الفضائل» (٣٢/١٨٧/٨) ،

وانظر الفتح الموضع السابق . وأنظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ١٤٥) بتخرجنا

(٢) تقدم تخريجه قريباً ، وانظر المصدرين الأولين .

(٣) فتح البارى (٥٤٦/٧) .

(٤) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٢٢/٩) ونسبه لأبى يعلى ، وأحمد باختصار قال : ورجالها رجال

الصحيح غير أم موسى وحديثها مستقيم . وأنظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ١٤٨) بتخرجنا

(٥) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٢٢/٩) ونسبه للطبرانى فى «الأوسط» قال : وأسناده حسن .

(٦) تيسير العزيز الحميد (٩٨) .

(٧) تقدم .

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «فبرأ».

هذا من آيات الله الدالة على قدرته وصدق رسول الله ﷺ أهـ.

[قلت]: فهذه ليست دروشة ولا شطحة من شطحات الصوفية التي يفعلونها.

وبلغنى أن بعض الأخوة كان صوفيًا ثم التزم وحكى لنا من أفعالهم القبيحة الكثير من ذلك: أنه كان يقول أن بعض مشايخ الصوفية كان يبول في مكان ما ثم وضعوا على بوله مسكاً وكولونيا وقالوا تعالوا انظروا إن الشيخ تبول مسكاً فأخذوا يتبركون بهذه المسك قبحهم الله. فهذا قدرهم عند الله تعالى أن يوضعوا في كنيف ويلطخو بالنجاسة. نسأل الله العافية.

ولعلني منقبة أخرى أن النبي ﷺ دعا له بأن لا يصاب بحر لا يبرد، فكان يرى في اليوم الشديد البرد وهو لا يزيد على إزار وفي اليوم الشديد الحر يلبس الصوف رضى الله عنه.

والله المستعان.

قوله: [انفذ على رسلك حتى تنزل ساحتهم].

وفي رواية للبخاري: في حديث سهل: (فقال عليّ يارسول الله أقاتلهم) هو بحذف همزة الاستفهام.

وفي رواية للبخاري (حتى يكونوا مثلنا) أى حتى يسلموا.

قوله: (فقال انفذ) بضم الفاء بعدها معجمة.

قوله: (على رسلك) بكسر الراء أى على هيتك^(٢) أهـ.

[قلت] فى قول على رضى الله عنه فى روايه البخارى (حتى يكونوا مثلنا): استعجال التناجى، بالنسبة لحال المدعوين فلا يرضى الداعى منه إلا أن يكون فى يوم أو ليلة صحابى فى المعتقد أو السلوك ولاشنع عليه والصق به التهم.

كمثل كثير من شباب الصحوة الإسلامية، لكن الرسول ﷺ وجه عليا إلى التدرج فى الدعوة وترك التسرع كما سيأتى. فلا يتسرع الشباب بدعوة من هم فى خارج البيت وخارج دائرة الأهل من الغرباء قبل دعوة البيت أو الأهل فعند ذلك يصطدم بما لا يتوقعه، ولذلك.

(١) القول المفيد (١/ ١٧٠).

(٢) فتح البارى (٧/ ٥٤٧).

قال سبحانه تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ فلماذا لم يقل الله تعالى: (الغرباء) بدلاً من (الأهل)؟ الجواب لأن الإنسان يضيق صدره بالأهل، ويتسع للغرباء؛ لأن الأهل محل ضيق الصدر.

قوله: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ في الحقيقة: أنها مرتبطة بمسألة دعوة الأهل؛ لأن ضيق الصدر على الأهل يتكئ على تكئة فيه - ماهى بالنسبة للمتزوج - فيقول أنا أعمل ليل نهار وأنا كذا وكذا.. والنبي ﷺ قال: الرفق ما دخل في شئ إلا زانه.. وما نزع من شئ إلا شانه^(١).

أما الاحتجاج بالعمل والوظائف على ترك الخير في دعوة الأهل فالله يقول: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾.

وقد ذكرت في شرحي لـ«زاد المعاد» أنك إن لم تأسس قاعدة قوية في بيتك وخرجت تدعو خارجاً ستجد أهلك يشنعون عليك وتكون أنت المخطئ وإذا قالوا للناس ذلك لم يسمعوا. والنبي ﷺ أول ما أمر أمر أن يدعوا الأقربين. فأنذر أهله زوجته خديجة ثم الأقرب فالأقرب ثم أعلن دعوته وخرج بها إلى المدينة ثم تدرج في المرحلة الدعوية. فعليك أن تدعوهم بحكمة.

فها هو علي بن أبي طالب كان سيتسرع وقال «يارسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا» فقال له ﷺ «انفذ على رسلك» حتى تنزل بساحتهم وادعوهم إلى الإسلام. والله المستعان.

قوله: وقال: «انفذ على رسلك» قال سليمان آل الشيخ: أما انفذ فهو بضم الفاء، أى: امض لوجهك. ورسلك: بكسر الراء وسكون السين، أى على رفقك ولينك من غير عجلة، يقال لمن يعمل الشئ برفق. وساحتهم: فناء أرضهم، وهو حوالها. وفيه الأدب عند القتال، وترك الطيش، والأصوات المزعجة التي لا حاجة إليها. وفيه أمر الإمام عماله بالرفق واللين من غير ضعف ولا انتقاص عزيمة كما يشير إليه قوله: «حتى تنزل بساحتهم».

قال ابن عثيمين قوله: «انفذ على رسلك».

أى: مهلك، مأخوذ من رسل الناقة؛ أى: حليها يحلب شيئاً فشيئاً، والمعنى: امش

(١) تقدم تخريجه.

هويناً هويناً؛ لأنَّ المقام خطير؛ لأنَّه يخشى من كمين، واليهود خبيثاء أهل غدر.

● فائدة دعوية من وحي قوله ﷺ [انفذ على رسلك]: -

ذكر ابن باز في قوله الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. الكيفية التي ينبغي أن يتصف بها الداعي ويسلكها يبدأ أولاً بالحكمة. وهى كما سيأتى عنه تطلق على النبوة والعلم والفقه فى الدين وعلى العقل وعلى الوضوح وعلى أشياء أخرى لا تخرج عن قوله ﷺ لعلنى «انفذ على رسلك»^(١).

وقال ابن القيم: الدعوة تنقسم الى ثلاثة اقسام من حيث حال المدعو.

١- فإنه إما أن يكون طالباً للحق محباً له، مؤثراً له على غيره إذا عرفه فهذا يُدعى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظة وجدال.

٢- وإما أن يكون مشتغلاً بغير الحق، لكن لو عرفه أثره واتبعه. فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب.

٣- وإما أن يكون مُعانداً مُعارضاً، فهذا يُجادل بالتي هي أحسن. فإن رجع وإلا انتقل معه إلى الجدال إن أمكن». انتهى.

قلت: وهناك حالة رابعة ذكرها ابن باز وهى إذا ظهر من المدعو العناد والظلم فلا مانع من الإغلاظ عليه كما قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

فالقسم الأول:

قسم يحب الحق حريص عليه. مؤثراً إياه على غيره. فهذا يحتاج إلى الحكمة:

«والحكمة» هى: القرآن والسنة: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

و«الحكمة» هى: فعل ما ينبغي فى الوقت الذى ينبغي على الوجه الذى ينبغي أو هى: وضع الشئ فى موضعه.

وذكر فيما تقدم ابن باز: أنها العلم والفقه أو هى كلمة مشتركة تطلق على معان كثيرة كالنبوة والعلم، والتفقه فى الدين. والعقل، والورع.

(١) راجع رسالة الدعوة إلى الله للشيخ عبدالعزيز بن باز.

قال الشوكاني: - رحمه الله - هي المانعة من السفه .

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وتفسير الحكمة بذلك يدل على أن الدعوة دعوة شمولية ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ﴾ بالدين بالسنة بالقرآن بالعلم النافع بغير ذلك من شمولية الاسلام هذه الحكمة تهدي لطلبة الحق الحريصين عليه الطالبين له المؤثرين له على ما سواء - نحسبكم جميعاً كذلك - .

القسم الثاني الموعظة الحسنة(*) : لمن

(أ) للذي انشغل عن الحق بباح بعمل مثلاً، لكنه لا يعرف له حد، فأثره غيره عليه - مثل السواد الأعظم للمسلمين .

(ب) هذا الذي انشغل عن الحق (للدخن، مدمن التلفاز، مدمن كرة) بضد الحق لكنه لو علمه، أتاه واتبعه .

فمن الخطأ أن تبدأ معهم في الدعوة بطريقة منفرة له عن الحق، فترى البعض أول ما يذهب اليه يدعوه يقول له السجائر حرام، والكرة حرام، والتلفاز حرام؟ هل تصح هذه الطريقة؟

الجواب لا، هذا خطأ في طريقة الدعوة وكلمة (حرام وحلال) لا ينبغي أن تطلق بهذه الصورة المتكررة العشوائية، خاصة لطالب الحق الحريص عليه .

وأما الثاني، فإننا تؤثر عليه بالترغيب والترهيب . ونذكره بالله، والأحاديث التي في أهوال القيامة، وأحاديث الصراط وأحاديث فضل الجنة، لعله يرق قلبه فيستجيب، فيأتي الداعي في هذه الحالة يقول له يا فلان لو تركت هذا لكان خيراً لك في صحتك وعافيتك ودينك وكذا وكذا . . .

فالرسول ﷺ حينما جاءه رجل فقال يا رسول الله «إنذن لي في الزنى» فهل قال له أنه حرام مباشرة؟ وكذا من يشرب السجائر تقول له حرام هو يعلم إنها حرام، وكذلك أيضاً نقول له التلفاز وكذلك يقول له حرام، انظر: إلى دعوة الرسول ﷺ ربه أولاً قال: «أعجبه لأملك» قال لا قال «أعجبه لأختك» قال لا قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم وأخواتهم^(١) .

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٦/٥، ٢٥٧)، والطبراني في «الكبير» (٧٦٧٩) عن أبي أمامة .

(*) راجع رسالة الدعوة إلى الله للشيخ عبدالعزيز بن باز .

فالنبي ﷺ دعى بعض الناس بهذه الآية فقط: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾. فهذه بالموعظة الحسنة.

أيضاً رجل حليق اللحية : هل نقول له انت آثم حرام عليك، بل نتدرج معه حتى يتهمياً لقبول أمر الله وأمر الرسول ونعطه موعظة حسنة حتى إذا تهياً فعليك معه بالحكمة إن كان طالباً لها. وعند ذلك يأتى إليك ويقول يا أخى ما هو حكم مشاهدة التلفاز حرام أم حلال؟ هو يطلب إذاً. فعند ذلك نأثيه بالعلم النافع فى هذا الأمر وتجودون مصداق ذلك فيمن حلف باللات وبالعزى له فى الشرع كفارة. حيث قال ﷺ من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله.

والنبي ﷺ لم يقل عندما نسمع حالف يحلف بغير الله نقول له انت مشرك، بل بين للصحابة أن لابد من الإحلال ان يحل محل الخبيث الطيب كما تسمعون من يقول: والنبى، ورحمة فلان،... نقول له قل لا إله إلا الله^(١).

فإن ذلك أيسر عليه، من أن تقول له إنك أشركت. بل قال النبي ﷺ الداء، وترفق بنا بدواء سهل على من وقع فى ذلك.

القسم الثالث، الذى يحتاج إلى الجدال وهو المعاند المستكبر المعرض، لكنه ينقسم إلى قسمين:

(أ) قسم معاند مستكبر مع ظلم: فالدعوة معه بالشدة والغلظة، كدعوة موسى مع فرعون فتارة يقول له قولاً ليناً وتارة يهدده بالله وتارة يقول: إني لأظنك يا فرعون مشوراً.

(ب) قسم معاند مستكبر على غير ظلم على جهل منه لم يعتدى فى حال استكباره وأعراضه... هذا نجادله بالتى هى أحسن. كما قال ﷺ فى قصة الاعرابى الذى جاء إلى النبى ﷺ وطلب منه طلباً فأعطاه فقال «هل رضيت وهل اعطيت؟ فقال الاعرابى مارضيت وما اعطيت فاعطاه ثلاث مرات لو سأله فقال نفس المقالة فقام الصحابة عليه لينالوا منه فقام ﷺ: واعطاه إلى ان رضى الرجل. وأثنى على الرسول ﷺ فأمره الرسول أن يخرج ويقول: هذا الثناء أمام الصحابة حتى يسقط ما فى صدورهم ما صنعت وحتى يرضوا عنك» فذهب فقال مقالته ثم انصرف.

فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن مثلى ومثل هذا الاعرابى كممثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه، فاتبعها الناس، فلم يزيدها إلا نفوراً، فنادهم صاحب الناقة، خلوا بينى

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٦٥٠)، ومسلم فى الإيمان (٥/١١٩/٦) عن أبى هريرة.

وبين ناقتى فأنا أرفق بها وأعلم، فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها وأخذ لها من قمام الأرض فردها هوناً هوناً هوناً حتى جاءت، واستأخت وشد عليها، وإنى لو تركم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار» (١).

فهذا المعرض المستكبر أحياناً يحتاج إلى الحسنى أو بالمعاملة الحسنة أو بالجدال إن كان عالماً كما جادل النبى ﷺ النصارى حينما قالوا له ما تقول فى عيسى وفى معجزته؟ فتلا عليهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

وبهذا انتهت معهم الموعظة الحسنة ولم يبق إلا الإغلاظ والشدة لأنهم بهذا ظلموا امثالاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

ولقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

ذلك لأنهم، لم يرضوا بهذا الجدال الحسن وظلموا وتعدوا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فالغلظة والشدة تأتى أحياناً فى بعض المواقف ولبعض الاقسام ولبعض المدعوين.

لكن الأمر كما قال ﷺ: «الرفق ما دخل فى شيء إلا زانه وما خلا من شيء إلا شانه» (٢).

وقال: «إن الله يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف» (٣) والدليل على ذلك ان هناك ثلاثة مراحل ليس فيها انذار، ومرحلة واحدة فيها انذار.

فينبغى على الداعى ألا يجعل الغلظة والشدة هى الأصل مع المدعوين.

وقد يكون أحياناً القول اللين او الرفق هو الشدة قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾. فكان من ذلك قول موسى لفرعون. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ

(١) أخرجه أبو الشيخ والبخاري من حديث أبى هريرة، وإسناده ضعيف.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [صحيح] أخرج مسلم فى البر والصلة (١٦/١٤٦ - التوى) عن عائشة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٦٣٥ - بتخريجنا).

مَثْبُورًا» هالكا ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾. قولاً لينا لأنه لا يصلح معه بعد بيان الحجج الواضحة إلا ان يقول له ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أنا بينت لك حينما سألتني ﴿مَنْ رَبُّكَ﴾ قلت رب المشرق والمغرب، وبينت لك: أن الله ربك ورب إباءك الأولين. وقبل أن لم توجد من رب الناس؟! فالرب قبل أن توجد وبعد أن تموت. فبعد كل ذلك لم تؤمن إذا أنت هالك مَثْبُور.

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «حتى تنزل بساحتهم».

أى: ما يقرب منهم وما حولهم، والنبي ﷺ يقول: «إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

وهذا إذا كنا على الوصف الذى عليه الرسول ﷺ وأصحابه، أما إذا كنا على وصف القومية، فإننا لو نزلنا فى أحضانهم؛ فمن الممكن أن يقوموا ونكون فى الأسفل.

قوله: (ثم ادعهم إلى الإسلام) قال ابن حجر^(٢): ووقع فى حديث أبى هريرة عند مسلم «فقال على: يا رسول الله علام أقاتل الناس؟ قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله»^(٣) واستدل بقوله: «ادعهم» أن الدعوة شرط فى جواز القتال، والخلاف فى ذلك مشهور فقيل: يشترط مطلقاً، وهو عن مالك سواء من بلغتهم الدعوة أو لم تبلغهم، قال: إلا أن يعجلوا المسلمين. وقيل لا مطلقاً وعن الشافعى مثله. وعنه لا يقاتل من لم تبلغه حتى يدعوهم، وأما من بلغت فتجوز الإغارة عليهم بغير دعاء، وهو مقتضى الأحاديث. ويحمل ما فى حديث سهل على الاستحباب، بدليل أن فى حديث أنس أنه ﷺ أغار على أهل خيبر لما لم يسمع النداء^(٤)، وكان ذلك أول ما طرقتهم، وكانت قصة على بعد ذلك. وعن الحنفية تجوز الإغارة عليهم مطلقاً وتستحب الدعوة.

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» أى الذى هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومن هذا الوجه طابق الحديث الترجمة. وفى

(١) القول المفيد (١/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) فتح البارى (٥٤٧/٧).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/ ١٨٨/٣٣).

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٩٤٣).

(٥) تيسير العزيز الحميد (٩٨، ٩٩).

حديث أبي هريرة عند مسلم: فدعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب، فأعطاه الراية وقال: «امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك» فسار على شيئاً ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ يارسول الله: على ماذا أقاتل الناس؟ فقال: «فقاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»^(١) وفيه أن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، المراد بها الدعوة إلى الإخلاص بها، وترك الشرك وإلا فاليهود يقولونها، ولم يفرق النبي ﷺ في الدعوة إليها بينهم وبين من لا يقولها من مشركي العرب، فعلم أن المراد من هذه الكلمة هو اللفظ بها، واعتقاد معناها، والعمل به، وذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢) وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَثَابٌ﴾^(٣) وذلك هو معنى قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» الذي هو الاستسلام لله تعالى، والإنقياد له بفعل التوحيد وترك الشرك، وفيه مشروعية الدعوة قبل القتال، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداءً، لأن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون، وتستحب دعوتهم لهذا الحديث وما في معناه؛ وإن كانوا لم تبلغهم وجبت دعوتهم.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «ثم ادعهم».

أى: أهل خيبر، «إلى الإسلام»؛ أى: الاستسلام لله.

وقوله: [وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه]

قال سليمان آل الشيخ^(٥): أى فى الإسلام أى إذا أجابوا إلى الإسلام، فأخبرهم بما يجب عليهم من حقوقه التى لابد من فعلها، كالصلاة، والزكاة، وهذا كقوله فى حديث أبي هريرة: «فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها»^(٦).

(١) تقدم.

(٢) آل عمران آيه/ ٦٤.

(٣) الرعد آيه / ٣٦.

(٤) القول المفيد (١/ ١٧٠).

(٥) تيسير العزيز الحميد (٩٩).

(٦) تقدم قريباً.

وقد فسره أبو بكر الصديق لعمر رضى الله عنهما لما قاتل أهل الردة الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقال له عمر كَيْفَ نَقَاتِلُ النَّاسَ وقد قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ؟» قال أبو بكر: فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهِمَا^(١).

وحاصله أنهم إذا أجابوا إلى الإسلام الذى هو التوحيد فأخبرهم بما يجب عليهم بعد ذلك من حق الله تعالى فى الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام الظاهرة وحقوقه . فإن أجابوا إلى ذلك فقد أجابوا إلى الإسلام حقاً، وإن امتنعوا عن شيء من ذلك فالقتال باق بحاله اجماعاً . فدل على أن النطق بكلمتى الشهادة دليل العصمة لا أنه عصمة، أو يقال: هو العصمة لكن بشرط العمل، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾^(٢) الآية ولو كان النطق بالشهادتين عاصماً لم يكن للتثبت معنى، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾^(٣). أى عن الشرك وفعلوا التوحيد ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾^(٤) فدل على أن القتال يكون على هذه الأمور.

وفيه أن لله تعالى حقوقاً فى الإسلام من لم يأت بها لم يكن مسلماً، كإخلاص العبادة له والكفر بما يعبد من دونه . وفيه بعث الإمام الدعوة إلى الله، كما كان النبى ﷺ وخلفاؤه الراشدون يفعلون .

وفيه تعليم الإمام أمراءه وعماله ما يحتاجون إليه .

وقال ابن عثيمين^(٥): أى: فلا تكفى الدعوة إلى الإسلام فقط، بل يخبرهم بما يجب عليهم فيه حتى يقتنعوا به ويلتزموا، لكن على الترتيب الذى فى حديث بعث معاذ .

(١)[متفق عليه] أخرجه البخارى (١٣٩٩) ومسلم فى الإيمان (١/ ٢٠٠ - النووى).

وانظر «رياض الصالحين» (١٢١٣ - بتخریجنا).

وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ١٥١) بتخریجنا

(٢) النساء آية / ٩٤ .

(٣)(٤) التوبة آية / ٥ .

(٥) القول المفيد (١/ ١٧١).

وهذه المسألة يتردد الإنسان فيها: هل يخبرهم بما يجب عليهم من حق الله في الإسلام قبل أن يسلموا أو بعده؟

فإذا نظرنا إلى ظاهر حديث معاذ وحديث سهل هذا؛ فإننا نقول: الأولى أن تدعوه للإسلام، وإذا أسلم تخبره.

وإذا نظرنا إلى واقع الناس الآن، وأنهم لا يسلمون عن اقتناع؛ فقد يسلم، وإذا أخبرته ربما يرجع، قلنا: يُخبرون أولاً بما يجب عليهم من حق الله فيه؛ لئلا يرتدوا عن الإسلام بعد إخبارهم بما يجب عليهم، وحينئذ يجب قتلهم لأنهم مرتدون.

ويحتمل أن يقال: ترك هذه المسألة للواقع وما تقتضيه المصلحة من تقديم هذا أو هذا. اهـ.

[قلت]: قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» فيه أن الدعوة لا تكون إلى جزئية وإن كانت إلى جزئية لمقتضى الحال أو مقتضى المقال أو المدعى فهذا ليس معناه نفى بقية الإسلام فكما قلت الناس في هذا طرفان ووسط فمنهم من أخذ بالعروة الدنيا فقط ودعا إليها ومنهم من دعا إلى العروة العليا فقط ومنهم من دخل في كل عرى الإسلام ودعا إليها جميعاً أما من قال: إنى لا أدعو إلا بهذه الجزئية لأن الناس لم يفهموا إلا هذه أو أنا لا أحسن إلا هذه مع علمه أن الإسلام ليس هذه الجزئية فقط؛ فنقول له قد أصبت وبارك الله فيك. ومن فعل العكس بأن دعا إلى جزئية من جزئيات الإسلام كالفقه فقط أو العقيدة فقط أو السيرة فقط أو الزهد فقط أو الجهاد فقط أو الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقط أو غير ذلك من جزئيات الإسلام ويعتقد أن الدين كل الدين هو هذه الجزئية فقط حتى وإلى على ذلك وعادى عليه فقد أخطأ. ذلك بأن الإمام النووي يبين في معنى الطائفة المصورة أنها بين فقير وعابد وزاهد ومحدث وبصير بالحرب.. الخ أى أنها تضم هذا كله وليس جزءه فقط لذا نقول لمن دعا إلى جزء.

فقد دعوت إلى الجزء وتركت الكل، الله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾. فهذه الآية دليل على شمولية الدعوة

وقال ﷺ: «ادعوهم إلى الإسلام» كل الإسلام. وأخبرهم بما يجب عليهم (أى مقتضيات الإسلام) حق الله على العباد وهو أفراد الله بالعبادة.

تقدم قول الله عز وجل: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ وذكر ابن باز في رسالته «الدعوة إلى الله» قول الله عز وجل أيضاً: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أى إلى لا إله إلا الله كما ذكره الطبراني في كتاب «الدعاء»^(١).

(١) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (١٥٤٩) من قول عكرمة.

وقال: «وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ».

وفى حديث ابن عباس يقول النبي ﷺ: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله»^(١). إلى الإسلام بوجه عام.

كما قال لعلي: «انفذ على رسلك وادعهم إلى الإسلام» أى الإسلام الشمولى وليس إلى جزء بل إلى الإسلام كله الإسلام بضع وسبعون شعبة^(٢) فدعو إلى أعلاها وندعو إلى أدناها، بل ندعو إلى أدناها كما ندعو إلى أعلاها، فلاندعوا إلى الجهاد وترك السواك مثلاً «فأعلاها لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى من الطريق».

والناس فى هذا طرفان ووسط: فى الدعوة إلى الإسلام وإلى الله فمنهم من يدعو إلى «الشعب العليا» والآخر يدعو إلى «الشعب الدنيا».

وطوائف تدعو إلى الجهاد وتحرير المسجد الأقصى وإلى توحيد صفوف المسلمين وهذا طيب ولكن للأسف يحقروا من يدعوا إلى الشعب الأخرى التى هى فى نظرهم أقل أهمية من الجهاد بالنظر إلى الجهاد كمن يدعو إلى الصوم والزكاة والسمت الصالح واللحية والسواك وإمطة الأذى.

والنبي ﷺ هو الذى قال إمطة الأذى من شعب الإيمان والذى أمرك بهذا أمرك بهذا «فلا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»^(٣). فالقصد أن الناس فى هذا الأمر كغيره من الأمور طرفان ووسط

(١) طرف يحصر دعوته فى هذه الشعب العليا ويحقر من يدعو إلى هذه الشعب الدنيا.

(٢) وطرف آخر: يحقر الشعب العليا ويدعو إلى الشعب الدنيا ويقول الناس يحتاجون إلى كذا وكذا من الأمور الفقهية أو الأخلاقية أو التربوية. ولأنهم بمن يدعو إلى الشعب الدنيا كما لم يتهكم خالد ابن الوليد بأبى هريرة المحدث ولم يتهكم أبوهريرة بخالد المجاهد.

نقول هذا طيب وهذا طيب لكن لانتهمك بمن يدعوا إلى ذروة سنام الإسلام والشعب العليا فيه.

(١) تقدم فى أول حديث فى الباب.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٩)، ومسلم فى الإيمان (٣/٢ - النووي) عن أبي هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٢٧) - بتخریجنا.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٦/١٧٧ - النووي) عن أبي ذر.

وانظر «رياض الصالحين» (١٢٢) - بتخریجنا.

(٣) والوسط أن ندعو إلى هذا وذاك طالما أننا ندعو إلى الإسلام كما فى هذا الحديث الذى بين أيدينا فى كتاب التوحيد وندعو إلى الإسلام كافة لكن بالتدرج والمرحلة .
قال الله عزوجل : ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾
فالربانى هو الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره .

ولكن إذا كانت هذه المرحلة هى مرحلة الشعب الدنيا، فلا نكفر أو نفسق من يدعو إلى الشعب العليا بل نضعها فى خطتنا أيضا ذلك لأن مرحلة الشعب الدنيا، ما هى إلا تمهيد لهذه المرحلة الشعب العليا .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ .

فانت تأمر الناس أن يدخلوا فى الإسلام كافة فلا بد وأن تدعوهم إلى الإسلام كافة، وإلا لو دعوتهم إلى جزئية كأن تقول خذوا هذه الجزئية فقط فقد خالفت السنة فى الدعوة ولهذا قال ﷺ لعلى : «ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما عليهم من حق الله تعالى فيه .

وكذا قال لمعاذ : «ادعهم إلى الإسلام» لكن بتدرج ومرحلة ..

قال ابن باز(*) : شمولية الإسلام :

الإسلام : عبادة وقيادة . دين ودولة ، وعبادة وجهاد ومصحف وسيف وعبادة وسياسة ، واجتماع واقتصاد .

فكما تدعو إلى العبادة تدعو إلى توحيد الله وتدعو إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتدعو إلى الجهاد ، وتدعو إلى تحكيم شرع الله .

وتدعو إلى الاقتصاد الإسلامى ، لا الاقتصاد الرأسمالى الغربى ، الرأى يقوم على عبادة المال والدرهم والدينار من أجله يرابى ويزانى ويعاهر والغاية تبرر الوسيلة ، فإذا كانت الغاية هى جمع المال فلاتسأل عن الوسيلة من حلال أم حرام هذه هى الرأسمالية فلا مانع من الإتجار باللحوم البيضاء أو الحمراء طالما أنها أربح التجارات فى العالم .

فالإسلام الحسنة بين السيئتين اقتصاد رأسمالى غربى واقتصاد شيوعى شرقى وهو الذى لا يحترم أموال الناس ويأخذها بغير وجه حق ويسلبهم أموالهم بدعوى الاشتراكية أما الإسلام فلم يمنعك من التجارة والكسب الحلال من الطرق المشروعة وقال الله تعالى :

(*) راجع فى ذلك : «رسالة الدعوة إلى الله» للشيخ ابن باز بتصرف .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾.

وقال ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه» (١).

وحرم الظلم بوجه عام وحرم الغرر فى المعاملات والغش وهذه هى وسطية الاقتصاد الإسلامى.

وأيضاً تجب عليك فى بعض الأوقات أن تدعو إلى هذا أيضاً فتدعو إلى الاجتماع الإسلامى وليس الاجتماع الغربى والأوروبى.

وأحكام المعاملات بين الأخ وأخيه والشقيق وشقيقه، والابن وأبيه والأبناء وأمهم، وصلة الأرحام.

وهل هناك علم اجتماع أنفع من هذا العلم. ادع إلى الاجتماع الإسلامى.

ادع إلى التآخى الإسلامى، ادع إلى التآخى والأخوة الإيمانية، وبذ الفرة وما يترتب على الفرة لذلك كانت الدعوة إلى الله وإلى سبيله وإلى الإسلام، دعوة شمولية، ولم تكن دعوة حزبية مذهبية طائفية.

خلاصة هذه الوسطية فى نقاط:

(١) ادعوا إلى الله لا إلى حزب ولا إلى جماعة ولا شيخ ولا مذهب.

فكثيراً من يدعو إلى الله يظن هذا فى نفسه، لكن فى الحقيقة هو يدعو إلى نفسه يدعو ليقال فلان مثلاً شيخ الإسلام أو علامة الزمان أو ترجمان القرآن أو حسنة الدنيا أو هو بارع فى التوحيد وهو حريص على ذلك، هذا لم يدعو إلى الله حتى لو كانت دروسه توحيد بل يدعو إلى نفسه.

تدعو الناس على مذهب معين أو آراء شيخ معين، توالى عليه، وتعادى عليه.

هذه ليست دعوة إلى نفسك لكن إلى غير الله.

لكن دعوتنا إلى الإسلام توالى عليه وتعادى عليه.

(٢) تدعو إلى الإسلام دعوة شمولية ليس التوحيد فقط، ولكن التوحيد ومقتضياته.

(٣) على الداعى إلى الله أن يأخذ بالحق وأن يتبع الحق إذا ظهر دليله ولو خالف

فلاناً أو فلاناً.

(٤) عدم التقليد الأعمى وسيأتي مزيد بحث في التقليد في الباب الثامن والثلاثين.

(٥) الرفق بالمخالف وعدم التشنيع على الآخر بالمرجوح طالما لم يخرج به عن دائرة أهل السنة كما سبق في حديث السبعين ألف.

قوله (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً إلخ) قال ابن حجر^(١): يؤخذ منه أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم». «أن»: هي المصدرية، واللام قبلها مفتوحة، لأنها لام القسم، وأن ومدخلها مسبوق بمصدر مرفوع على أنه مبتدأ خبره خير.

[قلت]: وفيه جواز القسم بغير استحلاف، لبيان عظم الأمر والتأكيد على وقوعه، والله المستعان.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «لأن يهدي الله»

اللام واقعة في جواب القسم، وأن بفتح الهمزة مصدرية، ويهدي. مؤول بالمصدر مبتدأ، و«خير»: خبر، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾^(٤).

قوله: (حمر النعم) قال ابن حجر^(١): بسكون الميم من حمر وفتح النون والعين المهملة وهو من ألوان الإبل المحمودة، قيل المراد خير لك من أن تكون لك فتصدق بها، وقيل تقتنيها وتملكها، وكانت مما تتفاخر العرب بها.

مواقفه من شجاعة علي ابن أبي طالب وأسباب فتح الله على يديه

وذكر ابن إسحق من حديث أبي رافع قال: «خرجنا مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ برايته فضربه رجل من يهود فطرح ترسته، فتناول علي باباً كان عند الحصن فتترس به عن نفسه حتى فتح الله عليه، فلقد رأيتني أنا في سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه^(٥)، وللحاکم من حديث جابر «أن علياً حمل الباب يوم خيبر، وأنه جرب بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً»^(٦) والجمع بينهما أن السبعة عالجوا قلبه،

(١) فتح الباري (٥٤٦/٧ - ٥٤٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٠٠).

(٣) القول المفيد (١/١٧١، ١٧٢).

(٤) البقرة آية/ ١٨٤.

(٥) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢١٢/٤) من طريق ابن إسحاق عن بعض أهله.

(٦) أخرجه البيهقي في المصدر السابق بإسناد ضعيف.

والأربعين عاجلوا حمله، والفرق بين الأمرين ظاهر، ولو لم يكن إلا باختلاف حال الأبطال وزاد مسلم في حديث إياس ابن سلمة عن أبيه «وخرج مرحب فقال: قد علمت خير أنى مرحب، الأبيات، فقال علي: أنا الذى سمتنى أُمى حيدرة» الأبيات. «فضرب رأس مرحب فقتله» فكان الفتح على يديه^(١) وكذا في حديث بريدة الذى أشرت إليه قبل وخالف ذلك أهل السير فجزم ابن إسحق وموسى بن عقبة والواقدي بأن الذى قتل مرحباً هو محمد بن مسلمة، وكذا روى أحمد بإسناد حسن عن جابر^(٢)، وقيل محمد بن مسلمة كان بارزه فقطع رجله فأجهز عليه علي^(٣)، وقيل إن الذى قتله هو الحارث أخو مرحب فاشتبهوا على بعض الرواة، فإن لم يكن كذلك وإلا فما فى الصحيح مقدم على ما سواه، ولا سيما وقد جاء من حديث بريدة أيضاً، وكان اسم الحصن الذى فتحه على القموص وهو من أعظم حصونهم، ومنه سبيت صفية بنت حيي، والله أعلم.

وقال سليمان آل الشيخ^(٤) بنحو كلام ابن حجر: وحمّر بضم المهملة وسكون الميم، والنعم بفتح النون والعين المهملة، أي: خير لك من الإبل الحمرة، وهى أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل فى نفاسة الشيء، قيل: المراد خير من أن تكون لك فتصدق بها، وقيل تقتنيها وتملكها.

قلت: هذا هو الأظهر، والأول لا دليل عليه، أى أنكم تحبون متاع الدنيا، وهذا خير منه.

قال النووي: وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام، وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها، وأمثالها معها. وفيه فضيلة الدعوة إلى الله، وفضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد، وجواز الحلف على الفتيا والقضاء والخبر، والحلف من غير استحلاف.

قال ابن عثيمين^(٥): قوله: «حمّر النعم».

بتسكين الميم: جمع أحمر، وبالضم: جمع حمار، والمراد الأول. وحمّر النعم: هى الإبل الحمراء، وذكرها لأنها مرغوبة عند العرب، وهى أحسن وأنفس ما يكون من الإبل عندهم.

(١) تقدم تخريجه. وانظر شرحنا لزا المعاد

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢١٥/٤).

(٣) ذكره البيهقي في «الدلائل» (٢١٦/٤) عن الواقدي. وانظر «شرحنا لزاد المعاد»

(٤) تيسير العزيز الحميد (١٠٠).

(٥) القول المفيد (١٧١/١، ١٧٢).

وقوله: «لأن يهدي الله بك»، ولم يقل: لأن تهدي؛ لأن الذى يهدى هو الله.

قال ابن باز: والمعنى أى خير لك من الإبل الثمينة [قلت:] والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، أى أن هذا اللفظ عام وليس بخاص، والله أعلم.

ثم قال: وفيه بيان أهمية الدعوة وتعليم الناس، فإن أبوا قوتلوا ليكف شرهم، ولا يكون عقبة فى طريق غيرهم إلى الإسلام ويستعان بهم وبأموالهم فى سبيل الله... اهـ.

والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق والدلالة.

وهل المراد الهداية من الكفر إلى الإسلام، أو يعم كل هداية؟

نقول: هو موجه إلى قوم يدعوهم إلى الإسلام.

وهل نقول: إن القرينة الحالية تقتضى التخصيص، وأن من اهتدى على يديه رجل فى مسألة فرعية من مسائل الدين لا يحصل له هذا الثواب بقرينة المقام؛ لأن علياً موجه إلى قوم كفار يدعوهم إلى الإسلام، والله أعلم. اهـ.

● فضائل أخرى للدعوة والداعى خلاف ما تقدم

ذكر ابن باز بعض هذه الفضائل، منها:

(١) قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ

الْمُسْلِمِينَ﴾.

وتقدم قول الحسن البصرى: هذا ولى الله هذا حبيب الله هذا خيرة الله فى أرضه، استجاب إلى الله ودعا الناس فيما استجاب إلى الله فيه وعمل صالحاً فى هذه الاستجابة. فهو استجاب تلبية لقول الله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ الآية.

فهو استجاب ودعا ليس ذلك فقط بل استجاب ودعا وعمل صالحاً كأنما دعا الناس إليه. وهذا أيضاً امثال لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ...﴾ ﴿تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ فهو استجاب ودعا ولم ينس نفسه وعمل صالحاً وقال أننى من المسلمين بلسان حاله لا بلسان مقاله.

(٢) ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فالخيرية

فينا بسبب الدعوة والفلاح فى الدعوة إلى الله.

(٣) إنها سبيل محمد. والداعي إلى سبيل محمد على بصيرة هو من اتباعه فهو من أحق الناس أن ينسب إلى النبي ﷺ لكن غيره ربما نُسب لكن نسبة ادعاء ولم ينسب حقيقة إليه.

فهذا بعض فضائل من دعا إلى الله بأدلة القرآن، وأما من السنة:

(١) من دعا إلى هدى كان له مثل أجور من تبعه - إلى يوم القيامة - لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة عليه من الوزر مثل آثام من تبعه - إلى يوم القيامة - لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (١).

(٢) من دل على خير فله مثل أجر فاعله (٢) (الدال على الخير كفاعله). والحديث له قصة.

(٣) «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم».

ففيه ثواب أخروي تقريبه بثواب دينوي للتقريب، وإلا فالذى فى الآخرة لا يعدلها الدنيا وما فيها أخرجاه عن سهل بن سعد.

(٤) وعند الترمذى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله «نضر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع» (٣) وقال الترمذى: حديث حسن صحيح. وفى الحديث أيضاً: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فادأها كما سمعها» (٤) أخرجه ابن عبد البر، وهو فى شعب الإيمان للبيهقي.

(٥) ما تصدق مؤمن بصدقة أحب إلى الله عز وجل من موعظة يعظ بها قومه، فيفترقون وقد نفعهم الله عز وجل بها. من كلام أبى الدرداء ذكرناه فى كتابنا فقه الخطابة وأصله فى الترغيب والترهيب (٥).

(١) [صحيح] مسلم فى العلم (١٦/٢٢٧ - النووي). وانظر كتابي فقه الخطابة

وانظر «رياض الصالحين» (١/١٧ - بتخریجنا).

(٢) [صحيح] مسلم فى الإمارة (٣/١٣٨).

وانظر «رياض الصالحين» فى الموضوع السابق بتخریجنا. وأيضاً «كتابنا فقه الخطابة»

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/٣٤٧)، والترمذى (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢) عن ابن مسعود

وانظر «رياض الصالحين» (١٣٩٢ - بتخریجنا).

(٤) أخرجه ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم» (١/٣٩) عن زيد بن ثابت به وانظر الشعب للبيهقي

(١٧٣٦).

(٥) له شواهد فى معناه ذكرها ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (١/٢١ - ٢٧) وانظر كتابنا «فقه

الخطابة» ص ٣٤. الضعة الثانية.

(٦) هي خير ما ينفع المسلم في حياته وبعد مماته.

لحديث أبي هريرة عند مسلم (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث علم ينتفع به »^(١) . وفي بعض الطرق علم علمه أو نشره . فهذا يجرى عليه أجره بعد موته .

(٧) من دعا إلى الله وهو يحرص على هداية الناس وعلى صلاحهم فلعل الله أن يجازيه بجزاء من جنس عمله ، فيهديه بركة حرصه على هداية الناس ويصلح من شأنه ببركة ذلك .

(٨) بركة الدعوة وفضل الدعوة : أفضل فضائل الدعوة البركة التي يجدها الداعي على نفسه وصحته وعافيته ووقته وأولاده وأهله .

وأعظم الثمرة وأعظم الفضل الذي يلمسه الداعي نفسه فالداعي هو المستفيد الأول ، بهذه الدعوة ، يجد من البركة والخير في رزقه ، ووقته ما لا يجده غيره ، ويفهم في الوقت القليل - إذا يورك له ببركة دعوته في عقله - يفهم مالا يفهمه غيره في قرون لأن الله تعالى يقول : «وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييًا» .

قال ابن تيمية في مؤدى ما قال إنه باستقراء الأمم أهل السنة تجدهم أسد وأحد عقلاً من غيرهم وأنهم ينالون من العلوم في الفترة القليلة ما يناله غيرهم في قرون وهذا الثبات وهذه الحجة الجيدة في العقل ببركة دعوتهم وبركة أنهم فعلوا ما يوعظون به ، أمروا بالدعوة فدعوا ، وأمروا بالعمل بما دعوا إليه فعملوا ، وأمروا بالاستجابة فاستجابوا . فإن الله عز وجل يبارك للرجل والمرأة في عافيته ببركة الذكر فقط فما الظن بالذكر مع الدعوة .

ففي الصحيح حين جاءت فاطمة وسألت رسول الله ﷺ أن يعطيها خادماً فقال : ليس لك عندى خادم ، وقال : «ألا أدلكما على خير مما سألتمانى؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا !؟ أربعاً وثلاثين وأحمداً ثلاثاً وثلاثين وسبحاً الله ثلاثاً وثلاثين»^(٢) .

قال ابن حجر : وفيه أن ذكر الله معين للمرأة على عمل البيت وهو أفضل لها من خادم .

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الوصية (٨٥/١١ - النووي) عن أبي هريرة .

وانظر «رياض الصالحين» (٩٥١) - بتخریجنا) . وانظر «كتابنا فقه الخطابة»

(٢) [تفق عليه] أخرجه البخاري (٣١١٣) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٤٥/١٧ - النووي) عن علي

وانظر «رياض الصالحين» (١٤٦٢) - بتخریجنا) .

انظر إلى حال الداعي الذي تفرغ لدعوته، انظر إليه في أهله وبيته، وانظر إلى حال الآخر الذي أخلد إلى الأرض وقال احبس هذا الوقت مع أولادى فأذاكر لهم أو اصنع لهم كذا وكذا من الأشياء المشروعة فنجد مصداق الحديث القدسي إن صح:

«يا دنيا من خدمك فاستخدميه ومن خدمنى فاعلمى». ويشهد لمعناه ما ثبت فى الطبرانى وغيره «من أصبح والدنيا أكبر همه فرق الله شمله وجعل فقره بين عينيه، ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له»^(١).

فلما تفرغ الداعي لله وللدعوة إليه لإرشاد الناس إلى ربهم خدمته الدنيا، والناس تسعى إليه لخدمته، لتحفيظ أبنائه.

ويأتى ناس تساعد زوجته فى تنظيف منزله بل ويأتى آخر يوصله إلى الدروس وغيره وآخر يريد بل يتمنى أن يخدمه.. كذا.

فى حين الآخر الذى تفرغ لأبنائه تأتبه المشاكل من كل حذب وصوب لا تنتهى، والأبناء لا تفهم ويتسبى من هذه المشكلة يدخل فى أخرى. وهو مخطئ لأنه فرغ نفسه لهم.

فإن الداعى يخلفه الله فى بيته وأبنائه لا يكونوا غير مهذين، ولا متبرجات ولا يشربون المخدرات.

نعمة الله على الداعى لا تحصى ثم لا تحصى ثم لا تحصى .

العاجلة قبل الآجلة. فأنت بالخيار إما أن تنزل لهذه الدركات وإما أن تتعرض لهذه البركات تتحرك لهذه النفحات. عسى الله أن يفيض عليك منها أو يصيبك شىء منها.

● زيادة على رواية المصنف:

فى رواية للبخارى: (فأعطاها ففتح عليه)

قال ابن حجر^(٢): فى حديث سهل «فأعطاها الراية» وفى حديث أبى سعيد عند أحمد «فانطلق حتى فتح الله عليه خير وفدك وجاء بعجوتها»^(٣).

وقد اختلف فى فتح خير هل كان عنوة أو صلحاً.

وفى حديث عبد العزيز بن صهيب عن أنس^(٤) التصريح بأنه كان عنوة وبه جزم ابن عبد البر، ورد على من قال: فتحت صلحاً.

(١) انظر مجمع الزوائد (٢٤٨/١) وصححه الألبانى فى «السلسلة الصحيحة»، وانظر كتابى «فقه الخطابة» (٦١٥/٢) فى خطبة القول الملهم فى أسباب وعلاج الهم.

(٢) فتح الباري (٥٤٦، ٥٤٥/٧).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٦/٣).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٢٠١)، ومسلم فى النكاح (٨٤/٢٣٥/٥).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنْ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ طَرِيقٌ مِنْ اتِّبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قال: وإنما دخلت الشبهة على من قال فتحت صلحاً بالحصنين اللذين أسلمهما أهلها لحقن دمائهم، وهو ضرب من الصلح لكن لم يقع ذلك إلا بحصار وقتال انتهى.

والذي يظهر أن الشبهة في ذلك قول ابن عمر «أن النبي ﷺ قاتل أهل خير فغلب على النخل، وأجأهم إلى القصر فصالحوه على أن يجلو منها وله الصفراء والبيضاء والحلقة ولهم ما حملت ركا بهم على أن لا يكتموا ولا يغيبوا» الحديث وفي آخره «فسي نساءهم وذرائعهم، وقسم أموالهم للنكت الذي نكثوا، وأراد أن يجليهم فقالوا: دعنا في هذه الأرض نصلحها»^(١) الحديث أخرجه أبو داود والبيهقي وغيرهما.

وكذلك أخرجه أبو الأسود في المغازي عن عروة.

فعلى هذا كان قد وقع الصلح، ثم حدث النقض منهم فزال أثر الصلح، ثم من عليهم بترك القتل وإبقائهم عمالاً بالأرض ليس لهم فيها ملك، ولذلك أجلاهم عمر، فلو كانوا صلحوا على أرضهم لم يجلوها منها والله أعلم.

واحتج الطحاوي على أن بعضها فتح صلحاً بما أخرجه هو وأبو داود من طريق بشير ابن يسار «أن النبي ﷺ لما قسم خيبر عزل نصفها لنوابه وقسم نصفها بين المسلمين» وهو حديث اختلف في وصله وإرساله، وهو ظاهر في أن بعضها فتح صلحاً، والله أعلم.



فيه مسائل:

● الأولى: أَنْ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ طَرِيقٌ مِنْ اتِّبَاعِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ والأشمل من ذلك والأبلغ في مطابقة الآية أن يقال: إن الدعوة إلى الله طريق الرسل وأتباعهم.

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٠٦) عن ابن عمر به.

الثانية: التَّنْبِيهِ عَلَى الْإِخْلَاصِ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَوْ دَعَا إِلَى الْحَقِّ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ.

الثالثة: أَنَّ الْبَصِيرَةَ مِنَ الْفَرَائِضِ.

الرابعة: مِنْ دَلَائِلِ حُسْنِ التَّوْحِيدِ كَوْنُهُ تَنْزِيهًا لِلَّهِ تَعَالَى عَنِ الْمَسَبَّةِ.

● الثانية: التنبيه على الإخلاص.

وتؤخذ من قوله: «أَدْعُو إِلَى اللَّهِ»، ولهذا قال: «لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه»؛ فالذى يدعو إلى الله هو الذى لا يريد إلا أن يقوم دين الله، والذى يدعو إلى نفسه هو الذى يريد أن يكون قوله هو المقبول، حقاً كان أم باطلاً.

● الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

وتؤخذ من قوله تعالى: «أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ» ووجه كون البصيرة من الفرائض؛ لأنه لا بد للداعية من العلم بما يدعو إليه، والدعوة فريضة، فيكون العلم بذلك فريضة.

قلت: لأنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب فالعلم والبصيرة اللازمة للدعوة فرض وواجب لأنه لا تتم الدعوة إلا به.

● الرابعة: من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهاً لله عن المسبة.

قلت: وفيه الحديث القدسي: «يسبنى ابن آدم ويشتمنى فمن شتمه لى أن جعل لى ولد ومن سبه لى قال أيعيدنى بعد أن أكون عظيماً»^(١).

ويؤخذ من قوله تعالى: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» فسبحان الله دليل على أنه واحد لكماله.

ومعنى عن المسبة، أي: وعن مماثلة الخالق للمخلوق، إذ تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصاً.

قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٣١٩٣) عن أبي هريرة به.

الخامسة: أَنَّ مِنْ قُبْحِ الشَّرْكِ كَوْنُهُ مَسَبَّةً لِلَّهِ

السادسة: وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا: إِبْعَادُ الْمُسْلِمِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، لِثَلَاثِ أَسْبَابٍ مِنْهُمْ وَلَوْ لَمْ يُشْرِكْ.

السابعة: كَوْنُ التَّوْحِيدِ أَوَّلَ وَاجِبٍ.

● الخامسة: أَنَّ مِنْ قُبْحِ الشَّرْكِ كَوْنُهُ مَسَبَّةً لِلَّهِ.

وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾.

● السادسة - وهى من أهمها: إبعاد المسلم عن المشركين؛ لثلا يصير منهم، ولو لم يشرك.

لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ولم يقل: «وما أنا مشرك» لأنه إذا كان بينهم، ولو لم يكن مشركاً، فهو فى ظاهره منهم، ولهذا لما قال الله للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾؛ توجه الخطاب له ولهم.

● السابعة: كون التوحيد أول واجب.

تؤخذ من قوله ﷺ: «فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله»، وفى رواية: «أن يوحدوا الله».

وقال بعض العلماء: أول واجب النظر، لكن الصواب أن أول واجب هو التوحيد، لأن معرفة الخالق دلت عليها الفطرة. اهـ.

[قلت]: وهذه المسألة فيها: رد على بعض المتكلمين أو على أشباههم الذين فى دائرة أهل السنة فى أنهم قالوا أول واجب هو النظر فى دلائل التوحيد ثم بعد ذلك يوحد. وبعضهم قال لا يقبل توحيد للعامى المقلد لأنه لا يوحد إلا بالنظر فى الأدلة، وهذا كلام المعتزلة أو بعض من ينتسب إلى أهل السنة ممن كانوا شابهوا المعتزلة أو كانوا منهم ولعل بعضهم يسلك هذا المسلك وهو التكفير كانوا زماناً يعتبرون الإنسان غير موحد إلا إذا تعلم التوحيد بأدلتة على أيديهم ويشرحوا كتاب كذا بحيث بعد ذلك يحكموا عليك بالإسلام فلا يحكموا لك بالإسلام إلا بعد التعلم وكأنهم شابهوا من قال بالنظر فى الأدلة فيما بينهم والجواب عليهم من هذا الحديث: أن النبى ﷺ لم يوجب على هؤلاء ولا على غيرهم النظر أولاً فى الأدلة للتوحيد، ثم يوحدوا بل إنه دعا الأميين ودعا

الثامنة: أَنَّهُ يُبَدَأُ بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى الصَّلَاةِ.

التاسعة: أَنَّ مَعْنَى «أَنْ يُوحَّدُوا اللَّهَ» مَعْنَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

الكتابيين إلى التوحيد أولاً لا بالنظر في أدلته ثم بعد ذلك يوحّدوا «فليكن أول ما تدعوهم إليه هو شهادة أن لا إله إلا الله فإذا وحدوا الله أو فإذا عرفوا الله».

لا إلى النظر في الأدلة بل الشهادة، فيقروا بها أولاً ثم يأتيهم التفصيل والبيان شيئاً فشيئاً ولأن التوحيد توحيد الربوبية ومعرفة الخالق دلت عليه الفطرة.

قال تعالى: ﴿فَظَرَّتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾

وفي صحيح مسلم: «إني خلقت عبادي حنفاء»^(١).

وفي الصحيح: «كل مولود يولد على الفطرة..»^(٢).

فهى مسألة فطرية، وداعى الفطرة فيك يوافق هذه الفطرة المعينة للداعى الذى يدعوك إلى التوحيد قبل عرض الأدلة والحاصل أنه لا مانع من عرض الأدلة لكن لا تكون ابتداءً لكى يوحد فى آخر الأمر بل يعرض عليه الإسلام ليقبله جملة وغيباً ثم يبحث عن الأدلة إن وصل إليها وآمن بها فيها ونعمت. وإن ارتد فهو مرتد.

ولو كان النظر فى الأدلة واجب ولا يقبل توحيد العامى لكان النبى ﷺ أقر خالد ابن الوليد لما قتل من قال لا إله إلا الله رغم وجود قرينة أنه قالها خشية من السيف ولم يقل لم يكن عنده أدلة، أو أنه لم يفهم معناها أو مقتضياتها ولم يقره على ذلك، بل عاتبه فى ذلك، وقد تقدم هذا الكلام بالتفصيل.

● الثامنة: أن يُبَدَأُ بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ.

تؤخذ من قوله ﷺ: «ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه» «فإن هم أطاعوك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة».

● التاسعة: أن معنى أن يوحّدوا الله معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار.

وانظر كتابنا «فتح ذي الجلال في تخریج أحاديث الظلال» (٤٠٦).

(٢) تقدم تخريجه.

العاشرة: أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهَا أَوْ يَعْرِفُهَا وَلَا يَعْمَلُ بِهَا.

الحادية عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى التَّعْلِيمِ بِالتَّدْرِيجِ.

الثانية عشرة: الْبَدَاءُ بِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمُّ.

الثالثة عشرة: مَصْرَفُ الزَّكَاةِ.

الرابعة عشرة: كَشْفُ الْعَالَمِ الشَّبْهَةِ عَنِ الْمُتَعَلِّمِ.

تؤخذ من تعبير الصحابي حيث عبر في رواية بقوله: «شهادة أن لا إله إلا الله» وفي رواية عبر بقوله: «أن يوحدوا الله».

● العاشرة: أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهَا أَوْ يَعْرِفُهَا وَلَا يَعْمَلُ بِهَا. ومراده بقوله: «لا يعرفها، أو يعرفها» شهادة أن لا إله إلا الله، وتؤخذ من قوله: «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»، إذ لو كانوا يعرفون لا إله إلا الله، ويعملون بها ما احتاجوا إلى الدعوة إليها.

● الحادية عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى التَّعْلِيمِ بِالتَّدْرِيجِ.

تؤخذ من قوله ﷺ لمعاذ: «ادعهم إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم...» إلخ الحديث.

[قلت] وأيضاً امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

● الثانية عشرة: الْبَدْءُ بِالْأَهَمِّ فَالْأَهَمُّ.

تؤخذ من أمره ﷺ معاذًا بالتوحيد ليدعو إليه أولاً، ثم الصلاة، ثم الزكاة.

● الثالثة عشرة: مَصْرَفُ الزَّكَاةِ.

تؤخذ من قوله: «فترد على فقرائهم».

● الرابعة عشرة: كَشْفُ الْعَالَمِ الشَّبْهَةِ عَنِ الْمُتَعَلِّمِ.

المراد بالشبهة هنا: شبهة العلم، أي: يكون عنده جهل.

الخامسة عشرة: النَّهْيُ عَنْ كَرَائِمِ الْأَمْوَالِ.

السادسة عشرة: اتِّقَاءُ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ.

السابعة عشرة: الإِخْبَارُ بِأَنَّهَا لَا تُحْجَبُ.

تؤخذ من قوله: «إن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم». فيبين أن هذه الصدقة تؤخذ من الأغنياء، وأن مصرفها الفقراء. [قلت] لماذا اختار ابن عثيمين أن المصنف قصد ذلك وهو أخذ هذه الفوائد من الحديث جزء جزء.

فقال له خذ صدقة من الأغنياء ترد على الفقراء ثم قال له إياك وكرائم أموالهم فبقى إما أن نقول إن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ترد على فقرائهم فكشف الشبهة عنه أنه أعلمه بمصرف من مصارف الزكاة. أو إما أن نقول أنه ينهاه عن أخذ الصدقة عن كرائم الأموال.

لأن هذه الكرائم تدخل في أموالهم فقد يظن أن الأمر عام يشمل جميع الأموال فقال له: إن الأمر يشمل الأموال التي ليس من كرائم الأموال فيما أن تكون الشبهة هي هذه أو أنه بين له مصرف من مصارف الزكاة. لكن الأقرب أن تكون الشبهة في كرائم الأموال، والله أعلم.

● الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال.

تؤخذ من قوله: «إياك وكرائم أموالهم»، إذ إياك تفيد التحذير، والتحذير يستلزم النهي.

● السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.

تؤخذ من قوله: «واتق دعوة المظلوم».

● السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب.

تؤخذ من قوله: «فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». فقرن الترغيب أو التهيب بالأحكام، مما يحث النفس إن كان ترغيباً، ويبيدها ويذجرها إن كان ترهيباً، لقوله: «اتق دعوة المظلوم» فالنفس قد لا تتقي، لكن إذا قيل: ليس بينها وبين الله حجاب، خافت ونفرت من ذلك.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

التاسعة عشرة: قوله: «لأعطين الراية..» إلخ: علم من أعلام النبوة.

● الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

والظاهر أن المؤلف رحمه الله يريد الإشارة إلى قصة خيبر، إذ وقع فيها في عهد النبي ﷺ جوع عظيم، حتى إنهم أكلوا الحمير والثوم، وأما الوباء، فهو ما وقع في عهد على رضى الله عنه، وأما المشقة، فظاهرة.

ووجه كون ذلك من أدلة التوحيد: أنَّ الصبر والتحمل في مثل هذه الأمور يدل على إخلاص الإنسان في توحيده وأن قصده الله، ولذلك صبر على البلاء. أهـ.

[قلت]: إن كان رجل منافق - نسأل الله العافية - يدعو لنفسه، فيريد أن المسجد يملأ والناس تصفق له، ويقال له يا شيخ فلان ويريد أن يذاع اسمه، ولا يدعو إلى الله فإنه إن أودى وأكل الحمير والثوم كما حدث للصحابه من المشقة والجوع في غزوة خيبر فإن حدث له مثل هذا، أو أصابه مرض أو تعب فعند ذلك يظهر نفاقه في جزعه وعدم رضاه وعدم صبره لأنه لم يكن هذا العمل لله خالصاً إنما لحظ نفسه فلما لم يجد هذا الحظ ذهب جفاء مع الزيد وأما ما ينفع الناس فيمكث الأرض فهذا كان ظاهراً جداً في هذه الغزوة فإن كان هؤلاء الناس غير مخلصين فما الذى كان يصبرهم على ذلك وما الذى يجعلهم يحتملوا، لو أن أحدهم ذاهب يدعو لوجهته وشرفه ويقال له يا شيخ فلان ولم يقال له ذلك، بل ضرب وأودى وجاع.. ومع ذلك صبر واحتمل واحتسب وثبت حتى مرت هذه الفتنة والابتلاءات وهو صامد، والنبي ﷺ يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»^(١). فإن كان يدعو لنفسه أو لغير الله، فما الذى يجعله يحتمل هذه المشقة، إن كان منافقاً في مثل هذه المواقف، فصبره على المشقة والجوع والوباء هو والصحابه دليل على أنهم كانوا يدعون إلى الله «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي» والله المستعان.

● التاسعة عشرة: قوله: «لأعطين الراية» علم من أعلام النبوة.

لأن هذا حصل، فعلى بن أبى طالب يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. أهـ.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١٢/١١٧ - النووي) عن البراء

به.

وانظر كتابنا «فتح ذي الجلال في تخريج أحاديث الظلال» (٥٣٤) وانظر «شرحنا لزاء المعاد».

[قلت] إن الله عز وجل يفتح بالغيب النسبى على من يشاء من الرسل كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ فالرسل هم الذين استثنوا فى الغيب والغيب النسبى.

فالغيب غيان.. غيب مطلق وغيب نسبى.

والغيب المطلق هو الذى ذكره الله عز وجل فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ هذه خالصة الله عز وجل كما قال ابن عمر مرفوعاً فى الصحيح: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله» (١).

حصر وقصر لهذه المفاتيح على الله فقط فلا يطلع عليها لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل والأدلة على ذلك واضحة وجليه أوضحتها فى خطبة، «الترغيب فى الإيمان بالغيب» (٢) فالغيب النسبى هو الذى يفتح الله به على من يشاء من رسله تأييداً له وتأيداً لرسالته وإظهاراً لنبوته كما قال تعالى حكاية عن عيسى حينما كان يدعو بنى إسرائيل ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ فهذا غيب نسبى فتح الله به على من ارتضى من رسله. كعيسى، وكيوسف عليه السلام، قال: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ بتأويله قبل أن تأتیکما، فهذا غيب نسبى وليس مطلق.

نعم أصحابه فى السجن لا يعرفونه، لكن من طبخه يعرفونه فهذا غيب نسبى يظهر لمن كان فى خارج السجن لمن كان يصنع الطعام ويغيب عن من فى داخل السجن ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فالذى أخبر به الرسول ﷺ عن هذا الفتح كان غيباً من جنس الغيب الذى فتح الله به على عيسى ويوف والرسول ﷺ فتح عليه بهذا الغيب وقيل له أن علياً سيفتح الله على يديه «فأخبر بذلك فكان الأمر كما أخبر فهذا علم من أعلام النبوة».

(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٤٦٩٧) عن ابن عمر به.

(٢) انظر كتاب «فقه الخطابة وزاد الخطيب».

العشرون: تَفْلُهُ فِي عَيْنِهِ عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِهَا أَيْضًا.
 الحادية والعشرون: فَضِيلَةُ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
 الثانية والعشرون: فَضْلُ الصَّحَابَةِ فِي دَوَكِهِمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَشُغْلِهِمْ عَنْ
 بَشَارَةِ الْفَتْحِ.
 الثالثة والعشرون: الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ لِحُصُولِهَا لِمَنْ لَمْ يَسْعَ لَهَا وَمَنْعَهَا عَمَّنْ
 سَعَى.

- العشرون: تفلّه في عينه علم من أعلامها أيضاً.
- لأنه بصر في عينه، فبرأ كان لم يكن به وجع.
- الحادية والعشرون: فضيلة على بن أبي طالب رضى الله عنه.
- وهذا ظاهر؛ لأنه يحب الله ورسوله، ويحب الله ورسوله.
- الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح.
- لأنهم انشغلوا عن بشارة الفتح بالتماسهم معرفة من يحب الله ورسوله، ويحب الله ورسوله.
- الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى.
- لأن الصحابة غدوا على رسول الله ﷺ مبكرين، كلهم يرجو أن يعطاها ولم يعطوها، وعلى بن أبي طالب مريض ولم يسع لها، ومع ذلك أعطى الراية.
- [قلت] «فلما أصبحوا غدو على رسول الله » ولم يحضر على فقال «أين على بن أبي طالب» فلم يغدوا معهم، فهم آمنوا بالقدر... إلخ.
- إلا أنه لم يسلم للمصنف ماذهب إليه بإطلاق.
- فعلى بن أبي طالب وإن لم يغدوا كغدوهم إلا أنه سعى كسعيهم وأكثر وقد تقدم عند مسلم أنه كان مريضاً فله رخصة ورغم ذلك لم يتخلف وخرج مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، فهنا سعى كسعيهم وأكثر، فتميز بهذه المزية لأنه سعى وهو معذور وهم ليسوا كذلك . والله المستعان.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «على رسلك»

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة لقوله: «أخبرهم بما يجب عليهم».

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام.

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد.

● الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «على رسلك».

وجهه : أنه أمره بالتمهل وعدم التسرع.

● الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.

لقوله: «انزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام».

● السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

قلت: لأنه ﷺ أغار على بنى المصطلق حينما لم يسمع النداء ولم يدعهم أولاً لأنهم دعوا قبل ذلك (١).

● السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة، لقوله: «أخبرهم بما يجب عليهم».

لأن من الحكمة أن تتم الدعوة، وذلك بأن تأمره بالإسلام أولاً، ثم تخبره بما يجب عليه من حق الله، ولا يكفي أن تأمره بالإسلام، لأنه قد يطبق هذا الإسلام الذي أمرته به وقد لا يطبقه، بل لابد من تعاهده حتى لا يرجع إلى الكفر.

● الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام.

تؤخذ من قوله: «وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه».

● التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد.

لقوله: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»، أي: خير لك من

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٥٤١)، ومسلم في الجهاد (٦/٢٧٨) عن ابن عمر به وانظر «شرحنا لزاد المعاد» في هدية ﷺ في الجهاد.

الثلاثون: الحلفُ عَلَى الْفُتْيَا.

كل ما يستحسن في الدنيا، وليس المعنى كما قال بعضهم: خير لك من أن تصدق بنعم حمر.

● الثلاثون: الحلف على الفتيا.

لقوله: «فوالله لأن يهدي الله...» إلخ ، فأقسم النبي ﷺ وهو لم يُستقسم، والفائدة هي حثه على أن يهدي الله به والتوكيد عليه.

ولكن لا ينبغي الحلف على الفتيا إلا لمصلحة وفائدة، لأنه قد يفهم السامع أن المفتي لم يحلف إلا لشك عنده.

والإمام أحمد رحمه الله أحياناً يقول في إجابته: أي والله، وقد أمر الله رسوله بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن:

في قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ﴾.

فإذا كان في القسم مصلحة ابتداءً، أو جواباً لسؤال، جاز وربما يكون مطلوباً أ.هـ.



٥) بابُ تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

● محتويات الباب:

- ١- مناسبة الباب لما قبله من الأبواب، ولكتاب التوحيد.
 - ٢- شرح الترجمة.
 - ٣- مناسبة آيات الباب بعضها ببعض.
- الآية الأولى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٢]

- ١- مناسبة الآية للباب.
 - ٢- الإعراب.
 - ٣- سبب نزول الآية.
 - ٤- أقوال المفسرين في الآية.
 - ٥- أقوال شراح كتاب التوحيد في الآية.
 - ٦- فصل في الوسيلة، وأحكامها.
 - معنى الوسيلة لغة واصطلاحاً.
 - أقسام الوسيلة [مشروعة- ممنوعة] وتفصيل ذلك
 - شبهة: التوسل بجاه النبي ﷺ، والرد عليها
- الآية الثانية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦]
- ١- مناسبة الآية للباب
 - ٢- الإعراب.

- ٣- أقوال المفسرين في الآية
- علاقة الآية بما قبلها، وبيان المقصود الأصلي منها.
- ٤- أقوال شراح كتاب التوحيد في الآية.
 - ٥- فصل في عدم البراء من الشرك وأهله
- معنى الولاء، لغة وشرعاً.

-
- أدلة الولاء من الكتاب والسنة .
 - أسباب موالة الكافرين
 - أحكام الموالة [مكفرة- غير مكفرة].
 - صورة الموالة.
 - التشبه، وفيه مسألة الإكراه على الكفر والتقية .
 - الحب والمودة للدين، لا للحزب ولا لفرقة .
 - وفيه مسألة حكم الحب الجبلى للكافر .
 - النصرة
 - الطاعة والمتابعة
 - المعاونة والقيام بالأمر والنصح
 - المداينة على حساب الدين
 - تولية الكفار أمور المسلمين
 - السكنى معهم فى ديارهم وتكثير سوادهم
 - تعريف البراء لغة وشرعاً
 - صور ليست من الموالة
 - الاستعانة بغير المسلم لفرض حماية الداعى .
 - المؤاجرة والمبايعة مع المشركين .
 - البيع والشراء .
 - قبول الهدايا منهم والإهداء إليهم .
 - رد السلام عليهم .
 - الإلتفاع بما عندهم .
 - الزواج من الكتائية
 - الآية الثالثة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]
 - ١- مناسبة الآية للباب والمراد منها .

- ٢- الإعراب.
 - ٣- معنى الأحبار والرهبان.
 - ٤- ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين.
 - ٥- أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية.
 - ٦- الشرك فى الحكم.
 - ٧- الحكم بغير ما أنزل الله.
 - ٨ - فوائد أخرى- لصاحب «معنى المريد»
- الآية الرابعة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة].

- ١- مناسبة الآية للباب
 - ٢- مناسبة الآية لكتاب التوحيد.
 - ٣- الإعراب.
 - ٤- أقوال المفسرين فى الآية.
 - ٥- أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية.
 - ٦- المحبة وأنواعها.
 - ٧- كلام ابن القيم فى المحبة والعشق وعلاجه.
 - ٨- أسباب المحبة
- حديث: «من قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله».

- ١- مناسبة الحديث للباب
 - ٢- تقسيم الإسلام إلى إسلام حكيم وإسلام حقيقى
 - ٣- مآخذ على من خلط بينهما.
 - ٤- شبه لشراح كتاب التوحيد والرد عليها.
 - ٥- فوائد من قوله «وحسابه على الله»
- مسائل الباب.



٥ بابُ تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

مناسبة الباب لما قبله من الأبواب، ولكتاب التوحيد أيضاً:

قال سليمان آل الشيخ: (١)

ولما ذكر المصنف في الأبواب السابقة التوحيد وفضائله، والدعوة إليه، والخوف من ضده الذي هو الشرك، فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة هذا الأمر الذي خلقت له الخليقة، والذي بلغ من شأنه عند الله أن من لقيه به غفر له. وإن لقيه بملء الأرض خطايا.

بين - المصنف رحمه الله - في هذا الباب أن التوحيد ليس اسماً لا معنى له، أو قولاً لا حقيقة له كما يظنه الجاهلون الذين يظنون أن غاية التحقيق فيه هو النطق بكلمة الشهادة من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني، والحاذق منهم يظن أن معنى الإله هو الخالق المتفرد بالملك، فتكون غاية معرفته هو الإقرار بتوحيد الربوبية، وهذا ليس هو المراد بالتوحيد، ولا هو أيضاً معنى «لا إله إلا الله» وإن كان لابد منه في التوحيد بل التوحيد اسم لمعنى عظيم، وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني،

وحاصله هو: البراءة من عبادة كل ما سوى الله، والإقبال بالقلب والعبادة على الله، وذلك هو معنى الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، وهو معنى «لا إله إلا الله» كما قال تعالى: ﴿وَالْهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وقال تعالى حكاية عن مؤمن يس: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدَّنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ وقال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لَا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ والآيات في هذا كثيرة تبين أن

(١). «تيسير العزيز الحميد» (١٠١ - ١٠٢).

معنى «لا إله إلا الله» هو البراءة من عبادة ما سوى الله من الشفعاء والأنداد، وإفراد الله بالعبادة، فهذا هو الهدى ودين الحق الذى أرسل له رسله، وأنزل به كتابه، أما قول الإنسان لا إله إلا الله من غير معرفة لمعناها، ولا عمل به، أو دعواه أنه من أهل التوحيد، وهو لا يعرف التوحيد، بل ربما يخلص لغير الله من عباداته من الدعاء والخوف والذبح.

والنذر والتوبة والإنابة وغير ذلك من أنواع العبادات، فلا يكفى فى التوحيد، بل لا يكون إلا مشركاً والحالة هذه، كما هو شأن عباد القبور. ثم ذكر المصنف آيات تدل على هذا أ.هـ.

قال ابن باز (١): وذكر- يعنى المصنف- هذا الباب لتعرف حقيقة التوحيد. أ.هـ

قال ابن عثيمين (٢): وهذا الباب مهم؛ لأنه لما سبق الكلام على التوحيد وفضله والدعوة إليه، كأن النفس الآن اشرأبت إلى بيان ما هو هذا التوحيد الذى بُوب له هذه الأبواب (وجوبه، وفضله، والدعوة إليه).

فيُجاب بهذا الباب، وهو تفسير التوحيد. أ.هـ.

قال الفقير: ومناسبة هذا الباب لما قبله

[أولاً]: أنه لما كان الداعى إلى الله داعياً على بصيرة فكان لابد أن يفسر له التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله؛ لذلك بوب المصنف هذا الباب، بعد الدعاء مراعاة لترتيب الآية «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ» والتفسير للتوحيد غير بيان معناه، ففى هذا بيان لمجمل معنى التوحيد، وفى التفسير بيان تفصيلى للتوحيد؛ لذلك تعرض فيه لعبادة الأبحار والرهبان، ولموالاة الكفار، وتبرء إبراهيم منهم، والأنداد التى تحب كحب الله؛ ولهذا أيضاً تلا هذا الباب أبواباً كثيرة جداً تفسر التوحيد ببيان ضده من الشرك.

[والثانى]: لأنه لما شرح التوحيد على الإجمال فى الباب الأول، وهذا الشرح على الإجمال كافى للداعية أن يدعو للتوحيد، ولكن هذا الشرح لا يكفى لاستمرار الدعوة، فكأنه لما عرفه على الإجمال ورغب فيه ورهب من ضده من الشرك بين أنك الآن

(١) «التعليق المفيد» (٥٧).

(٢) «القول المفيد» (١/١٨٣).

تأهلت للدعوة، لكن هذا القدر لا يكفي للاستمرار، فينبغي أن نشرح لك على التفصيل، فناسب لاستمرارية الدعوة أن يذكر بعد باب/ الدعاء إلى (لا إله إلا الله) أن يذكر التوحيد على التفصيل ومعنى الشهادة.

[والثالث]: قاله الشراح أن في هذا الباب مزيد بيان للتوحيد.

[الرابع]: أنه جمع في هذا الباب الأبواب، التي لا يتصور أن يخرج المرء من الإسلام إلى الكفر إلا من خلالها، فالأمور المكفرة إما تقديم عبادة لغير الله ظاهرة أو باطنة.

أما الظاهرة، ففي قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ فكانوا يقدمون عبادة ظاهرة منها: الدعاء للأنداد والنظراء مع أن أندادهم ونظرائهم كانوا مسلمين يبتغون إلى الله الوسيلة، فهذا باب.

أو عبادة باطنة كالمحبة والمودة والمولاة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ فعبادة ظاهرة أو باطنة تخرج المسلم من الإسلام.

ومن هنا ذكر الآية ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ فين أن التوحيد في البراءة من الشرك والمشركين ليس فقط في عدم المولاة والمحبة لهم، وصورة ثالثة: أن يقدم أمر أو نهى لغير الله وإن كان مردها للعبادة التي هي الأمر والنهي، لكن هنا نص على الصورة فقال: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فين على الإجمال الأبواب التي تخرج الناس من الإسلام إلى الكفر وهي: التحاكم، الأمر والنهي، العبادة الظاهرة، والعبادة الباطنة، ثم ختم الباب بـ«من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم دمهُ وماله» ليعلم أن التوحيد ليس الكلمة فحسب، وإنما الإتيان بلوازمها. والله أعلم.



● شرح الترجمة:

قال سليمان آل الشيخ^(١) : قوله : (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)

أى تفسير هاتين الكلمتين، والعطف لتغاير اللفظين، وإلا فالمعنى واحد أ. هـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): هذا من عطف الدال على المدلول. أ. هـ .

وقال السعدي^(٣): هذه المسألة أكبر المسائل وأهمها كما قال المصنف - رحمه الله -

وحقيقة تفسير التوحيد: العلم والاعتراف بتفرد الرب بجميع صفات الكمال وإخلاص العبادة له .

وذلك يرجع إلى أمرين:

نفى الألوهية كلها عن غير الله ، بأن يعلم ويعتقد أن لا يستحق الألوهية ولا شيئاً من العبودية أحد من الخلق لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا غيرهما، وأنه ليس لأحد من الخلق فى ذلك حظ ولا نصيب .

والأمر الثاني: إثبات الألوهية لله تعالى وحده لا شريك له وتفرد به معانى الألوهية كلها وهى نعوت الكمال كلها، ولا يكفى هذا الاعتقاد وحده حتى يحققه العبد بإخلاص الدين كله لله فيقوم بالإسلام والإيمان والإحسان وبحقوق الله وحقوق خلقه قاصداً بذلك وجه الله وجالباً رضوانه وثوابه .

ويعلم أن من تمام تفسيرها وتحقيقها البراءة من عبادة غير الله، وأنَّ إتخاذ أنداد يحبهم كحب الله أو يطيعهم كطاعة الله أو يعمل لهم كما يعمل الله ينافى معنى لا إله إلا الله أشد المنافاة. اهـ..

وقال ابن باز^(٤): بين المؤلف هنا تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله بما يوافق لفظها، وبما يضادها، لأن الشيء يعرف بضده، وقد قيل : والضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتميز الأشياء، وذكر هذا الباب لتعرف حقيقة التوحيد.

وحقيقته: هو أفراد الله بالعبادة وتخصيصه بها وبجميع أنواع العبادة، فتؤمن بذلك بالقلب وتعمل بالجوارح. وقوله «وشهادة أن لا إله إلا الله» هذا من باب عطف الدال والشهادة على المدلول، وهو التوحيد ، فالتوحيد هو شهادة بالله وحده. اهـ.

(١) «تيسير العزيز الحميد» (١٠١).

(٢) «فتح المجيد» (١/١١٩).

(٣) «القول السديد» (٣١٢٣٠).

(٤) «التعليق المفيد» (٥٧).

وقال ابن عثيمين^(١): التفسير معناه: الكشف والإيضاح، مأخوذ من قولهم: فَسَّرْتُ الثمرة قشرها، ومن قول الإنسان: فَسَّرْتُ ثوبي؛ فاتضح ما وراءه، ومنه تفسير القرآن الكريم.

والتوحيد تقدم تعريفه، والمراد به هنا اعتقاد أن الله واحد في ألوهيته.

وقوله: «وشهادة أن لا إله إلا الله».

معطوف على التوحيد؛ أى: وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله والعطف هنا من باب عطف المترادفين؛ لأن التوحيد حقيقة هو: شهادة أن لا إله إلا الله. اهـ.



مناسبة آيات الباب بعضها ببعض، وما بينها من ترابط.

الأولى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾^(٢)

الثانية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٣)

الثالثة: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾^(٤)

الرابعة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحَوِّنُهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(٥).

قال حامد بن محمد^(٦) والشيخ - رحمه الله - قد ذكر للإسلام والتوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله أربع آيات من كتاب الله هن له كالقواعد حيث لا وجود له ولا ثبات إلا بها، وهن أم المسائل التوحيدية وأصلها، حيث إن المسائل تتولد منها وتنتج وتفرع منها تفرع الأغصان من أصل الشجرة.

قلت - أى حامد بن محمد: فكما أن الأغصان تتقارب ضعفاً وقوة، كذلك التوحيد فى قلب المسلم والمؤمن والمحسن، فتأمل.

(٢) الإسراء (٥٧)

(١) القول المفيد (١٨٣/١)

(٤) التوبة: ٣١

(٣) الزخرف: ٢٨، ٢٦

(٦) فتح الله الحميد المجيد (١٩١)

(٥) البقرة: ١٦٥

الآيات المذكورات فى ترقى مراتبها كأربع درجات مالم ترق الأولى لم ترق الثانية ،
ومالم ترق الثانية لم ترق الثالثة، ومالم ترق الثالثة لم ترق الرابعة.

الآية الأولى قوله تعالى ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ٥٦ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا .

أعلم أن هذه الآية اشتملت على ثلاث فوائد يلزمك أن تؤمن بها وتعمل بمقتضاها
وتنبذ من خالفها وتحاربه .

الأولى: أن ماسوى الله مطلقاً لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً.

الثانية: أن ما سواه عبده وتحت قهره وتصريفه، ويتغون إليه

الوسيلة بالأعمال الصالحة فهو ربهم وإلههم وحده لا شريك له .

الثالثة: أن من سواه يرجون رحمته ويخافون عذابه ويعلمون أن عذابه كان محذوراً،
فهو الواحد الأحد المتفرد بالعز والجبروت والملك والملكوت وهو الحى الذى لا يموت .

فإذا رقيت هذه الدرجة وماتضمن من الوجدانية حيثئذ طوب بالدرجة الثانية وهى
الحب فى الله والبغض فيه والمولاة فى الله والمعاداة فيه والمشار إليها فى قوله تعالى
: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ
(٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ (٢) فينبغى
لزارع الإيمان أن يستعين بالله فى إنشاء عرقين من سويداء قلبه :

عرق المحبة لأهل الإيمان والتوحيد والطاعة .

وعرق البغض لأهل الشرك والكفر والنفاق أصلاً، ولأهل المعاصى فرعاً، فإذا
أنشأتها من قلبك اسقهما بماء التصديق حتى يثمر عرق المحبة بالمولاة لأهل الحق من
النصيحة لهم والدعاء لهم والبر والإحسان إليهم بحسب الطاقة والقدرة والذب عن

أعراضهم وقضاء حوائجهم وإفشاءهم بالسلام وعبادة مرضاهم وتشيع جنازتهم وغير ذلك من الحقوق.

ويشمر العرق الثانى بالمعاداة لأهل الباطل من المجاهدة والتبرى منهم وعدم الركون إليهم والتغليظ عليهم وعدم مواكلتهم ومجالستهم إذا رأى منهم العناد والإعراض.

عن ابن عباس «من أحب فى الله وأبغض فى الله وعادى فى الله ووالى فى الله فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد أحد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس على مر الدنيا وذلك لا يُجد على أهله بشيء». رواه ابن جرير (١).

* فإذا قبلت هذه الدرجة وتمكنت فيها بلا التفات ولامحابة طولبت بالثالثة وهى لب الكتاب وزبدة الرسالة والكتاب، وهى أن يكون الله أحب إليك مما سواه، فإذا تقدم أمره على أمر من عداه وذلك قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (٢). قوله: يحبونهم كحب الله دل على أنهم يساوون مع الله غيره كما قال تعالى حكاية عن المشركين فى النار. ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٣)

قال ابن تيمية: أى فى المحبة، فإذا عرفت من ساوى مع الله غيره فى المحبة أشرك الشرك الأكبر، فكيف بمن رجح محبة الند على الله تعالى؟

بل وكيف بمن أقبل بكليته على غيره قلباً وقالياً؟

بمعنى أنه يعظم أوامر الند وحرماته أشد تعظيماً إذا هتك حرمة من حرمت الند غضب غضب الليث واحمرت وجنته وانتفخت أوداجه وقام وقعد فيه، وإن هتك حرمة من حرمت الله لم يرفع به رأساً بل ويشبط غيره عن القيام فيه.

فإذا رقيت هذه الدرجة وتمكنت فيها طولبت بالدرجة الرابعة وهى المتممة للدرجات الثلاث وهى المتابعة لرسول الله ﷺ فيدور مع قول الرسول وفعله نفيًا وإثباتًا بلا روغان، فإن أتاه حكم من غيره وازنه بميزان ماجاء به ﷺ، فإن وافقه أخذ بالقول، وإن

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد (٣٥٣) بإسناد ضعيف.

(٢) الشعراء : (٩٨، ٩٧)

(٣) البقرة: (١٦٥)

خالفه ضربه بالحائط، قال تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١) وقال تعالى ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (٢) وسيأتى زيادة بيان إن شاء الله فى بابہ .

واستدل الشيخ - أى محمد بن عبد الوهاب - على ذلك بالآية الرابعة وهى قوله تعالى : ﴿اتَّخِذُوا أَحِبَّارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (٣) عن عدى بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية قال : يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم، قال : «أليسوا يحللون لكم الحرام ويحرمون عليكم الحلال فتطيعونهم؟ قال : بلى، قال : فتلك عبادتهم» (٤) . وفى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «من قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله» (٥) .

اعلم أن الرسول ﷺ قيد قول : لا إله إلا الله بالكفر بما يعبد من دون الله فمن لم يكفر بما يعبد من دون الله ما قال : لا إله إلا الله، فتأمل حتى تميز بين الناس، ويشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب . أهـ



(٢) النساء : (٩٥)

(١) النساء : (٦٥)

(٣) التوبة : (٣١)

(٤) سيأتى تخريجه

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الايمان (١/ ٢٣٤ / ٣٧) وسيأتى تمام تخريجه فى حديث المتن من خلال

هذا الباب .

وقول الله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (١).

● مناسبة الآية للباب:

قال عبدالله بن جار الله^(٢): ومناسبتها للباب أن التوحيد لا يصح إلا إذا بنى على الإيمان بالله، وإخلاص العبادة له، وعدم التقرب إلا إليه. أ. هـ.

وقال ابن باز^(٣): أن دعاء من لا يملك كشف الضر أو جلب النفع من دون الله هذا هو الشرك وضده هو التوحيد. أ. هـ.

قال ابن عثيمين^(٤): وجه مناسبة الآية للباب (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله):

أن التوحيد يتضمن البراءة من الشرك، بحيث لا يدعو مع الله أحداً؛ لامتلاكاً مقرباً، ولأنبياء مرسلاً، وهؤلاء الذين يدعون الأنبياء والملائكة لم يتبرأوا من الشرك، بل هم واقعون فيه، ومن العجب أنهم يدعون من هم في حاجة إلى ما يقربهم إلى الله تعالى؛ فهم غير مستغنين عن الله بأنفسهم؛ فكيف يغنون غيرهم؟! أ. هـ.

وقال القرعاوي^(٥): حيث دلت الآية على أن معنى التوحيد هو شهادة أن لا إله إلا الله هو ترك ما عليه المشركون من دعاء الأنبياء والصالحين والاستشفاع بهم إلى الله، وإنه لا يكفي النطق بالشهادة ما لم يكفر بكل معبود سوى الله. أ. هـ.

الإعراب^(٦):

(أولئك) مبتدأ و(الذين يدعون) بدل منه وجملة (يبتغون) خبر والواو فاعل و(إلى ربهم) متعلقان بالوسيلة و(الوسيلة) مفعول به ويجوز لك أن تعرب الذين هي الخبر وجملة يبتغون حال من فاعل يدعون. (أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) أيهم بدل من فاعل يبتغون وأي موصولة ويجوز أن تكون استفهامية فهي مبتدأ وأقرب خبر وعبرة أبي حية: «واختلفوا في إعراب (أيهم أقرب) وتقديره، فقال الحوفي: أيهم أقرب ابتداء وخبر والمعنى ينظرون أيهم أقرب فيتوسلون به ويجوز أن يكون أيهم أقرب

(٢) «الجامع الفريد» (٢٣)

(١) الإسراء ٥٧.

(٤) «القول المفيد» (١٨٥/١)

(٣) «التعليق المفيد» (٥٧)

(٦) «الإعراب» (٤٦٠/٥).

(٥) «الجديد» (٧٢).

بدلاً من الواو فى يبتغون، ففى الوجه الأول أضمر فعل التعليق وأيهم أقرب فى موضع نصب على إسقاط حرف الجر لأن نظر إن كان بمعنى الفكر تعدى بفى وإن كانت بصرية تعدت بإلى فالجمله المعلق عنها الفعل على كلا التقديرين تكون فى موضع نصب على إسقاط حرف الجر كقوله (فلينظر أيها أركى طعاماً) وفى إضمار الفعل المعلق نظراً والوجه الثانى قاله الزمخشري قال: وتكون أى موصولة أى يبتغى من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله فكيف بغير الأقرب» فعلى هذا الوجه يكون أقرب خبر مبتدأ محذوف واحتمل أن يكون أيهم معرباً وهو الوجه واحتمل أن يكون مبنياً لوجود مسوغ البناء، وأقرب خبر لمبتدأ محذوف والمعنى يبتغون من هو أقرب منهم وأمت إليهم بزلفى الوسيلة إلى الله فما بالك بغير الأقرب فكيف يزعمون أنهم آلهة، (ويرجون رحمته) عطف على (يبتغون) ويرجون: فعل مضارع وفاعل وحذفت لام الفعل وهى الواو لالتقاء الساكنين ورحمته: مفعول به ويخافون عذابه عطف على يرجون رحمته. (إن عذاب ربك كان محذوراً) تعليل للخوف وإن واسمها وجمله كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو ومحذوراً خبر كان. اهـ.

● أسباب النزول: فى سبب نزولها أقوال

(أحدها): أن نفرأ من العرب كانوا يعبدون نفرأ من الجن، فأسلم الجن والنفر من العرب لايشعرون، فنزلت هذه الآية والتى بعدها، روى عن ابن مسعود (١).

عن ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ قال: كان نفر من الإنس يعبدون نفرأ من الجن، فأسلم النفر من الجن، وتمسك الإنسيون بعبادتهم، فأنزل الله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ (٢) كلاهما بالياء.

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: نزلت هذه الآية فى نفر من العرب كانوا يعبدون نفرأ من الجن فأسلم الجنيون، والنفر من العرب لايشعرون بذلك (٣).

(١) ذكره ابن الجوزى فى «زاد المسير» - (٣٨، ٣٧/٥) وانظر تخريجه بعده

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٧١٤)، ومسلم فى التفسير (٩ / ٣٥٧ / ٢٨)

وانظر تخريجه فى «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٣) [صحيح] ذكره السيوطى فى «الدر» (٤ / ٣٤٣) ونسبه لابن جرير، وابن مردويه، وأبى نعيم،

والبيهقى فى «الدلائل»

انظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ح ١٥٤) بتخريجنا

قال ابن كثير : (١). واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله ﴿يَتَّغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

الْوَسِيلَةَ﴾ وهذا لا يعبر به عن الماضي فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة.

[الثاني]: نزلت في قبائل من العرب كانت تعبد صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن:

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: كان قبائل من العرب يعبدون صنفاً من الملائكة

يقال لهم الجن، ويقولون هم بنات الله، فأنزل الله ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية (٢).

[الثالث]: نزلت في أهل الشرك كانوا يعبدون الملائكة وعزيراً والمسيح وأمه

والشمس.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية. قال كان أهل الشرك يعبدون الملائكة

والمسيح وعزيراً (٣).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ قال :

عيسى وأمه وعزير (٤).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ قال : هم عيسى

وعزير والشمس والقمر (٥).

[الرابع] (٦) أن المشركين كانوا يعبدون الملائكة فقط ويقولون : هى تشفع لنا عند

الله، فلما ابتلوا بالقحط سيع سنين، قيل لهم ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾، قاله مقاتل ،

والمعنى : قل ادعوا الذين زعتم أنهم آلهة، ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا

تَحْوِيلًا﴾ له إلى غيركم .

(١) «تفسير ابن كثير» (٤٦/٣).

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤ / ٣٤٣) ونسبه لابن جرير

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٣٣١٨) وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق وزاد

نسبته لابن جرير، وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (٤ / ٨١٠ - بتخریجنا)

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن أبى شيبة،

وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه. وانظر «فتح القدير» (٥ / ٨١٠ - بتخریجنا).

(٥) [ضعيف] ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لسعيد بن منصور وابن جرير، وابن

المنذر، «القدير» (٦ / ٨١٠ - بتخریجنا) وأيضاً «فتح المجيد» (ح / ١٥٦) بتخریجنا

(٦) «زاد لمسير» (٥ / ٣٧ / ٣٨).

قال سليمان آل الشيخ

قال شيخ الإسلام^(١): وهذه الأقوال كلها حق، فإن الآية تعم من كان معبوده عابداً لله سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر.

والسلف في تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على نوع التمثيل، كما يقول الترجمان لمن سأله معنى لفظ الخبز؟ فيريه رغيفاً، فيقول هذا، فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع دون نوع مع شمول الآية للنوعين فالآية خطاب لكل من دعا دون الله مدعواً. وذلك المدعو يتغنى إلى الله الوسيلة، ويرجو رحمته، ويخاف عذابه.

فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناوله هذه الآية، كما تناول من دعا الملائكة والجن.

ومعلوم أن هؤلاء كلهم يكرنون وسائط فيما يقدره الله بأفعالهم، ومع هذا فقد نهى الله عن دعائهم، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله، لا يرفعونه بالكلية، ولا يحولونه من موضع إلى موضع، كتغيير صفته أو قدره؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ فذكر النكرة تعم أنواع التحويل فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين، أو دعا الملائكة أو دعا الجن فقد دعا من لا يغيثه، ولا يملك كشف الضر عنه، ولا تحويله. انتهى.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): ونحن ما تقدم من كلام هؤلاء قال جميع المفسرين. أهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من القرآن:

قال الشنقيطي^(٣): وهذا المعنى الذى بينه جل وعلا فى هذه الآية الكريمة: من أن كل معبود من دون الله لا ينفع عابده، وأن كل معبود من دونه مفتقر إليه ومحتاج له جل وعلا - بينه أيضاً فى مواضع أخرى، كقوله فى «سور سبأ» ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٌ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾^(٤) وقوله «سورة الزمر» ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(٥) إلى غير ذلك من الآيات. أهـ.

(١) نقلاً عن «تيسير العزيز الحميد» (١٠٢، ١٠٣).

(٢) «أضواء البيان» (٣/ ٤٣٧).

(٣) «الزمر» (٣٨).

(٤) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٣).

(٥) سبأ (٢٢، ٢٣).

قوله [أولئك]

فى المشار إليهم بـ ﴿أولئك﴾ أربعة أقوال.

أحدها أنهم الجن الذين أسلموا.

والثانى : الملائكة

والثالث : أنهم المسيح ، وعزير ، والملائكة ، والشمس ، والقمر قاله ابن عباس (١).

الرابع : صنف من الملائكة يقال لهم الجن.

قال الفقير : وتقدم فى أسباب النزول تفصيل ذلك والراجح من كلام ابن تيمية .

قوله [يدعون] فيها قولان :

أحدهما : يعبدون ، أى : يدعونهم آلهة ، وهذا قول الأكثرين .

والثاني : أنه بمعنى يتضرعون إلى الله فى طلب الوسيلة (٢).

وعلى هذا يكون قوله : ﴿يدعون﴾ راجعاً إلى ﴿أولئك﴾ ، ويكون قوله : ﴿يبتغون﴾ تماماً للكلام .

وعلى القول الأول : يكون «يدعون» راجعاً إلى المشركين ، ويكون قوله : ﴿يبتغون﴾ وصفاً لـ ﴿أولئك﴾ مستأنفاً .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو عبد الرحمن : «تدعون» بالياء .

قال ابن الأنبارى : فعلى هذا ، الفعلُ مردوداً إلى قوله ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ

عَنْكُمْ﴾ ومن قرأ ﴿يدعون﴾ بالياء ، قال : العرب تنصرف من الخطاب إلى الغيبة إذا أمن اللبس . ومعنى ﴿يدعون﴾ يدعونهم آلهة (٣).

قوله [يبتغون]

قال البغوى (٤) : أى يطلبون .

وقال الزمخشري (٥) : يحرصون

(١) «زاد المسير» (٣٨، ٣٧/٥) . وتقدم تخريج الحديث .

(٢) «زاد المسير» (٣٨، ٣٧/٥) .

(٤) «معالم التنزيل» (٥٠٣/٣) .

(٥) الكشف (٣٦٤/٢) .

قال الرازى^(١): يبتغون فعل المعبودين

وقال القرطبي^(٢): مثل البغوي.

وقال السعدي^(٣): يتنافسون فى القرب من ربهم.

وقوله [إلى ربهم الوسيلة]

● ماجاء فى التفسير بالقرآن

كقوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

● التفسير بالمأثور من المرفوع

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ - «سلوا الله لى الوسيلة» قالوا: وما الوسيلة؟ قال: «القرب من الله» ثم قرأ «يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب»^(٤)

● أقوال المفسرين

قال ابن جرير^(٥): يقول يبتغى المدعون أرباباً إلى ربهم القربة والزلفى، لأنهم أهل إيمان به والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله. أهـ.

وقال البغوي^(٦): الوسيلة أى القربة، وقيل: الدرجة، أى يتضرعون إلى الله فى طلب الدرجة العليا وقيل الوسيلة: كل ما يتقرب به إلى الله تعالى. أهـ.

قال الزمخشري^(٧): يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله، وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح. أ. هـ.

(١) «التفسير الكبير» (١٠/١٩/٢٣٣).

(٢) تفسير القرطبي (٦/٣٨٩٥).

(٣) تفسير الكريم الرحمن (٣/٨٦).

(٤) أخرجه الترمذى (٣٦١٢) بلفظ آخر وذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه للترمذى وابن مردويه قال:

واللفظ له - أى لابن مردويه.

(٥) تفسير ابن جرير (٨/١٥/٧٢).

(٦) «معالم التنزيل» (٣/٥٠٣).

(٧) «الكشاف» (٢/٣٦٤).

قال ابن الجوزي (١): أى يتقرب إليه بالعمل الصالح. أ. هـ.

وقال القرطبي (٢): يطلبون من الله الزلفة والقربي، ويستضرعون إلى الله تعالى بطلب الجنة، وهى الوسيلة.

أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يتغنون القربة إلى ربهم، والهاء والميم فى (ربهم) تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعاً أ. هـ.

قال الشنقيطي (٣):

اعلم أن جمهور العلماء على أن المراد بالوسيلة هنا هو القربة إلى الله تعالى بامثال أوامره، واجتناب نواهيه على وفق ما جاء به محمد ﷺ بإخلاص فى ذلك لله تعالى، لأن هذا وحده هو الطريق الموصلة إلى رضى الله تعالى، ونيل ماعنده من خير الدنيا والآخرة.

وأصل الوسيلة: الطريق التى تقرب إلى الشئ، وتوصل إليه وهى العمل الصالح بإجماع العلماء، لأنه لا وسيلة إلى الله تعالى إلا باتباع رسوله ﷺ.

وعلى هذا فالآيات المبينة للمراد من الوسيلة كثيرة جداً كقوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (٤)، وكقوله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ (٥) وقوله ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (٦) إلى غير ذلك من الآيات.

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بالوسيلة الحاجة، ولما سألته نافع الأزرق هل تعرف العرب ذلك؟ أنشد له بيت عنترة.

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلى وتخضبي (٧)

قال : يعنى لهم إليك حاجة، وعلى هذا القول الذى روى عن ابن عباس، فالمعنى ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ واطلبوا حاجتكم من الله، لأنه وحده هو الذى يقدر على إعطائها.

(١) «زاد المسير» (٣٨/٥).

(٢) «تفسير القرطبي» (٦/٣٨٩٥).

(٣) «أضواء البيان» (٧٧، ٧٦/٢).

(٤) الحشر (٧).

(٥) آل عمران (٣١).

(٦) النور (٥٤).

(٧) [إسناده منقطع] أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١٠ / ٣٠٤ / ١٠٥٩).

وأنظر «الاتقان فى علوم القرآن» للسيوطى (٧٤٨ - بتخریجنا)

ومما يبين معنى هذا الوجه قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾^(١) وقوله: ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢) الآية، وفي الحديث «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ»^(٣).

قال مقبده عفا الله عنه: التحقيق فى معنى الوسيلة هو مذهب إليه عامة العلماء من أنها التقرب إلى الله تعالى بالإخلاص له فى العبادة، على وفق ما جاء به الرسول ﷺ، وتفسير ابن عباس داخل فى هذا، لأن دعاء الله والابتهال إليه فى طلب الحوائج من أعظم أنواع عبادته التى هى الوسيلة إلى نيل رضاه ورحمته.

وبهذا التحقيق تعلم أن ما يزعمه كثير من ملاحدة أتباع الجهال المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة فى الآية الشيخ الذى يكون له واسطة بينه وبين ربه، أنه تخبط فى الجهل والعمى وضلال مبين وتلاعب بكتاب الله تعالى، واتخاذ الوسائط من دون الله من أصول كفر الكفار، كما صرح به تعالى فى قوله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٤) وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٥) فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الطريق الموصلة إلى رضى الله وجنته ورحمته هى اتباع رسوله ﷺ، ومن حاد عن ذلك فقد ضل سواء السبيل، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ الآية.

والظاهر أن الوسيلة فى بيت عنترة معناها التقرب أيضاً إلى المحبوب، لأنه وسيلة لنيل المقصود منه، لذا أنشد بيت عنترة المذكور ابن جرير، والقرطبي وغيرهما لهذا المعنى الذى ذكرنا وجمع الوسيلة: الوسائل، ومنه قول الشاعر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا وعاد التصافى بيننا والوسائل

(١) العنكبوت (١٧). (٢) النساء (٣٢).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١ / ٢٩٣، ٣٠٣)، والترمذى (٢٥١٦) عن ابن عباس به.

وأنظر «رياض الصالحين» (٦٣ - بتخريجنا)

(٤) الزمر (٣). (٥) يونس (١٨).

وهذا الذى فسرنا به الوسيلة هنا هو معناها أيضاً فى قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ (١) الآية، وليس المراد بالوسيلة أيضاً المنزلة التى فى الجنة التى أمرنا ﷺ أن نسأله له الله أن يعطيه إياها، ونرجو الله أن يعطيه إياها، لأنها لا تنبغى إلا لعبد، وهو يرجو أن يكون هو.

قال ابن الجوزى (٢).

فى قوله : ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ قولان ذكرها الزجاج.

أحدهما : أن يكون ﴿أَيُّهُمْ﴾ مرفوعاً بالابتداء، وخبره ﴿أَقْرَبُ﴾ ويكون المعنى : يطلبون الوسيلة إلى ربهم، ينظرون أيهم أقرب إليه فيتوسلون إلى الله به.

والثانى أن يكون ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدلا من الواو فى ﴿يَبْتَغُونَ﴾ فيكون المعنى يبتغى أيهم هو أقرب الوسيلة إلى الله.

قوله ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾

● ماجاء فى التفسير من القرآن

كقوله تعالى ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ و﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ و﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ و﴿نَبِيٍّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ و﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ و﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ و﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

وفى الجمع بين الخوف والرجاء آيات كثيرة.

● ماجاء فى التفسير من المرفوع

وروى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لو يعلم المؤمن ما عند الله من

(١) الإسراء / (٥٧).

(٢) زاد المسير (٣٨/٥).

العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد» (١).

وروى البخاري عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك» (٢).

قال النووي (٣): اعلم أن المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفاً راجياً، ويكون خوفه ورجاؤه سواء، وفي حال المرض يحض الرجاء وقواعد الشرع، من نصوص الكتاب والسنة وغير ذلك متظاهرة على ذلك. أ. هـ.

قال أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي: اعلم أن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كنود (٤) أ. هـ.

● أقوال المفسرين:

قال ابن جرير (٥): (يرجون) بأفعالهم تلك رحمته (ويخافون) بخلافهم أمره عذابه. أ. هـ.

قال البغوي (٦): (يرجون رحمته) جنته. أ. هـ.

وقال الزمخشري (٧): يرجون ويخافون كغيرهم من عباد الله، فكيف يزعمون أنهم آلهة. أ. هـ.

قال الرازي (٨): الملائكة يخافون عذاب الله لو أقدموا على الذنب، والدليل عليه قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾. أ. هـ.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٤٦٩)، ومسلم في التوبة (١٧ / ٧٠ - النووي)

وأنظر «رياض الصالحين» (٤٤٤ - بتخریجنا)

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري (٦٤٨٨) وأنظر «رياض الصالحين» (١٠٦ - بتخریجنا)

(٣) «رياض الصالحين» (٢٤١ / ١) بتخریجنا.

(٤) «مختصر منہاج القاصرين» (٣٢١).

(٥) «تفسير الطبري» (٧٢ / ١٥ / ٨).

(٦) «معالم التنزيل» (٥٠٣ / ٣).

(٧) «الكشاف» (٣٦٤ / ٢).

(٨) «التفسير الكبير» (٢٣٣ / ١٩ / ١٠).

قال القرطبي^(١): قال سهل بن عبدالله: الرجاء والخوف زمانان على الإنسان، فإذا استويا استقامت أحواله، وإن رجح أحدهما بطل الآخر. أهـ.

قال ابن كثير^(٢): لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي وبالرجاء يكثر من الطاعات. أهـ.

قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾

كان محذوراً؛ لأن الله بين صفة العذاب الذى ينبغى أن يحذر منه، بأنه عذاب اليم، عظيم، مهين، شديد، كبير، مقيم، قريب، غير مردود. . . .

وذكر الله عز وجل العذاب مضافاً للجحيم، والسعير، والحريق، والشديد، والكبير. . . فجاء ذكر العذاب فى القرآن الكريم مفرداً، ومضافاً، ما يقرب من ثلثمائة وثلاث و ثلاثين مرة. ومن هنا تستشعر مدى تحذير الله عز وجل من الوقوع فى العذاب (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)

قال ابن جرير^(٣): (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ) يامحمد (كَانَ مَحْذُورًا) متقى. أ.هـ.

قال البغوي^(٤): (مَحْذُورًا) يطلب منه الحذر. أهـ.

قال الزمخشري^(٥): (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ) حقيقة بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلاً عن غيرهم. أهـ.

قال الرازى^(٦): فالمراد أن من حقه أن يحذر، فإن لم يحذره بعض الناس لجهله فهو لا يخرج من كونه بحيث يجب الحذر منه. أ.هـ.

قال القرطبي^(٧): أى مخوفاً لا أمان لأحد منه، فينبغى أن يحذر منه ويخاف. أهـ.

قال ابن كثير^(٨): أى ينبغى أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله عياداً بالله أهـ.

قال الشوكانى^(٩): أى إن عذابه سبحانه حقيقى من أنه يحذره العباد من الملائكة والأنبياء، وغيرهم. أهـ.

(١) «تفسير القرطبي» (٦/٣٨٩٦).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤٦/٣).

(٣) «تفسير الطبري» (٨/١٥٠/٧٢).

(٥) «الكشاف» (٢/٣٦٥، ٣٦٤).

(٧) «تفسير القرطبي» (٦/٣٨٩٦).

(٩) «فتح القدير» (٣/٢٤٢).

(٤) «معالم التنزيل» (٣/٥٠٣).

(٦) «التفسير الكبير» (١٠/١٩/٢٣٥).

(٨) «تفسير ابن كثير» (٢/٤٦).

قال السعدي^(١) : أى هو الذى ينبغى شدة الحذر منه والتوقى من أسبابه . وهذه الأمور الثلاثة ، الخوف ، والرجاء ، والمحبة ، التى وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هى الأصل ، والمادة فى كل خير ، فمن تمت له تمت له أمور ، وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور . أهـ .

● ما جاء من كلام الشراح فى الآية :

قال سليمان آل الشيخ^(٢) : قلت يبين معنى هذه الآية التى قبلها ، وهى قوله ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ الآية . والمعنى : أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له .

ثم قال : فبين أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله : هو ترك ما عليه المشركون من دعوة الصالحين ، والاستشفاع بهم إلى الله فى كشف الضر وتحويله ، فكيف بمن أخلص لهم الدعوة ، وإنه لا يكفى فى التوحيد دعواه ، والنطق بكلمة الشهادة من غير مفارقة لدين المشركين ، وإن دعاء الصالحين لكشف الضر أو تحويله هو الشرك الأكبر نبه عليه المصنف .

وقال : فقلوه ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ لاتمم العبادة إلا بالخوف والرجاء . ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ أى مما يحذره كل عاقل . أهـ .

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣) قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : فى هذه الآية ذكر المقامات الثلاثة .

الحب : وهو ابتغاء القرب إليه . . والتوسل إليه بالأعمال الصالحة ، والرجاء والخوف ، وهذا هو حقيقة التوحيد ، وحقيقة دين الإسلام ، كما فى « المسند » عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبي ﷺ والله يارسول الله : ما أتيتك إلا بعد ما حلفت عدد أصابعى هذه أن لا أتيك ، بالذى بعثك بالحق ، ما الذى بعث به ؟ قال : الإسلام قال : وما الإسلام ؟ قال : « أن تسلم قلبك لله ، وأن توجه وجهك إلى الله ، وأن تصلى الصلوات المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة »^(٤) . أهـ .

وينحو مما سبق قال عبدالله بن جار الله^(٥) ، وابن باز^(٦) .

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٨٦ / ٣) . (٢) « تيسير العزيز الحميد » (١٠٢ ، ١٠٣) .

(٣) فتح المجيد (١ / ١٢١) .

(٤) أخرجه أحمد فى « مسنده » (٤ / ٤٤٦) ، (٥ / ٤٤٣) ، والنسائى (٥ / ٤ ، ٨٢) - السيوطى

(٥) « الجامع الفريد » (٣٣) . (٦) « التعليق المفيد » (٥٧) .

وقال ابن عثيمين^(١): ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون﴾ هو كل داع، كعيسى بن مريم والملائكة، والأولياء، والصالحين. وأما الشجر والحجر فلا يدخل في الآية فهؤلاء الذين زعمتم أنهم أولياء من دون الله لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويله من مكان إلى مكان؛ لأنهم هم بأنفسهم يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، وقد قال الله تعالى مبينا حال هؤلاء المدعوين ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

(يدعون) أى دعاء مسألة كمن يدعو علياً عند الشدائد... أهـ.

قال القرعاوي^(٢): [الفوائد]:

(١) بطلان عبادة المشركين لغير الله بكون معبوديهم أنفسهم يطلبون القربى من الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

(٢) صلاح المعبودين لا يبرر الشرك بهم.

(٣) إثبات صفة الرحمة لله عز وجل.

(٤) يسير المؤمن إلى الله بالخوف والرجاء إلا في حالة الاحتضار فيقوى جانب الرجاء. أهـ.

قلت: أى مع الخوف لقول الشاب عند موته للرسول ﷺ: أرجو الله وأخشى ذنوبى^(٣).

قال برهامي^(٤): الآية ترد على من تعلق بالأنبياء والصالحين يدعوهم ويسألوهم. ففى هذا بيان أن هذا الفعل هو الشرك الأكبر المنافى لشهادة أن لا إله إلا الله، وهذا النوع من الشرك الأكبر من أكثر أنواع الشرك انتشاراً فى الأمم، إن لم يكن أكثرها على الإطلاق. أهـ.

(١) القول المفيد (١/١٨٤، ١٨٥)

(٢) «الجديد» (٧١، ٧٢)

(٣) أخرجه الترمذى (٩٨٣)، والنسائى فى الكبرى (١٠٩٠١)، وابن ماجه (٤٢٦١) عن أنس به.

(٤) «فضل الغنى الحميد» (٩٧).

فصل فى الوسيلة وأحكامها

قال تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾

فإذا زعمت أن هناك صالح الجن والحسين والسيدة والأقطاب الأربعة وغيرهم الذين تزعمون أن تصرف فى السكون فادعهم فلا يملكون كشف الضر عنكم، وهذا صعب، وهناك سؤال اسهل من هذا هو فهل يملك هؤلاء تحويل الضر عنكم فلا يصيبكم؟ لا يستطيعون ذلك.

ولذلك جاء فى حديث أنس حينما جاء رجل فقال يارسول الله هلكت المواشى وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا فدعى ثم فى الجمعة التالية قال هلكت الاموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمكسها فقال النبي «اللهم حوالينا لا علينا ...» فانقطعت.. وخرجنا غمشى فى الشمس»^(١) فالله حول المطر بعيداً عنهم وفى الدعاء الاول كشف الضر بإطلاق وأنزل المطر.

أما الذين يدعون من دونه لا يستطيعون ذلك ولا كشف الضر ولا تحويله..

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ من الأنبياء كعيسى والعزير والملائكة وصالح الجن هم الذين يبتغون إلى ربهم الوسيلة، كما ثبت فى الصحيح عن ابن مسعود. وتقدم فى أسباب النزول^(٢).

وهذا كثير فى أهل البدع والأهواء فمثلاً إذا اتبع الأشعرى رجلٌ، والأشعرى رجع عن مذهبه تمسك هذا الرجل ومازال أشعري، بالرغم من رجوع الأشعرى نفسه عن مذهبه أو اتبع الغزالى فى بعض فلسفاته أو إمام الحرمين الجوينى فإن الإمام يرجع وهو لم يرجع.

فالذين تدعون يتقربون لله بأعظم القرب. وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩٣٢)، ومسلم فى الاستسقاء (٦) / ١٩١-١٩٥ - النووي

وأنظر السليل (٧٥١) - تخریجنا

(٢) تقدم تخریجه فى أول شرح الآية

● معنى الوسيلة فى اللغة: ما يتوصل به إلى مقصود قاله ابن كثير وسبق تعريفها من قول الشنقيطى

ومعنى الوسيلة فى الشرع: أحياناً تطلق ويراد بها منزله فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله كما ثبت فى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول: إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا على، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرأ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سئل لى الوسيلة حلت له الشفاعة^(١). لكن الوسيلة بهذا المعنى ليست هى المقصود فى هذه الآية كما تقدم ذلك من كلام الشنقيطى.

فالوسيلة هنا ظهرت فى تفسير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قال ابن عباس: الوسيلة هى القرب. وقال قتادة: هى التقرب لله بطاعته وما يرضيه.

فالوسيلة فى اللغة مرتبطة بتعريفها فى الشرع فهى التى يتوصل بها: إلى المقصود وهو رحمة الله وافتاء عذابه، وكيف تحصل على هذا المقصود؟ الجواب: هو بالقرب والطاعة، وقد علق الله الفلاح عليها وقال فى الآية ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والجهاد من الوسائل للحصول على المقصود. لذلك ذكره فى الآية بقوله ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

● أقسام الوسيلة:

[القسم الأول]: التوسل المشروع.

[القسم الثانى]: التوسل الممنوع.

قسم العلماء الوسيلة من حيث الجواز والمنع لقسمين: توسل مشروع وممنوع.

التوسل المشروع: (١) بأسماء الله وصفاته الحسنى.

(٢) التوسل بالعمل الصالح: من إيمان وتوحيد وسائر الأعمال.

(٣) التوسل بدعاء الصالحين. وماعدا ذلك مختلف فيه.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصلاة (٢/ ٣٢٠، ٣٢١ / ٣٨٤) وأنظر رياض الصالحين بتخريجنا

أما الأول فدلِيلهم: قوله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾، ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ وأدعية الأنبياء ﴿وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين﴾. ﴿وزكريا إذ نادى ربه ربى لا تذرنى فرداً...﴾ ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ وغير ذلك من أدعية الأنبياء. لحصول مقصود شرعى مثل أدعية إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١) والجامع لهذا كله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

وكذلك حديث الاستخارة فى الصحيح أن يقدّر له الخير حيث كان^(٢).

وفى السنة «اللهم أنى أسألك بأنك أنت الله الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد»^(٣) وأيضاً «اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت، فأسألك بيمانى بك وتوحيدي لك».

وقال بعض أهل العلم فى تفسير اسم الله الأعظم أنه هو الفرد الصمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾^(٤) ولم يكن له كفواً أحدٌ.

فهذا دليل جواز التوسل بأسماء الله أوصفاته؛ للحصول على مقصد دينوى أو أحرى.

وكذلك دعاء سيد الاستغفار وهو فى الصحيح.

وأشبه به قوله ﷺ فى قصة أبى بكر رضى الله عنه «اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شىء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشره»^(٥).

[النوع الثانى من التوسل المشروع] التوسل إلى الله بالعمل الصالح، ويندرج فيه النوع الأول؛ لأن النوع الأول إيمان بالله وتوحيد له، فيتوسل إلى الله كما فى الحديث «اللهم أنى أسألك بأنك أنت الله...»..... الحديث^(٥).

(١) البقرة: ١٢٩

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (١١١٦) عن جابر به.

وانظر «رياض الصالحين» (٧١٩) بتخريجنا

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٩٣)، والترمذى (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧)

وانظر «الأذكار للنوى» (١٠٢٢ - بتخريجنا)

(٤) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧) والترمذى (٣٣٩٢) وقال: حسن صحيح وانظر «الأذكار» بتخريجنا

(ح) (١٩٣) للنوى.

(٥) تقدم قريباً

وكذلك قصة الثلاثة نفر الذين دخلوا الغار وسدت عليهم، فتوسل أحدهم بعفة فرجه والآخر توسل بأمانته والثالث توسل بيره بوالديه، وقال الجميع «اللهم إن كنا فعلنا ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه» ففرج الله ما بهم من كرب وهو في الصحيح^(١).

[النوع الثالث] التوسل لله بدعاء الصالحين.

وفيه حديث أنس في الصحيح وفيه إن رجلاً جاء للنبي فقال هلك العيال والدواب فادعوا الله لنا فرفع النبي يديه حتى رؤيا يياض ابطيه فنزل المطر^(٢).

فتوسلوا لله بدعاء النبي أن ينزل عليهم الغيث وكذلك توسل الإعرابي في الجمعة التالية بدعاء النبي أن يرفع المطر وتقدم الحديث قريباً.

وكذلك جود الألباني في كتابه التوسل في قصة الرجل الأعمى وهي مخرجة في «السنن» و«المسانيد» بأسانيد لاتخلو من ضعف إلا أنها يشد بعضها بعضاً فروى الإمام أحمد في «مسنده»: عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادعوا الله أن يعافيني، قال: «إن شئت دعوت لك، وإن شئت أخرت ذلك فهو خير».

وفى رواية: «وإن شئت صبرت فهو خير لك».

فقال: ادعوه، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوعه، فيصلّي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: [اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي، اللهم فشفعه فيّ وشفعني فيه]

قال: ففعل الرجل فبرأ^(٣).

ففيه أنه توسل لله بدعاء النبي بالإضافة إلى عمل صالح له وهو الصلاة والدعاء.

وكذلك توسلهم بدعاء العباس وفيه جواز التوسل بدعاء الصالحين.

القسم الثاني التوسل الممنوع: هو ماخالف التوسل المشروع في أي صورة أخرى غير هذه الصورة فهو ممنوع مثل: التوسل بالأموات حتى وإن قطعنا لهم بالصلاح، ولو جاز أن يتوسل بميت لتوسل الصحابة بالرسول وماعدلوا عن ذلك بالعباس كما ثبت عن عمر

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (ح ٢٢١٥) ومسلم في الرقاق (٦/ ١٧/ ٥٨٦) وأنظر «رياض

الصالحين» بتخريجنا (ح ١٣).

(٢) تقدم قريباً

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤ / ١٣٨)، والترمذي (١٥٧٨)، وابن ماجه (١٣٨٥)، والنسائي في

«الكبرى» (١٠٤٩٥)

فى «الصحيح» أنه توسل بالعباس وقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك فسقنا اللهم إنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا» (١).

● كيف نتوسل؟

يعنى نتقرب إليك بدعاء العباس ونحن نأمن عليه، وهذا فى الحقيقة فيه تواضع من عمر رضى الله عنه واحتقاره لنفسه، وهذا الظن به لأنه هو كان أولى أن يدعو لأنه أفضل من العباس. وكان العباس حياً.

أضف لذلك قول النبى عند مسلم وغيره: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث» (٢) وليس فيه أننا نتوسل به أويغثنا والثلاثة - المذكورة فى الحديث - هؤلاء من كسبه وليس من كسب أحد.

وكذلك قوله «إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ» أى أنك يا محمد لاتسمع الموتى فمن باب أولى أننا لاتسمعهم.

وقد يقول قائل إن الناس الأحياء الذين لا يستجيبون لك هم كالموتى لا يسمعون كما قال تعالى «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ» فعلى هذا يكون الرسول لا يسمع الموتى - أى الذين لا يستجيبون - أما موتى الأجساد فإنه يسمعهم.

نقول: لا لأن الآية تحمل على ظاهرها، وقد حملها عمر على ظاهرها فى قصة القلب فى بدر حينما وضعهم الرسول فى بدر وخاطبهم (يا فلان يا فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً)؟ فقال عمر يارسول الله إنك تكلم أجساداً لا أرواح لها وقد قال الله «فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى» (٣) فعمر لا ينكر على النبى، وإنما أراد أن يعلمنا نحن حتى لا يأتى جاهل فيقول أن النبى كلم الموتى الكفار إذاً فيمكن أننا نكلم الموتى الصالحين.

فعمر رضى الله عنه من الملهمين وله مواقف كثيرة.

مثل: موقفه من الحجر الأسود حينما قال «لولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» (٤) فهل هو لم يعلم أنه حجر إلا فى هذا الوقت؟

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (١٠١٠) وأنظر «الأذكار للنووي» (٤٦١) بتخريجنا

(٢) تقدم تخريجه

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٩٧٩)، ومسلم فى الجناز (٢ / ٢٣٤ - النووي)

وأنظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٤٦٣)

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (١٦١١) عن ابن عمر به.

ولكنه يقول ذلك ليعلمنا حتى لا يأتي جاهل فيتمسح في أحجار الحسين والسيدة زينب ويقول أن النبي والصحابة تمسحوا في الحجر الأسود فعمر كفانا الرد عليهم.

وكذلك موقفه حينما طلب النبي الورق والمداد ليملى كتاباً لا يختلف عليه الناس فمنع عمر ذلك (١) لأنه لن يمكن للنبي ﷺ أن يملأ كل الوحى فى هذه الدقائق، ويمكن أن يتمسك الناس بهذه الورقة فقط ويتركون الكتاب والسنة وراء ظهورهم.

فعمر لم يقصد أن ينكر على النبي ﷺ وإنما قصد يعلمنا، والنبي ﷺ لم ينكر عليه وقال له «إن الله رد عليهم أرواحهم» (٢) وفى رواية «ما أنتم بأسمع لى منهم» (٣) فكان مشكلة سماعه إياهم خاصة من خصوصيات الرسول ﷺ ونحن من باب أولى لانسمعهم.

فإن قال قائل : أنهم ليسوا أمواتاً بل هم أحياء كما قال ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُمُوتَ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

فالجواب : كما قال المفسرون : إن سبب نزول الآية فى بعض شهداء أحد لاسيما عبدالله - أبو جابر - وقال تعالى ﴿بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرَحِينِ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ ذكر ابن كثير عن ابن مردويه بسنده عن جابر بن عبد الله قال : نظر إلى رسول الله ﷺ ذات يوم فقال «يا جابر مالى أراك مهتماً؟» قلت يا رسول الله استشهد أبى وترك الدنيا وعيالى، فقال : «ألا أخبرك ما كلم الله أحد قط إلا من وراء حجاب، إنه كلم أباك كفاحاً» .

قال ابن المدينى أحد رواة : والكفاح : المواجهة - «قال : سئلى أعطيك، قال : أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانياً . قال الرب عز وجل إنه قد سبق منى القول أنهم إليها لا يرجعون . قال : أى رب فأبلغ من ورائى، فأنزل الله : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُمُوتًا بَلْ أحيَاءٌ﴾ الآية (٤) .

وهذه الحياة حياة برزخية لانعلم عنها شيء والله أعلم بمن يكلم فى سبيله، ولا نقطع

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١١٤)، ومسلم فى الوصية (٦ / ١٠٠ / ٢٢) عن ابن عباس به

(٢) (٣) تقدم قريباً

(٤) أخرجه ابن مردويه فى «تفسيره» كما فى تفسير ابن كثير (٢ / ١٤١ - الشعب)

لأحد بشهادة فهو حي، لكن ماهية وحقيقة هذه الحياة ما هي؟ لاسبيل لنا لمعرفة هذه الحياة على الحقيقة والآية عامة «فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى» فهو في الدنيا ميت ولكنه حي عند ربه حياة ورزقاً لنعلمه، كما أورد ابن كثير حديثاً مسلسل بالأئمة الثلاثة، أخرجه أحمد في «مسنده» عن محمد بن إدريس الشافعي، عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «نسبة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» (١).

قوله: (يعلق) أى يأكل، وروى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود مرفوعاً: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل مغلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربهم إطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أى شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا» (٢).

وروى أحمد في «مسنده» عن ابن عباس مرفوعاً «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فيه قبة خضراء يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية» (٣) تفرد به أحمد.

قال ابن كثير: وكان الشهداء أقسام منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون، انتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك، ويغذى عليهم برزقهم هناك ويراوح، والله أعلم. اهـ.

هذه حياة لاسبيل لمعرفة ما لنا نؤمن بالله وما جاء عن الله على مراد الله ونؤمن برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله.

● تقسيم آخر للتوسل والوسيلة: من حيث الشرع والكون:

تنقسم الوسائل من هذه الحيثية أيضاً إلى قسمين: وسائل شرعية ووسائل كونية.

أولاً: الوسائل الشرعية: هي القرب والطاعات، ويشترط فيها أن تثبت بالدليل مثل أن نتوسل للشفاعة بالدعاء بعد الأذان «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة أت محمدًا الوسيلة والفضيلة...» (٤).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣ / ٤٥٥)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الإمارة (٧ / ٣٧ / ١٢١)

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١ / ٢٦٦)

(٤) [صحيح] أخرجه البخاري (٦١٤) عن جابر به

وأنظر «رياض الصالحين» (١٠٤٠) بتخريجنا

فالتوسل لله بهذا الدعاء -للتعرض للشفاعة- فهذا الدعاء وسيلة شرعية لغايات أخرى أو مثلاً التوسل لله بالصلاة والصيام والحج ترجو رحمته وتخشى عذابه .
والدليل هو الذى دلنا على أنها وسيلة شرعية فهذا أشبه بأنواع التوسل المشروعة الثلاثة السابقة .

ولابد لصلاح العمل من شرطين هما فى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أن يكون العمل صالحاً مع الإخلاص وأيضاً فى قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ يَعْنَىٰ يَخْلَصُ وَيَتَّبِعُ .

ثانياً التوسل الكونى: يعنى التوسل الذى ثبت نفعه بالفطرة التى فطره الله عليها أو التجربة مثال : تتوسل بحبة البركة لأن تُشفي، فالله فطر هذه الحبة على هذه الخاصية فهى مخلوقة لهذا فعرفنا الفائدة فيها إما بالشرع وإما بالطب .
فالشرع مثل حبه البركة، وعسل النحل، والحجامة^(١) .
وبالطب مثل باقى الأدوية التى ثبت بالتجربة أنها نافعة .

سؤال: هل التوسل الكونى مشروع أم ممنوع؟

الجواب: التوسل الكونى له شرطان ليكون مشروعاً:

(الأول) ألا يكون هناك مانع شرعي، مثال: أن النبى وجد رجلاً معلق خيطاً قال: مما هذا؟ قال: من الواهنة قال: «انزعه فإنه لايزيدك إلاوهناً فإنك لو مت على ذلك ما أفلحت أبداً»^(٢) فهذا الخيط منع منه الشرع .

الثانى أن يثبت بالتجربة أنها تنفع مثل رباط الضغط الطبى .

قد يقول قائل لماذا أخذتم مائت نفعه من جهة الطب ولماذا لا أتعاطى وسيله كونية لم يثبت نفعها من جهة الطب؟

قال ابن تيمية: أن الأصل فى العبادات المنع لإبدليل والأصل فى العادات الإباحة إلا بدليل .

الجواب: أن الثابت نفعه من جهة الطب أقره الشرع فأنت لم يتعلق قلبك بغير الله بل كان قلبك متعلق بالله وبما شرعه لك وأمرك بتعاطيه ودليل ذلك؟ .

(١) تقدم تخريجه فى حديث السبعين . .

(٢) سيأتى تخريجه

قول النبي «تداووا عباد الله فإن الله ما أنزل من داء إلا أنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله» (١).

وسئل النبي أفي الطب خير؟ قال «نعم»

فإذا ثبت بالطب نفع هذه الأشياء فأنما يمثل لشرع لم أتعلق بجاهلية أم الذي لم يثبت نفعه فكأنما صاحبه متعلق بما تعلقت به الجاهلية الأولى بطيرة أو خيط أو تيممة مثلاً.

وأيضاً قال تعالى في الوسيلة ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ وأيضاً ﴿لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فإذا تعلقت بخيط من الراهنة فكأنك تعلقت بشيء لا ينفع ولا يضر فإذا اعتقدت أن هذا سبب وأن الله نافع على الحقيقة فهذا شرك أصغر لأنه ليس سبب لاشرعى ولا قدرى وقول ابن تيمية: الأصل في العادات الإباحة إلا بدليل لا يختلف مع ما قلناه من أن الوسائل الكونية مباحة إلا بدليل يمنع.

تنبيه: التوسل بدعاء الصالحين يختلف اختلافاً كبيراً عن طلب الأخ من أخيه الدعاء له بظاهر الغيب؟ فالتوسل بدعاء الصالحين ثابت في الصحيح (٢)، أما طلب الأخ من أخيه أن يدعو له فقد اختلف في تصحيح الأحاديث التي فيها طلب الدعاء بظاهر الغيب كحديث: «لا تنسانا من صالح دعائك» (٣) قاله عليه السلام لعمر عند سفره، والحديث لا يصح إسناده إلى النبي عليه السلام ولا يثبت عنه، وغيره من الأحاديث التي تحمل نفس المعنى من طلب الدعاء من الغير اختلفوا في ثبوتها وقالوا في سبب المنع غير ما تقدم وهو: أن طلب الرجل الدعاء من أخيه يفرض إلى أمرين:

إما إلى مغالاة أو غرور، فإن الرجل المطلوب الدعاء منه ربما يصيبه الغرور، أو ربما يغتر طالب الدعاء بهذا الرجل أو يغالي فيه. لذلك أثر عن عمر أنه لما طلب منه الدعاء قال للطالب أنا نبي؟ لكن إذا لم يطلب منك هل يجوز أن تدعو أنت لأخيك بظاهر الغيب؟

(١) تقدم تخريجه في باب من حقق التوحيد.

(٢) تقدم حديث الاستسقاء بدعاء العباس - رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٩٨)، والترمذي (٣٥٦٢)، وابن ماجه (٢٨٩٤) عن عمر به.

الجواب: نعم وهذا ثابت في القرآن وفي السنة.

قال تعالى ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وكذلك إبراهيم دعى لذريته وأولاده والمؤمنين ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ والرسول كان يدعو للصحابة بظاهر الغيب.

لكن هل يجوز طلب الدعاء؟

الجواب: قال ابن عثيمين - مؤدى ما قاله : إنه إذا أمنت هذه العلل وأنت تطلبه لأعلى سبيل الضعف والافتقار والاحتياج لدعائه بل تطلبه على سبيل إثابته بإشغاله بذكر وقربة فيثاب ويؤجر عليها وتؤجر أنت على هذه الدلالة والإرشاد فإن فعلت على هذه النية فيجوز.

فربما أخ طيب تقول له أدعولي ولاتنسائي من صالح دعائك.

فيقول في نفسه : أنا أصبحت ولي من الأولياء، وصاحب كرامات، وشيخ الإسلام ويمكن أعطى دورس وغير ذلك. أما التوسل بدعاء الصالحين لا يكون بظاهر الغيب بل هو يدعو لك وأنت تؤمن كما في قصة توسلهم بالعباس وكذلك توسلوا بدعاء النبي فدعى وهم آمنوا وليس بظاهر الغيب.

مسألة: التوسل بجاه النبي ﷺ والرد عليه.

أولاً: من القرآن:

استدلوا بقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ و﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ والرد عليهم من خلال هذه الآيات:

١- ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾

٢- ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

٣- ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾

٤- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

أما استدلالهم بالآية «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ» لجواز التوسل بالمقبورين والموتى

الرد عليهم: إذا كنتم تقصدون بالوسيلة المعنى اللغوي لها بمعنى هي التوصل إلى المقصود فهذا معنى الوسيلة لغوياً، ولكن العبرة بالمعنى الشرعي: التوصل إلى الله تعالى على ما شرعه الله عز وجل فلا تكون الآية هنا حجة لهؤلاء الذين توسلوا إلى الله بغير ما شرع .

ثانياً: شبهة التوسل بجاه النبي وما جاء في ذلك من أحاديث والرد عليها:

(١) ما أخرجه الحاكم في «مستدركه» وصححه حديث توسل آدم بمحمد فقال الله «كيف عرفته ولم أخلقه قال رأيت اسمه على العرش».

قلت هذا الحديث حدثني الشيخ محمد البنا أن هذا الحديث فيه ثلاثة علل ومسلسل بثلاثة من الضعفاء وقال الذهبي في المستدرك أن الحديث موضوع (١).

(٢) مسألة التوسل في حديث فاطمة بنت أسد (٢)، وحديث «اللهم أنى أسألك بحق السائلين عليك» (٣)، وحديث «إذا أصبح وأمسى» (٤)، وحديث «كان يستفتح بصعاليك المهاجرين» (٥) وحديث «توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم»، وهذا الأخير قال بوضعه ابن تيمية في كتابه التوسل والوسيلة.

وهذه الأحاديث التي ذكرتها لاتخلو من ضعف كبير لاسيما وحديث آدم يرده قوله

(١) ولفظه: «عن عمر بن الخطاب مرفوعاً: « لما اقترب آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لى فقال: يا آدم وكيف عرفت محمد ولم أخلقه . قال : يارب لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحي رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمداً رسول الله، فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال: غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك» أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢ / ٦١٥) من طريق أبي الحارث عبد الله بن سلم الفهري، ثنا إسماعيل بن مسلمة، أنبأنا عبد الرحمن بن زيد بن سلم عن أبيه عن جده عن عمر، وقال صحيح الإسناد، وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذا الكتاب. أهد فتعقبه الذهبي بقوله : بل موضوع .

وعبد الرحمن واه، وعبد الله بن أسلم الفهري: لا أدري من ذا؟ أهد، والعلة الثانية: جهالة الإسناد إلى عبد الرحمن، والعلة الثالثة: اضطراب عبد الرحمن، فتارة يرفعه، وتارة يوقفه على عمر.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٤ / ٣٥١ / ٨٧١) عن نس، وأبو نعيم في «الحلية» (٣ / ١٢١) وأنظر «المجمع» (٩ / ٢٥٧)

(٣) أخرجه ابن ماجه (٧٧٨) عن أبي سعيد به بإسناد ضعيف.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨ / ٣١٦ / ٨٠٢٧) بإسناد ضعيف وأنظر «المجمع» (١٠ / ١١٧)

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١ / ٢٩٢ / ٨٥٨) عن أمية بن خالد مرسلأ.

تعالى ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فلما حصل ما حصل من خطيئة آدم وحواء قالوا ذلك، ولم يتوسلا بمحمد كما يزعم الصوفية .

(٣) أما حديث فاطمة بنت أسد فخرجه الطبرانى فى «المعجم الكبير»، وابن حبان، والحاكم، وفيه «رحمك الله يا أمى بعد أمى، إلى أن قال اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ووسع مدخلها فى القبر بحق نبيك والأنبياء من قبلى وأنت أرحم الراحمين»
والجواب عليه: أنه ضعيف لا تقوم به حجة .

(٤) وحديث «إذا أعيذكُم الأمور فعليكم بأهل القبور»^(١) فالجواب: أنه ظاهر عليه أمارات الكذب والوضع ، وعلى فرض صحته فإنه مردود بالحديث الصحيح : «إذا مات بن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ...»^(٢) الحديث . فزيارة القبور لا تكون إلا للعتة والتدبر، لا للتوسل والاستغاثة أو الاستعانة بالمقبورين الذين انقطع عملهم .

(٥) وحديث «يا بنى كعب بن لؤى انقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة انقذى نفسك من النار فإنى لأغنى عنك من الله شيئاً»^(٣) .

(٦) وحديث «إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله»^(٤) أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .



(١) قال ابن تيمية فى «التوسل والوسيلة» تحت هذا الحديث : فهذا الحديث كذب مفترى على النبى ﷺ بإجماع العارفين بحديثه لم يروه أحد من العلماء بذلك ولا يوجد فى شيء من كتب الحديث المعتمدة .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢ / ٨١ / ٣٤٨) عن أبى هريرة .

(٤) تقدم تخريجه أيضاً .

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١)

● مناسبة الآية للبَاب:

قال سليمان آل الشيخ (٢) لما كان قوم إبراهيم يعبدون الله ويعبدون غيره، فتركوا ما يعبدون إلا الله لا كما يظن الجاهل أن الكفار لا يعرفون الله، ولا يعبدونه أصلاً.

ثم قال : فتبين بهذا أن معنى لا إله إلا الله هو البراءة مما يعبدون من دون الله، وإفراد الله بالعبادة، وذلك هو التوحيد لا مجرد الإقرار بوجود الله وملكوته وقدرته وخلقته كل شيء. أ. هـ.

وقال عبدالله بن جار الله (٣): المناسبة أنها أفادت أن التوحيد معناه تجرد الإنسان من الشرك وإنكاره له، وإخلاص العبادة لله وحده. أ. هـ.

وقال ابن باز (٤): هذا تفسير التوحيد بمعناه فقوله ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ كقولنا: لا إله، وقوله ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ كقولنا : إلا الله. - وسيأتى من كلام محمد بن حسن ما يشبه ذلك - فبين أن معنى التوحيد البراءة من عبادة غير الله، وإنكارها واعتقاد بطلانها والرد عليها، والتوحيد لله وحده بجميع أنواع العبادات. أ. هـ.

وقال ابن عثيمين (٥) : أن التوحيد لا يحصل بعبادة الله مع غيره، بل لابد من إخلاصه لله. أ. هـ.

وقال القرعاوي (٦): حيث دلت الآية على أن توحيد الشخص لا يصح إلا إذا تبرأ من عبادة كل ما سوى الله. أ. هـ.

الإعراب (٧) :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾، الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لتذكير العرب بحال جدّهم الأعلى، والظرف متعلق يا ذكر محذوفاً

(١) سورة الزخرف : (٢٦ : ٢٨)

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤ : ١٠)

(٣) فتح الله احميد (٣٤)

(٤) التعليق المقيد (٥٨)

(٥) القول المقيد (١/ ١٨٧)

(٦) الجديد (٧٣)

(٧) إعراب القرآن (٩/ ٧٩، ٨٠)

وجملة ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ فى محل جر بإضافة الظرف إليها ﴿لَأَبِيهِ﴾ متعلقان بـ ﴿قَالَ﴾ و﴿قَوْمِهِ﴾ عطف على ﴿أَبِيهِ﴾ وجملة ﴿إِنِّى بَرَاءٌ﴾ فى محل نصب مقول القول و﴿مِمَّا﴾ متعلقان ببراء وجملة ﴿تَعْبُدُونَ﴾ صلة ما ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرْنِى فَإِنَّهُ سَيِّدِينَ﴾ إلا أداة استثناء والذى مستثنى والاستثناء منقطع كأنه قال لكن الذى فطرنى فإنه سيهدين ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً ببناءً على أنهم كانوا يشركون مع الله الأصنام، وأجاز الزمخشري وغيره أن تكون إلا صفة بمعنى غير على أن «ما» فى ما تعبدون موصوفة تقديره إننى برآء من آلهة تعبدونها غير الذى فطرنى فهو نظير قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةَ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ورجح أبو حبان انقطاع الاستثناء إذ كانوا لا يعبدون الله مع أصنامهم. وجملة فطرنى صلة للموصول والفاء تعليلية وإن واسمها وجملة سيهدين خبرها والسين للتأكيد لا للاستقبال أى يديم هدايتى لأنه تعالى هاديه فى المستقبل والحال والمفعول به محذوف أى سيهدينى لرعاية الفاصلة. أهـ.

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِى فَطَرْنِى فَإِنَّهُ سَيِّدِينَ (١)﴾.

● ماجاء فى التفسير بالقرآن

قال الشنقيطى (٢): ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أن إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال لأبيه وقومه: إنه براء أى برىء، من جميع معبوداتهم التى يعبدونها، من دون الله أى يعنى أنه برىء من عبادة كل معبود، إلا المعبود الذى خلقه وأوجده فهو وحده معبوده.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى ذكره عن إبراهيم فى مواضع أخر من كتابه كقوله تعالى ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدُمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِى خَلَقْنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٣)﴾ الآية وكقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِئٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِى لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٤)﴾.

(١) الزخرف (٢٦، ٢٧).

(٢) «أضواء البيان» (١٤٨/٧، ١٤٩).

(٤) الأنعام (٧٨-٧٩).

(٣) الشعراء (٧٥-٧٨).

وزاد جل وعلا فى سورة الممتحنة براءته أيضاً من العابدين وعداوته لهم وبغضه لهم فى الله ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ (١) .

وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ ذكر نحوه فى قوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ (٤) وقوله تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿ إِنِّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أى خلقتنى . يدل على أنه لا يستحق العبادة ، إلا الخالق وحده جل وعلا .

وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة ، دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ (٥) الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٦) وقوله تعالى : ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٧) وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ (٨) الآية ، وقوله تعالى : ﴿ أَيْشِرُكُمْ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴾ (٩) وقوله تعالى ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (١٠) واتخذوا من دونه إلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ﴾ (١٠) الآية إلى غير ذلك من الآيات .

(١) الممتحنة (٤) .

(٢) الشعراء (٧٨) .

(٣) الصافات (٩٩) .

(٤) الأنعام (٧٧) .

(٥) البقرة (٢١٠) .

(٦) الشعراء (١٨٤) .

(٧) الرعد (١٦) .

(٨) النحل (١٧) .

(٩) الأعراف .

(١٠) الفرقان (٣-٢) .

● ماجاء فى التفسير من الموقف

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ .

عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قرأ : «إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ» بالياء أى (يعبدون) (١) .

● أقوال المفسرين

قال ابن جرير (٢) : يقول تعالى ذكره ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ الذين كانوا يعبدون ما يعبده مشركو قومك يا محمد ﴿إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله ، فكذبوه ، فانتقمنا منهم كما انتقمنا ممن قبلهم من الأمم المكذبة رسلها .

وقيل (إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ) فوضع البراء وهو مصدر موزع النعت ، والعرب لا تشئ البراء ولا تجمع ولا تؤنث ، فتقول : نحن البراء والخلاء لما ذكرت أنه مصدر ، وإذا قالوا هو برىء منك بالياء ، وقد يجمع برىء برآء وأبراء .

ثم ذكر بسنده إلى قتادة قال : كأيدهم ، كانوا يقولون أن الله ربنا ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله فلم يبرىء من ربه .

قال ابن كثير (٣) يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليته إمام الحنفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء ، الذى تتسبب إليه قريش فى نسبها ومذهبها إنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الاوثان فقال : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ

وقال الشوكاني (٤) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ الآية ، أى واذكر لهم وقت قوله لأبيه وقومه الذين قلدوا آباءهم وعبدوا الأصنام . أهـ .

وبنحو مما ذكرنا قال جميع من رأينا من المفسرين .

فائدة : علاقة الآية بما قبلها من الآيات فى نفس السورة ، وبيان المقصود الأصلي من الآية :

قال الرازي (٥) : اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة أنه ليس لأولئك الكفار داع يدعوهم إلى تلك الأقاويل الباطلة إلا تقليد الآباء والأسلاف ، ثم بين أنه طريق

(١) ذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٥/ ٧٢٠) . ونسبه للفضل بن شاذان فى كتاب «القراءات»

(٢) «تفسير الطبري» (١١/ ٣٨/ ٢٥)

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢٢ ، ١٢٣)

(٤) فتح القدير (٤/ ٥٣١) .

(٥) «التفسير الكبير»

باطل ومنهج فاسد، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من الاعتماد على التقليد، أردفه بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد، وتقريره من وجهين:

الأول: أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تبرأ عن دين آبائه بناءً على الدليل.

ف نقول : إما أن يكون تقليد الآباء في الأديان محرماً أو جائزاً، فإن كان محرماً فقد بطل القول بالتقليد. وإن كان جائزاً فمعلوم أن أشرف آباء العرب هو إبراهيم، وذلك لأنهم ليس لهم فخر ولا شرف إلا بأنهم من أولاده، وإذا كان كذلك فتقليد هذا الأب الذي هو أشرف الآباء أولى من تقليد سائر الآباء، وإذا ثبت أن تقليده أولى من تقليد غيره فنقول إنه ترك دين الآباء، وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعة الآباء، وإذا كان كذلك وجب تقليده في ترك الآباء ووجب تقليده في ترجيح الدليل على التقليد. وإذا ثبت هذا فنقول: فقد ظهر أن القول بوجوب المنع من التقليد وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان باطلاً، فوجب أن يكون القول بالتقليد باطلاً فهذا طريق رقيق في إبطال التقليد، وهو المراد بهذه الآية (١).

الثاني: في بيان أن ترك التقليد، والرجوع إلى متابعة الدليل أولى في الدنيا والدين، أنه تعالى بين أن إبراهيم عليه السلام لما عدل عن طريق أبيه إلى متابعة الدليل لا جرم جعل الله دينه ومذهبه باقياً في عقبه إلى يوم القيامة، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت، فثبت أن الرجوع إلى متابعة الدليل يبقى محمود الأثر إلى قيام الساعة، وأن التقليد والإضرار ينقطع أثره، ولا يبقى منه في الدنيا خبر ولا أثر.

فثبت من هذين الوجهين أن متابعة الدليل وترك التقليد أولى، فهذا بيان المقصود الأصلي من هذه الآية أهـ.

● قوله ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ كما قال إبراهيم عليه السلام في موضع آخر ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٢).

● أقوال المفسرين

قال ابن جرير (٣) قوله ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ يقول إني بريء مما تعبدون من شيء إلا من الذي (فطرنى) يعنى الذى خلقتنى.

(١) ومذهب من رد التقليد بالجملة دون تفصيل سيأتى مناقشته في مبحث جليل.

في وضع الضوابط والقواعد للتقليد في هذا الكتاب في الباب السابع والثلاثين (من أطاع العلماء والأمراء) فليرجع إليه لأهميته.

(٢) الشعراء / ٧٨

(٣) تفسير الطبرى (١١/ ٢٥/ ٣٨).

﴿فَإِنَّهُ سَيَّهَدِينَ﴾ يقول: فإنه سيقومنى للدين الحق، ويوفقنى لاتباع سبيل الرشد. ثم أسند عن السدي: (فطرنى) قال: خلقتنى. أهـ.

وينحو قول ابن جرير هذا قال المفسرون.

وقال الزمخشري^(١): (فإن قلت) كيف تجعله - فطرنى - بدلاً وليس من جنس ما يعبدون؟ فالجواب: من وجهين (أحدهما) أن ذات الله مخالفة لجميع الذوات، فكانت مخالفة لذوات ما يعبدون.

(الثاني) أن الله تعالى غير معبود بينهم والأوثان معبود؟

قلت: قالوا: كانوا يعبدون الله مع أوثانهم، وأن تكون (إلا) صفة بمعنى (غير) على أن مافى (ما تعبدون) موصوفة تقديره (إننى براء) من آلهة تعبدونها غير (الذى فطرنى)، فهو نظير قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾

(فإن قلت): مامعنى (سيهدين) على التسويف؟

قلت: قال مرة (فهو يهدين) ومرة (فإنه سيهدين) فاجمع بينهما، وقدر كأنه قال فهو يهدين وسيهدين، فيدلان على استمرار الهداية فى الحال والاستقبال. أهـ.

قوله ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

قال ابن جرير^(٢) يقول تعالى ذكره: وجعل قوله ﴿إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٦) إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَّهَدِينَ وهو قوله لا إله إلا الله ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾، وهم ذريته، فلم يزل فى ذريته من يقول ذلك من بعده واختلف أهل التأويل فى الكلمة التى جعلها إبراهيم فى عقبه. أهـ.

قلت: وهو اختلاف تنوع وليس تضاد لأن الأقوال كلها قد قاربت المعنى وإليك البيان القول الأول: الكلمة هى لا إله إلا الله.

وعن ابن عباس ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ قال: لا إله إلا الله فى عقبه. قال: عقب إبراهيم ولده^(٣).

وعن قتادة: شهادة أن لا إله إلا الله والتوحيد، لم يزل فى ذريته من يقولها من بعده^(٤).

(١) الكشاف (٤١٦/٣)

(٢) تفسير ابن جرير (٣٩/٢٥/١٢)

(٣) تفسير ابن جرير (٣٩/٢٥/١٢)

وقاله مجاهد (١)، والسدي (٢)

القول الثاني: الكلمة هى الإخلاص والتوحيد:

عن مجاهد «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ» قال: الإخلاص والتوحيد لا يزال فى ذريته من يقولها من بعده «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» قال: يتوبون، أو يذكرون (٣).
عن قتادة: التوحيد والإخلاص، يزال فى ذريته من يوحد الله ويعبده (٤). ا.هـ.
(القول الثالث) الكلمة هى الإسلام.

عن عبدالرحمن بن زيد قوله «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ» فقرأ «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» قال: جعل هذه باقية فى عقبه، قال الإسلام، وقرأ: «هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ» فقرأ «وَأَجَعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ» (٥).

وعن عكرمة «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ» قال فى الإسلام أوصى بها ولده.
القول الرابع: أن لاتعبدوا إلا الله:

قال الضحاك الكلمة: أن لاتعبدوا إلا الله (٧). ا.هـ.

وزاد البغوى (٨) عن ابن جرير: يعنى جعل وصية إبراهيم التى أوصى بها بنيه باقية فى نسله وذريته، وهو قوله عزوجل «وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ» ا.هـ.

وقال ابن كثير (٩) «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ» أى: هذه الكلمة وهى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ماسواه من الأوثان، وهى لا إله إلا الله أى: جعلها فى ذريته يقتدى به فيها من هذه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام. لعلمهم يرجعون، أى: إليها.

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم فى قوله: «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ» يعنى: لا إله إلا الله، لا يزال فى ذريته من يقولها.

(١، ٢، ٤، ٥) «تفسير ابن جرير» (٣٩/٢٥/١٢).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٧٤٦/٥). وتقدم من عند ابن جرير

(٦) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى

حاتم أيضاً فانظره بتخريجنا

(٧) «القرطبي» (٥٨٩٧/٩).

(٨) «معالم التنزيل» (٩٧/٥).

(٩) «تفسير ابن كثير» (١٢٣/٤).

وقال ابن زيد: كلمة الإسلام، وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة أهد.

وقوله (عقبه)

كما قال ابن جرير سابقاً: هم ذريته.

وعن الزهري قال: عقب الرجل ولده الذكور والإناث وأولاد الذكور^(١).

وعن عبيدة قال: قلت لإبراهيم: ما العقب؟ قال ولده الذكر^(٢).

وعن عطاء في رجل أسكنه رجل له ولعقبه من بعده أتكون امرأته من عقبه؟ قال: لا ولكن ولده عقبه^(٣).

قال القرطبي^(٤) قال ابن العربي: ولم تزل النبوة باقية في ذرية إبراهيم، والتوحيد هم أصله وغيره فيه تبع لهم.

وقال ابن العربي: إنما كانت لإبراهيم في الأ عقاب موصولة بالأحقاب بدعوتيه المجابتين؟ إحداهما في قوله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فقد قال نعم إلا من ظلم منهم فلا عهد.

ثانيهما قوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ وقيل: بل الأولى قوله ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ فكل أمة تعظمه، بنوه، وغيرهم ممن يجتمع معه في سام أو نوح.

وقال القرطبي^(٥): (العقب) في اللغة عبارة عن شيء بعد شيء كان من جنسه أو من غير جنسه، يقال: أعقب الله بخير أي جاء بعد الشدة بالرخاء وأعقب الشيب السواد وعقب يعقب عقوباً وعقبا إذا جاء شيئاً بعد شيء ولهذا قيل لولد الرجل: عقبه والمعقاب من النساء التي تلد ذكراً بعد أنثى هكذا أبداً. وعقب الرجل: ولده وولد ولده الباقي بعده.

والعاقبة الولد، قال يعقوب: في القرآن ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ وقيل: بل

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧٤٦/٥). ونسبه لعبد بن حميد

(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد أيضاً.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) «القرطبي» (٥٨٩٦/٩)

(٥) «القرطبي» (٥٩٠٠/٩٠).

الورثة كلهم عقب . والعاقبة الولد ، ولذلك فسرهم مجاهد هنا ، وقال ابن زيد : ها هنا هم الذرية . وقال ابن شهاب : هم الولد وولد الولد . وقيل غيره على ما تقدم عن السدي وفي الصحاح والعقب (بكسر القاف) مؤخر القدم وهي مؤنثة ، وعقب الرجل أيضاً ولده وولد ولده .

وفيه لغتان : عقب وعقب (بالتسكين) وهي أيضاً مؤنثة : عن الأخفش . وعقب فلان مكان أبيه عاقبة أى خلفه ، وهو اسم جاء بمعنى المصدر كقوله تعالى ﴿لَيْسَ لَوْقَعِهَا كَاذِبَةٌ﴾ ولا فرق عند أحد من العلماء بين لفظ العقب والولد فى المعنى . وإن اختلف فى الذرية والنسل فقيل إنهما بمنزلة الولد والعقب ؟ لا يدخل ولد البنات فيهما على مذهب مالك . وقيل إنهم يدخلون فيهما أهـ .

قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

وعن مجاهد : (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) قال : يتوبون أو يذكرون . أهـ .

قال البغوي^(٢) : لعل أهل مكة يتبعون هذا الدين ، ويرجعون عما هم عليه إلى دين إبراهيم وقال السدي : لعلمهم يتوبون ويرجعون إلى طاعة الله عزوجل . أهـ .

قال الزمخشري^(٣) : لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم أهـ .

وقال ابن الجوزي^(٤) : لعلمهم يرجعون إلى التوحيد كلهم إذا سمعوا أن أباهم تبرأ من الأصنام ووحد الله عزوجل .

وقال الفخر الرازي^(٥) بقول الزمخشري نصاً .

وقال ابن كثير^(٦) : لعلمهم يرجعون إليها - إلى الكلمة . أهـ .

وقال الشوكاني^(٧) : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ تعليل للجعل ، أى جعلها باقية رجاء أن يرجع إليها من يشرك منهم بدعاء من يوحده . والضمير فى (لعلمهم) راجع إلى أهل

(١) تقدم تخريجه قريباً

(٢) «معالم التنزيل» (٩٧/٥)

(٣) «الكشاف» (٤٨/٣)

(٤) «زاد المسير» (١٣٣/٧)

(٥) «التفسير الكبير» (٢٠٩/٢٧/١٤)

(٦) «تفسير ابن كثير» (١٢٣/٤)

(٧) «فتح القدير» (٥٣١/٤)

مكة. وقيل الكلام فيه تقديم وتأخير ؛ والتقدير : فإنه سيهدين لعلهم يرجعون وجعلها... أهـ.

وقال السعدى (١): (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته، وتوصية بعض بنيه، كإسحاق ويعقوب لبعض، كما قال تعالى ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أهـ.

أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية:

قال سليمان آل الشيخ (٢):

قلت : وروى ابن جرير عن قتادة فى قوله ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي﴾ قال خلقني (٣) وعنه : ﴿إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦)﴾ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي﴾ قال : إنهم يقولون إن الله ربنا ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فلم يبرأ من ربه (٤) - تقدم - رواه عبد بن حميد . قلت : يعنى أن قوم إبراهيم يعبدون الله ويعبدونه غيره، فتبرأ مما يعبدون إلا الله، لا كما يظن الجهال أن الكفار لا يعرفون الله، ولا يعبدون أصلاً.

وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فى عَقْبِهِ﴾ قال : الإخلاص والتوحيد، لا يزال فى ذريته من يوحد الله ويعبده (٥) - تقدم - .

فتبين بهذا أن معنى لا إله إلا الله هو البراءة مما يعبدون من دون الله، وإفراد الله بالعبادة، وذلك هو التوحيد لا مجرد الإقرار بوجود الله وملكوته وقدرته وخلقه لكل شىء، فإن هذا يقر به الكفار وذلك هو معنى قوله: ﴿إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦)﴾ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي﴾ فاستثنى من المعبودين ربه وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هى شهادة أن لا إله إلا الله . قاله المصنف أهـ.

قال محمد بن حسن (٧): (لا إله)، نفى الآلهة الباطلة، وذلك قوله ﴿إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وقولك (إلا الله)، إثبات الألوهية لله تعالى، وذلك قوله ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي﴾

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٤٠٢)

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٣، ١٠٤)

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٥ / ٣٨) وتقدم.

(٤) تقدم تخريجه .

(٦) «فتح الله الحميد المجيد» (١٨٧ - ١٩١)

(٥) تقدم

فتحقق أن التوحيد الذى ألزم الله به العبيد هو إفراد الله بالعبادة نقلاً، وعقلاً، وفطرة.

أما النقل: قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

أما العقل: فكما قيل البعرة تدل على البعير، والسير يدل على المسير، فكيف لاتدل سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج على اللطيف الخبير؟! فإذا شهدت العقول على صفاته، وتفكرت فى أفعاله الجميلة وتدبرت أقواله الحسنة لدل ذلك على أن من هذه أفعاله التى أبهرت العقول وعجزت عن إدراك حقيقتها أنه هو الله لا إله إلا هو.

وأما الفطرة: فمعلوم بالضرورة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة أنه لا زعم لأحد أن العالم له صانعان مكافئان فى الصفات والأفعال، بل ولا أثبت أحد من بنى آدم إلهاً مساوياً لله فى جميع صفاته، بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس له شريك مثله، بل عامتهم مقرون بأن الشريك الذى زعموا أنه ملوك لله سواء، كان ملكاً أو نبياً أو كوكباً أو صنماً كما كان مشركو العرب يقولون فى تليبتهم: (لييك لاشريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك)، فأهل رسول الله ﷺ بالتوحيد «لييك اللهم لييك، لييك لاشريك لك لييك...»^(١) أهـ. مختصراً.

قلت: ودليل الفطرة أنها تشهد بالتوحيد من الكتاب والسنة قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ﴾ الآية. قوله ﷺ «كل مولود يولد على فطرة»^(٢) وقال تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية. والله أعلم وقوله تعالى فى الحديث القدسى عند مسلم «إنى خلقت عبادى حنفاء»^(٣).

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٤): فتدبر كيف عبر الخليل عليه السلام عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذى دلت عليه ووضعت له: من البراءة من كل ما يعبد من دون الله من المعبودات الموجودة فى الخارج: كالكواكب، والهيكل، والأصنام التى صورها قوم نوح

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحج (٤ / ٣٤٦ / ٢٢) عن ابن عباس .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) تقدم تخريجه

(٤) «فتح المجيد» (١٢٣/١)

على صور الصالحين: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسراً، وغيرها من الأوثان والأنداد التي كان يعبدوها المشركون بأعيانهم. ولم يستثن من جميع المعبودات إلا الذي فطره، وهو الله وحده لاشريك له، فهذا هو الذي دلت كلمة الإخلاص مطابقة، كما قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ (١). فكل عبادة يقصد بها غير الله من دعاء وغيره فهي باطلة. وهى الشرك الذى لا يغفره الله ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٢). أهـ.

وقال ابن عثيمين (٣): قوله ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي﴾ جمع بين النفى والإثبات، فالنفي ﴿إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ والإثبات ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي﴾ فدل على أن التوحيد لا يتم إلا بالكفر بما سوى الله والإيمان بالله وحده ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (٤) فهؤلاء يعبدون الله وغيره؛ لأنه قال ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي﴾ والأصل فى الاستثناء الاتصال إلا بدليل، ومع ذلك تبرأ منهم.

وكذا يوجد فى بعض البلدان الإسلامية من يصلى ويصوم ويحج ومع ذلك يذهبون إلى القبور ويسجدون لها ويركعون، فهم كفار غير موحدين ولا يقبل منهم أى عمل، وذلك من أخطر ما يكون على الشعوب الإسلامية؛ لأن الكفر بما سوى الله عندهم ليس بشيء، وهذا جهل منهم وتفريط من علماءهم؛ لأن العامى لا يأخذ إلا من عالمه، لكن بعض الناس - والعياذ بالله - عالم دولة لا عالم ملة. وفى قول إبراهيم عليه السلام ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي﴾ ولم يقل إلا الله فائدتان: .

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة، لأنه كما أنه منفرد بالخلق فيجب أن يفرد بالعبادة.

الثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام، لأنها لم تفطركم حتى تعبدوها، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفى والإثبات.

(٢) غافر ٧٣ - ٧٤

(٤) البقرة: ٢٥٦

(١) الحج ٦٢

(٣) القول المفيد (١/١٨٦، ١٨٧)

وهذا من البلاغة التامة فى تعبير إبراهيم عليه السلام. أهـ.

فوائد من الآية:

قال ابن عثيمين^(١): يستفاد من الآية أن التوحيد لا يحصل بعبادة الله مع غيره، بل لابد من إخلاصه لله، والناس فى هذا المقام ثلاثة أقسام:

١- قسم يعبد الله وحده.

٢- قسم يعبد غيره فقط.

٣- قسم يعبد الله وغيره.

والأول فقط هو الموحد. أهـ.

وقال القرعاوي^(٢): - أى من الآية -.

١- أن أصل دين الأنبياء واحد وهو التوحيد.

٢- الجهر بالحق من صفات المرسلين .

٣- وجوب إنكار المنكر ولو على الأقربين.

٤- وجوب البراءة من الشرك.

٥- بيان أن قوم إبراهيم يعبدون الله، ولكنهم يشركون معه.

٦- أن هداية التوفيق خاصة بالله. أهـ.

وهذا النوع من الشرك هو ما يعرف بالولاء والبراء.

فصول

الجب والمودة على الدين، لا لفرقة ولا لحزب

قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ

كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾^(٣).

قال الفقير: قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب»^(٤).

(١) «القول المفيد» (١/ ١٨٧).

(٢) «الجديد» (٧٣).

(٣) المجادلة: ٢٢.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦١٦٩) ومسلم فى البر والصلة (٨ / ٤٣٧ / ١٦٥)

وأنظر «رياض الصالحين» (٣٦٩ - يتخيرجنا).

وأنظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلالة» (٢٥٠)

فهذه حقيقة الموالاة نصرة ومجبة وتذكير لبعضهم.

وقد بين الله علاقة الموالاة بالتوحيد كما ثبت عن السلف مرفوعاً: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله والموالاة في الله والمعاداة في الله»^(١) فهذه أوثق عرى الإيمان فكأن جزاء الموالى ليس الغلبة والنصرة فقط إنما هو متعلق بأوثق عرى الإيمان وفي بعض الروايات «أن تعطى في الله وتمنع في الله» إما موقوفة أو مرفوعة ذكرها صاحب «الولاء والبراء»^(٢) فيكون أصل العطاء والمحبة والتزويج لله.

وجزاؤه أيضاً ما ثبت في الصحيح إذا كان موالاته لله وعلى هذه الكلمة ليس لنصرة حزب أو جماعة أو لنفسه هو الذي يجد حلاوة الإيمان «ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون...»^(٣) ولو لم يكن في المذهبية والحزبية آفة إلا هذه الآفة التي تسبب عدم وجود حلاوة الإيمان في قلبك فلا توالى ولا تعادى إلا على الفرقة أو الشيخ أو الجماعة أو الحزب لكفى بها آفة التي تطعن في كمال التوحيد، والرسول قال «ثلاثة من كن فيه..» في المقابل قال للمتعصب تعصباً جاهلياً «ذروها فإنها منتنة»^(٤) فالولاء والبراء ليسوا على حزب حتى لو كان هم الأنصار أو المهاجرين فالأصل هو الله والرسول والإسلام توالى عليه وتعادى عليه معنى ذلك أن كل من دخل في الإسلام له منا أصل المحبة والولاء حتى لو كان مبتدعاً بدعة غير مكفرة فيوالى من جهة إسلامه ويعادى من جهة ابتداعه فتواليه لإسلامه ونسباً من ابتداعه، وأيضاً الولاء للرسول ليس للشيخ كيف ذلك: من نرى منه طاعة لله ولرسوله ازداد ولاؤنا ومحبتنا له بقدر طاعته فيما يظهر لنا ومن نرى فيه خلاف ذلك قلّت محبتنا ولاؤنا له بقدر معصيته لله ولرسوله مع الأخذ في الاعتبار أن أصل الولاء ما زال له لأنه ما زال في دائرة المسلمين، فلا داعي أن أقول أن هذا أخى وحبيبي لأنه يحضر لشيخنا ويقرأ كتبنا فيقدر سماعه للشيخ يكون قدر حبنا ولائنا له، وبقدر عدم سماعه بقدر بغضنا له فصار الولاء على المشايخ فهي آفة وعقبة كؤود لكل من أراد العمل لله وإقامة دينه.

وهذا بخلاف الولاء والبراء عند أهل البدع والاهواء فهم يوالون على أهوائهم وبدعهم

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤ / ٢٧٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧ / ٢٢٦ / ٦٩) عن البراء

به.

وانظر كتابنا «فقه الخطابة وزاد الخطيب» في خطبة شم النسيم.

(٢) انظر «الولاء والبراء» (٤١، ٤٢).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١١) ومسلم في الإيمان (١٣/٢/١).

وانظر «رياض الصالحين» بتخريجنا (٣٧٦).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم البرو الصلة (٨ / ٣٨١ / ٦٣) عن جابر به.

فمن وافق بدعهم والوه وأحبوه ومن خالف بدعهم عادوه وبغضوه، وهو كقول الرافضة قالوا: «لا ولاء إلا بيراء» يعنى لا ولاء لعلى إلا بيراء من أبى بكر وعمر وتكفيرهم وهذا الكلام مردود عليه.

وقلنا أن الأمة اتفقت أنهم أفضل الأمة بعد النبى والنبي بشرهما بالجنة ولا يشر أحدًا بالجنة ويعلم الله أنه سيموت على ردة الرسول ذكر من مناقب أبى بكر وعمر مايجل عن أن يوصفا بهذا الوصف القبيح فمن كفرهم فهم أولى بهذا الوصف لحديث «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما» (١).

فقول على بن أبى طالب فى الخوارج: إخواننا بغضوا علينا طهرهم السيف الشيعة قالوا: لا ولاء إلا بيراء، أى لا ولاء لعلى إلا بيراء من أبى بكر وعمر.

هذا الكلام مردود عليه بزواج أم كلثوم من عمر زوجها على من عمر وما كان لعلى أن يزوج ابنته من كافر وهذا كان بعد موت النبى ﷺ.

وفى قصة تزويج بنت على من عمر فى سندها نظر (٢) وفيه فكشف عمر عن ساقها فقالت أم كلثوم: لولا أنك أمير المؤمنين لفقات عينيك متأولاً قوله ﷺ: «إن استطاع أن ينظر إليها فليقلع» (٣).

قال الشيعة: أن هذه تقيه: «إلا أن تتقوا منهم تقاة» الرد عليهم، هذه متقصة لعلى وليست منقبة أن يخاف من عمر فأرادوا أن يتزوها على فوقعوا فى أشر مما فروا منه.

فالصواب: أن علياً ما زوج ابنته لأمير المؤمنين إلا لعلمه أنه أفضل الصحابة بعد أبى بكر رضى الله عنهم أجمعين، وقطع الله له بالرضوان كما قطع لغيره وبشره بالجنة.

فإن قالوا أنهم ارتدوا بعد موت النبى ﷺ فنرد عليهم بالآيات التى تبشرهم بالجنة وكذلك الأحاديث التى فيها مناقبهم فلا يقطع لأحد بهذه المناقب وهو ماله الكفر ويعلم الله أنه سيموت كافراً ويعلم أنه سيرتد.

وفى الخبر: يأبى الله ويأبى المؤمنون إلا أبا بكر (٤).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٠٦١)، ومسلم فى الإيمان (٢ / ٤٩ - النووي) عن ابن عمر

واتظر «رياض الصالحين» (١٧٣٥ - بتخريجنا)

(٢) ذكره الألبانى فى الصحيحة (١ / ١٥٦)

(٣) أخرجه أبو داود (٢٠٨٢) عن جابر به..

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨ / ١٦٣ / ١١) عن عائشة.

وفى الصحيح : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»^(١) وفى رواية : «ومن نفسه التى تكون بين جنبيه».

ولما كانت هذه المسألة «الحب فى الله والبغض فى الله» لا يفعلها إلا من بلغ الكمال فى الإيمان لهذا كان لها الأجر الكبير يوم القيامة وفى الدنيا أيضاً :

فى الدنيا : «فيحبه الله» : وفى الأثر الرجل الذى كان يحب أخاه فى الله فذهب ليزوره فى الله فأنزل الله إليه ملك فقال له «إن الله يحبك»^(٢).

فى الآخرة : «سبعة يظلمهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم رجلان تحابا فى الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه»^(٣) أى اجتماعا فى الله وتفرقا فى الله رواه مسلم وغيره .

وقال ابن تيمية رحمه الله^(٤) : «فأما حب القلب وبغضه، وإرادته وكرهته، بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله ورسوله، وبغض الله ورسوله، وهذا نوع من الهوى، فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه، «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ»^(٥) ، ا.هـ.

وقال أيضاً : «إن الله سبحانه بعث الرسل، وأنزل الكتب، ليكون الدين كله لله ويكون الحب لأوليائه، ويكون البغض لأعدائه والإكرام والثواب لأوليائه، والإهانة والعقاب لأعدائه، وإذا اجتمع فى الرجل الواحد خير وشر، وفجور، وطاعة ومعصية وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعادة بحسب ما فيه من الشر». ا.هـ.

قال صاحب «فضل الغنى الحميد»^(٦) : ولا شك أن من أحب الكافرين على كفرهم، أو حتى رضى بكفرهم، وإن لم يحبه فهو كافر مثلهم، فإن الرضى بالكفر كفر، لأنه رد

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٥)، ومسلم فى الإيمان (١ / ٢٩٠ / ٦٩)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (٨ / ٣٦٦ / ٣٨) عن أبى هريرة وانظر «رياض الصالحين» (٣٨٠ - بتخریجنا)

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٤٧٩)، ومسلم فى الزكاة (٧ / ١٢٠ - النووي) عن أبى هريرة وانظر «رياض الصالحين» (٣٧٧ - بتخریجنا)

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨، ٢٠٨)

(٥) القصص / (٥٠).

(٦) (ص ١١٣، ١١٤).

لكتاب الله عز وجل قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١). وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٢)، وقد تبرأ حاطب بن أبى بلتعة - كما تقدم - من أن يكون فعل ما فعل بالكفر بعد الإسلام، وهذا من المعلوم قطعاً من دين الإسلام، بل المؤمن حقاً هو من كان إلقاؤه فى النار أحب إليه من الكفر، كما قال النبى ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار»^(٣).

فتبين بما ذكرنا لمن يكون حب المؤمن، ولمن يكون بغضه، فالمؤمن كامل الإيمان يحب من كل وجه، والكافر يبغض من كل وجه، والفاسق العاصى الذى عنده أصل الإيمان، يُحِبُّ لإيمانه ويبغض لفسقه ومعصيته كما تقدم بيان ذلك.

وبما تقدم، يتبين لك بطلان الدعاوى المعاصرة التى تنادى بالمحبة لأهل الأديان، والمساواة بينهما، وتعاقد الهلال والصليب، وعبرة: الدين لله والوطن للجميع.

وقد يسمى بعضهم اتباع الملل المختلفة بالنسبة إلى الرسل: المؤمنين من أهل الأديان السماوية، وسعى بعضهم إلى بناء مجمع الأديان، وكل هذه الدعاوى إنما نبعت من الكفر، والزندقة، والنفاق، غرضها هدم هذه العقيدة لدى المؤمنين، نسأل الله أن يكف عن المسلمين شر هذه الدعاوى وشر أصحابها.

مسألة: ما هو حكم الحب الجبلى (الطبيعى) للكافر:

نفرق بين الحب الجبلى والحب الذى يُصرف للكافر حباً فى عقيدته.

فها هو عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول أحب أباه حباً طبيعياً فقال للنبى ﷺ: إن كنت قاتل أبى فمرنى أن أقتله حتى لا تأمر غيرى فأرى قاتل أبى فأقتله فأقتل مسلماً بكافر^(٤).

(١) آل عمران / (٨٥).

(٢) آل عمران / (١٩).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٦)، ومسلم فى الإيمان (٢ / ١٣ - النووي) عن أبى هريرة به. وانظر «رياض الصالحين» (٣٧٦ تخريجنا)

(٤) أخرجه البيهقى «الدلائل» (٤ / ٦٢) عن عاصم بن عمر بن قتادة به وذكره ابن الأثير فى أسد الغابة» (٣ / ٢٩٧).

فصول

فصل فى معنى الولاء لغة واصطلاحاً

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ﴾^(١).

فتقدم معنا أن الكلمة هى كلمة التوحيد والإخلاص والإسلام ولا إله إلا الله.

قال محمد بن عبد الوهاب فى مسائله على هذا الباب:

ذكر سبحانه أن هذه البراءة - يعنى من المعبودين من دون الله-، وهذه الموالاة - يعنى لله عزوجل - هى تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ﴾ أهـ.

ونعنى بالولاء: الموالاة الواجبة لله، ولرسوله، وللمؤمنين، ولازمها حرمة الموالاة للكافرين.

ونعنى بالبراءة: التبرؤ من الشرك، وأهله، وعداوتهم، وبغضهم ولازمها حرمة البراءة من المسلمين والمؤمنين أو عداوتهم أو بغضهم.

الولاء لغة يأتى فى معانى قريبة من معناه الشرعى فهو المحبة والقربى، لقوله ﷺ « إن آل أبى بياض ليسوا بأوليائى إنما ولى الله وصالح المؤمنين، ولكن رحماً أبلها ببلالها»^(٢) يعنى: أصلها بصلتها.

وجاء فى لسان العرب: «الموالاة - كما قال ابن الأعرابى -: أن يتشاجر اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له فى أحدهما هوى فيؤالیه أو يحاييه، ووالى فلاناً إذا أحبه، والمولي: اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو الرب، والمالك، والسيد، والمنعم، والمعتق، والناصر، والمحِب، والتابع، والجار، وابن العم، والحليف، والحفيد، والعبد، والمعتق، والمنعم عليه، والموالاة ضد المعادة، والموالاة: المتابعة.

وقال صاحب «المصباح المنير»: الولى فعيل بمعنى : فاعل، من وليه : إذا قام به، وقال : المؤمن ولى الله، بمعنى أنه مطيع لله.

(١) الزخرف: / (٢٦ - ٢٨).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى ..

وفي الشرع : بمعنى النصرة والتآخي كما تقدم من ظاهر الآيات، ولذا.

قال ابن تيمية : «أصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد».

ويتضح بما ذكرنا أن أكثر المعاني تدور حول : الحب، والنصرة، والقيام بالأمر، ولوازم ذلك، كالطاعة، والمتابعة، والمعاونة، والصدقة، ولوازم هذه الأمور.

ولما كان قضية الولاء والبراء ركناً من أركان التوحيد، ومقتضى كلمة لا إله إلا الله فقد كثر بيانها في القرآن والسنة، شأنها شأن كل قضايا العقيدة، وكثر بيان أحكامها، ولوازمها، وما يترتب عليه في الدنيا والآخرة:

فصل

في الإزالة من الكتاب والسنة

على الترغيب في موالاته المؤمنين والبراءة من الشرك والمشركين ونظم الموالي

أولاً : نصوص القرآن : قال الله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

قال تعالى مبيناً حرمة اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وأن من والاهم يكون منهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١). ويخبر سبحانه أن موالاتهم من علامات النفاق، ومرض القلب، وأنها سبب لحبوط العمل، وتستوجب الخسران، قال تعالى : ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَاءُ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(٢).

وقال سبحانه مبيناً أن موالاته الكافرين لا تكون بحال من الأحوال من صفات المؤمنين،

(١) المائدة / (٥١).

(٢) المائدة / (٥٢ - ٥٦).

وَأَنْ مِنْ فَعَلِهَا فَقَدْ بَرَى مِنْ اللَّهِ، وَبَرَى اللَّهُ مِنْهُ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (١).

وقد بين عزوجل أن الإيمان بالله واليوم الآخر، ومودة الكافرين ولو كانوا من أقرب الأقربين - لا يجتمعان في قلب واحد، فقال عزوجل: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢).

وجعل سبحانه الأسرار بالمودة للكافرين، ولو كان لحماية أهل، أو ولد، أو مال، دون موافقة القلب على الكفر، أو الرضا به علامة على الضلال، فقال عزوجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (٣).

وعن على رضي الله عنه قال: بعثنى النبي ﷺ أنا، والزبير، والمقداد، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها» فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة قلنا: أخرجى الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب، أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا به: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب، ماهذا؟» قال: لاتعجل على، إني كنت امرأة ملصقة في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً، ولا ارتداداً عن ديني، ولا راضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إنه صدقكم»، فقال عمر رضي الله عنه: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله

ﷺ: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(١) زاد البخارى فى كتاب المغازى فى «صحيحه»: فأنزل الله سورة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾^(٢).

وقال سبحانه مبيناً للمؤمنين الأسوة الحسنة فى هذا الباب: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُسْتَغْفَرُ لَكَ﴾^(٣).

قال ابن كثير - رحمه الله - فى «التفسير»^(٤): أى لكم فى إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها، إلا فى استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان ﴿عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾^(٥).

وبين سبحانه أن من أسباب لعن بنى إسرائيل على السنة أنبيائه ورسله توليهم للكافرين، وبين أن ذلك سبب سخط الله عليهم، وخلودهم فى النار، فقال سبحانه، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾^(٦).

ثم بين - عز وجل أن عدم الإيمان بالله، والنسب ﷺ، والقرآن هو سبب فى هذه الموالاة، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٧).

وبين سبحانه: أن عدم القيام بهذا الركن من أركان الإيمان، يؤدى إلى الفتنة والفساد الكبير فى الأرض، فقال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

(١) [صحيح] البخارى (٣٠٠٧) وانظر «فتح القدير» بتخريننا.

(٢) المتحنة / (١). (٣) المتحنة / (٤).

(٤) / (٤) ٣٤٨، (٥) التوبة / (١١٤).

(٦) المائدة / (٧٨ - ٨٠). (٧) المائدة / (٨١).

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ^(١).

قال ابن كثير رحمه الله في «التفسير»^(٢): أى: إن لم تجانبوا المشركين، وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت فتنة في الناس، وهو التباس الأمة، واختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع بين الناس فساد متشتر عريض طويل. أ هـ.

ثانياً: نصوص السنة:

١- عن جرير بن عبد الله البجلي رضى الله عنه مرفوعاً، وفيه: «وتنصح المسلم، وتبرأ من المشرك»^(٣).

٢- وعن ابن عباس رضى الله عنه مرفوعاً: «أوثق عرى الإيمان، الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله»^(٤).

٣- وعن ابن عباس رضى الله عنه: «من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فأما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه، حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس اليوم على أمر الدنيا، وذلك لا يجزى عن أهله شيئاً»^(٥).

٤- وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أنا برىء من كل مسلم أقام بين أظهر المشركين»، قالوا: يارسول الله، لم؟ قال: «لاتراءى ناراهما»^(٦).

٥- وعن جبلة بن الحارثة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أويت إلى فراشك فاقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾»^(٧) حتى تمر بآخرها، فإنها براءة من الشرك»^(٨).

وله شاهد عن نوفل بن معاوية رضى الله عنه^(٩).

(١) الأنفال / ٧٢، ٧٣. (٢) (٣٣١/٢).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٥٧/٤، ٣٦٣، ٣٦٤) والنسائي في «الكبرى» (٧٧٩٨) عن جرير به.

(٤) تقدم تخريجه في هذا الباب (٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٥٣).

(٦) [حسن صحيح] أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤) عن جرير به.

وانظر «منار السبيل» ٩٩٢١ - بتخريجنا.

(٧) الكافرون / (١).

(٨) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٦٣٦) عن جبلة به.

(٩) أخرجه أبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي (٣٤٠٣) وانظر «الأذكار للثبوتى» (٢٤٥) - بتخريجنا.

قال ابن القيم رحمه الله^(١): إن هذه السورة تشتمل على النفى المحض، فهذا هو خاصية هذه السورة العظيمة، فإنها سورة براءة من الشرك، كما في وصفها؛ فمقصودها الأعظم هو: البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتى بالنفى فى الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة، هذا مع أنها متضمنة للإثبات الصريح، فقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ براءة محضة، ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ إثبات أن له معبوداً يعبدون، وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفى والإثبات، وطابقت قول إمام الحنفاء: ﴿إِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى﴾^(٢) فانتظمت حقيقة لا إله إلا الله؛ ولهذا كان النبى ﷺ يقرنها بسورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فى سنة الفجر^(٣) وسنة المغرب^(٤)، فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص أ.هـ.

فصل ماهو السبب فى موالاة الكافرين؟

[١] الخوف من الدوائر: قال تعالى مبيناً السبب فى موالاة الكافرين أنه مرض وزيف ونفاق وعدم إيقان بوعد الله ﴿تَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ الآية
فيقول هؤلاء: إنما نوالى بعض الظلمة لأننا نخشى أن تدور بنا الدوائر، فيصيوننا بأذى فى أنفسنا أو أموالنا. وأصل هذا إنما هو زيف ونفاق ومرض فى القلب.

[٢] الطمع فى العزة والمنحة بالرياسة والشرف ونحوه من قبل الكفار: يقول: ﴿يَشِرُّ الْمُنَافِقِينَ بِأَنْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْتَنُّونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ الآية

فالزيف والمرض وعدم اليقين فى وعد الله هو السبب فى جعل كثير من الناس مدهانين موالين للكافرين. ومنشأ المرض والنفاق من معاصى وذنوب وران على القلب وضعف

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٥٦).

(٢) الزخرف / (٢٦، ٢٧).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٣ / ٢٥٦ / ٩٨) عن أبى هريرة به.

(٤) أخرجه زواهد ابن ماجه (١١٦٦) عن عبدالله بن مسعود به.

فى الإيمان دفع كثير من الناس لهذه الموالاة التى نهى الله وبين أنها من صفات المنافقين حيث قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ فهو منافق يخادع الله بهذه الطريقة ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ والمنافق يوالى طمعاً فى العزة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأحياناً يطلبون مصلحة وعزة والرسول قال «من انتسب إلى تسع أجداد له فى الجاهلية يبتغى بذلك عزاً مازاده الله إلا ذلاً» (١) وفى الحديث المسند «وجعل الصغار والذلة على من خالف أمرى» (٢) فهو لو يعلم أن الذلة والصغار على المخالف وأن العزة فى طاعة الله ورسوله ما ابتغى العزة فى المداينة والمصانعة وموالاة الكافرين وماخالف أمر النبى فالسبب فى موالاة الكافرين إما عزة ومصلحة أو خوف ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ والاسباب على كثرتها مردها إلى هذين السببين طمع فى مصلحة أو خشية الدائرة.

فصل

فى حكم الموالاة وبصورتها

أحكام الموالاة للمشركين تارة تكون هذه الموالاة مكفرة إذا امتنعت موانع الكفر عمن فعلها، وتارة تكون كفر أصغر، أو كبيرة، وتارة تكون معصية، وتارة تكراه.

١ - الركون من الموالاة المكفرة عند انتفاء الموانع ففيها ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وفيها قصه حاطب بن أبى بلتعة المتقدمة فهذه موالاة ومودة لهم، كأن تكون عين وجاسوس للظلمة.

فهذا نوع موالاة الأصل فيه أنه مكفر.

والدليل فهم البخارى فى باب من كفر أخاه متأولاً وفيه أن عمر قال يارسول الله

(١) أخرجه أحمد فى المسند (١٣٤/٤٠) عن أبى ريحانه باختلاف فى آخر.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢ / ٥٠) عن ابن عمر به.

وانظر كتابنا «فقه الخطابة وزاد الخطيب» فى خطبة بذل المعزة فى أسباب العزة.

«دعنى أضرب عنق هذا المنافق»^(١) والرسول لم ينكر على عمر فى الحكم على حاطب بالنفاق الذى فهم البخارى أنه كفرٌ متأولاً لكن ما الذى منع الرسول من إمضاء الحكم عليه واستباحة دمه؟ .

الجواب: لقرائن تصرف هذه الفعلة من الكفر للكبيرة.

فما هى هذه القرائن؟ .

الجواب: إيدى حاطب البيضاء فى الإسلام؛ لانه بدرى ولأن هذه الفعله فلم تكن جريت عليه من قبل وغير ذلك، فالرسول قال لحاطب: «ما حملك على هذا» فقال : والله ما فعلته ردة ولا رضى بالكفر» إذن فالموالة للظلمة وللكافرين إن كانت رضى على منهجهم ومعتقدهم وعدم رضى بالاسلام والمسلمين وبمنهجهم فهذا كفر «إنما فعلتها ليكون لى يد عندهم» فقال الرسول «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» إلخ الحديث^(٢).

وأما الركون إليهم فقد قال الله تعالى ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَيَمْسَكُوا النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾^(٣).

قال القرطبى فى «تفسيره»: الركون حقيقته الاستناد، والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به.

قال قتادة :عناه: لاتوادوهم، ولاتطيعوهم. وقال ابن جريج: لاتميلوا إليهم . أهـ. ثم قال رحمه الله: وهذا هو الصحيح فى معنى الآية وأنها دالة على هجران أهل الكفر، والمعاصي، من أهل البدع، وغيرهم؛ فإن صحبتهم كفر، أو معصية، إذ الصحبة لاتكون إلا عن مودة، وقد قال حكيم:

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه . . . فكل قرين بالمقارن يقتدى . أهـ.

وقال تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾^(٤). إذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق ﷺ فكيف بغيره!!! .

٢ - التشبه من الموالة التى تتردد بين الكفر والكبيرة والمعصية: ومن صور الموالة التى

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) تقدم.

(٣) هود: (١١٣).

(٤) الإسراء: ٧٥.

لا يكفر صاحبها، بعض أنواع التشبه وعلى قدر التشبه يكون الحكم على صاحبه: فإذا تشبه فى أصل دينهم بمعنى هل لبس ثوب القسيس يكون تشبه مكفر؟ إذا كان هناك قرينه صارقة من الكفر لغيره مثل أن يقول لبست ثوب القسيس لأدخل الكنيسة وأعرف أخبارهم فنقول هذه قرينه صارقة لكن ظاهرها كفر.

إما إذا كان التشبه ليس فى أصل الدين ولا عَلمٌ عليهم: مثال الأخوة التى تلبس بنطلون وقميص الآن فهذا تشبه بهم لكن هذا التشبه غير مكفر لأن هذا اللباس ليس عَلماً عليهم الآن مثل ثوب القسيس. أما إذا فعلها (- أى لبست البنطال والقميص) لمصلحة شرعية فقد تجوز مع الكراهة وقد تجوز بغير كراهة وهذه الصورة أيضاً قد تدخل فى حد الموالاتة والقرب والمحبة «من تشبه بقوم فهو منهم»^(١).

والمسلم يتشبه بالرسول ﷺ فى هديه الظاهر والباطن، وكذا بصحابته رضوان الله عليهم وبما عليه جماعة المؤمنين، فأما التشبه بالكفار فى الظاهر أو الباطن: فمن أخطر الأمور على دين المرء.

فعلى هذا ينقسم التشبه: قسمين:

[القسم الأول]: تشبه يكفر صاحبه: وهو ما كان تشبهاً فى أصل الدين، ولا توجد قرينة لصرف هذا التشبه عن أصل دينهم.

[القسم الثانى]: تشبه لا يكفر صاحبه: وهو ما كان تشبهاً ليس فى أصل الدين ويدور هذا القسم بين الكفر الأصغر أو الكبيرة أو المعصية.

قال ابن تيمية رحمه الله فى «اقتضاء الصراط المستقيم»^(٢): «ثم جعل - أى الله تعالى - محمداً ﷺ على شريعة من الأمر، شرعها له، وأمره باتباعها، ونهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وقد دخل فى الذين لا يعلمون: كل من خالف شريعته. و«أهواءهم» هى: كل ما يهوونه، وما عليه المشركون من هديهم الظاهر - الذى هو من موجبات دينهم الباطل، وتوابع ذلك - فهم يهوونه. وموافقتهم فيه: اتباع لما يهوونه؛ ولهذا يفرح الكافرون بموافقة المسلمين فى بعض أمورهم، ويسرون به، ويودون أن لو بذلوا مالا عظيماً ليحصل ذلك.

ولو فرض أن ليس الفعل من اتباع أهوائهم، فلا ريب أن مخالفتهم فى ذلك أحسم لمادة متابعتهم فى أهوائهم، وأعون على حصول مرضاة الله فى تركها، وأن موافقتهم فى

(١) هو جزء من حديث: «بعثت بالسيف الذى تقدم قرياً.

(٢) (ص ١٤).

ذلك قد تكون ذريعة إلى موافقتهم فى غيره؛ فإن من حام حول الحمى أوشك أن يواقع». أهـ.

وقال رحمه الله: ^(١) تعليقاً على قول النبى ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم» ^(٢): «هذا الحديث أقل أحواله أنه يقتضى تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهرة: يقتضى كفر المتشبه بهم، كما فى قوله «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» ^(٣).

ثم قال رحمه الله: «فقد يحمل هذا على التشبه المطلق؛ فإنه يوجب الكفر، ويقتضى تحريم أبعاض ذلك. وقد يحمل على أنه صار منهم فى القدر المشترك الذى شابههم فيه؛ فإن كان كفراً، أو معصية، أو شعاراً للكفر» ^(٤) وللمعصية: كان حكمه كذلك. وبكل حال: فهو يقتضى تحريم التشبه بهم بعلّة كونه تشبهاً.

والتشبه: يعم من فعل الشئ لأجل أنهم فعلوه، وهونادر. ومن تبع غيره فى فعل لغرض له فى ذلك، إذا كان أصل الفعل مأخوذاً عن ذلك الغير.

فأما من فعل الشئ وافق أن الغير فعله أيضاً، ولم يأخذه أحدهما عن صاحبه، ففى كون هذا تشبهاً نظر. لكن قد ينهى عن هذا، لثلا يكون ذريعة إلى التشبه، ولما فيه من المخالفة، كما أمر بصيغ اللحي، وإعفائها، وإحفاء الشوارب، مع أن قوله ﷺ: «غَيِّرُوا الشَّيْبَ وَلَا تَشْبَهُوا بِالْيَهُودِ» ^(٥) دليل على أن التشبه بهم يحصل بغير قصد منا، ولا فعل، بل بمجرد ترك تغيير ما خلق فينا. وهذا أبلغ من الموافقة الفعلية الاتفاقية» أهـ.

- قنجل فى أقسام التشبه ومقامه -

وقال رحمه الله بعد ذلك ^(٦): اعلم أن أعمالهم ثلاثة أقسام:

- قسم مشروع فى ديننا، مع كونه كان مشروعاً لهم، أو لا نعلم أنه كان مشروعاً لهم، لكنهم يفعلونه الآن.

(١) المصدر السابق.

(٢) تقدم

(٣) المائة/ (٥١).

(٤) ومن هذا لبس الزنار والصليب. قال النووى فى «روضة الطالبين» ولو شد الزنار على وسطه كفر، واختلفوا فيما وضع قلنسوة المجوس على رأسه، والصحيح: أنه يكفر. أهـ.

(٥) أخرجه الترمذى (١٧٥٢) عن أبى هريرة وأصله فى الصحيحين بلفظ «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم».

(٦) (ص ١٧٨ - ١٨٠)

● وقسم كان مشروعاً، ثم نسخه شرع القرآن.

● وقسم لم يكن مشروعاً بحال، وإنماهم أحدثوه.

وهذه الأقسام الثلاثة، إما أن تكون فى العبادات المحضة، وإما أن تكون فى العادات المحضة - وهى الآداب، وإما أن تجمع العبادات، والعادات، فهذه تسعة أقسام.

● فأما القسم الأول: وهو ما كان مشروعاً فى الشريعتين، أو ما كان مشروعاً لنا، وهم يفعلونه: فهذا كصوم عاشوراء، أو كأصل الصلاة والصيام، فهنا تقع المخالفة فى صفة ذلك العمل، كما سن لنا صوم تاسوعاء وعاشوراء^(١)، كما أمرنا بتعجيل الفطر مخالفة لأهل الكتاب^(٢)، وتأخير السحور: مخالفة لأهل الكتاب^(٣)، وكما أمرنا بالصلاة فى النعلين^(٤): مخالفة لليهود، وهذا كثير فى العبادات، وكذلك فى العادات.

قال رسول الله ﷺ: «اللحد لنا والشق لغيرنا»^(٥).

وسن توجه قبور المسلمين إلى الكعبة: تمييزاً لها عن مقابر الكافرين، فإن أصل الدفن من الأمور المشروعة فى الأمور العادية ثم قد اختلفت الشرائع فى صفته، وهو أيضاً فى عبادات.

ولباس النعل فى الصلاة فيه عبادة وعادة، ونزع النعل فى الصلاة شريعة، كانت لموسى عليه السلام، وكذلك اعتزال الخائض، ونحو ذلك من الشرائع - التى جامعناهم فى أصلها، وخالفناهم فى وصفها.

● القسم الثانى: ما كان مشروعاً ثم نسخ بالكلية: كالسبت، أو إيجاب صلاة، أو صوم، ولا يخفى أن النهى عن موافقتهم فى هذا أبلغ، سواء كان واجباً عليهم، فيكون عبادة، أو محرماً عليهم، فيتعلق بالعبادات، فليس للرجل أن يمتنع من أكل اللحوم لكل ذى ظفر على وجه التدين بذلك.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصيام (٨ / ٩ - النووى) عن ابن عباس به.

وانظر «السلسلة» (١١٤٨ - بتخريجنا).

(٢) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢ / ٤٥٠)، وأبو داود فى الصوم/ باب ما يستحب من تعجيل الفطر (٢/ ٣١٥ / ٢٣٥٣) وابن حبان فى صحيحه (٥ / ٢٠٧) وابن خزيمة (٣ / ٢٧٥ / ٢٠٦٠) وانظر السلسلة (١١٢٤ - بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصيام (٤ / ٢٢١ / ٤٦) عن عمرو بن العاص بلفظ «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر».

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٨٦)، ومسلم فى المساجد (٢ / ٤٧ / ٦٠) عن أنس.

(٥) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤ / ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٣)، وأبو داود (٨ / ٣٢٠)، والترمذى

(٤٥ - ١)، والنسائى (٢١٣٦)، وابن ماجه (١٥٥٤) عن ابن عباس به.

وانظر «السلسلة» (٩٢٢ - بتخريجنا).

وكذلك ماكان مركباً منهما، وهى الأعياد التى كانت مشروعة لهم، فإن العيد المشروع يجمع عبادة، وهوما فيه من صلاة، أو ذكر، أو صدقة، أو نسك، ويجمع عادة، وهو مايفعل فيه من التوسعة فى الطعام، واللباس، ومايتبع ذلك من ترك الأعمال الواجبه، واللعب المأذون فيه فى الأعياد لمن يستفح باللعب، ونحو ذلك، ولهذا قال النبى ﷺ لما زجر أبو بكر رضى الله عنه الجاريتين عن الغناء فى بيته قال: «يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا» (١). وكان الحبشة يلعبون بالحراپ يوم العيد والنبى ﷺ ينظر إليهم.

فالأعياد المشروعة يشرع فيها، وجوباً، أو استحباباً من العبادات مالا يشرع فى غيرها، ويباح فيها، أو يستحب، أو يجب من العادات التى للنفوس فيها حظ، مالا يكون فى غيرها كذلك، ولهذا وجب فطر يوم العيد، وقرن بالصلاة فى أحدهما الصدقة، وقرن بها فى الآخر الذبح، وكلاهما من أسباب الطعام.

فموافقتهم فى هذا القسم المنسوخ من العبادات، أو العادات، أو كليهما أقبح من موافقتهم فيما هو مشروع الأصل؛ ولهذا كانت الموافقة فى هذا محرمة؛ وفى الأول قد لا تكون إلا مكروهة.

● وأما القسم الثالث: وهو ماأحدثوه من العبادات، أو العادات، أو كليهما - فهو أقبح، وأقبح، فإنه لو أحدثه المسلمون قد يكون قبيحاً، فكيف إذا كان مالم يشرعه نبى قط؟ بل قد أحدثه الكافرون، فالموافقة فيه ظاهرة القبح . أهـ.

ومن أخطر مظاهر التشبه: التشبه بهم فى أعيادهم، قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل قد أبدلكم بهما خيراً منهما: يوم الأضحى، ويوم الفطر» (٢). وقال مجاهد والربيع بن أنس والضحاك فى قوله تعالى: «وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ» (٣). قالوا: أعياد المشركين (٤).

وقال عمر رضى الله عنه: «لاتعلموا رطانة الأعاجم، ولاتدخلوا على المشركين كنائسهم، يوم عيدهم، فإن السخطة تنزل عليهم» (٥).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩٥٢)، ومسلم فى العيدين (١٦/٤٥٠/٣) عن عائشة به.
(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٠٣/٣)، وأبو داود (١١٣٤)، والنسائى (١٧٩/٣) - السيوطى) عن أنس به.

وانظر كتابى «فقه الخطابه» وخطبة شم النسيم.

(٣) الفرقان/ (٧٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/٣٩٩).

(٥) أخرجه البيهقى (٩/٢٣٤)، وصحح إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية.

انظر كتابى «فقه الخطابة» خطبة شم النسيم.

٣- النصره

تقدم ما ورد فى لسان العرب أن من معانى الولى : الناصر.
ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ (١).
أي: لا ناصر لهم، والموالاة والمحابة والنصرة واجبة على كل مسلم لإخوانه فى الدين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ (٢) وقال النبى ﷺ:
«انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره» (٣).
ومن أخطر صور موالاة الكافرين: نصرهم على المؤمنين، بل ذلك الفعل يوجب لصاحبه النار، وينطبق عليه بسبب فعله ذلك أحكام المشركين، مهما زعم الإيمان بكلامه، أو اعتذر بمعذرتة، قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ (٤).
قال ابن جرير رحمه الله فى «التفسير» (٥): «هذا نهى من الله عز وجل للمؤمنين أن يتخذوا الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً...»
قال: «ومعنى ذلك لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهوراً، وأنصاراً، توالونهم على دينهم، وتظاهرونها على المسلمين من دون المؤمنين، ومن فعل ذلك فقد برئ من الله، وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه، ودخوله فى الكفر» اهـ.
وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٦).
قال ابن كثير - رحمه الله - فى «تفسيره» (٧): ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: بترك الهجرة، وقال: هذه الآية الكريمة عامة فى كل من أقام بين ظهرانى المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكباً حراماً بالإجماع، وبنص هذه الآية.

(١) محمد/ ١١. (٢) الأنفال/ ٧٢.

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٩٥٢) وانظر «رياض الصالحين» (٢٣٩) - بتخريجنا

(٤) آل عمران / (٢٨). (٥) تفسير ابن جرير

(٦) النساء / (٩٧). (٧) (١) / (٥٤٣).

وعن ابن عباس - رضى الله عنه - أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثر
سواد المشركين على أمر رسول الله ﷺ يأتي السهم فيرمى أحدهم فيقتله أو يضرب
عنقه، فيقتل فانزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ (١).

وروى ابن جرير بسنده عن عكرمة في هذه الآية قال: «نزلت في قيس بن الفاكه بن
المغيرة والحارث بن زمعة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبى العاصي بن
منبه بن الحجاج، وعلى بن أمية بن خلف، قال: لما خرج المشركون من قريش،
وأتباعهم لمنع أبى سفيان بن حرب، وعير قريش من رسول الله وأصحابه، وأن يطلبوا
ما نيل منهم يوم «نخلة»، خرجوا معهم بشباب كارهين، كانوا قد أسلموا، واجتمعوا
بيدر على غير موعد، فقتلوا بيدر كفاراً، ورجعوا عن الإسلام، وهم هؤلاء الذين
سميهم» (٢).

وعن السدى في الآية قال: «لما أسر العباس، وعقيل، ونوفل قال رسول الله ﷺ:
«أفد نفسك، وابن أخيك، فقال: يا رسول الله، ألم نصل إلى قبلك ونشهد شهادتك؟
قال: يا عباس إنكم خاصمتم فخصمتكم، ثم تلا عليه هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ
وَأَسِعَةً فَتَهَاجَرُوا فِيهَا﴾ (٣)(٤).

فوضح بما ذكرنا حكم من زعم الإسلام ثم خرج في صفوف الكافرين مقاتلاً
للمسلمين فحكم المشركين يجرى عليه في جميع هذه الأحوال، وهكذا عامل الرسول
ﷺ، والمسلمون من خرج في بدر، ولو كانوا كارهين، وإنما آثروا مرضاة آبائهم،
وأهلهم على الإسلام، والإيمان بالرسول ﷺ، ولا يصلح مثل هذا إكراهاً ليعذر
صاحبه (٥)، والظاهر في سياق الآية، وما ذكرنا من الآثار في سبب النزول: أن حكم
الكفر ينطبق عليهم في الآخرة أيضاً، لأن الله قد حكم أن لهم جهنم، وساءت مصيراً،
ولم يدل على خروجهم منها، بل وفي بعض الروايات عن ابن عباس: «فقال المسلمون:
كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكروهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٥٩٦)، وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٤٨/٥) وذكره السيوطى فى «الدر» (٣٦٥/٢) وزاد نسبته لعبد بن حميد،
وابن أبى حاتم. وانظر الأخير بتخريجنا.

(٣) النساء/ (٩٧).

(٤) انظر ابن جرير المصدر السابق، وذكره السيوطى فى «الدر» (٣٦٦/٢٠)، وزاد نسبته لابن أبى حاتم
فانظره بتخريجنا.

(٥) الكلام على شروط الإكراه.

الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ»^(١)، فدل عدم الاستغفار لهم على كونهم ماتوا على الكفر بسبب هذه الموالاة الشركية لأهل الشرك، ولو كانوا آبائهم أو أهلهم.

ويؤيد ذلك ما رواه ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْذُوا مِنْ أَصْلِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾^(٢). قال: «ذلك أن قومًا كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام، وكانوا يظاهرون المشركين، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم، فقالوا: إن لقينا أصحاب محمد ﷺ فليس علينا منهم بأس، وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة، قالت فئة من المؤمنين: اركبوا إلى الحبشة فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم، وقالت فئة أخرى من المؤمنين: سبحان الله - أو كما قالوا: أقتلوا قومًا قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا، وتركوا ديارهم، نستحل دماءهم، وأموالهم لذلك؟ فكانوا فتيين، والرسول ﷺ عندهم لا ينهى واحدًا من الفريقين عن شيء، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ الآية^(٣).

والشاهد منها قول المؤمنين: «فاقتلوهم فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم» ونزلت الآيات بموافقة هذه الطائفة من المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(٤).

قال السدي: إذا أظهروا كفرهم، فاقتلوهم حيث وجدتموهم^(٥).

وهذا أقرب ما قيل فى تفسير الآية موافقًا لسياقها كما قال ابن جرير بعد ذكر الاختلاف فيمن هم المقصودون بهذه الآية.

والقول الآخر أنها نزلت فى عبد الله بن أبى سلول، وأصحابه - الذين تخلفوا عن

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» وابن أبى حاتم وذكره السيوطى فى «الدر» (٣٦٥/٢) وزاد نسبه لابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقى فى «السنن» وانظر «فتح القدير» بتخريجنا، وكذا تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا أيضاً.

(٢) النساء/ (٨٨).

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٢٢/٥) وابن أبى حاتم فى «تفسيره» عن ابن عباس بإسناد ضعيف.

(٤) النساء/ (٨٩).

(٥) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٢٤/٥).

رسول الله في غزوة أحد، والسياق يدل على بعده، كما ذكر ابن جرير والقرطبي وأبو السعود وغيرهم، وأولى هذه الأقوال بالصواب: قول من قال: نزلت هذه الآية في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في قوم كانوا ارتدوا عن الإسلام بعد إسلامهم من أهل مكة.

وفي قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ أوضح الدليل على أنهم كانوا من غير أهل المدينة. أ.هـ (١).

قال صاحب «فضل الغنى الحميد»: وأما تسميتهم منافقين مع التصريح بكفرهم، فإما باعتبار حالهم السابق - كما ذكره أبو السعود في «تفسيره» - وإما باعتبار تكلمهم بالإسلام، مع استمرارهم على ما يناقضه من موالاته الكفار بنصرتهم، ومظاهرتهم على المسلمين - وقد ذكرنا الأثر في ذلك - والمنافق إذا أظهر كفره، وجب قتله، وإن ظل ينتسب إلى الإسلام.

وهذا الأمر بقتل المنافقين - إذا أظهروا نفاقهم - معلق على المصلحة في قتله، أو المفسدة، فقد ترك رسول الله ﷺ قتل من علم نفاقه قطعاً منهم، وهو الذي قال له: اعدل (٢). لوجود مفسدة أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، في حين أمر بقتل الخوارج حين يخرجون (٣)، لظهور مفسدة تركهم حينئذ، بسفك الدم الحرام، وانتهاك الحرمات، وانتفاء مفسدة قتلهم، بانتشار الإسلام، وتأسس قواعده، وهذا ما فعله الخليفة الراشد على بن أبي طالب رضي الله عنه (٤)، وقد أمر الله بجهاد المنافقين مع الكفار، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (٥).

ورجح ابن جرير إن قتالهم بالسيف إذا أظهروا نفاقهم، ومثله قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا﴾ (٦).

(١) «تفسير ابن كثير» (٥٣٣/١).

(٢) [متفق عليه] رواه البخاري (٣١٣٨)، ومسلم (١٠٦٣)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، بلفظ «لقد شقيت إن لم أعدل».

(٣) [صحيح] رواه مسلم (١٠٦٤)، وأبو داود (٤٦٦٧)، وأحمد (٣٢/٣)، من حديث أبي سعيد، رضي الله عنه بلفظ: «تمرق مارقة عند فرقة المسلمين» - الحديث.

(٤) [صحيح] رواه البخاري (٦٩٣٢)، وأبو داود (٤٣٥١)، والترمذي (١٤٥٨)، والنسائي (١٧٠/٢)، (٢٨٢/١).

(٦) الأحزاب / (٦٠ - ٦١).

(٥) التحريم / (٩).

وعن قتادة قال: إذا هم أظهروا النفاق، فبناء الأمر في قتال المنافقين على المصلحة والمفسدة في ذلك، والله تعالى أعلم.

ولو كان هؤلاء المنافقون قد صرحوا بعدم انتسابهم للإسلام، لما كان هناك معنى لاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فيهم، حتى ينزل القرآن يبين صحة نفاق الذين اختلف المؤمنون في أمرهم، ويحذر من دافع عنهم من الدفاع عنهم.

قال ابن حزم رحمه الله في «المحلى»^(١): «من لحق بدار الكفر، والحرب مختاراً لمن يليه من المسلمين، فهو بهذا الفعل مرتد، له أحكام المرتد كلها - من وجوب القتل عليه متى قدر عليه، وإباحة ماله، وانفساخ نكاحه، وغير ذلك».

وقال أيضاً: «وكذلك من سكن بأرض الهند، والسند، والصين، والترك، والسودان، والروم من المسلمين، فإن كان لا يقدر على الخروج من هناك، لثقل ظهر، أو لقلّة مال، أو لضعف جسم، أو لامتناع طريق، فهو معذور، فإن كان هناك محارباً للمسلمين، معيّنًا للكفار بخدمة أو كتابة، فهو كافر، وإن كان إنما يقيم هنالك لدنيا يصيبها، وهو كالذمي لهم، وهو قادر على اللحاق بجمهرة المسلمين، وأرضهم، فما يبعد عن الكفر، وما نرى له عذراً، ونسأل الله العافية».

قال: «وليس كذلك من سكن في طاعة أهل الكفر من الغالية»^(٢)، ومن جرى مجراهم، كأهل مصر، والقيروان، وغيرهم، فالإسلام هو الظاهر، وولاتهم على ذلك، لا يجاهرون بالبراءة من الإسلام، بل إلى الإسلام ينتسبون، وإن كانوا في حقيقة أمرهم كفاراً»^(٣).

وقال أيضاً: وأما من سكن في بلد تظهر فيه بعض الأهواء المخرجة إلى الكفر، فهو ليس بكافر، لأن اسم الإسلام هو الظاهر هنالك على كل حال من التوحيد، والإقرار برسالة محمد ﷺ، والبراءة من كل دين غير الإسلام، وإقامة الصلاة، وصيام رمضان، وسائر الشرائع - التي هي الإسلام، والإيمان، والحمد لله رب العالمين».

قال محمد بن عبد الوهاب - لما ذكر الأنواع التي يكفر بها الرجل - قال: «النوع

(١) (١١ / ١٩٩).

(٢) يقصد غلاة الشيعة، كالفاطميين الذين كانوا يحكمون مصر، والقيروان، وسائر أفريقيا، بل والخرمين، وغير ذلك قاله صاحب «فضل الغنى الحميد».

(٣) لابد من التنبيه لهذا الفرق المهم بين طاعة من يصرحون بالكفر، وبين طاعة من ينتسبون إلى الإسلام، وهم في حقيقة أمرهم كفار، فأمر الطائفة الأخيرة يحتاج إلى نظر، واجتهاد، وليس معلوماً قطعاً من الدين كالأولين، وموالاتهم، وطاعتهم، وإن كانت محرمة إلا أنها ليست عن الملة، مراعاة لهذا الفارق المهم، ما لم يعلم كفرهم، فتنبه قاله صاحب «فضل الغنى الحميد».

الرابع: من سلم من هذا كله، ولكن أهل بلده يصرون على عداوة التوحيد، وأهله واتباع أهل الشرك، وهو يعتذر إن ترك وطنه، يشق عليه، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده، ويجاهد بماله ونفسه، فهذا أيضاً كافر، فإنه لو يأمرونه بتزوج امرأة أبيه، ولا يمكنه ترك ذلك، إلا بمخالفتهم فعل.

وموافقته لهم مع الجهاد معهم بنفسه وماله، مع أنهم يريدون بذلك قطع دين الله ورسوله أكبر من ذلك بكثير، فهو أيضاً كافر، وهو ممن قال الله فيهم: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوا كُفْرَكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخَذَوْهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (١). اهـ (٢).

قال صاحب «فضل الغنى الحميد». ومما تقدم من الأدلة، وأقوال العلماء، تعرف حكم من يخرج في جيوش الكافرين، المعلنين كفرهم، في قتال المسلمين، لأجل إسلامهم، كالشيعوعيين الملحددين، ونحوهم وما يجب على المسلمين أن يعاملوهم به، وبالله التوفيق، ولا بد لنا من التنبيه هنا على أن النصرة الواجبة للمؤمنين، إنما تجب في الدين، كما أمر الله بها: ﴿وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾.

وأما إن كانت انتصاراً لعصبية، أو قومية، أو وطنية دون معرفة الحق من الباطل وإنما هي الطاعة العمياء لمن يرفع رايات الجاهلية، فهذه هي التي قال فيها النبي ﷺ: «من قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبية، أو يدعو إلى عصبية، أو ينصر عصبية فقتل، فقتلته جاهلية» (٣).

وقال ﷺ: «والذي نفسى بيده لياتين على الناس زمان، لا يدري القاتل في أى شيء قتل، ولا يدري المقتول في أى شيء قتل» (٤).

وعن أبى بكره رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»، فقلت: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» (٥).

(١) النساء / (٩١).

(٢) الدفاع لابن عتيق ص: (١٠-١٢) نقلاً عن «الولاء والبراء» ص: (٢٧٤).

(٣) أخرجه مسلم في الإمامة (٦/ ٤٨٠/ ٥٧) عن جندب بن عبد الله.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم في الفتن (٩/ ٢٦٢/ ٥٥) عن أبى هريرة به.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣١) ومسلم في الفتن (١٨/ ١٠ - النووى).

وانظر «رياض الصالحين» (١٠ - بتخريجنا).

٤ - الطاعة والمتابعة

تقدم ما فى «لسان العرب»: المولى : المتابع، وولى فلان فلاناً، إذا تابعه، والمؤمن: ولى الله فى حق المطيع كما فى «المصباح» فالطاعة، والمتابعة، من أهم معانى الموالاة، التى يجب على المسلم أن يعلم لمن تكون.

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بطاعته سبحانه، وطاعة رسوله ﷺ، وأولى الأمر منهم، وهم العلماء والأمراء الذين يقودونهم بكتاب الله، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(١) وطاعة أولى الأمر مقيدة، بأن لا يأمرُوا بمعصية، فإن أمرُوا بمعصية، فلا سمع ولا طاعة، كما استفاضت الأحاديث، «إنما الطاعة فى المعروف»^(٢) وأمرنا سبحانه باتباع ما أنزله، فقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(٣) وهو قد أنزل الكتاب والحكمة: القرآن والسنة، وأوجب أيضاً اتباع سبيل المؤمنين، ومنهجهم فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٤) ولذا كان من أهم مميزات أهل السنة اتباعهم لسلف الأمة من الصحابة فمن بعدهم من الأئمة، لأن هذا المعنى من أسس الموالاة الإيمانية التى تجمعهم، فبهذا تعلم لمن تكون الطاعة، ولمن يكون الاتباع، ومن تتلقى الأوامر، وبأى مقياس توزن، فَمَا أنزله الله فى كتابه، وما صح عن رسوله ﷺ، وما أجمع عليه السلف، هو ذلك الميزان الحق، الذى لا يخطئ من اتبعه وأطاعه.

قال ابن كثير فى «تفسيره»^(٥): ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾^(٦). أي: اتبعوا كتابه وخذوا سنته ﴿وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٧) أي: فيما أمروكم به من طاعة الله، لا فى معصية الله، اهـ.

وقال أيضاً: والظاهر أنها عامة فى كل أولى الأمر من الأمراء والعلماء.
وأما طاعة الكافرين والمنافقين، ومتابعتهم على الكفر، والضلال، والمعاصي، فهذه

(١) النساء / (٥٩).

(٢) [متفق عليه] رواه البخارى (٧١٤٥)، ومسلم فى الإمامة (٦/ ٤٦٧/ ٣٩) عن على به

(٣) الأعراف / ٣.

(٤) النساء / ١١٥.

(٥) (١/ ٥١٨).

(٦) (٧، ٦) النساء / ٥٩.

موالاة لهم، حذرنا الله منها، فقال مبيّناً عقوبة من يطيعهم فى بعض الأمر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (١).

إذا كان هذا حال من يطيعهم فى بعض الأمر فكيف بمن يكون طوع أمرهم ورهن إشارتهم؟!، نعوذ بالله من الخذلان.

وقال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ والخطاب لأمته: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ (٢).
الآثم: هو الفاجر فى أفعاله، والكفور: هو الكافر قلبه.

وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (٣).

قال ابن كثير: هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى: إذا كان يأمر عبده، ورسوله بهذا، فلأن يأمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى. أ. هـ.

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤) وبين عاقبة من يتبع أهل الكتاب، وأنهم لا يرضون إلا بالكفر الصراح: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٥)، وقال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، والآيات فى هذا كثيرة، معلومة فى كتاب الله، والأحاديث فى التحذير من متابعة أهل الكتاب متواترة فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه قلنا: يا رسول الله ﷺ اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» (٦).

(١) محمد / (٢٥ - ٢٨).

(٢) الإنسان / (٢٤).

(٣) الأحزاب / (١ - ٢).

(٤) الجاثية / (١٨).

(٥) البقرة / (١٢٠).

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٤٥٦)، ومسلم فى العلم (٦/٤٧٢). عن أبى سعيد به .

وقد وقع في زماننا تحقيق خبر النبي ﷺ أصبحنا لا نرى عجباً أن نسمع ونقرأ من يدعو لطاعة أهل الكفر شرقاً وغرباً، ويزين للمسلمين اتباعهم في القليل والكثير، والكفر والفسوق والعصيان، والمظهر والجوهر، ويصرح أن لا تقدم للعرب وللمسلمين، إلا بأخذ ما هم عليه كله، لا يُترك منه شيء فصدق الصادق المصدوق ﷺ واعلم أن طاعتهم في الكفر كفر، وفي المعصية معصية، مع اعتقاد أنها معصية، وذنب.

قال ابن تيمية رحمه الله^(١): «هؤلاء الذين اتخذوا أجبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله، فيتبعوهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعهم لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله، مشركاً مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحليل الحرام، وتحريم الحلال ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما قال النبي ﷺ: «إنما الطاعة في المعروف»^(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^(٣)، وقال ﷺ: «لا طاعة لأحد في معصية الله عز وجل»^(٤) وقال ﷺ: «من أمركم بمعصية فلا تطيعوه»^(٥).

ثم ذلك المحرم للحلال، أو المحلل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول ﷺ، لكن خفى عليه الحق في نفس الأمر، وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذ الله بخطئه، بل يشبهه على اجتاده الذي أطاع به ربه، ولكن من علم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول، ثم اتبعه على خطئه، وعدل عن قول الرسول ﷺ، فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لا سيما إن تبع في ذلك هواه، ونصره باللسان واليد، مع علمه

(٢) سبق تخريجه.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٠).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم في الإمارة (٦/ ٤٦٦/ ٣٨) عن ابن عمر به.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٦/ ٥) عن حكم بن عمرو به.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٧/ ٣)، وابن ماجه (٢٨٦٣) عن أبي سعيد به.

بأنه مخالف للرسول، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز تقليد أحد في خلافه. اهـ.

قال صاحب «فضل الغنى الحميد»: واعلم أن من أخطر مظاهر الطاعة والمتابعة أن ينخرط الإنسان تحت رياستهم في الأحزاب العلمانية، أو الإلحادية، كالشيوعية، والاشتراكية، والقومية الماسونية، ويذل لها الولاء، والحب والنصرة.

وكيف يتسنى لمسلم يفهم قضية الولاء والبراء أن يرضى باتباع الكفار والمنافقين، مع تصريحهم في أحزابهم، وهيئاتهم، بأنها لا تقوم على أساس الدين، ولا تفرق بين الناس على أساس الدين، وأن المساواة بين الأديان شرط، والمساواة بين أصحابها أيضاً في مشروعة قيامها أصلاً، ويمنعون في الغي، والضلال، حين يرفعون شعارات تدل على وحدة الكفر، والإيمان، تحت راية حزبيهم، ويفتخرون بهذا الحزبي والخذلان؟! والعياذ بالله.

أفريضى مسلم غير على إسلامه أن يقف تحت هذه الراية، التي مزقت من أجلها عقيدة التوحيد، والإيمان بمثلة في قضية الولاء والبراء، والحب والبغض؟! أفيقبل تحت أى ظرف من الظروف، ولأى مصلحة يظنها من المصالح، أن يقول لأمثال هؤلاء: أنا منكم وأنتم مني، بدلاً من: إني بريء مما تعملون، ويتوكل على العزيز الرحيم كما أمر الله تعالى؟!!

وهل هان عليه إسلامه لدرجة أن يرضى أن يقدم قرباناً لأوثانهم المعاصرة رايته الإسلامية وانتسابه للإسلام؟!.

فعندهم لا يجوز ولا يمر إلى مجالسهم وهيئاتهم إلا أن يتخلى عن رايته الإسلامية، ويرفع أخرى- أيا ما كانت يساراً أو يميناً أو وسطاً - إلا راية الإسلام، اللهم إنا نبرأ إليك من هذا كله.

قال الشنقيطي رحمه الله في «أضواء البيان»^(١): «ومن هدى القرآن للتي هي أقوم هديه إلى أن الرابطة التي يجب أن يعتقد أنها هي التي تربط بين أفراد المجتمع، وأن ينادى بالارتباط بها دون غيرها، إنما هي دين الإسلام، لأنه هو الذى يربط بين أفراد المجتمع حتى يصير بقسوة تلك الرابطة جميع المجتمع

(١) (٤٠١/٣).

الإسلامى كأنه جسد واحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». أ.هـ.

والى من يظنون أن المصلحة فى التدسس فى صفوف الجاهلية بأحزابها وهياكلها: التى تقوم على المبادئ المخالفة لدين الله - نسوق هذه العبارة من «ظلال القرآن»^(١) يقول: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»^(٢) لا ظاهر الشرك ولا خافيه، هذه طريقى فمن شاء ليتابع، ومن شاء فأنا سائر فى طريقى المستقيم.

وأصحاب الدعوة إلى الله لا بد لهم من هذا التمييز، لا بد لهم أن يعلنوا أنهم أمة وحدهم، يفترون عن لا يعتقد عقيدتهم، ولا يسلك مسلكهم، ولا يدين لقيادتهم، ويتميزون ولا يختلطون، ولا يكفى أن يدعوا أصحاب هذا الدين إلى دينهم، وهم متميعون فى المجتمع الجاهلي، فهذه الدعوة لا تؤدى شيئاً ذا قيمة إنه لا بد لهم منذ اليوم الأول أن يعلنوا أنهم شيء آخر غير الجاهلية، وأنهم يتميزون بتجمع خاص أصرته: العقيدة المتميزة، وعنوانه: القيادة الإسلامية، لا بد لهم أن يميزوا أنفسهم من المجتمع الجاهلي، وأن يميزوا قيادتهم من قيادة المجتمع الجاهلي أيضاً.

إن اندفاعهم، وتميعهم فى المجتمع الجاهلي، وبقاءهم فى ظل القيادة الجاهلية^(٣)، يذهب بكل السلطان الذى تحمله عقيدتهم، وبكل الأثر الذى يمكن أن تنشئه دعوتهم، وبكل الجاذبية التى يمكن أن تكون للدعوة الجديدة.

وهذه الحقيقة لم يكن مجالها فقط هو الدعوة النبوية فى أوساط المشركين، إن

(١) (٤/٢٠٣٤).

(٢) يوسف/ ١٠٨.

(٣) «تنبيه» لفظ الجاهلية قد ورد فى الكتاب والسنة لبيان ما كان عليه أهل الكفر والشرك من الجهل والضلال، وكثيراً ما استعمله الصحابة فى وصف مرحلة زمنية فى حياتهم قبل إسلامهم، وهو على هذا يشمل ما كان كفراً وما كان معصية، فمن الكفر:

ظن الجاهلية - وهو عقائدهم الكفرية من سوء الظن بالله ووحدياته وأسمائه وصفاته..

وحكم الجاهلية - وهو تشريعاتهم الباطلة التى اخترعوها من غير مستند من شريعة الله.

وحمية الجاهلية - وهى إياؤهم ورفضهم الحق الذى جاء به الرسول ﷺ موالاة لأبائهم وأجدادهم ومن العصبة قول النبي ﷺ لأبى ذر رضى الله عنه: «إنك امرؤ فيك جاهلية» رواه البخارى ومسلم، الحديث=

مجالها هو مجال هذه الدعوة، كلما عادت الجاهلية فغلبت على حياة الناس، وجاهلية القرن العشرين لا تختلف فى مقوماتها الأصلية، وفى ملامحها المميزة، عن كل جاهلية أخرى واجهتها الدعوة الإسلامية على مدار التاريخ.

والذين يظنون أنهم يصلون إلى شيء عن طريق التميع فى المجتمع الجاهلي، والأوضاع الجاهلية، والتدسس الناعم من خلال تلك المجتمعات، ومن خلال هذه الأوضاع، بالدعوة إلى الإسلام، هؤلاء لا يدركون طبيعة هذه العقيدة، ولا كيف ينبغى أن تطرق القلوب. إن أصحاب المذاهب الإلحادية أنفسهم يكشفون عن عنوانهم وواجهتهم، أفلا يعلن أصحاب الدعوة الإسلامية عن عنوانهم الخاص؟! وطريقهم الخاص؟! وسبيلهم التى تفرق تمامًا عن سبيل الجاهلية؟! اهـ.

قال صاحب «فضل الغنى الحميد» فنقول لهؤلاء الواهمين: إن مشروعية الوسيلة، كمشروعية الغاية، سواء بسواء فى المنهج الربانى الذى قال الله عز وجل لنبيه ﷺ مبيّنًا له: ﴿اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾^(١)، وبين أنه هو العليم بعواقب الأمور، وحقائق الأشياء، الحكيم الذى لا يشرع، ولا يقدر شيئًا عبثًا بغير حكمة، ومنها هذا الأمر، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٣). فاتباع الوحي لا اتباع الهوى، وأهواء أهل الزيغ والضلال، حين يأخذون الناس معهم تارة يمينًا، وتارة يسارًا، ومرة شرقًا، ومرة غربًا، وتارة اشتراكية، وأخرى ديمقراطية، أفنسير معهم فى كل مرة، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٤).

فلسنا بالأسباب نتصر، ولا بالقوة والعدد، والعتاد، وإن كان الواجب: إعداد ما استطعنا منها، طالما كان سببًا مشروعًا، وإنما نتصر بالتوكل على الله فى دفع أذاهم، برد فتنهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا بد هنا من وقفة على أن الإجابة إلى الحق

= أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه مرفوعًا: «أربع من أمى من أمور الجاهلية لا يتركونها» - الحديث رواه مسلم، ومنه ربا الجاهلية - إلا أن يستحله أحد - وكذا تبرج الجاهلية، والله أعلم.

وما نقلناه عن صاحب الظلال قصدنا منه إثبات بطلان المداينة فى أمور الدعوة ووسائلها، وجوب تميز الدعاة فى سلوكهم ومنهجهم عن أهل الباطل كلهم من أهل الشرك والنفاق، أو من أهل البدع والضلال، ولا يلزم منه الحكم بالكفر أو الشرك الأكبر على كل ما وصف بأنه «جاهلي».

(١) الأحزاب / (١). (٢ - ٤) الأحزاب / (١، ٢، ٣).

ليست الموالاة للكافرين فى شيء، وليست متابعة لهم، ولا طاعة، بل هى متابعة للحق، وطاعة لله .

قال الإمام ابن القيم - فى عرضه لفوائد غزوة الحديبية- فى «زاد المعاد»^(١): «إن المشركين، وأهل البدع، والفجور، والبغاة، والظلمة، إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمات الله تعالى، أجيئوا إليه، وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره، فيعاونون على تعظيم ما فيه من حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم ويمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله، مُرضٍ له، أُجيب إلى ذلك- كائناً من كان- ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب، مبعوض لله أعظم منه، وهذا من أدق المواضع، وأشقها على النفوس». اهـ.

٥ - المعاونة والقيام بالأمر والنهي

قال صا حب «فضل الغنى الحميد» من معانى الموالاة كما سبق القيام بالأمر، فولى الأمر هو الذى يتولى أمر غيره بالصلاح ويعاونه فى قضاء حاجته ومصالحه، وينصح له، وهذا المعنى يجب أن يكون للمؤمنين. قال النبى ﷺ: «الدين النصيحة» قيل لمن؟ قال: «لله ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»^(٢)، وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(٣).

ومن موالاة الكافرين معاونتهم على ظلمهم ونصرتهم على باطلهم، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٤) وفى حديث جرير رضى الله عنه: «وتنصح المسلم وتبرأ من المشرك»^(٥) وقد جعل الله مصير امرأة نوح وامرأة لوط مصير قومهما لأجل معاونتتهما لقومهما ورضاهما بما هم عليه. قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا

(١) (١٢/٢).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٣٦/٢) عن تميم الدارى .

وانظر «رياض الصالحين» (١٨١٥) - بتخريجنا).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٠٢٦)، ومسلم فى البر والصلة (١٣٩/٦) عن أبى موسى به .

وانظر «رياض الصالحين» (٢٢٤) - بتخريجنا).

(٤) المائدة/ (٢).

(٥) سبق تخريجه .

صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا قَلَمٌ يُغَيِّبُ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ^(١) ومن معانى ذلك الثناء على الكافرين ونشر فضائلهم ومحاسنهم وإضفاء الأوصاف الفاتنة فى المدح والثناء، مثل أنهم أصحاب المنهج العلمي، وأنهم أصحاب الحضارة، والتقدم، والعلم، والرقي، مع وصف المسلمين بالأوصاف المناقضة، ولا شك أنه لا يجوز وصف الكفار بالعلم مطلقاً بل لا بد من التقييد، بل يوصفون بعدم العلم على الإطلاق، ويستثنى بعض العلم الديني، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾^(٢) فلا بد من الحذر من طريقة العلمانيين الذين يأمرّون المسلمين باتباع الغرب فى خيريه وشره زاعمين أنه لاسبيل للنهوض إلا من خلال اتباع المنهج الغربى فى كل ما جاء به، وأنه لا يجوز الفصل بين العلوم الحديثة ومناهج الحياة الأخرى فى الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والآداب، والفنون، وغيرها مما كان له أخطر الآثار فى حياة المسلمين وازدواج المقاييس فيها والسعى الحثيث للفصل بين الدين والحياة وليس فقط بين الدين والدولة.

٦ - الهداهنة على حساب الدين

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فُيْدُهِنَّ﴾^(٣).

والمقصود بذلك موافقتهم على شيء من باطلهم على سبيل المجاملة، وكذا تقديمهم وتعظيمهم والمدح والثناء لأكابرهم.

ومن ذلك: تسمية قتلاهم بالشهداء، ووضع أكاليل الزهور على قبورهم، والترحم عليهم وأعظم ذلك خطراً التصريح بأنهم على الحق، وأنهم لا فرق بينهم وبين المسلمين، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٤).

٧ - تولية الكفار أمور المسلمين

ومن معانى الموالاة: تولية الكفار أمراً من أمور المسلمين كالإمارة والكتابة ونحوه مما فيه سلطان على مسلم.

(١) التحريم / (١٠).

(٢) الروم / (٦ - ٧).

(٣) القلم / (٩).

(٤) القلم / (٣٥ - ٣٦).

قال ابن القيم رحمه الله^(١): ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم نوعاً من توليتهم، وقد حكم تعالى بأن من تولاهم فإنه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً، والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً، والولاية صلة، فلا تجتمع معادة الكافر أبداً. اهـ.

٨. الساكنين معهم في ديارهم وتكثير سوادهم^(*)

قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»^(٢).

وقال ﷺ: «لا تساكنوا المشركين، ولا تجمعوهم، فمن ساكنهم، أو جامعهم فليس منا»^(٣)، ويتصل هذا الموضوع بالحديث عن الهجرة والمقصود بها هنا الهجرة من دار الكفر أو الفسق إلى دار الإسلام.

أحكام الهجرة:

قال ابن قدامة في «المغني»^(٤): «فالناس في الهجرة على ثلاثة أضرب:

[أحدهم]: من تجب عليه: وهو من يقدر عليها، ولا يمكنه إظهار دينه، ولا تمكنه إقامة واجبات دينه، مع القيام بين الكفار، فهذا تجب عليه الهجرة، لقول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ أَسَعَةَ فُتْهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٥).

وعيد شديد يدل على الوجوب، ولأن القيام بواجب على من قدر عليه والهجرة من ضرورة الواجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

[الثاني]: من لاهجرة عليه: وهو من يعجز عنها، إما لمرض، أو إكراه على الإقامة أو ضعف من النساء والولدان وشبههم، فهذا لاهجرة عليه، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا

(١) أحكام أهل الذمة (١/٢٤٢).

(*) انظر «الولاء والبراء» للخطاطي (٢٧٠ - ٢٨٢).

(٢) أخرجه «أبو داود (٢٧٨٧)، عن سمرة بن جندب به.

(٣) علقه الترمذی (١٥٦/٤) تحت حديث (١٦٠٥) ووصله الحاكم في «المستدرک» (١٤١/٢ - ١٤٢).

وصححه.

(٤) المغني (٨/٤٥٧).

(٥) النساء / (٧٩).

الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا^(١) ولا توصف باستحباب، لأنها غير مقدور عليها.

[الثالث] - من تستحب له، ولا تحب عليه: وهو من يقدر عليها، لكنه يتمكن من إظهار دينه، وإقامته في دار الكفر، فتستحب له، ليتمكن من جهادهم، وتكثير المسلمين ومعونتهم ويتخلص من تكثير الكفار ومخالطتهم، ورؤية المنكر بينهم، ولا تحب عليه لإمكان إقامة واجب دينه بدون هجرة، وقد كان العباس عم النبي ﷺ مقيماً بمكة مع إسلامه. أهـ.

وقال الشوكاني رحمه الله في «السييل الجرار»^(٢):

واعلم أن التعرض لذكر دار الإسلام ودار الكفر قليل الفائدة جداً، لما قدمنا لك الكلام على دار الحرب، وأن الكافر الحربي مباح الدم والمال على كل حال، مالم يؤمن من المسلمين، وأن مال المسلم ودمه معصومان بعصمة الإسلام في دار الحرب، وغيرها، وإن كانت الفائدة هي ما تقدم من كونهم يملكون علينا ما دخل داراهم قهراً فقد أوضحنا هنالك أنهم لا يملكون علينا شيئاً، وإن كانت الفائدة - وجوب الهجرة عن دار الكفر فليس هذا الوجوب مختصاً بدار الكفر، بل هو شريعة قائمة، وسنة ثابتة عند استعلاء المنكر، وعدم الاستطاعة للقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم وجود من يأخذ على المنتهكين لمحارم الله، فحق على العبد المؤمن أن ينجو بنفسه، ويفر بدينه إن تمكن من ذلك، ووجد أرضاً خالية من التظاهر لمعاصي الله وعدم التناكر على فاعلها، فإن لم يجد؛ فليس في الإمكان أحسن مما كان وعليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، كما أرشد ذلك الصادق المصدوق فيما صح عنه، وإذا قدر أن يغلق على نفسه بابه، ويضرب بينه وبين العصاة حجاباً كان ذلك من أقل ما يجب عليه. أهـ.

ثم قال تعليقاً على قول صاحب المتن «إلى خلى عما هاجر لأجله»^(٣): فوجهه ظاهر لأن الانتقال من شر إلى شر، ومن دار عصاة إلى دار عصاة ليس فيه إلا إتعاب النفس بقطع المفاز، فإن كان التظاهر بالمعاصي في غير بلده أقل مما هو ببلده كان ذلك وجهاً للهجرة، وفي الشر خيار. أهـ.

(١) النساء / (٩٨).

(٢) (٤ / ٥٤٧).

(٣) خلى عما هجر لأجله معناه: إلى بلد خال من الشر الذي هاجر من بلده لأجل وجوده.

ثم قال رحمه الله: إن كانت المصلحة العائدة على طائفة من المسلمين ظاهرة، كان يكون له مدخل فى بعض الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، أو فى تعليمه معالم الخير بحيث يكون ذلك راجحاً على هجرته، وفراره بدينه؛ فإنه يجب عليه ترك الهجرة رعاية لهذه المصلحة الراجحة؛ لأن هذه المصلحة الحاصلة له بالهجرة تصير مفسدة بالنسبة إلى المصلحة المرجوة بتركه للهجرة. أهـ.

وقد سبق فى النصرة كلام ابن حزم فيمن يقيم بدار الحرب فراجعه.

فصل موانع التكفير بالموالاتة

التقية - الإكراه - المداراة

● تمهيد فى الفرق بين التقية والمداراة: قال تعالى ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ والتقية: هى الرخصة فى إظهار الموالاتة مع اطمئنان القلب بالإيمان. كما قال ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

والتقية ربما كانت لخطر حتمى الوقوع فى استخدام المسلم التقية ليدفع الضرر حتمى الوقوع وليس الظنى الوقوع ولكن هى رخصة، والأصل الثبات، وهى لها علاقة بالمداراة والقاسم المشترك بينهما أنهما نفس المعنى فالتقية: هى درء الشد المفسد بالقول اللين. والمداراة: درء الشر المفسد بالقول اللين^(١).

لكن التقية تكون فى الغالب تحت تهديد أما المداراة فليس هناك إكراه. ومثال المداراة أن النبى ﷺ قال «بئس أخو العشيرة إئذنوا له»^(٢) فلما دخل ألان له القول وقال: هذا منافق إداريه حتى لا يفسد علي غيره.

ولم يكن هناك تهديد على النبى ﷺ لكن لمصلحة شرعية فعل ذلك.

فصل

المانع الأول (الإكراه)

لما كان المسلم قد يتعرض إلى ضرورة تكرهه على إظهار موالاتة الكفار أو المنافقين أو أن يدفع عن نفسه شرهم وأذاهم باستعمال التقية لزم أن يكون على بينة من أمره فيما

(١) ارجع إلى كتابى «المداينة والمداراة». يَسَّرَ اللهُ نَشْرَهُ.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٠٥٤)، ومسلم فى البر والصلة (٧٣/٣٨٨/٨) عن عائشة - رضى

يجوز وما لايجوز من ذلك وحدود الإكراه المعتبر شرعاً ومعنى التقية، وشروط اعتبار العمل بها - وهذا فصل مختصر فى أهم مسائل هذا الموضوع :

قال تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .
سبب النزول :

قال الحافظ ابن كثير فى «تفسيره» (٢) : روى العوفى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ ، فوافقهم على ذلك مكرهاً ، وجاء معتذراً إلى النبى ﷺ ، فأنزل الله هذه الآية (٣) ، وهكذا قال الشعبي ، وقتادة ، وأبو مالك . أهـ .

ثم قال : ولهذا اتفق العلماء على أن المكروه يجوز له أن يوالى المشركين ، إبقاء لمهجته . أهـ .

شروط الإكراه المعتبر شرعاً :

ذكر ابن حجر فى «الفتح» (٤) هذه الشروط :

١- أن يكون فاعله قادراً على إيقاع ما يهدد به ، والمأمور عاجزاً عن الدفع ، ولو بالفرار .

٢- أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك .

٣- أن يكون ما هدد به فورياً ، فلو قال : إن لم تفعل كذا ضربتك غداً . لا يعد مكرهاً ، ويستثنى ما إذا ذكر زمناً قريباً جداً ، أو جرت العادة بأنه لا يخلف .

٤- أن لا يظهر من الأمور ما يدل على اختياره . أهـ .

أما لو تمكن من الفرار على أن يعطيهم ماله فعل كما فعل صهيب رضى الله عنه .

قال ابن كثير رحمه الله فى «تفسيره» (٥) عند قوله تعالى :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ (٦) قال ابن عباس ، وأنس ، وسعيد

بن المسيب ، وأبو عثمان النهدي ، وعكرمة ، وجماعة : «نزلت فى صهيب ابن سنان

(١) النحل / (١٠٦) .

(٢) (٢) (٥٨٧/٢) .

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٤٨/٤) ونسبه لابن المنذر ، وابن أبى حاتم .

وانظر الأخير بتخريجنا .

(٤) (١٢) / (٣١١) .

(٥) (٥) (٢٤٧/١) .

(٦) البقرة (٢٠٧) .

الرومي، وذلك أنه لما أسلم بمكة، وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله؛ فإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر، فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاء عمر بن الخطاب، وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له: ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية^(١). أهـ.

ثم قال رحمه الله وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله. أهـ.

قال صاحب «فضل الغنى الحميد»^(٢): وما فعله صهيب رضى الله عنه مشروع بلا شك ولكن هل هو واجب أم مستحب؟ الذى يظهر أن الإضرار البالغ بالمال يعد عذراً يسقط من صاحبه وجوب التخلص من الكفار بدفع المال ويبقى الاستحباب، و أما الحبة من المال التى لا أثر لها فيلزمه حفظ دينه بدفعها . والله أعلم.

على أى شيء يصح الإكراه؟.

قال القرطبي رحمه الله في «تفسيره»^(٣).

«أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره، أنه لا يجوز له الإقدام على قتله، ولا انتهاك حرمة بجلده أو غيره، ويصبر على البلاء الذى نزل به، ولا يحل له أن يفدى نفسه بغيره، ويسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة.

واختلف فى الزنا، فقال مطرف، وأصبغ، وابن الحكم، وابن الماجشون: لا يفعل أحد ذلك، وإن قتل لم يفعله، فإن فعله فهو آثم، ويلزمه الحد، وبه قال أبو ثور، والحسن .

وقال ابن العربي: الصحيح أن يجوز الإقدام على الزنا، ولاحد عليه خلافاً لمن ألزمه ذلك. أهـ .

ثم قال رحمه الله: قال ابن خويزمنداد فى «أحكامه»: اختلف أصحابنا متى أكره الرجل على الزنا، فقال بعضهم: عليه الحد، لأنه إنما يفعل ذلك باختياره، وقال بعضهم: لاحد عليه .

قال ابن خويزمنداد: وهو الصحيح . وقال أبو حنيفة: إن أكرهه غير السلطان حد، وإن أكرهه السلطان فالقياس أن يحد، ولن استحسن أن لا يحد، وخالفه أصحابه، فقالوا: لاحد عليه فى الوجهين، ولم يراعوا الانتشار يعنى انتشار ذكره قبل الإيلاج - وقالوا: متى علم أن يتخلص من القتل بفعل الزنا؛ جاز أن ينتشر، قال ابن المنذر: لاحد عليه، ولا فرق بين السلطان فى ذلك وغير السلطان. أهـ.

(١) انظر «الدر» (١/ ٤٣٠) وانظر «فتح القدير» بتخريجنا .

(٣) (٥/ ٣٧٩٩).

(٢) (ص: ١٥٠).

هل يصح الإكراه على القول والفعل أم القول فقط؟

قال القرطبي رحمه الله في «تفسيره»^(١): ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت في القول، وأما في الفعل فلا رخصة فيه، مثل أن يكرهوا على السجود لغير الله، أو الصلاة لغير القبلة، أو قتل مسلم أو ضربه، أو أكل ماله، أو الزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، يروى هذا عن الحسن البصري، وهو قول الأوزاعي، وسحنون من علمائنا.

وقال محمد بن الحسن: إذا قيل للأسير: اسجد لهذا الصنم وإلا قتلتك. فقال: إن كان الصنم مقابل للقبلة، فليسجد، ويكون نيته لله تعالى، وأن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه.

والصحيح أنه يسجد وإن كان لغير القبلة وما أحرأه بالسجود حيثئذ، فقد قال ابن عمر رضى الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يصلى وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، قال وفيه نزلت ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوْنَ فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾»^(٢) وفي رواية - «ويوتر عليها غير أنه لا يصلى المكتوبة»^(٣)، فإذا كان هذا مباحاً في السفر - في حالة الأمن - لتعب النزول عن الدابة للتنقل، فكيف بحالة هذا المكروه؟!.

واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود رضى الله عنه: «ما من كلام يدرأ عنى سوطيين من ذى سلطان إلا كنت متكلماً به»^(٤) فقصر الرخصة على القول، ولم يذكر الفعل، وهذا لا حجة فيه، لأنه يحتمل أن يجعل الكلام مثلاً، وهو يريد أن الفعل في حكمه.

وقالت طائفة: الإكراه في الفعل والقول سواء إذا أسر الإيمان، روى ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول، وهو قول مالك، وطائفة من أهل العراق.

وروى ابن القاسم عن مالك أن من أكره على شرب الخمر، وترك الصلاة، أو الإفطار في رمضان، أن الإثم عنه مرفوع. أ.هـ.

(١) (٣٧٩٨/٥).

(٢) البقرة (١١٥). والحديث أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٣/٢٢٥/٣٣).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٠٩٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٦/٢١٢) - (النوى) وانظر «السلسيل» (٣٥٤) - بتخريجنا.

(٤) ذكره ابن حزم في «المحلى» (٣٣٦/٨)، وقال: لا يعرف له من الصحابة رضى الله عنهم مخالف. أ.هـ.

بِمَ يَصِحُّ الْإِكْرَاهُ؟

قال القرطبي رحمه الله في «تفسيره»^(١): «واختلف العلماء في حد الإكراه، فروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أنه قال: «ليس الرجل بآمن على نفسه إذا أخفته، أو أوثقته، أو ضربته».

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: «ما كلام يدرأ عنى سوطين إلا كنت متكلماً به»^(٢).

وقال الحسن: «التَّقِيَّةُ جائزة للمؤمن إلى يوم القيامة، إلا أن الله تبارك وتعالى لم يجعل في القتل تقية».

وقال النخعي: «القيد إكراه، والسجن إكراه».

وهذا قول مالك إلا أنه قال: «والوعيد المحقق إكراه، وإن لم يقع، إذا تحقق ظلم ذلك المعتدي، وإنفاذه لما يتوعد به».

وليس عند مالك وأصحابه في الضرب والسجن توقيت، إنما هو ما كان يؤلم من الضرب، وما كان من السجن يدخل من الضيق على المكره، وإكراه السلطان وغيره عند مالك إكراه.

وتناقض الكوفيون فلم يجعلوا السجن والقيد إكراهاً على شرب الخمر، وأكل الميتة، لأنه يخاف منهما التلف، ويجعلوهما إكراهاً في إقراره على ألف درهم.

قال ابن سحنون: وفي إجماعهم على أن الألم والوجع الشديد إكراه ما يدل أن الإكراه يكون من غير تلف نفس، وذهب مالك إلى أن من أكره على يمين بوعيد، أو سجن، أو شرب أنه يحلف، ولا حنث عليه، وهو قول الشافعي، وأحمد، وأبي ثور، وأكثر العلماء. أ.هـ.

هل يختلف حكم الإكراه مع اختلاف المكره عليه ونوع الإكراه؟

قال ابن تيمية^(٣): «تأملت المذاهب فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكره عليه، فليس الإكراه المعتبر في كلمة الكفر، كالإكراه المعتبر في الهبة ونحوها، فإن أحمد قد نص في غير موضع: أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب، وقيد، ولا يكون الكلام إكراهاً» أ.هـ.

(١) (٣٨٠٦/٥).

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) نقلاً عن الولاء والبراء (٣٧٧).

قال القرطبي في «تفسيره»^(١): «أكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن، وأقام خمسة أعوام، وما رضى بذلك لعظيم منزلته، وشريف قدره، ولو أكره رجل بالسجن على الزنا، ما جاز له إجماعاً، فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء، والصحيح أنه إذا كان فادحاً فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحده.

وقد قال بعض علمائنا: إنه لا يسقط عنه الحد، وهو ضعيف، فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين، ولا يصرفه بين بلأين، فإنه من أعظم الحرج في الدين قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٢) أ.هـ.

فصل

المانع الثاني (التقية) (*)

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(٣).

قال البغوي في «تفسيره»^(٤): نهى الله المؤمنين عن موالة الكفار، ومداهنتهم، ومباطلتهم، إلا أن يكون الكفار غاليين، ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم، فيداريهم باللسان، وقلبه مطمئن بالإيمان، دفعاً عن نفسه من غير أن يستحل دماً حراماً، أو مالا حراماً، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل، وسلامة النية، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(٥)، ثم هذه رخصة فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم. أ.هـ.

وقال ابن القيم: في «بدائع الفوائد»^(٦): معلوم أن الثقة ليست بموالة لهم. أ.هـ. ولأن باب الثقة باب يمكن أن ينفذ منه الشيطان بسهولة، يزين للضعفاء، ومرضى

(١) (٤/ ٣٤١٦).

(٢) الحج/ (٧٨).

(*) وانظر «الولاء والبراء» (٣٦٩ - ٣٧٥).

(٣) آل عمران/ (٢٨).

(٤) (١/ ٣٣٦).

(٥) النحل/ (١٠٦).

(٦) (ص: ٨٠).

القلوب أن يركنوا إلى أعداء الله، قال بعدها مباشرة: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ يحذركم في الدنيا أن تتخذوا هذا الباب تكأة، وتستهلوا هذه الكبيرة - وهي موالة أعداء الله - وينذركم أن إليه المصير، فيجازيكم على ما فعلتم في الدنيا، فلا تحسبوا أن ترتكبوا هذه الكبيرة في الأرض - مخادعين أنفسكم أو مخادعين الناس - ثم تنجوا من عذاب الله في الآخرة^(١).

قال شهاب الدين القرافي في «الاستغناء في أحكام الاستثناء»^(٢): ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ تقديره: لا تفعلوا ذلك في حالة من الحالات إلا في حالة الاتقاء.

وقال ابن جرير الطبري^(٣): في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾: أى إلا أن تكونوا في سلطانهم، فتخافوهم على أنفسكم، فظهروا لهم الولاية بألستكم، وتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل أمر.

فصل

في معنى البراء لغة واصطلاحاً

البراء لغة: البعد أو السترة والحديث في الصحيح «أما أحدهما فكان لا يستبرأ من بوله»^(٤) يعنى لا يتنزّه ويبعد أو إن شئت فقل أن الولاء عكس البراء فالولاء: محبة. والبراء: بغض وعداوة.

والله عز وجل قال لنا أن لنا أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم ﴿إِنَّا بَرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ فالكفر والعداوة والبغض هي معنى البراء في المعنى اللغوي والشرعي، والواجب على المسلم أن يبرأ من الكفر والكافرين وأن يوالى الإسلام والمسلمين كما تقدم معنا في معنى (لا إله) براء (إلا الله) محبة، وأيضاً إذا كان كلمة التوحيد براء وولاء فهي أيضاً قوله تعالى ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ أى يتبرأ من الطاغوت ويوالى الله.

(١) راجع «دراسات قرآنية» ص: (٣٢٦).

(٢) (ص: ٦٣٤).

(٣) تفسير الطبري (٢٢٨/٣).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٣٧٨)، ومسلم في الطهارة (٣/ ٢٠٠ - النووي) عن ابن عباس

وهذا فيه إشارة إلى أن الذى تبرأ من الكفر والكافرين ووالى الإسلام والمسلمين فهو المهتدى كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرْنِى فَإِنَّهُ سَهِيدٌ﴾ وهذه منقبة من مناقب الحب فى الله والبغض فى الله قال تعالى ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ فلا يتصور إلا البراء من الشرك والمشركون ولو كانوا أبائهم.

ومن الأحاديث التى بينت معنى البراء لغة «اللهم إنى أبرء إليك مما صنع خالد»^(١) وقال بعض الصحابة وهو أنس بن النضر فى غزوة أحد «اللهم إنى أبرء إليك مما صنع هؤلاء»^(٢) حيث فروا من حول الرسول وهذا الصحابى الذى قال ذلك استشهد بعد أن تبرأ من فعل هؤلاء.

فصل فى الفرق بين القسط والمودة والموالة

قال الفقير: الله عزوجل يوجهنا ويعلمنا صورة من صور المودة لبعض الأقارب الذين لم يحاربونا فى الدين ولم يخرجونا من ديارنا قال تعالى ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٣).

فرق بين البر والقسط، وبين المودة والموالة: فالمودة والموالة: هذا عمل قلبى يشمر عن عمل للجوارح، بخلاف البر والقسط فإنه قد يكون عمل للجوارح وليس له تعلق بعمل القلب ولذلك ربما تقسط مع أحد من الناس وأنت تكرهه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ إذن فقد نعدل ونقسط مع من نبغضه من باب التقوى والإحسان.

فهذه الآية قد يؤخذ منها أن من لم يقاتلنا نواله.

الجواب: لا يؤخذ ذلك منها، ولا نواله، بل نبره ونقسط إليه فقط وسبب نزول الآية أن أسماء رضى الله عنها جاءتها أمها وهى راغبة، وكانت مشركة، فلم تأذن لها

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٣٣٩) عن ابن عمر به.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمامة (١٤٨/٥٣/٧)، والترمذى (٣٢٠١) عن أنس للفظ

للترمذى.

(٣) الممتحنة/٨.

فى الدخول حتى ذهبت للرسول ﷺ تستأذنه، فنزلت الآية (١).

فلا مانع من برها ولكن ليس لها ولاء، وهو عين ما فعله النبى ﷺ حينما وصل بعض أقاربه من المشركين حيث قال «إن بنى فلان ليسوا لى بأولياء، بل لهم عندى رحم أبلها ببلالها».

وليس التقى من يعدل مع من يحب، ولكن التقى من يعدل مع من لا يحب فالعدل عزيز نادر حيث وصى الله المؤمنين بذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

وأما قوله الله تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرَأُ عَنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا (٢).

تبرؤا: أى تخلؤا عنهم فى وقت هم فى أمس الحاجة إليهم.

قال ابن القيم: من أحب شيئاً من دون الله ليس فى الله وليس لله عذب بمحبته فى الدنيا والآخرة.

وكما أنه لا يدخل جنة الآخرة إلا من دخل جنة الدنيا (مجالس العلم: يرى فى وجهه نضرة النعيم، ومن لم تُر عليه فى الدنيا لا يرى عليه فى الآخرة).

أيضاً من دخل نار الدنيا (نار العشق تكون عليهم فى القبر نار) يدخل نار الآخرة.

ولهذا كان ابن القيم يقول على شيخ الإسلام ؛ كان يرى عليه نضرة النعيم.

ومن هنا نعرف من هم أولياء الله وأولياء الشيطان.

فأولياء الشيطان هم الذين أحبوا الشيطان وأحبوا منهجه ومعتقده وناصروه وأزروه واتبعوا الظلمات التى يلبس بها على الناس فعلى وجوههم ظلمة: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾.

وأما أولياء الرحمن: هم الذين والوا الله واحبوه وتقربوا إليه بما يرضيه سبحانه ومن هنا نعرف قوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٦) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٣) واتبعوا النور الذى أنزل على رسوله فهؤلاء هم المؤمنون حقاً، نسأل الله أن نكون منهم.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٩٧٨)، ومسلم فى الزكاة (٨٨/٧ - النووى) عن أسماء به .

وانظر «رياض الصالحين» (٣٢٧ - بتخريجنا).

(٣) يونس / ٦٢، ٦٣ .

(٢) البقرة/ ١٦٦ .

صور ليست من الموالاة

قال صاحب «فضل الغنى الحميد»: ويلزمنا في هذا المقام أن نبين مايجوز من المعاملة مع الكفار والمشركين وذلك لأن كثيراً من الناس قد يسيء الفهم فيما ورد من الأدلة من معاملات أجازها الشرع مع الكفار فيظن أنها دليل على جواز موالاتهم ومودتهم وما أكثر مانسمع ذلك ونراه فيمن يوالى الكافرين موالاة محرمة وأحياناً كفرية، وهو يحتج بأن الرسول ﷺ قد باع واشترى ووهب وقبل الهدية وعاد مرضى الكفار ونحو ذلك فلا بد لنا من التفريق بين مايجوز وما لايجوز من معاملة الكفار وأيضاً فكثير من أهل البدع الغلاة يجعلون كل معاملة مع الكفار - أو مع من يظنون كفرهم بسبب غلوهم في الدين ويدعتهم - موالاة كفرية أو محرمة جهلاً منهم بالفرق بين هذه المعاملات الجائزة وصور الموالاة المحرمة لغة وشرعاً؛ وإليك هذه الصور التي ليست من الموالاة.

١. الاستعانة بغير المسلم لغرض حماية الداعي

من أدلة ذلك حماية أبى طالب لرسول الله ﷺ، وقد حرص رسول الله ﷺ على ذلك، وأيضاً قبول أبى بكر رضى الله عنه الدخول في جوار ابن الدغنة، وليست العلة في قبول ذلك مجرد تمتع المسلمين بالراحة والحياة، ولكن للتمكن من نشر الإسلام، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، أو النجاة من إيذاء الكفار، وبطشهم للقيام مستقبلاً بالدعوة إلى الله تعالى، وهذا بشرط أن لا يكون على حساب أحكام الإسلام، أو التنازل عن شيء منها، وأن يطمئن إلى عدم خيانتة للمسلم، أو كشف مايطلع عليه من أمر الدعوة إلى الله تعالى سواء كان ذلك لجميل عليه للمسلم، أو صدق معاملة أو حسن خلق، ولاضير على المسلم إذا استعان على ذلك بموقف المشرك المفيد. لأى سبب من الأسباب^(١).

أما الاستعانة بهم في قتال الكفار، فالراجع المنع منه لقول النبي ﷺ: «أرجع فلن استعين بمشرك»^(٢). و أما في قتال المسلمين فمنعه جماهير العلماء لأنه تسليط للكفار على المسلمين قال تعالى: «وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا»^(٣).

(١) «أصول الدعوة» لعبد الكريم زيدان.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الجهاد (٦/٤٣٧ / ١٥٠) عن عائشة به.

وانظر كتابنا «فقوالأثر في شرح بلوغ المرام بكلام ابن حجر».

(٣) النساء : (١٤١)

٢. المؤاجرة والمبايعة مع المشركين(*)

قال البخارى فى صحيحه: «باب هل يؤاجر الرجل نفسه من مشرك فى أرض الحرب». ثم ساق بسنده عن خباب رضى الله عنه قال: كنت رجلاً قيناً، فعملت للعاص بن وائل فاجتمع لى عنده، فأتيته اتقاضاه، فقال: لا، والله، ولا أقضيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت أما والله حتى تموت، ثم تبعث، فلا، قال: وإنى لميت، ثم مبعوث؟ قلت: نعم، قال: فإنه سيكون لى مال، وولد فأقضيك، فأنزل الله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَلَدًا﴾ (١). (٢)

قال ابن حجر فى «فتح البارى» (٣) فى شرح الباب: أورد فيه حديث خباب - وهو إذ ذاك مسلم - فى عمله للعاص بن وائل، وهو مشرك، وكان ذلك بمكة، وهى إذ ذاك دار حرب، واطلع النبى ﷺ على ذلك، وأقره، ولم يجزم المصنف بالحكم؛ لاحتمال أن يكون الجواز للضرورة، أو أن جواز ذلك كان قبل الإذن فى قتال المشركين ومنابذتهم، وقبل الأمر بعدم إذلال المؤمن نفسه.

قال المهلب: كره أهل العلم ذلك، إلا للضرورة، بشرطين: أحدهما: أن يكون عمله فيما يحل للمسلم فعله.

والآخر: أن لا يعينه على ما يعود ضرره على المسلمين. وقال ابن المنذر: استقرت المذاهب على أن الصناع فى حوائثهم يجوز لهم العمل لأهل الذمة، ولا يعد ذلك من الذلة، بخلاف أن يخدمه فى منزله، وبطريق تبعته له. أهـ.

قال ابن قدامة فى «المغنى» (٤): لا تجوز إجارة المسلم للذمى لخدمته، نص عليه أحمد فى رواية الأثرم، فقال: إن أجر نفسه من الذمى فى خدمته لم تجز، وإن كان فى عمل شىء جاز، وهو أحد قولى الشافعى. والآخر: تجوز، لأن له إجارة نفسه فى غير الخدمة؛ فجاز فيها، كإجارته من المسلم، ولنا: أنه عقد يتضمن حبس المسلم عند الكافر، وإذلاله أشبه البيع، يحققه أن عقد الإجارة للخدمة يتعين فيه حبسه مدة الإجارة.

(*) انظر «الولاء والبراء» للقحطاني (٣٥٤-٣٥٦)

(١) مريم: ٧٧

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٠٩١)، ومسلم فى صفة القيامة (٣٥/١٥١/٩) عن خباب به.

(٣) فتح البارى (٤/٤٥٢)

(٤) المغنى (٥/٤١٠)

.....
واستخدامه، والبيع لا يتعين فيه ذلك، فإذا منع منه، فلا ن يمنع من الإجارة أولى، فأما إن آجر نفسه في عمل معين في الذمة، كخياطة ثوب، جاز بغير خلاف نعلمه.

ثم قال رحمه الله: ولأنه عقد معاوضة لا يتضمن إذلال المسلم، ولا استخدام أشبه مباحته، وإن آجر نفسه منه بعمل غير الخدمة مدة معلومة جاز أيضاً في ظاهر كلام أحمد. أهـ.

٣. البيع والشراء

قال البخاري رحمه الله: «باب الشراء والبيع من المشركين وأهل الحرب» ثم ساق بسنده عن عبدالرحمن بن أبي بكر رضى الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ ثم جاء رجل مشرك طويل بغتم يسوقها، فقال النبي ﷺ «بيعاً أم عطية - أو قال - أم هبة؟ قال: لا، بل بيع، فاشترى منه شاة» (١).

قال ابن حجر في «الفتح» (٢) قال ابن بطال: معاملة الكفار جائزة إلا مع ما يستعين به أهل الحرب على المسلمين. ثم قال: وفي الحديث قبول هدية المشرك، لأنه سأل هل يبيع أو يهدى؟. أهـ.

٤. قبول الهدية منهم والإهداء إليهم

قال البخاري رحمه الله: «باب قبول الهدية من المشركين» ثم ذكر حديث أنس في إهداء أكيدر دومة للنبي ﷺ (٣)، وحديث أنس في إهداء اليهودية للنبي ﷺ الشاة المسمومة وأكله منها وأصحابه (٤)، وكذا إهداء ملك أيلة للنبي ﷺ بغلة بيضاء، فكساه برداً (٥). وقصة هاجر التي أهداها الجبار لإبراهيم عليه السلام (٦).

قال الحافظ في «الفتح» (٧): في الجمع بين هذه الأحاديث وحديث: «إنني نهيت عن

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٢١٦)، ومسلم في الأشربة (٧/٢٦٢/١٧٥).

(٢) فتح الباري (٤/٤٠١).

(٣) [صحيح] علقه البخاري (٢٦١٦)، ووصله مسلم في الفضائل (٨/٢٦٠/١٢٧).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم في السلام (٧/٤٣٣/٤٥).

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٤٨١)، ومسلم في الفضائل (٨/١١/٤٥) عن أبي حميد به.

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم في الفضائل (٨/١٣٤/١٥٤) عن أبي هريرة به.

(٧) فتح الباري (٥/٢٤١).

زبد المشركين»^(١). قال «وجمع غير الطبرى بأن الامتناع فى حق من يريد بهديته التودد والموالاة، والقبول فى حق من يرجو بذلك تأنيسه وتأليفه على الإسلام».

وقد روى البخارى فى باب الهدية للمشركين حديث إهداء عمر أخاه المشرك حلة حرير^(٢). وحديث أسماء فى صلة أمها وهى مشركة^(٣). وهذا على سبيل التأليف وصلة الرحم من غير مودة.

رد السلام عليهم(*)

قال ابن القيم فى «زاد المعاد»^(٤): اختلف فى وجوبه: فالجمهور على وجوبه، وهو الصواب، وقالت طائفة: لا يجب الرد عليهم، كما لا يجب على أهل البدع، وهو أولى.

والصواب الأول، والفرق: أنا مأمورون بهجر أهل البدع، تعزيراً لهم، وتحذيراً منهم، بخلاف أهل الذمة. أهد.

ومما يرجح رأى الجمهور فى وجوب الرد على أهل الكتاب قوله ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم»^(٥).

٦. الانتفاع بما عندهم(**)

يجوز أن يتلقى المسلم من غير المسلم ما ينفعه فى علم الكيمياء والفيزياء، والفلك، والطب، والصناعة، والزراعة، والأعمال الإدارية، وأمثال ذلك. وهذا حين تنعدم الاستفادة من هذه العلوم من مسلم تقى.

كذلك يجوز الانتفاع بهم فى دلالة الطريق، وما عندهم من سلاح، وملابس، وغير ذلك من الحاجات التى يحتاجها الناس، وجرت العادة فيها أن المسلم والكافر يستويان فى الانتفاع بها. وأدلة الانتفاع بالكفار نجدها فى سنة رسول الله ﷺ، فقد ورد فى

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٥٧)، والترمذى (١٥٧٧)، عن عياض بن حمار به.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٦١٩)، ومسلم فى اللباس (٦/٢٨٢).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) (٢٧/٢)

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٩٢٦)، ومسلم فى السلام (١٤/١٤٤ - النووي) عن أنس به.

وانظر «رياض الصالحين» (٨٦٩ - بتخريجتنا).

(*) انظر الولاء والبراء للقطائى (٣٥٩-٣٦١)

(**) انظر «الولاء والبراء» للقطائى (٣٦٢-٣٦٣)

الحديث عن عائشة رضى الله عنها «استأجر النبی ﷺ وأبو بكر رجلاً من بنى الدیل . . هادياً خريئاً» (١).

٧. الزواج من الكتانية

قال تعالى ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (٢).

قال ابن كثير رحمه الله في «التفسير» (٣) أى : وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لما بعده، وهو قوله تعالى : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فقيل أراد به المحصنات الحرائر دون الإماماء. حكاه ابن جرير عن مجاهد، وإنما قال مجاهد المحصنات : الحرائر (٤). فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه، ويحتمل أن يكون أراد به بالحررة العفيفة كما قال فى الرواية الأخرى عنه، وهو قول الجمهور هنا، وهو الأشبه لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية وهى مع ذلك غير عفيفة فتفيد حالها بالكلية. اهـ.

ثم قال: وقيل المراد بأهل الكتاب ههنا الإسرائيليات وهو مذهب الشافعى. وقيل المراد بذلك الذميات دون الحربيات لقوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (٥) وكان ابن عمر رضى الله عنه لا يرى التزويج بالنصرانية ويقول: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول أن ربها عيسى وقد قال تعالى : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ (٦) اهـ.

ثم قال : وقد تزوج جماعة من الصحابة رضى الله عنهم نساء النصرارى ولم يروا لذلك بأساً أخذاً بهذه الآية الكريمة مخصصة ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٢٦٣)، وانظر «منار السبيل» - بتخريجنا -.

(٢) المائدة : ٥

(٣) (٢٠ / ٢)

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤٦٢ / ٢) ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير.

وانظر «فتح القدير» (٣٩٤١) - بتخريجنا.

(٥) التوبة : ٢٩

(٦) البقرة : ٢٢١ والآخر [صحيح] أخرجه البخارى (٥٢٨٥).

قوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (١).

قِيلَ لَكُمْ ﴿ فَجْعَلُوا هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ مَخْصُصَةً لِلَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ ﴾ إِنْ قِيلَ بِدُخُولِ الْكِتَابِيَّاتِ فِي عُمُومِهَاوَ إِلَّا فَلَا مَعَارِضَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ انْفَصَلُوا فِي ذِكْرِهِمْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . أَهـ .

فتبين بهذا أن قول أهل العلم : جواز الزواج من الكتابية العفيفة يهودية أو نصرانية - ولم يخالف في ذلك إلا ابن عمر رضى الله عنه في النصرانية، والأظهر قول الجمهور، إلا أنه لا بد هنا من التنبيه إلى أن هذا الزواج لا بد أن يظل معه بغض هذه المرأة على دينها، ولأمانع من استمرار النكاح مع وجود البغضاء، فكم من بيوت تقوم على غير الحب من مصالح ومنافع أخرى، ولما كان هذا الأمر - وهو استمرار الزواج دون محبة - لا يقوى عليه الأكثر كان زواج الكتابية مكروهاً كما ثبت النهى عنه عن عمر رضى الله عنه دون تحریم، وقد قال النبی ﷺ، «فاظفر بذات الدين تربت يداك» (٢).

قوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (١).

● مناسبة الآية للباب والمراد بها:

قال سليمان آل الشيخ (٣): ومراد المصنف رحمه الله بإيراد الآية هنا أن الطاعة في تحریم الحلال وتحليل الحرام من العبادة المنفية من غير الله تعالى؛ ولهذا فسرت العبادة بالطاعة، وفسر الآله بالمعبود المطاع، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك فقد عبده؟ إذ معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله يقتضى إفراد الله بالطاعة وإفراد الرسول بالمتابعة. أهـ

قال عبد الله بن جار الله (٤).

أن من أطاع غير الله في تحریم الحلال وتحليل الحرام فقد اتخذه رباً ومعبوداً وجعله شريكاً لله وذلك ينافى التوحيد أ. هـ.

وقال ابن عثيمين (٥): وجه كون هذه الآية تفسيراً للتوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله أن الله انكر عليهم إتخاذ الأحرار والرهبان أرباباً من دون الله، وهذه الآية سيأتى فيها

(١) «التوبة» (٣١)

(٢) «متفق عليه» أخرجه البخارى (٥٠٩٠) ومسلم فى الرضاع (١٠/ ٥٠ - النووي) عن أبى هريرة

به.

وانظر «رياض الصالحين» (٣٦٥) - بتخيجه.

(٣) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٤، ١٠٥)

(٤) «الجامع الفريد» (٣٤).

(٥) «القول المفيد» (١٨٨، ١٨٩).

ترجمة كاملة فى كلام المؤلف رحمه الله؛ فهؤلاء جعلوا الأحبار شركاء فى الطاعة كلما أمروا بشئ أطاعوهم، سواء وافق أمر الله أم لا:

إذا ؛ فتفسير التوحيد أيضاً بلا إله إلا الله يستلزم أن تكون طاعتك لله وحده ولهذا على الرغم من تأكيد النبى ﷺ لطاعة ولاة الأمر؛ قال: «إنما الطاعة فى المعروف» (١) اهـ.

قال القرعاوى (٢): حيث دلت الآية على أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله يقتضى إفراد الله بالطاعة وإفراد الرسول بالمتابعة لأن من أطاع الرسول فقد أطاع الله.

الإعراب (٣):

قال تعالى «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ» (اتخذوا) فعل وفاعل، و(أحبارهم) مفعول به و(رهبانهم) عطف على أحبارهم و(أربابا) مفعول به ثان و(من دون الله) صفة لأرباباً و(المسيح) عطف على أحبارهم والمفعول الثانى بالنسبة إليه محذوف أى رباً و(ابن) صفة المسيح أو بدل منه، وثبت الألف فيه لأنه صفة بين علمين، والمسيح لقب واللقب من أقسام العلم. معنى «الأحبار» و«الرهبان» (٤).

«أحبارهم» فى المختار: الحبر الذى يكتب به وموضعه المحبرة بالكسر، والحبر أيضاً الأثر وفى الحديث: يخرج رجل من النار قد ذهب حبره وسيره، قال الفراء: أى هيئته ولونه.

وقال الأصمعى: الجمال والبهاء وأثر النعمة وتغيير الخط والشعر وغيرها تحسينه قلت: ومنه قول أبى موسى للرسول ﷺ أنه كان يسمع منه القرآن: لو علمت أنك تسمعنى لحبرته لك تحبيراً والحبر بالفتح الحبور وهو السرور، وحبره أى سره، وبابه نصر، وحبرة أيضاً بالفتح ومنه قوله تعالى «فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ» أى يسرون وينعمون ويكرمون.

والحبر بالفتح والكسر واحد أحبار اليهود والكسر أفصح لأنه يجمع على أفعال دون فاعل.

(٣) «إعراب القرآن» (٤/ ٩٠).

(٢) «الجديد» (٧٥).

(١) تقدم تخريجه.

(٤) «إعراب القرآن» (٤/ ٩٠-٩٢).

وقال الفراء: هو بالكسر، وقال أبو عبيدة: هو بالفتح، وقال الأصمعي: لا أدري أنه بالفتح أو بالكسر، وقال: الحبر بالكسر منسوب إلى الحبر الذى يكتب به لأنه كان صاحب كتب والحبرة كالعنبة برد يمانى والجمع حبر كعنب وحبرات بفتح الباء. وفي المنجد: الحبر والحبر بالفتح والكسر: العالم الصالح، السرور والنعمة، رئيس من رؤساء الدين، الحبر الأعظم: خلف السيد المسيح على الأرض، رئيس الكهنة عند اليهود، والجمع أحبار وحبور.

(رهبانهم) جمع راهب وهو من اعتزل الناس إلى دير طلباً للعبادة والمؤنث راهبة وجمعها راهبات ورواهب. أهد.

عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال: أتيت النبی ﷺ وهو يقرأ فى سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فقال «أما أنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذ أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه»^(١).

وعن أبى البخترى قال: سأل رجل حذيفة رضى الله عنه فقال أرأيت قوله تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه^(٢).

وعن حذيفة رضى الله عنه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾ قال: أما أنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم أطاعوهم فى معصية الله^(٣).

وعن قتادة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ اليهود ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ النصارى ﴿وَمَا أُمَرَاءُ﴾ فى الكتاب الذى أتاهم وعهد إليهم ﴿لَا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سبى نفسه أن يقال عليه البهتان^(٤).

وعن الضحاك قال: ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ قراؤهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ علماؤهم^(٥).

(١) [حسن] أخرجه الترمذى (٣٠٩٥)، وابن جرير (٨٠/١٠). وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٣٧٤). وانظر «فتح المجيد» (ح ١٦٣) بتخريجنا.

(٢) ذكر السيوطى فى «الدر» (١٧٤/٤) ونسبه لعبد الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ، والبيهقى فى «الشعب».

وانظر تخريجه فى «فتح القدير» (٥٩٢٢) - بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ والبيهقى فى «الشعب».

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٥) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن المنذر وابن أبى حاتم.

وانظر الأخير بتخريجنا وكذا «فتح القدير» (٥٩٢٣) - بتخريجنا.

وعن ابن جريح قال : الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى (١).
وعن السدى مثله (٢).

وعن الفضيل بن عياض قال الأحبار العلماء والرهبان العباد (٣).

● ماجاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين

قال ابن جرير (٤): يقول الله جل ثناؤه اتخذ اليهود ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم العلماء،
والنصارى ﴿رَهْبَانَهُمْ﴾ وهم أصحاب الصوامع، وأهل الاجتهاد فى دينهم منهم : أهد.

قال البغوى (٥): فإن قيل أنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان؟ قلنا: معناه أنهم
أطاعوهم فى معصية الله واستحلوا ما أحلوه، وحرموا ما حرّموا، فاتخذوهم كالأرباب.
ثم ذكر حديث عدى بن حاتم (٦).

قال الزمخشري (٧) : اتخذوهم أرباباً، أنهم أطاعوهم فى الأمر بالمعصية وتحليل
ما حرم الله وتحريم ما حلله كما تطاع الأرباب فى أوامرهم، ونحوه تسمية أتباع الشيطان
فيما يوسوس به عباده، بل كانوا يعبدون الجن، ﴿يَا أَبْتَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ . ثم ذكر
أثر عدى.

وينحوه قال ابن الجوزى (٨).

وقال الفخر الرازى (٩).

الأكثرون من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة
العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم فى أوامرهم ونواهيهم، نقل أن عدى بن حاتم كان
نصرانياً فانتهى إلى رسول الله ﷺ، وهو يقرأ سورة براءة، فوصل إلى هذا الآية، قال
فقلت لسننا نعبدهم فقال «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرّمونه ويحلّون ما حرم الله
فتستحلّونه» فقلت بلى قال: «فتلك عبادتهم»

(١) ذكره السيوطى فى المصدر الآخر ونسبه لابن المنذر.

وانظر «فتح القدير» (٥٩٢٤ - بتخريجنا).

(٢) ذكره السيوطى فى الموضوع السابق ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا وانظر «فتح القدير» (٥٩٢٥)

- بتخريجنا).

(٣) ذكره السيوطى فى الموضوع السابق ونسبه لابن أبى حاتم.

وانظر «فتح القدير» (٥٩٢٦ - بتخريجنا).

(٤) «تفسير الضبرى» (٨٢/١٠/٦)

(٥) «معالم التنزيل» (٣٨/٣)

(٦) «الكشاف» (١٤٩/٢)

(٧) تقدم تخريججه.

(٨) «تفسير الكبير» (٣٩٨/١٦/٨)

(٩) «زاد المسير» (٣٢٢/٣).

وقال الربيع : قلت لأبى العالية : كيف كانت تلك الربوبية فى بنى إسرائيل؟

فقال : إنهم ربما وجدوا فى كتاب الله ما يخالف أقوال الأحرار والرهبان، فكانوا يأخذون بأقوالهم وماكانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى .

قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضى الله عنه : قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء، قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى فى بعض المسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها وبقوا ينظرون إلى كالمتعجب، يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها، ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً فى عروق الأكثرين من أهل الدنيا .

فإن قيل : أنه تعالى لما كفرهم بسبب أنهم أطاعوا الأحرار والرهبان فالفاسق يطيع الشيطان فوجب الحكم بكفره كما هو قول الخوارج .

والجواب : أن الفاسق، وإن كان يقبل دعوة الشيطان إلا أنه لايعظمه لكن يلعبه ويستخف به . أما أولئك الأتباع كانوا يقبلون قول الأحرار والرهبان ويعظمونهم، فظهر الفرق .

والقول الثانى : فى تفسير هذه الربوبية أن الجهال والحشوية إذا بالغوا فى تعظيم شيخهم قدوتهم، فقد يميل طبعهم إلى القول بالحلل والائحاد، وذلك الشيخ إذا كان طالباً للدنيا بعيداً عن الدين، فقد يلقي إليهم أن الأمر كما يقولون ويعتقدون، وشاهدت بعض المزورين ممن كان بعيداً عن الدين كان يأمر أتباعه وأصحابه بأن يسجدوا له، وكان يقول لهم أنتم عبيدى، فكان يلقي إليهم من حديث الحلل والائحاد أشياء، ولو خلا ببعض الحمقى من أتباعه، فرمى ادعى الألهيّة، فإذا كان مشاهداً فى الأمة، فكيف يبعد ثبوته فى الأمم السالفة؟

وحاصل الكلام أن تلك الربوبية يحتمل أن يكون المراد منها أنهم أطاعوهم فيما كانوا مخالفين فيه لحكم الله، وأن يكون المراد منها أنهم قبلوا أنواع الكفر، فكفروا بالله، فصار ذلك جارياً مجرى أنهم اتخذوهم أرباباً من دون الله .

ويحتمل أنهم أثبتوا فى حقهم الحلل والائحاد . وكل هذه الوجوه الأربعة مشاهد وواقع فى هذه الأمة . أهـ .

وقال القرطبي (١) .

قوله تعالى ﴿أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال أهل المعانى : جعلوا أحرارهم ورهبانهم

(١) تفسير القرطبي (٥/٢٩٥٩) .

كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء؛ ومنه قوله تعالى ﴿قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ أي كالنار

قال عبدالله بن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأجبار سوء ورهبانهم.

قال القاضي أبو بكر بن العربي : لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جَدًّا أو هزلًا، وهو كيفما كان كفر؛ فإن الهزل بالكفر كفر لا خلاف فيه بين الأمة.

فإن التحقيق أخو العلم والحق، والهزل أخو الباطل، والجهل.

قال علماؤنا: انظر إلى قوله ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

واختلف العلماء في الهزل في سائر الأحكام كالبيع والنكاح والطلاق على ثلاثة أقوال:

لا يلزم مطلقاً. يلزم مطلقاً. التفرقة بين البيع وغيره.

فيلزم في النكاح والطلاق؛ وهو قول الشافعي في الطلاق قولاً واحداً.

ولا يلزم في البيع. قال مالك في كتاب محمد: يلزم نكاح الهازل. وقال أبو زيد عن ابن القاسم في العتبية: لا يلزم. وقال علي بن زياد: يفسخ قبل وبعد. وللشافعي في بيع الهازل قولان. وكذلك يخرج من قول علمائنا القولان.

وحكى ابن المنذر الإجماع في أن جد الطلاق وهزله سواء.

وقال بعض المتأخرين من أصحابنا : إن اتفقا على الهزل في النكاح والبيع،

لم يلزم وإن اختلفا غلب الجد الهزل.

وروى أبو داود والترمذي والدراقتني عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «ثلاث جدهن جدّ وهزلهن جدّ: النكاح والطلاق والرجعة»^(١) قال الترمذي: حديث حسن غريب، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم.

قلت: كذا في الحديث «والرجعة» وفي موطأ مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: «ثلاث ليس فيهن لعب النكاح والطلاق والعتق»^(٢) وكذا روى عن علي بن

(١) [حسن] أخرجه أبو داود (٢١٩٤)، والترمذي (١١٨٤). وانظر «منار السيل» ١٩٨٨ - بتخریجنا).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (١/ ٥١٠) ونسبه لمالك، وعبد الرزاق، والبيهقي في «السنن».

أبى طالب^(١) وعبدالله بن مسعود وأبى الدرداء^(٢) كلهم قال : ثلاث لا لعب فيهن
واللاعب فيهن جاد النكاح والطلاق والعنق وعن سعيد بن المسيب عن عمر قال : أربع
جائزات على كل أحد العنق والطلاق والنكاح والنذور^(٣). وعن الضحاك قال : ثلاث
لا لعب فيهن : النكاح والطلاق والنذور. أم.

قال ابن كثير^(٤) وقوله «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ
مَرْيَمَ» روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم رضى الله
عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأُسِرَت
أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما فرجعت إلى أخيها
فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى إلى المدينة وكان
رئيساً في قومه طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل
على رسول الله ﷺ وفي عنق عدى صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية «اتَّخَذُوا
أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ» قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم، فقال : «بلى
إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» وقال
رسول الله ﷺ «ياعدى ماتقول؟ أضررك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من
الله؟ ما يضررك؟ أضررك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلهاً غير الله؟» ثم دعاه إلى
الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق، قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال «إن اليهود
مغضوب عليهم والنصارى ضالون»^(٥). وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن
عباس وغيرهما في تفسير «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ» إنهم
اتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

وقال السدى : استنصحو الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم^(٦) ولهذا قال تعالى
«وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا» أى الذى إذا حرم الشيء فهو الحرام وماحلله فهو
الحلال وما شرعه اتبع وماحكم به نفذ «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» أى تعالى

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد الرزاق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (١/٩٠٥) ونسبه للبخارى فى «تاريخه» والبيهقى.

(٤) «تفسير ابن كثير» (٢/٣٣٦).

(٥) تقدم تخريجه

(٦) تقدم تخريجه أيضاً.

من وتتره عن الشركاء والنظراء والأعران والأضداد والأولاد لإله إلهه ولا رب
سواه. أهـ

قال الشوكاني رحمه الله^(١) وفي هذه الآية ما يزر من كان له قلب أو ألقى السمع
وهو شهيد عن التقليد في دين الله، وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز
والسنة المطهرة، فإن طاعة المذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة
مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبيأوه،
هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأخبار والرهبان أرباباً من دون الله، للقطع بأنهم لم
يعبدوهم بل أطاعوهم وحرّموا ما حرّموا وحلّلوا ما حلّلوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه
الأمة، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة، والتمرة بالتمرة، والمساء بالماء، فيا عباد
الله، ويا أتباع محمد بن عبد الله، ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانباً، وعمدتم إلى
رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاده فعلتم
بما جاؤوا به من الآراء التي لم تعتمد بعماد الحق، ولم تعضد بعضد الدين ونصوص
الكتاب والسنة، تنادى بأبلغ نداء وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه،
فأعرقوها آذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأفهاماً مريضة، وعقولاً مهیضة، وأذهاناً كليله،
وخواطر عليله، واتشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فدعوا - أرشدكم الله وإياي - كتباً كتبها لكم الأموات من أسلافكم، واستبدلوا بها
كتاب الله خالفهم وخالفكم ومتعبد هم ومتعبدكم، ومعبودهم ومعبودكم واستبدلوا
بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاؤوكم به من الرأي بأقوال إمامكم وإمامهم وقدوتكم
وقدوتهم وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله - ﷺ .

دعوا كل قول عند قول محمد فما آبن في دينه كمخاطر

اللهم هادي الضال، ومرشد التائه، وموضح السبيل، اهدنا إلى الحق وأرشدنا إلى
الصواب، وأوضح لنا منهج الهداية. أهـ

قال السعدي^(٢):

«اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ» وهم علمائهم «وَرَهْبَانَهُمْ» أي : العُباد المتمردين للعبادة
«أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» يُحْلُونَ لهم ما حرم الله فيحلونه، ويحرّمون لهم ما أحل الله
فيحرّمونه ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.

(١) «فتح القدير للشوكاني» ٢/ ٣٧٢. (٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٢/ ٢٣٤).

وكانوا أيضاً يغفلون فى مشايخهم وعبادهم، ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله، وتقصد بالذبايح، والدعاء والا ستغاة أهـ .

● ماجاء من كلام الشراح فى الآية

قال سليمان آل الشيخ^(١): فمعنى التوحيد - من الآية - وشهادة أن لا إله إلا الله يقتضى إفراد الله بالطاعة، وإفراد الرسول بالمطاعة، فإن من أطاع الرسول ﷺ فقد أطاع الله، وهذا أعظم مايبين التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، لأنها تقتضى نفى الشرك فى الطاعة فما ظنك بشرك العبادة؟ كالدعاء والاستعانة والتوبة وسؤال الشفاعة وغير ذلك من أنواع الشرك فى العبادة، وسيأتى مزيد لهذا إن شاء الله تعالى فى باب من أطاع العلماء . والأمرأه . أهـ .

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢) بعد أن ذكر حديث عدى: فصارت طاعتهم فى المعصية عبادة لغير الله، وبها اتخذوهم أرباباً كما هو الواقع فى هذه الأمة وهذا من الشرك الأكبر المنافى للتوحيد الذى هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله.

فتبين بهذه الآية أن كلمة الإخلاص نفت هذا كله لمنافاته لمدلول هذه الكلمة. فأثبتوا مانفته من الشرك وتركوا ما أثبتته من التوحيد. أهـ .

قال ابن باز^(٣): بين أن هذا شرك بالله، وأن التوحيد هو أن لا يعبد إلا الله، لاراهب ولا حبر، ولا نبى، ولا صالح، خلافاً لما فعله اليهود من اتخاذ الأحرار، والنصارى من اتخاذ الرهبان أرباباً - ثم ذكر جزء من حديث عدى - وفيه «فلك عبادتهم»^(٤) ويصير بذلك مشركاً كما قال بعد ذلك (سبحانه عما يشركون) .

فائدة : بالنسبة لأصحاب القبور فقد اتخذهم القبورين آلهة من دون الله والواجب أن يبين لهم الحق لأن عملهم كفر من أعظم الكفر ولكن لا يقتلون بل يبين لهم الحق لإقامة الحجة عليهم فإن أصروا قتلوا إن يسر الله من يقيم ذلك عليهم أ.هـ .

قال صاحب «فضل الغنى الحميد»^(٥) - بعد أن ذكر كلام ابن كثير المتقدم - من المعلوم أن قضية إفراد الله بالحكم وحده لاشريك له من أهم قضايا العقيدة، وركن من أركان التوحيد، ومخالفتها من أعظم أسباب الشرك على ظهر الأرض، وقد بينت هذه الآية الكريمة أن الحكم، والتشريع، والتحليل، والتحريم، من أخص معانى الربوبية، كما سبق بيانها، ويبين الرسول ﷺ أن المطاعة على الحكم عبادة، وأن التعبد لله بالتحاكم

(٢) «فتح المجيد» (١/ ١٢٣).

(٤) تقدم تخريجه .

(١) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٤، ١٠٥).

(٣) التعليق المفيد (٥٨، ٥٩).

(٥) فضل الغنى الحميد (١٥٦: ١٧٦).

إلى شرعه: توحيد، ومخالفة ذلك : شرك، وككل قضايا العقيدة والتوحيد كثر ذكر هذه المسألة في كتاب الله عزوجل .

قال تعالى مبيناً أن من اتخذ أحداً مشرعاً فقد جعله الله شريكاً، سواء كانوا أفراداً، أو جماعة، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (١) وذم المشركين من قريش أعظم الذم في شأن تشريعات وضعوها من قبل أنفسهم في أمر بعض الزروع والبهائم، فقال : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لَذُكُورِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِيتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلِ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلِ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢) .

فانظر كيف حكم الله بظلمهم، وشركهم، وضلالهم، من أجل تشريعات البهائم، فكيف بتشريعات البشر في دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، وأبضاعهم، . وهم الذين كرمهم الله تعالى ؟! نعوذ بالله من الشرك والخذلان .

وقال تعالى ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (١).

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا: فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفصحههم ويجلدون. قال عبدالله بن سلام: كذبتهم، إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدقت يا محمد فيها آية الرجم. فأمر بها رسول الله ﷺ، فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقيها الحجارة (٢).

سبحان الله ! إذا كان الله سبحانه قد حكم على اليهود، ومن حذا حذوهم بالكفر من أجل تغيير حكم الرجم إلى الجلد، والتحميم - وهو نوع عقوبة - فكيف بمن يجعل الزنا حرية شخصية إذا كان برضاء الطرفين؟!، ويرى الرجم، وأمثاله من أحكام الله، كالقطع في السرقة، والقصاص، والجلد، وغيرها - شريعة غاب، ووحشية منافية لحقوق الإنسان، ومن يطالع قانون العقوبات المصرى يرى أن ما فعله اليهود والكافرون - وهم سبب تنزيل الآيات - كان أهون بكثير مما يفعله مشرعوا زماننا.

وإليك بعض الأمثلة من قانون العقوبات المصرى:

- «مادة ٢٦٧» من واقع أنثى بغير رضاها يعاقب بالأشغال المؤبدة، أو المؤقتة (أى إن كان برضاها فلا يعاقب).

- «مادة ٢٧٣» لا يجوز محاكمة الزانية إلا بناء على دعوى زوجها، إلا إذا زنى الزوج فى المسكن المقيم فيه مع زوجته، كالمبين فى المادة ٢٧٢، فلا تسمع دعواه عليها. (يعنى إذا زنا كل منهما فى مسكن الزوجية، فلا تصح المطالبة بالمحاكمة).

- «مادة ٢٧٤» المرأة المتزوجة التى ثبت زناها يحكم عليها بالسجن لمدة لاتزيد عن سنتين، لكن لزوجها أن يوقف تنفيذ هذا الحكم برضائه معاشرتها له كما كانت.

- «مادة ٢٧٥» يعاقب أيضاً الزانى بتلك المرأة بنفس العقوبة.

- «مادة ٢٧٧» كل زوج زنى فى منزل الزوجية، وثبت عليه هذا الأمر بدعوى الزوجية يجازى بالحبس مدة لاتزيد عن ستة أشهر. (أى أنه إذا كان خارج منزل الزوجية، أو لم تطلب محاكمته فليست جريمة)، والله إنى لأدري ما أقول فى هذا الكفر البواح والشرك البين سوى : إنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(١) المائدة : (٤٤).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٨٤١) ومسلم فى الحدود (٢٠٨/١١) - (النووي).

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (١٣٤٩).

● قال الشنقيطي في «أضواء البيان»^(١): إن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على السنة وأوليائه مخالفة لما شرعه الله عز وجل على السنة رسوله ﷺ أنه لا يشك في كفرهم وشركهم، إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم.

● ثم قال رحمه الله: اعلم أنه يجب التفصيل بين النظام الوضعي الذي يقتضى تحكيمه الكفر بخالق السموات والأرض، وبين النظام الذي لا يقتضى ذلك، وإيضاح ذلك أن النظام قسمان: إداري وشرعي،

أما الإداري الذي يراد به ضبط الأمور، وإتقانها على وجه غير مخالف للشرع فهذا لا مانع فيه، كتنظيم شئون الموظفين، وتنظيم إدارة الأعمال على وجه لا يخالف الشرع^(٢)، ولا يخرج من قواعد الشرع مع مراعاة المصالح العامة.

وأما النظام الشرعي المخالف لتشريع خالق السموات والأرض فتحكيمه كفر بخالق السموات والأرض، كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصاف، وأنهما يلزم استواءهما في الميراث، وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم، والقطع، ونحوهما أعمال وحشية، ولا يسوغ فعلها بالإنسان، ونحو ذلك.

فتحكيم هذا النوع من النظام في أنفس المجتمع، وأمورهم، وأعراضهم، وأنسابهم، وعقولهم، وأبدانهم، كفر بخالق السموات والأرض، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه خالق الخلائق لها، وهو أعلم بمصالحهم، سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مشرع آخر علواً كبيراً. أهـ.

● وقال رحمه الله^(٣) في تفسير سورة الشورى: الحلال هو ما أحله الله، والحرام هو ما حرمه الله، والدين هو ما شرعه الله، فكل تشريع من غيره سبحانه باطل، والعمل بتشريع بدل تشريع الله عند من يعتقد أنه مثله أو خير منه كفر بواح لانزاع فيه، وقد دل القرآن في آيات كثيرة على أنه لاحكم لغير الله وأن اتباع تشريع غيره كفر به. أهـ.

(١) (٨٣/٤)

(٢) مع مراعاة أنه ليس من الموالة: البيع والشراء والإجارة، وعليه يتضح خطأ من زعم أن التوظيف في الوظائف الحكومية الإدارية، وأنواع الخدمات المباحة المشروعة في ضوء القواعد الشرعية لدى الحكومات الحاكمة بالقوانين الوضعية يعد شركاً، أو موالة، أو محرماً، وإنما ذلك الشرك، والكفر، والظلم في التعاون والرضا بذلك، بل إذا نوى خدمة المسلمين، وكونه في حاجتهم، فالله المستول أن يتقبل منه عملاً صالحاً مثاباً عليه في الدنيا والآخرة.

(٣) (١٦٢/٧)

● وقال رحمه الله : اعلم أن الله عزوجل بين في آيات كثيرة صفات من يستحق أن يكون الحكم له، فعلى كل عاقل أن يتأمل الصفات المذكورة، ويقابلها صفات البشر، المشرعين للقوانين الوضعية، فينظر هل تنطبق عليهم صفات من له التشريع؟

سبحان الله، تعالى عن ذلك، فإن كانت تنطبق عليهم - ولن تكون - فيتبع تشريعهم، وإن ظهر يقينا أنهم أحقر، وأخس، وأذل، وأصغر من ذلك فليقف بهم عند حدهم، ولا يجاوز بهم إلى مقام الربوبية، سبحان الله، أن يكون له شريك في عبادته، أو حكمه، أو ملكه . أهـ.

● وقال رحمه الله : «وكل تحاكم إلى غير شرع فهو تحاكم إلى الطاغوت» وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (١). فالكفر بالطاغوت الذي صرح الله بأنه أمرهم به في هذه الآية شرط في الإيمان كما بينه تعالى في قوله ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ (٢). يفهم منه أن من لم يكفر بالطاغوت؛ لم يستمسك بالعروة الوثقى، ومن لم يستمسك بها؛ فهو مترد مع الهالكين. أهـ.

● وقال رحمه الله (٣): «إن غير الله لا يتصف بصفات التحليل والتحريم، ولما كان التشريع وجميع الأحكام، شرعية، أوكونية قدرية، من خصائص الربوبية: كان كل من اتبع تشريعاً غير تشريع الله قد اتخذ ذلك المشرع رباً، وأشركه مع الله». أهـ.

● قال ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» (٤) في تفسير قوله تعالى ﴿ أَفَحُكْمَ

الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ (٥) ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم، المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ماسواه من الآراء، والأهواء، الاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات، والجهالات مما يضعونها بآرائهم، وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة من ملكهم «جنكيز خان» الذي وضع لهم «الباسق»، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية، والنصرانية، والملة الإسلامية، وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في

(٣) (٧/١٦٩)

(٢) البقرة / ٢٥٦

(١) النساء : ١٠

(٥) المائدة : ٥٠

(٤) (٢/٦٧).

عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية، والنصرانية، والملة الإسلامية، وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كافر، يجب قتاله حتي يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل أو كثير، قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أى: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن، وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها؟!، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء القادر على كل شيء، العادل في كل شيء أهـ.

● ونقل ابن كثير في «البداية والنهاية» شيئاً من سخافات هذا «الياسق» ثم قال: فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة، كفر، فكيف بمن تحاكم إلى «الياسق»، وقدمه عليه، من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين. أهـ.

● وقال أحمد محمد شاكر رحمه الله في «عمدة التفسير»^(١) تعليقاً على ابن كثير: أفيجوز - مع هذا في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوروبا الوثنية الملحدة؟ بل بتشريع تدخله الأهواء، والآراء الباطلة، يغيرونه ويبدلونه كما يشاؤون، لا يبالي واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها؟

إن المسلمين لم يبلوا بهذا قط - فيما نعلم من تاريخهم - إلا في ذلك العهد، عهد التتار، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام، ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له، بل غلب الإسلام التتار، ثم مزجهم فأدخلهم في شرعته، وزال أثر ما صنعوا بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم، وأن هذا الحكم، السىء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة، ولم يتعلموه ولم يعلموه أبناءهم، فما أسرع ما زال أثره.

أفرايتم هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير - في القرن الثامن - لذلك القانون الوضعي، الذى صنعه عدو الإسلام «جنكيز خان»؟ ألسم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر، في القرن الرابع عشر؟ إلا في فرق واحد، أشرنا إليه آنفاً: أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكام، أتى عليها الزمن سريعاً، فاندمجت في الأمة الإسلامية، وزال أثر ما صنعت.

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالاً، وأشد ظلماً وظلاماً منهم؛ لأن أكثر الأمم

الإسلامية الآن تكاد تندمج فى هذه القوانين المخالفة للشريعة، والتى هى أشبه شىء بذلك «الياسق» الذى اصطنعه رجل كافر، ظاهر الكفر، هذه القوانين التى بصطنعها ناس ينتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين، يفخرون بذلك آباء وأبناء، ثم يجعلون مرد أمرهم إلى معتنقى هذا «الياسق العصرى»! ويحقرون من يخالفهم فى ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم، وشريعتهم «رجعياً وجامداً» إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة.

بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقى فى الحكم من التشريع الإسلامى، يريدون تحويله إلى «ياسقهم الجديد» باللين تارة، وبالمكر والخديعة تارة، وبماملكت أيديهم من السلطان تارة، ويصرحون - ولا يستحيون - بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين!!!.

أفيجوز إذن - مع هذا - لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد، أعنى التشريع الجديد!! أو يجوز أن يرسل أبناءه لتعلم هذا، واعتناقه، واعتقاده، والعمل به، علماً كان الأب أو جاهلاً؟!

أو يجوز لرجل مسلم أن يلى القضاء فى ظل هذا «الياسق العصرى» وأن يعمل به، ويعرض عن شريعته السنية؟ ما أظن رجلاً مسلماً، يعرف دينه، ويؤمن به جملة وتفصيلاً، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله، كتاباً محكماً، لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبأن طاعته، وطاعة الرسول الذى جاء به واجبة، قطعية الوجوب فى كل حال - ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم غير متردد ولا متأول، بأن ولاية القضاء فى هذا الحال باطلة بطلاناً أصلياً، لا يلحقه التصحيح، ولا الإجازة.

إن الأمر فى هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هى كفر بواح، لا خفاء فيه ولا مداراة، ولا عذر لأحد ممن يتسب للإسلام - كائناً من كان - فى العمل بها، أو الخضوع لها، أو إقرارها، فليحذر امرؤ لنفسه، وكل امرئ حسيب نفسه.

ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيابين، وليبلغوا ما أمروا بتبليغه غير موانين، ولا مقصرين.

سيقول عنى عبيد هذا «الياسق العصرى» وناصروه، أنى جامد، وأنى رجعى، وما إلى ذلك من الأقاويل، ألا فليقولوا ما شاؤوا، فما عبأت يوماً ما بما يقال عنى، ولكنى قلت ما يجب أن أقول. أهـ.

● قال أحمد شاكر حفظه الله في «عمدة التفسير» ^(١): عند قوله تعالى «وَمَنْ

لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» ^(٢) اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة. وبعد، فإن أهل الريب، والفتن ممن تصدوا للكلام في زماننا هذا قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله، وفي القضاء في الدماء، والأعراض، والأموال بغير شريعة الله التي أنزل في كتابه، وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام. فلما وقف على هذين الخبرين - قول ابن عباس رضى الله عنه: كفر دون كفر، وأثر أبي مجلز - اتخذهما رأياً يرى به صواب القضاء في الأموال، والأعراض، والدماء بغير ما أنزل الله، وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفر الراضى بها، والعامل عليها.

والناظر في هذين الخبرين لا محيص له من معرفة السائل والمستول، فأبو مجلز (لاحق بن حميد السدوسي) تابعي ثقة، وكان يحب علياً رضى الله عنه، وكان قوم أبي مجلز - وهم بنو شيان - من شيعة على يوم الجمل وصفين، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين، واعتزلت الخوارج، كان فيمن خرج على على رضى الله عنه طائفة من بني شيان، ومن بني سدوس بن شيان بن ذهل. وهؤلاء الذين سألوا أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس، وهم نفر من الإباضية، والإباضية من جماعة الخوارج الحارورية، هم أصحاب عبدالله بن إياض التميمي، وهم يقولون بمقالة سائر الخوارج في التحكيم، وفي تكفير على رضى الله عنه إذ حكم الحكمين، وأن علياً لم يحكم بما أنزل الله في أمر التحكيم، ثم إن عبدالله بن إياض قال: إن من خالف الخوارج كافر، ليس بمشرك، فخالف أصحابه، وأقام الخوارج على أن أحكام المشركين تجرى على من خالفهم. ثم اختلفت الإباضية بعد عبدالله بن إياض الإمام افتراقاً، لاندرى معه - في أمر هذين الخبرين - من أى الفريقين كان هؤلاء السائلون، بيد أن الإباضية كلها تقول: إن دور مخالفهم دور توحيد إلا معسكر السلطان، فإنه دار كفر عندهم، ثم قالوا أيضاً: إن جميع ما افترض الله سبحانه على خلقه إيمان، وإن كل كبيرة فهي كفر نعمة، لا كفر شرك، وأن مرتكبي الكبائر في النار خالدون، مخلدون فيها.

ومن البين: أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية إنما كانوا يريدون أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء، لأنهم في معسكر السلطان، ولأنهم ربما عصوا، أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه، ولذلك قال لهم في الخبر الأول: «فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً»، وقال لهم في الخبر الثاني: «إنهم يعملون بما يعلمون، ويعلمون أنه ذنب»، وإذن، لم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا، من القضاء في

الأموال، والأعراض، والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام، ولا فى إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، وبالاحتكام إلى حكم غير حكم الله فى كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ فهذا الفعل إعراض عن حكم الله، ورغبة عن دينه، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم فى تكفير القائل به والداعى إليه.

والذى نحن فيه اليوم - هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء، وإيثار أحكام غير حكمه فى كتابه، وسنة نبيه ﷺ، وتعطيل لكل ما فى شريعة الله، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفصيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة، وأدعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما أنزلت لزمان غير زماننا، ولعلل، وأسباب انقضت؛ فسقطت الأحكام كلها بانقضائها، فأين هذا مما بيناه من حديث أبى مجلز والنفر من الإباضية من بنى عمرو بن سدوس؟!.

ولو كان الأمر على ما ظنوا من خبر أبى مجلز أنهم أرادوا مخالفة السلطان فى حكم من أحكام الشريعة - فإنه لم يحدث فى تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكماً، وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها. هذه واحدة.

وأخرى : أن الحاكم الذى حكم فى قضية بعينها بغير حكم الله فيها، فإنه : إما أن يكون حكم بها وهو جاهل، فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة، وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية، فهذا ذنب تناله التوبة، وتلحقه المغفرة. وإما أن يكون حكم به متأولاً حكماً خالف به سائر العلماء، فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب وسنة رسول الله ﷺ،

وأما : أن يكون كان فى زمن أبى مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء فى أمر جاحداً لحكم من أحكام الشريعة، أو مؤثراً لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام، فذلك لم يكن قط. فلا يمكن صرف كلام أبى مجلز والإباضيين إليه.

فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما فى غير بابها، وصرفهما لغير معناهما؛ رغبة فى نصرة سلطان، أو احتيالا على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله، وفرضه على عباده، فحكمه فى الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله : أن يستتاب، فإن أصر، أو كابر، أو جحد حكم الله، ورضى بتبديل الأحكام، فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين أه^(١).

● وقال ابن القيم رحمه الله فى «مدارج السالكين»^(٢) : والصحيح أن الحكم

بغير ما أنزل الله يتناول الكفر الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً - مع اعترافه، بأنه مستحق للعقوبة - فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه مخير فيه - مع تيقنه أنه حكم الله - فهذا كفر أكبر، وإن جهله، أو أخطأ، فهذا مخطيء له حكم المخطئين. أهـ.

● وقال الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية في كتابه «تحكيم القوانين»^(١): إن من الكفر الأكبر المستبين: تنزيل القانون اللعين، منزلة مانزل به الروح الأمين، على قلب رسوله ليكون من المنذرين، بلسان عربى مبين، فى الحكم به بين العالمين، والرد إليه عند تنازع المتنازعين. أهـ.

● وقال أيضاً: فانظر كيف سجل على الحاكمين بغير ما أنزل الله الكفر والظلم والفسق، من الممتنع أن يسمى الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً، ولا يكون كافراً، بل هو كافر مطلقاً، إما كفر عمل، وإما كفر اعتقاد، ومآجاء عن ابن عباس رضى الله عنه، فى تفسير هذه الآية من رواية طاوس وغيره يدل على أن الحاكم بغير ما أنزل الله كافر، إما كفر اعتقاد ناقل عن الملة، وإما كفر عمل لا ينقل عن الملة.

أما الأول، وهو كفر الاعتقاد، فهو أنواع

أحدها: أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله، وهو معنى ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه، واختاره ابن جرير، أن ذلك هو جحود ما أنزل الله من الحكم الشرعى، وهذا ما لا نزاع فيه بين أهل العلم، فإن الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم: أن من جحد أصلاً من أصول الدين، أو فرعاً مجمعاً عليه، أو أنكر حرفاً جاء به الرسول ﷺ قطعياً فإنه كافر الكفر الناقل عن الملة.

الثانى: ألا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقاً، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه، وأتم وأشمل؛ لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع، إمامطلقاً، أو بالنسبة إلى ما استجد من الحوادث التى نشأت عن تطور الزمان وتغير الأحوال، وهذا أيضاً لا ريب أنه كافر لتفضيله أحكام المخلوقين التى هى محض زبالة الأذهان، وصرف حثالة الأفكار على حكم الحكيم الحميد.

وحكم الله ورسوله لا يختلف فى ذاته باختلاف الأزمان، وتطور الأحوال، وتجدد الحوادث، فإنه ما من قضية كائنة ماكانت إلا وحكمها فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، نصاً، أو ظاهراً، أو استنباطاً، أو غير ذلك، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله، وليس معنى ما ذكره العلماء من تغير الفتوى بتغير الأحوال ما ظنه من قل نصيبهم - أو عدم - من معرفة مدارك الأحكام وعللها، حيث ظنوا أن معنى ذلك بحسب ما يلائم إرادتهم الشهوانية البهيمية، وأغراضهم الدنيوية، وتصوراتهم الخاطئة الوبية،

ولهذا تجدهم يحامون عليها، ويجعلون النصوص تابعة لها، متقادة إليها، مهما أمكنهم؛ فيحرفون لذلك الكلم عن مواضعه. وحينئذ معنى تغير الفتوى بتغير الأحوال والأزمان مراد العلماء منه: ما كان مستصحبة فيه الأصول الشرعية، والعلل المرعية، والمصالح التي جنسها مراد الله تعالى ورسوله ﷺ

ومن المعلوم أن أرباب القوانين الوضعية عن ذلك بمعزل، وأنهم لا يقولون إلا على ما يلائم مراداتهم، كائنة ما كانت والواقع أصدق شاهد.

الثالث: أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكن اعتقد أنه مثله، فهذا كالنوعين الذين قبله في كونه كافراً الكفر الناقل عن الملة؛ لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق، والمناقضة والمعاندة، لقوله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (١) ونحوها من الآيات الكريمة الدالة على تفرد الرب بالكمال، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقين في الذات، والصفات، والأفعال، والحكم بين الناس فيما يتنازعون فيه.

الرابع: أن لا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مائلاً لحكم الله ورسوله فضلاً عن أن يعتقد كونه أحسن منه، لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله، فهذا كالذي قبله يصدق عليه ما يصدق عليه؛ لاعتقاده جواز ما علم بالنصوص الصحيحة، الصريحة، القاطعة تحريمه.

الخامس: وهو أعظمها، وأشملها، وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعداداً، وإمداداً، وإرصاداً، وتأصيلًا، وتفرعًا، وتشكيلًا، وتنويعًا، وحكمًا، وإلزامًا، ومراجع ومستندات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات مرجعها كلها إلى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فلهذه المحاكم مراجع هي: القانون الملفق من شرائع شتى، وقوانين كثيرة كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكى، والقانون البريطانى، وغيرها من القوانين، من مذاهب بعض البدعيين المتسبين إلى الشريعة، ونحو ذلك.

فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيشة، مكملة، مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب، إثر أسراب، ويحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب، من أحكام ذلك القانون، وتلزمهم به، وتقرهم عليه، وتحتمه عليهم، فأى كفر فوق هذا الكفر، وأى مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة.

وذكر أدلة جميع ما قدمنا على وجه البسط معلومة، معروفة، لا يحتمل ذكرها هذا الموضع، فيا معشر العقلاء ! ويا جماعات الأذكياء وأولى النهى ! كيف ترضون أن تجرى عليكم أحكام أمثالكم، وأفكار أشباهكم، أو من هم دونك، ممن يجوز عليهم الخطأ، بل خطؤهم أكثر من صوابهم بكثير، بل لاصواب في حكمهم إلا ما هو مستمد من حكم الله ورسوله، نصاً أو استنباطاً، تدعونهم يحكمون في أنفسكم، ودمائكم، وسائر حقوقكم، ويتركون، ويرفضون أن يحكموا فيكم بحكم الله ورسوله، الذى لا يتطرق إليه الخطأ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. وخضوع الناس، ورضوخهم لحكم ربهم: خضوع، ورضوخ لحكم من خلقهم تعالى ليعبدوه، فكما لا يسجد الخلق إلا لله، ولا يعبدون إلا إياه، ولا يعبدون المخلوق، فكذلك يجب أن لا يرضخوا ولا يخضعوا، أو ينقادوا إلا لحكم الحكيم العليم الحميد، الرؤوف الرحيم، دون حكم المخلوق الظلوم الجهول، الذى أهلكته الشكوك، والشبهات، والشبهات، واستولت على قلوبهم الغفلة، والقسوة، والظلمات، فيجب على العقلاء أن يربأوا بنفوسهم عنه، لما فيه من الاستعباد لهم، والتحكم فيهم بالأهواء، والأغراض، والأخطاء، فضلاً عن كونه كفراً بنص قوله تعالى ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (١).

السادس: ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر، والقبائل من البوادي، ونحوهم من حكايات آبائهم، وأجدادهم، وعاداتهم التى يسمونها «سلوهم» يتوارثون ذلك منهم، ويحكمون به، ويحرصون على التحاكم إليه عند النزاع، إبقاءً على أحكام الجاهلية، وإعراضاً، ورغبة عن حكم الله ورسوله، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

أما القسم الثانى: من قسمى كفر الحاكم بغير ما أنزل الله - وهو الذى لا يخرج عن الملة - وذلك أن تحمله شهوته، وهواه على الحكم فى القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله: هو الحق، واعترافه على نفسه بالخطأ، ومجانبة الهدى، وهذا: وإن لم يخرج كفره عن الملة فإنه معصية عظمى، أكبر من الكبائر، كالزنا وشرب الخمر، والسرقة، واليمين الغموس، وغيرها، فإن معصية سماها الله فى كتابه كفراً أعظم من معصية لم يسمها كفراً نسأل الله أن يجمع المسلمين على التحاكم إلى كتابه، انقياداً، ورضاءً، إنه ولى ذلك والقادر عليه. أهـ.

هذه النقول السابقة من كلام أهل العلم التى تصرح بكفر من يحكم بالقوانين

الوضعية أويرضى بها أو يحتملها على الناس لابد فيها من ملاحظة أن هذا التكفير هو من جهة النوع أى أن هذا النوع من الكفر هو من الكفر الأكبر، أما من جهة المعين فالفتوى بأن فلاناً بعينه كافر لارتكابه هذا الكفر فإنما هو لأهل العلم بعد نظرهم فى استيفاء الشروط وانتفاء الموانع فى مسألة التكفير، فمن الشروط مثلاً العلم، والبلوغ، والعقل، والقصد، والتذكر، ومن موانع التكفير^(١)، الجهل الناشئ عن عدم البلاغ، والصغر، والجنون، والخطأ، والنسيان، والإكراه، فلا يصح التسرع فى تكفير المعين حتى يستيقن قيام الحجة وانتفاء العذر وليس معنى ذلك عدم تكفير معين بالمرة، بل يمكن أن يحكم على معين بالكفر والردة بعد ثبوت إتيانه للكفر، وقيام الحجة، وانتفاء الشبهة كما بينا، وقد يكون فى ثبوت الشروط وانتفاء الموانع اجتهاد واختلاف بين أهل العلم ينبغى أن يكون من الخلاف السائغ، أما الحكم العام أى من جهة النوع فلا ينبغى الاختلاف فيه أبداً لوضوح الحق بأدلته وإجماع أهل العلم عليه كما سبق بيانه من نقل الإمام ابن كثير رحمه الله .

فإن قال قائل: فما الواجب علينا شرعاً وقد علمنا حرمة التحاكم إلى المحاكم التى تحكم بالقانون الوضعى، والمسلمون ملزمون فى بلادهم بهذه القوانين قهراً؟.

قلنا : الواجب شرعاً أن يتحاكموا إلى من يحكم بينهم بحكم الكتاب والسنة من علمائهم، ولا يسعهم أن يؤخروا هذا الفرض إلى حين التطبيق المزعوم للشريعة، وهؤلاء العلماء المجتهدون، وإن لم يكن لهم القوة المادية لإلزام الناس بالأحكام أو لتطبيق كل أحكام الشريعة - أو قد يترتب مفسد من تنفيذ بعض الأحكام ربما تفوق مصلحة إقامتها - إلا أن قوة إيمان المسلم تدفعه للقبول بحكم الشرع، ولو لم يكن هناك ما يلزمه بالقوة المادية، ومع زيادة الإيمان يزداد - بإذن الله - من يطبقون هذا، ويلتزمون به من أنفسهم، وعليهم جميعاً: أن يطبقوا كل ما يقدرون عليه من الأحكام فى ضوء قاعدة المصلحة والمفسدة المرعية شرعاً، وما عجزوا عنه فلا يكلفون به ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٢) وعلى كل حال فالمسلم حين يدعو إلى التحاكم للشرع دون غيره، فقد خرج عن حكم الرضا بحكم الطاغوت، فإذا أوقف مضطراً أمام هذه المحاكم الرضعية فعليه أن يدعوهم، ويأمرهم أن يحكموا له بحقه الشرعى فقط - الذى علمه من أهل العلم - لا ما يزعمونه حقاً فى قانونهم. وكذلك من ترفع أمام هذه المحاكم لدفع الظلم عن مسلم أو

(١) تقدم شيء من هذه الموانع فى هذا الباب كالإكراه، التقية، والمداراة.

(٢) البقرة / ٢٨٦

رفعه، فعليه أن يطلب مثل ذلك. ومن يطلب هذا الحق لنفسه، أو لغيره من المسلمين، فلا جناح عليه مهما كان المطلوب منه، فإنه لم يأمر إلا بـمعروف.

وإليك ما ذكره الأئمة في مسألة التحاكم إلى أهل العلم المجتهدين، والتزام أحكامهم عند العجز عن التحاكم إلى القاضى الشرعى المعين من الخليفة المسلم:

١- قال ابن تيمية رحمه الله فى «مجموع الفتاوى» (١) «خاطب الله المؤمنين بالحدود والحقوق خطاباً مطلقاً كقوله تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ﴾ (٢). وقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ (٤) وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ ولكن قد علم أن هذا المخاطب بالفعل لا بد أن يكون قادراً عليه، والعاجزون لا يجب عليهم، وقد علم أن هذا فرض على الكفاية وهو مثل الجهاد، بل هو نوع من الجهاد فقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ (٥) وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ﴾ (٦) وقوله تعالى ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبِكُمْ﴾ (٧) ونحو ذلك، هو فرض على الكفاية من القادرين، والقدرة هى السلطان .
فلهذا وجب إقامة الحدود على ذى السلطان ونوابه والسنة أن يكون للمسلمين إمام واحد، والباقون نوابه، فإذا فرض أن الأمة خرجت عن ذلك لمعصية من بعضها، وعجز من الباقين، أو غير ذلك، فكان لها عدة أئمة: لكان يجب على كل إمام أن يقيم الحدود، ويستوفى الحقوق، ولهذا قال العلماء: إن أهل البغى ينفذ من أحكامهم ما ينفذ من أحكام أهل العدل، كذلك لو شاركوا الإمارة، وصاروا أحزاباً؛ لوجب على كل حزب فعل ذلك فى أهل طاعتهم، فهذا عند تفرق الأمراء وتعدددهم، وكذلك لو لم يتفرقوا لكن طاعتهم للأمير الكبير ليست طاعة تامة، فإن ذلك أيضاً إذا أسقط عنه إلزامهم بذلك لم يسقط عنهم القيام بذلك، بل عليهم أن يقيموا ذلك، وكذلك: لو فرض عجز بعض الأمراء عن إقامة الحدود، والحقوق، أو إضاعته لذلك، لكان ذلك الفرض على القادر عليه.

وقول من قال: لا يقيم الحدود إلا السلطان ونوابه، إذا كانوا قادرين، فاعلين بالعدل؛

(٢) المائدة: ٣٨

(٤) النور: ٤

(٦) البقرة: ١٦

(١) (١٧٥/٣٤)

(٣) النور: ٢

(٥) البقرة: ٢١٦

(٧) التوبة: ٣٩

كما يقول الفقهاء : الأمر إلى الحاكم . إنما هو العادل القادر ، فإن كان مضيعاً لأموال اليتامى ، أو عاجزاً عنها ، لم يجب تسليمها إليه مع إمكان حفظها بدونه ، وكذلك الأمير إذا كان مضيعاً للحدود ، أو عاجزاً عنها لم يجب تفويضها إليه مع إمكان إقامتها بدونه .

والأصل أن هذه الواجبات تقام على أحسن الوجوه ، فمتى أمكن إقامتها من أمير لم يحتج إلى اثنين ، ومتى لم يقم إلا بعدد ، ومن غير سلطان أقيمت إذا لم يكن فى إقامتها فساد يزيد على إضاعتها ، فإنها من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن كان فى ذلك فساد من ولاة الأمر ، أو الرعية ما يزيد على إضاعتها لم يدفع فساد بأفسد منه ، والله أعلم . أهـ .

٢- قال إمام الحرمين الجوينى فى «غياث الأمم»^(١) بعد أن فرض خلو الزمان من الإمام ، ثم عن الكفاءة ذوى الدراية ، أو كون ذى الكفاية والدراية مضطهداً ، مهضوماً ، لعدم اعتضاده بعدة ، واستعداد ، وشوكة ، فلا تثبت له الإمامة .

قال : فكيف تجرى قضايا الولايات وقد بلغ تعذرهما متهى الغايات ؟

فنقول : أما ما يسوغ استقلال الناس فيه بأنفسهم ، ولكن الأدب يقتضى فيه مطالعة ذوى الأمر ، ومراجعة مرموق العصر ، كعقد الجمع ، وجر العساكر إلى الجهاد ، واستيفاء القصاص فى النفس والطرف ، فيتولاه الناس عند خلو الدهر ، ولو سعى عند شغور الزمان طوائف من ذوى النجدة والبأس ، فى نقض الطرق ، والسعاة فى الأرض بالفساد ، فهو من أهم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإنما ينهى آحاد الناس عن شهر الأسلحة استبداداً إذا كان فى الزمان وَرَرٌ قَوَامٌ على أهل الإسلام ، فإذا خلى الزمان عن السلطان ؛ وجب البدار على حسب الإمكان إلى درء البوائق عن أهل الإيمان ، ونهياً الرعايا عن الاستقلال بأنفس من قبيل الاستحثاث على ما هو الأقرب إلى الصلاح ، والأدنى إلى النجاح ، فإن ما يتولاه السلطان من أمور السياسة أوقع ، وأجمع ، وأدفع للتنافس ، وأجمع لشتات الرأى ، وفى تمليك الرعايا أمور الدماء ، وشهر الأسلحة وجوه من الخبل لا ينكره ذو العقل ، وإذا لم يصادف الناس قواماً بأموالهم يلوذون به ، فيستحيل أن يؤمروا بالقعود عما يقتدرون عليه من دفع الفساد ، فإنهم لو تقاعدوا عن الممكن ، عم الفساد البلاد والعباد ، وإذا أمروا بالتقاعد فى قيام السلطان ، كفاهم ذو الأمر المهمات وأتاها على أقرب الجهات .

وقد قال العلماء: لو خلى الزمان عن السلطان فحق على قطان كل بلد وسكان كل قرية أن يقدموا من ذوى الأحلام والنهى، وذوى العقول والحجى من يلتزمون امتثال إشارته، وأوامره ويتتهون عن مناهيه، ومزاجره، فإنهم لولم يفعلوا ذلك ترددوا عند إمام المهلمات، وتبلدوا عند إطلال الواقعات، ولو انتدب جماعة فى قيام الإمام للغزوات، وأوغلوا فى مواطن المخافات تعين عليهم: أن ينصبوا من يرجعون إلى رأيه إذ لو لم يفعلوا ذلك تهووا فى ورطات المخافات، ولم يستمروا فى شىء من الحالات.

ومما يجب الاعتناء به أمور الولايات التى كانت منوطة بالولاية كتزويج الأيامى، والقيام بأموال الأيتام، فأقول: ذهب بعض أئمة الفقه إلى أن ما يتعلق بالولاية: تزويج الأيامى، فمذهب الشافعى رضى الله عنه، وطوائف من العلماء أن: الحرة البالغة، العاقلة لا تزوج نفسها، فإن كان لها ولى: زوجها، وإلا فالسلطان ولى من لا ولى له، فإذا لم يكن لها ولى حاضر، وشغل الزمان عن السلطان فتعلم قطعاً أن حسم باب النكاح محال فى الشريعة، ومن أبدى فى ذلك تشككاً فليس على بصيرة بوضع الشرع، والمصير إلى سد باب المناكح يضاهى الذهاب إلى تحريم الاكتساب كما سيأتى القول فى ذلك فى الركن الأخير فى الكتاب إن شاء الله عزوجل - وهذا مقطوع به، لا مرأى فيه، فليقطع النظر وراء ذلك فى تفصيل التزويج، فأقول: إن كان فى الزمان عالم، يتعين الرجوع إليه فى تفاصيل النقض، والإبرام، ومآخذ الأحكام، فهو الذى يتولى المناكح التى كانت يتولاها السلطان إذا كان.

وقد اختلف قول الشافعى - رحمه الله عليه - فى أن من حكم مجتهداً فى زمان قيام الإمام بأحكام أهل الإسلام، فهل ينفذ ما حكم به المحكم، فأحد قولي، وهو ظاهر مذهب أبى حنيفة: أن ينفذ من حكمه ما ينفذ من حكم القاضى - الذى يتولى منصبه من تولية الإمام، وهذا قول مجتهد فى القياس لست أرى الإطالة بذكر توجيهه، وغرضى منه: إذا انقضى المصير إلى تنفيذ أمر محكم من المفتين فى استمرار الإمامة، وإطراد الولاية، والزعامة مع تردد، وتحرى، واجتهاد، وتأخى، فإذا خلى الزمان، وتحقق موجب الشرع على القطع والبت، واستحالة تعطيل المناكح، فالذى كان نفوذه من أمر المحكم مجتهداً فيه فى قيام الإمام يصير مقطوعاً به فى شغور الأيام، وهذا إذا صادفنا عالماً يتعين الرجوع إلى علمه، ويجب اتباع حكمه أهـ.

قال الفقير :

قوله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كما تقدم من كلام أهل العلم

أن علاقة هذه الآية بـ (لا إله إلا الله) أنها صرف الأمر والحكم لله كما قال العلماء فى تفسير معنى العبادة المتضمن لهذه الكلمة هى الأوامر والنواهى فلانصرف الأمر والنهى والحكم والتشريع إلا لأمره وحكمه، لذلك ناسب أن يفسر لا إله إلا الله من خلال قوله ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ ومعنى الخبر كما فى قوله تعالى ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ وكما فى قوله ﴿يَحْكُمُ بِهِا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ فالأحبار هم علماء اليهود والرهبان عباد النصارى، وأرباباً: أى إلهة من دون الله والرسول ﷺ فسر ذلك من خلال حديث عدى بن حاتم الطائى وهو فى المسند والترمذى كماتقدم.

فهم حللوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله وهذا فى الواقع كثير، فالتحليل والتحريم بالهوى المخالف لأمر الله، مثل: الربا، والغناء، والتصوير، والتبرج، وعبادة القبور وكذلك حرموا أشياء حلال مثل الختان، والنقاب، واللحية، وغير ذلك . والناس يتبعوهم وهذا الاتباع هو العبادة بعينها.

وقد ذكرنا ذلك فى الباب الأول ودللنا عليها من خلال سورة يوسف ﴿إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ الْإِتْعَادُ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فالحكم هو العبادة فتتحاكم لغيره فأت عابد لغيره..

وذكرنا صور للعبادة مثل عبادة الشيطان . وهى كانت بالطاعة وليست بالمناسك مثل ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ وكذلك عبادة فرعون عبادة طاعة له «فاستخف قومه فأطاعوه» فكانت عبادته هى طاعته وغير ذلك من الصور. التى تؤكد أن العبادة هى الأمر والنهى وأن الأمر والنهى هما العبادة .

وقد قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فالخالق هو الذى يحكم ويأمر فى خلقه ومن حال دون هذا الأمر فقد ضاد الله فى أمره والنبي ﷺ قال: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى ملكه أو أمره» وهو عند أبى داود والحاكم.

فالمضادة فى الأمر والملك بمجرد أن عطل حدا وليس بتبديل أو تعطيل أو جحود إنما بمجرد شفاعته، فما الظن بالمعطل بالكلية فهو مضاد لله فى ألوهيته وربوبيته كما تقول قوله تعالى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، وكما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ ومع ذلك هم تحاكموا فكان إيمانهم بالطاغوت هو التحاكم والكفر بالله هو التحاكم لغيره.

هذا وقد قال ابن القيم فى تفسيره الجامع لمعنى الطاغوت: «هو ما تجاوز العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع» لذلك ناسب أن يذكر المصنف الآية «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ» فهم قالوا ذلك ولكن لم يعلموا بمقتضياتها أو علموا ولم يعملوا بها كما تقدم معنا فى حديث بعث معاذ لليمن «إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه لا إله إلا الله»^(١) بالرغم من أنهم أهل كتاب يقولون لا إله إلا الله لذلك عقب الشيخ فى مسائله أنه يحتمل أن يقولها ولا يفهم معناها أولاً يعمل بمقتضاها فكان مناسب أن يؤكد فى باب تفسير التوحيد صرف الأمر والنهى والحكم والتشريع لله من الآية «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ» ..

مسألة: -

متى يكون اتخاذ الأحرار والرهبان مكفر ومتى يكون كبيرة أو معصية أعنى متى تخرج هذه العبادة عن الملة ومتى لاتخرج من الملة؟

الطاعة إما أن تكون منبعها شهوة أو تكون منبعها إباء واستكبار فالأولى معصية والثانية كفر وقد ضربنا مثلاً بمعصية آدم وإبليس وقد كفر إبليس ولم يكفر آدم لأن معصية آدم عن شهوة الخلد والملك قال تعالى: «وقال ما نهاكما ربكما عن تلكم الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين» فهما فى أول الأمر قالوا سمعنا واطعنا ثم بوساوس إبليس أكلوا ثم ندموا بعد ذلك وقالوا: «ربنا ظلمنا أنفسنا ورن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» أما إبليس لم يندم وقال: «أنظرنى إلى يوم يبعثون...» فهو مصر على ما هو عليه ليوم البعث لأنه فى إباء واستكبار فليس قابل للحكم فى هذا الأمر، حيث رده بقوله «ءأسجد لمن خلقت طيناً» وقوله «قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين» فنفرق بين هذين الأمرين فإذا جاء رجل مدخن أو امرأة متبرجة، مثلاً، فسألا عن حكم القمار أو مشاهدة الأفلام أو التبرج والتدخين فإذا قلنا له الأدلة على تحريم القمار أو مشاهدة الأفلام أو التبرج أو التدخين فقال أنا مقتنع بما تقولون، لكن الشهوة غلبت علينا .

فهذا المدخن أو هذه المتبرجة أو أى عاصٍ أو عاصية على هذه الصورة لانقول أنه أبى وكفر، بخلاف من نقول له أن هذا حرام بعد ما أقيمت عليه الحجة يقول هذا حلال ورد أمر الله حتى لو لم يفعل هذا الأمر فهو كافر وأطاع هواه طاعة مخرجة عن الملة .

(١) تقدم تخريجه .

ويجد أن الكفر المخرج له علاقة بالاعتقاد في القلب مثل الرد والإباء والاستكبار. قال ابن تيمية فيما ذكره الشارح في الكتاب : وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً. حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله. وتحريم ما أحل الله، يكونون على وجهين : [أحدهما] أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل فيعتقدون تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم، فكان من اتبع غيرهم في خلاف الدين، مع علمه أنه خلافاً للدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء.

[الثاني] أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : «إنما الطاعة في المعروف» المحلل للحرام إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول لكن خفى عليه الحق في نفس الأمور، وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذ الله بخطئه، بل يشبهه على اجتتهاده الذي أطاع به ربه ولكن من علم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لاسيما إن اتبع في ذلك هواه ونصره باليد واللسان، مع علمه أنه مخالف للرسول. فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه.

ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال، وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذي يعلمه، فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه، وهؤلاء كالنجاشي وغيره، وقد أنزل الله في هؤلاء الآيات من كتابه كقوله تعالى ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم﴾ وقوله ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾ وقوله ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما يقدر عليه مثله، من الاجتهاد في التقليد، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القبله.

وأما من قلد شخصاً دون نظيره لمجرد هواه، ونصره بيديه ولسانه من غير علم أن معه الحق، فهذا من أهل الجاهلية، وإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً كمن قال في القرآن برأيه، فإن أصاب فقد أخطأ وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار، وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد، ومن

جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميسة فإن ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبداً له، وكذلك هؤلاء، فيكون فيهم أصغر، ولهم من الوعيد بحسب ذلك.

وفى الحديث «إن يسير الرياء شرك»^(١) وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب . أهـ.

قال السدى : استنصحو الرجال وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم^(٢).

فلا يبقى إلا شيخ لا يعلم الفرق بين الغسل الواجب والكامل ولا شيء من العلم الواجب والناس يسألون هذا الشيخ فيتجراً على الفتوى بغير علم فيُضِلُّ ويُضِلُّ.

فمن اعتقد أن ما قاله هذا الشيخ مخالفة لما جاءت به الشريعة ومع ذلك يتبعه على هذه المخالفة ففيه شبه بهؤلاء الذى ذمهم الله من اليهود الذين أشركوا مع الله الأحبار، ولهذا قال ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ فلم يمتثلوا وعبدوا معه الرهبان والأحبار، وقال ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فالذى يفترى على الرسول الكذب يتبوا مقعده من النار وهو حديث متواتر فالذى يكذب على الله فماذا يفعل به ؟!

أما الذى يتبع الأحبار والرهبان وهو يعلم خطئهم ولم يتبعهم إلا عن هوى ولشهوة ما فهو كمن فعل ذلك ابتداءً من غير اتباع لهم فهى معاصى أو كبائر ولو كانت ربا مثلاً ولا تكن كفرة كما ثبت عن النبى «إنما الطاعة فى المعروف»^(٣) كما هو القول فى طاعة الأمراء الذين طاعتهم واجبه لكن ليس بإطلاق وإنما فى المعروف كما قال تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ فطاعة الله والرسول مطلقة أما أولى الأمر فلم يقل وأطيعوا أولى الأمر منكم وذكرنا حديث عبد الله بن حذافة السهمى فى البخارى فى تفسير هذه الآية عندما جد بهم السير فقال لهم أنا من أولى الأمر عليكم فأطيعونى فاجمعوا خطبا وأوقدوا فيه النار وأدخلوا فيها فهموا أن يدخلوا إلا أنهم قالوا منها فررتم فنتنظر حتى نأتى الرسول ﷺ فقال: «لو دخلتموها ماخرجتم منها إلى يوم القيامة إنما الطاعة فى المعروف»^(٤) فالمتبع للعالم عن شهوة فهى معصية ولكنها مضعفة حيث ضم فيها معصيتين الطاعة فى المعصية والمعصية نفسها.

(١) [ضعيف] أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩) عن عمر به بإسناد فيه ضعف.

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٢٥٧).

قال شيخ الإسلام في الشرح^(١): «ثم ذلك المحرم للحلال.. إن كان مجتهداً قصده إتباع الرسول لكن خفى عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع، فلهذا لا يؤاخذ الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه...»

ففي الحالة الأولى: مثل قول ابن حزم: بتضعيف حديث المعازف الذي في «الصحيح»^(٢) وقال: أنه مرسل أو معلق - إلا أنه ثبت مسنداً عند أبي داود وغيره - وأحل ابن حزم الغناء بناء على أنه ليس هناك حديث عن النبي ﷺ يحرم الغناء واجتهد وأخطأ، ومثل: أبي حنيفة فإنه جوز الزواج من غير ولى في بعض الصور وهذا مانتبعه في مصر والفتاة تتزوج من غير أب. فهنا أبو حنيفة كان قصده اتباع الرسول ﷺ ولم يكن صح عنه حديث «الانكاح إلا بولي»^(٣) ورده بأصول معينة، وضم لذلك «الثيب أحق بنفسها والبركر تستأمر»^(٤).

قال معنى أحق بنفسها: أى يمكن تزوج نفسها. فلو كان الولي شرطاً: لكان في كل حالة - الثيب والبركر - ولكنه لم يشترطه للثيب فكذلك لم يشترط أن يكون للبركر ولى فهو اجتهد - ما استطاع - ولكنه أخطأ فهو مأجور، وليس كافر، أو أثم. ولكن يبقى على التابع للمذهب أن يكون له موقف من هذا رأى الفقهي.

وهو إن علم أنه أخطأ ثم اتبعه وتحول عن قول الرسول وهو يعلم ذلك يقيناً فهذا له نصيب من الشرك الذى ذكره الله في الآية قال شيخ الإسلام: وعدل عن قول الرسول فهذا له نصيب من هذا الشرك الذى ذمه الله، لاسيما إن اتبع في ذلك هواه.

وهذه النصيحة لكل طالب العلم وخاصة هؤلاء المتعصبين لمذاهبهم أو لشيوخ معينين «لهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه»

وهذا مؤدى ما قاله الإمام الشافعى حيث قال: أجمع المسلمون على أنه من استبان له سنة عن رسول الله ﷺ فلا يحل له أن يتركها لقول أحد من الناس كائناً من كان.

فقول شيخ الإسلام: «إنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال»

بمعنى أنك قادر على البحث والنظر والاجتهاد فلا يجوز لك التقليد وهذا الكلام ليس لنا فنحن لسنا أهل للنظر والاجتهاد.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٠، ٧١) مختصراً وأنظر فتح المجيد (١/ ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠).

(٢) علقه البخارى (٥٥٩٠) وانظر «بلوغ المرام» - بتخريجنا.

(٣) [صحيح] أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٣٩٤)، وأبو داود (٢٠٨٥)، والترمذى (١١٠١)، وابن

ماجه (١٨٨١) عن أبي موسى به.

وانظر «السلبيل» (٢٠٢٠ - بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم في النكاح (٩/ ٢٠٤ - النووي) عن ابن عباس به.

وانظر «السلبيل» (٢٠١٤ - بتخريجنا).

ثم قال: «وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذي يعلمه»

فمثال ذلك في العمل أو المدرسة أو المسجد فعالم بالحق ولا يستطيع إظهاره لخوف أو لأي سبب آخر مثل أن لا يكون عنده حسن بيان، لكن الظاهر من كلام شيخ الإسلام أن يكون العجز سببه الخوف.

فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى - كالتنجاشى - فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه - «لا يكلف الله...» - وقد أنزل فيهم «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم» وقال: «وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع فما عرفوا من الحق». وقوله «ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»، وأما إن كان المتبع - الذيل للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل ما يقدر عليه من الاجتهاد في التقليد، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القبلة... ما معنى الاجتهاد في التقليد يعنى جاء وسأل الشيخ فلان عن حاجته فقال افعله فسأل آخر فقال لا تفعله فسأل ثالث فقال يجوز تفعله أولاً تفعله وسأل سبعين من العلماء واجتهد على قدر المستطاع فهذا معناه الاجتهاد في التقليد فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القبلة عندما ضل الصحابة في تحدد اتجاه القبلة واجتهدوا فأصبحوا وقد صلوا إلى غير القبلة^(١).

فالنبي ﷺ لم يؤاخذهم: فأجزأتهم صلاتهم، ولم يأمرهم بالإعادة؛

لأنهم فعلوا ما يقدر عليه مثلهم، وهذا فيه رد على سؤال من يقول أننا إذا كنا لا نعمل في حزبية ولا جماعات ولا طريقة ولكننا سنعمل عمل جماعى لأن النبى نادانا بذلك فمن المفترض أن يكون لهذا العمل منظم أو قائد؟ فالجواب أن المنظم والقائد هو الإمام الأكبر النبى ﷺ لأن هؤلاء الناس تركوا الجماعات وتمسكوا. بجماعة الرسول ﷺ التى أمرنا بلزومها «عليكم بستی وستة الخلفاء الراشدين عضوا عليها بالنواجذ»^(٢) ولما قال «تفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار إلا واحده هى ماكانت على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى»^(٣) فى هذه الحالة الجماعة هذه زعيمهم النبى ﷺ فلسنا فى حاجة إلى منظم ولا مسئول ولا إمام ولا مرشد ولكن لنا مرشد عام للناس كلهم هو النبى ﷺ.

سؤال : فإن قال : أنا لا أعرف كلام النبى ﷺ وأجهله فلا بد من واسطة ينقل لى عنه لأننى لست مؤهل ؟

(١) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٣٤٥)، وابن ماجه (١٠٢٠) عن عبد الله بن عامر به.

وانظر «السلييل» (٣٥٦) - بتخريجنا).

(٢) تقدم تخريجه. (٣) تقدم تخريجه.

الجواب : الواسطة هم أهل العلم ولم يخرجوا عن هذه الجماعة التى جاء الحديث بالخص على لزومها فقال : « تلزم جماعة المسلمين وإمامهم »^(١) فمن معانى الجماعة أيضاً أنهم أهل العلم فإذا أنت تذهب لأهل العلم وتلزمهم لينقلوا لك عن النبى ﷺ . سؤال فإن قال : وأين أهل العلم الآن ؟! فإننى رأيت أهل العلم متحيزين وغالباً ما يكون تبع جماعة كذا أو كذا؟

الجواب : أنك تذهب لكل من عرفت أنه من أهل العلم وتجتهد فى التقليد، وتنظر بغير هوى ولا عصبية، وترى من هو أقرب هؤلاء للحق، فإذا وصلت لهذه المسألة واتبعت أحد العلماء وأخطأت فلا تؤاخذ.

قال شيخ الإسلام : وأما من قلد شخصاً دون نظيره لمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق فهذا من أهل الجاهلية .

وهذا يبين مدى الوسطية فى الجواب عن السؤال السابق، وهو أن تسأل كل من تسمع عنه أنه من أهل العلم ولا تقول سأسأل فلان دون فلان : لأن معنى ذلك أنك فى نفسك عصبية وهوى لمن تسأله طالما أنهم مثل بعض

فكون أن تفرق بين مثليين فهذا مردود عقلاً إلا إذا كان عندك سبب شرعى بأن تقول أن هذا أعلم من هذا وهذا خلاف الصورة السابقة .

لهذا قال شيخ الإسلام : « فهذا من أهل الجاهلية »

مثلاً انتصر المهاجرى للمهاجرين والأنصارى للأنصار فقال ياللمهاجرين . وقال الآخر : ياللأنصار

وهذا حلف إسلامى سماه الله بذلك وهذا حلف إسلامى سماه الله والرسول بذلك، لكن لما حصل أنهم مالوا للهوى ونصروا باليد واللسان وضربوا بعضهم فهذه جاهلية فقال النبى ﷺ : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ذروها فإنها متنة ذروها فإنها خبيثة »^(٢) وأنت تشم النتن من هذه العصبية الجاهلية من بعض طلبة العلم الذين تعصبوا لشييوخهم، واتبعوهم من غير علم أنهم معهم الحق أم لا . كما قال الشاعر الجاهلى : أنهم لا يسألون أخاهم إذا دعاهم فى نادبات على ما قال برهاناً .

كما كان المبدأ الجاهلى السائد : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً

(١) [صحيح] أخرجه البخارى انظر تخريجه فى حاشيتنا على شرح الورقات ط نزار الباز .

(٢) تقدم تخريجه .

وربما يقول قائل ما المانع أن شيخى مصيب وأنا اتبعه؟

الجواب : وإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً ويمكن يسئ لشيخه وينفر الناس منه لأن العصية العمياء تنفر كثيراً من المعتدلين عن كثير من المشايخ.

وقول شيخ الإسلام «وأن كان متبوعه مخطئاً كان أثماً فمن قال فى القرآن برأيه أخطأ وإن أصاب وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار وهؤلاء من جنس مانعى الزكاة. الذى تقدم فيه الوعيد، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميسة، فإن ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبداً له، وكذلك هؤلاء، فيكون فيهم أصغر، ولهم من الوعيد بحسب ذلك» .

قلت: وكذلك هؤلاء لما طغى عليهم حب المشايخ والمذهب صاروا فى طاعتهم حتى لو كانت هذه الطاعة فى معصية الله وهم الذين قال الله فيهم «اتخذوا» فهذه هى المحبة الغير شرعية لذلك ناسب أن يذكر الآية التى بعدها «ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله» فأهل السنة مع جهم للمشايخ فإذا أخطأوا لم يتبعوهم ولم يؤثموهم ويقروا بمحبتهم مع تخطئهم

مثل: كلام ابن القيم لأبى إسماعيل الهروى: هو شيخ الإسلام حبيب إلى قلوبنا، ولكن الحق أحب إلينا منه «والذين أمنوا أشد حبا لله» فالنذية فى الطاعة سببها محبة

واتخاذ الأبحار والرهبان سببه محبة ممقوته وعصية ممقوته أعمتهم إلا عن طاعة هؤلاء . فتعسوا، والتعاسة هى عدم الوصول للمراد وعدم الوصول لرضا الله، فلا نال مراد ولا أراضى ربه وهذا هو المتعوس، وهؤلاء ادعى عليهم الرسول ﷺ بعد أن وبخهم بأنهم فى خبث وفتن، ودعى عليهم ألا يشفيهم الله حتى من هذه الشوكة وغير ذلك من الوعيد الذى حصل لهم (بسبب اتخاذهم مشرع من دون الله ووقعهم من ذلك فى شرك).

قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٥) وَكَذَلِكَ زَيْنَ لَكُنْهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٦) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حَجَرٌ لَا يَضَعُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ﴾ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (١).

* مناسبة الآية للباب :-

قال سليمان آل الشيخ (٢) :- من الأمور المبينة لتفسير التوحيد «شهادة أن لا إله إلا الله، آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ وذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند حباً أكبر من حب الله؟! فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟!

قلت - يعنى سليمان آل الشيخ - : مراده أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، هو إفراد الله بأصل الحب الذى يستلزم إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وعلى قدر التفاضل فى هذا الأصل. وما ينبى عليه من الأعمال الصالحة يكون تفاضل الإيمان والجزاء عليه فى الآخرة.

فمن أشرك بالله تعالى فى ذلك فهو المشرك، لهذه الآية: أخبر تعالى عن أهل هذا الشرك أنهم يقولون لآلهتهم فى الجحيم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ومعلوم أنهم ما ساووه به فى الخلق والرزق والملك، وإنما ساووه به فى المحبة والإلهية والتعظيم والطاعة.

فمن قال لا إله إلا الله وهو مشرك بالله فى هذه المحبة، فما قالها حق القول وإن نطق بها، إذ هو قد خالفها بالعمل، كما قال المصنف فكيف بمن أحب الند حباً أكبر من حب الله؟ وسيأتى الكلام على هذه الآية فى بابها إن شاء الله تعالى أهـ.

قال عبدالله بن جار الله (٣): أن من أشرك مع الله غيره فى المحبة فقد جعله شريكاً لله فى العبادة وذلك هو الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

قال ابن عثيمين (٤): الشاهد من هذه الآية أن الله جعل هؤلاء الذين سواوا محبة الله بمحبة غيره مشركين جاعلين لله أنداداً. أهـ.

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٥).

(١) البقرة : ١٦٥ .

(٣) «الجامع الفريد» (٣٥).

(٤) «القول المفيد» (١/ ١٩٤).

وقال القرعاوى^(١): حيث دلت الآية على أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله هو أفراد الله بأصل الحب الذي يستلزم إخلاص العبادة جميعاً لله. أهـ.

* مناسبة الآية للتوحيد:

قال الفخر الرازى^(٢): اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قرر التوحيد بالدلائل القاهرة القاطعة أردف ذلك بتقبيح ما يضاد التوحيد لأن تقبيح ضد الشيء مما يؤكد حسن الشيء ولذلك قال الشاعر: وبضدها تبين الأشياء.

وقالوا أيضاً: النعمة مجهولة. فإذا فقدت عرفت، والناس لا يعرفون قدر الصحة، فإذا مرضوا ثم عادة الصحة إليهم عرفوا قدرها. وكذا القول فى جميع النعم، فلهذا السبب أردف الله تعالى الآية الدالة على التوحيد بهذه الآية. أهـ.

قلت: وبهذا يظهر مناسبة الآية للتوحيد وهى تبينه بضده كما تقدم.

* مناسبة الآية للتي قبلها: أن أصل كلمة الرهبان والأخبار محبتهم كما سيأتى

عن السدى وغيره بمعناه.

* الإعراب^(٣):

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾.

الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان أن بعض الناس لم يعتقد الوجدانية بعد أن ثبت بالدليل القاطع، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. أهـ.

قوله: ﴿مَنْ يَتَّخِذْ﴾.

﴿مَنْ﴾ اسم موصول فى محل رفع مبتدأ مؤخر، أو نكرة موصوفة فى محل رفع مبتدأ مؤخر ﴿يَتَّخِذْ﴾ الجملة الفعلية لامحل لها؛ لأنها صلة الموصول أو صفة لـ «مَنْ» وفاعل يتخذ ضمير مستتر تقديره هو يعود على لفظ مَنْ. أهـ.

قوله: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً﴾.

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلقان بـ «يَتَّخِذْ» ﴿أَنْدَاداً﴾ مفعول به أ. هـ.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً﴾

- روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال: قلت يارسول الله أى الذنب أعظم؟ قال «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»^(٤).

(١) الجديد (٧٧).

(٢) الفخر الرازى (٢/٣/٢٢٦).

(٣) الإعراب (١/٢٣٠).

(٤) تقدم تخريجه.

قال ابن جرير^(١): الند: العدل، والمثل، كما قال حسان بن ثابت:

أنهجه ولسنت له بند
فشركما لخير كما الفداء
وعن مجاهد: «أنداداً» عدلاء^(٢).

وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة: أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله^(٣).

وعن ابن زيد: الآلهة التي جعلوها معه، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له^(٤).

وعن ابن عباس: أشباهها^(٥).

وعن عكرمة: شريكاً^(٦). أهـ.

وعن عكرمة أيضاً: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا» أى شركاء^(٦).

وزاد ابن أبى حاتم في تفسيره: بسنده عن أبى العالية: «أنداداً» أوثاناً^(٧).

وبسنده عن أبى مالك: شركاء. أهـ.

وقال البغوى^(٨): «أنداداً» أى أصناماً يعبدونها. ا.هـ.

وقال الفخر الرازى^(٩): واختلفوا فى المراد بالأنداد على أقوال.

أحدها أنها هى الأوثان التى اتخذوها آلهة لتقريبهم إلى الله زلفى، ورجوا من عندها النفع والضرر. وقصدها بالمسائل، ونذروا لها النذور، وقربوا لها القرابين، وهو قول أكثر المفسرين.

وعلى هذا الأصنام أنداداً بعضها لبعض، أى أمثال ليس إنها أندادا لله، أو المعنى: إنها أنداد لله تعالى بحسب ظنونهم الفاسدة.

(١) تفسير الطبرى «١/١٢٦، ١٢٧»، (٢/٢/٤٠).

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق. وذكره السيوطى فى «الدر» (١/٧٧) وزاد نسبته لوكيع،

وعبد بن حميد.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق. وذكره السيوطى فى «الدر» (١/٧٦) وانظر «فتح القدير»

(٣٢٣ - بتخریجنا).

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق. وذكره السيوطى فى «الدر» (١/٧٦) وزاد نسبته لابن أبى

حاتم، وانظر «فتح القدير» (٣٢٢).

(٦) أخرجه ابن جرير (٢/٤٠) وذكره السيوطى فى «الدر» (١/٣٠٤) ونسبه لعبد بن حميد.

(٧) «تفسير ابن أبى حاتم» (١/٢٧٦).

(٨) «معالم التنزيل» (١/١٩١).

(٩) «التفسير الكبير» (٢/٢٢٦، ٢٢٧).

(وثانيها) إنهم السادة الذين كانوا يطيعونهم فيحلون لمكان طاعتهم ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، وهو قول عن السدى.

والقائلون بهذا القول رجحوا هذا القول على الأول من وجوه:

(الأول) أن قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الهاء والميم فيه ضمير العقلاء.

(الثاني) أنه يبعد أنهم كانوا يحبون الأصنام كمحبتهم الله تعالى مع علمهم بأنها لاتضر ولا تنفع.

(الثالث) أن الله تعالى ذكر بعد هذه الآية ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا...﴾ وذلك لا يليق إلا بمن اتخذ الرجال أنداداً وأمثالا لله تعالى، يلتزمون من تعظيمهم والانقياد لهم، ما يلتزمه المؤمنون من الانقياد لله تعالى.

القول الثالث: فى تفسير الأنداد قول الصوفية والعارفين، وهو أن كل شيء شغلت قلبك به سوى الله تعالى، فقد جعلته فى قلبك ندأ لله تعالى وهو المراد من قوله ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أه.

* خلاصة ما جاء فى الأنداد:

[قلت]: اختلف اختلاف تنوع فى المراد بالأنداد على ثمانية أقوال، وهى:

(١) عدلاء	(٢) الآلهة	(٣) أشباهاً	(٤) شركاء
(٥) أوثاناً	(٦) أصناماً	(٧) سادة	(٨) كل ما

يشغل عن القلب سوى الله.

وتقدم ذكر من قال بذلك ولا يبعد أن يكون الجميع مراد من الآية. والله أعلم.

* فائدة (١):

﴿دُونِ﴾ ظرف للمكان وهو نقيض فوق، نحو هو دونه أى أخط منه رتبة أو منزلة، ويأتى بمعنى أمام نحو: الشيء دونك أى أمامك، وبمعنى وراء نحو: قعد دون الصف. أى وراءه، وقد يأتى بمعنى ردى وخسيس فلا يكون ظرفاً، نحو: هذا شيء دون، وهو حيثنذ يتصرف فى وجوه الإعراب. ويأتى بمعنى غير كما فى الآية، وأكثر ما يستعمل حيثنذ مجروراً بمن. أه.

قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾.

﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ فعل مضارع مرفوع وفاعل ومفعول به والجملة الفعلية صفة لأنداداً أو

حال من الضمير المستكن فى يتخذ ﴿كَحَبِ اللَّهِ﴾ الكاف ومجرورها فى موضع نصب صفة لمصدر محذوف فهو مفعول مطلق ويجوز الإعراب حالاً وقد رجحه سيويه والمصدر مضاف إلى مفعوله (١).

قال ابن جرير (٢): وإن الذين اتخذوا هذه الأنداد من دون الله يحبون أندادهم كحب المؤمنين الله. أهـ.

وعن عكرمة ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحَبِ اللَّهِ﴾ أى يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله (٣).
وعن قتادة فى قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحَبِ اللَّهِ﴾ قال: يحبون أوثانهم كحب الله (٤).
وعن مجاهد: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحَبِ اللَّهِ﴾ مباحة ومضاهاة للحق بالأنداد (٥).
وعن الربيع: ﴿كَحَبِ اللَّهِ﴾ هى الآلهة التى تعبد من دون الله يقول: يحبون أوثانهم كحب الله (٦).

وعن ابن زيد: ﴿كَحَبِ اللَّهِ﴾ قال: هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التى عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله (٧).

وعن السدى: يطيعونهم كما يطيعون الله، إذا أمرهم أطاعوهم وعصوا الله (٨).
وعن أبى العالية: يحبون الأوثان كحب الله، أى كحب الذين آمنوا ربهم (٩).
وقال البغوى (١٠): قال الزجاج: يحبون الأصنام كما يحبون الله؛ لأنهم أشركوها مع الله، فسوى بين الله وبين أوثانهم فى المحبة.

وقال ابن الجوزى (١١): وفى قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحَبِ اللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أن معناه: يحبونهم كحب الذين آمنوا لله، هذا قول ابن عباس، وعكرمة، وأبى العالية، وابن زيد، ومقاتل، والفراء.

والثانى: يحبونهم كمحبتهم لله، أى: يسوون بين الأوثان وبين الله تعالى فى المحبة،

(١) «إعراب القرآن» (١/ ٢٣٠).

(٢) «ابن جرير» (٢/ ٤٠).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٣٠٣) وزاد نسبه لعبد بن حميد.

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضوع السابق.

(٧) تقدم تخريجه.

(٨) أخرجه ابن جرير فى تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٣٠٣) ونسبه إليه.

(٩) «ابن أبى حاتم فى تفسيره» (١/ ٢٧٦).

(١٠) «معالم التنزيل» (١/ ١٩٢).

(١١) «زاد المسير» (١/ ٢٤٧).

هذا اختيار الزجاج، قال: والقول الأول ليس بشيء، والدليل على نقضه قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ قال المفسرون: أشد حُباً لله من أهل الأوثان لأوثانهم.

إشكال:

قال ابن جرير (١): «فإن قال قائل: وكيف قيل: كحب الله؟ وهل يحب الله الأنداد؟ وهل كان متخذوا الأنداد يحبون الله؟

فيقال يحبونهم كحب الله قيل أن معنى ذلك بخلاف ما ذهبت إليه وإنما نظير ذلك قول القائل: بعث غلامى كبيع غلامك، بمعنى بعته كما بيع غلامك وكبيعتك غلامك واستوفيت حقى منه استيفاء حقك بمعنى استيفائك حقك فتحذف من الثانى كتابة اسم المخاطب اكتفاء بكنايته فى الغلام والحق كما قال الشاعر:

فلست مسلماً ما دمت حياً على زيد بتسليم الأمير

يعنى بذلك كما يسلم على الأمير فمعنى الكلام إذا: ومن الناس من يتخذ أيها المؤمنون من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله اهـ.

قال الرازى (٢): «فإن قيل: العاقل يستحيل أن يكون حبه للأوثان كحبه لله، وذلك لأنه بضرورة العقل علم أن هذه الأوثان أحجار لاتضر، ولا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل، وكانوا مقرين بأن لهذا العالم صانعاً مدبراً حكيماً ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ومع هذا الاعتقاد كيف يعقل أن يكون حبه لتلك الأوثان كحبه لله تعالى.

وأيضاً فإن الله تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ وإذا كان كذلك، كان المقصود الأصلى طلب مرضات الله تعالى، فكيف يعقل الإستواء مع هذا القول؟.

الجواب: قلنا قوله «يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ» أى فى الطاعة لها والتعظيم لها، فالإستواء على هذا القول فى المحبة لاينافى ما ذكرتموه. اهـ.

قال الفخر الرازى (٣): «أما قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فاعلم أنه ليس المراد محبة ذاتهم فلا بد من محذوف، والمراد: يحبون عاداتهم أو التقرب إليهم والإنقياد لهم، أو جميع ذلك.

(١) ابن جرير (٤٠ / ٢)

(٢) التفسير الكبير (٢ / ٤ / ٢٢٧، ٢٢٨)

وقوله: ﴿كَحِبِّ اللَّهِ﴾ فيه ثلاث أقوال:

قيل: فيهم كحبهم الله، وقيل فيه: كالحب اللازم عليهم الله، وقيل فيه: كحب المؤمنين الله.

وإنما اختلفوا هذا الاختلاف من حيث إنهم اختلفوا في أنهم هل كانوا يعرفون الله أم لا؟

فمن قال: كانوا يعرفون مع اتخاذهم الأنداد تأول على أن المراد كحبهم الله. ومن قال: إنهم كانوا عارفين بربهم حمل الآية على أحد الوجهين الباقيين إما كالحب اللازم لهم أو كحب المؤمنين لله. والقول الأول أقرب لأن قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحِبِّ اللَّهِ﴾ راجع إلى الناس الذين تقدم ذكرهم.

وظاهر قوله: ﴿كَحِبِّ اللَّهِ﴾ يقتضى حباً لله ثابتاً فيهم، فكانه تعالى بين في الآية السالفة أن الإله واحد، ونبه على دلائله، ثم حكى قوله من يشرك معه، وذلك يقتضى كونهم مقربين بالله تعالى. أهـ.

* خلاصة القول في ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحِبِّ اللَّهِ﴾

قال الفقير:

- (١) يحبونهم كما يحب المؤمنون الله.
- (٢) أو يحبون الأنداد كما يحبون الله.
- (٣) مباهة ومضاهاة للحق بالأنداد.
- (٤) يطيعون أندادهم إذا أمرهم ويعصون الله.
- (٥) يسوون بين محبة الأنداد ومحبة الله.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

الإعراب^(١): ﴿وَالَّذِينَ﴾ الواو استئنافية أو حالية واسم الموصول مبتدأ ﴿آمَنُوا﴾ فعل وفاعله. والجملة صلة الموصول ﴿أَشَدُّ﴾ خبر الموصول ﴿حُبًّا﴾ تمييز ﴿لِلَّهِ﴾ الجار والمجرور متعلقان بحباً. أهـ.

أخرج ابن جرير: بسنده عن مجاهد: في قوله تعالى ذكره: يحبونهم كحب الله مباهة ومضاهاة للحق بالأنداد والذين آمنوا أشد حبا لله من الكفار لأوثانهم^(٢).

(٢) «تفسير الطبري» (١/٢/١٤٠). وتقدم

(١) «إعراب القرآن» (١/٢٣٠).

وبسنده عن الربيع فى قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قال: هى الآلهة التى تعبد من دون الله يقول يحبون أوثانهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله من الكفار لأوثانهم^(١).

وبسنده عن ابن وهب: قال: قال ابن زيد فى قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قال: هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التى عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله والذين آمنوا أشد حبا لله تعالى ذكره^(٢). وكذا أخرج هذه الآثار ابن أبى حاتم^(٣).

قال البغوى^(٤): قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾. أى أثبت وأدوم على حبه من المشركين لأنهم لا يختارون على الله ما سواه. والمشركون إذا اتخذوا صنما ثم رأوا أحسن منه طرحوا الأول واختاروا الثانى.

قال قتادة: إن الكافر يعرض عن معبوده فى وقت البلاء ويقبل على الله تعالى كما أخبر الله عزوجل عنهم فقال ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. والمؤمن لا يعرض عن الله فى السراء والضراء والشدة والرخاء.

قال سعيد بن جبير إن الله عزوجل يأمر يوم القيامة من أحرق نفسه فى الدنيا على رؤية الأصنام أن يدخلوا جهنم مع أصنامهم فلا يدخلون، لعلمهم أن عذاب جهنم على الدوام. ثم يقول للمؤمنين وهم بين أيدي الكفار إن كنتم أحبائى فادخلوا جهنم فيقتحمون فيها فينادى مناد من تحت العرش ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

وقيل إنما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ لأن الله تعالى أحبهم أولا ثم أحبوه ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ آ. هـ.

وقال الفخر الرازى^(٥): فى بيان أن الذين آمنوا هم أشد حبا لله، أما المتكلمون فقالوا: إن حبهم لله يكون من وجهين.

(أحدهما) أنه ما يصدر منهم من التعظيم، والمدح، والثناء والعبادة خالصة عن الشرك وعما لا ينبغى من الاعتقاد ومحبة غيرهم ليست كذلك.

(١) تقدم.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) وابن أبى حاتم (٢٧٦/١).

(٤) «معالم التنزيل» (١٩٢/١).

(٥) «التفسير الكبير» (٢/٤/٢٣١).

(والثاني) إن حبهم لله اقترن به الرجاء والثواب والرغبة في عظيم منزلته والخوف من العقاب والأخذ في طريق التخلص منه، ومن يعبد الله ويعظمه على هذا الحد تكون محبته أشد، وأما العارفون فقالوا المؤمنون هم الذين عرفوا الله بقدر الطاقة البشرية، وقد دللنا على أن الحب من لوازم العرفان فكلما كان عرفانهم أتم وجب أن تكون محبتهم أشد فإن قيل: كيف يمكن أن يقال محبة المؤمنين لله تعالى أشد مع أنا نرى الهنود يأتون بطاعات شاقة لا يأتى بشيء منها أحد من المسلمين ولا يأتون بها إلا لله تعالى ثم يقتلون أنفسهم حباً لله.

(والجواب) من وجوه.

(أحدها) أن الذين آمنوا لا يتضرعون إلا إلى الله بخلاف المشركين فإنهم يعدلون إلى الله عند الحاجة، وعند زوال الحاجة، يرجعون إلى الأنداد، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إلى آخره، والمؤمن لا يعرض عن الله فى الضراء والسراء والشدة والرخاء، والكافر قد يعرض عن ربه، فكان حب المؤمن أقوى.

(وثانيها) أن من أحب غيره رضى بقضائه، فلا يتصرف فى ملكه، فأولئك الجهال قتلوا أنفسهم بغير إذنه، أما المؤمنون فقد يقتلون أنفسهم بإذنه، وذلك فى الجهاد (وثالثها) أن الإنسان إذا ابتلى بالعذاب الشديد لا يمكنه الاشتغال بمعرفة الرب، فالذى فعلوه باطل.

(ورابعها) قال ابن عباس: إن المشركين كانوا يعبدون صنماً، فإذا رأوا شيئاً أحسن منه تركوا ذلك وأقبلوا على عبادة الأحسن.

(وخامسها) أن المؤمنين يوحدون ربهم، والكفار يعبدون مع الصنم أصناماً فتقص محبة الواحد، أما الإله الواحد فتتضم محبة الجميع إليه اهـ.

وقال القرطبي^(١): «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ»، وإنما قال ذلك لأن الله أحبهم، أو لأنهم أحبه، ومن شهد له محبوبه بالحب كانت محبته أتم قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾. اهـ.

قال ابن كثير^(٢) قوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ». ولحبهم لله وتمام معرفتهم به

(١) «تفسير القرطبي» (١/ ٥٨٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ١٩٢).

وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئاً بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجأون
فى جميع أمورهم إليه. ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿وَلَوْ
يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أهـ.

قال الشوكاني^(١): أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة الأنداد بل أحبوها
حباً عظيماً، وأفرضوا فى ذلك إفراطاً بالغاً، حتى صار حبهم لهذه الأوثان ونحوها
متمكناً فى صدورهم. كتمكن حب المؤمنين لله سبحانه، فالمصدر فى قوله: ﴿كَحَبِ
اللَّهُ﴾ مضاف إلى المفعول، والفاعل محذوف وهو: المؤمنون، ويجوز أن يكون المراد:
كحبهم لله، أى عبدة الأوثان، قاله ابن كيسان، والزجاج.

ويجوز أن يكون هذا المصدر من المبنى للمجهول، أى كما يحب الله. والأولى أولى،
كقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، فإنه استدراك لما يفيد التشبيه من التساوى، أى أن
حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار للأنداد؛ لأن المؤمنين يخلصون الله سبحانه بالعبادة
والدعاء، والكفار لا يخلصون أصنامهم بذلك، بل يشركون الله معهم، ويعترفون بأنهم
إنما يعبدون أصنامهم ليقربوهم إلى الله.

ويمكن أن يجعل هذا، أعنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ دليلاً على الثانى؛
لأن المؤمنين إذا كانوا أشد حباً لله لم يكن حب الكفار للأنداد كحب المؤمنين لله،
وقيل: المراد بالأنداد هنا: الرؤساء، أى يطيعونهم فى معاصى الله، ويقوى هذا الضمير
فى قلوبهم: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ فإنه لم يعقل، ويقويه أيضاً قوله سبحانه عقب ذلك: ﴿إِذْ
تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ الآية. أهـ.

قال ناصر السعدى^(٢): فإنه تعالى، لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبراهينها
الساطعة الموصلة إلى علم اليقين، المزية لكل شك.

ذكر هنا أن ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ مع هذا البيان التام ﴿مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً﴾ الله
أى: نظراء ومثلاء، يساويهم فى الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة.
ومن كان بهذه الحالة - بعد إقامة الحجة، وبيان التوحيد - عُلِمَ أنه معاند لله، مشاق

(١) «فتح القدير» (١/٢٣٢).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (١/١١٠).

له. أو معرض عن تدبير آياته والتفكير فى مخلوقاته، فليس له أدنى عذر فى ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب.

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله، لايسوونهم بالله فى الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به، فى العبادة، فيعبدونهم ليقربوهم إليه.
وفى قوله: «اتخذوا» دليل على أنه ليس لله ند.

وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له، تسمية مجردة، ولفظاً فارغاً من المعنى. كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾. ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾.

فالمخلوق ليس ندأ لله لأن الله هو الخالق، وغيره مخلوق، والرب هو الرازق. ومن عداه مرزوق، والله هو الغنى وأنتم الفقراء.

وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه.

والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضرر الأمر شىء.

فعلم علماً يقيناً، بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً.

سواء كان ملكاً أو نبياً، أو صالحاً، أو صنماً، أو غير ذلك.

وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة، والذل التام.

فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أى: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها.

ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذى محبته هى عين صلاح العبد وسعادته وفوزه.

والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئاً، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره. أ.هـ.

* ما جاء فى الآية من كلام الشراح:

قال عبدالرحمن بن حسن ال الشيخ^(١):

فكل من اتخذ نداءً لله يدعوه من دون الله ويرغب إليه ويرجوه لما يؤمله منه من قضاء حاجاته وتفريج كرباته - كحال عباد القبور والطواغيت والأصنام فلا بد أن يعظموهم ويحبوهم لذلك، فإنهم أحبوهم مع الله. وإن كانوا يحبون الله تعالى ويقولون «لا إله إلا الله» ويصلون ويصومون، فقد أشركوا بالله فى المحبة بمحبة غيره وعبادة غيره. فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه، لأن المشرك لا يقبل منه عمل، ولا يصح منه. وهؤلاء وإن قالوا: «لا إله إلا الله» فقد تركوا كل قيد قيدت به هذه الكلمة العظيمة: من العلم بمدلولها لأن المشرك جاهل بمعناها. ومن جهله بمعناها جعل لله شريكاً فى المحبة وغيرها وهذا هو الجهل المنافى للعلم بما دلت عليه من الإخلاص، ولم يكن صادقاً فى قولها، لأنه لم ينف ما نفتته من الشرك ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص، وترك اليقين أيضاً؟ لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لانكره أوشك فيه، ولم يقبله وهو الحق، ولم يكفر بما يعبد من دون الله، كما فى الحديث بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذها الند ومحبته له وعبادته إياه من دون الله كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ لأنهم أخلصوا له الحب فلم يحبوا إلا إياه ويحبون من أحب ويخلصون أعمالهم جميعاً لله ويكفرون بما عبد من دون الله.

فهذا يتبين لمن وفقه الله تعالى لمعرفة الحق وقوله دلالة هذه الآيات العظيمة على معنى شهادة أن لا إله إلا الله وعلى التوحيد الذى هو معناها الذى دعا إليه جميع المرسلين فتدبر. أهـ.

- قال حامد بن محمد^(٢): فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

أنداداً﴾ الآية: قال ابن تيمية: أى فى المحبة فإذا عرفت من ساوى مع الله غيره فى المحبة أشرك الشرك الأكبر، فكيف بمن رجع محبة الند على الله تعالى؟! بل وكيف بمن أقبل بكليته على غيره قلباً وقالبا؟!

بمعنى أنه يعظم أوامر الند، وحرماته أشد تعظيماً إذا هتك حرمة من حرمت الند غضب غضب الليث، وأحمرت وجنته، وانتفخت أوداجه، وقام وقعد فيه، وإن هتك حرمة من حرمت الله لم يرفع به رأساً، بل يثبط غيره عن القيام فيه. أهـ.

(١) «فتح المجيد» (١/ ١٢٣، ١٢٤)

(٢) «فتح الله اخمد المجيد» (١٩٣)

- قال عبدالله بن جاره^(١):

يذكر الله تعالى حال المشركين في الدنيا وما لهم في الآخرة من العذاب والنكال حيث جعلوا لله مثلاً ونظراً ويساؤونهم بالله في المحبة والتعظيم. اهـ

- قال ابن باز^(٢):

هذا أيضاً من تفسير التوحيد بضده وهو عن الذين يتخذون أنداداً يحبهم ويعظمهم ويدعوهم ويتغيث بهم أو يحبهم حباً خاصاً يقتضى عبادتهم من دون الله هذا هو الشرك الأكبر، والله ذم هؤلاء وتوعدهم بالنار كما في آخر الآيات ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾. اهـ.

- وقال ابن عثيمين^(٣): اختلف المفسرون في قوله ﴿كَحَبَّ اللَّهُ﴾.

ورجح القول الأول وهو : يجعلون محبة الأصنام مساوية لمحبة الله، فيكون في قلوبهم محبة لله، ومحبة للأصنام، ثم قال: وسياق هذه الآية يرجح القول الأول.

ثم قال: فإن محبتهم لأصنامهم تتضاءل إذا مسهم الضر، فما بالك برجل يحب غير الله أكثر من محبة الله؟! وما بالك برجل يحب غير الله ولا يحب الله؟! فهذا أقبح وأعظم.

وهذا موجود في كثير من المنتسبين للإسلام اليوم؛ فإنهم يحبون أولياءهم أكثر مما يحبون الله، ولهذا لو قيل له: أحلف بالله؛ حلف صادقاً أو كاذباً، أمّا الولي؟ فلا يحلف به إلا صادقاً.

وتجد كثيراً منهم يأتون إلى مكة والمدينة ويرون أن زيارة قبر الرسول ﷺ أعظم من زيارة البيت؛ لأنهم يجدون في نفوسهم حباً لرسول الله ﷺ كحب الله أو أعظم، وهذا شرك؛ لأن الله يعلم أننا ما أحببنا رسول الله ﷺ إلا لحب الله، ولأنه رسول الله، ما أحببناه لأنه محمد بن عبدالله، لكننا أحببناه لأنه رسول الله ﷺ؛ فنحن نحبه بمحبة الله، لكن هؤلاء يجعلون محبة الله تابعة لمحبة الرسول ﷺ إن أحبوا الله.

فهذه الآية فيها محنة عظيمة لكثير من قلوب المسلمين اليوم الذين يجعلون غير الله مثل الله في المحبة.

(١) الجامع الفريد (٣٤).

(٢) التعليق المفيد (٥٨).

(٣) القول المفيد (١/ ١٩٠ - ١٩٦).

وفيه أناس أيضاً أشركوا بالله في محبة غيره، لا على وجه العبادة الشرعية؛ لكن على وجه العبادة المذكورة في الحديث، وهى محبة الدرهم والدينار والخمصة والخميلة، يوجد أناس لو فتشت عن قلوبهم، لوجدت قلوبهم مملوءة من محبة متاع الدنيا، وحتى هذا الذى جاء يصلى هو فى المسجد لكن قلبه مشغول بما يحبه من أمور الدنيا.

فهذا نوع من أنواع العبادة فى الحقيقة، ولو حاسب الإنسان نفسه لماذا خلُق؟ خلق لعبادة الله، وأيضاً خلُقَ لدار أخرى ليست هذه الدار؛ فهذه الدار مجاز يجوز الإنسان منها إلى الدار الأخرى، الدار التى خلُقَ لها والتى يجب أن يُعتنى بالعمل لها، يا ليت شعرى متى يوماً من الأيام فكَّر الإنسان ماذا عملت؟

وكم بقى لى فى هذه الدنيا؟

وماذا كسبت؟

الأيام تمضى ولا أدرى هل ازدادت قرباً من الله أو بعداً من الله؟

هل نحاسب أنفسنا عن هذا الأمر؟

فلابد لكل إنسان عاقل من غاية؛ فما هى غايته؟

نحن الآن نطلب العلم للتقرب إلى الله بطلبه، وإعلام أنفسنا، وإعلام غيرنا؛ فهل نحن كلما علمنا مسألة من المسائل طبقناها؟ نحن على كل حال نجد فى أنفسنا قصوراً كثيراً وتقصيراً، وهل نحن إذا علمنا مسألة ندعوا عباد الله إليها؟

هذا أمر يحتاج إلى محاسبة، ولذلك؛ فإن على طالب العلم ضريبة ليست هيئة، عليه أكثر من زكاة المال؛ فيجب أن يعمل ويتحرك ويثبت العلم والوعى فى الأمة الإسلامية، وإلا؛ انحرفت عن شرع الله.

وقال ابن القيم رحمه الله: كل الأمور تسير بالمحبة؛ فأنت مثلاً لا تتحرك لشئ إلا وأنت تحبه، حتى اللقمة من الطعام لاتأكلها إلا لمحبتك لها.

ولهذا قيل: إنَّ جميع الحركات مبناها على المحبة؛ فالمحبة أساس العمل، فالإشراك بالمحبة إشراك بالله.

✽ والمحبة أنواع:

الأول: المحبة لله، وهذه لاتنافى التوحيد، بل هى من كماله، فأوثق عرى الإيمان: الحب فى الله، وأنبغض فى الله.

والمحبة لله هى أن تحب هذا الشئ؛ لأن الله يحبه، سواء كان شخصاً أو عملاً، وهذا من تمام التوحيد.

قال مجنون ليلي:

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

الثاني: المحبة الطبيعية التي لا يؤثرها المرء على محبة الله؛ فهذه لا تنافي محبة الله؛ كمحبة الزوجة، والولد، والمال، ولهذا لما سئل النبي ﷺ: من أحب الناس إليك؟ قال: «عائشة». قيل: فمن الرجال؟ قال: «أبوها»^(١).

ومن ذلك محبة الطعام والشراب واللباس.

الثالث: المحبة مع الله التي تنافي محبة الله كمحبة الله وهي أن تكون محبة غير الله كمحبة الله أو أكثر من محبة الله، بحيث إذا تعارضت محبة الله ومحبة غيره قدم محبة غير الله، وذلك إذا جعل هذه المحبة ندأ لله يقدمها على محبة الله أو يساويها بها^(٢). اهـ.

قال ابن رجب: والمحبة تنتهي القربة والاجتهاد ولن يسأم المحبون من طول اجتهادهم لله تعالى يحبونه ويحبون ذكره ويحبونه إلى خلقه، يمشون بين عباده بالنصائح ويخافون عليهم من أعمال يوم القيامة يوم تبدو الفضائح، أولئك أولياؤه وأحبائه وأهل صفوته، أولئك الذين لا راحة لهم دون لقائه.

وقال فتح الموصلي: المحب لا يجد مع حب الله للدنيا لذة ولا يغفل عن ذكر الله طرفة عين.

وقال محمد بن النضر الحارثي: ما يكاد يملّ القربة إلى الله تعالى محب لله وما يكاد يسأم من ذلك.

وقال بعضهم: المحب لله طائر القلب كثير الذكر متسبب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل دأباً وشوقاً. وأنشد بعضهم:

وكن لربك ذا حب لتخدمه إن المحبين للأحباب خدامُ

وأنشد آخر:

ما للمحب سوى إرادة حبه إن المحب بكل حال يصرعُ

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٦٦٢) ومسلم في الفضائل (٨/١٦٢/٨) عن عمرو بن العاص به.

(٢) انظر منا سبق من أقوال المفسرين في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ

أنداداً﴾.

قال الفقير: وقد قسمت المحبة لدى بعض أهل العلم إلى تقسيم آخر:
روى البخارى أن عمر بن الخطاب قال: يارسول الله والله لأنت أحب إلى من كل
شئ إلا نفسى فقال لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك قال: والذى بعثك
بالحق لأنت أحب إلى من نفسى قال: الآن يا عمر^(١).

(١) محبة الله: لا تكفى وحدها للنجاة من عذاب الله والفوز بثوابه. لأن المشركين
وعباد الصليب واليهود وغيرهم يزعمون أنهم يحبون الله. وكذبهم الله حيث قال:
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾

(٢) محبة ما يحب الله: وهذه هى التى تدخله فى الإسلام وتخرجه من الكفر.

(٣) الحب لله وفى الله: وهى من لوازم محبة ما يحب.

(٤) المحبة مع الله: «المحبة الشريكية».

كل من أحب شيئاً مع الله لا الله ولا من أجله ولا فيه فقد أتخذة نداءً من دون الله
وهذه محبة المشركين.

(٥) المحبة الطبيعية: محبة العطشان للماء. محبة النوم والزوجة والولد. لا تنزم إلا إذا
ألهمت عن ذكر الله وشغلت عن محبته.

لما سأل إبراهيم عليه السلام ربه الولد فأعطاه وتعلق حبه بقلبه؛ غار الحبيب على
خليله أن يكون فى قلبه موضع لغيره فأمره بذبحه.

وكان الأمر فى المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحاناً، ولم يكن المقصود
ذبح الولد ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب.

فلما بادر الخليل إلى الامتثال وقدم محبة الله على محبة ولده حصل المقصود فرفع
الذبح وفدى الولد بذبح عظيم وبقيت شريعة الفداء.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فهذه الآية
دالة على نوع من أنواع التوحيد وهو:

لا يمكن أن يجتمع فى القلب حب المحبوب الأعلى وحب غيره بل هما ضدان
لايتلاقيان. بل لابد أن يفارق أحدهما قلب صاحبه.

فمن كانت قوة محبته كلها للمحبوب الأعلى صرفه ذلك عن محبة ما سواه، فإن
أحب ما سواه لم يحبه إلا لأجله أو لكونه وسيلة إلى محبته لأن المحبة الصادقة تقتضى

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٦٣٢).

توحيد المحبوب وأن لا يشرك بينه وبين غيره فى محبته ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به فى هذه المحبة ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وخاصية التعبد: الحب مع الخضوع والذل للمحبوب.

كيف يحبك الله؟

أخبر الله تعالى أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب إليه المتقربون، ثم بعدها النوافل، وأن المحب إذا أكثر النوافل يصير محبوباً لله ففى صحيح البخارى. عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه، الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألتنى لأعطينه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته» (١).

ففى قوله (به): الباء هنا للمصاحبة أى أن يسمع ويبصر ويبطش ويمشى وأنا صاحبه معه. كقوله فى الحديث «أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه» (٢) وهذه هى المعية الخاصة فى قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ﴿وَأِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما فى الغار فى تفسير الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

(١) متابعة الرسول ﷺ: قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ

اللَّهُ﴾.

(٢) كثرة تلاوة القرآن:

قال ابن رجب: من أعظم ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من النوافل كثرة تلاوة القرآن وسماعه بتفكر وتدبر وتفهم.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٥٠٢).

وانظر «جامع العلوم» بتخريجنا (٦٣٥/٢).

(٢) تقدم تخريجه

قال خباب بن الارت لرجل: تقرب إلى الله تعالى ما استطعت، واعلم أنك لن تقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه.

وفى الترمذى عن أبى أمامة مرفوعاً: «ما تقرب العبد إلى الله تعالى بمثل ما خرج منه»^(١) يعنى القرآن ، لا شيء عند المحبين أحلى من كلام محبوبهم، فهو لذة قلوبهم وغاية مطلوبهم.

قال عثمان: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم» .

. وقال ابن مسعود: «من أحب القرآن أحب الله ورسوله» .

قال بعض العارفين لمريد: أتخفظ القرآن ؟ قال: لا، قال: واغوثاه بالله لمريد لا يحفظ القرآن فبم يتنعم؟ فبم يترنم؟ فبم يناجى ربه تعالى ؟ كان بعضهم يكثر تلاوة القرآن ثم اشتغل عنه بغيره فرأى فى المنام قائلاً يقول له:

إن كنت تزعم حبي فلم جفوت كتابي

أما تأملت ما فيه من لطيف عتابي.

(٣) الصلاة:

وأعظم فرائض البدن التى تقرب إليه الصلاة كما قال تعالى: ﴿أَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ .

وقال النبى ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(٢) .

وقال: «إذا كان أحدكم يصلى فإنما يناجى ربه، وربّه بينه وبين القبله»^(٣) .

وقال: «إن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت»^(٤) .

(٤) عدل الراعى فى رعيته:

ومن الفرائض المقربة إلى الله تعالى عدل الراعى فى رعيته سواء كانت رعية عامة

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٦٨/٥)، والترمذى (٢٩١١) بإسناد ضعيف لضعف ليث بن أبى سليم.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصلاة (٤/٢٠٠ - النوى)، عن أبى هريرة.

وانظر «رياض الصالحين» (١٤٣١ - بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (١٢١٤)، وأحمد (١٧٦/٣٠)، وابن حبان فى «صحيحه» (١٧/٤) ح ٢٢٦٤ - الإحسان، والبيهقى فى «السنن» عن (٢/٢٩٢) أنس بن مالك.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٧٢/٥)، والترمذى (٩٠٩)، والنسائى فى «الكبرى» (١١١٨) عن أبى ذر به. وأصله عند البخارى عن أبى هريرة: إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق أمامه فإنما يناجى الله ما دام فى مصلاه. . الحديث.

كالحاكم أو خاصة كعدل آحاد الناس في أهله وولده، كما قال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»^(١).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»^(٢).

وفي الترمذي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «إن أحب العباد إلى الله يوم القيامة وأدناهم إليه مجلساً إمام عادل»^(٣).

(٥) كثرة ذكر الله تعالى:

قال ابن رجب: ومن ذلك كثرة ذكر الله الذي يتواطأ عليه القلب واللسان.

وفي مسند البزار عن معاذ قال: «قلت: يا رسول الله أخبرني بأفضل الأعمال وأقربها إلى الله تعالى، قال: «أن تموت ولسانك رطباً من ذكر الله تعالى»^(٤).

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»^(٥).

وفي حديث آخر «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»^(٦).

وقال عز وجل «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» ولما سمع النبي ﷺ الذين يرفعون أصواتهم بالتكبير والتهليل وهم معه في سفر قال لهم: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم»^(٧).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم في الإمامة (٢١٣/١٢ - النووي) عن ابن عمر به

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الإمامة (٢١١/١٢/٤ - النووي) عن عبد الله بن عمرو به.

(٣) [ضعيف] أخرجه الترمذي (١٣٢٩)، وأحمد (٢٢/٣).

عن أبي سعيد بإسناد ضعيف لضعف عطية العوفي.

وقال الترمذي: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٤) ذكره الهيثمي في «المجمع» (٧٤/١٠) ونسبة للبزار وحسن إسناده.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم في الذكر والدعاء (١٢/١٧ - النووي).

عن أبي هريرة. وانظر: «فتح ذي الجلال» (ج ٢١) بتخريجنا.

(٦) تقدم.

(٧) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٩٩٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٥/١٧ - النووي)، عن أبي

موسى الأشعري. وانظر كتابنا: «فتح ذي الجلال» (ج ٦٩٤).

وفى رواية: «وهو أقرب إليكم من أعناق رواحلكم».

(٦) محبة أحباب الله وموالاتهم ومعاداة أعدائه:

قال ابن رجب: ومن ذلك محبة أحبابه وأوليائه فيه ومعاداة أعدائه فيه، فى سنن أبى داود عن عمر قال: «إن من عباد الله أناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من الله تعالى، قالوا: يا رسول الله من هم؟! قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور، ولا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم تلا هذه الآية: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١) وروى نحوه من حديث أبى مالك الأشعرى عن النبى ﷺ.

وفى حديث «يغبطهم النبيون بقربهم ومقعدهم من الله تعالى»^(٢) وفى المسند عن عمرو بن الجموح عن النبى ﷺ قال: «لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب الله ويغض الله، فإذا أحب الله وأبغض الله فقد استحق ولاية من الله، وإن أوليائى من عبادى وأحبائى من خلقى الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم»^(٣).

وسئل المرتعش: بم تنال المحبة؟ قال: بم الالة أولياء الله ومعاداة أعدائه وأصله الموافقة(*).

قال الفقير: فحقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله فى المحبة، بخلاف المحبة لله فإنها من لوازم العبودية فإن محبة الرسول ﷺ لا يتم الإيمان إلا بها. ولذلك لا يذوق حلاوة الإيمان إلا من كان الله ورسوله أحب إليه ممن سواه كما فى حديث «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواه»^(٤).

وحديث: «من أحب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان»^(٥).

(١) [حسن] أخرجه أبو داود (٣٥٢٧) عن عمر بن الخطاب به.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال» (ح ٥١٧).

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٤٣/٥)، وابن جرير فى «تفسيره» (٩٢/١١)، أبى مالك الأشعرى

به.

قلت: فيه شهر بن حوشب.

(٣) أخرجه أحمد (٤٣٠/٣) عن عمرو بن الجموح. وفيه رشدين بن سعد.

(*) وانظر «جامع العلوم والحكم» (٦٤٦: ٦٣٧/٢) بتخريجنا.

(٥) تقدم تخريجه أيضاً.

الخلاصة من كلام بن القيم أن:

توحيد المحبوب ألا يتعدد محبوبه أى مع الله تعالى بعبادته له وتوحيد الحب، ألا يبقى فى قلبه بقية حب حتى يبذلها له فهذا الحب هو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرّة عينه وليس لقلبه صلاح ولانعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله تعالى فلا يحب إلا الله ولا يحب إلا الله.

وهى محبة تقتضى تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد وتقتضى كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهراً وباطناً وهذا لانظير له فى محبة المخلوق ولو كان المخلوق من كان، ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره فى هذه المحبة الخاصة كان مشركاً شركاً لا يغفره الله.

واية هذا الباب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ لها علاقة بالآيتين السابقتين: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ وقوله: ﴿اتَّخِذُوا أَحِبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فالندية فى الحب هى سبب صرف الطاعة للأخبار والرهبان؛ وهى سبب فى الولاء والبراء، فمنشأ عبادة العباد والعلماء شرك المحبة؛ فلذلك ناسب أن نذكر كلاماً له تعلق بالولاء والبراء والمحبة لشيخ الإسلام «والواجب على كل مسلم أن يكون حبه وبغضه وموالاته ومعاداته تابعاً لأمر الله ورسوله فلا يحب إلا ما أمره الله والرسول أن يحبه ولا يبغضه إلا ما أمره الله ورسوله أن يبغضه ومن كان فيه ما يوالى عليه من حسنات وما يعادى عليه من سيئات عومل بموجب ذلك كفساق أهل الملة إذ هم مستحقون للثواب والعقاب والموالاتة والمعاداتة والحب والبغض بحسب ما فيهم من البر والفجور قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وهم عملوا الخير فلا بد أن يروا ذلك من محبتنا لهم وعملوا الشر فيروه من بغضنا لهم ولسيئاتهم وهذا مذهب أهل السنة والجماعة بخلاف الخوارج والمعتزلة والمرجئة والجهمية فإن أولئك يميلون لجانب وهؤلاء يميلون إلى جانب».

العشق عارض من العوارض المضعفة لمحبة العبد للرب:

هناك عارض من العوارض المضعفة لهذه المحبة لله وللرسول هو ما يُسمى شرعاً بالعشق، وهو مرض شفاؤه معجز وأعياد دواؤه العشاق، وأعياد علاجه الأطباء.

قال ابن القيم فى فصل فى «هديه ﷺ فى علاج العشق» قال:

هذا مرض من أمراض القلب مخالف لسائر الأمراض فى ذاته وأسبابه وعلاجه».

وهذا العشق سواء عشق الصور أم المردان أو النسوان أو الصبيان فى الحقيقة يمنع فى كثير من الأحيان من محبة الرحمن ويضعف هذه المحبة كما قال ابن القيم:

«إذا تمكن هذا العشق فى القلب واستحكم عز على الأطباء دواؤه وأعياء الليل دأؤه وإنما حكاها الله تعالى فى كتابه عن طائفتين من الناس؛ من النساء وعشاق الصبيان والمردان فحكاها عن امرأة العزيز فى شأن يوسف - ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ - .

-وعشق المردان- حكاها عن قوم لوط ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفَى فَلَا تَفْضَحُون (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْا (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿والسكرة هى العشق وقد افتخر العشاق بهذا الوصف وقالوا: [هل رأى الحب سكارى مثلنا]، فهم لا يشعرون إلا بهذا المحبوب ولا يرون إلا المعشوق، ولا يتنفسون إلا بتنفسه، فكأنما غابوا عن الدنيا فهم فى سكر إلا به .

فمن قبيح هذا العشق -وهذا من أسباب علاجه- أن الله براء منه المخلصين ونسبه لغير المؤمنين، فإذا لم يكن فى الباب من قبح العشق إلا أن الله لم ينسبه للصالحين أو المسلمين إنما نسبه لامرأة كافرة ولمن كفروا بنبي من الأنبياء .

قال ابن القيم: «وأما زعمه بعض من لم يقدر رسول الله ﷺ حق قدره أنه ابتلى به فى شأن زينب بنت جحش، وأنه رآها فقال سبحان مقلب القلوب وأخذت بقلبه، وجعل يقول لزيد بن حارثة «أمسكها» حتى أنزل الله عليه ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ (١) .

هذا إدعاء باطل أن النبي ﷺ ابتلى بهذا العشق مع زينب بنت جحش وأن تفسير قوله: ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ هو عشق زينب هذا الكلام أتى من رجل جاهل بالشرع وجهله بمقام المرسلين المبلغين عن رب العالمين مع أن النبي ﷺ لكفى بذلك قبحاً مبرأ من هذا الأمر وحاشا لله أن يرسل رسولا بهذا الخلق، نعم كان يحب النبي ﷺ نساءه وأحبهم إليه عائشة ولكن لم تكن تبلغ محبته لها غاية الحب بل محبته ﷺ ما كانت إلا لله عز وجل .

ولذلك ثبت عنه في الصحيح أنه ﷺ قال «لو كنت متخذاً أحد خليلاً من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر خليلاً»^(١) الحديث .

فالخلة أعلى درجات المحبة ولم يصرفها النبي ﷺ لأحد من الناس وإنما كانت لله عزوجل . فتوحيد المحبوب وفراغ القلب إلا من محبته هذا هو من لوازم ومقتضيات لا إله إلا الله وهذا سبب من أسباب دفع السوء والفحشاء المترتب على العشق من قول الله : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فلما أخلص وفرغ قلبه إلا من الله ومحبته ، كان ذلك سبب لدفع العشق عنه وهذا المرض وما يترتب عليه من سوء وفحشاء وكان ذلك علامة من علامات كمال التوحيد في نفس هذا العبد ، وأنه جاء بمقتضيات هذا التوحيد .

لذلك قال ابن القيم : عشق الصور إنما تبلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى المعرضة عنه المتعوضة بغيره عنه فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقاءه دفع ذلك عنه محبة مرض عشق الصور اهـ .

ثم استدل على ذلك بقوله : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فلو عشق يوسف أو وقع في مقدماته فحينما قالت له ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ لم قال لها ﴿مَعَادَ اللَّهِ﴾ وهذا موقف لا يعرف عظمتة إلا من ضعفت نفسه في أقل من هذه المواقف .

قال ابن القيم : فدل على أن الإخلاص سبباً لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته ، فصرفت المسبب صرفاً لسببه اهـ .

فالعشق هو حركة قلب فارغ كما قال ابن القيم .

قال بعض السلف : العشق : حركة قلب فارغ ، يعنى فارغاً مما سوى معشوقه قال تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ أه فلما فرغ من محبة الله تحرك قلبه إلى محبة غيره فهو بطبعه لا بد أن يحب وهذا شيء جبلي ولكن ما هو التوجيه الشرعي للمحبة أو البغض فالعشق هو حركة قلب فارغ .

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٦٥٦)، ومسلم في الفضائل (٦/١٦١/٨) وانظر تمام تخريجه في «فتح المجيد» (ح ٣٥٨) بتخريجنا.

واستدل ابن القيم على ما تقدم ذلك كما تقدم بقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ يعني فارغاً إلا من تعلقها بموسى ومحبه وقال شاعرهم:

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكن

قال ابن القيم: والعشق مركب من شيئين استحسان للمعشوق، وطمع في الوصول إليه، فمتى انتفى إحدهما انتفى العشق اهـ.

قلت: - لا بد أن تعرفها حتى تدرك هل أنت في دركة العشاق فتأخذ بالعلاج الشرعى أم أنت دون هذه الدركة أو مقبل أو مدبر فتعلم أين أنت منها حتى تعالج ذلك فتقوى محبتك لله.

أولاً: استحسان الصورة للمعشوق، أو أخلاقه أو لبسه أو سمته أو صوته أو غير ذلك.

ثانياً: طمعاً للوصول إليه، ولا بد للأمرين فلو استحسنت الصورة ولم يطمع في الوصول إليه لم يكن ذلك عشقاً مثال: ما نراه من بعض الجهلاء من حب العاصين كالمرأة التى تحب لالعاب كرة أجنبي مشهور «ماردونا» واستحسنته لكنها لا تطمع في الوصول إليه لأنه لالعاب عالمى ولأنه فى الأرجنتين مثلاً ولا سبيل للوصول له فهذا لا يسمى عشق.

فلهذا قال ابن القيم فمتى انتفى أحدهما انتفى العشق.

قال ابن القيم: وقد أعيت علة العشق على كثير من العقلاء، وتكلم فيها بعضهم بكلام يرغب عن كره إلى الصواب فنقول قد استقرت حكمة الله عز وجل فى خلقه وأمره على وقوع التناسب والتآلف بين الأشياء وانحذاب الشيء إلى ما وافقه ومجانسه بالطبع، وهروبه من مخالفه، ونفرته عنه بالطبع فسر التمازج والاتصال فى العالم العلوى والسفلى إنما هو التناسب والتشاكل والتوافق، وسر التباين، والانفصال إنما هو بعدم التشاكل والتناسب، وعلى ذلك قام الخلق والأمر، فالمثل إلى مثله مائل وإليه سائر، والضد عن ضده هارب، وعنه نافر، وقد قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فجعل سبحانه علة سكون الرجل إلى امرأته

كونها من جنسه وجوهره فعلة السكون المذكور وهو الحب كونها منه فدل على أن العلة ليست بحسن الصورة ولا الموافقة فى القصد والإرادة، ولا فى الخلق الهدى، وإن كانت هذه أيضاً من أسباب السكون والمحبة أيضاً وقد ثبت فى «الصحيح» عن النبى ﷺ

أنه قال: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»^(١) وفي مسند الإمام أحمد وغيره في سبب هذا الحديث وغيره في سبب هذا الحديث أن امرأة بمكة كانت تضحك الناس فجاءت إلى المدينة فنزلت على امرأة تضحك الناس، فقال النبي ﷺ: «الأرواح جنود مجندة. الحديث».

قلت: فسبب العشق على ما تقدم أمران: طبيعي فأنت مجبول على محبة من يناسبك وسبب آخر مكتسب هو فراغ القلب من حب الله سبحانه.

فيقول: قد استقرت حكمة الله في السبب الجبلي الذي فطرنا عليه في خلقه وأمره على وجوب التناسق والتآلف بين الأشياء وإنجذاب الشيء إلى موافقه ومجانسه بالطبع». فتجد أحد الناس يوافقك في الشكل أو اللبس أو خلق أو دين أو حرفة أو غير ذلك، فعلى قدر الموافقة على قدر التجانس الذي هو من مقدمات المحبة، وعلى قدر الاختلاف على قدر التنافر وهناك تناسب روحي ليس لك فيه علاقة.

فالحرقة والمذهب وغير ذلك أشياء مكتسبة أما التناسب الروحي ليس لك فيه يد كما ثبت في الصحيح «الأرواح جنود مجندة» فتجد رجلاً ملتزماً وأخ لا تعرف عليه سوء، وتجد نفسك لا تقبله أو تتلاشاه.

وسأل علي بن أبي طالب عمر بن الخطاب عن سبب تنافره لأحد الناس فأجابه عمر بهذا الحديث حيث قال له عليٌّ بأن الرجل لا أرى عليه شيئاً وأبغضه فهل سمعت في ذلك شيئاً عن رسول الله ﷺ قال «الأرواح جنود مجندة» هذا يطمئن الأخ عندما يجد أن بعض العامة من الناس الغير ملتزمين بالدين ينفرون منه فيتضايق من ذلك، ولكن هذا ينبغي أن يطمئنه؛ لأن هؤلاء الناس صارت طبائعهم خبيثة تنفر من الطباع السليمة، وقد استقرت حكمة الله تعالى على أن هذا الأمر لا يكون في الدنيا فقط إنما في الدنيا والآخرة.

(أولاً): في الدنيا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فلم يجعل السكن في أن تكون زوجتك من الإنس وأنت من الجن ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ فهي ليس من جوهرك فقط لأن السكن لا يكون مع أي امرأة من الإنس لكن مع من وجدت روحها توافق روحك

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في البر والصلة (٨/٤٣٤) عن أبي هريرة.

وألتفت لها بالرغم من أنك قد تكون رأيت أجمل منها بكثير قبلها ولم تأنس إلا بزوجتك هذه. فصار السكن سببه السبب الجبلى وهو تناسب الأرواح.

واقضت حكمته تعالى أن يكون هذا الأمر فى الآخرة أيضاً قال تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال عمر بن الخطاب: أزواجهم: أشباههم ونظرائهم يعنى الذين تشبهوا بهم وكل مثل مع مثيله وكذا قال الإمام أحمد.

وقوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أى قرن كل صاحب عمل بشكله ونظيره فقرن بين المتحابين فى الله فى الجنة، وقرن بين المتحابين فى طاعة الشيطان فى الجحيم.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ يعنى ليس فرعون فقط وإنما فرعون وشبيهه فرعون ومن مائل فرعون فى عمله.

شبهة الرد عليها

هنا شبهة أجاب عليها ابن القيم بعد أن ذكر قول الرسول ﷺ من حديث أنس فى «الصحیح» «أن رجلاً سأل النبى ﷺ متى الساعة يا رسول الله؟ قال: وما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله، قال: أنت مع من أحببت، وعند مسلم: «ولم يلحق بعملهم»^(١) وفى حديث أبى ذر «ولا يستطيع أن يعمل بعملهم»^(٢) وفى بعض طرق حديث صفوان بن عسال عند أبى نعيم «ولم يعمل بمثل عملهم» وهو يفسر المراد من قوله ﷺ: قال أنت مع من أحببت» لأن روحك أحببت الطيبين فدل ذلك على أن نفسك طيبة حتى لو لم تعمل كل عملهم فكما ملت إليهم فى الدنيا فأنت معهم يوم القيامة.

وفى المستدرک «لا يحب المرء قوم إلا حشر معهم»^(٣).

وفى المسند «ومن تشبه بقوم فهو منهم»^(٤) والشبهة التى عرضت وهى «إذا كان سبب العشق هو التناسب الروحى فما باله لا يكون من طرفین؟ بل تجده كثيراً من طرف

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦١٦٧)، ومسلم فى البر والصلة (١٦/١٨٦ - النووى).

وانظر «رياض الصالحين» (٣٧٠ - بتخريجنا).

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٨/٦٧/٦٣٥٣) بنحو.

(٣) أخرجه الحاكم فى «المستدرک» (٤/٣٨٤) بنحو عن عائشة رضى الله عنها.

(٤) تقدم تخريجه فى فصول الولاء والبراء

العاشق وحده، فلو كان سببه الاتصال النفسى والامتزاج الروحانى لكانت المحبة مشتركة بينهما؟

فالجواب: أن السبب قد يتخلف عنه مسببه لقوات شرط، أو لوجود مانع، وتختلف المحبة من الجانب الآخر لا بد أن يكون لأحد ثلاثة أسباب:

الأول: علة فى المحبة وأنها محبة عرضية، لا ذاتية ولا يلزم الاشتراك فى المحبة العرضية، بل قد يلزمها نفرة من المحبوب.

يعنى ممكن هذا الحب يكون عارض يعنى حب مصلحة يزول بزوال المصلحة فهذا موجب للنفرة إذا شعر أنك تحبه لمصلحة أو لغرض.

والسبب الثانى: مانع يكون بالمحَب يمنع محبة محبوبه له.

فالمحَب وهو المعشوق رأى مانع يمنعه من محبة محبوبه كخلق فيه أو شكله أو أخلاقه أو حرفته أو غير ذلك.

والثالث: مانع يقوم بالمحبوب يمنع مشاركته للمحب فى محبته ولولا ذلك المانع لقام به من المحبة لمحبه مثل ما قام بالآخر.

مثل رجل متزوج وهى تحبه وهو لا يحبها لأنه متزوج أختها مثلاً فلو انتفت الموانع بأنه طلق أختها سيحبها.

قال ابن القيم: فإذا انتفت هذه الموانع، وكانت المحبة ذاتية فلا يكون قط إلا من الجانبين، ولولا مانع الكبر والحسد والرياسة والمعاداة فى الكفار لكانت الرسل أحب إليهم من أنفسهم وأهلبيهم وأموالهم ولما زال هذا المانع من قلوب أتباعهم.

أنواع المحبة:

تقدم ذكر أنواع المحبة من أكثر من وجه، وهذا وجه آخر يبين من أى أنواع المحبة يكون العشق.

المحبة أنواع: (أفضلها): محبة الله عزوجل

(ومنها) محبة الاتفاق فى طريقة أو دين أو نحلة أو صناعة أو غير ذلك فالنوع الأول أفضل وأجل الأنواع ومستلزم لطاعة الله وطاعة الرسول، والثانى قد يكون لله وقد يكون لغير الله فربما أحب فلان لأن دينه هو الإسلام ومنهجه منهج الرسول وعلى مذهب أهل

(١) أخرجه أحمد (٦/١٤٥)، ٩١٦٠ والنسائى.

السنة، فأنا أحبه لهذه الأشياء لله عز وجل؛ لأن الله يحبها، وربما يكون من محبتي له عصبية، فهذا اتبع جماعتي فأحبه والعكس.

ومنها محبة لنيل غرض من المحبوب إما من جاهه أو من ماله أو من تعليمه وإرشاده أو قضاء وطرنه وهذه هي المحبة الغرضية التي تزول بزوال موجبها، فإن من ودك لأمر ولى عنك عند انقضاءه.

أما محبة المشاكلة والمناسبة التي بين المحب والمحبوب فهي محبة لا تزول إلا لعارض يزيلها كما تقدم بيان هذه العوارض.

ومحبة العشق من هذا النوع، والمقصود أن العشق لما كان مرضاً من الأمراض كان قابلاً للعلاج - فاطمئنوا لأن هذا المرض من أكثر الأمراض المنتشرة في الأمة وبه فسدت القلوب كما ثبت في الصحيح «ألا أن في الجسد مضغة إذا فسدت فسد الجسد كله وإذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهي القلب»^(١) وفي الحديث الضعيف «أن النظرة سهم من سهام إبليس يضع في القلب»^(*) ولعله يشهد له ما جاء في الصحيح من حديث حذيفة أن الفتن (لا سيما فتنة العشق) «تعرض على القلوب»^(٢) لا على العقول أو العيون فأى قلب أشرب بها فصار قلب المعشوق له دين آخر هو الذي أشرب من هواه، فلا يحب إلا ما يحبه المعشوق ولا يكره ولا يتنفس ولا يشم إلا رائحة معشوقه، وأنتم تعلمون مجنون ليلى وصل لدرجة الجنون كما قال ابن القيم.

والحديث بين أن القلب إذا وصل إلى فإنه: «لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»^(٣) كما قال تعالى في عابد الهوى «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ» فهم أضل من الأنعام كالجانين وصاروا في غفلة ومن آمارات السكر - كما قال ابن القيم في حقيقة لذة العشق قال -: حقيقتها أنها أحلام نائم أو خيال لا ثبات له.

كما قال تعالى في استفزاز الشيطان لنا بصوته الذي فيه هياج للعشق فينا وهياج لهذه المحبة الغير مشروعة فينا - فتجد كل دندنة الأفلام والمسلسلات حول تهيج الشباب للحب وتنبية قلوبنا لهذه الرذيلة. قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» فسماء الله تعالى طائف وقد مسهم ولكنهم تذكروا وأفاقوا فالشيطان لا يستفز القلب الميت ولكن يستفز القلب الحى لأنه ما يدخل الشيطان

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٢)، ومسلم فى المساقاة (٢٧/١١) النووي) عن النعمان بن بشير وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٩ بتخریجنا)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢٣١/٤٤٦/١)

(٣) تقدم قبله.

(*) بنحوه أخرجه الحاكم فى «المستدرک» (٣١٤/٤) وصححه وتعقبه الذهبى فضعه

بالقلب الحرب كما تقدم عن ابن عباس لهذا يقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ غرور وأحلام.

ويصل العاشق مع معشوقه إلى أنه يحبه أكثر من الله، إلا أن المحبة لله فوق هذه المحبة لاتقارن ولا تماثل مهما ظن المخلوق أن هذه المحبة هي درجة فوق الخلقة بل لاتماثل بين محبة المخلوق للمخلوق وبين محبة المخلوق للمخلوق ومن ظن أن بينهما تماثل حتى ولو في اللفظ كالصوفية مثلاً يقولون الأناشيد والأغاني لهؤلاء العشاق ويجعلوها لله فمثلاً يقولون: نحن سكارى في حب الله أو يقولون نحن نعشق الله أو الوصال بيننا وبين الله فالفاظ العشاق لايجوز قولها بينك وبين الله ومن ظن أن هناك تماثل بين محبة الله ومحبة المخلوق فهذا مقبوح وهو أولى بالقبح والبعد عن الله.

وهذا كلام ابن القيم في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ فنحن نؤتى من ها هنا من القلب لذلك الشيطان لا يحاربك إلا في قلبك والمقصود أنك تعتقد أن الدندنة على إفسادك وإفساد قلبك عن طريق الأغاني والمسلسلات والأفلام والإعلانات والمجلات والأجهزة المتنوعة مهما علت وقويت فالله يبشرك فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ويبشرك بأن هذه الدندنة كخيطة العنكبوت، وهذا المرض له علاج في كتاب ربنا وفي سنة نبينا فيذكر ابن القيم هذه الأدوية وأنا أذكرها بعد أن اذكرك .

علاج محبة غير الله (العشق)

الدواء الأول: أن تستبجح هذا الأمر لعلمك أن الله لم ينسبه إلا لقبیح كما جاء في امرأة العزيز وقوم لوط وكذلك صرف الله هذا الأمر عن المخلصين وقد تقدم تفصيل ذلك .

قال ابن القيم: (الثاني): إن كان مما للعاشق سبيل للوصول إلى محبوبه شرعاً وقدرأ فهو العلاج قدرأ مثال ذلك: من عشق من حرمت عليك قدرأ أو شرعاً تحريماً أبدياً ولكن من عشق امرأة لم تحرم عليه لاشرعاً ولاقدرأ فالوصول إليها بالطريقة الشرعية هو العلاج كما قال النبي «يا معشر الشباب فمن استطاع منكم الباءة فليتزوج»^(١).

حتى المتزوج إن نظر لامرأة فاستفزه الشيطان وقذف في قلبه بحبها ولا سبيل شرعى للوصول إليها فليذهب لأمرته فليأتها فهذا هو العلاج الذى وضعه الرسول ﷺ لهذا المرض فإن الله يذهب ما فى نفسه .

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٩٠٥)، ومسلم فى النكاح (١٧٢/٩) النووي) عن ابن مسعود به .

وانظر السلسيل» (١٩٩٤ بتخريجنا)

لما أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر أن رسول الله ﷺ رأى امرأة، فأتى امرأته زينب وهى تَمَعَسُ مِثْنَةً لها، ففَضَى حاجته ثم خرج إلى أصحابه فقال: «إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة الشيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما فى نفسه» وعند مسلم أيضاً بلفظ «فوقعت فى قلبه فليعمد إلى امرأته فليواقعها فإن ذلك يرد ما فى نفسه»^(١).

قال النووي: «معنى الحديث: أنه يستحب لمن رأى امرأة فتحركت شهوته أن يأتى امرأته أو جاريته إن كانت له، فليواقعها ليدفع شهوته، وتسكن نفسه، ويجمع قلبه على ما هو بصده قال العلماء: إنما فعل هذا بياناً لهم، وإرشاداً لما ينبغى لهم أن يفعلوه، فعلمهم بفعله وقوله. وفيه: أنه لا بأس بطلب الرجل امرأته إلى الوقاع فى النهار وغيره، وإن كانت مشغولة بما يمكن تركه، لأنه ربما غلبت على الرجل شهوة يتضرر بالتأخير فى بدنه أو فى قلبه وبصره والله أعلم.

فهذا كله نفخة كاذبة لإبليس، فلما تأت أهلك كأنك تبصق عليه.

ثم لما إذا رأيت حلماً افزعك فإن الرسول ﷺ أرشدنا إلى أن نبصق على يسارنا ثلاثاً^(٢) فتنتهى النفخة الكاذبة له.

ولذلك تجدد كثيراً من العشاق بعد الزواج يصبحوا أعداء، فإذا وصل الزوج لزوجته قبل البناء وقضى وطره، يكرهها ويكون ذلك سبباً فى فسخ العقد حيث ذهبت المحبة من ماء الذى هدا شهوته وجه لها فلذلك قال النبى «يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج»^(٣) وهذا ليس كلام نظرى فالزواج من أنفع الأدوية وهذا علاج أصلى وهو الزواج.

الثالث: وهناك علاج بدلى وهو الصوم فهو وقاية وجنة، والصوم يعنى ارتفاع المنسوب الإيمانى عند العبد فيقوى على دفع هذا الداء ويتعاطى أسباب النجاة.

وروى ابن ماجه فى «سننه» أن النبى ﷺ قال: «لم يرى للمتحابين مثل النكاح»^(٤) وقيل فى معناه أن الجماع من أسباب زيادة المحبة والمودة ولذلك فى كثير من المشاكل الزوجية، تأتى الزوجة فتقول: أنا لا أحب زوجى فلا تصدق وتردها بهذا الحديث.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى النكاح (٩/٩١/٥)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الرؤيا (٢٠/١٥) النووي عن جابر به.

وأنظر «رياض الصالحين» (٨٤٤ بتخريجنا)

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٨٤٧) وصححه الألبانى فى «سلسلته».

وهذا هو المعنى الذى أشار إليه سبحانه عقيب إحلال النساء حرائرهن وإيمانهن.

فى سورة النساء: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ...﴾ إلى أن قال: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ وهذا مانحن فيه الآن. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ يخفف عنا هذه الشهوة فنحن أضعف من أن نتحملها فمن رحمته أن أحل لنا الحرائر والإماء إن وجدن وكذلك أحل لنا مثنى وثلاث ورباع.

وذكر تخفيفه فى هذا الموضع وضعف الإنسان يدل على عدم تحمل هذه الشهوة وأنه خفف عنه بما أباح له من أطايب النساء ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ وأباح له ما شاء مما ملكت يمينه ثم أباح له من الإماء أن احتاج لذلك.

الرابع: إن كان لاسبيل للعاشق للوصول للمعشوق قدراً وشرعاً فهو الداء العضال فمن علاجه أن يشعر نفسه باليأس من الوصول للمعشوق، فإن النفس متى يشت من الشيء استراحت منه

قلت: لكن العشاق لم يقولوا أن اليأس علاج بل قالوا إن هذا أسمى معانى الغرام ويقول:

الحب من غير أمل أسمى معانى الغرام

يقول ابن القيم: فإن لم يزل مرض العشق مع اليأس فقد انحرف الطبع انحرافاً شديداً كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

فينتقل إلى علاج آخر وهو علاج عقله بأن يعلم بأن تعلق القلب بمالا مطمئع فى حصوله نوع من الجنون وصاحبه بمنزلة من يعشق الشمس وروحه متعلقة بالصعود إليها والدوران فى فلكها.

فلا تقاس لذة الأبد التى لا نهاية لها بلذة ساعة تنقلب آلام، لأن محبة الله التعب فيها لذة وهى فى غاية المتعة فانظروا إلى رجل داعى يؤذى ويضرب ويهان فى سبيل الله، ومع هذا كله يجد لذة ما بعدها لذة، فمثال ذلك أبى ذر الغفارى حينما كان يذهب خصيصاً ليجهز عند الكعبة بكلمة التوحيد ليضرب ويتمتع بهذا الضرب، ويذهب مرة ثانية.

فكل مكروه فى محبة الله محبوب، والعكس كل أذى فى محبة المخلوق جسيم، بل محبة المخلوق نفسها أذى فإذا نظرت إلى العشاق تجدهم لا ينامون إلا قليلاً، ولا يأكلون إلا يسيراً، وتضعف أبدانهم، وتصفّر وجوههم ويلتهمهم المرض فانقلبت اللذة والمتعة للآلام فالعاقل عندما يئس نفسه من المعشوق ولا يقدر على أن يعالج نفسه بأحد أمرين.

الأول أنه سيفوت على نفسه محبة أعظم، ولذة أدوم، فيها الأذى نعيم، بعكس محبة المخلوق، وهم قالوا ذلك على أنفسهم كل الأغاني [حبك نار] وآخر يقول [عذاب] وغير ذلك.

الأمر الثاني: حصول مكروه أشق عليه من مفارقة هذا المحبوب

قلت: يعنى سيحصل مفسد عاجلة أو آجلة منها: أن الله سيحرمه من الرزق، سواء مادي أو معنوي أو الإيمان، كما جاء فى الحديث الضعيف فى النظر «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركها من خوف الله أثابه الله إيماناً يجد حلاوته فى قلبه»^(١) فلو تركت الله أبديك الله إيماناً تحسه فى قلبك وأخرج أحمد والحكيم فى «نوادير الأصول» والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى «الشعب» عن أبى أمامة مرفوعاً: «ما من مسلم ينظر إلى امرأة» أول رمة، ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه»^(٢) وربما اجتمع لهذا العاشق المريض الأمان حصول المكروه وفوات المحبوب الأعظم واللذة الأدوم والأنفع.

فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء، ولم تطاوعه لهذه المعالجة، فلينظر ما تجلب عليه هذه الشهوة من مفسد عاجلة وما تمنعه من مصالحها.

الخامس:

قال ابن القيم: فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء فليذكر قبائح المحبوب وما يدعو للنفرة عنه.

قلت: فمثلاً أنت تحب امرأة ولم تستطع بعد كل هذا الدواء ترك حبها فتذكرها وهى فى دورة المياه تتخلى وتصورها فى حال الحيض الذى سماه الله أذى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ كذلك فى حال التمثخض من الأنف والفم كذلك انظر لسيء أخلاقها فكما أن الأشياء المستحسنة داعية للحب فكذلك الأشياء المستقبحة داعية للنفرة.

(١) تقدم تخريجه

(٢) [إسناده ضعيف جداً] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٤٦/٥)، والطبرانى فى «الكبير» (٧٨٤٢/٢٤٧/٨) بإسناد ضعيف جداً.

قال في «الصحيح» عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرَّمَ مَالَهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ»^(١).

ولا تسأل عن البقر الذى يأتى للنجاسة ويشمها ويتلذذ برائحتها فهذا لا تسأل عنه وعده لا فى الموتى بل فى البهائم لماذا نقول ذلك؟ لأنه بالفعل يصل بهذا الشخص إلى دركة أنك تقول له هذا الكلام ويقول لك أعرفه وهذه الأمور من ألد الأمور فى معشوقتي فهو يتلذذ من ذكرها إذا كانت منسوبة لمعشوقته بل ربما ظن أنه ليس فيها هذه الأمور وربما اصطدم حينما يصل إليها فيجد هذه الأمور.

السادس:

فإن عجزت هذه الأدوية كلها لم يبق له إلا صدق اللجوء إلى من يجيب المضطر إذا دعاه .

قلت: وما أظن هذا إلا فى من فهم أنه فى درك وانحطاط وفى وحل . فهو يصدق فى لجوءه لله بطريق بابيه فمتى وفق لذلك فقد قرع باب التوفيق فليعف وليكنتم ولا يشب بذكر المحبوب .

قلت: والتشبيب: يعنى يذكر عشقه له ويصل الأمر إلى التغنى والأشعار بمحبوبته كما قال بعضهم: «عاشق يا بنات النيل وبغنى لكم المواويل».

«ولا يغتر بالحديث الباطل الذى ينسب للرسول عن ابن عباس أنه قال: «من عشق ففعل فمات فهو شهيد» وفى رواية «من عشق وكنتم وعف وصبر غفر له وأدخله الله الجنة»^(٢).



قوله: فى «الصحيح» قال سليمان آل الشيخ: أي: «صحيح مسلم» عن أبى مالك الأشجعى عن أبيه عن النبي ﷺ فذكره. وأبو مالك اسمه سعد بن طارق كوفى ثقة،

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الإيمان» / باب: فضل أبى بكر الصديق رضى الله عنه (١/ ٢١٢ - النووي). وأحمد فى «مسنده» (٤٧٢/ ٣) والطبرانى فى «الكبير» (٨/ ٣٨٢ ح ٨١٩١، ٨١٩٤) وابن حبان فى «صحيحه» (١/ ١٩٧ ح ١٧١ - الإحسان).

جميعاً من طريق: أبى مالك عن أبيه عبد الله بن طارق بن أشيم رضى الله عنه فذكره.

وانظر رياض الصالحين (ح ٣٩٣) «فتح المجيد» (ح ١٧٢) بتخريجنا ط. نزار الباز

أنظر «المقاص الحسنة» للسخاوى (١١٥٣)

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٠٥، ١٠٦).

مات في حدود الأربعين ومائة، وأبوه طارق بن أشيم بالمعجمة والمثناة التحتية وزن أحمر بن مسعود الأشجعي صحابي له أحاديث. قال مسلم: لم يرو عنه غير ابنه.

وقال ابن عثيمين^(١): لم يفصح المؤلف رحمه الله بمراده بالصحيح؛ أهو «صحيح البخاري» أم «صحيح مسلم»، أم أن المراد به الحديث الصحيح؛ سواء كان في «الصحيحين» معاً أم في أحدهما أم في غيرهما، وليس له اصطلاح في ذلك يحمل عليه عند الإطلاق، وعلى هذا يبحث عن الحديث في مظانه، وقد ورد هذا التعبير في سياق المؤلف للحديث في مواضع أخرى، والمراد به هنا «صحيح مسلم». اهـ

مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جابر الله^(٢): هي أنه دلّ على أنّ عدم الكفر بما يعبد من دون الله شرك ينافي التوحيد. اهـ.

وقال القرعاوي^(٣): حيث دلّ الحديث على أن معنى التوحيد، وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله لا يتم ويكتمل إلا إذا كفر بكل ما يعبد سوى الله. اهـ

قوله: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله»:

قال النووي^(٤): شارحاً رواية مسلم قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»^(٥) قال الخطابي - رحمه الله: معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب؛ لأنهم يقولون: لا إله إلا الله ثم يقاتلون ولا يرفع عنهم السيف.

قال: ومعنى «وحسابه على الله» أي: فيما يستسرون به ويخفونه دون ما يخلون به في الظاهر من الأحكام الواجبة، قال: ففيه أن من أظهر الإسلام وأسر الكفر قبل إسلامه في الظاهر، وهذا قول أكثر العلماء، وذهب مالك إلى أن توبة الزنديق لا تقبل، ويحكي ذلك أيضاً عن أحمد بن حنبل رضى الله عنهما... هذا كلام الخطابي.

وذكر القاضي عياض معنى هذا وزاد عليه وأوضحه فقال: اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال: لا إله إلا الله تعبيراً عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بهذا مشركوا

(١) القول المفيد (١/١٩٤).

(٢) الجامع الفريد (٣٦).

(٣) الجديد (٧٨).

(٤) مسلم بشرح النووي (٢١٢/١).

(٥) [متفق عليه] حديث ابن عمر أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم في الإيمان (١/٢١١) النووي وتقدم

العرب وأهل الأوثان ومن لا يوحّد، وهم كانوا أول من دعى إلى الإسلام وقوتل عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلا يكتفى في عصمته بقوله: لا إله إلا الله إذ كان يقولها في كفره وهى من اعتقاده فلذلك جاء في الحديث الآخر: «وأنى رسول الله وقيم الصلاة ويؤتى الزكاة». هذا كلام القاضى.

قلت: ولا بد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ كما جاء فى الرواية الأخرى لأبى هريرة وهى مذكورة فى الكتاب «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به»^(١). والله أعلم. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله» اعلم أن النبى ﷺ فى هذا الحديث علق عصمة المال والدم بأمرين: الأول: قول لا إله إلا الله.

الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى، بل لابد من قولها والعمل بها قال المصنف: وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع التلفظ بها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لاشريك له، بل لا يحرم دمه وماله حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه، فيالها من مسألة ما أجلها، وياله من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع.

قلت: وقد أجمع العلماء على معنى ذلك فلا بد فى العصمة من الإتيان بالتوحيد، والتزام أحكامه، وترك الشرك.

كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾^(٣) والفتنة هنا: الشرك، فدل على أنه إذا وجد الشرك فالقتال باق بحاله كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٥) فأمر بقتالهم على فعل التوحيد، وترك الشرك، وإقامة شعائر

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/٢٣٣/٣٤)

(٣) سورة الأنفال الآية: ٣٩.

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (١٠٦).

(٥) سورة التوبة الآية: (٥)

(٤) سورة التوبة الآية: ٣٦.

الدين الظاهرة. فإذا فعلوها خلى سبيلهم. ومتى أبوا عن فعلها أو فعل شيء منها فالقتال باق بحاله إجماعاً. ولو قالوا: لا إله إلا الله. وكذلك النبي ﷺ علق العصمة بما علقها الله به في كتابه.

كما في الحديث وفي «صحيح مسلم». عن أبي هريرة مرفوعاً: «أمرتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» (١).

وفي «الصحيحين» عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ وكفر من كفر من العرب، فقال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحَسَابِهِ عَلَى اللَّهِ» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال. والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه. فقال عمر بن الخطاب: فوالله ما هو إلا أَنْ رَأَيْتَ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرُ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتَ أَنَّهُ الْحَقَّ. لَفْظُ مُسْلِمٍ (*).

فانظر كيف فهم صديق الأمة أن النبي ﷺ لم يرد مجرد اللفظ بها من غير إلزام لمعناها وأحكامها، فكان ذلك هو الصواب، واتفق عليه الصحابة، ولم يختلف فيه منهم اثنان إلا ما كان من عمر حتى رجع إلى الحق. وكان فهم الصديق هو الموافق لنصوص القرآن والسنة.

وفي «الصحيحين» أيضاً عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» (٢). فهذا الحديث كأنه براءة بين فيه ما يقاتل عليه الناس ابتداءً، فإذا فعلوه وجب الكف عنهم إلا بحقه، فإن فعلوا بعد ذلك ما يناقض هذا الإقرار والدخول في الإسلام وجب القتال حتى يكون الدين كله لله، بل لو أقروا بالأركان الخمسة وفعلوها، وأبوا عن فعل الوضوء للصلاة ونحوه، أو عن تحريم بعض محرمات الإسلام كالربا أو الزنا أو نحو ذلك وجب قتالهم إجماعاً، ولم تعصمهم لا إله إلا الله ولا ما فعلوه من الأركان.

وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، وأنه ليس المراد منها مجرد النطق، فإذا كانت لاتعصم من استباح محرماً، أو أبى عن فعل الوضوء مثلاً بل يقاتل على ذلك

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم.

(*) (متفق عليه) أخرجه البخاري (١٣٩٩) ومسلم في الإيمان (١/٢٣٢/٣٢).

وانظر «رياض الصالحين» (١٢١٣ - بتخریجنا).

حتى يفعله، فكيف تعصم من دان بالشرك وفعله وأحبه ومدحه، وأثنى على أهله، ووالى عليه، وعادى عليه، وأبغض التوحيد الذى هو إخلاص العبادة لله، وتبرأ منه، وحارب أهله، وكفرهم، وصد عن سبيل الله كما هو شأن عباد القبور.

وقد أجمع العلماء على أن من قال: لا إله إلا الله، وهو مشرك أنه يقاتل حتى يأتى بالتوحيد(*).

تنبيه

قال سليمان آل الشيخ: ذكر التنبيه على كلام العلماء فى ذلك فإن الحاجة داعية إليه لدفع شبه عباد القبور فى تعلقهم بهذه الأحاديث وما فى معناها مع أنها حجة عليهم بحمد الله لا لهم.

ثم ذكر كلام النووى المتقدم، وما نقله عن الخطابى والقاضى عياض، فقال: قال أبو سليمان الخطابى فى قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»: معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله، ثم يُقاتلون، ولا يرفع عنهم السيف.

وقال القاضى عياض: اختصاص عصم المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بذلك مشركوا العرب، وأهل الأوثان، ومن لا يوحّد، وهم كانوا أول من دعى إلى الإسلام، وقوتل عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلا يكتفى فى عصمته بقوله لا إله إلا الله، إذ كانى قولها فى كفره، وهى من اعتقاده، فلذلك جاء فى الحديث الآخر. «ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة».

وقال النووى: لا بد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ، وكما جاء فى الرواية الأخرى. «ويؤمنوا بى وبما جئت به».

وقال شيخ الإسلام: لما سئل عن قتال التتار مع التمسك بالشهادتين، ولما زعموا من اتباع أصل الإسلام، فقال: كل طائفة ممتنعة من التزام شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه، كما قاتل أبو بكر والصحابة رضى الله عنهم مانعى الزكاة، وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم قال: فأما طائفة ممتنعة امتنعت عن بعض

(*) كلام سليمان آل الشيخ السابق فيه تفصيل سيأتى بيانه، حيث أنه يفرق بين الإسلام الحكيم والإسلام الحقيقي. فانتبه.

الصلوات المفروضات، أو الصيام أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء أو الأموال أو الخمر أو الميسر، أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو ضرب الجزية على أهل الكتاب، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها، التي يكفر الواحد بجحودها، فإن الطائفة الممتعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء.

قال: وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنزلة البغاة بل هم خارجون عن الإسلام بمنزلة مانعي الزكاة. ومثل هذا كثير في كلام العلماء.

والمقصود التنبيه على ذلك، ويكفي العاقل المنصف ما ذكره العلماء من كل مذهب في باب حكم المرتد، فإنهم ذكروا فيه أشياء كثيرة يكفر بها الإنسان، ولو أتى بجميع الدين. وهو صريح في كفر عباد القبور. ووجوب قتالهم إن لم ينتهوا حتى يكون الدين لله وحده، فإذا كان من التزم شرائع الدين كلها إلا تحريم الميسر أو الربا أو الزنا يكون كافراً يجب قتاله، فكيف بمن أشرك بالله ودعى إلى إخلاص الدين لله والبراءة والكفر بمن عبد غير الله فأبى عن ذلك، واستكبر، وكان من الكافرين؟!

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «وكفر بما يعبد من دون الله».

أي: بعبادة من يعبد من دون الله، قلنا ذلك، لأن عيسى بن مريم كان يعبد من دون الله، ونحن نؤمن به، لكن لانؤمن بعبادته ولا بأنه مستحق للعبادة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

وفى قوله: «وكفر بما يعبد من دون الله» دليل على أنه لا يكفي مجرد التلفظ بلا إله إلا الله، بل لابد أن تكفر بعبادة من يُعبد من دون الله، بل وتكفر أيضاً بكل كفر، فمن يقول: لا إله إلا الله، ويرى أن النصراني واليهودي اليوم على دين صحيح؛ فليس بمسلم، ومن يرى الأديان أفكاراً يختار منها ما يريد؛ فليس بمسلم، بل الأديان عقائد مرسومة من قبل الله - عز وجل -، يتمشى الناس عليها، ولهذا ينكر على بعض الناس في تعبيره بقوله: الفكر الإسلامي، بل الواجب أن يقال: الدين الإسلامي أو العقيدة الإسلامية،

ولا بأس بقول المفكر الإسلامي؛ لأنه وصف للشخص نفسه لا للدين الذي هو عليه. أهـ.

● شبهة تكفير عوام المسلمين المستور حالهم والرد عليها

استدل أهل البدع والأهواء بقول الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- في (مسائله على هذا الباب): ومنها قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله»^(١).

وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لاشريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله، فإن شك، أو توقف لم يحرم ماله ودمه، فيا لها من مسألة ما أعظمها، وأجلها! ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع^(٢)! أهـ. على تكفير عوام المسلمين المستور حالهم أو في التوقف عن الحكم بإسلامهم وعصمة دمائهم وأموالهم لأن ظاهر هذا الكلام من الإمام أنه اشترط ستة أمور لعصمة المال والدم أى للإسلام الحكمى (مناط الحكم) وليس للإسلام الحقيقى (مناط الانتفاع) وهذه الشروط كما تقدم هى [التلفظ معرفة المعنى - الإقرار بذلك - لا يدعو إلا الله - الكفر بما يعبد من دون الله] وهناك شرط سادس [الشك والتردد] لهذا تعلق أهل البدع بهذا الكلام دون النظر منهم إلى من كان يخاطبهم الإمام بهذا الكلام، وإليك الجواب عن هذه الشبهة وما يعتذر به الإمام عن هذا الكلام:

● الجواب بذكر جملة مختصرة فيما يثبت به حكم الإسلام^(٣).

أولاً: النطق بالشهادتين:

لحديث أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقها وحسابه على الله»^(٤).

وحديث ابن عمر رضى الله عنه: «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها»^(٥).

(١) تقدم تخريجه وانظر «فضل الغنى الحميد» (١٧٧).

(٢) فضل الغنى الحميد (١٧٩).

(٣) تقدم تخريجه

(٤) تقدم ذكر كلامه.

(٥) تقدم تخريجه

قال النووي رحمه الله: وفيه: صيانة مال من أتى بكلمة التوحيد، ونفسه، ولو كان عند السيف. وفيه: أن الأحكام تجرى على الظاهر، والله يتولى السرائر. أهـ.

قال ابن رجب الحنبلي: ومن المعلوم بالضرورة أن النبي ﷺ كان يقبل من كل من جاءه يريد الدخول في الإسلام الشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك، ويجعله مسلماً، فقد أنكر على أسامة بن زيد قتله لمن قال لا إله إلا الله لما رفع عليه السيف، واشتد نكيره عليه^(١) ولم يكن النبي ﷺ ليشترط على من جاءه يريد الإسلام، ثم أن يلتزم الصلاة والزكاة. أهـ.

وقال أيضاً: إن كلمتي الشهادتين بمجردهما تعصم من أتى بهما ويصير بذلك مسلماً، فإذا دخل في الإسلام: فإن أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وقام بشرائع الإسلام؛ فله ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين، وإن أخل بشيء من هذه الأركان فإن كانوا جماعة لهم منعة قوتلوا. أهـ^(*).

وحديث أسامة رضى الله عنه هو في آخر الإسلام، ويدل على هذا الأمر أيضاً حديث المسيب في قصة موت أبي طالب، وفيه: أن رسول الله ﷺ قال له: «يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»^(٢).

وفي حديث المقداد بن الأسود رضى الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أرايت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ منى بشجرة، فقال: أسلمت لله، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: «لا تقتله» قال: فقلت يا رسول الله، إنه قد قطع يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها، أفأقتله؟ قال رسول الله ﷺ: «لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلة^(٣) قبل أن تقتله، وإنك بمنزلة^(٤) قبل أن يقول كلمته التي قال»^(٥).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [متفق عليه] البخارى (١٣٦٠)، ومسلم فى الإيمان (١/٢٤٤/٣٩) عن المسيب بن حزن به.

(٣) أي: معصوم الدم محرم قتله

(٤) أي: غير معصوم الدم لأنك قتلت مسلماً.

(٥) تقدم تخريجه وهو فى «الصححين»

(*) جامع العلوم والحكم (١/١٣٣)، بتحقيقنا ط نزار الباز.

والكناية عن الشهادتين عن لا يحسنها، كصريح لفظ الإسلام، أفاده مجد الدين ابن تيمية في «المنتقى» في باب ما يصير به الكافر مسلماً، واحتج بحديث ابن عمر رضى الله عنه: «قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبياناً، صبياناً، فجعل خالد يقتل ويأسر» - الحديث، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»^(١).

وفي الباب حديث معاوية بن الحكم السلمي أن النبي ﷺ قال لجارية: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا؟»، قالت: رسول الله، قال: «اعتقها فإنها مؤمنة»^(٢). وفيه أيضاً حديث رجل من الأنصار، وفيه من الزيادة السؤال عن الإيمان بالبعث بعد الموت.

قال النووي في «روضة الطالبين» - فيما تحصل به توبة المرتد وفي معناها إسلام الكافر الأصلي -: وقد وصف الشافعي رضى الله عنه توبته، فقال: أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويبرأ من كل دين خالف الإسلام. أهـ.

وقال في موضع: إذا أتى بالشهادتين صار مسلماً، وليس هذا باختلاف قول عند جمهور الأصحاب كما ذكرنا في كتاب الظهار، بل يختلف الحال باختلاف الكفار، وعقائدهم.

قال البغوي: إن كان الكافر وثنيّاً، أو ثنويّاً لا يقر بالوحدانية، فإذا قال لا إله إلا الله حكم بإسلامه، ثم يجبر على قبول جميع الأحكام، وإن كان مقرأ بالوحدانية، منكرًا نبوة نبينا ﷺ؛ لم يحكم بإسلامه، حتى يقول مع ذلك محمد رسول الله إلى جميع الخلق، أو يبرأ من كل دين خالف الإسلام، وإن كان كفره بجحود فرض، أو استباحة محرم لم يصح إسلامه حتى يأتى بالشهادتين، ويرجع عما اعتقده، ويستحب أن يمتحن كل كافر أسلم بالإيمان بالبعث. أهـ.

قال أبو القاسم الخرقى الحنبلي: ومن شهد عليه بالردة، فقال: ما كفرت فإن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله لم يكشف عن شيء. أهـ.

قال ابن قدامة في «المغنى» شارحاً لهذا الكلام: «إذا ثبت رده بالبينة، أو غيرها، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لم يكشف عن صحة ما شهد عليه

(١) تقدم تخريجه في مبحث الولاء البراء

(٢) [صحيح] في المساجد (٣/٢٣/٣٣).

وانظر «منار السبيل» بتخريجنا

به، وخلق سبيله، ولا يكلف الإقرار بما نسب إليه لقول النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل»^(١).

ولأن هذا ثبت به إسلام الكافر الأصلي فكذلك إسلام المرتد، ولا حاجة مع ثبوت إسلامه إلى الكشف عن صحة رده، وكلام الحرقى محمول على من كفر بجحد الوجدانية، أو جحد رسالة محمد ﷺ، أو جحدهما معاً، وأما من كفر بغير هذا، فلا يحصل إسلامه إلا بالإقرار بما جحده، ومن أقر برسالة محمد ﷺ، وأنكر كونه مبعوثاً إلى العالمين؛ لا يثبت إسلامه، حتى يشهد أن محمداً رسول الله إلى الخلق أجمعين، أو يتبرأ مع الشهادتين من كل دين يخالف الإسلام، قال: وإن ارتد بجحد فرض؛ لم يسلم حتى يقر بما جحده، ويعيد الشهادتين. أهـ.

وقال أيضاً: وإذا أتى الكافر بالشهادتين، ثم قال: لم أورد الإسلام؛ فقد صار مرتداً، ويجبر على الإسلام، نص عليه أحمد في رواية جماعة. أهـ.

والقول في هذا كثيرة جداً، وهي - بحمد الله - متفقة على أنه لا يشترط أكثر من النطق بالشهادتين في صحة إسلام الكافر، ولا من يقولها حال كفره، سواء كان مرتداً، أو أصلياً، فيحتاج إلى التصريح بالبراءة من كفره مع نطقها، وهذا لا يغير من حكم النطق شيئاً لمن لم يكن كذلك، فضلاً عما لا يعلم عنه سوى الإسلام الصريح قولاً وعملاً بأركانه، فالتوقف عن الحكم بالإسلام بزعم أن الناس اليوم لا يعرفون معنى لا إله إلا الله، من شر البدع، لأن تفصيل العلم ليس شرطاً، كما بيناه في شروط «لا إله إلا الله» كما أن الناس في عصر الرسول ﷺ، والصحابة رضی الله عنهم، ومن بعدهم من أهل العلم كان فيهم العربي، والعجمي، ولم يؤمر أحد بزيادة على القول.

ولذا قال الإمام أحمد: الإسلام: الكلمة، موافقاً للإمام الزهري في ذلك ومقصوهما كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يدخل فيه بكلمة الشهادة، بل كان من العرب في عهده عليه الصلاة والسلام من لا يدري على التفصيل معنى «لا إله إلا الله»، كما يدل عليه قصة ذات أنواط^(٢)، فهل عند ذلك غير رسول الله ﷺ حكم النطق بالشهادة؟

وقد عرفنا أن حديث أسامة^(٣) في آخر الإسلام بعد الفرائض، وقد كان عدى بن حاتم^(٤) لا يدري أن اتباع الأحبار والرهبان في تبديل الشرع عبادة لهم تنافي «لا إله إلا الله»^(٤).

(١) سبق تخريجه.

(٢) سيأتي تخريجه (٣) تقدم

(٤) حديث عدى بن حاتم رضي الله عنه سبق تخريجه.

والنصارى كلهم على ذلك فلم يطلب الرسول ﷺ منهم بزيادة على الشهادتين، ثم يعلموا بعد ذلك، ورسالته عليه الصلاة والسلام لهرقل من أوضح الأدلة على ذلك^(١)، وهذا كله - بحمد الله - طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأبنائه، وعلماء دعوته، فعندما نسب إليهم تكفير عموم المسلمين بين لهم فى رسائله: أنه يكفر من قامت عليه الحجة، فأصر على الشرك، أو رضى به، أو قاتل أهل التوحيد مع أهل الشرك، ثم قال: وأكثر الأمة - بحمد الله - ليسوا كذلك، ونفى عن نفسه شبهة التكفير بالعموم^(٢).

الأمر الثاني: الذى يثبت به حكم الإسلام: الولادة لأبوين مسلمين أو أحدهما. وذلك لما رواه أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء، ثم قال أبو هريرة ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَىهَا﴾» [الروم: ٣٠]^(٣).

بواب عليه مجد الدين بن تيمية فى «المنتقى»: «باب تبع الطفل لأبويه فى الكفر، ولمن أسلم منهما فى الإسلام، وصحة إسلام المميز» ولا خلاف بين أهل العلم فى أن الأبوين إذا كانا مسلمين؛ كان أولادهما مسلمين، والجمهور - على أن الولد يتبع المسلم منهما أيا كان الأب والأم، وهو الصواب بلا شك؛ لهذه الأحاديث، وأما من ولد لأبوين كافرين فهو كافر فى أحكام الدنيا، والخلاف مشهور فى حكمهم فى الآخرة، والأرجح، أنهم فى الجنة خدم لأهلها، وقد يكون بعضهم من أهل الإمتحان والله أعلم، ومثل الولادة، أن يسلم أحد أبوى الطفل، وهو دون البلوغ، أو يأسره المسلمون بعيداً عن أبويه؛ فيصير مسلماً بذلك.

الأمر الثالث: الذى يثبت به الإسلام: الصلاة، على الصحيح من أقوال العلماء - مع ثبوت الخلاف فيه - وذلك لحديث جرير بن عبد الله رضى الله عنه، قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم القتل - قال فبلغ ذلك النبى ﷺ فامر لهم بنصف العقل^(٤) وقال: «أنا بريء من كل مسلم أقام بين أظهر المشركين» قالوا: يا رسول الله: لم؟ قال: «لا تراءى ناراهما»^(٥).

(١) رواه البخارى (٧)، من حديث ابن عباس رضى الله عنه: بلفظ: «من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم» - الحديث.

(٢) (انظر رسالة منهاج الحق والإتباع) وفيها رسالة الشيخ نفسه لبعض من أنكر عليه، وكذا كتاب: «صيانة الإنسان».

(٣) رواه البخارى (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨)، والترمذى (٢١٣٨)، وأحمد (٣٩٣/٢).

(٤) يعنى نصف النية. (٥) (صحيح) رواه أبو داود (٢٥٣٠) والترمذى (١٦٠٤).

قال ابن القيم رحمه الله: إنما أمر لهم بنصف العقل بعد علمه بإسلامه لأنهم قد أعانوا على أنفسهم بمقامهم بين ظهرائي الكفار فكانوا كمن هلك بجناية نفسه وجناية غيره وهذا حسن جداً. أهـ^(١).

قال ابن قدامة: إذا صلى خلف من شك في إسلامه أو كونه خنثى، فصلاته صحيحة، ما لم يبين كفره، وكونه خنثى مشكلاً لأن الظاهر من المصلين الإسلام، لا سيما إذا كان إماماً، والظاهر السلامة من كونه خنثى سيما من يؤم الرجال، فإذا تبين بعد الصلاة أنه كان كافراً أو خنثى مشكلاً فعليه الإعادة على ما بينا.

وإن كان الإمام ممن يسلم تارة ويرتد أخرى: لم يصل خلفه حتى يعلم على أي دين هو.

ثم قال: قال أصحابنا: يحكم بإسلامه بالصلاة، سواء كان في دار الحرب أو في الإسلام وسواء صلى جماعة أو فرادى، فإن أقام بعد ذلك على الإسلام فلا كلام، وإن لم يقيم عليه فهو مرتد يجري عليه أحكام المرتدين، وإن فات قبل ظهور ما ينافي الإسلام فهو مسلم يرثه وورثته المسلمون دون الكافرين.

وقال أبو حنيفة: إن صلى جماعة أو منفرداً في المسجد كقولنا، وإن صلى فرادى في غير المسجد لم يحكم بإسلامه.

وقال بعض الشافعية: لا يحكم بإسلامه بحال، لأن الصلاة من فروع الإسلام، فلم يصبر مسلماً بفعلها كالحج والصيام، ولأن النبي ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»، وقال بعضهم: إن صلى في دار الإسلام فليس بمسلم، لأنه قد يقصد الاستتار بالصلاة، وإخفاء دينه، وإن صلى في دار الحرب فهو مسلم، لأنه لا تهمة في حقه.

ولنا: قول النبي ﷺ: «نهيت عن قتل المصلين»^(٢) وقال: «بيننا وبينهم الصلاة»^(٣) فجعل الصلاة حداً بين الإسلام والكفر، فمن صلى فقد دخل في حد الإسلام، وقال في المملوك «فإذا صلى فهو أخوك»، ولأنها عبادة تختص بالإسلام، فالإتيان بها إسلام كالشهادتين، وأما الحج فإن الكفار كانوا يفعلونه، والصيام إمساك عن المفطرات، وقد يفعله من ليس بصائم، أهـ^(٤).

وقال الشافعي رحمه الله: إن صلى في دار الحرب؛ حكم بإسلامه، وإن صلى في دار الإسلام، لم يحكم بإسلامه. أهـ.

(١) نقلًا عن عزن المعبود. (٢) أخرجه أبو داود (٤٩٢٨) عن أبي هريرة به.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٢١)، والنسائي في «الكبرى» (٣٢٩)، وابن ماجه (١٠٧٩) عن بريدة به وأنظر «السلييل» (٢٥٢) بتخريجنا وتقريب الأسانيد (ح ٤٨) بتخريجنا.

(٤) المغني (١٧/٢).

والصحيح: أن هذا فى الظاهر، أما فيما بينه وبين الله فلا بد من النطق بالشهادتين، مع القدرة عليهما؛ حتى يصح إيمانه باطنياً، لأن النطق بهما: شرط، كما يدل عليه حديث المسيب فى موت أبى طالب: حيث كان يعتقد صحتها، لكنه لم ينطق؛ فمات على الشرك.

وقد أطلق بعض أهل العلم أن الكافر يصير مسلماً، إذا أقر بما يصير المسلم كافراً إذا جحدته، ويجبر على قبول الإسلام، والصحيح ما ذكرناه من الأمور الثلاثة، وما عداها يفترق عنها؛ فلا يصح القياس عليها. والله أعلم.

وهذا كله فيمن علم كفره، أما من لم نعلم كفره، ولا إسلامه، ولكنه أظهر شعار الإسلام؛ وجب أن يعامل بمقتضى ما أظهر، كتحية الإسلام، أو التسمية بأسماء المسلمين، أو الأذان فى قوم^(١)، ووجود المسجد، فإن ظهر أنه كان كافراً لم يجعل بما أظهر مرتداً، بل هو على كفره الأصلي؛ لأنه لم يدخل فى الإسلام بذلك، وإنما عاملناه بما أظهر من القرائن، بخلاف الشهادتين، والولادة لأب أو أم مسلمين، أو الصلاة فإنه إن ادعى أنه لم يرد الإسلام لم يقبل منه، ويصير مرتداً.

ودليل المعاملة بالقرائن ما رواه أنس رضى الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا غزا قوماً لم يغز حتى يصبح، فإذا سمع أذاناً أمسك، وإن لم يسمع أذاناً أغار بعد ما يصبح»^(٢).

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال: مر رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب النبى ﷺ يرعى غنماً له، فسلم عليهم، فقالوا لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه، فقتلوه، وأتوا بغنمه النبى ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٣). وفى رواية: «أن الرسول ﷺ أرسل بدينه»^(٤).

(١) يلاحظ هنا أن المؤذن نفسه ينطق بالشهادتين فى الأذان فكفره بعد ذلك ردة، أما بالنسبة لمن معه فالأذان قرينة فى حقهم.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) النساء/ ٩٤.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٥٩١)، والترمذى (٣٠٣٠)، واللفظ الأول للترمذى

مناقشة قول الإمام - رحمه الله:

كما تقدم من أدلة السنة بفهم سلف الأمة عينه في الرد على هذه البدعة وهذه الفرقة في تكفير عوام الأمة، ويبقى مناقشة ما في قول الإمام من كلام ربما خالف فيه ظاهر ما تقدم عن النبي ﷺ.

قال رحمه الله «وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله» يعنى هذا الحديث يبين معنى لا إله إلا الله. قال «فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله، ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله.. إلخ» وفيه أنه اشترط ستة أمور لعصمة المال والدم: التلفظ، معرفة المعنى، الإقرار، لا يدعوا إلا الله، الكفر بما يعبد من دون الله، عدم الشك والتردد.

فأدخل الإسلام الحكمى في الإسلام الحقيقى فأين هذا الكلام من قول الرسول لعلى «انفذ على سلك...»^(١) فيدعوهم إلى لا إله إلا الله، ويخبرهم بما يجب عليهم بعد ذلك. فهل هو اشترط عليهم شيئاً في الحديث من هذه الستة، فيستحيل أن تأمر الناس بالصلاة وأنت تقتلهم فهذا تكليف بالمستحيل والله لم يكلف إلا ما فى الوسع وهذا لا يتصور شرعاً ولا عقلاً كما تقدم من كلام ابن رجب الحنبلي.

وكذلك فى حديث معاذ: «ادعوهم إلى لا إله إلا الله»^(٢) فأين شرط معرفة معناها والإقرار بها... بل هم صاروا مسلمين قبل أن يدعوا للصلاة والزكاة فكلام الشيخ هنا فيه جمع بين الإسلام الحكمى والحقيقى لكن نلتمس العذر للمعنف فلعله عندما رأى خروجاً عن الإسلام وجاهلية وظن الناس أنه بمجرد التلفظ صاروا كاملى الإسلام فحدث منه رد فعل عنيف للترهيب والزجر فلماذا كما سيأتى، أما رد فعل أهل البدع والأهواء لم ينضبط بضابط علمى أخذوا يشترطون شروطاً الأحاديث ليست فيها وجعلوها فى الإسلام الحكمى.

فإياك من رد الفعل العاطفى، وتَمَسَّكُ بأصول أهل السنة من هذا وشغب وتشنيع أهل البدع. فأهل السنة هم الحسنة بين السيتين فلا نقول أن المترجة كافرة بمجرد تبرجها لأن التبرج ليس بكفر ولا نقول أنها أخت لنا فى الله بل تقول هى مسلمة عاصية لأن الأخوة فى الله لها شروط ثقال لانستطيع عليها، فإياك من رد الفعل العاطفى الذى فيه وقع كثير من أهل السنة.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وقوله: «فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه».

قال الفقير: فالشك والتردد عمل قلبي فكيف نجري أحكاماً دنيوية على مسائل باطنية لا يعلمها إلا الله عزوجل، فعدم الشك والتردد هو الإسلام الحقيقي وهذا ما قاله النبي «غير شاك فيهما حرمه الله على النار»^(١).

وجاء الشارح يؤكد هذا الكلام بقوله: «وهذا هو الشرط المصحح لقوله لا إله إلا الله فلا يصح قولها بدون هذه الخمس التي ذكرها المصنف رحمه الله أصلاً».

فمجرد الإقرار أسلموا، فندعوهم لإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإن أبوا يعني أعرضوا بعد الإقرار والإسلام قوتلوا على أنهم مرتدين وليسوا كفار كفر أصلي، فقد يمتنع ولا يفعل مع القبول -أي قبل الزكاة ولم يصل فالحاكم أن يقاتلهم من باب قتال أهل البغي لا الردة كما قاتل أبو بكر مانعي الزكاة الذين كانوا كما قال النووي نقلاً عن الخطابي في «معالم السنن» في شرح حديث أبي هريرة «أمرت أن أقاتل الناس...».

قال الخطابي: وفيه أن أبا بكر قاتل صنفين من مانعي الزكاة.

الأول: صنف جحد وأنكر فهذا ارتد وقوتل من باب الردة.

الثاني: وصنف تأول.

فهذا لم يقاتل قتال المرتد؛ لكن قُوتِلَ قتال أهل البغي، فهذا امتنع وقوتل على الامتناع فإنهم تأولوا قول الله «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا» فالصدقة منوطة بالرسول فتأولوا أن الذي سيأخذ الزكاة منهم الرسول فقط وهو الذي سيصلي عليهم ويظهرهم بهذه الصلاة، وهذا لا يتصور إلا في الرسول فإن مات لا يأخذها غيره، فتأولوا فحماهم من حكمنا عليهم بالردة.

فلماذا سميت حروب الردة؟

قال النووي: لأن الغالب عليها كذلك، لكن كان فيها ناس بغاة غير مرتدين.

وقدمنا نص كلام الخطابي نقلاً عن النووي قبل كلامنا هذا.

فكذلك قد يمتنع عن الزكاة متوول أو عن الصلاة بعد أن أقر فهذا اختلف العلماء في تكفيره وهما قولان وروايتان عن أحمد كما نقلها ابن تيمية في «فتاويه»، قال: وكذلك مانعي الزكاة فإن الصديق والصحابه ابتدأوا قتالهم، قال الصديق «والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه»^(٢) فهم يقاتلون إذا امتنعوا من أداء

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الواجبات وإن أقروا بالوجوب ثم تنازع الفقهاء في كفر من منعها وقاتل الإمام عليها مع إقراره بالوجوب على قولين هما روايتان لأحمد.

[قلت]: هناك توجيه للروايتين: أن الإمام أحمد حينما قال (يكفر) اعتبر أن القتال على الإمتناع دليل على الرد القلبي، فقال: يكفر فلو أقر بالوجوب، ثم امتنع ثم نصب القتال للإمام فاعتبر الامتناع مع مقاتلة الإمام قرينة على الرد، فقال بكفره.

- وحينما قال (لايكفر) اعتبر أن الإقرار يكفى وأن هذا الامتناع والمقاتلة بغى، وليست قرينة على سوء المعتقد من ردة أو إنكار.

الشاهد من هذا الكلام: أنه يرى أنه بمجرد الإقرار حتى وإذا لم يلتزم الشرائع بعد أن أقر بوجوبها والإيمان بها جملة وعلى الغيب أن هذا لا يكفر قوله واحدة حتى وإن قاتل لا يكفر قوله واحدة، بل فيها خلاف، فهو لا يرى حداً للإسلام إلا الإقرار كما نقل الحافظ في «الفتح»^(١) من هذا المطلق وهذا الفهم نقرأ كلام الشارح.

إشكال:

ففى صحيح مسلم حديث أبى هريرة، وكذلك فى الصحيحين حديث ابن عمر هناك إشكال فى الحديثين.

فالحديث الأول: فى صحيح مسلم عن أبى هريرة مرفوعاً: «أمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي، وبما جئتُ به، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

والحديث الثانى: فى الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «أمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

والإشكال هو أن الحديث لم يذكر الإقرار فقط، وإنما ذكر إقامة الصلاة وإتاء الزكاة فمعنى ذلك أن من قال لا إله إلا الله فقط غير مسلم إسلاماً قطعياً تجرى عليه أحكام المسلمين فى الدنيا من عصمة المال والدم حتى يصلى ويزكى.

والجواب كما تقدم: أن كلمة «أقاتل» غير كلمة «أقتل» فهى تدل على قتل أحاد الناس وهذا لا يتصور إلا أنهم حلال الدم لكن كلمة (أقاتل) لفظ مفاعلة يعنى من الجانبين يعنى إن هم أقروا ثم قاتلوا على عدم الصلاة والزكاة أقاتلهم، ولا يحكم عليهم بالردة

(١) انظر فتح البازى (١/٩٦، ٩٧).

قوله واحدة بل يجرى عليهم الخلاف السابق، وهذا الذى احتج به أبو بكر لكنه لم يذكر هذه اللفظة إنما ذكرها أبو هريرة وابن عمر وإلا لو كان ذكر الصلاة والزكاة لما احتاج للقياس لكان ذكر اللفظة التى تنص على قتالهم لو قاتلوا على عدم الصلاة والزكاة. فالحديث لا يقول إن الإسلام الحكمى إقرار وعمل إنما هو الإقرار فقط فإن قاتلونا قاتلناهم.

وقد أفاض ابن دقيق العيد فى شرح هذه اللفظة فى شرح «عمدة الأحكام». وفى الحقيقة هذا الحديث كان من أشكال الأحاديث حتى قرأت معنى هذه اللفظة فما وجدت فيه إشكال. وهذا نص عليه الحافظ ابن حجر وقال «أقاتل» غير «أقتل». وقال الشافعى: ليس القتال من القتل بسبيل، وقد يحل قتال الرجل، ولا يحل قتله. أهـ.

✽ ما يعتذر به للمصنف رحمه الله:

أولاً: قال صاحب «فضل الغنى الحميد»: هذا الكلام من المصنف رحمه الله، احتج به بعض أهل البدع فى تكفير عوام المسلمين - المستور حالهم - أو فى التوقف عن الحكم بإسلامهم، وعصمة دمائهم، وأموالهم، وذلك دون نظر من هؤلاء المستبدين عن سيرة الشيخ، ودعوته، ومن كان يقاتلهم، وينازعهم، وجعل هذا الحديث حجة عليهم، فإن الشيخ - رحمه الله - إنما كان ينازع، ويقاتل من أصر على الشرك من دعاء غير الله، أو رضى به، وأقره، أو حارب التوحيد وأهله مع أهل الشرك، بعد بلوغ الحجة التى كان يدعوهم إليها، ويبينها لهم من أدلة الكتاب والسنة القطعية، وكان هؤلاء مع حالهم هذا، يقولون لا إله إلا الله فكان الله يعاملهم على أنهم مرتدون والمرتد الذى يقول لا إله إلا الله حال كفره لا ينفعه مجرد الإقرار بها، حتى يضيف إليها الرجوع عما كان سبب رده، كما هو معلوم من كلام أهل العلم فى أبواب الردة، وهذا مثل قول أهل العلم فى الكتابى الذى يشهد حال كفره لمحمد ﷺ بالرسالة، أو يقر بالوحدانية مع كفره، فلا بد أن يضيف إلى الشهادتين عند إسلامه: شهادته لمحمد ﷺ بالرسالة لعموم الإنس والجن. وكالبهائية والقاديانية، فلا بد أن يضيفوا إليها: تكذيبهم بالبهاء، وبالقاديان، كما فعل الصحابة مع أصحاب مسيلمة الكذاب، وأمثالهم، أما أن يجعل هذا الكلام حجة للتوقف فى عصمة دم ومال من ثبت له حكم الإسلام، ولم يعلم عنه ردة وخروج من الشرع، ولا يحكم بإسلام من نطق الشهادتين، أو ولد لأبوين مسلمين

حتى يختبر ويمتحن بتفاصيل معينة وضعوها، كما تقدم فهذا القول من أخطر البدع، وأضلها، بل هو مخالف للمعلوم من الدين بالضرورة، فكيف يحمل عليه كلام الشيخ، ويقال إن هذا قصده!! أهـ^(١).

ثانياً: تقدم من قولنا أن عذر الإمام وجود هذه الردة وهذا الخروج عن الإسلام إلى الجاهلية مع ظن الناس في هذه الحالة بنطقهم بـ «لا إله إلا الله» أنهم صاروا كاملي الإسلام، فكان لهذا الرد العنيف من شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب للترهيب والزجر عن هذه الردة، وهذه الجاهلية، واستلزم ذلك ألا يفصل أحياناً كما في هذا الموضع ليكون ذلك أدعى للزجر والترهيب، وهذا ما يؤكد ما قدمناه في المقدمة في منهج الإمام في هذا الكتاب، وأنه وعظي، دعوى، أكثر منه علمي، فلهذا ناسب في مقام الوعظ الإجمال لا التفصيل الذي محله التعليم

ثالثاً: وقد يقال أنه جمع بين الإسلام الحكمي والحقيقي، لأن الأخير يشمل الأول، فإذا عبر عن الأول الإسلام الحكمي -بالأخير- الإسلام الحقيقي - فلأن الأخير يشمل هذا التعبير نافع جداً في مقام الوعظ والترهيب، ومن هنا أنزل بعض السلف آيات الكفر الأكبر على الكفر الأصغر للترهيب، ولأن الأكبر يشمل الأصغر.

قوله: (وحسابه على الله).

فيه قبول توبة الزنديق،

قال النووي^(٢): قلت: اختلف أصحابنا في قبول توبة الزنديق وهو الذي ينكر الشرع جملة فذكروا فيه خمسة أوجه لأصحابنا:

أصحابها والأصوب منها: قبولها مطلقاً للأحاديث الصحيحة المطلقة.

والثاني: لا تقبل ويتحتم قتله، لكنه إن صدق في توبته نفعه ذلك في الدار الآخرة وكان من أهل الجنة.

والثالث: إن تاب مرة واحدة قبلت توبته فإن تكرر ذلك منه لم تقبل.

والرابع: إن أسلم ابتداء من غير طلب قبل منه وإن كان تحت السيف فلا.

والخامس: إن كان داعياً إلى الضلال لم يقبل منه وإلا قبل منه. والله أعلم. أهـ.

(١) فضل الغنى أحمد (١٧٥، ١٧٦).

(٢) شرح النووي لمسلم (٢١٢/١).

قال ابن رجب (١):

قوله (وحسابه على الله): استدل بهذا من يرى قبول التوبة الزنديق، وهو المنافق إذا أظهر العود إلى الإسلام ولم ير قتله بمجرد ظهور نفاقه كما كان النبي ﷺ يعامل المنافقين ويجريهم على أحكام المسلمين في الظاهر مع علمه بنفاق بعضهم في الباطن، وهذا قول الشافعي وأحمد في رواية عنه، وحكاه الخطابي عن أكثر العلماء. والله أعلم. اهـ.

وقال ابن حجر (٢) (وحسابهم على الله) أى فى أمر سرائرهم، دليل على قبول الأعمال الظاهرة، والحكم بما يقتضيه الظاهر، والإكتفاء فى قبول الإيمان بالإعتقاد الجازم خلافاً لمن أوجب تعلم الأدلة. ويؤخذ منه ترك تكفير أهل البدع المقرين بالتوحيد الملتزمين للشرائع، وقبول توبة الكافر من كفره، من غير تفصيل بين كفر ظاهر أو باطن.

فإن قيل: مقتضى الحديث قتال كل من امتنع من التوحيد، فكيف ترك قتال مؤدى الجزية والمعاهد؟ فالجواب من أوجه:

(أحدها) دعوى النسخ بأن يكون الإذن بأخذ الجزية والمعاهدة متأخراً عن هذه الأحاديث، بدليل أنه متأخر عن قوله تعالى ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾.

(ثانيها): أن يكون من العام الذى خص منه البعض، لأن المقصود من الأمر حصول المطلوب، فإذا تخلف البعض لدليل لم يقدح فى العموم.

(ثالثها): أن يكون من العام الذى أريد به الخاص فيكون المراد بالناس فى قوله «أقاتل الناس» أى المشركين من غير أهل الكتاب ويدل عليه رواية النسائي بلفظ «أمرت أن أقاتل المشركين».

فإن قيل: إذا تم هذا فى أهل الجزية لم يتم فى المعاهدين ولا فى من منع الجزية.

أجيب بأن الممتنع فى ترك المقاتلة رفعها لتأخيرها مدة كما فى الهدنة، ومقاتلة من امتنع من أداء الجزية دليل الآية.

(رابعها) أن يكون المراد بما ذكر من الشهادة وغيرها التعبير عن إعلاء كلمة الله وإذعان المخالفين، فيحصل فى بعض بالقتل وفى بعض بالجزية وفى بعض بالمعاهدة

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٤٠) بتخريجنا.

(٢) فتح الباري (١/ ٩٧).

(سادسها) أن يقال الغرض من ضرب الجزية اضطرارهم إلى الإسلام، وسبب السبب سبب، فكأنه قال: حتى يسلموا أو يلتزموا ما يؤديهم إلى الإسلام، وهذا أحسن، ويأتي فيه ما في الثالث وهو آخر الأجوبة. والله أعلم. أهـ.

واستدل الشافعية بالحديث على قبول توبة الزنديق، وهو الذي يُظهر الإسلام، ويسرّ الكفر.

والحديث محمول على المشرك. ويتفرع على ذلك سقوط القتل وعدمه، أما في الآخرة فإن كان دخل في الإسلام صادقاً قبلت.

- وفيه: أن الإنسان قد يقول: لا إله إلا الله، ولا يكفر بما يعبد من دون الله.

-وفيه: أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن مال المسلم ودمه حرام إلا في حق كالقتل قصاصاً ونحوه، وتغريمه قيمة ما يتلفه.

(١) تيسير العزيز الحميد (١٠٩).

480

فِيهِ أَكْبَرُ الْمَسَائِلِ وَأَهْمُهَا.

وَهِيَ تَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ.....

الترجمة من الأبواب شرح للتوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، لأن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، أن لا يعبد إلا الله ولا يعتقد النفع والضرر إلا في الله، وأن يكفر بما يعبد من دون الله، ويتبرأ منها ومن عابديها، وما بعد هذا من الأبواب بيان لأنواع من العبادات والاعتقادات التي يجب إخلاصها لله تعالى، وذلك هو معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، والله أعلم. أهـ.

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «وشرح هذه الترجمة».

المراد بالشرح هنا: التفصيل، والترجمة: هي التعبير بلغة عن لغة أخرى، ولكنها تطلق باصطلاح المؤلفين على العناوين والأبواب، فيقال: ترجم على كذا؛ أي: بوب له. أ.هـ.

قال الفقير: وضعت كلمة ترجمة في اللغة العربية، لتدل على أحد معان أربعة:

أولها: تبليغ الكلام لمن لم يبلغه، ومنه قول الشاعر:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

والمقصود أن الرجل كبير وثقل سمعه.

ثانيها: تفسير الكلام بلغته التي جاء بها، ومنه قيل في ابن عباس: إنه ترجمان القرآن.

ثالثها: تفسير الكلام بلغة غير لغته.

رابعها: نقل الكلام من لغة إلى أخرى. والدليل حديث هرقل في الصحيح وحديثه مع أبي سفيان بترجمان.

وأيضاً: تطلق الترجمة على السيرة والتاريخ، كما يقال: ترجمة فلان، أي: سيرته وتاريخه.

وفيه مسائل:

قوله: «فيه أكبر المسائل وأهمها، وهي تفسير التوحيد».

فتفسير التوحيد أنه لا بد فيه من أمرين:

الأول: البراءة مما سوى الله - عز وجل - والكفر بغيره.

(١) القول المفيد (١/١٩٥، ١٩٦).

وَتَفْسِيرُ الشَّهَادَةِ. وَبَيْنَهَا بِأُمُورٍ وَاضِحَةٍ.

وَمِنْهَا آيَةُ الْإِسْرَاءِ: بَيَّنَّ فِيهَا الرَّدَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الصَّالِحِينَ؛
فَفِيهَا بَيَانٌ أَنَّ هَذَا هُوَ الشَّرْكُ الْأَكْبَرُ.

الثاني: إثبات الألوهية لله وحده؛ فلا بد من النفي والإثبات لتحقيق التوحيد؛ لأن التوحيد جعل الشيء واحداً بالعقيدة والعمل، وهذا لا بد فيه من النفي والإثبات.
فإذا قلت: زيد قائم؛ أثبت له القيام ولم توحده، لكن إذا قلت: لا قائم إلا زيد؛ أثبت له القيام ووحده به.
وأيضاً إذا قلت: الله إله أثبت له الألوهية، لكن لم تنفها عن غيره؛ فالتوحيد لم يتم.

قوله: «تفسير الشهادة».

الشهادة: هي التعبير عما يتقنه الإنسان بقلبه؛ فقول: أشهد أن لا إله إلا الله؛ أي: أنطق بلساني معبراً عما يكنه قلبي من اليقين، وهو أنه لا إله إلا الله.
قوله: «منها آية الإسراء».

وهي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾^(١) الآية؛ فبيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، وبين أن هذا هو الشرك الأكبر؛ لأن الدعاء من العبادة، قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٢)؛ فدلَّ على أن الدعاء عبادة، وإلا؛ لكان أول الكلام مناقضاً لآخره، مع أن آخر الكلام تعليل لأوله، فكل من دعا أحداً غير الله حياً أو ميتاً؛ فهو مشرك شركاً أكبر.

والدعاء ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: جائز، وهو أن تدعو مخلوقاً بأمر من الأمور التي يمكن أن يدركها بأشياء محسوسة معلومة؛ فهذا ليس من دعاء العبادة، بل هو من الأمور الجائزة، قال ﷺ: «وإذا دعاك فأجبه»^(٣).

(١) الإسراء: ٥٧

(٢) غافر: ٤١

(٣) [صحيح] رَوَاهُ: مسلم (١٧٠٤/٤)

وَمِنْهَا آيَةٌ (براءة) بَيِّنَ فِيهَا أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وَبَيَّنَ بَأْنَهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوا إِلَّا بِأَنْ يَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا، مَعَ أَنَّ تَفْسِيرَهَا الَّذِي لَا إِشْكَالَ فِيهِ طَاعَةُ الْعُلَمَاءِ وَالْعَبَادِ فِي الْمَعْصِيَةِ، لِأَدْعَاؤِهِمْ إِيَّاهُمْ.

وَمِنْهَا قَوْلُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْكَفَّارِ ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴿الآيَةُ.

الثاني: أن تدعو مخلوقاً مطلقاً، سواء كان حياً أو ميتاً فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فهذا شرك أكبر لأنك جعلته نداً لله فيما لا يقدر عليه إلا الله، مثل: يا فلان اجعل ما فى بطن امرأتى ذكراً.

الثالث: أن تدعو مخلوقاً ميتاً لا يجيب بالوسائل الحسية المعلومة؛ فهذا شرك أكبر أيضاً لأنه يدعو من كان هذه حاله حتى يعتقد أن له تصرفاً خفياً فى الكون.

قوله: «ومنها: آية براءة بين فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله».

وهذا شرك الطاعة، وهو بتوحيد الربوبية ألصق من توحيد الألوهية؛ لأنَّ الحكم شرعياً كان أو كونياً إلى الله تعالى؛ فهو من تمام ربوبيته، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢).

والشيخ رحمه الله جعل شرك الطاعة من الأكبر، وهذا فيه تفصيل، وسيأتى إن شاء الله فى باب من أطاع الأمراء والعلماء فى تحليل ما حرَّم الله أو بالعكس.

قوله: «ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ (٣)؛ فاستثنى من المعبودين ربه.

فدل هذا على أن التوحيد لا بد فيه من نفى وإثبات: البراءة مما سوى الله، وإخلاص العبادة لله وحده.

(١) الشورى: ١٠.

(٢) القصص: ٧٠.

(٣) الزحرف: ٢٦.

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذِهِ الْبِرَاءَةَ وَهَذِهِ الْمَوَالَاةُ هِيَ تَفْسِيرُ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وَمِنْهَا آيَةُ الْبَقَرَةِ فِي الْكُفَّارِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]. ذَكَرَ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْدَادَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ حُبًّا عَظِيمًا، وَلَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ أَحَبَّ النَّدَّ أَكْبَرَ مِنْ حُبِّ اللَّهِ؟! وَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ يُحِبَّ إِلَّا النَّدَّ وَحْدَهُ وَلَمْ يُحِبَّ اللَّهَ؟!.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ (ﷺ) «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ حَرَّمَ مَالَهُ وَدَمَهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ».

وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذِهِ الْبِرَاءَةَ وَهَذِهِ الْمَوَالَاةُ هِيَ تَفْسِيرُ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ فَقَالَ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١)، وَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ فَكَانَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي» هُوَ مَعْنَى قَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَوْلُهُ: «وَمِنْهَا: قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ....» إلخ. إِذَا؛ فَلَا بَدَّ مِنَ الْكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾^(٢). قَوْلُهُ: «وَكُفَرَ بِمَا يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

أَيُّ: كُفَرَ بِالْأَصْنَامِ، وَأَنْكَرَ أَنْ تَكُونَ عِبَادَتُهَا حَقًّا، فَلَا يَكْفِي أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا أَعْبُدُ صَنَمًا، بَلْ لَا بَدَّ أَنْ يَقُولَ: الْأَصْنَامُ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَكْفَرُ بِهَا وَبِعِبَادَتِهَا.

فَمَثَلًا لَا يَكْفِي أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا أَعْبُدُ اللَّاتَ، وَلَكِنْ لَا بَدَّ أَنْ يَكْفُرَ بِهَا وَيَقُولَ: إِنَّ عِبَادَتَهَا لَيْسَتْ بِحَقٍّ، وَإِلَّا؛ كَانَ مَقْرَأً بِالْكَفْرِ.

فَمَنْ رَضِيَ دِينَ النَّصَارَى دِينًا يَدِينُونَ اللَّهَ بِهِ، فَهُوَ كَافِرٌ لِأَنَّهُ إِذَا سَاوَى غَيْرَ دِينِ الْإِسْلَامِ مَعَ الْإِسْلَامِ؛ فَقَدْ كَذَّبَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(٣).

وَبِهَذَا يَكُونُ كَافِرًا، وَبِهَذَا نَعْرِفُ الْخَطَرَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ بِاخْتِلَاطِهِمْ مَعَ النَّصَارَى، وَالنَّصَارَى يَدْعُونَ إِلَى دِينِهِمْ صَبَاحًا وَمَسَاءً، وَالْمُسْلِمُونَ لَا يَتَحَرَّكُونَ، بَلْ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ مَا عَرَفُوا الْإِسْلَامَ حَقِيقَةً يَلْسِنُونَ لِهَؤُلَاءِ، ﴿وَدُّوا لَوْ تَدَاهَنَ

(٣) آل عمران: ٨٥.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(١) الزخرف: ٢٨.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمَ مَا يُبَيِّنُ مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ التَّلَفُظَ بِهَا عَاصِماً لِلدَّمِ وَالْمَالِ، بَلْ وَلَا مَعْرِفَةً مَعْنَاهَا مَعَ لَفْظِهَا، بَلْ وَلَا الْإِقْرَارَ بِذَلِكَ، بَلْ وَلَا كَوْنَهُ لَا يَدْعُو إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، بَلْ لَا يَحْرُمُ مَالَهُ وَدَمَهُ حَتَّى يَضِيفَ إِلَى ذَلِكَ الْكُفْرَ بِمَا يُعْبَدُ دُونَ اللَّهِ. فَإِنْ شَكَّ أَوْ تَوَقَّفَ؛ لَمْ يَحْرُمُ مَالَهُ وَلَا دَمَهُ. فَيَا لَهَا مِنْ مَسْأَلَةٍ مَا أَعْظَمَهَا وَأَجَلَّهَا! وَيَا لَهُ مِنْ بَيَانٍ مَا أَوْضَحَهُ! وَحُجَّةٍ مَا أَقْطَعَهَا لِلْمَنَازِعِ!

فَيَذْهَبُونَ^(١)، وهذا من المحنة التي أصابت المسلمين الآن، وأكلت بهم إلى هذا الذل الذي صاروا فيه.

قوله: «ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾^(٢)».

فجعل الله المحبة شركاً إذا أحب شيئاً سوى الله كمحبته لله؛ فيكون مشركاً مع الله في المحبة، ولهذا يجب أن تكون محبة الله خالصة لا يشاركه فيها أحد حتى محبة الرسول ﷺ، فلولوا أنه رسول ما وجبت طاعته ولا محبته إلا كما نحب أى مؤمن، ولا يُمنع الإنسان من محبة غير الله، بل له أن يحب كل شيء تباح محبته؛ كالولد، والزوجة، ولكن لا يجعل ذلك كمحبة الله.

قال المؤلف: «فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟! وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟!».

فالأقسام أربعة:

الأول: أن يحب الله أشد حباً من غيره؛ فهذا هو التوحيد.

الثاني: أن يحب غير الله كمحبة الله، وهذا شرك.

الثالث: أن يحب غير الله أشد حباً من الله، وهذا أعظم مما قبله.

الرابع: أن يحب غير الله وليس في قلبه محبة لله تعالى، وهذا أعظم وأطم.

والمحبة لها أسباب ومتعلقات، وتختلف باختلاف متعلقها، كما أن الفرح يختلف باختلاف متعلقه وأسبابه، فعندما يفرح بالطرب؛ فليس هذا كفرحه بذكر الله ونحوه.

حتى نوع المحبة يختلف، يحب والده ويحب ولده وبينهما فرق، ويحب الله ويحب ولده، ولكن بين المحبتين فرق.

فجميع الأمور الباطنة في المحبة والفرح والحزن تختلف باختلاف متعلقها، وسيأتى إن شاء الله لهذا البحث مزيد تفصيل عند قول المؤلف: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً».

قوله: «ومنها: قول النبي ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله... إلخ. إذا؛ فلا بدّ من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (١). قوله: «وكفر بما يعبد من دون الله».

أى: كفر بالأصنام، وأفكر أن تكون عبادتها حقاً؛ فلا يكفي أن يقول: لا إله إلا الله، ولا أعبد صنماً، بل لا بدّ أن يقول: الأصنام التي تُعبد من دون الله أكفر بها وبعبادتها.

فمثلاً لا يكفي أن يقول: لا إله إلا الله ولا أعبد اللات، ولكن لا بدّ أن يكفر بها ويقول: إنَّ عبادتها ليست بحق، وإلا؛ كان مقراً بالكفر.

فمن رضى دين النصارى ديناً يدينون الله به؛ فهو كافر لأنّه إذا ساوى غير دين الإسلام مع الإسلام؛ فقد كذّب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (٢).

وبهذا يكون كافراً، وبهذا نعرف الخطر العظيم الذى أصاب المسلمين اليوم باختلاطهم مع النصارى، والنصارى يدعون إلى دينهم صباحاً ومساءً، والمسلمون لا يتحركون، بل بعض المسلمين الذى ما عرفوا الإسلام حقيقة يلبنون لهؤلاء، «وَدُّوا لَوْ تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ» (٣)، وهذا من المحنة التى أصابت المسلمين الآن، وآلت بهم إلى هذا الدل الذى صاروا فيه.



(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) آل عمران: ٨٥.

(٣) القلم: ٩.

باب ٦

مَنْ الشَّرْكَ لِبَسِ الْحَلَقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوَهُمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ

● ١ مناسبة الباب لما قبله:

قال سليمان آل الشيخ^(١): من هنا ابتدأ المصنف في تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله بذكر شيء مما يضاد ذلك من أنواع الشرك الأكبر والأصغر، فإن الضد لا يعرف إلا بضده.

كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء.

فمن لا يعرف الشرك لم يعرف التوحيد وبالعكس، فبدأ بالأصغر الاعتقادي انتقالاً من الأدنى إلى الأعلى اهـ.

قلت: هذا الباب تفسير لمعنى لا إله إلا الله محمد رسول الله، ف (لا إله إلا الله) لا نافع ولا دافع للضرر إلا الله، و (محمد رسول الله) لا إتخاذ وسيلة إلى جلب النفع أو دفع الضرر إلا وسيلة شرعها رسول الله ﷺ.

● شرح الترجمة:

قال حامد بن محمد^(٢): باب في بيان ما يدل من الكتاب والسنة على أن من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما كالودع والخرز والتعويذ وأشباهها، لرفع البلاء أو دفعه. اهـ.

قال ناصر السعدي^(٣): هذا الباب يتوقف فهمه على معرفة أحكام الأسباب، وتفصيل القول فيها أنه يجب على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: ألا يجعل منها سبباً إلا ما ثبت أنه سبب شرعاً أو قدراً.

ثانيها: ألا يعتمد العبد عليها، بل يعتمد على مسببها ومقدرها مع قيامه بالمشروع منها وحرصه على النافع منها.

ثالثها: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت، فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره، ولا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء، إن شاء أبقى سببها جارية

(١) تيسير العزيز الحميد (١٠٩، ١١٠).

(٢) فتح الله الحميد المجيد (١٩٧).

(٣) القول السديد (٣٣-٣٥).

على مقتضى حكمته ليقوم بها العباد، ويعرفوا بذلك تمام حكمته حيث ربط المسببات بأسبابها، والمعلولات بعلمها، وإن شاء غيرها كيف يشاء لئلا يعتمد عليها العباد، وليعلموا تمام قدرته، وإن التصرف المطلق والإرادة المطلقة لله وحده، فهذا هو الواجب على العبد في نظره وعمله بجميع الأسباب إذا علم ذلك فمن لبس الحلقة أو الخيط أو نحوهما قاصداً لذلك رفع البلاء بعد نزوله، أو دفعه قبل نزوله فقد أشرك؛ لأنه إن اعتقد أنها هي الدافعة الرافعة، فهذا الشرك الأكبر، وهو شرك، في الربوبية حيث اعتقد شريكاً مع الله في الخلق وشرك في العبودية حيث تأله لذلك وعلق به قلبه طمعاً ورجاء لنفعه، وإن اعتقد أن الله هو الدافع والرافع وحده ولكن اعتقدها سبباً يستدفع بها البلاء فقد جعل ما ليس سبباً شرعياً ولا قدرياً سبباً، وهذا محرم وكذب على الشرع وعلى القدر.

أما الشرع: فإنه نهى عن ذلك أشد النهى وما نهى عنه فليس من الأسباب النافعة. وأما القدر: فليس هذا من الأسباب المعهودة ولا غير المعهودة التي يحصل بها ولا من الأدوات المباحة النافعة، وكذلك هو من جملة وسائل الشرك فإنه لا بد أن يتعلق قلب معلقهما بها، وذلك نوع شرك ووسيلة إليه، اهـ.

ولذلك قال ابن القيم في المدارج^(١): «وبالجملة، فليس إسقاط الأسباب من التوحيد، بل القيام بها واعتبارها وإنزالها منازلها التي أنزلها الله فيها هو محض التوحيد والعبودية.

والقول بإسقاط الأسباب هو توحيد القدرية الجبرية اتباع جهنم بن صفوان في الجبر، فإنه كان غالباً فيه، وعندهم أن الله لم يخلق شيئاً بسبب ولا جعل في الأسباب قوى وطوائع تؤثر، فليس في النار قوة الإحراق، ولا في السمّ قوة الإهلاك، ولا في الماء والحبز قوة الرى والتغذى به، ولا في العين قوة الإبصار، ولا في الأذن والأنف قوة السمع والشم، بل الله - سبحانه - يحدث هذه الآثار عند ملاقة الأجسام لا بها، فليس الشيع بالاكل، ولا الرى بالشرب.. ولا الطاعات والتوحيد سبباً لدخول الجنة، ولا الشرك والكفر والمعاصي سبباً لدخول النار، بل يدخل هؤلاء النار بمحض مشيئته من غير سبب ولا حكمة.. وطرد هذا المذهب مفسد للدين والدنيا، بل ولسائر أديان الرسل، ولهذا لما طرده قوم أسقطوا الأسباب الدنيوية وعطلوها، ولم يمكنهم ذلك، من أن يأكلوا ويشربوا ويباشروا من الأسباب ما يدفع عنهم الحر والبرد».

وقال^(٢): «وقد قال بعض أهل العلم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد،

(١)، (٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٩٥، ٤٩٩).

ومحو الأسباب- أن تكون أسباباً- تغيير فى وجه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع، والتوكل معنى يلتزم من معنى التوحيد والعقل والشرع.

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وتقييد، فالالتفات إلى الأسباب ضربان:

أحدهما: شرك

والآخر: عبودية وتوحيد.

فالشرك أن يعتمد عليها ويطمئن إليها، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود، فهو معرض عن المسبب لها، ويجعل نظره والتفاتة مقصوراً عليها، وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها وإنزالها منازلها، فهذا الالتفات عبودية وتوحيد، إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبب ، وأما محوها أن تكون أسباباً، فقدح فى العقل والحس والفطرة، فإن أعرض عنها بالكلية، كان ذلك قدحاً فى الشرع وإبطالاً له.

وحقيقة التوكل: القيام بالأسباب، والاعتماد بالقلب على المسبب، واعتقاد أنها بيده، فإن شاء منع اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضية لحد أحكامها، وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه.

فالموحد المتوكل: لا يلتفت إلى الأسباب، بمعنى أنه لا يطمئن إليها ولا يرجوها ولا يخافها فلا يركن إليها، ولا يلتفت إليها بمعنى أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغئها- بل يكون قائماً بها، ملتفتاً إليها ناظراً إلى مسببها سبحانه ومجريها، فلا يصح التوكل - شرعاً وعقلاً - إلا عليه سبحانه وحده، فإنه ليس فى الوجود سبب تام موجب إلا وحده فهو الذى سبب الأسباب وجعل فيها القوى والاقتضاء لآثارها ولم يجعل منها سبباً يقتضي وحده أثره بل لا بد معه من سبب آخر يشاركه، وجعل لها أسباباً تضادها وتمانعها، بخلاف مشيئته سبحانه فإنها لا تحتاج إلى أمر آخر، ولا فى الأسباب الحادثة ما يبطلها ويضادها، وإن كان الله سبحانه - قد يبطل حكم مشيئته بمشيئته، فيشاء الأمر، ثم يشاء ما يضاده ويمنع حصوله، والجميع بمشيئته واختياره، فلا يصح التوكل إلا عليه، ولا الالتجاء إلا إليه، ولا الخوف إلا منه، ولا الرجاء إلا له، ولا الطمع إلا فى رحمته، كما قال أعرف الخلق به ﷺ: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعاقباتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»^(١) وقال: «لا متجى ولا ملجأ منك إلا إليك»^(٢).

(١) أخرجه الترمذى (٣٥٦٦)، والنسائى (٣ / ٢٤٨ - السيوطى) عن على به.

وانظر الأذكار للنووى (٢٣٢) - بتخریجنا.

(٢) متفق عليه أخرجه البخارى (٦٣١١)، ومسلم فى الذكر و الدعاء (٣٢ / ١٧) - النووى) عن البراء به.

وانظر الأذكار للنووى (٢٣٨) - بتخریجنا.

فإذا جمعت بين هذا التوحيد وبين إثبات الأسباب، استقام قلبك على السير إلى الله، ووضح لك الطريق الأعظم الذى مضى عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتباعهم، وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، وبالله التوفيق.

وما سبق به علم الله وحكمه حق، وهو لا ينافى إثبات الأسباب، ولا يقتضى إسقاطها، فإنه سبحانه قد علم وحكم أن كذا وكذا، يحدث بسبب كذا وكذا، فسبق العلم والحكم بحصوله عن سببه، فإسقاط الأسباب خلاف موجب علمه وحكمه، فمن نظر إلى الحدوث بغير الأسباب، لم يكن نظره وشهوده مطابقاً للحق، بل كان شهوده غييةً ونظره عمى، فإذا كان علم الله قد سبق بحدوث الأشياء بأسبابها، فكيف يشهد العبد الأمور بخلاف ما هى عليه فى علمه وحكمه وخلقه وأمره؟!

والعلل التى تتقى فى الأسباب نوعان:

أحدهما: الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها، ورجاؤها وخوفها، فهذا شرك يرق ويغلظ، وبين ذلك.

والثاني: ترك ما أمر الله به من الأسباب، وهذا أيضاً قد يكون كفرًا وظلمًا، وبين ذلك، بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله، سبق به علمه وحكمه، وأن السبب لا يضر ولا ينفع، ولا يعطى ولا يمنع، ولا يقضى ولا يحكم، ولا يحصل للعبد ما لم تسبق له به المشيئة الإلهية، ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم، فيأتى بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفلاح والوصول إلا بها، ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه، ولا تُحصِّل له فلاحًا، ولا توصله إلى المقصود عليها، فيجرد عزمه للقيام بها حرصًا واجتهادًا، ويُفَرِّغ قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها، تجريدًا للتوكل، واعتمادًا على الله وحده، وقد جمع النبي ﷺ بين هذين الأصلين فى الحديث الصحيح، حيث يقول: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»^(١)، فأمره بالحرص على الأسباب، والاستعانة بالسبب، ونهاه عن العجز، وهو نوعان: تقصير فى الأسباب وعدم الحرص عليها، وتقصير فى الاستعانة بالله وترك تجريدتها، فالدين كله - ظاهره وباطنه، شرائعه وحقائقه - تحت هذه الكلمات النبوية - والله أعلم. اهـ^(٢).

(١) [صحيح] أخرج مسلم فى القدر (٢١٥/١٦) - النووى) عن أبى هريرة به.

وأنظر «رياض الصالحين» (١٠١ - بتخریجنا)

(٢) انظر حاشية القول المفيد (٢٠٤/١، ٢٠٧).

وقال ابن عثيمين^(١): في شرح الترجمة قوله: «من الشرك»: من هنا للتبعض، أي: أن هذا بعض الشرك، وليس كل الشرك.

والشرك: اسم جنس يشمل الأصغر والأكبر، ولبس هذه الأشياء قد يكون أصغر وقد يكون أكبر، بحسب اعتقاد لابسها، وكان لبس هذه الأشياء من الشرك؛ لأنَّ كل من أثبت سبباً لم يجعله الله سبباً شرعياً ولا قدرياً، فقد جعل نفسه شريكاً مع الله. فمثلاً: قراءة الفاتحة سبب شرعي للشفاء.

وأكل المسهل سبب حسي لانطلاق البطن، وهو قدرِيّ، لأنَّه يُعلم بالتجارب. والناس في الأسباب طرفان ووسط:

الأول: من ينكر الأسباب، وهم كل من قال بنفي حكمة الله كالجبرية، والأشعرية. الثاني: من يغلو في إثبات الأسباب حتى يجعلوا ما ليس بسبب سبباً، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية ونحوهم.

الثالث: من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها، ولكنهم لا يثبتون من الأسباب إلا ما أثبتته الله سبحانه ورسوله، سواء كان سبباً شرعياً أو كونياً. ولا شك أنَّ هؤلاء هم الذين آمنوا بالله إيماناً حقيقياً، وآمنوا بحكمته، حيث ربطوا الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها، وهذا من تمام الحكمة. ولبس الخلقة ونحوها إن اعتقد لابسها أنَّها مؤثرة بنفسها دون الله، فهو مشرك شركاً أكبر في توحيد الربوبية، لأنَّه اعتقد أنَّ مع الله خالقاً غيره. وإن اعتقد أنَّها سبب، ولكنه ليس مؤثراً بنفسه، فهو مشرك شركاً أصغر لأنَّه لما اعتقد أنَّ ما ليس بسبب سبباً، فقد شارك الله تعالى في الحكم لهذا الشيء بأنه سبب، والله تعالى لم يجعله سبباً.

وطريق العلم بأنَّ الشيء سبب :

إمَّا عن طريق الشرع، وذلك كالعمل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾^(٢) ، وكقراءة القرآن فيها شفاء للناس، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

(١) القول المفيد (١/٢٠٤: ٢٠٩).

(٢) الإسراء: ٨٢.

(٣) النحل: ٦٩.

وإما عن طريق القدر، كما إذا جرّبنا هذا الشيء فوجدناه نافعاً في هذا الألم والمرض، ولكن لا بدّ أن يكون أثره ظاهراً مباشراً كما لو اكتوى بالنار فبرئ بذلك مثلاً، فهذا سبب ظاهر بين، وإنّما قلنا هذا لئلا يقول قائل: أنا جرّبت هذا وانتفعت به، وهو لم يكن مباشراً، كالحلقة، فقد يلبسها إنسان وهو يعتقد أنّها نافعة، فيستفيع لأنّ للانفعال النفسى للشيء أثراً بيّناً، فقد يقرأ إنسان على مريض فلا يرتاح له، ثم يأتي آخر يعتقد أن قراءته نافعة، فيقرأ عليه الآية نفسها فيرتاح له ويشعر بخفة الألم، كذلك الذين يلبسون الحلق ويربطون الخيوط، قد يحسون بخفة الألم أو اندفاعه أو ارتفاعه بناءً على اعتقادهم نفعها.

وخفة الألم لمن اعتقد نفع تلك الحلقة مجرد شعور نفسي، والشعور النفسى ليس طريقاً شرعياً لإثبات الأسباب، كما أن الإلهام ليس سبباً للشرع.
قوله: «لبس الحلقة والخيط».

الحلقة: من حديد أو ذهب أو فضة أو ما أشبه ذلك، والخيط معروف.
قوله: «ونحوهما».

كالمرصعات، وكمن يصنع شكلاً معيناً من نحاس أو غيره لدفع البلاء، أو يعلّق على نفسه شيئاً من أجزاء الحيوانات، والناس كانوا يُعلّقون القرب البالية على السيارات ونحوها لدفع العين، حتى إذا رآها الشخص نفرت نفسه فلا يعين^(١).
قوله: «لرفع البلاء، أو دفعه».

الفرق بينهما: أن الرفع بعد نزول البلاء، والدفع قبل نزول البلاء.
وشيوخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب لا ينكر السبب الصحيح للرفع أو الدفع، وإنّما يُنكر السبب غير الصحيح. أ.هـ.

قال الفقير: قوله (من الشرك لبس الحلقة والخيط...).

هذا من الشرك، إذاً من التوحيد أن لا تتعلّق بلبس حلقة أو خيط أو بغيرهما لرفع بلاء أو دفعه، والتوحيد أن لا تطلب دفع الضرر أو رفعه إلا من الله، ولا تطلب جلب النفع إلا من الله، ولو طُلبت من غير الله فهو شرك أكبر، ولو طُلبت بوسائل لم يشرعها الله عز وجل فهو شرك أصغر.

(١) قال الشيخ عبد العزيز بن باز في «فتاويه» (٣٨٤/٢) عن التائب: إذا كانت من أسماء الشياطين، أو العظام، أو الخرز، أو المسامير، أو الطلاسم (وهي الحروف المقطعة)، وأشياء ذلك من الشرك الأصغر، وقد تكون شركاً أكبر إذا اعتقد معلق التيممة أنها تحفظه أو تكشف عنه المرض أو تدفع عنه الضرر دون إذن الله تعالى ومشيئته.

مثال: شخص ذهب إلى الحسين أو السيدة زينب وقال: يا حسين اشفيني أو نجحني - طلب دفع ضرر أو جلب نفع: نجاح أو شفاء، أو دفع ضرر - فهذا شرك أكبر إن اعتقد أنه ينفع كنع الله أو يبيدها النفع والضرر كما أن الله عز وجل بيده ذلك.

إن قال: أنا لا أطلب إلا من الله وإنى أعتقد أن الله عز وجل هو النافع على الحقيقة ويبيده الضرر على الحقيقة لكن هذه وسيلة لدفع الضرر أو لرفعه كما تأخذ حبة البركة لرفع المرض أو بعض الأدوية لدفع المرض فأنا أيضاً أتوسل بهذه الوسائل حتى تقربنا إلى الله زلفاً ويدفع الله عنا بها الضرر ويجلب الله بهذه الوسائل لنا النفع.

ولو قيل لبعضهم أنت لا تطلب الضرر والنفع إلا من الله يقول نعم لا أطلبه إلا من الله، تقول له لماذا تتخذ هذه الوسائل قال: لماذا تتخذ حبة البركة وسيلة؟ تقول اتخذت حبة البركة وسيلة لسبيين:

(الأول): لأنها ثبتت بطريقة شرعية أنها وسيلة لجلب النفع ودفع الضرر فلذلك اتخذتها ولم أقم في شرك أصغر ولا أكبر .

الثاني: التجربة أثبتت أنها نافعة من جهة الطب أما أنت من قال لك اتخذ هذه الوسائل سواء هذه الوسائل أحياء أم أموات أم أتقياء أم لصوص من شرع لك هذه الوسائل؟

نعم أنت تقول أن النفع والضرر بيد الله لكن اتخذك هذه الوسائل التي لم يشرعها الله فهذا شرك أصغر وسر ذلك أن الذى تعلق بوسائل شرعية فهو متعلق بالله لأنه تعلق بالله وبالأسباب التي وضعها الله له ووضع فيها حكمة الشفاء فتعلقه بالسبب هو تعلقه بمسبب السبب سبحانه وتعالى.

فإذا تعلق بسبب لم يجعل الله فيه حكمة الشفاء فكأنه يتعلق بغير الله فوقع في شرك أصغر وإن ادعى أنه يعتقد أن النفع والضرر بيدى الله عز وجل.

فلذلك كان لبس الحلقة والخيط ونحوهما لدفع البلاء أو لرفعه شرك. فإن كان طلب دفع البلاء ودفع الضرر من ذات الحلقة أو ذات الخيط فهذا شرك أكبر.

وإن قال هي لا تنفع ولا تضر بل النفع والضرر كله بيد الله وأنا لا أعتقد إلا ذلك.

نقول له: نعم المعتقد!!، ولكن لماذا تلبس بهذا الخيط مثلاً؟

فيقول: وسائل وأسباب اتخذها لذلك.

نقول له: ليست بأسباب ولم يجعل الله فيها حكمة الشفاء فتعلقك بها تعلقك

بخيطة العنكبوت وبغير الله فأشبهت المشرك فى شركه وإن كنت وقعت فى شرك أصغر وإن كان شركك شرك دون شرك.

فلذلك سمى النبى ﷺ هذا الفعل شرك سواء كان صحيح المعتقد أو فاسد المعتقد، صحيح المعتقد شرك أصغر فاسد المعتقد شرك أكبر، وهذه مقدمة مهمة.

وآخر يقول: لماذا قلت على لبس الخيط شرك ولما صرف لى الطبيب رباط الضاغط لم تسموا هذا شركاً؟

الجواب: قلنا لأنه ثبت بالطب المقر شرعاً أن فيها نفع ففى الحديث: سئل النبى ﷺ: أفى الطب خير؟ قال: «نعم»، وقال: «تداووا عباد الله»^(١) كما ثبت فى الصحيح.

فترى كثيراً من العلماء يعلق حكم معين على الطبيب كما حدث أن الشافعى سئل عن الماء المشمس قال: لا أمنعه إلا من جهة الطب أى إذا أثبت الطب أنه يورث البرص.

كما كان مدعى، والأثر ضعيف فمنعه من قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» فقول الطبيب معتبر.

فلو قال الطبيب هذا الرباط أو اللزقة تشفى بإذن الله فهذا الطب مأذون فيه: ولا يعد شركاً.

وأما هذا الخيط أو الحظاظه إن ثبت بالفعل أو بالطب أو بالتجربة أنها تشفى فليس بشرك وإن ثبت أنها لا تشفى فهذا شرك فالمسألة مردها إلى المعتقد وإلى الشرع إلى الكتاب والسنة.

فمتى يكون شرك أصغر؟

عند توافر سببان:

- ١- ثبت بالشرع والقدر - أى بالتجربة - أنها لا تنفع.
- ٢- أن يتعلق بها معتقداً أنها سبب ينفع ولكن ليس كنفع الله وتدفع الضرر ولكن ليس كدفع الله.

ومتى يكون أكبر؟

إذا علقها معتقداً أنها تنفع كنفع الله وتدفع الضرر كدفع الله عز وجل.



وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١).

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

مناسبة الآية للباب ودلالاتها عليه:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): لبس الحلقة والخيوط لرفع البلاء أو دفعه كذلك، أي كالألوهة الباطلة المذكورة في الآية لا تملك نفعاً ولا ضرراً- فهذا وجه استدلال المصنف بالآية، وإن كانت الترجمة في الشرك الأصغر، فإن السلف يستدلون بما نزل في الأكبر على الأصغر، كما استدل حذيفة وابن عباس وغيرهما، وكذلك من جعل رؤوس الحمير ونحوها في البيت والزرع لدفع العين كما يفعله أشباه المشركين فإنه يدخل في ذلك. اهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): هذه الآية وأمثالها تبطل تعلق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضرر، وأن ذلك شرك بالله. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله^(٤): الدلالة من الآية أنه لا فرق بين اعتقاد المشركين في الأصنام أو الاعتقاد في الخيوط ونحوها مما يفعله الجهال، وأن ذلك كله باطل، لأن الله هو المنفرد بالنفع والضرر. اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٥): والشاهد من هذه الآية أن الأصنام لا تنفع أصحابها لا بجلب نفع ولا بدفع ضرر فليست أسباباً لذلك، فيقاس عليها كل ما ليس بسبب شرعى أو قدرى، فيعتبر اتخاذه سبباً إشراكاً بالله.

(١) الزمر (٣٨).

(٢) تيسير العزيز المجيد (١١٠، ١١١).

(٣) فتح المجيد (١/١٤٢).

(٤) الجامع الفريد (٣٧٠، ٣٨).

(٥) القول المفيد (١/٢١١، ٢١٢).

وهذا يدل على حذق المؤلف وقوة استنباطه، وإلا فالآية بلا شك في الشرك الأكبر، الذي تعبد فيه الأصنام، ولكن القياس واضح جداً، لأن هذه الأصنام ليست أسباباً تنفع، فيقاس عليها كل ما ليس بسبب، فيعتبر إشراكاً بالله.

وهناك شاهد آخر في قوله: (حسبي الله) فإن فيه تفويض الكفاية إلى الله دون الأسباب الوهمية، وأما الأسباب الحقيقية، فلا يتأفى تعاطيها توكل العبد على الله تعالى وتفويض الأمر إليه، لأنها من عنده. اهـ.

وقال القرعاوي^(١): مناسبة الآية للباب حيث دلت الآية على أن دفع الضر من خصائص الله فيكون طلبه من غير الله - كالحلقة والخيط ونحوهما - شركاً. اهـ.

قال الفقير: وقد تعودنا من المصنف أن يبين المراد من الترجمة بالآية أو الحديث المعطوف على الترجمة عطف بيان كما قال في أول الباب [كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبد وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾] أي أن توحيد العبادة هو حق الله على العبد فكذلك يقول هنا أن هذا الخيط والحلقة شرك وهذا الشرك بيانه في قوله ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ...﴾ فهذا أشبه من يدعو من دون الله لجلب نفع أو دفع ضر.

الإعراب:

﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الهمزة للاستفهام والفاء الفصيحة (ورأيتم) بمعنى أخبروني وقد تقدم القول فيها مفصلاً أكثر من مرة (وما تدعون) مفعول رأيتم الأول (من دون الله) حال، ويجوز أن تكون الفاء عاطفة على مقدر أي: أتفكرتم بعد ما أقررتم به فرأيتم... ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ إن شرطية وأرادني الله فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وهو في محل جزم فعل الشرط والجواب محذوف وجملة الشرط اعتراضية والجملة الاستفهامية (هل من كاشفات) مفعول رأيتم الثاني (وهن) مبتدأ و(كاشفات ضره) خبر^(٢).

● ما جاء في تفسير الآية من القرآن:

﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾.

(١) الجديد (٨١).

(٢) إعراب القرآن (٨/٤٢٣).

قال الشنقيطي^(١): معلوم أن الخوف من تلك الأصنام من أشنع أنواع الكفر والإشراك بالله، فما ذكره الله عز وجل في هذه الآية الكريمة من أن المعبودات من دونه لا تقدر أن تكشف ضرراً أراد الله به أحداً، أو تمسك رحمة أراد بها أحداً، جاء موضعاً في آيات كثيرة:

كقوله تعالى: ﴿لَمْ تَعْبُدُوا مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٧) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾^(٥) الآية.

والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة اهـ.

وذكر ابن أبي حاتم ههنا حديث قيس بن الحجاج عن حنش الصنعاني عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف ورفعت الأقلام واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع اليسر يسراً»^(٦).

قال مقاتل: لما نزلت الآية سألهم النبي ﷺ فسكتوا.

- وقال غيره: قالوا لا تدفع شيئاً قدره الله، ولكنها تشفع اهـ^(٧).

قوله: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

● أقوال التابعين: وعن قتادة قال: يعنى الأصنام^(٨).

(١) أضواء البيان: (٣٧/٧). (٢) مريم: (٤٢).

(٣) الشعراء: (٧٢-٧٤). (٤) فاطر: (٢). (٥) يونس: (١٠٧).

(٦) تقدم تخريجه (٧) تفسير القرطبي (٢٧٠٣/٨).

(٨) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/٢٤) وذكره السيوطي في «الدر» (٦/٦) وزاد نسبته لعبد بن حميد

● أقوال المفسرين:

قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ (ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين العادلين بالله الأوثان والأصنام ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ فإذا قالوا ذلك فـ ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ﴾ أيها القوم هذا الذي تعبدون من دون الله من الأصنام، والالهة. اهـ.

وينحو مما قاله ابن جرير، قال جميع من نقل عنهم من المفسرين أن المقصود: الأصنام والآلهة.

قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾

وقد تقدمت الآيات، والحديث فيه.

● أقوال التابعين:

- وعن عاصم أنه قرأ: ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ مضاف لآمنون كاشفات ... وممسكات رحمته مثلها^(٢). اهـ.

● أقوال المفسرين:

- قال ابن جرير^(١): ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ﴾ بشدة في معيشتي، ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ﴾ عني ما يصيبني به ربي من الضر، ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ يقول إن أرادني ربي أن يصيبني سعة في معيشتي وكثرة مالى ورخاء وعافية في بدني، ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ﴾ عني ما أراد أن يصيبني به من تلك الرحمة، وترك الجواب لاستغناء السامع بمعرفة ذلك، ودلالة ما ظهر من الكلام عليه، والمعنى فإنهم سيقولون: لا. اهـ.

- وقال البغوي^(٣): نحو كلام ابن جرير.

- قال الزمخشري^(٤): (مسألة) لِمَ فرض المسألة في نفسه دونهم؟

قلت - يعنى الزمخشري -: لأنهم خوفوه معرة الأوثان وتخيلوها، فأمر بأن يقررهم أولاً بأن خالق العالم هو الله وحده، ثم يقول لهم بعد التقرير، فإذا أرادني خالق العالم

(١) تفسير الطبري (١١/٦٢٤).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (٥/٦١٦) ونسبه لعبد بن حميد.

(٣) الكشاف (٣/٣٤٨).

(٤) معالم التنزيل (٥/١٨).

- بضر - أقررت به بضره من مرض أو فقر، أو غير ذلك من التوازل، أو برحمة من صحة، أو غنى أو نحوهما، هل هؤلاء اللاتي خوفتموني إياهن كاشفات عنى ضره، أو ممسكات رحمته، حتى إذا ألقمهم الحجر، وقطعهم حتى لا يحيروا بينت شفة، قال ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ كافياً لمرة أو ثانكم.

[مسألة] لم قيل: كاشفات وممسكات على التأنيث بعد قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ ؟

قلت: - يعنى الزمخشري - أنهن وكن إناثاً، وهن: اللات، والعزى، ومناة، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف وتعجيز عما طالبهم به من كشف الضر وإمساك الرحمة، لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة، كما أن الذكورة من باب الشدة والصلابة، كأنه قال: الإناث اللاتي هن اللات والعزى ومناة أضعف مما تدعون لهن وأعجز، وفيها تهكم أيضاً. اهـ.

- وقال ابن الجوزى بنحو كلام ابن جرير^(١)، وقال:

وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ و﴿مَسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ منوئاً، والباقون: ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ و﴿مَسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ على الإضافة. اهـ.

قال الفخر الرازي^(٢): اعلم أنه تعالى لما أظنّب في وعيد المشركين وفي وعد الموحدين، عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام، وبني هذا التزييف على أصلين:

الأصل الأول: هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد بقوله: ﴿وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

والأصل الثاني: أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ فثبت أنه لا بد من الإقرار بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم، وثبت أن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخير والشر، وإذا كان الأمر كذلك

(١) زاد المسير (٥٥/٧).

(٢) التفسير الكبير (٢٨٤، ٢٨٣/٢٦/١٣).

كانت عبادة الله كافية ، وكان الاعتماد عليه كافياً وهو المراد من قوله : ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإذا ثبت هذا الأصل لم يلتفت العاقل إلى تخويف المشركين فكان المقصود من هذه الآية هو التنبيه على الجواب عما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله تعالى : ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ اهـ.

وقال القرطبي، وابن كثير، والشوكاني، بنحو قول ابن جرير.

قوله : ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

سيكفيني كل ما أمني، وعليه اعتمدت، وعليه يعتمد المعتمدون.
بنحو هذا قال جميع من تنقل عنهم من المفسرين.

وقال ابن كثير: أى لا تستطيع شيئاً من الأمر ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى الله كافى من تركل عليه ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كما قال هود عليه السلام حين قال قومه : ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ اهـ.

قال الفقير: ﴿بَرِيءٌ﴾ براءة مؤكدة مطلقة، والمد فى الكلمة يشعر بمدى البراءة، كما قال إبراهيم عليه السلام، ﴿أَتَحَاجُّونِى فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾، فالمدود الكثيرة هنا والطويلة لها معنى الإشعار بشدة وعمق البراءة والمحاجة.. والله أعلم.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): جامعاً لأقوال المفسرين السابقة:

قلت: حاصله أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يقول للمشركين: أرايتم، أى أخبروني عما تدعون من دون الله، أى تعبدونهم وتسالونهم من الأنداد والأصنام، والآلهة المسميات بأسماء الإناث الدالة أسماؤهن على بطلانهن وعجزهن، لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة، كالكالات والعزى. ﴿إِنْ أَرَادَنِى اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أى بمرض أو فقير أو بلاء أو شدة ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ أى : لا يقدرّون على ذلك أصلاً ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ أى: صحة وعافية، وخير، وكشف بلاء. ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ قال مقاتل:

(١) تيسير العزيز الحميد (١١٠).

فسألهم النبي ﷺ فسكتوا ، أى لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها ، وإنما كانوا يدعونها على معنى أنها وسائل وشفعاء عند الله ، لا لأنهم يكشفون الضر ويجيبون دعاء المضطر ، فهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (١) وقد دخل فى ذلك كل من دعى من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين ، فضلاً عن غيرهم فلا يقدر أحد على كشف ضر ولا إمساك رحمة كما قال تعالى : ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢) وإذا كان كذلك بطلت عبادتهم من دون الله ، وإذا بطلت عبادتهم فبطلان دعوة الآلهة والأصنام أبطل وأبطل ، ولبس الحلقة والخيوط لرفع البلاء أو دفعه كذلك ، فهذا وجه استدلال المصنف بالآية اهـ .

قال حامد بن محمد (٣) : تنبيهات :

(الأول) : ما دل عليه الاستفهام الإنكارى من التوبيخ على ما هم عليه من ترك البارئ الرزاق المنعم عليهم الذى بيده ملكوت كل شيء ، وتعلقهم بالذى هو مقهور ، ومدبر لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا يملك موتا ولا حياة ولا نشورا .

وما دل عليه من التفریع عما هو فيه لثلاث استوجبا المحق والعذاب الآبد .

الثاني : عمومية الحكم والتوبيخ فى كل ما يتعلق به ، يدل على ذلك لفظ (ما تدعون) يوضحه التنبيه .

الثالث : وهو قوله تعالى : ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مطلقا .

الرابع : ثبوت الإرادة لله خلافا لمن أنكرها .

الخامس : الاستفهام التقريرى المتضمن عنادهم واستكبارهم عن الحق مع علمهم به .

السادس : الأمر بإفراد الله بالعبادة والتوكل عليه ، ففيه قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾ وقوله : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

السابع : ثناء الرب على المتوكلين .

وأما شريكته من السنة فبأحاديث متعددة منها حديث عمران الآتى اهـ .

وقال عبد الرحمن آل الشيخ (٤) (٥) : فى الآية بيان أن الله وَسَمَ أهل الشرك بدعوة

(٢) فاطر (٢) .

(١) النحل (٥٣ ، ٥٤) .

(٣) فتح الله الحميد المجيد (١٩٧ ، ١٩٨) .

(٥) التعليق المفيد (٦٣ ، ٦٤) .

(٤) فتح المجيد (١/ ١٤٢) .

غير الله والرغبة إليه من دون الله، والتوحيد ضد ذلك، وهو أن لا يدعو إلا الله، ولا يرغب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه، وكذا جميع أنواع العبادة لا يصلح منها شيء لغير الله، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة وأئمتها، اهـ.

- وبنحو كلام سليمان قال عبد الله بن جابر الله. (١)

- وقال ابن عثيمين (٢): قوله: ﴿تَدْعُونَ﴾ المراد بالدعاء، دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فهم يدعون هذه الأصنام دعاء عبادة، فيتعبدون لها بالنذر والذبح، والركوع، والسجود ويدعونها دعاء مسألة لدفع الضرر أو جلب النفع.

وقوله ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى كافيني، والحسب: الكفاية، ومنه قوله تعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ وقوله ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فيه حصر الحسب فى الله، فهو كقولك، لا حسب لى إلا الله، بخلاف قوله: الله حسبى فليس فيه الحصر المذكور، فهو كقولك الله حسبى أنا فقط.

قوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

قدم الجار والمجرور لإفادة الحصر، لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

والمعنى أن المتوكل حقيقة هو المتوكل على الله، أما الذى يتوكل على الأصنام والأولياء والأضرحة فليس بمتوكل على الله تعالى.

وهذا لا ينافى أن يوكل إنسان إنساناً فى شيء، ويعتمد عليه لأن هناك فرقاً بين التوكل على الإنسان الذى يفعل لك شيئاً بأمرك وبين توكلك على الله، لأن توكلك على الله اعتقادك أن بيده النفع والضرر وأنت متدلل، معتمد عليه، مفتقر إليه، مفوض أمرك إليه اهـ.

● شبهة من يخلق، خيط أو حلقة، أو جعل رؤوس الحمر فى البيت والزرع لرفع العين، والرد عليهم.

قال سليمان آل الشيخ (٣): من جعل رؤوس الحمر ونحوها فى البيت والزرع لدفع العين كما يفعله أشباه المشركين، فإنه يدخل فى ذلك أى الذين وسموا بالشرك وقد يحتجون على ذلك بما رواه أبو داود فى المراسيل عن على بن الحسين مرفوعاً: «احرثوا فَإِنَّ الْحَرْثَ مُبَارَكٌ، وَأَكْثَرُوا فِيهِ مِنَ الْجَمَاجِمِ» (٤) وعنه أجوبة:

(٢) القول المفيد (١/ ٢١٠، ٢١١).

(١) الجامع الفريد (٣٧).

(٣) تيسير العزيز الحميد (١١١).

(٤) أخرجه أبو داود فى «المراسيل» (٥٤٠) وأنظر كتابنا «جامع المراسيل والمرسلين».

أحدها: أنه حديث ساقط مرسل، وأبو داود لم يشترط في مراسيله جمع المراسيل الصحيحة الإسناد، وقد ضعفه السيوطي وغيره.

الثاني: أنه اختلف في تفسير الجماجم، فقليل: هي البذر، ذكره العزيزي في «شرح الجامع» (*).

وقيل الخشبة التي يكون في رأسها سكة الحرث، قاله أبو السعادات ابن الأثير في «النهاية».

وقيل: هي جماجم رؤوس الحيوان ذكره العزيزي وغيره، وعلى هذا فقليل أمر بجعلها لدفع الطير، ذكره العزيزي، وغيره، وهذا هو الأقرب لو ثبت الحديث مع أنه باطل، وقيل: بل لدفع العين.

وفيه حديث ساقط أنه أمر بالجماجم في الزرع من أجل العين^(١)، وهو مع ذلك منقطع، ذكره السيوطي وغيره، وهذا المعنى هو الذى تعلق به أشباه المشركين ولا ريب أنه معنى باطل، لم يرد النبي ﷺ لو كان الحديث صحيحاً، وكيف يريده؟! وقد: أمر بقطع الأوتار كما فى «الصحيح»^(٢).

وقال: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكُلَّ إِلَيْهِ»^(٣).

وقال: «مَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ»^(٤) وكانوا يجعلون ذلك من أجل العين كما سيأتي، فهلا أرخص لهم فيه؟!

الثالث: أن هذا مضاد لدين الإسلام الذى بعث الله به رسله، فإنه تعالى إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده ولا يشرك به شيء، لا فى العبادة ولا فى الاعتقاد، وهذا من جنس فعل الجاهلية الذين يعتقدون البركة والنفع والضرر فيما لم يجعل الله فيه شيئاً من ذلك، ويعلقون التماائم والودع ونحوهما على أنفسهم لدفع الأمراض والعين فيما زعموا.

(*) أى «الجامع الصغير» للحافظ السيوطي

(١) ذكره اليشمى فى «المجمع» (١٠٩/٥). (نسبه للبرار وقال: فيه الهيشم بن محمد بن حفص وهو ضعيف، ويعقوب بن محمد الزهرى ضعيف أيضاً).

(٢) سيأتى تخريجه

(٣) أخره أحمد فى «مسنده» (٣١٠ / ٤)، والترمذى (٢٠٧٢) عن عبد الله بن عكيم.

(٤) سيأتى تخريجه

عن عمران بن حصين رضى الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً فى يده حلقة من صُفْر فقال: «ما هذه؟» قال من الواهنة، فقال: «انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهناً، فإنك إن مت وهى عليك ما أفلحت أبداً».

رواه أحمد بسند لا بأس به^(١).

فإن قيل: الفاعل لذلك لم يعتقد النفع فيه استقلالاً، فإن ذلك لله وحده فهو النافع الضار، وإنما اعتقد أن الله جعله سبباً كغيره من الأسباب.

قيل: هذا باطل أيضاً، فإن الله لم يجعل ذلك سبباً أصلاً وكيف يكون الشريك سبباً لجلب الخير ولبدفع الضرر، ولو قدر أن فيه بعض النفع فهو كالخمر والميسر ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾^(٢).

فإن قيل: كيف يكون شركاً وقد روى أبو داود ذلك فى «مراسيله» وغيره من العلماء يروون الحديث ولم ينكروه.

قيل: أهل العلم يروون الأحاديث الضعيفة والموضوعة لبيان حالها وإسنادها لا للاعتماد عليها واعتقادها، وكتب المحدثين مشحونة بذلك، فبعضهم يذكر علة الحديث، ويبين حاله وضعفه إن كان ضعيفاً، ووضعه إن كان موضوعاً، وبعضهم يكتفى بإيراد الحديث بإسناده.

ويرى أنه قد برئ من عهده إذا أورده بإسناده لظهور حال رواته، كما يفعل ذلك الحافظ أبو نعيم، وأبو القاسم بن عساكر وغيرهما، فليس فى رواية من رواه وسكوته عنه دليل على أنه عنده صحيح أو حسن أو ضعيف، بل قد يكون موضوعاً عنده فلا يدل سكوته عنه على جواز العمل به عنده، وسيأتى فى الكلام على حديث قطع الأوتار ما يدل على التهى عن هذا من كلام العلماء أهـ..



قوله [عن عمران بن حصين رضى الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً...] الحديث.

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/٤٤٥ - شاکر) وابن ماجه (٣٥٣١) وابن حبان (٦٢٨/٧، ٦٢٩ - الإحسان) والحاكم فى «المستدرک» (٤ / ٢١٦)

من طريق الحسن، عن عمران بن حصين به.

قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قال البوصيرى: إسناده حسن

(قلت): وهو منقطع لعدم سماع الحسن من عمران بن حصين وانظر «جامع التحصيل للعلائى».

وقال العيشى فى «المجمع» (١٠٣/٥) فى رواية موقوفة: «انبذها عنك فإنك لومت وأنت ترى أنها تنفك لمت على غير الفطرة» وفيه مبارك بن فضالة وهو ثقة وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

وانظر «فتح المجيد» (ح ١٧٩) بتخریجنا

(٢) [البقرة: ٢١٩].

قال سليمان آل الشيخ^(١): هذا الحديث ذكره المصنف بمعناه، أما لفظه فقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، ثنا المبارك عن الحسن قال أخبرني عمران بن حصين أن النبي ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة قال: أراه قال: من صفر، فقال: «ويحك ما هذه؟» قال من الراهنة قال: «أما إنها لا تزيدك إلا وهناً، انبذها عنك فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً».

ورواه ابن ماجه دون قوله «انبذها» إلى آخره، وابن حبان في «صحيحه»، وقال: «فإنك إن مت وكُلت إليها» والحاكم وقال صحيح الإسناد.

قال المنذري: روه كلهم عن مبارك بن فضالة عن الحسن عن عمران، ورواه ابن حبان أيضاً بنحوه عن أبي عامر الخزاز، عن الحسن، وهذه متبعة جيدة، إلا أن الحسن اختلف في سماعه من عمران، قال ابن المديني وغيره: لم يسمع منه، وقال الحاكم: وأكثر مشايخنا على أنه سمع منه. قلت: رواية الإمام أحمد ظاهرة في سماعه منه فهو الصواب اهـ.

قال الفقير: وقال العلاني^(٢): عن أحمد بن حنبل أنه أنكر على من يقول عن الحسن (حدثني) عمران، أي أنه لم يسمع منه.

وعن يحيى القطان: وقيل له كان الحسن يقول سمعت عمران بن حصين؟ فقال: أما عن ثقة فلا.

وقال ابن معين عن سماع الحسن من عمران: أما من حديث البصريين فلا، وأما في حديث الكوفيين فنعم اهـ.

قلت: ومبارك بن فضالة الراوى عنه بصري، فالحديث ضعيف - ولعل مقصوده بأخبرني قوم عمران، ويحتمل غير ذلك، والله أعلم.

● مناسبة الحديث للباب

قال عبد الله بن جابر الله^(٣): أفاد أن الاعتقاد بمثل هذه الحلقة من أنواع الشرك، لأمر النبي ﷺ بنزعها وتهديده على تركه اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): هذا الحديث مناسب للباب مناسبة تامة، لأن هذا الرجل ليس حلقة من صفر، إما لدفع البلاء أو لرفعه.

(١) تيسير العزيز الحميد (١١٣).

(٢) جامع التحصيل (١٦٤).

(٣) الجامع الفريد (٣٨).

(٤) القول المفيد (١/٢١٣).

والظاهر أنه لرفعه ، لقوله : «لا تزيدك إلا وهناً» والزيادة تكون مبنية على أصل أ.هـ.

وقال القرعاوي^(١): حيث دل الحديث على إنكار بُس الحلقة لدفع الضرر، لأن جلب النفع، ودفع الضرر من الأفعال الخاصة بالله، وطلبها من غير الله شرك أ.هـ.



● شرح الحديث

قوله: [عن عمران بن حصين]

قال ابن حجر: عمران بن حصين بن عبيد بن خلف بن عبد نهم بن حذيفة، ويكنى أبا نُجيد روى عن النبي ﷺ عدة أحاديث ، وكان إسلامه عام خيبر، وغزا عدة غزوات، وكان صاحب راية خزاعة يوم الفتح، قاله البرقي.

وقال الطبراني : أسلم قديماً هو وأبوه وأخته، وكان ينزل ببلاد قومه ثم تحول إلى البصرة إلى أن مات بها. . وكان عمر قد بعثه ليفقه أهلها.

وقال أبو عمر: كان من فضلاء الصحابة وفقهائهم يقول عنه أهل البصرة: إنه كان يرى الحفظة وكانت تكلمه، حتى اكتوى.

أخرج ابن أبي أسامة بسنده عن الحسن البصري عن عمران أنه شق بطنه فلبث زمناً طويلاً فدخل عليه رجل- فذكر قصته- فقال: إن أحب ذلك إليّ أحبه إلى الله قال : حتى اكتوى قبل وفاته بستين وكان يُسلمُ عليه، فلما اكتوى فقدته ثم عاد إليه.

وكان الحسن يحلف أنه ما قدم البصرة والسرو خير لهم من عمران، أخرجه أحمد في «الزهد» وكان قد اعتزل الفتنة فلم يقاتل فيها.

وعن مطرف قال عمران بن حصين: إني محدثك بحديث: إنه كان يُسلم عليّ، وإن ابن زياد أمرني فاكتويت فاحتبس عني حتى ذهب أثر الكى.

مات عمران سنة اثنتين وخمسين، وقيل: ثلاث أ.هـ.

قوله: [رأى رجلاً]

قال سليمان آل الشيخ^(٢): في رواية الحاكم: «دخلتُ على رسول الله ﷺ وفي عضدى حلقة صفر فقال: ما هذه؟ قلت: من الواهنة، فقال: انبذها» فالمبهم في رواية أحمد، ومن وافقه هو: عمران راوى الحديث أ.هـ.

(١) الجديد (٨٤).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١١٣).

قال ابن عثيمين^(١): لم يبين اسمه، لأن المهم بيان القضية وحكمها، لكن ورد ما يدل على أنه عمران نفسه، لكنه أبهم نفسه اهـ. وقد أوضحت الرواية السابقة ذلك قوله: [في يده حلقة من صفر]

قال القرعاوي^(٢): حلقة من صفر هي ما أحاط بالشيء اهـ.
[قلت]: الصَّفَرُ: داء في البطن يصفرُّ منه الوجه.
والصَّفَرُ: النحاس الجيد، وقيل: الصَّفَرُ ضرب من النحاس، وقيل: هو ما صفر منه اهـ^(٣)..

قوله [ما هذه؟]:

قال سليمان آل الشيخ^(٤): يحتمل أن الاستفهام للاستفصال، هل لبسها تحلياً أم لا؟ ويحتمل أن يكون للإنكار فظن اللابس أنه سيفصل اهـ.
وقال عبد الرحمن آل الشيخ^(٥): بأن الأظهر في الاستفهام هنا: أنه للإنكار اهـ.
وقال ابن عثيمين: الاستفهام هذا للاستعلام فيما يظهر وليس للإنكار، اهـ.
خلاصة الاستفهام هنا:

الأول: للاستفصال، والاستفسار، والاستعلام.

الثاني: الإنكار، رجح الأول ابن عثيمين.

ورجح الثاني عبد الرحمن آل الشيخ، والله المستعان.

● فائدة الاستفهام:

قال سليمان آل الشيخ^(٦): فيه استفصال المفتي، واعتبار المقاصد، اهـ.
قال حامد بن محمد^(٧): قوله (ما هذه) مستفهماً أبين دليل على أنه لا يعلم الغيب إلا الله ثم قال، وفي ذلك أقطع دليل على أنه ﷺ لا يحكم بحكم إلا بعد علم اليقين. اهـ.

(١) القول المفيد (١/٢١٢، ٢١٣).

(٢) الجديد (٨٢).

(٣) النهاية (٣/٣٥-٣٦)، واللسان (٤٦٠: ٤٦٥).

(٤) تيسير العزيز الحميد (١١٣).

(٥) فتح المجيد (١/١٤٤).

(٦) تيسير العزيز الحميد (١١٤).

(٧) فتح الله الحميد الحميد (١٩٨، ١٩٩) مختصراً.

وقال ابن عثيمين^(١): أنه ينبغي لمن أراد إنكار المنكر أن يسأل أولاً عن الحال، لأنه قد يظن ما ليس بمنكر منكراً، ودليله أنه ﷺ قال: (ما هذه). اهـ.
قوله: [من الواهنة].

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قال أبو السعادات: الواهنة عرق يأخذ في المنكب وفي اليد كلها فيرقى منها.

وقيل هو مرض يأخذ في العضد، وربما علق عليها جنس من الخرز يقال له: خرز الواهنة وهي تأخذ الرجال دون النساء قال: وإنما نهاه عنها لأنه اتخذها على معنى أنها تعصمه من الألم، فكان عنده في معنى التمايم المنهى عنه. اهـ.
وتتابع كل الشراح على ما قاله سليمان آل الشيخ.

وقال ابن عثيمين^(٣): (من) للسببية، أي لبستها بسبب الواهنة. اهـ.
قوله: [انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً]

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً» لفظ الحديث «انبذها»، وهو أبلغ، أي اطرحها، والتزع هو الجذب بقوة، والنبد يتضمن ذلك وزيادة وهو الطرح والإبعاد، أمره بطرحها عنه وأخبر أنها لا تنفعه بل تضره، فلا تزيده إلا وهناً، أي ضعفاً، وكذلك كل أمر نهى عنه فإنه لا ينفع غالباً أصلاً، وإن نفع بعضه فضره أكبر من نفعه.

وفيه النهى عن تعليق الخلق والخرز ونحوهما على المريض، أو غيره، والتنبيه على النهى عن التداوى بالحرام.

وروى أبو داود بإسناد حسن والبيهقي عن أبي الدرداء مرفوعاً حديث: «تَدَاوُوا وَلَا تَدَاوُوا بِحَرَامٍ»^(٤) فإن قيل: كيف قال ﷺ: «لا تزيدك إلا وهناً» وهي ليس لها تأثير؟

(١) القول المفيد (١/٢١٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١١٤).

(٣) القول المفيد (١/٢١٣).

(٤) [حسن لغيره] أخرجه أبو داود (٣٨٧٤) وأنظر «الطب النبوي» الذهبي

(١٧٥) - بتخريجنا) وأنظر «شرحنا لذاد المعاد».

قيل هذا- والله أعلم- يكون عقوبة له على شركه لأنه وضعها لدفع الواهنة ، فعوقب بنقيض مقصوده اهـ.

قال حامد بن محمد^(١): انزعها بصيغة الأمر الدال على الوجوب والفور عند أهل العلم والتحقيق دليل على أن الأفعال الشركية تزال على الفور وجوباً، وكذلك الأماكن التي يفعل فيها الشرك كما فعل رسول الله ﷺ بالطاغية التي فى الطائف أمر المغيرة ابن شعبة وأبا سفيان أن يهدماها بعد تمكنه ﷺ منها، فقد سأل أهل الطائف أن يدعها شهراً، فأبى ﷺ أن يدعها شيئاً مسمى.

قال ابن القيم: رحمه الله

إذا كان رسول الله حرق مسجد الضرار وأمر بهدمه بحكم التنزيل وهو مسجد يصلى فيه ويذكر الله فيه لما كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين وكاد فى المنافقين فمشاهد الشرك التي تدعو سدناتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله أحق بالهدم وأوجب، وكذلك محال المعاصي، والفسوق كالخانات وبيوت الخمارين، وأرباب المنكرات، وقد حرق عمر - رضى الله عنه - قرية بكاملها يباع فيها الخمر، وهم رسول الله ﷺ بتحريق بيوت تاركى حضور الجمعة والجماعات، وإنما منعه من فيها من النساء والذرية الذين لا تحب عليهم كما أخبر هو عن ذلك «انتهى.

والموجب للفورية أنك تستدرك التوبة عما لا يرضاه الله ولا رسوله ويتوب إلى الله بالأعمال الصالحة قبل أن يدركه الموت وهو لا يشعر:

كل امرئ مصح فى أهله والموت أذننى من شرك نعله. اهـ

وبنحو قول سليمان قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢)، وعبد الله جار الله^(٣)، وقال: وكذلك كل أمر نهى عنه فإنه لا ينفع غالباً ، وإن نفع بعضه فضره أكبر من نفعه اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٤): فى هذا الحديث دليل على عدة فوائد: تقدم الأول.

(١) فتح الله الحميد المجيد (١٩٩، ٢٠٠).

(٢) فتح المجيد (١/١٤٤).

(٣) الجامع الفريد (٣٨).

(٤) القول المفيد (١/٢١٣).

الثانى: وجوب إزالة المنكر، لقوله: «انزعها» فأمره بنزعها، لأن لبسها منكر، وأيد ذلك بقوله: «إنها لا تزيدك إلا وهناً»، أي: وهناً فى النفس لا فى الجسم، وربما تزيده وهناً فى الجسم، أما وهن النفس، فلأن الإنسان إذا تعلقت نفسه بهذه الأمور ضعفت واعتمدت عليها ونسيت الاعتماد على الله - عز وجل - والانفعال النفسى له أثر كبير فى إضعاف الإنسان، فأحياناً يتوهم الصحيح أنه مريض فيمرض، وأحياناً يتناسى المرض وهو مريض فيصبح صحيحاً، فانفعال النفس بالشئ له أثر بالغ، ولهذا تجد بعض الذين يصابون بالأمراض النفسية يكون أصل إصابتهم ضعف النفس من أول الأمر حتى يظن الإنسان أنه مريض بكذا وبكذا، فيزداد عليه الوهم حتى يصبح الموهوم حقيقة. فهذا الذى لبس الحلقة من الواهنة لا تزيده إلا وهناً، لأنه سوف يعتقد أنها ما دامت عليه فهو سالم، فإذا نزعها عاد إليه الوهن، وهذا بلا شك ضعف فى النفس.

والثالث: أن الأسباب التى لا أثر لها بمقتضى الشرع أو العادة أو التجربة لا ينتفع بها الإنسان. اهـ.

[قلت]: وقول الشراح في: «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً» النزع: هو الجذب بقوة، أخبر أنها لا تنفعه، بل تضره وتزيده ضعفاً أ. هـ، وكذلك كل أمر نهى عنه، فإنه لا ينفع غالباً وإن نفع بعضه فضره أكبر من نفعه وإليك الدليل على ذلك من القرآن والسنة.

أولاً الدليل من القرآن:

١- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾

وطالما أنه لن يأخذ شيئاً يشفيه وهذه لن تشفيه فالمرض سيزداد ولا يقل فلا تنفعه حسياً ولا تزيدك إلا وهناً لأنك لم تتعاطى سبباً حقيقياً للشفاء.

٢- وكما قال تعالى فى الربا والمرابى أنه يأذن بحرب من الله ورسوله والربا لا يزيده إلا حرباً من الله ورسوله.

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾

ثانياً من السنة:

(١) بين الرسول ﷺ أن الكذب فى البيع والشراء منقبة للسلسلة، محقة للبركة، فالشيطان يزين له أنه يبيع كثير ولكن لا توجد البركة ولا يبارك الله له فيما يبيعه.

ففى الصحيحين عن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»^(١).

وفى الصحيح أيضاً من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «الحلف منفقة للسلمة، محقة للبركة»^(٢).

(٢) وفى الصحيحين فى حديث حكيم بن حزام: (إن هذا المال خضر حلو فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذى يأكل ولا يشبع»^(٣) فإن من أخذ هذا المال بحقه يبارك الله له فيه، وإن أخذه بغير حقه ابتلاه الله بالأمراض الكثيرة ولا ينتفع به بل ضره يكون أكثر من نفعه. ونسأل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة.

قوله: [ما أفلحت]:

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قوله: «فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبداً» أى لأنه مشرك، والحالة هذه، والفلاح هو الفوز والظفر والسعادة.

قال المصنف: فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك أكبر الكبائر، وأنه لم يعذر بالجهالة، والإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

قلت - أى سليمان -: وفيه أن الصحابى لو مات وهى عليه ما أفلح أبداً، فقيه رد على المغرورين الذين يفتخرون بكونهم من ذرية الصالحين، أو من أصحابهم، ويظنون أنهم يشفعون لهم عند الله، وإن فعلوا المعاصي.

وفيه أن رتب الإنكار متفاوتة فإذا كفى الكلام فى إزالة المنكر لم يحتج إلى ضرب ونحوه.

وفيه أن المسلم إذا فعل ذنباً وأنكر عليه فتأب منه فإن ذلك لا ينقصه، وأنه ليس من شرط أولياء الله عدم الذنوب أ.هـ.

وقال حامد بن محمد^(٥): قوله «أبداً» يدل على أن الشرك الأصغر أكبر الكبائر،

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٠٧٩) ومسلم (١٧٦/١٠ - النوى)

وانظر تخريجنا «رياض الصالحين» ح ٦٠.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٠٨٧)، ومسلم فى المساقاة (١١ / ٤٤ - النوى)

وانظر «رياض الصالحين» ١٧٢٣ - بتخريجنا

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٤٧٢) ومسلم (٤١٣/١) الحلي

وانظر تخريجنا «رياض الصالحين» ح (٥٢٥).

(٤) تيسير العزيز الحميد (١١٤). (٥) فتح الله الحميد المجيد (٢٠٠).

لأن أهل الكبائر ما يؤبدون في العذاب، والمشرك يؤبد قال تعالى: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ والشرك يشمل الأكبر والأصغر، وقد صرح النبي ﷺ في هذا الحديث أن صاحب الشرك الأصغر إن مات وهو عليه ما يفلح أبداً. اهـ.

وقال عبد الله بن جابر الله^(١): قوله (ما أفلحت أبداً) يفيد عظم الذنب الواقع بسبب هذا الاعتقاد، لأنه نوع من أنواع الشرك الذي لا يغفر إلا بالتوبة. اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٢):

أن لبس الحلقة وشبهها لدفع البلاء أو رفعه من الشرك، لقوله: «لومت وهى عليك ما أفلحت أبداً» وانتفاء الفلاح دليل على الخيبة والخسران، ولكن هل هذا شرك أكبر أو أصغر؟

سبق لنا عند الترجمة، أنه يختلف بحسب اعتقاد صاحبه.

وفي الحديث من الفوائد: أن الأعمال بالخواتيم، لقوله: «لومت وهى عليك»، فعرف أنه لو أفلح عنها قبل الموت لم تضره لأن الإنسان إذا تاب قبل أن يموت صار كمن لا ذنب له. اهـ.

[قال الفقير]:

قال المصنف - رحمه الله تعالى -: «فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر الكبائر وأنه لم يعذر بالجهالة، وفيه الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك». فلماذا لم يعذر بجهله؟

لأن الرسول ﷺ قال له «فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبداً» والرجل لا يعرف.

إلا أنه في بعض الطرق عند البيهقي أيضاً مع ضعف الحديث قال (فإنك لو مت بعد ما علمت ما أفلحت أبداً) فيه أنه بعد إقامة الحجة عليه.

قوله: [رواه أحمد بسند لا بأس به].

قال سليمان آل الشيخ^(٣): قوله: رواه أحمد بسند لا بأس به، هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، أبو عبد الله المروزي، ثم البغدادي، إمام أهل عصره، وأعلمهم بالفقه والحديث، وأشداهم ورعاً ومتابعة للسنة، روى عن الشافعي

(٢) القول المفيد (١/ ٢٠١).

(١) الجامع الفريد (٣٨).

(٣) تيسير العزيز الحميد (١١٤).

وزيد بن هارون، وابن مهدي ويحيى القطان وابن عيينة وعفان وخلق، وروى عنه ابنه عبد الله وصالح البخاري ومسلم وأبو داود وأبو بكر الأثرم والمروزي وخلق لا يحصون.

مات سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة

[قال الفقير]:

قوله: «رواه أحمد بسند لا بأس به» هذا من كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

الإمام أحمد وهو الذي يقول فيه بعض أهل السنة - عن الدنيا ما كان أصبره وبالماضين ما كان أشبهه، أنه الدنيا فأبأها، والشبه فنفأها، خرَّجَ به من مرو وهو حمل فولد ببغداد سنة أربع وستين ومائة في شهر ربيع الأول.

وطلب أحمد العلم سنة وفاة مالك وهي سنة تسع وسبعين، فسمع من هشيم وجريز ابن عبد الحميد وسفيان بن عيينة ومعتز بن سليمان، ويحيى بن سعيد القطان ومحمد ابن إدريس الشافعي وزيد بن هارون وعبد الرزاق، وعبد الرحمن بن مهدي وخلق لا يحصون بمكة والبصرة والكوفة وبغداد واليمن وغيرها.

وله تلاميذ من أشهرهم البخاري ومسلم وحدث البخاري عنه في الصحيح ولكن أحاديث قليلة تعد على الأصابع في حدود الثلاثة فكان يذهب إلى الشيوخ ويتعلم منهم فالإمام أحمد الأصل وخرج منه الإمام البخاري ومسلم.

وروى عنه أيضاً الرازي وأبو زرعة الدمشقي وعبد الله بن أبي الدنيا وغيرهم كثير وروى عنه من شيوخه عبد الرحمن بن مهدي والأسود بن عامر ومن أقرانه علي بن المديني ويحيى بن معين.

قال البخاري: مرض أحمد ليلتين خلتا من ربيع الأول ومات يوم الجمعة لثنتي عشرة خلّت منه.

وقال حنبل: مات يوم الجمعة في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين. وله سبع وسبعون سنة.

وفيه فضل ومنقبة له أن يموت يوم الجمعة لقوله ﷺ «من مات يوم الجمعة أمن الفتان» (١)

وابتلى بمحنة خلق القرآن ومدّ على رجله وفعل فيه الكثير.

فأنت لا تحزن على نفسك إذا ابتليت وتقول أنك هنت على الله ففعل فيك ذلك، لا

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢ / ١٧٦، ٢٠٠) عن عبد الله بن عمرو به.

وله عن عقبه بن عامر مرفوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ» (١).

وفى رواية: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ» (٢).

فالتَّيْمِينُ يكون بعد الاستضعاف والابتلاء قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ﴾ هل هو أول من ابتلى بمحنة خلق القرآن؟ لا ولكن هو أشهر من تصدى لها وآخر من فتن بها ثم أصبح بعد ذلك إمام أهل السنة.

وقال ابنه عبد الله والفضل بن زياد: مات في ثانی عشر ربيع الآخر. رحمه الله تعالى وابنه عبد الله له (زوائد الزهد) و(زوائد المسند). وغير ذلك

وقال الإمام أحمد ابني عبد الله محظوظ ما ذاكرني بحديث إلا ولم أعرفه فهذا الشبل من ذاك الأسد، لأنه يقال في الحديث الذي لا يعرفه أحمد ليس بحديث فعندما يُذكره بالأحاديث فهذا أمر عظيم.



قوله: وله عن عقبه بن عامر مرفوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً...» الحديث.

[قلت]: يشهد للرواية الثانية حديث صحيح البخاري: «أَلَا يَبْقَيْنُ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةً مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةً إِلَّا قَطَعَتْ» (٣) اهـ.

قال سليمان آل الشيخ (٤): الحديث الأول رواه أحمد كما قال المصنف، ورواه أيضاً أبو يعلى والحاكم وقال صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (٤ / ٢٥٤) والطحاوي (٤ / ٣٢٥)، وأبو يعلى (٢ / ٩٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٧ / ٦٢٩ - الإحسان)، والطبراني في «الكبير» (١٧ / ٢٩٧ / ٨٢٠)، والحاكم في «المستدرک» (٤ / ٢١٦) من طريق حيوة بن شريح، عن خالد بن عبيد المعافري، عن مشرح بن هاعان، عن عقبه بن عامر به.

قال الحاكم: صحيح الإسناد.

وانظر كتابنا «فتح ذی الجلال فی تخريج أحاديث الظلال» (٦١٠) وفتح المجيد (ح ١٨٣) بتخريجنا (٢) [صحيح] أخرجه أحمد في «مسنده» (٤ / ١٥٦)، والحاكم في «المستدرک» (٤ / ٢١٩)، والطبراني في «الكبير» (١٧ / ٣١٩).

عن عقبه بن عامر به.

قال الهيثمي في «المجمع» (٥ / ١٠٣): رجال أحمد ثقات.

وانظر كتابنا «فتح ذی الجلال فی تخريج أحاديث الظلال». (٦١٠) فتح المجيد (ح ١٨٤) بتخريجنا (٣) تقدم تخريجه.

(٤) تيسير العزيز الحميد (١١٥).

وقوله: وفى رواية: هذا يوهم أن هذا فى بعض الأحاديث المذكورة، وليس كذلك، بل المراد، أنه فى حديث آخر رواه أحمد أيضاً فقال: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، ثنا عبد العزيز بن مسلم، ثنا يزيد بن أبى منصور، عن دحىن الحجرى عن عقبة بن عامر الجهنى أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا؟ قال: «إن عليه تميمة» فأدخل يده فقطعها، فبايعه، وقال: «من علّق تميمة فقد أشرك» ورواه الحاكم بنحوه، ورواته ثقات. وقوله: فى هذا الحديث: فأدخل يده فقطعها. أى الرجل، بينه الحاكم فى روايته أهـ.

● مناسبة الحديث للباب: حيث دلّ الحديث أن تعليق التيممة معتقداً فيها النفع شرك لأنّ جلب النفع ودفع الضر من الأفعال الخاصة بالله (١) أهـ.

قوله: [وله عن عقبة بن عامر]

قال ابن حجر (٢): روى عن النبى ﷺ كثيراً، قال أبو سعيد بن يونس: كان قارئاً، عالماً بالفرائض، والفقه، فصيح اللسان، شاعراً، كاتباً، وهو أحد من جمع القرآن، قال: ورأيت مصحفه بمصر على غير تأليف مصحف عثمان، وفى آخره كتبه عقبة بن عامر بيده.

ولى إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين، ومات قريباً من الستين. أ.هـ.

قوله [من تعلق تميمة]

قال سليمان آل الشيخ (٣): قوله: «من تعلق تميمة» أى متمسكاً بها عليه، وعلى غيره من طفل أو دابة ونحو ذلك.

قال المنذرى: يقال: أنها خرزة كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات، واعتقاد هذا رأى جهل وضلالة إذ لا مانع ولا دافع غير الله تعالى.

وقال أبو السعادات: التمايم جمع تميمة وهى خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم، يتقون بها العين فى زعمهم، فأبطله الإسلام، قال: كأنهم كانوا يعتقدون أنها توائم الدواء والشفاء. أهـ.

[قال الفقير]: عرف التيممة بنوعها وليس بالحد المطابق للمحدود وهذا من اختلاف التنوع (*).

(١) الجديد (٨٦).

(٢) الإصابة. (٣) تيسير العزيز الحميد (١١٥).

(*) انظر كتابى النكت المتممة لمقدمة ابن تيمية.

قال حامد بن محمد^(١): لفظ (من) دل على عمومية الفاعل كائناً من كان، ودل تنكير قيمة على عمومية المعلق من أى جنس كان وأى نوع كان.

وقال أيضاً: قال البيضاوى فى «شرح المشكاة» هى التعاويذ التى تعلق على الصبيان اهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): أى علقها متعلقاً بها قلبه فى طلب خير أو دفع شر. اهـ.

قوله: [فلا أتم الله له].

قال سليمان آل الشيخ^(٣): دعاء عليه بأن الله لا يتم له أمره. اهـ.

قال حامد بن محمد^(٤): قلت: فى ذلك إخبار ودعاء، أما الإخبار فيخبر ﷺ أن من تعلق شيئاً دون الله خذله الله فلا يتم له مقصوده، وهو الحقيقة، لأن المرء مهما توكل على شيء دون الله وكله الله إليه، فحينئذ يضيع فى وادى الهلكات.

عن عيسى بن حمزة قال: دخلت على عبد الله بن عكيم وبه حمى فقلت: ألا تعلق تيممة، فقال: نعوذ بالله من ذلك، قال رسول الله ﷺ: «من تعلق شيئاً وكل إليه»^(٥) دعاء منه ﷺ عليه أن لا يتم له مقصوده ولا يرد عنه القدر كما قيل:

وإذا النية أنشبت أظفارها ألفت كل تيممة لا تنفع.

وقال ابن عثيمين^(٦): قوله: «فلا أتم الله له».

الجملة خبرية بمعنى الدعاء، ويحتمل أن تكون خبرية محضة، وكلا الاحتمالين دال على أن التيممة محرمة، سواء نفى الرسول ﷺ أن يتم الله له أو دعا بأن لا يتم الله له، فإن كان الرسول ﷺ أراد به الخبر، فإننا نخبر بما أخبر به النبى ﷺ، وإلا، فإننا ندعو بما دعا به الرسول ﷺ. اهـ.

[قال الفقير]: وإن كان خبراً فهو صدق وإن كان دعاءً فهو مستجاب فهو على أية حال لا يتم الله له.

قوله: [ومن تعلق ودعة]:

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «ومن تعلق ودعة» بفتح الواو وسكون المهملة، قال فى «مسند الفردوس» شيء يخرج من البحر يشبه الصدف، يتقون به العين أ.هـ.

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٠١).

(٢) فتح المجيد (١٤٧/١).

(٣) تيسير العزيز الحميد (١١٥).

(٤) تقدم تخريجه

(٥) فتح الله الحميد المجيد (٢٠١).

(٦) تفسير العزيز الحميد (١١٥).

(٦) القول المفيد (٢١٥/١).

قال ابن عثيمين^(١): والودعة: واحدة الودع، وهى أحجار تؤخذ من البحر يعلقونها لدفع العين، ويزعمون أن الإنسان إذا علق هذه الودعة لم تصبه العين، أو لا يصيبه الجن.

قوله «فلا ودع الله له»:

قال سليمان آل الشيخ: قوله: «فلا ودع الله له» بتخفيف الدال أى لا جعله فى دعة وسكون.

وقيل: هو لفظ بنى من الودعة، أى لا يخفف الله عنه ما يخافه، قاله أبو السعادات وهذا دعاء عليه.

وفيه وعيد شديد لمن فعل ذلك، فإنه مع كونه شركاً فقد دعا عليه رسول الله ﷺ بنقيض مقصوده.

قال ابن عثيمين: قوله: «فلا ودع الله له».

أى: لا تركه الله فى دعة وسكون، وضد الدعة والسكون القلق والألم.

وقيل: لا ترك الله له خيراً؛ فعومل بنقيض قصده.

[قال الفقير]: وهذا كما دعا على من تعلق بالدرهم والدينار من دون الله قال ﷺ: «تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»(*)

قوله: «من تعلق تيمة فقد أشرك».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قال ابن عبد البر: إذا اعتقد الذى علقها انها ترد العين، فقد ظن أنها ترد القدر، واعتقاد ذلك شرك.

وقال أبو السعادات: إنما جعلها شركاً لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذى هو دافعه. أهـ.

قال ابن عثيمين^(٣) وقوله «فقد أشرك».

هذا الشرك يكون أكبر إن اعتقد أنها ترفع أو تدفع بذاتها دون أمر الله، وإلا؛ فهو أصغر. أهـ.



(١) القول المفيد (١/٢١٥).

(*) سيأتى تخريجه.

(٢) تيسير العزيز الحميد (١١٦).

(٣) القول المفيد (١/٢١٦).

وَلَابِن أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَى، فَقَطَعَهُ وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾» (١)

قوله [ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلاً في يده خيط]..... الحديث

قال سليمان آل الشيخ (٢): هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم كما قال المصنف.

ولفظه حدثنا محمد بن الحسين بن إبراهيم بن إشكاب، ثنا يونس بن محمد ثنا حماد بن مسلمة عن عاصم الأحول، عن عذرة قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيراً فقطعه أو انتزعه ثم قال: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ».

قوله [ولابن أبي حاتم] وابن أبي حاتم هو الإمام أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي التميمي الحنظلي، الحافظ ابن الحافظ، صاحب «الجرح والتعديل» والتفسير وغيرهما. ومات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

قوله [حذيفة] هو ابن اليمان، واسم اليمان حسيل بمهملتين مصغراً ويقال حسل بكسر ثم سكون، العبسي بالوحدة، حليف الأنصار، صحابي جليل من السابقين ويقال: صاحب السر، وأبوه أيضاً صحابي، مات حذيفة في أول خلافة على سنة ست وثلاثين.

قوله «رأى رجلاً في يده خيط من الحمى»

قال سليمان آل الشيخ (٣): قوله رأى رجلاً في يده خيط من الحمى. أي: من أجل الحمى لدفعها، وكان الجهال يعلقون لذلك التمام والخيط ونحوها.

وروى وكيع عن حذيفة أنه دخل على مريض يعوده، فلمس عضده فإذا فيه خيط فقال: ما هذا؟ فقال: شيء رقى لي فيه، فقطعه فقال: لومت وهو عليك ماصليت عليك.

[قوله: فقطعه]، فيه إنكار هذا، وإن كان يعتقد أنه سبب فإن الأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله ورسوله ﷺ، مع عدم الاعتماد عليه؛ فكيف بما هو شرك كالتماائم والخيط والحرز والطلاسم ونحو ذلك مما يعلقه الجهال؟

وفيه إزالة المنكر باليد بغير إذن الفاعل، وإن كان يظن أن الفاعل يزيله.

وإن تلاف آلات المنكر واللهو جائزة وإن لم يأذن صاحبها (٤) أ. هـ.

(١) يوسف: ١٠٦ والأثر أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢٠٤٠) فانظره بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (١١٦).

(٣) المصدر السابق.

(٤) ليس هذا على إطلاقه، بل بالنظر إلى المصالح والمفاسد المترتبة على إزالة المنكر، كما هو معلوم.

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «من الحمى»

من هنا للسببية؛ أى: خيط لبسه من أجل الحمى لتبرد عليه.
قوله: «فقطعه».

أى: قطع الخيط، وفعله هذا من تغيير المنكر باليد، وهذا يدل على غيرة السلف الصالح وقوتهم فى تغيير المنكر باليد وغيرها.

قوله: وتلا قوله: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ»

قال سليمان آل الشيخ^(٢): - استدلل حذيفة بهذه الآية على أن تعليق الخيط ونحوه لما ذكر شرك، أى: أصغر كما تقدم فى الحديث.

ففيه صحة الاستدلال بما نزل فى الأكبر على الأصغر، ومعنى الآية أن الله أخبر عن المشركين أنهم يجمعون بين الإيمان بالله، أى: بوجوده، وأنه الخالق الرازق المحيى المميت، ثم مع ذلك يشركون فى عبادته، فسرهما بذلك ابن عباس وعطاء ومجاهد والضحاك وابن زيد وغيرهم أهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): وقوله: «وَهُمْ مُشْرِكُونَ» فى محل نصب على الحال؛ أى: وهم متلبسون بالشرك، وفى هذا دليل على أن هذا الرجل مؤمن، وأن هذا الخيط الذى لبسه فيه نوع من الشرك.

وفيه دليل على أن الإنسان قد يجتمع فيه إيمان وشرك، ولكن ليس الشرك الأكبر؛ لا يجتمع مع الإيمان، ولكن المراد هنا الشرك الأصغر، وهذا أمر معلوم أهـ.

قال حامد بن محمد بن حسن^(٤): قطعه ممثلاً لقوله ﷺ «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنَكراً فليغيره بيده فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فليُسلِّمَ عَلَيْهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فليقلبه وذلك أضعف الإيمان»*
تنبيه: أعلم أن الذين يدعون الإيمان ثلاثة أنواع:

[متهم] من لا يلبس إيمانه بشرك كما قال تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ»

[ومنهم] من يلبس إيمانه بشرك يتعلقون بالخيط والحلقة وأشباههما كما قال تعالى
«وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ»

(٢) تيسير العزيز الحميد (١١٧).

(١) القول المفيد (١/ ٢١٦).

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٢٠٣).

(٣) القول المفيد (١/ ٢١٦، ٢١٧).

(*) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١ / ٢٩٦ / ٧٨) عن أبى سعيد به «انظر تمام تخريجه فى رياض الصالحين» (ح ١١٨٦ - بتخریجتنا)

[ومنهم] من يقول إنه مؤمن وهو كاذب كما قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي
قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . أهـ .

قال الفقير : قوله وتلا ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ فاستدل بالآية على أن
هذا شرك ففيه صحة الاستدلال على الشرك الأصغر بما أنزله الله في الشرك الأكبر
لشمول الآية له كما تقدم معنا .

فما معنى ذلك؟ معناه أنه يجوز إسقاط أدلة الشرك الأكبر على الشرك الأصغر فالآية
نزلت في مشركين شرك أكبر وقد قلنا أن الشاطبي قال في «الموافقات» أن الفاظ الشرك
والكفر والظلم الفاظ غائية لا يصرف الأكبر إلى الأصغر إلا بقرينة من القرآن أو السنة
فهذا الرجل ارتكب شركاً أصغر فلماذا انزل عليه آية في الشرك الأكبر؟
الجواب :

أولاً: يمكن إسقاطها من باب الترهيب من هذا العمل .

ثانياً: الشرك الأكبر يشمل الشرك الأصغر .

وإذا لم يفهم ذلك فقد نكفر من لا يكفر . كيف ذلك؟ .

أن نفهم أن حذيفة كفر الرجل كفر أكبر دون سؤاله وأسقط عليه آيات الكفر الأكبر
والرجل لم يأت إلا بالأصغر فهذا فهم خاطيء لصنيع حذيفة .

وهناك فهم خاطيء أيضاً عكس هذا الكلام وهو: أن قائل يقول إن هذه الآية في
الشرك الأصغر فقط ، لأن حذيفة أسقطها على الأصغر .

والرجل لم يأت إلا بالأصغر .

فهذا فهم خاطيء أيضاً .

كما قلنا في قوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون...﴾ قال ابن
عباس: كفر دون كفر فلما أن تقول : الآية في الكفر الأصغر فقط فنقول له: كما أن
الآيات في الكفر الأكبر ينزلونها في الكفر الأصغر ولا تدل على أنها فيه فقط فهنا ابن
عباس ينزلها على مناط من مناطاتها وهو الكفر الأصغر وإن كانت هي أصلاً في الكفر
الأكبر، فكذلك حذيفة أنزلها في الكفر الأصغر .

فاحذر من فهمين كلاهما خطأ وهما: أن مرتكب الكبيرة التي تنزل عليه آيات

فيه مسائل

- الأولى: التَّغْلِيظُ فِي لِبْسِ الْحَلَقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِمِثْلِ ذَلِكَ.
- الثانية: أَنَّ الصَّحَابِيَّ لَوْ مَاتَ وَهِيَ عَلَيْهِ مَا أَفْلَحَ. فِيهِ شَاهِدٌ لِكَلَامِ الصَّحَابَةِ: أَنَّ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ أَكْبَرُ مِنَ الْكِبَائِرِ.

الكفر الأكبر أنه كافر وأن الصحابة كفروه. إنما أنزلوها للتهديد والوعيد، وهذا يؤيد عدم التفصيل في مقام الترهيب.

الثاني: أن نظن أن الآيات في الكفر الأصغر فقط.



قوله: «فيه مسائل»

قال ابن عثيمين^(١): أى فى هذا الباب مسائل.

● الأولى: التَّغْلِيظُ فِي لِبْسِ الْحَلَقَةِ وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِمِثْلِ ذَلِكَ.

لقوله ﷺ «انزعها - لاتزيدك إلا وهناً - لو مت وهى عليك ماأفلحت أبداً»، وهذا تغليظ عظيم فى لبس هذه الأشياء والتعلق بها.

● الثانية: أن الصحابي لو مات وهى عليه ماأفلح

هذا وهو صحابي؛ فكيف بمن دون الصحابي؟! فهو أبعد عن الفلاح.

قال ابن عثيمين: قال المؤلف: «فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر».

وقوله: «لكلام الصحابة» أى: لقولهم، وهو كذلك؛ فالشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

قال ابن مسعود رضى الله عنه: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً»^(٢).

وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكبيرة؛ لأن الشرك لا يغفر ولو كان أصغر، بخلاف الكبائر؛ فإنها تحت المشيئة. أهـ.

(١) القول المفيد ١/ ٢١٧، ٢٣٢

(٢) سيأتى تخريجه

الثالثة: أَنَّهُ لَمْ يُعْذَرْ بِالْجَهَالَةِ.

قال الفقير: وفيه شاهد لكلام الصحابة لأنه تقدم معنا في تفسير قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ﴾ قال بعض العلماء كابن تيمية يحتمل أن الشرك الأصغر لا يغفر لأن كلمة شرك في الآية جاءت نكرة في سياق النفي فتحمل على العموم الشرك الأصغر والأكبر فصاحب الشرك الأصغر يدخل النار ولا يخلد. أما صاحب الكبيرة تحت خطر المشيئة.

والذي يشهد لذلك قول ابن مسعود المتقدم «لئن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أحلف بغيره صادقاً» فالخلف بغير الله شرك والكذب كبيرة فلما كان الشرك الأصغر أكبر من الكبائر فاستحب ارتكاب الكبيرة أكثر من الشرك الأصغر وهذا ليس فيه أن ابن مسعود ممكن أن يحلف بغير الله أو أن يحلف بالله كاذباً لكنه أراد أن يهول من الشرك الأصغر.

كما قال شعبة «لئن أزنى أحب إلى من أن أدلس» فهل هذا معناه أن شعبة يجوز الزنى؟! بالطبع، لا لكن أراد أن يبين قبح التدليس بقبح الزنى المعروف والمتفق عليه للتقريب إلى أذهان الناس.

● الثالثة: أَنَّهُ لَمْ يُعْذَرْ بِالْجَهَالَةِ.

قال ابن عثيمين: هذا فيه نظر؛ لأن قوله ﷺ «لومت وهى عليك ما أفلحت أبداً» ليس بصريح أنه لو مات قبل العلم، بل ظاهره: «لومت وهى عليك ما أفلحت أبداً؛ أى: بعد أن علمت وأمرت بنزعها:

[قلت] وقد قدمنا رواية البيهقي «فإنك لومت بعد ما علمت....» وفيه ضعف.

قال ابن عثيمين: وهذه المسألة تحتاج إلى تفصيل؛ فنقول: [الجهل] نوعان.

جهل يعذر فيه الإنسان، وجهل لا يعذر فيه، فما كان ناشئاً عن تفریط وإهمال مع قيام المقتضى للتعلم؛ فإنه لا يعذر فيه، سواء في الكفر أو في المعاصي، وما كان ناشئاً عن خلاف ذلك، أى أنه لم يهمل ولم يفرط ولم يقم المقتضى للتعلم بأن كان لم يطرأ على باله أن هذا الشيء حرام؛ فإنه يعذر فيه، فإن كان منتسباً إلى الإسلام؛ لم يضره، وإن كان منتسباً إلى الكفر؛ فهو كافر في الدنيا، لكن في الآخرة أمره إلى الله على القول الراجح: يمتحن؛ فإن أطاع دخل الجنة، وإن عصى دخل النار.

فعلى هذا من نشأ ببادية بعيدة ليس عنده علماء ولم يخطر بباله أن هذا الشيء حرام، أو أن هذا الشيء واجب؛ فهذا يعذر، وله أمثلة:

الرابعة: أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ فِي الْعَاجِلَةِ؛ بَلْ تَضُرُّ، لِقَوْلِهِ: «لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا».

الخامسة: الْإِنْكَارُ بِالتَّغْلِيظِ عَلَى مَنْ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ.

السادسة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا؛ وَكُلِّ إِلَيْهِ.

منها: رجل بلغ وهو صغير وهو في بادية ليس عنده عالم، ولم يسمع عن العلم شيئاً، ويظن أن الإنسان لآتجب عليه العبادات إلا إذا بلغ خمس عشرة سنة، فبقى بعد بلوغه حتى تم له خمس عشرة سنة وهو لا يصوم ولا يصلى ولا يتطهر من جنابة؛ فهذا لأن أمره بالقضاء لأنه معذور بجهله الذي لم يفطر فيه بالتعلم ولم يطرأ له على بال، وكذلك لو كانت أنثى أتاها الحيض وهي صغيرة وليس عندها من تسأل ولم يطرأ على بالها أن هذا الشيء واجب إلا إذا تم لها خمس عشرة سنة؛ فإنها تعذر إذا كانت لاتصوم ولا تصلى .

وأما من كان بالعكس كالساكن في المدن يستطيع أن يسأل، لكن عنده تهاون وغفلة؛ فهذا لا يعذر؛ لأن الغالب في المدن أن هذه الأحكام لاتخفى عليه، ويوجد فيها علماء يستطيع أن يسألهم بكل سهولة؛ فهو مفطر، فيلزمه القضاء ولا يعذر بالجهل أهـ.

● الرابعة: أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ فِي الْعَاجِلَةِ، بَلْ تَضُرُّ؛ لِقَوْلِهِ: «لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا».

والمؤلف استنبط المسألة وأتى بوجه استنباطها. أهـ.

قلت: ومن الفوائد أيضاً: الإنكار بالقول - والفعل فقطع الخيط - من قوله «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده» فهو استطاع أن يغيره باليد ففعل وزجر باللسان أهـ
ثم رأيت هذه الفائدة من كلام الشراح كما تقدم.

● الخامسة: الْإِنْكَارُ بِالتَّغْلِيظِ عَلَى مَنْ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ.

أى: ينبغي أن ينكر إنكاراً مغلظاً على من فعل مثل هذا، ووجه ذلك سياق الحديث الذي أشار إليه المؤلف، وأيضاً قوله: «من تعلق تميمة؛ فلا أتم الله له».

● السادسة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ عُلِقَ شَيْئًا وَكُلِّ إِلَيْهِ.

تؤخذ من قوله: «من تعلق تميمة؛ فلا أتم الله له» إذا جعلنا الجملة خبرية، وأن من تعلق تميمة؛ فإن الله لا يتم له، فيكون موكولاً إلى هذه التيممة، ومن وكل إلى مخلوق؛ فقد خذل، ولكنها في الباب الذي بعده صريحة «من تعلق شيئاً وكل إليه»^(١).

(١) تقدم تخريجه من حديث عبد الله بن عكيم

السابعة:التصريحُ بأنَّ مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ.

الثامنة:أَنَّ تَعْلِيْقَ الْخَيْطِ مِنَ الْحُمَى مِنْ ذَلِكَ.

التاسعة:تلاوةُ حَذِيفَةِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّحَابَةَ يَسْتَدِلُّونَ بِالْآيَاتِ الَّتِي فِي الشَّرْكَ الْأَكْبَرِ عَلَى الْأَصْغَرِ؛ كَمَا ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي آيَةِ الْبَقَرَةِ.

● السابعة :التصريح بأن من تعلق تيممة؛ فقد أشرك.

وهو إحدى الروايتين في حديث عقبة بن عامر.

● الثامنة : أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.

قلت: «قوله من ذلك» أى من الشرك لذا قال ابن عثيمين: يؤخذ من فعل حذيفة أنه رأى رجلاً فى يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

● التاسعة : تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي فى الشرك الأكبر على الأصغر كما ذكر ابن عباس فى آية البقرة.

أى أن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ فى الشرك الأكبر، لكنهم يستدلون بالآيات الواردة فى الشرك الأكبر على الأصغر؛ لأن الأصغر شرك فى الحقيقة وإن كان لا يخرج من الملة، ولهذا نقول: الشرك نوعان: أصغر وأكبر.

وقوله «كما ذكر ابن عباس فى آية البقرة».

وهى قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (١) الآية؛ فجعل المحبة التى تكون كمحبة الله من اتخاذ الند لله - عز وجل -

قال الفقير: بل لعل المصنف أراد بآية البقرة قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (*) فقد يوب بها المصنف فى الباب الحادى والاربعين ثم أردف بأثر ابن عباس فى تفسير الأنداد: وهو الشرك أخفى من دسبب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة

(١) البقرة: ١٦٥

(*) البقرة: ٢٢

العاشرة: أَنْ تَعْلِقَ الْوَدْعَ مِنَ الْعَيْنِ مِنْ ذَلِكَ.

الحادية عشرة: الدُّعَاءُ عَلَى مَنْ تَعْلَقَ تَمِيمَةً أَنَّ اللَّهَ لَا يُتِمُّ لَهُ، وَمَنْ تَعْلَقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ؛ أَيُّ: تَرَكَ اللَّهُ لَهُ.

الليل. وهو أن تقول والله وحياتك يا فلان، وحياتي... إلخ وعزاه هناك لابن أبي حاتم وكذلك عزاه ابن كثير لابن عباس في تفسير هذه الآية كما سيأتي في الباب القادم في ضوابط الشرك الأصغر والأكبر.

● العاشرة: أن تعلق الودع من العين من ذلك.

وقوله: من «ذلك»؛ أي: من تعلق التماثم الشركية؛ لأنه لا أثر لها ثابت شرعاً ولا قدرأً.

● الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة؛ فلا ودع الله له؛ أي: ترك الله له.

تؤخذ من دعاء النبي ﷺ على هؤلاء الذين اتخذوا تماثم وودعاً، وليس هذا بغريب أن تؤمر بالدعاء على من خالف وعصى؛ فقد قال النبي ﷺ «إذا سمعتم من ينشد الضالة في المسجد؛ فقولوا: لا ردها الله عليك»^(١)، «إذا سمعتم من يبيع أو يبتاع في المسجد؛ فقولوا: لا أربح الله تجارتك»^(٢).

قلت: «وكما قال في الكاسيات العاريات: إلعنوهن فانهن ملعونات»^(٣) إنتهى.

فهنا أيضاً نقول له: لا أتم الله لك، ولكن الحديث إنما قاله الرسول ﷺ على سبيل العموم؛ فلا نخطب هذا بالتصريح ونقول لشخص رأينا عليه تميمة: لا أتم الله لك، وذلك لأن مخاطبتنا الفاعل بالتصريح والتعيين سوف يكون سبباً لنفوره، ولكن نقول: دع التماثم أو الودع؛ فإن النبي ﷺ يقول: «من تعلق تميمة؛ فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة؛ فلا ودع الله له»^(٤).

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في المساجد (٣ / ٥٩ / ٧٩) .

(٢) أخرجه الترمذى (١٣٢١) والنسائى فى «الكبرى» (١٠٠٤)

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢ / ٢٢٣) عن عبد الله بن عمرو به . وصححه أحمد شاكر (٧٠٨٣)

(٤) تقدم تخريجه

مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

● تنبيه:

نظراً لطول هذا الباب، وكثرة مسائله وفروعه، وضعنا له ترتيباً يوضح ما فيه من فوائد ومسائل، ويُسهِّلُ فهمه واستيعابه، لكل طالب وباحث، كالاتي:

- (١) شرح الترجمة ومناسبتها للتوحيد
- (٢) علاقة الرقية بالاعتقاد
- (٣) تعريف الرقى والتمايم
- (٤) الرقية معروفة قبل الإسلام
- (٥) تعليق التمايم بين الماضي والحاضر
- (٦) حكم الرقى والتمايم
- (٧) أدلة تحريم التمايم، وعلاقتها بالتوكل
- هل تنافي الرقية بالتوكل
- (٨) أقسام التوكل
- (٩) تعليق التمايم شرك أكبر أم أصغر؟
- (١٠) ضوابط الشرك الأكبر والأصغر
- (١١) دلائل لمعرفة الشرك الأصغر
- (١٢) خلاصة القول
- (١٣) تنبيه على فائدة من د/ العلياني.
- (١٤) الشرك الأصغر أكبر الذنوب
- (١٥) حكم تعليق التمايم من القرآن والأدعية النبوية، وترجيح الراجح في ذلك
- (١٦) خلاصة القول في المسألة السابقة
- (١٧) هل الرقى بجميع القرآن أم بما فيه نص فقط
- (١٨) حكم التفرغ لأجل القراءة على الناس واتخاذها حرفة
- (١٩) هل الرقية توقيفية
- (٢٠) ضوابط الرقي
- (٢١) حديث الباب/ حديث أبي بشير الأنصاري

-
- (٢٢) مناسبة للباب
- (٢٣) مناسبة الحديث لكتاب التوحيد
- (٢٤) شرح الحديث
- (٢٥) حديث الباب/ حديث ابن مسعود
- (٢٦) مناسبة الحديث للباب ولكتاب التوحيد
- (٢٧) الشرح، وفيه أنواع الرقية من حيث وقوع البلاء قبل وبعد وقوعه.
- (٢٨) فائدة: الرد على من قال بمنع تطعيم الأطفال من هذا الباب
- (٢٩) أنواع الرقى من حيث توقيفيتها إلى شرعية، وقدرية
- (٣٠) هل يرقى من كل داء
- (٣١) فائدة
- (٣٢) تعريف التولة
- (٣٣) حديث الباب/ حديث عبدالله بن عكيم
- (٣٤) سبب الحديث
- (٣٥) علاقة القلب بما يعلقه العبد من تائم وخلافه/ أو علاقة الظاهر بالباطن
- (٣٦) أقسام التعليق
- (٣٧) قول المصنف/ التائم: شيء يعلق... إلخ
- (٣٨) ذكر الخلاف في تعليق تائم من القرآن والأدعية النبوية، وقد تقدم، وذكرنا شيئاً منه هنا للمناسبة.
- (٣٩) شروط جواز الرقية، وقد تقدم، وذكرناها هنا للمناسبة
- (٤٠) حديث الباب/ حديث رويغ
- (٤١) مناسبة الحديث للباب
- (٤٢) مناسبة الحديث لكتاب التوحيد
- (٤٣) شرح الحديث
- (٤٤) أثر سعيد بن جبیر
- (٤٥) أثر إبراهيم النخعي
- (٤٦) ذكر مسائل الباب



(٧) بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

شرح الترجمة ومناسبتها للتوحيد:

قال : حامد بن محمد^(١) : باب ما جاء في بيان أن الرقى والتمايم والتولة شرك .
لما فيها من التعلق على غير الله في كشف الضر وجلب النفع ، قد قال الله تعالى :
﴿وَأَنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢) ، وما فيها من الهضم لجناب الربوبية ، وقد قال الله : ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾^(٣) ، وقال تعالى : ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٤) وما فيها من التوكل على غيره
وقد قال الله : ﴿فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٥) . هذا والرسول ﷺ
كان من شأنه أن يحمى جناب التوحيد بكل وجه ويسد طرق الشرك من كل جهة حتى
أنه ﷺ حماه بابتعاده عن مكان الشرك حسماً للمادة . أهـ .

المقصود من الترجمة:

قال سليمان آل الشيخ^(٦) : باب ما جاء في الرقى والتمايم ، أي : في حكمها . ولما
كانت الرقى على ثلاثة أقسام .

قسم يجوز ، وقسم لايجوز ، وقسم في جوازه خلاف ؛ لم يعجز المصنف بكونهما من
الشرك لأن في ذلك تفصيلاً بخلاف لبس الحلقة والخيط ونحوهما لما ذكر فإن ذلك
شرك مطلقاً . أهـ

وذكر نحوه ابن عثيمين حيث قال : لم يذكر المؤلف أن هذا الباب من الشرك ، لأن
الحكم فيه يختلف عن حكم لبس الحلقة والخيط ، ولهذا جزم المؤلف في الباب الأول أنها
من الشرك بدون استثناء ، أما هذا الباب فلم يذكر أنها شرك ، لأن من الرقى ما ليس
بشرك ، ولهذا قال : «باب ما جاء في الرقى والتمايم» . أهـ^(٧) .

(٢) الأنعام : ١٧ .

(٤) فاطر : ٢ .

(٦) تيسير العزيز الحميد (١١٧) .

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٠٥) .

(٣) الأحزاب : ١٧ .

(٥) المائدة : ٢٣ .

(٧) «القول المفيد» (١/ ٢٢٤) .

● علاقة الرقى بالاعتقاد والتوحيد:

لقائل أن يقول: الرقى من مباحث الطب، فلماذا أدخلتموها في العقيدة والتوحيد؟
الإجابة: أن الرقى لها علاقة بالعقيدة والتوحيد من أربعة وجوه:

١- أن بعض الرقى فيها الإستعاذة بغير الله والاستعاذة بالجن أو الإنس.

قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه «... كان مما حفظنا عن النبي ﷺ أن الرقى والتمايم والتولة من الشرك...» (١).

٢- أن بعض الناس يعتمد على الرقى اعتماداً كلياً ويظن أنها مؤثرة بذاتها، ولم يقف بها عند مرحلة السببية، التي لا تؤثر كما قال شاعرهم:

إذا مات لم تفلح مزينة بعده فطوى عليه يامزين التمايم (٢)

[مزينة] قبيلة لاتفلح يموت رجل من سادتهم، فأمرهم شاعرهم بالتمايم

٣- أن بعض الناس يظن أن الرقية هي الشافية. وهذا معارض للعقيدة الصحيحة التي ذكرها الله في كتابه وعلى السنة رسله. وبينها إبراهيم الخليل عليه السلام في محاجته لقومه قال سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ.

وثبت في صحيح البخاري: «أن عبدالعزيز قال دخلت أنا واثبت على أنس بن مالك، فقال ثابت: يا أبا هريرة اشتكيت! فقال أنس ألا أريقك برقية رسول الله ﷺ قال: بلى قال: «اللهم رب الناس، اذهب الباس، اشف أنت الشافي لاشافي إلا أنت شفاء لا يغادر سقماً» (٣).

وله أيضاً عن عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ كان يُعوذ بعض أهله بمسح يده اليمنى ويقول: «اللهم رب الناس، اذهب الباس، واشف وأنت الشافي، لاشفاء إلا

(١) [صحيح] أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٨٧١)، وأبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، والحاكم في «المستدرک» (٤١٧ / ٤١٨)، والبغوى في شرح السنة (٣٢٤٠) عن عبدالله به واللفظ للحاكم وانظر «كتابنا فتح ذى الجلال» (ج ٦٠٩).

(٢) اللسان ١٢ / ٧ (٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٧٤٢) انظر «الأذكار للنووي» (٣٥٦ - بتخريجنا)

شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً»^(١) وعنها أيضاً كان يرقى يقول: «امسح الباس، رب الناس بيدك الشفاء كاشف له إلا أنت»^(٢).

٤- أن بعض العلماء كره الرقى ظناً أنها تنافي التوكل استشكالاً بحديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير عذاب ولا حساب «لا يرقون ولا يسترقون»^(٣)، وتقدم الجواب على ذلك.

● تعريف الرقى والتائم لغة واصطلاحاً:

قال ابن عثيمين^(٤): أولاً: قوله: «الرقى».

جمع رقية، وهى القراءة؛ فيقال: رقى عليه - بالآلف - من القراءة، ورقى عليه - بالياء - من الصعود. أهـ.

قال فى اللسان^(٥):

الرقية: العوذة معروفة، قال رؤية:

فما تركا من عوذة يعرفانها ولا رقية إلا بها رقيانى

قال الليث: يقال: فلان عَوَّذَ لك أى ملجأ، وفى الحديث: «إنما قالها تعوذاً»^(٦) أى: أقر بالشهادة لاجئاً إليها ومعتصماً بها ليدفع عنه القتل، وليس بمخلص فى إسلامه فكان الراقى ألجأ إلى الرقية، أو التجأ من جعل الرقية سبباً للشفاء، أو المُرَقى التجأ إلى الراقى، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَةَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ فى أحد التفسيرين فى الآية كما روى عن ابن عباس وأبى قلابة، وإلا فالرقية قد ترد وليس فيها لفظ التعويذ والالتجاء كما سيأتى أ.هـ.

تعريف التائم [لغة]

قال ابن عثيمين^(٧): قوله: «التائم».

جمع تئيمة، وسميت تئيمة؛ لأنهم يرون أنه يتم بها دفع العين. أهـ.
وفى النهاية^(٨) هى خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتقون بها العين.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٧٤٣، ٥٧٤٤)، ومسلم فى السلام (١٤ / ١٨٠ - النووى).

وانظر «الأذكار» للنووى (٣٥٥ - بتخريجنا).

(٢) انظر ما قبله. (٣) تقدم تخريجه.

(٤) (القول المفيد) (١/ ٢٢٤). (٥) لسان العرب (١٣/ ٣٣٢).

(٦) تقدم تخريجه عن أسلمة بن زيد. (٧) القول المفيد (١/ ٢٢٤).

(٨) النهاية (١/ ١٩٨) وجل ما جاء فى تعريفها فى معاجم اللغة من باب التعريف بالمثل.

تعريف التمانم [شرعاً]

قال الفقير: شرعاً: هي اسم جامع لكل ما عُلّق من أسباب غير شرعية أو قدرية لدفع ضرر أو لرفعة سواء كانت من خشب أو خرز أو معدن أو غير ذلك. أهـ.

فصل

الرقية معروفة قبل الإسلام

وهناك أدلة كثيرة على أن الرقية كانت معروفة قبل الإسلام منها:

(١) ما رواه الإمام مالك في «الموطأ» عن عمرة بنت عبد الرحمن أن أبا بكر الصديق دخل على عائشة، وهي تشتكي، ويهودية ترقّيها؛ فقال أبو بكر: أرقّيها بكتاب الله (١).

(٢) روى الإمام أحمد في «المسند»، عن زينب امرأة عبد الله ابن مسعود، قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحج وبزق كراهية إن يهجم منا على شيء يكرهه! قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحج، قالت: وعندي عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير، فدخل فجلس إلى جنبي، ورأى في عنقي خيطاً، قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت خيط أرقى لي فيه: قالت فأخذه فقطعه؛ ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقي والتمانم والتولة شرك» قالت: فقلت: له تقول هذا وقد كانت عيني تقذف، فكنت اختلف إلى فلان اليهودي يرقّيها، وكان إذا رقاها سكنت. قال: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقيتها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقول كما قال رسول الله ﷺ «أذهب الباس رب الناس، اشف وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً» (٢).

(٣) روى الإمام مسلم في صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن ضماداً (٣) قدم مكة وكان من أزد شنوءة وكان يرقى من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي قال: فلقيه، فقال: يا محمد إني أرقى من هذه الريح، وأن الله يشفي على يدي من شاء فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهدي الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد: قال فقال: أعد عليّ كلماتك هؤلاء!! فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (١١/٧١٩/٢).

(٢) تقدم تخريجه قريباً

(٣) ترجم له ابن حجر في الإصابة (٢/٢١٠). وهو ضماد بن ثعلبة الأزدي من أزد شنوءة، وقال ابن

حبان وابن منده: يقال له ضماد، وضماد وهو غير ضمام بن ثعلبة السعدي من بني سعد بن بكر.

مثل كلماتك هؤلاء ولقد بلغن ناعوس البحر»^(١). قال فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام. قال: فبايعه فقال رسول الله ﷺ، وعلى قومك، قال وعلى قومي، قال: فبعث رسول الله ﷺ سرية فمروا بقومه. فقال صاحب السرية للجيش هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال: رجل من القوم أصبت منهم مطهرة فقال: ردوها! فإن هؤلاء قوم ضمام^(٢)، فهذا ضمام كان يرقى من الريح، وهو في الجاهلية قبل إسلامه.

(٤) روى مسلم في صحيحه، عن أبي سفيان عن جابر، قال: نهى رسول الله ﷺ عن الرقى فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله " إنه كانت عندنا رقية نرقى بها من العقب، وإنك نهيت عن الرقى، قال فعرضوها عليه. فقال: «ما أرى بأساً من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل»^(٣).

(٥) وفي مسلم أيضاً عن ابن جبير، عن أبيه، عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: كنا نرقى في الجاهية فقلنا: يا رسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: «اعرضوا عليّ رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك»^(٤).

فصل

تعليق التمايم بين الماضي والحاضر

التمايم في الماضي:

إن تعليق التمايم من شعار أصحاب الجاهلية.. وقد ذكر أن العرب في الجاهية إذا صاروا في تيه من الأرض وتوسطوا بلاد الجوش خافوا عبث الجن والسعالى والشياطين فيستعيذون بسيد هذا الوادى فلا يؤذيهم أحد كما أخبر الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وبناء على هذا صار الجاهليون يتقربون إلى الجن بذبائح لرفع شرهم، فظنوا أيضاً أن في بعض الأحجار والأشجار والحيوانات والمعادن ما يدفع عنهم خطر الجن وعين الإنسان فتعلقوها تمايم وعلقوا بها قلوبهم وذلك لجهلهم بربهم وعدم توكلهم عليه.

(١) وسط البحر ولجته وقعره انظر «شرح النوى» (١٥٧/٦).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الجمعة (١٤٩/٤٦/٣).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (١٨٧/٦).

ولذا كثرت عندهم التمايم بشكل ملحوظ مثل :
النقرة، يعلق على الصبي ينفر عنه الجان والناس.

سن الثعلب أو سن الهرة

الينجلب، التولة، الخصمة، وهى خرزة للدخول على السلطان تجعل تحت الخاتم. ،
العطفة السلوانة، القبلة، خرزة بيضاء تجعل فى عنق الفرس، من العين الودعة وغير
ذلك.

التمايم فى الحاضر:

يقول ناصر الدين الألبانى^(١): لاتزال هذه الضلالة فاشية بين البدو والفلاحين
وبعض المدنيين ومثلها الخرزات التى يضعها بعض السائقين أمامهم فى السيارة يعلقونها
على المرأة وبعضهم يعلق نعلأ فى مقدمة السيارة أو فى مؤخرتها، وغيرهم يعلقون نعل
فرس فى واجهة الدار والدكان. كل ذلك لدفع العين وزعموا ذلك وغير ذلك مما عم
وطم بسبب الجهل بالتوحيد. وما ينافيه من الشراكيات والوثنيات التى ما بعثت الرسل
وأنزلت الكتب إلا من أجل إبطالها والقضاء عليها. فإلى الله المشتكى من جهل المسلمين
اليوم وبعدهم عن الدين. أهـ.

وذكر (الشقيرى)^(٢): مجموعة من هذه التمايم الشركية المنتشرة فى عصرنا الحاضر
ومن أمثلة ذلك:

حجاباً للقرينة يُقال فيه: ألم تر كيف فعل ربك بالقرينة ألم يجعل القرينة فى
تضليل وأرسل على القرينة طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل فجعل القرينة
كعصف مأكول، يا عافى يا شديد ذا الطول^(٣).

وهذا من التلاعب بكتاب الله من تبديله والإستهزاء به. أهـ.

[قلت]: ومن أمثلة ذلك مما هو منتشر اليوم قرن الفلفل الأحمر والكف «خمس»
وخمسة» والمفتاح سواء كانت هذه الأشياء من المعدن أو نحاس أو ذهب أو بلاستيك
بالإضافة إلى التمايم الموروثة عن الفراعين مثل الجعرانة وغيرها

والتمايم فى الماضى تقدمت قبل هذا الفصل.

(١) المجلد الأول من السلسلة الصحيحة فى تعليقه على حديث «من علق غيمة فقد أشرك» رقم ٤٩٢
صححه الألبانى. وقد توفي رحمه الله - أثناء مراجعة الكتاب - فى عمان عاصمة الأردن سنة (١٤٢٠ هـ)
بعد عصر السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخر الموافق الثانى من أكتوبر (تشرين) سنة ١٩٩٩ م.

(٢) كتاب السنن والمبتدعات: ص ٣٢٥.

(٣) المرجع السابق ص ٣٣٢

فصل

في حكم الرقي والتماثر

قال الفقير: أما الرقية منها ما هو حرام، ومنها ما هو مستحب، ومنها ما هو مباح، ومنها ما هو واجب، ومنها ما هو مكروه.

١- الحرام: روى مسلم عن جابر نهى رسول الله ﷺ عن الرقية فجاء آل عمرو بن حزم إلى رسول الله ﷺ فقالوا يارسول الله إنه كان عندنا رقية نرقي بها من العقر والسسم وإنك نهيت عن الرقي، قال فعرضوها عليه فقال ما أرى بأساً من استطاع أن ينفع أخه فليفعل^(١).

[قلت] وسر النهي في أول الأمر أنها كانت على قانون الجاهلية، وكانت شركية. وعند أحمد والحاكم بسند حسن صحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ الرقي والتماثر والتولة شرك^(٢).

٢- مستحب: وذلك إذا تعينت سبباً للشفاء. ومن أدلة الاستحباب:

أن النبي ﷺ رقى نفسه وأمر بالرقية ورقى غيره وأقر غيره على الرقية. الدليل على أنه رقى نفسه: هو حديث عائشة في الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بـ «قل هو الله أحد» وبالمعوذتين جميعاً ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يده من جسده^(٣). وفي رواية يفعل ذلك ثلاثاً.

وهناك دليل آخر عن عائشة أن النبي ﷺ كان ينثف على نفسه يرقىها فلما مرض مرض الموت نفثت هي على يده وكانت تمسح جسده بيده لأنها أعظم بركة من يدها^(٤) عن عوف والحديث في الصحيح. الدليل على أنه أمر بالرقية:

ما ثبت في الصحيح من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ دخل بيتها فرأى في بيتها جارية في وجهها سفعة (والسفعة): التغير إما بسواد أو بحمرة أو بصفرة فلما رأى هذه الجارية قال الرسول «استرقوا لها فإن بها النظرة»^(٥).

(١) تقدم (٢) تقدم تخريجه

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٣١٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٥/٢) - النووي) وانظر «الأذكار» للنووي (٢٣٦) - بتخریجنا) - ولفظه: «كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذتين، فلما مرض مرضه الذي مات فيه جعلت أنفث عليه، وأمسحه بيد نفسه، لأنها كانت أعظم بركة من يدي».

(٤) تقدم تخريجه في حديث السبعين

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٧٣٩)، ومسلم في السلام (١٤/١٨٥) - النووي) وانظر «الطب النبوي» (٥٣٨) - بتخریجنا).

والدليل على أنه رقى غيره ﷺ:

ما ثبت في الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعوذ بعضهم بمسح بيمنه ويقول «أذهب البأس رب الناس أشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاك شفاءً لا يغادر سقماً» (١).

والدليل على أنه أقر من يرقى:

أنه أقر الراقي في حديث أبي سعيد الثابت في الصحيح أنهم مروا على قوم فاستضافوهم فأبوا فلدغ سيدهم والتمس من يرقية، فلم يجدوا، وذهبوا إلى الصحابة فصالحهم على قطع من الغنم، فأخذ يرقيه بالفاطحة، وأقرهم الرسول ﷺ على ذلك وقال ﷺ: «وما يدريك أنها رقية أصبتم، اقسموها، واضربوا لي معكم بسهم» (٢).
فهذا مستحب إذا توافرت فيه شروط الرقية وانتفت عنها الموانع.

٣- مباح: روى مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي: «لأبأس بالرقى ما لم تكن شركاً» (٣).

٤- واجبة: أمره بها وبالتداوى وهو مذهب..... أحمد والشافعي، بالإضافة إلى موته إذا تركها فيجب لقوله تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ».

٥- تكره: إذا لم تكن سبيلاً للشفاء.

ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب هم الذين لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» (٤) فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون، والإسترقاء أن يطلب من غيره أن يرقيه والرقية من نوع الدعاء.

قال الفقير: حديث السبعين ألف (لا يسترقون.....).

فلماذا هذا الحديث يدل على الكراهة.

قد يقول قائل: يحتمل هذا الحديث أن يكون دليلاً على التحريم والمنع، وإنهم لم يسترقون الرقى الشركية أو الرقى التي ليست من كلام العرب.

تقول كيف ذلك فهؤلاء ليسوا مسلمين عاديين بل هم خواص المسلمين، فكل المسلمين

(١) فتح الباري (١٠/١٧٨).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٧٣٦)، ومسلم في اللباس (١٤/١٨٧-النووي) وانظر «منار السبيل» (١٦٩٥ - بتخریجنا)، وانظر «الطب النبوي» (٤٣١ - بتحقيقنا).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

لا يرقون رقى شركية، وبذلك كانوا مسلمين لأنهم لم يأتوا بشرك، إذا هؤلاء السبعين بما تميزوا عليهم إذا لم يميزوا هؤلاء السبعين على المسلمين العاديين بشيء، إذا كانت الرقى هنا المقصود بها الرقى الشركية.

ولكن هؤلاء السبعين تميزوا بمزية ما هي؟

أنهم لا يسترقون أو لا يرقون الرقى الظنية، فإذا لم تتعين الرقية سبيلاً للشفاء لكمال توكلهم وثقتهم واعتماد قلوبهم على الله تركوها.

أما إذا تعينت الرقى سبيلاً للشفاء فلكمال توكلهم وثقتهم واعتماد قلوبهم على الله أخذوا بالرقى القطعية والسبب القوي في هذا الوقت، فلم يقدح ذلك في كمال توكلهم على الله.

سؤال وإشكال: لو أن أحد المسلمين رقى رقية شرعية أوقدرية غير ممنوعة توافرت فيها الشروط، وانتفت فيها الموانع، وهو نفسه معتمد على الله ومعتقد أنها سبب، لكن الرقية نفسها لم تتعين سبيلاً للشفاء وليست سبب قوي، هل يحرم عليه ذلك ويأثم؟
الجواب: لا ولكن يكره له ذلك لأنه ترك المستحب وترك المندوب مكروه.

تكره الرقى إذا لم تتعين سبيلاً للشفاء.

وبذلك الرقى تدور مع الأحكام التكليفية الخمسة فتارة تكره وتارة تباح وتارة تحرم وتارة تجب وتارة تستحب كما بينا ذلك. والله المستعان.

الأدلة على تحريم التمام/ وعلاقة التمام بالتوكل:

أولاً: من الكتاب العزيز:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرًا فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٢).

وقال: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (٣) ثُمَّ إِذَا

(١) الأنعام (١٧)

(٢) يونس (١٠٧).

كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿١﴾.

ففى هذه الآيات الكريمات دلالة واضحة على أنه لا يكشف الضر إلا الله، وأنه سبحانه هو الذى يلجأ إليه العباد لجلب الخير أو لدفع الشر، وهو القادر على ذلك بسبب أو بغير سبب. والأسباب إما أن تكون شرعية.. وهو ما جعله الله سبباً فى الشرع لدفع ضرر أو لجلب نفع بنص آية أو حديث. كمثّل الدعاء والرقية الشرعية أو سبب قدرى (طبيعى) وهو ما ثبت نفعه بالتجربة ولم يمنع الشرع من تعاطيه، وما التمام إلا أسباب.

وللتمام علاقة بالتوكل على الله عز وجل

قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢).

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ (٣).

فجعل دليل صحة الإسلام التوكل.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٤).

فذكر اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل.

قال ابن القيم: فجعل الله التوكل شرطاً فى الإيمان، فإن لم يتوكل على الله، وتوكل على التمام فانتفى عنه شرط من شروط الإيمان، فدل على إنتفاء الإيمان عند انتفائه. أهـ.

هل تنافى الرقية التوكل؟

المقصود هل تنافى الرقية أصل التوكل أم تنافى كمال التوكل فإن قال أصل التوكل؟ نقول تعاطى الرقية الشرعية أو القدرية المشروعة أو غير الممنوعة لا يتنافى وأصل التوكل.

بمعنى أن من تعاطى الرقى لانقول أن بمجرد تعاطيه ليس بمتوكل لأنها من باب

(١) النحل (٥٣)، (٥٤).

(٢) المائدة/ ٢٣.

(٣) يونس/ ٨٤.

(٤) إبراهيم/ ١١.

تعاطى الدواء، والرسول قال «تداووا»^(١) وهو لا يأمر بأمر وهو قاذح فى أصل الإعتقاد، بل أمر بالرقية ورقى وأقر كما تقدم فلا يتصور أنه هو يرقى ويُفعل به ويأمر بها ثم هى تقدح فى أصل التوكل لا لا تقدح فى أصل التوكل!!

أما إن كان مقصد السائل من السؤال أن الرقية تقدح فى كمال التوكل.

نقول: نعم قد تقدح فى كمال التوكل على الله، نقول أن الرقية الشرعية أو القدرية الغير ممنوعة قد تقدح فى كمال التوكل ولكن متى؟

الجواب: إذا كانت لم تتعين سبيلاً للشفاء.

فالشفاء بها ظنى وليس قطعى، فالذى يقدر فى كمال التوكل هو الأخذ بالسبب الضعيف، أما إن أخذ بالسبب القوى وتوكل على الله هذا لا يقدر فى كمال توكله على الله.

ونضرب لكم مثال على ذلك ثلاث درجات بخارية:

فصاحب الدراجة الأولى تركتها غير مربوطة والثانى تركها مربوطة بجنزير، والثالث مربوطة بخيط ضعيف وكانت الدراجات الثلاثة خارج المسجد والثلاثة أشخاص توكلوا على الله ودخلوا المسجد كى يؤدوا الصلاة. فالسؤال هنا: من فيهم الذى توكل على الله توكلأ كاملاً؟ ومن فيهم المتوكل؟ ومن فيهم الذى توكله ناقص؟

الجواب:

١- المتوكل الذى تركها بدون ربطها بأى شىء.

٢- الذى توكله ناقص الذى ربطها بخيط ضعيف.

(٣) والذى توكله كاملاً الذى أخذ بالسبب القوى وربطها بالجنزير.

ورغم أنه أخذ بالسبب القوى كان معتمداً على الله ومتوكلاً عليه فكان من الممكن أن يعتمد على السبب - ويعتمد على الجنزير - القوى فقط ولكن إذا توكل على الله ولم يرتبط بالسبب فهو معتقد أن السبب مهما عظم فهو مرتبط بالله. والله عز وجل إن شاء أجرى حكمة الحفظ فى هذا السبب وإن شاء لم يجرى هذه الحكمة فتسرق الدراجة البخارية بالجنزير، فهو توكل على الله بهذه الصورة.

لكن الذى ربط بالخيط يأتى له الشيطان من هذه الجهة ويوسوس له؛ لذلك قال: النبى ﷺ «استعن بالله ولا تعجز وإن فاتك شىء فلا تقل لو كان كذا لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(٢) وأيضا السبب الضعيف يفتح عمل الشيطان.

كيف ذلك؟

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

يأتى إليه الشيطان وهو يصلى ويوسوس له: دراجتك هذه تسرق الآن. وأحسن أحواله أنه شوش عليه صلاته لأنه تأثر بذلك لضعف توكله فهذا توكله ضعيف فإنه والحاله هذه من الممكن أن يخرج من الصلاة نهائياً ويخرج ليطمئن على داجته.

فكذلك الرقية. تكون سبباً قوياً إذا تعينت سبباً للشفاء «مثل رقى العين والحمة» كما قال «لارقيه إلا من عين أو حمة» (١).

فهى هنا لاتقدح فى كمال توكله.

- لكن إذا أخذ بسبب ضعيف يعنى الرقية لم تعين سبباً للشفاء.

مثلاً عنده روماتيزم فالرقية هنا ظنية، ولست قطعية فلو أخذ بسبب ضعيف فإن السبب الضعيف قادح فى كمال التوكل على الله والقدر فى أصل التوكل يظهر لك من خلال أقسام التوكل على غير الله كما سيأتى.

أقسام التوكل على غير الله:

قال سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: التوكل على غير الله قسمان: [أحدهما] التوكل فى الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت فى رجاء مطالبهم من النصر والحفظ والرزق والشفاعة، فهذا شرك أكبر فإن هذه الأمور ونحوها لا يقدر عليها إلا الله تبارك وتعالى.

[الثانى]: التوكل فى الأسباب العادية، كمن يتوكل على أمير أو سلطان، فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى ونحو ذلك فهذا شرك خفى (*) (٢) ولا شك أن الإعتماد على التماثم اعتماداً كلياً يلحق بالنوع الأول.

قد يقول قائل: هذا سبب عادى وربنا جعله فى يده فلماذا أصبح شرك خفى؟

الجواب: لأنه توكل على الله وتوكل على السبب فهو شرك أصغر، مثل الرياء كان يعمل للدنيا والله، كما قال النبى ﷺ إياكم وشرك السرائر قالوا وما شرك السرائر؟ قال «إن يزين الرجل صلاته لما يرى من أعين الناس» (٣)، فهو دخل الصلاة لله، ثم لما رأى أعين الناس زين صلاته أكثر، وكذلك هذا فإنه اعتمد على الله، واتخذ الأمير سبباً ثم حصل له ثقة وطمئينة للسبب.

(١) تقدم تخريجه (*) ففى شرك خفى لأنه اعتمد على الله وعلى الأسباب.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص ٤٩٧

(٣) أخرجه ابن خزيمة فى «صحيحة» (٩٣٧) عن محمود بن لبيد.

فالله يخزيه ويخذله من نفس الجهة التي اطمئن عليها.

وقال تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾.

فإذا ركنت لغير الله كأنك ركنت لبیت العنكبوت».

[الثالث]: وهى الوكالة الجائزة وهى توكل الإنسان على غير الله فى فعل ما يقدر عليه، ولكن ليس له أن يعتمد عليه وإن، وكّله، بل يتوكل على الله ويعتمد عليه فى تيسير ما وكله فيه.

ثانياً: الأدلة من السنة على تحريم التمايم وهى كثيرة جداً منها:

١- عن عمران بن الحصين أن النبى ﷺ رأى رجلاً فى يده حلقة فقال ما هذه قال من الواهنة قال «انزعها فإنها لاتزيدك: إلا وهناً فإنك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبداً»^(١).

٢- عن عقبة بن عامر يقول سمعت رسول الله ﷺ «من تعلق تميمة فلا أتم الله له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»^(٢).

٣- عن عقبة بن عامر الجهنى أن رسول الله ﷺ يقول أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد فقالوا يا رسول الله بايعت تسعة وتركت هذا قال: «إن عليه تميمة» فأدخل يده فقطعها فبايعه وقال «من علق تميمة فقد أشرك»^(٣).

(١) تقدم تخريجه

(٢) وتقدم تخريجه قال البيهقى معلقاً على حديث عقبة بن عامر: «من علق تميمة... الحديث: يحتمل أن يكون ذلك وما أشبهه من النهى والكراهية فيمن تعلقهما وهو يرى تمام العافية وزوال العلة منها على ما كان أهل الجاهلية يصنعون، فأما من تعلقها متبركاً بذكر الله تعالى فيها وهو يعلم أن لا كاشف إلا الله ولادافع عنه سواء فلا بأس بها إن شاء الله ثم ذكر قول عائشة - رضى الله عنها - «التمائم ما علق قبل نزول البلاء وما علق بعد نزول البلاء فليس بتميمة» قال: هذا أصح.

- ثم ذكر أحاديث النهى، ثم أردفها بقول سعيد بن المسيب، ثم قال: فهذا كله يرجع إلى ما قلنا من أنه إن رقى بما لا يعرف وعلى ما كان من أهل الجاهلية من إضافة العافية إلى الرقى لم يجوز وإن رقى بكتاب الله أو كما يعرف من ذكر الله متبركاً وهو يرى نزول الشفاء من الله تعالى فلا بأس به وبالله التوفيق. أ. هـ.

(٣) تقدم تخريجه.

٤- عن أبي وهب قال: قال رسول الله ﷺ «وارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأكفالتها ولا تقلدوها أوتار»^(١).

٥- عن عباد بن تميم أن أبا بشير الأنصارى رضى الله عنه أخبر أنه كان مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره قال عبدالله^(٢) حسبت أنه قال والناس فى مبيتهم فأرسل رسول الله ﷺ رسولاً «لاتبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت»^(٣).

قال ابن حجر: قال ابن الجوزى، وفى المراد بالأوتار ثلاثة أقوال.

[أحدها]: أنهم كانوا يقلدون الإبل أوتار العشى فلا تصيها العين بزعمهم فأمروا بقطعها إعلاما بأن الأوتار لاترد من أمر الله شيئاً، وهذا قول مالك وسيأتى تفسير أوضح من هذا.

قلت: (القائل ابن حجر) وعلى ذلك متصلاً بالحديث من كلامه فى الموطأ وعند مسلم وأبى داود وغيرهما قال مالك أرى أن ذلك من أجل العين^(٤).

٦- عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود قالت كان عبدالله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على شيء يكرهه قالت: وأنه جاء ذات يوم فتنحنح قالت: وعندى عجوز ترقينى من الحمرة فأدخلتها تحت السرير فدخل فجلس إلى جنبى فرأى فى عنقى خيطاً قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت خيط أرقى لى فيه قالت فأخذه فقطعه ثم قال: إن ال عبدالله لأغنياء عن الشرك سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الرقى والتماائم والتولة شرك- الحديث^(٥) وقد تقدم.

٧- عن عيسى بن عبدالرحمن قال: دخلنا على عبدالله بن حكيم وهو مريض نعودة فقيل له لو تعلقت شيئاً فقال: أتعلق شيئاً وقد قال رسول الله ﷺ «من تعلق شيئاً وكل إليه»^(٦).

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٤٥/٤)، وأبو داود (٢٥٤٣) والنسائى فى «الكبرى» (٤٤٠٦) وانظر «تحفة المردودى بتخريجنا».

(٢) المراد عبدالله بن أبى بكر وهو الذى يروى عنه عباد بن تميم.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٠٠٥)، ومسلم فى اللباس والزينة (١٠٥/٣٤٧)، وأبو داود

(٢٥٥٢).

(٤) الإشارة إلى تعليل الأمر بقطع الأوتار كما فى الموطأ قال يحيى سمعت مالكا يقول أرى ذلك من

العين انظر الموطأ (٣٩/٧١٤/٢)

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تقدم تخريجه.

٨- عن رويفع بن ثابت أن رسول الله ﷺ قال «يا رويفع لعل الحياة ستطول بك بعدى فأخبر الناس أنه من عقد لحيته أو تقلد وترأ أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمداً يرى منه» (١).

٩- دخل حذيفة رضى الله عنه على مريض فرأى فى عضده سيراً فقطعه أو انتزعه ثم قال: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» (٢).

وهذا يدل على أن حذيفة رضى الله عنه يرى تعليق التماائم من الشرك ولا يقول هذا من عنده رضى الله عنه.

وأما قول عائشة رضى الله عنها: والتماائم ما علق قبل نزول البلاء وأما ما علق بعد نزول البلاء فليس بتميمة (٣) فالظاهر أنها تقصد بذلك ما علق من القرآن كما سيجىء.

فصل

تعليق التماائم هل هو من الشرك

الأكبر أم الأصغر

إن تعليق التماائم هو من باب شرك الأسباب، وهذا الشرك قد يكون من الشرك الأكبر وقد يكون من الأصغر حسب حال صاحبه فلأجل ذلك يقال إن تعليق التماائم شرك أكبر ولا يقال أصغر بإطلاق وإنما ينظر فى حال المتعلق وفى الحال المعلق.

يقول عبدالرحمن بن ناصر بن سعدى فى شرحه لباب من الشرك لبس الحلقة والخيوط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه الذى عقده الشيخ محمد بن عبدالوهاب فى كتاب التوحيد:

وهذا الباب يتوقف على معرفة أحكام الأسباب وتفصيل القول فيها أنه يجب على العبد أن يعرف فى الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: أن لا يجعل منها سبباً إلا ما ثبت أنه سبب شرعاً أو قدراً.

ثانيها: أن لا يعتمد العبد عليها بل يعتمد على مسببها ومقدرها مع قيامه بالمشروع منها وحرصه على النافع منها.

ثالثاً: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه . اهـ (٤).

(٢) تفسير بن كثير ٤/ ٣٤٢.

(١) سيأتى تخريجه

(٤) القول السديد (٣٣، ٣٤).

(٢) تقدم تخريجه

وذكر سليمان آل الشيخ^(١): أن لبس الحلقة والخيط لدفع البلاء أو رفعه من الشرك الأصغر.

يقول: ولاشك أن الشيخ يريد أن من اعتقد فيها مجرد السببية هو شرك أصغر. أما لو توكل عليها ورجى النفع من قبلها وتآله لها، أو كانت التيممة من التمايم الشركية، كالإستغاثة بالمخلوقين فيما لا يقدر عليه إلا الله فإن هذا من الشرك الأكبر. وبمثل هذا قال عبدالعزيز بن باز^(٢).

حيث قال عن التمايم: إن كانت من أسماء الشياطين أو من العظام أو الخرز أو المسامير والطلاسم - وهى الحروف المقطعة -، وأشباه ذلك أنها من الشرك الأصغر، وقد تكون شرك أكبر إذا اعتقد معلق التيممة أنها تحفظه أو تكشف عنه المرض أو تدفع عنه الضرر دون إذن الله ومشيتته.

فالشيخ هنا ينصب كلامه على صورة واحدة وهى:-

اعتقاد أنها سبب فقط مع صلاح المعتقد، فهذا شرك أصغر سواء كانت من العظم والمسامير أو الخرز أو الطلاسم محتملة ولم يأتى بالتمايم الشركية التى فيها الإستغاثة بالمخلوقين قوله واحدة كما تقدم عن صاحب تيسير العزيز الحميد.

وقال ابن باز فى تعليقه على حواشى حامد الفقى على فتح المجيد.

قال: والصواب أن تعليق التمايم ليس من الإستهزاء بالدين بل من الشرك الأصغر ومن التشبه بالجاهلية وقد يكون شرك أكبر على حسب ما يكون بقلب صاحب التعليق من اعتقاد النفع فيها وأنها تنفع وتضر دون الله عزوجل وما أشبه هذا الإعتقاد، أما إذا اعتقد أنها سبب للسلامة من العين أو الجن ونحو ذلك فهذا من الشرك الأصغر لأن الله سبحانه وتعالى لم يجعلها سبباً بل نهى عنها وحذر أنها شرك على لسان رسول الله ﷺ وماذا إلا لما يقوم بقلب صاحبها من الإلتفات إليها والتعلق بها.

تنبيه:

هذه النقولات تبين أن فهمنا فهم صحيح، حتى لا يخرج علينا من يقول أنتم تكفير أو خوارج. أو مثل هذه المجازفات.

ويقول حافظ حكى صاحب «ومعارج القبول شرح سلم الوصول»^(٣) قال فى التيممة:

(٢) التعليق المفيد (٦٩).

(١) تيسير العزيز الحميد (١١٧ - ١١٩).

(٣) معارج القبول (١/ ٤١٤).

وإن تكن مما سوى الوحيين
فإنها شرك بغير مين
بل إنها قسمة الأزام
فى البعد عن سيما أولى الإسلام

ثم قال (وإن تكن): أى التماثل

(مما سوى الوحيين): أى طلاس اليهود وعباد الهياكل والنجوم والملائكة المستخدمى
الجن ونحوهم أو من الخرز أو الحلق من الحديد وغيره (فإنها شرك).

(بغير مين): بغير شك إذ ليست هى من الأسباب المباحة والأدوية المعروفة، بل
اعتقدوا فيها اعتقاداً محضاً أنها تدفع كذا وكذا من الآلام لذاتها لخصوصية زعموا فيها
كاعتقاد أهل الأوثان فى أوثانهم . اهـ.

(قسمة الأزام): أى شبيهة بالأزام ﴿وأن تستقسموا بالأزام ذلكم فسق﴾ والأزام
أن يأتوا بثلاث أعواد ويضعوها فى قدح ويرجوها عود أوسهم مكتوب عليه أفعل،
والثاني، لاتفعل، والثالث لاشئء عليه فالاستقسام بالأزام شرك فى الأسباب قال حافظ
حكيمى: وقد أدلنا الله خيراً من ذلك: صلاة الإستخارة ودعاءها. اهـ.

قال حافظ حكيمى: (عن سيما أولى الإسلام) أى عن زى أهل الإسلام، فإن أهل
التوحيد الخالص من أبعد ما يكون عن هذا وهذا، والإيمان فى قلوبهم أعظم من أن
يدخل عليه مثل هذا وهم أجل شأنأ وأقوى يقيناً من أن يتوكلوا على غير الله أو يثقوا
بغيره. وبالله التوفيق اهـ.

قال الفقير: عن سيما: أى العلامة أو الزى كما قال تعالى: ﴿سِيَمَاهُمْ فِي
وُجُوهِهِمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ فيها قولان.

(الأول): المتأملين. (والثانى): المتوسمين: المتفرسين أى الذين يصلون إلى حقائق
ومتعلقات الأمور ببعض العلامات الظاهرة منها. فيتفرس مثلاً حال الشخص.

والسيما والعلامة: ليس كل أحد يعرفها.

كما أثار عن عثمان بن عفان لما دخل عليه بعض المسلمين فقال أما يستحى أحدكم أن

يدخل على أمير المؤمنين وأثر الزنا فى عينيه. فعرف ذلك بالفراصة وبالعلامة والسيما
والفراصة تزيد فى المؤمن بزيادة إيمانه وتنقص بنقص إيمانه(*) .

قال ناصر السعدى: (١) أما التماثل فهى تعاليل تتعلق بها قلوب متعلقها والقول
فيها كالقول فى الحلقة والخيوط كما تقدم.

فمنها ما هو شرك أكبر، كالتى تشتمل على الإستغاثة بالشياطين أو غيرهم من
المخلوقين. فالإستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك كما سيأتى إن شاء الله فى
باب/ من الشرك أن يستغيث بغير الله.

ومنها ما هو محرم كالتى فيها أسماء لا يفهم معناها لأنها تجر إلى الشرك.

وأما التعاليل التى فيها قرآن أو أحاديث نبوية أو أدعية طيبة محترمة فالأولى تركها
لعدم ورودها عن الشارع، ولكونها يتوصل بها إلى غيرها من المحرم، ولأن الغالب على
متعلقها أنه لا يحترمها ويدخل فيها المواضع القذرة.

أما الرقى ففيها تفصيل: فإن كانت من القرآن أو السنة أو الكلام الحسن فإنها مندوبة
فى حق الراقى لأنها من باب الإحسان، ولما فيها من النفع، وهى جائزة فى حق المرقى
إلا أنه لا ينبغي له أن يستدعى بطلبها، فإن من كمال توكل العبد وقوة يقينه أن لا يسأل
أحداً من الخلق لرقية ولا غيرها، بل ينبغي إذا سأل أحداً أن يدعو الله أن يلحظ مصلحة
الداعى والإحسان إليه بتسببه لهذه العبودية له مع مصلحة نفسه، وهذا من أسرار تحقيق
التوحيد ومعانيه البديعة التى لا يوفق للتفقه فيها والعمل بها إلا الكمّل من العباد. وإن
كانت الرقية يدعى بها غير الله ويطلب الشفاء من غيره فهذا هو الشرك الأكبر لأنه دعاء
وإستغاثة بغير الله.

فافهم هذا التفصيل، وإياك أن تحكم على الرقى بحكم واحد مع تفاوتها فى أسبابها
وغاياتها أهـ.

مسألة:

هل الرقى توقيفية؟

(*) راجع فى الفراصة «الطرق الحكمية» لابن القيم وكذلك «مدارج السالكين» فى مقام الفراصة.

(١) القول السديد (٣٦ - ٣٨).

الرقى من حيث ثبوتها نوعان:

١- توقيفية: وهى ما أقرها النبي ﷺ وفعلها وأمر بها.

٢- قدرية: للعموم ولا بد أن يتوفر فيها شرطان:

١- ثبوت النفع

٢- عدم المانع الشرعى.

أولاً الرقية الشرعية: فهى توقيفية بمعنى أننا لا نزيد فيها ولا ننقص منها عما جاء فى الشرع فى كیفيتها وصفتها ووقتها فى كل شيء خاص بها. يعنى عند استعمالها نقف فيها على ما جاء به الشرع.

مثال: النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه وقراً ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذنين ثم نفث فيهما ثم مسح بهما جسده (١) كان يفعل ذلك بالليل، فلا تفعله نحن بالنهار.

أو كما قال لعثمان بن أبى العاص «ضع يدك على ما تألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً» (٢) فلا يجوز أن نجعلها ثلاث عشرة وقال «قل أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر سبع مرات» فلا يجوز أن تقولها سبعة عشرة.

ثانياً: الرقى القدرية: فهى ليست توقيفية.

بمعنى أنها ليست موقوفة على إذن من الشرع بل لها شرطان:

(١) أن يثبت النفع فيها، أي: يثبت بالتجربة أنها نافعة.

(٢) عدم وجود المانع الشرعى من استخدامها.

الأدلة على ذلك:

أن النبى ﷺ أباح رقى قبل الإسلام

حديث عوف بن مالك الأشجعى فى صحيح مسلم «لما قال النبى ﷺ: أعرضوا على رقاكم فقال: ولا بأس بالرقى» (٣).

وأيضاً حديث جابر لما جاء آل عمرو بن حزم فذكر الحديث.

فقال النبى: «ما أرى بها بأس» (٤).

فالنبى ﷺ أقر الرقى القدرية التى ثبت فيها النفع ولم يثبت فيها المنع فلا يوجد ما يمنع شرعاً من تعاطيها، فلا يوجد شرك، ولا يوجد، ما يقدح فى التوكل، فلا مانع منها.

(١) تقدم تخريجه

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (١٤/١٨٩- النووى) وانظر «الأذكار» للنووى (٣٥٧ - بتخريجنا).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

وحدث الشفاء أن النبي ﷺ قال لها «علميها رقية النملة كما علمتها الكتابة»
يعنى لفظة والحديث رواه أبو داود فى سنته عن الشفاء بنت عبد الله قالت دخل على
النبي ﷺ وأنا عند حفصة فقال: «ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها رقية
الكتابة»^(١) والحديث فى المستدرک وله قصة أن رجل من الأنصار أصيب بذلك والنملة
هى قروح. تظهر فى الجنب وتكون هذه الرقية سبب فى الشفاء إن شاء الله، فجاء هذا
الأنصارى إلى الشفاء بنت عبد الله فقالت له ما رقيت منذ أسلمت، وذهب إلى رسول
الله وقال له ما قالت له الشفاء.

فدعى النبي ﷺ للشفاء فقال: «أعرض علىّ فعرضتها فقال: «أرقيه وعلميها حفصة
كما علمتها الكتابة» الحديث .

فهذه القصة نبين أن رقية النملة من الرقى القدريّة التى أقرها الشرع ولم يُعلمها النبي
للشفاء بنت عبد الله بل هى كانت عندها.

هل يرقى من كل داء؟

قلنا: نعم يرقى من كل داء للأحاديث المتقدمة أن النبي ﷺ كان إذا مرض أحد من
أهل بيته نفث فى يديه ومسح عليه وقال: «رب الناس أذهب الباس إشفى أنت
الشافى»^(٢). وكذلك جبريل كان إذا اشتكى النبي ﷺ يرقيه...^(٣)

فائدة: والرقية القدريّة أصلها هى قوله ﷺ «من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل»^(٤)
وأن الرقى من باب الطب.

وأما إذا جرب الإنسان رقية غير التى وردت عن الرسول ولم يكن فيها محذور شرعى
فالظاهر جواز ذلك للأسباب الآتية.

(١) التداوى بالرقى من جنس التداوى بالأدوية.

حديث طلحة فى صحيح مسلم: مررت مع رسول الله ﷺ يقوم على رؤوس النخل
فقال: «ما يصنع هؤلاء» قال يلحقونه فيجعلون الذكر على الأنثى فتلقح فقال رسول الله
ﷺ «ما أظن يغنى ذلك شيئاً» قال فأخبروا بذلك فتركه فأخبر رسول الله ﷺ فقال: «إن
كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإن إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن وإنما إن حدثكم عن
الله شيئاً فخذوا به فأنى لا أكذب على الله عز وجل»^(٥).

(١) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/٣٧٢)، وأبو داود (٣٨٨٧)، والنسائى فى «الكبرى»
(٧٥٤٣)، والحاكم فى «المستدرک» (٤١٤).

وانظر «الطب النبوى» للذهبي (٥٥٨ - بتحقيقنا).

(٢) تقدم تخريجه (٣) تقدم تخريجه (٤) تقدم تخريجه

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/١٢٧/١٣٩) عن طلحة به.

وفى رواية «أنتم أعلم بشئون دنياكم» رواه مسلم.

(٣) قال أبو بكر بن العربي: العسل عند الأطباء أقرب ما يكون دواء من كل داء من الحبة السوداء ومع ذلك فإن من الأمراض ما لو شرب صاحبه عسل لتأذى به.

(٤) ورد أن النبي أقر بعض الصحابة على رقية تعلموها من غيره ﷺ لما وجد أنها خالية من الشرك.

كما فى حديث ترخيص النبي ﷺ لآل عمرو بن حزم فى رقية الحية^(١) وكذا قول جابر بن عبد الله: لدغت رجلم منّا عقرب وأنا جالس فقلت يارسول الله أرقني؟ قال: من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل^(٢).

وكذا حديث الشفاء بنت عبد الله المتقدم^(٣).

كذا حديث أنس بن مالك قال فى الرقية: رخص فى الحمى والنملة والعين^(٤).
(٥) هذه الرقى قد تكون من أمور الدنيا ونحن نعلمها ونجتهد فيها وهذا من سعة الدين ويسره وسماحته.

هناك مقدمة تعين على معرفة الفرق بين الشرك الأكبر من الشرك الأصغر بمعنى آخر ومتى تكون الرقى والتمايم وغيرهما من الشرك الأصغر؟ أو من الشرك الأكبر؟ وذلك بمعرفة الضوابط الآتية: -

الضابط الأول: أن يكون الشرك فى الألفاظ ولم يقصد بها صرف عبادة لغير الله فهو شرك أصغر^(٥).

أمثلة للشرك الأصغر من هذا النوع.

(١) قول الرسول ﷺ لمن قال له «ما شاء الله وشئت» فقال الرسول ﷺ أجعلتنى لله نداً بل ما شاء الله وحده^(٦) وحديث: «لاتقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان»^(٧).

التدبيرة هنا لماذا تحملها على الشرك الأصغر ولا تحملها على الشرك الأكبر؟

الجواب: أن الصحابة بينوا أن الشرك الخفى هو الأصغر.

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تقدم تخريجه

(٤) تقدم تخريجه

(٥) وانظر كتاب التمايم د. على بن نفيح العليانى

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٠٤/٥)، وزبو داود (٩٧٨٠)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠٨٢١)

عن حذيفة به. وانظر «رياض الصالحين» (١٧٤٨ - بتخرجنا).

وفى تفسير ابن كثير عن ابن عباس فى تفسير قول الله عزوجل: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ

أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: الأنداد هو الشرك الخفى، أخفى من ديب النمل، وهو أن تقول: والله وحياتك، وتقول: لولا الكلب، ولولا البط فى الدار لأتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ماشاء الله وشئت، وقول الرجل لولا الله وفلان^(١).

- وأيضاً الحلف بغير الله وقد قال الرسول ﷺ «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»^(٢). وهذا محمول على الشرك الأصغر كما تقدم عن ابن عباس ووكالأسماء التى هى تعبيد لغير الله مثل عبدالحسن، وعبدالرسول.

- وقول النبى ﷺ: «من قال لأخيه تعالى أقامرك فليتصدق»^(٣) فهنا جعل له كفارة فلم يحكم عليه بالردة، فهو عليه أثم ومحوه يكون بالكفارة.

الضابط الثانى: أن يكون الشرك فى الأغراض والمقاصد إذا لم يكن صاحبه منافق نفاق اعتقادى، ويقصد الدنيا فقط (لا يكون هدفه وغرضه إلا الدنيا فقط).

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ وذلك إذا قصد الدنيا فقط هو شرك أكبر.

أما مثال الشرك الأصغر فى الأغراض والمقاصد أن يرائى الشخص فى صلاته فمع قصده وجه الله وحده قصد وجه الناس أيضاً كما قال الرسول ﷺ: «إياكم وشرك السرائر» قالوا فما شرك السرائر يا رسول الله؟ قال «يقوم الرجل فيزين فى صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه...»^(٤) الحديث وتقدم.

- وعن شداد بن أوس قال كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ من الشرك الأصغر^(٥).

وهو فى حكم المرفوع أو مرفوع الحكم، وقد ورد حديث مطلق «أخوف ما أخاف على أمتى الرياء»^(٦)، وأما حديث شداد فمقيد فيحمل المطلق على المقيد.

(١) [حسن] أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٥٦/١) - ابن كثير.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (١١).

(٢) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٧/١)، وزبو داود (٩٣٢٥١)، والترمذى (١٥٣٥) عن ابن عمر به، وانظر «رياض الصالحين» (١٧١٤) - بتخريجنا.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٨٦٠)، ومسلم فى الإيمان (١٠٦/١١) - النوى عن أبى هريرة به، وانظر «رياض الصالحين» (١٨١٠) - بتخريجنا.

(٤) تقدم تخريجه (٥) أخرجه البيهقى فى «الشعب» (٦٨٤٢) وفى إسناده ابن لهيعة.

(٦) تقدم من حديث محمود بن لبيد.

- وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر خرج إلى المسجد يوماً فوجد معاذ بن جبل عند قبر الرسول ﷺ وهو يبكي فسأله عن بكائه فقال حديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «اليسير من الرياء شرك ومن عاد أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة»^(١).

نقل النووى الإجماع على أن مرتكب هذا الشرك (الرياء) لا يكفر الكفر الأكبر المخرج عن الملة ومن العمل لأجل الدنيا ليس لها فقط إذا لم تكن هدفه الوحيد كمثل الذى يجاهد وهو يريد الأجر والذكر والمال.

وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

قال الله عزوجل: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه»^(٢).

وكما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح «تعس عبدالدينار....»^(٣).

الضابط الثالث: أن يكون الشرك فى الأسباب الغير شرعية «الوسائل».

مثل التيممة - التولة كالذى اعتمد على الخيط فى الحمى (سبب ليس شرعى ولا قدرى فهذا شرك أصغر إذا لم يعتمد عليه اعتماداً كلياً).

فإن اعتمد على السبب اعتماده على الرب فقد كفر كفر أكبر كأن يعتقد أن السبب ينفع كمنع الله أو يمنع كمنع الله، فمع سلامة المعتقد اتخذ هذه الأسباب: نقول له أنت أشركت شرك أصغار ويدل على ذلك قول ابن مسعود: «الطيرة شرك الطيرة شرك وما منا إلا ولكن يذهب الله بالتوكل»^(٤) وسيأتى.

وفى الحديث: «من ردته الطيرة من حاجته فقد أشرك» قالوا فما كفارة ذلك يا رسول الله فقال النبى ﷺ تقولوا «اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك»^(٥) وسيأتى أيضاً.

- سؤال: هل الطيرة تدخل فى شرك الأسباب؟

الجواب: نعم لأنهم اعتمدوا عليها كسبب لفعل العمل أو تركه، فإذا اعتقدوا - فعلاً -

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرک» (٤/١) وصححه.

(٢) سيأتى تخريجه (٣) سيأتى تخريجه

(٤) سيأتى تخريجه فى باب ما جاء فى التطير.

(٥) سيأتى تخريجه فى الباب المذكور سابقاً

أن بها النفع والضرر كنعف الله عزوجل فقد أشرك شرك أكبر وإن اعتقد غير ذلك فهو شرك أصغر.

لكن على أية حال يقول عبدالرحمن بن سعدى^(١) وأما الشرك الأصغر فهو جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها إلى الشرك (أى الشرك الأكبر).

فالسبيل إلى الشرك شرك كالغلو فى المخلوق الذى لا يبلغ رتبة العبادة فالغلو هو مخصص للشرك الأكبر كما سيأتى بعد ذلك.

فكانه يقول أن الشرك الأصغر فى جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها إلى الشرك الأكبر ما لم تبلغ هذه الوسائل درجة العبادة كالغلو فى المخلوق مثلاً فقد يغالى لكن لا يصل إلى درجة أنه الله أو ابن الله أو... كما قالت النصارى.

أيضاً الحلف بغير الله كأن تقول والنبي فهذا غلوا لكن لاتصرف العبادة للنبي. وأيضاً كيسير الرياء ونحو ذلك. فالرياء وسيلة للوصول إلى الشرك الأكبر لأنه يوشك بارادة وجه الله ووجه الناس أن لا يريد بعد ذلك إلا وجه الناس.

وما تقدم يظهر لنا أن الشرك الأصغر هو الذى لا ينقض أصل الإيمان، ولا يصل إلى العبادة المحضة التي تصرف لغير الله ويمكن أن يعرف الشرك الأصغر بعدة أدلة.

دلائل الشرك الأصغر:

هناك علامات يمكن أن تعرف بها الشرك الأصغر وهى كالآتى:

- (١) أن ينص الرسول ﷺ على شيء معين أنه شرك أصغر
- كما قال النبي ﷺ «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسل عنه فقال «الرياء»^(٢).
- (٢) أن يوصف عمل من الأعمال بأنه كفر أو شرك ويحدد الشارع عقوبة بغير حد الردة. فلا يترتب على هذا العمل عقوبة المرتدين ولا يعامل صاحبه معاملة المرتد.
- * كما قال ﷺ فى «الطيرة أنها شرك» فقالوا يا رسول الله وما نقول قال قولوا «اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك»^(٣) فهنا لم يترتب على العمل عقوبة الردة.

* وكما قال النبي «من أتى حائضاً أو امرأة فى دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد»^(٤). وحديث ابن عباس «من أتى حائضاً فليصدق بدينار أو بنصف دينار»^(٥).

- فهنا لم يترتب على العمل عقوبة الردة.

(١) القول السديد (٣٤، ٣٥). (٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) تقدم تخريجه

(٤) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٠٨/٢)، وأبو داود (٣٩٠٤)، والنسائى فى «الكبرى» (٩٠١٧)، والترمذى (١٣٥) عن أبى هريرة به وانظر «منار السبيل» (٢١٧٣- بتخريجنا).

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٢٩/١)، وأبو داود (٢٦٤، ٢١٦٨) والنسائى فى «الكبرى» (٢٨٢)، وابن ماجه (٦٤٠) عن ابن عباس به، وانظر كتابنا «تخريج أحاديث فقه السنة».

- وقال النبي ﷺ «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»^(١) ثم لم يثبت للقتال حد الردة، بل ثبت للمتقاتلين الأخوة الإسلامية حيث قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فسامهم مؤمنين فدل ذلك على أن الكفر في الحديث ليس كفر أكبر بل هو كفر أصغر.

(٣) أن ينص الصحابي على عمل ما بأنه شرك أصغر أو يفهم بنص من النصوص بأنه شرك أصغر. وفهم الصحابة معتبر.

وذلك لأن الرسول ﷺ قد بين لهم العقيدة بياناً شافياً، وهم قد عايشوا الشرك الأكبر بحيث لا يلتبس عندهم. لو كان هناك أمر ملتبس عليهم لسألوا النبي ﷺ عنه كما تقدم عن ابن عباس، ففهم ابن عباس حجة على أن هذا العمل ليس شرك أكبر بل هو أصغر.

فإن كان الأمر كذلك فالنظر في تعليق التمايم وفي الرقى هل هو من الشرك الأصغر أم الأكبر؟

تقدم معنا أن تعليق التمايم وكذلك الرقى من باب شرك الأسباب.

وهذا الشرك قد يكون من الشرك الأكبر، وقد يكون من الشرك الأصغر.

وإذا أنزلنا هذا الكلام على ما جاء في تحريم التولة والتمايم، لوجئنا بهذه الأحاديث في تحريم التمايم، وأنزلنا عليها الضوابط والمعرفات للشرك، لو أنزلنا هذا فوافقتها كانت شرك أصغر، وإذا لم توافقها وتطابقها كانت شرك أكبر.

● **فخلاصة القول:** أن هناك من الأحاديث أطلقت أنها شرك، كما في قوله ﷺ: «من تعلق تميمة فقد أشرك»^(٢) سنده حسن.

● وقال النبي ﷺ «الرقى والتمايم والتولة شرك»^(٣) والحديث له شواهد تحسنه فهنا وصفه بالشرك فهل هو شرك أصغر أم أكبر.

فيحمل على الأكبر أولاً ثم ينظر إلى الصوارف التي تصرفه إلى الأصغر، وقد تقدم بيانها.

وحذيفة عندما قطع الخيط^(٤) فهل الرجل أشرك شرك أكبر؟ الجواب: لا.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٠٤٤) عن ابن مسعود به وانظر «رياض الصالحين» (١٥٦٢).

بتخريجه.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تقدم

(٤) تقدم تخريجه .

لكن المسألة هنا محتملة للشرك الأكبر، حيث أنه لم يحدد، ومحتملة للشرك الأصغر، فحيث لم يترتب على هذا العمل عقوبة المرتدين كان الأصل فيه أنه شرك أصغر وإذا وصل إلى المعتقد صار شرك أكبر.

فإذا ظن واعتقد أن هذه التهمة تنفع كنعف الله أو تدفع كدفع الله فهو شرك أكبر. فشرك الأسباب الأصل فيه أنه شرك أصغر لكن بشرط ألا يعتقد أن هذا السبب ينفع كنعف الله أو يدفع كدفعه.

فالتولية والتمائم والرقى من شرك الأسباب والأصل فيها أنها شرك أصغر؛ ولأن النصوص التي وردت فيها لم يترتب عليها حد الردة.

● تنبيه:

لكن الشيخ على بن نُفيع العلياني^(١) قال شيئاً غريباً هنا في هذا الباب. قال: لا يقال تعليق التمام شرك أكبر ولا يقال أصغر بإطلاق وإنما ينظر في حال المتعلق والمعلق فيحتمل أن هذا الرجل لا يعتمد عليها اعتماده على الله، ولا يعتقد أنها تنفع كنعف الله، لكن قد تكون هذه التهمة في حد ذاتها شرك أكبر. وهذا فهم الشيخ على بن نُفيع وهو من أهل السنة وليس من الخوارج قال: فإن علق صنم أو رقية شركية فيها إستغاثة بغير الله أو صليلاً فهذا من الشرك الأكبر بلا ريب، وهذا شرك عمل.

وقال في المعلق: ينظر إلى معتقده في شرك الأسباب إن كان يعتقد في الله اعتقاداً سليماً كان شركاً أصغر، وإن كان يعتقد في الله اعتقاداً فاسداً، كان شرك أكبر. أقوال بعض أهل العلم من أشباه المعاصرين.

يقول ناصر بن سعدى في شرح باب لبس الخيط أو الحلقة يقول:- من الشرك لبس الحلقة - وتقدم كلام السعدى قبل كلامنا وضوابط شرك الأسباب، ونقدمه هنا مرة أخرى جواباً على العلياني وتفصيلاً قال: وهذا الباب يتوقف فهمه على معرفة أحكام الأسباب - الخيط والحلقة والتمائم لدفع البلاء أو رفعه - وتفصيل القول فيها أنه يجب على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور.

الأمر الأول: أن لا يجعل منها سبباً إلا ما ثبت أنه سبب شرعاً أو قدراً. قال الفقير: أى أن الله جعل فى شيء ما أثراً وقدراً أنها فيها حكمة الشفاء فهذه نأخذها، أو ثبت بالشرع أن فيها شفاء كالعسل مثلاً وحة البركة.

(١) صاحب كتاب الرقى والتمائم.

الأمر الثاني: أن لا يعتمد العبد عليها بل يعتمد على مسببها ومقدرها مع قيامه بالمشروع منها وحرصه على النافع منها.

فأخذ بهذه الأسباب بعد أن علم أنها أسباب شرعية أو قدرية ثم بعد أن أخذها كان معتمداً على الله وليس عليها.

الأمر الثالث: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عن قضاء الله وقدره بل هو يتصرف فيها كيف يشاء إن شاء أبقى سببها باقية على مقتضى الحكمة فإن شاء أبقى هذه الأسباب وإن شاء نزع السبب. كما فعل في النار في قصة إبراهيم عليه السلام لما نزع منها سببية الإحراق فإله وضع النار حكمة قدرية فهي فيها الإحراق وفيها الإضاءة وفيها المنافع للناس وهي تذكرة ومتاع للمقوين كما قال الله تعالى في سورة الواقعة ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ فهي فيها دفيء ومتاع ومنافع كثيرة للناس وفيها تذكرة بالنار الأخروية.

فإله عز وجل إن شاء نزع هذه الحكمة من النار كما نزع منها حكمة الإحراق وقال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ فكانت كما أمرها الله.

فعلى هذه المقدمات ينبغي أن تعلم قبل الدخول في أبواب شرك الأسباب أن تعرف هذه المقدمات:

(١) ضوابط الشرك الأصغر من الأكبر.

(٢) علامات الشرك الأصغر.

(٣) الأمور التي يجب أن تراعى عند تعاطي هذه الأسباب.

وبمثل هذا القول قال سليمان آل الشيخ إذ يقول: والمقصود هنا حكم لبس حلقة الصفر والحديد ونحوهما من التمايم إن ذلك من شرك تعطيل المعاملة (يعنى المعاملة بين العبد والرب) التي تجب على العبيد المتعلقة بمعنى إلهية الخالق فإن الإله معناه كل مألوه في القلب برجاءه فيما هو مختص بجلال الله عز وجل وعظمته والإلتجاء إليه.

فإن من مقتضى الإلهية أن لا يكون اللجوء إلا له، وأن لا يكون الرجاء والرغبة إلا فيه والرهبة إلا منه، فالتعلق بهذه الأسباب معطل لهذه المعاملة.

وقد استفضنا في ذكر حكم الرقى والتمايم، بما يكفي والله المستعان ومنه السداد.

فصل

الشرك الأصغر أكبر من كبائر الذنوب

وأدلة ذلك :

(أ) قول بن مسعود «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً»-
وتقدم معنا الأثر (١).

ولقد قال ذلك لأن الحلف بالله توحيد وبغيره شرك، فحسنة التوحيد أعظم من حسنة
الصدق وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك ذكره شيخ الإسلام.
وفيه دليل على أن الحلف بغير الله صادقاً أعظم من اليمين الغموس وأنه أكبر
الكبائر (٢).

(ب) مما يدل على خطر الشرك الأصغر أن آيات الوعيد وأحاديث الوعيد المتعلقة
بالشرك شاملة للشرك الأكبر والأصغر ولأجل ذلك يستدل السلف الصالح بما نزل في
الأكبر على الأصغر كما بينت عن ابن عباس وحذيفة (٣).

فصل

حكم تحليل التماثل من القرآن والأدعية النبوية(*)

● رأى جماعة من العلماء بأن تعليق القرآن والأدعية النبوية ليس من التماثل وأنه
يجوز ومن هؤلاء سعيد بن المسيب وعطاء وأبو جعفر الباقر ومالك، ورواية عن أحمد،
وهو قول ابن عبد البر والبيهقي والقرطبي، وظاهر قول ابن تيمية وابن القيم وابن حجر.

● ويرى بعض (٤) من الصحابة فمن بعدهم أنه لا يجوز تعليق القرآن والأدعية
النبوية ومن هؤلاء عبدالله بن مسعود وابن عباس وحذيفة وعقبة بن عامر وابن عكيم
وإبراهيم النخعي ورواية عن أحمد وابن العربي، وعبدالرحمن بن حسن آل الشيخ
وسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب، وعبدالرحمن بن سعدى وحافظ بن أحمد

(١) تقدم ..

(٢) تيسير العزيز الحميد.

(٣) تيسير العزيز المجيد ١٥٤ - ١٦٢.

(*) وسيأتي مزيد بيان في هذا الحكم عند شرح حديث ابن مسعود، وفيه ذكر أن التماثل شرك.

(٤) في الأصل (الأكثر) وأرى أنه البعض.

بن حكيم ومحمد حامد الفقى ومن المعاصرين: الألبانى وعبد العزيز بن باز وغيرهم^(١) وأما ابن عثيمين^(٢) وانه قال الأقرب أن يقال أنه لا يفعل، أما أن يصل إلى درجة التحريم، فأنا أتوقف فيه. أهد فتصبح فى المسألة ثلاثة أقوال: مبيح، ومانع، ومتوقف.

حجة أصحاب القول الأول^(٣):

- (١) عموم قوله: «وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ». ومن السنة لا يوجد.
(٢) ومن أقوال الصحابة قول عائشة: «أن التيممة ما علق قبل البلاء لابعده»^(٤).
فلو علقت قبل البلاء تصار تيممة أما بعد نزول البلاء لرفعه لاتسمى تيممة.

قال الشراح: قول عائشة: التائم ما علق قبل البلاء لابعده، وعائشة لاتقصد التائم الشركية أو المحرمة؛ لأنها لاتجوز قبل ولا بعد البلاء، وإنما تقصد التائم الشرعية التى فيها أذكار أو قرآن.

وقالوا: فعلى هذا إن جازت التيممة الشرعية فتجوز قبل البلاء وبعده لماذا؟
لأن التائم والرقى قسمان بدليل أن النبى ﷺ جمعها فى حديث واحد وقال: «الرقى والتائم والتولة شرك»^(٥) فالتيممة أن خلعت عن الشرك فتجوز لكن عائشة ترى أنها قبل البلاء لابعده فنقول له: إن جوزت التيممة الشرعية قبل البلاء فتجوز بعد البلاء؛ لأن الرقى تجوز قبل وبعد.

(٣) روى ابن أبى شيبة^(٦) قال حدثنا هشام قال: حدثنا حجاج قال أخبرنى من رأى سعيد بن جبير يكتب التعويذ لمن أتاه، قال حجاج: وسألت عطاء فقال: ما سمعنا بكراهية إلا من قبلكم من أهل العراق^(٧).

(١) انظر مراجع أقوال العلماء الذين ذكروا فيما يلى مصنف ابن أبى شيبة كتاب الطب (٤٣٩، ٤٢٧/٥) وما بعدها وسنن البيهقى (٢١٦/٩) وما بعدها والمستدرک للحاكم (٢١٦/٤) وما بعدها وتيسير العزيز الحميد (١٧٤، ١٦٨) و«فتح المجيد» وسلسلة الأحاديث الصحيحة (٥٨٥/١) والقول السديد (٣٨) ومعارج القبول (٣٨٢/١) وفتاوى الشيخ ابن باز (١/ ٨٢٠).

(٢) القول المفيد (١/ ٢٣٣، ٢٣٤).

(٣) وقال البيهقى فى السنن إن قول عائشة أصح من قول عبدالله بن عمرو بن العاص وهو فى المسند والمستدرک وفى الترمذى وحسنه، لكن هذا الأثر ضعيف لتدليس محمد بن إسحاق.

(٤) تقدم تخريجه (٥) تقدم تخريجه

(٦) «المصنف لابن أبى شيبة» (٤٣٩/٥-٤٤٠).

(٧) حجاج هو ابن محمد المصيصى وهو ثقة.

وإسناده إلى سعيد بن جبير منقطع أما إسناده إلى عطاء ابن أبى رباح فصحيح.
أما سعيد بن جبير.

فقد أخرجه البيهقى فى «الكبرى» (٣٥١/٩).

من طريق عبدالرحمن بن مهدى، عن شعبة، عن الحجاج، عن فضيل أن سعيد بن جبير كان يكتب لابنه المعاذة. ثم ذكر قول عطاء السابق.

إسناده ثقات إلا أن الحجاج هذا هو بن أوطاة وهو مدلس.

٤- حدثنا عقبة بن خالد، عن شعبة، عن أبي عصمة قال: سألت سعيد بن المسيب عن التعاويذ فقال: لا بأس إذا كان في أديم^(١) والأديم: الجلد.

٥- حدثنا ابن نمير، عن عبد الملك، عن عطاء في الحائض يكون عليها التعويذ، قال: إن كان في أديم فلتترعه، وإن كان في قصبة فضة فإن شاءت وضعت وإن شاءت لم تضعه^(٢).

٦- حدثنا عبيد الله، عن حسن، عن جعفر، عن أبيه أنه كان لا يرى بأساً أن يكتب القرآن في أديم ثم يعلقه^(٣).

٧- حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن إسماعيل بن مسلم، عن ابن سيرين أنه كان لا يرى بأساً بالشئ من القرآن^(٤).

٨- حدثنا عفان قال: حدثنا وهيب قال: حدثنا أيوب أنه رأى في عضد عبيد الله بن عبد الله بن عمر خيطاً^(٥).

(١) أبو عصمة هو «نوح بن أبي مريم» ومجمع على ترك حديثه.

وتابعه يحيى بن سعيد عند البيهقي (٩/٣٥١/١٩٦١٢).

من طريق ابن وهب أخبرني نافع بن يزيد أنه سأل يحيى بن سعيد عن الرقى وتعليق الكتب فقال: كان سعيد بن المسيب يأمر بتعليقه القرآن وقال: لا بأس به. وإسناده جيد وهي متابعة قوية.

(٢): فلتترعه لأن التعويذ المكتوب في الأديم يبقى أو مربوطاً في الزند وهو لا يجوز لأنه فيها آيات من كتاب الله وقد تصيب المرء نجاسة فلا يجوز له أن يحمل هذه الآيات وهو نجس. أهـ.

وإسناده على شرط مسلم وعبد الملك بن أبي سليمان قال أبو داود: كان من أحفظ أهل الكوفة إلا أنه رفع أحاديث عن عطاء.

[قلت]: والأثر الذي في الباب عن عطاء وهو موقوف عليه من قوله فلا يعد هذا مما يستنكر عليه إنما يتوقف فيه إذا رفع الحديث

(٣) جعفر هو: بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وإسناده على شرط مسلم.

(٤) بالشئ من القرآن: أي الآيات تكتب وتعلق على الطفل أو يحملها الكبير في خاتم فضة أو ما شابه ذلك. أهـ.

إسماعيل بن مسلم المكي قال أحمد هو منكر الحديث، وقال أبو زرعة ضعيف الحديث وضعفه كثيرون. (٥) رجال ثقات.

٩- حدثنا يحيى بن آدم قال: حدثنا حسن، عن ليث، عن عطاء قال: لا بأس أن يعلق القرآن^(١).

١٠- حدثنا إسحاق الأزرق، عن جوير، عن الضحاك، لم يكن يرى به بأساً أن يعلق الرجل الشيء من كتاب الله إذا وضعه عند الغسل وعند الغائط^(٢).

حجة من قال بالمنع من ذلك:

- وأما المانعون فيمكن أن يستدل لهم بالأدلة التالية:

(أولاً) عموم النهى الوارد فى التمايم وقد سبق بيان أدلة تحريم التمايم من هذا البحث وهذا العموم لم يأت ما يخصه فيبقى على عمومه.

وقد بين الرسول ﷺ كيفية التداوى بالقرآن وهو تلاوته والعمل به ولم يرد عنه فى التعليق شيء بل لم يرد عن الصحابة، وقول عائشة مجمل لم تذكر فيه تعليق القرآن وقولها محتمل فلا أرى أن ننسب إليها الجواز.

الرد: نقول السنة جاءت تخصص الآية العامة، وفعل الصحابة جاء مبيناً للآية ونحتج بأثر عائشة قالوا قولها مجمل نقول: أن ابن أبى شيبة فهم أن هذا الأثر فى تعليق القرآن لأن عائشة ستقول ما الذى يعلق هل هى التيممة الشريكة! فما التى تراه فى التعليق.

وقد فهم ذلك ابن أبى شيبة والبيهقى وفهمهم مقدم.

ثانياً: الرد على أثر ابن عمرو أنه ضعيف.

رد ثانى على حامد الفقى فى الأثر المنسوب إلى عبدالله أنه كان يحفظه أولاده الكبار ويكتبه فى ألواح ويلقه فى عنق الصغار.

فالظاهر أنه كان يلقه لهم من أجل أن يحفظوه لا على أنه تيممة والتيممة تكتب فى ورقة لافى لوح، وبدليل تحفيظه للكبار.

وهذا الرد فيه نظر كيف أنه يحفظه للكبار وأنه يلقه للصغار، والذين لم يدركوا ليحفظوه فكيف يحفظوه وهم صغار لم يدركوا؟!!

نقولات بعض شراح كتاب التوحيد الذين مالوا لهذا القول، وذكر من توقف فى الحكم:

(١) وليث هو ابن سليم وهو مجمع على ضعفه.

(٢) جوير ضعيف ويروى عن الضحاك منكر. وقال أحمد بن حنبل: ما كان عن الضحاك فهو ذاك أيسر، وما كان بسند عن النبى ﷺ فهو منكر.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٨٩٣) والترمذى (٣٥٢٨) عن عبد الله بن عمرو به، وفى إسناده ابن إسحاق وقال الترمذى: حسن غريب.

قال سليمان آل الشيخ : أعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا في «جواز تعليق التماثيل التي من القرآن وأسماء الله وصفاته، فقالت طائفة يجوز ذلك، وهو قول عبدالله بن عمرو بن العاص وغيره» (١). وهو ظاهر ما روى عن عائشة، وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد في رواية، وحملوا الحديث على التماثيل الشركية، أما التي فيها القرآن وأسماء الله وصفاته، فكالرقية بذلك .

قلت: وهو ظاهر اختيار ابن القيم.

وقالت طائفة : لا يجوز ذلك، وبه قال ابن مسعود، وابن عباس وهو ظاهر قول حذيفة، وعقبة بن عامر، وابن عكيم رضى الله عنه.

وبه قال جماعة من التابعين، ومنهم أصحاب ابن مسعود، وأحمد في رواية اختارها كثير من أصحابه، وجزم بها المتأخرون، واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه فإن ظاهره العموم لم يفرق بين التي في القرآن وغيرها، بخلاف الرقى فقد فرق فيها، ويؤيد ذلك أن الصحابة الذين رووا الحديث فهموا العموم كما تقدم عن ابن مسعود. أهـ.

وقال المبار كفوري (٢). وقد اختلف في ذلك أهل العلم:

قال العلامة الشيخ أبو الطيب صديق بن حسن القنوجي في كتابه الدين الخالص: اختلف العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم في جواز تعليق التماثيل التي من القرآن، وأسماء الله تعالى وصفاته.

فقالت طائفة : يجوز ذلك، وهو قول ابن عمرو بن العاص، وهو ظاهر ما روى عن عائشة، وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد في رواية، وحملوا الحديث (يعنى حديث ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الرقى والتماثيل والتولة شرك» (٣) رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح، وأقره الذهبي على التماثيل التي فيها شرك.

وقالت طائفة : لا يجوز ذلك وبه قال ابن مسعود وابن عباس وهو ظاهر قول حذيفة وعقبة بن عامر وابن عكيم، وبه قال جماعة من التابعين منهم أصحاب ابن مسعود وأحمد في رواية اختارها كثير من أصحابه. وجزم به المتأخرون واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه

(١) تقدم قريباً

(٢) تحفة الأحوذى (٦/ ٢٠٠، ٢٠١).

(٣) تقدم تخريجه

قال بعض العلماء وهو عبدالرحمن آل الشيخ: وهذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل .

الأول عموم النهى ولا مخصص للعموم.

الثاني : سد الذريعة فإنه يفضى إلى تعليق مالميس كذلك.

الثالث أنه إذا علق فلا بد أن يمتهنه المعلق بحمله معه فى حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك .

قال: وتأمل هذه الأحاديث وما كان عليه السلف يتبين لك بذلك غربة الإسلام، خصوصاً إن عرفت عظيم ما وقع فيه الكثير بعد القرون المفضلة من تعظيم القبور واتخاذها مساجد، والإقبال إليها بالقلب والوجه، وصرف الدعوات والرغبات والرهبات وأنواع العبادات التى هى حق الله تعالى إليها من دونه، كما قال تعالى ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٠) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴿ ونظائرها فى القرآن أكثر من أن تحصر انتهى كلام عبدالرحمن آل الشيخ (١).

قلت: غربة الإسلام شئ وحكم المسألة شئ آخر، والوجه الثالث المتقدم لمنع التعليق ضعيف جداً لأنه لامانع من نزع التمام عند قضاء الحاجة ونحوها لساعة ثم يعلقها.

والراجع فى الباب أن ترك التعليق أفضل فى كل حال بالنسبة إلى التعليق الذى جوزه بعض أهل العلم بناء على أن يكون بما ثبت لا بما لم يثبت لأن التقوى لها مراتب وكذا فى الإخلاص، وفوق كل رتبة فى الدين رتبة أخرى والمحصلون لها أقل، ولهذا ورد فى الحديث فى حق السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب أنهم هم الذين لا يرقون ولا يسترقون مع أن الرقى جائزة وردت بها الأخبار والأثار والله أعلم بالصواب. والمتقى من يترك مالميس به بأس خوفاً مما فيه بأس. انتهى كلامه بلفظه. أهـ

قال سليمان آل الشيخ (٢) هذا اختلاف العلماء فى تعليق القرآن وأسماء الله وصفاته، فما ظنك بما حدث بعدهم من الرقى بأسماء الشياطين وغيرهم وتعليقها؟! بل والتعلق عليهم، والاستعاذة بهم، والذبح لهم، وسؤالهم كشف الضر، وجلب الخير مما هو شرك محض، وهو غالب على كثير من الناس إلا من سلم الله، فتأمل ما ذكره النبى ﷺ، وما كان عليه أصحابه والتابعون، وما ذكره العلماء بعدهم فى هذا الباب وغيره

(١) فتح المجيد (١/١٥٦، ١٥٧).

(٢) تفسير العزيز الحميد (١٢٢).

من أبواب الكتاب، ثم انظر إلى ما حدث في الخلف المتأخرة، يتبين لك دين الرسول ﷺ وغرته الآن في كل شيء، فالله المستعان.

قال ابن عثيمين (١). قوله : «وإذا كان المعلق من القرآن.. إلخ.

إذا كان المعلق من القرآن أو الأدعية المباحة والأذكار الواردة؛ فهذه المسألة تختلف فيها السلف رحمهم الله؛ فمنهم من رخص في ذلك لعموم قوله تعالى ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يذكر الوسيلة التي تتوصل بها إلى الاستشفاء بهذا القرآن؛ فدل على أن كل وسيلة يتوصل بها إلى ذلك فهي جائزة، كما لو كان القرآن دواءً حسيماً.

ومنهم من منع ذلك وقال : لا يجوز تعليق القرآن للاستشفاء به؛ لأن الاستشفاء بالقرآن ورد على صفة معينة، وهي القراءة به، بمعنى أنك تقرأ على المريض به؛ فلا نتجاوزها، فلو جعلنا الاستشفاء بالقرآن على صفة لم ترد فمعنى ذلك أننا فعلنا سبباً ليس مشروعاً (٢)، وقد نقله المؤلف رحمه الله عن ابن مسعود رضى الله عنه.

ولولا الشعور النفسى بأن تعليق القرآن سبب للشفاء؛ لكان انتفاء السببية على هذه الصورة أمراً ظاهراً؛ فإن التعليق ليس له علاقة بالمرض، بخلاف النفث على مكان الألم فإنه يتأثر بذلك.

ولهذا نقول: الأقرب أن يقال: إنه لا ينبغي أن تعلق الآيات للاستشفاء بها، لاسيما وأن هذا المعلق قد يفعل أشياء تنافي قدسية القرآن؛ كالغيبة مثلاً، ودخول بيت الخلا، وأيضاً إذا علق وشعر أن به شفاء استغنى به عن القراءة المشروعة؛ فمثلاً: علق آية الكرسي على صدره، وقال: مادام أن آية الكرسي على صدرى فلن أقرأها، فيستغنى بغير المشروع عن المشروع، وقد يشعر بالاستغناء عن القراءة المشروعة إذا كان القرآن على صدره (٣).

وإن كان صيباً؛ فربما بال ووصلت الرطوبة إلى هذا المعلق، وأيضاً لم يرد عن النبى ﷺ فيه شيء.

فالأقرب أن يقال: أنه لا يفعل، أما أن يصل إلى درجة التحريم؛ فأنا أتوقف فيه،

(١) القول المفيد (١/٢٢٢/٢٢٣).

(٢) انظر أقوال العلماء فى هذه المسألة: «مصحف ابن أبى شيبة» (٥/٤٢٧، ٤٣٩)، و«سنن البيهقي» (٩/٢١٦)، و«المستدرک» (٤/٢١٦)، و«تيسير العزيز الحميد» (١٦٨)، و«فتح المجيد» (١٣٢)، و«القول السديد» (ص ٣٨)، و«معارج القبول» (١/٣٨٢)، و«فتاوى ابن باز» (١/٢٠)، و«مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد العثيمين» (١/٥٨).

(٣) وقال الشيخ عبدالعزيز بن باز؛ كما فى «فتاويه» (١/٢٠): «والصواب أنها محرمة..».

لكن إذا تضمن محظوراً؛ فإنه يكون محرماً بسبب ذلك المحظور قلت: وقال ابن عثيمين في فرائد هذا الباب التي في آخره: والأحوط مذهب ابن مسعود؛ لأن الأصل عدم المشروعية حتى يتبين ذلك من السنة. أهـ. وسيأتي.

● توجيه لأدلة المانعين:

التوجيه الأول: عموم النهي الوارد للتمائم وقد سبق بيان أدلة التحريم، ولم يأتي أدلة تخصص هذا العموم فيبقى على عمومه.

نقول: بل أتى ما يخصها كأثر عائشة والآثار التي أتت عن التابعين، وقول البيهقي وابن تيمية وابن عبد البر وابن أبي شيبة والقرطبي وكلهم معتمدين على أثر عائشة.

فلو قال قائل: فهل يجوز تخصيص العمومات بقول صحابي؟

نقول: نعم لأن هذا توجيه للنهي، فكأنهم يروا النهي محمول على ما فيه شرك أو كما قال البيهقي ما فيه ذكر أو قرآن لكن يعتمد عليه اعتماده على الله فكأنه يرى أن هذه الأوراد لا تمنع لذاتها.

التوجيه الثاني: فإن قال قائل: لو كان هذا العمل مشروع لبينه الرسول ﷺ كما بين الرقية وأذن فيها مالم يكن فيها شرك حيث قال «اعرضوا على رقاكم، لا بأس بالرقى مالم يكن فيها شرك»^(١) ولم يقل هذا القول فيما يتعلق بالتمائم؟

الجواب: من وجهين:

الأول: أن الرسول ﷺ لما منع من الرقى كان ذلك من أجل ما فيها من الشرك ولما منع من التمام أيضاً منع لأجل ما فيها من الشرك وقال: «أن الرقى والتمائم شرك»^(٢).

ثم أباح الرقى طالما خلت من شرك فهل خلت التيممة من شرك فهل تجوز؟

الجواب: نعم وهذا فهم عائشة وفهم الأئمة من التابعين ومالك ورواية عن أحمد وغيرهم، وهناك علاقات كثيرة بين الرقى والتمائم، وربطهما الشرع، وكذلك اللغة، فاتحدوا في العلة والحكم فيصح القياس.

الثاني: أنه لا يلزم للمشروع أو لكل مشروع أن بينه النبي ﷺ فكثير من الأمور المشروعة أجمليها النبي ﷺ وبينها الصحابة، فالرسول أجمل الكلام في التمام ومن الصحابة من فصل كعائشة.

ويمكن أن يقال أيضاً:

بالاستقراء واجمع وجدنا علاقة قوية تربط بين الرقى والتيممة: من أقواها: أن الرسول ﷺ جمع بينها في حديث واحد «الرقى والتمائم والتولة شرك»^(٣).

(٢) تقدم تخريجه

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

فإن قيل أنه جمع بينهما لاتحاد «الشرك» نقول:

الرسول ﷺ لا يربط بين الأشياء إلا لتماثل في الغالب أو لوقوع الشبه. ولعل من القواسم المشتركة أنه كما أن من الرقى ما هو مشروع وما هو ممنوع، أن التماثل منها ما هو مشروع وما هو ممنوع، فلما خلت الرقى من الشرك شرعت، كذلك إذا خلت التيممة من الشرك فإنها تشرع أيضاً.

(ب) أن الرسول ﷺ لما قال: «اعرضوا عليّ رقاكم»^(١) قال أيضاً في حديث عرض الرقى عليه: «من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل»^(٢) فأجاز الرقى التى خلت من الشرك وثبت فيها النفع، فإذا خلت التيممة من الشرك وثبت فيها النفع شرعاً أو قدراً، ولم يمنع شرع فما المانع من تعاطيها كسائر الأسباب!!

التوجيه الثالث: أقوال الصحابة التى مرّت فى النهى عن ذلك، ولم يصح قول من نسب إليه المخالفة، والصحابة أعرف بهدى النبى ﷺ من غيرهم، وكذلك أكثر التابعين لاسيما وقد قال إبراهيم النخعى بصيغة العموم أنهم كانوا يكرهون التماثل كلها من القرآن وغير القرآن^(٣).

الجواب: قد بينت أدلة جواز تعليق القرآن عن بعض التابعين بأدلة صحيحة كما سبق.

التوجيه الرابع: سد الذرائع واجب شرعى لئلا تختلط التيممة الشركية بالتيممة من القرآن فلا تنكر التيممة الشركية للأشتباه.

نقول: نفرق بين أمرين ما يمنع لذاته وما يمنع لما يترتب عليه، فما يمنع لذاته أشد أما الثانى فإن ضمننا عدم وقوع المفسدة المترتبة عليه فيجوز.

فنقول: نحن نقول بسد الذرائع لكنه لا ينسحب على حرمة التماثل الشرعية، بل هى تباح إذا لم يترتب عليها مفسدة وإذا ترتب فتمنع.

وأنا أرى: أن أقوال الأئمة المعاصرين كسليمان وعبدالرحمن، وابن باز، وابن عثيمين مالوا للمنع وللتحريم من هذا الباب سداً للذريعة وحتى لا تختلط على عامة الناس.

التوجيه الخامس: تعليق القرآن يفضى إلى امتهانه، كدخول الخلاء به ونحو ذلك.

الجواب: ليس سبباً للمنع، بل تقدم قول الضحاك أنه كان لا يرى به بأساً إذا وضعه عند الغسل والغائط.

التوجيه السادس: أن حمل القرآن من الذين لا يفقهون معناه ولا يعرفون توقيره قد

(٢) تقدم تخريجه.

(١) تقدم تخريجه.

(٣) مصنف ابن أبى شيبة (٤٢٨/٥).

يدخل فى عموم قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ وذلك لأنهم لا يدرون مافيه ولا يعرفون توقيره وقد يضع بعضهم عليه النجاسة خاصة إذا كان مجنوناً ولا يميز.

الجواب: نقول: نحن لن نضعها على المجانين، وأما من لا يميز فإن كان صبي فيجوز لأن العمومات فى الجواز لم تفرق بين وضعها على كبير مميز أو غير مميز لكن عندما يدخل الصبي الخلاء ننزعها منه.

التوجيه السابع: إن القول بالتعليق قد يعطل سنة الرقية بالمعوذات وغيرها فإن الذى يعلق المصحف بكامله قد يظن أنه لا يحتاج أن يتعوذ بالمعوذات وآية الكرسي ونحو ذلك والقرآن كله معلق عليه.

الجواب: فنحن نقول للناس أن الرقية أفضل، والتمائم مختلف فيها، والرقية متفق عليها فهى أولى، وكذلك لا تأخذ بسبب ضعيف وخذ بسبب قوى، ونحن ننسب عليه لكن التنبيه لا يمنع فى الفعل أصلاً.

التوجيه الثامن: إن القول بتعليق القرآن متردداً بين الجواز والتحريم وما كان كذلك فالأولى اجتنابه درءاً للمفسدة والله تعالى أعلم.

الجواب: نقول: إذا قلنا الأولى اجتنابه فهو يجوز لكن الأولى اجتنابه ولو قال درءاً للمفسدة فرجع على مسألة سد الذرائع. وقد مضى الرد عليها.

الخلاصة:

إن التمام الذى بالقرآن أو بالأذكار جائزة إذا لم يترتب عليها مفساد، أو لم تؤدى إلى مفسدة كان تختلط بالتمائم الشركية، أو أن تعطل الرقى الشرعية، والأولى تركها إذا لم تتعين سبيلاً للشفاء.

وهذا مؤدى ومفهوم كلام البيهقى رحمه الله تعالى.

قال البيهقى^(١) معلقاً على حديث عقبة بن عامر «من علق تيممة...» الحديث: يحتمل أن يكون ذلك وما أشبهه من النهى والكراهية فمن تعلقها وهو يرى تمام العافية وزوال العلة منها على ما كان أهل الجاهلية يصنعون فأما من تعلقهما متبركاً بذكر الله تعالى فيها وهو يعلم أن لا كاشف إلا الله ولا دافع عنه سواه فلا بأس بها إن شاء الله.

- ثم ذكر قول عائشة رضى الله عنها أن التمام ما علق قبل نزول البلاء وما علق بعد نزول البلاء فليس بتميمة قال: وهذا أصح.

- ثم ذكر أحاديث النهى ثم أردفها بقول سعيد بن المسيب وعطاء ثم قال: وهذا كله يرجع إلى ما قلنا من أنه إن رقى بما لا يعرف، أو على ما كان من أهل الجاهلية من

(١) «السنن الكبرى» (٣٥١/٩).

إضافة العافية إلى الرقى لم يجز، وإن رقى بكتاب الله، أو بما يعرف من ذكر الله متبركاً به وهو يرى نزول الشفاء من الله تعالى فلا بأس به وبالله التوفيق.

فصل

هل الرقية بجميع القرآن أم

بما فيه نص فقط؟

الجواب: أن الرسول ﷺ أقر الرقى القدرية، لأنها أشبه بالطب والتداوى، ولما سئل أفى الطب خير قال «نعم» وقال ﷺ: «تداووا عباد الله ولا تداووا بمحرم أو بشرك»^(١) لكن هذا التداوى لا يمت للشرع بصلة من حيث أنه ليس فيه أذكار ولا قرآن مثل رقيه ضربة الشمس فلا يلزم من إقرار الشرع الرقى القدرية أن يقر الرقى التى أنتسبت إلى الشرع من حيث أن فيها قرآن لم ينص عليه الرسول ﷺ أنه يشفى.

وجواب آخر:

يقول تعالى: «وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ»^(٢). و«من» لابتداء الغاية، ويصح أن تكون لبيان الجنس؛ كأنه قال: ونزل ما فيه شفاء القرآن.

وفى الخبر «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له».

وأنكر بعض المتأولين أن تكون من للتبعيض، لأنه يحفظ من أن يلزمه أن بعضه لاشفاء فيه.

قال ابن عطية: وليس يلزمه هذا، بل يصح أن تكون للتبعيض بحيث أن إنزاله إنما هو مبعض، فكأنه قال ونزل من القرآن ما شيئاً شفاء؛ ما فيه كل شفاء^(٣).

وذهب ابن القيم^(٤) إلى أن «من» هاهنا لبيان الجنس للتبعيض.

وقال رحمه الله: وهذا أصح القولين.

قلت: فهو لا ينفى صحة القول الأول بل هو يرى أن الآخر أصح.

وقوله تعالى: فعلى قول من قال أن «من» للتبعيض فلا يجوز الاستدلال بعموم الآية لأنها على قولهم ليست عامة.

وعلى قول من قال أن الأصح أن «من» هنا لبيان الجنس وليست للتبعيض توطئة للإستدلال. بعموم الآية على جواز الرقية بأى آية أو سورة فى القرآن وإن لم يكن فيها نص.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الإسراء/ ٨٢.

(٣) القرطبي (٦/ ٣٩٣١ - ٣٩٣٢).

(٤) زاد المعاد (٤/ ١٧٦).

فالجواب: إن هذا العام مخصوص بالنصوص الواردة فى الرقية بآيات معينة وبسور معينة مخصوصة مثل ماورد فى شأن الفاتحة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين وآية الكرسي والآيتين الأخيرتين من سورة البقرة . . إلخ.

فينبغى حمل العام على الخاص كما قرر ذلك الأصوليون وإلا فلا مزية لتخصيص هذه الآيات على غيرها وبذلك تكون الأحاديث التى وردت تبين مزيها عبثاً لافائدة فيها ولا تكون قد أتت بجديد إذا كان لغيرها من الآيات مالها من الشفاء.

وهذا محال على الشرع الحنيف وقائله رحمته الله وقوله تعالى: ﴿وَشِفَاءٌ﴾
أختلف العلماء فيها على قولين.

(أحدهما) أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الريب، لكشف غطاء القلوب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى، وهذا ما قرره الحافظ بن كثير فى تفسيره لهذه الآية^(١).

(والثانى): أنه شفاء من الأمراض بالرقى والتعوذ ونحوه واستدلوا بحديث أبى سعيد الحذرى فى الرقية بالفاتحة.

[قلت]: ولا مانع من أن يكون هذا الاختلاف اختلاف تنوع؛ بمعنى أن كلا القولين حق فهو شفاء من الأمراض الظاهرة بما ورد فى ذلك من نصوص.

وهو شفاء من أمراض القلب أيضاً وقد يكون بعضه شفاء للنوعين معاً وذلك على سبيل المثال ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وفى تصحيح للأعتقاد وصحة للأمراض الظاهرة كما أتت بذلك النصوص والله أعلم.

شبهة: إذا قال قائل أنا استمر على الرقى بجميع القرآن دون تخصيص ما خصصته السنة من آيات القرآن للعلاج فتأتى بنتيجة وتنفع فلماذا لا استمر؟

الجواب: أن النفع وحده لا يسوغ الإستمرار، بل فى الرقى الشرعية لا بد من الإباحة الشرعية، فالأصل فى الشرع أن تتوقف إلا بدليل يبيح بخلاف الرقى القدريّة فإن الأصل فيها الإباحة إلا بدليل يمنع.

قال: فالدليل الذى يبيح هو العموم؟

الجواب: تقدم ما فى العموم وأن أخذت به فليس فيه الإستمرار، وثبوت النفع

(١) ابن كثير (٥/ ١١٠) دار الشعب.

لايسوغ عدم المنع الشرعى فلا بد للإستمرار من دليل، فثبوت النفع لا يدل على صحة العمل أو بطلانه. فقد يكون هناك عمل شرعى ولا يحصل من ورائه نفع، وقد يكون هناك عمل غير شرعى ويحصل من ورائه نفع كما فى قصة زينب زوجة ابن مسعود. فلايجوز لك الاستمرار والمواظبة عليها ولا إرشاد الناس إلى ذلك بورقة أو رسالة أو كتاب... إلخ.

ونحن نسمع من المعالجين من يقول لك اسمع آيات السحر فى سورة يونس. ومعالج ثانى يقول لك تشكيلة ثانية: الصافات، ويس، وتبارك، وقد سمع، ومعالج آخر يتزل لك نصف المصحف فى كتاب ويقول هذه رقية. لأن الآية لا تحتتمل ذلك بوجه من الوجوه، ولأن هذا أيضا مذهب مرجوح ولا نبدع صاحبه شريطة ألا تستمر على هذه الرقية ولا توصلى بها أحداً لأن الآية إن احتملت العموم فلا تحتتمل الإستمرار عليها. والله أعلم.

فصل

حكم التفرغ لأجل القراءة على

الناس واتخاذها حرفة

من المعلوم أن الله - عزوجل - أباح الرقى كما تقدم فى مبحث مشروعية الرقية بضوابطها الشرعية، وأباح أخذ الأجرة عليها كما فى صحيح البخارى: رحمه الله - حيث قال: باب الشروط فى الرقية بفاتحة الكتاب، وروى بسنده عن ابن عباس أن نفراً من أصحاب النبى ﷺ مروا بماء فيهم لديغ - أو سليم - فعرض لهم رجل من أهل الماء، فقال هل فيكم من راق؟ إن فى الماء رجلاً لذيغاً أو سليماً؟ فانطلق رجل منهم فقراً بفاتحة الكتاب على شاء فبرأ فجاء بالشاء، إلى أصحابه فكرهوا ذلك، وقالوا: أخذت على كتاب الله أجراً، حتى قدموا المدينة فقالوا: يا رسول الله أخذ على كتاب الله أجراً فقال رسول الله ﷺ: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرأ كتاب الله»^(١).

فإذا علم إباحة الرقى، وعلم إباحة أخذ الأجرة عليها انحصر موضوع البحث فى الكيفية التى تتم بها الرقية عند بعض القراء المتأخرين وهى:

التفرغ لهذا العمل واتخاذها حرفة والإشتهار به بين الناس، وهذه الكيفية فى نظرى^(٢) قد يترتب عليها مفسد كثيرة بالنسبة للقارىء وبالنسبة للناس المقروء عليهم، منها ما يلى:

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٧٣٦)، ومسلم (١٨٧/١٤) - النووي) وانظر «الطب النبوي» للذهبي

(٤٣١- بتخريجنا)

(٢) الكلام للدكتور على بن نقيع العليانى.

١- أنه من وجود الجموع الكثيرة من الناس عند القارئ قد يظن عوام الناس أن لهذا القارئ خصوصية معينة بدليل كثرة زحام الناس عليه، وتطغى أهمية القارئ على أهمية المقروء، وهو كلام الله، بل لا يكاد يفكر كثير من هؤلاء في أهمية المقروء وفائدته وإنما تتجه الأنظار للقارئ والأصل في الرقية هو المقروء، والقارئ تبع لذلك يقول الله تعالى ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ويقول سبحانه : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ ولا ينكر مالصلاح القارئ وقوة إيمانه وثقته بربه وتوكله عليه من تأثير ولكنه تابع للمؤثر الأصلي وهو كلام رب العالمين.

فكل ذريعة تضعف ثقة الناس بالمقروء فإنه ينبغي أن تسد ولا تفتح.

يقول الإمام ابن القيم: فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدوية القلبية والبدينية وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء وإذا أحسن العليل التداوى به (كلام الله) ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروط لم يقاومه الداء أبداً وكيف تقاوم الأدوية كلام رب الأرض والسماء، الذى لو نزل على الجبال لصدعها أو على الأرض لقطعها أهـ.

٢- أنه بالنظر إلى سيرة الرسول ﷺ وسيرة أصحابه وسيرة علماء الإسلام الموثوق بعلمهم وفضلهم لم نر أحداً منهم انقطع عن أعماله وقصر نفسه على معالجة المرضى بالرقى واتخذها حرفة.

واشتهر بها بين الناس بحيث إذا ذكر اسمه اقترن بهذه الحرفة، ولا شك أن الناس فى كل زمان تكثر فيهم الأمراض، ولم نر أحد من خلفاء المسلمين نصب قارئاً يقرأ على المرضى كما ينصب المفتين والقضاة، وإنما المريض يقرأ على نفسه من كتاب الله وإن قابله عالم ذو فضل وديانة وطلب منه الرقية وقرأ عليه فلا حرج .

ومن المعلوم أن المشروع بأصله قد يمنع إذا صاحبه كيفية مستحدثه. فقد صح عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه مر بامرأة معها تسبيح تسبح به فقطعه وألقاه، ثم مر برجل يسبح بحصى فضربه برجله ثم قال: لقد جئتكم ببدة ظلماً أو لقد غلبتم أصحاب محمد ﷺ علماً (١).

(١) تقدم تخريجه، .والحديث فى سنن الدارمى والبدع لابن وضاح وقال الدوسرى فى النهج السديد

صحيح.

والشيخ الطحان يقول: القول ببدعة السنة (السبحة) بدعة على أساس أن كلام ابن تيمية يفهم منه أن له سند وأصل، وفي ذلك أحاديث ضعيفة في فضائل الأعمال في «نيل الأوطار» دخل الثبى عليه السلام على بعض نساءه وهى تسبح على الحصى^(١).. فالمسألة لها أصل ضعيف.

[قلت]: ولكن للمخالف أن يقول عليها بدعة حيث أنها ليس لها أصل صحيح والعامل بها نقول أنه ليس مبتدع لأنه متأول.

٣- إن الشياطين عندما ترى تعلق الناس بشخص ما قد تساعدوه وهو لا يشعر فتعلن خوفها منه، وخروجها من المريض ونحو ذلك، لتزداد ثقة الناس بالشخص أكثر من ثقتهم بما يتلوه وليعتقدوا أن فيه سرأً معيناً.

وقد قال عبدالله بن مسعود لزوجته عندما قالت له كانت عيني تقذف فكنت اختلف إلى فلان اليهودى يرقىها وكان إذا رقاها سكنت قال: إنما ذلك عمل الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقيتها كف عنها^(٢) وتقدم الأثر مراراً.

يقول ابن تيمية فى الفتاوى: (٣) ولما كانت الخوارق كثيراً ما تنقص بها درجة الرجل كان كثير من الصالحين يتوب من مثل هذه الخوارق مع ظنه أنها كرامات فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تغويهم بها فأنى أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع، وإنما يخاطبه الشيطان الذى دخل فيها، وأعرف من يخاطبهم الحجر والشجر، تقول: هنيئاً لك ولى الله.

فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك وأعرف من يقصد صيد الطير، فتخاطبه العصافير وغيرها، وتقول: خذنى حتى يأكلنى الفقراء ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل فى الإنس ويخاطبه بذلك أهد.

٤- قد يتوهم القارئ الذى يزدهم الناس على بابه ويرى كثرة المرضى الذين يعافيههم الله بسبب رقيته، وكيف أن الشياطين تخاف منه، وتخرج من المصروعين؟ قد يتوهم أنه من الأولياء الأبرار ويصبيه العجب ونحو ذلك وقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يخشون من هذا الأمر ويسدون مداخله.

قال ابن عينة: رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع أبى جماعة فعلاه بالدرة، فقال أبى: أعلم ما تصنع يرحمك الله فقال عمر: أما علمت أنها فتنة للمتبوع مذلة للتابع.

(١) أخرجه أبو داود (١٥٠٠)، والترمذى (٣٥٦٨) عن سعد بن أبى وقاص.

قال الترمذى: حسن غريب.

وانظر «نيل الأوطار» بتخريجنا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الفتاوى (٣٠ / ١١).

٥- أن من الملاحظ على القراء أصحاب الكيفية المتقدمة أنهم قد يقولون بغير علم. وذلك أنهم إذا قرأوا على المريض ولم يتكلم الجنى على لسانه، قالوا: ليس بك جنى وأنت بك عين، أو ليس بك جنى ولا عين ونحو هذا، ولسان.

حالهم يقول: إننا لانقرأ على مصروع إلا ويلزم أن تخاطبنا الجن وتتكلم فرقاً منا أو من قراءتنا، وليس على هذا إثارة من علم.

قال عزوجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾.

٦- من الملاحظ على القراء أصحاب الكيفية المتقدمة، أنهم يجمعون الفئام من الناس فيقرأون عليهم جميعاً قراءة واحدة حرصاً على كسب الوقت أمام كثرة الزائرين، ثم يدورون على أوعيتهم يتفلون فيها والسلعاب والرضا الذي خالط القراءة قد ينقضى فى الرعاء الأول والثانى فمن أين لهذا القارئ أن لعابه كله مبارك حتى ولو لم يخالط قراءة القرآن وكيف يستجيز أن يتفل فى ماء وعاء أو أكثر بناء على قراءة واحدة؟ وأين الدليل على هذه الصورة من عمل السلف الصالح؟

٧- نظراً لما تدره تلك الكيفية السابقة على أصحابها من أموال طائلة، فقد يقوم بعض المشعوذين والدجالين فيظاهرون بالقراءة، فيفتحون دكاكين لهذا الغرض ويخلطون الحق بالباطل، فيفتح على الناس باب شر كبير، ولا يحصل إنكار على المشعوذين لاختلاط أمرهم بالقراء الذين لا يخلطون مع قراءتهم شعوذة وكهانة فيصعب التمييز، والذرائع المفضية إلى الشر يجب سدها حتى وإن كان قصدُ صاحبها الحق وقد منع عبدالله من مسعود وأصحابه وجمع من العلماء المحققين تعلق القرآن مع أنه كلام الله سداً للذريعة، لئلا يفضى ذلك إلى تعلق التماثم^(١).

وأفتى بهذا التعليل أعضاء اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء فى المملكة فى الفتوى رقم ٩٩٢ وتاريخ ١٣٩٥/٤٢٤هـ^(٢).

٨- إن بعض القراء أصحاب الكيفية المتقدمة الذين يتفرغون للقراءة على الناس،

(١) انظر فتح المجيد ١٣٢ ومعارج القبول ١/٣٨٢ وانظر بحثنا السابق فى ترجيح الراجح فى هذه المسألة.

(٢) انظر مجلة البحوث الإسلامية العدد ٢٥٠ عام ١٤٠٩هـ ص ٤٠.

ويتخذونها حرفة لهم، يظنون أن ذلك من المستحبات، والاستجابات حكم شرعى، وهو عبادة، وهذا قد يجرهم إلى الوقوع فى البدعة فإن من استحب شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ولم يفعله وخلفاؤه الراشدون مع وجود المقتضى له فى عصرهم، قد أتى باباً من البدع. والرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون وإن قرأوا على المرضى وأخذوا الأجرة على ذلك كما تقدم إلا أنهم لم يتفرغوا لهذا الأمر ولم يشتهروا به شهرة واضحة بين الناس ولم يتخذوا ذلك حرفة ومهنة لاكتساب الرزق يقتصرون عليها.

٩- لقد اشتهر بعض الصحابة بإجابة الدعاء كسعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن الذين دعا لهم رسول الله ﷺ بإستجابة الدعاء^(١) وبعض التابعين كأويس القرنى^(٢) رضى الله عنه ومع هذا لم يؤثر أن المسلمين تراحموا على أبوابهم أفواجاً إثر أفواج لطلب الدعاء على حاجة المسلمين إلى إجابة دعائهم فى صلاح دينهم ودنياهم.

١٠- هذا الأمر فيه مفسدة على الناس وخاصة العوام الذين يتعلقون بالقارى أكثر من تعلقهم بالله وبكلامه؛ نظراً لما يرونه من شدة الزحام عليه، الأمر الذى لا يرونه عند كثير من العلماء الصالحاء وفيه مفسدة على القارى نفسه من جهة الشهرة والعجب وابتداع كيفية فى الرقية أهـ.

١١- أن المتفرغ للرقية على الناس فيه مشابهة بالذى يتفرغ للدعاء للناس، فالرقية والدعاء من جنس واحد، فهل يليق بطالب علم أن يقول للناس تعالوا إلى أدعوا لكم!!.

وهذا مخالف لهدى السلف الصالح فقد كان عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم يكرهون أن يطلب منهم الدعاء ويقولون أنبياء نحن^(٣).

١٢ - إن انتشار هذه الظاهرة قد يوهم عوام الناس ومن لا علم عنده بأن هذه الكيفية هى الطريقة الصحيحة للرقية فيظل الناس يطلبون الرقية من غيرهم وتتعطل سنة رقية الأفراد لأنفسهم وانطراحهم بين يدى رب السماوات والأرض وسؤاله الشفاء.

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرک (٤٩٩/٣) عن سعد بن أبى وقاص، وصححه

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة (٨/٣٣٤/٢٢٣).

(٣) انظر الحكم الجدير بالإذاعة لابن رجب ص ٥٤.

فصل

جواب الرقى في الإسلام

قال الخطابي: وكان عليه السلام قد رقى ورقى، وأمر بها وأجازها، فإذا كانت بالقرآن أو بأسماء الله تعالى فهي مباحة أو مأمور بها، وإنما جاءت الكراهية والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفراً، أو قولاً يدخله الشرك. قال: ويحتمل أن يكون الذي يكره من ذلك ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها، وأنها تدفع عنهم الآفات، ويعتقدون ذلك من قبل الجن ومعونتهم.

قلت - يعنى سليمان آل الشيخ -: ويدل على ذلك قول على بن أبى طالب: إن كثيراً من هذه الرقى والتماائم شرك، فاجتنبوه. رواه وكيع، فهذا يبين معنى حديث ابن مسعود ونحوه.

وقال ابن التين: الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله تعالى هو الطب الرباني، فإذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى، فلما عفى عن هذا النوع، فزع الناس إلى الطب الجسماني وتلك الرقى المنهى عنها التي يستعملها المعزم وغيره ممن يدعى تسخير الجن له، فيأتى بأمور مشتبهة مركبة من حق وباطل يجمع إلى ذكر الله تعالى وأسمائه ما يشوبه من ذكر الشياطين والاستعانة بهم والتعوذ بمردتهم. ويقال: إن الحية لعداوتها الإنسان بالطبع تصادق الشياطين لكونهم أعداء بنى آدم، فإذا عزم على الحية بأسماء الشياطين أجابت وخرجت من مكانها وكذا اللدغ إذا رقى بتلك الاسماء سالت سمومها من بدن الإنسان، ولذلك كره الرقى ما لم تكن بآيات الله وأسمائه خاصة، وباللسان العربى الذى يعرف معناه ليكون بريئاً من شوب الشرك. وعلى كراهية الرقى بغير كتاب الله علماء الأمة.

قال شيخ الإسلام: كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقى به، فضلاً عن أن يدعو به ولو عرف معناه، لأنه يكره الدعاء بغير العربية، وإنما يرخص لمن لا يعرف العربية، فأما جعل الألفاظ العجمية شعاراً فليس من الإسلام.

قلت: وسئل ابن عبد السلام عن الحروف المقطعة، فمنع منها ما لا يعرف، لئلا يكون فيه كفر.

وقال السيوطي: قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط: أن يكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربى وبما يعرف معناه، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى، فتلخص أن الرقية ثلاثة أقسام. أهـ. الضابط الأول: - أن لا تكون شركية: روى مسلم فى صحيحة عن عوف بن مالك

الأشجعي، قال: كنا نرقى في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال «أعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك»^(١).

[قلت] وأيضاً لحديث ابن مسعود «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»^(٢).

الضابط الثاني: - ألا تكون الرقية رقية سحرية: وذلك لأن الله - عز وجل - قد حرم السحر، وبين بأنه كفر كما في قوله - عز وجل - «وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ» وقوله تعالى: «وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ» وكما قال موسى للسحرة «مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُّظِلُّهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ».

وقال رسول الله ﷺ «ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له»^(٣).

[قلت] وأيضاً ثبت في الصحيح «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منها «السحر والشرك»^(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: اتفق أكثر العلماء على أن الساحر كافر لقوله تعالى: «وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ».

وثبت قتل الساحر عن عمر وعن حفصة، وعن عثمان، وعن غيرهم. لحديث «حد الساحر ضربة بالسيف»^(٥). وسنده ضعيف، لا يصح مرفوعاً لكن يصح موقوف على حفصة وعمر وغيرهما من الصحابة.

- وأيضاً لأنه محرم وهذا أحسن أقواله. والنبى ﷺ نهى عن التداوى بالمحرم وقال «تداؤوا بالمحرم»^(٦).

- ولأن النبى ﷺ قال «من أتى عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد»^(٧).

الضابط الثالث: - ألا تكون الرقية من عراف أو كاهن ولو لم يكن ساحر: قال رسول الله ﷺ «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»^(٨).

[قلت]: العراف الذى يدعى معرفة الغيب بمقدمات يستدل بها مثلاً على مسروق أو مكان الضالة. وهذا كلام البغوى وقيل هو الكاهن وقيل إن الكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات وقيل الذى يخبر عن ما فى الضمير.

وقال أبو العباس بن تيمية: العراف اسم للكاهن، والمنجم والرمال الذى يضرب

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) سيأتى تخريجه فى باب ما جاء فى الكهان ، ونحوهم.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٨٥٧) ، ومسلم فى الإيمان (٨٢/٢) النووي عن أبى هريرة.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٤٨٦).

(٥) سيأتى تخريجه

(٦) سبق تخريجه

(٧) سيأتى فى باب ما جاء فى الكهان ونحوهم.

(٨) سيأتى تخريجه فى الباب المذكور سابقاً.

الودع ولغيرهم ممن يتكلم في هذه الأمور بهذه الطرق فإذا ذهب للعراف أو الكاهن ليرقيه لهذا لايجوز لما ثبت أن النبي ﷺ قال: «ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له»^(١).

والفرق بين العراف والكاهن والساحر والدجال. إن الدجال ليس له أى أصول لهذه الصنعات.

الضابط الرابع: - أن تكون الرقية بعبارات ومعنى مفهوم:

فإن لم يعقل معناه، وما لا يفهم لا يؤمن أن يكون فيه شرك وما كان مظنة الشرك فلا يجوز تعاطيه.

قال ابن حجر: أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع شروط ثلاثة:

أن يكون بكلام الله تعالى.

أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربى.

أو بما يعرف معناه من غيره. وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بذات الله تعالى^(٢).

[قلت]: الشرط الأول: أن تكون بكلام الله كـ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» وأن تكون بأسمائه وصفاته كقول النبي ﷺ «رب الناس أذهب الباس أشفى أنت الشافى»^(٣).

الشرط الثانى: أن تكون بلسان عربى وهذا ما أقره النبى فى رقية النملة أو العقرب أو ما يعرف معناه وليس (شلشلولت، أو جلجلولت، أو أشتاتأ أشتوت، ولادستور) وقد يكون فيه إستغائة بالجن فتقع فى شرك.

الضابط الخامس: - ألا تكون الرقية بهيئة محرمة: كالجنابة، والحيض، وأمثالها.

[قلت]: ومثال ذلك ما نراه فى واقع المسلمين من أن بعض جهلة النساء تذهب لعراف أو دجال، فيقول لها: تأتى إلى وأنت جنباً أو حائضاً أو نفساء وكأنه يشترط هذه الهيئة للرقية فهذا لايجوز. ولكن هناك هيئة شرعية أقرها الرسول ﷺ كما فى حديث: حديث أبى أمامة بن سهل بن حنيف قال مر عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل فقال لم أركاليوم ولا جلدأ مخبأً فما لبث أن بط به ووقع مغشي عليه صرع فأتى به إلى النبى ﷺ فقيل له أدرك سهلاً صريعاً قال «من تتهمون به» قالوا عامر بن ربيعة فقال ﷺ «علام يقتل أحدكم أخاه إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدعوا له بالبركة» ثم دعى بماء فأمر عامر أن يتوضأ بوضوء معين، وصفة معينة فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه (وداخله إزاره) وأمره أن يصب عليه^(٤).

(١) سيأتى تخريجه.

(٢) فتح البارى (١٠/١٦٦).

(٣) تقدم تخريجه

(٤) تقدم تخريجه.

قيل معناها غسل رجله حتى الركب والفخذ أيضاً وقيل هي كناية عن النصف الأسفل بما فيه الفرج وقيل هي الفخذين.

وقال سفيان: قال معمر عن الزهري: وأمره أن يكفأ الإناء خلفه^(١).

فهذه هيئة مباحة وهذا الكلام مجرب وقال ﷺ في الصحيح «العين حق وإذا استغسلتم فاغسلوا»^(٢) فالمؤمن قد يحسد.

كما سئل الحسن وهل يحسد المؤمن؟ قال ما أنساك أخوة يوسف فهم حسدوه.

الضابط الساس: - أن لا تكون الرقية بعبارات محرمة

[قلت] مثل السب والشتم واللعن ويفعلها كثير من المعالجين عندما يخطب الجن والدليل إن الله عز وجل لم يجعل الدواء في المحرم، وكما قال النبي ﷺ «لاندأوا بالمحرم»^(٣)... الحديث عند أبي داود وغيره.

الضابط السابع: أن لا يظن الراقي والمرقي أن الرقية وحدها تستقل بالشفاء أو دفع المكروه.

* بل لابد من الاعتقاد أن الله عز وجل هو الذي بيده هذه الحكم.

يقول ابن القيم: والأدعية والمعوذات بمنزلة السلاح والسلاح بضاربه لا يحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً حاداً لا آفة فيه، والساعد قوياً والمانع مفقوداً حصلت بها النكايه في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير^(٤).

الضابط الثامن: - ألا تكون من نصراني أو يهودي: أو غير مسلم، لحديث ابن مسعود الحديث الثاني في الباب، وهذا مذهب ابن مسعود رضى الله عنه وهو الراجح، وسيأتى بيانه.

تنبيه هام:

[قلت]: فإن تبينت لك الضوابط للرقية الشرعية، فلنأخذ أن يقول: علمنا ما جاء عن الشرع، وعملنا به، لكن: هناك رقي شرعية لم تثبت عن الشرع، استخدمناها من القرآن الكريم، لعموم قول الله تعالى: «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين»، فما الحكم؟

الجواب تقدم مفصلاً. فلا يكفي معرفة الضوابط فحسب بل بالإضافة إلى هذه المسألة فيستقيم الأمر للراقي.



(١) تقدم تخريجه

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في السلام (١٤/ ١٧١- النووي) عن ابن عباس به.

وانظر «الطب النبوي» للذهبي (٥٤٤- بتخريجنا) ..

(٣) تقدم تخريجه. (٤) الجواب الكافي (١٤).

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ
(ﷺ) فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا: «أَنْ لَا يَبْقَيْنَ فِي رَقَبَةٍ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ
وَتَرَأَوْ قِلَادَةً إِلَّا قُطِعَتْ».

«قال مالك وهو أحد رواة الحديث: أرى ذلك من العين»^(١).

● قوله: [في الصحيح: عن أبي بشير الأنصاري رضى الله عنه أنه كان مع رسول الله
(ﷺ) ...]

ولفظه في الصحيح عن عباد بن تميم عن أبي بشير الأنصاري رضى الله عنه؛ أَنَّهُ كَانَ
مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا: «أَنْ لَا يَبْقَيْنَ فِي رَقَبَةٍ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ
وَتَرَأَوْ قِلَادَةً إِلَّا قُطِعَتْ».

وبوب عليه البخاري باب ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل.

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوي^(٢): حيث دلَّ الحديث على تحريم تعليق القلائد لدفع الضرر. أهـ.

● مناسبة الحديث لكتاب التوحيد.

قال القرعاوي^(٢): حيث دلَّ الحديث على أن مثل هذا العمل شرك لأن دفع الضرر
من الأفعال التي يختص بها الله. أهـ.

قوله «في الصحيح» أى في الصحيحين.

قوله (عن أبي بشير) ولفظه في الصحيح أن أبا بشير الأنصاري أخبره

قال ابن حجر^(٣) قوله إن أبا بشير الأنصاري أخبره. ليس لأبي بشير وهو بفتح

(١) وقول مالك لم نجده عند أحد من شراح كتاب التوحيد أنه في المتن إلا سليمان آل الشيخ.

والحديث [متفق عليه] رواه البخاري في الجهاد (٣٠٠٥) ومسلم في اللباس (١٠٥/٣٤٧/٧) واللفظ والتمة
له. وتقدم تخريجه عند ذكر الأدلة على تحريم التمايم وانظر «فتح المجيد» (ح ١٨٩) بتخريجنا.

(٢) الجديد (٩٠).

(٣) الفتح ١٦٤/٦.

ثم معجزة في البخاري غير هذا الحديث الواحد، وقد ذكره الحاكم أبو أحمد فيمن لا يعرف اسمه، وقيل اسمه قيس بن عبد الحريز بمهمات مصغر ابن عمرو، ذكر ذلك ابن سعد وساق نسبه إلى مازن الأنصاري، وفيه نظر لأنه وقع في رواية عثمان بن عمر عن مالك عند الدراقطني نسبه أبي بشير ساعدياً، فإن كان قيس يكنى أبا بشير أيضاً فهو غير صاحب هذا الحديث، وأبو بشير المازني هذا عاش إلى بعد الستين وشهد الحرة وجرح بها ومات من ذلك.

قوله: أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفارة

قال ابن حجر (١): «قوله (في بعض أسفاره) لم أقف على تعيينها.

قال ابن عثيمين (٢): السفر: مفارقة محل الإقامة، وسمى سفراً؛ لأمرين:

الأول: حسي، وهو أنه يسافر ويظهر عن بلده لخروجه من البيت.

الثاني: معنوي، وهو أنه يسافر عن أخلاق الرجال؛ أي: يكشف عنها وكثير من الناس لا تعرف أخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم إلا بالأسفار.

قوله: فأرسل رسولا.

قال ابن حجر (٣) قوله: (فأرسل) قال ابن عبد البر: في رواية روح بن عبادة عن

مالك «أرسل مولاة زيداً قال ابن عبد البر: وهو زيد بن حارثة فيما يظهر لي.

قوله: «أن لا يقيين»

قال سليمان آل الشيخ (٤). قوله: أن لا يقيين. هو بالمشاة والقاف المفتوحتين؛ وفي

رواية لاتبقيين بحذف أن والمشاة الفوقية والقاف المفتوحتين أيضاً.

قوله: في رقبة بعير من وتر أو قلادة إلا قطعت»

قال ابن حجر (٥):

قوله (في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة) كذا هنا بلفظ «أو» هي للشك أو للتنوع،

(١) الفتح ١٦٤/٦

(٢) القول المفيد ١ / ٢٢٥

(٣) الفتح ١٦٤ / ٦

(٤) تيسير العزيز الحميد (١١٨)

(٥) الفتح ١٦٤ / ٦ و ١٦٥.

ووقع فى رواية أبى داود عن القعنبي بلفظ «ولاقلادة» وهو من عطف العام على الخاص، وبهذا جزم المهلب، ويؤيد الأول ما روى عن مالك أنه سئل عن القلادة فقال: ماسمعت بكراحتها إلا فى الوتر.

وقوله (وتر) بالثناة فى جميع الروايات، قال ابن الجوزي: ربما صحف من لاعلم له بالحديث فقال وبر بالموحدة.

قلت - أى ابن حجر: حكى ابن التين أن الداودى جزم بذلك وقال: هو ما ينتزع عن الجمال يشبه الصوف، قال ابن التين: فصحف.

قال ابن الجوزي: وفى المراد بالأوتار ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم كانوا يقلدون الإبل أوتار القسي لثلاث تصيها العين بزعمهم، فأمرؤا بقطعها إعلماً بأن الأوتار لا ترد من أمر الله شيئاً، وهذا قول مالك.

قلت - أى ابن حجر -: وقع ذلك متصلاً بالحديث من كلامه فى الموطأ وعند مسلم وأبى داود وغيرهما، قال مالك: أرى أن ذلك من أجل العين، ويؤيده حديث عقبة بن عامر رفعه «من علق قميمة فلا أتم الله له»^(١) أخرجه أبو داود أيضاً. والقميمة ماعلق من القلائد خشية العين ونحو ذلك.

قال ابن عبد البر: إذا اعتقد الذى قلدها نها ترد العين فقد ظن أنها ترد القدر وذلك لا يجوز اعتقاده.

ثانيها: النهى عن ذلك لثلاث ختن الدابة بها عند شدة الركض، ويحكى ذلك عن محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة، وكلام أبى عبيد يرجحه فإنه قال: نهى عن ذلك لأن الدواب تتأذى بذلك ويضيق عليها نفسها ورعيها، وربما تعلقت بشجرة فاختنقت أو وتعوقت عن السير.

ثالثها: أنهم كانوا يعلقون فيها الأجراس حكاها الخطابي وعليه يدل تبويب البخاري.

وقد روى أبو داود والنسائي من حديث أم حبيبة أم المؤمنين مرفوعاً «لا تصحب الملائكة رفقة فيها جرس»^(٢) وأخرجه النسائي عن أم سلمة أيضاً^(٣)، والذى يظهر أن البخاري أشار إلى ما ورد فى بعض طرفه، فقد أخرجه الدارقطني من طريق عثمان بن عمر المذكور بلفظ «لا تبقين قلادة من وتر ولا جرس فى عنق بعير إلا قطع».

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» ٣٢٦/٦٠، وأبو داود (٢٥٥٤)، والنسائي فى «الكبرى» (٨٨١١).

(٣) [صحيح] أخرجه النسائي فى «الكبرى» (٨٨١٣) عن أم سلمة به والحديث فى مسلم فى اللباس والزينة (٩٤/١٤) - النووى (عن أبى هريرة أيضاً).

قلت أى الحافظ: ولا فرق بين الإبل وغيرها فى ذلك، إلا على القول الثالث فلم
تجر العادة بتعليق الأجراس فى رقاب الخيل.

وقد روى أبوداود والنسائى من حديث أبى وهب الجيشانى رفعه «اربطوا الخيل
وقلدوها، ولا تقلدوها الأوتار»^(١) فدل على أن لا اختصاص للإبل، فلعل التقييد بها فى
الترجمة للغالب. وقد حمل النضر بن شميل الأوتار فى هذا الحديث على معنى الثار
فقال: معناه لا تطلبوا بها ذحول الجاهلية.

قال القرطبي: وهو تأويل بعيد. وقال الثوري: ضعيف.

والى نحو قول النضر جنح وكيع فقال: المعنى لا تركبوا الخيل فى الفتن، فإن من
ركبها لم يسلم أن يتعلق به وتر يطلب به.

والدليل على أن المراد بالأوتار جمع الوتر بالتحريك لا الوتر بالإسكان ما رواه أبو
داود أيضا من حديث رويفع بن ثابت رفعه «من عقد لحيته أو تقلد وترأ فإن محمداً
بريء منه»^(٢) فإنه عند الرواة أجمع بفتح المثناة.

والجرس بفتح الجيم والراء ثم مهملة معروف، و حكى عياض إسكان الراء والتحقيق
أن الذى بالفتح اسم الآلة وبالإسكان اسم الصوت.

وروى مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبى هريرة رفعه «الجرس مزمار
الشیطان»^(٣) وهو دال على أن الكراهية فيه لصوته لأن فيها شبهاً بصوت الناقوس
وشكله قال النووي وغيره: الجمهور على أن النهى للكراهة وأنها كراهة تنزيه، وقيل
للتحريم، وقيل يمنع منه قبل الحاجة، ويجوز إذا وقعت الحاجة. وعن مالك تختص
الكراهة من القلائد بالوتر، ويجوز بغيرها إذا لم يقصد دفع العين. هذا كله فى تعليق
التمائم وغيرها مما ليس فيه قرآن ونحوه، فأما ما فيه ذكر الله فلانهى فيه فإنه إنما يجعل
للتبرك به والتعوذ بأسمائه وذكره.

وكذلك لانهى عما يعلق لأجل الزينة مالم يبلغ الخيلاء أو السرف - وتقدم معنا
بحث التمام بالقرآن والأذكار النبوية وقدمنا الراجح فى المسألة فانظرها -.

واختلفوا فى تعليق الجرس أيضاً.

ثالثها: يجوز بقدر الحاجة، ومنهم من أجاز الصغير منها دون الكبير. وأغرب ابن

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سيأتى تخريجه فى باب ما جاء فى الرقى والتمائم.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى اللباس والزينة (١٤/٩٤ - النووي) عن أبى هريرة وانظر «رياض
الصالحين» (١٦٩٣ - بتخريجنا).

حبان فزعم أن الملائكة لاتصحب الرفقة التي يكون فيها الجرس إذا كان رسول الله ﷺ فيها أهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: أو قلادة إلا قطعت. هو برفع قلادة أيضاً، عطف على الأول، ومعناه أن الراوى شك، هل قال شيخه قلادة من وتر؟ فقيد القلادة بأنها من وتر، وقال قلادة وأطلق ولم يقيد. ويؤيده ما روى عن مالك أنه سئل عن القلادة فقال: ما سمعت بكراهتها إلا فى الوتر. وفى رواية أبى داود: «ولا قلادة» بغير شك، والأولى أصح لاتفاق الشيخين عليها، وللرخصة فى القلائد، إلا الأوتار.

وكما روى أبو داود والنسائى من حديث أبى وهب الجيشانى مرفوعاً «اربطوا الخيل وقلدوها، ولا تقلدوها الأوتار»^(٢) ولأحمد عن جابر مرفوعاً مثله^(٣) وإسناده جيد.

قال البغوى فى «شرح السنة» تأول مالك أمره عليه السلام بقطع القلائد على أنه من أجل العين، وذلك أنهم كانوا يشدون بتلك الأوتار والتمايم والقلائد، ويعلقون عليها العوذ، يظنون أنها تعصم من الآفات، فنهاهم النبي ﷺ عنها، وأعلمهم أنها لاترد من أمر الله شيئاً.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: كانوا يلقدون الإبل الأوتار لئلا تصيبها العين، فأمرهم النبي ﷺ بإزالتها إعلاماً لهم بأن الأوتار لا ترد شيئاً، وكذلك قال ابن الجوزى وغيره. أهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «قلادة من وتر، أو قلادة». شك من الراوى، والأولى أرجح؛ لأن القلائد كانت تتخذ من الأوتار، ويعتقدون أن ذلك يدفع العين عن البعير، وهذا اعتقاد فاسد؛ لأنه تعلق بما ليس بسبب، وقد سبق أن التعلق بما ليس بسبب شرعى أو حسى شرك؛ لأنه بتعلقه أثبت للأشياء سبباً لم يشبهه الله لا بشرعه ولا بقدره، ولهذا أمر النبي ﷺ أن تقطع هذه القلائد.

أما إذا كانت هذه القلادة من غير وتر، وإنما تستعمل للقيادة كالزمام؛ فهذا لا بأس به لعدم الاعتقاد الفاسد، وكان الناس يعملون ذلك كثيراً من الصوف أو غيره.

(١) تيسير العزيز الحميد ١١٨

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٥٢/٣) عن جابر به.

(٤) القول المفيد ١/ ٢٢٥، ٢٢٦.

قوله «فى رقبه بعير».

ذكر البعير؛ لأن هذا هو الذى كان منتشرأ حينذاك؛ فهذا القيد بناءً على الواقع عندهم؛ فيكون كالتمثيل، وليس بمخصص. أهـ.

قال حامد بن محمد بن محمد بن حسن^(١): فإن القلادة التى للزينة ليست من الشرك ولكنه مظنة للشرك، لأنه يشبه التماثم فى التعليق وأنه ﷺ نهى عنها مطلقاً.

فإن قلت من أين يعرف الإطلاق؟ قلت: من قوله ﷺ (أو قلادة) بالتنكير والنكرة بعد النفى تفيد العموم، وأيضاً أنه ﷺ قيد أولاً وقال: «لا يقيّن فى رقبه بعير قلادة من وتر» ثم أطلق وقال: أوقلادة نهياً للمشابهة ومظنة الشرك.

قال ابن عثيمين^(٢): يستفاد من الحديث.

١- أنه ينبغى لكبير القوم أن يكون مراعيأ لأحوالهم؛ فيتفقدهم وينظر فى أحوالهم.
٢- أنه يجب عليه رعايتهم بما تقتضيه الشريعة: فإذا فعلوا محرماً منعهم منه، وإن تهاونوا فى واجب حثهم عليه.

٣- أنه لايجوز أن تعلق فى أعناق الإبل أشياء تجعل سببأ فى جلب منفعة أو دفع مضرة، وهى ليست كذلك لاشرعأ ولاقدرأ؛ لأنه شرك، ولايلزم أن تكون القلادة فى الرقبة، بل لو جعلت فى اليد أو الرجل؛ فلها حكم الرقبة؛ لأن العلة هى هذه القلادة، وليس مكان وضعها؛ فالمكان لا يؤثر.

٤- أنه يجب على من يستطيع تغيير المنكر باليد أن يغيره بيده. أهـ.

قال الفقير: ومن الفوائد أيضاً: أنه على كبير القوم أن يتفقد رعيته وينظر فى الأمور التى تمنع من دخولهم الجنة كما قيل فى معنى الخليفة «أنه يخلف النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به» فيتفقد فى أمورهم فى الدنيا وفى الدين أولاً.

وقد فعل ذلك الخلفاء الراشدين، ومعاوية كان إذا رأى منكراً خرج على المنبر وقال يا أهل المدينة أين علماؤكم فوالله ماهلك بنو إسرائيل إلا عندما ظهر ذلك فى نسائهم^(٣). وقال: على رضى الله عنه: أين علماؤكم فإن نساكم خرجن يخالطن العلوج فى الأسواق.

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٠٥).

(٢) القول القيد: (١/٢٢٥، ٢٢٦).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٩٣٢)، ومسلم فى اللباس (٧/٣٥٨/١٢٢) عن معاوية به.

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقْيَ وَالْتِمَامَ وَالتَّوَلَّهَ شِرْكٌ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ. (١).

- وفيه سرعة إخبار رسول رسول الله ﷺ بأوامر الرسول ﷺ.

- وفيه آداب الصحابة فى تنفيذ أوامر الرسول حيث لا يسألوا عن السبب، وقد كانوا لا ينتظرون السبب بل إذا رأوه يفعل فعلوا كما جاء فى الصلاة أنه خلع نعله فخلعوا نعالهم وقلنا فى تفسير قوله «يعلم خائنه الأعين وما تخفى الصدور» أورد ابن كثير أن النبى كان قد أهدر دم بعض الكفار فلما جاء يتحلل لكى يعفو عنه - النبى فسكت النبى ﷺ ثم فى النهاية من كرمه عفى عنه فقال: «هلا قام أحدكم قبل أن أعفوا عنه فيضرب عنقه»، فقالوا يارسول الله هلا أومأت لنا فقال: «ماكان لنبى أن يكون له خائنة الأعين» (٢).



قوله: [وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»].

قال سليمان الشيخ (٣): الحديث، رواه أحمد، وأبو داود، كما قال المصنف، وفيه قصة كأن المصنف اختصرها.

ولفظ أبى داود: عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود أن عبدالله بن مسعود رأى فى عنقى خيطاً. فقال: ما هذا: قلت: خيط رقى لى فيه. قالت: فأخذته فقطعه ثم قال: أنتم آل عبدالله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم شرك» فقلت: لم تقول هذا؟ لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي، فإذا رقاها سكنت: فقال عبدالله: إنما ذلك عمل الشيطان ينخسها بيده، فإذا رقى كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولى كما كان رسول الله ﷺ يقول: «أذهب البأس رب الناس وأشف أنت الشافى لاشفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً» (٤). ورواه ابن ماجه وابن حبان، والحاكم قال: صحيح وأقره الذهبي.

وقال سليمان آل الشيخ أيضاً: وفيه عن أنس قال: رخص رسول الله ﷺ فى الرقية من العين والحمة والنملة (٥).

(١) تقدم تخريجه فى أول هذا الباب.

(٢) [حسن صحيح] أخرجه أبو داود (٢٦٨٣)، والنسائي (١٠٥٧) - السيوطي عن سعد بن أبى وقاص.

(٣) تيسير العزيز الحميد (١١٩). (٤) تقدم تخريجه. فى أول هذا الباب.

(٥) تقدم تخريجه.

.....
وعن عمران بن حصين مرفوعاً: «لارقية إلا من عين أو حمة أو دم» (١). رواه أبو داود.

● مناسبة الحديث للباب والتوحيد:

قال عبدالله بن جابر الله (٢). أفاد أن عمل هذه الأشياء والاعتقاد بها شرك أهـ.
قال القرعاوي (٣). حيث دل الحديث على أن الرقى غير المشروعة والتمايم والتولة من الشرك.

قال شمس الحق آبادي (٤). قالت زينب (لم تقول هذا) أى وتأمرنى بالتوكل وعدم الاسترقاء فإنى وجدت فى الاسترقاء فائدة (لقد كانت عيني تقذف) على بناء المجهول أى ترمى بما يهيج الوجع، وبصيغة الفاعل أى ترمى بالرمص أو الدمع وهو ماء العين من الوجع، والرمص - بالصاد المهملة - ماجمد من الوسخ فى مؤخر العين قاله القاري.
(فكنت اختلف) أى اتردد بالرواح والمجيء.

(سكنت) أى العين وجعها.

(إنما ذلك) بكسر الكاف.

(عمل الشيطان) أى من فعله وتسويله، والمعنى أن الوجع الذى كان فى عينيك لم يكن وجعاً فى الحقيقة بل ضرب من ضربات الشيطان ونزغاته (كان) أى الشيطان (ينخسها) بفتح الحاء المعجمة أى يطعنها قاله القاري.

وفى «فتح الودود» من باب نصر أن يحركها ويؤذيها.

(فإذا رقاها) أى إذا رقى اليهودى العين (كف) الشيطان (عنها) أى عن نخسها وترك طعنها.

(أن تقولى) أى عند وجع العين ونحوها.

(أذهب) أمر من الإذهاب أى أزل (البأس) أى الشدة (رب الناس) أى ياخالقهم ومربيهم (أنت الشافي) يؤخذ منه جواز تسمية الله تعالى بما ليس فى القرآن بشرطين

(١) تقدم تخريجه .

(٢) الجامع الفريد ٤٢ .

(٣) الجديد ٩٢ .

(٤) عون المعبود ١٠ / ٥ / ٢٦٣ .

أحدهما أن لا يكون في ذلك ما يوهم نقصاً والثاني أن يكون له أصل في القرآن وهذا من ذلك، فإن في القرآن ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ قاله في الفتح (١).

(الشفاء) بالمد مبنى على الفتح وخبره محذوف أى لاشفاء حاصل لنا أولاً إلا بشفائك قاله العيني.

(إلا شفاؤك) بالرفع بدل من موضع لاشفاء قاله العيني.

(شفاء) بالنصب على أنه مصدر لقوله اشف.

(لا يغادر سقماً) هذه الجملة صفة لقوله شفاء ومعنى لا يغادر لا يترك (سقماً) وبفتحتين مفعوله ويجوز ضم السين وتسكين القاف أى مرضاً (٢).

قوله: «أن الرقى»

قال شمس الحق (٣). (إن الرقي) بضم الراء وفتح القاف مقصور جمع رقية.

قال الخطابي: وأما الرقى فالمنهى عنه هو ما كان منها بغير لسان العرب فلا يدرى ما هو ولعله قد يدخله سحراً أو كفراً، وأما إذا كان مفهوم المعنى وكان فيه ذكر الله سبحانه فإنه مستحب متبرك به والله أعلم. أهـ وتقدم معنا كلام الخطابي وغيره من أهل العلم في ضوابط الرقي.

قال سليمان آل الشيخ (٤): قوله: (إن الرقي). قال المصنف: الرقى هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحة. يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركاً هي الرقية التي منها شرك، من دعاء غير الله، والاستغاثة والاستعاذة به كالرقى باسماء الملائكة والأنبياء والجن ونحو ذلك، أما الرقى بالقرآن وأسماء الله وصفاته ودعائه والاستعاذة به وحده لا شريك له، فليست شركاً، بل ولا ممنوعة، بل مستحبة أو جائزة.

(١) فتح الباري (٢١٧/١٠) قلت: بل أسماء الله توقيفية ولا يجوز إشتقاقه إسماً لله من بعض أفعاله إلا إذا ثبت هذا الاسم في القرآن أو في السنة.

(٢) قال المنذري: والحديث أخرجه ابن ماجه عن ابن أخت زينب عنها وفي نسخة عن أخت زينب عنها وفيه قصة والراوى عن زينب مجهول.

(٣) عون المعبود (٥/ ١٠/ ٢٦٢).

(٤) تيسير العزيز الحميد ١١٩، ١٢١.

وقوله: «فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة» تقدم ذلك فى باب من حقق التوحيد وكذلك ورخص فيه من غيرها كما فى (صحيح مسلم) عن عوف بن مالك قال:

كنا نرقى فى الجاهلية فقلن: يارسول الله كيف ترى فى ذلك فقال: «أعرضوا على رفاقكم لأبأس بالرقى، ما لم يكن فيه شرك» (١). أهـ.

قال الفقير: فى هذا الحديث: أن تحقيق النفع والمصلحة لا يكون حجة ولا مسوغ لصحة العمل وكذا لو لم يأتى بآثار طيبة لا يكون طعن فى العمل فالفساد والصحة مرجعه للدليل، فإذا ثبت الدليل فهذا العمل شرعى حتى ولو لم يترتب عليه أثر طيب أو كبير نفع، فلو أن رجلاً مسحوراً قلت له: اقرأ البقرة، فإذا قرأ زاد تعبته، فذهب لدجال أو ساحر فوصف له رقية شركية فرقى بها فسكن وشعر بتحسن.

فهل معنى هذا أن قراءة سورة البقرة غير شرعية والرقية السحرية شرعية؟!

وهل معنى أن الشرك هنا نافع أنه شرعى أو جائز بل الأمر كما قال ابن مسعود إنما ذلك من الشيطان، فالشيطان قد يشعر الإنسان ببعض البرء والشفاء عند تعاطيه أسباب شركية حتى يلبس عليه ويزين له الباطل.

● أنواع الرقية من حيث قبل وقوع البلاء وبعد وقوعه.

أولاً: رقية لدفع البلاء بعد وقوعه ومن أدلتها.

(١) عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاها جبريل عليه السلام قال: بسم الله يبريك ومن كل داء يشفيك ومن شر حاسد إذا حسد وشر كل ذي عين (٢).

[قلت] والحديث فيه دليل على أن الرقى من كل مرض لا تختص بمرض دون مرض. فالرسول ﷺ (كان إذا اشتكى) فهنا مطلق الشكوى، وليس شكوى بعينها، وقوله (كل) داء فكل من ألفاظ العموم.

(٢) عن أبى سعيد أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد اشتكيت قال نعم قال: «بسم الله أرويك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك بسم الله أرويك» (٣).

(٣) وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذتين، فلما مرض مرضه الذى مات فيه جعلت أنفث عليه وأمسحه بيد نفسه لأنها كانت أعظم بركة من يدي (٤).

(١) تقدم تخريجه. (٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (٧/٤٢٤/٣٩) ..

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى «السلام» (٧/٤٢٤/٤٠) وانظر «الأذكار» للنووى بتخريجنا.

(٤) تقدم تخريجه.

[قلت] النفث: هو النفخ بغير رذاذ. التفل برذاذ.

(٤) حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي.

أنه شكى إلى رسول الله ﷺ فقال له الرسول «ضع يدك على الذي تألم من جسمك
وقل «بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»^(١).
ثانياً: رقية لدفع البلاء قبل وقوعه.

(١) ما رواه البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنه قال كان النبي ﷺ يعوذ الحسن
والحسين ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق أعوذ بكلمات الله التامة
من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة»^(٢).

فائدة: [قلت] وهذا الحديث وغيره يرد على من يقول أن الرقى المنوعة فى حديث
لايسترقون^(٣) هى الرقى قبل وقوع البلاء» وهذا كلام ابن قتيبة وغيره قال لأنه يدافع القدر
والقدر لا يدافع فمعنى ذلك على هذا الفهم لايجوز أن تأخذ التطعيم «تطعيم الأطفال»
لأنه دواء قبل وقوع الداء لكن هذا الكلام يرده هذا الحديث وغيره.

(٢) روى البخارى عن النبي ﷺ أنه كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم
نفث فيهما «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» ثم يمسح
بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده يفعل ذلك
ثلاث مرات^(٤).

(٣) ما رواه مسلم فى «صحيحه» قال ﷺ: «إذا نزل أحدكم منزلاً فليقل: أعوذ
بكلمات الله التامات من شر ما خلق، فإنه لا يضر شيء حتى يرتحل منه»^(٥).

(٤) ما رواه الإمام أحمد عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: قال رسول الله
ﷺ: «من قال فى أول يومه أو فى أول ليلته: بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شيء فى
الأرض ولا فى السماء، وهو السميع العليم، ثلاث مرات، لم يضره شيء فى ذلك اليوم
أو فى تلك الليلة»^(٦).

وغير هذه الأحاديث كثير فى المعنى نفسه.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٣٧١) وانظر «الطب النبوى» للذهبي (٥٤٠ بتحقيقنا).

(٣) تقدم تخريجه فى باب من حقق التوحيد. (٤) تقدم تخريجه.

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء (٣١/١٧) - النووى) عن خولة بنت حكيم به ، وانظر
الأذكار للنووى (٥٦٣- بتخریجنا).

(٦) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٧٢/١) وأبو داود (٣٣٨٨)، والنسائى فى «الكبرى» (٩٨٤٣) وابن
ماجه (٣٨٦٩) عن عثمان به، وانظر «الطب النبوى» للذهبي (٥٠٩- بتحقيقنا).

قال ابن باز^(١) الرقى فيها تفصيل فتجوز بثلاثة شروط

الأول: أن يكون بلسان مفهوم المعنى بالآيات والدعوات المعروفة .

الثاني: أن لا يخالف ذلك المعنى، الشرع .

الثالث: أن لا يعتقد أنها تنفع بسببها وفي الحديث (لا بأس بالرقية ما لم تكن شركاً)^(٢)

أهـ. كذا قال في هذا الموضع وتقدم تفصيل ذلك بإطالة في فصل ضوابط الرقى .

قال بن عثيمين^(٣): قوله «أن الرقى» جمع رقية، وهذه ليست على عمومها، بل هي عام أريد به خاص، وهو الرقى بغير ماورد به الشرع، أما ماورد به الشرع؛ فليست من الشرك، قال ﷺ في الفاتحة: «وما يدريك أنها رقية».

وهل المراد بالرقى في الحديث ما لم يرد به الشرع ولو كانت مباحة، أو المراد ما كان فيه شرك؟

الجواب: الثاني ؛ لأن كلام النبي ﷺ لا يناقض بعضه بعضاً؛ فالرقى المشروعة التي ورد بها الشرع جائزة .

وكذا الرقى المباحة التي يرقى بها الإنسان المريض بدعاء من عنده ليس فيه شرك جائزة أيضاً. أهـ.

وتقدم في تقسيم الرقية إلى شرعية وقدرية بحث المسألة بإطالة، فليُرجع إليها .

قوله (والتماثم) قال شمس الحق^(٤) . والتماثم جمع التيمة وهي التعويذة التي لا يكون فيها أسماء الله تعالى وآياته المتلوة والدعوات الماثورة تعلق على الصبي . قال في النهاية: التماثم جمع تيمة وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم يتقون بها العين في زعمهم فأبطلها الإسلام . أهـ.

وانظر زيادة تعريفها في أول الباب

قال سليمان آل الشيخ^(٥) .

قوله : والتماثم . تقدم كلام المنذرى وابن الأثير في معناه وظاهر تخصيص التماثم بما ذكره . وقال المصنف التماثم شيء يعلق على الأولاد من الجين . وقال الخلخالى :

(١) التعليق (٩٩، ٧٠)

(٢) تقدم تخريجه

(٣) القول المفيد ١/ ٢٢٦، ٢٢٧ .

(٤) عون المعبود ٥/ ١٠ / ٢٦٢ .

(٥) تبصير العزيز الحميد ١٢١، ١٢٢

التمايم جمع تيممة وهى ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام لدفع العين، وهذا منهى عنه، لأنه لادافع إلا الله، ولا يطلب دفع المؤذيات إلا بالله، وأسمائه وصفاته، وظاهره أن ما علق لدفع العين وغيرها فهو تيممة من أى شىء كان، وهذا هو الصحيح. وقد يقال: إن كلام المنذرى وابن الأثير وغيرهما لا يخالفه. قال المصنف: لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهى عنه، منهم ابن مسعود. أهـ.

وتقدم بحث ذلك فى [حكم تعليق التمايم من القرآن والأدعية النبوية] فى هذا الباب، واستفضنا فيه بما يغنى عن إعادته هنا.

قال ابن عثيمين فى قول المصنف (التمايم):

فسرها المؤلف بقوله: «شىء يعلق على الأولاد يتقون به العين»، وهى من الشرك؛ لأن الشارع لم يجعلها سبباً تنقئ به العين (١).

وإذا كان الإنسان يلبس أبنائه ملابس رثة وبالية خوفاً من العين؛ فهل هذا جائز؟
الظاهر أنه لا بأس به؛ لأنه لم يفعل شيئاً، وإنما ترك شيئاً، وهو التحسين والتجميل لقول يعقوب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام «يا بنى لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة» فهو قصد ابعاد وعدم إثارة حساد لمنظر الأبناء والأعجاب بهذا المنظر.
ثم قال ابن عثيمين وقد ذكر ابن القيم فى «زاد المعاد» أن عثمان رأى صبيّاً مليحاً، فقال: دسموا نونته، والنونة: هى التى تخرج فى الوجه عندما يضحك الصبى كالنقرة، ومعنى دسموا؛ أى: سودوا.

وأما الخط: وهى أوراق من القرآن تجمع فى جلد ويخاط عليها، يلبسها الطفل على يده أو رقبته؛ ففيها خلاف بين العلماء.

وظاهر الحديث: أنها ممنوعة، ولا تجوز.

ومن ذلك أن بعضهم يكتب القرآن كله بحروف صغيرة فى أوراق صغيرة، ويضعها فى صندوق صغير، ويعلقها على الصبى، وهذا مع أنه محدث؛ فهو إهانة للقرآن الكريم؛ لأن هذا الصبى سوف يسيل عليه لعابه، وربما يتلوث بالنجاسة، ويدخل به الحمام والأماكن القدرة، وهذا كله إهانة للقرآن.

(١) وهو ما يطلق عليه المصريون اسم (الحجاب) لحفظ الأولاد من الحسد، كأنه يحجبهم عن عين إلى

سد فلا يقع.

ومع الأسف أن بعض الناس اتخذوا من العبادات نوعاً من التبرك فقط؛ مثل ما يشاهد من أن بعض الناس يمسح الركن اليماني، ويمسح به وجه الطفل و صدره، وهذا معناه أنهم جعلوا مسح الركن اليماني من باب التبرك لا التعبد، وهذا جهل، وقد قال عمر في الحجر: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» (١). أهـ. وتقدم [حكم تعليق التمام من القرآن والأدعية] فانظره.

قوله «والتولة».

قال شمس الحق (٢).

(والتولة) قال الخطابي يقال إنه ضرب من السحر قال الأصمعي: وهي الذي يحجب المرأة إلى زوجها انتهى.

قال القاري: والتولة بكسر التاء وتضم وفتح الواو نوع من السحر أو خيط يقرأ فيه من السحر أو قرطاس يكتب فيه شيء من السحر للمحبة أو غيرها.

وذكر نحو ذلك الشيخ سليمان آل الشيخ فقال (٣).

(قوله: والتولة شرك. قال المصنف: هو شيء يصنعونه يزعمون أنه يحجب المرأة إلى زوجها، والزوج إلى امرأته، وكذا قال غيره أيضاً وبهذا فسر ابن مسعود راوى الحديث كما في «صحيح ابن حبان» والحاكم. قالوا: يا أبا عبد الرحمن هذه الرقى والتمائم قد عرفناها، فما التولة؟! قال شيء يضعه النساء يتجبن إلى أزواجهن (٤) قال الحافظ: التولة بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً: شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر، وإنما كان ذلك من الشرك، لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله. أهـ.

قال ابن عثيمين (٥).

قوله: «التولة»

شيء يعلقونه على الزوج، يزعمون أنه يحجب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى امرأته، وهذا شرك؛ لأنه ليس بسبب شرعي ولا قدرى للمحبة.

(١) تقدم تخريجه

(٢) عود المعبود ١٠ / ٥ / ٢٦٢، ٢٦٣.

(٣) تيسير العزيز الحميد (١٢٢).

(٤) تقدم تخريجه

(٥) القول المفيد (١/ ٢٢٨، ٢٢٩)

ومثل ذلك الدبلة.

والدبلة: خاتم يشتري عند الزواج يوضع فى يد الزوج، وإذا ألقاه الزوج؛ قالت المرأة: أنه لا يحبها؛ فهم يعتقدون فيه النفع والضرر، ويقولون: إنه مآدام فى يد الزوج؛ فإنه يعنى أن العلاقة بينهما ثابتة، والعكس بالعكس، فإذا وجدت هذه النية فإنه من الشرك الأصغر، وإن لم توجد هذه النية - وهى بعيدة ألا تصحبها -؛ ففيه تشبه بالنصارى، فإنها مأخوذة منهم.

وإن كانت من الذهب؛ فهى بالنسبة للرجل فيها محذور ثالث، وهو لبس الذهب؛ فهى إما من الشرك، أو مضاهاة النصارى، أو تحريم النوع إن كانت للرجال، فإن خلت من ذلك؛ فهى جائزة لأنها خاتم من الخواتم.

قوله «شرك»

قال شمس الحق: أى كل واحد منها قد يفضى إلى الشرك إيجابياً وإما خفياً. قال القاضى: وأطلق الشرك عليها إما لأن المتعارف منها فى عهده ما كان معهوداً فى الجاهلية وكان مشتملاً على ما يتضمن الشرك أو لأن اتخاذها يدل على اعتقاد تأثيرها وهو يفضى إلى الشرك.

قال ابن عثيمين (١).

قوله: «شرك».

وهل هى شرك أصغر أو أكبر؟

نقول: بحسب ما يريد الإنسان منها إن اتخذها معتقداً أن المسبب للمحبة هو الله؛ فهى شرك أصغر، وإن اعتقد أنها تفعل بنفسها؛ فهى شرك أكبر. وقد تقدم هذا القول فى المقدمة فليرجع إليه. أهـ

قال الفقير: فالتولة نعمة للمحبة. والله كما لم يلجئنا للاستعانة بالسحر لاستخراج الجن فكذلك لم يلجئنا إلى الاستعانة بالتولة لكى تحب المرأة زوجها فيها، بل هناك من السحر الحلال ما يغنينا عن السحر المحرم.

فالمرأة لو امتثلت للشرع سيضعها الرجل فى عينيه، وكذلك الرجل فإن فعل ما عليه ولم تحبه فليعلم أنه لا خير فيها، أو لاخير فيه لها، والله سيبدله خيراً منها.

(١) القول المفيد ٢٢٩/١.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَكِيمٍ مَرْفُوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وَكِلَإٍ إِلَيْهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ (١).

فإن نفعت هذه التولة وصار شيء من المحبة فهذا هو الهدوء الذي يسبق العاصفة فجاء الشيطان ونسخ ليقنعهم فقط، لكن بعد ذلك بعد أن كان يشتم فقط سيشتم ويضرب فتذهب وتعمل توله مرة ثانية فإن كان متحصن ويسير على الشرع فلن يضره إلا بإذن الله ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ أما أن كان سفيها فربما يؤثر عليه ويسير معها كما يقولون كالكلب وتحت طوعها.

وهناك سحر للتفريق كما قال تعالى ﴿ويتعلمون منهما ما يفرقون بين المرأة وزوجه﴾ وهو عكس التولة وهى سحر للتجميع، فالمسلم والمسلمة لا ينبغي أن تتعلق بهذا السفة.

وإن بعض نساء النبي ﷺ من غيرتهن من عائشة أخذن يتكلمن فيها فقال لهن: إني رزقت حبها فهذه المسألة ليس بيدي والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن (٢) وفي رواية في السنن والمسند قال: حبيب إلى من دنياكم (٣) «حبيب إلى» يعنى ليس بيدي، ويعنى بالنساء هنا: زوجاته. فالمسألة لاتتعلق بورق أو حجب فما علاقتها بالقلب؟! فهذا سفه، فالسحر الحلال قطعى الشفاء. بخلاف التولة ظنى الشفاء.

قوله: [وعن عبد الله بن عكيم... أو روى أبو داود عن عيسى بن حمزة قال: دخلت على عبد الله بن عكيم وبه حمرة. فقلت: ألا تعلق تيممة؟ فقال: نعوذ بالله من ذلك قال رسول الله ﷺ: «من تعلق شيئاً وكل إليه» (٤).

وروى وكيع عن ابن عباس قال: اتفل بالمعوذتين ولا تعلق.

وأما القياس على الرقية بذلك، فقد يقال بالفرق، فكيف يقاس التعليق الذى لا بد فيه من ورق أو جلود ونحوهما على مالا يوجد ذلك فيه، فهذا إلى الرقى المركبة من حق باطل أقرب.



قوله: [وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً: «من تعلق شيئاً وكل إليه»..]

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٦/٧)، ومسلم فى القدر (١٦/٢٠٤ - النووى) عن عين الله بن عمرو به وانظر «القواعد المثلى» (٧٨ - بتخريجنا).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٢٨/٣)، والنسائى فى «الكبرى» (٨٧/٨٨) عن أنس به وانظر «الطب النبوى» (٦٩ - بتخريجنا).

(٤) تقدم تخريجه

ولفظ الترمذى عن عيسى وهو ابن عبدالرحمن بن أبى ليلى قال: «دخلت على عبدالله بن عكيم أبى معبد الجهنى أعوده وبه حمرة، فقلت: ألا تعلق شيئاً؟ قال: الموت أقرب من ذلك، قال النبى ﷺ (من تعلق شيئاً وكل إليه) وبوب عليه باب ماجاء فى كراهية التعليق. أهـ

قوله «عن عبدالله بن عكيم»

قال سليمان آل الشيخ (١).

قوله : عن عبدالله بن عكيم. هو بضم المهملة مصغراً، ويكنى أبا معبد الجهنى الكوفى. قال البخارى : أدرك زمن النبى ﷺ، ولا يعرف له سماع صحيح، وكذا قال أبو حاتم وقال معناه أبو زرعة، وابن حبان وابن منده، وأبو نعيم. وقال البغوى يشك فى سماعه . وقال الخطيب : سكن الكوفة، وقدم المدائن فى حياة حذيفة، وكان ثقة، وذكر ابن سعد عن غيره أنه مات فى ولاية الحجاج، وظاهر كلام هؤلاء الأئمة أن الحديث مرسل.

قلت: والحديث له قصة أن عبدالله كان مريضاً فحين دخلوا عليه قال أحدهم وهو عبدالرحمن بن أبى ليلى ألا تعلق شيئاً فهو يرى جواز تعليق التماثيل الشرعية لا الشرعية فقال: «الموت اقرب من ذلك» يعنى أموت أفضل ولا أعلق شئ لاشرعى ولاغير شرعى وهذا الكلام بالاستقراء موجود وحقيقية أن الذى يتعلق بشئ غير الله إنما يتعلق بخيط العنكبوت فأى إنسان تعلق بالله يجعل الله له مخرجاً. وأما من تعلق بغير الله فالله يتعسه ويوكسه ولايبالى بأى أوديه الأرض هلك.

وكان فى الصحيح وكتاب الله غنية مما يؤيد هذا المعنى : أن من تعلق شيئاً وكل إليه .

قوله : «من تعلق شيئاً وكل إليه»

قال المبارك فورى (٢).

(من تعلق شيئاً) أى من علق على نفسه شيئاً من التعاويذ والتماثيل وأشباهاها معتقداً أنها تجلب إليه نفعاً أو تدفع عنه ضرراً، قاله فى النهاية (وكل إليه) بضم واو وتخفيف كاف مكسورة أى خلى إلى ذلك الشئ وترك بينه وبينه . والحديث استدلل به من قال بكراهية تعليق التماثيل.

(١) تيسير العزيز الحميد ١٢٢، ١٢٣

(٢) تحفة الأحوذى ٦/ ٢٠٠، ٢٠١.

قوله : «من تعلق شيئاً وكل إليه» التعلق يكون بالقلب ويكون بالفعل، ويكون بهما جميعاً، أى من تعلق شيئاً بقلبه، أو تعلقه بقلبه وفعله، وكل إليه، أى: وكله الله إلى ذلك الشيء الذى تعلقه، فمن تعلقت نفسه بالله، وأنزل حوائجه بالله، والتجأ إليه، وفوض أمره كله إليه كفاه كل مؤنة، وقرب إليه كل بعيد، ويسر له كل عسير، ومن تعلق بغيره أوسكن إلى علمه وعقله ودوائه وتأمينه، واعتمد على حوله وقوته، وكله الله إلى ذلك وخذله، وهذا معروف بالنصوص والتجارب. قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، ثنا أبو سعيد المؤدب، ثنا من سمع عطاء الخراساني، قال : لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت، فقلت له : حدثني حديثاً أحفظه عنك فى مقامك هذا وأوجز قال: نعم، أو حى الله تبارك وتعالى إلى داود: يا داود أما عزتى وعظمتى لا يعتصم بى عبد من عبيدى دون خلقى أعرف ذلك من نيته فتكيد السموات السبع ومن فيهن والأرضون السبع، ومن فيهن إلا جعلت له من بينهن مخرجاً، أما عزتى وعظمتى لا يعتصم عبد من عبيدى بمخلوق دونى أعرف ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماء من يده وأسخت الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالى بأى واد هلك. (١) أثر ضعيف، بالإضافة إلى أن وهب بن منبه كان يكثر الرواية من أهل الكتاب الإسرائيليات.

قال ابن عثيمين (٢).

قوله : «من تعلق شيئاً».

أى : اعتمد عليه وجعله همه ومبلغ علمه، وصار يعلق رجاءه به وزوال خوفه به. وشيئاً: نكرة فى سياق الشرط ؛ فتعم جميع الأشياء، فمن تعلق بالله سبحانه وتعالى، وجعل رغبته ورجاءه فيه وخوفه منه ؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٣) ؛ أى : كافيه، ولهذا كان من دعاء الرسل وأتباعهم عند المصائب والشدائد: «حسبنا الله نعم الوكيل»، قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها محمد وأصحابه حين قيل لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ (٤).

(١) أنظر تخريجه فى «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٢) القول المفيد (١/ ٢٣٠). (٣) الطلاق : ٣

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٥٦٣) وانظر «فتح القدير» - بتخريجنا -

قوله: «وكل إليه»

أى: واسند إليه، وفوض

● أقسام التعليق بغير الله.

الأول: ما ينافى التوحيد من أصله، وهو أن يتعلق بشيء لا يمكن أن يكون له تأثير، ويعتمد عليه اعتماداً معرضاً عن الله، مثل تعلق عباد القبور بمن فيها عند حلول المصائب، ولهذا إذا مستهم الضراء الشديدة يقولون: يا فلان! أنقذنا؛ فهذا لاشك أنه شرك أكبر مخرج من الملة.

الثاني: ما ينافى كمال التوحيد، وهو أن يعتمد على سبب شرعى صحيح مع الغفلة عن المسبب، وهو الله - عزوجل -، وعدم صرف قلبه إليه؛ فهذا نوع من الشرك، ولا نقول شرك أكبر؛ لأن هذا السبب جعله الله سبباً.

الثالث: أن يتعلق بالسبب تعلقاً مجرداً لكونه سبباً فقط، مع اعتماده الأسمى على الله؛ فيعتقد أن هذا السبب من الله، وأن الله لوراء لأبطل أثره، ولوراء لأبقاه، وأنه لا أثر للسبب إلا بمشيئة الله عزوجل؛ فهذا لا ينافى التوحيد لا كمالاً ولا أصلاً وعلى هذا لا إثم فيه.

ومع وجود الأسباب الشرعية الصحيحة ينبغي للإنسان أن لا يتعلق نفسه بالسبب، بل يعلقها بالله.

فالموظف الذى يتعلق قلبه بمرتبته تعلقاً كاملاً، مع الغفلة عن المسبب لهذا السبب، وهو الله، قد وقع فى نوع من الشرك، أما إذا اعتقد أن المرتب سبب، والمسبب هو الله - سبحانه وتعالى، وجعل الاعتماد على الله، وهو يشعر أن المرتب سبب؛ فهذا لا ينافى التوكل.

وقد كان الرسول ﷺ يأخذ بالأسباب مع اعتماده على المسبب، وهو الله - عزوجل - وجاء فى الحديث: «من تعلق»، ولم يقل: من علق؛ لأن المتعلق بالشئ يتعلق به بقلبه وبنفسه، بحيث ينزل خوفه ورجاءه وأمله به، وليس كذلك من علق. أهـ.

قال الفقير: واستدل ابن تيمية على هذا المعنى بقول الله ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فالمشرك والمتوكل على غير الله أيضاً فى ذلك سواء وقد قلنا أن شرط الإيمان هو التوكل فإن لم يتوكل عليه فهو ليس مؤمن

«التمايم»: شىء يعلق على الأولاد يتقون به العين.

لكن إذا كان المعلق من القرآن؛ فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهى عنه، منهم ابن مسعود رضى الله عنه.

و«الرقى» هى التى تسمى العزائم، وخص منها الدليل ما خلا من الشرك؛ فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة.

و«التولة» هى شىء يصنعونه يزعمون أنه يجلب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته.

والله يتركه وشركه كما جاء فى الحديث القدسى «أنا اغنى الشركاء عن الشرك من أشرك معى شىء تركته وشركه»^(١) فهو يعاقبه فى الآخرة وكذلك فى الدنيا يتركه ومن تعلق به.

وأيضاً مما ثبت فى السنة عند الترمذى قال النبى ﷺ: «ثلاثة أقسم عليهن وأنى محد نكم حديثاً فاحفظوه مانقص مال من صدقة وما فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر» (فمن نزل به فاقة فأنزلها بالله سدت فاقته وأن أنزلها بالناس لم تسد فاقته) وما ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله بها عزة»^(٢).

وفى الصحيح «من يستغنى يغنه الله ومن يستعفف يعفه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أوتى أحد عطاء أوسع من الصبر»^(٣).

وفى الصحيح أيضاً «تعس عبد الدينار»^(٤) لأنه تعلق قلبه واعتمد على الدينار والدرهم والخمية فمن تعلق بغير الله كمن تعلق بخيوط العنكبوت «مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت» وذلك بعد حكاية قارون وهامان وفرعون فأحدهم اعتمد على ماله، والآخر على وزارته ووجاهته، والثالث على ملكه، والله بالرغم طغيان الملك والوزارة والمال اعتبر كل هذا خيط عنكبوت مهما كبرت هذه الأشياء فى نظر الناس. أهـ.

قوله [التمايم شىء يعلق على الأولاد يتقون به العين]



قدمنا الكلام فى المقدمة لهذا الباب الخلاف فى ذلك وترجيح الراجح من ذلك بما يغنى عن إعادته هنا وذكر بعض أقوال أهل العلم مع شرح كلام شيخ الإسلام محمد

(١) تقدم تخريجه

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٣١/٤)، والترمذى (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨) عن أبى كبشة به وانظر «رياض الصالحين» (٥٥٨ - بتخريجنا).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٤٧٠)، ومسلم فى الزكاة (١٢٤/٥٦/٥) عن أبى سعيد به.

(٤) سيأتى تخريجه.

عبدالوهاب وتفصيل ذلك والراجع من أقوال أهل العلم، يُرجع إليه فى مقدمات هذا الباب تحت عنوان / حكم التماثل من القرآن والأدعية، وفى ذلك.

قال ابن عثيمين: قوله: «والتي تسمى العزائم».

أى : فى عرف الناس.

وعزم عليه؛ أى: قرأ عليه، وهذه عزيمة؛ أى: قراءة.

قوله: «وخص منها الدليل ما خلا من الشرك».

أى: الأشياء الخالية من الشرك؛ فهى جائزة، سواءً كان مما ورد بلفظه مثل «اللهم رب الناس! أذهب الباس، أشف أنت الشافى...» (١)، أو لم يرد بلفظه مثل: «اللهم عافه، اللهم اشفه»، وإن كان فيها شرك؛ فإنها غير جائزة، مثل: «ياجنى! أنقذه، ويا فلان الميت! اشفه»، ونحو ذلك.

قوله: «من العين والحمة»

وظاهر كلام المؤلف: أن الدليل لم يرخص بجواز القراءة إلا فى هذين الأمرين: «العين، والحمة»، لكن ورد بغيرهما؛ فقد كان النبى ﷺ ينفخ على يديه عند منامه بالمعوذات، ويمسح بهما ما استطاع من جسده (٢)، وهذا من الرقية، وليس عيناً ولا حمة.

ولهذا يرى بعض أهل العلم أن الترخيص فى الرقية من القرآن للعين والحمة وغيرهما لم، ويقول: إن معنى قول النبى ﷺ: «لارقية إلا من عين أو حمة» (٣) أى لا استرقاء إلا من عين أو حمة، والاسترقاء: طلب الرقية؛ فالمصيب بالعين - وهو «العائن» - يطلب منه أن يقرأ على المعيون.

وكذلك الحمة يطلب الإنسان من غيره أن يقرأ عليه؛ لأنه مفيد كما فى حديث أبى سعيد فى قصة السرية (٤).

● شروط جواز الرقية:

الأول: أن لا يعتقد أنها تنفع بذاتها دون الله، فإن اعتقد أنها تنفع بذاتها من دون الله؛ فهو محرم، بل شرك، بل يعتقد أنها سبب لا تنفع إلا بإذن الله.

(١) سبق تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تقدم تخريجه

(٤) تقدم تخريجه

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا رُوَيْفِعُ لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَطْوُلٌ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لَحِيَّتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرَأً، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيٌّ مِنْهُ» (١).

الثاني: أن لا يكون مما يخالف الشرع؛ كما إذا كانت متضمنة دعاء غير الله، أو استغاثة بالجن، وما أشبه ذلك؛ فإنها محرمة، بل شرك.

الثالث: أن تكون مفهومة معلومة، فإن كان من جنس الطلاسم والشعوذة؛ فإنها لا تجوز.

أما بالنسبة للتمائم؛ فإن كانت من أمر محرم، أو اعتقد أنها نافعة لذاتها، أو كانت بكتابة لاتفهم؛ فإنها لا تجوز بكل حال.

وإن تمت فيها الشروط الثلاثة السابقة في الرقية؛ فإن أهل العلم اختلفوا فيها كما سبق. أهـ.

قلت وقدمنا في مقدمة هذا الباب ضوابط الرقية الشرعية بأكثر وأبسط من ذلك فليرجع إليها.



قوله [وروى أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا رويفع ... الحديث]
قال سليمان آل الشيخ (٢).

الحديث رواه الإمام أحمد عن يحيى بن إسحاق، والحسن بن موسى الأشيب، كلاهما عن ابن لهيعة، وفيه قصة، فاختصره المصنف، وهذا لفظ الحسن. قال: حدثنا ابن لهيعة: ثنا عياش بن عباس، عن شبيب بن بيتان قال: ثنا رويفع بن ثابت قال: كان أحدنا في زمان رسول الله ﷺ يأخذ جمل أخيه على أن يعطيه النصف مما يغنم، وله النصف، حتى إن أحدنا ليصير له النصل والریش، والآخر القدح، ثم قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا رويفع لعل الحياة ستطول بك؛ فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وترأ، أو استنجى برجيع دابة أو عظم؛ فإن محمداً برئ منه» ثم رواه أحمد عن يحيى بن غيلان، ثنا الفضل، حدثني عياش بن عباس أن شبيب بن بيتان أخبره أنه سمع شيان القتباني يقول استخلف مسلمة بن مخلد رويفع بن ثابت الأنصاري على

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٩/٤) وأبو داود في «الطهارة» / باب: ما ينهى عنه أن يستنجى به (٣٦/٩/١)، ومن طريقة البيهقي في «الكبرى» (١١٠/١)، والبعث في «شرح السنة» (٢٦٨٠/٢٨/١١).

وأخرجه النسائي في «الصغرى» (١٣٥/٨) والطبراني في «الكبير» (٤٤٩١/٢٨/٥) من طريق عياش بن عباس، أن شبيب بن بيتان أخبره عن شيان القتباني عن رويفع بن أنظر «فتح المجيد» (ح ٢٠٤) بتخريجنا (٢) تيسير العزيز الحميد ١٢٣، ١٢٤.

أسفل الأرض، قال : فسرنا معه، فقال: قال لى رسول الله ﷺ الحديث. وفى الإسناد الأول ابن لهيعة، وفيه مقال، وفى الثانى شيان القتباني قيل فيه مجهول، وبسقية رجالهما ثقات.

ورواه أبو داود من طريق المفضل به مطولاً وسكت عليه، ثم قال: حدثنا يزيد بن خالد، أنا مفضل عن عياش أن شميم بن يبتان أخبره أيضاً بهذا الحديث عن أبى سالم الجيشاني، عن عبد الله بن عمرو يذكر ذلك وهو معه مرابط بحصن باب البون. قال أبو داود حصن البون بالفسطاط على جبل.

قال سليمان آل الشيخ، وهذا إسناد جيد . رواه النسائي من رواية شميم عن روفيع، وصرح بسماعه منه ولم يذكر شيان، فإن كان ذكر شيان وهما فالإسناد صحيح، وحسنه النووي، وصححه بعضهم .

قال الحافظ أبو زرعة فى «شرح أبى داود» ورواه الطحاوى مختصراً فذكر منه الاستنجااء برجيع دابة أو عظم فقط. ورواه محمد بن الربيع الجيزى فى كتاب من دخل مصر من الصحابة مطولاً، وفيه: أن من عقد لحيته فى الصلاة.

● مناسبة الحديث للباب.

قال القرعاوى (١). حيث دل على تحريم تعليق الوتر لدفع الضرر. أهـ

● مناسبة الحديث للتوحيد.

قال القرعاوى (٢). حيث تبرأ النبى - ﷺ - من تعلق وترأ لدفع الضرر لأن جلب النفع ودفع الضرر من الأفعال الخاصة بالله وطلبها من غير الله شرك

قوله : لعل الحياة ستطول بك

قال سليمان آل الشيخ (٣).

قوله : «لعل الحياة ستطول بك» علم من أعلام النبوة، لأنه وقع كما أخبر به ﷺ، فإن روفعاً طالت حياته إلى سنة ست وخمسين، فمات فيها ببرقة من أعمال مصر أميراً عليها، وهو من الأنصار وقيل : مات سنة ثلاث وخمسين، قاله ابن يونس.

قوله «فأخبر الناس»

(٢-١) الجديد ٩٥، ٩٦.

(٣) تيسير العزيز الحميد ١٢٤.

قال سليمان آل الشيخ (١).

قوله : «فأخبر الناس» دليل على وجوب إخبار الناس بذلك على رويغ. وليس هذا مختصاً بل كل من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس، وجب عليه تبليغه للناس، وإعلامهم به، فإن اشترك هو وغيره فى علم ذلك، فالتبليغ فرض كفاية هذا كلام أبى زرة.

قوله «أن من عقد لحيته»

قال سليمان آل الشيخ (٢).

بكسر اللام لاغير، قاله فى «المشارك» والجمع لحي، بالكسر والضم، قاله الجوهرى. قال الخطابى: وأما نهيه عن عقد اللحية، فإن ذلك يفسر على وجهين: أحدهما: ماكانوا يفعلونه من ذلك فى الحروب، كانوا فى الجاهلية يعقدون لحاهم، وذلك من زى بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها. قلت :- يعنى سليمان آل الشيخ - كأنهم كانوا يفعلونه تكبراً وعجباً، كما ذكره أبو السعادات.

قال : ثانيهما: أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجدد، وذلك من فعل أهل التوضيع والتأنيث.

وقال أبو زرة ابن العراقى: والأولى حملة على عقد اللحية فى الصلاة كما دلت عليه رواية محمد بن الربيع المتقدم ذكرها، فهو موافق للحديث الصحيح فى النهى عن كف الشعر والثوب، فإن عقد اللحية فيه كفها وزيادة. أهـ.

قال ابن عثيمين (٣).

اللحية عند العرب كانت لاتقص ولاتخلق، كما أن ذلك هو السنة، لكنهم كانوا يعقدون لحاهم لأسباب:

منها: الافتخار والعظمة، فتجد أحدهم يعقد أطرافها، أو يعقدها من الوسط عقدة واحدة ليعلم أنه رجل عظيم، وأنه سيد فى قومه.

(١) تيسير العزيز الحميد ١٢٤

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٢٤، ١٢٥).

(٣) القول المفيد (١/٢٣٦، ٢٣٧).

الثانى : الخوف من العين ؛ لأنها إذا كانت حسنة وجميلة ثم عقدت أصبحت قبيحة ، فمن عقدها لذلك ؛ فإن الرسول ﷺ برىء منه .

وبعض العامة إذا جاءهم طعام من السوق أخذوا شيئاً منه يرمونه فى الأرض ؛ دفعاً للعين ، وهذا اعتقاد فاسد ومخالف لقول النبى ﷺ : «إذا سقطت لقمة أحدكم ؛ فليمط ما بها من الأذى ، وليأكلها» (١) . أهـ .

قوله : «أوتقلد وترأ»

قال سليمان آل الشيخ (٢) .

قوله : «أوتقلد وترأ» . أى : جعله قلادة فى عنقه أو عنق دابته ونحو ذلك . وفى رواية محمد بن الربيع : «أوتقلد وترأ» يريد تميمة ، فهذا يدل على أنهم كانوا يتقلدون الأوتار من أجل العين ، إذ فسرته بالتميمة وهى تجعل لذلك . أهـ .

قال ابن عثيمين (٣) .

قوله «أو تقلد وترأ»

الوتر : سلك من العصب يؤخذ من الشاة ، وتتخذ للقس وترأ ، ويستعملونها فى أعناق إبلهم أو خيلهم ، أو فى أعناقهم ، يزعمون أنه يمنع العين ، وهذا من الشرك .

قال ابن عثيمين (٤) .

قلت : وفى رواية أن عبد الله بن مسعود جاء بحجرين وروثه فأخذ الحجرين والقى بالروث وقال «انها روثه إنها ركس» (٥) فعدم الاستنجاء لعلتين : الأولى : وهى الراجحة أنهما طعام إخواننا من الجن .

الثانية : إن كان الرجيع من روث الخيل والبغال والحمير فهو ركس لا يطهر وإن كان من غيره فيطهر وليس بركس كما قال شيخ الإسلام لكن يأنم فاعله لأنه مفسد أفسد على إخواننا من الجن طعامهم لأنه جاء فى الأثر أن الجن حينما أسلموا سألوه ﷺ الزاد فقال كل عظم ذكر اسم الله عليه يعود أوفر ما كان من اللحم «وأيضاً «كل روث ذكر اسم الله عليه يعود أوفر ما كان من العلف للبهائم» (٦) فسألوه الزاد لهم وللبهائم

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الأشربة (١٣/٢٠٧ - النووى) عن أنس به

وانظر «رياض الصالحين» . (٦٠٩ - بتخریجنا) .

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣) القول المفيد ١/٢٣٧ . (٤) القول المفيد ١/٢٣٧/٢٣٨ .

(٥) [صحيح] أخرجه البخارى (١٥٦) عن ابن مسعود به .

وانظر «السلسلة» (٦٥ - بتخریجنا) .

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى الطهارة (٤/١٦٩ - النووى) عن ابن مسعود به .

وانظر كتاب «فتح ذى الجلال فى تخریج أحاديث الظلال» (٧٩٧) .

فدليل على أنه عندهم بهائم أيضاً» وقد يأكلوا من علفنا والجن يأكل أكلنا وحديث أبي هريرة يدل على ذلك أن بعض الجن سرق تمر الصدقة. (١) فهو وإن اجزأ الاستنجاء بالعظم لكنه يائمه لأنه مفسد.

● مسألة: ما العلاقة بين عقد اللحية وتقلد الأوتار والاستنجاء بالرجيع والعظم؟

الجواب: تحتل الثلاثة أن تكون لها علاقة بالجن أو علاقة بالتمائم.

أما علاقتهم بالجن: ذكر أبو زرعة ابن العراقي أنه حمل النهي على عقد اللحية في الصلاة وقال: أنه جاء في الصحيح النهي عن كفت الشعر في الصلاة (٢) وهذا مؤدى قوله كما تقدم.

وجاء في حديث آخر أن علة النهي عن كفت الشعر أن ذلك مكان للشيطان أو كفت لحيته فهي مكان للشيطان فهذا علاقة الجن بالعقد

وعلاقة الجن بالقلادة أن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة لاتصحب ركباً فيه جرس» (٣).

والجرس المنهى عنه ربما كان نيمة وهو في حديث ابن عمر المعروف. فإن لم تصحبه الملائكة تصحبه الشياطين. فالقاسم المشترك بين عقد اللحية وتقلد الوتر هو الشياطين وأنها أسباب تجلب الشياطين.

الثالث: الاستنجاء بالرجيع والعظم كيف تجلب الشيطان؟

ربما لأنك أفسدت طعامه فربما يؤذيك أو يكون له سلطان عليك لأنك متعد عليه فهو قد يؤذى المتعدى الظالم فلقطع هذا السلطان نهى عن الاستنجاء بطعامه.

علاقة الثلاثة بالتمائم: «تقلد الوتر، عقد اللحية، الاستنجاء برجيع الدابة»

أنهم قد يفعلوا هذا التعقيد تفاقوا أو يظن ذلك كما يظن أن القلادة من الوتر قد تجلب النصر أو تدفع العين فقد يظن أن تعقيد اللحية بهذه الطريقة تدفع الضر أو تدفع الهزيمة. وهو ليس بسبب لأسباب النصر كما تفاءلوا بذات أنواط.

فربما كان النهي عن عقد اللحية لذات السبب، ولذات السبب نهى عن القلادة.

فما علاقة الرجيع والعظم؟ أرى العلاقة بينهما وبين التمام واضحة الآن من حيث أن الجميع اتخذوا أسباباً تدفع الضر أو تجلب نفع.

والعلاقة بين هذه الثلاثة وقوله «لعل الحياة ستطول بك من بعدى» لأن هذه الثلاثة من أوليات الأمور التي ستسنى بعد موت النبي فأخبر بها رويغ أن يخبر بها الناس.

(١) علقة البخارى (٥٠١٠) عن أبي هريرة به.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٨٠٩)، ومسلم في الصلاة (٢٠٦/٤) عن ابن عباس به

وانظر «اللسيل» (٣٢٤) - بتخریجنا

(٣) تقدم تخريجده.

قوله : «من استنجى برجيع دابة، أو عظم، فإن محمداً برىء منه» .
قال سليمان آل الشيخ (١):

قال النووى : أى برىء من فعله وقال بهذه الصيغة ليكون أبلغ فى الزجر .
قلت : - سليمان آل الشيخ - : فيه النهى عن الاستنجاء برجيع الدواب والعظام ، وقد ورد فى ذلك أحاديث ، منها ما فى «صحيح مسلم» .

عن ابن مسعود مرفوعاً «فلا تستنجوا بالروث ولا بالعظام، فإنه زاد إخوانكم من الجن» (٢) وعلى هذا فلا يجوز الاستنجاء بهما كما هو ظاهر مذهب أحمد، وأختار شيخ الإسلام وجماعة الإجزاء وإن كان محرماً. قالوا لأنه لم يسن عنه لكونهما لا يتقيان، بل لإفسادهما.

قلت - سليمان آل الشيخ - الأول أولى .

لما رواه ابن خزيمة والدارقطنى من طريق الحسن بن الفرات، عن أبيه عن أبى حازم الأشجعى، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ نهى أن يستنجى بعظم أو روث وقال: «إنهما لا يطهران» (٣) وهذا إسناد جيد .

[قلت]: بل ضعيف بهذا اللفظ .

وأيضاً : عندما جاء عبدالله بن مسعود بحجرين وروثة للنبي ﷺ ليستنجى بهم أخذ الحجرين وألقى الروثة وقال «إنها روثة إنها ركس» (٤) .

قال ابن عثيمين .

الاستنجاء : مأخوذ من النجو، وهو إزالة أثر الخارج من السبيلين؛ لأن الإنسان الذى يتمسح بعد الخلاء يزيل أثره .

ورجيع الدابة : هوروثها .

قوله «أو عظم»

العظم المعروف : وإنما تبرأ النبى ﷺ ممن استنجى بهما؛ لأن الروث علف بهائم الجن والعظم طعامهم، يجذونه أوفر ما يكون لحماً .

(١) تيسير العزيز الحميد (١٢٥) .

(٢) تقدم تخريجه

(٣) [صحيح] أخرجه ابن خزيمة فى «صحيحه» (٨٠) بلفظ مختلف والدارقطنى فى «سننه» (٥٦/١) .

وانظر «السلسلة» (٦٤ - بتخريجنا) .

(٤) تقدم تخريجه .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ:
 «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعَدَلِ رَقَبَةٍ» رَوَاهُ وَكِيعٌ
 [وله عن إبراهيم قال: «كانوا يكرهون التهام كلهما من القرآن وغير القرآن»].

وكل ذنب قرن بالبراء من فاعله؛ فهو من كبائر الذنوب، كما هو معروف عند أهل العلم.

الشاهد من هذا الحديث قوله: «من تقلد وترأ».



قوله: [وعن سعيد بن جبير قال....]

قال سليمان آل الشيخ (١).

هذا عند أهل العلم له حكم الرفع، لأن مثل ذلك لا يقال بالرأى فيكون على هذا مرسل، لأن سعيداً تابعي، وفيه فضل قطع التمايم لأنها من الشرك. ووكيع هو ابن الجراح بن وكيع الكوفي، ثقة إمام، صاحب تصانيف منها «الجامع» وغيره. روى عنه الإمام أحمد وطبقته. مات سنة سبع وتسعين ومائة.

قال ابن عثيمين (٢).

قوله: وعن سعيد بن جبير؛ قال «من قطع تيمة...» الحديث.

وجه المشابهة بين قطع التيمة وعتق الرقبة: أنه إذا قطع التيمة من إنسان؛ فكأن اعتقه من الشرك، ففكه من النار، ولكن يقطعها بالتى هي أحسن؛ لأن العنف يؤدي إلى المشاحنة والشقاق، إلا إن كان ذا شأن؛ كالأمير، والقاضى، ونحوه عن له سلطة؛ فله أن يقطعها مباشرة. أهـ

قال سليمان آل الشيخ قوله [قوله عن إبراهيم قال:] (٣).

إبراهيم: هو إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي يكنى أبا عمران، ثقة إمام، من كبار فقهاء الكوفة. قال المزني: دخل على عائشة ولم يثبت له سماع منها، مات سنة ست وتسعين وله خمسون سنة ونحوها.

(قوله: كانوا يكرهون التمايم إلى آخره.) مراده بذلك أصحاب عبد الله بن مسعود كعلقمة والأسود وأبى وائل والحارث بن سويد وعبيدة السلماني. ومسروق والربيع بن خثيم وسويد بن غفلة وغيرهم من أصحاب ابن مسعود وهم من سادات التابعين، وهذه الصيغة يستعملها إبراهيم في حكاية أقوالهم كما بين ذلك الحفاظ كالعراقى وغيره.

(١) تيسير العزيز الحميد ١٢٦، وانظر فتح المجيد (١/١٦٢).

(٢) القول المفيد ٢٣٨/١.

(٣) تيسير العزيز الحميد (١٢٦) «فتح المجيد» (١/١٦٢).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ.

الثانية: تَفْسِيرُ التَّوَلَةِ.

الثالثة: أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ كُلُّهَا مِنَ الشَّرْكِ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ.

قال ابن عثيمين.

قوله «كانوا»

الضمير يعود إلى أصحاب ابن مسعود؛ لأنهم هم قرناء إبراهيم .

قوله: «التَّمَائِمِ».

هى ما يعلق على المريض أو الصحيح، سواء من القرآن أو غيرها للاستشفاء أو لاتقاء العين، أو ما يعلق على الحيوانات.

وفى هذا الوقت أصبح تعليق القرآن لا للاستشفاء، بل لمجرد التبرك والزينة؛ كالقلائد الذهبية، أو الحللى التى يكتب عليها لفظ الجلالة، أو آية الكرسي، أو القرآن كاملاً؛ فهذا كله من البدع.

فالقرآن ما نزل ليستشفى به على هذا الوجه، إنما يستشفى به على ما جاء به الشرع. أهـ. وتقدم الكلام على هذا مستوفى والحمد لله.



قال ابن عثيمين:

قوله: الأولى: تفسير الرقى والتمايم.

وقد سبق ذلك.

الثانية: تفسير التولة.

وقد سبق ذلك.

وعندى أن منها ما يسمى بالدبلة إن اعتقدوا أنها صلة بين المرء وزوجته.

الثالثة: أن هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء.

الرابعة: أَنَّ الرُّقِيَّةَ بِالْكَلامِ الْحَقِّ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ.
الخامسة: أَنَّ التَّمِيمَةَ إِذَا كَانَتْ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ؛ هَلْ هِيَ مِنْ ذَلِكَ أَمْ لَا؟

السادسة: أَنَّ تَعْلِيْقَ الْأَوْتَارِ عَلَى الدَّوَابِّ عَنِ الْعَيْنِ مِنْ ذَلِكَ.

ظاهر كلامه حتى الرقى، وهذا فيه نظر؛ لأن الرقى ثبت عن النبي ﷺ أنه يرقى ويرقى (١)، ولكنه لا يسترقى؛ أى : لا يطلب الرقية ؛ فإطلاقتها بالنسبة للرقى فيه نظر؛ وقد سبق للمؤلف رحمه الله أن الدليل خص منها ما خلا من الشرك، وبالنسبة للتمائم؛ فعلى رأى الجمهور فيه نظر أيضاً.

وأما على رأى ابن مسعود؛ فصحيح، وبالنسبة للتولة؛ فهى شرك بدون استثناء.
[قلت]: ولعل المصنف لم يستثنى الثلاثة من الشرك لظاهر الأثر الذى أورده مرفوعاً فقد أطلق ﷺ على الثلاثة الحكم بالشرك ولا يرد على هذا الحديث بالذات التفصيل الذى فهم من الأحاديث الأخرى لأن الرقى فى هذا الحديث وكذلك التمام محمولة على شركية لا غير شركية لظاهر النص ولاقترانها بالتولة الشركية قوله واحدة والله أعلم.

الرابعة : أن الرقية بالكلام الحق من العين أو الحمة ليس من ذلك.
قوله «الكلام الحق».

ضده الباطل، وكذا المجهول الذى لا يعلم أنه حق أو باطل.
والمؤلف رحمه الله تعالى خصص العين أو الحمة فقط استناداً لقول الرسول ﷺ «لارقية إلا من عين أو حمة» (٢) ولكن الصحيح أنه يشمل غيرهما؛ كالسحر.
الخامسة : أن التميمة إذا كانت من القرآن؛ فقد اختلف العلماء: هل هى من ذلك أم لا؟

قوله «ذلك» المشار إليه: التمام المحرمة

[قلت]: والمعنى إذا كانت التى بالقرآن مختلف الظن فيها فما الظن بغيرها؟!
وقد سبق بيان هذا الخلاف والأحوط مذهب ابن مسعود؛ لأن الأصل عدم المشروعية حتى يتبين ذلك من السنة.

السادسة : أن تعليق الأوتار على الدواب على العين من ذلك.

السابعة: الوعيد الشديد على من تعلق وترأ.

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.

أى: من الشرك

* (تنبيه):

ظهر فى الأسواق فى الآونة الأخيرة حلقة من النحاس يقولون: إنها تنفع من الروماتيزم، يزعمون أن الإنسان إذا وضعها على عضده وفيه روماتيزم نفعته من هذا الروماتيزم، ولاندرى هل هذا صحيح أم لا؟ لكن الأصل أنه ليس بصحيح؛ لأنه ليس عندنا دليل شرعى ولا حسى يدل على ذلك، وهى لا تؤثر على الجسم؛ فليس فيها مادة دهنية حتى نقول: إن الجسم يشرب هذه المادة ويتنفع بها؛ فالأصل أنها ممنوعة حتى يثبت لنا بدليل صحيح صريح واضح أن لها اتصالاً مباشراً بهذا الروماتيزم حتى ينتفع بها.

السابعة: الوعيد الشديد على من علق وترأ.

وذلك لبراءة الرسول ﷺ ممن تعلق وترأ، بل ظاهره أنه كفر مخرج من الملة، قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (١)، ولكن قال اهل العلم: إن البراءة هنا براءة من هذا الفعل؛ كقوله ﷺ «من غشنا فليس منا» (٢).

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.

لقول سعيد بن جبيرة «كان كعدل رقبة»، ولكن هل قوله حجة أم لا؟ إن قيل: ليس بحجة؛ فكيف يقول المؤلف: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان؟! فيقال: إنه إنما كان كذلك؛ لأنه إنقاذ له من رق الشرك؛ فهو كمن أعتقه، بل أبلغ.

فهو من باب القياس، فمن أنقذ نفساً من الشرك؛ فهو كمن أنقذها من الرق لأنه أنقذه من رق الشيطان والهوى.

(١) سورة التوبة: ٣٠

(٢) [صحيح] أخرجه: مسلم فى الإيمان (١/٣٨٥/١٦٤) عن أبى هريرة به.

التاسعة: أَنَّ كَلَامَ إِبْرَاهِيمَ لَا يُخَالِفُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْاِخْتِلَافِ؛ لِأَنَّ مُرَادَهُ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ.

[قلت]: بل مثل هذا لا يقال من قبل الرأى والقياس بل لا بد له من توقيف

✽ فائدة:

إذا قال التابعى: من السنة كذا؛ فهل يعتبر موقوفاً متصلاً ويكون المراد من السنة أى سنة الصحابة، أو يكون مرفوعاً مرسلأ؟

اختلف أهل العلم فى هذا؛ فبعضهم قال: إنه يكون موقوفاً.

وبعضهم قال: يكون مرفوعاً مرسلأ.

وتقدم لنا أنه ينبغى أن يفصل فى هذا، وأن التابعى إذا قاله محتجاً به؛ فإنه يكون مرفوعاً مرسلأ، أما إذا قاله فى سياق غير الاحتجاج؛ فهذا قد يقال: إنه من باب الموقوف الذى ينسب إلى الصحابى.

[قلت]: والأول حمل هذا الاثر كما تقدم على الرفع لأنه لا يقال هذا الكلام من قبيل الرأى بل لا بد له من موقف وإن لم يذكره.

التاسعة: أن كلام إبراهيم النخعى لا يخالف ما تقدم من الاختلاف؛ لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود.

وليس مراده الصحابة، ولا التابعين عموماً اهـ.



(٨) بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

* تنبيه: نظر لطول الباب وضعنا له ترتيباً يبين ما فيه، ليسهل فهمه، وجمع فوائده:

(١) شرح التبويب

٢- معنى البركة لغة واصطلاحاً.

٣- بركة موهومة.

٤- كيفية معرفة البركة الباطلة والصحيحة.

٥- قوله (شجر).

٦- قوله (ونحوهما).

٧- مقدمات بين يدي الباب

(١) البركة من الله فلا تطلب إلا منه وأدلة ذلك

(٢) لا تثبت إلا بدليل شرعي لأن الأصل النفي، وهي توقيفية

(٣) كل ما جاز التبرك به [من الأغنياء والأقوال والأفعال والأزمان وغيره كما سيأتي] بطريق الشرع فإنما هي سبب للبركة، وليست هي واهبة البركة.

(٤) أن التبرك بالأشياء يكون غالباً بما كان سبب البركة فيه ليس من الأسباب المعهودة للناس.

(٥) التماس البركة لا بد لها من دليل شرعي.

٨- تقسيم التبرك لمشروع وغير مشروع

أولاً المشروع:

(١) ذات النبي ﷺ

(٢) بالأقوال والأفعال

(أ) بالأقوال كقراءة سورة البقرة

(ب) بالأفعال - الاجتماع للطعام.. الأكل من أطراف الصحيفة..

(٣) التبرك بالأمكنة - كالمسجد ومكة والمدينة ووادي العقيق.

(٤) التبرك بالأزمة

(٥) التبرك بالمطعمات

ثانيا الممنوع:

(١) الأمكنة والجمادات

(٢) الأزمة

(٣) شبهتان والجواب عليهما

٩- الشروع فى شروح آيات الباب وحديث الباب.

● ● ●

٨ بابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

● شرح التويب:

قال سليمان آل الشيخ^(١) كبقعة وغار وعين وقبر ونحو ذلك مما يعتقد كثير من عباد القبور وأشبهاهم فيه البركة فيقصدونه رجاء البركة، ويعنى بقوله: تبرك، أى طلب البركة ورجاها واعتقدها أى: ما حكمه هل هو شرك أم لا؟. اهـ.

وقال حامد بن محمد^(٢): باب فى بيان أن من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما من بنية أو حجارة أو قبر أو موطىء أو أثر وما أشبه ذلك أشرك وكفر بالكتاب والسنة. اهـ.

قال ناصر السعدى^(٣): أى فإن ذلك من الشرك، ومن أعمال المشركين، فإن العلماء اتفقوا على أنه لا يشرع التبرك بشيء من الأشجار والأحجار والبقع والمشاهد وغيرها.

فإن هذا التبرك غلو فيها وذلك يتدرج به إلى دعائها وعبادتها، وهذا هو الشرك الأكبر كما تقدم إنطباق الحد عليه، وهذا عام فى كل شيء حتى مقام إبراهيم وحجرة النبى ﷺ وصخرة بيت المقدس وغيرها من البقع الفاضلة.

وأما استلام الحجر الأسود وتقبيله واستلام الركن اليمانى من الكعبة المشرفة فهذا عبودية لله وتعظيم لله وخضوع لعظمته فهو روح التعبد.

فهذا تعظيم للخالق وتعبد له، وذاك تعظيم للمخلوق وتأله له فالفرق بين الأمرين كالفرق بين الدعاء لله الذى هو إخلاص وتوحيد، والدعاء للمخلوق الذى هو شرك وتنديد. اهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ^(٤): قوله (باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما) أى فهو مشرك اهـ.

وقال ابن باز^(٥): ترك الحكم ليأخذه الطالب مما ذكره من النصوص، والحكم هو أنه قد أشرك لما سيذكره المؤلف. اهـ.

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢١٣)

(٤) فتح المجيد (١/١٦٤)

(١) تيسير العزيز الحميد (١٢٦)

(٣) القول السديد ٣٩، ٤١،

(٥) التعليق المفيد (٧٥)

● أولاً: معنى البركة فى اللغة وكما جاءت فى القرآن:

قال فى اللسان^(١): وقال الليث فى تفسير «تبارك الله»: تمجيد وتعظيم، وتبارك بالشيء تفاعل به، وتبركت به أى تيمنت به.

قال الراغب: البركة ثبوت الخير الإلهى فى الشيء.

لذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢).

وسميت الحياض بركة لثبوت الماء فيها واستقراره فيها، فكأن البركة أيضاً من الثبوت وإن كانت هى من ثبوت الخير الإلهى فى الشيء، وبركة جمعها برك.

ولما كان الخير الإلهى تبين فى الأشياء بطريقة لاتحس ولاتحصر ولاتحصى سُمى الذى يرى فيه هذه الزيادة وهذا الخير سُمى مبارك لأنه ثبت فيه الخير الإلهى بطريقة لاتحس ولاتحصر ولاتحصى، قيل لكل من يشاهد منه زيادة غير محسوسة؛ هو مبارك وفيه بركة^(٣).

وقال ابن القيم رحمه الله فى شرحه لقوله ﷺ: «اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»:

البركة حقيقتها الثبوت واللزوم والاستقرار، فمنه برك البعير إذا استقر فى المكان أو على الأرض ومنه المبرك المكان الذى برك فيه البعير، وقال «صاحب الصحاح»: وكل شيء ثبت وأقام فقد برك، والبرك الإبل الكثيرة، والبركة هى الحوض والجمع برك ذكره الجوهري وسميت بذلك لإقامة الماء فيها.

والبركة النماء والزيادة، والتبرك الذى بالنماء والزيادة تقول «بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما فى خير»^(٤) اتعنى زادكم الله من خيره ونمى لكم الخير وجمع بينكما فى خير زائد وفى خير ينمى.

(١) اللسان ٣٩٦/١٠.

(٢) الأعراف: ٩٦.

(٣) كتاب الشرك ومظاهره ص ٩٩.

(٤) أخرجه أبو داود (٢١٣٠)، الترمذى (١٠٩١)، وابن ماجه (١٩٠٥) عن أبى هريرة به. وهو عند

البخارى (٥٣٦٧) بلفظ: بارك الله عليك عن جابر وفى الصحيحين: «بارك عليك» عن أنس.

وانظر «الأذكار للنووى (٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠ - بتخريجنا) وانظر «شرحنا لزاد المعاد».

لذلك جاء في الحديث الرجل الذى حسد صاحبه من الصحابة رضى الله عنه فقال ﷺ علام يقتل أحدكم أخاه؟ وذلك حينما رأى الصحابى جلد أخيه فقال لم أر كاليوم جلد مخبأة فقال ﷺ: «على ما يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة» - وفى رواية - «فليبرك»^(١).

أى يدعو بالبركة وزيادة هذه البركة لأخيه.

ويقال بارك فيه وبارك عليه وبارك له.

وفى القرآن الكريم ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وفيه ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ وفيه أيضا ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، وفيه ﴿بَارَكْنَا فِيهَا﴾، وفى الحديث «وبارك لى فيما أعطيت»^(٢) وفى حديث سعد الأنصارى الذى أخى النبى ﷺ وبينه وبين عبدالرحمن ابن عوف، فقال له إنى أكثر الأنصار مالا أقسم مالى بينى وبينك وانظر إلى أى نسائى شئت أطلقها لك، فقال له «بارك الله لك فى أهلك ومالك»^(٣) يعنى دعاء بالبركة فى الأهل والمال والمبارك الذى قد باركه الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى على لسان المسيح ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ وأيضاً قال ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ وأيضاً هو أحق أن يسمى مباركاً من كل شئ وهو القرآن لكثرة خيره ولكثرة منافعه، ووجوه البركة فيه كثيرة.

والرب تعالى يقال فى حقه «تبارك» ولا يقال «مبارك» لأن الرب لا يكون مبارك؛ لأن المبارك يستلزم من يبارك فيه أو عليه، فهو ناقص ويحتاج إلى من يكمله والله عزوجل منزّه عن صفات النقص، موصوف بكل كمال، له صفات الكمال وله الكمال فى الصفات كما هو معلوم من دين الله بالضرورة.

قال ابن عثيمين^(٤):

قوله: «تبرك».

تَفَعَّلَ من البركة، والبركة: هى كثرة الخير وثبوته، وهى مأخوذة من البركة بالكسر، والبركة: مجمع الماء، ومجمع الماء يتميز عن مجرى الماء بأمرين:

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٩٩/١)، وأبو داود (١٤٢٥)، والترمذى (٤٦٤)، والنسائى فى «الكبرى» (١٤٤٢)، وابن ماجه (١١٧٨) عن الحسن بن على.

وانظر «السلسيل» (٤٩٨ - بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٩٣٧) عن عبد الرحمن بن عوف به.

(٤) القول المفيد ١/ ٢٤٥ - ٢٥٢.

١- الكثرة.

٢- الثبوت.

والتبرك: طلب البركة، وطلب البركة لا يخلو من أمرين:

١- أن يكون التبرك بأمر شرعى معلوم؛ مثل القرآن، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ (١).

فمن بركته أن من أخذ به حصل له الفتح، فأنقذ الله بذلك أمماً كثيرة من الشرك. ومن بركته أن الحرف الواحد بعشر حسنات، وهذا يوقر للإنسان الوقت والجهد: ... إلى غير ذلك من بركاته الكثيرة.

٢- أن يكون بأمر حسى معلوم؛ مثل: التعليم، والدعاء، ونحوه؛ فهذا الرجل يتبرك بعلمه ودعوته إلى الخير؛ فيكون هذا بركة لأننا نلنا منه خيراً كثيراً.

● البركة الباطلة الموهومة

قال ابن عثيمين (٢): وهناك بركات موهومة باطلة؛ مثل ما يزعمه الدجالون: أن فلاناً الميت الذى يزعمون أنه ولى أنزل عليكم من بركته وما أشبه ذلك؛ فهذه بركة باطلة، لا أثر لها، وقد يكون للشيطان أثر فى هذا الأمر، لكنها لاتعدو أن تكون آثاراً حسية، بحيث إن الشيطان يخدم هذا الشيخ؛ فيكون فى ذلك فتنة.

وقال أسيد بن حضير: «ما هذه بأول بركتكم يا آل أبى بكر» (٣)؛ فإن الله يجرى على بعض الناس من أمور الخير مالا يجريه على يد الآخر.

● كيفية معرفة البركة الباطلة من الصحيحة

قال ابن عثيمين: أما كيفية معرفة هل هذه من البركات الباطلة أو الصحيحة؛ فيعرف ذلك بحال الشخص، فإن كان من أولياء الله المتقين المتبعين للسنة المبتدعين عن البدعة؛ فإن الله قد يجعل على يديه من الخير والبركة ما لا يحصل لغيره.

ومن ذلك ما جعل الله على يد شيخ الإسلام ابن تيمية من البركة التى انتفع بها الناس فى حياته وبعد موته.

(١) ص: ٢٩. (٢) القول المفيد (١/٢٤٥ - ٢٥٢)

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٣٤)، ومسلم فى التيميم (٢/٢٩٢/١٠٨).

عن عائشة به وانظر «منار السبيل» - بتخريجنا -.

وانظر «تقريب الأسانيد» بتخريجنا.

أما إن كان مخالفاً للكتاب والسنة، أو يدعو إلى باطل؛ فإنَّ بركته موهومة، وقد تضعها الشياطين له مساعدة على باطله، وذلك مثل ما يحصل لبعضهم أنه يقف مع الناس في عرفة ثم يأتي إلى بلده ويضحى مع أهل بلده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنَّ الشياطين تحملهم لكي يغتر بهم الناس، وهؤلاء وقع منهم مخالفات، منها: عدم إتمام الحج، ومنها أنهم يمرّون بالمبقات ولا يُحرمون منه.

قوله: «شجر».

اسم جنس؛ فيشمل أى شجرة تكون، ومن حسنات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنّه لما رأى الناس يتسابون الشجرة التى وقعت تحتها بيعة الرضوان أمر بقطعها.

قوله: «وحجر».

اسم جنس يشمل أى حجر كان حتى الصخرة التى فى بيت المقدس؛ فلا تترك بها، وكذا الحجر الأسود لا تترك به، وإنما يتعبد لله بمسحه وتقبيله؛ اتباعاً للرسول ﷺ، وبذلك تحصل بركة الثواب.

ولهذا قال عمر رضى الله عنه: «إننى لأعلم أنّك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلُك؛ ما قبلتك»^(١).

فتقبيله عبادة محضة خلافاً للعمامة، يظنون أنّ به بركة حسية، ولذلك إذا استلمه بعض هؤلاء مسح على جميع بدنه تبرُّكاً بذلك.

قوله: «ونحوهما».

أى: من البيوت، والقباب، والحجر؛ حتى حجرة قبر النبى ﷺ؛ فلا يتمسح بها تبرُّكاً، لكن لو مسح الحديد لينظر هل هو أملس أو لا؛ فلا بأس، إلا إن خشى أن يقتدى به؛ فلا يمسه: اهـ.



(١) تقدم تخريجه

لا بد من وضع مقدمات قبل الشروع في هذا الباب:-

● المقدمة الأولى: الدليل من القرآن على أن البركة من الله فلا يتطلب إلا منه

ورد في القرآن في غير موضع منه إثبات أن البركة من الله وأن من صفاته أنه تبارك وتبارك قيل هي بمعنى بارك وقيل هي فعل تبارك وتعالى، والفعل منها بارك ويتعدى بنفسه تارة وبأداة على تارة . إلى آخره، والتي تضاف إليه تضاف كإضافة الرحمة والعزة، لاتسليق إلا به ولانتختص إلا به ولانتقال إلا له، لذلك لاتقال هذه الكلمة في القرآن إلا لله، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٢)، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٣)، ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤)، «تباركت ربنا وتعاليت»، ودائماً يقرن الله عزوجل بين تبارك وتعالى وهذا دليل على أن تبارك أيضاً وصفاً له، كما أن تعالى وصفاً له، فتناهى في العلو، وهو تبارك تناهى في التقديس والتمجيد والتعظيم، والأليق المعنى الثانى لأن تبارك وتعالى لاتدل بوجه من الوجوه على أنه يفعل ذلك بغيره، إنما تدل على أن هذا الأمر صفة قائمة به سبحانه وتعالى ولايدل فعله بغيره على المعنى المطابق لتبارك وتعالى، بل هو لازم من كونها صفة ملازمة به أن تتعدى لغيره^(٥).

وقال تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فالبركة منه وإن طلبت من غيره تكون شركاً.

* نستفيد من هذا أن البركة من الله، ولاتطلب إلا منه، وإذا طلبت من غيره كان شرك ولايقال عن الله (مبارك)، ولكن (تبارك الله) قيل هي بمعنى (بارك)، وقيل البركة هي فعل (تبارك وتعالى)، والفعل منها (بارك) والفعل منها (تبارك). وتقدم شيء من ذلك.

وعلى هذا فمن قال أنا أريد البركة من الشيخ فلان مع عدم ثبوت البركة في الشيخ فلان فهذا شرك. شرك أصغر

(١) الأعراف: ٥٤.

(٢) المؤمنون: ١٤.

(٣) الفرقان: ١.

(٤) الزخرف: ٨٥.

(٥) جلاء الأفهام. (١٧٨، ١٧٩).

وإن اعتقد أن البركة التي في الشيخ فلان كالبركة التي من عند الله فهذا شرك أكبر لأن هذا يدخل في شرك الأسباب.

● شرك الأسباب: ماهو ومتى يكون أكبر ومتى يكون أصغر؟

يكون شرك أصغر إذا اتخذ سبباً غير شرعي أو قدرى مع سلامة الاعتقاد، أى مع عدم إعتقاده أنه ينفع ويضر كنفع الله ويكون أكبر إذا اعتقد أنه ينفع أو يضر كنفع الله أو كدفعه.

فمسألة التبرك داخله في شرك الأسباب فإنه قد يتخذ سبباً للبركة لا يكون بنص ولا بتجربة قدرية أثبتت البركة في هذا الشيء فكونه يلتمس منه البركة فهذا شرك أصغر وإن اعتقد أن منه البركة كما أنها من الله فهذا شرك أكبر.

● الدليل من السنة على أن «البركة» من الله فلا تطلب إلا منه

- ما بينت في الصحيح من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال «كنا نعد الآيات على عهد رسول الله ﷺ بركة وأنتم تعدونها تخويفاً كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقل الماء فدعا الرسول بفضلة من ماء فوضع أصبعه أو يده فيها وبرك فيها، فجعل الماء يخرج من بين أصابعهم فقال ﷺ «حى على الطهور المبارك والبركة من الله» قال ابن مسعود فما جعلت همى إلا ما يدخل في بطن من الماء من بعدما سمعت من الرسول ﷺ «حى على الطهور المبارك»^(١).

قوله: «الطهور المبارك، والبركة من الله» فنص على أن البركة ليست منه فهي من الله وهو سبب من أسبابها.

وفي الحديث قوله الخير كله في يديك^(٢) فمن معانى البركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء. فالبركة هي ثبوت الخير لذلك قال بعد ذلك تباركت وتعاليت يعنى تناهيت في العلو والتمجيد والتقديس والتعظيم.

وقوله أيضاً في دعاء الاستفتاح في صلاة الليل: «والخير كله في يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت»^(٣).

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٥٧٩).

وانظر تخريجنا. «نظم السلسلة تحقيق كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة».

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٣/٣٠٩ ح ٧٧١) عن علي به.

وانظر «الأذكار للنووي» بتخريجنا.

(٣) تقدم قبله.

فقوله: «والشر ليس إليك» فيه أنه لا ينبغي نسبة الشر لله تأديباً مع الله، وهو خالق كل شيء سبحانه «الخير والشر» ولكن لا ينسب الشر إليه أبداً، ولهذا المعنى شواهد كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ فهو سبحانه الذى يطعم ويسقى، ويمرض أيضاً، ولكن تأديباً مع الخالق عز وجل لا ينسب المرض إليه، فهو منه وليس إليه.

وأيضاً كقوله تعالى حكاية عن أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فنسب الشر إلى الشيطان. وقال: ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ولم ينسب ذلك الضر إلى الله وسيأتي مزيد شرح وبيان لهذا.

● **المقدمة الثانية:** البركة لا تثبت فى شيء إلا بدليل شرعى لأن الأصل النفى أو لأنها عبادة من العبادات فهى توقيفية.

لأن البركة خير الإله الذى لا يحس ولا يحصى ولا يحصر فلا سبيل لك إليه إلا بتوقيف.

قال عمر: «والله إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» (١).

وقال ﷺ «لا تجعلوا قبرى عيداً وصلوا على أينما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى» (١) فى «المسند» وعند أبى داود.

يعنى لا تلتزموا البركة عند قبرى وتصلوا على رجاء الإستجابة عند قبرى فليس فيه بركة فأى مكان كنتم فيه تبلغنى صلاتكم. إذا فمسألة البركة من الله لا بد من طلبها منه وهو أمر توقيفى لا بد له من دليل.

● **المقدمة الثالثة:** أن ما يترك به من الأعيان والأقوال والأفعال والأزمان التى ثبتت فيها البركة بطريق الشرع إنما هى سبب للبركة وليست هى واهبة لها (٣).

كما أمسك الحكمة فى النار وهى الإحراق فصارت برداً وسلاماً على إبراهيم وحكمة الذبح فى السكين فصارت لا تنقطع فى إسماعيل، والإغراق مع موسى عليه السلام إلى آخره.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سيأتي تخريجه فى باب ما جاء أن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثاناً

(٣) وسيأتى لها صور فى المقدمة السادسة فى (التبرك المشروع).

وقال ﷺ: «إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا من السام: قلت وما السام قال الموت؟!» (١).

فهى سبب محض، إذا ثبتت الشروط وانتفت الموانع حصلت البركة، وإذا لم تتوافر الشروط أو وجدت الموانع يمسك الله الحكمة ولا تكون ثمة بركة.

● المقدمة الرابعة: أن التبرك بالأشياء يكون غالباً بما كان سبباً البركة فيه ليس من الأسباب المعهودة للناس.

فليس من المعهود مثلاً أن يأكل من كيلو دقيق شهر، وهذا شيء غير معهود ولا يحدث لكل أحد، فإذا روى أو شوهده فهو البركة.

وقال النبي ﷺ لأسماء لاتوكى فيوكى عليك لاتخصى فيخصى عليك (٢). وعائشة رضى الله عنها كان لها جراب وكان فيه دقيق فكانت تأخذ منه ولا ينتهى، حتى أخذته وألقت به.

● المقدمة الخامسة: (٣) أن كيفية إلتماس البركة لأبد لها من دليل شرعى - قاعدة - كيف ذلك؟

مثال: ثبت فى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:

«أن النخلة شجرة مباركة» وقال: «شجرة مثل المؤمن لا يسقط ورقها صيفاً ولا شتاءً.

أو «إن من الشجر لما بركته كبركة المؤمن» (٤) حديث ابن عمر.

فالنخلة مباركة: ثبتت البركة فى النخلة بدليل شرعى، والبركة من الله، وهى سبب من الأسباب، حققنا كل الشروط إذاً.

كيف نأخذ البركة من الشجرة هل نتمسح فيها؟

الجواب: لا ولكن نتبع النص الذى بين أن البركة المقصودة من النخلة.

وهو أكل التمر وما يأكل منها كالجمار وهو ما يكون فى أعلى النخلة.

الجمار: طعمه قريب من الكمثرى ولونه أبيض.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم فى السلام (٢٠١/١٤ - السنوي) عن أبي هريرة به.

وانظر «الطب النووي» (١٦٩ - بتحقيقنا).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٤٣٣)، ومسلم فى الزكاة (١١٨/٧ - النووي) عن أسماء به.

وانظر «رياض الصالحين» (٥٦٠ - بتخريجنا).

(٣) لم يذكره الدكتور على بن نقيع العليانى صاحب رسالة «التبرك المشروع والتبرك الممنوع».

(٤) [صحيح] أخرجه البخاري (٦٢) عن ابن عمر به.

مثال آخر: ثبت في صحيح مسلم أن النبي قال أن سورة البقرة قراءتها بركة «إن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة»^(١) فكيف نلتبس البركة منها هل تمسك السورة ونقبلها؟ بل بقراءتها، وبسماعها حتى تخرج الشياطين ويمتلئ البيت بالملائكة فيدل الخير ويخرج الشؤم والشر.

● المقدمة السادسة أقسام التبرك

يتقسم التبرك إلى قسمين

مشروع ممنوع

أولاً: التبرك المشروع ومنه:

[الأول] التبرك بذات النبي ﷺ وأثاره وهو شيء نظرى في هذه الأوقات لأن النبي ﷺ مات وذاته ليست موجودة والآثار قد إندثرت ولا سبيل لنا إليها فلا نعول على هذا النوع وتقدم معنا أن النبي ﷺ نبع الماء من بين أصابعه وقال «حى على الطهور المبارك»^(٢) فكان أحد أسباب البركة، والتمسها الصحابة في زمنه أما في زمننا فلا تعويل على ذلك، ولكن في زماننا لا سبيل لنا إليها.

[الثاني] التبرك المشروع بالأقوال والأفعال

التبرك المشروع بالأقوال والأفعال والأمكنة والأزمنة والطعام وما في حكمة

أولاً: التبرك المشروع بالأقوال

كل الأقوال الشرعية من ذكر تلاوة القرآن قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^(٣).

قراءة سورة البقرة «إن قراءتها بركة»^(٤). في الحديث الصحيح

ثانياً: التبرك بالأفعال:

(١) سائر الأفعال المشروعة فيها بركة.

كما أن سائر الأفعال الممنوعة فيها شؤم كما قال تعالى: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَتِنْ ذَكْرَتُمْ﴾^(٥).

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٣/٢٥٢) عن أبي أمامة به.

(٢) تقدم تخريجه. (٣) البقرة: ١٥٢.

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

(٥) يس: ١٩.

وكذلك الأقوال لكن تخص منها ما فيه نص

والتبرك هو التيمن وعكس التيمن هو التشاؤم، والبركة هي الخير وعكسه الشؤم.

(٢) الاجتماع على الطعام لما روى عن رسول الله ﷺ قال: «فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه»^(١).

ولحديث: «البركة في ثلاث في الشريد والجماعة والسحور»^(٢)، وأمره ﷺ بلسع الأصابع، حيث قال: «إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة»^(٣). ولحديث «كيلوا الطعام يبارك لكم فيه»^(٤) وهو في الصحيح، والكيله فيها البركة لأنها ليس فيها إحصاء وعد، وفيها إجمال ولحديث: «إن البركة في وسط الطعام فكلوا من حافتيه، ولا تأكلوا من وسطه»^(٥).

[الثالث]: من التبرك المشروع: التبرك بالأمكنة

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٦).

وكالأمكن التي فيها نص كالمساجد فإنه ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها. وأبغض البلاد إلى الله تعالى أسواقها»^(٧).

(١) [إسناده ضعيف] ولكنه حسن لكثرة شواهد، ومن الشواهد: «إن الله يحب كثرة الأيدي في الطعام» و«كلو جميعاً» أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٥/٣)، وأبو داود (٣٧٦٤)، وابن ماجه (٣٢٨٦) عن وحشى به.

وانظر «رياض الصالحين» (٧٤٤ - بتخريجنا).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣١٢٧/٢٥١/٩)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥٢٠) عن سلمان الفارسي به. قال اليعيشي في «المجمع»: (فيه أبو عبد الله البصري قال الذهبي: لا يعرف وبقيه رجاله ثقات).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في الأشربة (٢٠٤/١٣ - النووي). عن كعب بن مالك به.

وانظر «رياض الصالحين» (٧٥١ - بتخريجنا).

(٤) أخرجه البخاري (٢١٢٨) عن المقدم به

(٥) [حسن] أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٠/١)، وأبو داود (٣٧٧٢)، والترمذي (١٨٠٥)، والنسائي في «الكبرى» (٦٧٦٢)، وابن ماجه (٣٢٧٧) عن ابن عباس به.

وانظر «رياض الصالحين» (٧٤٥ - بتخريجنا).

(٦) الإسراء: ١.

(٧) [صحيح] أخرجه مسلم في المساجد (٢٨٨/١٨٥/٣). عن أبي هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٨٤٤ - بتخريجنا).

فالتبرك بالمساجد لا يكون بالتمسح بترابها ولا بجدرانها ونحو ذلك لأن التبرك عبادة، ويشترط فيها المتابعة والتماس البركة في المساجد، إنما يكون بالإعتكاف فيها وانتظار الصلوات، وصلاة الجماعة، وحضور مجالس الذكر، ونحو ذلك، مما هو مشروع. وكذلك جاءت الأحاديث في البركة في مكة وفي المدينة وفي الشام «إني أحرم ما بين لابتيتها» (١).

وفي المدينة «لا يدخلها الطاعون» «ولا يدخلها الدجال» (٢).

وأيضاً في الشام «طوبى للشام، فقلنا لأي شيء ذاك قال «لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها» (٣) وثبت في الصحيح أن النبي قال في وادي العقيق قال «واد مبارك...» «ونزل جبريل وأوحى إليّ أن أنزل فيه فإنه وادي مبارك وقل حجة في عمرة» (٤) وكذلك وادي وج.

والأماكن كثيرة وصفة التبرك منها ثابت بالشرع، فكيف نلتمس البركة منه؟
الجواب: عن طريق مايلي:

(١) فإن كان بيت المقدس فيشد الرحال إليه وكثرة الصلاة فيه.

(٢) وكذلك المسجد الحرام فيشد الرحال إليه وكثرة الصلاة فيه وبالفراغ إليه عند الفتن التي لا تدخل فيها كفتنة الدجال.

(٣) وأيضاً الشام فهي حصن من حصون المسلمين في زمان الفتن.

[رابعاً]: من التبرك المشروع التبرك بالأزمنة:

- ليلة القدر: وتلتمس بركتها بقيام ليلها وصيام نهارها، فذلك أبرك من ألف شهر قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٥)﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٤٠٨٤) عن أنس ومسلم في الحج (٤٥٦/١٤٥/٥) عن رافع بن خديج به.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٨٨٠) ومسلم في الحج (٤٨٥/١٦٤/٥) عن أبي هريرة به.

(٣) أخرجه أحمد في «مستد» (١٨٤/٥)، والترمذي (٣٩٥٤) عن زيد بن ثابت به.

(٤) [صحيح] أخرجه البخاري (١٥٣٤) عن ابن عباس به.

(٥) القدر: ١ - ٣.

- يوم الجمعة: قال ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه دخل الجنة، وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»^(١).

وشهر رمضان، ويوم عرفة، والعشر الأوائل من ذى الحجة «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله قالوا ولا الجهاد.....»^(٢) «إن لله في أيام دهره لنفحات ألا فتعرضوا لها»^(٣) أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا «وسئلوا الله أن يستر عوراتكم وأن يؤمن روعاتكم»^(٤).

- وفي رواية «فعسى أن تصيب أحدكم نفحة فلا يشقى بعدها أبداً»^(٥).

- النفحة: هي البركة والتعرض لها والتماس البركة منها بالطرق المشروعة من حفاظ على العبادات والقربات.

[خامساً]: من التبرك المشروع التبرك بالأطعمة وما في حكمه:

كالزيت المستخرج من شجرة الزيتون لقوله تعالى: «يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ»^(٦).

ولقوله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة»^(٧).

ومن ذلك اللبن، والحبة السوداء، والعجوة، والكمأة، والعسل، وماء زمزم، والخيل، والغنم، والنخل.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الجمعة (١٤١/٦/٢ - النووي) عن أبي هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١١٤٩ - بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري (٩٦٩) عن ابن عباس به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٢٥٢ - بتخريجنا). انظر تخريجه في كتابنا «فقه الخطابة وزاد الخطيب» خطبة شعبان.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٨٥٦) عن محمد بن مسلمة به.

قال الهيثمي في «المجمع» (٢٣١/١٠) وفيه من لم أعرفهم ومن عرفتهم وثقوا.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٢٠/٢٥٠/١) عن أنس به.

قال الهيثمي في «المجمع» (٢٣١/١٠) رجاله رجال الصحيح غير عيسى بن موسى بن إياس بن الكبير وهو ثقة.

(٥) تقدم قبل حديث.

(٦) النور: ٣٥.

(٧) [إسناده مضطرب] أخرجه الترمذي (١٨٥)، وابن ماجه (٣٣١٩) عن ابن عمر به.

وانظر «الطب النبوي» للذهبي (٢٣١ - بتخريجنا) وانظر «شرحنا لزاد المعاد».

واللبن أيضاً لما فى المسند من حديث عائشة: «كان ﷺ إذا أتى بلبن باللبن قال «كم فى البيت من بركة «بركتين»^(١). وعند ابن ماجه قال: (بركة أو بركتان)^(٢).

ولحديث: «من أطعمه الله طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه، وأرزقنا خير منه - إلا اللبن - ومن سقاه الله لبناً فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه»^(٣).

وأيضاً ماء زمزم: لحديث «إنها مباركة»^(٤) والماء عامة: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا».

● القسم الثانى: التبرك الممنوع

التبرك الممنوع: إما بالأمكنة أو الجمادات أو الأزمنة أو بذوات الصالحين وأثارهم نذكر هنا بالفوائد السابقة فى أول الباب قبل الشروع فى بيان التبرك الممنوع وهى باختصار:

أولاً: أن البركة من الله فلا تطلب إلا منه.

ثانياً: البركة لا تثبت فى شيء إلا بدليل شرعى لأن البركة عبادة وهى توقيفية.

ثالثاً: أن ما يتبرك به من الأعيان والأقوال وأفعال الأزمان التى ثبتت فيها البركة بطريقة الشرع إنما هى سبب للبركة وليس هى واهبة لها.

رابعاً: أن التبرك بالأشياء يكون غالباً بما كان سبب البركة فيه ليس من الأسباب المعهودة للناس.

خامساً: ثبوت كيفية التبرك بالشرع كما تقدم.

وإليك الآن صور التبرك الممنوع.

١- التبرك بالأمكنة المباركة على غير ماورد به الشرع:

روى البخارى فى صحيحه، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله فقال «إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك»^(٥).

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٤٥/٦)، وابن ماجه (٣٣٢١) عن عائشة به.

(٢) تقدم قبله.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٢٥، ٢٨٥)، وأبو داود (٣٧٣٠)، والترمذى (٣٤٥٥)، والنسائى

فى «الكبرى» (١٠١١٨، ١٠١١٩) عن ابن عباس به.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الفضائل» (٢٧/١٦) - النووى عن أبى ذر به.

وانظر «الطب النبوى» للذهبى (٣٥٥) - بتحقيقنا).

(٥) تقدم تخريجه.

قال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: وفي قول عمر هذا التسليم للشارع في أمور الدين، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي ﷺ فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة فيه^(١).

روى الإمام أحمد في «المسند» عن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، أنه قال: لقي أبو بصيرة الغفاري أبا هريرة وهو جاء من الطور فقال: من أين أقبلت؟ قال: من الطور صليت فيه! قال: أما لو أدركتكم قبل أن ترحل إليه ما رحلت إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»^(*).

فالتبرك بالأمكنة المباركة على غير ما ورد في الشرع؛ كتقبييل أبواب المساجد، والتمسح بأعتابها والاستشفاء بتربتها، ومثل ذلك: التمسح بجدران الكعبة، أو مقام إبراهيم، وغير ذلك من التبرك الممنوع.

٢- ومن ذلك أيضاً الذهاب إلى القبور لا لقصد الزيارة، وإنما لقصد الدعاء عندها لأجل بركتها واعتقاد أن الدعاء عندها أفضل.

قال ابن تيمية كما في «اقتضاء الصراط المستقيم»^(٢): «فأما إذا قصد الرجل الصلاة عند بعض قبور الأنبياء، أو بعض الصالحين تبركاً بالصلاة في تلك البقعة؛ فهذا عين المحادة لله ورسوله، والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله...».

٣- قال ابن تيمية كما في «الاقتضاء»^(٣): «... مثل من يذهب إلى حراء ليصلي فيه ويدعو، أو يسافر إلى غار ثور ليصلي فيه ويدعو، أو يذهب إلى الطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ليصلي فيه ويدعو، أو يسافر إلى غير هذه الأماكن من الجبال وغير الجبال التي يقال فيها مقامات الأنبياء... ولا شرع لأتمه زيارة موضع المولد، ولا زيارة موضع بيعة العقبة... ومعلوم أنه لو كان هذا مستحباً يثيب الله عليه؛ لكان النبي ﷺ أعلم الناس بذلك وأسرعهم إليه، ولكان علم أصحابه بذلك، وكان أصحابه أعلم بذلك وأرغب فيه ممن بعدهم، فلما لم يكونوا يلتفتون إلى شيء من ذلك؛ علم أنه من البدع المحدثه».

(١) الفتح (٣/ ٣٧٠).

(*) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٣٩٧) وهو في الصحيحين عن أبي هريرة به.

وانظر «منار السبيل» بتخريجنا.

(٣) (٤٢٤ - ٤٢٦).

(٢) (٣٣٤).

وقد رد عبدالعزيز بن باز^(١) على من طالب بإحياء الآثار النبوية؛ كطريق الهجرة، ومكان خيمة أم عبد، ونحو ذلك، وبين أن ذلك يجر إلى تعظيمها أو الدعاء عندها أو الصلاة ونحو ذلك، وهذه من الوسائل المقضية إلى الشرك».

٤- وكذا الأمكنة التي صلى فيها الرسول ﷺ اتفاقاً، كأن يكون في سفر ونحو ذلك، ولم يقصد تخصيصها بالصلاة فيها؛ فإنه لا يشرع تتبعها والتقرب إلى الله بالصلاة فيها؛ لأنها لم تكن مقصودة لذاتها.

ومن باب أولى الأماكن التي ارتبطت بحوادث نبوية معينة؛ كغار حراء، وغار ثور، وموقعة بدر، ومكان شجرة بيعة الرضوان، وغير ذلك،

وروى ابن سعد في «الطبقات» عن نافع؛ قال: «كان الناس يأتون الشجرة التي يقال لها شجرة الرضوان، فيصلون عندها، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فأوعدهم فيها وأمر بقطعها»^(٢).

٥- وكذا الأزمنة المباركة؛ كشهر رمضان، وليلة القدر، ويوم الجمعة، وغير ذلك إنما تلمس بركتها بالقيام بالمشروع فيها من العبادات، ولو التمسست بركة تلك الأزمنة بأعمال غير مشروعة؛ لأنكر عليه؛ لأن التماس البركة في زمان معين أو مكان معين عبادة يقتصر فيها على المشروع.

٦- ومن ذلك تخصيص أزمنة معينة بنوع من التعظيم والاحتفالات والعبادات؛ كيوم مولد الرسول ﷺ، ويوم الإسراء والمعراج، ويوم الهجرة، ويوم بدر، وفتح مكة، وغير ذلك؛ فالتبرك بالأزمنة على هذا النحو من البدع.

٧- ومن التبرك الباطل: التبرك بذوات الصالحين وآثارهم؛ فلم يؤثر عن أحد من الناس أنه تبرك بوضوء أبي بكر أو عرقه أو ثيابه أو ريقه أو غير ذلك، ولا عمر ولا عثمان ولا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وإنما كان الصحابة رضي الله عنهم يتبركون بوضوء النبي ﷺ وجسمه وعرقه وريقه وشعره وملابسه، وهذا خاص بالنبي ﷺ لا يجوز أن يقاس عليه أحد من الصالحين، ولو كانوا من الخلفاء الراشدين أو العشرة المبشرين، فضلاً عن غيرهم؛ لأن التبرك عبادة مبناه على التوقيف والإتباع^(٣).

(١) فتاويه (٣/ ٣٣٤).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/ ٨٦) ونسبه لابن أبي شيبة في «مصنفه».

(٣) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٣٣٩). «الإعتصام» للشاطبي (ص ٨)، «رسالة التبرك المشروع والتبرك الممنوع» للعلاني (ص ٨١).

* تنبيه: لا يجوز القطع لإنسان ما بأنه صالح إلا ما جاء فيه نص، فالصلاح أمر ظاهر وباطن، والباطن لا يعلمه إلا الله وحده. ولا يحكم بالصلاح من الظاهر فقط، فوجب التوقف بالقطع لأحد بالصلاح، وخصوصاً في الولاية «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» فصلاح الظاهر يحكم عليه بالنظر لوقوف الرجل عند أمر الله ونهيه، ولذا قال شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى»^(١) «ولهذا قال الأئمة: إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشی على الماء، فلاتغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهى».

شبهتان والرد عليهما

● **الشبهة الأولى:** قد يستدل على جواز التبرك بالأمكنة أو بأثار الصالحين بما:

روى البخارى في صحيحه أن عتبان بن مالك وهو من أصحاب رسول الله ﷺ شهد بداراً من الأنصار أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد أنكرتُ بصرى، وأنا أصلى لقومى فإذا كانت الأمطار سال الوادى الذى بينى وبينهم لم أستطع أن أتى مسجدهم فأصلى بهم، وودت يارسول أنك تأتيني فتصلى فى بيتى، فاتخذة مصلى قال: فقال له رسول الله ﷺ «سأفعل - إن شاء الله» قال: عتبان فغدا رسول الله ﷺ وأبو بكر حين ارتفع النهار فاستأذن رسول الله ﷺ فأذنت له فلم يجلس حين دخل البيت ثم قال «أين تحب أن أصلى فى بيتك؟» قال: فأشرت له إلى ناحية من البيت فكبر فقمنا فصففتنا فصلى ركعتين ثم سلم الحديث^(٢).

وهذه الشبهة مردودة بالآتى:

(١) لم يقصد عتبان رضى الله عنه أن يتبرك بالموضع الذى صلى فيه رسول الله ﷺ وإنما قصد أن يقره الرسول ﷺ على الصلاة جماعة فى داره عند عدم استطاعته حضور الجماعة.

(٢) ولو كان قصد عتبان رضى الله عنه التبرك بموضع مصلاه ﷺ لبقى هذا الموضع يتبرك به الورثة فمن بعدهم، كما كان الصحابة يتداولون قدح رسول الله ﷺ وشعره ﷺ لأجل التبرك به^(٣).

(٣) عدم قياس الصالحين وأثارهم على النبى ﷺ.

(١) (٨٣/١).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٢٤) ومسلم فى المساجد (٣/١٧١/٣٦٣) عن عتبان به.

(٣) التبرك المشروع والممنوع ٦٩.

يروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان يتبع المساجد التي صلى فيها الرسول ﷺ يصلى فيها^(١).

والجواب:-

(١) أنه لا يدل على أن ابن عمر يفعل ذلك من باب التبرك فهو لم يصرح بذلك رضى الله عنه ولكنه عُرف بشدة مبالغته في التأسي برسول الله ﷺ.

(٢) ثم إن ابن عمر لا يسافر لأجل أن يصلى في تلك المواطن وإنما إذا سافر من المدينة إلى مكة تحرى النزول في مكان نزول رسول الله ﷺ والصلاة في المواضع التي صلى فيها رسول الله ﷺ لينال ثواب التأسي والإقتداء.

(٣) وهذا اجتهد منه رضى الله عنه وأما غيره من الصحابة فلم يبالغوا في ذلك خشية من الفتنة كما تقدم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه.

(٤) ومن المعلوم أن الخلفاء الراشدين الأربعة وأغلب الصحابة قد سافروا إلى مكة والمدينة كثيراً، ولم ينقل عن أحد منهم أنه تحرى تتبع آثار الرسول ﷺ ليصلى فيها، أو يدعو فيها، ولو فعلوه لنقل عنهم، كما نقل عن ابن عمر رضى الله عنه ما فعله.

(٥) وهذا الأمر الذى أطبق عليه الصحابة رضوان الله عليهم من عدم تتبع الأمكنة التى صلى فيها رسول الله ﷺ اثنان لا ينطبق على الأمكنة التى علم الصحابة رضوان الله عليهم بأنه الرسول ﷺ كان يتحرى الصلاة عندها كمثّل أداء ركعتي الطواف خلف المقام كما فى حديث جابر رضى الله عنه فى سياق حجة الوداع، وفيه: «ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ ورفع صوته لسمع الناس فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين^(٣) اهـ.

وكذلك الصلاة فى مسجد الخيف، ومسجد منى؛ لأن النبی ﷺ قال فيه: «صلى فيه سبعون نبياً»^(٤) كذا ذكره الأزرقي فى «أخبار مكة».

* تنبيه: كان لا بد من ذكر هذه المقدمات والمسائل قبل الشروع فى الباب لأهميتها، ولتمهيد الدخول فيه، ولتيسير الفهم وجمع فوائد الباب.



(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٨٣ - ٤٩٢).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحج (٨ / ١٧٠ - النووي) عن جابر به.

وانظر «السلسلة» (١٠٦ - بتخريجنا).

(٣) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١١ / ٤٥٢ - ٤٥٣ / ١٢٨٣) عن ابن عباس به.

وقولُ الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى...﴾ (١) الآيات

قال سليمان آل الشيخ (٢): هكذا ثبت في خط المصنّف الآيات يعنى إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ (٣).

● مناسبة الآية للباب:

قال عبدالله بن جار الله (٤): أن التبرك بالشجر والحجر والقبور من جنس عبادة المشركين لهذه الأصنام، فمن فعل ذلك فقد شابهم في فعلهم، وما تشبه بقوم فهو منهم اهـ.

قال ابن عثيمين (٥): مناسبة الآية للترجمة أنهم يعتقدون أن هذه الأصنام تنفعهم وتضرهم، ولهذا يأتون إليها؛ يدعونها، ويدبحون لها، ويتقربون إليها، وقد يتلى الله المرء فيحصل له ما يريد من اندفاع ضر أو جلب نفع بهذا الشرك؛ ابتلاءً من الله وامتحاناً، وهذا قد تقدّم لنا له نظائر أن الله يتلى المرء بتفسير أسباب المعصية له حتى يعلم سبحانه من يخافه بالغيب اهـ.

قال القرعاوى (٦): حيث دلت الآية على أن عبادة المشركين لهذه الأوثان إنما كانت لطلب النفع ودفع الضررة فكل من تبرك بشجر أو قبر أو عبد غير ذلك قاصداً بذلك جلب النفع أو دفع الضرر فقد شابهم ودخل في شركهم اهـ.

● مناسبة الآية لما قبلها:

قال ابن عثيمين: قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾.

لما ذكر الله المعراج وقال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّ الْكُبْرِ﴾ ذكر بعد ذلك ﴿أَفَرَأَيْتُمُ...﴾ أى أخبرونى ما شأنها بالنسبة لهذه الآيات العظيمة والاستفهام هنا للاستحقاق والتهكم بهذه الأصنام وهذه صورة من صور الإلحاد فى أسماء الله الحسنى فألحدوا فى لفظ الله وأنشؤه اللات والعزى جعلوه العزى والمنان جعلوه مناة أهـ وسيأتى تفصيل ذلك فى تفسير الآية.



(٢) تيسير العزيز الحميد ١٢٦،

(٤) الجامع الفريد (٤٦)

(٦) الجديد ١٠٠.

(١) النجم: ١٩.

(٣) النجم: ٢٣.

(٥) القول المفيد ٢٥٧/١.

الإعراب: (١).

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ الهمة للإستفهام الإنكارى والفاء حرف عطف لترتيب الرؤية على ما ذكر من شئونه تعالى المنافية لها غاية المنافاة والتقدير: أعقيب ما سمعتم من آثار كماله ونفاذ أمره فى الملاء الأعلى وما تحت أطباق الثرى أرايتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها وفسولتها شركاء لله تعالى. (ورأيتم) فعل وفاعل (واللات) مفعولة (والعزى) (ومناة) معطوفتان على (اللات) (والثالثة الأخرى) صفتان الأولى صفة للتين قبلها والثانية صفة ذم للثالثة، ومفعول رأيتم الثانى محذوف تقديره قادرة على شىء ويجوز أن تكون من رؤية العين فلا تحتاج إلى مفعول ثانٍ. اهـ.

* ما ورد فى تفسيرها من الموقوف والمقطوع :-

عن ابن عباس قال: كان اللات رجلاً يلت سوق الحاج (٢).

وفى لفظ : يلت السوق يسقيه الحاج (٣).

وعن ابن عباس قال: كان اللات يلت السوق على الحاج فلا يشرب منه أحد إلا سمن فعبده (٤).

وعن مجاهد فى قوله ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴾ قال: اللات كان يلت السوق بالطائف فاعتكفوا على قبره، والعزى شجرات (٥).

وعن مجاهد قال: كانت اللات رجلاً فى الجاهلية على صخرة بالطائف وكان له غنم فكان يأخذ من رسلها ويأخذ من زبيب الطائف والأقط فيجعل منه حيساً ويطعم من يمر

(١) إعراب القرآن ٣٥٢/٩.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٨٥٩) وذكره السيوطى فى «الدر» (٧/٦٥٢، ٦٥٣) وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه. وانظر «فتح المجيد» (ح ٢١٣) بتخريجنا.

(٣) اللفظ لعبد بن حميد وانظر ما قبله.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن مردويه.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر. وانظر «الإتقان» للسيوطى بتخريجنا.

من الناس، فلما مات عبده وقالوا: هو اللات، وكان يقرأ اللات مشددة^(١).

وعن ابن جريج في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ﴾ قال: كان رجل من ثقيف يلت السويق بالزيت فلما توفي جعلوا قبره وثناً، وزعم الناس أنه عامر بن الظرب أخذ عدواناً^(٢).

وعن أبي صالح قال: اللات الذي كان يقوم على آلهتهم، وكان يلت لهم السويق، والعزى بنخلة كانوا يعلقون عليها السيور والعهن، ومناة حجر بقديد^(٣).

وعن ابن عباس أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحي: إنه لم يمت ولكنه دخل الصخرة فعبدها وبنوا عليها بيتاً^(٤).

وعن أبي الجوزاء قال: اللات حجر كان يلت السويق عليه فسمى اللات^(٥).

وعن أبي الطفيل قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكان بها العزى فاتأها خالد وكانت على ثلاث سمرات فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً»، فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة، وهم حجبته، امتنعوا في الجبل وهم يقولون يا عزى يا عزى، فاتأها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها، فعممها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «تلك العزى»^(٦).

وعن ابن عباس أن العزى كانت بطن نخلة وأن اللات كانت بالطائف، وأن مناة كانت بقديد^(٧).

وعن قتادة في قوله ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ﴾ قال: آلهة كانوا يعبدونها،

(١) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لسعيد بن منصور والفاكهي.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» في الموضع السابق ونسبه لابن المنذر.

وانظر «الإتقان» للسيوطي بفتح الجيم.

(٣) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جريج.

(٤) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه للفاكهي.

(٥) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد.

(٦) أخرجه النسائي في «تفسيره» (٥٦٧) ذكره السيوطي في «الدر» في الموضع السابق وزاد نسبه لابن

مردويه.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر» في الموضع السابق ونسبه للطبراني وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (١١٦١٦ - بتخريجنا).

فكان اللات لأهل الطائف وكانت العزى لقريش بسقام شعب بطن نخلة، وكانت مناة
للأنصار بقديد^(١).

● أقوال المفسرين :

قال القرطبي : لما ذكر الوحي إلى النبي ﷺ وذكر من آثار قدرته ما ذكر، حاج
المشركين، إذ عبدوا ما لا يعقل. وقيل: أفرأيت هذه الآلهة التي تعبدونها أو أوحى إليكم
شيئاً كما أوحى إلى محمد ﷺ وكانت اللات لثقيف، والعزى لقريش وبنى كنانة،
ومناة لبنى هلال. وقال ابن هشام: كانت مناة لهذيل وخزاعة. أهد

● كلام سراح كتاب التوحيد :

قال سليمان آل الشيخ^(٢): ذكر صفة هذه الأوثان:

ليعرف المؤمن كيفية الأوثان، وكيفية عبادتها، وما هو شرك العرب الذين كانوا
يفعلونه حتى يفرق بين التوحيد والإخلاص وبين الشرك والكفر، فأما اللات فقرأ
الجمهور بتخفيف التاء، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح ورويس
عن يعقوب اللات بتشديد التاء، فعلى الأولى قال الأعمش: سمو اللات من الإله
والعزى من العزيز.

قال ابن جرير، وكانوا قد اشتقوا اسمها من الله تعالى، فقالوا اللات مؤنثة منه.
تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

قال: وكذا العزى من العزيز.

قال ابن كثير: وكانت صخرة بيضاء منقوشة عليها، بيت بالطائف، له أستار
وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون به على
من عداهم من أحياء العرب بعد قريش،

قال ابن هشام: وكانت في موضع مسجد الطائف اليسرى، فلم يزل كذلك إلى أن
أسلمت ثقيف، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار.

(١) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٢٦: ١٢٩

وعلى الثانية قال ابن عباس كان رجلاً يلت السوق للحاج، لما مات عكفوا على قبره^(١)، ذكره البخارى .

وقال ابن عباس كان يبيع السوق والسمن عند صخرة ويلته عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السوق^(٢). وعن مجاهد نحوه، وقال: فلما مات عبده^(٣). رواه سعيد بن منصور والفاكهى وكذا روى ابن ابى حاتم عن ابن عباس: أنهم عبده وقال ابن جريج: كان رجل من ثقيف يلت السوق بالزيت، فلما توفى جعلوا إلى قبره وثناً^(٤)، وينحو ذلك قال جماعة من أهل العلم.

ولاتخالف بين القولين، فإن من قال: إنها صخرة لم ينف أن تكون صخرة على القبر أو حواليه فعظمت وعبدت تبعاً لا قصداً، فالعبادة إنما أرادوا بها صاحب القبر، فهو الذى عبده بالأصالة؛ يدل على ذلك ما روى الفاكهى عن ابن عباس أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحي: إنه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة فعبدها، وبنوا عليها بيتاً وتقدم الأثر معنا^(٥).

فتأمل فعل المشركين مع هذا الوثن، ووازن بينه وبين بناء القباب على القبور، والعكوف عندها ودعائها، وجعلها ملاذاً عند الشدائد.

وأما العزى فقال ابن جرير: كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة بين مكة والطائف كانت قريش يعظمونها - وتقدم الأثر معنا -

كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم فقال النبى ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»^(٦).

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) وقال عبد الرحمن آل الشيخ هنا: لا منافاة بين القولين فإنهم عبدوا الصخرة والقبر تألهما وتعظيمهما. ولمثل هذا بنيت المشاهد والقباب على القبور واتخذت وأثناً.

وفيه بيان أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين والأصنام. اهـ. كذا فى فتح المجيد (٦٥/١)

(٦) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٣٠٤) عن البراء به .

وروى النسائي وابن مردويه عن أبي الطفيل قال لما فتح رسول الله ﷺ مكة، بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى فأتاها خالد وكانت على ثلاث سمرات فقطع السمرات، وهدم البيت الذى كان عليها، ثم أتى النبی ﷺ فأخبره، فقال ارجع فإنك لم تصنع شيئاً، فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة وهم حجبها امتنعوا فى الجبل وهم يقولون: يا عزى يا عزى: فأتاها خالد، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها، تحفن التراب على رأسها فعلاها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «تلك العزى»^(١).

قال ابن هشام: وكانوا يسمعون منها الصوت. وقال أبو صالح: العزى نخلة كانوا يعلقون عليها السيور والعهن^(٢)، رواه عبد بن حميد وابن جرير.

هذا الوثن، ووازن بينه وبين ما يفعله عباد القبور من دعائها، والذبح غندها، وتعليق الخيوط وإلقاء الخرق فى ضرائح الأموات ونحو ذلك، فالله المستعان.

وأما مناة: فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة وأصل اشتقاقها من اسم الله المنان، وقيل: من منى الله الشئ إذا قدره.

وقيل: سميت مناة لكثرة ما يمنى، أى يراق عندها من الدماء للتبرك بها.

قال ابن هشام: فبعث رسول الله ﷺ علياً فهدمها عام الفتح.

قال ابن إسحاق فى «السيرة»: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهى بيوت تعظم كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدى لها كما يهدى للكعبة، وتطوف بها وتنحر عندها، وهى تعرف فضل الكعبة عليها، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عيه السلام ومسجده.

قلت - سليمان آل الشيخ -: هذا الذى ذكره ابن إسحاق من شرك العرب هو بعينه الذى يفعله عباد القبور.

بل زادوا على الأولين. إذا تبين هذا فمعنى الآية كما قال القرطبى: إن فيها حذفاً تقديره: أفرأيت هذه الآلهة هل نفعت أو ضرت حتى تكون شركاء لله؟!.

وقال غيره: «وَمَنَاةُ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى»^(٣)، ذم، وهى المتأخرة الوضيعة المقدار كقوله: «وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ»^(٤) أى وضعاؤهم لرؤسائهم.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الأعراف: ٣٩.

(٤) النجم: ٢٠.

قال ابن باز: (أفرايتم) أى هل نفعت هذه الأصنام أم ضرت والمعنى أنها لم تنفع ولم تضر وكانوا يسألونها ويتبركون بها ويستغيثون فأبطل الإسلام ذلك. اهـ.

قال ابن عثيمين: بعد أن ذكر الله ما رأى النبي ﷺ من هذه الآيات قال ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٦) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ﴾ أى: أخبروني ما شأنها، وما حالها بالنسبة إلى هذه الآيات العظيمة إنها ليست بشيء. والاستفهام: للاستخفاف والاستهجان بهذه الأصنام اهـ.

قوله: ﴿الْكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾.

﴿الْكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ الهمزة للإستفهام الإنكارى أيضا ولكم خبر مقدم والذكر مبتدأ مؤخر وله الأنثى عطف على لكم الذكر^(١).

قال ابن عثيمين^(٢): هذا أيضاً استفهام إنكارى على المشركين الذين يجعلون لله البنات ولهم البنين، فإذا ولد لهم الولد الذكر فرحوا واستبشروا به، وإذا ولدت الأنثى ظل وجه الإنسان منهم مسوداً، وهو كظيم، ومع ذلك يقولون: الملائكة بنات الله؛ فيجعلون البنات لله - والعياذ بالله - ولهم ما يشتهون أ.هـ.

قال ابن كثير^(٣): أى اتجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لكم الذكور؟! أ.هـ.

وقال غيره: يجوز أن يراد اللات والعزى ومناة إناث، وقد جعلتموهن لله شركاء. ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث وتستكفوا من أن يولدن لكم، أو يتسبن إليكم، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله وتسمونهن آلهة؟! هـ.

قال: سليمان آل الشيخ: - ما أقرب هذا القول إلى سياق الآية.

قال ابن عثيمين: هذا استفهام إنكارى على المشركين الذين يجعلون لله البنات ولهم البنين فإذا ولد لهم الولد الذكر فرحوا واستبشروا به، وإذا ولدت الأنثى ظل وجه الإنسان منهم مسوداً، وهو كظيم، ومع ذلك يقولون: الملائكة بنات الله، فيجعلون البنات لله - والعياذ بالله - ولهم ما يشتهون!! أ.هـ.

(١) إعراب القرآن ٣٥٣/٩

(٢) القول (١/٢٥٤، ٢٥٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/٢٤٦) وانظر تيسير العزيز الحميد (١٢٩).

قوله: ﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾^(١).

﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ (تلك) مبتدأ والإشارة إلى القسمة المفهومة من الجملة الإستفهامية (وإذن) بمعنى الجواب والجزاء والمعنى: إذ جعلتم له البنات ولكم البنين (وقسم) خبر (وضيزى) صفة لقسمة^(٢).

● التفسير بالمأثور:

عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ضِيزَى﴾ قال: جائرة قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول امرئ القيس:

ضازت بنو أسد بحكمهم
إذ يعدلون الرأس بالذنب^(٣)

- عن ابن عباس في قوله ﴿ضِيزَى﴾ قال: جائر لاحق فيها^(٤).

- عن مجاهد في قول ﴿ضِيزَى﴾ قال منقوصة^(٥).

- وعن قتادة في قوله ﴿ضِيزَى﴾ قال: جائرة^(٦).

● كلام شراح كتاب التوحيد

قال سليمان آل الشيخ^(٧): وقوله: ﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ أى: جور وباطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التى لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً، فتتزهون أنفسكم عن الإناس، وتجعلونهن لله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً! أهـ وينحوه قال ابن عثيمين.

قال محبى الدين^(٨): وفى قوله ﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ فن عجيب أيضاً فقد يتساءل الجاهلون عن السر فى استعمال كلمة (ضيزى) وهى وحشية غير مأنوسة، وسنورد ما أورده ابن الأثير فى مثله السائر ثم نردفه بما استخرجناه نحن؛ قال ابن

(١) النجم: ٢٢. (٢) الإعراب ٩/٣٥٣.

(٣) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١٠/٣٠٤/١٠٥٩٧) عن ابن عباس به.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٦/١٦٤) ونسبه للطستى.

وانظر «الإيقان» للسيوطى (٧٤٨ - بتخریجنا).

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن جرير.

وانظر «فتح القدير» (١١٦١٧ - بتخریجنا).

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٧/٦٥٣ - ٦٥٤) ونسبه للفريابى وعبد بن حميد، وابن جرير

(٦) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير.

(٧) التيسير ١٢٩. (٨) الإعراب ٩/٣٥٥ - ٣٥٦.

الأثير: «وحضر عندي في بعض الأيام رجل متفلسف فجری ذكر القرآن الكريم فأخذت في وصفه وذكر ما اشتملت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة فقال ذلك الرجل وأى فصاحة هناك وهو يقول: ﴿تلك إذن قسمة ضيزى﴾؟ فهل في لفظة ضيزى من الحسن ما يوصف فقلت له: اعلم أن لاستعمال الألفاظ أسراراً لم تقف عليها أنت ولا أئمتك مثل ابن سينا والفارابي ولا من أضلهم مثل أرسطاطاليس وأفلاطون وهذه اللفظة التي أنكرتها في القرآن وهي لفظة (ضيزى) فإنها في موضعها لا يسد غيرها مسدّها، ألا ترى أن السورة كلها التي هي سورة النجم مسجوعة على حرف الياء فقال تعالى: ﴿والنجم إذا هوى، ما ضلّ صاحبكم وما غوى﴾ وكذلك إلى آخر السورة فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد وما كان يزعمه الكفار قال: ﴿ألكم الذّكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى﴾، فجاءت هذه اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه وغيرها لا يسدّ مسدّها في مكانها وإذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا: إن غير هذه اللفظة أحسن منها ولكنها في هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها ولا مناسبة لأنها تكون خارجة عن حرف السورة، وسأبين ذلك فأقول: إذا جئنا بلفظة في معنى هذه اللفظة قلنا قسمة جائرة أو ظالمة ولا شك أن جائرة أو ظالمة أحسن من ضيزى إلا أنا إذا نظمنا الكلام فقلنا ﴿ألكم الذّكر وله الأنثى تلك إذن قسمة﴾ ظالمة لم يكن النظم كالنظم الأول وصار الكلام كالشيء المعوز الذي يحتاج إلى تمام وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام فلما سمع ذلك الرجل ما أورده عليه ربا لسانه في فمه إفحاماً، ولم يكن عنده في ذلك شيء سوى العناد».

هذا ما قاله ابن الأثير وهو جيد يدل على ذوق وفهم ولكنه لا يخرج عن الحدود اللفظية، وسنذكر ما سنح للخاطر من أمر معنوي يتعلق بهذا الكلام فنقول لما كان الغرض تهجين قولهم، وتفنيد قسمتهم، والتشنيع عليها اختيرت لها لفظة مناسبة للتهجين والتشنيع كأنما أشارت خباسة اللفظة إلى خباسة أفهامهم وهذا من أعجب ما ورد في القرآن الكريم من مطابقة الألفاظ لمقتضى الحال أ.هـ.

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾

الإعراب (١): ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ (إن) نافية (هي) مبتدأ (وإلا) أداة حصر (وأسماء) خبر هي (وسميتوها) فعل

(١) الإعراب ٩/ ٣٥٣.

وفاعل ومفعول به ثان والأول محذوف تقديره أصناماً (وأنتم) تأكيد للفاعل ليصبح عطف (وآبائكم) عليه على حد قول صاحب الخلاصة:

وإن على ضمير رفع متصل عطف فافصل بالضمير المنفصل

وجملة (سميتموها) صفة لأسماء وكذلك جملة (ما أنزل) وما نافية (وأنزل الله) فعل وفاعل وبها حال لأنه كان في الأصل صفة (لسلطان) (ومن) حرف جر زائد (وسلطان) مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به. اهـ.

[قلت]: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ...﴾ والضمير عائد على الأصنام التي تعبد أو أى وثن مثل القبور وغيرها فليس هناك دليل على فعلهم فإذا قيل لهم «هل عندكم من سلطان بهذا» ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أو ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ بل ويتجراً فيقول حدثنى قلبى عن ربى وقلنا إن عمر الملهم المحدث ما كان يتجراً أن يقول حدثنى قلبى عن ربى بل كان يقول هذا ما رأى أمير المؤمنين، فليس هناك دليل أو حجة على عبادة هذه الأوثان «ذلك أن الله هو الحق وأن الذين يدعون من دونه هو الباطل». اهـ.

قال ابن كثير: ثم قال منكرأ عليهم فيما ابتدعوه، وأحدثوه من الكذب والإفتراء والكفر من عبادة الأصنام، وتسميتها آلهة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾^(١) أى: من تلقاء أنفسكم: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أى: من حجة: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أى: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلکوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ أنفسهم فى رياستهم، وتعظيمهم آبائهم الأقدمين! وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾.

قال ابن كثير: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير، والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به ولا اتقادوا له! اهـ.

قلت (أى سليمان آل الشيخ): فى هذه الآيات من الدلائل القطعية على بطلان عبادة هذه الطواغيت، وأشباهاها مالا يزيد عليه، فسبحان من جعل كلامه شفاء وهدى ورحمة، وبشرى للمسلمين.

منها أنها أسماء مؤنثة دالة على اللين والرخاوة، وما كان كذلك فليس بآله.

(١) النجم: ٢٣.

ومنها أنكم قاسمتم الله بزعمكم فجعلتم له هذه الأسماء المؤنثة شركاء ودعوتهم له الأولاد، ثم جعلتموهم بنات، واختصصتم بالذكر، فجعلتم له المكروه الناقص، ولكم المحبوب الكامل ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

ومنها أنها أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم، وابتدعتموها.
ومنها ما أنزل الله بها من سلطان. أى حجة وبرهان.
ومنها أنكم لم تستندوا فى تسميتها إلى علم ويقين، وإنما استندتم فى ذلك إلى الظن والهوى اللذين هما أصلا الهلاك: دنيا وأخرى.

ومنها: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾. أى: بإبطال عبادتها، وما كان كذلك فهو عين المحال بين البطلان، وكل واحد من هذه الأدلة كاف شاف فى بطلان عبادتها.
فإن قلت: فأين دليل الترجمة من الآيات؟ قيل: هو بين بحمد الله، لأنه إن كان التبرك بالشجر والقبور والأحجار من الأكبر، فواضح، وإن كان من الأصغر فالسلف يستدلون بما نزل فى الأكبر على الأصغر أهـ (٢).

قال ابن عثيمين (٣): وأصل السلطان فى اللغة العربية: ما به سلطة، فإن كان فى مقام العلم؛ فهو العلم، وإن كان فى مقام القدرة؛ فهو القدرة، وإن كان فى مقام الأمر والنهى فهو من له الأمر والنهى فمثلاً قوله تعالى: ﴿لَا تَفْذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾، أى بقدرة وقوة، ومثل قوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، أى: من حجة وبرهان.
وفى الحديث: «السلطان ولى من لا ولى له» (٤)، أى: من له الأمر والنهى.

● قوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾.

﴿إِنْ﴾ هنا بمعنى ما، وعلامة إن التى بمعنى ما أن تأتى بعدها إلا، قال تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، يعنى ما هذا إلا ملك كريم، وقال تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾؛ أى: ما هذا إلا قول البشر، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾؛ أى: ما يتبعون إلا الظن.

(١) النحل: ٦٠. (٢) تيسير العزيز الحميد (١٢٩، ١٣٠).

(٣) القول المفيد ١/ ٢٥٥: ٢٥٧.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٦٥، ٤٧/٦)، وأبو داود (٢٠٨٣)، والترمذى (١١٠٢)، وابن ماجه

(١٨٧٩) عن عائشة به.

وانظر «السبيل» (٢٠١٩ - بتخريجنا).

والظن الذى يتبعونه هو أنها آلهة، وأنَّ الله البنات ولهم البنون، والظن لا يغنى من الحق شيئاً؛ كما قال تعالى فى آية أخرى.

[قلت الفقير]: والظن هو أكذب الحديث، ولا يغنى من الحق شيئاً.

● قوله: ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾.

ثم قال: كذلك أيضاً يتبعون ما تهوى الأنفس، وهذا أضر شيء على الإنسان أن يتبع ما يهوى؛ فالإنسان الذى يعبد الله بالهوى؛ فإنه لا يعبد الله حقاً، إنما يعبد عقله وهواه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمًا﴾.

[قلت]: وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾. لكن

الذى يعبد الله بالهدى لا بالهوى هو الذى على الحق.

أما الكافر لايهوى شيئاً إلا ركهه كما قال ابن عباس، فما كفر الكافر إلا اتباعاً للظن والهوى فعبد هذه الآلهة.

● قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾.

ثم قال: أى: على يد النبى ﷺ؛ فكان الأجدر بهم أن يتبعوا الهدى دون الهوى. قال الفقير: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ فهو القرآن أو الرسول كما قال ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

فإن أجرى الله بعض الخير والنفع على أيدى هذه الآلهة الباطل فإنما يفعل ذلك من باب الإبتلاء كما قال ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتَهُمْ سَقَفًا مِنْ فُضَّةٍ﴾.

وكما قال ابن مسعود لامرأته حينما علق خيط «إنما ذلك من الشيطان كان ينخسها بيده»^(١). فثبوت النفع أو عدم وجوده فهذا ليس دليل لا على بطلان ما ليس فيه ثمرة ولا على صحة ما فيه ثمرة، كالسنى قد يدعو دعوة إلى الله وليس فيها ثمرة، كما يأتى النبى وليس معه أحد ولا يستجيب أحد وقد يدعو ملحد وتستجيب له الناس، كما يأتى الدجال الأكبر فيستجيب له كثيرون فهذا ليس معناه أن دعوته حقه.

● ● ●

(١) تقدم تخريجه.

وعن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حُدَّاءُ عهدٍ بكفر! وللمشركين سِدْرَةٌ يعكفون عندها ويَنُوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط! فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبرُ إنها السننُ قُلْتُمْ - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» لَتَرْكِبَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رواه الترمذی وصححه^(١).

قوله [وعن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حُدَّاءُ ...] الحديث.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): الحديث رواه الترمذی كما قال المصنف: ولفظه: حدثنا سعيد بن عبد الرحمن المخزومي حدثنا سفيان عن الزهري عن سنان ابن أبي سنان عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ، لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم، قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله هذا كما قال قوم موسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم» هذا حديث حسن صحيح.

وأبو واقد الليثي اسمه الحارث بن عوف وفي الباب عن أبي سعيد^(٣)، وأبي هريرة^(٤)، هذا لفظ الترمذی بحروفه، وفيه مخالفة لما في الكتاب لفظاً ومعنى، وقد اتفق اللفظان على المقصود هنا. وقد رواه أحمد وأبوداود وأبو يعلى وابن أبي شيبه والنسائي

(١) [صحيح] أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/٢٢٢/٩٣١)، وابن جرير في «تفسيره» (٩/٣١)، وأحمد في «مسنده» (٥/٢١٨)، والترمذی في «الفتن»/باب: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم (/٢١٨٠/٤/٤٧٥) وابن أبي عاصم في «السنن» (٧٦)، والنسائي في «تفسيره» (٥/٢٠٥)، وابن حبان في صحيحه (٨/٢٤٨ - الإحسان) والطبراني في «الكبير» (٣/٢٤٣/ح ٣٢٩٠).

من طريق الزهري، حدثنا ابن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد الليثي به.

قال الترمذی: حسن صحيح.

وذكره السيوطي في «الدرة» (٣/٢١٣)، وزاد نسبه لابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (٥٢١٩ - بتخريجنا) «فتح المجيد» (ح ٢٢٠) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٢٩: ١٣٠.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧٣٢٠) ومسلم (٨/٤٧٢/٦) عن أبي سعيد - وانظر «فتح المجيد»

(ح ٢٢١) بتخريجنا.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (ح ٧٣١٩) وانظر «فتح المجيد» (ح ٢٢٢) بتخريجنا.

وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني بنحوه، وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني من طريق كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده نحوه أيضاً^(١).

● مناسبة الحديث للباب والتوحيد:

هى أنه أفاد أن التبرك بالأشجار من الشرك^(٢).

قال القرعاوى^(٣): حيث دلّ الحديث على أن اتخاذ الأشجار للتبرك والعكوف عندها شرك فيدخل فيه كل مايتبرك به من شجر وحجر أو قبر أو غير ذلك.

قوله: «عن أبى واقد الليثى»

قال سليمان آل الشيخ^(٤):

قوله: عن أبى واقد الليثى. اسمه الحارث بن عوف، كما قال الترمذى، وقيل الحارث ابن مالك، صحابى مشهور. مات سنة ثمان وستين وله خمسة وثمانون سنة.

قوله: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين».

قال سليمان آل الشيخ^(٥):

قوله: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين. فى حديث عمرو بن عوف، قال: غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح ونحن ألف ونيف حتى إذا كنا بين حنين والطائف^(٦)، ولامخالفة بينهما فى المعنى، فإن غزوة الفتح وحنين كانتا فى سفر واحد. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٧):

قوله: «خرجنا مع النبى ﷺ»

أى: بعد غزوة الفتح؛ لأن النبى ﷺ لما فتح مكة تجمعت له ثقيف وهوازن بجمع عظيم كثيراً جداً.

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧/٢١/٢٧) عن عمرو بن عوف به.

قال الهيثمي في «المجمع» (٧/٢٤) وفيه كثير بن عبد الله وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذى حديثه. وانظر «فتح القدير» (٥٢٢٠ - بتخريجنا).

(٢) الجامع الفريد ٤٧.

(٣) الجديد ١٠٣.

(٤) تيسير العزيز الحميد ١٣١.

(٥) تيسير العزيز الحميد ١٣١.

(٦) القول المفيد ١/٢٥٧: ٢٥٩.

(٧) تقديم تخريجه قريباً.

فقصدهم ﷺ ومعه اثنا عشر ألفاً: ألفان من أهل مكة، وعشرة آلاف جاء بهم من المدينة، فلما توجهوا بهذه الكثرة العظيمة؛ قالوا: لن نغلب اليوم من قلة. فأعجبوا بكثرتهم، ولكن بين الله أن النصر من عند الله وليس بالكثرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ...﴾ (١) الآيتين.

ثم لما انحدروا من وادي حنين وجدوا أن المشركين قد كمنوا لهم في الوادي؛ فحصل ما حصل، وتفرق المسلمون عن رسول الله ﷺ، ولم يبق معه إلا نحو مئة رجل، وفي آخر الأمر كان النصر للنبي ﷺ، والحمد لله.

* قوله: «حدثاء».

قال ابن عثيمين: جمع حديث؛ أي: أننا قريب عهد بكفر، وإنما ذكر ذلك رضى الله عنه للإعتذار لطلبهم وسؤالهم، ولو قرر الإيمان في قلوبهم لم يسألوا هذا السؤال. أ.هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ: (٢) «ونحن حدثاء عهد بكفر» فيه دليل على أن غيرهم ممن تقدم إسلامه من الصحابة لا يجهل هذا، وأن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه، لا يامن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة. ذكره المصنف رحمه الله.

قال ابن الأثير في «النهاية» (٣)، السدر: شجرة النبق أهـ.

قوله: «يعكفون عندها».

قال سليمان آل الشيخ (٤): قوله: يعكفون عندها. الاعتكاف: هو الإقامة على الشيء بالمكان، ولزومها، ومنه قوله: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (*) وكانوا يعكفون عند هذه السدرة تبركاً بها. وفي حديث عمرو بن عوف قال: كان يناط بها السلاح، فسميت ذات أنواط، وكانت تعبد من دون الله، فلما رآها رسول الله ﷺ، صرف عنها في يوم صائف إلى ظل هو أدنى منها... الحديث (٥) فيجمع بينهما بأن عبادتها هي العكوف عندها رجاء لبركتها.

(١) التوبة: ٢٥.

(٢) فتح المجيد (١/١٩٩).

(٣) النهاية (٢/٣٥٣ - مادة سدر).

(*) الأنبياء: ٥٢.

(٤) تيسير العزيز الحميد ١٣١.

(٥) تقدم تخريجه.

قال ابن عثيمين^(١): أى: يقيمون عليها، والعكوف، ملازمة الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾^(٢). اهـ.

قوله: «ينوطون بها أسلحتهم» أى يعلقونها تبركا^(٣) اهـ.

قال الفقير: كأنهم يعتقدوا أن هذه الشجرة من أسباب النصر، فلما اعتبروا أشياء لها سبب من أسباب النصر ولم تكن كذلك فأعتقدوا أن الشجرة سبب من أسباب النصر فناهاهم النبي ﷺ وبين لهم أنه كفر، ولما اتخذوا السبب الشرعى ومالوا له وهو الكثرة أدبهم وعلمهم خلاف ذلك، فالعدد معتبر شرعاً كسبب من أسباب النصر كما قال تعالى ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ ولكن غير المعتبر الثقة بالسبب والركون إليه حتى لو كان شرعياً فالواجب على المسلم الأخذ بالاسباب مع التوكل على الله والثقة به والاعتماد عليه.

قوله: «يقال لها ذات أنواط».

قال فى النهاية: هى اسم شجرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم أى يعلقونه بها ويعكفون حولها فسألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك وأنواط جمع نوط وهو مصدر سمي به المنوط انتهى^(٤).

قال أبو السعادات: سأله أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك. وأنواط جمع نوط، وهو مصدر سمي به المنوط^(٥). أ.هـ

قوله: «مررتا بقوم لهم سدره يعكفون عندها».

[قال الفقير] الإعتكاف: هو الإقامة على الشيء فى مكان ومن هنا سمي الإعتكاف بالاعتكاف وهو العكوف على الذكر والصلاة فى المساجد لا فى غيرها.

والإعتكاف فى اللغة هى الإقامة على الشيء فى المكان ولزومه ومنه قوله تعالى: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ وعكفوا عليها أى أقاموا عليها وعبدوها ولم يغادروها.

أما المعنى الشرعى.

هو إقامة ولزوم مخصوص بشروط مخصوصة كانوا يعكفون عندها - هذه السدره -

(١) القول المفيد ٢٥٩/١.

(٢) البقرة: ١٨٧.

(٣) تيسير العزيز الحميد ١٣١.

(٤) تحفة الأحوذى

(٥) تيسير العزيز الحميد (١٣١).

تبركاً بها وفي حديث عمرو بن عوف كان يناط بها السلاح، وهذا سبب البركة من تعليق الأسلحة يظنون أنها تجلب النصر وأنهم كانوا يتفاءلون بها والتفاؤل هو اليمن، واليمن هو البركة واليمن عكس الشؤم والشؤم عكس البركة فكانوا يتبركون بمجرد تعليق الأسلحة.

قوله: «فقال النبي ﷺ الله أكبر».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: فقال النبي ﷺ «الله أكبر» هكذا فى بعض الروايات، وفى رواية الترمذى «سبحان الله» والمقصود باللفظين واحد، لأن المراد تعظيم الله، وتنزيهه عن الشرك، والتقرب به إليه، وفيه تكبير الله وتنزيهه عند التعجب، أو ذكر الشرك، خلافاً لمن كرهه. أهـ.

[قال الفقير]: وفيه: جواز الذكر بغير قصد الذكر، وإنما للتعجب. وأيضاً: إكثار الذكر على كل حال.

قوله: «إنها السنن» بضم السين أى الطرق^(٢).

قوله: «قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً....» إلخ. [قلت - الفقير]: فيه جواز الحلف بصفة من صفات الله، وكثيراً ما كان يحلف الرسول ﷺ به، واستدل به على جواز الحلف بالصفات، وعلى هذا فهل يجوز أن يحلف برحمة الله؟

الإجابة: نعم ويجوز أيضاً الحلف بالمصحف؛ لأنه من صفات الله، ولكن لا يقول - (المصحف) فقط، بل يقول (وكتاب الله) أو (كلام الله) أى لا يحلف بالصفة مجردة عن الذات بل لابد أن تكون مقرنة بالذات العلية.

قال سليمان آل الشيخ^(٣):

أخبر ﷺ أن هذا الأمر الذى طلبوه منه، وهو اتخاذ شجرة للعكوف عندها، وتعليق الأسلحة بها تبركاً، كالأمر الذى طلبه بنو إسرائيل من موسى عليه السلام. حيث قالوا: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة، والعكوف عندها، اتخاذ إله مع الله مع أنهم لا يعبدونها، ولا يسألونها. فما الظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات، والإستغاثة بهم، والذبح، والنذر لهم، والطواف بقبورهم، وتقبيلها، وتقبيل أعتابها. وجدرانها، والتمسح بها، والعكوف عندها، وجعل السدنة والحجاب لها؟ وأى نسبة بين هذا، وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركاً؟

(١) تيسير العزيز الحميد ١٣١ و١٣٢.

(٢) المصدر السابق ١٣١.

(٣) تيسير العزيز الحميد ١٣٢ و١٣٣.

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي من أئمة المالكية: فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس، ويعظمونها، ويرجون البرء والشفاء من قبلها، ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها.

وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعي المعروف بأبي شامة في كتاب «البدع والحوادث»: ومن هذا القسم أيضاً ما قد عم الإبتلاء به من تزوين الشيطان للعامة، من تخليق الحيطان والعمد، وسرج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكى لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك، ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسنته ويظنون أنهم مقربون بذلك ثم يتجاوزن هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لهم، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر، وفي مدينة دمشق صانها الله من ذلك مواضع متعددة كعونية الحما خارج باب توما، والعمود المخلوق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث ثم ذكر الحديث المتقدم.

وكلام الطرطوشي الذي ذكرنا.

ثم قال: ولقد أعجبنى ما صنعه الشيخ أبو إسحاق الجبيني رحمه الله تعالى أحد الصالحين ببلاد أفريقية في المائة الرابعة حكى عنه صاحبه الصالح أبو عبد الله محمد ابن أبي العباس المؤدب أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية، كان العامة قد افتتوا بها يأتوها من الآفاق، من تعذر عليها نكاح أو ولد قالت: امضوا بي إلى العافية، فتعرف بها الفتنة، قال أبو عبد الله: فأنا في السحر ذات ليلة إذ سمعت أذان أبي إسحاق نحوها، فخرجت فوجدته قد هدمها وأذن الصبح عليها ثم قال: اللهم إني هدمتها لك فلا ترفع لها رأساً، قال فما رفع لها رأس إلى الآن.

قلت: أبو إسحاق الذي هدمها إمام مشهور من أئمة المالكية زاهد اسمه إبراهيم بن أحمد بن علي بن أسلم، وكان الإمام أبو محمد بن أبي زيد يعظم شأنه، ويقول: طريق أبي إسحاق خالية لا يسلكها أحد في الوقت، وكان القابسي يقول: الجبيني إمام يقتدى به. مات سنة تسع وستين وثلاثمائة. وذكر ابن القيم نحو ما ذكره أبو شامة، ثم قال: فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله، ولو كانت ما كانت، ويقولون: إن هذا الحجر، وهذه الشجرة، وهذه العين تقبل النذر، أي تقبل العبادة من دون الله، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له. وسيأتى شيء يتعلق بهذا الباب عند قوله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد»^(١) وفي هذه الجملة من الفوائد، أن ما

(١) سيأتي تخريجه.

يفعله من يعتقد فى الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها، والعكوف عندها، والذبح لها، هو الشرك، ولايفتر بالعوام والطعام، ولايستبعد كون هذا شركاً، ويقع فى هذه الأمة. فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً، وطلبوه من النبي ﷺ حتى بين لهم أن ذلك كقول بنى إسرائيل: اجعل لنا إلهاً؛ فكيف بغيرهم مع غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة؟

وفىها أن الاعتبار فى الأحكام بالمعانى لا بالأسماء، ولهذا جعل النبي ﷺ طلبتهم كطلبة بنى إسرائيل، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط، فالشرك وإن سمي شركه ما سماه، كمن يسمى دعاء الأموات، والذبح لهم والنذر ونحو ذلك تعظيماً ومحبة، فإن ذلك هو الشرك، وإن سماه ما سماه. وقس على ذلك. وفىها أن من عبد فهو إله، لأن بنى إسرائيل والذين سألوا النبي ﷺ لم يريدوا من الأصنام والشجرة الخلق والرزق، وإنما أرادوا البركة، والعكوف عندها، فكان ذلك اتخاذاً له مع الله تعالى. وفىها أن معنى الإله هو المعبود، وأن من أراد أن يفعل الشرك جهلاً فنهى عن ذلك فانتهى لا يكفر. وأن لا إله إلا الله تنفى هذا الفعل مع دقته وخفائه على أولئك الصحابة. ذكره المصنف، فكيف بما هو أعظم منه؟ ففيه رد على الجهال الذين يظنون أن معناها الإقرار بأن الله خالق كل شيء، وأن ما سواه مخلوق ونحو ذلك من العبارات، والأغلاط على من وقع منه ذلك جهلاً.

وذكر ذلك صاحب «فتح المجيد» بشيء من الاختصار.

قال ابن عثيمين^(١): أى: إن الرسول ﷺ قاس ما قاله الصحابة رضى الله عنهم على ما قاله بنو إسرائيل لموسى حين قال: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة؛ فأنتم طلبتم ذات أنواط كما أن لهؤلاء المشركين ذات أنواط.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «والذى نفسى بيده» المراد أن نفسه بيد الله، لا من جهة إمامتها وإحيائها فحسب؛ بل من جهة تدبيرها وتصريفها أيضاً، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها سبحانه وتعالى..

قوله: «لتركن سنن من كان قبلكم».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): أى لتتبعن أنتم أيها الأمة سنن من كان قبلكم، بضم السين، أى: طريقهم ومناهجهم وأفعالهم، ويجوز فتح السين. أهـ.

قلت: وفى الحديث الآخر «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة»^(٣) فيه شدة الاتباع الدقيق جداً لهم، وقد وقع من ذلك شيء كبير.

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٣٣).

(١) القول المفيد ١/ ٢٦٠.

(٣) سيأتي تخريجه فى باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان.

قال ابن عثيمين: أى: لتفعلنَّ مثل فعلهم، ولتقولنَّ مثل قولهم، وهذه الجملة لا يراد بها الإقرار، وإنما يراد بها التحذير؛ لأنه من المعلوم أنَّ سنن من كان قبلنا مما جرى تشبيه سنن ضالَّة، حيث طلبوا آلهة مع الله؛ فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يحذُر أمته أن تتركب سنن من كان قبلها من الضلال والغى.

والشاهد من هذا الحديث قولهم: «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»؛ فأنكر عليهم النبي ﷺ.

قال النووي - وهو مؤدى ما ذكر صاحب «تحفة الأحوذى» عن النووي حيث قال -: وفى هذا معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ فقد وقع ما أخبر به ﷺ.

قال سليمان آل الشيخ^(١): وهذا خبر صحيح وجد كما أخبر ﷺ فيه دليل على شهادة أن محمداً رسول الله.

وفى الحديث من الفوائد غير ما تقدم:

النهى عن التشبه بأهل الجاهلية من أهل الكتاب والمشركين، وأنه متقرر عندهم أن العبادات مبناهما على الأمر، فصار فيها التنبيه على مسائل القبر، أما من ريك؟ فواضح، وأما من نبيك؟ فمن إخباره بأبناء الغيب، وأما ما دينك؟ فمن قولهم: اجعل لنا إلهاً إلى آخره، قاله المصنف.

وفيه أن الشرك لا بد أن يقع فى هذه الأمة؛ كما وقع فيمن قبلها، ففيه رد على من قال: إن الشرك لا يقع فى هذه الأمة.

وفيه سد الذرائع.

والغضب عند التعليم.

وأن ما ذم الله به اليهود والنصارى، فإنه لنا لنحذره، ذكر ذلك المصنف.

تنبيه: ذكر بعض المتأخرين أن التبرك بآثار الصالحين مستحب كشرب سؤرهم، والتمسح بهم أو بثيابهم، وحمل المولود إلى أحد منهم ليحنكه بتمره حتى يكون أول ما يدخل جوفه ريق الصالحين، والتبرك بعرقهم ونحو ذلك، وقد أكثر من ذلك أبو زكريا النووي فى «شرح مسلم» فى الأحاديث التى فيها أن الصحابة فعلوا شيئاً من ذلك مع النبي ﷺ، وظن أن بقية الصالحين فى ذلك كالنبي ﷺ وكذلك الحافظ فى «الفتح» وهذا خطأ صريح لوجوه:

منها: عدم المقاربة فضلاً عن المساواة للنبي ﷺ فى الفضل والبركة؟.

(١) تيسير العزيز الحميد ١٣٣ و١٣٤.

ومنها: عدم تحقق الصلاح، فإنه لا يتحقق إلا بصلاح القلب، وهذا أمر لا يمكن الإطلاع عليه إلا بنص، كالصحابه الذين أثنى الله عليهم ورسوله، أو أئمة التابعين، أو من اشتهر بصلاح ودين كالأئمة الأربعة ونحوهم من الذين تشهد لهم الأمة بالصلاح وقد عدم أولئك، أما غيرهم فغاية الأمر أن نظن أنهم صالحون فنرجو لهم.

ومنها: أنا لو ظننا صلاح شخص فلا نأمن من أن يختم له بخاتمة سوء، والأعمال بالخواتيم، فلا يكون أهلاً للتبرك بآثاره.

ومنها: أن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره لا في حياته، ولا بعد موته، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، فهلا فعلوه مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلى ونحوهم من الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة؟ وكذلك التابعون هلا فعلوه مع سعيد بن المسيب وعلى بن الحسين وأويس القرني، والحسن البصري ونحوهم ممن يقطع بصلاحهم؟ فدل أن ذلك مخصص بالنبي ﷺ.

ومنها: أن فعل هذا مع غيره ﷺ لا يؤمن أن يفوته، وتعجبه نفسه، فيورثه العجب والكبر والرياء، فيكون هذا كالملاح في الوجه بل أعظم.

[قلت - الفقير -]: «قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل».

أخبر أن هذا الأمر الذي طلبوه منه هو اتخاذ شجرة للعكوف عندها تبركاً كالأمر الذي طلبه بنو إسرائيل من موسى هذا مثل هذا تماماً، حيث قال «اجعل لنا إلهاً كما لهم إله»، قال إنكم قوم تجهلون» فالنبي ﷺ لما وجد من الصحابة ما يقارب بنو إسرائيل قال «قلتم كما قالت بنو إسرائيل»، وجعل حكم الأصنام مثل حكم الأشجار والصحابة - على جلالة قدرهم - جهل بعضهم ممن كان حديث عهد بكفر - أشياء من التوحيد، فما بالنا نحن؟! ونرى أهمية دراسة وتعلم علم التوحيد ظاهر في الحديث.

وفي الحديث أيضاً يتبين أن: مسألة التبرك لم يقع فيها الصوفية فقط، بل ونحن أيضاً، إذا لم نتبه لذلك.

قال الفقير: ومن فوائد^(١) حديث أبي واقد الليثي: المرحلية في الدعوة...

طريقة تدرج للخروج من هذه العادة فلا تخرجه مرة واحدة منها بل لا بد أن يكون هناك تدرج، والنبي ﷺ فعل ذلك في عدة مواقف، من ذلك ما جاء في الحديث المخرج في الصحيح من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله. ومن قال لأخيه تعالى أقامرك

(١) وبعض هذه الفوائد تقدم غير أننا ذكرناها لفائدته الدعوية

فليتصدق»^(١) فهو حديث عهد بكفر، ولسانه تعود على الحلف باللات والعزى، وهم لا يساون شيئاً عنده، ولكن كيف نخرجه عن تعوده هذا؟.

الجواب: لانقول له لو حلفت باللات والعزى تكون كفرت، لا بل الشرع راعى هذا فى الناس، فبين أنه لا مانع بعد الكفر بهم وبعد اجتناب عبادتهم لا مانع أنك إن وقعت فى الحلف بهم لا قصداً بل لأن اللسان يحتاج لتدريب على الامتناع من الحلف بها فإن قلت له فلها كفارة: كفارتها (لا إله إلا الله) وكذلك من كان فى الجاهلية ثم التزم، وقد تعود على الحلف بالنبي ﷺ فلا مانع أن يقول بعد الحلف (لا إله إلا الله) ومثل من قال لأخيه (تراهنى) وهى كلمة مندرجة على اللسان، فالنبي ﷺ قال: «من قال لأخيه تعالى أقامرك ليتصدق» تنصور بعض الأخوة قال (تراهنى) ثم أخرج من جيبه صدقة ثم قال مرة ثانية وأخرج صدقة ثم سوف يترث فى المرة الثالثة ولايقولها أبداً.

فكان الشرع راعى شدة الجاهلية فى الناس وأنه يصعب على من اعتاد عليها - أى العادة كانت - مما ذمها الشرع ان يتركها.

ولذلك عائشة رضى الله عنها بيئت أنه: «لم يكن أول ما نزل لاتشربوا الخمر، ولو كان أول ما نزل لاتشربوا الخمر لقال الناس لا ندع الخمر»^(٢) أى لم يكن الناس أذعن، ولكن نزل التحريم تدريجياً مثل «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى» «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير» ثم نزل «إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه» كان هذا تمهيداً لأصحاب العادات المذمومة شرعاً للخروج من الإدمان، وفى بداية الأمر بالنسبة لشرب الخمر لم يكن به حد بل كان الصحابة يضربون الشارب بالنعال وذلك لمراعاة أنهم كانوا حدثاء عهد بشرب الخمر، ولم يجلدوه وضعاً للحد وذلك ليبينوا أن الأمر فيه سعة وفيه رحمة، فعلى الداعية أن يتدرج فى الدعوة حتى لا ينفر صاحب المعصية يعنى كأن يقول له: لو أنه هو شارب الخمر أو ممن يستعمل العادة السرية: لاتأتى بها أثناء النهار من أجل الصلوات، وهكذا.

وأنا أقول هذا الكلام لكى نفسر (حدثاء عهد بكفر)، فهذا من دواعى خروج مثل هذه الكلمات من ألسنتهم، لما تمكنت العادات الجاهلية منهم أن يقولوا «والعزى والكعبة» «ورحمة أبى» فكان لها علاج إذا قلت ذلك فقل «لا إله إلا الله».

وإذا كنت لاتشعر من فعل هذه الأمور أنه بهذه الطريقة أو بهذه المعصية قد خرج من الدين والإسلام، وبيئت له أن الأمر فيه سعة، ليعود ويتوب وأنت بذلك لاتجراه على

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٩٩٣).

المعصية، بل لا تياسه من التوبة وتبين له سعه الأمر ورحمة الله وتقول له: ولو أخطأت ارجع إلى الله مرة أخرى.

قوله: (نحن حدثاء عهد بكفر) فيه دليل على أنهم هم لاغيرهم يجهلون هذا. وفيه أيضاً.

أن المتقل من العادة التي اعتادها قلبه لا يأمن أن يكون في قلبه شيء منها.

مثل: اللات والعزى، ونحن جميعاً في حالة الغضب يخرج منا مثل هذه الأمور الجاهلية، فلا تكون هذه هي النهاية بالنسبة للأخ، ولانخرجه نحن عن دائرة الإلتزام، بل نحن ننكر عليه، ولكن في نفس الوقت الإنكار يكون بقدر لايفره ولايبيعه عنا.

فالنبي ﷺ هنا أنكروا وأنكر إنكاراً شديداً وذلك لأنهم يتحملون ذلك، ولكن لو غيرهم لايتحمل ذلك فلامنع من الإنكار الذي هو أخف من ذلك فتكون شدة الانكار على قدر تحمل من تنكر عليه، وفي كلا الأمرين لا يخلو من حكمة الداعي.

قوله [ذات أنواط] سميت ذات أنواط أى صاحبة الأنواط التي تعلق عليها الأسلحة وكانت تعبد من دون الله فلما رآها النبي ﷺ صرف عنها في يوم صائف إلى ظل هو أدنى منها مع أن الشجرة كانت كبيرة ولها ظل كبير ولكن النبي ﷺ لم يجلس تحتها رغم شدة الحر وفيه دليل على سد الذرائع حتى لا يقال أنه جالس للتبرك للظل، فمجرد القعود شبهه، وأن القدوة للناس لايفعل أمراً هو في نفسه أو عنده حسن، ولكن ربما رآه الناس على هذا الحال فيتخذونه حجة على باطل.

مثل بعض الإخوة الذين يلعبون الكرة، حتى أن بعضهم عنده فتوى أن الكرة حلال فلو رآه بعض المقلدين له وهو يرتدى قميصاً أبيضاً وذاً لحية كثة، والكرة في يده. فسوف يأخذ الناس حجة على اللعب وغيره.

ومثل ما يحدث أثناء لعب الكرة من سب الدين، والرهان، وسب الأب والأم، وعلى كل شيء يتعلق بلعب الكرة، وعامة الناس لايعرفون أن هذا الأخ متأول، - وهذا التأويل باطل عندى -، وعلى فرض صحة اعتقادك فيترك من باب سد الذرائع.

فالنبي ﷺ سوف يستظل فقط ولكن تحت شجرة مشبوهه.. وقد يفهم من فعله أمر آخر؛ لذلك لم يفعله ﷺ، فالنبي صرف عنها في يوم صائف إلى ظل هو أدنى منها وهذا الأمر يذكرني برخص كثيرة نأخذ بها مثل: بعض الأخوة الذين يسافرون إلى المصايف متأولين أو يمثلون المسرحيات متأولين أنها إسلامية وكذلك فرق الغناء التي في

الأفراح التي تسمى بالأفراح الإسلامية... إلخ فهذه أمور مشبوهة، وكذلك من قُدِّم له لحم مشبوه فيأكله، فهل هذا مما اضطر إليه فلا توجد أطعمة أخرى؟

الجواب: لا، لكن يقول: أنا أكل اللحم المشبوه أحسن من الفول، ولأنه ليس لديه عزيمة فهذا الرجل حتى وإن كان عنده هذا اللحم حلال - على ما فيه من شبهة - فالناس سوف تأخذه متمسكاً على تحليل ذلك ولا يصلح ذلك، فالنبي ﷺ ترك الظل الظليل إلى ظل ليس بظليل ليسد مثل هذا الباب

وهذا الأمر يذكرني أيضاً بقصة أخ ركب مع سائق سيارة وكان السائق مستمع لأغنية، فقال الأخ للسائق أغلق التسجيل فقال له: لا فقال له: أغلق، فقال: لا. فقال الأخ للسائق: إذا أنزلني هنا - وكان المكان صحراء -.

لو أنكرنا مرة بالقلب سوف نعود والمنكر لا يقف، ويصعد بعض عوام الناس السيارة، فيجد الشيخ الذي عليه علامات السنة جالس والأغاني دائرة، فيقول: كيف يقعد الشيخ ولا ينكر؟ فيظن أنه إقرار من الشيخ على جواز الأغاني، وأنها ليست بمحرمة - ذلك لأن الشيخ لم ينكر هذا - ولو ضحك هذا الشيخ من أي موقف، فيقولوا أنظروا الشيخ قاعد وهو سعيد ومسرور أيضاً، وهذا الأخ الذي أنكر على السائق فعل كما فعل النبي ﷺ سداً للذرائع.

والشاهد أن النبي ﷺ أخذ بالعزيمة سداً للذريعة.

قال الشارح: يجمع بينهما - أي: حديث ينطون أسلحتهم، وحديث يعكفون عندها - فكان العكوف عندها بقصد التبرك وكان التعليق بقصد التبرك أيضاً لأنه لو جلس عند الشجرة برهة ثم حارب سوف يتنصر، كذلك لو علق السلاح عليها سوف يتنصر ويقال لها ذات أنواط قال أبو السعادات: سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك أ.هـ.

قال الفقير: الصحابة لما طلبوا ذلك لم يكن ذلك من باب الشرك الأكبر لأن الصحابة لا يتصور منهم ذلك ولا هم قصدوا الشرك الأكبر ولا مجرد السؤال وإلا صاروا مشركين شركاً أكبر، بل كان سؤالهم هو أنهم يقترحون على النبي ﷺ أن المشركين لهم أمور يتبركون بها تبركاً ممنوعاً، فهلا جعلت لنا أشياء نطلب منها البركة؟ ولم يقصد النبي ﷺ أن يحكم على الصحابة بل قصد أن يبين لهم قبح فعل هؤلاء يقول لهم أو تظنوا أن فعل هؤلاء محمود قوله واحده؟ أو فيها قولان؟ بل هي مذمومة قوله واحدة وهي أشبه بالأصنام التي مر عليها موسى وقومه، وقولكم أشبه بقول قوم موسى الذين قالوا «اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة» لأنهم ظنوا أن الشجر ليس كالصنم، ولكن الشجرة، كانت غريبة شيئاً ما، فالرسول ﷺ بين لهم أنها ليست بغريبة ولكن هذا

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النَّجْمِ.

الثانية: مَعْرِفَةُ صُورَةِ الْأَمْرِ الَّذِي طَلَّبُوا.

الثالثة: كَوْنُهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا.

الشجر يأخذ حكم الصنم لو فعل معه مثل ما يفعل مع الأصنام، والدليل على هذا أن قولهم أشبه بقول قوم موسى لما مروا على الأصنام «اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة» لكن الصحابة لو كانوا مروا على صنم، فهل يُظن بهم أن يطلبوا من الرسول ذلك؟ لا يمكن أبداً إنما هم طلبوا في هذا الموقف الآخر لأنهم ظنوا أن هذه الصورة - صورة الشجرة - غير الأصنام فالرسول ﷺ بين لهم أن هذه مثل هذه وسؤالكم مثل سؤالهم.



قال ابن عثيمين^(١):

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم.

أى: قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُهَا أُتِمَّ أَبَاؤُكُمْ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ الآية، وسبق تفسيرها، وأن الله تعالى أنكر على هؤلاء الذين يعبدون اللات والعزى، وأتى بصيغة الاستفهام الدالة على التحقير والتصغير لهذه الأصنام.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذى طلبوا.

وهو أنهم طلبوا من النبى ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط كما أن للمشركين ذات أنواط، وهم إنما أرادوا أن يتبركوا بهذه الشجرة لا أن يعبدوها؛ فدل ذلك على أن التبرك بالأشجار ممنوع، وأن هذا من سنن الضالين السابقين من الأمم.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

أى: لم يعلقوا أنواطاً على الشجرة، ويطلبوا من الرسول ﷺ أن يقرهم على هذا العمل، بل طلبوا من الرسول ﷺ أن يجعل لهم ذلك.

قلت: وفى ذلك أنهم علموا أن التبرك عبادة والعبادة الأصل فيها التوقيف فلذا لم يفعلوا ابتداءً حتى سألوا الرسول فأجابهم بما تقدم.

(١) القول المفيد ١/ ٢٦١: ٢٧٤.

الرابعة: كَوْنُهُمْ قَصَدُوا التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ بِذَلِكَ؛ لِظَنِّهِمْ أَنَّهُ يُحِبُّهُ.

الخامسة: أَنَّهُمْ إِذَا جَهِلُوا هَذَا؛ فَغَيَّرَهُمْ أَوْلَى بِالْجَهْلِ.

السادسة: أَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالْوَعْدِ بِالْمَغْفِرَةِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ.

السابعة: أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) لَمْ يَعْذُرْهُمْ بَلْ رَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: «اللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ! لَتَبْعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»؛ فَغَلَّظَ الْأَمْرَ بِهَذِهِ الثَّلَاثِ.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه.

«بذلك»؛ أى: بتعليق الأسلحة ونحوها على الشجرة التى يعينها الرسول (ﷺ)، ولهذا طلبوا ذلك من الرسول لتكتسب بهذا معنى العبادة.

الخامسة: أَنَّهُمْ إِذَا جَهِلُوا هَذَا؛ فَغَيَّرَهُمْ أَوْلَى بِالْجَهْلِ.

لأنَّ الصحابة لاشكَّ أعلم الناس بدين الله، فإذا كان الصحابة يجهلون أنَّ التبرك بهذا نوع من اتخاذها إلهاءً؛ فغيرهم من باب أولى، وقصد المؤلف - رحمه الله - بهذا أن لا تغتر بعمل الناس؛ لأنَّ عمل الناس قد يكون عن جهل؛ فالعبرة بما دلَّ عليه الشرع لا بعمل الناس.

قلت: وإن كانوا الصحابة - رضى الله عنهم - فمن دونهم من باب أولى.

السادسة: أَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالْوَعْدِ بِالْمَغْفِرَةِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ.

وهذا معلوم من الآيات، مثل قوله تعالى: «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتِلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى» فالصحابة رضى الله عنهم لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة وأسباب المغفرة ما ليس لغيرهم، ومع ذلك لم يعذرهم النبي (ﷺ) بهذا الطلب.

السابعة: أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) لَمْ يَعْذُرْهُمْ، بَلْ رَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: «اللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ! لَتَبْعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»؛ فَغَلَّظَ الْأَمْرَ بِهَذِهِ الثَّلَاثِ.

وهى قوله: «اللَّهُ أَكْبَرُ»، وقوله: «إِنَّهَا السُّنَنُ»، وقوله: «لتركنَّ سنن من كان قبلكم» فغلظ الأمر لهذا، لأن التكبير استعظاماً للأمر الذى طلبوه، «وإنها السنن» تحذير، و«لتركن سنن من كان قبلكم» كذلك أيضاً تحذير.

الثامنة: الأمر الكبير - وهو المقصود - أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ طَلَبَهُمْ كَطَلَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ
لَمَّا قَالُوا لِمُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا.

التاسعة: أَنَّنَى هَذَا مِنْ مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) مَعَ دِقَّتِهِ وَخَفَائِهِ عَلَى أَوْلَئِكَ.
العاشرة: أَنَّهُ حَلَفَ عَلَى الْفُتْيَا، وَهُوَ لَا يَحْلِفُ إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ.
الحادية عشرة: أَنَّ الشَّرْكَ فِيهِ أَصْغَرُ وَأَكْبَرُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْتَدُّوا بِهِذَا.

الثامنة: الأمر الكبير وهو المقصود أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ طَلَبَهُمْ كَطَلَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا قَالُوا
لِمُوسَى: «اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ».

فهؤلاء طلبوا سدرية يتبركون به كما يتبرك المشركون بها، وأولئك طلبوا إلهًا كما لهم
آلهة؛ فيكون في كلا الطلبين منافاة للتوحيد؛ لِأَنَّ التبرُّك بالشجر نوع من الشرك،
واتخاذ إلهًا شرك واضح.

التاسعة: أَنَّنَى هَذَا مِنْ مَعْنَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مَعَ دِقَّتِهِ وَخَفَائِهِ عَلَى أَوْلَئِكَ.
أى: أَنَّنَى التبرُّك بالأشجار ونحوها من معنى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ فَإِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
تنفى كل إله سوى الله، وتنفى الألوهية عما سوى الله - عز وجل -؛ فكذلك البركة
لا تكون من غير الله - سبحانه وتعالى -.

العاشرة: أَنَّهُ حَلَفَ عَلَى الْفُتْيَا وَهُوَ لَا يَحْلِفُ إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ.
أى: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَلَفَ عَلَى الْفُتْيَا فِي قَوْلِهِ: «قُلْتُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ»، وَالنَّبِيَّ
ﷺ لَا يَحْلِفُ إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ، أَوْ دَفْعَ مُضَرَّةٍ وَمُفْسَدَةٍ، فَلَيْسَ مَنْ يَحْلِفُ عَلَى أَى سَبَبٍ
يَكُونُ، كَمَا هِيَ عَادَةٌ بَعْضِ النَّاسِ.

قلت: والمصلحة هنا هى التأكيد على القطع بنفى الفارق بين ما طلبوا وبين مطلب
اليهود من موسى عليه السلام.

الحادية عشرة: أَنَّ الشَّرْكَ فِيهِ أَصْغَرُ وَأَكْبَرُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْتَدُّوا بِهِذَا.
حيث لم يطلبوا جعل ذات الأنواط لعبادتها، بل للتبرُّك بها، والشرك فيه أصغر
وأكبر، وفيه خفى وجلى.

فالشرك الأكبر: ما يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِنَ الْمِلَّةِ.
والشرك الأصغر: ما دون ذلك.

لكن كلمة (مادون ذلك) ليست ميزاناً واضحاً. ولذلك اختلف العلماء فى ضابط
الشرك الأصغر على قولين:

القول الأول: أنَّ الشرك الأصغر كل شيء أطلق الشارع عليه أنَّه شرك ودلت
النصوص على أنَّه ليس من الأكبر، مثل: «من حلف بغير الله؛ فقد أشرك»^(١)؛ فالشرك
هنا أصغر؛ لأنَّه دلت النصوص على أن مجرد الحلف بغير الله لا يخرج من الملة.
قلت: وقد تقدمت هذه الضوابط.

القول الثانى: أنَّ الشرك الأصغر: ما كان وسيلة للأكبر، وإن لم يطلق الشرع عليه
اسم الشرك، مثل: أن يعتمد الإنسان على شيء كإعتماده على الله، لكنه لم يتخذه
إلهاً؛ فهذا شرك أصغر^(٢)؛ لأنَّ هذا الإعتماد الذى يكون كإعتماده على الله يؤدى به فى
النهاية إلى الشرك الأكبر، وهذا التعريف أوسع من الأول؛ لأنَّ الأول يمنع أن تطلق
على شيء أنَّه شرك إلا إذا كان لديك دليل، والثانى جعل كل ما كان وسيلة للشرك
فهو شرك، وربما نقول على هذا التعريف: إن المعاصى كلها شرك أصغر؛ لأنَّ الحامل
عليها الهوى، وقد قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾^(٣)،
ولهذا أطلق النبى ﷺ الشرك على تارك الصلاة، مع أنَّه لم يشرك؛ فقال: «بين الرجل
وبين الشرك والكفر: ترك الصلاة»^(٤).

فالخلاصة أن المؤلف - رحمه الله - يقول: إنَّ الشرك فيه أكبر وأصغر؛ لأنَّهم لم
يرتدوا بهذا، وسبق وجه ذلك.

الجلّى والخفى؛ فبعضهم قال: إنَّ الجلّى والخفى هو الأكبر والأصغر، وبعضهم قال:
الجلّى ما ظهر للناس من أصغر أو أكبر؛ كالحلف بغير الله والسجود للصنم.
والخفى: ما لا يعلمه الناس من أصغر أو أكبر؛ كالرياء، واعتقاد أن مع الله إلهاً آخر.
وقد يقال: إنَّ الجلّى ما انجلّى أمره وظهر كونه شركاً؛ ولو كان أصغر والخفى: ما
سوى ذلك.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) بشرط أن يكون الإعتماد صحيحاً، فإن كان غير صحيح كالاعتماد على الموتى ونحوهم؛ فهو
شرك أكبر.

(٣) الجانية: ٢٣.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢/ ٧٠ - النووي) عن جابر به.

وانظر «السلسلة» (٢٥١) - بتخريجنا.

الثانية عشرة : قَوْلُهُمْ (وَنَحْنُ حَدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ)؛ فِيهِ أَنَّ غَيْرَهُمْ لَا يَجْهَلُ ذَلِكَ.

الثالثة عشرة : التَّكْبِيرُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ؛ خِلَافًا لِمَنْ كَرِهَهُ.

وأيهما الذى لا يغفر؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : إنَّ الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر؛ لعموم قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾^(١)، و﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ مؤول بمصدر تقديره : شركاً به ، وهو نكرة فى سياق النفى ، فيفيد العموم^(٢).

وقال بعض العلماء : إنَّ الشرك الأصغر داخل تحت المشيئة ، وأنَّ المراد بقوله : ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الشرك الأكبر ، وأمَّا الشرك الأصغر؛ فإنه يغفر لأنَّه لا يخرج من الملة ، وكل ذنب لا يخرج من الملة؛ فإنَّه تحت المشيئة ، وعلى كُلِّ ؛ فصاحب الشرك الأصغر على خطر ، وهو أكبر من كبائر الذنوب ، قال ابن مسعود رضى الله عنه : «لأنَّ أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً»^(٣).

الثانية عشرة: قوله: «ونحن حدثاء عهد بكفر...».

معناه: أنه يعتذر عما طلبوا، حيث طلبوا أن يجعل لهم ذات أنواط؛ فهم يعتذرون لجهلهم بكونهم حدثاء عهد بكفر، وأما غيرهم ممن سبق إسلامه؛ فلا يجهل ذلك.

وعلى هذا؛ فنقول: إنه ينبغي للإنسان أن يقدم العذر عن قوله أو فعله حتى لا يعرض نفسه إلى القول أو الظن بما ليس فيه، ويدل لذلك حديث صفية حين شيعها الرسول ﷺ وهو معتكف، فمرَّ رجلان من الأنصار، فقال: «إنها صفية بنت حى»^(٤).

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب... إلخ.

تؤخذ من قوله: «الله أكبر»؛ أى: الله أكبر وأعظم من أن يشرك به، وفى رواية الترمذى أنه قال: «سبحان الله»؛ أى: تنزيهاً لله عما لا يليق به قلت: وقد تقدم أن فيه مشروعية التكبير والتسبيح لغير الذكر.

(١) النساء: ٤٨.

(٢) انظر: «الرد على البكرى» (ص ١٤٦).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٠٣٨) ومسلم في السلام (٢٤/٤١١/٧).

الرابعة عشرة : سدُّ الذرائع.

الخامسة عشرة : النهيُ عَنِ التَّشْبِيهِ بِأَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

السادسة عشرة : الغَضَبُ عِنْدَ التَّعْلِيمِ.

السابعة عشرة : القَاعِدَةُ الْكُلِّيَّةُ. لِقَوْلِهِ: «إِنَّهَا السُّنَنُ».

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الذرائع: الطرق الموصلة إلى الشيء، وذرائع الشيء: وسائله وطرقه.

والذرائع نوعان:

أ- ذرائع إلى أمور مطلوبة؛ فهذه لاتسد، بل تفتح وتطلب.

ب - ذرائع إلى أمور مذمومة؛ فهذه تسد، وهو مراد المؤلف رحمه الله تعالى.

وذاات الأنواط وسيلة إلى الشرك الأكبر، فإذا وضعوا عليها أسلحتهم وتبركوا بها؛ يتدرج بهم الشيطان إلى عبادتها وسؤالهم حوائجهم منها مباشرة، فلهذا سدَّ النبي ﷺ الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبيه بأهل الجاهلية.

تؤخذ من قوله: «قلتم كما قالت بنو إسرائيل»؛ فأنكر عليهم، وبهذا نعرف أن الجاهلية لاتختص بمن كان قبل زمن النبي ﷺ، بل كل من جهل الحق وعمل عمل الجاهلين؛ فهو من أهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم.

والحديث ليس بصريح في ذلك، وربما يؤخذ من قرائن قوله: «الله أكبر! إنها السنن...»؛ لأن قوة هذا الكلام تفيد الغضب.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله: «إنها السنن».

أى: الطرق، وأن هذه الأمة ستتبع طرق من كان قبلها، وهذا لايغنى الحل والإباحة، ولكنه للتحذير؛ كما قال الرسول ﷺ: «ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار؛ إلا واحدة»^(١)، وقال: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير...»^(٢) الحديث، وقال: «إن الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنن» (٦٤)، وابن ماجه (٣٩٩٣) عن أنس به.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٢) تقدم تخريجه.

الثامنة عشرة : أَنَّ هَذَا عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ لِكَوْنِهِ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ .
 التاسعة عشرة : أَنَّ كُلَّ مَا ذَمَّ اللَّهُ بِهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فِي الْقُرْآنِ ؛ أَنَّهُ لَنَا .

تخاف أحداً إلا الله»^(١)، وما أشبه ذلك من الأمور التي أخبر النبي ﷺ عن وقوعها مع تحريمها .

الثامنة عشرة: أَنَّ هَذَا عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ لِكَوْنِهِ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ .
 يعنى اتباع سنن من كان قبلنا .

فإن قال قائل : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قد خطب الناس بعرفة، وقال : «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيْسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمَصْلُونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»^(٢) ؛ فكيف تقع عبادته .

فالجواب: أَنَّ إخبار النبي ﷺ بِيَأْسِ الشَّيْطَانَ لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الْوُقُوعِ ، بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ ، عَلَى خِلَافِ مَا تَوَقَّعَهُ الشَّيْطَانُ ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ لَمَّا حَصَلَتْ الْفَتْوحَاتُ ، وَقَوِيَ الْإِسْلَامُ ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ؛ يَشُكُّ أَنْ يَعْبُدَ سِوَى اللَّهِ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، وَلَكِنْ حَكَمَهُ اللَّهُ تَأْبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ ، وَهَذَا نَقُولُهُ وَلَا بَدَّ ؛ لِثَلَاثٍ يُقَالُ : إِنَّ جَمِيعَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَقَعُ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ شُرَكَاءَ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْوَهَّابِ .

رحمه الله جدد التوحيد في الجزيرة العربية ، وَأَنَّ النَّاسَ كَانُوا فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ فِيهِمْ الْمَشْرُكُ وَغَيْرُ الْمَشْرُكِ .

فالحديث أَخْبَرَ عَمَّا وَقَعَ فِي نَفْسِ الشَّيْطَانِ ذَلِكَ الْوَقْتُ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الْوُقُوعِ ، وَهَذَا الرَّسُولُ ﷺ يَقُولُ : «لَتَرْكَبَنَّ سَنَنٌ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» ، وَهُوَ يَخَاطَبُ الصَّحَابَةَ وَهُمْ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ .

التاسعة عشرة: أَنَّ مَا ذَمَّ اللَّهُ بِهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ لَنَا .

هذا ليس على إطلاقه وظاهره ، بَلْ يَحْمِلُ قَوْلُهُ : «لَنَا» ؛ أَيْ : لِبَعْضِنَا ، وَيَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ الْمَجْمُوعُ لَا الْجَمِيعُ ؛ كَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ»^(٢) ، وَالرُّسُلُ كَانُوا مِنَ الْإِنْسِ فَقَطْ .

فَقَوْلُهُ : «إِنَّهُ لَنَا» ؛ أَيْ : قَدْ يَكُونُ مِنْ بَعْضِنَا .

فإذا وقع تشبه باليهود والنصارى ؛ فَإِنَّ الذَّمَّ الَّذِي يَكُونُ لَهُمْ يَكُونُ لَنَا ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ

(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٣٥٩٥) عن عدي بن حاتم به .

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٩/١٧١/٦٥) عن جابر به . .

(٢) الأنعام : ١٣٠ .

العشرون : أَنَّهُ مُتَقَرَّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْعِبَادَاتِ مَبْنَاهَا عَلَى الْأَمْرِ، فَصَارَ فِيهِ التَّنْبِيهِ عَلَى مَسَائِلِ الْقَبْرِ: أَمَّا (مَنْ رَبُّكَ؟) فَوَاضِحٌ وَأَمَّا (مَنْ نَبِيُّكَ؟)؛ فَمِنْ إِخْبَارِهِ بِأَنْبَاءِ الْغَيْبِ، وَأَمَّا (مَا دِينُكَ) فَمِنْ قَوْلِهِمْ: (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا ...) إِلَى آخِرِهِ.

من الناس غالباً إلا وفيه شبه باليهود أو النصارى؛ فالذى يعصى الله على بصيرة فيه شبه من اليهود، والذى يعبد الله على ضلالة فيه شبه من النصارى، والذى يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فيه شبه من اليهود، وهَلُمَّ جَرّاً.

وإن كان يقصد - رحمه الله - أَنَّهُ لا بد أن يكون في الأمة خصلة؛ فهذا على إطلاقه وظاهره؛ لَأَنَّهُ قَلٌّ مِنْ يَسْلَمُ.

وإن أراد أن كل ما دُمَّ به اليهود والنصارى؛ فهو لهذه الأمة على سبيل العموم؛ فلا.

العشرون: أَنَّهُ مُتَقَرَّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْعِبَادَاتِ مَبْنَاهَا عَلَى الْأَمْرِ. إلخ.

قلت: تؤخذ كما تقدم من أنهم لم يفعلوا لابتداءً بل سألوا الرسول.

قال ابن عثيمين: وهذا واضح؛ فالعبادات مبناهما على الأمر، فما لم يثبت فيه أمر الشارع؛ فهو بدعة، قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا» فهو رد^(١)، وقال: «يَأْكُم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة»^(٢).

فمن تعبد بعبادة طولب بالدليل؛ لأن الأصل في العبادات الحظر والمنع، إلا إذا قام الدليل على مشروعيتها.

وأما الأكل والمعاملات والآداب واللباس وغيرها؛ فالأصل فيها الإباحة؛ إلا ما قام الدليل على تحريمه.

وقوله: «مسائل القبر التى يسأل فيها الإنسان فى قبره: من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟».

ففى هذه القصة دليل على مسائل القبر الثلاث، وليس مراده أن فيها دليلاً على أن الإنسان يسأل فى قبره، بل فيها دليل على إثبات الربوبية والنبوة والعبادة.

أَمَّا «مَنْ رَبُّكَ»؛ فَوَاضِحٌ يَعْنَى أَنَّهُ لَا رَبَّ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

وأما «مَنْ نَبِيُّكَ»؛ فَمِنْ إِخْبَارِهِ بِالْغَيْبِ قَالَ ﷺ: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنْ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذُو الْقَدَّةِ بِالْقَدَّةِ»^(٣)؛ فَوْقَ كَمَا أَخْبَرَ.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم في الأفضية (١٨/١٢) - النووي عن عائشة به، وانظر «رياض الصالحين» (١٦٥٠ - بتخريجنا).

(٢) تقدم تخريجه. (٣) سيأتي تخريجه.

الحادية والعشرون : أَنَّ سَنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَذْمُومَةٌ كَسَنَةِ الْمُشْرِكِينَ.

الثانية والعشرون : أَنَّ الْمُتَّقِلَ مِنَ الْبَاطِلِ الَّذِي اعْتَادَهُ قَلْبُهُ لَا يُؤْمِنُ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ بَقِيَّةٌ مِنْ تِلْكَ الْعَادَةِ؛ لِقَوْلِهِ: «وَنَحْنُ حَدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ».

أَمَّا «مَا دِينُكَ»؛ فَمِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾؛ أَيْ: مَأْلُوهاً مَعْبُوداً، وَالْعِبَادَةُ هِيَ الدِّينُ.

والمؤلف - رحمه الله - محمد بن عبد الوهاب فهمه دقيق جداً لمعاني النصوص؛ فأحياناً يصعب على الإنسان بيان وجه استنباط المسألة من الدليل.

الحادية والعشرون: أَنَّ سَنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَذْمُومَةٌ كَسَنَةِ الْمُشْرِكِينَ.

تؤخذ من قوله: «كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى».

الثانية والعشرون: أَنَّ الْمُتَّقِلَ مِنَ الْبَاطِلِ الَّذِي اعْتَادَهُ قَلْبُهُ لَا يُؤْمِنُ أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ بَقِيَّةٌ مِنْ تِلْكَ الْعَادَةِ.

وهذا صحيح؛ فالإنسان المتقل من شيء، سواء باطلاً أو لا؛ لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية منه، وهذه البقية لا تزول إلا بعد مدة؛ لقوله: «وَنَحْنُ حَدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ»؛ فكأنه يقول: ما سألناه إلا لأنَّ عندنا بقية من بقايا الجاهلية، ولهذا كان من الحكمة تغريب الزاني بعد جلده عن مكان الجريمة؛ لئلا يعود إليها.

فالإنسان ينبغي أن يبتعد عن مواطن الكفر والشك والفسوق؛ حتى لا يقع في قلبه شيء منها.

قال الفقير: وفيه من المسائل والفوائد بخلاف ما تقدم:

ربط القرآن بالواقع وذلك ظاهر في قوله ﷺ: «هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» فالرسول ﷺ يبين أن صورة الآلهة غير محصورة في الأصنام فقط، بل قد تتعدى لغيرها إذا ما بذل له نوع طاعة سواء كان شجر أو بشر، ويبين لهم كذلك أن الآية ليست خاصة في اليهود فقط، بل هي عامة في كل من ركب سننهم، ويبين كذلك في هذه القصة حتمية ربط القرآن بالواقع وتنزيله عليه،... ولمزيد تأصيل وتفصيل المسألة راجع كتابنا «فتح ذى الجلال تخريج أحاديث الضلال» والحمد لله رب العالمين.



٩) بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ

● شرح الترجمة ومناسبة الباب لكتاب التوحيد وبيان حكم الذبح
 قال سليمان آل الشيخ: (١) في شرح باب ما جاء في الذبح لغير الله: أى من
 الوعيد وهل يكون شركاً أم لا؟
 قال ابن عثيمين (٢):
 قوله «فى الذبح» أى: ذبح البهائم
 قوله «لغير الله» اللام للتعليل أهـ . «والقصد: أى قاصداً بذبحه غير الله» أهـ
 وجزم عبد الرحمن (٣) آل الشيخ بأنه شرك بالله .
 وأكد على ذلك صاحب «فتح الله الحميد المجيد» (٤) بقوله «وأنه شرك من فعله دخل
 النار إن لم يتب منه». أهـ .
 وكذلك ناصر السعدى (٥): أنه شرك بأن نصوص الكتاب والسنة صريحة فى
 الأمر بالذبح لله وإخلاص ذلك لوجهه كما هى صريحة بذلك فى الصلاة: فقد قرن الله
 الذبح بالصلاة فى عدة مواضع من كتابه .
 وإذا ثبت أن الذبح لله من أجل العبادات وأكبر الطاعات فالذبح لغير الله شرك أكبر
 مخرج عن دائرة الإسلام. أهـ .
 وأكد على هذا ابن باز (٦) بقوله: «أى ما جاء فيه من الوعيد وأنها من الشرك
 الأكبر كما دلت الأدلة. أهـ .

وهو مؤدى قول حافظ حكيمى حيث قال فى منظومته: (٧)
 والذبح والنذر وغير ذلك فافهم هُدى أوضح المسالك
 وصرفُ بعضها لغير الله شرك وذاك أقبح المناهى
 قوله (والذبح) أى ومن أنواع العبادة الذبح نسكاً لله تعالى من هدى وأضحى وعقيدة
 وغير ذلك، قال الله عز وجل ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾ (٨) م وقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي

(١) تيسير العزيز الحميد (١٣٤)	(٢) القول المفيد ١/ ٢٧٥
(٣) فتح المجيد (١/ ١٧٦)	(٤) فتح الله الحميد المجيد ٩٢١٩
(٥) القول السديد (٤٢)	(٦) التعليق المفيد (٧٩)
(٧) المعارج ١/ ٣٥٤، ٣٩٧، ٣٦٥	(٨) الكوثر: ٢ .

وَتُسَكِّي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ﴿١﴾ الْآيَاتِ
وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا
صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا﴾ (٢).

وقال أيضاً: «و«صرف بعضها» أى شىء منها قل أوكثر (لغير الله) كائناً من كان من
ملك أو نبى أو ولى أو قبر أو جنى أو شجر أو حجر أو غيره، كل ذلك (شرك) أكبر،
(وذاك) إشارة إلى الشرك هو لأقبح المناهى على الإطلاق، قال الله عز وجل «ومن أضل
من يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون».
وفصل ابن عثيمين (٣) القول فى المسألة وقسم الذبح لغير الله إلى قسمين: القسم
الأول:»

أن يذبح لغير الله تقرباً وتعظيماً؛ فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

القسم الثانى

- أن يذبح لغير الله فرحاً وإكراماً؛ فهذا لا يخرج من الملة، بل هو من الأمور
العادية التى قد تكون مطلوبة أحياناً وغير مطلوبة أحياناً؛ فالأصل أنها مباحة. ثم قال:
ومراد المؤلف هنا القسم الأول.

فلو قَدِمَ السلطان إلى بلد، فذبحنا له، فإن كان تقرباً وتعظيماً؛ فإنه شرك أكبر،
وتحرم هذه الذبائح، وعلامة ذلك: أننا نذبحها فى وجهه ثم ندعها.
أما لو ذبحناها له إكراماً وضيافة، وطبخت، وأكلت؛ فهذا من باب الإكرام، وليس
بشرك. أهـ

قال الفقير: لأنك إذا ذبحت للضيف أو للمولود فهو لله فالذبح للضيف ابتغاء وجه
الله من باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه وكذا للعقيقة «كل مولود
مرهون بعقيقته» (٤) وأصله فى الصحيح. وهذا الذبح إن كان للضيف أو للمولود أصله
لله لأنه هو الذى أمرنى ولعل الشاهد على ذلك قوله فى الحديث القدسى «عبدى
مرضت فلم تعدنى قال: كيف تمرض وأنت رب العالمين قال أما علمت أن عبدى فلانا

(١) الأنعام: ١٦٢. (٢) الحج: ٣٦.

(٣) القول المفيد (١/ ٢٧٥).

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٧/٥)، وأبو داود (٢٨٣٧)، والترمذى (١٥٢٢)، والنسائى
فى «الكبرى» (٤٥٤٦)، وابن ماجه (٣١٦٥) عن سمرة به.
وانظر «تحفة المودود» (٣٧ - بتخريجنا).

مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لو جدتني عنده.. الحديث» (١) ... وكان الذى عاد المريض فى الحقيقة عاد المريض لله وابتغاء وجه الله .

والمصنف لم يقطع بالحكم مباشرة فكأن المسألة فيها تفصيل وليست شرك على الإطلاق فكأنه التوبىب الذى يفيد التفصيل وهو: متى يكون الذبح ممنوع ومتى يكون مشروع وهذه التراجم من عمق علم العلماء فهم إذا كانت المسألة فيها تفصيل أو خلاف لم يجزوا بالحكم بل يتركوها للقارىء حتى يصل إلى الحكم بالأدلة التى سيقىت للحكم تحت هذا التوبىب .

مثل أن نقول: «باب وجوب صوم رمضان» فحكم صوم رمضان ليس فيه خلاف ولا تفصيل .

فالتوبىب طالما لم يقطع بالحكم فىكون فيه اختلاف أو تفصيل فالذبح لغير الله تقريباً وتعظيماً: شرك، فليس فيه خلاف فىكون التوبىب للتفصيل . وهو أن الذبح إما لله وإما لغير الله .

والذبح للضيف والمولود هو لله لأنه يذبح إمتثالاً لأمر الرسول ﷺ «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه..» (٢) «وكل مولود مرهون بعقيقته..» (٣) فهو يذبح ابتغاء وجه الله فهو ذبح لله فى الحقيقة وذبح للمولود فى الصورة .

فائدة:

وهناك صورة ثالثة: وهى أن تذبح للضيف ليس ابتغاء وجه الله بل من باب العادة فهذا ذبح لغير الله فى الصورة والحقيقة لكنه ليس شركاً ولا معصية ولا إخلاصاً لله .

وهناك صورة رابعة: أن يذبح للضيف لكن لا من باب العبادة ولا من باب العادة لكن من باب السمعة والشهرة فهذه الصورة لا تبلغ درجة الشرك لكن يآثم عليها للسمعة، وهذا محرم أما إن كانت رياء، فشرك أصغر: والله أعلم .

قال ابن عثيمين (٤): والمؤلف رحمه الله تعالى لا شك أنه يرى تحريم الذبح لغير

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٢٥ - النووى) عن أبى هريرة به .

وانظر «رياض الصالحين» (٨٩٨ - بتخريجنا) .

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦١٣٥)، ومسلم فى اللقطة (١٢/ ٣٠ - النووى) عن أبى شريح

الكمي به .

وانظر «رياض الصالحين» (٧٠٨ - بتخريجنا) .

(٣) تقدم تخريجه . (٤) القول المفيد ١/ ٢٧٦

الله على سبيل التقرب والتعظيم وأنه شرك أكبر، لكنه أراد أن يمرن الطالب على أخذ الحكم من الدليل وهذا نوع من التربية العلمية، فإن المعلم أو المؤلف يدع الحكم مفتوحاً، ثم يأتي بالأدلة لأجل أن يكل الحكم إلى الطالب، فيحكم به على حسب ما سبق له من هذه الأدلة. أهـ.

[قلت] فلو سار على هذه التربية العلمية لكان أولى.

والغالب على صنيع المؤلفين والعلماء أنهم لا يجرون مثل هذه الصيغ ويضعون مثل هذه التراجم إلا في المسائل الخلافية، والأولى أن يُعتمد للمصنف لما تقدم من أن المسألة بالفعل فيها تفصيل والله أعلم.

● مسألة في حد الكفر الأكبر وتفسيره.

قال: ناصر السعدي^(١):- فإن حد الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده (أن يصرف العبد نوعاً أو فرداً من أفراد العبادة لغير الله)

فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء كما أن حد الشرك الأصغر هو.

- (كُلُّ وَسِيلَةٍ وَذَرِيعَةٍ يَتَطَرَّقُ مِنْهَا إِلَى الشَّرْكِ الْأَكْبَرِ مِنَ الْإِرَادَاتِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي لَمْ تَبْلُغْ رُتَبَةَ الْعِبَادَةِ).

فعليك بهذين الضابطين للشرك الأكبر والأصغر، فإنه مما يعينك على فهم الأبواب السابقة واللاحقة من هذا الكتاب، وبه يحصل لك الفرقان بين الأمور التي يكثر اشتباهها والله المستعان أهـ

قال الفقير: قوله (كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر.. إلخ رتبة العبادة).

شرك الإرادات كالرياء وهو أصغر لأنه قصد الله وغيره ولو قصد غير الله وحدة كان أكبر، أو لو كان منافق نفاق إعتقادي.

وشرك الأقوال: مثل قول (ما شاء الله وشئت) التي جعلها ابن عباس من الشرك الأصغر لأنه لم يحدث فيه صرف عبادة لغير الله، ولكن إن دعى غير الله فهذا شرك في الأقوال ولكنه أكبر لصرف عبادة لغير الله، والأفعال مثل الرقى التي لم تبلغ رتبة العبادة

(١) القول السديد ٤٣، ٤٤.

وهى من شرك الوسائل وهو أصغر بشرط أن تكون غير شرعية وأن لا يعتمد عليها اعتماداً على الله.

● مسألة

سئل ابن عثيمين: عن حكم الذبح لغير الله؟

وهل يجوز الأكل من تلك الذبيحة؟

فأجاب قائلاً: الذبح لغير الله شرك أكبر لأن الذبح عبادة كما أمر الله به فى قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحِرْ﴾ (١). وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ (٢) فمن ذبح لغير الله فهو مشرك شركاً مخرجاً عن الملة - والعياذ بالله - سواء ذبح ذلك للملك من الملائكة، أو لرسول من الرسل، أو لنبي من الأنبياء، أو لخليفة من الخلفاء، أو لولى من الأولياء، أو لعالم من العلماء فكل ذلك شرك بالله - عز وجل - ومخرج عن الملة والواجب على المرء أن يتقى الله فى نفسه، وأن لا يوقع نفسه فى ذلك الشرك الذى قال الله فيه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (٣).

● وأما الأكل من لحوم هذه الذبائح فإنه محرم لأنها أهل لغير الله بها وكل شئ أهل لغير الله به، أو ذبح على النصب فإنه محرم كما ذكر الله ذلك فى سورة المائدة فى قوله - تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ (٤) فهذه الذبائح التى ذبحت لغير الله من قسم المحرمات لا يحل أكلها. أهـ.

قلت: وهناك إجابة أخرى للشيخ بها قيدٌ أو شرط لكلامه المتقدم:-

فقد سئل ابن عثيمين: عن حكم الذبح لغير الله؟ مرة أخرى

فأجاب بقوله: تقدم لنا فى غير هذا الموضع أن توحيد العبادة هو إفراد الله - سبحانه وتعالى - بالعبادة بأن لا يتعبد أحد لغير الله - تعالى - بشئ من أنواع العبادة، ومن المعلوم أن الذبح قربة يتقرب بها الإنسان إلى ربه لأن الله - تعالى - أمر به فى قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحِرْ﴾ (٥). وكل قربة فهى عبادة، فإذا ذبح الإنسان شيئاً لغير الله تعظيماً

(٣) المائدة: ٧٢.

(٢) الأنعام: ١٦٣/١٦٢.

(١) الكوثر: ٢.

(٥) الكوثر: ٢.

(٤) المائدة: ٤، ٣.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١).

له، وتذللًا، وتقرباً إليه كما يتقرب بذلك ويعظم ربه - عز وجل - كان مشركاً بالله - عز وجل - وإذا كان مشركاً فإن الله - تعالى - قد بين أنه حرم على المشرك الجنة ومأواه النار.

قال الفقير: ففى فتوى الشيخ الأولى لم يذكر هذا القيد وهو: الذبح لغير الله تعظيماً للمذبح له وتذللًا فلعله جعل هنا الذبح قرينة على تعظيمهم وفساد المعتقد؛ ذلك لأنه قال فى الفتوى المقيدة بالقيد المتقدم وهو التعظيم لتذليل أو أطلق لأن هذا الذبح إما يكون من باب الإكرام أو التعظيم وكيف يكرم الإنسان ميتاً فيبقى أن يكون للتعظيم وبناء على ذلك نقول: إن ما يفعله بعض الناس من الذبح للقبور - ثم قال ابن عثيمين قبور الذين يزعمون بأنهم أولياء - شرك مخرج عن الملة، ونصيحتنا لهؤلاء أن يتوبوا إلى الله - عز وجل - مما صنعوا، وإذا تابوا إلى الله وجعلوا الذبح لله وحده كما يجعلون الصلاة والصيام لله وحده، فإنه يغفر لهم ما سبق كما قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (٢).

بل إن الله تعالى . يعطيهم فوق ذلك فيبدل الله سيئاتهم حسنات كما قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٣).

فتصيحته لهؤلاء الذين يتقربون إلى أصحاب القبور بالذبح لهم: أن يتوبوا إلى الله من ذلك، وأن يرجعوا إليه، وأن يخلصوا دينهم له سبحانه، وليبشروا إذا تابوا بالتوبة من الكريم المنان، فإن الله سبحانه وتعالى . يفرح بتوبة التائبين وعودة المنيبين (٤).



قوله: وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(٢) الأنفال: ٣٨.

(١) الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣

(٤) مجموع فتاوى ابن عثيمين ١٤٨/٢، ١٤٩، ١٥٠.

(٣) الفرقان: ٦٨ / ٧٠.

● ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:

قال الزمخشري والرازي وابن كثير والشنقيطى فى تفسير «قُلْ إِنْ صَلَاتِي» هذا لقول الله تعالى «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ».

● ما جاء فى تفسير الآية بالسنة:

عن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام يصلى تطوعاً، قال: الله أكبر وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض.. «الحديث» (١).

واستدل الشافعى بحديث على وبهذه الآية على افتتاح الصلاة بهذا الذكر (٢).

وعن على بن أبى طالب عن رسول الله ﷺ قال إذا قام إلى الصلاة قال: «وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين».. «الحديث» (٣).

وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله - ﷺ «يا فاطمة قومي فاشهدى أضحيتك فإنه يغفر لك بأول قطرة تقطر من دمها كل ذنب عملتيه، وقولي: إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين».

قلت يا رسول الله: هذا لك ولأهل بيتك خاصة فأهل ذلك أنتم أم للمسلمين عامة؟ قال: بل للمسلمين عامة (٤).

الإعراب:

قوله «قل» استئناف مسوق لتأكيد القيام بالشرائع الأصولية والفرعية.

● كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين (٥) الخطاب للنبي ﷺ: أى: قل لهؤلاء المشركين، معلناً لهم قيامك بالتوحيد الخالص، لأن هذه السورة مكية. أهـ.

قوله «صلاتي» قيل يعنى المفروضه أخرجه ابن أبى حاتم عن مقاتل.

قال ابن عثيمين (٥): الصلاة فى اللغة: الدعاء. وفى الشرع عبادة الله ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم أ. هـ.

(١) أخرجه النسائى (١٣١/٢) - السيوطى. (٢) القرطبى (٢٥٨٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) [ضعيف] أخرجه الحاكم فى «المستدرک» (٢٢٢/٤)، والبيهقى (٢٨٣/٩) عن عمران به.

وانظر «السلسيل» (١٤٣٣) - بتخريجنا.

(٥) القول المفيد (٢٧٦/١).

وقيل: يجوز أن يريد بها صلاة العيد، قاله الجصاص.

وأيضاً قيل: الصلاة المشروعة قاله ابن الجوزي وقيل المراد بها هنا صلاة الليل وقيل صلاة العيد ذكره القرطبي.

قوله «ونسكى».

● كلام المفسرين في الآية:

قال الجصاص (*) : الأضحية لأنها تسمى نسكاً وكذلك كل ذبيحة على درجة القرية إلى الله تعالى فهي نسك قال الله تعالى ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ وقال النبي ﷺ «النسك شاة»^(١) وقال رسول الله ﷺ في يوم النحر «إن أول نسكنا في يومنا هذا الصلاة ثم الذبح»^(٢) فسمى الصلاة والذبح جميعاً نسكاً؛ ولما قرن النسك إلى الصلاة دلّ على أن المراد صلاة العيد والأضحية وهذا يدل على وجوب الأضحية.

لقوله تعالى: ﴿وَبِذَلِكَ أَمَرْتُ﴾ والأمر يقضى الوجوب.

- وهذا القول هو أشمل الأقوال وأعمها حيث شمل كل ذبح في هذه المسئلة، كما نقل المفسرون كالطبري عن مجاهد أنه قال ذبحت في الحج والعمرة^(٣).

وعن سعيد بن جبير قال. ذبحي^(٤): أى بإطلاق وكذلك قتادة والضحاك

«وعزاه ابن الجوزي لابن عباس، وعزاه السيوطي لقتادة، قال: ضحيتي، وقال: حجي ومنبجي»^(٥).

وأيضاً عزاه ابن الجوزي للزجاج: - قال: النسك كل ما تقرب به إلى الله - عز وجل - إلا أن الغالب عليه أمر الذبح.

[القول الثاني]: - العبادة وجميع أنواع الطاعات، من قولك نسك فلان فهو ناسك إذا تعبد. وهو مؤدى ما نقله ابن الجوزي والقرطبي عن الزجاج ونقله الزمشخري وغيرهم من أهل العلم بالتفسير. وهو يدخل فيه القول الأول بلا شك لأن العبادة أعم من الذبح.

(*) أحكام القرآن. (٣/٤٢/٤٣).

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (١/٣٨٦) ونسبه لابن مردويه والواحدى عن ابن عباس .

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٩٧٦) عن البراء به .

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (٣/١٢٣) ونسبه لابن أبى شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر ، وابن

أبى حاتم، وأبى الشيخ .

وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا .

(٤) ذكره السيوطي فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وأبى الشيخ .

(٥) انظر المصدر السابق .

وأيضاً شبيه به [القول الثالث].

وهو الدين. قال ابن الجوزي رواه أبو صالح عن ابن عباس وعزاه القرطبي للحسن قال: نسكى ديني. وهو أيضاً يشمل القول الأول والثاني لذلك جمع ذلك كله ابن عباس في هذه الرواية عن أبي صالح عنه: أنه الدين والحج والذبايح وهذا من باب اختلاف التنوع.

● كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين^(١): النسك لغة: العبادة. وفي الشرع: ذبح القربان

فهو تحمل هذه الآية على المعنى اللغوي، أو على المعنى الشرعي؟

[الجواب] ما جاء في لسان الشرع يحمل على الحقيقة الشرعية، كما أن ما جاء في لسان العرف، فهو محمول على الحقيقة العرفية، وفي لسان العرب على الحقيقة اللغوية. فيحمل النسك في الآية على المعنى الشرعي.

وقيل: تحمل على المعنى اللغوي، لأنه أعم، فالنسك العبادة: كأنه يقول: أنا لا أدعو إلا الله، ولا أعبد إلا الله، وهذا عام للدعاء والتعبد.

وإذا حملت على المعنى الشرعي صارت خاصة في نوع من العبادات، وهي: الصلاة والنسك، ويكون هذا كمالاً، فإن الصلاة أعلى العبادات البدنية والذبح أعلى العبادات المالية، لأنه على سبيل التعظيم لا يقع إلا قرابة هكذا قرر شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة.

ويحتاج إلى مناقشة في مسألة أن القربان أعلى أنواع العبادات المالية فإن الزكاة لا شك أنها أعظم، وهي عبادة مالية.

وهناك رأى ثالث يقول: إن الصلاة هي الصلاة المفروضة شرعاً، والنسك العبادة مطلقاً، وقد يكون ذلك من عطف العام على الخاص. أ. هـ

قال الفقير: تقدم نحو ذلك في القول الثالث قبل كلام ابن عثيمين.

وأما الذي يتبين لنا ترجيحه فيما قال ابن عثيمين، أنه لا يحمل اللفظ إلا على المعنى الشرعي، ولا نصرفه للمعنى اللغوي إلا بقرينة.

وما يؤيده أن النسك المقصود بها المعنى الشرعي، لا اللغوي، ولا العرفي ما ورد في سورة الأنعام ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾^(٢) فالله يرد عليهم بقوله ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي...﴾ فكما أن الصلاة لله فالذبح لله.

(١) القول المفيد (١/٢٧٩).

(٢) الأنعام: ١٣٦

وأمرأ آخر واضح جداً: أن الصلاة لا تكون إلا لله ولو صرفت لغير الله فهذا شرك واضح جداً فأراد أن ينبه بالشرك الواضح على الشرك الذى قد يخفى على البعض فقد لا يتصور البعض أنه لو ذبح لفلان من دون الله فهذا شرك أكبر فهو يتصور أنه لو صلى له شرك أكبر لكن لا يتصور أنه لو ذبح له فهذا شرك أكبر فتقول له كما أن الصلاة لله فكذلك الذبح لله.

قد يقول قائل: فى قوله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أن هذه الآية فى مقام الربوبية إذا حملنا الحياة هنا على خلق الحياة الممات على خلق الممات فهو الخالق والمميت فهذا توحيد لله فى مقام الربوبية.

أما إن حملنا الحياة والممات وما فيها من واجبات ومحرمات فتكون الآية كلها توحيد ألوهية صلاة ونسك وحياة وممات.

فلو حملنا الحياة والممات على جانب الربوبية فهذا إقرار منك فقط أما لو حملناها على جانب الألوهية فهذا إقرار بالقول والفعل فيكون هذا أبلغ فتجعل كل ما يفعل فى الحياة على وفق ما شرع وأمر الرسول. وكذلك الممات تجعله الله أما بالشهادة أو الموتة الصغرى أى النوم تجعله الله كما كان يفعل معاذ. فالإقرار بالألوهية يشمل الإقرار بالربوبية وزيادة.

فائدة: وهذه فيه رد على العلمانيين أن الدين فى المسجد فقط أما خارج المسجد فهذا شأننا مثل الذين قالوا ماله الله وما لقيصر لقيصر مثل الذين قالوا ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وقد سنل بعض العلماء^(١) عن العلمانية قال: إن العلمانية صحيحة لكن فى دينهم هم وفى منهجهم هم: لأن دينهم بالفعل جاء بالرهبانية والكنيسة فقط والصومعة فقط، ولذلك خرج منهم من يقول ما لله الله وما لقيصر لقيصر، فليس عندهم ما يديرون به حكوماتهم وديناهم وقد نعى الله على أقوام هذا منطقهم ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾^(٢) فسألوا ما علاقة الصلاة والدين بأموالنا ومثل الأمثال التى لهم [كُلُّ مَا يَعْجَبُكَ وَالْبَسْ مَا يَعْجَبُ النَّاسَ]، [والذى يحتاجه البيت يحرم على الجامع].

(١) وهو الدكتور جميل غازى- رحمة الله عليه. (٢) هود: ٨٧.

وكذلك هذه الآية ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ترد على الرهبانية وال دراویش من هذه الأمة الذين انقطعوا عن الدنيا وجلسوا فى المساجد ويرد على من قال «أجلس فى المسجد ويأتينى رزقى» فلا بد أن تسعى للرزق وتضرب فى الأرض وتجعل هذا لله وما جاء الشرع لتجلس فى المسجد.

والعلمانية تتحدث فيها لا لأننا فى واقع بعيد عن العلمانية وصورها الكثيرة المتداخلة فى دقائق حياتنا، لا بل لأن فىنا علمانية فنحن - مثلاً - بدلاً من أن نزوج على أساس الدين نزوج على أساس الشهادات أو الأموال، فأى شىء أساسه الدين حذف الدين ووضع بدلاً منه أمر دينوى.

فمثلاً الإمام فى الصلاة لابد أن يكون الأقرب والأعلم لكن فى أى هيئة أو مصلحة لا يقدم الأقرب بل يقدم المدير أو كذا، وكذلك الأموال إذا كانت لله تخرج مغرمًا كما قال تعالى فى المنافقين ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ فهو يشعر أنها غرامة لكن يخرجون الأموال بسهولة فى المدارس والدروس وهو منشرج الصدر!!

قال الفقير: وأيضاً فكما أن الصلاة لله، فكذلك. النسك والذبح لله وكما أن صرف الصلاة لغير الله شرك فكذلك الذبح صرفه لغير الله شرك كما بين ابن كثير: يأمر الله نبيه أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير الله أنه اخلص لله عبادته وذبيحته ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي....﴾

وقال مجاهد: النسك الذبح فى الحج والعمرة. وقال الثورى عن السدى عن سعيد بن جبير: النسك الذبح بوجه عام سواء كان الذبح فى الحج والعمرة أو كان الذبح بوجه عام فى الأضحية أو العقيقة أو غير ذلك فينبغى أن تكون لله عز وجل.

قوله ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

● ما جاء فى الآية من السنة والآثار:

كما قال معاذ بن جبل حينما كان يقول: «إنى لاحتسب نومتى كما احتسب قومتى». يعنى على وفق ما شرع الرسول وابتغى بها وجه الله عز وجل حتى بالنوم. فإننى أتقوى بهذا النوم على طاعة الله أو أعطى بدنسى حقه إمثالاً لقوله - ﷺ - فى الصحيح «إن لبدنك عليك حق»^(١) أو كما قال ﷺ فى «الصحيح» وغيره «إن فى بضع

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١١٣١)، ومسلم فى الصيام (٣٩/٨) - النووى) عن عبدالله بن عمرو به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٢) - بتخريجنا).

أحدكم لصدقة»^(١) وذلك إذا كان ممثلاً ليس للشهوة فقط، ولكن ليحصن فرجه عن الحرام، فهذا كله عبادة لله - عز وجل - ويؤجر عليه كما يؤجر على العبادات وأيضاً كما يفعل ذلك فى سائر العادات إذا احتسبها الله كما احتسبها معاذ أو غيره من الصحابة. وأيضاً ثبت فى الصحيح «إنك ما تنفق نفقةً تبغى بها وجه الله إلا أُجِرَتْ عليها حتى اللقمة ترفعها إلى فى زوجتك لك بها أجر»^(٢) (صدقة).

● كلام المفسرين فى الآية:

وللمفسرين فيها أقوال أنه لا يملك محياى ومماتى إلا الله قاله ابن الجوزى وقريب منه قول الرازى حيث قال الله حيث أمر رسوله أن يبين أن صلاته وسائر عبادته وحياته ومماته كلها واقعة بخلق الله تعالى وتقديره وقضائه وحكمة ثم نص على أنه لا شريك فى طاعته قاله ابن الجوزى وهو مؤدى قول القرطبى «ومماتى لله» فى رجوعى إلى جزائى، قاله ابن الجوزى قال الزمخشري: - وما أتيت فى حياتى وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح.

القول الثالث: فى مماتى «أى ما أوصى به بعد وفاتى ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾».

● كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين^(٣) أى حياتى وموتى، أى: التصرف فى تدبير أمرى حياً وميتاً لله وفى قوله صلاتى ونسكى إثبات توحيد العبادة. وفى «وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي» إثبات توحيد الربوبية أمه.

قوله ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

● الإعراب:

قال ابن عثيمين^(٤): قوله (لله) خبر إن، و (الله) علم على الذات الإلهية. وأصله الإله، فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال تخفيفاً.

قوله «رَبِّ الْعَالَمِينَ» المراد بالعالمين ما سوى الله، وسُمى بذلك؛ لأنه علم على

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الزكاة (٩١/٧ - النووى) عن أبى ذر به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٢١ - بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٦) عن سعد بن أبى وقاص به.

(٣) (٤) القول المفيد (٢٧٨/١ - ٢٧٩).

خالقه، قال الشاعر .

فواعجبا كيف يعص الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وهى تطلق على العالمين بهذا المعنى، وتطلق على العالمين فى وقت معين، مثل قوله تعالى ﴿وَأَنى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعنى عالمى زمانهم، والرب هنا المالك المتصرف، وهذه ربوبية مطلقة. أهـ.

قوله ﴿لا شريك له﴾:

● فائدة فى إثبات خلق أفعال العباد والرد على الجهمية:

قال الرازى:- فى تفسير ﴿قُلْ إِنِّ صَلَاتى وَنُسُكى﴾ فثبت كون الكل لله والمحيات للمات لله بمعنى أنه يؤتى به لطاعة الله تعالى فإن ذلك محال، بل معنى كونهما لله أنهما حاصلان بخلق الله تعالى فكذلك أن يكون كون الصلاة والنسك لله مفسراً بكونهما واقعين بخلق الله، وذلك من أدل الدلائل على أن طاعات العبد مخلوقة لله تعالى. أهـ (١).

قوله (وبذلك)

● الإعراب:

قال ابن عثيمين (٢): (بذلك) الجار والمجرور متعلق بـ (أمرت) فيكون دالاً على الحصر والتخصيص. وإنما خص بذلك؛ لأنه أعظم المأمورات، وهو الإخلاص لله تعالى، ونفى الشرك فكأنه ما أمر إلا بهذا، ومعلوم أن من أخلص لله تعالى فسيقوم بعبادة الله سبحانه وتعالى فى جميع أموره. أهـ

قوله ﴿أَمَرْتُ﴾

قال ابن عثيمين (٣): إبهام الفاعل هنا من باب التعظيم والتفخيم، وإلا فمن المعلوم أن الأمر هو الله تعالى. أهـ

قال الفقير:

قوله ﴿وَبِذَلِكَ أَمَرْتُ﴾، يعنى بتوحيد الربوبية والالوهية والأوامر والنواهى بذلك

(١)(٢)(٣) «القول المفيد» (١/ ٢٨٠).

أمرت وأنا «أول المسلمين» يعنى المستسلمين لله كما قال تعالى ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ
 وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (١) وهو متبع ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ.....﴾ (٢) والإسلام إذا أفرد فهو
 يعنى الإسلام والإيمان كما قال ابن تيمية أن الإسلام والإيمان إذا افترقا اتحدا وإذا اتحدا
 افترقا، قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (٣) وقال ﴿وَعَدَ اللَّهُ
 الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ (٤) فذكر المؤمنين فقط أى المؤمنين والمسلمين، وقال: (قالت
 الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا).

وبنحو هذا ذكر جميع المفسرين.

قوله «وأنا أول المسلمين».

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال القرطبى: ليس أحدهم بأولهم إلا محمد ﷺ. فإن قيل: أو ليس إبراهيم
 والنبىون قبله؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة.

الأول أنه أول الخلق أجمع معنى؛ كما فى حديث أبى هريرة من قوله عليه السلام:
 «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة» (٥). وفى حديث حذيفة
 «نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق» (٦).

الثانى - أنه أولهم لكونه مقدماً فى الخلق عليهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ
 النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ﴾ (٧). قال قتادة: إن النبى ﷺ قال: «كنت أول الأنبياء
 فى الخلق وآخرهم فى البعث» (٨). فلذلك وقع ذكره هنا مقدماً قبل نوح وغيره

الثالث - أول المسلمين من أهل ملته؛ قاله ابن العربى، وهو قول قتادة وغيره (٩).

(١) البقرة: ١١٢. (٢) آل عمران: ٨٥

(٣) الأحزاب: ٣٥ (٤) التوبة: ٧٢

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٨٧٦)، ومسلم فى الجمعة (٣/٦٠٤/١٩)، ٩٢٠ عن أبى هريرة

به.

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجمعة (٣/٤٠٧/٢٢) عن حذيفة به.

(٧) الأحزاب: (٧).

(٨) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥/٢٥٣) ونسبه لابن جرير عن قتادة. وفى الباب عن أبى هريرة

بإسناد متقطع.

انظر تخريجه فى «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٩) تفسير القرطبى ٢٥٩١ وذكر ذلك غيره من المفسرين كابن الجوزى والرازى وغيرهما.

قال الفقير: وقدما أن النبي ﷺ: كان إذا استفتح صلاته يقول: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، ولا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم! أنت الملك، لا إله إلا أنت، سبحانه وبحمده، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنبي جميعاً؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق؛ لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها؛ لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك والمهدي من هديت، أنا بك وإليك. لا متجا ولا ملجأ منك إلا إليك»^(١).

وقوله الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وفي معنى الآية

حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته»^(٢).
أي لا تنقضوا ذمة الله.

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله: فإذا قالوها، وصلوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»^(٣).

قوله في الحديث (حتى يقولوا لا إله إلا الله) اقتصر عليها ولم يذكر الرسالة وهي مراده كما تقول قرأت الحمد وتريد السورة كلها.

وقيل أول الحديث ورد في حق من جحد التوحيد فإذا أقر به صار كالموحد من أهل الكتاب يحتاج إلى الإيمان بما جاء به الرسول، فلهذا عطف الأفعال المذكورة عليها فقال «وصلوا صلاتنا الخ» والصلاة الشرعية متضمنة للشهادة بالرسالة.

وحكمة الإقتصار على ما ذكر من الأفعال أن من يقر بالتوحيد من أهل الكتاب وإن صلوا واستقبلوا، وذبحوا لكنهم لا يصلون مثل صلاتنا ولا يستقبلون قبلتنا، ومنهم من

(١) تقدم تخريجه عن علي رضي الله عنه هكذا في أكثر الروايات، وفي بعضها: «وأنا من المسلمين»، والظاهر أنه من تصرف بعض الرواة، وقد جاء ما يدل على ذلك، فعلى المصلي أن يقول: «وأنا أول المسلمين»، ولا حرج عليه في ذلك؛ خلافاً لما يزعم البعض؛ توهماً منه أن المعنى: «إني أول شخص أنصف بذلك بعد أن كان الناس بمعزل عنه» وليس كذلك، بل معناه: بيان المسارعة في الامتثال لما أمر به، ونظيره ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ وقال موسى ﷺ: «وأنا أول المؤمنين». وانظر صفة الصلاة للآبائي (٩٢)...

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري (٣٩١) عن أنس به. (٣) تقدم تخريجه.

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَر﴾ (١).

يذبح لغير الله، ومنهم من لا يأكل ذبيحتنا، ولهذا قال في الرواية الأخرى «وأكل ذبيحتنا» والإطلاع على حال المرء في صلاته وأكله يمكن بسرعة في أول يوم بخلاف غير ذلك من أمور الدين (٢).

وعنه - أي أنس بن مالك - أيضاً عن النبي - ﷺ . . قال: يا أبا حمزة ما يُحرّم دم العبد وماله؟ فقال من شهد أن لا إله إلا الله، واستقبل قبلتنا، وصلى صلاتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم، له ما للمسلم، وعليه ما على المسلم (٣).



قوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾

● الإعراب (٤):

الثبات من المتكلم إلى الغيبة والأصل فصلٌ لنا ولكنه عدل عن ذلك لأن في لفظ الرب حثاً على فعل المأمور به لأن من يربك يستحق العبادة.

● كلام المفسرين في الآية:

قوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ وفيها وجوه:-

الأول: أن المراد هو الأمر بالصلاة وهو قول كثير من أهل العلم من الصحابة والتابعين والمفسرين قاله الضحاك، حيث قال: صلّ لربك الصلاة المكتوبة (٥)، وابن عباس (٦)، وعلى (٧) وأنس (٨) في رفع اليدين في الصلاة ووضعها على الصدر وهو أخص من قول الضحاك.

(١) الكوثر/٢.

(٢) الفتح ١/٥٩٣.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٣) وتقدم.

(٤) إعراب القرآن ١٠/٥٩٩.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/٦٨٩) ونسبه لابن جرير، وابن أبي حاتم.

وانظر الأخير بتخريجنا.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/٦٨٩) ونسبه لابن مردويه ثم نسبه لابن أبي حاتم، وابن شاهين في

«السنن»، وابن مردويه، والبيهقي.

انظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخريجنا.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/٦٨٩) ونسبه لابن أبي شيبة في «المصنف»، والبخاري في «تاريخه»،

وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني في «الأفراد»، وأبى الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه».

وانظر «فتح القدير» (٩-١٤١٠) بتخريجنا.

(٨) ذكره السيوطي في الموضوع السابق ونسبه لأبى الشيخ والبيهقي في «السنن».

وكذلك قول أبي جعفر، قال: الصلاة^(١).

وكذلك ما نقله البغوي عن مجاهد قال: الصلوات المفروضة بجمع^(٢).

وما نقله عن عكرمة وعطاء وقتادة: أنها صلاة العيد.

وأيضاً ما رواه ابن جرير عن مجاهد وعطاء وعكرمة صلاة الصبح بجمع^(٣).

وعن قتادة صلاة الأضحى والنحر^(٤).

وعن ابن عباس الصلاة المكتوبة وهو الذي نقله ابن الجوزي^(٥) والرازي^(٦)

والقرطبي^(٧) وأستدل الأخير بقول أنس كان النبي ﷺ . . ينحر ثم يصلي فأمر أن يصلي ثم ينحر^(٨).

- أيراد على القول الأول وجوابه

فإن قيل اللائق عند النعمة الشكر فلم قال فضل ولم يقل فاشكر.

الجواب من وجوه:-

الأول أن الشكر عبارة عن التعظيم وله ثلاثة أركان:

أحدها: يتعلق بالقلب وهو أن يعلم أن تلك النعمة منه لا من غيره.

والثاني: باللسان وهو أن يمدحه - سبحانه وتعالى -

والثالث: بالعمل وهو أن يخدمه ويتواضع له. والصلاة مشتملة على هذه المعاني

وعلى ما هو أزيد منه فالأمر بالصلاة أمر بالشكر وزيادة فكان الأمر بالصلاة أحسن.

والوجه الثاني:- أنه لو قال فاشكر لكان ذلك يوهم أنه لم يكن شاكراً أما الصلاة

فقد عرفها بالوحى قال تعالى ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾.

(١) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن جرير.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/٦٨٩) ونسبه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم

عن مجاهد، وعطاء وعكرمة.

وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخريجنا.

(٣) تقدم قبله.

(٤) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن جرير.

(٥) التفسير الكبير (١٦/٣٢، ١٢٩، ١٣٠) (٦) زاد المسير (٨/٣٣٢)

(٧) تفسير القرطبي (١٠/٧٣، ٧٣٠، ٧٣٠٩)

(٨) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/٦٩٠) ونسبه لابن جرير.

● كلام شرح كتاب التوحيد فى الآية:

قال ابن عثيمين : (فصل^(١)) الفاء للسببية عاطفة على قوله «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ» أى بسبب إعطائنا لك ذلك صل لربك وانحر شكراً لله تعالى على هذه النعمة أهـ.
قوله: «وَأَنْحَرْ» فيه قولان:

الأول: وهو قول عامة المفسرين أن المراد هو نحر البدن .

والثانى: أن المراد بقوله «وَأَنْحَرْ» فعل يتعلّق بالصلاة إما قبلها أو فيها أو بعدها.

قال ابن عثيمين^(٢): المراد بالنحر الذبح، أى اجعل نحرَكَ لله كما أن صلاتك له، فأفادت هذه الآية أن النحر من العبادة، ولهذا أمر الله به، وقرنه بالصلاة.

وقوله «وَأَنْحَرْ» مطلق، فيدخل فيه كل ما ثبت فى الشرع مشروعيته، وهى ثلاثة أشياء: الأضاحى والهدايا- والعقائى، فهذه الثلاثة يطلب من الإنسان فعلها. أهـ.

قال الفقير: فالذبح عبادة لأن الله أمر بها فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه. ويدخل فى الذبح كل ذبح مشروع كالأضاحى والهدى والعقائى، أما الهدايا منها ما هو واجب وتكون على المتمتع والمحصر الذى أحصر عن الحج بعدو «فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ»^(٣) أو فى حلق الرأس «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ»^(٤) هذا إن صح أن يكون هدى لكن الأولى أن تكون فدية لأنها بمنزلة الكفارة.

أما الأضاحى فمختلف فيها فإن كانت الآية «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ» فى الأضاحى فيكون الأمر على الوجوب واستدلوا بحديث «من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا» فإن صح فهو من أقوى الحجج على الوجوب لكن جمهور العلماء على أنها مستحبة وصرفوا الآية على أنها ليست فى الأضحية فقط بل فيها وفى غيرها، وكذلك الحديث فى غالب علمى لم يصح.

أما العقيقة ففى الصحيح والمسند «كل غلام مرتين بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه»^(٥) ولا مجال للاحتجاج بالأضحية والعقيقة على أنها لغير الله بل هى لله لأن ما دفعه هو أمر الله عز وجل.

وقد يظن الناس أن الأضحية تكون للأموات بل هى للأحياء إلا إذا وصى المتوفى بذلك فهذه وصية جائزة وهو مؤدى قول ابن عثيمين^(٦).

(١) «القول المفيد» (١/ ٢٨٢) (٢) «القول المفيد» (١/ ٢٨٣ - ٢٨٤) (٣) (٤، ٣) البقرة: ١٩٦.

(٥) تقدم تخريجه. (٦) «القول المفيد» (١/ ٢٨٣، ٢٨٤).

فصل

الجملة وعلاقتها بالنحر

قال الفقير: كان ﷺ عمله ديمة وإذا عمل عملاً أثبته وفي حجة ذبح بيده نحو من بضع وستين بدنه عنه وعن نساءه كما في حديث جابر الطويل^(١) في الحج وكان يقول ﷺ «أفضل الحج العج والثج»^(٢)، الثج هو كثرة الذبح والعج: كثرة الذكر وكان أول من يمثل لهذا الأمر والفضل الذي يذكره كما ثبت «أنه ذبح عن نفسه وأهل بيته ومن لم يضح من أمته»^(٣) وكما ثبت في الصحيح «أنه ضحى بكبشين أملحين»^(٤) وثبت «أنه عقى عن الحسن والحسين كبشاً كبشاً»^(٥).

وكما قال ابن تيمية، كان النبي كثير الصلاة وكثير النحر.

قال ابن تيمية: في تفسير قوله «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ» قال: أمره الله ان يجمع بين هاتين العبادتين وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والاستقامة وحسن الظن بالله وقوة اليقين وطمئينة القلب لله عكس حال أهل الكبر وأهل النفرة وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقرة فهو خائف يذبح خوفاً من الفقر لكن الذي يذبح ويكثر من الذبح تأسياً بالرسول ﷺ عنده يقين بالله أن الله سيخلف عليه كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ فبحسن ظنه في الله ذبح ولم يخش الفقر.

قال ابن تيمية: ولهذا ذبح لقوله «إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي...» ثم قال: والنسك: الذبيحة لله تعالى ابتغاء وجهه فإنهما أجل ما يتقرب به إلى الله فالصلاة فيها إحرام كما ثبت في السنن «إحرامها التكبير وتحليلها التسليم»^(٦) وفيها تحليلاً تحليل أصغر

(١) [صحيح] تقدم تخريجه وانظر تخريجه مطولاً في «السلسلة» (١٠٦ - بتخريجنا).

(٢) أخرجه الترمذی (٨٢٧)، وابن ماجه (٢٩٢٤) عن أبي بكر به.

وانظر «لطائف المعارف» (٣٨٥/٢ - بتخريجنا).

(٣) [حسن] أخرجه أبو داود (٢٨١٠)، والترمذی (١٥٢١) عن جابر به.

وانظر «منار السبيل» (١٢٢٩ - بتخريجنا).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٧١٢)، ومسلم في الأضاحي (١١٩/١٣ - النووي) عن أنس به.

وانظر «السلسلة» (١٤٣٠ - بتخريجنا).

(٥) أخرجه أبو داود (٢٨٤١) عن ابن عباس به.

وانظر «تحفة المودود» (٤٢ - بتخريجنا).

(٦) [حسن] أخرجه أحمد في «مستد» (١٢٣/١)، وأبو داود (٦٦٨)، والترمذی (٣)، وابن ماجه

(٢٧٥) عن علي به.

وانظر «منار السبيل» (٣٤٨ - بتخريجنا).

التسليمية الأولى والأكبر التسليمية الثانية كما فى الحج، وأنت كالمحرم يحرم عليك الكلام واللغو الرفث بل يحرم عليك بعض الواجبات مثل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأيضاً أنت تصوم فى فترة الصلاة فيحرم عليك الطعام والشراب فلما جمعت هذه العبادة الجليلة هذه العبادات: فصيام وإحرام وفضلاً عن ذكر الله والإخلاص الوجهة - الكعبة - والركوع والسجود فضلاً عن أن فيها التوحيد وهذا كله يشبه النسك والحج بهذا قرن الله بينهما أيضاً فى هذه الآية .

- والنحر من أجل العبادات المالية - وتقدم - أن هذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية، وأن ابن عثيمين قال تعقياً عليه بل الزكاة ويجتمع للعبد فى الصلاة ما لا يجتمع له فى غيرها .

يعنى من رقة فى القلب أو خشوع لا يعرفه إلا أرباب المعرفة والنبي ﷺ قال «أول ما يرفع الخشوع فى الصلاة» وما يجتمع له فى النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين وحسن الظن أمر عجيب فبالفعل لا تُهدى إلى الفطرة والمتعة إلا أن تذبح وتذبح لله وذبحك لنفسك باسم الله ليس أطيب من ذبحك لله باسم الله فأنت إذا ذبحت لله وباسمه أضحية هذا أطيب وألذ من أن تذبح لنفسك لحماً، أطيب للقلب وأطيب للفم فإذا ما ذبح لله انشرح صدره وسرّ وفاز بهذا الفضل بخلاف من ذبح للحم، انظر إلى الجزار وإلى مذابحتنا ماذا فيها؟! ليس فيها إلا سب الدين واللعن وتجد أن الذبح قد أثر فى نفسية الجزار وربما يهيجه لون الدم .

وربما لو ضربه أحد على أنفه لضربه مثلاً بالساطور أو بعض آلات الذبح، لكن نجد العكس فيمن يذبح لله ولو باشر بيده يومياً أكثر من عشر بُدن ولو كان هذا الأمر أثقل عليه من حمل الجبال وترى ذلك فى الملتزمين بتطبيق السنة حينما يذبحون فى العيد فتجده منشراح الصدر مسرور ويشعر برقة قلب وفرحة ولا يجد العيد إلا فى هذا الذبح والآخر ضاق صدره وتعبت نفسيته وتجد هذا يكبر يسبح ويهلل وهذا تجده يسب ويلعن، أنظر لتأثير الذبح لله وتأثير الذبح لغير الله ولا لله فما الظن فيمن ذبح باسم غير الله ولغير الله، فلا تراه إلا لا عقل له مهووس ممسوس كما قال تعالى فى آكل الربا «كَالَّذِي يَتَخَطَّبُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ» فهذا آكل الربا فما الظن بالشرك، ولهذا جاء فى الأثر «أن النبى سمع إنسان يثنى على كافر فقال له: الكافر لاعتقل له وهم يوم القيامة يقولون: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾»

على أية حال لا يجتمع ما يجتمع للمسلم فى قلبه حال النحر إذا قارنه بالإخلاص من

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: «حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَوَى مُحَدَّثًا، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ». رواه مُسْلِمٌ (١).

قوة اليقين وحسن الظن لذلك قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ فإذا ذبح ذبيحتنا باسم الله والله وصلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهذه هي التقوى وهذا هو الفضل والفرح وانسراح الصدر كما قال تعالى ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يشرح صدره للإسلام بالصلاة والذبح وشرح صدره بالإسلام كما قال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.



قوله: (عن علي رضي الله عنه قال: ...)

ورواه مسلم أيضاً: عن أبي الطفيل، عامر بن واثلة. قال: كنت عند علي بن أبي طالب. فأتاه رجل فقال: ما كان النبي ﷺ يُسِرُّ إليك؟ قال: فغضب وقال: ما كان النبي ﷺ يُسِرُّ إلى شَيْئاً يَكْتُمُهُ النَّاسَ غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ حَدَّثَنِي بِكَلِمَاتٍ أَرْبَعٍ قَالَ: فقال: ماهن؟ يا أمير المؤمنين! قال: قال: «لعن الله من لعن والده (والديه) ولعن الله من ذبح لغير الله ولعن الله من أوى محدثاً ولعن الله من غير منار الأرض من (سرق منار الأرض)» (٢) وفيه تقديم وتأخير؛ بدأ بـ لعن الله من ذبح لغير الله.

قوله: (حدثني رسول الله ﷺ):

قال الفقير: فيه أن الصحابة راعوا أداة التحمل وصيغ الأداء عن الرسول حدثني

سمعت ..

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في «الأضاحي»/ باب: تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله (٧/١٥٥ ح ١٩٧٨) والنسائي في «الكبرى» في «الضحايا»/ باب: ما ذبح لغير الله عز وجل (٣/٦٧ ح ٤٥١١)

وفي «المجتبى» (٧/٢٣٢- السيوطي) وأبو يعلى الموصلي في «مسنده» (١/٢٩٨ ح ٥٩٨).

جميعاً من حديث علي رضي الله عنه به وانظر «فتح المجيد» (ح ٢٣٢) بتخريجنا.

(١) تقدم تخريجه

قوله: (كلمات): الكلمة فى اصطلاح النحويين: القول المفرد أما فى اللغة فهى القول المفيد كما قال النبى «أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شىء ما خلا الله باطل»^(١) فهذه الجملة كلها كلمة مفيدة وكذلك فى تفسير قوله «قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ...» يعنى بكلمة واحدة «أَنْ تَقْرُمُوا لِلَّهِ...»^(٢) فكل هذه كلمة مفيدة.

قال ابن تيمية: لا تطلق الكلمة فى العربية إلا على جملة مفيدة^(٣) كما قال صاحب الألفية:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرفنا الكلم

قوله: (لعن الله)

● ماجاء فى معنى اللعنة

قال ابن الأثير: أصل اللعن الطرد والإبعاد، ومن الخلق: السبُّ والدعاء أهـ^(٤).

قال عبدالرحمن آل الشيخ قال شيخ الإسلام: إن الله تعالى يلعن من يستحق اللعنة بالقول، كما يصلى سبحانه على من استحق الصلاة من عبادة^(٥).

قال الفقير: قيل: واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة أو دُعِيَ عليه بها. والسبُّ يُسمى أحياناً لعن.

● أقسام اللعن:

قال ابن حجر فى «الفتح»^(٦):

قال الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة نفع الله به ما ملخصه:

اللعن الصادر من النبى ﷺ - على ضربين:

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٨٤)، ومسلم فى الشعر (١٥/١٢- النووي) عن أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٤٩١ - بتخريجنا)

(٢) سبأ: ٤٦.

(٣) انظر «القول المفيد» (١/٢٨٤).

(٤) «النهاية» (٤/٢٥٥)

(٥) فتح المجيد (١/١٧٩).

(٦) فتح البارى (١٠/٣٥٤).

أحدهما: يراد به الزجر عن الشيء الذى وقع اللعن بسببه وهو مخوف. فإن اللعن من علامات الكبائر.

والآخر: يقع فى حال الجرح. وذلك غير مخوف، بل هو رحمة فى حق من لعنه، بشرط أن لا يكون الذى لعنه مستحقاً لذلك كما ثبت من حديث ابن عباس عند مسلم أهـ.

قال الفقير: فإذا لعن رسول الله ﷺ أحداً بسبب شيء كان هذا الشيء من الكبائر وهذا اللعن علامة على أن هذا الشيء من الكبائر.

واللعن: هو البعد عن مكان الرحمة أو الطرد من رحمة الله عز وجل هذا إن كان من الله فهو طرد وإبعاد للملعون عن رحمته وإن كان من العبد فهو طلب الطرد والإبعاد من رحمة الله لهذا العبد. وهذا قريب مما نقلناه عن ابن الأثير فى النهاية، وسبق ذكره، ويأتى أيضاً على معنى السبب والله أعلم.

إدلة ما جاء فى القسم الثانى من اللعنة بمعنى الرحمة

والزكاة والإجر لمن وقعت عليه.

وعليه بوب النووى فى شرح صحيح مسلم (باب من لعنه النبى ﷺ أو سبه أو دعا عليه، وليس هو أهلاً لذلك كان له زكاة وأجر وأرحمة)^(١) وذكر الإمام مسلم فيه عدة أحاديث منها.

عَنْ عَائِشَةَ. قَالَتْ: دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلَانِ. فَكَلَّمَاهُ بِشَيْءٍ لَا أَدْرِي مَا هُوَ. فَأَغْضَبَاهُ. فَلَعَنَهُمَا وَسَبَّهُمَا. فَلَمَّا خَرَجَا قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَصَابَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئاً مَا أَصَابَهُ هَذَانِ. قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَتْ: قُلْتُ: لَعَنْتُهُمَا وَسَبَّيْتُهُمَا. قَالَ: «أَوْ مَا عَلِمْتُ مَا شَرَطْتُ عَلَيْهِ رَبِّى؟» قُلْتُ: اللَّهُمَّ! إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ. فَأَيُّ الْمُسْلِمِينَ لَعَنْتُهُ أَوْ سَبَّيْتُهُ فَاجْعَلْهُ لهُ زَكَاةً وَأَجْراً»^(٢).

وفى رواية: فَخَلَا بِهِ، فَسَبَّهُمَا، وَلَعَنَهُمَا، وَأَخْرَجَهُمَا^(٣).

(١) «صحيح مسلم» (٣٩٦/٨ - ٤١٠)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم (٨٨، ٨٩ - البر والصلة).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «اللَّهُمَّ! إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ. فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَيِّئْتُ، أَوْ لَعَنْتُهُ، أَوْ جَلَدْتُهُ. فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً» (١).

عَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُهُ. إِلَّا أَنَّ فِيهِ «زَكَاةً وَأَجْرًا» (٢).

وفى رواية جَعَلَ «وَأَجْرًا» فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَجَعَلَ «وَرَحْمَةً» فِي حَدِيثِ جَابِرٍ (٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ! إِنِّي اتَّخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ. فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ. فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ آذَيْتُهُ، شَتَمْتُهُ، لَعَنْتُهُ، جَلَدْتُهُ، فَاجْعَلْهَا لَهُ صَلَاةً وَزَكَاةً وَقُرْبَةً، تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٤).

ويسند مسلم إلى أبي الزناد، بهذا الإسناد، نحوه. إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: «أَوْ جَلَدْتُهُ».

قَالَ أَبُو الزِّنَادِ: وَهِيَ لُغَةٌ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَإِنَّمَا هِيَ «جَلَدْتُهُ» (٥).

قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ! إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ. يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ وَإِنِّي قَدْ اتَّخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ. فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ آذَيْتُهُ، أَوْ سَيِّئْتُ، أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ كَفَّارَةً، وَقُرْبَةً، تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٦).

● فائدة: - وهذا الحديث فيه رد على الصوفية الذين قالوا إن فضيلة دمه - عليه الصلاة والسلام - من نور لقوله «بشر، يغضب كما يغضب البشر».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ! فَأَيُّمَا عَبْدٍ مُؤْمِنٍ سَيِّئْتُ فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ قُرْبَةً إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٧).

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٨٨)، ٨٩- البر والصلة.

(٢) [صحيح] مسلم في البر والصلة (٩٠، ٩١).

(٦-٧) المصدر السابق (٩٢-٩٤).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ! إِنِّي اتَّخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ. فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَيِّئُهُ، أَوْ جَلَدْتُهُ. فَاجْعَلْ ذَلِكَ كَفَّارَةً لَهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ. وَإِنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، أَيُّ عَبْدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَيِّئُهُ أَوْ شَتَمْتُهُ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا» (٢).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَتْ عِنْدَ أُمِّ سُلَيْمٍ يَتِيمَةٌ. وَهِيَ أُمُّ أَنَسٍ. فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْيَتِيمَةَ. فَقَالَ: «أَنْتِ هِيَ؟ لَقَدْ كَبُرْتَ. لَا كَبِيرَ سُنْكَ» فَرَجَعَتِ الْيَتِيمَةُ إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ تَبْكِي. فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: مَا لَكَ يَا بَنِيَّةُ! قَالَتِ الْجَارِيَةُ: دَعَا عَلِيٌّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا يَكْبِرَ سِنِّي. فَالآنَ لَا يَكْبِرُ سِنِّي أَبَدًا. أَوْ قَالَتْ قُرْنِي. فَخَرَجَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ مُسْتَعْجِلَةً تَلَوْتُ خِمَرَهَا. حَتَّى لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا لَكَ؟ يَا أُمُّ سُلَيْمٍ!» فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! أَدْعَوْتُ عَلَى يَتِيمَتِي؟ قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟ يَا أُمُّ سُلَيْمٍ؟» قَالَتْ: زَعَمْتَ أَنَّكَ دَعَوْتَ أَنْ لَا يَكْبِرَ سَنُهَا وَلَا يَكْبِرَ قُرْنُهَا. قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «يَا أُمَّ سُلَيْمٍ! أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ شَرَطِي عَلَى رَبِّي، أَنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ. أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ. وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ. فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ، مِنْ أُمَّتِي، بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ، أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً وَقُرْبَةً يَقْرِبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٣).

وَقَالَ أَبُو مَعْنٍ: يَتِيمَةٌ. بِالتَّصْغِيرِ، فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْحَدِيثِ (٤).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ أَلْعَبُ مَعَ الصَّبِيَّانِ. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَوَارَيْتُ خَلْفَ بَابٍ. قَالَ: فَجَاءَ فَحَطَّأَنِي. وَقَالَ: «اذْهَبْ وَادْعُ لِي مُعَاوِيَةَ» قَالَ: فَجِئْتُ فَقُلْتُ: هُوَ يَأْكُلُ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ لِي: «اذْهَبْ فَادْعُ لِي مُعَاوِيَةَ» قَالَ: فَجِئْتُ فَقُلْتُ: هُوَ يَأْكُلُ. فَقَالَ: «لَا أَشْبَعَ اللَّهُ بَطْنَهُ».

(١-٣) المصدر السابق (٩٢-٩٤).

(٤) المصدر السابق (٩٥).

قَالَ ابْنُ الْمُثَنَّى: قُلْتُ لِأُمِّيَّةَ: مَا حَطَّائِي؟ قَالَ: قَفَدَنِي قَفْدَةً (١).

قال الفقير: وهذا الحديث أخرجه ابن حبان في مناقب معاوية لأن النبي ﷺ دعى عليه، فكان هذا رحمة وزكاة وأجرأ.

وأخرج مسلم أيضاً أن ابنَ عَبَّاسٍ كَانَ يَقُولُ: كُنْتُ أَلْعَبُ مَعَ الصَّبِيَّانِ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاخْتَبَأْتُ مِنْهُ فَذَكَرَ بِمَثَلِهِ.

باب من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعى عليه وليس هو أهلاً

لذلك كان له زكاة وأجرأ ورحمة.

سـ قوله ﷺ: (اللهم إنما أنا بشر، فأى المسلمين لعنته أو سبته فاجعله له زكاة وأجرأ) وفى رواية: (أو جلدته فاجعلها له زكاة ورحمة)، وفى رواية: (فأى المؤمنين أذيته، شتمته، لعنته، جلدته اجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة)، وفى رواية: (إنما محمد بشرٌ يغضب كما يغضب البشر، وإنى قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه، فأياً مؤمن أذيته أو سبته أو جلدته فاجعلها له كفارة وقربة)، وفى رواية: (إنى اشتربت على ربي فقلت: إنما أنا بشر أَرْضَى كما يَرْضَى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأياً أحد دعوت عليه من أمتى بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طهوراً وزكاة وقربة).

هذه الأحاديث مبينة ما كان عليه ﷺ من الشفقة على أمته، والاعتناء بمصالحهم، والاحتياط لهم، والرغبة فى كل ما ينفعهم.

وهذه الرواية المذكورة آخر تبين المراد بباقى الروايات المطلقة، وإنه إنما يكون دعاؤه عليه رحمة وكفارة وزكاة ونحو ذلك، إذا لم يكن أهلاً للدعاء عليه، والسب واللعن ونحوه وكان مسلماً وإلا فقد دعا ﷺ على الكفار والمنافقين، ولم يكن ذلك لهم رحمة.

● **سؤال: قيل: كيف يدعو على من ليس هو بأهل للدعاء عليه أو يسبه أو يلعنه ونحو ذلك فالجواب ما أجاب به العلماء، ومختصره وجهان:**

أحدهما: أن المراد ليس بأهل لذلك عند الله تعالى، وفى باطن الأمر، ولكنه فى الظاهر مستوجب له، فيظهر له ﷺ استحقاقه لذلك بأمانة شرعية، ويكون فى باطن الأمر ليس أهلاً لذلك، وهو ﷺ مأمور بالحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر.

(١) المصدر السابق (٩٦).

والثانى: أن ما وقع من سبه ودعائه ونحوه ليس بمقصود، بل هو مما جرت به عادة، العرب فى وصل كلامها بلا نية كقوله: تربت يمينك، عقرى، حلقى.

قال الفقير: وجواب ثالث: هذا حدث بسبب بشريته فهو يغضب كما يغضب البشر فلما حصل منه ذلك بالطبع والجبلة ولم يقصد حقيقته ومع ذلك خشى أن تصادف إجابة فاشترط على ربه ذلك.

ثم قال النووى: وفى هذا الحديث: (لا كبرت سنك)، وفى حديث معاوية: (لا أشيع الله بطنك) ونحو ذلك، لا يقصدون بشيء من ذلك حقيقة الدعاء، فخاف ﷺ أن يصادف شيء من ذلك إجابة فسأل ربه سبحانه وتعالى ورغب إليه فى أن يجعل ذلك رحمة وكفارة وقربة وطهوراً وأجرأ، وإنما كان يقع هذا منه فى النادر والشاذ من الأزمان، ولم يكن ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا لعاناً ولا منتقماً لنفسه، وقد جاء فى الحديث أنهم قالوا: ادع على دوس، فقال: «اللهم اهد دوساً»^(١)، وقال: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون». والله أعلم.

وأما قوله ﷺ: (أغضب كما يغضب البشر) فقد يقال: ظاهره أن السب ونحوه كان بسبب الغضب، وجوابه ما ذكره المازرى قال: يحتمل أنه ﷺ أراد أى دعاءه وسبه وجلده كان مما يخير فيه بين أمرين أحدهما: هذا الذى فعله، والثانى: زجره بأمر آخر، فحمله الغضب لله تعالى على أحد الأمرين المتخير فيهما، وهو سبه أو لعنه وجلده ونحو ذلك، وليس ذلك خارجاً عن حكم الشرع والله أعلم.

ومعنى (أجعلها له صلاة) أى: رحمة كما فى الرواية الأخرى، والصلاة من الله تعالى الرحمة.

قوله: (جلده) قال: وهى لغة أبى هريرة، وإنما هو جلده معناه: أن لغة النبى ﷺ وهى المشهورة لعامة العرب (جلده) بالتاء، ولغة أبى هريرة (جلده) بتشديد الدال على إدغام المثلين، وهو جائز.

قوله: (كانت عند أم سليم يتيمة) وهى أم أنس فقوله (وهى أم أنس) يعنى: أم سليم هى أم أنس.

قوله: (فقال لليتيمة أنت هيه) هو يفتح الياء وإسكان الهاء وهى هاء السكت.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/٣١٦/١٩٧) عن أبى هريرة به.

(٢) النووى شرح مسلم (٨/٤٠١)

قولها: (لا يكبر سنى أو قالت قرني) بفتح القاف وهو نظيرها فى العمر، قال القاضي: معناه: لا يطول عمرها؛ لأنه إذا طال عمره طال عمر قرنه وهذا الذى قاله فيه نظر؛ لأنه لا يلزم من طول عمر أحد القرنين طول عمر الآخر، فقد يكون سنهما واحد ويموت أحدهما قبل الآخر.

وأما قوله ﷺ لها: (لا كبر سنك) فلم يرد به حقيقة الدعاء، بل هو جار على ما قدمناه فى ألفاظ هذا الباب.

قوله: (تلوث خمارها) هو بالمثلثة فى آخره، أي: تديره على رأسها. اهـ.

فصل فى اللعن على المعين واللعن على العموم

ظاهر هذا الحديث جواز لعن الظالمين على العموم، وقد لعن الله الظالمين على العموم، فقال ﴿ فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾.

وأيضاً فى سورة هود ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ وتقدم أن الرسول ﷺ لعن على العموم فى لعن الواشمة والمستوشمة والواشرة والمستوشرة والواصلة والمستوصلة^(١) والمتشبهين والمتشبهات من النساء بالرجال^(٢) واليهود والنصارى^(٣) ومن لعن والديه^(٤) و... إلخ.

ولعن ابن مسعود أيضاً لعناً عاماً ممثلاً لنهج النبى ﷺ، ففى «الصحيح»^(٥) قال عبد الله بن مسعود لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغنى أنك لعنت كيت وكيت، فقال: ومالى لا لعن من لعن رسول الله ﷺ وهو فى كتاب الله... الحديث^(٦).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٩٤٠)، ومسلم فى اللباس (٥٠١/١٤ - النووى) عن ابن عمر به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٦٤٧ - بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٨٨٥) عن ابن عباس به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٦٣٤ - بتخريجنا).

(٣) سيأتى فى باب ماجاء من التغليب فيمن عبد الله عن قبر رجل صالح.

(٤) تقدم فى تخريجه حديث الباب.

(٥) [صحيح] أخرجه البخارى فى اللباس / باب: المتنمصات (١٠ / ٣٩٠ - ح ٥٩٣٩).

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٩٣١)، ومسلم فى اللباس (١٠٥/١٤ - النووى) عن ابن مسعود.

فصل متى يجوز لعن المعين

قال ابن حجر: فى شرح حديث عائشة فى النهى عن سب الأموات^(١):-

ووقع لنا أيضاً من رواية محمد بن فضيل عن الأعمش بزيادة فيه، أخرجه عمر بن شبة فى «كتاب أخبار البصرة» «عن محمد بن يزيد الرفاعى عنه بهذا السند إلى مجاهد» أن عائشة قالت: ما فعل يزيد الأرجى لعنه الله؟ قالوا: مات. قالت: استغفر الله. قالوا: ما هذا؟ فذكرت الحديث.

وأخرج من طريق مسروق أن علياً بعث يزيد بن قيس الأرجى فى أيام الجمل برسالة فلم ترد عليه جواباً، فبلغها أنه عاب عليها ذلك فكانت تلعنه، ثم لما بلغها موته نهت عن لعنه وقالت إن رسول الله نهانا عن سب الأموات وصححة ابن حبان^(٢) من وجه آخر عن الأعمش عن مجاهد بالقصة^(٣).

وروى البخارى عن ابن عباس قال: قال أبو لهب- عليه لعنة الله- للنبي- صلى الله عليه وسلم- تَبَالِكْ سائر اليوم، فترلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ﴾^(٤).

وعلى هذا فالجائز أن تعمم اللعن عليه وعلى غيره، وإن كان هذا المعين لعنه الله ورسوله، يعنى معك نص فى لعنه بعينه فتلعنه، وإلا فلا يجوز، وأن كنت لاعناً فلا يكن ذلك خلقتك، وإليك الأحاديث فى صحيح مسلم وغيره الدالة على النهى عن لعن المعين.

هل يجوز لعن (المعين) على الخصوص أم لا يجوز؟

الجواب اختلف فيه العلماء على وجهين:

(١) يجوز، ونسبته إلى ابن الجوزى.

(٢) لا يجوز، وقد يكون منسوب لأبى بكر بن عبدالعزيز وشيخ الإسلام وهو

الراجح.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٥١٦) عن عائشة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٦٧ - بتخريجنا)

(٢) أخرجه ابن حبان فى «صحيحه» (٣٠١٠ / ١٠ / ٥) عن عائشة به.

(٣) الفتح ٣ / ٣٠٥.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (١٣٩٤)

فصل في النهي عن لعن المعين:

عن سمرة بن جندب عن النبي - ﷺ - قال «لا تلعنوا بلعنة الله ولا بغضب الله ولا بالنار» (١).

قوله ﷺ: (لا تلعنوا) بحذف إحدى التائين.

(بلعنة الله) أى لا يلعن بعضكم بعضاً فلا يقل أحد لمسلم معين عليك لعنة الله مثلاً (ولا غضب الله) بأن يقول غضب الله عليك (ولا بالنار) بأن يقول أدخلك الله النار مثلاً، وهذا مختص بمعين لأنه يجوز اللعن بالوصف الأعم، كقوله لعنة الله على الكافرين، أو بالأخص كقوله لعنة الله على اليهود، أو على كافر معين مات على الكفر كفرعون وأبى جهل، قاله القارى (٢). أهـ.

ففى صحيح مسلم بشرح النووى باب النهي عن لعن الدواب وغيرها: (٣) - فذكر فيه الأحاديث الآتية

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا. فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا. فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ».

قَالَ عِمْرَانُ: فَكَأَنِّي أَرَاهَا الْآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ، مَا يَغْرِضُ لَهَا أَحَدٌ (٤).

قَالَ عِمْرَانُ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهَا، نَاقَةٌ وَرَقَاءَ.

وَفِي رَوَايَةٍ: فَقَالَ: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَأَعْرِضُوا فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ» (٥).

عَنْ أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ، قَالَ: بَيْنَمَا جَارِيَةٌ عَلَى نَاقَةٍ، عَلَيْهَا بَعْضُ مَتَاعِ الْقَوْمِ، إِذْ بَصُرَتْ بِالنَّبِيِّ ﷺ. وَتَضَاقَقَ بِهِمُ الْجَبَلُ. فَقَالَتْ: حَلِّ. اللَّهُمَّ! الْعَنْهَا. قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «لَا تُصَاحِبْنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ» (٦).

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٥/٥)، وأبو داود (٤٩٠٦)، والترمذى (١٩٧٦) عن سمرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٥٧ - بتخريجنا).

(٢) عون المعبود ٢٥٢/١٣ و ٢٥٣ (٣) صحيح مسلم (٨/٣٩٢)

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (٨/٨٠).

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم (٨١- البر والصلة).

(٦) [صحيح] مسلم (٨٢- البر والصلة).

وفى رواية لا. إِنْهُ اللهُ! لَا تُصَاحِبُنَا رَاحِلَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةُ مِنْ اللهِ» أَوْ كَمَا قَالَ (١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَنًا» (٢).

وعن زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ؛ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ بَعَثَ إِلَى أُمِّ الدَّرْدَاءِ بِأَنْجَادٍ مِنْ عِنْدِهِ. فَلَمَّا أَنْ كَانَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، قَامَ عَبْدُ الْمَلِكِ مِنَ اللَّيْلِ، فَدَعَا خَادِمَهُ، فَكَانَهُ أَبْطًا عَلَيْهِ، فَلَعَنَهُ. فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَتْ لَهُ أُمُّ الدَّرْدَاءِ: سَمِعْتُكَ، اللَّيْلَةَ، لَعَنْتَ خَادِمَكَ حِينَ دَعَوْتَهُ. فَقَالَتْ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «لَا يَكُونُ لِلْعَانُونَ شُفْعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٣).

عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّعَانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلَا شُفْعَاءَ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٤).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. قَالَ: «إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لَعَنًا. وَإِنَّمَا بَعَثْتُ رَحْمَةً» (٥).

وذكر المنذرى فى «الترغيب والترهيب» عدة أحاديث ومنها

عن ثابت بن الضحاك - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : من حلق على يمين بجملة غير الإسلام كاذباً متعمداً فهو كما قال . ومن قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة، وليس على رجلٍ نذرٌ فيما لا يملك، ولعن المؤمن كقتله. رواه البخارى ومسلم (٦).

وعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا رَأَيْنَا الرَّجُلَ يَلْعَنُ أَخَاهُ رَأَيْنَا أَنْ قَدْ أَتَى أَبَا بَا بِنَ الْكَبَائِرِ (٧) رواه الطبرانى.

(١) [صحيح] مسلم (٨٣) - البر والصلة).

(٢) [صحيح] مسلم (٨٤) - البر والصلة).

(٣) [صحيح] مسلم (٨٥) - البر والصلة).

(٤) [صحيح] مسلم (٨٦) - البر والصلة).

(٥) [صحيح] مسلم (٨٧) - البر والصلة).

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٠٤٧)، ومسلم فى الإيمان (١١٨/٢) - النووي).

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٥٤) - بتخریجنا

(٧) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٦٦٧٤) عن سلمة به قال المنذرى إسناده جيد

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعَدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مَسَاعًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لَعَنَ، فَإِنْ كَانَ أَهْلًا، وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا» (١) رواه أبو داود (٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّعْنَةَ إِذَا وَجَّهَتْ إِلَى مَنْ وَجَّهَتْ إِلَيْهِ، فَإِنْ أَصَابَتْ عَلَيْهِ سَبِيلًا أَوْ وَجَدَتْ فِيهِ مَسْلَكًا، وَإِلَّا قَالَتْ: يَا رَبِّ وَجَّهْتُ إِلَى فُلَانٍ، فَلَمْ أَجِدْ فِيهِ مَسْلَكًا، وَلَمْ أَجِدْ عَلَيْهِ سَبِيلًا، فَيُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ» (٣). رواه أحمد وفيه قصة.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَارَ رَجُلٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَعَنَ بَعِيرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسِرْ مَعَنَا عَلَى بَعِيرٍ مَلْعُونٍ» (٤) رواه أبو يعلى وابن أبي الدنيا.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ يَسِيرُ، فَلَعَنَ رَجُلٌ نَاقَةً، فَقَالَ: أَيْنَ صَاحِبُ النَّاقَةِ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: أَنَا، فَقَالَ: أَخْرَاهَا فَقَدْ أَجِيبَ فِيهَا (٥). رواه أحمد.

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَسُبُّوا الدِّيكَ فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلَاةِ (٦). رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه إلا أنه قال:

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٥) عن أبي الدرداء به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٥٩ بتخريجنا)

(٢) الدعاء عليه بالطرد من رحمة الله وعدم التوفيق فالأول قتل معنوي.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٠٨/١، ٤٢٥) عن ابن مسعود به.

قال المنذرى: إسناده جيد إن شاء الله.

(٤) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٣٦١٠)

قال الهيثمي في «المجمع» (٧٧/٨): رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط بنحوه ورجاله أبي يعلى رجال الصحيح.

وقال المنذرى: إسناده جيد.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٢٨/٢) قال المنذرى: إسناده جيد.

(٦) أخرجه أبو داود (٥١٠١)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٧٨١) وابن حبان في «صحيحه» (٤٩٣/٧)

عن زيد بن خالد به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧٣٣ - بتخريجنا)

فَإِنَّهُ يَدْعُو لِلصَّلَاةِ^(١)، ورواه النسائي مسنداً ومرسلاً.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ دِيكًا صَرَخَ قَرِيبًا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَبَّهُ رَجُلٌ، فَتَنَهَى عَنْ سَبِّ الدِّيكِ. رواه البزار بإسناد لا بأس به والطبراني إلا أنه قال فيه:

قال: لَا تَلْعَنُهُ وَلَا تَسَبَّهُ، فَإِنَّهُ يَدْعُو إِلَى الصَّلَاةِ^(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ دِيكًا صَرَخَ قَرِيبًا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَجُلٌ: اللَّهُمَّ الْعَنَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَهْ كَلَّا إِنَّهُ يَدْعُو إِلَى الصَّلَاةِ. رواه البزار^(٣).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَدَغَتْ رَجُلًا بُرْغُوثٌ فَلَعَنَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا تَلْعَنُوهَا فَإِنَّهَا نَبَتْ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ^(٤) رواه أبو يعلى واللفظ له والبزار إلا أنه قال: لا تسبو فإنه يقظ نبيًا من الأنبياء لصلاة الصبح، ورواه الطبراني في الأوسط، ولفظه:

ذَكَرَتِ الْبَرَاغِيثُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّهَا تُرْقِظُ لِلصَّلَاةِ»^(٥).

وَرَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَزَلْنَا مَنَزِلًا، فَأَذَّنَا الْبَرَاغِيثُ فَسَبَّيْنَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَسْبُوها فَنَعَمَتِ الدَّابَّةُ، فَإِنَّهَا أَيْقَظَتْكُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ: ^(٦) رواه الطبراني في الأوسط.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا لَعَنَ الرِّيحَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «لَا تَلْعَنِ الرِّيحَ، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ، مَنْ لَعَنَ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ رَجَعَتِ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ»^(٧). رواه أبو

(١) تقدم فيما قبله

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» ص (٩٧٩٦/١٨/٩).

قال الهيثمي في «المجمع» (٧٧/٨): في أسناد البزار مسلم بن خالد الرغبي وثقه ابن حبان وغيره وفيه ضعف وبقي رجاله ثقات.

(٣) قال المنذر: رواه الصحيح إلا عباد بن منصور

(٤) أخرجه أبو يلى في «مسنده» (٢٩٥٠) وقال المنذر: رواه الصحيح إلا سويد بن إبراهيم.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٧٣٢) عن أنس به.

قال المنذر: رواه الطبراني ثقات إلا سعيد بن بشير.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٣١٨)

(٧) أخرجه أبو داود (٤٩٠٨)، والترمذي (١٩٧٨) عن ابن عباس به.

داود والترمذى وابن حبان فى صحيحه، وقال الترمذى: حديث غريب لا نعلم أحداً أسنده غير بشر بن عمر.

[قال الحافظ]: وبشر هذا ثقة احتج به البخارى ومسلم وغيرهما، ولا أعلم فيه جرحاً.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»^(١) رواه البخارى ومسلم.

قال النووى: قوله ﷺ فى الناقة التى لعنتها المرأة: (خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة) وفى رواية: (لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة) إنما قال هذا زجراً لها ولغيرها، وكان قد سبق نهىها ونهى غيرها عن اللعن، فعوقبت بإرسال الناقة، والمراد النهى عن مصاحبته لتلك الناقة فى الطريق، وأما بيعها وذبحها وركوبها فى غير مصاحبته ﷺ وغير ذلك من التصرفات التى كانت جائزة قبل هذا فهى باقية على الجواز؛ لأن الشرع إنما ورد بالنهى عن المصاحبة، فبقى الباقي كما كان، وقوله: (ناقة ورقاء) بالمد، أى: يخالط بياضها سواد، والذكر أورك، وقيل: هى التى لونها كلون الرماد.

قوله: (فقات حل) هى كلمة زجر للإبل استحثاث، يقال: حل حل بإسكان اللام فيهما، قال القاضى: ويقال أيضاً: حل حل يكسر اللام فيهما بالتنون، وبغير تنوين. قوله ﷺ: (خذوا ما عليها وأعروها) هو بهمزة قطع وبضم الراء، يقال: أعريته وعريته إعرأ وتعرية فتعرى، والمراد هنا: خذوا ما عليها من المتاع ورحلها وأكثها.

قوله ﷺ: «لا ينبغي لصديق أن يكون لعاناً، ولا يكون اللعانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة» فيه: الزجر عن اللعن، وأن من تخلق به لا يكون فيه هذه الصفات الجميلة؛ لأن اللعنة فى الدعاء يراد بها الإبعاد من رحمة الله تعالى، وليس الدعاء بهذا من أخلاق المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بالرحمة بينهم، والتعاون على البر والتقوى، وجعلهم كالبنين يشد بعضه بعضاً، وكالجسد الواحد، وأن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فمن دعا على أخيه المسلم باللعنة، وهى الإبعاد من رحمة الله تعالى، فهو من نهاية المقاطعة والتدابير، وهذا غاية ما يوده المسلم للكافر، ويدعو عليه، ولهذا جاء فى الحديث

(١) تقدم تخريجه

الصحيح: «لعن المؤمن كقتله»^(١) لأن القاتل يقطعه عن منافع الدنيا، وهذا يقطعه عن نعيم الآخرة ورحمة الله تعالى.

وقيل: معنى لعن المؤمن كقتله فى الإثم، وهذا أظهر، وأما قوله ﷺ: «إنهم لا يكونون شفعاء ولا شهداء» فمعناه: لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون فى إخوانهم الذين استوجبوا النار.

(ولا شهداء): فيه ثلاثة أقوال: أصحها وأشهرها: لا يكونون شهداء يوم القيامة على الأمم بتبليغ رسلهم إليهم الرسالات.

والثانى: لا يكونون شهداء فى الدنيا، أى: لا تقبل شهادتهم لفسقهم.

والثالث: لا يرزقون الشهادة، وهى القتل فى سبيل الله، فائدة وإنما قال ﷺ: «لا ينبغي لصديق أن يكون لعاناً، ولا يكون لللعانون شفعاء» بصيغة التكثير، ولم يقل: لاعناً، واللاعنون.

لأن هذا الذم فى الحديث إنما هو لمن كثر من اللعن، لا لمرة ونحوها، ولأنه يخرج منه أيضاً اللعن المباح، وهو الذى ورد الشرع به، وهو لعنة الله على الظالمين، لعن الله اليهود والنصارى، لعن الله الواصلة والواشمة والشارب للخمر وأكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه والمصورين، ومن اتهمى إلى غير أبيه، وتولى غير مواله، وغير منار الأرض، وغيرهم ممن هو مشهور فى الأحاديث الصحيحة.

قوله (من ذبح لغير الله)

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: «من ذبح لغير الله» عام يشمل من ذبح بغيراً، أو بقرة، أو دجاجة أو غيرها. وقوله (لغير الله) يشمل كل من سوى الله حتى لو ذبح لنبي، أو ملك، أو جنى، أو غيرهم. أهـ^(٣).

قال عبدالرحمن آل الشيخ: قال ابن تيمية: إن الله يلعن من يستحق اللعن ويصلى على من يستحق الصلاة كما قال: «هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور» وقال «إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً» وقال: «ملعونين أينما ثقفوا...» وكذلك الرسول يلعن من يستأهل اللعن ومن لا يستأهله كما تقدم على النحو الذى ذكرنا ثم أكمل كلام شيخ الإسلام قال «ولهذا روى عن النبي ﷺ أنه نهى عن ذبائح الجن وما أهل به لغير الله ظاهره أنه ما ذُبح لغير الله مثل أن يقول هذه ذبيحة لكذا وإن كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ يعنى قال باسم فلان أو لم يلفظ وقصد أن تكون لفلان فتحريم هذا أظهر من تحريم ذبحه للحم وقال فيه باسم

(٢) «القول المفيد» (١/ ٢٨٥).

(١) تقدم تخريجه

(٣) قدمنا كلام ابن عثيمين على عبدالرحمن آل الشيخ لمناسبه لشرح.

المسيح أو نحوه كما أن ما ذبحناه متقرين به إلى الله كان أذكى وأعظم عما ذبحناه للحم وقلنا عليه باسم الله فإذا حُرِّمَ ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة فلن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو نحوه. فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقرباً إليه يحرم، وقال بل هو شرك أكبر وليس حرام وإن قال باسم الله كما قال فيه طائفة من منافقى هذه الأمة وهو قال أنهم مرتدين لا تقبل ذبيحتهم قال: وإن قال باسم الله كما تفعله طائفة من منافقى هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب أو نحو ذلك.

قال حامد الفقى: وهم الذين يكتبون الحجب والتمايم والتعاويد فإنهم يتقربون بها يوم السبت أو نحو ذلك من الأيام ويذبحون عند نزول الكوكب الفلانى وهم فى البلاد الإسلامية كثيرون وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال لكن يجتمع فى الذبيحة مانعان:

الأول: أنه مما أهل به لغير الله.

والثانى: أنها ذبيحة مرتد فلا تجوز لأن النبى قال فى المجوس «سئوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحى نساءهم أو آكلى ذبائحهم»^(١).

ومن هذا ما يفعله بعض الجاهلين فى مكة وغيرهم باسم الزار وغير ذلك يدقون الطبول ولهذا روى عن النبى ﷺ أنه نهى عن ذبائح الجن، لكن هذا الحديث موضوع.

قال الزمخشري: إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استأجروا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفاً أن تصيبهم الجن فأضيفت إليهم الذبائح لذلك.

قال الفقير: وهذا لو أن الناس اشتروا دكاكين أو منازل جديدة قصدها ذلك - أى الذبح للجن - فلا يجوز لكن لو قصدهم الذبح لله شكراً له على هذه النعمة كما فهم من قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^(٢) فهو يصلى ويذبح شكراً على هذه النعمة فجائز أما إن ذبح لغير ذلك فلا يجوز.

قال النووى: الذبح لغير الله معناه: أن يذبح باسم غير الله تعالى كمن ذبح للصنم أو الصليب أو لموسى أو لعيسى أو الكعبة فكل هذا حرام ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلم أو نصرانى أو يهودى نص عليه الشافعى واتفق عليه أصحابنا فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبح له غير الله سبحانه كان ذلك كفراً، فإن كان الذابح مسلماً قبل ذلك صار بالذبح مرتداً وذكر إبراهيم المروزى من أصحابنا - هذا كلام النووى - أن ما يذبح عند استقبال السلطان تقريباً إليه أفتى أهل بخارى بتحريمه لأنه مما أهل به لغير الله.

(١) [ضعيف] أخرجه مالك فى «الموطأ» (١/٢٣٣/٤٢) مختصراً وأنظر «منار السبيل» (١٣٤٤) بتخرجنا

(٢) الكوثر/ ١.

قال الرافعي: هذا إنما يذبحونه استبشاراً بقدومه كذبح العقيقة لولادة المولود ومثل هذا لا يوجب التحريم، فبعضهم قال: يوجب التحريم وهو مما أهل به لغير الله وبعضهم قال: استبشار وفرح بقدوم السلطان كالاستبشار بقدوم المولود ولا يوجب التحريم، فإن صح القياس فلا يوجب التحريم أما إن تقربوا لله بذبذبهم للسلطان فقد يقعوا في المحرم. اهـ.

قوله (لعن الله من لعن والديه)

كلام شراح كتاب التوحيد

قال سليمان آل الشيخ^(١): قال بعضهم: يعنى أباه وأمه، وإن علياً. اهـ.

وكذا قال عبدالرحمن آل الشيخ

وقال ابن عثيمين^(٢): يشمل الأب والأم، ومن فوقهما، لأن الجد أب، كما أن أولاد الابن والبنت أبناء في وجوب الاحترام لأصولهما.

والمسألة هنا ليست مالية، بل هي من الحقوق، ولعن الأدنى أشد من لعن الأعلى، لأنه أولى بالبر، ولعنه ينافي البر.

وقوله (من لعن والديه) أى سبهما وشتمهما، فاللعن من الإنسان السب والشتم، فإذا سببت إنساناً أو شتمته، فهذا لعنه، لأن النبي ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال «نعم يسبُّ أباً الرجل فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمه فيسبُّ أمه»^(٣).

وأخذ الفقهاء من هذا الحديث قاعدة: هي أن السبب بمنزلة المباشرة في الإنم، وإن كان يخالفه في الضمان على تفصيل في ذلك عند أهل العلم. اهـ.

قوله: «لعن الله من آوى محدثاً».

كلام شراح كتاب التوحيد

قال سليمان آل الشيخ^(٤): آوى : بفتح الهمزة ممدودة أى ضم إليه وحمي.

وقال أبو السعادات: يقال : أويت إلى المنزل، وأويت غيري، وأويته وأنكر بعضهم المقصور المتعدي. قال الأزهرى : هي لغة فصيحة.

(١) «تيسير العزيز الحميد» (١٣٨) وفتح المجيد (١٨٠/١).

(٢) «القول المفيد» (٢٨٥/١ - ٢٨٦).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٩٧٣)، ومسلم فى الإيمان (٨٣/٢) النووي عن عبد الله بن عمرو

به. وأنظر «رياض الصالحين» (٣٤٠ - بتخریجنا)

(٤) «تيسير العزيز الحميد» (١٣٨).

وأمامحدثاً : فقال أبو السعادات: يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول : فمعنى الكسر: من نصر جانياً، وآواه وأجاره من خصمه وحال بينه بين أن يقتص منه، والفتح : هو الأمر المبتدع نفسه، ويكون معنى الإيواء فيه الرضى والصبر عليه، فإنه إذا رضى بالبدعة وأقر عليها فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه.

ثم قال سليمان (قلت) : الظاهر أنه على الرواية الأولى يعم المعين، لأن المحدث أعم من أن يكون بجنائية أو بدعة في الدين، بل المحدث بالبدعة في الدين شر من المحدث بالجنائية، فيساوؤه أعظم إثماً، ولهذا عده ابن القيم في كتاب «الكبائر» وقال : هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف الحدث في نفسه، فكلما كان الحدث في نفسه أكبر، كانت الكبيرة أعظم. أهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ كذلك^(١).

وقال ابن عثيمين^(٢): أى ضمه إليه وحماه، والإحداث يشمل الإحداث في الدين كالبدع التى أحدثها الجهمية والمعتزلة وغيرهم، والإحداث فى الأمر، أى فى شئون الأمة: كالجرائم وشبهها، فمن آوى محدثاً فهو ملعون، وكذا من ناصره؛ لأنه الإيواء أن تؤيه لكف الأذى عنه، فمن ناصره فهو أشد وأعظم، والمحدث أشد منه؛ لأنه إذا كان إيواؤه سبباً للجنة فى نفس فعله جرم أعظم ذلك وزاد : ففيه التحذير من البدع والإحداث فى الدين، قال النبى ﷺ «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»^(٣) وظاهر الحديث ولو كان أمراً يسيراً أهـ.

قال الفقير: ثبت فى كتاب «السنة» لابن أبى عاصم^(٤) بأسانيد صحاح وحصان أن النبى ﷺ قال: وهو على حوضه فى شأن وصف حوضه - «فلا يذوان رجال عن حوضى كما يذاد البعير الضال أناديهم، ألا هلم ألا هلم ألا هلم فىقال: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول: فسحقاً فسحقاً»^(٥).

وهذا إبعاد لهم فى الآخرة كما طردوا ولعنوا فى الدنيا يبعدوا ويطردوا ويسحقوا فى الآخرة فالجزاء من جنس العمل فهم «ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً».

(١) فتح المجيد (١/ ١٨١ - ١٨٢).

(٢) القول المفيد (١/ ٢٨٦).

(٣) تقدم تخريجه عن العرباض بن ساية

(٤) السنة لابن أبى عاصم (٢/ ٣٥٤)

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الطهارة (٢/ ١٣٧ / ٣٩)

وهذا أيضاً ثابت فى صحيح مسلم أن النبى ﷺ قال: مامن نبى إلا وكان له أصحاب وحواريون، ثم يخلف بعد ذلك خلوف يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة خردل^(١).

وهذا الحديث فى المبتدعين الذين يقولون مالا يفعلون ويفعلون إن فعلوا مالا يؤمرون فتكلفوا مالم يكلفهم به الشرع، فهؤلاء واجب جهادهم باليد إن استطعنا وإلا فباللسان وإلا فبالقلب. هذا وإن اواهم أحد وحماهم ودافع عنهم فهو يستحق الحرق وهذه ليست مبالغة.

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾

إرصاداً: يعنى مرصد ومؤى. يؤى فيه أصحاب أبى عامر الراهب الذى قال لهم ابنو لى مسجداً حتى إذا أرسلت إليكم الرسل تأوؤهم فى هذا المسجد، فكان جزاؤهم وجزاء مسجدهم الحرق، وقال تعالى ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ فمازال هذه النار أو هذا الدخان حتى بعد وفاة رسول الله ﷺ كما ذكر فى بعد الآثار فى تفسير هذه الآية.

فهذا جزاء من آوى محدثاً فى الدنيا.

ومن آواه جزاءه فى الآخرة اللعن والطرود والسحق من الرسول ﷺ.

قوله: «ولعن الله من غير وفى رواية: «من سرق منار الأرض.....»

كلام شراح التوحيد وغيرهم

وهذا عام فى جميع الأرض ودليل العموم ما ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ قال: من ظلم شبراً من الأرض طوّقه من سبع أراضين^(٢).

يعنى هذا الشر ينزل السبع أراضين ويصبح طوقه من النار ويطوق به يوم القيامة.

وأيضاً عند مسلم «لعن الله من سرق منار الأرض».

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٥٣)، ومسلم فى المسافة (١١/ ٥٠ - النووي). عن عائشة به.

وأنظر «رياض الصالحين» (٢٠٨ - بتخريجنا)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٢٩٧/ ٨٠) عن عبد الله بن مسعود به.

وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل فى ذباب ودخل النار رجل فى ذباب» قالوا: وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال : «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرب له شيئاً. فقالوا لأحدهما: قرب قال: ما عندى شيء قالوا: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً فخلوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر قرب قال ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل؟ فضربوا عنقه، فدخل الجنة»^(١). رواه أحمد.

منار الأرض: يعنى العلاقات والحدود وقيل حدود الحرم.

خاصة وقيل هو عام فى جميع الأرض ودليل العموم هو ما سبق.

قال النووى : منار الأرض : بفتح الميم، علامات حدودها^(٢).

قال ابن عثيمين^(٣): فمن غيرها ظلماً فهو ملعون، وما أكثر الذين يغيرون منار الأرض لاسيما إذا زادت قيمتها، وما علموا أن الرسول ﷺ يقول: «من ظلم قيد شبر»^(٤) فذكر الحديث فالأمر عظيم، مع أن هذا الذى يقطع من الأرض، ويغير المنار، ويأخذ ما لا يستحق لا يدري: قد يستفيد منها فى دنياه، وقد يموت قبل ذلك، وقد يُسلط عليه آفة تأخذ ما أخذ.

فالحاصل: أن هذا دليل على أن تغيير منار الأرض من كبائر الذنوب، ولهذا قرنه النبى ﷺ بالشرك وبالعقوق وبالإحداث، مما يدل على أن أمره عظيم وأنه يجب على المرء أن يحذر منه، وأن يخاف الله سبحانه حتى لا يقع فيه. أهـ.



قوله: [وعن طارق بن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل فى ذباب. ... الحديث.

قال سليمان آل الشيخ: ذكره المصنف معزواً لأحمد، وأظنه تبع ابن القيم فى عزوه لأحمد ثم قال: وقد طالعت المسند فما رأيته فيه، فلعل الإمام رواه فى كتاب الزهد أو غيره. أهـ.

(١) أخرجه أحمد فى «الزهد» (٢٢)، وأبو نعيم فى الحلية (٢٠٣/١) من طريق أبى معاوية، عن الأعمش، عن سليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب، عن سلمان به.

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٣٨، ١٣٩) وفتح المجيد (١/١٨٢).

(٣) «القول المفيد» (٢٨٧/١).

(٤) تقدم قريباً

تنبيه:

قال الفقير: الحديث فيه علل منها ما لاتقدح ومنها مايقدح (١).

فالتى لاتقدح :

الأولى: اختلافهم فى طارق بن شهاب هل هو صحابى أم غير صحابى، فالراجع والأكثر على أنه صحابى لكنه لم يسمع من النبى ﷺ وعدم سماعه عله لاتقدح فى صحة الحديث: لأن مرسل الصحابى حجة لعدم أخذه فى الغالب إلا عن صحابى.

العلة الثانية: هى عنعنة الأعمش وهو مدلس، وإذا عنعن المدلس لايقبل حديثه.

العلة الثالثة: وهى أن الإمام أحمد رواه عن طارق بن شهاب عن سلمان الفارسى موقوفاً من قوله فى كتاب الزهد وكذا أبو نعيم وابن أبى شيبه.

وهذا هو المحفوظ أنه صح موقوفاً ولم يصح مرفوعاً فهو موقوف على سلمان.

وفى وقفه على سلمان علة لأنه يحتمل أن يكون قد أخذه من أهل الكتاب لأنه كان نصرانى وأسلم فلعله قبل إسلامه.

فالحديث من حيث الثبوت فيه نظر ومن حيث الدلالة فيه نظر.

أما النظر فى ثبوته فهو كما تقدم . ولا حجة فى موقوف لاسيما أنه يحتمل أنه أخذ عن أهل الكتاب وأحسن أحواله أن تتوقف فيه إلا إذا جاء فى شرعنا ما يقره.

أما من حيث الدلالة فإنه لايدل على ماذهب إليه المصنف أن هذا الرجل الذى قرب الذباب لهذا الصنم لم يقصد بذلك الصنم إنما فعل ذلك تقية خشية القتل حتى ينجو من شرهم . كما قال فى المسئلة التاسعة.

وهذه المسئلة لم يتابعه عليها الشيخ ابن عثيمين كما سيأتى.

قوله: «طارق بن شهاب».

قال سليمان آل الشيخ: أى البجلي الأحمسى، أبو عبد الله، رأى النبى ﷺ وهو رجل، ويقال: إنه لم يسمع منه شيئاً.

قال البغوى: ونزل الكوفة. قال أبو حاتم: ليست له صحبة، والحديث الذى رواه مرسل.

(١) انظر تيسير العزيز الحميد (١٣٩، ١٤٠) وفتح المجيد (١٨٣/١، ١٨٤) والقول المنيد (٢٨٨/١، ٢٨٩) كلهم ذكروا ما فيه من علل.

وقال أبو داود: رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً.

قال ابن حجر: إذا ثبت أنه لقي النبي ﷺ فهو صحابي على الرجح، وإنا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته مرسل صحابي، وهو مقبول على الرجح، وقد أخرج له النسائي عدة أحاديث، وذلك مصير منه إلى إثبات صحبته، وكانت وفاته على ما جرى به ابن حبان سنة ثلاث وثمانين. اهـ.

كلام شراح كتاب التوحيد

قوله: «دخل الجنة رجل في ذباب».

قال سليمان آل الشيخ^(١): أى من أجل ذباب. اهـ.

وكذا قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢).

قال ابن عثيمين^(٣): (فى) للسبية، وليست للظرافية، أى بسبب ذباب.

ونظيره قوله النبي ﷺ: «دخلت امرأة النار فى هرة حبستها» اهـ.

قال الفقير: فكأن السامعين تقالوا هذا الأمر لكن استدل لعظم هذا الأمر صاحب «تيسير العزيز الحميد» بقول أنس فى الصحيح «انكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد النبي من الموبقات» فكون التقليل من شأن هذا الذباب الذى لا قيمة له فربما تفعل فعلاً لاتلقى له بالاً تهوى به فى النار سبعين خريفاً.

وثبت عن النبي ذات المعنى وأصله فى الصحيح: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لايلقى لها بالاً من سخط الله يهوى بها فى النار سبعين خريفاً»^(٤) وفى رواية «أبعد من الثريا» وفى رواية: «لايدرى ما بلغت».

قوله: «قالوا: وكيف ذلك يارسول الله».

كلام شراح كتاب التوحيد

قال سليمان آل الشيخ^(٥): سألوا عن هذه الأمر العجيب؛ لأنهم قد علموا أن الجنة

لايدخلها أحد إلا بالأعمال الصالحة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وأن النار

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ١٤٠).

(٢) فتح المجيد (١/ ١٨٤).

(٣) القول المفيد (١/ ٢٨٩).

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٤٧٨) عن أبى هريرة به.

وأُنظر «رياض الصالحين» (١٥١٨) بتخريجنا

(٥) تيسير العزيز الحميد (١٣٩ - ١٤٠).

لا يدخلها أحد إلا بالأعمال السيئة، فأكنهم تقالوا ذلك وتعجبوا واحتقروا، فبين لهم النبي ﷺ ما صير هذا الأمر الحقير عندهم عظيماً يستحق هذا عليه الجنة، ويستحق الآخر عليه النار. ولعل هذين الرجلين من بنى إسرائيل، فلإن النبي ﷺ يحدثهم عن بنى إسرائيل كثيراً. اهـ.

وقال حامد بن محمد بن حسن^(١): (وكيف ذلك يارسول الله) استغرباً وتعجباً من دخولهم الجنة والنار، وليس لهما سبب إلا الذباب، فاستفهموه لكى يبين لهم ما استغربوه ويكشف عنهم ما أشكل عليهم. اهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): بنحو ما قاله سليمان آل الشيخ.
وقال عبد الله بن جار الله^(٣): استفهام تعجب كأنهم تقالوا ذلك، وتعجبوا منه. اهـ.

قوله: «مر رجلان على قوم لهم صنماً».
كلام شراح كتاب التوحيد
قال سليمان^(٤): الصنم ما كان منحوتاً على صورة. اهـ.
وقال عبد الرحمن^(٥): مثل ما قال سليمان: وزاد: ويطلق عليه الوثن. اهـ.
وقال عبد الله بن جار الله^(٦): ما كان منحوتاً على هيئة صورة وعبد من دون الله اهـ.
وقال ابن باز^(٧): ما نحت على صورة، وما ليس له صورة يقال له وثن ويطلق على الأصنام أوثاناً أيضاً. اهـ.

قوله «لا يجاوزه»
كلام شراح كتاب التوحيد
قال سليمان آل الشيخ^(٨): لا يمر به، ولا يتعداه أحد حتى يقرب له شيئاً وإن قل. اهـ.

-
- | | |
|---|--------------------------------------|
| (١) فتح الله الحميد المجيد (٢٢١ - ٢٢٢). | (٢) فتح المجيد (١٨٢/١ - ١٨٤). |
| (٣) الجامع الفريد (٥٠ - ٥١). | (٤) تيسير العزيز الحميد (١٣٩ - ١٤٠). |
| (٥) فتح المجيد (١٨٢/١ - ١٨٤). | |
| (٦) الجامع الفريد (٥٠ - ٥١). | |
| (٧) التعليق المقيد (٨١، ٨٢). | |
| (٨) تيسير العزيز الحميد (١٤٠ / ١). | |

وكذا قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١).

قوله: «حتى يقرب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرب».

قُرْبَ يَقْرُبُ قُرْبَان: أى ما يتقربون به إلى الله تعالى. وفى الحديث: «الصلاة قربان كل تقى»^(٢) أى أن الاتقياء من الناس يتقربون بها إلى الله أى يطلبون القُرب منه بها. وفى الحديث «من راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة»^(٣) أى كأنما أهدى ذلك الله تعالى، كما يهدى القربان إلى البيت الحرام. كذا فى «النهاية» لابن الأثير^(٤).

قوله: «قال ليس عندى شيء أقرب. قالوا له: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً، فخلوا سبيله، فدخل النار».

قال سليمان آل الشيخ^(٥): فى هذا بيان عظمة الشرك ولو فى شيء قليل، وأنه يوجب النار، ألا ترى إلى هذا لما قرب لهذا الصنم أرذل الحيوان وأخسه وهو الذباب كان جزاؤه النار؛ لإشراكه فى عبادة الله، إذ الذبح على سبيل القرية والتعظيم عبادة، وهذا مطابق لقول تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وفى الحذر من الذنوب وإن كانت صغيرة فى الحسبان. كما قال أنس: «إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعتها على عهد النبى ﷺ من الموبقات»^(٦) رواه البخارى قال المصنف ما معناه: وفيه أنه دخل النار بسبب لم يقصده، بل فعله تخلصاً من شرهم، وفيه أن الذى دخل النار مسلم، لأنه لو كان كافراً لم يقل دخل النار فى ذباب، وفيه أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان. اهـ.

قال حامد بن محمد^(٧): «قال: ليس عندى شيء أقرب» به «قالوا: قرب» له «ولو ذباباً» ضبطاً وحفظاً لأمرهم لئلا يختل فيترك فليستحقق الذباب، وقصد نجاته من عذابهم «فقرب» للصنم «ذباباً فخلوا سبيله فدخل النار» بسبب قربانه الذباب للصنم. اهـ.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٨٨١)، ومسلم فى الجمعة (١٣٥/٦ - النووي) عن أبى هريرة به.

وانظر «السلسلة» (٧٣٤ - بتخريجنا)

(٢) أخرجه الحاكم فى «المستدرک» (٤/٤٢٢)، والبيهقى فى «الشعب» (٥٧٦١) عن جابر بنحوه.

(٣) فتح المجيد (١/١٨٤).

(٤) النهاية (٤/٣٢).

(٥) تيسير العزيز الحميد (١٣٩ - ١٤٠).

(٦) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٩٢) عن أنس به.

(٧) فتح الله الحميد (٢٢١ - ٢٢٢).

وتابع عبد الرحمن آل الشيخ سليمان آل الشيخ^(١): ويقولهما قال أيضاً عبد الله ابن جابر الله^(٢).

وقال ابن باز: «ليس عندى شيء أقرب» فاعتذر بأنه ليس معه شيء يقرب، ولم ينكر ذلك فطمعوا فيه، فأمره أن يقرب ولو ذباباً فدخل النار، فهذا يدل على أن التقرب للأصنام وغيره ولو كان شيئاً حقيراً فهو من الشرك، لأن الذبح والتقرب لا يجوز إلا لله. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): «فدخل النار» مع أنه ذبح شيئاً حقيراً لا يؤكل، لكن لما نوى التقرب به إلى هذا الصنم، صار مشركاً، فدخل النار. اهـ.

قوله: «وقالوا للآخر: قرب. فقال: ما كنت لأقرب شيئاً دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): فى هذا بيان فضيلة التوحيد والإخلاص.

وقال المصنف: وفيه معرفة قدر الشرك فى قلوب المؤمنين، كيث صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر.

وفيه شاهد للحديث الصحيح «الجنة أقرب إلى أحدكم من شركاء نعله والنار مثل ذلك»^(٥).

قلت: وفيه التنبيه على سعة مغفرة الله وشدة عقوبته، وأن الأعمال بالخواتيم. اهـ.

قال حامد بن محمد^(٦): (فدخل الجنة) لامتناعه عن التقرب لغير الله تعالى إيماناً واحتساباً وإجلالاً وتعظيماً لله تعالى. اهـ.

قال عبد العزيز بن باز^(٧): «ما كنت أقرب شيئاً إلا لله»: فهذا أعرض وبين أنه لا يجوز وامتنع فدخل الجنة، وهذا يحتمل أمرين:-

(١) تيسير العزيز الحميد (١٣٩ - ١٤٠).

(٢) الجامع الفريد (٥٠ - ٥١).

(٣) القول المفيد (٢٨٨/١ - ٢٨٩).

(٤) تيسير العزيز الحميد (١٣٩ - ١٤٠).

(٥) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٤٨٨) عن ابن مسعود به

وأنظر «رياض الصالحين» (١٠٦) سبخرجنا

(٦) فتح الله الحميد المجيد (٢٢١ - ٢٢٢).

(٧) التعليق المفيد (٨١، ٨٢).

الأول: إما أن شريعتهم ليس فيها عذر بالإكراه ولهذا لم يأخذ بالرخصة ويتخلص من شرهم.

الثاني: يحتمل أنه ترك الرخصة وأخذ بالعزيمة لقوة إيمانه وبقينه فقتلوه. وفي شريعتنا أن من أكره على الشرك ففعل ما أكره عليه بقصد التخلص من شرهم، ولم يطمئن قلبه بذلك فلا حرج لقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فيأخذ بالرخصة حتى لو قال الكفر بلسانه. اهـ.

● فائدة :

قال الفقير: والحديث يفتح مسألة الإكراه، وهل هؤلاء كانوا مكرهين؟
الجواب: نعم كانوا في حالة إكراه لأن الثاني لم يقرب فقتل فشرط الإكراه توافرت هنا.

فالإكراه: هو إلزام الغير بما لايريده.

شروطه: الأول: أن يكون فاعله قادراً على إيقاع ما يهدر به والمأمور عاجزاً عن الدفع ولو بالفرار.

الثاني : أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.

الثالث: أن يكون ماهدده به فوراً، فلو قال إن لم تفعل كذا ضربتك غداً لا يعد مكرهاً، ويستثنى ما إذا ذكر زمناً قريباً جداً أو جرت العادة بأنه لا يخلف.

الرابع: أن لا يظهر المأمور ما يدل على إختياره كمن أكره على الزنا فأولج وأمكنه أن ينزع ويقول أنزلت فيتمادى حتى ينزل، وكمن قيل له طلق ثلاثاً فطلق واحدة وكذا عكسه.

ولافرق بين الإكراه على القول والفعل عند الجمهور.

ويستثنى من الفعل ما هو محرم على التأييد كقتل النفس بغير حق.

واختلف في المكره هل يكلف بترك فعل ما أكره عليه أم لا؟.

فقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي : انعقد الإجماع على أن المكره على القتل مأمور بإجتنب القتل والدفع عن نفسه وأنه يأثم إن قتل من أكره على قتله. وذلك يدل على أنه مكلف حالة الإكراه، وكذا وقع في كلام الغزالي وغيره، ويقتضى كلامهم تخصيص الخلاف بما إذا وافق داعية الإكراه داعية الشرع كالإكراه على قتل الكافر وإكراهه على

الإسلام، أما ما خالف فيه داعية الإكراه داعية الشرع كالإكراه على القتل فلا خلاف في جواز التكليف به، وإنما جرى الخلاف على تكليف الملجأ وهو لا يجد مندوحة عن الفعل كمن ألقى من شاطئ وعقله ثابت فسقط على شخص فقتله فإنه لا مندوحة له عن السقوط ولا اختيار له في عدمه وإنما هو آلة محضة، ولانزاع في أنه غير مكلف إلا ما أشار إليه الآمدى من التفريع على تكليف ما لا يطاق، وقوى جرى الخلاف في تكليف الغافل كالنائم والناسى وهو أبعد من الملجأ لأنه لا شعور له أصلاً وإنما قال الفقهاء بتكليفه على معنى ثبوت الفعل في دفعه أو من جهة ربط الأحكام بالأسباب.

وقال القفال: إنما شرع سجود السهو ووجبت الكفارة على المخطئ لكون الفعل في نفسه متهيئاً من حيث هو لا أن الغافل نهى عنه حالة الغفلة إذ لا يمكنه التحفظ عنه، واختلف فيما يهدر به فاتفقوا على القتل وإتلاف العضو والضرب الشديد والحبس الطويل، واختلفوا في يسير الضرب والحبس كيوم أو يومين^(١).

● ومن ذهب إلى أن الإكراه في القول دون الفعل استدلل بأدلة منها:

١ - قول ابن عباس والحسن في التقية باللسان فقط لكن لا يقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق^(٢).

٢ - سبب نزول الآية ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ الآية.

وأن عمار أكره على قول الكفر ولم يكسره على فعل الكفر.

لكن الذي مال إليه البخارى هو أن الإكراه في القول والفعل، في الكبائر وفي الكفر.

واستدل ابن عثيمين لذلك أيضاً بعموم الآية ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ ولم يقل الله عز وجل من كفر بالله بالقول، وإنما مطلق الكفر أي كان بالقول أو الفعل. ويسلم لهؤلاء التفريق في القتل.

ومن أدلة الذين قالوا أن الإكراه في القول والفعل سواء.

١ - ما ذكره البخارى في كتاب الإكراه أن المكره على الزنى لا يقام عليها الحد

(١) البخارى الفتح ١٢/٣٢٦ و٣٢٧.

(٢) تقدم تخريجه

واستدل بقصة إبراهيم في الصحيح مع الطاغية الذي راود سارة عن نفسها وحينما أرادها قامت تتوضأ وتصلى ودعت الله عز وجل أن يحال بينها وبين هذا الطاغية^(١) لكن حدثت الخلوة التي هي من مقدّمات الزنى، لكن لاملام عليها فيها لأنها مكرهة ولا ملام على غيرها إن وقعت في ذلك مكرهة أو فيما هو أشد من ذلك.

٢- أورد الحافظ في «الفتح» مسلم أن عبدالله ابن أبي كانت له جارتان يكرهما على الزنى فانزل الله عز وجل ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾^(٢).

● هل الإكراه يعم القول والفعل أم يخص القول فقط؟.

قال ابن بطال تبعاً لابن المنذر: أجمعوا على أن من أكره على الكفر حتى خشى على نفسه القتل فكفر وقلبه مطمئن بالإيمان أنه لا يحكم عليه بالكفر ولا تبين منه زوجته، إلا محمد بن الحسن فقال: إذا أظهر الكفر صار مرتدّاً وبانت منه امرأته ولو كان في الباطن مسلماً. قال: وهذا قول تغنى حكايته عن الرد عليه لمخالفته النصوص.

وقال قوم: محل الرخصة في القول دون الفعل كأن يسجد للصنم أو يقتل مسلماً أو يأكل الخنزير أو يزنى وهو قول الأوزاعي وسحنون.

وأخرج إسماعيل القاضي بسند صحيح عن الحسن أنه لا يجعل التقية في قتل النفس المحرمة.

وقالت طائفة: الإكراه في القول والفعل سواء^(٣).

وعن ابن عباس فيمن يكرهه اللصوص فيطلق ليس بشيء وبه قال ابن عمر وابن الزبير والشعبي والحسن^(٤).

● فالخلاص: أن الإكراه في القول والفعل سواء:

لكن قد يسلم للمفرّق التفريق بين الإكراه على فعل القتل وفعل غيره، لأن المكره مخير بين قتل نفسه وقتل غيره، فيؤثر قتل نفسه (على) قتل غيره، لأن المصلحة في

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٨٥٣٣)، ومسلم في الفضائل (٤٥١/٤٣١/٨) عن أبي هريرة.

(٢) النور: ٣٣. [صحيح] والحديث أخرجه مسلم في التفسير (٢٦/٣٨٧/٩) عن جابر.

(٣) الفتح (٣٢٩/١٢).

(٤) الفتح (٣٢٩/١٢).

رخصة الإكراه الحفاظ على النفس، فلا يؤثر حفظه على نفسه على حفاظة على نفس غيره ويسلم لمن قال ذلك في القتل فقط.

● حد الإكراه:

واختلف في الإكراه فأخرج عبد بن حميد بسند صحيح عن عمر قال «ليس الرجل بأمين على نفسه إذا سجن أو أوثق أو عذب ومن طريق شريح نحوه وزيادة ولفظه «أربع كلهن كره: «السجن والضرب والوعيد والقيد» وعن ابن مسعود قال «ما كلام يدرأ عني سوطين إلا كنت متكلماً به» وهو قول الجمهور، وعند الكوفيين فيه تفصيل، واختلفوا في طلاق المكره فذهب الجمهور إلى أنه لا يقع، ونقل فيه ابن بطال إجماع الصحابة، وعن الكوفيين يقع ونقل قوله عن الزهري وقتادة وأبي قلابه، وفيه قول ثالث تقدم عن الشعبي^(١). اهـ.

قلت: لكن الإكراه ليس فيه أن تنجو بنفسك وتوقع غيرك.

كما قال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه»^(٢) أى لا يسلمه لمكروه.

والرخصة في الإكراه إنما جاءت لحكمة وهي الحفاظ على النفس.

قد يقول قائل: لعل هذا الرجل الذى أكره على تقريب الذباب فعلة تقية ولم ينشرح صدره بذلك كما ذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

نقول: لو فعل ذلك تقية ما دخل النار لأنه ما دخل النار إلا لأجل ذلك، والمصنف قال في المسائل أن هذا الرجل كان مسلماً وإلا لو كان كافراً دخل النار من أجل كفره، وما قال دخل النار من أجل الذباب الذى قربه، فلو أن هذا الرجل فعلة مكروه وقلبه مطمئن فلماذا يدخل النار، فهو ما دخل النار إلا لأمر فعلة استوجب ذلك، وليس هناك إلا أن يكون فعل ذلك رضاً بما يفعل.

وقد يقول قائل: من الممكن أن نفرق بين القول والفعل والمكره على القول لا يكفر ولا يعاقب كإكراه عمار بن ياسر على النطق بالكفر والرسول ﷺ قال له: كيف تجد قلبك قال: مطمئناً بالإيمان قال: فإن عادوا فعد^(٣)، فالنبي ﷺ لم يكفره ولم يذكر عقوبة له، أما المكره على الفعل لا يكفر لكن قد يعاقب.

(١) الفتح ٣٢٩/١٢. (٢) تقدم تخريجه.

(٣) [صحيح] أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٠٩)، وابن جرير في «تفسيره» (١٢٢/١٤)، والحاكم في «المستدرک» (٣٥٧/٢) عن عمار به.

انظر كتابنا «فتح ذى الجلال في تخريج أحاديث الظلال» (٦٢٠).

ونرد فنقول: أن المكرة لا يعاقب البتة إلا على قول من يقول في الكره في القتل أن الذي أكره على قتل المسلم أكره على ذلك يعاقب ويقتص منه ولا يعفيه أنه أكره على قتل المسلم لقول ابن عباس والحسن أن التقية باللسان ولا يقتل نفساً محرمة وإن فعل ولو مكرها لا يعفيه من العقوبة الدنيوية وهي القصاص أو الدية.

● **هل الأولى للإنسان إذا أكرهه على الكفر أن يجبر ولو قتل أو يوافق ظاهراً أو يتأول.**

الجواب: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعوذ في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»^(١).

عن إسماعيل سمعت قيساً سمعت سعيد بن زيد يقول: لقد رأيتني وإن عمر موثقى على الإسلام، ولو أنقض أحد مما فعلتم بعثمان كان محقوفاً أن ينقض»^(٢).

عن خباب بن الأثر قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»^(٣).

قال ابن حجر: في شرح ترجمة البخاري (باب من إختار الغرب والقتل والهوان على الكفر) وجه أخذ الترجمة منه أنه سوى بين كراهية الكفر وكراهية دخول النار، والقتل والضرب والهوان أسهل عند المؤمن من دخول النار فيكون أسهل من الكفر إن اختار الأخذ بالشدّة، ذكره ابن بطال.

وقال أيضاً: فيه حجة لأصحاب مالك، وتعقبه ابن التين بأن العلماء متفقون على إختيار القتل على الكفر، وإنما يكون حجة على من يقول إن التلفظ بالكفر أولى من الصبر على القتل، ونقل عن الملهب أن قوماً منعوا من ذلك واحتجوا بقوله تعالى:

(١) تقدم تخريجه في بحث الولاء والبراء.

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري (٦٩٤٢).

(٣) [صحيح] أخرجه البخاري (٦٩٤٣) وتقدم..

«وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» الآية، ولا حجة فيه لأنه قال تلو الآية المذكورة «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا وَظَلَمًا» فقيده بذلك، وليس من أهلك نفسه في طاعة الله ظالماً ولا معتدياً.

وقد أجمعوا على جواز تقحم المهالك في الجهاد انتهى.

وهذا يقدر في نقل ابن التين الإتفاق المذكور وأن ثم من قال بأولوية التلفظ على بذل النفس للقتل، وإن كان قائل ذلك يعمم فليس بشيء، وإن قيده بما لو عرض ما يرجح المفضول كما لو عرض على من إذا تلفظ به نفع متعدد ظاهراً فينتجه^(١).

قال ابن بطال: أجمعوا على أن من أكره على الكفر وأختار القتل أنه أعظم أجراً عند الله ممن أختار الرخصة، وأما غير الكفر فإن أكره على أكل الخنزير وشرب الخمر مثلاً فالفعل أولى، وقال بعض المالكية بل يائمه إن منع من أكل غيرها فإنه يصير كالمضطر على أكل الميتة إذا خاف على نفسه الموت فلم يأكل^(٢). اهـ.

ولكننا لانقول بالإثم ولكن نقول بأنه الأولى.

وأيضاً لأن الدين مبنى على العزائم ما بُنى على الرخص.

قال ابن عثيمين في مسألة: هل الأولى للإنسان إذا أكره على الكفر أن يصبر ولو قتل، أو يوافق ظاهراً ويتأول؟

هذه المسألة فيها تفصيل:

أولاً: أن يوافق ظاهراً وباطناً، وهذا لا يجوز لأنه ردة.

ثانياً: أن يوافق ظاهراً لا باطناً، ولكن يقصد التخلص من الإكراه؛ فهذا جائز.

قال الفقير: وليس بسنة ولا مستحب.

ثالثاً: أن لا يوافق لظاهراً ولا باطناً ويقتل، وهذا جائز، وهو من الصبر.

قال الفقير: كان ينبغي أن يقول هذا أفضل وهذا أعظم أجراً للإجماع المنقول عن

ابن بطال ولعله عبر بذلك للتفصيل فيها.

ثم قال: لكن أيهما أولى أن يصبر ولو قتل، أو أن يوافق ظاهراً؟

فيه تفصيل:

إذا كان موافقة الإكراه لا يترتب عليه ضرر في الدين للعامة؛ فإن الأولى أن يوافق

(١، ٢) الفتح ١٢ / ٣٣٠، ٣٣١.

ظاهراً لا باطناً، لاسيّما إذا كان بقاؤه فيه مصلحة للناس، مثل: صاحب المال الباذل فيما ينفع أو العلم النافع وما أشبه ذلك، حتى وإن لم يكن فيه مصلحة؛ ففي بقائه على الإسلام زيادة عمل.

قال الفقير: النبى ﷺ حينما سئل عن رجلين شقيقين فقيل: إن أحدهما مات وهو الأفضل والثانى بقى من بعده فقال: أليس يصلى فقالوا: بلى: قال إنكم لا تدرّون ما بلغت به صلاته ولذلك نهى ﷺ عن تمنى الموت قال: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان مسيئاً لعله يستعتب وإن كان محسناً لعله يزداد»^(١) «البخارى».

قال ابن عثيمين: وهو قد رُخص له أن يكفر ظاهراً عند الإكراه؛ فالأولى أن يتأول، ويوافق ظاهراً لا باطناً.

قال الفقير: لكن هذا يتعارض مع إجماع ابن بطال المتقدم.

ثم قال: أما إذا كان فى موافقته وعدم صبره ضرر على الإسلام؛ فإنه يصبر، وقد يجب الصبر؛ لأنّه من باب الصبر على الجهاد فى سبيل الله، وليس من باب إبقاء النفس، ولهذا لما شكى الصحابة للنبي ﷺ ما يجدونه من مضايقة المشركين؛ قصر عليهم قصة الرجل فيمن كان قبلنا بأنّ الإنسان كان يمشط ما بين لحمه وجلده بأمشاط الحديد ويصبر^(٢)، فكانه يقول لهم: اصبروا على الأذى.

ولو حصل من الصحابة رضى الله عنهم فى ذلك الوقت موافقة للمشركين وهم قلة؛ لحصل بذلك ضرر عظيم على الإسلام.

والإمام أحمد رحمه الله فى المحنة المشهورة لو وافقهم ظاهراً؛ لحصل فى ذلك مضرة على الإسلام. اهـ.

قلت: تقدم شئ من مسائل الإكراه فى الباب الخامس فانظرها.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٦٧٣)، ومسلم فى الذكر والدعاء (٨٨١٧) النووي عن أبى هريرة

به . وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٦) بتخریجنا).

(١) تقدم قريباً.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾.

الثانية: تَفْسِيرُ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾.

الثالثة: الْبَدَاءَةُ بِلَعْنَةِ مَنْ ذَبَحَ لغيرِ الله.

الرابعة: لَعْنُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَمِنْهُ أَنْ تَلْعَنَ وَالِدَيِ الرَّجُلِ فَيَلْعَنَ وَالِدَيْكَ.

فيه مسائل:

● الأولى: تفسير: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾.

وقد سبق ذلك في أول الباب.

● الثانية: تفسير ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾.

وقد سبق ذلك في أول الباب.

● الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

بدأ به؛ لأنه من الشرك، والله إذا ذكر الحقوق يبدأ أولاً بالتوحيد؛ لأن حق الله أعظم الحقوق، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(٢)، وينبغي أن يبدأ في المناهي والعقوبات بالشرك وعقوبته.

قلت: وقد تقدم ذلك في أول الكتاب والتدليل عليه بمثل قوله ﷺ «أكبر الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين» ونحو ذلك في حديث ابن مسعود حينما سئل ﷺ عن أى الذنب أعظم^(٤).

● الرابعة: لعن من لعن والديه.

ولعن الرجل له معنيان:

الأول: الدعاء عليه باللعن.

الثاني: سبه وشتمه؛ لأن الرسول ﷺ فسره بقوله: «يسب أب الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»^(٥).

(٢) الإسراء: ٢٣.

(٤) تقدم تخريجه.

(١) النساء: ٣٦.

(٣) سبق تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

الخامسة: لَعْنُ مَنْ آوَى مُحَدَّثًا، وَهُوَ الرَّجُلُ يُحَدِّثُ شَيْئًا يَجِبُ فِيهِ حَقُّ اللَّهِ؛ فَيَلْتَجِئُ إِلَى مَنْ يُجِيرُهُ مِنْ ذَلِكَ.

السادسة: لَعْنُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْمَرَاسِيمُ الَّتِي تَفَرِّقُ بَيْنَ حَقِّكَ وَحَقِّ جَارِكَ مِنَ الْأَرْضِ، فَتُغَيِّرُهَا بِتَقْدِيمٍ أَوْ تَأْخِيرٍ.

السابعة: الْفَرْقُ بَيْنَ لَعْنِ الْمُعَيَّنِّ وَلَعْنِ أَهْلِ الْمَعَاصِي عَلَى سَبِيلِ الْعُمومِ.

الثامنة: هَذِهِ الْقِصَّةُ الْعَظِيمَةُ، وَهِيَ قِصَّةُ الذُّبَابِ.

● الخامسة: لعن من آوى محدثاً.

وقد سبق أنه يشمل الإحداث في الدين والجرائم، فمن آوى محدثاً ببدعة؛ فهو داخل في ذلك، ومن آوى محدثاً بجريمة؛ فهو داخل في ذلك.

● السادسة: لعن من غير منار الأرض

وسواء كانت بينك وبين جارك، أو بينك وبين السوق مثلاً؛ لأنَّ الحديث عام.

● السابعة: الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم.

فالأول ممنوع، قلت: إلا بنص كما تقدم والثاني جائز، فإذا رأيت من آوى محدثاً؛ فلا تقل: لعنك الله، بل قل: لعن الله من آوى محدثاً على سبيل العموم، والدليل على ذلك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لما صار يلعن أناساً من المشركين من أهل الجاهلية بقوله: «اللهم! العن فلاناً وفلاناً وفلاناً» نهى عن ذلك بقوله تعالى: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ»^(١)؛ فالمعين ليس لك أن تلعنه، وكم من إنسان صار على وصف يستحق به اللعنة ثم تاب فتاب الله عليه، إذن يؤخذ هذا من دليل منفصل، وكان المؤلف رحمه الله قال: الأصل عدم جواز إطلاق اللعن؛ فجاء هذا الحديث لاعتنا للعموم، فيبقى الخصوص على أصله؛ لأنَّ المسلم ليس بالطعَّان ولا باللَّعَّان، والرسول ﷺ ليس طعَّاناً ولا لعَّاناً، ولعل هذا وجه أخذ الحكم من الحديث، وإلا؛ فالحديث لاتفريق فيه.

● الثامنة: هذه القصة العظيمة وهي قصة الذباب.

كان المؤلف - رحمه الله - يصحح الحديث، ولهذا بنى عليه حكماً، والحكم المأخوذ من دليل فرع عن صحته، والقصة معروفة.

قلت: وقد يتعرض من بعض العلماء لشرح حديث ويأخذ منه بعض الأحكام ولا يصححه كالحافظ في مواضع في «الفتح» والشوكاني في «النيل» وهذا إما يحمل على أنه

التاسعة: كَوْنُهُ دَخَلَ النَّارَ بِسَبَبِ ذَلِكَ الذُّبَابِ الَّذِي لَمْ يَقْصِدْهُ، بَلْ فَعَلَهُ تَخْلُصاً مِنْ شَرِّهِمْ.

التزم شرح الكتاب صحيحه وضعيفه وما يؤخذ منه أو على افتراض صحته عند من يرى ذلك.

● التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصاً من شرهم.

هذه المسألة ليست مسلمة، فإن قوله: قَرَّبَ ولو ذباباً يقتضى أنه فعله قاصداً التقرب، أما لو فعله تخلصاً من شرهم؛ فإنه لا يكفر لعدم قصد التقرب، ولهذا قال الفقهاء: لو أكره على طلاق امرأته فطلّق تبعاً لقول المكره؛ لم يقع الطلاق، بخلاف ما لو نوى الطلاق؛ فإنّ الطلاق يقع، وإن طلّق دفعاً للإكراه؛ لم يقع، وهذا حق لقوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»^(١).

وظاهر القصة أنّ الرجل ذبح بنية التقرب؛ لأنّ الأصل أن الفعل المبني على طلب يكون موافقاً لهذا الطلب.

ونحن نرى خلاف ما يرى المؤلف رحمه الله، أى أنّه لو فعله بقصد التخلّص ولم ينو التقرب لهذا الصنم لا يكفر؛ لعدم قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾^(٢).

وهذا الذى فعل ما يوجب الكفر تخلصاً مطمئن قلبه بالإيمان.

والصواب أيضاً: أنّه لا فرق بين القول المكره عليه والفعل، وإن كان بعض العلماء يفرق ويقول: إذا أكره على القول لم يكفر، وإذا أكره على الفعل كفر، ويستدل بقصة الذباب، وقصة الذباب فيها نظر من حيث صحتها، وفيها نظر من حيث الدلالة؛ لما سبق أنّ الفعل المبني على طلب يكون موافقاً لهذا الطلب.

ولو فرض أن الرجل تقرب بالذباب تخلصاً من شرهم؛ فإنّ لدينا نصاً محكماً فى الموضوع، وهو قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ الآية، ولم يقل: بالقول، فما دام عندنا نصّ قرآن صريح؛ فإنه لو وردت السنة صحيحة على وجه مشتبه، فإنّها تحمل على النصّ المحكم.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٠)، ومسلم فى الإمامة (١٣/٥٣- النوى) عن عمر به .

وانظر «رياض الصالحين» (١- بتخریجنا).

(٢) النحل: ١٠٦.

العاشرة : معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين؛ كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر؟!.

الحادية عشرة : أن الذي دخل النار مسلم؛ لأنه لو كان كافراً؛ لم يقل: «دخل النار في ذباب».

الثانية عشرة : فيه شاهد للحديث الصحيح: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شرك نعله، والنار مثل ذلك»^(١).

الخلاصة أن من أكره على الكفر؛ لم يكن كافراً ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان ولم يشرح بالكفر صدراً.

فائدة:

قال الفقير: كما قلنا لم يسلم بها ابن عثيمين للمصنف وكما قلنا أن الاستدراك ليس بدعة بل قد يظهر للصغار ما لا يظهر للمشايخ كما ظهر لابن عمر مالم يظهر لعمر وأبي بكر عندما سئل النبي عن الشجرة التي مثل المؤمن فقال: فوق في نفس أنها النخلة والحديث في الصحيح^(٢).

● العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين... إلخ.

قال الفقير: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين أنه يكره أن يعود للشرك كما يكره أن يقذف في النار ونار الدنيا أحب إليه من الردة.

قال ابن عثيمين: وقد بينها رحمه الله تعالى.

● الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم؛ لأنه لو كان كافراً لم يقل: دخل النار في ذباب.

وهذا صحيح، أي أنه كان مسلماً ثم كفر بتقريبه للصنم؛ فكان تقريبه هو السبب في دخوله النار.

ولو كان كافراً قبل أن يقرب الذباب؛ لكان دخوله النار لكفره أولى، لا بتقريب الذباب.

● الثانية عشرة فيه شاهد للحديث الصحيح: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شرك نعله، والنار مثل ذلك».

والغرض من هذا: الترغيب والترهيب، فإذا علم أن الجنة أقرب إليه من شرك النعل؛ فإنه ينشط على السعي، فيقول: ليست بعيدة؛ كقوله ﷺ لما سئل عما يدخل الجنة ويباعد من النار، فقال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) تقدم تخريجه

الثالثة عشرة : مَعْرِفَةُ أَنَّ عَمَلَ الْقَلْبِ هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ، حَتَّى عِنْدَ عَبْدَةِ الْأَصْنَامِ.

عليه^(١)، والنار إذا قيل له: إنها أقرب من شراك النعل يخاف، ويتوقى في مشيه لثلا يزلّ فيهلك، ورب كلمة توصل الإنسان إلى أعلى عليّين، وكلمة أخرى توصله إلى أسفل سافلين.

● الثالثة عشرة: معرفة أَنَّ عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان. والحقيقة أن هذه المسألة مع التاسعة فيها شبه تناقض؛ لأنَّه في هذه المسألة أحوال الحكم على عمل القلب، وفي التاسعة أحواله على الظاهر؛ فقال: بسبب ذلك الذباب الذى لم يقصده بل فعله تخلصاً من شرهم، ومقتضى ذلك أن باطنه سليم، وهنا يقول: إن العمل بعمل القلب، ولاشك أن ما قاله المؤلف - رحمه الله - حق بالنسبة إلى أنَّ المدار على القلب.

والحقيقة أنَّ العمل مركب على القلب، والناس يختلفون فى أعمال القلوب أكثر من إختلافهم فى أعمال الأبدان، والفرقان بينهم قصداً وذللاً أعظم من الفرقان بين أعمالهم البدنية؛ لأنَّ من الناس من يعبد الله لكن عنده من الإستكبار ما لا يذلُّ معه ولا يدعن لكل حق، وبعضهم يكون عنده ذلٌّ للحق، لكن عنده نقص فى القصد؛ فتجد عنده نوعاً من الرياء مثلاً.

فأعمال القلب وأقواله لها أهمية عظيمة، فعلى الإنسان أن يخلصها لله. وأقوال القلب هى اعتقاداته؛ كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. وأعماله هى تحركاته؛ كالحب والخوف، والرجاء، والتوكّل، والاستعانة، وما أشبه ذلك.

والدواء لذلك: القرآن والسنة، والرجوع إلى سيرة الرسول ﷺ بمعرفة أحواله وأقواله وجهاده ودعوته، هذا مما يعين على جهاد القلب.

ومن أسباب صلاح القلب أن لا تشغل قلبك بالدين.

قال الفقير: وخلاصته: قد لا يكون هناك تناقض فالتاسعة هم طلبوا منه الذبح مع التقرب (الكفر العملى مع الإعتقادى) لهذا الصنم فهذا فيه فائدة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم لعبدة الأوثان، فكان الشيخ لا يرى أنه قرب وفعل الظاهر فقط ولم يوافق فى الباطن بل فعل الأمرين أو يرى أنهم طلبوا منه الأمرين عمل القلب وعمل الجوارح لكنه لم يستجب إلا فى عمل الجوارح كما صرح بذلك فى المسألة التاسعة فامتنع التناقض وانحل الإشكال لكن تقدم الرد على ذلك فى المسألة التاسعة.

(١) أخرجه: أحمد (٢٣١/٥). الترمذى (٢٦/٦)، والنسائى فى «الكبرى» (١١٣٩٤) وابن ماجه (٣٩٧٣). عن معاذ به - وانظر «رياض الصالحين» (١٥٢٥ - بتخریجنا).

لَا يُذَبِّحُ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذَبِّحُ فِيهِ لغيرِ اللَّهِ

مناسبة هذا الباب لما قبله

قال السعدى (١): وما أحسن إتباع هذا الباب بالباب الذى قبله؛ فالذى قبله من المقاصد، وهذا من الوسائل، ذاك من باب الشرك الأكبر، وهذا من وسائل الشرك القربية، فإن المكان الذى يذبح فيه المشركون لألهتهم تقريباً إليها وشركاً بالله قد صار مشعراً من مشاعر الشرك، فإذا ذبح المسلم ذبيحة ولو قصد بها الله؛ فقد تشبه بالمشركين وشاركهم فى مشاعرهم، والموافقة الظاهرة تدعو إلى الموافقة الباطنة والميل إليهم، ومن هذا السبب نهى الشارع عن مشابهة الكفار فى شعارهم، وأعيادهم، وهياتهم، ولباسهم، وجميع ما يختص بهم؛ إبعاداً للمسلمين عن الموافقة لهم فى الظاهر التى هى وسيلة قريبة للميل والركون إليهم، حتى إنه نهى عن الصلاة النافلة فى أوقات النهى التى يسجد المشركون فيها لغير الله خوفاً من التشبه المحذور. اهـ.

قال ابن عثيمين (٢):

هذا الانتقال من المؤلف من أحسن ما يكون؛ ففى الباب السابق ذكر الذبح لغير الله؛ فنفس الفعل لغير الله.

وفى هذا الباب ذكر الذبح لله، ولكنه فى مكان يذبح فيه لغيره، كمن يريد أن يضحى لله فى مكان يذبح فيه للأصنام؛ فلا يجوز أن يذبح فيه؛ لأنه موافقة للمشركين فى ظاهر الحال، وربما أدخل الشيطان فى قلبك نية سيئة؛ فتعتقد أن الذبح فى هذا المكان أفضل، وما أشبه ذلك، وهذا خطر. اهـ.

قال الفقير: وهناك مناسبة أخرى لاتخطر فى الغالب إلا على بال الداعية الذى عانى وكابد فى الدعوة حتى قوبل بعناد وبجدال فأراد أن يرد فما وجد رد أبلغ من هذا التوبيخ، فحينما تدعو من يذبح لغير الله، فيقول لك أنا لا أذبح إلا لله، ولا أقصد بها هؤلاء الأولياء إنما أقصد أن أذبح لله، فنقول: سلمنا لك أنك لا تذبح إلا لله لأننا لاسبيل لنا إلى نيتك وليس لنا إلا ماتقول وتتفوه به، لكن ما تفعله من الذبح لله فى هذا المكان حرام. لايجوز. فكانه لما برز الباب الأول فى الذبح لغير الله وبيّن أنه كفر

(١) القول السديد ص ٤٤.

(٢) القول المفيد ١/ ٢٩٩.

فوجد من الناس من يقول: نعم سلمنا لكم أنه كفر، ولكننا لانذبح إلا لله لكن عند هؤلاء الأصنام والأولياء وفي هذه الموالد والأعياد: أفتنعوننا أن نذبح لله ونتقرب لله؟! نقول نعم نمنعكم (لا يذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله) كأعيادهم ومواليدهم للحديث ولأن هذا تشبه في الصورة بهم.

ولعله يرد فيقول: لا، بل هو واجب على أن أذبح هنا، نقول له: من أوجبه عليك؟ فيقول أوجبه على النبي ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه»^(١) وهذا نذر لله وهو ليس بحرام وواجب أن أوفى به، وإنى نذرت أن أذبح لله في هذا المكان فهذا واجب.

فنجى له بالحجة الأدمغ وهي قصة ثابت من الضحاك قال نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانه فسأل النبي ﷺ فقال: هل كان فيها وثن، قالوا لا، قال فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا لا، قال. فأوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية ولا فيما لا يملك ابن آدم^(٢).

يعنى لو كان فيها عيد أو وثن يعبد قبل ذلك، فيكون نذر في معصية الله لا تنفى به. فلا يجوز الوفاء بهذا النذر وعليه كفارة ككفارة اليمين كما سيأتى.

شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): أى أن ذلك لا يجوز لما سيذكره المصنف.

قال حامد بن محمد بن حسن^(٤): باب فى بيان مايدل على أنه لا يباح لمسلم أنه يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله بل ينهى عن ذلك لأنه تحنيث بالاشراك بالله فيه وأنه موضع تهمة من رآك فيه ذابحاً اتهمك بأنكر المنكرات أى الشرك بالله وقد ورد عنه - ﷺ أنه قال: «اتقوا موضع التهم»^(٥). وأيضاً يقتدى بك الجهال فيفشوا الشرك. اهـ.

قال ابن باز^(٦): أراد به لا يجوز للمؤمنين التشبه بأهل المعاصى ولا مشاركتهم فى أماكن المعصية وفى أماكن تعبدهم ولولغير الذبح حتى لا ينسب إليهم ويشاركتهم. فإذا

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٦٩٦) وأنظر تمام تخريجه فى «منار السبيل» (ح ١٠٥١) بتخريجنا.

(٢) سيأتى تخريجه فى حديث الباب.

(٣) تيسير العزيز الحميد ١٤١.

(٤) فتح الله الحميد المجيد ٢٢٥.

(٥) أذكره العجلونى فى «كشف الخفا» (٨٨) ونقل عن العراقى فى تخريج الإحياء: لم أجد له أصلاً

ثم عزاه للخرائطى فى «مكارم الاخلاق» مرفوعاً بنحوه.

(٦) التعليق المفيد ٨٣.

وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ (١).

ذبح في مكان يذبح فيه لغير الله فإنه قد ينسب إلى أهل السوء أو يظن به السوء والمؤمن يتعد عن ذلك كله. اهـ.

وقول الله تعالى ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾

مناسبة الآية للترجمة

قال سليمان آل الشيخ (٢): ووجه الدلالة من الآية على الترجمة من جهة القياس، لأنه إذا منع الله رسوله ﷺ عن القيام لله تعالى في هذا المسجد المؤسس على هذه المقاصد الخبيثة مع أنه لا يقوم فيه إلا لله، فكذلك المواضع المعدة للذبح لغير الله لا يذبح فيها الموحد لله، لأنها قد أسست على معصية الله والشرك به، يؤيده حديث ثابت بن الضحاك الآتي.

وأوضح ذلك ابن عثيمين فقال (٣).

وجه المناسبة من الآية.

أنه لما كان مسجد الضرار مما اتخذ للمعاصي ضراراً وكفرأ وتفريقاً بين المؤمنين، نهى الله رسوله أن يقوم فيه، مع أن صلاته فيه لله؛ فدل على أن كل مكان يُعصى الله فيه أنه لا يقام فيه، فهذا المسجد متخذ للصلاة، لكنه محل معصية؛ فلا تقام فيه الصلاة. وكذلك لو أراد إنسان أن يذبح في مكان يُذبح فيه لغير الله كان حراماً؛ لأنه يشبه الصلاة في مسجد الضرار.

وقريب من ذلك النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، لأنهما وقتان يسجد فيهما الكفار للشمس؛ فهذا باعتبار الزمن والوقت، والحديث الذي ذكره المؤلف باعتبار المكان. اهـ.

قال الفقير: وتمة لهذه الفائدة أقول:

أنه لعل قائل يقول أن عمر وابن عباس أراد أحدهما أن يصلي في البيعة أو الكنيسة لولا ما فيها من التماثيل فلماذا تمتعون من الذبح في أماكن يذبح فيها لغير الله ولا تمتعون من الصلاة في الأماكن التي يصل فيها لغير الله؟!.

الجواب: لما كانت هذه الأرض مكان شرك حرم أن يفعل الإنسان ما يشبه الشرك فيها

(١) التوبة ١٠٨

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٤٢

(٣) القول المفيد ١/٣٠٢، ٣٠٣.

لم شابهة المشركين في الصورة فإن ذبح المشرك والموحد في الصورة سواء أما بالنسبة للصلاة في الكنيسة فإن الصلاة تخالف صلاة أهل الكنيسة فلا يكون الإنسان متشبهاً بهذا العمل بخلاف الذبح في المكان الذي يذبح فيه لغير الله فإن الفعل واحد بنوعه ولهذا لو أراد إنسان أن يصلي في مكان يذبح فيه لغير الله لجاز ذلك لأنه ليس من نوع العبادة التي يفعلها المشركون في هذا المكان.

لكن هذه التماثل إن وجدت فهناك نهى أو كراهة وسبب ودليل النهى والكراهة بوب عليه البخارى باب من صلى وقدامه تنور أو نار أو شيء مما يعبد فأراد به الله (١).

صحّ عن ابن سيرين فيما رواه ابن أبي شيبه في مصنفه عنه «أنه كره الصلاة إلى التنور أو إلى بيت النار لأن فيها تشبه بمن يصلي للنار» (٢).

وإن كان المصلي للنار يصلي صلاة غير صلاتنا، لكن اتفاقاً في هيئة الصلاة، فلذلك كرهها

ثم استدلل البخارى على هذا الباب.

عن أنس قال: قال النبي ﷺ «عُرِضَتْ عَلَى النَّارِ وَأَنَا أَصِلِي» (٣).

وعن ابن عباس قال: انخسفت الشمس . فصلّى رسول الله ﷺ ثم قال «أُرِيتُ النَّارَ فلم أرَ منظرًا كالיום قطُّ أفظع» (٤).

قال ابن حجر: لم يفصح المصنف في الترجمة بكراهة ولا غيرها، فيحتمل أن يكون مراده التفرقة بين من بقى ذلك بينه وبين قبلته وهو قادر على إزالته أو انحرافه عنه، وبين من لا يقدر على ذلك فلا يكرهه في حق الثاني، وهو المطابق لحديثي الباب، ويكرهه في حق الأول كما سيأتى التصريح بذلك عن ابن عباس في التماثل وكما روى ابن أبي شيبه عن ابن سيرين أنه كره الصلاة إلى التنور أو إلى بيت نار (٥).

قال عمر رضى الله عنه إنا لاندخل كنائسكم من أجل التماثل التي فيها الصور (٦) وكان ابن عباس يصلي في البيعة إلا بيعة فيها تماثيل (٧).

(١) (١/٦٢٩ - الفتح)

(٢) أخرجه ابن أبي شيبه في «مصنفه» (٢/٢٧٣) وأورده الحافظ في الفتح (١/٦٢٩) وسكت عنه.

(٣) علقه البخارى (١/٦٢٩) ووصله (٥٤٠).

(٤) أخرجه البخارى (٤٣١).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه البخارى تعليقاً (١/٣٦٢) وسيأتى من وصله ن قول الحافظ.

(٧) البخارى (١/٦٣٢) وسيأتى من وصله.

قال ابن حجر: والأثر وصله عبدالرزاق من طريق أسلم مولى عمر قال: لما قدم عمر الشام صنع له رجل من النصارى طعاماً وكان من عظمائهم وقال: أحب أن تجمثنى وتكرمنى.

قوله (وكان ابن عباس) وصله البغوى فى «الجلديات» وزاد فيه «فإن كان فيها تمائيل خرج فصلى فى المطر» فى باب من صلى وقدامه تنور أن لامعارضته بين هذين البابين، وأن الكراهة فى حال الاختيار^(١).

فكانه ما لجأ لهذه البيعة إلا للمطر فى الخارج فوجد فيها تمائيل امتنع لأن الأمر مختار هو فيه ويستطيع التحول، وليس مضطر.

فالحديث الأول محمول على حالة عدم الاختيار فيجوز بغير كراهة، والأثر الأخرى عن ابن عباس وعمر بن سبينة محمولة على حاله: اختياره للصلاة وقدامه شيء عبد من دون الله فهذا يكره.

فمن صلى على جريدة من جرائد الأخبار أو أمامة صورة أو شيء عبد من دون الله فهذا مكروه لا أعلم فى ذلك خلافاً بين أهل العلم.

الخلاصة: إذا مدار الأحاديث على النهى عن فعل العبادة فى المكان التى يفعل فيها عبادة من جنسها فلو هذا المكان كان يذبح فيه لغير الله يحرم أن يذبح فيه لله وإن كان يصلى فيه لغير الله يحرم أن يصلى فيه لله.

قال ابن عثيمين: لو ذهب أحد للصلاة فى مكان يذبح فيه لغير الله فهو جائز. اهـ.

قال الفقير: والذى يظهر لى. والله أعلم أنه لا يجوز.

لما ذكر البخارى فى كتاب الصلاة، باب الصلاة فى مواضع الخسف والعذاب...

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم»^(٢).

قال ابن حجر^(٣): وقع عند البخارى فى المغازى فى آخر الحديث «ثم قنع ﷺ رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادى» فدلّ على أنه لم ينزل ولم يصل هناك كما صنع على خسف بابل^(٣). اهـ.

(١) الفتح ٦٣٣/١.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٣٣) وانظر «رياض الصالحين» (٩٥٧ - بتخریجنا) ..

(٣) الفتح ٦٣٢/١.

فدلّ على أنه لا يجوز التقرب لله في أماكن يعصى فيها الله أو يشرك فيها بالله، أى نوع من أنواع الشرك وأن فعله هذا يدل - على أقل ما يكون - على كراهة الصلاة في هذه الأماكن، فيحمل قول الشيخ على الجواز مع الكراهة، أما الجواز بإطلاق ففيه نظر، يُعكّر عليه الحديث المتقدم.

والحاصل: أن الأرض التى فيها الشرك يحرم تأدية عبادة فيها لله من جنس العبادة التى تقدم فيها لله، وإن كانت العبادة ليست من الجنس وليست من النوع فهذا مكروه.

قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾

الإعراب^(١): (لا) ناهية (وتقم) فعل مضارع مجزوم بلا الناهية (وفيه) جار ومجرور متعلقان بتقم (وأبدًا) ظرف متعلق بتقم أيضاً أى لا تصل فيه أبدًا.

● أقوال المفسرين

قال الطبرى^(٢): يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ لا تقم يا محمد فى المسجد الذى بناه هؤلاء المنافقون ضاراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرساداً لمن حارب الله ورسوله ثم أقسم جل ثناؤه فقال لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم أنت فيه يعنى بقوله أسس على التقوى ابتدئ أساسه وأصله على تقوى الله وطاعته من أول يوم ابتدئ فى بنائه أحق أن تقوم فيه يقول أولى أن تقوم فيه مصلياً وقيل معنى قوله من أول يوم مبدأ أول يوم كما نقول العرب لم أره من يوم كذا بمعنى مبدؤه من أول يوم يراد به من أول الأيام كقول القائل لقيت كل رجل بمعنى كل الرجال ١ هـ.

قال ابن الجوزى^(٣): لا تقم فيه أبداً: أى لاتصل فيه أبداً أ. هـ.

قال الرازى^(٤): قال المفسرون: إن المنافقين لما بنوا ذلك المسجد لتلك الأغراض الفاسدة عند ذهاب رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك: قالوا يارسول الله بنينا مسجداً لذى العلة والليلة الممطرة والشاتية، ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة: فقال عليه السلام «إنى على جناح سفر وإذا قدمنا إن شاء الله صليتنا فيه» فلما رجع من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد فنزلت هذه الآية، فدعا بعض القوم وقال: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه وخربوه، ففعلوا ذلك وأمر أن يتخذ مكانه كناسة يلقي فيها الجيف والقمامة»^(٥).

(١) إعراب القرآن ٤/ ١٧٤ . (٢) تفسير الطبرى ٧/ ١١/ ٢ .

(٣) زاد المسير (٣/ ٣٧٨) (٤) التفسير الكبير ١٦/ ١٩٩، ٢٠٠ .

(٥) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٧/ ١١/ ١٧ - ١٨) وذكره السيوطى فى «الدر» وعزاه لابن إسحاق

وابن مردويه. وانظر «فتح القدير» (ح ٦١٧٢) بتخريجنا.

وقال الحسن: هم رسول الله ﷺ أن يذهب إلى ذلك المسجد فنأدى جبريل عليه السلام لاتقم فيه أبداً.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾ نهى له عليه السلام عن أن يقوم فيه. قال ابن جريج: فرغوا من إتمام ذلك المسجد يوم الجمعة، فصلوا فيه ذلك ويوم السبت والأحد، وانهار في يوم الاثنين. ثم إنه تعالى بين العلة في هذا النهي، وهي أن أحد المسجدين لما كان مبنياً على التقوى من أول يوم، وكانت الصلاة في مسجد آخر تمنع من الصلاة في مسجد التقوى كان من المعلوم بالضرورة أن يمنع من الصلاة في المسجد الثاني.

فإن قيل: كون أحد المسجدين أفضل لا يوجب المنع من إقامة الصلاة في المسجد الثاني.

قلنا: التعليل وقع بمجموع الأمرين، أعنى كون مسجد الضرار سبباً للمفاسد الأربعة المذكورة، ومسجد التقوى مشتملاً على الخيرات الكثيرة. ومن الروافض من يقول: بين الله تعالى أن المسجد الذي بنى من أول الأمر على التقوى، أحق بالقيام فيه من المسجد الذي لا يكون كذلك. وثبت أن علياً ما كفر بالله طرفة عين، فوجب أن يكون أولى بالقيام بالإمامة ممن كفر بالله في أول أمره. وجوابنا أن التعليل وقع بمجموع الأمور المذكورة، فزال هذا السؤال أهد.

قال القرطبي (١):

قوله تعالى ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ يعنى مسجد الضرار؛ أى لاتقم فيه للصلاة. وقد يعبر عن الصلاة بالقيام يقال: فلان يقوم الليل أى يصلى؛ ومنه الحديث الصحيح: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» (٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: فذكره (٢).

قوله تعالى: ﴿أَبَداً﴾ ظرف زمان. وظرف الزمان على قسمين: ظرف مقدّر كالיום، وظرف مبهم كالحين والوقت؛ والأبد من هذا القسم، وكذلك الدهر.

وتنشأ هنا مسألة أصولية، وهى أن «أبداً» وإن كانت ظرفاً مبهما لاعموم فيه ولكنه

(١) تفسير القرطبي ٣٠٩٧/٥.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٠٠٩) ومسلم (٣٩/٦، ٤٠ - النووى) وانظر «منار السبيل» (ح ٩٨٦) بتخريجنا.

إذا اتصل بلا النافية أفاد العموم، فلو قال: لا تقم، لكفى في الانكفاف المطلق. فإذا قال: «أبدا» فكأنه قال في وقت من الأوقات ولا في حين من الأحيان. فأما النكرة في الإثبات إذا كانت خبراً عن واقع لم تعم، وقد فهم ذلك أهل اللسان وقضى به فقهاء الإسلام فقالوا: لو قال رجل لإمرأته أنت طالق أبداً طلقت طلاقاً واحدة. اهـ.

قال ابن كثير (١): وقوله «لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا» نهى له صلى الله عليه وآله وسلم والأمة تبع له في ذلك عن أن يقوم فيه أى يصلى أبداً. اهـ.

قال السعدى (٢): «لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا» أى: لا اتصل في ذلك المسجد، الذى بنى ضراراً أبداً فالله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه.

● أقوال شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين (٣): قوله «لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا»

ضمير الغيبة يعود إلى مسجد الضرار، حيث بُنى على نية فاسدة، قال تعالى «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»، والمتخذون هم المنافقون، وغرضهم من ذلك:

١- مضارة مسجد قباء، ولهذا يُسمى مسجد الضرار.

٢- الكفر بالله؛ لأنه يقرر فيه الكفر - والعياذ بالله -؛ لأن الذين اتخذوه هم المنافقون

٣- التفريق بين المؤمنين؛ فبدلاً من أن يصلى فى مسجد قباء صف أو صفان يصلى فيه نصف صف، والباقيون فى المسجد الآخر، والشرع له نظر فى اجتماع المؤمنين.

٤- الإرصاء لمن حارب الله ورسوله يقال: إن رجلاً ذهب إلى الشام، وهو فاسق، وكان بينه وبين المنافقين الذين اتخذوا المسجد مراسلات، فاتخذوا هذا المسجد بتوجيهات منه، فيجتمعون فيه لتقرير ما يريدونه من المكر والخديعة للرسول ﷺ وأصحابه، قال الله تعالى «وَلْيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى»؛ فهذه سنة المنافقين الأيمان الكاذبة.

«إِنْ»: نافية، بدليل وقوع الاستثناء بعدها، أى: ما أردنا إلا الحسنى، والجواب عن هذا اليمين الكاذب: «وَاللَّهِ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ».

(١) تفسير ابن كثير ٣٧٥/٢.

(٢) تفسير الكريم الرحمن ٢٧٨/٢.

(٣) القول المفيد ٢٩٩/١، ٣٠٠، ٣٠١.

فشهد الله تعالى على كذبهم؛ لأن ما يسرونه في قلوبهم ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب؛ فكأن هذا المضمرة في قلوبهم بالنسبة إلى الله أمر مشهود يرى بالعين؛ كما قال الله تعالى في سورة المنافقين: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

قوله: ﴿أبدأ﴾ إشارة إلى أن هذا المسجد سيبقى مسجد نفاق.

قوله: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾.

الإعراب^(١): ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ اللام للابتداء (ومسجد) مبتدأ وجملة (أسس على التقوى) صفة (لمسجد) (وعلى التقوى) جار ومجرور متعلقان (بأسس) (وأحق) خبره (ومن أول يوم) جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أو (بأسس) وأن تقوم مصدر منصوب بنزع الخافض أي بأن تقوم فيه وهو متعلق (بأحق) وفيه متعلقان (بتقوم).

قال الفقير: في هذا المسجد ثلاثة أقوال.

(الأول) مسجد الرسول ﷺ: قاله ابن عمر، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، وسعيد بن المسيب.

(الثاني) مسجد قباء: قاله ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وقتادة، وعروة، وأبو سلمة ابن عبد الرحمن، والضحاك.

(الثالث) كل مسجد بُني في المدينة: قاله محمد بن كعب^(٢) وإليك تفصيل ذلك. روى ابن جرير^(٣).

عن عثمان بن عبيد الله: قال أرسلني محمد بن أبي هريرة إلى ابن عمر أسأله عن المسجد الذي أسس على التقوى أي مسجد هو مسجد المدينة أو مسجد قباء؟ قال: لا مسجد المدينة^(٤).

عن خارجة بن زيد عن زيد: قال هو مسجد الرسول^(٥).

(١) إعراب القرآن ١٧٤/٤.

(٢) وانظر زاد المسير (٣/٣٧٨).

(٣) الطبري ٧/١١/٢١ - ٢٢.

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» في الموضع السابق وذكره السيوطي في «الدر» (٣/٤٩٦) ونسبه لابن أبي شيبة، وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (٦١٧٩ - بتخریجنا).

(٥) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق وذكره السيوطي في «الدر» ونسبه لابن أبي شيبة، وابن مردويه، والطبراني.

ونظر «فتح القدير» (٦١٧٨ - بتخریجنا).

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال مر بي عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أسس على التقوى فقال لى أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه فى بيت بعض نسائه فقلت يارسول الله أى مسجد الذى أسس على التقوى قال فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض ثم قال: «هو مسجدكم» هذا هكذا سمعت أباك يذكره^(١).

وعن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه: قال المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد النبى الأعظم^(٢).

وعن سعيد بن المسيب: قال إن المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم هو مسجد المدينة الأكبر^(٣).

وروى أيضاً. عن ابن عباس لمسجد أسس على التقوى من أول يوم يعنى مسجد قباء^(٤).

عن عطية لمسجد أسس على التقوى من أول يوم هو مسجد قباء^(٥).

عن ابن بريده قال مسجد قباء الذى أسس على التقوى بناء نبى الله ﷺ^(٦).

قال ابن زيد المسجد الذى أسس على التقوى مسجد قباء^(٧).

عن عروة بن الزبير الذين بنى فيهم المسجد الذى اسس على التقوى بنو عمرو بن عوف^(٨).

وروى أيضاً.

عن سهل بن سعد قال اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ فى المسجد الذى

(١) [مسلم] أخرجه مسلم فى الحج (٥/ ١٨١ / ٥١٤)، وأخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وانظر «فتح القدير» (٦١٧٤ - بتخریجنا).

(٢) فى الموضع السابق.

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» فى الموضع السابق، وذكره السيوطى فى «الدر» (٤٩٦/٣) ونسبه لابن أبى شيبة، وأبى الشيخ.

(٤) [منقطع] وفتح المجيد (ح ٢٥١) بتخریجنا أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٠٧٦).

وذكره السيوطى فى «الدر» (٤٩٦/٣) وزاد نسبه لابن المنذر، والبيهقى فى «الدلائل»

وانظر «فتح القدير» - ٦١٨١ - بتخریجنا).

(٤ - ٧) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» فى الموضع السابق وانظر تمام التخریج فى «فتح المجيد» ح ٢٥٢-٢٥٣ بتخریجنا.

(٨) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٤٩٦/٦) ونسبه لابن أبى شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والزيبر بن بكار فى «أخبار المدينة»، وأبى يعلى، وابن حبان والطبرانى، والحاكم فى «الكنى» وابن مردويه.

وانظر الاتقان للسيوطى بتخریجنا، وانظر «فتح القدير» (١٧٥) بتخریجنا).

أسس على التقوى فقال أحدهما: هو مسجد النبي وقال الآخر هو مسجد قباء فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه فقال «هو مسجدى هذا».

وعن أبى بن كعب أن النبى ﷺ عن المسجد الذى أسس على التقوى فقال «مسجدى هذا» (١).

عن ابن أبى سعيد عن أبيه قال تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم فقال رجل هو مسجد قباء وقال آخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ «هو مسجدى» (٢).

عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ «المسجد الذى أسس على التقوى مسجدى هذا وفى كل خير» (٣) عن أبى سعيد أن رجلا من بنى خدرة ورجلا من بنى عمرو بن عوف امتريا فى المسجد الذى أسس على التقوى فقال الخدرى هو مسجد رسول الله ﷺ قال العمرى هو مسجد قباء فأتيا النبى ﷺ وسألاه فقال «هو مسجدى هذا وفى كل خير» (٤).

قال الطبرى (٥): واختلف أهل التأويل فى المسجد الذى عناه بقوله «المسجد أسس على التقوى من أول يوم» فقال بعضهم: هو مسجد رسول الله ﷺ الذى فيه قبره ومنبره اليوم.

وقال آخرون بل عنى بذلك مسجد قباء.

ثم قال - أى ابن جرير - أولى القولين فى ذلك عندى بالصواب قول من قال هو مسجد الرسول ﷺ لصحة الخبر بذلك عن رسول الله أه.

وقد تقدم عن سهل بن سعد عن أبى سعيد وغيرهما

قال الرزاي (٦): وقال القاضى؛ لا يمنع دخولهما جميعاً تحت هذا الذكر لأن قوله (المسجد أسس على التقوى) هو كقول القائل، لرجل صالح أحق أن تجالسه. فلا يكون ذلك مقصوراً على واحد.

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن أبى شبة، وأحمد، وابن المنذر، وأبى الشيخ، وابن مردويه والخطيب، والضياء فى المختار» وانظر فتح القدير (٦١٧٦ - بتخريجنا).

وانظر الاتقان للسيوطى بتخريجنا.

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وتقدم بنحوه.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

وذكره السيوطى فى الدر (٤٩٦/٦) ونسبه لابن أبى شبة، وأبى الشيخ وابن مردويه. وانظر فتح القدير (٦١٨٠ - بتخريجنا)

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وتقدم بنحوه.

(٥) تفسير الطبرى ٢٠/١١/٧. (٦) التفسير الكبير ٢٠/١٦/٨.

قال القرطبي^(١): واختلف العلماء فى المسجد الذى أسس على التقوى . فقالت طائفة هو مسجد قباء ثم قال : **والقول الأول أليق بالقصة ؛ لقوله «فيه»** وضمير الظرف يقتضى الرجال المتطهرين فهو مسجد قباء - ثم أورد حديث أنس فى ذلك ثم قال : وهذا الحديث يقتضى أن المسجد المذكور فى الآية هو مسجد قباء إلا أن حديث أبى سعيد الخدرى نص فيه النبى ﷺ على أنه مسجده^(٢) فلانظير معه . أهـ .

قال ابن كثير^(٣): وقد ورد فى الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذى فى جوف المدينة هو المسجد الذى أسس على التقوى . وهذا صحيح .
ولامنافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله من باب أولى .

قال السعدى^(٤): ﴿مسجد أسس على التقوى من أول يوم﴾ ظهر فيه الإسلام فى «قباء» وهو مسجد «قباء» أسس على إخلاص الدين لله ، وإقامة ذكره ، وشعائر دينه ، وكان قديماً فى هذا ، عريقاً فيه .

فهذا المسجد الفاضل ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ وتتعبد ، وتذكر الله تعالى ، فهو فاضل ، وأهله فضلاء .

قوله ﴿من أول يوم﴾

قال القرطبي^(٥): «من» عند النحويين مقابلة منذ ؛ فمنذ فى الزمان بمنزلة من فى المكان .

ف قيل : إن معناها هنا معنى منذ ؛ والتقدير : منذ أول يوم ابتدئ بنيانه .

وقيل : المعنى من تأسيس أول الأيام ، فدخلت على مصدر الفعل الذى هو أسس كما قال :

لَمِنَ الدِّيارِ بَقَّةُ الحَجَرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حَجَجٍ وَمِنْ دَهْرٍ

أى من مر حجج ومن مر دهر . وإنما دعا إلى هذا أن من أصول النحويين أن «من» لا يُجر بها الأزمان ، وإنما تجر الأزمان بمنذ ؛ تقول ما رأيته منذ شهر أو سنة أو يوم ، ولا تقول : من شهر ولا من سنة ولا من يوم . فإذا وقعت فى الكلام وهى يليها زمن فيقدر مضمراً يلى أن يجر بمن ؛ كما ذكرنا فى تقدير البيت .

وعن ابن عطية . ويحسن عندى أن يستغنى فى هذه الآية عن تقدير ، وأن تكون «من» تجر لفظه «أول» لأنها بمعنى البداءة ؛ كأنه قال : من مبتدأ الأيام .

(٢) تقدم قريباً .

(١) تفسير القرطبي ٣٠٩٩/٥ .

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٢٧٨/٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٧٦/٢ .

(٥) تفسير القرطبي ٣٠٩٩/٥ ، ٣١٠٠ .

فائدة: من أين أروخوا التاريخ الإسلامى أفاد السهيلي: «أن الصحابة أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ لأنه من المعلوم أنه ليس أول يوم مطلقاً فتعين أنه أضيف إلى شيء مضمّر أول الزمن الذى عز فيه الإسلام وعبد فيه النبى ﷺ ربه آمناً ابتداء بناء المسجد فوافق رأى الصحابة ابتداء التاريخ من ذلك اليوم وفهمنا من فعلهم أن قوله ﴿مِنْ أَوَّلٍ﴾ أنه أول أيام التاريخ الإسلامى كذا قال. اهـ (*)

قوله تعالى: ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾

قال القرطبي (١): بأن تقوم؛ فهو فى موضع نصب «وأحق» هو أفعّل من الحق، وأفعّل لا يدخل إلا بين شيئين مشتركين، لأحدهما فى المعنى الذى اشتركا فيه مزية على الآخر؛ فمسجد الضرار وإن كان باطلاً لاحقاً فيه، فقد اشتركا فى الحق من جهة اعتقاد بانيه، أو من جهة اعتقاد من كان يظن أن القيام فيه جائز للمسجدية؛ لكن أحد الاعتقادين باطل باطناً عند الله، والآخر حق باطناً وظاهراً؛ ومثل هذا قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ ومعلوم أن الخيرية من النار مبعودة، ولكنه جرى على اعتقاد كل فرقة أنها على خير وأن مصيرها إليه خير؛ إذ كل حزب بما لديهم فرحون. وليس هذا من قبيل: العسل أحلى من الخل؛ فإن العسل وإن كان حلواً فكل شيء ملائم فهو حلواً؛ ألا ترى أن من الناس من يقدم الخل على العسل مفرداً بمفرد ومضافاً إلى غيره بمضاف. اهـ.

قوله تعالى ﴿فِيهِ﴾

قال القرطبي (٢): من قال: إن المسجد يراد به مسجد النبى ﷺ فالهاء فى ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ عائد إليه، و﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ له أيضاً، ومن قال: إنه مسجد قباء، فالضمير فى ﴿فِيهِ﴾ عائد إليه على الخلاف المتقدم. اهـ.

قال الرازى (٣): أنه تعالى رجع مسجد التقوى - أى رجع القيام فيه على القيام فى مسجد الضرار، أو غيره من المساجد - بأمرين:

(١) تفسير القرطبي فى الموضع السابق.

(*) الفتح (٣١٤/٧) وانظر كتابي «فقه الخطابة» (٤٤٦).

(٢) تفسير القرطبي فى الموضع السابق.

(٣) التفسير الكبير ٢٠١/١٦/٨.

أحدهما: أنه بنى على التقوى، وهو الذى تقدم تفسيره. والثانى: أن فيه رجالاً يحبون أن يتطهروا». اهـ.

قوله ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾
الإعراب (١):

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (فيه) خبر مقدم و(رجال) مبتدأ مؤخر وجملة (يحبون) صفة لرجال و(أن) وما فى حيزها مفعول (يحبون) أى يحبون الطهارة من الذنوب والحريات والمعاصى وقيل من الذنوب طهارة الباطن ومن الأحداث طهارة الظاهر (والله) مبتدأ وجملة (يحب المطهرين) خبر.

● ماجاء فى سبب نزول الآية.

عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال «نزلت هذه الآية فى أهل قباء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية» (٢).

عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة قال: «ما هذا الطهور الذى اتنى الله عليكم؟ فقالوا: يارسول الله ماخرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه، أو قال: مقعدته. فقال النبي ﷺ: «هو هذا» (٣).

وعن عويم بن ساعدة الأنصارى «أن النبي ﷺ أتاهم فى مسجد قباء فقال: إن الله قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجلكم، فما هذا الطهور الذى تطهرون به؟ قالوا: والله يارسول الله مانعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا» (٤).

(١) إعراب القرآن ١٧٤/٤.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٤)، والترمذى (٣١٠٠)، وابن ماجه (٣٥٧) قال الترمذى: غريب من هذا

الوجه.

وانظر «فتح القدير» (٦١٨٣ - بتخريجنا).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤٩٧/٣) ونسبه للطبرانى، وأبى الشيخ، والحاكم، وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (٦١٨٤) - بتخريجنا.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٢٢/٣) وذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق وزاد نسبه

لابن خزيمة والطبرانى، والحاكم، وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (٦١٨٥ - بتخريجنا). «فتح المجيد» (ح ٢٦٠) بتخريجنا.

وعن طلحة بن نافع قال: حدثني أبو أيوب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك رضى الله عنهم، أن هذه الآية لما نزلت ﴿فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا﴾ قال رسول الله ﷺ «يامعشر الأنصار أن الله قد أثنى عليكم خيراً في الطهور فما طهروكم هذا؟ قالوا: نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة. قال: فهل مع ذلك غيره؟ قالوا: لا، غير أن أحدنا إذا خرج إلى الغائط أحب أن يستنجى بالماء. قال: هو ذاك فعليكموه» (١).

وعن مجمع بن يعقوب بن مجمع «أن رسول الله ﷺ قال لعويم بن ساعدة: ماهذا الطهور الذى أثنى الله عليكم؟ فقالوا: نغسل الأذبار» (٢).

وعن محمد بن عبد الله بن سلام عن أبيه قال: لما أتى رسول الله ﷺ المسجد الذى أسس على التقوى فقال: «إن الله قد أثنى عليكم فى الطهور خيراً أفلا تخبرونى؟ يعنى قوله ﴿فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ فقالوا: يارسول الله إنا لنجد مكتوباً فى التوراة الاستنجاء بالماء، ونحن نفعله اليوم» (٣).

وعن أبى أمانة قال: قال رسول الله ﷺ لأهل قباء «ما هذا الطهور الذى خصصتم به فى هذه الآية ﴿فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا﴾؟ قالوا: يارسول الله مامنا أحد يخرج من الغائط إلا غسل مقعدته» (٤).

وعن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: «سأل النبى ﷺ أهل قباء فقال: «إن الله قد أثنى عليكم» فقالوا: أنا نستنجى بالماء. فقال: أنكم قد أثنى عليكم فدوموا» (٥).

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٥٥)، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٩٧/١٠٠). وذكره السيوطى فى «الدر» (٩٧/٣) وزاد نسبه لابن المنذر، وابن الجارود فى «المتقى»، والدارقطنى، والحاكم، وابن مردويه، وابن عساکر.

وانظر «فتح القدير» (٦١٨٧ - بتخریجنا). «فتح المجيد» (ح ٢٦١) بتخریجنا.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٩٧/٣) ونسبه لابن أبى شيبة فى «مضفة».

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦/٦).

وذكره السيوطى فى «الدر» (٩٨/٣) وزاد نسبه لابن أبى شيبة، والبخارى فى «تاريخه» وابن جرير، والبعغوى فى «معجمه» والطبرانى، وابن مردويه.

وانظر تمام تخريجه فى «فتح القدير» (٦١٨٨ - بتخریجنا).

(٤) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١٤٣/٨ / ٧٥٥٥) عن أبى أمانة بسند ضعيف.

قال الهيثمى فى «المجمع» (٢١٣/١) وفيه شرير أيضاً.

وذكره السيوطى فى الموضع السابق وزاد نسبه لعبدالرزاق فى «المصنف».

(٥) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبدالرزاق، وابن مردويه.

قال الرازي^(١): وفى تفسير هذه الطهارة قولان:

[الأول]: المراد منه التطهير عن الذنوب والمعاصى، وهذا القول متعين لوجوه:

أولها: أن التطهر عن الذنوب والمعاصى هو المؤثر فى القرب من الله تعالى واستحقاق ثوابه ومدحه.

الثانى: أنه تعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارة المسلمين والكفر بالله والتفريق بين المسلمين، فوجب كون هؤلاء بالضد من صفاتهم. ماذا إلا كونهم مبرئين عن الكفر والمعاصى.

والثالث: أن طهارة الظاهر إنما يحصل لها أثر وقدر عند الله لو حصلت طهارة الباطن من الكفر والمعاصى، أما لو حصلت طهارة الباطن من الكفر والمعاصى، ولم تحصل نظافة الظاهر، كأن طهارة الباطن لها أثر، فكان طهارة الباطن أولى.

الرابع: روى صاحب «الكشاف»: أنه لما نزلت هذه الآية مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء، فإذا الأنصار جلوس، فقال «أؤمنون أنتم» فسكت القوم ثم أعادها. فقال عمر: يارسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم؛ فقال عليه السلام «أترضون بالقضاء» قالوا نعم: قال «أتصبرون على البلاء» قالوا نعم، قال «أتشكرون فى الرخاء» قالوا نعم. قال عليه السلام «مؤمنون ورب الكعبة» ثم قال: «يامعشر الأنصار إن الله أثنى عليكم فما الذى تصنعون فى الوضوء» قالوا: نتبع الماء الحجر. فقرأ النبي عليه السلام «فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا»^(٢) الآية.

[والقول الثانى]: أن المراد منه الطهارة بالماء بعد الحجر. وهو قول أكثر المفسرين من أهل الأخبار.

وأضاف إلى ذلك [القول الثالث]: أنه محمول على كلا الأمرين، وفيه سؤال: وهو أن

(١) التفسير الكبير ٢٠١/١٦/٨.

(٢) قال الحافظ فى تخرىج الكشاف (ح ١٥٤): لم أجده هكذا وكأنه ملفق من حديثين: ذكر المخرج أولهما من الطبرانى فى «الأوسط» قال - فذكر سنده - عن ابن عباس رضى الله عنهما قال «دخل رسول الله على عمر ومعه أناس: فقال: أمتون أنتم؟ فسكتوا ثلاث مرات؟ فقال عمر رضى الله عنه يارسول الله نؤمن بما أتيتنا به والحمد لله فى الرخاء ونصر فى البلاء: ونرضى بالقضاء؟ فقال «مؤمنون ورب الكعبة» إنتهى.

وهذا فيه من المخالفة بين السياقين مالا يخفى وأما الثانى فروى ابن مردويه من طريق ابن عباس نحوه.

لفظ الطهارة حقيقة في الطهارة عن النجاسات العينية، ومجاز في البراءة عن المعاصي والذنوب، واستعمال اللفظ الواحد في الحقيقة والمجاز معاً لا يجوز.

والجواب: أن لفظ النجس اسم للمستقذر، وهذا القدر مفهوم مشترك فيه بين القسمين وعلى هذا التقدير، فإنه يزول السؤال، ثم إنه تعالى أعاد السبب الأول، وهو كون المسجد مبنياً على التقوى أهـ.

قال الفقير: وهذا القول الثالث مال إليه ابن عثيمين في «القول المفيد» وهو أشمل وأجمع للآثار من غيره. والله أعلم.

قال القرطبي^(١): أثنى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على من أحب الطهارة وآثر النظافة، وهي مروءة آدمية ووظيفة شرعية؛ وفي الترمذى عن عائشة أنها قالت: من أزواجكن أن يستطيبوا بالماء فإنى استحييهم^(٢). قال: حديث صحيح.

وثبت أن النبي ﷺ كان يحمل الماء معه في الاستنجاء^(٣)؛ فكان يستعمل الحجارة تخفيفاً والماء تطهيراً.

قال ابن العربي: وقد كان علماء القيروان يتخذون في متوضّاتهم أحجاراً في تراب ينقون بها ثم يستنجون بالماء.

واللازم من نجاسة المخرج التخفيف، وفي نجاسة سائر البدن والثوب التطهير، وذلك رخصة من الله لعباده في حالتي وجود الماء وعدمه؛ وبه قال عامة العلماء.

وشذ ابن حبيب فقال: لا يستجمر بالأحجار إلا عند عدم الماء. والأخبار الثابتة في الاستجمار بالأحجار مع وجود الماء ترده.

وروى الإمام أحمد عن شبيب أبي روح يحدث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ الروم فيها فأوهم فلما انصرف قال «إنه يلبس علينا القرآن إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء» ثم رواه من طريقين آخرين عن عبد الملك بن عمير عن شبيب أبي روح من ذى الكلاع أنه صلى مع النبي ﷺ فذكره^(٤).

(١) تفسير القرطبي ٥/ ٢١٠، ٢١١.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٥/٦)، والترمذى (١٩)، والنسائي (٤٢/١) - السيوطي عن عائشة وانظر «منار السبيل» (٤٩) - بتخريجنا.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٥٢)، ومسلم في الطهارة (١٦٢/٣) - النووي عن أنس به. وانظر «منار السبيل» (٥٠) - بتخريجنا.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٧١/٣ - ٤٧٢).

فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها. اهـ (١).

قال السعدى (٢): «فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا» من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والنجاسات والأحداث.

ومن المعلوم أن من أحب شيئاً، لا بد أن يسعى له، ويجتهد فيما يحب. فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ، والأحداث. ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد، مع رسول الله ﷺ، وإقامة شرائع الدين، ومن كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله. وسألهم النبي ﷺ، بعد ما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم. فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم. «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ» الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك، والأخلاق الرذيلة والطهارة الحسية، كإزالة الانجاس، ورفع لأحداث. ثم فاضل بين المساجد، بحسب مقاصد أهلها موافقتها لرضاه. اهـ.

قال ابن عثيمين (٣):

قوله: «يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا».

بخلاف من كان في مسجد الضرار؛ فإنهم رجس؛ كما قال الله تعالى في المنافقين «سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ»

قوله: «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ»

هذه محبة حقيقية ثابتة لله - عز وجل - تليق بجلاله وعظمته، ولا تماثل محبة المخلوقين، وأهل التعطيل يقولون: المراد بالمحبة: الثواب أو إرادته؛ فيفسرونها إما بالفعل أو إرادته، وهذا خطأ.

وقوله «الْمُطَهَّرِينَ» أصله المتطهرين، وأدغمت التاء بالطاء لعله تصريفية معروفة.

اهـ.

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣٧٦، ٣٧٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢/٢٧٨، ٢٧٩.

(٣) القول المفيد ١/٣٠٢.

قال: عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِيَوَانَهُ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ (ﷺ)؟ فَقَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثْنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قَالُوا: لَا فَقَالَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟» قَالُوا: لَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) «أَوْفَ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرَطِهِمَا (١).

قال سليمان الشيخ (٢): هذا الحديث رواه أبو داود: فقال: حدثنا داود بن رشيد قال: ثنا شعيب بن إسحاق عن الأوزاعي قال حدثني يحيى بن أبي كثير، قال: حدثني أبو قلابة. قال: حدثني ثابت بن الضحاك. قال: نذر رجل على عهد رسول الله (ﷺ) أن ينحر إبلاً بيوانة، فأتى النبي (ﷺ) فقال: إني نذرت أن أنحر إبلاً بيوانة. فقال النبي (ﷺ) «هل كان فيها وثن...» الحديث. وهذا إسناد جيد.

وروى أبو داود أيضاً عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده أن امرأة أتت النبي (ﷺ). فقالت: إني نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا؛ مكان كان يذبح فيه أهل الجاهلية قال: «لصنم» قالت: لا قال «لوثن؟» قالت: لا قال: «أوف بنذرك» (٣) مختصر ومعنى قوله: «لصنم» إلى آخره. هل يذبحون فيه لصنم أو وثن فيكون كحديث ثابت.

مناسبة الحديث للباب

قال الشنقيطي (٤): اعلم أنه قد دل الحديث على أن من نذر أن ينحر تقرباً لله في محل معين، فلا بأس بإيفائه بنذره، بأن ينحر في ذلك المحل المعين، إذا لم يتقدم عليه أنه كان به وثن يعبد أو عيد من أعياد الجاهلية. ومفهومه أنه إن كان قد سبق أن فيه وثناً يعبد، أو عيداً من أعياد الجاهلية: أنه لا يجوز النحر فيه. فذكر الحديث ثم قال:

(١) أخرجه أبو داود في «الآيمان والنذور» / باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر (٣/ ٢٣٥) ح (٣٣١٣) والطبراني في الكبير (٢/ ٧٥) ح (١٣٤١) والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ٨٣).

من طريق داود بن رشيد عن شعيب بن إسحاق عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي قلابة عن ثابت بن الضحاك

قال الحافظ في «التلخيص» (٤/ ١٥٥١) ح (٢٠٧٠) سنده صحيح.

وانظر كتابنا «فقه الخطابة» (١/ ٤٠٢). وانظر «فتح المجيد» (ح ٢٦٢) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٤٣، ١٤٤.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٣١٢).

(٤) أضواء البيان (٥/ ٤٦٦).

وفيه الدلالة الظاهرة على أن النحر بموضع كان فيه وثن يعبد أو عيد من أعياد الجاهلية من معصية الله تعالى، وأنه لا يجوز بحال، والعلم عند الله تعالى. وإسناد الحديث صحيح أهـ.

وقال القرعاوى^(١): حيث دلّ الحديث على أنه لا يجوز فعل الطاعة في مكان يعصى الله فيه ومن ذلك الذبح في مكان يذبح فيه لغير الله. مناسبة الحديث للتوحيد.

قال القرعاوى^(١): حيث دلّ الحديث على تحريم كل ما يؤدى في النهاية إلى الشرك قوله «عن ثابت بن الضحاك» أى: ابن خليفة الأشهلى صحابى مشهور، روى عنه أبو قلابة وغيره ومات سنة أربع وستين^(٢). قوله: «نذر رجل».

قال ابن عثيمين^(٣).

قوله «نذر» النذر في اللغة: الإلزام والعهد.

واصطلاحاً: إلزام المكلف نفسه لله شيئاً غير واجب.

وقال بعضهم: لاحتجاج أن نقيده بغير واجب، وأنه إذا نذر الواجب صحّ النذر وصار المنذور واجباً من وجهين: من جهة النذر، ومن جهة الشرع، ويترتب على ذلك وجوب الكفارة إذا لم يحصل الرفاء.

والنذر في الأصل مكروه، بل إن بعض أهل العلم يميل إلى تحريمه؛ لأن النبي ﷺ نهى عنه، وقال: «لا يأتى بخير، وإنما يستخرج به من البخيل»^(٤) ولأنه إلزام لنفس الإنسان بما جعله الله في حل منه، وفي ذلك زيادة تكليف على نفسه.

ولأن الغالب أن الذى ينذر يندم، وتجدد يسأل العلماء يميناً وشمالاً يريد الخلاص مما نذر لثقله ومشقته عليه، ولا سيما ما يفعله بعض العامة إذا مرض، أو تأخر له حاجة

(١) الجديد ١١٤.

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٤٤.

(٣) القول المفيد ١/٣٠٣، ٣٠٤.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٦٠٨) ومسلم فى الأيمان والنذور (٩٧/١١، ٩٨- النووى) وانظر

تمام فى «مثار السبيل» بتخريجنا.

يريدها؛ تجده ينذر كأنه يقول: إن الله لا ينعم عليه يجلب خير أودع الضرر إلا بهذا النذر.

قوله: (رجل).

قال آل الشيخ سليمان^(١):

يحتمل أن يكون هو كردم بن سفيان والد ميمونة لما روى أبو داود عنها. قالت: خرجت مع أبي في حجة رسول الله ﷺ فرأيت رسول الله ﷺ قالت: فدنا إلي أبي فقال: يا رسول الله، إني نذرت إن ولد لي ولد ذكر أن أنحر على رأس بوانة في عقبة من الثنايا عدة من النعم. قال: لا أعلم إلا أنها قالت خمسين.

فقال رسول الله ﷺ «هل بها من هذه الأوثان شيء؟» قال: لا. قال: «فأوف بما نذرت لله» وذكر الحديث^(٢).

قوله: «أن ينحر إبلاً ببوانة»

قال سليمان آل الشيخ^(٣): قوله: أن ينحر إبلاً في حديث ميمونة، قال: «فأوف بما نذرت الله» قال: فجمعها فجعل يذبحها، فانفلتت منه شاة فطلبها. وهو يقول: اللهم أوف بنذري فظفر بها فذبحها فيحتمل أن يكون نذر إبلاً وغنماً ويحتمل أن يكون ذلك قضيتين!

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «إبلاً» اسم جمع لا واحد له من لفظه، لكن له واحد من معناه، وهو البعير قلت: أو الجمل.

قول: «ببوانة»

الباء بمعنى في، وهي للظرفية، والمعنى: بمكان يسمى بوانة.

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قوله: ببوانة. بضم الباء وقيل بفتحها قال البغوي: موضع في أسفل مكة دون يلملم. وقال أبو السعادات: هضبة من وراء ينبع قوله «فسأل النبي ﷺ فقال هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟»

(١) تيسير العزيز الحميد ١٤٤

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٦٦/٦)، وأبو داود (٢١٠٣، ٣٣١٤) عن ميمونة بنت كردم به.

(٣) تيسير العزيز الحميد ١٤٤.

(٤) القول المفيد ١/٣٠٤، ٣٠٥.

(٥) تيسير العزيز الحميد ١٤٤.

قال سليمان آل الشيخ^(١): قال فى «عروة المفتاح» الصنم هو ماله صورة، والوثن ماليس له صورة.

قلت - سليمان آل الشيخ - هذا هو الصحيح فى الفرق بينهما؛ وقد جاء عن السلف مايدل على ذلك.

قال ابن عثيمين^(٢): الوثن: كل ماعبد من دون الله؛ من شجر، أو حجر، سواء نحت أو لم ينحت.

والصنم يختص بما صنعه الأدمى

قوله: «الجاهلية»

نسبة إلى ماكان قبل الرسالة، وسميت بذلك؛ لأنهم كانوا على جهل عظيم.

قوله: «يعبد»

صفة لقوله «وثن» وهو بيان للواقع؛ لأن الأوثان هى التى تعبد من دون الله.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): وفيه المنع من الوفاء بالنذر إذا كان فى المكان وثن من أوثانهم ولو بعد زواله. ذكره المصنف

قوله: «قالوا: لا. قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «قالوا: لا» السائل واحد، لكنه لماكان عنده ناس أجابوا النبى ﷺ، ولأمانع أن يكون المجيب غيرالمسؤول.

قوله: «عيد»

العيد: اسم لما يعود أو يتكرر، العود بمعنى الرجوع؛ أى: هل اعتاد أهل الجاهلية أن يأتوا إلى هذا المكان ويتخذوا هذا اليوم عيداً وإن لم يكن فيه وثن؟ قالوا: لا. فسأل النبى ﷺ عن أمرين: عن الشرك، ووسائله.

فالشرك: هل كان فيها وثن؟

ووسائله: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟

(١) تيسير العزيز الحميد ١٤٤، ١٤٥.

(٢) القول المفيد ١/ ٣٠٤، ٣٠٥.

(٣) تيسير العزيز الحميد ١٤٤.

(٤) القول المفيد ١/ ٣٠٥.

قال سليمان آل شيخ (١):

قال شيخ الإسلام: العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد، عائد إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك، والمراد به هنا الاجتماع المعتاد من اجتماع الجاهلية، فالعيد يجمع أموراً منها يوم عائده كيوم الفطر ويوم الجمعة، ومنها اجتماع فيه، ومنها أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات.

وقد يختص العيد بمكان بعينه، وقد يكون مطلقاً. وكل من هذه الأمور قد يسمى عيداً، فالزمان. كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة:

«إن هذا يوم جعله الله للمسلمين عيداً»^(٢) والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس: شهدت العيد مع رسول الله ﷺ والمكان. كقوله: «لاتخذوا قبري عيداً»^(٣) وسيأتي تخريجه.

وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه، وهو الغالب. كقول النبي ﷺ لأبي بكر:

دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد» وفي رواية «فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا»^(٤). انتهى.

وفيه استئصال المقتضى، والمنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان عيد من أعياد الجاهلية ولو بعد زواله، والحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده. ذكره المصنف.

قلت: وعلى هذا تدخل المصايف وما يحدث فيها في كل عام من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد بعود السنة تدخل في الأعياد الجاهلية المحرمة ولا بد فلا يجوز ما يصنع هناك مما يسمى بالمعسكرات الإسلامية أو المصايف الإسلامية لهذا وإن زعموا أنهم ما ذهبوا إلا لله وعبادته هناك فلا يجوز أن يتقرب لله بعبادة في مكان حاله كما تقدم والله أعلم.

قوله «قالوا لا فقال رسول الله ﷺ أوف بنذر»

قال ابن عثيمين^(٥): قوله «أوف بنذر».

(١) تيسير العزيز الحميد ١٤٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٠٩٨).

(٣) سيأتي تخريجه.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩٥٢) ومسلم فى العيدين (٣/ ١٦/٤٥٠) وتقدم

(٥) القول المفيد ١/ ٣٠٥، ٣٠٦.

فعل أمر مبنى على حذف حرف العلة الياء، والكسرة دليل عليها.

وهل المراد به المعنى الحقيقي أو المراد به الإباحة؟

الجواب : يحتمل أن يراد به الإباحة، ويحتمل أن يراد به المعنى الحقيقي ،
فبالنسبة لنحر الإبل المراد به المعنى الحقيقي.

وبالنسبة للمكان المراد به الإباحة؛ لأنه لا يتعين أن يذبحها في ذلك المكان؛ إذ
إنه لا يتعين أى مكان في الأرض إلا ما تميز بفضله، والتميز بفضله المساجد الثلاثة؛
فالأمر هنا بالنسبة لنحر الإبل من حيث هو نحر واجب.

وبالنسبة للمكان؛ فالأمر للإباحة، بدليل أنه سأل هذين السؤالين، فلو أجيب بنعم؛
لقال : لاتوف، فإذا كان المقام يحتمل النهى والترخيص؛ فالأمر للإباحة.

قال الفقير: قول ابن عثيمين: يحتمل أن يراد به الإباحة، ويحتمل أن يراد به
المعنى الحقيقي... إلخ.

فبالنسبة لنحر الإبل المراد به المعنى الحقيقي، فواجب عليه أن يذبح لأن النذر كان
قبل ذلك لا يجب لكنه ألزم نفسه به وأوجبه على نفسه بعد أن كان لا يجب.

لكن بالنسبة للمكان المراد به الإباحة، أى مباح أن تفى بنذرك في هذا المكان.

فإن نذر ذبح إبل في مكان ما يكون مباح الذبح في هذا المكان فإن ذبح في مكان
آخر وفي بنذره.

وذلك لأن هناك أصل من الأصول وهو:

لا فضل بقعة في الأرض على بقعة أخرى في الأرض إلا ثلاث بقاع فضلت بنص
شرعى هي المساجد الثلاث أما غير ذلك فالأرض كلها سواء إلا أن توجب على نفسك
نذراً مختص بالمسجد الحرام لأنه أفضل المساجد وليس هناك أفضل منه فيجب الوفاء في
المسجد الحرام ولا يجزى غيره عنه كما نذر عمر في الجاهلية أن يعتكف يوماً في المسجد
الحرام فأمره ﷺ بالوفاء بالنذر^(١) في المسجد الحرام لا غيره، لكن إن نذر نذراً يفى به في
المسجد الأقصى يجوز أن يوفى به في المسجد الحرام لأنه أفضل كما ثبت عند أبى داود
هذا المعنى كما سيأتى في آخر الباب القادم، وإن نذرت الذبح في مكان بعينه فقوله
«أوف بنذرك» على الإباحة في المكان.

(١) أخرجه البخارى (١١٧١)، ومسلم في الإيمان والنذور (١٢٤/١١) - النووي.

وانظر «السليل» (١١٧١) - بتخريجه.

فَإِنَّهُ لَا وِفَاءَ لِنَذْرِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ.....

فالأمر قبل ذلك كان محذوراً لصنم أو وثن أو عيد أو مولد، فلما قال له أوف كأنه أمر بعد حذر فيحمل على الإباحة.

قال سليمان آل الشيخ^(١):

قوله : «فأوف بنذكرك» هذا يدل على أن الذبح لله في المكان الذي يذبح فيه المشركون لغيره، أو في محل أعيادهم معصية، لأن قوله: «فأوف بنذكرك» تعقيب للوصف بالحكم بحرف الفاء، وذلك يدل على أن الوصف سبب الحكم فيكون سبب الأمر بالوفاء وجود النذر خالياً عن هذين الوصفين، فيكونان مانعين من الوفاء، ولو لم يكن معصية لجاز الوفاء به، ولأنه عقبه بقوله: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله». فدل أن الصورة المسؤول عنها مندرجة في هذا اللفظ العام، لأن العام إذا أورد على سبب، فلا بد أن يكون السبب مندرجاً فيه، ولأنه لو كان الذبح فيما ذكر جائزاً لسوغ ﷺ للنادر الوفاء به كما سوغ لمن نذرت الضرب بالدف أن تضرب به لأنه عليه السلام استفصل. فلما قالوا: لا. قال له: «فأوف بنذكرك» وهذا يقتضي أن كون البقعة مكاناً لعيدهم، أو بها وثن من أوثانهم، مانع من الذبح بها وإن نذر، وإلا لما حسن الاستفصال، هذا معنى كلام شيخ الإسلام. وفيه أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع. اهـ.

قوله: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله».

قال ابن عثيمين^(٢):

وقوله «أوف بنذكرك» علل ﷺ ذلك بانتفاء المانع؛ فقال : «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله».

قوله: «لا وفاء».

(لا): نافية للجنس، (وفاء): اسمها، (لنذر): خبرها اهـ.

قوله: «في معصية الله».

قال ابن عثيمين^(٣): صفة لنذر، أي: لا يمكن أن توفي بنذر في معصية الله؛ لأنه لا يتقرب إلى الله بمعصيته، وليست المعصية مباحة حتى يقال أفعّلها. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٤):

(١) تيسير العزيز الحميد ١٤٥، ١٤٦.

(٢-٣) القول المفيد (١/ ٣٠٦).

(٤) تيسير العزيز الحميد (١٤٦).

قوله: فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله دليل على أن هذا نذر معصية، لا يجوز الوفاء به لما تقدم وعلى أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

وقد أجمع العلماء على ذلك لهذا الحديث وحديث عائشة الآتي وما في معناهما.

واختلفوا هل تجب فيه كفارة يمين؟ على قولين: هما روايتان عن أحمد.

أحدهما: تجب وهو المذهب المشهور عن أحمد. وروى عن ابن مسعود وابن عباس، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه. لحديث عائشة مرفوعاً: «لأنذر في معصية وكفارته كفارة يمين»^(١) رواه أحمد وأهل السنن، واحتج به أحمد وإسحاق.

الثاني لا كفارة عليه. روى ذلك عن مسروق والشعبي، والشافعي لحديث الباب، وحديث عائشة: ولم يذكر فيهما كفارة، وجوابه أن عدم ذكر الكفارة لا يدل على عدم وجوبها. أهـ.

وما ذكره سليمان آل الشيخ يدخل في المسألة الآتية بتفصيل، وهي:

مسألة هل يتعقد نذر المعصية، وهل تجب فيه الكفارة؟

الجواب: بوب البخاري باب: النذر في الطاعة. ثم ذكر فيه حديث عائشة عن:

النبي ﷺ «من نذر أن يقطع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه أن فلا يعصيه»^(٢).

قال الحافظ: والخبر صريح في الأمر بوفاء النذر إذا كان في طاعة، وفي النهي عن ترك الوفاء به إذا كان في معصية، وهل تجب في الثاني كفارة يمين أولاً؟ قولان للعلماء^(٣).

ثم قال: فقال الجمهور: لا، وعن أحمد والثوري وإسحاق وبعض الشافعية والحنفية نعم، ونقل الترمذي اختلاف الصحابة في ذلك كالقولين، واتفقوا على تحريم النذر في المعصية واختلافهم إنما هو في وجوب الكفارة.

واحتج من أوجبها بحديث عائشة «لأنذر في معصية، وكفارته كفارة يمين» أخرجه أصحاب السنن ورواته ثقات لكنه معلول^(٤). ولكن له شاهد من حديث عمران بن

(١) أخرجه أحمد في «مستد» (٢٤٧/٦) وأبو داود (٣٢٩٠)، والترمذي (١٥٢٤)، النسائي (٢٦/٧) -

السيوطي)، وابن ماجه (٢١٢٥) وانظر تمام تخريجه في منار السبيل (ح/ ٢٧٩٠) بتخريجنا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) فتح الباري (١١/ ٥٩٠).

(٤) أنظر تفصيل الكلام في «منار السبيل» (٢٧٩٠ - بتخريجنا).

حصين^(١) أخرجه النسائي وضعفه، وشواهد أخرى، وعموم حديث عقبة بن عامر: «كفارة النذر كفارة يمين»^(٢) أخرجه مسلم. وقد حمله الجمهور على نذر اللجاج والغضب وبعضهم على النذر المطلق لكن أخرج الترمذى وابن ماجه حديث عقبة بلفظ «كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين»^(٣) ولفظ ابن ماجه «من نذر نذراً لم يسمه»^(٤) وفى الباب حديث ابن عباس - فذكره مرفوعاً وموقوفاً وعزا لأبى داود المرفوع^(٥)، والموقوف لابن أبى شيبة^(٦) ثم قال عن الموقوف: وهو أشبه . وحمله أكثر فقهاء الحديث على عمومه، لكن قالوا: إن الناذر مخير بين الوفاء بما التزمه، وكفارة اليمين.

وفى حديث عائشة المتقدم أولاً وهو بمعنى حديث «لا نذر فى معصية»^(٧).

ولو ثبتت الزيادة لكانت مبينة لما أجمل فيه، واحتج بعض الحنابلة بأنه ثبت عن جماعة من الصحابة، ولا يحفظ عن صحابى خلافه، قال: والقياس يقتضيه، لأن النذر يمين، كما وقع فى حديث عقبة لما نذرت أخته أن تحج ماشية لتكفر عن يمينها^(٨)، فسمى النذر يميناً، ومن حيث النظر هو عقدة الله تعالى بالتزام شىء، والخالف عقد يمينه بالله ملتزماً بشىء، ثم بين أن النذر أكد من اليمين، ورتب عليه أنه لو نذر معصية ففعلها لم تسقط عته الكفارة بخلاف الخالف، وهو وجه للحنابلة واحتج له بأن الشارع نهى عن المعصية وأمر بالكفارة، فتعينت.

واستدل بحديث «لا نذر فى معصية» لصحة النذر فى المباح؛ لأن فيه نفى النذر فى المعصية، فبقى ما عداه ثابتاً، واحتج من قال أنه يشرع فى المباح بما أخرجه أبو داود من

(١) أخرجه النسائي فى «الكبرى» (٤٧٥٤) بإسناد فيه راو لم يسم.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى «النذر» (١١/١٠٤ - النووى).

وانظر «السييل» (٢٦٤٣) - بتخریجنا.

(٣) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٤٤/٤) وأبو داود (٣٣٢٣) والترمذى (١٥٢٨) وانظر تمام تخریجه فى «منار السيل» (٢٧٨٦) بتخریجنا.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢١٢٧) وانظر (٢٧٨٦) فى «منار السيل» بتخریجنا.

(٥) أخرجه أبو داود (٣٣٢٢) وانظر منار السيل بالرقم المتقدم.

(٦) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (٣/٤٧٢/١٠) وانظر منار السيل الرقم المتقدم بتخریجنا.

(٧) تقدم قريباً.

(٨) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٨٦٦)، ومسلم فى المنذر (١١/١١٤/٦).

طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جد^(١) وأخرجه أحمد والترمذى من حديث بريدة أن امرأة قالت: يا رسول الله إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدف، فقال أوف بنذكرك^(٢) وزاد فى حديث بريدة أن ذلك وقت خروجه فى غزوة، فنذرت إن رده الله تعالى سالماً^(٣)، قال البيهقى: يشبه أن يكون أذن لها فى ذلك لما فيه من إظهار الفرح بالسلامة، ولا يلزم من ذلك القول بانعقاد النذر به.

وقال ابن حجر: ويمكن أن يقال: إن من قسم المباح ما قد يصير بالقصد مندوباً كالنوم فى القائلة، ويمكن أن يقال إن إظهار الفرح بعود النبى سالماً معنى مقصود يحصل به الثواب أهـ. (٤).

قال الشنقيطى^(٥):

اعلم أن العلماء اختلفوا فيمن نذر نذراً لا يلزم الوفاء به هل تلزمه كفارة يمين أو لا يلزمه شيء.

وحجة من قال : لا يلزمه شيء: هو حديث نذر أبى إسرائيل، أنه لا يقعد ولا يتكلم، ولا يستظل، وقد أمره النبى ﷺ فى الحديث الصحيح أنه لا يفى بهذا النذر^(٦)، ولم يقل له إن عليه كفارة يمين.

قال القرطبى فى قصة أبى إسرائيل: هذه أوضح الحجج للجمهور فى عدم وجوب الكفارة، على من نذر معصية، أم ما لا طاعة فيه، فقد قال مالك لما ذكره: ولم أسمع أن رسول الله ﷺ، أمره بالكفارة، وأما الذين قالوا: إن النذر الذى لا يجب الوفاء به تجب فيه كفارة يمين فقد احتجوا بما رواه مسلم فى صحيحه: عن عقبة بن عامر رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «كفارة النذر كفارة اليمين»^(٧) أهـ، وظاهره شموله للنذر الذى لا يجب الوفاء به.

(١) أخرجه أبو داود (٣٣١٢) وانظر «السييل» (٢٦٤٦) - بتخريننا

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٥٣/٥، ٣٥٦)، والترمذى (٣٦٩٠) عن بريدة به قال الترمذى:

حسن صحيح غريب.

وانظر «السيل» (٢٦٤٦) - بتخريننا).

(٣) تقدم قبله

(٤) فتح البارى (١١/٥٩٥/٥٩٦).

(٥) «أضواء البيان» (٥/٤٥٣-٤٥٨)

(٦) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٠٦٧) عن ابن عباس به.

وانظر «منار السيل» (٢٧٩٢) - بتخريننا).

(٧) تقدم قريباً.

وقال النووي فى شرح مسلم، اختلف العلماء فى المراد به فحمله جمهور أصحابنا على نذر اللجاج، وهو أن يقول إنسان يريد الامتناع من كلام زيد مثلاً: إن كلمت زيداً مثلاً، فله على حجة، أو غيرها، فيكلمه فهو بالخيار بين كفارة يمين، وبين ما التزمه، هذا هو الصحيح فى مذهبنا، وحمله مالك وكثيرون أو الاكثرون على النذر كقوله: على نذر، وحمله أحمد وبعض أصحابنا على نذر المعصية، كمن نذر أن يشرب الخمر وحمله جماعة من فقهاء أصحاب الحديث، على جميع أنواع النذر، وقالوا: هو مخير فى جميع المنذورات بين الوفاء بما التزم، وبين كفارة يمين والله أعلم اهـ كلام النووي.

ولا يخفى بعد القول الأخير لقوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ فهو أمر جازم مانع للتخيير بين الإيفاء به، وبين شىء آخر.

● والأظهر عندى فى معنى الحديث: أن من نذر نذراً مطلقاً كأن يقول: على الله نذر أنه تلزمه كفارة يمين، لما رواه ابن ماجه، والترمذى وصححه، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين»^(١) وروى نحوه أبو داود، وابن ماجه، عن ابن عباس^(٢).

وفى الحديثين بيان المراد بحديث مسلم، بأن المراد به: النذر المطلق الذى لم يسم صاحبه ما نذره، بل أطلقه والبيان يجوز بكل ما يزيد الإيهام، كما قدمناه مراراً، والمطلق يحمل على المقيد.

● وما يؤيد القول بلزوم الكفارة فى نذر اللجاج: أن النبى ﷺ لما حرم شرب العسل على نفسه فى قصة مملأة أزواجه عليه. وأنزل الله فى ذلك: ﴿لَمْ تُحْرَمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾^(٣) قال الله بعد ذلك ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾^(٤) فدل ذلك على لزوم كفارة اليمين، وكذلك قال ابن عباس^(٥) وغيره بلزوم كفارة اليمين، على القول بأنه

(١) تقدم تخريجه

(٢) [ضعيف] أخرجه أبو داود (٣٣٢٢) عن ابن عباس به.

وانظر «منار السبيل» (٢٧٨٦ - بتخریجنا) س.

(٣) التحريم: ١

(٤) التحريم: ٢ [متفق عليه] والحديث أخرجه البخارى (٥٢٦٧)، ومسلم فى الطلاق (٦ / ٣٣٠ / ٢٠)

عن عائشة به.

وانظر «فتح القدير» بتخریجنا.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٢٦٦)، ومسلم فى الطلاق (٦ / ٣٣٠ / ١٨) عن ابن عباس به

حرم جاريته، والأقوال فيمن حرم زوجته، أو جاريته، أو شيئاً من الحلال معروفة عند أهل العلم، فغير الزوجة والأمة لا يحرم بالتحريم قولاً واحداً والخلاف في لزوم كفارة اليمين، وعدم لزومها، وظاهر الآية لزومها وبعض العلماء يقول: لا يلزم فيه شيء وهو مذهب مالك وأصحابه، أما تحريم الرجل امرأته أو جاريته، ففيه لأهل العلم ما يزيد على ثلاثة عشر مذهباً معروفاً في محلها، وأجراها على القياس في تحريم الزوجة لزوم كفارة الظهار، لأن من قال لامرأته: أنت على كظهر أمي فهو بمثابة ما لو قال لها: أنت حرام، والظهار نص الله في كتابه، على أن فيه كفارته المنصوصة في سورة المجادلة.

أما نذر اللجاج فقد قدمنا القول، بأن فيه كفارة يمين، والمراد بنذر اللجاج النذر الذي يراد به الامتناع من أمر لا التقرب إلى الله.

قال ابن قدامة في «المغنى»: وجملته أنه إذا أخرج النذر مخرج اليمين، بأن يمنع نفسه أو غيره به شيئاً، أو يحدث به على شيء مثل أن يقول: إن كلمت زيدا، فله على الحج أو صدقة مالى أو صوم سنة، فهذا يمين، حكمه أنه مخير بين الوفاء بما حلف عليه، فلا يلزمه شيء، وبين أن يحنث فيتخير بين فعل المنذور وبين كفارة يمين، ويسمى نذر اللجاج والغضب، ولا يتعين الوفاء به، ثم قال: وهذا قول عمر وابن عباس، وابن عمر، وعائشة وحفصة، وزينب بنت أبي سلمة، وبه قال عطاء، وطاوس وعكرمة، والقاسم والحسن، وجابر بن زيد، والنخعي، وقتادة، وعبد الله بن شريك، والشافعي، والعنبري وإسحاق وأبو عبيد، وأبو ثور، وابن المنذر.

وقال سعيد بن المسيب: لا شيء في الحلف بالحج وعن الشعبي والحاتر العكلى وحماد والحكم: لا شيء في الحلف بصدقة ماله، لأن الكفارة إنما تلزم بالحلف بالله لحزمة الاسم، وهذا ما حلف باسم الله ولا يجب ما سماه، لأنه لم يخرج مخرج القرية، وإنما التزمه على طريق العقوبة، فلم يلزمه، وقال أبو حنيفة ومالك: يلزمه الوفاء بنذره، لأنه نذر فيلزم الوفاء به كندر البر، وزوى نحو ذلك عن الشعبي.

ولنا ما روى عمران بن حصين قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا نذر في غضب وكفارته كفارة يمين»^(١) رواه سعيد بن منصور والجوزجاني في المترجم، وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «من حلف بالمشي والهدى، أو جعل ماله في سبيل الله أو في

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد (٤/٤٣٣) والحاكم (٤/٣٠٥) والبيهقي (١٠/٧٠) وانظر منار السبيل (ج ٢٧٨٧) بتخريجنا.

المساكين أو فى رتاج الكعبة فكفارته كفارة يمين» إلى أن قال: وعن أحمد رواية ثانية أنه تتعين الكفارة، ولا يجزئه الوفاء بنذره، وهو قول بعض أصحاب الشافعى لأنه يمين أ.هـ. محل الغرض من المغنى، وروى أبو داود، عن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال: إن عدت تسألنى القسمة، فكل مالى فى رتاج الكعبة، فقال له عمر: إن الكعبة غنية عن مالك كفر عن يمينك وكلم أخاك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يمين عليك ولا نذر فى معصية الرب ولا فى قطعة رحم وفيما لا تملك» (١) اهـ.

رواه أبو داود. وسعيد بن المسيب لم يصح سماعه من عمر. قاله بعضهم: وعليه فهو من مراسيل سعيد، وذكر جماعة أنه ولد لستين مضتا من خلافة عمر رضى الله عنه، وعن أحمد ما يدل على سماع سعيد، من عمر وأنه قال: إن لم تقبل سعيداً، عن عمر، فمن يقبل، والظاهر سماعه من عمر كما صدر بما يدل عليه صاحب تهذيب التهذيب وعن مالك، وغيره أنه لم يدرك عمر وحديث سعيد المذكور عن عمر إما متصل، وإما مرسل من مراسيل سعيد، وقد قدمنا كلام العلماء فيها.

وقال الشوكانى فى «نيل الأوطار»: ولكن سعيد بن المسيب لم يسمع من عمر بن الخطاب، فهو منقطع، وروى نحوه عن عائشة: أنها سئلت عن رجل جعل ماله فى رتاج الكعبة إن كلم ذا قرابة. فقالت يكفر عن اليمين (٢). أخرجه مالك، والبيهقى بسند صحيح، وصححه ابن السكن اهـ. ولفظ مالك فى «الموطأ» فقالت عائشة رضى الله عنها: يكفره ما يكفر اليمين، وليس فى «الموطأ» أن فتراها هذه فى نذر لجاج بل الذى فيه: أنها سئلت عن رجل قال: مالى فى رتاج الكعبة؛ وهو بابها وهو براء مكسورة، فمناة فوقية بعدها ألف فجيم.

وهذا الذى ذكرنا هو: حاصل حجة من قال: إن نذر اللجاج فيه كفارة يمين، وهو الأقرب عندى لما ذكرنا، خلافاً لمن قال: لا شيء فيه، وأما نذر المعصية فلا خلاف فى أنه حرام، وأن الوفاء به ممنوع، وإنما الخلاف فى لزوم الكفارة به فمذهب جمهور أهل العلم أنه لا كفارة فيه، وعن أحمد والثورى وإسحاق، وبعض الشافعية، وبعض الحنفية: فيه الكفارة وذكر الترمذى: اختلاف الصحابة فى ذلك، واحتج من قال: بأنه ليس فيه كفارة بالأحاديث الصحيحة، الواردة بأنه: لا نذر فى معصية، ونفى نذر

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٧٢).

(٢) أخرجه مالك فى «الموطأ» (١٧/٣٨٣/٢)، والبيهقى فى «الكبرى» (٦٥/١٠).

المعصية مطلقًا: يدل على نفى أثره، فإذا انتفى النذر من أصله انتفت كفارته لأن التابع ينتفى بانتفاء المتبوع، وإن قلنا: إن الصيغة في قوله: لا نذر في معصية، خبر أريد به الإنشاء وهو النهي عن نذر المعصية فالنهي يقتضي الفساد، وإذا فسد المنذور بالنهي، بطل معه تأثيره في الكفارة، قالوا: والأصل براءة الذمة من الكفارة.

قالوا: وما يؤيد ذلك الأحاديث الواردة بأنه: لا نذر إلا فيما ابتغى به وجه الله، قال المجد في المتقى: رواه أحمد، وأبو داود وفي لفظ عند أحمد: إنما النذر ما ابتغى به وجه الله، وهو من رواية عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده^(١). وفي إسناده مناقشات تركناها اختصارًا.

واحتج من قال: بأن في نذر المعصية كفارة ببعض الأحاديث الواردة بذلك.

منها: ما روى عن عائشة رضى الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين»^(٢) قال المجد في المتقى: رواه الخمسة، واحتج به أحمد، وإسحاق ومعلوم أن مراده بالخمس: الإمام أحمد وأصحاب السنن، ولفظ أبي داود في هذا الحديث:

حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن معمر، ثنا عبد الله بن المبارك، عن يونس عن الزهري، عن أبي سلمة، عن عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ قال: «لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين».

حدثنا ابن السرح قال: ثنا وهب عن يونس، عن ابن شهاب بمعناه وإسناده. قال أبو داود: سمعت أحمد بن شبيب، يقول: قال ابن المبارك: يعنى في هذا الحديث: حدث أبو سلمة، فدل ذلك على أن الزهري لم يسمعه من أبي سلمة، وقال أحمد بن محمد: وتصديق ذلك: ما حدثنا أيوب يعنى ابن سليمان قال أبو داود: سمعت أحمد بن حنبل يقول: أفسدوا علينا هذا الحديث، قيل له وصح إسناده عندك، وهل رواه غير ابن أبي أويس؟ قال: أيوب كان أمثل منه، يعنى: أيوب بن سليمان بن بلال، وقد رواه أيوب.

حدثنا أحمد بن محمد المروزي، ثنا أيوب بن سليمان، عن أبي بكر بن أبي أويس، عن سليمان بن بلال، عن ابن أبي عتيق وموسى بن عقبة، عن ابن شهاب، عن سليمان بن أرقم: أن يحيى بن أبي كثير أخبره، عن أبي سلمة عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين» قال أحمد

(١) أخرجه أحمد «مسنده» (١٨٥/٢)، وأبو داود (٣٢٧٣) وانظر كتابنا «تخريج أحاديث فقه السنة».

(٢) تقدم تخريجه.

ابن محمد المروزي إنما الحديث حديث علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير عن محمد ابن الزبير، عن أبيه عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ أراد أن سليمان بن أرقم وهم فيه، وحمله عنه الزهري وأرسله عن أبي سلمة عن عائشة رحمها الله!

قال أبو داود: روى بقية عن الأوزاعي، عن يحيى، عن محمد بن الزبير بإسناد على بن المبارك مثله اهـ، من سنن أبي داود بلفظه، وفيه سوء ظن كثير بالزهري، وهو أنه حذف من إسناد الحديث واسطتين: وهما سليمان بن أرقم، ويحيى بن أبي كثير، وأرسله عن أبي سلمة وكذلك قال الترمذي بعد إخراج حديث عائشة المذكور، لا يصح، لأن الزهري لم يسمع هذا الحديث من أبي سلمة، ومما يقوى سوء الظن المذكور بالزهري: أن سليمان بن أرقم الذي حذفه من الإسناد متروك لا يحتج بحديثه، فحذف المتروك ورواية حديثه عن فوقه من العدول من تدليس التسوية، وهو شر أنواع التدليس وأقبحها، ولا شك أن هذا النوع من التدليس قاذح فيمن تعمدته، وما ذكره بعضهم: من أن الثوري والأعمش كانا يعلان هذا النوع من التدليس مجاب عنه بأنهما لا يدلسان إلا عن موثقة عندهما وإن كان ضعيفاً عند غيرهما. ومن المستبعد أن يكون الزهري يحسن الظن بسليمان بن أرقم مع اتفاق الحفاظ على عدم الاحتجاج به.

● **والحاصل:** أن لزوم الكفارة في نذر المعصية، جاءت فيه أحاديث متعددة، لا يخلو شيء منها من كلام، وقد يقوى بعضها بعضاً.

وقال الشوكاني: قال النووي في الروضة حديث «لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين» ضعيف باتفاق المحدثين.

قال الحافظ: قلت: قد صححه الطحاوي، وأبو علي بن السكن، فأين الاتفاق انتهى منه، وقد تركنا تتبع الأحاديث الواردة فيه، ومناقشتها اختصاراً، والأحوط لزوم الكفارة، لأن الأمر مقدم على الإباحة كما تقرر في الأصول للاحتياط في الخروج من عهدة الطلب، فمن أخرج كفارة عن نذر المعصية، فقد برئ من المطالبة بها باتفاق الجميع، ومن لم يخرجها بقي مطالباً بها على قول أحمد، ومن ذكرنا معه.

وقال ابن عثيمين ردّاً على مسألة (هل ينعقد نذر المعصية؟).

● **الجواب:** نعم، ينعقد، ولهذا قال الرسول ﷺ: «من نذر أن يعصى الله فلا يعصه»^(١). ولو قال: من نذر أن يعصى الله فلا نذر له، لكان لا ينعقد، ففي قوله: «فلا يعصه» دليل على أنه ينعقد لكن لا ينفذ.

(١) تقدم تخريجه.

وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ).

وإذا انعقد، هل تلزمه كفارة أو لا؟

اختلف في ذلك أهل العلم، وفيها روايتان عن الإمام أحمد:

فقال بعض العلماء: إنَّه لا تلزمه الكفارة، واستدلوا بقول النبي، «لا وفاء لنذر في معصية الله».

ويقوله ﷺ: «ومن نذر أن يعصى الله، فلا يعصه» ولم يذكر النبي ﷺ كفارة، ولو كانت واجبة، لذكرها.

القول الثاني: تجب الكفارة، وهو المشهور من المذهب، لأنَّ الرسول ذكر في حديث آخر غير الحديثين أن كفاته كفارة يمين (١).

قوله: (ولا فيما لا يملك ابن آدم)

قال الشنقيطي (٢): الفرع الأول: اعلم أنه لا نذر لشخص في التقرب بشيء لا يملكه، وقد ثبت ذلك عن النبي ﷺ.

قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه: وحدثني زهير بن حرب، وعلى بن حجر السعدي واللفظ لزهير قالا: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا أيوب، عن أبي قلابة عن أبي المهلب، عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: كانت ثقيف حلفاء لبني عقيل فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ الحديث بطوله.

وفيه ما نصه: وأسرت امرأة من الأنصار، وأصيبت العضباء فكانت المرأة في الوثاق، وكان القوم يريحون نعمهم بين يدي ييوتهم، فانفلتت ذات ليلة من الوثاق، فأنت الإبل، فجعلت إذا دنت من البعير رغا فتتركه حتى تنتهي إلى العضباء، فلم ترغ قال: وناقاة منوقة، فقعدت في عجزها، ثم زجرتها فانطلقت ونذروا بها فطلبوها، فأعجزتهم قالت: ونذرت لله إن نجأها الله عليها لتحنرنها فلما قدمت المدينة رآها الناس فقالوا العضباء ناقاة رسول الله ﷺ قالت: إنها نذرت إن نجأها الله عليها لتحنرنها. فأتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له فقال: «سبحان الله بئسما جزيتها نذرت لله إن نجأها الله عليها لتحنرنها لا وفاء لنذر في معصية، ولا فيما لا يملك العبد» (٣) الحديث، ومحل

(١) القول المفيد (٣٠٩/١).

(٢) أضواء البيان (٤٠٢/٥).

(٣) [صحح] أخرجه مسلم في النذر (٨/١١١/٦).

الشاهد منه قوله ﷺ : «ولا فيما لا يملك العبد» وهذا نص صحيح صريح فيما ذكرنا، ويؤيد حديث ثابت بن الضحاك : أنه ﷺ قال : «لا وفاء لنذر في معصية الله ولا في قطيعة رحم ولا فيما لا يملك ابن آدم» (١) . ا. هـ .

قال الحافظ في بلوغ المرام : رواه أبو داود والطبراني، واللفظ له، وهو صحيح الإسناد، وله شاهد من حديث كردم عند أحمد (٢) .

قال سليمان آل الشيخ (٣) : قال في «شرح المصاييح» : يعنى إذا أضاف النذر إلى معين لا يملكه بأن قال : إن شفى الله مريضى فله على أن أعتق عبد فلان، أو أتصدق بثوبه ونحو ذلك، فأما إذا التزم فى الذمة شيئاً لا يملكه فيصح نذره، مثاله إن شفى الله مريضى فله على أن أعتق رقبة، وهو فى ذلك الحال لا يملك رقبة ولا قيمتها، فيصح نذره، وإذا شفى ثبت النذر فى ذمته .

قال ابن عثيمين (٤) : وقوله : «ولا فيما لا يملك ابن آدم» الذى لا يملكه ابن آدم يحتمل معنيين :

الأول ما لا يملك فعله شرعاً، كما لو قال : لله على أن أعتق عبد فلان، فلا يصح لأنه لا يملك إعتاقه .

الثانى : ما لا يملك فعله قدرًا، كما لو قال : لله على نذر أن أطير بيدي، فهذا لا يصح لأنه لا يملكه .

والفقهاء رحمهم الله يمثلون بمثل هذا للمستحيل .

قوله : رواه أبو داود وإسناده على شرطهما :

قال سليمان آل الشيخ (٥) : قوله : رواه أبو داود وإسناده على شرطهما : أى : شرط البخارى ومسلم، وأضمرهما للعلم بذلك، وأبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشر بن شداد الأزدي السجستاني، صاحب الإمام أحمد، ومصنف «السنن» وغيرها ثقة إمام حافظ من كبار العلماء، مات سنة خمس وسبعين ومائتين .

(١) تقدم تخريجه فى حديث الباب .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) تيسير العزيز الحميد (١٤٦) .

(٤) القول المفيد ٣٠٩/١ .

(٥) تيسير العزيز الحميد ١٤٧ .

● فوائد:

قال ابن باز^(١): فالشاهد: أن المؤمن لا ينبغي أن يفعل الطاعة في مكان من أماكن الجاهلية والشرك والمعاصي إلا إذا غيّر هذا المكان وصار مسجداً مثلاً أو بيتاً وزالت عنه آثار الجاهلية ونسيت فلا بأس كما أمر النبي بهدم اللات وبناء مسجد مكانه فهذا يجوز التعبد فيه .

ثم قال: فائدة:

إذا حصل شرك أو بدع عند القبور فهذا لا يمنع من زيارتها الشرعية كما إذا حصلت المعصية في المسجد فلا يمنع من الصلاة فيه .

قلت: وهذا بضوابط للزائر، كما سيأتي بيانها في الباب التاسع عشر.

ثم قال: فائدة:

أمر عمر بن الخطاب بالصلاة في الكنيسة لأنهم اتخذوها معبداً لله لكن عبادتهم غير مستقيمة وفيها شرك وباطلة، فلعل الشبهة أنهم اتخذوها معبداً لله أو أن المؤمنين مضطرون للصلاة فيها عند مرورهم منها عند أسفارهم فقد يكون للضرورة أو لأن جنس عبادة الله متفق عليها بينهم فيما يتعلق بالصلاة.

قلت: ولأن الصلاة لا تشبه صلاتهم بخلاف الذبح فهو الصورة واحد فلهذا جازت الصلاة ولم يجز الذبح كما تقدم وكما سيأتي عن ابن عثيمين.

قال ابن عثيمين^(٢):

ويستفاد من الحديث:

أنه لا يذبح بمكان يذبح فيه لغير الله، وهو ما ساقه المؤلف من أجله والحكمة من ذلك ما يلي:

الأول: أنه يؤدي إلى التشبه بالكفار.

الثاني: أنه يؤدي إلى الاغترار بهذا الفعل، لأن من رآك تذبح بمكان يذبح فيه المشركون ظن أن فعل المشركين جائز.

الثالث: أن هؤلاء المشركين سوف يقوون على فعلهم إذا رأوا من يفعل مثلهم، ولا شك أن تقوية المشركين من الأمور المحظورة، وإغاظتهم من الأعمال الصالحة، قال الله

(١) التعليق المفيد ٨٥

(٢) القول المفيد ١ / ٣١٠.

فيه مسائل

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة.

الثالثة: رد المسألة المشككة إلى المسألة البينة؛ ليزول الإشكال.

تعالى: ﴿وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾^(١).

قلت: ويستفاد من الحديث أيضاً أنه لا يذبح لله في زمان يذبح فيه لغير الله مثل من نذر أن يذبح لله في عيد ميلاد النبي ﷺ «المولد النبوي» وذلك لأن الحديث شمل النهي عن العيد المكاني والزمانى ومشابهة الجاهلية فيهما.

قال ابن عثيمين^(٢):

فيه مسائل:

● الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾

وقد سبق ذلك في أول الباب.

● الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة.

أى: لما كانت هذه الأرض مكان شرك، حرّم أن يعمل الإنسان ما يشبه الشرك فيها لمساواة المشركين.

أما بالنسبة للصلاة في الكنيسة، فإن الصلاة تخالف صلاة أهل الكنيسة، لا يكون الإنسان متشبهاً بهذا العمل، بخلاف الذبح في مكان يذبح فيه لغير الله، فإن الفعل واحد بنوعه وجنسه، ولهذا لو أراد إنسان أن يصلى في مكان يذبح فيه لغير الله لجاز ذلك، لأنه ليس من نوع العبادة التى يفعلها المشركون فى هذا المكان.

وكذا الطاعة تؤثر في الأرض، ولهذا، فإن المساجد أفضل من الأسواق، والقديم منها أفضل من الجديد.

● الثالثة: رد المسألة المشككة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال.

(١) التوبة / ١٢٠

(٢) القول المفيد ١/ ٣١١ - ٣١٥.

الرابعة: استِفْصَالُ الْمُفْتَى إِذَا احتَاجَ إِلَى ذَلِكَ.

الخامسة: أَنَّ تَخْصِيصَ البُقْعَةِ بالنَّذْرِ لَا بِأَسَبٍ إِذَا خَلَا مِنَ المَوَانِعِ.

السادسة: المَنعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ وَثْنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ.

فالمنع من الذبح في هذا المكان أمر مشكل، لكن الرسول ﷺ بين ذلك بالاستفصال.

● الرابعة: استِفْصَالُ الْمُفْتَى إِذَا احتَاجَ إِلَى ذَلِكَ.

لأن النبي ﷺ استفصل، لكن هل يجب الاستفصال على كل حال، أو إذا وجد الاحتمال؟

الجواب: لا يجب إلا إذا وجد الاحتمال، لأننا لو استفصلنا في كل مسألة، لطال الأمر.

فمثلاً: لو سألنا سائل عن عقد بيع لم يلزم أن نستفصل عن الثمن: هل هو معلوم؟ وعن المثل: هل هو معلوم؟ وهل وقع البيع معلّقاً أو غير معلّق؟ وهل كان ملكاً للبائع؟ وكيف ملكه؟ وهل انتفت موانعه أو لا؟

أمّا إذا وجد الاحتمال، فيجب الاستفصال، مثل: أن يسأل عن رجل مات عن بنت وأخ وعم شقيق، فيجب الاستفصال عن الأخ: هل هو شقيق لأب أو لأم؟ فإن كان لأم، سقط، وأخذ الباقي العم، وإلا، سقط العم، وأخذ الباقي الأخ.

● الخامسة: أَنَّ تَخْصِيصَ البُقْعَةِ بالنَّذْرِ لَا بِأَسَبٍ إِذَا خَلَا مِنَ المَوَانِعِ.

لقوله: «أوف بنذرِك» وسواء كانت هذه الموانع واقعة أو متوقعة.

فالواقعة: أن يكون فيها وثن أو عيد من أعياد الجاهلية.

والمتوقعة: أن يخشى من الذبح من هذا المكان تعظيمه، فإن خشى، كان ممنوعاً، مثل: لو أراد أن يذبح عند جبل، فالأصل أنه جائز، لكن لو خشى أن العوام يعتقدون أن في هذا المكان مزيّة، كان ممنوعاً.

● السادسة: المَنعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ وَثْنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ.

لقوله: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية؟» لأن «كان» فعل ماضٍ، والمحذور بعد زوال الوثن باقٍ، لأنّه ربما يعاد.

- السابعة: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم، ولو بعد زواله.
- الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة لأنه نذر معصية.
- التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم، ولو لم يقصده.
- العاشرة: لا نذر في معصية الله.
- الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

-
- السابعة: المنع منه إذا كان فيها عيد من أعيادهم، ولو بعد زواله .
- لقوله: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟»
- قلت: وهذا يؤيد ما ذهبت إليه من المنع من الذبح لله في زمان يذبح فيه لغير الله .
- الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة، لأنه نذر معصية.
- لقوله: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله».
- التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده.
- وقد نصَّ شيخ الإسلام ابن تيمية على أن حصول التشبه لا يشترط فيه القصد، فإنه يمنع منه ولو لم يقصده، لكن مع القصد يكون أشدَّ إنمًا، ولهذا قال شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب: ولو لم يقصده.
- قلت: ودليلهم النهي عن الصلاة، عند الغروب والشروق^(١) والصحابه لم يقصدوا المشابهة ومع ذلك نهاهم.
- العاشرة: لا نذر في معصية الله .
- هكذا قال المؤلف، ولفظ الحديث المذكور: «لا وفاء لنذر» وبينهما فرق .
- فإذا قيل لا نذر في معصية، فالمعنى أن النذر لا يتعقد، وإذا قيل لا وفاء، فالمعنى أن النذر يتعقد، لكن لا يوفى، وقد وردت السنة بهذا وبهذا.
- لكن: «لا نذر» يحمل على أن المراد لا وفاء لنذر، لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه».
- الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.
- يقال فيه ما قيل في: لا نذر في معصية.
- والمعنى: لا وفاء لنذر. فيما لا يملك ابن آدم، ويشتمل ما لا يملكه شرعاً، وما لا يملكه قدرًا أ.هـ.

(١). [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٨١)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٣/٣٧٢/٢٨٦) عن عمر به .

(١١) بَابُ مَنْ الشَّرْكَ النَّذْرَ لغيرِ الله

● مناسبة الباب بما قبله

قال الفقير: علاقة الباب بما قبله من باب ذكر العام بعد الخاص فقد ذكر حكم الذبح لغير الله في الباب قبل الماضي وهذا أخص من النذر والنذر أعم يدخل فيه الذبح لغير الله وغيره لكن نص هناك على الذبح لانه أكثر وأعم وأطم ثم ثنى بهذا الباب ليشمل الذبح وغيره والله أعلم.

- مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١):

أى إنه من العبادة، فيكون صرفه لغير الله شركاً، فإذا نذر طاعة وجب عليه الوفاء بها وهو عبادة، وقرية إلى الله. ولهذا مدح الله الموفين به، فإن نذر لمخلوق تقريباً إليه ليشفع له عند الله، ويكشف ضره ونحو ذلك فقد أشرك فى عبادة الله تعالى غيره ضرورة؛ كما أن من صلى لله وصلى لغيره فقد أشرك كذلك. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله^(٢): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هي أن النذر لله من أنواع العبادة فصرفه لغير الله شرك ينافى التوحيد. اهـ.

قبل الشروع فى الباب، لابد من: -

● تعريف النذر قال الحافظ: النذور جمع نذر، وأصله الإنذار، بمعنى التخويف، وعرفه الراغب: بأنه إيجاب ماليس بواجب لحدوث أمر. اهـ^(٣).

قال الطبرى^(٤): والنذر هو كل ما أوجبه الإنسان على نفسه من فعل ومنه قول عنترة:

الشامى عرضى ولم أشتمهما والناذرين إذا لم ألقهما دى اهـ.

قال ابن الجوزى^(٥).

ومعنى النذر فى اللغة الإيجاب^(٦). وذكره الشوكانى^(٧) وابن الجوزى^(٨). اهـ.

(٢) الجامع الفريد ٥٥.

(٤) تفسير الطبرى ١٢/٢٩/١٢٩.

(٦) كذا فى اللسان (٥/٢٠٠).

(٨) زاد المسير ١/٢٦٧.

(١) تيسير العزيز الحميد ١٤٧.

(٣) فتح البارى (١١/٥٢٥).

(٥) زاد المسير ٨/١٦٧.

(٧) فتح القدير ٥/٣٢٤.

قال الرازي^(١): أما النذر فقال أبو مسلم النذر كالوعد، إلا أنه إذا كان من العباد فهو نذر، وإن كان من الله تعالى فهو وعد، واختص هذا اللفظ في عرف الشرع بأن يقول الله على كذا وكذا من الصدقة، أو يعلق ذلك بأمر يلتزمه من الله تعالى مثل أن يقول إن شفى الله مريضى، أو رد غائبى فعلى كذا كذا.

وقال الرازي في موضع آخر^(٢): النذر ما يلتزمه الإنسان بإيجابه على نفسه يقال: نذر ينذر، وأصله من الخوف لأن الإنسان إنما يعقد على نفسه خوف التقصير في الأمر المهم عنده، وأنذرت القوم إنذاراً بالتخويف، وفي الشريعة على ضربين: مفسر وغير مفسر. فالمفسر أن يقول: لله على عتق رقبة، والله على حج، فههنا يلزم الوفاء به، ولا يجزيه غيره.

وغير المفسر أن يقول: نذرت لله أن لا أفعل كذا ثم يفعله، أو يقول: لله على نذر من غير تسمية فيلزم فيه كفارة يمين، لقول ﷺ: «من نذر نذراً وسمى فعليه ما سمي، ومن نذر نذراً ولم يسم فعليه كفارة يمين». اهـ.

قال القرطبي^(٣): والنذر حقيقته ما أوجبه المكلف على نفسه من شيء يفعله. وإن شئت قلت في حدّه: النذر هو إيجاب المكلف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه. اهـ.

قال الشنقيطي^(٤): واعلم: أن النذر في اللغة النحب - كذا في اللسان - وهو ما يجعله الإنسان نجباً واجباً عليه قضاؤه، ومنه قوله ليبد:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

وحاصله: أنه إلزام الإنسان نفسه بشيء لم يكن لازماً لها، فيجعله واجباً عليها وهو في اصطلاح الشرع: التزام المكلف قرابة لم تكن واجبة عليه.

وقال ابن الأثير في «النهاية»: يقال: نذرت أنذر وأنذر نذراً إذا أوجبت على نفسى شيئاً تبرعاً من عبادة أو صدقة أو غير ذلك.

ثم قال الشنقيطي: اعلم: أن تعريف المالكية للنذر شرعاً: بأنه التزام مسلم مكلف، ولو غضبان إلى آخره فيه أمران.

(الأولى) أن اشتراط الإسلام في النذر فيه نظر، لأن ما نذره الكافر من فعل الطاعات قد يتعقد نذره له بدليل أنه يفعله إذا أسلم بعد ذلك، ولو كان لغواً غير منعقد، لما كان له أثر بعد الإسلام:

(٢) الرازي في ٤ / ٧٦٧.

(١) التفسير الكبير ١٥ / ٣٠ - ٢٤٢.

(٤) أضواء البيان ٥ / ٤٦٥.

(٣) القرطبي ١٠ / ٦٩١٨.

قال البخارى رحمه الله فى صحيحه: عن ابن عمر: أن عمر قال: يا رسول الله ﷺ إني نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة فى المسجد الحرام قال: «أوف بنذرك» (١) انتهى منه. فقوله ﷺ لعمر فى هذا الحديث الصحيح: «أوف بنذرك» مع أنه نذره فى الجاهلية صريح فى ذلك كما ترى، ولا التفات إلى ما أوله به بعض العلماء من المالكية وغيرهم. (الثانى): وقول المالكية فى تعريف النذر، ولو غضبان، لا يخفى أن العلماء مختلفون فى نذر الغضبان، هل يلزم فيه ما نذر أو هو من نوع اللجاج، تلزم فيه كفارة يمين؟. اهـ.

قال ابن عثيمين (٢): النذر لغير الله مثل أن يقول: لفلان علىّ نذر، أو لهذا القبر علىّ نذر، أو لجبريل علىّ نذر، يريد بذلك التقرب إليهم، وما أشبه ذلك.

والفرق بينه وبين نذر المعصية: أن النذر لغير الله ليس لله أصلاً، ونذر المعصية لله، ولكنه على معصية من معاصيه، مثل أن يقول: لله علىّ نذر أن أفعل كذا وكذا من معاصي الله؛ فيكون النذر لله والمنذور معصية.

ونظير هذا الحلف بالله على شئ محرم، والحلف بغير الله؛ فالحلف بغير الله مثل: والنبي؛ لأفعلن كذا وكذا، ونظيره النذر لغير الله، والحلف بالله على محرم، مثل: والله؛ لأسرقن، ونظيره نذر المعصية. اهـ.

قال الفقير: وسيأتى مزيد تفصيل لهذا الكلام (٣).

فصل فى حكم النذر لغير الله (*)

حكم النذر لغير الله قطع به المصنف وقال: باب من الشرك النذر لغير الله.

قال صاحب أحكام القرآن القاضى أبو بكر بن العربى المالكي: قد نهى عن النذر وندب إلى الدعاء والسبب فيه أن الدعاء عبادة عاجلة، ويظهر به التوجه إلى الله تعالى، والتضرع له، وهذا بخلاف النذر فإن فيه تأخير العبادة إلى حين الحصول وترك العمل إلى حين الضرورة، فقد نص أبو بكر على أن الدعاء والنذر عبادتان. ولا يفترى مسلم أن من عبد غير الله فقد أشرك، ولكن قال تعالى: ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤). اهـ.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القول المفيد ٣١٦/١ و ٣١٧.

(٣) وسيأتى تفصيل هذا الكلام من أضواء البيان - إن شاء الله -.

(*) تقدم شئ من ذلك فى الباب الذى قبل هذا.

(٤) يونس آيه/ ١٠١ تيسير العزيز الحميد ١٥٧.

- قال الشيخ: صنع الله الحلي الخنفي - في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء وأثبت الأجر في ذلك: فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان وفلان فهو لغير الله، فيكون باطلاً. وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ أى صلاتي وذبحي لله كما فسر به قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾ وفي الحديث «لأنذر في معصية الله»^(١) رواه أبو داود وغيره، والنذر لغير الله إشراك على الله، إلى أن قال: فالنذر لغير الله كالترجيع لغيره.

وقال الفقهاء: خمسة لغير الله شرك الركوع والسجود، والنذر، والذبح، واليمين. قال: «والحاصل»: أن النذر لغير الله فجور، فمن أين تحصل لهم الأجور؟ انتهى^(٢). - وقال صاحب تيسير العزيز الحميد: أى إنه من العبادة، لكون صرفه لغير الله شركاً^(٣). اهـ.

قال المصنف: فى المسألة الثانية من مسائل الباب: إذا ثبت كونه عبادة فصرفه إلى غير الله شرك. اهـ. قال ابن عثيمين^(٤): وهذه قاعدة فى توحيد العبادة فأى فعل كان عبادة فصرفه لغير الله شرك.

قال عبد الله جار الله^(٥): النذر لغير الله من أنواع العبادة فصرفه لغير الله شرك ينافى التوحيد. اهـ.

قال السعدى: فإن النذر عبادة مدح الله الموفين بها وأمر النبي ﷺ بالسوفاء بنذر الطاعة، وكل أمر مدحه الشارع أو أثنى على من قام به أو أمر به، فهو عبادة، فإن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة، والنذر من ذلك^(٦). اهـ.

- حكم النذر والناذر.

قال الشيخ ابن عثيمين: مبيناً حكم النذر لغير الله وحكم الناذر أيضاً.

(١) تقدم تخريجه.

(٢)، (٣) تيسير العزيز الحميد (١٤٩، ١٥٠).

(٤) القول المفيد (١/ ٣٢٢).

(٥) الجامع الفريد (ص ٥٥).

(٦) القول السديد ٥٠.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾^(١)

وحكم النذر لغير الله شرك لأنه عبادة للمندور له وإذا كان عبادة فقد صرفها لغير الله فيكون مشركاً^(٢).

قال صاحب «المعارج»:

والذبح والنذر وغير ذلك فافهم هديت أوضح المسالك

ثم قال أحمد حكى - ميبناً بعض أدلة الوفاء بالنذر وأنه عبادة: - «والنذر» أى ومن أنواع العبادة النذر لله عز وجل قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾^(٥). اهـ.

- مناسبة الآية للباب والتوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٦): وجه الدلالة من الآية على الترجمة أن الله تعالى مدح الموفين بالنذر، والله تعالى لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب، أو ترك محرم، لا يمدح على فعل المباح المجرد، وذلك هو العبادة، فمن فعل ذلك لغير الله متقرباً إليه فقد أشرك. اهـ.

قال الشيخ حامد بن محمد بن حسن^(٧): «دلنا - أى آية سورة الإنسان وآية سورة البقرة - على المقصود بالالتزام، لأن الله أثنى على الناذر الموفى وأقرهم على ذلك قضاء منه عبادة له، فإذا إنه عبادة ففعله لغيره شرك وكفر». اهـ.

قال الشيخ ابن عثيمين^(٨): وجه استدلال المؤلف بالآية على أن النذر لغير الله من الشرك: أن الله تعالى أثنى عليهم بذلك، وجعله من الأسباب التى بها يدخلون الجنة، ولا يكون سبباً يدخلون به الجنة إلا وهو عبادة؛ فيقتضى أن صرفه لغير الله شرك. اهـ.

(١) الإنسان: ٧.

(٢) القول المفيد (٣١٦).

(٣) الحج: ٢٩.

(٤) الإنسان: ٧.

(٥) البقرة: ٢٧٠، وانظر معارج القبول (١/٣٦٤، ٣٦٥).

(٦) التيسير ١٤٧.

(٧) فتح الله الحميد المجيد ٢٣٠.

(٨) القول المفيد ٣١٧/١.

قال عبد الله بن جابر الله^(١): ومناسبتها للباب ان الله مدح الموفين بالنذر فدل على أنه عبادة فمن نذر لغير الله متقرباً إليه فقد أشرك. اهـ.

قال القرعاوي^(٢): مناسبة الآية للباب: حيث امتدحت الآية الوفاء بالنذر والله لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب أو ترك محرم لذا يكون الوفاء بالنذر عبادة وصرف العبادة إلى غير الله شرك. اهـ.

● تبينة .

قال ابن عثيمين^(٣): هذه الآية سبقت لمدح الأبرار، ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

ومدحهم بهذا يقتضى أن يكون عبادة؛ لأن الإنسان لا يمدح ولا يستحق دخول الجنة إلا بفعل شيء يكون عبادة.

ولو أعقب المؤلف هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾؛ لكان أوضح؛ لأن قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أمر، والأمر بوفائه يدل على أنه عبادة؛ لأن العبادة ما أمر به شرعاً. اهـ.

- الاعراب:

قال الشوكاني^(٤): ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ مستأنفه مسوقة لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر، وكذا ما عطف عليها. ١. اهـ.

قال محبى الدين^(٥): ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ كلام مستأنف استئنافاً بيانياً كأنه قيل: بِمَ استحقوا هذا النعيم؟ فقيل يوفون، (ويوفون) فعل مضارع مرفوع (والواو) فاعل (وبالنذر) متعلقان (بيوفون) (ويوماً) مفعول به وجملة كان صفة (ليوم) (وشره) اسم كان (ومستطيراً) خبرها. اهـ.

● التفسير بالماثور من المرفوع:

وأسند البغوى^(٦) عن عائشة: زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه^(٧).

- | | |
|--------------------------|-------------------------|
| (١) الجامع الفريد ٥٥. | (٢) الجديد ١١٧. |
| (٣) القول المفيد ١/ ٣١٧. | (٤) اعراب القرآن/ ٣١٦. |
| (٥) فتح القدير ٥/ ٣٤٤. | (٦) معالم التنزيل/ ٤٩٧. |
| (٧) تقدم تخريجه. | |

وعن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إني نذرت أن أنحر نفسي، فشغل النبي ﷺ، فذهب الرجل، فوجد يريد أن ينحر نفسه، فقال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من يوفى بالنذر، ويخاف ﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾» (١) اهد مائة ناقة» (٢).

وعن مجاهد قال: لما صَدَرَ النبي ﷺ بالأسارى عن بدر أنفق سبعة من المهاجرين على أسارى مشركي بدر منهم أبو بكر وعمر وعليّ والزبير وعبد الرحمن وسعد وأبو عبيدة بن الجراح، فقالت الأنصار: قتلناهم في الله وفي رسوله وتفونهم بالنفقة، فأنزل الله فيهم تسع عشرة آية ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ (٣) إلى قوله: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِلًا﴾ (٤).

● التفسير بالمأثور من الموقوف

وعن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ قال: فاشيا (٥).

● التفسير بالمأثور من المقطوع

عن مجاهد ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ قال: إذا نذروا في حق الله (٦).

وعبد بن حميد عن عكرمة ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ قال: كل نذر في شكر (٨).

وعن قتادة قوله ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ قال كانوا يندرون طاعة الله من الصلاة والزكاة والحج والعمرة وما افترض عليهم فسماهم الله بذلك الأبرار فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٨).

وعن قتادة يوفون بالنذر قال بطاعة الله وبالصلاة وبالحج والعمرة (٩).

(١) الإنسان: ٧.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (٣٦٩/٥، ٣٧٠) ونسبه لعبد الرزاق في «المصنف»، والطبراني.

(٣) الإنسان: ٥.

(٤) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن عساكر.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» وذكره السيوطي في الموضع السابق وزاد نسبه لابن المنذر.

(٦) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد.

(٧) نفس المصدر السابق.

(٨) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢٩/٢٩).

(٩) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق.

وعن سفیان قوله (يوفون بالنذر) قال: فى غير معصية^(١).

● أقوال المفسرين

قال الطبرى^(٢): يقول تعالى ذكره أن الأبرار الذين يشربون من كأس كان مزاجها كافورا يروا بوفائهم لله بالنذور التى كانوا يتذرونها فى طاعة الله.

ثم قال^(٣): وفى الكلام محذوف اجتزئ بدلالة الكلام عليه منه وهو كان ذلك وذلك أن معنى الكلام أن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً يوفون بالنذر فترك ذكر كانوا لدلالة الكلام عليها. اهـ.

قال الفراء^(٤): فيه إضمار (كانوا) يوفون بالنذر. وفيه قولان.

أحدهما: يوفون بالنذر إذا نذروا فى طاعة الله، قاله مجاهد وعكرمة.

والثانى: يوفون بما فرض الله عليهم.

وذكر نحو ذلك القرطبى^(٥) نقلاً عن الجرجانى.

قال الرازى^(٦): الإيفاء بالشئ هو الإيمان به وافتياً.

قال ابن كثير^(٧): (يوفون بالنذر).

أى يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر.

ويتركون المحرمات التى نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد وهو اليوم الذى شره مستطير أى منتشر عام على الناس إلا من رحم الله. اهـ.

قال السعدى^(٨): «يوفون بالنذر» أى بما ألزموا به أنفسهم من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر الذى هو غير واجب فى الأصل عليهم، إلا بإيجابهم على أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية، من باب أولى وأحرى.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) زاد المسير ١٦٧/٨.

(٥) تفسير القرطبى ٦٩١٨/١٠.

(٦) التفسير الكبير ٢٤٢/١.

(٧) تفسير ابن كثير ٤٣٩/٤.

(٨) تيسير الكريم الرحمن ٥/ ٣٣٠ و ٣٣١.

وَقَوْلُهُ: «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ» (١).

قال حافظ أحمد حكي: وعن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه» (٢) رواه الجماعة إلا مسلماً.

وعن عمر رضى الله عنه قال: نذرت نذراً فى الجاهلية، فسألت النبي ﷺ بعد ما أسلمت، فأمرنى أن أوفى بنذرى» (٣) رواه ابن ماجه.

وقال البخارى رحمه الله تعالى: باب إثم من لا يفى بالنذر، وذكر حديث عمران بن حصين رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال عمران: لا أدري ذكر اثنين أو ثلاثاً بعد قرنه «ثم يجيء قوم ينذرون ولا يوفون، ويخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يُستشهدون، ويظهر فيهم السمن» (٤).

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن عمر قال: يارسول الله، إني نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة فى المسجد الحرام، قال «أوف بنذرك» (٥) وهو فى الصحيح أيضاً. ولعله هو النذر الذى فى رواية ابن ماجه مبهماً (٦) فسرته رواية الصحيح.

وفى حديث الرجل الذى سأل النبي ﷺ فقال له: إن أختى نذرت أن تحج وإنها ماتت، فقال النبي ﷺ «لو كان عليها دين أكنت قاضيه؟ قال: نعم. قال: فاقض الله، فإله أحق بالقضاء» (٧) وغير ذلك من أحاديث الأمر بوفاء النذر عن النبي ﷺ اهـ.



قوله: (وقوله: «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ»

مناسبة الآية للترجمة.

قال سليمان آل الشيخ (٨): وجه الدلالة من الآية على الترجمة أن الله تعالى أخبر بأن ما أنفقناه من نفقة أو نذرناه من نذر متقربين بذلك إليه أنه يعلمه، ويجازينا عليه.

(١) البقرة آية: ٢٧٠.

(٢) تقدم تخريجه وانظر «منار السيل» (ح ٢٧٨٩) بتخريجنا.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١٢٩). والصلة فى الصحيحين

(٤) البخارى (٣٦٥٠)، ومسلم فى الفضائل (٢٢٤/٣٢٦/٨) وانظر «رياض الصالحين» (٥١٠ -

بتخريجنا).

(٥) تقدم تخريجه. (٦) تقدم تخريجه.

(٧) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٦٩٩) عن ابن عباس به وانظر «منار السيل» بتخريجنا.

(٨) تيسير العزيز الحميد ١٤٧.

فدل ذلك أنه عبادة. وبالضرورة يدري كل مسلم أن من صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فقد أشرك. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ» تعليق الشيء بعلم الله دليل على أنه محل جزاء؛ إذ لا نعلم فائدة لهذا الإخبار بالعلم إلا لترتب الجزاء عليه، وترتب الجزاء عليه يدل على أنه من العبادة التي يُجازى الإنسان عليها، وهذا وجه استدلال المؤلف بهذه الآية. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله^(٢): ومناسبتها للباب. أن الله أخبر أن ما أنفقناه من نفقة أو نذرناه من نذر متقربين إليه أنه يعلمه ويجازينا عليه، فدل ذلك على أنه عبادة فمن صرفها لغير الله فقد أشرك.

قال القرعاوي^(٣): حيث دلت الآية على أن الله سبحانه يعلم النذر فيجازى عليه.

قال الشوكاني^(٤): قوله: «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ» «ما» شرطية ويجوز أن تكون موصولة، والعائد محذوف، أى الذى أنفقتموه وهذا بيان لحكم عام يشمل كل صدقة مقبولة، وغير مقبولة، وكل نذر مقبول أو غير مقبول.

قال محيى الدين درويش^(٥): (وما أنفقتم من نفقة) (الواو) عاطفة (وما) اسم شرط جازم فى محل نصب مفعول به مقدم (لأنفقتم) (ومن نفقة) جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، وجعلها كثيرون زائدة، وهو أسهل، ولكنه غير مقيس (أو نذرتم من نذر) عطف على ما تقدم (فإن الله يعلمه) الفاء رابطة لجواب الشرط (وإن) واسمها وجملة (يعلمه) خبرها والجملة المقترنة بالفاء فى محل جزم جواب الشرط.

● التفسير بالمأثور من المرفوع

وعن عائشة «أن رسول الله ﷺ قال: من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه»^(٦). وقد تقدم.

وعن عائشة «أن النبى ﷺ قال: لا نذر فى معصية، وكفارته كفارة يمين»^(٧).

(١) القول المفيد ٣١٨/١.

(٢) الجامع الفريد ٥٦.

(٣) الجديد ١١٨.

(٤) فتح القدير ٣٦٥.

(٥) إعراب القرآن/ ٤٢٠ ..

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) تقدم تخريجه أيضاً.

وعن عمران بن حصين قال: أسرت امرأة من الأنصار فاصيبت العضباء فقعدت في عجزها، ثم زجرتها فانطلقت ونذرت إن نجاها الله عليها لتحنرها، فلما قدمت المدينة رآها الناس فقالوا: العضباء ناقة رسول الله ﷺ. فقالت: إنها نذرت إن نجاها الله عليها لتحنرها، فأتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له، فقال: سبحان الله...! بئس ما جزتها، نذرت لله إن نجاها الله عليها لتحنرها، لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك العبد»^(١).

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «كفارة النذر إذا لم يسم كفارة اليمين»^(٢).

وعن ثابت بن الضحاك عن النبي ﷺ قال: «ليس على العبد نذر فيما لا يملك»^(٣).

وعن ابن عمر «أن النبي ﷺ نهى عن النذر وقال: «إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل»^(٤).

وعن أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ قال: لا تنذروا فإن النذر لا يغني من القدر شيئاً، وإنما يستخرج من البخيل»^(٥).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا يأتي ابن آدم النذر بشيء لم أكن قدرته ولكن يلقه النذر إلى القدر قد قدرته فيستخرج الله به من البخيل، فيؤتيني عليه ما لم يكن يؤتيني عليه من قبل»^(٦).

قال الحافظ: هذا من الأحاديث القدسية، لكن سقط منه التصريح بنسبته إلى الله عز وجل. اهـ (*)

وعن أنس «أن النبي ﷺ رأى شيخاً يهادى بين ابنه فقال: ما بال هذا؟ قالوا: نذر أن يمشى إلى الكعبة قال: إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغنى، وأمره أن يركب»^(٧).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم.

(٣) تقدم تخريجه في حديث الباب.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٦٠٨)، ومسلم في النذور (٩٧/١١ - النووي) وانظر «السلسلة»

(٢٦٤١) - بتخريجنا).

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم في النذر (٥/١٠٩/٦) عن أبي هريرة به.

وذكره السيوطي في «الدر» (٧٢/١ - ٧٥) وزاد نسبه للترمذي، والنسائي.

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٦٩٤)، ومسلم في النذر (٧/١٠٩/٦) عن أبي هريرة به.

(*) فتح الباري (٥٨٨/١١).

(٧) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٧٠١)، ومسلم في النذر (٩/١١٣/٦) عن أنس به.

وعن أبي هريرة «أن النبي ﷺ أدرك شيخاً يمشى بين ابنيه يتوكأ عليهما. فقال: ما شأن هذا؟ قال ابناه: يارسول الله كان عليه نذر. فقال النبي ﷺ: اركب أيها الشيخ فإن الله غني عنك وعن نذرك» (١).

وعن عقبة بن عامر قال: «نذرت أختي أن تمشي إلى بيت الله حافية، فأمرتني أن أستفتي لها رسول الله ﷺ، فاستفتيته فقال: «التمش ولتركب» (٢).

وعن ابن عباس: «أن أخت عقبة بن عامر نذرت أن تحج ماشية وأنها لا تطيق ذلك، فقال النبي ﷺ: «إن الله لغني عن مشي أختك فلتركب ولتهجد بدنة» (٣).

وعن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله إن أختي نذرت أن تحج ماشية. فقال النبي ﷺ: «إن الله لا يصنع بشقاء أختك شيئاً، فلتحج راكبة وتكفر يمينها» (٤).

وعن عقبة بن عامر «أنه سأل النبي ﷺ عن أخت له نذرت أن تحج حافية غير مختمرة. فقال: مروها فلتختمر، ولتركب، ولتصم ثلاثة أيام» (٥).

وعن ابن عباس قال: «بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم في الشمس، فسأل عنه فقالوا: هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد لا يستظل ولا يتكلم ويصوم. فقال النبي ﷺ: مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه» (٦).

وعن ابن عباس «أن رسول الله ﷺ قال: من نذر نذراً لم يسمه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً في معصية فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً لا يطيقه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً أطاقه فليوف به» (٧) (*).

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في النذر (١٠/١١٤/٦) عن أبي هريرة به.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٣٠٣) عن ابن عباس به.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٢٩٥) عن ابن عباس به.

(٥) [ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٣/٤)، وأبو داود (٣٢٩٣)، والنسائي في الكبرى

(٤٧٥٧)، وابن ماجه (٢١٣٤) وانظر «نار السبيل» (٢٧٩٣ - بتخريجنا).

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) [المحفوظ موقوف] أخرجه أبو داود (٣٣٢٢) وانظر الكلام عليه في «بلوغ المرام» (١٢٩٠ -

بتخريجنا).

(*) فيه تقسيم النذور لأربعة وقد مر تقسيم النذر إلى ستة أنواع من كلام ابن عثيمين، وأضفنا إليها

الذين لصح ثمانية أقسام. والله أعلم.

وعن عمران بن حصين «سمعت رسول الله ﷺ يقول: النذر نذران. فما كان من نذر في طاعة الله فذلك لله وفيه الوفاء، وما كان من نذر في معصية الله فذلك للشيطان، ولا وفاء فيه ويكفره ما يكفر اليمين»^(١).

وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «لا نذر في معصية ولا غضب، وكفارته كفارة يمين»^(٢).

وعن عمران بن حصين قال: «ما خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلا أمرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة. قال: وإن من المثلة أن يخرم أنفه وأن ينذر أن يحج ماشياً، فمن نذر أن يحج ماشياً فليهد هدياً وليركب»^(٣).

● التفسير بالمأثور من الموقوف

وعن سعيد بن جبير قال جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني نذرت أن أقوم على قعيقعان^(*) عرباناً إلى الليل. فقال: أراد الشيطان أن يبدى عورتك وأن يضحك الناس بك، إلبس ثيابك وصل عند الحجر ركعتين^(٤).

وعن ابن عباس قال: النذور أربعة. فمن نذر نذراً لم يسمه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر في معصية فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً فيما لا يطيق فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذراً فيما يطيق فليوف بنذره^(٥).

وابن شهاب عن عوف بن الحارث بن الطفيل وهو ابن أخي عائشة لأمها. أن عائشة رضى الله عنها حدثت: أن عبد الله بن الزبير قال في بيع أو عطاء أعطته عائشة: والله لنتنهين عائشة أو لأحجرن عليها. فقالت: أهو قال هذا؟ قالوا: نعم. قالت عائشة: فهو لله نذر أن لا أكلم ابن الزبير كلمة أبداً. فاستشفع ابن الزبير بالمهاجرين حين طالت هجرتها إياه. فقالت: والله لا أشفع فيه أحداً أبداً، ولا أحتث نذري الذي نذرت أبداً، فلما طال على ابن الزبير كلم المسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وهما من بنى زهرة فقال لهما: أنشدكما الله إلا أدخلتmani على عائشة فإنها

(١) أخرجه النسائي (٢٨/٧) - السيوطي عن عمران به وضعفه النسائي.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٣٩/٤)، والنسائي (٢٩/٧) - السيوطي عن عمران بإسناد منقطع.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٠٥/٤) عن عمران به بإسناد منقطع.

(*) قُعَيْقَعَان: هو جبل بمكة. قيل سُمي به؛ لأن جرهما لما تحاربوا كثرت قعقة السلاح هناك. قاله

ابن الأثير في النهاية (٨٨/٤).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (٧٢ - ٧٥) ونسبه لابن أبي شيبة.

(٥) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لعبد الرزاق، وابن أبي شيبة.

لا يحل لها أن تنذر قطيعتي، فاقبل به المسور وعبد الرحمن مشتملين عليه باردتيهما حتى استأذنا على عائشة، فقالا: السلام عليك ورحمة الله وبركاته أندخل؟ فقالت عائشة: ادخلوا. قالوا: أكلنا يا أم المؤمنين؟ قالت: نعم، ادخلوا كلكم. ولا تعلم عائشة أن معهما ابن الزبير، فلما دخلوا دخل ابن الزبير في الحجاب واعتنق عائشة وطفق يناشدها ويبكى، وطفق المسور وعبد الرحمن يناشدان عائشة إلا كلمته وقبلت منه، ويقولان: «قد علمت أن رسول الله ﷺ نهى عما قد علمت من الهجرة، وأنه لا يحل للرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، فلما أكثروا التذكير والتحريج طفقت تذكرهم وتبكي وتقول: إني قد نذرت والنذر شديد، فلم يزالوا بها حتى كلمت ابن الزبير، ثم اعتقت بنذرهما أربعين رقة لله، ثم كانت تذكر، بعدما اعتقت أربعين رقة، فتبكي حتى تبل دموعها خمارها»^(١).

● التفسير بالمأثور من المقطوع

وعن عبد الله بن حجية الأكبر. أن رجلاً أتاه فقال: إني نذرت أن لا أكلم أخى فقال: ان الشيطان ولد له ولدا فسماه نذرا، وان من قطع ما أمر الله به أن يوصل فقد حلت عليه اللعنة^(٢).

وعن مجاهد في قوله «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ» قال: يحصيه^(٣).

● أقوال المفسرين

قال الطبري^(٤): قوله: «وَمَا أَنْفَقْتُمْ» إلى قوله تعالى: «..... أنصار». يعنى بذلك جل ثناؤه وأى نفقة أنفقتم يعنى أى صدقة تصدقتم أو أى نذر نذرتم يعنى بالنذر ما أوجبه المرء على نفسه تبرراً فى طاعة الله وتقرباً به إليه من صدقة أو عمل خير فإن الله يعلمه أى أن جميع ذلك بعلم الله لا يعزب عنه منه شئ ولا يخفى عليه منه قليل ولا كثير ولكنه يحصيه أيها الناس عليكم حتى يجازيكم جميعكم على جميع

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٠٧٣) وانظر «رياض الصالحين» (١٨٦٢ - بتخريجنا).

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» ذكره السيوطى فى «الدر» (٧٢/١) ونسبه له فانظره بتخريجنا.

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى الموضوع السابق وزاد نسبه لعبد بن حميد،

وابن جرير، وابن المنذر.

(٤) تفسير الطبري / ٦١.

ذلك فمن كانت نفقته منكم وصدقته ونذره ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من نفسه جازاه بالذى وعده من التضعيف ومن كانت نفقته وصدقته رياء الناس ونذوره للشيطان جازاه بالذى أوعده من العقاب وأليم العذاب.

قال البغوى^(١):

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾. فيما فرض الله عليكم.

قوله تعالى: ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ أى ما أوجبتموه أأنتم على أنفسكم فى طاعة الله فوفيتم به.

قوله: «فإن الله يعلمه».

قال الرازى^(٢):

فى قوله: (فإن الله يعلمه) على اختصاره، يفيد الوعد العظيم للمطيعين، والوعيد الشديد للمتمردين، وبيانه من وجوه.

(أحدها) أنه تعالى عالم بما فى قلب المتصدق من نية الإخلاص والعبودية أو من نية الرياء والسمعة.

(وثانيها) أن علمه بكيفية نية المتصدق يوجب قبول تلك الطاعات، كما قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وقوله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ.

(وثالثها) أنه تعالى يعلم القدر المستحق من الثواب والعقاب على تلك الدواعى والنيات فلا يهمل شيئاً منها، ولا يشتبه عليه شىء منها.

وذكر بنحوه القرطبى.

وقال ابن كثير^(٣): يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذرات وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك إبتغاء وجهه ورجاء موعوده، وتوعد من لا يعمل بطاعته بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أى يوم القيامة يتخذونهم من عذاب الله نقمته.

(١) معالم التنزيل (١/ ٣٩٠).

(٢) التفسير الكبير ٧٦/٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٣٠٤/١.

وقال بنحوه الشوكاني في «فتح القدير».

قال السعدي^(١): يخبر تعالى، أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون، أو نذر المنذرون فإن الله يعلم ذلك.

ومضمون الإخبار بعلمه، يدل على الجزاء، وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة ويعلم ما صدرت عنه من نيات صالحة، أو سيئة.
- فائدة في قوله: يعلمه.

قال الطبري^(٢): فإن قال لنا قائل فكيف قال فإن الله يعلمه، ولم يقل يعلمهما وقد ذكر النذر والتفقة؟

قيل: إنما قال فإن الله يعلمه؛ لأنه أراد، فإن الله يعلم ما أنفقتم أو نذرتم فلذلك وحده الكناية.

وذكر ذلك البغوي فقال^(٣):

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾. يحفظه حتى يجازكم به، وإنما قال يعلمه، ولم يقل يعلمها، لأنه رده إلى الآخر منهما، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ وإن شئت حملته على: «ما» كقوله ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ ولم يقل بهما.
وهناك قول آخر ذكره الرازي^(٤).

قال: (والثاني): أن الكناية عادت إلى ما في قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ لأنها اسم كقوله ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾.

وزاد القرطبي الأمر إيضاحاً فقال^(٥): ووحد الضمير وقد ذكر شيئين، فقال النحاس: التقدير ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ فإن الله يعلمها، ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ ثم

(١) تيسير الكريم الرحمن ١ / ٢٠٢.

(٢) تفسير الطبري ١ / ٦١.

(٣) معالم التنزيل / ٣٩٠.

(٤) التفسير الكبير / ٧٦.

(٥) تفسير القرطبي / ١١٣٩، ١١٤٠.

حذف. ويجوز أن يكون التقدير: وما أنفقتم فإن الله يعلمه وتعود الهاء على «ما» كما أنشد سيبويه لامرئ القيس.

فَتُوضِحَ الْفِرْقَةُ لَمْ يَغْفُ رَسْمُهَا لَمَّا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ

ويكون ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ﴾ معطوفاً عليه. قال ابن عطية: ووحد الضمير في «يعلمه» وقد ذكر شيئين من حيث أراد ما ذكر أو نص.

قلت - يعنى القرطبي - : وهذا حسن: فإن الضمير قد يراد به جميع المذكور وإن كثر.

وذكر نحو ذلك الشوكاني.

قوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

- الإعراب (١):

(وما للظالمين من أنصار) (الراو) استثنائية (وما) نافية (وللظالمين) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ومن حرف جر زائد (وأنصار) مبتدأ مؤخر.

● التفسير بالمأثور من المرفوع

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «الظلم ظلمات يوم القيامة» (٢).

وعن جابر «أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» (٣).

وعن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إياكم والظلم فإن الظلم هو الظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش فإن الله لا يحب الفاحش المتفحش، وإياكم والشح فإن الشح دعا من كان قبلكم ففسكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم، وقطعوا أرحامهم» (٤).

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات

(١) إعراب القرآن / ٤٢٠.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٤٤٧)، ومسلم فى البر والصلة (٥٧/٣٧٧) عن ابن عمر به.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٦/١٣٤ - النووى).

وانظر «رياض الصالحين» (٢٠٥ - بتخيرنا).

(٤) أخرجه ابن حبان فى «صحيحه» (٤٨/٨ - الإحسان)، والحاكم فى «المستدرک» (١٢/١)، والبيهقى

فى «الشعب» (١٠٨٣٤). وذكره السيوطى فى «الدر» (٧٥/١) وزاد نسبه للبخارى فى «الأدب المفرد».

يوم القيامة، وإياكم والفحش والتفحش، وإياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»^(١).

وعن الهرماس بن زياد قال: «رأيت رسول الله ﷺ يخطب على ناقته فقال: إياكم والخيانة فإنها بثست البطانة، وإياكم والظلم فإنه ظلمات يوم القيامة، وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشح حتى سفكوا دماءهم، وقطعوا أرحامهم»^(٢).
وعن عمر بن الخطاب. مثله^(٣).

وعن ابن مسعود «ان النبي ﷺ قال: لا تنظلموا فتدعوا فلا يستجاب لكم، وتستسقوا فلا تسقوا، وتستنصروا فلا تنصروا»^(٤).

● من أقوال التابعين

وعن شريح قال: الظالم ينتظر العقوبة، والمظلوم ينتظر النصر^(٥).

● أقوال المفسرين

قال الطبري^(٦): ثم أوعد جل ثناؤه من كانت نفقته رياء ونذوره طاعة للشيطان فقال وما للظالمين من أنصار يعنى وما لمن أنفق ماله رياء الناس وفى معصية الله وكانت نذروه للشيطان وفى طاعته من أنصار وهم جمع نصير كما الأشراف جمع شريف ويعنى بقوله من أنصار من ينصرهم من الله يوم القيامة فيدفع عنهم عقابه يومئذ بقوة وشدة بطش ولا بفدية وقد دللنا على أن الظالم هو الواضع للشئ فى غير موضعه وإنما سمي الله المنافق رياء الناس والناذر فى غير طاعته ظالماً لوضعه انفاق ماله فى غير موضعه ونذره فى غير ماله وضعه فيه فكان ذلك ظلاماً.

قال البغوى^(٧): قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾. الواضعين الصدقة فى غير موضعها بالرياء، أو يتصدقون من الحرام.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾. من أعوان يدفعون عذاب الله عنهم، وهى جمع نصير. مثل شريف وأشراف.

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرک» (١١/١)، والبيهقى فى «الشعب» (٧٤٥٨).

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٢٢/٢٠٤/٥٣٨) عن الهرماش به.

قال الهيثمى فى «المجمع» (٥/٢٣٥): وفيه عبدالرحمن بن ملحمة وهو ضعيف.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (١/٧٥) ونسبه للأحبهانى.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للطبرانى.

(٥) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم فى «تفسيره» فانظره بتخريجنا.

(٦) تفسير الطبري/ ٦١.

(٧) معالم التنزيل/ ٣٩٠.

قال الرازي^(١): أنه وعيد شديد للظالمين، وهو قسمان، أما ظلمه نفسه فذاك حاصل في كل المعاصي، وأما ظلمه غيره فبأن لا يتفق أو يصرف الاتفاق عن المستحق إلى غيره، أو يكون نيته في الاتفاق على المستحق الرياء والسمعة، أو يفسدها بالمعاصي، وهذان القسمان الأخيران ليسا من باب الظلم على الغير، بل من باب الظلم على النفس. اهـ.

● أقوال شرح كتاب التوحيد قال سليمان آل الشيخ:

وتبعه على ذلك عبد الرحمن آل الشيخ^(٢) فقال: إذا علمت ذلك: فهذه النذور الواقعة من عباد القبور، تقرباً بها إليهم، ليقضوا لهم حوائجهم وليشفعوا لهم، كل ذلك شرك في العبادة بلا ريب، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(٣).

قال ابن قدامة: لا يصح نذر الشمع والزيت وأشباهه للأماكن التي فيها قبور، فقد لعن النبي ﷺ المتخذين عليها المساجد والسرج^(٤).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما ما نذر لغير الله، كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة وكذلك الناذر للمخلوقات فإن كلاهما شرك. والشرك ليس له حرمة، بل عليه أن يستغفر الله من هذا، ويقول ما قال النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ وَقَالَ فِي حَلْفِهِ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٥).

وقال فيمن نذر للقبور أو نحوها دهنًا لئنور به ويقول: إنها تقبل النذر كما يقوله بعض الضالين وهذا النذر معصية باتفاق المسلمين، لا يجوز الوفاء به، وكذلك إذا نذر مالا للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة. فإن فيهم شبهة من السدنة التي كانت عند اللات والعزى ومناة، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله. والمجاورون هناك فيسهم شبه من الذين قال فيهم الخليل عليه السلام: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ

(١) التفسير الكبير/ ٧٦ و ٧٧.

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٤٨)، وفتح المجيد (١/ ١٩٦، ١٩٨).

(٣) الأنعام: ١٣٦.

(٤) سيأتي تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿١﴾ والذين اجتاز بهم موسى عليه السلام وقومه، قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ﴿٢﴾﴾ فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع نذر معصية. وفيه شبه من النذر لسدنة الصليبان والمجاورين عندها، أو لسدنة الأبداد في الهند والمجاورين عندها.

وقال الرافعي في «شرح المنهاج»: «وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولي أو شيخ، أو على اسم من حلّها من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين، فإن قصد الناذر بذلك - وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة - تعظيم البقعة والمشهد، أو الزاوية، أو تعظيم من دفن بها، أو نسبت إليه، أو بنيت على اسمه، فهذا النذر باطل غير منعقد، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات، ويرون أنها مما يدفع بها البلاء ويُسْتَجْلَبُ بها النعماء، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء، حتى إنهم يندرون لبعض الأحجار لما قيل لهم: إنه استند إليها عبد صالح، ويندرون لبعض القبور السُّرَجَ والشموع والزيت، ويقولون: القبر الفلاني، أو المكان الفلاني يقبل النذر، يعنون بذلك: أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض، أو قدوم غائب، أو سلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة، فهذا النذر عى هذا الوجه باطل لاشك فيه، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً.

ومن ذلك: نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء، فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركاً وتعظيماً، ظاناً أن ذلك قرينة، فهذا مما لا ريب في بطلانه. والإيقاد المذكور محرم، سواء انتفع به هناك متفع أم لا».

قال الشيخ قاسم الحنفى في شرح «درر البحار»: «النذر الذى ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة، فيأتى إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سترة، ويقول: ياسيدى فلان، إن رد الله غائبي، أو عوفى مريضى، أو قضيت حاجتى، فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء كذا، أو من الشمع والزيت كذا.

فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه:

منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز؛ لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها: أن المنذور له ميت، والميت لا يملك.

ومنها: أنه ظن أن الميت يتصرف فى الأمور دون الله. واعتقاد ذلك كفر.

إلى أن قال: «إذا علمت هذا. فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقريباً إليها: فحرام بإجماع المسلمين».

نقله عنه ابن نجيم فى «البحر الرائق». ونقله المرشدى فى «تذكرته» وغيرهما عنه، وزاد: «قد ابتلى الناس بهذا لا سيما فى مولد البدوى».

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفى فى الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء: «فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله، فيكون باطلاً. وفى التنزيل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (١)، ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له (٢) والنذر لغير الله إشراك مع الله، كالذبح لغيره».

وجاء فى «الدر المختار»: واعلم أن النذر الذى يقع للأموات من أكثر العوام وما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت ونحوها إلى ضرائح الأولياء الكرام تقريباً إليهم فهو بالإجماع باطل وحرام مالم يقصدوا صرفها لفقراء الأنام، وقد ابتلى الناس بذلك ولا سيما فى هذه الأعصار، وقد بسطه العلامة قاسم فى شرح درر البحار، ولقد قال الإمام محمد: لو كانت العوام عبيدى لأعتقتهم وأسقطت ولائى لأنهم لا يهتدون، فالكل بهم يتعيرون أ. هـ.

وعلق ابن عابدين على ذلك فى الحاشية فقال: ولا يخفى على ذوى الأفهام أن مراد الإمام بهذا الكلام إنما هو ذم العوام، والتباعد عن نسبتهم إليه بأى وجه يرام ولو بإسقاط الولاء الثابت الانبرام، وذلك بسبب جهلهم العام، وتغييرهم لكثير من الأحكام، وتقربهم بما هو باطل وحرام، فهم كالأنعام يتعير بهم الأعلام ويتبرءون من شنائعهم العظام كما هو أدب الأنبياء الكرام حيث يتبرون من الأبعاد والأرحام بمخالفتهم الملك العلام فافهم ما ذكرناه والسلام. اهـ (٣).

فائدة (٤):

قال الرازى: المعتزلة تمسكوا بهذه الآية فى نفى الشفاعة عن أهل الكبائر، قالوا: لأن ناصر الإنسان من يدفع الضرر عنه فلو اندفعت العقوبة عنهم بشفاعة الشفعاء لكان أولئك أنصاراً لهم وذلك يبطل قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

(١) الأنعام: ١٢١. (٢) الأنعام: ١٦٢ / ١٦٣.

(٣) حاشية ابن عابدين (٢/ ٤٣٩، ٤٤٠)، وانظر «أصول الإيمان» (١/ ٩٤، ٩٥).

(٤) التفسير الكبير/ ٧٧.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ؛ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ؛ اللَّهُ فَلَا يَعْصِهِ» (١).

واعلم أن العرف لا يسمى الشفيع ناصراً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ففرق تعالى بين الشفيع والناصر فلا يلزم من نفى الأنصار نفى الشفعاء.

والجواب الثاني: ليس لمجموع الظالمين أنصار، فلم قلتهم ليس لبعض الظالمين أنصار. فإن قيل: لفظ الظالمين ولفظ الأنصار جمع، والجمع إذا قوبل بالجمع توزع الفرد على الفرد، فكان المعنى: ليس لأحد من الظالمين أحد من الأنصار.

قلنا: لانسلم أن مقابلة الجمع بالجمع توجب توزع الفرد على الفرد لاحتمال أن يكون المراد مقابلة الجمع بالجمع فقط لا مقابلة الفرد بالفرد.

والجواب الثالث: أن هذا الدليل النافى للشفاعة عام في حق الكل، وفي كل الأوقات، والدليل المثبت للشفاعة خاص في حق البعض وفي بعض الأوقات، والخاص مقدم على العام والله أعلم.

والجواب الرابع: ما بينا أن اللفظ العام لا يكون قاطعاً في الاستغراق، بل ظاهراً على سبيل الظن القوي فصار الدليل ظنياً، والمسألة ليست ظنية، فكان التمسك بها ساقطاً.



[قوله: وفي الصحيح عن عائشة رضى عنها... إلخ.

- مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جابر الله (٢): ومناسبته للباب: أنه دلّ على أن النذر لغير الله معصية.

قال القرعاوى (٣): حيث دلّ الحديث على وجوب الوفاء بالنذر إذا كان طاعة لذا يكون الوفاء بالنذر عبادة وصرف العبادة لغير الله شرك.

قوله: «في الصحيح».

قال سليمان آل الشيخ (٤): قوله في «الصحيح» أى: «صحيح البخارى».

(١) تقدم تخريجه وانظر تمام تخريجه في «فتح المجيد» (ح ٢٧٠) بتخريجنا.

(٢) الجامع الفريد: ٥٦.

(٣) تفسير العزيز الحميد: ١٥٠.

(٤) الجديد: ١١٩.

قوله: عن عائشة هي أم المؤمنين، وزوج النبي ﷺ، وبنت أبي بكر الصديق رضى الله. عنهما، تزوجها النبي ﷺ وهي بنت سبع سنين، ودخل بها وهي بنت تسع سنين، وهي أفضله النساء مطلقاً، وأفضل أزواج النبي ﷺ إلا خديجة ففيهما خلاف كثير. ماتت سنة سبع وخمسين على الصحيح، قاله الحافظ.

قوله: (من نذر أن يطيع الله فليطعه).

قال ابن حجر^(١): الطاعة أعم من أن تكون في واجب، أو مستحب، ويتصور النذر في فعل الواجب بأن يؤقته، كمن ينذر أن يصلى الصلاة في أول وقتها فيجب عليه ذلك بقدر طاقته، وأما المستحب من جميع العبادات المالية والبدنية فينقلب بالنذر واجباً، ويتقيد بما قيده به الناذر والخبر صريح في الأمر بوفاء النذر إذا كان في طاعة، وفي النهي عن ترك الوفاء به إذا كان في معصية. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «من نذر أن يطيع الله فليطعه» أى: فليفعل ما نذره من طاعة الله وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة بشرط يرجوه كقوله: إن شفى الله مريضى فعلى أن أتصدق بكذا ونحو ذلك، وجب عليه أن يوفى بها مطلقاً إذا حصل الشرط، إلا أنه حكى عن أبي حنيفة أنه لا يلزمه الوفاء بما لا أصل له في الوجوب، كالاكتكاف، وعيادة المريض. والحديث حجة عليه، لأنه لم يفرق بين ما له أصل في الوجوب وما لا أصل له، فإن نذر ابتداء كقوله: الله تعالى على صوم شهر فالحكم أيضاً كذلك في قول الأكثرين. وعن بعضهم أنه لا يلزم، والحديث حجة عليه أيضاً، لأنه لم يفرق بين ما علقه على شرط وبين ما نذره ابتداء. اهـ.

وسياتى مزيد تفصيل فى المسألة من كلام الشنقيطى.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «مَنْ نَذَرَ» جملة شرطية تفيد العموم، وهل تشمل الصغير؟

قال بعض العلماء: تشمله؛ فينقذ النذر منه.

وقيل: لا تشمله؛ لأن الصغير ليس أهلاً للإلزام ولا للالتزام، وبناءً على هذا يخرج الصغير من هذا العموم؛ لأنه ليس أهلاً للإلزام ولا للالتزام.

قوله: «أن يطيع الله».

(١) فتح البارى مقدمة كتاب الكفارات والنذور.

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٥٠، ١٥١).

(٣) «القول المقيّد» (١/٣١٩، ٣٢٠).

الطاعة: هي موافقة الأمر؛ أى: أن توافق الله فيما يريد منك إن أمرك؛ فالطاعة فعل المأمور به، وإن نهاك؛ فالطاعة ترك المنهى عنه، هذا معنى الطاعة إذا جاءت مفردة. أما إذا قيل: طاعة ومعصية؛ فالطاعة لفعل الأوامر، والمعصية لفعل النواهي. قوله: «فليطعه» الفاء واقعة فى جواب الشرط؛ لأنَّ الجملة إنشائية طلبية، واللام لام الأمر.

فصل فى حكم الإقدام على النذر

قال الشنقيطى (١): -

اعلم أن الأحاديث الصحيحة، دلت على أن النذر، لا ينبغي وأنه منهى عنه، ولكن إذا وقع وجب الوفاء به، إن كان قربة ثم ذكر الشنقيطى ما أخرجه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما يقول: أو لم ينهوا عن النذر، إن النبى ﷺ قال: «إن النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخر وإنما يستخرج بالنذر من البخل» (٢) وفى البخارى، وفى لفظ للبخارى من حديث أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «لا يأتى ابن آدم النذر بشيء لم يكن قدراً، ولكن يلقى النذر إلى القدر قد قدر له فيستخرج الله به من البخل فيؤتى عليه ما لم يكن يؤتى عليه من قبل» (٣) اهـ من صحيح البخارى، وهو صريح فى النهى عن النذر، وأنه ليس ابتداء فعله من الطاعات المرغب فيها.

وهذا الذى ذكرنا من حديث الشيخين، عن ابن عمر وأبى هريرة: فيه الدلالة الصريحة على النهى عن الإقدام على النذر، وأنه لا يأتى بخير، وإنما يستخرج به من البخل.

وفى الأحاديث المذكورة إشكال معروف، لأنه قد دل القرآن على الثناء على الذين يوفون بالنذر، وأنه من أسباب دخول الجنة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ (٥) وقد دل الكتاب والسنة على وجوب الوفاء، بنذر الطاعة، كقوله تعالى فى هذه

(١) أضواء البيان (٥/ ٤٦٢)

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الإنسان: ٥ - ٧.

(٥) البقرة: ٢٧٠.

الآية، «ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ» (١) الآية. وكقول ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه» (٢) ويؤيد ذلك ما ثبت في الصحيح، من ذم الذين لم يوفوا بنذورهم فعن.

عمران بن حصين رضى الله عنهما، يحدث عن النبي ﷺ قال: «خيركم قرنى، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال عمران: لا أدرى ذكر نثنين أو ثلاثاً بعد قرنه «ثم يجيء قوم يندرون ولا يوفون ويخونون ولا يؤمنون ويشهدون ولا يستشهدون ويظهر فيهم السمن» (٣) اهـ من صحيح البخارى. وهو ظاهر جداً فى إثم الذين لا يوفون بنذرهم، وأنهم كالذين يخونون، ولا يؤمنون. وهذا الحديث أخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه، عن عمران بن حصين.

وقال النووى فى شرحه لحديث عمران هذا فيه وجوب الوفاء بالنذر، وهو واجب، بلا خلاف، وإن كان ابتداء النذر منهياً عنه: اهـ.

قال ابن حجر: ولأجل هذا الإشكال المذكور اختلف العلماء فى حكم الإقدام على النذر، فذهب المالكية: إلى جواز نذر المندوبات إلا الذى يتكرر دائماً كصوم يوم من كل أسبوع فهو مكروه عندهم، وذهب أكثر الشافعية: إلى أنه مكروه، ونقله بعضهم عن نص الشافعى للأحاديث الدالة على النهى عنه. ونقل نحوه عن المالكية أيضاً، وجزم به عنهم ابن دقيق العيد. وأشار ابن العربى إلى الخلاف عنهم، والجزم عن الشافعية بالكراهة. وجزم الحنابلة بالكراهة، وعندهم رواية فى أنها كراهة تحریم، وتوقف بعضهم فى صحتها، وكراهته مروية عن بعض الصحابة. اهـ بواسطة نقل ابن حجر فى «الفتح».

وجزم صاحب «المغنى»: بأن النهى عنه نهى كراهة.

ثم قال الشنقيطى فى حل هذا الإشكال.

قال مقبده عفا الله عنه وغفر له: الظاهر لى فى طريق إزالة هذا الإشكال، الذى لا ينبغى العدول عنه: أن نذر القرية على نوعين:

أحدهما: معلق على حصول نفع كقوله: إن شفى الله مريضى، فعلى الله نذر كذا أو إن نجانى الله من الأمر الفلانى المخوف، فعلى الله نذر كذا، ونحو ذلك.

(١) الحج: ٢٩.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

والثاني: ليس معلقاً على نفع للناذر، كأن يتقرب إلى الله تقريباً خالصاً بنذر كذا، من أنواع الطاعة، وأن النهي إنما هو في القسم الأول، لأن النذر فيه لم يقع خالصاً للتقرب إلى الله، بل بشرط حصول نفع للناذر وذلك النفع الذي يحاوله الناذر هو الذي دلت الأحاديث على أن القدر فيه غالب على النذر، وأن النذر لا يرد فيه شيئاً من القدر.

أما القسم الثاني: وهو نذر القرية الخالص من اشتراط النفع في النذر، فهو الذي فيه الترغيب والثناء على الموفيين به المقتضى أنه من الأفعال الطيبة، وهذا التفصيل قال به جماعة من أهل العلم.

وإنما قلنا: إنه لا ينبغي العدول عنه لأمرين:

الأول: أن نفس الأحاديث الواردة في ذلك فيها قرينة واضحة، دالة عليه، وهو ما تكرر فيها من أن النذر لا يرد شيئاً من القدر، ولا يقدم شيئاً، ولا يؤخر شيئاً ونحو ذلك. فكونه لا يرد شيئاً من القدر، قرينة واضحة على أن الناذر أراد بالنذر جلب نفع عاجل، أو دفع ضرر عاجل فبين وَاللَّهِ أن ما قضى الله به في ذلك واقع لا محالة، وأن نذر الناذر لا يرد شيئاً كتبه الله عليه، ولكنه إن قدر الله ما كان يريده الناذر بنذره، فإنه يستخرج بذلك من البخيل الشيء الذي نذر وهذا واضح جداً كما ذكرنا.

الثاني: أن الجمع واجب إذا أمكن وهذا جمع ممكن بين الأدلة واضح تنتظم به الأدلة، ولا يكون بينها خلاف، ويؤيده أن الناذر الجاهل، قد يظن أن النذر قد يرد عنه ما كتبه الله عليه. هذا هو الظاهر في حل هذا الإشكال. وقد قال به غير واحد. والعلم عند الله تعالى.

تنبيه

فإن قيل: إن النذر المعلق كقوله: إن شفى الله مريضى أو نجانى من كذا، فله على نذر كذا، قد ذكرتم أنه هو المنهى عنه، وإذا تقرر أنه منهى عنه لم يكن من جنس القرية، فكيف يجب الوفاء بمنهى عنه.

والجواب: أن النص الصحيح دل على هذا فدل على النهي عنه أولاً، كما ذكرنا الأحاديث الدالة على ذلك، ودل على لزوم الوفاء به بعد الوقوع فقوله وَاللَّهِ: «وإنما يستخرج به من البخيل»^(١) نص صريح في أن البخيل يلزمه إخراج ما نذر إخراجاً،

(١) تقدم تخريجه.

وهو المصرح بالتهى عنه أولاً، ولا غرابة فى هذا، لأن الواحد بالشخص قد يكون له جهتان. فالنذر المنذور له جهة هو منهى عنه من أجلها ابتداء: وهى شرط حصول النفع فيه، وله جهة أخرى هو قربة بالنظر إليها، وهو إخراج المنذور تقريباً لله وصرفه فى طاعة الله، والعلم عند الله تعالى. اهـ.

ثم قال الشنقيطى: الأرجح الذى لا ينبغى العدول عنه هو ما قدمنا من الجمع، والعلم عند الله تعالى.

فصل فى أقسام النذر

قال ابن عثيمين: الأول: ما يجب الوفاء به، وهو نذر الطاعة؛ لقوله ﷺ: «من نذر أن يطيع الله؛ فليطعه»^(١).

الثانى: ما يحرم الوفاء به، وهو نذر المعصية؛ لقوله ﷺ: «ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه»^(٢)، وقوله: «فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله».

الثالث: ما يجرى مجرى اليمين، وهو نذر المباح؛ فيخير بين فعله وكفارة اليمين، مثل لو نذر أن يلبس هذا الثوب؛ فإن شاء لبسه وإن شاء لم يلبسه، وكفر كفارة يمين.

الرابع: نذر اللجاج والغضب، وسُمى بهذا الاسم؛ لأن اللجاج والغضب يحملان عليه غالباً، وليس بلام أن يكون هناك لجاج وغضب، وهو الذى يقصد به معنى اليمين، الحث، أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب.

مثل لو قال: حصل اليوم كذا وكذا، فقال الآخر: لم يحصل، فقال: إن كان حاصلًا؛ فعلى الله نذر أن أصوم سنة؛ فالغرض من هذا النذر التكذيب، فإذا تبين أنه حاصل؛ فالناذر مخير بين أن يصوم سنة، وبين أن يكفر كفارة يمين؛ لأنه إن صام فقد وفى بنذره، وإن لم يصم حنث، والحانث فى اليمين يكفر كفارة يمين.

الخامس: نذر المكروه^(٣)، فيكره الوفاء به، وعليه كفارة يمين.

السادس: النذر المطلق، وهو الذى ذكر فيه صيغة النذر؛ مثل أن يقول: لله على نذر؛ فهذا كفارته كفارة يمين كما قال النبى ﷺ: كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين. اهـ.

(١)، (٢) تقدم تخريجه

(٣) وذلك كان بنذر طلاق زوجته، أو يأكل ثوماً أو بصلاً. انظر «حاشية ابن قاسم على الروض»

(٤٩٩/٧).

قال الفقير:

السابع: نذر طاعة ومعصية فى آن واحد وتقدم له صور مثل المرأة التى نذرت مع الطاعة ان لا تختمر .

الثامن: نذر الطاعة والمكروه مثل ما جاء فى حديث أبى إسرائيل وفى هاتين الحالتين لا يفعل المعصية أو المكروه أو يفعل الواجب أو الطاعة ولا يكفر فى حال المكروه وهل يكفر فى حال المعصية مع الطاعة فيه نظر والله أعلم .

فصل: شروط النذر لله

قال حافظ بن أحمد حكى^(١): ومن شرط النذر لله تعالى:

(١) أن يكون طاعة .

(٢) وأن يكون مما يطيقه العبد .

(٣) وأن يكون فيما يملك .

(٤) وأن لا يكون فى موضع كان يعبد فيه غير الله تعالى أو ذريعة إلى عبادة غير الله تعالى وألا يكون فى زمان يجيد فيه غير الله كما تقدم .

(٥) وأن لا يكون معلقاً بحصول شئ فلا يعتد الناذر تأثير النذر فى حصوله .

أما الأول: فلقوله ﷺ: «لانذر فى معصية الله، ولا فى قطيعة رحم»^(٢) الحديث رواه أبو داود، وكذا حديث عائشة السابق وغيره .

وأما الثانى: فلحديث عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: نذرت أختى أن تمشى إلى بيت الله، فأمرتني أن أستفتي لها رسول الله ﷺ، فاستفتيته فقال «لتمشى ولتركب»^(٣) متفق عليه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: بينما النبی ﷺ يخطب إذ هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا أبو إسرائيل نذر أن يقوم فلا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبی ﷺ: «مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه»^(٤) فأمره ﷺ بترك ما لم يكن مطيقه ولم يكن مشروعاً، وأمره باتمام الصوم لكونه يطيقه ولكونه مشروعاً .

(١) معارج القبول (١/٣٦٦، ٣٦٧) .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) تقدم تخريجه .

وأما الثالث: فلقوله ﷺ: «لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»^(١) رواه أبو داود وغيره وإسناده صحيح.

وأما الرابع: فلحديث ثابت بن الضحاك أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة، فقال: «كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد»؟ فقالوا: لا، قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم»؟ قالوا لا، قال: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم»^(٢) رواه أبو داود.

وفى سدّ الذرائع إلى ذلك حديث النهي عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن من فعل ذلك كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وأما الخامس: فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخره، وإنما يستخرج بالنذر من البخيل»^(٣) وهو في الصحيح. وفيه في رواية عنه نهى النبي ﷺ عن النذر وقال: «إنه لا يرد شيئاً، ولكنه يستخرج به من البخيل»^(٤).

وفيه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا يأتي ابن آدم النذر بشيء، ولكن يلقيه النذر إلى القدر قد قُدِّرَ له، فيستخرج الله به من البخيل، فيؤتى عليه ما لم يكن يؤتى عليه من قبل»^(٥) وغير ذلك من الأحاديث، وفيما ذكرنا كفاية إن شاء الله تعالى. اهـ.

قلت: وتقدمت هذه الأحاديث كلها في مواضع سابقة، وكررتها هنا من كلام حافظ أحمد حكمي لفائدة التدليل على شروط النذر فقط. والله المستعان.

قوله: «وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ».

قال سليمان آل الشيخ^(٦): زاد الطحاوي: «وَلْيُكْفَرَنَّ عَنْ يَمِينِهِ»^(٧) قال ابن القطان: عندي شك في رفع هذه الزيادة أى: لا يفعل المعصية التي نذرها.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تيسير العزيز الحميد (١٥١).

(٧) تقدم تخريجه..

وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية. اهـ.

قلت: وتقدم في الباب الذي قبله قول الحافظ: واتفقوا على تحريم النذر في المعصية، وهل ينعقد موجباً للكفارة أم لا؟.

وقد يستدل بقوله: «ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه» بصحة النذر في المباح، كما هو مذهب أحمد وغيره.

يؤيده ما رواه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ورواه أحمد والترمذي عن بريدة أن امرأة قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَضْرِبَ عَلَى رَأْسِكَ بِالْذُّفِّ. فَقَالَ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ»^(١) وإذا صححناه فحكمه حكم الحلف على فعله، فيخير بين فعله وكفارة اليمين. وأما نذر اللجاج والغضب، فهو يمين عند أحمد، فيخير بين فعله وكفارة اليمين.

والحديث عمران بن حصين مرفوعاً «لَا نَذْرُ فِي غَضَبٍ، وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ» رواه سعيد وأحمد، والنسائي، وله طرق، وفيه كلام، فإن نذر مكروهاً كالطلاق، استحب أن يكفر ولا يفعله^(٢) ١. هـ.

وتقدم في الباب الذي قبله.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «فلا يعصيه». ناهية، والنهي بحسب المعصية، فإن كانت المعصية حراماً، فالوفاء بالنذر حرام؛ وإن كانت المعصية مكروهة، فالوفاء بالنذر مكروه.

قال ابن عثيمين^(٤): وظاهر الحديث: يشمل ما إذا كانت الطاعة المنذورة جنسها واجب؛ كالصلاة والحج وغيرهما، أو غير واجب؛ كتعليم العلم وغيره.

وقال بعض أهل العلم: لا يجب الوفاء بالنذر إلا إذا كان جنس الطاعة واجباً، وعموم الحديث يرد عليهم.

قلت: المراد ببعض أهل العلم أبا حنيفة كما تقدم من كلام سليمان آل الشيخ.

وظاهر الحديث أيضاً يشمل من نذر طاعة نذراً مطلقاً ليس له سبب، مثل: «الله على أن أصوم ثلاثة أيام».

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) القول المفيد ١/ ٣٢١.

(٤) القول المفيد ١/ ٣٢٠ و ٣٢١.

ومن نذر نذراً معلقاً، مثل: إن نجحت؛ فله على أن أصوم ثلاثة أيام.

ومن فرق بينهما؛ فليس بجيد لأن الحديث عام.

قلت: بل التفريق جيد وقد تقدم من كلام الشنقيطي فانظره وهو يشبه كلام ابن عثيمين.

واعلم أن النذر لا يأتي بخير ولو كان نذر طاعة، وإنما يستخرج به من البخيل، ولهذا نهى عنه النبي ﷺ، وبعض العلماء يحرمه، وإليه يميل شيخ الإسلام ابن تيمية للنهي عنه، ولأنك تلزم نفسك بأمر أنت في عافية منه، وكم من إنسان نذر وأخيراً ندم، وربما لم يفعل.

ويدل لقوة القول بتحريم النذر قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ (١)؛ فهذا التزام مؤكد بالقسم، فيشبه النذر.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾ (٢)؛ أى: عليكم طاعة معروفة بدون يمين، والإنسان الذى لا يفعل الطاعة إلا بنذر، أو حلف على نفسه يعنى أن الطاعة ثقيلة عليه.

وما يدل على قوة القول بالتحريم أيضاً خصوصاً النذر المعلق: أن الناذر كأنه غير واثق بالله - عز وجل -؛ فكأنه يعتقد أن الله لا يعطيه الشفاء إلا إذا أعطاه مقابله، ولهذا إذا أيسوا من البرء ذهبوا ينذرون، وفى هذا سوء ظن بالله - عز وجل - . والقول بالتحريم قول وجيه.

فإن قيل: كيف تحرمون ما أثنى الله على من وفى به؟

فالجواب: أننا لانقول: إن الوفاء هو المحرم حتى يقال: إننا هدمنا النص، إنما نقول: المحرم أو المكروه كراهة شديدة هو عقد النذر، وفرق بين عقده ووفائه؛ فالعقد ابتدائي، والوفاء فى ثانى الحال تنفيذ لما نذر. اهـ.

قلت: وتقدم قول الشنقيطي فى وجه آخر فى الجمع بين الأدلة الدالة على ذم النذر والأدلة الدالة على مدح الموفين بالنذر ولا أدرى على هذا السبب فى عدم تجويد ابن عثيمين من فرق بين المعلق والمطلق وقد رجع فانتصر للتفريق!!.

فصل من نذر شيئاً من الطاعة لا يقدر عليه

اعلم أن من نذر شيئاً من الطاعة لا يقدر عليه لا يلزمه الوفاء به، لعجزه عنه.
واختلف فيما يلزمه في ذلك المعجوز عنه، فلو نذر مثلاً أن يحج، أو يعتمر ماشياً على رجله، وهو عاجز عن المشي: جاز له الركوب لعجزه عن المشي، وإن قدر على المشي: لزمه (١).

وفي حالة ركوبه عند العجز اختلف العلماء فيما يلزمه فقال بعضهم: لا شيء عليه، لأنه عاجز والله يقول: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» (٢) فقد عجز عما نذر ولا يلزمه شيء غير ما نذر. وقال بعضهم: تلزمه كفارة يمين. وقال بعضهم: يلزمه صوم ثلاثة أيام. وقال بعضهم: تلزمه بدنة. وقال بعضهم: يلزمه هدى.

قال ابن قدامة في المغني: وجملته أن من نذر المشي إلى بيت الله الحرام، لزمه الوفاء بنذره. وبهذا قال مالك، والأوزاعي، والشافعي، وأبو عبيد، وابن المنذر، ولا نعلم فيه خلافاً، وذلك لأن النبي ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» (٣) ولا يجزئه المشي إلا في الحج أو العمرة. وبه يقول الشافعي. ولا أعلم فيه خلافاً، وذلك لأن المشي المعهود في الشرع: هو المشي في حج أو عمرة، فإذا أطلق الناذر حمل على المعهود الشرعي. ويلزمه المشي فيه لنذره، فإن عجز عن المشي: ركب، وعليه كفارة يمين، وعن أحمد رواية أخرى: أنه يلزمه دم، وهو قول الشافعي. وأفتى به عطاء لما روى ابن عباس أن أخت عقبة بن عامر نذرت المشي إلى بيت الله الحرام، فأمرها النبي ﷺ أن تركب، وتهدى هدياً (٤). رواه أبو داود وفيه ضعف، ولأنه أدخل بواجب في الإحرام فلزمه هدى كتارك الإحرام من الميقات.

وعن ابن عمر وابن الزبير قالوا: يحج من قابل، بل ويركب ما مشى، ويمشى ما ركب ونحوه. قال ابن عباس وزاد فقال: ويهدى، وعن الحسن مثل الأقوال الثلاثة وعن النخعي روايتان:

إحدهما: كقول ابن عمر

والثانية: كقول ابن عباس، وهذا قول مالك.

(١) أضواء البيان (٤٥٨/٥).

(٢) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

وقال أبو حنيفة: عليه هدى سواء عجز عن المشي، أو قدر عليه. وأقل الهدى: شاة.
وقال الشافعي: لا يلزمه مع العجز كفارة بحال، إلا أن يكون النذر مشياً إلى بيت الله
الحرام، فهل يلزمه هدى؟ فيه قولان. وأما غيره فلا يلزمه مع العجز شيء اهـ محل
الغرض من «المغنى».

وإذا علمت أقوال أهل العلم: فيما يلزم من نذر شيئاً وعجز عنه، فهذه أدلة أقوالهم
نقلناها ملخصة بواسطة نقل المجد في «المنتقى»، لأنه جمعها في محل واحد أما من قال:
تلزمه كفارة يمين فقد احتج بما رواه أبو داود، وابن ماجه، عن ابن عباس رضى الله
عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «من نذر نذراً ولم يسمه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر
نذراً لم يطقه فكفارته كفارة يمين»^(١) اهـ.

هذا هو حاصل حجة من قال: إن على من نذر نذراً، ولم يطقه كفارة يمين.

وأما الذين قالوا: عليه صيام ثلاثة أيام، فقد احتجوا بما رواه أحمد، وأصحاب السنن
عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن أخته نذرت أن تمشى حافية، غير مختمرة، فسأل
النبي ﷺ فقال: «إن الله لا يصنع بشقاء أختك شيئاً، مرها فلتختمر ولتركب ولتصم ثلاثة
أيام»^(٢) اهـ بواسطة نقل المجد في «المنتقى». قال الشوكاني في هذا الحديث: حسنه
الترمذى ولكن في إسناده عبيد الله بن زحر وقد تكلم فيه غير واحد من الأئمة اهـ محل
الغرض منه.

قال مقبده عفا الله عنه وغفر له - أى الشنقيطى -: ظاهر كلام أبى داود فى عبيد الله
بن زحر المذكور: أنه ثقة عنده، لأنه ذكر تزكيته عن يحيى بن سعيد الأنصارى، ولم
يتعقب ذلك بشيء.

وقال ابن حجر فى «التقريب» فى ابن زحر المذكور: صدوق يخطئ، وكلام أئمة
الحديث فيه كثير منهم المثني ومنهم القادح.

وحجة من قال إن عليه بدنة: هى ما رواه عكرمة، عن ابن عباس: أن عقبة بن عامر
سأل النبي ﷺ فقال: إن أخته نذرت أن تمشى إلى البيت وشكا إليه ضعفها، فقال
النبي ﷺ «إن الله غنى عن نذر أختك فتركب ولتهد بدنة»^(٣) رواه أحمد، وأبو داود

(١) سبق تخريجه

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

وقال الشوكاني في هذا الحديث: سكت عنه أبو داود والمنذرى، ورجاله رجال الصحيح: قال الحافظ فى التلخيص: إسناده صحيح.

وحجة من قال: إن عليه هدياً هي: ما رواه أبو داود، حدثنا محمد بن المثنى، ثنا أبو الوليد ثنا همام، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن أخت عقبة بن عامر، نذرت أن تمشى إلى البيت، فأمرها النبي ﷺ أن تركب، وتهدى هدياً^(١).

وقال الشوكاني فى هذا الحديث: سكت عنه أبو داود والمنذرى، ولزوم الهدى المذكور مروى عن مالك فى الموطأ وفسر الهدى: ببذنة، أو بقرة، أو شاة، إن لم تجد غيرها.

هذا هو حاصل أدلة أقوال أهل العلم: فيما يلزم من نذر شيئاً، وعجز عن فعله. والقول بالهدى والقول بالبذنة، يمكن الجمع بينهما، لأن البذنة هدى، والخاص يقضى على العام.

ثم قال: وقد ذكرنا كلام الناس فى أسانيد الأحاديث الواردة فى ذلك وأحوطها: فيمن عجز عن المشى، الذى نذره فى الحج: البذنة، لأنها أعظم ما قيل فى ذلك، وليس من المستبعد، أن تلزم البذنة، وأنه يجزئ الهدى والصوم وكفارة اليمين، لأن كل الأحاديث الواردة بذلك ليس فيها التصريح بنفى أجزاء شىء آخر. فحديث لزوم كفارة اليمين: لم يصرح بعدم أجزاء البذنة، وحديث الهدى: لم يصرح بعدم أجزاء الصوم مثلاً وهكذا.

وقد عرفت أقوال أهل العلم فى ذلك مع أن الأحاديث لا يخلو شىء منها من كلام. ظاهر النصوص العامة: أنه لا شىء عليه، لأن الله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٢) ويقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(٣) ويقول النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم»^(٤) وقد ثبت فى صحيح مسلم: أن النبي ﷺ لما قرأ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾^(٥) الآية. قال الله: قد فعلت^(٦). وفى رواية: نعم، ويدخل فى حكم ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾^(٧) الآية اهـ.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) البقرة/ ٢٨٦.

(٣) التغابن/ ١٦.

(٤) البقرة/ ٢٨٦.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٤٢١/ ١٩٩) عن أبى هريرة به.

(٧) البقرة/ ٢٨٦، أضواء البيان (٥/ ٤٦٢).

*** فاجعل: فى حكم من مات وعليه نذر ***

قال الشنقيطى^(١): اعلم: أن الأحاديث الصحيحة دلت على أن من مات وعليه نذر أنه يقضى عنه.

أخرجه البخارى رحمه الله فى صحيحه: أن عبد الله بن عباس، أخبره: «أن سعد بن عبادة الأنصارى استفتى النبى ﷺ فى نذر كان على أمه، فتوفيت قبل أن تقضيه، فأفتاه: أن يقضيه عنها فكانت سنة بعد» اهـ^(٢).

تنبيه:

قال الشنقيطى: اعلم: أن عمر وابن عباس أفتيا بقضاء الصلاة المنذورة عن الميت إذا مات ولم يصل ما نذر. قال البخارى فى صحيحه: باب من مات وعليه نذر، وأمر ابن عمر امرأة جعلت أمها على نفسها صلاة بقاء فقال: صلى عنها^(٣). وقال ابن عباس نحوه^(٤) اهـ من البخارى.

قال مقبده عفا الله عنه وغفر له: الذى عليه جمهور أهل العلم، وحكى ابن بطال الإجماع عليه أنه لا يصلى أحد عن أحد، أما الصوم والحج عن الميت فقد قدمنا مشروعتيهما. وإن خالف جل أهل العلم فى الصوم عن الميت، والعلم عند الله تعالى. وفى «الموطأ» عن مالك بعد أن ذكر حديث «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه»^(٥).

قال يحيى: وسمعت مالكا يقول: معنى قول رسول الله ﷺ: «من نذر أن يعصى الله فلا يعصه» أن ينذر الرجل أن يمشى إلى الشام، أو إلى مصر، أو إلى الربدة، أو ما أشبه ذلك مما ليس لله بطاعة، إن كلم فلاناً أو ما أشبه ذلك فليس عليه فى شيء من ذلك شيء إن هو كلمه، أو حنث بما حلف عليه، لأنه ليس لله فى هذه الأشياء طاعة. وإنما يوفى لله بما له فيه طاعة اهـ. من «الموطأ».

فاجعل: فيمن نذر جميع ماله لله ليصرفه فى سبيل الله

قال الشنقيطى^(٦): الأظهر عندي: أن من نذر جميع ماله لله ليصرف فى سبيل الله،

(١) أضواء البيان (٥/٤٦٦).

(٢) أخرجه (٦٦٩٨).

(٣) علقه البخارى (١١/٥٩٢ - الفتح).

(٤) المصدر السابق.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أضواء البيان (٥/٤٦٧).

أنه يكفيه الثلث ولا يلزمه صرف الجميع، وهذا قول مالك وأصحابه وأحمد وأصحابه، والزهرى.

وفى هذه المسألة للعلماء عشرة مذاهب أظهرها عندنا: هو ما ذكرنا، ويليهِ فى الظهور عندنا قول من قال: يلزمه صرفه كله، وهو مروى عن الشافعى والنخعى.

وإذا علمت أقوال أهل العلم فى هذه المسألة:

ثم قال بعد عرض أقوال أهل العلم فاعلم: أن أكثرها لا يعتضد بدليل، والذي يعتضد بالدليل منها ثلاثة مذاهب:

الأول: هو أظهرها عندنا، وهو الاكتفاء بالثلث.

والثانى: لزوم الصدقة بالمال كله.

والثالث: قول سحنون: أنه يلزمه إخراج ما لا يضر به. أما الاكتفاء بالثلث الذى هو أقربها عندنا، فقد يستدل له ببعض الأحاديث الصحيحة التى فيها النهى عن التصدق بالمال كله، وفيها أن الثلث كثير.

قال البخارى رحمه الله فى صحيحه: باب إذا أهدى ماله على وجه النذر، والتوبة: عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب من بنيه حين عمى، قال: سمعت كعب ابن مالك يقول فى حديثه: «وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا»^(١) فقال فى آخر حديثه: إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله ورسوله، فقال النبى ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»^(٢) اهـ.

فظاهر هذا الحديث الصحيح: أن كعباً غير مستشير بل يريد التجرد من جميع ماله على وجه النذر والتوبة، كما فى ترجمة الحديث. وقد أمره ﷺ بأن يمسك بعض ماله، وصرح له بأن ذلك خير له.

وقد جاء فى بعض الروايات أنه فسر ذلك البعض الذى يمسكه بالثلثين، وأنه يتصدق بالثلث.

وقال ابن حجر فى شرح هذا الحديث قوله: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» زاد أبو داود عن أحمد بن صالح بهذا السند، فقلت: إني أمسك سهمى الذى بخير^(٣)، وهو عند البخارى من وجه آخر عن ابن شهاب، ووقع فى رواية ابن إسحاق

(*) أضواء البيان (٥/٤٦٩).

(١) التوبة: ١١٨.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٦٩٠) ومسلم فى التوبة (١٧/٦ - النووى). وانظر كتابنا - فتح ذى

الجلال فى تخريج أحاديث الظلال.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٣١٧) وانظر «السلسيل» بتخريجنا.

عن الزهري بهذا السند، عند أبي داود: «إن من توبتي إلى الله أن أخرج من مالي كله لله ورسوله صدقة قال: لا. قلت: فنصفه؟ قال: لا. قلت: فثلثه؟ قال: نعم. قلت: فيأني سأملك سهمي في خير»^(١).

واعلم أن ابن إسحاق في حديثه هذا عند أبي داود، صرح بالتحديث عن الزهري، فأمن تدليسه.

ثم قال ابن حجر: وأخرج من طريق ابن عيينة، عن الزهري، عن ابن كعب بن مالك، عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ، وذكر الحديث وفيه: «وإني أنخلع عن مالي كله صدقة» قال: «يجزىء عنك الثلث»^(٢) وفي حديث أبي لبابة، عند أحمد وأبي داود مثله^(٣) اهـ محل الغرض من فتح الباري.

وقد رأيت الروايات المصراحة بأنه يجزئه الثلث عن جميع المال. وظاهر الحديث أنه جازم غير مستشير فمن زعم من أهل العلم أنه مستشير فهو مخالف لظاهر اللفظ، لأن اللفظ مبدوء بجملته خبرية مؤكدة بحرف التوكيد، الذي هو إن «المكسورة في قوله» «إن من توبتي أن أنخلع من مالي، واللفظ الذي هذه صفته، لا يمكن حمله على التوقف والاستشارة، كما ترى فقوله ﷺ لكعب بن مالك وأبي لبابة: إن الثلث يكفي عن الصدقة بجميع المال؛ هو الدليل الذي ذكرنا بسببه: أن أقرب الأقوال عندنا الاكتفاء بالثلث.

وأما قول من قال: يلزمه التصديق بجميعة، فيستدل له بالحديث الصحيح: «من نذر أن يطيع الله فليطعه»^(٤) وهو يدل على إيفائه بنذره، ولو أتى على كل المال، إلا أن دليل ما قبله أخص منه في محل النزاع والأخص مقدم على الأعم.

وأما قول سحنون: يلزمه التصديق بما لا يضر به فيستدل له بقوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ»^(٥) الآية: لأن العفو في أصح التفسيرين، هو ما لا يضر إنفاقه

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٢١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣١٩).

(٣) [صحيح] أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٥٣/٣)، وأبو داود (٣٣٢٠) عن أبي لبابة به.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) البقرة: ٢١٩.

بالمنفق، ولا يجحف به لإمساكه ما يسد خلته الضرورية. وهذا قد يرجع إلى الأول لأن
الثالث من العفو الذى لا يجحف به إنفاقه. فأظهرها الأول كما ذكرنا وباقي الأقوال لا
اعلم له دليلاً متجهاً من كتاب، ولا سنة، وما وجه به تلك الأقوال بعض أهل العلم
لا يتجه عندي، والعلم عند الله. اهـ.

فصل: فيمن نذر أن يسافر إلى مسجد ليصلي فيه

قال الشنقيطي: اعلم أنه قد دل النص الصحيح، على أن من نذر أن يسافر إلى
مسجد ليصلي فيه كمسجد البصرة، أو الكوفة أو نحو ذلك لا يلزمه السفر إلى مسجد من
تلك المساجد، وليصل الصلاة التي نذرها به في موضعه الذي هو به.

والنص الصحيح المذكور هو حديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد:
المسجد الحرام ومسجدي هذا ومسجد بيت المقدس»^(١). والجاري على الأصول: أنه
لا يخرج من هذا الحصر الذى صرح به النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح، إلا
ما أخرجه نص صحيح يجب الرجوع إليه من كتاب أو سنة. والأظهر أن من
نذر السفر لصلاة في مسجد إيلياء، وصلّاها في مسجد مكة أو المدينة أجزأته، لأنهما
أفضل منه.

وقد قال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل ثنا حماد أخبرنا حبيب المعلم، عن
عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله: أن رجلاً قام يوم الفتح فقال: يا رسول الله
إنى نذرت إن فتح الله عليك مكة أن أصلي في بيت المقدس ركعتين قال: «صل ها هنا
ثم أعاد عليه، فقال: صل ها هنا ثم أعاد عليه، فقال: شأنك إذا»^(٢).

قال أبو داود: وروى نحوه عن عبد الرحمن بن عوف، عن النبي ﷺ.
وفي لفظ لأبي داود عن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، عن رجال من أصحاب
النبي ﷺ، فقال ﷺ: «والذى بعث محمداً بالحق لو صليت هنا لأجزأ عنك صلاة في
بيت المقدس»^(٣) اهـ. والعلم عند الله تعالى.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [إسناده صحيح] أخرجه أبو داود (٣٣٠٥) عن جابر به.

وانظر كتابنا «فقروا الأثر في شرح بلوغ المرام بكلام ابن حجر» (١٢٩٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٣٠٦).

فيه مسائل

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة، فصرفه إلى غير الله شرك.

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

ولنتكف بما ذكر هنا من مسائل النذر لكثرة والنذر باب مذكور في كتب الفروع، فمن أراد الإحاطة بجميع مسائله، فلينظرها في كتب فروع المذاهب الأربعة، وقد ذكرنا هنا عيون مسائله المهمة، والعلم عند الله تعالى. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١):

فيه مسائل:

● الأولى: وجوب الوفاء بالنذر.

يعنى: نذر الطاعة فقط، لقوله: «من نذر أن يطيع الله؛ فليطعه»، ولقول المؤلف في المسألة الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

● الثانية: إذا ثبت كونه عبادة؛ فصرفه إلى غير الله شرك.

وهذه قاعدة في توحيد العبادة، فأى فعل كان عبادة؛ فصرفه لغير الله شرك.

قلت: وقد تقدم تأصيل هذه القاعدة من كلام أهل العلم من الشراح وغيرهم.

● الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

لقوله ﷺ: «من نذر أن يعصى الله؛ فلا يعصه».

قلت: ولم يتعرض المصنف - رحمه الله - لمسألة الكفارة لأمرين:

الأول: لكثرة الخلاف فيها كما تقدم.

الثاني: لأنها لاتعلق لها بنذر الشرك الذى بوب عليه وهذا من عمق علمه أ.هـ.



(١) القول المفيد ١/ ٣٢٢.

مِنَ الشِّرْكِ الْإِسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ

● مناسبة هذا الباب لما قبله.

قال السعدى: متى فهِمت الضابط السابق فى حد الشرك الأكبر وهو أن من صرف شيئاً من العبادة لغير الله فهو مشرك فمن هذه الأبواب الثلاثة التى والى المصنف بيانها أهـ.

● شرح الترجمة ومناسبتها لكتاب التوحيد:-

قال حامد بن محمد^(١): باب فى بيان ما يدل على أن من الشرك الاستعاذة بغير الله أهـ.

قال ابن باز^(٢): أى من الشرك الأكبر كبقية العبادات التى صرفها لغير الله شرك أكبر؛ لأن الاستعاذة عبادة، كما قال تعالى ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. أهـ.

وبنحو من هذا قال عبد الله بن جبار الله، حيث قال^(٣):

هى أن الاستعاذة بالله من أنواع العبادة وصرفها لغيره شرك ينافى التوحيد أهـ.

● تنبيه:

قال الفقير: لم يوفق المصنف فى هذه الترجمة حيث أطلق بالشرك على كل استعاذة ولم يقيد فلو قال (باب: الاستعاذة بغير الله) لكان أنسب.

لذا قال ابن عثيمين^(٤): قوله: (من الشرك) (من) للتبويض، وهذه الترجمة ليست على إطلاقها، لأنه إذا استعاذ بشخص مما يقدر عليه، فإنه جائز، كالأستعانة. أهـ. وسيأتى بيان أقسام الاستعاذة قريباً.

قال الفقير: قد يعتذر للمصنف عن عدم التفصيل فى هذه الترجمة لأنه لا ينبغي أن يفصل فى مقام الترهيب بل يمر النصوص على ظاهرها، لأن التفصيل قد يهون الأمر، لكن سيرد عليه أنه جاء فى أبواب أخرى وفصل مع أنها أيضاً فى أبواب الترهيب والله أعلم.

قوله: (الاستعاذة بالله).

أولاً: تعريف الاستعاذة لغة:

عاذ به يعوذ عوداً وعباداً ومعاداً: لآذ به ولجأ إليه واعتصم.

(١) فتح الله الحميد المجيد (ص ٢٣٤).

(٢) «التعليق المفيد» / (٨٩).

(٣) «الجامع الفريد».

(٤) «القول المفيد» (١/ ٣٢٣).

ومعاذ الله أى عياداً بالله. قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ أى نعوذ بالله معاذاً أن نأخذ غير الجاني بجنايته.

- وتقول العرب للشئ ينكرونه والأمر يهابونه: حُجراً أى دفعاً، وهو إستعاذة من الأمر. وما تركت فلاناً إلا عوداً منه، وعواداً منه أى كراهة.

- ويقال أَقْلَتَ فلان من فلان عوداً إذا خوّفه ولم يضربه أوضربه وهو يريد قتله فلم يقتله.

- والعُودَةُ والمُعَاذَةُ والتعويدُ: الرقية يُرقى بها الإنسان من فزع أو جنون لأنه يعاذ بها.

- والعُودُ من اللحم: ما عاذ بالعظم ولزمه وناقة عائذ عاذ بها ولدها، والعائذ من الإبل: الحديثة والتناج إلى خمس عشرة أونحوها.

والعودُ فى الأصل: جمع عائذ من هذا الذى تقدم (١).

والخلاصة: أن الاستعاذة من عاذ يعوذ عوداً وعياداً ومعناه الإلتصاق والإلتزام من الفاعل والرعاية من المفعول وكلاهما عائذاً.

ثانياً: شرعاً:

قال عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٢) وقال تعالى:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (٣) وقال

تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤) وقال تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١)

مَلِكِ النَّاسِ﴾ (٦) وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ

بِیَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (٧) وقال تعالى عنه عليه السلام ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَنْ

تَرْجُمُونُ﴾ (٨).

- وقال النبى ﷺ: «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وبسلطانه القديم من الشيطان الرجيم» (٩).

(١) «اللسان» مادة (عوذ).

(٣) المؤمنون: (٩٧، ٩٨).

(٥) الفلق: (١).

(٧) غافر: (٢٧).

(٩) أخرجه أبو داود (٤٦٦) عن أنس به.

وانظر الأذكار للنووى بتخريجنا

(٢) النحل (٩٨).

(٤) الأعراف: (٢٠٠).

(٦) الناس: (١).

(٨) الدخان: (٢٠).

- وقال: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»^(١).

- وقال: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك»^(٢).

- وقال: «تعوذوا بالله من الفتن»^(٣).

- واستعاذ ﷺ من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال،^(٤) ومن الرد أرذل العمر^(٥)، ومن المأثم والمغرم^(٦) ومن فتنة القبر، وعذاب القبر، ومن فتنة النار وعذاب النار، ومن شر فتنة الغنى، ومن شر فتنة الفقر^(٧)، ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال^(٨)، وغير ذلك. أهـ^(٩).

- قال ابن كثير: الاستعاذة هي الإلتجاء إلى الله والإلتصاق بجنابه من شر كل ذي شر والعياذ يكون لدفع الشر. واللياذ لطلب الخير.

- وقال سليمان آل الشيخ: ناقلاً معنى كلام ابن القيم في الاستعاذة.

الاستعاذة: الإلتجاء، والإعتصام، والتحرز، وحقيقتها: الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذاً، وملجأً ووزراً.

فالعائد بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكة، وفر إليه، وألقى نفسه بين يديه واعتصم به، واستجار، وألتجأ إليه، وهذا تمثيل وتفهم، وإلا فما يقوم بالقلب من الإلتجاء إلى الله، والإعتصام به، والإطراح بين يدي الرب، والإفتقار إليه، والتذلل بين يديه، أمر لا تحيط به العبارة^(١٠).

وقال حافظ حكيم: (١١) والاستعاذة: - أي ومن أنواع العبادة - الاستعاذة وهي الإمتناع بالله - عز وجل - والإلتجاء إليه. أهـ.

(١) [صحيح] مسلم في الذكر والدعاء (٣٢/١٧- النوى) عن أبي هريرة به..

(٢) أخرجه الترمذى (٣٥٦٦)، والنسائى (٢٤٨/٣) - السيوطى) عن على به.

انظر الأذكار للنوى (٢٣٢- بتخريجنا).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في الجنة (٦٧/٢١٨/٩) عن زيد بن ثابت به..

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٨٩٣)، ومسلم في الذكر الدعاء (٢٩/١٧) النوى).

(٥) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٨٢٢) عن سعد بن أبى وقاص به.

وانظر الأذكار للنوى (١٧١- بتخريجنا).

(٦) أخرجه البخارى (٨٣٢)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٧٨/٥) - النوى عن عائشة به.

(٧) أخرجه أبو داود (١٥٤٣)، والترمذى (٣٤٩٥)، والنسائى (٢٦٢/٨) - السيوطى)، وابن ماجه

(٣٨٣٨) عن عائشة به.

وانظر «الأذكار» للنوى (١٠٢٤- بتخريجنا).

(٨) تقدم قبل حديث. (٩) نقلاً عن معارج القبول (٣٦٢/١).

(١٠) تفسير المعوذتين (ص ٦٠) بتصرف. (١١) معارج القبول (٣٦٢/١).

فصل

أقسام الاستعاذة

قال الفقير: تقدم في أول الباب قول ابن عثيمين أنه إذا استعاذ بشخص فيما يقدر عليه فهذا ليس بشرك وهذا جائز. وعلى هذا أدلة من السنة كثيرة في الصحيحين وغيرهما أن ناساً استعاذوا بغير الله ولم يشركوا، ولم يحرم عليهم ذلك - قلت: فعلى هذا - فالاستعاذة تنقسم إلى أقسام منها:-

أولاً: استعاذة بغير الله مشروعة:-

وهي بال مخلوق الحى الحاضر فيما يستطيعه.

ثانياً: استعاذة بغير الله ممنوعة:-

وتنقسم إلى نوعين:-

[النوع الأول]: كفر

وينقسم هذا النوع إلى قسمين:-

الأول: بال مخلوق فيما لا يستطيعه إلا الله.

الثاني: بال مخلوق الحى الغائب أو الميت فيما يستطيعه المخلوق الحى الحاضر.

[النوع الثانى]: حرام.

وهو الاستعاذة بالجن فيما يقدر عليه الجن.

● هذا التقسيم على الإجمال، وإليك تفصيل ذلك:-

القسم الأول: الاستعاذة بغير الله المشروعة: بالحى الحاضر فيما يستطيعه.

والأدلة على ذلك كثيرة منها

١- عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً:

«ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشى، والماشى فيها خير من الساعى.. من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأ فليعذ به»^(١) متفق عليه.

٢- عن جابر رضى الله عنه:

أن امرأة من بنى مخزوم سرقَتْ فأُتِيَ بها إلى النبى ﷺ فعازت بأم سلمة زوج النبى ﷺ فقال النبى ﷺ: «والله لو كانت فاطمة لقطعت يدها» فقطعت^(٢).

٣- عن عبيد الله بن القبطية قال:

(١) [متفق عليه] البخارى (٧٠٨١)، ومسلم فى الفتن (٩/٢٣٥/١٠).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحدود (٦/٢٠٣/١١) عن جابر به

وانظر «رياض الصالحين» (٦٥٢) بتخريجنا.

دخل الحارث بن أبى ربيعة وعبدالله بن صفوان وأنا معهما على أم سلمة أم المؤمنين فسألاها عن الجيش الذى يخسف به وكان ذلك فى أيام ابن الزبير فقالت: قال رسول الله ﷺ: «يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث، فإذا كانوا يبيدوا من الأرض خسف بهم» فقلت: يا رسول الله: فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: «يخسف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته» قال أبو جعفر: هى بيداء المدينة (١).

٤- عن أبى مسعود أنه كان يضرب غلامه فجعل يقول: أعوذ بالله، قال: فجعل يضربه، فقال: أعوذ برسول الله فتركه فقال رسول الله ﷺ: «والله الله أقدر عليك منك عليه» قال: فأعتقه (٢).

القسم الثانى: الاستعاذة بغير الله الممنوعة وبيان القسم الأول الذى هو كفر

وهذا القسم الذى هو كفر ينقسم إلى قسمين:

(الأول): الاستعاذة بالمخلوق فيما لا يستطيعه إلا الله.

(الثانى): الاستعاذة بالمخلوق الحى الغائب أو الميت فيما يستطيعه المخلوق الحى الحاضر.

واليك أدلة هذين القسمين: - سواء كان المستعاذ به إنسياً أو جنياً.

أما الدليل على أنه الاستعاذة بمخلوق مطلقاً سواء كان حياً أو ميتاً إنسياً أو جنياً فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهذا شرك أكبر، لأنه لا يقدر عليه إلا الله، كما تقدم من كلام ابن عثيمين فى باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، فى دعاء المخلوقين والطلب نهم ما لا يطلب إلا من الله مثل: يا فلان: اجعل ما بطنى امرأتى ذكراً.

وأما الاستعاذة بالمخلوق الحى الغائب أو الميت فيما يستطيعه المخلوق الحى الحاضر، فهذا شرك أكبر أيضاً، لأنه لا يستعيز بمن كان هذا حاله حتى يعتقد أنه له تصرفاً خفياص فى الكون وهذا أيضاً مؤدى ما قاله ابن عثيمين فى الدعاء (٣).

قال القرطبي (٤) فى تفسير قوله تعالى: «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا».

قال سعيد ابن جبير: كفراً. ولاخفاء أن الاستعاذة بالجن دون الاستعاذة بالله كفر وشرك أه.

قال ابن تيمية:- وأنه مبعوث إلى الإنسان والجن لما فى ذلك من هدى الإنسان والجن ما يجب عليهم من الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر وما يجب من طاعة رسله

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفتن (٩/٢٣١/٤).

(٢) [صحيح] مسلم فى الأيمان والتدور (٦/١٤٣/٣٦).

(٤) تفسير القرطبي (١٠/٦٨٠٣).

(٣) القول المفيد (١/١٩٧، ١٩٨).

ومن تحريم الشرك بالجن وغيرهم كما قال في السورة: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أهـ^(١).

وقال ابن القيم: ومن ذبح للشيطان ودعاه، واستعاذ به، وتقرّب إليه بما يجب فقد عبده وإن لم يسم ذلك عبادة ويسميه استخداماً. وصدّق، هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خدَم الشيطان وعابديه. وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبد كما يفعل هو به أهـ^(٢).

قال ابن كثير^(٣): في تفسير الآية، وقصة الرجل الذي استعاذ بالجن - وستأتي -.

وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل وهو ولد الشاة وكان جنياً حتى يرهّب الإنس ويخاف منه ثم رده عليه لما استجار به ليضله ويهينه ويخرجه عن دينه والله تعالى أعلم.

- قال سليمان آل الشيخ^(٤): وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله، ولهذا نهوا عن الرقى التي لا يعرف معناها، خشية أن يكون فيها شيء من ذلك أهـ. وهي عبادة وصرفها لغير الله شرك لأن الله أمرنا بها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

قلت: فالله عز وجل معاقب المشرك أو العاصي بتقيض قصده وهي فائدة في هذا الباب كما سيأتينا.

وقال ابن عثيمين^(٥): قال شيخ الإسلام: لا يجوز الاستعاذة بالمخلوق عند أحد من الأئمة. وهذا ليس على إطلاقه، بل مرادهم مما لا يقدر عليه إلا الله، لأنه لا يعصمك من الشر الذي لا يقدر عليه إلا الله، إلا الله ومن ذلك أيضاً الاستعاذة بأصحاب القبور؛ فإنهم لا ينفعون ولا يضرّون؛ فالاستعاذة بهم شرك أكبر.

● أدلة القسم الثاني: المحرم إذا كان المستعاذ جنياً

قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ الآية.

قال ابن عباس: فزادهم ذلك إثماً

وعن قتادة ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي إثماً^(٦).

وقال السدي: كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزّلها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضر أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ما مشيتي^(٧).

(٢) نقلاً عن فتح المجيد (١٦٤).

(٤) تيسير العزيز الحميد (١٥٣).

(٦، ٧) وسياًتي تخريجهما عند الطبري.

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/١٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/٤١٤).

(٥) القول المفيد (١/٣٣٠).

قال قتادة: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أى خطيئة (١).

وروى ابن أبى حاتم عن كُرْدُم بن أبى السائب الأنصارى قال خرجت مع أبى من المدينة فى حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة فأوانا المبيت إلى راعى غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعى فقال يا عامر الوادى جارك، فنادى مناد لآنراه يقول يا سرحان أرسله. فأتى الحمل يشتد حتى دخل فى الغنم لم تصبه كدمة، وأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ بمكة ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ...﴾ الآية (٢) ثم قال وروى عن عبيد بن عمير ومجاهد وأبى العالية والحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى نحوه. وقد يكون الذئب الذى أخذ الحمل وهو ولد الشاة وكان جنيماً حتى يرهب الإنسان ويخاف منه ثم رده عليه لما استجار به ليضله ويهيئه ويخرجه عن دينه والله أعلم (٣).

قال الطبرى: بعد حكاية الأقوال كلها فى التفسير: وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال معنى ذلك فزاد الإنسان والجن بفعلهم ذلك إثماً.

قال ابن عثيمين (٤): وهذه الآية تدل على أن الاستعاذة بالجن حرام؛ لأنها لا تفيد المستعيز، بل تزيد رهقاً، فعوقب بنقيض قصده، وهذا ظاهر فتكون الواو ضمير الجن والهاء ضمير الإنسان أهـ.

[قلت]: فمن استعاذ بالجن فيما يستطيعه ويقدر عليه أثم، وعلى هذا يتنازل قول ابن عباس وعكرمة وقتادة، وغيرهم من أهل العلم.

ومن استعاذ بالجن فيما يقدر عليه إلا الله كفر وعلى هذا ينتزل قول مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما من أهل العلم. وهذا أيضاً يؤكد ما ذهبنا إليه من أن ترجمة المصنف رحمه الله لهذا الباب على إطلاقها، بل فيها تفصيل على النحو الذى سبق.

● شبه وردود ●

من شبه فى هذا الباب، ما يقال:

لماذا تحرمون الاستعاذة بالجن فيما يقدر عليه الجن من الأمور المباحة؟

قلت: لما تجوزون أنتم الاستعاذة؟!

(١) وسيأتى تخريجه عند الطبرى.

(٢) سيأتى تخريجه

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٤١٤.

(٤) «القول المفيد» (١/ ٣٢٤).

فإن قالوا من قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ .

فالجواب: أن هذه الآية عامة وآية الجن خاصة فيقدم الخاص على العام كما هو مقرر في الأصول، لأن دلالة العام ظنية، ودلالة الخاص قطعية .

فإن قالوا: آية الجن لاتدل على أن الاستعاذة بهم فيما يقدرّون عليه من المباح حرام؟

فالجواب: أن سبب نزول هذه الآية كما سيأتى من كتب التفسير المسندة أنهم إنما استعاذوا بالجن فيما يقدر عليه من الأمور المباحة فهم استعاذوا بسيد الوادى أو عظيم الوادى من سفهاء قومه، وهذا العظيم يقدر على هذا الأمر، وهذا الأمر مباح .

فإن قالوا: لعلهم استعاذوا بهم فيما يقدرّون عليه من المباح مع تعلق قلوبهم بالجن، وهذا لاشك من الشرك، فلهذا ذمهم الله، لا لأصل الاستعاذة بالجن، بل على تعلق قلوبهم بالجن؟

فالجواب من وجوه:

[الأول]: أى الآية لم تذكر إلا أنهم استعاذوا بهم، ولم تذكر عمل القلب، والاستعاذة لاتعنى تعلق القلب بإطلاق، وإلا لما جازت الاستعاذة بالمخلوق الحى الحاضر فيما يقدر عليه - كما تقدم - !!

فلو كانت تعنى تعلق القلب لكانت كفراً قولاً واحدة، ولم يكن فيها هذا التفصيل .

[الثاني]: أنه على فرض احتمال أنهم تعلقت قلوبهم بالجن، فى الاستعاذة فهذه حالة من الأحوال، وليست كل الأحوال، بل تارة يستعيذوا بغير تعلق، وتارة يستعيذوا بتعلق، ولهذا جاء عن السلف تفصيل فى ﴿رَهَقًا﴾ فتارة قالوا: إثماً على الحالة الأولى التى ليس فيها تعلق قلبى، وتارة قالوا: كفراً: أى فى حال عدم التعلق القلبى .

فإن قالوا: فما الفرق بين الاستعاذة بالمخلوق الحى الحاضر فيما يستطيعه والجن الحى الحاضر فيما يستطيعه؟

الجواب: من وجوه:

[الأول]: أن المخلوق الحى حاضر فعلاً، والجن غائب مع حضوره، فلاتراه، فأشبه الإنسان الغائب ودعاؤه ههنا، والاستعاذة به لايكون غالباً إلا لاعتقاد أنه له تصرف خفى يشبه تصرف الإله .

[الثاني]: أن الاستعاذة بالإنسان الحى الحاضر مشروعة بالنصوص المتقدمة .

والاستعاذة بالجن الحى الحاضر ليس فيها أدلة .

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (١).

فإن قال: بالعمومات؟ قلنا - كما تقدم - أن الخاص قاضى على العام، وأزيدك قول السلف فى مثل هذه المواطن التى ليست لهم فيها سلف: «لو كان خير لسبقونا إليه» ولثبت عن النبى ﷺ أو أحد من الصحابة استعاذ بالجن فيما يقدر عليه من المباح مع توافر الدواعى إلى ذلك فى السلم والحرب إلا ما جاء عن أبى موسى فى وسم إيل الصدقة من عمر بسند ضعيف كما سيأتى وهو عند ابن أبى الدنيا فى «الهواتف».

ومالم يكن بالأمس ديناً فليس اليوم ديناً، بل الثابت أن تسخير الجن بأى نوع كان من خصائص ملك سليمان، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن النبى ﷺ قال: «وإم الله لولا ما سبقنى إليه أخى سليمان لارتبط إلى سارية من سوارى المسجد حتى يطيف به ولد أهل المدينة» (٢).

فإن قال: الوجه الأول من الوجهين السابقين يدل على الاستعاذة بالجن كفر، وليس حراماً كما ذهبتم؟

الجواب: إن كان مع فساد المعتقد، فهو متعلق بالقسم الثانى من القسم الأول وإن كان مع سلامة المعتقد، فهو حرام. والله الموفق للصواب.



مناسبة الآية للترجمة:

قال سليمان آل الشيخ (٣): ووجه الاستدلال بالآية على الترجمة أن الله حكى عن مؤمنى الجن أنهم لما تبين لهم دين الرسول ﷺ وأمنوا به، ذكروا أشياء من الشرك كانوا يعتقدونها فى الجاهلية، من جملتها الاستعاذة بغير الله أهـ.

قال عبد الله بن جار الله (٤): أن الله تعالى حكى عن مؤمنى الجن أنهم لما تبين لهم دين محمد ﷺ وآمنوا به ذكروا أشياء من الشرك كانوا يفعلوها فى الجاهلية، ومن جملتها الاستعاذة بغير الله أهـ.

قال ابن عثيمين (٥): ووجه الإشتباه بالآية: ذم المستعيزين بغير الله، والمستعيز بالشئ لاشك أنه قد علق رجاءه به، واعتمد عليه، وهو نوع من الشرك. أهـ.

(١) الجن/ (٦).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٦١)، ومسلم فى المساجد (٣٩/٣٢/٣) عن أبى هريرة.

(٣) تيسير العزيز الحميد (١٥٣).

(٥) القول المفيد (١/٣٢٣).

(٤) الجامع الفريد (٥٧).

قال القرعاوى^(١): مناسبة الآية للباب: حيث دلت الآية على تحريم الاستعاذة بغير الله، لذا تكون الاستعاذة عبادة لله، وصرف العبادة لغير الله شرك أهـ.

إعراب الآية:

(وأنه) عطف، (وأن) واسمها، وجملة (كان) خبرها، (وبرجال) متعلقان (بيعوذون) (ومن الجن) نعت (لرجال)، (فزادوهم) عطف على (كان رجال) (وزادوهم) فعل وفاعل ومفعول به أول، (ورهباً) مفعول ثانى أهـ^(٢).

وقال ابن عثيمين^(٣): الراو حرف عطف، و(أن) فتحت همزتها بسبب عطفها على قوله «أنه استمع نفر من الجن» قال ابن مالك:

وهمز إن أفتح لسد مصدر مسدها وفي سوى ذاك اكسر

فيؤول بمصدر أى: قل أوحى إلى استماع نفر وكون رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن. قوله: ﴿مَنِ الْإِنْس﴾ صفة لرجال، لأن رجال نكرة، وما بعد النكرة صفة لها. قوله ﴿يَعُودُونَ﴾ الجملة خبر كان، ويقال: عاذ به، ولاذ به، والعياذ مما يخاف، واللياذ فيما يؤمل، وعليه قول الشاعر يخاطب ممدوحه، ولا يصلح ما قاله إلا لله:

يا من ألوذ به فيما أمله ومن أعوذ به عما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهضون عظماً أنت جابره

ما جاء فى سبب نزول الآية:

عن كردم بن أبى السائب الأنصارى رضى الله عنه قال: خرجت مع أبى إلى المدينة فى حاجة، وذلك أول ما ذُكرَ رسول الله ﷺ بمكة، فأوانا المبيت إلى راعى غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب، فأخذ حملاً من الغنم، فوثب الراعى فنادى: يا عامر الوادى جارك، فنادى مناد لا نراه: يا سرحان أرسله. فإذا الحمل يشد حتى دخل فى الغنم لم تصبه كدمة، فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ...﴾^(٤) الآية وتقدم الحديث فى القسم الثانى المحرم من الاستعاذة.

(١) الجديد (١٢١).

(٢) إعراب القرآن الكريم/ لمحى الدين درويش (١٠/٢٣٧).

(٣) «القول المفيد» (١/٣٢٣/٣٢٥).

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم (ح ١٣٢٥٩) وذكره السيوطى فى «الدرة» (٦/٤٣١) وزاد نسبته لابن المنذر،

والعقلى فى «الضعفاء» والطبرانى، وأبى الشيخ فى العظمة، وابن عساكر.

وانظر «فتح القدير» (١٣٢٥٩ - بتخریجنا).

عن أبي رجاء العطاردي من بنى تميم قال: بعث رسول الله ﷺ وقد رعبت على أهلى وكفيت مهنتهم، فلما بعث النبي ﷺ خرجنا هرباً فأتيناً على فلاة من الأرض، وكنا إذا أمسينا بمثلها قال شيخنا، إنا نعوذ بعزیز هذا الوادى من الجن الليلة، فقلنا ذاك. فقليل لنا: إنما سبيل هذا الرجل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن أقر بها أمن على دمه وماله. فرجعنا فدخلنا فى الإسلام. قال أبو رجاء: إني لأرى هذه الآية نزلت فى وفى أصحابي ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (١).

وعن مجاهد عن ابن عباس أن رجلاً من بنى تميم كان جريثاً على الليل والرجال، وأنه سار ليلة فتزل فى أرض مجنة فاستوحش، فعقل راحلته، ثم توسد ذراعيها وقال: أعوذ بسيد هذا الوادى من شر أهله، فأجاره شيخ منهم، وكان منهم شاب وكان سيد فى الجن، فغضب الشاب لما أجاره الشيخ، فأخذ حربة له قد سقاها السم لينحر ناقة الرجل بها فتلقيه الشيخ دون الناقة فقال:

يا مالك بن مهلهل	مهلاً فذلك محجرى وإزارى
عن ناقة الإنسان لاتعرض لها	واختر إذا ورد المها أثواري
إني ضمننت له سلامة رحله	فاكفف يمينك راشد عن جاري
ولقد أتيت إلى مالم أحتسب	إلا رعبت قرابتي وجواري
تسعى إليه بحربة مسمومة	أف لقربك يا أبا اليقطارى
لولا الحياء وأن أهلك جيرة	لتمزقتك بقوة أظفاري

فقال له الفتى:

أتريد أن تعلو وتخفض ذكرنا	فى غير مزربة أبا العيزار
متنحلاً أمراً لغيرك فضله	فارحل فإن المجد للمرار
من كان منكم سيداً فيما مضى	إن الخيار هم بنو الأخيار
فاقصد لقصديك يا معيكر إنما	كان المجير مهلهل بن وبار

فقال الشيخ: صدقت كان أبوك سيدنا وأفضلنا دع هذا الرجل لا أنازعك بعده أحداً أفتركه فأتى الرجل النبي ﷺ فقص عليه القصة فقال رسول الله ﷺ: «إذا أصاب أحداً

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦/ ٤٣١) ونسبه لابن سعد.

منكم وحشه أو نزل بأرض مجنة فليقل: أدعو بكلمات الله التامات التي لا يجوزهن بر* ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن فتن الليل، ومن طوارق النهار إلا طارقاً يطرق بخير»، فأنزل الله في ذلك ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (١).

ما جاء في تفسير الآية من الآثار الموقوفة والمقطوعة:

عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ قال كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول أعوذ بعزير هذا الوادي فزادهم ذلك إثماً (٢).

عن الحسن في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ قال كان الرجل منهم إذا نزل الوادي فبات به قال أعوذ بعزير هذا الوادي من شر سفهاء قومه (٣).

عن إبراهيم في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ كانوا إذا نزلوا الوادي قالوا نعوذ بسيد هذا الوادي من شر ما فيه فتقول الجن ما نملك لكم ولا لأنفسنا ضرراً ولا نفعاً (٤).

عن إبراهيم في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ قال كانوا في الجاهلية إذا نزلوا بالوادي قالوا نعوذ بسيد هذا الوادي فيقول الجنون تتعوذون بنا ولا نملك لأنفسنا ضرراً ولا نفعاً (٥).

عن مجاهد قوله: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ قال كانوا يقولون إذا هبطوا وادياً نعوذ بعظماء هذا الوادي (٦).

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٤٣١/٦) ونسبه لأبي نصر السجزي في «الإبانة». وقال أبو النصر: غريب جداً لم نكتبه إلا من هذا الوجه.
(٢) أخرجه ابن جرير في الموضوع السابق وذكره السيوطي في «الدر» (٤٣٢/٦) وزاد نسبته لابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (١٣٢٦٠ - بتجريخنا).

(٣) أخرجه ابن جرير في الموضوع السابق.

وذكره السيوطي في «الدر» (٤٣٢/٦) ونسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٤) أخرجه ابن جرير في الموضوع السابق. وذكره السيوطي في «الدر» (٤٣٣/٦) ونسبه لعبد بن حميد.

(٥) أنظر ما قبله

(٦) أخرجه ابن جرير في الموضوع السابق.

وذكره السيوطي في «الدر» (٤٣٢/٦) ونسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر.

عن قتادة قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ ذكر لنا أن هذا الحَيَّ مِنَ الْعَرَبِ كانوا إذا نزلوا بوادٍ قالوا نعوذ بأهل هذا المكان قال الله ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ أى إثمًا وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة (١).

عن قتادة ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ كانوا فى الجاهلية إذا نزلوا منزلا يقولون نعوذ بأهل هذا المكان (٢).

عن الربيع بن أنس ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ قال كانوا يقولون فلان من الجن رب هذا الوادى فكان أحدهم إذا دخل الوادى يعوذ برب الوادى من دون الله قال فيزيده بذلك ﴿رَهَقًا﴾ وهو الفرق (٣).

قال ابن زيد فى قوله ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ قال كان الرجل فى الجاهية إذا نزل بوادٍ قبل الإسلام قال إني أعوذ بكبير هذا الوادى فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم (٤).

وقوله: ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك فقال بعضهم معنى ذلك فزاد الإنس بالجن باستعاذتهم بعزیزهم جراءة عليهم وازدادوا هم بذلك إثمًا. ذكر من قال ذلك:

عن ابن عباس ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ فزادهم ذلك إثمًا (٥).

عن قتادة قال قال الله ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ أى إثمًا وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة (٦).

عن قتادة ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ يقول خطيئة (٧).

عن إبراهيم ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ قال فيزدادون عليهم جراءة (٨).

وقال آخرون: بل عنى بذلك أن الكفار زادوا بذلك طغيانًا.

ذكر من قال ذلك:

عن مجاهد قوله: ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ قال زاد الكفار طغيانًا (٩).

وقال آخرون: بل عنى بذلك فزادوهم فرقا.

ذكر من قال ذلك:

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤٣٢/٦) ونسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق. وذكره السيوطى فى «الدر» (٤٣٣/٦) ونسبه لعبد بن حميد.

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» فى الموضع السابق.

(٥) - (٩) تقدموا جمعاً فى الآثار السابقة.

عن الربيع بن أنس ﴿فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قال فيزيدهم ذلك رهقا وهو الفرق (١).

قال ابن زيد في قوله ﴿فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قال زادهم الجن خوفا (٢).

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال معنى ذلك فراد الإنس الجن بفعلهم ذلك اثما وذلك زادوهم به إستحلالا لمحارم الله والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم ومنه قول الأعشى.

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها هل يشتفى وامق مالم يصب رهقا

يقول مالم يغش محرما أهـ.

● أقوال المفسرين

قال ابن جرير الطبري (٣): قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ يقول تعالى ذكره مخبرا عن هؤلاء النفر وأنه كان رجال من الإنس يستجيرون برجال من الجن في أسفارهم إذا نزلوا منازلهم وكان ذلك من فعلهم فيما ذكر لنا كالذي.

وقال ابن الجوزي: في تفسير (٤): قوله تعالى: ﴿فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قولان:

أحدهما: أن الإنس زادوا الجن رهقا لتعوذهم بهم، قال مقاتل: والمعنى: أنهم لما استعاذوا بسادتهم قالت السادة: قد سدنا الجن والإنس.

والثاني: أن الجن زادوا الإنس رهقا، ذكره الزجاج. قال أبو عبيدة: زادوهم سقاها وطغياناً. وقال ابن قتيبة: زادوهم ضللاً. وأصل الرهق: العيب. ومنه يقال: فلان يرهق في دينه أهـ.

قال الرازي (٥): ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ فيه قولان.

(الأول) وهو قول جمهور المفسرين أن الرجل في الجاهلية إذا سافر فأمسى في قفر من الأرض، قال أعوذ بسيد هذا الوادي أو بعزير هذا المكان من شر سفهاء قومه، فبييت في جوار منهم حتى يصبح.

وقال آخرون: كان أهل الجاهلية، إذا قحطوا بعثوا رائدهم، فإذا وجد مكاناً فيه كلاً وماء رجع إلى أهله فيناديهم، فإذا انتهوا إلى تلك الأرض نادوا نعوذ برب هذا الوادي من أن يصيبنا آفة يعنون الجن، فإن لم يفرعهم أحد نزلوا وربما تفرعهم الجن فيهربون.

القول الثاني: المراد أنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الإنس أيضاً، لكن

(١)، (٢) تقدما قريباً. (٣) تفسير الطبري (٢٩/٦٨ - ٦٩).

(٤) زاد المسير (٧/١٣١). (٥) التفسير الكبير (٢٩/١٥٧).

من شر الجن، مثل أن يقول الرجل، أعوذ برسول الله من شر جن هذا الوادى، وأصحاب هذا التأويل إنما ذهبوا إليه، لأن الرجل اسم الإنس لا اسم الجن.

وهذا ضعيف، فإنه لم يقم دليل على أن الذكر من الجن لا يسمى رجلاً. أما قوله: ﴿فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قال المفسرون معناه زادوهم إثماً وجرأة وطغياناً وخطيئة وغياً وشرأ، كل هذا من ألفظاهم.

قال الواحدي: الرهق غشيان الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرَهُقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ وقوله: ﴿تَرَهَقَهَا قَتَرَةٌ﴾ ورجل مرهق أى يغشاه السائلون. ويقال رهقتنا الشمس إذا قربت.

والمعنى أن رجال الإنس إنما استعاذوا بالجن خوفاً من أن يغشاهم الجن، ثم إنهم زادوا فى ذلك الغشيان، فإنهم لما تعوذوا بهم، ولم يتعوذوا بالله استدلوهم واجتروا عليهم فزادوهم ظلماً، وهذا معنى قول عطاء خبطوهم وخنقوهم.

وعلى هذا القول: زادوا من فعل الجن.

وفى الآية قول آخر وهو أن زادوا من فعل الإنس وذلك لأن الإنس لما استعاذوا بالجن فالجن يزدادون بسبب ذلك التعوذ طغياناً فيقولون سدنا الجن والإنس، والقول الأول هو اللائق بمساق الآية والموافق لنظمها أهـ.

قال القرطبي^(١): قال مقاتل: كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن، ثم من بنى حنيقة، ثم فشا ذلك فى العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم أهـ.

ثم قال^(٢): وقال سعيد ابن جبير: كفرا. ولاخفاء أن الاستعاذة بالجن دون الاستعاذة بالله كفر وشرك.

وقيل: لا يطلق لفظ الرجال على الجن؛ فالمعنى: وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجن برجال من الإنس، وكان الرجل من الإنس يقول مثلاً: أعوذ بحذيفة بن بدر من جن هذا الوادى، قال القشيري: وفى هذا تحكم إذ لا يبعد إطلاق لفظ الرجال على الجن أهـ.

قال ابن كثير^(٣): أى كنا نرى لنا فضلاً على الإنس، لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البرارى وغيره، كما كانت عادة العرب فى جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن، أو يصيهم شئ يسؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعداءه فى جوار رجل كبير، وزمامه وخفارتة، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون

(١) (٢) أحكام القرآن (١٠/٦٨٠٢ - ٦٨٠٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/٤٢٨ - ٤٢٩).

بهم من خوفهم منهم ﴿فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أى خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى بقوا أشد منهم مخافة، وأكثر تعوداً بهم، كما قال قتادة: ﴿فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أى ائماً، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة.

وقال ابن أبي حاتم - بسنده - عن عكرمة قال: كان الجن يَفَرُّونَ من الإنسان كما يَفَرُّ الإنسان منهم، أو أشد فكان الإنسان إذا نزلوا وادياً هرب الجن فيقول سيد القوم: نعوذ بسيد أهل هذا الوادى، فقال الجن: نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم فدنوا من الإنسان فأصابهم بالخلل والجنون، فذلك قول الله عزوجل: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أى ائماً (١).

● خلاصة تفسير ﴿فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾

كل الأقوال السابقة فى قوله تعالى: ﴿فَرَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

قلت: من باب إختلاف التنوع، فالآية تحتل هذه المعانى فمن استعاذ بالجن فيما يستطيعه ويقدر عليه ائمه وعلى هذا يتنزل قول ابن عباس وقتادة، وعكرمة ومن استعاذ بالجن فيما لا يقدر عليه إلا الله كفر، وعلى هذا يتنزل قول مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم من أهل العلم، وهو أيضاً يؤكد ما ذهبنا إليه من أن ترجمه المصنف للباب ليست على إطلاقها بل فيها تفصيل وتقسيم كما سبق أنه يجوز الاستعاذة بغير الله فيما يقدر عليه الإنسان، وهذه هى الاستعاذة المشروعة والمنوعة تنقسم إلى قسمين:

حرام، وكفر، فالأول ما تقدم من الاستعاذة بالجن فيما يقدر عليه فهذا حرام، والثانى فيما لا يقدر عليه إلا الله فهذا كفر.

● أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): والمعنى والله أعلم على قول أن الإنسان زادوا الجن باستعاذتهم رهقاً، أى ائماً وطغياناً وشرّاً فضمير الفاعل على هذا العائدين من الإنسان وضمير المفعول للمستعاذ بهم من الجن، وعلى القول الثانى بالعكس، وزيادتهم للإنسان رهقاً بأغوائهم وإضلالهم، وذلك أن (الرجل) من العرب كان إذا أمسى فى وادٍ قفر فى بعض مسائرته وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه، يريد الجن وكبيرهم.

(١) أنظر تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا فى تفسير هذه الآية. (٢) تيسير العزيز الحميد (١٥٣، ١٥٤).

ثم قال: والآثار بذلك عن السلف مشهورة.

ثم قال: وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله، ولهذا نهوا عن الرقي، التي لا يعرف معناها، خشية أن يكون فيها شيء من ذلك.

قال ملا على القارى الحنفى: ولا تجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك، فقال: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ إلى أن قال: وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ الآية.

فاستمتع الإنسى بالجنى: فى قضاء حوائجه وامتنال أوامره، أو إخباره بشيء من المغيبات، واستمتع الجنى بالإنسى تعظيمه إياه، واستعاذته به، واستغاثته، وخضوعه له، وفيه أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر، أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك، ذكره المصنف أهـ.

ونقله عبدالرحمن آل الشيخ عنه^(١).

قال حامد بن محمد^(٢): وقد ذكر الله صريحاً أنهم كانوا يعبدون الجن، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ وقد كانت عبادتهم للجن استعاذتهم بهم أهـ.

قال ابن باز^(٣): الواو للجن، والهاء للإنس أى زاد الجنُ الإنس رهقاً وهو الخوف والذعر، فلما خاف الإنس من الجن تكبرت الجن.

وقال بعض السلف: الواو للإنس، والهاء للجن، أى زاد الإنسُ الجن رهقاً. ويكون معنى الرهق الطغيان والاستكبار.

وكلا المعنيين حق فإذا تعوذ الإنسان من الجن فهو تعظيم للجن، ويزاد الجن طغيان وتكبر، ويقابله خوف الإنس من الجن، وقد ذكرهم الله فى معرض الذم فيجب ترك فعلهم. أهـ.

[قلت] تقدم ذكر القولين من كلام ابن الجوزى بترتيب. فانظره إن شئت .

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٣٤).

(١) فتح المجيد (٢٠٢/١ - ٢٠٣).

(٣) التعليق المفيد (٨٩، ٩٠).

قال ابن عثيمين^(١): هذه الآية تدل على أن الاستعاذة بالجن حرام، لأنها لا تنفيذ المستعبد، بل تزيده رهقاً، فعوقب بتقيض قصده، وهذا ظاهر، أهـ. ثم ذكر الوجهين السابقين في الواو الهاء.

الفوائد من الآية:

قال القرعاوى^(٢): الفوائد - أى من الآية -:

(١) تحريم الاستعاذة بغير الله.

(٢) أن من التجأ إلى غير الله خذله.

(٣) إثبات وجود الجن وأن فيهم رجالاً ونساءً أهـ.

(٤) قال صاحب «فضل الغنى الحميد»: تعليقاً على الآية^(٣): لذلك يجب الحذر

الشديد من الوقوع فى مثل ذلك أثناء معالجة المصروعين بالجن، وتجنب سؤال - الذين يزعمون الإسلام - أن يحموا المريض أو يدافعوا عنه أو ينتقموا من عدوه، فإن ذلك كله من هذا الباب، وادعاء الإسلام لا يغير من الأمر شيئاً، فإنه لا يحل الاستعاذة بالمخلوق كائناتاً من كان، حتى لو كان مؤمناً، بل ولو كان نبياً أو ولياً أهـ.

[قلت]: ولعل مقصده فى الاستعاذة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، وإلا فقد تقدم من كلام ابن عثيمين أن الإطلاق فيه نظر، فانظره أول الباب. والله أعلم.

قال شيخ الإسلام^(٤): أن أهل الضلال والبدع الذين فيهم زهد وعبادة على غير الوجه الشرعى ولهم أحياناً مكاشفات ولهم تأثيرات يأوون كثيراً إلى مواضع الشياطين التى نهى عن الصلاة فيها؛ لأن الشياطين تنزل عليهم بها وتخطبهم الشياطين ببعض الأمور كما تخطب الكهان. وكما كانت تدخل فى الأصنام وتكلم عابدى الأصنام وتعينهم فى بعض المطالب كما تعين السحرة، وكما تعين عباد الأصنام وعباد الشمس والقمر والكواكب إذا عبدوها بالعبادات التى يظنون أنها تناسبها. من تسيب لها ولباس وبخور وغير ذلك؛ فإنه قد تنزل عليهم شياطين يسمونها روحانية الكواكب. وقد تقضى بعض حوائجهم، إما قتل بعض أعدائهم أو إمرضه، وإما جلب بعض من يهونه، وإما إحضار بعض المال، ولكن الضرر الذى يحصل لهم بذلك أعظم من النفع، بل قد يكون أضعاف أضعاف النفع.

قوله: ﴿بِرِّجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾.

(١) القول المفيد (١/٣٢٤).

(٢) الجديد (١٢٠).

(٣) فضل الغنى الحميد (٣٨).

(٤) مجموع الفتاوى (١٩/٤١).

وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا، فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

قال الشوكاني^(٢) «برجال» وصفاً لمن يستعيذون به من رجال الإنس، أى يعوذون بهم من شر الجن، وهذا فيه بُعد.

وإطلاق لفظ رجال على الجن على تسليم عدم صحته لغة لا مانع من إطلاقه هنا من باب المشاركة. أهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): يستفاد منه أن للجن رجالاً، ولهم إناث أهـ.

[قلت]: يشهد لهذا حديث: «أعوذ بالله من الخبث والخبائث»^(*) فقد قيل فيها ذكر الجن وإناثهم - وربما يجامع الرجل من الجن الأنثى من بنى آدم، وكذلك العكس، الرجل من بنى آدم قد يجامع الأنثى من الجن، وقد ذكر الفقهاء الخلاف فى وجوب الغسل بهذا الجماع.

ثم قال: وأما أن الرجل يجامع الأنثى من الجن فقد قيل ذلك، لكن لم أره فى كلام أهل العلم وإنما أساطير تقال. والله أعلم أهـ.



قوله: [وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول.....]. مناسبة الحديث للباب:

قال حامد بن محمد^(٤): فإن قلت: ما المستدل به على الترجمة؟ قلت: لما بين الرسول ﷺ أن الاستعاذة بكلمات الله التامات منطوقاً بأن مفهوماً أن الاستعاذة بغيرها لا ينبغي للمسلم أن يفعلها، وأنها منهي عنها، وأنها حرام. أهـ.

قال عبد الله جار الله^(٥): مناسبة الحديث للباب أنه دل على أن كلمات الله غير مخلوقة، لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك. أهـ.

قال القرعاوى^(٦): مناسبة الحديث للباب حيث دل الحديث على أن الاستعاذة لا تجوز بغير الله أو بصفة من صفاته، لذا تكون الاستعاذة عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك أهـ.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الذكر والدعاء»/ باب: فى التعوذ من سوء القضاء (٣٧/٩١) ح (٢٧٠٨) والترمذى فى «الدعوات»/ باب: ما جاء مما يقول إذا نزل منزلاً (٣٤٣٧) ح. وأنظر «فتح المجيد» (ح ٢٧٧) بتخريجنا و«الأذكار» للنووى (ح ٥٦٣) بتخريجنا.

(٢) «فتح القدير» (٣٠٢/٥). (٣) «القول المفيد» (٣٢٥/١).

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٢٣٤). (٥) الجامع الفريد (٥٨). (٦) الجديد (١٢٣).

(*) أخرجه البخارى (١٤٢)، ومسلم فى الحيز (١٢٢/٣٠٦/٢) عن أنس به.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال»

قوله: (خولة بنت حكيم).

قال سليمان آل الشيخ^(١): أى ابن أمية السلمية، يقال لها: أم شريك، ويقال لها: خويلة بالتصغير، ويقال: إنها هى الواهة، وكانت قبل تحت عثمان بن مظعون. قال ابن عبد البر: وكانت صالحة فاضلة. أهـ وكذا نقل عنه عبدالرحمن آل الشيخ^(٢). قولها: (سمعت).

فيه تحرى نساء الصحابة أيضاً فى صيغ التحمل. قوله: (كلمات الله التامات).

قال ابن حجر^(٣): المراد بالكلمات مُطلق الكلمات أهـ.

قلت: سواء كانت هذه الكلمات هى القرآن أو السنة أو الأحكام أو الكلام الشرعى أو الكلام القدرى.

ثم قال: وقيل: الكلمات هى أقضيته.

وقيل: ما وعد به كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ والمراد بها - [وكلمة ربنا هى ما وعدهم به وهو التمكن] - قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ الآية.

وقيل: المراد بها الكاملة، وقيل: النافعة وقيل: الشافية، وقيل المباركة، وقيل القاضية التى تمضى وتستمر ولايردها شئ ولايدخلها نقص ولاعيب.

قال الخطايبى: كان أحمد يستدل بهذا الحديث على أن كلام الله غير مخلوق، ويحتج بأن النبى ﷺ لا يستعبد بمخلوق أهـ.

وقال سليمان آل الشيخ^(٤): قال القرطبى فى «المفهم»: قيل: معناه الكمالات، اللاتى لا يلحقها نقص، ولاعيب، كما يلحق كلام البشر، وقيل: معناه الشافية الكافية وقيل الكلمات هنا: هى القرآن. فإن الله أخبر عنه بأنه (وهدى وشفاء) وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى.

ثم قال: فيه دليل على أن كلمات الله غير مخلوقة، وردوا به على الجهمية والمعتزلة فى قولهم بخلق القرآن. قالوا: فلو كانت كلمات الله مخلوقة يأمر النبى ﷺ بالاستعاذة بها، لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك. أهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد (١٥٤).

(٢) فتح المجيد (١/٢٠٣).

(٣) فتح البارى (٦/٤٧٢).

(٤) «تيسير العزيز الحميد» (١٥٤).

وهذا ما نقله الحافظ عن الخطابي عن الإمام أحمد، وذكرناه في الكلام السابق لهذا.

ثم ذكر سليمان آل الشيخ أيضاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله: وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق، وهذا مما استدلوا به على أنه كلام الله غير مخلوق. قالوا: لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويد التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها شرك أهـ.

وبنحو هذا الشرح قال حامد بن محمد^(١)، وعبد الرحمن آل الشيخ^(٢) بنص بكلام سليمان، وعبد الله بن جار الله^(٣) بشيء من الإختصار، وباقي الشراح لكتاب التوحيد.

وقال ابن باز^(٤): (كلمات) معناها أى كلمات الله النافذة والكونية التى لاراد لها. وقال بعض السلف المراد بالكلمات: الشرعية، وكلمات القرآن؛ لأنها كلمات عظيمة شريفة، وهى كلام الله.

وكل هذا حق، وكلها وصف له سبحانه، فكلامه الكونى نافذ، وكلامه الشرعى أفضل الكلام، وفيه توسل بصفات الله أهـ.

وقد انفرد ابن عثيمين بشرح جيد أيضاً كشيخه: (كلمات الله التامات) فقال: (كلمات) من جموع القلة، لأنه جمع مؤنث سالم، وجموع القلة من ثلاثة إلى عشرة والكثرة ما فوق ذلك.

وقيل: جموع الكثرة من ثلاثة إلى ما لانهاية له؛ فيكون جمع القلة والكثرة يتفقان فى الابتداء، ويختلفان فى الانتهاء.

قال ابن مالك:

أَفْعَلَةٌ أَفْعُلُ ثُمَّ فِعْلَةٌ ثُمَّتْ أَفْعَالٌ جُمُوعٌ قِلَّةٌ
وَبَعْضُ ذِي بَكْثَةٍ وَضَعًا يَفِي كَأَرْجُلٍ وَالْعَكْسُ جَاءَ كَالصَّفِيِّ
والراجع: أن جموع القلة تدل على الكثرة بالدليل.

و«كلمات»: جموع قلة دال على الكثرة لوجود الدليل، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.

وأبلغ من هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾.

(٢) فتح المجيد (١/ ٢٠٣ - ٢٠٤).

(٤) «التعليق المفيد» (٩٠).

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٣٤ - ٢٣٥).

(٣) الجامع الفريد (٥٩).

والمراد بالكلمات هنا: الكلمات الكونية والشرعية.

وقوله: «من نزل منزلاً» يشمل من نزل على سبيل الإقامة الدائمة، أو الطارئة، بدليل أنه نكرة فى سياق الشرط، والنكرة فى سياق الشرط تفيد العموم.

وقوله: «أعوذ» بمعنى: ألتجىء واعتصم.

قوله: «التامات».

تمام الكلام بأمرين:

١- الصدق فى الأخبار.

٢- العدل فى الأحكام.

قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

قوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

قال سليمان آل الشيخ^(١): أى من كل شر فى أى مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره، إنسياً كان أو جنيّاً أو هامة أو دابة، أو ريحاً أو صاعقة، أى نوع كان من أنواع البلاء فى الدنيا والآخرة وما ههنا موصولة ليس إلا، وليس المراد بها العموم الإطلاقي، بل المراد التقييدى الوصفى والمعنى من شر كل مخلوق فيه شر، لا من شر كل ما خلقه الله تعالى، فإن الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر، هذا معنى كلام ابن القيم. قال: والشر يقال على شيئين على الألم وعلى ما يفضى إليه. أهـ.

- ونقل عبدالرحمن آل الشيخ^(٢) نص كلام ابن القيم رحمه الله ثم تابع سليمان آل الشيخ على كلامه.

- وقال عبدالله جار الله^(٣): معنى قوله ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أى من شر كل مخلوق فيه شر. والله أعلم أهـ.

- وكذا قال القرعاوى^(٤).

(١) تيسير العزيز الحميد (١٥٥).

(٢) فتح المجيد (٢٠٥/١).

(٣) الجامع الفريد (١٢٢).

(٤) الجديد (١٢٢).

- قال الشيخ ابن عثيمين^(١): أي: من شر الذى خلق؛ لأنَّ الله خلق كلَّ شيء: الخير والشر، ولكن الشرَّ لا ينسب إليه؛ لأنَّه خلق الشرَّ لحكمة، فعاد بهذه الحكمة خيراً، فكان خيراً.

وعلى هذا نقول: الشر ليس فى فعل الله، بل فى مفعولاته؛ أى مخلوقاته. وعلى هذا تكون من موصولة لا غير؛ أى: من شر الذى خلق؛ لأنك لو أولتها إلى المصدرية وقلت: من شر خلقك؛ لكان الخلق هنا مصدرأً يجوز أن يراد به الفعل، ويجوز أيضاً المفعول، لكن لو جعلتها اسماً موصولاً تعين أن يكون المراد بها المفعول، وهو المخلوق أهـ.

فعل

تقسيم خلق الله من حيث الشر والخير

لا يجوز الاستعاذة من كل ما خلق، بل من بعض ما خلق، فالله عز وجل خلقه ينقسم إلى أقسام ثلاثة، كما: قال ابن عثيمين^(٢): وليس كل ما خلق الله فيه شر، لكن تستعيذ من شره إن كان فيه شر؛ لأن مخلوقات الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي:

١- شرمحض؛ كالنار وإبليس باعتبار ذاتيهما، أما باعتبار التى خلقهما الله من أجلها؛ فهى خير أهـ.

[قلت]: ولا تقول الجن والإنس؛ لأنهما فيهما الخير والشر، والجن يغلب عليه الشر، والإنس يغلب عليه الخير بالنسبة إلى الجن وتسئ؟ أو تجب الاستعاذة بالله منهما والله أعلم.

٢- خير محض؛ كالجنة، والرسول، والملائكة.

[قلت]: ويحرم عليك الاستعاذة بالله منهم، وفى حديث ابنة الجون لما استعاذت بالله من رسول الله ﷺ طلقها^(٣). والله أعلم.

٣- فيه شر وخير، كالإنس والجن، والحيوان.

وأنت إنما تستعيذ من شر ما فيه شر. أهـ.

قوله: «لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قال القرطبي: هذا خبر صحيح وقول صادق علمنا

(٢) القول المفيد (١/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(١) «القول المفيد» (١/ ٣٢٧).

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٢٥٤) عن عائشة به (٤) «تيسير العزيز الحميد» (١٥٥).

صدقه دليلاً وتجربة، فإنني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه فلم يضرني شيء إلى أن تركته، فلدغتنى عقرب بالمهدية ليلاً، فتفكرت في نفسي فإذا بي قد نسيت أن أتعود بتلك الكلمات أهـ.

[قلت] وهذا الكلام يُستحب في سائر المنازل، لاسيما وإن كان منزلاً جديداً؛ لأن أغلب المساكن الجديدة تكون مهجورة فترة.

قال ابن باز^(١): (لم يضره شيء): نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء وهذا يدل على فضلها، فينبغي العمل بها أهـ.

قال القرعاوي^(٢): (لم يضره شيء): لم يصبه أذى، ولا ما يؤدي إلى أذى. أهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم من شياطين الإنس والجن والظاهر والخفي حتى يرحل من منزله؛ لأن هذا خبر لا يمكن أن يتخلف مخبره؛ لأنه كلام الصادق المصدق، لكن إن تخلف؛ فهو لوجود مانع لا لقصور السبب أو تخلف الخبر.

ونظير ذلك كل ما أخبر به النبي ﷺ من الأسباب الشرعية إذا فعلت ولم يحصل المسبب؛ فليس ذلك لخلل في السبب، ولكن لوجود مانع، مثل: قراءة الفاتحة على المرضى شفاء، ويقرأها بعض الناس ولا يشفى المريض، وليس ذلك قصوراً في السبب، بل لوجود مانع بين السبب وأثره.

ومنه: التسمية عند الجماع؛ فإنها تمنع ضرر الشيطان للولد، وقد توجد التسمية ويضر الشيطان الولد؛ لوجود مانع يمنع من حصول أثر هذا السبب، فعليك أن تفتش ما هو المانع حتى تزيله فيحصل لك أثر السبب أهـ.

مسألة:-

قال ابن عثيمين^(٤): والمؤلف يقول في الترجمة: الاستعاذة بغير الله، وهنا استعاذة بالكلمات، ولم يستعذ بالله؛ فلماذا؟

قال ابن عثيمين: أجيب: أن كلمات الله صفة من صفاته، ولهذا استدل العلماء بهذا الحديث على أن كلام الله من صفاته غير مخلوق؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق لا تجوز في مثل هذا الأمر، ولو كانت الكلمات مخلوقة ما أرشد النبي ﷺ إلى الاستعاذة بها.

(١) التعليق المفيد (٩٠).

(٢) الجديد (١٢٢).

(٣) القول المفيد (١/٣٢٦ - ٣٢٧).

(٤) القول المفيد (١/٣٢٩).

ولهذا كان المراد من كلام المؤلف: الاستعاذة بغير الله؛ أى: أو صفة من صفاته.
وفى الحديث: «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»^(١)، وهنا استعاذ بعزة الله وقدرته، ولم يستعذ بالله، والعزة والقدرة من صفات الله، وهى ليست مخلوقة.
ولهذا يجوز القسم بالله وبصفاته؛ لأنها غير مخلوقة.
أمّا القسم بالآيات، فإن أراد الآيات الشرعية؛ فجائز، وإن أراد الآيات الكونية؛ فغير جائز أهـ.

[قلت]: فيه أنه يجوز الاستعاذة أو الحلف بالله أو بصفة من صفاته لكن بشرط أن تكون مضافة له تعالى، لا منفصلة كالذى يحلف بالرحمة فقط، ولكن الصحيح أن يقول ورحمة الله.

فالصفة وحدها لا يجوز أن تستعذ بها لأنها لاتنفك عن الذات، كما لايجوز أن تحلف بها منفكة أو منفصلة عن الذات.

فصل

فى أجاديث أخر فى الإستعاذة بالله وصفاته

١- عن عثمان بن أبى العاص الثقفى أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً، يجده فى جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «ضع يدك على الذى تألم من جسّدك وقل: بسم الله (ثلاثاً) وقل (سبع مرات): أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»^(٢).

لعل لقائل أن يقول لماذا لم يأت المصنف بهذا الحديث ليستدل به على الباب؟
الجواب: لما كان غير مناسب للآية تماماً من كل الوجه اكتفى بالأوّل لأنه اشتمل على البديل الشرعى المغنى عن الاستعاذة بالجن إذا نزل الإنسان منزلاً.

٢- وأخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين «أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَةٍ» ويقول: «إِنْ أَبَاكُمَا كَانَ يَعُوذُ بِهِمَا إِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ»^(٣) واللامه: كل مايلم بالإنسان من جنون أو خبل.

٣- أخرج مسلم عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله: ما لقيت من عقرب لدغتنى البارحة؟ قال: «أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضرّك»^(٤).

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء (٣١/١٧).

وانظر «الأذكار للنووى» بتخريجنا

٤- أخرج أبو داود عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد يقول: «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم». قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان: «حفظ مني سائر اليوم»^(١) قال النووي: حديث حسن رواه أبو داود بإسناد جيد أهـ.

مسائل حسان، غير ما ذكره المصنف في الباب:-

[قلت]: المصنف حينما منع من الاستعاذة بغير الله استبدل بها ما هو خير منها هذا غير مطرد دائماً.

لأن التكلف في البدائل ربما ميع دعوة الإسلام والمسلمين كمباريات كرة القدم و فرق التمثيل وغيرها.

وإلا سنخرج الإنسان من جاهلية اسمها جاهلية إلى جاهلية اسمها إسلام.

وكما قال بعض أهل العلم: لا تستبعدوا أن يكون هناك عهر إسلامي.

مسألة: هل الله خالق الشر.

الجواب: من باب الأدب مع الله، حينما تُسئل الله: خالق الشر؟ فلا نقول نعم، خالق الشر. وتسكت بل تقول الله خالق كل شيء، الخير والشر، لكن لم يخلق الشر لذاته، إنما خلقه لحكمة، وهذه الحكمة في الحقيقة هي التي تجعل الشر خيراً.

مسألة: ما هي الحكمة التي خلق الله من أجلها الشر المحض مثل النار أو الشيطان؟

الجواب: الحكمة لو علمت ستعلم أن النار بالنظر إلى هذه الحكمة خير، لا بالنظر إلى أصل الخلقة.

فإذا علمت أنك لن تدخل الجنة حتى تطهر ومن المطهرات لك أن تدخل النار لتطهر من المعاصي.

فلو لم تكن هذه النار التي تطهر المؤمن، هل كان سيستأهل دخول الجنة التي ليس فيها خبيث وليس فيها إلا طيب؟!

فينبغي أن نعلم أن الله عز وجل لا يخلق الشر إلا لحكمة تجعل هذا الشر خيراً. بالنسبة له سبحانه وتعالى ليس بالنسبة للشر نفسه، وذلك كخلق إبليس، أو كخلق النفاق، فلو أن الله ما جعل صنفاً يسمى منافق، وادعى كل من الإيمان، ولعل يكون في صدرك ضيق وحر إذا ظهر لك عدم إخلاص إنسان، ولكن لا تستطيع أن تقول شيئاً، فعند ما يأتي الله ببلاء وفتن واختبار، بالنظر إلى أنه بلاء فهو شر، لكن بالنظر إلى أن

(١) تقدم تخريجه.

الله عز وجل جعله لحكمة - يميز الخبيث من الطيب فهو خير، وربما يشفى الله عز وجل بهذا التمييز صدور قوم مؤمنين، فقد يكون أحدنا ضيق الصدر ويشعر بأن هناك أناس دخيلة على الدين والدعوة، وتتمنى أن لا يتسبوا إلى الإسلام أصلاً، فضلاً عن الدعوة والدعاة، فالله عز وجل حينما يميزهم ويغريهم؟ يشفى صدرك، وما حدث هذا التمييز إلا بالفتن كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾.

فالله عز وجل لم يخلق الشر لذاته، بل خلقه لحكمة هذه الحكمة تجعله ليس بشر. أما من قالوا بأن الله عز وجل لم يخلق الشر ولا الخير هم المعتزلة وهى فرقة من الفرق الضالة التى نبه عليها سلفنا الصالح، ولهم خمسة أصول.

١- التوحيد.

٢- والعدل.

٣- والمنزلة بين المنزلتين.

٤- وإنفاذ الوعيد.

٥- والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.

وتوحيدهم هو نفى الصفات.

وقريب من هؤلاء المعتزلة ما يدرس فى الأزهر وتسمى (الماتريدية) قريبة الشبه بالمعتزلة، توحيدهم نفى الصفات، ولأنهم نفوا الصفات، قالوا: ربنا عليم بلا علم وسميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، فأثبتوا الأسماء أو بعضها ونفوا الصفات، إلى أن أداهم ذلك إلى أنهم نفوا رؤية الله عز وجل فى الدنيا والآخرة لا للمؤمنين ولالغيرهم.

وذلك لأنهم فى الحقيقة على مذهبهم إنما عبدوا عدماً، فإذا أثبتوا الرؤية، فإنهم بذلك يقيمون الحجة على أنفسهم، فلكى لا يقيموا الحجة على أنفسهم بإثباتهم لرؤية الله بأسمائه وصفاته، فقالوا: ليس هناك رؤية أصلاً، فتوحيدهم هو نفى الصفات عن الله عز وجل، والعدل عندهم هو أن الله عز وجل لم يخلق الخير ولا الشر، لأنه إن خلق الشر فكيف يعاقب عليه، وجعلوا ذلك من أفعال العباد، ورد عليهم غير واحد من أهل العلم، فمنهم الإمام البخارى فى كتاب مستقل، اسمه (خلق أفعال العباد والرد على الجهمية) الذين قالوا ما قال المعتزلة، فالجهمية والمعتزلة اتفقوا فى بعض النقاط منها فى نفى الصفات، وعدم خلق أفعال العباد التى سموها العدل، وإنفاذ الوعيد اشتركوا فيه مع الخوارج، فالخوارج قالوا بتكفير صاحب الكبيرة وأنه خالد فى النار، أما المعتزلة فقالوا إنه ليس بكافر بل هو فى منزلة بين المنزلتين، وهذا هو الأصل الرابع من أصول

المعتزلة؛ أن صاحب الكبيرة لا كافر ولا مؤمن بل هو في منزلة بين المنزلتين - فاسق - لكنهم اتفقوا مع الخوارج في أنه مخلّد في النار، وهذا معنى قولهم في الأصل الثالث «إنفاذ الوعيد»، ومعنى إنفاذ الوعيد يعني ليس هناك شفاعة لأهل الكبائر، كالخوارج، لكن أهل السنة - في التوحيد - أثبتوا الأسماء والصفات إثباتاً بلا تشبيه إلا تكييف، وتنزيهاً بلا تعطيل وأثبتوا ما أثبتته الله لنفسه وكذلك ما أثبتته الرسول له، فقالوا: نؤمن بالله وما جاء عن الله على مراد الله ونؤمن برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله، وأما في مسألة «العدل» قالوا - أهل السنة - الله خالق كل شيء. وإن كان من باب الأدب مع الله ألا ننسب الشر إليه «والشر ليس إليك» كما قال ﷺ في الحديث (١) وهناك أدلة كثيرة على ذلك منها:

قول أيوب ﴿أَنِّي مَسْنَى الشَّيْطَانِ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

﴿أَنِّي مَسْنَى الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينُ﴾.

فإنه لم ينسب المرض لله من باب الأدب مع الله، ولأنه في الحقيقة لم يخلق المرض لذاته إنما خلق المرض ليظهر به المؤمنين أو يرفع به درجاتهم.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وبالنسبة لإنفاذ الوعد والوعيد، فأهل السنة قالوا: إن أهل الكبائر تحت خطر المشيئة، إن شاء الله عذبهم وإن شاء عفى عنهم حتى وإن لم يأتوا بحسنات ماحيات فهناك أسباب تمحو هذه الكبيرة كالمرض أو المصائب، أو البلايا أو الفتن، أو المحن، أو التوبة أو الاستغفار أو أهوال القيامة أو ضمة القبر وما شاكل ذلك من هذه الحسنات الماحيات، ثم لقوا الله عز وجل بعد ذلك لكبائرهم والعياذ بالله فهم تحت خطر المشيئة، لم تقطع لهم بجنة ولم تقطع لهم بنار، ولأنهم ماتوا على الإسلام فأخر أمرهم إلى الجنة ولا بد. هذا بالنسبة لإنفاذ الوعيد عند أهل السنة، أثبتوا الشفاعة لله ولرسوله وللملائكة ولسائر الشفعاء، وهي أيضاً من أسباب الرحمة، وهذه نفتها المعتزلة ونفتها الخوارج. وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا خلاف أنه واجب على الكفاية عند أهل السنة. على درجاته أما عندهم فهي الخروج على الحكام على تفصيل عندهم.

وبعد:-

فإني ما أردت بذلك إلا أن أنهى أن قول النبي ﷺ أعوذ بكلمات الله التامة - التامات من شر ما خلق أن الله خلق الخير وكل شيء ولكن ما خلق الشر لذاته وما خلق الشر

(١) تقدم تخريجه.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْجَنِّ.

الثانية: كَوْنُهُ مِنَ الشَّرِّكَ.

الثالثة: الاستدلالُ عَلَى ذَلِكَ بِالْحَدِيثِ، لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى أَنَّ كَلِمَاتِ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، قَالُوا: لِأَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ بِالْمَخْلُوقِ شَرِّكَ.

الرابعة: فَضِيلَةُ هَذَا الدُّعَاءِ مَعَ اخْتِصَارِهِ.

الخامسة: أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ يَحْصُلُ بِهِ مَنَفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ، مِنْ كَفِّ شَرٍّ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ، لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشَّرِّكَ.

للشر، إنما خلق الشر لحكمة قد نعلمها، وقد لانعلمها ولكننا نعلم أيضاً أن هذه الحكمة تجعل هذا الشر خيراً، كخلقهِ للمرض لرفع الدرجات، أو لمحو وتطهير السيئات كما تقدم، والله المستعان.

قال ابن عثيمين^(١): فيه مسائل:

● الأولى: تفسير آية الجن.

وقد سبق ذلك في أول الباب.

● الثانية: كونه من الشرك.

أى: الاستعاذة بغير الله، وقد سبق التفصيل في ذلك.

● الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى أَنَّ كَلِمَاتِ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ؛ قَالُوا: لِأَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ بِالْمَخْلُوقِ شَرِّكَ.

وجه الإستهناد: أَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ لَا تَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهَا إِسْتِعَاذَةً بِاللَّهِ؛ لِأَنَّهَا صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ.

● الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

أى: فائدته، وهى أَنَّهُ لَا يَضُرُّكَ شَيْءٌ مَا دُمْتَ فِي هَذَا الْمَنْزِلِ.

● الخامسة: أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ يَحْصُلُ بِهِ مَنَفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ مِنْ كَفِّ شَرٍّ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشَّرِّكَ.

(١) «القول المفيد» (١/ ٣٣١ - ٣٣٤).

ومعنى كلامه: أنه قد يكون الشيء من الشرك، ولو حصل لك فيه منفعة؛ فلا يلزم من حصول النفع أن يتنفى الشرك؛ فالإنسان قد يتنفع بما هو شرك. مثال ذلك: الجن؛ فقد يعيذك، وهذا شرك مع أن فيه منفعة. مثال آخر: قد يسجد إنسان للملك، فيهبه أموالاً وقصوراً، وهذا شرك مع أن فيه منفعة، ومن ذلك ما يحصل لغلاة المداحين للملوكهم لأجل العطاء؛ فلا يخرجهم ذلك عن كونهم مشركين. قال بعضهم:

فكن كما شئت يا من لانظير له وكيف شئت فما خلق يدانيك

[قلت]: ويشهد له قصد ابن مسعود مع امرأته زينب حيث نهاها عن الخيط ويبين أنه شرك برغم أنها أخبرته أنه كان سبباً لمنع القذف من عينها وقال إنما ذلك من الشيطان. وفي الحديث فائدة، وهى: أن الشرع لا يبطل أمراً من أمور الجاهلية إلا ذكر ما هو خير منه؛ ففى الجاهلية كانوا يستعيذون بالجن، فأبدل بهذه الكلمات، وهى: أن يستعيذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.

وهذه الطريقة هى الطريقة السليمة التى ينبغى أن يكون عليها الداعية، أنه إذا سدّ عن الناس باب الشر؛ وجب عليه أن يفتح لهم باب الخير، ولا يقول: حرام، ويسكت، بل يقول: هذا حرام، وافعل كذا وكذا من المباح بدلاً عنه، وهذا له أمثلة فى القرآن والسنة. فمن القرآن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾^(١)، فلما نهاهم عن قول ﴿رَاعِنَا﴾ ذكر لهم ما يقوم مقامه وهو ﴿انظُرْنَا﴾.

ومن السنة قوله ﷺ لمن نهاه عن بيع الصّاع من التمر الطيب بالصاعين، والصاعين بالثلاثة: «بيع الجمع بالدراهم، واشتر بالدراهم جنيهاً»^(٢).

فلما منعه من المحذور؛ فتح له الباب السليم الذى لا محذور فيه أهد.

[قلت]: لكن هذا الباب لا يخفى عليك أنه لا بد وأن يكون شرعياً لا بدعياً فهذا مدعاة لتميع دعوة الإسلام وعدم تميزها مع دعوات الجاهلية كما تقدم فليس معنى النهى عن التمثيل بما فيه من عهر أو مصاييف أو معسكرات أو رحلات أو فرق للإخراج أو أيام رياضية... إلخ ليس معنى هذا أنه لا بد أن يفتح باباً جديداً بل إن وجدت باباً شرعياً وإلا فلا يلزمنى وكانت هناك أمور ينهى عنها الشرع ولا يذكر لها من بدلاً مثل الخمر والميسر والزنا... إلخ.

(٢) [متفق عليه] رواه: البخارى (١١٣/٢)، ومسلم (١٢١٥/٣).

(١) البقرة: ١٠٤.

(١٣) بابُ من الشُّركِ أنْ يستخيث بغير الله، أو يدعو غيره

- مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

قال عبد الله بن جابر الله^(١): هي أن الاستغاثة بالله ودعائه من أنواع العبادة التي أمر الله بها وكل ما كان عبادة لله فصرفه لغيره شرك يتافى التوحيد اهـ.

قال السعدي^(٢): متى فهمت الضابط السابق في حد الشرك الأكبر، وهو أن من صرف شيئاً من العبادة لغير الله فهو شرك، فهمت هذه الأبواب الثلاثة التي وآلى المصنف بيانها. اهـ.

قلت: يعنى باب: من الشرك النذر لغير الله - وباب: من الشرك الاستعاذة بغير الله - وهذا الباب].

تنبيه:

لم تُوفق هذه الترجمة أيضاً، وذلك لإطلاق المصنف، وكان الأنسب أن يقيد الترجمة.

ولذا قال ابن عثيمين^(٣): وكلام المؤلف - رحمه الله - ليس على إطلاقه، بل يقيد بما لا يقدر عليه المستغاث به، إما لكونه ميتاً، أو غائباً، أو يكون الشيء مما لا يقدر على إزالته إلا الله تعالى... إلخ. اهـ.

شرح الترجمة:

قوله (من الشرك).

قال ابن عثيمين^(٤): (من) للتبعض، فيدل على أن الشرك ليس مختصاً بهذا الأمر. اهـ.

قوله (أن يستغيث)

(الاستغاثة لغة) في «النهاية» من غاث يغوث غوثاً وفي الحديث: «اللهم أغثنا وأغثني» أى فرّج عني^(٥).

وقال في اللسان: أى أجاب الله: غوثاه، وغوثاه، وغوثاه، ولم يأت في الأصوات شيء بالفتح غيره، وإنما يأتى بالضم، وبالكسر مثل: النداء والصياح.

(٢) القول السديد (٤٦-٤٧).

(٤) القول المفيد (١/٣٣٥).

(١) الجامع الفريد (٥٩)

(٣) القول المفيد (١/٣٣٥).

(٥) النهاية (٣/٣٩٢-٣٩٣).

والغَوَاثُ بالضم: الإِغَاثَةُ، وَغَوَّثَ الرَّجُلُ، وَاسْتَغَاثَ: صَاحَ وَاعْوَاثًا! وَالْأَسْمُ الْغَوَّثُ وَالْغَوَاثُ وَالْغَوَاثُ. وَفِي حَدِيثِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ: «فَهَلْ عِنْدَكَ غَوَاثُ؟» الْغَوَاثُ بِالْفَتْحِ كَالْغِيَاثِ، بِالْكَسْرِ مِنَ الْإِغَاثَةِ.

وفى الحديث: «اللهم أغثنا»^(١) من الإِغَاثَةِ، وَاسْتَغَاثَنِي فَلَان فَأَغَثْتُهُ وَالْأَسْمُ الْغِيَاثُ: صَارَتْ الْوَائِيَاءُ لِكَسْرَةِ مَا قَبْلَهَا وَتَقُولُ: ضَرْبَ فَلَانٍ فَغَوَّثَ تَغْوِيثًا إِذَا قَالَ: وَاعْوَاثًا! وفى كتاب «التَّهْذِيبِ»: وَالْغِيَاثُ مَا أَغَاثَكَ اللَّهُ بِهِ، وَيَقُولُ الْوَاقِعُ فِي بَلِيَّةٍ: أَغَثْنِي أَيْ فَرِّجْ عَنِّي، وَيُقَالُ: اسْتَغَثْتُ فَلَانًا فَمَا كَانَ لِي عِنْدَهُ مَغُوَّةٌ، وَلَا غَوَّثَ أَيْ إِغَاثَهُ. وَالْمَصْدَرُ مِنْ أَغَاثَ.

وَالْغِيَّثُ: الْمَطَرُ وَالْكَأَلُ، وَقِيلَ: الْأَصْلُ الْمَطَرُ ثُمَّ سُمِيَ مَا يَنْبِتُ بِهِ غِيَاثًا. وَغَاثَ الْغِيَّثُ الْأَرْضَ: أَصَابَهَا، وَيُقَالُ: أَغَاثَهُمُ اللَّهُ، وَأَصَابَهُمْ غِيَّثٌ وَغَاثَ اللَّهُ الْبِلَادَ يَغِيْثُهَا غِيَاثًا، إِذَا أَنْزَلَ بِهَا الْغِيْثَ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: «فَادَعِ اللَّهَ يَغِيْثُنَا»، وَفِي حَدِيثِ رَقِيْقَةَ: «أَلَا فَغِيْثْتُمْ مَا شِئْتُمْ!» غِيْثْتُمْ: بِكَسْرِ الْغَيْنِ أَيْ سَقَيْتُمْ الْغِيْثَ، وَهُوَ الْمَطَرُ، وَالسُّؤَالُ مِنْهُ: غِيْثْنَا، وَمِنْ الْإِغَاثَةِ، بِمَعْنَى: الْإِعَايَةِ: أَغَثْنَا. وَرَبَّمَا سُمِيَ السَّحَابُ وَالنَّبَاتُ: غِيْثًا، وَالْغِيْثُ الْكَلَأُ يَنْبِتُ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ، وَبَثَرَ ذَاتُ غِيْثٍ أَيْ ذَاتُ مَادَةٍ، وَالْغِيْثُ: عَيْلَمُ الْمَاءِ، وَغِيْثَ الْأَعْمَى طَلَبَ الشَّيْءَ عَنْ كِرَاعٍ. اهـ.

الاستغاثة شرعاً:

قال شيخ الإسلام^(٢): هِيَ طَلَبُ الْغَوَاثِ، وَهُوَ إِزَالَةُ الشَّدَةِ كَالِاسْتَنْصَارِ: طَلَبُ النَّصْرِ، وَالِاسْتِغَاثَةِ: طَلَبُ الْعَوْنِ. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٣) بعد ذكر قول ابن تيمية: كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ وَقَالَ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيْثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وَالِدَعَاءُ أَعْمٌ مِنَ الْاسْتِغَاثَةِ، لِأَنَّهُ يَكُونُ مِنَ الْمَكْرُوبِ وَغَيْرِهِ. اهـ.

قوله: (أَوْ يَدْعُوْهُ غَيْرُهُ).

قال سليمان آل الشيخ^(٤): هَذَا مِنْ عَطْفِ الْعَامِ عَلَى الْخَاصِّ. اهـ.

وقال حامد بن محمد^(٥): لِأَنَّ الدَّعَاءَ يَشْمَلُ الْاسْتِغَاثَةَ وَغَيْرَهُ، وَالِاسْتِغَاثَةُ لَا

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٠١٣)، مسلم فى الاستسقاء (٨/٤٥٩/٣) عن أنس به وقد

تقدم.

(٢) تيسير العزيز الحميد (١٥٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠٣/١).

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٢٣٨).

(٥) المصدر السابق.

تشمل إلا الدعاء الذى فى الكرب، فالاستغاثه لا تكون إلا فى الضيق والكرب وطلب الغوث، وتفريج الكربه، وكشف الشدائد، والدعاء يكون فى الكرب وغيره، فكل استغاثه دعاء، وليس كل دعاء استغاثه اهـ.

قال ابن باز^(١): هذا من عطف العام على الخاص، لأن الاستغاثه من الدعاء، فكل مستغيث داع، وليس كل داعى مستغيث، فالمستغيث هو الذى يدعى عند شدة الكربه. اهـ.

فائدة:

قال ابن تيمية: فأما لفظ (الغوث، والغياث) فلا يستحقه إلا الله، فهو غياث المستغيثين فلا يجوز لأحد الاستغاثه بغيره، لا بملك مقرب ولا نبي مرسل.

ومن زعم أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التى يطلبون بها كشف الضر عنهم ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة، والثلاثمائة إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة، والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الغوث، فهو كاذب ضال مشرك، فقد كان المشركون كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٢) وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾^(٣)^(٤).

فصل فى أنواع وأحكام الاستغاثه

قال عبد الله جار الله^(٥): أنواع الاستغاثه ثلاثة:

- ١- واجبة: وهى التى تطلب من الله.
 - ٢- محرمة: وهى التى تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليها إلا الله كالاستغاثه بالأموات والغائبين فى جلب نفع أو دفع ضرر.
 - ٣- جائزة: وهى الاستغاثه بالحي الحاضر القادر على نصرته. اهـ.
- وتقدم معنا فى الباب السابق لهذا الباب تقسيم أدق من هذا فى أقسام الاستعاذه وينسحب هذا التقسيم على الاستغاثه أيضاً. فانظره.

(١) التعليق المفيد (٩١). (٢) الإسراء: ٦٧

(٣) النحل (٦٢) (٤) مجموع الفتاوى (١١/٤٣٧، ٤٣١).

(٥) فتح الله الحميد المجلد (٥٩).

فصل

أقسام الدعاء

من الشَّرَاح من قسمه إلى [دعاء مسألة - دعاء عبادة]

ومنهم من قسمه إلى [ما يقع عبادة - ما لا يقع عبادة] وإليك تفصيل ذلك:

قال سليمان آل الشيخ^(١): واعلم أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة - ودعاء مسألة،

كما حققه غير واحد منهم: شيخ الإسلام، وابن القيم، وغيرهما

ويراد به في القرآن هذا تارة وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان.

(أ)- فدعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضرر فالمعبود

لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر، ولهذا أنكر الله على من عبد من دونه ما لا يملك

ضرراً ولا نفعاً كقوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وذلك كثير في القرآن يبين أن المعبود لا بد وأن يكون مالكا للنفع

والضرر فهو يدعى للنفع والضرر دعاء المسألة، ويدعو خوفاً ورجاء، دعاء العبادة. فعلم أن

النوعين متلازمان. اهـ.

ثم قال بعد توسع كبير في النوع الأول:

(ب): وأما دعاء العبادة: فهو عبادة الله تعالى بأنواع العبادات، من الصلاة، والذبح،

والنذر، والصيام، والحج وغيرها، خوفاً وطمعاً، يرجو رحمته، ويخاف عذابه، وإن لم

يكن في ذلك صيغة سؤال وطلب، فالعابد الذي يريد الجنة ويهرب من النار، وهو

سائل راغب راهب، يرغب في حصول مراده، ويذهب من فواته، وهو سائل لما يطلبه

بامثال الأمر في فعل العبادة، وقد فسر قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بهذا

وهذا، قيل: اعبدوني وامثلوا أمرى أستجب لكم، وقيل: سلوني أعطكم، وعلى هذا

القول تدل الأحاديث والآثار.

وقال حامد بن محمد^(٢): والدعاء يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، وكلاهما

مختصة لله تعالى. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله^(٣): ينقسم الدعاء إلى قسمين:

(١) تيسير العزيز الحميد (١٥٦) وتبعه عبد الرحمن آل الشيخ في فتح المجيد (٢٠٦/١ - ٢٠٧).

(٢) فتح الله الحميد الحميد (٢٤٠). (٣) الجامع الفريد (٥٩).

(١) دعاء عبادة: وهو التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة التي شرعها الله لعباده وأمرهم بها.

(٢) دعاء مسألة: وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو ضرر اهـ.

من قسم الدعاء إلى (ما يقع عبادة - وما لا يقع عبادة).

قال ابن عثيمين: (١) والدعاء ينقسم إلى قسمين:

[القسم الأول]: ما يقع عبادة: وهذا صرفه لغير الله شرك، وهو المقرون بالرهبة والرغبة، والحب، والتضرع. اهـ.

[قلت]: وينقسم هذا القسم إلى قسمين:

الأول: أن تدعو مخلوقاً مطلقاً سواء كان حياً أو ميتاً فيما لا يقدر عليه إلا الله فهذا شرك أكبر لأنك جعلته نداً لله فيما لا يقدر عليه إلا الله، مثل: يا فلان اجعل ما في بطن امرأتى ذكراً.

وقال ابن عثيمين: في موضع آخر إن كان المخلوق لا يقدر على ذلك فيدعوه بما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يدعوه بأن ينزل عليه الغيث معتقداً أنه قادر على ذلك، فإن دعوته في هذه الحالة شرك مخرج عن الملة، ومع الأسف فإن بعض البلاد الإسلامية من يعتقد أن فلاناً المقبور الذي بقى جثة أو أكلته الأرض أنه يأتي بالنسل لمن لا يولد له، وهذا والعياذ بالله شرك أكبر مخرج عن الملة، وإقرار هذا أشد من إقرار شرب الخمر، والزنا، واللواط، لأنه إقرار على كفر وليس إقرار على فسوق فقط (٢).

الثاني: أن تدعو مخلوقاً ميتاً لا يجيب بالوسائل الحسية المعلومة، فهذا شرك أكبر أيضاً، لأنه لا يدعو من كان هذا حاله، حتى يعتقد أن له تصرفاً خفياً في الكون. والله أعلم.

ثم قال: [القسم الثاني]: ما لا يقع عبادة: هذا يجوز أن يوجه إلى المخلوق، قال النبي ﷺ: «من دعاكم فأجيبوه» (٣) وقال: «إذا دعاك فأجبه» (٤) وعلى هذا فمراد المؤلف بقوله: (أو يدعو غيره) دعاء العبادة أو دعاء المسألة، فيما لا يمكن للمسؤول إجابته. اهـ.

[قلت] و وينقسم أيضاً هذا القسم إلى قسمين:

وبعبارة أخرى إن كان المخلوق قادراً على ذلك، فليس بشرك قال الله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾.

(١) القول المفيد (١/٣٣٦). (٢) يراجع القول المفيد (١/١٤٨، ١٤٩، ١٩٧، (٨٨)

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم في النكاح (٥/٢٥١/١٠٦) عن أبي هريرة به.

فمن ابن عباس: كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم، فنهاهم الله - عز وجل - عن ذلك، إعظاماً لنبیه، قال: فقولوا يا نبی الله، ویا رسول الله، وهكذا قال مجاهد وسعيد ابن جبیر.

ولقوله ﷺ «من دعاكم فأجيبوه» (١) وفي رواية عند مسلم من حديث أبي هريرة: «وإذا دعاك فأجبه» (٢) وهذا من حق المسلم على المسلم.

فإن كان الدعاء من هذا الباب فيجوز بأن يوجه إلى المخلوق، كقوله: «استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم».

فصل

الفرق بين المستغيث والداعي

قال ابن تيمية (٣): قال أبو عبد الله الحلي: الغياث هو المغيث وأكثر ما يقلل غياث المستغيثين، ومعناه المدرك عبادة في الشدائد إذا دعوهم ومجيئهم ومخلصهم، وفي خبر الاستسقاء في الصحيحين: «اللهم أغثنا اللهم أغثنا» (٤) يقال: أغاثه إغاثته، وغياثاً، وغوثاً، وهذا الاسم في معنى المجيب، والمستجيب، قال تعالى: «إِذ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ» (٥) إلا أن الإغاثة أحق بالأفعال، والاستجابة أحق بالأقوال، وقد يقع كل منهما موقع الآخر، قالوا: الفرق بين المستغيث والداعي، أن المستغيث ينادي بالغوث، والداعي ينادي بالمدعو والمغيث، وهذا فيه نظر، فإن من صيغة الاستغاثة (يا الله للمسلمين) وقد روى عن معروف الكرخي أنه كان يكثر أن يقول: واغوثاه، ويقول: إني سمعت الله يقول: «إِذ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ» وفي الدعاء المأثور: «يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث، اصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك» (٦) والاستغاثة برحمته استغاثة به في الحقيقة، كما أن الاستعاذة بصفاته استعاذة به في الحقيقة، وكما أن القسم بصفاته قسم به في الحقيقة، ففي الحديث «أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق» (٧)، وفيه «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» (٨) اهـ.

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ١١١).

(٢) تقدم تخريجه.

(١) تقدم تخريجه.

(٥) الأنفال: ٩.

(٤) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) عن أنس به.

وانظر «الأذكار» للنووي (٣١٦ - بتخرجه).

(٨) تقدم تخريجه.

(٧) تقدم تخريجه.

قال السعدي^(١): والفرق بين الدعاء والاستغاثه أن الدعاء عام فى كل الأحوال والاستغاثه هى الدعاء لله فى حالة الشدائد اهـ.

مسألة: قال الفقير: إذا كان الدعاء أعم من الاستغاثه، فلماذا لم يستغنى بأحدهما عن الآخر، ولماذا عطف الدعاء على الاستغاثه؟

الجواب: هذا وارد فى كلام العرب، عطف العام على الخاص، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ فالعبادة أعم من الركوع والسجود والعبادة أخص.

فإنه خصص هذه العبادة من سائر العبادات تنويهاً بشرفها، وإعلاءً لقدرها، ولعلّ لهذه النكتة خص المصنف الاستغاثه من جملة الدعاء. تنويهاً لأهميتها إذا صرفت لله وأنها عبادة، وإذا صرفت لغيره تكون شركاً أو لأنها أكثر ما تقع من الناس.

حكم الاستغاثه بخير الله والدعاء وتلبس

إبليس على المستغيث ومن يستغاث به

قال ابن تيمية^(٢): من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم، كفر إجماعاً.

وقال أيضاً^(٢) وكثيراً ما يتصور الشيطان بصورة المدعو المنادى المستغاث به إذا كان ميتاً. وكذلك قد يكون حياً ولا يشعر بالذى ناداه؛ بل يتصور الشيطان بصورته، فيظن المشرك الضال المستغيث بذلك الشخص أن الشخص نفسه أجابه وإنما هو الشيطان، وهذا يقع للكفار المستغيثين بمن يحسنون به الظن من الأموات والأحياء، كالنصارى المستغيثين بجرس وغيره من قداد يسهم، ويقع لأهل الشرك والضلال من المنتسبين إلى الإسلام الذين يستغيثون بالموتى والغائبين، يتصور لهم الشيطان فى صورة ذلك المستغاث به وهو لا يشعر.

واعرف عدداً كثيراً وقع لهم فى عدة أشخاص يقول لى كل من الأشخاص: إنى لم أعرف أن هذا استغاث بي، والمستغيث قد رأى ذلك الذى هو على صورة هذا. وما اعتقد أنه إلا هذا. وذكر لى غير واحد أنهم استغاثوا بي، كل يذكر قصة غير قصة صاحبه، فاخبرت كلاً منهم أنى لم أجب أحداً منهم ولا علمت باستغاثته، فقل: هذا يكون ملكاً، فقلت: الملك لا يغاث المشرك، إنما هو الشيطان أراد أن يضلّه أهـ.

(١) مجموع الفتاوى (١٩/٤٧) (١/١٢٤).

(١) القول السديد (٤٨-٤٩).

قال سليمان آل الشيخ^(١): قال الإمام أبو الوفاء على بن عقيل الحنبلي صاحب كتاب «الفنون» الذي ألفه في نحو أربعمئة مجلد، وغيره من التصانيف. قال في الكتاب المذكور: لما صعبت التكاليف على الجاهال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، وهم عندى كفر لهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور، وخطاب الموتى بالحوائح وكتب الرقاع فيها: يا مولاي أفعلى بى كذا وكذا، أو إلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى، نقله غير واحد، مقررين له، راضين به، منهم الإمام أبو الفرج بن الجوزى، والإمام ابن مفلح صاحب كتاب «الفروع» وغيرهما.

وقال شيخ الإسلام^(٢). فى «الرسالة السنية»: فإذا كان على عهد النبى ﷺ من انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة فى هذه الأزمان أيضاً قد يمرق أيضاً من الإسلام وذلك بأسباب: منها الغلو الذى ذمه الله فى كتابه حيث قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الآية. وكذلك الغلو فى بعض المشايخ، بل الغلو فى على بن أبى طالب، بل الغلو فى المسيح عليه السلام، فكل من غلا فى نبى أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية، مثل أن يقول: يا سيدى فلان انصرنى، أو أعثنى، أو ارزقنى أو اجبرنى، أو أنا فى حسبك، ونحو هذه الأقوال، فكل هذا شرك وضلال، يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل، فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده، ولا يدعى معه إله آخر والذين يدعون مع الله آلهة أخرى، مثل المسيح، والملائكة، والأصنام، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق، أو تنزل المطر، أو تثبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم، يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ويقولون ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فبعث الله رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه، لادعاء عبادة، ولادعاء استغاثة. انتهى.

وقد نص الحافظ أبو بكر أحمد بن على المقرئى صاحب كتاب «الخطوط» فى كتاب له فى التوحيد على أن دعاء غير الله شرك.

وقال شيخ الإسلام: من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم يدعوهم ويسألهم، كفر إجماعاً، نقله عنه غير واحد مقررين له، منهم ابن مفلح فى «الفروع» وصاحب «الانصاف» وصاحب «الغاية» وصاحب «الافتاء» وشارحهم وغيرهم، ونقله صاحب «القواطع» فى كتابه عن صاحب «الفروع».

(١) تيسير العزيز الحميد (١٥٦: ١٧٠).

(٢) وانظر «الوصية الكبرى» لابن تيمية (١، ٢، ٣، ٣٢) بتصرف فعلاً عن المصدر سابق.

قلت - أى: سليمان آل الشيخ -: وهو إجماع صحيح معلوم بالضرورة من الدين، وقد نص العلماء من أهل المذاهب الأربعة، وغيرهم فى باب حكم المرتد، على أن من أشرك بالله فهو كافر، أى عبد مع الله غيره بنوع من أنواع العبادات. وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن دعاء الله عبادة له، فيكون صرفه لغير الله شركاً.

وقال الإمام ابن النحاس الشافعى فى كتاب «الكبائر» ومنها إيقادهم السرج عند الأحجار، والأشجار والعيون، والآبار، ويقولون: إنها تقبل النذر، وهذه كلها بدع شنيعة ومنكرات قبيحة تجب إزالتها ومحو أثرها، فإن أكثر الجهال يعتقدون أنها تنفع وتضر، وتجلب وتدفع، وتشفى المرض وترد الغائب، إذا نذر لها، وهذا شرك ومحاداة لله تعالى ولرسوله ﷺ.

قلت - أى سليمان آل الشيخ -: فصرح - رحمه الله - أن الاعتقاد فى هذه الأمور أنها تضر وتنفع وتجلب، وتدفع، وتشفى المريض وترد الغائب إذا نذر لها، أن ذلك شرك، وإذا ثبت أنه شرك، فلا فرق فى ذلك بين اعتقاده فى الملائكة والنبين، ولابن اعتقاده فى الأصنام والأوثان، إذ لا يجوز الإشراك بين الله تعالى وبين مخلوق فيما يختص بالخالق سبحانه، كما قال تعالى: «وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (١) وهذا بعينه هو الذى يعتقده من دعا الأنبياء والصالحين، ولهذا يسألونهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وشفاء ذوى الأمراض والعاهات، فثبت أن ذلك شرك.

وقال الإمام ابن القيم (٢): رحمه الله تعالى فى «شرح المنازل» ومن أنواعه أى الشرك، طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً لمن استغاث به أو سأله أن يشفع إلى الله؛ وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإن الله سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، والله سبحانه لم يجعل سؤال غيره سبباً لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا الشرك بسبب يمنع الأذن، والميت محتاج إلى من يدعو له، كما أمرنا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم، وندعو لهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة، فمعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبتهم إلى التنقص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق سبحانه بالشرك وأولياءه الموحدين بزمهم

(١) سورة آل عمران: ٨٠

(٢) من مدارج السالكين (١/٣٤٦).

ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان. وما أكثر المستجيبين لهم! والله در خيله إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴿١﴾ وما نجا من أشرك بهذا الشرك الأكبر، إلا من جرد توحيد الله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله.

وقال الإمام الحافظ ابن عبد الهادي^(٢) في رده على السبكي وقوله: - أى قول السبكي :- إن المبالغة في تعظيمه، أى تعظيم الرسول ﷺ واجبة يراد بها المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيماً، حتى الحج إلى قبره، والسجود له، والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطى ويمنع، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع، وأنه يقضى حوائج السائلين، ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء، فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك وانسلاخ من جملة الدين.

قلت - أى سليمان آل الشيخ :- هذا هو اعتقاد عباد القبور فيمن هو دون الرسول ﷺ فضلاً عن الرسول ﷺ كما تقدم بعض ذلك.

والأمر أعظم وأطم من ذلك وفي «الفتاوى البرازية» من كتب الحنفية، قال علماؤنا: من قال: أرواح المشايخ حاضرة تعلم يكفر، فإن أراد بالعلماء علماء الشريعة فهو حكاية للإجماع على كفر معتقد ذلك. وإن أراد علماء الحنفية خاصة فهو حكاية لاتفاقهم على كفر معتقد ذلك. وعلى التقديرين تأمله تجده صريحاً في كفر من دعى أهل القبور، لأنه ما دعاهم حتى اعتقد أنهم يعلمون ذلك، ويقدرّون على إجابة سؤاله، وقضاء مأموله.

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفى في كتابه الذى ألفه فى الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفاً فى الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة: هذا وإنه قد ظهر فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن الأولياء تصرفات فى حياتهم وبعد الممات، ويستغاث بهم فى الشدائد والبليات وبهم تكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم فى قضاء الحاجات، مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، وقالوا منهم أبدال ونقباء، وأوتاد ونجباء، وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة، والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيها الأجور.

قال: وهذا الكلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدى، والعذاب السرمدى، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق، ومخالف لعقائد الأئمة

(١) سورة إبراهيم، الآيتان : ٣٦-٣٥. (٢) الصارم المنكى فى الرد على السبكي (٤٦٤).

وما اجتمعت عليه الأمة. وفي التنزيل: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١) إلى أن قال: الفصل الأول فيما انتحلوه من الإفك والخيم والشرك العظيم. . إلى أن قال: فأما قولهم: إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات، فيرده قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (٢) ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (٣) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٤) ونحوه من الآيات الدالة على أنه المفرد بالخلق والتدبير، والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره في شيء ما بوجه من الوجوه، فالكل تحت ملكه وقهره تصرفاً وملكاً، وإحياء وإماتة، وخلقاً، وتمدح الرب سبحانه بانفراده في ملكه بآيات من كتابه كقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ (٥) ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (٦) وذكر آيات في هذا المعنى ثم قال: فقوله في الآيات كلها: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أى من غيره فإنه عام يدخل فيه من اعتقد من ولى وشيطان يستمده، فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يمد غيره، إلى أن قال: فكيف يتصور لغيره، من ممكن أن يتصرف، إن هذا من السفاهة لقول وخيم، وشرك عظيم، إلى أن قال: وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة. قال جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٧) ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ (٨) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (٩) ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (١٠).

ثم قال: إذا تبين ذلك، فاعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئاً من نوعي الدعاء لغير الله فهو مشرك، ولو قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله وصلى وصام، إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين أن لا يعبد إلا الله، فمن أتى بالشهادتين وعبد غير الله فما أتى بهما حقيقة، وإن تلفظ بهما، كاليهود الذين يقولون لا إله إلا الله وهم مشركون، ومجرد التلفظ بهما لا يكفي في الإسلام بدون العمل بمعناهما واعتقاده إجماعاً. اهـ.

[قلت] وما قاله عن الدعاء كذلك الاستغاثة وتقدم ذلك في كلامهم.



- | | |
|--------------------------------|------------------------------|
| (١) سورة النساء، الآية: ١١٥. | (٢) سورة النمل، الآية: ٦٠. |
| (٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٤. | (٤) سورة المائدة الآية: ١٢٠. |
| (٥) سورة فاطر، الآية: ٣. | (٦) سورة فاطر، الآية: ١٣. |
| (٧) سورة الزمر، الآية: ٣٠. | (٨) سورة الزمر، الآية: ٤٢. |
| (٩) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥. | (١٠) سورة المدثر، الآية: ٣٨. |

وَقَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١).

مناسبة آيات وأحاديث الباب للباب وكتاب التوحيد:-

أورد المصنف في الباب خمس آيات وحديث:

● الآية الأولى: للنهي عن دعاء غير الله لطلب النفع ابتداءً، فكان المصنف يقول للذي يدعو غير الله لطلب النفع، لاتدعو ما لا ينفعك ولا يضررك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين: وكان هذا الداعي قال بل أدعو لدفع الضرر فأتى بالآية الثانية ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو....﴾ الآية، ولما أتى بهاتين الآيتين في النفع العام والضرر العام، أردفهما بآية في النفع الخاص وهو الرزق الذي بسببه قد يخرج الناس من دين الله أفواجا كما دخلوا، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

فما ينبغي للعبد أن يلجأ في طلب النفع العام أو الخاص أو دفع الضرر إلا إلى الله، وإلا فليس أضل منه إن فعل عكس ذلك، لذلك أردف هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ الآية ثم ختم هذه الآيات بإثبات النفع المطلق في حق الله وإقامة الحجة على المشركين بما يعلمون من أحوالهم مع ربهم في الشدائد، فأورد قوله تعالى: ﴿أهلنَّ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ الْآيَةِ أَى: إِلَهُ يَدْعَى أَوْ يُسْتَغَاثُ بِهِ؟!﴾.

ثم ختم بالحديث الذي يبين مدى حماية المصطفى - ﷺ - لجناب التوحيد وسده لذرائع الشرك بقوله: «إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله عز وجل» (٢) وإن كنتم تستغيثون بى فيما استطيعه وأقدر عليه فأتركوه سداً للذريعة.

● مناسبة الآية للباب:

قال عبد الله بن جابر (٣): ومناسبة الآية للباب أنها دلت على أنه لا يجلب النفع، ولا يدفع الضرر إلا الله، فمن طلب ذلك من غيره فقد أشرك. اهـ.

(٢) سيأتي تخريجه

(١) يونس آية: ١٠٦-١٠٧.

(٣) الجامع الفريد (ص ٦٠).

● الإعراب^(١): (ولاتدع من دون الله مالا ينفك ولا يضرك) (الواو) عاطفة (ولا) ناهية (وتدع) مضارع مجزوم بلا والفاعل أنت (ومن دون الله) حال (وما) موصول مفعول به وجملة (لا ينفك) صلة وجملة (ولا يضرك) عطف على (لا ينفك). (فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين) الفاء عاطفة وان شرطية وفعلت فى محل جزم فعل الشرط (والفاء) رابطة وان واسمها واذن حرف جواب وجزاء مهمل ومن الظالمين خبر إن. ﴿وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو﴾ (الواو) عاطفة (وان) شرطية (ويمسسك) فعل الشرط والكاف مفعول به والله فاعل وبضر جار ومجرور متعلقان بيمسسك والفاء رابطة ولا نافية للجنس وكاشف اسمها مبنى، على الفتح وله متعلقان بكاشف والخبر محذوف ويجوز أن يكون له هو الخبر أى كائن له وإلا أداة حصر وهو بدل من الخبر المحذوف على ما تقدم فى «لا إله إلا الله». (وإن يردك بخير فلا راد لفضله) (الواو) عاطفة وان شرطية ويردك فعل الشرط مجزوم والكاف مفعول به (وبخير) متعلقان بيردك والفاء رابطة ولا نافية للجنس (وراد) اسمها (ولفضله) متعلقان (براد) والخبر محذوف ويجوز أن يكون الجار والمجرور هو الخبر كما تقدم. (يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) جملة يصيب استئنافية والفاعل هو (وبه) جار ومجرور متعلقان بيصيب ومن مفعول (يصيب) وجملة (يشاء) صلة (ومن عباده) حال، (وهو) الواو استئنافية (وهو) مبتدأ (والغفور) خبر أول والرحيم خبر ثان. اهـ.

● التفسير بالقرآن:

ذكر سليمان آل الشيخ ما جاء فى القرآن مشابهاً لآية الباب، ومقررًا أن الدعاء عبادة.

كقول الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٥).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِلَهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾^(٦).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٦) سورة الأنعام الآيات: ٤٠ - ٤١.

(١) إعراب القرآن (٤/ ٣٠٧).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

(٥) سورة النساء، الآية: ٣٢.

وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (١).

وقال تعالى: عن إبراهيم عليه السلام ﴿إِنْ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٢) وقال عنه أيضاً: ﴿وَأَعْتَرِلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (٣) الآية.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ائْتَوْا بِرَبِّكُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٦).

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (٧).

وقال تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (٨).

وقال تعالى: ﴿وَقِيلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ (٩) الآية.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (١٠). فكفى بهذه نجاة وحجة وبرهاناً في الفرق بين التوحيد والشرك عموماً وفي هذه المسألة خصوصاً. وقال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ (١١).

(١) سورة الرعد، الآية: ١٤.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٩.

(٣) سورة مريم، الآيتان: ٤٨ - ٤٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٥٦.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

(٦) سورة القصص، الآية: ٦٤.

(٧) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.

(٨) سورة مريم، الآية: ٤.

(٩) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

(١٠) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٣) وغير ذلك من الآيات.

● التفسير من الآثار المرفوعة:

وفى الأحاديث عن النبي ﷺ ما لا يحصى.

منها قوله ﷺ فيما رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ...» الحديث رواه مسلم (٤).

وقوله ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَاسْتَجِبْ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيهِ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرْ لَهُ؟» رواه البخاري ومسلم (٥).

(١) سورة الزمر، الآية: ٨.

(٢) سورة فاطر، الآيتان: ١٣ - ١٤.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٦/١٣٢- النوى) عن أبى ذر به وانظر «رياض

الصالحين (١١٢- بتخریجنا).

(٥) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٤٩٤). ومسلم فى صلاة المسافرين (٦/٣٦- النوى) عن أبى هريرة

به وانظر «الأذكار» للنوى (٢٧٩- بتخریجنا)..

وقوله: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الدُّعَاءِ» رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان، والحاكم وصححه^(١).

وقوله: «مَنْ لَمْ يَدْعِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ» رواه أحمد وابن أبى شيبة والحاكم^(٢).

وقوله: «سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ» رواه الترمذى^(٣).

وقوله: «الدُّعَاءُ سَلَاخُ الْمُؤْمِنِ، وَعِمَادُ الدِّينِ، وَنُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» رواه الحاكم وصححه^(٤).

وقوله: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» رواه أحمد والترمذى^(٥).

وفى حديث آخر: «الدُّعَاءُ مَخُ الْعِبَادَةِ» رواه الترمذى^(٦).

وقوله لما سُئِلَ أى الْعِبَادَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «دُعَاءُ الْمَرْءِ لِنَفْسِهِ» رواه البخارى فى «الآدب»^(٧).

وقوله: «لَنْ يَنْفَعَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ وَلَكِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزَلْ فَعَلَيْكُمْ بِالدُّعَاءِ يَا عِبَادَ اللَّهِ». رواه أحمد^(٨).

وقوله: «سَلُوا اللَّهَ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الشَّعْ إِذَا انْقَطَعَ، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يُسَّرْهُ لَمْ يَتَّسِرْ» رواه أبو يعلى بإسناد صحيح^(٩).

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٦٢/٢)، والترمذى (٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣٨٢٩) عن

أبى هريرة به ، وانظر فتح المجيد (٢٨٦- بتخریجنا) ..

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٤٢/٢) ، والترمذى (٣٣٧٣) ، وابن ماجه (٣٨٢٧) عن أبى هريرة

بنحوه ، وانظر «فتح المجيد» (ح٢٨٥- بتخریجنا).

(٣) أخرجه الترمذى (٣٥٧١) ورجح المرسى.

(٤) أخرجه الحاكم (٤٩٢/١) وانظر المجمع (١٤٧/١٠).

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٧١/٤) والبخارى فى «الآدب المفرد» (٧٣٥) ، وأبو داود (١٤٧٩)،

والترمذى (٣٣٧٢) والنسائى فى «الكبرى» (١١٤٦٤) ، وابن ماجه (٣٨٢٨) عن النعمان به وانظر «رياض

الصالحين» (١٤٦٨- بتخریجنا).

(٦) أخرجه الترمذى (٣٣٧١) واستغربه.

(٧) عن عائشة به وصححه وتعبه الذهبى بقوله مبارك - أحد رواة هذا الحديث -: وإه.

(٨) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٣٤/٥) عن معاذ به وفيه شهر بن حوشب والمقال فيه مشهور.

(٩) [باطل مرفوع وجيد موقوفاً] أخرجه ابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» موقوفاً على عائشة -

رضى الله عنها ، وانظر «المجمع» (١٥٠/١٠) وانظر «فتح المجيد» (ح٢٨٨) بتخریجنا.

وقوله: «لِيسْأَلَ أَحَدَكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى يَسْأَلَهُ شَسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ وَحَتَّى يَسْأَلَهُ الْمَلَحَ» رواه البزار بإسناد صحيح^(١).

● التفسير من الآثار الموقوفة:

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء علمت أن الإجابة معه.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ وَقَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٢) رواه ابن المنذر والحاكم وصححه.

● التفسير من الآثار المقطوعة:

وقال مطرف: تذكرت ما جماع الخير؟ فإذا الخير كثير، الصلاة والصيام، وإذا هو فى يد الله تعالى، وإذا أنت لا تقدر على ما فى يد الله إلا أن تسأله فيعطيك. رواه أحمد.

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن مجاهد: (ما لا يتفعنا ولا يضرنا) قال: الأوثان^(٣). وبإسناده أيضاً عن مقاتل بن حيان: (الظالمين) يعنى المشركين^(٤).

وفى قوله تعالى: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾.

أى لا يستطيع أحد أن يرد فضل الله أبداً، ولو اجتمعت الأمة على ذلك، وفى الحديث: «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت»^(٥).

● التفسير من الآثار المرفوعة:

وفى قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

كقوله ﷺ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وذلك للصحابه الذين قالوا للرسول - ﷺ - ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم، فقال لهم ﷺ: أفلا أخبركم بأمر

(١) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٥٠/١) ونسبه للبزار .

(٢) أخرجه الحاكم فى «المستدرک» (٤٩١/١).

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٦٢٤) عن مجاهد به وانظره بتخريجنا.

(٤) المصدر السابق (١٠٦٢٥) وانظره بتخريجنا.

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصلاة (١٣٤/٤) - النووي عن أبى سعيد به. وانظر «الأذكار» للنووى

(١٢٩) - بتخريجنا).

تدركون من كان قبلكم وتسبقون من جاء بعدكم، ولا يأتي أحد بمثل ما جئتم به إلا من جاء بمثله: تسبحون في دبر كل صلاة عشراً، وتحمدون عشراً، وتكبرون عشراً». فجاء الفقراء فقالوا يارسول الله فعلوا مثل ما فعلنا فقال رسول الله ﷺ: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (١).

وفي قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

ولولا ذاك ما أصاب برحمته أحد، ولا خصّ بفضله أحد.

● تنبيه: قال القرطبي (٢): والخطاب له، والمراد غيره. اهـ.

قال ابن عثيمين (٣): - ظاهر سياق الآية أن الخطاب للرسول ﷺ، وسواء كان خاصاً به أو عاماً له ولغيره؛ فإن بعض العلماء قال: لا يصح أن يكون للرسول ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ يستحيل أن يقع منه ذلك، والآية على تقدير قل، وهذا ضعيف جداً، وإخراج للآيات عن سياقها.

والصواب: أنه إما خاص بالرسول ﷺ والحكم له ولغيره، وإما عام لكل من يصح خطابه ويدخل فيه الرسول ﷺ.

وكونه يوجه إليه مثل هذا الخطاب لا يقتضي أن يكون ممكناً منه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٤)؛ فالخطاب له ولجميع الرسل، ولا يمكن أن يقع منه باعتبار حاله لا باعتبار كونه إنساناً وبشراً.

إذا؛ فالحكمة من النهي أن يكون غيره متأسياً به، فإذا كان النهي موجهاً إلى من لا يمكن منه باعتبار حاله؛ فهو إلى من يمكن منه من باب أولى اهـ.

● ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ﴾ (٥) من كلام المفسرين.

قال ابن جرير الطبري (٦): القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ﴾ يقول تعالى ذكره ولا تدع يا محمد

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٨٤٣)، ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٩٢/٥- النوى) عن أبى هريرة به وانظر «الأذكار للنوى» (١٦٨- بتخريجنا).

(٢) الجامع الأحكام القرآن (٣٢٢٧/٥).

(٣) «القول المفيد» (١/٣٣٧، ٣٣٨).

(٤) الزمر آية: ٦٥.

(٥) تفسير الطبرى (١٢٢/١١/٧).

(٥) يونس آية: ١٠٦.

من دون معبودك وخالق شيئاً لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة ولا يضرك في دين ولا دنيا يعنى بذلك الآلهة والأصنام يقول لاتعبدها راجيا نفعها أو خائفا ضررها فإنها لاتنفع ولا تضر فإن فعلت ذلك فدعوتها من دون الله فإنك إذا من الظالمين يقول من المشركين بالله الظالم لنفسه اهـ.

قال ابن الجوزي^(١): ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إن دعوته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن تركت عبادته. والظالم: الذى يضع الشيء فى غير موضعه. اهـ.

قال الرازى^(٢): والممكن لذاته معدوم بالنظر الى ذاته وموجود بايجاد الحق، وإذا كان كذلك فما سوى الحق فلا وجود له إلا بايجاد الحق، وعلى هذا التقدير فلا نافع إلا الحق ولا ضار إلا الحق، فكل شئ هالك إلا وجهه وإذا كان كذلك، فلا حكم إلا لله ولا رجوع فى الدارين إلا إلى الله.

ثم قال فى آخر الآية: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعنى أو اشتغلت بطلب المنفعة والمضرة من غير الله فانت من الظالمين، لأن الظلم عبارة عن وضع الشئ فى غير موضعه، فإذا كان ما سوى الحق معزولاً عن التصرف، كانت اضافة التصرف إلى ما سوى الحق وضعاً للشئ فى غير موضعه فيكون ظلماً.

فان قيل: فطلب الشبع من الأكل والرى من الشرب هل يقدح ذلك فى الاخلاص؟ قلنا: لا. لأن وجود الخبز وصفاته كلها بايجاد الله وتكوينه، وطلب الانتفاع بشئ خلقه الله للانتفاع به لا يكون منافياً للرجوع بالكلية الى الله، إلا أن شرط هذا الاخلاص أن لا يقع بصر عقله على شئ من هذه الموجودات إلا ويشاهد بعين عقله أنها معدومة بذواتها. وموجودة بايجاد الحق وهالكة بأنفسها وباقية بابقاء الحق، فحينئذ يرى ما سوى الحق غداً محضاً بحسب أنفسها. ويرى نور وجوده وفيض إحسانه عالياً على الكل. اهـ.

قال القرطبي^(٣): ﴿وَلَا تَدْعُ﴾: أى لاتعبد ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إن عبده ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن عصيته ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ أى عبت غير الله ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى الواضعين العبادة فى غير موضعها. اهـ.

قال ابن كثير^(٤): فى تفسير هذه الآية وآيتين قبلها: يقول تعالى لرسوله ﷺ قل يا

(٢) التفسير الكبير (٩/ ١١/ ١٨١).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٩).

(١) زاد المسير (٤/ ٥٤).

(٣) تفسير القرطبي (٥/ ٣٢٢٧).

أيها الناس إن كنتم في شك من صحة ما جئكم به من الدين الحنيف الذى أوحاه الله إلى، فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لاشريك له وهو الذى يتوفاكم كما أحياكم ثم إليه مرجعكم، فإن كانت آلهتكم التى تدعون من دون الله حقاً، فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضررنى، فإنها لاتضر ولا تنفع، وإنما الذى بيده الضر والنفع هو الله وحده لاشريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين. اهـ.

قال ناصر السعدى^(١): قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ وهذا وصف لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ أى دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضررك ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى من الضَّالِّين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك، كما قال تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فإذا كان خير الخلق لو دعا مع الله غيره لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره؟! هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده هو المستحق للعبادة لأنه النافع الضار... اهـ.

وقال صاحب الظلال^(٢) فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

لاتدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضررك من هؤلاء الشركاء والشفعاء، الذين يدعوهوهم المشركون لجلب النفع ودفع الضر. فإن فعلت فإنك إذن من هؤلاء المشركين! فميز أن الله لا يحابى وعدله لا يلين..

﴿وَأِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

فالضر نتيجة لازمة لسنة الله الجارية حين يتعرض الإنسان لأسبابه، والخير كذلك.. فإن مسك الله بضر عن طريق جريان سنته فلن يكشفه عنك إنسان، إنما يكشف باتباع سنته، وترك الأسباب المؤدية إلى الضر إن كانت معلومة، أو الالتجاء إلى الله ليهديك إلى تركها إن كانت مجهولة. وإن أراد بك الخير ثمرة لعملك وفق سنته فلن يرد هذا الفضل عنك أحد من خلقه. فهذا الفضل يصيب من عباده من يتصلون بأسبابه، وفق مشيئته العامة وسنته الماضية. اهـ.

(٢) «الظلال» (٣/ ١٨٢٥ - ١٨٢٦).

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٣٦).

قوله: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

● التفسير بالقرآن:

وهذا كقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١).

وكقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ (٢).

لذلك قال ابن عطية: «فإنك إذا من الظالمين» أى المشركين بالله الظالم لنفسه (٣).

● خلاصة ما ذكر فى تفسير ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾:-

(الأول) وضع الشيء فى غير موضعه.

(الثانى) هو الشرك بالله. فهذا من باب اختلاف التنوع لا التضاد، فوضع العبادة فى غير موضعها أى لغير الله هو شرك بالله.

وتوجيه ذلك أن الخطاب للنبي ﷺ ﴿إِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ والمراد غيره كما نقلناه عن القرطبى آنفاً.

قال الشوكانى (٤): ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا جزاء الشرط، أى فإن دعوت من دون الله مالا ينفعك، ولا يضرك، فإنك فى عداد الظالمين لأنفسهم، والمقصود من هذا الخطاب التعريض لغيره ﷺ. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥).

هذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٦).

وكقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٧).

(٢) الشعراء ٢١٣.

(٤) فتح القدير (٢/٤٩١).

(٦) الزمر آية: ٣٨.

(١) المؤمنون: ١١٧.

(٣) ابن جرير (١١/١٧٧).

(٥) يونس آية: ١٠-٧.

(٧) فاطر آية: ٢.

● التفسير من الآثار المرفوعة :

وقال النبي ﷺ لابن عباس : إذا سألت فأسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» (١).

وعن أنس رضى الله عنه «أن رسول ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات رحمة الله تعالى فإن الله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، وسلوه أن يستر عوراتكم، ويؤمن من روعاتكم» (٢).

● التفسير من الآثار الموقوفة والمقطوعة :

عن أبي الدرداء رضى الله عنه موقوفاً. مثله سواء. اهـ (٣).

عن عامر بن قيس رضى الله عنه قال: ثلاث آيات فى كتاب الله اكتفيت بهن عن جميع الخلائق: أولهن: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ والثانية ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ (٤) والثالثة ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (٥).

وعن السدى فى قوله: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يقول: بعافية (٦).

عن الحسن قال: ثلاث آيات وجدتها فى كتاب الله تعالى اكتفيت بها عن جميع الخلائق ، قوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾. اهـ (٧).

عن مجاهد: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾: هو الحق (٨).

عن سعيد بن جبير ﴿الْغَفُورُ﴾ يعنى غفور الذنوب ﴿الرَّحِيمُ﴾ يعنى رحيماً بالمؤمنين. اهـ (٩).

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٧٥) ونسبه لابن أبى شيبة.

(٤) فاطر / ٢ .

(٥) هود/ ٦. والأثر ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٧٤) ونسبه لليهقى فى «الشعب».

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٧٤) ونسبه لأبى الشيخ.

(٧) نفس المصدر السابق.

(٨) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٦٢٦) فانظره بتخريجنا .

(٩) المصدر السابق (١٠٦٢٧).

قال الطبرى^(١): القول فى تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يقول تعالى ذكره لئيبه وإن يصيبك الله يا محمد بشدة أو بلاء فلا كاشف لذلك إلا ربك الذى أصابك به دون ما يعبد هؤلاء المشركون من الآلهة والأنداد وإن يردك بخير يقول وإن يردك ربك برخاء أو نعمة وعافية وسرور فلا راد لفضله يقول فلا يقدر أحد أن يحول بينك وبين ذلك ولا يردك عنه ولا يحرمكه لأنه الذى بيده السراء والضراء دون الآلهة والأوثان ودون ماسواه يصيب به من يشاء يقول يصيب ربك يا محمد بالرخاء والبلاء والسراء والضراء من يشاء ويريد من عباده وهو الغفور ولذنوب من تاب وأتاب من عباده من كفره وشركه إلى الايمان به وطاعته الرحيم بمن آمن به منهم وأطاعه أن يعذبه بعد التوبة والإنابة^(٢). اهـ.

قال البغوى^(٢): ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أى يصيبك بشدة وبلاء. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ فلا دافع له ﴿إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ رخاء ونعمة وسعة ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ فلا مانع لزرقه. ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ بكل واحد من الضر والخير. ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ اهـ.

قال الزمخشرى^(٣): أتبع النهى عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر أن الله عز وجل هو الضار النافع، الذى إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد فكيف بالجماد الذى لا شعور به؟! وكذلك إن أرادك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان؟!

فهو الحقيقة إذاً بأن تتوجه إليه بالعبادة دونها، وهو أبلغ من قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾.

● فإن قلت: لما ذكر المس فى أحدهما، والإرادة فى الثانى؟.

(قلت): الجواب: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً الإرادة والإصابة فى كل واحد من الضر والخير، وأنه لا راداً لما يريده منهما، ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المس وهو الإصابة فى أحدهما، والإرادة فى الآخر ليدل بما ذكر على ما ترك على أنه قد ذكر الإصابة بالخير فى قوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. اهـ.

(٢) التفسير الكبير (٩/ ١٨٣ - ١٨٤).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٠٥، ٢٠٦).

(١) تفسير الطبرى (٧/ ١١/ ١٢٢).

(٣) «معالم التنزيل» (٣/ ١٨٨).

● مسألة: - قال ابن عثيمين^(١): قوله: ﴿وَأِنْ يُّرِدْكْ بِخَيْرٍ﴾.

هنا قال: ﴿يُرِدْكْ﴾، وفي الضرّ قال: ﴿يَمْسُكْ﴾ فهل هذا من باب تنويع العبارة،

أو هناك فرق معنوي؟

الجواب: هناك فرق معنوي، وهو أن الأشياء المكروهة لاتنسب إلى إرادة الله، بل تنسب إلى فعله؛ أي: مفعوله.

فالمس من فعل الله، والضرّ من مفعولاته؛ فالله لا يريد الضر لذاته، بل يريد له غيره؛ لما يترتب عليه من الخير، ولما وراء ذلك من الحكم البالغة، وفي الحديث القدسي: «إن من عبادي من لو أغنيته أفسده الغنى»^(٢).

أمّا الخير؛ فهو مراد الله لذاته، ومفعول له، ويقرب من هذا ما فى سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ بِنَا فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

فإذا أصيب الإنسان بمرض؛ فالله لم يرد به الضرر لذاته، بل أراد المرض، وهو يضره، لكن لم يرد ضرره، بل أراد خيراً من وراء ذلك، وقد تكون الحكمة ظاهرة فى نفس المصاب، وقد تكون ظاهرة فى غيره؛ كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

فالمهم أنه ليس لنا أن نتحجّر حكمة الله؛ لأنها أوسع من عقولنا، لكننا نعلم علم اليقين أن الله لا يريد الضرر لأنه ضرر؛ فالضرر عند الله ليس مراداً لذاته، بل لغيره، ولا يترتب عليه إلاّ الخير، أمّا الخير؛ فهو مراد لذاته، ومفعول له، والله أعلم بما أراد بكلامه، لكن هذا الذى يتبين لى أهـ.

[قلت] وقد تقدم جواب آخر: من كلام الزمخشري وهو: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً الإرادة، والإصابة فى كل واحد من الضر والخير إلى أن قال: فأوجز الكلام بأن ذكر المس وهو الإصابة فى أحدهما والإرادة فى الآخر ليدل بما ذكر على ما ترك.

وتقدم جواب ثالث: ذكره الشوكاني وسيأتى فانظروا.

وأولى الأجوبة الثلاثة بالصواب الجواب الأول لما عليه من أدلة متواترة من الكتاب السنة. والله أعلم.

قال ابن الجوزي^(٣): وإن يصبك بخير، أى برحاء ونعمة وعافية، فلا يقدر أحد أن يمنعك إياه. ﴿يَصِيبُ بِهِ﴾ أى بكل واحد من الضر والخير.

(٢) أخرجه الطبراني من حديث أنس.

(١) القول المفيد (١/٣٤٢، ٣٤٣).

(٣) زاد المسير (٤/٥٤).

قال الرازي^(١): فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه سبحانه وتعالى قرر في آخر هذه السورة أن جميع الممكنات مستندة إليه وجميع الكائنات محتاجة إليه، والعقول والهة فيه، والرحمة والجلود والوجود فائض منه.

واعلم أن الشيء إما أن يكون ضاراً وإما أن يكون نافعاً، وإما أن يكون لاضاراً ولا نافعاً. وهذان القسمان مشتركان في اسم الخير، ولما كان الضر أمراً وجودياً لاجرم قال فيه «وَأِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ» ولما كان الخير قد يكون وجودياً وقد يكون عدمياً، لاجرم لم يذكر لفظ الأساس فيه بل قال: «وَأِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ» والآية دالة على أن الضر والخير واقعان بقدرة الله تعالى وبقضائه فيدخل فيه الكفر والإيمان والطاعة والعصيان والسرور والآفات والخيرات والآلام واللذات والراحات والجراحات، فبين سبحانه وتعالى أنه إن قضى لأحد شراً فلا كاشف له إلا هو، وإن قضى لأحد خيراً فلا راد لفضله ألينة ثم في الآية دقيقة أخرى، وهى أنه تعالى رجح جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه تعالى لما ذكر إمساس الضربين أنه لا كاشف له إلا هو، وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار لأن الاستثناء من النفي إثبات، ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال إنه لا راد لفضله، وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات، وأن الشر مطلوب بالعرض كما قال النبي ﷺ رواية عن رب العزة أنه قال: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»^(٢).

الثاني: أنه تعالى قال في صفة الخير «يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» وذلك يدل على أن جانب الخير والرحمة أقوى وأغلب.

والثالث: أنه قال: «وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» وهذا أيضاً يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام في هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بين أنه منفرد بالخلق والاييجاد والتكوين والابداع، وأنه لا موجد سواه ولا معبود إلا إياه، ثم نبه على أن الخير مراد بالذات، والشر مراد بالعرض وتحت هذا الباب أسرار عميقة، فهذا ما نقوله في هذه الآية.

المسألة الثانية: قال المفسرون: إنه تعالى لما بين في الآية الأولى في صفة الأصنام أنها لاتضر ولا تنفع، بين في هذه الآية أنها لا تقدر أيضاً على دفع الضرر الواصل من الغير، وعلى الخير الواصل من الغير، قال ابن عباس رضى الله عنهما: «وَأِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ» يعنى بمرض وفقر فلا دافع له الا هو.

(١) التفسير الكبير (١٨٣ / ١١ / ٩ - ١٨٤).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣١٩٤)، ومسلم في التوبة (١٧ / ٦) والنووي وانظر كتابنا «فتح ذى

الجلال في تخريج أحاديث الغلال» (٣٤١).

وأما قوله: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ فقال الواحدى: هو من المقلوب معناه وإن يرد بك الخير ولكنه لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز إبدال كل واحد منهما بالآخر، وأقول التقديم فى اللفظ يدل على زيادة العناية فقوله: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يدل على أن المقصود هو الانسان وسائر الخيرات مخلوقة لأجله. فهذه الدقيقة لاستفاد إلا من هذا التركيب. اهـ.

قال القرطبي (١): ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده وخطاياهم. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه فى الآخرة. اهـ.

قال ابن كثير (٢): فيه بيان لأن الخير والشر، والنفع والضرر، إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه فى ذلك أحد، فهو الذى يستحق العبادة لاشريك له. ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أى لمن تاب إليه، وتوكل عليه، ولو من أى ذنب كان حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه. اهـ.

قال الشوكانى (٣): عبر بالفضل مكان الخير، للإرشاد إلى أنه يتفضل على عباده بما لا يستحقونه بأعمالهم. اهـ.

أى فى قوله تعالى: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ بعد قوله: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾. ثم قال الشوكانى: قوله: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ هو من القلب، وأصله، وإن يرد بك الخير، ولكن لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز أن يكون كل واحد منهما مكان الآخر.

قال النيسابورى: وفى تخصيص الإرادة بجانب الخير، والمس بجانب الشر دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات، والشر بالعرض. [قلت] - أى الشوكانى: - وفى هذا نظر، فإن المس هو أمر وراء الإرادة، فهو مستلزم لها.

والضمير فى قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ راجع إلى فضله. اهـ. وهو ما قاله الزمخشري أيضاً كما تقدم. [قلت] وسبق أن بعض المفسرين قالوا: الضمير يرجع إلى الشر والخير. ولعل الشوكانى قال ذلك لما ترجح عنده. من كلام أهل اللغة أن الضمير يعود على أقرب مذكور، وفيها خلاف مشهور.

(٢) تفسير ابن كثير (٤١٩/٢).

(١) تفسير القرطبي (٣٢٢٧/٥).

(٣) فتح القدير (٤٩١/٢).

• تعليقات شُرَّاح كتاب التوحيد على الآية:

قال سليمان آل الشيخ^(١): والأحاديث والآثار فى ذلك لا يحيط بها إلا الله تعالى؛ فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أجل العبادات، بل هو أكرمها على الله كما تقدم؛ فإن لم يكن الإشراك فيه - أى الدعاء - شركاً فليس فى الأرض شرك، وإن كان فى الأرض شرك فالشرك فى الدعاء أولى أن يكون شركاً من الإشراك فى غيره من أنواع العبادة، بل الإشراك فى الدعاء - هو أكبر شرك المشركين الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة ويتقربون إليهم ليشفعوا لهم عند الله، ولهذا يخلصون فى الشدائد لله وينسون ما يشركون، حتى جاء أنهم إذا جاءتهم الشدائد فى البحر يلقون أصنامهم فى البحر ويقولون: يا الله يا الله، لعلمهم أن آلهتهم لا تكشف الضر ولا تحيب المضطر. وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِإِلَهِمَا تَدْرُكُونَ﴾^(٢) فهم كانوا يعلمون أن ذلك لله وحده، وأن آلهتهم ليس عندها شئ من ذلك، ولهذا احتج سبحانه وتعالى عليهم بذلك على أنه هو الإله الحق، وعلى بطلان إلهية ما سواه.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾^(٣) فهذه حال المشركين الأولين.

وأما عبادة القبور اليوم فلا إله إلا الله، كم ذا بينهم وبين المشركين الأولين من التفاوت العظيم فى الشرك؛ فإنهم إذا أصابتهم الشدائد برأ وحرأ أخلصوا لآلهتهم وأوثانهم التى يدعونها من دون الله، وأكثرهم قد اتخذ ذكر إلهه وشيخه ديدنه وهجيراً^(٤) إن قام وإن قعد وإن عثر. هذا يقول: يا على، وهذا يقول: يا عبد القادر، وهذا يقول: يابن علوان، وهذا يدعو البدوى، وهذا يدعو العيدروس.

وبالجملة ففى كل بلد فى الغالب أناس يدعونهم ويسألونهم، قضاء الحاجات وتفريج الكربات بل بلغ الأمر إلى أن سألوهم مغفرة الذنوب وترجيح الميزان، ودخول الجنة والنجاة من النار، والتشبيت عند الموت والسؤال، وغير ذلك من أنواع المطالب التى لا تطلب إلا من الله.

وقد يسألون ذلك من أناس يدعون الولاية، وينصبون أنفسهم لهذه الأمور وغيرها من أنواع النفع والضرر التى هى خواص الإلهية، ويلفقون لهم من الأكاذيب فى ذلك عجائب.

(٢) سورة النمل، الآية: ٦٢.

(١) تيسير العزيز الحميد (١٥٩ - ١٦٦).

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

(٤) أى: دأبه وشأنه وعادته.

منها: أنهم يدعون أنهم يخلصون من التجأ إليهم ولاذ بحماهم من النار والعذاب، فيقول أحدهم: إنه يقف عند النار فلا يدع أحداً ممن يرتجيه ويدعوه يدخلها أو نحو هذا، وقد قال تعالى لسيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ (١) فإذا كان النبي ﷺ لا يقدر على تخلص أحد من النار، فكيف بغيره، بل كيف بمن يدعى نفسه أنه هو يفعل ذلك؟

ومنها: أن أكثرهم يلفق حكايات في أن بعض الناس استغاث بفلان فأغاثة، أو دعا الولي الفلاني فأجاب، أو في كربة ففرج عنه، وعند عباد القبور من ذلك شيء كثير من جنس ما عند عباد الأصنام الذين استولت عليهم الشياطين، ولعبوا بهم لعب الصبيان بالكرة، ويوجد شيء من ذلك في أشعار المادحين لسيد المرسلين ﷺ الذين جاوزوا الحد في مدحه ﷺ وعصوه في نهيه من الغلو فيه، وإطرائه كما أطرت النصراني ابن مريم، وصار حظهم منه ﷺ هو مدحه بالأشعار والقصائد، والغلو الزائد، مع عصيانهم له في أمره ونهيه؛ فتجد هذا النوع من أعصى الخلق له صلوات الله عليه وسلامه. ويقع من ذلك كثير في مدح غيره، فإن عباد القبور لا يقتصرون على بعض من يعتقدون فيه الضر والنفع، بل كل من ظنوا فيه ذلك بالغوا في مدحه وأنزلوه منزلة الربوبية وصرفوا له خالص العبودية، حتى إنهم إذا جاءهم رجل وادعى أنه رأى رؤيا مضمونها أنه دفن في المحل الفلاني رجل صالح، بادروا إلى المحل وبنوا عليه قبة وزخرفوها بأنواع الزخارف، وعبدوها بأنواع العبادات.

وأما القبور المعروفة أو المتوهمة، فأفعالهم معها وعندها لا يمكن حصرها، فكثير منهم إذا رأوا القباب التي يقصدونها كشفوا الرؤوس فنزلوا عن الأكوار، فإذا أتوها طافوا بها واستلموا أركانها، وتمسحوا بها، وصلوا عندها ركعتين، وحلقوا عندها الرؤوس ووقفوا باكين متذللين متضرعين سائلين مطالبهم، وهذا هو الحج، وكثير منهم يسجدون لها إذا رأوها، ويعفرون وجوههم في التراب تعظيماً لها، وخضوعاً لمن فيها فإن كان، لإنسان منهم حاجة من شفاء مريض أو غير ذلك، نادى صاحب القبر، ياسيدي فلان جئتك قاصداً من مكان بعيد، لاتخيبنى، وكذلك إذا قحط المطر أو عقرت المرأة عن الولد أو دهمهم عدو أو جراد، فزعدوا إلى صاحب القبر وبكوا عنده فإن جرى المقدور بحصول شيء مما يريدون، استبشروا وفرحوا ونسبوا ذلك إلى صاحب القبر، فإن لم يتيسر شيء من ذلك اعتذروا عن صاحب القبر بأنه إما غائب في مكان آخر، أو ساخط لبعض أعمالهم، أو أن اعتقادهم في أولى ضعيف، أو أنهم لم يعطوه نذره ونحو هذه الخرافات.

ومن بعض أشعار المادحين لسيد المرسلين ﷺ قول البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لى من ألوذ به	سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بى	إذا الكريم تحلى باسم منتقم
فإن لى ذمة منه بتسميتي	محمداً وهو أوفى الخلق بالذم
إن لم يكن فى معادى آخذاً بيدي	فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

فتأمل ما فى هذه الآيات من الشرك.

منها: أنه نفى أن يكون له ملاذاً إذا حلت به الحوادث، إلا النبى ﷺ، وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له، فهو الذى ليس للعباد ملاذ إلا هو.

الثانى: أنه دعاه وناداه بالتضرع وإظهار الفاقة والإضطراب إليه، وسأل منه هذه المطالب التى لا تطلب إلا من الله، وذلك هو الشرك فى الإهية.

الثالث: سؤاله منه أن يشفع له فى قوله:

ولن يضيق رسول الله جاهك بى إذا الكريم تحلى باسم منتقم

وهذا هو الذى أراده المشركون ممن عبدوه، وهو الجاه والشفاعة عند الله، وذلك هو الشرك وأيضاً فإن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله، فلا معنى لطلبها من غيره، فإن الله تعالى هو الذى يأذن للشافع أن يشفع لأن الشافع يشفع ابتداء.

الرابع: قوله: فإن لى ذمة... إلى آخره.

كذب على الله وعلى رسوله ﷺ فليس بينه وبين من اسمه محمد ذمة إلا بالطاعة، لا بمجرد الإشراك فى الاسم مع الشرك.

الخامس قوله:

إن لم يكن فى معادى آخذاً بيدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

تناقض عظيم وشرك ظاهر، فإنه طلب أولاً أن لا يضيق به جاهه، ثم طلب هنا أن يأخذ بيده فضلاً وإحساناً، وإلا فيا هلاكه.

فيقال: كيف طلبت منه أولاً الشفاعة ثم طلبت منه هنا أن يتفضل عليك فإن كنت تقول: إن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله، فيكف تدعو النبى ﷺ وترجوه وتسأله

الشفاعة؟ فهلا سألته من له الشفاعة جميعاً الذى له ملك السموات والأرض الذى لا تكون الشفاعة إلا من بعد إذنه؟! فهذا يبطل عليك طلب الشفاعة من غير الله. وإن قلت: ما أريد إلا جاهه، وشفاعته بإذن الله.

قيل: فكيف سألته أن يتفضل عليك ويأخذ بيدك فى يوم الدين، فهذا مضاد لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (١) فكيف يجتمع فى قلب عبد الإيمان بهذا وهذا. وإن قلت: سألته أن يأخذ بيدي، ويتفضل عليّ بجاهه وشفاعته. قيل: عاد الأمر إلى طلب الشفاعة من غير الله، وذلك هو محض الشرك.

السادس: فى هذه الآيات من التبرى من الخالق - تعالى وتقدس - والاعتماد على المخلوق فى حوادث الدنيا والآخرة ما لا يخفى على مؤمن، فأين هذا من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٣).

وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ (٥).

فإن قيل: هو لم يسأله أن يتفضل عليه، وإنما أخبر أنه إن لم يدخل فى عموم شفاعته فيا هلاكه.

قيل: المراد بذلك سؤاله، وطلب الفضل منه، كما دعاه أول مرة وأخبر أنه لا ملاذ له سواه، ثم صرح بسؤال الفضل والإحسان بصيغة الشرط والدعاء، والسؤال كما يكون بصيغة الطلب يكون بصيغة الشرط كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦).

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٤.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.

(٦) سورة هود، الآية: ٤٧.

(١) سورة الانفطار، الآية: ١٧ - ١٩.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٩.

(٥) سورة الجن، الآيات: ٢١ - ٢٣.

ومن شعر البرعى قوله:

أضحى إليك من الأشواق فى كبدي
نائى المزار غريب الدار مبتعدي
لغارة منك يا ركنى ويا عضدي
أرجو النجاة به إن أنت لم تجد

ماذا تعالم يا شمس النبوة من
فامنع جناب صريع لاصريخ له
حليف ودك واه الصبر منتظر
أسير ذنبى وزلاتى ولا عمل

وجرى فى شركه إلى أن قال:

هم على خطرات القلب مطرد
كيما يهون إذ الأنفاس فى صعد
فكن أنيس وحيد فيه منفرد
يليه من أجله وانعشه وافتقد
من حاسد شامت أو ظالم نكد

وحل عقدة كربى يا محمد من
أرجوك فى سكرات الموت تشهدي
وإن نزلت ضريحاً لا أنيس به
وارحم مؤلفها عبد الرحيم ومن
وإن دعا فأجبه واحم جانبه

وقوله من أخرى:

بهجة الحشر جاهاً ومقاماً
بحمى عزك يا غوث اليتامى
فى اكتساب الذنب فى خمسين عاماً

يارسول الله يا ذا الفضل يا
عد على عبد الرحيم الملتجى
وأقلنى عثرتى ياسيدي
وقوله:

يا موئلى يا ملاذى يوم يلقيانى
جوداً ورجح بفضل منك ميزانى
من الخطوب ونفس كل أحزاني
عندى وإن بعدت دارى وأوطاني
وأنت أسمع من يدعوه ذو شان
برحمة وكرامات وغفران

يا سيدى يارسول الله يا أملى
هبنى بجاهك ما قدمت من زلل
واسمع دعائى واكشف ما يساورنى
فأنت أقرب من ترجى عواطفه
إنى دعوتك من نيابتى برع
فامنع جنابى وأكرمى وصل نسبى

● لقد أنسانا هذا ما قبله ، وهذا بعينه هو الذى ادعته النصارى فى عيسى عليه السلام، إلا أن أولئك أطلقوا عليه اسم الإله، وهذا لم يطلقه ولكن أتى بلباب دعوهم وخلصتها، وترك الاسم، إذ فى الاسم نوع تمييز، فرأى الشيطان أن الإتيان بالمعنى دون الاسم أقرب إلى ترويج الباطل، وقبوله عند ذوى العقول السخيفة، إذ كان من المتقرر عند الأمة المحمدية أن دعوى النصارى فى عيسى عليه السلام كفر. فلو أتاهم يدعوى النصارى اسما ومعنى لردوه وأنكروه، فأخذ المعنى وأعطاه البرعى وأضرابه. وترك الاسم للنصارى وإلا فما ندرى ماذا أبقى هذا المتكلم الخبيث للخالق تعالى وتقدس من سؤال مطلب أو تحصيل مأرب، فالله المستعان وهذا كثير جداً فى أشعار المادحين لرسول الله ﷺ، وهو حجة أعداء دينه الذين يجوزون الشرك بالله، ويحتجون بأشعار، هؤلاء، ولم يقتصروا أيضاً على طلب ذلك من النبى ﷺ، بل يطلبون مثل ذلك من غيره، كما حدث بعض الثقات أنه رأى فى راية صاحب مشهد من المشاهد: هذه راية البحر التيار، به أستغيث، وأستجير، وبه أعوذ من النار.

وقال بعضهم من قصيدة فى بعض آلهتهم:

يا سبدي يا صفى الدين ياسندي	يا عمدتى بل ويا ذخرى ومفتخري
أنت الملاذ لما أخشى ضرورته	وأنت لى ملجأ من حادث الدهر

إلى أن قال:

وامن عليّ بتوفيق وعافية	وخير خاتمة مهما انقضى عمري
وكف عنا أكف الظالمين إذا امتدت	بسوء لأمر مؤلم نكرى
فإننى عبدك الراجى بودك ما	أملته يا صفى السادة الغرر

قال بعض العلماء: فلا ندرى أى معنى اختص به الخالق تعالى بعد هذه المتزلة، وماذا أبقى هذا المتكلم الخبيث لخالقه من الأمر، فإن المشركين أهل الأوثان ما يؤهلون من عبوده لشيء من هذا. انتهى.

وكثير من عباد القبور يتادون الميت من مسافة شهر وأكثر يسألونه حوائجهم، ويعتقدون أنه يسمع دعاءهم ويستجيب لهم، ونسمع عنهم حال ركوبهم البحر واضطرابه من دعاء الأموات والاستغاثة بهم ما لا يخطر على بال، وكذلك إذا أصابتهم الشدائد،

من مرض، أو كسوف، أو ريح شديدة، أو غير ذلك، فالولى في ذلك نصب أعينهم، والاستغاثة به هي ملاذهم. ولو ذهبنا نذكر ما يشبه هذا لطال الكلام. اهـ.

● فائدة:

قال حامد بن محمد^(١): فإن قلت: ربما يحصل بدعوة غير الله والاستغاثة به مقصود الداعى ويظن هذا من كرامات المدعو؟

قلت: هذا من جنس ما يفعله الشياطين لعبدة الأوثان حيث تتراءى أحياناً لمن يعبدها وتخطبهم ببعض الأمور الغائبة، وتقضى بعض الطلبات. وقد وقع من هذا كثير فى المتأخرين وأتباعهم.

ثم قال: أضلتهم الشياطين بذلك كما كانت تضل عباد الأصنام بمثل هذه الأحوال اهـ.

قال عبد الله بن جابر الله^(٢): يخبر الله تعالى أنه المنفرد بالعطاء والمنع، والضر والنفع، دون سواه، فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعو وحده، والمعبود وحده. اهـ.

قال عبد العزيز باز^(٣): فين الله أن من دعا من دون الله مالا ينفع ولا يضر، وهذا وصف عام لجميع المخلوقات التى لاتنفع ولا تضر استقلالاً. ونفعها وضرها بالله وحده وأن من دعا غير الله فهو مشرك. ويستثنى من ذلك دعاء الحى القادر فهذا ليس بشرك بإجماع المسلمين يدعوه ليحمل معه أو يسلفه، أو .. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

الدعاء: طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضر، وهو نوعان كما قال أهل العلم:
الأول: دعاء عبادة، وهو أن يكون قائماً بأمر الله؛ لأنَّ القائم بأمر الله - كالمصلي، والصائم، والمزكى - يريد بذلك الثواب والنجاة من العقاب، ففعله متضمنٌ للدعاء بلسان الحال، وقد يصحب فعله دعاء بلسان المقال.

الثاني: دعاء مسألة، وهو طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضره.

فالأول لا يجوز صرفه لغير الله، والثانى فيه تفصيل سبق أهـ.

فى أول الباب فى تقسيم الدعاء.

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٤٤).

(٢) الجامع الفريد (٦٠).

(٣) التعليق المفيد (٩١، ٩٢).

(٤) القول المفيد (١/٣٣٨، ٣٣٩).

ثم قال ابن عثيمين قوله: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: سوى الله.
قوله: ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾، أي: ما لا يجلب لك النفع لو عبدته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ قيل: لا يدفع عنك الضرر، وقيل: لو تركت عبادته لا يضررك؛ لأنه لا يستطيع الانتقام، وهو الظاهر من اللفظ.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾؛ أي: لأنه لا ينفعك ولا يضررك.

● تنبيه:

وهذا القيد ليس شرطاً بحيث يكون له مفهوم؛ فيكون لك أن تدعو من ينفعك ويضررك، بل هو لبيان الواقع؛ لأن المدعو من دون الله لا يحصل منه نفع ولا ضرر، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

ومن القيد الذي ليس بشرط، بل هو لبيان الواقع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.
فإن قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ لبيان الواقع؛ إذ ليس هناك رب ثانٍ لم يخلقنا والذين من قبلنا.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَبَّائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾؛ فهذا بيان للواقع الأغلب.
ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(١)؛ فهذا بيان للواقع؛ إذ دعاء الرسول ﷺ إيانا كله لما يحيينا.
وكل قيد يراد به بيان الواقع؛ فإنه كالتعليل للحكم؛ فمثلاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾^(٢)؛ أي: اعبدوه لأنه خلقكم.
وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: لأنه لا يدعوكم إلا لما يحييكم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ أي: لأنه لا ينفعك ولا يضررك، فعلى هذا لا يكون هذا القيد شرطاً، وهذه يسميها بعض الناس صفة كاشفة. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾.

قال الجصاص: وفي هذا دلالة على أن المخصوص بالذكر لا يدل على أن ما عداه بخلافه لأنه لو كان كذلك لوجب أن يكون ذكر تحريم الربا أضْعَافًا مضاعفة دلالة على إباحته إذا لم يكن أضْعَافًا مضاعفة أهـ (*) .

قوله: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

أي: إن دعوت من دون الله مالا ينفعك ولا يضررك.

والخطاب للرسول ﷺ.

و﴿إِنْ﴾: شرطية، وجواب الشرط جملة: ﴿فَإِنَّكَ إِذَا﴾.

و﴿إِذَا﴾؛ أي: حال فعلك من الظالمين، وهو قيد؛ لأنَّ ﴿إِذَا﴾ للظرف الحاضر، أي: فإنَّك حال فعله من الظالمين، لكن قد تتوب منه فيزول عنك وصف الظلم؛ فالإنسان قبل الفعل ليس بظالم، وبعد التوبة ليس بظالم، لكن حين فعل المعصية يكون ظالماً كما قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» (٢)؛ فنفي الإيمان عنه حال الفعل.

ونوع الظلم هنا ظلم شرك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٣)، وعبر الله بقوله: ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ولم يقل: من المشركين؛ لأجل أن يبين أن الشرك ظلم؛ لأنَّ كون الداعي لغير الله مشركاً أمر بيّن، لكن كونه ظالماً قد لا يكون بيّناً من الآية.

● الآية الثانية قوله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ﴾.

أي: يصبك بضر؛ كالمرض، والفقر، ونحوه.

قوله: ﴿فَلَا كَاشِفٌ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿لَا﴾: نافية للجنس، واسمها: ﴿كَاشِفٌ﴾، وخبرها: ﴿لَهُ﴾، و﴿إِلَّا هُوَ﴾ بدل، وإن

قلنا بجواز كون خبرها معرفة صار ﴿هُوَ﴾ الخبر.

(١) يونس: ١٠٧.

(٣) لقمان: ١٣.

(*) أحكام القرآن ٥٥/٢.

(٢) سبق تخريجه.

أي: ما أحد يكشفه أبداً إذا مسك الله بضرٍ إلا الله، وهذا كقول النبي ﷺ: «واعلم أنَّ الأُمَّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلَّا بشيءٍ قد كتبه الله لك» (١).
قوله: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾.

أي: لا يستطيع أحد أن يرد فضل الله أبداً، ولو اجتمعت الأُمَّة على ذلك، وفي الحديث: «اللهم! لا مانع لما أعطيت، ولا مُعْطى لما منعت» (٢).

وعليه؛ فنعتمد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار، وبقاء ما أنعم علينا به، ونعلم أنَّ الأُمَّة مهما بلغت من المكر والكيد والحيل لتمنع فضل الله؛ فإنها لا تستطيع.
قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

الضمير إمَّا أن يعود إلى الفضل؛ لأنَّه أقرب، أو إلى الخير؛ لأنَّه هو الذي يتحدَّث عنه، ولا يختلف المعنى بذلك.
قوله: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾.

كل فعل مقيد بالمشيئة؛ فإنَّه مقيد بالحكمة؛ لأنَّ مشيئة الله ليست مجردة يفعل ما يشاء لمجرد أنه يفعله فقط؛ لأنَّ من صفات الله الحكمة، ومن أسمائه الحكيم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٣).
قوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾.

العبودية هنا عامَّة؛ لأنَّ قوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾ يشمل خير الدنيا والآخرة، وخير الدنيا يصيب الكفَّار.

قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

أي: ذو المغفرة، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر، وهو ما يَتَقَّى به السَّهام، والمغفر فيه ستر ووقاية.

والرحيم؛ أي: ذو الرحمة، وهى صفة تليق بالله - عز وجل -، تقتضى الإحسان والإنعام.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الإنسان: ٣٠.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١).

الشاهد قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾؛ فقد نبه الله نبيه أن من يدعو أحداً من دون الله (أي: من سواه) لا ينفعه ولا يضره.
قال القرعاوي (٢): الفوائد: ﴿أى من الآية﴾.

- (١) أن جلب النفع ودفع الضر من خصائص الله عز وجل.
(٢) أن من دعا غير الله معتقداً أنه يملك النفع والضر دون الله فقد أشرك.
(٣) اعتبار الشرك ظلماً. اهـ.



قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية.
● مناسبة الآية للباب:

قال عبد الله بن جبار الله (٣): هي أن الله أمر بطلب الرزق من عنده وحده دون سواه؛ لأنه القادر عليه، فمن طلبه من غيره ممن لا يقدر عليه فقد أشرك به. اهـ.
● التفسير بالقرآن:

وهذه كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٤).
وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٥).

وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَبُوا فَآخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٦).

وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (٧).

(٢) «الجديد» (١٢٥).

(١) العنكبوت آية: ١.

(٤) الذاريات: ٥٥ - ٥٨.

(٣) «الجامع الفريد» (٦١).

(٦) الأعراف: ٩٦.

(٥) الطلاق: ٢ - ٣.

(٧) المائدة: ٦٦.

[قلت]: فهذه الآيات كالأية التي أوردها المصنف تربط بين الطاعة والرزق وتبين أن الطاعة والعبادة لله من أعظم أسباب الرزق وليس الشرك، بل يبين الله - عز وجل - في كتابه أن الشرك من أسباب محق البركة كقوله تعالى في صاحب الجنتين ﴿أَكْفَرَتْ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ وقال أيضاً في قصة سبأ: ﴿وَبَدَّلْنَا هُمْ بَجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾.

وقال ﷺ في الحديث القدسي: «يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم» (١).

قوله: ﴿وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾.

كقوله: ﷺ في الحديث القدسي: «إني والأنس والجن لفي نبياء عظيم، أخلق ويعبد غيري وارزق ويشكر سواي» (٢).

وإذا أضاف الله الشكر له متعدياً باللام فهو إشارة إلى الإخلاص أي إشكروا نعمة الله، وقد تقدم تفسير الشكر وأنه يكون بالقلب واللسان والجوارح، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. فبيننا أنه القيام بطاعة الله، وبيننا الفرق بينه وبين الحمد.

● تنبيه: قال ابن عثيمين (٣): لو أتى المؤلف بأول الآية، لكان أولى. اهـ.

وسياتى كلامه في موضعه إن شاء الله وقدر.

الأعراب: - قال محيي الدين درويش (٤): قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ (إن وإسمها وجملة (تعبدون) صلة (ومن دون الله) حال وجملة (لا يملكون) خبر (إن) (ولكم) متعلقات (برزقا) (ورزقا) مفعول به (ليملكون) لأنه بمعنى المرزوق أو مصدر مؤول من (إن) والفعل أن لايقدر أن يرزقوكم ويجوز نصبه على المصدر وناصبه (لا يملكون) لأنه في معناه. ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الفاء) الفصيحة (وابتغوا) فعل أمر وفاعل (وعند الله) متعلقان

(٢) تقدم تخريجه.

(٤) الإعراب (٧/٤١٤).

(١) تقدم تخريجه.

(٣) «القول المفيد» (١/٣٤٤).

(بابتغوا) و(الرزق) مفعول (ابتغوا) و(اعبدوه واشكروا له) عطف على (ابتغوا إليه) متعلقان (بترجعون) (وترجعون) فعل مضارع مبنى للمجهول (والواو) نائب فاعل. اهـ.

● ما جاء من كلام أهل التفسير فيها:

قال الطبري^(١): يقول جل ثناؤه أن أوثانكم التي تعبدونها، لا تقدر أن ترزقكم شيئاً ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ يقول: فالتمسوا عند الله الرزق، لا من عند أوثانكم تدركوا ما تبتغون من ذلك ﴿وَأَعْبُدُوهُ﴾ يقول: ودلوا له ﴿وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ على رزقه إياكم ونعمه التي أنعمها عليكم. يقال شكرته، وشكرت له أفصح من شكرته. وقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: إلى الله تردون من بعد مماتكم فيسألکم عما أنتم عليه من عبادتكم غيره، وأنتم عباده وخلقه، وفي نعمه تتقلبون، ورزقه تأكلون. اهـ.

روى ابن أبي حاتم بسنده إلى قتادة: ﴿وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قال: كرامة أكرمكم الله بها، فاشكروا لله نعمه^(٢).

وبسنده إلى محمد بن كعب القرظي: إن كل عملٍ عملٍ لله فهو شكر لأنعم الله^(٣). اهـ.

قال البغوي^(٤): في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لا يقدر أن يرزقوكم ﴿فَابْتَغُوا﴾ فاطلبوا. اهـ.

● فائدة:

قال الزمخشري^(٥): فإن قلت: لم نكر الرزق ثم عرفه - أي ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾؟ -

قلت: لأنه أراد لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، فابتغوا عند الله الرزق كله، فإنه هو الرزاق وحده لا يرزق غيره. اهـ.

(١) تفسير الطبري (١٠/٢١/٨٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٢١٧) وانظره بتخريجنا.

(٣) المصدر السابق (١٧٢١٨) وانظره بتخريجنا.

(٤) معالم التنزيل (٤/٣٧٠).

(٥) الكشف (٤/١٨٦ - ١٨٧).

وعقب الرازي^(١) على قول الزمخشري أنه: نكرة في معرض النفي، أى لارزق عندهم أصلاً، وقال معرفة عند الإثبات عند الله، أى كل الرزق عنده فاطلبوه منه. وفيه وجه آخر: وهو أن الرزق من الله معروف بقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، والرزق من الأوثان غير معلوم، فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لعدم حصول العلم به أهـ.

قال ابن الجوزي^(٢): والمعنى: تعبدون أصناماً أنتم تصنعونها، ثم بين عجزهم بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أى لا يقدرّون على أن يرزقوكم. ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أى فاطلبوا من الله، فإنه القادر على ذلك. أهـ.

قال الرازي^(٣): قوله: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ أى اعبدوه؛ لكونه مستحقاً للعبادة لذاته، ﴿وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ أى لكونه سابق النعم للخلق، وواصلها بالرزق. أهـ.

قال القرطبي^(٤): قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أى اصرفوا رغبتم في أرزاقكم إلى الله، فإياه فاسألوه وحده دون غيره أهـ.

وقريب من هذه الأقوال قول ابن كثير^(٥)، وذكر الشوكاني ذكر نحو قول القرطبي.

قال السعدي^(٦): قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فى نقصه، وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته. ثم قال: فقال: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ حائثاً لهم على من يستحقّ العبادة، فإنه هو الميسر له، المقدر، المجيب لدعوة من دعاه لمصالح دينه ودنياه. ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ وحده لا شريك له... أهـ.

● فائدة دعوية.

هذه الآية التى ذكرها المصنف هنا مع ما قبلها وما بعدها من سورة العنكبوت، تظهر فائدة، بل قاعدة يستند إليها الداعى فى دعوته، وقد أحسن فى إظهار هذه الفائدة صاحب الظلال، حيث قال:

وبعد قصة نوح يطوى السياق القرون حتى يصل إلى الرسالة الكبرى. رسالة

إبراهيم: ﴿وَأَبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦)

(١) التفسير الكبير (١٣/٤٥ - ٤٦).

(٢) زاد المسير (٦/١٣٢).

(٣) الموضع السابق له.

(٤) تفسير القرطبي (٧/٥٠٥٢).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/٣٨٥).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٤/٤٩).

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ.

لقد دعاهم دعوة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض؛ وهى مرتبة فى عرضها ترتيباً دقيقاً يحسن أن يتملاه أصحاب الدعوات.

لقد بدأ ببيان حقيقة الدعوة التى يدعوهم إليها: «اعبدوا الله اتقوه»..

ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إليهم) وما تتضمنه من الخير لهم، لو كانوا يعلمون أين يكون الخير: «ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون».

وفى هذا التعقيب ما يحفزهم إلى نفى الجهل عنهم، واختيار الخير لأنفسهم) وهو فى الوقت ذاته حقيقة عميقة لا مجرد تهيج خطابى!

وفى الخطوة الثالثة بين لهم فساد ما هم عليه من العقيدة من عدة وجوه:

أولها: أنهم يعبدون من دون الله أوثاناً والوثن: التمثال من الخشب - وهى عبادة سخيفة، وبخاصة إذا كانوا يعدلون بها عن عبادة الله.

وثانيها: أنهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أو دليل، وإنما يخلقون إفكاً وينشئون باطلاً يخلقونه خلقاً بلا سابقة أو مقدمة وينشئون إنشاء من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة.

وثالثها: أن هذه الأوثان لا تقدم لهم نفعاً، ولا ترزقهم شيئاً: «إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا».

وفى الخطوة الرابعة: يوجههم إلى الله ليطلبوا منه الرزق. الأمر الذى يهمهم ويس حاجتهم: «فابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ».

والرزق مشغلة النفوس وبخاصة تلك التى لم يستغرقها الإيمان، ولكن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استشارة للميول الكامنة فى النفوس.

وفى النهاية يهتف بهم إلى واهب الأرزاق المتفضل بالنعم. ليعبدوه ويشكروه: «وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ».

وأخيراً يكشف لهم أنه لا مفر من الله، فمن الخير أن يشوبوا إليه مؤمنين عابدين شاكرين: «إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

فإن كذبوا - بعد ذلك كله - فما أهون ذلك! فلن يضر الله شيئاً، ولن يخسر رسوله شيئاً. فقد كذب الكثيرون من قبل، وما على الرسول إلا واجب التبليغ: ﴿وإن كذبوا فقد كذب أمم من قبلكم، وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾.

وهكذا يأخذهم خطوة خطوة، ويدخل إلى قلوبهم من مداخلها، ويوقع على أوتارها فى دقة عميقة، وهذه الخطوات تعد نموذجاً لطريقة الدعوة جديراً بأن يتملاه أصحاب كل دعوة، لينسجوا على منواله فى مخاطبة النفوس والقلوب. اهـ.

● ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية.

قال سليمان آل الشيخ^(١): أمر الله تعالى بابتغاء الرزق عنده لا عند غيره ممن لا يملك رزقاً من الأوثان والأصنام وغيرها، كما قال فى أول الآية: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾^(٢) قال ابن كثير: وهذا أبلغ فى الحصر كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٣): ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾^(٤) ولهذا قال: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أى لا عند غيره لأنه المالك له وغيره لا يملك شيئاً من ذلك: ﴿وَأَعْبُدُوهُ﴾ أى أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾. أى على ما أنعم عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى فيجازى كل عامل بعمله.

قلت - أى سليمان آل الشيخ - : فى الآية الرد على المشركين الذين يدعون غير الله ليشفعوا لهم عنده فى جلب الرزق؛ فما ظنك بمن دعاهم أنفسهم، واستغاث بهم ليرزقوه وينصروه كما هو الواقع من عباد القبور؟! وقال المصنف: وفيه أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه. اهـ.

قال ابن باز^(٥): فى هذه الآية: أمر بالطلب من الله وحده، والاستغاث به وحده، وعبادته وحده، وأن لا يطلب من غيره شيئاً، ويستثنى ما تقدم. اهـ.

قال ابن عثيمين: قوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾. لو أتى المؤلف بأول الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾

(٢) سورة العنكبوت: الآية: ١٧.

(٤) سورة التحريم، الآية: ١١.

(١) تيسير العزيز الحميد (١٧٤).

(٣) سورة الفاتحة: الآية: ٥.

(٥) التعليق المفيد (٩٢).

لكان أولى؛ فهم يعبدون هذه الأوثان من شجر وحجر وغيرها، وهى لا تملك لهم رزقاً أبداً، لو دعوها إلى يوم القيامة ما أحضرت لهم ولا حبة بر، ولا دفعت عنهم أذى مرض أو فقر، فإذا كانت لا تملك الرزق؛ فالذى يملكه هو الله، ولهذا قال: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾، أي: اطلبوا عند الله الرزق؛ لأنه سبحانه هو الذى لا ينقضى ما عنده، ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾^(١)، والرزق هو العطاء كما قال تعالى: ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾.

وقوله: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾: عند الله: حال من الرزق، وقدم الحال مع أن موضعها التأخير عن صاحبها لإفادة الحصر؛ إذ إن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر؛ أي: فابتغوا الرزق حال كونه عند الله لا عند غيره.

قوله: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾.

أي: تذللوا له بالطاعة؛ لأن العباداة مأخوذة من التعبيد، وهو التذليل، ومنه قولهم طريق معبد؛ أي: مذلّل للسالكين، قد أزيل عنه الأحجار والأشجار المؤذية؛ لأنكم إذا تذللتم له بالطاعة؛ فهو من أسباب الرزق، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(٢)؛ فأمر أن نطلب الرزق عنده، ثم أعقبه بقوله: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ إشارة إلى أن تحقيق العباداة من طلب الرزق؛ لأن العابد ما دام يؤمن أن من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب؛ فعبادته تتضمن طلب الرزق بلسان الحال.

قوله: ﴿وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾.

إذا أضاف الله الشكر له متعدياً باللام فهو إشارة إلى الإخلاص؛ أي: واشكروا نعمة الله؛ فاللام هنا لإفادة الإخلاص؛ لأن الشاكر قد يشكر الله لبقاء النعمة، وهذا لا بأس به، ولكن كونه يشكر الله وتأتى إرادة بقاء النعمة تبعاً هذا هو الأكمل والأفضل.

والشكر فسروه بأنه: القيام بقطاع المنعم، وقالوا: إنه يكون فى ثلاثة مواضع:

١ - فى القلب: وهو أن يعترف بقلبه أن هذه النعمة من الله، فيرى الله فضلاً عليه بها، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾^(٣)، وأعظم نعمة هى نعمة الإسلام،

(٢) الطلاق: ٣.

(١) النحل: ٩٦.

(٣) النحل: ٥٣.

قال تعالى: ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامُكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ الآية (٢).

٢ - اللسان: وهو أن يتحدث بها على وجه الثناء على الله والاعتراف وعدم الجحود، لا على سبيل الفخر والخيلاء والترفع على عباد الله؛ فيتحدث بالغنى لا ليكسر خاطر الفقير، بل لأجل الثناء على الله، وهذا جائز كما في قصة الأعمى من بنى إسرائيل لما ذكرهم الملك بنعمة الله، قال: «نعم، كنت أعمى فردَّ الله عليَّ بصري، وكنت فقيراً فأعطاني الله المال» (٣)؛ فهذا من باب التحدث بنعمة الله.

والنبي ﷺ تحدَّث بنعمة الله عليه بالسيادة المطلقة؛ فقال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» (٤).

٣ - الجوارح: وهو أن يستعملها بطاعة المنعم (*)، وعلى حسب ما يختصّ بهذه النعمة.

(١) الحجرات: ١٧. (٢) آل عمران: ١٦٤.

(٣) يأتي في باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَنُؤْتِيَنَّكَ رِزْقًا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٤٧١٢). ومسلم في الشفاعة (٣/٦٥) - النووي عن أبي هريرة به. وانظر «رياض الصالحين» (١٨٦٩) بتخريجنا.

(*) قول الشيخ ابن عثيمين: حفظه الله «بطاعة المنعم» ليس من باب تسمية الله بما لم يسم به نفسه ذلك لأننا تعلمنا منه أن ذلك من باب الإخبار عن الله ولفظ كلام الشيخ: الألفاظ تنقسم إلى:

(١) إما أن تدل على معنى ناقص نقصاً مطلقاً.

(٢) دالة على كمال في حال، ونقص في حال.

(٣) دالة على الكمال، لكن لا غاية الكمال.

(٤) دالة على غاية الكمال.

الدالة على غاية الكمال تكون من أسماء الله، بمعنى أنه ليس فيها نقص أبداً، لا اهتماماً ولا تنقيحاً. القسم الثاني: ما هو كمال، لكن يحتمل النقص في التقدير فهذا لا يسمى به الله، ولكن يخبر به عنه، لأن باب الأخبار أوسع، مثل: المتكلم، والشافي، والمريد، والصانع، والفاعل، فهذه الكلمات لا يسمى الله بها، ولكن يخبر عنه أخباراً مطلقاً، فنقول: إن الله متكلم، وإن الله مريد.

القسم الثالث: يحتمل نقصاً وكمالاً في نفس المعنى، لكن متعلق بنفس المعنى، فهذا لا يطلق على الله تعالى، وإنما يذكر مقيداً. مثل المكر، والخذاع، والاستهزاء، والكيد. فنقول: الله ماكر بمن يكر به، يستهزئ بمن يستهزئ به.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (١).

فمثلاً: شكر الله على نعمة العلم: أن تعمل به، وتعلمه الناس.
وشكر الله على نعمة المال: أن تصرفه بطاعة الله، وتنفع الناس به.
وشكر الله على نعمة الطعام: أن تستعمله فيما خلق له، وهو تغذية البدن؛ فلا تبني من العجين قصراً مثلاً؛ فهو لم يخلق لهذا الشيء.
قوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

الجر والمجرور متعلق بـ ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وتقديمه دلّ على الحصر، أى أن رجوعنا إلى الله - سبحانه -، وهو الذى سيحاسبنا على ما حملنا إياه من الأمر بالعبادة، والأمر بالشكر، وطلب الرزق منه.

والشاهد من هذا الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ (٢)؛ فالفقير يستغيث بالله لكى ينجيه من الفقر، والله هو الذى يستحق الشكر، وإذا كانت هذه الأصنام لا تملك الرزق؛ فكيف تستغيث بها؟!



قوله: [وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾].

- مناسبة الآية للباب:

قال عبد الله جار الله (٣): مناسبة الآية للباب أن الله أخبر فيها أنه لا أضل من دعا غيره، وذلك لأنه أشرك فى عبادته. اهـ.

القسم الرابع: نقص محض، فهذا لا يسمى الله به، ولا يوصف به، مثل: العمى، والصم، والعجز. فهذه أربع:

- ١- كمال محض فى ذاته وموضوعه.
 - ٢- كمال فى ذاته، لافى موضوعه، فيطلق عليه خبر ولا يسمى به.
 - ٣- كمال ونقص فى ذاته، فيطلق مقيداً.
 - ٤- نقص محض.
- هذه الأقسام الأربعة ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله فى مواضع متفرقة من كلامه اهـ.
- (١) العنكبوت: ١٧. (٢) الأحقاف (٥ - ٦).
- (٣) الجامع الفريد (٦١).

قال القرعاوى^(١): حيث دلت الآية على أنه لا أحد أجهل وأضل من دعا غير الله، لذا يكون الدعاء عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

الإعراب^(٢): و(من) الواو استئنافية، ومن اسم استفهام معناه الإنكار، في محل رفع مبتدأ، و(أضل) خبر، و(عن) متعلقان بـ (أضل). وجملة (يدعو) صلة (من) و(نت دون الله) حال، و(من) مفعول (يدعو)، وجملة (لايستجيب له) صلة، وأجازوا في (من) أن تكون نكرة تامة موصوفة، فتكون جملة (لايستجيب له) صفة، و(إلى يوم القيامة) حال (وهم عن دعائهم غافلون) الواو حالية، وهم مبتدأ، و(عن دعائهم) متعلقان (بغافلون)، و(غافلون) خبر (هم) والجملة في موضع نصب الحال.

و(إذا) الواو حرف عطف، و(إذا) ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة (حشر الناس) في محل جر بإضافة الظرف إليها و(الناس) نائب فاعل، وجملة (كانوا) لا محل لها، لأنها جواب شرط غير جازم، وكان واسمها و(لهم) حال، و(أعداء) خبر (كانوا)، و(كانوا) عطف، و(كانوا) الأولى، و(وبعبادتهم) متعلقان (بكافرين)، و(والهاء) مضافة إلى (عبادة) من إضافة المصدر إلى مفعوله، أى بكونها معبودين (وكافرين) خبر كانوا. اهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من القرآن:

وهذه الآية موضوع الباب كقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾^(٣).

وكقوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(٤).

وأيضاً كما سيأتى فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾^(٥).

وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُمْ فَزَيَّلْنَا

(٢) الجديد (١٣٠).

(١) إعراب القرآن (٩/ ١٦٨، ١٦٩).

(٤) الرعد: ١٤.

(٣) الإسراء: ٥٦.

(٥) فاطر: ١٣.

بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِبَانًا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ غَافِلِينَ ﴿١﴾

وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾
وكقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٣﴾﴾

وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿٤﴾﴾
وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظَلِمَ مِنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿٥﴾﴾

● أقوال المفسرين:

قال ابن جرير (٦): يقول تعالى ذكره: أى عبد أضل من عبد يدعو من دون الله آلهة ﴿لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يقول لا يجيب دعائهم أبداً، لأنها حجر أو خشب، ونحو ذلك.

* وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره وآلهتم التى يدعونهم عن دعائهم إياهم فى غفلة، لأنها لا تسمع ولا تنطق، ولا تعقل، وإنما عَنِ بوصفها بالغفلة تمثيلها بالإنسان الساهى عما يقال له، إذا كانت لا تفهم مما يقال لها شيئاً، كما لا يفهم الغافل عن الشيء ما غفل عنه، وإنما هذا توبيخ من الله لهؤلاء المشركين لسوء رأيهم، وقبح اختيارهم فى عبادتهم من لا يعقل شيئاً ولا يفهم، وتركهم عبادة من جميع ما بهم من نعمته، ومن به استغاثتهم عندما ينزل بهم من الحوائج والمصائب.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ الآية: يقول تعالى ذكره: وإذا جُمع الناس يوم القيامة لموقف الحساب كانت هذه الآلهة التى يدعونها فى الدنيا لهم أعداء؛ لأنهم يتبرؤن منهم وكانوا بعبادتهم غافلين. اهـ.

(١) يونس: ٢٨.

(٢) الأحقاف: ٦.

(٤) فاطر: ١٤.

(٣) مريم: ٨٢.

(٦) تفسير الطبرى (١١/٢٦/٤).

(٥) الفرقان: ١٨ - ١٩.

قال البغوى^(١): قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعنى الأصنام لاتجيب عابديها إلى شئ يسألونها ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعنى: أبداً ما دامت الدنيا. ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ لأنها جماد لاتسمع ولا تفهم. ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ جاحدين. اهـ ذكر ابن الجوزى^(٢) نحو قول البغوى باختصار.

قال الزمخشري^(٣): قال تعالى: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: إذا قامت القيامة وحشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا عليهم ضداً فليسوا فى الدارين إلا على نكد ومضرة لاتتولاهم فى الدنيا بالاستجابة وفى الآخرة تعاديهم، وتجدد عبادتهم،

قال الرازى^(٤): اعلم أنه تعالى بين فيما سبق أن القول بعبادة الأصنام قول باطل، من حيث إنها لا قدرة لها البتة على الخلق والفعل والإيجاد والإعدام والنفع والضرر، فأردفه بدليل آخر يدل على بطلان ذلك المذهب، وهى أنها جمادات فلا تسمع دعاء الداعين، ولا تعم حاجات المحتاجين.

وبالجمله فالدليل الأول كان إشارة إلى نفى العلم من كل الوجوه، وإذا انتفى العلم والقدرة من كل الوجوه لم تبق عبادة معلومة ببديهة العقل أهـ.

قال القرطبى^(٥): قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أى لا أحد أضل وأجهل ﴿مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وهى الاوثان.

ثم قال: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ يريد يوم القيامة. ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أى هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيامة. فالملائكة أعداء الكفار، والجن والشياطين يتبرءون غداً من عبادتهم، ويلعن بعضهم بعضاً.

ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين عبدوها أعداء؛ على تقدير خلق الحياة لها؛ دليله قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

وقيل: عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم، وجحد المعبودون عبادتهم، وهو قوله: ﴿أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾. اهـ.

(٢) زاد المسير (١٦٩/٧)، (١٧٠).

(٤) الرازى (٦٤٧/٢٦/٤).

(١) معالم التنزيل (١٣١/٥).

(٣) الكشف (٤٤١/٣)، (٤٤٢).

(٥) تفسير القرطبى (٦٠٠٣/٩).

وينحو هذا قال ابن كثير فى «تفسيره» (١).

قال الشوكانى (٢): قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ أى لا أحد أضل منه ولا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع، فكيف يطمع فى الإجابة فضلاً عن جلب نفع أو دفع ضرر؟ فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين وأضل الضالين.

ثم قال: قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ﴾ أى إذا حشر الناس العابدين للأصنام كان الأصنام لهم أعداء يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً، وقد قيل: إن الله يخلق الحياة فى الأصنام فتكذبهم.

وقيل: المراد: أنها تكذبهم وتعادىهم بلسان الحال لا بلسان المقال. وأما الملائكة والمسيح وعزير والشياطين فإنه يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة، كما فى قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ (٣) ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أى كان المعبودون بعبادة المشركين إياهم كافرين، أى جاحدين مكذبين.

وقيل: الضمير فى ﴿كَانُوا﴾ للعبادين كما فى قوله: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٤) والأول أولى. اهـ.

فائدة:

إذا كان القرآن يندد بضلال من يدعون من دون الله آلهة لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة؛ وكان هذا يعنى المعبودات التاريخية التى عرفتها الجماعات البشرية عند نزول هذا القرآن، فإن النص أوسع مدلولاً وأطول أمداً من ذلك الواقع التاريخي. فمن أضل ممن يدعو من دون الله أحداً فى أى زمان وفى أى مكان؟ وكل أحد كائن من كان - لا يستجيب بشيء لمن يدعوه، ولا يملك أن يستجيب. وليس هناك إلا الله فعال لما يريد.. إن الشرك ليس مقصوراً على صورته الساذجة التى عرفها المشركون القدامي. فكم من مشركين يشركون مع الله ذوى سلطان، أو ذوى جاه، أو ذوى مال؛ ويرجون فيهم، ويتوجهون إليهم بالدعاء. وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعاتهم استجابة حقيقية. وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً. ودعاؤهم شرك. والرجاء فيهم شرك. والخوف منهم شرك. ولكنه شرك خفى يزاوله الكثيرون، وهم لا يشعرون. اهـ (٥).

(١) تفسير ابن كثير (٤/١٤٩).

(٢) فتح القدير (٥/١٥).

(٣) القصص: ٦٣.

(٤) الأنعام: ٢٣.

(٥) الظلال (٦/٣٢٥٦). قلت: ولقد اعتبر البعض أن فى هذا الكلام توسيع لدائرة التكفير من صاحب الظلال وتوجهوا إلى الشيخ الألبانى بسؤال بهذا المعنى فرد حفظه الله بعد أن قرأوا عليه هذا الكلام أين هذا أنا لم أره كما فى تسجيلات حثين الإسلامية شريط بعنوان: الألبانى رأى فى سيد قطب وقد استفدت به فى مقدمة كتابي فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال ط نزار الباز.

فوائد ومسائل من تفسير الآية

● المسألة الأولى:

ما فائدة الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ . . . الآية؟
تقدم من قول الطبرى: أن هذا توبيخ من الله لهؤلاء المشركين لسوء رأيهم، وقبح اختيارهم فى عبادتهم من لا يعقل شيئاً ولا يفهم.

وقال الزمخشري^(١): ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ معنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون فى الضلال كلهم أبلغ ضلالاً من عبدة الأصنام حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كل بغية ومرام ويدعون من دونه جماداً لا يستجيب لهم ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة اهـ.

وكذلك قال الرازى^(٢): ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ استفهام على سبيل الإنكار والمعنى أنه لا أمراً أبعد عن الحق، وأقرب إلى الجهل ممن يدعو من دون الله الأصنام، فيتخذها آلهة ويعبدها وهى إذا دعيت لاتسمع، ولا تصح منها الإجابة لا فى الحال ولا بعد ذلك اليوم إلى يوم القيامة.

قال الشوكانى^(٣): والاستفهام للتقريع والتوبيخ.

قال ابن عثيمين^(٤): وإذا كان الاستفهام مراداً به النفى كان أبلغ من النفى المجرد؛ لأنه يحوِّله من نفى إلى تحدٍّ أى: بين لى عن أحد أضلّ ممن يدعو من دون الله؟ فهو متضمّن للتحدّي، وهو أبلغ من قوله: «لا أضلّ ممن يدعو»؛ لأنّ هذا نفى مجرد، وذلك نفى مُشَرَّبٌ معنى التحدّي.

● المسألة الثانية:

تستعمل (من) للعاقل، و(ما) لغير العاقل، فهل تخرج الجمادات وكل ما لا يعقل من قوله تعالى: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾؟

الجواب: قال الطبرى^(٥): -

وقيل: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ فأخرج ذكر الآلهة، وهى جماد - مخرج ذكر بنى آدم

(٢) التفسير الكبير (٤/٢٦ - ٦ - ٧).

(٤) القول المفيد (١/٣٤٨).

(١) الكشاف (٣/٤٤١، ٤٤٢).

(٣) فتح القدير (٥/١٥).

(٥) «تفسير الطبرى» (١١/٢٦/٤).

ومن له الاختيار والتمييز، إذ كانت قد مثلتها عبدتها بالملوك والأمراء التي تخدم في خدمتهم إياها فأجرى الكلام في ذلك على نحو ما كان جارياً فيه عندهم.

قال الزمخشري: (١) قرئ مالا يستجيب وقرئ يدعو غير الله من لا يستجيب ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكم بها وبعدها ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾. اهـ.

وإنما قيل (من) و(هم) لأن أسند إليهم ما يسند إلى أولى العلم من الاستجابة والغفلة ولأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلاً وغباءً ويجوز أن يريد كل معبود من دون الله من الجن والإنس والأوثان فغلب غير الأوثان عليها اهـ.

قال الرازي: (٢) قوله: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾.

اختلفوا فيه فالأكثر على أنه تعالى يحيى هذه الأصنام يوم القيامة وهي تظهر عداوة هؤلاء العابدين وتبرأ منهم، وقال بعضهم بل المراد عبدة الملائكة، وعيسى فإنهم في يوم القيامة يظهرون عداوة هؤلاء العابدين فإن قيل ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وكيف يعقل وصف الأصنام وهي جمادات بالغفلة؟ وأيضاً كيف جاز وصف الأصنام بما لا يليق إلا بالعقلاء؟ وهي لفظة (من) وقوله: (غافلون) قلنا إنهم لما عبدوها ونزلوها منزلة من يضر وينفع صح أن يقال فيها إنها بمنزلة الغافل الذي لا يسمع ولا يجيب. وهذا هو الجواب أيضاً عن قوله إن لفظة (من) ولفظة (هم) كيف يليق بها، وأيضاً يجوز أن يريد كل معبود من دون الله من الملائكة وعيسى وعزير والأصنام إلا أنه غلب غير الأوثان على الأوثان. اهـ.

قال الشوكاني: (٣) ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ الضمير الأول للأصنام والثاني لعبادها، والمعنى: والأصنام التي يدعونها عن دعائهم إياها غافلون عن ذلك، لا يسمعون ولا يعقلون لكونهم جمادات، والجمع بين الضميرين باعتبار معنى «من» وأجرى على الأصنام ما هو للعقلاء؛ لاعتقاد المشركين فيها أنها تعقل.

قال ابن عثيمين: وقوله: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ﴾ أتى بـ «مَنْ»، وهي للعاقل، مع أنهم يعبدون الأصنام والأحجار والأشجار، وهي غير عاقلة؛ لأنهم لما عبدوها نزلوها منزلة

(١) «الكشاف» (٣/٤٤٢).

(٢) «التفسير الكبير» (١٤/٢٦/٧٠٦).

(٣) فتح القدير (٥/١٥).

العاقل، فخرطبوا بمقتضى ما يدعون؛ لأنه أبلغ فى إقامة الحجة عليهم فى أنهم يدعون من يرونهم عقلاء، ومع ذلك لا يستجيبون لهم، وهذا من بلاغة القرآن؛ لأنه خاطبهم بما تقتضيه حالهم ليقم الحجة عليهم؛ إذ لو قيل: ما لا يستجيب له؛ لقالوا: هناك عذر فى عدم الاستجابة لأنهم غير عقلاء.

● المسألة الثالثة:

قوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فهل يستجيبون لهم بعد يوم القيامة؟

قال الرزاي^(١): وإنما جعل ذلك غاية لأن يوم القيامة قد قيل إنه تعالى يحييها وتقع بينها وبين من يعبدها مخاطبة فلذلك جعله تعالى حداً، وإذا قامت القيامة وحشر الناس فهذه الأصنام تعادى هؤلاء العابدين. اهـ.

قال فى حاشية الكشف^(٢): قال أحمد وفى قوله إلى يوم القيامة نكتة حسنة وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة ومن شأن الغاية انتهاء المعنى عندها لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية لأنهم فى القيامة أيضاً لا يستجيبون لهم فالوجه والله أعلم أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها إلا أنه أزيد منه زيادة بيّنة تلحقه بالثانى حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعاً واحداً لتفاوت ما بينهما كالشئ وضده وذلك أن الحالة الأولى التى جعلت غايتها القيامة لاتزيد على عدم الاستجابة والحالة الثانية التى فى القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم فهو من وادى ما تقدم أنفاً فى سورة الزخرف فى قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ. اهـ.

قال الشوكانى^(٣): وقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ غاية لعدم الاستجابة.

● المسألة الرابعة:

﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ﴾، هل المعنى: كان العابدون للمعبودين أعداء، أو كان المعبدون للعابدين أعداء؟

الجواب: قال ابن عثيمين: يشمل المعنيين، وهذا من بلاغة القرآن.

الشاهد: قوله: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، فإذا كان من سوى الله لا يستجيب إلى يوم القيامة؛ فكيف يليق بك أن تستغيث به دون الله؟! فبطل تعلق هؤلاء العابدين بعبوداتهم.

(١) «التفسير الكبير» (١٤/١٦ - ٦ - ٧).

(٢) حاشية الكشف لمحمد عليان الشافعى (٣/ ٤٤١ - ٤٤٢). (٣) «فتح القدير» (١٥/٥).

فالذى يأتى للبدوى أو للدسوقي فى مصر، فيقول: المدد! المدد! أو: أغثنى؛ لا يغنى عنه شيئاً، ولكن قد يتلى فيأتيه المدد عند حصول هذا الشيء لا بهذا الشيء، وفرق بين ما يأتى بالشيء وما يأتى عند الشيء.

مثال ذلك امرأة دعت البدوى أن تحمل، فلما جامعها زوجها حملت، وكانت سابقاً لا تحمل؛ فنقول هنا: إنَّ الحمل لم يحصل بدعاء البدوي؛ وإنما حصل عنده لقوله تعالى: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

أو يأتى للجيلانى فى العراق، أو ابن عربى فى سوريا، فيستغيث به؛ فإنه لا يستنفع، ولو بقى الواحد منهم إلى يوم القيامة يدعو ما أجابه أحد.

والعجب أنَّهم فى العراق يقولون: عندنا الحسين، فيطوفون بقبوره ويسألونه، وفى مصر كذلك، وفى سوريا كذلك، وهذا سفه فى العقول، وضلال فى الدين، والعامّة قد لا يلامون فى الواقع، لكن الذى يُلام من عنده علم من العلماء ومن غير العلماء.



● ما جاء من كلام شُراح كتاب التوحيد فى الآية:

قال سليمان آل الشيخ^(١): - حاصل كلام المفسرين أن الله تعالى حكم بأنه لا أَصل ممن يدعو من دون الله، لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة واستغاثة من هذه حاله.

ومعنى الاستغفار فيه إنكار أن يكون فى الضلال كلهم أبلغ ضلالاً ممن عبد غير الله ودعاه، حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كل بغية ومرام، ويدعون من دونه من لا يستجيب لهم، ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دام فى الدنيا وإلى أن تقوم القيامة.

وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾. أى لا يشعرون بدعاء من دعاهم لأنهم إما عباد مسخرون مشغولون بأحوالهم كالملائكة، وإما أموات كالأنبياء والصالحين وإما أصنام وأوثان.

وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ﴾ أى إذا قامت القيامة، وحشر الناس للحساب عادوهم، وكانوا بعبادتهم الدعاء وغيره من أنواع العبادة كافرين، كما قال

(١) تيسير العزيز الحميد: (١٦٥، ١٦٦).

تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرة، لا تتولاهم بالاستجابة في الدنيا وتجدد عبادتهم في الآخرة وهم أحوج ما كانوا إليها.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): والآية تعم كل من يدعى من دون الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾. ثم قال: فتناولت الآية كل داع وكل مدعو من دون الله.

ثم قال: وأكثر ما يستعمل الدعاء في الكتاب والسنة واللغة ولسان الصحابة ومن بعدهم من العلماء في السؤال والطلب.

وبنحو كلام سليمان آل الشيخ قال عبد الله بن جار الله^(٢)، مختصراً.

وقال ابن باز^(٣): وصف المدعون من دون الله بأربعة أصناف: -

الأولى: عدم استجابتهم لهم يوم القيامة.

الثانية: أنهم غافلون عن دعائهم، إما لأنهم أموات، أو جماد لا إحساس له، أو حى مشغول أو ملك لا علم له بمن دعاه.

الثالثة: أنهم يكونون أعداء لمن عبدوهم يوم القيامة.

الرابعة: أنهم يبرءون من عبادتهم وينكرونها. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾.

﴿وَمَنْ﴾: اسم استفهام مبتدأ، و﴿أَضَلُّ﴾: خبره، والاستفهام يراد به هنا النفي، أى لا أحد أضلّ.

و﴿أَضَلُّ﴾: اسم تفضيل؛ أى: لا أحد أضلّ من هذا.

والضلال: أن يتيه الإنسان عن الطريق الصحيح.

قوله: ﴿مِمَّنْ يَدْعُو﴾ متعلق بأضل، ويراد بالدعاء هنا دعاء المسألة ودعاء العبادة.

قوله: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى: سواه.

(١) فتح المجيد (١/ ٢١٨ - ٢١٩).

(٢) الجامع الفريد (٦١).

(٣) التعليق المفيد (٩٢).

(٤) «القول المفيد» (١/ ٣٤٨).

قوله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

﴿مَنْ﴾: مفعول يدعوا؛ أي: لو بقي كل عمر الدنيا يدعوا ما استجاب له، قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، والخبر هنا عن الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، يعنى: نفسه سبحانه وتعالى. اهـ.

قوله: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ﴾.

الضمير فى قوله: ﴿وَهُمْ﴾ يعود على ﴿مَنْ﴾ باعتبار المعنى؛ لأنهم جماعة، وضمير يستجيب يعود على ﴿مَنْ﴾ باعتبار اللفظ؛ لأنه مفرد، فأفرد الضمير باعتبار لفظ ﴿مَنْ﴾، وجمعه باعتبار المعنى؛ لأنَّ ﴿مَنْ﴾ تعود على الأصنام، وهى جماعة، و﴿مَنْ﴾ قد يُراعى لفظها ومعناها فى كلام واحد.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾؛ فهنا راعى اللفظ، ثم المعنى، ثم اللفظ.

قوله: ﴿عَنْ دُعَائِهِمْ﴾ الضمير فى دعائهم يعود إلى المدعوين، وهل المعنى: ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: الأصنام ﴿عَنْ دُعَائِهِمْ﴾؛ أي: دعاء الداعين إياهم، فيكون من باب إضافة المصدر إلى مفعوله، أو المعنى: و﴿وَهُمْ﴾ عن دعاءهم العابدين لهم؛ فيكون «دعاء» مضافاً إلى فاعله، والمفعول محذوف؟

الأول أبلغ، أى عن دعاء العابدين إياهم أبلغ من دعاء العابدين على سبيل الإطلاق، فإذا قلت: ﴿عَنْ دُعَائِهِمْ﴾؛ أي: عن دعاء العابدين إياهم، وجعلت الضمير هنا يعود على المدعوين؛ صار المعنى أن هذه الأصنام غافلة عن دعوة هؤلاء إياهم، ويكون هذا أبلغ فى أن هذه الأصنام لاتفيدهم شيئاً فى الدنيا ولا فى الآخرة. اهـ^(١).



(١) «القول المفيد» (١/٣٤٩ - ٣٥٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُهُ﴾^(١).
مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ...﴾ إلخ.

● مناسبة الآية للباب: قال عبد الله بن جابر الله^(٣): فوجه الدلالة أن من طلب ذلك من غير الله فقد أشرك به. اهـ.

قال ابن باز^(٤): أى لا يستطيع أحد فعل ذلك، فلا ينبغي طلبه إلا من الله. اهـ.
قال القرعاوى^(٥): حيث دلت الآية على أنه لا يستجيب للمضطر إلا الله سبحانه وتعالى فيكون دعاء المضطر، وهو الاستغاثة بعبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

● الإعراب: قال محيي الدين درويش^(٦): (أم) منقطعة لفقدان شرطها، وهو تقدم همزة الاستفهام، وهى بمعنى بل، والإضراب بمعنى التبكيت والتوبيخ، و(من) مبتدأ. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٧): قوله: ﴿أَمَّنْ﴾. أم: منقطعة، والفرق بين المنقطعة والمتصلة ما يلي:

١ - المنقطعة بمعنى بل، والمتصلة بمعنى أو.

٢ - المتصلة لا بد فيها من ذكر المعادل، والمنقطعة لا يشترط فيها ذكر المعادل.

مثال ذلك: أعندك زيد أم عمرو؟ فهذه متصلة، وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ متصلة، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ منقطعة؛ لأنه لم يذكر لها معادل: فهي بمعنى بل والهمزة.

قوله: ﴿الْمُضْطَرَّ﴾ أصلها: المضطر؛ أي: الذى أصابه الضرر، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فاستَجَبْنَا لَهُ؛ فلا يجيب المضطر إلا الله، لكن قيده بقوله: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، أما إذا لم يدعه؛ فقد يكشف الله ضره، وقد لا يكشفه.

قال محيي الدين درويش: وجملة (دعاه) فى محل جر بإضافة الظرف إليها،

(١) النمل: ٦٢.

(٢) الجامع الفريد (٦٣).

(٣) التعليق المفيد (٩٣).

(٤) الجديد (١٣٢).

(٥) إعراب القرآن: (٢٣٨).

(٦) القول المفيد (٣٥١ - ٣٥٢).

و(المضطر) اسم مفعول وطاؤه أصلها تاء الافتعال. (وبجعلكم خلفاء الأرض أ إله مع الله قليلاً ما تذكرون) قليلاً: نعت لمصدر محذوف أو لوقت محذوف، وما زائدة لتقليل القليل، وتذكرون فعل مضارع حذفت إحدى تاءيه، والواو فاعل. اهـ.

● التفسير بالقرآن:

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (١).

وقال أيضاً: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوُونَ * ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فِرَيقُ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٢).

وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّیُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ (٣).

● التفسير من المرفوع وغيره:

وفى حديث عمران بن حصين، قال له عليه السلام: «يا حصين كم أصبحت تعبد اليوم إلهاً؟» قال سبعة، قال ستة فى الأرض وواحد فى السماء. . قال فأيهم تعبد لرغبتك ورهبتك قال: الذى فى السماء. قال: يا حصين: أم إنك لو أسلمت لعلمتكم كلمتين ينفعانك... الحديث (٤).

وقال القرطبي (٥) فى تفسير الآية: وفى مسند أبى داود الطيالسى عن أبى بكره قال قال رسول الله ﷺ فى دعاء المضطر: «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت».

وفى الحديث: «ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن: دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده» (٦) ذكره صاحب الشهاب؛ وهو حديث صحيح. وفى صحيح مسلم عن النبى ﷺ أنه قال لمعاذ لما وجَّهه إلى أرض اليمن «واتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب» (٧). وفى كتاب الشهاب: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على

(١) العنكبوت: ٦٥. (٢) النحل: ٥٣/٥٤.

(٣) الزمر: ٨. (٤) أخرجه الترمذى (٣٤٨٣) عن عمران بإسناد منقطع.

(٥) تفسير القرطبي (٧/٤٩٣٩ - ٤٩٤١).

(٦) أخرجه أبو داود (١٥٣٦)، والترمذى (١٩٠٥)، وابن ماجه (٣٨٦٢) عن أبى هريرة به.

وانظر «الأذكار للنووي» (٥٥٠- بتخريجنا).

(٧) تقدم تخريججه.

الغمام فيقول الله تبارك، وتعالى وعزتي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين» وهو صحيح أيضاً.

وخرج الآجري من حديث أبي ذرٍّ عن النبي ﷺ: «فإني لا أردّها ولو كانت من فم كافر».

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عبيد الله بن أبي صالح قال: دخل على طاوس يعاودني، فقلت له: ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن. قال: ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه (١). اهـ.

قوله: «ويكشف السوء».

عن أبي تيمية الهجيمي عن رجل من بلهجوم قال قلت لرسول الله ﷺ إلام تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله وحده الذي إن مسك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن أضلك بأرض كفر فدعوته رد عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أثبت لك» قال قلت أوصني قال: «لاتسبن أحداً ولا تزهدن في المعروف ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، واتزر إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعنين، وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة» (٢).

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر فذكر اسم الصحابي فقال: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا يونس هو ابن عبيد حدثنا عبيدة الهجيمي عن أبيه عن أبي تيمية الهجيمي عن جابر بن سليم الهجيمي قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو محتب بشملة وقد وقع هديها على قدميه فقلت أيكم محمد رسول الله؟ فأوماً بيده إلى نفسه، فقلت لرسول الله أنا من أهل البادية وفي جفاؤهم فأوصني قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه فإنه يكون لك أجره وعليه وزره، وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة، ولا تسبن أحداً» قال فما سببت بعده أحداً ولا شاة ولا بعيراً (٣).

وقد روى أبو داود والنسائي لهذا الحديث طرقاً وعندهما طرف صالح منه.

عن سحيم بن نوفل قال: بينما نحن عند عبد الله إذ جاءت وليدة إلى سيدها فقالت: ما يحبسك وقد لفع فلان مهرك بعينه فتركه يدور في الدار كأنه في فلك؟ قم فابتغ راقياً فقال عبد الله: لا تبغ راقياً، وانث في منخره الأيمن أربعاً، وفي الأيسر ثلاثاً، وقل: لا بأس اذهب البأس رب الناس. اشف أنت الشافي لا يكشف الضر إلا أنت

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٥١٩) فانظره بتخريجنا.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٣/٥)، وأبو داود (٤٠٨٤)، والترمذي (٢٧٢٢)، والنسائي في

«الكبرى» (١٠١٥٢). - وانظر «رياض الصالحين» (٧٩٧- بتخريجنا).

(٣) انظر ما قبله.

قال: فذهب ثم رجع إلينا فقال: فعلت ما أمرتني فما جئت حتى راث وبال وأكل^(١).

عن وهب بن منبه يقول: قرأتُ في كتاب آخر أن الله تبارك وتعالى يقول: بعزتي إنه من اعتصم بي، فإن كادته السموات بمن فيهن والأرض بمن فيها فإنني أجعل له من بين ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بي، فإنني أخسف به من تحت قدميه الأرض، فاجعله في الهواء ثم أكله إلى نفسه. اهـ.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾.

● التفسير بالقرآن:

الذين يجعلهم الله خلفاء الأرض هم عباد الله الصالحون.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾^(٣).

وكقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكِنِّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾^(٤).

وكقوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(٥).

● التفسير بالمأثور:

عن قتادة: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي خلفاً من بعده خلفاً^(٦).

وبسنده أيضاً عن السدي قال: خلفاء لمن قبلهم من الأمم^(٧).

قوله: ﴿قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾.

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: أهل الذكر هم أهل القرآن^(٨).

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٢١٣/٥) ونسبه لابن أبي شيبة أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٥٢٠) فانظره بتخريجنا..

(٢) الأنبياء: ١٠٥. (٣) النور: ٥٥.

(٤) القصص: ٥ - ٦. (٥) الأعراف: ١٢٩.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦٥٢١) فانظره بتخريجنا.

(٧) المصدر السابق (١٦٥٢٢) فانظره بتخريجنا.

(٨) المصدر السابق (١٦٢٣) فانظره بتخريجنا.

ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره أم ما تشركون بالله خير ، أم الذى يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء النازل به .

ثم ذكر بسنده عن ابن جريج «وَيَكْشِفُ السُّوءَ» قال: الضر^(٢).

- قوله: «وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ» يقول: ويستخلف بعد أمرائكم فى الأرض منكم خلفاء أحياء يخلفونهم.

- قوله: «أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ» يقول: أله مع الله سواء يفعل هذه الأشياء بكم، وينعم عليكم هذه النعم.

- قول: «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ» يقول: تذكرًا قليلًا من عظمة الله ، وأياديه عنكم تذكرون وتعتبرون حجج الله عليكم يسيرًا فلذلك أشركتم بالله غيره فى عبادته. اهـ.

قال البغوي^(٣): «وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ» سكانها، يهلك قرئًا، وينشيء آخر، وقيل: يجعل أولادكم خلفاءكم، وقيل: جعل خلفاء الجن فى الأرض.

«أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ» قرأ أبو عمرو: بالياء، والآخرون: بالتاء . اهـ.
وتابعه ابن الجوزي^(٤) على هذا التفسير بهذا الاختصار على غير عادته.

قال الزمخشري^(٥): «أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ» أغیره يقرن به ويجعل شريكًا له وقرئ أللهًا مع الله بمعنى أتدعون أو تشركون ولك أن تحقق الهمزتين ولوسط بينهما مدة وتخرج الثانية بين بين .

ثم قال: «خُلَفَاءَ الْأَرْضِ» خلفاء فيها وذلك توارثهم سكانها والتصرف فيها قرئًا بعد قرن أو أراد بالخلافة الملك والتسلط وقرئ يذكرون بالياء مع الإدغام، وبالتاء مع الإدغام والحذف وما مزيدة أى يذكرون تذكرًا قليلًا والمعنى نفى التذكر والقلة تستعمل فى معنى النفى اهـ.

قال القرطبي^(٦): قوله تعالى: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ» قال ذو النون : هو الذى قطع العلائق عما دون الله .

(٢) المصدر السابق

(١) تفسير الطبرى (١٠/ ٢٠/ ٤).

(٤) زاد المسير (٦/ ٨٢، ٨٣).

(٣) معالم التنزيل ٤٠/ ٣١٥.

(٦) تفسير القرطبي (٧/ ٤٩٣٩ - ٤٩٤١).

(٥) الكشف (٣/ ١٤٨ - ١٤٩).

وقال أبو جعفر وأبو عثمان النيسابوري: هو المفلس.

وقال سهل بن عبد الله: هو الذى إذا رفع يديه إلى الله داعياً لم يكن له وسيلة من طاعة قدمها.

وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال: أنا أسألك بالله أن تدعو لى فأنا مضطر، قال: إذا فأسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه . قال الشاعر:

وإني لأدعو الله والأمْرُ ضَيْقٌ عليّ فما ينفك أن يتفرّجاً
وربّ أخٍ سدّت عليه وجوهه أصاب لها لما دعا الله مخرّجاً

ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والسبب فى ذلك أن الضرورة إليه بالتجاء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وزمة، وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فيجيب المضطر لموضع اضطرابه وإخلاصه.

ثم قال: فيجيب المظلوم لموضع إخلاصه بضرورته بمقتضى كرمه، وإجابة لإخلاصه وإن كان كافراً، وكذلك إن كان فاجراً فى دينه، ففجور الفاجر وكفر الكافر لا يعود منه نقص ولا وهن على مملكة سيده، فلا يمنعه ما قضى للمضطر من إجابته.

وفسر إجابة دعوة المظلوم بالنصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهر له، أو اقتصاص منه، أو تسليط ظالم آخر عليه يقهره كما قال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ وأكد سرعة إجابته بقوله: «تحمل على الغمام» ومعناه والله أعلم أن الله عز وجل يوكّل ملائكته بتلقى دعوة المظلوم وبحملها على الغمام، فيعرجوا بها إلى السماء، والسماء قبله الدعاء ليراه الملائكة كلهم، فيظهر منه معاونته المظلوم، وشفاعة منهم له فى إجابة دعوته، رحمة له.

وفى هذا تحذير من الظلم جملة، لما فيه من سخط الله، ومعصيته ومخالفة أمره، حيث قال على لسان نبيه فى صحيح مسلم وغيره: «يا عبادى إني حرمت الظلم على

نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» الحديث، فالمظلوم مضطر، ويقرب منه المسافر، لأنه منقطع عن الأهل والوطن، منفرد عن الصديق والحميم، لا يسكن قلبه إلى مسند ولا معين لغريته، فتصدق ضرورته إلى المولى، فيخلص إليه فى اللجاء، وهو المجيب للمضطر إذا دعاه، وكذلك دعوة الوالد على ولده، لا تصدر منه مع ما يعلم من حننه عليه وشفقته، إلا عند تكامل عجزه عنه، وصدق ضرورته، ورياسه عن برِّ ولده، مع وجود أذيته، فيسرع الحق إلى إجابته.

قوله تعالى: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ أى الضر، وقال الكلبي: الجور ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أى سكانها يهلك قوماً وينشيء آخرين، وفى كتاب النقاش: أى ويجعل أولادكم خلفاً منكم، وقال الكلبي: خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم، وطاعة الله بعد كفرهم ﴿أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ﴾ على جهة التوبيخ، كأنه قال أمع الله ويلكم إله، فإله مرفوع بـ«مع».

ويجوز أن يكون مرفوعاً بإضمار ﴿أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك فتعبدوه، والوقف على مَعَ اللَّهِ حسن.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو وهشام ويعقوب «يَذَكَّرُونَ» بالياء على الخبر، كقوله: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» و﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فأخبر فيما قبلها وبعدها، واختاره أبو حاتم، الباقون بالتاء خطاباً لقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ اهـ.

قال ابن كثير^(١) فى قوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ بنيه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ﴾ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أى من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذى لا يكشف ضرر المضرورين سواه.

ثم قال: وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالدقى الصوفى قال: هذا الرجل كنت أكارى على بغل لى من دمشق

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣٤٩-٣٥٠).

إلى بلد الزيداني فركب معى ذات مرة رجل فمررنا على بعض الطريق عن طريق غير مسلوكة فقال لى خذ فى هذه فإنها أقرب فقلت لا خبرة لى فيها، فقال بل هى أقرب فسلكناهما فانتبهنا إلى مكان وعر وواد عميق وفيه قتلى كثيرة فقال لى امسك رأس البغل حتى أنزل فتزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكيناً معه وقصدنى ففررت من بين يديه وتبعنى فناشدته الله وقلت خذ البغل بما عليه فقال هو لى وإنما أريد قتلك فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل فاستسلمت بين يديه وقلت إن رأيت أن تتركنى حتى أصلى ركعتين فقال عجل فقممت أصلى فأرتج على القرآن فلم يحضرنى منه حرف واحد فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول هيه أفرغ فأجرى الله على لسانى قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادى ويده حربة فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده فخر صريعاً فتعلقت بالفارس وقلت بالله من أنت ؟ فقال أنا رسول الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء. قال فاخذت البغل والحمل ورجعت سالماً.

وذكر فى ترجمة فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية قالت: هزم الكفار يوماً المسلمين فى غزاة فوقف جواد جيد بصاحبه وكان من ذوى اليسار ومن الصلحاء فقال للجواد مالك وملك إنما كنت أعدك لمثل هذا اليوم فقال له الجواد ومالى لا أقصر وأنت تكل علوفتى إلى السواس فيظلموننى ولا يطعموننى إلا القليل؟ فقال لك على عهد الله أنى لا أغلفك بعد هذا اليوم إلا فى حجرى فجرى الجواد عند ذلك ونجى صاحبه وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا فى حجره، واشتهر أمره بين الناس وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك وبلغ ملك الروم أمره فقال: ما تضام بلدة يكون هذا الرجل فيها، واحتال ليحصله فى بلدة فبعث إليه رجلاً من المرتدين عنده فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حسنت نيته فى الإسلام وقومه حتى استوثق ثم خرجا يوماً يمشيان على جنب الساحل وقد واعد شخصاً آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره فلما اكتنفاه ليأخذهما رفع طرفه إلى السماء ، وقال: اللهم إنه إنما خدعنى بك فاكفنيهما بما شئت، قال فخرج سبعان فأخذهما ورجع الرجل سالماً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أى يخلف قرناً لقرن قبلهم وخلفاً لسلف كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾.

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أى قوماً يخلف بعضهم بعضاً كما قدمنا تقريره وهكذا هذه الآية ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أى أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل وقوماً بعد قوم ولو شاء لأوجدتهم كلهم فى وقت واحد ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع فى وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ثم يكثرهم غاية الكثرة ويذراهم فى الأرض ويجعلهم قروناً بعد قرون وأماً بعد أمم حتى ينقضى الأجل وتفرغ البرية كما قدر ذلك تبارك وتعالى وكما أحصاهم وعدّهم عدداً ثم يقيم القيامة ويوفى كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ولهذا قال تعالى : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِذِكْرِ الْفَعْلِ﴾ أى يقدر على ذلك أو أإله مع الله يعبد؟ وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له ؟ ﴿فَلْيَلْأَمَّا تَذْكُرُونَ﴾ أى ما أقل تذكركم فيما يرشدكم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم . اهـ .

قال الشوكانى^(١) : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ هذا استدلال منه سبحانه بحاجة الإنسان إليه على العموم ، والمضطر اسم مفعول من الاضطرار ، وهو المكروب المجهود الذى لا حول له ولا قوة . وقيل : هو المذنب ، وقيل : هو الذى عراه ضر من فقر أو مرض ، فالجاء إلى التضرع إلى الله ، واللام فى ﴿المضطر﴾ للجنس لا للاستغراق ، فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين لما منع من ذلك بسبب يحدثه العبد يحول بينه وبين إجابة دعائه وإلا فقد ضمن الله سبحانه إجابة دعاء المضطر إذا دعاه ، وأخبر بذلك عن نفسه ، والوجه فى إجابته دعاء المضطر أن ذلك الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص وقطع النظر عما سوى الله ، وقد أخبر الله سبحانه بأنه يجيب دعاء المخلصين له الدين وإن كانوا كافرين فقال : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢) ، وقال : ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ

(١) فتح القدير (٤/ ١٤٢) .

(٢) يونس / ٢٢ .

(٣) العنكبوت / ٦٥ .

إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ» (٣) فاجابهم عند ضرورتهم وإخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون إلى شركهم «وَيَكْشِفُ السُّوءَ» أى الذى يسود العبد من غير تعيين، وقيل: هو الضر، وقيل: هو الجور «وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ» أى يخلف كل قرن منكم القرن الذى قبله بعد انقراضهم.

والمعنى: يهلك قرناً وينشيء آخرين. وقيل: يجعل أولادكم خلفاً منكم، وقيل: يجعل المسلمين خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم وديارهم «أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ» الذى يوليكم هذه النعم الجسام «قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ» أى تذكر أقل ما تذكرون. قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب وقرأ أبو عمرو وهشام ويعقوب بالتحية على الخبر رداً على قوله: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» واختار هذه القراءة أبو حاتم أهد.

قال السعدي (١): أى: هل يجيب المضطرب، الذى أقلقته الكروب، وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص، مما هو فيه، إلا الله وحده؟

ومن يكشف سوء، أى: البلاء، والشر، والنقمة، إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمه، وتكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سميتكم، ويأتى بقوم بعدكم، إله مع الله، يفعل هذه الأفعال؟

لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون. ولهذا كانوا إذا مسهم الضر، دعوا الله مخلصين له الدين لعلمهم أنه مقتدر على دفعه وإزالته.

«قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ» أى: قليل تذكركم وتدبركم للأمور، التى إذا تذكروها، أدركتم، ورجعتم إلى الهدى.

ولكن الغفلة والإعراض، شامل لكم، فلذلك ما ارعويتم، ولا اهتديتم. أهد.
مسائل متعلقة بالآية:

● المسألة الأولى:

قال الزمخشري (٢): (فإن قلت) ما الفرق بين أم وأم فى «أم ما تشركون» و«أمن خلق»؟ (قلت) تلك متصلة لأن المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة لما قال

(٢) الكشف (٣/١٤٨ ١٤٩).

(١) تيسير الكريم المنان (٣/٤٦٩).

الله تعالى الله أنه خير أم الآلهة؟ قال بل من خلق السموات والأرض خير، تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء.
وقرأ الأعمش أمن بالتخفيف ووجهه أن يجعل بدلاً من الله وتقديم مؤدى هذا المعنى وهذا الجواب من ابن عثيمين اهـ.

● المسألة الثانية:

قال الزمخشري^(١): الضرورة الحالة المحوجة إلى اللجأ.

والاضطرار افتعال منها. يقال: اضطره إلى كذا. والفاعل والمفعول مضطر. والمضطر: الذى أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجأ والتضرع إلى الله.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: هو المجهود.

وعن السدي: الذى لا حول له ولا قوة. قيل: المذنب إذا استغفر.

(فإن قلت) قد عم المضطرين بقوله يجيب المضطر إذا دعاه وكمن مضطر يدعوه فلا يجاب؟.

(قلت) الإجابة موقوفة على أن يكون المدعو به مصلحة؛ ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شرطاً فيه المصلحة، وأما المضطر فممتناول للجنس مطلقاً يصلح لكله ولبعضه فلا طريق إلى الجزم على أحدهما إلا بدليل، وقد قام الدليل على البعض، وهو الذى أجابته مصلحة فبطل تناول على العموم اهـ.

وذكر الرازي^(٢) قول الزمخشري وزاد:

فقال: (جوابه) قد بينا فى أصول الفقه أن المفرد المعروف لا يفيد العموم، وإنما يفيد الماهية فقط، والحكم المثبت للماهية يكفى فى صدقه ثبوته فى فرد واحد من أفراد الماهية وأيضاً فإنه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب فى الحال وتام القول فى شرائط الدعاء والإجابة مذكور فى قوله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

فأما قوله: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ فهو كالتفسير للاستجابة اهـ.

● المسألة الثالثة:

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾

(٢) التفسير الكبير (١٢/٢٤٩ - ٢١٠).

(١) الكشف (٣/١٤٨ - ١٤٩).

(٣) القول المفيد (١/٣٥٢ - ٣٥٣).

أى : يزيل السوء، والسوء: ما يسوء المرء، وهو دون الضرورة، لأنَّ الإنسان قد يُساء بما لا يضره، لكن كل ضرورة سوء.

وقوله: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ هل هى متعلّقة بما قبلها فى المعنى، وأنَّه إذا أجابه كشف سوءه، أو هى مستقلّة يجيب المضطر إذا دعاه ثمَّ أمر آخر يكشف السوء؟

الجواب: المعنى الأخير أعم، لأنها تشمل كشف سوء المضطر وغيره، ومن دعا الله ومن لم يدعه، وعلى التقدير الاول تكون خاصة بكشف سوء المضطر، ومعلوم أنَّه كلما كان المعنى أعم كان أولى، ويؤيد العموم قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾.

● المسألة الرابعة:

قال ابن عثيمين^(١): إشكال وجوابه: وهو أنَّ الإنسان المضطر يسأل غير الله ويُستجاب له، كمن اضطر إلى طعام وطلب من صاحب الطعام أن يعطيه فأعطاه، فهل يجوز أم لا؟

الجواب: إنَّ هذا جائز، لكن يجب أن نعتقد أن هذا مجرد سبب لا أنَّه مستقل، فالله جعل لكل شىء سبباً، فيمكن أن يصرف الله قلبه فلا يعطيك، ويمكن أن تأكل ولا تشبع فلا تزول ضرورتك، ويمكن أن يسخره الله ويعطيك.

● المسألة الخامسة:

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: ﴿أَلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾.

الاستفهام للإنكار، أو بمعنى النفى، وهما متقاربان، أى: هل أحد مع الله يفعل ذلك؟!

الجواب: لا، وإذا كان كذلك، فيجب أن تصرف العبادة لله وحده، وكذلك الدعاء، فالواجب على العبد أن يوجّه السؤال إلى الله تعالى، ولا يطلب من أحد أن يزيل ضرورته ويكشف سوءه وهو لا يستطيع.



ما جاء فى الآية من كلام شرّاح كتاب التوحيد:

قال : سليمان آل الشيخ^(٣): قوله: ﴿أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾

يقرر تعالى أنه الإله الواحد الذى لا شريك له، ولا معبود سواه مما يشترك فى معرفته المؤمن والكافر، لأن القلوب مفطورة على ذلك، فمتى جاء الاضطراب رجعت القلوب إلى الفطرة، وزال ما ينازعها، فالتجأت إليه وأنابت إليه وحده لا شريك له،

(٢) القول المفيد (١/٣٥٢٣٥٣).

(١) القول المفيد (١/٣٥٢/٣٥٣).

(٣) تيسير العزيز الحميد (١٧٦).

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوُونَ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّیُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ومثل هذا كثير في القرآن.

يبين تعالى أنه المدعو عند الشدائد، الكاشف للسوء وحده، فيكون هو المعبود وحده، وكذا قال في هذه الآية: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا﴾ أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه والذي لا يكشف ضرر المضطرين سواه ومن المعلوم أن المشركين كانوا يعلمون أنه لا يقدر على هذه الأمور إلا الله وحده، وإذا جاءتهم الشدائد أخلصوا الدعاء لله كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَاؤُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فتبين أن من اعتقد في غير الله أنه يكشف السوء أو يجيب دعوة المضطر، أو دعاء لذلك فقد أشرك شركاً أكبر من شرك العرب كما هو الواقع من عباد القبور.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): بين تعالى أن المشركين من العرب ونحوهم قد علم أنه لا يجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده، فذكر ذلك سبحانه محتجاً عليهم في اتخاذهم الشفعاء من دونه، ولهذا قال ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ يعني يفعل ذلك، فإذا كانت آلهتهم لا تحيهم في حال الاضطرار، فلا يصلح أن يجعلوها شركاء لله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وحده.

وهذا أصح ما فسر به الآية. اهـ.

وبنحو من هذا قول عبد الله بن جابر^(٢).

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾

الذين يجعلهم الله خلفاء الأرض هم عباد الله الصالحون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ .

قال القرعاوي^(٤): الفوائد:

(٢) الجامع الفريد (٦٢).

(٤) الجديد (١٣٢).

(١) فتح المجيد (١/ ٢٢٣ - ٢٢٤).

(٣) القول المفيد (١/ ٣٥٢ - ٣٥٣).

رَوَى الطَّبْرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ: النَّبِيُّ ﷺ إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ (١).

(١) الإخلاص في الدعاء سبب للاستجابة.

(٢) إثبات بركة الدعاء ونفعه.

(٣) أن الخير والشر مقدر من الله عز وجل.

(٤) الاستدلال على توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية.

(٥) إجابة الله لدعاء المضطر وكشف سوءه.

(٦) معرفة الله بالفطرة . اهـ.

قوله: [روى الطبراني بإسناده: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق... إلخ.

مناسبة الحديث للباب:

قال عبد الله بن جابر الله (٢): الشاهد من الحديث للباب : قوله : «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله» . اهـ.

قال ابن باز (٣): الشاهد أنه لا يستغاث بغير الله إلا فيما يقدر عليه الحي . اهـ.

قال القرعاوي (٤): حيث دلّ الحديث على تحريم الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله لذا تكون الاستغاثة عبادة وصرف العبادة لغير الله شرك.

قوله: «روى الطبراني»

قال الشيخ سليمان (٥): قوله: (روى الطبراني) هو الإمام الحافظ الثقة، سليمان ابن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها، روى عن النسائي وإسحاق بن إبراهيم الدبري وخلق كثير، ومات سنة ستين وثلاثمائة، وقد بيض المصنف لاسم الراوي، وكأنه والله أعلم نقله عن غيره أو كتيه من حفظه، والحديث عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه . اهـ.

(١) [ضعيف] أخرجه الطبراني كما في «جامع المسانيد لابن كثير» (٧/ ١٤٠/ ٤٩٠٤).

قال : حدثنا أحمد بن حماد بن زغبة المصري، حدثنا سعيد بن غفير حدثنا ابن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رياح، عن عبادة . . الحديث.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (١٥٩/ ١٠) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث. وقد رواه أحمد بغير هذا السياق وهو في الأدب في باب القيام. وأخرجه أحمد في مسند (٣١٧/ ٥) بغير هذا اللفظ كما قال الهيثمي من حديث عبادة بن الصامت. بلفظ: «.. فقال رسول الله ﷺ: «لا يقام لى إنما يقام لله تبارك وتعالى» . - وانظر «فتح المجيد» (ح ٢٩٢) بتخريجنا.

(٢) الجامع الفريد (٦٣) (٣) التعليق المفيد (٩٣).

(٤) الجديد (١٣٤) (٥) تيسير العزيز الحميد (١٧٧).

قوله: «بإسناده» :

قال ابن عثيمين^(١): يشير إلى أن هذا الإسناد ليس على شرط الصحيح، أو المتفق عليه بين الناس، بل هو إسناده الخاص، وعليه فيجب أن يُراجع هذا الإسناد، فليس كل إسناد محدث قد تمت فيه شروط القبول.

وذكر الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «إن رجاله رجال الصحيح، غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث، وابن لهيعة خلط في آخر عمره لاحتراق كتبه»، ولم يذكر المؤلف الصحابي، وفي الشرح هو عبادة بن الصامت رضى الله عنه.

قوله: «أنه كان في زمن النبي ﷺ»

قال ابن عثيمين^(٢): أي: عهده وكان الكافراً أولاً يعلن كفره ولا يُبالي، ولما قوى المسلمون بعد غزوة بدر خاف الكفار، فصاروا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

قوله: «منافق يؤذى المؤمنين»

قال سليمان آل الشيخ^(٣): هذا المنافق لم أقف على تسميته، ويحتمل أن يكون هو عبدالله بن أبي، فإنه معروف بالأذى للمؤمنين بالكلام في أعراضهم ونحو ذلك، أما أذاهم بنحو ضرب أو زجر فلا نعلم منافقاً بهذه الصفة.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «منافق» المنافق: هو الذى يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وهؤلاء ظهروا بعد غزوة بدر.

ولم يسم المنافق في هذا الحديث، فيحتمل أنه عبد الله بن أبي، لأنه مشهور بإيذاء المسلمين، ويحتمل غيره.

واعلم أن أذية المنافقين للمسلمين ليست بالضرب أو القتل، لأنهم يتظاهرون بمحبة المسلمين، ولكن بالقول والتعريض كما صنعوا في قصة الإفك.

قوله: «فقال بعضهم»

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قوله: فقال بعضهم: أى بعض المؤمنين، وهذا البعض القائل لذلك يحتمل أن يكون واحداً، وأن يكون جماعة، والظاهر أنه واحد، وأظن في بعض الروايات أنه أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

(٢) القول المفيد ١/ ٣٥٥.

(٤) القول المفيد ١/ ٣٥٥.

(١) القول المفيد ١/ ٣٥٥، ٣٥٤.

(٣) تيسير العزيز الحميد ١٧٧.

(٥) تيسير العزيز الحميد ١٧٧.

قال ابن عثيمين^(١): قوله «فقال بعضهم» أى الصحابة .

قوله: «قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله : (قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ). مرادهم الاستغاثة به فيما يقدر عليه بكف المنافق عن أذاهم، بنحو ضربه أو زجره، لا الاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله .

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «نستغيث» أى : نطلب الغوث وهو إزالة الشدة .

قوله: «من هذا المنافق».

قال ابن عثيمين^(٤): إما بزجره أو تعزيره أو بما يناسب، وفى الحديث إيجاز حذف دلّ عليه السياق، أي: فقاموا إلى رسول الله فقالوا: يا رسول الله ! إننا نستغيث بك من هذا المنافق .

قوله: «إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله».

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قال بعضهم : فيه التصريح بأنه لا يستغاث بالنبي ﷺ فى الأمور، وإنما يستغاث بالله، والظاهر أن مراده ﷺ إرشادهم إلى التأدب مع الله فى الألفاظ، لأن استغاثتهم به ﷺ من المنافق، من الأمور التى يقدر عليها، إما بزجره أو تعزيره ونحو ذلك فظهر أن المراد بذلك الإرشاد إلى حسن اللفظ والحماية منه ﷺ لجناب التوحيد، وتعظيم الله تبارك وتعالى .

فإذا كان هذا كلامه ﷺ فى الاستغاثة به فيما يقدر عليه، فكيف بالاستغاثة به أو بغيره فى الأمور المهمة التى لا يقدر عليها أحد إلا الله ؟ كما هو جاز على السنة كثير من الشعراء وغيرهم؟ وقل من يعرف أن ذلك منكر، فضلاً عن معرفة كونه شركاً .

فإن قلت: ما الجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾^(٦) فإن ظاهر الحديث المنع من إطلاق لفظ الاستغاثة على المخلوق فيما يقدر عليه، وظاهر الآية جوازه؟

قيل: تحمل الآية على الجواز، والحديث على الأدب، والأولى والله أعلم .

وقد تبين بما ذكر فى هذا الباب وشرحه من الآيات والأحاديث وأقوال العلماء أن دعاء الميت والغائب والحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله والاستغاثة بغير الله فى كشف

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٧٧ .

(٤) المصدر السابق .

(٦) القصص (١٥) .

(١) القول المفيد ١/ ٣٥٥ .

(٣) القول المفيد ١/ ٣٥٥ .

(٥) تيسير العزيز الحميد ١٧٧ .

الضرر أو تحويله، هو الشرك الأكبر، بل هو أكبر أنواع الشرك، لأن الدعاء مخ العبادة ، ولأن من خصائص الإلهية إفراد الله بسؤال ذلك، إذ معنى الإله هو الذى يعبد لأجل هذه الأمور، ولأن الداعى إنما يدعو إلهه عند انقطاع أمله مما سواه، وذلك هو خلاصة التوحيد، وهو انقطاع الأمل مما سوى الله، فمن صرف شيئاً من ذلك لغير الله ، فقد ساوى بينه وبين الله ، وذلك هو الشرك، ولهذا، يقول المشركون لآلهتهم وهم فى الجحيم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . اهـ.

قوله: (إنه لا يستغاث بي):

قال ابن باز^(١): يحتمل أمرين:

(الأول) أن النبي ﷺ لا يستطيع قتله، لأنه كان ممنوعاً من قتله ، لأجل أن لا يتحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه ، فامتنع من قتله .

(الثاني) يحتمل إن صح الخبر، أن قال سداً للذريعة وإن كان قادراً على التخلص منه، حتى لا تقع منهم هذه الكلمة فى أمور لا يقدر عليه . اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): ظاهر هذه الجملة النفى مطلقاً، ويحتمل أن المراد: لا يُستغاث به فى هذه القصة المعينة .

فعلى الأول: يكون نفى الاستغاثة من باب سد الذرائع والتأديب فى اللفظ، وليس من باب الحكم بالعموم، لأن نفى الاستغاثة بالرسول ﷺ ليس على إطلاقه ، بل تجوز الاستغاثة به فيما يقدر عليه .

أما إذا قلنا: إنَّ النفى عائد إلى القضية المعينة التى استغاثوا بالنبي ﷺ منها، فإنه يكون على الحقيقة، أي: على النفى الحقيقي، أي: لا يُستغاث به فى مثل هذه القضية، لأنَّ النبي ﷺ كان يعامل المنافقين معاملة المسلمين، ولا يمكنه حسب الحكم الظاهر للمنافقين أن يتنقم من هذا المنافق انتقاماً ظاهراً، إذ إنَّ المنافقين يستترون، وعلى هذا، فلا يستغاث للتخلص من المنافق إلا بالله .

● شبهات والرد عليها ●

قال سليمان آل الشيخ^(٣): ولكن لعباد القبور على هذا شبهات، ذكر المصنف كثيراً منها فى «كشف الشبهات» ونحن نذكر هنا ما لم يذكره .

فمن ذلك: أنهم احتجوا بحديث رواه الترمذى فى «جامعه» حيث قال:

(١) «التعليق المفيد» (٩٣) .

(٢) القول المفيد (١/٣٥٦) .

(٣) تيسير العزيز الحميد (١٧٨-١٨٢) .

حدثنا محمود بن غيلان ثنا عثمان بن عمرو، ثنا شعبة بن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضَرَبَ البَصَرَ أتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَنِي، قَالَ: «إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قَالَ: فَادْعُهُ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ، وَيُحْسِنَ وُضُوئَهُ، وَيَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ، وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِهِ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لَتُقْضَى، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ»^(١) قَالَ: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من رواية أبي جعفر، وهو غير الخطمي.

هكذا رواه الترمذى ورواه النسائى وابن شاهين والبيهقى كذلك.

وفى بعض الروايات «يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ» إلى آخره.

وهذه اللفظة هى التى تعلق بها المشركون، وليست عند هؤلاء الأئمة، قالوا: فلو كان دعاء غير الله شركاً لم يعلمَ النَّبِيُّ ﷺ الأعمى هذا الدعاء الذى فيه نداء غير الله؟.

والجواب من وجوه: الأول: أن هذا الحديث من أصله وإن صححه الترمذى فإن فى ثبوته نظراً، لأن الترمذى يتساهل فى التصحيح كالحاكم، لكن الترمذى أحسن نقداً، كما نص على ذلك الأئمة.

ووجه عدم ثبوته أنه قد نص أن أبا جعفر الذى عليه مدار هذا الحديث هو غير الخطمى، وإذا كان غيره، فهو لا يعرف، ولعل عمدة الترمذى فى تصحيحه أن شعبة لا يروى إلا عن ثقة، وهذا فيه نظر، فقد قال عاصم بن علي: سمعت شعبة يقول: لو لم أحدثكم إلا عن ثقة لم أحدثكم إلا عن ثلاثة. وفى نسخة عن ثلاثين، ذكره الحافظ العراقي، وهذا اعتراف منه بأنه يروى عن الثقة وغيره فينظر فى حاله، ويتوقف الاحتجاج به على ثبوت صحته(*).

الثانى: أنه فى غير محل النزاع، فأين طلب الأعمى من النَّبِيِّ ﷺ أن يدعو له، وتوجهه بدعائه مع حضوره، من دعاء الأموات والسجود لهم، ولقبورهم، والتوكل عليهم، والالتجاء إليهم فى الشدائد والنذر والذبح لهم، وخطابهم بالخواارج من الأمكنة البعيدة: يا سيدى يا مولاي افعلى بى كذا؟ فحديث الأعمى شيء ودعاء غير الله تعالى

(١) تقدم تخريجه

(*) تنبيه: تقدم فى الباب الخامس تفصيل التوسل والوسيلة، وفيه حديث الأعمى، حيث أنا عرضنا كلام أهل العلم فى الحكم على الحديث، وذكرنا تجويد الألبانى له، فانظره، وانظر أيضاً باب الشفاعة..

والاستغاثة به شيء آخر فليس في حديث الأعمى شيء غير أنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له، ويشفع له، فهو توسل بدعائه وشفاعته، ولهذا قال في آخره: «اللهم فشفعه في» فعلم أنه شفع له.

وفى رواية أنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له، فدل الحديث على أنه ﷺ شفع له بدعائه، وأن النبي ﷺ أمره هو أن يدعو الله ويسأله قبول شفاعته.

فهذا من أعظم الأدلة أن دعاء غير الله شرك، لأن النبي ﷺ أمره أن يسأل قبول شفاعته.

فدل على أن النبي ﷺ لا يدعي، ولأنه ﷺ لم يقدر على شفاعته إلا بدعاء الله له، فأين هذا من تلك الطوام.

والكلام إنما هو في سؤال الغائب أو سؤال المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، أما أن تأتي شخصاً يخاطبك فتسأله أن يدعو لك فلا إنكار في ذلك على ما في حديث الأعمى، فالحديث سواء كان صحيحاً أو لا، وسواء ثبت قوله فيه يا محمد أو لا، لا يدل على سؤال الغائب، ولا على سؤال المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله بوجه من وجوه الدلالات، ومن ادعى ذلك فهو مفتر على الله وعلى رسوله ﷺ، لأنه إن كان سأل النبي ﷺ نفسه، فهو لم يسأل منه إلا ما يقدر عليه، وهو أن يدعو له، وهذا لا إنكار فيه وإن كان توجه به من غير سؤال منه نفسه، فهو لم يسأل منه وإنما سأل من الله به.

وسواء كان متوجهاً بدعائه، كما هو نص أول الحديث وهو الصحيح، أو كان متوجهاً بذاته على قول ضعيف، فإن التوجه بذوات المخلوقين، والإقسام بهم على الله بدعة منكورة، لم تأت عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه، والتابعين لهم بإحسان ولا الأئمة الأربعة ونحوهم من أئمة الدين.

قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به.

وقال أبو يوسف: أكره بحق فلان، وبحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت، والمشعر الحرام.

وقال القدوري: المسألة بحق المخلوق لا تجوز، فلا يقول: أسألك بفلان أو بملائكتك أو أنبيائك ونحو ذلك، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق.

واختاره العز بن عبد السلام، إلا في حق النبي ﷺ خاصة إن ثبت الحديث، يشير إلى الحديث الأعمى، وقد تقدم أنه على تقدير ثبوته ليس فيه إلا أنه توسل بدعائه لا بذاته.

وقد ورد في ذلك حديث رواه الحاكم في «مستدركه» فأبعد النجعة^(١) من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه، رفع رأسه إلى العرش، فقال «أسألك بحق محمد إلا غفرت لي... الحديث»^(٢) وهو حديث ضعيف بل موضوع، لأنه مخالف للقرآن.

قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣) فهذا هو الذي قاله آدم.

قال الذهبي في هذا الحديث: أظنه موضوعاً، وعبد الرحمن بن زيد متفق على ضعفه، قال ابن معين: ليس حديثه بشيء.

الثالث: أن قوله: (يا محمد إني أتوجه) إلخ لم تثبت في أكثر الروايات، وبتقدير ثبوتها لا يدل على جواز دعاء غير الله، لأن هذا خطاب لحاضر معين يراه ويسمع كلامه، ولا إنكار في ذلك، فإن الحى يطلب منه الدعاء كما يطلب منه ما يقدر عليه، فأين هذا من دعاء الغائب والميت لو كان أهل البدع والشرك يعلمون؟!

واحتجوا أيضاً بحديث رواه أبو يعلى وابن السني في «عمل اليوم والليلة».

فقال ابن السني: حدثنا أبو يعلى ثنا الحسن بن عمرو بن شقيق ثنا معروف بن حسان ثنا أبو معاذ السمرقندي عن سعيد عن قتادة عن ابن بريدة عن أبيه .

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا انْقَلَبَتْ دَابَّةٌ أَحَدَكُمْ بِأَرْضٍ فَلْيَتَدَّ بِأَعْيَادِ اللَّهِ احْبِسُوا»^(٤) هكذا في كتاب ابن السني.

وفي «الجامع الصغير» «فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْأَرْضِ حَاضِرًا سَيَحْبِسُهُ عَلَيْكُمْ».

والجواب: أن هذا الحديث مداره على معروف بن حسان وهو أبو معاذ السمرقندي، فقوله في الأصل: ثنا أبو معاذ السمرقندي خطأ أظنه من الناسخ، قال ابن عدي: منكر الحديث، وقال الذهبي في الميزان: قال ابن عدي: منكر الحديث قد روى عن عمرو بن ذر نسخة طويلة كلها غير محفوظة.

(١) والنجعة: طلب الكلاء في موضعه.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٦١٥/٢) عن عمر به وصححه، وتعبه الذهبي في «التلخيص»

بقوله: بل موضوع، وعبد الرحمن وإيه.

(٣) سورة الأعراف الآية: ٢٣.

(٤) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٠٨).

وقال السيوطي: حديث ضعيف، وأقول بل هو باطل، إذ كيف يكون عند سعيد عن قتادة ثم يغيب عن أصحاب سعيد الحفاظ الأثبات مثل يحيى القطان، وإسماعيل بن علي، وأبي أسامة، وخالد بن الحارث، وأبي خالد الأحمر، وسفيان، وشعبة، وعبد الوارث، وابن المبارك والأنصاري، وغندر، وابن أبي عدي ونحوهم، حتى يأتي به هذا الشيخ المجهول المنكر الحديث، فهذا من أقوى الأدلة على وضعه، وبتقدير ثبوته لا دليل فيه، لأن هذا من دعاء الحاضر فيما يقدر عليه كما قال: «فإن لله في الأرض حاضراً سيخسبه عليكم».

واحتجوا أيضاً بحديث رواه الطبراني في «المعجم الكبير» فقال: حدثنا طاهر بن عيسى بن قيرس المصري ثنا أصبغ بن الفرج، ثنا ابن وهب عن أبي سعيد المكي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف: أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له فكان عثمان لا يلتفت إليه، ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا إليه ذلك، فقال له عثمان بن حنيف: انت الميضاة فتوصاً، ثم انت المسجد فصل فيه ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك ليقيضي لي حاجتي.. الحديث» (١).

والجواب من وجوه:

الأول: أن رواية طاهر بن عيسى ممن لا يعرف بالعدالة بل هو مجهول، قال: الذهبي: طاهر بن عيسى بن قيرس أبو الحسين المصري المؤدب عن سعيد بن أبي مريم ويحيى بن بكير، وأصبغ بن الفرج، وعنه الطبراني. توفي سنة اثنتين وتسعين ومائتين ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، فهو إذاً مجهول الحال لا يجوز الاحتجاج بخبره، لا سيما فيما يخالف نصوص الكتاب والسنة.

الثاني: قوله: عن أبي سعيد المكي أشد جهالة من الأول، فإن مشايخ ابن وهب المكيين معروفون كداود بن عبد الرحمن، وزمعة بن صالح، وابن عيينة، وطلحة بن عمرو الحضرمي، وابن جريج، وعمر بن قيس، ومسلم بن خالد الزنجي، وليس فيهم من يكنى أبا سعيد، فتبين أنه مجهول.

الثالث: إن قلنا بتقدير ثبوته فليس فيه دليل على دعاء الميت والغائب، غاية ما فيه أنه توجه به في دعائه، فأين هذا من دعاء الميت؟ فإن التوجه بالمخلوق سؤال به لا

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير». (٨٣١١/١٧/٩).

سؤال منه، والكلام إنما هو في سؤال المخلوق نفسه ودعائه والاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله، وكل أحد يفرق بين سؤال الشخص، وبين السؤال به، فإنه في السؤال به قد أخلص الدعاء لله ولكن توجه على الله بذاته أو بدعائه وأما في سؤاله نفسه ما لا يقدر عليه إلا الله فقد جعله شريكاً لله في عبادة الدعاء، فليس في حديث الأعمى، وحديث ابن حنيف هذا إلا إخلاص الدعاء لله كما هو صريح فيه، إلا قوله: يا محمد إني أتوجه بك، وهذا ليس فيه المخاطبة لميت فيما لا يقدر عليه، إنما فيه مخاطبته مستحضراً له في ذهنه كما يقول المصلى: السلام عليك أيها النبي، ورحمة الله وبركاته.

الرابع: أنهم زعموا أنه دليل على دعاء كل غائب وميت من الصالحين، فخرجوا عما فهموه من الحديث بفهمهم الفاسد إلى أنه دليل على دعاء كل غائب، وميت صالح، ولا دليل فيه أصلاً على دعاء الرسول ﷺ بعد موته ولا في حياته فيما لا يقدر عليه ثم لو كان فيه دليل على ذلك لم يكن فيه دليل على دعاء الغائب والميت مطلقاً، لأن هذا قياس مع وجود الفارق، وهو باطل بالإجماع، إذ ما ثبت للنبي ﷺ من الفضائل والكرامات لا يساويه فيه أحد، فلا يجوز قياس غيره عليه، وأيضاً فالقياس إنما يجوز للحاجة ولا حاجة إلى قياس غيره عليه، فبطل قياسهم بنفس مذهبهم، هذا غاية ما احتجوا به مما هو موجود في بعض الكتب المعروفة، وما سوى هذه الأحاديث الثلاثة فهو مما وضعوه بأنفسهم، كقولهم: «إذا أعيذكُم الأمور فعليكم بأصحاب القبور»^(١). وقولهم: «لو حسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه»^(٢). قال ابن القيم: وهو من وضع المشركين عباد الأوثان. أهـ.

قال الصنعاني: فإن قلت الاستغاثة قد ثبتت في الأحاديث. فإنه قد صح أن العباد يوم القيامة يستغيثون بآدم أبي البشر، ثم بإبراهيم، ثم بموسى ثم بيسى، ويتنهدون إلى محمد ﷺ، بعد اعتذار كل واحد من الأنبياء. فهذا دليل على الاستغاثة بغير الله ليست بمنكر.

قلت: هذا تلبيس. فإن الاستغاثة بالمخلوقين الأحياء فيما يقدرون عليه لا ينكرها أحد. وقد قال الله تعالى في قصة موسى مع الإسرائيليين والقبطي «فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ» وإما الكلام في استغاثة القبوريين وغيرهم بأوليائهم، وطلبهم منهم أموراً لا يقدر عليها إلا الله تعالى: من عافية المريض وغيرها. بل أعجب من هذا: أن القبوريين وغيرهم من الأحياء من أتباع من يعتقدون فيه: يجعلون له حصّة من الولد إن عاش، ويشترون منه الحمل في بطن أمه ليعيش، ويأتون بمنكرات ما بلغ إليها المشركون

(١) تقدم الكلام عليه.

(٢) ذكره السخاوي في «اللمع في الحسنة» (٨٨٣) وقال: قال ابن تيمية إنه كذاب ونحوه قول شيخنا أنه لا أصل له.

فيه مسائل

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثه من عطف العام على الخاص.

الأولون. ولقد أخبرني بعض من يتولى قبض ما ينذر القبريون لبعض أهل القبور أنه جاء إنسان بدراهم وحلية نساء، وقال هذه لسيده فلايريد صاحب القبر نصف مهر ابتي. لأنى زوجته وكنت ملكت نصفها فلانا - يريد صاحب القبر-.

وهذه التزور بالأموال، وجعل قسط للقبر، كما يجعلون شيئا من الزرع يسمونه «تلما» فى بعض الجهات اليمنية. وهذا شئ ما بلغ إليه عباد الأصنام وهو داخل تحت قول الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيًّا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ بلا شك ولا ريب.

نعم استغاثه العباد يوم القيامة وطلبهم من الأنبياء إنما يدعون الله تعالى ليفصل بين العباد بالحساب. حتى يريحهم من هول الموقف وهذا لاشك فى جوازه. أعنى طلب الدعاء الله تعالى من بعض عباده لبعض. بل قال ﷺ لعمر رضى الله عنه لما خرج معتمر «لاتنسنا يا أخى من دعائك»^(١) وأمرنا سبحانه أن ندعو للمؤمنين ونستغفر لهم فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ وقد قالت أم سليم رضى الله عنها «يا رسول الله خادمك أنس، أدع الله له»^(٢) وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يطلبون الدعاء عنه ﷺ وهو حى وهذا أمر متفق على جوازه والكلام فى طلب القبريين من الأموات أو من الأحياء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا أن يشفوا مرضاهم ويردوا غائبهم، وينفسوا عن جلاهم، وأن سقوا زرعهم، ويدروا ضروع مواشيهم ويحفظوها من العين، ونحو ذلك من المطالب التى لا يقدر عليها إلا الله - هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ فكيف يطلب الإنسان من الجماد أو من حى - الجماد خير منه - لأنه لا تكليف عليه^(٣).

قال ابن عثيمين^(٤): فيه مسائل:

● الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثه من عطف العام على الخاص

يعني: حيث قال فى الترجمة باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره، ووجه ذلك أن الاستغاثه طلب إزالة الشدة والدعاء طلب ذلك وغيره، إذا الاستغاثه نوع

(١) تقدم تخريجه وأنه ضعيف

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تطهير الاعتقاد (ص ٣٧: ٣٩).

(٤) القول المفيد ١/ ٣٥٧ - ٣٦٣.

الثانية: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

الثالثة: أَنَّ هَذَا هُوَ الشَّرْكُ الْأَكْبَرُ.

الرابعة: أَنَّ أَصْلَحَ النَّاسِ لَوْ فَعَلَهُ إِرْضَاءٌ لغيرِهِ، صَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ.

الخامسة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ - الَّتِي بَعْدَهَا.

من الدعاء، والدعاء أعم، فهو من باب عطف العام على الخاص، وهذا سائغ في اللغة العربية، فهو كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾.

● الثانية: تفسير قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ خاصة، بدليل الآيات التي قبلها، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

فإن قيل: كيف ينهاه الله عن أمر لا يمكن أن يقع منه شرعاً؟

أجيب: إنَّ الغرض هو التنديد بمن فعل ذلك، كأنه يقول: لا تسلك هذا الطريق التي سلكها أهل الضلال، وإن كان الرسول لا يمكن أن يقع منه ذلك شرعاً.

● الثالثة: أَنَّ هَذَا هُوَ الشَّرْكُ الْأَكْبَرُ.

يؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، مضافاً إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

[قلت]: وهذا يؤيد قول من قال: إن ألفاظ الكفر والشرك والظلم في القرآن غائية أى تحمل على الأكبر.

● الرابعة: أَنَّ أَصْلَحَ النَّاسِ لَوْ فَعَلَهُ إِرْضَاءٌ لغيرِهِ، صَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ.

تؤخذ من كون الخطاب للرسول ﷺ، وهو أصلح الناس، فلو فعل ذلك إرضاءً لغيره، صار من الظالمين، حتى ولو فعله مجاملة لإنسان مشرك، فدعا صاحب قبر إرضاءً لذلك المشرك، فإنه يكون مشركاً، إذ لا تجوز المحابة في دين الله. قلت: وفيه رد على من منع إطلاق الشرك أو الكفر على من دعا غير الله ممن يزعم الصلاح أو يزعمون فيه ذلك بدعوى صلاح أو ولايته بزعمهم!!

● الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ الآية، فإذا كان لا يكشف الضر إلا الله، وجب أن تكون العبادة له وحده والاستغاثة به وحده.

السادسة: كَوْنُ ذَلِكَ لَا يَنْتَفِعُ فِي الدُّنْيَا مَعَ كَوْنِهِ كُفْرًا.

السابعة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الثَّالِثَةِ.

الثامنة: أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ لَا يَنْبَغِي إِلَّا مِنْ اللَّهِ، كَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ لَا تُطْلَبُ إِلَّا مِنْهُ.

التاسعة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الرَّابِعَةِ .

العاشر: أَنَّهُ لَا أَضْلَ مِمَّنْ دَعَا غَيْرَ اللَّهِ.

● السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفرًا.

تؤخذ من قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ فلم ينفع من دعائه هذا ، فخرس الدنيا بذلك ، والآخرة بكفره.

[قلت]: وهذا الذي يعبد الله على حرف إن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة بسبب أنه يدعو مالا يضره ولا ينفعه بل ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبيس العشير.

● السابعة: تفسير الآية الثالثة.

وهي قوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾.

وقوله : ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ حال من الرزق ، وعليه يكون ابتغاء الرزق عند الله وحده.

● الثامنة: أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ لَا يَنْبَغِي إِلَّا مِنْ اللَّهِ ، كما أَنَّ الْجَنَّةَ لَا تُطْلَبُ إِلَّا مِنْهُ.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ، لأن العبادة سبب لدخول الجنة ، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

● التاسعة: تفسير الآية الرابعة:

وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

● العاشرة: أَنَّهُ لَا أَضْلَ مِمَّنْ دَعَا غَيْرَ اللَّهِ.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لأن الاستفهام هنا بمعنى النفي .

- الحادية عشرة: أَنَّهُ غَافِلٌ عَنِ دُعَاءِ الدَّاعِي لَا يَذَرِي عَنَّهُ.
- الثانية عشرة: أَنَّ تِلْكَ الدَّعْوَةَ سَبَبٌ لِبُغْضِ الْمَدْعُوِّ لِلدَّاعِي وَعَدَاوَتِهِ لَهُ.
- الثالثة عشرة: تَسْمِيَةُ تِلْكَ الدَّعْوَةِ عِبَادَةً لِلْمَدْعُوِّ.
- الرابعة عشرة: كُفْرُ الْمَدْعُوِّ بِتِلْكَ الْعِبَادَةِ.
- الخامسة عشرة: هِيَ سَبَبٌ كَوْنُهُ أَضَلَّ النَّاسَ.

- الحادية عشرة: أَنَّهُ غَافِلٌ عَنِ دُعَاءِ الدَّاعِي لَا يَذَرِي عَنْهُ.
- لِقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾.
- ﴿وَهُمْ﴾ أي: المدعوون، ﴿عَنْ دُعَائِهِمْ﴾، أى: دعاء الداعين، أو عن دعاء الداعين إياهم، فالاحتمال فى الضمير الثانى، وهو قوله: ﴿عَنْ دُعَائِهِمْ﴾ أمّا الضمير الأول، فإنه يعود إلى المدعوين لا ريب، وقد سبق بيانه بالتفصيل.
- الثانية عشرة: أَنَّ تِلْكَ الدَّعْوَةَ سَبَبٌ لِبُغْضِ الْمَدْعُوِّ لِلدَّاعِي وَعَدَاوَتِهِ لَهُ.
- تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَشَرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾
- الثالثة عشرة: تَسْمِيَةُ تِلْكَ الدَّعْوَةِ عِبَادَةً لِلْمَدْعُوِّ.
- تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾
- الرابعة عشرة: كُفْرُ الْمَدْعُوِّ بِتِلْكَ الْعِبَادَةِ.
- معنى كفر المدعو: رده وإنكاره، فإذا كان يوم القيامة تبرأ منه وأنكره.
- تؤخذ من قوله: ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾
- الخامسة عشرة: هِيَ سَبَبٌ كَوْنُهُ أَضَلَّ النَّاسَ.
- وذلك لأمر، هى:
- ١- أنه يدعو من دون الله من لا يستجيب له.
 - ٢- أن المدعوين غافلون عن دعائهم.
 - ٣- أنه إذا حشر الناس كانوا له أعداء.
 - ٤- أنه كافر بعبادتهم.

السادسة عشرة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الْخَامِسَةِ.

السابعة عشرة: الْأَمْرُ الْعَجِيبُ، وَهُوَ إِقْرَارُ عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ أَنَّهُ لَا يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِلَّا اللَّهَ، وَلَا جُلْ هَذَا يَدْعُوهُ فِي الشَّدَائِدِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.

الثامنة عشرة: حِمَايَةُ الْمُصْطَفَى ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ وَالتَّأْدَبِ مَعَ اللَّهِ.

● السادسة عشرة : تفسير الآية الخامسة.

وهي قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ وقد سبق ذلك .

● السابعة عشرة : الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله.. إلخ.

و هو كما قال رحمه الله : وهذا موجود الآن؛ فمن الناس من يسجد للأصنام التي صنعوها بأنفسهم تعظيماً، فإذا وقعوا في الشدة دعوا الله مخلصين له الدين، وكان عليهم أن يلجؤوا للأصنام لو كانت عبادتها حقاً إلا أن من المشركين اليوم من هو أشدّ شركاً من المشركين السابقين، فإذا وقعوا في الشدة دعوا أولياءهم؛ كعلیّ والحسين، وإذا كان الأمر سهلاً دعوا الله، وإذا حلفوا حلفاً هم فيه صادقون حلفوا بعلیّ أو غيره من أوليائهم، وإذا حلفوا حلفاً هم فيه كاذبون حلفوا بالله ولم يبالوا.

[قلت]: قال الصنعاني^(١): بل إذا حلف من عليه حق باسم الله تعالى لم يقبلوا منه فإذا حلف باسم ولي من أوليائهم قبلوه وصدقوه وهكذا كان عباد الأصنام. ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

قال حامد الفقي: وهم يحكون في ذلك حكايات اختلقوها أن حالفاً حلف بالولي كاذباً أنه ما سرق سمكة، فما كاد ينتهي من حلفه حتى تصرف الولي فيه وأخرجها من بطنه وأمثال هذا كثير عند سدنة هذه الأوثان، يخلقونها، ويذيعونها في العامة ترويحاً لتجارتهن الخاسرة قبحهم الله أه.

● الثامنة عشرة : حماية المصطفى حمى التوحيد، والتأدب مع الله.

اختار المؤلف أن قوله : «لايستغاث بى» من باب التأدب بالألفاظ والبعد عن التعلق بغير الله، وأن يكون تعلق الإنسان دائماً بالله وحده؛ فهو يعلم الأمة أن تلجأ إلى الله وحده إذا وقعت في الشدائد، ولا تستغيث إلا به وحده. اهـ



(١) تطهير الاعتقاد (٤٠، ٤١).

(١٤) بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿أَيُّشْرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾^(١)

- الثناء على الترجمة:

تأسى المصنف فى هذا التبويب بطريقة العلماء الراسخين من السلف الصالحين كالبخارى وغيره، إذ يؤثر عنهم الاكتفاء فى التبويب بالآية أو الحديث أو ببعضهما.

- المراد من الباب ومناسبته لما قبله:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): المراد من هذه الترجمة بيان حال المدعويين من دون الله أنهم لا يتفعلون ولا يضررون وسواء فى ذلك الملائكة والأنبياء والصالحون والأصنام، فكل من دعى من دون الله فهذا حاله كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾^(٣). أهـ

قال حامد بن محمد^(٤): باب بيان ما يدل من الدلائل والبراهين الساطعة على معنى قوله ﴿أَيُّشْرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ الآية أهـ.

وقال ناصر السعدى^(٥): هذا شروع فى براهين التوحيد وأدلتها؛ فالتوحيد له من البراهين النقليّة والعقليّة ما ليس لغيره.

قال ابن عثيمين^(٦): لما ذكر رحمه الله الاستعاذة والاستغاثة بغير الله عزوجل ذكر البراهين الدالة على بطلان عبادة ما سوى الله، ولهذا جعل الترجمة لهذا الباب نفس الدليل.

قال الفقير: ولمناسبة أخرى وهى بيان مدى عجبه الشديد من صنيع هؤلاء المشركين حيث تعلقوا بخيط العنكبوت، فكأن الترجمة الماضية كانت لبيان حال الداعى والعجب من ضلاله فالأعجب والأبين للضلال أن يبين حال المدعويين من دون الله، فوضع هذه الترجمة بعد هذه. والله أعلم.

● الخلاصة:

فالمناسبة باختصار لأمرين

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٨٢، ١٨٣

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٢٤٨).

(٦) القول المفيد ١/ ٣٦٤.

(١) الأعراف: ١٩١/١٩٢.

(٣) الحج: ٧٣/٧٤.

(٥) القول السديد ٥٣.

﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ (١)

الأول: أنه لما بين حال الداعي لغير الله وأنه ليس هناك أضل منه فناسب أن يذكر حال المدعو، وأنه ما يملك لنفسه من قَطْمِير.

الثاني: لبيان العجب والدهشة من هذا حاله.

وهذا أوان الشروع في الموضوع.

قوله تعالى ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ...﴾ الآية

- مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٢): حيث دلت الآية على أن التوجه إلى غير الله لطلب النفع أو

دفع الضر شرك. أ.هـ

قوله: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾.

- الإعراب (٣):

﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (الهمزة) للاستفهام الإنكارى،

(ويشركون) فعل مضارع، والواو فاعل، و(ما) مفعول به، وجملة (لا يخلق) صلة الموصول، و(الواو) حالية، و(هم) مبتدأ، وجملة (يخلقون) بالبناء للمجهول خبر «هم»، و(الواو) نائب فاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتوبيخهم على ما اقترفوه. وهذا الضمير يعود على الأصنام المعبر بـ «ما»، وعبر عنها بـ «ما» لاعتقاد الكفار فيها ما يعتقدونه فى العقلاء، ويجوز أن يعود على الكفار، أى: وهم مخلوقون لله، فلوا تفكروا فى ذلك لآمنوا.

● تفسير الآية بما جاء عن التابعين

عن الحسن فى الآية قال: هذا فى الكفار، يدعون الله فإذا آتاهما صالحاً هوداً ونصراً قال ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يقول: يطيعون ما لا يخلق شيئاً وهى الشياطين لا تخلق شيئاً وهى تخلق ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ يقول: لمن يدعوهم.

- قوله: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

● أقوال أهل التفسير

- قال ابن جرير (٥): يقول تعالى ذكره: أشركون فى عبادة الله، ويعبدون معهم

﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ والله يخلقها وينشئها، وإنما العبادة الخالصة للخالق، لا للمخلوق.

(١) الأعراف/ ١٩١، ١٩٢. (٢) الجديد (١٣٦).

(٣) إعراب القرآن (٥٠٩/٣).

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦٢٧/٣) ونسبه لعبد بن حميد، وأبى الشيخ.

(٥) تفسير الطبرى (١٠٢/٩/٦).

ثم ذكر بسنده عن ابن زيد قال: وَلَدَ لآدَمَ وَحَوَاءَ وَلَدَ فِسمِيَاهُ عَبْدِ اللَّهِ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ فَقَالَ مَاسْمِيَتُمَا يَا آدَمَ وَيَا حَوَاءَ ابْنَكُمَا؟ قَالَ: وَكَانَ وَلَدُهُمَا قَبْلَ ذَلِكَ وَلَدَ فِسمِيَاهُ عَبْدِ اللَّهِ فَمَاتَ: فَقَالَا: سَمِيَنَاهُ عَبْدَ اللَّهِ. فَقَالَ إِبْلِيسُ: أَتُظَنُّانِ أَنَّ اللَّهَ تَارَكَ عِبْدَهُ عِنْدَكُمَا لَا وَاللَّهِ لِيَذْهَبَنَّ بِهِ كَمَا ذَهَبَ بِالْآخِرِ!! لَكِنْ أَدْلَكُمَا عَلَى اسْمٍ يَبْقَى لَكُمَا مَا بَقِيَ تَمَا فِسمِيَاهُ عَبْدُ شَمْسٍ (١).

قال فذلك قول الله تبارك وتعالى ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ الشمس تخلق شيئاً حتى يكون لها عبد!! إنما هي مخلوقة وقد قال رسول الله ﷺ خدعهما مرتين خدعهما في الجنة وخدعهما في الأرض.

وقيل ﴿وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ فأخرج مكنيهم مخرج مكنى بنى آدم وقد قال ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا﴾ فأخرج ذكرهم ب (ما) لا ب (من) مخرج الخبر عن غير بنى آدم؛ لأن الذى كانوا يعبدونه إنما كان حجراً أو خشباً أو نحاساً أو بعض الأشياء التى يخبر عنها ب (ما) لا ب (من) فقليل لذلك (ما) ثم قيل و(هم) فأخرجت كنياتهم مخرج كناية بنى آدم لأن الخبر عنها بتعظيم المشركين إياها نظير الخبر عن تعظيم الناس بعضهم بعضاً أهـ.

- قال البغوى (٢): قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ يعنى: إبليس والأصنام ﴿وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أى هم مخلوقون أهـ

- قال الزمخشري (٣): أجريت الأصنام مجرى أولى العلم فى قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ بناء على اعتقادهم فيها، وتسميتهم إياها آلهة.

والمعنى: أشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله ﴿وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ لأن الله عز وجل خالقهم، أولاً يقدر على اختلاق شيء؛ لأنه جماد وهم يخلقون؛ لأن عبدتهم يخلقونهم فهم أعجز من عبدتهم أهـ.

- وقال ابن الجوزى (٤) بعد أن ذكر أثر ابن زيد المتقدم: وقال غيره: هذا راجع إلى الكفار حيث أشركوا بالله الأصنام وهى لا تخلق شيئاً. ﴿وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أى وهى مخلوقة، أهـ.

وقال الفخر الرازى (٥) رداً على قول ابن زيد، ومن وافقه، ومتتصراً للقول الثانى - أى المقصود بها الأصنام -

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وابن أبى حاتم فى تفسيره (١٦٣٥/٥).

(٢) الكشاف (١٠٩/٢ - ١١٠).

(٣) معالم التنزيل (٥٨٣/٢).

(٤) التفسير الكبير (٩٤/١٥/٨).

(٥) زاد المسير (٢٣٢/٣).

اعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على أنه ليس المراد بقوله: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ ما ذكره من قصة إبليس إذ لو كان المراد ذلك لكانت هذه الآية أجنبية عنها بالكلية. وكان ذلك غاية الفساد في النظم والترتيب، بل المراد ما ذكرناه في سائر الأجوبة من أن المقصود من الآية السابقة الرد على عبدة الأوثان. اهـ.

ثم قال: المقصود هذه من الآية إقامة الحجة على أن الأوثان لا تصلح للالهية تقوله ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ معناه أيصدون مالا يقدر على أن يخلق شيئاً وهم يخلقون أى وهم مخلقون يعنى الأصنام. اهـ.

وقال القرطبي^(١): قوله: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ أى أيعبدون مالا يقدر على خلق شيء. اهـ ثم ذكر بنحو من كلام الزمخشري وابن الجوزي والرازي من أن الأصنام أجريت مجرى الناس.

قال ابن كثير^(٢): هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان وهى مخلوقة لله مربية مصنوعة لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ولا تبصر ولا تنتصر لعباديتها بل هى جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم ولهذا قال: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أى أشركون به من المعبودات مالا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أى بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿تَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ﴾ الآية.

قال الشوكاني^(٣): الاستفهام فى ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ للتفريع والتوبيخ أى كيف يجعلون لله شريكاً، لا يخلق شيئاً، ولا يقدر على نفع لهم ولا دفع عنهم. اهـ.

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٢٧٧٧). (٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٦).

(٣) فتح القدير (٢/ ٢٩٠).

وقال صاحب الظلال^(١): لما كان هذا هو اتجاه السياق القرآني، فإنه يستقل من القصة ومن أسلوب الحكاية في الفقرة السابقة إلى مواجهة مشركي العرب وإلى أسلوب الخطاب انتقالاً مباشراً، كأنه امتداد للحديث السابق عليه عن تلك الآلهة.

إن صيغة التعبير القرآنية توحى بأنه كان يعني كذلك تقريرهم على اتخاذ آلهة من البشر، فهذه الواو والنون «أَيُشْرِكُونَ» تشير إلى أن من بين هذه الآلهة على الأقل بشراً من العقلاء الذين يعبر عنهم بضمير العاقل.

وما علمنا أن العرب في وثنيهم كانوا يشركون بآلهة من البشر بمعنى أنهم يعتقدون بآلهتهم أو يقدم الشعائر التعبدية لهم، إنما هم كانوا يشركون بأمثال هؤلاء من ناحية أنهم يتلقون منهم الشرائع الاجتماعية، والأحكام والنزاعات. وأن القرآن يعبر عن هذا الشرك، ويسوى بينه وبين شركهم الآخر بالأوثان والأصنام سواء.

وهذا هو الاعتبار الإسلامي لهذا اللون من الشرك فهو شرك كشرك الاعتقاد والشعائر لافرق بينه وبينه أهـ.

قلت: بل قد يكون أنزلهم القرآن منزلة العقلاء باعتبار معتقد أهل الجاهلية فيهم وباعتبار معاملتهم لهم وهذا كما تقدم أقوى حجة لا أنه خاطبهم لأنهم بشراً أو من بيتهم بل كانوا أصناماً كذلك قال تعالى: «مَا لَا يَخْلُقُ» وهي لغير العاقل ولم يعبر بمن كما تقدم وهذا كما قال شيخ الإسلام في مقدمة التفسير خطأ في الدليل لا في المدلول فالذي ذهب إليه صاحب الظلال صحيح وهو المدلول لكن الآية لا تدل عليه لكنه - رحمه الله وكانت هذه القضية في ذهنة وهو يريد أن يوجه كل آية إليها ولو اكتفى بالأدلة المصرحة عليها لأغنت وكفت ووقت والله أعلم.

* كلام سُراح كتاب التوحيد في الآية:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): فحاصل كلام المفسرين على الآية المترجم لها أن قوله تعالى «أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ» توبيخ وتعنيف للمشركين بأنهم يعبدون مع الله تعالى عبادة لا تخلق شيئاً وليس فيها ما تستحق به العبادة من الخلق والرزق والنصر لأنفسهم أو لمن عبدتهم وهم مع ذلك مخلوقون محدثون ولهم خالق خلقهم وإن خرج الكلام مخرج الاستفهام، فالمراد به ما ذكرناه.

قال حامد بن محمد^(٣): يخبر تعالى عن فساد عقول المشركين وضلالهم وعمى

(١) الظلال (٣/ ١٤١٤). (٢) تيسير العزيز الحميد (١٨٣)

(٣) فتح الله الحميد المجيد (٢٤٨ - ٢٤٩)

بصائرهم منبهاً على ذلك بالاستفهام الإنكارى أيشركون بالله الذى تفرد بالملك، والحمد، والخلق، والأمر، والعز، والبقاء، والربوبية، والقيومية، والقهر، والتدبير، والإحياء، والإماتة، والعطاء، والمنع، والنفع، والضرر، بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، يفعل ما يشاء ويختار، لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، لو أن الخلق أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئاً ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم قاموا فى صعيد واحد وسألوه فأعطى كل إنسان مسأله ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر، سبحانه وتعالى بائن عن خلقه غنى عما سواه لن يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، قادر على كل شيء عليم بكل شيء ما فوق العرش وتحت العرش فى العلم عنده سواء، بصير يرى ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون سبحانه وتعالى عما يشركون أيشركون خلقاً ما أو يشركون به مخلوقاً من ماء مهين مدبراً فى الرحم من حال إلى حال نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم يكسو العظام لحماً ثم ينفخ فيه ويرزق من دم الخيض غذاء وشراباً إلى حد معلوم عنده ثم أخرجه متولثاً بما تكرهه النفوس فيعطف الله عليه الأبوين ويشفقهما عليه فيريانه بأمر الله وهو يتقلب فى القاذورات ويرضع ثدى أمه إلى حولين لمن أراد أن يتم الرضاعة ثم يخلق له أسناناً نوعين نوع للقطع ونوع للمضغ والطحن وخلق له كل شيء من النعم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ (١). ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (٢) فالإنسان مدبر مقهور لولا فضل الله ورحمته لكان من الهالكين لا يعلم مصالح نفسه ولا مفاسدها، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣). يقبله يميناً وشمالاً وهو لا يشعر لو يأتية أدنى مصيبة من المصائب عجز عن دفعها ورفعها، ضعيف نحيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا يملك فى الكون مثقال ذرة ملكاً حقيقياً ولا نقيراً ولا قطميراً ولا فتياً، فمن كان هذا حاله فكيف يتصور أنه ينفع أو يضر أو يعطى أو يمنع أو يخذل أو يعز أو يذل أو يقدر على أمر من الأمور الكونية، وقد قال الله لأفضل الخلق أجمعين وسيد الأنبياء والمرسلين وحبيبه وصفوته من خلقه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٤).

(١) إبراهيم (٣٤). (٢) النحل (٥٣). (٣) البقرة (٢١٦). (٤) آل عمران (١٢٨).

وبنحوه قال عبدالله بن جابر الله (١)، وابن باز وزاد (٢):

وفى هذه الآية صفات هؤلاء المعبردين من دون الله وهى أربعة:

الأول: أنهم لا يخلقون شيئاً.

الثانى: أنهم مخلوقون مربوبون.

قال ابن عثيمين (٣): هنا عبر بـ ﴿مَا﴾ دون «من»، وفى قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ عبر بـ ﴿مِنْ﴾. أهر تقدم قول المفسرين فيها، وتابعهم هنا ابن عثيمين حيث قال:

والمناسبة ظاهرة؛ لأنَّ الداعين هناك نزلوهم منزلة العاقل، أما هنا؛ فالمدعو جماد؛ لأنَّ الذى لا يخلق شيئاً ولا يصنعه جماد لا يفيد.
قوله: ﴿شَيْئاً﴾.

نكرة فى سياق النفى؛ فتفيد العموم.

وصف هذه الأصنام بالعجز والنقص.

والربّ المعبود لا يمكن أن يكون مخلوقاً، بل هو الخالق؛ فلا يجوز عليه الحدوث ولا الفناء.

والمخلوق: حادث، والحادث يجوز عليه العدم؛ لأنَّ ما جاز انعدامه أولاً؛ جاز عقلاً انعدامه آخراً.

فكيف يُعبد هؤلاء من دون الله؛ إذ المخلوق هو بنفسه مفتقر إلى خالقه وهو حادث بعد أن لم يكن؛ فهو ناقص فى إيجادهِ وبقائه؟!

- إشكال وجوابه:

قال ابن عثيمين: قوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ الضمير بالافراد، وقوله ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ الضمير بالجمع؛ فما الجواب؟. أهر.

(١) الجامع الفريد (٦٤).

(٢) التعليق المفيد (٩٥).

(٣) القول المفيد (٢/ ٢٦٥).

- قال ابن الجوزي^(١): وقوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أى: وهى مخلوقة. قال ابن الأنبارى: وإنما قال: «ما» ثم قال: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأن «ما» تقع على الواحد والاثنين والجميع؛ وإنما قال: «وهم» وهو يعنى الأصنام، لأن عابديها ادّعوا أنها تعقل وتميز، فأجريت مجرى الناس، فهو كقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(٢)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾^(٣)، وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٤).

قال الرزاي^(٥): فإن قيل: كيف وحد «يُخْلَقُ» ثم جمع فقال «وَهُمْ يُخْلَقُونَ» وأيضا فكيف ذكر الواو والنون فى جمع غير الناس؟

والجواب عن الأول: أن لفظة «ما» تقع على الواحد والاثنين والجمع، فهذه من صيغ الوجدان بحسب ظاهر لفظها. ومحملة للجمع فالله تعالى اعتبر الجهتين فوحد قوله «يُخْلَقُ» رعاية لحكم ظاهر اللفظ وجمع قوله «وَهُمْ يُخْلَقُونَ» رعاية لجانب المعنى.

والجواب عن الثانى: وهو أن الجمع بالواو والنون فى غير من يعقل كيف يجوز؟ فنقول: لما اعتقد عابدها أنها تعقل وتميز فوردوا هذا اللفظ بناء على ما يعتقدونه ويتصورنه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وقوله «وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» وقوله «يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ».

قال القرطبي^(٦): وقال «يُخْلَقُونَ» بالواو والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع، فأجريت مجرى الناس؛ كقوله: ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وقوله: «يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ».

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

(١) زاد المسير ٢٣٢/٣.

(٢) يوسف: ٤.

(٣) النحل: ١٨.

(٤) يس: ٤٠.

(٥) التفسير الكبير ٩٥/١٥/٨.

(٦) تفسير القرطبي ٢٧٧٧/٤.

الإعراب^(١): ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ الجملة معطوفة على سابقتها، وأنفسهم مفعول به مقدم لينصرون.

● أقوال المفسرين.

قال الطبري^(٢): يقول تعالى ذكره أيشرك هؤلاء المشرك في عبادة الله مالا يخلق شيئاً من خلق الله ولا يستطيع أن ينصرهم أن أراد الله بهم سوءاً أو أحل بهم عقوبة ولا هو قادر إن أراد به سوءاً نصر نفسه ولادفع ضرر عنها وإنما العابد يعبد ما يعبد لا اجتلاب نفع منه أو لدفع ضرر منه عن نفسه وآلهتهم التي يعبدونها ويشركونها في عبادة الله لا تنفعهم ولا تنصرهم بل لا تجتلب إلى نفسها نفعاً ولا تدفع عنها ضرراً فهي من نفع غير أنفسها أو دفع الضرر عنها أبعد يعجب تبارك وتعالى خلقه من عظيم خطأ هؤلاء الذين يشركون في عبادتهم الله غيره.

قال البغوي^(٣) قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ الأصنام، أى لا تنصر من أطاعها.

قوله: ﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ قال الحسن: لا يدفعون عن أنفسهم مكروه من أراد بهم بكسر أو نحوه.

قال الزمخشري^(٤): ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ لعبدتهم ﴿نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم ويحامون عليهم أهد.

وقال ابن الجوزي^(٥) بنحو من ذلك.

وقال الفخر الرازي^(٦): والنصر: المعونة على العدو والمعنى أن المعبود يجب أن يكون قادراً على إيصال النفع ودفع الضرر وهذه الأصنام ليست كذلك. فكيف يليق بالعاقل عبادتها؟

(١) إعراب القرآن (٣/٥٠٦).

(٢) تفسير الطبري (٦/١٩/١٠٢).

(٣) معالم التنزيل (٢/٥٨٤).

(٤) الكشف (٢/١١٠).

(٥) زاد المسير (٣/٢٣٢).

(٦) التفسير الكبير (٨/١٥/٩٥).

ثم قال: ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أى ولا يدفعون عن أنفسهم مكروهاً فإن من أراد كسرهم لم يقدروا على دفعه أهـ.

قال القرطبي^(١): بنحو ما تقدم أن الأصنام لا تنصر ولا تنتصر.

قال ابن كثير^(٢): قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أى لعابديهم ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعنى ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهنيها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه فى قوله: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فكانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ويرتوا لأنفسهم فكان لعمر بن الجموح وكان سيداً فى قومه صنم يعبد ويطيبه فكانا يجيئان فى الليل فينكسانه على رأسه ويلطخاناه بالعذرة فيجىء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه أيضاً حتى أخذه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه فى حبل فى بئر هناك، فلما جاء عمرو ابن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تالله لو كنت إلهاً مستدان لم تك والكلب جميعاً فى قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيداً رضى الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه^(٣). أهـ

وقال الشوكانى^(٤): من عجز عن نصر نفسه، فهو عن نصر غيره أعجز أهـ.

ما جاء فى الآية من كلام شرّاح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٥): وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أى ويشركون به، ويعبدون من هذه حاله لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه بأن يدفع عن نفسه من أراد به الضرر، ومن هذه حاله فهو فى غاية العجز، فكيف

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٧٧٧). (٢) ابن كثير (٢/٢٦٦). (٣) فتح القدير (٢/٢٩٠).

(٤) انظر القصة فى «أسد الغاية» (٤/٢٠٧) عن ابن إسحاق. (٥) تيسير العزيز الحميد ١٨٣.

يكون إلهاً معبوداً، وجميع الأنبياء والملائكة والصالحين وغيرهم داخلون في هذه الأوصاف، فلا يقدر أحد منهم أن يخلق شيئاً ولا يستطيعون لمن عبدهم نصراً ولا ينصرون أنفسهم، وإذا كان كذلك بطلت دعوتهم من دون الله. أ هـ
قال الفقير: ويستدل له بقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

- وينحو ذلك قال عبدالرحمن آل الشيخ، وعبدالله بن جار الله، وابن باز^(١) وقد زاد: أن من صفات هؤلاء المعبودين من دون الله أنهم لا يستطيعون لهم نصراً. إنهم لا ينصرون أنفسهم أ هـ.

وقال ابن عثيمين^(٢): قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أى: لا يقدرّون على نصرهم لو هاجمهم عدو؛ لأن هؤلاء المعبودين قاصرون.
والنصر: الدفع عن المخدول بحيث ينتصر على عدوه.
قوله: ﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾.

بنصب أنفسهم على أنه مفعول مقدّم، وليس من باب الاشتغال؛ لأن العامل لم يشغل بضمير السابق.

أى: زيادة على ذلك هم عاجزون عن الانتصار لأنفسهم؛ فكيف ينصرون غيرهم؟!
فبين الله عجز هذه الأصنام، وأنها لا تصلح أن تكون معبودة من أربعة وجوه، هى:
١- أنها لا تخلق، ومن لا يخلق لا يستحق أن يُعبد.

٢- أنهم مخلوقون من العدم؛ فهم مفتقرون إلى غيرهم ابتداءً ودواماً.

٣- أنهم لا يستطيعون نصر الداعين لهم، وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أبلغ من قوله: ﴿لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾؛ لأنه لو قال: ﴿لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾؛ فقد يقول قائل: لكنهم يستطيعون، لكن لما قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ كان أبلغ لظهور عجزهم.

٤- أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم. أ هـ.

وقال القرعاوى^(٣): فوائد من الآية:-

(١) بيان جهل المشركين.

(٢) إثبات عجز المعبودين غير الله، وعدم صلاحيتهم للعبادة بالدليل العقلى. أ هـ



(٢) القول المفيد ١/ ٣٦٦.

(١) التعليق المفيد (٩٥).

(٣) الجديد (١٣٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ (١)

مناسبة الآية للباب:

قال عبدالله بن جابر الله (٢): مناسبة الآية للباب أنها دلت على أن دعاء غير الله شرك ينافي التوحيد أهـ.

قال ابن عثيمين (٣): إن الله صرح بأن المدعوين من دون الله لا يسمعون دعاء من يدعوهم، فلا يمكن أن نقول إنهم يسمعون دعاء من يدعوهم، لأن هذا كفر بالقرآن أهـ.

قال القرعاوي (٤): حيث دلت الآية على نفى النفع والقدرة عن المعبودين دون الله أهـ.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوي: حيث دلت الآية على أن دعاء غير الله شرك أهـ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

● الإعراب: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (الواو) حالية أو استئنافية والذين مبتدأ وجملة (تدعون) صلة و(من دونه) حال و(ما) نافية و(يملكون) فعل مضارع وفاعل وجملة ما يملكون خبر الذين و(من) حرف جر زائد أهـ.

قال ابن عثيمين: وقيل لا ينبغي أن يقال: حرف جر زائد في القرآن. بل يقال: من حرف صلة. وهذا فيه نظر لأن الحروف الزائدة لها معنى، وهو التوكيد. وإنما يقال: زائد من حيث الإعراب أهـ.

وقطمير مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه مفعول به (٥).

● ما جاء في تفسير الآية من الآثار الموقوفة والمقطوعة.

عن ابن عباس في قوله ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ قال: القطمير القشر، وفي لفظ الجلد الذي يكون على ظهر النواة (٦).

(٢) الجامع الفريد (١٣٢).

(٤) الجديد (١٣٨).

(١) فاطر (١٣).

(٣) القول المفيد (١/ ٣٧٠).

(٥) إعراب القرآن (١٣٦/ ٨ - ١٣٧).

(٦) (ضعيف) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٤/ ٣ - ١٥) ونسبه لسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

فانظر الأخير بتخريجنا

وانظر «فتح القدير» (١٠٥٣٦ - بتخريجنا) «وفتح المجيد» (ح ٢٩٥) بتخريجنا.

عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله ﴿مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ قال: الجلدة البيضاء التي على النواة قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت أمية بن أبي الصلت وهو يقول:

لم أئل منهم بسطا ولا زبدا ولا فوفة ولا قطميرا^(١)

عن عطاء قال: القطمير الذي بين النواة والتمرة، القشر الأبيض^(٢).

عن مجاهد في قوله ﴿قِطْمِيرٍ﴾ قال: لفافة النواة كسحاة البصلة^(٣).

عن الضحاك في قوله ﴿مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ قال: رأس التمرة يعني القمع^(٤).

● أقوال المفسرين

قال الطبري^(٥): يقول تعالى ذكره والذين تعبدون أيها الناس من دون ربكم الذي هذه الصفة التي ذكرها في هذه الآيات الذي له الملك الكامل الذي لا يشبهه ملك صفته ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ يقول ما يملكون قشر نواة فما فوقها أهـ.

وقال البغوي^(٦): وهي لفافة النواة، وهي القشرة الرقيقة التي تكون على النواة أهـ.

وكذا قال الزمخشري^(٧) وابن الجوزي^(٨).

قال الرازي^(٩): قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أى ذلك الذى فعل هذه الأشياء من فطر السموات والأرض وإرسال الأرواح وإرسال الرياح وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود إلا هو لذاته الكامل ولكونه ملكاً والمملك مخدوم بقدر ملكه، فإذا كان له الملك كله فله العبادة كلها، ثم بين ما يتافى صفة الإلهية، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

لطيفة: وهنا لطيفة وهي أن الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف. (أحدهما) أن الخلق بالقدرة والإرادة.

(١) ذكره السيوطى فى «الدرة» (٣/١٤ - ١٥) ونسبه للطستى وتقدم

(٢) [صحيح] ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد وانظر تمام تخريجه فى «فتح

المجيد» (ح ٢٩٨) بتخريجنا

(٣) [صحيح] ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،

وابن أبى حاتم.

وانظر الأخير بتخريجنا. وانظر «فتح المجيد» (ح ٢٩٦) بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وابن المنذر.

(٥) تفسير الطبري (١٠/٢٢/٨٢). (٦) معالم التنزيل (٤/٥٢٢)

(٧) الكشف (٣/٢٧٢). (٨) زاد المسير (٦/٢٦٠).

(٩) التفسير الكبير (١٣/٢٦/١٣).

(والثاني) الملك واستدل بهما على أنه إله معبود كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ﴾ ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه إلهاً أى معبوداً، وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك بقوله ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين. (أحدهما) أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله وإنما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الأرض والأرضيات إلى الكواكب التى الأصنام على صورتها وطوالها فقال لملك لهم ولاملكهم الله شيئاً ولا ملكوا شيئاً. (وثانيهما) أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لأنه لو خلق شيئاً لملكه فإذا لم يملك قطميراً ما خلق قليلاً ولا كثيراً.

● خلاصة القول فى تفسير ﴿قِطْمِيرٍ﴾ على أربعة أقوال:

- (١) قال القرطبي (١): ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعنى الأصنام. والقطمير: القشرة الرقيقة البيضاء التى بين الثمرة والنواة. قاله أكثر المفسرين.
 - (٢) وقال ابن عباس: هو شق النواة، وهو إختيار المبرد، وقاله قتادة وسيأتى أنها تسمى بالقتيل.
 - (٣) وعن قتادة أيضاً القطمير: القمع الذى على رأس النواة.
 - (٤) الجوهري: ويقال: هى النكتة البيضاء التى فى ظهر النواة تنبت منها النخلة سيأتى من كلام ابن عثيمين أن هذه لنكتة تسمى النقيير وليس قطمير أهـ.
 - وقال ابن كثير (٢): ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أى من الأصنام والأنداد، التى هى على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين أهـ.
 - وقال الشوكاني (٣): ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ أى لا يقدرّون عليه، ولا على خلقه أهـ.
 - وقال السعدى: ولا القطمير الذى هو أحقر الأشياء، وهذا من تنصص النفى وعمومه، فكيف يدعون وهم غير مالكين لشيء من ملك السموات والأرض؟! أهـ.
- ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:
- قال سليمان آل الشيخ (٤): حاصل كلام المفسرين كابن كثير وغيره أنه تعالى يخبر

(١) تفسير القرطبي (٨/٥٤١٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٥١٦).

(٣) فتح القدير (٤/٣٣٢).

(٤) تيسير العزيز الحميد (١٨٤).

عن حال المدعويين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها بما يدل على عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الشروط التي لا بد أن تكون في المدعو وهي الملك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته، فمتى عدم شرط بطل أن يكون مدعواً، فكيف إذا عدت كلها، فنفي عنهم الملك بقوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

ثم قال: فمن كان هذا حاله فكيف يدعى من دون الله. أه.

- قال سليمان آل الشيخ^(١): يخبر تعالى عن حال المدعويين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها بما يدل على عجزها وضعفهم وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو، وهي الملك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته، فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوتهم، فكيف إذا عدت بالكلية؟!

فنفي عنهم بقوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾. ونفي عنهم سماع الدعاء بقوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ أه مختصراً وتابعه على هذا عبدالرحمن آل الشيخ^(٢).

قال ابن عثيمين^(٣): يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة.

وقوله: ﴿مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

القطمير: سلب نواة التمرة.

وفى النواة ثلاثة أشياء ذكرها الله في القرآن لبيان حقارة الشيء:

القطمير: وهو اللقافة الرقيقة التي على النواة.

الفتيل: وهو سلك يكون في الشق الذي في النواة.

النقير: وهي النقرة التي تكون على ظهر النواة.

فهؤلاء لا يملكون من قطمير، فإن قيل: أليس الإنسان يملك النخل كله كاملاً؟

أجيب: إنه يملكه، ولكنه ملك ناقص ليس حقيقياً؛ فلا يتصرف فيه إلا على حسب ما جاء به الشرع، فلا يملك مثلاً إحراقه للنهي عن إضاعة المال أه.

قوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾.

- الإعراب^(٤): ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ كلام مسألف مسوق لتقرير المضمون المتقدم و(إن) حرف شرط جازم و(تدعوهم) فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون وهو فعل مضارع وفاعل ومفعول به و(لا) نافية و(يسمعوا) جواب الشرط و(دعأؤكم) مفعول به و(الواو) حالية أو عاطفة و(لو) حرف شرط

(٢) فتح المجيد (١/ ٢٣٠).

(٤) إعراب القرآن ٨/ ١٣٧.

(١) تيسير العزيز الحميد (١٨٤).

(٣) القول المفيد (١/ ٣٦٧، ٣٦٨).

و(سمعوا) فعل ماضٍ و(الواو) فاعل و(ما) نافية و(استجابوا) فعل وفاعل والجملة لامحل لها لأنها جواب شرط غير جازم.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار المقطوعة

عن قتادة فى قوله ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أى ما قبلوا ذلك منكم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ قال: لا يرضون، ولا يقرون به ﴿وَلَا يَنْبَغُ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ والله هو الخير أنه سيكون هذا من أمرهم يوم القيامة^(١).

عن السدى فى قوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ قال: هى الآلهة. لا تسمع دعاء من دعاها وعبدها من دون الله تعالى ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ قال: ولو سمعت الآلهة دعاءكم ما استجابوا لكم بشئ من الخير ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ قال: بعبادتكم إياها^(٢).

● أقوال المفسرين

قال الطبرى^(٣): يقول تعالى ذكره إن تدعو أيها الناس هؤلاء الآلهة التى تعبدونها من دون الله لا يسمعوا دعاءكم لأنها جماد لا تفهم عنكم ما تقولون ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ يقول ولو سمعوا دعاءكم إياهم وفهموا عنكم أنها قولكم بأن جعل لهم سمع يسمعون به ما استجابوا لكم لأنها ليست ناطقة وليس كل سامع قولاً متيسر له الجواب عنه يقول تعالى ذكره للمشركين به الآلهة والأوثان فكيف تعبدون من دون الله من هذه صفته وهو لا نفع لكم عنده ولا قدرة له على ضرركم وتدعون عبادة الذى بيده نفعكم وضرركم وهو الذى خلقكم وأنعم عليكم.

قال البغوى^(٤): يعنى إن تدعوا الأصنام ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ ما أجابوكم أهـ.

قال الزمخشري^(٥): إن تدعوا الأوثان ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنهم جماد ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض والتمثيل ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية ويتبرؤون منهم، وقيل: ما نفعوكم أهـ.

وبنحو من ذلك قال ابن الجوزى فى تفسيره^(٦).

قال الرازى^(٧): قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ إبطالا لما كانوا.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (١٥/٧) بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم. وأنظر الأخير بتخريجنا.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم. فانظره بتخريجنا.

(٣) تفسير الطبرى (١٠/٢٢/٨٣). (٤) «معالم التنزيل» (٤/٥٢٢). (٥) الكشاف (٣/٢٧٢).

(٦) زاد المسير (٦/٢٦٠). (٧) التفسير الكبير (١٣/٢٦/١٣).

يقولون إن في عبادة الأصنام عزة من حيث القرب منها والنظر إليها وعرض الحوائج عليها، والله لا يرى ولا يصل إليه أحد فقال هؤلاء لا يسمعون دعاءكم والله يصعد إليه الكلم الطيب، فيسمع ويقبل.

ثم نزل عن تلك الدرجة، وقال هب أنهم يسمعون كما يظنون فإنهم كانوا يقولون بأن الأصنام تسمع وتعلم ولكن ما كان يمكنهم أن يقولوا إنهم يجيبون لأن ذلك إنكار للمحس به وعدم سماعهم إنكار للمعقول والنزاع وإن كان يقع في المعقول فلا يمكن وقوعه في المحس به.

قال القرطبي^(١): قوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ أى إن تسغيثوا بهم فى النوائب لا يسمعون دعاءكم؛ لأنها جمادات لا تبصر ولا تسمع ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ إذ ليس كل سامع ناطقا.

وقال قتادة: المعنى لو سمعوا لم ينفعوكم.

وقيل: أى لوجعلنا لهم عقولا وحياة فسمعون دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم، ولما استجابوا لكم على الكفر أه.

وقال ابن كثير^(٢): ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أى لا يقدرّون على شيء مما تطلبون منها أه.

وقال الشوكاني^(٣): ثم بين سبحانه هل هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله بأنهم لا ينفعون ولا يضرّون ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لعجزهم عن ذلك أه.

● خلاصة القول فى قوله: ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾.

القول الأول: ما نفعوكم.

القول الثانى: أجابوكم.

● أقوال شراح كتاب التوحيد

قال سليمان آل الشيخ^(٤): ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ يعنى أن الآلهة التى تدعونها لا يسمعون دعاءكم لأنهم أموات أو ملائكة مشغولون بأحوالهم مسخرون لما خلقوا له أو جماد، ففعل المشرك يقول: هذا فى الأصنام، أما الملائكة والأنبياء والصالحون فيسمعون ويستجيبون فنفى سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أى: لا يقدرّون على ما تطلبون منهم، وما خص تعالى الأصنام، بل عم جميع من يدعى من دونه.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٥١٦).

(٤) تيسير العزيز الحميد ١٨٤.

(١) تفسير القرطبي ٨/٥٤١٨.

(٣) فتح القدير (٤/٣٣٢).

ومن المعلوم أنهم كانوا يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين، كما ذكر الله تعالى ذلك في كتابه، فلم يرخص في دعاء أحد منهم لا استقلالاً ولا وساطة بالشفاعة أ. هـ.
قال ابن عثيمين^(١): قوله «وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ» أى: إن هذه الأصنام لو دعوتها ما سمعت، ولو فرض أنها سمعت ما استجابت؛ لأنها لا تقدر على ذلك، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: «يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا»^(٢).

فإذا كانت كذلك؛ فأى شيء يدعو إلى أن تدعى من دون الله؟! بل هذا سفه، قال تعالى: «وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ»^(٣).

قوله: «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ»^(٤).
الإعراب^(٥): «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ» الظرف متعلق بيكفرون وبشركم متعلقان بيكفرون والكاف مضافة إلى المصدر من إضافة المصدر إلى فاعله أى يتبرءون منكم ومن عبادتكم إياهم أ. هـ.

● التفسير بالمقطوع

وروى ابن جرير بسنده عن قتادة «ويوم القيامة يكفرون بشرككم» إياهم ولا يرضون ولا يقرون^(٥) أ. هـ.

● أقوال المفسرين

قال ابن جرير^(٦): يقول تعالى ذكره للمشركين من عبدة الأوثان: «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ» تتبرأ آلهم التي تعبدونها من دون الله من أن تكون كانت لله شركاً في الدنيا. وينحوه قال البغوى، والزمخشري.

قال الرازى^(٧): «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ» لما بين عدم النفع فيهم في الدنيا بين عدم النفع منهم في الآخرة بل أشار إلى وجود الضرر منهم في الآخرة بقوله «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ» أى بإشراككم بالله شيئاً كما قال تعالى: «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» أى الإشراك.

(١) القول المفيد ١/٣٦٨.

(٢) البقرة: ١٣٠.

(٣) تفسير الطبرى ١٠/٨٣.

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» في الموضع السابق.

(٥) التفسير الكبير ١٣/٢٣/١٣ و١٤.

(٢) مريم: ٤٢.

(٤) إعراب القرآن ٨/١٣٧.

قال القرطبي^(١): «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» أن يجحدون أنكم عبدتموهم، ويتبرءون منكم.

ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين مما يعقل؛ كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين؛ أي يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً، وأنهم أمروكم بعبادتهم؛ كما أخبر عن عيسى بقوله: «مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ»^(٢) ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضاً؛ أي يحييها الله حتى تخبر أنها ليست أهلاً للعبادة.

قال ابن كثير^(٣): «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» أي يتبرءون منكم كما قال تعالى: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ لَئِنْ سَأَلْتَهُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ»^(٤) وقال تعالى: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا»^(٥).

وينحوه قال الشوكاني والسعدى.

● أقوال شراح كتاب التوحيد

قال سليمان آل الشيخ^(٦): «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» كقوله: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» وهذا نص صريح على أن من دعا غير الله فقد أشرك بشرطه، وأن المدعويين يكفرون به يوم القيامة، ويتبرأون منهم كقوله تعالى: «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ»^(٧) فهل على كلام رب العزة استدراك؟! ولهذا قال «وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» أهد.

وينحوه قال عبدالرحمن آل الشيخ، نقلاً عن ابن كثير.

قال ابن عثيمين^(٨): قوله: «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» هو كقوله تعالى: «وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ».

فهؤلاء المعبودون إن كانوا يعثون ويحشرون؛ فكفرهم بشركهم ظاهر كمن يعبد عزيزاً والمسيح.

(٢) المائدة ١١٦

(٤) الأحقاف ٦

(٦) بيسير التعريف الحميد ١٨٥، ١٨٤

(٨) القو - المفند ١/٣٦٨، ٣٦٩

(١) تفسير القرطبي ٥٤١٨/٨

(٣) تفسير القرآن العظيم ٥١٦/٣

(٥) مريم ٨٢

(٧) البقرة ١٦٦

وإن كانوا أحجاراً وأشجاراً ونحوها؛ فيحتمل أن يشملها ظاهر الآية، وهو أن الله يأتي بهذه الأحجار ونحوها؛ فتكفر بشرك من يُشرك بها، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، وما ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ عِنْدَ بَعْثِ النَّاسِ يَقَالُ لِكُلِّ أُمَّةٍ: لَتَتَّبِعَ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ» (١)؛ فالحجر يكون أمامهم يوم القيامة، ويكون له كلام ينطق به، ويكفر بشركهم، فإذا كانت المعبودات تحضر وتُحْصَبُ في النار إهانةً لعبادها وتحضر لتُتَّبَعَ إلى النار؛ فلا غرو أن تكفر بعابديها إذا أحضرت.

قوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

الإعراب (٢): ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ الأحسن أن يكون الخطاب عاماً أى أيها السامع كائناً من كنت، ولا نافية وينبئك فعل مضارع والكاف مفعوله ومثل خبير فاعله أى عالم ببواطن الأمور أ. هـ

● التفسير بما أثار

وروى الطبري: عن قتادة قوله ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ والله هو الخبير أنه سيكون هذا منهم يوم القيامة (٣).

● أقوال المفسرين

قال الطبري (٤): وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يقول تعالى ذكره ولا يخبرك يا محمد عن آلهة هؤلاء المشركين وما يكون من أمرها وأمر عبادتها يوم القيامة من تبرئها منهم وكفرها بهم مثل ذى خبرة بأمرها وأمرهم وذلك الخبير هو الله الذى لا يخفى عليه شيء كان أو يكون سبحانه أ. هـ.

قال البغوى (٥): يعنى نفسه أى لا ينبئك أحد مثلى خبير عالم بالأشياء أ. هـ.

قال الزمخشري (٦): ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير، عالم به ويريد أن الخبير بالأمر وحده هو الذى يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به، والمعنى أن هذا الذى أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق؛ لأننى خبير بما أخبرت به أ. هـ.

قال الرازى (٧): ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يحتمل وجهين.

(أحدهما) أن يكون ذلك خطاباً مع النبي ﷺ ووجهه هو أن الله تعالى لما أخبر أن

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٥٨١)، ومسلم فى الإيمان (٢/٢١/٢٩٩)

(٢) إعراب القرآن ١٣٧/٨. (٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٨٣/٢).

(٤) المصدر السابق. (٥) معالم التنزيل (٤/٥٢٢).

(٦) الكشف (٣/٢٧٢). (٧) التفسير الكبير (١٣/٢١٦/١٤).

الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده وذلك أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله تعالى عنه أنهم يكفرون بهم يوم القيامة وهذا القول مع كون الخبر أمراً عجيباً هو كما قال، لأن المخبر عنه خير.

(وثانيهما) هو أن ذلك خطاباً غير مختص بأحد، أى هذا الذى ذكر هو كما قال (ولايُنْبِتُك) أيها السامع كائنًا من كنت (مثل خير) أ.هـ.

قال القرطبي^(١): «وَلَا يُنْبِتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ» هو الله عز وجل، أى لا أحد أخبر خلق الله من الله، فلا يُنْبِتُكَ مثله فى عمله.

قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى: «وَلَا يُنْبِتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ» أى ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خير بها.

قال قتادة: يعنى نفسه تبارك وتعالى أخبر بالواقع لامحالة.

* ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٣): «وَلَا يُنْبِتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ» أى لا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خير بها.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٤): (قلت) والمشركون لم يسلموا للعليم الخير ما أخبر به عن معبوداتهم، فقالوا: تملك وتسمع وتستجيب وتشفع لمن دعاها، ولم يلتفتوا إلى ما أخبر به الخير من أن كل معبود يعادى عابده يوم القيامة ويتبرأ منه، كما قال تعالى: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُمْ فَزَلِيلُنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: قال مجاهد: «إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ» قال: يقول ذلك كل شيء كان يعبد من دون الله. فالكيس يستقبل هذه الآيات التى هى الحجة والنور والبرهان بالإيمان والقبول والعمل فيجرد أعماله لله وحده دون كل ما سواه ممن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا عن غيره أهد.

(٢) تفسير ابن كثير (٥١٩/٤).

(٤) فتح المجيد (١/٢٣١، ٢٣٢).

(١) تفسير القرطبي (٥٤١٨/٨).

(٣) تيسير العزيز الحميد (١٨٥).

قال ابن عثيمين: (١) قوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

هذا مثال يُضرب لمن أخبر بخبر ورأى شكاً عند من خاطبه به؛ فيقول: ولا ينبتك مثل خبير.

ومعناه: إنَّه لا يُخبرك بالخبر مثل خبير به، وهو الله؛ لأنَّه لا يعلم أحد ما يكون في يوم القيامة إلا الله، وخبره خبر صدق؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (٢).

والخبير: العالم ببواطن الأمور أهد.

قال القرعاوى (٣): ولا يخبرك عن هذا بعلم وأمانة مثل خبير به وبعواقبه وهو الله تعالى أهد.
مسألة:

هل يسمع الأموات السلام ويردونه على من سلَّم عليهم؟

قال ابن عثيمين: اختلف في ذلك على قولين:

القول الأول: أن الأموات لا يسمعون السلام، وأن قول النبي ﷺ حين زيارة القبور: «السلام عليكم» (٤) دعاء لا يقصد به المخاطبة، ثم على فرض أنَّهم يسمعون كما جاء في الحديث الذي صححه ابن عبد البر وأقره ابن القيم: «بأن الإنسان إذا سلَّم على شخص يعرفه في الدنيا رد الله عليه روحه فرد السلام»، وعلى تقدير صحة هذا الحديث إذا كانوا يسمعون السلام ويردونه؛ فلا يلزم أن يسمعوا كل شيء، ثم لو فرض أنَّهم يسمعون غير السلام؛ فإن الله صرَّح بأن المدعوين من دون الله لا يسمعون دعاء من يدعوهم؛ فلا يمكن أن نقول: إنَّهم يسمعون دعاء من يدعوهم؛ لأنَّ هذا كفر بالقرآن، فتبيَّن بهذا أنَّه لا تعارض بين قوله ﷺ: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» (٥) وبين هذه الآية.
وأما قوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾؛ فمعناه: لو سمعوا فرضاً ما استجابوا لكم؛ لأنهم لا يستطيعون.

القول الثاني: أن الأموات يسمعون.

واستدلوا على ذلك بالخطاب الواقع في سلام الزائر لهم بالمقبرة.

وبما ثبت في «الصحيح» من أن المشيعين إذا انصرفوا سمع المسيح قرع نعالهم (٦).

(١) القول المفيد (١/ ٣٧٠ - ٣٧١). (٢) الأعراف: ٨٧. (٣) الجديد (١٣٨).

(٤) [صحيح] مسلم في الجنائز (٧/ ٤٠ - النووي) عن عائشة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٣ - بتحريجتنا).

(٥) تقدم قبله

(٦) [صحيح] البخاري (١٣٣٨) عن أنس به.

وَفِي «الصَّحِيح» عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: «شُبَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أَحُدٍ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ،

والجواب عن هذين الدليلين: أمّا الاول؛ فإنه لا يلزم من السلام عليهم أن يسمعوا، ولهذا كان المسلمون يسلّمون على النبي ﷺ في حياته في الشَّهَد، وهو لا يسمعهم قطعاً. أمّا الثاني؛ فهو وارد في وقت خاص، وهو انصراف المشيعين بعد الدفن. وعلى كل؛ فالقولان متكافئان، والله أعلم بالحال أهـ.

قلت: ويرجح عدم السماع قول عمر للنبي ﷺ حينما كلم قتلى المشركين في بدر وقد جيفوا «يا أبا جهل بن هشام يا عتبة.. إلخ» قال عمر: يا رسول الله! ما تكلم من أجساد لا أرواح لها وهل يسمعون^(١)؟! لا

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾، قال رسول الله ﷺ: «إنهم الآن يسمعون غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شيئاً» قال قتادة: أحياهم الله له حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً وحسدة وندماً^(٢) أ. هـ.

والشاهد أن الرسول أمر عمر على ما فهم من الآية أنه لا يسمع الموتى ولقوله تعالى أيضاً ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ ما أنه قال هذه الحالة خاصة بى وبهذه الحالة إنهم الآن يسمعون أما قيل الآن وبعده فلا وهذه إلا قتادة رحمه الله.

قوله وفي الصحيح عن أنس، قال: شُبَّ النَّبِيُّ ﷺ...

مناسبة الحديث للباب:

قال ابن باز^(٣): إذا كان أفضل الخلق وأقرب الناس منزلة وأفضل الأنبياء لم يستطع أن يدفع عن نفسه، ولا عن أصحابه وهم أفضل القرون، وإذا كان كذلك لم يستحق أن يعبد من دون الله ويشرك به معه. أهـ.

قال القرعاوى^(٤): حيث دل الحديث على أن الأنبياء لا يملكون لأحد نفعاً ولا ضرراً فكيف بمن دونهم أهـ.

(١) تقدم تخريجه وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٤٦٤).

(٢) ما قبله

(٣) التعليق (٩٦).

(٤) الجديد (١٤٠).

فَقَالَ: كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُوا نَبِيَّهُمْ؟ فَتَنَزَّلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (١)

قال الفقير: أن النبي ﷺ برغم ما حصل له من المشركين وهو يدعوهم إلى ربهم وقد شخ وجهه وكسرت رباعيته ومع ذلك ما عذره الله في كلمة واحدة، وقال له ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فمن باب أولى من سواه ليس له من الأمر شيء كالأنبياء والأولياء والأوثان والأصنام، فالأمر كما تقدم لله وحده من قبل ومن بعد ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فكما تفرد بالخلق تفرد بالأمر (٢).

● فائدة:

ونستفيد من هذا الحديث أنه يجب الحذر من إطلاق اللسان إذا ما رأى الإنسان مبتلى بالمعاصي، فلانستبعد رحمة الله منه، فإن الله تعالى قد يتوب عليه.

فهؤلاء الذين شجوا نبيهم لما استبعد النبي ﷺ فلاحهم؛ قيل له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وفى صحيح مسلم عن جندب؛ أن رسول الله ﷺ حدث «أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان وأن الله تعالى قال: «من ذا الذي يتألى على أن لا أغفر لفلان. فإني قد غفرت لفلان. وأحبطت عملك» أو كما قال (٣) ﷺ.

فيجب على الإنسان أن يمسك اللسان لأن زلته عظيمة، ثم إننا نشاهد أو نسمع قوماً كانوا من أكفر عباد الله وأشدهم عداوة انقلبوا أولياء لله، فإذا كان كذلك، فلماذا نستبعد رحمة الله من قوم كانوا عتاة (٤).

(١) [صحيح] علقه البخاري في المغازي/ باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٤٢٢/٧ - الفتح).

قال: قال حميد وثابت عن أنس الحديث.

ووصله مسلم في الجهاد/ باب غزوة أحد (١٠٤/٣٨٩/٦) عن عبدالله بن مسلمة حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت عن أنس به.

ووصله أحمد في «مسنده» (٩٩/٣)، والترمذي في التفسير/ باب ومن سورة آل عمران (٢٢٦/٥) ٣٠٠٢، وابن جرير في «تفسيره» (٥٧/٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٧٢٦/٣٥/٤) عن هشيم.

وأحمد أيضاً (١٧٨/٣) عن سهل.

وأخرجه أيضاً (٢٠٦/٣) عن ابن أبي عدي.

وأخرجه النسائي في «الكبرى» في «التفسير» (١١٠٧٧/٣١٤/٦) عن إسماعيل بن إبراهيم.

وأخرجه أيضاً عن خالد.

وأخرجه ابن ماجه في الفتن/ باب الصبر على البلاء (٤٠٢٧/١٣٣٦/٢) عن عبد الوهاب.

جميعاً عن حميد، عن أنس به.

قال الترمذي: حسن صحيح.

وقال البوصيري في «الزوائد» إسناده صحيح ورجال ثقات. وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٠٢) بتخريجنا.

(٢) من القول المفيد بتصرف

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٧/٤٢٢/٨) عن جندب به.

(٤) القول المفيد (١/٣٧٤).

مناسبة الحديث لكتاب التوحيد:

قال القرعاوى^(١): حيث دل الحديث على أن جلب النفع ودفع الضر من الأفعال الخاصة بالله فيكون طلبها من غير الله شركاً به أهـ.

قوله: [وفى الصحيح] ذكره البخارى تعليقاً من رواية حميد وثابت عن أنس به.

قال ابن حجر^(٢): حديث حميد عن أنس وصله أحمد والترمذى والنسائى من طرق عن حميد به: أهـ.

وقال ابن إسحاق فى «المغازى»: حدثنى حميد الطويل عن أنس قال: كسرت رباعية النبى ﷺ يوم أحد وشج وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟!» فأنزل الله الآية^(٣).

وأما حديث ثابت عن أنس فوصله مسلم من رواية حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن النبى ﷺ قال يوم أحد وهو يسيل الدم عن وجهه: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وأدموا وجهه» فأنزل الله عزوجل: «ليس لك من الأمر شيء» الآية.

وذكر ابن هشام: من حديث أبى سعيد الخدرى أن عتبة بن أبى وقاص هو الذى كَسَرَ رباعية النبى ﷺ السفلى، وَجَرَحَ شَفَتَهُ السفلى، وَأَن عَبَدَ الله بن شهاب الزُهْرَى هو الذى شَجَّهَ فى جَبْهَتِهِ، وَأَن عَبَدُ الله بن قَمْثَةَ جَرَحَهُ فى وَجْهَتِهِ، فَدَخَلَتْ حَلَقَتَانِ مِنْ حَلَقِ الْمَغْفَرِ فى وَجْهَتِهِ، وَأَن مَالِكَ بْنَ سِنَانٍ مَصَّ الدَّمَ مِنْ وَجْهِ رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ أَزْدَرَدَهُ، فَقَالَ لَهُ: «لَنْ تَمْسِكَ النَّارَ»^(٤).

وروى ابن إسحاق من حديث سعد بن أبى وقاص قال: فما حرصت على قتل رجل قط حرصى على قتل أخى عتبة بن أبى وقاص لما صنع برسول الله ﷺ يوم أحد.

وروى الطبرانى من حديث أبى أمامة. قَالَ: رَمَى عَبْدُ الله بن قَمْثَةَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، فَشَجَّهَ فى وَجْهِهِ، وَكَسَرَ رَبَاعِيَتَهُ. فَقَالَ: خُذْهَا وَأَنَا ابن قَمْثَةَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ

(١) الجديد ١٤٠.

(٢) فتح البارى (٤٢٣/٧).

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة (٢٧/٣) وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٠٦) بتخريجنا.

(٤) ابن هشام فى «السيرة» (٢٧/٣) (٢٨).

وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٠٧) بتخريجنا.

وهو يمسح الدم عن وجهه: «مَا لَكَ أَفْمَاكَ اللَّهُ» فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ تَيْسَ جَبَلٍ، فَلَمْ يَزُلْ يَنْطَحُهُ حَتَّى قَطَعَهُ قِطْعَةً قِطْعَةً^(١).

وأخرج ابن عائد في المغازي عن الوليد بن مسلم: حدثني عبدالرحمن بن زيد، عن جابر، فذكر نحوه منقطعاً.

وذكر البخاري في أواخر المغازي شواهد لحديث أنس من حديث أبي هريرة وغيره.
قوله: [شجّ النبي ﷺ].

قال ابن عثيمين: الجرح في الرأس والوجه خاصة وهذا مخالف لما قال ابن الأثير: الشجّ في الرأس خاصة في الأصل وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه، ثم استعمل في غيره من الأعضاء أيضاً لما ذكره ابن منظور في اللسان عن الليث^(١) هـ..
قال الفقير: ويؤيده حديث جابر «كنا في سفر فشجّ أحد منا في رأسه فسأل أصحابه هل تجدون له رخصة في التيمم، قالوا لاجد لك رخصة في التيمم وأنت تقدر على الماء... إلى آخره»^(٢).

وفي حديث أم زرع في الصحيح «شجّك أو فلّك أو جمع كلاً لك»^(٣).
وفي رواية [وأكسرت رباعيته].

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قال القرطبي: والرابعة - بفتح الراء وتخفيف الياء، وهي كل سن بعد ثنية.

قال النووي: وللإنسان أربع رباعيات.

ابن حجر^(٥): والمراد أنها كسرت فذهب منها فلقة ولم تقلع من أصلها.

قلت - سليمان آل الشيخ: فظهر بهذا أن قول بعضهم: إنه شجّ في رأسه فيه نظر قلت: بل لعله أراد أصل الشجّ أو نظر إلى أصله وأنه في الرأس ثم استعمل في غيره كما تقدم.

قال النووي:

وفي هذا وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لينالوا جزيل الأجر والثواب، ولتعرف أمهم وغيرهم ما أصابهم، ويتأسوا بهم.

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٥٩٦/١٥٤/٨) عن أبي أمامة به.

قال الهيثمي في «المجمع» (١١٧/٦): وفيه حفص بن عمر العدني وهو ضعيف. وانظر «شرحنا لزياد المعاد».

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣٦) عن جابر به.

وانظر الكلام عليه في «السلسلة» (١٢٧) بتخريجنا.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم في الفصائل (٨/٢٢٨/٩٢).

(٤) تيسير العزيز الحميد (١٨٥).

(٥) فتح الباري (٧/٤٢٣).

قال القرطبي: ولتعلم أنهم من البشر تصيهم محن الدنيا، ويطراً على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ليتيقنوا أنهم مخلوقون مربوبون، ولا يفتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات، ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم أهـ.
قوله: [يوم أحد].

قال ابن حجر^(١): (أحد) بضم الهمزة والمهملة: جبل معروف بينه وبين المدينة أقل من فرسخ، وهو الذي قال فيه ﷺ «جبل يحبنا ونحبه»،^(٢) ونقل السهيلي عن الزبير بن بكار في «فضل المدينة» أن قبر هارون عليه السلام بأحد، وأنه قدم مع موسى في جماعة من بنى إسرائيل حجاج فمات هناك [قلت - أى الحافظ -] وسند الزبير بن بكار في ذلك ضعيف جداً من جهة شيخه محمد بن الحسن بن زباله منقطع أيضاً وليس بمرفوع.
وكانت عنده الواقعة المشهورة في شوال سنة ثلاث بإتفاق الجمهور، وشذ من قال سنة أربع أهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣): (أحد) شرقي المدينة أهـ.

[قلت] وفي الصحيح أيضاً أن النبي ﷺ كان عليه هو وأبو بكر وعمر وعثمان فتزول، فقال ﷺ «أثبت أحد، فما عليك إلا نبى وصديق وشهيدان»^(٤).
- لماذا سمي بهذا الاسم.

قال السهيلي: سمي أحداً لتوحده وانقطاعه عن جبالٍ أخرى هناك، أو لما وقع من أهله من نصر التوحيد. أهـ.

- ما جاء في فضل هذا الجبل غير ما تقدم من أن النبى يحبه وهو يحب النبى ﷺ
في المسند عن أبى عيسى بن جبر مرفوعاً «جبل أحد يحبنا ونحبه وهو من جبال الجنة»^(٥).

وقال ابن عثيمين^(٦): «جبل معروف شمالي المدينة» ولا يقال: المنورة؛ لأن كل بلد

(١) فتح البارى (٧/٤٢١).

(٢) فتح المجيد (١/٢٣٤).

(٣) أخرجه البخارى (٣٦٨٦) عن أنس به

(٤) ذكره الحافظ في «الفتح» (٧/٤٣٧) ونسبه لأحمد.

(٥) القول المفيد (١/٣٧٣).

دخله الإسلام فهو منورٌ بالإسلام، ولأن ذلك لم يكن معروفاً عند السلف، وكذلك جاء اسمها في القرآن بالمدينة فقط، لكن لو قيل: المدينة النبوية لحاجة تمييزها؛ فلا بأس، وهذا الجبل حصلت فيه وقعة في السنة الثالثة من الهجرة في شوال هُزِمَ فيها المسلمون بسبب ما حصل منهم من مخالفة أمر النبي ﷺ؛ كما أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾، وجواب الشرط محذوف تقديره: حصل لكم ما تكرهون.

وقد حصلت هزيمة المسلمين لمعصية واحدة، ونحن الآن نريد الانتصار والمعاصي كثيرة عندنا، ولهذا لا يمكن أن نفرح بنصرٍ ما دمنا على هذه الحال؛ إلا أن يرفق الله بنا ويصلحنا جميعاً. أ.هـ.

قوله: [كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟].

- قال سليمان آل الشيخ^(١): زاد مسلم من طريق ثابت عن أنس «وكسروا رباعيته وأدموا وجهه» أ.هـ.

وتقدم معنى الرباعية، وأنها بفتح الراء وتخفيف الياء، كما تقدم من قول القرطبي، وكذا قال ابن حجر.

وقوله: [وأدموا وجهه]

قال ابن حجر^(٢): أى جرحوه حتى خرج منه الدم أ.هـ.

- قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «فقال: كيف يُفلح وقوم شجوا نبيهم؟».

الاستفهام يُراد به الاستبعاد؛ أى: بعيد أن يُفلح قوم شجوا نبيهم ﷺ.

قوله: «يُفلح» من الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب أ.هـ.

قوله: [فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾].

بوب البخارى على هذا: باب «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ» وذكر فيه حديثين الأول حديث أنس معلقاً وهو الذى هنا والثانى حديث ابن عمر الآتى بعد هذا^(٤).

(١) تيسير العزيز الحميد (١٨٦). (٢) فتح البارى (٤٣١/٧).

(٣) القول المفيد (٣٧٣/١).

(٤) سيأتى تخريجه.

قال ابن حجر^(١): فى مقصود البخارى بالترجمة: أى بيان سبب نزول هذه الآية، وقد ذكر فى الباب سبين، ويحتمل أن تكون نزلت فى الأمرين جميعاً؛ فإنهما كانا فى قصة واحدة.

ثم قال ابن حجر سبباً ثالثاً وهو أنها نزلت فى قصة رعل وذكوان.

ثم قال ابن حجر^(٢): والصواب أنها نزلت فى شأن الذين دعا عليهم بسبب قصة أحد، والله أعلم. ويؤيد ذلك ظاهر قوله فى صدر الآية ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى يقتلهم ﴿أَوْ يَكْبِتُهُمْ﴾ أى يخزيهم، ثم قال ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أى فيسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ أى إن ماتوا كفاراً أم.

قوله: [فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾].

قال ابن كثير: أى بل الأمر كله إلى، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وقال ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ وقال ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحَبَّتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ وقال محمد بن إسحاق فى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى ليس لك من الحكم شىء فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم.

قال ابن جرير^(٣): يعنى بذلك تعالى ذكره ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فقوله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ منصوب عطفًا على قوله ﴿أَوْ يَكْبِتُهُمْ﴾ وقد يحتمل أن يكون تأويله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ حتى يتوب عليهم، فيكون نصب يتوب بمعنى، أو التى هى فى معنى حتى، والقول الأول الأولى بالصواب؛ لأنه لاشىء من أمر الخلق إلى أحد سوى خالقهم قبل توبة الكفار وعقابهم بعد ذلك.

وتأويل قوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إليك يا محمد من أمر خلقى إلا أن تنفذ فيهم أمرى وتنتهى فيهم إلى طاعتى، وإنما أمرهم إلى، والقضاء فيهم بيدى دون غيرى أقضى فيهم وأحكم بالذى أشاء من التوبة على من كفرنى وعصانى وخالف أمرى أو

(١) فتح البارى (٧/٤٢٣).

(٢) فتح البارى (٧/٤٢٤).

(٣) تفسير الطبرى (٣/٤).

العذاب إما فى عاجل الدنيا بالقتل والنقم المبيرة وإما فى أجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بى أهـ.

وقال ابن كثير^(١): قال تعالى: ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى أمركم بالجهاد والجلء لما له فى ذلك من الحكمة فى كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة فى الكفار المجاهدين فقال ﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ أى ليهلك أمة ﴿مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُمُ فَيَنْقَلِبُوا﴾ أى يرجعوا ﴿خَائِبِينَ﴾ أى لم يحصلوا على ما أملوا. ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم فى الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له فقال تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى بل الأمر كله إلى ثم ذكر بقية الأقسام فقال ﴿أَوْ يُتَوَبَّ عَلَيْهِمْ﴾ أى مما هم فيه من الكفر فيهديهم بعد الضلالة ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ أى فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم، ولهذا قال ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أى يستحقون ذلك.

قال الرازى^(٢): فى الآية مسائل:

المسألة الأولى: فى سبب نزول هذه الآية قولان.

[قلت: بل ثلاث أقوال كما تقدم من كلام ابن حجر].

(الأول) وهو المشهور: أنها نزلت فى قصة أحد، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا على ثلاثة أوجه.

(أحدها) أنه أراد أن يدعو على الكفار فنزلت هذه الآية والقائلون بهذا ذكروا احتمالات.

(أحدها) روى أن عتبة بن أبى وقاص شجه وكسر رباعيته فجعل يمسح الدم عن وجهه وسالم مولى أبى حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم» ثم أراد أن يدعو عليهم فنزلت هذه الآية^(٣).

(وثانيها) ما روى سالم بن عبدالله عن أبيه عبدالله بن عمر أن النبى ﷺ لعن أقواما فقال «اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن صفوان بن أمية» فنزلت هذه الآية ﴿أَوْ يُتَوَبَّ عَلَيْهِمْ﴾ فتاب الله على هؤلاء وحسن إسلامهم^(٤).

(وثالثها) أنها نزلت فى حمزة بن عبدالمطلب وذلك لأنه ﷺ لما رآه ورأى ما فعلوا به من المثلة قال «لأمثلن منهم بثلاثين»، فنزلت هذه الآية قال القفال رحمه الله: وكل هذه

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٠).

(٢) التفسير الكبير (٤/ ٢٣٨ - ٢٤٠).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ١٢٦) ونسبه لابن جرير عن قتادة.

(٤) سيأتى تخريجه.

الأشياء حصلت يوم أحد فزلت هذه الآية عند الكل فلا يمتنع حملها على كل الاحتمالات.

(الثاني) فى سبب نزول هذه الآية أنها نزلت بسبب أنه ﷺ أراد أن يلعن المسلمين الذين خالفوا أمره والذين انهزموا فمنعه الله من ذلك وهذا القول مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما.

الوجه الثالث: أنه ﷺ أراد أن يستغفر للمسلمين الذين انهزموا وخالفوا أمره ويدعوا عليهم فزلت الآية، فهذه الاحتمالات والوجوه كلها مفرعة على قولنا إن هذه الآية نزلت فى قصة أحد.

القول الثانى: أنها نزلت فى واقعة أخرى وهى أن النبى ﷺ بعث جمعاً من خيار أصحابه إلى أهل بئر معونة ليعلموهم القرآن فذهب إليهم عامر بن الطفيل مع عسكره وأخذهم وقتلهم فجزع من ذلك الرسول ﷺ جزعا شديداً ودعا على الكفار أربعين يوماً، فنزلت هذه الآية، هذا قول مقاتل وهو بعيد لأن أكثر العلماء اتفقوا على أن هذه الآية فى قصة أحد، وسياق الكلام يدل عليه وإلقاء قصة أجنبية عن أول الكلام وآخره غير لائق.

المسألة الثانية: ظاهر هذه الآية يدل على أنها وردت فى أمر كان النبى ﷺ يفعل فيه فعلاً، وكانت هذه الآية كالمنع منه، وعند هذا يتوجه الإشكال، وهو أن ذلك الفعل إن كان بأمر الله تعالى، فكيف منعه الله منه؟

وإن قلنا إنه ما كان بأمر الله تعالى ويأذنه، فكيف يصح هذا مع قوله تعالى ﴿وما ينطق عن الهوى﴾.

وأيضاً دلت الآية على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالأمر الممنوع عنه فى هذه الآية إن كان حسناً فلم منعه الله؟ وإن كان قبيحاً، فكيف يكون فاعله معصوماً؟.

(والجواب من وجوه)

(الأول) أن المنع من الفعل لا يدل على أن الممنوع منه كان مشتغلاً به فإنه تعالى قال للنبى ﷺ ﴿لَنْ أَشْرَكَ بِكَ بِحَبْطِ عَمَلِكُ﴾ وأنه عليه الصلاة والسلام ما أشرك قط وقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ فهذا لا يدل على أنه ما كان يتقى الله، ثم قال ﴿وَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ وهذا لا يدل على أنه أطاعهم.

والفائدة فى هذا المنع أنه لما حصل ما يوجب الغم الشديد، والغضب العظيم، وهو مثله عمه حمزة، وقتل المسلمين، والظاهر أن الغضب يحمل الإنسان على ما لا ينبغى من القول والفعل،، فلأجل أن لاتؤدى مشاهدة تلك المكاره إلى ما لا يليق من القول والفعل نص الله تعالى على المنع تقوية لعصمته وتأكيداً لطهارته.

(والثاني) لعله عليه الصلاة والسلام إن فعل لكنه كان ذلك من باب ترك الأفضل والأولى، فلا جرم أرشده الله إلى اختيار الأفضل والأولى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَاقْبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۖ ۝ كانه تعالى قال: إن كنت تعاقب ذلك الظالم فاكثف بالمثل، ثم قال ثانياً: وإن تركته كان ذلك أولى، ثم أمره أمراً جازماً بتركه، فقال ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۖ﴾.

الوجه الثالث: في الجواب: لعله ﷺ لما مال قلبه إلى اللعن عليهم استأذن ربه فيه، فنص الله تعالى على المنع منه، وعلى هذا التقدير لا يدل هذا النهي على القدح في العصمة.

المسألة الثالثة: قوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فيه قولان: (الأول) أن معناه ليس لك من قصة هذه الواقعة ومن شأن هذه الحادثة شيء وعلى هذا فنقل عن المفسرين عبارات (أحدها) ليس لك من مصالح عبادى شيء إلا ما أوحى إليك. (وثانيها) ليس لك من مسألة إهلاكهم شيء، لأنه تعالى أعلم بالمصالح فربما تاب عليهم.

(وثالثها) ليس لك في أن يتوب الله عليهم. ولا في أن يعذبهم شيء.

والقول الثاني: أن المراد هو الأمر الذى يضاد النهي، والمعنى: ليس لك من أمر خلقى شيء إلا إذا كان على وفق أمرى، وهو كقوله ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ وقوله ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ وعلى القولين فالمقصود من الآية منعه ﷺ من كل فعل وقول إلا ما كان بأذنه وأمره.

وهذا هو الإرشاد إلى أكمل درجات العبودية، ثم اختلفوا في أن المنع من اللعن لآى معنى كان؟ منهم من قال الحكمة فيه أنه تعالى ربما علم من حال بعض الكفار أنه يتوب، أو أن لم يتب لكنه علم أنه سيولد منه ولد يكون مسلماً برأ تقياً، وكل من كان كذلك، فإن اللاتق برحمة الله تعالى أن يمهل في الدنيا وأن يصرف عنه الآفات إلى أن يتوب أو إلى أن يحصل ذلك الولد فإذا حصل دعاء الرسول عليهم بالإهلاك، فإن قبلت دعوته فات هذا المقصود، وإن لم تقبل دعوته كان ذلك كالاستخفاف بالرسول ﷺ، فلأجل هذا المعنى منعه الله تعالى من اللعن وأمره بأن يفوض الكل إلى علم الله تعالى.

ومنهم من قال: المقصود منه إظهار عجز العبودية وأن لا يخوض العبد فى أسرار الله تعالى فى ملكه وملكوته، هذا هو الأحسن عندى والأوفق لمعرفة الأصول الدالة على حقيقة الربوبية والعبودية.

المسألة الرابعة: ذكر الفراء والزجاج وغيرهما فى هذه الآية قولين:

(أحدهما) أن قوله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على ما قبله، والتقدير: ليقطع طرفاً من الذين كفروا، أو يكتبهم، أو يتوب عليهم، أو يعذبهم، ويكون قوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كالكلام الأجنبى الواقع بين المعطوف والمعطوف عليه، كما تقول: ضربت زيداً، فعلم ذلك عمراً، فعلى هذا القول هذه الآية متصلة بما قبلها.

والقول الثانى: أن معنى (أو) ههنا معنى حتى، أو إلا أن، كقولك: لألزمك أو تعطينى حقى والمعنى: إلا أن تعطينى أو حتى تعطينى، ومعنى الآية ليس لك من أمرهم شىء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتشقى منهم.

المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ مفسر عند أصحابنا بخلق التوبة فيهم وذلك عبارة عن خلق الندم فيهم على ما مضى، وخلق العزم فيهم على أن لا يفعلوا مثل ذلك فى المستقبل.

قال أصحابنا: وهذا المعنى متأكد ببرهان العقل وذلك لأن الندم عبارة عن حصول إرادة فى الماضى متعلقة بترك فعل من الأفعال فى المستقبل، وحصول الإرادات والكراهات فى القلب لا يكون بفعل العبد، لأن فعل العبد مسبوق بالإرادة، فلو كانت الإرادات فعلاً للعبد لافتقر العبد فى فعل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى ويلزم التسلسل وهو محال، فعلمنا أن حصول الإرادة والكراهات فى القلب ليس إلا بتخليق الله تعالى وتكوينه ابتداءً، ولما كانت التوبة عبارة عن الندم والعزم، وكل ذلك من جنس الإرادات والكراهات، علمنا أن التوبة لا تحصل للعبد إلا بخلق الله تعالى، فصار هذا البرهان مطابقاً لما دل عليه ظاهر القرآن، وهو قوله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وأما المعتزلة فإنهم فسروا قوله ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إما بفعل اللطاف، أو بقبول التوبة.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: إن كان الغرض من الآية منعه من الدعاء على الكفر صح الكلام وهو أنه تعالى سماهم ظالمين، لأن الشرك ظلم قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وإن

كان الغرض منها منعه من الدعاء على المسلمين الذين خالفوا أمره صح الكلام أيضاً، لأن من عصى الله فقد ظلم نفسه.

المسألة الثانية: يحتمل أن يكون المراد من العذاب المذكور فى هذه الآية عذاب الدنيا، وهو القتل والأسر وأن يكون عذاب الآخرة، وعلى التقديرين فعلم ذلك مفوض إلى الله.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة مستقلة، إلا أن المقصود من ذكرها تعليل حسن التعذيب، والمعنى: أو يعذبهم فإنه إن عذبهم إنما يعذبهم لأنهم ظالمون أ.هـ.

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

قال ابن عطية: كان النبی ﷺ لحقه فى تلك الحال يأس من فلاح كفار قريش؛ فمالت نفسه إلى أن يستأصلهم الله، ويريح منهم. فقيل له: بسبب ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى عواقب الأمور بيد الله فامض أنت لشأنك، ودم على الدعاء لربك.

وقال غيره: المعنى أن الله تعالى مالك أمرهم، فإما أن يهلكهم أو يكتبهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا، وليس لك من أمرهم شيء، وإنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم، فعلى هذا يكون قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اعتراض المعطوف والمعطوف عليه.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

أى: نزلت هذه الآية، والخطاب فيها للرسول ﷺ.

و﴿شَيْءٌ﴾: نكرة فى سياق النفي؛ فتعم.

قوله: ﴿الْأَمْرِ﴾؛ أى: الشأن، والمراد: شأن الخلق، فشأن الخلق إلى خالقهم، حتى النبى ﷺ ليس له فيهم شيء.

ففى الآية خطاب للرسول ﷺ وقد شجَّ وجهه، وكُسِرت ربايعته، ومع ذلك ما عذره الله - سبحانه - فى كلمة واحدة: «كيف يُفلح قوم شجوا نبىهم؟»^(٣)، فإذا كان الأمر كذلك؛ فما بالك بمن سواه؟ فليس لهم من الأمر شيء؛ كالأصنام، والأوثان، والأولياء،

(١) تيسير العزيز الحميد. (٢) القول المفيد ١/ ٣٧٣ و ٣٧٤.

(٣) تقدم تخريجه

وَفِيهِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرُّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ» «اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا» بَعْدَمَا يَقُولُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» (١).

والأنبياء؛ فالأمر كله لله وحده، كما أنه الخالق وحده، والحمد لله الذي لم يجعل أمرنا إلى أحد سواه؛ لأنَّ المخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، فكيف يملك لغيره؟!

قلت: وتقدم نحو هذا الكلام

قوله: «فنزلت».

الفاء للسببية، وعليه؛ فيكون سبب نزول هذه الآية هذا الكلام: «وكيف يفلح قوم شجّوا وجه نبيهم؟».

قلت: وهذه صورة من ثلاث صور تدل دلالة قطعية على سبب النزول.

الصورة الثانية: وهى أصرح منها تعبيرهم عن السبب بلفظ: «سبب نزول الآية كذا» والثالثة وهى وهردونهما فى الدلالة أن يسأل ﷺ فيوحى إليه ويوجب بما نزل عليه، ولا يكون التعبير بسبب النزول ولا بتلك الفاء ولكن السببية تفهم قطعاً من المقام حديث ابن مسعود فى الصحيح لما سئل ﷺ عن الروح فرفع رأسه فعرف ابن مسعود أنه يوحى إليه ثم قال «قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» الآية.

قوله: (وفيه عن ابن عمر رضى الله عنهما...).

● مناسبة الآية التى فى الحديث للباب: قال القرعاوى حيث دلت الآية أن الأنبياء وهم أصلح الناس لا يملكون نفعاً ولا ضرراً، فكيف بمن دونهم أهـ (٣).

● مناسبة الآية التى فى الحديث للتوحيد: قال القرعاوى حيث دلت الآية على أن جلب النفع ودفع الضر من الأفعال الخاصة بالله، فيكون طلبها من غير الله شركاً به أهـ.

قوله: «وفيه».

أى فى صحيح البخارى فى ثلاثة أبواب فى المغازى والتفسير والاعتصام جميعاً بترجمة الآية ليس لك من الأمر شىء.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى «المغازى»/ باب: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» (٧/٤٢٢/ح ٤٠٦٩) وأحمد فى «مسنده» (١٤٧/٢)، والنسائى فى «الكبرى» فى «التفسير» (٦/٣١٤/١١٠٧٦). وانظر ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (ح ٤١٢٥) بتخریجنا)، وفتح القدير (ح ٢٨٧٠) «وفتح المجيد» (ح ٣٠٩) بتخریجنا.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٧١) عن ابن مسعود به وأنظر «فتح القدير» بتخریجنا

(٣) الجديد (١٤١، ١٤٣).

وفى رواية: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَتَنَزَّلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (١).

قوله: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرُّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ».

وفى رواية البخارى فى الاعتصام وسمع النبى ﷺ يقول فى صلاة الفجر ورفع رأسه من الركوع.

وفى التفسير بلفظ «سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الآخرة من الفجر».

قال ابن عثيمين (٢): وقد قيد مكان الدعاء من الصلوات بالفجر وما كان من الركعات بالآخرة، وما كان من الركن بما بعد الرفع من الركوع أ.هـ.
قوله: [عن ابن عمر].

قال ابن حجر (٣): هو أحد العبادلة، وفقهاء الصحابة والمكثرين منهم، وأمه زينب، ويقال رائطة بنت مظعون أخت عثمان وقدامة ابنى مظعون، للجميع صحبة، وكان مولده فى السنة الثانية أو الثالثة من المبعث، فإنه ثبت أنه كان يوم بدر ابن ثلاث عشرة سنة، وكانت بدر بعد البعثة بخمس عشرة سنة. وفى تاريخ وفاته فى كتاب الصلاة عند البخارى وأنها كانت بسبب من دسه عليه الحجاج فمس رجله بحربة مسمومة فمرض بها إلى أن مات أوائل سنة أربع وسبعين أ.هـ.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى «المغازى»/ باب «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» (٤٢٣/٧ ح ٤٠٧٠) قال الحافظ: وهم من زعم أنه معلق وقوله «سمعت سالم بن عبد الله يقول كان رسول الله ﷺ يدعوا إلخ» هو مرسل.

ووصله الترمذى فى «تفسير القرآن»/ باب: ومن سورة آل عمران (٢٢٧/٥ ح ٣٠٤ وأحمد فى مسنده» (٩٣/٢) من حديث ابن عمر.

قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب يستغرب من حديث عمر بن حمزة عن سالم عن أبيه وقد رواه الزهرى عن سالم عن أبيه لم يعرفه محمد بن إسماعيل من حديث عمر بن حمزة وخبره من حديث الزهرى وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣١٠).

(٢) القول المفيد/ ٣٧٥.

(٣) فتح البارى (١١٢/٧، ١١٣ ح ٣٧٣٨ - ٣٧٤١).

[قلت]: ومناقبه كثيرة، وأدخله البخارى فى مناقب الصحيح، وذكر له ثلاثة أحاديث فى فضله وفيه رؤية رآها وقصها على النبى ﷺ وفى آخرها قال ﷺ «نعم الرجل عبدالله لو كان يصلى من الليل» فكان عبدالله لا ينام من الليل إلا قليلاً^(١). والحديث الآخر قال ﷺ: «إن عبدالله رجل صالح»^(٢).

قوله: [إذا رفع رأسه من الركوع].

قال ابن حجر: الجملة حالية أى قال ذلك حال رفع رأسه من الركوع ويؤخذ منه أن محل القنوت عند رفع الرأس من الركوع لا قبل الركوع أهـ.
قوله: [من الركعة الأخيرة].

قال ابن حجر^(٣): أى الركعة الثانية من صلاة الصبح كما صرح بذلك فى رواية حبان بن موسى، وظن الكرماني أن قوله (فى الآخرة) متعلق بالحمد، وأنه بقية الذكر قاله النبى ﷺ فى الاعتدال فقال: فإن قلت: ما وجه التخصيص بالآخرة مع أن له الحمد فى الدنيا. ثم أجاب بأن نعيم الآخرة أشرف، فالحمد عليه هو الحمد حقيقة، أو المراد بالآخرة العاقبة أى مآل كل الحمد إليه، انتهى.

وليس لفظ (فى الآخرة) من كلام النبى ﷺ بل هو من كلام ابن عمر، ثم ينظر فى جمعه الحمد على حمود أهـ.

قوله: «اللهم العن فلاناً وفلاناً».

تقدّم أن اللعن من الله هو الطرد والإبعاد، ومن الناس الدعاء بذلك أو السب.
وتقدم فى الباب التاسع «ما جاء فى الذبح لغير الله» فى شرح حديث على «لعن الله من ذبح لغير الله»^(٤) تفصيل مسائل اللعن سواء المعين أو العام. فانظره.
قوله: «فلاناً وفلاناً» ابن حجر^(٥).

وفى رواية البخارى عن حنظلة بن أبى سفيان، سمعت سالم بن عبدالله يقول: كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام الحديث، قول البخارى عن حنظلة بن أبى سفيان معطوف على قوله أخبرنا معمر إلى آخره، والراوى له عن حنظلة هو عبدالله بن المبارك ووهم من زعم أنه معلق، وقوله سمعت

(١) أخرجه البخارى (٣٧٣٨) عن ابن عمر به.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٧٤٠، ٣٧٤١) عن حفصة.

(٣) فتح البارى (١٣/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٤) تقدم تخريجه (٥) الفتح (٧/ ٤٢٤).

سالم بن عبدالله يقول: كان رسول الله ﷺ هو مرسل، والثلاثة الذين سماهم قد أسلموا يوم الفتح، ولعل هذا هو السر في نزول قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ووقع في رواية يونس عن الزهري عن سعيد وأبي سلمة عن أبي هريرة نحو حديث ابن عمر، لكن فيه «اللهم العن لحيان ورعلاً وذكوان وعصية»^(١).

وقال الحافظ^(٢): وبينت هذه الرواية الثانية أنهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، وهذه الرواية أخرجها البخاري عقب هذا الحديث مرسله أمه.

وأخرج أحمد والترمذي هذا الحديث موصولاً من رواية عمر بن حمزة عن سالم عن أبيه فسميهم وزاد في آخر الحديث «فتيب عليهم كلهم»^(٣)، وأشار بذلك إلى قوله بقية الآية «أو يتوب عليهم».

ولأحمد أيضاً من طريق محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر كان رسول الله ﷺ يدعو على أربعة، فنزلت، قال وهدهم الله للإسلام وكان الرابع عمرو بن العاص^(٤) وقد عزاه السهلي لرواية الترمذي، لكن لم أره فيه والله أعلم. كذا قال ابن حجر أ. هـ. وقال ابن حجر في موضع آخر^(٥) قوله (فلاناً وفلاناً): قال الكرمانى: يعنى رعل وذكوان، ووهم في ذلك، وإنما سمى ناساً بأعيانهم لا قبائل أمه.

وعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ يوم أحد: «اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحارث بن هشام اللهم العن سهيلاً بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية، فنزلت هذه الآية، «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ» فتيب عليهم كلهم^(٦).

فلعل الرابع على هذه الرواية هو أبو سفيان.

والرواية التي أشار إليها الحافظ عزاه السيوطي في «الدر» للترمذي وصححها وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال «كان النبي ﷺ يدعو على أربعة نفس فأنزل الله «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» الآية، فهداهم الله للإسلام^(٧).

وفي المعنى أيضاً جاء عن سالم بن عبدالله بن عمر، قال: جاء رجل من قريش إلى النبي ﷺ فقال إنك تنهى عن السبي يقول قدي سبي العرب ثم تحول ففاه إلى النبي ﷺ وكشف إسته فلعنه ودعى عليه فأنزل الله «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» ثم أسلم الرجل فحسن إسلامه^(٨).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٨٠٤)، ومسلم في المساجد (٣/ ٢٩٤/ ١٩٠) عن أبي هريرة به.

(٢) الفتح ٧٤/ ٨.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٣/ ٢)، والترمذي (٣٠٠٤) عن ابن عمر به وانظر «فتح القدير

بتخريجنا.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٨/ ٢) به. (٥) الفتح (٣٢٦/ ١٣).

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) تقدم.

(٨) ذكره السيوطي في «الدر» (١٢٧/ ٢) ونسبه لابن إسحاق، والنحاس في «ناسخة».

وفى الباب عن ابن عمر أن النبی ﷺ لعن فى صلاة الفجر بعد الركوع - فى الركعة الآخرة - فقال: «اللهم العن فلاناً وفلاناً ناساً من المنافقين دعا عليهم - فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾» (١).

عن أبى هريرة رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع فربما قال إذا قال سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد: اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة، اللهم أشدد وطأتك على مضر، واجعلها سنين كسنى يوسف. يَجْهَرُ بِذَلِكَ. وكان يقول فى بعض صلاته فى صلاة الفجر: اللهم العن فلاناً وفلاناً - لأحياء من العرب - حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية (٢) رواه البخارى.

قال ابن حجر: قوله: (كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد) أى فى صلاته.

قوله: (قنت بعد الركوع) تمسك بمفهومه من زعم أن القنوت قبل الركوع، قال: وإنما يكون بعد الركوع عند إرادة الدعاء على قوم أو لقوم.

وتعقب باحتمال أن مفهومه أن القنوت لم يقع إلا فى هذه الحالة.

ويؤيده ما أخرجه ابن خزيمة بإسناد صحيح عن أنس «أن النبی ﷺ كان لا يقنت إلا إذا دعا لقوم أو دعا على قوم» (٣).

قوله: (وكان يقول فى بعض صلاته فى صلاة الفجر) كأنه يشير إلى أنه لا يداوم على ذلك.

قوله: (اللهم العن فلاناً وفلاناً لأحياء من العرب) وقع تسميتهم فى رواية يونس عن الزهرى عند مسلم بلفظ «اللهم العن رعلأ وذكوان وعصية».

قوله: (حتى أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾) تقدم استشكله، وأن قصة رعل وذكوان كانت بعد أحد، ونزول ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كان فى قصة أحد فكيف يتأخر السبب عن النزول؟.

ثم ظهر لى علة الخبر وأن فيه إدراجاً، وأن قوله «حتى أنزل الله» منقطع من رواية الزهرى عن بلغة.

بين ذلك مسلم فى رواية يونس المذكورة فقال هنا قال يعنى الزهرى ثم بلغنا أنه ترك

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (١٢٧/٢) ونسبه لعبد بن حميد، والنحاس فى ناسخه.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٠٠٦)، ومسلم فى المساجد (٣/١٩١/٢٩٥) عن أبى هريرة به.

(٣) أخرجه ابن خزيمة فى «صحيحه» (٦٢٠) عن أنس به.

ذلك لما نزلت وهذا البلاغ لا يصح لما ذكرته، وقد ورد في سبب نزول الآية شيء آخر لكنه لا ينافي ما تقدم، بخلاف قصة رعل وذكوان، فعند أحمد ومسلم من حديث أنس «أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية (١)».

وطريق الجمع بينه وبين حديث ابن عمر أنه ﷺ دعا على المذكورين بعد ذلك في صلاته فتزلت الآية في الأمرين معاً، فيما وقع له من الأمر المذكور وفيما نشأ عنه من الدعاء عليهم، وذلك كله في أحد، بخلاف قصة رعل وذكوان فإنها أجنبية.

ويحتمل أن يقال إن قصتهم كانت عقب ذلك وتأخر نزول الآية عن سببها قليلاً، ثم نزلت في جميع ذلك، والله أعلم.

قوله «بعد ما يقول سمع الله لمن حمده».

قال ابن الأثير: أجاب الله حمده وتقبله (٢).

قوله: «ربنا ولك الحمد».

في بعض روايات البخاري بإسقاط الواو، قال ابن دقيق العيد: «كأن إثباتها دال على معنى زائد؛ لأنه يكون التقدير: ربنا استجب ولك الحمد. فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر.

قال ابن حجر (٣): «ربنا ولك الحمد» معين لكون الرفع من الركوع؛ لأنه ذكر الاعتدال أهـ.

وقد تقدم معنى الحمد في بداية الكتاب.

وقال ابن تيمية: والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له كما أن الذم يكون على مساويه مع البغض له.

ونحو من هذا قول ابن القيم.

- فوائد الحديث:

- جواز الدعاء على المشركين، بأعيانهم في الصلاة وأن ذلك لا يضر بالصلاة.

- التصريح بأن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد وهو قول الشافعي وأحمد وخالف في ذلك مالك وأبو حنيفة.

(١) تقدم تخريجه

(٢) النهاية ٢/ ٤٠١

(٣) الفتح ١٣/ ٣٢٥.

- أن سبب دعاء النبي ﷺ على المذكورين لكونهم لم يذعنوا للإيمان ليعتصموا به من اللعن؛ لذلك أدخل الحديث البخاري في كتاب الاعتصام.

- الإشارة إلى الخلاف المشهور في أصول الفقه، وهو هل كان له ﷺ أن يجتهد في الأحكام أولاً^(١). واستدل من قال بالاجتهاد بهذا الحديث وأمثاله بقوله ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾.

وبقوله: «وشاورهم في الأمر».

ويقول عمر: «إن الرأي كان من الرسول مصيباً وإنما كان منا الظن والتكلف».

قال ابن حجر: وبهذا يمكن أن يقال كان يجتهد ولكنه لا يقع فيما اجتهد فيه خطأ أصلاً^(٢) أ.هـ.

قوله: «وفي رواية».

تقدم أنها عند البخاري مرسلة وأسندها أحمد وغيره.

قوله: «صفوان بن أمية وسعيد بن عمرو والحارث بن هشام».

وذلك لأنهم رؤوس المشركين يوم أحد، هم وأبو سفيان بن حرب، فما استجيب له ﷺ فيه، بل أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فتاب عليهم وحسن إسلامهم كما تقدم. حتى خلس الأمر لله من قبل ومن بعد، يهدي من يشاء بفضلته ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته وليس بعيداً من ذلك قصة الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً وسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على عابده فقال ليس لك توبة فأكمل به المائة، ثم دل على عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا انتصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فاتأهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم «حكماً»، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقياسوا فرجوده أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة^(٣) متفق عليه.

(٢) الفتح ١٣/٣٠٤ و٣٠٥.

(١) الفتح (١٣) / ٣٢٥.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم في الذكر والدعاء والاستغفار (١٧/٨٢ - النوى)

عن أبي سعيد به.

وأنظر «رياض الصالحين» (٢١) - بتخریجنا).

وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١)، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ (أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا) - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ إِلَّا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا أُغْنِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! سَلِّينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا (٢).

مناسبة الحديث للباب:

قال السعدي (٣): إذا كان أشرف الخلق على الإطلاق لا يملك نفع أقرب الخلق إليه وأمسهم به رحماً فكيف بغيره؟ فبئس لمن أشرك بالله وسأوى به أحداً من المخلوقين، لقد سلب عقله بعد ما سلب دينه أهـ.

وقال القرعاوي (٤): حيث دل الحديث على أن الأنبياء لا يملكون لأحد نفعاً ولا ضرراً، فكيف بمن دونهم أهـ.

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوي: حيث دل الحديث على أن جلب النفع ودفع الضرر من الأفعال الخاصة بالله، فيكون طلبها من غير الله شركاً به أهـ.



ولفظه في الصحيح عن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: «قام رسول الله ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ (أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا) - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ﷺ سَلِّينِي مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا».

(١) الشعراء: ٢١٤

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري في «التفسير»/ باب: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٨/ ٣٦٠/ ٤٧٧١) ومسلم في «الإيمان» (٢/ ٨٢/ ٣٥١)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٦٠) وابن جرير في «تفسيره» (١٩/ ٧٣)، والترمذي في «التفسير»/ باب: ومن سورة الشعراء (٥/ ٣٣٨/ ٣١٨٥)، والنسائي في «الكبرى» في «التفسير» (٦/ ٤٢٣/ ١١٣٧٧).

وذكره السيوطي في «الدر» (٥/ ١٧٩) وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (٩٧٧٢ - و«فتح المجيد» (ح ٢١٣) بتخريجه).

(٢) القول السديد (٥٢). (٤) الجديد (١٤٥).

وفي الصحيح عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادى: يا بني فهر، يا بني عدي - لبطون قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يُدَى أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ﴾ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (١).

قوله: (- وفيه عن أبي هريرة - رضى الله عنه، قال قام فينا رسول الله) وفي طريق آخر عن ابن عباس.

قوله: (عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

قال ابن حجر (٢): هذا من مراسيل الصحابة، وبذلك جزم الإسماعيلي لأن أبا هريرة إنما أسلم بالمدينة، وهذه القصة وقعت بمكة، وابن عباس كان حينئذ إما لم يولد وإما طفلاً. ويؤيد الثاني نداء فاطمة فإنه يشعر بأنها كانت حينئذ بحيث تخاطب بالأحكام، وفي السيرة النبوية احتمال أن تكون هذه القصة وقعت مرتين، لكن الأصل عدم تكرار النزول.

وقد صرح في هذه الرواية بأن ذلك وقع حين نزلت. نعم وقع عند الطبراني من حديث أبي أمامة قال «لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾ جمع رسول الله ﷺ بني هاشم ونساء وأهله فقال: «يا بني هاشم، اشتروا أنفسكم من النار، واسعوا في فكاك رقابكم. يا عائشة بنت أبي بكر، يا حفصة بنت عمر ويا أم سلمة» فذكر حديثاً طويلاً (٣).

فهذا إن ثبت دل على تعدد القصة، لأن القصة الأولى وقعت بمكة لتصريحه في حديث الباب أنه صعد الصفا، ولم تكن عائشة وحفصة وأم سلمة عنده ومن أزواجه إلا بالمدينة، فيجوز أن تكون متأخرة عن الأولى فيمكن أن يحضرها أبو هريرة وابن عباس أيضاً، ويحمل قوله «لما نزلت... جمع» أي بعد ذلك، لا أن الجمع وقع على الفور، ولعله كان نزل أولاً ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فجمع قريشاً فعم ثم خص كما سيأتى، ثم نزل ثانياً ﴿وَرَهْطُكَ مِنْهُمْ الْخَالِصِينَ﴾ فخص بذلك بني هاشم ونساء والله أعلم. وفي هذه الزيادة تعقب على النووي حيث قال في «شرح مسلم» إن

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٨٠١)، ومسلم فى الإيمان (٣٥٥/٨٣/٢) عن ابن عباس به.

(٢) فتح البارى (٨/٣٦٠ - ٣٦٢).

(٣) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٨/٢٦٨ - ٧٨٩٠) قال الهيثمى فى «الجح» (٨٦/٧): وفيه على بن

يزيد الألهانى وهو متروك.

البخارى لم يخرجها أعنى «ورَهطك منهم المخلصين» اعتماداً على ما فى هذه السورة، وأغفل كونها موجودة عند البخارى فى سورة «تبت».

قال القرطبي: لعل هذه الزيادة كانت قرأنا فنسخت تلاوتها: ثم استشكل ذلك بأن المراد إنذار الكفار، والمخلص صفة المؤمن.

والجواب عن ذلك: أنه لا يمتنع عطف الخاص على العام. فقله «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ» عام فيمن آمن منهم ومن لم يؤمن، ثم عطف عليه الرهط المخلصين تنبيهاً بهم وتأكيذاً. قال ابن حجر^(١): والسر فى الأمر بإنذار الأقربين أولاً أن الحجة إذا قامت عليهم تعدت إلى غيرهم وإلا فكانوا علة للأبعدين فى الإمتناع، وأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقرىب من العطف والرافة فيحاييهم فى الدعوة والتخويف، فلذلك نص له على إنذارهم.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): وقد أمره الله أيضاً بالندارة العامة كما قال «لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا»^(٣) وقال: «لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ»^(٤) ولاتنأى بينهما، لأن الندارة الخاصة فرد من أفراد العامة.

قوله: «قام»^(٥) أى خطيباً، وفى الصحيح من رواية ابن عباس «صعد رسول الله على الصفا.

قوله: «حين أنزل عليه: أى بواسطة جبريل «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» ويستفاد من ذلك أنه لم يتأخر بل قام فقال: «يا معشر قريش...».

قوله: «أُنذِرْ» أى حذر وخوف والإنذار الإعلان المقرون بالتخويف.

قوله: «عَشِيرَتَكَ»: عشيرة الرجل هم بنو أبيه الأدنون من الجد الرابع فما دون، أو قبيلته، لأنهم أحق الناس ببرك وإحسانك الدينى والدينوى. كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ»^(٦).

(١) فتح البارى (٨/ ٣٦٠ - ٣٦٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد ١٩٠.

(٣) مريم/ ٩٧.

(٤) يس/ ٦.

(٥) تيسير العزيز الحميد (١٩٠).

(٦) التحريم/ ٦.

وقال ﷺ حينما سئله رجل من أحق بحسن صحابتي؟ قال: «أمك. ثم أمك. ثم أمك. ثم أمك. ثم أبوك. ثم أدناك أدناك» (١).

وهو شاهد لقوله ﷺ حينما سئل أيضاً من أبر قال أمك. قال: ثم من قال: ثم أباك ثم أختك وأخاك (٢).

قوله: «الأقربين» أى الأقرب فالأقرب على النحو المتقدم بيانه من الآية والحديث، الولد ثم الأم ثم الأب ثم الإخوة ثم الأعمام وهكذا.

قوله: «يا معشر قريش» المعشر كمسكن: الجماعة أى يا جماعة قريش، وقريش هو فهر بن النضر بن مالك أحد أجداد الرسول ﷺ كذا قال ابن عثيمين.

وذكر الشوكانى ذلك فى «فتح القدير». وذكر قولاً آخر. أنهم هم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى، وقال: هذا القول أصح.

قال ابن عثيمين (٣): ويؤخذ من هذا أن الأقرب أولى بالإنذار، لأن الحكم المعلق على وصف يقوى بقوة هذا الوصف، وذلك أن الوصف الموجب للحكم كلما كان أظهر وأبين، كان الحكم فيه أظهر وأبين أهد.

— لماذا سميت قريش بهذا الاسم؟

ذكر الرازى وجوهاً فى تسميتها:

أحدها: أنه تصغير القرش وهو دابة عظيمة تعبن بالسفن، ونسب ذلك لابن عباس.

الثانى: أنه مأخوذ من القرش وهو الكسب.

الثالث: قال الليث: كانوا متفرقين فى غير الحرم فجمعه قُصيّ بن كلاب فى الحرم، حتى اتخذوها مسكناً فسميت قريش لأنّ القرش هو التجمع وذكر رابعاً.

قوله: «أو كلمة نحوها» هو بنصب كلمة عطف على ما قبلها وقوله «نحوها» أى بمعناها أو شبهها، وهذا احتراز من الرواة، إذا شكوا أدنى شك، قالوا: «أو كما قال» أو كلمة نحوها، وما أشبه ذلك، حتى لا يقعوا فى وعيد المتعمد الكذب على الرسول ﷺ. قوله: «اشترؤا أنفسكم».

قال ابن حجر: قوله: فى حديث أبى هريرة «اشترؤا أنفسكم من الله» أى باعتبار

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٩٧١)، مسلم فى البر والصله (١٦/١٠٢- النووى) عن أبى هريرة به، وعند البخارى بدون لفظ «ثم أدناك أدناك».

وأُنظر «رياض الصالحين» (٣١٨- بتخريجنا)

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٤٠) عن كليب بن منفعة عن جده به

(٣) القول المفيد (١/٣٧٨).

تخليصها من النار، كأنه قال أسلموا تسلموا من العذاب، فكان ذلك كالشراء، كأنهم جعلوا الطاعة ثمن النجاة. وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ فهناك المؤمن بائع باعتبار تحصيل الثواب والتمن الجنة.

وفيه إشارة إلى أن النفوس كلها ملك لله تعالى، وأن من أطاعه حق طاعته في امتثال أوامره واجتناب نواهيه وفي ماعليه من الثمن، وبالله التوفيق.

قوله: «لا أغنى عنكم من الله شيئاً».

قال ابن عثيمين: (١) هذا هو الشاهد من الحديث على الترجمة في هذا الباب، أي لا أدفع أولاً أنفع.

أي لا أنفعكم بدفع شيء عنكم دون الله، ولا أمنعكم من شيء، أراد الله لكم؛ لأن الأمر بيد الله، ولهذا أمر الله نبيه بذلك؛ فقال: «قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً» أهـ.

قوله: «شيئاً» قال ابن عثيمين: نكرة في سياق النفي؛ فتعم أي شيء (٢).

وفي هذا حجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين ورغب إليهم ليشفعوا له وينفعوه أو يدفعوا عنه، فإن ذلك هو الشرك الذي حرّمه الله تعالى وأقام نبيه بالإنذار عنه (٣).

وسقط من لفظ المصنف في الترجمة.

قوله: (يا بني عبد مناف، اشتروا أنفسكم من الله، يا عباس إلخ) وهي ثابتة في الصحيح في رواية موسى بن طلحة عن أبي هريرة عند مسلم وأحمد «دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعم وخص فقال: يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بنى كعب كذلك، يا معشر بنى هاشم كذلك، يا معشر بنى عبدالمطلب كذلك» الحديث.

ووقع عند البلاذري من وجه آخر عن ابن عباس أبين من هذا ولفظه «فقال: يا بني فهر، فاجتمعوا. ثم قال: يا بني غالب، فرجع بنو محارب والحارث ابنا فهر. فقال: يا بني لؤي، فرجع بنو الأدرم بن غالب. فقال: يا آل كعب، فرجع بنو عدى وسهم وجمع فقال: يا آل كلاب، فرجع بنو مخزوم وتيم. فقال: يا آل قصي، فرجع بنو زهرة. قال: يا آل عبد مناف، فرجع بنو عبدالدار وعبدالعزيز. فقال له أبو لهب: هؤلاء بنو عبدمناف عندك».

(١) القول المفيد (١/ ٣٧٩).

(٢) القول المفيد ١/ ٣٧٩.

(٣) فتح المجيد ١/ ٢٤٠.

وعند الواقدي أنه قصر الدعوة على بنى هاشم والمطلب، وهم يومئذ خمسة وأربعون رجلاً.

وفى حديث على عند ابن إسحق والطبري والبيهقي في «الدلائل» أنهم كانوا حينئذ أربعون يزيدون رجلاً أو ينقصون وفيه عمومته أبو طالب وحزمة والعباس وأبو لهب^(١). ولا بن أبي حاتم من وجه آخر عنه أنهم يومئذ أربعون غير رجل أو أربعون ورجل^(٢).

وفى حديث على من الزيادة أنه صنع لهم شاة على ثريد وقعب لبن، وأن الجميع أكلوا من ذلك وشربوا وفضلت فضلة، وقد كان الواحد منهم يأتي على جميع ذلك^(٣). قوله: «يا عباس بن عبدالمطلب، لا أغنى عنك من الله شيئاً».

قال ابن عثيمين: بنصب «بن»، ويجوز الرفع والنصب في «عبّاس» وهو عم النبي ﷺ وعبد المطلب جد النبي ﷺ وعبّاس؛ بالضم؛ لأن المنادي إذا كان معرفة بيني على الضم، ونعته إذا كان مضافاً ينصب، وهنا ابن عبدالمطلب. ولهذا نصب. إشكال:

فإن قيل: كيف يقول النبي ﷺ عبد المطلب مع أنه لا يجوز أن يضاف عبد إلا إلى الله عز وجل؟ فالجواب:

قال ابن عثيمين: إن هذا ليس بإنشاء، بل هو خبر، فاسمه عبدالمطلب، ولم يسمه النبي ﷺ لكن اشتهر بعبدالمطلب، ولهذا انتهى إليه الرسول ﷺ فقال: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب^(٤).

فلو فرض أن لك أب يسمى عبدالمطلب أو عبدالعزيز؟ فإنك تتسبب إليه، ولا يعد هذا إقراراً، ولكنه خبر عن أمر واقع؛ كما لو قلت: كفر فلان وناق فلان، وما أشبه ذلك، ولكن إذا كان موجوداً غيرنا اسمه إذا كان لا يجوز^(٥). أهـ. قوله: «ياصفية عمة رسول الله ﷺ».

قال الحافظ: بنصب عمة، ويجوز في صفية الرفع والنصب وكذا القول في قوله يافاطمة بنت محمد.

قوله: «ويافاطمة بنت محمد».

قال الحافظ^(٦): واستدل بعض المالكية بقوله في هذا الحديث «يا فاطمة بنت محمد،

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (١٨/٥) ونسبه لابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي في «الدلائل» عن علي. وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخريخنا.

(٢) تقدم قبله (٣) انظر ما تقدم. (٤) انظر ما تقدم.

(٥) القول المفيد ١/ ٣٨٠. (٦) فتح الباري (٨/ ٣٦٠).

سلينى من مالى ما شئت، لا أغنى عنك من الله شيئاً» أن النيابة لا تدخل فى أعمال البر، إذ لو جاز ذلك لكان يتحمل عنها ﷺ بما يخلصها، فإذا كان عمله لا يقع نيابة عن ابنته فغيره أولى بالمنع.

وتعقب بأن هذا كان قبل أن يعلمه الله تعالى بأنه يشفع فيمن أراد وتقبل شفاعته، حتى يدخل قوما الجنة بغير حساب، ويرفع درجات قوم آخرين، ويخرج من النار من دخلها بذنوبه، أو كان المقام مقام التخويف والتحذير أو أنه أراد المبالغة فى الخس على العمل، ويكون فى قوله «لا أغنى شيئاً» إضمار إلا إن أذن الله لى بالشفاعة.

● فائدة:

قوله ﷺ «لا أغنى عنك من الله شيئاً» كقوله ﷺ «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» قال ابن رجب^(١): وقد أمر الله تعالى بالمسارعة إلى مغفرته ورحمته بالأعمال كما قال تعالى: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»^(٢).

وقال: «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ»^(٣) قال ابن مسعود: يأمر الله بالصراط فيضرب على جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم زمرا زمرا، أوائلهم كلمح البرق ثم كمر الريح ثم كمر المطر ثم كمر البهائم حتى يمر الرجل سعيًا وحتى يمر الرجل مشيًا وحتى يمر آخرهم يتلبط على بطنه، فيقول: يارب لم أبطأت بى؟ فيقول: إني لم أبطىء بك إنما أبطأ بك عملك.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئاً يا بنى عبدالمطلب لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبدالمطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة النبى ﷺ لا أغنى عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً»^(٤). وفى رواية خارج الصحيحين «إن أوليائى منكم

(١) جامع العلوم (٦١٦/٢ - ٦١٨) بتخريجنا.

(٢) آل عمران: ١٣٤/١٣٣.

(٣) المؤمنون: ٩١/٥٧.

(٤) تقدم تخريجہ.

المتقون، لا يأتى الناس بالأعمال وتأتونى بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون: يا محمد، يا محمد فأقول: قد بلغت» (١).

وخرج ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن أوليائى المتقون يوم القيامة، وإن كان نسب أقرب من نسب، يأتى الناس بالأعمال وتأتونى بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون: يا محمد يا محمد، فأقول: هكذا وهكذا وأعرض فى كلا عطفه» (٢).

وخرج البزار من حديث رفاعة بن رافع أن النبى ﷺ قال لعمر: «اجمع لى قومك: يعنى قريشا، فجمعهم، فقال: إن أوليائى منكم المتقون، فإن كنتم أولئك فذاك وإلا فانظروا، يأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتونى بالأنفال فيعرض عنكم» (٣).
وخرجه الحاكم مختصراً وصححه.

وفى المسند عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ لما بعثه إلى اليمن خرج معه يوصيه، ثم التفت وأقبل بوجهه إلى المدينة فقال: «إن أولى الناس بى المتقون من كانوا وحيث كانوا» (٤).

وخرجه الطبرانى وزاد فيه «إن أهل بيتى هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بى وليس كذلك، إن أوليائى منكم المتقون من كانوا وحيث كانوا» (٥).

ويشهد لهذا كله ما فى الصحيحين عن عمرو بن العاص «أنه سمع النبى ﷺ يقول: إن آل أبى فلان ليسوا لى بأولياء، وإنما لى الله وصالحوا المؤمنين» (٦) يشير إلى أن ولايته لاتنال بالنسب بأولياء، وإنما لى الله وصالحوا المؤمنين، يشير إلى أن ولايته لاتنال بالنسب وإن قرب وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح، فمن كان أكمل إيماناً وعملاً فهو أعظم ولاية له، سواء كان له نسب قريب أو لم يكن، وفى هذا المعنى يقول بعضهم:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلاترك التقوى اتكالاً على النسب

لقد رفع الإسلام سلمان فارسى وقد وضع الشرك النسب أبا لهب

قوله: «سلينى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً».

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة (٧): قال: قال: رسول الله ﷺ من نفس عن مؤمن

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/ ٣٤٠) عن رفاعة بن رافع بنحوه

(٢) ذكره ابن رجب فى «جامع العلوم والحكم» (٦١٧/٢) ونسبه لابن أبى الدنيا.

(٣) تقدم قيل حديث.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٣٥)، والطبرانى فى «الكبير» (٢٠/ ٥٤١٨٢٠) وجود إسناده

الهيئى فى المجمع (١٠/ ٢٣٢).

(٥) ما قبله.

(٦) [متفق عليه]. أخرجه البخارى (٥٩٩٠)، ومسلم (٨٧/٣ - النووى). وانظر «جامع العلوم والحكم»

(٦١٧/٢ - بتخريجه)

(٧) مسلم فى الذكر والدعاء (١٧/ ٢١ و ٢٢ النووى) وانظر جامع العلوم والحكم بتخريجنا (٢/ ٥٩٥)

ط نزار الباز.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ.

الثانية: قِصَّةُ أَحَدٍ.

الثالثة: قُنُوتُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَخَلْفَهُ سَادَاتُ الْأَوْلِيَاءِ يُؤْمِنُونَ فِي الصَّلَاةِ.

الرابعة: أَنَّ الْمَدْعُوَّ عَلَيْهِمْ كُفَّارٌ.

كربة من كرب الدنيا... الحديث وفي آخره... ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

قال ابن رجب: فمن أبطأ به عمله أن يبلغ به المنازل العالية عند الله، لم يسرع به نسبه فيبلغه تلك الدرجات، فإن الله تعالى رتب الجزاء على الأعمال لا على الأنساب. كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾. أهـ.

وتقدم تمام كلام ابن رجب قبل هذا

قال ابن عثيمين:

قوله: فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين.

وهما آيتا الأعراف، وسبق ذلك في أول الباب، والاستفهام فيهما للتوبيخ والإنكار، وكذلك سبق تفسير الآية الثالثة آية فاطر.

الثانية: قصة أحد.

يعنى: حيث شُجَّ النَبِيُّ ﷺ ... الحديث.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين ... إلخ.

أراد المؤلف بهذه المسألة أَنَّ النَبِيَّ ﷺ سيد المرسلين، وأصحابه سادات الأولياء، ومع هذا ما أنقذوا أنفسهم؛ فكيف ينقذون غيرهم؟! وليس مراده رحمه الله مجرد إثبات القنوت والتأمين عليه، ولهذا جاءت العبارات بسيد وسادات؛ فلا أحد من هذه الأمة أقرب إلى الله من الرسول وأصحابه، ومع ذلك يلجؤون إلى الله - سبحانه - في كشف الكربات، ومن كانت هذه حاله؛ فكيف يمكن أن يلجأ إليه في كشف الكربات؟! فليس مراد المؤلف إثبات مسألة فقهية.

قلت: وفي ذلك معنى قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ﴾ الآية.

الخامسة: أَنَّهُمْ فَعَلُوا أَشْيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ الْكُفَّارِ، مِنْهَا: شَجَّهَهُمْ نَبِيِّهِمْ، وَحَرَضَهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، وَمِنْعَهَا التَّمَثِيلُ بِالْقَتْلِ مَعَ أَنَّهُمْ بَنُو عَمِّهِمْ.

السادسة: أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

السابعة: قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ فَتَابَ عَلَيْهِمْ، فَأَمَّنُوا.

الرابعة: أَنَّ المدعو عليهم كفَّار.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾؛ فهذا دليل على أَنَّهُم الآن ليسوا على حال مرضية، ومن المعلوم أَنَّ صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وقت الدعاء عليهم كانوا كفَّاراً.

وهذا المسألة - أى أَنَّ المدعو عليهم كفَّار - ترمى إلى أَنَّ الرسول ﷺ وإن كان يرى أَنَّهُ دعا عليهم بحق؛ فقد قطع الله - سبحانه وتعالى - أَنَّ يكون له من الأمر شيء لأنَّه قد يقول قائل: إذا كانوا كفَّاراً؛ أليس يملك الرسول ﷺ أَنْ يدعو عليهم؟

نقول: حتى فى هذه الحال لا يملك من أمرهم شيئاً، هذا وجه قول المؤلف أَنَّ المدعو عليهم كفَّار، وليس مراده الإعلام بكفرهم؛ لأن هذا معلوم لا يستحق أَنْ يُعْتَوَّنَ له، بل المراد فى هذه الحال الذى كان هؤلاء كفَّاراً لم يملك النبي ﷺ شيئاً بالنسبة إليهم.

الخامسة: أَنَّهُمْ فَعَلُوا أَشْيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ الْكُفَّارِ ...

أى: إِنَّهُمْ مع كفرهم كانوا معتدين، ومع ذلك قيل له فى حَقِّهِمْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وإلا؛ فهم شَجُّوا النبي ﷺ، ومَثَّلُوا بِالْقَتْلِ مثل حمزة بن عبدالمطلب، وكذلك أيضاً حرصوا على قتل النبي ﷺ، مع أَنَّ كل هؤلاء فيهم من بنى عمهم، وفيهم من الأنصار.

السادسة: أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

أى: مع مَا تَقْدِمُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَقْتَضِي أَنَّ يكون للنبي ﷺ حق بأن يدعو عليهم أَنزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ فالأمر لله وحده، فإذا كان الرسول ﷺ قد قُطِعَ عنه هذا الشيء؛ فغيره من باب أولى.

السابعة: قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، فَتَابَ عَلَيْهِمْ، فَأَمَّنُوا.

وهذا دليل على كمال سلطان الله وقدرته؛ فهؤلاء الذين جرى منهم ما جرى تاب الله عليهم وأمنوا، لأنَّ الأمر كله بيده سبحانه، وهو الذى يذل من يشاء ويعز من يشاء، ومن ذلك ما جرى من عمر رضى الله عنه قبل إسلامه من العداوة الظاهرة للإسلام، وما

الثامنة: القنوتُ في النَّوَازِلِ.

جرى منه بعد إسلامه من الولاية والنصرة لدين الله تعالى؛ فرسول الله ﷺ ومن دونه لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً من أمر الله.

الثامنة: القنوت في النوازل.

وهذه هي المسألة الفقهية، فإذا نزل بالمسلمين نازلة؛ فإنه ينبغي أن يدعى لهم حتى تنكشف.

وهذا القنوت مشروع في كل الصلوات، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه أحمد وغيره^(١)؛ إلا أن الفقهاء رحمهم الله استثنوا الطاعون، وقالوا: لا يفتن له لعدم ورود ذلك، وقد وقع في عهد عمر رضي الله عنه ولم يفتن، ولأنه شهادة؛ فلا ينبغي الدعاء برفع سبب الشهادة.

وظاهر السنة أن القنوت إنما يشرع في النوازل التي تكون من غير الله، مثل: إيذاء المسلمين والتضييق عليهم، أمّا ما كان من فعل الله؛ فإنه يشرع له ما جاءت به السنة، مثل الكسوف؛ فيشرع له صلاة الكسوف، والزلازل شرع لها صلاة الكسوف كما فعل ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذه صلاة الآيات، والجذب يُشرع له الاستسقاء، وهكذا.

وما علمت لساعتى هذه أن القنوت شرع لأمر نزل من الله، بل يدعى له بالأدعية الواردة الخاصة، لكن إذا ضيق على المسلمين وأوذوا وما أشبه ذلك؛ فإنه يفتن اتباعاً للسنّة في هذا الأمر.

ثم من الذي يفتن: الإمام الأعظم، أو إمام كل مسجد، أو كل مصل؟
المذهب: أن الذي يفتن هو الإمام الأعظم فقط الذي هو الرئيس الأعلى للدولة.
وقيل: يفتن كل إمام مسجد.

وقيل: يفتن كل مصل، وهو الصحيح؛ لعموم قول النبي ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٢)، وهذا يتناول قنوته ﷺ عند النوازل.

(١) أخرجه: أحمد في «مسنده» (٣٠١/١)، وأبو داود (١٤٤٣).

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري (٦٣١)، ومسلم في المساجد (١٧٤/٥ - النووي) عن مالك بن الحويرث به.

وانظر «منار السبيل» (٢٥٥ - بتحريجنا).

التاسعة: تَسْمِيَةُ الْمَدْعُوِّ عَلَيْهِمْ فِي الصَّلَاةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

وهم: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام؛ فسمّاهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، لكن هذا مشروع أو جائز؟

الجواب: هذا جائز وعليه، فإذا كان في تسمية المدعو عليهم مصلحة؛ كانت التسمية أولى، ولو دعا إنسان لأناس معينين في الصلاة جاز؛ لأنه لا يُعَدُّ من كلام الناس، بل هو دعاء، والدعاء مخاطبة الله تعالى، ولا يدخل في عموم قوله ﷺ: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس»^(١).

مسألة: هل الذي نهى عنه الرسول ﷺ الدعاء أو لعن المعينين؟

الجواب: المنهى عنه هو لعن الكفار في الدعاء على وجه التعيين، أما لعنهم عموماً؛ فلا بأس به، وقد ثبت عن أبي هريرة أنه كان يقنت ويلعن الكفرة عموماً، ولا بأس بدعائنا على الكافر بقولنا: اللهم! أرح المسلمين منه، واكفهم شره، واجعل شره في نحره، ونحو ذلك.

أما الدعاء بالهلاك لعموم الكفار؛ فإنه محل نظر، ولهذا لم يدع النبي ﷺ على قريش بالهلاك، بل قال: «اللهم! عليك بهم، اللهم! اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف»، وهذا دعاء عليهم بالتضييق، والتضييق قد يكون من مصلحة الظالم بحيث يرجع إلى الله عن ظلمه.

فالمهم أن الدعاء بالهلاك لجميع الكفار عندى تردد فيه.

وقد يستدل بدعاء خبيب حيث قال: «اللهم أحصهم عدداً، ولا تبق منهم أحداً»^(٢) على جوار ذلك؛ لأنه وقع في عهد الرسول ﷺ.

ولأن الأمر وقع كما دعا؛ فإنه ما بقى منهم أحد على رأس الحول، ولم ينكر الله تعالى ذلك، ولا أنكره النبي ﷺ، بل إن إجابة الله دعاءه يدل على رضاه به وإقراره عليه.

(١) تقدم تخريجه بلفظ: واعتقها فإنها مؤمنة

(٢) (صحيح) أخرجه البخارى (٤٠٨٦) عن أبي هريرة به.

العاشرة: لَعْنُ الْمُعِينِ فِي الْقُنُوتِ.

الحادية عشرة: قَصَّتُهُ ﷺ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾..

الثانية عشرة: جَدُّهُ ﷺ فِي هَذَا الْأَمْرِ، بِحَيْثُ فَعَلَ مَا نُسِبَ بِسَبِّهِ إِلَى الْجُنُونِ، وَكَذَلِكَ لَوْ يَفْعَلُهُ مُسْلِمٌ الْآنَ.

فهذا قد يُستدل به على جواز الدعاء على الكفار بالهلاك، لكن يحتاج أن يُنظر في القصة؛ فقد يكون لها أسباب خاصة لا تنأى في كل شيء.

ثم إن خيباً دعا بالهلاك لفئة محصورة من الكفار للجميع الكفار.

وفيه أيضاً إن صحَّ الحديث: دعاؤه على عتبة بن أبي لهب: «اللهم! سلط عليه كلباً من كلابك»^(١)، فيه دليل على الدعاء بالهلاك، لكن هذا على شخص معين لا على جميع الكفار.

العاشرة: لعن المعين في القنوت.

هذا غريب، فإن أراد المؤلف - رحمه الله - أن هذا أمر وقع، ثم نهى عنه؛ فلا إشكال، وإن أراد أنه يُستفاد من هذا جواز لعن المعين في القنوت أبداً، فهذا فيه نظر لأنَّ النبي ﷺ نهى عن ذلك.

الحادية عشرة: قَصَّتُهُ ﷺ لَمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

وهي أنه لما نزلت عليه الآية نادى قريشاً؛ فعم، ثم خصَّص، فامتثل أمر الله في هذه الآية.

الثانية عشرة: جَدُّهُ ﷺ فِي هَذَا الْأَمْرِ، بِحَيْثُ فَعَلَ مَا نُسِبَ بِسَبِّهِ إِلَى الْجُنُونِ.

أى: اجتهاده ﷺ فِي هَذَا الْأَمْرِ، بِحَيْثُ قَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا جَنٌّ، كَيْفَ يَجْمَعُنَا وَيُنَادِينَا هَذَا الدَّاءُ؟!

قلت: فينبغي للداعي أن لا يلتفت إلى ما نسب من جنون أو تأخر أو تطرف في سبيل جده واجتهاده في دعوته فهذا أمر تواصى به المجرمون.

وقوله: «وكذلك لو يفعله مسلم الآن».

أى: لو أن إنساناً جمع الناس، ثم قام يحذرهم كتحذير النبي ﷺ؛ لقالوا: مجنون،

(١) بنحوه أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٢/ ٥٣٩) وصححه.

الثالثة عشرة: قَوْلُهُ لِلأَبْعَدِ وَالْأَقْرَبِ: «لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» حَتَّى قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ بَنِيَتْ مُحَمَّدًا! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا». فَإِذَا صَرَحَ - وَهُوَ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ - بِأَنَّهُ لَا يُغْنِي شَيْئًا عَنْ سَيِّدِهِ نِسَاءَ الْعَالَمِينَ، وَأَمَّنَ الْإِنْسَانَ بِأَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ، ثُمَّ نَظَرَ فِيمَا وَقَعَ فِي قُلُوبِ خَوَاصِّ النَّاسِ الْيَوْمَ، تَبَيَّنَ لَهُ تَرْكُ التَّوْحِيدِ وَغُرْبَةُ الدِّينِ.

إِلَّا إِذَا كَانَ مَعْتَادًا عِنْدَ النَّاسِ، قَالَ تَعَالَى: «وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ» (١)، وَقَالَ تَعَالَى: «يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»؛ فَهَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْبِلَادِ وَالزَّمَانِ، ثُمَّ إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَبْذُلَ جَهْدَهُ وَاجْتِهَادَهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَامَ بِهَذَا الْأَمْرِ وَلَمْ يُبَالِ بِمَا رُمِيَ بِهِ مِنَ الْجُنُونِ.

الثالثة عشرة: قَوْلُهُ لِلأَبْعَدِ وَالْأَقْرَبِ: «لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا».

صَدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِيمَا قَالَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ هَذَا الْقَاتِلُ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ، وَقَالَ لِسَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ نَحْنُ نُؤْمِنُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ، وَأَنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْ ابْنَتِهِ شَيْئًا؛ تَبَيَّنَ لَنَا الْآنَ أَنَّ مَا يَفْعَلُهُ خَوَاصُّ النَّاسِ تَرْكُ التَّوْحِيدِ؛ لِأَنَّهُ يَوْجَدُ أَنَاسَ خَوَاصِّ يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ عُلَمَاءَ، وَيَرَاهُمْ مِنْ حَوْلِهِمْ عُلَمَاءَ وَأَهْلًا لِلتَّقْلِيدِ، يَدْعُونَ الرَّسُولَ ﷺ لِكَشْفِ الضَّرِّ وَجَلْبِ النِّفْعِ دَعْوَةً صَرِيحَةً، وَيَرُدُّونَ:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَالِي مِنَ الْوَدِّ بِهِ سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ

وغير ذلك من الشرك وإذا أنكر عليهم ذلك ردّوا على المنكر بأنّه لا يعرف حق الرسول ﷺ ومقامه عند الله، وأنّه سيد الكون، وما خلقت الجن والإنس إلا من أجله، وأنّه خلق من نور العرش، ويُلْبَسُونَ بِذَلِكَ عَلَى الْعَامَةِ، فَيَصْدُقُهُمُ الْبَعْضُ لْجَهْلِهِمْ، وَلَوْ جَاءَهُمْ مِنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ؛ لِأَنَّهُ سَيِّدُهُمْ وَعَالَمُهُمْ عَلَى خِلَافِ التَّوْحِيدِ، «وَلَقَدْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ» (٢)، ثُمَّ إِنَّ الْمُؤْمِنَ عَاطِفَتَهُ وَمِيلَهُ لِلرَّسُولِ ﷺ أَمْرٌ لَا يُنْكَرُ، لَكِنْ الْإِنْسَانُ لَا يُبْغِي لَهُ أَنْ يَحْكُمَ الْعَاطِفَةُ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَأَيَّدَهُ الْعَقْلُ الصَّرِيحُ السَّالِمُ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشُّهَوَاتِ.

ولهذا نعى الله - سبحانه - على الكفار الذين اتبعوا ما ألفوا عليه آباءهم بأنّهم لا يعقلون، وكلام المؤلف حق؛ فَإِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ الْيَوْمَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبُلْدَانِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَبَيَّنَ لَهُ تَرْكُ التَّوْحِيدِ وَغُرْبَةُ الدِّينِ أَهـ.

(١) آل عمران: (١٤٠).

(٢) البقرة: (١٤٥).

١٥ باب

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (١).

- مناسبة هذا الباب لما قبله، ولكتاب التوحيد:

قال ناصر السعدى (٢): وهذا أيضاً برهان عظيم آخر على وجوب التوحيد وبطلان الشرك. وهو ذكر النصوص الدالة على كبرياء الرب وعظمته التى تتضاءل وتضمحل عندها عظمة المخلوقات العظيمة، وتخضع له الملائكة والعالم العلوى والسفلى ولا تثبت أفئدتهم عندما يسمعون كلامه أو تتبدى لهم بعض عظمته ومجده، فالمخلوقات يأسرها خاضعة لجلاله، معترفة بعظمته ومجده خاضعة له خائفة منه، فمن كان هذا شأنه فهو الرب الذى لا يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر والتعظيم والتأله إلا هو، ومن سواه ليس له من هذا الحق شئ: فكما أن الكمال المطلق والكبرياء والعظمة ونعوت الجلال والجمال المطلق كلها لله لا يمكن أن يتصف بها غيره، فكذلك العبودية الظاهرة والباطنة كلها حقه تعالى الخاص الذى لا يشاركه فيه مشارك بوجه. اهـ.

قلت: واختصر هذا الكلام ابن عثيمين فقال (٣):

مناسبة الترجمة: أن هذا من البراهين الدالة على أنه لا يستحق أحد أن يكون شريكاً مع الله؛ لأنَّ الملائكة وهم أقرب ما يكون من الخلق لله - عزَّ وجل - ماعدا خواص بنى آدم يحصل منهم عند كلام الله سبحانه الفزع. اهـ.

علاقة الباب بما قبله وما بعده

قال الفقير: قلت: وهناك علاقة لهذا الباب بما قبله وما بعده تصح مناسبة أخرى مفسرة لما سبق وموضحة له، تكمن فى: أسباب شرك بنى آدم وخروجهم من عبادة رب العباد إلى عبادة العباد، إما طلباً لدفع الضر أو جلب النفع، أو طلباً للغيب أو طلباً للشفاعة، أو الغلو فى الصالحين، أو غير ذلك، فأراد المصنّف فى الباب السابق، قطع النفع إلا من الله ودفع الضر إلا منه، وإقامة البراهين على ذلك لدحض هذه الشبهة الشركية.

وفى هذا الباب، أراد إقامة البراهين، على قطع كل سبيل من شأنه أن يوصل إلى الغيب، فما ينبغى على عاقل، أن يلجأ لساحر أو كاهن أو عراف، فيكفر بما أنزل على

(١) سبأ آية: ٢٣

(٢) القول السديد ٥٣ - ٥٥.

(٣) القول المفيد ١/ ٣٩٢.

محمد، ليسأله عن غيب ويصدقه فى ذلك. فأقام البراهين على أن الملائكة المقربين لاتسمع من الوحي ولا من الغيب شيئاً، إذ تفرع عند سماع قول الله فلا تسمع، ولا مسترقوا السمع فلهم الشَّهْبُ، فلماذا يخرجون من دين الله لطلب الغيب. وهو سبحانه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (١).

وقال فى الجن ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانَُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (٢).

ثم أراد بالباب التالى فى الشفاعة إقامة الحجج والبراهين، على أن الشفاعة خالصة لرب العالمين قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ (٣). وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٤) فلا ينبغي لعاقل فضلاً عن مسلم أن يخرج من دين الله طلباً للشفاعة فسوف يعامل بنقيض قصده.

- فائدة:

لماذا أخر المصنف الشفاعة بعد هذا الباب وقد قدمها الله فى الآية؟

الجواب: أخرها المصنف بعد هذين البابين لأنها من النفع الآخروى الآجل، وقدم هذين البابين لأنهما أيضاً فى النفع الدنيوى العاجل.

- ماذا أراد المصنف بهذا الباب؟

قال حامد بن حسن (٥): باب ما يدل على الفوائد التوحيدية والمسائل الصمدية ونظام القيومية وسُلطان الملكوتية من قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ اهـ.

قال سليمان آل الشيخ (٦): أراد المصنف رحمه الله. بهذه الترجمة بيان حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم من عبد من دون الله، فإذا كان هذا حالهم مع الله - تعالى - وهيبتهم منه، وخشيتهم له، فكيف يدعوهم أحد من دون الله؟ وإذا كانوا لا يدعون مع الله تعالى. استقلالاً، ولا وساطة بالشفاعة، فغيرهم ممن لا يقدر على شئ من الأموات والأصنام أولى أن لا يدعى ولا يعبد ففيه الرد على جميع فرق المشركين الذين يدعون

(٢) سبأ: ١٤.

(١) الجن: ٢٦.

(٤) الزمر: ٤٤.

(٣) البقرة: ٢٥٥.

(١) سبأ آية: ٣٣.

(٥) فتح الله الحميد المجيد ٢٥٦.

(٦) تيسير العزيز الحميد ١٩٣ و ١٩٤.

مع الله من لا يدانى الملائكة، ولا يساويهم عن صفة من صفاتهم. وقد قال تعالى فيهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾^(١) فهذه حالهم وصفاتهم وليس لهم فى الربوبية والإلهية شيء. بل ذلك لله وحده. لا شريك له.

قال الفقير: ولم يذكر صاحب فتح المجيد شيئاً من ذلك. وقد اختصر هذا الكلام ابن باز فقال^(٢):

أراد المؤلف بهذا الباب الرد على عباد القبور والأصنام والملائكة وغيرها فين أن الملائكة إذا كانت تخاف الله وتخاف عذابه إن خالفت أمره فكيف تستحق أن تعبد من دون الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾.



- مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى^(٣): حيث دلت الآية على خوف الملائكة من الله وتذللهم له.

- مناسبة الآية للتوحيد:-

قال ابن عثيمين^(٤): أنه إذا كان منفرداً فى العظمة والكبرياء، فيجب أن يكون منفرداً فى العبادة.

قال القرعاوى^(٥):- حيث دلت الآية على أن الملائكة أنفسهم يخافون الله ويخشونه فكيف يدعون من دون الله وإذا لم تصح عبادتهم لا استقلالاً ولا وساطة بالشفاعة فعبادة غيرهم كالقبور لا تصح من باب أولى. قوله: «حتى..»

قال محبى الدين درويش^(٦):- حتى حرف غاية وجر والغاية لمحذوف يفهم من سياق الكلام كأنه قيل يتربصون ويتوقفون حائرين مدهوشين وجلين تتفارسهم المخاوف وتتقاذفهم الشكوك أيؤذن لهم أم لا حتى إذا فزع... إلخ أهـ.

وقال بنحو ذلك الزمخشري فقال^(٧): ولأى شيء وقعت حتى غاية؟ قلت- يعنى

(١) الأنبياء ٢٦ - ٢٨. (٢) التعليق المفيد (٩٩).

(٣) الجديد ١٤٨

(٤) القول المفيد ١/ ٣٩٤. (٥) الجديد ١٤٨.

(٦) إعراب القرآن ٨/ ٨٩.

(٧) الكشف ٣/ ٢٥٨.

الزمخشري- بما فهم من هذا الكلام من أنَّ ثم انتظاراً للإذن وتوقعاً وتسهلاً وفرعاً من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم أولاً يؤذن وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملى من الزمان وطول من التريص ومثل هذا الحال دلَّ عليه قوله- عز وجل ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾ (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ا-هـ

قال الفقير: وهناك قول آخر فى (حتى) على قول من قال أن الذين سيفزع عن قلوبهم المشركون كما سيجىء.

قال الرازى^(١):- متعلقة بقوله تعالى (زعمتم) أى زعمتم الكفر إلى غاية التفريع، ثم تركتم ما زعمتم وقلتم قال الحق.

قوله: ﴿إِذَا فُرِغَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾

قال محى الدين درويش^(٢): - وفُرِّعَ بالبناء للمجهول ونائب الفاعل هو الجار والمجرور أى عن قلوبهم وقرئ بالبناء للمعلوم فيتعلق الجار والمجرور به أى فرع الله عن قلوبهم.

قال ابن الجوزى^(٣):- قرأ الأكثرون «فُرِّعَ» بضم الفاء وكسر الزاى. قال ابن قتيبة: خُفِّفَ عنها الفَرْع.

وقال الزجاج: معناه كُشِفَ الفرع عن قلوبهم.

وقرأ ابن عامر، ويعقوب وأبان: (فَرْعَ) بفتح الفاء والزاى، والفعل لله عز وجل: وقرأ الحسن، وقتادة وابن يعمر: (فرغ) بالراء غير معجمة وبالغين معجمة وهو بمعنى الأول، لأنها فرغت من الفرع.

وقال غيره: بل فرغت من الشك والشرك.

قال الزمخشري^(٤):- وفرغ أى نفى الوجمل عنها وأفنى من قولهم فرغ الزاد إذا لم يبق منه شيء ثم ترك ذكر الوجمل وأسند إلى الجار والمجرور كما تقول دفع إلى زيد إذا علم ما المدفوع، وقد تخفف وأصله فرغ الوجمل عنها أى انتفى عنه وفى ثم حذف الفاعل وأسند إلى الجار والمجرور وقرأ (افرنقع) عن قلوبهم بمعنى انكشف عنها.

(١) التفسير الكبير ١٣/٢٥/٢٥٦.

(٢) إعراب القرآن ٨/٨٩.

(٣) زاد المسير ٦/٢٤٣.

(٤) الكشف ٣/٢٥٨.

وعن أبي علقمة أنه هاج به المرار فالتف عليه الناس فلما أفاق قال: مالكم تكألكم على تكألكم على ذى جنة افرنقوا عنى.

والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين كما ركب اقمطر من حروف القمط مع زيادة الراء وقرىء بالرفع أى مقوله الحق.

قلت: وهذه القراءة الأخيرة (افرنقوا) لم أجدها إلا عند الزمخشري ولعلها شاذة لأن علماء اللغة كانوا يستشهدون بهذه المقولة على عدم البلاغة الفصاحة بسبب تنافر الحروف فالله أعلم.

● التفسير من أقوال الصحابة وغيرهم

وروى ابن جرير عن مجاهد:- حتى إذا فزع عن قلوبهم قال كشف عنها الغطاء يوم القيامة. (١)

وعن ابن مسعود ومسروق وغيرهما:- ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أى زال الفزع عنها. (٢)

قال ابن عباس وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبي وإبراهيم النخعي والضحاك والحسن وقتادة فى قوله عز وجل. ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ يقول خُلِي عن قلوبهم (٣).

قال قطرب: معنى ﴿فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أخرج ما فيها من الفزع، وهو الخوف.

قال الشوكانى (٤):- والمعنى: أن الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء من المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام. إلا أن الله سبحانه يأذن للملائكة والأنبياء ونحوهم فى الشفاعة لمن يستحقها، وهم على غاية الفزع من الله كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ فإذا أذن لهم فى الشفاعة فزعوا لما يقترب بذلك الحالة من الأمر الهائل والخوف الشديد من أن يحدث شئ من أقدار الله. أ. هـ.

قال الطبرى (٥):- والعرب تستعمل فزع فى معنيين فتقول للشجاع الذى به تنزل

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٦٢/٢٢)

وذكره السيوطى فى «الدر» (٤٤/٥) وزاد نسبه للفرياي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم وأنظر الأخير بتخريجنا

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

وأنظر «فتح المجيد» بتخريجنا

(٤) فتح القدير ٣١٥/٤.

(٥) تفسير الطبرى ٦٤/٢٢/١٠.

الأمر التي يفزع منها هو مفزع وتقول للجبان الذي يفزع من كل شيء أنه لمفزع وكذلك تقول للرجل الذي يقضى له الناس في الأمور بالغلبة على من نازله فيها هو مغلب وإذا أريد به هذا المعنى كان غالباً وتقول للرجل أيضاً الذي هو مغلوب أبداً مغلب.

قال صاحب الظلال^(١):-

صَوَّرَ المشهد الذي تقع فيه الشفاعة، وهو مشهد مذهل مرهوب ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا: الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾... إنه مشهد في اليوم العصيب. يوم يقف الناس، وينتظر الشفعاء والمشفوع فيهم أن يتأذن ذو الجلال في عليائه بالشفاعة لمن ينالون هذا المقام. ويطول الإنتظار. ويطول التوقع. وتعنو الوجوه. وتسكن الأصوات وتخضع القلوب في إنتظار الإذن من ذي الجلال والإكرام.

ثم تصدر الكلمة الجليلة الرهيبة. فتتأب الرهبة الشافعين والمشفوعين لهم. ويتوقف إدراكهم عن الإدراك. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾... وكشف الفزع الذي أصابهم، وأفاقوا من الروعة التي غمرتهم فأذهلتهم. أ. هـ.

قال ابن عثيمين^(٢):- قال ذلك ولم يقل: ﴿فُزِعَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: إذ عن تفيد المجاوزة، والمعنى: جاوز الفزع قلوبهم، أى: أزيل الفزع عن قلوبهم. والفزع: الخوف المفاجيء، لأنَّ الخوف المستمر لا يُسَمَّى فزعاً. وأصله: النهوض من الخوف. أهـ.

وقوله: ﴿عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾

قال الطبري^(٣):- واختلف أهل التأويل في الموصوفين بهذه الصفة من هم وما السبب الذي من أجله فزع عن قلوبهم.

قال ابن الجوزي^(٤):- وفي المشار إليهم قولان:-

أحدهما: أنهم الملائكة «وقد دلَّ الكلام على أنَّهم يفزعون لأمر يطرأ عليهم من أمر الله، ولم يذكره في الآية، لأنَّ إخراج الفزع يدل على حصوله. وفي سبب فزعهم قولان:

أحدهما: أنهم يفزعون لسماع كلام الله تعالى. روى عبدالله بن مسعود عن رسول

(١) الظلال.

(٢) القول المفيد ١/ ٣٩٢.

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٢٢/ ٦٢.

(٤) زاد المسير ٦/ ٢٤٣.

الله - ﷺ - قال «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فإذا جاءهم جبريل ﴿فَرَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾، فيقولون: يا جبريل، ماذا قال ربك؟ قال فيقول: ﴿الْحَقُّ﴾، فينادون ﴿الْحَقَّ الْحَقَّ﴾^(١).

وروى أبو هريرة عن النبي - ﷺ - أنه قال: «إذا قضى الله - عز وجل - الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم قالوا: الذي قال الحق، وهو العلي الكبير»^(٢).

وروى ابن جرير عن مسروق^(٣):- قال إذا حدث عند ذى العرش أمر سمعت الملائكة صوتاً كجر السلسلة على الصفا قال فيغش عليهم فإذا فزع عن قلوبهم قال: ماذا قال ربكم؟ قال: فيقول من شاء الله الحق وهو العلي الكبير.

وعن سعيد قال: ينزل الأمر من عند رب العزة إلى السماء الدنيا فتفزع أهل السماء الدنيا حتى يستبين لهم الأمر الذي نزل فيه فيقول بعضهم لبعض ماذا قال ربكم فيقولون قال الحق وهو العلي الكبير فذلك قوله ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ الآية^(٤).

وعن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة أو قال رعدة شديدة خوف أمر الله فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل فيكلمه الله من وحيه بما أراد ثم يمر جبرائيل على الملائكة كلما مر بسماء سألته ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبرائيل فيقول جبرائيل قال الحق وهو العلي الكبير. قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل فينتهي جبرائيل بالوحي حيث أمره الله»^(٥).

وعن ابن عباس: أنه كان يقول إن الله لما أراد أن يوحى إلى محمد دعا جبريل فلما تكلم ربنا بالوحي كان صوته كصوت الحديد على الصفا فلما سمع أهل السموات صوت

(١) [المحفوظ موقوف] علقه البخارى (٣/ ٤٦١ - الفتح) ووصله في «خلق أفعال العباد» (٣٦٧) وأبو داود (٤٧٣٨). وابن خزيمة في التوحيد (ص: ١٤٥) وأنظر «الاتقان في علوم القرآن» للسيوطي بتخريجنا وأنظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخريجنا أيضاً وفتح المعيد «ح ٣٢٠».

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» وسيأتي تخريجه.

(٣) المصدر السابق (٦٢/٢)

(٤) المصدر السابق (٦٣/٢٢).

(٥) المصدر السابق (٦٣/٢٢).

الحديد خروا سجداً فلما أتى عليهم جبرائيل بالرسالة رفعوا رؤسهم فقالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير وهذا قول الملائكة^(١).

وعن ابن عباس قوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم﴾ إلى ﴿وهو العلى الكبير﴾ قال لما أوحى الله تعالى ذكره إلى محمد - ﷺ - دعا الرسول من الملائكة فبعث بالوحي سمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله فقالوا الحق وعلموا أن الله لا يقول إلا حقاً وأنه منجز ما وعد قال ابن عباس وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا فلما سمعوه خرواً سجداً فلما رفعوا رؤسهم ﴿قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير﴾^(٢).

القول الثانى فى سبب فزعهم:

قال ابن الجوزى^(٣): - أنهم يفزعون من قيام الساعة.

وفى السبب الذى ظنوه بدنو الساعة ففزعوا، قولان:

أحدهما: أنه لما كانت الفترة التى بين عيسى ومحمد - ﷺ - ثم بعث الله محمداً، أنزل الله جبريل بالوحي، فلماً نزل ظنّت الملائكة أنه نزل بشىء من أمر الساعة، فصعقوا لذلك، فجعل جبريل يمرُّ بكلِّ سماءٍ ويكشف عنهم الفزع ويخبرهم أنه الوحي، قاله قتادة، ومقاتل. وابن السائب.

وقيل: لما علموا بالإحياء إلى محمد - ﷺ - فزعوا لعلمهم أن ظهوره من أشراط الساعة.

والثانى :- أنَّ الملائكة المعقبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض ويكتبون أعمالهم إذا أرسلهم الله - تعالى - فانحدروا. يُسمع لهم صوت شديد، فيحسب الذين هم أسفل منهم من الملائكة أنه من أمر الساعة، فيخرون سجداً، ويصعقون حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة، وهذا كلّما مروا عليهم. رواه الضحاك عن ابن مسعود^(٤).

القول الثانى :- فىمن أشير إليهم :-

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٦٣/٢٢) وذكره السيوطى فى «الدر» (٤٤١/٥) ونسبه لابن أبى حاتم فأنظره بتخريجنا)

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى «الدر» (٤٤١/٥) وزاد نسبه لابن مردويه.

(٣) زاد المسير ٦/٢٤٣.

(٤) رواه ابن جرير عن ابن مسعود ١٠/٦٣/٢٢.

قال ابن الجوزي^(١): - أن الذين أشير إليهم المشركون ثم فى معنى الكلام قولان: أحدهما. أن المعنى: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين عند الموت- إقامة للحجة عليهم. قالت لهم الملائكة: ماذا قال ربكم فى الدنيا؟ قالوا: الحق، فاقروا حين لم ينفعهم الإقرار، قاله الحسن، وابن زيد.

والثانى: حتى إذا كشف الغطاء عن قلوبهم يوم القيامة، قيل لهم: ماذا قال ربكم؟ قاله مجاهد.

قال ابن جرير^(٢)- وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب القول الذى ذكره الشعبى عن ابن مسعود لصحة الخبر الذى ذكرناه من ابن عباس عن رسول الله - ﷺ - بتأييده وإذا كان ذلك كذلك فمعنى الكلام لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن أن يشفع عنده فإذا أذن الله لمن أذن له أن يشفع فزع لسماعه إذنه حتى إذا فزع عن قلوبهم فجلى عنهم وكشف الفزع عنهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالت الملائكة: الحق وهو العلى على كل شيء الكبير الذى لا شىء دونه.

قال القرطبي^(٣): - وهذا تنبيه من الله - تعالى - وإخبار أن الملائكة مع اصطفائهم ورفعتهم لا يمكنهم أن يشفعوا لأحد حتى يؤذن لهم، فإذا أذن لهم وسمعوا صعقوا. وكان هذه حالهم. فكيف تشفع الأصنام أو كيف تؤملون أتم الشفاعة ولا تعترفون بالقيامة.

قال السعدى^(٤): - يحتتم أن الضمير فى هذا الموضع، يعود إلى المشركين، لأنهم مذكورون فى اللفظ. والقاعدة فى الضمائر. أن تعود إلى أقرب مذكور.

ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة، وفزع عن قلوب المشركين، أى «زال الفزع» وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم، عن حالهم فى الدنيا، وتكذيبهم للحق الذى جاء به الرسل، أنهم يقرون، أن ما هم عليه من الكفر والشرك، باطل، وأن ما قال الله، وأخبرت به عنه رسله، هو الحق «بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل» وعلموا أن الحق لله، واعترفوا بذنوبهم... وهذا المعنى، أظهر، وهو الذى يدل عليه السياق.

ويحتتم أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله - تعالى - إذا تكلم بالوحى، سمعته الملائكة، فصعقوا، وخروا لله سجداً. فيكون أول من يرفع رأسه. جبريل،

(١) زاد المسير ٦/ ٢٤٤.

(٢) تفسير القرطبي ٨/ ٥٣٧٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٤/ ١٧٥.

(٤) تفسير الطبرى ٢٢/ ٦٤.

فيكلمه الله من وحيه بما أراد. فإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة، وزال الفزع، فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك الكلام، الذى صعقوا منه، ماذا قال ربكم؟

فيقول بعضهم لبعض. قال الحق. إما إجمالاً، لعلمهم أنه لا يقول إلا حقاً. وإما أن يقولوا، قال كذا وكذا، للكلام الذى سمعوه منه، وذلك من الحق فيكون المعنى على هذا: أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الألهة، التى وصفنا لكم عجزهم ونقصها. وعدم نفعها بوجه من الوجوه، كيف صدقوا وصرفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم. العلى الكبير- من عظمته وجلاله- أن الملائكة الكرام، والمقرين من الخلق، يبلغ بهم الخضوع والصعق، عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقرون كلهم لله أنه لا يقول إلا الحق. فما بال هؤلاء المشركين استكبروا عن عبادة من هذا شأنه، وعظمة ملكه وسلطانه: فتعالى العلى الكبير، عن شرك المشركين. وإفكهم وكذبهم أ.هـ.

قال صاحب الظلال^(١): - ولعلمهم الملائكة المقربون هم الذين يجيئون بهذه الكلمة المعجلة الجامعة: «قالوا الحق...».

قال ابن عثيمين^(٢): - وقوله «عَنْ قُلُوبِهِمْ»، أى قلوب الملائكة، لأنَّ الضمير يعود عليهم بدليل ما سيأتى من حديث أبى هريرة، ولا أحد من الخلق أعلم بتفسير القرآن من رسول الله - ﷺ. قوله «قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ».

قال محيى الدين درويش^(٣): - (قالوا) جواب إذا و(ما) اسم استفهام وإذا اسم موصول خبر والجملة مقول قال مقدّم عليه و(قال ربكم) فعل وفاعل والجملة مقول قالوا الأولى.

قال ابن عثيمين^(٤): - والمعنى: قال بعضهم لبعض: وإنما قلنا ذلك لأن فى الكلام قائلاً ومقولا له، فلو جعلنا الضمير فى قالوا عائداً على الجميع، فأين المقول له؟

والمعنى: أى شىء قال ربكم؟

وإعراب (ماذا) على أوجه:

١- ما: اسم استفهام مبتدأ، وذا: اسم موصول خبر، أى: ما الذى.

(١) الظلال ٢٩٠٤/٥.

(٢) القول المفيد ٣٩٢/١.

(٣) إعراب القرآن ٨٩/٨.

(٤) القول المفيد ٣٩٣/١.

٢- ماذا: اسم استفهام مركب من ما وذا.

٣- ما اسم استفهام، وذا زائدة، قال ابن مالك.

ومثل ماذا بعد ما استفهام أو من إذا لم تبلغ في الكلام قوله ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾.

قال محيي الدين درويش: - و(قالوا) فعل وفاعل و(الحق) منصوب بقول مقدر أى قال ربنا القول الحق ولك أن تعرب القول مفعولاً مطلقاً أو مفعولاً به والحق صفة ا.هـ.
قال ابن عثيمين: - أى: قال المسؤولون. والحق: صفة لمصدر محذوف مع عامله، والتقدير قال القول الحق. والمعنى: أن الله - سبحانه - قال القول الحق لأنه سبحانه هو الحق، ولا يصدر عنه إلا الحق، ولا يقول ولا يفعل إلا الحق.

والحق في الكلام هو الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾^(١). ولا يفهم من قوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ أنه قد يكون قولاً باطلاً؛ بل هو بيان للواقع، فإن قيل: ما دام بياناً للواقع ومعروفاً عند الملائكة أنه لا يقول إلا الحق، فلماذا الاستفهام؟!

أجيب: أن هذا من باب الشاء على الله بما قال، وأنه سبحانه لا يقول إلا الحق أ.هـ.
قال الفقير: أو لشدة محبتهم لربهم سبحانه وتعالى يريدون أن يسمعوا كلامه ولو بواسطة مع كمال علمهم بأنه لا يقول إلا الحق، كما أن الله كان يعلم ما يمين موسى ولشدة محبته له سأل عن ذلك.

- فائدة في الرد على من قال بخلق القرآن:

جاء في شرح الصحيح وسنن ابن ماجة: قالوا: ماذا قال ربكم ولم يقل ماذا خلق ربنا؟ ولو كان كلام الله مخلوقاً لقالوا ماذا خلق؟

قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

قال محيي الدين درويش^(٢): - (هو) مبتدأ و(العلی) خبر أول و(الكبير) خبر ثان وهو تمة كلام الشفعاء.

قال صاحب الظلال^(٣): - وهذه الإجابة المعجلة تشي بالروعة الغامرة، التي لا

(٢) إعراب القرآن ٨/ ٨٩.

(١) الأنعام ١١٥.

(٣) الظلال ٥/ ٢٩٠٤.

ينطق فيها إلا بالكلمة الواحدة! فهذا هو موقف الشفاعة المرهوب. وهذه صورة الملائكة فيه بين يدي ربهم فهل بعد هذا المشهد يملك أحد أن يزعم أنهم شركاء لله، شفعاء في من يشرك بالله؟! اهـ.

قوله ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات^(١).

قال الفقير :- كما قال الأوزاعي: كنا نقول والتابعون وافرون - مجتمعون - أن الله مستوى على عرشه بائن عن خلقه معهم بعلمه.

وكما قال ابن المبارك: لما قيل له: بم تعرف ربنا؟ قال: «بأنه على عرشه بائن عن خلقه» تمسكاً منه بالقرآن، لقوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وقوله ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ في سبعة مواضع من القرآن:

[الأعراف ٥٤ - يونس ٣ - الرعد ٢ - السجدة ٤ - الحديد ٤] (٢).

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

أي: العلى في ذاته وصفاته، والكبير: ذو الكبرياء، وهى العظمة التى لا يُدانيها شيء، أى العظيم الذى لا أعظم منه.

والعلو قسمان:

الأول: علو الصفات، وقد أجمع عليه كل من ينتسب للإسلام حتى الجهمية ونحوهم.

الثاني: علو الذات، وقد أنكره كثير من المتسبين للإسلام مثل الجهمية وبعض الأشاعرة غير المحققين منهم؛ فإنَّ المحققين منهم أثبتوا علو الذات.

وعلوه لا ينافى كونه مع الخلق يعلمهم ويسمعهم ويراهم؛ لأنه ليس كمثله شيء فى جميع صفاته.

وفى الآية فوائد:

١- أن الملائكة يخافون الله؛ كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ (٣).

٢- إثبات القلوب للملائكة؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾.

(١) فتح المجيد ٢٤٤

(٢) القول المفيد ١/ ٣٩٤.

(٣) النحل: ٥٠.

٣- إثبات أنهم أجسام وليسوا أرواحاً مجردة من الجسميّة، وهو أمر معلوم بالضرورة، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ﴾ (١)، وقد رأى النبي ﷺ جبريل له ست مئة جناح قد سدّ الأفق (٢)؛ فالقول بأنّهم أرواح فقط إنكار لهم في الواقع، وهو قول باطل.

لكنهم لا يأكلون ولا يشربون، وإنّما أكلهم وشربهم التسييح بدليل قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٣)؛ ففى هذا دليل على أنّ ليلهم ونهارهم معلّوان بذلك، ولهذا جاء: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ﴾، ولم يقل: يسبحون فى الليل؛ أي: أن تسيحهم دائم، والتسييح تنزيه الله عما لا يليق به.

٤- أنّ لهم عقولاً؛ إذ إنّ القلوب هى محلّ العقول خلافاً لمن قال: إنّهم لا يعقلون، ولا أنّهم يسبحون الله، ويطوفون بالبيت المعمور.

٥- إثبات القول لله- سبحانه وتعالى-، وأنّه متعلّق بمشيئته؛ لأنّه جاء بالشرط: ﴿إِذَا فُزِعَ﴾، وإذا الشرطية تدلّ على حدوث الشرط والمشروط، خلافاً للأشاعرة الذين يقولون: إنّ الله لا يتكلّم بمشيئته، وإنّما كلامه هو المعنى القائم بنفسه؛ فهو قائم بالله أزلّى أبدي، كقيام العلم والقدرة والسمع والبصر.

ولا ريب أنّ هذا باطل، وأنّ حقيقته إنكار كلام الله، ولهذا يقولون: إنّ الله يتكلّم بكلام نفسى أزلّى أبدي، كما يقولون: هذا الكلام الذى سمعه موسى، وسمعه النبي ﷺ، ونزل به جبريل على الرسول ﷺ شيء مخلوق للتعبير عن كلام الله القائم بنفسه.

وهذا فى الحقيقة قول الجهميّة؛ كما قال بعض المحققين من الأشاعرة: ليس بيننا وبين الجهميّة فرق، فإنّنا اتّفقنا على أن هذا الذى بين دفتى المصحف مخلوق، لكن نحن قلنا عبارة عن كلام الله، وهم قالوا: هو كلام الله.

فالجهميّة خير منهم فى أنّهم يقولون: هذا كلام الله، لكنهم شرّ منهم فى كونهم يصرّحون أنّ كلام الله مخلوق.

٦- إثبات أن قول الله حق، وهذا جاء فى القرآن: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (٤)، وقال: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ (٥)؛ فالله تعالى لا يقول إلّا حقّاً؛ لأنّه هو الحقّ، ولا يصدر عن الحقّ إلّا الحقّ.

(١) فاطر: ١.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٢٣٢)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ٥/ ٢٨٠) عن ابن مسعود به.

(٣) الأنبياء: ٢٠. (٤) الأحزاب: ٤.

(٥) ص: ٨٤.

وفى الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ. قال: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ؛ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سَلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ. ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾» (١) فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرَقُّ السَّمْعِ، وَمُسْتَرَقُّ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سَفِيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِثْلَ كَذِبِهِ، فَيَقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا: وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدِّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ» (٢).

٧- الفرع لكلام الله - عز وجل - وحسن استقبال هذا الكلام والخوف والهلع من أوامره ونواهيه كما كان النبي ﷺ يفعل حينما ينزل عليه جبريل كان في اليوم الشديد البرد يتفصد عرقاً فيفصم عنى وقد وعيت ما قال وهو في الصحيح أيضاً جبريل لما نزل حتى بلغ منه الجهد لياخذ الأمر بقوة والكتاب بقوة حتى ظن أنه نبي فلا بد من أخذ الأمر بقوة والفرع والهلع لاستقبال هذا الأمر والاستعداد بهذين الأمرين بالخوف والقوة وبالرجاء أيضاً «ماذا قال ربكم قال الحق وهو العلي الكبير».



قال الفقير:- والمصنف قد أورد هذا الحديث بعد الآية ليسهوه أو ليبين لنا مدى عمقه العلمي، وتأسيه بالسلف إذ فسروا القرآن بالقرآن وإن لم يجدوا فيفسرونه بالسنة، فلذلك فسر الآية بالحديث وهو كالنص في المسئلة لا يجوز أن يعدل إلى غيره، كما تقدم معنا من كلام شيخ الإسلام أولاً ومن كلام الشيخ ابن عثيمين ثانياً في القول المفيد.

- مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى (٣):- حيث دلَّ الحديث على بيان حال الملائكة وأنهم يخافون من الله ويخشونه. أهـ.

(١)[صحيح] أخرجه البخارى فى التفسير/ باب ﴿إِلَّا مَنْ اسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مِثْلُ﴾ (٨/٢٣١ / ٤٧٠١) والترمذى فى تفسير القرآن/ باب ومن سورة سبأ (٥ / ٣٦٢ / ٣٢٢٣)، وابن ماجه فى المقدمة / باب فيما أنكرت الجهمية (١ / ٦٩ - ٧٠ / ١٩٤). وأنظر الأثنان فى علوم الاثنان (١٧١٨ - بتخریجنا) «وفتح المجید» (ح٣١٩) بتخریجنا «وفتح القدیر» (ح١٠٤٨٨) بتخریجنا). وابن أبى حاتم فى «تفسیره» (ح١٧٨٩٦) بتخریجنا

- مناسبة الحديث للتوحيد:-

قال القرعاوى: حيث دل الحديث على أن الملائكة أنفسهم يعبدون الله ويخافونه فإذا لم يصح دعاؤهم ولا عبادتهم لاستقلالاً ولا وساطة بالشفاعة فعبادة غيرهم لا تصح من باب أولى.

ولفظه في الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ؛ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا افْزَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: لَلَّذِي قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَوَصَفَهُ سَفِيَانٌ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُذَرِّكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِثْلَ كَذِبَةٍ، فَيُقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا: وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ».

قوله (في الصحيح) يعنى صحيح البخارى .

قوله «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ»

قال ابن حجر فى حديث النّوّاس بن سمعان عند الطبرانى مرفوعاً «إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ أَخَذَتِ السَّمَاءُ رَجْفَةً شَدِيدَةً مِنْ خَوْفِ اللَّهِ ، فَإِذَا سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ بِذَلِكَ صَعِقُوا وَخَرُوا سَجْدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُهُمْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جَبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، فَيَنْتَهِي بِهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلُّهُمْ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ أَهْلُهُ مَاذَا قَالَ رَبُّنَا؟ قَالَ الْحَقُّ، فَيَنْتَهِي بِهِ حَيْثُ أَمَرَ» (١).

وعند سعيد بن منصور . وأبى داود وابن جرير عن ابن مسعود قال: إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ، سَمِعَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ صَلَصلةً كَجَرِ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفْوَانِ (٢).

وعلقه البخارى وذكره الحافظ موصولاً فى «المسند» عن أبى معاوية ولفظه «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلْسَّمَاءِ صَلَصلةً كَجَرِ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَاءِ فَيَصْعَقُونَ، فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جَبْرِيلُ، فَإِذَا جَاءَهُمْ جَبْرِيلُ فَزَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ» قال: ويقولون يا جبريل ماذا قال ربكم قال فيقول الحق قال فينادون الحق الحق .

قال البيهقي: رواه أحمد بن شريح الرازي، وعلى بن إشكاب، وعلى بن مسلم، ثلاثتهم عن أبي معاوية مرفوعاً. أخرجه أبو داود في السنن عنهم، ولفظه مثله، إلا أنه (قال: فيقولون: ماذا قال ربك؟) قال: ورواه شعبة عن الأعمش موقوفاً، وجاء عنه مرفوعاً أيضاً أ. هـ.

قال ابن عثيمين^(١): - المراد (بالأمر) الشأن، ويكون القضاء، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

قوله «ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً» بفتحتين من الخضوع، وفي رواية بضم أوله وسكون ثانيه وهو مصدر بمعنى خاضعين.

وفي حديث ابن مسعود «سمع أهل السماء الصلصلة»^(٢)

قوله: «خضعاناً»

مصدر كقوله غفراناً، قاله الخطاب، وقال غيره: - هو جمع خاضع.

والمعنى: - أى: خضعاناً لقوله.

«كأنه سلسلة على صفوان» وفي رواية في الصحيح «سمع أهل السموات»

قال ابن حجر: قوله (سمع أهل السموات) في رواية أبي داود وغيره «سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا» ولبعضهم «الصفوان» بدل «الصفا» وفي رواية الثوري «الحديد» بدل «السلسلة» وفي رواية شيان بن عبد الرحمن عن منصور عند ابن أبي حاتم «مثل صوت السلسلة» وعنده من رواية عامر الشعبي عن ابن مسعود «سمع من دونه صوتاً كجر السلسلة» ووقع في حديث النواس بن سمعان عند ابن أبي حاتم «إذا تكلم الله بالوحي أخذت السموات منه رجفة» أو قال «رعدة شديدة من خوف الله، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً»^(٣) وكذا وقع قوله «ويخرون سجداً» وفي رواية أبي مالك وكذا في رواية سفيان وابن غنيم المشار إليها، ووقع في رواية شعبة «فيرون أنه من أمر الساعة فيفزعون».

قوله (كأنه) أى القول المسموع وقد يكون هذا المسموع هو رجفة ورعدة وصعق الملائكة (سلسلة على صفوان) هو مثل قوله في بدء الوحي «صلصلة كصلصلة الجرس» وهو صوت الملك بالوحي.

(١) القول المفيد ١/ ٣٩٧.

(٢) سيأتي تخريجه

(٣) تقدم تخريجه

وقد روى ابن مردويه من حديث ابن مسعود رفعه «إذا تكلم الله بالوحي يسمع أهل السماوات صلصلة كصلصلة السلسلة على الصفوان فيفزعون»^(١).

قال الخطابي: الصلصلة صوت الحديد إذا تحرك وتداخل، وكأن الرواية وقعت له بالصاد، وأراد أن التشبيه في الموضوعين بمعنى واحد، فالذى فى بدء الوحي هذا والذى هنا جر السلسلة من الحديد على الصفوان الذى هو الحجر الأملس يكون الصوت الناشئ عنهما سواء.

قوله (على صفوان) زاد البخارى فى سورة الحجر عن على بن عبدالله «قال غيره - يعنى غير سفيان - ينفذهم ذلك».

فى حديث ابن عباس عند ابن مردويه من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه «فلا ينزل على أهل سماء إلا صُعِقُوا»^(٢).

وعند مسلم والترمذى من طريق على بن الحسين بن على عن ابن عباس عن رجال من الأنصار أنهم كانوا عند النبى ﷺ، فرمى بنجم فاستنار، فقال: «ما كنتم تقولون لهذا إذا رمى به فى الجاهلية» قالوا: كنا نقول مات عظيم أو يولد عظيم، فقال: «إنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا إذا قضى أمرا سيح حملة العرش ثم سيح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح سماء الدنيا، ثم يقولون لحملة العرش: ماذا قال ربكم» الحديث^(٣).

قوله: [يَنفُذُهُمْ ذَلِكَ]

قال ابن حجر: (وقال غيره صفوان ينفذهم) قال عياض ضبطوه بفتح الفاء من صفوان، وليس له معنى وإنما أراد لغير المبهم وقوله (ينفذهم) وهو بفتح أوله وضم الفاء أى يعمهم.

قلت أى ابن حجر: وكذا أخرجه ابن أبى حاتم عن محمد بن عبدالله بن زيد عن سفيان بن عيينة بهذه الزيادة.

وذكره الكرماني بلفظ (صفوان ينفذ فيهم ذلك) بزيادة لفظ الإنفاذ أى ينفذ الله ذلك القول إلى الملائكة، أو من النفوذ أى ينفذ ذلك إليهم أو عليهم.

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (٧ / ٤٨٣ / ١٢٤) عن ابن عباس به.

وانظر «تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا»

قوله: «حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» وقد تقدم تفسير الآية وما فيها من فوائد. لاسيما إثبات الكلام لله بصوت وحرف كما هو مذهب أهل السنة وهو مسألة طويلة ولهذا بوب البخارى فى كتاب التوحيد على صفة الكلام لله عز وجل باباً ذكر فيه هذا الأثر وغيره،

قال ابن حجر: قال ابن بطلال: استدل البخارى بهذا على أن قول الله قديم لذاته، قائم بصفاته، لم يزل موجوداً به، ولا يزال كلامه لا يشبه المخلوقين، خلافاً للمعتزلة التى نفت كلام الله، وللكلابية فى قولهم: هو كناية عن الفعل والتكوين، وتمسكوا بقول العرب: قلت بيدى هذا أى حركتها. واحتجوا بأن الكلام لا يعقل إلا بأعضاء ولسان، والبارى منزّه عن ذلك فرد عليهم البخارى بحديث الباب والآية. ١. هـ

أى الحديث والآية التى ذكرهما مصنف كتاب التوحيد تبعاً للبخارى وغيره.

ثم قال ابن حجر: وملخص ذلك قال البيهقى فى «كتاب الاعتقاد» القرآن كلام الله وكلام الله صفة من صفات ذاته، وليس شيء من صفات ذاته مخلوقاً ولا محدثاً ولا حادثاً. قال تعالى «إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»^(١) فلو كان القرآن مخلوقاً لكان مخلوقاً بكن ويستحيل أن يكون قول الله لشيء بقول لأنه يوجب قولاً ثانياً وثالثاً فيتسلسل وهو فاسد، وقال الله تعالى «الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) فَخَصَّ الْقُرْآنَ بِالْتَّعْلِيمِ لَأَنَّهُ كَلَامُهُ وَصَفَتُهُ، وخص الإنسان بالتخليق لأنه خلقه ومصنوعه، ولو لا ذلك لقال خلق القرآن والإنسان، وقال الله تعالى «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا»^(٣) ولا يجوز أن يكون كلام المتكلم قائماً بغيره، وقال الله تعالى «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا»^(٤) الآية، فلو كان لا يوجد إلا مخلوقاً فى شيء مخلوق لم يكن لاشتراط الوجوه المذكورة فى الآية معنى لاستواء جميع الخلق فى سماعه عن غير الله فبطل قول الجهمية أنه مخلوق فى غير الله، ويلزمهم فى قولهم أن الله خلق كلاماً فى شجرة كلم به موسى أن يكون من سمع كلام الله من ملك أو نبى أفضل فى سماع الكلام من موسى، ويلزمهم أن تكون الشجرة هى المتكلمة بما ذكر الله أنه كلم به موسى وهو قوله «إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي»^(٥) وقد أنكر الله تعالى قول

(١) النحل. (٢) الرحمن: ٣/٢.

(٣) النساء: ١٦٤. (٤) الشورى: ٥١.

(٥) طه: ١٤.

المشركين ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ولا يعترض بقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾^(١) لأن معناه قول تلقاه عن رسول الله كريم كقوله تعالى ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾^(٢) ولا بقوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(٣) لأن معناه سميناه قرآنًا، وهو كقوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾^(٤) وقوله ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾^(٥) وقوله ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُّحَدَّثٌ﴾^(٦) فالمراد أن تنزيله إلينا هو المحدث لا الذكر نفسه، وبهذا احتج الإمام أحمد ثم ساق البيهقي حديث نيار بكسر النون وتخفيف التحتانية ابن مكرم أن أبا بكر قرأ عليهم سورة الروم فقالوا هذا كلامك أو كلام صاحبك، قال ليس كلامي ولا كلام صاحبى ولكنه كلام الله، وأصل هذا الحديث أخرجه الترمذى مصححاً^(٧).

وعن علي بن أبي طالب ما حكمت مخلوقاً، ما حكمت إلا القرآن، ومن طريق سفيان بن عيينة سمعت عمرو بن دينار وغيره من مشيختنا يقولون: القرآن كلام الله ليس بمخلوق.

وقال ابن حزم فى الملل والنحل: أجمع أهل الإسلام على أن الله تعالى كلم موسى، وعلى أن القرآن كلام الله وكذا غيره من الكتب المنزلة والصحف.

المحفوظ عن جمهور السلف ترك الخوض فى ذلك والتعمق فيه والاقتصار على القول بأن القرآن كلام الله وأنه غير مخلوق ثم السكوت عما وراء ذلك أهـ.

قوله [فيسمعها مسترق السمع]

قال سليمان آل الشيخ:^(٨) أى يسمع الكلمة التى قضاه الله مسترق السمع، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضاً فيسمعون أصوات الملائكة بالأمر يقضيه الله كما قال تعالى ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾^(٩) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٩): أى هذه الكلمة التى تكلمت بها الملائكة. ا. هـ.

(١) الحاقة: ٤٠.

(٢) التوبة: ٦. (٣) الزخرف: ٣.

(٤) الواقعة: ٨٢. (٥) النحل: ٦٢.

(٦) الأنبياء: ٢.

(٧) أخرجه الترمذى (٣١٩٤) بدون موضع السابق.

(٨) تيسير العزيز الحميد (١٩٦).

(٩) القول المفيد (١/ ١٤٠٠).

وفى حديث عائشة فى الصحيح لما سئل عن الحق الذى يحدث به الكهان أحياناً، قال - ﷺ - تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى (١).

وهى مبينة لصفة الإستراق ومفسرة له بالخطف (٢).

قال ابن عثيمين (٣): وتأمل كلمة (مسترق) فيها دليل على أنه يبادر، فكأنه يختلسها اختلاساً بسرعة أو اختلاساً سريعاً ويؤيده قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (٤).

قوله «ومسترق»

قال ابن حجر (٥): كذا فى رواية على عند أبى ذر بالإفراد وهو فصيح، وهو مفرد مضاف فيعم جميع المسترقين، ويؤيده ما فى الصحيح بلفظ (ومسترقوا السمع).

قوله (هكذا بعضه فوق بعض وصفه سفيان).

قال ابن حجر: - أى ابن عيينة (بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه) أى فرق، فى رواية على ابن المدينى ووصف سفيان بيده ففرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض.

وفى حديث ابن عباس عند ابن مردويه «كان لكل قبيل من الجن مقعد من السماء يسمعون منه الوحي» يعنى يلقيها، زاد على عن سفيان «حتى ينتهى إلى الأرض فيلقى» (٦).

قال سليمان آل الشيخ (٧): (وصفه سفيان بكفه أى وصف ركوب بعضهم فوق بعض وسفيان هو ابن عيينة أبو محمد الهلالى الكوفى ثقة حافظ فقيه إمام حجة، إلا أنه

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٧٦٢)، ومسلم فى السلام (٧ / ٤٨٢ / ١٢٢).

(٢) الفتح ٢٠٣/٦٠ ك الطب.

(٣) القول المفيد (١ / ٤٠٠).

(٤) الصافات: ١٠.

(٥) فتح البارى (٨ / ٣٩٩).

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥ / ٤٤٢) ونسبه لبيهقي، وابن أبى شيبة، وابن مردويه، وأبى نعيم فى «الدلائل»

(٧) تيسير العزيز الحميد (١٩٦).

تغير حفظه بآخره، وربما دلس لكن عن الثقات، مات سنة ثمان وتسعين ومائة وله إحدى وتسعون سنة. أهـ.

قال ابن عثيمين^(١): أى أنها واحد فوق الثانى، أى الأصابع، فالجن يتراكبون واحد فوق الآخر إلى أن يصلوا إلى السماء فيقعون لكل واحد مقعد خاص، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾.

قال الفقير:

● وفيه من الفوائد:-

الأولى:- أن من الجن مسترقون مختلسون خطافون، قال تعالى ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾.

الثانية: أنهم يقومون بعمليات انتحارية ذلك لأنهم يتراكبون واحداً فوق الآخر إلى أن يصلوا إلى السماء وهم على ثقة أن أغلبهم سيدركهم الشهاب، ومع ذلك فعلوا.

الثالثة:- ذكر فى غير موضع كما فى صحيح مسلم وغيره أن إبليس له سرايا وجنود وبعوث وعرش وحُجب، فلا غرو ولا عجب أن يكون منهم من يقوم بهذه العمليات الانتحارية.

الرابعة: مدى حرص أهل الباطل على الباطل ويؤيده قوله تعالى ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ الآية وقوله تعالى ﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ الآية.

الخامسة:- أهل الحق أولى بهذا من أهل الباطل وإلا يفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

قوله: «يسمع الكلمة فيلقها إلى من تحته.

وفى حديث عائشة فى رواية السرخسى يخطفها من الجن.

(١) القول المفيد (١/٤٠١).

قال ابن حجر: أى الكاهن يخطفها من الجن أو الجن الذى يلقي الكاهن يخطفها من جن آخر فوقع.

(ويخطفها) بخاء معجمة وطاء مفتوحة وقد تكسر، وبعدها فاء ومعناه الأخذ بسرعة.

قال سليمان آل الشيخ: أن يسمع المستمع الفوقانى الكلمة من الوحي، فيلقيها إلى الشيطان الذى تحته، ثم يلقيها الآخر من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر والكاهن، وحينئذ يقع الرجم أ.هـ.

قال ابن عثيمين: أى يسمع أعلى المسترقين الكلمة، فيلقيها إلى من تحته، أى يخبره بها (ومن) اسم موصول، وقوله (تحت) شبه جملة صلة الموصول، لأنه ظرف. أ.هـ.
قوله «ثم يلقيها الآخر إلى من تحته».

أى يسمع أعلى المسترقين الكلمة فيلقيها إلى من تحته أى يخبره بها.

قوله «حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن».

وفى رواية على الساحر والكاهن وكذا قال سعيد بن منصور عن سفيان.

قوله «حتى يلقيها».

فى حديث عائشة «فيقرها» أى يصبها، يقول قررت على رأسه دلواً إذا صببته، فكأنه صب فى أذنه ذلك الكلام، ووقع فى رواية يونس «فيقرقرها أى يرددتها، يقال قرقرت الدجاجة تقررقر قرقرة. إذا رددت صوتها.

قال الخطابي: والمعنى أنه إذا ألقى الكلمة لوليه تسامع بها الشياطين فتناقلوها كما إذا صوتت الدجاجة فسمها الدجاج فجاءت بها.

وقيل معانٍ أخرى.

قوله «على لسان الساحر أو الكاهن».

تقدم صفة ذلك. قال مالك والساحر الذى يعمل السحر ولم يعمل ذلك له غيره. وهو مثل الذى قال الله تعالى فى كتابه ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق﴾ وسيأتى تفصيل ذلك فى أبواب السحر وتقدم قول ابن عثيمين.

والكاهن لفظ يطلق على العراف، والذى يضرب الحصى، والمنجم، ويطلق على من يقوم بأمر آخر ويسعى فى قضاء حوائجه.

وقال فى (المحكم): الكاهن القاضى بالغيب. وقال فى (الجامع): العرب تسمى كل من أذن بشئ قبل وقوعه كاهناً.

وقال الخطابي: الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شديدة وطباع نارية، فآلفتهم الشياطين لما بينهم من التناصب في هذه الأمور ومساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه. أنواع الكهانة.

قال ابن حجر: وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية خصوصاً في العرب لانقطاع النبوة فيهم. وهى على أصناف: منها ما يتلقونه من الجن، فإنَّ الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذى يليه، إلى أن يتلقاه من يلقه فى أذن الكاهن فيزيد فيه، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرس السماء من الشياطين، وأرسلت عليهم الشهب، فبقى من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى ﴿إِلاَّ من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جداً.

قال الفقير: وذلك لأن الحرس لم يكونوا موجودين للسمع فيسمع الجن ويعطوا للكاهن ولذلك كان للكهان شأن كبير وعظيم في الجاهلية أما بعد الإسلام فليس لهم شأن ولذلك أنا أرجح قول من يقول أن هذه الشهب لا زالت موجودة إلى الآن فإنه لم تكن فقط المناسبة نزول القرآن.

قال ابن حجر: كما جاء فى أخبار شق وسطيح ونحوهما، وأما فى الإسلام فقد ندر ذلك جداً حتى كاد يضمحل والله الحمد.

ثانيها ما يخبر الجنى به من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً. أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد.

● فائدة:

قال ابن عثيمين^(١): وقد التبس على بعض طلبة العلم، فظنوا أنه كل من يخبر عن الغيب ولوفى ما مضى فهو كاهن لكن ماضى مما يقع فى الأرض ليس غيباً مطلقاً، بل هو غيب نسبى. اهـ.

قال ابن حجر: ثالثها ما يستند إلى ظن وتخمين وحس وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه.

قال الفقير: لأن مستنده ظن وتخمين مثل أن يخبرك إنسان بما فى ضميرك فإن كان مستند ذلك ظن وتخمين وحس فهو المذموم وإن كان مستنده فراسة فهذا مشروع لأنه يستدل بإشارات وعلامات على الوجه تنفذ بها من الظاهر إلى الباطن.

(١) القول المفيد.

واعتمد الحكم بالفراصة ابن القيم فى كتابه الطرق الحكيمية وذكر أن رجلاً دخل على عثمان - رضى الله عنه - فقال له رجل أما يستحى رجل أن يدخل على أمير المؤمنين وأثر الزنى فى عينيه، ومن هنا أقر الرسول ﷺ ما يحدث لعمر من إلهام وقال «فى كل أمة - محدثين وملهمين وإن يكن فى أمتى فهو عمر» والحديث أصله فى الصحيح.

قال ابن حجر : رابعها ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك، ومن هذا القسم الأخير ما يضاهاى السحر، وقد يعتضد بعضهم فى ذلك بالزجر والطرق والنجوم.

قلت : كمن يعمل خطأ ويقول أنا ثبت كفراسة الخضر مع موسى عندما قال له ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قال استجذنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً*. ليس غيباً مطلقاً بل هو غيب نسبى.

قال ابن عثيمين : مثل ما يقع فى المسجد يعد غيباً بالنسبة لمن فى الشارع وليس غيباً بالنسبة لمن فى المسجد، وقد يتصل الإنسان بجنى فيخبره عما حدث فى الأرض، ولو كان بعيداً فيستخدم الجن لكن ليس على وجه محرم^(١)، فلا يسمى كاهناً لأن الكاهن ما يخبر عن الغيبات فى المستقبل أ. هـ .

قال الفقير : وما استنكره الشيخ هو ما قرره ابن حجر فى النوع الثانى من أنواع الكهانة وقال فى آخر هذه الأنواع وكل ذلك مذموم شرعاً. حكم الكهانة وما ورد فى ذمها.

قال ابن حجر : وكل ذلك مذموم شرعاً، وورد فى ذم الكهانة ما أخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث أبى هريرة رفعه «من أتى كاهناً أو عرفاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»^(٢).

وله شاهد من حديث جابر^(٣)، وعمران بن حصين أخرجهما البزار بسندين جيدين ولفظهما «من أتى كاهناً».

أخرجه مسلم من حديث امرأة من أزواج النبى ﷺ، ومن الرواة من سماها حفصة - بلفظ «من أتى عرفاً»^(٤).

(١) وقد تقدم أن استخدام الجن بأى صورة من الصور ممنوع، وليس هناك أى وجه فى الاستخدام عليه دليل إلا ما روى بسند ضعيف عن أبى موسى فى قصة وسم عمر ابل الصدقة، ولا تقوم به حجة. والله المستعان.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥ / ١١٧) ونسبه للبزار . قال : ورجاله رجال الصحيح خلا عقبه بن سنان وهو ضعيف

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (٧ / ٤٨٤ / ١٢٥)

وأخرجه أبو يعلى من حديث ابن مسعود بسند جيد، لكن لم يصرح برفعه، ومثله لا يقال بالرأي، ولفظه: «من أتى عرفاً أو ساحراً أو كاهناً» (١).

واتفقت ألفاظهم على الوعيد بلفظ حديث أبي هريرة إلا حديث مسلم فقال فيه: «لم يقبل لهما صلاة أربعين يوماً» (٢).

ووقع عند الطبراني من حديث أنس بسند لين مرفوعاً بلفظ: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برىء مما أنزل على محمد، ومن أتاه غير مصدق له لم تقبل صلاته أربعين يوماً» (٣) الأحاديث الأولى مع صحتها وكثرتها أولى من هذا، والوعيد جاء تارة بعدم قبول الصلاة، وتارة بالتكفير، فيحمل على حالين من الآتي أشار إلى ذلك القرطبي اهـ.

قوله: «فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها» إلى آخره

قال ابن حجر: (٤) يقتضى أن الأمر فى ذلك يقع على حد سواء، والحديث الآخر يقتضى أن الذى يسلم منهم قليل بالنسبة إلى من يدركه الشهاب.

ووقع فى روايه سعيد بن منصور عن سفيان فى هذا الحديث «فيرمى هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى يلقي على فم ساحر أو كاهن».

قوله «فيكذب معها مائة كذبة، فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء» زاد على بن عبد الله عن سفيان كما فى تفسير الحجر عند البخارى «فيقولون ألم يخبرنا يوم كذا كذا يكون وكذا وكذا فوجدناه حقاً الكلمة التى سمعت من السماء».

وفى حديث ابن عباس «فيقول: يكون العام كذا وكذا فيسمعه الجن فيخبرون به الكهنة فتخبر الكهنة الناس فيجدونه» وسيأتى.

وفى حديث عائشة «فيخلطون معها مائة كذبة» (٥) فى رواية ابن جريج «أكثر من مائة كذبة» وهو دال على أن ذكر المائة للمبالغة لالتعيين العدد، وقوله كذبة هنا بالفتح وحكى الكسر اهـ.

(١) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥ / ١١٨) ونسبه للبخاري قال: ورجاله رجال الصحيح خلا هبيرة بن مريم وهو ثقة.

(٢) ثقة تخريجه

(٣) أخرجه الطبراني فى «الأوسط» (٦٦٧٠) قال الهيثمى فى «المجمع» (٥ / ١١٨) قال: وفيه رشدين بن سعد وهو ضعيف وفيه توثيق فى أحاديث الرقاق وبقية رجاله ثقات.

(٤) «الفتح» (١٠ / ٢٢٧، ٢٢٨)

(٥) تقدم تخريجه

مسئلة كيف يتوصل الجنى الى اختطاف الكلمة واستراق السمع؟

قال ابن حجر: أخرج مسلم فى حديث آخر أصل توصل الجنى الى الاختطاف فأخرج من حديث ابن عباس «حدثنى رجال من الأنصار أنهم بيناهم جلوس ليلاً مع رسول الله ﷺ إذ رمى بنجم فاستنار» فقال: ما كنتم تقولون إذا رمى مثل هذا فى الجاهلية؟ قالوا: كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم أو مات رجل عظيم، فقال: إنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياة. ولكن ربنا إذا قضى أمراً سبى حملة العرش ثم سبى الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح إلى أهل هذه السماء الدنيا فيقولون: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم حتى يصل إلى السماء الدنيا، فيسرق منه الجنى، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يزيدون فيه وينقصون»^(١) بيان كيفيتهم عند استراقهم، بدء الخلق من وجه آخر عن عروة عن عائشة «أن الملائكة تنزل فى العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قضى فى السماء فتسرق الشياطين السمع»^(٢) فيحتمل أن يريد بالسحاب السماء كما أطلق السماء على السحاب، ويحتمل أن يكون على حقيقته وأن بعض الملائكة إذا نزل بالوحي إلى الأرض تسمع منهم الشياطين، أو المراد الملائكة الموكلة بإنزال المطر. اهـ.

● فوائد الحديث.

قال ابن عثيمين^(٣).

- ١- إثبات القول لله - عز وجل.
- ٢- عظمة الله - سبحانه وتعالى .
- ٣- إثبات الأجنحة للملائكة.
- ٤- خوف الملائكة من الله - عز وجل - وخضوعهم له.
- ٥- أن الملائكة يتكلمون ويعقلون.
- ٦- أنه لا يصدر عن الله إلا الحق.
- ٧- أن الله - سبحانه - يمكن هؤلاء الجن من الوصول إلى السماء فتنة للناس، وهى ما يلقونه على الكهان، فيحصل بذلك فتنة، والله - عز وجل - حكيم.
- وقد يوجد الله أشياء تكون ضلالاً لبعض الناس، لكنها لبعضهم هدى وامتحاناً وابتلاء.
- ٨ - كثرة الجن؛ لأنهم يترادفون إلى السماء، ومعنى ذلك أنهم كثيرون جداً، وأجسامهم خفيفة يطيرون طيراناً.

وذكر ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية فى السحرة الذين يستخدمون الجن وتطير

(٣) القول المفيد ١/ ٤٤٤، ٤٠٥، ٤٠٦.

(٢) تقدم تخريجه

(١) تقدم تخريجه

وَعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ؛ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ؛ أَخَذَتِ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً. (أَوْ قَالَ: رَعْدَةً شَدِيدَةً) خَوْفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ؛ صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جَبْرِيلُ فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جَبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلِّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جَبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ. فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جَبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جَبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» (١).

بهم: أنهم يصبحون يوم عرفة في بلادهم ويقفون مع الناس في عرفة، وهذا ممكن الآن في الطائرات، لكن في ذلك الوقت ليس هناك طائرات؛ فتحملهم الشياطين، ويجعلون للناس المكائس التي تكس بها البيوت، ويقول: أنا أركب المكينة وأطير بها إلى مكة؛ يفعلون هذا، وشيخ الإسلام يقول: إن هؤلاء كذبة ومستخدمون للشياطين، ويسئون حتى من الناحية العملية؛ لأنهم يمرّون الميقات ولا يحرمون منه.

٩- أن الكهان من أكذب الناس، ولهذا يضيفون إلى ماسمعوا كذبات كثيرة يضللون بها الناس، ويتوصلون بها إلى باطلهم تارة بالترهيب وتارة بالترغيب، كأن يقولوا: ستقوم القيامة يوم كذا وكذا، وسيجرى عليك كذا من موت أو سرقة مال ونحو ذلك.

١٠- أن الساحر يصور للمسحور غير الواقع، وفي هذا تحذير من أهل التملويه والتليس، وأنهم إن صدقوا في شيء؛ فيجب الحذر منهم بكل حال.



قوله: عن النّوّاس بن سمعان

قال ابن عثيمين (٢). هذا الحديث لم يخرجہ المؤلف، لكن قد ذكره ابن كثير من

(١) لا أصل له أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦٣/٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٩٦/٣١٩٧/١٠) وأبو الشيخ في «العظمة» (١٦٤) وابن خزيمة في «التوحيد» (ص: ١٤٤) وابن أبي عاصم في السنة (٥١٥) من طريق نعيم بن حماد، حدثنا الوليد بن مسلم، عن عبدالرحمن بن يز يدبن جابر، عن عبدالله بن أبي زكريا، عن رجاء بن حيوة، عن النّوّاس بن سمعان به. وفي إسناده نعيم بن حماد وهو ضعيف والوليد بن مسلم وهو مدلس وقد عنعنه وقال الذهبي في «الميزان» (٤ / ٢٦٨) قال أبو زرعة الدمشقي عرضت على دحيم حديث حدثنا نعيم بن حماد عن الوليد بن مسلم فذكر الاسناد وهذا الحديث.

وقال وحيم: لا أصل له.

وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخریجنا. وانظر «الاتقان» (٣٩١ - بتخریجنا). وفتح المجيد (ح ٣٢٦) بتخریجنا

(٢) القول المفيد ١/ ٤٠٦، ٤٠٧.

رواية ابن ابي حاتم، وذكر فيه علة، وهى أن فى سنده الوليد بن مسلم، وهومدلس، وقد رواه عن شيخه بالعننة؛ فيكون فى الحديث ضعف، إلا أنه قد روى مسلم وأحمد من حديث ابن عباس حديثاً (١) قد يكون شاهداً له، حيث أخبر أن الله إذا تكلم بالوحي سمعه حملة العرش، فسبحوا، ثم سمعه أهل كل سماء، فيسبحون كما سبح أهل السماء السابعة، حتى يصل إلى السماء الدنيا، فتخطفه الجن أو الشياطين. وهذا وإن لم يكن فيه ذكر رجفة السماء أو السجود؛ لكن يدل على أن له أصلاً أهـ.

مناسبة الحديث للباب

قال القرعاوى (٢): حيث دل الحديث على بيان حال الملائكة وخوفهم من الله.

مناسبة الحديث للتوحيد.

قال عبدالله بن جابر الله (٣): فيها تقرير التوحيد فإن الملك العظيم الذى تصعق الملائكة من كلامه خوفاً منه ومهابة وترجف منه المخلوقات هو الكامل فى ذاته وصفاته وملكه وغناه عن خلقه لايجوز أن يجعل له شريك فى عبادته.

قال القرعاوى (٤): حيث دل الحديث على أن الملائكة وهم من أعظم مخلوقات الله يخافون الله ويخشونه لذا فتكون عبادة غيرهم لهم باطلة وشركاً.

قوله: «عن النواس بن سمعان»

قال سليمان آل الشيخ (٥). قوله «عن النوس بن سمعان بكسر السين، أى : ابن خالد الكلابي، ويقال: الأنصاري، صحابي، ويقال: إن أباه صحابى أيضاً. قال أبو حاتم الرازي: سكن الشام».

قوله: «إذا أراد الله أن يوحى بالأمر»

قال ابن عثيمين (٦) أى بالشأن

قال سليمان آل الشيخ (٧): قوله : «إذا أراد الله أن يوحى بالأمر»... إلخ هذا والله أعلم فى جميع الأمور التى يقضيها الرب تبارك وتعالى، كما يدل عليه عموم

(١) تقدم تخريجه

(٢) الجديد ١٥٣ .

(٣) الجامع الفريد ٧١

(٤) الجديد ١٥٣

(٥) تيسير العزيز الحميد ١٩٩

(٦) القول المفيد ١/ ٤٠٧ .

(٧) تيسير العزيز الحميد ١٩٩

اللفظ، ويدل على ذلك أيضاً حديث أبي هريرة الذى تقدم وغيره من الأحاديث المتقدمة.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): فيه النص على أن الله تعالى يتكلم بالوحي وهذا من حجة أهل السنة على النفاة لقولهم : لم يزل الله متكلماً إذا شاء.

قوله «تكلم بالوحي»

قال ابن عثيمين^(٢): قوله : «تكلم بالوحي» جملة شرطية تقتضى تأخر المشروط عن الشرط؛ فالإدارة سابقة، والكلام لاحق؛ فيكون فيه ردّ على الأشاعرة الذين يقولون: إن الله لا يتكلم بإرادة، وإن كلامه أزلى؛ كالسمع والبصر؛ ففيه إثبات الكلام الحادث، ولا ينقص كمال الله إذا قلنا: إنه يتكلم بما شاء، كيف شاء، متى شاء، بل هذا صفة كمال، لكن النقص أن يُقال: إنه لا يتكلم بحرف وصوت، إنما الكلام معنى قائم بنفسه.

قوله : «أخذت السموات منه رجفة».

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣) السموات: مفعول مقدم، والفاعل «رجفة» أى: أصاب السماوات من كلامه تعالى رجفة، أى: ارتجفت وهو صريح فى أنها تسمع كلامه تعالى، كما روى ابن ابي حاتم عن عكرمة قال «إذا قضى الله أمراً تكلم تبارك وتعالى رجفت السماوات والأرض والجبال، وخرت الملائكة كلهم سُجّداً»^(٤).

قوله : «أو قال: رعدة شديدة».

قال سليمان آل الشيخ^(٥). قوله : «أو قال رعدة شديدة» يعنى أن الراوى شك هل قال النبى ﷺ رجفة، أو قال: رعدة، وهو بفتح الراء بمعنى الأول.

قال ابن عثيمين^(٦): وإنما تأخذ السماوات الرجفة أو الرعدة؛ لأنه سبحانه عظيم يخافه كل شيء، حتى السماوات التى ليس فيها روح.

قوله «خوفاً من الله - عز وجل -».

قال سليمان آل الشيخ^(٧). لا ينكر أن السموات والأرض ترجف وترتعد خوفاً من

(١) فتح المجيد ٢٥٢ مؤسسة قرطبة.

(٢) القول المفيد ٤٠٧/١. (٣) فتح المجيد ٢٥٢ ط مؤسسة قرطبة.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠ / ٣١٦٧ / ١٧٨٩٦) فأنظره بتخريجنا وذكره السيوطى فى

«الدر» (٥ / ٤٤٤) وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٢٧) بتخريجنا

(٥) تيسير العزيز الحميد ١٩٩ (٦) القول المفيد ٤٠٧/١ ١٨٢.

(٧) تيسير العزيز الحميد ١٩٩، ٢٠٠.

الله عزوجل ، فقد قال تعالى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١)

وقال تعالى ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (٢)

وقال تعالى ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (٣)

وقال تعالى ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤).

وفى «البخاري» عن ابن مسعود قال : [ولقد] كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل (٥).

وفى حديث (٦) أبى ذر أن النبي ﷺ أخذ فى يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا فى يد أبى بكر وعمر وعثمان. هو حديث مشهور فى «المسانيد» .

وكذلك فى «الصحيح» (٧) قصة حنين الجذع الذى كان يخطب عليه النبى ﷺ قبل اتخاذ المنبر، ومثل هذا كثير.

قوله «فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً».

قال سليمان آل الشيخ (٨). أى يقع منهم الأمران الصعق وهو الغشى والسجود، والله أعلم أيهما قبل الآخر، فإن الواو لا تقتضى ترتباً.

قال ابن عثيمين (٩) . فإن قيل : كيف يمكن أن يصعقوا ويخروا سجداً؟

فالجواب: أن الصعق هنا - والله أعلم - يكون قبل السجود، فإذا أفاقوا سجدوا.

قوله : فيكون أول من يرفع رأسه جبريل.

قال ابن عثيمين (١٠) أول بالنصب على أنها خبر مقدم، وجبريل بالرفع على أنها اسم يكون مؤخراً.

(١) الإسراء : ٤٤ .

(٢) مريم : ٩٠ .

(٣) البقرة : ٧٤ .

(٤) فصلت : ١١ .

(٥) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٥٧٩) وأحمد فى «مسنده» (١ / ٤٦٠) من عن ابن مسعود وأنظر

«فتح المجيد» (ج٣٢٨) بتخريجنا

(٦) قال فى «المجمع» (٢٩٨/٨) : «رواه البزار بإسنادين ورجال أحدهما ثقات وفى بعضهم ضعف .

وأنظر «فتح المجيد» (ج٣٢٩) بتخريجنا

(٧) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٥٨٤) والترمذى فى «أبواب الصلاة»/ باب : ماجاء فى الخطبة على

المنبر ت (٥ / ٣٧٩ / ٥٠٥) ابن عمر به

(٨) تيسير العزيز الحميد . ٢٠٠ .

(٩) القول المفيد ١/ ٤٠٨ .

قال سليمان آل الشيخ^(١). قوله: «فيكون أول من يرفع رأسه جبريل» معنى جبريل: عبدالله كما روى ابن جرير، وأبو الشيخ الأصبهاني عن علي بن حسين قال: اسم جبريل عبدالله، واسم ميكائيل عبيد الله، وإسرافيل عبدالرحمن، وكل شيء راجع إلى إيل فهو معبد لله عزوجل.

وفيه دليل على فضيلة جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (٢) قال أبو صالح في قوله: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ قال: جبريل يدخل في سبعين حجاً من نور بغير إذن.

وقد ورد في صفة جبريل أحاديث صحيحة، منها.

ما رواه أحمد بإسناد صحيح عن عبدالله عن مسعود قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته، وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت. والله به عليم^(٣).

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٤): فإذا كان هذا عظم هذه المخلوقات فخالقها أعظم وأجل فيكف يسرى به غيره في العبادة: دعاء وخوفاً ورجاءً وتوكلاً، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها غيره؟

فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالى وقد قال تعالى، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْخَرُونَ مِنْ الْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ يُعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكْ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٥).

قوله «فيكلمه الله من وحيه بما أراد».

قال ابن عثيمين^(٦). قوله: «بما أراد» أي: بما شاء لأن الله تعالى يتكلم بمشيئة.

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٠١، ٢٠٠.

(٢) التكوير: ١٩، ٢٠.

(٣) [ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (١ / ٤٠٧، ٣٩٥) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

والحديث أصله في الصحيح أخرجه البخاري (٨ / ٤٧٦ / ح ٤٨٥٦)، ومسلم (٢ / ٥ / ح ١٧٤) وانظر ابن أبي حاتم (ح ١٨٦٩٦) بتخريجنا و«فتح المجيد» (ح ٣٣٣) بتخريجنا.

(٤) فتح المجيد ٢٥٤، ٢٥٥ ط مؤسسة قرطبة.

(٥) الأنبياء: ٢٦-٢٩. (٦) القول المفيد ٤٠٨/١.

قوله: ﴿ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مرّ بسماء يسأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل﴾

قال ابن عثيمين (١). قوله «ثم يمر جبريل على الملائكة»

لأنه يريد النزول من عند الله إلى حيث أمره الله أن ينتهي إليه بالروحي .
قال سليمان آل الشيخ قوله: (٢) . «ثم يمر جبريل على الملائكة» إلى آخره . معناه ظاهر، فإذا كان هذا حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم ممن عبد من دون الله، وشدة خشيتهم من الله، وهيبتهم له مع ما أعطاهم الله من القوة العظيمة التي لا يعلمها إلا الله، ومع هذا فقد نفى عنهم الشفاعة بغير إذنه كما قال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (٣) وأخبر أنهم لا يملكون كشف الضر عن دعاهم ولا تحويله . فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٤) وفي ضمن ذلك النهى عن دعائهم وعبادتهم الشفاعة أو غيرها، كما قال تعالى ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَقُولُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ (٥) فكيف يدعوهم المشرك ويظن أنهم يشفعون له عند الله كما يشفع الوزراء عند الملوك، وإذا بطلت دعوتهم مع أنهم أحياء ناطقون مقربون عند الله، فدعاء غيرهم من الأموات الذين لا يستطيعون سمعاً ولا يملكون ضراً ولا نفعاً أولى بالبطلان. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦) وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٧) .

قوله: فيقول جبريل: قال: الحق وهو العليُّ الكبير.

قال ابن عثيمين (٨). سبق في تفسير ذلك أنه يحتمل قال الحق في هذه القضية المعينة، أو قال الحق؛ لأن من عادته سبحانه ألا يقول إلا الحق، وأياً كان؛ فإن

(١) القول المفيد ١/ ٤٠٨ . (٢) تيسير العزيز الحميد ٢٠١ .

(٣) النجم : ٢٦ . (٤) الإسراء : ٥٦ .

(٥) الزمر ٤٣/ ٤٤ . (٦) الأعراف : ١٩٤ .

(٧) النحل ٢٠/ ٢١/ ٢٢ .

(٨) القول المفيد ١/ ٤٠٨، ٤٠٩ .

جبريل لا يخبر الملائكة بما أوحى الله إليه، بل يقول : قال الحق مبهماً، ولهذا سمى عليه السلام بالأمين، والأمين: هو الذى لا ييوح بالسر.

قوله : « وهو العلى الكبير ».

تقدم الكلام عليه .

قوله « فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ».

قال ابن عثيمين^(١) : أى قال : الحق، وهو العلى الكبير .

قوله (فينتهى جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله - عزوجل) - .

قال ابن عثيمين^(٢) . أى : يصل بالوحي إلى حيث أمره الله من الأنبياء والرسل .

قال سليمان آل الشيخ^(٣) : قوله : ثم ينتهى جبريل بالوحي إلى حيث أمره

الله عزوجل . قد بيض المصنف رحمه الله بعد هذا، ولعله أراد أن يكتب تمام الحديث ومن رواه وتماه : « إلى حيث أمره الله عزوجل من السماء والأرض » .

ورواه ابن جرير وابن خزيمة وابن أبي حاتم والطبراني .

وفى الحديث من الفوائد إثبات الكلام خلافاً للجهمية، وإثبات الصوت خلافاً لهم وللأشاعرة . أ.هـ .

قلت: وتقدم ذكر شيء من هذا عن الحافظ، فانظره فى هذا الباب

من فوائد الحديث .

قال ابن عثيمين^(٤) .

● من فوائد الحديث .

١- إثبات الإرادة لقوله : « إذا أراد الله »، وهى قسمان : شرعية، وكونية .

والفرق بينهما أولاً: من حيث المتعلق؛ فالإرادة الشرعية تتعلق بما يحبه الله -

عزوجل -، سواء وقع أو لم يقع، وأما الكونية؛ فتتعلق بما يقع، سواء كان مما يحبه الله أو مما لا يحبه .

ثانياً: الفرق بينهما من حيث الحكم، أى حصول المراد؛ فالشرعية لا يلزم منها وقوع

المراد، أما الكونية؛ فيلزم منها وقوع المراد .

(٢) القول المفيد ١/ ٤٠٩

(١) المصدر السابق .

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٠١، ٢٠٢

(٤) القول المفيد ١/ ٤٠٩ ، ٤١٢ .

فقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾^(١) هذه إرادة شرعية؛ لأنها لو كانت كونية لتاب على كل الناس، وأيضاً متعلقها فيما يحبه الله وهو التوبة.

وقوله : ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾^(٢) هذه كونية؛ لأن الله لا يريد الإغواء شرعاً، أما كوناً وقدراً؛ فقد يريده.

وقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾^(٣). هذه كونية، لكنها في الأصل شرعية؛ لأنه قال : ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾^(٤).

وقوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٥) هذه شرعية؛ لأن قوله : ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ لا يمكن أن تكون كونية؛ إذ أن العسر يقع، ولو كان الله لا يريده قدراً وكوناً؛ لم يقع.

٢- أن المخلوقات وإن كانت جماداً تحس بعظمة الخالق، قال تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(٦).

٣- إثبات أن الملائكة يتكلمون ويفهمون ويعقلون لأنهم يسألون: ﴿ماذا قال ربكم﴾؟ ويجابون : قال ﴿الحق﴾، خلافاً لمن قال: إنهم لا يوصفون بذلك؛ فيلزم من قولهم هذا أننا تلقينا الشريعة ممن لا عقول لهم، وهذا قدح في الشريعة بلا ريب.

٤- إثبات تعدد السماوات؛ لقوله: ﴿كلما مر بسماء﴾

٥- أن لكل سماء ملائكة مخصصين؛ لقوله «سأله ملائكتها».

٦- فضيلة جبريل عليه السلام حيث إنه المعروف بأمانة الوحي، ولهذا قال ورقة ابن نوفل: «هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى»^(٧)، والناموس بالعبرية بمعنى صاحب السر.

٧- أمانة جبريل عليه السلام، حيث ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله - عز وجل - فيكون فيه رد على الرافضة الكفرة الذين يقولون: بأن جبريل أمر أن يوحى إلى علي فأوحى إلى محمد ﷺ، ويقولون : خان الأمين فصدّها عن حيدرة، وحيدرة لقب لعلي بن أبي طالب؛ لأنه كان يقول في غزوة خيبر: أنا الذي سمّيتي أمي حيدرة.

(٣) النساء : ٢٦

(٢) هود : ٣٤

(١) النساء : ٢٦

(٥) البقرة : ١٨٥

(٤) النساء : ٢٦

(٦) الإسراء : ٤٤

(٧) [صحيح] أخرجه البخاري (٣) عن عائشة به.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

الثانية: مَا فِيهَا مِنَ الْحُجَّةِ عَلَى إِبْطَالِ الشُّرْكِ، خُصُوصاً مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الصَّالِحِينَ، وَهِيَ الْآيَةُ الَّتِي قِيلَ: إِنَّهَا تَقْطَعُ عُرُوقَ شَجَرَةِ الشُّرْكِ مِنَ الْقَلْبِ.

وفى هذا تناقض منهم؛ لأن وصفه بالأمانة يقتضى عدم الخيان.

٨- إثبات العزة والجلال لله عزوجل؛ لقوله «عزوجل»، والعزة بمعنى الغلبة والقوة، وللعزیز ثلاثة معان:

١- عزیز: بمعنى ممتنع أن يناله أحد بسوء.

٢- عزیز: بمعنى ذى قدر لا يشاركه فيه أحد.

٣- عزیز: بمعنى غالب قاهر.

قال ابن القيم:

وهو العزيز فلن يرام جنابه	أنى يرام جناب ذو السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم	يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه	فالعز حينئذ ثلاث معان

وأما جل: فالجلال بمعنى العظمة التى ليس فوقها عظمة.



فيه مسائل:

قال ابن عثيمين^(١). قوله:

● الأولى: تفسير الآية.

أى: قوله تعالى «حتى إذا فرغ عن قلوبهم.....» الآية، وقد سبق تفسيرها.

● الثانية: ما فيه من الحجة على إبطال الشرك.

وذلك أن الملائكة وهم من هم فى القوة والعظمة يصعقون ويفزعون من تعظيم الله؛

(١) القول المفيد ١/ ٤١٣، ٤٢١،

الثالثة: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: (قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ).

الرابعة: سَبَبُ سُؤَالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ.

الخامسة: أَنَّ جِبْرِيلَ يُجِيبُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: (قَالَ: كَذًا وَكَذَا).

السادسة: ذِكْرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ.

السابعة: أَنَّهُ يَقُولُ لِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ كُلِّهِمْ لِأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ.

الثامنة: أَنَّ الْغَشْيَ يَعُمُّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ كُلَّهُمْ.

فكيف بالأصنام التي تعبد من دون الله وهي أقل منهم بكثير؛ فكيف يتعلق الإنسان بها؟!

ولذلك قيل : إن هذه الآية هي التي تقطع عروق الشرك من القلب ؛ لأن الإنسان إذا عرف عظمة الرب سبحانه حيث ترتجف السماوات ويصعق أهلها بمجرد تكلمه بالوحي ؛ فكيف يمكن للإنسان أن يشرك بالله شيئاً مخلوقاً ربما يصنعه بيده حتى كان جهال العرب يصنعون آلهة من التمر إذا جاع أحدهم أكلها .

وينزل أحدهم بالوادي فيأخذ أربعة أحجار: ثلاثة يجعلها تحت القدر، والرابع - وهو أحسنها - - يجعلها إلها له .

● الثالثة : تفسير قوله : ﴿قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

وسبق تفسيرها .

● الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.

فالسؤال : ماذا قال ربكم؟ وسببه شدة خوفهم منه وفزعهم خوفاً من أن يكون قد قال فيهم ما لا يطيقونه من التعذيب .

● الخامسة: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: قال كذا وكذا ؛ أي: يقول : قال الحق.

● السادسة : ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل

لحديث النواس بن سمعان ، وفيه فضيلة جبريل .

● السابعة: أنه يقول لأهل السماوات كلهم لأنهم يسألونه.

وفى هذا دليل على عظمته بينهم .

التاسعة: اَرْتَجَافُ السَّمَاوَاتِ لِكَلَامِ اللَّهِ.

العاشرة: أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يَنْتَهِي بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ.

الحادية عشرة: ذِكْرُ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ.

الثانية عشرة: صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

الثالثة عشرة: إِرْسَالُ الشَّهْبِ.

قلت: وفيه دليل أيضا على أنهم جميعاً لا يعلمون ماذا قال الله تعالى يرغم قريبهم منه بالنسبة إلى الجن والانس ففيه رد دافع على من يدعى علم الغيب من الجن والانس ومن أشركهم مع الله طلباً للغيب من بينهم.

● الثامنة: أَنَّ الْغَشْيَ يِعَمُّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ كُلَّهُمْ.

تؤخذ من قوله: «فإذا سمع ذلك أهل السماوات؛ صعقوا وخروا لله سجداً».

● التاسعة: اَرْتَجَافُ السَّمَاوَاتِ لِكَلَامِ اللَّهِ.

لقوله: «أخذت السماوات منه رجفة»؛ أى : لأجله تعظيماً لله.

● العاشرة : أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يَنْتَهِي بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ.

أى: لا أحد يتولى إيصال الوحي غير جبريل حتى يوصله إلى حيث أمره به؛ لأنه الأمين على الوحي.

● الحادية عشرة : ذِكْرُ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ

أى: الذين يسترقون ما يسمع فى السماوات، فيلقونه على الكهان فيزيد فيه الكهان وينقصون.

● الثانية عشرة: صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

وصفها سفيان - رحمه الله - بأن حرف يده وبدد بين أصابعه.

● الثالثة عشرة: إِرْسَالُ الشَّهْبِ.

يعنى : التى تحرق مسترقى السمع. قال تعالى: «إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ

مُنِينٌ» (١).

الرابعة عشرة: أَنَّهُ تَارَةً يُدْرِكُهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَتَارَةً يُلْقِيَهَا فِي أُذُنِ
وَلِيِّهِ مِنَ الْإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ.

الخامسة عشرة: كَوْنُ الْكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ.

السادسة عشرة: كَوْنُهُ يَكْذِبُ مَعَهَا مِثَّةَ كَذِبَةٍ.

السابعة عشرة: أَنَّهُ لَمْ يَصْدَقْ كَذِبُهُ إِلَّا بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ
السَّمَاءِ.

● الرابعة عشرة: أَنَّهُ تَارَةً يَدْرِكُهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَتَارَةً يُلْقِيَهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ
مِنَ الْإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ
قلت: ففيه حرصهم على الموت من أجل الباطل إلا تفعله من أجل الحق تكن فتنة
في الأرض وفساد كبير.

● الخامسة عشرة: كَوْنُ الْكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ.
لأنه يأتي بما سمع من السماء ويزيد عليه، وإذا وقع ما في السماء؛ صار صادقاً
قلت: أى ومع ذلك يحرم الذهاب بغيركم وإذا كان ينمن فقد كفرو جمع بين محرمين
وإذا ضم إلى ذلك التصديق له.
● اعتراض وجوابه.

كيف يسمع المسترقون الكلمة وعندما يسأل الملائكة جبريل يجابون بقال الحق فقط؟
والجواب: إن الوحي لا يعلمه أهل السماء، بل هو من الله إلى جبريل إلى النبي ﷺ
أما الأمور القدرية التي يتكلم الله بها؛ فليست خاصة بجبريل، بل ربما يعلمها أهل
السماء مفصلة، ثم يسمعونها مسترقوا السمع.

● السادسة عشرة: كَوْنُهُ يَكْذِبُ مَعَهَا مِثَّةَ كَذِبَةٍ.
أى: يكذب مع الكلمة التي تلقاها من المسترق.
وقوله: «مِثَّةَ كَذِبَةٍ» هذا على سبيل المبالغة كما سبق وليس على سبيل التحديد.

● السابعة عشرة: أَنَّهُ لَمْ يَصْدَقْ إِلَّا بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ.
وأما ما قاله من عنده؛ فهو تخرص؛ فالكلمة التي سمعها تصدق، والذي يضيفه كله
كذب يمويه به على الناس.

الثامنة عشرة: "قَبُولُ النَّفُوسِ لِلْبَاطِلِ! كَيْفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ وَلَا يَتَعَبَّرُونَ بِمِثْلِهَا؟!"

التاسعة عشرة: "كُونُهُمْ يَتَلَقَّى بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ تِلْكَ الْكَلِمَةَ وَيَحْفَظُونَهَا وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا."

العشرون: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة.

● الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمئة؟!

وهذا صحيح، وليس صفة عامة لعامة الناس، بل لأهل الجهل والسفَه؛ فهم يتعلقون بالكاهن من أجل صدقه مرة واحدة، وأما مئة كذبة؛ فلا يعتبرون بها، ولا شك أن بعض السفهاء يغترون بالصالح المغمور بالمفاسد، ولكن لا يغتر به أهل العقل والإيمان، ولهذا المازل قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ (١).

تركهما كثير من الصحابة اعتباراً بالموازنة، والعاقل لا يمكن إذا وازن بين الأشياء أن يرجح جانب المفسدة؛ فهو وإن لم يأت الشرع بالتعيين يعرف ويميز بين المضار والمنافع قلت: هذا دأب السفهاء في كل عصر ومصر يغترون بالباطل فهم الذين قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ الآية أما الذين أوتوا العلم فلم يغتروا بهذا الباطل المبهرج بل قالوا للسفهاء: ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنَ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾.

● التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها... إلخ.

الكلمة: هي الصدق؛ لأنها هي التي تروج بضاعتهم، ولو كانت بضاعتهم كلها كذباً ما راجت بين الناس

قلت: وإذا كان أهل الباطل حفظوا الحق واستدلوا به ليرجوا به باطلهم فمن باب أولى أهل الحق يكونوا للحق أحفظ.

● العشرون: إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة

الأشعرية: هم الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري وسموا معطلة لأنهم يعطلون النصوص عن المعنى المراد بها ويعطلون ما وصف الله به نفسه. والمراد تعطيل أكثر ذلك فإنهم يعطلون أكثر الصفات ولا يعطلون جميعها، بخلاف المعتزلة؛ فالمعتزلة ينكرون الصفات ويؤمنون بالأسماء، هؤلاء عابثتهم، وإلا؛ فغلاتهم ينكرون حتى الأسماء، وأما الأشاعرة؛ فهم معطلة اعتباراً بالأكثر؛ لأنهم لا يثبتون من الصفات إلا

الحادية والعشرون: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ تِلْكَ الرَّجْفَةَ وَالْغَشْيَ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

الثانية والعشرون: أَنَّهُمْ يَخِرُونَ لِلَّهِ سُجَّدًا.

سبعاً، وصفاته تعالى لا تحصى، وإثباتهم لهذه السبع ليس كثبات السلف؛ فمثلاً: الكلام عند أهل السنة: أن الله يتكلم بمشيئته بصوت وحرف. والاشاعة قالوا: الكلام لازم لذاته كلزوم الحياة والعلم، ولا يتكلم بمشيئة، وهذا الذى يسمع عبارة عن كلام الله وليس كلام الله، بل هو مخلوق؛ فحقيقة الأمر أنهم لم يثبتوا الكلام، ولهذا قال بعضهم: إنه لا فرق بيننا وبين المعتزلة فى كلام الله؛ لأننا أجمعنا على أن ما بين دفتى المصحف مخلوق، وحجتهم فى إثبات الصفات السبع: أن العقل دل عليها.

وشبهتهم فى إنكار البقية: زعموا أن العقل لا يدل عليها.

والرد عليهم بما يلى:

١- أن كون العقل يدل على الصفات السبع لا يدل على انتفاء ما سواها؛ فإن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول؛ فهب أن العقل لا يدل على بقية الصفات، لكن السمع دل عليها؛ فثبتها بالدليل السمعى.

٢- أنها ثابتة بالدليل العقلى بنظير ما أثبتتم هذه السبع؛ فمثلاً: الإرادة ثابتة لله عندهم بدليل التخصيص، حيث إن الله جعل الشمس شمساً والقمر قمراً والسماء سماءً والأرض أرضاً، وكونه يميز بين ذلك معناه أنه سبحانه وتعالى يريد؛ إذ لولا الإرادة لكانت الدنيا كلها سواء، فأثبتوها لأن العقل دل عليها.

فنقول لهم: الرحمة لا تمضى لحظة على الخلق إلا وهم فى نعمة من الله؛ فهذه النعم العظيمة من الله تدل على رحمته لخلقه أدل من التخصيص على الإرادة.

والانتقام من العصاة يدل على بغضه لهم، وإثابة الطائعين ورفع درجاتهم فى الدنيا والآخرة يدل على محبته لهم أدل على التخصيص من الإرادة، وعلى هذا فقس؛ فالمؤلف رحمه الله لما كان الأشعرية لا يثبتون إلا سبع صفات على خلاف فى إثباتها مع أهل السنة جعلهم معطلة على سبيل الإطلاق، وإلا؛ فالحقيقة أنهم ليسوا معطلة على سبيل الإطلاق.

● الحادية والعشرون: التصريح بأن تلك الرجفة والغشى خوفاً من الله - عز وجل -

فيدل على عظمة الخالق جل وعلا، حيث بلغ خوف الملائكة منه هذا المبلغ.

● الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجداً.

أي: تعظيماً لله واتقاءً لما يخشونه؛ فتفيد تعظيم الله - عز وجل - كالتى قبلها. أهـ



- محتويات الباب:-

- ١- مناسبة الباب لما قبله وماذا أراد المصنف بهذا الباب.
- ٢- شبه الشفاعة والجواب عليها.
- ٣- مدخل للباب.
- ٤- تعريف الشفاعة.
- الآية الأولى فى الباب ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الآية.
- ٥- مناسبة الآية للباب.
- ٦- مناسبة الآية للتوحيد.
- ٧- إعراب الآية.
- ٨- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين.
- ٩- سبب نزول الآية.
- ١٠- ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد للآية.
- الآية الثانية فى الباب ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ الآية.
- ١١- مناسبة الآية للباب.
- ١٢- مناسبة الآية للتوحيد.
- ١٣- إعراب الآية.
- ١٤- ما جاء فى كلام المفسرين فى تفسيرها.
- ١٥- ما جاء من كلام الشراح لكتاب التوحيد فى الآية.
- ١٦- أقسام الشفاعة.
- أ - شفاعة الخالق للمخلوق.
- ب - مواطن شفاعة الله.
- ج - شفاعة كلام رب العالمين.
- ١٧- أنواع شفاعة المخلوقين للمخلوقين بإذن رب العالمين.

(أ) شفاعة الملائكة .

(ب) شفاعة النبيين .

(ج) شفاعة النبي ﷺ وهى قسمان :

- القسم الاول : شفاعة فى الدنيا فيما يقدر عليه قدرأً وشرعاً .

- مواطن شفاعة الرسول ﷺ .

- القسم الثانى : شفاعة النبي ﷺ فى الآخرة وهى أنواع :-

(أ) الشفاعة الكبرى .

(ب) شفاعته ﷺ لأهل الجنة فى دخولها .

(ج) شفاعته ﷺ لقوم من العصاة من أمتة قد استوجبوا النار .

(د) شفاعته ﷺ فى العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم .

(هـ) شفاعته ﷺ لقوم من أهل الجنة فى زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم .

(و) شفاعته لأهل الكبائر .

(ز) شفاعته فى بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه .

١٨- أسباب شفاعة الرسول ﷺ .

(أ) الدعاء له بالمقام المحمود بعد الأذان .

(ب) الصلاة عليه ﷺ ثم طلب الوسيلة له بعد الأذان .

(ج) سكنى المدينة والموت فيها .

(د) كثرة السجود .

١٩- عدم ثبوت الشفاعة لزائر قبر الرسول ﷺ .

٢٠- شفاعة المؤمنين وهى نوعان :-

(أ) فى الدنيا فيما يقدر عليه المخلوق قدرأً وشرعاً وهو الدعاء للأموات والأحياء .

(ب) شفاعة فى الآخرة فيما يأذن لهم الله عزوجل فيه .

● شفاعة المؤمنين الشهداء .

● الآية الثالثة فى الباب ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ الآية .

٢١- مناسبة الآية للباب .

٢٢- مناسبة الآية للتوحيد .

- ٢٣- إعراب الآية .
- ٢٤- ما جاء فى كلام المفسرين فى الآية
- ٢٥ ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد .
- ٢٦- إشكال وجوابه .
- الآية الرابعة ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا... ﴾ الآية .
- ٢٧- مناسبة الآية للباب .
- ٢٨- مناسبة الآية للتوحيد .
- ٢٩- إعراب الآية .
- ٣٠- ما جاء فى الآية من كلام المفسرين .
- ٣١ ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية .
- ٣٢- موانع الشفاعة .
- (أ) عدم الرضى عن الشافع .
- (ب) عدم الإذن له .
- ٣٣- موانع الشفاعة العامة .
- (أ) التكذيب بالشفاعة .
- (ب) عدم الإذن .
- ٣٤- الموانع الخاصة للشفاعة .
- (أ) ترك الأسباب الخاصة للشفاعة الخاصة .
- الآية الخامسة فى الباب ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ... ﴾ الآية .
- ٣٥- مناسبة الآية للباب .
- ٣٦- مناسبة الآية للتوحيد .
- ٣٧- إعراب الآية .
- ٣٨- ما جاء من كلام المفسرين للآية .
- ٣٩- كلام شيخ الإسلام فى الباب وحديث أبى هريرة من أسعد الناس بشفاعتك .
- ٤٠- الحكمة من الشفاعة .
- ٤١- مسائل الباب .



١٦ باب: الشفاعة

● مناسبة الباب لما قبله وماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال سليمان آل الشيخ^(١): لما كان المشركون فى قديم الزمان وحديثه إنما وقعوا فى الشرك لتعلقهم بأذيال الشفاعة. كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^(٣) وكذلك قطع الله أطماع المشركين منها، وأخبر أنه شرك، نزه نفسه عنه، ونفى أن يكون للخلق من دونه ولى أو شفيع، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾^(٤).

أراد المصنف فى هذا الباب إقامة الحجج على أن ذلك هو عين الشرك، وأن الشفاعة التى يظنها من دعا غير الله ليشفع له كما يشفع الوزير عند الملك منتفية دنيا وأخرى، وإنما الله هو الذى يأذن للشافع ابتداء، لا يشفع ابتداء كما يظنه أعداء الله اهـ.

قال حامد بن محمد^(٥): باب فى بيان ما يدل على أن الشفاعة المطلقة لله جميعاً، وليس لأحد من خلقه أن يشفع لأحد إلا بإذنه، أى بإذن الشافع - فى شفاعته من رضى عليه - من الكتاب والسنة اهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ^(٦): باب الشفاعة: أى بيان ما أثبتته القرآن منها، وما نفاه وحقيقة ما دل القرآن على إثباته. اهـ.

قال ناصر السعدى^(٧): فالمقصود فى هذا الباب ذكر النصوص الدالة على إبطال كل وسيلة وسبب يتعلق به المشركون بالهتيم، وأنه ليس لها من الملك شىء لاستقلالها ولا مشاركة ولا معاونة ولا مظاهرة، ولا من الشفاعة شىء، وإنما ذلك كله لله وحده، فتعين أن يكون المعبود وحده.

وقد قال قبل هذا: إنما ذكر المصنف الشفاعة فى تضاعيف هذه الأبواب؛ لأن المشركين يبررون شركهم ودعاءهم للملائكة والأنبياء والأولياء بقولهم: نحن ندعوهم، مع علمنا

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٠٢).

(٢) يونس: (١٨).

(٣) الزمر: (٣).

(٤) السجدة: (٤).

(٥) فتح الله الحميد المجيد ٢٦٥.

(٦) فتح المجيد (٢٥٨/١).

(٧) القول السديد (٥٨/٥٥).

أنهم مخلوقون مملوكون، ولكن حيث أن لهم عند الله جاهاً عظيماً ومقامات عالية ندعوهم ليقربونا إلى الله زلفى، وليشفعوا لنا عنده، كما يتقرب إلى الوجهاء عند الملوك والولاطين ليجعلوهم وسائط لقضاء حاجاتهم، وإدراك مآربهم.

وهذا من أبطل الباطل، وهو تشبيه الله العظيم ملك الملوك الذى يخافه كل أحد، وتخضع له المخلوقات بأسرها بالملوك الفقراء المحتاجين للوجهاء والوزراء فى تكميل ملكهم ونفوذ قوتهم. فأبطل الله هذا الزعم.

وبين أن الشفاعة كلها له، كما أن الملك كله له، وأنه لا يشفع عنده إلا بأذنه ولا يأذن إلا لمن رضى قوله وعمله ولا يرضى إلا توحيده، وإخلاص العمل له.

فبين أن المشرك ليس له حظ ولا نصيب من الشفاعة.

وبين أن الشفاعة المثبتة التى تقع بإذنه إنما هى الشفاعة لأهل الإخلاص خاصة، وأنها كلها منه، رحمة منه، وكرامة للشافع ورحمة منه وعفواً عن المشفوع له، وأنه هو المحمود عليها فى الحقيقة، وهو الذى أذن لمحمد ﷺ فيها وأن له المقام المحمود، فهذا يدل عليه الكتاب والسنة فى تفصيل القول فى الشفاعة اهـ.

وقال عبدالله بن جابر الله^(١): مناسبة هذا الباب للتوحيد: هى أن فيه رد على المشركين الذين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين، ويقولون: إنما نعبدكم ليقربونا إلى الله زلفى، وليشفعوا لنا عنده اهـ.

وقال ابن باز^(٢): قد تكلم الناس فى الشفاعة، واضطربت أقوالهم فيها، وشذ المتبعة بعبقيرة باطلة، احتاج العلماء إلى الكلام فيها، ويخصرونها بالكلام حتى يعرف المؤمن الحق ويعتقد الاعتقاد الصحيح فيها،

فباب الشفاعة: أى بيان الشفاعة المثبتة والمنفية، والحق والباطل فيها اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): ذكر المؤلف - رحمه الله - الشفاعة فى كتاب التوحيد، لأن المشركين الذين يعبدون الأصنام يقولون: إنهم شفعاء لهم عند الله، وهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيها بالدعاء والاستغاثة، وما أشبه ذلك.

وهم بذلك يظنون أنهم معظّمون لله، ولكنهم متقصّون له؛ لأنه عليم بكل شيء، وله الحكم التام المطلق، والقدرة التامة، فلا يحتاج إلى شفعاء.

(٢) التعليق المفيد (١٠٣).

(١) الجامع الفريد (٧٢).

(٣) القول المفيد (٤٢٣، ٤٢٢/١).

ويقولون: إنا نعبدهم ليكونوا شفعاء لنا عند الله، فيقربونا إلى الله، وهم ضالون في ذلك، فهو سبحانه عليم قدير وذو سلطان، ومن كان كذلك فإنه لا يحتاج إلى شفعاء.

والملوك في الدنيا يحتاجون إلى شفعاء، إما لقصور علمهم، أو لنقص قدرتهم، فيساعدهم الشفعاء في ذلك، أو لقصور سلطانهم، فيتجأ عليهم الشفعاء فيشفعون بدون استئذان ولكن الله عزوجل كامل العلم والقدرة والسلطان، فلا يحتاج لأحد أن يشفع عنده، ولهذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه لكمال سلطانه وعظمته.

ثم الشفاعة لا يراد بها معاونه الله سبحانه وتعالى في شيء مما شفع فيه، فهذا ممتنع، ولكن يقصد بها أمران هما:

(١) إكرام الشافع. (٢) نفع المشفوع له اهـ.

[قلت]: بوب المصنف هذا الباب حتى يغلق المصنف باباً من أبواب الشرك، أو سبباً من أسباب الشرك، أو سبباً من أسباب خروج الناس من عبادة الرحمن إلى عبادة الشيطان. فهم قد يخرجون بدعوى أن من يدعوهم من دون الله وسطاء قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (١).

فاتخذوا أولياء من دون الله وزعموا أنهم ماعبدوهم، إنما اتخذوهم وسطاء ليقربوهم إلى الله عزوجل فنفى الله عزوجل ذلك عنهم، وبين أن هذا سبباً من أسباب البعد عن الله، وليس هذا سبباً من أسباب القرب من الله عزوجل.

وأيضاً ربما تعلقوا بالشريك لا من أجل أنه يقربهم كما تقدم، بل من أجل أنه ينفعهم أو يدفع عنهم الضر، فبين الله... أن هؤلاء لا يملكون دفع الضر عنهم ولا تحويلاً ولا جلب النفع ولو قليلاً وذلك في غير ما موضع من الآيات.

وزعموا أيضاً أنهم يعبدونهم من أجل البركة أو من أجل التبرك، أو من أجل التماس بعض البركة منهم، فنفى ذلك المصنف في باب «من تبرك بشجر أو حجر أو نحوهما، أو في الباب قبل ذلك «من علّق تميمة فلا أتم الله له».

وفيه نفى أن يكون هؤلاء الشركاء منهم بركة أو هم سبب من أسباب البركة، سواء كان هذا الشريك شجر أو حجر، أو أنس أو جن أو ملك.

● وأيضاً فى هذا الباب : (الشفاعة).

اتخذ الناس شركاء من دون الله لابقصد الشرك بزعمهم ولكن زعموا أنهم شفعاء لهم وقالوا «هؤلاء شفعائنا عند الله، فعبدوهم مع أنهم ربما إعتقدوا أنهم لا ينفعونهم، ولا يضررونهم وزعموا أنهم ما عبودهم إلا لأنهم شفعاء لهم عندالله.

● فأراد المصنف فى باب الشفاعة أن يبين أن هذا سبب من أسباب حرمان الشفاعة، وليس سبب من أسباب الشفاعة، فالشفاعة لاتنال إلا كما قال الله عزوجل : ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ يعنى بالقرآن ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾^(١) فهم ذهبوا إلى الله عزوجل ليس لهم من دون الله ولى ولا شفيع. ولى: يعنى نصير أو معضد أو معين، ولا شفيع يشفع لهم من دون الله عزوجل فالله هو الولى لهم، والله هو المشفع فيهم، والله هو الشفيع - سبحانه وتعالى - لهم.

● وأيضاً قال تعالى ينفى هذه الشفاعة المزعومة وينفى هذه الشفاعة الشركية فيقول: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾^(٢) ليست للحسن ولا للحسين ولا للشركاء أياً كانوا إنس أم جن أو نبى أو ولى ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ شفاعة مباشرة من الله عزوجل - بغير سبب من الأسباب من المخلوقين أذن لهم فى الشفاعة، وشفاعة من المخلوقين للمخلوقين بإذن من رب العالمين.

● وأيضاً قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٣).

وهو استفهام للنفى والإنكار، أى من هذا الذى يشفع عند الله بدون إذن الله عزوجل تزعمون أن هؤلاء شفعاء، فإن كانوا شفعاء، فالله - عزوجل - لابد أن يرضى عنهم ثم يأذن لهم، والله - عزوجل - لم يخبركم أنه رضى عنهم ولا أذن لهم ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقال تعالى ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾^(٤) وهؤلاء ملائكة مقربون ومع ذلك لاتغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد إذن الله ورضاه عن الشافع والمشفع فيه.

● وقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٥).

(٣) البقرة: ٢٥٥.

(٢) الزمر: ٤٤.

(١) الأنعام: ٥١.

(٥) سبأ: ٢٢.

(٤) النجم: ٢٦.

فهم إن أيقنوا أن الشركاء ليس لهم مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .
فهم ادعوا قالوا «لعلهم يملكون» فنفى الله - عزوجل - أن يكون لهم ملك .
فقالوا نعم ليس لهم ملك ولكنهم مشاركون، فنفى سبحانه وتعالى الشريك
يقول «ومالهم فيهما من شرك» الآية .
فقالوا لعلهم ليسوا بشركاء ولا بذوى أملاك لكن لعلهم معاونون أو مناصرون لله -
عزوجل .

فنفى الله - عزوجل - ذلك بقوله : «وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ» من نصير ولا معاون .
فقالوا: ليسوا شركاء ولا أصحاب أملاك ولا مناصرين لله - عزوجل . ولكن لعلهم
شفعاء، كما أن الملك يكون له شريك فى الملك - والله المثل الأعلى - أو أن يكون له
معاون؛ فالشريك من حقه أن يتحكم فى الشريك الآخر فنفى . الله الشركة والمعاونة
والظهير .

فقالوا: لعلهم يشفعوا عنده لدلالهم عليه .
فقال الله تعالى مبيناً أن هذه الشفاعة تقدر فى ملك الملك لأنه فى الحقيقة من نقص
الملوك أن يكون عندهم شفعاء، يشفعون بإذنه أو بغير إذنه، سواء هم معاونون له أو
غير ذلك، فيجىء أدنى من هو فى المملكة ليزور ويُسرَّب أى شىء على الملك ويتعدى
عليه ويفعل أى شىء من وراءه .

فتعالى الله - عزوجل - عن ذلك علواً كبيراً فلا قاذح فى ربوبيته ولا شفيع إلا من
بعد إذنه، وإلا لمن ارتضى حتى وإن كان مقرباً، حتى وإن كان نبياً، حتى وإن كان
حيياً إلى الله - عزوجل - فهؤلاء لا أحد منهم يشفع إلا بعد رضى الله عنه وبعد إذن
الله - عزوجل - له .

فهم ظنوا أن ملك الله - عزوجل - كملك الناس، فظنوا أن هناك مدخل من باب
الشفاعة فقطع المصنف عليهم بالأدلة القرآنية والنبوية هذا الباب وبين أن أسعد الناس
بشفاعة النبى ﷺ هم الموحدون المخلصون فى توحيدهم، لا المشركون المبتعدون عن
توحيد رب العالمين بهذا الشرك .

لذا فقد جوزوا بجزاء من جنس عملهم، أتخذوا الشركاء بقصد الشفاعة فحرموا
الشفاعة، فلذلك برَّب المصنف هذا الباب وأورد هذه الأدلة . والله أعلم .

● شبه الشفاعة والجواب عليها:

الأولى: فإن قلت: إذا كان من اتخذ شافعياً عند الله إنما قصده تعظيم الرب تعالى وتقدس أن يتوصل إليه بالشفعاء؟ فلم كان هذا القدر شركاً؟!^(١)

الجواب: قال سليمان آل الشيخ^(١): قصده للتعظيم لا يدل على أن ذلك تعظيم لله تعالى، فكم من يقصد التعظيم لشخص ينقصه بتعظيمه، ولهذا قيل في المثل المشهور: (يضر الصديق الجاهل، ولا يضر العدو العاقل)، فإن اتخاذ الشفعاء والأنداد من دون الله هضم لحق الربوبية، وتقصص للعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾^(٢) الآية، فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيده، ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره، وكيف يقدره حق قدره من اتخذ من دونه نداً، أو شافعياً يحبه ويخافه ويرجوه، ويدل ويخضع له ويهرب من سخطه ويؤثر مرضاته، ويدعوه ويذبح له، وينذر، وهذه هى التسوية التى أثبتتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا وهم فى النار أنها كانت باطلاً وضلالاً، فيقولون وهم فى النار ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٣) إذ نُسويكم برب العالمين^(٤) ومعلوم أنهم ما ساووه به فى الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا إن الهتكم خلقت السموات والأرض، وأنها تحيى وتميت، وإنما ساووه به فى المحبة والتعظيم والعبادة، كما نرى ما عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام، وإنما كان ذلك هضماً لحق الربوبية، وتنقيصاً لعظمة الألوهية، وسوء ظن برب العالمين، لأن المتخذ للشفعاء والأنداد، إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه من وزير أو ظهير أو معين، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غنى عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشفيع، وإما أن يظن أن لا يعلم حتى يعلمه الشفيع، أو لا يرحم حتى يجعله الشفيع يرحم، أو لا يكفى وحده، أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده، كما يشفع عند المخلوق أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الشفيع أن يرفع حاجتهم إليه، كما هو حال ملوك الدنيا.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٠٢، ٢٠٣).

(٢) الشعراء : ٩٧، ٩٨

(٣) الفتوح : ٦

وهذا أصل شرك الخلق، أو يظن أنه لا يسمع حتى يرفع الشفيع إليه ذلك أو يظن أن للشفيع عليه حقاً فهو يقسم عليه بحقه، ويتوسل إليه بذلك الشفيع، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم، ولا تمكنهم مخالفتهم، وكل هذا تنقص للربوبية وهضم لحقها. ذكر معناه ابن القيم فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أن ذلك شرك، ونزه نفسه عنه، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُبْتِغُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أهـ.

الثانية: فإن قلت: إنما حكم سبحانه وتعالى بالشرك على من عبد الشفعاء، أما من دعاهم للشفاعة فقط، فهو لم يعبدهم، فلا يكون ذلك شركاً.

الجواب: قال سليمان آل الشيخ^(١): مجرد اتخاذ الشفعاء ملزوم للشرك، والشرك لازم له، كما أن الشرك ملزوم لتتقيص الرب سبحانه وتعالى، والتتقيص لازم له ضرورة، شاء المشرك أم أبى، وعلى هذا فالسؤال باطل من أصله، ولا وجود له فى الخارج. وإنما هو شيء قدره المشركون فى أذهانهم، فإن الدعاء عبادة، بل هو من العبادة، فإذا دعاهم للشفاعة فقد عبدهم، وأشرك فى عبادة الله شاء أم أبى أهـ.

* مدخل للباب يعرض موجز لما تضمنته:

قال الفقير وسنعرض إن شاء الله فى هذا الباب معنى الشفاعة فى اللغة، والاصطلاح. وتفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ ثم أكر على أقسام الشفاعة، لأن العلماء قالوا فى تفسير قول الله تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ أفادت أن الشفاعة أقسام وأنواع.

فالشفاعة تنقسم من حيث الشافع إلى قسمين.

أولاً: شفاعة لرب العالمين خالصة بغير سبب من المخلوقين أذن لهم فى الشفاعة.

وتنقسم هذه الشفاعة إلى شفاعة الله وشفاعة لكلام الله - عز وجل - القرآن.

ثانياً: شفاعة المخلوقين فى المخلوقين بإذن رب العالمين - وتنقسم إلى أربعة أقسام:

(١) شفاعة الملائكة.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٠٣).

(٢) شفاعة النبيين.

(٣) شفاعة النبي ﷺ وهي تنقسم أيضاً إلى ستة أقسام:

١- شفاعته لأهل الموقف من أمته ومن غيرهم (الشفاعة العظمى).

٢- شفاعته لقوم قد وجبت لهم النار ببعض ذنوبهم من الموحدين، فشفع لهم في ألا يدخلوها.

٣- والشفاعة الثالثة لأقوام من أمته دخلوا النار فيخرجون بفضل الله وبشفاعة النبي ﷺ.

٤- دخول الجنة لأهل الجنة، فهم يقفون على بابها حتى يشفع لهم الرسول ﷺ في دخولها فيدخلوها.

٥- في قوم دخلوا الجنة فيشفع لهم الرسول ﷺ في رفع درجاتهم في الجنة.

٦- شفاعته في بعض أهله من الكفار أن يخفف عنهم العذاب وهي خاصة بالنبي ﷺ وبعمه أبي طالب فقط، وأصل الحديث ثابت في الصحيح أنه يوضع في ضحضاح من نار تغلى منه دماغه.

كما تنقسم شفاعة النبي ﷺ من وجه آخر إلى قسمين:

١- شفاعة في الدنيا فيما يستطيعه قدرأً وشرعاً وفيه حديث الرجل الأعمى الذي سأل النبي ﷺ أن يرد عليه بصره فدعى له ﷺ بعد أن أمره أن يتوضأً ويصلي ركعتين ويسأل الله أن يشفع الرسول ﷺ، فيه وأن يقبل دعوة الرسول فيه، وهذه شفاعة فيما يستطيعه ﷺ قدرأً وشرعاً وهو حي في الدنيا.

٢- والشفاعة في الآخرة وهي التي تنقسم إلى الستة أقسام السابقة.

(٤) شفاعة المؤمنين وهي تنقسم إلى قسمين:

١- شفاعة في الدنيا فيما يقدر عليه المؤمن وهو حي قدرأً وشرعاً، كما في قوله ﷺ الثابت في الصحيح «اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما يشاء» (١)، وهذه شفاعة إما في جلب منفعة أو في دفع مضرة، كما تسأل المشفع التجاوز عن الجرائم وجلب المنافع، وأيضاً من شفاعتهم قدرأً وشرعاً أن يصلوا على المتوفى، وثبت أيضاً عن نبينا ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يموت فيصلي عليه أمة من الناس يبلغون مئة فيشفعون فيه إلا شفّعهم الله فيه يوم القيامة» (٢) فهذه الشفاعة أصلها في الدنيا تنفعه يوم القيامة.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٤٣٢)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٧٧ - النووى) عن أبى

موسى به.

وانظر «رياض الصالحين» (٢٤٨ - بتخریجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الجناز (١٧/٧ - النووى) عن عائشة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٩٣٤ - بتخریجنا).

وأيضاً فى رواية «يلغون أربعين، فيشفعون فيه إلا شفعم الله - عزوجل - فيه»^(١).

٢- شفاعة المؤمنين فى الآخرة وفيه أحاديث فى الصحيحين وفى غيرهما.

أن المؤمنين حينما يمرون بالصرط المستقيم فيسقط من يسقط منهم فى النار - ثم يدخل من دخل منهم الجنة برحمة الله وفضله فليس هناك أحد أشد دفاعاً عن المؤمنين الذين وقعوا فى النار برحمة من إخوانهم المؤمنين الذين دخلوا فى الجنة فيقولون ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا، فيأمر الله - عزوجل - الملائكة فتزل تخرجهم من النار تعرفهم بأثار الصلاة وأثار الوضوء، فإن النار تأكل كل شئ من ابن آدم إلا مواضع الصلاة.

وفى ذلك أحاديث كثيرة ستأتى بإذن الله.

ثم بعد ذلك تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾^(٢). ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾.

يُذكر فى تفسير هاتين الآيتين أيضاً أسباب الشفاعة وموانع الشفاعة.

فمن أسباب الشفاعة:

- التوحيد كما فى حديث أبى هريرة من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله قال «ما ظننت أن يسألنى أحد عن هذا السؤال غيرك لعلمى بحرصك على الحديث»^(٣).

وقد استنبطنا فى أول شرح كتاب التوحيد من هذا الحديث ما استظهره واستنبطه ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم وفضله» أن النبى ﷺ سُمى العلم عند الإطلاق علم الدين وخص بالعلم عند الإطلاق علم العقيدة. وذكر فى الحديث أن «أسعد الناس بشفاعتى من قال لا إله إلا الله يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه»^(٤).

وهذا الشرط للشفاعة الخاصة، وأما الشفاعة العامة وهى شفاعة الرسول ﷺ لأنصراف أهل الموقف من الموقف فلا يشترط له هذا الشرط.

أما باقى أنواع الشفاعة المتقدمة فيشترط لها - التوحيد - وعلى ذلك أدلة كثيرة ؟ تكاد تكون متواترة كما قال تعالى ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الآية.

فوحده الله عز وجل ذكر الولي والشفيع.

(١) أخرجه مسلم فى الجنائز (١٨/٧) - النووى) عن ابن عباس به.

وانظر «رياض الصالحين» (٩٣٥) بتخريجنا).

(٢) الأنعام : ٥١

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٩٩) وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٣٦) بتخريجنا.

(٤) ما قبله

وأيضاً فى تفسير الخشية يذكر ما ثبت فى كتاب السنة لابن أبى عاصم من حديث أنس مرفوعاً يقول الله تبارك وتعالى: «أخرجوا من النار من ذكرنى أو خافنى فى مقام»^(١). «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ»^(٢).

ولقوله ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتى من قال لا إله إلا الله خالصة من قلبه».

هناك شروط أخرى للشفاعة العامة التى تعم جميع الشفعاء وجميع المشفع فيهم^(٣).

- ألا يكذب بالشفاعة فمن كذب بالشفاعة حرم الشفاعة كما سيأتينا الأثر عزاه ابن حجر فى الفتح لسعيد ابن منصور - وصححه وعزاه الشيخ مقبل فى كتاب بالشفاعة لغيره وأعتمد تصحيح الحافظ.

ولذلك من المناسب أن نقول أن الله - عزوجل - لا يأذن بالشفاعة إلا لشافع موحد أو مشفع فيه موحد، وأيضاً لا يأذن إلا لشافع يؤمن بالشفاعة ولمشفع فيه يؤمن بالشفاعة.

فقد يسأل سائل هل هناك من لا يؤمن بالشفاعة؟

الجواب: نعم كالمخارج والمعتزلة، ينكرون أحاديث الشفاعة ويقولون أن صاحب الكبيرة مخلد فى النار ولا يعترفون أن النبى ﷺ له شفاعة يخرج بسببها من كان فى النار من أهل القبلة من أصحاب الكبائر كما سيأتينا متواتراً أو يكاد أن يبلغ حد التواتر كما نقل ذلك من كتاب السنة لابن أبى عاصم، بل وفى الصحيح.

ومن الشروط:

(١) - الرضى: فقد يكون موحد له بعض الأفعال أو الأقوال التى لا يرضى عنها الله، كما تقدم معنا فى صحيح مسلم «إن اللعانين لا يكونوا شفعاء ولا شهداء»^(٤) فهو موحد ولكنه قال قولاً أو فعلاً لا يرضى الله - عزوجل - عنه، فيحرم الشفاعة، لا يكون شافعاً وقد لا يكون مشفع فيه، أو لا يكون له شفاعات خاصة، وإن كان يكون له بعض الشفاعة إن أذن الله للشفاعة فيه.

ومن الشروط:

(٢) - الإذن

(١) السنة لابن أبى عاصم ح ٨٣٣ والترمذى والحاكم وصححه وحسنه الألبانى بالشواهد والمتابعات.

(٢) الأنبياء: ٢٨.

(٣) تقدم قريباً

(٤) سيأتى تخريجه.

وقد يسأل سائل، هل من الممكن أن يوجد موحد والله راضٍ عنه ولا يأذن له؟

الإجابة: نعم لأنه قد لا يطلب الشفاعة أصلاً، والصحابه رضى الله عنهم جميعاً، ولكن لم يثبت أنهم جميعاً شفعاء، لكن قد يكون فيهم الشفيع وفيهم الذى يشفع وفيهم الذى لا يشفع، فإما لا يشفع لأنه لم يؤذن له، أو إما لم يشفع لأنه لم يقدم على الشفاعة أصلاً فيؤذن له.

- ومن هذه الشروط .

الصلاة فالتار تأكل كل شىء من ابن آدم إلا مواضع السجود وهناك شفاعات خاصة لنيل درجات خاصة ولنيل كرامات خاصة، لا تكون إلا لأعمال خاصة، لكن لا بد لها من هذه الشروط العامة.

الشفاعات الخاصة:-

شفاعة النبى ﷺ لأهل الجنة فى الدخول أو فى رفع الدرجات.

وهذه لا تكون إلا بأسبابها وهى أعمال خاصة.

١- كالشهيد يؤذن له بالشفاعة فى سبعين من أهل بيته.

٢- وسورة تبارك تشفع لصاحبها.

٣- الصلاة على النبى ﷺ وطلب الوسيلة كما ثبت فى صحيح البخارى من حديث جابر مرفوعاً: «من قال حين يسمع النداء. اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، حلت له شفاعتى يوم القيامة» (١)....».

٤- كثرة السجود.

كما سيأتينا فى الرجل الذى سأل النبى ﷺ مرافقته فى الجنة، قال لا تسألنى غير ذلك أو قال «أو غير ذلك»؟! قال: لا غير ذلك، قال: إذا فأعنى على نفسك بكثرة السجود.

فالعمل المتميز لنيل درجة من الشفاعة متميزة.

٦- سكنى المدينة.

كما فى صحيح مسلم من حديث ابن عمر «أن من سكن المدينة وصبر على لأوائها - شدتها - كنت له شافعاً يوم القيامة» (٢).

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢/١١٢/٦١٤).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحج (٥/١٦٢/٤٨١).

وهذه أيضاً شفاعة إما عامة وإما خاصة لساكنى المدينة .

وكما أن هناك أسباب فهناك موانع :

١- الشرك .

٢- أو عدم رضى الله عن فعل أو قول للشافع .

٣- أو عدم الإذن للشافع لسبب أو بغير سبب .

فذلك فضل الله - عزوجل - يؤتیه من يشاء . كما سيأتينا أن من حَكَم الشفاعة التفضل على المشفع فيه ، وإظهار كرامة الشافع . وهذا آوان الشروع فى الموضوع ● تعريف الشفاعة:

الشفاعة فى اللغة:

قال ابن الأثير فى النهاية: قد تكرر ذكر الشفاعة فى الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة ، وهى السؤال فى التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم ، يقال: شفع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع ، والمشفّع: الذى يقبل الشفاعة ، والمشفّع: الذى تقبل شفاعته أهـ .

وفى القاموس وتاج العروس: والشفيع: صاحب الشفاعة . والجمع شفعاء: وهو الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب .

وفيهما أيضاً: وشفعته فيه تشفيعاً حين شفع كمنع شفاعة أى قبلت شفاعته كما فى «العباب»، قال حاتم يخاطب النعمان:

فككت عديا كلها من إسارها فأفضل وشفعنى بقبس بن جحدر

وفى حديث الحدود: «إذا بلغ الحد السلطان فلعن الله الشافع والمشفّع»^(١) .

وفى حديث ابن مسعود: «القرآن شافع مشفع، وما حلّ مصدّق»^(٢) . أى من اتبعه وعمل بما فيه فهو شافع مقبول الشفاعة من العفو عن فرطاته ، ومن ترك العمل به تم على إساءته ، وصدق عليه فيما يرفع من مساويه ، فالمشفّع ، الذى يقبل الشفاعة ، والمشفّع الذى تقبل شفاعته ، ومنه حديث: «اشفع تشفع» واستشفعه إلى فلان: أى سأل أن يشفع له إليه .

(١) سيأتى

(٢) سيأتى

وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (١).

والمعاني الشرعية موافقة للمعان اللغوية فمن الشفعاء من يشفع ابتداءً. ومنهم من يشفع بعد الطلب، كما سيأتى إن شاء الله بيانه فى الأحاديث (٢). اهـ.

قال ابن عثيمين (٣): والشفاعة لغة: اسم من شفع يشفع، إذا جعل الشيء اثنين، والشفع ضد الوتر. قال تعالى: ﴿وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ﴾.

واصطلاحاً: التوسط للغير ب جلب منفعة أو دفع مضرة.

مثال جلب المنفعة: شفاعة النبى ﷺ لأهل الجنة يدخلوها.

ومثال دفع المضرة: شفاعة النبى ﷺ لمن استحق النار أن لا يدخلها.



قوله: وقول الله عزوجل: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ...﴾ الآية.

● مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ (٤): الآية دليل على نفى إتخاذ الشفعاء من المؤمنين، وعلى نفيها بغير إذن الله، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه فى مواضع كما قال تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وليس فى الآية دليل على نفى الشفاعة لأهل الكبائر بإذن الله كما ادعته المعتزلة اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله (٥): دلت على أن المؤمنين الذين أخلصوا نيتهم، وعملوا لله، وتركوا التعلق على الأولياء والشفعاء اهـ.

وقال القرعاوى (٦): حيث دلت الآية على نفى الشفاعة التى لم تتوافر شروطها أهـ.

(١) الأنعام: ٥١

(٢) الشفاعة ص ٦ و ٧ و ٨ للشيخ مقبل.

(٣) القول المفيد ١/ ٤٣٣.

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٠٤) بتقديم وتأخير.

(٥) الجامع الفريد (٧٤).

(٦) الجديد (١٥٥).

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى: حيث دلت الآية على نفى الشفاعة عن المخلوق استقلالاً فيكون طلبها من المخلوق شركاً أكبر ومن ذلك طلبها من الأوثان التي زعموا أنهم يعبدونها للشفاعة اهـ.

● الإعراب (١):

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الواو عاطفة والكلام معطوف على ما تقدم معدولاً به إلى توجيه الإنذار للذين يتفرس فيهم قبول الاتعاظ والاستعداد لتقبله، وهم المؤمنون العاصون، وأنذر فعل أمر، وبه جار ومجرور متعلقان بأنذر والذين اسم موصول مفعول به وجملة يخافون صلة الموصول، وإن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول يخافون ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الجملة حال من الضمير في أن يحشروا، أى: أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لا ولى لهم يوالِيهم ولا نصير ولا شفيع يشفع لهم من دون الله، وليس فعل ماض ناقص ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، وولى اسم ليس، ولا شفيع عطف على ولى، ولعل واسمها وجملة يتقون خبرها، وجملة الرجاء حالية.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قوله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾: أى بالقرآن. كما سيأتى بيان ذلك.

كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

وقوله: ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكقوله: ﴿وَأَوْحِي إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنِ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾. وقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ﴾.

سبب نزول الآية:

عن عبد الله بن مسعود قال: «مر الملأ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب، وعمار، وبلال، وخباب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك من الله عليهم من بيننا، أو نحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل فيهم القرآن ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٢) اهـ.

(١) إعراب القرآن الكريم (٣/ ١٢٠، ١٢١).

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٢٤) ونسبه لأحمد، وابن جرير، وابن أبى حاتم، والطبرانى،

وأبى الشيخ، وابن مردويه، وأبى نعيم فى «الحلية».

وأنظر «فتح القدير» وتفسير ابن حاتم بتخريجنا.

قال ابن جرير^(١): هذا أمر من الله تعالى لنبية محمد ﷺ بتعليم أصحابه ما أنزل الله إليه من وحيه وتذكيرهم والإقبال عليهم بالإنذار، وصدّه عن المشركين به بعد الإعذار إليهم، وبعد إقامة الحجة عليهم حتى يكون الله هو الحاكم في أمرهم بما يشاء من الحكم فيهم أهـ.

- قال ابن جرير^(٢): يقول تعالى ذكره لنبية ﷺ: وأنذر يا محمد بالقرآن الذي أنزلناه إليك أهـ.

- وقال البغوي^(٣): قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ خوف به، أى بالقرآن أهـ.

- وقال الزمخشري^(٤): ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ الضمير راجع إلى ما يوحى إلى أهـ.

- وقال ابن الجوزي^(٥): ﴿بِهِ﴾ قال الزجاج بالقرآن أهـ.

- قال الفخر الرازي^(٦): الإنذار؛ الإعلام بموضع المخافة، وقوله ﴿بِهِ﴾ قال ابن عباس والزجاج بالقرآن، والدليل عليه قوله تعالى قبل هذه الآية: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ﴾ إلى.

وقال الضحاك: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أى بالله، والأول أولى؛ لأن الإنذار يقع بالقول وبالكلام لابذات الله تعالى أهـ.

- قال القرطبي^(٧) بنحو كلام الرازي وزاد: وقيل: ﴿بِهِ﴾ باليوم الآخر أهـ.

- وقال ابن كثير^(٨) بنحو كلام المفسرين السابق.

- وقال السعدي^(٩): هذا القرآن نذارة للخلق كلهم أهـ.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ كقوله تعالى ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مَشْفِقُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

قال ابن جرير^(١٠): القوم الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، علماً منهم بأن

(٢) تفسير الطبري (١٢٧/٧/٥)

(٤) الكشاف (١٦/٢)

(٦) التفسير الكبير (١٢/٦/٢٤٤)

(٨) ابن كثير (١٢٨/٢)

(١٠) تفسير الطبري (١٢٧/٧/٥)

(١) تفسير ابن جرير (١٢٧/٧/٥)

(٣) معالم التنزيل (٣٦١/٢)

(٥) زاد المسير (٣٥/٣)

(٧) تفسير القرطبي (٢٤٢٨/٤)

(٩) تفسير الكريم الرحمن (٢٥/٢)

ذلك كائن، فهم مصلدقون بوعد الله ووعيده، عاملون بما يرضى الله، دائمون فى السعى فيما ينقذهم فى معادهم من عذاب الله ثم قال: وقيل ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ومعناه يعلمون أنهم محشرون، فوضعت المخافة موضع العلم؛ لأن خوفهم كان من أجل علمهم بوقوع ذلك وجوده من غير شك منهم فى ذلك اهـ.

- وقال البغوى^(١): ﴿يُحْشَرُوا﴾ يجمعوا ويعتوا قوله تعالى ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، وقيل ﴿يَخَافُونَ﴾ يعلمون؛ لأن خوفهم إنما كان من علمهم اهـ.

- وقال الزمخشري^(٢): إما قوم داخلون فى الإسلام مقرون بالبعث، إلا أنهم مفرطون فى العمل فينذرهم بما يوحى إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى يدخلون فى زمرة المتقين من المتعلمين، وإما أهل الكتاب؛ لأنهم مقرون بالبعث. وإما ناس من المشركين، علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقاً فيهلكوا، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الأنداز دون المتمردين منهم، فأمر أن ينذر هؤلاء اهـ.

- وقال ابن الجوزى^(٣): وإنما ذكر الذين يخافون الحشر دون غيرهم، وإن كان منذر لجميع الخلق لأن الحجة على الخائفين الحشر أظهر؛ لاعترافهم بالمعاد، فهم أحد رجلين:-

إما مسلم فينذر ليؤدى حق الله عليه فى إسلامه.

وإما كتابى، فأهل الكتاب مجمعون على البعث اهـ.

- وقال الفخر الرازى^(٤) بتفصيل أوضح وأظهر لهذه الأقوال حيث قال:

ففيه أقوال: [الأول] أنهم الكافرون الذين تقدم ذكرهم، وذلك أنه ﷺ كان يخوفهم من عذاب الآخرة، وقد كان بعضهم يتأثر من ذلك التخويف، ويقع فى قلبه أنه ربما كان الذى يقول محمد حقاً، فثبت أن هذا الكلام لائق بهؤلاء، لايجوز حمله على المؤمنين؛ لأن المؤمنين يعلمون أنهم يحشروا إلى ربهم، والعلم خلاف الخوف والظن (ولقائل أن يقول): أنه لايمتنع أن يدخل فيه المؤمنون؛ لأنهم وإن يتقنوا الحشر، فلم يتقنوا العذاب الذى يخاف منه، لتجوزهم أن يموت أحدهم على الإيمان والعمل الصالح، وتجوز ألا

(١) معالم التنزيل (٢/٣٦١).

(٢) الكشف (٢/١٦).

(٣) التفسير الكبير (٦/١٢/٢٤٤).

(٤) زاد المسير (٣/٣٥).

يموت على هذه الحالة، فلهذا السبب كانوا خائفين من الحشر؛ بسبب أنهم كانوا مجوزين لحصول العذاب وخائفين منه.

[القول الثاني]: أن المراد منه المؤمنون؛ لأنهم هم الذين يقرون بصحة الحشر والنشر والبعث والقيامة، فهم الذين يخافون من عذاب ذلك اليوم.

[والقول الثالث]: أنه يتناول الكل؛ لأنه لا عاقل إلا وهو يخاف الحشر سواء قطع بحصوله أو كان شاكاً فيه؛ لأنه بالاتفاق غير معلوم البطلان بالضرورة، فكان هذا الخوف قائماً في حق الكل، ولأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل، وكان مأموراً بالتبليغ إلى الكل اهـ.

وقال القرطبي^(١) بنحو كلام المفسرين السابق وزاد:

﴿يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ يتوقعون عذاب الحشر. وقيل ﴿يَخَافُونَ﴾ يعلمون، فإن كان مسلماً أندر لترك المعاصي، وإن كان من أهل الكتاب أندر ليتبع الحق اهـ.
وقال: الأول أظهر: أي المؤمنون.

- قال الشوكاني^(٢): يشمل كل من آمن بالبعث من المسلمين وأهل الذمة وبعض المشركين، وقيل: معنى الخوف على حقيقته.

والمعنى: أنه ينذر به من يظهر عليه الخوف من الحشر عند أن يسمع النبي ﷺ أن يذكره، وإن لم يكن مصداقاً به في الأصل، لكنه يخاف أن يصح ما أخبر به النبي ﷺ فإن من كان كذلك تكون الموعظة فيه أنجع والتذكير له أنفع. اهـ.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

- قال ابن جرير^(٣): قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ أي ليس لهم من عذاب الله إن عذبهم ولي ينصرهم فيستنقذهم منه. ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم عند الله تعالى فيخلصهم من عقابه اهـ.

- وقال البغوي^(٤): قوله ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ قريب ينفعهم، ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم ثم قال وإنما نفى الشفاعة لغيره مع أن الأنبياء والأولياء يشفعون؛ لأنهم لا يشفعون إلا بإذنه اهـ.

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٤٢٨).

(٢) فتح القدير (٢/١٢٣، ١٢٤).

(٣) تفسير الضحري (٥/١٢٧).

(٤) معالم التنزيل (٢/٣٦١).

- وقال الزمخشري^(١): قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ فى موضع الحال من يحشروا، بمعنى يخافون أن يحشروا غير منصورين، ولا مشفوعاً لهم، ولا بد من هذه الحال؛ لأن كلاً محشور فالمخوف إنما هو الحشر على هذه الحال اهـ.

- وقال ابن الجوزي^(٢): وذكر الولي والشفيع؛ لأن اليهود والنصارى ذكرت أنها أبناء الله وأحباؤه، فأعلم سبحانه وتعالى أن أهل الكفر ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع. وقال غيره - أى الزجاج صاحب القول السابق - : ليس لهم من دونه ولي، أى: ليس لهم غير الله ولي ولا شفيع؛ لأن شفاعَةَ الشافعين بأمره اهـ.

- وقال الفخر الرازي^(٣): قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ قال الزجاج موضع (ليس) نصب على الحال، كأنه قيل: متخلين من ولي ولا شفيع، والعامل فيه (يخافون)، ثم ههنا بحث: وذلك لأنه إن كان المراد من ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ الكفار، فالكلام ظاهر؛ لأنهم ليس لهم عند الله، وذلك لأن اليهود والنصارى كانوا يقولون (نحن أبناء الله وأحباؤه) والله كذبهم فيه، وذكر أيضاً فى آية أخرى، فقال: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، وقال أيضاً ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ وإن كان المراد المسلمين، فنقول: قوله ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ لا ينافى مذهبنا فى إثبات الشفاعة للمؤمنين؛ لأن شفاعَةَ الملائكة والرسل للمؤمنين، وإنما تكون بإذن الله تعالى لقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فلما كانت تلك الشفاعة بإذن الله، كانت فى الحقيقة من الله تعالى اهـ.

- وقال القرطبي^(٤): ﴿شَفِيعٌ﴾ هذا رد على اليهود والنصارى فى زعمهم أن أباهما يشفع لهما حيث قالوا (نحن أبناء الله وأحباؤه) والمشركون حيث جعلوا أصنامهم شفعاء لهم عند الله فأعلم الله أن الشفاعة لا تكون للكفار، ومن قال الآية فى المؤمنين قال: شفاعَةَ الرسول لهم تكون بإذن الله، فهو الشفيع حقيقة إذن، وفى التنزيل ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ اهـ.

(١) الكشاف (١٦/٢).

(٢) زاد المسير (٣٥/٣).

(٣) التفسير الكبير (٢٤٥/١٢/٦).

(٤) تفسير القرطبي (٢٤٢٨/٤).

- وقال ابن كثير^(١): قوله ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ أى يومئذ ﴿مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أى قريب لهم، ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراد بهم أهـ.

- وقال الشوكاني^(٢) بنحو مما تقدم من أقول المفسرين.

- وقال السعدى^(٣): قوله ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ ولا من يشفع لهم؛ لأن الخلق كلهم ليس لهم من الأمر شيء أهـ.
- وقال فى حاشية الزمخشري:

وليس كل خائف من البعث لاشفيع له فإن الموحدين أجمعين خائفون وهم مشفوع لهم، وإن عني باللازمة التي لا ينفك ذو الحال عنها كالتى فى قوله وهو الحق مصداقاً فإنما هو حيثنذ يبنى على قاعدته فى إنكار الشفاعة فكل خائف عنده لاشفيع له إذ لا يخاف إلا أصحاب الكبائر غير التائبين: أو الكفار والكل عنده سواء لاشفيع لهم وحيث أثبتت الشفاعة جعلها خاصة بزيادة الثواب فلا ينالها إلا من يستوجب على زعمه الثواب بعمله الصالح وتكون الشفاعة مفيدة للمزيد على ما يرضيه فهذا عنده لا يخاف من البعث لأنه يستوجب الجنة فمن ثم جعل الحال لازمة إذ الناس قسمان: غير خائف فلا تناوله الآية، وخائف: فذاك إنما خاف لأنه استوجب العقاب فلا شفاعة تناله وهذه من دفائنه الخفية ومكاملته المزوية فتفطن لها والله الموفق برحمته أهـ.

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أخرج ابن أبى حاتم^(٤) بسنده عن الضحاك: لعلمهم يتقون النار بالصلوات الخمس.

وبسنده أيضاً عن مجاهد: لعلمهم يطيعون أهـ.

قال ابن جرير^(٥): يقول: أنذرهم كى يتقوا الله فى أنفسهم، فيطيعوا ربهم، ويعملوا لمعادهم، ويحذروا سخطه باجتتاب معاصيه أهـ.

- وقال البغوى^(٦): ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيتهون عما نهوا عنه أهـ.

- وقال الزمخشري^(٧): ذكر غير المتقين من المسلمين وأمر بانذارهم ليستقوا، ثم

(١) تفسير ابن كثير (١٢٨/٢).

(٢) فتح القدير (١٢٤/٢)

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢٦/٢).

(٤) تفسير ابن أبى حاتم (١٢٩٧/٤) ح ٧٣٢٩، (٧٣٣٠).

(٥) تفسير ابن جرير (١٢٧/٧/٥).

(٦) معالم التنزيل (٣٦١/٢).

(٧) الكشاف (١٦/٢).

أردفهم ذكر المتقين منهم، وأمرهم بتقريبهم، وإكرامهم، وأن لا يطيع فيهم من أراد بهم خلاف ذلك، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أى عبادته، ويواظبون عليها اهـ.
- وقال الفخر الرازى^(١): قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس: معناه وأنذرهم لكي يخافوا فى الدنيا ويتنهدوا عن الكفر والمعاصى.

قالت المعتزلة: وهذا يدل على أنه تعالى أراد من الكفار التقوى والطاعة اهـ.
- وقال القرطبى^(٢): قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى فى المستقبل، وهو الثبات على الإيمان اهـ.

- وقال ابن كثير^(٣): قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيعملون فى هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به جزيلا من ثوابه اهـ.
- وقال السعدى^(٤): قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله بامثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن الإنذار موجب لذلك وسببه من أسبابه اهـ.



● كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية:

قال سليمان آل الشيخ^(٥): الإنذار: هو الإعلام بموضع المخافة. وقوله: ﴿بِهِ﴾ قال ابن عباس: بالقرآن. وقوله: ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أى أنذر يا محمد بالقرآن ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ وهم المؤمنون كما روى ذلك عن ابن عباس والسدى.
وعن الفضيل بن عياض: ليس كل خلقه عاتب إنما عاتب الذين يعقلون فقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أى وهم المؤمنون أصحاب القلوب الواعية، فإنهم المقصودون والمنظور إليهم لا أصحاب التجمل والسيادة فإن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم وقوله ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

(٢) تفسير القرطبي (٤/٢٤٢٨).

(١) التفسير الكبير (٦/١٢/٢٤٥).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٢/٢٦٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/١٢٨، ١٢٩).

(٥) تيسير العزيز الحميد (٤/٢٠٤).

قال الزجاج: موضع ليس نصب على الحال كأنه قال: متخلين من ولى وشفيع
والعامل فيه يخافون.

وقال ابن كثير: ليس لهم من دونه يومئذ ولى ولا شفيع من عذابه إن أرادهم به
لعلهم يتقون، فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به من عذابه يوم القيامة
قلت: فنفى سبحانه وتعالى عن المؤمنين أن يكون لهم ولى أو شفيع من دون الله
كما هو دين المشركين. فمن اتخذ من دون الله شفيعاً فليس من المؤمنين ولا تحصل له
الشفاعة وليس فى الآية دليل على نفى الشفاعة لأهل الكبائر بإذن الله كما ادعته المعتزلة
بل فيها دليل على نفى اتخاذ الشفعاء من المؤمنين، وعلى نفىها بغير إذن الله ولهذا أثبت
الشفاعة بإذنه فى مواضع كما قال تعالى ﴿وَمَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ اهـ.

قال ابن باز^(١): وقوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ
لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أى أنذر يا محمد بالقرآن ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾
ويسمعوا إلى ربهم وهو المسلمون؛ لأن الكفار لم يسمعوا ولم يستجيبوا، والانذار :
الإعلام مع التخويف.

- ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ هذه الشفاعة الباطلة، فإن العباد ليس لهم ولى
ولا شفيع بالكلية إلا من رضى الله قوله وعمله فقط؛ لأن الكفار يظنون أن لهم أولياء
وشفعاء ينقذونهم من النار، ولا يدخلون النار بسببهم حتى عذبهم من دون الله.
﴿وَقَالُوا هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فبين
سبحانه أنه ليس للعباد ولى ولا شفيع دونه، وأن شفاعة الكفار هذه باطلة، وأن الشفاعة
الحق هى التى يأذن الله فيها لأنبيائه وأوليائه وأهل طاعته فى أهل التوحيد والإيمان ،
لا فى أهل الكفار والنفاق.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى لأجل أن يتقوا الله ويستقيموا على دينه إذا عرفوا أنه لا شفاعة ولا
ولاية من دونه فيوحدونه ويحذرون من غضبه. اهـ.
وبنحو هذا قال شراح التوحيد ، وقال ابن عثيمين^(٢): ﴿يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ أى
يخافون مما يقال لهم من سوء العذاب فى ذلك الحشر.

(٢) القول المفيد ١/ ٤٢٣، ٤٢٤.

(١) التعليق المفيد (١٠٣، ١٠٤)

وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾^(١).

والحشر: الجمع: وقد ضُمِّن هنا معنى الضم والإنهاء، فمعنى يحشرون، أى: يجمعون حتى ينتهوا إلى الله.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: شافع يتوسط لهم، وهذا محل الشاهد ففى هذه الآية نفى الشفاعة من دون الله، أى من دون إذنه، ومفهومها أنها ثابتة بإذنه، وهذا هو المقصود، الشفاعة من دونه مستحيلة، وبإذنه جائزة وممكنة، أما عند الملوك فجائزة بإذنهم وبغير إذنهم، فيمكن لمن كان قريباً من السلطان أن يشفع بدون أن يستأذن.

وفيد قوله ﴿مِّنْ دُونِهِ﴾ أن لهم بإذنه ولياً وشفيعاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ اهـ.

قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): هكذا أوردها المصنف، وتكلم عليها وعلى الآية التى قبلها - أى من نفس السورة، لا التى قبلها من كلام المصنف - ليتضح المعنى.
قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٣). اهـ.

● مناسبة الآية للبَاب:

قال القرعاوى^(٤): حيث دلت الآية على أن الشفاعة بجميع أنواعها ملك لله، فلاتنال إلا بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له اهـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى^(٥): حيث أثبتت الآية ملك لله لا يستحقها أحد سواه، فيكون طلبها من غير الله شركاً، ومن ذلك طلبها من الأوثان الذين زعموا أنهم يعبدونهم لأجل الشفاعة اهـ.

● الإعراب^(٦): ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ لله خبر مقدم، والشفاعة مبتدأ مؤخر، واللام ﴿لِلَّهِ﴾ للملك أى أنه مختص بها لا يملكها أحد إلا بتملكه، و﴿جَمِيعًا﴾ حال اهـ.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٠٤، ٢٠٥)

(٤) الجديد (١٥٧)

(٦) إعراب القرآن (٨/ ٤٢٧)

(١) الزمر: (٤٤).

(٣) الزمر (٤٣، ٤٤).

(٥) الجديد (١٥٧).

وقال ابن عثيمين^(١) كذلك وزاد: وقدم الخبر للحصر، والمعنى: لله وحده الشفاعة كلها، لا يوجد شيء منها خارج عن إذن الله وإرادته اهـ.

ما جاء من كلام المفسرين فى تفسيرها:

وهى كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٢).

وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾^(٣) فكذبهم وكفرهم بذلك.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾^(٤).

عن قتادة فى قوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ قال الآلهة^(٥).

وعن مجاهد فى قوله ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ قال: لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه^(٦) اهـ.

قال ابن جرير^(٧): يقول تعالى ذكره: أم اتخذ هؤلاء المشركون بالله من دونه آلهم التى يعبدونها شفعاء تشفع لهم عند الله فى حاجاتهم.

وقوله: ﴿قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره لنبى ﷺ: قل يا محمد لهم أنتخذون هذه الآلهة شفعاء كما تزعمون، ولو كانوا لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا، ولا يعقلون شيئا؟! ﴿قُلْ﴾ لهم إن تكون تعبدونها لذلك وتشفع لكم عند الله، فأخلصوا عبادتكم لله، وأفردوه بالآلوهية، فإن الشفاعة جميعا له، لا يشفع عنده إلا من أذن له، ورضى له قولا، وأنتم متى أخلصتم له العبادة، فدعوتوه شفعكم.

(١) القول المفيد (١/٤٢٥).

(٢) يونس / ١٨

(٣) الزمر / ٢٣

(٤) الأحقاف / ٢٨

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦١٨/٥) ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير.

(٦) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقى فى «البعث والنشور».

(٧) تفسير ابن جرير (١١/٢٤٤/٧).

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول له سلطان السموات والأرض وملكها، وما تعبدون أيها المشركون من دونه ملك له يقول: فاعبدوا الملك لا المملوك الذى لا يملك شيئاً ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول: ثم إلى الله مصيركم، وهو معاقبكم على إشراككم به إن متم على شرككم، ومعنى الكلام ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فاعبدوا المالك الذى له ملك السموات والأرض الذى يقدر على نفعكم فى الدنيا وعلى ضرركم فيها، وعند مرجعكم إليه بعد مماتكم، فإنكم إليه ترجعون اهـ.

وقال البغوى^(١): ﴿أَوْ لَوْ كَانُوا﴾ وإن كانوا يعنى الآلهة ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً﴾ من الشفاعة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنكم تعبدونهم، وجواب هذا محذوف تقديره: وإن كانوا بهذه الصفة تتخذونهم شفعاء اهـ.

وقال الزمخشري^(٢): ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ أى هو مالكها فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بشرطين: أن يكون المشفوع له مرتضى، وأن يكون الشفيع مأذوناً له، وههنا الشرطان مفقودان.

وقال ابن الجوزى^(٣): قوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ يعنى كفار مكة، وفى المراد بالشفعاء قولان:

أحدهما: أنها الأصنام، زعموا أنها تشفع لهم فى حاجاتهم، قاله الأكثرون.
والثانى: الملائكة، قاله مقاتل.

﴿قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً﴾ من الشفاعة ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنكم تعبدونهم؟
وجواب هذا الاستفهام محذوف، تقديره: أو لو كانوا بهذه الصفة تتخذونهم؟! أهـ
قلت: وهذا كقول البغوى السابق.

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ أى لا يملكها أحدٌ إلا بتمليكها، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه اهـ.

وقال الفخر الرازى^(٤): وزاد قولاً ثالثاً والمراد بالشفعاء أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها.

(٢) الكشف (٣/٣٤٩).

(١) معالم التنزيل (٥/١٩، ٢٠).

(٣) زاد المسير (٧/٥٦، ٥٧).

(٤) التفسير الكبير (١٣/٢٦، ٢٨٦).

ثم قال: ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله ، فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله الذى يأذن فى تلك الشفاعة، فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره وهذا هو المراد من قوله ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ . . . اهـ.

وقال القرطبي^(١): قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ نص فى أن الشفاعة لله وحده. اهـ.

وقال ابن كثير^(٢): يقول تعالى ذامًا للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حذاهم على ذلك، وهى لا تملك شيئًا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هى جمادات أسوأ حالًا من الحيوان بكثير، ثم قال: قل يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضى وأذن له فمرجعها كلها إليه. اهـ.



ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية:

قال الله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣).

قال سليمان آل الشيخ^(٤): فقوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ أى : بل اتخذوا ، أى :

المشركون والهمزة للإنكار من دون الله شفعاء، أى : أشفع لهم عند الله بزعمهم كما قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (٥) الآية، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (٦) فكذبهم وكفرهم بذلك، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٥٧٠٧، ٥٧٠٨).

(٣) الزمر / (٤٣، ٤٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥).

(٥) سورة يونس، الآية : ١٨ .

(٤) تيسير العزيز الحميد (٤، ٢٠٥، ٢٠٥).

(٦) سورة الزمر ، الآية : ٣ .

آلِهَةٌ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِيْفُكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَقْتِرُونَ^(١) فهذا هو مقصود المشركين من عبدوهم وهو الشفاعة لهم عند الله .

قوله : ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ، أى : من دون إذنه وأمره ، والحال أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، وأن يكون المشفوع له مرتضى ، وههنا الشرطان مفقودان ، فإن الله سبحانه لم يجعل اتخاذ الشفعاء ودعاءهم من دونه سبباً لإذنه ورضاه ، بل ذلك سبب لمنعه وغضبه .

قوله : ﴿قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢) أى : أيشفعون ولو كانوا على هذه الصفة كما تشهدونهم جمادات لا تقدر ولا تعلم ، أو أموات كذلك ، حتى ولا يملكون الشفاعة كما قال : ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾^(٣) أى : هو مالکها كلها فليس لمن تدعونهم منها شيء .

قال البيضاوى : لعله رد لما عسى يجيبون به وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون ، هى تماثيلهم .

والمعنى أنه مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه ، ولا يستقل بها ، وقوله : ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤) تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دون الله بأنه مالك الملك كله ، لا يملك أحد أن يتكلم فى أمره دون إذنه ورضاه ، فاندرج فى ذلك ملك الشفاعة ، فإذا كان هو مالکها بطل اتخاذ الشفعاء من دونه كائن من كان ، وقوله : ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجَعُونَ﴾ ، أى : فتعلمون أنهم لا يشفعون ، ويخيب سعيكم فى عبادتهم ، بل يكونون عليكم ضداً ويتبرؤون من عبادتكم كما قال تعالى : ﴿كَأَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾^(٥) وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرِيقَلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ﴾^(٦) .

(١) الأحقاف : ٢٨ .

(٢) الزمر : ٤٣ .

(٣) الزمر : ٤٤ .

(٤) الحديد : ٢ .

(٥) مريم : ٨٢ .

(٦) يونس : ٢٨ ، ٢٩ .

وقال ابن عثيمين^(١): فأفادت الآية فى قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ أن هناك أنواعًا للشفاعة، اهـ.

[قلت]: وهو كما قال:

حيث تنقسم الشفاعة من حيث الشافع إلى قسمين ..

الأول: شفاعة رب العالمين، وهذه شفاعة مباشرة بدون سبب من المخلوقين أذن لهم رب العالمين فى الشفاعة .

وهى شفاعة من الخالق للمخلوق.

الثانية: شفاعة المخلوقين فى المخلوقين بإذن رب العالمين. وهى أنواع:

أولاً: شفاعة الملائكة.

ثانياً شفاعة النبى ﷺ

١- الشفاعة الكبرى.

٢- شفاعته ﷺ لأهل الجنة فى دخولها.

٣- شفاعته ﷺ لقوم من العصاة ممن أمتهم قد استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع لهم ألا يدخلوها.

٤- شفاعته ﷺ فى العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم.

٥- شفاعته ﷺ لقوم من أهل الجنة فى زيادة ثوابهم ورفعته درجاتهم.

٦- شفاعته ﷺ فى بعض أهل الكفر من أهل النار حتى يخفف عذابه وهذه خاصة بأبى طالب وحده.

ثالثاً: شفاعة المؤمنين وهى نوعان:

١- فى الدنيا فيما يقدر- عليه المخلوق قدرًا وشرعًا.

٢- شفاعة فى الآخرة فيما يأذن لهم الله عز وجل فيه.

النوع الأول: شفاعة الخالق للمخلوق.

شفاعة رب العالمين، وهذه شفاعة مباشرة بدون سبب من المخلوقين أذن له فى الشفاعة.

(١) القول المفيد (١/ ٤٢٥ - ٤٢٩).

مواطن شفاعة الله : بوب ابن أبى عاصم فى كتابه «السنة» فى الشفاعة فى خروج الموحدين من النار.

باب: فى ذكر من يخرج الله بفضله من النار

ثم روى بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: أخرجوا من النار من ذكرنى يوماً أو خافنى فى مقام»^(١).

روى ابن أبى عاصم عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: يكون قوم فى النار، ما شاء الله أن يكونوا، ثم يرحمهم الله، فيخرجون منها، فيمكثون فى أدنى الجنة فى نهر يقال له الحيوان، لو أضاف أحدهم أهل الدنيا لأطعمهم وسقاهم ولحفهم قال عطاء: وأحسبه قال: ولزوجه. [لا ينقصه ذلك شيئاً]^(٢).

وعن حذيفة أن رسول الله - ﷺ قال: يخرج قوم من النار بعدما محشتهم النار، فيدخلون الجنة، فيسمون الجهنميون.

وأُسند عن حذيفة، عن النبى ﷺ قال: «ليخرجن الله من النار قوماً متنين قد محشتهم النار، فيدخلون الجنة بشفاعة الشافعين، يسمون فيها الجهنميون»^(٣).

وأُسند عن أبى بكر أن رسول الله ﷺ قال: «يحمل الناس على الصراط يوم القيامة، فتتقاع»^(٤) بهم جنباً الصراط تقاع الفراش فى النار، فينجى الله برحمته من يشاء، ثم أنه يؤذن فى الشفاعة للملائكة والنبيين والشهداء والصديقين، فيشفعون ويخرجون، فيشفعون ويخرجون من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فلقيت^(٥) أباً بكر فى جنازة فسألته عن هذا الحديث فحدثنى كما حدثنى^(٦).

وأُسند عن عقبة بن صهبان يقول: سمعت أباً بكر، عن النبى ﷺ مثله إلى قوله ذرة من إيمان^(٧).

وأُسند عن جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وأشار بأصابعه إلى أذنيه: يخرج ناس فيدخلون الجنة^(٨).

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٨٣٣).

(٢) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٨٣٤).

(٣) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٨٣٦).

(٤) وفى المسند تتقاع والمعنى أن جنبى الصراط تسقطهم فى النار بعضهم فوق بعض قوله: (فلقيت).

من كلام أبى سليمان البصرى.

(٥) أخرجه ابن أبى عاصم (٨٣٧).

(٦) فلقيت .. من كلام أبى سليمان البصرى.

(٧) أخرجه ابن أبى حاتم (٨٣٨) وإسناده حسن أو محتمل للتحسين.

(٨) أخرجه فى المصدر السابق (٨٣٩).

وأُسند عن جابر يقول سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله يخرج ناس من النار فيدخلهم الجنة»^(١).

وأُسند عن حماد بن زيد قال: سألت عمرو بن دينار: أسمعت جابر بن عبد الله يحدث عن النبي ﷺ إن الله يخرج قومًا من النار بالشفاعة؟ فقال: نعم^(٢).

وأُسند عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله تبارك وتعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودوا، فيلقون في نهر الحياء أو الحياة، شك مالك، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية^(٣)؟

وأُسند عن أبي موسى^(٤) قال: قال رسول الله ﷺ: إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة يقول الكفار: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فيسمع ما قالوا، فأمر بمن كان من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك أهل النار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا، قال: وقرأ رسول الله ﷺ: «الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رَبِّمَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ»^(٥).

وأُسند عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: إذا أخرج الله أهل النار من النار بشهادة أن لا إله إلا الله تمنى الآخرون لو كانوا مسلمين^(٦).

وأُسند عن أنس أن نبي الله ﷺ قال^(٧):

لَيُصِيبَنَّ أَقْوَامًا سَفَعَ مِنَ النَّارِ عَقُوبَةُ بِذُنُوبِ أَصَابُوهَا ثُمَّ لِيَدْخُلَهُمُ الْجَنَّةُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ. وَأُسند عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله تبارك وتعالى: «فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ»^(٨) قال: أجورهم يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله قال: الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا^(٩).

وأُسند عن أنس، عن النبي ﷺ مثله^(١٠).

(١) [صحيح] لمصدر السابق (٨٤٠) وأخرجه مسلم (١/١٢٢).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٨٤١).

(٣) المصدر السابق (٨٤٢). (٤) المصدر السابق (٨٤٣).

(٥) الحجر: ١. (٦) المصدر السابق (٨٤٤). (٧) المصدر السابق (٨٤٥).

(٨) النساء: ١٧٣. (٩) المصدر السابق (٨٤٦) الضمير يعود على أهل النار.

(١٠) [صحيح] المصدر السابق (٨٥٠) ومسلم.

وأُسند عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه ما يزن شعيرة. (١)

وأُسند عن أنس أنه حدث ذلك عن رسول الله ﷺ قال: «إذا أبصرهم أهل الجنة قال وما هؤلاء؟ فيقال: (٢) هؤلاء الجهنميون» أو كما قال.

وأُسند عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: يدخل قوم جهنم ويخرجون منها ويدخلون الجنة، يعرفون بأسمائهم يقال لهم الجهنميون (٣).

وأُسند عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: يخرج من النار أربعة، فيعرضون على الله عز وجل، فيلتفت أحدهم فيقول: أي رب كنت أرجوك إذا أخرجتني منها أن لاتعيدني فيها، فينجيه الله منها. (٤)

قال الفقير: والشاهد قوله: إذ أخرجتني.

شفاعة كلام رب العالمين:

أخرج الإمام عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي عن ابن عمر قال: يجيء القرآن يشفع لصاحبه يقول: يارب لكل عامل عمالة من عمله، وإنى كنت أمنعه اللذة والنوم فأكرمه، فيقال: أبسط يمينك، فيملاً من رضوان الله، ثم يقال: أبسط شمالك، فيملاً من رضوان الله، ويكسى كسوة الكرامة، ويحلى حلية الكرامة: ويلبس تاج الكرامة.

وأخرج الترمذى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾» (٥).
هذا حديث حسن (٦).

أما حديث جابر الذى تقدمت الإشارة إليه، أخرجه ابن حبان رحمه الله عن جابر

(١) المصدر السابق (٨٥٢).

(٢) المصدر السابق (٨٤٧).

(٣) المصدر السابق (٨٤٨).

(٤) [صحيح] المصدر السابق (٨٥٣)، ومسلم (١/١٢٣).

(٥) الملك: (١).

(٦) أخرجه الترمذى (٢٨٩١) وحسنه.

عن النبي ﷺ قال: «القرآن شافع مشفع، وما حل مصدق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار»^(١).

الحديث حسن.

وأخرج مسلم رحمه الله عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»^(٢).

النوع الثاني:

شفاعة المخلوقين للمخلوقين بإذن رب العالمين.

وهي أربعة أنواع:

أولاً: شفاعة الملائكة:

قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾^(٣).

تقدم حديث أبي بكرة «ثم أنه يؤذن في الشفاعة للملائكة والنبيين والشهداء والصدّيقين فيشفعون... إلخ»^(٤).

ثانياً: شفاعة النبيين:

وفيها حديث أبي بكرة المتقدم وحديث حذيفة عن أبي بكر عند ابن أبي عاصم في شفاعة العظمى وفيه ثم يقال ادعوا الصدّيقين فيشفعون ثم يقال ادعوا الأنبياء فيجىء النبي ومعه العصاة.

ثالثاً: شفاعة النبي ﷺ وهي تنقسم إلى قسمين الأول في الدنيا والثاني في الآخرة:

الأول: من شفاعة ﷺ وهي:

تكون في الدنيا فيما يقدر عليه قدرأ و شرعأ.

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١/١٦٧- الإحسان) وانظر «الإتقان» بتخريخنا.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٣/٣٤٩/٢٥٢).

(٣) النجم: ٢٦.

(٤) ابن أبي عاصم (٨٣٧) حسن أو محتمل لذلك.

أخرج الإمام أحمد رحمه الله عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: «إن شئت دعوت لك. وإن شئت أخرت ذلك فهو خير» فقال: ادعه فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه فيصلّي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجّهت بك إلى ربي في حاجتي هذه، فتقضى لي، اللهم شفعة في (١).

وأخرج أيضاً عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله ادع الله أن يعافيني فقال: «إن شئت أخرت ذلك فهو أفضل لأخرك. وإن شئت دعوت لك، قال: بل ادع الله لي: فأمره أن يتوضأ وأن يصلّي ركعتين، وأن يدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة. يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى وتشفعني فيه، وتشفعه في.

قال: فكان يقول هذا مراراً. ثم قال: أحسب أن فيها: أن تشفعني فيه. قال: ففعل الرجل فبرئ (٢).

أخرج الطبراني - رحمه الله - عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه، ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: أنت الميضأة، فتوضأ ثم أتت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قال: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضى حاجتي، وتذكر حاجتك. وروح إلى حتى أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع مثل ما قال له عثمان، ثم أتى باب عثمان فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة، وقال: حاجتك، فذكر حاجته فقضاها له، ثم قال: ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فائتنا، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلى حتى كلمته في، فقال عثمان بن

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

حنيف: والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأتاه
ضريير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أفتصبر؟»
فقال: يارسول الله إنه ليس لى قائد وقد شق على، فقال له النبي صلى الله عليه وعلى
آله وسلم: «أئت الميضأة فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات».

قال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه
لم يكن به ضرر قط^(١).

قال الفقير: وقد أعل هذه الرواية الشيخ الألبانى بثلاث علل انظرها فى كتابه
«التوسل»^(٢).

قال الفقير: وهذا الحديث أصله صحيح ولكن القصة التى أخرجها الطبرانى: باطلة،
لأنها تميز التوسل بالأموات وهو شرك. وقد تقدم الرد على من توسل بجاه النبي ﷺ
محتجاً بحديث الضريير هذا، فى الباب الخامس، وجعلنا له فصلاً مستقلاً فى الباب
بعنوان [فصل فى أحكام التوسل والوسيلة] وأيضاً فى الباب الرابع عشر، وقد ضعفه
على الإطلاق سليمان آل الشيخ فى هذا الموضوع، وهذه المواضع الثلاثة لحديث الضريير
فى الكتاب، فتأملها حرصاً على الفائدة. والله الموفق للصواب.

الثانى: شفاعة النبي ﷺ فى الآخرة.

مواطن شفاعة الرسول ﷺ

أخرج الإمام أحمد رحمه الله عن أنس قال: سألت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يشفع لى يوم القيامة، قال: قال: «أنا فاعل بهم» قلت: «يارسول الله فأين
أطلبك؟ قال: «اطلبنى أول ما تطلبنى على الصراط» قال: قلت: فإن لم ألقك على
الصراط؟ قال: «فأنا عند الميزان، قال: قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: «فأنا عند
الحوض، لا أخطئ هذه الثلاثة المواطن يوم القيامة»^(٣).

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - أن الشفاعة ستة أنواع:

الأول: الشفاعة الكبرى التى يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام، حتى

(١) تقدم

(٢) (ص ٩٢)

(٣) أخرجه الترمذى ٢٤٣٣ وقال: هذا حديث حسن غريب، لانعرفه إلا من هذا الوجه.

تنتهى إليه ﷺ فيقول: «أَنَا لَهَا»^(١) وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء لِيَشْفَعُوا لَهُمْ إلى ربهم حتى يُريحهم من مقامهم في الموقف. وهذه شفاعة يَخْتَصُّ بِهَا لا يشركه فيها أحد.

الثاني: شفاعته لأهل الجنة في دخولها. وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه^(٢).

الثالث: شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع لهم أن لا يدخلوها.

الرابع: شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم. والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة، وبدعوا من أنكرها، وصاحوا به من كل جانب، ونادوا عليه بالضلال.

الخامس: شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجة درجاتهم وهذه مما لم ينزع فيها أحد. وكلها مُخْتَصَّةٌ بأهل الإخلاص الذين لم يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا شَفِيعًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾^(*).

السادس: شفاعته في بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه. وهذه خاصة بأبي طالب وحده^(٣).

وهذه أنواع شفاعته ﷺ في الآخرة على وجه العموم وإليك شرح هذه الأنواع.

- النوع الأول من شفاعة الرسول ﷺ: وهي الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام، حتى تنتهى إليه ﷺ فيقول «أَنَا لَهَا» وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف وهذه شفاعة يختصُّ بها لا يشركه فيها أحد.

عن أنس رضي الله عنه - قال: قال: النبي ﷺ:

(١) سيأتي

(٢) تقدم تخريجه.

(*) الأنعام: ٥١.

(٣) تقدم

(*) «أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون بم ذاك»^(٤) [يجمع الله]^(٢) المؤمنين، والأولين والآخرين^(٤) يوم القيامة [فى صعيد واحد فيسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنوا الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون]^(٤) فينهمون بذلك [ويلقى الناس يوم القيامة ما شاء الله أن يلقوا من الحزن]^(٣) فيقولون: [ألا ترون ما قد بلغكم]^(٤) لو استشفعنا على ربنا [تبارك وتعالى]^(٢) عز وجل، فيرحبنا من مقامنا هذا، [انطلقوا بنا إلى آدم فيشفع لنا إلى ربنا]^(١).

فيأتون آدم ﷺ فيقولون: [يا آدم]^(١) أنت أبونا [أبو الخلق]^(٢) [أبو الناس]^(١) [أبو البشر]^(٤) [خلقك الله [تبارك وتعالى]^(٢) بيده [ونفخ فيك من روحه]^(٤) وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء فاشفع لنا إلى ربك حتى يرحبنا من مقامنا هذا [ألا ترى إلى ما قد بلغنا]^(٤)؟!

فيقول: لست هناكم [إن ربى قد غضب غضبة اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله]^(٤)، ويذكر [لهم ذنبه]^(١)، وخطيئته التى أصاب: أكله من الشجرة، قد نهاه الله عنها [فيستحى ربه من ذلك]^(١) اتوا نوحاً ﷺ فإنه أول نبي أرسله الله تبارك وتعالى [إلى أهل الأرض]^(١).

فيأتون نوحاً [فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا]^(٤)؟!

فيقول: [إن ربى غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، إنه كانت لى دعوة دعوت بها على قومى، نفسى نفسى]^(٤) لست هناكم، ويذكر خطيئته التى أصاب بسؤاله ربه بغير علم [ما ليس له به علم فيستحى ربه من ذلك]^(١)، ولكن اتوا إبراهيم خليل الرحمن [الذى اتخذته الله خليلاً فيأتون إبراهيم]^(٢) [فيقولون: يا إبراهيم: اشفع لنا إلى ربنا]^(٣) [ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا]^(٤).

فيقول: لست هناكم [إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله]^(٤).

فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التى أصاب: قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله حين أتى الملك لامرأته: «قولى: إنى أخوك، فإنى أخبره أنك أختى» [نفسى نفسى]^(٤)، ولكن اتوا موسى عبداً [اصطفاه الله برسالته]^(٣) أعطاه الله التوراة وكلّمه فيأتون موسى ﷺ [الذى كلمه الله]^(٢).

(*) انظر التعليق على هذه الآيات فى آخر الحديث.

فيقولون: [يا موسى^(٤)]: اشفع لنا إلى ربك^(٣) [ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا^(٤)]؟!

فيقول: لست هناكم [إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله^(٤)]، ويذكر خطيئته التي أصاب: قتله الرجل [بغير النفس فيستحي ربه من ذلك^(١)] [نفسى^(٤)]، ولكن اتنوا عيسى عبد الله ورسوله، وكلمة الله وروحه، فيأتون عيسى [فيقولون: يا عيسى [أنت رسول الله كلمت الناس فى المهدي، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه^(٤) اشفع لنا إلى ربك^(٣)] [ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا^(٤)]؟.

فيقول: لست هناكم [إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله قبله، ولم يذكر له ذنباً - نفسى نفسى^(٤)]، ولكن اتنوا محمداً عبداً [جاء اليوم مغفوراً له ليس عليه ذنب^(٣)] [قد^(٢)] غفر الله له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، فيأتونى [فيقولون: يا محمد [أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك أما ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا^(٤)]؟ اشفع لنا إلى ربك.

فيقول: أنا لها، وأنا صاحبها^(٣)، فأنطلق فأمشى بين سباطين من المؤمنين^(١) [حتى استفتح باب الجنة فيفتح لى فأدخل وربى على عرشه^(٣)] [فاستأذن على ربى تبارك وتعالى^(٢)] فى داره [فيأذن لى^(١)] فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى، ثم يقول: ارفع محمد، قل تسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه، فأرفع رأسى فأحمده بشاء وتحميد يعلمنيه [لم يحمد به أحد قبلى، ولا يحمده أحد بعدى^(٣)] فأشفع [فأقول: يارب [أمتى - ثلاث مرات -^(٤)] فيقول: أخرج من كان فى قلبه مثقال حبة شعيرة^(٣)]، فيحد لى حداً فأخرجهم [من النار^(٢)] فأدخلهم الجنة [فيقال: يا محمد: ادخل الجنة من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسى بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، وكما بين مكة، وبصرى^(٤)] ثم [أعود^(٢)] استأذن على ربى فى داره الثانية، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى، ثم يقول: ارفع رأسك محمد، قل تسمع، واشفع تشفع وسل تعطه فأرفع رأسى فأحمده بشاء وتحميد يعلمنيه [لم يحمد به أحد قبلى، ولا يحمده أحد بعدى^(٣)]، ثم اشفع [فأقول: يارب! فيقول: أخرج من كان فى قلبه مثقال شعيرة^(٣)]، فيحد لى حداً فأخرجهم [من النار^(٢)] فأدخلهم الجنة فاستأذن على ربى فى داره الثالثة فيؤذن لى عليه، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى، ثم يقول: ارفع محمد [قل تسمع

و^(١) اشفع تشفع، وسل تعطه، فأرفع رأسى فأحمده بثناء وتحميد يعلمنيه [لم يحمده بها أحد قبلى، ولا يحمده بها أحد بعدى]^(٢)، ثم اشفع [فأقول: يارب: فيقول: أخرج من كان فى قلبه مثقال شعيرة]^(٣) فيحد لى حداً فأخرجهم، فأدخلهم الجنة [ثم أتيت الرابعة]^(١) [فأخر ساجداً فأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد قبلى، ولا يحمده بها أحد بعدى قال: فيقال: يا محمد: ارفع رأسك، واشفع تشفع. قال: فأقول: يارب فيقول: أخرج من كان فى قلبه مثقال شعيرة قال: فأخر ساجداً فأحمده بمحامد لم يحمده أحد قبلى، ولم يحمده أحد بها بعدى قال: فيقال: يا محمد: أرفع رأسك، قل تسمع، واشفع تشفع. فأقول: يارب، يارب، فيقول: أخرج من كان فى قلبه أدنى شئ قال: فأخرج أناساً من النار يقال لهم: الجهنميون، وإنهم لفى الجنة]^(٣) فما يبقى فى النار إلا من حبسه القرآن - أى وجب عليه الخلود - وهو المقام المحمود الذى وعده الله تبارك وتعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مُمُحَمَّدًا﴾ فأخرجهم من النار فأدخلهم الجنة.

قال: [فقال رجل: يا أبا حمزة سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فتغير وجهه، واشتد عليه فقال: ما كل ما نحدثكموه سمعناه من رسول الله ﷺ ولكن لم يكن يكذب بعضنا بعضاً]^(٣) (*).

وأخرج ابن أبى عاصم عن حذيفة، عن أبى بكر الصديق قال: أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم فصلى الغداة ثم جلس مكانه، حتى إذا كان من الضحى، ضحك رسول الله ﷺ، ثم جلس مكانه، حتى صلى الأولى والعصر والمغرب، كل ذلك لا يتكلم حتى صلى العشاء الآخرة، ثم قام إلى أهله، فقال الناس لأبى بكر: سل رسول الله ﷺ ما شأنه صنع اليوم شيئاً لم يصنعه قط؟ قال: نعم [فسأله، فقال: عرض على ما هو

(*) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة (٨٠٤) من طريق همام، ثنا قتادة، عن أنس مرفوعاً.. وصححه الألبانى.

(١) زيادات من رواية ابن أبى عدى، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس (السنة ٨٠٨) صححه الألبانى.
(٢) زيادات من رواية محمد بن عبيد بن حساب، ثنا أبو عوانة، ثنا قتادة، عن أنس (٨٠٥)، صححه الألبانى.

(٣) زيادات من رواية معتمر بن سليمان قال: سمعت حميداً يحدث عن أنس (السنة ٨١٦) صححه الألبانى.

(٤) زيادات من رواية أبى هريرة (السنة ٨١١) صححه الألبانى.
والروايات جميعها أصلها فى الصحيحين.

كائن إلى يوم القيامة من أمر الدنيا والآخرة، يجمع الأولون والآخرون في صعيد واحد يفظع الناس بذلك، حتى انطلقوا إلى آدم، والعرق يكاد أن يلجمهم، فقالوا: يا آدم! أنت أبو البشر وأنت اصطفاك الله، اشفع لنا إلى ربك، فقال: قد لقيت مثل ما لقيتم، فانطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم نوح: (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين)، فينطلقون إلى نوح، فيقولون: يا نوح اشفع لنا إلى ربك، فأنت اصطفاك الله واستجاب لك في دعائك، ولم يدع على الأرض من الكافرين دياراً، فيقول: ليس ذاكم عندي، انطلقوا إلى موسى، فإن الله تعالى كلمه تكليماً، فيقول موسى: ليس ذاكم عندي، فانطلقوا إلى عيسى بن مريم فإنه يبرىء الأكمة والأبرص، ويحيى الموتى، فيقول عيسى: ليس ذاكم عندي، ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم، فإنه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة فانطلقوا إلى محمد فليشفع لكم إلى ربكم، قال: فأنتلق، فيأتى جبريل عليه السلام ربه تبارك وتعالى فيقول: ائذن له وبشره بالجنة، فأنتلق فأخر ساجداً قدر جمعة، ثم يقول الله عز وجل: ارفع رأسك، وقل تسمع، واسمع، تشفع، قال: فأذهب لأقع ساجداً قال: فأخذ جبريل بضبعيه، قال: فيفتح الله عليه من الدعاء شيئاً لم يفتحه على بشر، فأقول: أى رب جعلتني سيد ولد آدم ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، حتى إنه ليرد على الحوض أكثر من ما بين صنعاء وأيلة. ثم يقال: ادعوا الصديقين فيشفعون، ثم قال: ادعوا الأنبياء، فيجىء النبي معه العصاة، والنبي معه الخمسة، والستة، والنبي ليس معه أحد، حتى يقال: ادعوا الشهداء، فيشفعون لمن أرادوا، فإذا فعلت الشهداء ذلك يقول الله تبارك وتعالى: أنا أرحم الراحمين، ادخلوا جنتي من كان لا يشرك بى شيئاً. قال: فيدخلون الجنة^(١).

وأخرج ابن أبى عاصم: عن سلمان قال: تعطى الشمس يوم القيامة حرَّ عشر سنين، ثم تُدَنَّى من جماجم الناس حتى يكون قاب قوسين، فيعرقون حتى يرسخ العرق في الأرض قامة، ثم يرتفع الرجل حتى يعرق الرجل قال سلمان: حتى يقول الرجل غِقْ غِقْ، فإذا رأوا ما هم فيه قال بعضهم لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ائتوا أباكم آدم عليه السلام فليشفع لكم إلى ربكم جل وعز، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا أنت الذى

(١) أخرجه ابن أبى عاصم (٨١٢).

خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسكنك جنته، قم فاشفع لنا إلى ربنا، فقد ترى ما نحن فيه، فيقول: لست هناك، ولست بذاك، فأين الفعلة فيقولون: إلى من تأمرنا؟ فيقول: اتنوا عبداً شاكراً، فيأتون نوحاً عليه السلام، فيقولون: يا نبي الله أنت الذي جعلك الله شاكراً، وقد ترى ما نحن فيه، فقم فاشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست هناك، ولست بذاك، فأين الفعلة؟ فيقولون: إلى من تأمرنا؟ فيقول: اتنوا إبراهيم خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا خليل الرحمن قد ترى ما نحن فيه، فاشفع لنا إلى ربنا، فيقول: لست هناك، ولست بذاك، فأين الفعلة؟ فيقولون: إلى من تأمرنا؟ فيقول: اتنوا موسى عبداً، اصطفا الله برسالاته وبكلامه، فيأتون موسى عليه السلام، فيقولون: قد ترى ما نحن فيه، اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست هناك، ولست بذاك، فأين الفعلة؟ فيقولون: فإلى من تأمرنا فيقول: اتنوا كلمة الله وروحه عيسى فيقولون يا كلمة الله، وروحه، قد ترى ما نحن فيه، فاشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست هناك، ولست بذاك، فأين الفعلة؟ فيقولون: فإلى من تأمرنا؟ فيقول: اتنوا عبداً فتح الله به، وختم، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ويجيء في هذا اليوم آمنة محمد ﷺ. فيأتون النبي، فيقولون: يا نبي الله أنت الذي فتح الله بك، وغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وجئت في هذا اليوم آمناً، وقد ترى إلى ما نحن فيه، فاشفع لنا إلى ربنا، فيقول: أنا صاحبكم، فيخرج يحوش الناس، حتى ينتهي إلى باب الجنة، فيأخذ بحلقة الباب من ذهب، فيقرع الباب، فيقال: من هذا؟ فيقال: محمد ﷺ، قال: فيفتح الله له، قال: فيجيء حتى يقوم بين يدي الله، فيستأذن في السجود، فيؤذن، فيسجد، فينادي: يا محمد! ارفع رأسك، سل، تعطه، اشفع تشفع، وادع تحب، قال: فيفتح الله عليه من الثناء عليه والتحميد والتمجيد ما لم يفتح لأحد من الخلائق، قال: فيقول: أي رب أمتي أمتي أمتي، ثم يستأذن في السجود، فيؤذن له، فيسجد، فيفتح الله عليه من الثناء عليه والتحميد والتمجيد شيئاً لم يفتح لأحد من الخلائق، وينادي: يا محمد! ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، وادع تحب، فيرفع رأسه فيقول: رب أمتي أمتي (مرتين أو ثلاثاً) قال سلمان: فيشفع في كل من كان في قلبه مثقال حبة من حنطة من إيمان، أو مثقال شعيرة من إيمان، أو مثقال حبة خردل من إيمان، فذلك [المقام المحمود] (١).

(١) أخرجه ابن أبي عاصم (٨١٣)

- النوع الثاني من شفاعته - ﷺ - شفاعته لأهل الجنة في دخولها.

وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه . وفيه : «يقال يا محمد: أدخل الجنة من أمتك من لأحساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس في ماسوى ذلك .

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (١).

قال ابن كثير (٢): (حتى إذا جاؤوها) أى وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتصر لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة .

وقد ورد فى حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم فى الدخول فيقصدون آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمداً ﷺ وعليهم أجمعين كما فعلوا فى العرصات عند استشفاعهم إلى الله - عز وجل - أن يأتى لفصل القضاء ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر فى المواطن كلها. أهـ

النوع الثالث: شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع لهم أن لا يدخلوها.

قال أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب «الأحوال» كما فى «النهاية» لابن كثير: وثنا إسماعيل بن عبيد ابن أبى كريمة حدثنى محمد بن سلمة عن أبى عبد الرحيم حدثنى زيد ابن أبى أنيسة عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث عن أبى هريرة وذكر حديثاً عن أبى هريرة، ثم قال زيد بن أبى أنيسة عن المنهال: حدثنى عبد الله بن الحارث أيضاً أن النبى ﷺ قال: «أمر بقوم من أمتى قد أمر بهم إلى النار، قال: فيقولون: يا محمد ننشدك الشفاعة، قال: فأمر الملائكة أن يقفوا بهم، قال: فأنتطلق واستأذن على الرب عز وجل فيأذن لى فأسجد وأقول: يارب، قوم من أمتى قد أمر بهم إلى النار، قال: فيقول لى: انطلق فأخرج منهم، قال: فانطلق وأخرج منهم من شاء الله أن أخرج، ثم ينادى الباقون: يا محمد ننشدك الشفاعة فأرجع إلى الرب فاستأذن فيؤذن لى فأسجد، فيقال لى ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع (الحديث) (٣).

(١) الزمر (٧٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦٥/٤.

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الأحوال.

قال ابن كثير: وهذا يقتضى تعداد هذه الشفاعة فيمن أمر بهم إلى النار ثلاث مرات ألا يدخلوها، ويكون معنى قوله: «أخرج»، أى أنقذ، بدليل قوله بعد ذلك: «ويبقى قوم فيدخلون النار»، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. اهـ.

النوع الرابع: شفاعته ﷺ في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم. والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة وبدعوا من أنكروها، وصاحوا به من كل جانب، ونادوا عليه بالضلال.

● شفاعته ﷺ لأهل الكبائر.

بوب ابن أبي عاصم في كتابه السنة: (باب في ذكر شفاعته النبي ﷺ لأهل الكبائر) تم أخرج بسنده (١) عن ابن عمر قال:

مازلنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من في نبينا ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» قال: فأني أخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا.

وأخرج عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي (٢).

وعن أنس أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي (٣). وفيه عن جابر بن عبد الله.

قال أبو بكر: والأخبار التي رويها عن نبينا ﷺ فيما فضله الله به من الشفاعة وتشفيعه إياه فيما يشفع فيه أخبار ثابتة موجبة بعلم حقيقة ما حوت على ما اقتصصنا، والصادق عن الأخبار الموجبة للعلم المتواترة كافر، وقد ذكرناها ما دل (٤) على عقده من الكتاب، جعلنا الله وكل مؤمن بها مؤملاً لها من أهلها.

النوع الخامس: شفاعته ﷺ لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم وهذه مما لا ينزع فيها أحد. وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شفيعاً كما قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ (٥).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم (٨٣١).

(١) أخرجه ابن أبي عاصم (٨٣٠).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم (٨٣٢).

(٤) كذا في المطبوع ونبه محقق الكتاب عل وجود سقط أو تحريف في هذا الموضع

(٥) الأنعام: ٥١

أخرج البخارى رحمه الله عن أبى موسى رضى الله عنه قال: لما فرغ النبى صلى الله عليه وآله وسلم من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس فلقى دريد بن الصمة، فقتل دريد وهزم الله أصحابه، قال أبو موسى ويعثنى مع أبى عامر فرمى أبو عامر فى ركبته فانتهيت إليه، فقلت: ياعم من رماك؟ فأشار إلى أبى موسى، فقال: ذاك قاتلى الذى رمانى، فقصدت له فلحقته، فلما رآنى ولى فاتبعته، وجعلت أقول له: ألا تستحي، ألا تثبت فكف. فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبى عامر: قتل الله صاحبك، قال: فانزع هذا السهم، فنزعته، فنزا منه الماء، قال: يا ابن أخى أقرئ النبى ﷺ وقل له: استغفر لى، واستخلفنى أبو عامر على الناس فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت فدخلت على النبى صلى الله عليه وآله وسلم عليه وعلى آله وسلم فى بيته على سرير مرمّل، وعليه فراش، قد أثر رمال السرير بظهره وجنبه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبى عامر وقال: قل له استغفر لى، فدعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه، فقال: «اللهم اغفر لعبيد أبى عامر» ورأيت بياض إبطينه، ثم قال: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس» فقلت: ولى فاستغفر، فقال: «اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلا كريماً، قال أبو بردة: إحداهما لأبى عامر والأخرى لأبى موسى^(١).

وأخرج مسلم عن أم سلمة قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبى سلمة وقد شق بصره فأغمضه، ثم قال: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر» فضج ناس من أهله فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون» -ثم قال- «اللهم اغفر لأبى سلمة، وارفع درجته فى المهديين، واخلفه فى عقبه فى الغابرين، واغفر لنا وله يارب العالمين، وأفسح له فى قبره، ونور له فيه»^(٢).

النوع السادس: شفاعته ﷺ فى بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه. وهذه خاصة بأبى طالب وحده.

أخرج البخارى رحمه الله أن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال للنبى ﷺ: «ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال:

«وهو فى ضحضاح من نار، ولو لا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار»^(٣).

(١) [صحيح] أخرجه البخارى: (٢٨٨٨).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (٧/٤٩٢/٣).

(٣) تقدم تخريجه.

وذكر البخارى رحمه الله عن ابن الهاد بن عبد الله بن خباب عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ، وذكر عنده عمه، فقال: «لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل من النار يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه» (١).

اسباب شفاعَةِ الرسول ﷺ

(١) الدعاء له بالمقام المحمود بعد الأذان:

أخرج البخارى رحمه الله: عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، حلت له شفاعتى يوم القيامة» (٢).

(٢) الصلاة على النبى ﷺ ثم طلب الوسيلة له.

أخرج مسلم رحمه الله عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىّ، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعَة» (٣).

(٣) سكنى المدينة والموت فيها:

أخرج الإمام مسلم رحمه الله عن أبى سعيد مولى المهري أنه جاء أبا سعيد الخدرى لىالى الحرة فاستشاره فى الجلاء من المدينة وشكا إليه أسعارها، وكثرة عياله، وأخبره أن لا صبر له على جهد المدينة ولأوائها، فقال له: ويحك لأمرك بذلك؟! إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يصبر أحد على لأوائها فيموت، إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة إذا كان مسلماً» (٤).

وأخرج مسلم رحمه الله عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صبر على لأوائها كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة» (٥).

وأخرج مسلم رحمه الله عن يُحَنَس مولى الزبير أخبره أنه كان جالساً عند عبد الله بن عمر فى الفتنة، فأتته مولاة له تسلم عليه، فقالت، إنى أردت الخروج يا أبا.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٨٨٥)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ٨٧/ ٣٦٠)

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى ٦١٤. (٣) [صحيح] أخرجه مسلم (١/ ٢٨٨).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم (فى الحج ٥/ ١٦١/ ٤٧٧)

(٥) تقدم تخريجه.

عبد الرحمن اشتد علينا الزمان، فقال لها عبد الله: اقعدى لكاع، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة»^(١).

وأخرجه مسلم بسند آخر عن يحيى، مولى مصعب عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صبر على لأوائها وشدتها كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة» يعنى المدينة.

وأخرج مسلم رحمه الله عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتى إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة أو شهيداً»^(٣).
(٤) ومن أسباب الشفاعة كثرة السجود

روى عبد الله بن المبارك فى «الزهد» عن حسين بن على قال: حدثنى فاطمة بنت الحسين أن رجلاً قال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى من أهل شفاعتك قال: «أعنى بكثرة السجود»^(٤). الحديث مرسل.

فى «أسد الغابة»: وروى شيان عن جرير عن عبد الملك بن عمير عن مصعب الأسلمى قال: انطلق غلام لنا فأتى النبى ﷺ فقال: أسألك أن تجعلنى ممن تشفع له يوم القيامة، فقال: «من علمك أو أمرك أو ذلك؟» فقال: ما أمرنى إلا نفسى قال: «إنى أشفع لك، ثم رده فقال: «أعنى على نفسك بكثرة السجود»^(٥).

روى الإمام أحمد رحمه الله عن خادم للنبى ﷺ رجل أو امرأة قال: كان النبى ﷺ مما يقول للخادم: «ألك حاجة؟» قال: حتى كان ذات يوم فقال: يا رسول الله حاجتى أن تشفع لى يوم القيامة، قال: «ومن ذلك على هذا؟» قال: ربي، قال: «أما لا فأعنى بكثرة السجود»^(٦).

● تنبيه عدم ثبوت الشفاعة لزائر قبر الرسول ﷺ:

قال الشيخ مقبل: وردت أحاديث أن زيارة قبر رسول الله ﷺ سبب لشفاعته ﷺ لا يثبت منها شيء، وسأنقل إن شاء الله عن أهل العلم ما يتعلق بهذه الأحاديث من النقد والتجريح لروايتها^(٧). منها «من زار قبرى وجبت له شفاعتى».

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحج (٥/١٦٢/٤٨٢).

(٢) تقدم (٣) أخرجه مسلم (٥/١٦٣/٤٨٤).

(٥) أسد الغابة (٥/١٨٠).

(٧) الشفاعة (٤).

(٤) أخرجه ابن المبارك فى الزهد ص ٤٥٥

(٦) أحمد (٣/٥٠٠).

ثالثاً: شفاعة المؤمنين وهي نوعان:

الأول: في الدنيا فيما يقدر عليه المخلوق قدرًا وشرعًا

الثاني: شفاعة في الآخرة فيما يأذن لهم الله عز وجل فيه..

[أولاً]: شفاعة المؤمنين في الدنيا فيما يقدرون عليه قدرًا وشرعًا:

شفاعة المصلين على الميت على التوحيد.

أخرج مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له، إلا شفعوا فيه»^(١).

أخرج ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «من صلى عليه مائة من المسلمين غفر له»^(٢).

وأخرج مسلم رحمه الله عن كريب مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان، فقال: يا كريب انظر ما اجتمع له الناس، قال: فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته، فقال: تقول هم أربعون؟ قال: نعم، قال: أخرجه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم فيه»^(٣).

شفاعة المؤمنين في الدنيا بالدعاء للأموات والأحياء.

أخرج البزار عن ابن عمر قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ: فذكر الحديث في فضل الحج، وفيه: «إن الله يقول لهم عند وقوفهم بعرفة: أفيضوا عبادي مغفوراً لكم ولن شفعتم له» الحديث^(٤).

وروى الإمام أحمد رحمه الله أن جرير بن عبد الله قام يخطب يوم توفي المغيرة بن شعبة فقال: عليكم باتقاء الله عز وجل والوقار والسكينة حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن.

(١) تقدم . (٢) أخرجه ابن ماجه (١/١٤٨٨).

(٣) تقدم.

(٤) وقال الهيثمي في المجمع (٤/٣٧٥) رواه البزار ورجاله موثقون

ثم قال: اشفعوا لأمركم فإنه كان يحب العفو.

وقال: أما بعد، فإنني أتيت رسول الله ﷺ فقلت: أبايك على الإسلام، فقال رسول الله ﷺ واشترط على النصح لكل مسلم، فبايعته على هذا. ورب هذا المسجد إني لكم لناصح جميعاً، ثم استغفر ونزل^(١).

الثانية: شفاعة المؤمنين في الآخرة فيما يأذن لهم الله عز وجل فيه.

قد تقدمت أحاديث في شفاعة الأنبياء والملائكة والمؤمنين، وهذه بقية الأحاديث الواردة في شفاعة المؤمنين.

أخرج الترمذى رحمه الله عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إن من أمتى من يشفع للفتام من الناس، ومنهم من يشفع للقبيلة، ومنهم من يشفع للعصبة، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة»^(٢).

وأخرج مسلم رحمه الله عن الصنابحى عن عبادة بن الصامت، أنه قال: دخلت عليه وهو فى الموت فبكيت فقال: مهلاً لم تبكى؟ فوالله لئن شهدت لأشهدن لك، ولئن شفعت لأشفعن لك، ولئن استطعت لأنفعنك.

ثم قال: والله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم لكم فيه خير إلا حدثكموه إلا حديثاً واحداً، وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسى، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار»^(٣).

قال النووى: وأما قوله (عن الصنابحى عن عبادة أنه قال دخلت على) فهذا كثير يقع مثله، وفيه صنعة حسنة، وتقديره (عن الصنابحى) أنه حدث عن عبادة بحديث قال فيه: دخلت عليه.

وأخرج الإمام أحمد رحمه الله عن أبى أمامة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبى مثل الحيين ربيعة ومضر»، فقال رجل: يا رسول الله أو ما ربيعة من مضر؟ فقال: «إنما أقول ما أقول»^(٤).

وأخرج الإمام أحمد - رحمه الله - عن أبى برزة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) أخرجه أحمد (٣٦١/٤) الحديث رجاله رجال الصحيح. وأصله فى الصحيحين.

(٢) أخرجه الترمذى (٤٦/٤) وقال: هذا حديث حسن.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٤٧/٢٥١/١).

(٤) أخرجه أحمد (٢٥٦/٥).

«إن من أمتي لمن يشفع لأكثر من ربيعة ومضر، وإن من أمتي لمن يعظم للنار حتى يكون ركنًا من أركانها».

وعن الحارث بن أقيش قال: كنا عند أبي برزة ليلة فحدث ليلتئذ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مسلمين يموت لهما أربعة أفراس إلا أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته» قالوا: يا رسول الله، وثلاثة؟ قال: «وثلاثة» قالوا: واثنان؟ قال: «وإن من من أمتي لمن يدخل الجنة بشفاعته مثل مضر» قال: «واثنان» قال: «وإن من من أمتي لمن يعظم للنار حتى يكون أحد زواياها»^(١).

وأخرج الإمام أحمد - رحمه الله -^(٢) عن عبد الله بن شقيق قال: جلست إلى رهط أنا رابعهم بإيليا، فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلن الجنة بشفاعه رجل من أمتي أكثر من بني تميم» قلنا: سواك يا رسول الله؟ قال: «سواي» قلت: أنت سمعته؟ قال: نعم، فلما قام قلت: من هذا؟ قالوا: ابن أبي الجعداء.

شفاعة المؤمنين الشهداء

روى أبو داود رحمه الله أن نمران بن عتبة الهمداني قال: دخلنا على أم الدرداء ونحن أيتام فقالت: أبشروا فإنني سمعت أبا الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته»^(٣).

روى الترمذي رحمه الله عن المقدم بن معدى كرب قال: قال رسول الله ﷺ: «لشهداء عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه».

هذا حديث حسن صحيح غريب^(٤).



(١) الحديث أخرجه أيضاً أحمد (١٢/٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤٦٩/٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٤/٣).

(٤) أخرجه الترمذي (١٦٦٣)، وابن ماجه (٢٧٩٩).

قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (١)

مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى (٢): حيث نفت الآية الشفاعة عن المخلوق استقلالاً بدون إذن

الله. اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٣): حيث دلت الآية على نفى الشفاعة عن المخلوق استقلالاً فيكون

طلبها من المخلوق شركاً، ومن ذلك طلبها من الأوثان التي زعموا أنهم يعبدونها من

أجل الشفاعة. اهـ.

الإعراب (٤):

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ﴾ الجملة مستأنفة مسوقة للرد على المشركين الذين زعموا أن الأصنام تشفع لهم. ومن اسم استفهام معناه النفي في محل رفع مبتدأ وذا اسم إشارة في محل رفع خبر «من» والذي اسم موصول بدل أو «من ذا» كلها اسم استفهام مبتدأ و«الذي» هو الخبر، واعلم أن «ذا» الواقعة بعد «ما» الاستفهامية يجوز جعلها اسم موصول، اتفاقاً وأما الواقعة بعد «من» فالأكثر أنها اسم إشارة، و«يشفع» فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو، والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول ﴿عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ الظرف متعلق بيشفع أو بمحذوف حال من الضمير في يشفع وإلا أداة حصر وبإذنه الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال. اهـ.

قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

هي كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ

يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (٥).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ (٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ (٧).

(١) البقرة/ ٢٥٥.

(٢، ٣) الجديد (١٦٠).

(٤) الإعراب القرآني (١/ ٣٨٢، ٣٨٣). (٥) النجم/ ٢٦.

(٦) الأنبياء/ ٢٨

(٦) النبا/ ٣٨

عن ابن عباس: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يريد الملائكة مثل قوله ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ (١).

وعن سعيد بن جبير: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ قال: من يتكلم عنده إلا بإذنه؟ (٢)

وعن أبي العباس الضرير: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يذكر ربه بقلبه، حتى يأذن له (٣). اهـ.

قال ابن جرير (٤): (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ) لماليكه إن أراد عقوبتهم إلا أن يخليه ويأذن له بالشفاعة لهم، وإنما قال ذلك تعالى ذكره، لأن المشركين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فقال الله تعالى ذكره لهم: لى ما فى السموات وما فى الأرض مع السموات والأرض ملكًا فلا ينبغي العبادة لغيرى، فلا تعبدوا الأوثان التى تزعمون أنها تقربكم منى زلفى، فإنها لا تنفعكم عندى، ولا تغنى عنكم شيئًا، ولا يشفع عندى أحد لأحد إلا بتخليتى إياه والشفاعة لمن يشفع له من رسلى، وأوليائى، وأهل طاعتى. اهـ.

وقال البغوى (٥): ﴿بِإِذْنِهِ﴾: بأمره. اهـ.

وقال ابن الجوزى (٦): ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فيه رد على من قال : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾. اهـ.

وقال الفخر الرازى (٧): ﴿مَنْ ذَا الَّذِي﴾ استفهام معناه الإنكار والنفى أى لا يشفع عنده أحد إلا بأمره. اهـ.

وقال القرطبى (٨): وتقرر فى هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء فى الشفاعة، وهم الأنبياء والعلماء والمجاهدون والملائكة وغيرهم ممن أكرمهم الله وشرفهم الله، ثم لا يشفعون إلا لمن ارتضى.

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥٨٢/١) ونسبه للطبرانى فى «السنن».

(٢، ٣) تفسير ابن أبى حاتم (٤٨٩/٢). (٤) تفسير الطبرى (٧/٣).

(٥) معالم التنزيل (٣/٣٦٠). (٦) زاد المسير (١/٢٥١).

(٧) التفسير الكبير (١١/٧/٤). (٨) تفسير القرطبى (١٠٨٢/٢ - ١٠٨٤).

قال ابن عطية: والذي يظهر أن العلماء والصالحين يشفعون فيمن لم يصل إلى النار وهو بين المنزلتين أو وصل، ولكن له أعمال صالحة..

ثم ذكر أحاديث الشفاعة في الصحيحين .

ثم قال تعقيباً على قول ابن عطية: (من لم يصل أو وصل) يحتمل أن يكون أخذه من أحاديث آخر. والله أعلم.

قال ابن كثير^(١): ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ في هذه الآية رد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام المصورة على صور الصالحين، وغيرهم، وظنوا أنهم يشفعون عنده بغير إذنه فأنكر ذلك عليهم، وبين عظيم ملكوته وكبريائه وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام كقوله: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾^(٣)، وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٤) قال ابن جرير في هذه الآية. نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوئاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فقال الله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٥) وتقرر في هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء في الشفاعة، وهم الأنبياء والعلماء وغيرهم، والإذن راجع إلى الأمر فيما نص عليه، كمحمد ﷺ إذ قيل له: «اشفع تُشفع»، وكذلك قاله غير واحد من المفسرين. اهـ.

إشكال وجوابه:

فإن قيل إن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه، فكيف يسمى دعاء الإنسان لأخيه شفاعة وهو لم يستأذن من ربه؟

والجواب: قال ابن عثيمين^(٦): إن الله أمر بأن يدعوا الإنسان لأخيه الميت وأمره بالدعاء، إذن وزيادة.

وأما الشفاعة الموهومة التي يظنها عباد الأصنام من معبودهم، فهي شفاعة باطلة لأن

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٩٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٦-٢٠).

(٣) النبأ، الآية: ٣٨.

(٤) هود، الآية: ١٠٥.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٦) القول المفيد (١/٤٢٩).

وقوله: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (١).

الله لا يأذن لأحد بالشفاعة إلا من ارتضاه من الشفعاء والمشفوع لهم أهـ .
قال ابن عثيمين (٢): قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي﴾ استفهام استنكارى بمعنى النفس، أى لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه.



قوله: [وقوله: ﴿مَن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ الآية
مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى (٣): حيث دلت الآية على نفى الشفاعة عن كل مخلوق إلا بشرطين
إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له. اهـ.
مناسبة الآية للتوحيد.

قال القرعاوى (٤): حيث دلت الآية على أن الشفاعة لا تنال إلا بعد إذن الله
ورضاه، فدل على أنها ملك لله، وطلبها من غير الله شرك أكبر، ومن ذلك طلبها من
الأوثان التى زعموا أنهم يعبدونها لأجل الشفاعة أهـ.

الإعراب (٥): الواو عاطفة، و(كم) خبرية فى محل رفع مبتدأ، و(ومن ملك) فى محل
نصب تمييز (كم) الخبرية، وقد تقدم بحثه، و(فى السموات والأرض) صفة لـ(ملك)
وجملة (لا تغنى شفاعتهم) خبر، (شيئاً) مفعول (تغنى) أو مفعول مطلق، أى شيئاً من
الإغناء ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن يَأْذَنُ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (إلا) أداة
حصر و(من بعد) متعلق بـ(تغنى) و(أن) وما فى حيزها فى تأويل مصدر مجرور
بالإضافة لبعده، و(الله) فاعل (يشاء) و(يرضى) معطوف على (يشاء). اهـ.

وقال ابن عثيمين (٦): (كم) خبرية للتكثير، والمعنى: ما أكثر الملائكة الذين فى
السماء ومع ذلك لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد إذن الله ورضاه. اهـ.

ما جاء فى الآية من كلام المفسرين

-
- | | |
|--------------------------|--|
| (١) [النجم: ٢٦] | (٢) القول المفيد (١/٤٢٩) |
| (٣، ٤) الجدليد (١٦٢). | (٥) إعراب القرآن الكريم لمحيى الدين درويش (٩/٣٥٧). |
| (٦) القول المفيد (١/٤٣١) | |

كقوله تعالى ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا الشَّفَاعَةَ﴾ ظاهر هذه الآية عدم قبول الشفاعة مطلقاً يوم القيامة، ولكنه بين في مواضع آخر أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السموات والأرض.

فنص على عدم الشفاعة للكفار بقوله ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ وقد قال ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ وقال تعالى عنهم مقررأ لهم ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وقال ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ وأما الشفاعة بدون إذنه ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ والآية التي نحن بصدها - وقال : ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ إلى غير ذلك من الآيات وادعاء شفعاء عند الله للكفار أو بغير إذنه من أنواع الكفر به جل وعلا، كما صرح بذلك في قوله ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذا الذي قررنا من أن الشفاعة للكفار مستحيلة مطلقاً، يستثنى منه شفاعة ﷺ لعمه - كما تقدم - فهذه الصورة التي ذكرنا من تخصيص الكتاب بالسنة - اهـ (١).

وأخرج (٢) ابن المنذر، عن ابن جريج في قوله (وكم من ملك...) الآية قال: لقلولهم الغرائقة ليشفعونا.

قال ابن جرير (٣). يقول تعالى ذكره ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ لِمَنِ شَفَعُوا لَهُ (شيئاً) إِلَّا أَنْ يَشْفَعُوا لَهُ (من) بعد أن يأذن الله) لهم بالشفاعة (لمن يشاء) منهم أن يشفعوا له (ويرضى) يقول: ومن بعد أن يرضى للملائكة الذين يشفعون له أن يشفعوا له فتففعهم حيثنذ شفاعتهم، وإنما هذا توبيخ من الله تعالى ذكره لعبدة الأوثان والملائمة قريش وغيرهم الذين كانوا يقولون (مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فقال الله جل ذكره لهم ما تنفع شفاعة ملائكتي الذين هم عندى لمن شفعوا له إلا من بعد إذننى لهم بالشفاعة له، ورضائى، فكيف بشفاعة من دونهم فأعلمهم أن شفاعة مايعبدون من دونه غير نافعتهم. أهـ.

وقال البغوى (٤) ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ ممن يعبدهم هؤلاء الكفار ويرجون

(٢) الدر المنثور (٦/١٦٤).

(٤) معالم التنزيل (٥/٢٥١).

(١) أضواء البيان (١/٦١، ٦٢).

(٣) تفسير الطبرى (١١/٢٧، ٣٧).

شفاعتهم عند الله ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ في الشفاعة، ﴿لَمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ يعنى من أهل التوحيد.

قال ابن عباس : يريد لا تشفع الملائكة إلا لمن رضى الله عنه .
وجمع الكناية قوله ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ والمملك واحد ؛ لأن المراد من قوله ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾
الكثرة فهو كقوله ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾. أهـ.

- وقال الزمخشري^(١): يعنى أن أمر الشفاعة ضيق وذلك أن الملائكة مع قربتهم
وزلفاهم وكثرتهم، واغتصاص السموات بجموعهم لوشفعوا بأجمعهم لأحد، لم تغن
شفاعتهم عنه شيئاً قط، ولم تنفع إلا إذا شفّعوا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة
لمن يشاء الشفاعة له، ويرضاه ويراه أهلاً لأن يشفع له، فكيف تشفع الأصنام إليه
بعديتهم؟! أهـ.

وقال ابن الجوزي^(٢) بنحو ما تقدم
وقال الفخر الرازي^(٣).

قوله تعالى ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ
اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾.

وقد علم وجه تعلقها بما قبلها في الوجوه المتقدمة في قوله تعالى ﴿فَاللَّهُ الْآخِرَةُ﴾ إن
قلنا إن معناه أن اللات والعزى وغيرهما ليس لهم من الأمر شيء ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ
وَالأُولَى﴾ فلا يجوز إشراكهم فيقولون نحن لانشرک بالله شيئاً، وإنما نقول هؤلاء
شفعاؤنا. فقال كيف تشفع هذه ومن في السموات لا يملك الشفاعة، وفيه مسائل.

المسألة الأولى : كم كلمة تستعمل في المقادير، إما لاستبانته فتكون استفهامية
كقولك كم ذراعاً طوله وكم رجلاً جاءك أى كم عدد الجائين تستبين المقدار وهى مثل
كيف لاستبانة الأحوال وأى لاستبانة الأفراد، وما لاستبانة الحقائق، وإما لبيانها على
الإجمال فتكون خبرية كقولك كم رجل أكرمنى أى كثير منهم أكرموني غير أن عليه
أسئلة (الأول) لِمَ لَمْ يَجْزِ إِدْخَالُ مَنْ عَلَى الْإِسْتِفْهَامِيَةِ وَجَازَ عَلَى الْخَبَرِيَةِ.

(١) الكشف (٤٠ / ٤).

(٢) زاد المسير (٧ / ٢٨٠).

(٣) التفسير الكبير (١٤ / ٢٨٠ ٦ - ٣ - ٨).

(الثانى) لم نصب مميز الاستفهامية وجر الذى للخبرية -

(الثالث) هى تستعمل فى الخبرية فى مقابلة رب فلم جعل اسماً مع أن رب حرف .
أما الجواب عن الأول فهو أن من تستعمل فى الموضع المتعين بالإضافة تقول خاتم من فضة كما تقول خاتم فضة ، وللم تضيف فى الاستفهامية لم يجوز استعمال ما يضاهيه وسنين هذا الجواب .

والجواب عن السؤال الثانى: هو أن نقول إن الأصل فى المميز الإضافة .

وعن الثالث: هو أن كم يدخل عليه حرف الجر فتقول إلى كم تبصر ، وفى كم يوم جئت ، وبكم رجل مررت ومن حيث المعنى إن كم إذا قرن بها من وجعل مميزه جمعاً كما فى قول القائل كم من رجال خدمتهم ويكون معناه كثير من الرجال خدمتهم ورب وإن كانت للتقليل لكن لا تقوم مقام القليل ، فلا يمكن أن يقال فى رب إنها عبارة عن قليل كما قلنا فى كم إنه عبارة عن كثير .

المسألة الثانية: قال شفاعتهم على عود الضمير إلى المعنى ، ولو قال شفاعته لكان العود إلى اللفظ فيجوز أن يقال كم من رجل رأيته ، وكم من رجل رأيته ، فإن قلت هل بينهما فرق معنوى؟

قلت نعم ، وهو أنه تعالى لما قال ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ يعنى شفاعة الكل ، ولو قال شفاعته لكان معناه كثير من الملائكة كل واحد لا تغنى شفاعته فربما كان يخطر ببال أحد أن شفاعتهم تغنى إذا جمعت ، وعلى هذا ففى الكلام أمور كلها تشير إلى عظم الأمر (أحدها) كم فإنه للتكثير .

(ثانياً) لفظ الملك فإنه أشرف أجناس المخلوقات .

(ثالثها) فى السموات فإنها إشارة إلى علو منزلتهم ودنو مرتبتهم من مقر السعادة .
(رابعها) اجتماعهم على الأمر فى قوله ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ وكل ذلك لبيان فساد قولهم إن الأصنام يشفعون أى كيف تشفع مع حقارتها وضعفها ودناءة منزلتها فإن الجماد أخس الأجناس والملائكة أشرفها وهم فى أعلى السموات ولا تقبل شفاعة الملائكة فكيف تقبل شفاعة الجمادات؟!

المسألة الثالثة: ما الفائدة فى قوله تعالى ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ بمعنى كثير من الملائكة مع أن كل من فى السموات منهم لا يملك الشفاعة؟

تقول المقصود الرد عليهم فى قولهم هذه الأصنام تشفع، وذلك لا يحصل بيان أن ملكا من الملائكة لا تقبل شفاعته فاكفى بذكر الكثيرة، ولم يقل ما منهم أحد يملك الشفاعة لأنه أقرب إلى المنازعة فيه من قوله كثير مع أن المقصود حاصل به، ثم ههنا بحث وهو أن فى بعض الصور يستعمل صيغة العموم والمراد الكثير، وفى البعض يستعمل الكثير والمراد الكل وكلاهما على طريقة واحدة، وهو استقلال الباقي وعدم الاعتداد، ففى قوله تعالى ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كأنه يجعل الخارج عن الحكم غير ملتفت إليه، وفى قوله تعالى ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ﴾ وقوله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ يجعل المخرج غير ملتفت إليه فيجعل كأنه ما أخرجه كالأمر الخارج عن الحكم كأنه ما خرج، وذلك يختلف باختلاف المقصود من الكلام، فإن كان الكلام مذكوراً لأمر فيه يبالغ يستعمل الكل.

مثاله: يقال للملك كل الناس يدعون لك إذا كان الغرض بيان كثرة الدعاء له لا غير، وإن كان الكلام مذكراً لأمر خارج عنه لا يبالغ فيه لأن المقصود غيره فلا يستعمل الكل.

مثاله: إذا قال الملك لمن قال له اغتئم دعائى كثير من الناس يدعون لى، إشارة إلى عدم احتياجه إلى دعائه لا لبيان كثرة الدعاء له، فكذلك ههنا.

المسألة الرابعة: قال ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ ولم يقل لا يشفعون مع أن دعواهم أن هؤلاء شفاعونا لا أن شفاعتهم تنفع أو تغنى وقال تعالى فى مواضع أخرى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فنفى الشفاعة بدون الإذن وقال ﴿مَالِهِمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ نفى الشفيع وههنا نفى الإغناء؟

نقول هم كانوا يقولون هؤلاء شفاعونا وكانوا يعتقدون نفع شفاعتهم، كما قال تعالى ﴿لِيَقْرَبُونَا إِلَى اللَّهِ زَلْفَى﴾ ثم نقول نفى دعواهم يشتمل على فائدة عظيمة، أما نفى دعواهم لأنهم قالوا الأصنام تشفع لنا شفاعاة مقربة مغنية فقال ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ بدليل أن شفاعاة الملائكة لا تغنى، وأما الفائدة فلأنه لما استثنى بقوله ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ أى فيشفع ولكن لا يكون فيه بيان أنها تقبل وتغنى أولاً تقبل، فإذا قال ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ ثم قال ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ فيكون معناه تغنى فيحصل البشارة،

لأنه تعالى قال ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقال تعالى ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ والاستغفار شفاعه.

وأما قوله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ليس المراد نفى الشفاعه وقبولها كما فى هذه الآية حيث رد عليهم قولهم وإنما المراد عظمة الله تعالى، وأنه لا ينطق فى حضرته أحد ولا يتكلم كما فى قوله تعالى ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

المسألة الخامسة: اللام فى قوله ﴿لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ تحمل وجهين:

(أحدهما) أن تتعلق بالإذن وهو على طريقين.

(أحدهما) أن يقال ﴿إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من الملائكة فى الشفاعه لمن يشاء الشفاعه ويرضى.

(الثانى) أن يكون الإذن فى المشفوع له لأن الإذن حاصل للكل فى الشفاعه للمؤمنين لأنهم جميعهم يستغفرون لهم فلا معنى للتخصيص، ويمكن أن ينزع فيه.

(وثانيهما) أن تتعلق بالإغناء يعنى إلا من بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعه فتغنى شفاعتهم لمن يشاء ويمكن أن يقال بأن هذا بعيد، لأن ذلك يقتضى أن تشفع الملائكة، والإغناء لا يحصل إلا لمن يشاء، فيجاب عنه بأن التنبيه على معنى عظمة الله تعالى فإن الملك إذا شفع فالله تعالى على مشيئته بعد شفاعتهم يغفر لمن يشاء.

المسألة السادسة: ما الفائدة فى قوله تعالى ﴿وَيَرْضَى﴾؟

نقول فيه فائدة الإرشاد، وذلك لأنه لما قال ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ كان المكلف متردداً لا يعلم مشيئته فقال ﴿وَيَرْضَى﴾ ليعلم أنه العابد الشاكر لا المعاند الكافر، فإنه تعالى قال ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَى عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فكأنه قال ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ثم قال ﴿وَيَرْضَى﴾ بياناً لمن يشاء، وجواب آخر على قولنا: لا تغنى شفاعتهم شيئاً ممن يشاء، هو أن فاعل يرضى المدلول عليه لمن يشاء كأنه قال ويرضى هو أى تغنيه الشفاعه شيئاً صالحاً فيحصل به رضاه كما قال ﴿وَيَرْضَى﴾ هو أن تغنيه الشفاعه وحيث أن يكون يرضى للبيان لأنه لما قال ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ﴾ إشارة إلى نفى كل قليل وكثير كان اللازم عنده بالاستثناء، أن شفاعتهم تغنى شيئاً ولو كان قليلاً ويرضى

المشفوع له ليعلم أنها تغنى أكثر من اللازم بالاستثناء ويمكن أن يقال ﴿وَيَرْضَى﴾ لتبين أن قوله ﴿يَشَاءُ﴾ ليس المراد المشيئة التى هى الرضا، فإن الله تعالى إذا شاء الضلالة بعد لم يرض به، وإذا شاء الهداية رضى فقال ﴿لَمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ ليعلم أن المشيئة ليست هى المشيئة العامة، إنما هى الخاصة. اهـ.

[قلت] وقوله ﴿يَشَاءُ﴾ ليس المراد المشيئة. . إلخ

وهذا فيه شيء من التأويل، والإخبار بالمشيئة على ظاهره فلا تؤول ولا تعطل ولا تكيف. والله الهادى إلى سواء السبيل

- وقال القرطبي^(١): بنحو مما تقدم، وقال، (كم) تدل على الجمع. اهـ

وقال ابن كثير^(٢): فإذا كان هذا فى حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله وهو تعالى لم يشرع عبادتها، ولا أذن فيها بل قد نهى عنها على السنة جميع الرسل، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه؟! اهـ

- وقال الشوكانى^(٣) بنحو من الأقوال السابقة

ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية:

- قال سليمان آل الشيخ^(٤):-

قال أبو حيان: كم خبرية ومعناها التكثير وهى فى موضع رفع بالابتداء والخبر لا تغنى. والغناء جلب النفع ودفع الضرر بحسب الأمر الذى يكون فيه الغنى. وكم: لفظها مفرد، ومعناها جمع. وإذا كانت الملائكة المقربون لا تغنى شفاعتهم إلا بعد إذن الله ورضاه أن يرضاه أهلاً للشفاعة، فكيف تشفع الأصنام لمن عبدها؟!

قلت - سليمان الشيخ -: فى هذه الآيات من الرد على من عبد الملائكة والصالحين لشفاعة أو غيرها ما لا يخفى، لأنهم إذا كانوا لا يشفعون إلا بإذن من الله ابتداء، فلا معنى يدعون ويعبدون؟ وأيضاً فإن الله لا يأذن إلا لمن ارتضى قوله وعمله، وهو الموحّد لا المشرك كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ والله لا يرتضى إلا التوحيد كما قال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. اهـ.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٢٤٦).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٦-٢٠).

(١) تفسير القرطبي (٩/٦٢٧٤).

(٣) فتح القدير (٥/١٠٩).

- وتابعه على ذلك باقى الشراح

- وقال ابن باز^(١): فين سبحانه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأنهم لا يشفعون إلا لمن أرتضى، وأن الملائكة لا تملك إذناً فى الشفاعة بل يملكها الله وحده ، فإذا كان هذا حال الملائكة والأنبياء والرسل لا يشفعون إلا بعد الإذن والرضا عن المشفوع فغيرهم من الصالحين والأطفال والأفراد من باب أولى . أهـ.

- وقال ابن عثيمين^(٢): فللشفاعة شرطان هما:

(١) الإذن من الله (٢) رضاه عن الشافع والمشفوع له . إلى أن قال: وهذه الآية فى سياق بيان بطلان ألوهية اللات والعزى وقال تعالى بعد ذكر المعراج وما حصل للنبي ﷺ فيه (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أى العلامات الدالة عليه عز وجل، فكيف به سبحانه؟! فهو أكبر وأعظم ثم قال: فإذا كانت الملائكة وهى فى السماوات فى العلو لا تغنى شفاعتهم إلا بعد إذنه تعالى ورضاه فكيف باللات والعزى وهى فى الأرض؟! ولهذا قال ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ مع أن الملائكة تكون فى السموات وفى الأرض، ولكن أراد الملائكة التى فى السموات العلى وهى عند الله سبحانه، فحتى الملائكة المقربون حملة العرش لا تغنى شفاعتهم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . أهـ.

قلت: وهذا القول قريب من قول الزمخشري المتقدم

- فبينت الآية شرطية الشفاعة، فما هى موانعها؟

موانع الشفاعة

[١] عدم الرضى عن الشافع

فقد يكون الشافع موحداً لكن لا يرضى الله بعض قوله أو عمله كما ثبت فى صحيح مسلم رحمه الله عن أبى الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة»^(٣).

لذلك قال ابن القيم: ولا يأذن فى الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله كما قال فى الفصل الأول «من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه» الآية وفى الثانى «ولا يشفعون الا لمن ارتضى» الآية.

(١) التعليق (١٠٤، ١٠٥)

(٢) القول المفيد (١/٤٣١، ٤٣٢).

(٣) سيأتى

وقوله: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَتَفَعُّ الشِّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (١).

[٢] عدم الإذن له

فقد يكون العبد موحداً مرضياً عنه لكن لا يؤذن له.
يستدل لذلك بأن الصحابة جميعاً رضى الله عنهم ورضوا عنه.
ولم يثبت أنهم جميعاً شفعاً.
(من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه).

ومن الموانع العامة للشفاعة أيضاً

[٣] - التكذيب بالشفاعة

أخرج الإمام الأجرى رحمه الله فى الشريعة عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: من كذب بالشفاعة فليس له فيها نصيب (٢).

وتقدم فى النوع الرابع من شفاعته ﷺ قول أبى بكر - ابن أبى عاصم - أن منكر الشفاعة كافر

الموانع الخاصة وهى ترك الأسباب الخاصة للشفاعة الخاصة.

قوله: [وقوله: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾].

● مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى (٣): حيث دلت الآية على نفى الشفاعة عن كل مخلوق إلا بشرطين: إذن الله للشافع. ورضاه عن المشفوع له. أ.هـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٤): حيث دلت الآية على أن الشفاعة لا تنال إلا بعد إذن الله ورضاه فدل على أنها ملك لله وطلبها من غير الله شرك أكبر ومن ذلك طلبها من الأوثان التى زعموا أنهم يعبدونها لأجل الشفاعة. أ.هـ.

الإعراب (٥): ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قل فعل أمر مبنى على

(١) سبأ (٢٢-٢٣)

(٢) قال الحافظ فى الفتح ١١ / ٤٢٦: وأخرج سعيد بن منصور بسند صحيح عن أنس فذكره.

(٥) إعراب القرآن (٨/ ٨٦-٨٨).

(٣) (٤) الجديد (١٦٢، ١٦٣).

السكون وحرك بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين وجملة (ادعوا الذين) مقول القول وجملة (زعمتم) صلة (ومن دون الله) صفة للمفعول الثانى المحذوف والمفعول الأول محذوف أيضاً تقديره زعمتمهم آلهة فحذف الأول لطول الموصول بصلته وحذف الثانى لقيام صفته، أعنى من دون الله مقامه. وهذا من أعجب الكلام وأركده ونحن ننقل لك عبارة الزمخشري بنصها فى هذا الصدد قال: «فإن قلت أين مفعولا زعم؟

قلت: أحدهما الضمير المحذوف الراجع منه إلى الموصول وأما الثانى فلا يخلو إما أن يكون من دون الله أو لا يملكون أو محذوفاً فلا يصح الأول لأن قولك هم من دون الله لا يلتزم كلاماً ولا الثانى لأنهم ما كانوا يزعمون ذلك فكيف يتكلمون بما هو حجة عليهم وبما لو قالوه قالوا ما هو حق وتوحيد فبقى أن يكون محذوفاً تقديره: زعمتمهم آلهة من دون الله فحذف الراجع إلى الموصول كما حذف فى قوله: (أهذا الذى بعث الله رسولا) استخفافاً لطول الموصول بصلته وحذف آلهة لأنه موصوف صفته من دون الله والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهوماً فإذا مفعولا زعم محذوفان جميعاً بسببين مختلفين».

«لا يملكون مثقال ذرة فى السموت ولا فى الأرض» الجملة حال من الذين زعمتمهم آلهة ولك أن تجعلها مستأنفة مسوقة لبيان حالهم (ولا) نافية (ويملكون) فعل مضارع وفاعل (ومثقال ذرة) مفعول به (وفى السموات والأرض) متعلقان (بيملكون) أو بمحذوف حال. «وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير» (الواو) عاطفة (وما) نافية (ولهم) خبر مقدم (وفيهما) حال (ومن) حرف جر زائد (وشرك) مجروراً لفظاً مرفوع محلاً على أنه مبتدأ مؤخر أو اسم ما على رأى من يجيز تقدم خبرها على اسمها (والواو) عاطفة أيضاً (وما) نافية (وله) خبر مقدم (ومنهم) حال (ومن ظهير) مبتدأ مؤخر.

(ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) الكلام مستأنف مسوق لبيان المصير الذى لاتنفع فيه شفاعة الشافعين إلا لمن سبق القلم بالإذن له، ولا نافية، (واتنفع الشفاعة) فعل مضارع وفاعل (وعنده) ظرف متعلق (بتنفع) أو بمحذوف حال، وإلا أداة حصر ولن متعلقان بالشفاعة إذ يقال شفعت له أو بتنفع.

وللزمخشري بحث لطيف فى متعلق هذه اللام نوره بنصه قال: «تقول الشفاعة لزيد على معنى أنه الشافع كما تقول: الكرم لزيد على معنى أنه المشفوع له كما تقول: القيام لزيد فاحتمل قوله: ولاتنفع الشفاعة إلا لمن أذن له أن يكون على أحد هذين الوجهين أى لاتنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له من الشافعين ومطلقة له أولاً تنفع الشفاعة إلا كائنة لمن أذن له أى لشفيعه أو هى اللام الثانية فى قولك: أذن لزيد لعمرو أى لأجله،

وكأنه قيل: إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله، وهذا وجه لطيف وهو الوجه». (وأذن) فعل ماض مبنى للمعلوم والفاعل مستتر يعود على الله، وله متعلقان بأذن وقرئ أذن بالبناء للمجهول. اهـ.

● ما جاء من كلام المفسرين فى الآية:

- قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره: ولاتنفع شفاعة شافع كائناً من كان لمن شفع له إلا أن يشفع لمن أذن الله فى الشفاعة يقول تعالى فإذا كانت الشفاعات لاتنفع عند الله أحداً إلا لمن أذن الله فى الشفاعة له، والله لا يأذن لأحد من أوليائه فى الشفاعة لأحد من الكفرة به، وأنتم أهل كفر به أيها المشركون، فكيف تعبدون من تعبدونه من دون الله زعماً منكم أنكم تعبدونه ليقربونكم إلى الله زلفى، وليشفع لكم عند ربكم فمن إذ كان هذا معنى الكلام فى قوله إلا لمن أذن له المشفوع له. اهـ.

- قال البغوى^(٢): (ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) الله فى الشفاعة، قاله تكذيباً لهم حيث قالوا: هؤلاء شفعائنا عند الله، ويجوز أن يكون المعنى إلا لمن أذن الله له أن يشفع له، وقرأ أبو عمرو وحزمة والكسائى (أذن) بضم الهمزة. اهـ.

- وقال القرطبى^(٣): (ولاتنفع الشفاعة) أى شفاعة الملائكة وغيرهم. اهـ.

وبنحو مما تقدم قال به باقى المفسرين. والله المستعان.

قال سليمان آل الشيخ: هذه الآية هى التى قال فيها بعض العلماء: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب لمن عقلها.

قال ابن القيم فى الكلام عليها: وقد قطع الله الأسباب التى يتعلق بها المشركون جميعها قطعاً، يعلم من تأمله وعرفه أن من اتخذ من دون الله ولياً فمثله: ﴿كَمَثَلِ الْعَنَكُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكُوتِ﴾ فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا لمن يكون فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده، فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً متقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التى يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهى الشفاعة بإذنه،

(٢) معالم التنزيل (٤/٥٠٦).

(١) تفسير الطبرى (١٠/٢١/٦٢).

(٣) تفسير القرطبى (٨/٥٣٧٧).

قال: فهو الذى يأذن للشافع، وإن لم يأذن له لم يتقدم فى الشفاعة بين يديه كما يكون فى حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها، وأما كل ما سواه فقير إليه بذاته وهو الغنى بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بدون إذنه؟

فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً ونجاة وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له ويظنه فى نوع، وقوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً، وهذا الذى يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم وشر منهم ودونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك.

ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما دعا به القرآن وذمه، وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوبه وحسنه، وهو لا يعرف أنه الذى كان عليه الجاهلية، أو نظيره أو شر منه أو دونه، فتتقضى بذلك عرى الإسلام، ويعود المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والبدعة سنةً والسنة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حى يرى ذلك عياناً، فالله المستعان.

وقال الله تعالى حاكياً عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (١) فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً يزعم أنه يقربه إلى الله تعالى. وما أعز من يخلص من هذا بل ما أعز من يعادى من أنكره. والذى فى قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم أن ألتهتم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك. وقد أنكره الله عليهم فى كتابه، وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد. إلا لمن أذن الله تعالى أن يشفع له فيه، ورضى قوله وعمله. وهم أهل التوحيد الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء، فإنه سبحانه وتعالى يأذن فى الشفاعة فيهم لمن يشاء، حيث لم يتخذوهم شفعاء من دونه؛ فيكون أسعد الناس بشفاعته من يأذن الله

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

تعالى له، صاحب التوحيد الذى لم يتخذ شفعياً من دون الله. والشفاعة التى أثبتها الله تعالى ورسوله ﷺ هى الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده التى نفاه الله تعالى هى الشفاعة الشركية التى فى قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاء، فيعاملون بنقيض مقصودهم من شفاعتهم، ويفوز بها الموحدون. انتهى. أى كلام ابن القيم.

ولكن تأمل الآية كيف أمرهم تعالى بدعاء الملائكة أمر تعجيز، والمراد بيان أنهم لا يملكون شيئاً، فلا يدعون لا لشفاعة ولا غيرها، ثم أخبر أنهم هم الذين اتخذوهم بزعمتهم شفعاء فنسبه إلى زعمهم وإفكهم الذى ابتدعوه من غير برهان ولا حجة من الله.

وهذه الآية نزلت فى دعوة الملائكة، ودخول غيرهم فيها من باب الأولى، كما روى ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾^(١) يقول: من عون من الملائكة. وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾^(٢) فإذا كان اتخاذ الملائكة شفعاء من دون الله شركاً، فكيف باتخاذ الأموات كما يفعله عباد القبور؟ أم كيف باتخاذ الفجار والفساق إخوان الشياطين من المجازيب الذين جذبهم إبليس إلى جانب طاعته شفعاء؟

وأعظم من ذلك اعتقاد الربوبية فى هؤلاء الملعين مع ما يشاهده الناس منهم من الفجور، وأنواع الفسوق، وترك الصلوات، وفعل المنكرات، والمشى فى الأسواق عراة.

كما قال بعض المتأخرين:

كقوم عراة فى ذرى مضر ما	على عورة منهم هناك ثياب
يدورون فيها كاشفين لعورة	تواتر هذا لا يقال كذاب
يعدونهم فى مصر هم فضلاءهم	دعائهم فيما يرون مجاب

ومن العجب أنهم لم يأتوا بشيء يدل على كون هؤلاء الشياطين من جملة المسلمين، فضلاً عن كونهم أولياء، فضلاً عن كونهم يدعون ويستغاث بهم، إلا بشيء من المخاريق والسحر والشعبذة، يدعون أن لهم كرامات، وأنهم أولياء لما يظهرونه من المخاريق.

(١) سورة سبأ : ٢٢

قال أبو العباس: «نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب؛ كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(١). فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة؛ كما نفاها القرآن. وأخبر النبي ﷺ: «أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده - لا يبدؤ بالشفاعة أولاً - ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع»^(*).

واعلم أن الضلال والكفر إنما استولى على أكثر المتأخرين بسبب نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، وإحسان الظن بمن سحرهم، ودعا إلى نفسه، واقتصارهم على القوانين والدعاوى والأوضاع التي وضعوها لأنفسهم، وإلا فلو قرأوا كتاب الله، وعلموا بما فيه، ورجعوا عند الاختلاف إليه لوجدوا فيه الهدى والشفاء والنور ولكن نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبفس ما يشترون وتقدم الكلام على بقية الآية اهـ.



قوله: قال أبو العباس: «نفى الله عما سواه... الخ»
قال سليمان آل الشيخ^(**): قوله: (قال أبو العباس) هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبد السلام بن تيمية، الإمام المشهور، صاحب «المصنفات» شهرته وإمامته في علوم الإسلام وتفننه تغنى عن الإطناب في وصفه. قال الذهبي: لم يأت قبله بمائة سنة مثله، وفي رواية: بأربع مائة. وقال أيضاً: لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أنى لم أر مثله، وما رأى بعينه مثل نفسه رحمه الله.
وقال ابن دقيق العيد: لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه، يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء. وبالجمله فما أتى بعد عصر الإمام أحمد له نظير، وكانت وفاته سنة ثمان وعشرين وسبع مائة).

قوله: (نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون) أى أن الله تعالى نفى في الآية المذكورة كل ما يتعلق به المشركون من الاعتقاد في غير الله من الملك والشركة فيه والمعاونة والشفاعة؛ فهذه الأمور الأربعة هي التي يتعلق بها المشركون.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(*) جزء من حديث طويل.

(**) تيسير العزيز الحميد (١١٢ - ٢١٩).

قوله: (فنفى أن يكون لغيره ملك)، وذلك فى قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(١) ومن لا يملك هذا المقدار فليس بأهل أن يدعى.

قوله: (أو قسط منه). أى من الملك، والقسط - بكسر القاف - هو النصيب من الشيء، وذلك فى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ﴾ أى ما لمن تدعون من الملائكة وغيرهم فيها، أى فى السموات والأرض من شرك ومن ليس بمالك ولا شريك للمالك فكيف يدعى من دون الله؟

قوله: (أو أن يكون عوناً لله) وذلك فى قوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ أى ما لله ممن تدعونهم معين.

قوله: (ولم يبق إلا الشفاعة، فتبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب.. إلخ) جملة الشروط التى لابد وأن يكون أحدها فى المدعو، أربعة حتى يقدر على إجابة من دعه.

الأول: الملك، فنفاه بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

الثانى: إذا لم يكن مالكاً فيكون شريكاً للمالك، فنفاه بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ﴾.

الثالث: إذا لم يكن مالكاً ولا شريكاً للمالك فيكون عوناً ووزيراً فنفاه بقوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾.

الرابع: إذا لم يكن مالكاً ولا شريكاً ولا عوناً فيكون شقيقاً، فنفى سبحانه وتعالى الشفاعة إلا بإذنه، فهو الذى يأذن للشافع ابتداءً فيشفع.

فبنفى هذه الأمور بطلت دعوة غير الله، إذ ليس عند غيره من النفع والضرر ما يوجب قصده بشيء من العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون^(٣).

(١) سورة سبأ الآية: ٢٢. (٢) الفرقان: ١٣.

(٣) يس: ٧٤.

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ (١).

قال ابن عثيمين (٢): فيبين أنها لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ وقال ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ومعلوم أنه لا يرضى هذه الأصنام لأنها باطلة، وحيث فتكون شفاعتها منتفية.

واعلم أن شرك المشركين في السابق كان في عبادة الأصنام، أما الآن، فهو في طاعة المخلوق في المعصية، فإن هؤلاء يقدسون زعماءهم أكثر من تقديس الله إن أقروا به، فيقال لهم: إنهم بشر مثلكم، خرجوا من مخرج البول والحيض، وليس لهم شرك في السماوات ولا في الأرض، ولا يملكون الشفاعة لكم عند الله، إذا، فكيف تتعلقون بهم؟! حتى إن الواحد منهم يركع لرئيسه أو يسجد له كما يسجد لرب العالمين.

والواجب علينا نحو ولادة الأمور طاعتهم، وطاعتهم من طاعة الله، وليست استقلالاً، أما عبادتهم كعبادة الله، فهذه جاهلية وكفر.

قوله: (فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون. هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن).

يعنى أن الشفاعة التي يطلبها المشركون من الشفعاء والأنداد من دون الله منتفية دنيا وأخرى، كما قال تعالى عن مؤمن يس: ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّدْ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣) وقال تعالى: عن مؤمن آل فرعون: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا نَصْرَ لَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (٦).

(١) الفرقان: ٥٥ (٢) القول المفيد (١/٤٣٦، ٤٣٧).

(٣) سورة يس، الآيات: ٢٣، ٢٤.

(٤) سورة غافر الآية: ٤٣.

(٥) سورة الأحقاف الآية: ٢٨.

(٦) سورة هود، الآية: ١٠١.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ (٢) فهذه حال كل من دعى من دون الله لشفاعته أو غيرها في الدنيا والآخرة.

قوله: (وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولاً.. إلى آخره).

هذا ثابت في «الصحيحين» (*) وغيرهما من حديث أنس وغيره عنه ﷺ في حديث الشفاعة قال: «فَأَقُومُ فَأُمْسِي بَيْنَ سَمَاطَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ عَلَى رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ لَهُ، أَوْ خَرَرْتُ سَاجِدًا لِرَبِّي فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعَنِي ثُمَّ قَالَ: أَرْفَعُ مُحَمَّدًا، قُلْ تَسْمَعُ، وَأَشْفَعُ تُشْفَعُ، وَسَلِّ تَعْطُهُ فَأَرْفَعُ رَأْسَ فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدِ يَعْلَمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ، أَوْ خَرَرْتُ سَاجِدًا لِرَبِّي فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعَنِي، ثُمَّ يَقُولُ: أَرْفَعُ مُحَمَّدًا، قُلْ يَسْمَعُ [وَسَلِّ] تَعْطُهُ، وَأَشْفَعُ تُشْفَعُ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدِ يَعْلَمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ، أَوْ خَرَرْتُ سَاجِدًا لِرَبِّي، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعَنِي ثُمَّ يُقَالُ: أَرْفَعُ مُحَمَّدًا، قُلْ يَسْمَعُ، وَسَلِّ تَعْطُهُ، وَأَشْفَعُ تُشْفَعُ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدِ يَعْلَمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مَا بَقِيَ إِلَّا مِنْ حِسْبَةِ الْقُرْآنِ»... الحديث.

فبين ﷺ أنه لا يشفع إلا بعد الإذن في الشفاعة وفي المشفوع فيهم، كما قال: «فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ».

قوله: (وقال أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك إلى آخره). هذا الحديث رواه البخاري ومسلم والنسائي.

وعن أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلَ مِنْكَ، لِمَا

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٤.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

(*) تقدم وهو في الصحيحين. بغير هذا اللفظ.

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ لَهُ ﷺ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ» (١) فَنِلَكَ الشَّفَاعَةَ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَدْنَى لَهُ أَنْ يَشْفَعَ لِكُرْمِهِ، وَيَنَالُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ. فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَّاهَا الْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ.

رَأَيْتُ مِنْ حَرَصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصاً مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ»

وَفِي رَوَايَةٍ: «خَالِصاً مُخْلِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ، وَفِيهِ: «وَشَفَاعَتِي لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصاً، يُصَدِّقُ قَلْبُهُ لِسَانَهُ وَلِسَانُهُ قَلْبُهُ» قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: فَجَعَلَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ أَكْمَلَهُمْ إِخْلَاصاً.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَعْنَى حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: تَأَمَّلْ هَذَا الْحَدِيثَ كَيْفَ جَعَلَ أَعْظَمَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُنَالُ بِهَا شَفَاعَتُهُ تَجْرِيدَ التَّوْحِيدِ، عَكْسَ مَا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ تَنَالُ بِاتِّخَاذِهِمْ [أَوْلِيَائِهِمْ] شَفْعَاءَ وَعِبَادَتِهِمْ وَمَوَالِيَتِهِمْ [مَنْ دُونَ اللَّهِ]، فَقَلَبَ النَّبِيُّ ﷺ مَا فِي زَعْمِهِمُ الْكَاذِبَ، وَأَخْبَرَ أَنَّ سَبَبَ الشَّفَاعَةِ تَجْرِيدَ التَّوْحِيدِ، فَحَيْثُذَ يَأْذَنُ اللَّهُ لِلشَّافِعِ أَنْ يَشْفَعَ.

وَمَنْ جَهِلَ الْمُشْرِكُ اعْتِقَادَهُ أَنَّ مَنْ اتَّخَذَهُ وَلِيًّا أَوْ شَفِيعاً أَنَّهُ يَشْفَعُ لَهُ وَيَنْفَعُهُ عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا يَكُونُ خَوَاصُ الْوَلَاةِ وَالْمَمْلُوكِ تَنْفَعُ مَنْ وَالَاهُمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فِي الشَّفَاعَةِ، وَلَا يَأْذَنُ فِي الشَّفَاعَةِ إِلَّا لِمَنْ رَضِيَ قَوْلُهُ وَعَمَلُهُ، كَمَا قَالَ فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وَفِي الْفَصْلِ الثَّانِي: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ وَبَقِيَ فَصْلُ ثَالِثٍ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ إِلَّا تَوْحِيدَهُ وَاتِّبَاعَ رَسُولِهِ ﷺ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ فُصُولٍ تَقْطَعُ شَجَرَةَ الشَّرْكِ مِنْ قَلْبِ مَنْ عَقَلَهَا وَوَعَاهَا. اهـ.

قَوْلُهُ: «مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ» لَعَلَّ أَبَا هُرَيْرَةَ سَثَلَ عَنْ ذَلِكَ عِنْدَ تَحْدِيثِهِ لَهُ - ﷺ - وَأُرِيدَ أَنْ اخْتَبَى دَعْوَتِي شَفَاعَةً لَامِتِي فِي الْآخِرَةِ.

وقوله: «أسعد».

قال ابن حجر: ومعنى قوله فى معنى «أسعد» الفعل لا أنها أفعل التفضيل أى سعيد الناس، كقوله تعالى: «وأحسن مقيلاً» ويحتمل أن يكون أفعل التفضيل على بابها، وأن كل أحد يحصل له سعد بشفاعته، لكن المؤمن المخلص أكثر سعادة بها، فإنه - ﷺ - يشفع فى الخلق لإراحتهم من هول الموقف، ويشفع فى بعض الكفار بتخفيف العذاب كما صح فى حق أبى طالب، ويشفع فى بعض المؤمنين بالخروج من النار بعد أن دخلوها، وفى بعضهم بعدم دخولها بعد أن استوجبوا دخولها، وفى بعضهم بدخول الجنة بغير حساب، وفى بعضهم برفع الدرجات فيها، فظهر الاشتراك فى السعادة بالشفاعة وأن أسعدهم بها المؤمن المخلص^(١): والله أعلم. اهـ.

[قلت] وتقدم تقسيم شفاعته ﷺ إلى أقسام فراجعها.

وقال فى موضع آخر^(٢): والحاصل أن فى قوله: «أسعد» إشارة إلى اختلاف مراتبهم فى السبق إلى الدخول باختلاف مراتبهم فى الإخلاص، ولذلك أكده بقوله: «من قلبه» مع أن الإخلاص محله القلب، لكن إسناد الفعل إلى الجارحة أبلغ فى التأكيد، وبهذا التقرير يظهر موقع قوله: «أسعد» وأنها على بابها من التفضيل، ولا حاجة إلى قول بعض الشراح الأسعد هنا بمعنى السعيد لكون الكل يشتركون فى شرطية الإخلاص، لأننا نقول يشتركون فيه لكن مراتبهم فيه متفاوتة.

وقال البيضاوى: يحتمل أن يكون المراد من ليس له عمل يستحق به الرحمة والإخلاص، لأن احتياجه إلى الشفاعة أكثر وانتفاعه بها أوفى والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ: وقال فى الحديث الصحيح: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ لى الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ شَفَاعَتى يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣) ولم يقل: كان أسعد الناس بشفاعتى، فعلم أننا يحصل للعبد بالتوحيد والإخلاص من شفاعَةِ الرسول ﷺ وغيرها ما لا يحصل بغيره من الأعمال، وإن كان صالحاً لسؤال الوسيلة للرسول ﷺ، فكيف بما لم يأمر به من الأعمال، بل نهى عنه، فذلك لا ينال به خير لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، مثل غلو النصارى فى المسيح، فإنه يضرهم ولا ينفعهم.

ونظير هذا فى «الصحيح» عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِ اخْتَبَأْتُ دَعْوَتى شَفَاعَةٌ لَأُمْتى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ مَاتَ مِنْ أُمْتى لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً» وكذلك فى أحاديث الشفاعة كلها إنما يشفع فى أهل التوحيد،

(٢) فتح البارى (١١/٤٥١).

(١) الفتح ١/٢٣٤ ح ٩٩.

(٣) تقدم.

فبحسب توحيد العبد لربه، وإخلاصه دينه لله تعالى يستحق كرامة الله بالشفاعة وغيرها وقال ابن القيم ما معناه: تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التى تنال به شفاعته تجريد التوحيد عكس ما عند المشركين من أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم من دون الله فقلب النبي ﷺ ما فى زعمهم الكاذب وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحيث يأذن الله للشافع أن يشفع.

قوله: وحقيقته. أى حقيقة الأمر، أى أمر الشفاعة أن الله سبحانه هو الذى يفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود. فهذا هو حقيقة الشفاعة لا كما يظن المشكون والجهال أن الشفاعة هى كون الشفع يشفع ابتداء فيمن شاء فيدخله الجنة وينجيه من النار ولهذا يسألونها من الأموات وغيرهم إذا زاروهم وذلك أنهم قالوا: إن الميت المعظم الذى لروحه قرب ومزية عند الله لاتزال تأتيه اللطاف من الله وتفيض على روحه الخيرات فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك اللطاف بواسطتها كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له. قالوا: فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت ويعكف بهمته عليه ويوجه قصده كله وإقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره وكل ما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به وشفاعته له.

قال ابن القيم: وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا والفارابى وغيرهما وصرح بها عباد الكواكب فى عبادتها وقالوا: إذا تعلقت النفس الناطقة بالأرواح العلوية فاض عليها منها النور. وبهذا السر عُبِدَت الكواكب واتخذت لها الهياكل وصنفت لها الدعوات واتخذت الأصنام المجسدة لها، وهذا بعينه هو الذى أوجب لعباد القبور اتخاذ أعياد وتعليق الستور عليها، وإيقاد السرج عليها، وبناء المساجد عليها، وهو الذى قصد الرسول ﷺ إبطاله ومحوه بالكلمية، وسد الذرائع المفضية إليه؛ فوقف المشركون فى طريقه وناقضوه فى قصده وكان ﷺ فى شق وهؤلاء فى شق.

وهذا الذى ذكره هؤلاء المشركون فى زيارة القبور هو الشفاعة التى ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها، وتشفع لهم عند الله.

قالوا: فإن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله، وتوجه بهمته إليه، وعكف بقلبه عليه، صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله، وشبهوا ذلك بمن يخدم دأ جاء وحظرة وقرب من السلطان؛ فهو شديد التعلق به، فما يحصل لذلك السلطان من الإنعام والإفضال ينال ذلك المتعلق بحسب تعلقه به. فهذا سر عبادة الأصنام وهو الذى بعث الله رسله، وأنزل كتبه بإبطاله وتكفير أصحابه،

ولعنهم، وأباح دماءهم، وأموالهم، وسبى ذراريهم، وأوجب لهم النار، والقرآن من أوله إلى آخره، مملوء من الرد على أهمه وإبطال مذهبهم. انتهى^(١).
قوله: «شفاعتك».

المراد بها بعض أنواع الشفاعة وهى التى يقول - ﷺ - «أمتى أمتى، فيقال له أخرج من النار من كان فى قلبه وزن كذا من الإيمان»، وأسعد الناس بهذه الشفاعة من يكون إيمانه أكمل ممن دونه، وأما الشفاعة العظمى فى الإراحة من قلب الموقف فأسعد الناس بها من يسبق إلى الجنة، وهم الذين يدخلونها بغير حساب ثم الذين يلونهم وهو من يدخلها بغير عذاب، بعد أن يحاسب ويستحق العذاب. ثم من يصيبه لفتح من النار ولا يسقط.

قوله: «من قال لا إله إلا الله».

احتراز من المشرك، والمراد مع قوله «محمد رسول الله» لكن قد يكتفى بالجزء الأول من كلمتى الشهادة لأنه صار شعاراً لمجموعهما.

قوله: «خالصاً» احتراز من المنافق، لأن المنافق يقولها. ولكنها ليست بإخلاص ولا صدق، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

الحكمة من الشفاعة

(١) تفضل من الله على المشفع فيه.

أسند ابن أبى عاصم عن أنس أن نبى الله ﷺ قال: «لَيُصِيبَنَّ أَقْوَاماً سَفَعَ مِنَ النَّارِ عَقُوبَةُ بِذُنُوبٍ أَصَابُوهَا ثُمَّ لِيَدْخُلَهُمُ الْجَنَّةُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ»^(٢).

وأسند أيضاً عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (*) قال: أجورهم يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله قال: الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف فى الدنيا^(٣).

(١) تقدم

(٢) أخرجه ابن أبى عاصم (٨٤٥)، البخارى (٤٦٨/٤).

(*) النساء: ١٧٣.

(٣) أخرجه ابن أبى عاصم (٨٤٦).

(٢) كرامة يظهرها الله للشافع سواء كان نبى أو ملك من الملائكة أو صديق أو شهيد أو حافظ للقرآن أو مؤمن من المؤمنين.

والأحاديث فى ذلك تقدمت.

وأسند ابن أبى عاصم عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ أنه قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يقال: يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة»^(١).

وأسند عن أبى سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان فى قلبه ما يزن شعيرة» فيه كلام طويل^(٢).

قوله: (وينال المقام المحمود). أى المقام الذى يحمد فيه الخلاق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى.

قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل ذلك المقام الذى يقومه ﷺ الشفاعة للناس ليريحهم ربهم مما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

وقال ابن عباس: المقام المحمود مقام الشفاعة. وكذا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد.

وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود.

قوله: (فالشفاعة التى نفاها القرآن ما كان فيها شرك). يعنى أن الشفاعة التى نفاها الله فى القرآن هى الشفاعة التى فيها شرك بالله من دعاء غير الله وعبادته ليشفع له عند الله، فإن الله سبحانه تفى هذه الشفاعة وأخبر أنها لا تكون أبداً، بل أخبر أن ذلك شرك، ونزه نفسه عنه، ونفى أن يكون للمؤمنين ولى أو شفيع من دونه، مع أن الشفاعة يوم القيامة لهم بإذنه، لا للمشركين كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ فنفى سبحانه أن تنفع الشفاعة أحداً إلا من أذن له الرحمن ورضى قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص. وأما المشرك الداعى لغير الله ليشفع له فلا تنفعه الشفاعة، ولا يؤذن لأحد فى الشفاعة فيه. كما قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقِيلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾.

(١) أخرجه ابن أبى عاصم (٨٤٩)، وهو فى مسلم.

(٢) المصدر السابق (٨٥٢)، وهو فى مسلم أيضاً

فيه مسائل

- الأولى: تَفْسِيرُ الآيَاتِ.
- الثانية: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمُنْفِيَةِ.
- الثالثة: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ الْمُثَبَّتَةِ.
- الرابعة: ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ الْكُبْرَى، وَهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ.
- الخامسة: صِفَةُ مَا يَفْعَلُهُ ﷺ أَنَّهُ لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ، بَلْ يَسْجُدُ، فَإِذَا أُذِنَ لَهُ، شَفَعَ.

● تنبيه: مسأله الاستشفاع بالله على خلقه ستأتى وأدلتها وحكمها فى الباب الرابع والستين والله المستعان.

قوله: (وقد بين النبي ﷺ إلى آخره.) تقدم ما يتعلق بذلك والله أعلم.

قوله: [فيه مسائل]:

قال ابن عثيمين:

● الأولى: تفسير الآيات.

وهى خمس، وسبق تفسيرها فى محالها.

● الثانية: صفة الشفاعة المنفية.

وهى ما كان فيها شرك، فكل شفاعة فيها شرك؛ فإنها منفية.

[قلت]: والادلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى عن الظلمة المشركين ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يَطَاعُ﴾.

وقوله تعالى ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾

● الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة.

وهى شفاعة أهل التوحيد بشرط إذن الله تعالى ورضاه عن الشافع.

● الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهى المقام المحمود.

وهى الشفاعة فى أهل الموقف أن يُقضى بينهم، وقول الشيخ: «وهى المقام المحمود»؛ أى منه.

● الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة، بل يسجد، فإذا أذن له؛ شفع.

السادسة : مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِهَا؟

السابعة: أَنَّهَا لَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

الثامنة: بَيَانُ حَقِيقَتِهَا.

كما قال شيخ الإسلام رحمه الله، وهو ظاهر، وهذا يدل على عظمة الرب وكمال أدب النبي ﷺ.

[قلت]: فبين أن الشفاعة لا بد له من عمل هو شرطها فإذا وفى بالشرط بقى الإذن فإذا كان فى حق الرسول فهى حق غيره من باب أولى.

● السادسة: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِهَا؟

هم أهل التوحيد والإخلاص من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه. ولا إله إلا الله معناه: لا معبود حق إلا الله، وليس المعنى: لا معبود إلا الله؛ لأنه لو كان كذلك؛ لكان الواقع يكذب هذا، إذ إنَّ هناك معبودات من دون الله تعبد وتسمى آلهة، ولكنها باطلة، وحيث يتعين أن يكون المراد لا إله حق إلا الله.

ولا إله إلا الله تتضمن نفيًا وإثباتًا، هذا هو التوحيد؛ لأنَّ الإثبات المجرد لا يمنع المشاركة، والنفى المجرد تعطيل محض، فلو قلت: لا إله معناه عطَّلت كل إله، ولو قلت: الله إله ما وُحِّدَتْ؛ لأنَّ مثل هذه الصيغة لاتمنع المشاركة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَالْهُكْمُ لِلَّهِ وَاحِدٍ﴾^(١) لما جاء الإثبات فقط أكده بقوله: واحد.

قلت: ولما كانت مراتب الناس فى التوحيد متفاوتة - كما تقدم - فى باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب كانت أيضاً الشفاعة مراتب متفاوتة بتفاوت مراتب الموحدين فمن أتى بالتوحيد المطلق له الشفاعة المطلقة وهو أسعد الناس بهما ومن فقد حصة من توحيدده فقد قدرها حصة من الشفاعة فهو وإن كان سيسعد بها إلا أن الأول أسعد منه فالحصة للحصة والمطلق للمطلق.

● السابعة: أَنَّهَا لَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ.

لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾، وغير ذلك مما نفى الله فيه الشفاعة للمشركين، ولقوله ﷺ: «خالصاً من قلبه».

● الثامنة: بَيَانُ حَقِيقَتِهَا.

وحقيقتها: أن الله تعالى يتفضل على أهل الإخلاص؛ فيغفر لهم بواسطة من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود أ هـ.

[قلت]: وتقدم أدلة ذلك والله الموفق.



(١٧) بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (١).

- مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال ناصر السعدي (٢): وهذه الباب أيضاً نظير الباب الذي قبله، وذلك أنه إذا كان ﷺ وهو أفضل الخلق على الإطلاق وأعظمهم عند الله جاهاً وأقربهم إليه وسيلة لا يقدر على هداية من أحب هداية التوفيق. وإنما الهداية كلها بيد الله. فهو الذي تفرد بهداية القلوب كما تفرد بخلق المخلوقات فتبين بأنه الإله الحق.

قال ابن عثيمين (٣): مناسبتة أنه نوع من الباب الذي قبله، فإذا كان لا أحد يستطيع أن ينفع أحداً بالشفاعة والخلاص من العذاب، كذلك لا يستطيع أحد أن يهدي أحداً، فيقوم بما أمر الله به. اهـ.

قلت: وأيضاً لأن طلب الهداية من غير الله كطلب الشفاعة والشفع - الذي لا يرجى إلا من الله - من غير الله، وهذا شرك، والتوحيد طلب ذلك من الله، كما سيأتى فى قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

ولأن طواغيت العالم ادعت ذلك لنفسها وشاركت الله - رب العالمين - فى ذلك، قال فرعون: ﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، ورد الله عليه بقوله: ﴿وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾.

فكان لزماً على المصنف لهذا وغيره، أن يبين التوحيد بدلائله الذى منها نفى الهداية عن سوا الله، وطلبها منه سبحانه وتعالى.

- ماذا أراد المصنف بهذا الباب؟

قال حامد بن محمد بن حسن (٤): باب بيان ما يدل على أنه لا يهدى الهداية الجامعة للعلم والعمل والتعليم والصبر إلا الله من الكتاب والسنة.

أما من الكتاب فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. وستأتى أدلة ذلك.

قال سليمان آل الشيخ (٥): أراد المصنف - رحمه الله - الرد على عباد القبور الذين

(٢) القول السديد ٥٩ و ٦٠.

(١) القصص ٥٦.

(٤) فتح الله الحميد المجيد ٢٧٥.

(٣) القول المفيد ١/٤٤٧.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٢١٩.

يعتقدون فى الأنبياء والصالحين أنهم ينفعون ويضرون، فيسألونهم مغفرة الذنوب، وتفريج الكرب وهداية القلوب، وغير ذلك من أنواع المطالب الدنيوية والأخرية:

ثم قال: فإذا عرف الإنسان معنى هذه الآية ومن نزلت فيه، تبين، له بطلان قولهم وفساد شركهم، لأن رسول الله ﷺ أفضل الخلق وأقربهم من الله، وأعظمهم جاهاً عنده، ومع ذلك حرص واجتهد على هداية عمه أبى طالب فى حياة أبى طالب وعند موته. فلم يتيسر له ذلك ولم يقدر عليه. اهـ.

— مناسبة الآية للبَاب:

قال القرعاوى^(١): حيث دلت الآية على نفي هداية التوفيق عن النبى ﷺ وهو أكرم الخلق فإذا انتفت عنه وهو بهذه المنزلة فنفيها عن غيره أولى.

— مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى^(١): حيث دلت الآية على أن هداية التوفيق مختصة بالله فيكون طلبها من غير الله شركاً.

الإعراب^(٢): كلام مستأنف مسوق لبيان حرصه على إيمان عمه أبى طالب وأن واسمها وجملة (لا تهدى) خبرها والفاعل مستتر تقديره أنت مفعول به وجملة (أحييت) صلة (ولكن الله) الواو عاطفة أو حالية (ولكن) واسمها وجملة (يهدى) خبرها (ومن يشاء) مفعول به (وهو) مبتدأ و(أعلم) خبر و(بالمهتدين) متعلقان بـ (أعلم).

التفسير بالقرآن:

قال تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^(٣).

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾^(٤).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾^(٥).

قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(٦).

(٣) الجديد ١٦٨.

(٢) اعراب القرآن ٣٥٢/٧.

(٣) النحل / ٣٧. (٤) الليل / ١٢.

(٥) البقرة / ١٢٠. (٦) آل عمران / ١٢٨.

قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١).

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٢).

وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٣).

وقال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (٤).

التفسير بالسنة:

قال ﷺ في خطبة الحاجة: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره... إنه من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.. الحديث (٥).

وكان ﷺ يستفتح صلاة الليل بأدعية منها: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم (٦).

«اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت» (٧).

مسألة

قوله «إنك لا تهدي من أحببت».

تقدم أنها نزلت في عم النبي ﷺ وهو كافر. فكيف كان يحبه؟!

قال ابن الجوزي (٨).

فيها قولان:

أحدهما: من أحببت هدايته وكذا قال القرطبي من أحببت أن يهتدى

قلت: تقدير الكلام «من أحببت هدايته»

(١) الفاتحة / ٦. (٢) يونس / ٣٥.

(٣) يوسف / ١٠٣. (٤) الكهف / ١٧.

(٥) تقدم تخريجه وانظر تخريجنا «السلسلة» ح (٢٠٠٨) ..

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٣/٣٠٨/٢٠٠) ..

(٧) [حسن] أخرجه أحمد (١/١٩٩، ٢٠٠) وأبو داود (١٤٢٥) والترمذي (٤٦٤) والنسائي (٣/٢٤٨)

وابن ماجه (١١٧٨) من حديث الحسن بن علي، وانظر تخريجنا على «منار السبيل» ح ٤٧٨.

(٨) زاد المسير ابن الجوزي ٦٠ / ص ١١٢ ط المكتبة العلمية والقرطبي ٧ / ص ٥١٥ ط (الريان).

الثانى: من أحببته لقرابته .

قال ابن كثير: نزلت فى أبى طالب . عم رسول الله ﷺ وقد كان يحوطه وينصره ويقوم فى صفه ويحبه حباً شديداً طبيعياً لاشريعياً .

قلت: وكذلك كان النبى ﷺ يحبه حباً طبيعياً لاشريعياً .

كما ثبت عنه - ﷺ قال: «إن بنى فلان ليسوا لى بأولياء ولكن لهم عندى رحم أبلاها ببلالها» (١) .

وكما روى ابن إسحاق فى السيرة عن عبدالله بن عبدالله بن أبى بن سلول أنه كان أبر الناس بأبيه ولما سمع أن النبى ﷺ هم بقتله أستأذن النبى ﷺ فى قتله حتى لا يقتله غيره فيقتله عبدالله ، فيقتل مسلماً بكافر (٢) .

مسألة التوفيق بين قوله الله تعالى ﴿نَكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

المنفى هنا هداية التوفيق والقبول . فإن أمر ذلك إلى الله ، وهو القادر عليه ، وأما الهداية المذكورة فى قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ . فإنها هداية الدلالة والبيان ، فهو المبين عن الله ، والدال على دينه وشرعه (٣) .

ويؤيده ما جاء فى القرطبي .

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ أى تدعو وترشد إلى ﴿صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ دين قويم لا اعوجاج فيه .

وقال على: إلى كتاب مستقيم: وقرأ عاصم الجحدري وحوشب ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ غير مسمى الفاعل؛ أى لتدعى والباقون ﴿لَتَهْدِي﴾ مسمى الفاعل وفى قراءة أبى ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُو﴾ . اهـ (٤) .

احتمل ابن عثيمين احتمالاً ثالثاً فقال:

يقال: إن ذلك قبل النهى عن محبة المشركين ، والأول الأقرب؛ أى من أحببت هدايته لا عينه وهذا عام لأبى طالب وغيره .

(١) تقدم تخريجه فى مبحث الولاء والبراء .

(٢) تقدم تخريجه انظر تفسير ابن كثير لقوله تعالى: «لئن رجعنا إلى المدينة...»

(٣) فتح المجدد ٢٦٩ . (٤) القرطبي ٩ / ٥٨٨٠ .

ويجوز أن يحبه محبة قرابة، ولا ينافي هذا المحبة الشرعية، وقد أُحِبُّ أن يهتدى هذا الإنسان، وإن كنت أبغضه شخصياً لكفره، ولكن لأنى أحب أن الناس يسلكون دين الله^(١). اهـ.

فصل: مراتب الهداية

قال ابن القيم

مراتب الهدية الخاصة والعامة عشر مراتب.

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله - عز وجل - لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه ، وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه الصلاة والسلام. قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٢) فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز.

قال الفراء: العرب تسمى ما يوصل إلى الإنسان كلاماً بأى طريق وصل. ولكن لا تحققه بالمصدر. فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾^(٣).

قال تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾^(٤) أى بتكليمى لك بإجماع السلف، ولو كان التكليم الذى حصل من الله من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به فى الآيات معنى.

المرتبة الثانية:

مرتبة الوحي المختص بالأنبياء. قال تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾^(٥) وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾^(٦) الآية الوحي فى اللغة: هو الإعلام السريع الخفى وهو أقسام .

(١) القول المفيد ١/ ٤٤٩ .

(٢) النساء ١٦٤

(٣) الأعراف: ١٤٣ .

(٤) الأعراف: ١٤٤

(٥) النساء ١٦٣

(٦) الشورى ٥١ .

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكى إلى الرسول البشرى فيوحى إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه.

فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم.

ثم هذا الرسول الملكى قد يتمثل للرسول البشرى رجلاً، يراه عياناً ويخاطبه. وقد يراه على صورته التى خلق عليها. وقد يدخل فيه الملك، ويوحى إليه ما يوحى. ثم يفصم عنه، أى يقلع. والثلاثة حصلت لنبينا ﷺ.

قلت: كما ثبت فى الصحيح^(١) فى بدء الروحى.

المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث. وهذه دون مرتبة الروحى الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب. رضى الله عنه - كما قال ﷺ: «إنه كان فى الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن فى هذه الأمة فعمر بن الخطاب»^(٢).

والمحدث: هو الذى يحدث فى سره وقلبه بالشئ، فيكون كما حدث به.

قال شيخنا - أى ابن تيمية: والصديق أكمل من المحدث؛ لأنه استغنى بكمال صديقيته و متابعتة عن التحديث والإلهام والكشف، فإنه قد سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول ﷺ.

قال «وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول. فإن وافقه قبله وإلا رده فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال «وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات: حدثنى قلبى عن ربى فصحيح أن قلبه حدثه. ولكن عمن؟! عن شيطانه أو عن ربه الذى يعبد من دون الله، فإذا قال: (حدثنى قلبى عن ربى) كان مسنداً الحديث إلى من لم يعلم أنه حدث به. وذلك كذب.

قال: ومحدث الأمة لم يكن ليقول ذلك، ولا تفوه به يوماً من الدهر. وقد أعاده الله من أن يقول ذلك، بل كتب كاتبه يوماً: «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب» فقال: لا أمحه وكتب هذا ما رأى عمر بن الخطاب. فإن كان صواباً فمن الله. وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه برىء» وقال فى الكلاله: «أقول فيها برأى فإن يكن صواباً فمن الله. وإن يكن خطأ فمنى و من الشيطان»

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢)، ومسلم فى الفضائل (٨/٩٧/٨٧).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٦٩٣) عن عائشة. قال الترمذى: حديث صحيح

فانظر إلى ما بين القائلين والمترتبين والقولين والحالين وأعط كل ذى حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً.

المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام. قال الله تعالى ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) فَفَهَّمَاهَا سُلَيْمَانُ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿١﴾ فذكر هذين النبيين الكريمين ، وأثنى عليهما بالعلم والحكمة وخص سليمان بالفهم فى هذه الواقعة المعينة.

وقال على ابن أبى طالب وقد سُئِلَ: هل خصصكم رسول الله ﷺ بشيء من دون الناس؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً فى كتابه وما فى هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر (*) .

وفى كتاب عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى - رضى الله عنهما - والفهم الفهم فيما أدلى إليك .

فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله فى قلبه. ويعرف به ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه. فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما فى حفظه وفهم أصل معناه.

قلت: كما فى قصة أبى بكر وعمر فى حروب الردة وحديث ابن عمر فى الصحيح حينما سئل عن الشجرة التى مثل المؤمن

المرتبة السادسة:

مرتبة البيان العام وهو تبين الحق وتمييزه من الباطل بأدلتة وشواهد وأعلامه. بحيث يصير مشهوداً للقلب، كشهود العين للمرئيات

وهذه المرتبة هى حجة الله على خلقه التى لا يعذب أحداً ولا يضل إلا بعد وصوله إليها الله قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ (٢) وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات فى هذا الباب وعلمت حكمة الله فى إضلاله من يضل من عباده، والقرآن يصرح بهذا فى غير موضع كقوله ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ (٤) فالأول كفر عناد والثانى كفر طبع.

(٢) التوبة: ١١٥.

(١) الأنبياء: ٧٩.

(*) [صحيح] أخرجه البخارى (١١١) وانظر «جزء سعدان» بتخرجنا.

(٤) البقرة: ٨٨.

(٣) الصف: ٥.

وقال تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾^(١). فهذا هدى بعد البيان والدلالة. وهو شرط لا موجب فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء.

وهو هدى التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوة، وبيان بالآيات المشهودة المرئية وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه، ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكير فى آياته المشهودة ويحضهم على التفكير فى هذه وهذه.

وهذا البيان هو الذى بعث به الرسل. وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، و بعد ذلك يضل الله من يشاء، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢) فالرسل تبين. والله هو الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء بعزته وحكمته.

المرتبة السابعة:

البيان الخاص.. وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتهاد. وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية البتة. قال تعالى فى هذه المرتبة ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فالبيان الأول شرط وهذا موجب.

وهذه المرتبة لله خاصة.

المرتبة الثامنة

مرتبة الإسماع قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾^(١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ^(٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ^(٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ^(٢٢) إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ^(٢٣)، وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ، فإن ذلك حاصل لهم. لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب. فإن

(١) فصلت: ١٧.

(٣) فاطر/ ١٩: ٢٣.

(٢) ابراهيم/ ٤.

الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما: فسمع لفظه حظ الأذن، وسمع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب. فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذى هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذى هو حظ الأذن فى قوله ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَقْبِضُونَ﴾ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴿١﴾ وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه. أو تمكنه منها وأما مقصود السماع وثمرته، والمطلوب منه: فلا يحصل مع لهو القلب وغفلة وإعراضه، بل يخرج السامع قائلاً للحاضر معه ﴿مَاذَا قَالَ آتِفَا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ (٢) الآية.

فسمع القبول ثلاث: مراتب سماع الأذن، وسمع القلب، وسمع القبول والإجابة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (٣).

المرتبة التاسعة :

مرتبة الإلهام: قال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٤﴾. وقال النبى ﷺ «قل اللهم الهمنى رشدى وقنى شر نفسى» (٥).

والإلهام أعم من التحديث، فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن قد ألهمه الله رشده الذى حصل له به الإيمان. فأما التحديث: فالنبى ﷺ قال فيه «إن يكن فى هذه الأمة أحد فعمر» (*) يعنى من المحدثين، فالتحديث إلهام خاص.

وصورته الشائعة أن يكون خطاباً يلقي فى قلب المؤمن يخاطب به الملك روحه، كما فى الحديث المشهور «إن للملك لمة بقلب ابن آدم. وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد. ولمة الشيطان: إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ (٦) وقال تعالى ﴿إِذْ يُوحَى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٧) قيل فى تفسيرها: قووا قلوبهم وبشروهم بالنصر.

وقيل: احضروا معهم القتال.

والقولان حق، فإنهم حضروا معهم القتال وثبتوا قلوبهم.

(٢) محمد : ١٦ .

(٤) الشمس (٧، ٨)

(٥) أخرجه الترمذى (٣٤٨٣) وانظر «الأذكار» للنووى (١٠٣١ - بتخریجنا).

(*) تقدم قريباً.

(٧) الأنفال: ١٢

(٦) البقرة: ٢٦٨

ومن هذا الخطاب. واعظ الله - عزوجل - في قلوب عباده المؤمنين. كما في «جامع الترمذى» و«مسند أحمد» من حديث النّوّاس بن سمعان عن النّّبى ﷺ قال: «إن الله تعالى ضرب مثلاً: صراطاً مستقيماً. على كُنْفَتى الصراط سوران، لهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة وداع يدعو على رأس الصراط. وداع يدعو فوق الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام. والسوران حدود الله. والأبواب المفتحة، محارم الله فلا يقع أحد في حدٍّ من حدود الله حتى يكشف الستر. والداعى على رأس الصراط: كتاب الله والداعى من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن»^(١) الواعظ فى قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهى بواسطة الملائكة.

المرتبة العاشرة: الرؤيا الصادقة، وهى من أجزاء النبوة كما ثبت عن النّّبى ﷺ أنه قال «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(٢) والرؤيا: مبدأ الوحي، وصدقها بحسب صدق الرأى..

وأصدق الناس رؤيا: أصدقهم حديثاً. وهى عند اقتراب الزمان لاتكاد تخطيء. كما قال النّّبى ﷺ وذلك لبعده العهد بالنبوة وآثارها فيتعوض المؤمنون بالرؤيا، وأما فى زمن قوة نور النبوة: ففى ظهور نورها قوته ما يغنى عن الرؤيا.

وقد قال النّّبى ﷺ «لم يبق من النبوة إلا المبشرات قيل: ما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له»^(٣) إذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب. وقد قال النّّبى ﷺ لأصحابه لما أروا ليلة القدر فى العشر الأواخر قال: «أرى رؤياكم قد تواطأت فى العشر الأواخر فمن كان منكم متحريراً فليتحربها فى العشر الأواخر فى رمضان»^(٤).

والرؤيا كالكشف، منها روحانى، ومنها نفسانى ومنها شيطانى. وقال النّّبى ﷺ: «الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه فى اليقظة فيراه فى المنام»^(٥) والذي هو من أسباب الهداية هو الرؤيا التى من الله خاصة أهـ^(٦).

(١) تقدم.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٠١٧)، ومسلم فى الرؤيا (٢٠ / ١٥) - النووى.

وانظر «رياض الصالحين» (٨٤٠ - بتخريجنا).

(٣) أخرجه البخارى (٦٩٩٠) وانظر «رياض الصالحين» (٨٣٩) - بتخريجنا.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٠١٥)، ومسلم فى الصيام (٥٧ / ٨) - النووى عن ابن عمر به.

وانظر «رياض الصالحين» (١١٩٣) - بتخريجنا.

(٥) أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة فى «الكبرى» (١٠٧٣٩) عن أبى هريرة به.

(٦) تهذيب مدارج السالكين (بتصرف).

حاجة الإنسان لطلب الهداية ضرورية.

قال ابن تيمية:

والإنسان خلق ظلوماً جهولاً، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشيء . فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله . وعدل في محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه واعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته ، فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي جهله، وعدل ينافي ظلمه، فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل وإلا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم وقد قال تعالى لنبيه ﷺ بعد صلح الحديبية وبعة الرضوان: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (١) فإذا كان هذا حاله في آخر حياته أو قريباً منها فكيف حال غيره .

فحاجة العبد إلى سؤاله هذه الهداية ضرورية ففى سعادته ونجاته وفلاحه ؛ بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه، فإذا انقطع رزقه مات، والموت لا بد منه .

قلت: ففى المستدرك «إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها وتستكمل أجلها». فلا أحد يموت وهو ناقص رزق أو عمر . فإذا قطع رزقه انقضى أجله لكن الهداية ربما يقطع الله عنه الهداية وهو حى كما قال الله عز وجل فى بعض الأحياء ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وقال ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ فهم أحياء يسمعون لكن فى لهو يسمعون سماع الأذان أما سماع القلب والعمل فلا يسمعون كما نقلنا فى مرتبة الإسماع كلام ابن القيم - رحمه الله - فكأنه يقول إن العبد إلى سؤاله هذه الهداية فى ضرورة وقد يرزق وهو كافر فالرزق ليس علم على الهداية لكن الهداية بإذن الله سبب من أسباب الرزق لكن الرزق ليس سبب من أسباب الهداية بل الله عز وجل قال: ﴿وَلَوْ لَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ (٣٤) وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وكان من المهتدين المتقين باهتدائه وتقواه كان ممن ينصر الله ورسوله وقال تعالى ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ يعنى كانت الهداية سبب من أسباب النصر وأيضاً التقوى

(١) الفتح: ٢٤، ١ .

كانت سبب من أسباب النصر لأن النصر يتخلف بقدر المعصية وينأى على قدر الطاعة فكان هنا بيان على عدم وجود نسبة بين الهداية وبين طلب الرزق والنصر لذلك الله عز وجل لم يقل فى سورة الفاتحة إهدنا النصر المبين ولا إهدنا الرزق المبين قال ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأن بهذه الهداية فيها فلاح وصلاح الدنيا والآخرة ونحن بالفعل مضطرون إليها أكثر من اضطررنا للأكل والشرب بل إنك لا تستطيع أن تستمتع بطعام وشراب - إن كان فيك حس وحياة - إلا بهداية ولا تستمتع بجماع ولا بزوجة ولا بدنيا إلا بما فيها من هداية فإن هداك الله - عز وجل - فهى المتعة وهى النعيم وفى ذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ومن أنعم النعيم محمد ﷺ فبالله عليك هل تستمتع بالنبي إلا بهداية ؟ وتنعم بهذا النعيم إلا بهداية وهل تنعم بمجالس العلم إلا بذلك ، تأتى المجلس فى ضيق وهم وعشى وأنت سعيد فهل تنعم بهذه المجالس إلا بهداية وتقوى ، بل إذا ذهبت إلى البيت وأنت على معصية هل ستجد صدود عن الطعام أم ستجد إقبال ؟ لو كنت على إيمان الله عز وجل ؛ لن تجد إلا الصدود وعدم الإقبال ، فتجد صدود عن الأكل وعن الجماع وعن الأولاد . أما عندما تذهب إلى البيت وقد فهمت مسألة أو حفظت مسألة أو امتحنت أو اخترت فى مسائل شرعية وأجزت فيها ستذهب إلى البيت فى غاية السعادة والدنيا أمامك جميلة تريد أن تأكل وتشرب و... و... لأن هذه من أمتع المتع وأنعم النعيم وألذ اللذات فى الدنيا.

«لذا كان معاذ بن جبل حينما أشرف على الموت يبكى ويقول إنما أبكى على ظمأ الهواجر وقال فيما قال وعلى مزاحمة العلماء بالركب» فهذه كانت أمتع المتع لمعاذ بن جبل لما كان على هداية وصلاح وتقوى ، وبالله عليكم لولا هذه الدروس التى تأتىها وهذه العلوم التى تتعلمها هل كانت الدنيا لها لذة؟! .

والله ليس لها لذة ولا سعادة ولا عزة إلا فى هداية الله لنا للإسلام والعمل بطاعته وفى طاعته فالأمر كما قال عمر: لقد أعزنا الله بالإسلام فهما ابتغينا العزة فى غيره أذلنا الله . أخرجه الحاكم .

فمن هنا نعلم أننا مضطرون إلى طلب الهداية أكثر من اضطرارنا إلى طلب الطعام والشراب والرزق والزوجة والسنكاح وسائر المتع واللذات بل والنصر كذلك إذا كان هذا النصر على أعداءنا أيضاً لا يكون إلا بهداية ولا يكون إلا بتقوى .

وقال ابن تيمية فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيداً قبل الموت وبعده ، وكان الموت موصلاً إلى السعادة الأبدية ، وكذلك النصر إذا قدر أنه غلب حتى قتل فإنه يموت شهيداً

وفى «الصحيح» عن ابن المسيب، عن أبيه؛ قال: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ؛ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَمُّ قُلْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَحَاجُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فَقَالَ لَهُ: أَرْتَرُغِبُ عَنْ مَلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرُ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مَلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ تُنَّهْ عَنْكَ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ (١)﴾. وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (٢) (٣)

وكان القتل من تمام النعمة، فتبين أن الحاجة إلى الهدى أعظم من الحاجة إلى النصر والرزق، بل لانسبة بينهما؛ لأنه إذا هدى كان من المتقين ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وكان ممن ينصر الله ورسوله، ومن نصر الله نصره الله وكان من جند الله، وهم الغالبون، ولهذا كان هذا الدعاء هو المفروض.

وأيضاً فإنه يتضمن الرزق والنصر فتبين أن هذا الدعاء جامع لكل مطلوب ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهذا مما يبين لك أن غير الفاتحة لا يقوم مقامها، وإن فضلها على غيرها من الكلام أعظم من فضل الركوع والسجود على سائر أفعال الخضوع، فإذا تعينت الأفعال فهذا القول أولى والله أعلم.

وصلى الله على نبيه محمد وسلم تسليماً كثيراً (٤)



قوله: [وفى الصحيح...].

وهذا الحديث ذكره البخارى فى خمس مواضع:

ذكره فى كتاب الجنائز فى باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله

وذكره فى كتاب مناقب الأنصار فى باب قصة - أبى طالب.

(١) التوبة / ١١٣.

(٢) القصص / ٥٦.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى التفسير/ باب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (٨/ ٣٦٥/ ٤٧٧٢) ومسلم فى الإيمان / باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت وباقي مواضع الحديث فى البخارى ذكرناها فى الشرح. وانظر تخريجه فى كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٧١٣) وفتح المجيد (ج ٣٤١) بتخريجنا.

(٤) مجموع الفتاوى ١٤/ ٣٩، ٣٨، ٤٠ بتصرف.

وذكره فى كتاب التفسير فى باب ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾
وذكره فى كتاب التفسير أيضاً فى باب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

وذكره فى كتاب الإيمان والنذور فى باب إذا قال الله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ أو
سبح أو كبر أو حمد أو هلى فهو على نيته .
وقال النبى ﷺ أفضل الكلام أربع . سبحان الله . والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله
أكبر .

واللفظ الذى ذكره المصنف هو لفظ مسلم فى كتاب الإيمان فى باب : الدليل على
صحة إسلام من حضره الموت .
مناسبة الحديث للباب .

قال القرعاوى^(١) . حيث دل الحديث على نفى هداية التوفيق عن النبى ﷺ فإذا
انتفت عنه وهو أكرم الخلق فتفيها عن غيره أولى .
مناسبة الحديث للتوحيد :

قال القرعاوى^(٢) حيث دل الحديث على أن هداية التوفيق خاصة بالله سبحانه
فيكون طلبها من غير الله شركاً .
قوله فى «الصحيح»

سبق الكلام عليه والمقصود به هنا الصحيحين

قوله «عن ابن المسيب عن أبيه»

قال سليمان آل الشيخ^(٣) : هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب بن عمرو
ابن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشى المخزومى أحد العلماء الأثبات ، الفقهاء الكبار
الحفاظ العباد اتفقوا على أن مراسلاته أصح المراسيل .

وقال ابن المدينى : لا أعلم فى التابعين أوسع علماً منه . مات بعد التسعين وقد ناهز
الثمانين ، وأبوه المسيب صحابى بقى إلى خلافة عثمان رضى الله عنه وكذلك جده حزن
صحابى ، استشهد باليمامة أ. هـ .

[قلت] : وقد حاول النبى ﷺ تغيير اسم جده حزن إلى سهل فقال النبى ﷺ بل
أنت سهل فقال حزن : لا أغير اسماً سمانيه أبى قال سعيد فما زالت فى تلك الحزونة

(١) - (٢) الجديد ١٧١ .

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٢١

أى الشدة واستدل بذلك ابن القيم فى «الزاد» على أن هناك علاقة بين الاسم والمسمى فالأسماء قوالب للمسميات اهـ.

قوله «لما حضرت أبا طالب الوفاة»

قال ابن عثيمين (١): قوله «أباً» بالآلف مفعول به منصوب بالآلف، لأنه من الأسماء الخمسة.

(الوفاة) يعنى الموت، فاعل حضرت.

قال ابن حجر (٢)

قوله «لما حضرت أبا طالب الوفاة» قال الكرمانى: المراد حضرت علامات الوفاة، وإلا فلو كان انتهى إلى المعاينة لم ينفعه الإيمان لو آمن، ويدل على الأول ما وقع من المراجعة بينه وبينهم انتهى.

ويحتمل أن يكون انتهى إلى تلك الحالة لكن رجا النبى ﷺ أنه إذا أقر بالتوحيد ولو فى تلك الحالة أن ذلك ينفعه بخصوصه وتسوغ شفاعته ﷺ لمكانه منه، ولهذا قال: «أجادل لك بها وأشفع لك» وسيأتى بيانه. ويؤيد الخصوصية أنه بعد أن امتنع من الإقرار بالتوحيد وقال هو «على ملة عبدالمطلب» ومات على ذلك أن النبى ﷺ لم يترك الشفاعة له، بل شفع له حتى خفف عنه العذاب بالنسبة لغيره، وكان ذلك من الخصائص فى حقه.

[قلت]: وقد تقدمت الرواية بذلك فى الشفاعة فى الباب الماضى اهـ.

وقال سليمان آل الشيخ نحو ذلك أو مثله.

قوله «جاءه رسول الله ﷺ وعنده أبوجهل وعبدالله بن أبى أمية»

قال ابن حجر (٣).

يحتمل أن يكون المسيب حضر هذه القصة، فإن المذكورين من بنى مخزوم وهو من بنى مخزوم أيضاً، وكان الثلاثة يومئذ كفاراً فمات أبو جهل على كفره وأسلم الآخرون. وأما قول بعض الشراح: هذا الحديث من مراسيل الصحابة فمردود، لأنه استدل بأن المسيب على قول امصعب من مسلمة الفتح، وعلى قول العسكري: ممن بايع تحت

(١) القول المفيد ١/٤٤٩

(٢) الفتح ٨/٣٦٦، ٣٦٥.

(٣) الفتح ٨/٣٦٦.

الشجرة، قال: فأيا ماكان فلم يشهد وفاة أبى طالب لأنه توفى هو وخديجة فى أيام متقاربة فى عام واحد، والنبي ﷺ يومئذ نحو الخمسين انتهى.

ووجه الرد أنه لايلزم من كون المسيب تأخر إسلامه أن لايشهد وفاة أبى طالب كما شهدا عبد الله بن أبى أمية وهو يومئذ كافر ثم أسلم بعد ذلك، وعجب من هذا القائل كيف يعزو كون المسيب كان ممن بايع تحت الشجرة إلى العسكرى ويغفل عن كون ذلك ثابتا فى الصحيح الذى شرحه كما جاء فى المغازى واضحا.

قوله فقال: «ياعم»

قال ابن حجر (١): وأما «عم» فهو منادى مضاف، ويجوز فيه إثبات الياء، وحذفها. هنا قال ابن عثيمين (٢): أتى ﷺ بهذه الكنية الدالة على العطف لان العم صنو الأب، أى كالغصن معه.

والصنو الغصن الذى أصله واحد فكأنه معه كالغصن.

[قلت]: ومنه قوله تعالى: «صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ».

قوله «ياعم» فيها وجهان: يا عم، بكسر الميم: على تقدير أنها مضافة إلى الياء وياعم بضم الميم: على تقدير قطعها عن الإضافة.

قوله «قل لا إله إلا الله»

قال سليمان آل الشيخ (٣) أى قل هذه الكلمة عارفاً لمعناها معتقداً له فى هذه الحال وإن لم تعمل به، إذ لا يمكن عند الموت إلا ذلك ولا بد مع ذلك من شهادة أن محمد رسول الله

قال ابن عثيمين (٤): يجوز أنه قاله على سبيل الأمر والإلزام، لأنه يجب أن يأمل كل أحد أن يقول: لا إله إلا الله.

ويجوز أنه قالها على سبيل الترجى والتلطف معه، وأبو طالب والذين عنده يعرفون هذه الكلمة ويعرفون معناها، ولهذا بادر بالإنكار.

قوله: (قل لا إله إلا الله).

قال الفقير: فيها فائدة: إن الكافر لو قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ومات

(٢) القول المفيد ١/ ٤٤٩

(١) الفتح ٨/ ٣٦٦

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٢١، ٢٢٢

(٤) القول المفيد ١/ ٤٥٠

تنفعه، وهذه فيها شاهد لقول الرسول ﷺ «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» فهل دخل الجنة ابتداءً أم دخل الجنة فى نهاية أمره؟ على اختلاف بين أهل العلم محلها القائل نفسه فإن كان القائل نفسه من أهل الصلاح وختم له بذلك يدخل الجنة ابتداءً أما إن كان من أهل الفساد وقال لا إله إلا الله فهو تحت خطر المشيئة إن شاء الله عذبه ويدخل الجنة وإن شاء الله عفى عنه ويدخل الجنة ابتداءً أما إن كان من أهل الكفر وقالها فهي أيضاً تنفعه ويكون مصيره للجنة إن شاء الله كما قال النبى «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» إن لم تكن تنفعه فما فائدة عرض لا إله إلا الله عليه فليس لها فائدة إلا أنها تنفعه إذا قالها.

وفى رد على من ادعى أو زعم من الخوارج إن حد الإسلام ليس الإقرار بلا إله إلا الله مع عدم المناقض فقط ويشترطوا شروط أكثر من ذلك فى الإسلام الحكيمى مثل اشتراطهم شروط الإسلام الحقيقى فى الإسلام الحكيمى.

فما هو الإسلام الحكيمى؟ هو الذى تجرى عليه الأحكام فى الدنيا يكون مسلم بيننا ولكن لن ينفعه ذلك فى الآخرة إلا إذا أتى بشروط الإسلام الحقيقى.

والإسلام الحقيقى: هو الإسلام النافع فى الآخرة المنجى من النار المدخل الجنة فلا تغتر بقول الناس لك فى الدنيا: «مسلم» وأنت فى الحقيقة منافق فهذه الكلمة لن تنفعك فى الآخرة إلا إذا أتيت معها بالشروط فما هى شروط الإسلام الحقيقى؟

كما قلنا أن الإسلام الحكيمى هو الإقرار مع عدم المناقض فإن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ولم نر عليه مناقض لهذه الكلمة فهو عندنا مسلم تجرى عليه أحكام الإسلام لكن هل ينفعه فى الآخرة؟ لا ينفعه فى الآخرة إلا إذا أتى بالشروط السبعة أو أكثر التى وضعها العلماء شروطاً للا إله إلا الله كالعلم والانقياد واليقين والمحبة والإخلاص إلى آخر هذه الشروط التى هى أكثر من سبعة لكن هذه أهمها.

فهنا النبى ﷺ كان سيجرى عليه أحكام الإسلام فى الدنيا بمجرد النطق كما أجرى الأحكام على الغلام اليهودى الذى أقر بالإسلام ثم مات فأجرى عليه أحكام الإسلام فما هى الأحكام بعد موته؟ كالصلاة عليه فقد قال ﷺ فى بعض الروايات التى ذكرها الشيخ الألبانى فى كتاب أحكام الجنائز «صلوا على صاحبكم» لأنه بذلك أسلم إسلام حكيمى فهذا ليس بكلام المرجئة ولا كلام الخوارج. والله الموافق للصواب

قوله: «كلمة»

قال ابن حجر^(١) بالنصب على البدل من لا إله إلا الله أو الاختصاص . ويجوز الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف .

قال القرطبي^(٢) أحسن ما تقيد (كلمة) بالنصب على أنه بدل من لا إله إلا الله ، ويجوز رفعها على احتمال المبتدأ .

قال ابن عثيمين^(٣) : ولكنَّ النَّصْبُ أوضح .

قوله : «أحاج» .

قال ابن حجر^(٤) : قوله : (أحاج) بتشديد الجيم من المحاجة وهى مفاعلة من الحججة والجيم مفتوحة على الجزم جواب الأمر ، والتقدير أن تقل أحاج ، ويجوز الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، ووقع فى رواية معمر عن الزهرى بهذا الإسناد فى الجنائز «أشهد» بدل «أحاج» وفى رواية مجاهد عند الطبرى «أجادل عنك بها» زاد الطبرى من طريق سفيان بن حسين عن الزهرى قال «أى عم، إنك أعظم الناس على حقاً، وأحسنهم عندي يداً»، فقل كلمة تجب لى بها الشفاعة فيك يوم القيامة .

قال سليمان آل الشيخ^(٥) : وفيه دليل على أن الأعمال بالخواتيم ، لأنه لو قالها لنفعته ، وإن مات على التوحيد نفعتة الشفاعة ، وإن لم يعمل شيئاً غير ذلك ، وأن من كان كافراً يجحدها إذا قالها عند الموت أجريت عليه أحكام الإسلام ، فإن كان صادقاً من قلبه نفعتة عند الله وإلا فليس لنا إلا الظاهر ، بخلاف من كان يتكلم بها فى حال كفره [قلت] : لعل يقصد بذلك المرتد .

قال ابن عثيمين^(٦) : والمعنى أذكرها حجة لك عند الله وليس أخاصم وأجادل لك بها عند الله ، وإن كان بعض أهل العلم قال (إن) معناها أجادل الله بها ولكن الذى يظهر لى أن المعنى : أحاج لك بها عند الله ، أى : أذكرها حجة لك كما جاء فى بعض الروايات «أشهد لك بها عند الله» .

قلت : وقد مر من كلام ابن حجر عزوها إلى الجنائز فى الصحيح من رواية معمر عن الزهرى فقولوه : قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند ربى : فلولاً أنها تنفعه ما كانت تنفع حجة فى الآخرة فهى إن شاء الله مع عدم المناقض مع باقى الشروط تنفع فى الدنيا والآخرة فإذا أتى بها فى الظاهر مع عدم المناقض فقط فلا تنفعه فى الآخرة وإن نفعتة فى الدنيا .

(١) الفتح ٣٦٦/٨

(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٢٢٢ .

(٣) القول المفيد ١/ ٤٢٠ .

(٤) تيسير العزيز الحميد ٢٢٢

(٥) الفتح ٣٦٦/٨

(٦) القول المفيد ١/ ٤٥١ .

قوله: «فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟»

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟» ذكره الحجة الملعونة التي يتعلق بها المشركون من الأولين والآخرين، ويردون بها على الرسل، وهى تقليد الآباء والكبراء، وأخرجنا الكلام مخرج الاستفهام مبالغة فى الإنكار لعظمة هذه الحجة فى قلوب الضالين، وكذلك اكتفيا بها فى المجادلة مع مبالغته ﷺ وتكريره، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصرنا عليها.

قال المصنف: وفيه تفسير لا إله إلا الله بخلاف ما عليه أكثر من يدعى العلم، وفيه أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال الرجل: قل لا إله إلا الله. ففبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

قال ابن عثيمين^(٢): القائلان هما عبد الله بن أبي أمية، وأبو جهل، والاستفهام للإنكار عليه، لأنهم عرفوا أنه إذا قالها - كلمة الإخلاص - وحّد، وملة عبد المطلب الشرك، وذكرنا له ما تهيج به نعرته وهى ملة عبد المطلب حتى لا يخرج عن ملة آبائه.

وقد مات أبو جهل على ملة عبد المطلب، أما عبد الله بن أمية والمسيب الذى روى الحديث فأسلما، فأسلم من هؤلاء الثلاثة رجلان، رضى الله عنهما.

[قلت]: الإشارة إلى ذلك وتقدمت من كلام ابن حجر ووقع التصريح بذلك فى رواية البخارى وفى لفظ المصنف.

وأبو جهل اسمه عمرو بن هشام والذى كناه بأبى جهل الرسول ﷺ كما سُمى أبا لهب بذلك وهذا علم من أعلام النبوة كما هو الحال فى الآية التى نزلت فى أبى لهب «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» ومات على الكفر وأيضاً أبو جهل النبى سماه بذلك ومات على الكفر ولماذا أذكر اسمه الآن؟ عمرو بن هشام لأنه فى إحدى القرى المصرية فى القليوبية فى منطقة اسمها نوى والقرية اسمها «الأشيش» أو القشيش هذه القرية فيها شارع إلى الآن اسمه عمرو بن هشام - ولو سألت أحدهم يقول لك شارع عمرو بن هشام رضى الله عنه؟! ويمكن بعضهم يقول شارع سيدنا عمرو بن هشام لأنه اختلط الحابل بالنابل.

وكنت ذات مرة أتحدث مع أحد الصوفية فقلت له كلمة أداعبه فيها فذكرت له اسم شخص ماجن فى بعض الأفلام البذيئة وذكرت له اسم الفيلم فخلع عليه اسم صحابى فقلت له فهذا ابن سهيل، فقال: رضى الله عنه، ومولانا ابن سهيل!! وابن سهيل

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٢٢.

(٢) القول المفيد ١/ ٤٥١

شخصية رجل عاصى فاسق خاسر، ولا تستبعد أن تقول له عم النبي ﷺ ويقول لك رضى الله عنه، ف سبحان الله والحمد لله على نعمة الإسلام.

قوله: «فأعاد عليه النبي ﷺ فأعاداً»

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: (فأعاد عليه النبي ﷺ فأعاداً)، أى أعاد عليه النبي ﷺ مقالته، وأعادا عليه مقالتهما، مبالغة منه ﷺ، وحرصاً على إسلام عمه، ومع ذلك لم يقدر النبي ﷺ على ذلك، ولا على تخليصه من عذاب الله، بل سبق فيه القضاء المحتوم، واستمر على كفره، وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فلو كان عند النبي ﷺ من هداية القلوب، وتفريج الكرب شىء، لكان أحق الناس بذلك وأولاهم عمه الذى فعل معه ما فعل، وفيه الحرص فى الدعوة إلى الله، والصبر على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإن رد ذلك على صاحبه، وتكريره وعدم الاكتفاء بمرة واحدة اهـ.

[قلت]: وفيه حرص الكفار على دعوتهم حتى الموت عليها وهى غايتهم ففيه معنى قوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾.

قوله: «فكان آخر ما قال»

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: فكان آخر ما قال- هو ينصب آخر على الظرفية- أى آخر زمن تكليمه إياهم، ويجوز رفعه اهـ.

قوله: «هو على ملة عبد المطلب».

[قلت]: فى الصحيح بلفظ: «آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب».

قال ابن حجر^(٣): وفى رواية معمر «هو على ملة عبد المطلب» وأراد بذلك نفسه، ويحتمل أن يكون قال: «أنا فغيرها الراوى أن يحكى كلام أبى طالب استقباحاً للفظ المذكور، وهى من التصرفات الحسنة.

ووقع فى رواية مجاهد قال: «يا ابن أخى ملة الأشياخ».

ووقع فى حديث أبى حازم عن أبى هريرة عند مسلم والترمذى والطبرى «قال لولا أن تعيرنى قريش يقولون ما حملته عليه إلا جزع الموت لأقررت بها عينك» وفى رواية

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٢٢

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٢٢.

(٣) الفتح ٣٦٦/٨ - ٣٦٧.

الشعبي عند الطبراني «قال لولا أن يكون عليك عار لم أبال أن أفعل» وضبط «جزع» بالجيم والزاي، ولبعض رواية مسلم بالخاء المعجمة والراء. (أ.هـ).

قوله: «وأبى أن يقول: لا إله إلا الله».

قال ابن حجر (١): هو تأكيد من الراوى فى نفى وقوع ذلك من أبى طالب، وكأنه استند فى ذلك إلى عدم سماعه ذلك منه فى تلك الحال، وهذا القدر هو الذى يمكن اطلاعه عليه، ويحتمل أن يكون أطلعه النبى ﷺ على ذلك.

قال المصنّف (٢): وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه، ومضرة أصحاب السوء على الإنسان، ومضرة تعظيم الأسلاف والأكابر، أى زيادة على المشروع بحيث يجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع.

قوله: فقال النبى ﷺ «لاستغفرنَّ لك ما لم أنه عنك».

قال ابن حجر (٣): قال الزين بن المنير: ليس المراد طلب المغفرة العامة والمسامحة بذنب الشرك، وإنما المراد تخفيف العذاب عنه كما جاء مبيناً فى حديث آخر.

قلت: هى غفلة شديدة منه فإن الشفاعة لأبى طالب فى تخفيف العذاب لم ترد، وطلبها لم ينه عنه، وإنما وقع النهى عن طلب المغفرة العامة، وإنما ساغ ذلك للنبى ﷺ اقتداء بإبراهيم فى ذلك، ثم ورد نسخ ذلك كما سيأتى بيانه واضحاً أ.هـ.

قال سليمان آل الشيخ (٤): قوله: فقال النبى ﷺ: «لاستغفرنَّ لك ما لم أنه عنك». أقسم ﷺ ليستغفرون له إلا أن ينهى عن ذلك، كما فى رواية مسلم: «أما والله لأستغفرنَّ لك».

قال النووى: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف، وكأن الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار، تطيباً لنفس أبى طالب، وكانت وفاة أبى طالب بمكة قبل الهجرة بقليل.

قال ابن فارس: مات أبو طالب، ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً، وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها بعد موت أبى طالب بثمانية أيام.

(١) الفتح / ٨ / ٣٦٧.

(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٢٢٣.

(٣) الفتح / ٨ / ٣٦٧.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٢٢٣.

قال ابن عثيمين (١): جملة «لاستغفرنَّ لك» مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم، والام، ونون التوكيد الثقيلة.

والاستغفار: طلب المغفرة، وكأن النبي ﷺ في نفسه شيء من القلق.

[قلت]: وهذا واضح من قوله بعد ذلك: «ما لم أنه عنك».

قوله: (ما لم أنه عنك)

فعل مضارع مبنى للمجهول، والناهى عنه هو الله.

قوله: فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ﴾ وأنزل الله في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

قال ابن عثيمين (٢): قوله: ﴿مَا كَانَ﴾.

ما: نافية وكان: فعل ماض ناقص.

قوله: ﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا﴾.

(أن) وما دخلت عليه في تأويل مصدر اسم كان مؤخر.

قوله: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾

خبرٌ مقدَّم، أى: ما كان استغفاره.

واعلم أنَّ ما كان أو ما ينبغى أو لا ينبغى ونحوها إذا جاءت فى القرآن. والحديث، فالمراد أنَّ ذلك ممتنع غاية الامتناع، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ (٣). وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٤).

وقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ (٥).

وقوله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام» (٦).

(١) القول المفيد ١/ ٤٥٢.

(٢) القول المفيد ١/ ٤٥٢.

(٣) مريم: ٣٥.

(٤) مريم (٩٢).

(٥) يس: ٤٠.

(٦) [صحيح] مسلم فى الإيمان (٢/ ١٧/ ٢٩٥) عن أبى موسى به..

وقوله: ﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا﴾، أى يطلبوا المغفرة للمشركين.

قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ﴾

أى: حتى ولو كانوا أقارب لهم، ولهذا لما اعتصر النبي ﷺ ومراً بقبر أمه استأذن الله أن يستغفر لها فما أذن الله له، فاستأذنه أن يزور قبرها فأذن له، فزاره للاعتبار وبكى وأبكى من حوله من الصحابة (١).

فالله منعه من طلب المغفرة للمشركين، لأن هؤلاء المشركين ليسوا أهلاً للمغفرة لأنك إذا دعوت الله أن يفعل مالا يليق، فهو اعتداء فى الدعاء. أ.هـ.

[قلت]: فلكى لا يحتج المشركون، بقول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك أو بقوله ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي﴾ فلكى لا يحتج المشرك بذلك قال الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

وفيه جواز - كما سيأتينا - الإستغفار للمشرِك أو طلب الهداية والمغفرة للمشرِك حتى إذا مات على الشرك توقفنا عن الإستغفار له.

قوله: «وأنزل الله فى أبى طالب».

أى: فى شأنه.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

الخطاب للرسول ﷺ.

قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

كل فعل يضاف إلى مشيئة الله تعالى، فهو مقرون بالحكمة، أى: من اقتضت حكمته أن يهديه فإنه يهتدى، ومن اقتضت حكمته أن يضلّه أضله.

وهذا الحديث يقطع وسائل الشرك بالرسول وغيره، فالذين يلجؤون إليه ﷺ ويستجدون به مشركون، فلا ينفعهم ذلك لأنه لم يؤذن له أن يستغفر لعنه، مع أنه قد قام معه قياماً عظيماً، ناصره وأزره فى دعوته، فكيف بغيره ممن يشركون بالله؟!.

قال ابن حجر (٢): قوله: «فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا

لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أى ما يتبغى لهم ذلك، وهو خبر بمعنى النهى هكذا وقع فى هذه الرواية.

(١) [صحيح] رواه مسلم (٦٧١/٢).

(٢) الفتح ٣٦٧/٨ ، ٣٦٨.

وروى الطبرى من طريق شبل عن عمرو بن دينار قال قال: النبي ﷺ «استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فلا أزال أستغفر لأبى طالب حتى ينهاني عنه ربي». فقال أصحابه: لنستغفرن لأبائنا كما استغفر نبينا لعمه، فنزلت^(١) وهذا فيه إشكال، لأن وفاة أبى طالب كانت بمكة قبل الهجرة اتفاقاً، وقد ثبت أن النبي ﷺ أتى قبر أمه لما اعتمر فاستأذن ربه أن يستغفر لها فنزلت هذه الآية، والأصل عدم تكرار النزول، وقد أخرج الحاكم وابن أبى حاتم من طريق أيوب بن هانئ عن مسروق عن ابن مسعود قال «خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناداه طويلاً ثم بكى، فبكينا لبكائه، فقال: إن القبر الذى جلست عنده قبر أمى، واستأذنت ربي فى الدعاء لها فلم يأذن لى، فأنزل على: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) وأخرج أحمد من حديث ابن بريدة عن أبيه نحوه وفيه «نزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب» ولم يذكر نزول الآية.

وفى رواية الطبرى من هذا الوجه «لما قدم مكة أتى رسم قبر». ومن طريق فضيل بن مرزوق عن عطية «لما قدم مكة وقف على قبر أمه حتى سخنت عليه الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت». وللطبرانى من طريق عبد الله بن كيسان عن عكرمة عن ابن عباس نحو حديث ابن مسعود وفيه «لما هبط من ثنية عسفان»^(٣) وفيه نزول الآية فى ذلك. فهذه طرق يعضد بعضها بعضاً، وفيها دلالة على تأخير نزول الآية عن وفاة أبى طالب.

ويؤيده أيضاً أنه ﷺ قال يوم أحد بعد أن شج وجهه «رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»^(٤) لكن يحتمل فى هذا أن يكون الاستغفار خاصاً بالأحياء وليس البحث فيه، ويحتمل أن يكون نزول الآية تأخر وإن كان سببها تقدم، ويكون لنزولها سببان: متقدم: وهو أمر أبى طالب ومتأخر: وهو أمر أمة.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥٠٥/٣) ونسبه لابن جرير.
(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٠٥١) وذكره السيوطى فى «الدر» (٥٠٧/٣) وزاد نسبه الحاكم، وابن مردويه، والبيهقى فى «الدلائل».
(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥٠٦/٣) ونسبه للطبرانى، وابن مردويه.
(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٤٧٧)، ومسلم فى الجهاد (١٢/١٤٩ - النووى) وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٢٥).

ويؤيد تأخير النزول ما تقدم: فى تفسير براءة من استغفاره ﷺ للمنافقين حتى نزل النهى عن ذلك، فإن ذلك يقتضى تأخير النزول وإن تقدم السبب ويشير إلى ذلك أيضاً قوله فى حديث الباب «وأنزل الله فى أبى طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لأنه يشعر بأن الآية الأولى نزلت فى أبى طالب وفى غيره والثانية نزلت فيه وحده.

ويؤيد تعدد السبب ما أخرج أحمد من طريق أبى إسحق عن أبى الخليل عن على قال «سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾^(١) الآية وروى الطبرى من طريق ابن أبى نجیح عن مجاهد قال «قال المؤمنون ألا نستغفر لأبائنا كما استغفر إبراهيم لأبيه ؟ فنزلت. ومن طريق قتادة قال «ذكرنا له أن رجلاً» فذكر نحوه.

فائدة:

فى الحديث أن من لم يعمل خيراً قط إذا ختم عمره بشهادة أن لا إله إلا الله حكم بإسلامه وأجريت عليه أحكام المسلمين، فإن قارن نطق لسانه عقد قلبه نفعه ذلك عند الله تعالى، بشرط أن [لا] (*) يكون وصل إلى حد انقطاع الأمل من الحياة وعجز عن فهم الخطاب ورد الجواب وهو وقت المعينة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ﴾ والله أعلم.

قال ابن عثيمين^(٢): الإشكالات الواردة فى الحديث:

الإشكال الأول: الإثبات والنفى فى الهداية ، وقد سبق بيان ذلك.

الإشكال الثانى: قوله لما حضرت أبا طالب الوفاة يشكل مع قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ﴾ وظاهر الحديث قبول توبته.

قلت: وتقدم جواب ذلك من كلام الحافظ فى أول شرح الحديث وفى الموضع قبل هذا مباشرة.

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٩٩/١)، والترمذى (٣١٠١)، والنسائى فى «الكبرى» (٢١٦٣).

وانظر «الأتقان» للسيوطى (٢٨١ - بتخریجنا).

(*) ما بين القوسين ليست من الفتح والسياق يقتضيه.

(٢) القول المفيد ١/ ٤٥٤ - ٤٥٦.

وقال ابن عثيمين:

والجواب عن ذلك من أحد وجهين:

الأول: أن يُقال لما حضرت أبا طالب الوفاة، أى ظهر عليه علامات الموت ولم ينزل به، ولكن عرف موته لا محالة، وعلى هذا، فالوصف لا يتنافى الآية.

الثاني: أن هذا خاص بأبى طالب مع النبي ﷺ، ويستدل لذلك بوجهين:

أ- أنه قال: «كلمة أحاج لك بها عند الله» ولم يجزم بنفعها له، ولم يقل: كلمة تخرجك من النار.

ب- أنه سبحانه أذن للنبي ﷺ بالشفاعة لعمه مع كفره، وهذا لا يستقيم إلا له، والشفاعة له لِيُخَفَّفَ عنه العذاب.

ويضعف الوجه الأول أن المعنى ظهرت عليه علامات الموت: بأن قوله: «لما حضرت أبا طالب الوفاة» مطابقاً تماماً لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ (١) وعلى هذا يكون الأوضح في الجواب أن هذا خاص بالنبي ﷺ مع أبى طالب نفسه.

الإشكال الثالث: أن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ فى سورة التوبة، وهى متأخرة مدنية، وقصة أبى طالب مكية، وهذا يدل على تأخر النهى عن الاستغفار للمشركين، ولهذا استأذن النبي ﷺ للاستغفار لأمه وهو ذاهب للعمرة.

ولا يمكن أن يستأذن بعد نزول النهى، فدل على تأخر الآية، وأن المراد بيان دخولها فى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (٢)، وليس المعنى أنها نزلت فى ذلك الوقت.

وقيل: إن سبب نزول الآية هو استئذانه ربه فى الاستغفار لأمه، ولا مانع من أن يكون للآية سببان.

[قلت]: ولا مانع من تأخر نزول الآية عن سببها كما تقدم من كلام الحافظ وتقرر ذلك فى كتب علوم القرآن وضربوا لذلك أمثلة منها حكم اللعان وآية النور التى نزلت

(١) النساء: ١٨.

(٢) التوبة: ١١٣.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية.

الثانية: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ...﴾ الآية.

بعد حادثتين الأولى قذف هلال ابن أمية بشريك من سحماء^(١) والثانية قذف عويمر العجلاني امرأته^(٢) والرويتان في الصحيح.

الإشكال الرابع: أن أهل العلم قالوا: يسن تلقين المحتضر لا إله إلا الله، لكن بدون قول قل، لأنه ربما مع الضجر يقول: لا، لضيق صدره مع نزول الموت، أو يكره هذه الكلمة أو معناها، وفي هذا الحديث قال: «قل».

والجواب: إن أباطالب كان كافراً، فإذا قيل له: قل وأبى؛ فهو باق على كفره، لم يضره التلقين بهذا؛ فإما أن يبقى على كفره ولا ضرر عليه، وإما أن يهديه الله، بخلاف المسلم، فهو على خطر لأنه ربما يضره التلقين على هذا الوجه.

[قلت]: بل ثبت عن الرسول ﷺ أنه لقن المسلمين كذلك بلفظ «قل» كما في المسند من حديث أنس: أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من الانصار فقال: يا خال! قل: لا إله إلا الله، فقال: أخاك أم عم فقال: بل خال... الحديث(*)

فيه مسائل

● الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

قال ابن عثيمين^(٣): أى: من أحببت هدايته، وسبق تفسيرها، وبيننا أن الرسول ﷺ إذا كان لا يستطيع أن يهدي أحداً وهو حي، فكيف يستطيع أن يهدي أحداً وهو ميت؟! وأنه كما قال الله تعالى في حقّه: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾^(٤).

● الثانية: تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية.

وقد سبق تفسيرها وبيان تحريم استغفار المسلمين للمشركين ولو كانوا أولى قربي.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في اللعان (١١/٣٨٢/٥) عن أنس به.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في اللعان (١/٣٧٧/٥) عن سهل بن سعد به.

(*) أخرجه أحمد في المسند (٣/١٥٢، ١٥٤، ٢٦٨) وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» على شرط

مسلم.

(٣) القول المفيد ١/٤٥٧ - ٤٦٤.

(٤) الجن/ ٢١

الثالثة: وهى المسألة الكبيرة، تفسير قوله: ﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ بخلاف ما عليه من يدعى العلم.

والخطر من قول بعض الناس لبعض زعماء الكفر إذا مات: (المرحوم)، فإنه حرام لأن هذا مضادة لله - سبحانه وتعالى - وكذلك يحرم إظهار الجزع والحزن على موتهم بالإحداد أو غيره، لأن المؤمنين يفرحون بموتهم، بل لو كان عندهم القدرة والقوة لقاتلهم حتى يكون الدين كله لله أهد.

[قلت]: لأن الكافر لو عنده القدرة والاستطاعة لقتل المسلمين قال تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ فإن استطاعوا سيفعلون ذلك.

● الثالثة: وهى المسألة الكبيرة: تفسير قوله «قل لا إله إلا الله»

أى: الكبيرة من هذا الباب، وقوله: (أى قول النبى ﷺ) لعمه: «قل لا إله إلا الله» وعمه عرف المعنى أنه التبرؤ من كل إله سوى الله، ولهذا أبى أن يقولها لأنه يعرف معناها ومقتضاها وملزوماتها.

وقوله: «بخلاف ما عليه من يدعى العلم» كأنه يشير إلى تفسير المتكلمين لمعنى لا إله إلا الله، حيث يقولون: إن الإله هو القادر على الاختراع، وأنه لا قادر على الاختراع والإيجاد والإبداع إلا الله، وهذا تفسير باطل.

نعم، هو حق لا قادر على الاختراع إلا الله، لكن ليس هذا معنى لا إله إلا الله، ولكن المعنى: لا معبود حق إلا الله، لأننا لو قلنا: إن معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله، صار المشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ واستباح نساءهم وذريتهم وأموالهم مسلمين، فالظاهر من كلامه رحمه الله أنه أراد أهل الكلام الذين يفسرون لا إله إلا الله بتوحيد الربوبية، وكذلك الذين يعبدون الرسول والأولياء ويقولون: نحن نقول لا إله إلا الله.

[قلت]: أو لعله يقصد دعاة الضلالة من أهل البدع والاهواء ومن غيرهم الذين يشار إليهم بالبنان فى هذه الأيام يزينون للعوام أنه من قال لا إله إلا الله وإذا نذر لغير الله أو ذبح لغير الله فى ذروة الإسلام وقد قال عليه الصلاة والسلام فيهم «دعاة على أبواب جهنم من أجا بهم إليها قذفوه فيها»^(١) والسلام.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٠٨٤) عن حذيفة به.

الرابعة: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا قَالَ لِلرَّجُلِ: قُلْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»؛ فَقَبَّحَ اللَّهُ مَنْ أَبُو جَهْلٍ أَعْلَمُ مِنْهُ بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ.

الخامسة: جِدُّهُ ﷺ وَمُبَالَغَتُهُ فِي إِسْلَامِ عَمِّهِ.

● الرابعة: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ.

أبو جهل ومن معه يعرفون مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ بقول: لا إله إلا الله، ولذا ثاروا وقالوا له: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» وهو أيضًا أبى أن يقولها لأنه يعرف مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا تَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ (١).

فالخاصل أَنَّ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَيْ: لَا قَادِرَ عَلَى الْإِخْتِرَاعِ إِلَّا هُوَ، أَوْ يَقُولُونَهَا، وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ كَالْأَوْلِيَاءِ هُمْ أَجْهَلُ مِنْ أَبِي جَهْلٍ. واحترز المؤلف في عدم ذكر من مع أبى جهل لأنهم أسلموا، وبذلك صاروا أعلم ممن بعدهم، خاصة من هم في العصور المتأخرة في زمن المؤلف رحمه الله أ. هـ.

[قلت]: فأبو جهل يعرف مراد النبي ﷺ ونحن لا نعرف مراد النبي ﷺ نسأل الله العفو والعافية. وعرف أن مجرد لا إله إلا الله أنها الرغبة عن ملة عبد المطلب وعن دين عبد المطلب.

● وفيها أن من يتمسك بدين الآباء إنما يتمسك بشبهة أبى جهل.

من يتمسك بدين الأجداد وبخالف به دين الله ورسله إنما يتمسك بشبه أبى جهل ويكفى في تقبيحها أن يعرف أن سلفة في ذلك هو أبو جهل أيضًا من كان من أسلاف أبى جهل من جهله الكفار قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وقال ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾.

● الخامسة: جِدُّهُ وَمُبَالَغَتُهُ فِي إِسْلَامِ عَمِّهِ.

حرصه ﷺ وكونه يتحمل أن يحاج بالكلمة عند الله واضح من نص الحديث، لسببين هما:

١- القرابة.

٢- لما أسدى للرسول ﷺ والإسلام من المعروف، فهو علي هذا مشكور، وإن كان

على كفره مأزوراً وفى النار، ومن مناصرة أبى طالب أنه هجر قومه من أجل معارضة النبي ﷺ مناصرتة، وكان يعلن على الملأ صدقه، ويقول قصائد فى ذلك ويمدحه، ويصبر على الأذى من أجله، وهذا جدير بأن يحرص على هدايته، لكن الأمر بيد مقلب القلوب كما فى الحديث: «إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء» ثم قال ﷺ فى نفس الحديث: «اللهم! مصرف القلوب! صرف قلوبنا على طاعتك»^(١).

[قلت]: ولواقف عمه مع الإسلام ومع المسلمين ومع الرسول ﷺ ولقرباته للنبي ﷺ.

كان حريص على إسلامه.

لكن المصنف لم يرد ذلك فقط إنما هو يقول أنه برغم حرصه على إسلام عمه إلا إن الأمر لم يكن بيديه ﷺ بل كان بيدى الله «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ».

إنك لا تهدي من أحببت هدايته برغم حرصك على هدايته.

وتقدم معنا أن النبي ﷺ يش من إسلام قوم حتى لعنهم ودعا عليهم وقال اللهم العن فلاناً وفلاناً. فأنزل الله «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ» فأسلموا وطمع فى إسلام قوم وحرص على إسلامهم فماتوا على الكفر فالحقيقة أن: «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدٍ» وكما أن الله الشفاعة جميعاً أيضاً قلله الهداية جميعاً وفعلاً هذه القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. وليس بيدك بل حتى قلب النبي ﷺ بيدى الله. وإن صح الأثر الذى فى السنن وغيره «اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلومنى فيما لا أملك وتملك»^(٢) حينما كان يعدل بين نساءه فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. لذلك كان النبي يدعو بهذا الدعاء «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا» وقال: «اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك».

والحديث فى صحيح مسلم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

فبدل من أن تطمع فى الهداية من شخص حتى لو كان الرسول، فالرسول لا يملك

(١) رواه مسلم. وانظر كتابى فقه الخطابة خطبة «تجديد الايمان».

(٢) سيأتى تخريجه.

السادسة: الردُّ على مَنْ زَعَمَ إِسْلَامَ عَبْدِ الْمُطْلَبِ وَأَسْلَافِهِ.

السابعة: كَوْنُهُ ﷺ اسْتَغْفَرَ لَهُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، بَلْ نُهِىَ عَنْ ذَلِكَ.

لنفسه شيئاً فضلاً على أن يملك ذلك لغيره ولمن أحب ذلك له وحرص على ذلك له لعمه أبى طالب أطمع فى الهداية من الله نسال الله أن يثبت قلوبنا على طاعته.

● السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب.

بدليل قولهما: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» حين أمره النبي ﷺ أن يقول لا إله إلا الله، فدل على أن ملة عبد المطلب الكفر والشرك.

وفى الحديث رد على من قال بإسلام أبى طالب أو نبوته كما تزعمه الرافضة، قَبَّحَهُمُ اللهُ، لأن آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.

قلت: ولعلمهم زعموا ذلك الزعم؛ لأن عبدالمطلب أظهر إسلام فى مواقف منها فى غزوة أبرهة للكعبة دعى الله عز وجل فقال

اللهم أن العبد يمنح رحلة فأمنع رحالك

لا يغلبنا صليبيهم ومحالهم أبداً محالك

فإن كنت تاركهم وقبلتنا فافعل ما بدالك

فظنوا أن هذا إسلام منه لكن الأمر كما قال الله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يعنى هذا فعلاً إسلام لكن هو على شركه. وأيضاً هذا كان إسلامهم فى حالة الشدة ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ﴾ والآيات فى هذا المعنى كثيرة لكن هذا ليس معناه أنهم عند الرخاء ظلوا على إسلامهم لكن عند الرخاء رجعوا إلى دين آبائهم. وهو وضع كفره فى هذا الحديث حينما قال أبو جهل «أترغب عن ملة عبدالمطلب» إذاً فملة عبدالمطلب غير ما يدعوا إليه الرسول ﷺ وكذلك أيضاً فى الرد على من زعم إسلام أبو طالب نفسه لأنه مات فكان آخر كلامه «على ملة عبدالمطلب» فلم يقل لا إله إلا الله بل أبى أن يقول لا إله إلا الله.

● السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يُغفر له.

الرسول ﷺ أقرب الناس أن يجيب الله دعاءه، ومع ذلك اقتضت حكمة الله أن لا يُجيب دعاءه لعمه أبى طالب، لأن الأمر بيد الله لا بيد الرسول ولا غيره، قال تعالى:

الثامنة: مَضَرَّةُ أَصْحَابِ السُّوءِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾^(٢) ليس لأحد تصرف في هذا الكون إلا ربُّ الكون.

وكذا أمُّه ﷺ لم يؤذن له في الاستغفار لها، فدلَّ على أنَّ أهل الكفر ليسوا أهلاً للمغفرة بأي حال، ولا يُجاب لنا فيهم، ولا يحل الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإنما يُدعى لهم بالهداية وهم أحياء أ.هـ.

[قلت]: لهذا كان إبراهيم عليه السلام يدعو لأبيه وهو حي فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه وهذا مؤدى ما جاء عن ابن عباس، وانظر متأملًا النبي ﷺ مع جلالة قدره وأنه أعظمنا وأخشانا وأتقانا أعظم الخلق على الإطلاق واستغفر له فعلاً ومع ذلك لم يغفر الله له.

وهو أقرب الناس للإستجابة والإجابة ويدعوا لأقرب الناس إليه ومع ذلك لم يستجيب الله له وهذا يؤكد على معنى قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ﴾ وعلى قوله ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ وعلى قوله تعالى ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فليس لأحد تصرف في الكون إلا بعد أمره. وإلا بعد إذنه أياً كان هذا التصرف. لا إستغفار ولا شفاعة ولا هداية ولا شيء وحقيقة هذا من كمال الألوهية وكمال الربوبية، والذي يقر بذلك قولاً وعملاً بالفعل هو من كان على كمال العبودية وكمال الذل والطاعة لله عز وجل أما من ظن غير ذلك في ربوبية الله فهو يقدر في كمال ربوبية الله عز وجل وهو لم يكمل عبوديته لله سبحانه وتعالى.

● الثامنة: مَضَرَّةُ أَصْحَابِ السُّوءِ عَلَى الْإِنْسَانِ.

المعنى أنه لولا هذان الرجلان، لربما وفق أبو طالب إلى قبول ما عرضه النبي ﷺ لكن هؤلاء - والعياذ بالله - ذكَّراه نعمة الجاهلية ومضرة رفقاء السوء، ليس خاصاً بالشرك، ولكن في جميع سلوك الإنسان، وقد شبه النبي ﷺ جليس السوء بنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، أو تجد منه رائحة كريهة^(٣)، وقال ﷺ: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(٤) وذلك لما بينهما من الصحبة والاختلاط، وكذلك روى عن

(١) آل عمران: ١٥٤.

(٢) هود: ١٢٣.

(٣) [صحيح] أخرجه البخاري: (١ - ٢١).

(٤) سبق.

التاسعة: مَضَرَّةُ تَعْظِيمِ الْأَسْلَافِ وَالْأَكَابِرِ.

النبي ﷺ بسند لا بأس به: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»^(١) فالهمم أنه يجب على الإنسان العاقل أن يفكر في أصحابه: هل هم أصحاب سوء؟ فليبعد عنهم لأنهم أشدّ عداً من الجرب، أو هم أصحاب خير: يأمرونه بالمعروف، وينهونه عن المنكر، ويفتحون له أبواب الخير، فعليه بهم.

[قلت]: لذلك قال ﷺ: «لا تصاحب لا مؤمناً ولا يأكل طعامك الا تقياً»^(٢) وأيضاً لعل في معنى الصاحب الأب والأم والزوجة كذلك. ففى تفسير قول الله تعالى «وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ» أنها الزوجة «وَالْجَارِ الْجُنْبِ» أنها الزوجة أيضاً.

● التاسعة: مَضَرَّةُ تَعْظِيمِ الْأَسْلَافِ وَالْأَكَابِرِ.

لأنّ أبا طالب اختار أن يكون على ملّة عبد المطلب حين ذكرّوه بأسلافه مع مخالفته لشريعة النبي ﷺ.

وهذا ليس على إطلاقه، فتعظيمهم إن كانوا أهلاً لذلك فلا يضرّ، بل هو خير، فأسلافنا من صدر هذه الأمة لا شك أن تعظيمهم وإنزالهم منازلهم خير لا ضرر فيه.

وإن كان تعظيم الأكابر لما هم عليه من العلم والسنّ، فليس فيه مَضَرَّةٌ وإن كان تعظيمهم لما هم عليه من الباطل، فهو ضرر عظيم على دين المرء، فمثلاً: من يُعظّم أبا جهل لأنّه سيد أهل الوادي، وكذلك عبد المطلب وغيره، فهو ضرر عليه، ولا يجوز أن يرى الإنسان في نفسه لهؤلاء أى قدر، لأنّهم أعداء الله - عز وجل - وكذلك لا يُعظّم الرؤساء من الكفّار في زمانه، فإنّ فيه مَضَرَّةٌ لأنّه قد يُورث ما يُضادّ الإسلام، فيجب أن يكون التعظيم حسب ما تقتضيه الأدلّة من الكتاب والسنة.

قلت: ومن ذلك تعظيم الفراعين وجعل آلهتهم شعاراً على كل الهيئات والاعتزاز والافتخار بذلك لهذا قال ﷺ: «من انتسب الى تسعة آباء كفار يريد بهم عزا وفخراً فهو عاشرهم في النار».

(١) تقدم.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٨/٣)، وأبو داود (٤٨٣٢)، والترمذى (٢٣٩٥) وانظر «رياض الصالحين» (٣٦٧ - بتحريجنا).

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك؛ لاستدلال أبي جهل بذلك.

قال الحافظ: رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن(*) .

• العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك لاستدلال أبي جهل بذلك.

شبه المبطلين في تعظيم الأسلاف هي استدلال أبي جهل بذلك في قوله: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» وهذه الشبهة ذكرها الله في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ (١).

فالمبطلون يقولون في شبهتهم: إن أسلافهم على الحق وسيقتدون بهم، ويقولون: كيف نسفهم أحلامهم، ونضل ما هم عليه ؟

وهذا يوجد في المتعصبين لمشايخهم وكبرائهم ومذاهبهم، حيث لا يقبلون قرآناً ولا سنة في معارضة الشيخ أو الإمام، حتى إن بعضهم يجعلهم معصومين، كالرافضة، والتيجانية، والقاديانية، وغيرهم، فهم يرون أن إمامهم لا يخطئ، والكتاب والسنة يمكن أن يخطئا.

والواجب على المرء أن يكون تابعاً لما جاء به الرسول ﷺ.

[قلت]: والواجب على المرء أن يكون متعصب فقط لله ولشرعة ولرسوله وسنته وأما من نصب شخصاً غير الرسول ووالى عليه وعادى عليه فهذا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا أُولَٰئِكَ لَسْتَ فِي شَيْءٍ﴾ وأيضاً قال ﷺ للمهاجرين والأنصار: حينما تعصب مهاجرينهم للمهاجرين وأنصارهم للأنصار قال: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم) (٢) فهذه العصبية إذا لم تكن لله وللرسول فهي جاهلية. إذا لم تكن مضبوطة بضابط شرعى فهي جاهلية وهى متنة وهى خبيثة كما قال النبى ﷺ للمهاجرين والأنصار (أبدعوى الجاهلية وأنا بينس أظهركم) ! ذروها فإنها متنة ذروها فإنها خبيثة) ونسأل الله أن يؤلف بين قلوب المسلمين أجمعين ويوحد صفهم وينصرنا على عدونا أ.هـ.

(*) الفتح (٦/٦٣٧) وتقدم الحديث في مبحث الولاء والبراء.

(١) الزخرف: ٢٣.

(٢) تقدم تخريجه.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قالها لنفعته.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين؛ لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره؛ فلاجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصرُوا عليها.

وأما من خالفه من الكبراء والأئمة، فإنهم لا يحتج بهم على الكتاب والسنة، لكن يعتذر لهم عن مخالفة الكتاب والسنة إن كانوا أهلاً للاعتذار، بحيث لم يعرف عنهم معارضة للنصوص، فيعتذر لهم بما ذكره أهل العلم، ومن أحسن ما أُلّف في ذلك كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» أما من يعرف بمعارضة الكتاب والسنة، فلا يعتذر له.

● الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم.

وهذا مبني على القول بأن معنى حضرته الوفاة، أي: ظهرت عليه علاماتها ولم ينزل به كما سبق.

[قلت]: أي الشاهد لقول: النبي ﷺ «الأعمال بالخواتيم» الحديث وفيه أن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينها وبينه لا ذراعاً فيسبق عليه الكتاب فيعمل أهل النار فيدخلها.

● الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين.. إلخ

وهذه الشبهة هي تعظيم الأسلاف والأكابر.

[قلت]: يعنى مسألة شبهة دين الأباء هذه عظيمة في صدورهم وكبيرة في نفوسهم، لأنهم كما قال الشيخ محمد بن الوهاب لما ذكر القصة بين أنهم لم يجادلوه إلا بها فقط، يعنى لم يأتوا بأدلة من كتاب ولا من سنة ولا كذا أو كذا.. بل قالوا له فقط «أترغب عن ملة عبدالمطلب» فقط وكان هذا كفيلاً أن يرده عن كل حق، ويرده عن كل خير، فهذا بيان لهذه الشبهة الكبيرة في نفوس المبطلين. نسأل الله العفو والعافية بهذا انتهى هذا الباب بما فيه ولله الحمد والمنة.



باب (١٨)

ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم

دينهم هو الغلو في الصالحين

- مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال سليمان آل الشيخ^(١): لما ذكر المصنف - رحمه الله - بعض ما فعله عبّاد القبور مع الأموات من الشرك.

قلت: كالذبح لهم وطلب الشفاعة منهم والإستغاثة بهم والتبرك بهم وطلب النفع ودفع الضر من جهتهم.

ثم قال سليمان آل الشيخ: أراد أن يبين السبب في ذلك ليحذر، وهو الغلو مطلقاً لاسيما في الصالحين فإنه أصل الشرك قديماً وحديثاً لقرب الشرك بالصالحين من النفوس فإن الشيطان يظهره في قالب المحبة والتعظيم. اهـ.

- شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب

قال حامد بن محمد بن حسن^(٢): باب ما جاء في بيان ما يدل من الكتاب والسنة أن سبب كفر بني آدم بربهم الذي خلقهم من ماء مهين الذي يخرج من بين الصلب والترائب خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن وظلمة الرحم، وظلمة القميص ثم دبّره بأحسن التدبير وهم أجنّة في بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم أذن له بالخروج بالرفق واللين فأدر عليه ثدي أمه بالحليب السائغ إلى حد الفطام ثم أخرج له أسنان منها للقطع ومنها للتنعيم والتطحين، فأنعم عليه من كلّ نعمة كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾^(٣). وجعل عليه حفظة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(٤).

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٢٤.

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٢٨٣.

(٣) إبراهيم ٣٤.

(٤) الأعراف (٢).

ومع ذلك كله إنهم اتخذوا الشيطان وذريته أولياء من دون الله وأطاعوهم فى المعاصى حتى آلت بهم المعاصى إلى الكفر وتركهم دينهم الذى فطرهم الله عليه وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فزين لهم الشيطان أعمالهم واجتهادهم.

بالغلو فى الصالحين قديماً وحديثاً، فأحدث عليهم ذلك الشرك بالله فى حقه الذى لا يستحقه إلا هو لا إله إلا هو، وقد نهى الله تعالى عن الغلو فى كتابه الذى أمر الله عباده باتباعه قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ (١). أ.هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ (٢): أراد المصنف - رحمه الله تعالى - بيان ما يؤول إليه الغلو فى الصالحين من الشرك بالله فى الإلهية الذى هو أعظم ذنب عُصى الله به، وهو ينافى التوحيد الذى دلّت عليه كلمة الإخلاص: شهادة أن لا إله إلا الله أ.هـ.

قال ابن باز (٣): بين المؤلف سبب كفرهم وأغلبه هو الغلو فى الصالحين فهناك أسباب أخرى كالحسد والبغى والغالب أنهم أحبوا الأنبياء والصالحين حتى غلو فيهم فكفروا ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ هذا النصارى وكذلك اليهود لكن النصارى أكثر غلوا.

والمقصود من الباب التحذير من الغلو فى حب الصالحين والأنبياء، وحبهم دين حيث قال ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ والحب والبغض فى الله من الدين كما قال ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» (*) لكن هذا الحب لا يكون بالغلو بل باتباعهم وعدم عصيانهم وطاعتهم لابعادتهم من دون الله عز وجل وهكذا العلماء والصالحين يكون حبهم بالترضى عنهم والسير على منهجهم فيجب أن تكون محبة شرعية. اهـ.

قلت: ويؤيد هذا أيضاً ما جاء فى الصحيح عنه ﷺ.

(١) الرعد: ١١. (٢) فتح المجيد ٢٧٧.

(٣) التعليق المفيد ١١٣.

(*) ضعيف: أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة وأخرجه غيره واستغربه ابن عساكر وضعفه الألبانى انظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٢/ ١٠٦١ / ح ٧٢٥ ب).

«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان». وفي الحديث الضعيف: «حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». وسيأتى فى متن كتاب التوحيد.

قال ناصر السعدى^(١): والناس فى معاملة الصالحين ثلاثة أقسام:

أهل الجفاء الذين يهضمون حقوقهم ولا يقومون بحقوقهم من الحب والموالة لهم والتوقير والتبجيل.

وأهل الغلو الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التى أنزلهم الله بها.

وأهل الحق الذين يحبونهم ويوالونهم ويقومون بحقوقهم الحقيقية ولكنهم يبرؤون من الغلو فيهم وادعاء عصمتهم.

والصالحون أيضاً يتبرؤون من أن يدَّعوا لأنفسهم حقاً من حقوق ربهم الخاصة، كما قال الله عن عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

واعلم أن الحقوق ثلاثة:

● حق خاص لله لا يشاركه فيه مشارك وهو التأله له وعبادته وحده لا شريك له، والرغبة، والإنابة إليه حباً وخوفاً ورجاءً.

● وحق خاص للرسل وهو توقييرهم وتبجيلهم والقيام بحقوقهم الخاصة.

● وحق مشترك وهو الإيمان بالله ورسله، وطاعة الله ورسله، ومحبة الله ومحبة رسله، ولكن هذه لله أصلاً وللرسل تبعاً لحق الله.

فأهل الحق يعرفون الفرقان بين هذه الحقوق الثلاثة فيقومون بعبودية الله وإخلاص الدين له، ويقومون بحق رسله وأوليائه على إختلاف منازلهم ومراتبهم والله أعلم أهـ.
قوله: (سبب).

قال ابن عثيمين^(٢): السبب فى اللغة: ما يتوصل به إلى غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾^(٣).

(١) القول السديد ٦٢ و٦٣.

(٢) القول المفيد ١/٤٦٥.

(٣) الحج: ١٥.

أى: بشئ يوصله إلى السماء ومنه أيضاً سُمى الحبلُ سبياً، لأنه يتوصل به إلى استسقاء الماء من البئر.

[قلت]: واصطلاحاً: وصف ظاهر منضبط جعله الشارع سبياً لأمر ما بحيث يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم كروية الهلال سبب لصيام رمضان.
قوله: (بنى آدم)^(١):

قال ابن عثيمين: - يشمل الرجال والنساء.

قلت كما فى قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية يعنى استروا عوراتكم وكقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾^(٢) الآية.

ثم قال ابن عثيمين: ولأنه إذا قيل: بنو فلان وهم قبيلة؛ شمل ذكورهم وإناثهم، أما إذا قيل: بنو فلان، أى رجل معين: فالمراد بهم الذكور ا. هـ.
قوله: (وتركهم)

قال سليمان آل الشيخ^(٣): أما تركهم فهو مجرور عطفاً على المضاف إليه. اهـ.

قال ابن عثيمين: ^(٤) يعنى سبب تركهم.

قوله: (دينهم).

قال ابن عثيمين: مفعول ترك، لأن ترك مصدر ومضاف إلى فاعله و«دينهم» يكون مفعولاً به^(٥).

قوله: «الغلو»:

قال ناصر السعدى^(٦): والغلو هو مجاوزة الحد بأن يجعل للصالحين من حقوق الله الخاصة به شئ، فإن حق الله الذى لا يشاركه فيه مشارك هو الكمال المطلق، والغنى المطلق، والتصرف المطلق، من جميع الوجوه، وأنه لا يستحق العبادة والتأله أحد سواه، فمن غلا بأحد من المخلوقين حتى جعل له نصيباً من هذه الأشياء فقد ساوى به رباً

(١) المصدر السابق فى القول المفيد.

(٢) الأعراف: ٢٧.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٢٤.

(٤) القول المفيد (١/٤٦٦).

(٥) المصدر السابق.

(٦) القول السديد ٦٠ و٦١.

العالمين، وذلك أعظم الشرك، ومن رفع أحداً من الصالحين فوق منزلته التي أنزله الله بها فقد غلا فيه وذلك وسيلة إلى الشرك وترك الدين اهـ.

قال ابن عثيمين: (١) هو مجاوزة الحد بالثناء قدحاً أو مدحاً.

قلت: والدليل على أن الثناء يأتي بالقدح أو بالمدح ما ثبت في الصحيح عن أنس بن مالك - يقول: «مروا بجنازة فأتوا عليها خيراً، فقال النبي ﷺ «وجبت»، ثم مروا بأخرى فأتوا عليها شراً، فقال: وجبت، فقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ما وجبت قال: «هذا أثبتتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثبتتم عليه شراً فوجبت له النار. أنتم شهداء الله في الأرض» (٢). ولقد حدث الأمران في من قبلنا، فعيسى عليه السلام حصل فيه الغلو بالمدح فرفعه قوم إلى درجة الألوهية، وحصل فيه الغلو بالقدح فجعله اليهود ولد زنى.

والغالب من مراد المصنف في هذا الباب أنه أراد مجاوزة الحد في الثناء بالمدح كما تقدم، ولا استبعد الأخرى لأن من أسباب كفر اليهود أنهم تجاوزوا الحد في عيسى بالقدح فكفروا بذلك.

وكما حدث الغلو بنوعيه في من قبلنا كذلك حدث في هذه الأمة، فنرى شخصاً واحداً يرفعه الناس تارة ويدنوه أخرى وخير الأمور كما قال عبدالله بن مطرف أوسطها وتلك الحسنة بين السيتين، وهذه هي الوسطية التي بعث بها النبي ﷺ وهذا هو شرعنا شرع وسط الذي من تخلف عنه فهو مُتَطَرِّف. والله أعلم.

قوله (الصالحين):

قال ابن عثيمين: (٣) الصالح هو الذى قام بحق الله وحق العباد.

قلت: كما فى الحديث عن ابن عمر مرفوعاً «نعم الرجل عبدالله لو كان يصلى من الليل» (٤) أو عبدالله رجل صالح وكما فى الصحيح من حديث جابر مرفوعاً لما توفى

(١) المصدر السابق.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٣٦٧)، ومسلم فى الجناز (١٨/٧ - النووى) عن أنس به.

وانظر «رياض الصالحين» (٩٥٢ - بتخريجنا).

(٣) «القول المفيد» (٤٤٦/١). (٤) تقدم تخريجه.

النجاشي قال ﷺ: «قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش»^(١) وعند مسلم «مات اليوم عبدالله صالح أصحمة»^(٢).

والصالح أيضاً هو من قام بحق الله الواجب عليه وزيادة أى قام بالواجبات والمستحبات ويدل عليه حديث ابن عمر المتقدم الذى قال فيه «عبدالله رجل صالح لو كان يقوم الليل»^(٣). وهو كان يقوم بالواجب فوصفه بالصلاح إذا قام بما هو زائد عن ذلك وهو المستحبات كقيام الليل.

ثم قال ابن عثيمين: وفى هذه الترجمة إضافة الشيء إلى سببه بدون أن يُنسب إلى الله بقوله «أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم هو الغلو فى الصالحين»، هذا جائز إذا كان السبب حقيقة وصحيحاً، وذلك إذا كان السبب قد ثبت من قبل الشرع أو الحس أو الواقع.

وقد قال الرسول ﷺ: «لولا أنا؛ لكان فى الدرك الأسفل من النار»^(٤) يعنى: عمه أبا طالب اهـ.

قلت: وإضافة الشيء إلى سببه بدون أن ينسب إلى الله عزوجل - جائز فى حالتين. الأولى: ألا ينسب إل تأديباً معه وإن كان هو منه سبحانه كما قال: ﴿قل كل من عند الله﴾ وكما جاء فى الأثر «والشر ليس إليك» وكذلك قول أيوب ﴿إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب﴾ وقول إبراهيم ﴿وإذا مرضت فهو يشفينى﴾ ومثال ذلك أيضاً ترجمة الصنف فى هذا الباب.

الثانية: أن يكون هذا السبب ثبت شرعاً أو حساً أو واقعاً فجائز أن يضاف الشيء إلى سببه الثابت بتلك الثلاثة، ويستدل عليه بقوله ﷺ: «لولا أنا، لكان فى الدرك الأسفل فى النار»^(٥) وقد تقدم كلام ابن عثيمين فى ذلك.



(١) [صحيح] أخرجه البخارى (١٣٢٠) عن جابر به.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجناز (٦٦/٢٦/٤) عن جابر أيضاً.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) سيأتى تخريجه.

(٥) سيأتى تخريجه.

وقول الله - عزوجل - : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (١)

قوله: وقول الله عزوجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الآية.

- مناسبة الآية للباب:

قال عبدالله بن جابر الله (٢): أن من دعا نبياً أو ولياً من دون الله فقد اتخذه إلهاً وشابه النصارى في شركهم واليهود في تفريطهم أ.هـ.

قال القرعاوى (٣): حيث دلت الآية على أن سبب خروج أهل الكتاب من دينهم هو غلو النصارى في تعظيم عيسى وغلو اليهود في ذمّه أ.هـ.

- مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٣): وإنما اعتبر مثل هذا شركاً لأن النصارى نزّلوا عيسى منزلة الله فعبده معه. اهـ.

قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

الإعراب:-

قال محيي الدين درويش (٤): كلام مستأنف مسوق لتحذير أهل الكتاب من المغالاة.

ويا حرف نداء وأهل الكتاب منادى مضاف نداء وهم اليهود والنصارى، والكتاب: التوراة لليهود: والإنجيل للنصارى (٥). ولا ناهية وتغلوا فعل مضارع مجزوم بلا، وفي دينكم متعلقان بتغلوا. اهـ.

التفسير بالقرآن

قال الشنيطي (٦): هذا الغلو الذي نهوا عنه هو وقول غير الحق هو قول بعضهم إن عيسى ابن الله، وقول بعضهم هو الله، وقول بعضهم هو إله مع الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً كما بينه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (٧).

(٢) «الجامع الفريد» ٧٩.

(١) النساء: ١٧.

(٤) إعراب القرآن ٣٨٩/٢.

(٣) «الجديد» ١٧٤.

(٦) أضواء البيان ١/ ٣٤٠.

(٥) القول المفيد ٤٦٧/١.

(٧) التوبة: ٣٠.

وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (١).

وقوله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ (٢) وأشار هنا إلى إبطال هذه المفتريات بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ (٣).

وقوله: ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ (٤).

وقوله ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾. وقوله: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أ. هـ.

قال ابن كثير (٥): ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء وهذا كثير في النصراني فإنهم تجاوزوا هذا التصديق بعيسى، حتى رفعوه فوق المنزلة... بل قد غلوا في اتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوا، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً. ولهذا قال تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية. اهـ.

ويفسر الآية الأحاديث التي بعده في الباب.

روى أحمد بسنده عن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنظروني كما أطرت النصراني عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبدالله ورسوله» (٦).

ورواه البخاري بسنده عن الزهري به بلفظ «فإنما أنا عبدالله ورسوله» (٧).

وروى أحمد بسنده عن أنس بن مالك، أن رجلاً قال: يا محمد ياسيدنا، وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا. فقال رسول الله ﷺ «يا أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهويكم الشيطان، أنا محمد بن عبدالله، عبدالله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله - عز وجل -» (٨).

وروى مسلم عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها

(١) المائدة: ١٧.

(٢) المائدة: ٧٣.

(٣) النساء: ١٧١.

(٤) النساء: ١٧٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٨٢.

(٦) سيأتي تخريجه.

(٨) سيأتي تخريجه.

(٧) سيأتي تخريجه.

إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله من أبواب الجنة الثمانية، من أيها شاء على ما كان من عمل»^(٣).

عن قتادة في قوله ﴿لَا تَغْلُوا﴾^(٤). قالوا: لا تبتدعوا.

وروى عن الحسن: أنه خطاب لليهود والنصارى، لأن النصارى غلوا في المسيح فجاوزوا به منزلة الأنبياء حتى اتخذوه إلهاً، واليهود غالت فيه فجعلوه لغير رِسْدة فعلا الفريقان جميعاً في أمره^(٣).

وروى ابن جرير عن الربيع بن أنس قال: صاروا فريقين فريق غلوا في الدين فكان غلوهم فيه الشك فيه الرغبة عنه وفريق منهم قصرُوا عنه ففسقُوا عن أمر ربهم^(٤).

قلت: أما [الدين] فإنه يطلق ويراد به الجزاء كما قال ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ويطلق ويراد به الطريقة كما قال الله ﴿مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ ويطلق ويراد به العبادة وهو المقصود هنا والمعنى لا تغلوا في عبادتكم وأعمالكم ولا تجعلوها غلواً في الصالحين وسيأتى.

قال الطبري^(٥): يعنى جل ثناؤه بقوله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يا أهل الإنجيل من النصارى ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ يقول لا تجاوزوا الحق في دينكم فتفترطوا فيه، ولا تقولوا في عيسى ﴿غير الحق﴾ فإن قيلكم في عيسى أنه ابن الله قول منكم على الله غير الحق؛ لأن الله لم يتخذ ولداً فيكون عيسى أو غيره من خلقه له ابناً ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

وأصل الغلو في كل شيء: مجاوزة حده الذي هو حده.

يقال منه في الدين قد غلا فهو يغلو غلواً، وغلا بالجارية عظمها ولحمها: إذا أسرع الشباب فجاوزت لداتها. يغلو بها غلواً وغلاءً ومن ذلك قول الحرث بن خالد المخزومي:

خمصانة قلق موشحها رؤد الشباب غلا بها عظم. أهـ

(١) تقدم في أول الكتاب.

(٢) ذكره في الدر المنثور (٢/٤٣٩). ونسبه لابن المنذر.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٢/٤١٢.

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/٣٤).

(٥) المصدر السابق.

قال الجصاص^(١): والغلو في الدين هو مجاوزة حد الحق فيه... ولذلك قيل: دين الله بين المقصر والمغالي أ.هـ.

قال البغوي^(٢): نزلت في النصارى وهم أصناف أربعة: اليعقوبية، والملكانية، والنسطورية، والمرقسية.

فقالت اليعقوبية: عيسى هو الله، وكذلك الملكانية.

وقالت النسطورية: عيسى هو ابن الله.

وقالت المرقسية: ثالث ثلاثة.

فأنزل الله تعالى هذه الآية. ويقال الملكانية يقولون: عيسى هو الله. واليعقوبية يقولون ابن الله، والنسطورية يقولون: ثالث ثلاثة: علمهم رجل من اليهود يقال له بولص اهـ.

قال ابن الجوزي^(٣): قال مقاتل: نزلت في نصارى نجران السيد والعاقب، ومن معهما، والجمهور على أن المراد بهذه الآية النصارى.

وقال الحسن: نزلت في اليهود والنصارى.

والغلو: الإفراط ومجاوزة الحد، وفيه غلا السّعر. وقال الزجاج الغلو: مجاوزة القدر في الظلم.

وغلو النصارى في عيسى قول بعضهم: هو الله، وقول بعضهم هو ابن الله، وقول بعضهم: هو ثالث ثلاثة.

وعلى قول الحسن غلو اليهود فيه قولهم: إنه لغير رِشْدَةٍ.

وقال بعض العلماء: لا تغلوا في دينكم بالزيادة في التشدد فيه اهـ.

قال الرازي^(٤): وأعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات اليهود تكلم بعد ذلك مع النصارى في هذه الآية، والتقدير، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ من النصارى ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أى لا تفرطوا في تعظيم المسيح، وذلك لأنه تعالى حكى عن اليهود أنهم يبالغون في الطعن في المسيح، وهؤلاء النصارى يبالغون في تعظيمه وكلا طرفى قصدهم ذميم، فلهذا قال للنصارى ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ اهـ.

(١) أحكام القرآن ٤١٢/٢.

(٢) معالم التنزيل ١٩٢/٢.

(٣) زاد المسير ١٥٦/٢.

(٤) التفسير الكبير ١١٧/١١/٦.

قال القرطبي^(١): قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ نهى عن الغلو. والغلو التجاوز في الحد؛ ومنه غلا السعر يغلو غلاء؛ وغلا الرجل في الأمر غلوا، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرع الشاب فجاوزت لِدَاتِهَا؛ ويعنى بذلك فيما ذكره المفسرون غلو اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم، وغلو النصارى فيه حتى جعلوه رباً؛ فالإفراط والتقصير كله سيئة وكفر؛ ولذلك قال مطّرف بن عبد الله: الحسنة بين سيئتين؛ وقال الشاعر:

وأوفٍ ولا تسوف حقك كلّه وصافح فلم يستوف قطّ كريمٌ
ولا تغلّ في شيءٍ من الأمور واقتصد كلا طرفي قصْدِ الأمورِ ذميم

وقال آخر:

عليك بأوساط الأمور فإنها نَجاةٌ ولا تركبْ ذُلولا ولا صَعَابا

قال الشوكاني^(٢): والمراد بالآية: النهى لهم عن الإفراط تارة، والتفريط أخرى، فمن الإفراط غلو النصارى في عيسى حتى جعلوه رباً، ومن التفريط غلو اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رشدة أه.

قال ابن تيمية^(٣): ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى وغلا في الدين بإفراط فيه أو تفريط وضاهاهم في ذلك فقد شابههم كالخوارج المارقين من الإسلام، والذين خرجوا في خلافة على بن أبي طالب رضى الله عنه وقتلهم حين خرجوا على المسلمين بأمر النبي ﷺ كما ثبت ذلك من عشرة أوجه في (الصحيح) و (المسانيد) وغير ذلك.

وكذلك من غلا في دينه من الرافضة والقدرية، والجهمية والمعتزلة والأشاعرة، وقال أيضاً: فإذا كان على عهد النبي ﷺ من انتسب إلى الإسلام وقد مرق منه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المستنصب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام وذلك بأسباب: منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه حيث قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾. اه.

قال ناصر السعدى^(٤): ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو:

(١) تفسير القرطبي ٣/ ١٧٠.

(٢) فتح القدير ١/ ٦٣٣.

(٣) الوصية الكبرى نقلاً عن تيسير العزيز الحميد.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٤٣٢.

مجاوزه الحد، والقدر المشروع، إلى مالميس بمشروع. وذلك كقول النصارى، فى غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعته عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذى لا يلىق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط، من المنهيات، فالغلو كذلك. اهـ.

قال الشنقيطى^(١): وقال بعض العلماء: يدخل فى الغلو وغير الحق المنهى عنه فى هذه الآية ما قالوا من البهتان على مريم أيضاً واعتمده القرطبى وعليه فىكون الغلو المنهى عنه شاملاً للتفريط والإفراط.

وقد قرر العلماء أن الحق واسطة بين التفريط والإفراط وهو معنى قول مطرف بن عبدالله: الحسنه بين سيئين وبه تعلم أن مَنْ جَانَبَ التفريط والإفراط فقد اهتدى ولقد أجاد من قال:

ولاتغل فى شيء من الأمر واقتصد كلا طرفى قصد الأمور ذميم. أ.هـ

قال مقبل بن هادى الوادعى^(٢): فى هذه الآية الكريمة وفى الحديثين اللذين بعدهما رد على المبتدعة الذين يعملون الموالد ويحتفلون بها سواء أكان باسم النبى ﷺ أم باسم غيره من الصالحين ولو أنهم شغلوا أنفسهم بالقيام بما أوجب الله عليهم من الجهاد فى سبيل الله وبالدعوة إلى الله وبالعبداء المشروعة لما وجدوا الفراغ الذى جعلهم يتخططون تائهين عن النور الإلهى إلى خزعبلات ما أنزل الله بها من سلطان، وأعداء الإسلام يوردون الشبهات على عوام المسلمين وعلى أشباه العوام ويشككونهم فى دينهم وهؤلاء المخذولون يشغلون المسلمين بالاحتفال بالموالد المبتدعة نسأل الله لنا ولهم الهداية أمين. اهـ.

قال صاحب الظلال^(٣): وفى هذا الدرس يتجه السياق إلى إنصاف الحق والعقيدة، وإنصاف عيسى بن مريم كذلك من غلو النصارى فى شأن المسيح - عليه السلام - ومن الأساطير الوثنية التى تسربت إلى النصرانية السمحة من شتى الأقوام، وشتى الملل، التى احتكت بها النصرانية؛ سواء فى ذلك أساطير الإغريق والرومان، وأساطير قدماء المصريين، وأساطير الهندو!

(٢) تحقيق تفسير ابن كثير ٥٨٣/٢.

(١) أضواء البيان ١/٣٤٠ و٣٤١.

(٣) ٨١٥/٢ و٨١٦.

ولقد تولى القرآن الكريم تصحيح عقائد أهل الكتاب التى جاء فوجدها مليئة بالتحريفات مشحونة بالأساطير؛ كما تولى تصحيح عقائد المشركين، المتخلفة من بقايا الخيفية دين إبراهيم عليه السلام فى الجزيرة العربية ومن ركام فوقها من أساطير البشر وترهات الجاهلية!

لابل جاء الإسلام ليتولى تصحيح العقيدة فى الله للبشر أجمعين؛ وينقذها من كل إنحراف وكل اختلال، وكل غلو، وكل تفريط، فى تفكير البشر أجمعين فصحيح - فيما صحح - اختلالات تصور التوحيد فى آراء أرسطو فى أثينا قبل الميلاد، وأفلاطون فى الإسكندرية بعد الميلاد؛ وما بينهما وما تلاهما من شتى التصورات فى شتى الفلسفات التى كانت تخبط فى التيه، معتمدة على زبالة العقل البشرى، الذى لابد أن تعينه الرسالة، ليهتدى فى هذا التيه.

والقضية التى يعرض لها السياق فى هذه الآيات. هى قضية «التثليث» وما تضمنه من أسطورة «بنوة المسيح» لتقرير وحدانية الله سبحانه على الوجه المستقيم الصحيح.

ولقد جاء الإسلام والعقيدة التى يعتنقها النصارى - على اختلاف المذاهب - هى عقيدة أن الإله واحد فى أقانيم ثلاثة: الآب. والابن، والروح القدس. والمسيح هو «الابن».. ثم تختلف المذاهب بعد ذلك فى المسيح. هل هو ذو طبيعة لاهوتية وطبيعة ناسوتية؟ أم هل هو ذو طبيعة واحدة لاهوتية فقط. وهل هو ذو مشيئة واحدة مع إختلاف الطبيعتين؟ وهل هو قديم كالآب أو مخلوق.. إلى آخر ما تفرقت به المذاهب، وقامت عليه الاضطهادات بين الفرق المختلفة.

والثابت من تتبع التاريخ لأطوار العقيدة النصرانية، أن عقيدة التثليث، كذلك عقيدة بنوة المسيح لله - سبحانه - (ومثلها عقيدة ألوهية أمه مريم، ودخولها فى التثليث المتعددة الأشكال) كلها لم تصاحب النصرانية الأولى. إنما دخلت إليها على فترات متفاوته التاريخ، مع الوثنيين الذين دخلوا فى النصرانية، وهم لم يبرأوا بعد من التصورات الوثنية والآلهة المتعددة.. والتثليث بالذات يغلب أن يكون مقتبساً من الديانات المصرية القديمة، من تثليث «أوزوريس وإيزيس، وحوريس» والتثليث المتعددة فى هذه الديانة.

قلت: ولقد سمعت من بعض قساوسة الشرق بل هو أبوهم الأول على الإطلاق أنه يُنَزَّلُ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ على إيزيس وأوزوريس

وحوريس، ويقول: نعم إنهم كفروا لأن هذا فى الثالوث الوثنى أما الثالوث المقدس أى الذى يعبدونه الآن فلا تعنيه الآية، وفات هذا القس العرض التاريخى الذى يبين أن فكرة التثليث الذى قالوا به إنما هى وثنية أصلاً وكان الأولى به أن يرجع عنها لهذا التشابه الوثنى أو يستحى من ذكرها لولا أن القوم أضل من الحمر كما قال ابن القيم وتقدم معنا الرد على هذه الشبهة من وجوه:

أولها: أنه على هذا الفهم يبقى أن تكون الآية (لقد كفر الذين قالوا إن الله رابع أربعة) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ذلك لأنه إذا ضم إلى إزيس وأوزوريس وحوريس كان رابعهم وليس ثالثهم.

ثانياً: أن الوثنيين لم يقولوا إن الله ثالث ثلاثة إنما قالوا بالوهية الثلاثة وهناك فارق ولم يُثبت هذا العرض التاريخى ولا غيره أن أحداً قال هذا القول إلا النصارى. وتقدم كثير من الرد على هذه الشبهة فى شرح حديث عبادة بن الصامت فى باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب. والله الموفق لا رب سواه.

ثم قال صاحب الظلال: وقد ظل النصارى الموحدون يقاومون الاضطهادات التى أنزلها بهم الأباطرة الرومان. والمجامع المقدسة الموالية للدولة (الملوكانيون) إلى ما بعد القرن السادس الميلادى على الرغم من كل ما لاقوه من اضطهاد وتغرب وتشرد بعيداً عن أيدى السلطات الرومانية!

وما تزال فكرة «التثليث» تصدم عقول المثقفين من النصارى، فيحاول رجال الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشتى الطرق، ومن بينها الإحالة إلى مجهولات لا ينكشف سرها للبشر إلا يوم ينكشف الحجاب عن كل ما فى السماوات وما فى الأرض!

يقول القس بوطر صاحب رسالة: «الأصول والفروع» أحد شراح العقيدة النصرانية، فى هذه القضية: «قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا. ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء فى المستقبل، حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما فى السموات والأرض». اهـ.

ولانريد هنا أن ندخل فى سرد تاريخى للأطوار وللطريقة التى تسلت بها هذه الفكرة إلى النصرانية. وهى إحدى ديانات التوحيد الأساسية. اهـ.

والحاصل من السرد التاريخى عرض غلو النصارى التدريجى حتى وصلوا إلى هذه الدركة. نسأل الله لهم الهداية للإسلام وللتوحيد الحق. اهـ.

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

قال محيي الدين درويش^(١): الواو عاطفة، ﴿وَلَا﴾ ناهية ﴿تَقُولُوا﴾ فعل مضارع مجزوم، و﴿عَلَى اللَّهِ﴾ متعلقان بتقولوا، و﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، و﴿الْحَقَّ﴾ مفعول مطلق على أنه نعت لمصدر محذوف، أى: إلا القول الحق، أو مفعول به لأنه تضمن معنى القول، نحو: قلت قصيدة اهـ.

● أقوال أهل التفسير

قال البغوي^(٢): لا تقولوا إن له شريكاً وولداً اهـ.

قال ابن الجوزي^(٣): قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

أى: لا تقولوا: إن الله له شريك أو ابن أو زوجة اهـ.

قال القرطبي^(٤): أى لا تقولوا إن له شريكاً أو أبناء اهـ.

قال ابن كثير^(٥): وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

أى لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً وتنزه وتقدس وتوحد فى سؤدده وكبريائه وعظمته فلا إله إلا هو ولا رب سواه ولهذا قال ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ اهـ.

قال الشوكاني^(٦): ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهو ما وصف به نفسه ووصفته

به رسله، ولا تقولوا الباطل كقول اليهود عزيز ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله اهـ.

قال السعدى^(٧): ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهذا الكلام، يتضمن ثلاثة أشياء:

أمرين منهي عنهما، وهما: قول الكذب على الله والقول بلا علم، فى أسمائه وصفاته، وأفعاله، وشرعه، ورسله، والثالث: مأمور وهو: قول الحق فى هذه الأمور. ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق فى شأن عيسى عليه السلام، نصاً على قول الحق فيه، المخالف للطريقة اليهودية والنصرانية قال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ اهـ.

(١) معالم التنزيل ١٩٣/٢.

(٤) تفسير القرطبي ٢٠١٧/٣.

(٦) فتح القدير ٦٣٣/١.

(١) إعراب القرآن ٣٩٠/٢.

(٣) زاد المسير ١٥٦/٢.

(٥) تفسير ابن كثير ٥٦٠/١.

(٧) تفسير ابن كثير ٤٣٢/١ و٤٣٣.

قوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾.

قال محيي الدين درويش^(١): ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ كلام مستأنف مسوق للتعريف بالسيد المسيح عليه السلام. و﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة، و﴿الْمَسِيحُ﴾ مبتدأ و﴿عِيسَى﴾ بدل منه، و﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بدل أيضاً أو صفة. و﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ خبر المبتدأ أهـ.

وذكر ذلك القرطبي أيضاً في تفسيره لهذه الآية أ.هـ.

● أقوال أهل التفسير

قال الطبري^(٢): يعنى جل ثناؤه بقوله ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ما المسيح أيها الغالون في دينهم من أهل الكتاب بابن الله كما تزعمون ولكنه عيسى بن مريم دون غيرها من الخلق لانسب له غير ذلك.

ثم نعته الله جل ثناؤه بنعته ووصفه بصفته فقال هو ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أرسله الله بالحق إلى من أرسله إليه من خلقه وأصل المسيح الممسوح صرف من مفعول إلى فعل وسماء الله بذلك لتطهيره إياه من الذنوب، وقيل: مسح من الذنوب والأدناس التي تكون في الآدميين كما يمسح الشيء من الأذى الذي يكون فيه فيطهر منه.

ولذلك قال مجاهد ومن قال مثل قوله: المسيح الصديق.

وقد زعم بعض الناس أن أصل هذه الكلمة عبرانية أو سريانية (مشيحا) فعربت فقليل المسيح كما عرب سائر أسماء الأنبياء التي في القرآن مثل إسماعيل وإسحق وموسى وعيسى.

قال أبو جعفر: وليس ما مثل به من ذلك للمسيح بنظير وذلك أن إسماعيل وإسحاق وما أشبه ذلك أسماء لصفات والمسيح صفة وغير جائز أن تخاطب العرب وغيرها من أجناس الخلق في صفة شيء إلا بمثل ما يفهم عن مخاطبتها ولو كان المسيح من غير كلام العرب ولم تكن العرب تعقل معناه ما خوطبت به.

وأما المسيح الدجال فإنه أيضاً بمعنى الممسوح العين صرف من مفعول إلى فعل فمعنى المسيح في عيسى ﷺ الممسوح البدن من الأدناس والآثام ومعنى المسيح في الدجال: الممسوح العين اليمنى أو اليسرى كالذي روى عن رسول ﷺ في ذلك أهـ.

(١) إعراب القرآن ٢/ ٣٩٠.

(٢) تفسير الطبري ٤/ ٦/ ٢٤ و ٢٥.

قال القرطبي^(١): الأولى: ودلّ بقوله: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ على أن من كان منسوباً بوالدته كيف يكون إلهاً! وحق الإله أن يكون قديماً لا مُحَدَّثاً، ويكون «رَسُولُ اللَّهِ» خبراً بعد خبر.

الثانية: لم يذكر الله عز وجل امرأة وسمّاها باسمها في كتابه إلا مريم ابنة عمران؛ فإنه ذكر اسمها في نحو من ثلاثين موضعاً لحكمة ذكرها بعض الأشياخ؛ فإن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في الملأ، ولا يبتذلون أسماءهن؛ بل يكونون عن الزوجة بالعرس والأهل والعِيَال ونحو ذلك، فإن ذكروا الإماء لم يكنوا عنهن ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر والتصريح بها؛ فلما قالت النصارى في مريم ما قالت، وفي ابنها صرح الله باسمها، ولم يكن عنها بالأُمّة والعبودية التي هي صفة لها؛ وأجرى الكلام على عادة العرب في ذكر إمائتها.

الثالثة: اعتقاد أن عيسى عليه السلام لا أب له واجب، فإذا تكرر اسمه منسوباً للأُم استشعرت القلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفى الأب عنه، وتنزيه الأُم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله. والله أعلم أ هـ.

قال ابن كثير^(٢): أى إنما هو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه قال له: كن. فكان، رسول من رسله أ هـ.

قال السعدى^(٣): ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أى: غاية المسيح عليه السلام ومتتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهى درجة الرسالة، التى هى أعلى الدرجات، وأجل المثوبات أ هـ.

قال صاحب الظلال^(٤): فهو على وجه القصد والتحديد: «رَسُولُ اللَّهِ».. شأنه فى هذا شأن بقية الرسل، شأن نوح وإبراهيم وموسى ومحمد، وبقية الرهط الكريم من عباد الله المختارين للرسالة على مدار الزمان أ هـ.

قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾

قال محبى الدين درويش^(٥): ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ عطف على رسول، وجملة «أَلْقَاهَا» حالية، ولا بد من تقدير «قد» معها، والعامل فى الحال معنى «كلمته»، لأن معنى الكلمة أنه مكون بها من غير أب. «إِلَى مَرْيَمَ» جار ومجرور متعلقان بألقاها أ هـ.

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٥٦٠.

(٤) ١٦٦/٢ و ٨١٧.

(١) تفسير القرطبي ٣/ ٢٠١٧ و ٢٠١٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ١ / ٤٣٣.

(٥) إعراب القرآن ٢ / ٣٩٠.

عن قتادة فى قوله ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ قال: كلمته أن قال: كن فكان^(١).

قال الطبرى^(٢): وأما قوله ألقاها إلى مريم يعنى بالكلمة الرسالة التى أمر الله ملائكته أن تأتى مريم بها بشارة من الله لها التى ذكر الله جل ثناؤه فى قوله ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَةٍ﴾ يعنى برسالة منه وبشارة من عنده.

قال الرازى^(٣): والمعنى أنه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولانطفة كما قال ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أهـ.

قال القرطبى^(٤): قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أى هو مكون بكلمة «كن» فكان بشراً من غير أب، والعرب تسمى الشئ باسم الشئ إذا كان صادراً عنه. وقيل: «كلمته» بشارة الله تعالى مريم عليها السلام، ورسالته إليها على لسان جبريل [عليه السلام]؛ وذلك قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ وقيل: «الكلمة» ههنا بمعنى الآية؛ قال الله تعالى: ﴿وَصَدَقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ و ﴿مَا نَفِدْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾. وكان لعيسى أربعة أسماء؛ المسيح وعيسى وكلمة وروح، وقيل غير هذا مما ليس فى القرآن. ومعنى ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أمر بها مريم أهـ.

قال ابن كثير^(٥): وكلمته ألقاها إلى مريم أى خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم ففتح فيها من روحه بإذنه ربه - عز وجل - فكان عيسى بإذنه عز وجل وكانت تلك النفخة التى نفخها فى جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم والجميع مخلوق لله عز وجل ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه لأنه لم يكن له أب تولد منه وإنما هو ناشئ عن الكلمة التى قال له بها كن فكان، والروح التى أرسل بها جبريل. قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

(١) ذكره السيوطى فى «الدرر» (٤٣٩/٢) ونسبه لعبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر وانظر تفسير ابن

أبى حاتم بتخریجنا

(٢) تفسير الطبرى ٢٥/٦/٤.

(٣) التفسير الكبير ١١٧/١١/٦.

(٥) تفسير ابن كثير ٥٦٠/١ و ٥٦١.

(٤) تفسير القرطبى ٢٠١٨/٣.

وقال تعالى: ﴿وَأَلْبَسْنَاهَا لِبَاسًا فَفَخَّخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ إلى آخر السورة.

وقال تعالى إخباراً عن المسيح ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَعْدُ الَّذِي بَعَثْنَا فِي نَبِيِّ رَبِّكَ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية

وقال عبدالرزاق عن معمر عن قتادة ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ هو كقوله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١).

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطي قال سمعت شاذان بن يحيى يقول في قول الله ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ قال: ليس الكلمة صارت عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى (٢).

وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أى أعلمها بها كما زعمه في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أى يعلمك بكلمة منه ويجعل ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾.

بل الصحيح أنها الكلمة التى جاء بها جبريل إلى مريم ففخخ فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام. وقال البخارى: حدثنا صدقة بن الفضل حدثنا الوليد حدثنا الأوزاعي حدثني عمير بن هانيء حدثنا جنادة بن أبي أمية عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على كل كان من العمل» (٣) وقال الوليد فحدثني عبدالرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير بن هانيء عن جنادة زاد «من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» (٤) وكذا رواه مسلم عن داود بن رشيد عن الوليد عن ابن جابر به، ومن وجه آخر عن الأوزاعي به ف قوله في الآية والحديث أهد.

قال صاحب الظلال (٥): وأقرب تفسير لهذه العبارة، أنه سبحانه، خلق عيسى بالأمر الكونى المباشر، الذى يقول عنه فى مواضع من القرآن: إنه «كن.. فيكون».. فلقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم فخلق عيسى فى بطنها من غير نطفة أب - كما هو المألوف فى حياة البشر غير آدم - والكلمة التى تخلق كل شئ من العدم، لا عجب فى أن تخلق عيسى - عليه السلام - فى بطن مريم من النفخة التى يعبر عنها بقوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أهد.

(١) تقدم تخريجه

(٢) انظر تخريجه فى تفسير ابن أبي حاتم بتخريجنا فى تفسير هذه الآية.

(٣) تقدم تخريجه

(٤) تقدم تخريجه

(٥) ٨١٧/٢

قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

قال محيي الدين درويش^(١): وروح عطف على كلمته، ومنه متعلقان بمحذوف صفة لروح. ومن لابتداء الغاية أ.هـ.

قال ابن الجوزي^(٢): في معنى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ سبعة أقوال:

أحدها: أنه روحٌ من أرواح الأبدان. قال أبيّ بن كعب: لما أخذ الله الميثاق على بني آدم كان عيسى روحاً من تلك الأرواح، فأرسله إلى مريم، فحملت به.

والثاني: أن الروح النفخ، فسُمي روحاً، لأنه حدث عن نفخة جبريل في درع مريم، ومنه قول ذي الرمة.

وقلتُ له أرفعها إليك وأحيها بروحك واقتنه لها قينةً قدراً

هذا قول أبي روق.

والثالث: أن معنى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ إنسان حيّ بإحياء الله له.

والرابع: أن الروح: الرحمة، فمعناه: ورحمة منه، ومثله ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾^(٣) والخامس: أن الروح هاهنا جبريل. فالمعنى: ألقاها الله إلى مريم، والذي ألقاها روحٌ منه، ذكر هذه الأقوال الثلاثة أبو سليمان الدمشقي.

والسادس: أنه سمّاه روحاً، لأنه يحيا به الناس كما يحيون بالأرواح، ولهذا المعنى: سمي القرآن روحاً، ذكره القاضي أبو يعلى.

والسابع: أن الروح: الوحي أوحى الله إلى مريم يبشرها به، وأوحى إلى جبريل بالنفخ في درعها، وأوحى إلى ذات عيسى أن: كن فكان. ومثله ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾^(٤) أى: بالوحي، ذكره الثعلبي.

فأما قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ فإنه إضافة تشريف، كما تقول: بيت الله، والمعنى من أمره، وبما يقاربها قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾^(٥) أ.هـ.

وينحو هذا ذكر جلّ المفسرين كالطبري وغيره وأذكر تعليقاتهم على هذه الأقوال.

قال الطبري^(٦): ولكل هذه الأقوال وجه ومذهب غير بعيد من الصواب أ.هـ.

(٢) زاد المسير ١٥٦/٢ و ١٥٧.

(٤) النحل: ٢.

(٦) تفسير الطبري ٢٥/٦/٤.

(١) إعراب القرآن ٢/ ٣٩٠.

(٣) المجادلة: ٢٢.

(٥) الجاثية: ١٣.

قال القرطبي^(١): قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ هذا الذى أوقع النصارى فى الإضلال فقالوا: عيسى جزء منه فجهلوا وضلوا وعنه أجوبة ثمانية.. ثم ذكر بنحو ما ذكره ابن الجوزى أ هـ.

قال ابن كثير^(٢): وليست من للتبعيض كما تقول النصارى عليهم لعائن الله المتابعة بل هى لإبتداء الغاية كما فى الآية الأخرى.

وقد قال مجاهد فى قوله ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أى ورسول منه: وقال غيره: ومجبة منه. والأظهر الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله فى قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ وفى قوله ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ وكما روى فى الحديث الصحيح «فأدخل على ربي فى داره»^(٣) أضافها إليه إضافة تشريف وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحداً هـ.

قال صاحب الظلال^(٤): ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾.. وقد نفخ الله فى طينة آدم من قبل روحه. فكان «إنساناً».. كما يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وكذلك قال فى قصة عيسى: ﴿وَالَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا﴾.. فالأمر له سابقة.. والروح هنا هو الروح هناك.. ولم يقل أحد من أهل الكتاب - وهم يؤمنون بقصة آدم والنفخة فيه من روح الله - إن آدم إله، ولا أقنوم من أقانيم الإله. كما قالوا عن عيسى؛ مع تشابه الحال - من حيث قضية الروح والنفخة ومن حيث الخلقة كذلك. بل إن آدم خلق من غير أب وأم: وعيسى خلق مع وجود أم.. وكذلك قال الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

ويعجب الإنسان - وهو يرى وضوح القضية وبساطتها - من فعل الهوى ورواسب الوثنية التى عقدت قضية عيسى عليه السلام هذا التعقيد كله، فى أذهان أجيال وأجيال وهى - كما يصورها القرآن - بسيطة بسيطة، وواضحة مكشوفة.

إن الذى وهب لآدم.. من غير أبوين.. حياة إنسانية متميزة عن حياة سائر الخلائق بنفخة من روحه، لهو الذى وهب عيسى.. من غير أب.. هذه الحياة الإنسانية

(١) تفسير القرطبي ٢٠١٨/٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٥٦١/١.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ٨١٧/٢.

كذلك.. وهذا الكلام البسيط الواضح أولى من تلك الأساطير التي لا تنتهى عن ألوهية المسيح، لمجرد أنه جاء من غير أب، وعن ألوهية الأقانيم الثلاثة كذلك!.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً أهـ.

قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾.

قال محبى الدين درويش^(١): الفاء الفصيحة، أى: فإذا كان الأمر كذلك ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ﴾ إيماناً يليق به تعالى، ﴿بِاللَّهِ﴾ جار ومجرور متعلقان بآمنوا ﴿وَرُسُلِهِ﴾ عطف على لفظ الجلالة، والواو عاطفة، ولانهاية، وتقولوا فعل مضارع مجزوم بها. و﴿ثَلَاثَةً﴾ خبر مبتدأ محذوف. أى: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة، وجملة آلهتنا ثلاثة فى محل نصب مقول القول أهـ.

● أقوال أهل التفسير

قال الطبرى^(٢): يعنى بقوله جل ثناؤه فآمنوا بالله ورسله فصدقوا يا أهل الكتاب بوحدانية الله وربوبيته وأنه لا ولد له وصدقوا رسله فيما جاؤكم به من عند الله وفيما أخبرتم به أن الله واحد لا شريك له ولا صاحبة له ولا ولد له ولا تقولوا ثلاثة يعنى ولا تقولوا الأرباب ثلاثة ورفعت الثلاثة بمحذوف دل عليه الظاهر وهو هم ومعنى الكلام ولا تقولوا هم ثلاثة وإنما جاز ذلك لأن القول حكاية والعرب تفعل ذلك فى الحكاية ومنه قول الله ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وكذلك كل ما ورد من مرفوع بعد القول لارافع معه فقيه إضمار اسم راجع لذلك الاسم أهـ.

قال الرازى^(٣): ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أى أن عيسى من رسل الله فآمنوا كإيمانكم بسائر الرسل ولا تجعلوه إلهاً.. ولا تقولوا إن الله سبحانه واحد بالجواهر ثلاثة بالأقانيم. واعلم أن مذهب النصارى مجهول جداً، والذي يتحصل منه أنهم..

أثبتوا ذاتاً موصوفة بصفات ثلاثة، إلا أنهم وإن سموها صفات فهى فى الحقيقة ذوات، بدليل أنهم يجوزون عليها الحلول فى عيسى وفى مريم بأنفسها، وإلا لما جوزوا عليها أن تحل فى الغير وأن تفارق ذلك الغير مرة أخرى، فهم وإن كانوا يسمونها بالصفات إلا أنهم فى الحقيقة يشنون ذوات متعددة قائمة بأنفسها، وذلك محض الكفر، فلهذا المعنى قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا﴾ فإما ان حملنا الثلاثة على أنهم يشنون صفات ثلاثة، فهذا لا يمكن إنكاره، وكيف لانقول ذلك وأنا نقول: هو الله الذى لا إله

(٢) تفسير الطبرى ٤/٦٠٢ و٢٦٠.

(١) إعراب القرآن ٢/٣٩٠.

(٣) التفسير الكبير ٦/١١٨.

إلا هو الملك القدوس السلام العالم الحى القادر المريد، ونفهم من كل واحد من هذه الألفاظ غير ما نفهمه من اللفظ الآخر، ولا معنى لتعدد الصفات إلا ذلك، فلو كان القول بتعدد الصفات كفرا لزم رد جميع القرآن ولزم رد العقل من حيث أنا نعلم بالضرورة أن المفهوم من كونه تعالى عالماً غير المفهوم من كونه تعالى قادراً أو حياً أهـ.

ولقد فصل القرطبي هذا الكلام شارحاً ومبيناً بطلان عقيدة النصارى فقال (١): قوله تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ أى آمنوا بأن الله إله واحد خالق المسيح ومرسله، وآمنوا برسله ومنهم عيسى فلا تجعلوه إلهاً. ﴿تَقُولُوا﴾ إلهتنا (ثلاثة) عن الزجاج. قال ابن عباس: يريد بالتثليث الله تعالى وصاحبه وابنه. وقال الفراء وأبو عبيد: أى لاتقولوا هم ثلاثة؛ كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً﴾.

[قال] أبو على: التقدير لاتقولوا هو ثالث ثلاثة؛ فحذف المبتدأ والمضاف.

والنصارى مع فرقه مجمعون على التثليث ويقولون: إن الله جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم؛ فيجعلون كل أقنوم إلهاً ويعنون بالأقانيم الوجود والحياة والعلم، وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس، فيعنون بالأب الوجود، وبالروح الحياة، وبالابن المسيح، فى كلام لهم فيه تخطيط بيانه فى أصول الدين.

ومحصول كلامهم يثول إلى التمسك بأن عيسى إله بما كان يجريه الله سبحانه وتعالى على يديه من خوارق العادات على حسب دواعيه وإرادته.

وقالوا: قد علمنا خروج هذه الأمور عن مقدور البشر، فينبغى أن يكون المقتدر عليها موصوفاً بالإلهية.

فيقال لهم: لو كان ذلك من مقدوراته وكان مستقلاً به كان تخلص نفسه من أعدائه ودفع شرهم عنه من مقدوراته، وليس كذلك؛ فإن اعترفت النصارى بذلك فقد سقط قولهم ودعواهم أنه كان يفعلها مستقلاً به؛ وإن لم يسلموا ذلك فلا حجة لهم أيضاً؛ لأنهم معارضون بموسى عليه السلام، وما كان يجرى على يديه من الأمور العظام، مثل قلب العصا ثعباناً، وفلق البحر واليد البيضاء والمن والسلوى، وغير ذلك؛ وكذلك ما جرى على يد الأنبياء؛ فإن أنكروا ذلك فنكر ما يدعونه هم أيضاً من ظهوره على يد عيسى عليه السلام، فلا يمكنهم إثبات شىء من ذلك لعيسى؛ فإن طريق إثباته عندنا نصوص القرآن وهم ينكرون القرآن، ويكذبون من أتى به، فلا يمكنهم إثبات ذلك بأخبار التواتر.

وقد قيل: إن النصارى كانوا على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة بعد ما رفع عيسى؛ يصلون إلى القبلة؛ ويصومون شهر رمضان، حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب، وكان فى اليهود رجل شجاع يقال له بولس، قتل جماعة من أصحاب عيسى

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٢٠١٩، ٢٠٢٠، ٢٠٢١).

فقال: إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا وجحدنا وإلى النار مصيرنا، ونحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار؛ وإنى أحتال فيهم فأضلهم فيدخلون النار؛ وكان له فرس يقال لها العقاب، فأظهر الندامة ووضع على رأسه التراب وقال للنصارى: أنا بولس عدوكم قد نوديت من السماء أن ليست لك توبة إلا أن تنتصر، فأدخلوه فى الكنيسة بيتا فأقام فيه سنة لا يخرج ليلا ولا نهارا حتى تعلم الإنجيل؛ فخرج وقال: نوديت من السماء أن الله قد قبل توبتك فصدقوه وأحبوه، ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم سَطُورًا وأعلمه أن عيسى بن مريم إله، ثم توجه إلى الروم وعلمهم اللاهوت والناسوت وقال: لم يكن عيسى يأنس فتأنس ولا يجسم فتجسم ولكنه ابن الله. وعلم رجلا يقال له يعقوب ذلك؛ ثم دعا رجلا يقال له الملك فقال له: إن الإله لم يزل ولا يزال عيسى؛ فلما استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحدا واحدا وقال له: أنت خالصى ولقد رأيت المسيح فى النوم ورضى عنى، وقال لكل واحد منهم: إنى غدا أذبح نفسى وأتقرب بها، فأدع الناس إلى نِحلتك، ثم دخل المذبح فذبح نفسه؛ فلما كان يوم ثالث دعا كل واحد منهم الناس إلى نِحلتهم، فتبع كل واحد منهم طائفة، فأقتتلوا واختلَفوا إلى يومنا هذا، فجميع النصارى من الفرق الثلاث؛ فهذا كان سبب شركهم فيما يقال؛ والله أعلم أهد.

قال ابن كثير^(١): ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ أى لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وهذه الآية التى فى سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ وكما قال فى آخر السورة المذكورة ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ الآية وقال فى أولها ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية.

والنصارى عليهم لعائن الله من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حد بل أقوالهم وضلالهم منتشر فمنهم من يعتقد إلهاً، ومنهم من يعتقد شريكا، ومنهم من يعتقد ولداً وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة.

ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لا فترقوا عن أحد عشر قولاً. ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بطريق بترك الإسكندرية فى حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذى عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التى لهم وإنما هى الخيانة الحقيرة الصغيرة وذلك فى أيام

(١) تفسير ابن كثير ٥٦١/١.

قسطنطين بنانى المدينة المشهورة وأنهم اختلفوا عليه اختلافا لا يَنْضبط ولا يَنْحصر فكانوا أزيد من ألفين أسقفا فكانوا أحزاباً كثيرة كل خمسين منهم على مقالة وعشرون على مقالة ومائة على مقالة وسبعون على مقالة وأزيد من ذلك وأنقص. فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلاثمائة بشمانية عشر نفرأ وقد توافقوا على مقالة فأخذها الملك ونصرهم وأيدها وكان فيلسوفاً داهية ومحق ما عداها من الأقوال، وانتظم دست أولئك الثلاثمائة والشمانية عشر وبنيت لهم الكنائس ووضعوا لهم كتباً وقوانين وأحدثوا فيها الأمانة التى يلقنونها الولدان من الصغار ليعتقدها ويعمدونهم عليها وأتباع هؤلاء هم الملكانية. ثم إنهم اجتمعوا مجمعاً ثانياً فحدث فيهم اليعقوبية ثم مجمعاً ثالثاً فحدث فيهم النسطورية وكل هذه الفرق ثبتت الأقانيم الثلاثة فى المسيح ويختلفون فى كيفية ذلك وفى اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدوا أو ما اتحدوا أو امتزجوا أو حل فيه على ثلاث مقالات وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى ونحن نكفر الثلاثة ولهذا قال تعالى: ﴿انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أى يكن خيراً لكم ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أى تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً ﴿لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أى الجميع ملكه وخلقه وجميع ما فيهما عبيده وهم تحت تدبيره وتصريفه وهو وكيل على كل شىء فكيف يكون له منهم صاحبة وولد كما قال فى الآية الأخرى ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ إلى قوله: ﴿فَرَدًّا﴾ أهـ.

قال الشوكانى (١): ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى بأنه سبحانه إله واحد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ وبأن رسله صادقون مبلغون عن الله ما أمرهم بتبليغه.

ولاتكذبوهم ولا تغفلوا فيهم، فتجعلوا بعضهم آلهة أهـ.

قال السعدى (٢): فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام أمر أهل الكتاب بالإيمان به، وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله، ثالث ثلاثة، أحدهم عيسى، والثانى مريم فهذه مقالة النصرارى. قبحهم الله أهـ.

قوله: ﴿انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾.

● أقوال أهل التفسير

قال الطبري^(١): ثم قال لهم جلّ ثناؤه متوعداً لهم فى قولهم العظيم الذى قالوه فى الله انتهوا أيها القائلون الله ثالث ثلاثة عما تقولون من الزور والشرك بالله فإنّ الإنتهاء عن ذلك خير لكم من قبله لما لكم عند الله من العقاب العاجل لكم على قيلكم ذلك أن أقمتم عليه ولم تنبئوا إلى الحق الذى أمرتكم بالإنباء إليه والأجل فى معادكم أهـ.

قال القرطبي^(٢): ومذهب أبى عبيدة انتهوا يكن خيراً لكم.

قال محمد بن يزيد: هذا خطأ؛ لأنه يضمّر الشرط وجوابه، وهذا لا يوجد فى كلام العرب.

ومذهب الفراء أنه نعت لمصدر محذوف.

قال على بن سليمان: هذا خطأ فاحش؛ لأنه يكون المعنى: انتهوا الإنتهاء الذى هو خير لكم أهـ.

قال ابن كثير^(٣): ﴿انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أى يكن خيراً لكم أهـ.

قال السعدى^(٤): فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك، خير لهم، لأنه الذى يتعين، أنه سبيل النجاة وما سواه، فهو طرق الهلاك أهـ.

قال صاحب الظلال^(٥): وهذه الدعوة للإيمان بالله ورسله، ومن بينهم عيسى بوصفه رسولاً، ومحمد بوصفه خاتم النبيين - والإنتهاء عن تلك الدعاوى والأساطير، نجىء فى وقتها المناسب بعد هذا البيان الكاشف والتقرير المريح أهـ.
قوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

قال محبى الدين درويش^(٦): كلام مستأنف مسوق لتأكيد الوجدانية، وإنما كافة ومكفوفة، والله مبتدأ وإله خبر، وواحد صفة أهـ.

● أقوال أهل بالتفسير.

قال القرطبي^(٧): ويجوز أن يكون ﴿إِلَهٌ﴾ بدلاً من اسم الله عزوجل و﴿واحد﴾ خبره؛ التقدير إنما المعبود واحد أهـ.

قال الطبري^(٨): يعنى بقوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾. ما الله أيها القائلون الله ثالث ثلاثة كما تقولون لأن من كان له ولد فليس بإله وكذلك من كان له صاحبة فغير جائر

(١) تفسير الطبري ٢٦/٦/٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٥٦١/١.

(٥) ٨١٧/٢.

(٧) تفسير القرطبي ٢٠٢١/٣.

(٢) تفسير القرطبي ٢٠٢١/٣.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٤٣٣/١.

(٦) إعراب القرآن ٣٩٠/٢.

(٨) تفسير الطبري ٢٦/٦/٤.

أن يكون إلهاً معبوداً ولكن الله الذى له الألوهية والعبادة إله واحد معبود لا ولد له ولا والد ولا صاحبة ولا شريك. أهـ.

قال الرازى^(١): ثم أكد التوحيد بقوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾. أهـ.

قال الشوكانى^(٢): ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لاشريك له ولا صاحبة ولا ولد. أهـ.

قال السعدى^(٣): ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أى: هو المنفرد بالألوهية، الذى لا تنبى العباد إلا له. أهـ.

قوله: ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

قال محيى الدين درويش^(٤): سبحان مفعول مطلق لفعل محذوف، أى سبحه تسبيحاً. وأن وما فى حيزها مصدر مؤول منصوب بنزع الخافض أى: من أن يكون، والجار والمجرور متعلقان بسبحان، وله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر يكون المقدم، وولد اسمها المؤخر، والجملة التزيهية فى محل نصب على الحال، أى: منزهاً. أهـ.

قال القرطبى^(٥): ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أى تزيهاً عن أن يكون له ولد، فلما سقط (عن) كان (أن) فى محل النصب بنزع الخافض، أى كيف يكون له ولد؟ وولد الرجل مُشبه له ولاشبهه لله - عز وجل. أهـ.

● أقوال أهل التفسير.

قال الطبرى^(٦): ثم نزه - جِلِّ ثَنَاؤُهُ - نفسه وعظمها ورفعها كما قال فيه أعداؤه الكفرة به فقال ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ يقول علا الله وجل وعز وتعظم وتنزه عن أن يكون له ولد أو صاحبة. أهـ.

قال البغوى^(٧): وأعلم أن التبنى لا يجوز لله تعالى، لأن التبنى إنما يجوز لمن يتصور له ولد أهـ.

قال ابن الجوزى^(٨): ومعنى سبحانه: تبرئته من أن يكون له ولد أهـ.

قال ابن كثير^(٩): أى تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً أهـ.

(٢) فتح القدير ١/ ٦٣٥.

(٤) إعراب القرآن ٢/ ٣٩٠ و ٣٩١.

(٦) تفسير الطبرى (٤/ ٢٦٦).

(٨) زاد المسير ٢/ ١٥٧.

(١) التفسير الكبير ٦/ ١١٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٣٣).

(٥) تفسير القرطبى ٣/ ٢٠٢١.

(٧) معالم التنزيل ٢/ ١٩٤.

(٩) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦١.

قال الشوكاني^(١): أى أسبحه تسبيحاً عن أن يكون له ولد أهـ.

قال السعدى^(٢): ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أى «تتزه وتقدس» ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لأن: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أهـ.

قال صاحب الظلال^(٣): والولادة امتداد للفانى ومحاولة للبقاء فى صورة النسل.. والله الباقي غنى عن الإمتداد فى صورة الفانين، وكل ما فى السموات وما فى الأرض ملك له سبحانه أهـ.

قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

قال محبى الدين درويش^(٤): ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ له متعلقان بخبر مقدم محذوف وما اسم موصول مبتدأ وفى السموات متعلقان بمحذوف صلة، وجملة الصلة لا محل لها من الإعراب، وما فى الأرض عطف على ما فى السموات، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل التنزيه، أى: إذا كان يملك جميع ما فىهما فكيف يتوهم حاجته إلى ولد أهـ.

● أقوال أهل التفسير.

قال الطبرى^(٥): ثم أخبر - جل ثناؤه - عباده أن عيسى وأمه ومن فى السموات ومن فى الأرض عبيده وملكه وخلقه وأنه رازقهم وخالقهم وأنهم أهل حاجة وفاقة إليه ولاكان له عبداً مملوكاً فقال له ما فى السموات وما فى الأرض يعنى الله ما فى السموات وما فى الأرض من الأشياء كلها ملكاً وخلقاً وهو يرزقهم ويقوتهم ويدبرهم فكيف يكون المسيح ابناً لله وهو فى الأرض أو فى السموات غير خارج من أن يكون فى بعض هذه الأماكن أهـ.

قال الرازى^(٦): واعلم أنه سبحانه فى كل موضع نزه نفسه عن الولد ذكر كونه ملكاً ومالِكاً لما فى السموات وما فى الأرض فقال فى مريم أى سورة - ﴿إِنْ كُلٌّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ والمعنى: من كان مالكا لكل السموات والأرض ولكل ما فيها كان مالكا لعيسى ولريم لأنهما كانا فى السموات وفى الأرض، وما كانا أعظم من غيرهما فى الذات والصفات، وإذا كان مالكا لما هو أعظم منهما فبأن يكون مالكا لهما أولى، وإذا كانا مملوكين له فكيف يعقل مع هذا توهم كونهما له ولداً وزوجة أهـ.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/٤٣٣.

(٤) إعراب القرآن ٢/٣٩١.

(٦) التفسير الكبير ٦/١١٩.

(١) فتح القدير ١/٦٣٢.

(٣) ١١٧/٢.

(٥) تفسير الطبرى ٤/٢٦.

قال القرطبي^(١): وإن جاز ولد فليجز أولاد حتى يكون كل من ظهرت عليه معجزة ولدأ له أهـ.

قال ابن كثير^(٢): أى الجميع ملكه وخلقه وجميع ما فيهما عبيده وهم تحت تدبيره وتصريفه أهـ.

قال الشوكاني^(٣): وما جعلتموه له شريكاً أو ولدأ هو من جملة ذلك، والمملوك المخلوق لا يكون شريكاً ولا ولدأ.

قال صاحب الظلال^(٤): ويكفى البشر أن يرتبطوا كلهم بالله ارتباط العبودية للمعبود: وهو يرعاهم أجمعين، ولا حاجة لإفترض قرابة بينهم وبينه عن طريق ابن له منهم: فالصلة قائمة بالرعاية والكلاءة أهـ.

قوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

قال محبى الدين درويش^(٥): الواو استئنافية ﴿وكفى﴾ فعل ماضى و﴿بالله﴾ الباء حرف جر زائد والله فاعل (كفى) مجرور لفظاً بالباء (ووكيلاً) تمييز.

● أقوال أهل التفسير.

قال الطبرى^(٦): وقوله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يقول وحسب ما فى السموات وما فى الأرض بالله قيما ومدبراً ورازقهم من الحاجة معه إلى غيره أهـ.

قال ابن الجوزى^(٧): أى: قيماً على خلقه، مدبراً لهم أهـ.

قال الرازى^(٨): ثم قال ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ والمعنى أن الله سبحانه كاف فى تدبير المخلوقات وفى حفظ المحدثات فلا حاجة معه إلى القول بإثبات إله آخر، وهو إشارة إلى ما يذكره المتكلمون من أنه سبحانه لما كان عالماً بجميع المعلومات قادراً على كل المقدورات كان كافياً فى الإلهية، ولو فرضنا إلهاً آخر معه لكان معطلاً لافائدة فيه، وذلك نقص، والناقص لا يكون إلهاً أهـ.

قال القرطبي^(٩): وكفى بالله وكيلاً أى لأوليائه أهـ.

(١) تفسير القرطبي ٣/٢١٠٢.

(٢) فتح القدير ١/٦٣٤.

(٣) إعراب القرآن ٢/١٦١.

(٤) زاد المسير ٢/١٥٧.

(٥) تفسير القرطبي ١/٢٠٢١.

(٦) تفسير ابن كثير ١/٥٦١.

(٧) تفسير الطبرى ٤/٢٦٠٢.

(٨) التفسير الكبير ٦/١١٩.

(٩) تفسير القرطبي ١/٢٠٢١.

قال الشوكاني^(١): فكل الخلق أمورهم إليه ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً أهـ.

قال صاحب الظلال^(٢): ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

وهكذا لا يكتفى القرآن ببيان الحقية وتقديرها في شأن العقيدة إنما يضيف إليها إراحة شعور الناس من ناحية رعاية الله لهم، وقيامه سبحانه عليهم وعلى حوائجهم ومصالحهم، ليكلوا إليه أمورهم كله في طمأنينة أهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): والشاهد من هذه الآية قوله: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ فهي عن الغلو في الدين، لأنه يتضمن مفاصد كثيرة، منها:

١- أنه تنزيل للمغلوفيه فوق منزلته إن كان مدحاً، وتحتها إن كان قدحاً.

٢- أنه يؤدي إلى عبادة هذا المغلوفيه كما هو الواقع من أهل الغلو.

٣- أنه يصدّ عن تعظيم الله سبحانه وتعالى؛ لأن النفس إما أن تشغل بالباطل أو بالحق، فإذا انشغلت بالغلو بهذا المخلوق وإطرائه وتعظيمه؛ تعلّقت به ونسيت ما يجب لله تعالى من حقوق.

٤- أن المغلو فيه إن كان موجوداً، فإنه يزهو بنفسه ويتعاضم ويعجب بها، وهذه مفسدة تفسد المغلو فيه إن كانت مدحاً، وتوجب العداوة والبغضاء وقيام الحروب والبلاء بين هذا وهذا إن كانت قدحاً أهـ.

قوله: ﴿فِي دِينِكُمْ﴾

الدين يطلق على العمل والجزاء، والمراد به هنا: العمل والمعنى: لا تجمعلوا عبادتكم غلوّاً في المخلوقين وغيرهم.

وهل يدخل في هذا الغلو في العبادات؟

الجواب: نعم، يدخل الغلو في العبادات، مثل أن يرهق الإنسان نفسه بالعبادة ويتعبها؛ فإن النبي ﷺ نهى عن ذلك، ومثل أن يزيد عن المشروع، كأن يرمى بجمرات كبيرة، أو يأتي بأذكار زائدة عن المشروع أذبار الصلوات تكميلاً للوارد أو غير هذا؛ فالنهى عن الغلو في الدين يعم الغلو من كل وجه أهـ.



(١) فتح القدير ١/ ٦٣٤.

(٢) ٨١٨/٢.

(٣) القول المفيد ١/ ٤٦٦ و ٤٧٠.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (١). قَالَ: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنْ أَنْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنَسِيَ الْعِلْمُ عُبْدَتَهُ» (٢).

- مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى (٣): مناسبة هذه الآية للباب ما ذكره بعض المفسرين من أن هذه الأسماء المذكورة في الآية كانت أسماء رجال صالحين غلا في حبههم قومهم فلما ماتوا أوحى إليهم الشيطان أن صوروا على صورهم حتى تتذكروهم حتى إذا مات أهل ذلك القرن واندرس العلم بعدهم من جاء بعدهم. اهـ

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٤): حيث دلت الآية على أن الغلو في الصالحين شرك، وذلك لأن الغلو فيهم صرف شيء من حقوق الله الخاصة به لهم وذلك إشراك لهم مع الله. اهـ
قوله: [في الصحيح] أى صحيح البخارى وهذا الآتى اختصره المصنف والحديث على وجهه بوب عليه البخارى. باب ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾ قال: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام عن ابن جريج، وقال عطاء.

عن ابن عباس رضى الله عنهما «صارت الأوثان التي كانت فى قوم نوح فى العرب بعد، أمّا وَدٌّ فكانت لكلب بدوّمه الجندل، وأمّا سُوَاعٌ فكانت لهذيل، وأمّا يَغُوثٌ فكانت لمراد، ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ، وأمّا يَعُوقٌ فكانت لهمدان، وأمّا نَسْرٌ فكانت لحميم، لآل ذى الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصباً وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتَسَّحَّ العلم عُبدت».

(١) نوح / ٢٣

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى فى التفسير/ باب: ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ﴾

(٨/ ٥٣٥/ ح. ٤٩٢)

وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٦/ ٤٢٧) وعزاه للبخارى وابن المنذر وابن مردويه.

وانظر فتح القدير (١٣٢٤٩ بتخريجنا) وفتح المجيد ٣٤٤ بتخريجنا.

(٣ - ٤) الجديد.

قوله: (عن ابن عباس).

قال ابن حجر^(١): قيل هذا منقطع لأن عطاء المذكور هو الخراساني ولم يلق ابن عباس.

فقد أخرج عبد الرزاق هذا الحديث في تفسيره عن ابن جريج فقال: أخبرني عطاء الخراساني عن ابن عباس.

وقال أبو مسعود ثبت هذا الحديث في تفسير ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس، وابن جريج لم يسمع التفسير من عطاء الخراساني وإنما أخذه من ابنه عثمان بن عطاء فنظر فيه.

وذكر صالح بن أحمد بن حنبل في «العلل» عن علي بن المديني قال: سألت يحيى القطان عن حديث ابن جريج عن عطاء الخراساني فقال: ضعيف. فقلت: إنه يقول أخبرنا، قال: لا شيء، إنما هو كتاب دفعه إليه انتهى.

وكان ابن جريج يستجيز إطلاق أخبرنا في المناولة والمكاتبة، وقال الإسماعيلي أخبرت عن علي بن المديني أنه ذكر عن «تفسير ابن جريج» كلاماً معناه أنه كان يقول عن عطاء الخراساني عن ابن عباس، فطال على الوراق أن يكتب الخراساني في كل حديث فتركه فرواه من روى على أنه عطاء بن أبي رباح انتهى.

وأشار بهذا إلى القصة التي ذكرها صالح بن أحمد عن علي بن المديني ونبه عليها أبو علي الجبائي في «تقييد المهمل» قال ابن المديني سمعت هشام بن يوسف يقول قال لي ابن جريج سألت عطاء عن التفسير من البقرة وآل عمران ثم قال: أعفني من هذا، قال قال هشام فكان بعد إذا قال قال عطاء عن ابن عباس قال عطاء الخراساني. قال هشام: فكتبنا ثم مللنا، يعني كتبنا الخراساني، قال ابن المديني وإنما بيئت هذا لأن محمد بن ثور كان يجعلها - يعني في روايته عن ابن جريج - عن عطاء عن ابن عباس فيظن أنه عطاء بن أبي رباح.

وقد أخرج الفاكهي الحديث المذكور من طريق محمد بن ثور عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ولم يقل الخراساني.

وأخرجه عبد الرزاق، كما تقدم فقال الخراساني، وهذا مما استعظم على البخاري أن يخفى عليه، لكن الذي قوى عندي أن هذا الحديث بخصوصه عند ابن جريج عن عطاء الخراساني وعن عطاء بن أبي رباح جميعاً، ولا يلزم من امتناع عطاء بن أبي رباح من

(١) الفتح ٨/ ٥٣٥، ٥٣٦.

التحديث بالتفسير أن لا يحدث بهذا الحديث فى باب آخر من الأبواب أو فى المذاكرة، وإلا فكيف يخفى على البخارى ذلك مع تشدده فى شرط الاتصال واعتماده غالباً فى العلل على على بن المدينى شيخه وهو الذى نبه على هذه القصة.

ومما يؤيد ذلك أنه لم يكثر من تخريج هذه النسخة وإنما ذكر بهذا الإسناد موضعين هذا وآخر فى النكاح، ولو كان خفى عليه لاستكثر من إخراجها لأن ظاهرها أنها على شرطه. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١):

قوله: ﴿وَقَالُوا﴾: أى : قال بعضهم لبعض.

قوله: ﴿لَا تَذَرُنَّ﴾: أى : لا تدعن وتتركن. وهذا نهى مؤكد بالنون.

قوله: ﴿أَلِهَتَكُمْ﴾: هل المراد: لا تذرُوا عبادتها أو تمكنوا أحداً من إهانتها؟

الجواب: المعنيان ؟ أى : انتصروا لألهتكم ولا تمكنوا أحداً من إهانتها، ولا تدعوها للناس، ولا تدعوا عبادتها أيضاً ، بل احرصوا عليها، وهذا من التواصى بالباطل عكس الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتواصون بالحق .

قوله: ﴿وَلَا سَوَاعًا﴾ لا زائدة للتوكيد، مثلها فى قوله تعالى: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ، وفائدتها أنهم جعلوا مدخولها كالمستقل، بخلاف يعوق ونسر، فهما دون مرتبة من سبقهما.

قوله: ﴿وَدَاوُلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ هذه الخمسة كأن لها مزية على غيرها، لأن قوله: ﴿أَلِهَتَكُمْ﴾ عام يشمل كل ما يعبدون ، وكأنها كبار آلهتهم، فخصوها بالذكر.

والآلهة. جمع إله، وهو كل ما عُبد سواء بحق أو بباطل.

لكن إذا كان المعبود هو الله ، فهو حق، وإن كان غير الله، فهو باطل. اهـ.

قوله: [هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح].

قال ابن حجر^(٢): محصل ما قيل فى هذه الأصنام قولان:

(١) القول المفيد ١/ ٤٧١، ٤٧٢.

(٢) الفتح ٨/ ٥٣٧.

أحدهما أنها كانت فى قوم نوح .

والثانى : أنها كانت أسماء رجال صالحين إلى آخر القصة .

قلت :- يعنى ابن حجر - بل مرجع ذلك إلى قول واحد . وقصة الصالحين كانت مبتدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام ثم تبعهم من بعدهم على ذلك اهـ .

قال ابن عثيمين^(١) : وفى هذا التفسير إشكال ، حيث قال : « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح » ، وظاهر القرآن أنها قبل نوح ، قال تعالى : ﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٢١) وَمَكُرُوا مَكْرًا كَبِيرًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴿ ظاهر الآية الكريمة : أن قوم نوح كانوا يعبدونها ، ثم نهاهم نوح عن عبادتها ، وأمرهم بعبادة الله وحده ، ولكنهم أبوا وقالوا : ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ﴾ ، وهذا (أعنى : القول بأنهم قبل نوح) قول محمد بن كعب ومحمد بن قيس ، وهو الراجح ، لموافقه ظاهر القرآن .

ويحتمل - وهو بعيد - أن هذا فى أول رسالة نوح ، وأنه استجاب له هؤلاء الرجال وآمنوا به ، ثم بعد ذلك ماتوا قبل نوح ثم عبدوهم ، لكن هذا بعيد حتى من سياق الأثر عن ابن عباس .

فالمهم أن تفسير الآية أن يُقال : هذه أصنام فى قوم نوح كانوا رجالاً صالحين ، فطال على قومهم الأمد ، فعبدوهم .

قلت : لكن هنا إشكال آخر كيف رفع العلم ونوح فيهم .
الجواب : أن يقال أنهم لم يسمعو لنوح أصلاً لقوله تعالى : ﴿ ... جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ الآية .

قوله : [فلما هلكوا، أوحى الشيطان]

أى : وحي وسوسة ، وليس وحي إلهام .

قوله : [أن انصبوا إلى مجالسهم]

الأنصاب : جمع نُصْب ، وهو كل ما يُنصب من عصا أو حجر أو غيره .

قوله : [وسموهم بأسمائهم] .

(١) القول المفيد ١/ ٤٧٢ ، ٤٧٣ .

أى: ضعوا أنصباً فى مجالسهم، وقرلوا: هذا ود وهذا سواع، وهذا يغوث، وهذا يعوق، وهذا نسر لأجل إذا رأيتموهم تتذكروا عبادتهم، فتشيطوا عليها هكذا زين لهم الشيطان، وهذا غرور ووسوسة من الشيطان كما قال لآدم ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ وإذا كان العبد لا يتذكر عبادة الله إلا برؤية أشباح هؤلاء فهذه عبادة قاصرة أو معدومة . اهـ.

قوله: [ففعّلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسى العلم، عبت من دون الله].

وفى رواية للبخارى [وتنسخ العلم]

قال ابن حجر^(١): قوله (فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم) كذا لهم، ولأبى ذر والكشميني «نسخ العلم» أى علم تلك الصور بخصوصها.

وأخرج الفاكهي من طريق عبيد الله بن عبيد بن عمير قال: أول ما حدثت الأصنام على عهد نوح، وكانت الأبناء تبر الآباء، فمات رجل منهم فجزع عليه فجعل لا يصبر عنه، فاتخذ مثالا على صورته فكلما اشتاق إليه نظره ثم مات ففعل به كما فعل حتى تتابعوا على ذلك فمات الآباء، فقال الأبناء . ما اتخذ أبائنا هذه إلا أنها كانت آلهتهم، فعبدوها.

وحكى الواقدي قال: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة طائر، وهذا شاذ والمشهور أنهم كانوا على صورة البشر، وهو مقتضى ما تقدم من الآثار فى سبب عبادتها. والله أعلم.

وقال ابن عثيمين: ذكر ابن عباس- رضى الله عنهما - أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون والقرن مائة سنة، حتى إذا طال عليهم الأمد حصل النزاع والتفرق، فبعث الله النبيين كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ الآية هذا هو تفسير ابن عباس رضى الله عنهما للآية وهل تفسيره حجة؟

الجواب: يرجع فى التفسير أولاً إلى القرآن، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، مثل قوله تعالى: ﴿مَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةٌ﴾ تفسيرها: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ فإن لم نجد فى القرآن، فإلى سنة الرسول ﷺ فإن لم نجد فإلى تفسير الصحابة، وتفسير الصحابي حجة بلا شك لأنهم أدرى بالقرآن حيث نزل بعصرهم وبلغتهم، ويعرفون عنه أكثر من غيرهم، حتى قال بعض العلماء: إن تفسير الصحابي فى حكم المرفوع، وهذا ليس بصحيح، لكنه لا شك

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ: «قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ لَمَّا مَاتُوا، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَرُوا تَمَائِلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ».

وَعَنْ عُمَرَ . أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» أَخْرَجَاهُ (١).

أَنَّهُ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، فَإِنْ اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ فِي التَّفْسِيرِ أَخَذْنَا بِمَا يَرْجَحُهُ سِيَاقُ الْآيَةِ، وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، إِلَّا أَنَّ ظَاهِرَ السِّيَاقِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ كَانُوا قَبْلَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ عَرَفَتْ الْقَوْلَ الرَّاجِحَ (٢). اهـ.



قوله: (قال ابن القيم: قال غير واحد السلف . .

والأمد يعنى الزمن .

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ فاحذر أخى العزيز من طول الزمن لأنه سبب لقسوة القلب إن لم تكن مراعيًا للقلب وكذلك إن لم تحفظ العلم بمذاكرته وطول الأمل سينسخ.

بل الله - عز وجل - حذر من خطر طول الزمن على العلم وعلى القلب، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعنى على الإسلام- ثم طول الأمد صاروا أمة واحدة على الكفر فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .

قال ابن عثيمين (٣): قوله الأمد الزمن، وهذا كتفسير ابن عباس، إلا أن ابن عباس يقول إنهم جعلوا الأنصاب فى مجالسهم وهنا يقول: جعلوها على قبورهم ولا يبعد أنهم جعلوا هذا وهذا، أو أنهم قبروا فى مجالسهم، فتكون هى محل القبور .

والشاهد قوله: [ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم] فسبب العبادة إذا الغلو فى هؤلاء الصالحين حتى عبدوهم. اهـ.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء / باب «وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ» (٦/٥٥١/٣٤٤٥)،

وأحمد فى «مسنده» (٢٣/١).

من طريق ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن عمر به .
وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (١٨)، وانظر «فتح المجيد» (٣٤٧) بتخريجنا

(٢) القول المفيد ١/ ٤٧٥.

(٣) القول المفيد ١/ ٤٧٤، ٤٧٥.

قوله: [وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال : لا تطروني....]

والحديث على وجهه فى الصحيح .

عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر : «سمعت النبى ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله».

قال ابن حجر: قوله: (لا تطروني) بضم أوله، والإطراء المدح بالباطل تقول أطريت فلاناً مدحته، فأفرطت فى مدحه قوله : (كما أطرت النصارى ابن مريم) أى فى دعواهم فيه الإلهية، وغير ذلك. اهـ.

قلت: أما إذا كان المدح بالحق ولمصلحة شرعية فهذا مشروع ليس ممنوع.

كقوله ﷺ لسعد حينما جاءوا به ليحكم فى يهود «قوموا إلى سيدكم»^(١) ، وكذلك وصفه ﷺ لكثير من الصحابة بأوصاف كما فى الحديث «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر .. إلخ الحديث»^(٢).

قال ابن عثيمين^(٣): وهذا النهى يحتمل أنه مُنصَّب على هذا التشبيه، وهو قوله: «كما أطرت النصارى ابن مريم»، حيث جعلوه إلهاً أو ابناً لله ، وبهذا يوحى قول البوصيرى:

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

أى: دع ما قاله النصارى أن عيسى عليه الصلاة والسلام ابن الله أو ثالث ثلاثة : والباقي املاً فمك فى مدحه ولو بما لا يرضيه.

ويحتمل أن النهى عام، فيشمل ما يشابه غلو النصارى فى عيسى بن مريم وما دونه، ويكون قوله: «كما أطرت» لمطلق التشبيه لا للتشبيه المطلق، لأن إطراء النصارى عيسى ابن مريم سببه الغلو فى هذا الرسول الكريم ﷺ، حيث جعلوه ابناً لله وثالث ثلاثة، والدليل على أن المراد هذا قوله: «إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله».

قوله: «إنما أنا عبد».

أى: ليس لى حق من الربوبية، ولا مما يختص به الله- عز وجل- أبداً.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٠٤٣)، ومسلم فى الجهاد والسير (٦/٣٣٥/٦٤) عن أبى سعيد

به..

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/١٨٤)، والترمذى (٣٧٩١)، وابن ماجه (١٥٤) عن أنس به.

(٣) القول المفيد ١/١-١/٤٧٦-٤٧٨.

قوله: «فقولوا عبد الله ورسوله».

هذان الوصفان أصدق وصف وأشرفه في الرسول ﷺ، فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد الله، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢)، فوصفهم الله بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم، لكن كونهم عباداً لله - عز وجل - أشرف وأعظم، وأشرف وصف له وأحق وصف به، ولهذا يقول الشاعر في محبته:

لا تدعني إلا يا عبداً فإنه أشرف أسمائي

أى: أنت إذا أردت أن تكلمنى قل: يا عبد فلانة، لأنه أشرف أسمائي وأبلغ فى الذل.

فمحمد ﷺ عبد لا يُعبد، ورسول لا يكذب، ولهذا نقول فى صلاتنا عندما نسلم عليه ونشهد له بالرسالة: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» (٣) فهذا أفضل وصف اختاره النبى عليه الصلاة والسلام لنفسه.

واعلم أن الحقوق ثلاثة أقسام، وهى:

الأول: حق لله لا يشرك فيه غيره: لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وهو ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

الثانى: حق خاص للرسول، هو إعانتهم وتوقييرهم وتبجيلهم بما يستحقون.

الثالث: حق مشترك، وهو الإيمان بالله ورسله، وهذه الحقوق موجودة فى الآية الكريمة، وهى قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فهذا حق مشترك، ﴿وَتَعَزَّزُوا وَتُوقِرُوا﴾ هذا خاص بالرسول ﷺ، ﴿وَتَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٤) هذا خاص بالله سبحانه وتعالى

والذين يغفلون فى الرسول ﷺ يجعلون حق الله له، فيقولون: ﴿وَتَسَبِّحُوهُ﴾، أى: الرسول، فيسبحون الرسول كما يسبحون الله، ولا شك أنه شرك، لأن التسبيح من حقوق الله الخاصة به، بخلاف الإيمان، فهو من الحقوق المشتركة بين الله ورسوله.

(١) الفرقان: ٦٣.

(٢) الصافات: ١٧١.

(٣) [متفق عليه] من حديث ابن مسعود، رواه: البخارى (كتاب الاستئذان، باب السلام اسم من أسماء الله تعالى، ٤/١٣٦)، ومسلم (كتاب الصلاة، باب التشهد فى الصلاة ١/٣٠١).

(٤) الفتح: ٩.

وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوَّ» (١).

ونهى عن الإطراء فى قوله عليه الصلاة والسلام: «كما أطرت النصارى عيسى بن مريم» (٢) لأنَّ الإطراء والغلو يؤدى إلى عبادته كما هو الواقع الآن، فيوجد عند قبره فى المدينة من يسأله، فيقول: يا رسول الله! المدد، المدد يا رسول الله! أغثنا، يا رسول الله! بلادنا يابسة، وهكذا، ورأيت بعينى رجلاً يدعو الله تحت ميزاب الكعبة مولياً ظهره البيت مستقبلاً المدينة، لأن استقبال القبر عنده أشرف من استقبال الكعبة والعياذ بالله. ويقول بعض المغالين: الكعبة أفضل من الحجرة، فأما والنبي ﷺ فيها، فلا والله، ولا الكعبة، ولا العرش وحملته، ولا الجنة.

فهو يريد أن يفضل الحجرة على الكعبة وعلى العرش وحملته وعلى الجنة، وهذه مبالغة لا يرضاها النبي ﷺ لنا ولا لنفسه.

وصحيح أن جسده ﷺ أفضل، ولكن كونه يقول: إنَّ الحجرة أفضل من الكعبة والعرش والجنة، لأنَّ الرسول ﷺ فيها هذا خطأ عظيم، نسأل الله السلامة من ذلك. اهـ.

وقوله: [وقال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ...]

قال الفقير: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ...» هذا الحديث له مناسبة وقصة أن الرسول أرسل من يجمع له من مزدلفة حصيات يرمى بها فى مِنى فأخذ الرسول حصاة منها: فقال: «بمثل هذا فارموا وإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ...» فكان النبي يعلم ما سوف يفعله الناس وإنهم سيتكلفون ما لم يكلفهم الله به فقال: «بمثل هذا» وتكون فعلت ما عليك هذا وإن كثيراً من الناس تظن أن إبليس موجود حقيقة فى هذا المكان وقليل من الناس من يعتقد أن هذا مجرد إحياء لذكرى الخليل ورميه لإبليس، لذلك تجد من يعتقد ذلك يرمى ويسب ويقذف بالحجارة والأحذية وما أفرح إبليس إلا مثل هؤلاء السفهاء، لكن النبي ﷺ قال: «بمثل

(١) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/٢١٥، ٣٤٧)، والنسائى فى «الكبرى» فى الحج/ باب التقاط الحصى (٢/٤٣٥/٤٠٦٣)، وابن ماجه فى المناسك/ باب قدر حصى الرمى (٢/١٠٠٨/٣٠٢٩)، وابن حبان فى «صحيحه» (٦/٦٨ - الإحسان)، والحاكم فى «المستدرک» (١/٤٦٦)، والبيهقى فى «الكبرى» (١٢٧/٥).

من طريق عوف قال: حدثنا زيد بن حصين، عن أبى العالية عن ابن عباس به.

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وانظر «السلسلة» (١٤١٠ - بتخريجنا) الطبعة الثانية. وانظر «فتح المجيد» (٣٤٨ - بتخريجنا).

(٢) سبق...

هذا فارموا» إحياء لذكرى الخليل وتجديداً لإعلان الحرب على العدو الحقيقي إبليس ومقتدياً بأبى الأنبياء فالرمى بالحصى الصغير سيحقق المطلوب ولا داعى للحجارة الكبيرة فلا داعى للتنطع والتعتمق.

ولذلك قال العلماء : إن الغلو كما فى الاعتقادات فهو فى العبادات وكما هو فى الأقوال هو أيضاً فى الأفعال .

ومن هذا الباب نهى الرسول الصحابة الذين شددوا على أنفسهم وقالوا: «أما أنا أقوم ولا أنام والثانى أصوم ولا أفطر والثالث لا أتزوج النساء»^(١) وفى رواية ذكرها ابن تيمية فى الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أن الرابع قال: «أما أنا فلا أكل اللحم»، فالنبي ﷺ قال «أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء وأكل اللحم ومن رغب عن ستى فليس منى» فالمفطر الذى يقوم الليل كله والمفطر الذى ينام الليل كله والوسطية هى أن يقوم وينام.

فالغلو فى جانب الاعتقاد كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ فلا تغلو فى الأنبياء ولا الصالحين ولا الملائكة فقد عبد قوم الملائكة وسبهم قوم آخرون والحسنة أن نكرمهم ولا نعبدهم.

وفى جانب الإيمان بالله انظروا للذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ والذين قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾.

وفى جانب الإيمان حصل التطرف والغلو ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

وحصل ذلك من المرجئة الذين قالوا: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» بمجرد القول.

وكذلك الخوارج القائلين بأن العاصى مخلد فى النار وأما أهل السنة فقالوا بالحسنة بين السيتين .

وكذلك أهل السنة فى جانب القدر هم وسط بين الجهمية والقدرية.

وفى جانب العبادات هذا الحديث «بمثل هذا فارموا...»

«فإنما هلك من كان قبلكم الغلو» فمن كان قبلنا هلك بسبب كفره الذى كان بسبب

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٠٦٣)، ومسلم فى النكاح (١٧٥/٩- النوى) عن أنس به. وانظر

«رياض الصالحين» (١٤٥- بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٣/٣٢٨/٢١٦) عن عائشة به.

الغلو، وقال نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾ وقال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ فهذا سبب الهلاك الغلو في جانب الاعتقاد.

فهل الغلو في جانب العبادات يؤدي للهلكة؟

الجواب: نعم والدليل: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»^(٢) وقلنا: «إن الميت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» أهلك نفسه وأهلك دابته بسبب جدّه في السير فلا يريح نفه ولا يريح دابته.

وكان النبي ﷺ يقول: «أكلفوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تمّلوا»^(١) يعني لا يمل من كتابة الحسنات حتى تمّلوا أنتم من العمل.
قال ابن تيمية^(٢): وقوله: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوءَ» عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال...

والنصارى أكثر غلواً في الاعتقادات والأعمال من سائر الطوائف. وإياهم نهى الله عن الغلو في القرآن في قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

وسبب هذا اللفظ العام رمى الجمار. وهو داخل فيه. فالغلو فيه مثل رمى الحجارة الكبار ونحو ذلك، بناء على أنه قد بالغ في الحصى الصغار.

ثم علل ذلك بأن ما أهلك من كان قبلنا إلا الغلو في الدين كما تراه في النصارى. وذلك يقتضى أن مجانية هديهم مطلقاً أبعد عن الوقوع فيما به هلكوا وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه أن يكون هالكاً. اهـ
قال ابن عثيمين^(٣):

قوله: «إِيَّاكُمْ» للتحذير.

قوله: «والغلو»

معطوف على إياكم، وقد اضطرب فيه المعربون اضطراباً كثيراً، وأقرب ما قيل للصواب وأقله تكلفاً: أن إيا منصوبة بفعل أمر مقدّر تقديره إياك احذر، أى «احذر نفسك أن تغرّك، والغلو معطوف على إياك، أى: واحذر الغلو.

والغلو كما سبق: هو مجاوزة الحد مدحاً أو ذماً، وقد يشمل ما هو أكثر من ذلك

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٣)، ومسلم في صلاة المسافرين (٦٤/٦ - النووى) عن عائشة به، وانظر رياض الصالحين ١٤٤٠ - بتخريجنا).

(٢) الاقتضاء ١٠٦.

(٣) القول المفيد ١/٤٧٩: ٤٨٥.

أيضاً؛ فيقال: مجاوزة الحد في الثناء وفي التعبد وفي العمل؛ لأنَّ هذا الحديث ورد في رمى الجمرات، حيث روى ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: «القط لى حصى. فلقطت له سبع حصيات من حصى الخذف؛ فجعل ينفذهن في كفه، ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين». هذا لفظ ابن ماجه.

والغلو: فاعل أهلك.

قوله: «من كان قبلكم».

مفعول مقدّم.

قوله: «وإنما».

أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

قوله: «أهلك».

يحتمل معنيين:

الأول: أن المراد هلاك الدين، وعليه يكون الهلاك واقعاً مباشرة من الغلو؛ لأن مجرّد الغلو هلاك.

الثاني: أنّه هلاك الأجسام، وعليه يكون الغلو سبباً للهلاك؛ أى: إذا غلوا خرجوا عن طاعة الله فأهلكهم الله.

وهل الحصر في قوله: «فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو» حقيقى أو إضافى؟.

الجواب: إن قيل: إنّ حقيقى؛ حصل إشكال، وهو أنّ هناك أحاديث أضاف النبي ﷺ الهلاك فيها إلى أعمال غير الغلو، مثل قوله ﷺ: «إنما أهلك من كان قبلكم أنّهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»^(١)؛ فهنا حصران متقابلان، فإذا قلنا: إنّ حقيقى بمعنى أنّه لا هلاك إلا بهذا حقيقة؛ صار بين الحديثين تناقض.

وإن قيل: إن الحصر إضافى؛ أى: باعتبار عمل معيّن؛ فإنّه لا يحصل تناقض بحيث يحمل كل منهما على جهة لاتعارض الحديث الآخر لثلا يكون في حديثه ﷺ تناقض، وحيثئذ يكون الحصر إضافياً، فيقال: أهلك من كان قبلكم الغلو هذا الحصر باعتبار

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٧٨٨)، ومسلم فى الحدود (١١/١٨٦- النوى) عن عائشة به، وانظر «رياض الصالحين» (٦٥٢- بتخريجنا).

الغلو في التعبد في الحديث الأول، وفي الآخر يُقال: أهلك من كان قبلكم باعتبار الحكم، فيهلك الناس إذا أقاموا الحد على الضعيف دون الشريف.

وفي هذا الحديث يُحذّر الرسول ﷺ أمته من الغلو، ويبرهن على أن الغلو سبب للهلاك لأنه مخالف للشرع وإيهلاكه للأمم السابقة؛ فيستفاد منه تحريم الغلو من وجهين:

الوجه الأول: تحذيره ﷺ، والتحذير نهى وزيادة.

والوجه الثاني: أنه سبب لإهلاك الأمم كما أهلك من قبلنا، وما كان سبباً للهلاك كان محرماً.

● أقسام الناس في العبادة:

والنَّاسُ في العبادة طرفان ووسط؛ فمنهم المُفْرِط، ومنهم المُفْرَط، ومنهم المتوسط. فدين الله بين الغالى فيه والجافى عنه، وكون الإنسان معتدلاً لا يميل إلى هذا ولا إلى هذا هو الواجب، فلا يجوز التشدد في الدين والمبالغة، ولا التهاون وعدم المبالاة، بل كن وسطاً بين هذا وهذا.

والغلو له أقسام كثيرة؛ منها: الغلو في العقيدة، ومنها الغلو في العبادة، ومنها الغلو في المعاملة ومنها: الغلو في العادات.

والأمثلة عليها كما يلي: أمّا الغلو في العقيدة؛ فمثل ما تشدّق فيه أهل الكلام بالنسبة لإثبات الصفات، فإنّ أهل الكلام تشدّقوا وتعمّقوا حتى وصلوا إلى الهلاك قطعاً، حتى أدّى بهم هذا التعمّق إلى واحد من أمرين: إما التمثيل، أو التعطيل.

إمّا أنّهم مثلوا الله بخلقه، فقالوا: هذا معنى إثبات الصفات، فغلوا في الإثبات حتى أثبتوا ما نفى الله عن نفسه، أو عطّوه وقالوا: هذا معنى تنزيهه عن مشابهة المخلوقات، وزعموا أنّ إثبات الصفات تشبيه؛ فنفوا ما أثبتته الله لنفسه.

لكن الأمة الوسط اقتصدت في ذلك؛ فلم تتعمّق في الإثبات ولا في النفي والتنزيه؛ فأخذوا بظواهر اللفظ، وقالوا: ليس لنا أن نزيد على ذلك؛ فلم يهلكوا، بل كانوا على الصراط المستقيم، ولما دخل هؤلاء الفرس والروم وغيرهم في الدين؛ صاروا يتعمّقون في هذه الأمور ويجادلون مجادلات ومناظرات لاتنتهى أبداً؛ حتّى ضاعوا، نسأل الله السلامة.

وكل الإيرادات التي أوردتها المتأخرون من هذه الأمة على النصوص، لم يوردها الصحابة الذين هم الأمة الوسط.

أما الغلو في العبادات؛ فهو التشدد فيها، بحيث يرى أن الإخلال بشيء منها كفر وخروج عن الإسلام، كغلو الخوارج والمعتزلة، حيث قالوا: أن من فعل كبيرة من الكبائر؛ فهو خارج عن الإسلام وحل دمه وماله، وأباحوا الخروج على الأئمة وسفك الدماء، وكذا المعتزلة، حيث قالوا: من فعل كبيرة؛ فهو بمنزلة بين المنزلتين: الإيمان والكفر؛ فهذا تشدد أدى إلى الهلاك، وهذا التشدد قابله تساهل المرجئة، فقالوا: إن القتل والزنا والسرقه وشرب الخمر ونحوها من الكبائر، لا تخرج من الإيمان، ولا تنقص من الإيمان شيئاً، وأنه يكفي في الإيمان الإقرار، وإن إيمان فاعل الكبيرة كإيمان جبريل ورسول الله ﷺ؛ لأنه لا يختلف الناس في الإيمان حتى يقولون: إن إبليس مؤمن لأنه مقر، وإذا قيل: إن الله كفره؛ قالوا: إذن إقراره ليس بصديق، بل هو كاذب، وإلا لو استكبر عن أمر الله؛ فهو مؤمن.

وهؤلاء في الحقيقة يصلحون لكثير من الناس في هذا الزمان، ولا شك أن هذا تطرف بالتساهل، والأول تطرف بالتشدد، ومذهب أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص، وفاعل المعصية ناقص الإيمان بقدر معصيته، ولا يخرج من الإيمان إلا بما برهنت النصوص على أنه كفر.

وأما الغلو في المعاملات؛ فهو التشدد في الأمور بتحريم كل شيء حتى ولو كان وسيلة، وأنه لا يجوز للإنسان أن يزيد عن واجبات حياته الضرورية، وهذا مسلك سلكه الصوفيّة، حيث قالوا: من اشتغل بالدنيا؛ فهو غير مريد للآخرة، وقالوا: لا يجوز أن تشتري ما زاد على حاجتك الضرورية، وما أشبه ذلك.

وقابل هذا التشدد تساهل من قال: بحل كل شيء ينمي المال ويقوى الاقتصاد. حتى الربا والغش وغير ذلك.

فهؤلاء - والعياذ بالله - متطرفون بالتساهل؛ فتجده يكذب في ثمنها وفي وصفها وفي كل شيء لأجل أن يكسب فلساً أو فلسين، وهذا لاشك أنه تطرف.

والتوسط أن يُقال: تحل المعاملات وفق ما جاءت به النصوص، ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا^(١).

وَحَرَّمَ الرَّبَّاءُ^(٢)؛ فليس كل شيء حراماً؛ فالنبي ﷺ باع واشترى. والصحابة رضی الله عنهم يبيعون ويشترون، والنبي ﷺ يقرهم.

وأما الغلو في العادات؛ فإذا كانت هذه العادة يُخشى أن الإنسان إذا تحوّل عنها انتقل من التحول في العادة إلى التحول في العبادة، فهذا لاجرأ أن الإنسان يتمسك بها، ولا يتحول إلى عادة جديدة، أما إذا كان الغلو في العادة يمنعك من التحول إلى عادة مفيدة أفيد من الأولى؛ فهذا من الغلو المنهى عنه، فلو أن أحداً تمسك بعبادته في أمر حدث أحسن من عادته التي هو عليها نقول: هذا في الحقيقة غالٍ ومفرط في هذه العادة. وأما إن كانت العادات متساوية المصالح، لكنه يُخشى أن ينتقل الناس من هذه العادة إلى التوسع في العادات التي قد تُخلّ بالشرف أو الدين؛ فلا يتحول إلى العادة الجديدة. اهـ.

قوله: [ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: هلك المتنتفعون]

قال النووي^(٣): قوله «هلك المتنتفعون» أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

قال الخطابي^(٤): المتنتفع المتعمق في الشيء المتكلف للبحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيه الخاضعين فيما لا تبلغه عقولهم، وفيه دليل على أن الحكم بظاهر الكلام، وأنه لا يترك الظاهر إلى غيره ما كان له مساغ وأمكن فيه الإستعمال.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في «العلم»/ باب: هلك المتنتفعون (١٦/٦ - ٢٢٠ - النووي) وأبو داود في «السنة»/ باب: لزوم السنة (٤/ ٢٠٠ - ح ٤٥٨٤) وأحمد في «المسند» (١/ ٣٨٦) والبغوي في «شرح السنة» (١٢/ ٣٦٧ - ٣٣٩٦).

من طريق: ابن جريج عن سليمان بن عتيق عن طلق بن حبيب عن الأحنف بن قيس عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً به.

وأنظر «رياض الصالحين» (ح ١٤٦) بتخریجنا وانظر فتح المجيد (٣٥٠ - بتخریجنا).

(٢) البقرة: ٢٧٥.

(٣) النووي شرح مسلم ٤٧٣/٨ دار الحديث.

(٤) نقلاً عن عون المعبود ١٢/ ٣٦١ - ح ٤٥٨٤.

قال ابن منظور (١): والتَّنَطُّعُ فى الكلام: التعمق فيه مأخوذ منه .

وفى الحديث: «هلك المتنطعون»؛ هم المتعمقون المغالون فى الكلام الذين يتكلمون بأقصى حلقهم تكبراً كما قال النبىُّ ﷺ «إنَّ أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون» ورجل ثرو ثرثار مُتَشَدِّق كثير الكلام. والثرثرة فى الكلام: الكثرة والتزيد. وفى الأكل. الإكثار فى تخليط. وروى عن النبىِّ ﷺ أنه قال: «أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون» هم الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق أ.هـ.

قلت: والمتفيهق: الذى يتوسع فى كلامه ويفهق به فمه أى يفتحه فهى صورة من صور الثرثرة وهو الامتلاء يقال: أفهقت الإناء فهق وفى بعض الروايات «أحاسنكم أخلاقاً الموطنون أكنافهم الذين يألفون ويؤلفون» كأن المتفيهق الثرثار متكبر لا يألف ولا يؤلف تنفض الناس من حوله وعكس ذلك متواضع يتكلم للحاجة فقط .

وهى علامة من علامات المؤمنين «المؤمن يألف ويؤلف» حسنه الهيثمى فى المجمع ولذلك قال النبى: «هلك المتنطعون» قال البغوى بعد إخرجه للحديث قال:

المتنطع: المتعمق فى الكلام المغالى الذى يتكلم بأقصى حلقه مأخوذاً من النطع .

وفى حديث سعد بن أبى وقاص: «لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم يأكلون بالسنتهم كما تأكل البقر بالسنتهم» يعنى مثل البقر تجتر يعنى يأكل فى الكلام مثل أكل الخبز فهو عمال على بطال يحب الرغى والتكلم الكثير وهى صفة أغلبها فى النساء .

قال ابن الأثير: هو مأخوذ من النطع وهو الغار الأعلى من الضم، قال: ثم استعمل فى كل تعمق قولاً وفعلًا.

وفى حديث عمر: «لن تزالوا بخير ما عجلتم الفطر ولم تنطعوا تنطع أهل العراق» أى تتكلفوا القول والعمل.

وقيل: أراد به ههنا الإكثار من الأكل والشرب والتوسع فيه حتى يصل إلى الغار الأعلى.

ويستحب للصائم أن يُعَجِّلَ الفطر بتناول القليل من الفطور.

ومنه حديث ابن مسعود: «يَاكُمْ وَالتَّنَطُّعَ وَالْإِخْلَافَ فَإِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِ أَحَدِكُمْ هَلُمَّ وَتَعَالَ» أراد النهى على الملاحاة فى القراءات المختلفة وأن مرجعها كُلُّهَا إلى وجه واحد من الصواب كما أن هَلُمَّ بمعنى تعال. اهـ.

(١) اللسان مادة (ن ط ع) .

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنْ مَنْ فَهَمَ هَذَا الْبَابَ وَبَيَّنَ بَعْدَهُ، تَبَيَّنَ لَهُ غُرْبَةُ الْإِسْلَامِ، وَرَأَى مَنْ قُدْرَةَ اللَّهِ وَتَقْلِيلِهِ لِلْقُلُوبِ الْعَجَبَ.

قال ابن عثيمين (١):

قوله: «المنتطعون».

الْمُنْتَطِعُ: هو المتعمق المستقرُّ المتشدد، سواء كان في الكلام أو في الأفعال؛ فهو هالك، حتى ولو كان ذلك في الأقوال المعتادة؛ فبعض الناس يكون بهذه الحالة، حتى إنَّه ربما يقترون بتعمُّقه وتنطُّعه الإعجاب بالنفس في الغالب، وربما يقترون به الكبير، فتجده إذا تكلم يتكلم بأنفه، فتسلَّم عليه تسمع الرد من الأنف إلى غير ذلك من الأقوال. والمنتطَّع بالأفعال كذلك أيضاً قد يؤدي إلى الإعجاب أو إلى الكبير، ولهذا قال: «هَلَكَ الْمُنْتَطِعُونَ».

والمنتطَّع أيضاً في المسائل الدينية يشبه الغلو فيها؛ فهو أيضاً من أسباب الهلاك، ومن ذلك ما يفعله بعض الناس من التنتطع في صفات الله تعالى والتقعر فيها، حيث يسألون عما لم يسأل عنه الصحابة رضي الله عنهم، وهم يعلمون أن الصحابة خير منهم وأشدَّ حرصاً على العلم، وفيهم رسول الله الذي عنده من الإجابة على الأسئلة ما ليس عند غيره من الناس مهما بلغ علمهم.

فهذه الأحاديث الثلاثة كلُّها تدلُّ على تحريم الغلو، وأنَّه سببٌ للهلاك، وأنَّ الواجب أن يسير العبد إلى الله بين طرفي نقيض الدين الوسط، فكما أنَّ هذه الأُمَّة هي الوسط ودينها هو الوسط؛ فينبغي أن يكون سيرها في دينها على الطريق الوسط. اهـ.

قوله فيه مسائل:

قال ابن عثيمين (٢):

● الأولى: أَنْ مَنْ فَهَمَ هَذَا الْبَابَ - أَيْ: بما مرَّ من تفسير الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ - وبابين بعده، تَبَيَّنَ لَهُ غُرْبَةُ الْإِسْلَامِ.

وهذا حق؛ فإنَّ الإسلام المبني على التوحيد الخالص غريب، فكثير من البلدان

(١) القول المفيد ١/ ٤٨٥ و ٤٨٦.

(٢) القول المفيد ١/ ٤٨٦: ٥٠٤.

الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض كان بشبهة الصالحين.

الثالثة: معرفة أول شيء غير به دين الأنبياء، وما سبب ذلك، مع معرفة أن الله أرسلهم.

الإسلامية تجد فيها الغلو في الصالحين في قبورهم، فلا تجد بلداً مسلماً إلا وفيه غلو في قبور الصالحين، وقد يكون ليس قبر رجل صالح، قد يكون وهماً، مثل قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما؛ فأهل العراق يقولون: هو عندنا، وأهل الشام يقولون: عندنا، وأهل مصر يقولون: عندنا، وبعضهم يقول: هو في المغرب؛ فصار الحسين إما أنه أربعة رجال، أو مُقطَّع أوصالاً، وهذا كله ليس بصحيح؛ فالهمم أنه كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: تبين لك غربة الإسلام في المسلمين.

وكذلك الجزيرة العربية قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيها قبور وقباب تعبد من دون الله ويُحج إليها وتُقصد، ولكن بتوفيق الله - سبحانه وتعالى - أنه أعان هذا الرجل مع الإمام محمد بن سعود حتى قضى عليها وهدمها، وصارت البلاد والله الحمد على التوحيد الخالص.

● الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض.

وجه ذلك: أن هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح كانوا أقواماً صالحين، فحدث الغلو فيهم، ثم عبدوا من دون الله؛ ففيه الحذر من الغلو في الصالحين.

● الثالثة: معرفة أول شيء غير به دين الأنبياء، وما سبب ذلك، مع معرفة أن الله أرسلهم.

أول شيء غير به دين الأنبياء هو الشرك، وسببه هو الغلو في الصالحين، وقوله: «مع معرفة أن الله أرسلهم»، قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾^(١)؛ أي: كانوا أمة واحدة على التوحيد، فاختلَفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه؛ فهذا أول ما حدث من الشرك في بني آدم.

(١) البقرة: ٢١٣.

الرابعة: قَبُولُ الْبِدْعِ مَعَ كَوْنِ الشَّرَائِعِ وَالْفِطْرِ تَرُدُّهَا.

الخامسة: أَنْ سَبَبَ ذَلِكَ كُلُّهُ مَزْجُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ.

فَالأَوَّلُ: مَحَبَّةُ الصَّالِحِينَ.

والثَّانِي: فَعَلَ أَنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالِدِّينِ شَيْئًا أَرَادُوا بِهِ خَيْرًا فَظَنُّ مَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ غَيْرَهُ.

●الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردّها.

قوله: «قبول البدع».

أى: أَنَّ النفوس تقبلها لا لأنها مشروعة، بل إن الشرائع تردّها، وكذلك الفطر السليمة تردّها؛ لأنَّ الفطر السليمة جبلت على عبادة الله وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾^(١)؛ فالفطر السليمة لا تقبل تشريعاً إلا ممن يملك ذلك.

● الخامسة: أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلَّهُ مَزْجُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ.

أراد المؤلف رحمه الله أن يبيّن أن مزج الحق بالباطل حصل بأمرين:

الأول: محبة الصالحين، ولهذا صوروا تماثيلهم محبةً لهم، ورغبة في مشاهدتهم أشباحهم.

الثاني: أَنَّ أهل العلم والدين أرادوا بذلك خيراً، وهو أن ينشطوا على العبادة، ولكن من بعدهم أرادوا غير الخير الذى أرادوه أولئك.

ويؤخذ منه: أَنَّ مَنْ أَرَادَ تَقْوِيَةَ دِينِهِ بِبِدْعَةٍ؛ فَإِنْ ضَرَرَهَا أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهَا.

مثال ذلك: أولئك الذين يغفلون فى الرسول ﷺ ويجعلون له الموالد هم يريدون بذلك خيراً، لكن أرادوا خيراً بهذه البدعة، فصار ضررها أكثر من نفعها؛ لأنها تعطى الإنسان نشاطاً غير مشروع فى وقت معيّن، ثم يعقبه فتور غير مشروع فى بقية العام.

ولهذا تجد هؤلاء الذين يغالون فى هذه البدع فاترين فى الأمور المشروعة الواضحة

(١) الروم: ٣٠.

ليسوا كنشاط غيرهم، وهذا مما يدل على تأثير البدع فى القلوب وأنها مهما زينها أصحابها؛ فلا تريد الإنسان إلا ضلالاً؛ لأنَّ النبي ﷺ يقول: «كل بدعة ضلالة» (١).

فإن قيل: إن للاحتفال بمولده أصلاً من السنة، وهو أن النبي ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين؛ فقال: «ذاك يوم ولد فيه، وبعث فيه، أو أنزل على فيه» (٢)، وكان ﷺ يصومه مع الخميس ويقول: «إنهما يومان تُعرض فيهما الأعمال على الله فأحبُّ أن يُعرض عملى وأنا صائم» (٣).

فالجواب: على ذلك من وجوه:

الأول: أن الصوم ليس احتفالاً بمولده كاحتفال هؤلاء، وإنما هو صوم وإمساك، أمّا هؤلاء الذين يجعلون له المولد؛ فإحتفالهم على العكس من ذلك.

فالمعنى: أن هذا اليوم إذا صامه الإنسان؛ فهو يوم مبارك حصل فيه هذا الشيء، وليس المعنى أننا نحتفل بهذا اليوم.

الثانى: أنه على فرض أن يكون هذا أصلاً؛ فإنه يجب أن يقتصر فيه على ما ورد؛ لأنَّ العبادات توقفية، ولو كان الإحتفال المعهود عند الناس اليوم مشروعاً لبيّنه ﷺ؛ إمّا بقوله، أو فعله، أو إقراره.

الثالث: أن هؤلاء الذين يحتفلون بمولد النبي ﷺ لا يقيدونه بيوم الاثنين، بل فى اليوم الذى زعموا مولده فيه، وهو اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول، مع أن ذلك لم يثبت من الناحية التاريخية، وقد حقّق بعض الفلكيين المتأخّرين ذلك، فكان فى اليوم التاسع لافى اليوم الثانى عشر.

الرابع: أن الاحتفال بمولده على الوجه المعروف بدعة ظاهرة؛ لأنّه لم يكن معروفاً على عهد النبي ﷺ وأصحابه، مع قيام المقتضى له وعدم المانع منه.

● مسألة حكم الإحتفال بعيد الميلاد للأطفال:

فائدة: كل شيء يتخذ عيداً يتكرّر كل أسبوع، أو كل عام وليس مشروعاً؛ فهو من

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجمعة (٣/ ٤١٨ / ٤٣) عن جابر به.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الصيام (٤/ ٣٠٦ / ١٩٧) عن أبى قتادة به. وانظر كتابنا تخريج أحاديث فقه السنة.

(٣) أخرجه الترمذى (٧٤٧) عن أبى هريرة به. قال الترمذى: حسن غريباً. وأصله عند مسلم وأنظر «لطائف المعارف» بتخريجنا.

السادسة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ نُوحٍ.

السابعة: جِبِلَّةُ الْآدَمِيِّ فِي كَوْنِ الْحَقِّ يَنْقُصُ فِي قَلْبِهِ وَالْبَاطِلُ يَزِيدُ.

البدع، والدليل على ذلك: أَنَّ الشارع جعل للمولود العقيقة، ولم يجعل شيئاً بعد ذلك، واتَّخَذَهُمْ هَذِهِ الْأَعْيَادُ تَتَكَرَّرُ كُلُّ أُسْبُوعٍ أَوْ كُلِّ عَامٍ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ شَبَّهُوهُ بِالْأَعْيَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَهَذَا حَرَامٌ لَا يَجُوزُ، وَلَيْسَ فِي الْإِسْلَامِ شَيْءٌ مِنَ الْأَعْيَادِ إِلَّا الْأَعْيَادُ الشَّرْعِيَّةُ الثَّلَاثَةُ: عِيدُ الْفِطْرِ، وَعِيدُ الْأَضْحَى، وَعِيدُ الْأُسْبُوعِ، وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ.

وليس هذا من باب العادات لَأَنَّهُ يَتَكَرَّرُ، وَلِهَذَا لَمَّا قَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ فُوجِدَ لِلْأَنْصَارِ عِيدَيْنِ يَحْتَفِلُونَ بِهِمَا؛ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَبْدَلَكُمْ بِخَيْرِ مَنَّهُمَا: عِيدَ الْأَضْحَى، وَعِيدَ الْفِطْرِ»^(١)، مَعَ أَنَّ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْعَادِيَةِ عِنْدَهُمْ. اهـ.

● السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح.

وقد سبق ذلك وبيان أَنَّهُمْ يَتَوَاصُونَ بِالْبَاطِلِ، وَهَذَا خِلَافُ طَرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَوَاصُونَ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ وَالرَّحْمَةِ، وَيُشَبِّهُهُمْ أَهْلُ الْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ الَّذِينَ يَتَوَاصُونَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ، سَوَاءٌ كَانُوا رُؤَسَاءَ سِيَاسِيِّينَ أَوْ رُؤَسَاءَ دِينِيِّينَ يَتَسَبَّبُونَ إِلَى الدِّينِ، فَتَجِدُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَا يَمُوتُ إِلَّا وَقَدْ وَضَعَ لَهُ رَكِيزَةً مِنْ بَعْدِهِ يَنْمَى هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ.

● السابعة: جبلة آدمي في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد.

هذه العبارة تقيّد من حيث كونه آدمياً بقطع النظر على من يمنّ الله عليه من تزكية النفس؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا»^(٢).

قوله: «جبلة» على وزن فعلة، وهو ما يجبل المرء عليه؛ أَيْ: يَخْلُقُ عَلَيْهِ وَيُطْبِعُ وَيُبْدِعُ، بِمَعْنَى الطَّبِيعَةِ الَّتِي عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ بَقَطَعَ النَّظَرَ عَنْ كَوْنِهِ زَكِيٍّ نَفْسُهُ أَوْ دَسَّاهَا.

فَالْإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ وَصَفَهُ اللَّهُ بِوَصْفَيْنِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظُلُومٌ

(١) تقدم تخريجه.

رواه: أبو داود (كتاب الصلاة، باب صلاة العيدين)، والنسائي في العيدين، (٣/١٧٩)، والحاكم (٢٩٤/١)، والبيهقي (٣/٢٧٧).

وإسناده صحيح

(٢) الشمس: ٩، ١٠.

الثامنة: فِيهِ شَاهِدٌ نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّ الْبِدْعَ سَبَبُ الْكُفْرِ.

كُفَّارٌ^(١)، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٢).

أما من حيث ما يمتنُّ الله به عليه من الإيمان والعمل الصالح؛ فإنه يرتقى عن هذا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٣) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ^(٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ^(٥)؛ فالإنسان الذي يمتنُّ الله عليه بالهدى؛ فإنَّ الباطل الذي في قلبه يتناقص وربما يزول بالكليَّة؛ كعمرو بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم.

وكذلك أهل العلم؛ كأبي الحسن الأشعري، كان معتزلياً، ثم كلابياً، ثم سنياً، وابن القيم كان صوفياً، ثم من الله عليه بصحبة شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فهده الله على يده حتى كان ربانياً.

● الثامنة: فِيهِ شَاهِدٌ لَمَّا نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّ الْبِدْعَ سَبَبُ الْكُفْرِ.

قال أهل العلم: إنَّ الكفر له أسباب متعدِّدة، ولا مانع أن يكون للشئ الواحد أسباب متعدِّدة، ومن ذلك الكفر، ذكروا من أسبابه البدعة، وقالوا: إنَّ البدعة لا تزال في القلب، يظلم منها شيئاً فشيئاً؛ حتَّى يصل إلى الكفر، واستدلُّوا بقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»^(٦).

وقالوا أيضاً: «إنَّ المعاصي بريد الكفر، وبريد الشئ ما يوصل إلى الغاية».

والمعاصي كما أخبر النبي ﷺ تتراكم على القلب، فتتكت في نكتة سوداء، فإن تاب؛ صقل قلبه وأبيض^(٧)، وإلا؛ فلا تزال هذه النكتة السوداء تتزايد حتى يصبح مظلماً.

وكذلك حذر من محقرات الذنوب، وضرب لها مثلاً بقوم نزلوا أرضاً، فأرادوا أن

(١) إبراهيم: ٣٤.

(٢) الأحزاب: ٧٢.

(٣) التين ٤ - ٦.

(٤) تقدم مختصراً.

(٥) أخرجه الترمذی (٣٣٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (٦٧٨) عن أبي هريرة به وانظر «الاتقان» (١٧٧٩).

- بتخریجنا).

التاسعة: مَعْرِفَةُ الشَّيْطَانِ بِمَا تَوَوَّلُ إِلَيْهِ الْبِدْعَةُ وَلَوْ حَسَنَ قَصْدُ الْفَاعِلِ.

يطبخوا، فذهب كل واحد منهم وأتى بعود، فأتى هذا بعود وهذا بعود، فجمعوها، فأضرموا ناراً كبيرة، وهكذا المعاصي^(١)؛ فالمعاصي لها تأثير قوى على القلب، وأشدّها تأثيراً الشهوة فهي أشدّ من الشبهة؛ لأنّ الشبهة أيسر زوالاً على من يسرها الله عليه؛ إذ إن مصدرها الجهل، وهو يزول بالتعلّم.

أما الشهوة، وهى إرادة الإنسان الباطل؛ فهى البلاء الذى يُقتل به العالم والجاهل، ولذا كانت معصية اليهود أكبر من معصية النصارى؛ لأنّ معصية اليهود سببها الشهوة وإرادة السوء والباطل، والنصارى سببها الشبهة، ولهذا كانت البدع غالبها شبهة، ولكن كثيراً منها سببه الشهوة. ولهذا يبين الحق لأهل الشهوة من أهل البدع، فيصرون عليها، وغالبهم يقصد بذلك بقاء جاهه ورئاسته بين الناس دون صلاح الخلق، ويظنّ فى نفسه ويملى عليه الشيطان أنّه لو رجع عن بدعته لتقصت منزلته بين الناس، وقالوا: هذا رجل متقلّب وليس عنده علم، لكن الأمر ليس كذلك؛ فأبو الحسن الأشعري مَضْرِبُ المثل فى هذا الباب؛ فإنه لما كان من المعتزلة لم يكن إماماً، ولما رجع إلى مذهب أهل السنّة صار إماماً؛ فكل من رجع إلى الحق زادت منزلته عند الله - سبحانه -، ثم عند خلقه.

والخلاصة: أنّ البدعة سبب للكفر، ولا يرد على هذا قول بعض أهل العلم: إنّ المعاصى بريد الكفر؛ لأنّه لا مانع من تعدّد الأسباب.

● التاسعة: معرفة الشيطان بما يؤوّل إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل.

لأنّ الشيطان هو الذى سَوَّلَ لهؤلاء المشركين أن يصوروا هذه التماثيل والتصاویر؛ لأنّه يعرف أن هذه البدعة تؤوّل إلى الشرك.

وقوله: «ولو حسن قصد الفاعل».

أى: إنّ البدعة شر ولو حسن قصد فاعلها، ويأثم إن كان عالماً أنّها بدعة ولو حسن قصده؛ لأنّه أقدم على المعصية كمن يجيز الكذب والغش ويدعى أنّه مصلحة، أمّا لو كان جاهلاً فإنّه لا يَأْثِمُ؛ لأنّ جميع المعاصى لا يَأْثِمُ بها إلا مع العلم، وقد يُثَاب على حسن قصده، وقد نَبّه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم»؛ فيُثَاب على نيّته دون عمله، فعمله هذا غير صالح ولا مقبول عند الله ولا مرضى، لكن

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٣١/٥) عن سهل بن سعد به.

العاشرة: مَعْرِفَةُ الْقَاعِدَةِ الْكُلِّيَّةِ، وَهِيَ النَّهْيُ عَنِ الْغُلُوِّ وَمَعْرِفَةُ مَا يُؤُولُ إِلَيْهِ.

لحسن نيَّته مع الجاهل يكون له أجر، ولهذا قال ﷺ للرجل الذى صلى وأعاد الوضوء بعدما وجد الماء وصلَّى ثانية: «لَكَ الْأَجْرُ مَرَّتَيْنِ»^(١)؛ لحسن قصده، ولأنَّ عمله عمل صالح فى الأصل، لكن لو أراد أحد أن يعمل العمل مرتين مع علمه أنه غير مشروع؛ لم يكن له أجر لأن عمله غير مشروع لكونه خلاف السنة؛ فقد قال النبى ﷺ للذى لم يعد: «أَصَبْتَ السَّنَةَ»^(٢).

فإن قال: إنى أريد بهذه البدعة إحياء الهمم والتنشيط وما أشبه ذلك.

أجيب: بأن هذه الإرادة طعن فى رسالة الرسول ﷺ؛ لأنَّه اتهام له بالتقصير أو القصور، أى مقصّر فى الإخبار عن ذلك أو قاصر فى العلم، وهذا أمر عظيم وخطر جسيم، ولأن هذا لم يكن عليه الرسول ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون، أمّا إذا كان حسن القصد، ولم يعلم أنَّ هذا بدعة؛ فإنَّه يُثَاب على نيَّته ولا يُثَاب على عمله؛ لأنَّ عمله شرَّ حابط كما قال النبى ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا؛ فَهُوَ رَدٌّ»^(٣).

وأما العامة الذين لا يعلمون، وقد لبَّس عليهم هذه البدعة وغيرها؛ نقول: ماداموا قاصدين للحق ولا علموا به، فإثمهم على من أفتاهم ومن أضلَّهم.

ولهذا يوجد فى مجاهل أفريقيا وغيرها من لا يعرفون عن الإسلام شيئاً، فلو ماتوا لانقول: إنَّهم مسلمون ونصلى عليهم ونترحم عليهم مع أنَّهم لم تقم عليهم الحجَّة، لكننا نعاملهم فى الدنيا بالظاهر، أمّا فى الآخرة؛ فأمرهم إلى الله.

● العاشرة: مَعْرِفَةُ الْقَاعِدَةِ الْكُلِّيَّةِ، وَهِيَ النَّهْيُ عَنِ الْغُلُوِّ وَمَعْرِفَةُ مَا يُؤُولُ إِلَيْهِ.

هذا ما حذَّر منه النبى ﷺ؛ لأنَّ الغلو مجاوزة الحد، وهو كما يكون فى العبادات يكون فى غيرها، قال تعالى: «وَكُلُّوا وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا»^(٤)، وقال: «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا»^(٥)، وقد سبق بيان ذلك.

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٨)، والنسائى (٢١٣/١ - السيوطى) عن أبى سعيد به.

(٢) تقدم قبله.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الأعراف: ٣١.

(٥) الفرقان: ٦٧.

الحادية عشرة: مَضَرَّةُ الْعُكُوفِ عَلَى الْقَبْرِ لِأَجْلِ عَمَلٍ صَالِحٍ.

الثانية عشرة: مَعْرِفَةُ النَّهْيِ عَنِ التَّمَاثِيلِ وَالْحِكْمَةُ فِي إِزَالَتِهَا.

الثالثة عشرة: مَعْرِفَةُ عَظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا مَعَ الْغَفْلَةِ عَنْهَا.

الرابعة عشرة: وَهِيَ أَعْجَبُ الْعَجَبِ: قِرَاءَتُهُمْ إِيَّاهَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِمَعْنَى الْكَلَامِ، وَكَوْنُ اللَّهِ حَالِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ حَتَّى

● الحادية عشرة: مَضَرَّةُ الْعُكُوفِ عَلَى الْقَبْرِ لِأَجْلِ عَمَلٍ صَالِحٍ.

المضرة الحاصلة: هي أنها توصل إلى عبادتهم.

ومثل ذلك: ما لو قُرِئَ الْقُرْآنُ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، أَوْ تُصَدَّقَ عِنْدَ هَذَا الْقَبْرِ يَعْتَقَدُ أَنَّ لَذَلِكَ مَزِيَّةً عَلَى غَيْرِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْبَدْعِ، وَهَذِهِ الْبَدْعَةُ قَدْ تَوَدَّى بِصَاحِبِهَا إِلَى عِبَادَةِ هَذَا الْقَبْرِ.

● الثانية عشرة: مَعْرِفَةُ النَّهْيِ عَنِ التَّمَاثِيلِ.

التمائيل: هي الصور على مثال رجل، أو حيوان، أو حجر، والغالب أَنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى مَا صَنَعَ لِيُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

● الثالثة عشرة: مَعْرِفَةُ عَظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْقِصَّةِ.

أى: قصة هؤلاء الذين غلوا فى الصالحين وغير الصالحين، لكن اعتقدوا فيهم الصلاح، حتى تدرج بهم الأمر إلى عبادتهم من دون الله؛ فتجب معرفة هذه القصة، وأنَّ أمر الغلو عظيم، ونتائجه وخيمة؛ فالحاجة شديدة إلى ذلك، والغفلة عنها كثيرة والناس لو تدبّرت أحوالهم وسيرت قلوبهم وجدت أنهم فى غفلة عن هذا الأمر، وهذا موجود فى البلاد الإسلامية.

● الرابعة عشرة - وهى أعجب العجب -: قِرَاءَتُهُمْ إِيَّاهَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ.

قوله: «وأعجب».

أى: أكثر عجباً وأشدّ، والعجب نوعان:

اعْتَقِدُوا أَنَّ فَعْلَ قَوْمِ نُوحٍ هُوَ أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ، وَاعْتَقِدُوا أَنَّ مَا نَهَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ فَهُوَ الْكُفْرُ الْمُبِيحُ لِلدَّمِّ وَالْمَالِ.

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

الأول: بمعنى الاستحسان، وهو ما إذا تعلق بمحمود؛ كقول عائشة في الحديث: «كان النبي ﷺ يعجبه التيامن في تنعله وترجله وطهوره، وفي شأنه كله»^(١).

الثاني: بمعنى الإنكار، وذلك فيما إذا تعلق بمذموم، قال تعالى: «وَأِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ»^(٢).

وكلام المؤلف هنا من باب الإنكار.

وكلام المؤلف هنا عما كان في زمنه، حيث غفلوا عن هذه القصة مع قراءتهم لها في كتب التفسير والحديث، واعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات، وهذا من أضر ما يكون على المرء أن يعتقد السيئ حسناً، قال تعالى: «أَقِمْنَ زِينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَأَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»^(٣)، وقال تعالى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا»^(٤).

قوله: «فاعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدَّمِّ والمال».

أى: من اعتقد أن الشرك والكفر من أفضل العبادات، وأنه مقرب إلى الله؛ فهذا كفر مبيح لدمه وماله، هذا ما أراد المؤلف، وإن كان لا يسعفه ظاهر كلامه ثم بدا لى ما لعله المراد أن هؤلاء الغالين اعتقدوا أن المنهى عنه هو الكفر المبيح للدَّمِّ والمال، وأما ما دونه من الغلو؛ فلا نهى فيه، والله أعلم.

● الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

أى: ما أرادوا إلا الشفاعة، ومع ذلك وقعوا في الشرك.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٣٨٠)، ومسلم فى الطهارة (١٦٠/٣ - النووى) عن عائشة به.

وانظر «السلسيل» (٤٤ - بتخریجنا).

(٢) الرعد: ٥.

(٣) فاطر: ٨.

(٤) الكهف: ١٠٣.

- السادسة عشرة: ظَنُّهُمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ صَوَّرُوا الصُّورَ أَرَادُوا ذَلِكَ.
- السابعة عشرة: الْبَيَانُ الْعَظِيمُ فِي قَوْلِهِ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ» فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، بَلَّغَ الْبَلَاغِ الْمُبِينِ.
- الثامنة عشرة: نَصِيحَتُهُ إِيَّانَا بِهَلَاكِ الْمُنْتَطَعِينَ.
- التاسعة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا لَمْ تُعْبَدْ حَتَّى نُسِيَ الْعِلْمُ، فَفِيهَا بَيَانُ مَعْرِفَةِ قَدْرِ وَجُودِهِ وَمَضَرَّةِ فَقْدِهِ.
- العشرون: أَنَّ سَبَبَ فَقْدِ الْعِلْمِ مَوْتُ الْعُلَمَاءِ.

- السادسة عشرة: ظَنُّهُمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ صَوَّرُوا الصُّورَ أَرَادُوا ذَلِكَ.
- أى: أَرَادُوا أَنْ تَشْفَعَ لَهُمْ، بَلْ ظَنُّوا أَنَّهَا تَشْطِطُهُمْ عَلَى الْعِبَادَةِ، وَهَذَا ظَنٌّ فَاسِدٌ كَمَا سَبَقَ.
- السابعة عشرة: الْبَيَانُ الْعَظِيمُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «لَا تُطْرُونِي ...» الْحَدِيثُ.
- معنى الإطراء: الغلو فى المدح، والمبالغة فيه.
- وهذا الذى نهى عنه ﷺ وقع فيه بعض هذه الأمة، بل أشد؛ حتى جعلوا النبى ﷺ المرجع فى كل شىء، وهذا أعظم من قول النصارى: المسيح ابن الله، وثالث ثلاثة.
- ومعنى: «بلغ»؛ أى: أوصل وبين.
- الثامنة عشرة: نَصِيحَتُهُ إِيَّانَا بِهَلَاكِ الْمُنْتَطَعِينَ.
- وذلك بقوله ﷺ: «هلك المنتطعون»؛ فلم يرد مجرد الخبر، ولكن التحذير من التنتع.
- التاسعة عشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا لَمْ تُعْبَدْ حَتَّى نُسِيَ الْعِلْمُ.
- أى: لم تُعْبَدْ هذه التماثيل إلا بعد أن نُسِيَ الْعِلْمُ اضمحل؛ ففيه دليل على معرفة قدر وجوده أى العلم، وأن وجوده أمر ضرورى للأمة؛ لأنه إذا فَقَدَ الْعِلْمُ؛ حَلَّ الْجَهْلُ محلَّه، وإذا حَلَّ الْجَهْلُ؛ فلا تسأل عن حال الناس؛ فسوف لا يعرفون كيف يعبدون الله، ولا كيف يتقربون إليه.
- قلت: فالجهل سبب الهلاك ويشهد له ما روى عنه ﷺ «قتلوه قتلهم الله».
- العشرون: أَنَّ سَبَبَ فَقْدِ الْعِلْمِ مَوْتُ الْعُلَمَاءِ.

فهذا من أكبر الأسباب لفقد العلم، فإذا مات العلماء؛ لم يبق إلا جهال الخلق يفتنون
بغير علم.

ومن أسباب فقدته أيضاً: الغفلة والإعراض عنه، والتشاغل بأمور الدنيا، وعدم المبالاة به.
ثم إن العلم قد يكون موجوداً وهو معدوم، وذلك فيما إذا كثَرَ القُرَّاء الذين يقرؤون
العلم ولا يعملون به، وقلَّ الفقهاء الذين يعملون به؛ فهذا يُصبح العلم عديم الفائدة
ووجوده كعدمه، بل إنَّ في وجوده ضرراً على الأمة؛ لأنَّ العامة إذا رأوا من يتسبب إليه
ساكتاً غير عامل بما علَّم؛ ظنُّوا أنَّ ما عليه الناس حق.

فضرر العلم الذي لا ينفع أشدَّ من ضرر الجهل، وإذا وجد الجهل؛ فإنَّ الناس قد
يطلبون العلم ويتلمَّسونه.

● الخلاصة للباب:

بيان أنَّ الغلو في الصالحين من أسباب الكفر، وليس هو السبب الوحيد للكفر.
وأنَّ خطر الغلو عظيم ونتائجه وخيمة؛ فالواجب تنزيل الصالحين منازلهم؛
فلا يستوى الصالح والفساد، بل ينزل كلُّ منزلته، ولكن لا تتجاوز به المستزلة فتغلو فيه؛
فدين الله وسط لا يعطى الإنسان أكثر مما يستحق، ولا يسلبه ما يستحق، وهذا هو
العدل.

س ١: ما الفرق بين التنطع والغلو والاجتهاد؟

الجواب: الغلو مجاوزة الحد.

والتنطُّع معناه: التشدُّق بالشئ والتعمُّق فيه، وهو من أنواع الغلو.

أما الاجتهاد: فإنَّه بذل الجهد لإدراك الحق، وليس فيه غلو إلا إذا كان المقصود
بالاجتهاد كثرة الطاعة غير المشروعة؛ فقد تودى إلى الغلو، فلو أنَّ الإنسان مثلاً أراد أن
يقوم الليل ولا ينام، وأن يصوم النهار ولا يفطر، وأن يعتزل ملاذ الدنيا كلها؛ فلا يتزوَّج
ولا يأكل اللحم ولا الفاكهة وما أشبه ذلك؛ فإنَّ هذا من الغلو، وإن كان الحامل على
ذلك الاجتهاد والبر، ولكن هذا خلاف هدى النبي ﷺ.

س ٢: ما حكم الذهاب إلى قبور الصالحين لقراءة الفاتحة؟

الجواب: هذا من البدع، سواء قلنا يصل الثواب أو لا يصل؛ فكونك تتخذ القراءة
عند القبر خاصَّة هذا من البدع.

وإنَّما اختلف السلف فيما إذا قرئت الفاتحة عند الميت بعد دفنه مباشرة أو غيرها من
القرآن.

والصحيح أيضاً أنَّه ليس بسنة، والسنة أن تستغفر له وتسال له التثبيت أ.هـ.



مَا جَاءَ فِي التَّخْلِيضِ فِيمَنْ عْبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ كَالْحَفَكَيْفَ إِذَا عْبَدَهُ؟!

● مناسبة هذا الباب للذي قبله

قال سليمان آل الشيخ^(١): نوع المصنف التحذير من الافتتان بالقبور، وأخرجه في أبواب مختلفة، ليكون أوقع في القلب وأحسن في التعليم، وأعظم في الترهيب، فإذا كان قصد قبور الصالحين لعبادة الله عندها فيه من النهي والوعيد ما سيمر بك إن شاء الله، فكيف بعبادة أربابها من دون الله، وإعتيادها لذلك في اليوم والأسبوع، والشهر مرات كثيرة. اهـ.

قلت: فهو من باب التنوع في التحذير من القبور والافتتان بها، فيبين أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم الغلو في الصالحين كما في الباب الماضي، وهذا أصله العكوف عند صورهم أو أصنامهم أو قبورهم لا لعبادتهم بل للنظر إليها والاجتهاد في طاعة الله عزوجل حتى إذا تنسخ العلم كما قال ابن عباس عُبِدَتْ أو عُبِدَ هؤلاء الصالحين فكأنه يحذر من هذا الغلو لأن الغلو في محبتهم يُصير قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله وسيصيرها آلة تعبد من دون الله وهذا في الباب الماضي وهنا أراد أن ينوع في هذا التحذير فبوب باباً آخر فيه نوع آخر من أنواع التحذير التي تحذر من عبادة المقبور أو عبادة القبور.

ولما استنبط المصنف - رحمه الله - من الأدلة التي ذكرها في الباب الماضي لاسيما من أثر ابن عباس في سبب عبادة ود وسواع وغيرهما مضرة العكوف على القبر من أجل عمل صالح كما في المسئلة الحادية عشرة من مسائل الباب الماضي، ناسب أن يأتي بالأدلة المصرحة بالنهي عن التقرب إلى الله بالعمل الصالح عند قبور الصالحين فلهذا أفرد لها هذا الباب وجمع فيه هذه الأدلة المصرحة بالنهي بمغبة ذلك ومضرته. والله أعلم.

● مناسبة الباب للتوحيد:

قال عبدالله بن جارالله^(٢): مناسبة لكتاب التوحيد: أن عبادة الأولياء والصالحين شرك أكبر ينافي التوحيد، وعبادة الله عند قبورهم وسيلة إلى الشرك اهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٣٤).

(٢) الجامع الفريد (٨٣).

• شرح الترجمة

قال حامد بن محمد^(١): باب ما جاء فى بيان ما يدل على أن التغليظ يلزم الذى يطيع الله ورسوله غيرته على دينه - عز وجل - فإيمان عبد الله خالصاً، لكن عند قبر رجل صالح حذراً من الفتنة والشرك، هذا إذا كان غير الله، فكيف إذا عبده!! فيكون التغليظ أولى والزم اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): قوله: باب: ما جاء من التغليظ فيما عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟

أى: الرجل الصالح، فإنَّ عبادته هى الشرك الأكبر، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته، ووسائل الشرك محرمة، لأنها تؤدى إلى الشرك الأكبر، وهو أعظم الذنوب. اهـ.

قلت: فهو من باب الوسائل كأنه فى الباب الأول ذكر النهى عن وسيلة من وسائل الشرك وهنا النهى عن وسيلة أخرى من وسائل الشرك ففى الأول بين أن الغلو وسيلة من وسائل الشرك الأكبر وهنا نهى عن عبادة الله عند قبور الصالحين لأنها وسيلة أخرى من وسائل الشرك الأكبر فهذا تعدد فى التحذير.

قال ناصر السعدى^(٣): ما ذكر المصنف فى البابين - (هذا الباب وما بعده) - اهـ. وأنا أقول والذى قبله.

ثم قال: يتضح بذكر تفصيل القول فيما يفعل عند قبور الصالحين وغيرهم وذلك أن ما يفعل عندها نوعان: مشروع وممنوع.

أما المشروع: فهو ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعى من غير شد رحل، يزورها المسلم متبعاً للسنة فيدعو لأهلها عموماً ولأقاربه ومعارفه خصوصاً فيكون محسناً إليهم بالدعاء لهم وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم، ومحسناً إلى نفسه باتباع السنة وتذكر الآخرة والاعتبار بها والاعتناظ. اهـ.

قلت: لحديث «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزورها فإنها تذكر الآخرة»^(٤). فالمشروع لأمرين: لنفع القبور ولنفع الزائر، أما نفع القبور فبالدعاء له، وأما نفع الزائر

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٢). (٢) فتح المجيد (١/ ٢٩٠).

(٣) القول السديد (٦٤).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (٢/ ٤٦ - النووى) عن بريدة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٢) - بتخريجنا.

بهذا القبر والمقبور فبالأسى وأتباع السنة وتذكر الآخرة، فإذا ذهبت لزيارة القبور من باب
إلا فزورها وما ذهبت ألا لذلك فلك بذلك فائدتين الأولى أتباع السنة والثانية تذكر
الآخرة فهذا المشروع، و الأجر والثواب فى اتباع السنة فى هذا الباب». ثم قال:

وأما الممنوع: فإنه نوعان:

أحدهما: محرم أو وسيلة للشرك

قلت: لو قال محرم أو وسيلة لشرك لكان أجود وأفضل فيكون المعنى محرم ووسيلة
لشرك أى يحصل هذا أو يحصل هذا، أى ما هو محرم وليس وسيلة لشرك وإن كان
سيؤدى إليه وليس أكبر وهناك محرم وسيلة للشرك ويؤدى إليه أى الأكبر ولكن هو
شرك أصغر. والله أعلم

ثم قال: كالتمسُّح بها والتوسُّل إلى الله بأهلها، والصلاة عندها، وكإسراجها والبناء
عليها، والغلو فيها وفى أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة.

والنوع الثانى: شرك أكبر كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الخواص الدينية
والأخروية منهم، فهذا شرك أكبر، وهو عين ما يفعله عبَاد الأصنام مع أصنامهم.

ولا فرق فى هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون فى تحصيل مطالبه، أو
متوسطون إلى الله، فإن المشركين يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾
و﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتى
يعتقد أنهم مستقلون بالنفع ودفع الضرر، وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط
بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم يكفر^(١).

من زعم ذلك فقد كَذَّب ما جاء به الكتاب والسنة، وأجمعت عليه الأمة من أن من
دعى غير الله فهو مشرك كافر فى الحالين المذكورين سواء اعتقدهم مستقلين أو
متوسطين.

وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام.

فعليك بهذا التفصيل الذى يحصل به الفرقان فى هذا الباب المهم الذى حصل به من
الاضطراب والفتنة ماحصل، ولم ينبج من فتنه إلا من عرف الحق واتبعه. أهـ.

(١) كذا فى أصل الكتاب، وفى الحاشية قال: [لعله: لم يكفر].

فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا
بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّورِ، فَقَالَ: أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ
أَوْ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، أُولَئِكَ
شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ» فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةُ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةُ التَّمَاثِيلِ (١).

قال ابن باز (٢): هنا باب عظيم كالذى قبله أى باب ماجاء من الأدلة فى التغليظ،
فإن كانت الأدلة جاءت بإنكار عبادة الله عند قبور الصالحين فكيف إذا عبده واتخذة إلهاً
من دون الله؟! فالتغليظ يكون أشد لأن الأول - عبادة الله عند هذا القبر - وسيلة لشرك -
والثانى شرك أكبر - اهـ.

قلت: فهو من باب التفصيل.

قال ابن عثيمين (٣): قوله: «التغليظ» التشديد «قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ
الْقَلْبِ لَإِنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾».

قوله «من عبد الله عند قبر رجل صالح» أى عمل عملاً تعبد لله به من قراءة أو
صلاة أو صدقة أو غير ذلك .
قوله: «فكيف إذا عبده؟»

أى : يكون أشد وأعظم، وذلك لأن المقابر والقبور للصالحين أو من دونهم من
المسلمين أهلها بحاجة إلى الدعاء فهم يُزارون لِيُسَفَعُوا لا لِيُتَفَعَّ بِهَم إِلَّا بِاتِّبَاعِ السَّنةِ فى
زيارة المقابر. والثواب الحاصل بذلك، لكن هذا ليس انتفاعاً بأشخاصهم بل انتفاع بعمل
الإنسان نفسه بما أتى به من السنة.

فالزيارة التى يُقصد منها الإنتفاع بالأموات زيارة بدعية.

والزيارة التى يُقصد بها نفع الأموات والاعتبار بحالهم زيارة شرعية. اهـ.



قوله: [وفى الصحيح عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ....].
ولفظه فى الصحيح.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى الصلاة : باب : هل تنبش قبور مشركى الجاهلية
(٢/٢٤٤/٢٧٤) ح (٤٢٧)، ومسلم فى «المساجد ومواضع الصلاة» / باب : النهى عن بناء المسجد على القبور
(٣/١٤/٥٢٨).

وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٥١) بتخريجنا

(٣) القول المفيد (١/٥٠٥).

(٢) التعليق المفيد (١١٩).

عن عائشة قالت: لما اشتكى النبي ﷺ ذكرت بعض نساء كنيسة رأيتهما يقال لها مارية وكانت أم سلمة وأم حبيبة رضى الله عنهما - أتتا أرض الحبشة فذكرتا من حسنهما وتصاوير فيها فرفع رأسه فقال: «أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله».

ولقد ذكر البخارى هذا الحديث فى «صحيحه» فى عدة أبواب:

باب هل تنبش قبور مشركى الجاهلية، ويتخذ مكانها مساجد^(١)؟

باب الصلاة فى البيعة^(٢).

باب بناء المسجد على القبر^(٣)، واللفظة المنقولة منه .

باب هجرة الحبشة^(٤).

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى^(٥): حيث دل الحديث على التحذير من بناء المساجد على القبور لما فى ذلك من تعظيم أصحابها، والتعظيم عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك اهـ.

● مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جابر الله^(٦): هى أن فيه التغليظ والوعيد الشديد لمن اتخذ القبور مساجد اهـ.

وقال القرعاوى^(٧): حيث دل الحديث على التغليظ فى النهى فيمن بنى على قبر رجل صالح موضعاً لعبادة الله فكيف بمن عبد صاحب القبر اهـ.

● شرح الحديث:

قوله «أن أم سلمة»

قال ابن الأثير: هى هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم القرشية المخزومية.

(١) (١/٦٢٤) ح ٤٢٧ - فتح.

(٢) (١/٦٣٣) ح ٤٣٤ - فتح.

(٣) (٣/٢٤٧) ح ١٣٤١ - فتح.

(٤) (٧/٢٢٦) ح ٣٨٧٣ - فتح.

(٥) الجديد (١٨٥).

(٦) الجامع الفريد (٨٤).

(٧) الجديد (١٨٤).

زوج النبي ﷺ وإحدى أمهات المؤمنين واسم أبيها أُمَيَّةُ: حذيفة، ويعرف بـ زاد
الركب. هو أحد أجواد قريش المشهورين بالكرم، وأما عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن
مالك بن خزيمة بن علقمة - وهو جذل الطمان - بن فراس الكنانية.

اختلف في اسمها، فقيل: رملة وليس بشيء، وقيل: هند. وهو الأكثر.

وكانت قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ تحت أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

وكانت هي وزوجها أول من هاجر إلى الحبشة.

ويقال أيضاً: إن أم سلمة أول ظعينة هاجرت إلى المدينة. وقيل: بل ليلي بنت
أبي حثمة امرأة عامر بن ربيعة. وتزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث بعد وقعة بدر.
وقيل: إنه شهد أحداً ومات بعدها قاله ابن اسحاق^(١).

وفي لفظ البخاري أم حبيبة وأم سلمة.

قال ابن الأثير^(٢): وأم حبيبة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد
شمس القرشية الأموية. زوج النبي ﷺ إحدى أمهات المؤمنين - رضى الله عنها -
كنيت بابنتها حبيبة بنت عبيد الله بن جحش، واسمها رملة وكانت من السابقين إلى
الإسلام وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله، فولدت هناك حبيبة، فتتصر عبيد
الله، ومات بالحبشة نصرانياً، وبقيت أم حبيبة: ما شعرت.. وذكر القصة ثم قال:

لا اختلاف بين أهل السير وغيرهم في أن النبي - ﷺ تزوج أم حبيبة وهي بالحبشة
إلا ما رواه مسلم بن الحجاج في «صحيحه» أن أبا سفيان لما أسلم طلب من رسول الله
ﷺ أن يتزوجها فأجابه إلى ذلك وهو وهم من بعض رواة اهـ.

قاله أيضاً ابن القيم في «الزاد» وتوفيت أم حبيبة سنة أربع وأربعين. اهـ.

قلت: وعند البخاري قالت عائشة: «لما أشتكى النبي ﷺ».

قلت: بين ابن حجر أن التنصيص على أنه قال ذلك في مرض موته قبل أن يموت
بخمسة فائدة: وهي أن التنصيص على زمن النهي فيه الإشارة إلى أنه من الأمر المحكم
الذي لم ينسخ - أي «النهي عن اتخاذ القبور مساجد» - فهذا حتى لا يظن النسخ أو يوهم
أو يدعى ذلك صرح الصحابة من الرواة والتابعين على زمن التحديث «قبل موته
بخمسة» بهذه الوقعة قال ذلك في مرض موته.

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٢٨٦/٧.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير ٣١٦، ٣١٥/٧.

قوله: [ذكرت لرسول الله ﷺ].

وفى لفظ للبخارى «ذكرتنا»^(١) أى أم سلمة وأم حبيبة.

قال ابن حجر: وكذا لأكثر الرواة^(٢).

وكان ذكر ذلك فى مرض موته ويدل عليه لفظ البخارى «لما اشتكى النبى ﷺ»
ذكرت بعض نسائه .. الحديث.

ويوب عليه البخارى «باب بناء المسجد على القبر».

قوله: (كنيسة)

قال ابن حجر^(٣): هى معبد النصارى، بكسر الموحدة بعدها مثناه تحتانية، قال
صاحب المحكم: البيعة صومعة الراهب.

وقيل كنيسة النصارى والثانى هو المعتمد.

ويدخل فى حكم البيعة الكنيسة وبيت المدارس - بيت اليهود - والصومعة - للربان
سواء لليهود أو النصارى - وبيت الصنم - للمشركين - وبيت النار للمجوس ونحو
ذلك. أهد.

وفسر البخارى - رحمه الله - البيعة بأنها الكنيسة ويدل على ذلك ذكره هذا الحديث
تحت باب «الصلاة فى البيعة».

والبيعة هى الكنيسة -

وهذه الكنيسة تسمى «مارية» لما فى الصحيح أيضاً بلفظ «كنيسة رأتها بأرض الحبشة
يقال لها مارية».

قوله: «رأتها».

وفى الصحيح بلفظ «رأيتها» أى أم حبيبة وأم سلمة^(٤) (وماكان معهما من النساء).

قلت: وفيه جواز حكاية ما يشاهده المؤمن من العجائب فإذا سافرت إلى بلاد الكفر
فرأيت عجيبة من العجائب فلا مانع من التحديث بها حتى وإن كانت مخالفة؛ لكن

(١)[صحيح] أخرجه البخارى (٤٢٧)

(٢) الفتح ١/٦٢٥.

(٣) الفتح ١/٦٣٣

(٤) الفتح ١/٦٢٥

على الثانى إن كان عالماً حرمة ما تحدّث به أو ما فيه من حرمة، عليه ألا يذكر ذلك إلا مع بيان ما فيها من حرمة. والله أعلم.

قوله: بأرض الحبشة»

وفى بعض الألفاظ بالحبشة، دون أرض .

قال ابن حجر^(١) : أرض الحبشة بالجانب الغربى من بلاد اليمن ومسافتها طويلة جداً ، وأما اليوم فيقال لها الحطّى بفتح المهملة وكسر الطاء المهملة الخفيفة بعدها تحتانية خفيفة ، ويقال إنهم من ولد حبش بن كوشن بن حام، قال ابن دريد: جمع الحبش أحبوش بضم أوله، وأما قولهم الحبشة فعلى غير القياس وقد قالوا أيضاً حبشان وقالوا أحبش وأصل التحيش التجميع، والله أعلم. أهـ.

قوله: «وما فيها من الصور».

قال حامد بن محمد^(٢): والتماثيل لما كانوا يصورون عيسى وأمه والأنبياء تعظيماً لهم.

قال ابن عثيمين^(٣): الظاهر أن هذه الصور صُور مجسمة وتماثيل منصوبة.

قال ابن حجر^(٤): وإنما فعل ذلك أوائلهم ليتأنسوا برؤية تلك الصور ويتذكروا أحوالهم الصالحة فيجتهدوا كل اجتهدهم

[قلت]: مثل كلام ابن عباس فى سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم الغلو فى الصالحين»

ثم قال: ثم خلف من بعدهم خلوف جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها فعبدوها فحذر النبى ﷺ عن مثل ذلك سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك.

وفى الحديث أيضاً «دليل على تحريم التصوير» وحمل بعضهم الوعيد على من كان فى ذلك الزمان لقرب العهد بعبادة الأوثان.

وأما الآن فلا وقد أطنب ابن دقيق العيد أهـ «فى إحكام الأحكام فى شرح عمدة الأحكام» وذكره هنا أيضاً ابن حجر فى كتاب اللباس والزينة فى الرد على من زعم أن الآن يجوز التصوير لأنه يؤمن منها عبادة الأوثان.

(٢) «فتح الله الحميد المجيد» (٢٩٢).

(٤) فتح البارى (١ / ٢٦٦)

(١) الفتح ٧ / ٢٣٠.

(٣) القول المفيد (١ / ٥٠٦)

- وقد قرأت رسالة أيضاً لبعضهم صرح فيها بذلك تصريحاً عن جهل الكاتب
ثم قال ابن حجر: وقال البيضاوى رحمه الله.

لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ويجعلونها قبله
يتوجهون فى الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً لعنهم - الله والرسول ﷺ - ومنع المسلمين
عن مثل ذلك فأما من أتخذ مسجداً فى جوار صالح وقصد التبرك فى القرب منه لا
التعظيم له ولا التوجه نحوه فلا يدخل فى ذلك الوعيد. اهـ

● تنبيه

[قلت] وسيأتى فى الباب الستين ما جاء فى التصوير بتفصيل من كلام أهل العلم
وكلام شراح كتاب التوحيد.

وأقول: بل يدخل فى ذلك الوعيد لأن النبى ﷺ: نهى عن ذلك وأن التبرك
بالصالحين على هذا النحو ممنوع ليس بمشروع:

أولاً: فلم يثبت أن هذا الصالح فيه بركة

ثانياً: وإن ثبت فلم يثبت أن التماس البركة من الصالحين ببناء مساجد قريبة من
قبورهم فهذا وذاك لا يجوز.

قوله: «أولئك» بكسر الكاف ويجوز فتحها^(١).

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): بكسر الكاف، خطاب للمرأة.

قال عبدالله بن جار الله^(٣): مرجع اسم الإشارة هنا إلى الذين يبنون المساجد،
ويصورون فيها الصور. اهـ.

وقال ابن باز^(٤): أى الذين فعلوا هذا الفعل اهـ.

قال ابن عثيمين^(٥): المشار إليهم نصارى الحبشة، ويحتمل أن يراد من فعلوا هذه
الأفعال أياً كانوا وقوله (أولئك) يجوز فى الكاف الكسر إذا كان الخطاب لأم سلمة،
والفتح إذا كان الخطاب بإعتبار الجنس. وقد ذكر العلماء أن فى كاف الخطاب المتصل
باسم الإشارة ثلاثة أوجه.

(١) الجامع الفريد (٨٣)

(٢) فتح المجيد (١ / ٢٩١)

(٣) الجامع الفريد (١٨٣)

(٤) التعليق المفيد

(٥) القول المفيد ١/ ٥٠٦، ٥٠٧

الوجه الأول: أن يكون مطابقاً للمخاطب المفرد للمفرد. والمثنى للمثنى والجمع للجمع، مذكراً كان أم مؤنثاً.

الوجه الثاني: الفتح مطلقاً.

الوجه الثالث: الكسر للمؤنث مطلقاً، والفتح للمذكر مطلقاً.

وأشهرها: أن يكون مطابقاً للمخاطب، ثم الفتح مطلقاً. ثم الفتح للمذكروالكسر للمؤنث.

قوله «إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح».

قال سليمان آل الشيخ^(١): هذا والله أعلم شك من بعض رواة الحديث، هل قال النبي ﷺ هذا أو هذا، ففيه التحرى فى الرواية وجواز رواية الحديث بالمعنى. اهـ وتبعه عبد الرحمن آل الشيخ.

- وقال نحوه حامد بن محمد^(٢). وابن عثيمين.

- قال ابن باز: هذا بيان حال النصارى وغلوهم فى أمواتهم. اهـ.

وقوله: «بنوا على قبره مسجداً».

قال سليمان آل الشيخ^(٣): أى موضعاً للعبادة، وإن لم يسم مسجداً كالكنائس والمشاهد. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): أى قبر ذلك الرجل الصالح.

قوله: (وصوروا فيه تلك الصور).

قال ابن حجر: قوله: «وصوروا فيه تلك الصور» وللمستملى «تيك الصور» بالياء التحتانية بدل اللام اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٥): الإشارة بتلك الصور إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاویر التى فى الكنيسة كما فى بعض ألفاظ الحديث فذكرتا من حسنهما وتصاویر فيها. اهـ.

قال ابن باز^(٦): أى صور الرجل الصالح أو له ولأتباعه كما جرى لقوم نوح. اهـ.

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٢).

(٤) القول المفيد (١ / ٥٠٨).

(٦) التعليق المفيد ١١٩.

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٣٥.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٣٥.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٢٣٥.

قال ابن عثيمين^(١): وربما أنهم يضيفون إلى صورته صورة بعض الصالحين، وربما تكون الصور على أحجام مختلفة، فتجتمع فيها صور كثيرة.

قوله: أولئك شرار الخلق عند الله.

قال سليمان آل الشيخ^(٢):

مقتضى هذا التحريم ما ذكر، لاسيما وقد ثبت اللعن عليه. قال البيضاوى، لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم، ويجعلونها قبلة يتوجهون فى الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً، لعنهم النبى ﷺ ومنع المسلمين عن مثل ذلك.

قال القرطبي: وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها ويتذكروا أفعالهم الصالحة. فيجتهدون كاجتهادهم، ويعبدون الله عند قبورهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها، فحذر النبى ﷺ عن مثل ذلك سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك. أهـ

[قلت]: وتقدم ذكر هذا بالفاظ قريبة من كلام ابن حجر

قال حامد بن محمد بن حسن^(٣): (أولئك شرار الخلق عند الله) لنبذهم حكم الله ورسوله وأتباعهم الآباء والأهواء.

قال ابن باز^(٤): فمن فعل هذا الفعل قد تشبه بالنصارى وعمل عملهم ومن تشبه بقوم فهو منهم والمقصود من الكلام التحذير من فعلهم. وقد وقع فى الأمة ذلك وأعظم من فعله هم الرافضة الذين غلوا فى آل البيت وهم أول من بنى على القبور وبنوا عليها المساجد وعبدوها من دون الله ثم قلدهم أناس من أهل السنة من كثير من بلاد المسلمين وقد وقع اتباعها للكفار حذو القذة بالقذة. أهـ.

قوله: (فهؤلاء جمعوا بين فتنين فتنه القبور وفتنة التماثيل)

قال سليمان آل الشيخ^(٥): هذا من كلام شيخ الإسلام، ذكره المصنف عنه. يعنى أن الذين بنوا هذه الكنيسة جمعوا فيها بين فتنين، ضل بها كثير من الخلق.

الأولى: فتنه القبور، لأنهم افتنوا بقبور الصالحين، وعظموها تعظيماً مبتدعاً. فآل

(١) القول المفيد ١/ ٥٠٨.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٣٦. نقله عن فتح البارى (١/ ٦٢٦).

(٣) فتح الله الحميد المجيد. (٢٩٢).

(٤) التعليق المفيد ١١٩، ١٢٠.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٢٣٦، ٢٣٧.

بهم إلى الشرك، وهم أعظم الفتنين، بل هي مبدأ. الفتنة الثانية: وهي فتنة التماثيل، أى الصور، فإنهم لما افتنوا بقبور الصالحين وعظموها، وبنوا عليها المساجد، وصوروا فيها الصور للقصص الذى ذكره القرطبي. فآل الأمر إلى أن عُبِدَت الصور ومن هي صورته من دون الله، وهاتان الفتنتان هما سبب عبادة الصالحين كالكالات وود وسواع ويغوث ويثوق ونسر أو غير من الصالحين.

قال شيخ الإسلام: - رحمه الله - وهذه العلة هي التى لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور، وهى التى أوقعت كثيرا من الأمم إما فى الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، وتماثيل يزعمون أنها طلاس لكواكب ونحو ذلك. فإن الشرك بقبر الرجل الذى يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها فى بيوت الله ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء مالا يرجونه فى المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها حتى نهى عن الصلاة فى المقبرة مطلقاً^(١) وإن لم يقصد المصلى بركة البقعة بصلاته كما يقصد بصلاته بركة المساجد كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها^(٢). لأنها أوقات يقصد المشركون فيها الصلاة للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حيثنذ وإن لم يقصد ما قصده المشركون سداً للذريعة.

قال: وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة فى تلك البقعة، فهذا عين المعادة لله ورسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله. فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالإضطرار من دين رسول الله ﷺ أن الصلاة عند القبور منهى عنه. وأنه لعن من اتخذها مساجد. مساجد فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها، واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها، فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ - بالنهى عن ذلك والتغليظ فيه.

وقد صرح عامة الطوائف بالنهى عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة.

(١) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٣٤٦)، وابن ماجه فى المساجد والجماعات (٧٤٦) عن ابن عمر به.

وانظر «السلسيل» (٣٥٠) - بتخریجنا.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٨٦)، ومسلم فى صلاة المسافرين (١١٢/٦) - النورى.

وانظر «السلسيل» (٥٤١) - بتخریجنا.

وَلَهُمَا عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ؛ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَّخَذَ مَسْجِدًا» أَخْرَجَاهُ^(١).

وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة. والذي ينبغي أن تحمل على كراهة التحريم إحساناً للظن بالعلماء. وإن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهي عنه أهـ.

قال الحافظ^(٢) ابن رجب في «فتح الباري»:

هذا الحديث يدل على تحريم بناء المساجد على قبور الصالحين وتصوير صورهم فيها، كما يفعله النصارى، ولأريب أن كل واحد منهما محرم على انفراده، فتصور صور الأدميين يحرم، وبناء القبور على المساجد بانفراده يحرم، كما دلت عليه نصوص أخرى، يأتي ذكر بعضها..

قال: والتساوير التي في الكنيسة التي ذكرتها أم حبيبة وأم سلمة كانت على الحيطان ونحوهما، ولم يكن لها ظل، فتصوير الصور على مثال صور الأنبياء والصالحين للتبرك بها، والاستشفاع بها يحرم في دين الإسلام وهو من جنس عبادة الأوثان، وهو الذي أخبر النبي ﷺ أن أهله شرار الخلق عند الله يوم القيامة، وتصوير الصور للتأسي برؤيتها أو للتنزه بذلك، والتلهي محرم وهو من الكبائر وفاعله من أشد الناس عذاباً يوم القيامة، فإنه ظالم ممثل بأفعال الله التي لا يقدر على فعلها غيره، وأنه تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله سبحانه وتعالى.

قوله: ولهما.

أي البخاري ومسلم وهويغني عن قوله في آخره أخْرَجَاهُ^(٣).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري في الجنائز/ باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور (٣/ ٢٣٨ - ١٣٣٠)، ومسلم في المساجد/ باب النهي عن بناء المسجد في القبور (١٢/ ٢) (النووي).

من طريق هلال، عن عروة بن الزبير، وعن عائشة به.

وانظر كتابنا «فتح ذي الجلال في تخريج أحاديث الظلال» (٦٤١). وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٥٧) بتخريجنا

(٢) فتح الباري لابن رجب نقلاً عن «تحذير الساجد».

(٣) فتح المجيد ٢٩٤.

قال ابن عثيمين^(١): والضمير يعود على البخارى ومسلم، وإن لم يسبق لهما ذكره لكنه لما كان ذلك مصطلحا معروفاً؛ صح أن يعود الضمير عليهما: وهما لم يذكرنا اعتماداً على المعروف المعهود. اهـ

[قلت]: بل اعتمد على المذكور أيضاً، لو قلنا أن المصنف قصد بقوله فى الصحيح: أى الكتب التى عنت بالصحيح كالبخارى ومسلم قوله: عنها.

أى عائشة^(٢).

قوله: «لما نزل برسول الله ﷺ».

وفى لفظ «لما كان مرض النبى» وفى لفظ «لما حضرته الوفاة» وفى لفظ «فى مرضه الذى لم يقم منه».

قال النووى: ^(٣) هكذا ضبطناه (نُزل) بكسر الزاى وفى أكثر الأصول (نزلت) بفتح الحروف الثلاثة، وبتاء التانيث الساكنة، أى لما حضرت المنية والوفاة. وأما الأول فمعناه نزل ملك الموت والملائكة الكرام. اهـ.

تقدم ذكر فائدة تنصيب الصحابى على زمن الحديث فى أول حديث عائشة السابق قبل هذا.

قوله: (طفق يطرح خميصة له على وجهه)

قال النووى^(٤): يقال طَفَّقَ بكسر الفاء وفتحها أى جعل، والكسر أفصح واشهر، وبه جاء القرآن ﴿وَطَفَّقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ ومن حكى الفتح الأخفش والجوهري.

والخميصة كساء له أعلام.

قال ابن عثيمين^(٥): طفق من أفعال الشروع، واسمها مستر وجملة يطرح خبرها. قوله: «خميصة» وهى كساء مربع له أعلام كان يطرحه النبى ﷺ على وجهه.

(١) القول المفيد ٥٠٩/١.

(٢) القول المفيد ٥١٠/١.

(٣) مسلم شرح النووى ١٦/٣.

(٤) مسلم شرح النووى ١٦/٣.

(٥) القول المفيد ٥١٠/١.

قوله: «فإذا اغتم بها كشفها».

أى أصابه الغم بسببها وقد احتضر ﷺ (١).

قوله «وهو كذلك».

أى : وهو فى هذه الحالة عند الاحتضار (٢).

قوله: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»

وفى لفظ «لعن الله» وفى لفظ «قاتل الله اليهود اتخذوا» يبين، أن من فعل مثل ذلك حل عليه من اللعنة ما حل على اليهود والنصارى (٣).

قال ابن عثيمين (٤): يقول هذا فى سياق الموت، و«لعنة الله» أى طرده وإبعاده وهذه الجملة يحتمل أنه يراد بها ظاهر اللفظ؛ أى أن النبى ﷺ يخبر بأن الله لعنهم.

ويحتمل أن يراد بها الدعاء به فتكون خبرية لفظاً إنشائية معنى.

والمعنى على هذا الاحتمال أن النبى ﷺ دعا عليهم وهو فى سياق الموت بسبب هذا الفعل.

قوله «اتخذوا»

قال ابن حجر (٥): قال ابن رشيد: الاتخاذ أعم من البناء فلذلك أفرد بالترجمة، ولفظها يقتضى أن بعض الإتياد لا يكره، فكأنه يفصل بين ما إذا ترتبت على الإتياد مفسده أو لا.

قال ابن عثيمين (٦). الجملة هذه تعليل لقوله «لعنة الله على اليهود والنصارى».

كان قائلاً يقول ولماذا لعنهم النبى ﷺ.

فكان الجواب أنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد أى أمكنة للسجود سواء بنوا مسجداً أم لا. يصلون ويعبدون الله تعالى فيها مع أنها مبنية على القبور اهـ.

(١) القول المفيد ١/ ٥١٠.

(٢) القول المفيد ١/ ٥١٠.

(٣) فتح المجيد ٢٩٤.

(٤) القول المفيد ١/ ٥١٠.

(٥) الفتح ٣/ ٣٨.

(٦) القول المفيد ١/ ٥١٠.

إشكال وجوابه:

إشكال ثانى:

قلت: قوله «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» بعض الصوفية ربما يحتج عليك فيقول هذا الكلام فى اليهود والنصارى فلماذا تحتج أنت علينا بهذا الحديث وهو فى اليهود والنصارى والرسول ﷺ لعنهم للتحذير من أن نركب سُنَّتَهُم فنلن كما لعنوا لقوله ﷺ يحذر ما صنعوا.

قوله: «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» هو أن النصارى لهم نبى واحد وهو عيسى فكيف يقول «أنبيائهم».

قال الفقير: أنه لم يكن الا عيسى نبياً ورسولاً لكن قد يكون من بعده حواريون أنبياء لكن ليسوا رسل. أو مريم على قول من قال أنها نبيه وليست رسولة. فالنصارى أيضاً اتخذوا قبور أنبيائهم.

ثانياً: أن النصارى وإن كان لم يكن لهم نبى إلا عيسى. فهم عظموا ما عظمه يهود من أنبياء اليهود لأنهم آمنوا بعيسى وبالذى قبله. وأمنوا بموسى أيضاً، وعظموا الأنبياء التى عظمها اليهود بعد موسى. وعظموها تعظيماً لليهود لأنهم يؤمنون بالتوراة والإنجيل. فهم لاريب ولاشك يصدق عليهم أنهم اتخذوا قبور أنبيائهم.

قال ابن حجر^(١): أو المراد بالاتخاذ أعم من أن يكون ابتداءً أو اتباعاً فاليهود ابتدعت، والنصارى اتبعت ولاريب أن النصارى تعظم قبور كثير من الأنبياء الذين تعظمهم اليهود. أهـ.

● أو يقال:

أن هناك أحاديث لما ذكرت اليهود جمعت ولما ذكرت النصارى أفردت. فقال الرسول ﷺ حينما ذكر اليهود فقط جمع «قال» «قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وحينما ذكر النصارى فقط قال ﷺ: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنو على قبره مسجداً» فلم يذكر أنبياء بل ذكر صالحهم.

ويؤيد ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم قال: «قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد» فالأنبياء أخص باليهود والصالحين أخص بالنصارى، وإن كانت النصارى أيضاً عظمت من أنبياء بنى إسرائيل الكثير.

(١) فتح البارى (١ / ٦٣٤)

● وأيضاً هناك إيراد آخر قد ذكرته من قبل:-

قد يقول قائل هم اتخذوا قبور مساجد ونحن اتخذنا قبراً واحداً مسجداً. فهم فعلوا ذلك في أغلب المساجد وفي جلها.

أن هذا بالنظر إلى مسجد واحد بنى عليه ولكن بالنظر إلى باقى المساجد. التبي بنيتهم عليها القبور وفعمم فيما وقعوا فيه من اتخاذ القبور مساجد، والمساجد قبور.

معنى اتخاذ القبور مساجد

قال الألبانى^(١): الذى يمكن أن يفهم من هذا الاتخاذ، إنما هو ثلاث معان:

الأول: الصلاة على القبور، بمعنى السجود عليها.

الثانى: السجود إليها واستقبالها بالصلاة والدعاء.

الثالث: بناء المساجد عليها، وقصد الصلاة فيها.

أقوال العلماء فى معنى الإتياء المذكور

وبكل واحد من هذه المعانى قال طائفة من العلماء، وجاءت بها نصوص صريحة عن سيد الأنبياء ﷺ.

أما الأول: فقال ابن حجر الهيتمى فى «الزواجر»^(٢).

«واتخاذ القبر مسجداً معناه الصلاة عليه، أو إليه».

فهذا نص منه على أنه يفهم الاتخاذ المذكور شاملاً لمعنيين، أحدهما الصلاة على القبر.

وقال الصنعانى فى «سبل السلام»^(٣): «واتخاذ القبور مساجد أعم من أن يكون بمعنى الصلاة إليها، أو بمعنى الصلاة عليها».

قلت - الألبانى -: يعنى أنه يعم المعنيين كليهما، ويحتمل أنه أراد المعانى الثلاثة، وهو الذى فهمه الإمام الشافعى - رحمه الله - وسيأتى نص كلامه فى ذلك. ويشهد للمعنى الأول أحاديث.

(١) عن أبى سعيد الخدرى: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يبنى على القبور، أو يقعد عليها، أو يصلى عليها»^(٤).

(١) من تحذير الساجد بتصرف للشيخ الألبانى - رحمه الله - وقد توفى أثناء مراجعة هذا الكتاب أيضاً فى شهر جمادى الآخر.

(٢) السبل (١/١٢١).

(٣) السبل (١/٢١٤).

(٤) ذكره بهذا اللفظ الهيتمى فى «المجمع» (٣/٦١) ونسبه لأبى يعلى وقال: رجال ثقات.

(٢) عن ابن عباس قوله ﷺ: «لاتصلوا إلى قبر، ولا تصلوا على قبر» (١).

(٣) عن أنس: أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة إلى القبور (٢).

(٤) عن عمرو بن دينار - وسئل عن الصلاة وسط القبور قال: ذكر لى أن النبي

ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد فلعنهم الله تعالى» (٣).

أما المعنى الثانى: فقال: المناوى فى «فيض القدير» حيث شرح الحديث الثالث المتقدم:

«أى اتخذوها جهة قبلتهم، مع اعتقادهم الباطل، وإن اتخذوها مساجد، لازم (٤) لاتخاذ المساجد عليها كعكسه، وهذا بين به سبب لعنهم لما فيه من المغالاة فى التعظيم.

قال القاضى (يعنى البيضاوى): لما كانت اليهود يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم، ويجعلونها قبلة ويتوجهون فى الصلاة نحوها، فاتخذوها أوثاناً لعنهم الله، ومنع المسلمين عن مثل ذلك ونهاهم عنه. . . .»

قلت - الألبانى -: وهذا المعنى قد جاء النهى الصريح عنه، فقال ﷺ: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها» (٥).

قال على القارى فى «المرقاة» (٦) معللاً النهى: «لما فيه من التعظيم البالغ كأنه من مرتبة المعبود، ولو كان هذا التعظيم حقيقة للقبر أو لصاحبه لكفر المعظم، فالتشبه به مكروه، وينبغى أن تكون كراهة تحریم. وفى معناه بل أولى منه الجنازة الموضوعة (يعنى فى قبلة المصلين)، وهو مما ابتلى به أهل مكة حيث يضعون الجنازة عند الكعبة ثم يستقبلون إليها».

قلت - الألبانى -: يعنى فى صلاة الفريضة وهذا بلاء عام قد تعداه إلى بلاد الشام والأناضول وغيرها، وقد وقفنا منذ شهر على صورة شمسية قيحة جداً تمثل صفاً من المصلين ساجدين تجاه نعوش مصفوفة أمامهم فيها جثث جماعة من الأتراك كانوا ماتوا غرقاً فى باخرة.

(١) أخرجه الطبرانى فى «المعجم الكبير» (٢/٣٧٦/١٢٠٥١) عن ابن عباس به.

(٢) أخرجه ابن حبان فى «صحيحه» (٤/٣٢ - الإحسان).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٥٩١).

(٤) يعنى: يلزم من السجود إليها بناء المساجد عليها، كما يلزم من بناء المساجد عليها السجود إليها

وهذا أمر واقع مشاهد.

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (٤/٩٨/٤٤) عن أبى مرثد به.

(٦) (٢/٣٧٢).

وبهذه المناسبة نلفت النظر إلى أن الغالب من هديه ﷺ هو الصلاة على الجنائز في «المصلى» خارج المسجد، ولعل من حكمة ذلك إبعاد المصلين عن الوقوع في مثل هذه المخالفة التي نبه عليها العلامة القارى رحمه الله.

ونحو الحديث السابق ما روى ثابت البنانى عن أنس رضى الله عنه قال: «كنت أصلى قريباً من قبر، فرأى عمر بن الخطاب، فقال: القبر القبر. فرفعت بصرى إلى السماء وأنا أحسبه يقول: القمر!» (١).

وأما المعنى الثالث: فقد قال به الإمام البخارى فإنه ترجم للحديث الأول بقوله «باب مايكره من اتخاذ المساجد على القبور».

فقد أشار بذلك إلى أن النهى عن اتخاذ القبر مسجداً يلزم منه النهى عن بناء المسجد عليه، هذا أمر واضح، وقد صرح به المناوى كما سبق آنفاً.

وقال الحافظ ابن حجر فى شرح الحديث: هى المقصودة بالبناء، وكذلك إذا نهى عن بناء المساجد على القبور، فهو ينهى ضمّاً عن الصلاة فيها؛ لأنها هى المقصودة بالبناء أيضاً، وهذا بين لا يخفى على العاقل إن شاء الله تعالى اهـ.

ترجيح شمول الحديث للمعانى كلها وقول الشافعى بذلك.

وجملة القول: أن الاتخاذ المذكور فى الأحاديث المتقدمة يشمل كل هذه المعانى الثلاثة، فهو من جوامع كلمه ﷺ، وقد قال بذلك الإمام الشافعى - رحمه الله - فى كتابه «الأم» (٢) مانصه.

«وأكره أن يبنى على القبر مسجد، وأن يسوى، وأن يصلى عليه، وهو غير مسوى (يعنى أنه ظاهر معروف) أو يصلى إليه.

قال: وإن صلى إليه أجزأه وقد أساء، أخبرنا مالك أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». قال: وأكره هذا للسنة والآثار، وأنه كره - والله تعالى أعلم - أن يعظم أحد من المسلمين، يعنى يتخذ قبره مسجداً، ولم تؤمن فى ذلك الفتنة والضلال على ما يأتى بعده».

(١) علقه البخارى (١/٦٢٥ - فتح) ووصله عبدالرزاق فى «مصنفه». (١٥٨١).

(٢) (١/٢٤٦).

فقد استدل بالحديث على المعانى الثلاثة التى ذكرها فى سياق كلامه، فهو دليل واضح على أنه يفهم الحديث على عمومه.

وكذلك صنع المحقق الشيخ على القارى نقلاً عن بعض أئمة الحنفية فقال.

«سبب لعنهم: إما لأنهم كانوا يسجدون لقبور أنبيائهم تعظيماً لهم، وذلك هو الشرك الجلى، وإما لأنهم كانوا يتخذون الصلاة لله تعالى فى مدافن الأنبياء والسجود على مقابرهم، والتوجه إلى قبورهم حالة الصلاة نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة فى تعظيم الأنبياء، وذلك هو الشرك الخفى لتضمنه ما يرجع إلى تعظيم مخلوق فيما لم يؤذن له، فهى النبى ﷺ أمته عن ذلك إما لمشابهة ذلك الفعل سنة اليهود، أو لتضمنه الشرك الخفى. كذا قاله بعض الشراح من أئمتنا، ويؤيده ما جاء فى رواية: «يحذروا ما صنعوا».

قال الألبانى: والسبب الأول الذى ذكره، وهو السجود لقبور الأنبياء تعظيماً لهم وإن كان غير مستبعد حصوله من اليهود والنصارى، فإنه غير متبادر من قوله ﷺ: «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» فإن ظاهره أنهم اتخذوها مساجد لعبادة الله فيها على المعانى السابقة تبركاً بمن دفن فيها من الأنبياء، وإن كان هذا أدى بهم - كما يؤدى بغيرهم - إلى وقوعهم فى الشرك الجلى الذى ذكره الشيخ القارى^(١).
حكم اتخاذ القبور مساجد وبيان أن ذلك من الكبائر.

اتخاذ المساجد على القبور من الكبائر.

قال الألبانى^(٢): بعد أن تبين لنا معنى الاتخاذ الوارد فى الأحاديث المتقدمة، يحسن بنا أن نقف قليلاً عند هذه الأحاديث لتتعرف منها حكم الاتخاذ المذكور، مسترشدين فى ذلك بما ذكره العلماء حوله فأقول :

إن كل من يتأمل فى تلك الأحاديث الكريمة يظهر له بصورة لا شك فيها أن الاتخاذ المذكور حرام، بل كبيرة من الكبائر، لأن اللعن الوارد فيها، ووصف المخالفين بأنهم شرار الخلق عند الله تبارك وتعالى، لا يمكن أن يكون فى حق من يرتكب ما ليس كبيرة كما لا يخفى.

مذهب العلماء فى ذلك

وقد اتفقت المذاهب الأربعة على تحريم ذلك، ومنهم من صرح بأنه كبيرة، وإليك تفاصيل المذاهب فى ذلك.

(٢) تحذير الساجد بتصرف.

(١) مرقاة المفاتيح (١/٤٥٦).

١- مذهب الشافعية : أنه كبيرة

قال الفقيه ابن حجر الهيتمي في «الزواجر عن اقتراف الكبائر»^(١): «الكبيرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتسعون اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها، واتخاذها أوثاناً، والطواف بها، واستلامها، والصلاة إليها». ثم ساق بعض الأحاديث المتقدمة وغيرها ثم قال (٢).

«تنبيه»: عد هذه الستة من الكبائر وقع في كلام بعض الشافعية، وكأنه أخذ ذلك مما ذكرته من الأحاديث، ووجه اتخاذ القبر مسجداً منها واضح، لأنه لعن من فعل ذلك بقبور أنبيائه، وجعل من فعل ذلك بقبور صلحائه شر الخلق عند الله تعالى يوم القيامة، ففيه تحذير لنا كما في رواية: «يحذر ما صنعوا» أى يحذر أمته بقوله لهم ذلك من أن يصنعوا كصنع أولئك، فليعنوا كما لعنوا، ومن ثم قال أصحابنا: تحرم الصلاة إلى قبور الأنبياء والأولياء تبركاً وإعظاماً، ومثلها الصلاة عليه للتبرك والإعظام، وكون هذا الفعل كبيرة ظاهر من الأحاديث المذكورة لما علمت، قال بعض الحنابلة:

قصد الرجل الصلاة عند القبر متبركاً به عين المحادة لله ورسوله، وابتداع دين لم يؤذن به الله، لئنهي عنها تم إجماعاً، فإن أعظم المحرمات وأسباب الشرك الصلاة عندها، واتخاذها مساجد، أو بناؤها عليها والقول بالكراهة محمول على غير ذلك، إذ لا يظن بالعلماء تجويز فعل تواتر عن النبي ﷺ لعن فاعله، ويجب المبادرة لهدمها، وهدم القباب التي على القبور إذ هي أضر من مسجد الضرار، لأنها أسست على معصية رسول الله ﷺ، لأنه نهى عن ذلك، وأمر رسول الله ﷺ بهدم القبور المشرفة، وتجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر، ولا يصح وقفه ونذره. انتهى».

هذا كله كلام الفقيه ابن حجر الهيتمي، وأقره عليه المحقق الآلوسى في «روح المعاني»^(٣)، وهو كلام يدل على فهم وفقه فى الدين، وقوله فيما نقله عن بعض الحنابلة:

«والقول بالكراهة محمول على غير ذلك».

كأنه يشير إلى قول الشافعى «وأكره أن يبنى على القبر مسجد...» الخ كلامه الذى نقلته بتمامه فيما سبق.

(١) (١٢٠ / ١)

(٢) (ص: ١١١).

(٣) (٣١ / ٥).

٢ - مذهب الحنفية الكراهة التحريمية.

والكراهة بهذا المعنى الشرعى قد قال به هنا الحنفية فقال الإمام محمد تلميذ أبى حنيفة فى كتابه «الآثار»^(١).

«لأنرى أن يزداد على ما خرج من القبر، ونكره أن يجصص أو يطين أو يجعل عنده مسجداً».

والكراهة عند الحنفية إذا أطلقت فهى للتحريم، كما هو معروف لديهم، وقد صرح بالتحريم فى هذه المسألة ابن الملك منهم كما يأتى.

٣ - مذهب المالكية التحريم

وقال القرطبى فى تفسيره^(٢) بعد أن ذكر الحديث الخامس: «قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد».

٤ - مذهب الحنابلة التحريم.

ومذهب الحنابلة التحريم أيضاً كما فى «شرح المنتهى»^(٣) وغيره، بل نص بعضهم على بطلان الصلاة فى المساجد المبنية على القبور، وجوب هدمها.

فقال ابن القيم فى «زاد المعاد»^(٤) فى صدد بيان ما تضمنته غزوة تبوك من الفقه والفوائد، وبعد أن ذكر قصة مسجد الضرار الذى نهى الله تبارك وتعالى نبيه أن يصلى فيه، وكيف أنه ﷺ هدمه وحرقه قال: «ومنها تحريق أمكنة المعصية التى يعصى الله ورسوله فيها، وهدمها، كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار، وأمر بهدمه وهو مسجد يصلى فيه، ويذكر اسم الله فيه، لما كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين، وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام^(٥). تعطيله، إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له، وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار؛ فمشاهد الشرك التى تدعو سدناتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله أحق بذلك، كما لم يصح وقف هذا المسجد، وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بنى على قبر كما ينبش الميت إذا دفن فى المسجد نص على ذلك الإمام أحمد وغيره.

(١) (ص: ٤٥).

(٢) (٣٨١/١) (٣).

(٣) (٣٨١/١) (٢).

(٤) (٢٢/٣).

(٥) قلت - الألبانى -: مفهوم هذا أن ذلك لا يجب على غير الإمام. ومثله من ينوب عنه، وهذا هو الذى يقتضيه النظر الصحيح، لأنه لو قام به غيره لترتب على ذلك مفسد وقتن بين المسلمين قد تكون أكبر من المصلحة التى يراد جلبها.

فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، بل أيهما طراً على الآخر منع منه، وكان الحكم للسابق، فلو وضعاً معاً لم يجز، ولا يصح هذا الوقف ولا يجوز ولا تصح الصلاة في هذا المسجد لنهى رسول الله ﷺ عن ذلك ولعنه من اتخذ القبر مسجداً، أو أوقد عليه سراجاً^(١) فهذا دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله ونبيه، وغرخته بين الناس كما ترى!«.

فتبين مما نقلناه عن العلماء أن المذاهب الأربعة متفقة على ما أفادته الأحاديث المتقدمة، من تحريم بناء المساجد على القبور. وقد نقل اتفاق العلماء على ذلك أعلم الناس بأقوالهم ومواضع اتفاقهم واختلافهم، ألا وهو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقد سئل رحمه الله بما نصه:

«هل تصح الصلاة في المسجد إذا كان فيه قبر؛ والناس تجتمع فيه لصلاتي الجماعة والجمعة أم لا؟ وهل يمهّد القبر، أو يعمل عليه حاجز أو حائط؟ فأجاب:

الحمد لله، اتفق الأئمة انه لا يبنى مسجد على قبر، لأن النبي ﷺ قال: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فاني أنهاكم عن ذلك»، وأنه لا يجوز دفن ميت في مسجد فإن كان المسجد قبل الدفن غير، إما بتسوية القبر، وإما ببنشه إن كان جديداً، وإن كان المسجد بنى بعد القبر، فإما أن يزال المسجد وإما تزال صورة القبر، فالمسجد الذي على القبر لا يصلّى فيه فرض ولا نفل، فإنه منهى عنه» كذا في الفتاوى له^(٢).

وقد تبنت دار الإفتاء في الديار المصرية فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية هذه، فنقلتها عنه في فتوى لها أصدرتها تنص على عدم جواز الدفن في المسجد، فليراجعها من شاء في «مجلة الأزهر»^(٣).

وقال ابن تيمية في «الاختيارات العلمية»^(٤).

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٩/١)، وأبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي (٩٤/٤) - السيوطي، وابن ماجه (١٥٧٥) عن ابن عباس به.

وانظر «السلسلة» (٩٤٣) - بتخريجنا).

(٢) (١٠٧/١) (١٩٢/٢).

(٣) (١١/ص: ٥٠١ - ٥٠٣) وفي المجلة نفسها مقال آخر في تحريم البناء على القبور مطلقاً فانظر (مجلد سنة ١٩٣٠ ص ٣٥٩ - ٣٦٤).

(٤) (ص: ٥٢).

«ويحرم الإسراج على القبور، واتخاذ المساجد عليها، وبينها، ويستعين إزالتها، ولا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين».

ونقله ابن عروة الحنبلى فى «الكواكب الدرارى»^(١). وأقره.

وهكذا نرى أن العلماء كلهم اتفقوا على ما دلت الأحاديث من تحريم اتخاذ المساجد على القبور، فنحذر المؤمنين من مخالفتهم، والخروج عن طريقتهم، خشية أن يشملهم وعيد قوله عز وجل ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٢).

و﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾^(٣).

قوله: «يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا»: وفى لفظ «يحذر مثل الذى صنعوا».

قال القرطبى: فى معنى هذا الحديث وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها كما كان السبب فى عبادة الأصنام. اهـ.

قال عبد الرحمن آل شيخ^(٤): الظاهر: أن هذا من كلام عائشة -رضى الله عنها - لأنها فهمت من قول النبى - ﷺ - ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذى كانت تفعله اليهود والنصارى فى قبور أنبيائهم فإنه من الغلو فى الأنبياء، ومن أعظم الوسائل - إلى الشرك.

قال ابن عثيمين^(٥): أى إنه - ﷺ - قال ذلك فى سياق الموت تحذيراً لأمته مما صنع هؤلاء لأنه علم أنه سيموت وأنه ربما يحصل هذا ولو فى المستقبل البعيد.

قال أيضاً^(٦): فى هذا الحديث والحديث السابق: التحذير من اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، وهم أفضل الصالحين، لأن مرتبة النبيين هى المرتبة الأولى من المراتب الأربع

(١) (١/١٤٤/٢).

(٢) سورة النساء: الآية ١١٥.

(٣) سورة ق، الآية: ٣٧.

(٤) فتح المجيد ٢٩٤، ٢٩٥.

(٥) القول المفيد ١/ ٥١٠.

(٦) القول المفيد ١/ ٥١٢.

التي قال الله تعالى عنها: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾.

شبهة: دخول قبر الرسول ﷺ داخل المسجد

إذا قال قائل: نحن الآن واقعون في مشكلة بالنسبة لقبر الرسول - ﷺ - الآن، فإنه في وسط المسجد؛ فما هو الجواب؟

قلنا: الجواب على ذلك من وجوه.

الوجه الأول: أن المسجد لم يبن على القبر، بل بُنى المسجد في حياة النبي ﷺ.

الوجه الثاني: أن النبي - ﷺ - لم يدفن في المسجد، حتى يقال: إن هذا من دفن الصالحين في المسجد بل دفن في بيته.

الوجه الثالث: أن إدخال بيوت الرسول - ﷺ - ومنها بيت عائشة مع المسجد ليس باتفاق من الصحابة بل بعد أن انقضى أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل. وذلك عام ٩٤ هـ تقريباً، فليس مما أجازاه الصحابة أو أجمعوا عليه، مع أن بعضهم خالف في ذلك، ومَن خالف أيضاً سعيد بن المسيب من التابعين؛ فلم يرضَ بهذا العمل.

الوجه الرابع: أن القبر ليس في المسجد، حتى بعد إدخاله؛ لأنه في حجرة مستقلة عن المسجد؛ فليس المسجد مبنياً عليه، ولهذا جعل هذا المكان محفوظاً ومحوطاً بثلاثة جدران، وجعل الجدران في زاوية منحرفة عن القبلة، أي مثلث، والركن في الزاوية الشمالية. بحيث لا يستقبله الإنسان إذا صلى لأنه منحرف.

قلت: وذكر نحو ذلك النووي في مسلم^(١).

فهذا كله يزول الإشكال الذي يحتج به أهل القبور، ويقولون هذا منذ عهد التابعين إلى اليوم، والمسلمون قد أقروه ولم ينكروه، فنقول: إن الإنكار قد وجد حتى في زمن التابعين، وليس محل إجماع وعلى فرض أنه إجماع فقد تبين الفرق من الوجوه الأربعة التي ذكرناها. اهـ.

(١) (١٧/٣).

قال الألباني^(١): قد يقول قائل: إذا كان من المقرر شرعاً تحريم بناء المساجد على القبور، فهناك أمور كثيرة تدل على خلاف ذلك وإليك بيانها:

أولاً: قوله تبارك وتعالى في سورة الكهف: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾^(٢)، ووجه دلالة الآية على ذلك: أن الذين قالوا هذا القول كانوا نصارى، على ما هو مذكور في كتب التفسير، فيكون اتخاذ المسجد على القبر من شريعتهم، وشريعة من قبلنا شريعة لنا إذا حكاها الله تعالى، ولم يعقبها بما يدل على ردها كما في هذه الآية الكريمة.

ثانياً: كون قبر النبي ﷺ في مسجده الشريف، ولو كان ذلك لا يجوز لما دفنوه ﷺ في مسجده!

ثالثاً (*): زعم بعضهم أن المنع من اتخاذ القبور مساجد إنما كان لعل خشية الافتتان بالمقبور، ثم زالت برسوخ التوحيد في قلوب المؤمنين، فزال المنع! فكيف التوفيق بين هذه الأمور وبين التحريم المذكور؟ وجواباً على ذلك أقول وبالله تعالى استعين:

الجواب عن الشبهة الأولى:

سيأتى الجواب عليها مفصلاً في الباب الثاني والعشرون (ما جاء أن بعض هذه الآية تعبد الأوثان) فيه ذكر المصنف فيه آية سورة الكهف المذكورة هنا. والله الموفق للصواب. وأما الشبهة الثانية وهى أن قبر النبي ﷺ في مسجده كما هو مشاهد اليوم، ولو كان ذلك حراماً لم يدفن فيه!

والجواب: أن هذا وإن كان هو المشاهد اليوم، فإنه لم يكن كذلك في عهد الصحابة رضى الله عنهم، فإنهم لما مات ﷺ دفنوه في حجرته التى كانت بجانب مسجده، وكان يفصل بينهما جدار فيه باب، كان ﷺ يخرج منه إلى المسجد، وهذا أمر معروف مقطوع به عند العلماء، ولا خلاف فى ذلك بينهم، والصحابة رضى الله عنهم حينما دفنوه ﷺ فى الحجرة، إنما فعلوا ذلك كى لا يتمكن أحد بعدهم من اتخاذ قبره مسجداً، كما سبق

(١) من تحذير الساجد وحاشيته بتصرف.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢١.

(*) وبترتيب الألباني (السابعة)

بيانه فى حديث عائشة وغيره. ولكن وقع بعدهم مالم يكن فى حسابهم! ذلك أن الوليد بن عبد الملك أمر سنة ثمان وثمانين بهدم المسجد النبوى وإضافة حجر أزواج رسول الله ﷺ إليه، فأدخل فيه الحجرة النبوية حجرة عائشة، فصار القبر بذلك فى المسجد^(١) ولم يكن فى المدينة المنورة أحد من الصحابة حينذاك خلافاً لما توهم بعضهم. قال العلامة الحافظ محمد بن عبد الهادى فى «الصارم المنكى»^(٢).

«وإنما أدخلت الحجرة فى المسجد فى خلافة الوليد بن عبد الملك، بعد موت عامة الصحابة الذين كانوا بالمدينة، وكان من آخرهم موتاً جابر بن عبد الله، وتوفى فى خلافة عبد الملك، فإنه توفى سنة ثمان وسبعين، والوليد تولى سنة ست وثمانين، وتوفى سنة ست وتسعين، فكان بناء المسجد وإدخال الحجرة فيه فيما بين ذلك^(٣)، وقد ذكر أبو زيد عمر بن شبة النيمى فى «كتاب أخبار المدينة» مدينة الرسول ﷺ عن أشياخه عن عمر بن شبة أنه كان نائباً للوليد على المدينة فى سنة إحدى وتسعين هدم المسجد وبناه بالحجارة المنقوشة، وعمل سقفه بالساج، وماء الذهب، وهدم حجرات أزواج النبى ﷺ فأدخلها فى المسجد وأدخل القبر فيه».

(١) تاريخ ابن جرير (٢٢٢/٥ - ٢٢٣) وتاريخ ابن كثير (٧٤/٩ - ٧٥).

(٢) (ص: ١٣٦).

(٣) قال الألبانى: وإنما لم يسم الحافظ ابن عبد الهادى السنة التى وقع فيها ذلك لأنها لم ترد فى رواية ثابتة على طريقة المحدثين، وما نقلناه عن ابن جرير هو من رواية الواقدي وهو متهم، ورواية ابن شبة الآتية فى كلام الحافظ ابن عبد الهادى مدارها على مجاهيل، وهم عن مجهول! كما هو ظاهر، فلا حجة فى شيء من ذلك، وإنما العمدة على اتفاق المؤرخين على أن إدخال الحجرة إلى المسجد كان فى ولاية الوليد، وهذا القدر كاف فى إثبات أن ذلك كان بعد موت الصحابة الذين كانوا فى المدينة حسبما بينه الحافظ، لكن يعكر عليه ما رواه أبو عبد الله الرازى فى مشيخته (١/٢١٨) عن محمد بن الربيع الجيزى: «توفى سهل بن سعد بالمدينة وهو ابن مائة سنة وكانت وفاته سنة إحدى وتسعين وهو آخر من مات بالمدينة من أصحاب النبى ﷺ. لكن الجيزى هذا لم أعرفه ثم هو معضل، وقد ذكر مثله الحافظ ابن حجر فى «الإصابة» (٨٧/٢) عن الزهرى من قوله فهو معضل أيضاً أو مرسل، ثم عقبه بقوله: «وقيل قبل ذلك، وزعم ابن أبى داود أنه مات بالاسكندرية»، وجزم فى «التقريب» أنه مات سنة ٨٨، فالله أعلم.

وخلاصة القول: أنه ليس لدينا نص تقوم به الحجة على أن أحداً من الصحابة كان فى عهد عملية التغيير هذه، فمن ادعى خلاف ذلك فعليه الدليل، فما جاء فى شرح مسلم (١٣/٥ - ١٤) أن ذلك كان فى عهد الصحابة، لعل مستنده تلك الرواية المعضلة أو المرسلة، وبمثلها لا تقوم حجة، على أنها أخص من الدعوى، فإنها لو صحت إنما تثبت وجود واحد من الصحابة حينذاك، لا (الصحابة).

=

وأما قول بعض من كتب فى هذه المسألة بغير علم:

«فمسجد النبی ﷺ منذ وسعه عثمان رضى الله عنه وأدخل فى المسجد ما لم يكن منه، فصارت القبور الثلاثة محاطة بالمسجد لم ينكر أحد من السلف ذلك».

فمن جهالاتهم التى لا حدود لها - ولا أريد أن أقول إنه من افتراءاتهم - فإن أحداً من العلماء لم يقل إن إدخال القبور الثلاثة كان فى عهد عثمان رضى الله عنه، بل اتفقوا على أن ذلك كان فى عهد الوليد بن عبد الملك كما سبق، أى بعد عثمان بنحو نصف قرن ولكنهم يهرفون بما لا يعرفون ذلك لأن عثمان رضى الله عنه فعل خلاف ما نسبوا إليه، فإنه لما وسع المسجد النبوى الشريف احترز من الوقوع فى مخالفة الأحاديث المشار إليها، فلم يوسع المسجد من جهة الحجرات، ولم يدخلها فيه، وهذا عين ما صنعه سلفه عمر بن الخطاب رضى الله عنهم جميعاً، بل أشار هذا إلى أن التوسيع من الجهة المشار إليها فيه المحذور المذكور فى الأحاديث المتقدمة كما سيأتى ذلك عنه قريباً.

وأما قولهم: «ولم ينكر أحد من السلف ذلك».

فقول: وما أدراكم بذلك؟! فإن من أصعب الأشياء على العقلاء إثبات نفى شئ يمكن أن يقع ولم يعلم، كما هو معروف عند العلماء، لأن ذلك يستلزم الاستقراء التام والإحاطة بكل ما جرى، وما قيل حول الحادثة التى يتعلق بها الأمر المراد نفيه عنها، وأنى لمثل هذا البعض المشار إليه أن يفعلوا ذلك لو استطاعوا، ولو أنهم راجعوا بعض الكتب لهذه المسألة لما وقعوا فى تلك الجهالة الفاضحة، لوجود ما يحملهم على أن لا ينكروا ما لم يحيطوا بعلمه، فقد قال الحافظ ابن كثير فى تاريخه (ص ٧٥ ج ٩) بعد أن ساق قصة إدخال القبر النبوى فى المسجد: «ويحكى أن سعيد بن المسيب أنكر إدخال حجرة عائشة فى المسجد كأنه خشى أن يتخذ القبر مسجداً».

وأنا لا يهمنى كثيراً صحة هذه الرواية، أو عدم صحتها، لأننا لا نبني عليها حكماً شرعياً، لكن الظن بسعيد بن المسيب وغيره من العلماء الذين أدركوا ذلك التغيير، أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، لمنافاته تلك الأحاديث المتقدمة منافية بينة، وخاصة منها رواية عائشة التى تقول: «فلولا ذاك أبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً» فما خشى الصحابة رضى الله عنهم قد وقع - مع الأسف الشديد - بإدخال القبر فى المسجد، إذ لا فارق بين أن يكونوا دفنوه ﷺ حين مات فى المسجد، وحاشاهم عن ذلك - وبين ما فعله الذين بعدهم من إدخال قبره فى المسجد بتوسيعه، فالمحذور حاصل على كل حال كما تقدم عن الحافظ العراقى، وشيخ الإسلام ابن تيمية، ويؤيد هذا الظن أن سعيد بن المسيب أحد رواة الحديث الثانى كما سبق، فهل اللائق بمن يعترف بعلمه وفضله وجراته فى الحق أن يُظن به أنه أنكر على من خالف الحديث الذى هو أحد رواته، أم أن ينسب إليه عدم إنكاره ذلك، كما زعم هؤلاء المشار إليهم حين قالوا: «لم ينكر أحد من السلف ذلك»!

والحقيق أن قولهم هذا يتضمن طعنًا ظاهراً - لو كانوا يعلمون - فى جميع السلف، لأن إدخال القبر إلى المسجد منكر ظاهر عند كل من علم بتلك الأحاديث المتقدمة وبمعانيها، ومن المحال أن تنسب إلى جميع السلف جهلهم بذلك، فهم، أو على الأقل بعضهم يعلم ذلك يقيناً، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من القول بأنهم أنكروا ذلك، ولو لم نقف فيه على نص، لأن التاريخ لم يحفظ لنا كل ما وقع، فكيف يقال: إنهم لم ينكروا ذلك؟! اللهم غفرا.

ومن جهاتهم قولهم عطفاً على قولهم السابق:

قال الألباني^(١): يتبين لنا مما أوردناه أن القبر الشريف إنما أدخل إلى المسجد النبوي حين لم يكن في المدينة أحد من الصحابة وأن ذلك كان على خلاف غرضهم الذي رموا إليه حين دفنوه في حجرته عليه السلام، فلا يجوز لمسلم بعد أن عرف هذه الحقيقة أن يحتج بما

«وكذا مسجد بنى أمية منذ دخل المسلمون دمشق من الصحابة وغيرهم والقبر ضمن المسجد لم ينكر أحد ذلك»!

إن منطق هؤلاء عجيب غريب! إنهم ليتوهمون أن كل ما يشهدونه الآن في مسجد بنى أمية كان موجوداً في عهد منشته الأول الوليد بن عبد الملك، فهل يقول بهذا عاقل؟! كلا لا يقول ذلك غير هؤلاء! ونحن نقطع ببطان قولهم، وأن أحداً من الصحابة والتابعين لم ير قبراً ظاهراً في مسجد بنى أمية أو غيره، بل غاية ما جاء في بعض الروايات عن زيد بن واقد أنهم في أثناء العمليات ووجدوا مغارة فيها صندوق فيه سبط. (وعاء كالثقة) وفي السبط رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام، مكتوب عليه: هذا رأس يحيى عليه السلام، فأمر به الوليد فرد إلى المكان وقال: اجعلوا العمود الذي فوقه مغيراً من الأعمدة، فجعل عليه = عمود مسبك مسط الرأس. رواه أبو الحسن الرقي في «فضائل الشام» (٣٣) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخه (ج ٢ ق ١ ص ٩-١٠) وإسناده ضعيف جداً، فيه إبراهيم بن هشام الغساني كذب أبو حاتم وأبو زرعة، وقال الذهبي «متروك». ومع هذا فالتا تقطع أنه لم يكن في المسجد صورة قبر حتى أواخر القرن الثاني لما أخرجه الرقي وابن عساكر عن الوليد بن مسلم أنه سئل أين بلغك رأس يحيى بن زكريا؟ قال: بلغني أنه ثم، وأشار بيده إلى العمود المسط الرابع من الركن الشرقي، فهذا يدل على أنه لم يكن هناك قبر في عهد الوليد بن مسلم وقد توفي سنة أربع وتسعين ومائة.

وأما كون ذلك الرأس هو رأس يحيى عليه السلام فلا يمكن إثباته، ولذلك اختلف المؤرخون اختلافاً كثيراً، وجمهورهم على أن رأس يحيى عليه السلام مدفون في مسجد حلب ليس في مسجد دمشق، كما حققه شيخنا في الاجازة العلامة الشيخ محمد راغب الطباخ في بحث له نشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (ج ١ ص ٤١ - ١٤٨٢) تحت عنوان «رأس يحيى ورأس زكريا» فليراجعه من شاء.

ونحن لا يهمنا من الوجهة الشرعية ثبوت هذا أو ذاك، وسواء عندنا أكان الرأس الكريم في هذا المسجد أو ذاك، بل لو تيقنا عدم وجوده في كل من المسجدين، فوجود صورة القبر فيهما كاف في المخالفة، لأن أحكام الشريعة المطهرة إنما تبنى على الظاهر، لا الباطن كما هو معروف، وسيأتى ما يشهد لهذا من كلام بعض العلماء، وأشد ما تكون المخالفة إذا كان القبر في قبلة المسجد، كما هو الحال في مسجد حلب، ولا منكر لذلك من علمائها!

واعلم أنه لايجدى في رفع المخالفة أن القبر في المسجد ضمن مقصورة كما زعم مؤلفوا الرسالة، لأنه على كل حال ظاهر، ومقصود من العامة وأشباههم من الخاصة بما لايقصد به إلا الله تعالى؛ من التوجه إليه، والاستغاثة به من دون الله تبارك وتعالى، فظهور القبر هو سبب المحذور كما سيأتى عن النووى رحمه الله.

وخلاصة الكلام أن قول من أشرنا إليهم أن قبر يحيى عليه السلام كان ضمن المسجد الأموي منذ دخل دمشق الصحابة وغيرهم لم ينكر ذلك أحد منهم إن هو إلا محض اختلاق! (١) تحذير الساجد (٦٤).

وقع بعد الصحابة، لأنه مخالف للأحاديث الصحيحة وما فهم الصحابة والأئمة منها كما سبق بيانه، وهو مخالف أيضاً لصنيع عمر وعثمان حين وسعا المسجد ولم يدخلوا القبر فيه، ولهذا نقطع بخطأ ما فعله الوليد بن عبد الملك عفا الله عنه، ولئن كان مضطراً إلى توسيع المسجد، فإنه كان باستطاعته أن يوسعه من الجهات الأخرى دون أن يتعرض للحجرة الشريفة، وقد أشار عمر بن الخطاب إلى هذا النوع من الخطأ حين قام هو رضى الله عنه بتوسيع المسجد من الجهات الأخرى ولم يتعرض للحجرة، بل قال: «إنه لا سبيل إليها»^(١)، فأشار رضى الله عنه إلى المحذور الذى يترقب من جراء هدمها وضمها إلى المسجد.

ومع هذه المخالفة الصريحة للأحاديث المتقدمة وسنة الخلفاء الراشدين، فإن المخالفين لما أدخلوا القبر النبوى فى المسجد الشريف احتاطوا للأمر شيئاً ما، فحاولوا تقليل المخالفة ما أمكنهم. قال النووى^(٢) فى «شرح مسلم».

«ولما احتاجت الصحابة^(٣) والتابعون إلى الزيادة فى مسجد رسول الله ﷺ حين كثر المسلمون، وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة رضى الله عنها مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله، لئلا يظهر فى المسجد^(٤)، فيصلى إليه العوام،

(١) انظر «طبقات ابن سعد» (٢١/٤) و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢/٤٧٨/٨) وقال السيوطى فى «الجامع الكبير» (٢/٢٧٢/٣): «وسنده صحيح إلا أن سالماً أبا النضر لم يدرك عمر، و«وفاء الوفا» للسهودى (٣٤٣/١) و«المشاهدات المعصومية عند قبر خير البرية» للعلامة محمد سلطان المعصومى رحمه الله تعالى (ص ٤٣) وهو مؤلف رسالة «هدية السلطان إلى بلاد اليابان» التى ادعى أحد الدكاترة أنها ليست له، وإنما لبعض إخواننا! مع أننى تناولتها منه هدية مطبوعة حين زرتة فى داره فى مكة فى حجتى الأولى سنة ١٣٦٨هـ.

(٢) (١٤/٥).

(٣) عزو هذا إلى الصحابة لا يثبت.

(٤) فى هذا دليل واضح على أن ظهور القبر فى المسجد ولو من وراء النوافذ والحديد والأبواب لا يزيل المحذور، كما هو الواقع فى قبر يحيى عليه السلام فى مسجد بنى أمية فى دمشق وحلب، ولهذا نص أحمد على أن الصلاة لا تجوز فى المسجد الذى قبلته إلى القبر، حتى يكون بين حائط المسجد وبين المقبرة حائل آخر، كما سيأتى، فكيف إذا كان القبر فى قبلة المسجد من الداخل ودون جدار حائل؟ ومن ذلك تعلم أن قول بعضهم: «إن الصلاة فى المسجد الذى به قبر كمسجد النبى ﷺ ومسجد بنى أمية لا يقال إنها صلاة فى الجبانة، فالقبر ضمن مقصورة مستقل بنفسه عن المسجد، فما المانع من الصلاة فيه».

فهذا قول لم يصدر عن علم وفقه! لأنه المانع بالنسبة للمسجد الأموى لا يزال قائماً وهو ظهور القبر =

ويؤدى الى المحذور، ثم بنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا، حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر».

ونقل الحافظ ابن رجب فى «الفتح» نحوه عن القرطبى كما فى «الكواكب»^(١)، وذكر ابن تيمية فى «الجواب الباهر»^(٢).

«أن الحجرة لما أدخلت إلى المسجد سدُ بابها، وبنى عليها حائط آخر، صيانة له ﷺ أن يتخذ بيته عيداً، وقبره وثناً».

قلت: وما يؤسف له أن هذا البناء قد بنى عليه منذ قرون - إن لم يكن قد أزيل - تلك القبة الخضراء العالية، وأحيط القبر الشريف بالنوافذ النحاسية والزخارف والتجف، وغير ذلك مما لا يرضاه صاحب القبر نفسه ﷺ.

= من وراء المقصورة، والدليل على ذلك قصد الناس للقبر والدعاء عنده وبه والاستغاثة به من دون الله، وغير ذلك مما لا يرضاه الله، والشارع الحكيم إنما نهى عن بناء المساجد على القبور سداً للذريعة ومنعاً لمثل هذه الأمور التى تقع عند هذا القبر كما سيأتى بيانه، فما قيمة هذه المقصورة حيثئذ مع وقوع هذه المنكرات وغيرها عند القبر؟! بل إن إحاطة القبر بهذه المقصورة على هذا الشكل المزخرف، إنما هى نوع آخر من المنكر الذى يحمل الناس على معصية الله ورسوله، وتعظيم صاحب القبر بما لا يجوز شرعاً، مما هو مشاهد معروف، وسبقت الإشارة إلى بعضه.

ثم ألا يكفى فى إثبات المانع أن الناس يستقبلون القبر عند الصلاة قصداً وبدون قصد، ولعل أولئك المشار إليهم وأمثالهم يقولون: لآمانع أيضاً من هذا الاستقبال لوجود فاصل بين المصلين والقبر ألا وهو نوافذ القبر وشبكته النحاسية! فقول لو كان هذا المانع كافياً فى المنع لما أحاطوا القبر النبوى الشريف بجدار مرتفع مستدير، ولم يكتفوا بذلك، بل بنوا جدارين يمنعون بهما من استقبال القبر. ولو كان وراء الجدار المستدير! وقد صح عن ابن جريج أنه قال: قلت لعطاء: أكره أن تصلى فى وسط القبور؟ أو فى مسجد إلى قبر؟ قال: نعم، كان ينهى عن ذلك. أخرجه عبد الرزاق فى «مصنفه» (١/٤٠٤/١٥٧٩). فإذا كان هذا التابعى الجليل (عطاء بن أبى رباح) لم يعتبر جدار المسجد فاصلاً بين المصلى وبين القبر وهو خارج المسجد، فهل يعتبر فاصلاً النوافذ والشبكة والقبر فى المسجد؟!.

فهل فى هذا ما يقنع أولئك الكاتبتين بجهلهم وخطئهم، وهجومهم على القول بما لا علم لهم به؟ لعل وعسى!

وأما المسجد النبوى الكريم، فلا كراهة فى الصلاة فيه خلافاً لما افتروه علينا، وسيأتى تفصيل القول فيه إن شاء الله تعالى.

على أن لا أريد أن يفوتنى أن أنبه القراء الكرام على أن أولئك الكاتبتين يعترفون بكلمتهم السابقة أن الصلاة فى المسجد الذى فيه قبر غير محاط بمقصورة أنها صلاة مكروهة لانتفاء العلة التى من أجلها نفوا الكراهة عن الصلاة فى مسجد بنى أمية بزعمهم، فهل لهم أن يجهروا للناس باعترافهم هذا؟ أم هو شىء اضطربهم إلى القول به التهرب من معارضة الأحاديث السابقة علناً وإن كانوا لا يدعون الناس إلى العمل بها لغاية لاختفى على العقلاء؟!.

(١) (١/٩١/٦٥).

(٢) (٢/٩).

ثم قال الشيخ الألباني بعد أن قرر حرمة الصلاة في المساجد التي على القبور: ثم اعلم أن الحكم السابق يشمل كل المساجد، كبيرها وصغيرها، قديمها وحديثها، لعموم الأدلة^(١)، فلا يستثنى من ذلك مسجد فيه قبر إلا المسجد النبوي الشريف؛ لأن له فضيلة خاصة لا توجد في شيء من المساجد المبنية على القبور وذلك لقوله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام؛ [فإنه أفضل]»^(٢).
ولقوله ﷺ أيضاً: «ما بين بيتي»^(٣) ومنبري روضة من رياض الجنة»^(٤).

(١) قال الشوكاني في «شرح الصدور في تحريم رفع القبور» بعد أن ذكر حديث جابر المتقدم بلفظ: نهى رسول الله ﷺ أن يحصص القبر وأن يبنى عليه» (ص ٧٠) من «المجموعة المنيرة»: «وفي هذا التصريح بالنهاي عن البناء على القبور، وهو يصدق على من بنى على جوانب حفرة القبر كما يفعله كثير من الناس من رفع قبور الموتى ذراعاً فما فوقه، لأنه لا يمكن أن يجعل نفس القبر مسجداً، فذلك مما دل على أن المراد بعض ما يقربه مما يتصل به. ويصدق على من بنى قريباً من جوانب القبر كذلك، كما في القباب والمساجد والمشاهد الكبيرة على وجه يكون القبر في وسطها أو في جانب منها، فإن هذا بناء على القبر كما لا يخفى ذلك على من له أدنى فهم كما يقال: بنى السلطان على مدينة كذا أو قرية كذا سوراً، وكما يقال بنى فلان في المكان الفلاني مسجداً، مع أن سمك البناء لم يباشر إلا جوانب المدينة أو القرية أو المكان، ولا فرق بين أن تكون تلك الجوانب التي وقع وضع البناء عليها قرية من الوسط كما في المدينة الصغيرة والقرية الصغيرة والمكان الضيق، أو بعيدة من الوسط كما في المدينة الكبيرة والقرية الكبيرة والمكان الواسع، ومن زعم أن في لغة العرب ما يمنع من هذا الإطلاق فهو لا يعرف لغة العرب، ولا يفهم لسانها، ولا يدري بما استعمل في كلامها».

(٢) تقدم تخريجه.

(٢) هذا هو اللفظ الصحيح «بيتي» وأما اللفظ المشهور عى الألسنة «قبرى» فهو خطأ من بعض الرواة كما جزم به القرطبي وابن تيمية والعسقلاني وغيرهم ولذلك لم يخرج في شيء من الصحاح، ووردوه في بعض الروايات لا يصيره صحيحاً لأنه رواية بالمعنى قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «القاعدة الجلية» (ص ٧٤) بعد أن ذكر الحديث: «هذا هو الثابت الصحيح، ولكن بعضهم رواه بالمعنى فقال (قبرى) وهو ﷺ حين قال هذا القول لم يكن قد قبر، ولهذا لم يحتج بهذا أحد من الصحابة، حينما تنازعوا في موضع دفنه، ولو كان هذا عندهم لكان نصاً في محل النزاع، ولكن دفن في حجرة عائشة، في الموضع الذي مات فيه، بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه».

(تنبيه) ومن أوهام العلماء أن النووي في «المجموع» عزا الحديث للشيخين بلفظ «قبرى»، ولا أصل له عندهما فاقضى التنبيه.

(٤) [صحيح] أخرجه البخاري (١١٩٥)، ومسلم في الحج (٤/ ١٧٣/ ٥٠) عن عبدالله بن زيد به.

ولغير ذلك من الفضائل، فلوقيل بكراهة الصلاة فيه كان معنى ذلك تسويته مع غيره من المساجد، ورفع هذه الفضائل عنه، وهذا لا يجوز كما هو ظاهر، وهذا المعنى استفدناه من كلام ابن تيمية سيأتى فى بيان سبب إباحة صلاة ذوات الأسباب فى الأوقات المنهى عنها، فكما أن الصلاة أبيحت فى هذه الأوقات لأن فى المنع منها تضييعاً لها بحيث لا يمكن استدراك فضلها لفوات وقتها، فكذلك يقال فى الصلاة فى مسجده ﷺ. ثم وجدت ابن تيمية صرح بهذا، فقال فى كتابه «الجواب الباهر فى زور المقابر»^(١).

«والصلاة فى المساجد المبنية على القبور منهى عنها مطلقاً، بخلاف مسجده، فإن الصلاة فيه بألف صلاة، فإنه أسس على التقوى، وكانت حرمة فى حياته وحياة خلفائه الراشدين قبل دخول الحجرة فيه، وإنما أدخلت بعد انقراض عصر الصحابة».

ثم قال^(٢): «وكان المسجد قبل دخول الحجرة فيه فاضلاً، وكانت فضيلة المسجد بأن النبى ﷺ بناه لنفسه وللمؤمنين، يصلى الله هو والمؤمنون إلى يوم القيامة، ففضل بنيانه له، فكيف وقد قال: «صلاة فى مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»^(٣). وقال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»^(٤)، وهذه الفضيلة ثابتة له قبل أن يدخل فيه الحجرة، فلا يجوز أن يظن أنه صار بدخول الحجرة فيه أفضل مما كان، وهم لم يقصدوا دخول الحجرة فيه، إنما قصدوا توسيعه بإدخال حجر أزواج النبى ﷺ، فدخلت الحجرة فيه ضرورة، مع كراهة من كره ذلك من السلف»^(٥).

ثم قال^(٦):

«ومن اعتقد أنه قبل القبر لم تكن له فضيلة إذ كان النبى ﷺ يصلى فيه والمهاجرون والأنصار، وإنما حدثت له الفضيلة فى خلافة الوليد بن عبد الملك لما أدخل الحجرة فى مسجده -.

(١) (ص ٢٢ / ١ - ٢).

(٢) (٢ / ٦٧ - ١ / ٦٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (١١٨٩)، ومسلم فى الحج (٩ / ١٦٧ - النووى) عن أبى هريرة به.

وانظر «منار السبيل» (٨٤٢ - بتخريجنا).

(٦) (٢ / ٥٥ - ١).

(٥) تقدم.

فهذا لا يقوله إلا جاهل مفرط في الجهل، أو كافر، فهو مكذب لما جاء عنه، مستحق للقتل، وكان الصحابة يدعون في مسجده، كما كانوا يدعون في حياته، لم تحدث له شريعة غير الشريعة التي علمهم إياها في حياته... بل نهاهم أن يتخذوا قبره عيداً، أو قبر غيره مسجداً؛ يصلون فيه لله عز وجل، ليسد ذريعة الشرك، فصلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً وجزاه أفضل ما جزى نبياً عن أمته، فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه.

الجواب عن الشبهة الثالثة: وهى الزعم بأن المنع إنما كان لعله، وهى خشية الافتتان بالمقبر، وقد زالت، فزال المنع!!

الجواب: لا أعلم أحداً من العلماء ذهب إلى القول بهذه الشبهة، إلا مؤلف «إحياء القبور»، فإنه تمسك بها وجعلها عمده في رد تلك الأحاديث المتقدمة واتفاق الأئمة عليها، فقال ما نصه.

«وأما النهى عن بناء المساجد على القبور، فاتفقوا على تعليقه بعلمتين:

إحدهما: أنه يؤدى إلى تنجيس المسجد^(١)..

وثانيهما: وهو قول الأكثرين بل الجميع حتى من نص على العلة السابقة أن ذلك قد يؤدى إلى الضلال والفتنة بالقبر، لأنه إذا وقع بالمسجد، وكان قبر ولى مشهور بالخير والصلاح، لا يؤمن مع طول المدة أن يزيد اعتقاد الجهلة فيه، ويؤدى بهم فرط التعظيم إلى قصد الصلاة إليه، إذا كان فى قبلة المسجد، فيؤدى بهم ذلك إلى الكفر والإشراك. ثم ساق شيئاً من النقول فى العلة المذكورة عن بعض العلماء منهم الإمام الشافعى، وقد تقدم نصه فى ذلك ثم قال المؤلف المشار إليه^(٢).

«فالعلة المذكورة قد انتفت برسوخ الإيمان فى نفوس المؤمنين، ونشأهم على التوحيد الخالص، واعتقاد نفى الشريك مع الله تعالى، وأنه سبحانه المنفرد بالخلق والإيجاد والتصريف (!) وبانتفاء العلة ينتفى الحكم المترتب عليها، وهو كراهة اتخاذ المساجد والقباب على قبور الأولياء والصالحين»!

(١) قال فى حاشية «تحذير الساجد»: وهذه العلة باطلة من وجه لامجال ليانها الآن، ومن أدلة ذلك

بخصوص قبور الأنبياء أن أجسادهم لا تبلى كما صح عن رسول الله ﷺ، فكيف تنجس الأرض بهم؟!

(٢) (ص: ٢ - ٢١).

قلت - الألباني -: والجواب: أن يقال: ثبت العرش ثم انقش!

أثبت أولاً أن الخشية المذكورة هي وحدها علة النهي، ثم أثبت أنها قد انتفت، ودون ذلك خرط القتاد.

أما الأول، فإنه لا دليل مطلقاً على أن العلة هي الخشية المذكورة فقط، نعم من الممكن أن يقال: أنها بعض العلة، وأما حصرها بها فباطل، لأن من الممكن أيضاً أن يضاف إليها أمور أخرى معقولة كالتشبه بالنصارى، كما تقدم في كلام الفقيه الهيمى، والمحقق الصنعانى، وكالإسراف فى صرف المال فيما لافائدة فيه شرعاً، وغير ذلك مما قد يبدو للباحث الناقد.

وأما زعمه أن العلة انتفت برسوخ الإيمان فى نفوس المؤمنين . . الخ. فهو زعم باطل أيضاً وبيانه من وجه:

الأول: أن الزعم بنى على أصل باطل، وهو أن الإيمان بأن الله هو المنفرد بالخلق، والإيجاد كاف فى تحقيق الإيمان المنجى عند الله تبارك وتعالى، وليس كذلك، فإن هذا التوحيد وهو المعروف عند العلماء بتوحيد الربوبية، كان يؤمن به المشركون الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۖ ﴾ (١)، ومع ذلك فلم ينفعهم هذا التوحيد شيئاً، لأنه كفروا بتوحيد الألوهية والعبادة، وأنكروه على النبي ﷺ أشد الإنكار، بقولهم فيما حكاه الله عنهم! ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾ (٢). ومن مقتضيات هذا التوحيد الذى أنكروه ترك الاستغاثة والاستعانة بغير الله، وترك الدعاء والذبح لغير الله، وغير ذلك مما هو خاص بالله تعالى من العبادات، فمن جعل شيئاً من ذلك لغير الله تبارك وتعالى فقد أشرك به، وجعل له نداً وإن شهد له بتوحيد الربوبية، فالإيمان المنجى إنما هو الجمع بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وإفراد الله بذلك، وهذا مفصل فى غير هذا الموضوع.

فإذا تبين هذا تعلم أن الإيمان الصحيح غير راسخ فى نفوس كثير من المؤمنين بتوحيد الربوبية، ولا أريد أن أبعد بالقارئ الكريم فى ضرب الأمثلة، فحسبى هنا أن أنقل ما ذكره المؤلف الذى نحن فى صدد الرد عليه، فإنه قال بعد أسطر من كلامه السابق.

(١) سورة لقمان الآية ٢٥.

(٢) سورة ص الآية ٥.

«ونراهم (يعنى العامة) يحلفون بالأولياء، وينطقون فى حقهم بما ظاهره الكفر الصراح بل هو الكفر حقيقة بلا ريب ولا شك.. فكثير من جهلة العوام بالمغرب ينطق بما هو كفر صراح فى حق مولانا عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه.. فإن عندنا بالمغرب من يقول عن القطب الأكبر؛ مولانا عبد السلام ابن مشيش رضى الله عنه: أنه الذى خلق الدين والدنيا! ومنه من قال - والمطر نازل بشدة: يامولانا عبد السلام الطف بعبادك! فهذا كفر!...».

قلت: فهذا الكفر أشد من كفر المشركين، لأن هذا فيه التصريح بالشرك فى توحيد الربوبية أيضاً، وهو مما لانعلم أنه وقع من المشركين أنفسهم! وأما الشرك فى الألوهية فهو أكثر فى جهال هذه الأمة - ولا أقول عوامهم! - فإذا كان هذا حال المسلمين اليوم، وقبل اليوم، فكيف يقول هذا الرجل:

«وقد انتفت العلة برسوخ الإيمان فى نفوس المؤمنين...؟!».

وإذا كان يريد بـ «المؤمنين» الصحابة رضى الله عنهم، فلا شك أنهم كانوا مؤمنين حقاً، عالمين بحقيقة التوحيد الذى جاءهم به رسول الله ﷺ، ولكن الشريعة الإسلامية شريعة عامة أبدية، فلا يلزم من انتفاء العلة - لو ثبت - بالنسبة إليهم أن يتنfy الحكم بالنسبة لمن بعدهم، لأن العلة لاتزال قائمة، والواقع أصدق شاهد على ذلك.

الوجه الثانى: علمت مما سبق من الأحاديث أن النبى ﷺ حذر أمته من اتخاذ المساجد على القبور فى آخر حياته، بل فى مرض موته، فمتى زالت العلة التى ذكرها؟ إن قيل: زالت عقب وفاته ﷺ. فهذا نقض لما عليه جميع المسلمين أن خير الناس قرنه ﷺ، لأن القول بذلك يستلزم - بناء على ما سبق من كلامه - أن الإيمان لم يكن قد رسخ بعد فى نفوس الصحابة رضى الله عنهم، وإنما رسخ بعد وفاته ﷺ! ولذلك لم تزل العلة وبقي الحكم، وهذا مما لا أتصور أحداً يقول به لوضوح بطلانه. وإن قيل: زالت قبل وفاته ﷺ، قلنا: وكيف ذلك وهو ﷺ إنما نهى عن ذلك فى آخر نفس من حياته ﷺ؟! ويؤيده:

الوجه الثالث: أن فى بعض الأحاديث المتقدمة باستمرار الحكم إلى قيام الساعة.

الوجه الرابع: أن الصحابة رضى الله عنهم إنما دفنوه فى حجرته ﷺ خشية أن يتخذ قبره مسجداً، كما تقدم عن عائشة رضى الله عنها فى الحديث فهذه الخشية إما أن يقال: إنها كانت منصبة على الصحابة أنفسهم، أو على من بعدهم، فإن قيل بالأول، قلنا:

فالحشية على من بعدهم أولى، وإن قيل بالثاني، وهو الصواب عندنا، فهو دليل قاطع على أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا لا يرون زوال العلة المستلزم زوال الحكم، لا فى عصرهم، ولا فيما بعدهم، فالزعم بخلاف رأيهم ضلال بين ويؤيده.

الوجه الخامس: أن العمل استمر من السلف على هذا الحكم ونحوه، مما يستلزم بقاء العلة السابقة، وهى خشية الوقوع فى الفتنة والضلال، فلو أن العلة المشار إليها كانت متفية لما استمر العمل على معلولها، وهذا بين لا يخفى والحمد لله، وإليك بعض الأمثلة على ما ذكرنا.

١ - عن عبد الله بن شرحبيل بن حسنة قال: رأيت عثمان بن عفان يأمر بتسوية القبور، فقيل له: هذا قبر أم عمرو بنت عثمان! فأمر به فسوى^(١).

٢ - عن أبى الهيثج الأسدى قال: قال لى بن أبى طالب: ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ؟ أن لاتدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته^(٢).

ولما كان هذا الحديث حجة واضحة على إبطال ما ذهب إليه الشيخ الغمارى فى كتابه المشار إليه سابقاً حاول التقصى منه من طريقين:

الأول: تأويله، حتى يتفق مع مذهبه!

والآخر: التشكيك فى ثبوته! فقال^(٣).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة فى «المصنف» (٣/٢٢٢/١).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجناز (٧/٣٦ - النووى).

عن على به وانظر «السلسيل» (٩٢٩ - بتخريجنا).

قال الألبانى: ولا مخالفة بين هذا الحديث وبين ما ثبت فى السنة من مشروعية رفع القبر شبراً أو شبرين، حتى يتميز فيصان عن أن يهان، لأن المراد به تسوية ما رفع عليه من البناء، وإن قيل بخلافه قال الشيخ على القارئ فى «المرقاة» (٢/٣٧٢) فى شرح الحديث: «(قبراً مشرفاً) هو الذى بنى عليه حتى ارتفع دون الذى أعلم عليه بالرمل والحصاء أى محسومة (!) بالحجار ليعرف ولا يوطأ، (إلا سويته) فى الأزهار: قال العلماء: يستحب أن يرفع القبر قدر شبر ويكره فوق ذلك ويستحب الهدم، وفى قدره خلاف، قيل إلى الأرض تغليظاً، وهذا أقرب إلى اللفظ أى لفظ الحديث من التسوية».

وكذا فى «تحفة الأحوذى» (٢/١٥٤) نقلاً عن «المرقاة».

(٣) (ص: ٥٧)

ثم إن موضع الشاهد من الحديث إنما هو بعث على أبا الهياج إلى تسوية القبور، وكان رئيس شرطته، ففيه دليل واضح على أن علياً - وكذا عثمان رضى الله عنهما في الأثر المتقدم - كانا يعلمان بقاء هذا الحكم بعد وفاته ﷺ خلافاً لما زعمه الغمارى.

٣ - عن أبي بردة قال: أوصى أبو موسى حين حضره الموت فقال: إذا انطلقتم بجنائزتي فأسرعوا المشى ولا يتبعنى مجمر، ولا تجعلوا فى لحدى شيئاً يحول بينى وبين التراب، ولا تجعلوا على قبرى بناء وأشهدكم أنى برىء من كل حالقة^(١)، أو سالقة، أو خارقة، قالوا: أو سمعت فيه شيئاً؟ قال: نعم، من رسول الله ﷺ^(٢).

٤ - عن أنس: كان يكره أن يبنى مسجد بين القبور^(٣).

٥ - عن إبراهيم أنه كان يكره أن يجعل على القبر مسجداً^(٤).

وإبراهيم هذا هو ابن يزيد النخعى الثقة الإمام، وهو تابعى صغير مات سنة (٩٦)، فقد تلقى هذا الحكم بلا شك من بعض كبار التابعين أو ممن أدركهم من الصحابة، ففيه دليل قاطع على أنهم كانوا يرون بقاء هذا الحكم واستمراره بعده ﷺ، فمتى نسخ؟!

٦ - عن المعرور بن سويد قال: «خرجنا مع عمر فى حجة حجها، فقرأ بنا فى الفجر ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾^(٥) و﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٌ﴾^(٦)، فلما قضى حجه ورجع والناس، يتندرون، فقال: ما هذا؟ فقال: مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال: هكذا هلك أهل الكتاب، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً! من عرضت له منكم فيها الصلاة، فليصل، ومن لم يعرض له منكم فيه الصلاة فلا يصل^(٧).

٧ - عن نافع قال:

«بلغ عمر بن الخطاب أن ناساً يأتون الشجرة التى بويح تحتها، فأمر بها فقطعت»^(٨).

(١) (الحالقة): هى التى تخلق شعرها عند المصيبة، و(السالقة): التى ترفع صوتها، و(الخارقة): التى تحرق ثيابها عند المصيبة.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٩٧/٤).

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة (١٨٥/٢) ورجاله ثقات رجال الشيخين.

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة (١٢/٢٧٠).

(٥) سورة الفيل: الآية ١.

(٦) سورة قريش، الآية: ١.

(٧) أخرجه ابن أبى شيبة (٩/٢٧٠).

(٨) قال الألبانى: يبعد ذلك كله ما أخرجه البخارى فى «صحيحه» - (الجهاد) من طريق أخرى =

٨ - عن قزعة قال: سألت ابن عمر: أتى الطور؟ فقال: دع الطور ولا تأتها، وقال: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد^(١).

٩- عن علي بن حسين: أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فدعاه فقال: ألا أحدثك بحديث سمعته من أبي عن جدي رسول الله ﷺ؟ قال: «لا تتخذوا قبوري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي، فإن صلاتكم وتسليمكم تبلغني حيثما كنتم»^(٢).

= عن نافع قال: قال ابن عمر رضي الله عنهما: «رجعنا من العام المقبل، فما اجتمع اثنان على الشجرة التي بابينها تحتها، كانت رحمة من الله».

قلت: يعنى الألباني - خفاءها عليهم. فهو نص على أن الشجرة لم تبق معروفة المكان حتى يمكن قطعها من عمر، فدل ذلك على ضعف رواية القطع الدال عليه الانقطاع الظاهر فيها نفسها. وما يزيد بها ضعفاً ما روى البخاري في «المنازي» من «صحيحه» عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: «لقد رأيت الشجرة، ثم أتيتها بعده، فلم أعرفها».

ومن طريق طارق بن عبد الرحمن قال: «انطلقت حاجاً، فمررت بقوم يصلون، قلت: ما هذا المسجد قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان فأثيت سعيد بن المسيب، فضحك فقال: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها. وفي رواية: فعميت علينا فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها! وعلمتموها أنتم! فأنتم أعلم!».

أقول: ولئن كنا خسرن هذه الرواية المنقطعة كشاهد فيما نحن فيه من البحث بعد التأكد من ضعفها، فقد كسبنا ما هو أقوى منها، مما يصلح دليلاً لما نحن فيه، وهو حديث المسيب هذا، وحديث ابن عمر: فقد قال الحافظ في شرحه إياه: «والحكمة في ذلك أن لا يحصل بها افتتان لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها حتى ربما أفضى بهم الأمر إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضرر، كما نراه الآن مشاهداً فيما هو دونها، وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله: «كانت رحمة من الله»، أي كان خفاؤها عليهم بعد ذلك رحمة من الله تعالى».

قلت- يعنى الألباني -: ومن تلك الأشجار التي أشار إليها الحافظ شجرة كنت رأيته منذ أكثر من عشر سنين شرقى مقبرة شهداء أحد، خارج سورها، وعليها خرق كثيرة، ثم رأيته في موسم السنة الماضية (١٣٧١) قد استأصلت من أصلها. والحمد لله، وحمى المسلمين من شر غيرها من الشجر وغيره من الطواغيت التي تعبد من دون الله تعالى.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/٢٦٨/٦) وتقدم بنحوه عن أبي بصرة الغفاري.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة أيضاً (٢/٢٦٩/٢).

ويقويه ما أخرجه ابن أبي شيبة أيضاً وابن خزيمة في «حديث على بن حجر» وابن عساكر من طريقين عن سهيل بن أبي سهيل أنه رأى قبر النبي ﷺ، فالتزمه ومسح، قال: فحصبني حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب فقال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا بيّتي عيداً ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا على حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبغلي»^(١).

١٠- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا تجعلوا قبري عيداً وصلوا على، فإن صلاتكم تبغلي»^(٢). حيثما كنتم»^(٣).

١١- ورأى ابن عمر فسطاطاً^(٤) على قبر عبد الرحمن فقال: «انزعه يا غلام فإنما يظله عمله»^(٥).

١٢- عن أبي هريرة أنه أوصى أن لا يضربوا على قبره فسطاطاً^(٦).

١٣- وروى ابن أبي شيبة وابن عساكر مثله عن أبي سعيد الخدري^(٧).

١٤- عن محمد بن كعب قال: هذه الفساطيط التي على القبور محدثة^(٨).

١٥- عن سعيد بن المسيب أنه قال في مرضه الذي مات فيه: إذا ما مت، فلا تضربوا على قبري فسطاطاً^(٩).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١/٢٦٨/٢).

وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا.

(٢) قوله «تبغلي» هذا الحديث وغيره مما تقدم صريح في أنه عليه الصلاة والسلام لا يسمع صلاة المصلين عليه، فمن زعم أن النبي ﷺ يسمعه فقد كذب عليه، فكيف حال من يزعم أنه ﷺ يسمع غيرها؟!.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الفسطاط بيت من شعركما في «اللسان» وفي «الكواكب الدراري»: «وكره أحمد أن يضرب على القبر فسطاط».

(٥) علقه البخاري (٣/٢٦٤ - الفتح) وانظر كتابنا «بغية الفائق الجامع الأحكام الجنائز»..

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١/٢١٦/٣).

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/٢١٦/٣).

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/٢١٧/٣).

(٩) رواه ابن سعد (٥/١٤٢).

١٦ - عن سالم مولى عبد الله بن علي بن حسين قال: أوصى محمد بن علي أبو جعفر قال:

«لاترفعوا قبري على الأرض»^(١).

١٧ - عن عمرو بن شرحبيل قال: «لاترفعوا جدتي - يعنى القبر - فلانى رأيت المهاجرين يكرهون ذلك»^(٢).

واعلم أن هذه الآثار وإن اختلفت دلالاتها، فهي متفقة على النهى فى الجملة عن كل ما ينبىء عن تعظيم القبور تعظيماً يخشى منه الوقوع فى الفتنة والضلال، مثل بناء المساجد والقباب على القبور، وضرب الخيام عليها، ورفعها أكثر من الحد المشروع، والسفر والاختلاف إليها^(٣)، والتمسح بها، ومثل التبرك بآثار الأنبياء ونحو ذلك، فهذه الأمور كلها غير مشروعة عند السلف الذين سميناهم من الصحابة وغيرهم، وذلك يدل على أنهم كانوا جميعاً يرون بقاء علة النهى عن بناء المساجد على القبور وتعظيمها بما لم يشرع، ألا وهى خشية الضلال والافتتان بالموتى كما نص عليها الإمام الشافعى رحمه الله فيما سبق، بدليل استمرارهم على القول بالحكم المعلوم بهذه العلة، فإن بقاء أحدهما يستلزم بقاء الآخر، كما لا يخفى، وهذا بالنسبة لمن نص منهم على كراهة بناء المساجد على القبور ظاهر، أما الذين صرحوا بالنهى عن غير ذلك، مثل رفع القبر وضرب الخيمة عليه ونحوه مما أجمعنا الكلام عليه آنفاً، فهم يقولون ببقاء الحكم المذكور من باب أولى، وذلك لوجهين:

الأول: أن بناء المساجد على القبور أشد جرمًا من رفع القبور وضرب الخيام عليها، لما ورد من اللعن على البناء، دون الرفع والضرب المذكور.

الثانى: أن المفروض فى أولئك السلف الفهم والعلم، فإذا ثبت عن أحد منهم النهى عن شيء هو دون ما نهى عنه الشارع، ولم ينقل هذا النهى عن أحدهم، فنحن نقطع بأنه ينهى عنه أيضاً، حتى ولو فرض عدم بلوغ النهى إليه لأن نهيه عما هو دون هذا يستلزم النهى عنه من باب أولى، كما لا يخفى.

(١) رواه الدولابى (١/ ١٣٤ - ١٣٥) ورجاله ثقات غير سالم هذا، فهو مجهول كما قال الذهبى فى «الميزان» والحقى الشيعى فى «خلاصة الأقوال» (ص ١٠٨) - الألبانى.

(٢) رواه ابن سعد (٦/ ١٠٨) بسند صحيح - الألبانى.

(٣) الاختلاف إليها أى: إكثار التردد لزيارتها، وهذا مستفاد من قوله ﷺ «اللهم لا تجعل قبرى عيداً».

فثبت أن القول بانتفاء العلة المذكورة وما بنى عليه كله باطل، لمخالفته نهج السلف الصالح رضى الله عنهم، مع مصادمته للأحاديث الصحيحة. والله المستعان.

قوله: «ولولا ذلك أبرز قبره».

قال ابن حجر^(١): قوله فى رواية أخرى: «لأبرز قبره» أى: لكشف قبر النبىؐ - ولم يتخذ عليه الحائل والمراد الدفن خارج بيته، وهذا قالته عائشة قبل أن يوسع المسجد النبوى ولهذا لما وُسِّع المسجد جعلت حجرتها مثلثة الشكل محددة حتى لا يتأتى لأحد أن يصلى إلى جهة القبر مع استقبال القبلة. اهـ

وتقدم ذلك من كلام الألبانى وغيره نقلاً عن الذين تكلموا فى تاريخ المدينة من أهل العلم.

قال عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ^(٢): قوله «لولا ذلك».

أى ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبىؐ - مسجداً لأبرز قبره وجعل مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم فى البقيع.

قال ابن عثيمين^(٣): وهذا أحد الأسباب التى أوجبت أن لا يبرز مكان قبره - ومن أسباب ذلك إخباره - أنه ما قبض نبيٌ إلا دفن حيث قبض^(٤). ولا مانع أن يكون للحكم الواحد سببان فأكثر، كما أن السبب الواحد قد يترتب عليه حكمان أو أكثره كغروب الشمس يترتب عليه جواز إفطار الصائم، وصلاة المغرب.

قال الألبانى^(٥): «قال الكرمانى: مفاد الحديث منع اتخاذ القبر مسجداً، ومدلول الترجمة اتخاذ المسجد على القبر، ومفهومهما متغاير، ويجب بأنهما متلازمان، وإن تغاير المفهوم».

وهذا المعنى هو الذى أشارت إليه السيدة عائشة رضى الله عنها بقولها فى آخر الحديث الأول:

«فلولا ذاك أبرز قبره، غير أنه خُشى أن يتخذ مسجداً».

إذ المعنى فلولا ذاك اللعن الذى استحقه اليهود والنصارى بسبب اتخاذهم القبور

(٢) فتح المجيد ٢٩٥.

(١) الفتح مع البخارى ٢٣٨/١.

(٣) القول المفيد ٥١١/١.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٨/١)، وابن ماجه (١٦٢٨) عن ابن عباس به.

(٥) من تحذير الساجد بتصرف مع الحاشية.

مساجد المستلزم البناء عليها، لجعل قبره ﷺ فى أرض بارزة مكشوفة، ولكن الصحابة رضى الله عنهم لم يفعلوا ذلك خشية أن يبنى عليه مسجد من بعض من يأتى بعدهم فتشملهم اللعنة .

قال الألبانى: ويؤيد هذا ما روى ابن سعد^(١) بسند صحيح عن الحسن وهو (البصرى) قال: ائتمروا^(٢) أن يدفنوه ﷺ فى المسجد، فقالت عائشة: إن رسول الله ﷺ كان واضعاً رأسه فى حجرى إذ قال: قاتل الله أقواماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، واجتمع رأيهم أن يدفنوه حيث قبض فى بيت عائشة .

قلت - يعنى الألبانى -: فهذه الرواية - على إرسالها - تدل على أمرين اثنين: أحدهما: أن السيدة عائشة فهمت من الاتخاذ المذكور فى الحديث أنه يشمل المسجد الذى قد يدخل فيه القبر، فبالأحرى أن يشمل المسجد الذى بنى على القبر .
الثانى: أن الصحابة أقروها على هذا الفهم، ولذلك رجعوا إلى رأيها فدفتوه ﷺ فى بيتها اهـ .

قوله: «غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً» .

وفى لفظ البخارى «غير أنى أخشى أن يتخذ مسجداً» .

قال ابن حجر^(٣): قوله: «غير أنى أخشى» كذا هنا وفى رواية أبى عوانة عن هلال .. «غير أنه خشى أو خشى على الشك هو بفتح الحاء المعجمة أو ضمها، وفى رواية مسلم «غير أنه خشى» بالضم لاغير، فرواية الباب تقتضى أنها هى التى امتنعت من إبرازه وروايه الضم مبهمة يمكن أن تفسر بهذه والهاء ضمير الشأن وكأنها أرادت نفسها ومن وافقها على ذلك، وذلك يقتضى أنهم فعلوه بإجتهاد بخلاف رواية الفتح فإنها تقتضى أن النبى - ﷺ - هو الذى أمرهم بذلك . . . اهـ

وهذا مؤدى ما قاله صاحب «تيسير العزيز الحميد» «فتح المجيد» «والقول المفيد» وزاد الأخير فقال: والحقيقة أن الأمر كله حاصل: فالرسول - ﷺ - أخبر بأنه ما قبض نبى إلا دفن حيث قبض، ولعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد خوفاً من اتخاذ - قبره مسجداً ، والصحابة . رضى الله عنهم - اتفقوا على أن يدفن - ﷺ - فى بيته بعد تشاورهم لأنهم خشوا ذلك . اهـ .

(١) (٢/٢٤١) - الألبانى .

(٣) ٢٣٩/٣ .

(٢) أى تشاوروا .

وَلَمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا. أَلَا وَإِنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ» (١).

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُمْسِجْ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «خَشِيَ أَنْ يَتَّخِذَ مَسْجِدًا» فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيُنْشِئُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتْ الصَّلَاةُ فِيهِ، فَقَدْ اتَّخَذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ، يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ «جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا» (٢).

قوله: [عن جندب بن عبد الله]

قال ابن الأثير: هو جندب بن عبد الله بن سفيان اليحلي العلقي، له صحبة ليست بالقديمة، يكنى أبا عبد الله، سكن الكوفة، ثم انتقل إلى البصرة. وقال ابن منده وأبو نعيم: ويقال له: جندب الخير. والذي ذكره ابن الكلبي أن جندب الخير هو جندب بن عبد الله الأزدي. أهـ.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في «المساجد» مواضع الصلاة/ باب: فضل بناء المساجد والحث عليها (/ ١٦/٣ ح ٥٣٢).

من حديث جندب به.

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري في التيمم/ باب قوله ﷺ «جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا» (٤٣٨/٢٢٤/١).

ومسلم في «المساجد» في فاتحته (٣/٥ - النووي) وأحمد (٣/٤) والنسائي في «المجتبى» في «الطهارة»/ باب: التيمم بالصعيد (٢٠٩/١) والدارمي في / باب: الأرض كلها طهور ما خلا المقبرة والحمام (٣٣٢/١، ٣٣٣). وابن حبان في «صحيحه» (١٠٤/٨) ح ٦٣٦٤ الإحسان) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣٢٦/١ ح ١٠١٧) والبيهقي في «شرح السنة» في «الفضائل» (٣١٦/١٩٦/١٣) وابن أبي شبة في «المصنف» (٤١٠/٧) وانظر «عمدة الأحكام» (ح ٤٢) بتخريجنا وانظر «تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد» (ح ٣٠) بتخريجنا أيضاً.

وانظر «فتح المجيد» (٣٥٩). بتخريجنا.

وقال ابن حجر: وقال البغوي: يقال له: جندب الخير، وجندب الفاروق، وجندب بن أم جندب. اهـ.

وذكر المزي في ترجمته: عن جندب بن عبد الله كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حذاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيماناً. اهـ رواه ابن ماجه بسند صحيح قال أبو أحمد العسكري وخليفة في «الطبقات»: مات في فتنه ابن الزبير، بعد أربع وستين. اهـ^(١).

قوله: [سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول]

تقدم ذكر فائدة التنصيص على زمن سماعه - أي قبل أن يموت بخمس - عند قوله في الحديث السابق (لما نزل برسول الله ﷺ)، وفي أول حديث عائشة الذي في أول الباب.

قوله: [إني أبرأ إلى الله]

قال النووي^(٢): معنى (أبرأ) أي امتنع من هذا وأنكره. اهـ.

وبهذا القول قال شراح كتاب التوحيد، وقال ابن عثيمين^(٣): البراءة هي التخلي، أي أتخلي أن يكون لي منكم خليل. اهـ.

قوله: [أن يكون لي منكم خليل]

قال النووي^(٤): الخليل: هو المنقطع إليه، وقيل: المختص بشيء دون غيره. قيل: هو مشتق من (الخلة) بفتح الخاء، وهي الحاجة. وقيل: من (الخلة) بضم الخاء، وهي تخلل المودة في القلب. فنفي ﷺ أن تكون حاجته وانقطاعه إلى غير الله تعالى، وقيل: الخليل من لا يتسع القلب لغيره.

قال ابن حجر^(٥): واختلف في المودة والخلة والمحبة والصدقة، هل هي مترادفة أو مختلفة؟

قال أهل اللغة: الخلة أرفع رتبة، وهو الذي يشعر به حديث الباب.

وكذا قوله عليه السلام: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي» فإنه يشعر بأنه لم يكن له

(١) انظر ترجمة في «أسد الغابة» (١/ ٣٦٠) والإصابة (١/ ٢٥٠) وتهذيب الكمال بحاشية بشار (١٣٧/).

(٥).

(٢) (٤) شرح مسلم (١٧/٣).

(٣) القول المفيد (١/ ٥١٤).

(٥) فتح الباري (٢٧/٧، ٢٨).

خليل من بنى آدم وقد ثبتت محبته ﷺ لجماعة من أصحابه كأبي بكر وفاطمة وعائشة والحسين وغيرهم.

وقال سليمان آل الشيخ^(١): والخليل هو المحبوب غاية المحبة، مشتق من الخلطة بفح الخاء، وهى تخلل المودة فى القلب كما قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح منى وبذا سمي الخليل خليلاً

هذا هو الصحيح فى معناه كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وغيرهم.
قال القرطبي: وإنما كان فى ذلك لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله، وتعظيمه، ومعرفته، فلا يسهل لمخالطة غيره. اهـ.

جمع ابن حجر بين المحبة والخلطة للنبي ﷺ: قال: ولا يعكر على هذا اتصاف إبراهيم عليه السلام بالخلطة ومحمد ﷺ بالمحبة، فتكون المحبة أرفع رتبة من الخلطة، لأنه يجاب عن ذلك بأن محمداً ﷺ قد ثبت له الأمران معاً فيكون رجحانه من الجهتين، والله أعلم.

وقال: وقال الزمخشري: الخليل هو الذى يوافقك فى خلالك ويسايرك فى طريقك أو الذى يسد خللك، وتسد خلله، أو يداخلك خلال منزلك، انتهى.
وكانه جوز أن يكون اشتقاقه مما ذكر.

وقيل أصل الخلطة: انقطاع الخليل إلى خليله، وقيل: الخليل من يتخلله شرك وقيل: من لا يسهل قلبه غيرك، وقيل: أصله الخلطة: الاستصفاء، وقيل: المختص بالمودة، وقيل: اشتقاق الخليل من الخلطة بفتح الخاء وهى الحاجة، فعلى هذا فهو المحتاج إلى من يخاله، وهذا كله بالنسبة إلى الإنسان، وأما خلطة الله للعبد فبمعنى نصره له ومعاونته. اهـ.

[قلت]: وهذا الأخير واضح فساد تأويله لأمرين:-

(١) صرف قول النبي ﷺ عن ظاهره بدون ذكر قرينة شرعية لهذا التأويل.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ و﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

وأشبه هذه الآيات تعارض هذا التأويل معارضة صريحة وتبين خطأ هذا المذهب؛ لأنه على هذا التأويل يكون المؤمنون ممن اتخذهم الله أخصاء، وعند ذلك لا يكون ثمة تفضيل لإبراهيم عليه السلام فما قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. والحق أن نذكر صفة الخلطة كما هى دون تأويله ولا تعطيل كما هو مذهب أهل السنة فى

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٣٩).

الأسماء والصفات والله أعلم.

قال ابن عثيمين^(١): قوله (خليل) هو الذي يبلغ في الحب غايته، لأن حبه يكون قد تخلل الجسم كله.

قال الشاعر يخاطب محبوبته فذكر البيت السابق ثم قال:

والخلة أعظم أنواع المحبة وأعلاها، ولم يثبتها الله - عز وجل - فيما نعلم إلا لاثنتين من خلقه وهما إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ومحمد ﷺ: «إن الله اتخذ إبراهيم خليلًا» وبهذا تعرف الجهل العظيم الذي يقوله العامة: إن إبراهيم خليل الله ومحمداً حبيب الله، وهذا تنقص في حق الرسول ﷺ؛ لأنهم بهذه المقالة جعلوا مرتبة النبي ﷺ دون مرتبة إبراهيم، ولأنهم إذا جعلوه حبيب الله لم يفرقوا بينه وبين غيره من الناس فإن الله يحب المحسنين والصابرين وغيرهم ممن علق الله بفعلهم المحبة، فعلى رأيهم لافرق بين الرسول ﷺ وغيره، لكن الخلة ما ذكرها إلا لإبراهيم، والنبي ﷺ أخبر أن الله اتخذه خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا فالهم: أن العامة مشكل أمرهم دائماً يصفون الرسول ﷺ بأنه حبيب الله فنقول: أخطأتم وتنقصتم نبيكم، فالرسول ﷺ خليل الله، لأنكم إذا وصفتموه بالمحبة أنزلتموه عن بلوغ غايته. اهـ.

وسأني كلام ابن القيم بنحو هذا قريباً.

قوله: [فإن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا]

تقدم كلام ابن عثيمين، وكأنه تابع سليمان آل الشيخ وأيضاً:

عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): حيث قال فيه: بيان أن الخلة فوق المحبة.

قال ابن القيم: - رحمه الله - «وأما ما يظنه بعض المغالطين من أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله - فمن جهلهم، فإن المحبة عامة والخلة خاصة، وهى نهاية المحبة، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قد اتخذه خليلًا، ونفى أن يكون له خليلاً غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها، ولعمر بن الخطاب. (ومعاذ بن جبل) وغيرهم - رضى الله عنهم - وأيضاً فإن الله «يحب التوابين ويحب المتطهرين» و«يحب الصابرين» وخلته خاصة بالخليلين.

مسألة:

(١) القول المفيد (١/٥١٤، ٥١٥).

(٢) انظر تيسير العزيز الحميد (٢٣٩) وفتح المجيد ٢٩٧.

قال الرسول ﷺ «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل»^(١) هل معنى ذلك أننا لايجوز أيضاً أن يتخذ الأخ أخاً وخليلاً؟

الجواب: أن كون النبي ﷺ بدأ إلى الله من إن يكون له منهم خليلاً هذا من خصائصه ﷺ وليس الخلة ممنوعة بإطلاق والسبب هو أن قوله ﷺ: «إن الله اتخذه خليلاً كما اتخذه إبراهيم خليلاً». فلا يجوز عليه بعد أن اتخذه الله خليلاً أن يتخذ هو غير الله خليلاً. بل لا بد وأن تكون العلاقة أيضاً من جنس محبة الله له. فكما أن الله عزوجل اتخذه خليلاً فهو برأ إلى الله من أن يكون له منهم خليلاً لكن هو لم يمنع من الخلة بإطلاق ولو كانت الخلة ممنوعة ما قال في الحديث «ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً» فهو لو كانت ممنوعة ما جزله أن يقول هذه المقولة. لأنه لما قال «لو كنت متخذاً خليلاً» يفهم منه جواز الخلة ولكنه لم يتخذة خليلاً ولأن الله عزوجل أقر هذه الخلة فيما بين المؤمنين فقال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فأجاز أن يكون بين التقى والمتقى خلة وإن هذه الخلة لا يترتب عليها عداوة في الآخرة بخلاف خلة أصحاب الجحيم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ولأن النبي ﷺ ثبت عنه في سنن أبي داود وعند النسائي والترمذي أنه قال ﷺ «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»^(٢) إلا أنه لا ينبغي أن تكون الخلة مهما بلغت إلا أن تكون في الله «أن تحب المرء لاتبه إلا في الله» كما تقدم معنا مراراً في حديث «ثلاث منكم فيه وجد بهن حلاوة الإيمان.....» الحديث فإن كان هذه أساس الخلة والمحبة فيما بينك وبين أخيك فلا بأس من أن تخالل وتصادق والله أعلم.

قوله: [ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر]

[قلت]: كذا اقتصر مسلم على هذه اللفظة، وعند البخاري بزيادة، في مناقب الصحابة من حديث أبي سعيد قال: «ولكن أخوة الإسلام ومودوته» وعن ابن عباس «ولكن أخى وصاحبي» وعنه «ولكن أخوة الإسلام أفضل»، وعند أحمد من حديث ابن الزبير «لاتخذت أبا بكر، ولكنه أخى في الدين، وصاحبي في الغار» ووقع في رواية أحمد من طريق ابن جريج عن ابن أبي مليكة في طرق الحديث السابق «لو كنت متخذاً خليلاً سوى الله حتى ألقاه»^(٣).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠٣)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨) عن أبي

هريرة.

(٣) وانظر فتح الباري (٢٨/٧) بتصرف.

● إشكال بين هذه اللقطة وبين بعض الطرق السابق ذكرها بلفظ «ولكن أخوة الإسلام أفضل»

قال ابن حجر^(١): وأخرجه أبو يعلى بلفظ «ولكن خلة الإسلام أفضل» وفيه إشكال، فإن الخلة أفضل من أخوة الإسلام، لأنها تستلزم ذلك وزيادة. فقيل: المراد أن مودة الإسلام مع النبي ﷺ أفضل من مودته مع غيره. وقيل: أفضل بمعنى فاضل، ولا يعكر على ذلك اشتراك جميع الصحابة في هذه الفضيلة، لأن رجحان أبي بكر عرف من غير ذلك، وأخوة الإسلام ومودته متفاوتة بين المسلمين في نصر الدين وإعلاء كلمة الحق وتحصيل كثرة الثواب، ولأبي بكر من ذلك أعظمه وأكثره، والله أعلم.

قال ابن حجر^(٢): وفي قوله: [ولو كنت متخذاً خليلاً...] منقبة عظيمة لأبي بكر لم يشاركه فيها أحد ونقل ابن التين عن بعضهم أن معنى قوله: «ولو كنت متخذاً خليلاً» لو كنت أخص أحداً بشيء من أمر الدين لخصصت أبا بكر، قال: وفيه دلالة على كذب الشيعة في دعواهم أن النبي ﷺ كان خص علياً بأشياء من القرآن وأمرور الدين لم يخص بها غيره.

قلت - أي الحافظ^(٣) -: والاستدلال بذلك متوقف على صحة التأويل المذكور، وما أبعداها. اهـ.

● إشكال ثاني وجوابه:

قال ابن حجر^(٤): أما ما روى عن أبي بن كعب قال: «إن أحدث عهدى بنبيكم قبل موته بخمس، دخلت عليه وهو يقول: «إنه لم يكن نبى إلا وقد اتخذ من أمته خليلاً، وإن خليلي أوبكر، ألا وإن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً» أخرجه أبو الحسن الحرابي في «فوائده».

وهذا يعارضه ما في رواية جندب عند مسلم - أي حديث هذا الباب - وفيه «إني أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل».

فإن ثبت حديث أبي أمكن أن يجمع بينهما بأنه لما برىء من ذلك تواضعاً لربه وإعظماً له أذن الله تعالى فيه من ذلك اليوم لما رأى من تشوفه إليه وإكراماً لأبي بكر بذلك، فلا يتنافى الخبران، أشار إلى ذلك المحب الطبري، وقد روى من حديث أبي أمامة نحو حديث أبي بن كعب دون التقييد بالخمس، أخرجه الواحدى فى «تفسيره» والخبران واهيان والله أعلم.

(١) فتح البارى (١٧/٧). (٢) وانظر فتح البارى (٢٨/٧) بتصرف.

(٣) فتح البارى (١٧/٧). (٤) فتح البارى (١٧/٧).

● إشكال ثالث وجوابه:

قال ابن حجر^(١): قال الداودي: لا ينافي هذا - أى قوله «لو كنت متخذاً خليلاً» - قول أبى هريرة وأبى ذر وغيرهما «أخبرنى خليلى ﷺ»؛ لأن ذلك جائز لهم.

ولا يجوز للواحد منهم أن يقول أنا خليل النبى ﷺ، ولهذا يقال إبراهيم خليل الله ولا يقال: الله خليل إبراهيم. قلت: ولا يخفى ما فيه. اهـ.

وقال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله «ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتى لاتخذت أباً بكر خليلاً» فيه دليل على أن الصديق أفضل الصحابة، حيث صرح ﷺ أنه لو اتخذ خليلاً غير ربه، لاتخذ أباً بكر، ففيه رد على الرافضة وعلى الجهمية الذين هم شر أهل البدع، بل أخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد، قاتلهم الله. قاله المصنف اهـ. وسيأتى إن شاء الله.

و قال حامد بن محمد^(٣): «ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أباً بكر» لما رأيت منه من التصديق والنصح لله ولرسوله اهـ.

وقال عبد الله بن جابر الله^(٤): أى لو قدر أنى أحببت أحداً مع الله لكان أباً بكر صاحبه فى الغار. اهـ.

وقال ابن باز^(٥): فلم يتخذه خليلاً لئلا تراحم محبته محبة الله عزوجل اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٦): «لو» حرف امتناع لامتناع، فيمتنع الجواب لامتناع الشرط، وعلى هذا امتنع ﷺ من اتخاذ أبى بكر خليلاً، لأنه يمتنع أن يتخذ من أمته خليلاً. اهـ.

وقال القرعاوى^(٧): لو كان فى نيته أن يتخذ من الخلق خليلاً... اهـ.

قوله: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد».

قال ابن عثيمين: «قوله: «ألا».

للتنبية، وهذه الجملة من الحديث الأوّل لكنه ابتدأها بالتنبيه لأهمية المقام^(٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٣٩، ٢٤٠).

(٤) الجامع الفريد (٨٥).

(٦) القول المفيد (١/٥١٥، ٥١٦).

(٨) القول المفيد ١/٥١٦.

(١) فتح البارى (٢٧/٧).

(٣) فتح الله الحميد (٢٩٣).

(٥) التعليق المفيد (١٢١).

(٧) الجديد (١٨٩).

قال سليمان آل الشيخ وتبعه عبدالرحمن آل الشيخ^(١): قال الخلقالي: «إنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا مخرج على وجهين:

أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً.

قلت: والدليل أنه كان للتعظيم حديث معاذ.

الثاني: أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء. والأوّل: هو الشرك الجلى، والثاني: الخفى، فلذلك استحقوا اللعن.

قلت - أى سليمان - الحديث أعم من ذلك، فيشملة ويشمل بناء المساجد والقباب عليها. اهـ.

قال حامد بن محمد^(٢): «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد» فيقومون فى الشرك، والكفر؛ بالغلو فيهم. اهـ.

وقال عبدالله بن جابر^(٣): وهذا هو - الشاهد من الحديث. اهـ.

قال ابن باز^(٤): «كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد» وفى مسلم «أنبيائهم وصالحهم مساجد»، وسقطت لأنه نقلها من اقتضاء الصراط المستقيم وقد سقطت من هناك. ومنع من هذا بثلاثة طرق:

الأول: ذم ما فعلوه.

قلت: لقوله: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد».

الثاني: قوله «لاتتخذوا».

الثالث: قوله «فإنى أنهاكم عن ذلك».

وهذه مبالغة منه فى النهى عن ذلك لأنه وسيلة إلى الشرك كما حصل الآن. اهـ.

قوله: «ألا فلاتتخذوا القبور مساجد، فإنى أنهاكم عن ذلك».

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٤٠) وانظر فتح المجيد ٢٩٩.

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٣).

(٣) الجامع الفريد (٨٥).

(٤) التعليق المفيد ١٢١.

قال النووي^(١): قال العلماء: إنما نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجد خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، وربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية، ولما احتاجت الصحابة - رضوان الله عليهم جميعاً - والتابعون إلى الزيادة في مسجد رسول الله ﷺ حين كثر المسلمون وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة - رضى الله عنها - مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد، فيصلى إليه العوام ويؤدى إلى المحذور، ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحررفوهما حتى التقيا حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر، ولهذا قال في الحديث «لولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً. والله أعلم بالصواب. اهـ.

قال حامد بن محمد^(٢): «أفلا تتخذوا القبور مساجد» فتقعون فيما وقعوا فيه. «فإنى أنهاكم عن ذلك».

قال ابن عثيمين: قوله: «أفلا تتخذوا».

هذا تنبيه آخر للنهي عن اتخاذ القبور مساجد، وهذا عام يشمل قبره وقبر غيره.

قوله: «فإنى أنهاكم عن ذلك».

هذا نهى باللفظ دون الأداة تأكيداً لهذا النهى لأهمية المقام^(٣).

قوله: «فقد نهى عنه في آخر حياته».

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٤): أى: كما في حديث جندب وهذا من كلام شيخ الإسلام، وكذا من بعده.

وقال ابن عثيمين^(٥): الضمير يعود إلى النبي ﷺ والمنهى عنه هو اتخاذ القبور مساجد.

قوله: «ثم إنه لعن - وهو في السياق - من فعله».

(١) القول المفيد ٥١٦/١.

(٢) شرح مسلم (١٧/٣).

(٣) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٣٩).

(٤) فتح المجيد ٢٩٩.

(٥) القول المفيد ٥١٧/١.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): كما في حديث عائشة.

قلت - والكلام لازال له - فكيف يسوغ بعد هذا التغليب من سيد المرسلين أن تُعظَّم القبور ويُبنى عليها، ويصلى عندها وإليها؛ هذا أعظم مُشاقة ومحاداة لله تعالى ولرسوله ﷺ لو كانوا يعلمون.

قوله: «والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن المسجد».

قال سليمان آل الشيخ^(٢):

قوله: والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مسجداً، يعنى: أن الصلاة عند القبور وإليها من اتخاذها مساجد الملعون من فعله، وإن لم يبن مسجداً، فتحرم الصلاة في المقبرة وإلى القبور، بل لاتعقد أصلاً^(*) لما في هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها، من لعن من اتخذها مساجد.

وروى مسلم عن أبي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ وَلَا تَصَلُّوا إِلَيْهَا»^(٣).

وعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام»^(٤) رواه أحمد وأهل السنن، وصححه ابن حبان والحاكم من طرق على شرط الشيخين.

وفي «صحيح البخاري» أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أنس بن مالك يُصلى عند قَبْرٍ فَقَالَ: الْقَبْرُ الْقَبْرُ^(٥) وهذا يدل على أنه كان من المستقر عند الصحابة ما نهاهم عنه نبيهم ﷺ، من الصلاة عند القبور.

وفعل أنس لا يدل على اعتقاد جوازه، فإنه لعله لم يره، ولم يعلم أنه قبر أو ذهل عنه، فلما نبهه عمر تنبه.

(١) فتح المجيد ٢٩٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٤٠.

(*) وهذا قول من جملة الأقوال المتقدمة والتي ستأتى بتفصيل قريباً في حكم الصلاة على القبور أو إليها وانظر باقى الأقوال من كلام العلامة الألبانى التى ذكرناها من كتابه وكلام غيره من الفقهاء.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) [يحسن] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٨٣/٣)، وأبو داود (٤٩٢)، والترمذى (٣١٧)، وابن

ماجه (٧٤٥) عن أبى سعيد به.

وانظر «السلسلة» (٣٥١ - بتخریجنا).

(٥) تقدم.

وفى هذا كله إبطال قول من زعم أن النهى عن الصلاة فيها لأجل النجاسة، فهذا أبعد شيء عن مقاصد الرسول ﷺ، بل العلة فى ذلك الخوف على الأمة أن يقعوا فيما وقعت فيه اليهود والنصارى، وعباد اللات والعزى من الشرك.

ويدل على ذلك أن النبى ﷺ لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم قطعاً أن هذا ليس لأجل النجاسة، لأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع، فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم، فهم فى قبورهم طريون.

وقد لعن النبى ﷺ متخذى المساجد عليها وموقدى السرج عليها، ومعلوم أن إيقاد السرج عليها إنما هو لعن فاعله، لكونه وسيلة إلى تعظيمها وجعلها نصباً يوفض إليها المشركون كما هو الواقع، فهكذا اتخاذ المساجد عليها.

قال ابن القيم: وبالجمله فمن له معرفة بالشرك وأسبابه، وذرائعه، وفهم عن الرسول ﷺ مقاصده جزم جزم لا يحتمل النقيض، أن هذه المبالغة واللعن والنهى بصيغتيه، صيغة (لا تفعلوا) وصيغة (إنى أنهاكم) ليس لأجل النجاسة. بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه واتبع هواه ولم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه، أو عدم من تحقيق لا إله إلا الله، فإن هذا وأمثاله من النبى ﷺ صيانة لحمى التوحيد، أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكاباً لنهيه، وغرهم الشيطان بأن هذا التعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشد لها تعظيماً وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد. ولعمر الله من هذا الباب بعينه دخل على عباد يغوث ويعوق ونسر، ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة. فجمع المشركون بين الغلو فيهم والظعن فى طريقتهم، وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقهم وإنزالهم منازلهم التى أنزلهم الله إياها من العبودية، وسلب خصائص الإلهية.

قلت: - سليمان آل الشيخ -: ومن علل بخوف الفتنة والشرك الشافعى وأبو بكر الأثرم وأبو محمد المقدسى وشيخ الإسلام وغيرهم وهو الحق (*).

قال ابن عثيمين^(١): «عندها» أى: القبور.

(*) وهذا فيه رد على المسألة المقدمة، بأن العلة انتفت وانتشر الدين وظهر الإيمان، ولم يبق من آثار الشرك شيء، كما نقل - عن الغمارى وغيره ممن نهج هذا النهج - ذلك الشيخ الألبانى ورد عليهم، وهنا تأكيد لرده السابق.

(١) القول المفيد / ١

وقوله «من ذلك»؛ أى: من اتخاذها مساجد، وعلى هذا؛ فلا تجوز الصلاة عند القبور، ولهذا نهى النبي ﷺ كما فى «صحيح مسلم» من حديث أبى مرثد الغنوى - المتقدم - أن يُصلى إلى القبور؛ فقال: «لاتصلوا إلى القبور»^(١).

قال النووي: قوله ﷺ «لاتجلسوا على القبور ولا تصلوا عليها» فيه تصريح بالنهاى عن الصلاة إلى القبر. قال الشافعى رحمه الله وأكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعد من الناس.

حكم الصلاة فى هذه المساجد وعلاقته بالباب.

قال الألبانى: (٢) قصد الصلاة فى المساجد المبنية على القبور يبطل الصلاة.

إن للمصلى فى المساجد المذكورة حالتين:

الأولى: أن يقصد الصلاة فيها من أجل القبور والتبرك بها كما يفعله كثير من العامة، وغير قليل من الخاصة!

الثانية: أن يصلى فيها اتفاقاً لا قصداً للقبر.

ففى الحالة الأولى لاشك فى تحريم الصلاة فيها بل فى بطلانها، لأنه إذا نهى ﷺ عن بناء المساجد على القبور، ولعن من فعل ذلك، فالنهاى عن قصد الصلاة فيها أولى، والنهاى هنا يقتضى البطلان كما سبق قريباً.

قال الفقير: هذا الكلام فيه فوائد:-

الأولى: أن الألبانى وهو من أئمة السلفية لنا أجاز تقسيم الناس لعوام وخواص. لأننا نسمع من بعض المشايخ وطلبة العلم أنهم لا يرون تقسيم الناس إلى أخوة ملتزمين وغير أخوة. ويرون أن هذا أشبه بفعل المبتدعة والشيعية والخوارج وغيرهم. فها هو أحد أئمة السلفية يُجَوِّزُ بل ينص على تقسيم الناس إلى عوام وإلى خواص.

الثانية: أنه يلوح وينوه ببعض من نعدهم من الخواص، أو يعدهم كذلك العوام أنهم من خواص الناس أى من الأئمة والدعاة والمشايع يصلون فى هذه المساجد ويعقدون فيها دروساً وخطباً كما نوهت ببعضهم بعد وفاته بفترة قليلة وبينت أنه أيضاً برغم أن له محاسن إلا أن له مساوئ من أعظمها خطراً أنه يعقد هذه الدروس فى هذه المساجد وإنما يسوغ بذلك للعوام الصلاة فيها، وكذلك يكون حجة أو شبهة للعامى إذا ما عرضت

(١) تقدم.

(٢) من تحذير الساجد بحاشيته بتصرف.

عليه أن النبي ﷺ منع من ذلك وقال «لعنة الله على اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم
وصالحهم مساجد».

كره الصلاة في المساجد المذكورة ولو لم تقصد من أجل القبر.

قال الألباني: وأما في الحالة الثانية، فلا يتبين لى الحكم ببطلان الصلاة فيها، وإنما
الكرهه فقط، لأن القول بالبطلان في هذه الحالة لا بد له من دليل خاص، والدليل الذى
أثبتناه بالبطلان في الحالة الأولى لا يمكن سحبه على هذه الحالة، ذلك لأن البطلان في
الحالة السابقة إنما صح بناء على النهى عن بناء المسجد على القبر، وهذا النهى لا يتصور
إلا مع تحقق قصد البناء فيصح القول بأن قصد الصلاة فى هذا المسجد يطلها، وأما القول
ببطلان الصلاة فيه دون قصد، فليس عليه نهى خاص يمكن الاعتماد عليه فيه ولا يمكن
أن يقاس قياساً صحيحاً به أولوياً.

ولعل هذا هو السبب فى ذهاب الجمهور إلى الكراهة دون البطلان، أقول هذا معترفاً
بأن الموضوع يحتاج إلى مزيد من التحقيق، وأن القول بالبطلان محتمل، فمن كان عنده
علم فى شىء من ذلك، فليفضل ببيانه مع الدليل مشكوراً مأجوراً.
وأما القول بكره الصلاة فى المساجد المبنية على القبور، فهذا أقل ما يمكن أن يقوله
الباحث، وذلك لأمرين:

الأول: أن فى الصلاة فيها تشبهاً باليهود والنصارى الذين كانوا ولا يزالون يقصدون
التعبد فى تلك المساجد المبنية على القبور! (١).

الثانى: أن الصلاة فيها ذريعة لتعظيم المقبور فيها تعظيماً خارجاً عن حد الشرع،
فينهى عنها احتياطاً وسداً للذريعة، لا سيما ومقاصد المساجد المبنية على القبور ماثلة
للعيان كما سبق مراراً، وقد نص العلماء على كل من العلتين، فقال العلامة ابن الملك
من علماء الحنفية:

«إنما حرم اتخاذ المساجد عليها، لأن فى الصلاة فيها استئناً بسنة اليهود».

(١) قرأت مقالاً فى مجلة «المختار» عدد مايو ١٩٨٥ تحت عنوان «الفاتيكان المدينة القديمة المقدسة»
يصف فيه كاتبه «رونالد كارلوس بيتن كنيسة بطرس فى هذه المدينة فيقول (ص ٤٠):
«إن كنيسة القديس بطرس وهى أكبر كنيسة من نوعها فى العالم المسيحى، تقوم على ساحة مكرسة
للعباداة المسيحية منذ أكثر من سبعة عشر قرناً، إنها قائمة على قبر القديس نفسه: صياد السمك، حوارى
المسيح، وتحت أرضيتها يقع تيه من المقابر الأثرية، والخرائب الرومانية القديمة».
ثم ذكر أنه يقصدها نحو مائة ألف شخص فى أيام الأعياد الكبيرة للعبادة!.

نقله الشيخ القارى فى «المراقبة»^(١) وأقره، وكذلك قال بعض العلماء المتأخرين من الحنفية وغيرهم كما سيأتى.

قلت: ولأن النبى ﷺ قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» فهذه هى العمومات التى استدلت بها الخاتبة وغيرهم على بطلان هذه الأمور. والذى يصلى فى مساجد فيها قبور فهو عمل عملاً ليس عليه أمر النبى ولا الصحابة «فعمله مردود باطل». فقول الألبانى أن القول بالبطلان محتمل فهذا الاحتمال قد يترجح أيضاً ويقوى بهذه العمومات. والله أعلم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى «القاعدة الجلية»: واتخاذ المكان مسجداً هو أن يتخذ للصلوات الخمس وغيرها، كما تبنى المساجد لذلك، والمكان المتخذ مسجداً إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين، فحرم ﷺ أن تتخذ قبورهم مساجد تقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد، وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده، لأن ذلك ذريعة إلى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده، فهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة إلى الشرك بالله. والفعل إذا كان يفضى إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة، ينهى عنه كما نهى عن الصلاة فى الأوقات الثلاثة، لما فى ذلك من المفسدة الراجحة، وهو التشبه بالمشركين الذى يفضى إلى الشرك، وليس فى قصد الصلاة فى تلك الأوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع فى غير ذلك من الأوقات، ولهذا تنازع العلماء فى ذوات الأسباب^(٢) فسوغها كثير منهم فى هذه الأوقات، وهو أظهر قولى العلماء، لأن النهى إذا كان لسد الذريعة أبيع للمصلحة الراجحة، وفعل ذوات الأسباب يحتاج إليه فى هذه الأوقات.

وفوت إذا لم يفعل فيها فتفوت مصلحتها، فأبيحت لما فيها من المصلحة، بخلاف ما لاسبب له، فإنه يمكن فعله فى غير هذا الوقت، فلا تفوت بالنهى عنه مصلحة راجحة، وفيه مفسدة توجب النهى عنه. فإذا كان نهيه عن الصلاة فى هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك، لئلا يفضى ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها، كان معلوماً أن دعوة الشمس

(١) (١/٤٧٠).

(٢) قلت - يعنى الألبانى -: يعنى الصلوات ذوات الأسباب كركعتى تحية المسجد وسنة الوضوء

ونحوها.

والسجود لها هو محرم لنفسه، وأعظم تحريماً من الصلاة التي نهى عنها لثلا يفضى إلى دعاء الكواكب، كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، فنهى عن قصدتها للصلاة عندها، لثلا يفضى ذلك إلى دعائهم - كان دعاؤهم والسجود لهم أعظم تحريماً من اتخاذ قبورهم مساجد».

واعلم أن كراهية الصلاة فى هذه المساجد هو أمر متفق عليه بين العلماء، كما سبق بيانه ويأتى، وإنما اختلفوا فى بطلانها، وظاهر مذهب الحنابلة أنها لاتصح، وبه جزم المحقق ابن القيم كما تقدم، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»^(١).

«فهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين والملوك وغيرهم يتعين إزالتها بهدم أو بغيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين، وتكره الصلاة فيها من غير خلاف أعلمه، ولا تصح عندنا فى ظاهر المذهب لأجل النهى واللعن الوارد فى ذلك، ولأجل أحاديث آخر، وليس فى هذه المسألة خلاف لكون المدفون فيها واحداً، وإنما اختلف أصحابنا فى المقبرة المجردة عن مسجد، هل حدها ثلاثة أقبور أو ينهى عن الصلاة عند القبر الفذ، وإن لم يكن عنده قبر آخر؟

الجواب: على وجهين:-

قلت: والوجه الثانى هو الذى رجحه فى «الإختيارات العلمية» فقال^(٢): «وليس فى كلام أحمد وعامة أصحاب هذا الفرق، بل عموم كلامهم وتعليلهم واستدلالهم يوجب منع الصلاة عند قبر واحد من القبور، وهو الصواب، والمقبرة كل ما قبر فيه، لا أنه جمع قبر.

وقال أصحابنا: وكل ما دخل فى اسم المقبرة مما حول القبور لا يصلى فيه، فهذا يعين أن المنع يكون متناولاً لحرمة القبر المنفرد وفنائه المضاف إليه.

وذكر الآمدى وغيره، أنه لاتجوز الصلاة فيه (أى المسجد الذى قبلته إلى القبر) حتى يكون بين الحائط وبين المقبرة حائل آخر، وذكر بعضهم أنه منصوص أحمد.

قال أبو بكر الأثرم: سمعت أبا عبد الله يعنى أحمد يسأل عن الصلاة فى المقبرة؟ فكره الصلاة فى المقبرة.

قليل له: المسجد يكون بين القبور أيصلى فيه؟ فكره ذلك.

(١) (ص: ١٥٩).

(٢) (ص: ٢٥).

قيل له: إنه مسجد وبينه وبين القبور حاجز؟ فكره أن يصلى فيه الفرض، ورخص أن يصلى فيه على الجنائز.

قلت: وحتى لا يقول قائل أنه كره أن يصلى فيه الفرض فيصلى فيه النقل فنقول وصلاة النقل أيضاً لا تجوز وإنما تجوز الجنائز، لأنها تجوز أن تُصلى بين القبور بل غالب فعل النبی ﷺ أنه كان يصلى على الجنازة عند القبور، وصلاة الجنازة هذه صلاة غير سائر الصلوات فى حكمها وكيفتها فإنها إن جازت عند القبور؛ فلا تجوز صلاة الفريضة عند القبور؛ لأن هذه الصلاة تعرف عن سائر الصلوات قليس فيها ركوع ولا سجود وإنما هى قيام فقط فإن جازت عند القبور فلا يجوز قياس الفرائض والنوافل عليها. والله أعلم.

وقال الإمام أحمد أيضاً: «لا يصلى فى مسجد بين المقابر إلا الجنائز، لأن الجنائز هذه سبتها».

قال الحافظ ابن رجب فى «الفتح»: «يشير إلى فعل الصحابة، قال ابن المنذر: قال نافع مولى ابن عمر: صلينا على عائشة وأم سلمة وسط البقيع، والإمام يومئذ أبو هريرة وحضر ذلك ابن عمر»^(١). انظر «الكواكب الدراري»^(٢).

ولعل اقتصار الإمام أحمد فى الرواية الأولى على ذكر الفرض فقط لا يدل على أن غيره من السنن جائز، فإن من المعلوم أن النوافل صلاتها فى البيوت هو الأفضل ولذلك لم يذكرها مع الفرض، ويؤيده عموم قوله فى الرواية الثانية «لا يصلى فى مسجد بين المقابر إلا الجنائز». فهذا نص فيما قلناه.

ويؤيد المنصوص عن أحمد ما تقدم عن أنس:

«كان يكره أن يبنى مسجد بين القبور».

فإنه صريح على أن جدار المسجد لا يكفى حائلاً بينه وبين القبر، بل لعل هذا القول ينفى جواز بناء المسجد بين القبور مطلقاً، وهذا هو الأقرب لأنه أحسم لمادة الشرك.

قلت: وقوله «يكره» فى لسان الشرع أى يحرم لأن الله قال فى سورة الإسراء ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ يعنى محرم وفى الحديث. «إن الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال.....» يعنى أنه محرم.

(١) قلت - يعنى الألبانى -: هذا الأثر أخرجه عبدالرزاق فى «المصنف» (١٥٩٤/٤٠٧/١) بسند

صحيح عن نافع به.

(٢) (٦٥/٨١/١، ٢).

ثم قال ابن تيمية في «الاعتضاء»: «وقد كانت البُنية التي على قبر إبراهيم عليه السلام مسدودة لا يُدخل إليها إلى حدود المائة الرابعة، فقليل إن بعض النسوة المتصلات بالخلفاء رأَت في ذلك مناماً فَنُقِبَت لذلك! وقيل: إن النصارى لما استولوا على هذه النواحي نقبوا ذلك، ثم تُرِكَ ذلك مسجداً بعد الفتوح المتأخرة، وكان أهل الفضل من شيوخننا لا يصلون في مجموع تلك البنية، وينهون أصحابهم عن الصلاة فيها اتباعاً لأمر رسول الله ﷺ، واتقاء لمعصيته كما تقدم».

هكذا كان شيوخنهم فيما مضى، وأما شيوخننا اليوم فهم في غفلة من هذا الحكم الشرعى، فكثير منهم يقصدون الصلاة في مثل هذه المساجد، ولقد كنت اذهب مع بعضهم، - وأنا صغير لم اتفق به بالسنة بعد - إلى قبر الشيخ ابن عربى لأصلى معه عنده! فلما أن علمت حرمة ذلك باحث الشيخ المشار إليه كثيراً في ذلك حتى هداه الله تعالى، وامتنع من الصلاة هناك، وكان يعترف بذلك لى، ويشكرنى على أن كنت سبباً لهدايته، رحمه الله تعالى وغفر له. والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

كراهة الصلاة في المسجد المبنى على القبر ولو دون استقباله

قال الألبانى: واعلم أن كراهة الصلاة في المساجد المبنية على القبور مضطردة في كل حال، سواء كان القبر أمامه أو خلفه، يمينه أو يساره، فالصلاة فيها مكروهة على كل حال، ولكن الكراهة تشتد إذا كانت الصلاة إلى القبر، لأنه في هذه الحالة ارتكب المصلى مخالفتين، الأولى في الصلاة في هذه المساجد، والأخرى الصلاة إلى القبر، وهى منهى عنها مطلقاً سواء كان في المسجد أو غير المسجد بالنص الصحيح عن رسول الله ﷺ.

أقوال العلماء في ذلك

وقد أشار إلى هذا المعنى البخارى بقوله في «الصحيح»: «باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، ولما مات الحسن بن الحسين بن على رضى الله عنه ضربت امرأته القبة على قبره سنة ثم رفعت، فسمعوا صائحاً يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل يشوا فانقلبوا»^(١) ثم ساق بعض الأحاديث المتقدمة، فقال الحافظ ابن حجر الشافعى في شرحه:

(١) علقه البخارى (٣/ ٢٣٨ - الفتح).

«ومناسبة هذا الأثر للباب أن المقيم فى الفسطاط لا يخلو من الصلاة هناك، فيلزم اتخاذ المسجد عند القبر، وقد يكون القبر فى جهة القبلة فتزداد الكراهة»^(١).
وذكر نحوه العيني الحنفى فى «عمدة القارىء»^(٢).

وفى «الكوكب الدرى على جامع الترمذى» للشيخ المحقق محمد يحيى الكاندهلوى الحنفى ما نصه^(٣):

«وأما اتخاذ المساجد عليها، فلما فيه من التشبه باليهود واتخاذهم مساجد على قبور أنبيائهم وكبرائهم، ولما فيه من تعظيم الميت وشبه بعسدة الأصنام؛ لو كان القبر فى جانب القبلة، وكراهة كونه فى جانب القبلة أكثر من كراهة كونه يميناً أو يساراً وإن كان خلف المصلى فهو أخف من كل ذلك، لكن لا يخلو عن كراهة».

وفى «شرعة الإسلام» من كتب الحنفية ما نصه^(٤):

«ويكره أن يبنى على القبر مسجد يصلى فيه».

فهذا باطلاقة يؤيد ما ذكرنا من أقوال العلماء، وتقدم نحوه عن الإمام محمد رحمة الله تعالى^(٥).

ففى هذه النقول ما يؤيد ما ذهبنا إليه فى كراهة الصلاة فى المساجد المبنية على القبور مطلقاً، سواء صلى إليها أو لا، فيجب التفريق بين هذه المسألة وبين الصلاة إلى القبر الذى ليس عليه مسجد، ففى هذه الصورة إنما تحقق الكراهة عند استقبال القبر، على أن بعض العلماء لم يشترطوا أيضاً الاستقبال فى هذه الصورة فقال بالمنع من الصلاة حول القبر مطلقاً، كما تقدم قريباً عن الحنابلة، ونحوه فى «حاشية الطحاوى» على «مراقى الفلاح» من كتب الحنفية^(٦)، وهذا هو اللائق بباب سد الذرائع لقوله ﷺ: «... فمن

(١) ونقل الشيخ محمد بن مخيمر من علماء الأزهر فى «القول المبين» (ص ٨١) عن الحافظ ابن حجر أنه قال فى «شرح الفتح» لحديث ذى الخلصة من «صحيح البخارى» فى الكلام على الغزوات ما نصه:

«وفى الحديث النهى عن الصلاة فى المساجد التى فيها قبور يفتن الناس بها، وأنه يجب إزالتها».

قلت: ولم أره فى المكان المذكور من «الفتح» فيحتمل أن يكون فى موضع آخر منه، والله أعلم.

(٢) (١٤٩/٤).

(٣) (ص: ١٥٣).

(٤) (ص: ٥٦٩).

(٥) (ص: ٥٨).

(٦) (ص: ٢٠٨).

اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع ...» الحديث^(١).

قوله: «بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): أى: فمن الأرض مسجداً، وليست مسجداً مبنياً، لكن لما كان يسجد فيها سميت مسجداً، فدلّ هذا الحديث على أن من صلى عند القبور أو إليها فقد اتخذها مساجد. وهذا الحديث طرف من حديث صحيح متفق عليه عن جابر.

قال البغوى فى «شرح السنة» أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا فى بيعهم وكنائسهم، وأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا، تخفيفاً عليهم، وتيسيراً، ثم خصّ من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): فقوله «مسجداً» أى: مكاناً للسجود. اهـ.

وهذا معنى ثالث زائد على المعنيين الأولين، وهو أن يقال: كل شىء تصلى فيه؛ فإنه مسجد ما دمت تصل فيه، كما يقال للسجادة التى تُصلى عليها مسجد أو مُصَلًّى وإن كان الغالب عليها اسم مُصَلًّى.

قلت: وكل مكان أو موضع يصلى فيه يسمى مسجداً كما قال ﷺ «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً».

قال سليمان آل الشيخ^(٤):

قوله: (طهوراً): أراد به التيمم.

وفى حديث جندب من الفوائد أيضاً:

العبرة فى مبالغته ﷺ فى النهى عن بناء المساجد على القبور، كيف بين لهم ذلك أولاً، ثم قيل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان فى التزع لم يكتف بما تقدّم، بل لعن من فعل ذلك فدلّت هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة على تحريم البناء على القبور مطلقاً، فلذلك اكتفى المصنف بإيرادها عن غيرها كحديث جابر.

مسألة:

قال الفقير: لو أن رجلاً بنى بناءً على قبر (مسجد) ومنع الناس أن يصلوا فيه، فهل

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٤٢.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٢٤٢.

(١) تقدم تخريجه.

(٣) القول المفيد ١/ ٥١٩.

هذا محرّم أم لا؟ وما الدليل؟ وهل ينهى عن فعله هذا أم لا؟ وهل هو بفعله هذا يدخل في زمرة الذين اتخذوا القبور مساجد؟.

الجواب: هذه الفعلة منهي عنها لوجوه:

الأول: أن هذا نص من نصوص الحديث «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ومن صور الاتخاذ البناء عليها، وهو قد بنى عليها وإن لم يصل فيها.

الثاني: أنه وإن منع الصلاة فيها فإنه لم يمنع البناء عليها وإن كان بغير قصد الصلاة فيه، لأن ذلك ذريعة للصلاة فيه فيما بعد.

الثالث: أن هذا من باب إضاعة المال.

الرابع: أنه مسجد وإن لم يصل فيه لأن الأرض كلها مسجد وإن لم يصل فيها، كذلك صورة هذا المسجد يطلق عليها كما تطلق على الأرض كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ فسمّاها مسجد برغم خرابها ومنه ذكر اسم الله عليها. والله أعلم.

قوله: «وهي معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجداً».

الضمير في «قولها» يرجع إلى عائشة^(١).

قوله: «فإن الصحابة لم يكونوا لينتوا حول قبره مسجداً».

هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية^(٢).

قال سليمان آل الشيخ^(٣): أى: لما علموا من تشديده في ذلك وتغليظه، ولعن من فعله، فكيف يتخذون على قبره مسجداً؟ وإنما خشوا أن يعتاده بعض الجهال للصلاة عنده، من غير شعور من الصحابة بذلك، فلذلك دفنوه في بيته.

قال ابن عثيمين^(٤): قد يُقال: «خشي أن يتخذ مسجداً» معناه: خشي أن يبنى عليه مسجد، لكن يعبده أن الصحابة لا يمكن أن يبنوا حول قبره مسجداً؛ لأن مسجداه مجاور لبيته؛ فكيف يبنون مسجداً آخر؟! هذا شيء مستحيل بحسب العادة؛ فيكون معنى قولها: «خشي أن يتخذ مسجداً»؛ أى: مكاناً يصلّى فيه، وإن لم يُبنِ المسجد.

ولأريب أن أصل تحريم بناء المساجد على القبور أن المساجد مكان الصلاة، والناس يأتون إليها للصلاة فيها، فإذا صلى الناس في مسجد بنى على قبر؛ فكأنهم صلّوا عند

(١) القول المفيد ٥١٨/١.

(٢) القول المفيد ٥١٨/١.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٤٢).

(٤) القول المفيد ٥١٨/١ و٥١٩.

القبر، والمحذور الذى يوجد فى بناء المساجد على القبور يوجد فيما إذا اتخذ هذا المكان للصلاة؛ وإن لم يبن مسجد.

فتبين بهذا أن اتخاذ القبور مساجد له معينان:

الأول: أن تبنى عليها مساجد.

الثانى: أن تتخذ مكاناً للصلاة عندها وإن لم يبن المسجد، فإذا كان هؤلاء القوم مثلاً يذهبون إلى هذا القبر ويصلون عنده ويتخذونه مصلى؛ فإن هذا بمعنى بناء المساجد عليها، وهو أيضاً من اتخاذها مساجد.

قلت: وتقدم معنى ثالث للإتخاذ وهو الصلاة إليها.

قوله: «وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد أخذ مسجداً» إلى آخره.

قال سليمان آل الشيخ: أى وإن لم يبن مسجداً.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): أى وإن لم يبن مسجد بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً، يعنى وإن لم يقصد بذلك، كما إذا عُرِضَ لمن أراد أن يصلى فأوقع الصلاة فى ذلك الموضع الذى حانت الصلاة عنده من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه، فصار بفعل الصلاة فيه مسجداً.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: بل كل موضع يصلى فيه فقد اتخذ مسجداً، الظاهر أن الأول فى الأمكنة المعدة للصلاة، وإن لم يبن فيها مسجداً وهذا فى أى موضع صلى فيه، وإن يعد لذلك كالمواضع التى يصلى فيها المسافر ونحو ذلك، فعلى هذا إذا صلى عند القبور ولو مرة واحدة وإن لم يكن هناك مسجد فقد اتخذها مساجد.

قال ابن عثيمين^(٣): وهذا يشهد له العرف؛ فإن الناس الذين لهم مساجد فى مكان أعمالهم، كالوزارات والإدارات لو سألت واحداً منهم أين المسجد؟ لأشار إلى المكان الذى اتخذوه مصلى يصلون فيه، مع أنه لم يبن، لكن لما كانت الصلاة تقصد فيه، صار يُسمى مسجداً.

ما علاقة أول الحديث بآخره؟

قال الفقير: أن من أمارات شر هؤلاء أنهم اتخذوا القبور مساجد، وزن ذلك سيكثر قبل قيام الساعة وأن اتخاذ القبور مساجد من علامات الساعة أيضاً. يدل على ذلك ما ثبت فى الصحيح فى باب «لاتقوم الساعة حتى يغط أهل القبور» عن أبى هريرة رضى

(١) فتح المجيد ٣٠١.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٤٢).

(٣) القول المفيد ٥١٩/١.

الله عنه قال: «لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه»^(١) والذي بعده فى باب «تغير الزمان حتى تعبد الأوثان» وفيه أيضا عن أبى هريرة قال رضي الله عنه: «لاتقوم الساعة حتى تضطرب إلياتُ نساء دوس بذى الخلصة»^(٢) صنم لدوس. أى ستعبد الأوثان مرة ثانية. والقبور من الأوثان لأن الوثن هذا أعم من الصنم. لأن الوثن يشمل كل ما عبد على شكل صورة أو على غير شكل صورة. أم الصنم فيختص بمن له صورة من إنسان أو حيوان والوثن أعم فيشمل ماله صورة أو ماله له صورة فيدخل فيه القبر. لاسيما وأن الباب القادم يسمى «باب ما جاء في أن عبادة الله عند قبر الصالحين يصيرها أوثانا». فعبادة الأوثان ستكثر قبل قيام الساعة بل الناس سترتد ثانية إلى الوثنية،.

وذكر ابن حجر فى هذا الحديث ما أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمر قال: «لاتقوم الساعة حتى تتدافع مناكب نساء بنى عامر على ذى الخلصة» وأخرج بن عدى من رواية أبى معشر عن سعيد عن أبى هريرة رفعه: «لاتقوم الساعة حتى تعبد اللات والعزى»^(٣) فإذا كانت اللات والعزى ستعبد فمن باب أولى القبور ستعبد أيضاً.

إذن يوجد علاقة بين قرب الساعة ووجود شرار الخلق ووجود الأوثان.

وفى رواية عند مسلم «لايذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» وفيه «فيعث الله ريحاً طيبة فتوفى كل من فى قلبه مثقال حبه من خردل. من إيمان فيبقى من لا خير فيهم فيرجعون إلى دين أبائهم»^(٤) وأيضاً فى رواية عند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً «يخرج الدجال فى أمتى» وفيه «فيعث الله عيسى بن مريم فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين فى زمن عيسى عليه السلام بعد موت الدجال فيرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من حبه من خير أو إيمان إلا قبضتها فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع» «لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الأوثان ثم ينفخ فى الصور».



(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفتن (٩/ ٢٦١/ ٥٣) عن أبى هريرة به.

(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) أخرجه ابن عدى فى «الكامل» (٧/ ٥٣).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى «الفتن» (١/ ٢٦٠/ ٥٢) عن عائشة به.

وَلَا حَمْدَ بَسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ شَرَّارِ النَّاسِ مَنْ تَذَرُكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ» رَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي «صَحِيحِهِ»^(١).

قوله: [ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضى الله عنه..... الحديث].

قلت: الحديث كما بينا فى الحاشية أخرجه أحمد وابن خزيمة وابن حبان والطبرانى فى «الكبير» والبخارى، وحسنه الهيثمى، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. وعزوه لأبى حاتم فى «صحيحه». أى ابن حبان فى صحيحه. قوله: [مرفوعاً].

قال ابن عثيمين: المرفوع ما أسند إلى النبي ﷺ.

قوله: «إن من شرار الخلق».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): «شرار» هو بكسر الشين، جمع شر. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): من للتبعض، وشرار: جمع شر، مثل أصحاب جمع صحب، والمعنى: أصحاب الشر، وفى هذا دليل على أن الناس يتفاوتون فى الشر، وأن بعضهم أشد من بعض.

كما أنهم يتفاوتون فى الخير أيضاً لقوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. وذلك من حيث الكمية، فمن صلى ركعتين، فليس كمن صلى أربعاً. ومن حيث الكيفية فمن صلى وهو قانت خاشع حاضر القلب، ليس كمن صلى وهو غافل.

(١) [صحيح] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٠٥/١، ٤٣٥)، (٤١٤/٣)، وابن خزيمة فى «صحيحه» (٧٨٩)، وابن حبان فى «صحيحه» (٢٩٩/٨).

من طريق زائدة، عن عاصم بن أبى النجود، عن شقيق، عن عبد الله بن مسعود به. وذكره الهيثمى فى «المجمع»: (٢٧/٢) وقال: رواه الطبرانى فى «الكبير» وإسناده حسن وفى (١٣/٨) قال: رواه البخارى بإسنادين فى أحدهما عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح. قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وانظر «فتح المجيد» ٣٦٦ - بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٤٣).

(٣) القول المفيد ١/٥٢٢.

ومن حيث النوعية، فالفرض أفضل من النفل، وجنس الصلاة أفضل من جنس الصدقة، لأن الصلاة أفضل الأعمال البدنية، وهذا الذى تدل عليه الأدلة هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو التفاضل فى الأعمال، حتى فى الإيمان الذى هو فى القلب يتفاضل الناس فيه، بل إن الإنسان يحس فى نفسه أنه فى بعض الأحيان يجد فى قلبه من الإيمان ما لا يجده فى بعض الأحيان فكيف بين شخص وشخص؟ فهو يتفاضل أكثر اهـ.

قوله: «من تدركهم الساعة وهم أحياء».

قال سليمان آل الشيخ^(١): أى من تقوم عليهم الساعة بحيث ينفخ فى الصور وهم أحياء، وهذا كالحديث الآخر الذى فى مسلم: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس».

قال عبد الله بن جابر الله^(٢): معنى تدركهم الساعة: علاماتها ومقدماتها كخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): من اسم موصول اسم إن، والساعة، أى: يوم القيامة، وسميت بذلك لأنها داهية وكل شئ داهية عظيمة يسمى ساعة، كما يقال: هذه ساعتك فى الأمور الداهية التى تصيب الإنسان اهـ.

قال القرعاوى^(٤): «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة» أى أن الساعة لا تقوم إلى على شرار الناس. اهـ.

إشكال وجوابه

فإن قلت: ما الجمع بين هذا وبين حديث ثوبان:

«لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق»^(٥) وما فى معناه.

قال سليمان آل الشيخ^(٦): قيل: حديث ثوبان مستغرق للأزمة، عام فيها، وهذا مخصص.

قلت: وهو مؤدى قول ابن بطال كما نقله الحافظ فى «الفتح».

قال ابن عثيمين^(٧): والجمع بينهما أن يُقال:

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٤٣).

(٢) الجامع الفريد (٨٥).

(٣) القول المفيد ١/ ٥٢٢.

(٤) الجديد (١٩١).

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمامة (٧/ ٧٤ / ١٧٠) عن ثوبان.

(٦) تيسير العزيز الحميد ٢٤٣. (٧) القول المفيد ١/ ٥٢٣.

إنَّ المراد بقوله: «حتى تقوم الساعة»؛ أى: إلى قرب قيام الساعة، وليس إلى قيامها بالفعل لأنها لا تقوم إلا على شرار الخلق؛ فالله يرسل ريحاً تقبض نفس كل مؤمن ولا يبقى إلا شرار الخلق وعليهم تقوم الساعة.

قال ابن حجر^(١): المراد بقوله: «حتى تأتئهم الساعة» ساعتهم هم، وهى وقت موتهم بهبوب الريح والله أعلم.
قلت: وهو أفضل من الأوّل.

قوله: «والذين يتخذون القبور مساجد».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «والذين يتخذون القبور مساجد» الذين فى محل نصب عطفاً على من الموصولة، أى: إن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد، بالصلاة عندها وإليها وبناء المساجد عليها.

وهذا المعنى متواتر عن النبى ﷺ، معلوم بالاضطرار من دينه وكل ذلك شفقة على الأمة وخوفاً عليهم أن يقودهم ذلك إلى الشرك بها وبأصحابها، كما قاد إلى ذلك اليهود والنصارى. فأبى عباد القبور إلا الضرب بهذه الأحاديث الجدار ونبذها وراء الظهر، أو الدفع فى صدورهم وأعجازها بحمل ذلك على غير قبور الأنبياء والصالحين. أما قبورهم فتجوز الصلاة إليها وعندها، وبناء المساجد والقباب عليها ورجاء أن تصل إليهم العواطف الروحانية. ولأرب أن هذا مراغمة ومحادة لله ورسوله، وهذا من قول اليهود: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾^(٣) فإن النبى ﷺ إنما لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، كما هو نص حديث عائشة رضى الله عنها وغيره، وقبور غيرهم إنما أخذ النهى عن البناء عليها من هذه الأحاديث ونحوها بقياس الأولى، أو من عموم أحاديث آخر، فمن أعظم المراغمة والمناسبة والمحادة لله ورسوله، أن تحمل على غير ما وردت فيه، ويباح ما وردت بالنهى عنه، ولعن من فعله، ولكن هذا شأن عباد القبور ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٤) وقد أجمع العلماء على النهى عن البناء على القبور وتحريمه ووجوب هدمه لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة، التى لامطعن فيها بوجه من الوجوه ولا فرق فى ذلك بين البناء فى مقبرة مسبلة، أو إلا أنه فى المملوكة أشد ولا عبرة بمن شذ من المتأخرين فأباح ذلك إما مطلقاً، وإما فى المملوكة.

(١) الفتح ٨٣/١٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٤٣: ٢٤٨.

(٣) البقرة: ٩٣.

(٤) سورة القصص: الآية ٥٠.

قال الإمام أبو محمد بن قدامة: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور.
لأن النبي ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» (١).
إلى أن قال: فهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو المملوم وغيرهم
تتعين إزالتها بهدم أو بغيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين.
وقال ابن القيم: يجب هدم القباب التي على القبور لأنها أسست على معصية الرسول
ﷺ.

وقال أبو حفص: تحرق الحجرة بل تهدم. فإذا كان هذا كلامه في الحجرة فكيف
بالقبة.

وقال الشافعي: أكره أن يعظم مخلوق، حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه،
وعلى من بعده من الناس.

وقال أيضاً: تسطح القبور ولا تبنى ولا ترفع، وتكون على وجه الأرض.
وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة من الأبنية، منهم ابن الجمزي
والظهير الترميني وغيرهما.

وقال القاضي ابن كج: ولا يجوز أن تخصص القبور، ولا أن يبنى عليها قباب ولا
غير قباب، والوصية بها باطلة.

وقال الأذرعي: وأما بطلان الوصية ببناء.

القباب وغيرها من الأبنية العظيمة، وإنفاق الأموال الكثيرة، فلأرب في تحريمه.
قلت أي سليمان آل الشيخ: وجزم النووي في «شرح المذهب» بتحريم البناء مطلقاً،
وذكر في «شرح مسلم» نحوه أيضاً.

وقال القرطبي في حديث جابر: نَهَى أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ أَوْ يُسْنَى عَلَيْهِ وَيُظَاهَر هَذَا
الحديث (٢).

قال مالك: وكره البناء والجص على القبور.

ووجه النهي عن البناء والتجصيص في القبور أن ذلك مباهاة واستعمال زينة الدنيا في
أول منازل الآخرة وتشبه بمن كان يعبد القبور ويعظمها، وباعتبار هذه المعاني وبظاهر
هذا النص ينبغي أن يقال: هو حرام، كما قال به بعض أهل العلم.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الجنايز (٣٧/٧) - النووي عن جابر به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧٧٠ - بتخريجنا).

وقال ابن مرشد: كره مالك البناء على القبر، وجعل البلاطة المكتوبة وهو من بدع أهل الطول. أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة، وهو مما لا اختلاف فيه. اهـ.

قال عبد الله بن جابر الله^(١): ومعنى اتخاذ القبور مساجد: الصلاة عندها، وإليها، وبناء المساجد عليها كما تقدم. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: (الذين يتخذون القبور مساجد) فهم من شرار الخلق، وإن لم يشركوا؛ لأنهم فعلوا وسيلة من وسائل الشرك والوسائل لها أحكام المقاصد، وإن كانت دون مرتبتها، لكنها تعطى حكمها بالمعنى العام، فإن كانت وسيلة لواجب صارت واجبة وإن كانت وسيلة لمحرّم، فهي محرمة.

فشر الناس في هذا الحديث ينقسمون إلى صنفين:-

الأول: الذين تدركهم الساعة وهم أحياء.

الثاني: الذين يتخذون القبور مساجد. اهـ.

● المفاصد المترتبة على بناء المساجد على القبور:

قال سليمان آل الشيخ^(٣): واعلم أنه قد وقع بسبب البناء على القبور من المفاصد التي لا يحيط بها على التفصيل إلا الله، ما يغضب الله من أجله كل من في قلبه رائحة إيمان، كما نبه عليه ابن القيم وغيره.

منها: اعتيادها للصلاة عندها، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك.

ومنها: تحرى الدعاء عندها. ويقولون: من دعا الله عند قبر فلان استجاب له، وقبر فلان الترياق المجرب، وهذا بدعة منكّرة.

ومنها: ظنهم أن لها خصوصيات بأنفسها في دفع البلاء وجلب النعماء. ويقولون: إن البلاء يدفع عن أهل البلدان بقبور من فيها من الصالحين، ولا ريب أن هذا مخالف للكتاب والسنة والإجماع. فالبيت المقدس كان عنده من قبور الأنبياء والصالحين ما شاء الله، فلما عصوا الرسول وخالفوا ما أمرهم الله به، سلط الله عليهم من انتقم منهم. وكذلك أهل المدينة لما تغيروا بعض التغير، جرى عليهم عام الحرة النهب والقتل وغير ذلك من المصائب ما لم يجر عليهم قبل ذلك. وهذا أكثر من أن يحصر.

(١) الجامع الفريد (٨٥).

(٢) القول المفيد (١/٥٢٣).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٤٨).

ومنها: الدخول فى لعنة رسول الله ﷺ، باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها.
ومنها: أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد، وخراب المساجد. كما هو الواقع ودين الله
بضد ذلك.

ومنها: اجتماعهم لزيارتها واختلاط النساء بالرجال، وما يقع فى ضمن ذلك من
الفواحش وترك الصلوات. ويزعمون أن صاحب^(١) التربة تحملها عنهم، بل اشتهر أن
البغايا يسقطن أجرتهن على البغاء فى أيام زيارة المشايخ، كالبدوى وغيره تقريباً إلى الله
بذلك، فهل بعد هذا فى الكفر غاية.

ومنها: كسوتها بالثياب النفيسة المنسوجة بالحرير والذهب والفضة ونحو ذلك.
ومنها: جعل الخزائن والأموال ووقف الوقوف لما يحتاج إليه من ترميمها ونحو ذلك،
ومنها: إهداء الأموال ونذر النذور لسدنتها العاكفين عليها الذين هم أصل كل بلية وكفر،
فإنهم الذين يكذبون على الجهال والطغام بأن فلاناً دعا صاحب التربة فأجاب، واستغاثة
فأغاثه، ومرادهم بذلك تكثير النذر والهدايا لهم.
ومنها: جعل السدنة لها كسدنة عباد الأصنام.
ومنها: الأقسام على الله فى الدعاء بالمدفون فيها.

ومنها: أن كثيراً من الزوار إذا رأى البناء الذى على قبر صاحب التربة سجد له.
ولاريب أن هذا كفر بنص الكتاب والسنة وإجماع الأمة، بل هذا هو عبادة الأوثان، لأن
السجود للقبّة عبادة لها، وهو من جنس عبادة النصارى للصور التى فى كنائسهم على
صور من يعبدونه بزعمهم الباطل، فإنهم عبدوها ومن هى صورته، وكذلك عباد القبور
لما بنوا القباب على القبور آل بهم إلى أن عبدت القباب ومن بنيت عليه من دون الله عزَّ
وجلَّ.

ومنها: النذر للمدفون فيها، وفرض نصيب من المال والولد؛ وهذا هو الذى قال الله -
عز وجل - فيه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ
وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾^(٢) الآية. بل هذا أبلغ فإن المشركين ما كانوا يبيعون أولادهم لأوثانهم.
ومنها: أن المدفون فيها أعظم فى قلوب عباد القبور من الله وأخوف، ولهذا لو طلبت
من أحدهم اليمين بالله تعالى أعطاك ما شئت من الأيمان كاذباً أو صادقاً، وإذا طلبت

(١) أى الولي المزعوم.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٦.

بصاحب التربة لم يقدم إن كان كاذباً. ولا ريب أن عباد الأوثان ما بلغ شركهم إلى هذا الحد، بل كانوا إذا أرادوا تغليظ اليمين غلظوها بالله كما فى قصة القسامة وغيرها.

ومنها: سؤال الميت قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، والإخلاص له من دون الله فى أكثر الحالات.

ومنها: التضرع عند مصارع الأموات والبكاء بالهيبة والخشوع لمن فيها أعظم مما يفعلونه مع الله فى المساجد والصلوات.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله وهى المساجد؛ فيعتقدون أن العبادة والعكوف فيها أفضل من العبادة والعكوف فى المساجد؛ وهذا أمر ما بلغ إليه شرك الأولين فإنهم يعظمون المسجد الحرام أعظم من بيوت الأصنام يرون فضله عليها، وهؤلاء يرون العكوف فى المشاهد أفضل من العكوف فى المساجد.

ومنها: أن الذى شرعه الرسول ﷺ فى زيارة القبور إنما هو تذكرة الآخرة.

كما قال: «زُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ»^(١) والإحسان إلى المزارع بالترحم عليه والدعاء له والاستغفار، وسؤال العافية له، فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت فقلب عباد القبور الأمر، وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم ونصرهم على الأعداء ونحو ذلك.

فصاروا مسئين نفوسهم وإلى الميت ولو لم يكن إلا بحرمانه بركة ما شرعه الله من الدعاء والترحم والاستغفار له.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله عباد القبور بها، فإنه يؤذيهم ما يفعلونه عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهة. كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرأون منه كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ لَئِنْ سَجَّيْبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾^(٢).

ومنها: محادة الله ورسوله ومناقضة ما شرعه فيها.

ومنها: التعب العظيم مع الوزر الكبير، والإثم العظيم، وكل هذه المفاصد العظيمة وغيرها مما لم يذكر، إنما حدثت بسبب البناء على القبور، ولهذا تجدد القبور التى ليس

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سورة الأحقاف ٦:

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: مَا ذَكَرَ الرَّسُولُ ﷺ فِيْمَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُعْبَدُ اللَّهُ فِيهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، وَلَوْ صَحَّتْ نِيَّةُ الْفَاعِلِ.

عليها قباب لا يأتيها أحد ولا يعتادها لشيء مما ذكر إلا ما شاء الله، وصاحب الشرع أعلم بما يؤول إليه هذا الأمر؛ فلذلك غلظ فيه وأبدأ وأعاد، ولعن من فعله، فالخير والهدى في طاعته، والشر والضلال في معصيته ومخالفته.

والعجب ممن يشاهد هذه المفاصد العظيمة عند القبور، ثم يظن أن النبي ﷺ إنما نهى عن اتخاذ المساجد عليها لأجل النجاسة كما يظنه بعض متأخري الفقهاء، ولو كان ذلك لأجل النجاسة لكان ذكر المجازر والحشوش بل ذكر التحرز من البول والغائط أولى. وإنما لأجل نجاسة الشرك التي وقعت من عباد القبور لما خالفوا ذلك: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١).

وخلاصة الباب:

قال ابن عثيمين: أنه يجب البعد عن الشرك ووسائله، ويغلظ على من عبد الله عند قبر رجل صالح.

وكلام المؤلف رحمه الله في قوله: «عبد الله» يشمل الصلاة وغيرها والأحاديث التي ساقها في الصلاة، لكنه رحمه الله كأنه قاس غيرها عليها، فمن زعم أن الصدقة عند هذا القبر أفضل من غيره؛ فهو شبيه بمن اتخذ مسجداً لأنه يرى أن لهذه البقعة أو لمن فيها شأنًا يفضل به على غيره؛ فالشيخ عمم، والدليل خاص.

فإن قيل: لا يستدل بالدليل الخاص على العام؟

أجيب: إنَّ الشيخ أراد بذلك أنَّ العلة هي تعظيم هذا المكان؛ لكونه قبراً، وهذا كما يوجد في الصلاة يوجد في غيرها من العبادات؛ فيكون التعميم من باب القياس لا من باب شمول النص لها لفظاً.



فيه مسائل:

● الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحَّت نِيَّةُ الْفَاعِلِ.

الثانية: النَّهْيُ عَنِ التَّمَاثِيلِ وَغِلْظُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ.

الثالثة: الْعِبْرَةُ فِي مِبَالِغَتِهِ ﷺ فِي ذَلِكَ كَيْفَ بَيْنَ لَهُمْ هَذَا أَوَّلًا، ثُمَّ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ قَالَ مَا قَالَ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي السِّيَاقِ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا تَقَدَّمَ.

قال ابن عثيمين: تؤخذ من لعن النبي ﷺ الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. قوله: «ولو صحَّت نية الفاعل»؛ لأنَّ الحكم عُلِّقَ على مجرد صورته؛ فهذا العمل لا يحتاج إلى نيةٍ لأنَّه مُعَلَّقٌ بمجرد الفعل.

فالنِّيةُ تؤثر في الأعمال الصالحة وتصحيحها، وتؤثر في الأعمال التي لا يقدر عليها فيعطى أجرها، وما أشبه ذلك، بخلاف ما عُلِّقَ على فعل مجرد؛ فلا حاجة فيه إلى النية.

أى: ولو كان يعبد الله، ولو كان يريد التقرب إلى الله ببناء هذا المسجد اعتباراً بما يؤول إليه الأمر، وبالنتيجة السيئة التي تترتب على ذلك، وهذه النقطة ندرج منها إلى نقطة أخرى، وهى التحذير من مشابهة المشركين اهـ.

قلت: بغض النظر عن نيتهم لحديث النهي عن الصلاة عند غروب الشمس.

ثم قال: وإن لم يقصد الإنسان المشابهة، وهذه قد تخفى على بعض الناس، حيث يظن أن التشبه إنمَّا يحرم إذا قصدت المشابهة، والشرع إنمَّا علق الحكم بالتشبه؛ أى: بأن يفعل ما يشبه فعلهم، سواء قصد أو لم يقصد، ولهذا قال العلماء فى مسألة التشبه: وإن لم ينو ذلك؛ فإن التشبه يحصل بمطلق الصورة.

فإن قيل: قاعدة «إنمَّا الأعمال بالنيات»^(١) هل تعارض ما ذكرنا؟

الجواب: لاتعارضه؛ لأنَّ ما عُلِّقَ بالعمل ثبت له حكمه وإن لم ينو الفعل؛ كالأشياء المحرمة؛ كالظهار، والزنا، وما أشبهها.

● الثانية: النهي عن التماثيل وغلظ الأمر فى ذلك.

تؤخذ من قوله: «وصوروا فيه تلك الصور»^(٢)، ولاسيما إذا كانت هذه الصورة معظمة عادة؛ كالرؤساء، والزعماء، والأب، والأخ، والعم.

أو شرعاً، مثل: الأولياء، والصالحين، والأنبياء، وما أشبه ذلك.

● الثالثة: العبرة فى مبالغته ﷺ فى ذلك، كيف بين لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال؟! ثم لما كان فى السياق لم يكتف بما تقدم.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الرابعة: نَهْيُهُ عَنْ فِعْلِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ الْقَبْرُ.

وهذا ممّا يدلّ على حرص النّبي ﷺ على حماية جانب التوحيد؛ لأنّه خلاصة دعوة الرسل، ولأنّ التوحيد أعظم الطاعات؛ فالمعاصي ولو كبرت أهون من الشرك، حتى قال ابن مسعود: «لأنّ أحلف بالله كاذباً أحبّ إليّ من أن أحلف بغيره صادقا»^(١)؛ لأنّ الحلف بغيره نوع من الشرك، والحلف بالله كاذباً معصية، وهى أهون من الشرك.

فالشرك أمره عظيم جداً، ونحن نحذّر إخواننا المسلمين ممّا هم عليه الآن من الإنكباب العظيم على الدنيا حتى غفلوا عما خلّقوا له، واشتغلوا بما خلّق لهم؛ فعامة الناس الآن تجدهم مشغولين بالدنيا، ليس فى أفكارهم إلاّ الدنيا قائمين وقاعدين ونائمين ومستيقظين، وهذا فى الحقيقة نوع من الشرك؛ لأنّه يوجب الغفلة عن الله - عزوجل -، ولهذا سمّى النّبي ﷺ من فعل ذلك عبداً لما تعبّد له، فقال: «تعس عبدالدينار، تعس عبدالدرهم، تعس عبدالخميسة، تعس عبدالخميلة»^(٢)، ولو أقبل العبد على الله بقلبه وجوارحه لحصل ما قدّر له من الدنيا؛ فالدنيا وسيلة وليست غاية، وتعس من جعلها غاية، كيف تجعلها غاية وأنت لاتدرى مقامك فيها؟! وكيف تجعلها غاية وسرورها مصحوب بالأحزان؛ كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسرّ

فالحاصل: أنّ النّبي ﷺ بلعث لتحقيق عبادة الله، ولهذا كان حريصاً على سدّ كلّ الأبواب التى تؤدى إلى الشرك؛ فالرسول ﷺ حذّر من اتخاذ القبور مساجد ثلاث مرات:

الأولى: فى سائر حياته.

والثانية: قبل موته بخمس.

والثالثة: وهى فى السياق.

● الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

تؤخذ من قوله ﷺ: «ألا فلا تتخذوا القبور مساجد»؛ فإنّ قبره داخل فى ذلك بلاشك، بل أول ما يدخل فيه.

(١) بقدّم تخريجه.

(٢) سيأتي تخريجه.

الخامسة: أَنَّهُ مِنْ سُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ.

السادسة: لَعْنَةُ إِيَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

السابعة: أَنَّ مُرَادَهُ ﷺ تَحْذِيرُهُ إِيَّانَا عَنْ قَبْرِهِ.

الثامنة: الْعِلَّةُ فِي عَدَمِ إِبْرَازِ قَبْرِهِ.

التاسعة: فِي مَعْنَى اتَّخَاذِهَا مَسْجِداً.

العاشرة: أَنَّهُ قَرْنَ بَيْنَ مَنْ اتَّخَذَهَا مَسْجِداً وَبَيْنَ مَنْ تَقُومُ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ، فَذَكَرَ الذَّرِيعَةَ إِلَى الشَّرْكِ قَبْلَ وَقُوعِهِ مَعَ خَاتَمَتِهِ.

● الخامسة: أَنَّهُ مِنْ سُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ.

تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، وَبَشَرِ رَجُلًا جَعَلَ إِمَامَهُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي قَبِيحِ أَعْمَالِهِمْ.

● السادسة: لَعْنَةُ إِيَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى».

● السابعة: أَنَّ مُرَادَهُ تَحْذِيرُهُ إِيَّانَا عَنْ قَبْرِهِ.

تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِ عَائِشَةَ: «يُحْذَرُ مَا صَنَعُوا»؛ أَيْ: مَا صَنَعَهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ.

● الثامنة: الْعِلَّةُ فِي عَدَمِ إِبْرَازِ قَبْرِهِ.

تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِ عَائِشَةَ: «وَلَوْلَا ذَلِكَ أَبْرَزَ قَبْرُهُ؛ غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَّخِذَ مَسْجِداً».

هَنَّاكَ عِلَّةٌ أُخْرَى، وَهِيَ: إِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمُوتُ إِلَّا دُفِنَ حَيْثُ يَمُوتُ، وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ لِلْحَكَمِ عِلَّتَانِ، كَمَا لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ لِلْعِلَّةِ حَكْمَانِ.

قُلْتُ: لَكِنْ تَقْدِمُ أَنَّ الْحَدِيثَ ضَعِيفٌ.

● التاسعة: فِي مَعْنَى اتَّخَاذِهَا مَسْجِداً.

سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا أَنَّ لَهَا مَعْنَيْنِ:

١- بِنَاءُ الْمَسَاجِدِ عَلَيْهَا.

٢- اتَّخَاذُهَا مَكَاناً لِلصَّلَاةِ تَقْصِدُ فِصْلَ عِنْدَهَا، بَلْ إِنَّ مَنْ صَلَّى عِنْدَهَا وَلَمْ يَتَّخِذْهَا لِلصَّلَاةِ؛ فَدَّ اتَّخَذَهَا مَسْجِداً بِالْمَعْنَى الْعَامِ. اهـ.

قُلْتُ: أَنَّ لَهَا مَعْنَى ثَالِثَ وَهِيَ الصَّلَاةُ إِلَيْهَا.

● العاشرة: أَنَّهُ قَرْنَ بَيْنَ مَنْ اتَّخَذَهَا مَسْجِداً وَبَيْنَ مَنْ تَقُومُ عَلَيْهِ السَّاعَةُ؛ فَذَكَرَ الذَّرِيعَةَ إِلَى الشَّرْكِ قَبْلَ وَقُوعِهِ مَعَ خَاتَمَتِهِ.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمسة الرد على الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة، وهم الرافضة والجهمية، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد.

قوله: «إنه قرن.. إلخ» وهى: أن من تقوم عليهم شرار الخلق والذين تقوم عليهم الساعة وهم أحياء هؤلاء الكفار، والذين يتخذون القبور مساجد هؤلاء فعلوا أسباب الشرك والكفر.

وقوله: [مع خاتمه] ومعنى هذا أن الرسول ﷺ ذكر التحذير من الشرم قبل أن يموت.

● الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمسة الرد على الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع.

قوله: «قبل أن يموت بخمس».

أى: خمس ليال، والعرب يعبرون عن الأيام بالليالي وبالعكس.

قوله: «أشر أهل البدع».

يقال: أشر، ويقال: شر؛ بحذف الهمزة، وهو الأكثر استعمالاً.

وإنما تكلم المؤلف رحمه الله عن حال الرافضة والجهمية وحكمهما قبل ذكر اسمهما من أجل تهيج النفس على معرفتهما والاطلاع عليهما؛ لأن الإنسان إذا ذكر له الحكم والوصف قبل ذكر الموصوف والمحكوم عليه؛ صارت نفسه تتطلع وتتشوق إلى هذا، فلو قال من أول الكلام: الرد على الرافضة والجهمية؛ فلا يكون للإنسان التشوق مثل ما لو تكلم عن حالهما وحكمهما أولاً.

وحالهما: أنما أشر أهل البدع.

وحكمهما: أن بعض أهل العلم أخرجهم من الثنتين والسبعين فرقة.

والرافضة: اسم فاعل من رفض الشيء إذا استبعده، وسموا بذلك لأنهم رفضوا زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب حين سألوه: ما تقول فى أبى بكر وعمر؟ فأثنى عليهما، وقال: هما وزيرا جدى. فرفضوه وتركوه، وكانوا فى السابق معه، لكن لما قال الحق المخالف لأهوائهم؛ نفروا منه والىاذ بالله، فسموا رافضة.

وأصل مذهبهم من عبد الله بن سبأ، وهو يهودى تلبس بالإسلام، فأظهر التشيع لآل البيت والغلو فيهم ليشتغل الناس عن دين الإسلام ويفسده كما أفسد بولص دين النصارى عندما تلبس بالنصرانية.

وأول ما أظهر ابن سبأ بدعته فى عهد على بن أبى طالب، حتى إنه جاءه وقال: أنت الله حقاً - والعياذ بالله - فأمر على بالأخذود فحُفرت، وأمر بالخطب فجمع، وبالنار فأوقدت، ثم أحرقتهم بها؛ إلا أنه يُقال: إنَّ عبد الله بن سبأ هرب وذهب إلى مصر ونشر بدعته؛ فالله أعلم.

فالمهم أن علياً رضى الله عنه رأى أمراً لم يحتمله، حيث ادعوا فيه الألوهية فأحرقهم بالنار إحراقاً، ثم بدأت لهذه الفرقة الخبيثة تتكاثر؛ لأنَّ شعارها فى الحقيقة النفاق الذى يسمونه التقية، ولهذا كانت هذه الفرقة أخطر ما يكون على الإسلام؛ لأنها تتظاهر بالإسلام والدعوة إليه، وتقيم شعائره الظاهرة؛ كتحرير الخمر وما أشبه ذلك، لكنها تناقضه فى الباطن؛ فهم يرون أئمتهم آلهة تدير الكون، وأنهم أفضل من الأنبياء والملائكة والأولياء - وأنهم فى مرتبة لا ينالها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهؤلاء كيف يصح أن تقبل منهم دعوى الإسلام.

ولذلك يقول عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فى كثير من كتبه قولاً إذا اطلع عليه الإنسان عرف حالهم: «إنهم أشد الناس ضرراً على الإسلام، وأنهم هجروا المساجد وعمرروا المشاهد؛ فهم يقولون: لا نُصلى جماعة إلا خلف إمام معصوم ولا معصوم الآن، وهم أول من بنى المشاهد على القبور كما قال الشيخ هنا، ورموا أفضل أتباع الرسول على الإطلاق - وهما أبو بكر وعمر - بالنفاق، وأنهما ماتا على ذلك؛ كعبد الله بن أبى بن سلول وأشباهه والعياذ بالله؛ فإنظر بماذا تحكم على هؤلاء بعد معرفة معتقدهم ومنهجهم؟!»

وأما الجهمية؛ فهم أتباع الجهم بن صفوان، وأول بدعته أنه أنكر صفات الله، وقال: إنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً؛ فأنكر المحبة والكلام، ثم بدأ هذه البدعة تنتشر وتتسع، فاعتنقها طوائف غير الجهمية؛ كالمعتزلة ومتأخري الرافضة؛ لأنَّ الرافضة كانوا بالأول مشبهة، ولهذا قال أهل العلم: أول من عُرف بالتشبيه هشام بن الحكم الرافضى، ثم تحوَّلوا من التشبيه إلى التعطيل، وصاروا ينكرون الصفات.

والجهم بن صفوان أخذ بدعته عن الجعد بن درهم، والجعد أخذ بدعته عن أبان بن سمعان، وأبان أخذها عن طالوت الذى أخذها عن ليبد بن الأعصم اليهودى الذى سحر النبى ﷺ؛ فتكون بدعة التعطيل أصلها من اليهود، ثم إنَّ الجهم بن صفوان نشأ فى بلاد خراسان، وفيها كثير من الصابئة وعُباد الكواكب والفلاسفة، فأخذ منهم أيضاً ما أخذ، فصارت هذه البدعة مركبة من اليهودية والصابئة والمشركين.

وانتشرت هذه البدعة فى الأمة الإسلامية، وهؤلاء الجهمية معطلة فى الصفات ينكرون الصفات، ومنهم من أنكر الأسماء مع الصفات، وهذه الأسماء التى يضيفها الله -

سبحانه- إلى نفسه جعلوها إضافات وليست حقيقة، أو أنها أسماء لبعض مخلوقاته؛ فالسميع عندهم بمعنى من خلق السمع في غيره والبصير كذلك، وهكذا.

ومنهم من أنكروا أن يكون الله متصفاً بالإثبات أو العدم، فقالوا: لا يجوز أن نثبت لله صفة أو ننفي عنه صفة؛ حتى قالوا: لا يجوز أن نقول عنه: إنه موجود ولا إنه معدوم؛ لأننا إن قلنا بأنه موجود شبهناه بالموجودات، وإن قلنا بأنه معدوم شبهناه بالمعدومات؛ فنقول: لا موجود ولا معدوم؛ فكابروا المعقول، وكذبوا المنقول، وهذا لا يمكن؛ لأن تقابل الوجود والعدم من تقابل النقيضين اللذين لا يمكن ارتفاعهما ولا اجتماعهما، بل لا بد أن يوجد أحدهما، فوصف الله بذلك تشبيه له بالمتنوعات على قاعدتهم.

ومذهبهم في القضاء والقدر: الجبر، فيقولون: إن الإنسان مجبر على عمله يعمل بدون اختياره إن صلي؛ فهو مجبر، وإن قتل؛ فهو مجبر، وهكذا؛ فعطّلوا بذلك حكمة الله لأنه إذا كان كل عامل مجبراً على عمله لم يكن هناك حكمة في الثواب والعقاب، بل بمجرد المشيئة يعاقب هذا ويثيب هذا، وبذلك عطّلوا عن الفاعلين أوصاف المدح والذم، فلا يمكن أن تمدح إنساناً أو تذمه؛ لأن العاصي مجبر والمطيع مجبر.

ويقال لهم: إنكم إذا قلتم ذلك أثبتتم أن الله أظلم الظالمين؛ لأنه كيف يعاقب العاصي وهو مجبر على المعصية؟ ويثيب الطائع وهو مجبر على طاعته؟ فيكون أعطى من لا يستحق، ومنع من يستحق، وهذا ظلم.

فقالوا: هذا ليس بظلم؛ لأن الظلم تصرف المالك في غير ملكه، وهذا تصرف من المالك في ملكه يفعل به ما يشاء.

وأجيب: بأنه باطل؛ لأن المالك إذا كان متصفاً بصفات الكمال لن يخلف وعده، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾^(١)، فلو أخلف هذا الوعد؛ لكان نقصاً في حقه وظلماً لحلقه، حيث وعدهم فأخلفهم.

ومذهبهم في أسماء الإيمان والدين الإرجاء، فيقولون: إن الإيمان مجرد اعتراف الإنسان بالخالق على الوصف المعطل عن الصفات حسب طريقتهم، وأن الأقوال والأعمال لا مدخل لها في الإيمان، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

ومن هذه الأمور الثلاثة قالوا: إن أفسق وأعدل عباد الله في الإيمان سواء، بل قالوا: إن فرعون مؤمن كامل الإيمان، وجبريل مؤمن كامل الإيمان، لكن فرعون كفر؛ لأنه ادعى الربوبية لنفسه فقط، فصار بذلك كافراً.

الثانية عشرة: مَا بُلِيَ بِهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ النَّزْعِ.

الثالثة عشرة: مَا أَكْرَمَ بِهِ مِنَ الْخُلَّةِ.

قال ابن القيم عنهم:

والناس في الإيمان شيء واحد كالمشط عند تماثل الأسنان

فمذهبهم من أخبث المذاهب إن لم تقل أخبثها، لكن أخبث منه مذهب الرافضة، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن جميع البدع أصلها من الرافضة»؛ فهم أصل البلية في الإسلام، ولهذا قال المؤلف: «أخرجهم بعض أهل العلم من الشتين والسبعين فرقة»، ولعل الصواب من الثلاث والسبعين فرقة، أو أن الصواب أخرجهم إلى الشتين والسبعين؛ أي: أخرجهم من الثالثة التي كان عليها الرسول ﷺ وأصحابه؛ لأنَّ المعروف أن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي من كانت على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

وصدق رحمه الله في قوله عن هاتين الطائفتين الرافضة والجهمية: «شر أهل البدع». وقد قتل الجهم بن صفوان سلمة بن أحوز صاحب شرطة نصر بن سيار لأنَّه أظهر هذا المذهب ونشره.

وقول المؤلف: «ويسبب الرافضة حدث الشرك، وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد»، ولهذا يجب الحذر من بدعتهم وبدعة الجهمية وغيرها، ولا شك أن البدع دركات بعضها أسفل من بعض؛ فعلى المرء الحذر من البدع، وأن يكون متبعاً لمنهج السلف الصالح في هذا الباب وفي غيره.

● الثانية عشرة: مَا بُلِيَ بِهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ النَّزْعِ.

تؤخذ من قولها: «طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها»، وفي هذا دليل على شدة نزعه، وهكذا كان الرسول ﷺ يمرض ويوعك كما يوعك الرجلان^(١) من الناس، وهذا من حكمة الله - عز وجل -؛ فهو ﷺ شدد عليه البلاء في مقابلة دعوته وأودى إيذاءً عظيماً، وكذلك أيضاً فيما يصيبه من الأمراض يضاعف عليه، والحكمة من ذلك لأجل أن ينال أعلى درجات البر؛ لأنَّ الإنسان إذا ابتلى بالشر وصبر كان ذلك أرفع لدرجته.

والصبر درجة عالية لا تُنال إلا بوجود أسبابها، ومنها الابتلاء؛ فيصبر ويحتسب حتى ينال درجة الصابرين.

● الثالثة عشرة: مَا أَكْرَمَ بِهِ مِنَ الْخُلَّةِ.

(١) [صحيح] أخرجه: البخارى. (٥٦٤٧)، ومسلم فى البر والصلة (٨/ ٣٧٠/ ٤٥).

- الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة.
- الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.
- السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.

ويدل عليها قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً»^(١)، ولا شك أن هذه الكرامة عظيمة؛ لأننا لانعلم أحداً نال هذه المرتبة إلا رسول الله ﷺ وإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

● الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة.

ودليل ذلك أنه ﷺ كان يحب أبا بكر، وكان أحب الناس إليه؛ فثبت له المحبة، ونفى عنه الخلّة؛ فدلّ هذا على أنها أعلى من المحبة، والتصريح ليس من هذا الحديث فقط، بل بضمه إلى غيره؛ فقد ورد من حديث آخر أنه صرح: «بأنّ أبا بكر أحب الرجال إليه»^(٢)، ثم قال هنا: «لو كنت متخذاً أحداً خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً» فدلّ على أنّ الخلّة أعلى من المحبة.

● الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.

تؤخذ من قوله ﷺ: «ولو كنت متخذاً من أمّتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً»، فلو كان غيره أفضل منه عند النبي ﷺ؛ لكان أحق بذلك. ومن المسائل الهامة أيضاً:

أنّ الأفضليّة في الإيمان والعمل الصالح فوق الأفضلية بالنسب؛ لأننا لو راعينا الأفضلية بالنسب؛ لكان حمزة بن عبدالمطلب والعباس رضي الله عنهما أحقّ من أبي بكر في ذلك، ومن ثمّ قدّم أبو بكر رضي الله عنه على بن أبي طالب وغيره من آل النبي ﷺ.

[قلت]: وهنا ينجلي معنى قول النبي ﷺ «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

● السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): لأن من كانت محبته لشخص أشد فهو أحق الناس بالنيابة عنه لاسيما وقد قال ذلك في مرض موته، خصوصاً وقد استخلفه على الصلاة بالناس وغضب لما صلى عمر بهم.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٤٠).

قال ابن عثيمين: لم يقل التصريح، وإنما قال: الإشارة؛ لأن النبي ﷺ لم يقل: إنَّ أبا بكر هو الخليفة من بعده، لكن لما قال: «لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً» عَلِمَ أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْلَى النَّاسِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فيكون أحق الناس بخلافته أهد.

قلت: وللنبي ﷺ إشارات أخرى في استخلاف أبي بكر مثل «مروا أبا بكر فليصلي بالناس»^(١) وهو في الصحيح، ومنها المرأة التي جاءت فسألت النبي ﷺ إذا جئت فلم أجدك - وتعرض بموته - فقال «أت أبا بكر»^(٢) وهو في الصحيح، ومنها «أنه لما رأى رؤيا وهو يجلس على بئر ويتزع من البشر ثم أعطى أبا بكر فتزع ثم بعد ذلك عمر»^(٣) وهو في الصحيح، ومنه قوله ﷺ «سدوا كلَّ خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر»^(٤) وهو في الصحيح.

ولقد نوهت إلى هذه الآثار على كثرتها للإمعان في الرد على الروافض والباطنية الذين كفروا أبا بكر وعمر، أو جعلوا أبا بكر ليس أهلاً لهذه الخلافة، بل هو مؤهل لهذا لأن النبي ﷺ أثنى عليه ثناء ما بعده ثناء حتى أنه كان يفضل على عمر ولذلك شاهد في الصحيح حينما أسرع أبو بكر في عمر بكلمة فقال له أبو بكر ردها حتى تكون قصاصاً فلم يرضى عمر، فلما ذهب إلى النبي ﷺ قال: بل اجلس غفر الله لك يا أبا بكر فلما جاء عمر عتفة الرسول ﷺ وقال جئتكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدق، وواساني وآمن بي إذ كفر بي الناس وواساني بنفسه وماله وزوجني ابنته. فهل أنتم تاركوا لي صاحبي فما أغضب بعدها أبداً^(٥)، وهو يشير بذلك إلى قول الله تعالى ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فالله عز وجل لم يثبت هذه الصفة لأحد إلا لأبي بكر مع أن كلهم أصحاب لكن اختصاصه بالصحة تنويه على أن له مرتبة أعلى في الصحة على غيره فلذلك استأهل أن يكون خليفة رسول الله ﷺ.



- (١) [صحيح] أخرجه البخاري (٦، ٤)، ومسلم في الصلاة (٤/ ١٤٠ - النووي) عن عائشة به.
وانظر «رياض الصالحين» (٤٥٤ - بتخريجنا).
(٢) [صحيح] أخرجه البخاري (٣٦٥٩)، ومسلم في الفضائل (٨/ ١٦٢ - ١٠) عن جبير بن مطعم به.
(٣) [صحيح] أخرجه البخاري (٣٦٧٦)، ومسلم في الفضائل (٨/ ١٧٢ - ١٧) عن أبي هريرة به.
(٤) [صحيح] أخرجه البخاري (٤٦٧) عن ابن عباس به.
(٥) [صحيح] أخرجه البخاري (٣٦٦١) عن أبي الدرداء به.

٢٠ باب مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

مناسبة الباب لما قبله، وماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال سليمان آل الشيخ^(١): أراد المصنف - رحمه الله - بهذه الترجمة أموراً:

أولها: التحذير من الغلو في قبور الصالحين .

الثاني: أن الغلو فيها يؤول إلى عبادتها .

الثالث: أنها إذا عُبِدَتْ سُمِّيَتْ أَوْثَانًا ولو كانت قبور الصالحين .

الرابع: التنبيه على العلة في المنع من البناء عليها واتخاذها مساجد . اهـ .

وقال حامد بن محمد^(٢): في التعليق على قول المصنف: باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تُعْبَدُ من دون الله ، لما مضى من أن التردد - أى على القبور ولو لعبادة الله - يورث التآله والتعظيم شيئاً فشيئاً حتى تعبد من دون الله، الذى خلق الكون بأسره - سبحانه وتعالى عما يشركون . اهـ .

وقال ابن باز^(٣): وهذا صحيح كما سبق، فالغلو يجعل المغلو فيه معبوداً من دون الله، ولهذا لما غلى أناس فى قبور بعض الصالحين جعلوها تُعْبَدُ من دون الله كقبر الصالحين من الحسن والحسين وفاطمة وغير ذلك .

وهكذا هذه الأمة غلو فى الرسول ﷺ وعبدوه واستغاثوا به ودعوه من دون الله ، وفى سابق الزمان لما غلى قوم نوح فى الصالحين أدى إلى عبادتهم وتقدم .

قال ابن عثيمين^(٤): هذا الباب له صلة بما قبله، وهو أن الغلو فى قبور الصالحين يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ من دون الله ، أى: يؤول الأمر بالغالين إلى أن يعبدوا هذه القبور أو أصحابها . اهـ .

قلت: فبعد أن ذكر المصنف فى الباب قبل الماضى عاقبة الغلو فى الصالحين، وأنه سبب كفر بنى آدم ، اتبع ذلك بباب فى الوسيلة الموصلة للغلو وهو : عبادة الله عند قبورهم فكان لا بد وأن يفرد باباً فى عاقبة من غال فى القبر نفسه، فناسب وضعه هنا .

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٧) .

(٤) القول المفيد : (١/ ٥٣٩) .

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٤٨) .

(٣) التعليق المفيد (١٢٥) .

والأولى - والله أعلم - تقديم هذا الباب على الذى قبله، من باب تقديم الغاية على الوسيلة، والبدء بالأشرف ثم الأخف، أو تأخير الباب الماضى على الذى قبله، من باب تقديم الوسيلة على الغاية وهذا الأولى، فيكون الترتيب على هذا النحو:

باب التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟

فهذا السبب فى الغلو فى المقبور والقبر فيجعل الأول معبود والثانى وثن، وهو ما صرح به فى الترجمتين، وهو الذى تسبب فى كفر بنى آدم، وتركهم دينهم، وصير القبور أوثاناً.

ولعل المصنف وضع هذه الترجمة بالنظر إلى دعاء ﷺ فالنبي ﷺ ما دعى إلا لما علم أن من كان قبلنا اتخذوا قبور أنبياءهم وصالحهم مساجد، فلذلك ناسب أن توضع الأبواب التى فيها عبادة القبور واتخاذها مساجد قبل هذا الباب ولكن هذا من حيث الدعاء، ولكن من حيث الترجمة نفسها فالأولى كما قلت، والله الموفق للصواب.

● مناسبة الباب للتوحيد:

قال الفقير: هى أن الغلو فى قبور الصالحين يؤول إلى عبادتها من دون الله وهذا شرك واضح.

شرح الترجمة:

قوله: [ما جاء أن الغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثاناً]

قال سليمان آل الشيخ^(١): وبالجمله فالغلو أصل الشرك فى الأولين والآخرين إلى يوم القيامة. اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٢): والغلو: مجاوزة الحد مدحاً أو ذماً والمراد هنا مدحاً والقبور لها حق علينا من وجهين:

١- أن لا نفرط فيما يجب لها من الاحترام، فلا تجوز إهانتها، ولا الجلوس عليها، وما أشبه ذلك.

٢- أن لا نغلو فيها فتجاوز الحد. اهـ.

[قلت]: والرسول ﷺ نهانا عن الإفراط والتفريط بوجه عام. وفى القبور بوجه خاص، ثم قال فى صحيح مسلم قال على بن أبى طالب لأبى الهياج الأسدى: «ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرقاً إلا سويته»^(٣) وفى رواية: «ولا صورة إلا طمستها»^(٤) اهـ.

(٣، ٤) تقدم تخريجه

(٢) القول المفيد (١/ ٥٣٩)

(١) تيسير العزيز حميد (٢٤٨)

[قلت]: وفي هذه الرواية : جمع بين الصورة وطمسها والوثن وكسره ، كلاهما عند مسلم ، وفيه درة الشبهة القائلة أن الصورة المحرمة هي التماثيل ، فقال في التمثال يكسر ، وفي الصورة تطمس ، ففيها الفرق بين الصورة المجسمة وحبيسة الظل وأن كلاهما منهي عنه ، والله أعلم . اهـ .

والقبر المشرف : هو الذى يتميز عن سائر القبور ، فلا بد أن يسوى لساويرها لثلا يظن أن لصاحب هذا القبر خصوصية ولو بعد زمن ، إذ هو وسيلة إلى الغلو فيه . اهـ .
قوله : «الصالحين» :

قال ابن عثيمين : يشمل الأنبياء والأولياء ، بل ومن دونهم وتقدم فى الباب قبل الماضى مزيد بيان لمعنى الصالح والغلو . اهـ .
قال سليمان آل الشيخ^(١) :

الأوثان : هى المعبودات التى لا صورة لها كالقبور والأشجار والعمد والحيطان والأحجار ونحوها ، وقد تقدم بيان ذلك .

وقيل : الوثن : هو الصنم ، والصنم هو الوثن ، وهذا غير صحيح إلا مع التجريد ، فأحدهما قد يعنى به الآخر ، وأما مع الاقتران فيفسر كل واحد بمعناه . اهـ .
وقال ابن عثيمين^(٢) : جمع وثن ، وهو كل ما نُصِب للعبادة ، وقد يقال له : صنم ، والصنم : تمثال مُمَثَّل ، فيكون الوثن أعم . اهـ .

قلت : واستدل المصنف على ذلك بقوله ﷺ : «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد» .
ثم قال : ولكن ظاهر كلام المؤلف أن كل ما يعبد من دون الله يُسمى وثناً وإن لم يكن على تمثال نصب ، لأن القبور قد لا يكون لها تمثال يُنصب على القبر فيعبد . اهـ .
قوله : «تعبد من دون الله» :

قال ابن عثيمين : أى : من غيره ، وهو شامل لما إذا عبدت وحدها أو عبدت مع الله ، لأن الواجب فى عبادة الله إفراده فيها ، فإذا قُرِنَ بها غيره صارت عبادة لغير الله ، وقد ثبت فى الحديث القدسى أن الله تعالى يقول : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه»^(٣) . اهـ .



(٣) تقدم تخريجه .

(٢) القول المفيد (١/ ٥٤٠)

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٤٨)

رَوَى مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ. اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» (١).

● قوله [روى مالك في الموطأ] الحديث .

قال سليمان آل الشيخ (٢): هذا الحديث رواه مالك في باب جامع الصلاة «مرسلاً» عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قاله .

ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» عن أبي خالد الأحمر عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم به ولم يذكر عطاء . ورواه البزار عن عمر بن محمد عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً (٣)، وعمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب نفسه من أشرف أهل المدينة .

روى عنه مالك والثوري وسليمان بن بلال فالحديث صحيح عند من يحتج بمراسيل الثقات، وعند من قال بالمسند لإسناد عمر بن محمد له بلفظ الموطأ سواء، وهو ممن تقبل زيادته، وله شاهد عند الإمام أحمد والعقيلي من طريق سفيان، عن حمزة بن المغيرة، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رفعه «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (٤) اهـ .

مناسبة الحديث للباب:

قال عبد الله بن جابر الله (٥): أن النبي ﷺ خاف أن يقع من أمته ما وقع لغيرهم من الأمم السابقة فتجعل قبره وثناً يعبد من دون الله . اهـ .

وقال القرعاوي (٦): حيث دل الحديث على أن القبور ستتخذ أوثاناً في هذه الأمة، لذا سأل الله بأن يحمي قبره من أن يتخذ وثناً . اهـ .

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوي (٧): حيث دل الحديث على أن اتخاذ القبور مساجد وسيلة لعبادة أصحابها، وذلك شرك مناف للتوحيد . اهـ .

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٨٥/١٥٦/١) عن عطاء بن يسار مرسلاً .
وأخرج ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٦٩/٣) وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٥٨٧/٤٠٦/١) عن زيد بن أسلم مرسلاً .

قال ابن عبد البر : لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث

وانظر فتح المجيد (٣٧٥- بتخریجنا) .

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٤٨، ٢٤٩) .

(٣) [ضعيف] ذكره الهيثمي في «المجموع» (٢٨/٢) وقال : رواه البزار وفيه عمر بن صهبان وقد

اجتمعوا على ضعفه . وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٧٨) بتخریجنا .

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٦/٢) عن أبي هريرة به . وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٩٧) بتخریجنا .

(٥) الجامع الفريد (٨٧) . (٦، ٧) الجديد (١٩٥) .

شرح الحديث:

قوله (روى مالك)

قال سليمان آل الشيخ^(١): هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمر الأصبحي أبو عبد الله المدني الفقيه إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، وأحد المتقنين في الحديث حتى قال البخاري، أصح الأسانيد كلها: مالك عن نافع عن ابن عمر مات سنة تسع وسبعين ومائة. وكان مولده سنة ثلاث وتسعين.

قلت: أي مات عن ستة وثمانين عاماً فهو خيرنا ولا بد إن صح قول النبي ﷺ «خيركم من طال عمره وحسن عمله» ومن النادر أن تجد بعض الأئمة ليس بمعمر. والله أعلم.

وقوله [في الموطأ]: سُميَ الموطأ لأنه لما ألفه قبل عرضه على مئة من علماء المدينة فواظنوه عليه أي وافقوه عليه، فسماه الموطأ يعني المتفق عليه، وقيل الموطأ أي الممهد وهو من أوائل الكتب التي صنف في الحديث والفقه، وهو مروى بروايات كثيرة عن الإمام مالك فتجد الموطأ برواية محمد بن حسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة، وغيره من تلاميذ الإمام مالك، وتجد أن كل موطأ منها ليس فيه أحاديث في الآخر بسبب أن الإمام مالك كان يحدث به مراراً ويراجع فيكون أسعد التلاميذ من أخذ العرض الأخير للموطأ.

«والموطأ» من الكتب التي خدمت خدمة لم يخدمها كتاب حديثي أبداً، يكفي أن أذكر لكم أن الإمام ابن عبد البر في كتاب «التمهيد» في شرحه للموطأ بلغ إحدى عشر مجلداً وفي اثنين وعشرين جزءاً إلى الآن مطبوع والباقي مخطوط ولم يطبع مع أن الموطأ هو مجلد واحد وإن تعددت رواياته لا تخرج عن مجلد واحد وكتاب «الاستذكار» أيضاً لابن عبد البر من الكتب المطولة جداً على الموطأ.

ومنها من كتب في وصل مراسيل موطأ مالك وتعليقاته ومعلقات مالك، وفي رجال مالك كإسعاف البطأ في رواة الموطأ للسيوطي.

وهذا يدل على شرف الكتاب وشرف الكاتب كما ذكرنا في النكت المتسمة على مقدمه ابن تيمية.

قوله: [اللهم]: قال ابن عثيمين^(٢): أصلها (يا الله) فحذفت (يا) النداء لأجل البداء باسم الله، وعوض عنها الميم الدالة على الجمع، فكان الداعي جمع قلبه على الله، وكانت الميم في الآخرة لأجل البداء باسم الله. اهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٤٩).

(٢) القول المفيد (١/ ٥٤١، ٥٤٢).

وهذا كثير فى دعائه ﷺ، وبهذا يتبين لك جهل بعض العامة من الناس الذين يؤمنون وراء الإمام - خاصة فى قنوت الفجر أو قنوت الوتر أو ختم القرآن على خلاف فقهى فى جواز القنوت فى هذه المواضع - بقولهم (يا الله) ويُقدم بين يدى اسم الجلال (الله) بحرف النداء، بل وربما كان الإمام أو الداعى - فيقول (يا الله يا الله) فيقدم بين يدى اسم الجلالة، والسنة فى الدعاء أن يقول (اللهم) ولا يُحدث طريقة من عنده للدعاء، والله المستعان.

قوله: [لا تجعل قبرى وثناً يعبد]:

قال ابن عثيمين^(١): لا : للدعاء . اهـ.

قلت: وكذلك تستعمل للأمر .

ثم قال: لأنها طلب من الله .

قلت: فهى من الأدنى للأعلى، وأيضاً لتصدر الكلام بقوله (اللهم) فإن كانت من الأعلى كانت أمراً ونهى، وإن كانت من المساوى فالتماس .

ثم قال: (وتجعل): تصيّر، والمفعول الأول لها : (قبرى) . والثانى (وثناً).

وقوله (يعبد) صفة لوثن، وهى صفة كاشفة، لأن الوثن هو الذى يُعبد من دون الله وإنما سأل النبى ﷺ ربه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد، لأن دعوته كلها بالتوحيد ومحاربة الشرك . اهـ

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قد استجاب الله دعاء رسول الله ﷺ، فمنع الناس من الوصول إلى قبره لئلا يعبد استجابة لدعاء رسوله ﷺ .

كما قال ابن القيم: فأجاب رب العالمين دعاء:

حتى غدت أرجاؤه بدعائه : فى عزة وحماية وصيان^(٣)

وأحاطه بثلاثة جدران، ودل الحديث على أن قبر الرسول ﷺ لو عبد لكان وثناً، فما ظنك بقبر غيره من القبور التى عبدت هى وأربابها من دون الله، وإذا أريد تغيير شئ من ذلك أنف عبّادها، واشمأزت قلوبهم، واستكبرت نفوسهم، وقالوا: تنقص أهل الرتب العالية، ورموهم بالعظائم، فماذا يقولون لو قيل لهم : إنها أوثان تعبد من دون الله؟ فالله المستعان على غربة الإسلام.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٤٩-٢٥١)

(١) القول المفيد (١/٥٤١، ٥٤٢).

(٣) فتح المجيد نقلاً عن التوبة، كما سيأتى

وهذه هي الفتنة العظمى التي قال فيها عبد الله بن مسعود: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبَسْتَكُمْ فِتْنَةً يَهْرُمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيُنْشَأُ فِيهَا الصَّغِيرُ، تَجْرَى عَلَى النَّاسِ، يَتَّخِذُونَهَا سُنَّةً، إِذَا غَيَّرَتْ قِيلَ غَيَّرَتِ السُّنَّةَ» (١). ويؤخذ من الحديث المنع من تتبع آثار الأنبياء والصالحين كقبورهم ومجالسهم، ومواضع صلاتهم للصلاة، والدعاء عندها، فإن ذلك من البدع، أنكره السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم، ولا نعلم أحداً أجازه أو فعله إلا ابن عمر على وجه غير معروف عند عباد القبور، وهو إرادة التشبه برسول الله ﷺ في الصلاة فيما صلى فيه ونحو ذلك، ومع ذلك فلا نعلم أحداً وافقه عليه من الصحابة، بل خالفه أبوه وغيره، لثلا يفضى ذلك إلى اتخاذها أوثاناً كما وقع.

قال ابن عبد الباقي في «شرح الموطأ» روى أشهب عن مالك أنه كره لذلك أن يدفن في المسجد قال: وإذا منع من ذلك فساثر آثاره أخرى بذلك، وقد كره مالك طلب موضع شجرة بيعة الرضوان مخالفة لليهود والنصارى. انتهى.

وقال ابن وضاح: سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التي بويج تحتها النبي ﷺ فقطعها، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة،

قال عيسى بن يونس: وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع: أن الناس كانوا يأتون الشجرة فقطعها عمر رضى الله عنه. وقد تقدم هذا الأثر والذي يليه في بحث التبرك المشروع والتبرك المنوع.

وقال المروزي بن سويد: صليت مع عمر بن الخطاب في طريق مكة صلاة الصبح، فقرأ فيها «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ» (٢) و«لَا إِلَهَ إِلَّا قُرَيْشٌ» (٣) ثم رأى الناس يذهبون مذاهب فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: يا أمير المؤمنين، مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ فهُمْ يصلون فيه: فَقَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِمِثْلِ هَذَا: كَانُوا يَتَّبِعُونَ آثَارَ أَنْبِيَائِهِمْ، وَيَتَّخِذُونَهَا كَنَائِسَ وَيَبْعاً فَمَنْ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ فَلْيَصِلْ، وَمَنْ لَا فَلْيَمِضْ وَلَا يَتَعَمَّدها» (٤).

وفي «مغازي ابن إسحاق» من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار: حدثنا أبو العالية قال: لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية فأنا أول رجل قرأه من العرب، قرأته مثل ما أقرأ القرآن.

(١) [منقطع] أخرجه الدارمي (٦٤/١) والحاكم في «المستدرک» (٥١٤/٤) وانظر كتابنا «فقه الخطابة وزاد الخطيب» (٤٤/١) وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٨٠) بتخريجنا.
(٢) الفيل: ١.
(٣) قريش: ١.
(٤) تقدم تخريجه.

فقلت لأبى العالية : ما كان فيه ؟ قال : سيرتكم وأموركهم ولحون كلامكم ، وما هو كائن بعد .

قلت : فما صنعتكم بالرجل ؟

قال : حفرنا له بالنهار ثلاثة عشرة قبراً متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لتعمينه على الناس لا ينبشونه .

قلت : وما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون .

فقلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال رجل يقال له : دانيال .

فقلت : منذ كم وجدتموه مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة .

قلت : ما كان تغير منه شيء ؟ قال : لا إلا شعيرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ففى هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره لئلا يفتن به ، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيف ولعبدوه من دون الله .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : وهو إنكار منهم لذلك ، فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها ولم يستحب الشارع قصدها فهو من المنكرات ، وبعضه أشد من بعض ، سواء قصدها ليصلى عندها ، أو ليدعو عندها أو ليقراً عندها ، أو ليذكر الله عندها ، أو لينسك عندها بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التى لم يشرع تخصيصها به لا نوعاً ولا عيناً ، لأن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها ، كمن يدعو الله فى طريقه ، ويتفق أن يمر فى طريقه بالقبور أو كمن يزورها ويسلم عليها ، ويسأل الله العافية له وللموتى كما جاءت به السنّة ، فإن ذلك ونحوه لا بأس به ، وأما تحرى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه فى غيره ، فهذا هو المنهى عنه ، والفرق بين النوعين ظاهر ، فإن الرجل لو كان يدعو الله واجتاز فى ممره بصنم أو صليب أو كنيسة أو دخل إليها لبيت فيها مبيتاً جائزاً ودعا الله فى الليل ، أو أتى بعض أصدقائه ودعا الله فى بيته لم يكن بهذا بأس . ولو تحرى الدعاء عند هذه المواضع لكان من العظائم بل قد يكون كفراً . أهـ

قلت : وقد اختصر صاحب فتح المجيد : آخر هذا الكلام فما أجاد (*) .

(*) فتح المجيد ص ٣١٢ / ٣١٣ .

مسألة :

شخص يقول كل يوم أذكر الصباح والمساء، وهو يقولها ذات مرة وكان يركب سيارة فمر بقبر من قبور الصالحين أو غيرهم، فهل هو بذلك دعا الله هناك في ذلك المكان - لما مر عليهم ويصبح بذلك ممن عظم المكان في الصباح؟

الجواب:

قال الفقير: فارق بين قصده بذلك الدعاء والأذكار المكان وأصحابه المقبورين وبين حدوث ذلك اتفاقاً لأنها أذكاه وورده، وبين أن يقصد أن يدعو الله ويذكره عند هذه القبور. لكن الواضح من السؤال أن ذلك قَدَرًا لا قصدًا وهو يقول الأذكار مر على ذلك القبر سواء راكباً أم ماشياً فهو في هذه الحالة لا يوقف أذكاه حتى ينتهي من المرور، بل يستمر لأن قصده ونيته لم تكن أن يذكر الله للقبر.

قوله: [اشتد غضب الله].

قال سليمان آل الشيخ^(١): هذه الجملة بعد الأولى تنبيه على سبب لحوق اللعن بهم وهو توسلهم بذلك إلى أن تصير أوثاناً. اهـ.

قال ابن باز^(٢): «اشتد غضب الله» لأنهم جعلوها أوثاناً تعبد من دون الله حيث بنوا عليها المساجد فعظموها فطافوا بها واستغاثوا بها ونذروا لها، فالات لما غلى فيه أهل الطائف صار معبوداً من دون الله فهذه سنة الأولين والآخرين، فالبناء على القبور وتعظيمها بصيرها أوثاناً تعبد وإن لم يعبدوها الآن فالوسائل تجر إلى الغايات. أهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «غضب الله».

صفة حقيقية ثابتة لله - عز وجل - لا تماثل غضب المخلوقين لا في الحقيقة ولا في الأثر، وقال أهل التأويل: غضب الله هو الانتقام ممن عصاه، وبعضهم يقول: إرادة الانتقام ممن عصاه.

وهذا تحريف للكلام عن مواضعه، لأن النبي ﷺ لم يقل: انتقم الله، وإنما قال: اشتد غضب الله، وهو ﷺ يعرف كيف يُعبر، ويعرف الفرق بين غضب الله وبين الانتقام، وهو أنصح الخلق وأعلم الخلق بربه، فلا يمكن أن يأتي بكلام وهو يريد خلافة، لأنه لو أتى بذلك لكان ملبساً، وحاشاه أن يكون كذلك، فالغضب غير

(٢) التعليق المفيد (١٢٦).

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٥١)

(٣) القول المفيد (١/٥٤٢/٥٤٤).

الانتقام وغير إرادة الانتقام، فالغضب صفة حقيقية ثابتة لله تليق بجلاله لا تماثل غضب المخلوق، لا في الحقيقة ولا في الأثر.

وهناك فروق بين غضب المخلوق وغضب الخالق، منها:

١- غضب المخلوق حقيقته هو : غليان دم القلب، وجمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم حتى يفور. أهـ.

[قلت] : لحديث : «إني لأعلم كلمة لو قالها هذا لذهب عنه ما يجد، قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»^(١) لذلك في علاج الغضب ذكر ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم في شرح حديث «لا تغضب»^(٢) أن من أدوية علاج الغضب الوضوء فالنبي ﷺ قال «إن الغضب من الشيطان والشيطان من النار والماء يطفأ النار فتذهب فتوضأ فيذهب ما أنت عنه فيه»^(٣).

وأيضاً ذكر من الأدوية ما يبين أن حقيقة الغضب من الشيطان وأن أصل الغضب من الشيطان حيث قال «فليتحول» فليغير هيئته «فإن كان واقفاً فليجلس وإن كان جالساً فليضع»^(٤) وهكذا لأن التحويل من شأنه أن يقلل تمكن واستحواذ الشيطان منك وعليك . فلذلك ناسب أن نقول أن غضب المخلوق حقيقته غليان دم القلب وجمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم.

ولما رواه أحمد والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال في خطبته : «ألا إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أفما رأيتم إلى جمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، فمن أحس من ذلك شيء، فليلزم بالأرض»^(٥) أهـ.

ثم قال: أما غضب الخالق : فإنه صفة لا تماثل هذا، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦١١٥)، ومسلم فى البر والصلة (٦٣/١٦) - النووى.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦١٦) عن أبى هريرة به

وانظر «جامع العلوم والحكم» (١٧٨/١) - بتخريجنا).

(٣) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٢٦/٤) عن أبى هريرة به

وانظر جامع العلوم والحكم» (٢٤٤/١) - بتخريجنا).

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٥٢/٥) وأبو داود (٤٧٨٢) عن أبى ذر به.

وانظر «جامع العلوم والحكم» (٢٤٢/١) بتخريجنا).

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٧/٣) والترمذى (٢١٩١) ، وابن ماجه (٢٨٧٣) ٤٠٠٧.٤٠٠٠

٢- أن غضب آدمي يؤثر آثاراً غير محمودة، فالآدمي إذا غضب قد يحصل منه ما لا يحمد، فيقتل المغضوب عليه، وربما يُطْلَق زوجته، أو يكسر الإناء، ونحو ذلك. لذلك في سنن أبي داود قال ﷺ «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق»^(١) أى غضب وسمى إغلاق لأنه يغلق على العقل . بحيث مثلاً أن شخص يأتي ويقول أنا طلقت امرأتى لكنى كنت غضبان فقول له : الغضب غضبان: (فالأول) غضب يغلق على العقل فيجعلك كالسكران أو المجنون؛ فتستصرف وتفعل ولا تفعي ما تفعل (والثاني) غضب لا يخرجك عن الوعي بحيث تعرف ما تفعل . فإن كان من النوع الأول فلا يقع الطلاق للحديث وإن كان من النوع الثاني فيقع كما قال تعالى حكاية عن موسى ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ وفي المثل السائر الذي نسبته بعض الناس للنبي ﷺ وهو ليس مرفوعاً للنبي ﷺ وبين ذلك الشيخ محمد عمرو في «تبييض الصحيفة»:

«من استغضب ولم يغضب فهو جبان ومن استرضى ولم يرضى فهو حمار أو حيوان»^(٢)

هذا قول الشافعي :

وقوله: «من استغضب ولم يغضب فهو جبان»: وهذه صفة نقص : فلو ربنا كان لا يغضب برغم أنه يستغضب أو يحصل ما يغضبه فلو لم يكن يغضب فهذه إذن صفة نقص أم كمال . فنقول أنها صفة نقص ألا يغضب في هذه الحالة إذن فنسبة الغضب إلى الله نسبة صفة من صفات الكمال إليه كما تقدم ولكن بالنسبة للمخلوق تكون أحياناً صفة نقص وهو الغالب وأحياناً صفة محمودة كأن يغضب الله ولحرماته والرسول ﷺ ثبت عنه في الصحيح أنه كان لا يغضب لنفسه إلا إذا إنتهكت حرمت الله^(٣) وأيضاً ثبت في الصحيح حينما قال له بعض الصحابة : إني لأتأخر عن الصلاة مما يطول بنا فلان فخرج مغضباً لم ير في هذا الغضب قبل ذلك فقال «إن منكم متفرين من أم الناس فليخفف»^(٤) الحديث، وغضب على أسامة حينما قتل الرجل الذي قال أسلمت، غضب عليه حتى تمنى أسامة أن لم يكن أسلم قبل هذه^(٥).

(١) [إسناده ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٦/٦) وأبو داود (٢١٩٣) وابن ماجه (٢٠٤٦) عن عائشة به . وأنظر منار السبيل « (٢٢١٧) بتخريجنا

(٢) قال الشيخ محمد عمرو - حفظه الله - لا أصل له مرفوعاً وانظر «تبييض الصحيفة» (٨٩)

(٣) [صحيح] أخرجه البخاري (٦١٢٦) ، ومسلم في الفضائل (٧٧/٩١/٨) عن عائشة بنحو

(٤) [صحيح] أخرجه البخاري (٧٠٣) ، ومسلم في الصلاة (١٨٤/٤) - النووي) عن أبي مسعود

البدرى به .

(٥) تقدم تخريجه .

إذن فقد تكون الصفة «صفة الغضب» للمخلوق صفة مذمومة وهو الغالب وأحياناً صفة محمودة. أما بالنسبة للخالق فهي لا تحتمل مذمة ولا نقص لا تحتمل إلا الكمال ؛ لأنها تختلف مع صفة المخلوق في الحقيقة وفي الأصل.

ثم قال :- أي ابن عثيمين - أما غضب الله، فلا يترتب عليه إلا آثار حميدة لأنه حكيم، فلا يمكن أن يترتب على غضبه إلا تمام الفعل المناسب الواقع في محله.

فغضب الله ليس كغضب المخلوقين، لا في الحقيقة، ولا في الآثار، وإذا قلنا ذلك، فلا نكون وصفنا الله بما يماثل صفات المخلوقين، بل وصفناه بصفة تدلّ على القوة وتمام السلطان، لأنّ الغضب يدلّ على قدرة الغاضب على الانتقام وتمام سلطانه، فهو بالنسبة للخالق صفة كمال، وبالنسبة للمخلوق صفة نقص.

ويدل على بطلان تأويل الغضب بالانتقام قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾. فإنّ معنى ﴿آسَفُونَا﴾ أغضبونا، فجعل الانتقام غير الغضب، بل أثراً مترتباً عليه، فدلّ هذا على بطلان تفسير الغضب بالانتقام.

واعلم أنّ كل من حرّف نصوص الصفات عن حقيقتها وعما أراد الله بها ورسوله، فلا بد أن يقع في زلّة ومهلكة، فالواجب علينا أن نسلّم لما جاء به الكتاب والسنة من صفات الله تعالى على ما ورد إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل ولا تأويل اهـ.

قوله: [قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد]:

قال سليمان آل الشيخ^(١): فيه إشارة إلى ما ترجم له المصنف.

وفيه تحريم البناء على القبور وتحريم الصلاة عندها وقد روى أصحاب مالك عنه أنه كره أن يقول القائل: زرت قبر النبي ﷺ، وعلل وجه الكراهة بقوله: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» فكره إضافة هذا اللفظ إلى القبر لئلا يقع التشبه بفعل أولئك سداً للذريعة وحسماً للباب، ذكره الطبري وفيه أنه ﷺ لم يستعذ إلا بما يخاف وقوعه. ذكره المصنف. اهـ.

قال حامد بن محمد^(٢): وقعوا في المحذور الذي أوجب لهم اللعنة والعذاب. اهـ.

● كراهية إطلاق اسم الزيارة حتى على الزيارة الشرعية:

وقال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣) نقلاً عن ابن تيمية^(٤): قال شيخ الإسلام رحمه

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٧)

(٤) مجموع الفتاوى (٣٥٨/٢٤)، (٣٥٩).

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٥١)

(٣) فتح المجيد (٣١٤، ٣١٣/١)

الله تعالى: «ومالك قد أدرك الناس من التابعين، وهم أعلم النَّاس بهذه المسألة ، فدل على أنه لم يكن معروفاً عندهم ألفاظ زيارة قبر النبي ﷺ - إلى أن قال - وقد ذكروا في أسباب كراهته أن يقول: «زُرْتُ قبر النبي ﷺ» لأنَّ هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يُريد به الزيارة البدعية، وهو قصد الميت لسؤاله ودُعائه، والرَّغبة إليه في قضاء الحوائج، ونحو ذلك مما يفعله كثير من النَّاس، فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا، وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة، وكره مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد ، بخلاف الصلاة والسلام عليه، فإنَّ ذلك مما أمر الله به.

أما لفظ الزيارة في عموم القبور فلا يُفهم منها مثل هذا المعنى، ألا ترى إلى قوله: «فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْآخِرَةَ»^(١) مع زيارته لقبر أمه^(٢)، فإن هذا يتناول قبور الكفار، فلا يفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع ، بخلاف ما إذا كان المَزُور مُعَظَّمًا في الدِّين كالأنبياء والصالحين، فإنه كثيراً ما يعنى بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشُّركية، فلهذا كره مالك ذلك في هذا، وإن لم يكره ذلك في موضع آخر ليس فيه هذه المُفسَدة اهـ.

وقال عبد الله بن جابر الله^(٣): الحديث يدل على:

١- أن النبي ﷺ خاف أن يقع من أمته ما وقع لغيرهم من الأمم السابقة فتجعل قبره وثناً يعبد من دون الله.

٢- تحريم البناء على القبور، والصلاة عندها، وأن ذلك من الكبائر.

٣- إثبات صفة الغضب لله على ما يليق بجلاله.

وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ فحمى قبره بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل إليه اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٤): قوله: «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»

أى: جعلوها مساجد، إمَّا بالبناء عليها ، أو بالصلاة عندها، فالصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد، والبناء عليها من اتخاذها مساجد اهـ .

(١) تقدم تخريجه .

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الجنائز (٤/٥١/١٠٥) عن أبى هريرة به وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٨٤م) بتخريجنا.

(٣) الجامع الفريد (٨٧).

(٤) القول المفيد (١/٥٤٤).

[قلت] وهناك قول ثالث تقدم في الباب الماضي، وهو الصلاة إليها.

ثم قال: وهنا نسال: هل استجاب الله دعوة نبيه ﷺ بأن لا يجعل قبره وثناً يُعبد، أم اقتضت حكمته غير ذلك؟

الجواب: يقول ابن القيم: إن الله استجاب له، فلم يُذكر أن قبره ﷺ جعل وثناً، بل إنه حمى بثلاثة جدران، فلا أحد يصل إليه حتى يجعله وثناً يُعبد من دون الله، ولم يسمع في التاريخ أنه جعل وثناً.

قال ابن القيم في «التوبة»:

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران. أهـ

حتى غدت أرجاؤه بدعائه في غيرة وحماية وصيان^(١)

وهذا هو البيت الثاني بعده.

[قلت]

وهذا الكلام تقدم معناه عن الإمام النووي والقرطبي وابن تيمية وابن حجر، وغيرهم من أهل العلم في الباب الماضي.

ثم قال: صحيح أنه يوجد أناس يغفلون فيه، ولكن لم يصلوا إلى جعل قبره وثناً ولكن قد يعبدون الرسول ﷺ ولو في مكان بعيد، فإن وجد من يتوجه له ﷺ بدعائه عند قبره، فيكون قد اتخذته وثناً، لكن القبر نفسه لم يجعل وثناً. أهـ.

وقال القرعاوي^(٢) ذاكراً للفوائد من الحديث:

(١) قصد القبور وتعظيمها عبادة لها، فيكون شركاً مهما كان قرب صاحبها من الله.

(٢) إثبات صفة الغضب على الوجه اللائق به سبحانه، وتقدم ذكر ذلك.

(٣) تحريم بناء المساجد على القبور، تقدم ذلك.

(٤) تحريم الصلاة عند القبور ولو لم يبن مسجداً. أهـ.

سؤال: ماذا على الناس الذين يذهبون إلى مسجد القبليتين أو مسجد قباء والصلاة فيه

(١) القصيدة التوبية (٢/٢١٢) بشرح خليل هراس. وأضفت البيت الثاني للإفادة.

(٢) الجديد (١٩٥).

ركعتين ولم يكن هناك صلاة أثناء الزيارة وذلك أثناء العمرة وما حكم قصد الصلاة في الحرم عند بئر زمزم، فماذا عليهم أيضاً؟(*)

الجواب

قال الفقير: الصلاة في مسجد قباء تعدل عمرة، وكان ﷺ يقصد مسجد قباء للصلاة فيه وهو أيضاً المسجد الذى أسس على التقوى، على أحد قولى المفسرين، أما مسجد القبلتين فلا يجوز قصده من أجل الصلاة فيه ولا من أجل التبرك به، أما إذا مررت اتفاقاً على المسجد فصليت من غير قصد فيه فيجوز. أما تعمد الصلاة فيه فلا تجوز، وهذا إما محرّم أو مكروه كراهة تحريمية منهي عنها.

أما الصلاة عند زمزم فلو كان يصلى عنده لأنه من المسجد الحرام فجائز أما إذا كان يصلى عندها لأنها زمزم فلا يجوز له ذلك ووقع فى المحذور، وهذا لا يناقض البركة التى فى ماء زمزم فهو لما شرب له، وطعام طعم وشفاء سقم، ولكن ليس فيه أن تقصد البقعة بالصلاة بل ينبغى أن نلتمس البركة بالطرق الشرعية كما تقدم بحث ذلك مطولاً فى باب من تبرك بشجر أو حجر والله تعالى أعلم.

سؤال: نرجو التنبيه على من يذهب إلى المملكة، وخاصة إلى المدينة بعدم زيارة بعض المساجد التى تسمى مسجد بلال وعمر وهى بجوار بعضها يذهب إليها الناس للزيارة والصلاة فيها بل وتنقل سيارات خاصة بذلك تقول «المزارات» وكذلك فى مكة يذهبون إلى الغار وما يسمى بجبل الثور وهذه الأمور غائبة على كثير من العامة وبعض الخاصة، وجزاك الله خيراً؟

الجواب/ قال الفقير: نعم بعض من يذهب إلى المدينة يفعل ذلك وهذه المساجد يقال أنها مكان غزوة الأحزاب وهو الآن ليس على ما كان عليه بل أصبح طريقاً ممهداً تسير فيه السيارات لكن هناك مساجد شبه مهجورة، يقولون عليها أنها هى الأماكن التى وضعها النبى ﷺ لأبى بكر وعمر كقواد للسرايا، فجعلوا أماكنها مساجد تتخذ للعبادة، والحمد لله أغلبها قد خرب إلا مسجد واحد يوشك على الخراب، وفى الغالب من يقصد هذه المساجد ليسوا من أهل السنة بل من أهل البدع والأهواء من الصوفية والباطنية والشيعية، ومن المزارات أيضاً أحد وقبور الشهداء فى أحد وقبر حمزة.

(*) تنبيه: هذا السؤال الذى بعده إحدى الأسئلة التى سئلت أثناء إلقاء محاضرات فى شرحى للكتاب من هذا الباب.

ولابن جرير بسنده عن سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ قَالَ : «كَانَ يَلْتُ لَهُمُ السَّوِيقُ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ» .
وَكَذَا قَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : «كَانَ يَلْتُ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ» (١) .

ولكن المسئولين عن الإرشاد والدعوة هناك - جزاهم الله خيراً - والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يسعون جاهدين أن يمنعوا الناس من ذلك كما أنشأوا حاجزاً من الأسلاك على الجبل الذي به غار حراء ومنعوا الصعود للجبل والغار ، وبعض الأماكن لم يستطيعوا أن يفعلوا فيها ذلك، وأيضاً لما خربت بعض المساجد التي تقصد من أجل هذا الأمر لم يعمروها، وهذا يحمد لهم، لكن في الحقيقة هم لن يستطيعوا أن يفعلوا كل شيء، بل نستطيع أن نفعل نحن بأن نتواصا بهذا الحق ونصبر عليه.



قوله : [ولابن جرير بسنده عن سُفْيَانَ...] إلخ
مناسبة الأثر للباب وللتوحيد :

قال سليمان آل الشيخ (٢) : وسبب عبادة اللات هو الغلو في قبره حتى صار وثناً يعبد، كما كان ذلك هو السبب في عبادة الصالحين، ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، وغيرهم، وكما كان ذلك هو السبب في عبادة الصالحين من الأموات وغيرهم اليوم، فإنهم غلوا فيهم، وبنوا على قبورهم القباب والمشاهد، وجعلوها ملاذاً لقضاء المآرب، اهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ (٣) : ومناسبته للباب أنهم غلوا فيه لصلاحه حتى عبدوه، وصار قبره وثناً من أوثان المشركين : . اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله (٤) : مناسبة الآية للباب أن تعظيم الرجال الصالحين والغلو في قبورهم والعكوف عليها يؤدي إلى الشرك المنافي للتوحيد . اهـ.

وقال ابن باز (٥) : فاللات لما غلى فيه أهل الطائف صار معبوداً من دون الله . فهذه سنة الأولين والآخرين، فالبناء على القبور وتعظيمها يصيرها أوثاناً تعبد، وإن لم يعبدوها الآن ، فالوسائل تجر إلى الغايات . اهـ.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى في «التفسير» / باب : «أفرأيتم اللات والعزى» (٨/٤٧٨ / ح ٤٨٥٩) وابن جرير في «تفسيره» (٢٧/٣٥) بدون الجملة الأخيرة .

وذكره السيوطى في «الدر المنثور» (٦/١٦٣) وعزاه لعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه . تقدم تخريجه . وانظر تمام التخریج فى «فتح المجيد» (ح ٢١٣ - ٢١٥) .

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٥٢) (٣) فتح المجيد (١/٣١٦) .

(٤) الجامع الفريد (٨٨) (٥) التعليق المفيد (١٢٦) .

وقال ابن عثيمين^(١) : قالوا: هذا الرجل المحسن الذى يلت السوق للحجاج ، ويطعمهم إياه ثم بعد ذلك عبده، فصار الغلو فى القبور يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله.

وفى هذا التحذير من الغلو فى القبور، ولهذا نُهى عن تخصيصها والبناء عليها والكتابة عليها خوفًا من المحذور العظيم الذى يجعلها تعبد من دون الله . اهـ. وسيأتى باقى كلام الشيخ فى موضعه.

وقال القرعاوى^(٢) : حيث أفاد الأثر بأن اللات فى الأصل اسم لرجل صالح كان يلت السوق للحجاج ، فلما مات غلو فى قبره واتخذوه صنمًا يعبد من دون الله ، فعلى هذا كل قبر غلا الناس فى تعظيمه سيؤدى إلى عبادته، وإن لم يسمونه عبادة . اهـ.

شرح الأثر: قوله [ولابن جرير] : هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبرى صاحب «التفسير» و«التاريخ» وغيرهما.

قال ابن خزيمة: لا أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير وكان من الأئمة المجتهدين لا يقلد أحدًا وله أصحاب يتفقهون على مذهبه ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة^(٣) .

قال ابن عثيمين^(٤) : وتفسيره: هو أصل التفسير بالأثر، ومرجع لجميع المفسرين بالأثر، ولا يخلو من بعض الآثار الضعيفة، وكأنه يريد أن يجمع ما روى عن السلف من الآثار فى تفسير القرآن، ويدع للقارئ ، الحكم عليها بالصحة أو الضعف بحسب تتبع رجال السند، وهى طريقة جيدة من وجه، وليست جيدة من وجه آخر.

فجيدة من جهة أنها تجمع الآثار الواردة حتى لا تضيع وربما تكون طرقها ضعيفة ويشهد بعضها البعض.

وليست جيدة من جهة أن القاصر بالعلم ربما يخلط الغث بالسمين ويأخذ بهذا وهذا، لكن من عرف طريقة السند، وراجع رجال السند، ونظر إلى أحوالهم وكلام العلماء فيهم، علم ذلك . اهـ

قال الفقير: بل مؤدى كلام أهل العلم جواز العمل بالضعيف وروايته فى التفسير قال البيهقى فى مقدمة دلائل النبوة^(٥) : تساهلوا فى التفسير عن قوم لا يوثقونهم فى

(١) القول المفيد (١/٥٤٨).

(٢) الجديد (١٩٦).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٥١، ٢٥٢).

(٤) القول المفيد ١/٥٤٥ و٥٤٦.

(٥) دلائل النبوة (١/٣٥-٣٧).

الحدِيث، ثم ذكر ليث بن أبي سليم وجويبر بن سعيد، والضحاك، ومحمد بن السائب - يعني الكلبي - وقال هؤلاء يحدِّثهم ويكتب التفسير عنهم وإنما تساهلوا في أخذ التفسير عنهم، لأن ما فسروا به ألفاظه تشهد لهم به لغات العرب، وإنما أظنها عملهم في ذلك الجمع والتقريب فقط . اهـ.

ثم قال إى ابن عثيمين: وقد أضاف إلى تفسيره بالأثر: التفسير بالنظر ولا سيما ما يعود إلى اللغة العربية، ولهذا دائماً يُرجَّحُ الرأى ويستدلُّ له بالشواهد الواردة في القرآن وعن العرب.

ومن الناحية الفقهية، فالطبرى مجتهد، لكنه سلك طريقة خالف غيره فيها بالنسبة للإجماع، فلا يعتبر خلاف الرجل والرجلين، وينقل الإجماع ولو خالف في ذلك رجل أو رجلان، وهذه الطريقة تؤخذ عليه، لأنَّ الإجماع لا بد أن يكون من جميع أهل العلم المعبرين في الإجماع، وقد يكون الحق مع هذا الواحد المخالف.

والعجيب أنى رأيت بعض المتأخرين يحذرون الطلبة من تفسيره، لأنَّه مملوء على زعمهم بالإسرائيليات، ويقولون: عليكم بـ «تفسير الكشاف» للزمخشري وما أشبه ذلك، وهؤلاء مخطئون، لأنهم لجهلهم بفضل التفسير بالآثار عن السلف واعتزازهم بأنفسهم وإعجابهم بأرائهم صاروا يقولون هذا . اهـ.

قوله: [عن سفيان]

قال سليمان آل الشيخ^(١): فإن كان ابن عينة فقد تقدمت ترجمته، وإن كان الثورى وهو الأظهر فهو سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله الكوفى، ثقة حافظ فقيه إمام حجة عابد، وكان مجتهداً، له أتباع وأصحاب يتفقون على مذهبه، مات سنة إحدى وستين ومائة، وله أربع وستون سنة . اهـ.

قوله [عن منصور]

قال سليمان آل الشيخ^(٢): هو ابن المعتمر بن عبد الله السلمى أبو عتاب - بمثناة ثقيلة ثم موحدة - الكوفى، ثقة ثبت فقيه، مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة . اهـ.

قوله [عن مجاهد]

قال سليمان آل الشيخ^(٣): هو ابن جبر - بالجيـم والموحدة - أبو الحجاج المخزومى مولاهم المكى، ثقة إمام فى التفسير والعلم، أخذ التفسير عن ابن عباس وغيره، مات

(١، ٢، ٣) تيسير العزيز الحميد (٢٥٢).

سنة أربع ومائة ، قاله يحيى القطان ، وقال ابن حبان : مات سنة اثنتين أو ثلاثة ومائة وهو ساجد ، وكان مولده إحدى وعشرين فى خلافة عمر رضى الله عنه . اهـ .

قوله : «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ»

قال ابن عثيمين^(١) : الهمزة للاستفهام ، والمراد به التحقير ، والخطاب لعبدى هذه الأصنام اللات والعزى . . . إلخ .

لما ذكر الله تعالى قصة المعراج وما حصل فيه من الآيات العظيمة التى قال عنها : ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ قال : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ أى : ما نسبة هذه الأصنام للآيات الكبيرة التى رآها النبى ﷺ ليلة المعراج .

اللات :

قال ابن حجر^(٢) : قال الإسماعيلى : هذا التفسير - أى تفسير اللات بأنه رجل يلت سويق الحاج - على قراءة من قرأ اللات بتشديد التاء .

قلت - أى الحافظ - وليس ذلك بلازم بل يحتمل أن يكون هذا أصله وخفف لكثرة الاستعمال ، والجمهور على القراءة بالتخفيف . . وقد روى التشديد عن قراءة ابن عباس وجماعة من أتباعه ، ورويت عن ابن كثير أيضاً ، والمشهور عنه التخفيف كالجمهور . . .

قال سليمان آل الشيخ^(٣) : لا تخالف بين هذا التفسير والقراءة وبين قراءة من قرأ بالتخفيف . وقال : إنه كان حجر فعبده ، واشتقوا له من اسم الله الإله كما تقدم تقريره فى باب / من تبرك بشجر ، وأيضاً فيجاب على الأول بأن أصله التشديد ، وخفف لكثرة الاستعمال ، وأما كونهم اشتقوا هذا الاسم من اسم الله فلا ينافى أيضاً ذلك . اهـ .

قال ابن عثيمين^(٤) : فالتخفيف يُرَجَّحُ أنه من الإله ، والتشديد يرجح أن أصله رجل يلت السويق ، وغلو فى قبره ، وقالوا : هذا الرجل المحسن الذى يلت السويق للحجاج

(١) القول المفيد ٥٤٧/١ .

(٢) الفتح ٤٧٨/٨ .

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٥٢) .

(٤) القول المفيد (٥٤٧/١) ، ٥٤٨ .

.....
ويطعمهم إياه ثم بعد ذلك عبده، فصار الغلو في القبور يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله . أهـ .

قال ابن حجر^(١): واختلف في اسم هذا الرجل فروى الفاكهي من طريق مجاهد قال: «كان رجل في الجاهلية على صخرة بالطائف وعليها له غنم، فكان يسلو من رسلها ويأخذ من زبيب الطائف والأقط فيجعل منه حيساً ويطعم من يمر به من الناس، فلما مات عبده» وكان مجاهد يقرأ اللات مشددة .

ومن طريق ابن جريج نحوه، قال وزعم بعض الناس أنه عامر بن الظرف انتهى، وهو - بفتح الظاء المشددة وكسر الراء ثم موحدة وهو العدواني بضم المهملة وسكون الدال ، وكان حكم العرب في زمانه، وفيه يقول شاعرهم

«ومنا حكم يقضى ولا ينقض ما يقضى»

وحكى السهيلي أنه عمرو بن لحي بن قمعة بن إلياس بن مضر، قال ويقال هو عمرو بن لحي وهو ربيعة بن حارثة وهو والد خزاعة انتهى .

وحرف بعض الشراح كلام السهيلي وظن أن ربيعة بن حارثة قول آخر في اسم اللات، وليس كذلك ، وإنما ربيعة بن حارثة اسم لحي فيما قيل، والصحيح: أن اللات غير عمرو بن لحي، فقد أخرج الفاكهي من وجه آخر عن ابن عباس أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحي: إنه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة فعبدها وبنوا عليها بيتاً، وفي الصحيح في باب مناقب قريش أن عمرو بن لحي هو الذي حمل العرب على عبادة الأصنام، وهو يؤيد هذه الرواية، وحكى ابن الكلبي أن اسمه صرمة بن غنم . أهـ .

هل هو أقدم أم مناة .

قال ابن حجر: وكانت اللات بالطائف وقيل بنخلة وقيل بعاظ ، والأول أصح ، وقد أخرجه الفاكهي أيضاً من طريق مقسم عن ابن عباس ، قال هشام بن الكلبي: كانت مناة أقدم من اللات فهدهما على عام الفتح بأمر النبي ﷺ، وكانت اللات أحدث من مناة فهدهما المغيرة بن شعبة بأمر النبي ﷺ لما أسلمت ثقيف وكانت العزى أحدث

(١) الفتح ٨ / ٤٧٨ .

من اللات وكان الذى اتخذها ظالم بن سعد بوادى نخلة فوق ذات عرق فهدمها خالد بن الوليد بأمر النبى ﷺ عام الفتح. (١) اهـ

قلت: «وقد تقدم شيء من هذا فى باب من تبرك بشجره أو حجر» وقول الله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ .

قال ابن عثيمين^(٢): وفى هذا التحذير من الغلو فى القبور، لهذا نُهى عن تخصيصها والبناء عليها والكتابة عليها خوفاً من هذا المحذور العظيم الذى يجعلها تعبد من دون الله، وكان الرسول ﷺ يأمر إذا بعث بعضاً، بأن لا يدعوا قبراً مشرقاً إلا سووه، لعلمه أنه مع طول الزمان سيقال: لولا أن له مزية ما اختلف عن القبور، فالذى ينبغى أن تكون القبور متساوية لا ميزة لواحد منها عن البقية اهـ.

قلت: وعلى رواية التشديد أنه كان رجل يلت السويق فقالوا هذا رجل محسن فغلو فيه، فهذا - والله أعلم من باب التنبيه على الأغلاظ من خلال التنبيه على الأخف، فيكون التحذير من الغلو فى قبور المجاهدين أو الشهداء أو الزعماء أشد من ذلك لما لهم من الفضل والأجر - إن كانوا من المقبولين - أعظم ممن يخدم الحجاج لقوله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ .

العزى:

قال ابن كثير^(٣): قال ابن إسحاق فى «السيرة»: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدة وحجائب وتهدى لها كما تهدى للكعبة وتطوف بها كطوافها بها وتنحدر عندها وهى تعرف فضل الكعبة عليها لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده فكانت لقريش ولبنى كنانة:

(١) تقدم تخريجه .

(٢) القول المفيد ١/ ٥٤٨ .

(٣) ابن كثير (٢٤٥/٤) .

العزى بنخلة وكان سدنتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم قلت بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول:

يا عزى كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

وقال النسائي: أخبرنا على بن المنذر أخبرنا ابن فضيل حدثنا الوليد بن جميع عن أبي الطفيل قال لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى فأتاها خالد وكانت على ثلاث سمرة فقطع السمرة وهدم البيت الذى كان عليها ثم أتى النسي ﷺ فأخبره فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً» فرجع خالد فلما أبصرته السدنة وهم ححبتها امعنوا فى الجبل وهم يقولون يا عزى يا عزى فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها فغمسها بالسيف حتى قتلها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «تلك العزى»^(١) اهـ.

قلت: تقدم أيضاً شيء من هذا فى باب من تبرك بشجر أو حجر وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾.

قوله: «يَلْتُ» قال ابن منظور: لت: لَتَ السويقَ والأقِطَ ونحوهما، يَلْتُه لَتًا: جَدَحَه، وقيل: بَسَه بالماء ونحوه، أنشد ابن الأعرابي:

سَفَّ الْعَجُوزِ الْأَقِطَ الْمَلْتُوتَا.

واللغات: ما لت به.

قال الليث: اللت بل السويق، والبسُّ أشد منه.

يقال: لت السويق أى بله، ولت الشيء يَلْتُه إذا شده وأوثقه، وقد لَتَ فلانٌ بفلانٍ إذا لَزَّ به وقرن معه.

واللات، فيما زعم قوم من أهل اللغة: صخرة كان عندها رجل يلت السويق للحاج فلما مات، عُبِدَت

قال ابن سيده: ولا أدري ما صحة ذلك، وسيأتى ذكر اللات، بالتخفيف فى

موضعه.

(١) تقدم تخريجه

قال الليث الليث : اللت الفعل من اللتات، وكل شيء يُلْت به سويق أو غيره نحو السمن ودهن الآلية وفي حديث مجاهد في قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ قال : كان رجل يلت السويق لهم، وقرأ : أفرايتم اللات والعزى بالتشديد .

قال الفراء والقراءة اللات، بتخفيف التاء ، قال : وأصله اللات بالتشديد، لأن الصنم إنما سمي باسم اللات الذي كان يُلْت عند هذه الأصنام لها السويق أى يخلطه، فخفف وجعل اسماً للصنم،

قال ابن الأثير: وذكر أن التاء في الأصل مخففة للتأنيث، وليس هذا بابها، وكان الكسائي يقف على اللاه، بالهاء .

قال أبو إسحق: وهذا قياس، والأجود اتباع المصحف، والوقوف عليها بالتاء،

قال أبو منصور: وقول الكسائي يوقف عليها بالهاء يدل على أنه لم يجعلها من اللت، وكان المشركون الذين عبدوها عارضوا باسمها اسم الله تعالى الله علواً كبيراً عن إفكهم ومعارضتهم وإحادهم في اسمه العظيم .

واللتات : ما فُت من قشور الخشب .

ابن الأعرابي : اللتُ الفت، قال امرؤ القيس يصف الحمُر:

تَلْتُ الحَصَى لَتًا بِسُمُرٍ رَزِيَةٍ مَوَارِنَ ، لَا كُزْمَ وَلَا مَعَرَاتِ

قال: تلت أى تَدَقُّ، والسُمُرُ، الحوافر، والكزَم : القصار، وقال هِمَيَانُ في اللت،

بمعنى الدق .

حَطَمَا عَلَى الْأَنْفِ وَوَسَمًا عُلْبًا وَبِالْعَصَا لَتًا، وَخَنَقًا سَابَا

قال أبو منصور: وهذا حرف صحيح، وروى عن الشافعى، رضى الله عنه، أنه

قال في باب التيمم: ولا يجوز التيمم بلسات الشجر، وهو ما فت من قشره اليابس

الأعلى، قال الأزهرى: لا أدري لَتَات أم لِتَات، وفي الحديث : ما أبقي منى إلا لَتَاتًا ،

اللتات : ما فُت من قشور الشجر ، كأنه قال: ما أبقي من المرض إلا جلداً يابساً

كقشرة الشجرة . اهـ .

قال سليمان آل الشيخ^(١): ولت السوق هو خلطه بالسمن ونحوه . اهـ.

قال ابن منظور^(٢): والسويق معروف، والصاد فيه لغة لمكان المضارعة، والجمع أسوقة. غيره: السَّوْق ما يُتَّخَذ من الحنطة والشعير، ويقال: السوق المُقْل الحَيّ، والسويق السَّبْق الفَتَّى، والسَّوْق الخمر،

قال ابن عثيمين^(٣): هو عبارة عن شعير يُحْمَص، ثم يطحن، ثم يخلط بتمر أو شبهه، ثم يؤكل . اهـ.

قوله: [وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يَلْتُ السوق للحاج].

قال سليمان آل الشيخ^(٤): أبو الجوزاء هو أوس بن عبد الله الربعى، ثقة مشهور، مات سنة ثلاث وثمانين، وهذا الأثر ذكره المصنف ولم يعزه، وقد رواه البخارى .

ثم قال: وبالجملية فالغلو أصل الشرك فى الأولين والآخرين إلى يوم القيامة. وقد أمرنا الله تعالى بمحبة أوليائه وإنزالهم منازلهم من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم، ونهانا عن الغلو فيهم فلا نرفعهم فوق منزلتهم، ولا نحطهم منها لما يعلمه تعالى فى ذلك من الفساد العظيم، فما وقع الشرك إلا بسبب الغلو فيهم، فإن الشرك بهم غلو فيهم، وأنزلوهم منازل الإلهية وعصوا أمرهم وتنقصوهم فى صورة التعظيم لهم، فتجد أكثر هؤلاء الغالين فيهم العاكفين على قبورهم معرضين عن طريقة من فيها وهدية وستة، عائبين لها مشغلين بقبورهم عما أمروا به ودعوا إليه.

وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما هى باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم، وسلوك طريقته دون عبادتهم وعبادة قبورهم، والعكوف عليها كالذين يعفكون على الأصنام واتخاذهم أعياداً ومجامع للزيارات والفواحش وترك الصلوات، فإن من اقتفى آثارهم كان متسبباً فى تكثير أجورهم باتباعه لهم، ودعوته الناس إلى اتباعهم، فإذا أعرض عما دعوا إليه واشتغل بضده حرم نفسه،

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٥٢).

(٢) لسان العرب مادة (س - و - ق)

(٣) القول المفيد / ٥٤٨ .

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٥٢-٢٥٣).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالتَّخْذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ» رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ (١).

وحرّمهم ذلك الأجر، فأى تعظيم لهم واحترام فى هذا . اهـ.

قال ابن عثيمين (٢): والغريب أن الناس فى جاهليتهم يكرمون حجاج بيت الله ويلتون لهم السوق وكان العباس أيضاً يسقى لهم من زمزم، وربما يجعل من زمزم نبذاً، يحليه زيباً أو نحوه، وفى الوقت الحاضر صار الناس بالعكس يستغلون الحجاج غاية الاستغلال - والعياذ بالله - حتى يبيعوا عليهم ما يساوى ريالاً بريالين وأكثر حسب ما يتيسر لهم وهذا فى الحقيقة خطأ عظيم، لأن الله تعالى يقول: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» فكيف بمن يفعل الإلحاد ؟! . اهـ.



قوله: [عن ابن عباس رضى الله عنهما : قال: ... إلخ]

قال عبد الرحمن آل الشيخ (٣): وفى الباب حديث أبى هريرة وحديث حسان بن ثابت .

فأما حديث أبى هريرة فرواه أحمد والترمذى وصحّحه (٤).

وحديث حسان أخرجه ابن ماجه من رواية عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عن أبيه

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد (١/٢٢٩، ٢٨٧، ٣٢٤، ٣٣٧) وأبو داود فى الجنائز / باب زيارة القبور (٣/٢١٦ ح ٣٢٣٦) والترمذى فى الصلاة / باب: كراهية أن يتخذ على القبر مسجداً (٢/١٣٦ / ٣٢٠) والنسائى فى الجنائز / باب: التغليظ فى اتخاذ السرج (٤/٩٤، ٩٥ - السيوطى) وابن ماجه فى الجنائز : باب / النهى عن زيارة النساء (١/٥٠٢ / ١٥٧٥) والحاكم (١/٣٧٤) والبيهقى (٤/٧٨ / ٧٢٠٦) والطبرانى فى الكبير (١٢/١٤٨ / ١٢٧٢٥) وابن حبان فى صحيحه (٥/٧٢ / ٢٣١٦٩، ٣١٧٠ - لإحسان).

جميعاً من طريق محمد بن جحادة سمعت أبا صالح عن ابن عباس

قال الترمذى : حديث ابن عباس حديث حسن

وذكره الحافظ فى «التلخيص» (٢/١٣٧ / ٧٩٨) وقال: والجمهور على أن أبا صالح هو مولى أم هانئ وهو ضعيف وانظر منار السبيل» (ح ٨٣) بتخريجنا. «وفتح المجيد» (ح ٣٩٠) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد (١/٥٤٩). (٣) انظر فتح المجيد (١/٣١٧، ٣١٨).

(٤) أخرجه أحمد (٢/٣٣٧، ٣٥٦) والترمذى (١٠٥٦) وابن ماجه (١٥٧٦).

وانظر «فتح المجيد» (ح ٣٩٣) بتخريجنا.

قال: «لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور» (١).

وحديث ابن عباس هذا فى إسناده أبو صالح مولى أم هانئ، وقد ضعفه بعضهم ووثقه بعضهم، قال علي بن المدينى، عن يحيى القطان: لم أر أحداً من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانئ، وما سمعت أحداً من الناس يقول فيه شيئاً، ولم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبد الله بن عثمان،

قال ابن معين: ليس به بأس، ولهذا أخرجه ابن السكن فى صحيحه، انتهى من «الذهب الإبريز» عن الحافظ المزى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «وقد جاء عن النبى ﷺ من طريقين: فعن أبى هريرة رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور» (٢) وذكر حديث ابن عباس، ثم قال: ورجال هذا ليس رجال هذا، فلم يأخذه أحدهما عن الآخر، وليس فى الإسنادين من يتهم بالكذب، وإنما التضعيف من جهة سوء الحفظ ومثل هذا حجة بلا ريب، وهذا من أجود الحسن الذى شرطه الترمذى، فإنه جعل الحسن: ما تعددت طرقه ولم يكن فيه متهم، ولم يكن شاذاً، أى مخالفاً لما ثبت بنقل الثقات.

وهذا الحديث تعددت طرقه وليس فيها متهم ولا خالفه أحد من الثقات .. هذا لو كانا عن صاحب واحد، فكيف إذا كان هذا رواه عن صاحب وذاك عن آخر ؟ فهذا كله يبين أن الحديث فى الأصل معروف».

● مناسبة الحديث للباب ومراد المصنف:

- قال سليمان آل الشيخ (٣): ووجه إيراد المصنف هذا الحديث فى هذا الباب دون الذى قبله، هو أنه لعن المتخذين عليها المساجد والسرج، وقرن بينهما، فهما قرينان فى اللعنة، فدل ذلك على أنه ليس المنع من اتخاذ المساجد عليها لأجل النجاسة، بل لأجل نجاسة الشرك ولذلك قرن بينه وبين الإسراج عليها، وليس النهى عن الإسراج لأجل النجاسة فكذلك البناء اهـ.

(١) أخرجه أحمد (٤٤٢/٢) وابن ماجه (١٥٧٤) وانظر تخريجنا لفتح المجيد (ح ٣٩٤).

(٢) تقدم تخريجه (٣) تيسير العزيز الحميد (٢٥٤).

(٣) تقدم تخريجه

- قال حسن بن محمد^(١): لما فيه من ذلك المحذور الذى يؤول إلى الشرك،
وعبادة غير الله . اهـ.

- قال ابن عثيمين^(٢): المناسبة للباب أن اتخاذ المساجد عليها وإسراجها غلو فيها،
فيؤدى بعد ذلك إلى عبادتها . اهـ.

- وقال القرعاوى^(٣): حيث نهى ﷺ عن الغلو فى القبور ببناء المساجد عليها
وإشعال السرج عليها، وذلك لأنه يؤدى إلى تعظيم أصحابها فيصيرها أوثاناً تعبد
بالتعظيم . اهـ.

لماذا أورد المصنف هذا الحديث فى هذا الباب دون الذى قبله؟!

● [قلت] فالأولى أن يقال وجه إيراد المصنف هذا الحديث فى هذا الباب دون الذى
قبله أنه أتى بالمرحلة الموصلة إلى جعل القبور أوثاناً، وهى
(أولاً) الزيارة.

(ثانياً) الإكثار فيها، وعبر عن ذلك بقوله: «زوارات القبور»
(ثالثاً) اتخاذها مساجد.

(رابعاً): الإسراج لها من باب التعظيم.

(خامساً) الإسراج لها من باب النذر لها أو لأصحابها أولهما . والله أعلم .
قوله: [لعن رسول الله ﷺ]:

قال ابن عثيمين^(٤): قوله (لعن): اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومعنى
لعن رسول الله ﷺ، أى: دعا عليهم باللعنة . اهـ.

قلت: وقد تقدم فى باب / ماجاء فى الذبح لغير الله - أن هذا فىمن استحق اللعن،
أما من لم يستحق اللعن، ولعنه رسول الله ﷺ فهو فى حقه رحمة . والله المستعان .

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٩٧).

(٢) القول المفيد (١/ ٥٥١).

(٣) الجديد (١٩٨).

(٤) القول المفيد (١/ ٥٥١).

وقال ابن عثيمين^(١): قوله: [زائرات القبور]:

زائرات: جمع زائرة، والزائرة هنا معناها: الخروج إلى المقابر، وهى أنواع: منها ما هو سنة، وهى زيارة الرجال للتعاط والدعاء للموتى. ومنها ما هو بدعة، وهى زيارتهم للدعاء عندهم وقراءة القرآن ونحو ذلك. ومنها ما هو شرك، وهى زيارتهم لدعاء الأموات والاستنجاد بهم والاستغاثة ونحو ذلك.

وزائر: اسم فاعل يصدق بالمرّة الواحدة، وفى حديث أبى هريرة: «لعن رسول الله ﷺ زوَّارات القبور»^(٢)، بتشديد الواو، وهى صيغة مبالغة تدلّ على الكثرة أى كثرة الزيارة. اهـ.

● حكم زيارة القبور للنساء، وقوله: (زائرات القبور): -

قال سليمان آل الشيخ^(٣): أى من النساء، وهذا يدل على تحريم زيارة القبور عليهن كما هو مذهب أحمد وطائفة. وقيل فى تعليل ذلك أنه يخرجها إلى الجزع والتدب والنياحة والافتتان بها وبصورتها، وتأذى الميت ببيكائها.

- كما فى حديث آخر: «فإنكن تفتن الحى وتوذين الميت»^(٤) وإذا كان زيارة النساء مظنة وسبباً للأمور المحرمة فى حقهن وحق الرجال، وتقدير ذلك غير مضبوط؛ لأنه لا يمكن حد المقدار الذى لا يفض إلى ذلك، ولا التمييز بين نوع ونوع.

ومن أصول الشريعة أن الحكمة إذا كانت خفية أو مستشرة علق الحكم بمظنها فتحرم سداً للذريعة، كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة لما فى ذلك من الفتنة، وكما حرمت الخلوة الأجنبية .

وليس فى زيارتها من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة، لأنه ليس فى زيارتها إلا دعواها لميت أو اعتبارها به، وذلك ممكن فى بيتها.

- وقد روى الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم عن حسان بن ثابت مرفوعاً: «لعن الله زوَّارات القبور»^(٥)

(١) القول المفيد (١/ ٥٥٢، ٥٥٧).

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٥٣، ٢٥٤).

(٥) تقدم تخريجه

(٤) سيأتى تخريجه قريباً .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ: «لعن زوارات القبور»^(١) رواه أحمد وابن ماجه والترمذى وصححه، وضعفه عبد الحق، وحسنه ابن القطان، ولا يعارض هذا حديث. «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»^(٢) رواه مسلم وغيره؛ لأن هذا إن سلم دخول النساء فيه، فهو عام والأول خاص، والخاص مقدم على العام، وأيضاً ففي دخول النساء فى خطاب الذكور خلاف عند الأصوليين. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): والذين رخصوا فى الزيارة اعتمدوا على ما روى عن عائشة رضى الله عنها: أنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن وقالت: «لو شهدتك مازرتك»^(٤) وهذا يدل على أن الزيارة ليست مستحبة للنساء كما تستحب للرجال؛ إذ لو كان كذلك لاستحبت زيارته، سواء شهدته أم لا^(٥).

قلت - أى عبد الرحمن - فعلى هذا لاجبة فيه لمن قال بالرخصة.

وهذا السياق لحديث عائشة رواه الترمذى من رواية عبد الله بن أبى مليكة عنها، وهو يخالف سياق الأثر له عن عبد الله بن أبى مليكة أيضاً: «أن عائشة رضى الله عنها أقبلت ذات يوم من المقابر. فقلت لها: يا أم المؤمنين، أليس نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، نهى عن زيارة القبور، ثم أمر بزيارتها»^(٦).

فأجاب شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا وقال: «ولا حجة فى حديث عائشة؛ فإن المحتج عليها احتج بالنهى العام، فدفعت ذلك بأن النهى منسوخ، ولم يذكر لها المحتج النهى الخاص بالنساء الذى فيه لعنهن على الزيارة. يبين ذلك قولها: «قد أمر بزيارتها» فهذا يبين أنه أمر بها أمراً يقتضى الاستحباب، والاستحباب إنما هو ثابت للرجال خاصة. . ولو كانت تعتقد أن النساء مأمورات بزيارة القبور لكانت تفعل ذلك كما يفعل الرجال، ولم تقل لأخيها: «لما زرتك». واللعن صريح فى التحريم، والخطاب بالإذن فى قوله: «فزوروها» لم يتناول النساء فلا يدخلن فى الحكم الناسخ،

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) فتح المجيد (١/٣١٨).

(٤) أخرجه الترمذى (١٠٥٥) وأنظر تمام التخرىج فى «فتح المجيد» (٣٩٧) بتخريجنا.

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٤/٣٤٥) بتصرف.

(٦) أخرجه الحاكم فى المستدرک (١/٣٧٦) وأنظر «فتح المجيد» (ح ٣٩٨) بتخريجنا وسيأتى أنظر

مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٤/٣٥١، ٣٥٢) بتصرف.

والعام إذا عرف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخاً له عند جمهور العلماء، وهو مذهب الشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه، وهو المعروف عند أصحابه، فكيف إذا لم يعلم أن هذا العام بعد الخاص؟ إذا قد يكون قوله: «لعن الله زوارات القبور» بعد إذنه للرجال في الزيارة. يدل على ذلك: أنه قرنه بالمتخذين عليها المساجد والسرج. ومعلوم أن اتخاذ المساجد والسرج المنهى عنها محكم، كما دلت عليها الأحاديث الصحيحة وكذلك الآخر»^(١).

والصحيح: أن النساء لم يدخلن في الإذن في زيارة القبور لعدة أوجه:
أحدها: أن قوله ﷺ: «فزوروها» صيغة تذكير.. وإنما يتناول النساء أيضاً على سبيل التغليب. لكن هذا فيه قولان.

قيل: إنه يحتاج إلى دليل منفصل، وحيث قد يحتاج تناول ذلك للنساء إلى دليل منفصل.

وقيل: إنه يحمل على ذلك عند الإطلاق. وعلى هذا فيكون دخول النساء بطريق العموم الضعيف، والعام لا يعارض الأدلة الخاصة.. ولا ينسخها عند جمهور العلماء، ولو كان النساء داخلات في هذا الخطاب لاستحبّ لهن زيارة القبور، وما علمنا أحداً من الأئمة استحب لهن زيارة القبور، ولا كان النساء على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور»^(٢).

ومنها: أن النبي ﷺ علل الإذن للرجال بأن ذلك: «يُذَكِّرُ الْمَوْتَ، وَيُرَقِّقُ الْقَلْبَ، وَتُذَمِّعُ الْعَيْنَ» هكذا في مسند أحمد^(٣). ومعلوم أن المرأة إذا فتّح لها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة؛ لما فيها من الضعف وقلة الصبر. وإذا كانت زيارة النساء مظنةً وسبباً للأمور المحرمة، فإنه لا يمكن أن يحد المقدار الذي لا يقضى إلى ذلك، ولا التمييز بين نوع ونوع، ومن أصول الشريعة: أن الحكمة إذا كانت خفية أو متشعبة علق الحكم بمظنتها. فيحرم هذا الباب سداً للذريعة، كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة، وكما حرم الخلوة بالأجنبية وغير ذلك. وليس في ذلك من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة. فإنه ليس في ذلك إلا دعاؤها للميت. وذلك ممكن في بيتها»^(٤).

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥٣/٢٤، ٣٥٤) بتصرف.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٤٤/٢٤، ٣٤٥) بتصرف.

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٠/٣) الحاكم (٣٧٦/١) وانظر فتح المجيد (٤٠١) - بتخریجنا).

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥٥/٢٤، ٣٥٦).

قلت: وهذا الأخير نص كلام سليمان آل الشيخ السابق ثم قال:
«ومن العلماء من يقول: التشيع كذلك، ويحتج بقوله ﷺ: «ارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ
مَأْجُورَاتٍ، فَإِنَّكُمْ تَفْتِنُ الْحَيَّ وَتُؤْذِنُ الْمَيِّتَ» (١).
وقوله لفاطمة: «أَمَا إِنَّكَ لَوْ بَلَغْتَ مَعَهُمُ الْكَدَى لَمْ تَدْخُلِي الْجَنَّةَ» (٢).
ويؤيده ما ثبت في الصحيحين من «أَنَّهُ نَهَى النِّسَاءَ عَنِ اتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ» (٣).
ومعلوم أن قوله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ تَبَعَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ
قِيرَاطَانٌ» (٤) هو أدلُّ على العموم من صيغة التذكير. فإن لفظ «مَنْ» يتناول الرِّجَالَ
وَالنِّسَاءَ باتِّفَاقِ النَّاسِ، وقد عُلِمَ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ هَذَا الْعُمُومَ لَمْ يَتَنَاوَلَ النِّسَاءَ
لِنَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُنَّ عَنِ اتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، فَإِذَا لَمْ يَدْخُلْنَ فِي هَذَا الْعُمُومِ. فَكَذَلِكَ فِي ذَلِكَ
بِطَرِيقِ الْأُولَى» (٥). انتهى ملخصاً.

قلت أى عبدالرحمن آل الشيخ: ويكون الإذن في زيارة القبور مخصوصاً بالرجال،
خص بقوله: «لعن الله زَوَارَاتِ الْقُبُورِ...» الحديث. فيكون من العام المخصوص.
وعما استدل به القائلون بالنسخ أجوبة أيضاً.

منها: أن ما ذكره عن عائشة وفاطمة رضى الله عنهما معارض بما ورد عنهما في هذا
الباب فلا يثبت به نسخ.

ومنها: أن قول الصحابي وفعله ليس حجة على الحديث بلا نزاع. وأما تعليمه عائشة
كيف تقول: إذا زارت القبور ونحو ذلك، فلا يدل على نسخ ما دلَّت عليه الأحاديث
الثلاثة من لعن زائرات القبور، لاحتمال أن يكون ذلك قبل هذا النهي الأكيد والوعيد
الشديد، والله أعلم. اهـ.

(١) أخرجه ابن ماجه (١٥٧٨) وضعفه الألبانى فى ضعيف سنن ابن ماجه وانظر فتح المجيد (٤٠٢ -
بتخریجنا).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٨/٢، ١٦٩) وأبو داود (٢١٢٣) وانظر «فتح المجيد» (٤٠٣ - بتخریجنا)

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (١٢٧٨) ومسلم (٢/٧) وانظر «فتح المجيد» (٤٠٤ - بتخریجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (١٣٢٥)، ومسلم (١٣١٧) وانظر «فتح المجيد» (٤٠٥ - بتخریجنا).

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٤٦/٢٤).

وقال عبد الله بن جبار الله^(٦): زيارة القبور حرام على النساء لأنه ﷺ لعن زائرات القبور اهـ.

وقال ابن باز^(٧): فيه حرمة زيارة القبور على النساء على الصحيح للأدلة وكما في حديث حسان بن ثابت وأبى هريرة بمعناه فزيارة القبور مختصة بالرجال ثم قال: لا يجوز زيارة النساء حتى إلى قبر النبي ﷺ على الصحيح؛ لأن الحديث عام، وورد لفظ (زوارات) لكن ورد أيضاً (زائرات). اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): وفي الحديث ما يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، وأنها من كبار الذنوب، والعلماء في ذلك على ثلاثة أقوال:-

القول الأول: تحريم زيارة النساء للقبور، بل إنها من كبائر الذنوب؛ لهذا الحديث.

القول الثاني: كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل إلى التحريم، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عن أصحابه؛ لحديث أم عطية: «نهيننا عن أتباع الجنائز، ولم يعزم علينا»^(٤).

القول الثالث: أنها تجوز زيارة النساء للقبور؛ لحديث المرأة: أنه ﷺ مرَّ بامرأة وهي تبكي عند قبر، فقال لها: «اتقي الله واصبري». فقالت له: إليك عني؛ فإنك لم تصب بمثل مصيبتى. فانصرف الرسول ﷺ عنها، فقيل لها: هذا رسول الله ﷺ. فجاءت إليه تعتذر؛ فلم يقبل عذرهما^(٥) اهـ.

[قلت]: كذا فهم الشيخ وليس في الحديث أنه لم يقبل عذرهما بل قال ابن حجر: نقلاً عن الطيبي صدر هذا الجواب منه ﷺ عن قولها: لم أعرفك على أسلوب الحكيم كأنه قال لها: دعى الاعتذار فإنى لا أغضب لغير الله وانظري لنفسك ثم قال: وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم ما كان فيه عليه الصلاة والسلام من التواضع والرفق بالجاهل، ومسامحة المصاب وقبول اعتذاره ا. هـ^(٦).

(١) الجامع الفريد (٨٨).

(٢) التعليق المفيد (١٢٦).

(٣) القول المفيد (١/٥٥٣).

(٤) تقدم تخريجه قريباً

(٥) [صحيح] أخرجه البخارى (١٢٨٣)، ومسلم فى الجنائز (٣/٤٩٨/١٥) عن أنس به وانظر «رياض

الصالحين» (٣٢ - بتخريجنا).

(٦) الفتح (٣/١٧٩).

ثم قال ابن عثيمين:

وقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(١)، فالنبي ﷺ شاهدا عند القبر ولم ينهها عن الزيارة، وإنما أمرها أن تتقى الله وتصبر.

ولما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث عائشة الطويل، وفيه: أن النبي ﷺ خرج إلى أهل البقيع في الليل، واستغفر لهم ودعا لهم، وأن جبريل أتاه في الليل وأمره، فخرج ﷺ مخفياً عن عائشة، وزار ودعا، ورجع، ثم أخبرها الخبر؛ فقالت: ما أقول لهم يارسول الله؟ قال: «قولي: السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين...»^(٢) إلخ.

قالوا: فعلمها النبي ﷺ دعاء زيارة القبور، وتعليمه هذا دليل على الجواز. ورأيت قولاً رابعاً: أن زيارة النساء للقبور سنة كالرجال؛ لقوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور؛ فزوروها؛ فإنها تذكركم الآخرة»^(٣)، وهذا عام للرجال والنساء. ولأن عائشة رضى الله عنها زارت قبر أخيها، فقال لها عبد الله بن أبي مليكة: أليس النبي ﷺ قد نهى عن زيارة القبور؟ قالت: إنه أمر بها بعد ذلك^(٤). وهذا دليل على أنه منسوخ.

قال ابن عثيمين: والصحيح القول الأول، ويجب عن أدلة الأقوال الأخرى: بأن الصريح منها غير صحيح، والصحيح غير صريح؛ فمن ذلك:

أولاً: دعوى النسخ غير صحيحة؛ لأنها لا تقبل إلا بشرطين:

١ - تعذر الجمع بين النصين، والجمع هنا سهل وليس بمتعذر؛ لأنه يمكن أن يقال: إن الخطاب في قوله: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور؛ فزوروها»^(٥) للرجال، والعلماء اختلفوا فيما إذا خوطب الرجال بحكم: هل يدخل فيه النساء أو لا؟ وإذا قلنا بالدخول وهو الصحيح-؛ فإن دخولهن في هذا الخطاب من باب دخول أفراد العام في العموم؛ وعلي هذا يجوز أن يخص بعض أفراد العام بحكم يخالف العام، وهنا نقول: قد خص النبي ﷺ النساء من هذا الحكم، فأمره بالزيارة للرجل فقط؛ لأن النساء أخرجن بالتخصيص من هذا العموم بلعن الزائرات، وأيضاً مما يبطل النسخ قوله: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»^(٦)، ومن المعلوم أن قوله:

(١) تقدم

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الجنائز (٧/ ٤٠ النووي) عن عائشة به وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٣ -

بتخريجنا)

(٣) تقدم تخريجه

(٤) تقدم تخريجه

(٥) ، (٦) سبق تخريجه .

«والتخذين عليها المساجد والسرج» لا أحد يدعى أنه منسوخ، والحديث واحد؛ فادعاء النسخ في جانب منه دون آخر غير مستقيم، وعلى هذا يكون الحديث محكماً غير منسوخ.

٢ - العلم بالتأريخ، وهنا لم نعلم التأريخ؛ لأن النبي ﷺ لم يقل: كنت لعنت من زار القبور، بل قال: «كنت نهيتكم»، والنهي دون اللعن.

وأيضاً؛ فإن قوله: «كنت نهيتكم» خطاب للرجال، ولعن زائرات القبور خطاب للنساء؛ فلا يمكن حمل خطاب الرجال على خطاب النساء، إذاً؛ فالحديث لا يصح فيه دعوى النسخ.

وثانياً: وأما الجواب عن حديث المرأة وحديث عائشة؛ فإن المرأة لم تخرج للزيارة قطعاً أهـ [قلت]: لو قال احتمالاً لكان أجود..

ثم قال: لكنها أصيبت، ومن عظم المصيبة عليها لم تتمالك نفسها لتبقى في بيتها، ولذلك خرجت وجعلت تبكي عند القبر مما يدل على أن في قلبها شيئاً عظيماً لم تتحملته حتى ذهبت إلى ابنها وجعلت تبكي عند قبره، ولهذا أمرها ﷺ أن تصبر؛ لأنه علم أنها لم تخرج للزيارة، بل خرجت لما في قلبها من عدم تحمل هذه الصدمة الكبيرة؛ فالحديث ليس صريحاً بأنها خرجت للزيارة، وإذا لم يكن صريحاً؛ فلا يمكن أن يُعارض الشيء الصريح بشيء غير صريح.

وأما حديث عائشة؛ فإنها قالت للرسول ﷺ: «ماذا أقول؟ فقال: قولي: السلام عليكم»^(١) فهل المراد أنها تقول ذلك إذا مرت، أو إذا خرجت زائرة؟ فهو محتمل؛ فليس فيه تصريح بأنها إذا خرجت زائرة؛ إذ من الممكن أن يرد به إذا مرت بها من غير خروج للزيارة، وإذا كان ليس صريحاً؛ فلا يُعارض الصريح.

وأما فعلها مع أخيها رضى الله عنهما؛ فإن فعلها مع أخيها لم يستدل عليها عبد الله ابن أبي مُليكة بلعن زائرات القبور، وإنما استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور مطلقاً؛ لأنه لو استدل عليها بالنهي عن زيارة النساء للقبور أو بلعن زائرات القبور؛ لكننا ننظر بماذا ستجيبه.

فهو استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور، ومعلوم أن النهي عن زيارة القبور كان

(١) تقدم تخريجه

عاماً، ولهذا أجابته بالنسخ العام، وقالت: إِنَّهُ قد أمر بذلك، ونحن وإن كنَّا نقول: إن عائشة رضى الله عنها استدلت بلفظ العموم؛ فهي كغيرها من العلماء لا يُعارض بقولها قول الرسول ﷺ، على أنه روى عنها؛ أنها قالت: «لو شهدتك ما زرتك»^(١)، وهذا دليل على أنها رضى الله عنها خرجت لتدعو له؛ لأنَّها لم تشهد جنازته، لكن هذه الرواية طعن فيها بعض العلماء، وقال: إِنَّها لاتصح عن عائشة رضى الله عنها، لكننا نبقي على الرواية الأولى الصحيحة؛ إذ ليس فيها دليل على أنَّ الرسول ﷺ نسخه، وإذا فهمت هي؛ فلا يُعارض بقولها قول الرسول ﷺ.

● إشكال وجوابه: فى قوله: «زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ» ألا يمكن أن يحمل النهى على تكرار الزيارة لأن «زوارات» صيغة مبالغة؟.

الجواب: قال ابن عثيمين^(٢): هذا ممكن، لكننا إذا حملناه على ذلك؛ فإننا أضعنا دلالة المطلق «زائرات».

والتضعيف قد يحمل على كثرة الفاعلين لا على كثرة الفعل؛ فـ «زوارات» يعنى: النساء إذا كنَّ مئة كان فعلهن كثيراً، والتضعيف باعتبار الفاعل موجود فى اللغة العربية، قال تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْتُحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾^(٣)، فلما كانت الأبواب كثيرة كان فيها التضعيف؛ إذ الباب لا يُفتح إلا مرة واحدة، وأيضاً قراءة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَبَّتْ﴾^(٤)؛ فهي مثلها.

فالأرجح تحريم زيارة النساء للمقابر، وأنَّها من كبائر الذنوب.

وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية فى «مجموع الفتاوى»^(٥) اهـ.

قوله: [والمُتَخَذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسَّرَجَ].

قال سليمان آل الشيخ^(٦): قوله: «والسرج». هذا دليل على تحريم اتخاذ السرج على القبور.

قال أبو محمد المقدسى: لو أُبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله، لأن فيه تضييعاً للمال فى غير فائدة، وإفراطاً فى تعظيم القبور، أشبه تعظيم الأصنام.

(١) أخرجه الحاكم (٣٧٦/١)، والبيهقى (٧٨/٤) وانظر «فتح المجيد» (٣٩٧ - بتخریجنا).

(٢) القول المفيد (٥٥٧/١). (٣) ص آية: ٥٠. (٤) الزمر آية: ٧١

(٥) وانظر الفتاوى (٣٤٣/٢٤). (٦) تيسير العزيز الحميد (٢٥٤).

وقال ابن القيم: اتخذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر. اهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): قال محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله في كتابه تطهير الاعتقاد^(٢): «فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد، وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه: غالب - بل كل - من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة، إما على قريب لهم، أو على من يُحْسِنُونَ الظَّنَّ فيه من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير أو شيخ كبير، ويزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه، بل يدعون له ويستغفرون، حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم، فيأتي مَنْ بعدهم فيجد قبراً قد شُيِّد عليه البناء، وسرجت عليه الشموع، وفرش بالفراش الفاخر، وأرخيت عليه الستور، وألقيت عليه الأوراد والزهور، فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضرر. وتأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلان الضر و بفلان النفع. حتى يَغْرَسُوا في جبلته كل باطل، والأمر ما بُتَّ في الأحاديث النبوية من لعن من أسرج على القبور وكتب عليها وبني عليها وأحاديث ذلك واسعة معروفة. فإن ذلك في نفسه منهي عنه. ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة». انتهى.

قال ابن عثيمين: قوله: «والتخذين عليها المساجد».

هذا الشاهد من الحديث؛ أي: الذين يضعون عليها المساجد، وقد سبق أن اتخذ القبور مساجد له صورتان:

١ - أن يتخذها مصلًى يُصَلَّى عندها.

٢ - بناء المساجد عليها.

[قلت]: أو الصلاة إليها ، وتقدم تفصيل ذلك كثيراً في باب التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح.

قوله: «والسرج». جمع سراج، توقد عليها السرج ليلاً ونهاراً تعظيماً وغلواً فيها اهـ.

● مسألة:

وهل يدخل في اتخاذ السرج على المقابر ما لو وضع فيها مصابيح كهرباء لإنارتها؟

(١) فتح المجيد (١/٣٢٢).

(٢) تطهير الاعتقاد للصنعاني (ص ٥٣، ٥٤) مع تصريف قليل.

الجواب: قال ابن عثيمين^(١): أمّا فى المواطن التى لا يحتاج الناس إليها، كما لو كانت المقبرة واسعة وفيها موضع قد انتهى الناس من الدفن فيه؛ فلا حاجة إلى إسراجه، فلا يسرج، أمّا الموضع الذى يقبر فيه فيسرج ما حوله؛ فقد يُقال بجوازه؛ لأنّها لا تسرج إلا بالليل؛ فليس فى ذلك ما يدل على تعظيم القبر، بل اتخذ الإسراج للحاجة. ولكن الذى نرى أنّه ينبغي المنع مطلقاً للأسباب الآتية:

١ - أنّه ليس هناك ضرورة.

٢ - أنّ الناس إذا وجدوا ضرورة لذلك؛ فعندهم سيارات يمكن أن يوقدوا الأنوار التى فيها ويتبيّن لهم الأمر، ويمكنهم أن يحملوا سراجاً معهم.

٣ - أنّه إذا فتح هذا الباب؛ فإنّ الشرّ سيَتَسَّع فى قلوب الناس ولا يمكن ضبطه فيما بعد، فلو فرضنا أنّهم جعلوا الإضاءة بعد صلاة الفجر ودفنوا الميت؛ فمن الذى يتولّى قفل هذه الإضاءة؟

الجواب: قد تترك، ثم يبقى كأنّه متخذ عليها السرج؛ فالذى نرى أنّه يمنع نهائياً. أمّا إذا كان فى المقبرة حجرة يوضع فيها اللبن ونحوه؛ فلا بأس بإضاءتها لأنّها بعيدة عن القبور، والإضاءة داخلية لا تُشاهد؛ فهذا نرجو أن لا يكون به بأس.

والمهم أنّ وسائل الشرك يجب على الإنسان أن يتعد عنها ابتعاداً عظيماً، ولا يقدر للزمن الذى هو فيه الآن، بل يقدر للأزمان البعيدة؛ فالمسألة ليست هينة. اهـ.

● مسألة: ماهى الصلة بين الجملة الأولى: «زائرات القبور»، والجملة الثانية: «المتخذين عليها المساجد والسرج»؟.

قال ابن عثيمين^(٢): الصلة بينهما ظاهرة: هى أنّ المرأة لركة عاطفتها وقلة تمييزها وضعف صبرها ربما تعبد أصحاب القبور تعظفاً على صاحب القبر؛ فلهذا قرنها بالمتخذين عليها المساجد والسرج. اهـ وتقدم شىء من ذلك من كلام سليمان آل الشيخ.

فصل

فى «الرد على من منع النساء من زيارة القبور مطلقاً»

قال الفقير: ذكر الشيخ ابن عثيمين - حفظه الله تعالى : فى القول المفيد ثلاثة أقوال فى زيارة النساء للمقابر :

[القول الأول]: تحريم زيارة النساء للقبور بل إنه من الكبائر والذنوب لهذا الحديث .

(٢) القول المفيد (١/ ٥٥١، ٥٥٢).

(١) القول المفيد (١/ ٥٥١، ٥٥٢).

[القول الثاني]: كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل لدرجة التحريم وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عن أصحابه لحديث أم عطية «نهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا»^(١) أى لم يشدد علينا أى لم يفرض علينا هذا الأمر.

[القول الثالث]: إنها تجوز زيارة النساء للقبور لحديث المرأة أنه ﷺ مر بامرأة وهى تبكى عند القبر فقال لها : «اتقى الله واصبرى» فقالت له : إليك عنى فإنك لم تصب بمثل مصيبتى فانصرف الرسول الله ﷺ عنها فقيل لها هذا رسول الله ﷺ فجاءت إليه تعتذر فلم يقبل اعتذارها^(٢).

قلت: ابن عثيمين - حفظه الله - ذكر الحديث بالمعنى وقوله «أنه لم يقبل عذرها» ليست فى الحديث بل الثابت فى الصحيح «أن النبى ﷺ مر على امرأة تبكى عند قبر فقال «اتقى الله واصبرى» فقالت : إليك عنى فإنك لم تصب بمصيبتى ولم تعرفه فقيل لها إنه النبى ﷺ فجاءت النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين فقالت لم أعرفك فقال إنما الصبر عند الصدمة الأولى» فتبين من ذلك أن ما ذكره الشيخ حفظه الله بالمعنى ليس بحديث.

فإن قال قائل هذا فهم الشيخ ابن عثيمين حفظه الله وأما الذى ذكرتم هو من فهمكم وهنا يقدم فهم الشيخ حفظه الله.

[قلت]: الشيخ ابن عثيمين حفظه الله حبيب إلى قلوبنا جميعاً ولكن الحق أحب إلينا منه حيث أن فهمه حفظه الله لم يوافق فهم السلف لهذا الحديث فقد قال ابن حجر نقلاً عن الطيبى: أنه قال صدر ذلك عنه ﷺ عن قولها لم أعرفك على أسلوب الحكيم كأنه قال لها دعى الاعتذار فإنى لا أغضب لنفسى ولكن انظرى لنفسك ثم قال «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» وكان الجواب على طريقة الحكماء فكأنه غير منتظر لهذا الاعتذار فكأنه الأمر أعظم من ذلك ولذلك أجاب بالإجابة المتقدمة.

- ثم قال ابن حجر: وفى الحديث من الفوائد غير ما تقدم:

ما كان فيه عليه الصلاة والسلام. من التواضع والرفق بالجاهل ومسامحة المصاب وقبول الاعتذار أهـ^(٣).

قلت: فدل ذلك على أنه قبل العذر

فإن كان فهم الشيخ ابن عثيمين أنها اعتذرت ولم يقبل فهذا مخالف لفهم الطيبى أما إذا كان قوله لم يقبل اعتذارها: أى لم ينظر إليه ولم يلتفت إليه ولم يأبه به، فهذا قد

(١) تقدم تخريجه (٢) تقدم تخريجه (٣) وتقدم ذلك قريباً

يكون وجيهاً وقوله «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»: فالنبي ﷺ شاهدها عند القبر ولم ينهها عن الزيارة وإنما أمرها أن تتقى الله وتصبر.

[قلت]: إن ابن عثيمين نقل ما قال به ابن حجر، حيث ذكر في «الفتح» ما: يؤيد الجواز في حديث الباب وقال موضع الإجازة منه أنه ﷺ لم ينكر قعودها على القبر وتقريره حجه، هذا هو الدليل الأول.

الدليل الثاني: ما ثبت في صحيح مسلم من حديث عائشة الطويل أن النبي ﷺ خرج إلى أهل البقيع بالليل واستغفر لهم ودعا لهم وأن جبريل أتاه في الليل وأمره فخرج ﷺ مخفياً عن عائشة ودعا ورجع ثم أخبرها الخبر فقالت ما أقول لهم يا رسول الله فقال قولي «السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين»^(١) ومحل الشاهد أنه علمها كيف تقول إذا دخلت وزارات فعلمها النبي ﷺ دعاء زيارة القبور وهذا دليل على الجواز.

ثم قال الشيخ ابن عثيمين - حفظه الله تعالى - ورأيت قولاً رابعاً: أن زيارة النساء للقبور سنة كل رجال قلت: وهذا القول الرابع هو أول ما ذكره ابن حجر في عرض الاختلاف في المسألة حيث قال: وكأن البخاري لم يثبت على شرطه الأحاديث المصرحة بالجواز، وقد أخرجه مسلم من حديث بريدة، وفيه نسخ النهي عن ذلك، ولفظه: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزورها» وزاد أبو داود والنسائي من حديث أنس: «فإنها تذكركم الآخرة»^(٢) وهذا عام للرجال والنساء. وللحاكم من حديث أنس أيضاً فيه وترق القلب وتدمع العين فلا تقولوا هجرًا»^(٣) أى كلاماً فاحشاً وهو بضم الهاء وسكون الجيم وله من حديث ابن مسعود «فإنها تزهد في الدنيا»^(٤) ولمسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً «زوروا القبور فإنها تذكركم الموت»^(٥).

قال ابن حجر: في قول من قال بالكراهة مطلقاً مثل ابن سيرين وإبراهيم النخعي والشعبي قال ومقابله من قال بوجوب الزيارة أى أنها واجبة وهذا قول ابن حزم فقال: أن زيارة القبر واجبة ولو مرة واحدة في العمر لورود الأمر به.

(٢) تقدم تخريجه

(١) تقدم تخريجه

(٣) أخرجه الحاكم (٣٧٦/١) عن أنس به

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٧٥/١) قال الذهبي في «التلخيص»: أيوب ضعفه ابن معين

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم في الجنائز (١٠٥/٥٢/٤)

ثم قال ابن حجر واختلف في النساء فقيل دخلن في عموم الإذن وهو قول الأكثر فلما كان النهي عاماً كان الإذن عاماً، ومن حمل الإذن على عمومهم للرجال والنساء عائشة رضي الله عنها فروى الحاكم من طريق ابن أبي مليكة أنه رآها زارت قبر أخيها عبدالرحمن فقيل لها اليس نهى النبي ﷺ عن ذلك قالت: نعم كان نهى ثم أمر بزيارتها^(١).

قال الشيخ ابن عثيمين: ولأن عائشة زارت قبر أخيها فقال عبد الله بن أبي مليكة ليس النبي نهى عن زيارة القبور قالت نهى ثم أمر بعد ذلك وهذا دليل على أنه منسوخ أي النهي.

ثم شرع شيخنا ابن عثيمين يرجح فقال: والراجع القول الأول أي: وهو تحريم زيارة النساء للقبور.

ويجاب على الأدلة في الأقوال الأخرى بأن الصريح منها غير صحيح والصحيح غير صريح.

ثم قال: دعوى النسخ غير صحيحة لأنها لا تقبل إلا بشرطين:

الشرط الأول: تعذر الجمع بين نصين والجمع هنا سهل وليس بمتعذر لأنه يمكن أن يقال أن الخطاب في قوله «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» للرجال.

والعلماء اختلفوا فيما إذا خوطب الرجال بحكم هل يدخل فيه النساء أو لا. وإذا قلنا بالدخول - قلت: وهذا الصحيح لحديث أبي داود «إنما النساء شقائق الرجال»^(٢)، كما فهم الخطابى أى شقائق الرجال فى الأوامر والنواهي - فإن دخولهن فى هذا الخطاب من باب الدخول فى بعض أفراد العام، لأن «ألا فزوروها» يعم الرجال والنساء وهنا يجوز أن يخص هذا البعض بحكم يخالف العام وهنا نقول قد خص النبي ﷺ النساء من هذا الحكم فأمره بالزيارة للرجال فقط لأن النساء أخرجن بالتخصيص من هذا العموم بلعن الزائرات.

[قلت]: أما أولاً فنقول أنه بهذا لم يجمع، لأنه قال لا بد للنسخ من شرطين.

أولاً: تعذر الجمع ثم شرع يجمع لكنه لم يجمع، فإن سلمنا له بالجمع بين حديث

(١) تقدم تخريجه

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٥٦/٦)، أبو داود (٢٣٦)، والترمذى (١١٣)، وابن ماجه (٦١٢)

عن عائشة به.

«لعن الله الزوارات» و«كنت نهيتكم عن زيارة القبور» فلم يجمع هو بين هذا الأثر وقول عائشة نهى ثم أمر، هذه واحدة.

الثانية: أن هذا التخصيص لم يخصص منع النساء مطلقاً من الزيارة وإنما خصص منع النساء من الإكثار فقط، لأنه لم يقل لعن الله زائرة القبور وإنما قال لعن الله زوارات القبور.

والأولى أن يكون الجمع بين الأحاديث المتقدمة أن يقال بما قال العلماء ونقله ابن حجر عن القرطبي في «الفتح» في الرد على ابن أبي إسحاق في «المهذب» حيث ذهب إلى منع النساء مطلقاً واستدل بحديث عبد الله بن عمرو «لعن الله زوارات القبور» وأخرجه الترمذي وصححه من حديث أبي هريرة^(١) وله شاهد من حديث ابن عباس^(٢) وحديث حسان بن ثابت^(٣).

قال ابن حجر قال القرطبي: هذا اللعن إنما هو للمكثرات من الزيارة لما تقتضيه الصفة من المبالغة ولعل السبب ما يفرض إليه ذلك من تضييع حق الزوج والتبرج وما ينشأ منهن من الصياح ونحو ذلك. فقد يقال إذا أمن جميع ذلك فلا مانع من الإذن لأن تذكر الموت يحتاج إليه الرجال والنساء وهذا هو وجه الجمع.

[قلت]: الحديث لم يمنع مطلقاً وإنما نهى عن الإكثار لأنه مفضى إلى الغلو والتعظيم ومفضى إلى الشرك وهذا محل الشاهد وكذلك مفضى إلى الجزع ومفضى إلى أشياء أخر تدور بين الكراهة والمعصية والشرك فإذا أمنت هذه الأمور فلها أن تزور وهذا الإعمال للنصوص أولى من الإهمال.

وكذلك من قال بالنسخ فنقول. دعوى النسخ لا تقبل إلا بدليل. وهذا الحديث لم يتعارض مع حديث «الزوارات» لأنه في المكثرات وهذه المرأة لم تكثر.

قال ابن عثيمين - حفظه الله -: وما يبطل النسخ قوله «لعن رسول الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج».

[قلت]: وهذا الحديث ليس منسوخ بل هو حديث محكم ولا نقول بالنسخ وهذا الكلام معنا لا علينا.

فنحن لم نتبنى قول القائل بالنسخ لكن لا يلزم من اتحاد الحكمين في حديث واحد أن يحكما جميعاً أو أن ينسخا جميعاً بل قد يختلفا في الحكم ويختلفا في الرفع وفي الوضع وفي النسخ.

وهذا كالأيات الكثيرات فى سورة البقرة أو آيات آخر وأحاديث آخر فيها أحكام متفقة فى النص لكن متباينة فى الحكم مثل قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أو ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فهذا مباح «وأتوا حقه» واجب فهذين حكيمين فى نص واحد مع اختلافهما لكن الكلام المتقدم وجيه فيمن قال بنسخ هذا الحديث، نحن لم نقل برأيه بل نقول نجتمع بينه وبين أحاديث الجواز.

الشرط الثانى: العلم بالتاريخ. وهنا لم نعلم التاريخ لأن النبى لم يقل «كنت لعنت من زار القبور ألا فزوروها» وإنما قال فذكر الحديث والنهى دون اللعن.

وأيضاً كتبت نهيكم خطاب للرجال ولعن زائرات القبور خطاب للنساء فلا يمكن حمل خطاب الرجال على خطاب النساء إذن فالحديث لا يصح فيه دعوى النسخ ومع أنه محكم إلا أنه لم يمنع من مطلق الزيارة، وإنما نهى عن زيارة مخصوصة وهى زيارة المكثرة.

وأما الجواب عن حديث المرأة وحديث عائشة: وقول الشيخ ابن عثيمين عليه: فإن المرأة لم تخرج للزيارة قطعاً لكنها أصيبت؟ ومن عظم المصيبة عليها لم تتمك نفسها لتبقى فى بيتها ولذلك خرجت وجعلت تبكى عند قبره ولهذا أمرها ﷺ أن تصبر لأنه علم أنها لم تخرج للزيارة بل خرجت لما فى قلبها من عدم تحمل لهذه الصدمة الكبيرة والحديث ليس صريحاً بأنها خرجت لزيارة وإذا لم يكن صريحاً فإنه لا يعارض الشئ الصريح بشئ غير صريح.

قلت: وهذا الكلام يرد عليه من وجوه:

أولاً: قوله «فإن المرأة لم تخرج لزيارة قطعاً وهو - حفظه الله - قد أجاب بنفسه عن هذا القول فقال الحديث ليس صريح بأنها خرجت لزيارة أى محتمل أنها خرجت لزيارة وإن كان غير مصرح والأولى أن يقال أنها لم تخرج لزيارة احتمالاً حيث أن الحديث لم يقطع بأنها لم تخرج لزيارة فما المانع من حمل الحديث على الأمرين أى أن وجودها عند القبر محتمل لزيارة هذا القبر ومحتمل أنها خرجت لتبكى عند القبر من شدة هلعها فنقول فى الحديث جواز زيارة النساء للمقابر .

وفى الحديث جواز أن تخرج المرأة لغير الزيارة بقصد البكاء عند القبر من شدة الهلع ومن باب أولى إذا خرجت بهذا القصد فيجوز لها أن تذهب إلى الزيارة حيث أن النبى لم ينهها عن عدم الزيارة ولا عدم البكاء وإنما أمرها بالصبر وهذا يدل على أنه أقرها على البكاء، ومن باب أولى . تقر على الزيارة.

إذن لا مانع من حمل الحديث على الفائدتين.

فلو قال قائل إن هذا فهم الشيخ ابن عثيمين فهل لا نأخذ به ونأخذ بفهمنا؟؟ مع أن الأصح أننا نأخذ بقوله ونترك قولنا ويقدم فهمه.

فنقول له: نعم هذا فهم الشيخ ابن عثيمين حفظه الله ولكنه خالف فهم بعض السلف فالبخارى - رحمه الله - بوب على هذا الحديث باب «زيارة القبور» وأتى بأثر وجود المرأة فيه عند القبر فكأنه يقول أن الحديث أيضاً متضمن لهذا المعنى: مشروعية الزيارة، وكذلك قال ابن حجر هنا: باب زيارة القبور أى مشروعيتها كأنه لم يصرح بالحكم لما فيه من اختلاف ثم قال هنا:

وذكر هذا الحديث فى زيارة القبور مع احتمال أن تكون المرأة المذكورة تأخرت بعد الدفن عند القبر، وهذا سبب ثان غير الذى قاله الشيخ ابن عثيمين أنه ممكن أن تكون هذه المرأة اتبعت الجنازة وهم حملوها وذهبوا وجلست هى إذن هى لم تكن ذاهبة للقبر وإنما ذاهبة لتبعب الجنازة.

ثم قال ابن حجر: والزيارة إنما تطلق على من أنشأ إلى القبر قصداً. فلماذا هو ذكر هذا الحديث الذى فيه هذا الاحتمال فيقال من جهة استواء الحكم فى حقها من حيث أمرها بالتقوى والصبر لما رأى من جزعها ولم ينكر عليها الخروج من بيتها فدل على أنه جائز وهذا أعم من أن يكون خروجها لتشيع ميتها فأقامت عند القبر بعد الدفن أو أنشئت قصد زيارته للخروج بسبب الميت.

فقال إن خروجها يعم الصور الثلاثة هذه:

الصورة التى ذكرها الشيخ ابن عثيمين - حفظه الله - والصورة التى احتملها غيره وذكرها الحفاظ ومحمتمل أنها كانت تزور فالحديث يعم الثلاثة، فلا نقول أنه محتمل الثلاثة فالاحتمال يسقط الاستدلال .

الاحتمال هذا لا يسقط الاستدلال بل الاحتمال هنا يعم مشروعية الجميع، فإن قيل لا نقول بمشروعية الزيارة لحديث آخر، وهو ما تقدم بلفظ: «لعن الله الزوارات» نقول هذا الحديث هو محل نزاع وهذا الحديث لا تدخل فيه هذه المرأة لأنه ﷺ نعى على من تكثرت الزيارة فقط وهذه المرأة لا تكثرت من الزيارة.

أما حديث عائشة أنها قالت لرسول الله ماذا تقول عند زيارة القبور فقال «أقول السلام عليكم» فهل المراد أنها لا تقول ذلك إلا إذا خرجت أو إذا مرت زائرة ؟ .

الجواب: محتمل أنها تقول إذا مرت أو إذا زارت

فأيضاً نقول أنه بالاحتمال لا يسقط الاستدلال فهذا الاحتمال دليل على إعمال الاحتمالات كلها فلما بينت دل ذلك على مشروعية هذا الدعاء عند المرور بالقبور بغير

قصد الزيارة وعند الزيارة تقول ذلك الدعاء أيضاً، لا أنها ممنوعة من الزيارة وما دليل المنع يقول «لعن الله الزوارات» نقول لا يثبت المنع لأن هناك وجه للجمع فنحن نُعمل ولا نُهمل نعمل جميع النصوص ولا نهمل نصّاً منها ونقول حينما شرع لها الزيارة وعلمها كيف تقول إنما شرع لها الزيارة بشروط منها:

أن لا تكثر لحديث «لعن الله الزوارات»

ثم بعد ذلك فعلها - أى عائشة رضى الله عنها - مع أخيها عبد الرحمن .
قال فإن فعلها مع أخيها لم يستدل عليها عبد الله بن أبي مليكة «لعن زائرات القبور» وإنما استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور مطلقاً.

وهذا لنعلم أن هذا الحديث ليس بمنسوخ فنقول نعم أنه ليس منسوخاً بل هو محكم وهذا دليل على أن عبد الله بن أبي مليكة حينما احتج على عائشة بلعن زوارات القبور فهم أن هذا الحديث لا تدخل فيه هي . فهو لم يقل لها «ألم يلعن الله زوارات القبور؟» لم يقل لها ذلك لأنه فهم أنها لم تكثر بل زارت مرة . فلا يصح أن يحتج عليها بحديث اللعن بل احتج عليها بحديث النهي فقالت له «نهى ثم أمر» فقول عبد الله ابن أبي مليكة ألم ينهى ؟ هذا دليل على أن الزوارات لم تدخل فيه عائشة أو من فعلت كفعل عائشة إذن الحديث محكم وحديث نهى ثم أمر محكم يدل على الإذن، ثم قال الشيخ - حفظه الله - «أما فعلها مع أخيها لم يستدل عليه عبد الله بن أبي مليكة فى لعن زوارات القبور» وإنما استدل عليه بالنهي عن زيارة القبور مطلقاً لكننا ننظر بماذا ستجيب؟؟

[ف نقول]: إن هذا الكلام حجة لنا وهذا الفهم لابن أبي مليكة ولعائشة لنا إن ابن أبي مليكة لم يفهم أنها تدخل فى حديث اللعن واحتج عليها بالنهي فقالت له : «نهى ثم أمر» .

«قالوا وإن كنا نقول إن عائشة رضى الله عنها استدلت بلفظ العموم فهى كغيرها من العلماء لا يعارض بقولها قول الرسول ﷺ لكن نقول ليست هناك معارضة بين حديث «نهى ثم أمر» وحديث «لعن الله زوارات القبور» فهذا محكم وهذا محكم وهذا موافق وهذا موافق، على أنه روى عنها أنها قالت «لو شهدتك ما زرتك»^(١) وهذا الحديث ضعيف وسواء هى شاهده ثم زارته أو شاهده لكن هى لا تزوره فهى فى النهاية زارته أى كان الدافع للزيارة فلو كانت الزيارة ممنوعة ما شاهده لكن لما كانت الزيارة مشروعة قالت هذا لكن لعل إن صح هذا القول عنها فى عدم الدخول فى المكثرات أو فى التقليل من الزيارات . .

(١) تقدم تخريجه

ثم قال ابن عثيمين : «وهذا دليل على أنها خرجت لتدعو له» فنحن نقول نعم إنها تخرج بالآداب الشرعية المتقدمة التي منها الدعاء له .

ثم قال الشيخ : «على أننا نقول أن كلمة زائرات تدل على معنى آخر وهو الكثرة» .

فيقول ابن عثيمين : «إشكال وجوابه» في قوله «زائرات» .

«ألا يحمل النهى في قوله عن تكرار الزيارة لأن زائرات صيغة مبالغة فهو قال هنا لا يوجد إشكال» .

الجواب : هذا ممكن لأن هذا فهم القرطبي وفهم السلف ومؤدى قول أهل اللغة فيقول لكننا إذا حملناه على ذلك فكأننا أضعنا دلالة المطلق «زائرات» فتدل على الكثرة فيقول والتضعيف قد تحمل على كثرة الفاعلين لا على كثرة الفعل «زائرات» يعنى نساء إذا كن هكذا كان فعلهن كثير والتضعيف باعتبار الفعل موجود فى اللغة العربية قال تعالى : ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّقْتَحَّةٍ لَهُمُ الْبُيُوتُ﴾ فلما كانت الأبواب كثيرة كان فيها التضعيف إذ الباب لا يفتح إلا مرة واحدة وأيضاً قراءة ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ﴾ فهى مثلها فالراجح تعميم زيارة النساء للمقابر وأنها من الكبائر كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى مجموع الفتاوى .

أقول الجواب : أولاً سنجيب بكلام الشيخ ابن عثيمين نفسه .

فقال فى شرحه لقوله «لعن الله زائرات القبور» وفى الحديث : وذلك اسم فاعل وزائرات بتشديد الواو هى صيغة مبالغة تدل على الكثرة أى كثرة الزيارة فنقول لا مانع من إعمال الأمرين ، دلالة المطلق فى زائرات ودلالة المطلق فى «زائرات» لماذا؟

لأننا أصلاً إذا أعممنا دلالة المطلق فى زائرات عطلنا دلالة المطلق فى «زائرات» فقد يقال : لا لم نعطل إنما إذا نهينا الزائرة عن الزيارة لكن الراجح أن نقول : كلا اللفظين معتبر وثابت وضوحه فمراده الإكثار من الزيارة وأيضاً مراد من «زائرات» النهى عن زيارة النساء المقابر جماعة أى لا تذهب مع نساء جماعة ، ولا تذهب مع رجال لماذا لأن النساء إذا اجتمعن فى ذلك الموقف إذن إن شاء الله ظن شراً ولا تسأل عن الخبر فنقول إن مراد زائرات» لم تمنع من الزائرة إنما منعت من أن تصحب الزائرة معها نساء أخريات فتكون هذه الصورة أيضاً حتى لو كانت مرة يصدق عليهن «اللعن» .

إذن لفظ زورات مراد والمقصد منها ألا تبالغ وزائرات مراد بشرط إذا زارت أن تزور بمفردها وهذا عين ما فعلته أم المؤمنين والمرأة التى كانت تبكى عند القبر ، فهذه كانت وحدها وهذه كانت وحدها ولم تصحب معها هذه غيرها وهذه لم تصحب معها غيرها ، والله أعلم .

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الْأَوْثَانِ.

الثانية: تَفْسِيرُ الْعِبَادَةِ.

الثالثة: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْتَعِذْ إِلَّا مِمَّا يُخَافُ وَقُوعُهُ.

الرابعة: قَرْنُهُ بِهَذَا اتَّخَاذَ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ مَسَاجِدَ.

الخلاصة في حكم زيارة النساء للمقابر أنها مشروعة بشروط منها .

(١) عدم الإكثار وتقديم دليل ذلك .

(٢) عدم خروج أكثر من امرأة في الزيارة، لقوله (زائرات) كما تقدم .

(٣) ألا يفضى ذلك إلى الغلو المفضى إلى الشرك .

(٤) ألا يفضى ذلك إلى الانتقاص من حق الزوج كما تقدم عن القرطبي .

(٥) ألا تفتن أو تُفتن .

(٦) أن تقصد بالزيارة تذكرة الآخرة، وإيصال النفع للميت بالدعاء له .

(٧) الالتزام بالآداب الشرعية لزيارة المقابر .

(٨) ألا تخصص للزيارة وقت موافق لأوقات أهل البدع كالأعياد وغيرها .

فإن التزمت بهذه الشروط شرعت لها الزيارة، وإلا منعت سداً للذريعة والله الموفق للصواب .



قال ابن عثيمين:

قوله: فيه مسائل:

● الأولى: تفسير الأوثان: وهى: كل ما عُبد من دون الله، سواء كان صنماً أو قبراً أو غيره .

● الثانية: تفسير العبادة: وهى: التذلل والخضوع للمعبود خوفاً ورجاءً ومحبةً وتعظيماً؛ لقوله: «لا تجعل قبري وثناً يُعبد»^(١).

● الثالثة: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْتَعِذْ إِلَّا مِمَّا يُخَافُ مِنْ وَقُوعِهِ: وذلك فى قوله: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد»^(٢).

● الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد: وذلك فى قوله: «اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٣).

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تقدم تخريجه

- الخامسة: ذكُرُ شِدَّةُ الغَضَبِ من الله.
- السادسة: وهى من أهمِّها: مَعْرِفَةُ صِفَةِ عِبَادَةِ اللَّاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الْأَوْثَانِ.
- السابعة: مَعْرِفَةُ أَنَّهُ قَبْرُ رَجُلٍ صَالِحٍ.
- الثامنة: أَنَّهُ اسْمُ صَاحِبِ الْقَبْرِ، وَذِكْرُ مَعْنَى التَّسْمِيَةِ.
- التاسعة: لَعْنُهُ زَوَارَاتِ الْقُبُورِ.
- العاشرية: لَعْنُهُ مِنْ أَسْرَجَها.

- الخامسة: ذكُرُ شِدَّةِ الغَضَبِ من الله. تؤخذ من قوله: «اشتد غضب الله». وفيه: إثبات الغضب من الله حقيقة، لكنه كغيره من صفات الأفعال التى نعرف معناها ولا نعرف كيفيتها.
- وفيه أَنَّهُ يتفاوت كما ثبت فى الحديث الصحيح حديث الشفاعة: «إِنَّ رَبِّى غضب اليوم غضباً لم يغضب مثله قبله ولا بعده»^(١).
- السادسة - وهى من أهمِّها - : معرفة صفة عبادة اللات التى هى من أكبر الأوثان. وذلك فى قوله: «فمات، فعكفوا على قبره».
- السابعة: معرفة أَنَّهُ قبر رجل صالح.
- تؤخذ من قوله: «كان يلت لهم السوق»^(٢)، أى: للحجاج؛ لأنَّه معظَّم عندهم، والغالب لا يكون معظَّمًا إلا صاحب دين.
- الثامنة: أَنَّهُ اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية: وهو أَنَّهُ كان يلت السوق.
- التاسعة: لعنه زوارات القبور. أى: النبى ﷺ، وذكر رحمه الله لفظ: «زوارات القبور» مراعاةً للفظ الآخر.
- العاشرة: لعنه من أسرجها: وذلك فى قوله: «والتخذين عليها المساجد والسرج». وهنا مسألة مهمة لم تذكر، وهى: أَنَّ الغلو فى قبور الصالحين يُصيرها أوثاناً كما فى قبر اللات، وهذه من أهمِّ الوسائل، ولم يذكرها المؤلف رحمه الله، ولعلَّه اكتفى بالترجمة عن هذه المسألة بما حصل للات، فإذا قيل بذلك؛ فله وجه.
- مسألة: المرأة إذا ذهبت للمروضة فى المسجد النبوى لتصلى فيها، فالقبر قريب منها، فتقف وتسلم، ولا مانع فيه.
- والأحسن البعد عن الرِّحَام ومخالطة الرجال، ولثلا يظن من يشاهدها أَنَّ المرأة يجوز لها قصد الزيارة؛ فيقع الإنسان فى محذور، وتسليم المرء على النبى ﷺ يبلغه حيث كان. اهـ.



باب (٢١)

مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جِنَابَ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ
كُلِّ طَرِيقٍ يُؤْصِلُ إِلَى الشِّرْكِ

مناسبة هذا الباب لما قبله من الأبواب:

قال سليمان آل الشيخ: واعلم أن في الأبواب المتقدمة شيئاً من حمايته ﷺ لجَنَابِ التَّوْحِيدِ، ولكن أراد المصنف هنا بيان حمايته الخاصة. ولقد بالغ ﷺ، وحذر وأندَر، وأبدأ وأعاد، وخص وعم في حماية الحنيفية السمحة التي بعثه الله بها، فهي حنيفية في التوحيد سمحة في العمل، كما قال بعض العلماء: هي أشد الشرائع في التوحيد والإبعاد عن الشرك، وأسمح الشرائع في العمل اهـ.

قلت: وهو التنصيص بعد عدمه، والتصريح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال وأيضاً فإن النبي ﷺ ليس فقط عم ثم خص بل تستطيع أن تقول إن هذه المناسبة للتنصيص بعد عدمه والتصريح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال، فهناك نصوص أبهمت ولم ينص فيها على المراد فأراد أن ينص عليه، ومثال ذلك: ذكر مسألة القبر في الباب الماضي على الإجمال فأراد أنه ينص ويصرح ويفصل هذا الأمر فذكر الأبواب التي تفصل وتنص على المقصود والمراد، وهو اتخاذ القبر عيداً، «لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا على حييما كنتم فإن صلاتكم تبلغني»^(١) إلى آخر الأبواب التي فيها التفصيل بعد الاجمال، والتنصيص والبيان بعد الإبهام.

وأيضاً: حينما حذر النبي ﷺ في الأبواب الماضية وسد كل طريق يوصل الى الشرك في الأبواب الماضية، وأخبر أن أناساً وطوائف من هذه الأمة ستعبد القبور وستتخذها أوثاناً تعبد من دون الله، فلعل قائل يقول: فعلى ما تدعوا؟ ولماذا نحذر الناس ونرهب من هذا الأمر وتدعو إلى ضده وهو سيقع لا محالة فهذه الدعوة لافائدة فيها؟! فأتى المصنف بهذا الباب ليسين أن النبي ﷺ - برغم أنه أخبر بهذا الأمر أنه سيقع إلا أن ذلك لم يثنيه عن دعوته ومع ذلك ظل يدعو ويحذر الناس من هذا الأمر الذي وثق في وقوعه، فنحن ليس علينا إلا البلاغ، حتى وإن كنا نعلم أن الساعة قامت، لقوله - ﷺ: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يغيرها فليغيرها»^(٢).

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٣/٣) عن أنس به.

وهذا برغم أن الساعة ستقوم ولن يستفيد بهذه الشجرة أحد، ولكن دورك أن تغرس لكى تؤجر، وكذلك إذا وثقت أن الناس ليس منهم فائدة ولا يعمل منهم أحد ولا يستجيب منهم أحد فلا بد أن تدعو أيضاً، فليس دورك أن تهدى ولكنك سبب كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ﴾ وكما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٍ﴾.

فالرسول ﷺ كان يعلم نفاق المنافق وكان يعظه، وكان يعلم هلاك الهالك، ويعظه ويذكره، ويقوم بواجب الدعوة نحوه كأي أحد.

فكان هذا الباب لتجديد الدعوة إلى حماية جناب التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك حتى وإن أخبرنا من الصادق المصدوق أن هذه الأمة ستخرج من دين الله أفواجا كما دخلت فيه أفواجا وأنهم سيعبدون الأوثان والأصنام وأن الساعة لا تقوم حتى تضطرب إليات نساء دوس بذي الخلصة كما ثبت في الصحيح^(١).

فالواجب على الداعي أن يدعوا ويذكر ولا ينتظر النتائج والعواقب. والله المستعان.

● مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

قال حامد بن محمد^(٢): ما جاء في حماية المصطفى - من الخلق لأجل الرسالة محمد بن عبد الله ﷺ - جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك لأنه ﷺ ما أرسل إلا لنفيه بالبيان والسنن. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣): المراد حمايته عما يقرب منه، أو يخالطه من الشرك وأسبابه اهـ.

● شرح الترجمة والتبويب:

قال سليمان آل الشيخ^(٤): الجنب: هو الجانب اهـ.

قال ناصر السعدى^(٥): من تأمل نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب رأى نصوصاً كثيرة تحت على القيام بكل ما يقوى التوحيد وينمي ويفذيه، من الحث على الإنابة إلى الله وانحصاره تعلق القلب بالله رغبة ورهبة وقوة الطمع بفضلته وإحسانه والسعى لتحصيل ذلك وإلى التحرر من رق المخلوقين وعدم التعلق بهم بوجه من الوجوه أو الغلو في أحد منهم. والقيام التام بالأعمال الظاهرة والباطنة وتكميلها، وخصوصاً

(١) سيأتى تخريجه.

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٣٠٠).

(٣) فتح المجيد (١/٣٢٤).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٥٥).

(٥) القول السديد (٦٩، ٧٠).

حث النصوص على روح العبودية وهو الإخلاص التام لله وحده، ثم فى مقابلة ذلك نهى عن أقوال وأفعال فيها الغلو بالمخلوقين ونهى عن التشبه بالمشركون لأنه يدعو إلى الميل إليهم.

ونهى عن أقوال وأفعال يخشى أن يتوسل بها إلى الشرك كل ذلك حماية للتوحيد ونهى عن كل سبب يوصل إلى الشرك، وذلك رحمة بالمؤمنين ليتحققوا بالقيام بما خلقوا له من عبودية الله الظاهرة والباطنة وتكميلها لتكمل لهم السعادة والفلاح وشواهد هذه الأمور كثيرة معروفة.

قال عبد الله بن جابر الله^(١): الجنب هو الجانب، والمراد بحمايته: صيانتة عما يقرب منه أو يخالطه من الشرك وأسبابه. اهـ.

- **وقال ابن باز^(٢):** بين المؤلف بهذه الترجمة ما جاء به النبى ﷺ وحمايته للتوحيد من الأقوال والأفعال الشركية وجنب الشئ: الجزء منه، وحمى التوحيد: زائد على الجانب، فالثانية أبلغ من الأولى، لأن الأولى فى الجانب، والثانية فى الحمى، وهنا ذكر الوسائل الفعلية لحماية التوحيد من الشرك، وفى باب حماية التوحيد وسد طرق الشرك، وسيأتى ذكره فيه الحماية القولية، أى حمى التوحيد بالتحذير من الشرك وما يوصل إليه من أقوال وأفعال. اهـ.

- **وقال ابن عثيمين:** قوله: «المصطفى».

أصلها: المصطفى، من الصفوة، وهو خيار الشئ؛ فالنبى ﷺ أفضل المصطفين لأنه أفضل أولى العزم من الرسل، والرسل هم المصطفون والمراد به: محمد ﷺ، والاصطفاء على درجات أعلاها اصطفاء أولى العزم من الرسل، ثم اصطفاء الرسل، ثم اصطفاء الأنبياء، ثم اصطفاء الصديقين، ثم اصطفاء الشهداء، ثم اصطفاء الصالحين.

[قلت]: وسيأتى فى الباب قبل الأخير من هذا الكتاب (حماية النبى ﷺ) حمى التوحيد) ففي هذا الباب عبر بالمصطفى لمناسبة الآية ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ولأن الحماية فى باب الأفعال أشق منها فى باب الأقوال فناسب التبويب هنا بالمصطفى وهناك بالنبي والله أعلم.

قوله: «حماية» من حمى الشئ، إذا جعل له مانساً يمنع من يقرب حوله، ومنه حماية الأرض عن الرعى فيها، ونحو ذلك. اهـ.

[قلت]: ومنه قوله ﷺ: «ألا إن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه» وفى

الحديث أيضا قال: «كالراعى يحوم حول الحمى يوشك أن يقع فيه»^(١) فالحمى هو ما يحميه الملك من الأراضى ويجعله فى سلطانه والله المثل الأعلى فهو الملك المقتدر وحماه كل ماله سلطان قدرى أو شرعى عليه وحى الله وسلطان الله الشرعى هى المحارم فلايجوز أن تقترب منها وكذلك الحمية والاحتماء وفى الحديث «إن الله إذا أراد بعبيده خيراً حماه من الدنيا كما يحمى أحدكم سقيم» وهو كما يحميك الطبيب من السقم ومن ذلك قول طبيب العرب: الحارث بن كلده.

المعدة بيت الداء والحمية هى الدواء

قوله: «جناب».

بمعنى جانب، والتوحيد: تفعيل من الوحدة، وهو أفراد الله تعالى بما يجب له من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات. اهـ.

[قلت]: قد تكون بمعنى جانب وزيادة أى كأنه تفخيم لجناب التوحيد فإذا أردت أن تفخم جانباً لأحد فإنك تقول له جنابك لم تفعل ذلك فكأنه أراد أن يعظم جناب التوحيد فهو عظيم ولذلك الرسول حماه اهـ.

قوله: «التوحيد» قلت: التوحيد من الوحدة وهو أفراد الله تعالى بما يجب له من الأولوية والربوبية والأسماء والصفات أو أفراد الله بالعبادة.

قوله: «وسده كل طريق».

أى: مع الحماية لم يدع الأبواب مفتوحة يلج إليها من شاء، ولكنه سد كل طريق يوصل إلى الشرك؛ لأنَّ الشرك أعظم الذنوب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

قوله: «يوصل إلى الشرك».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الشرك الأصغر لا يغفره الله؛ لعموم قوله: ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، وعلى هذا؛ فجميع الذنوب دونه لقوله: ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾؛ فيشمل كبائر الذنوب وصغائرها؛ فالشرك ليس بالأمر الهين الذى يُتَهاون به، فالشرك يفسد القلب والقصد، وإذا فسد القصد فسد العمل؛ إذ العمل مبناه على القصد، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٠٥١)، ومسلم فى المساقاة (٢٧/١١) - النووى) عن النعمان بن بشير به وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٩) - بتخریجنا).

الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» (*).

إذاً؛ فالرسول ﷺ حمى جانب التوحيد حمايةً محكمة، وسدَّ كل طريق يُوصل إلى الشرك ولو من بعيد؛ لأنَّ من سار على الدرب وصل، والشيطان يزيِّن للإنسان أعمال السوء شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى الغاية اهـ.

قلت: تقدم معنا قبل ذلك كلام ابن تيمية وقال معلقاً عليه ابن عثيمين أن شيخ الإسلام لم يتفق قوله في هذه المسألة فمرة قال: يغفر الشرك الأصغر ومرة قال: لا يغفر، وهنا أورد القول بأنه لا يغفر من باب التهيب في الشرك. وهذا جمعاً بين القولين:- فالشرك الأكبر لا يغفر ويخلد صاحبه في النار.

والشرك الأصغر لا يغفر إلا أن الله عزوجل يخرج صاحبه - بفضلله وكرمه منه - من النار لا أنه قد غفر له.

فهذا توجيه - تقدم - إن سلم فيصح القول بهذا التوجيه.

- وأما كونه يفسد القلب:- فهو كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ وكما قال تعالى حين فسدت نية بعض الصحابة ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ فكان هذا التغير في القلب سببه شرك الإرادة وكان هذا سبب من أسباب هزيمة المسلمين في هذه الغزوة ولأن الشرك أيضاً محبط للعمل كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لذلك حمى الرسول ﷺ جانب التوحيد حماية محكمة وسد كل طريق يوصل إلى الشرك اهـ.

● مسألة: لماذا عبر المصنف باسمه المصطفى دون غيره من أسمائه؟

الجواب: [قلت]: عبر المصنف عن الرسول بالمصطفى، وليس بمحمد أو أحمد وغير ذلك من أسمائه لقول الله تعالى - الذي سيأتي - ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ولقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ فالله خالق الخلق، واصطفى منهم الأنبياء، واصطفى من الأنبياء أولى العزم، واصطفى من أولى العزم الرسول ﷺ فهو أيضاً من هذه الحيشة مصطفى، وأيضاً كلمة المصطفى تبين أنه هو المؤهل لحماية جناب التوحيد؛ لأن المصطفى إذا كان هو خيار من

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١).

من خيار من خيار، وإذا كان هو من صفوة الناس والرسل، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ فلا يأمر إلا بما فيه رحمة وخير لنا، ولا ينهى إلا عما فيه عنت ومشقة علينا، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ولما ذكرها المصنف فى أدلة الباب وعلم تفسيرها وأنه من أخيرنا وأصفانا ناسب أن يذكر هذا الاسم فى الترجمة دون سائر أسمائه ﷺ. والله أعلم.

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ الآية.

● مناسبة الآية للباب وللتوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): هذه الآية وما فيها من أوصافه الكريمة ومحاسنه الجملة التى تقتضى أن ينصح لأمته، ويبلغ البلاغ المبين، ويسد الطرق الموصلة إلى الشرك، ويحمى جناب التوحيد غاية الحماية، ويبالغ أشد المبالغة فى ذلك لئلا تقع الأمة فى الشرك، وأعظم ذلك فتنة القبور، فإن الغلو فيها هو الذى جر الناس فى قديم الزمان وحديثه إلى الشرك لاجرم فعل النبى ﷺ ذلك، وحمى جناب التوحيد حتى فى قبره الذى هو أشرف القبور حتى نهى عن جعله عيداً، ودعا الله أن لا يجعله وثناً يعبد أهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣): فاقترضت هذه الأوصاف التى وصف بها رسول الله ﷺ فى حق أمته أنذرهم وحذرهم الشرك الذى هو أعظم الذنوب، وبين لهم ذرائع الموصلة إليه، وأبلغ فى نهيم عنها، ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها والصلاة عندها وإليها، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها. اهـ.

وكذا قال عبدالله بن جار الله^(٤).

وقال ابن باز^(٥): فهذه أوصافه فإن كانت هذه حاله فالواجب اتباعه ومحبته ولكن

(*) تقدم تخريجه.

(١) التوبة (١٢٨، ١٢٩). (٢) تيسير العزيز الحميد (٢٥٦). (٣) فتح المجيد (١/٣٢٦).

(٤) الجامع الفريد (٩٠). (٥) التعليق المفيد (١٢٨/١٢٧).

حصل العكس فعادوه حتى أرادوا قتله . ثم من كانت هذه صفاته فإنه لا يترك أمته بدون نصح لذلك أمر بالتوحيد وحث الناس على الاستقامة وحذر من الشرك وأسبابه بأقواله الكثيرة كحديث «لا تطروني كما اطرت النصارى»^(١) ... «ياكم والغلو»^(٢) ... «هلك المتنطعون»^(٣) أهـ.

وقال قرعاوى: حيث دلت الآية على حرص النبي ﷺ على أمته وهذا يقتضى حمايته لجانب التوحيد وسده كل طريق يؤدي إلى الشرك وقد فعل ذلك، فتهى عن تعظيم القبور بالبناء وفى مقدمتها قبره عليه الصلاة والسلام أهـ.

● فصل / العلاقة بين السورة وختمها بهذه الآية، وعلاقة ذلك بالبَاب:

قال الفخر الرازى^(٤): اعلم أنه تعالى لما أمر رسوله عليه السلام أن يبلغ فى هذه السورة إلى الخلق تكاليف شاقة شديدة صعبة يعسر تحميلها، إلا لمن خصه الله تعالى بوجوه التوفيق والكرامة، ختم السورة بما يوجب سهولة تحمل تلك التكاليف، وهو أن هذا الرسول منكم، فكل ما يحصل له من العز والشرف فى الدنيا فهو عائد إليكم. وأيضاً فإنه بحال يشق عليه ضرركم وتعظم رغبته فى إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم، فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم فى حقكم، والطبيب المشفق ربما أقدم على علاجات صعبة يعسر تحملها، والأب الرحيم ربما أقدم على تأديبات شاقة، إلا أنه لما عرف أن الطبيب حاذق، وأن الأب مشفق، صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة أهـ.

[قلت]: بل وأقول مستعذبة كما يؤدب الشيخ التلميذ بتأديبات شاقة لكن لما علم التلميذ أن هذا الشيخ رحيم ورفيق، وإنما يفعل ذلك من باب الحرص على الطالب وإيصال الخير إليه استعذب التلميذ هذه المشقة.

ثم قال: وصارت تلك التأديبات جارية مجرى الإحسان. فكذا ههنا لما عرفتم أنه رسول الله حق من عند الله، فاقبلوا منه هذه التكاليف الشاقة لتفوزوا بكل خير، ثم قال للرسول عليه السلام: فإن لم يقبلوها بل أعرضوا عنها وتولوا فاتركهم ولا تلتفت إليهم وعول على الله وارجع فى جميع أمورك إلى الله ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وهذه الخاتمة لهذه السورة جاءت فى غاية الحسن ونهاية الكمال. أهـ.

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) سيأتى تخريجه .

(٤) «التفسير الكبير» (٨/٣٦/٢٤١).

قلت: وعلاقة هذا بالتبويب أن المصطفى قد يحتاج لحماية جناب التوحيد ولسد كل باب يوصل الإنسان إلى الشرك، قد يحتاج هذا إلى فرض تكاليف شاقة جداً في باب الأقوال وفي باب الأفعال الظاهرة والباطنة فينبغي أن تتحملوها وتقبلوها وتقوموا طواعية لأنه جاء من أنفسنا وهو الحريص علينا وهو الرؤوف بنا والرحيم بنا فينبغي أن يكون هذا سائغ لتقبل هذه التكاليف الشاقة التي ما فرضها إلا حماية جناب التوحيد لنا ولحرصه علينا أن نقع في شرك، ثم إذا تولى متولى بعد هذا البيان ولم يقبل هذه التكاليف الشاقة فيما يبدو له ولم يتحملها وأعرض فقل أنت كما قال الرسول ﷺ «حسبي الله» كافيني.

- فائدة: لماذا قال ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ولم يصف اسمه لشيء من مخلوقاته سوى العرش العظيم؟

الجواب:

أحياناً إذا ضاق صدر الداعي بالناس وقتل نفسه حسرة عليهم لا يخرج من هذه الحالة إلا إذا تفكر في شيء عظيم، وهذا الشيء العظيم الذي عظم في نفسه وفي قلبه يتضائل معه هذا العنت وهذا الضيق وهذا الإعراض من الناس وقد يحدث أذى له من الناس وغير ذلك فلا يخرج من هذا الحال من الضيق والكرب والهم إلا أن يجد هذه الدائرة يعنى المنطقة التي هو فيها دائرة ضيقة بالنسبة لغيرها، فمثلاً ما منطقة المطرية في مصر؟ وما مصر في أفريقيا؟ وما أفريقيا في الكرة الأرضية؟! وما الكرة الأرضية في السماء الأولى إلا كحلقة في فلاة وما السماوات إلا كحلقة في فلاة بالنسبة للكرسى وما هذا الكرسى الذي هو موضع القدم إلا كحلقة في فلاة بالنسبة للعرش.

فلا يضيق صدره بالتضييق عليه في منطقة أو دائرة من الأرض بل إذا كانت نيته خالصة في أن يعبد الناس لرب العالمين، فليتوكل على الله رب العرش العظيم. ويقول بحق وحسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

● إعراب الآية:

- ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ اللام جواب للقسم المحذوف، و(قد) حرف تحقيق و﴿جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ فعل، ومفعول به، وفاعل. و﴿مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ صفة، أى من جنسكم، ومن نسبكم، عربى مثلكم.

- ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿عَزِيزٌ﴾ صفة ثانية لرسول، وفي النحاة من يمنع تقدم الوصف غير الصريح، على الوصف الصريح، ويمكن أن يجاب بأن ﴿مَنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ جار ومجرور، متعلقان بجاءكم، و(عليه) متعلقان بعزیز، و(ما) مصدرية أو موصولة وعلى كلا التقديرين، فهي ومدخولها، أى هي وصلتها فاعل (عزیز) الذى هو صفة مشبهة، ويجوز أن يكون (عزیز) خبر مقدم، و ﴿مَا عَنْتُمْ﴾ فى تأويل مصدر مبتدأ مؤخر، والجملة صفة لرسول، و﴿حَرِيصٌ﴾ صفة ثالثة أو ثانية، و ﴿عَلَيْكُمْ﴾ جار ومجرور، متعلقان بحرص، و﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلقان برؤوف، و﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ صفتان رابعة وخامسة، أو ثالثة ورابعة لرسول.

- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ الفاء عاطفة، و(تولوا) فعل وفاعل فى محل جزم فعل الشرط، والفاء رابطة، و﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ خبر مقدم، ومبتدأ مؤخر، والجملة مقول القول. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾... جملة حالية ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (عليه) جار ومجرور متعلقان بتوكلت، وهو مبتدأ و (رب العرش) خبر و(العظيم) صفة للعرش أهـ (١).

● ما جاء فى تفسير الآية من القرآن:

قال الشنقيطى (٢): هذه الآية الكريمة تدل على أن بعث هذا الرسول الذى هو من أنفسنا الذى هو متصف بهذه الصفات المشعة بغاية الكمال، وغاية شفقتة علينا هو أعظم من الله تعالى وأجزل نعمة علينا، وقد بين لك فى مواضع آخر، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (٣) وقوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (٤) وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٥).

- قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أمر تعالى فى هذه الآية الكريمة نبيه

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه / لمحيى الدين درويش (١٩٩/٤).

(٢) «أضواء البيان» (٣٥٤/٢).

(٣) آل عمران: (١٦٤).

(٤) إبراهيم: (٢٨).

(٥) الأنبياء: (١٠٧).

ﷺ بالتوكل عليه جل وعلا، ولا شك أنه ممثّل ذلك، فهو سيد المتوكلين عليه صلوات الله وسلامه، والتوكل على الله تعالى، وهو شأن إخوانه من المرسلين صلوات الله عليهم وسلامه، كما بين تعالى ذلك في آيات آخر، كقوله عن هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ (١) وقوله تعالى عن نوح: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كِبَرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونَ﴾ (٣٢) وقوله تعالى عن جملة الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ (٣) الآية. ومن أوضح الأدلة على عظم توكل نبينا ﷺ على الله، قوله يوم حنين، وهو على بغلة في ذلك الموقف العظيم «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب» أهـ.

- قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾.

● ما جاء في التفسير بالرفوع:

عن جبير بن نفير أن رسول الله ﷺ قال: لقد جاءكم رسول إليكم ليس بوهن، ولا كسل؛ ليحيى قلوباً غلفاً ويفتح أعيناً عمياً، ويسمع أذاناً صماً، ويقيم السنة عوجاً، حتى يقال: لا إله إلا الله (٤).

عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ فقال على بن أبي طالب رضى الله عنه: يا رسول الله ما معنى «أَنْفُسِكُمْ»؟ فقال رسول الله ﷺ «أنا أَنْفُسُكُمْ نسباً وصهراً وحسباً، ليس فى ولا فى آبائى من لدن آدم سفاح كلها نكاح» (٥).

(١) هود: (٥٤، ٥٦).

(٢) يونس: (٧١).

(٣) إبراهيم: (١٢).

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠١٥٩) فانظره بتخريجنا.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥٢٥/٣) ونسبه لابن مردويه.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح»^(١).

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء وما ولدني إلا نكاح كنكاح الإسلام»^(٢). وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خرجت من نكاح غير سفاح»^(٣).

عن محمد بن علي بن حسين أن النبي ﷺ قال «إنما خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم لم يصبني من سفاح أهل الجاهلية شيء، لم أخرج إلا من طهارة»^(٤).
عن علي بن أبي طالب «أن النبي ﷺ قال: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي، وأمي لم يصبني من سفاح الجاهلية شيء»^(٥).

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «لم يلتق أبواي قط على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً، لاتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما»^(٦).

عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «خير العرب مضر، وخير مضر بنو عبدمناف، وخير بنو عبدمناف بنو هاشم، وخير بنو هاشم بن عبدالمطلب، والله ما افترقا شعبتان منذ خلق الله آدم إلا كنت في خيرهما»^(٧).

عن أنس قال: خطب النبي ﷺ فقال: أنا محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار، وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما، فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم، حتى انتهيت إلى أبي وأمي، فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً»^(٨).

(١) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن سعد وابن عساكر. وانظر كتابنا الإنحاف بحقوق العاقد قبل الزفاف.

(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه للطبراني.

(٣) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن سعد، وابن عساكر.

(٤) الدر المنثور.

(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٧٢٨) عن علي به.

وذكره السيوطي في «الدر» (٥٢٥/٣) وزاد نسبه لابن أبي عمر العدني في «مسنده»، وأبي نعيم في «الدلائل»، وابن عساكر.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر» (٥٢٥/٣) ونسبه لأبي نعيم في «الدلائل».

(٧) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن سعد.

(٨) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لليبهي في «الدلائل»، وابن عساكر.

عن ابن عباس «أن قريشاً كانت نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق الخلق بالفي عام، يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة بتسبيحه، فلما خلق الله آدم عليه السلام ألقى ذلك النور في صلبه. قال رسول الله ﷺ: «فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم عليه السلام، وجعلني في صلب نوح، وقذف بي في صلب إبراهيم، ثم لم يزل الله ينقلني من الأصباب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجني من بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط»^(١).

عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ» قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، وقال رسول الله ﷺ خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح^(٢).

عن ابن عباس «أن رسول الله ﷺ قرأ «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ» يعنى من أعظمكم قدراً»^(٣).

● ما جاء في تفسير الآية من الآثار:

عن عبيد بن عمير قال: كان عمر لا يثبت آية في المصحف حتى يشهد رجلان، فجاء رجل من الأنصار بهاتين الآيتين «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» إلى آخرها. فقال عمر: لا أسألك عليها بينة أبداً، كذلك كان رسول الله ﷺ^(٤).

● ما جاء في تفسير الآية من الموقوف والمقطوع:

وعن ابن عباس في قوله «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ» قال: قد ولدتموه يامعشر العرب^(٥).

وقال ابن عباس: ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي ﷺ وله فيهم نسب^(٦).

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٥٢٦/٣) ونسبه لابن أبي عمر العدني.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠١٥٨). فانظره بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (٥٢٨/٣) ونسبه لابن جرير، وابن المنذر، وأبى الشيخ.

وذكره السيوطي في «الدر» (٥٢٤/٣) وزاد نسبه لعبد الرزاق في «المصنف»، وابن جرير، والبيهقي في

«سننه»، وأبى الشيخ. وانظر «فتح المجيد» (ح ٤١٠) بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (٥٢٥/٣) ونسبه للحاكم.

(٥) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن سعد.

(٦) تقدم تخريجه.

وقال السدي : من العرب من بنى إسماعيل .

وقال جعفر بن محمد الصادق : لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية من زمان آدم عليه السلام^(١) . ثم قال : وقرأ ابن عباس والزهري وابن محيص (من أنفسكم) بفتح الفاء أي : من أشرفكم وأفضلكم . اهـ .

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين :

قال ابن جرير^(٢) : يقول تعالى ذكره للعرب لقد جاءكم أيها القوم رسول الله إليكم من أنفسكم تعرفونه لامن غيركم فتهموا على أنفسكم في النصيحة

وقال البغوي^(٣) : قوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ تعرفون نسبه وحسبه .

وقال الزمخشري^(٤) : ﴿مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم ، ومن نسبكم العربي مثلكم .

اهـ .

خلاصة أقوال المفسرين في قوله ﴿مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾

وقال ابن الجوزي^(٥) : قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قرأ الجمهور بضم الفاء .

وقرأ ابن عباس ، وأبو العالية ، والضحاك ، وابن محيص ، ومحبوب عن أبي عمرو : بفتحها :

وفي المضمومة أربعة أقوال :

أحدها : من جميع العرب ، قاله ابن عباس ؛ قال : ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسول الله ﷺ .

الثاني : ممن تعرفون .

الثالث : من نكاح لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية . قاله جعفر الصادق .

الرابع : بشر مثلكم ، فهو أكد للحجة ، لأنكم تفقهون عمن هو مثلكم . قاله الزجاج .

وفي المفتوحة ثلاثة أقوال (أي : أنفسكم) :-

أحدها : أفضلكم خلقاً

الثاني : أشرفكم نسباً

الثالث : أكثركم طاعة لله عز وجل . اهـ .

قال الفخر الرازي^(٦) : ﴿مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي من العرب قال ابن عباس : ليس في

(١) تقدم تخريجه . (٢) تفسير الطبري (٥٥/١١/٧) . (٣) معالم التنزيل (١٣٣/٣) .

(٤) الكشف (١٩٧/٢) (٥) زاد المسير (٣٩٣/٣) . (٦) تفسير الفخر الرازي : ١٦/٨ ص ٢٤١ .

العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي عليه السلام بسبب الجدات، مضرها وربيعها ويمانيها فالمضربون والربيعيون هم العدنانية، واليمانيون هم القحطانية ونظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾^(١) والمقصود منه ترغيب العرب في نصرته، والقيام بخدمته، كأنه قيل لهم: كل ما يحصل له من الدولة والرفعة في الدنيا فهو سبب لعزكم ولفخركم، لأنه منكم ومن نسبكم أهـ.

[قلت]: ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾.

قال القرطبي^(٢): والخطاب للعرب في قول الجمهور، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك، إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه وشرّفوا به عابر الأيام وقال الزجاج: وهي مخاطبة لجميع العالم والمعنى: لقد جاءكم رسول من الشّبر. وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يقتضى مدحاً لنسب النبي ﷺ وأنه من صحيح العرب وخالصها، وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ كَنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِنْ كَنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(٣) أهـ.

[قلت]: وهنا فائدة: وهى أن جميع النعرات الجاهلية إذا كانت لنصرة الإسلام فلا يُتَعَصَّبُ لها، ولا تُرْفَع هذه الراية التى هى أصل دينهم وديندهم، فالعرب كانوا متعصبين للعروبة فلما جاءت العروبة تنصر الإسلام كفروا بها، وأيضاً فرعون كان متعصباً للسحرة فلما نصروا موسى كفر بهم مع أن السحر. كان دينه ودينده، ولكنه دينه ودينده إذا كان ينصره وينصر منهجه الفاسد، وهذا فى نصر أى قومية كانت وما الجزائر متاً ببعيد.

قال ابن كثير^(٤): يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته» وذكر الحديث. أهـ.

قلت: فمن الممكن أن يكون من أسباب الصد عن الدعوة أن يكون المدعوين جاهلين

(٢) تفسير القرطبي ٣١٤٠/٥.

(١) آل عمران (١٦٤).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (١/٤١/٨) عن واثلة به.

(٤) تفسير ابن كثير ٣٨٩/٢.

بأحوال الداعي، ولكن عندما تعرفه وتعرف نسبه وصفته وأمانته وصدقه ومدخله ومخرجه فيكون بالنسبة لنا كتاباً مفتوحاً ليس في حياته شيء مبهم.

قال صاحب الظلال^(١): ولم يقل جاءكم رسول منكم. ولكن قال «من أنفسكم» وهي أشد حساسية وأعمق صلة، وأدل على نوع الوشيجة التي تربطهم به. فهو بصفة من أنفسهم، تتصل بهم صلة النفس بالنفس، وهي أعمق وأحسن أهد.

[قلت]: وهو يشير إلى الوشيجة الإيمانية المتوقعة من كل مؤمن أن يصبح الرسول والمؤمنون كالنفس الواحدة والجسد الواحد هو من أنفسهم وهم كذلك «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد... الحديث» إلخ.

ومثله أبو بكر فكان رسول الله يشرب وأبو بكر يقول حتى رضيت.

قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

● التفسير بالقرآن

وهو كقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾^(٢).

● التفسير بالآثار الموقوفة والمقطوعة :

عن ابن عباس ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ قال: شديد عليه ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ ما شق عليكم^(٣).
عن قتادة في قوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية. قال: جعله الله من أنفسهم فلا يحسدونه على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة، عزيز عليه عنت مؤمنهم، حريص على ضالهم أن يهديه الله ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٤).

عن قتادة قال ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ عنت مؤمنهم^(٥).

عن سعيد بن أبي عروبة: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أن تفضلوا^(٦).

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال أهل التفسير:

(١) (١٧٤٣/٣). (٢) سورة الحجرات (٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠١٦٢) فانظره بتخريجنا.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠١٦٠) وذكره السيوطي في «الدر» (٥٢٩/٣) وزاد نسبه

لابن جرير، وابن المنذر، وأبي الشيخ.

وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخريجنا.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠١٦٣) فانظره بتخريجنا.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠١٦٤). فانظره بتخريجنا.

قال ابن جرير (١): «عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ» أى عزيز عليه عتكم، وهو دخول المشقة عليهم والمكروه والأذى أهد.

وقال البغوى (٢): «عَزِيزٌ عَلَيْهِ» شديد عليه «مَا عَنِتُّمْ» قيل (ما) صلة، أى عتكم، وهو دخول المشقة والمضرة عليكم. وقال القتيبي: ما أعتتكم وضرركم. وقال ابن عباس: ما ضللتكم.

وقال الضحاك والكلبي، ما أئتمتم. أهد.

وقال الزمخشري (٣): أى شديد عليه؛ لكونه بعضاً منكم عتتكم ولقاؤكم المكروه فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع فى العذاب أهد.

وقال ابن الجوزى (٤): فيه قولان:

(الأول): شديد عليه ما شق عليكم.

(الثانى): شديد عليه ما ائتمكم أهد.

قال الفخر الرازى (٥): قوله تعالى: «عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ» اعلم أن العزيز هو الغالب والغالب الشديد، والعزة هى الغلبة والشدة وأما العنت فيقال عنت الرجل يعنت عنتا إذا وقع فى مشقة وشدة لايمكنه الخروج منه ومنه قوله تعالى: «ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ» وقوله: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَتَكُمْ»

وقال الفراء (ما) فى قوله (ماعتتم) فى موضع رفع والمعنى عزيز عليه عتكم، أى يشق عيه مكروهمكم، وأولى المكروه بالدفع مكروه عقاب الله تعالى وهو إنما أرسل ليدفع هذا المكروه أهد.

وقال القرطبى (٦): قوله تعالى: «عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ» أى يعز عليه مشقتكم والعنت: المشقة، من قولهم: أكمة عنت إذا كانت شاقة مهلكة. وقال ابن الأثير:

(١) تفسير الطبرى (٥٥/١١/٧). (٢) معالم التنزيل (١٣٣/٣).

(٣) الكشف (١٧٩/٢).

(٤) زاد المسير (٣٩٣٩/٣).

(٥) التفسير الكبير (٢٤٢/١٦/٨).

(٦) تفسير القرطبى (٣١٤١/٥).

أصل التعنت التشديد، فإذا قالت العرب: فلان يتعنت فلاناً ويُعِنته فمرادهم يشدد عليه ويلزمه بما يصعب عليه أداؤه. وقد تقدم في «البقرة» «وما» في «عنتم» مصدرية وهى ابتداء «و» «عزيز» خبر مقدم. ويجوز أن يكون «ماعتنم» فاعلاً بعزيز، و«عزيز» صفة للرسول، وهو أصوب. اهـ.

قال ابن كثير^(١): وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أى يعزُّ عليه الشئ الذى يعنت أمته ويشق عليها، ولهذا جاء فى الحديث المروى من طرق عنه أنه قال «بعثت بالحنيفية السمحة»^(٢) وفى الصحيح «إن الدين يسر»^(٣) وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه أهـ.

[قلت]: ولذلك قال لمعاذ وأبى موسى لما أرسلهما «بشراً ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا»^(٤) وهو فى الصحيح.

قال سليمان آل الشيخ^(٥): وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ أى شديد عليه جداً ما عنتم، أى عنتكم. وهو لحاق الأذى الذى يضيق به الصدر، ولا يهتدى للمخرج، وهى هنا لفظ عام، أى ما شق عليكم من كفر وضلال وقتل وأسر وامتحان بسبب الخلق. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٦): قوله عزيز أى صعب لأن هذه المادة العين والزاي فى اللغة العربية تدل على الصلابة، ومنه «أرض عزاز»، أى: صلبة قوية. والمعنى: أنه يصعب عليه ما يشق عليكم، ولهذا بعث بالحنيفية السمحة، وما خير بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً وهذا من التيسير الذى بعث به الرسول ﷺ. اهـ.

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾.

● ما جاء فى تفسير الآية من قول النبي - ﷺ -:

أخرج مسلم عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلئى ومثلكم كمثلكم رجل أوقد ناراً وجعل الجنادب والفراس يقعن فيها وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم

(١) ابن كثير ٤/ ٣٨٩.

(٢) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٦٦/٥) عن أبى أمامة به.

وانظر كتابنا «تخريج أحاديث فقه السنة» وانظر «السلسلة» (١٧٥) - بتخريجنا.

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٩) عن أبى هريرة به. وانظر «فتح المجيد» (٤١٢) بتخريجنا.

وانظر «رياض الصالحين» (١٤٧) - بتخريجنا.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٠٣٨)، ومسلم فى الجهاد والسير (٦/ ٢٨٣/٧).

(٥) تيسير العزيز الحميد ٢٥٥. (٦) القول المفيد ١/ ٥٦٥.

عن النار، وأنتم تفلتون من يدي» (١).

وقال الإمام أحمد بسنده عند عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ «إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش أو الذباب» (٢).

وقال البزار: عن عكرمة عن أبي هريرة رضى الله عنه أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه في شيء قال عكرمة أراه قال في دم فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً ثم قال: «أحسن إليك؟» قال الأعرابي لا ولا أجملت فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه فأشار رسول الله ﷺ إليهم أن كفوا فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابي إلى البيت فقال «إنما جئنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت» فزاده رسول الله ﷺ شيئاً وقال «أحسن إليك؟» فقال الأعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. قال النبي ﷺ «إنك جئتنا فسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت، وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم» فقال نعم: فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال، وإننا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضى، كذلك يا أعرابي؟»، فقال الأعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال النبي ﷺ: «إن مثلى ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفوراً. فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها فتوجه إليها وأخذ لها من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها وإنى لو أطعتمكم حيث قال ما قال لدخل النار» رواه البزار ثم قال لانهلمه يروى إلا من هذا الوجه (قلت) وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان والله أعلم أهـ.

قلت: وهو أيضاً عند أبي الشيخ في أخلاق النبي ﷺ بسند ضعيف. (٣)

● ما جاء في التفسير من أقوال الصحابة والتابعين:

عن ابن عباس في قوله «حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ» أن يؤمن كفاركم (٤).

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الفضائل (١٩/٥٤/٨) عن جابر به.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٩٠ / ١) عن ابن مسعود به.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (١٧٨) عن أبي هريرة به.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (٥٢٩/٣) ونسبه لابن أبي حاتم، وأبى الشيخ وقد تقدم.

عن قتادة: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ قال: حريص على ضالهم أن يهديه^(١).

● ما جاء فى التفسير من أقوال المفسرين:

قال ابن جرير^(٢): ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ يقول: حريص على هدى ضلالكم، وتوبتهم، ورجوعهم إلى الحق أه.

وقال البغوى^(٣): قوله ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى على إيمانكم وصلاحكم أه.

وقال الزمخشري^(٤): قوله ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه، والاستسعاد بدين الحق الذى جاء به أه.

وقال ابن الجوزى^(٥): قال الحسن: حريص على أن تؤمنوا أه.

وقال الفخر الرازى^(٦): ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ والحريص يمتنع أن يكون متعلقاً بذواتهم، بل المراد حريص على إيصال الخيرات إليكم فى الدنيا والآخرة.

واعلم أن هذا التقدير يكون قوله ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ معناه: شديدة معزته عن وصول شيء من آفات الدنيا والآخرة إليكم، وبهذا التقدير لا يحصل التكرار.

قال الفراء: الحريص: الشحيح. ومعناه: أنه شحيح عليكم أن تدخلوا النار وهذا بعيد؛ لأنه يوجب الخلط عن الفائدة. أه.

قال القرطبى^(٧): قال أبو جعفر النحاس: وأحسن ما قيل فى معناه مما يوافق كلام العرب ما حدثنا أحمد بن محمد الأزدي، قال حدثنا عبدالله بن محمد الخزاعى، قال سمعت عمرو بن على يقول: سمعت عبدالله بن داود الحُرَيْبِ يقول فى قوله عز وجل ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ قال: أن تدخلوا النار، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ قال أن تدخلوا الجنة... وقال الفراء: شحيح بأن تدخلوا النار. والحرص على الشيء: الشح عليه أن يضيع ويتلف. أه.

(١) تقدم تخريجه

(٢) تفسير الطبرى (٥٥/١١/٧).

(٣) معالم التنزيل (١٣٣/٣).

(٤) الكشف (١٧٩/٢).

(٥) زاد المسير (٣٩٣/٣).

(٦) التفسير الكبير (٢٤٢/١٦/٨، ٢٤٣).

(٧) تفسير القرطبى (٣١٤١/٥).

الخلو عن الفائدة لأن هذا المعنى مستفاد من قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ولهذا قال الشوكاني في «تفسيره» بأن هذا هو الأولى والله أعلم.

قال ابن كثير (١): ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى على هدايتكم ووصول النفع الدينى والأخروى إليكم، وقال الطبرانى بسنده عن أبى ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً قال وقال رسول الله ﷺ ما بقى شئ يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم (٢).

● أقوال الشراح:

قال ابن عثيمين (٣): الحرص: بذل الجهد لإدراك أمر مقصود، والمعنى: باذل غاية جهده فى مصلحتكم، فهو جامع بين أمرين: دفع المكروه الذى أفاده قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ وحصول المحبوب الذى أفاده قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾، فكان النبى ﷺ جامعاً بين هذين الوصفين، وهذا من نعمة الله علينا وعلى الرسول ﷺ أن يكون على هذا الخلق العظيم الممثل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. اهـ.

قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

● ما جاء فى التفسير بالقرآن:

هى كقوله تعالى: ﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٤).

● ما جاء فى التفسير من الآثار المرفوعة:

عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ «جاء جبريل فقال لى: يا محمد إن ربك يقرئك السلام، وهذا ملك الجبال قد أرسله الله إليك وأمره أن لا يفعل شيئاً إلا بأمرك. فقال له ملك الجبال: إن الله أمرنى أن لا أفعل شيئاً إلا بأمرك، إن شئت دمدت عليهم الجبال، وإن شئت رميتهم بالحصباء، وإن شئت خسفت بهم الأرض قال: يا ملك الجبال فإننى أتى بهم لعله أن يخرج منهم ذرية يقولون: لا إله إلا الله. فقال ملك الجبال عليه السلام: أنت

(١) تفسير ابن كثير (٢/٣٨٩).

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٢/١٥٥/١٦٤٧) عن أبى ذر به.

قال الهيثمى فى «المجمع» (٧/٢٦٤): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة.

(٤) الشعراء: (٢١٥، ٢١٦).

(٣) القول المفيد ١/٥٦٦.

كما سَمَّاكَ رَبُّكَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ»^(١).

عن أبي صالح الخنفي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله رحيم ولا يضيع رحمته إلا على رحيم. قلنا: يا رسول الله كلنا نرحم أموالنا وأولادنا. قال: ليس بذلك ولكن كما قال الله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾»^(٢).

● أقوال المفسرين:

قال ابن جرير^(٣): قوله ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أى رفيق رحيم. أهـ.

قال البغوي^(٤): قيل: ﴿رَءُوفٌ﴾ بالمطيعين، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالمذنبين أهـ.

وقال أبي روق: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ كلهم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٥) أهـ.

وقال الزمخشري^(٥): ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم، ومن غيركم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال ابن الجوزي^(٦): قوله ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قال ابن عباس: سماه بأسمين من أسمائه وقال أبو عبيدة: ﴿رَءُوفٌ﴾ فعول، من الرأفة، وهى أرق من الرحمة، ويقال: ﴿رَءُوفٌ﴾ وأنشد:

ترى للمؤمنين عليك حقاً
كفعل الوالد الرؤوف الرحيم

وقيل: الرؤوف بالمطيعين، ورحيم بالمذنبين أهـ.

● مسألة:

قال الفخر الرازي^(٧): لما قال ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ فهذا النسق يوجب أن يقال ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بالمؤمنين، فلم ترك هذا النسق وقال ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؟

الجواب: أن قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يفيد الحصر، بمعنى أنه لا رأفة

(١) أخرجه ابن أبي حاتم فى «تفسيره» (١٠١٦٩) وانظر «الدر» (٥٢٩/٣).

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥٢٩/٣) ونسبه لابن مردويه.

(٣) تفسير الطبرى (٥٥/١١/٧). (٤) معالم التنزيل (١٣٣/٣).

(٥) تفسير ابن أبى حاتم (١٩١٨/٦). (٦) زاد المسير (٣٩٣/٣).

(٧) التفسير الكبير (٢٤٣/١٦/٨).

ولارحمة إلا بالمؤمنين، فأما الكافرون فليس لهم عليهم رافة ورحمة إلا بالمؤمنين، وهذا كالمتمم لقدر ما ورد في هذه السورة من التغليظ كأنه يقول: إني وإن بالغت في هذه السورة في التغليظ إلا أن ذلك التغليظ على الكافرين والمنافقين وأما رحمتي ورأفتي فمخصوصة بالمؤمنين فقط، فلهذه الدقيقة عدل عن ذلك النسق أهـ.

قال القرطبي^(١): الرؤوف: المبالغ في الرافة والشفقة.

وقال الحسين بن الفضل: لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا النبي محمد ﷺ، فإنه قال: «بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»، وقال: «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ» أهـ.

وقال الشوكاني^(٢): «بِالْمُؤْمِنِينَ» منكم أيها العرب؛ أو الناس «رَءُوفٌ رَحِيمٌ» أهـ.

وقال السعدى^(٣): ولهذا كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه، وتوقيره، وتعزيه أهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): والرحمة: رقة بالقلب تتضمن الحنو على المرحوم والعطف عليه بجلب الخير له ودفع الضرر عنه.

وقولنا: رقة في القلب هذا باعتبار المخلوق، أما بالنسبة لله تعالى؛ فلا نفسرها بهذا التفسير؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء، ورحمة الله أعظم من رحمة المخلوق لاتدانيها رحمة المخلوق ولا تماثلها؛ فقد ثبت عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ مِثْلُ رَحْمَةٍ وَضَعَهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً يَتَرَاهُمْ بِهَا الْخَلْقُ مِنْذُ خَلَقُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، حَتَّى إِنَّ الدَّابَّةَ لَتَرَفَعُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تَصِيْبَهُ»^(٥).

فمن يحصى هذه الرحمة التي في الخلائق منذ خلقوا إلى يوم القيامة كمية؟ ومن يستطيع أن يقدّر لها كيفية؟ لا أحد يستطيع إلا الله عز وجل - الذي خلقها؟

فهذه رحمة واحدة، فإذا كان يوم القيامة رحم الخلق بتسع وتسعين رحمة بالإضافة إلى الرحمة الأولى، وهل هذه الرحمة تدانيها رحمة المخلوق؟.

الجواب: أبداً، لاتدانيها، والقدر المشترك بين رحمة الخالق ورحمة المخلوق أنّها صفة تقتضى الإحسان إلى المرحوم، ورحمة الخالق غير مخلوقة؛ لأنّها من صفاته، ورحمة

(١) تفسير القرطبي (٥/٣١٤١). (٢) فتح القدير (٢/٤٣٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢/٢٩١). (٤) القول المفيد ١/٥٦٦: ٥٦٨.

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم في التوبة (٩/١٧/٧٩) عن أبي هريرة به.

المخلوق مخلوقة؛ لأنها من صفاته؛ فصفات الخالق لا يمكن أن تنفصل عنه إلى مخلوق لأننا لو قلنا بذلك لقلنا بحلول صفات الخالق بالمخلوق، وهذا أمر لا يمكن؛ لأن صفات الخالق يتصف بها وحده، وصفات المخلوق يتصف بها وحده، لكن صفات الخالق لها آثار تظهر في المخلوق، وهذه الآثار هي الرحمة التي نترحم بها.

قلت: كما قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

● ما جاء في التفسير بالقرآن:

كقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

● ما جاء في التفسير بأقوال المفسرين:

قال ابن جرير^(١): فإن تولى يا محمد هؤلاء الذين جثتهم بالحق من عند ربك من قومك، فأدبروا عنك، ولم يقبلوا ما أتيتهم به من النصيحة في الله، وما دعوتهم إليه من النور والهدى.

﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ يكفيني ربي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لامعبود سواه أهد.

وقال البغوي^(٢): ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ إن أعرضوا عن الإيمان وناصبوك أهد.

وقال الزمخشري^(٣): كالبغوي وزاد: فاستعن وفوض إليه، فهو يكفيك معرفتهم ولا يضررونك، وهو ناصرك عليهم.

وقال ابن الجوزي^(٤): بمثل ما تقدم.

وقال الفخر الرازي^(٥): ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يريد المشركين والمنافقين. وقيل: تولوا عن طاعة الله تعالى وتصديق الرسول عليه الصلاة والسلام. وقيل: تولوا عن قبول التكليف الشاقة المذكورة في هذه السورة، وقيل: تولوا عن نصرتك في الجهاد.

واعلم أن المقصود من هذه الآية بيان أن الكفار لو أعرضوا ولم يقبلوا التكليف، لم يدخل في قلب الرسول حزن ولا أسف، لأن الله حسبه وكافيه في نصره على الأعداء وفي إيصاله إلى مقامات الآلاء والنعماء.

(١) تفسير الطبري (٥٥/١١/٧).

(٢) معالم التنزيل (١٣٣/٣).

(٣) الكشف (١٧٩/٢).

(٤) زاد المسير (٣٩٣/٣).

(٥) التفسير الكبير (٢٤٣/١٦/٨).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وإذا كان لا إله إلا هو وجب أن يكون لامبديء لشيء من الممكنات ولا محدث لشيء من المحدثات إلا هو، وإن كان هو الذى أرسلنى بهذه الرسالة، وأمرنى بهذا التبليغ كانت النصرة عليه والمعونة مرتقبة منه. أهـ.

وقال القرطبى^(١): بنحو ما تقدم.

وقال ابن كثير^(٢): فإن تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى الله كافى لا إله إلا هو عليه توكلت روى أبو داود - بسنده - عن أبى الدرداء قال: «من قال إذا أصبح، وإذا أمسى: حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات إلا كفاه الله ما أهمه»^(٣) وقد رواه ابن عساكر - بسنده إليه وزاد: «سبع مرات صادقاً كان بها أو كاذباً إلا كفاه الله ما أهمه» وهذه زيادة غريبة، ورواه أيضاً مرفوعاً مثله بالزيادة، وهذا منكر والله أعلم أهـ.

وقال ناصر السعدى^(٤): فإن تولوا عن الإيمان والعمل، فامضى فى سبيلك، ولا تزل فى دعوتك وقل ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أى الله يكفينى، جميع ما أهمنى ... أهـ.

قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾:

● ما جاء فى التفسير بالقرآن:

كقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ وقوله ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وقوله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

● ما جاء فى التفسير قول الصحابي:

- وروى مسلم عن ابن عباس قال: «كان آخر قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقى فى النار: «حَسْبِيَ اللَّهُ ونعمى الوكيل»^(*).

● ما جاء فى أقوال المفسرين:

قال ابن جرير^(٥): ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وبه وثقت، وعلى عونه اتكلت، وإليه، وإلى نصره استندت فإنه ناصرى ومعينى على من خالفنى وتولى عنى منكم ومن غيركم من الناس أهـ.

(١) تفسير القرطبى (٣١٤١/٥). (٢) تفسير ابن كثير (٢٩١/٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٤١) عن أبى الدرداء به.

وانظر «الأذكار للنووى» (٢١٩ - بتخريجنا).

(٤) تفسير الكريم الرحمن (٢٩١/٢). (*) سيأتى تخريجه. (٥) تفسير الطبرى (٥٦/١١/٧).

وقال الرازى^(١): ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يفيد الحصر، أى لا أتوكل إلا عليه أهـ.

وقال القرطبى^(٢): ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى اعتمدت أهـ.

وقال الشوكانى^(٣): ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى فوضت جميع أمورى أهـ.

وقال السعدى^(٤): أى اعتمدت ووثقت به فى جلب ما ينفع ودفع ما يضر أهـ.

قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

● ما جاء فى التفسير من أقوال المفسرين:

قال ابن جرير^(٥): ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذى يملك كل ما دونه، والملوك كلهم ممالكه وعبيده، وإنما عنى بوصفه جل ثناؤه نفسه بأنه رب العرش العظيم الخبر عن جميع ما دونه أنهم عبيده، وفى ملكه وسلطانه، لأن العرش العظيم إنما كان يكون للملوك فوصف نفسه بأنه ذو العرش دون سائر خلقه، وأنه الملك العظيم دون غيره، وأن من دونه فى سلطانه وملكه جار عليه حكمه وقضاؤه أهـ.

وقال الزمخشري^(٦): وقرأ ﴿الْعَظِيمِ﴾ بالرفع، وعن ابن عباس: العرش لا يقدر أحد قدره أهـ.

وقال ابن الجوزى^(٧): إنما خص العرش بالذكر؛ لأنه الأعظم، فيدخل فيه الأصغر أهـ.

وقال الفخر الرازى^(٨): والسبب فى تخصيصه للعرش بالذكر أنه كلما كانت الآثار أعظم وأكرم كان ظهور جلاله المؤثر فى العقل والخطر أعظم، ولما كان أعظم الأجسام هو العرش كان المقصود من ذكره تعظيم جلال الله سبحانه.

فإن قالوا: العرش غير محسوس فلا يعرف وجوده إلا بعد ثبوت الشريعة فكيف يمكن ذكره فى معرض شرح عظمة الله تعالى؟

قلنا: وجود العرش أمر مشهور والكفار سمعوه من اليهود والنصارى، ولا يبعد أيضاً أنهم كانوا قد سمعوه من أسلافهم أهـ. وبنحو ما تقدم ذكره باقى المفسرين.

(١) التفسير الكبير (٢٤٣/١٦/٨). (٢) تفسير القرطبى (٣١٤٣/٥).

(٣) فتح القدير (٤٣٦/٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٢٩١/٢). (٥) تفسير الطبرى (٥٦/١١/٧).

(٦) الكشف (١٧٩/٢). (٧) زاد المسير (٣٩٣/٣).

(٨) التفسير الكبير (٢٤٤/١٦/٨).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورِي، عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ، تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُ»^(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ وَرَوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

● ما جاء في الآية من أقوال شرح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٢):

وفي الآية مسائل:-

[ومنها]: التنبيه على هذه النعمة العظيمة، وهي إرسال الرسول ﷺ فينا كما قال تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

[ومنها]: كونه منانعة أخرى عظيمة.

[ومنها]: كونه بهذه الصفات نعم متعددة.

[ومنها]: مدح نسبه ﷺ، فهو أشرف العرب بيتاً ونسباً.

[ومنها]: رأفته بالمؤمنين.

[ومنها]: غلظته على الكفار والمنافقين أهد.

- قال سليمان آل الشيخ^(٣): رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ:

وغیره من حدیث عبد الله بن نافع الصائغ قال: أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة فذكره. ورواته ثقات مشاهير، لكن عبد الله بن نافع فيه لين لا يمنع الاحتجاج به. قال ابن معين: هو ثقة. وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال أبو حاتم الرازي: ليس بالحافظ تعرف وتكرر. قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومثال هذا قد يخاف أن يغلط أحياناً، فإذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ، وهذا له شواهد متعددة. وقال الحافظ ابن عبد الهادي: هو حديث حسن جيد الإسناد، وله شواهد كثيرة يرتقى بها إلى درجة الصحة. اهـ.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٦٧/٢) وأبو داود في «كتاب المناسك» / باب: زيارة القبور

(٢) ٢٢٥/٢ ح ٢٠٤٢. والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩١/٣) ح ٤١٦٢.

جميعاً من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة.

انظر «رياض الصالحين» (ح ١٤٠٤) و«فتح المجيد» (٤١٥). بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٥٦، ٢٥٧).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٦٠).

● مناسبة الحديث للباب والتوحيد:

قال القرعاوى^(١): حيث دل الحديث على تحريم اتخاذ قبره عيداً، وذلك حماية منه لجانب التوحيد، وسد كل طريق يؤدي إلى الشرك. اهـ.

قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): - قال شيخ الاسلام^(٣) نور الله ضريحه: أى لاتعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري العبادة فى البيوت، ونهى عن تحريها عند القبور عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم.

وفى الصحيحين عن ابن عمر مرفوعاً: «اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً»^(٤).

وفى صحيح مسلم. عن أبى هريرة - رضى الله عنه - «لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة»^(٥).

وفيه أن الصلاة فى المقبره لاتجوز وأن التطوع فى البيت أفضل منه فى المسجد وفى حديث أبى هريرة الذى ذكرنا كراهة القراءة فى المقابر، وكل هذا إبعاد لأتمته عن الشرك. اهـ.

- وقال حسن بن محمد^(٦): أى لاتجعلوا بيوتكم مثل القبور لاتصلون فيها بل صلوا فيها السنن والنوافل ولأنها فى البيت أفضل، قيل: لأنه أبعد مثل الرياء وأقرب للإخلاص. اهـ.

- وقال عبد الله بن جابر^(٧): نهاهم ﷺ أن يهجروا بيوتهم عن الصلاة فيها والعبادة كما تهجر القبور عن الصلاة إليها مخافة الفتنة بها، وما يقضى إلى عبادتها. اهـ.

- وقال ابن باز^(٨): بنحو هذا.

(١) الجديد (٢٠٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٦٠).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٦٦٢/٢).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١١٨٧)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٦٧/٦) - النووى عن ابن

عمر به.

وانظر «رياض الصالحين» (١١٣١) - بتخريجنا).

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٦٨/٦) - النووى عن أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٠٢٠) - بتخريجنا).

(٦) فتح الله احميد المجيد (٣٠٠). (٧) الجامع الفريد (٩١). (٨) التعليق المفيد (١٢٨).

- وقال ابن عثيمين^(١): (لا تجعلوا) الجملة هنا نهى، فلا ناهية، والفعل مجزوم وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل.

وقوله: (بيوتكم) جمع بيت، وهو مقر الإنسان وسكنه، سواء كان من طين أو حجارة أو خيمة أو غير ذلك، وغالب ما يراد به الطين والحجارة.
[قلت]: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾.

وقوله: (قبوراً) مفعول ثان، لتجعلوا وهذه الجملة تختلف فى معناها، فمنهم من قال: لا تجعلوها قبوراً؛ أى: لا تدفنوا فيها، وهذا لاشك أنه ظاهر اللفظ، ولكن أورد على ذلك دفن النبی ﷺ فى بيته.

وأجيب عنه بأنه من خصائصه ﷺ؛ فالنبي ﷺ دفن فى بيته لسببين:

١ - ما روى عن أبى بكر أنه سمع النبی ﷺ يقول: «ما من نبى يموت إلا دفن حيث قبض»^(٢)، وهذا ضعفه بعض العلماء.

٢ - ما روته عائشة رضى الله عنها: «أنه خشى أن يتخذ مسجداً».

وقال بعض العلماء: المراد بـ «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً»؛ أى: لا تجعلوها مثل القبور؛ المقبرة لاتصلون فيها، وذلك لأنه من المقرر عندهم أن المقابر لا يُصلّى فيها، وأيدوا هذا التفسير بأنه سبقها جملة فى بعض الطرق: «اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم، ولا تجعلوها قبوراً»^(٣)، وهذا يدل على أن المراد: لا تدعوا الصلاة فيها.

وكلا المعنيين صحيح؛ فلا يجوز أن يُدفن الإنسان فى بيته، بل يُدفن مع المسلمين؛ لأن هذه هى العادة المتبعة منذ عهد النبی ﷺ إلى اليوم، ولأنه إذا دفن فى بيته؛ فإنه ربما يكون وسيلة إلى الشرك، فربما يعظم هذا المكان، ولأنه يحرم من دعوات المسلمين الذين يدعون بالمغفرة لأموات المسلمين عند زيارتهم للمقابر، ولأنه يضيق على الورثة من بعده فيسأمون منه، وربما يستوحشون منه، وإذا باعوه لأيساوى إلا شيئاً قليلاً، ولأنه قد يحدث عنده من الصخب واللعب واللغو الأفعال المحرمة ما يتنافى مع مقصود الشارع؛ فإن الرسول ﷺ يقول: «زوروا القبور؛ فإنها تذكركم الآخرة»^(٤).

وأما أن المعنى: لا تجعلوها قبوراً؛ أى: مثل القبور فى عدم الصلاة فيها؛ فهو دليل على أنه ينبغي إن لم نقل: يجب أن يجعل الإنسان من صلاته فى بيته ولايخليه من الصلاة.

(٢) أخرجه ابن ماجة (١٦٢٨) عن أبى بكر به.

(٤) سبق.

(١) القول المفيد (١/ ٥٧١ - ٥٧٥).

(٣) تقدم تخريجه.

وفيه أيضا : أن من المتقرر عندهم أن المقبرة لا يصلى فيها .

إذاً؛ فيكون هذا النهى عن ترك الصلاة فى البيوت لثلاً تشبه المقابر؛ فيكون فيه دليل واضح على أن المقابر ليست محلاً للصلاة، وهذا هو الشاهد من الحديث للباب؛ لأن اتخاذ المقابر مساجد سبب قريب جداً للشرك .

واتخاذها مساجد سبق أن له مرتبتين :

الأولى: أن يبنى عليها مسجداً .

الثانية: أن يتخذها مصلى يقصدها ليصلى عندها . اهـ .

[قلت]: الثالثة: أن يصلى فيها .

ثم قال : والحديث يدل على أن الأفضل : أن المرء يجعل من صلاته فى بيته وذلك جميع النوافل ؛ لقوله ﷺ «أفضل صلاة المرء فى بيته؛ إلا المكتوبة»^(١) ؛ إلا ماورد الشرع أن يفعل فى المسجد، مثل : صلاة الكسوف، وقيام الليل فى رمضان، حتى ولو كنت فى المدينة النبوية ؛ لأن النبى ﷺ قال ذلك وهو فى المدينة، وتكون المضاعفة بالنسبة للفرائض أو النوافل التى تسن لها جماعة أهـ .

قال القرعاوى^(٢)

الفوائد : أى من الحديث :

١- تحريم هجر البيوت من عبادة الله .

٢- تحريم الصلاة فى المقابر . اهـ .

قال أبى الطيب شمس الحق أبادى^(٣)

«لا تجمعوا بيوتكم قبوراً» أى لا تركوا الصلوات والعبادة فتكونوا فيها كأنكم أموات . شبه المكان الخالى عن العبادة بالقبور، والغافل عنها بالميت ثم أطلق القبر على المقبرة . وقيل المراد لا تدفنوا فى البيوت، وإنما دفن المصطفى فى بيت عائشة مخافة إتخاذ قبره مسجداً ذكره القاضى .

قال المناوى فى فيض القدير : وقال الخفاجى : ولا يرد عليه أنه ﷺ دفن فى بيته لأنه اتبع فيه سنة الأنبياء عليهم السلام كما ورد : ما قبض نبى إلا دفن حيث يقبض^(*) فهو مخصوص بهم . انتهى .

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٣١)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٣/٢٢٥/٢١٣) عن زيد بن

ثابت به .

(٣) عون المعبود (٦/٣١) .

(٢) الجديد (٢٠٣) .

(*) تقدم تخريجه .

قوله: [ولا تجعلوا قبري عيداً] قال ابن تيمية^(١) العيد اسم لما يعود من الاجتماع على وجه معتاد، عائداً إما يعود السنة أو يعود الأسبوع، أو الشهر، ونحو ذلك. اهـ.

قال ابن رجب: (٢) العيد هو موسم الفرح والسرور، وأفراح المؤمنين وسرورهم في الدنيا إنما هو بمولاهم إذا فازوا بإكمال طاعته، وحازوا ثواب أعمالهم بوثوقهم بوعده لهم عليها بفضلته ومغفرته، كما قال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾

قال بعض العارفين: ما فرح أحدٌ بغير الله إلا بغلغته عن الله، فالغافل يفرح بلهوه وهواه والعاقل يفرح بمولاه.

وأنشد سحنون في هذا المعنى:

وكان فؤادي خالياً قبل حبكم	وكان بذكر الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبي هواك أجابه	فلمست أراه عن فنائك يبرح
رُميتُ ببعْد منك إن كنت كاذباً	وإن كنت في الدنيا بغيرك أفرح
وإن كان شيء في البلاد بأسرها	إذا غبتَ عن عيني لعيني يملح

لما قدم النبي ﷺ المدينة كان لهم يومان يلعبون فيهما فقال: «إن الله قد أبدلكم يومين خيراً منهما: يوم الفطر والأضحى»^(٣) فأبدل الله هذه الأمة بيومي اللعب واللهو ويومي الذكر والشكر والمغفرة.

ففي الدنيا للمؤمنين ثلاثة أعياد:

عيد يتكرر كل أسبوع، وعيدان يأتيان في كل عام مرة - الفطر والأضحى - اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٤): وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: العيد ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان، مأخوذ من المعاودة والاعتياد، فإن كان اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيا به للعبادة أو لغيرها، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة، كما جعل أيام العيد فيها عيداً،

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/٤٤٢).

(٢) لطائف المعارف (٢/٤٤٩، ٤٥٠)، بتخريجنا

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/١٠٣)، وأبو داود (١١٣٤)، والنسائي (٣/١٧٩ - السيوطي) عن

أنس به.

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٥٧).

وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحفء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر اهـ.

ثم قال سليمان^(١): معنى الحديث، نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، واجتماع معهود كالعيد الذى يكون على وجه مخصوص فى زمان مخصوص، وذلك يدل على المنع فى جميع القبور وغيرها لأن قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض، وقد نهى عن اتخاذ هعيداً فقبور غيره أولى بالنهى كائناً من كان. قال المصنف: وفيه النهى عن الإكثار من الزيارة اهـ.

[قلت]: لأن المرة والمرتين لا تكون عادة ولا عيد ولا يكون إلا بالإكثار. والله أعلم.
- وقال حامد بن محمد^(٢): نهى رسول الله ﷺ أن يجعلوا قبره عيداً يعودونه حذراً مما وقع فى السلف الماضى من الأمم. اهـ.

- وقال عبد الله بن جابر^(٣): نحو ما تقدم.
- وقال ابن باز^(٤): ولا يدخل فى هذا زيارته ﷺ بدون شد الرحال، وبدون غلو فيها، وعبادة عندها. اهـ.

- وذكر ابن عثيمين^(٥) أن الظاهر من الحديث: لا ترددوا على قبرى وتعتادوا ذلك، سواء قيدوه بالسنة أو بالشهر أو بالأسبوع، فإنه ﷺ نهى عن ذلك، وإنما يزار لسبب كما لو قدم الإنسان من سفر فذهب إلى قبره فزاره، أو زاره ليتذكر الآخرة كغيره من القبور. وما يفعله بعض الناس فى المدينة كلما صلى الفجر ذهب إلى قبر النبى ﷺ من أجل السلام عليه فيعتاد هذا كل فجر، يظنون أن هذا مثل زيارته فى حياته فهذا من الجهل، وما علموا أنهم إذا سلموا عليه فى أى مكان فإن تسليمهم يبلغه. اهـ.

● شبهة، والرد عليها: -

قيل أن قوله ﷺ: «ولا تجعلوا قبرى عيداً» أن النهى هذا عن ملازمة قبره والعكوف عنده واعتياد قصده وانتباهه، ونهى أن يجعل كالعيد الذى إنما يكون فى العام مرة أو مرتين، فكأنه قال: لا تجعلوه كالعيد الذى يكون من الحول إلى الحول، واقصدوه كل ساعة وكل وقت.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٥٨، ٢٥٩).

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٣٠٠).

(٣) الجامع الفريد (٩١).

(٤) التعليق المفيد (١٢٨).

(٥) القول المفيد (١/ ٥٧٥).

الجواب: قال ابن القيم رحمه الله^(١): وهذا مراغمة ومحادة ومناقضة لما قصده الرسول ﷺ وقلب للحقائق، ونسبة الرسول ﷺ إلى التليس والتدليس بعد التناقض، فقاتل الله أهل الباطل أنى يؤفكون. ولا ريب أن من أمر الناس باعتياد أمر وملازمته وكثرة انتيابه بقوله: «لا تجعلوا قبرى عيداً»، فهو إلى التليس وضد البيان أقرب منه إلى الدلالة والبيان، وهكذا غيرت أديان الرسل، ولولا أن الله أقام لدينه الأنصار والأعوان الذائنين عنه، لجرى عليه ما جرى على الأديان قبله. ولو أراد رسول الله ﷺ ما قاله هؤلاء الضلال لم يته عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، ويلعن فاعل ذلك، فإنه إذا لعن من اتخذها مساجد يعبد الله فيها، فكيف يأمر بملازمتها والعكوف عندها وأن يعتاد قصدها وانتياها ولا تجعل كالعيد الذى يجىء من الحول إلى الحول؟! وكيف يسأل ربه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد؟! وكيف يقول أعلم الخلق بذلك؟! «ولولا ذلك لأبرز قبره»، ولكن خشى أن يتخذ مسجداً، وكيف يقول: «لا تجعلوا قبرى عيداً». «وصلوا على حيثما كنتم»؟! وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضلال الذين جمعوا بين الشرك والتحريف؟! وهذا أفضل التابعين من أهل بيته على بن الحسين رضى الله عنهما، نهى ذلك الرجل أن يتحرى الدعاء عند قبره ﷺ، واستدل بالحديث وهو الذى رواه وسمعه من أبيه الحسين عن جده على رضى الله عنهما^(٢)، وهو أعلم بمعناه من هؤلاء الضلال، وكذلك ابن عمه الحسن بن الحسن شيخ أهل بيته، كره أن يقصد الرجل القبر إذا لم يكن يريد المسجد، ورأى أن ذلك من اتخاذ عيداً. انتهى. - أى كلام ابن القيم -.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): - وكيف يريد النبى ﷺ هذا المعنى ويعبر عنه بهذا الكلام، مع أنه أفصح الخلق وأنصحهم، وكان يمكنه أن يقول: أكثروا زيارة قبرى، أو اجعلوه عيداً تعتادون المجىء إليه والعبادة عنده؟! فظهر بطلان هذا القول. اهـ.

وقال قرعاوى^(٤) مختصراً للرد السابق: وهذا التأويل باطل من عدة وجوه: أحدها: أن هذا فيه تليس وإيهام والشرعية لم تأت إلا بالوضوح والصراحة. الثانى: لو كان قصد النبى ﷺ ما ذكره هؤلاء لفعله أهل بيته ولأمروا به. الثالث: أن الصحابة (رضى الله عنهم) لم يؤثر عنهم أنهم أمروا بذلك أو عملوه وهم أدركوا بقصد النبى ﷺ. اهـ.

قوله: [وصلوا على، فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم].

(١) إغاثة اللهفان (١/١٩٨، ٣٠٠).

(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٥٧، ٢٥٨).

(٤) الجديد (٢٠٣).

قال سليمان آل الشيخ^(١): قال شيخ الإسلام^(٢): يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قريبكم من قبري وبعدكم، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيداً. انتهى. - أي كلام ابن تيمية -.

وقد روى أبو داود عن أبي هريرة مرفوعاً: «مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٣).

وعن أوس بن أوس مرفوعاً: «أَكْثَرُوا مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةَ الْجُمُعَةِ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَغْرُوضَةٌ عَلَيَّ» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَعْرِضُ صَلَاتَنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ؟ قال: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ لَحُومَ الْأَنْبِيَاءِ»^(٤) رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أن صلاتنا عليه تبلغه سواء كنا عند قبره أو لم نكن، فلا مزية لمن سلم عليه أو صلى عند قبره، كما قال الحسن بن الحسن: ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء.

وأما حديث: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي سَمِعْتُهُ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ غَائِباً بُلِّغْتُهُ»^(٥) فرواه البيهقي وغيره من حديث العلي بن عمرو الحنفي: حدثنا أبو عبد الرحمن عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فذكره. قال البيهقي: أبو عبد الرحمن هذا، هو محمد بن مروان السدي فيما أرى، وفيه نظر. قلت: محمد بن مروان السدي الصغير قال فيه يحيى بن معين: ليس بثقة. وقال الجوزجاني. ذاهب الحديث. وقال النسائي: متروك الحديث، وكذلك قال أبو حاتم الرازي والأزدي: وقال صالح بن محمد: كان يضع الحديث على أن معناه صحيح معلوم من أحاديث آخر، كإخباره بسماع الموتى لسلام من يسلم عليهم إذا مر على قبورهم.

● مسألة: فإن قيل: إذا سمع سلام المسلم عليه عند قبره حصلت المزية بسماعه.

الجواب: قيل: هذا لو حصل الوصول إلى قبره، أما وقد منع الناس من الوصول إليه بثلاثة جدران، فلا تحصل مزية، فسواء سلم عليه عند قبره أو في مسجده إذا دخله، أو في أقصى المشرق والمغرب، فالكل يبلغه، كما وردت به الأحاديث، وليس في شيء منها أنه يسمع صوت المصلي والمسلم بنفسه، إنما فيها أن ذلك يعرض عليه ويبلغه ﷺ،

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٥٩).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٦٦٣/٣).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥٢٧/٢)، وأبو داود (٢٠٤١) عن أبي هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٤٠٥ - بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه أحمد في «مسنده» (٨/٤)، وأبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (٩٢/٣)، وابن ماجه

(١٣٦٣) عن أوس به وانظر «السلسلة» (٧٤٠ - بتخريجنا).

(٥) أخرجه العتيبي في «الضعفاء» (١٣٦/٤)، وابن الجوزي في الموضوعات (٣٠٢٨ - ٣٠٣).

ومعلوم أنه أراد بذلك الصلاة والسلام الذي أمر الله به، سواء صلى عليه في مسجده أو في مدينته أو في مكان آخر، فعلم أن ما أمر الله به من ذلك فإنه يبلغه، وأما من سلم عليه عند قبره فإنه يرد عليه، وذلك كالسلام على سائر المؤمنين ليس هو من خصائصه، ولكن لا يوصل إلى قبره ﷺ. اهـ.

- وقال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): بنحو ذلك.

- وقال عبد الله بن جابر الله^(٢): يرشدنا ﷺ أن نكثر من الصلاة عليه في كل زمان ومكان، ويقول إنما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قريبكم من قبري ويُعدكم، فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيداً تترددون إليه لأجل ذلك. اهـ.

- وقال ابن باز^(٣): بنحو ذلك.

- وقال ابن عثيمين^(٤): قوله: (وَصَلُّوا عَلَيَّ هَذَا، أَيْ: قولوا: اللهم صلى على محمد، وقد أمر الله بذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وفضل الصلاة على النبي ﷺ معروف، ومنه أن من صلى عليه مرة واحدة، صلى الله عليه بها عشر^(٥) والصلاة من الله على رسوله ليس معناها كما قال بعض أهل العلم: إِنَّ الصَّلَاةَ مِنَ اللَّهِ الرَّحْمَةَ، ومن الملائكة الاستغفار، ومن آدميين الدعاء.

فهذا ليس بصحيح، بل إِنَّ صَلَاةَ اللَّهِ عَلَى الْمُرَّةِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، كما قال أبو العالية وتبعه على ذلك المحققون من أهل العلم.

ويدل على بطلان القول الأول قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾؛ فعطف الرحمة على الصلوات، والأصل في العطف المغايرة، ولأن الرحمة تكون لكل أحد، ولهذا أجمع العلماء على أنه يجوز أن تقول: فلان رحمه الله، واختلفوا: هل يجوز أن تقول: فلان صلى الله عليه؟

فمن صلى على محمد ﷺ مرة أثني الله عليه في الملأ الأعلى عشر مرات، وهذه نعمة كبيرة. اهـ.

قلت: تقدم هذا وغيره في مقدمة الكتاب.

قوله: «فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم».

(١) فتح المجيد (٣٢٨/١).

(٢) الجامع الفريد (٩١).

(٣) التعليق المفيد (١٢٨).

(٤) القول المفيد (٥٧٥/١: ٥٧٧).

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم في الصلاة (٨٥/٤/٢) عن عبدالله بن عمرو بن.

وانظر «رياض الصالحين» (١٤٠ - بتخریجنا).

ثم قال ابن عثيمين: حيث: ظرف مبنى على الضم فى محل نصب، ويُقال فيها: حيث، وحوث، وحات، لكنها قليلة.

● كيف تبلغه الصلاة عليه؟

الجواب: نقول: إذ جاء مثل هذا النص وهو من أمور الغيب؛ فالواجب أن يُقال: كيف مجهول لا نعلم بأى وسيلة تبلغه، ولكن ورد عن النبي ﷺ: «أنَّ الله ملائكة سياحين يسيحون فى الأرض يبلغون النبي ﷺ سلام أمته عليه»^(١)، فإن صح؛ فهذه هى الكيفية اهـ.

[قلت] فائدة انتفاع الأموات بدعاء الأحياء. قاله قراوى^(٢).

قوله: [رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات].

قال ابن عثيمين^(٣): هذا التعبير من الناحية الاصطلاحية، ظاهره أن بينهما اختلافاً، ولكننا نعرف أن الحسن: هو أن يكون الراوى خفيف الضبط؛ فمعناه أن فيه نوعاً من الثقة، فيجمع بين كلام المؤلف - رحمه الله - وبين ما ذكره عن رواية أبى داود بإسناد حسن: أن المراد بالثقة ليس غاية الثقة؛ لأنه لو بلغ الى حد الثقة الغاية لكان صحيحاً؛ لأن ثقة الراوى تعود على تحقيق الوصفين فيه، وهما العدالة، والضبط، فإذا خف الضبط خفت الثقة، كما إذا خفت العدالة أيضاً تخف الثقة فيه.

فيجمع بينهما على أن المراد: مطلق الثقة، ولكنه لاشك فيما أرى أنه إذا أعقب قوله: «حسن» بقوله: «رواته ثقات» أنه أعلى مما لو اقتصر على لفظ «حسن».

ومثل هذا ما يُعبّر به ابن حجر فى «تقريب التهذيب» بقوله: «صدوق يهم»، وأحياناً يقول: «صدوق»، وصدوق أقوى؛ فيكون توثيق الرجل الموصوف بصدوق أشد من توثيق الرجل الذى يوصف بأنه يهم.

لايقول قائل: إن كلمة يهم لاتزيدة ضعفاً؛ لأنه مامن إنسان إلا ويهم.

فنقول هذا لا يصح؛ لأن قولهم: (يهم) لايعنون به الوهم الذى لا يخلو منه أحد، ولولا أن هناك غلبة فى أوهامه ما وصفوه بها. اهـ.



(١) أخرجه النسائى فى «الكبير» (١٢٠٥) عن ابن مسعود به.

(٢) الجديد (٢٠٣).

(٣) القول المفيد (١/ ٥٧٧، ٥٧٨).

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةِ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَتَنَاهُ وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بَيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ لِيَلْبِغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ» رَوَاهُ فِي «الْمُخْتَارَةِ» (١).

قوله: [وعن علي بن الحسين رضي الله عنه أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة.... إلخ].
قال سليمان آل الشيخ (٢): رواه أبو يعلى والقاضي إسماعيل والحافظ الضياء في «المختارة».

قال أبو يعلى: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا زيد بن الحباب ثنا جعفر بن إبراهيم من «ولد» ذى الجناحين ثنا علي بن عمر عن أبيه عن علي بن حسين فذكره. وعلي بن عمر هو: علي بن عمر بن علي بن الحسين.

قال شيخ الإسلام: فانظر كيف هذه السنة كيف. مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم. فكانوا أضبط.

قلت: أي سليمان آل الشيخ - وللحديثين شواهد: منها ما رواه ابن أبي شيبة، حدثنا أبو خالد الأحمر عن ابن عجلان عن سهيل عن جبير بن حنين قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلَا بَيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَإِنْ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي».

وقال سعيد بن منصور: حدثنا عبدالعزيز بن محمد أخبرني سهيل بن أبي سهيل قال: أتى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى فقال: هلم إلى العشاء. فقلت: لا أريده. فقال: ما لي رأيك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ، فقال: إذا دخلت المسجد فسلم، ثم قال: إن الرسول

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/٢٦٩).

قال: حدثنا أبو خالد الأحمر، عن ابن عجلان، عن سهيل بن حسين بن حسن قال.... فذكر الحديث، بالرفوع منه فقط.

وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص: ١٠٩).

وانظر «فتح المجيد» (ج ٤١٨) بتخریجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٦١)

ﷺ قال: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِىَ عِيداً وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ مَا كُنْتُمْ؛ لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» ما أنتم ومن بالأندلس الا سواء.

ورواه القاضى إسماعيل: فى كتاب فضل الصلاة على النبى ﷺ ولم يذكر: ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء.

وقال سعيد: أيضاً حدثنا حبان بن على ثنا محمد بن عجلان عن أبى سعيد مولى المهري قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِىَ عِيداً وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً، وصلوا على فإن صلواتكم تبلغنى».

قال شيخ الإسلام: فهذان المرسلان أى حديث أبى هريرة وهذا الحديث - من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث لاسيما وقد احتج به من أرسله، وذلك يقتضى ثبوته عنده هذا لو لم يرو من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدم مسنداً. اهـ.

● مناسبة الحديث للباب وللتوحيد:

قال القرعاوى^(١): حيث دل الحديث على تحريم اعتياد قبر النبى ﷺ - لأجل الدعاء وغيره، وذلك حماية منه لجانب التوحيد وسد كل طريق يؤدى الى الشرك. اهـ.

قوله: [عن على بن الحسين]. قال سليمان آل الشيخ^(٢): أيك ابن على بن أبى طالب المعروف بزین العابدين رضى الله عنه وهو أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم.

قال الزهرى: ما رأيت قرشياً أفضل منه. مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح، وأبوه الحسين سبط النبى ﷺ وريحانته، حفظ عن النبى ﷺ، واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة. اهـ.

قوله: أنه رأى رجلاً يجىء إلى فرجة: قال سليمان آل الشيخ^(٣): هو بضم الفاء وسكون الراء واحدة الفرج - وهى الكوة فى الجدار والخوخة ونحوهما اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «يجىء إلى فرجة» كانت عند قبر النبى ﷺ هذا الرجل لاشك أنه لم يتكرر مجيئه إلى هذه الفرجة إلا لاعتقاده أن فيها فضلاً ومزية، وكونه يظن أن الدعاء عند القبر له مزية، فتح باب وسيلة إلى الشرك، بل جميع العبادات

(١) الجديد (٢٠٥). (٢) تيسير العزيز الحميد (٢٦١، ٢٦٢).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٦١، ٢٦٢). (٤) القول المفيد (١/٥٧٩).

إذا كانت عند القبر؛ فلا يجوز أن يعتقد أنه لها مزية، سواء كانت صلاة أو دعاء أو قراءة، ولهذا نقول: تكره القراءة عند القبر إذا كان الإنسان يعتقد أن القراءة عند القبر أفضل. اهـ.

قوله: [فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال:]

قال سليمان آل الشيخ^(١): هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد؛ لأجل الدعاء والصلاة عندها كما تقدم بعض ذلك، لأن ذلك من اتخاذها عيداً كما فهمه على بن الحسين من الحديث. فنهى ذلك الرجل عن المجئ إلى قبر النبي ﷺ للدعاء عنده، فكيف بقبر غيره ويدل أيضاً على أن قصد الرجل القبر لأجل السلام إذا لم يكن يريد المسجد من اتخاذ عيداً المنهى عنه، ولهذا لما رأى الحسن بن الحسن سهيلاً عند القبر نهاه عن ذلك وذكر له الحديث مستدلاً به وأمر بالسلام عليه عند دخول المسجد.

قال: ما علمت أحداً. أى: من علماء السلف رخص فيه لأن ذلك نوع من اتخاذ عيداً، ويدل أيضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلى منهى عنه، لأن ذلك من اتخاذ عيداً، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل إنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ، لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك.

قال: ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها. بل كان الصحابة والتابعون يأتون إلى مسجده ﷺ فيصلون خلف أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، ثم إذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ولم يكونوا يأتون القبر للسلام، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه فى الصلاة أكمل وأفضل. وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم بل نهاهم بقوله: «لاتتخذوا قبرى عيداً وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى» فيبين أن الصلاة تصل إليه من بعد وكذلك السلام. ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وكانت الحجرة فى زمانهم يدخل إليها من الباب إذ كانت عائشة فيها، وبعد ذلك إلى أن بنى الحائط الآخر. وهم مع ذلك يتمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه لا لسلام ولا لصلاة ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاماً أو سلاماً فيظنون أنه هو كلمهم وأفاتهم وبين لهم الأحاديث أو أنه قد رد عليهم السلام بصوت يسمع من خارج كما طمع الشيطان فى غيرهم، فأضلهم عن قبره وقبر غيره، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم فى الظاهر، وأنه يخرج من القبر ويروونه خارجاً من القبر. ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها كما رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٦١: ٢٦٥).

والمقصود أن الصحابة ما كانوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره، كما يفعله من بعدهم من الخلفاء وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه إذا قدم من سفر، كما كان ابن عمر رضى الله عنه يفعل.

قال عبيد الله بن عمر عن نافع: كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أخته، ثم ينصرف. قال عبيد الله: ما نعلم أحداً من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر. وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام: إن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة، فكان بدعة محضة وفي «المبسوط» قال مالك: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ولكن ليسلم ويمضى.

والحكاية التي رواها القاضي عياض بإسناده عن مالك في قصته مع المنصور وأنه قال للملك: يا أبا عبد الله استقبل القبلة وأدعو أم استقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به يشفعه الله فيك.

فهذه الرواية ضعيفة، أو موضوعة لأن في أسنادها من يتهم محمد بن حميد ومن تجهل حاله.

ونص أحمد أنه يستقبل القبلة، ويجعل الحجرة عن يساره لثلاث يستدبره وذلك بعد تحيته والسلام عليه، فظاهر هذا أنه يقف للدعاء بعد السلام. وذكر أصحاب مالك أنه يدعو مستقبل القبلة يوليه ظهره.

وبالجملة: فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لاستقبل القبر وتنازعوا هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟ ومن الحجة في ذلك ما روى ابن زبالة وهو في أخبار المدينة. عن عمر بن هارون عن سلمة بن وردان وهما ساقطان قال: رأيت أنس بن مالك يسلم على النبي ﷺ، ثم يسند ظهره إلى جدار القبر، ثم يدعو.

وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ، وإلى غيره من القبور والمشاهد، لأن ذلك من اتخاذها أعياداً بل من أعظم الأسباب للإشراك بأصحابها، كما وقع من عباد القبور الذين يشدون إليها الرحال، وينفقون في ذلك الكثير من الأموال، وليس لهم مقصود إلا مجرد الزيارة للقبور تبركاً بتلك القباب والجدران فوقعوا في الشرك.

هذه المسألة التي أفتى فيها شيخ الإسلام أعنى من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين، ومشاهدتهم ونقل فيها اختلاف العلماء في الإباحة والمنع، فمن مبيح لذلك كأبي حامد الغزالي وأبي محمد المقدسي.

ومن مانع لذلك كابن بطة وابن عقيل وأبى محمد الجوينى والقاضى عياض، وهو قول الجمهور نص عليه مالك ولم يخالفه أحد من الأئمة وهو الصواب.

فقام عليه بعض المعاصرين له كالسبكي ونحوه فنسبه إلى إنكار الزيارة مطلقاً وهو لم ينكر منها إلا ما كان بشد رحل، كما أنكره جمهور العلماء قبله أو الزيارة التى يكون فيها دعاء الأموات والاستغاثه بهم فى الملمات، مع ما ينضم إلى ذلك من أنواع المنكرات.

ومما يدل على النهى عن شد الرحال إلى القبور ونحوه. ما أخرجه فى «الصحيحين».

عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال: «لَا تَشْدُوا الرِّحَالَ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا، وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى» (١) فدخل فى ذلك شَدها لزيارة القبور والمشاهد فإما أن يكون نهياً، وإما أن يكون نفيّاً للاستحباب.

وقد جاء فى رواية فى «الصحيح» بصيغة النهى صريحاً فتعين أن يكون للنهى. ولهذا فهم منه الصحابة. المنع كما فى «الموطأ» و«السنن».

عن بصرة بن أبى بصرة الغفارى أنه قال لأبى هريرة وقد أقبل من الطور: لو أدمتكَ قبل أن تخرج إليه لما خرجت سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تُعْمَلُ الْمَطَى إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى» (٢).

وروى الإمام أحمد وعمر بن شبة فى أخبار المدينة بإسناد جيد عن قرعة. قال: أتيت ابن عمر فقلت: إني أريد الطور. فقال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى، فدع عنك الطور فلا تأته. (٣) اهـ.

ثم قال عبد الرحمن آل الشيخ (٤): فابن عمر وبصرة بن أبى بصرة جعلوا الطور مما نهى عن شد الرحال إليه. لأن اللفظ الذى ذكره فيه النهى عن شَدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القرية، فعلم أن المُسْتَنَى منه عام فى المساجد وغيرها، وأن النهى ليس خاصاً بالمساجد، ولهذا نهيا عن شَدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث اهـ.

وروى أحمد وعمر بن شبة أيضاً عن شهر بن حوشب. قال: سمعت أبا سعيد وذكر عنده الصلاة فى الطور. فقال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَتَّبَعِي لِلْمَطَى أَنْ تُشَدَّ رِحَالُهَا إِلَى مَسْجِدٍ يُتَغَى فِيهِ الصَّلَاةُ غَيْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا، وَالْمَسْجِدِ

(١) سيأتى تخريجه

(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) سيأتى.

(٤) فتح المجيد (١/ ٣٣٤، ٣٣٥).

ثم قال سليمان آل الشيخ^(٢). فأبر سعيد جعل الطور مما نهى عن شدة الرحال إليه، مع أن اللفظ الذى ذكره إنما فيه النهى عن شدها إلى المساجد، فدل على أنه علم أن غير المساجد أولى بالنهى، والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة وأن الله تعالى سماه الوادى المقدس والبقعة المباركة، وكلم الله موسى هناك. وهذا ظاهر لا يخفى على أحد ممن يقول بفجوى الخطاب وتنبهه، وهم الجمهور الأئمة الأربعة وأتباعهم ولهذا لم يوجبوا على من نذر أن يسافر إلى أثر نبي من الأنبياء أو إلى قبورهم أو غير قبورهم الوفاء بذلك، بل لو سافر إلى مسجد قباء من بلد بعيد لم يكن هذا مشروعاً باتفاق الأئمة الأربعة، مع أن النبي ﷺ كان يأتيه كل سبت راكباً وماشيئاً، وإن كان فى وجوب الوفاء بنذر إتيانه خلاف والجمهور على أنه لا يجب.

وقد صرح مالك وغيره. بأن من نذر السفر إلى المدينة النبوية إن كان مقصوده الصلاة فى مسجد النبي ﷺ، أوفى بنذره، وإن كان مقصوده مجرد زيارة القبر من غير صلاة فى المسجد لم يف بنذره. قال: لأن النبي ﷺ. قال: «لانعمل المطى إلا إلى ثلاثة مساجد»، ذكره إسماعيل بن إسحاق فى «المبسوط» ومعناه فى «المدونة» و«الجلاب» وغيرهما من كتب أصحاب مالك. اهـ.

ثم قال عبد الرحمن^(٣): ومن أراد بسط القول فى ذلك والجواب عما يعارضه فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيباً لابن الأخثنى فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وأخذ به العلماء وقياس الأولى؛ لأن المفسدة فى ذلك ظاهرة. اهـ.

ثم قال سليمان آل الشيخ^(٤): وبالجمله فقد تنازع العلماء فى جواز شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، فالجمهور على المنع، وطائفة من المتأخرين على الجواز، فاستجاب شد الرحال إلى القبور والمشاهد والتقرب به إلى الله كما ظنه السبكي وغيره، قول مبتدع مخالف للإجماع قبله، والأحاديث التى احتج بها كحديث:

«مَنْ زَارَنِي بَعْدَ وَفَاتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي»^(٥) ونحوها لا يصح منها شيء عن

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/٦٤، ٩٣) عن أبى سعيد به وفيه شهر بن حوشب وانظر «فتح المجيد» (٤٢٤) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٦٤). (٣) فتح المجيد (١/٣٣٤، ٣٣٥).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٦٥).

(٥) أخرجه الدارقطنى فى «سننه» (٢/٢٧٨/١٩٢) عن ابن عمر بإسناد ضعيف جداً.

رسول الله ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه البتة، بل هي ما بين ضعيف وموضوع، أو كلها موضوعة كما قد بين عللها شيخ الإسلام وغيره.

وكثير منها لا يدل على محل النزاع إذ ليس فيه إلا مطلق الزيارة. وذلك لا ينكره شيخ الإسلام ولا غيره من العلماء، لأنه محمول على الزيارة الشرعية الجارية على مراد النبي ﷺ، وهي التي لا يكون فيها شرك ولا شد رحل إلى قبره، وبتقدير ثبوتها لاتدل على شد الرحال إلى قبر غيره، والسبكي أجاز ذلك في سائر القبور فخالف الأحاديث وخرق الإجماع، والله أعلم.

ثم قال عبد الرحمن^(١): وأما النهي عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغاية ما فيها: أنها لا مصلحة في ذلك توجب شد الرحال، ولا مزية تدعو إليه. وقد بسط القول في ذلك الحافظ محمد بن عبد الهادي في كتاب «الصَّارم المنكي» في رده على السبكي وذكر فيه علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي ﷺ وذكر هو وشيخ الإسلام رحمهما الله تعالى: أنه لا يصحُّ منها حديث عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه، مع أنها لاتدل على محل النزاع؛ إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال، فيحمل على الزيارة الشرعية التي ليس فيها شرك ولا بدعة اهـ.

قال سليمان آل الشيخ: قال: «المصنف»: وفيه أنه ﷺ في البرزخ تعرض عليه أعمال أمته في الصلاة والسلام.

قوله: [رواه في «المختارة»] قال سليمان آل الشيخ: المختارة كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة على «الصحيحين» ومؤلفة هو أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ ضياء الدين الحنبلي، أحد الأعلام وحفاظ الحديث.

قال الذهبي: أفنى عمره في هذا الشأن مع الدين المتين والورع والفضيلة التامة والثقة والاتقان، انتفع الناس بتصانيفه والمحدثون بكتبه فالحمد لله يرحمه ويرضى عنه.

وقال شيخ الإسلام: تصحيحه في «مختارته» خير من تصحيح «الحاكم» بلا ريب. مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٢): قوله: «رواه في المختارة».

الفاعل مؤلف المختارة: اسم للكتاب، أي الأحاديث المختارة.

والمؤلف هو عبد الغنى المقدسي^(*)، من الحنابلة، وما أقل الحديث في الحنابلة، يعنى

(١) فتح المجيد (١/٣٣٥).

(٢) القول المفيد (١/٥٨١).

(*) كذا قال ابن عثيمين أنه عبد الغنى، وما ذكره سليمان آل الشيخ قبله أنه محمد بن عبد الواحد، هو الصواب، كلاهما له تصانيف في الحديث، وهما أخوان فلعل هذا الذي دفع الشيخ ابن عثيمين بذكر عبد الغنى. والله أعلم.

المحدثين، وهذا من أغرب ما يكون، يعنى أصحاب الإمام أحمد أقل الناس تحديثاً بالنسبة للشافعية.

فالحنابلة غلب عليهم رحمهم الله الفقه مع الحديث؛ فصاروا محدثين وفقهاء، ولكنهم رحمهم الله بشر، فإذا أخذ من هذا العلم صار ذلك زحاماً للعلم الآخر، أما الأحناف؛ فإنهم أخذوا بالفقه، لكن قلّت بضاعتهم فى الحديث، ولهذا يُسمون أصحاب الرأى (يعنى: العقل والقياس)؛ لقلة الحديث عندهم، والشافعية أكثر الناس عناية بالحديث والتفسير، والمالكية كذلك، ثم الحنابلة وسط، وأقلهم فى ذلك الأحناف مع أن لهم كتباً فى الحديث اهـ.

- وقال حامد بن محمد^(١): فبين على بن الحسين رضى الله عنه أن دعاه عند قبر النبى ﷺ نهى عنه، ولو نيته كانت صالحة حذراً من الغلو الذى أهلك من قبل. اهـ.

- وقال ابن باز^(٢): فيصلى على النبى ﷺ فى كل مكان فى البيت والسوق والطريق ولا يخصون السلام والصلاة عليه عند القبر ولهذا أنكر على بن الحسين على الرجل وبين له أن هذا ليس بمشروع وأنت تسلم عليه وتمضى لا تجلس عند القبر تدعو.

هذه سنة جاءت عن أهل البيت وكلهم بينوا أن إتخاذ القبر عيداً وسيلة إلى الشرك إذا لعكفوا عنده وصلوا عنده ودعوا عنده جرهم هذا إلى الشرك والغلو فحسم النبى المادة. ومن إتخاذ القبور مساجد والبناء عليهم وتخصيصها وفرشها يؤدى إلى إعتقاد العامة أنها معظمة وأنها تتفع وكل هذا قد وقع مع أن النبى ﷺ قد حمى جناب التوحيد وحذر من الشرك. اهـ.

- وقال عبد الله بن جابر الله^(٣):

● يستفاد من هذا الباب مايلى: -

١ - النهى عن زيارة قبر النبى ﷺ على وجه مخصوص.

٢ - الحث على صلاة النافلة فى البيت.

٣ - أن صلاتنا وسلامنا على النبى ﷺ تبلغه وإن بعدنا عن قبره.

٤ - النهى عن قصد القبور لأجل الصلاة والدعاء عندها لأن ذلك من إتخاذها عيداً من وسائل الشرك.

٥ - أن قصد الرجل القبر لأجل السلام إذا لم يكن يريد المسجد من إتخاذها عيداً المنهى عنه.

٦ - أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلى منهى عنه لان ذلك من إتخاذها عيداً. اهـ.

(٢) التعليق المفيد (١٢٩).

(١) فتح الله الحميد المجيد (٣٠٠).

(٣) الجامع الفريد (٩١).

قوله: [إلا أحدثكم حديثاً].

قال ابن عثيمين^(١): (قال: أحدثكم) والرجل واحد؛ لأنَّ الظاهر أنَّه كان عند أصحابه يحدثهم، فجاء هذا الرجل إلى الفرقة.

و«ألا»: أداة عرض؛ أى: أعرض عليكم أن أحدثكم.

وفائدتها: تنبيه المخاطَب إلى ما يريد أن يحدثه به.

قوله: «عن أبى عن جدى».

أبوه: الحسين، وجده: على بن أبى طالب.

قوله: [عن رسول الله ﷺ] قال ابن عثيمين: السند متصل، وفيه عنونة لكنها لاتنصر، لأنها من غير مدلس، فتحمل على السماع. اهـ.

قوله: [لاتتخذوا قبرى عيداً].

قال ابن عثيمين^(٢): يقال فيه كما فى الحديث السابق: أنه نهى أن يُتخذ قبره عيداً يُعتاد ويتكرر إليه؛ لأنه وسيلة إلى الشرك.

قوله: [ولا ييوتكم قبوراً].

قال ابن عثيمين^(٣): سبق معناه.

قوله: [وصلوا على؛ فإن تسليمكم يبلغنى حيث كنتم].

قال ابن عثيمين^(٤): اللفظ هكذا، وأشك فى صحته؛ لأنَّ قوله: «صلوا على» يقتضى أن يُقال: فإن صلاتكم تبلغنى؛ إلا أن يُقال هذا من باب الطى والنشر. والمعنى: صلوا على وسلموا؛ فإن تسليمكم وصلاتكم تبلغنى، وكأنَّه ذكر الفعلين والعلتين، لكن حذف من الأولى ما دلَّت عليه الثانية، ومن الثانية ما دلَّت عليه الأولى. وقوله: [وصلو على].

قال ابن عثيمين: سبق معناها، والمراد: صلوا على فى أى مكان كنتم، ولا حاجة إلى أن تأتروا إلى القبر وتسلموا على وتصلوا على عنده.

قوله: [يلغنى].

قال ابن عثيمين: تقدم كيف يبلغه ﷺ.



(١) القول المفيد (١/ ٥٧٩ : ٥٨٠).

(٢ - ٤) القول المفيد (١/ ٥٧٩ : ٥٨٠).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (بَرَاءَةٍ).

الثانية: إِبْعَادُهُ أُمَّتَهُ هَذَا الْحِمَى غَايَةَ الْبُعْدِ.

الثالثة: ذَكَرُ حَرْصِهِ عَلَيْنَا وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

الرابعة: نَهْيُهُ عَنْ زِيَارَةِ قَبْرِهِ عَلَى وَجْهِ مَخْصُوصٍ، مَعَ أَنَّ زِيَارَتَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ.

الخامسة: نَهْيُهُ عَنِ الْإِكْثَارِ مِنَ الزِّيَارَةِ.

فيه مسائل:

- الأولى: تفسير آية براءة: قال ابن عثيمين: وسبق ذلك في أول الباب.
- الثانية: إبعاده ﷺ أُمَّتَهُ عَنْ هَذَا الْحِمَى غَايَةَ الْبُعْدِ. تؤخذ من قوله: «لَا تَجْعَلُوا بَيْوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا».
- الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته. وهذا مذكور في آية براءة.
- الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص. تؤخذ من قوله: «وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»؛ فقوله: «عيداً» هذا هو الوجه المخصوص.
- وزيارة قبر النبي ﷺ من أفضل الأعمال من جنسها؛ فزيارته فيها سلام عليه، وحقه ﷺ أعظم من غيره.
- وأما من حيث التذكير بالآخرة؛ فلا فرق بين قبره وقبر غيره.
- الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة. أى على غير وجه مخصوص والإقلال على وجه مخصوص تؤخذ من قوله: «لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا»، لكنه لا يلزم منه الإكثار، لأنه قد لا يأتى إلا بعد سنة، ويكون قد اتخذ عيداً؛ فَإِنَّ فِيهِ نَوْعاً مِنَ الْإِكْثَارِ.
- السادسة: حثه على النافلة في البيت.
- تؤخذ من قوله: «وَلَا تَجْعَلُوا بَيْوتَكُمْ قُبُورًا»، وسبق أن فيها معنيين: المعنى الأول: أن لا يقبر في البيت، وهذا ظاهر الجملة.
- والثاني: الذي هو من لازم المعنى أن لا تترك الصلاة فيها.
- السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يُصَلَّى فِي الْمَقْبَرَةِ.

السادسة: حُتُّ عَلَى النَّافِلَةِ فِي الْبَيْتِ.

السابعة: أَنَّهُ مُقَرَّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَا يُصَلَّى فِي الْمَقْبَرَةِ.

الثامنة: تَعْلِيلُ ذَلِكَ بِأَنَّ صَلَاةَ الرَّجُلِ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِ يَبْلُغُهُ وَإِنْ بَعْدَ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى مَا يَتَوَهَّمُهُ مَنْ أَرَادَ الْقُرْبَ.

التاسعة: كَوْنُهُ ﷺ فِي الْبَرْزَخِ تُعْرَضُ أَعْمَالُ أُمَّتِهِ فِي الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ.

تؤخذ من قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً»؛ لأنَّ المعنى: لا تجعلوها قبوراً، أى: لا تركوا الصلاة فيها على أحد الوجهين؛ فكأنَّه من المقرر عندهم أنَّ المقابر لا يُصَلَّى فيها.

الثامنة: تَعْلِيلُ ذَلِكَ بِأَنَّ صَلَاةَ الرَّجُلِ وَسَلَامَهُ عَلَيْهِ يَبْلُغُهُ وَإِنْ بَعْدَ؛ فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القُربَ.

أى: كونه نهى ﷺ أن يجعل قبره عيداً، العلة في ذلك: أنَّ الصلاة تبلغه حيث كان الإنسان؛ فلا حاجة إلى أن يأتى إلى قبره، ولهذا نسلم ونصلَّى عليه فى أى مكان؛ فيبلغه السلام والصلاة.

ولهذا قال على بن الحسين: «ما أنت ومن فى الأندلس إلا سواء».

● التاسعة: كونه ﷺ فى البرزخ تعرض أعمال أُمَّتِهِ فى الصلاة والسلام عليه.

أى: فقط فكل من صلى عليه أو سلَّم عرضت عليه صلاته وتسليمه، ويؤخذ من قوله: «فإنَّ تسليمكم يبلِّغنى حيث كنتم». اهـ.



مَا جَاءَ أَجْ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ تَحْبُ الْاَوْتَانِ

● مناسبة الباب لما قبله:

قال الفقير: علاقة هذا الباب بالباب الذى قبله هو أنه لما بين فى الباب الذى قبله ما يدل على حرص المصطفى ﷺ وحمايته جناب التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك، فقد يحتج ضال أو مبتدع أن هذه الأمور الشركية لن تقع أبداً فى هذه الأمة بعد كل هذا الجهد والبذل من الرسول ﷺ فجاء بباب «ما جاء أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان» ليصرح فيه ويؤكد أنه مع كل هذا الجهد لابد من وقوع بعض هذه الأمة فى الشرك. والله أعلم.

وأيضاً فهو للتفصيل بعد الإجمال فى جانب حمايته ﷺ جناب التوحيد كما تقدم. أو لدفع الوهم بأن الخطاب فى الأبواب السابقة للصحابة فقط فجاء بهذا الباب ليدفعه ويبين أن الخطاب عام لجميع الأمة والله أعلم.

● مناسبة الباب للتوحيد:

قال الفقير: ومناسبة هذا الباب للتوحيد حيث دل على حرص المصطفى جناب التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك، ومن هذه الطرق إيهام الشيطان لبعض هذه الأمة أنهم لم يقموا فى عبادة الأوثان، حتى إذا وقعوا لم يتصور أن ما وقعوا فيه هو من جنس عبادة الأوثان لأنهم من ذلك، كما حصل لعباد القبور والله أعلم.

● ماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال سليمان آل الشيخ^(١): أراد المصنف بهذه الترجمة الرد على عباد القبور الذين يفعلون الشرك ويقولون: أنه لا يقع فى هذه الأمة المحمدية وهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله فيبين فى هذا الباب كلام الله وكلام رسوله ﷺ ما يدل على وقوع الشرك فى هذه الأمة، ورجوع كثير منها إلى عبادة الأوثان وإن كانت طائفة منها لا تزال على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله تبارك وتعالى. اهـ. ولم يذكر صاحب فتح المجيد شيئاً فى ذلك.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٦٥-٢٦٦).

قال عبد الرحمن بن ناصر السعدي^(١): مقصود هذه الترجمة الحذر من الشرك والخوف منه، وأنه أمر واقع في هذه الأمة لا محالة، والرد على من زعم أن من قال: لا إله إلا الله وتسمى بالإسلام أنه يبقى على إسلامه ولو فعل ما ينفيه من الاستغاثه بأهل القبور ودعائهم، وسمى ذلك توسلاً لا عبادة فإن هذا باطل.

فإن السوثن اسم جامع لكل ما عبد من دون الله لا فرق بين الأشجار والأحجار والأبنية، ولا بين الأنبياء والصالحين والطالحين في هذا الموضع وهو العبادة فإنها حق الله وحده، فمن دعا غير الله أو عبده فقد اتخذته وثناً وخرج بذلك عن الدين، ولم ينفعه انتسابه إلى الإسلام، فكم انتسب إلى الإسلام من مشرك وملحد وكافر ومنافق، والعبرة بروح الدين وحقيقته لا بمجرد الأسماء والألفاظ التي لا حقيقة لها. اهـ.

وبنحو أول هذا الكلام ذكر صاحب الجامع الفريد^(٢).

قال ابن باز^(٣): أى باب ما جاء من أحاديث وآيات تدل على ذلك وأنها غير معصومة من^(*) الوقوع في الشرك وكما دخل الناس في دين الله أفواجاً صاروا يخرجون منه وقد وقع في عهد الصديق من الردة ما وقع.

قال ابن عثيمين^(٤): سبب مجيء المؤلف بهذا الباب لدحض حجة من يقول: إن الشرك لا يمكن أن يقع في هذه الأمة، وأنكروا أن تكون عبادة القبور والأولياء من الشرك، لأن هذه الأمة معصومة منه، لقوله ﷺ «إن الشيطان أيس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»^(٥). اهـ.

والجواب عن هذا: سبق الكلام عنه على المسألة الثامنة عشرة من مسائل باب من تترك بشجرة أو حجر ونحوهما.

ويرد أيضاً على المفرطين من هذه الأمة الذين وقعوا في بدعة الإرجاء ورجوا المغفرة وهم يصرون على الشرك وما يؤول إليه.

● شرح الترجمة:

قوله: «أن بعض هذه الأمة»:

(١) القول السديد (٧١، ٧٢، ٧٣).

(٢) الجامع الفريد ٩٣.

(٣) التعليق المفيد ١٣١.

(*) في المطبوع (في).

(٤) القول المفيد ١/ ٥٨٥.

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٩/ ١٧١/ ٦٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ (١).

قال ابن عثيمين (٢): أى لا كلها، لأن فى هذه الأمة طائفة لا تزال مع الحق إلى قيام الساعة، لكنه سيأتى فى آخر الزمان ريح تقبض روح كل مسلم، فلا يبقى إلا شرار الناس كما تقدم .

قوله : (تعبد)

قال ابن عثيمين :

بفتح التاء ، وفى بعض النسخ : «يعبد» بفتح الياء المثناة من تحت .

فعلى قراءة : «يعبد» لا إشكال فيها، لأن «بعض» مذكر .

وعلى قراءة «تعبد» فإنه داخل فى قول ابن مالك :

وربما أكسب ثان أولاً تأنيثاً إن كان لحذف مؤهلاً

ومثلوا لذلك بقوله: قطعت بعض أصابعه، فالتأنيث هنا من أجل أصابعه لا من أجل بعض فإذا صحت النسخة «تعبد» فهذا التأنيث اكتسبه المضاف من المضاف إليه .

قوله: «الأوثان»

جمع وثن، وهو كل ما عبد من دون الله .

قلت : وهو نفس تعريف الطاغوت كما تقدم فى أول الكتاب أو كما تقدم من كلام ناصر السعدى: اسم جامع لكل ما عبد من دون الله .



قال المصنّف: وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾ الآية .

مناسبة الآية للبَاب والتوحيد

قال ابن باز (٣): فهم أوتوا نصيباً أى حظاً من الكتاب لكن لم يعملوا به بل خالفوه وآمنوا بالجبت والطاغوت وقالوا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً فإذا كان هذا قد وقع من اليهود فسيقع من هذه الأمة لحديث «لتبعن سنن من كان قبلكم»، فدل على أن هذا سيكون فى أمة محمد ﷺ من يكفر ويقول إن الكفرة أهدى من اتبع النبي ﷺ وهو وقع قديماً ويقع الآن عن يفضلون اليهود والنصارى على هذه الأمة . اهـ .

(٢) القول المقيّد ١ / ٥٨٥ .

(١) النساء : ٥١ .

(٣) التعليق المنيد ١٣١ .

وقد عبر ابن عثيمين^(١) عما تقدم بأسلوبه فقال: وجه المناسبة فى الآية للباب لا يتبين إلا بالحديث وهو: «لتركبن سنن من كان قبلكم»^(٢) فإذا كان الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت وأن من هذه الأمة من يركب سنن من كان قبله يلزم من هذا أن فى هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت، فتكون الآية مطابقة للترجمة تماماً. اهـ.

قال عبد الله بن جبار الله^(٣): أنه إذا كان فى أهل الكتاب من يؤمن بالجبت والطاغوت فالرسول ﷺ قد أخبر أن أمته ستفعل مثل ذلك. اهـ.

قال القرعاوى^(٤): دلت الآية على وجود الشرك فى أهل الكتاب وقد ثبت أن هذه الأمة ستعمل ما عمله أهل الكتاب ومن ذلك الشرك. اهـ.

● سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزى^(٥): فى سبب نزولها أربعة أقوال:

أحدها: أن جماعة من اليهود قدموا على قريش، فسألوهم: أديننا خير، أم دين محمد؟ فقال اليهود: بل دينكم، فنزلت هذه الآية^(٦)، هذا قول ابن عباس.

والثانى: أن كعب بن الأشرف، وحى بن أخطب، قدما مكة، فقالت لهما قريش: أنحن خير، أم محمد؟ فقالا: أنتم، فنزلت هذه الآية^(٧)، هذا قول عكرمة فى رواية، وقال قتادة: فنزلت فى كعب، وحى، ورجلين آخرين من بنى النضير قالوا لقريش: أنتم أهدى من محمد^(٨).

والثالث: أن كعب بن الأشرف وهو الذى قال لكفار قريش: أنتم أهدى من محمد، فنزلت هذه الآية، وهذا قول مجاهد، والسدى، وعكرمة فى رواية.

(١) القول المفيد ٥٨٨/١.

(٢) الجامع الفريد ٩٤.

(٣) الجديد ٢٠٨/١.

(٤) زاد المسير ٦٥-٦٤/٢.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣٠٦/٢) ونسبه لأحمد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم عن ابن عباس بنحوه

وانظر «فتح القدير» (٣٤٩٥) و«فتح المجيد» (٤٢٧) بتخريجنا.

(٦) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبى حاتم عن عكرمة به.

وانظر «فتح القدير» (٣٤٩٩) - بتخريجنا.

(٨) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن

أبى حاتم.

والرابع: أن حى بن أخطب قال للمشركين: نحن وإياكم خيرٌ من محمد، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن زيد، والمراد بالمذكورين فى هذه الآية اليهود. اهـ.

قلت: وهذا بهتان عظيم فياليتهم قالوا أنتم مثل محمد فُتقبل ولو من بعيد، إنما قالوا: ﴿أَهْدَى﴾ فهذه بجاجة وسماجة كالذين قالوا ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ وهم كانوا أحسن حالاً عندما قالوها من هؤلاء وإن كانوا هنا جعلوا الربا هو الأصل وجعلوا البيع هو الفرع . وهذه مكابرة ومغالطة أيضاً. وإنما الأولى أن يقولوا إنما الربا مثل البيع لأن البيع حله هو الأصل والربا هو الفرع فإذا أردت أن تقيس فقس الفرع على الأصل فاجعل البيع هو الأصل واجعل الربا فرع. وهذه تشبه إلى حد ما ما قيل فى الآية المذكورة ﴿هُؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ والله أعلم.

● أقوال المفسرين:

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ .

قال الطبرى^(١): يعنى بذلك جل ثناؤه ألم تر بقلبك يا محمد إلى الذين أعطوا حظاً من كتاب الله فعلموه. اهـ.

وخالفه ابن عثيمين فى قوله: [ألم تر بقلبك]. وسيأتى.

قال الرازى^(٢): أعلم أنه تعالى حكى عن اليهود نوعاً آخر من المكر، وهو أنهم كانوا يفضلون عبدة الأصنام على المؤمنين، ولا شك أنهم كانوا عالمين بأن ذلك باطل، فكان إقدامهم على هذا القول لمحض العناد والتعصب. اهـ.

قلت: كما يفضلون الآن عبدة الشيطان على عبدة الرحمن. ونحن نعلم بأن عبدة الشيطان يمولها المؤسسات اليهودية وهم يقولون بأنهم أهدى من الذين هم على الحق سبيلاً وأيضاً يقفون بجوار الملاحدة ضد الإسلام والمسلمين وهم مع هذا الإلحاد ليرفعوه ضد الإسلام والمسلمين.

قال الشوكانى^(٣): قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ هذا تعجيب من حالهم بعد التعجيب الأول...

قلت: ونحن نستفيد من هذه الآية أن الحسد من طباع اليهود وأن من يحسد يحمله الحسد على عدم الإنصاف والعدل مع الآخرين فهذا ركب مراكب اليهود - نسأل الله العفو

(٢) التفسير الكبير ٥ / ١٣٣

(١) تفسير الطبرى ٤ / ٨٣.

(٣) فتح القدير ١ / ٥٦٧.

والعافية - فهذا من قبائح اليهود وحسدهم للمؤمنين والنبى وإن أخلاقهم الرذيلة وطبائعهم الخبيثة حملتهم على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله أو حكم لغير شرع الله. فدخل فى ذلك السحر والكهانة وعبادة غير الله وطاعة الشيطان كل هذا من الجبت والطاغوت كما سيأتى مفصلاً من كلام ابن الجوزي.

● التفسير بكلام شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين^(١): قلت: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام هنا للتقرير والتعجيب، والرؤية بصرية - بخلاف ما قاله الطبرى أن الرؤية قلبية - بدليل أنها عُدَّتْ بآلى، وإذا عُدَّتْ بآلى صارت بمعنى النظر.

والخطاب إمّا للنبي ﷺ، أو لكل من يصحّ توجيه الخطاب إليه، أى: ألم تر أيها المُخَاطَب؟

قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا﴾.

أى: أعطوا، ولم يعطوا كل الكتاب، لأنَّهم حرموا بسبب معصيتهم، فليس عندهم العلم الكامل بما فى الكتاب.

قوله: ﴿نَصِيًّا مِنَ الْكِتَابِ﴾ المنزّل.

والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل.

وقد ذكروا لذلك مثلاً، وهو كعب بن الأشرف حين جاء إلى مكة، فاجتمع إليه المشركون، وقالوا: ما تقول فى هذا الرجل (أى: النبى ﷺ) الذى سمَّه أحلامنا ورأى أنَّه خير منّا؟ فقال لهم: أنتم خير من محمد، ولهذا جاء فى آخر الآية: ﴿نَصِيًّا مِنَ الْكِتَابِ﴾ اهـ وتقدم هذا فى سبب النزول من كلام ابن الجوزي.

قوله [يؤمنون بالجبت والطاغوت]:

● أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(٢): يعنى يصدقون بالجبت والطاغوت ويكفرون بالله ويعلمون أن الإيمان بهما كفر والتصديق بهما شرك، ثم اختلف أهل التأويل فى معنى الجبت والطاغوت .

ثم ذكر الطبرى هذه الأقوال:

(٢) تفسير الطبرى (٤/٥٨٣-٨٤).

(١) القول المفيد ١/٥٨٦ و ٥٨٧.

الأول: الجبت والطاغوت صنمان . قاله عكرمة^(١).

الثاني: الجبت الأصنام، والطاغوت: تراجمة الأصنام، فأسند عن ابن عباس قال :
الجبت الأصنام والطاغوت الذين يكونون بين أيدي الأصنام يعبرون عنها بالكذب ليضلوا
الناس^(٢).

قلت: واليهود ملوك السحر في العالم إلى الآن هم والنصارى وهم ملوك وأئمة في
عبادة الصور والأصنام كما في حديث عائشة في الباب الذي قبله الذي ترويه أم سلمة
وأم حبيبة رضى الله عنها حينما ذهبا للحبشة فوجدا كنيسة الخ^(٣). فهو يؤمنون بالجبت
والسحر وهم الذين زوروا على سليمان عليه السلام هذا التزوير وقالوا أنه كان يسير
ملكته بالسحر قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ
وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ
وَمَارُوتَ﴾ أمرهم الذين وضعوا كتب السحر كما قيل في التفسير تحت عرش سليمان
وأخرجوها لما مات فقالوا إن سليمان كان يسير ملكه بالسحر.

وكذلك تبعمهم اليهود في تعليم وتعلم ونصرة السحر والإيمان به كما هم أيضا أئمة
في عبادة الأوثان والصور كما سبق فتأمل.

ثم ذكر الطبرى:

الثالث: الجبت الكاهن، والطاغوت رجل من اليهود يدعى كعب بن الأشرف وكان
سيد اليهود.

الرابع: الجبت السحر، والطاغوت الشيطان، قاله عمر بن الخطاب^(٤)، ومجاهد^(٥)،
والشعبي^(٦).

(١) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق وذكره السيوطي في «الدر» (٣٠٧/٢) ونسبه لعبد الرزاق.
وانظر الاتقان للسيوطي بتخريجنا.

(٢) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق وذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن أبي حاتم.
فانظره بتخريجنا.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق وذكر السيوطي في «الدر» (٣٠٧/٢) وزاد نسبه للفريابي،
وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، ورسته في الإيمان.

وانظر «فتح القدير» «فتح المجيد» (٤٢٨) بتخريجنا.

(٥) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق ونسبه السيوطي في «الدر» لعبد بن حميد. وانظر «فتح
المجيد» (٤٣١) بتخريجنا.

(٦) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق.

.....
الخامس: الجبت الساحر، والطاغوت شيطان فى صورة إنسان يتحاكمون إليه، وهو صاحب أمرهم، قاله مجاهد^(١).

السادس: الجبت الساحر، والطاغوت الشيطان، قاله زيد بن أسلم^(٢).

السابع: الجبت الساحر، والطاغوت الكاهن، قال سعيد بن جبير الجبت: الساحر بلسان الحبشة، والطاغوت الكاهن^(٣)، وكذا قال رفيع وأبو العالية^(٤).

الثامن: الجبت الشيطان، والطاغوت الكاهن، قاله قتادة^(٥) والسدى^(٦).

التاسع: الجبت الكاهن، والطاغوت الشيطان، قاله سعيد بن جبير^(٧).

العاشر: الجبت الكاهن، والطاغوت الساحر. قاله محمد بن جحادة^(٨).

الحادى عشر: الجبت حى بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف. قاله ابن عباس^(٩) والضحاك^(١٠).

الثانى عشر: الجبت كعب بن الأشرف، والطاغوت الشيطان كان فى صورة إنسان قاله مجاهد^(١١).

ثم قال ابن جرير بعد عرض هذه الأقوال:

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق بإسناد ضعيف وذكره السيوطى فى «الدر» (٣٠٨/٢) وزاد نسبه لابن أبى حاتم.

فانظره بتخريجہ.

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق «وانظر الاتقان» بتخريجنا.

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٣٠٨/٢) وزاد نسبه لعبد بن حميد.

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٧) المصدر السابق.

(٨) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٩) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٣٠٧/٢) وزاد نسبه لابن أبى حاتم.

فانظره بتخريجنا. و«فتح المجيد» (٤٣٩) بتخريجنا.

(١٠) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(١١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وتقدم.

والصواب: من القول في تأويل «يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ» أن يقال: يصدقون بعبودين من دون الله يدعونهما من دون الله، ويتخذونهما إلهين، وذلك أن الجبْت والطاغوت: اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله، أو طاعة، أو خضوع له كائناً ما كان ذلك المعظم من حجر، أو إنسان، أو شيطان... اهـ.

وذكر ابن أبي حاتم^(١) ستة وجوه لتفسير كلمة «الجبْت» وسبعة وجوه «للتاغوت»، فذكرها بنحو الأقوال المتقدمة للطبري، إلا أنه أضاف إليها قولين آخرين وهما: -

الثالث عشر: الجبْت: الشرك. قاله ابن عباس^(٢).

الرابع عشر: التاغوت: ما يعبدون من دون الله. قاله ابن وهب عن مالك^(٣).

وذكر البغوي^(٤) هذه الوجوه، وزاد:

الخامس عشر: الجبْت: الأوثان، والطاغوت: شياطين الأوثان.

السادس عشر: الجبْت والطاغوت: هما كل معبود يعبد من دون الله. قاله أبو عبيدة.

وهذه الوجوه الستة عشر المتقدمة رتبها ابن الجوزي «في تفسيره» على النحو التالي:

في «الجبْت» سبعة أقوال: [قلت]: بل عشرة أقوال^(٥).

قال: (أحدها): أنه السَّحَر، قاله عمر بن الخطاب، ومجاهد، والشعبي.

(والثاني): الأصنام، رواه عطية، عن ابن عباس. وقال عكرمة: الجبْت، صنم.

(والثالث): حيى بن أخطب، رواه ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه قال

الضحاك، والفراء.

(والرابع): كعب بن الأشرف رواه الضحاك، عن ابن عباس، وليث عن مجاهد.

وقال الرازي^(٦) في سبب تسمية كعب وحيى بن أخطب بهذا: وكانت اليهود

يرجعون إليهما. فسميا بهذين الاسمين لسيئتهما في إغواء الناس. ثم قال ابن الجوزي:

(والخامس): الكاهن: روى عن ابن عباس، وبه قال ابن سيرين، ومكحول.

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٣/٩٧٦). فانظره بتخريجنا .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في المصدر السابق فانظره بتخريجنا.

(٣) المصدر السابق.

(٤) معالم التنزيل (٢/٨٨).

(٥) وسبق تخريج بعضها.

(٦) التفسير الكبير (٢/٦٥، ٦٦).

.....
.....
(والسادس) الشيطان، قاله سعيد بن جبير فى رواية، وقتادة، والسدى.

(والسابع): الساحر، قاله أبو العالية، وابن زيد. وروى أبو بشر، عن سعيد بن جبير، قال: الجبت: الساحرُ بلسان الحبشة. اهـ.

[قلت: وهناك ثلاثة أقوال أخرى لم يذكرها وهى (الشرك - الأوثان - كل معبود من دون الله) وفى المراء (بالطاغوت) ها هنا ستة أقوال:
[قلت: بل هى تسعة].

قال: (أحدها): الشيطان، قاله عمر بن الخطاب، ومجاهد فى رواية، والشعبى، وابن زيد.

(والثانى): أنه اسم للذين يكونون بين يدى الأصنام يعبرون عنها ليضلوا الناس. رواه العوفى، عن ابن عباس.

(والثالث) كعب بن الأشرف، رواه ابن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، والفراء.

(والرابع) الكاهن، وبه قال سعيد بن جبير، وأبو العالية، وقتادة، والسدى.

(والخامس): أنه الصنم، قاله عكرمة. وقال: الجبت، والطاغوت صنمان.

(والسادس): الساحر، روى عن ابن عباس، وابن سيرين، ومكحول.

فهذه الأقوال تدل على أنهما اسمان لمسميين. وقال اللغويون منهم ابن قتيبة، والزجاج: كل معبود من دون الله، من حجر، أو صورة، أو شيطان، فهو جبت وطاغوت. اهـ.

[قلت] وهناك ثلاثة أقوال أخرى (شيطان فى صورة إنسان يتحاكمون إليه - ما يعبدون من دون الله - شياطين الأوثان) وإن كان منهم قولان تشابها مع مطلق الشيطان إلا أن فيهما زيادة تفصيل. والله أعلم.

وذكر الرازى بعض هذه الوجوه ثم قال^(١): وبالجمللة فالأقوال كثيرة، وهما كلمتان وضعتا علمين على من كان غاية فى الشر والفساد.

وزاد القرطبي^(٢): غير ما تقدم فقال:

(١) الرازى ١٥/٥/١٣٣/١٣٤.

(٢) القرطبي ٣/١٨١٨ - ١٨١٩.

وقيل: هما كل معبود من دون الله، أو مطاع فى معصية الله - وهذا حسن، وأصل الجبت الجبس وهو الذى لاخير فيه، فأبدلت التاء من السين، قاله قُطْرُب، وقيل: الجبت إبليس والطاغوت أولياءه وقول مالك فى هذا الباب حسن - تقدم - يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾. وروى قطن بن المخارق عن أبيه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «الطُّرُق والطيرة والعيافة من الجبت» والطرق الزجر، والعيافة الخط. خرجه أبو داود فى سننه^(١) وقيل: الجبت كل ما حرم الله، والطاغوت كل ما يطغى الانسان. والله أعلم. اهـ.

وينحو من هذا قال ابن كثير^(٢)، ونقل عن الجوهري فى «الصحاح» أن الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٣): الظاهر أنه يعمم ذلك كله - يعنى من الوجوه المتقدمة - كما قال الجوهري. وأما الطاغوت فتقدم الكلام عليه. اهـ يعنى فى الباب الأول.

وتابعه على ذلك عبد الرحمن آل الشيخ^(٤).

قال ابن عثيمين^(٥): قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ أى يصدقون بهما، ويقرونهما ولا ينكرونها، فإذا أقر الإنسان هذه الأوثان؛ فقد آمن بها. والجبت: قيل: السحر، وقيل: هو الصنم، والأصح: أنه عام لكل صنم أو سحر أو كهانة أو ما أشبه ذلك.

والطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع. فالمعبود كالأصنام، والمتبوع كعلماء الضلال، والمطاع كالأمراء؛ فطاعتهم فى تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله تعد من عبادتهم. والمراد من كان راضياً بعبادتهم إياه، أو يُقال: هو طاغوت باعتبار عابديه؛ لأنهم

(١) وسيأتى تخريجه وشرحه فى موضعه إن شاء الله.

(٢) تفسير ابن كثير (١/٤٨٦).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٦٧).

(٤) فتح المجيد (١/٣٣٨).

(٥) القول المفيد ١/٥٨٧ و ٥٨٨.

تجاوزوا به حده، حيث نزلوه فوق منزلته التي جعلها الله له، فتكون عبادتهم لهذا المعبود طغياناً؛ لمجاوزتهم الحدّ بذلك.

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

قلت: رأيت المفسرين أجمعوا على أن المقصود بهم مشركوا مكة.

وقال البغوي^(١): أبو سفيان وأصحابه اهـ. وهما بمعنى واحد.

قوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾.

قال ابن جرير^(٢): يعنى بذلك هؤلاء الذين وصفهم الله بالكفر. اهـ.

وهم كفار مكة. وكذا لباقي المفسرين.

قوله: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾.

ما جاء فيها من المأثور

عن مجاهد في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾

قال: اليهود تقول ذلك، ويقولون: قريش أهدى من محمد وأصحابه وتقدم كلام ابن الجوزي في سبب نزول هذه الآية.

● من أقوال المفسرين

- قال الطبري^(٣). يعنى بذلك جل ثناؤه ويقولون للذين جحدوا وحدانية الله

ورسالة رسوله محمد ﷺ هؤلاء يعنى بذلك هؤلاء الذين وصفهم الله بالكفر أهدى يعنى أقوم وأعدل من الذين آمنوا يعنى من الذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به نبيهم محمد ﷺ سبيلا يعنى طريقا وإنما ذلك مثل ومعنى الكلام أن الله وصف الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من اليهود بتعظيمهم غير الله بالعبادة والإذعان له بالطاعة في الكفر بالله ورسوله ومعصيتهما وأنهم قالوا إن أهل الكفر بالله أولى بالحق من أهل الإيمان به وأن دين أهل التكذيب لله ولرسوله أعدل وأصوب من دين أهل التصديق لله ولرسوله.

- قال ابن الجوزي^(٤): قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى لمشركي

قريش: أنتم ﴿أَهْدَى﴾ من الذين آمنوا، يعنون النبي وأصحابه «طريقاً» في الديانة والاعتقاد.

(٢) تفسير الطبري (٤/٥/٨٤).

(٤) زاد المسير ٦٦/٢.

(١) معالم التنزيل (٢/٨٩).

(٣) تفسير الطبري (٤/٥/٨٤، ٨٥).

- قال ابن كثير^(١): أى يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله الذى بأيديهم وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق فكفى الله شرهم: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

قال ناصر السعدى: فى «القول السديد» أن الذى حملهم على ذلك التفضيل هو الكفر والحسد.

وقال فى تفسيره^(٢): ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: لأجلهم، تملقاً لهم ومداهنة، وبغضاً للإيمان: ﴿هُؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أى: طريقاً.

فما أسمعهم، وأشد عنادهم، وأقل عقولهم!!

وكيف سلكوا هذا المسلك الوحيم، والوادى الذميم!!

هل ظنوا أن هذا، يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء؟
فهل يفضل دين، قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالخلقين، والكفر بالله، ورسله، وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله، فى السر والإعلان والكفر بما يعبد من دونه، من الأوثان، والأنداد، والكاذبين، وعلى صلة الأرحام، والإحسان، إلى جميع الخلق، حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، ومصدق فى جميع الأقوال والأعمال، فهل هذا إلا من الهذيان؟

وصاحب هذا القول، إما من أجهل الناس، وأضعفهم عقلاً، وإما من أعظمهم عناداً وقرئاً، ومراغمة للحق. اهـ.

● فوائد الآية:

قال سليمان آل الشيخ^(٣): وفيه معرفة الإيمان بالجبت والطاغوت فى الموضع، هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها اهـ.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٣٤٤.

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٨٧.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٦٧).

وكذا تابعه عبد الرحمن آل الشيخ^(١).

قال القرعاوى^(٢):

١ - إثبات إنحراف أهل الكتاب .

٢ - أن المداهنة في الدين، وكتمان الحق من صفات اليهود.

[قلت] وقد عرف العلماء المداهنة فقالوا: هي معايشة الفاسق مع إظهار الرضا عنه من غير إنكار عليه مع القدرة^(٣).

٣ - وجود الشرك في أهل الكتاب . اهـ.

[قلت]: ٤ - أن المعاصي والمداهنة والحب لأهل الشرك والمعاصي سبب من أسباب حرمان العلم .

٥ - أن تزين الباطل، وتسويته بالحق أحياناً، وتفضيله عليه أحياناً، من صفات اليهود. وفيهم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾.

٦ - التشنيع على المؤمنين والتقيص من قدرهم، من صفات اليهود القديمة.

قلت: أى هى ليست حديثة فالتشهير بالمؤمنين فى كل دول أوروبا وأمريكا وغيرها ظاهر فهذا الملتهى أو العربى الذى يلبس العقال هذا موسوم بأخس وأحط السمات وللأسف يوجد من العرب ولا أقول المسلمين من يساعد على هذا بمسلكه المشين فى هذه الدول فهم يتعمدوا ذلك .

وحدثنى بعض من أثق به ممن سافر إلى هذه الدول فقال: أنه يوجد كاميرات تصويرية فى حُجر يدخلها الرجل ويظن أنها مغلقة ولكن هى مفتوحة من خلال الشاشات المتصلة بهذه الكاميرات وهو ظاهر على الشاشة التليفزيونية. وما يحدث منه أيضاً فى الخارج للناس ويجعلون الناس ينظرون إلى العربى فيأتوا بأمرأة جميلة جداً فتستدرج أحد العرب وتأتى به إلى ذلك المكان لكى يظهر على ملا وهى تنقص ويخس من كرامته وكرامة الزى العربى الإسلامى وتخسف به الأرض، وتجعله هذه العاهرة يفعل حركات بها ذل حتى تمكنه من نفسها إن مكتته. فهذا الكلام أصلاً وراءه يهود، فمثلاً يأتون بالمشايخ والمنقبات والقساوسة فى الأفلام الجنسية والقصد منها أن تسقط هية هؤلاء فتأمل ذلك. فنسأل الله ينصر الإسلام ويعز المسلمين. آمين.

(١) فتح المجيد (١/٣٣٨).

(٢) «الجديد» (٢٠٨).

(٣) انظر رسالتى المداهنة والمدايرة يسر الله طبعها .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (١).

- ٧ - لعن اليهود ومن شايهم وشابهم بسبب تخلفهم بهذه الأخلاق الخبيثة .
٨ - قد يكون الإنسان على قدر من العلم الشرعى مع نسبته إلى شرع ودين، ولا يمنع ذلك من وقوعه فى الشرك . والله المستعان .



قوله: [وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً﴾ الآية]

● مناسبة الآية للباب:-

قال عبد الله بن جابر الله (٢): ومناسبة الآية للباب: أنه إذا كان فى أهل الكتاب من يؤمن بالجبّ والطاغوت فالرسول ﷺ قد أخبر أن أمته ستفعل مثل ذلك اهـ .

قال ابن باز (٣): فإذا كان من قبلنا عبد الطاغوت: وهو الشيطان وكل ما يهيد من دون الله فهكذا يوجد فى هذه الأمة من يعبد الطاغوت والأوثان لحديث «لتبعن سنن من كان قبلكم» (٤).

[قلت]: وتظهر مناسبة الآية للباب بما أخرجّه ابن أبى الدنيا فى «ذم الملاحى» عن عثمان بن عطاء عن أبيه أن النبى ﷺ قال: «سيكون فى أمتى خسف ومسح ورجف وقردة وخنازير» وسيأتى .

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٥): دلت الآية على وجود الشرك فى أهل الكتاب بعبادتهم للطاغوت وقد ثبت أن هذه الأمة ستعمل ما عمله أهل الكتاب ومن ذلك الشرك .

● سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزى (٦): سبب نزولها قول اليهود للمؤمنين: والله ما علمنا أهل دين أقلّ حظاً منكم فى الدنيا والآخرة، ولا ديناً شراً من دينكم . اهـ .

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين :

قوله: [قل].

(١) المائدة: ٦٠ .
(٢) الجامع الفريد ٩٤ . (٣) التعليق المفيد ١٣٣ .
(٤) سيأتى تخريجه .
(٥) الجديد ٢١٠ .
(٦) «زاد المسير» .

قال الطبري^(١): يقول تعالى ذكره لنبيه محمد - ﷺ - قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار... اهـ.

وتابعه البغوي^(٢) فقال: (قل) يا محمد. اهـ.

● كلام شرح كتاب التوحيد:

وقال ابن عثيمين^(٣): الخطاب للنبي ﷺ رداً على هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دين الإسلام هزواً ولعباً. اهـ.

قوله: [هل أنبئكم]

● كلام المفسرين:

قال الطبري^(٤): (هل أنبئكم) يامعشر أهل الكتاب بشر من ثواب ما تنقمون منا من إيماننا بالله وما أنزل إلينا من كتاب الله وما أنزل من قبلنا من كتبه. اهـ.

قال البغوي^(٥): (هل أنبئكم) أخبركم. اهـ.

● كلام شرح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين^(٦): وقوله: «أنبئكم» أى أخبركم، والاستفهام هنا للتقرير والتشويق أى: سأقرر لكم اهـ.

قوله: [بشر من ذلك].

● كلام المفسرين:

قال البغوي^(٧): «بشر من ذلك» الذى ذكرتم، يعنى قولهم، لم نر أهل دين أقل حظاً فى الدنيا والآخرة، ولا ديناً شراً من دينكم.

فذكر ذلك الجواب بلفظ الابتداء، وإن لم يكن الابتداء شراً، لقوله تعالى ﴿أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ النَّارِ﴾. اهـ.

قال ابن الجوزي^(٨): وفى قوله: «بشر من ذلك» قولان:

أحدهما: بشر من المؤمنين، قاله بن عباس.

والثانى: بشر بما نقمت من إيماننا، قاله الزجاج.

ورجح الأول الرازى^(٩) فقال: (من ذلك إشارة إلى المنقم، ولا بدمن حذف المضاف

(١) تفسير الطبري (١٨٩/٦/٤). (٢) معالم التنزيل (٢٧٤/٢).

(٣) القول المفيد (٥٨٨/١). (٤) تفسير الطبري (١٨٩/٦/٤).

(٥) معالم التنزيل (٢٧٤/٢). (٦) القول المفيد (٥٨٨/١). (٧) معالم التنزيل (٢٧٥/٢).

(٨) زاد المسير (٢٢٩/٢). (٩) التفسير الكبير (٣٩/١٢/٦).

وتقديره: بشر من أهل ذلك، لأنه قال: من لعنة الله، ولا يقال الملعون شر من ذلك الدين بل يقال: إنه شر ممن له ذلك الدين.

فان قيل: فهذا يقتضى كون الموصوفين بذلك الدين محكوماً عليهم بالشر، ومعلوم أنه ليس كذلك.

قلنا: إنما خرج الكلام على حسب قولهم واعتقادهم، فإنهم حكموا بأن اعتقاد ذلك الدين شر، ف قيل لهم: هب أن الامر كذلك ولكن لعنة الله وغضبه ومسوخ الصور شر من ذلك. اهـ.

ورجح الثانى القرطبى^(١) فقال: - بشر ماتريدون لنا من المكروه، وهذا جواب قولهم: ما نعرف ديناً شر من دينكم.

● ما جاء فى الآية من كلام سراح كتاب التوحيد :

قال ابن عثيمين^(٢): قوله «بشر من ذلك». شر: هنا أسم تفضيل وأصلها أشر لكن حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الإستعمال، ومثلها كلمة غير مخففة من أخبر، والناس مخففة من الاناس وكذا كلمة الله مخففة من الإله وقوله: (ذلك) المشار اليه ما كان عليه الرسول - ﷺ - وأصحابه. فإن اليهود يزعمون أنهم هم الذين على الحق، وأنهم خير من الرسول - ﷺ - وأصحابه، وأن الرسول - ﷺ - وأصحابه ليسوا على الحق فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾. اهـ.

قوله: «مثوبة».

● ما جاء فيها من الآثار:

عن ابن زيد قال: المثوبة. الثواب مثوبة الخير ومثوبة الشر، وقرئ «بشراً».

عن السدى^(٣) فى قوله «مُثَوِّبَةً عِنْدَ اللَّهِ» يقول: ثواباً عند الله^(٤).

قال الرازى^(٥): «مُثَوِّبَةً» نصب على التمييز - وهو ما رجحه بن عثيمين وسيأتى - ووزنها مفعلة كقولك: مقولة ومجوزة، وهو بمعنى المصدر، وقد جاءت مصادر على مفعول كالمعقول والميسور.

فإن قيل: المثوبة مختصة بالإحسان، فكيف جاءت فى الإساءة؟

قلنا: هذا على طريقة قوله: «فبشرهم بعذاب أليم» وقول الشارح:

(١) تفسير القرطبى (٤/٢٢٣١).

(٣) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٥٢٢/٢ ونسبه لابن جرير.

(٤) ذكره السيوطى فى «الموضع السابق» ونسبه لأبى الشيخ.

(٥) التفسير الكبير ٣٨/١٢/٦ و ٣٩.

(٢) القول المفيد ٥٨٩/١.

تحية بينهم ضرب وجيع اهـ

قال القرطبي^(١): «مثوبة»: نصب على البيان، وأصلها مفعولة فألقيت مركبة الواو على التاء فسكنت الواو وبعدها واو ساكنة فحذفت إحداهما لذلك، ومثله مقولة ومجوزة ومضوغة على معنى المصدر كما قال الشاعر:

وكنت إذا جرى دعا لمضوغة أشمر حتى ينصف الساق مئزرى

قال ابن كثير^(٢): ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: ﴿ساليب القر﴾ أى أبده من رحمته ﴿وغضب عليه﴾ أى غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ اهـ.

ولاخلاف بين قول الرازى والقرطبي وهذا يتضح من كلام ابن عثيمين .

قال ابن عثيمين^(٣): مثوبة: تمييز لشر، لأن شر اسم تفضيل، وما جاء بعد أفعل التفضيل مبيناً له يكون منصوباً على التمييز قال ابن مالك:

اسم بمعنى من مبين نكرة ينصب تمييزاً بما قد فسر

إلى أن قال:

والفاعل المعنى انصبين بأفعلا مفصلاً كانت أعلى منزلا

والمثوبة: من ثابت بثوب إذا رجع، ويطلق على الجزاء، أى: بشر من ذلك جزاء عند الله .

[قلت]: وهنا التعريض يفيد التهكم، وأيضاً الآيات تصرح بهذا التهكم كأنه تنزلاً أو على فرض قولكم وتنزلاً على اعتقادكم الفاسد سنجيب بتهكم بهذا المعتقد الفاسد وبتعريض بمن تهكم بالمؤمنين وبالنبي ﷺ الأمين.

كما قال تعالى متهمكما ببعض الكافرين: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ فهل يوجد عزة أو كرم فى النار إنما هذا من باب التهكم. وأيضاً قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهل يوجد بشرى للكفار. فالله عزوجل قال: ﴿لَا بُشْرَى لَكُمْ﴾ وهذا نفى صريح. قوله: ﴿عند الله﴾.

قال ابن عثيمين^(٤): أى: فى علمه وجزاءه عقوبة أو ثواباً.

قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾.

(١) تفسير القرطبي ٢٢٣١/٤. (٢) تفسير ابن كثير (٢/٧١).

(٣) القول المفيد ١/٥٨٩.

● ما فى تفسير الآية من كلام المفسرين :

قال الطبرى^(١): فإنه فى موضع خفض رداً على قوله: ﴿بَشِّرْ مَنْ ذَلِكَ﴾ فكأن تأويل الكلام إذا كان ذلك كذلك قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله بمن لعنه الله. ولو قيل: هو فى موضع رفع. لكان صواباً على الاستئناف بمعنى ذلك من لعنه الله أو هو من لعنه الله.

ولو قيل: هو فى موضع نصب لم يكن فاسداً بمعنى: قل هل أنبئكم من لعنه الله فيجعل أنبئكم على ما فى من واقعاً عليه. اهـ.

قلت: ولعنة اليهود ثابتة فى الكتاب والسنة فى الكتاب الآية التى هنا ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ...﴾ وقال أيضاً: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ وقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وقال: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ وقال: ﴿قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا﴾ وقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وبينت الآيات أسباب لعنهم حتى تنقضى هذه الأسباب. فالله عز وجل لعنهم فى غير موضع من الكتاب.

والرسول ﷺ لعنهم كما ثبت اللعن فى الصحيحين «لعنة الله على اليهود»^(٢).

وأيضاً فى سورة الفاتحة ثبت فى المسند وغيره أن النبى ﷺ قال: لعدى بن حاتم الطائى حينما جاء يسلم فقال له: «يا عدى اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون»^(٣) أخرجه أبى حاتم وذكرناه فى تفسير سورة الفاتحة فى تعليقنا على تفسير ابن أبى حاتم وتحققنا له.

وأما معنى ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾: يعنى من أبعد الله، وأسحقه من رحمته، وغضب عليه.. غضباً منه عليهم وسخطاً فجعل لهم الخزى والنكال فى الدنيا... اهـ.

قال ابن الجوزى^(٤) بنحو من الطبرى فقال:

قال الزجاج: وموضع «مَنْ» فى قوله: «مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ» إن شئت كان رفعاً، وإن شئت كان خفضاً، فمن خفض جعله بدلاً من «شر» فيكون المعنى: أنبئكم بمن لعنه الله؟ ومن رفع فبإضمام «هو» كأن قائلًا قال: مَنْ ذلك؟ فقل: هو من لعنه الله. قال أبو صالح

(١) تفسير الطبرى (٤/٦/١٨٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٤٠) فانظره بتخريجنا.

(٤) زاد المسير ٢/ ٢٣٠.

عن ابن عباس: من لعنه الله بالجزية، وغضب عليه بعبادة العجل، فهم شر مثوبة عند الله. اهـ.

وقال نحوه الرازي في «التفسير الكبير» (١).

● ما جاء في الآية من كلام سراح كتاب التوحيد :

قال ابن عثيمين (٢): من: اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو من لعنه الله؛ لأنَّ الاستفهام انتهى عند قوله: «مثوبة عند الله»، وجواب الاستفهام: «من لعنه الله».

ولعنه؛ أى: طرده وأبعده عن رحمته اهـ. كما تقدم.

فائدة (٣): جواز لعن الكفار على سبيل العموم.

[قلت]: تقدم في (باب: ما جاء في الذبح لغير الله من الوعيد وأنه شرك) عند حديث على رضى الله عنه، ذكرنا هناك تفصيل ما جاء في لعن العموم ولعن المعين فانظره تجد فوائد جمة إن شاء الله.

قوله: «وغضب عليه».

قال الرازي (٤): اعلم أنه تعالى: ذكر من صفاتهم أنواعاً: أولها: أنه تعالى لعنهم، سوانها: أنه غضب عليهم وثالثها: أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت. اهـ.

● كلام سراح كتاب التوحيد :

قال ابن عثيمين (٥): قوله: «وغضب عليه» أى: أحلَّ عليه غضبه، والغضب: صفة من صفات الله الحقيقية تقتضى الانتقام من المغضوب عليه، ولا يصح تحريفه إلى معنى الانتقام، وقد سبق الكلام عليه - أى في شرح حديث: اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد (٦). والقاعدة العامة عند أهل السنة: أن آيات الصفات وأحاديثها تجرى على ظاهرها اللاتى بالله - عز وجل -؛ فلا تجعل من جنس صفات المخلوقين، ولا تحرف فتفى عن الله؛ فلا تغلو في الإثبات ولا فى النفى. اهـ.

قال القرعاوى (٧): ومن فوائد هذا الآية: إثبات صفة الغضب لله سبحانه على الوجه اللاتى به سبحانه.

قوله: «وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقُرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ».

(٣) الجديد ٢١٠.

(٢) القول المفيد ١ / ٩٠.

(١) ٣٩ / ١٢ / ٦.

(٦) سبأى تخريجه.

(٥) القول المفيد ١ / ٥٩٠.

(٤) التفسير الكبير ٣٩ / ١٢ / ٦.

(٧) الجديد ٢١٠.

● ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث :

عن عثمان بن عطاء عن أبيه «أن النبی ﷺ قال: «سيكون فى أمتى خسف، ورجف، وقردة، وخنازير»^(١).

عن ابن مسعود قال: «سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهى مما مسخ الله؟ فقال: «إن الله لم يهلك قوماً أو يمسح قوماً فيجعل لهم نسلًا ولا عاقبة، وإن القردة والخنازير قبل ذلك»^(٢).

قلت: وهذا لا يخالف الحديث الأول ويجمع بينهما بما جاء عن ابن مسعود قال: «سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهى من نسل اليهود؟ فقال: لا، إن الله لم يلعن قوماً قط فمسحهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق، فلما غضب الله على اليهود فمسحهم جعلهم مثلهم»^(٣).

قلت: وبهذا الأثر أيضاً نعلم أن من المسخ قطع النسل كما يحدث لبعض ممالك الكفر الآن كما تقدم.

وقال تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فهذا الأمر يفيد التكوين فالله عز وجل صرح بمسحهم قردة وخنازير فى غير موضع من كتابه الكريم، وكذلك فى السنة ثبتت عن نبينا ﷺ هذه الأحاديث التى ثبتت أن هناك مسخ وقع لليهود كما ثبت فى صحيح مسلم من حديث ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ: - عن القردة والخنازير أهى مما مسخ الله. فقال: - «إن الله لم يهلك قوماً أو يمسح قوماً فيجعل لهم نسلًا ولا عاقبة وإن القردة والخنازير قبل ذلك»^(٤).

فالله عز وجل يضرب عليهم الذلة. ومن باب الذلة أن لا يجعل لهم نسلًا ولا عاقبة. وهذه معنى من معانى ضرب الذلة على اليهود أنهم يقتلوا. كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا﴾ «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحُبْلِ مِنَ النَّاسِ» أى أن الذلة هنا قلة عددهم وهو موجود الآن فتأمل.

ويقع هذا المسخ أيضاً فى الجن لأنهم مكلفون كالإنس ويدل على ذلك ما جاء.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥٢٣/٢) ونسبه لابن أبى الدنيا فى «ذم الملاحى».

(٢) أخرجه مسلم فى القدر (٢٣/٤٦٥/٨) عن ابن مسعود به.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥٢٢/٢) ونسبه للطيالسى، وأحمد، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ،

وابن مردويه.

وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٤) تقدم تخريجه.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «الحيات مسخ الجن كما مسخت القردة والخنازير»^(١).

قلت: وذكر ابن جرير قصة في مسخ بنى إسرائيل قردة وخنازير فيها من العبر والعظات^(٢). والنبي ﷺ نهى عن قتل الحيات «وهذا في صحيح مسلم» وعوامر البيوت وهذا النهى كان له قصة وسبب. أن هناك رجل من الصحابة كان متزوج حديثاً فرجع من الغزو فوجد امرأته على باب الدار فلما تعجب من ذلك وأندش فأشارت إلى السرير بالداخل فلما دخل فوجد حية على السرير فأخذ الحربة فصرعها فصرعته. فلا يدري من مات أولاً. فمن هاهنا ذكر ﷺ «أن هذه البيوت مسكونة وقال: «ياكم وعوامر البيوت» أو «نهى عن عوامر البيوت»^(٣).

وفى صحيح مسلم أيضاً أمر بالتحجير عليها ثلاثاً^(٤).

وهناك أيضاً أحاديث في هذا المعنى مرفوعة وموقوفة في بيان مسخ اليهود والنصارى قردة وخنازير.

عن عمرو بن كثير عن أفلح مولى أبى أيوب الأنصاري قال: حدثت أن المسخ في بنى إسرائيل من الخنازير كان، أن امرأة كانت من بنى إسرائيل كانت في قرية من قرى بنى إسرائيل، وكان فيها ملك بنى إسرائيل، وكانوا قد استجمعوا على الهلكة، إلا أن تلك المرأة كانت على بقية من الإسلام متمسكة، فجعلت تدعو إلى الله حتى إذا اجتمع إليها ناس فبايعوها على أمرها، قالت لهم: أنه لا بد لكم من أن يجاهدوا عن دين الله وأن تنادوا قومكم بذلك، فاخرجوا فإني خارجة، فخرجت وخرج إليها ذلك الملك في الناس، فقتل أصحابها جميعاً وانفلتت من بينهم، ودعت إلى الله حتى تجمع الناس إليها، إذا رضيت منهم أمرتهم بالخروج فخرجوا وخرجت معهم فأصيبوا جميعاً، وانفلتت منهم، ثم دعت إلى الله حتى إذا اجتمع إليها رجال واستجابوا لها أمرتهم بالخروج فخرجوا وخرجت معهم فأصيبوا جميعاً، وانفلتت منهم، ثم دعت إلى الله حتى إذا اجتمع إليها رجال واستجابوا لها أمرتهم بالخروج فخرجوا وخرجت معهم فأصيبوا جميعاً، وانفلتت من بينهم فرجعت وقد أيست وهي تقول: سبحان الله..! لو كان لهذا الدين ولي وناصر لقد أظهره بعد، فباتت محزونة وأصبح أهل القرية يسعون في نواحيها خنازير مسخهم الله في ليلتهم تلك، فقالت حين أصبحت ورأت ما رأت: اليوم أعلم أن الله قد أعز دينه وأمر دينه. قال: - يعنى مولى أبى أيوب - فما كان مسخ

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٥٢٣/٢) ونسبه لابن مردويه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في السلام (١٣٩/٤٩٢/٧) عن أبى سعيد به.

(٤) أخرجه مسلم في السلام (١٤٠/٤٩٣/٧) عن أبى سعيد به.

لخنزير في بنى إسرائيل إلا على يدي تلك المرأة^(١).

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين :

قال ابن الجوزي^(٢): وروى عن ابن عباس أن المسخين من أصحاب السبت، وخنزير: شبابهم قردة، ومشايخهم خنازير. وقال غيره: القردة: أصحاب السبت، وخنزير: كفار مائدة عيسى. وكان ابن قتيبة يقول: أنا أظن أن هذه القردة، وخنزير هي المسوخ بأعيانها تولدت قال: واستدللت بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ فدخل الألف واللام يدل على المعرفة، وعلى أنها القردة التي تعانين، ولو كان أراد شيئاً انقرض ومضى، لقال: وجعل منهم قردة وخنزير، إلا أن يصحّ حديث أم حبيبة في «المسوخ» فيكون كما قال عليه السلام. قلت أنا: وحديث أم حبيبة في «الصحيح» انفرد بإخراجه مسلم، وهو أن رجلاً سأل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، القردة وخنزير هي ممّا مُسَخَّ؟ فقال النبي عليه السلام: «إن الله لم يمسخ قوماً أو يهلك قوماً، فيجعل لهم نسلًا ولا عقابة، وإن القردة وخنزير قد كانت قبل ذلك»^(٣) وتقدم الحديث فلا يلتفت إلى ظن ابن قتيبة.

وبنحوه قال الرازي^(٤) وغيره من المفسرين.

فائدة: فيه دليل على مسخ إثبات أهل الكتاب قردة وخنزير.

● هل منا من سيغضب الله عليه ويلعنه ويمسخ؟

الجواب: قال الفقير: نعم قال سفيان كما سيأتى من كلام ابن عثيمين «من ضل من علمائنا ففيه (شبه) من اليهود» لأن اليهود سبب الغضب أنهم علموا ولم يعملوا فغضب الله عليهم. والنصارى ضالون لأنهم عملوا وتوسعوا في العمل بغير علم. فمن ضل من علمائنا ففيه شبه من اليهود وسيغضب الله عليه ومن ضل من عبادنا ففيه شبه بالنصارى.

وليس معنى تحذير النبي ﷺ لنا مما صنع اليهود إلا لكي لانصاب بما أصيبوا به من لعن. وإلا لم يكن النبي ﷺ لعن طوائف من هذه الأمة «لعن الله النامصة والمتنمصة....»^(٥)، «لعن الله من غير منار الأرض»^(٦)، «لعن الله من ذبح لغير الله»^(٧)، «لعن الله من لعن والديه»^(٨) واللعن هذا في الأمة أم لا؟ في الأمة وحصل في اليهود.

إذن غضب الله عليهم وسيغضب على طوائف من هذه الأمة.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٥٢٣/٢) ونسبه لابن جرير.

(٢) زاد المسير ٢/ ٢٣٠.

(٣) تقدم من حديث ابن مسعود عنها.

(٤) التفسير الكبير (٣٩/١٢/٦).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) تقدم تخريجه.

وكذلك سيجعل من هذه الأمة أيضا مسخ. والأدلة:-

أولاً: ما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: - «أما يخشى أحدكم أن يرفع رأسه قبل الإمام أن يقلب الله رأسه رأس حمار وصورته صورة حمار»^(١) وفي بعض الطرق التي أوردها ابن حجر في الفتح قال «أو صورة كلب» وابن حجر لم يستبعد أن يكون المسخ هاهنا حقيقياً وأن الله يقلب صورته صورة حمار أو رأسه رأس حمار حقيقة. وإن كان بعض العلماء قال إن المسخ مسخ معنوي، إلا أن ابن حجر لم يستبعد أن يكون المسخ مسخاً حقيقياً واستدل بحديث «سيكون من أمتي أقواماً يستحلون الحر والحرير....» ثم قال «ويبيت أقوام إلى جنب علم فيهدم الله عليهم هذا العلم الجبل» ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»^(٢).

فاليهود استحلوا فعبدوا الطاغوت والجبت فلعنوا ومسحوا قردة وخنازير.

وكنت قلت في خطبة: «تارك الصلاة والمسخ الثالث» أنهم يسمون «عابد الطاغوت» بالمسخ الثالث فهو أحمر من الحمار وأشر من القردة والخنازير وأنزلت في الخطبة عابد الطغوت هذا على تارك الصلاة وقتل إذا كان الذي يصلى ويرفع رأسه قبل الإمام فإن الله عزوجل سيقبّل رأسه رأس حمار فكيف بالذي لا يصلى وأيضاً كما نهى ﷺ عن الإقعاء في الصلاة كإقعاء الكلب وعن البروك كبروك الجمل وعن توطن مكان بالمسجد كتوطن البعير.

فكيف بالذي يترك الصلاة بالكلية فهذا ليس له وصف إلا عابد الطاغوت وراجع في ذلك كتابي «فقه الخطابة وزاد الخطيب» والله الموفق ولا رب سواه.

قوله ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

ذكر المفسرون وجوه القراءة فيها. فأجملها ابن الجوزي^(٣) حيث قال:

فيها عشرون قراءة. اهد نذكرها بشئ من الاختصار.

(١) (وَعَبَدَ)	(٢) عُبِدَ	(٣) وَعَبَدُوا	(٤) وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ.
(٥) وَعَبِيدَ	(٦) وَعُوبِدَ	(٧) وَعَابِدَ	(٨) وَعُوبِدَ
(٩) وَعُوبِدَ	(١٠) وَعُوبِدَ	(١١) وَعَبَدَ	(١٢) وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ
(١٣) وَعُوبِدَ	(١٤) وَعُوبِدَ	(١٥) وَعُوبِدَ	(١٦) وَعُوبِدَ
(١٧) وَعَابِدَ	(١٨) وَعُوبِدَ	(١٩) وَعُوبِدَ	(٢٠) وَعُوبِدَ.

(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٦٩١)، ومسلم في الصلاة (٤/ ١٥٠ - النووي) عن أبي هريرة به.

(٢) علقه البخاري (٥٥٩٠) عن أبي مالك الأشعري به.

(٣) زاد المسير (٢/ ٢٣٠ - ٢٣١).

ثم قال: والمراد به هاهنا - يعنى الطاغوت - قولان:

أحدهما: الأصنام. والثاني: الشيطان. اهـ.

قال الرازى^(١): قال الفراء: تأويله وجعل منهم القردة ومن عبد الطاغوت، فعلى هذا: الموصول محذوف.

وقيل: الطاغوت العجل، وقيل: الطاغوت الأحبار، وكل من أطاع أحداً فى معصية الله فقد عبده. اهـ. وتقدم الخلاف فى ذلك.

قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ قرئ وعبد الطاغوت على أنه فعل ماض والطاغوت منصوب به أى وجعل منهم من عبد الطاغوت وقرئ وعبد الطاغوت بالإضافة على أن المعنى وجعل منهم خدم الطاغوت أى خدامه وعبيده وقرئ وعبد الطاغوت على أنه جمع الجمع عبد وعبيد وعبد مثل ثمار وثمر حكاه ابن جرير عن الأعمش وحكى عن بريدة الأسلمى أنه كان يقرؤها وعابد الطاغوت وعن أبى وابن مسعود عبدوا وحكى ابن جرير عن أبى جعفر القارىء أنه كان يقرؤها وعبد الطاغوت على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ثم استبعد معناها والظاهر أنه لا بعد فى ذلك لأن هذا من باب التعريض بهم أى وقد عبدت الطاغوت فيكم وأنتم الذين فعلتموه.

وكل هذه القراءات يرجع معناها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين فى ديننا الذى هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر. ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وسيأتى توجية بعض هذه القراءات من كلام شيخ الإسلام ومن كلام ابن عثيمين.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٣): الصواب أنه معطوف على قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ فهو فعل ماض معطوف على ما قبله من الأفعال الماضية؛ أى من لعنه الله ومن غضب عليه، ومن جعل منهم القردة والخنازير، ومن عبد الطاغوت. لكن الأفعال المقدمة الفاعل فيها هو اسم الله مظهراً ومضمراً، وهنا الفاعل اسم من عبد الطاغوت وهو الضمير فى عبد. ولم يعد سبحانه لفظ من لأنه جعل هذه الأفعال كلها صفة لصنف واحد وهم اليهود. اهـ. نقل ذلك عن ابن تيمية.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

فيها قراءتان فى ﴿عَبَدَ﴾ وفى ﴿الطَّاغُوتَ﴾.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٧١).

(١) ٤٠/١٢/٦.

(٤) القول المفيد ١/٥٩١، ٥٩٢.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٦٨.

الأولى: بضم الباء ﴿عَبَدَ﴾، وعليها تكسر التاء في ﴿الطَّاغُوتَ﴾؛ لأنه مجرور بالإضافة.

الثانية: بفتح الباء ﴿عَبَدَ﴾ على أنه فعل ماضٍ معطوف على قوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ صلة الموصول، أي: ومن عبد الطاغوت، ولم يعد ﴿مَنْ﴾ مع طول الفصل؛ لأنَّ هذا ينطبق على موصوف واحد، فلو أعيدت مَنْ لأوهم أنَّهم جماعة آخرون وهم جماعة واحدة؛ فعلى هذه القراءة يكون ﴿عَبَدَ﴾ فعلاً ماضياً، والفاعل ضمير مستتر جوازاً تقديره هو يعود على الضمير في قوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾.

وبهذا نعرف اختلاف الفاعل في صلة الموصول وما عطف عليه لأنَّ الفاعل في صلة الموصول ﴿اللَّهُ﴾، والفاعل في هذا المعطوف يعود على المفعول «الهاء» لا على الفاعل. وعلى كل حال؛ فالمراد بها عابد الطاغوت.

فالفرق بين القراءتين بالباء فقط؛ فعلى قراءة السفل مفتوحة، وعلى قراءة الاسم مضمومه.

والطاغوت على قراءة الفعل في ﴿عَبَدَ﴾ تكون مفتوحة ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، وعلى قراءة الاسم تكون مكسورة بالإضافة ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وذكر في تركيب ﴿عَبَدَ﴾ مع (الطاغوت) أربع وعشرون قراءة، ولكنها قراءات شاذة غير القرائتين السبعيتين ﴿عَبَدَ﴾.

فائدة^(١): قد تكون المعاصي سبباً للعقوبة في الدنيا كما هي سبباً للعقوبة في الآخرة.

قوله: «أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل».

● ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال ابن الجوزي^(٢): قوله تعالى: ﴿أولئك شر مكاناً﴾ أي: هؤلاء الذين وصفناهم شر مكاناً من المؤمنين، ولا شر في مكان المؤمنين، ولكن الكلام مبنى على كلام الخصم، حين قالوا للمؤمنين: لا نعرف شراً منكم، فقيل: من كان بهذه الصفة، فهو شر منهم. اهـ وفصل هذا.

الرزاي^(٣) قال: وفي لفظ المكان وجهان:

(٢) زاد المسير ٢/ ٢٣١.

(١) القول المفيد ١/ ٥٩١ و ٥٩٢.

(٣) التفسير الكبير ٦/ ١٢ / ٤٠.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾^(١).

الأول: قال ابن عباس رضى الله عنهما: لأن مكانهم سقر، ولا مكان أشد شراً منه.
والثاني: أنه أضيف الشر في اللفظ إلى المكان وهو في الحقيقة لأهله، وهو من باب الكناية كقولهم: فلان طويل النجاد كثير الرماد، ويرجع حاصله إلى الإشارة إلى الشيء بذكر لوازمه وتوابعه.

ثم قال ﴿وَأَضَلَّ عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أى عن قصد السبيل والدين الحق. قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية غير المسلمون أهل الكتاب وقالوا: يا إخوان القردة والخنازير، فافتضحوا ونكسروا رؤسهم. اهـ.



● مناسبة الآية للباب والتوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): يخبر تعالى عن الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف أنهم قالوا هذه المقالة: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ وقد حكى ابن جرير فى القائلين فى ذلك قولين:

أحدهما: أنهم المسلمون.

والثانى: أنهم المشركون وعلى القولين فهم مذمومون لأن النبى ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وحالحيم مساجد»^(٣) يحذر ما فعلوا ولما يفضى إليه ذلك من الإشراك بأصحابها كما هو الواقع، ولهذا لما فعلته اليهود والنصارى جرهم ذلك إلى الشرك، فدل ذلك على أن هذه الأمة تفعله كما فعلته اليهود والنصارى فيجرها ذلك إلى الشرك، لأن ما فعلته اليهود والنصارى ستفعله هذه الأمة شبراً بشبر وذراعاً بذراع كما أخبر بذلك الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي وبهذا يظهر وجه استشهاد المصنف بهذه الآية أهـ.

وبنحوه ذلك قال عبد الله بن جابر الله^(٤).

وقال ابن باز^(٥): فإذا كان فى الأمم الماضية من اتخذوا المساجد على القبور وعظموها فكذلك فى هذه الأمة، وقد وقع من يدعى بالإسلام كما هو حال المسلمين أهـ.
وبنحو ما تقدم قال قرعاوى^(٦).

(١) الكهف: ٢١.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٦٨.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الجامع الفريد (٩٥). (٥) التعليق المفيد (١٣٢).

(٦) الجديد (٢١٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾.

● ما جاء في تفسير الآية من الآثار:

عن السدي: ... فقال الملك: لآتخذن عند هؤلاء القوم الصالحين مسجداً، فلأعبدن الله فيه حتى أموت. فذلك قوله ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾^(١).

عن قتادة في قوله ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ قال: هم الأمراء، أو قال: السلاطين^(٢).

عن سعيد بن جبير قال: بنى عليهم الملك بيعة فكتب في أعلاها أبناء الأراكنة أبناء الدهاقين.

● ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال ابن قتيبة:^(٣) يعنى المطاعين والرؤساء قال المفسرون: وهم الملك وأصحابه المؤمنون اتخذوا عليهم مسجداً. اهـ.

قال الرازي^(٤): قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ قيل: المراد به الملك المسلم. وقيل أولياء أصحاب الكهف. وقيل: رؤساء البلد ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ نعبد الله فيه ونستبقى آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد. اهـ.

قال ابن كثير^(٥): ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين:

أحدهما: إنهم المسلمون منهم.

والثاني: أهل الشرك منهم فالله أعلم. . والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر: لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد». يحذر ما فعلوا^(٦) وقد روينا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢٧٥١) عن السدي به. فانظره بتخريجنا.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» وذكره السيوطي في «الدر» (٣٩٢/٤) زاد نسبه لعبد الرزاق. وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخريجنا.

(٣) زاد المسير ٩١/٥. (٤) التفسير الكبير ١١/٢١/١٠٦.

(٥) تفسير ابن كثير ٧٥/٣. (٦) تقدم تخريجه.

عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . أنه لما وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدوها عنده فيها شئ من الملاحم وغيرها . اهـ .

قال الشوكانى^(١) : فقال : ذكر اتخاذ المسجد يشعر بأن هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم هم المسلمون وقيل : هم أهل السلطان والملك من القوم المذكورين فإنهم الذين يغلبون على أمر من عداهم والأول أولى قال الزجاج هذا يدل على أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور لأن المساجد للمؤمنين .

● كلام المفسرين :

قوله : ﴿لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ .

قال ناصر السعدى^(٢) : ﴿لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أى : نعبد الله تعالى فيه ونتذكر به أحوالهم وما جرى لهم وهذه الحالة محظورة . نهى عنها النبى ﷺ وذم فاعليها ولا يدل ذكرها هنا . على عدم ذمها . فإن السياق فى شأن أهل الكهف والثناء عليهم وأن هؤلاء وصل بهم الحال إلى أن قالوا : ابنوا عليهم مسجداً بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم . وحذرهم من الإطلاع عليهم . فوصلت الحال إلى ما ترى وفى هذه القصة دليل على أن من فرّ بدنية من الفتن . سلّمه الله منها وأن من حرص على العافية ، عافاه الله ومن أوى إلى الله . أواه الله وجعله هداية لغيره . من تحمّل الذل فى سبيله وابتغاء مرضاته . كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب . ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ . اهـ .

● كلام شراح كتاب التوحيد :

قال ابن عثيمين^(٣) :

من فوائد الآية الثالثة ما يلى :

(١) ما تضمن سياق هذه الآية من القصة العجيبة فى أصحاب الكهف وما تضمنته من الآيات الدالة على كمال قدرة الله وحكمته .

(١) فتح القدير ٢٨٣/٣ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١١٧/٣ .

(٣) القول المفيد ٥٩٦/١ و ٥٩٧ .

(٢)- أن من أسباب بناء المساجد على القبور الغلو في أصحاب القبور لأن الذين غلبوا على أمرهم بنوا عليهم المساجد لأنهم صاروا عندهم محل الاحترام والإكرام فغلوا فيهم.

(٣) أن الغلو في القبور وإن قل قد يؤدي إلى ما هو أكبر منه ولهذا قال النبي ﷺ لعلى حين بعثه «ألا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته» (*).

[قلت]: (٤) إن الدار الدنيا غالباً للذين ييغنون العلو في الأرض والفساد ولو باسم الدين والآخرة على خلاف ذلك قال تعالى ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

(٥) وفيه ذم الرأي، لأنهم لما استحسّنوا رأيهم بعقولهم القاصرة شرعوا، قالوا ﴿لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾.

(٦) ويستفاد أيضاً منه (١) أن اتخاذ المساجد على القبور من سنن الأمم السابقة.

شبهة وجوابها (٢):

قد يقول قائل: إذا كان من المقرر شرعاً تحريم بناء المساجد على القبور، فهناك أمور كثيرة تدل على خلاف ذلك منها.

قوله تبارك وتعالى في سورة الكهف قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ ووجه دلالة الآية على ذلك. أن الذين قالوا هذا القول كانوا نصارى، على ما هو مذكور في كتب التفسير، فيكون اتخاذ المسجد على القبر من شريعتهم، وشريعة من قبلنا شريعة لنا إذا حكاها الله تعالى، ولم يعقبها بما يدل على ردها كما في هذه الآية الكريمة.

قال الألباني: والجواب عنها من ثلاثة وجوه:

الأول: أن الصحيح المقرر في علم الأصول أن شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا لأدلة كثيرة منها قوله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي... (فذكرها، وآخرها) وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس كافة» (٣).

(*) تقدم تخريجه مراراً.

(١) الجديد للقرعاوي ٢١٢.

(٢) بتصرف من تحذير الساجد من ٤٨ : ٥٨ للشيخ الألباني.

(٣) [صحيح] أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٣/٥ - النووي) عن جابر به.

قال الألوسی: لا يقال إن الآية ظاهرة في كون ما ذكر من شرائع من قبلنا وقد استدلل بها، فقد روى أنه ﷺ قال: «من نام عن صلاة أو نسيها»^(١) الحديث ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(٢). وهو مقول لموسى عليه السلام، وسياقه الاستدلال، واحتج أبو يوسف على جرى القود بين الذكر والأنثى بآية ﴿وَكُنَّ عَلَيَّهِمْ﴾ والكرخى على جريه بين الحر والعبد والمسلم والذمي بتلك الآية الواردة في بنى إسرائيل إلى غير ذلك، لأننا نقول: مذهبنا في شرع من قبلنا وإن كان أنه يلزمنا على أنه شريعتنا، لكن لا مطلقاً، بل إن قص الله تعالى علينا بلا إنكار، وإنكار رسوله ﷺ كإنكاره - عز وجل - وقد سمعت أنه عليه الصلاة والسلام لعن الذين يتخذون المساجد على القبور، على أن كون ما ذكر من شرائع من قبلنا ممنوع، وكيف يمكن أن يكون اتخاذ المساجد على القبور من الشرائع المتقدمة مع ما سمعت من لعن اليهود والنصارى حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، والآية ليست كالآيات الذي ذكرنا أنفاً احتجاج الأئمة بها وليس فيها أكثر من حكاية قول طائفة من الناس وعزمهم على فعل ذلك، وليست خارجة مخرج المدح لهم والخص على التأسى بهم، فمتى لم يثبت أن فيهم معصوماً لا يدل فعلهم فضلاً عن عزمهم على مشروعية ما كانوا بصددده أهـ.

الثاني: هب أن الصواب قول من قال: «شريعة من قبلنا شريعة لنا» فذلك مشروط عندهم بما إذا لم يرد في شرعنا ما يخالفه، وهذا الشرط معدوم هنا، لأن الأحاديث تواترت في النهي عن البناء المذكور كما سبق، فذلك دليل على أن ما في الآية ليس شريعة لنا.

الثالث: لانسلم أن الآية تفيد أن ذلك كان شريعة لمن قبلنا غاية ما فيها أن جماعة من الناس قالوا: ﴿لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ فليس فيها التصريح بأنهم كانوا مؤمنين، وعلى التسليم فليس فيها أنهم كانوا مؤمنين صالحين، متمسكين بشريعة نبي مرسل، بل الظاهر خلاف ذلك، قال الحافظ بن رجب في «فتح الباري في شرح البخاري» من «الكواكب الدراري في شرح حديث لعن اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم في المساجد (٣/ ٢٠١/ ٦٨٤) عن أنس به.

وانظر «منار السبيل» (٣١٠ - بتخريجنا).

(٢) طه: ١٤.

وقد دلّ القرآن على مثل ما دلّ عليه هذا الحديث، وهو قول الله - عز وجل - في قصة أصحاب الكهف: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ فجعل اتخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور، وذلك يشعر بأنّ مستنده القهر والغلبة واتساع الهوى وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل المتصّر لما أنزل الله على رسله من الهدى - أهـ.

قلت: وقد تقدم كلام المفسرين في ذلك. أهـ.

قال الهيثمي: في سياق رده على من أفتى بجواز البناء على قبور العلماء مستدلاً بهذه الآية - وقد أفتى جمع بهدم كل ما بقرافة مصر من الأبنية، حتى قبة الإمام الشافعي عليه الرحمة، التي بناها بعض الملوك، وينبغي لكلّ أحد هدم ذلك ما لم يخشى منه مفسدة، فيتعين الرفع للإمام أخذاً من كلام ابن الرفعة في الصلح أهـ.

قال الألباني: وقد استدلّ بالآية المذكورة على الجواز المزعوم، بل على استحباب بناء المساجد على القبور بعض المعاصرين. لكن من وجه آخر مبتدع مغاير بعض الشيء لما سبق حكايته ورده، فقال ما نصه، «والدليل من هذه الآية إقرار الله تعالى إياهم على ما قالوا، وعدم رده عليهم!»

وهذا الاستدلال باطل من وجهين:

الأول: أنه لا يصح أن يعتبر عدم الرد عليهم إقراراً لهم، إلا إذا ثبت أنهم كانوا مسلمين وصالحين متمسكين بشريعة نبيهم، وليس في الآية ما يشير أدنى إشارة إلى أنهم كانوا كذلك بل يحتمل أنهم لم يكونوا كذلك وهذا هو الأقرب؛ أنهم كانوا كفاراً أو فجاراً، كما سبق من كلام ابن رجب وابن كثير وغيرهما، وحينئذٍ فعدم الرد عليهم لا يعد إقراراً بل إنكاراً، لأنّ حكاية القول عن الكفار والفجار يكفى في رده عزوه إليهم! فلا يعتبر السكوت عليه إقراراً كما لا يخفى، ويؤيده الوجه الآتي:

الثاني: أنّ الاستدلال المذكور إنما يستقيم على طريقة أهل الأهواء من الماضيين والمعاصرين، الذين يكتفون بالقرآن فقط ديناً، ولا يقيمون للسنة وزناً، وأما على طريقة أهل السنة والحديث الذين يؤمنون بالوحيين، مصدقين بقوله ﷺ في الحديث الصحيح المشهور «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه» وفي رواية «ألا إن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله». حرم الله.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ! الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ «فَمَنْ؟» أَخْرَجَاهُ^(١).

فهذا الاستدلال عندهم. والمستدل يزعم أنه منهم باطل ظاهر البطلان، لأنَّ الرد الذي نفاه قد وقع في السنة المتواترة كما سبق، فكيف يقول: «إِنَّ اللَّهَ أَقْرَهُمْ وَلَمْ يردْ عَلَيْهِمْ، مع أَنَّ اللَّهَ لعنهم على لسان نبيه ﷺ فأى ردٍ أوضح وأبين من هذا؟!

وما مثل من يستدل بهذه الآية على خلاف الأحاديث المتقدمة، إلا كمثل من يستدل على جواز صنع التماثيل والأصنام بقوله تعالى في الجن الذين كانوا مذلّلين لسليمان عليه السلام، «يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ»^(٢) يستدل بها على خلاف الأحاديث الصحيحة التي تحرّم التماثيل والتصاوير! وما يفعل ذلك مسلم يؤمن بحديثه ﷺ أهـ.



قوله: [وعن أبي سعيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لتتبعن سنن... إلخ].

ولفظ البخارى: عن أبي سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: «لَتَتَّبِعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا ذِرَاعًا حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟».

وبوّب عليه باب قول النبى ﷺ «لَتَتَّبِعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

ولفظ مسلم: قال رسول الله ﷺ «لَتَتَّبِعَنَّ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ. شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرٍ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ. قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟».

(١) أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء/ باب ما ذكر عن نبى إسرائيل (٦/٥٧١/٣٤٥٦)، ومسلم فى العلم/ باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٨/٤٧٢/٦).

من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد به.

وانظر «فتح المجيد» (٤٤٥ - بتخریجنا).

(٢) سبأ: ١٣.

قال سليمان آل الشيخ^(١): هذا الحديث أورده المصنف بهذا اللفظ معزواً
«للصحيحين» ولعله نقله عن غيرهما.

● مناسبة الحديث للباب والتوحيد.

قال سليمان آل الشيخ: ووجه مطابقة الحديث للترجمة واضح لأن الأمم قبلنا وجد
فيها الشرك فكذلك يوجد في هذه الأمة كما هو الواقع. اهـ.
وقال نحوه ابن عثيمين والقرعاوى أيضاً في «الجديد».

قوله: «لَتَبْعُنْ».

قال ابن حجر^(٢): بمثنائين مفتوحتين ثم موحدة مكسورة وعين مهملة مضمومة ونون
ثقيلة وأصله تتبعون سنن بالمهملة والنون بعدها نون أخرى «من كان قبلكم» بفتح اللام
أهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): (لتبعن) هو بضم العين وتشديد النون أهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): اللام موطئة للقسم، والنون للتوكيد، فالكلام مُؤَكِّد بثلاثة
مؤكدات: القَسَمُ المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لتبعن.
قوله (سنن):

قال ابن حجر: بفتح السين للأكثر، وقال ابن التين: قرأناه بضمها، وقال المهلب:
بالفتح أولى، لأنه الذي يستعمل فيه الذراع والشير، وهو الطريق قلت: وليس اللفظ
الآخر بعيد من ذلك أهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): أى طريق من كان قبلكم. أهـ ثم نقل بعض كلام
الحافظ.

قال ابن عثيمين^(٤): فيها روايتان: «سَنَنْ» و «سُنَنْ».

أما «سُنَنْ»؛ بضم السين: جمع سُنَّة، وهى الطريقة.

وأما «سَنَنْ»؛ بالفتح: فهى مفردة بمعنى الطريق.

وقَعَلَ تأتي مفردة مثل: قَتَنَ جمعها أفنان، وسبب جمعها أسباب أهـ.

وفى رواية البخارى [شبراً شبراً، وذراعاً ذراعاً].

قال ابن حجر^(٥): فى رواية الكشميهنى «شبراً بشبر وذراعاً بذراع» عكس الذى قبله

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٧١. (٢) فتح البارى (١٣/٣١٣). (٣) تيسير العزيز الحميد (٢٦٩).

(٤) القول المفيد (١/٥٩٧). (٥) فتح البارى (١٣/٣١٣).

قال عياض الشبر والذراع والطريقة ودخول الجحر تمثيل للأقتداء بهم في كل شيء ما نهى الشرع عنه وذمه. اهـ.

قوله: [حذو القذة بالقذة].

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «حذو القذة بالقذة» هو بنصب حذو على المصدر.

قال ابن عثيمين^(٢): «حذو» بمعنى محاذياً، وهي منصوبة على الحال من فاعل «تتبعن» أى حال كونكم محاذين لهم حذو القذة بالقذة. اهـ.

ثم قال سليمان آل الشيخ^(١): والقذة - بضم القاف - واحدة القذ وهي ريش السهم، وله قذتان متساويتان، أى: لتفعلن أفعالهم ولتتبعن طرائقهم حتى تشبهوهم وتخاذوهم كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى، ثم إن هذا لفظ خبر معناه النهى عن متابعتهم، ومنعهم من الالتفات لغير دين الإسلام، لأن نوره قد بهر الأنوار وشريعته نسخت الشرائع، وهذا من معجزاته، فقد اتبع كثير من أمته سنن اليهود والنصارى وفارس فى شيمهم ومراكبهم وملابسهم، وإقامة شعارهم فى الأديان والحروب والعادات من زخرفة المساجد، وتعظيم القبور واتخاذها مساجد، حتى عبدوها ومن فيها من دون الله، وإقامة الحدود والتعزيرات أو وصفه بها رسوله على الضعفاء دون الأقوياء، وترك العمل يوم الجمعة، والتسليم بالأصابع، وعدم عيادة المريض يوم السبت، والسرور بخميس البيض، وأن الحائض لا تمس عجينة، واتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، والإعراض عن كتاب الله، والإقبال على كتب الضلال من السحر والفلسفة والكلام والتكذيب بصفات الله التى وصف الله بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ، ووصفه بما لا يليق به من التقائص والعيوب إلى غير ذلك مما اتبعوا فيه اليهود والنصارى. اهـ.

وينحو هذا قال ابن باز.

قلت: وهذا الشيخ سليمان أيضاً يصرح بعدم جواز يوم الجمعة راحة من العمل ولقد سبقه إلى ذلك الغزالي* ومن أدلته قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى انتشروا واعملوا ولكن لما أخذت اليهود السبت راحة. أخذنا نحن الجمعة راحة أيضاً اتباعاً لسنة اليهود.

وقال ابن عثيمين: شارحاً هذا الكلام ومفصلاً له: -

(٢) القول المفيد (١/ ٥٦٨ - ٦٠١).

(١) تيسير العزيز اخمد (٢٦٩، ٢٧٠).

(٥) إحياء علوم الدين.

وقوله: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» ليس على ظاهره، بل هو عام مخصوص؛ لأننا لو أخذنا بظاهره كانت جميع هذه الأمة تتبع سنن من كان قبلها، لكننا نقول: إنه عام مخصوص؛ لأن في هذه الأمة من لا يتبع كما أخبر النبي ﷺ أنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق، وقد يقال: إن الحديث على عموميه وأنه لا يلزم أن تتبع هذه الأمة الأمم السابقة في جميع سننها، بل بعض الأمة يتبعها في شيء وبعض الأمة يتبعها في شيء آخر، وحينئذ لا يقتضي خروج هذه الأمة من الإسلام، وهذا أولى لبقاء الحديث على عموميه، ومن المعلوم أن من طرق من كان قبلنا ما لا يخرج من الملة، مثل: أكل الربا، والخسد، والبغى، والكذب.

ومنه ما يخرج من الملة، كعبادة الأوثان.

السنن: هي الطرائق، وهي متنوعة، منها ما هو اعتداء على حق الخالق، ومنها ما هو اعتداء على حق المخلوق.

فمن هذه السنن: عبادة القبور والصالحين؛ فإنها موجودة في الأمم السابقة وقد وجدت في هذه الأمة، قال تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

ومن ذلك: الغلو في الصالحين كما وجد في الأمم السابقة وجد في هذه الأمة.

ومنها: دعاء غير الله، وقد وجد في هذه الأمة.

ومنها: بناء المساجد على القبور موجود في السابقين، وقد وجد في هذه الأمة.

ومنها: وصف الله بالتقائص والعيوب؛ فقد قالت اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وقالوا:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وقالوا: إن الله تعب من خلق السموات والأرض، وقد وجد في هذه الأمة من قال بذلك أو أشد منه؛ فقد وجد من قال: ليس له يد، ومنهم قال: لا يستطيع أن يفعل ما يريد فلم يستو على العرش، ولا ينزل إلى السماء الدنيا ولا يتكلم، بل وجد في هذه الأمة من يقول: بأنه ليس داخلًا في العالم، وليس خارجًا عنه ولا متصلًا به ولا منفصلًا عنه؛ فوصفوه بما لا يمكن وجوده، ومنهم من قال: لا تجوز الإشارة الحسية إليه، ولا يفعل، ولا يغضب ولا يرضى، ولا يحب وهذا مذهب الأشاعرة.

ومنها: أكل السحت؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: أكل الربا؛ فقد وجد في الأمم ووجد في هذه الأمة.

ومنها: التحيل على محارم الله؛ فقد وجد في الأمم السابقة ووجد في هذه الأمة.

ومنها: إقامة الحدود على الضعفاء ورفعها عن الشرفاء؛ فقد وجد في الأمم السابقة

ووجد في هذه الأمة.

ومنها: تحريف كلام الله عن مواضعه لفظاً ومعنى؛ كاليهود حين قيل لهم: ﴿ادْخُلُوا
الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً﴾، فدخلوا على قفاهم، وقالوا: حنطة ولم يقولوا حِطَّةً، ووجد
في هذه الأمة من فعل كذلك؛ فحرف لفظ الاستواء إلى الاستيلاء، قال تعالى:
﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، وقالوا هم: الرحمن على العرش استولى.

قال ابن القيم: إنَّ اللام في استولى مزيدة زادها أهل التحريف كما زاد اليهود النون
في (حنطة) فقالوا: (حنطة).

نون اليهود ولام جهمي هما في وحى رب العرش زائدتان
أمر اليهود بأن يقولوا حِطَّةً فأبوا وقالوا حنطة لهوان
وكذلك الجهمي قيل له استوى فأبى وزاد الحرف للنقصان

ووجد في الأمم السابقة من اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، ووجد في
هذه الأمة من يعارض قول النبي ﷺ بقول شيخه.

فإذا تأملت كلام النبي ﷺ وجدته مطابقاً للواقع: «لتبعن سنن من كان قبلكم». اهـ.

● صور من متابعة المسلمين لليهود

[قلت]: وسب اليهود الملائكة وعادوهم قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ
نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ الآية ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِاثًا﴾ ومنا من قال:
ياكلون أرز ولبن مع الملائكة وأيضاً يصف عشيقته كأنها ملك أو مثل الملائكة، وظهر
من كذلك ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ وظهر منا كذلك وظهر منهم من يؤمن
ببعض الكتاب ويكفر ببعض، وظهر منا من يفعل ذلك ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ
كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وظهر منا من يقل أيضاً من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن
أشرك، فرد الله على ذلك ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

وظهر منهم الفرق والأحزاب، وظهر منا يفعل ذلك، وظهر منهم من يدحض ما مع
المخالف من حق وباطل، وظهر منا من يفعل ذلك.

وظهر منهم من يتهم أشرف الناس بأحط الأعمال، وظهر منا من يفعل ذلك نسأل
الله السلامة والعافية والمعافة^(١).

(١) وانظر مقدمتنا في شرح «حلية طالب العلم» يسر الله طبعها.

قوله: [حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه].

قال ابن حجر^(١): (جحر) بضم الجيم وسكون المهملة، و(الضب) الحيوان المعروف أهـ.

قلت: وهو حيوان يشبه الفأرة إلا أن أسنانه الأمامية مرتفعة ويقال لكل من ارتفعت أسنانه كذلك «ضب» أو فلان له ضب أهـ.

وتابع سليمان آل الشيخ^(٢) ابن حجر على ذلك.

وقال ابن عثيمين^(٣): هذه الجملة تأكيد منه ﷺ للمتابعة. وجحر الضب من أصغر الجحور، ولو دخلوا جحر أسد من باب أولى أن ندخله؛ فالنبي ﷺ قال ذلك على سبيل المبالغة، كقوله ﷺ: «من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوّقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين»^(٤) ومن اقتطع ذراعاً؛ فمن باب أولى أهـ.

- ثم ذكر سليمان آل الشيخ الأحاديث الشاهدة لهذا المعنى:-

فقال: ففي حديث آخر: «حَتَّى لَوْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عُلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمْتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ»^(٥).

وفي حديث آخر: «حَتَّى لَوْ أَحَدَهُمْ جَامَعَ امْرَأَتُهُ فِي الطَّرِيقِ لَفَعَلْتُمُوهُ»^(٦) صحت بذلك الأحاديث، فأخبر أن: أمته ستفعل ما فعلته اليهود والنصارى وفارس من الأديان والعادات والاختلاف.

قال شيخ الإسلام: هذا خرج مخرج الخبر والذم لمن يفعله كما كان يخبر عما يكون بين يدي الساعة من الأشرار والأمور المحرمة أهـ.

قال ابن عثيمين^(٧): لكن يبقى النظر: هل هذا الحديث للتحذير أو للإقرار؟

الجواب: لاشك أنه للتحذير وليس للإقرار؛ فلا يقول أحد: سأحسد وسأكل الربا، وسأعتدي على الخلق؛ لأنَّ الرسول ﷺ قال ذلك، فمن قال ذلك؛ فإننا نقول له: أخطأت؛ لأن قول النبي ﷺ لاشك أنه للتحذير، ولهذا قال الصحابة: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟

(١) فتح الباري (٣/٣١٣). (٢) تيسير العزيز الحميد (٢٧٠). (٣) القول المفيد (١/٦٠٢).

(٤) أخرجه. الترمذی (٢٦٤١) واستغفريه. (٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤/٤٥٥). (٧) القول المفيد (١/٦٠٠، ٦٠١).

ثم نقول لهم أيضاً: إِنَّ الرسول ﷺ أخبر بأشياء ستقع، ومع ذلك أخبر بأنها حرام بنص القرآن.

فمن ذلك أنه أخبر أنه الرجل يكرم زوجته ويعق أمه، وأخبر أن الإنسان يعصى أباه ويذنب صديقه، وهذا ليس بجائز بنص القرآن، لكن قصد التحذير من هذا العمل.

ووجد في الأمم السابقة من يقول للمؤمنين: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ، ووجد في هذه الأمة من يقول للمؤمنين: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَرَجَعِيُونَ.

فالمعاصي لها أصل في الأمم على حسب ماسبق، ولكن من وفقه الله للهداية اهتدى. والحاصل: أَنَّك لاتكاد تجد معصية في هذه الأمة إلا وجد لها أصل في الأمم السابقة.

ولاتجد معصية في الأمم السابقة إلا وجدت لها وارثاً في هذه الأمة أهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(١): وقال غيره: وجمع ذلك أن كفر اليهود أشد من جهة عدم العمل بعلمهم فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه عملاً ولا قولاً، وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون ما لا يعلمون، ففي هذه الأمة من يحذو حذو الفريقين. ولهذا كان السلف كسفيان بن عيينة يقولون: مَنْ قَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَقِيهِ شَبَّ الْيَهُودِ، وَمَنْ قَسَدَ مِنْ عِبَادِنَا فَقِيهِ شَبَّ مِنَ النَّصَارَى وقضاء الله نافذ بما أخبر به رسوله ﷺ بما سبق في علمه، لكن ليس الحديث إخباراً عن جميع الأمة لما تواتر عنه أنها لاتجتمع على ضلالة أهـ. وقد تقدم ذكر ذلك عن ابن عثيمين.

قوله: [قالوا يارسول الله اليهود والنصارى؟].

قال سليمان آل الشيخ^(٢): يرفع اليهود خبر مبتدأ محذوف، أى: أهم اليهود والنصارى الذين نتبع سنتهم؟ وقوله: قال: «فمن؟» استفهام إنكار. أى: فمن هم غير أولئك؟ ثم إنه فسر هنا باليهود والنصارى. وفي رواية أبي هريرة في البخارى بفارس والروم ولا تعارض.

كما سيأتى في حل هذا التعارض من كلام ابن حجر الآتى قريباً.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «قالوا اليهود والنصارى» يجوز فيها وجهان:

الأول: نصب اليهود والنصارى على أنه مفعول لفعل محذوف تقديره: أتعنى اليهود والنصارى؟

(٢) عن تيسير العزيز الحميد (٢٧٠ و ٢٧١).

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٧٠).

(٣) القول المفيد (١/٦٠٢ - ٦٠٣).

.....
الثاني: الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أهم اليهود والنصارى؟
وعلى كل تقدير؛ فالجملة إنشائية لأنهم يسألون النبي ﷺ؛ فهي استفهامية،
والاستفهام من باب الإنشاء.

واليهود: أتباع موسى عليه الصلاة والسلام، وسمّوا يهوداً نسبة إلى يهوذا من أحفاد
إسحاق، أو لأنّهم هادوا إلى الله؛ أي: رجعوا إليه بالتوبة من عبادة العجل.
قلت: ويستدلّه بقوله تعالى: ﴿إنا هدنا إليك﴾.

والنصارى: هم أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام، وسمّوا بذلك نسبة إلى بلدة تسمى
الناصرة، وقيل: من النصر؛ كما قال تعالى ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾. أهـ.
قوله: [فمن؟!].

قال ابن حجر^(١): قوله: (قال فمن) هو استفهام إنكار والتقدير: فمن هم غير
أولئك أهـ.

ثم قال ابن حجر^(٢): وقد أخرج الطبراني من حديث المستورد بن شداد رفعه
«لا تترك هذه الأمة شيئاً من سنن الأولين حتى تأتية»^(٣) ووقع في حديث عبدالله بن عمرو
عند الشافعي بسند صحيح «تركبن سنة من كان قبلكم حلوها ومرها» قال ابن بطلال:
أعلم ﷺ أن أمته ستبعب المحدثات من الأمور والبدع والأهواء كما وقع للأمم قبلهم، وقد
أنذر في أحاديث كثيرة بأن الآخر شر، والساعة لا تقوم إلا على شرار الناس، وأن الدين
إنما يبقى قائماً عند خاصة من الناس. قلت: - ابن حجر - وقد وقع معظم ما أنذر به
ﷺ وسيقع بقية ذلك، وقال الكرمانى: حديث أبى هريرة مغاير لحديث أبى سعيد لأن
الأول فسر بفارس والروم، والثاني باليهود والنصارى، ولكن الروم نصارى وقد كان فى
الفارس يهود، أو ذكر ذلك على سبيل المثال لأنه قال فى السؤال كفارس انتهى. ويعكر
عليه جوابه ﷺ بقوله: «ومن الناس إلا أولئك» لأن ظاهرة الحصر فيهم، وقد أجاب عنه
الكرمانى بأن المراد حصر الناس المعهود من المتبوعين.

قلت - ابن حجر -: ووجهه أنه ﷺ لما بعث كان ملك البلاد منحصرأ فى الفرس
والروم وجميع من عداهم من الأمم من تحت أيديهم أو كلا شيء بالنسبة إليهم، فصح
الحصر بهذا الاعتبار، ويحتمل أن يكون الجواب اختلف بحسب المقام، فحيث قال فارس

(٢، ١) فتح البارى (١٣/ ٣١٤).

(٣) أخرجه الطبراني فى «الأوسط» (٣١٣) وفى إسناده ابن لهيعة.

والروم كان هناك قرينة تتعلق بالحكم بين الناس وسياسة الرعية، وحيث قيل اليهود والنصارى كان هناك قرينة تتعلق بأمور الديانات أصولها وفروعها، ومن ثم كان في الجواب عن الأول «ومن الناس إلا أولئك» وأما الجواب في الثاني بالإبهام فيؤيد الحمل المذكور وأنه كان هناك قرينة تتعلق بما ذكرت أهد.

● فوائد: - فيه ذم الرأي: قال ابن حجر (١):

واستدل ابن عبد البر في باب ذم القول بالرأي إذا كان على غير أصل بما أخرجه من جامع ابن وهب «أخبرني يحيى بن أيوب عن هشام بن عروة أنه سمع أباة يقول «لم يزل أمر بني إسرائيل مستقيماً حتى حدث فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم فأحدثوا فيهم القول بالرأي وأضلوا بني إسرائيل» (٢) قال: وكان أبي يقول «السنن السنن فإن السنن قوام الدين» (٣).

وعن ابن وهب أخبرني بكر بن مضر عن سمع ابن شهاب الزهري وهو يذكر ما وقع الناس فيه من الرأي وتركهم السنن، فقال: «إن اليهود والنصارى إنما انسلخوا من العلم الذي كان بأيديهم حين استقلوا الرأي وأخذوا فيه» (٤).

وأخرج ابن أبي خيثمة من طريق مكحول عن أنس: «قيل: يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في بني إسرائيل، إذا ظهر الإدهان في خياركم والفحش في شراركم، والملك في صغاركم، والفقه في رذالكم».

وفي مصنف قاسم ابن أصبغ بسند صحيح عن عمر «فساد الدين إذا جاء العلم من قبل الصغير استعصى عليه الكبير، وصلاح الناس إذا جاء العلم من قبل الكبير تابعه عليه الصغير» وذكر أبو عبيد أن المراد بالصغر في هذا صغر القدر لا السن والله أعلم

قال ابن عثيمين (٥):

● من فوائد الحديث:

١- ما أراده المؤلف بسياقه، وهو أن بعض هذه الأمة يعبد الاوثان؛ لأنه من سنن من قبلها، وقد أخبر ﷺ أننا ستبعهم.

(١) فتح الباري (١٣/٣١٤).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «بيان جامع العلم ونقله» (١٣٨/٢).

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر المصدر السابق.

(٥) القول المفيد ١/ ٦٠٣-٦٠٥.

٢- ويستفاد أيضاً من فحوى الكلام التحذير من متابعة من قبلنا فى معصية الله .
٣- أنه ينبغي معرفة ما كان عليه من كان قبلنا مما يجب الحذر منه لنحذره، وغالب ذلك - والله الحمد - موجود فى القرآن والسنة .

قلت: وكأنه يشير إلى أن من أراد فقه الواقع فمصدره الأول الكتاب والسنة ومن أعرض عنهما ولجأ إلى غيرها من الكتب فلا يهتدى . والله أعلم .

٤- استعظام هذا الأمر عند الصحابة؛ لقولهم اليهود والنصارى، فإن الاستفهام للاستعظام؛ أى: استعظام الأمر أن تتبع سنن من كان قبلنا بعد أن جاءنا الهدى مع النبى ﷺ .

٥- أنه كلما طال العهد بين الإنسان وبين الرسالة، فإنه يكون أبعد من الحق؛ لأنه أُخْبِرَ عن مستقبل ولم يُخْبَر عن الحاضر، ولأنَّ من سنن من قبلنا أنه لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٥) .

فإذا كان طول الأمد سبباً لقسوة القلب فيمن قبلنا؛ فسيكون فينا، ويشهد لذلك ما جاء فى «البخارى» من حديث أنس رضى الله عنه؛ أنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «لا يأتى على الناس زمان إلا وما بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم»^(١)، ومن تتبع أحوال هذه الأمة وجد الأمر كذلك، لكن يجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد؛ فحديث أنس رضى الله عنه حديث صحيح سنداً ومتناً؛ فالمتن ليس فيه شذوذ، والسند فى «البخارى»، والمراد به من حيث الجملة، ولذلك يوجد فى أتباع التابعين من هو خير من كثير من التابعين؛ فلا تيأسوا، فتقولوا: إذا لا يمكن أن يوجد فى زماننا هذا مثل ما سبق؛ لأننا نقول: إن مثل هذا الحديث يراد به الجملة، وإذا شتم أن يتضح الأمر؛ فانظروا إلى جنس الرجال وجنس النساء؛ أيهما خير؟

والجواب: جنس الرجال خير، قال تعالى: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ﴾، لكن يوجد

(٥) وقد أطلنا شرح الآية من حيث أسباب النزول وعلاقتها بالإيمان وغيره فى كتابنا «فقه الخطابة وزاد الخطيب» فى خطبة تجديد الإيمان . فيرجع إليها تمة للفائدة .

(١) سبق تخريجه .

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ زَوْى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مُشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَلِّغُ مُلْكُهَا مَا زَوْى لِي مِنْهَا،

فى النساء من هى خير من كثير من الرجال، فيجب أن نعرف الفرق بين الجملة والأفراد.

فإذا نظرنا إلى مجموع القرن كله نجد أن ما بعد القرن شر منه، لا باعتبار الأفراد ولا باعتبار مكان دون مكان؛ فقد تكون أمة فى بعض الجهات يرتفع الناس فيها من حسن إلى أحسن، كما لو نشأ فيها علماء نفع الله بهم؛ فإنهم يكونون أحسن ممن سبقهم. أما الصحابة؛ فلا أحد يساويهم فى فضل الصحبة، حتى أفرادهم لا يمكن لأحد من التابعين أن يساويهم فيها مهما بلغ من الفضل؛ لأنه لم يدرك الصحبة. مسألة: ما هى الحكمة من ابتلاء الأمة بهذا الأمر: «لتبعن سنن...» إلخ، وأن يكون فيها من كل مساوىء من سبقها؟

الجواب: الحكمة ليتبين بذلك كمال الدين؛ فإن الدين يعارض كل هذه الأخلاق، فإذا كان يعارضها دلّ على أن كل نقص فى الأمم السابقة، فإن هذه الشريعة جاءت بتكميله؛ لأن الأشياء لا تتبين إلا بضدها؛ كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء. اهـ.

وقال القرعاوى^(١): ذاكراً أيضاً لفوائد الحديث:-

- ١- بيان معجزة للنبي ﷺ حيث تحقق ما أخبر به.
 - ٢- توضيح الأشياء المعنوية بالأمثلة الحسية من أساليب التعليم فى الإسلام.
 - ٣- تحريم مشابهة أهل الكتاب وفارس والروم.
 - ٤- سؤال أهل العلم عما خفى حكمه أهـ.
- قلت: وفيه عدم جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة وهذا متقرر فى علم الأصول.



مناسبة الحديث للباب:

قال قرعاوى^(٢): حيث دلّ الحديث أن بعض هذه الأمة سيعبد الأوثان. قلت: وقوله: وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان.

قوله: [عن ثوبان].

(١) الجديد ٢١٣ و ٢١٤.

(٢) الجديد (٢١٧).

وَأَعْطَيْتُ الْكَتْزَيْنِ: الْأَخْمَرَ، وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لَأُمْنِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا
بِسَنَةِ بَعَامَةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ يَبْضَتَهُمْ، وَأَنْ
رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ وَإِنِّي أُعْطِيكَ لَأُمْنِكَ أَنْ
لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ بَعَامَةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ
يَبْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَأْطَارَهَا - أَوْ قَالَ مِنْ بَيْنِ أَقْطَارَهَا - حَتَّى يَكُونَ
بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(١).

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: عن ثوبان. هو ثوبان مولى النبي ﷺ صحبه
ولازمه ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة أربع وخمسين. أهـ.
قوله: [زوى لى].

قال الخطايبى^(٣): معناه قبضها وجمعها، يقال: انزوى الشيء إذا انقبض وتجمع
أهـ.

وقال سليمان آل الشيخ^(٤): قال التوربشتى: زويت الشيء جمعته وقبضته، يريد به
تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب وحاصله أن الله طوى له الأرض
وجعلها مجموعة كهية كف فى مرآة نظره.

وقال القرطبى: أى جمعها لى حتى أبصرت ما تملك أمتى من أقصى المشارق
والمغرب منها.

[قوله فرأيت].

قال سليمان آل الشيخ: وظاهر هذا اللفظ يقتضى أن الله تعالى قوى إدراك بصره،
ورفع عنه الموانع المعتادة فأدرك البعيد من موضعه كما أدرك بيت المقدس من مكة، وأخذ
يخبرهم عن آياته وهو ينظر إليه أهـ. وسيأتى مزيد شرح فى ذلك.

وقال ابن عثيمين: [فرأيت] أى بعينى، فهى رؤية عينية ويحتمل أن تكون رؤية
منامية. أهـ.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٢٨٨٩/٢٤٠/٩) والترمذى (٢١٧٥/٤٧١/٤).

عن ثوبان به.

وانظر «فتح المجيد» (ح ٤٤٨) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٧١).

(٣) عون المعبود (١١/٣٢٢).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٧١).

قوله: [مشارقتها ومغاربها].

قال سليمان آل الشيخ^(١): من أقصى المشرق والمغرب أهـ.

وقال ابن عثيمين^(٢): أى: أماكن الشرق والغرب منها.

وهل المراد هنا بالزوى أن الأرض جمعت، أو أن الرسول ﷺ قَوَّى نظره حتى رأى البعيد؟

الأقرب إلى ظاهر اللفظ: أن الأرض جمعت، لا أن بصره قوى حتى رأى البعيد.

وقال بعض العلماء: المراد قوة بصر النبي ﷺ: أن الله أعطاه قوة بصر حتى أبصر مشارق الأرض ومغاربها، لكن الأقرب الأول، ونحن إذا أردنا تقريب هذا الأمر نجد أن صورة الكرة الأرضية الآن مجموعة يشاهد الإنسان فيها مشارق الأرض ومغاربها؛ فالله على كل شيء قدير؛ فهو قادر على أن يجمع له ﷺ الأرض حتى تكون صغيرة فيدركها من مشارقتها إلى مغاربها.

● اعتراض وجوابه:

فإن قيل: هذا إن حمل على الواقع؛ فليس بموافق للواقع؛ لأنه لو حصرت الأرض بحيث يدركها بصر النبي ﷺ المجرد؛ فأين يذهب الناس والبحار والجبال والصحارى؟ والجواب: بأن هذا من الأمور الغيبية التى لا يجوز أن توردها عليها كيف ولم، بل نقول: إن الله على كل شيء قدير؛ إذ قوة الله - سبحانه - أعظم من قوتنا وأعظم من أن نحيط بها، ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم^(٣)؛ فلا يجوز أن نقول: كيف يجرى مجرى الدم؟ فالله أعلم بذلك.

وهذه المسائل التى لاندركها يجب التسليم المحض لها، ولهذا نقول فى باب الأسماء والصفات: تجرى على ظاهرها مع التنزيه عن التكيف والتمثيل، وهذا ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة أهـ.

قلت: «قوله وتحتمل أن تكون رؤية منامية»: هذا الإحتمال بعيد لأنه ﷺ قال فى الحديث نفسه «أنه دعا الله عزوجل» فلا يكون الدعاء إلا فى اليقظة على الراجح. وأنا أعيد وأكرر فى هذه النقطة كثيراً لأن الصوفية أستدلوا أستدلالات عجيبة على جواز

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٧١). (٢) القول المفيد (١/٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨).

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٧١٧١)، ومسلم فى السلام (١٤/١٥٥ - النووى) عن صفية به. وانظر «رياض الصالحين» (١٨٥٢ - بتخریجنا).

التصاوير ومشاهدة التلفاز والسينما بهذا الحديث وقالوا إن الله سبحانه وتعالى - ﴿تعالى الله عن ذلك علو كبيراً﴾ أتى بالأرض وزواها على شاشة تليفزيونية فالرسول ﷺ شاهد المشارق والمغارب من خلال الشاشة تليفزيونياً وسينمائياً.

ونحن نقول: - هذا الكلام يخالف فهم السلف للحديث وفهم الشراح حيث قالوا إن الرؤية حقيقية وبمعنى الرأس وأما مانراه في التلفاز فهي خيالات وصور وليست حقيقة. بدليل أنك قد ترى في التلفاز خدع سينمائية وليست حقيقة والحديث يدل على أنه رأى رؤية حقيقية بمعنى رأسه إما بقوة الإدراك أو تقريب البعيد وكلاهما ليس على الله بعزيز.

ثانياً: أن هذا الأمر فيه كرامة لرسول عليه السلام وفيه عظيم القدرة لله عزوجل وفيه معجزة من معجزاته وكون هذا الأمر على شاشة تلفزيونية لا تأباه! العقول السليمة فقط بل تأباه المعجزة والقدرة.

وإذن فما الفرق بين صنع الله لنبيه وصنع البشر للبشر؟! والله أعلم.

قوله: «وإن أمتي سيلغ ملكها ما زوى لى منها».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قال القرطبي: هذا الخبر وجد مخبره كما قاله، فكان ذلك من دلائل نبوته، وذلك أن ملك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى بحر طنجة، بالنون والجيم الذى هو متهى عمارة المغرب إلى أقصى المشرق، ما وراء خراسان والنهر وكثير من بلاد الهند والسند والصغد. ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال، ولذلك لم يفكر عليه السلام أنه أريه ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه. وقوله: زوى: يحتمل أن يكون مبنيًا للفاعل، وأن يكون مبنيًا للمفعول والأول أظهر أهـ.

قال النووي^(٢): فيه إشارة إلى أن ملك هذه الأمة يكون معظم امتداده فى جهتى المشرق والمغرب، وهكذا وقع، وأما فى جهتى الجنوب والشمال قليل بالنسبة إلى المشرق والمغرب أهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): معنى المراد بالأمة: أمة الإجابة التى آمنت بالرسول ﷺ سيلغ ملكها ما زوى للرسول ﷺ منها، وهذا هو الواقع؛ فإن ملك هذه الأمة اتسع من المشرق

(١) تيسير العزيز الحميد ١/ ٢٧٢.

(٢) شرح مسلم (٩/ ٢٤٢).

(٣) القول المفيد ١/ ٦٠٨.

ومن المغرب اتساعاً بالغاً، لكنه من الشمال والجنوب أقل بكثير، والأمة الإسلامية وصلت من المشرق إلى السند والهند وما وراء ذلك، ومن المغرب إلى ما وراء المحيط، وهذا يحقق ما رآه النبي ﷺ.

فائدة:

قال الخطابي: يتوهم بعض الناس أن (من) هاهنا معناها التبعية فيقول: كيف شرط هاهنا في أول الكلام الاستيعاب ورد آخره إلى التبعية، وليس ذلك على ما يقدرونه وإنما معناه التفصيل للجملة المتقدمة، والتفصيل لا يناقض الجملة ولا يبطل شيئاً منها، لكنه يأتي عليها شيئاً فشيئاً ويستوفيها جزءاً جزءاً. والمعنى أن الأرض زويت جملتها له مرة واحدة فأراها ثم يفتح له جزء جزء منها حتى يأتي عليها كلها فيكون هذا معنى التبعية فيها أهـ^(١).

قوله: «وَأُعْطِيَ الْكَتْرَيْنِ: الْأَحْمَرَ، وَالْأَبْيَضَ».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قال القرطبي: يعنى بهما كثر كسرى وهو ملك الفرس، وكثر قيصر وهو ملك الروم، وقصورهما وبلادهما. وقد دل على ذلك قوله عليه السلام حين أخبر عن كلاهما أهـ.

[قلت] قال النووي^(٣): الذهب والفضة، والمراد كثر كسرى وقيصر ملكى العراق والشام أهـ.

ثم ذكر سليمان آل الشيخ حديث «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفِقَنَّ كُنُوزَهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٤) وعبر بالأحمر عن كثر قيصر. لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كثر كسرى لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة. وقد ظهر ذلك ووجد كذلك في زمان الفتوح في إمارة عمر رضى الله عنه - فإنه سبق إليه تاج كسرى وحليته، وما كان في بيوت أمواله وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر لما فتحت بلاده. كذا قال في الغالب على كنوز كسرى وقيصر وعكس ذلك: التوربشتى والخلخالى. والأبيض والأحمر منصوبان على البذل أهـ.

(١) عون المعبود (١١/٣٢٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٧٢).

(٣) شرح مسلم (٩/٢٤١).

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٦١٨)، ومسلم فى الفتى (٩/٢٦٧/٧٥) عن أبى هريرة به.

قال ابن عثيمين^(١): وقوله: «أعطيت» هل هو ﷺ أعطيتها في حياته، أم بعد

موته؟

الجواب: بعد موته أعطيت أمته ذلك، لكن ما أعطيت أمته؛ فهو كالمعطى له؛ لأن امتداد ملك الأمة لا لأنها أمة عربية كما يقول الجهال، بل لأنها أمة إسلامية أخذت بما كان عليه الرسول ﷺ.

قلت: وقد تقدم في أول الكتاب أن خطاب الله تعالى للنبي على ثلاثة أنواع منها هذا النوع أنه يخاطبه ويكون المراد بها أمته دونه وارجع إلى تفسير قوله: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» الآية في أول الكتاب تجد ذلك.

قوله: (وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة).

قال سليمان آل الشيخ^(٢): هكذا ثبت في أصل المصنف بعامة بالباء وهي رواية صحيحة في أصل «مسلم» وفي بعض أصوله بسنة عامة بحذفها. قال القرطبي: وكأنها زائدة لأن عامة صفة لسنة فكانه قال: بسنة عامة.

ويعنى بالسنة: الجذب العام الذي يكون به الهلاك العام، ويسمى الجذب والقحط سنة ويجمع على سنين كما قال تعالى: «وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ» أي: بالجذب المتوالي أهد.

قال ابن عثيمين^(٣): السنة: الجذب والقحط، وهو يهلك ويدمر، قال ﷺ: «اللهم! اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»^(٤)، وقال تعالى: «وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ»، ويحتمل أن يكون المعنى بعام واحد؛ فتون(*) الباء للظرفية.

وعامة؛ أي: عموماً تعمهم أهد.

قوله: «وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد».

(١) [صحيح] القول المفيد (١/٦٠٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد ١/٢٧٢، ١/٢٧٣.

(٣) القول المفيد ١/٦٠٩.

(٤) تقدم من حديث أبي هريرة به.

(*) هكذا في المطبوع ولعلها [فتكون].

قال سليمان آل الشيخ^(١): قال بعضهم: أى إذا حكمت حكماً مبرماً فإنه نافذ لا يرد بشيء، ولا يقدر أحد على رده، بل كل جميع الخلق غضى عليهم الأقدار طوعاً وكرهاً كما قال النبي ﷺ: «لَا رَادَّ لِمَا قَضَيْتَ»^(٢) قلت: - يعنى سليمان آل الشيخ - الظاهر أنه سواء فى ذلك المبرم والمعلق، فالكل لا يرد فإن هذا إخبار عن عدم الرد لجنس القضاء، والنبي ﷺ سأل ذلك مطلقاً فأجيب بهذا واستجاب له دعاءه ما لم يوجد الشرط المقتضى لتسليط العدو، فإذا وجد ذلك وجد القضاء المعلق.

قال ابن عثيمين^(٣): اعلم أن قضاء الله نوعان:

(١) قضاء شرعى قد يُرد؛ فقد يرده الله ولا يقبلونه.

(٢) قضاء كونى لا يرد، ولا بد أن ينفذ.

وكلا القضاءين قضاء بالحق، وقد جمعهما قوله تعالى: «وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ».

ومثال القضاء الشرعى: قوله تعالى: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ»؛ لأنه لو كان كونياً؛ لكان كل الناس لا يعبدون إلا الله.

ومثال القضاء الكونى: قوله تعالى: «وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا»؛ لأنَّ الله تعالى لا يقضى شرعاً بالفساد، لكنه يقضى به كوناً وإن كان يكرهه سبحانه؛ فإنَّ الله لا يحب الفساد ولا المفسدين، لكنه يقضى بذلك لحكمة بالغة، كما قَسَمَ خلقه إلى مؤمن وكافر؛ لما يترتب على ذلك من المصالح العظيمة.

والمراد بالقضاء فى هذا الحديث: القضاء الكونى؛ فلا أحد يستطيع رده مهما كان من الكفر والفسوق؛ فقضاء الله نافذ على أكبر الناس عتواً واستكباراً، فقد نفذ على فرعون وأغرق بالماء الذى كان يقتخر به، وعلى طواغيت بنى آدم فأهلكهم الله ودمرهم.

وفى قوله: «إِذَا قَضَيْتَ قِضَاءً؛ فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ» من كمال سلطان الله وقدرته وربوبيته ما هو ظاهر؛ لأنه ما من ملك سوى الله إلا يمكن أن يرد ما قضى به.

واعلم أن قضاء الله كمشيئته بالحكمة؛ فهو لا يقضى قضاءً إلا والحكمة تقتضيه، كما

(١) تيسير العزيز الحميد ١/ ٢٧٣.

(٢) ذكره الحافظ فى «الفتح» (١١/ ٥٢١) ونسبه للطبرانى وحسن إسناده.

(٣) القول المفيد ١/ ٦١٠.

لا يشاء شيئاً إلا والحكمة تقضيته، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ فَيَبَيِّنُ أَنَّهُ لا يشاء شيئاً إلا عن علم وحكمة، وليس لمجرد المشيئة.

خلافاً لمن أنكر حكمة الله من الجهمية وغيرهم، فقالوا: إِنَّه لا يفعل الأشياء إلا لمجرد المشيئة، فجعلوا على زعمهم المخلوقين أكمل تصرفاً من الله؛ لأنَّ كل عاقل من المخلوقين لا يتصرّف إلا لحكمة، ولهذا كان الذى يتصرّف بسفه يحجر عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾.

فنحن نقول: إنَّ الله - جل وعلا - لا يفعل شيئاً ولا يحكم بشيء إلا لحكمة.

ولكن هل يلزم من الحكمة أن نحيط بها علماً؟

الجواب: لا يلزم؛ لأننا أقصر من أن نحيط علماً بِحِكَمِ الله كلها، صحيح أن بعض الأشياء نعرف حكمتها، لكن بعض الأشياء تعجز العقول عن إدراكها.

والمقصود من قوله: «إِذَا قُضِيَتْ قَضَاءٌ؛ فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ» بيان أن من الأشياء التى سألها النبى ﷺ ما لم يُعْطَها؛ لأنَّ الله قضى بعلمه وحكمته ذلك، ولا يمكن أن يَرُدَّ ما قضاه الله - عز وجل -.

والقضاء قد يتوقف على الدعاء، بل إن كل القضاء أو أكثر القضاء له أسباب؛ فدخل الجنة لا يمكن إلا بسبب يترتب دخول الجنة عليه، وهو الإيمان والعمل الصالح.

كذلك حصول المطلوب، قد يكون الله - عز وجل - منعه حتى نسال، لكن من الأشياء ما لا تقتضى الحكمة وجوده، وحينئذ يجازى الداعى بما هو أكمل، أو يؤخر له ويدخر له عند الله - عز وجل -، أو يصرف عنه من سوء ما هو أعظم، والدعاء إذا تمت فيه شروط القول ولم يُجَبْ؛ فإننا نجزم بأنَّه أدخِر له. اهـ. قلت: وقد تقدم صدر هذا الكلام عند قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الآية فى أول الكتاب.

قوله: [وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكم بسنة بعامة... إلخ].

قال سليمان آل الشيخ^(١): «حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً» أى حتى يوجد ذلك منهم فإن وجد، فإنه يسلط عليهم عدوهم من الكفار، فيستبيح جماعتهم وإمامهم ومعظمهم، لا كل الأمة، ثم أيضاً تكون العقابة لهذه الأمة إن رجعوا عما هم فيه من

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٧٤/٢٧٣)

الأسباب الموجبة للتسليط، وكذلك وقع، فإن هذه الأمة لما جعل بأسها بينها اقتتلوا فأهلك بعضهم بعضاً، وسبى بعضهم بعضاً، فلما فعلوا ذلك تفرقت جماعتهم واشتغل بعضهم ببعض عن جهاد العدو، واستولوا عليهم، كما وقع ذلك فى المائة السابعة، فى المشرق والمغرب، فاختلفت ملوك المشرق وتخاذلوا واستولى التتار على غالب أرض خراسان، وعلى العراق، وديار الروم، وقتلوا الخليفة والعلماء والملوك الكبار، وكذلك ملوك المغرب اختلقوا وتخاذلوا واستولت الإفرنج على جمع بلاد الأندلس والجزر القريبة منها، فهى فى أيديهم إلى اليوم، بل استولوا على كثير من بلدان الشام حتى استنقذها منهم صلاح الدين بن أيوب، وغيره أهد.

قال ابن عثيمين^(١) شارحاً كلام «تيسير العزيز الحميد»:

وقوله: «وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة» هذه واحدة.

والثانية: قوله: «أن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً».

وهذه الإجابة قيدت بقوله: «حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً» إذا وقع ذلك منهم؛ فقد يُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم؛ فكان إجابة الله لرسوله ﷺ فى الجملة الأولى بدون استثناء، وفى الجملة الثانية باستثناء «حتى يكون بعضهم...».

وهذه هى الحكمة من تقديم قوله: «إذا قضيت قضاءً؛ فإنه لا يُرد»؛ فصارت إجابة الله لرسوله ﷺ مقيدة.

ومن نعمة الله أن هذه الأمة لن تهلك بسنة بعامة أبداً؛ فكل من يدين بدين الرسول ﷺ؛ فإنه لن يهلك، وإن هلك قوم فى جهة بسنة؛ فإنه لا يهلك الآخرون.

فإذا صار بعضهم يقتل بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً؛ فإنه يُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، وهذا هو الواقع؛ فالأمة الإسلامية حين كانت أمة واحدة عوناً فى الحق ضد الباطل كانت أمة مهيبة، ولما تفرقت وصار بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً؛ سلط الله عليهم عدواً من سوى أنفسهم، وأعظم من سلط عليهم فيما أعلم التتار، فقد سلطوا على المسلمين تسليطاً لانظير له؛ فيقال: إنهم قتلوا فى بغداد وحدها أكثر من خمس مئة عالم فى يوم واحد، وهذا شئ عظيم، وقتلوا الخليفة، وجعلوا

(١) القول المفيد ١/ ٦١٣، ٦١٤.

الكتب الإسلامية جسراً على نهر دجلة يطؤونها بأقدامهم ويفسدونها، وكانوا يأتون إلى الحوامل ويقرنون بسطنهن ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهم فيقتلونهم، وهى حية تشاهد ثم تموت.

قال ابن الأثير فى «الكامل»: «لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها كارهاً لذكرها فأننا أقدم رجلاً وأوخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه نعى الإسلام والمسلمين؟! ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك؟! فىا ليت أُمى لم تلدنى! وباليتمى مت قبل هذا وكنت نسياً نسياً! إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ذلك لا يجدى...»، وذكر كلاماً طويلاً ووقائع مفرجة، ومن أراد مزيداً من ذلك؛ فليرجع إلى حوادث سنة ٦١٧ من الكتاب المذكور.

وفى الحديث دليل تحريم القتال بين المسلمين، وإهلاك بعضهم بعضاً، وسبى بعضهم بعضاً، وأنه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيتهم بين الناس وتخشاهم الأمم. اهـ.

ثم قال: وقوله: «أن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم». أى: لا يسلط عليهم عدواً، والعدو: ضد الولى، وهو: المَعَادَى المُبْغِضُ الحَاقِدُ، وأعداء المسلمين هنا: هم الكفار، ولهذا قال: «من سوى أنفسهم» اهـ (١).

قوله: «من سوى أنفسهم».

قال سليمان آل الشيخ: أى: من غيرهم يعنى الكفار اهـ.

قوله: «فيستبيح بيضتهم».

قال سليمان آل الشيخ (٢):

قال الجوهري: بيضة كل شىء حوزته، وبيضة القوم ساحتهم، وعلى هذا فيكون معنى الحديث: إن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم كل من بين أقطار الأرض، وهو جوانبها. وقيل: بيضتهم معظمهم وجماعتهم. قلت: - يعنى سليمان آل الشيخ - وهذا هو الظاهر، وأن الله تعالى لا يسلط الكفار على معظم المسلمين وجماعتهم وإمامهم ما داموا بضد هذه الأوصاف المذكورة فى قوله؛ حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً. فأما إذا وجدت هذه الأوصاف، فقد يسلط الكفار على جماعتهم ومعظمهم وإمامهم كما وقع اهـ.

(١) القول المفيد ١/ ٦٠٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ١/ ٢٧٣.

وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»، وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأُتَمَّةِ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ، لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِتْنًا مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ، ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» (١).

قال ابن عثيمين (٢): ومعنى: «يستبيح»: يستحل، والبيضة: ما يجعل على الرأس وقاية من السهام - وتقدم من قول سليمان آل الشيخ - والمراد: يظهرع ليهم ويغلبهم أهد.



قوله: [رواه البرقاني في صحيحه]:

قال سليمان آل الشيخ (٣): هو الحافظ الكبير، أبو بكر، أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمي الشافعي. ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة.

قال الخطيب: كان ثباً ورعاً، لم نر في شيوخنا أثبت منه، عارفاً بالفقه. كثير التصانيف، صنّف (مسنداً) ضمّنه ما اشتمل عليه (الصحيحان)، وجمع حديث الثوري، وحديث شعبة، وطائفة وكان حريصاً على طلب العلم منصرف الهمّة إليه. قلت: - يعني سليمان آل الشيخ - وهذا المسند الذي ذكره الخطيب هو صحيحه الذي عزا إليه المصنف أهد.

قال عبد الرحمن آل الشيخ (٤): وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه، بسنده إلى أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ، أَوْ قَالَ: إِنَّ رَبِّي زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زَوَى لِي مِنْهَا، وَأَعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ: الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بَسَنَةٌ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٨/٥) وأبو داود (٤٢٥٢/٩٥/٤) وابن ماجه (١٣٠٤/٢) (٣٩٥٢) والحاكم (٤٤٩/٤).

من طريق أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان بنحوه.

(٢) القول المفيد ٦٠٩/١. (٣) تيسير العزيز الحميد (٢٧٤).

(٤) فتح المجيد (٤٤٨/١ - ٤٥٠).

عامة، ولا يسلط عليها عدوٌّ من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال لى: يا محمد إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرى، ولا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها - أو قال: بأقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وحتى يكون بعضهم يسبى بعضاً، وإنما أخافُ على أمتي الأئمة المضلين. وإذا وضع السيف فى أمتي لم يرتفع عنها إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان. وإنه سيكون فى أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبيَّ بعدى، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق - قال ابن عيسى: ظاهرين، ثم اتفقوا - لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله».

وروى أبو داود أيضاً، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «تدورُ رَحَى الإسلامِ لخمس وثلاثين، أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين، فإن يهلكوا فسيلٌ من هلك، وإن يبق لهم دينهم يقر سبعين عاماً»، قال: قلتُ: مما بقى أو مما مضى؟ قال: «نما مضى»^(١).

وروى فى (سننه) أيضاً، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يتقاربُ الزمانُ وينقصُ العلمُ، وتظهرُ الفتنُ، ويُلْقَى الشُّعْ، ويكثرُ الهرجُ» قيل: يا رسول الله، آيةُ هو؟ قال: «القتلُ القتلُ»^(٢).

قوله: [وإنما أخاف عيكم الأئمة المضلين].

قال سليمان آل الشيخ^(٣): أى الأمراء والعلماء والعباد، الذين يقتدى بهم الناس، ويحكمون فيهم بغير علم فيضلون ويضلون، فهم ضالون عن الحق مضلون لغيرهم، كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾^(٦) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا^(٦) ولشدة الضرورة إلى اتباع

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٤). وانظر تخريجنا «فتح المجيد» (ح ٤٥٣).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٠٦١) ومسلم (٤٧٥/٨) وأبو داود (٤٢٥٥) وانظر تخريجنا فتح

المجيد (ح ٤٥٤).

(٤) الأعراف/ ٣٨.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٧٤ - ٢٧٧).

(٦) الكهف/ ١٠٤.

(٥) الأحزاب/ ٦٧.

أئمة الهدى ومعرفتهم، والتفريق بينهم وبين أئمة الضلال المغضوب عليهم والضالين. أمرنا الله أن نسأله الهداية إلى سلوك صراط أئمة الهدى وهم المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يعملون به، ولا الضالين الذين يعملون على غير شرع من الله، بل بما تهوى أنفسهم. فصراط المنعم عليهم هو الجامع بين العلم بالهدى والعمل به، وقد وصف النبي ﷺ أئمة الهدى لما ذكر التفريق من بعده، بأنهم الذين كانوا على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، كما رواه أبو داود وغيره. فمن كان على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فهو من الأئمة المهديين، ومن خالفهم فهو من الضالين، كالذى يقول لأصحابه من كانت له حاجة فليأت إلى قبري فإني أقضيها له، ولاخير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب، أو نحو هذا كالذى يدعى أنه يخلص أصحابه ومريديه من النار، وأنه يحفظ الناس ويكلأهم إذا اعتقدوه، ويضر بهم إذا كفروا به وحاربوه. ويدعى أن ذلك من كرامته. وكالذى يمشى في الأسواق عرياناً ولا يشهد بصلاة ولا ذكر الله علماً بل يعيب علماء الشرع، ويغمزهم ويسميهم أهل علم الظاهر ويدعى أنه صاحب علم الباطن، وربما يدعى أنه يسعه الخروج من شريعة محمد ﷺ، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام، ونحو ذلك من الكفر والهذيان. وكالذى يدعى أن العبد يصل مع الله إلى حال تسقط عنه التكاليف، أو يدعى أن الأولياء يدعون ويستغاث بهم في حياتهم ومماتهم، وأنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة، أو أنه يطلع على اللوح المحفوظ، ويعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم، أو يجوز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين، وإيقادها بالسرج والشموع، وكسوتها بالحرير والديباج والفرش النفيسة أو يدعى أن من عمل بالقرآن والسنة في أصول الدين وفروعه فقد ضل وأضل وابتدع، أو أن ظواهر القرآن في آيات الصفات تشبيه وتمثيل، وأن الهدى لا يؤخذ منه في هذا الباب ولا في غيره، وإنما يؤخذ من الشبهات الوهمية التي يسميها بزعمه براهين عقلية. فكل هؤلاء وأشباههم من أئمة الضلال الذين خاف النبي ﷺ على أمته وحذر منهم والضابط في الفرق بين أئمة المتقين وبين الأئمة المضلين قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (١) فافهم عن ربك وكن على بصيرة، ولا يغرك جلالة شخص أو عظمتة في النفوس. فربك أعظم واتباعك لكلامه وكلام رسول الله ﷺ هو الفرض، والعصمة منتفية عن غير الرسول، وربك أدرى بما في

(١) آل عمران، الآيات ٣١، ٣٢.

الضمائر؛ فرب من تعتقده إمام هدى ليس كذلك، وقد قال تعالى لنبية ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١) فكل من أتى بشيء يخالف ما جاء عن الله وعن رسوله، فهو من أهواء الذين لا يعلمون، ومن لم يستجب للرسول ﷺ فإنما يتبع هواه. قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

وعن زياد بن حدير قال: قال لى عمر: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا. قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين (٢). رواه الدارمي.

وقال يزيد بن عميرة: كان معاذ بن جبل لا يجلس مجلساً للذكر إلا قال حين يجلس: الله حكم قسط هلك المرتابون... الحديث. وفيه: واحذروا زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق. قلت لمعاذ: ما يدرينى رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟ قال لى: اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التى يقال: ما هذه ولايتيك ذلك عنه، فإنه لعله يراجع الحق، وتلق الحق إذا سمعته فإن على الحق نورا (٣). رواه أبو داود وغيره وما أحسن ما قال ابن المبارك رضى الله عنه:

وهل أفسد الدين إلا الملو ك وأخبار سوء ورهبانها. أهـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ (٤): وهذا هو الضلال البعيد؛ يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله، ويسألوه ما لا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم، وتفريج كرباتهم، وقد قال تعالى: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٢) يدعو

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٨.

(٢) أخرجه الدارمي في «سننه» (٧١/١).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦/١).

(٤) فتح المجيد ٤٥٠، ٤٥١.

لَمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ»^(١) وقال تعالى: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا»^(٢) وقال تعالى: «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»^(٣) وأمثال هذا في القرآن كثير، يُبينُ تعالى الهدى من الضلال.

ومن هذا الضرب: مَنْ يدعى أنه يصلُّ مع الله إلى حال تسقط عنهم التكاليف، أو يدعى أن الأولياء يُدعون أو يستغاث بهم في حياتهم ومماتهم. وأنهم ينفعون ويضرُّون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة، أو أنه يطلع على اللوح المحفوظ، ويعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم.

أو يُجَوِّزُ بناء المساجد على قبور الأولياء والصالحين، وإيقادها بالسرَّج، ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله. فما أكثر هذا الهذيان والكفر، والمحادة لله وكتابه ورسوله.

وقوله ﷺ: «وإنما أخافُ على أمتي الأئمة المضلين» أتى بليغاً، التي قد تأتي للحرص؛ بياناً لشدة خوفه على أئمة من أئمة الضلال. وما وقع في حَلَدِ النبي ﷺ من ذلك، إلا لما أطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقعُ نظير ما في الحديث قبله من قوله: «لتبعن سنن من كان قبلكم» الحديث^(٤).

وقد بيَّن الله تعالى في كتابه صراطه المستقيم، الذي هو سبيل المؤمنين. فكلُّ من أحدثَ حدثاً ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ فهو ملعونٌ، وحديثه مردود؛ كما قال ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحَدِّثًا فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبلُ الله منه يوم القيامةُ صرفاً ولا عدلاً»^(٥).

وقال: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(٦).

وقال «كُلُّ مُحَدِّثَةٍ بِدْعَةٍ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٧).

(١) الحج: ١٢ - ١٣.

(٢) الفرقان: ٣.

(٣) العنكبوت: ١٧.

(٤) تقدم.

(٥) [صحيح] أخرجه البخاري (١٨٧)، مسلم (١٤٨/٥) وانظر «فتح المجيد» (٤٥٦ - بتخريجنا).

(٦) [صحيح] أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٢/ح) وانظر «فتح المجيد» (٤٥٧ - بتخريجنا).

(٧) أخرجه أحمد (١٢٦/٤، ١٢٧) وانظر «فتح المجيد» (٤٥٨ - بتخريجنا).

وهذه أحاديثٌ صحيحةٌ، ومدارُ أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها. وقد بينَّ الله تعالى هذا الأصلَ في مواضع من كتابه العزيز، كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (١) وقال ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنكَ مَنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ الآية (٢) ونظائرُها في القرآن كثيرة. اهـ.

قال ابن عثيمين (٣): قوله: «إنما أخاف من أمتي الأئمة المضلين».

بين الرسول ﷺ أنه لا يخاف على الأمة إلا الأئمة المضلين.

والأئمة: جمع إمام، والإمام قد يكون إماماً في الخير أو الشر، قال تعالى في أئمة الخير: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

وقال تعالى عن آل فرعون أئمة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

والذي في حديث الباب: «الأئمة المضلين»، أئمة الشر، وصدق النبي ﷺ، إنَّ أعظم ما يُخاف على الأمة الأئمة المضلون؛ كرؤساء الجهمية والمعتزلة وغيرهم الذين تفرقت الأمة بسببهم.

والمراد بقوله: «الأئمة المضلين»: الذين يقودون الناس باسم الشرع، والذين يأخذون الناس بالقهر والسلطان؛ فيشمل الحكام الفاسدين، والعلماء المضلين، الذين يدعون أنَّ ما هم عليه شرع الله، وهم أشدُّ الناس عداوةً لهم.

قال الإمام أحمد - رحمه الله - : لو كان لى دعوة مستجابة؛ لصرفتها للسلطان؛ فإنَّ بصلاحه صلاح الأمة.

[قلت]: وما يؤدى هذا المعنى من التحذير من الأئمة المضلين، وأئمة الضلال فى القرآن الكريم، وأنهم إذا فسدوا فسد بفسادهم الناس. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

قال ابن كثير (٤): والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال كما قال سفيان

(٢) الجاثية: ١٨ - ١٩.

(١) الأعراف: ٢

(٣) القول المفيد (١/ ٦١٤ - ٦١٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٨).

ابن عينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى. وفي الحديث الصحيح «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة» قالوا اليهود والنصارى؟ قال «فمن؟» وفي رواية فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا هؤلاء؟»^(١) والحاصل التحذير من التشبه بهم فى أقوالهم وأحوالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم فى الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأجبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تحيى إليهم فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها وعوضهم الذل والصغار وباؤوا بغضب من الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ويلبسون الحق بالباطل ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعونه إلى الخير وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية، هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك.

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأجبار سوء ورهبانها اهـ.

ومن الأحاديث: حديث حذيفة فى الفتن وفيه: «دعاة على أبواب جهنم من أجا بهم إليها قذفوه فيها» وفى روايات أخرى «دعاة يهدون بغير هدى ويستنون بغير ستنى»^(٢).

وحديث: «غير الدجال أخوف منى عليكم الأئمة المضلين»^(٣).

وفى هذا الباب أحاديث كثيرة. والله المستعان.

قوله: «وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): أى: إذا وقعت الفتنة والقتال بينهم بقى إلى يوم القيامة، وكذلك وقع. فإن السيف لما وضع فيهم بقتل عثمان رضى الله عنه لم يرتفع

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفتن (١١٠/٢٨٩/٩) عن الثوراس بن سميان.

(٤) تيسير العزيز الحميد ١/٢٧٦.

إلى اليوم، وكذلك يكون إلى يوم القيامة. ولكن يكثر تارة ويقل أخرى، ويكون في جهة ويرتفع عن أخرى.

قوله: «وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ».

قال سليمان ابن عبدالله^(١): الحى واحد الأحياء، وهى القبائل. وفى رواية أبى داود: «وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ قِبَائِلٌ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ» والمعنى أنهم ينزلون معهم فى ديارهم، ويصيرون منهم بالردة ونحوها.

قال ابن عثيمين^(٢): وأما الحى؛ فالظاهر أن المراد به الجنس، وليس واحد الأحياء، وإن قيل: إن المراد واحد الأحياء؛ فلا بد أن يكون لهذا الحى أثره وقيمته فى الأمة الإسلامية، بحيث يتبين ويظهر، وربما يكون لهذا الحى إمام يزيغ - والعياذ بالله - ويفسد؛ فيتبعه كل الحى، ويتبين ويظهر أمره.

والحى: بمعنى القبيلة.

وهل المراد باللحوق هنا اللحوق البدنى، بمعنى أنه يذهب هذا الحى إلى المشركين ويدخلون فيهم، أو اللحوق الحكيمى، بمعنى أن يعملوا بعمل المشركين، أو الأمران معاً؟ الظاهر أن المراد جميع ذلك. اهـ.

قوله: «وَحَتَّى تَعْبُدَ قَتَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانُ».

قال سليمان آل الشيخ^(٣): القَتَام - مهموز - الجماعات الكثيرة. قاله أبو السعادات،

وفى رواية أبى داود: «وَحَتَّى تَعْبُدَ قِبَائِلٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانُ» ومعناه ظاهر.

وهذا هو شاهد الترجمة، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور الذين يتكبرون وقوع الشرك، وعبادة الأوثان فى هذه الأمة، وفى معنى هذا ما فى «الضحيجين»:

عن أبى هريرة مرفوعاً: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرَّبَ أَلْيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الْخَلْصَةِ»^(٤) قال: وذو الخلصة طاغية دوس التى كانوا يعبدون فى الجاهلية. وروى ابن حبان عن معمر قال: إن عليه الآن بيتاً مبنياً مغلقاً.

وفى «صحيح مسلم» عن عائشة مرفوعاً: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ

(١) تيسير العزيز الحميد ١/ ٢٧٦.

(٢) القول المفيد ١/ ٦١٥، ٦١٦.

(٣) تيسير العزيز الحميد ١/ ٢٧٦، ٢٧٧.

(٤) تقدم تخريجه.

وَالْعَزَّى^(١) وقيل: إن القبر المنسوب إلى ابن عباس بالطائف إنه قبر اللات، وكانوا يعبدونه، ويطوفون به ويقربون إليه القرابين وينذرون له النذور ويسألونه قضاء حاجتهم وتفريج كربتهم.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): قال العلامة ابن القيم - فى قصة هدم اللات لما أسلمت ثقيف -: فيه أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها، يوماً واحداً.

وكذلك حكمُ المشاهد التى بُنيت على القبور، والتى اتُخذت أوثاناً تعبدُ من دون الله. والأحجار التى تُقصد للشرك والنذر، لايجوز إبقاء شىء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها. وكثيرٌ منها بمنزلة اللات والعزى ومناة، وأعظم شركاً عندها وبها. فاتَّبِعْ هولاء سنن من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة، وغلب الشرك على أكثر النفوس؛ لظهور الجهل وخفاء العلم. فصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة. وطُمست الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، وقلَّ العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشتدَّ البأس، وظهر الفسادُ فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس.

ولكن لاتزال طائفةٌ من العصابة المحمّدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. انتهى ملخصاً. قلتُ: - يعنى عبدالرحمن آل الشيخ - فإذا كان هذا فى القرن السابع وقبله، فما بعده أعظمُ فساداً [كما هو الواقع].

قلت: وفى القرنين العشرين والحادى والعشرين من الفساد وما هو أعظم.

قال ابن عثيمين^(٣): الفناء؛ أى: الجماعات، وهذا وقع؛ ففى كل جهة من جهات المسلمين من يعبدون القبور ويعظمون أصحابها ويسألونهم الحاجات والرغبات ويلتجئون إليهم، وفناء؛ أى: ليسوا أحياء؛ فقد يكون بعضهم من قبيلة، والبعض الآخر من قبيلة؛ فيجتمعون.

قوله: «وإنه سيكون فى أمتى كذابون، ثلاثون».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): كلهم يزعم أنه نبي. قال القرطبي: وقد جاء عددهم معيناً فى حديث. حذيفة قال:

(١) تقدم تخريجه. (٢) فتح المجيد ١/ ٤٥٤، ٤٥٥.

(٣) القول المفيد ١/ ٦١٦.

(٤) تيسير العزيز الحميد ١/ ٦٧٧ : ٦٧٨.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَابُونَ دَجَالُونَ سَبْعٌ وَعَشْرُونَ، مِنْهُمْ أَرْبَعُ نُسُوءٍ» (١) أخرجه أبو نعيم وقال: هذا حديث غريب تفرد به معاوية بن هشام قلت: - يعنى عبدالرحمن آل الشيخ - حديث ثوبان أصح من هذا قال القاضي عياض: عدد من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك، وعرف واتبعه جماعة على ضلالتهم، فوجد هذا العدد فيهم ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا.

وقال ابن حجر: قد ظهر مصداق ذلك في زمن النبي ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسى باليمن، ثم خرج في خلافة أبي بكر طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمه، وسجاح التميمية في بني تميم، وقتله الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ، وقتل مسيلمة الكذاب في خلافة أبي بكر رضى الله عنه، وتاب طليحة ومات على الإسلام على الصحيح في زمن عمر رضى الله عنه. ويقال: إن سجاح تاب أيضاً، ثم خرج المختار بن أبى عبيد الثقفى وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير فأظهر محبة أهل البيت، ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين فاتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك، أو أعان عليه فأحبه الناس ثم إنه زين له الشيطان أن يدعى النبوة، وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه؛ ومنهم الحارث الكذاب خرج في خلافة عبدالملك بن مروان فقتل، وخرج في خلافة بنى العباس جماعة. وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم ينشأ عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكة، وبدت له شبهة. كمن وصفنا. وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك وبقي منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر أ.هـ.

قال ابن عثيمين (٢): قوله: «وإنه سيكون من أمتي كذابون ثلاثون».

حصرهم النبي ﷺ بعدد، وكلهم يزعم أنه نبي أوحى إليه، وهم كذابون؛ لأن النبي ﷺ خاتم النبيين ولأنبى بعده، فمن زعم أنه نبي بعد الرسول ﷺ؛ فهو كاذب كافر حلال الدم والمال، ومن صدقه في ذلك؛ فهو كافر حلال الدم والمال، وليس من المسلمين ولا من أمة محمد ﷺ، ومن زعم أنه أفضل من محمد، وأنه يتلقى من الله مباشرة ومحمد ﷺ يتلقى منه بواسطة الملك؛ فهو كاذب كافر حلال الدم والمال أ.هـ.

قوله: «وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ».

قال سليمان آل الشيخ (٣): قوله: «وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ» الخاتم - بفتح التاء - بمعنى

(١) أخرجه أحمد (٣٩٦/٥) وانظر «فتح المجيد» (٤٦٥) - بتخریجنا).

(٢) القول المفيد ١/٦١٦، ٦١٧.

(٣) تبصير العزيز الحميد / ٢٧٨.

الطابع، وبكسرها بمعنى فاعل الطبع والختم. قال الحسن: خاتم الذي ختم به؛ أى: آخر النبيين، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وإنما ينزل عيسى بن مريم عليه السلام فى آخر الزمان حاكماً بشريعة محمد ﷺ، مصلياً إلى قبلته، فهو كآحاد أمته.

كما قال النبى ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَيَنْزِلَنَّ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُّقْسِطًا، فَلْيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَلْيَقْتُلَنَّ الْخَنَزِيرَ، وَلْيَضَعَنَّ الْجِزْيَةَ»^(١).

قال ابن عثيمين^(٢): أى: آخرهم، وأكد ذلك بقوله: «لانى بعدى»، فإن قيل: ما الجواب عما ثبت فى نزول عيسى بن مريم فى آخر الزمان، مع أنه نبى ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام؛ فالجواب: إن نبوته سابقة لنبوة محمد ﷺ، وأما كونه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام؛ فليس تشريعاً جديداً ينسخ قبول الجزية، بل هو تشريع من محمد ﷺ؛ لأنه أخبر به مقررأ له.

قوله: [لاتزال طائفة من أمتى على الحق منصوره لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم].

قال ابن حجر فى «الفتح»^(٣): قال النووى: فيه أن الإجماع حجة، ثم قال: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقهه، ومحدث، ومفسر وقائم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وزاهد، وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين فى بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم فى قطر واحد، وافتراقهم فى أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا فى البلد الواحد وأن يكونوا فى بعض منه دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولاً فاولاً إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله انتهى كلامه ملخصاً مع زيادة فيه أهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قوله: «ولاتزال طائفة من أمتى على الحق منصوره لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم» قال يزيد بن هارون، وأحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدرى من هم. وكذلك قال أنهم أهل الحديث عبدالله بن المبارك، وعلى بن المدنى، وأحمد بن سنان والبخارى وغيرهم. وقال ابن المدنى فى رواية: هم العرب واستدل برواية من روى هم أهل الغرب، وفسر الغرب بالدلو العظيمة لأن العرب هم الذين يستقون بها.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٢٢٢)، ومسلم (١٨٩/٢) وانظر «فتح المجيد» (٤٦٧).

(٢) القول المفيد ٦١٧/١.

(٣) فتح البارى (٣٠٨/١٣).

(٤) تيسير العزيز الحميد ٢٧٨، ٢٧٩.

قلت - سليمان - : ولا تعارض بين القولين، إذ يمتنع أن تكون الطائفة المنصورة لاتعرف الحديث، ولاسن رسول الله ﷺ بل لا يكون منصوراً على الحق إلا من عمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهم أهل الحديث من العرب وغيرهم، فإن قيل: فلم خصه بالعرب؟ قيل: المراد التمثيل لا الحصر، أى أن العرب إن استقاموا على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهم الطائفة المنصورة حال استقامتهم. قال القرطبي: وفيه دليل على أن الإجماع حجة، لأن الأمة إذا أجمعت فقد دخل فيه الطائفة المنصورة.

وقال المصنف: وفيه الآية العظيمة أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم. والبشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لاتزال عليه طائفة. اهـ.

وقال بنحوه عبدالرحمن آل الشيخ وابن عثيمين ثم قال الأخير^(١):

مسألة: قال بعض السلف: إن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث؛ فما مدى صحة هذا القول؟

فقال: الجواب: هذا ليس بصحيح على إطلاقه، بل لابد من التفصيل، فإن أريد بذلك أهل الحديث المصطلح عليه، الذين يأخذون الحديث رواية ودراية وأخرج منهم الفقهاء وعلماء التفسير وما أشبه ذلك؛ فهذا ليس بصحيح؛ لأن علماء التفسير والفقهاء الذين يتحررون البناء على الدليل هم فى الحقيقة من أهل الحديث، ولا يختص بأهل الحديث صناعة؛ لأن العلوم الشرعية: تفسير، وحديث، وفقه... إلخ.

فالمقصود: إن كل من تحاكم إلى الكتاب والسنة؛ فهو من أهل الحديث بالمعنى العام وأهل الحديث هم: كل يتحرى العمل بسنة رسول الله ﷺ؛ فيشمل الفقهاء الذين يتحررون العمل بالسنة، وإن لم يكونوا من أهل الحديث اصطلاحاً.

فشيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً لايعتبر اصطلاحاً من المحدثين، ومع ذلك؛ فهو رافع لراية الحديث.

والإمام أحمد - رحمه الله - تنازعه طائفتان: أهل الفقه قالوا: إنه فقيه، وأهل الحديث قالوا: إنه محدث.

وهو إمام فى الفقه والحديث والتفسير، ولاشك أن أقرب الناس تمسكاً بالحديث هم الذين يعتنون به.

ويُخشى من التعبير بأن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث أن يظن أنهم أهل الحديث الذين يعتنون به اصطلاحاً، فيخرج بذلك غيرهم.

(١) القول المفيد (١/٦١٩).

إذا قيل: أهل الحديث بالمعنى الأعم الذين يأخذون بالحديث، سواء انتسبوا إليه اصطلاحاً واعتنوا به أو لم يعتنوا، لكنهم أخذوا به؛ فيحتذّ يكون صحيحاً أ.هـ.

[قلت]: والأولى الجواب بما تقدم عن النووى فى معنى الطائفة المنصورة أنها بين فقيه؛ ومحدث، وزاهد وعابد... إلخ، أو أن هذا من باب التفسير بالمثال الذى يحتاج إليه العلماء للتوضيح غالباً وليس بذكر الحد المطابق للمحدود من كل الوجه، وهذا اختلاف تنوع لاتضاد، وعرفه ابن تيمية بقوله: هو أن يذكر كل واحد من المختلفين من الاسم العام بعض أفراده على سبيل المثال لا على سبيل ذكر الحد المطابق للمحدود. والله المستعان.

قوله: «لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ».

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ». خذلهم؛ أى: لم ينصرهم ويوافقهم على مآذبيهم إليه، وفى هذا دليل على أنه سيوجد من يخذلهم، لكنه لا يضرهم؛ لأنّ الأمور بيد الله، وقد قال ﷺ: «واعلم أنّ الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك»^(*)، وكذلك لا يضرهم من خالفهم؛ لأنّهم منصورون بنصر الله؛ فالله - عز وجل - إذا نصر أحداً فلن يستطيع أحد أن يخذله. أ.هـ.

قوله: [حتى يأتى أمر الله].

قال ابن حجر^(٢): المراد بأمر الله: هبوب تلك الرياح، وأن المراد بقيام الساعة: ساعتهم، وأن المراد بالذين يكونون بيت المقدس: الذين يحصرهم الدجال إذا خرج فينزل عيسى إليهم فيقتل الدجال، ويظهر الدين فى زمن عيسى، ثم بعد موت عيسى تهب الرياح المذكورة، فهذا هو المعتمد فى الجمع، والعلم عند الله تعالى أ.هـ.

[قلت]: أى الجمع بين حديث «حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون» وحديث «لا تقوم الساعة إلّا على شرار الناس».

قال سليمان آل الشيخ^(٣): قوله: «حتى يأتى أمر الله» الظاهر أن المراد بأمر الله ما روى من قبض من بقى من المؤمنين بالريح الطيبة، ووقوع الآيات العظام، ثم لا يبقى إلّا شرار الناس كما روى الحاكم.

وأصله فى «مسلم» عن عبدالرحمن بن شماس أن عبدالله بن عمرو قال: «لَا تَقُومُ

(*) تقدم تخريجه

(٣) تيسير العزيز الحميد ١/ ٢٧٩، ٢٨٠.

(١) القول المفيد (١/ ٦١٨).

(٢) فتح البارى (١٣/ ٣٠٧).

السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ، هُمْ شَرُّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهُ عَلَيْهِمْ لَا تَزَالُ عَصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ» فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ أَجَلٌ ثُمَّ: يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا كَرِيحِ الْمَسْكِ، مَسَّهَا مَسَّ الْحَرِيرِ، فَلَا تَتْرَكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِنْقَالٌ حَبَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ، عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ» (١).

وفى «صحيح مسلم» عن ابن مسعود مرفوعاً: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ» (٢).

وفى «صحيحه» أيضاً: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ اللَّهُ اللَّهُ» وذلك إنما يقع بعد طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة وسائر الآيات العظام (٣). وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك إذا انقطع تناثر الحرز بسرعة، رواه أحمد.

ويؤيده حديث عمران بن حصين مرفوعاً: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحُ الدَّجَالُ» رواه أبو داود والحاكم (٤). وعلى هذا فالمراد بقوله فى حديث عقبة وما أشبهه من الأحاديث «حتى تأتيهم الساعة» ساعتهم وهى وقت موتهم بهبوب الريح؛ ذكره الحافظ وهو المعتمد - وقد تقدم هذا الكلام بنصه فى الأبواب المتقدمة - وقد اختلف فى محل هذه الطائفة؛ فقال ابن بطال: إنها تكون ببيت المقدس حتى إلى أن تقوم الساعة.

كما روى الطبرانى من حديث أبى أمامة: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: «بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ» (٥).

وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه: «هم بالشام» (٦) وهذا قول أكثر الشارحين.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٧/٧٦)، والحاكم (٤/٤٥٦) وانظر «فتح المجيد» (٤٧١).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفتن (٩/٣١٤) عن ابن مسعود به.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم (١/٤٥٥) وانظر «فتح المجيد» (٤٧٢).

(٤) أخرج أبوداود (٢٤٨١)، والحاكم (٤/٤٥٠).

(٥) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٧٦٤٣) وانظر «فتح المجيد» (٤٧٣).

(٦) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٦٤١) وانظر «فتح المجيد».

وفى كلام الطبرى ما يدل على أنه لا يجب أن تكون فى الشام أو فى أول بيت المقدس دائماً إلى أن يقاتلوا الدجال، بل قد تكون فى موضع آخر، لكن لا تخلو الأرض منها حتى يأتى أمر الله. قلت: - يعنى سليمان آل الشيخ - رهذا هو الحق فإنه ليس فى الشام منذ أزمان أحد بهذه الصفات، بل ليس فيه إلا عباد القبور، وأهل الفسق وأنواع الفواحش والمنكرات، ويمتنع أن يكونوا هم الطائفة المنصورة، وأيضاً فهم منذ أزمان لا يقاتلون أحداً من أهل الكفر، وإنما بأسهم وقتالهم بينهم. وعلى هذا فقوله فى الحديث: هم ببيت المقدس: وقول معاذ: هم بالشام. المراد أنهم يكونون فيه بعض الأزمان دون بعض، وكذلك الواقع فدل على ما ذكرنا. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): ويشهد له الواقع، وحال أهل الشام وأهل بيت المقدس [فإنهم] من أزمنة طويلة لأ يعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه، فى القرن السابع وأول الثامن.

فإنهم على الحق يدعون إليه، ويناضون عليه، ويجاهدون فيه. وقد يحجى من أمثالهم بعد بالشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق والتمسك بالسنة، والله على كل شئ قدير.

ومما يؤيد هذا: أن أهل الحق والسنة فى زمن الأئمة الأربعة، وتوافر العلماء فى ذلك الزمان وقبلة وبعده، لم يكونوا فى محل واحد. بل هم فى غالب الأمصار: فى الشام منهم أئمة، وفى الحرمين، وفى مصر، وفى العراق، وفى اليمن. وكلهم على الحق يناضلون ويجاهدون أهل البدع، ولهم المصنفات التى صارت أعلاماً لأهل السنة، وحجة على كل مبتدع.

فعلى هذا: فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تفرق، وقد تكون فى الشام، وقد تكون فى غيره.

فإن حديث أبى أمامة، وقول معاذ، لا يفيد حصرها بالشام، وإنما يفيد أنها تكون فى الشام فى بعض الأزمان لا فى كلها. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): فى قوله [حتى يأتى أمر الله]: الكونى، وذلك عند قيام الساعة، عندما يأتى أمره سبحانه وتعالى بأن تقبض نفس كل مؤمن، حتى لا يبقى إلا شرار الخلق فعليهم تقوم الساعة. اهـ.

(١) فتح المجيد ١/ ٤٦٠، ٤٦١.

(٢) القول المفيد ١/ ٦١٩.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ.

تقدم هذا بشيء من التفصيل من كلام ابن حجر، وفيه هنا فائدة لذلك ذكرناه والله المستعان.

قوله: «تبارك وتعالى».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قال ابن القيم: البركة نوعان: أحدهما بركة وهي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة على تارة، وبأداة في تارة والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل كذلك فكان مباركاً بجعله تعالى. والنوع الثاني بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له عز وجل، فهو سبحانه المتبارك وعبدته ورسوله المبارك. كما قال المسيح عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك، وأما صفة تبارك فمختصة به كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أفلا تراها كيف أطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لاتطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة، كتعالى وتعظيم ونحوه، فجاءت تبارك على بناء تعالى الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمتها وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف تبارك تعظيم. وقال ابن عباس: جاء بكل بركة وأعلم أن هذا الحديث بجملته مما عد من الأدلة على الشهادتين فإن كل جملة منه وقعت كما أخبر بها ﷺ.

وتقدم هذا الكلام في باب من تبرك بشجر أوحجر بالتفصيل والله المستعان.



فيه مسائل:

● الأولى: تفسير آية النساء.

قال ابن عثيمين: وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، وقد سبق ذلك.

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٨٠، ٢٨١.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الْمَائِدَةِ .

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ.

الرابعة: وَهِيَ أَهْمُهَا: مَا مَعْنَى الْإِيمَانِ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ؟ هَلْ هُوَ اعْتِقَادُ قَلْبٍ ؟ أَوْ مُوَافَقَةُ أَصْحَابِهَا مَعَ بُغْضِهَا وَمَعْرِفَةُ بَطْلَانِهَا؟

الخامسة: قَوْلُهُمْ : إِنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ كُفْرَهُمْ أَهْدَى سَبِيلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

● الثانية: وهى قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾، وقد سبق تفسيرها.

والشاهد منها هنا قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

● الثالثة: تفسير آية الكهف.

يعنى: قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، وقد سبق بيان معناها.

● الرابعة - وهى أهمها -: ما معنى الإيمان بالجبوت والطاغوت؟ هل هو اعتقاد القلب، أو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

أما إيمان القلب واعتقاده؛ فهذا لاشك فى دخوله فى الآية.

وأما موافقة أصحابها فى العمل مع بغضها ومعرفة بطلانها؛ فهذا يحتاج إلى تفصيل، فإن كان وافق أصحابها بناءً على أنها صحيحة؛ فهذا كفر، وإن كان وافق أصحابها ولا يعتقد أنها صحيحة؛ فإنه لا يكفر، لكنه لاشك على خطر عظيم يخشى أن يؤدى به الحال إلى الكفر والعياذ بالله.

● الخامسة: قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين.

يعنى: إن هذا القول كفر وردة؛ لأنَّ من زعم أن الكفار الذين يعرف كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين؛ فإنه كافر لتقديمه الكفر على الإيمان.

السادسة: وهى المقصود بالترجمة: أَنَّ هَذَا لَا بُدَّ أَنْ يُوْجَدَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ.

السابعة: تَصْرِيحُهُ بِوُقُوعِهَا - أَعْنَى : عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ.

الثامنة: الْعَجَبُ الْعُجَابُ : خُرُوجُ مَنْ يَدْعَى النُّبُوَّةَ، مِثْلُ الْمُخْتَارِ مَعَ تَكْلُمِهِ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَتَصْرِيحِهِ بِأَنَّهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وَفِيهِ أَنَّ مُحَمَّدًا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَمَعَ هَذَا يُصَدَّقُ فِي هَذَا كُلُّهُ مَعَ التَّضَادِّ الْوَاضِحِ، وَقَدْ خَرَجَ الْمُخْتَارُ فِي آخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وَتَبِعَهُ فِتْنَامُ كَثِيرَةٌ.

● السادسة - وهى المقصودة بالترجمة -: أَنَّ هَذَا لَا بُدَّ أَنْ يُوْجَدَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَا تَقَرَّرَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ.

● السابعة: تَصْرِيحُهُ بِوُقُوعِهَا؛ أَعْنَى : عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ.

والترجمة التى أشار إليها رحمه الله هى قوله: «باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان»، وحديث أبى سعيد هو قوله ﷺ: «لتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟». أخرجاه.

وهذا يتضمن التحذير من أن تقع هذه الأمة فى مثل ما وقع فيه من سبقها.

الثامنة: الْعَجَبُ الْعُجَابُ: خروج من يدعى النبوة، مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يُصَدَّقُ فى هذه كله، مع التَّضَادِّ الْوَاضِحِ وَقَدْ خَرَجَ الْمُخْتَارُ فِي آخِرِ عَهْدِ الصَّحَابَةِ، وَتَبِعَهُ فِتْنَامُ كَثِيرَةٌ.

والمختار هو ابن أبى عبيد الثقفى، خرج وغلب على الكوفة فى أول خلافة ابن الزبير رضى الله عنه، وأظهر محبة آل البيت، ودعا الناس إلى الثأر من قتلة الحسين؛ فتبعهم، وقتل كثيراً ممن باشر ذلك أو أعان عليه، فانخدع به العامة، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل يأتيه.

ولاشك أن هذه المسألة من العجب العجائب أن يدعى النبوة وهو يؤمن أن القرآن

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة.

العاشرة: الآية العظمى: أنهم مع قتلهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة.

الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة: منها إخباره بأن الله زوى له المشرق والمغرب، وأخبر بمعنى ذلك، فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال، وإخباره بأنه أعطى الكنزين وإخباره بإجابة دعوته لأمة في الإثنين وإخباره بأنه منع الثالثة، وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع. وإخباره

حق، وفي القرآن أن محمداً ﷺ خاتم النبيين؛ فكيف يكون صادقاً، وكيف يصدق مع هذا التناقض؟! ولكن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

● التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة.

يعنى: من هذه الأمة منصورة إلى يوم القيامة.

يؤخذ هذا من آخر الحديث: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله تبارك وتعالى».

● العاشرة: الآية العظمى أنهم مع قتلهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

آية عظمى: أن الكثرة الكاثرة من بنى آدم على خلاف ذلك، ومع ذلك لا يضرهم، ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١).

● الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة.

وقد سبق.

● الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة.

أى: ما فى هذا الحديث من الآيات العظيمة، والآيات: جمع آية، وهى العلامة،

(١) البقرة: ٢٤٩.

بِإِهْلَاكِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَسَبَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَخَوْفُهُ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْأُتَمَّةِ الْمُضِلِّينَ وَإِخْبَارُهُ بظُهُورِ الْمُتَنَبِّئِينَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَإِخْبَارُهُ بِبَقَاءِ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ، وَكُلَّ هَذَا وَقَعَ، كَمَا أَخْبَرَ، مَعَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مِنْ أَبَعْدَ مَا يَكُونُ فِي الْعُقُولِ .

والآيات التي يوید الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام هی العلامات الدالة على صدقهم .

فما فی هذا الحديث : إخباره بأن الله - سبحانه وتعالى - زوی له المشرق والمغرب ، وأخبر بمعنى ذلك ؛ فوقع كما أخبر فی خلاف الجنوب والشمال ، فإن رسالة النبی ﷺ امتدت نحو الشرق والغرب أكثر من امتدادها نحو الجنوب والشمال ، وهذا من علم الغیب الذى أطلع الله رسوله ﷺ علیه .

ومنها : إخباره أنه ﷺ أعطى الکثرین ، وهما کثرا کسرى وقيصر .

ومنها : إخباره بإجابة دعوته لأمته فی الاثنین ، وهما ألا یهلكها سنة بعامه ، وألا یسلط علیهم عدوآ من سوى أنفسهم فیستبیح بیضتهم حتى یكون بعضهم یهلك بعضاً... إلخ ، ومنع الثالثة ، وهی ألا یجعل بأس هذه الأمة بینها ؛ فإن هذا سوف یكون كما صرح به حدیث عامر بن سعد عن أبیه : «إن النبی ﷺ أقبل ذات یوم من العالیة ، حتى إذا مر بمسجد بنی معاویة ؛ دخل ، فرکع فیہ رکعتین وصلینا معه ، ودعا دعاءً طویلاً ، وانصرف إلینا ؛ فقال : «سألت ربی ثلاثاً فأعطانی اثنتین ومنعنی واحدة : سألت ربی ألا یهلك أمتی بالسنة ؛ فأعطانیها ، وسألته ألا یهلك أمتی بالفرق ؛ فأعطانیها ، وسألته ألا یجعل بأسهم بینهم ؛ فمتعنیها»^(١) ؛ أى منعنی إياها .

ومن الآيات التى تضمنها هذا الحديث : إخباره بوقوع السیف فی أمته ، وأنه إذا وقع ؛ فإنه لا یرفع حتى تقوم الساعة ، وقد كان الأمر كذلك ؛ فإنه منذ سلّت السیوف على المسلمین من بعضهم على بعض بقى هذا إلى یومنا هذا .

ومنها : إخباره بإهلاك بعضهم بعضاً وسبى بعضهم بعضاً ، هذا أيضاً واقع .

ومنها : خوفه على أمته من الأتمة المضلین ، والأتمة : جمع إمام ، والإمام : هو من یقتدى به ؛ إما لعلمه ، وإما لسلطته ، وإما لعبادته .

(١) [صحیح] أخرجه : مسلم عن الفتن (٩/ ٢٤١/ ٢٠) عن سعد رضى الله عنه .

الثالثة عشرة: حَصْرُ الْخَوْفِ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْأَثْمَةِ الْمُضْلِينَ.

الرابعة عشرة: التَّيْبَةُ عَلَى مَعْنَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

ومنها: إخباره بظهور المنتبين في هذه الأمة، وأنهم ثلاثون، قال ابن حجر^(١): «هذا الحصر بالثلاثين لا يعنى انحصار المُتَّبِئِينَ بذلك؛ لأنهم أكثر من ذلك».

قلت: - أي ابن عثيمين - فيكون ذكر الثلاثين لبيان الحد الأدنى؛ أي أنهم لا يتقصون عن ذلك العدد، وإنما عدلنا عن ظاهر اللفظ للأمر الواقع، وهذا - والله أعلم - هو السر في ترك المؤلف رحمه الله العدد في مسائل الباب مع أنه صريح في الحديث.

ومنها: إخباره ببقاء الطائفة المنصورة، وهذا كله وقع كما أخبر.

قال الشيخ رحمه الله: «مع أن كل واحدة منها أبعد ما يكون في العقول».

● الثالثة عشرة: حصر الخوف على أُمَّتِهِ مِنَ الْأَثْمَةِ الْمُضْلِينَ.

ووجه هذا الحصر أن الأئمة ثلاثة أقسام: أمراء وعلماء وعباد؛ فهم الذي يخشى من إضلالهم لأنه متبعون، فالأمراء لهم السلطة والتنفيذ، والعلماء لهم التوجيه والإرشاد، والعباد لهم تغيير الناس وخداعهم بأحوالهم، فهؤلاء يطاعون ويقتدى بهم، فيخاف على الأمة منهم: لأنهم إذا كانوا مضلين ضلَّ بهم كثير من الناس، وإذا كانوا هادين اهتدى بهم كثير من الناس.

قد ربط الشرع بين فساد السلطة والأمراء وبين فساد المجتمع في حديث مسلم. صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا^(٢).

● الرابعة عشر: التَّيْبَةُ عَلَى مَعْنَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

يعنى أَنَّ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ لَا تَخْتَصُّ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لَهَا، بَلْ تَشْمَلُ اتِّبَاعَ الْمُضْلِينَ الَّذِينَ يَحْلُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّهُ النَّاسُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ فَيُحَرِّمُهُ النَّاسُ.



(١) «فتح الباري» (٦/٦١٧).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الناس والزينة (٧/٣٦٢/١٢٥) عن أبي هريرة به.

باب ٢٣ ما جاء في السحر

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): لما كان السحر من أنواع الشرك إذ لا يأتي السحر بدونه ولهذا جاء في الحديث: «ومن سحر فقد أشرك»^(*) أدخله المصنف في كتاب التوحيد، ليبين ذلك تحذيراً منه كما ذكر غيره من أنواع الشرك. اهـ.

وقال ناصر السعدى^(٢): وجه إدخال السحر في أبواب التوحيد أن كثيراً من أقسامه لا يتأتى إلا بالشرك والتوسل بالأرواح الشيطانية إلى مقاصد الساحر فلا يتم للعبد توحيد حتى يدع السحر كله قليله وكثيره اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٣): لأن من أقسام السحر ما لا يتأتى غالباً إلا بالشرك، فالشياطين لا تخدم الإنسان غالباً إلا لمصلحة، ومعلوم أن مصلحة الشيطان أن يغوى بنى آدم فيدخلهم في الشرك والمعاصي. اهـ.

شرح الترجمة والتبويب، وماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٤): باب ما جاء في السحر أى: والكهانة.

قال حامد بن حسن بن محسن^(٥): باب ما جاء في بيان السحر وأنواعه وحكمه. اهـ.

تعريف السحر لغة:

قال ابن حجر^(٦): قال الراغب وغيره: السحر يطلق على معان:

أحدها: ما لطف ودق، ومنه سحرت الصبى خادعته واستملته، وكل من استمال شيئاً فقد سحره ومنه إطلاق الشعراء سحر العيون لاستمالتها النفوس، ومنه قول الأطباء: الطبيعة ساحرة ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أى مصرفون عن المعرفة، ومنه حديث: «إن من البيان لسحراً»^(٧) ثم ذكر ثلاث أنواع أخرى ستأتى فى نقل ابن كثير عن الرازى اهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٨١). (٢) القول السديد (٧٤، ٧٥).

(*) سيأتى تخريجه فى الباب القادم عن أبى هريرة.

(٣) القول المفيد (٧/٢). (٤) فتح المجيد (١/٣٦٢).

(٥) فتح الله الحميد المجيد (٣١٣). (٦) فتح البارى (١٠/٢٣٢).

(٧) [صحيح] أخرجه البخارى (٥١٤٦) عن ابن عمر به وأنظر «فتح المجيد» (٤٧٥) بتخريجنا.

وقال ابن كثير^(١): السحر فى اللغة عبارة عما لطف وخفى سببه، ولهذا جاء فى الحديث: «إن من البيان لسحراً»: وسمى السحور لكونه يقع خفياً آخر الليل.

والسحر: الرئة، وهى محل الغذاء، وسميت بذلك لحفاؤها، ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه.

كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة: انتفخ سحرُك، أى: انتفخت رثته من الخوف.
وقالت عائشة رضى الله عنها: توفى رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى (*). وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أى: أخفوا عنهم عملهم. والله أعلم.
قال سليمان آل الشيخ^(٢) بنحو بعض كلام الحافظ حيث قال:

عبارة عما خفى ولطف سبب ولهذا جاء فى الحديث: «إن من البيان لسحراً» وسمى السحور سحوراً لأنه يقع خفياً آخر الليل وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أى اخفوا عنهم علمهم.

وقال نحو ذلك ابن عثيمين^(٣): وزاد فكل شئ خفى سببه. يسمى سحراً.
واصطلاحاً: قال سليمان: قال أبو محمد المقدسى فى «الكافى»: السحر عزائم ورقى وعقد يؤثر فى القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجته ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ وقال سبحانه ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾
يعنى السواحر اللاتى يعقدن فى سحرهن وينفنن فى عقدهن. اهـ.
أقسام السحر:

قال ابن كثير^(٤): وقد ذكر أبو عبد الله الرازى أن أنواع السحر ثمانية:
الأول: سحر الكلدانيين والكدشانيين^(٥)، الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة، وهى السيارة وكانوا يعتقدون أنها مدبرة العالم، وأنها تأتى بالخير والشر، وهم الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل ﷺ، مبطلاً لمقاتلهم وراداً لمذهبهم، وقد استقصى فى «كتاب السر المكتوم، فى مخاطبة الشمس والنجوم» المنسوب إليه فيما ذكره القاضى ابن خلكان^(٦) وغيره، ويقال: أنه تاب منه، وقيل: إنه صنفه على وجه إظهار الفضيلة لا

(١) تفسير ابن كثير (١/٢١٢). (*) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٤٥١) عن عائشة به.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٨١، ٢٨٢).

(٣) القول المفيد (٥/٢). (٤) تفسير ابن كثير (١/٢٠٩ - ٢١٢ - الشعب)

(٥) الكلدانيون والكدشانيون: طائفتان من عبدة الكواكب (تاج العروس).

(٦) وفيات الأعيان: ٣/٣٨١.

على سبيل الاعتقاد، وهذا هو المظنون به، إلا أنه ذكر فيه طرائفهم فى مخاطبة كل من هذه الكواكب السبعة، وكيفية ما يفعلون وما يلبسون، وما يتسكون به.

قال: والنوع الثانى: سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية: ثم استدل على أن الوهم له تأثير، بأن الإنسان يمكنه أن يمشى على الجسر الموضوع على وجه الأرض، ولا يمكنه المشى عليه إذا كان ممدوداً على نهر أو نحوه، قال: وكما أجمعت الأطباء على نهى المعروف عن النظر إلى الأشياء الحمر، والمصرع إلى الأشياء القوية لللمعان أو الدوران وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة^(١) للأوهام.

قال: وقد اتفق العقلاء على أن الإصابة بالعين حق.

وله أن يستدل على ذلك بما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ، قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين»^(٢).

قال: فإذا عرفت هذا، فنقول: النفس التى تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جداً، فتستغنى فى هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات والأدوات، وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات.

وتحقيقه: أن النفس إذا كانت مستعلية على البدن^(٣) شديدة الانجذاب إلى عالم السموات صارت كأنها روح من الأرواح السماوية، فكانت قوية على التأثير فى مواد هذا العالم، وإذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه الذات البدنية، فحيث لا يكون لها تصرف ألبتة إلا فى هذا البدن، ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء، والانقطاع عن الناس والرياء.

قلت: وهذا الذى يشير إليه هو التصرف بالحال، وهو على قسمين: تارة يكون حالاً صحيحاً شرعياً يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله ﷺ ويترك ما نهى الله عنه ورسوله، وهذه الأحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للصالحين من هذه الأمة، ولا يسمى هذا سحراً فى الشرع، وتارة تكون الحال فاسدة لا يمثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ ولا يتصرف بها فى ذلك، فهذه حال الأشقياء المخالفين للشرعية، ولا يدل إعطاء الله إياهم هذه الأحوال على محبته لهم، كما أن الدجال - لعنه الله - له من الخوارق للعادات ما دلّت عليه الأحاديث الكثيرة، مع أنه مذموم شرعاً لعنه الله وكذلك من شابهه من مخالفى الشريعة المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام: وبسط هذا يطول جداً، وليس هذا موضعه.

(١) منطبعة، والمثبت عن تفسير الرازى ٢٣١/٣.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) مشتغلة عن البدن، ينظر تفسير الرازى: ٢٣٢/٣.

قال: النوع الثالث من السحر: الاستعانة بالأرواح الأرضية^(١)، وهم من الجن، خلافاً للفلاسفة والمعتزلة، وهم على قسمين: مؤمنين، وكفار، وهم الشياطين، وفي ذلك نظر ولكن في اعتبار كون الشياطين جميعاً كفاراً نظراً لأنه كان هناك شياطين فى مملكة سليمان وسليمان لم يكن ليرضى بوجود كفار فى مملكته وهو الذى لم يرض بالكفر فى مملكة سبأ. قال: واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية، لما بينهما من المناسبة والقرب، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخل والتجريد، وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير.

النوع الرابع من السحر: التخيلات، والأخذ بالعيون والشعبذة، ومبناه أن البصر قد يخطئ ويستغل بالشئ المعين دون غيره، ألا ترى أن المشعبد الحاذق يظهر عمل شئ يذهل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشئ بالتحديق ونحوه، عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة، وحينئذ يظهر لهم شئ آخر غير ما انتظروه، فيتعجبون منه جداً، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمل، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراج، لفظن الناظرون لكل ما يفعله.

قال: وكلما كانت الأحوال التى تفيد حسن البصر نوعاً من أنواع الخلل أشد، كان العمل أحسن، مثل أن يجلس المشعبد فى موضع مضى جداً، أو مظلم، فلا تقف القوة الناطقة على أحوالها بكلالها، والحالة هذه.

قلت: وقد قال بعض المفسرين: إن سحر السحرة بين يدي فرعون إنما كان من باب الشعبذة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ قالوا: ولم تكن تسعى فى نفس الأمر، والله أعلم.

النوع الخامس من السحر: الأعمال العجيبة التى تظهر من تركيب الآلات المركبة من النسب الهندسية، كفارس على فرس فى يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق، من غير أن يمسه أحد، ومنها الصور التى تُصورها الروم والهند، حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، حتى يصورونها ضاحكة وباكية.

إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيف أمور المخايل، قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل.

(١) الاستعانة بالأرضية، وينظر المرجع السابق: ٣/٣٣٣.

قلت: يعنى ما قاله بعض المفسرين: إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصى، فحشوها زئبقًا فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق، فيخيل إلى الراى أنها تسعى باختيارها.

قال الرازى: ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، ويندرج فى هذا الباب علم جر الأثقال بالآلات الخفيفة .

قال: وهذا فى الحقيقة لا ينبغى أن يعد من باب السحر، لأن لها أسبابًا معلومة يقينية، من اطلع عليها قدر عليها.

قلت: ومن هذا القبيل حيل النصارى^(١) على عامتهم، بما يرونهم إياه من الأنوار، كقضية قُمامة الكنيسة التى لهم ببلد المقدس، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على العوام، وأما الخواص فهم يعترفون بذلك، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم فيرون ذلك سائنًا لهم، وفيه شبه الجهلة والأغبياء من متعبدى الكرامية^(٢)، الذين يرون جواز وضع الأحاديث فى الترغيب والترهيب فيدخلون فى عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم: «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٣) وقوله: «حدثوا عني ولا تكذبوا على فإنه من يكذب على يلج النار».

ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان، وهو أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة، فإذا سمعته الطيور ترق له فتذهب فتلقى فى وكره من ثمر الزيتون، ليتبلغ به، فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله وتوصل إلى أن جعله أجوف، فإذا دخلته الريح يسمع له صوت كصوت ذلك الطائر، وانقطع فى صومعة ابتناها، وزعم أنها على قبر بعض صالحهم، وعلق ذلك الطائر فى مكان منها، فإذا كان زمان الزيتون فتح بابًا من ناحية، فتدخل الريح إلى داخل هذه الصورة، فيسمع صوتها كذلك الطائر فى شكله أيضًا، فتأتى الطيور فتحمل من الزيتون شيئًا كثيرًا فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون فى هذه الصومعة، ولا يدرون ما سببه ؟ ففتنهم بذلك وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة.

(١) تأمل هذا النص جيدًا!!!

(٢) الكرامية: أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام، وهم طوائف بلغ عددهم اثنى عشرة فرقة، وكان أبو عبد الله من المجسمة والمشبهة، ويوافقون المعتزلة فى التحسين والتفخيم العقليين (الملل والنحل للشهرستانى: ٩٩/١ وما بعدها).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١١٠)، ومسلم فى المقدمة (١/١٠٠/٣) عن أبى هريرة به.

قال الرازي: النوع السادس من السحر: الاستعانة بخواص الأدوية يعنى فى الأطعمة والدهانات، قال: واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن أثر المغناطيس مشاهد.

قلت: يدخل فى هذا القليل كثير من يدعى الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص، مدعيًا أنها أحوال له، من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات.

قال: النوع السابع: من السحر تعليق القلب: وهو أن يدعى الساحر أنه عرف الاسم الأعظم، وأن الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور، فإذا اتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز، اعتقد أنه حق، وتعلق قلبه بذلك، وحصل فى نفسه نوع من الرهب والخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء.

قلت: هذا النمط يقال له التنبلة، وإنما يروج على ضعفاء العقول من بنى آدم، وفى علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه، فإذا كان التنبيل حاذقًا فى علم الفراسة عرف من يتقاد له من الناس من غيره.

قال: النوع الثامن من السحر: السعى بالنميمة والتضريب^(١) من وجوه خفيفة لطيفة: وذلك شائع فى الناس.

قلت: النميمة على قسمين، تارة تكون على وجه التحريش وتفريق قول^(٢) المؤمنين، فهذا حرام متفق عليه فأما إذا كانت على وجه الإصلاح، واتلاف كلمة المسلمين، كما جاء فى الحديث: «ليس بالكذاب من ينم خيرًا»^(٣)، أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة، فهذا أمر مطلوب، كما جاء فى الحديث: «الحرب خُدعة»^(٤) وكما فعل نعيم بن مسعود فى تفريقه بين كلمة الأحزاب وقريظة، وجاء إلى هؤلاء فمنى إليهم عن هؤلاء كلامًا.

ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئًا آخر، ثم لأم بين ذلك، فتناكرت النفوس وافترقت، وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء والبصيرة النافذة، والله المستعان.

ثم قال الرازي: فهذه جملة الكلام فى أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه.

(١) أى الإغراء، وفى بعض نسخ التفسير (التقريب) والأولى أظهر والله أعلم.

(٢) وفى طبعة المكتبة القيمة [قلوب].

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٦٩٢)، ومسلم فى البر والصلة (١٦/١٥٧ - النووى) عن أم كلثوم به وانظر «رياض الصالحين» (٢٥١ - بتخريجنا).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٠٣٠)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٢/٤٥ - النووى) عن جابر به وانظر «رياض الصالحين» (١٣٥٥ - بتخريجنا).

قلت: «وإنما أدخل كثيراً من هذه الأنواع المذكورة في فن السحر، للطاقة مداركها». اهـ.

واقصر سليمان آل الشيخ^(١): على قوله: منه ما هو تخيل، ومنه ماله حقيقة، كما يفهم مما تقدم اهـ.

وأما ابن عثيمين^(٢): فقال: وأما في الشرع فإنه ينقسم إلى قسمين:
الأول: عقد ورقى، أى: قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد به ضرر المسحور، لكن قد قال الله تعالى:
﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ويستدل له بقصة سحر النبی فی الصحيح^(٣).

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته وميله، فتجده ينصرف ويميل، وهو ما يسمى عندهم بالصرف والعطف.

فيجعلون الإنسان يعطف على زوجته أو امرأة أخرى، حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس من ذلك ويستدل لذلك بحديث التولة.

فيؤثر على بدن المسحور بإضعافه شيئاً فشيئاً حتى يهلك.

وفى تصويره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هى عليه.

وفى عقله، فربما يصل إلى الجنون والعياذ بالله. اهـ.

وتقدم تفصيل ابن كثير والرازى بأوسع من ذلك.

● هل للسحر حقيقة أم لا؟ وهل هذه الحقيقة تقلب الأعيان أم هى تأثير فى المزاج فقط؟ الجواب: قال أبو محمد فى الكافى ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه.

وروت عائشة رضى الله عنها- أن النبى ﷺ سحر حتى أنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، وإنه قال لها ذات يوم: «أتانى رجلان فجلس أحدهما عند رجلى والآخر عند رأسى فقال الذى عند رجلى: ما بال الرجل؟ قال: مطبوع - يعنى مسحوراً - قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم قال: وفيه؟ قال فى جف طلعة ذكر فى مشط وماشطة تحت رعوفة فى بشر ذروان .. الحديث» رواه البخارى اهـ^(٤).

قال ابن كثير^(٥): حكى أبو عبد الله الرازى فى تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر، قال: وربما كفروا من اعتقد وجوده، قال: وأما أهل السنة فقد جوزوا أن

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٨٢).

(٢) القول المفيد (٥/٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٠٨/١).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

يقدر الساحر أن يطير في الهواء، ويقلب الإنسان حماراً، والحمار إنساناً، إلا أنهم قالوا: إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المعينة، فإما أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم فلا، خلافاً للفلاسفة والمنجمين والصائبة، ثم استدل على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى، بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومن الأخبار بأن رسول الله ﷺ سحر، وأن السحر عمل فيه، وبقصّة تلك المرأة مع عائشة رضى الله عنها، وما ذكرت تلك المرأة من إتيانها بابل وتعلمها السحر، قال: وبما يذكر في هذا الباب من الحكايات الكثيرة، ثم قال بعد هذا:

وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة في كتابة: «الإشراف على مذاهب الأشراف في السحر»، فقال: أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة، فإنه قال: لا حقيقة له عنده.

قال ابن حجر^(١): راداً على من أنكر حقيقة السحر في قوله تعالى: ﴿يُخِيلُ إِلَهُ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ هذه الآية عمدة من زعم أن السحر إنما هو تخييل، ولا حجة له، بها لأن هذه وردت في قصة سحرة فرعون، وكان سحرهم كذلك، ولا يلزم منه أن جميع أنواع السحر تخييل.

قال أبو بكر الرازي في «الأحكام»: أخبر الله تعالى أن الذي ظنه موسى من أنها تسعى لم يكن سعيًا وإنما كان تخيلاً، وذلك أن عصيهم كانت مجوفة قد ملئت زئبقاً، وكذلك الجبال كانت من آدم محشوة زئبقاً، وقد حفروا قبل ذلك أسراباً وجعلوا لها آزاجاً وملأوها ناراً فلما طرحت على ذلك الموضع وحمل الزئبق حركها لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير، فلما أثقلته كثافة الجبال والعصى صارت تتحرك بحركته فظن من رآها أنها تسعى، ولم تكن تسعى حقيقة.

وقال في موضع آخر^(٢): واختلف في السحر فقيل: هو تخييل فقط ولا حقيقة له وهذا اختيار أبي جعفر الاستربادي من الشافعية وأبي بكر الرازي من الحنفية وابن حزم الظاهري وطائفة.

قال النووي: والصحيح أن له حقيقة وبه قطع بالجمهور وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة انتهى.

لكن محل النزاع هل يقع بالسحر انقلاب عين أو لا؟ فمن قال إنه تخييل فقط منع ذلك، ومن قال إن له حقيقة اختلفوا هل له تأثير فقط بحيث يغير المزاج فيكون نوعاً من

الأمراض أو ينتهى إلى الإحالة بحيث يصير الجماد حيواناً مثلاً وعكسه؟ فالذى عليه الجمهور هو الأول، وذهبت طائفة قليلة إلى الثانى، فإن كان بالنظر إلى القدرة الإلهية فمسلم، وإن كان بالنظر إلى الواقع فهو محل الخلاف، فإن كثيراً ممن يدعى ذلك لا يستطيع إقامة البرهان عليه.

ونقل الخطابى أن قوماً أنكروا السحر مطلقاً. وكأنه عنى القائلين بأنه تخيل فقط وإلا فهي مكابرة.

وقال المازرى: جمهور العلماء على إثبات السحر وأن له حقيقة، ونفى بعضهم حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة، وهو مردود لورود النقل بإثبات السحر، ولأن العقل لا ينكر أن الله قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو مزج بين قوى على ترتيب مخصوص، ونظير ذلك ما يقع من حذاق الأطباء من مزج بعض العقاقير ببعض حتى يتقلب الضار منها بمفرده فيصير بالتركيب نافعاً اهـ.

وقال القرطبي: السحر حيل صناعية يتوصل إليها بالاكْتساب، غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس، ومادتها الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجوه تركيبها وأوقاتها وأكثرها تخيلات بغير حقيقة وإيهامات بغير ثبوت فيعظم عند من لا يعرف ذلك كما قال الله تعالى عن سحرة فرعون ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ مع أن حبالهم وعصيتهم لم تخرج عن كونها حبالاً وعصيماً، ثم قال: والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيراً فى القلوب كالحب والبغض وإلقاء الخير والشر، وفى الأبدان بالآلَم والسقم، وإنما المنكور أن الجماد يتقلب حيواناً أو عكسه بسحر الساحر ونحو ذلك. اهـ.

● هل يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله فى كتابه:

قال ابن حجر^(١): وقيل لا يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله تعالى فى قوله: ﴿يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ لكون المقام مقام تهويل، فلو جاز أن يقع به أكثر من ذلك لذكره.

قال المازرى: والصحيح من جهة العقل أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك، قال: والآية ليست نصاً فى منع الزيادة، ولو قلنا إنها ظاهرة فى ذلك اهـ.

● متى كان بدأ السحر:

قال ابن حجر^(٢): فى قول الله تعالى: ﴿لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ

(١) فتح البارى (١٠/٢٣٣). (٢) فتح البارى (١٠/٢٣٤).

السِّحْرِ» الآية، فى هذه الآية بيان أصل السحر الذى يعمل به اليهود، ثم هو بما وضعته الشياطين على سليمان بن داود عليهما السلام وما أنزل على هاروت وماروت بأرض بابل، والثانى متقدم العهد على الأول لأن قصة هاروت وماروت كانت من قبل زمن نوح عليه السلام، على ما ذكر ابن إسحق وغيره، وكان السحر موجوداً فى زمن نوح إذ أخبر الله عن قوم نوح أنهم زعموا أنه ساحر، وكان السحر أيضاً فاشياً فى قوم فرعون وكل ذلك قبل سليمان . اهـ.

● حكم تعلم السحر:

قال ابن كثير ^(١) : حكى الرازى فى المسألة الخامسة فى أن العلم بالسحر ليس بقبیح ولا محظور: اتفق المحققون على ذلك، لأن العلم لذاته شريف، وأيضاً لعموم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ولأن السحر لو لم يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة، والعلم بكون المعجز معجزاً واجب، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب، فهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً، وما يكون واجباً فكيف يكون حراماً وقبيحاً!

قال ابن كثير: هذا لفظه بحروفه فى هذه المسألة، وهذا الكلام فيه نظر من وجوه، أحدها: قوله: «العلم بالسحر ليس بقبیح» إن عنى به ليس بقبیح عقلاً، فمخالفة من المعتزلة يمتنعون هذا، وإن عنى أنه ليس بقبیح شرعاً، ففى هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر.

وفى الصحيح: «من أتى عراقاً أو كاهناً، فقد كفر بما أنزل على محمد» ^(٢) وفى السنن: «من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر» ^(٣).

وقوله: «ولا محظور اتفق المحققون على ذلك» كيف لا يكون محظوراً مع ما ذكرناه من الآية والحديث !؟

واتفاق المحققين يقتضى أن يكون قد نص على هذه المسألة أئمة العلماء أو أكثرهم، وأين نصوصهم على ذلك، ثم إدخاله السحر فى عموم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه نظر، لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين بالعلم الشرعى، ولم قلت إن هذا منه؟ ثم ترقيه إلى وجوب تعلمه بأنه لا يحصل لعلم

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٠٨).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) سيأتى تخريجه فى الباب القادم عن أبى هريرة.

بالمعجز إلا به، ضعيف بل فاسد، لأن معظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هي القرآن العظيم، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلاً، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرقون بينه وبين غيره، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه، والله أعلم. اهـ.

وقال ابن حجر^(١): وأما تعلمه وتعليمه حرام، فإن كان فيه ما يقتضى الكفر كفر واستتيب منه ولا يقتل، فإن تاب قبلت توبته، وإن لم يكن فيه ما يقتضى الكفر عزر.

وقد أجاز بعض العلماء تعلم السحر لأحد أمرين إما لتمييز ما فيه كفر عن غيره وإما لإزالته عمن وقع فيه، فأما الأول فلا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد فإذا سلم الاعتقاد فمعرفة الشيء بمجرد لا تستلزم منعاً، كمن يعرف كيفية عبادة الأوثان للأوثان لأن كيفية ما يعملها الساحر إنما هي حكاية قول أو فعل، بخلاف تعاطيه والعمل به، وأما الثانى فإن كان لا يتم كما زعم بعضهم إلا بنوع من أنواع الكفر أو الفسق فلا يحل أصلاً وإلا جاز للمعنى المذكور.

ثم قال: وهذا فصل الخطاب فى هذه المسألة. اهـ.

قال سيلمان آل الشيخ^(٢): قال الشافعى رحمه الله إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر، مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وإنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته تضر اهـ. وسيأتى كلام الشافعى أيضاً من عند ابن كثير.

● حكم تعلم السحر واستعماله:

قال ابن كثير^(٣): واختلفوا فيمن يعلم السحر ويستعمله، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: يكفر بذلك، ومن أصحاب أبى حنيفة من قال: إن تعلمه فيتيه أو ليحتبه فلا يكفر، ومن تعلمه معتقداً جوازه أو أنه ينفعه كَفَر، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر.

وقال الشافعى - رحمه الله: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك: فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقد أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها، فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر. اهـ.

(١) فتح البارى (١٠/٢٣٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٢٠٨).

(٣) تفسير العزيز الحميد (٢٨٣).

● حكم السحر والساحر:

قال ابن حجر^(١): وقد استدل بهذه الآية على أن السحر كفر ومتعلمه كافر، وهو واضح في بعض أنواعه التي قدمتها وهو التعبد للشياطين أو للكواكب، وأما النوع الآخر الذي هو من باب الشعوذة فلا يكفر به من تعلمه أصلاً.

قال النووي: عمل السحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عده النبي ﷺ من السبع الموبقات، ومنه ما يكون كفراً، ومنه ما لا يكون كفراً بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر فهو كفر وإلا فلا.

قال ابن حجر: وعن مالك: الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب بل يتحتم قتله كالزنديق.

قال عياض: ويقول مالك قال أحمد وجماعة من الصحابة والتابعين اهـ.

وفى إيراد البخاري هذه الآية: «لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ» إشارة إلى اختيار الحكم بكفر الساحر لقوله فيها: «وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ» فإن ظاهرها أنهم كفروا بذلك، ولا يكفر بتعليم الشيء إلا وذلك الشيء كفر، وكذا قوله في الآية على لسان الملكين «إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ» فإن فيه إشارة إلى أن تعلم السحر كفر فيكون العمل به كفراً، وهذا كله واضح على ما قررته من العمل ببعض أنواعه اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): فدلّت الآية على تحريم السحر، وهو كذلك، بل هو محرم في جميع أديان الرسل عليهم السلام كما قال تعالى: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى» واستدل بها بعضهم على كفر الساحر لعوم قوله تعالى: «لَمَنِ اشْتَرَاهُ» يدل على قوله تعالى: «فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ» وقد نص أصحاب أحمد على أنه يكفر بتعلمه وتعليمه.

وروى عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم شيئاً من السحر قليلاً كان أو كثيراً كان آخر عهده من الله»^(٣) وهذا مرسل.

واختلفوا هل يكفر الساحر أو لا؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر، وبه قال

(١) فتح الباري (١٠/٢٣٥).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٨٢، ٢٨٣).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥٣/١٨١) وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

مالك وأبو حنيفة وأحمد، قال أصحابه: إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقى شيء يضر فلا يكفر، وقيل: لا يكفر إلا أن يكون في سحره شرك فيكفر، وهذا قول الشافعي وجماعته.

ثم قال وعند التحقيق ليس بين القولين اختلاف فإن من لم يكفر لظنه أنه يتأتى بدون الشرك وليس كذلك بل لا يأتي السحر الذي من قبل الشياطين إلا بالشرك وعبادة الشيطان والكواكب، ولهذا سماه الله كُفْرًا في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

وفي حديث مرفوع رواه رزين: «الساحر كافر». وقال أبو العالية: السحر من الكفر.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وذلك أنهما علماه الخير والشر والكفر والإيمان فعرفا أن السحر من الكفر

وقال ابن جبريخ في الآية: لا يجترئ على السحر إلا الكافر، وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر، وإن سمي سحرًا فعلى سبيل المجاز كتسمية القول البليغ والنميمة سحرًا، ولكنه يكون حرامًا لمضرته يُعَزَّرُ من يفعله تعزيرًا بليغًا اهـ.

تقسيم السحر من حيث الحكم:

قال ابن عثيمين^(١):

(أ) شرك، وهو الأول الذي يكون بواسطة الشياطين، يعبدونهم ويتقرب إليهم ليسلطهم على المسحور:

(ب) عدوان، وهو الثاني الذي يكون بواسطة الأدوية والعقاقير، ونحوها.

وبهذا التقسيم الذي ذكرناه نتوصل به إلى مسألة مهمة، وهي: هل يكفر الساحر أو لا يكفر؟ اهـ.

يأتي الخلاف والراجع في ذلك.

قال ابن عثيمين^(٢): اختلف أهل العلم: هل يكفر الساحر أو لا يكفر؟

فمنهم من قال: إنه يكفر.

ومنهم من قال: إنه لا يكفر.

(١) القول المفيد (٢/٦٢٥) ..

(٢) القول المفيد (٢/٦٢٥) ..

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾^(١).

ولكن التقسيم السابق الذى ذكرناه يعنى منه ما هو شرك وما هو عدوان يتبين به حكم هذه المسألة، فمن كان سحره بواسطة الشياطين، فإنه يكفر لأنه لا يتأتى ذلك إلا بالشرك غالباً لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ...﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوها، فلا يكفر، ولكن يعتبر عاصياً معتدياً اهـ.



قوله: [وقول الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾].

مناسبة الآية للبَاب:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): دلت الآية على تحريم السحر، وهو كذلك، وهو محرم فى جميع أديان الرسل عليهم السلام اهـ.

قال القرعاوى^(٣): حيث دلت الآية على أن السحر كفر أ.هـ.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى^(٤): حيث حذرت الآية من السحر الذى لا يتم إلا بالشرك، والشرك منافى للتوحيد.

الإعراب^(٥): (ولقد) الواو استئنافية مسوقة للشروع فى بيان حالهم بعد تعلم السحر واللام جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق (علموا) فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم (لمن) اللام لام الابتداء وتفيد التأكيد ومن اسم موصول مبتدأ وجملة (اشتراه) لا محل لها (ما) نافية أو حمازية (له) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم أو خبر ما (فى الآخرة) الجار والمجرور فى محل نصب حال (من) حرف جر زائد

(١) البقرة / ١٠٢

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٨٢).

(٥) إعراب القرآن ١/ ١٥٩.

(٣، ٤) الجديد للقرعاوى ص ٢٢٠.

(خلق) اسم مجرور بمن لفظاً مبتدأ مؤخر أو اسم ما والجملة فى محل رفع خبر من والجملة كلها فى حيز النصب وقد سدت مفعولى علموا المعلقة عن العمل . اهـ .

ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(١): قال جل ثناؤه: لقد علم التابذون من يهود بنى إسرائيل كتابى وراء ظهورهم) تجاهلاً منهم، التاركون العمل بما فيه من اتباعك يا محمد، واتباع ما جئت به بعد إنزالى إليك كتابى مصدقاً لما معهم، وبعد إرسالك إليهم بالإقرار بما معهم، وما فى أيديهم المؤثرون عليه اتباع السحر الذى تلت الشياطين على عهد سليمان، والذى أنزل على الملكين ببايل هاروت وماروت (لمن اشترى) السحر بكتابى الذى أنزلته على رسولى فأثره عليه (ماله فى الآخرة من خلق) . اهـ .

ثم روى ابن جرير عن قتادة والسدى ومجاهد وابن زيد فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ قد علم ذلك أهل الكتاب أو اليهود فى عهد الله إليهم أن الساحر لا خلق له عند الله يوم القيامة .

وروى أيضاً عن مجاهد والسدى وسفيان فى قوله تعالى: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أنه ماله فى الآخرة من نصيب .

وروى عن قتادة ﴿مِنْ خَلَقٍ﴾ من حجة وعن الحسن ليس له دين .

وعن ابن عباس ﴿مِنْ خَلَقٍ﴾ قال قوام .

ورجح الأول فقال^(٢): وأولى الأقوال بالصواب قول من قال معنى (الخلق) فى هذا الموضع النصيب وذلك أن ذلك معناه فى كلام العرب ومنه قوله ﷺ «لَيُؤْيِدَنَّ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلَقَ لَهُمْ» يعنى لا نصيب لهم ولا حظ فى الإسلام والدين ومنه قول أمية بن أبى الصلت:

يدعون بالويل فيها لا خلق لهم إلا سرايل من قطر وأغلال

يعنى بذلك لا نصيب لهم ولا حظ إلا سرايل وأغلال . فكذلك قوله: (ما له فى الآخرة من خلق) ما له فى الدار الآخرة حظ من الجنة من أجل أنه لم يكن له إيمان ولا دين، ولا عمل صالح يجازى به فى الجنة ويشاب عليه فيكن له حظ ونصيب من

(١) تفسير الطبرى (١/ ١/ ٣٧٠) .

(٢) تفسير الطبرى ١/ ٣٧١ .

الجنة، وإنما قال جل ثناؤه ﴿مَّا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ فوصفه بأنه لا نصيب له فى الآخرة وهو يعنى به لا نصيب له من جزاء وثواب وجنة دون نصيبه من النار إذ كان قد دلَّ ذمه جلَّ ثناؤه أفعالهم التى نفى من أجلها أن يكون لهم فى الآخرة نصيب على مراده من الخير وإنه إنما يعنى بذلك أنه لا نصيب لهم فيها من الخيرات وأما من الشرور فإنَّ لهم فيها نصيباً اهـ.

وبنحو هذا الذى ذكره الطبرى ذكر البغوى والرازى والقرطبى وغيرهم من المفسرين.

قال ناصر السعدى^(١): ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أى اليهود ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أى: رغب فى السحر رغبة المشتري فى السلعة، ﴿مَّا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أى: نصيب بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلاً، ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة: ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ علماً يثمر العمل ما فعلوه.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): أى ولقد علم اليهود والذين استبدلوا السحر عن متابعة الرسل والإيمان بالله لمن اشتراه، أى: استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله ومتابعة رسله ﴿مَّا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ ثم قال: وقال الحسن: ليس له دين، فدلَّت الآية على تحريم السحر. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): ما له من نصيب، وكل من ليس له فى الآخرة من خلاق، فمقتضاه أن عمله حابط باطل، لكن إما أن يقتضى النصيب انتفاء كلياً فيكون العمل كفرًا، أو يتفى كمال النصيب فيكون فسقاً. اهـ.

مسألة: قوله ﴿اشْتَرَاهُ﴾ على الحقيقة أم على سبيل الاستعارة؟

قال الفخر الرازى^(٤): إنما ذكر لفظ الشراء على سبيل الاستعارة، لوجوه!

الأول: أنهم لما نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، وأقبلوا على التمسك بما تتلوا الشياطين فكأنهم قد اشتروا ذلك السحر بكتاب الله.

الثانى: أن المالكين إنما قصدوا بتعلم السحر الاحتراز عنه ليصل بذلك الاحتراز إلى منافع الآخرة، فلما استعمل السحر، فكأنه اشترى بمنافع الآخرة منافع الدنيا.

الثالث: أنه لما استعمل السحر علمنا أنه إنما تحمل المشقة ليتمكن من ذلك الاستعمال فكأنه اشترى بالمحن التى تحملها قدرته على ذلك الاستعمال اهـ.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٨٢).

(١) تيسر الكريم الرحمن ١/ ٦٠.

(٤) التفسير الكبير (٢/ ٣/ ٢٤١).

(٣) القول المفيد ٨/ ٢.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾^(١).

مسألة:

قال الرازي^(٢): بقى فى الآية سؤال: وهو أنه كيف أثبت لهم العلم أولاً فى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ ثم نفاه عنهم فى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

والجواب من وجوه: أحدها. أن الذين علموا غير الذين لم يعلموا، فالذين علموا هم الذين علموا السحر ودعوا الناس إلى تعلمه وهم الذين قال الله فى حقهم ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأما الجهال الذين يرغبون فى تعلم السحر فهم الذين لا يعلمون.

وهذا جواب الأخفش وقطرب.

[قلت]: وذكره القرطبي ومال إليه.

وثانيها: لو سلمنا كون القوم واحداً ولكنهم علموا شيئاً وجهلوا شيئاً آخر، علموا أنهم ليس لهم فى الآخرة خلاق ولكنهم جهلوا مقدار ما فاتهم من منافع الآخرة وما حصل لهم من مضارها وعقوباتها.

وثالثها: لو سلمنا أن القوم واحد والمعلوم واحد ولكنهم لم يتفنعوا بعلمهم بل أعرضوا عنه فصار ذلك العلم كالعدم كما سمي الله تعالى الكفار ﴿صَمًا وَبُكْمًا وَعُميًا﴾ إذ لم يتفنعوا بهذه الحواس. اهـ.

قلت: أو كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾.



قوله [وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾].

مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ^(٣): تقدم الكلام عليها فى الباب الذى قبله .

ووجه إيرادها هنا ظاهر لأن السحر من الجبوت كما قال عمر بن الخطاب.

قال القرعاوى^(٤): حيث دلَّت الآية على تحريم تعاوى السحر وذم فاعله.

قال ابن عثيمين^(٥): الآية الثانية قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أى: اليهود .

(١) النساء / ٥١ .

(٢) التفسير الكبير (١/ ٢٤١) . (٣) تيسير العزيز الحميد (١٨٣) .

(٤) الجديد (٢٢٢) . (٥) القول المفيد ٨/ ١٠ .

قَالَ عُمَرُ: «الْجَبْتُ: السَّحْرُ، وَالطَّاعُوتُ: الشَّيْطَانُ»(*) .

﴿بِالْجَبْتِ﴾ أى السحر كما قرأها عمر بن الخطاب واليهود كانوا من أكثر الناس تعلمًا للسحر وممارسة له، ويدعون أن سليمان عليه السلام علمهم إياه، وقد اعتدوا، فسحروا النبي ﷺ.

قوله: ﴿الطَّاعُوتُ﴾ أجمع ما قيل فيه: هو ما تجاوز به العبد حده، من معبود، أو متبوع، أو مطاع ومعنى «من معبود» أى بعلمه ورضاه، هكذا قال ابن القيم رحمه الله.



قوله: [قال عمر: «الجبْتُ: السحر، والطاغوت الشيطان»].

قال سليمان آل الشيخ^(١): هذا الأثر رواه ابن أبى حاتم وغيره، وفيه معرفة الجبْت والطاغوت والفرق بينهما.

قال ابن عثيمين^(٢): فسرها أمير المؤمنين عمر - رضى الله عنه - بأنها السحر.

وأما تفسيره الطاغوت بالشيطان، فإنه من باب التفسير بالمثال.

والسلف رحمهم الله يفسرون الآية أحيانًا بمثال يحتذى عليه، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنَ اللَّهِ﴾.

قال بعض المفسرين: الظالم لنفسه: الذى لا يصلى إلا بعد خروج الوقت، والمقتصد: الذى يصلى فى آخر الوقت، والسابق بالخيرات: الذى يصلى فى أول الوقت.

وهذا مثال من الأمثلة، وليس ما تدل عليه الآية على وجه الشمول، ولهذا فسرها بعضهم بأن الظالم لنفسه الذى لا يخرج الزكاة، والمقتصد من يخرج الزكاة ولا يتصدق، والسابق بالخيرات من يخرج الزكاة ويتصدق.

فتفسير عمر رضى الله عنه للطاغوت بالشيطان تفسير بالمثال، لأن الطاغوت أعم من الشيطان، فالأصنام تعتبر من الطواغيت، كما قال تعالى: ﴿وَعَبْدَ الطَّاعُوتِ﴾ والعلماء والأمرء، الذين يضلون الناس يُعتبرون طواغيت، لأنهم طغوا وزادوا وفعلوا ما ليس لهم به حق. اهـ.

[قلت]: وهذا عين ما قرره شيخ الإسلام فى مقدمة التفسير له، حيث قال فى

(*) تقدم تخريجه.

(٢) القول المفيد (٢/٩-١٠).

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٨٣).

وَقَالَ جَابِرٌ: «الطَّوَاعِيتُ كُهَّانٌ، كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٍ» (*).

اختلاف التنوع هو أن يذكر كل واحد من المختلفين بعض اللفظ العام بعض أفراده على سبيل المثال على سبيل ذكر الحد المطابقة للمحدود ثم ضرب الأمثلة السابقة على ذلك وضرب غيرها والله أعلم^(١).

قال قرعاوى^(٢): الفوائد:

- ١- بيان انحراف أهل الكتاب.
- ٢- وجود السحر في أهل الكتاب.
- ٣- أن المداينة وشهادة الزور من صفات اليهود . اهـ.



قوله: [وقال جابر: الطواغيت كهان كانت تنزل عليهم الشيطان... إلخ].

قال سليمان آل الشيخ^(٣): هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم بنحوه مطولاً عن وهب بن منبه قال: سألت جابر بن عبد الله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها، قال: إن في جهينة واحداً وفي أسلم واحداً وفي هلال واحداً وفي كل حي واحداً، وهم كهان تنزل عليهم الشياطين.

ثم قال ومطابقة هذه الترجمة ظاهرة من جهة أن الساحر طاغوت من الطواغيت إذا كان هذا الاسم يطلق على الكاهن فالساحر أولى لأنه أشرف وأخبث.

قوله: «جابر»

قال سليمان آل الشيخ^(٤): هو ابن عبد الله بن عمرو بن حرام أبو عبد الله الأنصاري ثم السلمى بفتحيتين. صحابي جليل ابن صحابي جليل مكث عن النبي ﷺ. مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كف بصره وله أربع وتسعون سنة. اهـ.

قوله: «الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد»

قال سليمان آل الشيخ^(٥): المراد بهذا أن الكهان. من الطواغيت لا أنهم الطواغيت لا غير. وقوله كان ينزل عليهم الشيطان. أراد الجنس لا الشيطان الذي هو إبليس فقط، بل تنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم ويخبرونهم ببعض الغيب، مما يسترقونه من السمع فيصدقون مرة ويكذبون مائة.

(١) انظر كتابي النكت المتممة على مقدمة ابن تيمية.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٨٤

(٥) تيسير العزيز الحميد ٢٨٤.

(*) تقدم تخريجه.

(٢) الجديد (٢٢٢).

(٤) نفس المصدر السابق.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ! وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّخَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ^(١).

قوله: (فى كل حى واحد الحى): واحد الأحياء، وهم القبائل أى: فى كل قبيلة من قبائل العرب كاهن يتحاكمون إليه ويسألونه عن الغيب، وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبى ﷺ فأبطل الله ذلك بالإسلام حرست السماء بالشهب . اهـ.
قال ابن عثيمين^(٢): هذا أيضاً من باب التفسير بالمثال، حيث إنه جعل من جملة الطواغيت الكهان.

والكاهن؛ قيل: هو الذى يخبر عما فى الضمير.
وقيل: الذى يخبر عن الغيبات فى المستقبل.
وكان هؤلاء الكهان تنزل عليهم الشياطين بما استرقوا من السمع من السماء، وكان كل حى من أحياء العرب لهم كاهن يستخدم الشياطين، فتسرق له السمع، فتأتى بخبر السماء إليه.
وكانوا يتحاكمون إليهم فى الجاهلية.
والطواغيت ليسوا محصورين فى هؤلاء، فتفسير جابر رضى الله عنه تفسير بالمثال كتفسير عمر رضى الله عنه.



قوله: وعن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: اجتنبو السبع الموبقات... إلخ.
هذا الحديث أخرجه البخارى فى أكثر من موضع فذكره فى كتاب الوصايا قال: باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ ولفظه ما ذكره المصنف.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الحدود /باب: «رمى المحصنات» (١٢/١٨٨/ح ٦٨٥٧) «مسلم فى الإيمان/باب: «أكبر الكبائر» (١/٢/٨٢، ٨٣ النووى) من حديث أبى هريرة.
وانظر كتابنا فتح ذى الجلال (ح ٤٨٦). وانظر «فتح المجيد» (ح ٤٨٥) بتخریجنا).
(٢) القول المفيد (٢/ ١٠-١١).

وذكره في كتاب الطب ويوب عليه «باب الشرك والسحر من الموبقات» ولفظه: «اجتنبوا الموبقات: الشرك بالله والسحر» وذكره في كتاب الحدود، باب «رمى المحصنات» ولفظه هو لفظ المصنف أيضاً وأخرجه مسلم بنفس اللفظ.

مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى^(١): حيث دلَّ الحديث على تحريم تعلم السحر وتعليمه.

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى^(٢): حيث حرّم السحر لأن مبناه على الشرك.

قوله [اجتنبوا]

قال سليمان آل الشيخ^(٣): أى ابعدوا، وهو الأبلغ من لا تفعلوا، لأن نهى القربان أبلغ من نهى المباشرة، ذكره الطيبي اهـ.

وقال ابن عثيمين: النبى ﷺ أنصح الخلق للخلق، فكل شيء يضر الناس في دينهم ودنياهم يحذرهم منه، ولهذا قال: «اجتنبوا» وهى أبلغ من قوله: اتركوا، لأن الاجتناب معناه أن تكون فى جانب وهى فى جانب آخر، وهذا يستلزم البعد عنها . «واجتنبوا» أى: اتركوا، بل أشد من مجرد الترك، لأن الإنسان قد يترك الشيء، وهو قريب منه، فإذا قيل: اجتنبه، يعنى: اتركه مع البعد.

قوله: [السبع الموبقات]:

قال ابن حجر^(٤): الموبقات المهلكات.

قال سليمان آل الشيخ^(٥): المهلكات، وسميت الكبائر موبقات لأنها تهلك فاعلها فى الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات، وفى الآخرة من العذاب اهـ.

[قلت]: وفى الحديث: كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» وهو فى صحيح مسلم.

قال ابن حجر^(٦): وقال ابن مالك: تضمن هذا الحديث حذف المعطوف للعلم به، فإن التقدير اجتنبوا الموبقات الشرك بالله والسحر وأخواتها، وجاز الحذف لأن الموبقات سبع، وقد ثبتت فى حديث آخر، واقتصر فى هذا الحديث على ثنتين منها - يقصد الرواية المتقدمة فى باب الشرك والسحر من الموبقات - تنبيهاً على أنها أحق بالاجتناب.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٨١)

(٥) تيسير العزيز الحميد (٢٨١)

(٢، ١) الجديد ٢٢٥.

(٤) فتح البارى (١٠/٢٤٣).

(٦) فتح البارى (١٠/٢٤٣).

ذكر ما ورد في عدد الكبائر والراجع من ذلك:

ثم قال ابن حجر^(١): قال المهلب: سميت بذلك لأنها سبب لإهلاك مرتكبها.

قلت: والمراد بالموبقة هنا الكبيرة كما ثبت في حديث أبي هريرة من وجه آخر أخرجه البزار وابن المنذر من طريق عمر بن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رفعه «الكبائر الشرك بالله وقتل النفس» الحديث مثل رواية أبي الغيث، إلا أنه ذكر بدل السحر الانتقال إلى الأعرابية بعد الهجرة^(٢).

وأخرج النسائي والطبراني وصححه ابن حبان والحاكم من طريق صهيب مولى العتارين عن أبي هريرة وأبي سعيد قالاً: «قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يصلى الخمس ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة»^(٣) الحديث، ولكن لم يفسرها، والمعتمد في تفسيرها ما وقع في رواية سالم، وقد وافقه كتاب عمرو بن حزم الذى أخرجه النسائي وابن حبان في صحيحه والطبراني من طريق سليمان بن داود عن الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده قال: «كتب رسول الله ﷺ كتاب الفرائض والديات والسنن وبعث به مع عمرو بن حزم إلى اليمن» الحديث بطوله، وفيه «وكان في الكتاب: وإن أكبر الكبائر الشرك»^(٤) فذكر مثل حديث سالم سواء.

وللطبراني من حديث سهل بن أبي خيثمة عن علي رفعه «اجتنب الكبائر السبع» فذكرها لكن ذكر التعرب بعد الهجرة بدل السحر^(٥).

وله في الأوسط من حديث أبي سعيد مثله وقال: «الرجوع إلى الأعراب بعد الهجرة»^(٦) ولإسماعيل القاضي من طريق المطلب بن عبد الله بن حنطب عن عبد الله

(١) ذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠٣/١) ونسبه للبزار. قال: وفيه عمر بن أبي سلمة ضعفه شعبه وغيره ووثقه أبو حاتم، وابن حبان وغيرهما.

(٢) القول السديد (٧٤، ٧٥).

(٣) أخرجه النسائي (٨/٥ - السيوطي)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٣١٥)، وابن حبان في «صحيحه» (١٢٢/٣ - الإحسان)، والحاكم في «المستدرک» (٢/٢٤٠). وانظر «الدر» (٢/٢٦٠).

(٤) أنظر تخريجه في مقدمتنا على «منار السبيل».

(٥) ذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠٣/١) عن سهل بن أبي حثمة عن أبيه ونسبه للطبراني في «الكبير» وفيه ابن لهيعة.

(٦) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩/٥٧).

قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/١٠٤): وفيه أبو بلال الأشعري وهو ضعيف.

ابن عمرو قال: «صعد النبي ﷺ المنبر ثم قال أبشروا من صلى الخمس واجتنب الكبائر السبع نودى من أبواب الجنة» ف قيل له: أسمعت النبي ﷺ يذكرهن؟ قال: نعم^(١)، فذكر مثل حديث على سواء.

وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الحسن قال الكبائر الإشراك بالله، فذكر مثل الأصول سواء إلا أنه قال: «اليمين الفاجرة» بدل السحر.

ولابن عمر فيما أخرجه البخارى فى «الأدب المفرد» والطبرى فى التفسير.

وعبد الرزاق والخرائطى فى «مساوى الأخلاق» وإسماعيل القاضى فى «أحكام القرآن» مرفوعاً وموقوفاً قال: «الكبائر تسع» فذكر السبعة المذكورة وزاد «الإلحاد فى الحرم وعقوق الوالدين»^(٢).

ولأبى داود والطبرانى من رواية عبيد بن عمير بن قتادة الليثى عن أبيه رفعه «إن أولياء الله المصلون ومن يجتنب الكبائر قالوا: ما الكبائر؟ قال: هن تسع، أعظمهن الإشراك بالله» فذكر مثل حديث ابن عمر سواء إلا أنه عبر عن الإلحاد فى الحرم باستحلال البيت الحرام^(٣)، وأخرج إسماعيل القاضى بسند صحيح إلى سعيد بن المسيب قال: «هن عشر» فذكر السبعة التى فى الأصل وزاد: «وعقوق الوالدين واليمين الغموس وشرب الخمر». ولابن أبى حاتم من طريق مالك بن حريث عن على قال: «الكبائر» فذكر التسعة إلا مال اليتيم وزاد «العقوق والتعرب بعد الهجرة وفراق الجماعة ونكث الصفقة»^(٤)، وللطبرانى عن أبى أمامة أنهم تذكروا الكبائر فقالوا: الشرك ومال اليتيم والفرار من الزحف والسحر والعقوق وقول الزور والغلول والزنا فقال رسول الله ﷺ: «فأين تجعلون الذين يشتركون بعهد الله ثمنا قليلاً»^(٥).

قلت: فى كتاب الأدب عند البخارى أبواب اليمين الغموس وكذا شهادة الزور وعقوق الوالدين.

(١) ذكره الهيمى فى «المجمع» (١٠٣/١ - ١٠٤) ونسبه للطبرانى فى «الكبير» وفيه مسلم بن الوليد بن العباس ولم أر من ذكره.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٦٢/٢) وزاد نسبه لابن راهوية، وعن بن حميد، وابن المنذر.

(٣) أخرجه أبو دود (٢٨٧٥) ولم يذكر لفظه والنسائى (٨٩/٧) مختصراً، والطبرانى فى «الكبير» (١٧/٤٧/١٠١)، والبيهقى فى «الكبرى» (٨٦/١٠).

وانظر «الدر» (٢٦٢/٢).

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٦٤/٢) ونسبه لابن أبى حاتم.

(٥) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير وقال: بسند حسن.

وعند عبد الرزاق والطبراني عن ابن مسعود: «أكبر الكبائر الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله»^(١) وهو موقوف، وروى إسماعيل بسند صحيح من طريق ابن سيرين عن عبد الله بن عمرو مثل حديث الأصل لكن قال: «البهتان» بدل السحر والقذف، فستل عن ذلك فقال: البهتان يجمع. وفي «الموطأ» عن النعمان بن مرة مرسلًا: «الزنا والسرقة وشرب الخمر فواحش» وله شاهد من حديث عمران بن حصين^(٢) عند البخاري في «الأدب المفرد» والطبراني والبيهقي وسنده حسن، وعند البخاري من حديث ابن عباس في النيمية ومن رواه بلفظ الغيبة وترك التنزه من البول^(٣) كل ذلك في الطهارة، ولإسماعيل القاضي من مرسل الحسن ذكر «الزنا والسرقة» وله عن أبي إسحق السبيعي «شتم أبي بكر وعمر»، وهو لابن أبي حاتم من قول مغيرة بن مقسم^(٤).

وأخرج الطبري عنه بسند صحيح «الإضرار في الوصية من الكبائر»^(٥) وعنه «الجمع بين الصلاتين من غير عذر»^(٦) رفعه.

وله شاهد أخرجه ابن أبي حاتم عن عمر قوله^(٧)، وعند إسماعيل من قول ابن عمر ذكر النية.

ومن حديث بريدة عند البزار «من فضل الماء ومنع طروق الفحل»^(٨).

ومن حديث أبي هريرة عند الحاكم «الصلوات كفارات إلا من ثلاث: الإشراك بالله ونكث الصفقة وترك السنة»^(٩) ثم فسر نكث الصفقة بالخروج على الإمام وترك السنة بالخروج عن الجماعة أخرجه الحاكم.

(١) ذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠٤/١) ونسبه للطبراني في «الكبير» قال: واسناده صحيح.

وانظر «الدر» (٢٦٤/٢). وسيأتي.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (٢٠٦٤/٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٧٨)، ومسلم في الطهارة (٢٠٠/٣ - النوى).

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٤٠ - بتخريجه).

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (٢٦٦/٢) ونسبه لابن أبي حاتم فانظره بتخريجنا.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر» (٢٦٤/٢) ونسبه لابن أبي حاتم فانظره بتخريجنا.

(٦) أخرجه الترمذي (١٨٨) وضعفه.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر» (٢٦٣/٢) ونسبه لابن أبي حاتم.

(٨) ذكره الهيثمي في «المجمع» (١٠٥/١) ونسبه للبزار. قال: وفيه صالح بن حيان وهو ضعيف ولم

يوثقه أحد.

(٩) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١١٩/١ - ١٢) عن أبي هريرة به.

ومن حديث ابن عمر عند ابن مردويه «أكبر الكبائر سوء الظن بالله».

ومن الضعيف فى ذلك نسيان القرآن أخرجه أبو داود والترمذى عن أنس رفعه «نظرت فى الذنوب فلم أر أعظم من سورة من القرآن أوتيتها رجل فنيها»^(١) وحديث «من أتى حائضاً أو كاهناً فقد كفر»^(٢) أخرجه الترمذى، فهذا جميع ما وقفت عليه مما ورد التصريح بأنه من الكبائر أو من أكبر الكبائر صحيحاً وضعيفاً مرفوعاً وموقوفاً، وقد تتبعته غاية تتبع، وفى بعضه ما ورد خاصاً ويدخل فى عموم غيره كالتسبب فى لعن الوالدين وهو داخل فى العقوق وقتل الولد وهو داخل فى قتل النفس والزنا بحليلة الجار وهو داخل فى الزنا والنهبة والغلول واسم الخيانة يشمل ويدخل الجميع فى السرقة وتعلم السحر وهو داخل فى السحر وشهادة الزور وهى داخله فى قول الزور ويمين الغموس وهى داخله فى اليمين الفاجرة والقنوط من رحمة الله كاليأس من روح الله.

والمعتمد من كل ذلك ما ورد مرفوعاً بغير تداخل من وجه صحيح وهى السبعة المذكورة فى حديث الباب والانتقال عن الهجرة والزنا والسرقة والعقوق واليمين الغموس والإلحاد فى الحرم وشرب الخمر وشهادة الزور والتيممة وترك التنزه من البول والغلول ونكت الصفقة وفراق الجماعة، فتلك عشرون خصلة وتتفاوت مراتبها، والمجمع على عده من ذلك أقوى من المختلف فيه إلا ما عضده القرآن أو الإجماع فيلتحق بما فوقه ويجتمع من المرفوع ومن الموقوف ما يقاربها.

الحكمة من الاختصار على السبعة .

قال ابن حجر^(٣): ويحتاج عند هذا إلى الجواب عن الحكمة فى الاختصار على سبع، ويجب أن مفهوم العدد ليس بحجة وهو جواب ضعيف.

وبأنه أعلم أولاً بالمذكورات ثم أعلم بما زاد فيجب الأخذ بالزائد.

أو أن الاختصار بحسب المقام بالنسبة للسائل أو من وقعت له واقعة ونحو ذلك.

وقد أخرج الطبرى وإسماعيل القاضى عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر سبع فقال:

هن أكثر من سبع وسبع.

(١) أخرجه أبو داود (٤٦١)، والترمذى (٢٩١٦) واستغربه الترمذى.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) الفتح ١٣/ ١٩٠.

وفى رواية عنه هى إلى السبعين أقرب .

وفى رواية إلى السبعمائة . ويحمل كلامه على المبالغة بالنسبة إلى من اقتصر على سبع، وكان المقتصر عليها اعتمد على حديث الباب المذكور . اهـ .

قال ابن عثيمين^(١): هذا لا يقتضى الحصر، فإن هناك موبقات أخرى، ولكن النبى ﷺ يحصر أحياناً بعض الأنواع والأجناس، ولا يعنى بذلك عدم وجود غيرها .
ومن ذلك حديث: «السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله»^(٢) فهناك غيرهم، ومثله . اهـ .

قلت: وحديث: ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، وأمثلة هذا كثيرة، وإن قلنا بدلالة حديث أبى هريرة فى الباب على الحصر لكونه وقع بـ «أل» المعرفة فإنه حصرها، لأن هذه أعظم الكبائر . اهـ .

حد الكبيرة: واختلاف العلماء فى ذلك والترجيح:

قال ابن حجر^(٣): وإذا تقرر ذلك عرف فساد من عرف الكبيرة بأنها ما وجب فيها الحد، لأن أكثر المذكورات لا يجب فيها الحد .

قال الرافعى فى «الشرح الكبير»: الكبيرة هى الموجبة للحد، وقيل ما يلحق الوعيد بصاحبه بنص كتاب أو سنة، هذا أكثر ما يوجد للأصحاب، وهم إلى ترجيح الأول أميل، لكن الثانى أوفق لما ذكروه عند تفصيل الكبائر، وقد أقره فى «الروضة»، وهو يشعر بأنه لا يوجد عن أحد من الشافعية الجمع بين التعريفين، وليس كذلك .

فقد قال المسوردي فى «الحاوى»: هى ما يوجب الحد أو توجه إليها الوعيد، أو فى كلامه للتنويع لا للشك، وكيف يقول عالم إن الكبيرة ما ورد فيه الحد مع التصريح فى الصحيحين بالعقوق واليمين الغموس وشهادة الزور وغير ذلك، والأصل فيما ذكره الرافعى قول البغوى فى «التهذيب» من ارتكب كبيرة من زنا أو لواط أو شرب خمر أو غصب أو سرقة أو قتل بغير حق ترد شهادته، وإن فعله مرة واحدة، ثم قال: فكل ما يوجب الحد من المعاصى فهو كبيرة .

وقيل ما يلحق الوعيد بصاحبه بنص كتاب أو سنة انتهى .

(١) القول المفيد (٢/) .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) فتح البارى ١٣/ ١٩٠-١٩١ .

والكلام الأول لا يقتضى الحصر، والثاني هو المعتمد.

وقال ابن عبد السلام: لم أقف على ضابط الكبيرة يعنى يسلم من الاعتراض قال: والأولى ضبطها بما يشعر بتهاون مرتكبها إشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها، قال وضبطها بعضهم بكل ذنب قرن به وعيد أو لعن.

قلت: وهذا أشمل من غيره، ولا يرد عليه إخلاله بما فيه حد، لأن كل ما ثبت فيه الحد لا يخلو من ورود الوعيد على فعله، ويدخل فيه ترك الواجبات الفورية منها مطلقاً والتراخية إذا تضيقت.

وقال ابن الصلاح: لها أمارات.

منها: إيجاب الحد.

ومنها: الإبعاد عليها بالعذاب بالنار ونحوها فى الكتاب أو السنة.

ومنها: وصف صاحبها بالفسق.

ومنها: اللعن، قلت: وهذا أوسع مما قبله، وقد أخرج إسماعيل القاضى بسند فيه ابن لهيعة عن أبى سعيد مرفوعاً «الكبائر كل ذنب أدخله صاحب النار» وبسند صحيح عن الحسن البصرى قال «كل ذنب نسبته الله تعالى إلى النار فهو كبيرة» ومن حسن التعريف قول القرطبى فى المفهم «كل ذنب أطلق عليه بنص كتاب أو سنة أو إجماع أنه كبيرة أو عظيم أو أخبر فيه بشدة العقاب أو علق عليه الحد أو شدد النكير عليه فهو كبيرة، وعلى هذا فينبغى تتبع ما ورد فيه الوعيد أو اللعن أو الفسق من القرآن أو الأحاديث الصحيحة والحسنة ويضم إلى ما ورد فيه التنصيص فى القرآن، والأحاديث الصحاح والحسان على أنه كبيرة، فمهما بلغ مجموع ذلك عرف منه تحرير عدها، وقد شرعت فى جميع ذلك وأسأل الله الإعانة على تحريره بمنه وكرمه، وقال الحلیمى فى «المنهاج»: ما من ذنب إلا وفيه صغيرة وكبيرة، وقد تنقلب الصغيرة كبيرة بقرينة تضم إليها، وتنقلب الكبيرة فاحشة كذلك، إلا الكفر بالله فإنه أفحش الكبائر وليس من نوعه صغيرة، قلت: ومع ذلك فهو ينقسم إلى فاحش وأفحش، ثم ذكر الحلیمى أمثلة لما قال فالثانى كقتل النفس بغير حق فإنه كبيرة، فإن قتل أصلاً أو فرعاً أو ذا رحم أو بالحرم أو بالشهر الحرام فهو فاحشة، وشرب الخمر كبيرة، فإن كان فى شهر رمضان نهاراً أو فى الحرم أو جاهر به فهو فاحشة والأول كالمساخنة مع الأجنبية صغيرة، فإن كان مع

.....
امرأة الأب أو حليمة الابن أو ذات رحم فكبيرة، وسرقة ما دون النصاب صغيرة، فإن كان المسروق منه لا يملك غيره وأفضى به عدمه إلى الضعف فهو كبيرة، وأطال في أمثلة ذلك، وفي الكثير منه ما يتعقب، لكن هذا عنوانه، وهو منهج حسن لا بأس باعتباره، ومداره على شدة المفسدة وخفتها والله أعلم.

قال ابن عثيمين^(١): كان الصحابة رضى الله عنهم أحرص الناس على العلم، والنبى ﷺ إذا ألقى إليهم الشيء مبهمًا طلبوا تفسيره وتبينه، فلما حذرهم النبى ﷺ من السبع الموبقات قالوا ذلك لأجل أن يجتنبوهن، فأخبرهم، وعلى هذه القاعدة أن الصحابة رضى الله عنهم أحرص الناس على العلم لكن ما كانت الحكمة فى إخفائه، فإن النبى ﷺ لا يخبرهم، كقوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة»^(٢) ولم يرد تبينها عن النبى ﷺ فى حديث صحيح.

وقد حاول بعض الناس أن يصحح حديث سرد الأسماء التسعة والتسعين، ولم يصب، بل نقل شيخ الإسلام اتفاق أهل المعرفة فى الحديث على أن عدها وسردها لا يصح عن النبى ﷺ، وصدق رحمه الله بدليل الاختلاف الكبير فيها.

فمن حاول تصحيح هذا الحديث، قال: إن الثواب عظيم، «من أحصاها دخل الجنة» فلا يمكن للصحابة أن يُقَوِّروا، فلا يسألوا عن تعيينها، فدل هذا على أنها قد عُيِّنَتْ من قبل النبى ﷺ.

لكن يجاب عن ذلك بأنه ليس بلام، ولو عينها النبى ﷺ، لكانت هذه الأسماء التسع والتسعين معلومة للعالم أشد من علم الشمس، ولنقلت فى «الصحيحين» وغيرهما، لأن هذا مما تدعو الحاجة إليه، وتلج بحفظه والعناية به، فكيف لا يأتى إلا عن طرق واهية وعلى صور مختلفة؟!

فالنبى ﷺ لم يبينها لحكمة بالغة، وهى أن يطلبها الناس ويتحروها فى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ حتى يعلم الحريص من غير الحريص.

كما ولم يبين النبى ﷺ ساعة الإجابة يوم الجمعة، والعلماء اختلفوا فى حديث أبى موسى الذى فى مسلم، حيث قال فيه: «إنها ما بين أن يخرج الإمام إلى أن تقضى الصلاة»(*) فإن بعضهم صححه وبعضهم ضعفه، لكن هو عندى صحيح، لأن علة

(١) القول المفيد (٢/١٢، ١٣، ١٤، ١٥).

(٢) سيأتى تخريجه.

(*) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجمعة (٣/٤٠٣-١٦).

لتضعيف فيه واهية، والحال تؤيد صحته، لأن الناس مجتمعون أكبر اجتماع في البلد على صلاة مفروضة، فيكون هذا الوقت في هذه الحال حريراً بإجابة الدعاء، وكذلك ليلة القدر لم يبينها النبي ﷺ مع أنها من أهم ما يكون .

قوله: «قالوا: يا رسول الله! وما هن؟»

سألوا عن تبينها، وبه تبين الفائدة من الإجمال، وهى أن يتطلع المخاطب لبيان هذا المجمل، لأنه إذا جاء مبنياً من أول وهلة، لم يكن له التلقى والقبول كما إذا أجمل ثم بُين .

قوله: «وما هن»

«ما» اسم استفهام مبتدأ، و«هن»: خبر المبتدأ.
وقيل: بالعكس، «ما»: خبر مقدم وجوباً، لأن الاستفهام له الصدارة، و«هن»: مبتدأ مؤخر .

لأن «هن» ضمير معرفة، و «ما» نكرة، والقاعدة المتبعة أنه يُخبر بالنكرة عن المعرفة ولا عكس . اهـ .

قوله: (قال: الشرك بالله).

قال سليمان آل الشيخ^(١): هو أن يجعل لله ندّاً يدعو كما يدعو الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويخافه كما يخاف الله، وبدأ به لأنه أعظم ذنب عصى الله به، كما فى الصحيحين عن ابن مسعود سألت أو سُئِلَ - رسول الله ﷺ أى الذنب عند الله أكبر؟ قال «أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك»^(٢).

قال ابن عثيمين^(٣): والشرك بالله يتناول الشرك بربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه أو صفاته .

فمن اعتقد أن مع الله خالقاً أو معيناً، فهو مشرك، أو أن أحداً سوى الله يستحق أن يعبد، فهو مشرك وإن لم يعبد، فإن عبده، فهو أعظم، أو أن لله مثيلاً فى أسمائه، فهو مشرك، أو أن الله استوى على العرش كاستواء الملك على عرش مملكته، فهو مشرك، أو أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزول الإنسان إلى أسفل بيته من أعلى، فهو مشرك .

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٨٦).

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) القول المفيد ١٧، ١٦/٢ .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وقال تعالى : ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

وبين ﷺ أن الشرك أعظم ما يكن من الجناية والجُرْم بقوله حين سئل : أى الذنب أعظم : «أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

فالذى خلقك وأوجدك وأمدك وأعدك ورزقك كيف تجعل له نداً؟ فلو أن أحداً من الناس أحسن إليك بما دون ذلك، فجعلت له نظيراً، لكان هذا الأمر بالنسبة إليه كفراً وجحوداً. اهـ.

قوله: «والسحر»: والسحر تقدم معناه، وهذا وجه إيراد المصنف لهذا الحديث فى الباب (١).

قال ابن عثيمين^(٢): قوله «والسحر»: أى من الموبقات، وظاهر كلام النبى ﷺ أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين أو بواسطة الأدوية والعقاقير.

لأنه إن كان بواسطة الشياطين، فالذى لا يأتى إلا بالإشراك بهم، فهو داخل فى الشرك بالله.

وإن كان دون ذلك، فهو أيضاً جرم عظيم، لأن السحر من أعظم ما يكون فى الجناية على بنى آدم، فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه ويُقْلِقُه فيصبح كالبهائم، بل أسوأ من ذلك، لأن البيهمة خلقت هكذا على طبيعتها، أما الآدمى، فإنه إذا صُرف عن طبيعته وفطرته لحقه من الضيق والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولهذا كان السحر يلى الشرك بالله عز وجل.

قوله: «وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق».

قال ابن عثيمين^(٣): القتل: إزهاق الروح، والمراد بالنفس: البدن الذى فيه الروح، والمراد بالنفس هنا: نفس الآدمى وليس نفس البعير والحصان وما أشبهها.

وقوله: «إلا بالحق».

أى: بالعدل، لأن هذا حكم، والحق إذا ذكر بإزاء الأحكام، فالمراد به العدل، وإن

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٨٧).

(٢) القول المفيد ٢٧/٢-٢٨.

(٣) القول المفيد ٢٧/٢، ١٨، ١٩.

ذكر بإزاء الأخبار، فالمراد به الصدق، والعدل: هو ما أمر الله به ورسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ (١).

والنفس المحرمة أربعة أنفس، هي: نفس المؤمن، والذمي، والمعاهد، والمستأمن، بكسر الميم: طالب الأمان.

فالمؤمن لإيمانه، والذمي لذمته، والمعاهد لعهد، والمستأمن لتأمينه.

والفرق بين الثلاثة - الذمي، والمعاهد، والمستأمن - أن الذمي هو الذي بيننا وبينه ذمة، أى: عهد على أن يقيم فى بلادنا معصوماً مع بذل الجزية.

وأما المعاهد، فيقيم فى بلاده، لكن بيننا وبينه عهد أن لا يحاربنا ولا نحاربه.

وأما المستأمن، فهو الذى ليس بيننا وبينه ذمة ولا عهد، لكننا أمناءه فى وقت محدد،

كرجل حربى دخل إلينا بأمان للتجارة ونحوها، أو ليفهم الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (٢) وهناك فرق آخر، وهو أن العهد يجوز من جميع الكفار، والذمة لا تجوز إلا من اليهود والنصارى والمجوس دون بقية الكفار وهذا هو المشهور من المذهب، والصحيح: أنها تجوز من جميع الكفار.

فهذه الأنفس الأربع قتلها حرام، لكنها ليست على حد سواء فى التحريم، فنفس المؤمن أعظم، ثم الذمي، ثم المعاهد، ثم المستأمن.

وهل المستأمن مثل المعاهد أو أعلى.

أشك فى ذلك، لأن المستأمن من له عهد خاص، بخلاف المعاهدين، فالمعاهدون يتولى العهد أهل الحل والعقد منهم، فليس بيننا وبينهم عقود تأمينات خاصة، وأيا كان، فالحديث عام، وكل منهم معصوم الدم والمال.

وقوله: «إلا بالحق» أى مما يوجب القتل، مثل: الشيب الزانى، أى بالرجم والنفس بالنفس، أى بالقصاص، والتارك لدينه المفارق للجماعة، أى المرتد يقتل لردته.

قوله «وأكل الربا» الربا فى اللغة: الزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ (٣) يعنى زادت.

وفى الشرع: تفاضل فى عقد بين أشياء يجب فيها التساوى، ونسأ فى عقد بين أشياء يجب فيها التقابض.

(٣) الحج: ٥

(٢) التوبة: ٦.

(١) النحل: ٩٠.

والربا: ربا فضل ؟ أى «زيادة» وربا نسيئة، أى : تأخير، وهو يجرى فى ستة أموال، بينها الرسول ﷺ فى قوله : «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة والبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير بالشعير، والملح بالملح»^(١) فهذه هى الأموال الربوية بنص الحديث وإجماع المسلمين، وهذه الأصناف الستة إن بيعت منها جنساً بمثلها جرى فيها ربا الفضل وربا النسيئة، فلو زدت واحداً على آخر، فهو ربا فضل، أو سويته لكن أخرت القبض، فهو ربا نسيئة، وربما يجتمع النوعان كما لو بيعت ذهباً بذهب متفاضلاً والقبض متأخراً، فقد اجتمع فى هذا العقد ربا الفضل وربا النسيئة، وعلى هذا فإذا بيعت جنساً بجنسه، فلا بد من أمرين : التساوى، والتقابض فى مجلس العقد.

وإذا اختلفت الأجناس واتفقت العلة، أى: اتفق المقصود فى العوضين، فإنه يجرى ربا النسيئة دون ربا الفضل، فذهب بفضة متفاضلاً مع القبض جائز، وذهب بفضة متساوياً مع التأخير ربا لتأخير القبض.

قال ﷺ: «فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»^(٢).

وقولنا : اتفقا فى الغرض والمقصود احترازاً ما إذا اختلف الغرض منها.

فالذهب مثلاً ثمن للأشياء، والفضة ثمن للأشياء، والبر قوت.

وعلى هذا يجوز بيع صاع من البر بدينار من الذهب مع التفرق وعدم التساوى لاختلاف القصد، لأن هذا يقصد به النقد والثمنية، وهذا يقصد به القوت

فإن قيل: الحديث يدل على أنه لا يصح إلا بالقبض، فما هو الجواب؟

نقول: حقيقة إن هذا مقتضى الحديث أنك إذا بيعت ذهباً ببر وجب التقابض، لقوله

ﷺ: «فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»^(٣).

والجواب عن هذا أن نقول: قد دلت السنة من وجه آخر على أن القبض ليس بشرط فيما إذا كان أحدهما ثمنًا، قال ابن عباس: قدم النبی ﷺ المدينة وهم يُسلفون فى الثمار السنة والستين، فقال: «من أسلف فى شيء فليسلف فى كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم»^(٤).

وعلى هذا، فحديث: «فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد» لا عموم لمفهومه، فلا يشترط القبض فى كل صورة من صور المخالفة، وإنما يشترط القبض فيما إذا اتفقا فى

(١) [صحيح] أخرجه (١٥٨٧/١٥/١١) عن عبادة به. وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج

أحاديث الظلال» (١٢٤)

(٣) ما قبله

(٢) ما قبله

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى المسافة (١٢٧ / ٤٦/٦) عن ابن عباس به.

الغرض، كذهب بفضة، أو بر بشعير، وأما ذهب أو فضة بشعير، ونحوه، فلا يشترط القبض.

واختلف العلماء فيما عدا هذه الأصناف الستة، فالظاهرية قالوا: لا يجرى الربا إلا في هذه الأصناف الستة، لأنهم لا يرون القياس فيقتصر على ما جاء به النص، فيجوز عندهم مبادلة أرز بذرة متفاضلاً مع تأخر القبض لأنهما لا يدخلان في المنصوص عليه. .
وأما أهل القياس من المذاهب الأربعة، فإنهم عدّوا الحكم إلى غيره، إلا أن بعضاً منهم لم يعد الحكم إلى غيرها، وهو من أهل القياس، مثل ابن عقيل رحمه الله فإنه قال: لا يجرى الربا إلا في هذه الأصناف الستة، لا لأنه قياس، ولكن لأن العلماء اختلفوا واضطربوا في العلة التي من أجلها كان الربا، فلما اضطربوا في العلة ألغينا جميع هذه العلل، وأبقينا النص على ما هو عليه من الحصر في المنصوص عليه.

والصحيح أن الربا يجرى في غير الأصناف الستة، وأن العلة هي الكيل والادخار مع الطعم، وهو أن يكون قوتاً مدخراً، وهذا بالنسبة للبر والتمر والشعير.

وبالنسبة للذهب والفضة : العلة هي الجنس والثمنية، فقولنا: «الجنس» لأجل أن يشمل الحلّى إذا بيع بعضه ببعض، فيجرى فيه الربا، مع أنه ليس بثمر، والثمنية مثل الدراهم والدنانير والأوراق النقدية المعروفة، فإنها بمنزلة الذهب والفضة، أو يقال: العلة الثمنية فقط والحلّى خارج عن الثمنية خروجاً طارئاً، لأن التحلّى طارئ، والأصل في الذهب والفضة الثمنية، لأنهما ثمن الأشياء.

وأما الملح، فقال شيخ الإسلام: إنه يصلح به القوت، أى: فهو تابع له، فالعلة ليس أنه قوت، لكنه من ضروريّاته، ولهذا لو طحنت برّاً ولم يكن فيه ملح، لم يبق إلا أياماً يسيرة، فيفسد، فإن كان فيه الملح منعه من الفساد، فيقول: لما كان يصلح به القوت جعل له حكمه.

وقوله: «وأكل الربا» .

ذكر النبى ﷺ الأكل، لأنه أعم وجوه الانتفاع، هكذا قال أهل العلم، ولهذا قال تعالى في بنى إسرائيل: «وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ» ولم يقل أكلهم، والأخذ أعم من الأكل، فأكل الربا معناه أخذه، سواء استعمله فى الأكل أو الفرش أو البناء أو المسكن أو غير ذلك.

قوله: «وأكل مال اليتيم»:

اليتيم: هو الذى مات أبوه قبل بلوغه، سواء كان ذكراً أم أنثى، أما من ماتت أمه قبل بلوغه، فليس يتيماً لا شرعاً ولا لغةً.

لأن اليتيم مأخوذ من اليتيم، وهو الانفراد، أى: انفرد عن الكاسب له، لأن أباه هو الذى يكسب له.

وخص اليتيم، لأنه لا أحد يدافع عنه، ولأنه أولى أن يرحم، ولهذا جعل الله له حقاً فى الفىء، وإذا كان أحق أن يرحم، فكيف يسطو هذا الرجل الظالم على ماله فيأكله؟!؟

ويقال فى أكل مال اليتيم ما قيل فى أكل الربا، فليس خاصاً فى الأكل بل حتى لو استعمله فى السكن أو الفرش أو الكتب أو غيرها، فهو داخل فى ذلك.

وأكل مال غير اليتيم ليس من الكبائر، لأن اليتيم له شأن خاص، ولهذا توعده الله من يأكل أموال اليتامى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾. اهـ.

قلت: (ظلمًا) يشير إلى جواز أكل ماله بالحق، وهو جاء صريحاً فى قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ والأكل بالتى هى أحسن أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وله ثلاث صور ذكرها ابن الجوزى فى تفسيره منها القرض.

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله «التولى يوم الزحف» أى: الإِدْبَار من وجوه الكفار وقت ازدحام الطائفتين فى القتال وإنما يكون كبيرة إذا فر إلى غير فئة أو غير منحرف لقتال كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْإِدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّقًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. اهـ.

وشرح ذلك ابن عثيمين^(٢) فقال: التولى: بمعنى الإِدْبَار، والإِعْرَاض، ويوم الزحف، أى: يوم تلاحم الصّفين فى القتال مع الكفار، وسمى يوم الزحف، لأنّ الجموع إذا تقابلت تجد أن بعضها يزحف إلى بعض، كالذى يمشى زحفاً كل واحد منهم يهاب الآخر، فيمشى رويداً رويداً.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٨٧).

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٤، ٢٥، ٢٦.

والتولى يوم الزحف من كبائر الذنوب، لأنه يتضمن الإعراض عن الجهاد فى سبيل الله ، وكسر قلوب المسلمين، وتقوية أعداء الله وهذا يؤدى إلى هزيمة المسلمين.

لكن هذا الحديث خصصته الآية، وهى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّقًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فالله سبحانه استثنى حالين:

الأولى: أن يكون متحرقاً لقتال، أى: متهيئاً له، كمن ينصرف ليصلح من شأنه أو يهوى الأسلحة ويعدّها، ومنه الانحراف إلى مكان آخر يأتى العدو من جهته، فهذا لا يعد متولياً، إنما يعد متهيئاً.

الثانية: المتحيز إلى فئة كما إذا حصرت سرية للمسلمين يمكن أن يقضى عليها العدو، فانصرف من هؤلاء لينقذها، فهذا لا بأس به لدعاء الضرورة إليه، بشرط ألا يكون على الجيش ضرر، فإن كان على الجيش ضرر وذهبت طائفة كبيرة إلى هذه السرية بحيث توهن قوة الجيش وتكسره أمام العدو، فإنه لا يجوز، لأن الضرر هنا متحقق، وإنقاذ السرية غير متحقق، فلا يجوز لأن المقصود إظهار دين الله، وفى هذا إذلال لدين الله. إلا إذا كان الكفار أكثر من مثلى المسلمين، فيجوز الفرار حينئذ، لقوله تعالى: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ أو كان عندهم عدة لا يمكن للمسلمين مقاومتها، كالطائرات، إذا لم يكن عند المسلمين من الصواريخ ما يدفعها، فإذا علم أن الصمود يستلزم الهلاك والقضاء على المسلمين، فلا يجوز لهم أن يبقوا، لأن مقتضى ذلك أنهم يغربون بأنفسهم.

وفى هاتين الآيتين تخصيص السنة بالكتاب، وهو قليل. اهـ.

[قلت]: بل هناك أحاديث خصصت هذا التولى كقوله ﷺ: «أنا فتكم ..» الحديث.

ثم قال: ومن تخصيص السنة بالكتاب أن من الشروط التى بين النبى ﷺ والمشركون فى الحديبية أن من جاء من المشركون مسلماً يرد إليهم^(١)، وهذا الشرط عام يشمل الذكر

(١) [متفق عليه] أخرجه : البخارى (٢٦٩٩)، ومسلم فى الجهاد (٦/٣٧٧/٩٣).

والأثني، فأنزل الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْتَحِرُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ .

قوله: «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»:

قال الشيخ سليمان^(١): قوله «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»: هو بفتح الصاد: المحفوظات من الزنا، وبكسرها: الحافظات فروجهن عنه، والمراد الحرائر العفيفات، ولا يختص المتزوجات بل حكم البكر كذلك بالإجماع كما ذكره الحافظ، إلا إن كانت دون تسع سنين، والمراد رميهن بزنا أو لواط، والغافلات أى: عن الفواحش وما رمين به، لا خبر عندهن من ذلك، فهو كناية عن البريئات لأن الغافل برئ عما بهت به من الزنا، والمؤمنات، أى: بالله تعالى، احترازًا عن قذف الكافرات، فإنه من الصغائر.

قال ابن عثيمين^(٢):

القذف: بمعنى الرمى، والمراد به هنا الرمى بالزنا، والمحصنات هنا الحرائر، وهو الصحيح، وقيل: العفيفات عن الزنا.

والغافلات: وهن العفيفات عن الزنا البعيدات عنه، اللاتي لا يخطر على بالهن هذا الأمر. اهـ.

قلت: وشهد له قصة الإفك حيث كانت عائشة غافلة عما رميت به وكذلك الوليد ابن عبد الملك قال: ما ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا حتى قص الله خبر قوم لوط .

ثم قال: والمؤمنات احترازًا من الكافرات، فمن قذف امرأة هذه صفاتها، فإن ذلك من الموبقات، ومع ذلك يقام عليه الحد- ثمانون جلدة- ولا تقبل شهادته ويكون فاسقًا، فجعل الله عليه ثلاثة أمور، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ .

وهذا الاستثناء لا يشمل أول الجمل بالاتفاق، ويشمل آخر الجمل بالاتفاق، واختلف

(١) تيسير العزيز ٢٨٧، ٢٨٨.

(٢) القول المفيد ٢٦/٢، ٢٧.

العلماء فى الجملة الثانية، وهى قوله : ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ فقيل : إنه يعود إليها، وقيل : لا يعود. اهـ.

قلت: وانظر تفصيل ذلك عند ابن كثير وغيره.

ثم قال: وبناء على ذلك إذا تاب القاذف: هل تقبل شهادته أم لا؟

الجواب: اختلف فى ذلك أهل العلم:

فمنهم من قال: لا تقبل شهادته أبدا ولو تاب، وأيدوا قولهم بأن الله أبد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ وفائدة هذا التأييد أن الحكم لا يرتفع عنه مطلقاً.

وقال آخرون: بل تقبل، لأن مبنى قبول الشهادة وردها على الفسق، فإذا زال وهو المانع من قبول الشهادة، زال ما يترتب عليه.

وينبغى فى مثل هذا أن يقال: إنه يرجع إلى نظر الحاكم، فإذا رأى من المصلحة عدم قبول الشهادة لردع الناس عن التهاون بأعراض المسلمين، فيفعل.

والا، فالأصل أنه إذا زال الفسق وجب قبول الشهادة، وهل قذف المحصنين الغافلين المؤمنين كقذف المحصنات من كبائر الذنوب؟

الجواب: الذى عليه جمهور أهل العلم أن قذف الرجل كقذف المرأة، وإنما خص بذلك المرأة، لأن الغالب أن القذف يكون للنساء أكثر، إذ البغايا كثيرات قبل الإسلام، وقذف المرأة أشد، لأنه يستلزم الشك فى نسب أولادها من زوجها، فيلحق بهن القذف ضرراً أكثر، فتخصيصه من باب التخصيص بالغالب، والقيد الأعلى لا مفهوم له، لأنه لبيان الواقع.

والشاهد من هذا الحديث قوله: «السحر» اهـ.

قلت: ومن الآيات المرهبة من قذف المحصنة: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾.

ومن الأحاديث التى ترهب قذف المحصنات حديث: «قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة».

وحديث: «وإن أربا الربا الاستطالة فى عرض المسلم» وهذا يدل على أن الواو فى الحديث لا تقتضى الترتيب، لأن القذف أشد من الربا، وكذلك قوله «ألا أدلكم على شراركم الثرثارون النمامون المفرقون بين الأحبة الباغون للبراء العيب أو العنت».



وَعَنْ جُنْدَبٍ مَرْفُوعًا: «حَدَّثَ السَّاحِرُ ضَرْبَهُ بِالسَّيْفِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: «الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ»^(١).

قال سليمان آل الشيخ^(٢): هذه الحديث رواه الترمذى كما قال: المصنف من طريق إسماعيل عن مسلم المكى وقال بعد أن رواه: لانعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكى يضعف فى هذا الحديث من قبل حفظه، وإسماعيل بن مسلم العبدى البصرى، قال وكيع هو نفسه، ويروى عن الحسن أيضاً، والصحيح عن جندب موقوف أهـ.

ورواه أيضاً الدارقطنى والبيهقى والحاكم وقال: صحيح غريب وقال الترمذى فى «العلل» سألت عنه محمداً يعنى البخارى فقال: هذا لاشئ وإسماعيل ضعيف جداً وقال الذهبي فى «الكبائر» إنه من قول جندب وأشار مغلطاً إلى أنه وإن كان ضعيفاً يتقوى بكثرة طرقه وقال: أخرجه جمع: منهم البغوى الكبير والصغير والطبرانى والبخارى ومن لا يحصى كثرة أهـ.

قوله: «عن جندب»..

قال سليمان آل الشيخ^(٣): قوله: عند جندب. ظاهر صنيع الطبرانى فى «الكبير» أنه جندب بن عبد الله البجلي جندب الخير الأزدي قاتل الساحر، فإنه رواه فى «ترجمة»

(١) أخرجه الترمذى فى الحدود/ باب ما جاء فى السحر (٤/ ٦٠ / ١٤٦٠)، والدارقطنى فى «سننه» (٣/ ١١٤)، والطبرانى فى «الكبير» (٢/ ١٦١ / ١٦٦٥)، والحاكم فى «المستدرک» (٤/ ٣٦٠)، والبيهقى فى «الكبرى» (٨/ ١٣٦).

من طريق إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب..... فذكره.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد وإن كان الشيخان تركا حديث إسماعيل بن مسلم فإنه غريب صحيح وله شاهد صحيح على شرطهما جميعاً من ضد هذا. أهـ.

قال الترمذى: هذا حديث لانعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكى يضعف فى الحديث. وإسماعيل بن مسلم العبدى البصرى، قال وكيع هو ثقة ويروى عن الحسن أيضاً والصحيح عن جندب موقوفاً.

قال البيهقى: إسماعيل بن مسلم ضعيف.

وقال الترمذى فى «العلل الكبير» (١/ ٢٣٧ / ح ٤٣) سألت محمداً عن هذا الحديث؟ فقال: هذا لاشئ. وإنما رواه إسماعيل بن مسلم وضعف إسماعيل بن مسلم المكى جداً.

وقال الحافظ فى «الفتح» (١٠/ ٢٤٧) فى سنده ضعف وانظر «فتح المجيد» (ح ٢ / ٥٠) بتخريجنا. (٢ - ٣) تيسير العزيز الحميد (٢٨٨).

جندب البجلي من طريق خالد العبد عن الحسن عن جندب عن النبي ﷺ وذكره؛ وخالد العبد ضعيف.

قال ابن حجر: والصواب أنه غيره، فقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين؛ عن الحسن عن جندب الخير أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات. وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: فذكره. وجندب الخير هو جندب بن كعب، وقيل جندب بن زهير، قيل هما واحد كما قاله ابن حبان. أبو عبد الله الأزدي الغامدي صحابي.

قوله: «حد الساحر ضربه بالسيف».

قال سليمان آل الشيخ^(١): وروى ابن السكن من حديث بريدة أن النبي ﷺ قال: «يُضْرَبُ ضَرْبَةً فَيَكُونُ أَمَةً وَحْدَةً»^(٢).

قوله: «حد الساحر ضربة بالسيف». روى بالهاء وبالتاء وكلاهما صحيح، وبهذا الحديث أخذ أحمد ومالك وأبو حنيفة فقالوا: يقتل الساحر. وروى ذلك عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وجندب بن عبد الله وجندب بن كعب وقيس بن سعد وعمر ابن عبد العزيز. ولم ير الشافعي عليه القتل بمجرد السحر إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر. وبه قال ابن المنذر وهو رواية عن أحمد، والأول أولى للحديث، ولأثر عمر الذي ذكره المصنف وعمل به الناس في خلافته من غير نكير فكان إجماعاً. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله «حد الساحر ضربة بالسيف».

حده يعنى: عقوبته المحددة شرعاً.

وظاهره أنه لا يكفر؛ لأن الحدود تطهر المحدود من الإثم.

والكافر إذا قتل على رده؛ فالقتل لا يطهره.

وهذا محمول على ما سبق: أن من أقسام السحر ما لا يخرج الإنسان عن الإسلام، وهو ما كان بالأدوية والعقاقير التي توجب الصرف والعطف وما أشبه ذلك.

قوله: «ضربة بالسيف».

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٨٩.

(٢) أخرجه ابن السكن كما في الإصابة (١/ ٢٥٠) وانظر «فتح المجيد» (ح ٥٠٦) بتخريجنا

(٣) القول المفيد ٢٨/ ٢ و ٢٩.

روى بالتاء بعد الباء، وروى بالهاء، وكلاهما صحيح، لكن الأولى أبلغ؛ لأن التنكير وصيغة الوحدة يدلان على أنها ضربة قوية قاضية.

هذا كناية عن القتل، وليس معناه أن يضرب بالسيف مع ظهره مصفحاً.

قال ابن عثيمين^(١): «حكم قتل الساحر» وأما قتل الساحر، فإن كان سحره كفرًا؛ قُتل قتل ردة، إلا أن يتوب على القول بقبول توبته، وهو الصحيح، وإن كان سحره دون الكفر؛ قُتل قتل الصائل؛ أي: قتل لدفع أذاه وفساده في الأرض، وعلى هذا يرجع في قتله إلى اجتهد الحاكم، وظاهر النصوص التي ذكرها المؤلف أنه يقتل بكل حال؛ فاللهم أن السحر يؤثر بلا شك، لكنه لا يؤثر بقلب الأعيان إلى أعيان أخرى؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله - عز وجل - وإنما يُخِيلُ إلى المسحور أن هذا الشيء انقلب وهذا الشيء تحرك أو مشى وما أشبه ذلك، كما جرى لموسى عليه الصلاة والسلام أمام سحرة آل فرعون، حيث كان يخيل إليه من سحرهم إنها تسعى. اهـ.

● هل يقتل الساحر بمجرد فعله واستعماله؟

قال ابن كثير^(٢): وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله؟ فقال مالك وأحمد: نعم. وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا فأما إن قتل بسحره إنساناً فإنه يُقتل عند مالك والشافعي وأحمد. وقال أبو حنيفة: لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك، أو بقى بذلك في حق شخص معين. وإذا قُتل فإنه يُقتل حداً عندهم إلا الشافعي، فإنه قال: يقتل - والحالة هذه - قصاصاً.

● هل حكم الرجل الساحر والمرأة سواء؟

قال ابن كثير^(٣): واختلفوا في المسلمة الساحرة، فعند أبي حنيفة لا تقتل، ولكن تحبس. وقال الثلاثة: حكمها حكم الرجل، والله أعلم وقال أبو بكر الخلال: أخبرنا أبو بكر المروزي، قال: قرأ على أبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - عمر بن هارون، حدثنا يونس، عن الزهري، قال: يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين، لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها. اهـ.

قلت: وفي الباب قتل حفصة رضي الله عنها للمرأة التي سحرته.

● هل يعفى عن الذمي إذا سحرَ

أخرج البخاري^(٤) عن ابن شهاب سئل: أَعْلَى من سَحَرَ من أهل العهد قتل؟ قال:

(٢ - ٣) تفسير ابن كثير (١/٢١٢).

(١) القول المفيد (٢/٦، ٧).

(٤) (٦/٣١٩ الفتح).

بلغنا أن رسول الله ﷺ قد صنع له ذلك فلم يقتل من صنعه، وكان من أهل الكتاب. وأخرج أيضاً عن عائشة أن النبي ﷺ سحر حتى كان يخيل إليه أنه صنع شيئاً ولم يصنعه^(١).

قال ابن حجر: قال ابن بطلال: لا يقتل ساحر أهل العهد لكن يعاقب، إلا إن قُتل بسحره فيقتل، أو أحدث حدثاً فيؤخذ به وهو قول الجمهور.

وقال مالك: إن أدخل بسحره ضرراً على مسلم نقض عهده بذلك. وقال أيضاً: يُقتل الساحر ولا يستتاب، وبه قال أحمد وجماعة وهو عندهم كالزناديق.

قوله: (وكان من أهل الكتاب) قال الكرمانى: ترجم البخارى بلفظ الذمى، وسئل الزهرى بلفظ أهل العهد، وأجاب بلفظ أهل الكتاب، فالأولان يقاريبان، وأما أهل الكتاب فمراده من له منهم عهد، وكان الأمر فى نفس الأمر كذلك.

قال ابن بطلال: لاحجة لابن شهاب فى قصة الذى سحر النبي ﷺ؛ لأنه كان لا يتنقم لنفسه؛ ولأن السحر لم يضره فى شىء من أمور الروحى ولا فى بدنه، وإنما كان اعتراه شىء من التخيل وذلك أن عفريناً تفلت عليه ليقطع صلاته فلم يتمكن من ذلك، وإنما ناله من ضرر السحر ما ينال المريض من ضرر الحمى.

قلت - ابن حجر -: ولهذا الاحتمال لم يجزم البخارى بالحكم، ثم ذكر طرفاً من حديث عائشة أن النبي ﷺ سحر، وأشار بالترجمة إلى ما وقع فى بقية القصة أن النبي ﷺ لما عوفى أمر بالبشر فردمت، وقال: «كرهت أن أثير على الناس شراً» أهـ.

● هل للساحر توبة؟

قال ابن كثير^(٢): قال الرازى: وهل إذا تاب الساحر تُقبل توبته؟ فقال مالك، وأبو حنيفة وأحمد فى المشهور عنهما: لا تقبل وقال الشافعى وأحمد فى الرواية الأخرى: تقبل. وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبى حنيفة أنه يقتل، كما يقتل الساحر المسلم وقال مالك والشافعى وأحمد: لا يقتل. يعنى لقصة لبيد بن أعصم.

ورجح ابن عثيمين^(٣) أن له توبة، وقال: وهو الصحيح.



(١) تقدم.

(٢) تفسير ابن كثير (١/٢٠٨).

(٣) القول المفيد (٦/٢).

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنْ أَقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ». قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرٍ»^(١).

قوله: [وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة، قال: كتب عمر بن الخطاب... إلخ].

قلت: الحديث في صحيح البخاري وليس فيه هذا اللفظ.

قال ابن حجر^(٢): زاد مسدد وأبو يعلى في روايتهما «اقتلوا كل ساحر، قال: فقتلنا في يوم ثلاث سواحر وفرقنا بين المحارم منهم، وصنع طعاماً فدعاهم وعرض السيف على فخذيه، فأكلوا بغير زمزمة».

وقال: وأما الأمر بقتل الساحر فهو من مسائل الخلاف، وقد وقع في رواية سعيد بن منصور من الزيادة «واقتلوا كل ساحر وكاهن» أهد.

[قلت]: وتقدم في أول الباب حكم قتل الساحر.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): وهذا الأثر رواه البخاري كما ذكره المصنف، لكنه لم يذكر قتل السحرة. ولفظه: عن بجالة بن عبدة قال: كنت كاتباً لجزء بن معاوية عم الأحنف فأتانا كتاب عمر بن الخطاب قبل موته بسنة: فرقوا بين كل محرم من المجوس ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوسى هجر. وعلى هذا فعزو المصنف إلى البخاري يحتمل أنه أراد أصله لالفظه ورواه الترمذي والنسائي مختصراً، ورواه عبدالرزاق وأحمد وأبوداود والبيهقي مطولاً. ورواه القطيعي في الجزء الثاني من «فوائده» بزيادة. فقال: حدثنا أبو على بشر بن موسى الأسدي. ثنا هوذة بن خليفة ثنا عوف عن عمار مولى بنى هاشم عن بجالة بن عبدة قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن اعرضوا على من كان قبلكم من

(١) أخرجه البخاري في «الجزية والمواذعة»/ باب: الجزية والمواذعة مع أهل الذمة (٦/٢٩٧/ح ٣١٥٦) وعبدالرزاق في «مصنفه» (ح ١٨٧٤٥) وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/٥٨٣). جميعاً من حديث بجالة بن عبدة.

ولفظ المصنف هذا لم يذكره البخاري. قال الحافظ رواه مسدد وأبو يعلى في روايتهما اقتلوا كل ساحر فذكره.

وانظر «فتح المجيد» (ح ٥١٤) بتخريجنا.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٨٩ - ٢٩٠).

(٢) فتح الباري (١/٣٠١).

المجوس أن يدعوا نكاح أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم ويسأكلوا جميعاً كيما نلحقهم بأهل الكتاب، ثم اقتلوا كل كاهن وساحر.

قلت - سليمان آل الشيخ -: وإسناده حسن.

قوله: «عن بجالة»^(١) هو بفتح الموحدة بعدها جيم، ابن عبدة بفتح التيمى العنزى بصرى ثقة.

قوله: «كتب إلينا عمر بن الخطاب: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة.. إلى آخره..»

قال سليمان آل الشيخ^(٢): صريح فى قتل الساحر والساحرة، وهو من حجج الجمهور القائلين بأنه يقتل، وظاهره أنه يقتل من غير استتابه، وهو كذلك على المشهور عن أحمد. وبه قال مالك: إن الصحابة لم يستتبهوهم، ولأن علم السحر لا يزول بالتوبة. وعن أحمد يستتاب فإن تاب قبلت توبته وخلقى سيئه، وبه قال الشافعى، لأن ذنبه لا يزيد على الشرك، والمشرک يستتاب وتقبل توبته، فكذلك الساحر وعلمه بالسحر لا يمنع توبته، بدليل ساحر أهل الكتاب إذا أسلم ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم.

قلت: الأول أصح لظاهر عمل الصحابة. فلو كانت الإستتابة واجبة لفعلوها أو بينها وأما قياسه على المشرک فلا يصح. لأنه أكثر فساداً وتشبيهاً من المشرک، وكذلك لا يصح قياسه على ساحر أهل الكتاب لأن الإسلام يَجِبُ ما قبله، وهذا الخلاف إنما هو فى إسقاط الحد عنه بالتوبة؛ أما فيما بينه وبين الله فإن كان صادقاً قبلت توبته.

قال ابن عثيمين^(٣): وهذا القتل هل هو حد أم قتله لكفره؟

يحتمل هذا وهذا بناءً على التفصيل السابق فى كفر الساحر، ولكن بناء على ما سبق من التفصيل نقول: من خرج به السحر إلى الكفر فَقَتْلُهُ قَتْلُ ردة، ومن لم يخرج به السحر إلى الكفر فَقَتْلُهُ قتل حد يجب تنفيذه.

والحاصل: أنه يجب أن تقتل السحرة، سواء قلنا بكفرهم أم لم نقل؛ لأنهم يُمرضون ويقتلون، ويُفرّقون بين المراء وزوجه، وكذلك بالعكس؛ فقد يعطفون فيؤلفون بين الأعداء، ويتوصلون إلى أغراضهم؛ فإن بعضهم قد يسحر أحداً ليعطفه إليه وينال مأربه منه، كما لو سحر امرأة ليبنى بها، ولأنهم كانوا يسعون فى الأرض فساداً؛ فكان

(١ - ٢) تيسير العزيز الحميد (٢٨٩ - ٢٩٠).

(٣) القول المفيد ٢/ ٣٠ و ٣١.

وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، «أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا. سَحَرَتْهَا، فَقَتَلَتْ» (١).

وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ (٢).

واجباً على ولي الأمر قتلهم بدون استئابة مادام أنه حدٌ لضررهم وفضاعة أمرهم، فإن الحد لا يستتاب صاحبه، متى قبض عليه وجب أن ينفذ فيه الحد.



قوله: [وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها... إلخ.

قال سليمان آل الشيخ (٣): هذا الأثر رواه مالك في «الموطأ» عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة أنه بلغه أن حفصة زوج النبي ﷺ قتلت جارية لها سحرتها وكانت قد دبرتها فأمرت بها فقتلت. ورواه عبد الرزاق وحفصة هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب تزوجها النبي ﷺ بعد خنيس بن حذافة سنة ثلاث وماتت سنة خمس وأربعين.

قال سليمان آل الشيخ (٤): المراد به هنا قطعاً جندب الخير الأزدي قاتل الساحر، وهو جندب بن كعب بن عبد الله قال أبو حاتم: جندب بن كعب قاتل الساحر. ويقال: جندب بن زهير. فجعلها واحداً وفرق بينهما ابن الكلبي وغيره قال ابن عبد البر: ذكر الزبير أن جندب بن زهير قاتل الساحر والصحيح أنه غيره وأشار المصنف بهذا إلى قتله

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٢/٦٦٣/١٤).

من طريق محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة أنه بلغه أن حفصة... فذكره.

ووصله عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/١٨٠/١٨٧٤٧) عن عبد الله أو عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر أن جارية لحفصة سحرتها.

وانظر «فتح المجيد» (ح ٥١٥) بتخريجنا.

(٢) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/١/٢٢٢/٢٢٦٨)، والطبراني في «الكبير»

(٢/١٧٧/١٧٢٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٨/١٣٦).

من طريق خالد الحذاء، عن أبي عثمان النهدي به.

وأخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠/١٨١/١٨٧٤٨).

عن عمرو بن دينار، قال: سمعت بجالة التيمي قال: وجد عمر... الحديث. وانظر «فتح المجيد»

(ح ٥١٦) بتخريجنا

(٣ - ٤) تيسير العزيز الحميد ٢٩٠.

قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ. فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ.

الساحر كما روه البخارى فى «تاريخه» عن أبى عثمان النهدى قال: كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنساناً وأبان رأسه فعجبنا فأعاد رأسه فجاء جندب الأزدي فقتله. رواه البيهقى فى «الدلائل» مطولاً وفيه فقال الناس: سبحان الله يحيى الموتى. ورآه رجل صالح من المهاجرين فنظر إليه فلما كان من الغد اشتمل على سيفه فذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنقه وقال: إن كان صادقاً فليحيى نفسه فأمر به الوليد فسجن. وذكر القصة بتمامها ولها طرق كثيرة.

قوله: [قال أحمد: ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ]

قال سليمان آل الشيخ^(١): أحمد هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل. وقوله: عن ثلاثة أى: صح قتل الساحر، عن ثلاثة أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ، يعنى: عمر وحفصة، وجندباً والله أعلم.

قال ابن عثيمين^(٢): والقول بقتلهم موافق للقواعد الشرعية؛ لأنهم يسعون فى الأرض فساداً، وفسادهم من أعظم الفساد؛ فقتلهم واجب على الإمام، ولا يجوز للإمام أن يتخلف عن قتلهم؛ لأن مثل هؤلاء إذا تركوا وشأنهم انتشر فسادهم فى أرضهم وفى أرض غيرهم، وإذا قُتلوا سَلِمَ الناس من شرهم، وارتدع الناس عن تعاطى السحر. اهـ.

قوله: فيه مسائل:

● الأولى: تفسير آية البقرة.

قال ابن عثيمين^(٣):

وهى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾^(٤)؛ أى: نصيب، ومن لا خلاق له فى الآخرة؛ فإنه كافر؛ إذ كلُّ من له نصيب، فإن مآله إلى الجنة.

(٢) القول المفيد ٣١/٢.

(٤) البقرة: ١٠٢.

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٩١.

(٣) القول المفيد ٣٢/٢: ٣٥.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ النَّسَاءِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ الْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا.

الرابعة: أَنَّ الطَّاغُوتَ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْجِنِّ وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِنْسِ.

الخامسة: مَعْرِفَةُ السَّبْعِ الْمَوْبِقَاتِ الْمَخْصُوصَاتِ بِالنَّهْيِ.

السادسة: أَنَّ السَّاحِرَ يَكْفُرُ.

السابعة: أَنَّهُ يَقْتُلُ وَلَا يُسْتَتَابُ.

● الثانية: تفسير آية النساء.

وهي قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾^(١)، وفَسَّرَ عمر الجبْت بالسحر والطاغوت بالشیطان، وفَسَّرَ بأن الجبْت: كل ما لا خير فيه من السحر وغيره. وأما الطاغوت؛ فهو: كل ما تجاوز به الإنسان حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

● الثالثة: تفسير الجبْت والطاغوت والفرق بينهما.

وهذا بناءً على تفسير عمر رضى الله عنه.

● الرابعة: أَنَّ الطَّاغُوتَ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْجِنِّ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْإِنْسِ.

تؤخذ من قول جابر: الطواغيت كهان، وكذلك قول عمر: الطاغوت الشيطان، فإن الطاغوت إذا أطلق؛ فالمراد به شيطان الجن، والكهان شياطين الإنس.

● الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.

وقد سبق بيانها.

● السادسة: أَنَّ السَّاحِرَ يَكْفُرُ.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ الآية^(١).

● السابعة: أَنَّهُ يَقْتُلُ وَلَا يُسْتَتَابُ.

(١) النساء: ٥١.

(٢) البقرة: ١٠٢.

الثامنة: وَجُودُ هَذَا فِي الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَكَيْفَ بَعْدَهُ؟!

يؤخذ من قوله: «حد الساحر ضربة بالسيف»^(١)، والحد إذا بلغ الإمام لا يستتاب صاحبه، بل يقتل بكل حال، أما الكفر؛ فإنه يستتاب صاحبه، وهذا هو الفرق بين الحد وبين عقوبة الكفر، وبهذا نعرف خطأ من أدخل حكم المرتد في الحدود، وذكروا من الحدود قتل الردة.

فقتل المرتد ليس من الحدود؛ لأنه يستتاب، فإذا تاب ارتفع عنه القتل، وأما الحدود؛ فلا ترتفع بالتوبة إلا أن يتوب قبل القدرة عليه، ثم إن الحدود كفارة لصاحبها وليس بكافر، والقتل بالردة ليس كفارة وصاحبها كافر؛ لا يصلى عليه، ولا يُغسل، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

● الثامنة: وجود هذا في المسلمين في عهد عمر؛ فكيف بعده؟!

تؤخذ من قوله: «كتب عمر: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة»؛ فهذا إذا كان في زمن الخليفة الثاني في القرون المفضلة، بل أفضلها؛ فكيف بعده من العصور التي بعدت عن وقت النبي ﷺ وخلفائه وأصحابه؟! فهو أكثر انتشاراً بين المسلمين، وكلما بعد الناس عن زمن الرسالة استولت عليهم الضلالة والجهالة؛ فالضلالة: ارتكاب الخطأ عن جهل، والجهالة: ارتكاب الخطأ عن عمد، ولهذا نقول: من عمل سوءً بجهالة؛ فهو آثم، ومن عمل سوءً بجهل؛ فليس بآثم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾^(٢)، والمراد بالجهالة هنا ليست ضد العلم، بل ضد الرشد، وهى السفه أ.هـ.



(١) سبق.

(٢) النساء: ١٧.

بَيَانُ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السَّحَرِ

ثناء العلماء على هذه الترجمة:

قال ابن عثيمين^(١): أن المؤلف كان حكيماً في تعبيره بالترجمة، حيث قال: باب بيان شيء من أنواع السحر، ولم يحكم عليها بشيء؛ لأن منها ما هو شرك، ومنها ما هو من كبائر الذنوب، ومنها دون ذلك، ومنها ما هو جائز على حسب ما يقصد به وعلى حسب تأثيره وآثاره. اهـ.

ماذا أراد المؤلف بهذا الباب:

قال سليمان آل الشيخ^(٢):

أراد المصنف هنا أن يبين شيئاً من أنواعه لكثرة وقوعها وخفائها على الناس. اهـ.
قال ابن باز^(٣):

أراد المؤلف أن يبين شيئاً مما يسمى سحراً ليتنبه المؤمن ويجتنبها ويتعد عنها وقد تسمى سحراً من جهة أنها تضر وتؤذي وإن لم تكن سحراً من جهة المعنى والحقيقة الذي هو استخدام الشياطين وعبادتهم فهذا سحر محبط.

أما الثانية فهو يعمل عمل السحر ويؤذي وإن لم يكن سحراً في الحقيقة أ.هـ.
قلت: كالنميمة.

قال ابن عثيمين^(١):

قوله: «باب بيان شيء من أنواع السحر».

أى: بيان حقائق هذه الأشياء مع حكمها.

وقد سبق أن السحر ينقسم إلى قسمين: كفر، وفسق.

فإن كان باستخدام الشياطين وما أشبه ذلك؛ فهو كفر.

وكذلك ما ذكره هنا من أنواع السحر: منها ما هو كفر، ومنها ما هو فسق حسب ما تقتضيه الأدلة الشرعية. أ.هـ.

مناسبة الباب لما قبله

قال سليمان آل الشيخ^(٤):

لما ذكر المصنف ما جاء في السحر أراد هنا أن يبين شيئاً من أنواعه لكثرة وقوعها وخفائها على الناس. حتى اعتقد كثير من الناس أن من صدرت عنه هذه الأمور فهو من الأولياء، وعدوها من كرامات الأولياء وآل الأمر إلى أن عبد أصحابها ورجى منهم النفع

(١) القول المفيد (٣٦/٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٩١).

(٣) التعليق المفيد.

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٩١).

والضرر، والحفظ والكلاءة والنصر أحياء وأمواتاً، بل اعتقد كثير في أناس من هؤلاء أن لهم التصرف التام المطلق في الملك. أ.هـ

قلت: ومن المناسبات أيضاً التفصيل بعد الاجمال.

قال عبد الله بن جابر الله:

ماصلة هذا الباب لما قبله؟

هى أنه لما ذكر المؤلف السحر ذكر شيئاً من أنواعه. اهـ.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد

تقدم في الكلام على الباب الماضى

شرح التبويب:

قول المصنف [أنواع]

قال ابن عثيمين^(١):

والأنواع: جمع نوع، والنوع أخص من الجنس؛ لأن الجنس اسم يدخل تحته أنواع، والنوع يدخل تحته أفراد، وقد يكون الجنس نوعاً باعتبار ما فوقه، والنوع جنساً باعتبار ما تحته.

فالإنسان نوع باعتبار الحيوان، والحيوان باعتبار الإنسان جنس؛ لأنه يدخل فيه الإنسان والإبل والبقر والغنم، والحيوان باعتبار الجسم نوع؛ لأن الجسم يشمل الحيوان والجماد.

و«أنواع» هنا باعتبار الجنس العام.

قوله: (السحر).

قال ابن عثيمين: وسبق أن السحر في اللغة: كل ما كان خفى السبب دقيقاً في إدراكه حتى عد الفخر الرازى من جملة أنواع السحر الساعات، وهى في القديم عبارة عن آلات مركبة؛ فكيف بالساعات الألكترونية اليوم؟! اهـ.

قلت: وتقدم نقل هذا وغيره في الباب السابق من كلام ابن كثير في الرد على قول الرازى.

تمهيد

في الفرق بين السحر والمعجزة والكرامة

هناك أمور تحدث للصالحين ولأولياء الله تسمى بالكرامات، ونفس هذه الأمور أو

(١) القول المفيد (٣٦/٢).

قريباً منها تحدث للدجالين، والسحرة، فكيف نفرق بين الكرامة، وبين الأحوال الشيطانية؟

الجواب: ذكر ابن تيمية الفروق بين السحر والمعجزة والكرامة في مجموع الفتاوى في أكثر من موضع، على سبيل المثال في المجلد العاشر والحادى عشر، وأيضاً فى رسالة «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان».

وكذلك ابن حجر فى «الفتح»^(١) حيث نقل عن المازرى قوله:

والفرق بين السحر والمعجزة والكرامة أن السحر يكون بمعانة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد، والكرامة لا تحتاج إلى ذلك بل إنما تقع غالباً اتفاقاً، وأما المعجزة فتمتاز عن الكرامة بالتحدى.

ونقل إمام الحرمين الإجماع على أن السحر لا يظهر إلا من فاسق، وأن الكرامة لا تظهر على فاسق.

ونقل النووى فى زيادات الروضة عن المتولى نحو ذلك.

وينبغى أن يعتبر بحال من يقع الخارق منه، فإن كان متمسكاً بالشرعية متجنباً للموبقات فالذى يظهر على يده من الخوارق كرامة، وإلا فهو سحر، لأنه ينشأ عن أحد أنواعه كإعانة الشياطين أ. هـ.

وذكر الشيخ سليمان شيناً من ذلك فى كتاب «تيسير العزيز الحميد» فأنقله إختصاراً ولمن أراد المزيد عليه بالرجوع إلى ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية فى ذلك.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): - ولا بد من ذكر فرقان يفرق به المؤمن بين ولى الله وبين عدو الله، من ساحر وكاهن وعائف^(٣) وزاجر ومتطير ونحوهم ممن قد يجرى على يده شئ من الخوارق.

فاعلم أنه ليس كل من جرى على يده شئ من خوارق العادة يجب أن يكون ولياً لله تعالى، لأن العادة تنخرق بفعل الساحر والمشعوذ وخبر المنجم والكاهن بشئ من الغيب، مما يخبره به الشياطين المسترقون للسمع.

وفعل الشياطين بأناس ممن ينتسبون إلى دين وصلاح ورياضة مخالفة للشرعية كأناس من الصوفية وكرهبان النصارى ونحوهم، فيطيطرون بهم فى الهواء ويمشون بهم على الماء ويأتون بالطعام والشراب والدراهم، وقد يكون ذلك بعزائم ورقى شيطانية وبحيل

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٩١ - ٢٩٤.

(١) (١٠/٢٣٣).

(٣) العراف

وأدوية، كالذين يدخلون النار بحجر الطلق ودهن النارج. وقد يكون برؤيا صادقة فيها وما يستدل به على وقوع ما لم يقع، وهذه مشتركة بين ولى الله وعدوه. وقد يكون ذلك بنوع طيرة يجدها الإنسان فى نفسه فتوافق القدر وتقع كما أخبر وقد يكون بعلم الرمل والضرب بالحصى، وقد يكون ذلك استدراجاً والأحوال الشيطانية كثيرة.

وقد فرق الله بين أوليائه وأعدائه فى كتابه فاعتصم به وحده، لا إله إلا هو فإنه لا يضل من اعتصم به ولا يشقى. قال الله تعالى ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١﴾ فذكر تعالى أن أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم المؤمنون المتقون ولم يشترط أن يجرى على أيديهم شئ من خوارق العادة. فدل أن الشخص قد يكون ولياً لله وإن لم يجر على يديه شئ من الخوارق إذا كان مؤمناً متقياً.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢) فأولياء الله المحبوبون عند الله هم المتبعون للرسول ﷺ باطنياً وظاهراً؛ ومن كان بخلاف هذا فليس بمؤمن فضلاً عن أن يكون ولياً لله تعالى، وإنما أحبه الله تعالى لأنهم والوه، فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا مما يسخط، وأمروا بما يأمر، ونهوا عما ينهى، وأعطوا من يحب أن يعطى، ومنعوا من يحب أن يمنع. وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة البغض والبعد.

وبالجملة: فأولياء الله هم أحبابه المقربون إليه بالفرائض والتوافل وترك المحارم، الموحدون له، الذين لا يشركون بالله شيئاً وإن لم تجر على أيديهم خوارق فإن كانت الخوارق دليلاً على ولاية الله فلتكن دليلاً على ولاية الساحر والكاهن والمنجم والمتفرس، ورهبان اليهود والنصارى، عباد الأصنام؛ فإنهم يجرى لهم من الخوارق ألوف، ولكن هى من قبل الشياطين؛ فإنهم يتنزلون عليهم لمجانستهم لهم فى الأفعال والأقوال كما قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تُنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ * تُنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٤) وقد طارت الشياطين ببعض من يتسبب إلى الولاية، فقال: لا إله إلا الله فسقط وتجد عمدة كثير من الناس فى اعتقادهم الولاية فى شخص أنه قد صدر عنه مكاشفة فى بعض الأمور أو بعض الخوارق للعادة، مثل أن يشير إلى شخص فيموت أو يطير فى الهواء إلى مكة أو

(١) يونس: ٦٢.

(٢) آل عمران: ٣١.

(٣) الشعراء: ٢٣١.

(٤) الزخرف: ٣٦.

غيرها أحياناً أو يمشى على الماء أو يملأ إبريقاً من الهواء أو يخبر فى بعض الأوقات بشىء من الغيب، أو يختفى أحياناً عن أعين الناس، أو يخبر بعض الناس بما سرق له أو بحال غائب أو مريض، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت، فرآه قد جاء فقضى حاجته أو نحو ذلك.

وليس فى شىء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها مسلم فضلاً من أن يكون ولياً لله، بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار فى الهواء ومشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعتة لرسول الله ﷺ، وموافقته لأمره ونهيه.

ومثل هذه الأمور قد يكون صاحبها ولياً لله وقد يكون عدواً له، فإنها قد تكون لكثير من الكفار والمشركين واليهود والنصارى والمنافقين وأهل البدع، وتكون لهؤلاء من قبل الشياطين أو تكون استدراجاً فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شىء من هذه الأمور فهو ولي لله بل يعرف أولياء الله بصفاتهم وأحوالهم وأفعالهم التى دل عليها الكتاب والسنة؛ وأكثر هذه الأمور قد توجد فى أشخاص يكون أحدهم لا يتوضأ ولا يصلى المكتوبة ولا يتنظف ولا يتطهر الطهارة الشرعية، بل يكون ملابساً للنجاسات، معاشراً للكلاب، يأوى إلى المزابل، رائحته خبيثة، ركباً للفواحش، يمشى فى الأسواق كاشفاً لعورته غامزاً للشرع، مستهزئاً به وبحملته، يأكل العقارب والخبائث التى تحبها الشياطين كافرأ بالله، ساجداً لغير الله من القبور وغيرها، يكره سماع القرآن وينفر منه ويؤثر سماع الأغاني والأشعار ومزامير الشيطان على كلام الرحمن. فلو جرى على يدى شخص من الخوارق ماذا عساه أن يجرى فلا يكون ولياً لله، محبوباً عنده حتى يكون متبعاً لرسوله ﷺ باطناً وظاهراً.

فإن قلت: فعلى هذا ما الفرق بين الكرامة وبين الاستدراج والأحوال الشيطانية؟

قيل: إن علمت ما ذكرنا عرفت الفرق لأنه إذا كان الشخص مخالفاً للشرع فما يجرى له من هذه الأمور ليس بكرامة، بل هى إما استدراج وإما من عمل الشياطين، ويكون سببها هو ارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ، فإن المعاصى لا تكون سبباً لكرامة الله، ولا يستعان بالكرامات عليها، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والدعاء بل تحصل بما تحبه الشياطين كالاستغاثة بغير الله، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش فهى من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية؛ وكلما كان الإنسان أبعد عن الكتاب والسنة كانت الخوارق الشيطانية له أقوى وأكثر من غيره، فإن الجن الذين يقترون بالإنس من جنسهم. فإن كان كافرأ ووافقهم على ما يختارونه من الكفر والفسوق والضلال والإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه،

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بْنِ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا قُطْنُ بْنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجَبْتِ». قَالَ عَوْفٌ: الْعِيَافَةُ: زَجَرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ: الْخَطُّ يُخَطُّ بِالْأَرْضِ، وَالْجَبْتِ: قَالَ الْحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ. إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ. وَلَأَبَى دَاوُدَ وَالتَّسَائِي، وَابْنُ حِبَّانَ: فِي «صَحِيحِهِ» لَهُمُ الْمُسْنَدُ مِنْهُ (١).

وللسجود لهم وكتابة أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة؛ فعلوا معه كثيراً مما يشتهي بسبب ما يطلبهم به من الكفر وقد يأتونه بما يهواه من امرأة وصبي، بخلاف الكرامة فإنها لا تحصل إلا بعبادة الله والتقرب إليه ودعائه وحده لا شريك له، والتمسك بكتابه، واجتناب المحرمات، فما جرى من هذا الضرب فهو كرامة.

وقد اتفق على هذا الفرق جميع العلماء.

وبالجملة: فإن عرفت الأسباب التي بها تنال ولاية الله عرفت أهلها وعرفت أنهم أهل الكرامة؛ وإن كنت ممن يسمع بالأولياء وهو لا يعرف الولاية ولا أسبابها ولا أهلها بل يميل مع كل ناعق وساحر: «وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» ولشيخ الإسلام كتاب- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان- فراجعه فإنه أتى فيه بالحق المبين. اهـ.

ولم يذكره صاحب «فتح المجيد» ولو بالإختصار.



قوله: (قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف...) الحديث.

- مناسبة الحديث للباب.

قال القرعاوى (٢):

دل الحديث على أن العيافة والطرق والطيرة من أنواع السحر. اهـ.

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠/٤٠٣/٢/١٩٥)، وأحمد في «مسنده» (٣/٤٧٧)، (٥/٦٠)، وأبو داود في الطب/ باب في الخط وزجر الطير (٤/٣٩٠٧/١٥)، والتسائي في «الكبرى» في التفسير (٦/٣٢٤/١١١٠٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٧/٦٤٦/٦٠٩٨)، والبيهقي في «الكبرى» (٨/١٣٩).

من طريق عوف العبدى، عن حيان بن قطن بن قبيصة، عن أبيه... الحديث.
وانظر «رياض الصالحين» (١٦٧٣)، وابن أبي حاتم (٥٤٤٢) و«فتح المجيد» (ح ٥٢٢) بتخريجنا.

(٢) الجديد (٢٣٠)

- مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى^(١): أفاد الحديث أن هذه الثلاثة من السحر، والسحر مبني على الشرك. أهـ.

قوله: (قال أحمد)

قال سليمان آل الشيخ^(٢): - هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل.

ومحمد بن جعفر هو المشهور بغندر الهذلي البصري ثقة مشهور، ثبت في شعبة حتى فضله على بن المديني فيه على عبدالرحمن بن مهدي بل أقر له ابن مهدي بذلك. مات سنة ست ومائتين.

وعوف هو ابن أبي جميلة - بفتح الميم - العبدى البصري المعروف بعوف الأعرابي ثقة. مات سنة ست أو سبع وأربعين ومائة، وله ست وثمانون سنة.

وحبان بن العلاء هو بالتحية ويقال حبان بن مخارق أبو العلاء البصري مقبول. وقطن - بفتح تين - أبو سهلة البصري صدوق.

«قوله: عن أبيه».

هو قبيصة - بفتح أوله وكسر الموحدة ابن المخارق - بضم الميم وتخفيف المعجمة أبو عبد الله الهلالي، صحابي نزل البصرة.

قوله: «إنَّ العيافة»

قال سليمان آل الشيخ^(٣): قال عوف: العيافة زجر الطير. هذا التفسير ذكره غير واحد كما قال عوف وهو كذلك.

قال أبو السعادات: العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، وهو من عادة العرب كثيراً وهو كثير في أشعارهم، يقال: عاف يعيف عيفاً إذا زجر وحدس وظن أهـ.

قال حامد بن محمد بن حسن^(٤): (قلت): العيافة على ما ذكرها أهل العلم: زجر الطير، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها وهو من العرب كثير في أشعارهم. يقال: عاف يعيف عيفاً إذا زجر وحدس وظن، وبنو أسد يذكرون بالعيافة ويوصفون

(١) الجديد (٢٣٠)

(٢-٣) تيسير العزيز الحميد (٢٩٤).

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٣١٩).

بها. قيل: إن قوماً من الجن تذاكروا أعيافهم فأتوها فقال: ضلت ناقة فلو أرسلتهم معنا من يعيف فقالوا للغلام منهم: انطلق معهم فاستردفه أحدهم، ثم ساروا فلقيهم عقاب كاسرة إحدى جناحيه فاقشعر جلد الغلام وبكى فقالوا: مالك؟ فقال: كسرت جناحاً، ورفعت جناحاً، وحلفت بالله صراحاً، ما أنت بإنسى ولا تبغى لقاحاً، وأنشد الشيخ التوربشتي وقال:

تتحابى هدهد فوق بابيه هدى وبيان بالجناح يلوح
وقالوا حمامات فحم لقائهما وطلح فسلت والمطى طليح
وقال آخر:

يغنى الطائرات بين سلمى على غضين من غرب وبان
وقال آخر:

جرت سخاً فقلت لها أجبرى نوى مشهولة فمتى اللقاح السانح
مما كانوا يمينون به أى قلت للنفس: أجبرى، أى: طغى حال نوى، والمشمولة المكروهة من الشمال، فإنه كانوا يكرهونها لما فيها من البرد، وذهابها بالغيم الذى فيه الحيا والخصب. اهـ.

قال عبد الله بن جابر الله^(١): العيافة: زجر الطير وتنفيرها وإرسالها والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها. اهـ.

قال ابن باز^(٢): العيافة: زجر الطير. كما قال عوف. فيزجرون الطير ويزعمون أنها تدلهم على شيء فيشاءمون بها تارة ويتمنون بها تارة أخرى، وهذا من عمل الجاهلية، والطيور ليس عندها خير ولا شر ولكن هذا من جهلهم وخلالهم كما يتشاءمون بالغراب والبومة أو حيوان سئ الخلق، ويتمنون بالحيوان الحسن الخلق، ويقولون هذا مخرج طيب والعكس كذلك. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): مصدر عاف يعيف عيافةً، وهى: زجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل؛ فعند العرب قواعد فى هذا الأمر؛ لأن زجر الطير له أقسام:

(١) الجامع الفريد (١٠٥).

(٢) التعليق المفيد (١٤٣).

(٣) القول المفيد ١/ (٣٧، ٣٨، ٤١، ٤٢).

فتارة يزجرها للصيد، كما قال أهل العلم فى باب الصيد: إن تعليم الطير بأن ينزجر إذا زجر؛ فهذا ليس من هذا الباب.

وتارة يزجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل، فإذا زجر الطائر وذهب شمالاً تشاءم، وإذا ذهب يميناً تفاؤل، وإن ذهب أماماً؛ فلا أدرى أيتوقفون أم يعيدون الزجر؟ فهذا من الجبت.

قال: ووجه كون العيافة من السحر أن العيافة يستند فيها الإنسان إلى أمر لاحقيقة له فمأذا يعنى كون الطائر يذهب يميناً أو شمالاً أو أماماً أو خلفاً؟ فهذا لا أصل له وليس بسبب شرعى ولا حسى فإذا اعتمد الإنسان على ذلك فقد اعتمد على أمر خفى لا حقيقة له وهذا سحر كما سبق تعريف السحر فى اللغة أ.هـ.

قوله: «الطرق»

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: والطرق: الخط يخط فى الأرض، هكذا فسرهُ عوف، وهو تفسير صحيح. وقال أبو السعادات: هو الضرب بالحصى الذى يفعله النساء. قلت أي سليمان: وأياماً كان فهو من الجبت. أ.هـ.

قال حامد بن محمد^(٢): (الطرق) هو الضرب بالحصى الذى تفعله النساء. وقيل: هو الخط فى الرمل، واقتصر فى الفائق على الوجه الأول، وأنشد قوله ليبد:

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرت الطير ما الله صانع

قال عبد الله بن جابر الله^(٣): (الطرق): الخط يخط فى الأرض، وقيل: هو الضرب بالحصى. أ.هـ.

قال ابن باز^(٤): (الطرق) الخط يخط فى الأرض، ويقولون هذا يدل على كذا، وأنه يحصل كذا، وهذا قد يكون من العبث أحياناً، وقد يكون تخيلاً، وهو فى الحقيقة خدمة للشياطين، وأخذ بأقوالهم وطاعتهم، ودعوة علم الغيب، وكله كذب، وهى لاتنفيد شيئاً. أ.هـ.

قال ابن عثيمين^(٥): هى من السحر؛ لأنهم يستعملونه فى السحر ويتوصلون به إليه.

(١) فتح الله الحميد المجيد (٣٢٠).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٩٤.

(٣) الجامع الفريد (١٠٥).

(٤) التعليق المفيد (١٤٣).

(٥) القول المفيد ١/ (٣٧، ٣٨، ٤١، ٤٢).

وفسره عوف: بأنه الخط يخط في الأرض، وكأنه من الطريق، من طرق الأرض يطرُقها إذا سار عليها، وتخطيطها مثل المشى عليها يكون له أثر في الأرض كآثر السير عليها.

ومعنى الخط بالأرض معروف عندهم، يضربون به على الرمل على سبيل السحر والكهانة، ويفعله النساء غالباً، ولا أدري كيف يتوصلون إلى مقصدهم وما يزعمونه من علم الغيب، وأنه سيحصل كذا على ما هو معروف عندهم؟! وهذا نوع من السحر. أما خط الأرض ليكون سترة في الصلاة.

[قلت]: إن صحح الحديث لأن الحديث ضعيف أو لبيان حدودها ونحو ذلك؛ فليس داخلياً في الحديث.

فإن قيل: قد صح عن الرسول ﷺ أنه سئل عن نبي من الأنبياء يخط؛ فقال: من وافق خطه؛ فذاك^(١).

قلنا: يجاب عنه بجوابين:

الأول: أن الرسول ﷺ علقه بأمر لا يمكن الحصول عليه؛ لأنه قال: فمن وافق خطه فذاك، وما يدرينا هل وافق خطه أم لا؟

الثاني: أنه إذا كان الخط بالوحي من الله تعالى كما في حال هذا النبي؛ فلا بأس به؛ لأن الله يجعل له علامة ينزل الوحي بها بخطوط يعلمه إياها. أما هذه الخطوط السحرية؛ فهي من الوحي الشيطاني.

فإن قيل: طريقة الرسول ﷺ أنه يسد الأبواب جميعاً خاصة في موضوع الشرك؛ فلماذا لم يقطع ويسد هذا الباب؟

فالجواب: كأن هذا والله أعلم أمر معلوم، وهو أن فيه نبياً من الأنبياء يخط؛ فلا بد أن يجيب عنه الرسول ﷺ.

[قلت]: بل أجاب ﷺ بهذه الطريقة ليسد هذا الباب لأنه كما تقدم علق على أمر مستحيل الوقوع فكأنه يقول من وافق خطه وهذا مستحيل ولن تستطيعوا ذلك فذاك والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): وفي الحديث دليل على تحريم التنجيم لأنه إذا كان الخط ونحوه الذي هو من فروع النجامة من الجبت فكيف بالنجامة. اهـ.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم من حديث معاوية بن الحكم.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٩٥).

قلت: وفيه تحريم قراءة الفنجان أو الكوتشينة ونحو ذلك من باب أولى.

فائدة: نهت غير مرة على أن الشيطان يحاول أن يتشبه بالله في كل أفعاله حتى في باب الوحي فلما أوحى الله لبعض أنبياءه عن طريق الخط أوحى هو لبعض أوليائه كذلك عن طريق الخط ولما أوحى الله عن طريق التباس جبريل بالنبي ثم يفصم عنه وقد وعي ما قال كذلك أوحى هو باللبس الشيطاني ولما أوحى عن طريق جبريل في صورة بشر جاء هو لأوليائه في صورة بشر كما جاء في دار الندوة.

قوله: «والطيرة».

قال سليمان آل الشيخ^(١): وأما الطيرة فسيأتى الكلام عليها في بابها إن شاء الله.

اهـ.

وقصد الباب السبع والعشرون [التطير].

قال حامد بن محمد^(٢): الطيرة: بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تسكن، وهي التشاؤم بالشئ، وهو مصدر تطير طيرة، مثل تخير خيرة، ولم يجئ من المصادر غيرهما، وأصله فيما يقال: التطير بالسوانح والبوارح من الطير، والظبا، وغيرهما، وكان ذلك يصددهم عن مقاصدهم فنفاه الشرع وأبطله ونهى عنه، وأخبر أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضرر، فلا يصدنهم مما يتوجهون إليه من المقاصد أو من سواء السبيل والصراط المستقيم ما يجدونه في صدورهم من الوهم. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله^(٣): والطيرة: هي التشاؤم بمرئى أو مسموع. اهـ.

قال ابن باز^(٤): التشاؤم بالمرئى أو المسموع، وهي محرمة، ومن الشرك الأصغر، وقد تكون أكبر إذا اعتقد بأن الطائر يتصرف في الكون أو يدبر شيئاً، ولكن الغالب أنهم يتشاؤمون بها فقط. فكل هذا من عمل الجاهلية ومن الجبت. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٥): - والطيرة من السحر أيضاً لأنها مثل العيافة تماماً مستند إلى أمر خفى لا يصح الاعتماد عليه وسيأتى في باب الطيرة ما يستثنى منه.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٩٥).

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٣٢٠).

(٣) الجامع الفريد (١٠٥).

(٤) التعليق المفيد (١٤٣، ١٤٤).

(٥) القول المفيد ٣٩/٢ ٤١.

والطيرة: على وزن فعلة، وهى اسم مصدر تطير، والمصدر منه تطير، وهى التشاؤم بمرئى أو مسموع. وقيل: التشاؤم بمعلوم مرئياً كان أو مسموعاً، زماناً كان أو مكاناً، وهذا أشمل؛ فيشمل ما لا يرى ولا يسمع؛ كالتطير بالزمان. اهـ.

[قلت]: مثل تطير الجهلة بيوم الجمعة ويقولون فيه ساعة نحس.

وأصل التطير: التشاؤم، لكن أضيفت إلى الطير؛ لأن غالب التشاؤم عند العرب بالطير، فعلمت به، وإلا؛ فإن تعريفها العام: التشاؤم بمرئى أو مسموع أو معلوم.

وكان العرب يتشاءمون بالطير وبالزمان وبالمكان وبالأشخاص، وهذا من الشرك كما قال النبى ﷺ.

والإنسان إذا فتح على نفسه باب التشاؤم؛ ضاقت عليه الدنيا، وصار يتخيل كل شيء أنه شؤم، حتى إنه يوجد أناس إذا أصبح وخرج من بيته ثم قابله رجل ليس له إلا عين واحدة تشاءم، وقال: اليوم يوم سوء، وأغلق دكانه، ولم يبع ولم يشتري - والعياذ بالله -، وكان بعضهم يتشاءم بيوم الأربعاء، ويقول: إنه يوم نحس وشؤم، ومنهم من يتشاءم بشهر شوال، ولا سيما فى النكاح، وقد نقضت عائشة رضى الله عنها هذا التشاؤم، بأنه ﷺ عقد عليها فى شوال، وبني بها فى شوال؛ فكانت تقول: «أىكن كان أحظى عنده منى؟»^(١)، والجواب: لا أحد.

فالمهم أن التشاؤم ينبغى للإنسان أن لا يطرأ له على بال؛ لأنه يُنكِّد عليه عيشه؛ فالواجب الاقتداء بالنبى ﷺ حيث كان يعجبه الغال^(٢)؛ فينبغى للإنسان أن يتفاءل بالخير ولا يتشاءم، وكذلك بعض الناس إذا حاول الأمر مرة بعد أخرى تشاءم بأنه لن ينجح فيه فيتركه، وهذا خطأ؛ فكل شيء ترى فيه المصلحة؛ فلا تتعاس عنه فى أول محاولة، وحاول مرة بعد أخرى حتى يفتح الله عليك.

قلت: ويستدل بقوله ﷺ «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز فإن فاتك شيء فلا تقل لو كان كذا لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(٣)

وقد يكون عمل الشيطان ها هنا ليس فقط الندم على ما فات بل التشاؤم الصادر عن عدم تحصيل ما فات وإدراكه والله أعلم.

(١) [صحيح] أخرجه: فى النكاح (٥/٢٢٥/٧٣).

(٢) سيأتى تخريجه

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى القدر ١٦٠/٢١٥ - النووى) عن أبى هريرة به.

انظر «رياض الصالحين» (١٠١ - بتخريجنا) ..

قوله: «من الجبت» قال سليمان آل الشيخ^(١) أى: من أعمال السحر.

قال القاضى: والجبت فى الأصل الفشل الذى لا خير فيه ثم استعير لما يعبد من دون الله وللساحر والسحر.

وقال الطيبي: «من» فيه إما ابتدائية أو تبعية، فعلى الأول المعنى الطيرة ناشئة من الساحر، وعلى الثانى المعنى الطيرة من جملة السحر والكهانة، أو من جملة عبادة غير الله، أى الشرك يؤيده قوله فى الحديث «الطَّيْرَةُ شِرْكٌ»^(٢) انتهى.

قال ابن عثيمين^(٣): سبق أن الجبت السحر، وعلى هذا فتكون (من) للتبعية على الصحيح وليست للبيان، أى هذان النوعان من الجبت. أهـ.

قوله [قال عوف: العيافة: زجر الطير] تقدم ذلك

قوله [والطرق: الخط يخط فى الأرض] تقدم بيان ذلك من كلام سليمان وابن عثيمين.

وزاد حامد بن محمد^(٤): قال ابن عباس: الخط يخط فى الأرض، كان نبي من الأنبياء يخط فيعرف بالفراصة بتوسط تلك الخطوط.

قيل: هو إدريس، فمن وافق خطه فى الصورة والحالة وهو قوة الخاط فى الفراصة، والعلم والعمل الموجبين لها فذاك مصيب، وذا محال، لأن خط ذاك النبى معجزة له، ولذا قال ﷺ «من وافق خطه فذاك» على سبيل الزجر، معناه لا يوافق أحد خط ذلك النبى ﷺ لأنه معجزة. قال: والخط هو ما يخط الحازى بالحاء المهملة والزاي المعجمة: الذى يحرز الأشياء ويقدرها بظنه، ويقال للمنجم الحازى أيضاً؛ لأنه ينظر فى النجوم وأحكامها بظنه، والحازى: هو الكاهن. قال: والخط هو علم تركه الناس يأتى صاحب الحاجة إلى الحازى فيعطيه حلواناً فيقول: اقعد حتى اخط لك وبين يدي الحازى غلام له معه ميل، ثم يأتى إلى أرض رخوة فيخط فيها خطوطاً بالعجلة لثلاث يلحقها العدد ثم يرجع فيمحو منها على مهل خطين خطين وغلامه يقول للفتال: ابنى عيان أسرعاً ليبيان فإن بقى خطان فهما علامة النجح وإن بقى خط واحد فهو علامة الخيبة.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٩٠٤) والترمذى (١٦١٤) وقال: حسن صحيح.

(٣) القول المفيد (٣٩/٢).

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٣٢٠، ٣٢١).

قال صاحب النهاية المشار إليه: علم معروف وللناس فيه تصانيف كثيرة ويستخرجون به الضمير وغيره على زعمهم هذا.

قلت - أي حامد -: كيف يتصور استخراج الضمير وغيره من الغيوبات، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَى﴾ قال صاحب «الكشاف»: وقد بطل بهذه كرامات الأولياء بإدعائهم الغيب فيه. اللهم إلا أن يكون من نوع الفراسة لقول ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» (*) قاله أكثر أهل العلم. اهـ.

قوله: «والجبت»: قال الحسن رنة الشيطان»

قال سليمان آل الشيخ^(١):- لم أجد فيه كلاماً.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): ذكر إبراهيم بن محمد بن معلم: أن فسى تفسير بقى بن مخلد «أن إبليس رن أربع رنات: رنة حين لعن، ورنه حين أهبط، ورنه حين ولد رسول الله ﷺ ورنه حين نزلت فاتحة الكتاب»

قال سعيد بن جبیر: «لما لعن الله تعالى إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنة، فكل رنة منها فى الدنيا إلى يوم القيامة» رواه ابن أبى حاتم^(٣).

وعن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة، رن إبليس رنة اجتمعت إليه جنوده» رواه الحافظ الضياء فى المختارة.

الرنين: الصوت. وقد رن يرن رنيناً. وبهذا يظهر معنى قول الحسن رحمه الله تعالى. اهـ

قال ابن عثيمين^(٤): بعد أن ذكر الكلام المتقدم

والظاهر أن رنة الشيطان أى: وحى الشيطان؛ فهذه من وحى الشيطان وإملائه. اهـ.

[قلت]: ويؤيده المعنى اللغوى وقول ابن عباس المتقدم اجتمعت إليه جنوده وأيضاً لأن الباب اشتمل على كثير من طرق الوحى الشيطانى مثل الخط.

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٩٥.

(٢) فتح المجيد: ٣٧٧-٣٧٨ ط قرطبه. (٣) تفسير ابن أبى حاتم (١٢٣٨٩/٧). فانظره بتخريجنا.

(٤) القول المفيد ٤١/٢ - ٤٢.

وأيضاً: لأن جبريل كان يأتي مثل صلصلة الجرس وهو أشده على النبي وتقدم أن الشيطان يحاول أن يتشبه بالله حتى في باب الوحي.

قال: وقول الحسن جاء في تفسير ابن كثير باللفظ الذي ذكره المؤلف وجاء في «المسند» بلفظ إنه الشيطان^(١).

قوله [إسناده جيد]

قال ابن عثيمين^(٢): وعندى أنه أقل من جيد في الواقع إلا أن يكون هناك متابعات وكان بعض العلماء يذهب إلى أن الحديث إذا صح مته، وكان موافقاً للأصول؛ فإنه يتساهل في سنده، والعكس بالعكس، إذا كان مخالفاً للأصول؛ فإنه لا يبالى بالسند، وهذا مسلك جيد بالنسبة لأخذ الحكم من الحديث، لكن بالنسبة للحكم على السند بأنه جيد بمجرد شهادة الأصول لهذا الحديث بالصحة؛ فهذا مشكل لأنه يلزم أنه لو جاءنا هذا السند في حديث آخر حكمنا بأنه جيد؛ فالأولى أن يقال: إن السند فيه ضعيف، ولكن المتن صحيح، فأننا أرى أن مثل هذا لا يحكم له بالجود؛ إذ جيد أرقى من حسن، ثم الحكم بالحسن في مثل هذا السند في نفسى منه شيء؛ لأنه ينبغي لنا أن نتحرى في الحديث عن الرسول ﷺ، إلا أن الذي يخفف الأمر هو صحة المتن أ.هـ.

[قلت]: وسبب عدم قوله بتجويد هذا الحديث أو تحسينه أن فيه راو مقبول كما تقدم، وهذا يعنى كما قال ابن حجر أن حديثه لين إلا إذا توبع، والحديث له شواهد معنوية كثيرة فلهذا جوده المصنف.

ثم قال ابن عثيمين^(٣):

وأيهما أهم: السند أم المتن؟

الجواب: كلاهما مهمان، لكن المتن إذا كان صحيحاً تشهد له الأصول قد تستغنى عنه بما تشهد به الأصول، أما السند؛ فلا بد منه، يقول ابن المبارك: لولا السند؛ لقال كل من شاء ما شاء.

قوله [ولأبى داود والنسائي وابن حبان في «صحيحه» لهم المسند منه].

قال سليمان آل الشيخ^(٤): يعنى أن هؤلاء رَووا الحديث واقتصروا على المرفوع منه، ولم يذكروا التفسير الذى فسر به عوف. وقد رواه أبو داود فى التفسير المذكور بدون كلام الحسن.

(٢) القول المفيد ٤١/٢ - ٤٢.

(١) «المسند» (٥/ ٦٠).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٩٥).

(٣) القول المفيد (٣٨/٢).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ؛ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحَرِ، زَادَ مَا زَادَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ^(١).

والنسائي هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن صاحب «السنن» وغيرها من المصنفات. روى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة بن سعيد وخلق. وكان إليه المنتهى في الحفظ والعلم لعل الحديث. مات سنة ثلاث وثلاثمائة وله ثمان وثمانون سنة.

قوله: (وعن ابن عباس.....).

قال سليمان آل الشيخ^(٢): هذا الحديث رواه أبو داود كما قال المصنف بإسناد صحيح، وكذا صححه النووي والذهبي ورواه أحمد وابن ماجه.

مناسبة الحديث للباب:

قال ابن باز^(٣): تعلم أمر النجوم في التأثير في الكون هو من أقوال المنجمين والمشعوذين، وهو باطل، ومنه التعلق بالنجوم في موت أئحد وحياته أو زوال ملك فلان وغيره. أ. هـ

وجه مناسبة الحديث لترجمة المؤلف:-

إن من أنواع السحر: تعلم النجوم ليستدل بها على الحوادث الأرضية، وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند؛ لكن من حيث المعنى صحيح تشييد له النصوص الأخرى.

قال القرعاوى^(٤): حيث دل الحديث على أن علم التنجيم نوع من السحر.

مناسبة الحديث للتوحيد

قال القرعاوى^(٥): حيث دل الحديث على أن علم التنجيم نوعاً من السحر والسحر مبني على الشرك.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣١١/١) وأبو داود في «الطب»/ باب: النجوم (٣٩٥/١٥/٤) وابن ماجه في «الأدب»/ باب: تعلم النجوم (٣٧٢٦/١٢٢٨/٢) والبيهقي (٢٣٩/٨/ح ١٦٥١٣).
من طريق يحيى، عن سعيد بن أخنس عن الوليد بن عبدالله، عن يوسف بن ماهك عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ... فذكره.

وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٦٧٤) و«فتح المجيد» (ح ٥٢٦) يتخيرجنا

(٢) تيسير العزيز الحميد ٢٩٦. (٣) التعليق المفيد (١٤٤).

(٤ - ٥) الجديد ٢٣١.

قوله: «وعن ابن عباس - رضى الله عنهما. قال: قال رسول الله ﷺ - من اقتبس شعبة من النجوم»

قال سليمان آل الشيخ^(١):

قوله: «من اقتبس» قال أبو السعادات: قبست العلم واقتبسته إذا تعلمته انتهى.

وعلى هذا فالمعنى من تعلم.

قال ابن عثيمين^(٢):

قوله: «من».

شريطة، وفعل الشرط: «اقتبس»، وجوابه: «فقد اقتبس».

قوله: «اقتبس».

أى: تعلّم؛ لأنّ التعلّم وهو أخذ الطالب من العالم شيئاً من علمه.

قوله: «فقد اقتبس شعبة من السحر»

قال سليمان آل الشيخ^(٣).

قوله: «شعبة» أى: طائفة وقطعة من النجوم والشعبة: الطائفة من الشيء والقطعة منه، ومنه الحديث «والحياء شُعبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» أى جزء منه.

قوله: «فقد اقتبس شعبة من السحر». أى: المعلوم تحريمه.

قال شيخ الإسلام: فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر. وقد قال الله تعالى: «وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى» وهكذا الواقع فإن الاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة.

قال عبد الله بن جار الله^(٤): معنى اقتبس: أخذ وحصل وتعلم. شعبة من النجوم: طائفة وجزء من علم النجوم أهد.

ثم قال: حكم تعلم النجوم: على قسمين جائز ومحرم، فالجائز ما يدرك بطريق المشاهدة كالاستدلال بالشمس والقمر والنجوم على أوقات الصلوات وجهة القبلة ونحو ذلك.

والمحرم ما يدعيه أهل التنجيم من معرفة الحوادث التى لم تقع بمجيء الأمطار ووقت

(٢) القول المفيد ٤٣/٢.

(١) تيسير العزيز الحميد ٢٩٦.

(٤) الجامع الفريد (١٠٥).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٩٦).

هبوب الرياح وتغيير الأسعار وغير ذلك مما استأثر الله بعلمه فلا يعلمه أحد غيره. أ. هـ.

قال ابن باز^(١): والمراد علم أن للنجوم تأثير، فهذا هو المنكر وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، أما الاستفادة من النجوم وسيرها في معرفة القبلة والحر والبرد فلا بأس به، لأنه من علم التسيير لا من علم التأثير وهو من نعمة الله أ. هـ.

قال ابن عثيمين^(٢):

المراد بالسحر هنا: ما هو أعم من السحر المعروف؛ لأن هذا من الاستدلال بالأمور الخفية التي لا حقيقة لها، كما أن السحر لا حقيقة له؛ فالسحر لا يقلب الأشياء، لكنه يُموّه، وهكذا اختلاف النجوم لا تتغير بها الأحوال.

قوله «علماً من النجوم»

قال ابن عثيمين^(٣):

قوله: «من النجوم».

المراد: علم النجوم، وليس المراد النجوم أنفسها؛ لأن النجوم لا يمكن أن تُقتبس وتُتعلّم، والمراد به هنا علم النجوم الذي يستدل به على الحوادث الأرضية؛ فيستدل مثلاً باقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني على أنه سيحدث كذا وكذا.

ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم على أنه سيكون سعيداً، وفي النجم الآخر على أنه سيكون شقيّاً فيستدلون باختلاف أحوال النجوم على اختلاف الحوادث الأرضية، والحوادث الأرضية من عند الله، قد تكون أسبابها معلومة لنا، وقد تكون مجهولة، لكن ليس للنجوم بها علاقة، ولهذا جاء في حديث زيد بن خالد الجهني في غزوة الحديبية؛ قال: صلى بنا رسول الله ذات ليلة على أثر سماء من الليل؛ فقال: «قال الله تعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فمن قال: مُطَرْنَا بَنَوْا كذا وكذا- بنوء يعني: بنجم، والباء للسببية؛ يعني: هذا المطر من النجم-؛ فإنه كافر بي مؤمن بالكوكب، ومن قال: مُطَرْنَا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب»^(٤).

(١) التعليق المفيد (١٤٤).

(٢) القول المفيد (٢/٤٥، ٤٦).

(٣) القول المفيد ٤٣/٢، ٤٥.

(٤) سيأتي تخريجه.

فالنجوم لا تأتى بالمطر ولا تأتى بالرياح أيضاً. ومنه تأخذ خطأ العوام الذين يقولون: إذا هبت الريح طلع النجم الفلانى؛ لأن النجوم لا تأثير لها بالرياح، صحيح أن بعض الأوقات والفصول يكون فيها ريح ومطر؛ فهي ظرف لهما، وليست سبباً للريح أو المطر.

* وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

الأول: علم التأثير، وهو أن يُستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية؛ فهذا محرم باطل لقول النبى ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر»^(١) وقوله فى حديث زيد بن خالد: «من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب»^(٢)، ولقول النبى ﷺ فى الشمس والقمر: «إنهما آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»^(٣)؛ فالأحوال الفلكية لا علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية.

الثانى: علم التسيير، وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات؛ فهذا جائز، وقد يكون واجباً أحياناً، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم علامات القبلة من النجوم والشمس والقمر، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٤)، فلما ذكر الله العلامات الأرضية انتقل إلى العلامات السماوية؛ فقال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾^(٥)؛ فالاستدلال بهذه النجوم على الأزمان لا بأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلانى دخل وقت السيل ودخل وقت الربيع، وكذلك على الأماكن؛ كالقبلة، والشمال، والجنوب.

قوله: «زاد ما زاد»

قال سليمان آل الشيخ^(٦):

قوله: «زاد ما زاد» يعنى: كلما زاد من علم النجوم زاد له من الأثم مثل إثم الساحر، أو زاد اقتباس شعب السحر ما زاد اقتباس علم النجوم.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سيأتى تخريجه

(٣) سيأتى تخريجه.

(٤ - ٥) النحل: ١٥، ١٦.

(٦) تيسير العزيز الحميد (٢٩٦)

قلت: والقولان متلازمان لأن زيادة الإثم فرع عن زيادة السحر، وذلك لأنه تحكم على الغيب الذى استأثر الله بعلمه. فعلم أن تأثير النجوم باطل محرم، وكذا العمل بمقتضاه كالتقرب إليها بتقريب القرابين لها كفر. قاله ابن رجب.

وتابع سليمان آل الشيخ على هذا: عبدالرحمن آل الشيخ، وعبدالله بن جار الله، وابن باز.

وقال ابن عثيمين^(١): ووجه ذلك أن الشيء إذا كان من الشيء فإنه يزداد بزيادته. أ.هـ

قلت: وسيأتى مزيد شرح وبيان لأنواع التنجيم الجائز والمحرم فى باب ما جاء فى التنجيم والله الموفق لأرب سواه.

مسألة فى حكم صناعة التنجيم، والأجرة عليها، وتأجير الحكاكين أو الجوانيت أو البيوت لهم.

وهل يتعين على أحد من المسلمين تخيير هذا المنكر؟

سئل ابن تيمية عن^(٢):

صناعة التنجيم محرمة أم لا؟ وهل يجوز أخذ الأجرة على ذلك، وبذلها حرام أم لا؟ وهل يجب على ولى الأمر وكل مسلم يقدر على ذلك إزالة ذلك أم لا؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين. لا يحل شيء من ذلك، وصناعة التنجيم التى مضمونها الأحكام والتأثير، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية والتمزيج بين القوى الفلكية^(*) والقوايل الأرضية: صناعة محرمة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، بل هى محرمة على لسان جميع المرسلين فى جميع الملل. قال تعالى ﴿وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ وقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَالطَّاعُوتِ﴾.

(١) القول المفيد (٤٦/٢).

(٢) مجموع فتاوى (٣٥/١٩١ - ١٩٦).

(*) هكذا فى المطبوع ولعلها [الفلكية].

وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم بإسناد صحيح عن ابن عباس قال:-
فذكر حديث الباب- فإن الاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفلحون، لا فى الدنيا
ولا فى الآخرة.

وقد تبين بما ذكرناه أن الأجرة المأخوذة على ذلك والهبة والكرامة حرام على الدافع
والأخذ وأنه يحرم على الملاك والنظار والوكلاء إكراء الخوانيت المملوكة أو الموقوفة أو
غيرها من هؤلاء الكفار الفساق بهذه المنفعة إذا غلب على ظنهم أنهم يفعلون فيها هذا
الجبب الملعون.

ويجب على ولى الأمر وكل قادر السعي فى إزالة ذلك.

وأفراخ الصابئة عباد الكواكب، فهل كانت بعثة الخليل صلاة الله وسلامه عليه إمام
الحنفاء إلا إلى سلف هؤلاء، فإن عمرو بن كنعان كان ملك هؤلاء، وعلماء الصابئة هم
المنجمون ونحوهم، وهل عبّدت الأوثان فى غلبة الأمر إلا عن رأى هذا الصنف الخبيث
الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله.

وقد اعترف رؤساء المنجمين من الأولين والآخرين أن أهل الإيمان أهل العبادات،
والدعوات، يرفع الله عنهم ببركة عباداتهم ودعائهم وتوكلهم على الله ما يزعم المنجمون
أن الأفلاك توجهه.

ويعترفون أيضاً بأن أهل العبادات والدعوات ذوى التوكل على الله يعطون من
ثواب الدنيا والآخرة ما ليس فى قوى الأفلاك أن تجلبه، فالحمد لله الذى جعل خير
الدنيا والآخرة فى اتباع المرسلين. أ. هـ.

وقد أجمل الإجابة فى موضع آخر^(١) حيث قال:

بل ذلك- صناعة التنجيم- محرم بإجماع المسلمين، وأخذ الأجرة على ذلك، ومن
الجلوس فى الخوانيت والطرقات، ومنع الناس أن يكروهم، والقيام فى ذلك من أفضل
الجهاد فى سبيل الله. والله أعلم-أهـ.



(١) مجموع الفتاوى (١٩٧/٣٥).

وَاللِّسَانِي مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ «مَنْ عَقَدَ عَقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وَكُلَّ إِلَيْهِ» (١).

قوله: [وللنسائي من حديث أبي هريرة: «من عقد عقدة ثم نفث فيها...» الحديث.

قال سليمان آل الشيخ (٢):

هذا الحديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي ولم يبين هل هو موقوف أو مرفوع؟ وقد رواه النسائي مرفوعاً وذكر المصنف عن الذهبي أنه قال: لا يصح وحسنه ابن مفلح. اهـ.

قلت: ولعله استغنى بقوله حديث عن رفعه، ذلك لأنه يرى أن الحديث لا يختص إلا بالمرفوع

مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوي (٣): دل الحديث على أن التعقيد والنفث فيه، نوع من السحر. اهـ.

مناسبة الحديث لكتاب التوحيد:

قال القرعاوي (٤): اعتبر الحديث الساحر مشركاً.

قال ابن عثيمين (٥): إن هؤلاء الذين يتعلقون بالسحر، ويجعلونه صناعة يصلون بها إلى مآربهم يولكون إلى ذلك، وآخر أمرهم الخسارة والندم.

قوله: [من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر]

قال سليمان آل الشيخ (٦): أعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة حتى يتعقد ما يريدونه من السحر.

ولهذا أمر الله بالاستعاذة من شرهم في قوله: «وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ» يعني: السواحر اللاتى يفعلن ذلك والنفث هو النفخ مع ريق وهو دون التفل وهو مرتبة بينهما، والنفث فعل الساحر. فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذى يريده المسحور ويستعين عليه

(١) أخرجه النسائي في «المجتبى» (١١٢/٧) وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٧١٩/٦) وعزاه لابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (ح ١٤٢٢٧) و«فتح المجيد» (٥٢٨) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٩٦). (٣ - ٤) الجديد (٢٣٤).

(٥) القول المفيد (٤٦/٢). (٦) تيسير العزيز الحميد (٢٩٦).

بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقد نفخاً معه ريق فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشّر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك. وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيصيب السحر بإذن الله الكوني القدرى لا الإذن الشرعى قاله ابن القيم أهـ.

قال ابن عثيمين^(١): النَّفْثُ: النفخ بريق خفيف، والمراد هنا النفث من أجل السحر.

أما لو عقد عقدة، ثم نفث فيها من أجل أن تحتكم بالروطبة؛ فليس بداخل في الحديث، والنفث من أجل السحر يفعلونه بعض الأحيان للصرف؛ فيصرفون به الرجل عن زوجته، ولا سيما عند عقد النكاح؛ فيبعد الرجل عن زوجته، فلا يقوى على جماعها، فمن عقد هذه العقدة؛ فقد وقع في السحر كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أهـ.

[قلت]: تقدم غير مرة أنه لا بد للشيطان من مثال كوني يقتدى به في عمله الشركى أو السحرى، والمثال الكونى الذى قلده الشيطان أولياؤه فى النفخ أو النفث أو الريق هى تلك الرقى الشرعية التى ثبتت عن نبينا ﷺ قبل النوم حيث أمر بجمع الكفين والنفخ أو النفث فيهما وقراءة المعوذات وسورة الإخلاص ثم مسح ما استطاع من جسده مبتدأ بوجهه ورأسه. الحديث. وفى الصحيح قال ﷺ «تربة أرضنا بريق بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا» (*).

قوله [ومن سحر فقد أشرك]

قال سليمان آل الشيخ^(٢): وقوله: «ومن سحر فقد أشرك». نص فى أن الساحر مشرك إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك كما حكاه الحافظ عن بعضهم.

وقال ابن عثيمين^(٣): (من) شرطية، وفعل الشرط (سحر) وجوابه (فقد أشرك).

وهذا لا يتناول جميع السحر، إنما المراد مَنْ سَحَرَ بالطرق الشيطانية.

أما من سحر بالأدوية والعقاقير وما أشبهها؛ فقد سبق أنه لا يكون مشركاً، لكن الذى يسحر بواسطة طاعة الشياطين واستخدامهم فيما يريد؛ فهذا لا شك أنه مشرك. أهـ.

(١) القول المفيد (٤٦/٢، ٤٧).

(*) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٧٤٥)، ومسلم فى السلام (١٨٣/١٤ - النوى) عن عائشة به.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٩٧). (٣) القول المفيد (٤٧/٢ - ٤٨).

[قلت]: وكذلك من يتقرب إلى الكواكب السيارة كسحر أهل بابل، أو الذى يجمع بين الصورتين كذلك، كما تقدم. والله أعلم.

قوله [من تعلق شيئاً وكل إليه]

قال سليمان آل الشيخ^(١):

قوله: «ومن تعلق شيئاً وكل إليه». أى: من تعلق قلبه شيئاً بحيث يتوكل عليه: ويرجوه وكله الله إلى ذلك الشيء. فإن تعلق العبد على ربه وإلهه وسيده ومولاه، رب كل شيء ومليكه وكله إليه فكفاه ووقاه وحفظه وتولاه، ونعم المولى ونعم النصير كما قال تعالى: «اليس الله بكاف عبده» ومن تعلق على السحرة والشياطين وكله الله إليهم فأهلكوه فى الدنيا والآخرة.

وبالجملة فمن توكل على غير الله كائناً من كان وكل إليه وأتاه الشر فى الدنيا والآخرة من جهته مقابلة له بنقيض قصده، وهذه سنة الله فى عباده التى لا تبدل، وعادته التى لا تحول، أن من اطمأن إلى غيره أو وثق بسواه أو ركن إلى مخلوق يدبره أجرى الله تعالى له بسببه أو من جهته خلاف ما علّق به آماله وهذا أمر معلوم بالنص والعيان. ومن تأمل ذلك فى أحوال الخلق بعين البصيرة النافذة رأى ذلك عياناً. وفائدة هذه الجملة بعد ما قبلها الإشارة إلى أن الساحر متعلق على غير الله فإنه متعلق على الشياطين.

قال ابن عثيمين^(٢): «تعلق شيئاً» أى: استمسك به، واعتمد عليه.

«وكل إليه» أى: جعل هذا الشيء الذى تعلق به عماداً له، ووكله الله إليه، وتخلي عنه.

ومناسبة هذه الجملة لتى قبلها: أن النافع فى العقد يريد أن يتوصل بهذا الشيء إلى حاجته ومآربه، فيوكل إلى هذا الشيء المحرم.

ووجه آخر: وهو أن من الناس من إذا سحر عن طريق التفتخ بالعقد ذهب إلى السحرة وتعلق بهم، ولا يذهب إلى القراءات والأدوية المباحة والأدعية المشروعة، ومن توكل على الله كفاه، قال تعالى: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره»، وإذا كان الله حسبك؛ فلا بد أن تصل إلى ما تريد.

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٩٧).

(٢) القول المفيد (٤٨/٢).

قال: وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا هَلْ أَنْبِئُكُمْ مَا الْعِصَةُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١).

لكن من تعلق شيئاً من المخلوقين وكل إليه، ومن وكل إلى شيء من المخلوقين وكل إلى ضعف وعجز وغورة، وقد يشمل الحديث من اعتمد على نفسه وصار معجباً بما يقول ويفعل؛ فإنه يوكل إلى نفسه، ويوكل إلى ضعف وعجز وغورة، ولهذا ينبغي أن تكون دائماً متعلقاً بالله في كل أفعالك وأحوالك حتى في أهون الأمور.

ونقول للإنسان: اعتمد على نفسك بالنسبة للناس، فلا تسألهم ولا تستذل أمامهم، واستغن عنهم ما استطعت، أما بالنسبة لله؛ فلا تستغن عنه، بل كن دائماً معتمداً على ربك حتى تتيسر لك الأمور، ومن هذا النوع من يتعلقون ببعض الأحرار يعلقونها؛ فإنهم يوكلون إلى هذا، ولا يحصل لهم مقصودهم، لكنهم لو اعتمدوا على الله، وسلكوا السبل الشرعية؛ حصل لهم ما يريدون، ومن هذا النوع أيضاً من تعلق شيئاً من القبور، وجعلها ملجأ ومغيثاً عند طلب الأمور؛ فإنه يوكل إليه، والإنسان قد يفتن ويحصل له المطلوب بدعاء هؤلاء، ولكن هذا المطلوب الذي حصل عند دعائهم لا بدعائهم، والآية صريحة في ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...﴾، لكن الله تعالى قد يفتن من شاء من عباده.

[قلت] قد مر في باب من تبرك بشجر أو حجر وغيره مثل باب من الشرك لبس الحلقة والخطب قوله ﷺ «من تعلق شيئاً وكل إليه» وقوله «من تعلق تميمة فقد أشرك» وقوله «من تعلق تميمة فلا أتم الله له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له» وقوله «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً» إلى غير ذلك من النصوص.

قوله: قال: وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «هل أنبئكم ما العضة؟!

مناسبة الحديث للباب:

قال سليمان آل الشيخ (٢): ظاهر إيراد المصنف لهذا الحديث هنا يدل على أن معنى العضة عنده هنا هو السحر، ويدل على ذلك حديث: «كَادَتِ النَّمِيمَةُ أَنْ تَكُونَ سِحْرًا» (٣)

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في البر والصلة/ باب تحريم التيممة (١٥٩/١٦/٦) وأحمد في مسنده (١٤٣٧/١) مطولاً والدارمي في «سننه» (٣٠٠٢٢٩٩/٢) مطولاً والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٤٦/١٠) ح (٢١١٥٨).

جميعاً من طريق: أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود.

وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٥٤١) بتخريجنا.

وانظر «فتح المجيد» (٥٢٩- بتخريجنا).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٢٩٧) (٣) حديث موضوع.

رواه ابن لال فى «مكارم الأخلاق» بإسناد ضعيف. وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبى كثير قال: يفسد النمام والكذاب فى ساعة ما لا يفسد الساحر فى سنة.

وقال أبو الخطاب فى «عيون المسائل»، ومن السحر السعى بالتميمة والإفساد بين الناس. قال فى «الفروع» ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعلمه على وجه المكر والحيلة، أشبه السحر، ولهذا يعلم بالعرف والعادة أنه يؤثر ويتج ما يعمل الساحر أو أكثر فيعطى حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين، لكنه يقال الساحر إنما كفر لوصف السحر وهو أمر خاص، ودليله خاص، وهذا ليس بساحر وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطى حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة انتهى ملخصاً. وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة. أ.هـ.

قال القرعاوى^(١): حيث دل الحديث على أن التميمة نوع من السحر، وذلك لأن التميمة تؤثر ما يؤثر أو أكثر أ.هـ.

قوله [ألا]

قال ابن عثيمين^(٢): أداة استفتاح والغرض تنبيه المخاطب، والاعتناء بما يلقى إليه أ.هـ.

قوله [هل أنبئكم]

قال سليمان آل الشيخ^(٣): أخبركم أ.هـ.

قال ابن عثيمين^(٤): الاستفهام للتشويق؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

لأن الإنسان مشتاق إلى العلوم يحب أن يعلم، وقد يكون المراد به التنبيه؛ لأن الموجه إليه الخطاب ينبغى أن يتنبه ليَعْلَم، وهى تصلح للجميع.

ومعنى أنبئكم: أخبركم، وهى مرادفة للخبر فى اصطلاح المحدثين، وقال بعض

(١) الجديد (٢٣٥).

(٢) القول المفيد (٢/ ٥٠).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٢٩٧).

(٤) القول المفيد (٢/ ٥٠).

العلماء من ناحية اللغة لا الاصطلاح: إن الإنشاء لغة يكون فى الأمور الهامة، والإخبار أعم منه يكون فى الهامة وغير الهامة.

قوله: [ما العضة].

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله «ما العضة»: هو بفتح العين المهملة وسكون المعجمة. قال أبو السعادات: هكذا تروى فى كتب الحديث: والذي جاء فى كتب الغريب «ألا أنبشكم ما العضة» بكسر العين وفتح الضاء وفى حديث آخر «إياكم والعضة» قال الزمخشري: أصلها العضه فعلة من العضه وهو البهت فحذفت لامه، كما حذفت من السنة والشفة. وتجمع على عضين.

ثم فسرهُ بقوله: هى النيمة القالة بين الناس وعلى هذا فاطلق عليها العضه لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالباً.

ذكره القرطبي والحديث دليل على تحريم النيمة، وهو كذلك بالإجماع. وقد قال أبو محمد بن حزم: اتفقوا على تحريم الغيبة والنيمة فى غير النصيحة الواجبة، وفيه دليل على أنها من الكبائر. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: «العضة» على وزن الجبل والصمت والوعد، بمعنى القطع، وأما العضة على وزن عدة؛ فإنها التفريق، وأياً كان؛ فإنها تتضمن قطعاً وتفريقاً. اهـ.

[قلت] ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أى مفرقاً يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض. اهـ.

ثم قال:- قوله: «هى النيمة».

فعيلة بمعنى مفعولة، وهى من نم الحديث إلى غيره؛ أى: نقله، والنيمة فسرّها بقوله: «القالة بين الناس»؛ أى: نقل القول بين الناس، فينقل من هذا إلى هذا، فيأتى لفلان ويقول: فلان يسبك؛ فهو نم إليه الحديث ونقله، وسواء كان صادقاً أو كاذباً، فإن كان كاذباً؛ فهو بهت ونيمة، وإن كان صادقاً؛ فهو نيمة.



(١) تيسير العزيز الحميد (٢٩٨).

(٢) القول المفيد (٥٠ / ٢).

قال: وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» (*).

هذا الحديث ذكره البخارى فى كتاب الطب باب إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا ولفظه «أنه قدم رجلان من المشرق فخطيا، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ - إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، أو إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ سِحْرًا.

مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى^(١): حيث دل الحديث أن بعض البيان نوع من السحر وذلك لأنه يستميل القلوب كما يستميل السحر.

قوله: [إن من البيان لسحراً]

قال ابن حجر^(٢): قال الخطابى: البيان اثنان:

(أحدهما) ما تقع به الإبانة عن المراد بأى وجه كان.

(والآخر) ما دخلته الصنعة بحيث يروق للسامعين ويستميل قلوبهم، وهو الذى يشبه بالسحر إذا جلب القلب وغلب على النفس حتى يحول الشئ عن حقيقته ويصرفه عن جهته، فيلوح للنظر فى معرض غيره. وهذا إذا صرف إلى الحق يمدح، وإذا صرف إلى الباطل يذم.

قال: فعلى هذا فالذى يشبه بالسحر منه هو المذموم.

وتعقب بأنه لا مانع من تسمية الآخر سحراً، لأن السحر يطلق على الاستمالة كما تقدم تقريره فى أول باب السحر، وقد حمل بعضهم الحديث على المدح والحث على تحسين الكلام وتجبير الألفاظ - وفى الحديث قال أبو موسى: «لو كنت أعلم مكانك يارسول الله لحبرت لك تجبيراً»^(٣) وهذا واضح إن صح أن الحديث ورد فى قصة عمرو بن الأهتم.

وحمله بعضهم على الذم لمن تصنع فى الكلام وتكلف لتحسينه وصرف الشئ عن ظاهره، فشبه بالسحر الذى هو تخيل لغير حقيقة، وإلى هذا أشار مالك حيث أدخل هذا الحديث فى «الموطأ» فى «باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله» وفى «باب الخطبة»

(١) الجديد () .

(٢) سيأتى تخريجه .

(*) تقدم تخريجه .

(٢) فتح البارى (١٠/ ٢٤٨) .

من كتاب النكاح فى «الصحيح» الكلام على حديث الباب من قول صعصعة بن صوحان فى تفسير هذا الحديث ما يؤيد ذلك، وهو أن المراد به الرجل يكون عليه الحق، وهو ألحن بالحجة من صاحب الحق فيسحر الناس ببيانه فيذهب بالحق، وحمل الحديث على هذا صحيح، لكن لا يمنع حمله على المعنى الآخر إذا كان فى تزوين الحق.

وبهذا جزم ابن العربى وغيره من فضلاء المالكية.

وقال ابن بطال: أحسن ما يقال فى هذا أن هذا الحديث ليس ذمّاً للبيان كله ولا مدحاً لقوله من البيان، فأتى بلفظة «من» التى للتبعض قال: وكيف يذم البيان وقد امتن الله به على عباده حيث قال ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ انتهى.

والذى يظهر أن المراد بالبيان فى الآية المعنى الأول الذى نبه عليه الخطابى، لا خصوص ما نحن فيه.

وقد اتفق العلماء على مدح الإيجاز، والإتيان بالمعانى الكثيرة بالألفاظ البسيطة، وعلى مدح الإطناب فى مقام الخطابة بحسب المقام، وهذا كله من البيان بالمعنى الثانى. نعم الإفراط فى كل شئ مذموم، وخير الأمور أوسطها. والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ^(١): البيان: البلاغة والفصاحة. قال صعصعة بن صوحان: صدق نبى الله أما قوله: «وإن من البيان لسحر» فالرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه، فيذهب بالحق. وقال ابن عبد البر: تأولته طائفة على الذم؛ لأن السحر مذموم. وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح لأن الله تعالى مدح البيان. قال: وقد قال عمر بن عبدالعزيز لرجل سألته عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله فقال: هذا والله السحر الحلال.

قلت - يعنى سليمان آل الشيخ -: الأول أصح وهو أنه خرج مخرج الذم لبعض البيان لا كله، وهو الذى فيه تصويب الباطل وتحسينه، حتى يتوهم السامع أنه حق أو يكون فيه بلاغة زائدة عن الحد، أو قوة فى الخصومة حتى يسحر القوم ببيانه، فيذهب بالحق ونحو ذلك فسماء سحراً لأنه يستميل القلوب كالسحر، ولهذا قال ﷺ: «لَمَّا جَاءَهُ رَجُلَانِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَخَطَبَا فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»^(٢)» كما رواه مالك والبخارى وغيرهم.

وأما جنس البيان فمحمود، بخلاف الشعر فجنسه مذموم إلا ما كان حكماً ولكن لا

(١) تيسير العزيز الحميد (٢٩٨، ٢٩٩).

(٢) تقدم تخريجه.

يحمد البيان إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب أو تصوير الباطل في صورة الحق، فإذا خرج إلى هذا الحد فهو مذموم.

وعلى هذا تدل الأحاديث كقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَغْضُ الْبَلِغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ تَخَلُّلَ الْبَاقِرَةِ بِلِسَانِهَا». رواه أحمد وأبو داود (١).

وقوله ﷺ: «لَقَدْ رَأَيْتُ أَوْ لَقَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي الْقَوْلِ فَإِنَّ الْجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ» رواه أبو داود (٢).

ثم تابع ابن عثيمين ابن حجر فقال: والبيان نوعان:

الأول: بيان لا بد منه، وهذا يشترك فيه جميع الناس فكل إنسان إذا جاع قال: إني جعت، وإذا عطش قال: إني عطشت، وهكذا.

الثاني: بيان بمعنى الفصاحة التامة التي تَسْبِي العقول وتغير الأفكار، وهي التي قال فيها الرسول ﷺ: «إِنْ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ».

وعلى هذا التقسيم تكون «من» للتبعية؛ أي: بعض البيان - وهو البيان الكامل الذي هو الفصاحة - سحر.

أما إذا جعلنا البيان بمعنى الفصاحة فقط؛ صارت «من» لبيان الجنس.

ووجه كون البيان سحراً: أنه يأخذ بلب السامع، فيصرفه أو يعطفه، فيظن السامع أن الباطل حق لقوة تأثير المتكلم، فينصرف إليه، ولهذا إذا أتى إنسان يتكلم بكلام معناه باطل، لكن لقوة فصاحته وبيانه يسحر السامع حقاً*، فينصرف إليه، وإذا تكلم إنسان ببلغ يُحَذِّرُ من حق، ولفصاحته وبيانه يظن السامع أن هذا الحق باطل، فينصرف عنه، وهذا من جنس السحر الذي يسمونه العطف والصرف، والبيان يحصل به عطف وصرف فالبيان في الحقيقة بمعنى الفصاحة، ولا شك أنها تفعل فعل السحر، وابن القيم يقول عن الحور: حديثها السحر الحلال.

وقوله: «إِنْ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ»، وهل هذا على سبيل الذم، أو على سبيل المدح، أو لبيان الواقع أم ينظر إلى أثره؟

الجواب: الأخير هو المراد؛ فالبيان من حيث هو بيان لا يمدح عليه ولا يذم، ولكن ينظر إلى أثره، والمقصود منه، فإن كان المقصود منه رد الحق وإثبات الباطل؛ فهو

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٥/٢) وأبو داود (٥٠٠٥) والترمذي (٢٨٥٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٠٨).

(*) كذا في الأصل، ولعل الكلام (يسحر السامع فيظنه حقاً).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنَّ الْعِيَاةَ وَالطَّرْقَ وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجَبْتِ.

مذموم؛ لأنه استعمال لنعمة الله في معصيته، وإن كان المقصود منه إثبات الحق وإبطال الباطل؛ فهو ممدوح، وإذا كان البيان يستعمل في طاعة الله وفي الدعوة إلى الله؛ فهو خير من العي، لكن إذا ابتلى الإنسان ببيان ليصد الناس عن دين الله؛ فهذا لا خير فيه، والعي خير منه، والبيان من حيث هو لا شك أنه نعمة، ولهذا امتن الله به على العبد؛ فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (١).

قلت: وقد سمى الرسول العي الذي هو ضد البيان بالمرض حيث جاء في الحديث «إنما شفاء العي السؤال» وقد سخر فرعون من موسى لعدم بيانه كما أخبر الله تعالى عنه حديث قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ لهذا دعا موسى ربه فقال: ﴿وَاحْلِلْ الْعَقْدَةَ مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.

قال ابن عثيمين (٢): قوله: «إن من البيان».

«إن»: حرف تأكيد، ينصب الاسم ويرفع الخبر، «ومن»: يحتمل أن تكون للتبعية، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس؛ فعلى الأول يكون المعنى: إن بعض البيان سحر وبعضه ليس بسحر، وعلى الثاني يكون المعنى: إن جنس البيان كله سحر. قوله: «لسحراً».

اللام للتوكيد، و«سحراً»: اسم إن.

والبيان: هو الفصاحة والبلاغة، وهو من نعمة الله على الإنسان، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾. اهـ.



قوله: «فيه مسائل».

أى: فى هذا الباب وما تضمنه من الأحاديث والآثار مسائل:

● المسألة الأولى: أَنَّ الْعِيَاةَ وَالطَّرْقَ وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجَبْتِ.

قال ابن عثيمين (٣): وقد سبق تفسير هذه الثلاثة وتفسير الجبت.

(٢) القول المفيد (٥٣/٢).

(١) القول المفيد ٥٣/٢.

(٣) القول المفيد ٥٦/٢ و ٥٧.

- الثانية: تَفْسِيرُ الْعِيَاةِ وَالطَّرْقِ.
- الثالثة: أَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ نَوْعٌ مِنَ السَّحْرِ.
- الرابعة: الْعَقْدُ مَعَ النَّفْثِ مِنْ ذَلِكَ.
- الخامسة: أَنَّ النَّمِيمَةَ مِنْ ذَلِكَ.
- السادسة: أَنَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضُ الْفَصَاحَةِ.

-
- الثانية: تفسير العيافة والطرق.
- وقد بينت في الباب أيضاً وشرحت.
- الثالثة: أن علم النجوم نوع من السحر.
- لقلوه: «من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر»، وسبق الكلام عليها أيضاً.
- الرابعة: العقد مع النفث من ذلك.
- لحديث أبي هريرة: «من عقد عقدة ثم نفث فيها؛ فقد سحر»، وقد تقدم الكلام على ذلك.
- الخامسة: أن النميمة من ذلك.
- لحديث ابن مسعود: «ألا هل أُنْبِثُكم ما العضه؟ هي النميمة»، وهي من السحر؛ لأنها تفعل ما يفعل الساحر من التفريق بين الناس والتحريش بينهم، وقد سبق بيان ذلك.
- السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة.
- أى: من السحر بعض الفصاحة؛ لقول النبي ﷺ: «إن من البيان لسحراً»، والمؤلف - رحمه الله - قال: بعض الفصاحة استدلالاً بقوله ﷺ: «إن من البيان؛ لأن من» هنا عند المؤلف للتبويض، ووجه ذلك من السحر أن لسان البليغ ذى البيان قد يصرف الهمم وقد يلهب الهمم بما عنده من الفصاحة. اهـ.



باب ماجاء فى الكهان ونحوهم

● مناسبة هذا الباب لما قبله

قال سليمان آل الشيخ^(١): ولما ذكر المصنف شيئاً مما يتعلق بالسحر ذكر ماجاء فى الكهان ونحوهم كالعراف اهـ. لمشابهة هؤلاء للسحرة.

[قلت]: وقد تكون هناك مناسبة أخرى أردف بسببها المصنف هذا الباب بعد الذى قبله وهى أنه لما ختم الباب الماضى بقوله ﷺ «إن من البيان لسحراً» وكان منه مذموم يشبه السحر فى العطف والصرف وعلى رأس من يستخدم هذا النوع من البيان هم الكهان فناسب أيضاً أن يذكر ما جاء فى الكهان وليس أدل على ذلك مما ثبت عن النبى ﷺ حين قضى فى جنين امرأة ضربتها الأخرى فسقط ميتاً بغرة على عاقلة الضاربة قال رجل منهم: كيف ندى من لاشرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، ومثل دمه يطل قال ﷺ: «إياكم وسجع الكهان»(*) وأيضاً هناك مناسبة أخرى فى هذا الباب وهو أن القاسم المشترك بين السحر والكهانة أن كلاهما جبت.

● مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد^(٢).

قال عبدالله بن جابر الله: مناسبة هذا الباب للتوحيد هى أن الكهانة لا تخلو من الشرك المتنافى للتوحيد ودخل فيها الشرك من جهتين.

من جهة التقرب إلى غير الله كاستخدام الشياطين والاستعانة بهم ومن جهة دعوى مشاركة الله فى علم الغيب الذى اختص به.

قال ناصر السعدى^(٣): أى من كان يدعى علم الغيب بأى طريق من الطرق وذلك أن الله تعالى هو المنفرد بعلم الغيب فمن ادعى مشاركة الله فى شىء من ذلك بكهانة أو عرافة أو غيرها أو صدق من ادعى ذلك فقد جعل الله شريكاً فيما هو من خصائصه وقد كذب الله ورسوله - قلت: ذلك لأنه تعالى قال ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ اهـ وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك والتقرب إلى الوسائط التى تستعين لها على دعوى العلوم الغيبية فهو شرك من جهة دعوى مشاركة الله فى علمه الذى اختص به ومن جهة التقرب إلى غير الله وفيه إبعاد الشارع للخلق عن الخرافات المفسدة للأديان والعقول اهـ.

(*) وسيأتى وتخرجه فى أثناء الباب.

(٣) القول السديد ٧٧: ٩٧.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٠٠

(٢) الجامع الفريد ١٠٨

● تعريف الكهانة، والكهان، والكاهن:

قال ابن حجر^(١): الكهانة بفتح الكاف ويجوز كسرهما ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع فى الأرض مع الاستناد إلى سبب، والأصل فيه استراق الجن السمع من كلام الملائكة، فيلقيه فى أذن الكاهن والكاهن لفظ يطلق على العراف، والذى يضرب بالحصى. والمنجم. ويطلق على من يقوم بأمر آخر ويسعى فى قضاء حوائجه.

وقال فى «المحكم»: الكاهن القاضى بالغيب.

قلت: فأى أحد يحكم بالغيب هو كاهن، فإذا لم يكن عنده علم وضرب فى المسألة ضرب عشواء متكهّن، فهذا مُخَمَّنٌ مُخَرَّصٌ لعدم وجود برهان على قوله وهى محض كهانة ولا يصح أن تقول «أتكهّن لك».

وقال فى «الجامع»: العرب تسمى كل من أذن بشيء قبل وقوعه كاهناً.

قلت/ وأذن يعنى أعلم «وأذن من الله ورسوله» أى إعلام من الله ورسوله وأصل الآذان فى اللغة هو الإعلام.

وقال الخطابى: الكهانة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع نارية فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب فى هذه الأمور ومساعدتهم بكل ماتصل قدرتهم إليه. وكانت الكهانة فى الجاهلية فاشية، خصوصاً فى العرب لانقطاع النبوة فيهم اهـ.

قلت/ لكن بعد النبوة فالحمد لله كما حمد الله الخطابى أنها قلت أو اتعدمت لكن تعود الجاهلية مرة أخرى تعود أيضاً الكهانة إلى ازدهارها وإلى غمها وانتشارها.

ونقل سليمان آل الشيخ نفس كلام ابن حجر كعادته فى كثير من نقولاته بعد أن يهذبها ويختصرها وربما رجح ما لم يرجحه ابن حجر وقلّ أن يتعقبه حيث قال^(٢):

والكهانة ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع فى الأرض مع الاستناد إلى سبب والأصل فيه استراق الجن السمع من كلام الملائكة فتلقيه فى أذن الكاهن؛ والكاهن لفظ يطلق على العراف والذى يضرب بالحصى والمنجم. وقال فى «المحكم»: الكاهن القاضى بالغيب.

وقال الخطابى: الكهان فيما علم بشهادة الامتحان؛ قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة، وطبائع نارية، فهم يفرعون إلى الجن فى أمورهم ويستفتونهم فى الحوادث، فيلقون إليهم الكلمات اهـ.

(١) فتح البارى (١٠/٢٢٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٠٠).

قال ابن باز^(١): الكاهن هو الذى له رأى من الجن، أى صاحب، وحكمهم أنه يجب القضاء عليهم وتعزيزهم وتكذيبهم وعدم سؤالهم. اهـ.
فعرّف الكاهن وما ينبغى تجاهه من أولى الأمر.

قال ابن عثيمين^(٢): الكهان: جمع كاهن، والكهنة أيضاً جمع كاهن، وهم قوم يكونون فى أحياء العرب يتحاكم الناس إليهم، - ولذلك سموهم طاغوت وجبت - وتتصل بهم الشياطين، وتخبرهم عما كان فى السماء، تسترق السمع من السماء، وتأتى وتخبر الكاهن، ثم الكاهن يضيف إلى هذا الخبر ما يضيف من الأخبار الكاذبة، ويخبر الناس، فإذا وقع مما أخبر به شيء؛ اعتقده الناس علماً بالغيب، - وتقدم معنا فى باب ﴿حتى إذا فرغ عن قلوبهم﴾ صفة استراق السمع وصفة تلقى الكهنة الكلمة من السماء عن طريق الجن وكيف أنه يضيف عليها مئة كذبة وأنه يُصدّق فى هذه المئة من أجل الكلمة التى جاءت من خبر السماء - فصاروا يتحاكمون إليهم؛ فهم مرجع للناس فى الحكم، ولهذا يسمون الكهنة؛ إذ هم يخبرون عن الأمور فى المستقبل، يقولون: سيقع كذا وسيقع كذا، وليس من الكهانة فى شيء من يخبر عن أمور تدرك بالحساب؛ فإن الأمور التى تدرك بالحساب ليست من الكهانة فى شيء، كما لو أخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر؛ فهذا ليس من الكهانة؛ لأنه يدرك بالحساب، وكما لو أخبر أن الشمس تغرب فى ٢٠ من برج الميزان مثلاً فى الساعة كذا وكذا؛ فهذا ليس من علم الغيب، وكما يقولون: إنه سيخرج فى أول العام أو العام الذى بعده مذنّب (هالى)، وهو نجم له ذنب طويل؛ فهذا ليس من الكهانة فى شيء؛ لأنه من الأمور التى تدرك بالحساب؛ فكل شيء يدرك بالحساب، فإن الإخبار عنه ولو كان مستقبلاً لا يعتبر من علم الغيب، ولا من الكهانة.

مسألة: وهل من الكهانة ما يخبر به الآن من أحوال الطقس فى خلال أربع وعشرين ساعة أو ما أشبه ذلك؟

الجواب: لا؛ لأنه أيضاً يستند إلى أمور حسية، وهى تكيف الجو؛ لأن الجو يتكيف على صفة معينة تعرف بالموازين الدقيقة عندهم؛ فيكون صالحاً لأن يمطر، أولاً يمطر، نظير ذلك فى العلم البدائى إذا رأينا تجمع الغيوم والرعد والبرق وثقل السحاب، نقول: يوشك أن ينزل المطر.

فالمهم أن ما استند إلى شيء محسوس؛ فليس من علم الغيب، وإن كان بعض

(١) التعليق المفيد (١٤٩).

(٢) القول المفيد (٢/٥٨، ٥٩).

العامّة يظنون أن هذه الأمور من علم الغيب، ويقولون: إن التصديق بها تصديق بالكهانة.

والشيء الذى يدرك بالحس إنكاره قبيح؛ كما قال السفارينى:

فكل معلوم بحس أو حجا فنكره جهل قبيح بالهجا

فالذى يعلم بالحس لا يمكن إنكاره ولو أن أحداً أنكره مستنداً بذلك إلى الشرع؛ لكان ذلك طعناً بالشرع اهـ.

● الفرق بين العراف، والكاهن، والمنجم، والرمال:

قال ابن تيمية (١): العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم فى معرفة الأمور بهذه الطريقة. وتقدم كلام ابن حجر وسليمان آل الشيخ تبعاً له.

وسياتى تتمّة كلام ابن تيمية فى آخر هذا الباب مستفيضاً - والله المستعان.

وقال ابن حجر (٢): العراف: من يستخرج الوقوف على المغيبات بضرب من فعل أو قول اهـ. فكأن الجميع ليس هناك فرق بينهم.

وقال عبدالله بن جار الله (٣): العراف: هو الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق، ومكان الضالة ونحو ذلك، وقيل: هو الكاهن.

والكاهن: هو الذى يأخذ عن مسترق السمع ويخبر عن المغيبات فى المستقبل، وقيل: هو الذى يخبر عما فى الضمير.

والمنجم: هو الذى يستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية - كحظك اليوم وأنت والنجوم.

والرمال: هو الذى يدعى معرفة المغيبات بطريق الضرب بالحصى، والخط فى الرمل اهـ.

وقال ابن عثيمين (٤): العراف: صيغة مبالغة من العارف، أو نسبة؛ أى: من ينتسب إلى العرافة.

والعراف: قيل: هو الكاهن، وهو الذى يخبر عن المستقبل.

وقيل: هو اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يستدل على معرفة الغيب

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٠٥) والجامع الفريد (١١٠).

(٢) فتح البارى (٢٢٨/١٠). الجامع الفريد (١١٠).

(٤) القول المفيد (٦٠/٢).

بمقدمات يستعملها، وهذا المعنى أعم، ويدل عليه الاشتقاق؛ إذ هو مشتق من المعرفة، فيشمل كل من تعاطى هذه الأمور وادعى بها المعرفة اهـ.

● أنواع الكهانة وحكمها:

قال ابن حجر (١): هي على أصناف:

منها: مايتلقونه من الجن، فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذى يليه، إلى أن يتلقاه من يلقه فى أذن الكاهن فيزيد فيه، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرست السماء من الشياطين، وأرسلت عليهم الشهب، فبقى من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، وكانت أصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جداً كما جاء فى أخبار شق وسطيح ونحوهما، وأما فى الإسلام فقد ندر ذلك جداً حتى كاد يضمحل والله الحمد.

ثانيها: ما يخبر الجنى به من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد.

ثالثها: ما يستند إلى ظن وتخمين وحس، وهذا قد يجعل الله فيها لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه.

رابعها: ما يستند إلى التجربة والعادة، فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك، ومن هذا القسم الأخير ما يضاهاى السحر، وقد يعتضد بعضهم فى ذلك بالزجر والطرق والنجوم. وكل ذلك مذموم شرعاً اهـ.

● ما جاء فى ذم الكهانة غير ما ذكر المصنف فى الباب.

أخرج البخارى: عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قضى فى امرأتين من هذيل أقتلتا، فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فأصاب بطنها وهى حامل، فقتلت ولدها الذى فى بطنها، فاختصموا إلى النبى ﷺ، فقضى أن دية ما فى بطنها غرة عبد أو أمة، فقال لى المرأة التى غرمت كيف أغرم يارسول الله من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك يُطل فقال النبى ﷺ «إنما هذا من إخوان الكهان» (٢).

(١) فتح البارى (٢٢٧/١٠) وأنظر شرح النووى لصحيح مسلم (٤٨٥/٧).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٩٠٩)، ومسلم فى القسامة (١٧٧/١ - النووى) عن أبى هريرة به.

وأنظر «منار السبيل» (٢٣٨٨ - بتخريجنا).

وأخرج أيضاً: عن أبي مسعود: نهى النبي ﷺ عن ثمن الكلب ، ومهر البغي ، وحلوان الكاهن^(١).

وأخرج أيضاً: عن عائشة رضى الله عنها قالت: سأل ناسُ رسول الله ﷺ عن الكهان فقال «ليس بشيء» فقالوا: يا رسول الله: إنهم يحدثوننا أحياناً بشيء حقاً، فقال رسول الله ﷺ «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرأها في أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة»^(٢).

قال ابن حجر^(٣): وورد في ذم الكهانة ما أخرجه أصحاب السنن^(٤) والحاكم من حديث أبي هريرة رفعه «من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد».

وله شاهد من حديث جابر وعمران بن حصين أخرجهما السبزار بسندين جيدين ولفظهما: «من أتى كاهناً»

وأخرجه مسلم من حديث امرأة من أزواج النبي ﷺ ومن الرواة من سماها حفصة - بلفظ «من أتى عرافاً».

- وأخرجه أبو يعلى من حديث ابن مسعود بسند جيد، لكن لم يصرح برفعه، ومثله لا يقال بالرائى، ولفظه «من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهناً»^(٥).

- وأنفقت ألفاظهم على الوعيد بلفظ حديث أبي هريرة إلا حديث مسلم فقال فيه «لم يقبل لهما صلاة أربعين يوماً».

ووقع عند الطبراني من حديث أنس بسند لين مرفوعاً بلفظ: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برئ مما أنزل على محمد، ومن أتاه غير مصدق له، لم تقبل صلاته أربعين يوماً»^(٦).

- والأحاديث مع صحتها وكثرتها أولى من هذا، والوعيد جاء تارة بعدم قبول الصلاة، وتارة بالتكفير، فيحمل على حالين من الآتى أشار إلى ذلك القرطبي. اهـ.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٢٣٧)، ومسلم فى المساقاة (١٠/٢٣١ - النووى) عن أبى مسعود

به.

وانظر «منار السيل» (١٣٨٨ - بتخريجنا).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) فتح البارى (١٠/٢٢٨-٢٢٧).

(٤) سيأتى فى نهاية هذا الباب تنبيه سليمان آل الشيخ على توهيم الحافظ فى لفظة (أصحاب السنن).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تقدم تخريجه.

● الفرق بين ما تقدم وبين الدجال:

قال الفقير: الدجال - فى غالب علمى - ليس عنده هذه المقدمات الخاصة بصنعة الكهانة ولا العرافة ولا التنجيم، ولكنه يفعل فعلهم بدون ما عندهم من أدوات، فهم عندهم أصول يتكهنون بها وهو يجهلها ومع ذلك يعمل بالكهانة على جهل .
فالدجال: هو المتكهن مع جهله بأصل الكهانة .

● الفارق بين الفراسة والكهانة:

قال الفقير:

(١) الفراسة غالباً لا يدعى صاحبها الغيب بخلاف الكاهن فإنه يدعى هذا الغيب ويفتخر بادعائه، بل وربما كثر مريدوه بسبب هذا الادعاء، وهذا بخلاف المتفرس لا يدعى الغيب فضلاً أن يفخر به .
(٢) الكهانة لها مقدمات غالباً غير مشروعة، وأما الفراسة فإنها تعتمد على مقدمات مشروعة .

مثال ذلك:

أنت تعرف أن من يعصى الله - عز وجل - فى معصية معينة، هذه المعصية قد تؤثر على عقله ووجهه وبدنه وقوته، كما قال ابن عباس فى المعصية أنها ضعف فى العقل وكسفة فى الوجه وسواد فى القلب ووهن فى الجسد .
فقد تنظر فى وجهه فرد فتعلم أنه يفعل العادة السرية نتيجة مقدمات وهى ما تراها على وجهه وتستشعرها فى عقله، حتى إذا جاءك وحكى لك أن فرداً آخر واقع فى هذه المشكلة علمت أن الفراسة فى محلها وأنه هو الواقع فى ذلك بدون ادعاء الغيب وبمقدمات مشروعة لأنه علم من قول الصحابة وأقوال أهل الطب المعتمدة شرعاً هذه النتيجة .

وهذا كما علم عثمان - رضى الله عنه - بمثل هذه المقدمات فنظر إلى بعض أصحابه فقال: ألا يستحى أن يدخل أحدكم على أمير المؤمنين وأثر الزنا فى عينيه . وهذا إن صح الأثر، وعقد ابن القيم أيضاً فى كتابه «الطرق الحكيمة» فصلاً للفراسة بل اعتبر للقاضى أن له الحكم بالفراسة، فإن كانت محض تخمين وظن أو كهانة ما اعتبرها ابن القيم فى الحكم ودلل عليها، وذكر أيضاً فراسات للنبي ﷺ وفرسات للخلفاء الراشدين .

ويستدل للفراسة بأدلة من القرآن والسنة

من القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ والمتوسم هو المتفرس، كأن يتوسم في وجوه الناس الخير لما يراه من أمارات وعلامات دلته على ذلك.

وأحياناً تكون هذه الآيات غامضة، تحتاج إلى فراسة قوية، وأحياناً تكون هذه الآيات ظاهرة وواضحة، لاحتياج إلى فراسة قوية.

فهذه فوارق بين الكهانة والفراسة والتحديث والإلهام، وقد تقدم الإلهام والتحديث في باب ﴿إنك لاتتهدى من أحببت﴾ بما يغني عن إعادته هنا.

(٣) الكهانة تزيد بزيادة الكفر وتنقص بنقصانه، وأما الفراسة فتزيد بزيادة الإيمان وتنقص بنقصانه، ولهذا نقل ابن القيم عن بعض السلف أن من غصَّ بصره لم تخطيء له فراسة، ومن هاهنا جاء الحديث الضعيف «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله»^(١).

فكلما ازداد الإيمان تزداد الفراسة ولم تخطيء وكلما قلَّ الإيمان أو ضعف بكثرة المعاصي ضعفت الفراسة، أما الكاهن فكلما ازداد تقربه إلى الشياطين زادت خدمتهم له، فزادت كهنته قوة، وزاد ما يخبر به من الغيب النسبي.

ويتأيد كل ذلك بما ذكره ابن القيم في منزلة الفراسة في مدارج السالكين شرح منال السائرين.

فقال صاحب «المنازل»: الفراسة: استثناس حكم غيب.

قال ابن القيم: والاستثناسي استفعال من أنست كذا، وإذا رأيته، فإن أدركت بهذا الاستثناسي حكم غيب، كان فراسة وإن كان بالعين. كان رؤية وإن كان بغيرها من المدارك فبحسبها.

ثم قال صاحب «المنازل»: «من غير استدلال بشاهده». قال ابن القيم: هذا الاستدلال بالشاهد على الغائب: أمر مشترك بين البر والفاجر. والمؤمن والكافر، كالاستدلال بالبروق والرعود على الأمطار. وكالاستدلال رؤساء البحر بالكدر الذي يبدو لهم في جانب الأفق على ريح عاصف أو نحو ذلك.

وكالاستدلال الطبيب بالشحنة والتفسر على حال المريض.

ويَدُقُّ ذلك حتى يبلغ إلى حد يعجز عنه أكثر الأذهان. وكما يستدل بسيرة الرجل على عاقبة أمره في الدنيا من خير أو شر فيطابق. أو يكاد.

(١) أخرجه الترمذی (٣١٢٧) واستغربه.

فهذا خارج عن الفراسة التى تتكلم فيها هذه الطائفة. وهو نوع فراسة، لكنها غير فراستهم. وكذلك ما علم بالتجربة من مسائل الطب والصناعات والفلاحة وغيرها والله أعلم. أهـ.

قال صاحب «المنازل»: «الفراسة على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: فراسة طارئة نادرة، تسقط على لسان وحشى فى العمر مرة، لحاجة وسمع مريد صادق إليها، لا يتوقف على مخرجها، ولا يؤبه لصاحبها، وهذا شئ لا يخلص من الكهانة وما ضاهأها، لأنهاكم تشر عن عين، ولم تصدر عن علم، ولم تسبق بوجود» قال ابن القيم:

قوله: «وهذا شئ لا يخلص من الكهانة»(*).

يعنى أنه من جنس الكهانة. وأحوال الكهان معلومة قديماً وحديثاً فى إخبارهم عن نوع من المغيبات بواسطة إخوانهم من الشياطين الذين يلقون إليهم السميع، ولم يزل هؤلاء فى الوجود ويكثررون فى الأزمنة والأمكنة التى يخفى فيها نور النبوة. ولذلك كانوا أكثر ما كانوا فى زمن الجاهلية، وكل زمان جاهلية وبلد جاهلية وطائفة جاهلية، فلهم نصيب منها بحسب اقتران الشياطين بهم وطاعتهم لهم وعبادتهم إياهم.

وقوله - أى صاحب «المنازل» - : «لأنها لم تشرعن عين».

أى عن عين الحقيقة التى لا يصدر عنها إلا الحق. يعنى غير متصلة بالله - عز وجل - .

وقوله - أى صاحب «المنازل» - : «لم يصدر عن علم».

يعنى أنها ظن وحسبان لاعن علم ويقين. وصاحبها دائماً فى شك. ليس على بصيرة من أمره.

وقوله - أى صاحب «المنازل» - : «ولم تسبق بوجود».

أى لم يسبقها وجود الحقيقة لصاحبها، بل هو فارغ.. بل فاقد من غير أهل الوجود. والله أعلم.

قال - أى صاحب «المنازل» - : «الدرجة الثانية» فراسة تُجَنَّى من غرس الإيمان. وتطلع من صحة الحال. وتلمع من نور الكشف».

قال ابن القيم: هذا نوع من الفراسة مختص بأهل الإيمان ولذلك قال «تجنى من غرس الإيمان» وشبه الإيمان بالغرس، لأنه يزداد وينمر، ويزكو على السقى، ويؤتى أكله كل حين بإذن ربه. وأصله ثابت فى الأرض. وفروعه فى السماء. فمن غرس الإيمان فى

(*) ما بين القوسين كلام صاحب المنازل.

أرض قلبه الطيبة الزاكية، وسقى ذلك الغراس بماء الإنخلاص والصدق والمتابعة، كان من بعض ثمره هذه الفراسة.

قوله - أى صاحب «المنازل» - : «وتطلع من صحة الحال».

يعنى: أن صدق الفراسة من صدق الحال. فكلما كان الحال أصدق وأصح فالفراسة كذلك.

قوله - أى صاحب «المنازل» - : «وتلمع من نور الكشف».

قال ابن القيم: يعنى أن نور الكشف من جملة ما يولد الفراسة بل أصلها نور الكشف.

وقوة الفراسة، بحسب قوة هذا النور وضعفه وقوته وضعفه بحسب قوة مادته وضعفها. والله أعلم اهـ.

● أسباب انتشار الكهانة والسحر

لماذا تنتشر؟ ومتى تنتشر وفي أى الأماكن تنتشر؟

قال الفقير: السبب ورد فى سورة البقرة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ...﴾ الآية.

فالسبب هو نبذ كتاب الله وراء الظهر، ونبذ العلم، وتفشى الجهل، وهذا المناخ يهيم مكاناً هو مرتع للكهانة والسحر والعرافة وما شاكل ذلك من ضروب ادعاء الغيب.

والواقع يؤيد ذلك؛ فما كثر الجهل فى مكان إلا وتزامن مع ظهوره: السحر والعرافة والكهانة وهذه الضروب فى ادعاء الغيب.

فهذا سببه، وهذا وقته، وهذا مناخه الذي يظهر فيه.

وليس أدل على ذلك من أنك ما ترى هذه الأمور غالباً إلا فى النجوع والقرى والأرياف التى أبعد ماتكون عن العلم والعلماء وطلبة العلم.

وهذا هو الحاصل فىمن ينتسب إلى الباطنية من الصوفية وغيرهم. وقد تقدم كلام ابن القيم فى المسألة السابقة عند قوله وهذا شئ لا يخلص من الكهانة.



رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَاثًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا لَا لَيْلَةً» (١).

قوله: روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتى عراثاً..... الحديث».

مناسبة الحديث للباب (٢):

قال سليمان آل الشيخ: حيث دل الحديث على أن العرافه وتصديقها حرام اهـ.

مناسبة الحديث للتوحيد (٣):

قال سليمان آل الشيخ: حيث ذم النبي ﷺ - من صدق العراف لأنه جعله شريكاً مع الله في علم الغيب اهـ.

قلت: تقدم قول ابن حجر أنه قال: اتفقت ألفاظهم على الوعيد بلفظ حديث أبي هريرة إلا حديث مسلم اهـ.

يعنى هذا الحديث، ثم ذكر له رواية أكثر تفصيلاً من حديث أنس بسند فيه لين مرفوعاً - «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برىء مما أنزل على محمد، ومن أتاه غير مصدق له لم تقبل له صلاته أربعين يوماً» (٤) اهـ.

وقال سليمان آل الشيخ (٥): هذا الحديث رواه مسلم كما قال المصنف، ولفظه: حدثنا محمد بن المثنى العنزي ثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله - في نسخة: عبد الله - عن نافع عن صفية عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتى عراثاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً وليلة» هكذا رواه، وليس فيه فصدقه» قوله [من].

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في السلام / باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٥/ ٢٢٧) وأحمد في «مسنده» (٤/ ٦٨)، (٥/ ٣٨٠).

من حديث صفية بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي ﷺ
وانظر رياض الصالحين (ح ١٦٧٢) بتخريجنا وانظر فتح المجيد (٥٣٢ - بتخريجنا).

(٢) (٣) تيسير العزيز الحميد (٣٠٠).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تيسير العزيز الحميد (٣٠٠).

قال ابن عثيمين^(١): شرطية، فهي للعموم.

قلت/ أى تعم كل من ذهب لهذا المذكور.

قوله: [عرافاً]

تقدم تعريفه من كلام ابن تيمية، وابن حجر، وغيرهما.

وقال النووى^(٢) أيضاً: العراف من جملة أنواع الكهان، قال الخطابى وغيره: العراف

هو الذى يتعاطى معرفة مكان المسروق، ومكان الضالة ونحوهما. اهـ.

[قلت] وقد مر نقل عبدالله بن جار الله لهذا القول فى الفرق بين العراف والكاهن..

ولكنه لم ينسبه. والله المستعان.

قوله [فسأله عن شيء]

قال سليمان آل الشيخ^(٣): وظاهر الحديث أن هذا الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله

سواء صدقة أو شك فى خبره، لأن إتيان الكهان منهى عنه.

قلت: ويشهد له حديث أنس المتقدم.

قال ابن باز^(٤): ليست هذه اللفظة فى مسلم فلعل المؤلف وهم أو نقله من نسخة فيها

هذه الكلمة فى مجموعة التوحيد: (فصدقه) هى عند أحمد.

وذكر ابن عثيمين^(٥) تعليلاً آخر فقال:

ليست فى «صحيح مسلم»، بل الذى فى «مسلم»: «فسأله؛ لم تقبل له صلاة أربعين

ليلة»، وزيادتها فى نقل المؤلف؛ إما لأن النسخة التى نقل منها بهذا اللفظ «فصدقه» أو أن

المؤلف عزاه إلى «مسلم» باعتبار أصله، فأخذ من «مسلم»: «فسأله»، وأخذ من

أحمد: «فصدقه». اهـ.

ثم قال ابن باز: فرواية مسلم تدل على أن السؤال المجرد لا يجوز لأن فيه رفعاً من

شأنهم وسؤالهم وسيلة إلى تصديقهم وتعظيمهم ولما يقولون به سر الشعوذة،

(١) القول المفيد (٥٩/٢)

(٢) مسلم بشرح النووى (٤٨٦/٧).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٣٠٠).

(٤) التعليق المفيد (١٤٩)

(٥) القول المفيد (٦٣-٦٠ / ٢)

فينبغي تركهم وتناسيهم، وعند مسلم عن معاوية بن الحكم قال «ليسوا بشيء، ولا تأتوهم»^(١) احتقاراً لهم وإعراضاً عنهم وإماتة لهم ولشأنهم. اهـ.

قلت: فالقول كما قال القائل اسكت عن الشر ليندثر وحدّث عن الخير ليتشر.

وقال ابن عثيمين: قوله «فسأله؛ لم تقبل له صلاة أربعين يوماً».

ظاهر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يوماً، ولكنه ليس على إطلاقه؛ فسؤال العراف ونحوه ينقسم إلى أقسام:

قلت/ لكن في الحقيقة، مع هذا التقسيم لابد أن تحطاط في السؤال الجائز المشروع كما سيأتي.

القسم الأول: أن يسأله سؤالاً مجرداً؛ فهذا حرام لقول النبي ﷺ «من أتى عرافاً...»^(٢) فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه؛ إذ لا عقوبة إلا على فعل مُحرم.

القسم الثاني: أن يسأله فيصدق، ويعتبر قوله؛ فهذا كفر لأن تصديقه في علم الغيب تكذيب للقرآن، حيث قال تعالى ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٣) القسم الثالث: أن يسأله ليختبره: هل هو صادق أو كاذب، لا لأجل أن يأخذ بقوله؛ فهذا لا بأس به، ولا يدخل في الحديث.

وقد سأل النبي ﷺ ابن صياد؛ فقال: «ماذا خبأت لك؟ قال: الدُّخ. فقال: أخساً؛ فلن تعدو قدرك»^(٤) فالنبي ﷺ سأل عن شيء أضمره له؛ لأجل أن يختبره، فأخبره به.

القسم الرابع: أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه في أمور يتبين بها كذبه وعجزه، وهذا مطلوب، وقد يكون واجباً.

وبإبطال قول الكهنة لا شك أنه أمر مطلوب، وقد يكون واجباً؛ فصار السؤال هنا ليس على إطلاقه، بل يفصل فيه هذا التفصيل على حسب مادلت عليه الأدلة الشرعية الأخرى. اهـ.

قلت: والقسم الرابع الأولي أن يتنزل عليه حديث ابن صياد، ذلك لأن النبي ﷺ أراد

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٣/٢٣/٣٣) وتقدم.

(٢) أخرجه مسلم في الفتن (٩/٢٧٥/٨٦) عن ابن مسعود به.

أيضاً أن يظهر عجز ابن صياد وكذبه، وهذا واضح من قوله «احسأ فلن تعدو قدرك»^(٢) وبالجملية فهو يدخل فى القسم الثالث والله تعالى أعلم.

ثم قال ابن عثيمين: وقد ذكر شيخ الإسلام أن الجن يخدمون الإنس فى أمور، والكهان يستخدمون الجن ليأتوهم بخبر السماء، فيضيفون إليه من الكذب ما يضيفون، وخدمة الجن للإنس ليست محرمة على كل حال، بل هى على حسب الحال.

فالجنى يخدم الإنسان فى أمور لمصلحة الإنس، وقد يكون للجن فيها مصلحة، وقد لا يكون له فيها مصلحة، بل لأنه يحبه فى الله والله ولا شك أن من الجن مؤمنين يحبون المؤمنين من الإنس، لأنه يجمعهم الإيمان بالله. اهـ.

[قلت]: وهذا محله إذا كانت هذه الخدمة من الجن بغير استعانة أو استعاذة من الإنس، وإلا سيدخل فى عموم من ذمهم الله بقوله «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا» أما إن كانت الخدمة بغير ذلك كما فعل مع أبى هريرة رضى الله عنه فجائزة بلا خلاف. والله المستعان.

ثم قال ابن عثيمين: وقد يخدمونهم لطاعة الإنس لهم فيما لا يرضى الله - عز وجل - إما فى الذبح لهم، أو فى عبادتهم، أو ما أشبه ذلك. اهـ.

[قلت]: وهذا شرك..

ثم قال: والأغرب من ذلك أنهم ربما يخدمون الإنس لأمر محرم من زنا أو لواط، لأن الجنية قد تستمتع بالإنسى بالعشق والتلذذ بالاتصال به، أو بالعكس، وهذا أمر معلوم مشهود، حتى ربما كان الجنى الذى فى الإنسان ينطق بذلك، كما يُعلم من الذين يقرؤون على المصابين بالجن.

والنبي ﷺ حضر إليه الجن وخاطبهم، وأرشدهم، ووعدهم بعتاء لا نظير له، فقال لهم: «كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة، فهى علف لدوابكم»^(٢).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وذكر أن في عهد عمر رضى الله عنه امرأة لها رضى من الجن - يعنى صاحب - ، وكانت توصيه بأشياء، حتى إذا تأخر عمر ذات يوم، فأتوا إليها، فقالوا: ابحنى لنا عنه، فذهب هذا الجنى الذى فيها، وبحث وأخبرهم أنه فى مكان كذا، وأنه يسم إبل الصدقة^(١) اهـ.

[قلت]: تقدم فى باب / الاستعاذة بغير الله أن الاستعاذة بالجن لها أحكام، منها ما هو كفر، ومنها ما هو محرم، وذلك مستفاد من تفسير السلف لقول الله عز وجل : ﴿فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا﴾ فبعضهم قال (إثمًا) وبعضهم قال (كفرًا) فإن استعان أو استعاذ بالجن فيما لا يستطيعه إلا الله عز وجل فهو كفر، وإن استعان أو استعاذ بهم فيما يستطيعون فهو إثم، لأنه أشبه الاستغاثة بالمخلوق الحى الغائب فيما يستطيعه الحى الحاضر، أو دعاء كذلك، ولأنه لم يثبت دليل على الاستعانة بالجن فى المعروف أو المباح ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

أما إذا قدم لنا الجن الخدمة فى المعروف المشروع بغير طلب منا له فهذا جائز لحديث أبى هريرة حينما عرض الشيطان عليه هذه الخدمة: تعليم آية الكرسي وفضلها، فى مقابل أن يخلى سبيله، وعلى هذه الصورة الأخيرة يحمل قول من قال من العلماء بجواز أو بوقوع خدمة الجنى للإنسى فى المعروف أما القصة التى ذكرها الشيخ - حفظه الله - فهى عند أبى الدنيا بسند ضعيف ومن أخطر ما يكون ذكر هذه الآثار فى الكتب، لأن المسلمين - إلا من رحم ربى - خرجوا من باب العلاج بالقرآن الذى هو دين الله إلى دين الشيطان بغير دليل، فما الظن إذا كان معهم شبه كهذا الأثر، وخاصة أنه فى كتاب من كتب التوحيد وينسب لابن تيمية ويستشهد به ابن عثيمين شارحاً لكتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب.

وأنا أتعجب من هذا، فهل يتصور أن يرى الصحابة - كأبى موسى الأشعرى الذى ذهب لهذه المرأة كما جاء فى هذا الأثر المتقدم - وأمرها أن تأمر من فيها من الجن الذى تلبس بها ليذهب فيبحث لهم عن عمر ولايتعاونون فيما بينهم على إخراجه؟ فكيف يتأتى ذلك؟

فهذا والله إن لم يثبت ضعفه فهو من النكارة بمكان فكيف وقد ثبت ضعفه. والله أعلم.

قوله: «لم تقبل له صلاة أربعين يومًا».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): إذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمسؤول قال النووى

وغيره: معناه: أنه لا ثواب له فيها ، وإن كانت مجزئة فى سقوط الفرض عنه ولا يحتاج معها إلى إعادة ، ونظير هذه الصلاة فى أرض مغصوبة مجزئة مسقطه للقضاء ، لكن لا ثواب له فيها، قاله جمهور أصحابنا قالوا: فصلاة الفرض إذا أتى بها على وجهها الكامل ترتب عليها شيان سقوط الفرض، وحصول الثواب، فإذا أداها فى أرض مغصوبة حصل له الأول دون الثانى ولا بد من هذا التأويل فى هذا الحديث فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العرّاف إعادة صلاة أربعين ليلة فوجب تأويله، هذا كلامه، وهو مبنى على الملازمة بين الإجزاء وعدم الإعادة، والصواب أن عدم الإعادة لا يستلزم الإجزاء لكن الصلاة فى الأرض المغصوبة فى إجزائها نزاع والمشهور من مذهب أحمد أنها تجزئ وتجب إعادتها وفى الحديث النهى عن إتيان الكاهن ونحوه قال القرطبي: يجب على من قدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم على من يتعاطى شيئاً من ذلك من التعزيرات وينكر عليهم أشد النكير وعلى من يجيئ إليهم، ولا يغتر بصدقهم فى بعض الأمور ولا بكثرة من يجيئ إليهم ممن ينسب إلى العلم فإنهم غير راسخين فى العلم، بل من الجهال بما فى إتيانهم من المحذور.

قال ابن عثيمين^(١): نفى القبول هنا هل يلزم منه نفى الصحة أولاً؟

نقول: نفى القبول إما أن يكون لقوات شرط، أو لوجود مانع، ففى هاتين الحالتين يكون نفى القبول نفياً للصحة، كما لو قلت: من صلى بغير وضوء لم يقبل الله صلاته، ومن صلى فى مكان مغصوب لم يقبل الله صلاته عند من يرى ذلك .

وإن كان نفى القبول لا يتعلق بقوات شرط ولا وجود مانع، فلا يلزم من نفى القبول نفى الصحة، وإنما يكون المراد بالقبول المنفى: إما نفى القبول التام، أى: لم تقبل على وجه التمام الذى يحصل به تمام الرضا وتمام المثوبة.

وإما أن يراد به أن هذه السيئة التى فعَلَهَا تقابل تلك الحسنة فى الميزان، فتسقطها ويكون وزرها موازياً لأجر تلك الحسنة وإذا لم يكن له أجر صارت كأنها غير مقبولة، وإن كانت مجزئة ومبرئة للذمة لكن الثواب الذى حصل بها قوبل بالسيئة فأسقطته.

ومثله قوله ﷺ: «من شرب الخمر، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»^(٢).

(١) القول المفيد ٢/ ٦٢.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٥/ ٢) والترمذى (١٨٦٢) عن ابن عمر به.

قوله: «أربعين يوماً».

قال ابن عثيمين^(١): تخصص هذا العدد لا يمكننا أن نعلله، لأن الشيء المقدر بعدد لا يستطيع الإنسان غالباً أن يعرف حكمته، فكون الصلاة خمس صلوات أو خمسين لا نعلم لماذا خصصت بذلك، فهذا من الأمور التي يقصد بها التعبد لله، والتعبد لله بما لا تعرف حكمته أبلغ من التعبد له بما تعرف حكمته، لأنه أبلغ في التذلل، صحيح أن الإنسان إذا عرف الحكمة اطمأنت نفسه أكثر، لكن كون الإنسان ينقاد لما لا يعرف حكمته دليل على كمال الانقياد والتعبد لله - عز وجل - فهو من حيث العبودية أبلغ وأكمل، أما ذاك، فهو من حيث الطمأنينة إلى الحكم يكون أبلغ، لأن النفس إذا علمت بالحكمة في شيء اطمأنت إليه بلا شك، وازدادت أخذاً له وقبولاً، فهناك أشياء مما عيَّنه الشرع بعدد أو كيفية لا نعلم ما الحكمة فيه، ولكن سبيلنا أن نكون كما قال الله تعالى عن المؤمنين: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾.

فعلينا التسليم والانقياد وتفويض الأمر إلى الله تعالى.

ويؤخذ من الحديث: تحريم إتيان العراف وسؤاله، إلا ما استثنى، كالقسم الثالث والرابع، أى لاختبارهم وبيان كذبهم لما فى إتيانهم وسؤالهم من المفاصد العظيمة التى ترتب على تشجيعهم، وإغراء الناس، وهم فى الغالب يأتون بأشياء كلها باطلة. اهـ.

[قلت]: إن كان مقصد الشيخ ابن عثيمين عدم إمكان تعليل العدد فوجيه أما إن كان المقصد عدم تعليل علاقة العدد بالعقوبة على هذا الفعل فيمكن أن يعلل هذا العدد بأن الشرع أورد له بيان حجم الجرم الذى فعله هذا الذى أتى كاهناً أو عرافاً حيث بين أن ذلك مبطل لصلاة أربعين يوماً على قول الحنابلة أو لثواب صلاة أربعين يوماً على قول الشافعية كما تقدم فى حديث «إن قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة» أى لشدة جرم هذه القاذفة استحقت هذا العقاب أى أن هذه الجريمة لا تكفر إلا بصلاة أربعين يوماً لكن يبقى السؤال لماذا الأربعين؟! ولماذا لم تكن أقل أو أكثر وهذا الذى قصده الشيخ بقوله: لا يمكننا أن نعلله وأيضاً إذا كانت المحافظة على تكبيرة الإحرام فى صلاة الجماعة أربعين يوماً فيها براءة من النفاق وبراءة من النار فالذهاب إلى العرافين ونحوهم حتى ولو بسؤال بغير تصديق فهذا ضرب من ضروب النفاق.

(١). القول المقيد ٢/ ٦٣، ٦٤.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ (١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

فإذا كان من الأجور المترتبة على هذه المحافظة أن يأخذ براءة من النفاق فهو يبطل له صلاة أربعين يوماً فيبطل له هذا الأجر لأنه نافي لأن من صفات المنافقين أنهم مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ولحديث ابن عمر مرفوعاً: «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعبر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، لاتدرى أيها تتبع» (٢).

● مسألة:

إن قال قائل: لماذا خص الصلاة دون باقي العبادات؟

قال الفقير: قلنا أن الصلاة في الدرجة الثانية بعد الإيمان بالغيب كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ فإنه إن لم يؤمن بالغيب وذهب إلى هذا الكاهن فلا بد من أن تحبط صلاته. فهذه مترتبة على هذه، لأنه إن لم يأت بالمقدمة وهو الإيمان بالغيب فلا بد أن ينقض المترتب على الإيمان بالغيب وهو إقامة الصلاة.



قوله عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً فصدقه...» الحديث.

قال سليمان آل الشيخ (٣): هذا الحديث رواه أبو داود ولفظه: حدثنا موسى بن

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٧٦، ٤٠٨/٢) وأبو داود في «الطب»/ باب: في الكاهن (٤/١٤/ح ٣٩٠) والنسائي في «الكبرى» في «عشرة النساء» (٥/٣٢٣/ح ٩٠١٦) والترمذي في «أبواب الطهارة» باب: ما جاء في كراهية إتيان الحائض (١/٢٤٢، ٢٤٣/ح ١٣٥) وابن ماجه في «الطهارة وسننها» باب: النهى عن إتيان الحائض (١/٢٠٩/ح ٦٣٩)، والدارمي في «سننه» (١/٢٥٩) وابن الجارود في «المتقى» (ح ١٠٧) والبيهقي في الكبرى (١٩٨/٧).

من طريق حماد بن سلمة عن حكيم الأثرم عن أبي تيمية.

قال البخارى في «التاريخ الكبير» (٣/٩٦٧/١٧) هذا حديث لا يتابع عليه لا يعرف لأبى تيمية سماع من أبى هريرة اهـ.

وانظر «منار السبل» (ح ٢١٧٣) بتخريجنا، وفتح المجيد (٥٣٤). بتخريجنا

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٩/١٣٩/١٧) عن ابن عمر به وانظر «الدر» (٢/٤١٨).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٠١، ٣٠٢.

إسماعيل ثنا حماد . ح وحدثنا مسدد ثنا يحيى عن حماد بن سلمة عن حكيم الأثرم، وعن أبي تيمية عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من أتى كاهنًا - قال موسى في حديثه: فصدقه بما يقول [ثم اتفقا] أو أتى امرأة، قال مسدد: امرأته حائضًا، أو أتى امرأة قال مسدد: يعنى: امرأته في دبرها فقد برئ مما أنزل على محمد ﷺ» (١) ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه بنحوه وقال الترمذى: لا نعرفه إلا من حديث الأثرم، وضعف محمد هذا الحديث من جهة إسناده وقال البغوى: سنده ضعيف وقال الذهبى ليس إسناده بالقائم قلت: أطال أبو الفتح اليعمرى فى بيان ضعفه وادعى أن متنه منكر، وأخطأ فى إطلاق ذلك، فإن إتيان الكاهن له شواهد صحيحة منها ما ذكر المصنف بعده وكذلك إتيان المرأة فى الدبر له شواهد، منها: ما رواه عبد بن حميد بإسناد صحيح عن طاووس أن رجلاً سأل ابن عباس عن إتيان المرأة فى دبرها فقال: تسألنى عن الكفر؟ (٢) ومنها ما رواه الترمذى والنسائى وابن حبان فى «صحيحه».

وصححه ابن حزم عن ابن عباس مرفوعاً: «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة فى الدبر» (٣) والأحاديث فى ذلك كثيرة. وغاية ما ينكر من متنه ذكر إتيان الحائض والله أعلم.

قلت: وذكرها ابن القيم فى «الزاد»

● مناسبة الحديث للباب (٤):

قال القرعاوى: حيث دل الحديث بطريق الإلزام أو اللزوم على كفر الكهان.

● مناسبة الحديث للتوحيد (٥):

قال القرعاوى: حيث دل الحديث بطريق اللزوم على أن الكهانة كفر وذلك لما يعتمدون من وسائل الشرك فى كهانتهم.

● شرح الحديث:

قوله: «من أتى كاهنًا»:

قلت: أى من أراد.

(١) تقدم تخريجه .

(٢) عبد الرزاق فى مصنفه (٢٠٩٥٣).

(٣) [ضعيف] أخرجه الترمذى (١١٦٥)، والنسائى فى «الكبرى» (٩٠٠١) عن ابن عباس به .

وانظر «بلوغ المرام» (٩٥٣) - بتخريجنا .

(٤، ٥) الجديد ٢٤٠ .

قال ابن عثيمين^(١): تقدم معنى الكاهن وأنهم كانوا رجالاً فى أحياء العرب تنزل عليهم الشياطين، وتخبرهم بما سمعت من أخبار السماء.

قوله: «فصدقه».

أى : نسبة إلى الصدق، وقال: إنه صادق، وتصديق الخبر يعنى: تثبته وتحقيقه، فقال: هذا حق وصحيح وثابت.

قوله: «بما يقول»

قال ابن عثيمين^(٢): «ما» عامة فى كل ما يقول، حتى ما يحتمل أنه صدق، فإنه لا يجوز أن يصدقه، لأن الأصل فيهم الكذب.

قوله: «فقد كفر بما أنزل على محمد».

قال ابن عثيمين^(٣): أى : بالذى أنزل، والذى أنزل على محمد ﷺ القرآن أنزل إليه بواسطة جبريل، وقال تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين﴾ وقال تعالى: ﴿قل نزله روح القدس من ربك﴾ وبهذا نعرف أن القول الراجع فى الحديث القدسى أنه من كلام الله تعالى معنى، وأما لفظه، فمن الرسول ﷺ لكنه حكاة عن الله، لأننا لو لم نقل بذلك لكان الحديث القدسى أرفع سنداً من القرآن، حيث إن الرسول ﷺ يرويه عن ربه مباشرة والقرآن بواسطة جبريل.

ولأنه لو كان من كلام الله لفظاً لوجب أن تثبت له أحكام القرآن، لأن الشرع لا يفرق بين المتماثلين، وقد علم أن أحكام القرآن لا تنطبق على الحديث القدسى، فهو لا يتعبد بتلاوته، ولا يقرأ فى الصلاة، ولا يعجز لفظه، ولو كان من كلام الله، لكان معجزاً لأن كلام الله لا يماثله كلام البشر، وأيضاً باتفاق أهل العلم فيما أعلم أنه لو جاء مشرك يستجير لسمع كلام الله وأسمعناه الأحاديث القدسية، فلا يصح أن يقال: إنه سمع كلام الله.

فدل هذا على أنه ليس من كلام الله، وهذا هو الصحيح، وللعلماء فى ذلك قولان : هذا أحدهما، والثانى: أنه من قول الله لفظاً. قلت: وقد تقدم هذا الكلام فى الفرق بين الحديث القدسى والنبوى والقرآن فى باب «فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب».

(١) القول المفيد ٢/ ٦٥ : ٦٨.

(٢)(٣) القول المفيد ٢/ ٦٥، ٦٦.

فإن قال قائل: كيف تصححون هذا والنبي ينسب القول إلى الله، ويقول: قال الله تعالى، ومقول القول هو هذا الحديث المسوق؟

قلنا: هذا كما قال الله تعالى عن موسى وفرعون وإبراهيم: قال موسى، قال فرعون، قال إبراهيم... مع أننا نعلم أن هذا اللفظ ليس من كلامهم ولا قولهم، لأن لغتهم ليست اللغة العربية، وإنما نُقِلَ نقلًا عنهم، ويدل لهذا أن القصص في القرآن تختلف بالطول والقصر والألفاظ، مما يدل على أن الله سبحانه ينقلها بالمعنى، ومع ذلك ينسبها إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وقال عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ وقال عن فرعون: ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ اهـ.

[قلت]: فإن قال قائل: فما الفرق بين الحديث القدسي والنبوي على هذا حيث أن الجميع من الله معنًا، ومن الرسول لفظًا؟!

الجواب: ما قاله ابن عثيمين في: أن الحديث القدسي ما رواه النبي عن ربه وقد أدخله المحدثون في الأحاديث النبوية لأنه منسوب إلى النبي ﷺ تبليغًا اهـ، وقال غيره ويفرق بين الحديث القدسي وبين الحديث النبوي بأن الحديث القدسي وحى بالمعنى من الله عز وجل أما ألفاظه فهي من عند رسول الله ﷺ على الأرجح من قولى العلماء، أما الأحاديث النبوية فهي قسمان: قسم توقيفى، تلقى الرسول ﷺ مضمونه من الوحي وبينه للناس بكلامه، وقسم اجتهدى وهو الذى استنبطه الرسول ﷺ من فهمه للقرآن لأنه مبين له، وهذا القسم يقره الوحي إن كان صواباً ويسد ما عسى أن يقع فيه من خطأ.

وبهذا يمكن أن يقال: إن الأحاديث النبوية مردها جميعاً إلى الوحي، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فإن قيل: إذا كان الحديث النبوي ويحاً بالمعنى كالحديث القدسي، فلماذا لانسميه قدسياً أيضاً؟ ويجاب على ذلك بأننا نقطع فى الحديث القدسي بنزول معناه من عند الله تعالى لورود النص الشرعى على نسبته إلى الله بقوله ﷺ قال الله تعالى: ولذا سمى قدسياً، أما الأحاديث النبوية فلم يرد فيها مثل هذا النص فيحتمل فى كل واحد فيها أن يكون توقيفاً أو أن يكون مستنبطاً بالاجتهاد، ولذا سمينا الجميع نبوياً وقوفاً عند القدر المقطوع به، ولو كان لدينا ما يميز الوحي التوقيفى منها لسميناه قدسياً كذلك اهـ^(١).

(١) محاضرات فى علوم القرآن/ محمد سالم - صلاح الصاوى (ص ١٠، ١١).

وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ - وَقَالَ: «صَحِيحٌ عَلَى شَرَطِهِمَا» - عَنْ «أَبِي هُرَيْرَةَ»: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» (١).

قوله: «بما أنزل على محمد»

قال ابن عثيمين^(٢): ذكر أهل السنة أن كل كلمة وصف فيها القرآن بأنه مُنَزَّلُ أو أنزل من الله، فهي دالة على علو الله - سبحانه وتعالى - بذاته، وعلى أن القرآن كلام الله، لأن النزول يكون من أعلى، والكلام لا يكون إلا من متكلم به.

قوله: «كفر بما أنزل على محمد»:

قال ابن عثيمين: وجه ذلك: أن ما أنزل على محمد قال الله تعالى فيه: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وهذا من أقوى طرق الحصر، لأن فيه النفي والإثبات

قلت: وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية فهي دالة على حصر الغيب لله لأن مفاتيحه لا يعلمها إلا هو فمن باب أولى الغيب لا يعلمه إلا هو. هـ.

فالذي يصدق الكاهن في علم الغيب وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، فهو كافر كفرةً أكبر مخرجاً عن الملة، وإن كان جاهلاً ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب، فكفره كفر دون كفر. اهـ.

[قلت]: وفيه حجة لمن قال: أن من كفر بآية من القرآن أو بعض آية فقد كفر بالقرآن كله.



قوله: وللأربعة والحاكم

قال سليمان آل الشيخ^(٣): هكذا بيّض المصنف اسم الراوى، وقد رواه أحمد والبيهقى والحاكم عن أبى هريرة مرفوعاً ولفظ أحمد:

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٢٩/٢) والحاكم فى «المستدرک» (٨/١) ومن طريقه البيهقى (١٣٥/٨).

من طريق عوف قال خلاص عن أبى هريرة ... فذكره.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرطهما جميعاً من حديث ابن سيرين ولم يخرجاه، وانظر فتح المجيد (٥٣٥) - بتخريجنا.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٣٠٢).

(٢) القول المفيد (٦٨، ٦٧/٢).

حدثنا يحيى بن سعيد عن عوف عن خلاص عن أبي هريرة والحسن عن النبي ﷺ فذكره، وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري فقد روى عن عوف عن خلاص عن أبي هريرة، حديث أن موسى كان رجلاً حياً... الحديث. قال العراقي في أماليه: حديث صحيح، وقال الذهبي: إسناده قوى وعلى هذا فعزو المصنف إلى الأربعة ليس كذلك فإنه لم يروه أحد منهم وأظنه تبع فى ذلك الحافظ فإنه عزاه فى «الفتح» إلى أصحاب السنن والحاكم، فوهم، ولعله أراد الذى قبله.

قلت: وهو كما قال وانظر فتح الباري^(١) فى موضع هذا الوهم.

قال ابن عثيمين: (٢)

قوله: «وللأربعة والحاكم».

الأربعة هم: أبو داود، والنسائي، والترمذى، وابن ماجه، والحاكم ليس من أهل «السنن»، لكن له كتاب سمي «صحيح الحاكم».

قلت: واسمه الحقيقي: «المستدرک على الصحيحين».

قوله: «صحيح على شرطهما»

قال ابن عثيمين^(٣): أى: شرط البخارى ومسلم، لكن قول: «على شرطهما» هذا على ما يعتقد، وإلا، فقد يكون الأمر على خلاف ذلك.

ومعنى قوله «على شرطهما»، أى: أن رجاله رجال «الصحيحين» وأن ما اشترطه البخارى ومسلم موجود فيه.

ونحن لا ننكر أن هناك أحاديث صحيحة لم يذكرها البخارى ومسلم، لأنهما لم يستوعبا الصحيح كله، وهذا أمر واقع، ولكن ينظر فى قول من قال إن هذا الحديث على شرطهما، فقد تكون فيه علة خفية خفيت على هذا القائل، ويكون البخارى ومسلم علماها وتركوا الحديث من أجلها.

قوله: «صحيح»:

يقولون: الحاكم ممن يتساهل بالتصحيح، ولهذا قالوا: (لا عبرة) بتصحيح الحاكم، ولا بتوثيق ابن حبان، ولا بوضع ابن الجوزى، ولا بإجماع ابن المنذر.

(١) فتح الباري (١٠/٢٢٧).

(٢) القول المفيد (٢/٦٨-٧٠).

(٣) القول المفيد ٢/٦٩، ٧٠.

وهذا القول فيه مجازفة في الحقيقة، لأن كلمة «لا عبرة»، أى: لا يلتفت إليه، والصواب أنه لا يؤخذ مقبولا في كل حال، مع أنى تدبرت كلام ابن المنذر رحمه الله، ووجدت أنه دائماً إذا نقل الإجماع يقول: إجماع من نحفظ قوله من أهل العلم، وهو بهذا قد احتفظ لنفسه، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

ولكننا مع ذلك نقول: إذا كان الرجل ذا اطلاع واسع، فقد يكون هذا القول إجماعاً، أما إذا كان هذا الرجل لا يعرف إلا ما حوله، فإن قوله هذا لا يكون إجماعاً ولا يوثق به، ولا نحكم بأنه إجماع.

مثاله: فلو قال رجل لم يدرس إلا المذهب الحنبلى فى مسألة، وقال: هذا إجماع من نحفظ قوله من أهل العلم، فإن قوله هذا لا يعتبر، لأنه لم يحفظ إلا قولاً قليلاً من أقوال أهل العلم.

قوله: «من أتى كاهناً»:

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «من أتى كاهناً» إلى آخره

قال بعضهم: لا تعارض بين هذا الخبر، وبين قوله ﷺ «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»^(٢) إذ الغرض فى هذا الحديث أنه سأله معتقداً صدقه وأنه يعلم الغيب فإنه يكفر، فإن اعتقد أن الجن تلقى إليه ما سمعته من الملائكة، أو إنه بإلهام فصدقه من هذه الجهة لا يكفر، كذا قال، وفيه نظر، وظاهر الحديث أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأى وجه كان، لا اعتقاده أنه يعلم الغيب، وسواء كان ذلك من قبل الشياطين أو من قبل الإلهام لا سيما وغالب الكهان فى وقت النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين.

وفى حديث رواه الطبرانى عن واثلة مرفوعاً: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ حُجِبَتْ عَنْهُ التَّوْبَةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَإِنْ صَدَّقَهُ بِمَا قَالَ كَفَرَ»^(٣) قال المنذرى: ضعيف - فهذا - لو ثبت - نص فى المسألة لكن ما تقدم من الأحاديث يشهد له، فإن الحديث الذى فيه الوعيد بعدم قبول الصلاة أربعين ليلة ليس فيه ذكر تصديقه والأحاديث التى فيها إطلاق الكفر مقيدة بتصديقه.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «من أتى عرافاً أو كاهناً».

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٠٢.

(٢) ذكره فى «المجمع» (١١٨/٥) وضعفه.

(٣) القول المفيد ٧٠/٢.

وَلَأَبَى يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلَهُ مَوْقُوفًا^(١).

«أو» يحتمل أن تكون للشك، ويحتمل أن تكون للتنويع، فالحديث الأول بلفظ عراف، والثاني بلفظ كاهن، والثالث جمع بينهما، فتكون «أو» للتنويع.

وجاء المؤلف بهذا الحديث مع أن الأول والثاني مغنيان عنه، لأن كثرة الأدلة مما يُقوَّى المدلول، أرايت لو أن رجلاً أخبرك بخبر فوثقت به، ثم جاء آخر وأخبرك به ازدادت ثقتاً وقوة، ولهذا فرق الشارع بين أن يأتي الإنسان بشاهد واحد أو شاهدين.

وظاهر صنيع المؤلف: أن حديث أبي هريرة: «من أتى عراقاً أو كاهناً أنه موقوف، لأنه قال عن أبي هريرة، لكنه لما قال في الذي بعده: «موقوفاً ترجح عندنا أن الحديث الذي قبله مرفوع».

قوله: «فقد كفر بما أنزل على محمد»

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قال الطيبي: المراد بالمتزل الكتاب والسنة، أي: من ارتكب الهناة فقد برئ من دين محمد ﷺ وما أنزل عليه انتهى. وهل الكفر في هذا الموضوع كفر دون كفر أو يجب التوقف؟ فلا يقال ينقل عن الملة. ذكروا فيها روايتين عن أحمد وقيل: هذا على التشديد والتأكيد أي قارب الكفر والمراد كفر النعمة، وهذان القولان باطلان. اهـ.

[قلت]: تقدم تفصيل الشيخ ابن عثيمين للكفر في الحديث الذي قبله حيث قال: أن الذي يصدق الكاهن في علم الغيب وهو يعلم أن لا يعلم الغيب إلا الله فهو كافر كفرة أكبر مخرج عن الملة.

وإن كان جاهلاً ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب فكفره دون كفر.



قوله: «ولأبى يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً».

قال سليمان آل الشيخ^(٣): أبو يعلى اسمه أحمد بن على بن المثنى الموصلي الإمام

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٥٣٨٦).

قال: حدثنا عبد الرحمن بن سلام، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن أبي إسحاق، عن هبيرة بن بريم عن عبد الله بن مسعود ... فذكره.

والطبراني في «الكبير» (١٠٠/٩٣/١٠٠) ح ١٠٠٥.

وقال: حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطي ثنا عيسى بن إبراهيم البركي ثنا عبد العزيز بن مسلم عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله .. فذكره.

وانظر فتح القدير (ح ٨٢٦) بتخريجنا «وفتح المجيد» (٥٣٧- بتخريجنا).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٠٣. (٣) تيسير العزيز الحميد ٣٠٣.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ حُصَيْنٍ مَرْفُوعًا : «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تَطَيَّرَ لَهُ، أَوْ تَكْهَنَ أَوْ تَكْهَنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» (١) رَوَاهُ الْبَزَارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، دُونَ قَوْلِهِ : «وَمَنْ أَتَى...» إِلَى آخِرِهِ (٢).

صاحب التصانيف كـ «المسند» وغيره روى عن يحيى بن معين وأبى خيثمة وأبى بكر بن أبى شيبة وخلق وكان من الأئمة الحفاظ مات سنة سبع وثلاثمائة.

وهذا الأثر رواه البزار أيضًا وإسناده على شرط مسلم ولفظه : «من أتى كاهنًا أو ساحرًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» (٣) وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر والمصدق لهما لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر، والمصدق لهما يعتد ذلك ويرضى به وذلك كفر أيضًا.



قوله : وعن عمران ابن حصين مرفوعاً : «ليس منا من تطير أو تطير له.... الحديث».

● مناسبة الحديث للباب :

قال القرعاوى (٤) :

حيث دل الحديث بطريق اللزوم على كفر الكاهن.

● مناسبة الحديث للتوحيد :

حيث دل الحديث بطريق اللزوم على أن الكاهن كافر لأنه يعتمد الشرك في كهانته.

(١) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١١٧/٥) وقال : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق ابن الريب وهو ثقة.

وانظر فتح القدير (ح ٨٢٧) بتخريجنا . وفتح المجيد بتخريجنا (ح ٥٣٩)

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٣٠١/٤، ٣٠٢/٣ ح ٤٢٦٢).

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (١١٧/٥) وقال : رواه البزار والطبرانى فى الأوسط وفيه زمعة بن صالح وهو ضعيف. وأنظر «فتح المجيد» (ح ٥٤٠) بتخريجنا

(٣) أخرجه الطبرانى (١٠٠٥) وانظر المجمع (١١٨/٥).

(٤) الجديد ٢٤٣.

قال سليمان آل الشيخ^(١): هذا الحديث رواه الطبراني كما قال «المصنف» في «الأوسط» قال المنذرى: إسناده الطبراني حسن وإسناده البزار جيد.

قلت: ولعل المصنف أقر التحسين والتجويد من المنذرى أو ابن حجر .

قوله: «ليس منا»

قال سليمان آل الشيخ^(٢): أى ليس يفعل ذلك من هو من أشياعنا العاملين باتباعنا المقتفين لشرعنا.

قال ابن عثيمين^(٣): تقدم الكلام على هذه الكلمة، وأنها لا تدل على خروج الفاعل من الإسلام، بل على حسب الحال.

قوله: «من تطير»

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قوله: «من تطير» أى فعل الطيرة «أو تطير له» أى: أمر من يتطير له كذلك معنى تكهن أو تُكهن له أو سحر له.

قال ابن عثيمين^(٥): التطير: هو التشاؤم بالرئى أو المسموع أو المعلوم أو غير ذلك، وأصله من الطير، لأن العرب كانوا يتشاءمون أو يتفاءلون بها، وقد سبق ذلك.

[قلت]: أى فى الباب السابق وغيره مثل باب «من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب». اهـ.

قال ابن عثيمين: ومنه ما يحصل لبعض الناس إذا شرع فى عمل، ثم حصل له فى أوله تعثر تركه وتشاءم، فهذا غير جائز، بل يعتمد على الله ويتوكل عليه، وما دمت أنك تعلم أن فى هذا الأمر خيراً، فغامر فيه، ولا تشاءم، لأنك لم توفق فيه لأول مرة، فكف من إنسان لم يوفق فى العمل أول مرة، ثم وفق فى ثانى مرة أو ثالث مرة؟!!

ويقال: إن الكسائى - إمام النحو - طلب النحو عدة مرات، ولكنه لم يوفق، فرأى نملة تحمل نواة تمر، فتصعد بها إلى الجدار، فتسقط، حتى كررت ذلك عدة مرات، ثم صعدت بها إلى الجدار وتجاوزته، فقال: سبحان الله! هذه النملة تكابد هذه النواة حتى نجحت، إذن أنا سأكابد علم النحو حتى أنجح، فكابد، فصار إمام أهل الكوفة فى النحو.

(٢، ١) تيسير العزيز الحميد ٣٠٤.

(٣) القول المفيد ٧١/٢. (٤) تيسير العزيز الحميد ٣٠٤.

(٥) القول المفيد ٧١/٢، ٧٢.

قوله: «أو تطير له».

بالبناء للمفعول، أى: أمر من يطير له، مثل أن يأتى شخص، ويقول: سأسافر إلى المكان الفلانى، وأنت صاحب طير، وأريد أن تزجر طيرك لأنظر: هل هذه الوجهة مباركة أم لا، فمن فعل ذلك، فقد تبرأ منه الرسول ﷺ.

وقوله: «من تطير» يشمل من تطير لنفسه، أو تطير لغيره.

وقوله: «أو تكهن أو تكهن له».

سبق أن الكهانة ادعاء علم الغيب فى المستقبل يقول: سيكون كذا وكذا، وربما يقع، فهذا متكهن، ومن الغريب أنه شاع الآن فى أسلوب الناس قولهم، تكهن بأن فلاناً سيأتى، ويطلقون هذا اللفظ الدال على عمل محرم على أمر مباح، وهذا لا ينبغى، لأن العامى الذى لا يفرق بين الأمور يظن أن الكهانة كلها مباحة بدليل إطلاق هذا اللفظ على شىء مباح معلوم إباحته.

قلت: ويدل عليه قوله تعالى ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾

قوله: «أو تكهن له»

أى طلب من الكاهن أن يتكهن له، كأن يقول للكاهن: ماذا سيصينى غداً، أو فى الشهر الفلانى، أو فى السنة الفلانية، وهذا تبرأ منه الرسول ﷺ.

قوله: «أو سحر أو سحر له».

تقدم تعريف السحر، وتقدم بيان أقسامه.

قوله: «أو سحر له»

أى: طلب من الساحر أن يسحر له، ومنه النشرة عن طريق السحر، فهى داخله فيه، وكانوا يستعملونها على وجوه متنوعة، منها أنهم يأتون بطست فيه ماء، ويصبون فيه رصاصاً، فيتكون هذا الرصاص، ويسمونها العامة عندنا «ضب الرصاص» وهذا من أنواع السحر المحرم، وقد تبرأ رسول الله ﷺ من فاعله.

الشاهد من هذا الحديث: قوله «ومن أتى كاهناً... إلخ»، وقوله: «ورواه الطبرانى فى الأوسط» بإسناد جيد من حديث ابن عباس... إلخ، فيكون هذا مقوياً للأول.

قوله «رواه البزار».

قال سليمان آل الشيخ^(١): اسمه أحمد بن عمرو بن عبد الخالق أبو بكر البزار

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٠٤.

قَالَ الْبَغَوِيُّ: «الْعُرَافُ: الَّذِي يَدْعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ».

البصري صاحب «المسند الكبير» الذي عزا إليه المصنف، روى عن ابن بشار وابن المثني وخلق، قال الدارقطني: ثقة يخطئ ويتكل على حفظه مات سنة اثنين وتسعين ومائتين.



قوله: [قال البغوي: «العراف: الذي يدعى معرفة الأمور بمقدمات.... الخ»].

البغوي: يفتحتين اسمه الحسين بن مسعود بن الفراء المعروف بمحيي السنة الشافعي صاحب التصانيف، وعالم أهل خراسان وكان ثقة فقيهاً زاهداً مات في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة.

قوله: العراف الذي يدعى معرفة الأمور إلى آخره: هذا تفسير حسن وظاهره يقتضي أن العراف هو الذي يخبر عن الواقع كالمسروق والضالة، وأحسن منه كلام شيخ الإسلام: أن العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، كالحازر الذي يدعى علم الغيب أو يدعى الكشف، وقال أيضاً: والمنجم يدخل في اسم العراف وعند بعضهم هو في معناه وقال أيضاً: والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء وحكى ذلك عن العرب وعند آخرين من جنس الكاهن وأساء حالاً منه، فيلحق به من جهة المعنى.

وقال الإمام أحمد: العراف(*) طرف من السحر والساحر أخبث.

وقال أبو السعادات: العراف المنجم والحازر الذي يدعى علم الغيب وقد استأثر الله تعالى به، وقال ابن القيم: من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفاً وعرافاً، والمقصود من هذا معرفة أن من يدعى علم شيء من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى فيلحق به، وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف ومنه ما هو من الشياطين ويكون بالفأل والزجر والطير والضرب بالخصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر ونحو هذا من علوم الجاهلية، ونعني بالجاهلية: كل من ليس من اتباع الرسل كالفلاسفة والكهان والمنجمين وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ، فإن هذه علوم قوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل عليهم السلام وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً وعرافاً أو في معناها فمن اتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد، وقد ورث هذه

(*) في فتح المجيد العرافة ٣٩١.

وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمَغِيَّاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.
وَقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

العلوم عنهم أقوام فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وادعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة، ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل عليها بإخباره ببعض المغيبات، فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن المتقى، إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولى فيها ولا قدرة له عليها بخلاف من يدعى أنه ولى الله ويقول للناس اعلموا إنى أعلم المغيبات فإن مثل هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب وإن كانت أسباباً محرمة كاذبة فى الغالب.

ولهذا قال ﷺ فى وصف الكهان: «فيكذبون [منها] مائة كذبة [من عند أنفسهم]» (١) فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعى الولاية والعلم بما فى ضمائر الناس مع أن نفس دعواه دليل على كذبه لأن فى دعواه الولاية تزكية النفس المنهى عنها بقوله: «فلا تزكوا أنفسكم» وليس هذا من شأن الأولياء بل شأنهم الإزدراء على نفوسهم وعييهم لها وخوفهم من ربهم فكيف يأتون الناس يقولون: اعرفوا أنا أولياء وأنا نعلم الغيب، وفى ضمن ذلك طلب المنزلة فى قلوب الخلق، واقتناص الدنيا بهذه الأمور وحسبك بحال الصحابة والتابعين وهم سادات الأولياء أكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شئ؟ لا والله بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن كالصديق، وكان عمر يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكى فى صلاته، وكان يمر بالآية فى ورده بالليل فيمرض منها ليلالى يعودونه الناس، وكان تميم الدارى يتقلب فى فراشه لا يستطيع النوم إلا قليلاً خوفاً من النار، ثم يقوم إلى صلاته ويكفيك فى صفات الأولياء ما ذكر الله من صفاتهم فى سورة (الرعد) (المؤمنون)، و(الفرقان)، و(الذاريات)، و(الطور) فالتصنفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء لا أهل الدعوى، والكذب، ومنازعة رب العالمين فيما اختص من الكبرياء والعظمة، وعلم الغيب بل مجرد دعواه علم الغيب كفر، فكيف يكون المدعى لذلك ولياً لله؟ ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفتريين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين ولبسوا بها على خفافيش البصائر، نسأل الله السلامة والعافية فى الدنيا والاخرة. اهـ.

(١) تقدم تخريجه.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: الْعَرَّافُ اسْمٌ لِلْكَاهِنِ، وَالْمَنْجَمِ وَالرَّمَّالِ،
وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ .

قال ابن عثيمين^(١): العراف: صيغة مبالغة فإما أن يراد بها الصيغة، وإما أن يراد بها النسبة، وهو الذى يدعى معرفة الأشياء، وليس كل من يدعى معرفة يكون عرافاً، لكن من يدعى معرفة تتعلق بعلم الغيب، فيدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها.

وظاهر كلام البغوى رحمه الله: أنه شامل لمن ادعى معرفة المستقبل والماضى، لأن مكان المسروق ماضٍ قد سُرق، وكذلك الضالة قد حصل الضياع، ولكن المسألة ليست اتفاقية بين أهل العلم، ولهذا قال المؤلف رحمه الله: «وقيل: هو» أى: العراف الكاهن. والكاهن: هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل .

قوله: «وقيل: هو الذى يخبر عما فى الضمير»

أى: أن تضمر شيئاً فتقول: ما أضمرت؟ فيقول: أضمرت كذا وكذا .

أو المغيبات فى المستقبل، تقول: ماذا سيحدث فى الشهر الفلانى فى اليوم الفلانى؟ ماذا ستلد امرأتى؟ متى يقدم ولدى؟ وهو لا يدرى.

والخلاصة: أن العلماء اختلفوا فى تعريف العراف ، فقليل:

هو الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها، فيكون شاملاً لمن يخبر عن أمور وقعت.

وقيل: الذى يخبر عما فى الضمير .

وقيل: هو الكاهن، والكاهن: هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل اهـ.

قوله: «وقال أبو العباس: ابن تيمية»:

قال ابن عثيمين^(٢): هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، يكنى بأبى العباس ، ولم يتزوج، ولم يتركه من باب الرهبانية، ولكن والله أعلم كان مشغولاً بالجهاد العلمى مع قلة الشهوة ، وإلا لو كان قوى الشهوة لتزوج، وليس كما يدعى المزورون أن له ولداً مدفوناً إلى جانبه فى دمشق، فإنه غير صحيح قطعاً.

قوله: [العراف: اسم للكاهن والمنجم ... إلخ].

(١) القول المفيد (٢/ ٧٤، ٧٥).

(٢) القول المفيد ٢/ ٧٥.

قال ابن عثيمين^(١): وظاهر كلام الشيخ: أن شيخ الإسلام جزم بهذه، ولكن شيخ الإسلام قال: وقيل العراف، وذكره بقليل، ومعلوم أن ما ذكر بقليل ليس مما يجزم بأن الناقل يقول به، صحيح أنه إذا نقله ولم يتقصه، فهذا دليل على أنه ارتضاه.

وعلى كل حال، فشيخ الإسلام ساق هذا القول وارتضاه، ثم قال: ولو قيل: إنه اسم خاص لبعض هؤلاء الرمال والمنجم ونحوهم، فلإنهم يدخلون فيه بالعموم المعنوي، لأن عندنا عمومًا معنويًا، وهو ما ثبت عن طريق القياس، وعمومًا لفظيًا، وهو ما دل عليه اللفظ، بحيث يكون اللفظ شاملًا له.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن استخدام الإنس للجن له ثلاث حالات:

الحال الأولى: أن يستخدم في طاعة الله، كأن يكون له نائبًا في تبليغ الشرع، فمثلاً: إذا كان له صاحب من الجن مؤمن يأخذ عنه العلم، ويتلقى منه، وهذا شيء ثبت أن الجن قد يتعلمون من الإنس، فيستخدمه في تبليغ الشرع لنظرائه من الجن، أو في المعونة على أمور مطلوبة شرعًا، فهذا لا بأس به، بل إنه قد يكون أمرًا محمودًا أو مطلوبًا، وهو من الدعوة إلى الله - عز وجل - والجن حضروا النبي ﷺ وقرأ عليهم القرآن، وولوا إلى قومهم منذرين، والجن فيهم الصلحاء والعباد والزهاد والعلماء، لأن المنذر لا بد أن يكون عالمًا بما ينذر، عابدًا مطيعًا لله - سبحانه - في الإنذار.

الحال الثانية: أن يستخدمهم في أمور مباحة، مثل أن يطلب منهم العون على أمر من الأمور المباحة، قال: فهذا جائز بشرط أن تكون الوسيلة مباحة، فإن كانت محرمة، صار حرامًا، كما لو كان الجنى لا يساعده في أموره إلا إذا ذبح له أو سجد له أو أشبه ذلك.

ثم ذكر ما ورد أن عمر تأخر ذات مرة في سفره، فاشتغل فكر أبي موسى، فقالوا له: إن امرأة من أهل المدينة لها صاحب من الجن، فلو أمرتها أن ترسل صاحبها للبحث عن عمر، ففعل، فذهب الجنى، ثم رجع، فقال: إن أمير المؤمنين ليس به بأس، وهو يسم إبل الصدقة في المكان الفلاني^(٢)، فهذا استخدام في أمر مباح.

(١) القول المفيد (٢/٧٦، ٧٧).

(٢) [مرسل] الأثر ذكره «شيخ الإسلام» كما في مجموع الفتاوى (١٩/٦٣).

قال: وقد روى عن أبي موسى الأشعري أنه أبطا عليه خبر عمر وكان هناك امرأة لها قرين من الجن فسأله عنه فأخبره أنه ترك عمر يسم إبل الصدقة اهـ.

وصدره - رحمه الله - بصيغة «روى» وهي مشهورة عند أهل التحقيق أنها من صيغ التمريض.

وهذا الأثر أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهواتف» (١٦٥).

قلت: وقد تقدم فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أنه لا يجوز الاستعاذة فى الأمور المباحة وأن الأثر الذى أورده الشيخ ضعيف.

الحال الثالثة: أن يستخدمهم فى أمور محرمة، كنهب أموال الناس وترويعهم، وما أشبه ذلك، فهذا محرم، ثم إن كانت الوسيلة شركًا صار شركًا، وإن كانت وسيلته غير شرك صار معصية، كما لو كان هذا الجنى الفاسق يألف هذا الإنسانى الفاسق ويتعاون معه على الإثم والعدوان، فهذا يكون إثمًا وعدوانًا، ولا يصل إلى حد الشرك.

ثم قال: إن من يسأل الجن، أو يسأل من يسأل الجن، ويصدقهم فى كل ما يقولون، فهذا معصية وكفر، والطريق للحفظ من الجن هو قراءة آية الكرسي، فمن قرأها فى ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، كما ثبت ذلك عنه ﷺ^(١)، وهى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾ الآية. اهـ.

مسألة:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): فإن قلت: كيف يكون علم الخط من الكهانة؟

وقد روى أحمد ومسلم عن معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله ﷺ ومنا رجال يخطون، فقال: «كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك»^(٣).

= قال: حدثني عبد الله بن أبي بدر، حدثني يحيى بن اليمان، عن سفيان، عن عمر بن محمد، عن سالم بن عبد الله قال: أبطأ خبر عمر على أبي موسى... فذكره بنحوه.

[قلت]: فى إسناده يحيى بن يمان العجلي صدوق عابد إلا أن فى روايته عن سفيان الثوري مقال، قال الساجي: ضعفه أحمد بن حنبل، وقال: حدثنا عن الثوري بعجائب لا أدري لم يزل هكذا أو تغير حين لقيناه أو لم يزل الخطأ فى كتبه وروى من التفسير عن الثوري عجائب، قال إبراهيم بن الجنيد عن يحيى بن معين: ليس مثبت، لم يكن يبالى أى شيء حدث، كان يتوهم الحديث، قال: وقال وكيع: هذه الأحاديث التى يحدث بها يحيى بن يمان ليست من أحاديث الثوري - تهذيب الكمال (٥٩-٥٧/٣٢) وسأل عثمان بن سعيد ابن معين عن حديثه فى الثوري فقال: ليس بالقوى: «شرح علل الترمذي» (ص: ٣٠٠).

وفيه علة أخرى وهى الانقطاع بين سالم وعمر - رضى الله عنه - قال العلائي: (٢١٩): ذكر أبو زرعة أن حديثه عن أبي بكر الصديق، وعن جده عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - مرسل، قال العلائي: وهذا لا ريب فيه اهـ.

وانظر «الطب النبوي» (٥٦٩- بتحقيقنا).

(١) علقة البخارى وتقدم.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٠٦، ٣٠٧)

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى المساجد (٣/٢٣) وتقدم.

قلت سليمان: قال النووي: معناه أن من وافق خطه فهو مباح له لكن لا طريق لنا إلى العلم باليقين بالموافقة، فلا يباح والقصد أنه لا يباح إلا بيقين الموافقة وليس لنا بيقين، وقال غيره: المراد به النهي عنه والزجر عن تعاطيه. لأن خط ذلك النبي كان معجزة وعلماً لنبوته، وقد انقطعت نبوته ولم يقل فذلك الخط حرام دفعاً لتهوم أن خط ذلك النبي حرام.

قلت - سليمان آل الشيخ -: ويحتمل أن المعنى أن سبب إصابة صاحب الخط هو موافقته لخط ذلك النبي، فمن وافق خطه أصاب، وإذا كان كذلك وكانت الإصابة نادرة بالنسبة إلى الخط، ولا طريق إلى اليقين بالموافقة صار ذلك بالنسبة إلى من يتعاطاه من أنواع الكهانة لمشاركته لها في المعنى إذا علمت ذلك فاعلم أن مذهب الإمام أحمد أن حكم الكاهن والعراف الاستتابة، فإن تابا وإلا قتلًا، ذكره غير واحد من الأصحاب.

فأما المعزم الذي يعزم على المصروع، ويزعم أنه يجمع الجن وأنها تطيعه، والذي يحل السحر، فقال في «الكافي» ذكرهما أصحابنا في السحرة الذين ذكرنا حكمهم، وقد توقف أحمد لما سئل عن الرجل يحل السحر، فقال قد رخص فيه بعض الناس، قيل: إنه يجعل في الطنجير ماء ويغيب فيه، فنفض يده، وقال: ما أدري ما هذا؟! قيل له: فترى أن يؤتى مثل هذا يحل؟ قال: ما أدري ما هذا؟ قال: وهذا يدل على أنه لا يكفر صاحبه، ولا يقتل.

قلت سليمان: إن كان ذلك لا يحصل إلا بالشرك والتقرب إلى الجن فإنه يكفر ويقتل. ونص أحمد: لا يدل على أنه لا يكفر، فإنه قد يقول مثل هذا في الحرام البين. اهـ.

[قلت]: وتقدم جواب ابن عثيمين عن حديث معاوية في النبي الذي كان يخط في الباب الماضي وسيأتي التفصيل والراجع في حل السحر عن المسحور في الباب القادم (ما جاء في النشرة).



وَقَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ) وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ» (١).

قوله: [وقال: ابن عباس في قوم يكتبون «أبا جاد».... إلخ].

قال سليمان آل الشيخ (٢): هذا الأثر ذكره المصنف عن ابن عباس، ولم يعزه.

وقد رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً، وإسناده ضعيف، ولفظه «رَبِّ مُعَلِّمٍ حُرُوفِ أَبِي جَادٍ دَارِسٍ فِي النُّجُومِ لَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ورواه أيضاً حميد بن زنجويه عنه بلفظ «رَبِّ نَاطِرٍ فِي النُّجُومِ وَمُتَعَلِّمٍ حُرُوفِ أَبِي جَادٍ لَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ خَلْقٌ» (٣).

[قلت]: وفي تضعيف الشيخ سليمان الأثر نظر فقد أخرجه عبدالرزاق في «مصنفه» عن معمر، عن ابن طاوس عن أبيه، عن ابن عباس قال: «إِنْ قَوْمًا يَحْسِبُونَ أَبَا جَادٍ، وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ وَلَا أَرَى لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ خِلَافٍ» وإسناده صحيح على شرط الشيخين والله أعلم.

قوله: «يَكْتُبُونَ أَبَا جَادٍ وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ».

قال ابن عثيمين (٤): الواو هنا ليست عطفاً، ولكنها للحال، يعني: والحال أنهم ينظرون، فيربطون ما يكتبون بسير النجوم وحركتها.

قوله: «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ».

قال سليمان آل الشيخ (٥): قوله ما أرى . يجوز فتح الهمزة من أرى بمعنى لا أعلم له عند الله من خلق : أى من نصيب، ويجوز ضمها بمعنى لا أظن ذلك لاشتغاله بما فيه من اقتحام الخطر والجهالة.

ويجوز فتح الهمزة بمعنى: أعلم، وبالضم بمعنى: ما أظن.

(١) أخرجه عبد الرزاق (١١/٢٦/٥/١٩٨٠) والبيهقي (٨/١٣٩) من طريق معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس. وإسناده صحيح.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» من طريق خالد بن زيد العمرى، ثنا محمد بن مسلم، ثنا إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عن ابن عباس مرفوعاً به قال الهيثمي في «المجمع» (٥/١١٧): وفيه خالد بن يزيد العمرى وهو كذاب. وأنظر «فتح المجيد» (ح ٥٤٣) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٠٧).

(٣) تقدم قبله.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٣٠٧.

(٤) القول المفيد (٢/٧٨، ٧٩).

وقوله: «أباجاد»

قال سليمان آل الشيخ: وادعاء علم الغيب الذى استأثر الله به، وكتابة: أبى جاد وتعلمها لمن يدعى بها معرفة علم الغيب هو الذى يسمى علم الحرف، ولبعض المبتدعة فيه مصنف، فأما تعليمها للتهجى وحساب الجمل فلا بأس بذلك.

قال ابن عثيمين: هـ: أبجد هوز حطى كلمن سغفص قرشت تخذ ضظغ... وتعلم أباجاد ينقسم إلى قسمين:

الأول: تعلم مباح بأن نتعلمها لحساب الجمل، وما أشبه ذلك، فهذا لا بأس به، وما زال أناس يستعملونها، حتى العلماء يؤرخون بها، قال شيخنا عبد الرحمن بن سعدى رحمه الله فى تاريخ بناء المسجد الجامع القديم:

من ساعدوا فى ذا البنا	جد بالرضا واعط المني
قول المنيب اغفر لنا	تاريخه حين انتهى
رب تقبل سعيينا	والشهر فى شوال يا

فقوله: «اغفر لنا» لو عددناها حسب الجمل صارت ١٣٦٢هـ.

وقد اعتنى بها العلماء فى العصور الوسطى، حتى فى القوائد الفقهية والنحوية وغيرها.

ويؤرخون بها مواليد العلماء ووفياتهم، ولم يُرد ابن عباس هذا القسم. هـ.

[قلت]: قال السخاوى فى شرح منظومة ابن الجزرى (الغاية) (١):

[الجمل] وسردها، وهى تسع كلمات كل كلمة منها ثلاثة أحرف من حروف المعجم الأولى فأربعة وترتيبها الراسخ الثابت عند أهل الحساب، أن الحرف الأول من كل هذه الكلمات التسع آحاد، والثانى منها أعشار، والثالث مئات والغين وهو الحرف الرابع من الكلمة الأولى والموحدة بشتين، والجيم بثلاثة، وهكذا والياء التحتانية بعشرة والكاف بعشرين واللام بثلاثين، وهكذا، والقاف بمائة، والراء بمائتين والشين المعجمة بثلمائة، وهكذا.

ذكر ابن الجزرى مثال ذلك:

سنة (يا) النبى والصدىق (جى) عمر (كج) عثمان (هل) على (لى)

(١) انظر الهداية شرح الغاية فى علم الرواية (ص ١٣٥، ١٣٦) بتحقيقنا وتخريجنا.

قال السخاوى: أشار إلى تعيين وفاته ﷺ والخلفاء الأربعة رضى الله عنهم فبالإيه التحتانية والالف إلى أن وفاته ﷺ سنة إحدى عشرة من الهجرة فى ربيع الأول وبالجميم والتحتانية أيضاً إلى أن وفاة صاحبه وخليفته أبى بكر الصديق كانت فى سنة ثلاث عشرة.

بالكاف والجميم أيضاً إلى أن وفاة عمر بن الخطاب كانت فى سنة ثلاث وعشرين وذلك فى آخر يوم من ذى الحجة شهيداً.

وبالهاء واللام إلى أن وفاة عثمان بن عفان كانت فى سنة خمس وثلاثين وذلك فى ذى الحجة أيضاً شهيداً وباللام والتحتانية إلى أن وفاة على بن أبى طالب كانت فى سنة أربعين، وذلك فى رمضان شهيداً .

واستعمل فيه تلفيق الأربعين من الحرفين مع الاستغناء عنهما بالميم للضرورة كما أشرت إليه أولاً.

ثم قال ابن عثيمين^(١):

الثانى: محرم، وهو كتابة «أباجاد» كتابة مربوطة بسير النجوم وحركتها وطلوعها وغروبها، وينظرون فى النجوم ليستدلوا بالموافقة أو المخالفة على ما سيحدث فى الأرض، إما على سبيل العموم، كالجذب والمرض والحرب وما أشبه ذلك، أو على سبيل الخصوص، كأنه يقول لشخصك سيحدث لك مرض أو فقر أو سعادة أو نحس فى هذا وما أشبه ذلك، فهم يربطون هذه بهذه، وليس هناك علاقة بين حركات النجوم واختلاف الوقائع فى الأرض. اهـ.

وقوله: «ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق».

قوله: «خلاق»:

قال ابن عثيمين^(٢): أى نصيب .

ظاهر كلام ابن عباس أنه يرى كفرهم، لأن الذى ليس له نصيب عند الله هو الكافر، إذ لا ينفى النصيب مطلقاً عن أحد من المؤمنين، وإن كان له ذنوب عُدَّ بقدر ذنوبه، أو تجاوز الله عنها، ثم صار آخر أمره إلى نصيبه، الذى يجده عند الله .

[قلت]: وتقدم معنى الخلاق فى باب «ما جاء فى السحر» فى تفسير قوله تعالى : ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق﴾.

(٢) القول المفيد ٢ / ٨٠ .

(١) القول المفيد (٢/ ٧٨، ٧٩) .

قوله : «وينظرون فى النجوم»:

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: وينظرون فى النجوم هذا محمول على علم التأثير لا التسيير، كما سيجىء فى باب التنجيم، وفيه عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم، كما قال تعالى: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾.

قال ابن عثيمين^(٢): ولم يبين المؤلف رحمه الله حكم الكاهن والمنجم والرمال من حيث العقوبة فى الدنيا، وذلك أننا إن حكمنا بكفرهم، فحكمهم فى الدنيا أنهم يستأبون، فإن تابوا، وإلا، قتلوا كفاراً.

وإن حكمنا بعدم كفرهم، إما لكون السحر لا يصل إلى الكفر، أو قلنا: إنهم لا يكفرون، لأن المسألة فيها خلاف، فإنه يجب قتلهم لدفع مفسدتهم ومضرتهم، حتى وإن قلنا بعدم كفرهم، لأن أسباب القتل ليست مختصة بالكفر فقط، بل للقتل أسباب متعددة ومتنوعة، قال تعالى: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾ فكل من فسد على الناس أمور دينهم أو دنياهم، فإنه يستتاب، فإن تاب، وإلا قتل، ولا سيما إذا كانت هذه الأمور تصل إلى الإخراج من الإسلام.

والنظر فى النجوم ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يستدل بحركاتها وسيرها على الحوادث الأرضية، سواء كانت عامة أو خاصة، فهو شرك إن اعتقد أن هذه النجوم هى المدبرة للأمور، أو أن لها شركاً، فهو كفر مخرج عن الملة، وإن اعتقد أنها سبب فقط، فكفره غير مخرج عن الملة، ولكن يسمى كफراً، لقول النبى ﷺ على إثر سماء كانت من الليل: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم». قال: قال: أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، أما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب^(*).

وقد سبق لنا أن هذا الكفر ينقسم إلى قسمين بحسب اعتقاد قائله.

الثانى: أن يتعلم علم النجوم ليستدل بحركاتها وسيرها على الفصول وأوقات البذر والحصاد والغرس وما أشبهه، فهذا من الأمور المباحة، لأنه يستعان بذلك على أمور دنيوية.

القسم الثالث: أن يتعلمها لمعرفة أوقات الصلوات وجهات القبلة، وما أشبه ذلك من الأمور المشروعة، فالتعلم هنا مشروع، وقد يكون فرض كفاية أو فرض عين.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٠٨.

(٢) القول المفيد ٢/ ٨٠، ٨١.

(*) سيأتى تخريجه.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: أَنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ تَصَدِيقُ الْكَاهِنِ مَعَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ.
الثانية: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ كُفْرٌ.

فصل

ما جاء في أجر الكاهن، والرمال، والعراف، والمنجم، والضارب بالحصى.

أخرج البخارى^(١): عن أبى مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي، وحلوان الكاهن.

قال الحافظ^(٢): «حلوان الكاهن هو حرام بالإجماع، لما فيه من أخذ العوض على أمر باطن، وفى معناه التنجيم والضرب بالحصى وغير ذلك مما يتعانه العرافون من استطلاع الغيب.

والحلوان: مصدر حلوته إذا أعطيته، وأصله من الخلاوة، شبه بالشئ الخلو من حيث أنه يأخذه سهلاً بلا كلفة ولا مشقة، يقال: حلوته إذا أطعمته الخلو، والحلوان أيضاً الرشوة، والحلوان أيضاً أخذ الرجل مهر ابنته لنفسه. اهـ.

[قلت]: إنما أردت فى هذا الفصل الإمعان فى حرمة الكهانة والعرافة والتنجيم، وغيرها وليبيان حرمة الأجر أيضاً الذى يتعاطاه هؤلاء، وحرمة هذا الحلوان على الآخذ والمعطى.

فعلى هذا: فالذى يذهب للكاهن أو العراف أو الدجال بالثمن قد ارتكب محرمين: (الأول) الإتيان. (الثانى): دفع الحلوان. فإذا ضم إلى ذلك تصديقه فقد كفر، والله نسأل صلاح أحوال المسلمين ودفع الأذى عنهم.

قوله: فيه مسائل:

● الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

قال ابن عثيمين^(٣):

يؤخذ من قوله: «من أتى كاهناً، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد» ووجهه: أنه كذب بالقرآن، وهذا من أعظم الكفر. اهـ.

[قلت]: لأن القرآن إن كنت مصداقاً به فلا بد وأن تكذب الكاهن، وإن كنت مصداقاً للكاهن فسوف تكون بلك مكذباً للقرآن الذى نص على أنه لا يعلم الغيب إلا الله وحده لا شريك له.

● الثانية: التصريح بأنه كفر: تؤخذ من قوله: «فقد كفر بما أنزل على محمد».

(٣) القول المفيد ٢/ ٨٢: ٨٤.

(٢) فتح البارى (٤/ ٤٩٨).

(١) تقدم تخريجه.

الثالثة: ذَكَرُ مَنْ تُكْهَنَ لَهُ.

الرابعة: ذَكَرُ مَنْ تُطَيَّرُ لَهُ.

الخامسة: ذَكَرُ مَنْ سُحِرَ لَهُ.

السادسة: ذَكَرُ مَنْ تَعَلَّمَ أَبَا جَادٍ.

السابعة: ذَكَرُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْكَاهِنِ وَالْعَرَّافِ.

● الثالثة: ذكر من تكهن له: تؤخذ من حديث عمران بن حصين، حيث قال: «ليس منا»، أى: إنه كالكاهن فى براءة النبى ﷺ منه.

● الرابعة: ذكر من تطير له: تؤخذ من قوله: «أو تطير له».

● الخامسة: ذكر من سحر له. تؤخذ من قوله: «أو سحر له».

وأتى المؤلف بذكر من تكهن له ، أو سحر له ، أو تطير له ، لأنه قد يعارض فيه معارض، فيقول هذا فى الكهان ، وهذا فى المستطيرين، وهذا فى السحرة، فقال: إن من طلب أن يفعل له ذلك، فهو مثلهم فى العقوبة.

● السادسة: ذكر من تعلم أباجاد. وتعلم ذلك فيه تفصيل لا يحمد ولا يذم، إلا على

● السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

وفى هذه المسألة خلاف بين أهل العلم:

القول الأول: أن العراف هو الكاهن، فهما مترادفان، فلا فرق بينهما.

القول الثانى: أن العراف هو الذى يستدل على معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها، فهو أعم من الكاهن، لأنه يشمل الكاهن وغيره، فهما من باب العام والخاص.

القول الثالث: أن العراف يخبر عن أمور بمقدمات يستدل عليها والكاهن هو الذى يخبر عما فى الضمير ، أو عن المغيبات فى المستقبل.

فالعراف أعم، أو أن العراف يختص بالماضى، والكاهن بالمستقبل، فهما متباينان، والظاهر أنها متباينان، فالكاهن من يخبر عن المغيبات فى المستقبل والعراف من يدعى معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك .



٢٦ باب ما جاء في النشرة

● مناسبة هذا الباب لما قبله:-

قال سليمان آل الشيخ^(١):- لما ذكر المصنف حكم السحر والكهانة ذكر ما جاء في النشرة، لأنها قد تكون من قبل الشياطين والسحرة، فتكون مضادة للتوحيد، وقد تكون مباحة، كما سيأتى تفصيله.

[قلت]: لما كانت النشرة حل السحر عن المسحور ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر ناسب أن تذكر بعد أبواب الكهانة والسحر ولأن الجميع قد يستعينون فى ذلك بالشياطين فيقعون من ذلك فى شرك.

وقد تقدم فى مناسبة الباب الماضى أن المصنف لما ذكر شيئاً مما يتعلق بالسحر، ذكر ما يتعلق بالكهان وغيرهم كالعراف لمشابه هؤلاء بالسحرة، ولما كانت النشرة ضرب من ضروب السحر ناسب أن تذكر بعد هذه الأبواب، وإن كان الأولى أن توضع قبل الباب الماضى.

ولأن باب ماجاء فى النشرة أليق والصق بالسحر من باب ماجاء فى الكهان فالمناسب أن يعم ثم يفصل ثم يخص النشرة فيقال باب ماجاء فى السحر على الإجمال ثم على التفصيل فى باب بيان شىء من أنواع السحر ثم يخص النشرة لأهميتها وإنتشارها ثم يأتى باب ماجاء فى الكهان لأنه أليق بالباب الذى سيأتى وهو باب ماجاء فى التطير لأنهما يجتمعان فى أن كل من المتطير والمتكهن يتحاکمان إلى غير الله إلى شىء خفى يشدّون من وراءه أمراً غيبى فى بهذا تنسجم الأبواب وترتب فى الأذهان.

وأيضاً فإن هذه الأبواب فى الكهانة والسحر والنشرة بينها عموم حيث تجتمع جميعاً فى الاعتماد على أشياء خفية وهى فى الغالب جاهلية. والله أعلم.

● مناسبة الباب لكتاب التوحيد:-

قال عبد الله بن جار الله^(٢):- مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: هى أن بعض أنواع النشرة من حل السحر وهو لا يحصل غالباً إلا بالشرك المنافى للتوحيد.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٠٨.

(٢) الجامع الفريد ١١١.

- شرح الترجمة والتبويب.

قلت: ترجمة الباب من باب عطف البيان والله أعلم

- تعريف النشرة:

قال ابن عثيمين: لغة: - بضم النون: فُعْلَةٌ من النشر وهو التفريق^(١).

وقال عبدالله بن جار الله^(٢): - الكشف والإزالة.

قلت: وكلاهما واحد لأن النشرة إذا قلنا أنها من النشر والتفريق فبالنشرة يفرق عن المسحور والسحر ويتشعر عنه.

وإذا قلنا أنه من الكشف والإزالة فبالنشرة يكشف عن المسحور السحر ويزال عن المسحور السحر فكلاهما مؤداه واحد.

وشرعاً:-

قال سليمان آل الشيخ^(٣): - قال أبو السعادات: النشرة ضرب من العلاج والرقية، يعالج به من كان يظن أن به مساً من الجن، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء: أى يكشف ويزال.

وقال الحسن: النشرة من السحر، وقد نشرت عنه تنشيراً، ومنه الحديث «فَلَعَلَّ طَبًّا أَصَابَهُ ثُمَّ نُشِرَهُ بِـ «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ»: أى رقاها.

وقال غيره: ونشره أيضاً إذا كتب له النشرة، وهى كالتعويد والرقية.

وقال ابن الجوزى: النشرة حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر.

قال السعدى^(٤): - هو حل السحر عن المسحور، ذكر فيه المصنف كلام ابن القيم فى التفصيل بين الجائز منه والممنوع وفيه كفاية.

وذكر نحو ذلك ابن باز وعبدالله بن جار الله وابن عثيمين وزاد ابن باز فقال: يقال نشر عنه إذا حل ما أصابه وزاد ابن عثيمين: لأن هذا الذى يحل السحر عن المسحور: يرفعه، ويزيله، ويفرقه.

(٢) الجامع الفريد ١١١.

(٤) القول السديد ٧٩.

(١) القول المفيد ٨٥/٢.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٠٨.

عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النَّشْرَةِ؟ فَقَالَ: (هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ).
رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ، قَالَ: «سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؟ فَقَالَ: ابْنُ مَسْعُودٍ
يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ»^(١).

حكمها:

قال ابن عثيمين^(٢): - أما حكمها؛ فهو يتيين مما قاله المؤلف - رحمه الله -، وهو
من أحسن البيانات.

ولا ريب أن حل السحر عن المسحور من باب الدواء والمعالجة، وفيه فضل كبير لمن
ابتغى به وجه الله، لكن في القسم المباح منها.

لأن السحر له تأثير على بدن المسحور وعقله ونفسه وضيق الصدر، حيث لا يأنس
إلا بمن استعطف عليه.

وأحياناً يكون أمراضاً نفسية بالعكس، تنفر هذا المسحور عن تنفره عنه من الناس،
وأحياناً يكون أمراضاً عقلية؛ فالسحر له تأثير إما على البدن، أو العقل، أو النفس. أهد
قلت: كأن ابن عثيمين أحال الحكم على كلام ابن القيم الآتي في المتن أنه إذا كانت
النشرة حل السحر بالسحر فهي حرام، وإما إذا كانت بغير سحر فمباحة، وسيأتي
تفصيل ذلك في موضعه.

قوله: [قال: عن جابر أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عَنِ النَّشْرَةِ فَقَالَ: هِيَ مِنْ عَمَلِ
الشَّيْطَانِ]

قال سليمان الشيخ^(٣): - هذا الحديث رواه أحمد، ورواه عنه أبو داود في «سننه»
والفضل بن زياد في كتاب «المسائل» عن عبدالرزاق عن عقيل بن معقل بن منبه عن عمه
وهب بن منبه عن جابر، فذكره. قال ابن مفلح: إسناده جيد، وحسن الحافظ إسناده،
ورواه ابن أبي شيبة، وأبو داود في المراسيل عن الحسن رفعه «النشرة من عمل
الشَّيْطَانِ». ^(٤).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، وأبو داود في الطب/ باب في النشرة (٣٨٦٨/٥/٤) من طريق
عبدالرزاق قال: حدثنا عقيل بن معقل قال: سمعت وهب بن منبه يحدث عن جابر.. فذكره وانظر «فتح
التقدير (٥٤٧) بتحريجنا.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٠٩.

(٢) القول المفيد ٨٥/٢.

(٤) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (٤٥٣) عن الحسن مرسلاً.

قلت: ولعل المصنف تابع الحافظ وابن مفلح على تحسين الحديث .

- مناسبة الحديث للباب:-

قال القرعاوى^(١): حيث دل الحديث على تحريم النشرة. أهـ

[قلت] مناسبة الحديث للباب ظاهرة، حيث أن الباب فى النشرة والحديث فيه السؤال عن حكم النشرة وحقيقتها.

- مناسبة الحديث للتوحيد:-

قال القرعاوى^(٢):- حيث دل الحديث على تحريم نشره الجاهلية التى لا تتم إلا بالشرك. أهـ

[قلت] وهذا كلام جيد، لأن قوله (نشرة جاهلية) معناه أن هناك نشره إسلامية كما سيأتى.

وعلى هذا فالنشرة الجاهلية من عمل الشيطان، وأما النشرة الإسلامية فلا دخل للشيطان فيها ولا يدخلها شرك.

قوله: «عن جابر أن رسول الله سئل عن النشرة؟»

قال سليمان آل الشيخ^(٣):-

قوله: سئل عن النشرة؛ الألف واللام فى النشرة للعهد: أى النشرة المعهودة التى كان أهل الجاهلية يصنعونها، هى من عمل الشيطان، لا النشرة بالرقى والتعوذات الشرعية والأدوية المباحة، فإن ذلك جائز كما قرره ابن القيم فيما سيأتى.

وشرح ذلك ابن عثيمين فقال: ^(٤):- قوله فى حديث جابر «سئل عن النشرة»

أل للعهد الذهنى؛ أى: المعروفة فى الجاهلية التى كانوا يستعملونها فى الجاهلية، وذلك طريق من طرق حل السحر.

ثم ذكر أنواعها فقال: وهى على نوعين:

الأول: أن تكون باستخدام الشياطين، فإن كان لا يصل إلى حاجته منهم إلا

(١) الجديد ٢٤٦.

(٢) الجديد ٢٤٦.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٠٩.

(٤) القول المفيد ٨٦/٢ و ٨٧.

بالشرك؛ كانت شركاً، وإن كان يتوصل لذلك بمعصية دون الشرك؛ كان لها حكم تلك المعصية.

الثانى: أن تكون بالسحر؛ كالأدوية والرُقَى والعُقَد والنَّفَث وما أشبه ذلك؛ فهذا له حكم السحر على ما سبق.

[قلت] فعلى هذا فإن استخدام الشياطين إما شرك، وإما معصية - فإذا كانت النشر باستخدام الشياطين، والشياطين لا يخدمون إلا بالشرك - فهو شرك، وإن كانت الشياطين لا يخدمون إلا بمعصية فهي معصية، لها حكم المعصية.

ثم قال: ومن ذلك ما يفعله بعض الناس، أنهم يضعون فوق رأس المسحور طستاً فيه ماء ويَصْبُون عليه رصاصاً ويزعمون أن الساحر يظهر وجهه فى هذا الرصاص؛ فيستدل بذلك على من سحره، وقد سئل الإمام أحمد عن النشرة، فقال إن بعض الناس أجازها، ف قيل له: إنهم يجعلون ماء فى طَسْت، وإنه يغوص فيه، وإنه يبدو وجهه، فنفض يده وقال: ما أدرى ما هذا؟ ما أدرى ما هذا؟ فكأنه رحمه الله توقف فى الأمر وكره الخوض فيه. أهـ

قوله: فقال «هو من عمل الشيطان».

قال ابن عثيمين^(١): - أى: من العمل الذى يأمر به الشيطان ويوحى به؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء ويوحى إلى أولياءه بالمنكر، وهذا يغنى عن قوله: إنها حرام، بل هو أشد؛ لأن نسبتها للشيطان أبلغ فى تقبيحها والتنفير منها، ودلالة النصوص على التحريم لا تنحصر فى لفظ التحريم أو نفى الجواز، بل إذا رُبِت العقوبات على الفعل كان دليلاً على تحريمه. أهـ

قلت: فإن قوله «هُوَ مَنْ عَمَلَ الشَّيْطَانُ» ربما يكون الزجر أبلغ إذا عرفت أن ورائها عدو لك هو الشيطان.

ودلائل النصوص لا تنحصر فى ذلك بل أساليب القرآن فى طلب الكف عن الفعل كثيرة من ذلك.

١ - صريح النهى، كقوله تعالى «وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ»^(٢).

(١) القول المفيد ٢/ ٨٧.

(٢) النحل : ٩٠

٢- التحريم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾^(١) و﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾^(٢)

٣- عدم الحل، كقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾^(٣).

٤- صيغة النهي، وهى المضارع المسبوق بلا الناهية، أو فعل الأمر الدال على طلب الكف، مثل: دَعْ، وَذَرْ، واجتنب كقوله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٤) وقوله ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾^(٥) وقوله ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾^(٦).

٥- نفى البر عن الفعل، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾^(٧).

٦- نفى الفعل، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٨).

٧- ذكر الفعل مقروناً باستحقاق الإثم، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾^(٩).

٨- ذكر الفعل مقروناً بوعيد، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١٠).

٩- وصف الفعل بأنه شر كقوله ﴿وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ يَخْلُونُ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾^(١١).

١٠- التعبير بنفى الصحة بلفظ ماكان، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾^(١٢).

١١- الاستفهام الإنكارى فى بعض المواضع كقوله ﴿أَتَأْتُمِرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾^(١٣).

(١) الأعراف : ٣٣	(٢) النور : ٣٢	(٣) النساء : ١٩
(٤) الإسراء : ٣٤	(٥) الأنعام : ١٢٠	(٦) الأحزاب : ٤٨
(٧) البقرة : ١٧٧	(٨) البقرة : ١٩٣	(٩) البقرة : ١٨١
(١٠) التوبة : ٣٤	(١١) آل عمران : ١٨٠	(١٢) التوبة : ١٧
(١٣) البقرة : ٤٤		

١٢ - ذكر الفعل مقروناً بعقوبة نصية كقوله ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ﴾ (١).

١٣- الحكم على الفعل بأنه كفر، أو ظلم ، أو فسق كقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٢) و﴿الظَّالِمُونَ﴾ و﴿لَفَاسِقُونَ﴾ (*).
قوله: «رواه أحمد بسند جيد وأبو داود»
قال ابن عثيمين (٣):-

سند أبي داود إلى أحمد متصل؛ لأنه قد حدثه وأدركه. أهـ
قلت: لأن الإمام أحمد من مشايخ الإمام أبي داود له كتاب في مسائل الإمام أحمد
فالبخاري وأبو داود من تلاميذ الإمام أحمد والترمذي من تلميذ البخاري إذا الإمام أحمد
شيخ شيخ الترمذي.

قوله «سئل أحمد عنها فقال ابن مسعود: يكره هذا كله».
قلت: وذلك لأنه جاء عن ابن القيم في «إعلام الموقعين» أنه رتب مصادر الفقه عند
الإمام أحمد فكان على رأس الأدلة الكتاب والسنة ثم بعد الكتاب والسنة: والإجماع ثم
قول الصحابة إذا اجتمعوا ثم بعد ذلك إذا تفرقوا - إختلفوا - يأخذ أقرب هذه الأقوال
إلى الدليل ثم بعد ذلك القياس فلم أفتأ بقول ابن مسعود دل ذلك أنه ليس عنده دليل
صحيح.

إشكال: إذا كان الإمام أحمد هو راوي الحديث نفسه أن النشرة من عمل الشيطان
فكيف لم يكن عنده دليل وكيف يعدل عن الحديث إلى قول ابن مسعود؟

قال الفقير: يجاب عنه بأجوبة

١- أن يقال أنه أجابه قبل أن يبلغه الحديث فلم يكن عنده في هذا الوقت في هذه
الساعة هذا الحديث فلذلك أجاب بقول ابن مسعود.

٢- أنه لعله كان عنده هذا الحديث لكن لم ير صحته فأتى بقول الصحابي الأصح
عنده.

(٢) المائدة : ٤٤ - ٤٧

(١) المائدة : ٣٨

(٣) القول المفيد ٨٧/٢.

(*) وانظر «تاريخ التشريع الإسلامي» للدكتور مناع القطان نقلاً عن «تاريخ التشريع» للخضري.

٣- أو لعل السائل كان يعلم أن في المسألة حديثاً فأراد شيئاً آخر بخلاف الحديث فقال له الإمام أحمد عبدالله بن مسعود كان يكره ذلك كله.

٤- أولعله لم يصح هذا الحديث عنده فأراد أن يبين أن أصله صحيح وأن المعنى صحيح لأنه جاء عن ابن مسعود هذا النهى ولم يعلم له مخالف فمعناه صحيح. والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ (١):-

قوله: وقال: سئل أحمد عنها فقال ابن مسعود: يكره هذا كله مراد أحمد، والله أعلم أن ابن مسعود يكره النشرة التى من عمل الشيطان والنشرة التى بكتابة وتعليق كالتمايم، فإن ابن مسعود كان يكره التمايم كلها من القرآن وغير القرآن، أما النشرة بالتعويد والرقى بأسماء الله وكلامه من غير تعليق فلا أعلم أحداً كرهه، وكذلك ما رواه ابن أبى شيبة عن إبراهيم: كانوا يكرهون التمايم والرقى، والنشر محمول على ما ذكرنا.

[قلت]: ويؤيد ذلك قول ابن مسعود لامرأته حينما وجدها معلقة خيطاً رقى لها فيه فتهاها ووصف هذا الفعل بالشرك ووصاها بما جاء عن الرسول ﷺ اللهم رب الناس أذهب البأس واشف أنت الشافى، لاشفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً (٢).

قال ابن عثيمين (٣): قوله: «فقال: ابن مسعود يكره هذا كله».

أجاب - رحمه الله - بقول الصحابى، وكأنه ليس عنده أثر صحيح عن النبى ﷺ فى ذلك، وإلا لاستدل به.

إشكال وجواب: ثم قال وجواب المشار إليه فى قوله: «يكره هذا كله» كل أنواع النشرة، وظاهره: ولو كانت على الوجه المباح على ما يأتى، لكنه غير مراد؛ لأن النشرة بالقرآن والتعوذات المشروعة لم يقل أحد بكراهته، وسبق أن ابن مسعود رضى الله عنه كان يكره تعليق التمايم من القرآن وغير القرآن.

وعلى هذا؛ فالكلية فى قول أحمد: «يكره هذا كله» يراد بها النشرة التى من عمل الشيطان، وهى النشرة بالسحر والنشرة التى من التمايم.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٠٩.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) القول المفيد ٨٧/٢ و ٨٨.

وَفِي «الْبُخَارِيِّ» عَنْ قَتَادَةَ: «قُلْتُ لَابْنِ الْمُسَيْبِ رَجُلٌ بِهِ طَبٌّ أَوْ يُؤْخَذُ عَنْ امْرَأَتِهِ، أَيَحِلُّ عَنْهُ أَوْ يُثْبَرُ؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ، فَلَمْ يَنْفَعْ عَنْهُ» (١).

وقوله: «يكروه».

الكرهية عند المتقدمين يراد بها التحريم غالباً، ولا تخرج عنه إلا بقربنة، وعند المتأخرين خلاف الأولى؛ فلا تظن أن لفظ المكروه في عرف المتقدمين أو كلامهم مثله في كلام المتأخرين، بل هو يختلف، انظر إلى قوله تعالى: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...»، إلى أن قال بعد أن ذكر أشياء محرمة: «كُلْ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا»، ولا شك أن المراد بالكرهية هنا التحريم.

قلت: والسبب عند أبي حنيفة على وجه الخصوص وعند الشافعي في أنهما كانا لا يقولان على الحرام حرام ولكن يقولان مكروه تورعاً من الوقوع في خلاف قوله تعالى «وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلَحُونَ»

انظر إلى تورع الأئمة بجلالة قدرهم أنه يخافوا أن يقولوا هذا حرام من الحرام الذي عليه دليل ولكن ليس دليل قطعي بل دليل ظني عند أبي حنيفة فلا يقدر أن يقول حرام ولكن يقول مكروه حتى كان المكروه عنده منزلة أقل من الحرام عند الجمهور وفوق المكروه وهو ماثبت حرمة بدليل ظني بخبر الآحاد وخبر الأحاد هو الحديث الذي ثبت بطريق واحد حتى ولو في صحيح البخاري.

فبرغم ثبوت الحرمة لم يقل عليه حرام وقال عليه مكروه لكي لا يقع في خلاف قوله تعالى «وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلَحُونَ».

(١) علقه البخاري في الطب/ باب هل يستخرج السحر (١٠/ ٢٤٣ - الفتح)

قال الحافظ: في «الفتح» (١٠ / ٢٤٤) وصله أبو بكر الأثرم في «كتاب السنن» من طريق أبان العطار، عن قتادة ومثله - طريق هشام الدسوقي عن قتادة.. قال: وأخرجه الطبري في «التهذيب» عن طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن سعيد بن الميديد. أهـ.
وانظر «فتح المجيد» (ج٥٤٨) بتخريجنا

وانظر إلى واقعتنا نجد أن كلمة حرام وحلال منتشرة للغاية وهو لا يعلم أنه يكذب على الله ليس كذب على الناس فقط بل هو كذب على الله عز وجل.

قوله: [وفى البخارى عن قتادة: قلت لابن المسيب رجل به طب أو يؤخذ. إلخ

هذا الأثر رواه البخارى تعليقاً فى كتاب الطب باب. هل يستخرج السحر؟

قال ابن حجر^(١):- وصله أبو بكر الأثرم فى «كتاب السنن» من طريق أبان العطار عن قتادة ومثله من طريق هشام الدستوائى عن قتادة بلفظ «يلتمس من يداويه؟» فقال: إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع» وأخرجه الطبرى فى (التهذيب) من طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن سعيد ابن المسيب أنه كان لا يرى بأساً إذا كان بالرجل سحر أن يمشى إلى من يطلق عنه، فقال: هو صلاح. أهـ

- مناسبة الأثر للباب:-

قال القرعاوى^(٢):- حيث أفاد الأثر أن سعيد بن المسيب يرى جواز حل السحر عن المسحور. أهـ

قوله: «عن قتادة».

قال سليمان آل الشيخ^(٣):-

قوله: عن قتادة هو ابن دعامة بكسر الدال السدوسى البصرى ثقة ثبت فقيه من أحفظ التابعين، يقال إنه ولد أكمه مات سنة بضع عشرة ومائة.

قلت: غالباً ماتجد العلماء عند الولادة هكذا وتكون هذه آية على أنه لا يكون عنده الخواس التى يستطيع بها الإنسان أن يُحصّل العلم كما يُحصل الإنسان السميع البصير، ومع ذلك يكون آية فى العلم أكثر من الإنسان السميع البصير كما قيل فى البخارى أنه وُلد أعمى، نعم بعد ذلك دعت له أمه فاستُجيب لها فأبصر ثم صار الإمام البخارى.

قوله: «قلت لابن المسيب رجلاً به طب»

قال ابن حجر^(٤):- «قوله: «به طب» بكسر الطاء أى السحر. أهـ

قال سليمان آل الشيخ^(٥):-

يقال: طب الرجل بالضم إذا سحر ويقال: كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً، كما قالوا

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٠٩.

(٢) الجديد ٢٤٧.

(١) الفتح ١٠/٢٤٤.

(٥) تيسير العزيز الحميد.

(٤) الفتح ١٠/٢٤٤.

للدبغ: سليم، وقال ابن الأتباري: الطب من الأضداد يقال لعلاج الداء: طب، والسحر من الداء، يقال له: طب.

قلت: كما في الصحيح من حديث أبي سعيد حين مرهوا وأصحابه في اهد سفر على قوم فقالوا: «إن سيدنا سليم فهل معكم راقى»(*) وأطلقوا على المريض اسم السليم تفاؤلاً

وذكر ذلك ابن عثيمين بأسلوبه فقال^(١): - قوله: «رجل به طب».

أى: سحر، ومن المعلوم أن الطب هو علاج المرضى، لكن سمي السحر طباً من باب التفاؤل، كما سمي اللدبغ سليماً والكسير جيئراً.

قلت: كما يقال للمريض في الواقع الآن: إذا سئل عنه: هو بعافيه.

قوله: «أو يؤخذ عن امرأته»

قال ابن حجر^(٢): - قوله (أو يؤخذ) بفتح الواو مهموز وتشديد الحاء ويعدّها معجّمة أى يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها، والأخذة بضم الهمزة: هى الكلام الذى يقوله الساحر، وقيل خرزة يرقى عليها، أو هى الرقية نفسها.

قال ابن عثيمين^(٣): -

والعجيب أنه مشتهر عند الناس أنه إذا كان عند العقد، وعقد أحد عقدة عند العقد؛ فإنه يحصل حبسه عن امرأته، وبالغ بعضهم؛ فقال: إذا شبك أحدهم بين أصابعه عند العقد حبس الزوج عن أهله، وهذا لا أعرف له أصلاً.

قلت: سواء كان هكذا أو هكذا إذا نوى بالتشبيك السحر فهو حرام وإن لم سحر لأن من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر وإن لم يقصد السحر فإن كان هذا التشبيك ليس سحر وقصد به السحر له حكم الساحر فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى وكذلك إن أتى سحراً ولم يقصد به السحر فقد سحر لأن النوى أطلق كما تقدم أن من عقدة عقدة ونفث فيها فقد سحر ولم يقل ونوى السحر حتى ولو كان ينوى هزار ولعب فهو قد بسحر كما تقدم فى باب بيان شىء من أنواع السحر فكذلك ههنا إذا علم أن تشبيك الأصابع يسحر أو يأخذ الرجل عن امرأته وفعل ذلك بهذا القدر فقد سحر.

(٢) الفتح ٢٤٤/١٠.

(١) القول المفيد ٣٠٩/٢.

(*) تقدم تخريجه

(٣) القول المفيد ٨٩/٢.

ثم قال ابن عثيمين ولكن كثيراً ما يقع حبس الزوج عن زوجة ويطلبون العلاج .
وقد ذكر بعض أهل العلم أن من العلاج أن يطلقها، ثم يراجعها؛ فينفك السحر .
لكن لا أدري هل هذا يصح أم لا؟ فإذا صح؛ فالطلاق هنا جائز؛ لأنه طلاق
للاستبقاء، فيطلق كعلاج، ونحن لا نفتي بشيء من هذا، بل نقول: لا نعرف عنه
شيئاً.

قلت: أين من أفتى بهذا مع قوله ﷺ في فضل قراءة البقرة: «قراءتها بركة وتركها
حسرة ولا يستطيعها البطة»^(١) أى السحرة والحديث عند مسلم وسيأتى وهى مجربة
مجربة سورة البقرة فهلا أمر بها ووصابها ودعا إليه خير من أن يأمر أو يفتى بالطلاق
وهذا أمره محتمل أو ظن مستبعد وقوع الحل ووقوع العلاج بالطلاق فكيف يأخذ بالظن
المستبعد ويترك اليقيني المجرب وهو سورة البقرة لكن لعل من أفتى بذلك أو عمل بهذه
الفتوى أخشى أن يقع فى شرك لأنه نظر إلى أن الساحر قصد بهذا السحر التفريق كما
قال تعالى ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ فهو قال الساحر طائعاً له
وطائعاً لشیطانه إننا سنطلق فإذا طلق بهذا يحصل ويقع مراد الساحر فينحل السحر
وينفك لكن أنحل بطريقة غير شرعية لا ترضى رب البرية وإنما ترضى الشاطين والمسالک
الجاهلية وأخشى أنه يقع فى شرك بسبب ذلك .

لأنه إنما فعل ما فعل إرضاءً لشیطان وليس طاعة لشیطان وإذا قال إنما أنا أطيع
الرحمن نقول بل الرحمن أوحى إلى نبيه ﷺ أن قراءة سورة البقرة قراءتها بركة وتركها
حسرة .. ولا يستطيعها البطة فهلا أخذ بذلك بدلاً من أن يلبي مطالب الشياطين كما
يفعل أولياؤهم .

فالزار فى الحقيقة والذبح هذا إنما تلبية لرغبات إبليس، فالشیطان يريد هذا ذلك
ويحبه فيفعلون له ما يريد، وبعده ينحل السحر أو يهدأ المسحور أو يتفق الناس مع
بعضهم، أو تنحل المشاكل التى يعانون منها .

فما الفرق بين هذا، وبين أن يطلق امرأته تلبية لرغبات إبليس، ليس هناك فرق .
ولأن الشيخ بن عثيمين يدرى أن هذه المسألة ليست مريحة، لذلك قال فى آخر
كلامه: «ونحن لانفتى بشيء من هذا، بل نقول لانعرف عنه شيئاً» وهذا من الشيخ -
حفظه الله فراسة وبعد نظر، لأنه سيأتى ضعيف العقل، ويقول : بأن الشيخ قد أفتى
بهذا، وليس نقل هذا ، لكن أفتى بهذا ونقل هذا وأجاز هذا، ومن الممكن أن تطلقها .

(١) تقدم تخريجه

ثم قال ابن عثيمين: و«أو» فى قوله: «أو يؤخذ» يحتمل أنها للشك من الراوى: هل قال قتادة «به طب» أو قال: «يؤخذ عن امرأته»؟

أى: أو قلت: يؤخذ، ويحتمل أن تكون للتنوع، أى أنه سأله عن أمرين: عن المسحور، وعن الذى يؤخذ عن امرأته.

قلت:لراجع التنوع لأن النشرة تطلق على جميع أنواع السحر سواء الأخذ عن المرأة، أو الربط، أو الحبس عنها، وعن مطلق السحر لكن سيأتى فى صفة النشرة ما يفيد أنها للشك.

قوله: «أيحل عنه أو ينشر»

قال ابن حجر (١):-

قوله (أو يحل عنه) بضم أوله وفتح المهملة.

قوله (أو ينشر) بتشديد المعجمة من النشرة بالضم وهى ضرب من العلاج يعالج به من يظن أن به سحراً أو مساً من الجن، قيل لها ذلك لأنه يكشف بها عنه ما خالطه من الداء، ويوافق قول سعيد بن المسيب ما تقدم فى «باب الرقية» فى حديث جابر عند مسلم مرفوعاً «من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل» (٢)

قلت: فكان سعيد بن المسيب فهم من هذا الحديث أنه إنما نهى عما يضر أما ما ينفع فلم ينه عنه أهـ. ويؤيد مشروعية النشرة ما تقدم فى حديث «العين حق» (٣) فى قصة اغتسال العائن .

قلت: لأنها صورة من صور النشرة الشرعية أهـ

وقد أخرج عبدالرزاق من طريق الشعبى قال: لا بأس بالنشرة العربية التى إذا وطئت لا تضره، وهى أن يخرج الإنسان فى موضع عضاه فيأخذ عن يمينه وعن شماله من كل ثم يدقه ويقرأ فيه ثم يغتسل به. وذكر ابن بطلال أن فى كتب وهب بن منبه أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل.

قلت: وربما كانت للمعوذتين والاخلاص.

(١) الفتح ١٠/٢٤٤ و ٢٤٥.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تقدم تخريجه

ثم يحسونه ثلاث حسوات ثم يغتسل به فإنه يذهب عنه كل ما به، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله، أهـ

ومن صرح بجواز النشرة المزني صاحب الشاقعي وأبو جعفر الطبري وغيرهما ثم وقفت على صفة النشرة .

قلت: حذر ابن باز من هذه النشرة لاحتمال أن يكون أخذها من أهل الكتاب

صفة النشرة

قال ابن حجر ففى «كتاب الطب النبوى» لجعفر المستغفرى قال: وجدت فى خط نصوح بن واصل على ظهر جزء من «تفسير قتبية بن أحمد البخارى»

قلت: وهذه الرواية تفيد أن هذا شك من الرواى، لأنه قال: رجل به طب أخذ عن امرأته، وفسر الطب بأنه أخذ عن امرأته. أهـ.

قال: قال قتادة لسعيد بن المسيب: رجل به طب أخذ عن امرأته أيحل له أن ينشر؟ قال: لا بأس، إنما يريد به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه. قال نصوح: فسألنى حماد بن شاکر: ما الحل وما النشرة؟ فلم أعرفهما، فقال: هو الرجل إذا لم يقدر على مجامعة أهله وأطاق ما سواها فإن المبلى بذلك يأخذ حزمة قضبان وقاساً ذا قطارين ويضعه فى وسط تلك الحزمة ثم يؤجج ناراً فى تلك الحزمة حتى إذا ما حمى الفأس استخرجه من النار ويال على حره فإنه يبرأ بإذن الله تعالى، وأما النشرة فإنه يجمع أيام الربيع ما قدر عليه من ورد المفازة وورد البساتين ثم يلقيها فى إناء نظيف ويجعل فيها ماءً عذباً ثم يغلى ذلك الورد فى الماء غلياً يسيراً ثم يمهل حتى إذا فتر الماء أفاضه عليه فإنه يبرأ بإذن الله تعالى. قال حاشد: تعلمت هاتين الفائدتين بالشام. قلت- يعنى الحافظ-: وحاشد هذا من رواة الصحيح عن البخارى، وقد أغفل المستغفرى أن أثر قتادة هذا علقه البخارى فى صحيحه وأنه وصله الطبري فى تفسيره، ولو اطلع على ذلك ما اكتفى بعزوه إلى تفسير قتبية بن أحمد بغير إسناد، وأغفل أيضاً أثر الشعبى فى صفته وهو أعلى ما اتصل بنا من ذلك. أهـ

قال ابن باز: مثل هذا لا يعمل فيه برأى لىث بن أبى سليم، ولا برأى ابن القيم ولاغيرهما، وإنما يعمل بالسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ، لا بشيء مما يقول ابن أبى سليم ولا ابن القيم، وما ينقل عن وهب بن منبه على سنة الإسرائيلين لا على هدى خير المرسلين، ومن باب هذا التساهل دخلت البدع ثم الشرك الأكبر، وعلى المؤمن

الناصح لنفسه أن يعرض بالتواجد على هدى رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ويتجنب المحدثات، وإن كانت عمن يكون، فكل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا الرسول ﷺ.

قلت: وهذا الكلام فى الحقيقة عمدة فى هذا الأمر
قوله «قال: لا بأس به: إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع، فلم ينه عنه»
قال سليمان آل الشيخ (١):-

قوله: قال لا بأس به... إلى آخره يعنى أن النشرة لا بأس بها لأنهم يريدون بها الإصلاح أى إزالة السحر، ولم ينه عما يراد به الإصلاح، إنما ينهى عما يضر، وهذا الكلام من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم هل هو نوع من السحر أم لا، فإما أن يكون ابن المسيب يفتى بجواز قصد الساحر الكافر المأمور بقتله، ليعمل السحر، فلا يظن به ذلك، حاشاه منه، ويدل على ذلك قوله: إنما يريدون به الإصلاح، فأى إصلاح فى السحر؟ بل كله فساد وكفر والله أعلم. أهـ

قلت: لأن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهذا فى الساحر أصالة ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ سِحْرٌ إِنَّ اللَّهَ سَيُطْلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وكيف نسمى أعمال السحر صالحة، أو صلاحاً وإن أرادوا الإصلاح. أهـ.
وفصل ذلك ابن عثيمين فقال (٢):-

كان ابن المسيب - رحمه الله - قسم السحر إلى قسمين: ضار، ونافع.
فالضار محرم، قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ (٣)، والنافع لا بأس به، وهذا ظاهر ما روى عنه، وبهذا أخذ أصحابنا الفقهاء، فقالوا: يجوز حل السحر بالسحر للضرورة، وقال بعض أهل العلم: إنه لا يجوز حل السحر بالسحر، وحملوا ما روى عن ابن المسيب بأن المراد به ما لا يعلم عن حاله: هل هو سحر، أم غير سحر؟ أما إذا علم أنه سحر؛ فلا يحل، والله أعلم.

ولكن على كل حال حتى ولو كان ابن المسيب ومن فوق ابن المسيب ممن ليس قوله حجة يرى أنه جائز؛ فلا يلزم من ذلك أن يكون جائزاً فى حكم الله حتى يعرض على الكتاب والسنة، وقد سئل الرسول ﷺ عن النشرة؟ فقال: «هى من عمل الشيطان» (٤). أهـ

(٢) القول المفيد ٢/ ٨٩ و ٩٠.

(٤) تقدم تخريجه

(١) تيسير العزيز الحميد ٣١٠.

(٣) البقرة.

وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ، أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَحِلُّ السَّحَرُ إِلَّا سَاحِرٌ».

قلت: الخلاصة من كلام سعيد إما يحمل على حل السحر بالطرق الشرعية فكلامه وجيه وأما يحمل على حل السحر بالطرق الغير شرعية - وهذا لا يظن به - فلا يلتفت إليه لأنه مخالف للكتاب والسنة ولا يخفى أن العمل لا يقتصر لقبوله على القصد الحسن النافع فقط بل لا بد من الاتباع وموافقة السنة فلا تغتر بقول ابن المسيب: إنما يريدون الإصلاح لأن إرادة الخير مع المخالفة للكتاب أو السنة لا تنفع قال تعالى: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ» وقال تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ» أى متبع بعد إسلام وإخلاص النية وحسن القصد والله أعلم.

قوله: [وروى عن الحسن أنه قال: «لا يحل السحر إلا ساحر»]

قال سليمان آل الشيخ^(١):-

هذا الأثر ذكره ابن الجوزى فى «جامع المسانيد» بغير إسناد، ولفظه «لا يطلق السحر إلا ساحر»، وروى ابن جرير فى «التهذيب» من طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأساً إذا كان بالرجل سحر أن يمشى إلى من يطلق عنه، فقال: هو صلاح، قال قتادة: وكان الحسن يكره ذلك يقول: لا يعلم ذلك إلا ساحر، قال: فقال سعيد بن المسيب: إنما نهى الله عما يضر، ولم ينه عما ينفع.

قوله: «عن الحسن»

قال سليمان آل الشيخ^(٢):-

هو ابن أبى الحسن، واسمه يسار- بالتحانية، والمهملة - البصرى الأنصارى مولاهم ثقة فقيه إمام فاضل من خيار التابعين. مات سنة عشر ومائة، وقد قارب التسعين. أهدى رأى بعض الصحابة وحدث عنهم.

قال ابن عثيمين^(٣):-

هذا الأثر إن صح؛ فمراد الحسن الحل المعروف غالباً، وأنه لا يقع إلا من السحرة.

قلت: وهو بذلك لا يرى جوازه على هذه الصورة



(١) تيسير العزيز الحميد ٣١٠.

(٢) القول المفيد ٢/ ٣١٠.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣١٠.

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ: «النُّشْرَةُ: حَلُّ السَّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا حَلُّ سَحَرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاسُ وَالْمُسْتَشِيرُ إِلَى الشَّيْطَانِ، بِمَا يُحِبُّ، فَيُطْلَعُ عَمَلُهُ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَالثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرَّقِيَّةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالْأَذْوِيَةِ وَالِدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ».

قوله: قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور... إلخ.

قلت: وهذا هو الاستدلال، وكثيراً ما يذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في المتن في الباب منهج أهل السنة في الاستدلال، ومنهج أهل السنة في طلب الدليل، وهو الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، كما أتى في باب المحبة، فهو بعد أن أتى بالآيات أتى بقول ابن عباس «وتقطعت بهم الأسباب» قال: المودة، أيضاً في هذا الباب بادلالة المرفوعة ثم الموقوفة ثم المقطوعة لبيان الدليل بفهم السلف: فالسلف منهم من يفهم من كلامه الجواز، ومنهم من لا يفهم من كلامه إلا المنع مطلقاً، ومنهم من فصل، فأما الذي منع مطلقاً ابن مسعود، وهذا ظاهر كلامه فيما تبعه فيه الإمام أحمد في ذلك، وأما الجواز مطلقاً فيفهم من كلام قتادة وسعيد بن المسيب، والمنع أيضاً من كلام الحسن البصري، ثم التفصيل من كلام ابن القيم، وهو الكلام الذي ختم به المصنف هذا الباب، وهذا ترتيب بديع في الاستدلال، وفي أصول أهل السنة في طلب الدليل، وهو الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة. أهـ

قال ابن عثيمين^(١): - هذا الكلام جيد ولا مزيد عليه.

قال الشيخ سليمان^(٢): -

هذا الثاني هو الذي يحمل عليه كلام ابن المسيب.

قلت: يعنى بذلك النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية المباحة، فهذا جائز، وهذا الذي يحمل عليه قول سعيد بن المسيب أنه قال بالجواز مطلقاً، إذا كانت النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية المباحة. أهـ.

أو على نوع لا يدرى هل هو من السحر أم لا؟ وكذلك ما روى عن الإمام أحمد من إجازة النشرة، فإنه محمول على ذلك وغلط من ظن أنه أجاز النشرة السحرية. وليس

(١) القول المفيد ٩١/٢.

(٢) تيسير العزيز حميد ٣١٠ و ٣١١.

فى كلامه ما يدل على ذلك، بل لما سئل عن الرجل يحل السحر قال: قد رخص فيه بعض الناس. قيل: إنه يجعل فى الطنجير ماء ويغيب فيه فنفض يده وقال: لا أدرى ما هذا؟ قيل له: أفترى أن يؤتى مثل هذا؟ قال: لا أدرى ما هذا؟ وهذا صريح فى النهى عن النشرة على الوجه المكروه. وكيف يجيزه؟ وهو الذى روى الحديث أنها من عمل الشيطان لكن لما كان لفظ النشرة مشتركاً بين الجائزة التى من عمل الشيطان ورأوه قد أجاز النشرة ظنوا أنه قد أجاز التى من عمل الشيطان، وحاشاه من ذلك. وما جاء فى صفة النشرة الجائزة ما رواه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبى سليم قال: بلغنى أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تقرأ فى إناء فيه ماء ثم تصب على رأس المسحور الآية التى فى يونس ﴿فَلَمَّا أَتَوْا قَالُوا لِمُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُطْلِعُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨١) ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون. وقوله: ﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾ إلى آخر أربع آيات. وقوله: ﴿إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ وقال ابن بطال: فى كتاب وهب بن منبه أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسى والقواقل ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به فإنه يذهب عنه كل ما به وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله.

وقد تقدم فيما نقله الحافظ فى الفتح.

قلت: فانظر التدرج فى الردود:

الرد الأول: ما قاله الشيخ ابن باز وابن عثيمين.

أنه يؤخذ من هذا ويرد وأن كلام وهب على سنة الإسرائيليين،

الرد الثانى: أن هذا لم يصح عن الليث بن أبى سليم، لأننا لاندري بلغه عن، فلعله بلغه عن من يأخذ عن بنى إسرائيل، فيعود الأمر إلى ما عاد إليه فى أثر وهب أن هذا على سنة الإسرائيليين لأعلى سنة هدى خير المرسلين.

الرد الثالث: على فرض صحته وثبوته عنهما فيأخذ منهم ويرد لأن الأمر كما قال ابن عباس ومالك: «كل يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذا القبر ﷺ».

الرد الرابع: وعلى فرض أن هذا الكلام كالأحاديث، وله حكم المرفوع، فنقول: سنعنق منه من باب سد الذريعة لئلا تختلط النشرة المشروعة بغير المشروعة، لهذا.

قلت: والأولى من هذا كله ما صح عن نبينا فى النشرة فيه غنية وفيه الكفاية لمن أراد الهداية ولأهميته سأفرد له فصلاً أقدم له بمقدمة فى أسباب الإصابة بالسحر والتحصن منه.

فجعل فى النشرة الشرعية

أسباب الإصابة بالسحر:-

قال ابن القيم^(١):- وعند السحرة: أن سحرهم إنما يتم تأثيره فى القلوب الضعيفة المنفعلة، والنفوس الشهوانية التى هى معلقة بالسُّفليات.

قلت: والسفليات يعنى الشهوات والأمور الدنيئة الخبيثة، التى توافق طبع الجنى الخيىث والساحر الخيىث، فمثلاً: تذهب إلى الساحر فيقول: أنك قد عمل لك عملاً سفلى، وهو لا يدري مامعنى سفلى.

وكلام ابن القيم لا يدل على أن السفليات الجن، لأنه ليس لديه ميل للجن، وإنما معناه: ميل للأمور الدنيئة المنحطة الخبيثة، التى تتفق مع خبث ودناءة وسفول الجن أو الساحر. أهـ.

ولهذا فإن غالب ما يؤثر: فى النساء، والصبيان.

قلت: وفى هذا رد على خرافات المعالجين الذين يقولون بأن الصبى لا يلبس ولا يمس أهـ.

والجُهاال، وأهل البوادرى، ومن ضَعُفَ حظه من الدين والتوكل والتوحيد، ومن لا نصيب له من الأوراد الإلهية والدعوات والتعوذات النبوية.

قلت: وهذا يبين مدى أهمية أذكار الصباح والمساء وإنى لأتعجب من المعالج الذى يصفها للمعالج ولا يقولها هو.

وبالجملة: فسلطان تأثيره فى القلوب الضعيفة المنفعلة التى يكون ميلها إلى السفليات، قالوا: والمسحور هو الذى يُعين على نفسه، فإننا نجد قلبه متعلقاً بشئ كثير الالتفات إليه، فيتسلط على قلبه بما فيه من الميل والالتفات، والأرواح الخبيثة إنما تتسلط على أرواح تلقاها مستعدة لتسلطها عليها بميلها إلى ما يناسب تلك الأرواح الخبيثة، وبفراغها من القوة الإلهية، وعدم أخذها للعدة التى تُحاربها بها، فتجدها فارغة لا عدة معها، وفيها ميل إلى ما يناسبها، فتسلط عليها، ويتمكن تأثيرها فيها بالسحر وغيره، والله أعلم.

قلت: انظر كما قلنا فى العشاق وفى باب العشق فى باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

قال العاشق

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكنا
فارغ من العدة الإلهية التي تدفع عنه هذا العشق، فتمكن هذا العشق منه وتسلبت عليه، فالسلطنة هذه تؤثر فيه بعد ذلك، كالسحر يتسلط عليه فينسى ويسرح، لأن هذا سلطان غير شرعى على القلب وهذا سلطان غير شرعى على القلب والنفس والعشق داء أيضاً وربما كان للسحر علاج أسهل من علاج العشق.
ومن هنا يتبين أن سبب تسلط هذه الأشياء على القلب وعلى النفس إنما هو استعداد النفس لها، وذلك من وجهين:
أما أولاً: بميلها إلى الخبيث.
أما ثانياً: بفراغها بلن القوة الإلهية.

فأعرف هذا، وعض عليه بالنواجذ تكن فى حصن حصين. أهـ
إيراد وجوابه:-

قال ابن حجر (١):-

ويعكر عليه - أى على كلام ابن القيم - حديث الباب، وجواز السحر على النبي ﷺ مع عظيم مقامه وصدق توجهه وملازمة ورده، ولكن يمكن الانفصال عن ذلك بأن الذى ذكره محمول على الغالب، وأن ما وقع به ﷺ لبيان تجويز ذلك، والله أعلم.
قلت: ويجاب أيضاً: بأنه لم يقل يلزم من وجود السحر، إنما قال: لا يوجد سحر غالباً إلا بوجود هذين الأمرين أهـ.

التحصن والحماية من السحر

قال ابن القيم (٢):- أعلم أن الأدوية الطبيعية الإلهية تنفع من الداء بعد حصوله، وتمنع من وقوعه، وإن وقع لم يقع وقوعاً مضرراً، وإن كان مؤذياً، والأدوية الطبيعية إنما تنفع، بعد حصول الداء، فالتعودات والأذكار، إما أن تمنع وقوع هذه الأسباب، وإما أن تحول بينها وبين كمال تأثيرها بحسب كمال التعوذ وقوته وضعفه، فالرقى والعوذ تستعمل لحفظ الصحة، ولإزالة المرض، أما الأول: فكما فى «الصحيحين» من حديث عائشة كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نَفَثَ فى كَفِّهِ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» والمُعَوِّذَتَيْنِ. ثم يمسحُ بهما وجهه، وما بلغت يده من جسده (٣).

(١) الفتح (١٠/٢٤٦)

(٢) زاد المعاد (٤/١٦٧، ١٦٨).

(٣) تقدم تخريجه

وكما فى حديث عُوذة أبى الدرداء المرفوع «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ عَلَيكَ تَوَكَّلْتُ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»، وقد تقدّم فيه: «مَنْ قَالَهَا أَوَّلَ نَهَارِهِ لَمْ تُصِبْهُ مُصِيبَةٌ حَتَّى يُمْسَى، وَمَنْ قَالَهَا آخِرَ نَهَارِهِ لَمْ تُصِبْهُ مُصِيبَةٌ حَتَّى يُصْبِحَ»^(١).

وكما فى «الصحيحين»: «مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِى لَيْلَةٍ كَفَّتَاهُ»^(٢).
قلت: أى كفاية عامة مما سيقع . أهـ.

وكما فى «صحيح مسلم» عن النبى ﷺ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»^(٣).

وكما فى «سنن أبى داود» أن رسول الله ﷺ كان فى السفر يقول بالليل: «يَا أَرْضُ، رَبِّى وَرَبُّكَ اللَّهُ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ وَشَرِّ مَا فِيكَ، وَشَرِّ مَا يَدْبُ عَلَيْكَ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ أَسَدٍ وَأَسْوَدٍ، وَمِنْ الْحَيَّةِ وَالْعُقْرَبِ، وَمِنْ سَاكِنِ الْبَلَدِ، وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ»^(٤).

وكذلك صلاة الضحى والفجر فى جماعة والعشاء فى جماعة ثبت عن نبينا ﷺ: «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِى ذِمَّةِ اللَّهِ»^(٥) وفى الحديث القدسى عند أبى داود ابن آدم اركع اربع ركعات فى أول النهار اكفك آخره»^(٦) وبالجملة فهذا وغيره مما صرح عن نبينا فيه الحفظ والكفاية لمن أراد الوقاية وهى خير من العلاج لكن إن لم يكن شىء من ذلك فإليك العلاج الربانى لهذا السحر الشيطانى.

علاج السحر بالدعاء والقرآن والإذكار

قال ابن القيم^(٧): - ومن أنفع علاجات السحر الأدوية الإلهية، بل هى أدويته النافعة بالذات، فإنه من تأثيرات الأرواح الخبيثة السفلية، ودفع تأثيرها يكون بما يعارضها

(١) أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (٥٧)، والطبرانى فى الدعاء (٣٤٣).

وانظر الأذكار للنووى (٢٠ - بتخريجنا)

(٢) أخرجه البخارى (٥٠٠٩)، مسلم فى صلاة المسافرين (٣/٣٥١/٢٥٥) وانظر «شرحنا لزاد المعاد».

(٣) تقدم تخريجه

(٤) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٣٢/٢)، وأبو داود (٢٦٠٣) وانظر «شرحنا لزاد المعاد».

وانظر «الأذكار للنووى» (٥٦٤ - بتخريجنا)

(٥) أخرجه ابن ماجه (٣٩٤٦) عن سمرة به. وانظر «شرحنا لزاد المعاد».

(٦) [صحيح] أخرجه أحمد فى مسنده (٤٤٠ / ٦)، وأبو داود (١٢٨٩)، والترمذى (٧٥)، والنسائى «

الكبرى» (٦٧)

وانظر «منار السبيل» (٥١٦ - بتخريجنا) وانظر «شرحنا لزاد المعاد».

(٧) زاد المعاد (٤ / ١٦١).

وَيُقَاوِمُهَا مِنَ الْأَذْكَارِ، وَالْآيَاتِ، وَالِدَعَوَاتِ الَّتِي تُبْطِلُ فَعْلَهَا وَتَأْثِيرَهَا، وَكَلِمَا كَانَتْ أَقْوَى وَأَشَدَّ، كَانَتْ أَبْلَغَ فِي النُّشْرَةِ، وَذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ التَّقَاءِ جَيْشَيْنِ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عُدَّتُهُ وَسِلَاحُهُ، فَأَيُّهُمَا غَلَبَ الْآخَرَ، قَهَرَهُ، وَكَانَ الْحُكْمُ لَهُ، فَالْقَلْبُ إِذَا كَانَ مِمْتَلِكًا مِنَ اللَّهِ مَغْمُورًا بِذِكْرِهِ، وَلَهُ مِنَ التَّوْجِهَاتِ وَالِدَعَوَاتِ وَالْأَذْكَارِ وَالتَّعَوِّذَاتِ: وَرَدَ لَا يُخْلُ بِهِ يُطَابِقُ فِيهِ قَلْبُهُ لِسَانَهُ، كَانَ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَمْنَعُ إصَابَةَ السَّحَرِ لَهُ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْعِلَاجَاتِ لَهُ بَعْدَ مَا يُصِيبُهُ.

١. علاج السحر بالدعاء

قلت: وهذا لا يقول به أحد من المعالجين للمعالج إلا من رحم ربي . أهـ.
وفيه حديث عائشة رضي الله عنها في سحر لبيد للنبي ﷺ وفيه «حتى كان رسول الله ﷺ يُخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ - حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ - أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ - وَهُوَ عِنْدِي، لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا ثُمَّ قَالَ الْحَدِيثُ (١)».

قال ابن حجر (٢):-

وفى رواية فى كتاب بدء الخلق «فى الصحيح» «حتى كان ذات يوم دعا ودعا»
قال الكرماني:- يحتتمل أن يكون هذا الإستدراك من قولها «عندى» أى لم يكن مشغلاً بى بل اشتغل بالدعاء ويحتتمل أن يكون من التخيل أى كان السحر أضمره فى بدنه لا فى عقله وفهمه بحيث أنه توجه إلى الله ودعا على الوضع الصحيح والقانون المستقيم . ووقع فى رواية ابن غير عند مسلم «فدعا، ثم دعا، ثم دعا» وهذا هو المعهود منه أنه كان يكرر الدعاء ثلاثاً. وفى رواية وهيب عند أحمد وابن سعد «فرايته يدعو». قال النووي: فيه استحباب الدعاء عند حصول الأمور المكروهات وتكريره والالتجاء إلى الله تعالى فى دفع ذلك.

قلت أى ابن حجر: سلك النبي ﷺ فى هذه القصة مسلكى التفويض وتعاطى الأسباب، ففى أول الأمر فوض وسلم لأمر ربه فاحتسب الأجر فى صبره على بلائه، ثم لما تمادى ذلك وخشى من تماديه أن يضعفه عن فنون عبادته جنح إلى التداوى ثم إلى الدعاء، وكل من المقامين غاية فى الكمال. أ. هـ

قلت: الظاهر أنه دعى بعد التفويض وقبل تعاطى الأسباب لذلك بدأنا من أدوية السحر بالدعاء.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (ح ٥٧٦٣). ومسلم فى السحر (٧/٤٢٩/٤٣) عن عائشة به.

(٢) الفتح (١٠/٢٣٨).

٢. علاج السحر بقراءة سورة البقرة.

عن أبي أمامة الباهلي: قال: سمعت رسول الله ، يقول: «اقرأوا القرآن. فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه. اقرأوا الزهرواين: البقرة وسورة آل عمران. فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان. أو كأنهما غيبتان أو كأنهما فرقان من طير صواف. تحاجان عن أصحابهما. اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة. ولا يستطيعها البطلة». قال معاوية: بلغني أن البطلة السحرة (*) .

٣. علاج السحر بآخر آيتين من سورة البقرة

وعند مسلم أيضاً بسنده. عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه» (*). قلت: ولهذا انصح المعالجين بهذا الكلام ، لأنه عليه أدلة وهو كلام شافٍ كافٍ، ومن لم يشف بهذا فلا شفاه الله.

٤. علاج السحر بالرقية بالفاتحة

أخرجنا في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري، قال: انطلق نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيّفوهم، فلُدغَ سيّد ذلك الحي، فسَعَوْا له بكلِّ شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتُم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط! إن سيّدنا لُدغ، وسعينا له بكلِّ شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم والله إنني لأرقى، ولكن استصفناكم، فلم تُضيّفونا، فما أنا براقٍ حتى تجعلوا لنا جعلاً، فصالحوهم على قَطيعٍ من الغنم، فانطلق يتنل عليه، ويقرأ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، فكأنما أنشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قَلْبَةٌ، قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسِمُوا، فقال الذي رَقَى: لا تفعلوا حتى تأتي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له ذلك، فقال: «وما يُدريك أنها رُقِيَّة؟»، ثم قال: «قَدْ أَصَبْتُمْ، اقسِمُوا واضربوا لي معكم سهماً» (*).

(*) تقدم تخريجه

قال ابن القيم^(١):-

ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواصٌ ومنافعٌ مجرية، فما الظنُّ بكلام رب العالمين، الذي فَضَّلَهُ على كل كلام كفضلِ الله على خلقه الذي هو الشفاء التام، والعِصْمَةُ النافعة، والنورُ الهادي، والرحمة العامة، الذي لو أنزلَ على جبل لتصدَّعَ من عظمتِه وجلالته. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، و «من» ها هنا لبيان الجنس لا للتبويض، هذا أصحُّ القولين^(*).

فما الظنُّ بفاتحة الكتاب التي لم يُنزل في القرآن، ولا في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور مثلاً، المتضمنة لجميع معاني كتب الله، المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب- تعالى- ومجامعها، وهى الله، والرب، والرحمن، وإثبات المعاد.

وحقيقٌ بسورة هذا بعضُ شأنها، أن يُستشفى بها من الأدواء، ويُرقى بها اللدغُ. وبالجملة فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله، وتفويض الأمر كُلِّه إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها، وهى الهداية التى تجلبُ النعم، وتدفعُ النقم، من أعظم الأدوية الشافية الكافية.

وقد قيل: إن موضع الرقية منها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولا ريبَ أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء، فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل، والالتجاء والاستعانة، والافتقار والطلب، والجمع بين أعلى الغايات، وهى عبادةُ الربِّ وحده، وأشرف الوسائل وهى الاستعانةُ به على عبادته ما ليس فى غيرها، ولقد مرَّ بى وقت بمكة سَقَمْتُ فيه، وَقَدْتُ الطيبَ والدواء، فكنت أتعالج بها، أخذ شربةً من ماء زمزم، وأقروها عليها مراراً، ثم أشربه، فوجدتُ بذلك البرء التام، ثم صرت اعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع بها غاية الانتفاع.

وفى تأثير الرُقَى بالفاتحة وغيرها فى علاج ذواتِ السُّمومِ سرٌ بديع، فإن ذوات السموم أثرت بكيفيات نفوسها الحبيثة، كما تقدم، وسلاحها حُماتها التى تلدغُ بها، وهى لا تلدغ حتى تغضب، فإذا غضبت، ثار فيها السُّمُّ، فتقذفه بآلتها، وقد جعل الله سبحانه لكل داءٍ دواءً، ولكل شئٍ ضِدًّا، ونفس الراقى تفعلُ فى نفس المرقى، فيقعُ بين

(١) زاد المعاد (٤/١٦٢).

(٢) الإسراء: ٨٢

(*) وتقدم تفصيل القول فى أبواب الرقية فى الرقية بكل القرآن أم بالثابت فقط فانظره هناك.

نفسيهما فعل وانفعال، كما يقع بين الداء، والدواء، فتقوى نفسُ الراقى وقوته بالرقية على ذلك الداء، فيدفعه بإذن الله، ومدارُ تأثير الأدوية والأدواء على الفعل والانفعال، وهو كما يقع بين الداء والدواء الطبيعيين، يقع بين الداء والدواء الروحانيين، والروحاني، والطبيعى، وفى النفث والتفل استعانة بتلك الرطوبة والهواء، والنفس المباشر للرقية، والذكر والدعاء، فإن الرقية تخرج من قلب الراقى وقمه، فإذا صاحبها شيء من أجزاء باطنه من الريق والهواء والنفس، كانت أتم تأثيراً، وأقوى فعلاً ونفوذاً، ويحصل بالازدواج بينهما كيفية مؤثرة شبيهة بالكيفية الحادثة عند تركيب الأدوية^(١).

قلت: وبهذا يظهر أيضاً سر علاج السحر بالفاتحة حيث أن الساحر نفث فى العقد بنفس ورطوبات ورقى وتعاوِذ خبيثة فكان لابد من علاج ذلك بمقابلة الخبيث بنفس ورطوبات ورقى طيبة.

قلت: وخلاصة هذا:

إذا كان هذا المسحور إنما سحر بنفث، كما قال تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، وكما قال ﷺ: «من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر»^(٢).

فهذا النفث إنما حصل بتأثير نفس خبيثة أخرجت نفس من بطن خبيثة مع رذاذ خبيث وتفل خبيث لا يحمل إلا الغضب ولا يحمل إلا الشر لكل إنسان لاسيما المسحور، فهذا بالاستعانة مع شيطان خبيث لا يحمل إلا الشر لهذا المسحور، حصل بهذا وهذا مع تلقى واستعداد المسحور لهذا الخبيث، حصل من هذا وهذا أن المسحور تأثر.

فلابد عند العلاج أن يعالج بالتى كانت هى الداء فالداء كان نفث خبيث ورذاذ ورطوبات خبيثة. أهـ.

وبالجملة: فنفس الراقى تُقابل تلك النفوس الخبيثة، وتزيدُ بكيفية نفسه، وتستعين بالرقية وبالنفث على إزالة ذلك الأثر، وكلما كانت كيفية نفس الراقى أقوى، كانت الرقية أتم، واستعانت بنفثه كاستعانة تلك النفوس الرديئة بلسعها.

وفى النفث سر آخر، فإنه مما تستعين به الأرواح الطيبة والخبيثة، ولهذا تفعله السحرة كما يفعله أهل الإيمان. قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، وذلك لأن النفس

(١) زاد المعاد (١٧٨ / ٤).

(٢) تقدم تخريجه

تَكَيَّفُ بِكَيْفِيَةِ الْغَضَبِ وَالْمَحَارِبَةِ، وَتُرْسِلُ أَنْفَاسَهَا سِهَاماً لَهَا، وَتَمْدُّهَا بِالسَّفْثِ وَالتَّفْلِ
الَّذِي مَعَهُ شَيْءٌ مِنَ الرِّيقِ مَصَاحِبٌ لِكَيْفِيَةِ مَوْثَرَةٍ، وَالسَّوَاحِرُ تَسْتَعِينُ بِالسَّفْثِ اسْتِعَانَةً
بَيْنَةً، وَإِنْ لَمْ تَتَّصِلْ بِجِسْمِ الْمَسْحُورِ، بَلْ تَنْفُثْ عَلَى الْعُقْدَةِ وَتَعْقِدْهَا، وَتَتَكَلَّمُ بِالسَّحَرِ،
فَيَعْمَلُ ذَلِكَ فِي الْمَسْحُورِ بَتَوْسُطِ الْأَرْوَاحِ السُّفْلِيَةِ الْخَبِيثَةِ، فَتَقَابِلُهَا الرُّوحُ الزَّكِيَّةُ الطَّيِّبَةُ
بِكَيْفِيَةِ الدَّفْعِ وَالتَّكَلُّمِ بِالرَّقِيَّةِ، وَتَسْتَعِينُ بِالنَّفْثِ، فَأَيُّهُمَا قَوَى كَانَ الْحُكْمُ لَهُ، وَمُقَابِلَةُ
الْأَرْوَاحِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ، وَمَحَارِبَتُهَا وَآلَتُهَا مِنْ جِنْسٍ مُقَابِلَةِ الْأَجْسَامِ، وَمَحَارِبَتُهَا وَآلَتُهَا
سِوَاهُ، بَلِ الْأَصْلُ فِي الْمَحَارِبَةِ وَالتَّقَابِلِ لِلْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَامِ آلَتُهَا وَجَنْدُهَا، وَلَكِنْ مِنْ غَلَبِ
عَلَيْهِ الْحِسُّ لَا يَشْعُرُ بِتَأْثِيرَاتِ الْأَرْوَاحِ وَأَفْعَالِهَا وَانْفِعَالَاتِهَا لِاسْتِيْلَاءِ سُلْطَانِ الْحِسِّ عَلَيْهِ،
وَبُعْدِهِ مِنْ عَالَمِ الْأَرْوَاحِ، وَأَحْكَامِهَا، وَأَفْعَالِهَا.

والمقصود: أن الروح إذا كانت قويةً وتكَيَّفَتْ بمعاني الفاتحة، واستعانت بالنفث والتفل، قابلت ذلك الأثر الذي حصل من النفوس الخبيثة، فأزالته والله أعلم.

٥. علاج السحر بالمعوذتين

قال ابن القيم^(١): - وفي المعوذتين الاستعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلاً، فإن الاستعاذة من شر ما خلق تعمُّ كلَّ شر يُستعاذ منه، سواء كان في الأجسام أو الأرواح، والاستعاذة من شر الغاسق وهو الليل، وآيته وهو القمر إذا غاب، تتضمن الاستعاذة من شر ما ينتشر فيه من الأرواح الخبيثة التي كان نورُ النهار يحولُ بينها وبين الانتشار، فلما أظلم الليل عليها وغاب القمر، انتشرت وعاثت.

والاستعاذة من شر النفاثات في العقد تتضمن الاستعاذة من شر السواحر وسحرهن.

والاستعاذة من شر الحاسد تتضمن الاستعاذة من النفوس الخبيثة المؤذية بحسدها ونظرها.

والسورة الثانية: تتضمن الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن، فقد جمعت السورتان الاستعاذة من كل شر، ولهما شأن عظيم في الاحتراس والتحصن من الشرور قبل وقوعها، لهذا أوصى النبي ﷺ عقبَ بن عامر بقراءتهما عقبَ كلِّ صلاة^(٢)، ذكره الترمذی في «جامعه» وفي هذا سر عظيم في استدفاع الشرور من الصلاة إلى الصلاة.

(١) زاد المعاد (٤/١٨١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢٣)، والترمذی (٢٩٠٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٢٥٩).

وانظر «الأذكار للنوى» (١٧٣) - بتخريجنا قال الترمذی «حديث حسن صحيح» وانظر «شرحنا لزماء المعاد».

وقال: «ما تعوذ المتعوذون بمثلهما». وقد ذكر أنه ﷺ سحر فى إحدى عشر عُقدة، وأن جبريل نزل عليه بهما، فجعل كُلُّما قرأ آية منهما انحلت عُقدة، حتى انحلت العقد كُلُّها، وكأنا أنشط من عقال^(١).

٦. قراءة البقرة، والفاتحة، والمعوذتين، والإخلاص

على ماء والغتسال فيه والوضوء والشرب.

فيمن كره: القرآن يكتب لمن يسقاه.

أخرج ابن أبى شبة

عن إبراهيم أنه سئل عن رجل كان بالكوفة يكتب آيات من القرآن فيسقاه المريض، فكره ذلك^(٢).

قلت: وهذا مر كثير فى كراهة ابن مسعود وأصحابه لذلك كله والرد عليه.

فى الرخصة فى القرآن يكتب لمن يسقاه.

وأخرج ابن أبى شبة بسنده

عن عائشة أنها كانت لا ترى بأساً أن يعوذ فى الماء ثم يصب على المريض^(٣)

عن أبى قلابة وليث عن مجاهد أنهما لم يريا بأساً أن يكتب آية من القرآن ثم يسقاه صاحب الفرع^(٤).

وأخرج عن الأسود أن أم المؤمنين عائشة سئلت عن النشرة فقالت: ما تصنعون بهذا؟ هذا القرات إلى جانبكم؟ يستنقع فيه أحدكم يستقبل الجرية^(٥).

قلت: ولعل ابن أبى شبة أورده ها هنا ليدلل على أن الماء مما يستخدم فى النشرة والقرآن كذلك فلا بأس بجمعها يقرأ القرآن على ماء ولعموم قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ وما ثبت فى المسند وغيره من حديث أبى سعيد مرفوعاً «الماء

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» ٦/٧١٧ ونسبه لابن مردويه، والبيهقى فى «الدلائل»

وانظر «فتح القدير» ١٤٢٠٨ - بتخريجنا

(٢) أخرجه ابن شبة (٤٣٤/٥).

(٣) (٤) أخرجه ابن أبى شبة (٤٣٣/٥).

(٥) أخرجه ابن أبى شبة (٤٣٣/٥).

طهور»^(١). أى ظاهر مطهر وسيأتى من كلام عوف ابن مالك الأشجعى لما مرض قال:
أتونى بماء فإن الله تعالى يقول ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ والله أعلم.

قال ابن قيمية : ويجوز أن يكتب للمصاب وغيره من المرضى شيئاً من كتاب الله
وذكره بالمداد المباح ويغسل ويقى كما نص على ذلك أحمد وغيره ثم استدلل بأثر ابن
عباس الآتى(*) .

قال الذهبي:-

ونص أحمد أن القرآن إذا كتب فى شيء وغسل وشرب ذلك الماء فإنه لا بأس به ،
وأن الرجل يكتب القرآن فى إناء ثم يسقيه المريض ، وكذلك يقرأ القرآن على شيء ثم
يشرب كل ذلك لا بأس به ، وكذلك يقرأ على الماء ، ويرش على المريض ، وكذلك
يكتب للمرأة إذا عسرت عليها ولادتها شيء من القرآن وتسقى .

وروى أن ابن عباس قال : كَانَ إِذَا عَسَرَ عَلَى الْمَرْأَةِ وَلَادَتْهَا أَخَذَ إِنَاءً نَظِيفاً وَكَتَبَ
فِيهِ : ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ وَكَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ إلى آخر الآية ﴿لَقَدْ كَانَ فِي
قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ .

ثُمَّ يُغْسَلُ وَتُسْقَى الْمَرْأَةُ وَتُنْضَحُ عَلَى بَطْنِهَا ^(٢) .

٧. علاج السحر باستخراجه

بواب البخارى باب. هل يستخرج السحر؟

ثم علق عن قتادة قلت لسعيد بن المسيب: رجلٌ به طَبٌّ أو يُؤَخِّذُ عن امرأته - أيحل
عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به؛ إنما يريدون به الإصلاح. فأما ما ينفع فلم ينه عنه ^(٣) .

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٣١)، وأبو داود (٦٦)، والترمذى (٦٦)، والنسائى (١/ ١٧٤) -

السيوطى

وانظر «السلسيل» (١١-١٢ خريجتنا)

(*) مجموع الفتاوى (١٩/ ٦٤)

(٢) (موقوف) أخرجه ابن أبى شيبة (٥/ ٤٣٣)، وابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» (ص ٢٠٦ -

٢٠٧ / ح ٦٢٤). الطب النبوى للذهبي ص ٢٨٨. بتحققنا

(٣) تقدم تخريجه

ثم أخرج بسنده عن عائشة رضي الله عنها قات: كان رسول الله ﷺ سحرًا، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتين. قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا. فقال: «يا عائشة، أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أأتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم رجل من بنى زريق حليف لليهود كان منافقًا. قال: وفيهم؟ قال: في مشط ومشاطة. قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان، قالت: فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه، فقال هذه البئر التي أريتها، وكأن ماءها نفاع الحناء، وكان نخلها رءوس الشياطين. قال فاستخرج. قالت فقلت: أفلا- أي تنسرت-؟ فقال: أما والله فقد شفاني، وأكره أن أتير على أحد من الناس شرا» (١).

قال ابن حجر (٢):-

قوله (باب هل يستخرج السحر)؟ كذا أورد الترجمة بالاستفهام إشارة إلى الاختلاف، وصدر بما نقله عن سعيد بن المسيب من الجواز إشارة إلى ترجيحه.

ويبين ابن القيم هدى النبي ﷺ في علاج السحر فذكر ثلاثة أنواع

أحدها- وهو أبلغها:- استخراج وإبطاله، كما صح عنه ﷺ أنه سأل ربه سبحانه في ذلك، فدل عليه، فاستخرجه من بئر، فكان في مشط ومشاطة، وجف طلعة ذكر، فلما استخرجه، ذهب ما به، حتى كأنما أنشط من عقال، فهذا من أبلغ ما يعالج به المطبوب، وهذا بمنزلة إزالة المادة الخبيثة وقلعها من الجسد بالاستفراغ (٣).

٨ علاج السحر باستفراغه من المكاف الذي وصل إليه

قال ابن القيم (٤):- والنوع الثاني: الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر، فإن للسحر تأثيراً في الطبيعة، وهيجان أخلاطها، وتشويش مزاجها، فإذا ظهر أثره في عضو، وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو، نفع جداً.

وقد ذكر أبو عبيد في كتاب «غريب الحديث» له بإسناده. عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، أن النبي ﷺ احتجم على رأسه بقرن حين طبَّ قال أبو عبيد: معنى طبَّ: أى سحر.

وقد أشكل هذا على من قل علمه، وقال: ما للحمجمة والسحر، وما الرابطة بين هذا

(٣) زاد المعاد (٤/ ١١٤).

(٢) (الفتح) (١٠/ ٢٤٤)

(١) تقدم تخريجه

الداء وهذا الدواء، ولو وجد هذا القاتل أبقرط، أو ابن سينا، أو غيرهما قد نص على هذا العلاج، لستلقاه بالقبول والتسليم، وقال: قد نص عليه من لا يشك في معرفته وفضله.

فاعلم أن مادة السحر الذى أصيب به ﷺ انتهت إلى رأسه إلى إحدى قُواه التى فيه بحيث كان يُخيل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله، وهذا تصرف من الساحر فى الطبيعة والمادة الدموية بحيث غلبت تلك المادة على البطن المقدم منه، فغيرت مزاجه عن طبيعته الأصلية.

والسحر: هو مركب من تأثيرات الأرواح الخبيثة، وانفعال القوى الطبيعية عنها، وهو أشد ما يكون من السحر، ولا سيما فى الموضع الذى انتهى السحرُ إليه، واستعمالُ الحجامَةِ على ذلك المكان الذى تضررت أفعاله بالسحر من أنفع المعالجة إذا استعملت على القانون الذى ينبغى.

قال أبقرط: الأشياء التى ينبغى أن تُستفَرَّغَ يجب أن تُستفَرَّغَ من المواضع التى هى إليها أميلُ بالأشياء التى تصلح لاستفراغها.

وقالت طائفة من الناس: إن رسولَ الله ﷺ لما أُصيب بهذا الداء، وكان يُخيلُ إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله، ظنَّ أن ذلك عن مادة دموية أو غيرها مالت إلى جهة الدماغ، وغلبت على البطن المقدم منه، فأزالت مزاجه عن الحالة الطبيعية له، وكان استعمالُ الحجامَةِ إذ ذاك من أبلغ الأدوية، وأنفع المعالجة، فاحتجم، وكان ذلك قبل أن يوحى إليه أن ذلك من السحر، فلما جاءه الوحى من الله تعالى، وأخبره أنه قد سحر، عدل إلى العلاج الحقيقى وهو استخراجُ السحر وإبطاله، فسأل الله سبحانه، فدلَّه على مكانه، فاستخرجه، فقام كأنما أنشطَ من عقال، وكان غايةً هذا السحر فيه إنما هو فى جسده، وظاهر جوارحه، لا على عقله وقلبه، ولذلك لم يكن يعتقدُ صحة ما يُخيلُ إليه من إتيان النساء، بل يعلم أنه خيال لا حقيقة له، ومثلُ هذا قد يحدثُ من بعض الأمراض، والله أعلم.

٩. الجِوَاءُ بِالْعَجْوَةِ لِلْسَحْرِ

كذا بوب البخارى ثم أخرج بسنده عن عامر بن سعد عن أبيه رضى الله عنه، قال «قال النبى ﷺ: من اصطبَحَ كل يوم تمرات عجوة لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل». وقال غيره «سبع تمرات»^(١).

وأخرج بسنده عن عامر بن سعد «سمعتُ سعداً رضى الله عنه يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: من تصبَحَ سبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر»^(٢).

(١)، (٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٧٦٨)، (٥٧٦٩)، ومسلم فى الأشربة (٢/١٤) - النووى).
وانظر «الطب النبوى» (١٤٩ بتحقيقنا).

قال ابن حجر (١):

قوله (باب الدواء بالعجوة للسحر) العجوة ضرب من أجود تمر المدينة وألينه. وقال الداودي: هو من وسط التمر. وقال ابن الأثير: العجوة ضرب من التمر أكبر من الصبحاني يضرب إلى السواد، وهو مما غرسه النبي ﷺ بيده بالمدينة. وذكر هذا الأخير القزاز.

قوله (من اصطيح) فى رواية أبى أسامة «من تصبح» وكذا فى رواية جمعة عن مروان فى الصحيح فى الأطعمة، وكذا لمسلم عن ابن عمرو كلاهما بمعنى التناول صباحاً.

قوله (كل يوم تمرات عجوة) كذا أطلت فى هذه الرواية، ووقع مقيداً فى غيرها، ففى رواية جمعة وابن أبى عمير سبع تمرات، وكذا أخرجه الإسماعيلي من رواية دحيم عن مروان، وكذا هو فى رواية أبى أسامة فى الباب، ووقع مقيداً بالعجوة فى رواية أبى ضمرة أنس بن عياض عن هاشم بن هاشم عند الإسماعيلي، وكذا فى رواية أبى أسامة، وزاد أبو ضمرة فى روايته التقييد بالمكان أيضاً ولفظه «من تصبح بسبع تمرات عجوة من تمر العالية» والعالية القرى التى فى الجهة العالية من المدينة وهى جهة نجد، وللزيادة شاهد عند مسلم من طريق ابن أبى مليكة عن عائشة بلفظ «فى عجوة العالية شفاء فى أول البكرة» ووقع لمسلم أيضاً من طريق أبى طوالة عبدالله بن عبد الرحمن الأنصارى عن عامر بن سعد بلفظ «من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها حين يصبح» وأراد لابتي المدينة وإن لم يجر لها ذكر للعلم بها.

قوله (لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل) السم معروف وهو مثلث السين، والسحر تقدم تحريم القول فيه قريباً، وقوله «ذلك اليوم» ظرف وهو معمول ليضره، أو صفة لسحر، وقوله «إلى الليل» فيه تقييد الشفاء المطلق فى رواية ابن أبى مليكة حيث قال «شفاء أول البكرة فى أول ترياق» وتردده فى ترياق شك من الراوى، والبكرة بضم الموحدة وسكون الكاف يوافق ذكر الصباح فى حديث سعد، والشفاء أشمل من الترياق يناسب ذكر السم، والذى وقع فى حديث سعد شيثان السحر والسم، فمعه زيادة علم. وقد أخرج النسائى من حديث جابر رفعه «العجوة من الجنة، وهى شفاء من السم» (٢) وهذا يوافق رواية ابن أبى مليكة. والترياق بكسر المثناة وقد تضم وقد تبدل المثناة دالاً أو طاء بالإهمال فيهما، وهو دواء مركب معروف يعالج به المسموم، فأطلق على العجوة اسم الترياق تشبيهاً لها به، وأما الغاية فى قوله «إلى الليل» فمفهومه أن السر الذى فى العجوة من دفع ضرر السحر والسم يرتفع إذا دخل الليل فى حق من تناوله من أول

(١) الفتح (١٠/٢٤٩).

(٢) أخرجه النسائى فى «الكبرى» (٦٧١٥) عن أبى سعيد وجابر به

النهار، ويستفاد منه إطلاق اليوم على ما بين طلوع الفجر أو الشمس إلى غروب الشمس، ولا يستلزم دخول الليل، ولم أقف في شيء من الطرق على حكم من تناول ذلك في أول الليل هل يمكن كمن تناوله أول النهار حتى يندفع عنه ضرر السم والسحر إلى الصباح، والذي يظهر خصوصية ذلك بالتناول أول النهار لأنه حينئذ يكون الغالب أن تناوله يقع على الريس، فيحتمل أن يلحق به من تناول الليل على الريق كالصائم، وظاهر الإطلاق أيضاً المواظبة على ذلك. وقد وقع مقيداً فيما أخرجه الطبري من رواية عبد الله من غير عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها «كانت تأمر بسبع تمرات عجوة في سبع غدوات» وأخرجه ابن عدى من طريق محمد بن عبد الرحمن الطفاوى عن هشام مرفوعاً، وذكر ابن عدى أنه تفرد به، ولعله أراد تفرد برفعه، وهو من رجال البخارى لكن في المتابعات.

قال الخطابي: كون العجوة تنفع من السم والسحر إنما هو ببركة دعوة النبي ﷺ لتمر المدينة لا لخاصية في التمر.

وقال النووي: في الحديث تخصيص عجوة المدينة بما ذكر، وأما خصوص كون ذلك سبباً فلا يعقل معناه كما في أعداد الصلوات ونصب الزكوات. قال: وقد تكلم في ذلك المازرى وعياض بكلام باطل فلا يغتر به انتهى.

وقال القرطبي: ظاهر الأحاديث خصوصية عجوة المدينة بدفع السم وإبطال السحر، والمطلق منها محمول على المقيد، وهو من باب الخواص التي لا تدرك بقياس ظني. ومن أئمتنا من تكلف لذلك فقال: إن السموم إنما تقتل لإفراط برودتها، فإذا دام على التصبح بالعجوة تحكمت فيه الحرارة وأعانتها الحرارة الغريزية فقاوم ذلك برودة السم ما لم يستحكم. قال: وهذا يلزم منه رفع خصوصية عجوة المدينة بل خصوصية العجوة مطلقاً بل خصوصية التمر، فإن من الأدوية الحارة ما هو أولى بذلك من التمر، والأولى أن ذلك خاص بعجوة المدينة. ثم هل هو خاص بزمان نطقه أو في كل زمان؟ هذا محتمل، ويرفع هذا الاحتمال التجربة المتكررة، فمن جرب ذلك فصيح معه عرف أنه مستمر، وإلا فهو مخصص بذلك الزمان. قال وأما خصوصية هذا العدد فقد جاء في مواطن كثيرة من الطب كحديث «صبوا على من سيع قرب»^(١) «وقوله المفؤود الذي وجهه للحارث بن كلدة أن يلدّه بسبع تمرات، وجاء تعويذه سبع مرات، إلى غير ذلك. وأما في غير الطب فكثير، فما جاء من هذا العدد في معرض التداوى فذلك لخاصية لا يعلمها إلا الله أو من أطلعه على ذلك، وما جاء منه في غير معرض التداوى فإن العرب تضع هذا العدد موضع الكثرة وإن لم ترد عدداً بعينه.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٤٤٢)، ومسلم في الصلاة (١٣٥٤/٤) - النووي

وانظر «الطب النبوي» (٤٦١) بتحقيقاً

وقال ابن القيم: عجوة المدينة من أنفع تمر الحجاز، وهو صنف كريم ملئز متين الجسم والقوة، وهو من ألين التمر وألذه. قال: والتمر في الأصل من أكثر الثمار تغذية لما فيه من الجوهر الحار الرطب، وأكله على الريق يقتل الديدان لما فيه من القوة الترياقية، فإذا أديم أكله على الريق جفف مادة الدود وأضعفه أو قتله انتهى. وفي كلامه إشارة إلى أن المراد نوع خاص من السم وهو ما ينشأ عن الديدان التي في البطن لا كل السموم، لكن سياق الخير يقتضى التعميم لأنه نكرة فى سياق النفي، وعلى تقديم التسليم فى السم فماذا يصنع فى السحر. أهـ.

وقال أيضاً^(١): ونفع هذا العدد من هذا التمر من هذا البلد من هذه البقعة بعينها من السم والسحر؟ بحيث تمنع إصابته من الخواص التي لو قالها بقراط وجالينوس وغيرهما من الأطباء. لتلقاها عنهم الأطباء بالقبول والإذعان والإنقياد مع أن القائل إنما معه الحدس والتخمين والظن؟ فمن كلامه كله يقين وقطع برهان ووحى أولى أن تتلقى أقواله بالقبول والتسليم وترك الاعتراض؟ وأدوية السموم تارة تكون بالكيفية وتارة تكون بالخاصية كخواص كثير من الأحجار والجواهر واليواقيت. والله أعلم. أهـ.

١٠ علاج السحر بالعسل الأبيض

وقول الله عز وجل ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾

قال القرطبي^(٢): إختلف العلماء فى قوله تعالى ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ هل هو على عمومه أم لا؟

فقال طائفة: هو على العموم فى كل حال ولكل واحد، فروى عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئاً إلا جعل عليه عسلاً، حتى الدمّل إذا خرج عليه طلى عليه عسلاً. وحكى النقاش عن أبى دَجْرَة أنه كان يكتحل بالعسل ويستمشى بالعسل ويتداوى بالعسل. وروى أن عوف بن مالك الأشجعى مرض فقيل له: ألا نعالجك؟

فقال: اتسوني بالماء، فإن الله تعالى يقول ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ ثم قال اتسوني بعسل، فإن الله تعالى يقول ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ واتسوني بزيت، فإن الله تعالى يقول ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ فجاءوه بذلك كله فخلطه جميعاً ثم شربه فبرئ. ومنهم من قال: إنه على العموم إذا خلط بالخل ويطنخ فيأتى شراباً يتنفع به فى كل حالة من كل داء. أهـ.

قال ابن حجر^(٣):-

وفيه من المنافع - أى العسل - ما لخصه الموفق البغدادي وغيره فقالوا: يجلو الأوساخ

(٣) الفتح (١٠/١٤٦).

(٢) تفسير القرطبي (٦/٣٧٥٢).

(١) زاد المعاد (٤/٩٢).

التي فى العروق والأعضاء، ويدفع الفضلات؟ ويغسل خمل المعدة ويسخنها تسخيناً معتدلاً، ويفتح أفواه العروق ويشد المعدة والكبد والكلية والمثانة والمنافذ، وفيه تحليل لللطويات أكلاً وطلاء وتغذية، وفيه حفظ المعجونات وإذهاب لكيفية الأدوية المستكرهة، وتنقية الكبد والصدر أ. هـ

قلت وعلى فرض عدم عموم الآية ففى ما ذكره الموفق يدل على أن العسل ينفع من السحر المأكول أو المشروب حيث أن العسل يجلو هذه الأوساخ ويدفع هذه الفضلات وبنحو كلام الموفق قال ابن القيم وزاد (١):-

وفى سنن «ابن ماجة مرفوعاً من حديث أبى هريرة «من لعق العسل ثلاث غدوات كل شهر، لم يصبه عظيم من البلاء» (٢) «وفى أثر آخر» عليكم بالشقائين العسل والقرآن» (٣) فجمع بين الطب البشرى والإلهى، وبين طب الأبدان، وطب الأرواح، وبين الدواء الأرضى والدواء السمائى.

١١. العلاج بالحبة السوداء

ثبت فى «الصحيحين»: من حديث أبى سلمة، عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْحَبَّةِ السَّوَدَاءِ، فَإِنَّ فِيهَا شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ». والسَّامُ: الموت (٤).

قال ابن القيم: الحبة السوداء: هى الشُونِيز فى لغة الفرس، وهى الكمون الأسود، وتسمى الكمون الهندي، قال الحربي، عن الحسن: إنها الخردل، وحكى الهروي: أنها الحبة الخضراء ثمرة البطم، وكلاهما وهم، والصواب: أنها الشُونِيز.

وهى كثيرة المنافع جداً، وقوله: «شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ»، مثل قوله تعالى: «تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا» (٥) أي: كل شيء يقبل التدمير ونظائره، وهى نافعة من جميع الأمراض الباردة، وتدخل فى الأمراض الحارة اليابسة بالعرض، فتوصل قوى الأدوية الباردة الرطبة إليها بسرعة تنفيذها إذا أخذ يسيرها (٦).

(١) زاد المعاد (٣٢/٤).

(٢) [ضعيف] أخرجه ابن ماجه (٣٤٥٠) عن أبى هريرة به. وانظر «الطب النبوي» (٢٦٩ - بتحققنا).

(٣) [ضعيف مرفوع] أخرجه ابن ماجه (٣٤٥٢) عن ابن مسعود به. انظر «الطب النبوي» (٢٧٠ - بتحققنا).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٦٨٧) ومسلم فى السلام (٢٠١/١٤) - النووي وانظر «الطب النبوي» (١٦٩ - بتحققنا).

(٥) الأحقاف: ٢٥.

(٦) زاد المعاد (٢٧٣/٤).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: النَّهْيُ عَنِ النُّشْرَةِ.

الثانية: الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُنْهَيِّ عَنْهُ وَالْمُرْخَصِ فِيهِ مِمَّا يُزِيلُ الْإِشْكَالَ.

قال ابن حجر (١):-

وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: تكلم الناس في هذا الحديث وخصوا عمومهم وردوه إلى قول أهل الطب والتجربة التي بناؤها على ظن غالب- فتصديق من لا ينطق عن الهوى أولى بالقبول من كلامهم. إنتهى وقد تقدم توجيه حمله على عمومهم بأن يكون المراد بذلك ما هو أعم من الأفراد والتركيب، فلا محذور في ذلك ولا خروج عن ظاهر الحديث. والله أعلم. أهـ.

قلت: وعلى قول ابن القيم وصريح قول ابن أبي جمرة فالجبة السوداء تدخل في علاج السحر والله أعلم.

١٢. الإنغماس في الفرات أو النيل سبع مرات لعلاج للسحر

أخرج ابن أبي شيبة بسنده.

- عن عائشة قالت: من أصابه بسرة أو سم أو سحر فليأت الفرات فليستقبل الجرية فينغمس فيه سبع مرات (٢).

قلت: وتقدم عنها وقد سئلت عن النشر فقالت: ما تصنعون بهذا؟ هذا الفرات إلى جانبكم، يستنقع فيه أحدكم يستقبل الجرية.

وقلت: ولا فرق بين النيل والفرات في هذا لانهما نهران من الجنة كما في الحديث النيل والفرات نهران من الجنة (*) ولعل هذا هو سر الاستشفاء بماء الفرات والنيل قياس عليه والله أعلم.



قال ابن عثيمين (٣): - قوله فيه مسائل

الأولى: النهي عن النشرة.

تؤخذ من قوله ﷺ: «هى من عمل الشيطان»، وهنا ليس فيه صيغة نهى، لكن فيه ما يدل على النهي؛ لأن طرق إثبات النهي ليست الصيغة فقط، بل ذم فاعله ونحوه، وتقبيح الشيء وما أشبه ذلك يدل على النهي.

(١) الفتح (١٠/١٥٢). (٢) ابن أبي شيبة (٥/٤٣٤). (٣) القول المفيد ٩١/٢ و ٩٢.

(*) صححه الألباني في «السلسلة».

قلت: وقد استخلص الشيخ الخضرى فى كتابه «تاريخ التشريع الإسلامى» أساليب القراءان فى طلب الكف عن الفعل فبلغت ثلاثة عشرة أسلوبا منها النهى والتحريم وعدم البخل وتغراير ونفى الفعل ذكر الفعل مقرنا بإثم أو قرونا بوعيد أو وصف الفعل بأنه شر.. إلخ كما تقدم.

الثانية: الفرق بين المنهى عنه والمرخص فيه.

تؤخذ من كلام ابن القيم رحمه الله وتفصيله.

إشكال وجوابه:

ما الجمع بين قول الفقهاء رحمهم الله يجوز حل السحر بالسحر، وبين

قولهم يجب قتل الساحر؟

الجمع أن مرادهم بقتل الساحر من يضر بسحره دون من ينفع؛ فلا يقتل، أو أن مرادهم بيان حكم حل السحر بالسحر للضرورة، وأما الإبقاء على الساحر؛ فله نظر آخر، والله أعلم. أهـ

قلت: أو يحمل على ما إذا تعلم إنسان السحر وهو ليس بساحر يعرف كيف يعالج أو يميز بينه وبين غيره أو لفرض آخر شرعى كما تقدم جواز ذلك عن بعض العلماء ثم طلب منه أن يعالج فهو هذه الحالة ليس بساحر وإن حل السحر بالسحر فلا ينسحب عليه قولهم يجب قتل الساحر والله أعلم.



باب (٢٧) مَا جَاءَ فِي التَّطْيِيرِ

● تمهيد:

قال الفقير: تقدم معناه في أول كتاب التوحيد في الباب الثاني (من حقق التوحيد دخل الجنة) حديث ابن عباس في صفة السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب قوله «ولا يتطيرون»(*) ، وذكر قول ابن حجر أن المراد أنهم لا يتشاءمون كما كانوا يفعلون في الجاهلية. أهـ.

وذكر ابن عثيمين أن التطير أبطله الشرع لضرره على الإنسان عقلاً وتفكيراً وسلوكاً. وأيضاً في الباب الرابع والعشرين (بيان شيء من أنواع السحر) تقدم قول سليمان آل الشيخ في الفرقان الذي يفرق به بين ولي الله وبين عدو الله أن أولياء الله لا يتطيرون وأولياء الشيطان يتطيرون ويتشاءمون.

وحديث «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت»(*) أى من السحر، لتستوى بذلك الطيرة مع العيافة والطرق في أنها سحر، وأن العيافة: هى زجر الطير، كما قال عوف أحد رواة هذا الحديث. وأبو السعادات قال بأنها التفاؤل بأسماء وأصوات الطير وممرها.

وفائدة هذا التكرار، هو، معرفة أين ذكرت كلمة تطير عند المذاكرة ومراجعة ماسبق من الأبواب سواء في الأبواب القريبة أو البعيدة، فأول باب ذكر فيه التطير هو «باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب» وقول الله تعالى «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» وذكر ضمن أحاديث الباب حديث السبعين ألف، وفيه أنهم يدخلون الجنة بغير حساب، ولما سئل عنهم النبي ﷺ قال: «هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»، وفي بعض روايات مسلم «لا يرقون»، وهى صحيحة ثابتة خلافاً لقول ابن تيمية أنها شاذة، ومن تابعه على ذلك، فذكر هناك معنى التطير، وحكمه، وذكر هناك علاقة التطير بالمجتمعات الجاهلية، وصور التطير في الماضي والحاضر.

وكذلك في الباب الرابع والعشرين «باب بيان شيء من أنواع السحر وهنا ذكر كلام النبي ﷺ «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت» أى من السحر كما قال عوف أحد رواة الحديث، وغير هذا من المواضع التى ستكلم عنها بالتفصيل فى هذا الموضع، فهناك عزونا لهذا الموضع، وهنا أيضاً أشرنا إلى أنه تقدم شيء من التفصيل فى ذلك.

(*) تقدم

وهذه المواضع المتفرقة يجمعها هذا الباب بشيء من التفصيل والإيضاح، وهو يربط بين ما تقدم من مسائل وما سيأتى من مسائل التطير. وهذا أو ان الشروع فى الباب:

● مناسبة الباب لما قبله:

قال الفقير: كما قلت فى الباب الماضى الأنسب أن يأتى بباب النشرة بعد باب بيان شيء من أنواع السحر، ثم باب: ماجاء فى الكهان ونحوهم، ثم باب ماجاء فى التطير ذلك لأن هذا الترتيب أليق وتعلق النشرة بالسحر، والكهانة بالتطير الصق ذلك؛ لأن النشرة كما تقدم حل السحر عن المسحور، وغالباً ماتكون بسحر؛ ولذا هى من عمل الشيطان. والتطير تحاكم إلى غير الله وتحكم على الغيب، وإدعاء له بغير دليل شأنها فى ذلك شأن الكهانة إلا أن التطير تحاكم إلى طير، والكهانة تحاكم إلى إنس إلا أن هذه الأبواب الأربعة تجميعاً فى الاعتماد على أشياء جاهلية، وهى فى الغالب خفية. والله أعلم.

● مناسبة الباب للتوحيد

قال سليمان آل الشيخ^(١):

ولما كانت الطيرة باباً من الشرك منافياً للتوحيد أو لكماله لأنها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته، ذكره المصنف فى كتاب التوحيد تحذيراً منها وإرشاداً إلى كمال التوحيد بالتوكل على الله. أهـ.

وتابعه على هذه المناسبة عبدالرحمن آل الشيخ حيث قال^(٢):

ولما كانت الطيرة من الشرك المنافى لكمال التوحيد الواجب لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته ذكرها المصنف رحمه الله فى كتاب التوحيد تحذيراً مما ينافى كمال التوحيد الواجب أ.هـ.

وقال عبدالله بن جار الله^(٣):

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هى أن الطيرة من الشرك المنافى للتوحيد، أو لكماله الواجب لما فيها من تعلق القلب بغير الله. أهـ.

وقال ابن عثيمين^(٤): أن التطير ينافى التوحيد. أهـ. كما سيأتى تفصيل ذلك.

قال الفقير: ولما كان التوحيد تصديق لله، وما جاء عن الله، وما جاء عن رسول الله وكان التطير ادعاء الغيب لغير الله، فهذا يناقض التوحيد، وتقدم معنا أن «من أتى كاهناً

(٢) فتح المجيد (٢/٤٠١).

(٤) القول المفيد (٢/٩٣).

(١) تيسير العزيز الحميد (٣١١، ٣١٢).

(٣) الجامع الفريد (١١٣).

أو عرافاً فصدقه فقد كفر»، لأن ما أنزل على محمد فيه ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فكونك تزعم أن فلان أو فلانة يعلم الغيب، فقد كفرت بما أنزل على محمد، ولما تربط التعاسة والسعادة وهى مسائل غيبية، سواء غيب مطلق أو غيب نسبي، إذا اعتقدت أن غير الله يعرفها، هذا الكلام يقدر في أصل التوحيد وليس في الكمال.

وكذلك هذا التطير يتنافى مع التوكل لأن النبي ﷺ قال «لا يتطيرون»، والتطير غير متوكل على الله أبداً، بل متوكل على غير الله، وليس عنده ثقة بالله، بل عنده ثقة بغير الله، لأن الذي رده الطيرة، أو الذي دفعه للعمل هو أصل الطيرة، وليس ثقته بالله، ولا توكله على الله.



● شرح الترجمة [ما جاء في الطيرة]

قال ابن حجر في «الفتح»^(١):

بكسر المهملة وفتح التحتانية وقد تسكن هى التشاؤم بالشين، وهو مصدر تطير مثل تحير حيرة.

قال بعض أهل اللغة لم يجيء من المصادر هكذا غير هاتين، وتعقب بأنه سمع طيبة، وأورد بعضهم التولة وفيه نظر.

وأصل التطير: أنهم كانوا فى الجاهلية يعتمدون على الطير فإذا خرج أحدهم لأمر فإن رأى الطير طار يمتة تيمن به واستمر، وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع، وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمدها، فجاء الشرع بالنهاى عن ذلك، وكانوا يسمونه. (السانح) بمهملة ثم نون ثم حاء مهملة، (والبارح) بموحدة وآخره مهملة، (فالسانح) ما ولاك ميامنه بأن يمر عن يسارك إلى يمينك، (والبارح) بالعكس.

وكانوا يتيمنون بالسانح ويتشاءمون بالبارح؛ أنه لا يمكن رميه إلا بأن ينحرف إليه، وليس فى شىء من سنوح الطير وبروحها ما يقتضى ما اعتقدوه، وإنما هو تكلف بتعاطى ما لا أصل له، إذ لا نطق للطير ولا تمييز فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه، وطلب العلم من غير مظانه جهل من فاعله.

قلت: وهذا يحدث، فإنك تجد، رب المنزل إذا أراد أن يذهب إلى عمله، يسأل ابنه الصغير، ما رأيك هل أذهب أم لا؟ فإذا قال له: لا تذهب، جلس ولم يذهب، وإذا

(١) فتح البارى (١٠/٢٢٣)

قال له: اذهب، يتفائل ويذهب، فهذا أشبه ما يكون بالتطير، لأنه أخذ العلم من غير مكانه، فهذا الذى يفعل ذلك لم يشبه المتطيرين فحسب لكن هو فى الحقيقة يشبه الطالحين مثل الصوفيين وأهل البدع والأهواء. الذين يذهبون إلى من لا يعقل، بل هو مجنون، ويزعمون أنه ولى الله.

ثم قال ابن حجر^(١): وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ويتمدح بتركه، قال شاعر منهم: وهو المرقش.

ولقد غدوت وكننت لا أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالآيا من والأيامن كالأشائم

وقال آخر

الزجر والطير والكهان كلهم مضللون ودون الغيب أقفال

وقلت انظر لقد أصاب قوله تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فإذا كان مفاتيح الغيب عند الله فأين الغيب نفسه إذ دونه أقفال هيئات أن تصل إلى المفاتيح فضلاً على أن تصل إلى القفل فضلاً إلى أن تصل إلى ما وراء هذه الاقفال أ.هـ
وقال آخر:

وما عاجلات الطير تدنى من الفتى نجاحاً، ولا عن ريشهن قصور

وقال آخر:

لعمرك ماتدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقال آخر:

تخير طيرة فيها زياد لتخبره، وما فيها خبير
تعلم أنه لا طير إلا على متطير، وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينا، وباطله كثير

(١) فتح البارى (١٠/٢٢٣، ٢٢٤)

وكان أكثرهم يتطيرون ويعتمدون على ذلك ويصح معهم غالباً لتزيين الشيطان ذلك، وبقيت من ذلك بقايا في كثير من المسلمين.

قلت: أو فتنة من الله عز وجل لهؤلاء كما أن الله عز وجل يفتن يأجوج ومأجوج حين يقتلون من في الأرض بزعمهم ثم يضربون بسهامهم في السماء فتنزل بدماء فيقولون قتلنا من في الأرض وقتلنا من في السماء يعنون بذلك الله عز وجل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

● الترهيب من الطيرة وطرق علاجها:

وقد أخرج ابن حبان في صحيحه من حديث أنس رفعه «لا طيرة والطيرة على من تطير»^(١) وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن إسماعيل بن أمية عن النبي ﷺ «ثلاثة لا يسلم منهن أحد: الطيرة، والظن، والحسد. فإذا تطيرت فلا ترجع؛ وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق»^(٢) وهذا مرسل أو معضل، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة^(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب».

قلت: قوله «وإذا حسدت فلا تبغ»، هذا يدل على أن هناك حسد فيه بغى، وحسد ليس فيه بغى، فالحسد المشروع الذي لا بغى فيه هو الغبطة، وهي تمنى ما مع الغير من خير مع عدم تمنى زولها، وفيه قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالا فينفقه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة، وفي رواية «ورجل آتاه الله القرآن» فلا حسد إلا في هذين.

قوله «وإذا ظننت فلا تحقق»، وهذا إذا ما ظننت بأخيك ظناً سيئاً، إذا حدث هذا منك فلا تحقق، لأنك لو فعلت ستأكد الظن وتجعله يقيناً أ.هـ.

وأخرج ابن عدى بسند لين عن أبي هريرة رفعه «إذا تطيرتم فامضوا، وعلى الله فتوكلوا».

قلت: فالتوكل علاج للتطير والمضى وعدم الرجوع بسبب الطيرة علاج الطيرة أما السير والجرى وراء التطير أو التشاؤم فهذا عمل بالتطير أو التشاؤم ينافي التوكل على الله عز وجل وعدم الثقة به وتقع بذلك في شرك أكبر أو أصغر أ.هـ.

وأخرج الطبراني عن أبي الدرداء رفعه «لن ينال الدرجات العلا من تكهن، أو

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٤٢/٧) عن أنس به.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٥٠٤) ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١١٧٢).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١١٧٢) عن أبي هريرة بنحوه.

استقسم، أو رجع من سفر تطيراً»^(١) ورجاله ثقات، إلا أنني أظن أن فيه انقطاعاً، وله شاهد عن عمران بن حصين وأخرجه البزار في أثناء حديث بسند جيد.

قلت: قول أبي الدرداء الذي رفعه «لن ينال الدرجات العلا...».

قوله: «تكهن» أى: ذهب وقام بهذه الكهانة، وتقدم معنا فى باب «ما جاء فى الكهان ونحوهم»، قوله ﷺ «ليس منا من تكهن أو تكهن له».

وأما الاستقسام، فهو كما قال تعالى: «وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ» وهو أن يحدث القسمة بعد ذبح الجزور أقسام، وبعد ذلك يأتوا بالأزلام من خشب ويضرب بها، ويخرج نصيب كلأ منهما، فهذا تقسيم لكن عن طريق الضرب بالأقداح بهذه الصفة.

وأخرج أبو داود والترمذى وصححه هو وابن حبان عن ابن مسعود رفعه «الطيرة شرك، وما منا إلا تطير، ولكن الله يذهب بالتوكل» وقوله «ومامنا إلا»^(٢) من كلام ابن مسعود أدرج فى الخبر.

وقد بينه سليمان بن حرب شيخ البخارى فيما حكاه الترمذى عن البخارى عنه.

وإنما جعل ذلك شركاً لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً، فكأنهم أشركوه مع الله تعالى، وقوله «ولكن الله يذهب بالتوكل» إشارة إلى أن من وقع له ذلك فسلم لله ولم يعبأ بالطيرة أنه لا يؤاخذ بما عرض له من ذلك قلت بل ربما يؤجر إذا ما دفع ذلك بالحديث السابق وفيه فإذا تطيرت فلا ترجع فإذا لم يرجع ودفع التطير معتقلاً لأمر النبىء فهو مأجور والله أعلم أ.هـ.

وأخرج البيهقى فى «الشعب» من حديث عبد الله بن عمرو موقوفاً «من عرض له من هذه الطيرة شىء فليقل: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك»^(٣). قلت: ذكر فى هذه الفقرة الترهيب من الطيرة لبيان أنها شرك، وأنه ليس له الدرجات العلا، وذكر فى أضعاف ذلك علاج الطيرة، وهى إما بالتوكل أو عدم الرجوع: أو المضى أ.هـ.

قال القرطبى فى «تفسيره»^(٤):

كانت العرب تيمن بالسائح، وهو الذى يأتى من ناحية اليمين. وتشاءم بالبارح،

(١) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١١٨/٥) ونسبه للطبرانى بإسنادين وقال: ورجال أحدهما ثقات.

(٢) سيأتى تخريجه (٣) سيأتى تخريجه

(٤) تفسير القرطبى (٤/ ٢٧٠٠ : ٢٧٠٢).

وهو الذى يأتى من ناحية الشمال. وكانوا يتطيرون أيضاً بصوت الغراب، ويتأولونه البين. وكانوا يستدلون بمجوابات الطيور بعضها بعضاً على أمور، وبأصواتها فى غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك. هكذا الأطباء إذا مضت سائحة أو بارحة، ويقولون إذا برحت: «من لى بالسائح بعدالبارح». إلا أن أقوى ما عندهم كان يقع فى جميع الطير؛ فسموا الجميع تطيراً من هذا الوجه. وتطير الأعاجم إذا رأوا صيباً يذهب به إلى المعلم بالغداة، ويتمنون برؤية صبي يرجع من عند المعلم إلى بيته، ويتمنون برؤية السقاء على ظهره قرية مملوءة مشدودة، ويتمنون برؤية فارغ السقاء مفتوحه، ويتمنون بالحمل المثقل بالحمل، والدابة المؤقرة، ويتمنون بالحمل الذى وضع حمله، وبالذابة يُحطَّ عنها ثقلها. فجاء الإسلام بالنهى عن التطير والتشاؤم بما يسمع من صوت طائر ما كان، وعلى أى حال كان؛ فقال عليه السلام: «أقروا الطير على مكنتها». وذلك أن كثيراً من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة أتى الطير فى وكرها فنفرها؛ فإن أخذت ذات اليمين مضى لحاجته، وهذا هو السائح عندهم. وإن أخذت ذات الشمال رجع، وهذا هو البارح عندهم. فنهى النبى ﷺ عن هذا بقوله: «أقروا الطير على مكنتها»^(١) هكذا فى الحديث. وأهل العربية يقولون «وكنَّتها» قال امرؤ القيس:

وقد أغتدى والطير فى وكناتها

والوكنة: اسم لكل وكر وعُش. والوكن: موضع الطائر الذى يبيض فيه ويُفْرَخ، وهو الخرق فى الحيطان والشجر. ويقال: وكنَّ الطائر يكن وكونا إذا حضن بيضه. وكان أيضاً من العرب من لا يرى التطير شيئاً، ويمدحون من كذب به. قال المرقش:

ولقد غدوت وكننت لا أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم

قلت: هذا يبين أن الطير هو طير سواء ذهب جهة اليمين أو اليسار فليس له علاقة بالخير المقدر لك إن قدر لك أو بالشر إن قدر لك لكن جاء الإسلام فنهى عن ذلك كله وعلمنا الرسول ما هو أفضل من ذلك كله فكما قال الصحابة كان يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كسورة من القرآن والحديث ثابت فى الصحيح عن جابر رضى الله عنه - كان النبى ﷺ - يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: إذا هم أحدكم بالامر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل... الحديث.

(١) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠٦/٥) وقال: رواه الطبرانى بأسانيد ورجال أحدها ثقات.

فليس هناك أفضل من أن تذهب إلى الله وتتقدم بين يديه بركعتين ثم تسأله بجامع الخير ومجامع التوحيد والثناء عليه بأحسن أسمائه وصفاته، فلا يُظن بعد ذلك إلا التوفيق، فهل يستوى هذا مع التطير الذي ليس له معنى شرعى ولا ضابط من الدين.

لهذا قال عكرمة: كنت عند ابن عباس فمر طائر يصيح؛ فقال رجل من القوم: خير، خير. فقال ابن عباس: ما عند هذا لاخير ولاشر.

ومثال ذلك أيضاً: ما تصدره النساء من أصوات فى الأعراس الجاهلية تحية لأهل العروسين فإذا سمع أحد الحاضرين هذا الصوت الذى يسمونه (زغروطة). استبشر وقال خيراً ويفرح بذلك ولكنى أقول: إن هذا من فعل الشياطين لما جاء فى الحديث إن صح «صوتان لا يحبهما الله صوت فى فرج وصوت فى حزن أو جنازة» ولو قلنا بأنه لا يصح، فنقول: قال تعالى ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ فهذا نص فى حرمة هذه الأصوات، وهذا الذى يثنى على هذا الصوت ويقول (خيراً) هو فى قلبه مرض لأنه طمع والله أعلم.

ثم قال القرطبي:

قال علماؤنا: وأما أقوال الطير فلا تعلق لها بما يجعل دلالة عليه. ولا لها علم بكائن فضلاً عن مستقبل فتخير به.

ولافى الناس من يعلم منطق الطير؛ وإلا ما كان الله تعالى خص به سليمان عليه السلام من ذلك. فالتحق التطير بجملة الباطل. والله أعلم.

وقال عليه السلام «ليس منا من تحلم أو تكهن أو رده عن سفره تطير».

وقوله (تحلم) يعنى أنه يدعى رؤية ما لم يره كمن يدعى أنه رأى النبى - ﷺ - ولم يره، وكثيراً ما يدعى ذلك أصحاب الطرق الصوفية ويرتقى الرجل عندهم بذلك ولأن الرؤية الصادقة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة فكان لابد من الترهيب من ادعاء رؤية ما لم يره وهو التحلم ولو ترك الأمر دون ترهيب لأختلط الخير بالشر ولصد عن السنة لذلك عدها الامام الذهبى من الكبائر فى كتابه أ.هـ.

وروى أبو داود عن عبد الله بن مسعود عن النبى - ﷺ - قال: «الطيرة شرك - ثلاثاً - ومامن إلا ولكن الله يذهب بالتوكل» (١).

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله - ﷺ - قال: «من رجعت الطيرة عن حاجته فقد أشرك». قيل: وما كفارة ذلك يا رسول الله؟ قال: «أن يقول أحدهم اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ثم يمضى لحاجته» (٢). وفى خبر

(١) سيأتى تخريجه

(٢) سيأتى تخريجه

آخر: «إذا وجد ذلك أحدكم فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك». ثم يذهب متوكلاً على الله؛ فإن الله يكفيه ما وجد في نفسه من ذلك، وكفاه الله تعالى ما يهمله^(١). أهـ.

● حكاية التطير غالباً عن أعداء الرسل:

قال القيم^(*): لم يحك الله التطير إلا عن أعداء الرسل كما قالوا لرسولهم ﴿قَالُوا إِنَّا تَطِيرُنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ. وكذلك حكى الله سبحانه عن قوم فرعون فقال فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطِيرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ حتى إذا أصابهم الخصب والسعة والعافية قالوا لنا هذه أى نحن الجديرون الحقيقيون به ومن أهله وإن أصابهم بلاء وضيق وقحط ونحوه قالوا هذا بسبب موسى وأصحابه أصبنا بشؤمهم ونفض علينا غبارهم بقوله المتطير لمن يتطير به فأخبر سبحانه أن طائرهم عنده كما قال تعالى عن أعداء رسوله ﷺ ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ فهذه ثلاثة مواضع حكى فيها التطير عن أعدائه وأجاب سبحانه عن تطيرهم بموسى وقومه بأن طائرهم عند الله لا بسبب موسى وأجاب عن تطير أعداء رسول الله ﷺ بقوله ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وأجاب عن الرسول بقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ وأما قوله ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ فقال ابن عباس طائرهم ما قضى عليهم وقدر لهم.

وفى رواية شؤمهم عند الله ومن قبله أى إنما جاءهم شؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله.

وقال أيضاً أن الأرزاق والأقدار تتبعكم وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أى ما تطير له من الخير والشر فهو لازم له فى عنقه والعرب تقول جبرى له الطائر بكذا من الخير والشر قال أبو عبيدة: الطائر عندهم الحظ، وهو الذى تسميه العامة البخت يقولون هذا يطير لفلان أى يحصل له.

(١) سيأتى تخريجه.

(*) مفتاح دار السعادة - (٥٧٨ - ٥٨٠)

قلت ومنه الحديث فطار لنا عثمان بن مظعون أى أصابنا بالقرعة لما اقترع الأنصار على نزول المهاجرين عليهم.

وفى حديث رويغ بن ثابت حتى أن أحدنا ليطير له النصل والريش وللآخر القدح أى يحصل له بالشركة فى الغنيمة.

وقيل فى قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنْقِهِ﴾ أن الطائر ههنا هو العمل قاله الفراء وهو يتضمن الرد على نفاة القدر وخص العنق بذلك من بين سائر أجزاء البدن لأنها محل الطوق الذى يطوقه الإنسان فى عنقه فلا يستطيع فكاهه ومن هذا يقال اثم هذا فى عنقك، وأفعل كذا واثمه فى عنقى، والعرب تقول طوقها طوق الحمامة وهذا ريقه فى رقبته.

وعن الحسن ابن آدم لتتظر لك صحيفة إذا بعثت قلديتها فى عنقك فخصوا العنق بذلك لأنه موضع القلادة والتميمة واستعمالهم التعاليق فيها كثير كما خصت الأيدي بالذكر فى نحو (بما كسبت أيديكم) (بما قدمت يداك) ونحوه.

وقيل المعنى أن الشؤم العظيم هو الذى لهم عند الله من عذاب النار وهو الذى أصابهم فى الدنيا.

وقيل المعنى إن سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده الذى يجرى عليه ما يسوءهم ويعاقبون عليه بعد موتهم بما وعدهم الله ولا طائر أشأم من هذا.

وقيل حظهم ونصيبهم وهذا لا يناقض قول الرسل طائركم معكم أى حظكم ومانالكم من خير وشر معكم بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين ليس هو من أجلنا ولا بسببنا بل ببغيتكم وعدوانكم، فطائر الباغى الظالم معه وهو عند الله كما قال تعالى ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ ولو فقهوا وفهموا لما تطيروا بما جئت به لأنه ليس فيما جاء به الرسول ﷺ ما يقتضى الطيرة فإنه كله خير محض لا شر فيه، وصلاح لا فساد فيه، وحكمة لا عبث فيها، ورحمة لا جور فيها، فلو كان هؤلاء للقوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا فإن الطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والمصلحة والحكمة والرحمة، وليس فيما أثبتهم به لو فهموا ما يوجب تطيرهم بل طائركم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيتهم وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصابتهم التى يتناولوها منه بأعمالهم وكسبتهم.

ويحتمل أن يكون المعنى طائركم معكم أى راجع عليكم فالتطير الذى حصل لكم إنما

يعود عليكم، وهذا من باب القصاص في الكلام مثل قوله في الحديث أخذنا فالك من فيك ونظيره قول النبي ﷺ «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم» فعلى هذا معنى طائرکم معكم أى تصيكم طيرتكم التى تطيرتم بها لأنهم اعتقدوا الشؤم فيها، ولاشؤم فيها ألته فقيل لهم الشؤم منكم وهو نازل بكم فتأمله وهذا يشبه قوله تعالى ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قيل جزاء مكرهم عنده فمكر بهم كما مكروا برسله، مكره تعالى بهم إنما كان بسبب مكرهم فهو مكرهم عاد عليهم وكيدهم عاد عليهم فهكذا طيرتهم عادت عليهم وحلت بهم.

فائدة:

وسمى جزاء المكر مكرأ وجزاء الكيد كيدأ تنبيها على أن الجزاء من جنس العمل ولما ذكر سبحانه أن أصابهم من حسنه وسيئة أى نعمة ومحنة فالكل منه تعالى بقضائه وقدره فكأنهم قالوا فما بالك أنت تصيک الحسنات والسيئات كما تصينا فذكر سبحانه أن ماصابه من حسنة فمن الله من بها عليه وأنعم بها عليه، وما أصابه من سيئة فمن نفسه أى بسبب من قبله أى لا لنقص ما جاء به، ولا لشرفه فيه، ولا لشؤم يقتضى أن تصييه السيئة، بل بسبب من نفسه ومن قبله وقد قيل فى قوله تعالى ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أن طائرهم ههنا هو السبب الذى يجىء فيه خيرهم وشهرهم فهو عند الله وحده وهو قدره وقسمه إن شاء رزقكم وعافاكم وإن شاء حرمكم وابتلاككم ومن هذا قالوا طائر الله لا طائر كلبى قدر الله الغالب الذى يأتى بالحسنات ويصرف السيئات.

ومنه «اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك» وعلى هذا فالمعنى بطائرکم نصيكم وحظكم الذى يطيركم ومن فسره بالعمل فالمعنى طائرکم الذى طار عنكم من أعمالكم ويهذين القولين فسر معنى قوله تعالى ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وأنه ما طار عنه من عمله أو صار لازما له مما قضى الله عليه وقدر عليه وكتب له من الرزق والأجل والشقاوة والسعادة أهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(١) عن تطير الجاهلية:

نفاه الشرع وأبطله ونهى عنه، وأخبر أنه ليس له تأثير فى جلب نفع أو دفع ضرر. قال المدائنى: سألت رؤبة بن العجاج ما السناح؟ قال: ما ولاك ميامنه. قلت: فما البارح؟ قال: ما ولاك مياسره. قال: والذى يجىء من أمامك فهو الناطح والتطيح، والذى يجىء من خلفك هو القاعد والقعيد... أهـ.

(١) تيسير العزيز حميد (٣١١، ٣١٢).

وقال حامد بن محمد (١): بين رسول الله ﷺ الطيرة، وفسرها بقاعدة كلية - كما سيأتى - يفهم منها أن كل شيء أمضاك وجراك على أمر، أوردك ومنعك عنه فذاك الطيرة، ومن مضى أو امتنع بسببها فقد أشرك. أهـ.

وقال ناصر السعدى (٢):

وهو التشاؤم بالطيور، والأسماء، والألفاظ، و البقاع، وغيرها، فنهى الشارع عن التطير وذم المتطيرين، وكان يحب الفأل ويكره الطيرة. أهـ.

وسيأتى الفرق بينهما إن شاء الله.

قلت: وقد يحدث هذا التشاؤم بالصالحين أو باسمه كما تشأمت اليهود بجبريل عليه السلام وعادوه وقالوا إن كان الذى ينزل عليه جبريل فهذا الذى يأتى بالحرب وهو عدونا وإن كان ميكائيل فهو حبيبنا لأنه الذى ينزل بالقطر فالله عز وجل نفى ذلك عن جبريل وقال ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ فإنهم تشاءموا بالملك الذى لا يعصى ولا يأتى إلا بالخير بل هو كما وصفه الله - سبحانه وتعالى - ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ولكن السبب فى تشاؤمهم بالملك مع صلاحه هو مرض القلب الذى يقلب الأمور ويجعل المعروف منكراً والمنكر معروفاً والبدعة سنة والسنة بدعة والحسنة سيئة والسيئة حسنة، فالذى يمرض قلبه تنقلب عنده كل الأمور، لذلك فإنه لا بد أن يحذر كل منا فى حاله إحساسه بمرض فى قلبه من شبه أو شهوة أن يتخذ قراراً مصيرياً فى حياته فإنه قد تغلبه شهوته أو تعميه عن الحق فصدق من قال «مرأة الحب - يعنى الشهوة - عمياء» لا يرى فيها الحق وقد تغلبه شهوته فتسبق قراره ويقع أثر ذلك فى هلاك ووبال عليه.

وذلك لأنه فى حالة المرض - مرض القلب تكون الأمور عند صاحب هذا القلب غير منتظمة تماماً فليخدر الإنسان من زواج أو طلاق أو ذهاب لشيخ أو ترك شيخ وقلبه مريض.

ولكن إذا كان هناك قرار لا بد من أخذه ولازال القلب على مرضه لم يبرأ بعد فماذا يفعل صاحب هذا القلب؟.

أقول. يتخير رجلاً تقياً يعرف عنه ذلك أثناء صلاح قلبه فيستشير ويقصص عليه الخبر، فيكون بذلك قد عرض الأمر على قلب سليم فإن شرح الله صدره لهذا الأمر فليفعل بعد الاستخارة ولعله يدل على ذلك ما تقدم مراراً أن عمر بن الخطاب - رضى

(٢) القول السديد (٨٠)

(١) فتح الله الحميد المجيد (٢٣٩)

الله عنه ما تقدم لقتال المرتدين إلا بعد أن رأى إن الله شرح صدر أبي بكر لقتالهم فعلم أنه الحق.

وأنت كذلك إذا لم تعوّل على قلبك لشهوة أو شبهة فعوّل على قلوب من تظن فيهم الخير فإن رأو لك شيئاً فهو خير بعد الاستخارة. والله أعلم.

وقال عبدالله بن جابر الله (١):

التطير هو التشاؤم بمرئى أو مسموع من الطيور ونحوها، وحكمه التحريم؛ لأنه شرك. أهـ.

قال ابن باز: (ما جاء فى التطير) أى من النهى عنه، والسويعيد فيه، أهـ ثم ذكر تعريف الطيرة بنحو مما تقدم.

وقال ابن عثيمين (٢):

التطير فى اللغة: مصدر تطير، وأصله مأخوذ من الطير؛ لأن العرب يتشاءمون أو يتفألون بالطيور على الطريقة المعروفة عندهم بزجر الطير، ثم ينظر: هل يذهب يميناً أو شمالاً أو ما أشبه ذلك، فإن ذهب إلى الجهة التى فيها التيامن؛ أقدم، أو فيها التشاؤم؛ أحجم.

أما فى الاصطلاح: فهى التشاؤم بمرئى أو مسموع، هذا من الأمور النادرة؛ لأن الغالب أن اللغة أوسع من الاصطلاح؛ لأن الاصطلاح يدخل على الألفاظ قيوداً تخصها، مثل الصلاة لغة: الدعاء، وفى الاصطلاح أخص من الدعاء، وكذلك الزكاة وغيرها.

وإن شئت؛ فقل: التطير: هو التشاؤم بمرئى أو مسموع أو معلوم قلت هو أوسع واشمل التعريفات.

بمرئى مثل: لو رأى طيراً فتشاءم لكونه موحشاً

أو مسموع مثل: من هم بأمر فسمع أحداً يقول لآخر: يا خسران، أو يا خائب، فيتشاءم.

أو معلوم؛ كالتشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور أو بعض السنوات؛ فهذه لاترى ولا تسمع. أهـ.

قلت: وصور التشاؤم كثيره معلومة وهى قديمة وحديثة من ذلك تشاؤم الجاهليين قديماً بالزواج فى شهر شوال، لذلك أراد النبى ﷺ - إزالة ذلك الاعتقاد ومخالفتهم فتزوج عائشة فى شوال وبني بها أيضاً فى شوال والحديث عند مسلم.

(١) الجامع الفريد (١١٣)

(٢) القول المفيد (٩٣/٢).

وكذلك الجاهلية الحديثة وتشاؤم أهلها بساعة نحسى فى يوم الجمعة ولا يسمعون إلى قول النبى - ﷺ - أن فيه ساعة إجابة، فهو مصدر للخير لا للنحس.

وكذلك من جمع بين المسموع والمرئى مثل رؤية تكسير بعض الأشياء فيتشاءم أو يتفاهل ويعتقد أنها ذهبت بالشر ولا يتذكر قول النبى - ﷺ - لو قدر الله لكان، قدر الله وما شاء فعل، وآمن بالقدر خير وشره ويقابل ذلك بالرضى والتسليم.

وقال حافظ بن أحمد حكيم (١):

أما الطيرة: فهي ترك الإنسان حاجته، واعتقاده عدم نجاحها، تشاؤماً بسماع بعض الكلمات القبيحة: كياهالك، أو يامحوق، ونحوهما.

وكذا التشاؤم ببعض الطيور كالبومة، وماشاكلها إذا صاحت، قالوا: إنها ناعبة أو مخبرة بشر.

وكذا التشاؤم بملاقاة الأعور أو الأعرج أو المهزول أو الشيخ الهرم أو العجوز الشمطاء. وكثير من الناس يتشاءم بما يعرض له نفسه فى حال خروجه، كما إذا عثر، أو شيك، يرى أنه لا يجد خيراً.

ومن ذلك التشاؤم ببعض الأيام، أو بعض الساعات، كالحادى والعشرين من الشهر وآخر أرباء فيه ونحو ذلك، فلا يسافر فيها كثير من الناس، ولا يعقد فيها نكاحاً ولا يعمل فيها عملاً مهماً ابتداء، يظن أن يعتقد أن تلك الساعة نحس.

ومن ذلك التشاؤم بوقوع بعض الطيور على البيوت يرون أنها معلمة بشرٍ وكذا صوت الثعلب عندهم.

ومن ذلك الاستقسام بالأزلام الذى أمر الله تعالى باجتنابه، وأخبر أنه رجس من عمل الشيطان، وهذا ما شاكله كثير منه كان فى الجاهلية قبل النبوة وقد أبطله الإسلام، فأعاده الشيطان فى هذا الزمان أكثر مما كان عليه فى الجاهلية بأضعاف مضاعفة، ووسع دائرة ذلك وساعده عليه شياطين الإنس من الكهنة والمنجمين وأضرابهم وأتباعهم، أرداهم الله وألحقهم به. آمين أهـ.

● التطير من الأمراض النفسية:

وقال محبى الدين درويش (٢): اصطلح علماء النفس على معنى أثبت لها، فاعتبروها مرضاً من شعبة أمراض الخوف الناشئ عن ضعف الأعصاب واختلالها، إلا أنها خوف خاص له بواعثه وأعراضه، وأولها ضعف الأعصاب، فالرجل السليم لا يتطير

(١) معارج القبول (٢/ ٣٣١/ ٣٣٢).

(٢) إعراب القرآن الكريم (٣/ ٤٣٥).

ولا يشاء، لأنه يتظر من الدنيا خيراً، ولا يحس النفرة بينه وبينها، ومن ثم لم يحس الخوف ولا التطير منها، ويمكن أن نعتبر الطيرة أنها تشاؤم مؤقت استدعته ظروف طارئة، وجو يلائم حالات اليأس والتشاؤم العارضة، فإذا بالتطير يتسلف الفرع من الشر قبل وقوعه. أهـ.

فصل

ما جاء في الفرق بين الطيرة والفأل

قال الخطابي: الفرق بين الفأل والطيرة أن الفأل من طريق حسن الظن بالله والطيرة لا تكون إلا في السوء في فلذلك كُرِهت.

وقال النووي: الفأل يستعمل فيما يسوء، وفيما يسر، وأكثره في السرور والطيرة لا تكون إلا في الشؤم، وقد تستعمل مجازاً في السرور انتهى.

قال ابن القيم(*): وفي الفرقان بينهما فائدة كبيرة وهي أن التطير هو التشاؤم من الشيء المرئى أو المسموع، فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفره وامتنع بها مما عزم عليه فقد قرع باب الشرك بل ولجه وبريء من التوكل على الله وفتح على نفسه باب الخوف والتعليق بغير الله والتطير مما يراه أو يسمعه، وذلك قاطع له عن مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ و﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فيصير قلبه متعلقاً بغير الله عبادة وتوكلاً فيفسد عليه قلبه وإيمانه وحاله ويبقى هدفاً لسهام الطيرة ويساق إليه من كل أوب، ويقض له شيطان من ذلك ما يفسد عليه دينه ودنياه وكم هلك بذلك وخسر الدنيا والآخرة، فأين هذا من الفأل الصالح السار للقلوب المؤيد للأمال، الفاتح باب الرجاء، المسكن للخوف، الرابط للجأش، الباعث على الاستعانة بالله والتوكل عليه، والاستبشار المقوى لأمله السار لنفسه فهذا ضد الطيرة.

فالفأل يفضى بصاحبه إلى الطاعة والتوحيد.

والطيرة تفضى بصاحبها إلى المعصية والشرك، فلهذا استحَبَّ ﷺ الفأل وأَبْطَلَ الطيرة أهـ.

قال ابن حجر: وكأن ذلك بحسب الواقع، وأما الشرع فخص الطيرة بما يسوء، والفأل بما يسر، ومن شرطه ألا يقصد إليه فيصير من الطيرة. أهـ^(١).

قال الرازي^(٢): ثم اعلم الله تعالى على لسان رسوله أن طيرتهم باطلة، فقال

(١) فتح الباري (١٠/٢٢٥).

(*) مفتاح دار السعادة (٥٩٤)

(٢) التفسير الكبير (٧/١٤/٢٢٥).

(لاطيرة ولاهام) وكان النبي ﷺ يتفاءل ولا يتطير. وأصل الفأل الكلمة الحسنة، وكانت العرب مذهبها في الفأل والطيرة واحد، فأثبت النبي ﷺ الفأل وأبطل الطيرة قال محمد الرازي - رحمه الله -: ولا بد من ذكر فرق بين البابين. والأقرب أن يقال: إن الأرواح الإنسانية أصفى وأقوى من الأرواح البهيمية والطيرية. فالكلمة التي تجرى على لسان الإنسان يمكن الاستدلال بها بخلاف طيران الطير، وحركات البهائم، فإن أرواحها ضعيفة، فلا يمكن الاستدلال بها على شيء من الأحوال. أهـ.

قال ناصر السعدي^(١): والفرق بينهما: أن الفأل الحسن لا يدخل بعقيدة الإنسان ولا يعقله وليس فيه تعليق القلب بغير الله بل فيه من المصلحة النشاط والسرور وتقوية النفوس على المطالب النافعة.

وصفة ذلك أن يعزم العبد على سفر أو زواج أو عقد من العقود أو على حالة من الأحوال المهمة ثم يرى في تلك الحال ما يسره أو يسمع كلاما يسره مثل يا راشد أو سالم أو غانم، فيتفاءل ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه، فهذا كله خير وآثاره خير، وليس فيه من المحاذير شيء.

وأما الطيرة: فإنه إذا عزم على فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة في الدين أو في الدنيا، فيرى أو يسمع ما يكره أثر في قلبه أحد أمرين، أحدهما أعظم من الآخر.

(أحدهما) أن يستجيب لذلك الداعي فيترك ما كان عازما على فعله أو بالعكس فيتطير بذلك وينكص عن الأمر الذي كان عازما عليه، فهذا كما ترى قد علق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق وعمل عليه، وتصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله، فلا شك أنه على هذا الوجه أثر على إيمانه واخل بتوحيده وتوكله، ثم بعد هذا لاتسأل عما يحدثه له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين وتعلقه بالأسباب وبأموال ليست أسباباً، وانقطاع قلبه من تعلقه بالله.

وهذا من ضعف التوحيد والتوكل ومن طرق الشرك ووسائله، ومن الخرافات المفسدة للعقل.

الأمر الثاني: أن لا يستجيب لذلك الداعي ولكنه يؤثر في قلبه حزناً وهماً، فهذا وأن كان دون الأول لكنه شر وضرر على العبد، وضعف لقلبه وموهن لتوكله. وربما أصابه مكروه فظن أنه من ذلك الأمر فتقوى تطيره، وربما تدرج به إلى الأمر الأول.

فهذا التفصيل يبين لك وجه كراهة الشارع للطيرة وذمها ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل. أهـ.

(١) القول السديد (٨٠: ٨٢).

قلت: وباستعراض سيرة النبي ﷺ - وأحواله، نجده قد غير بعض الأسماء واستبشر ببعض الأسماء، فلما جاءه سهل ابن عمرو في صالح الحديبية قال لأصحابه سهل أمركم وذلك لأن الأسماء قوالب لأصحابها وحكمة الله تأبى إلا ذلك، فمحمد هو محمد وهو كثير المحامد، وأبو لهب كنيته هكذا ومآله إلى النار وسهيل له حظ ونصيب من اسمه وهذا كله عليه أدلة ذكرها ابن القيم في زاد المعاد في فصل الأسماء وهدى النبي ﷺ - فيها، والذي سميته بعد ذلك بالقول السامى في فقه الأسامى من ذلك أن الرسول ﷺ كان يحب إذا أبرد إليه يريد أن يكون ذو اسم حسن لأن هذا سيقوى الرجاء في الله وسيترتب على ذلك آثار طيبة مثل حلو الهمة في طلب الخير وعدم اليأس، ولهذا كانت الأسماء قوالب لأصحابها ولذات السبب كان النبي ﷺ - يغير الأسماء القبيحة إلى الحسن ومن لم يستجب لهذا التغير كان يصيبه حظه من اسمه، فهذا الرجل الذي كان اسمه (حزن) سماه النبي ﷺ - سهل فلما أبى وقال لا أغير اسماً سمانيه أبى لم تنزل تلك الجزونة فيه وفي أهله ولو سمع كلام النبي ﷺ - لأثر ذلك في أخلاقه وأخلاق أولاده أيضاً من بعده - والله أعلم.

● من فرق بين الطيرة والتشاؤم قال ابن حجر (١):

وذكر البيهقي في «الشعب» عن الحلیمی ما ملخصه: كان التطير في الجاهلية في العرب إزعاج الطير عند إرادة الخروج للحاجة، فذكر ماتقدم ثم قال: وهكذا كانوا يتطيطرون بصوت الغراب وبمرور الظباء فمرا الكل تطيراً، لأن أصله الأول. قال: وكان التشاؤم في العجم إذا رأى الصبى ذاهباً إلى المعلم تشاءم أو راجعاً تيمن، وكذا إذا رأى الجمل موقراً حملاً تشاءم فإن رآه واضعاً حملة تيمن، ونحو ذلك. فجاء الشرع برفع ذلك كله. وقال «من تكهن أو رده عن سفر تطير فليس منا» (٢) ونحو ذلك من الأحاديث.

قال ابن حجر (٣): والتطير والتشاؤم بمعنى واحد. أهد.

وقال ابن عثيمين (٤):

واعلم أن التطير ينافي التوحيد، ووجه منافاته له من وجهين:

الأول: أن التطير قطع توكله على الله واعتمد على غير الله.

(٢) تقدم

(٤) القول المفيد (٢/٩٣، ٩٤).

(١) فتح الباري (١٠/٢٢٦).

(٣) فتح الباري (١٠/٢٢٤).

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وبين ما يحصل له، وهذا لاشك أنه يخل بالتوحيد؛ لأن التوحيد عبادة واستعانة، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقال تعالى ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

فالطيرة محرمة، وهى منافية للتوحيد كما سبق، والمتطير لا يخلو من حالين:
الأول: أن يحجم ويستجيب لهذه الطيرة ويدع العمل، وهذا من أعظم التطير والتشاؤم.

والثانى: أن يمضى لكن فى قلق وهم وغم يخشى من تأثير هذا المتطير به، وهذا أهون.

وكلا الأمرين نقص فى التوحيد وضرر على العبيد، بل انطلق إلى ما تريد بانشرح صدر وتيسر واعتماد على الله - عزوجل، ولا تسيء الظن بالله - عزوجل أهـ.



قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

والآية من أولها ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

● مناسبة الآية للباب :

قال سليمان آل الشيخ (٢): ومطابقة الآيتين - أى هذه الآية والتي بعد ذلك فى المتن - لمقصود الباب ظاهر لأن الله تعالى لم يذكر التطير إلا عن أعدائه فهو من أمر الجاهلية لا من أمر الإسلام. أهـ قلت: وتقدم ذكر ابن القيم ذلك عن أعداء الله.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ (٣): مناسبة الآيتين للترجمة: أن التطير من عمل أهل الجاهلية والمشركين وقد ذمهم الله تعالى به ومقتهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن التطير وأخبر أنه شرك كما سيأتى فى أحاديث الباب. أهـ.

وقال عبدالله بن جار الله (٤): ومناسبة الآيتين للباب: أنهما دلتا على أن التطير من أعمال الكفار وقد ذمهم الله به ومقتهم عليه أهـ.

وقال القرعاوى (٥): حيث دلت الآية على تحريم التطير أ.هـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

مانتقدم من مناسبة الآية للباب وأيضاً.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣١٣)

(١) الأعراف: ١٣١

(٥) الجديد (٢٥١)

(٤) الجامع الفريد (١١٤).

(٣) فتح المجيد (٥٠٨/٢)

قال القرعاوى^(١):

حيث دلت الآية على أن الطيرة شرك لأنه تعليق للقلب بغير الله وإثبات سبب دون الله. أهـ

الإعراب^(٢): الفاء عاطفة، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة جاءتهم الحسنة فى محل جر بالإضافة، والمراد ما يصيبهم من الرخاء والخصب، وجملة قالوا لامحل لها لأنها جواب شرط غير جازم، ولنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر متقدم، وهذه اسم إشارة فى محل رفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية فى محل نصب مقول قولهم أهـ.

● ماجاء فى تفسير الآية بالقرآن.

قال الشنقيطى^(٣): ذكر تعالى فى هذه الآية الكريمة: أن فرعون وقومه إن أصابتهم سيئة أى قحط وجدب ونحو ذلك، تطيروا بموسى وقومه فقالوا: ماجاءنا هذا الجذب والقحط إلا من شؤمكم، وذكر مثل هذا عن بعض الكفار مع نبينا ﷺ فى قوله: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية^(٤). وذكر نحوه أيضاً عن قوم صالح مع صالح فى قوله: ﴿قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾^(٥). وذكر نحوه ذلك أيضاً عن القرية التى جاءها المرسلون فى قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطِيرُنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾^(٦). وبين تعالى أن شؤمهم من قبل كفرهم، ومعاصيهم. لا من قبل الرسل قال فى «الأعراف»: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٧). وقال فى سورة «النمل» فى قوم صالح: ﴿قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾^(٨). وقال فى «يس» ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾^(٩) الآية أهـ.

● ماجاء فى تفسير الآية من آثار:

عن مجاهد فى قوله ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ الْعَافِيَةُ، وَالرَّخَاءُ﴾ قَالُوا لَنَا هَذِهِ نحن أحق بها، ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بَلَاءٌ، وَعَقُوبَةٌ يَطِيرُوا﴾ ويتشاءموا ﴿بِمُوسَى﴾^(١٠).

(١) الجديد (٢٥١). (٢) إعراب القرآن لمحيى الدين درويش (٩/٤٣٤).

(٣) أضواء البيان (٢/٢٤٧) (٤) النساء: ٧٨ (٥) النمل ٤٧.

(٦) يس ١٨. (٧) الأعراف ١٣١ (٨) النمل ٤٧. (٩) يس ١٩.

(١٠) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/٢٠٢) ونسبه لابن أبى شيبه، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ. تفسير ابن أبى حاتم بتخریجنا.

وعن ابن زيد فى قوله ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ الآية، قالو ما أصابنا هذا إلا بك ياموسى، وبمن معك، ما رأينا شراً ولا أصابنا حتى رأيناك. وقوله ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ قال الحسنه ماتحبون، وإذا كان مايكرهون قالوا: ما أصابنا هذا إلا بشؤم هؤلاء الذين ظلموا، قال قوم صالح ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ فقال الله: ﴿إِنَّمَا طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (١).

وعن مجاهد: قوله ﴿يَطْيَرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ تشائموا بموسى ﷺ. (٢)

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قوله ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾

قال ابن جرير (٣): يقول تعالى ذكره: فإذا جاءت آل فرعون العافية والخصب والرخاء وكثرة الثمار، ورأوا ما يحبون فى دنياهم، قالوا (لنا هذه) نحن أولى بها. أهـ.

وقال البغوى (٤): قوله ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ يعنى الخصب والسعة والعافية.

وقوله تعالى ﴿لَنَا هَذِهِ﴾ أى نحن أهلها ومستحقوها على العادة التى جرت لنا فى سعة أرزاقنا، ولم يروها تفضلاً من الله عزوجل فيشكروه عليها. أهـ.

وقال الزمخشري (٥) بنحو مما تقدم، وكذا ابن الجوزي (٦)، والفخر الرازي (٧)، والقرطبي (٨)، وابن كثير (٩) وقال الشوكاني (١٠): قوله ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أى الخصلة الحسنه من الخصب بكثرة المطر، وصلاح الثمرات، ورخاء الأسعار... أهـ.

وقال السعدى (١١) مثلهم

قوله ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢٠/٩)

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٥٤٣/٥) فانظره بتخريجنا

(٣) تفسير الطبرى (١٠/٩/٦) (٤) معالم التنزيل (٥٢٦/٢)

(٥) الكشف (٨٤/٢). (٦) زاد المسير (١٩٠/٣).

(٧) التفسير الكبير (٢٢٤/١٤/٧) (٨) تفسير القرطبي (٤/٢٧٠٠).

(٩) تفسير ابن كثير (٢/٢٣٠). (١٠) فتح القدير (٢/٢٤٨).

(١١) تيسير الكريم الرحمن (٢، ١٤٤).

الإعراب (١):

وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الواو عاطفة، وإن شرطية، وتصبهم فعل الشرط، والهاء مفعول به، وسيئة فاعل.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

روى ابن أبى حاتم (٢) بسنده عن زيد بن أسلم فى قوله ﴿وَأِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ قال: إذا كان ما يكرهون قالوا إنما أصابنا هذا بشؤم هؤلاء الذين بين أظهرنا كما قال قوم صالح ﴿إِنَّا نَطِيرُنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ فقال الله ﴿إِنَّمَا طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال ابن جرير (٣): قوله ﴿وَأِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يعنى جدوب، وقحوط، وبلاء. أهـ.

وقال البغوى (٤): مثل قول ابن جرير وزاد: ورأوا ما يكرهون. أهـ.

وقال الزمخشري (٥): سيئة من ضيقة وجذب. أهـ.

وقال ابن الجوزى (٦): بنحو ماتقدم.

وقال الفخر الرازى (٧): بنحو ماتقدم وزاد: والمرض والضر. أهـ.

وقال القرطبى (٨): بنحو ماتقدم، وكذا ابن كثير (٩).

وقال الشوكانى (١٠): أى خصلة سيئة من الجذب والقحط. أهـ.

وقال السعدى (١١): بنحو ماتقدم.

مسألة:

فإن قال قائل: كيف قيل فى ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ بإذا؟ وتعريف الحسنة؟ ﴿وَأِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بيان؟ وتنكير السيئة؟

الجواب: قال الزمخشري (١٢): لأن جنس الحسنة واقعة كالواجب، لكثرة واتساعه وأما السيئة فلا تقع إلا فى الندرة، ولا يقع إلا شئ منها، ومنه قوله بعضهم: قد عدت أيام البلاء. . . فهل عدت أيام الرخاء. أهـ.

(٢) تفسير ابن أبى حاتم (٥/١٥٤٣).

(٤) معالم التنزيل (٢/٥٢٦).

(٦) زاد المسير (٣/١٩٠).

(٨) تفسير القرطبى (٤/٢٧٠٠).

(١٠) فتح القدير (٢/٢٤٨).

(١٢) الكشف (٢/٨٤).

(١) إعراب القرآن (٣/٤٣٤).

(٣) تفسير الطبرى (٦/٩٠٢).

(٥) الكشف (٢/٨٤).

(٧) التفسير الكبير (٧/١٤٢٢٤).

(٩) تفسير ابن كثير (٢/٢٣٠).

(١١) تيسير الكريم الرحمن (٢/١٤٤).

قوله ﴿يَطِيرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ وهى كقوله تعالى ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾

الإعراب (١):

يطيروا جواب الشرط، وبموسى جار ومجرور متعلقان بيطيروا، ومن عطف على موسى، ومعه ظرف مكان متعلق بمحذوف لامحل له من الأعراب لأنه صلة الموصول.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

روى ابن أبى حاتم عن مجاهد قوله «يطيروا.. بموسى ومن معه» تشائموا بموسى

ﷺ

● أقوال المفسرين فى الآية:

قال ابن جرير: يقول: يتشاءموا بهم، ويقولوا: أذهبت حظوظنا وأنصباؤنا من الرخاء والخصب والعافية مذ جاءنا موسى عليه السلام. أهـ.

وقال البغوى: وقالوا ما أصابنا بلاء حتى رأيناهم، فهذا من شؤم موسى وقومه.

وقال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر، كان مُلكُ فرعون أربع مائة سنة، وعاش ست مائة وعشرون سنة لا يرى مكروهاً، ولو كان له فى تلك المدة جوع، أو حُمى ليلة، أو وجع ساعة، لما ادعى الربوبية قط. أهـ.

وقال ابن الجوزى: بنحو كلام الطبرى، وزاد تعريف الطيرة وقد مضى تعريفها مفصلاً فى أول الباب.

وكذا قال الفخر الرازى وزاد: قوله (يطيروا) أدغمت التاء فى الطاء، لأنهما من مكان واحد من طرف اللسان وأصول الثنايا. أهـ.

وزاد القرطبى: وقرأ طلحة (تطيروا) على أنه فعل ماضٍ، والأصل فى هذا من الطيرة وزجر الطير، ثم كثر استعماله حتى قيل لكل ما تشاءم تطير.

وقال ابن كثير^(٢): أى هذا بسببهم، وما جاءوا به. أهـ.

وقال الشوكانى^(٣)، والسعدى^(٤) كأقوال المفسرين السابقة.

وقال صاحب الظلال^(٥):

فحين تنحرف الفطرة عن الإيمان بالله، فإنها لا ترى يده - سبحانه وتعالى - فى تصريف هذا الوجود، ولا ترى قدره الذى تنشأ به الأشياء والأحداث، وعندئذ تفقد

(١) إعراب القرآن (٣/ ٤٣٤) (٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٠) (٣) فتح القدير (٢/ ٢٤٨)

(٤) تيسير (الكريم الرحمن) (٠/ ٣١٢). (٥) الظلال (٣/ ١٣٥٦).

إدراكها وحساسيتها بالنواميس الكونية النافذة الثابتة، فتفسر الحوادث تفسيرات منفصلة منعزلة، لاصلة بينها ولاقاعدة ولاترابط، وتهميم مع الخرافة فى دروب ملتوية متفرقة، لاتلتقى عند قاعدة ولاتجتمع وفق نظام، - وذلك كالذى قاله - (خروشوف) - صاحب الاشتراكية العلمية عن معاكسة الطبيعة لهم، فى تعليل نقص الثمرات والغلات، وكما يقولوا الذين يمضون مع هذه العلمية - المدعاة - فى تعليل مثل هذه الأحداث، وهم ينكرون قدر الله، وفيهم من يدعى بعد استنكار غيب الله وقدر الله أنه مسلم وهو ينكر أصول الإيمان بالله. وهكذا مضى فرعون وآله يعللون الأحداث، الحسنة التى تصبهم هى من حسن حظهم وهم يستحقونها. والسيئة التى تصبهم هى بشؤم موسى ومن معه عليهم ومن تحت رأسهم. أهـ.

قوله ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ كقوله فى قصة ثمود ﴿قَالُوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله﴾.

الإعراب (١): ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ألا أداة استفتاح وتنبيه، وإنما كافة ومكفوفة، وطائرهم مبتدأ، وعند الله ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر، والجملة مستأنفة مسوقة من قبله تعالى للرد على اقتنائهم، وأن ما أصابهم هو جزاء وفاق لأعمالهم السيئة المسجلة عنده. أهـ.

● ماجاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن ابن عباس: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال الأمر من قبل الله (٢).

وعن الضحاك فى قوله ﴿طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يقول : الأمر من قبل الله، ما أصابكم من أمر فمن الله، فيما كسبت أيديكم (٣).

● أقوال المفسرين:

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: ألا ما طائر آل فرعون وغيرهم، وذلك أنصباؤهم من الرخاء والخصب وغير ذلك من أنصباء الخير والشر إلا عند الله. أهـ.

قال البغوى (٤): قوله ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ نصيهم من الخصب والجذب، والخير والشر، كله من الله. وقال ابن عباس: ﴿طَائِرُهُمْ﴾ ما قضى عليهم، وقدر لهم،

(٢) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (٢١/٩)

(١) إعراب القرآن وبيانه (٤٣٤/٣)

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى "تفسيره" (١٥٤٣/٥) فانظره تخريجنا

(٤) معالم التنزيل (٥٢٦/٢).

وفى رواية عنه: شؤمهم عند الله ومن قبل الله. إى إنما جاءهم الشؤم بكفرهم بالله. وقيل معناه: الشؤم العظيم. وهو الذى لهم عند الله من عذاب. أهـ.

وقال الرزمخشري^(١):

طائرهم عند الله أى سبب خيرهم وشرهم عند الله وهو حكمه ومشيته والله هو الذى يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسيئة وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه كقوله تعالى ﴿قل كل من عند الله﴾ ويجوز أن يكون معناه ألا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عند الذى يجرى عليهم ما يسوءهم لأجله ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم الله فى قوله سبحانه ﴿النار يعرضون عليها﴾ الآية ولا طائر أشأم من هذا وقرأ الحسن ﴿إنما طيركم عند الله﴾ وهو اسم لجمع طائر غير تكسير ونظيره التجر والركب وعند أبى الحسن هو تكسير. أهـ. قلت: بل هو مكتوب قيل ان يخلق الله الخلق بخمسين ألف سنة

وقال ابن الجوزى^(٢):

قال أبو عبيدة ﴿إلا﴾ تنبيه وتركيد ومجاز ﴿طائرهم﴾ حظهم ونصيبهم وقال ابن عباس: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ أى إن الذى أصابهم من الله: قال الزجاج: المعنى ألا إن الشؤم الذى يلحقهم هو الذى وعدوا به فى الآخرة لا ما ينالهم فى الدنيا أهـ.

وقال الفخر الرازى^(٣):

وقوله ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ فى الطائر قولان:

القول الأول: قال ابن عباس: يريد شؤمهم عند الله تعالى أى من قبل الله أى إنما جاءهم الشر بقضاء الله وحكمة فالطائر ههنا الشؤم ومثله قوله تعالى فى قصة ثمود ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾

قال الفراء: وقد تشاءمت اليهود بالنبي ﷺ بالمدينة، فقالوا غلت أسعارنا وقلت أمطارنا مذ أتاننا، قال الأزهري: وقيل للشؤم طائر وطير وطيرة، لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها، والتطير ببارحها، ونعيق غربانها، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها، فسموا الشؤم طيرا وطائرا وطيرة لتشاؤمهم بها.

(١) الكشف (٨٤/٢). (٢) زاد المسير (٣/ ١٩٠).

(٣) التفسير الكبير (٧/ ١٤/ ٢٢٥).

القول الثاني: فى تفسير الطائر قال أبو عبيدة ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى حظهم، وهو ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: إنما طائرهم ما قضى وقدر لهم^(١) والعرب تقول: أطرت المال وطيرته بين القوم فطار لكل منهم سهمه. أى حصل له ذلك السهم.

وأعلم أن على كلا القولين المعنى: أن كل ما يصيبهم من خير أو شر فهو بقضاء الله تعالى وبتقديره أه.

وقال القرطبي^(٢): ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى ما قدر لهم وعليهم. أه.

وقال ابن كثير^(٣): يقول مصائبهم عند الله. أه.

فائدة:

قال الشوكاني^(٤): وكان هذا الجواب ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ على غلط ما يعتقدونه، وبما يفهمونه ولهذا عبر بالطائر عن الخير والشر الذى يجرى بقدر الله وحكمته ومشيتته. أه.

وقال صاحب الظلال^(٥): إن ما يقع لهم مصدره واحد، إنه من أمر الله، ومن هذا المصدر تصيبهم الحسنة للابتلاء وتصيبهم السيئة للابتلاء ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ويصيبهم النكال للجزاء. أه.

قوله ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

الإعراب^(٦): الواو حالية، لكن واسمها، والجملة نصب على الحال، وجملة لا يعلمون خبر كان. أه.

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن جرير^(٧): قوله ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك كذلك فلجهلهم بذلك كان يتطيرون بموسى ومن معه. أه.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٢٧٠٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٠).

(٤) فتح القدير (٢/ ٢٤٨).

(٥) الظلال (٣/ ١٣٥٧).

(٦) إعراب القرآن (٣/ ٤٣٤).

(٧) تفسير الطبري (٦/ ٢٠).

وقال البغوى (١): قوله ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الذى أصابهم من الله . أهـ .
 وقال الفخر الرازى (٢): ولكن أكثرهم لا يعلمون أن الكل من الله تعالى ، وذلك لأن أكثرهم الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب المحسوسة ويقطعونها عن قضاء الله تعالى وتقديره ، والحق أن الكل من الله ، لأن كل موجود فهو إما واجب الوجود لذاته ، والواجب واحد وما سواه ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته ، وبهذا الطريق يكون الكل من الله فاسنادها إلى غير الله يكون جهلا بكمال الله تعالى أهـ .

وقال القرطبى (٣): ولكن أكثرهم لا يعلمون أن ما لحقهم من القحط والشدائد إنما هو من عند الله عزوجل بذنوبهم ، لامن عند موسى ومن معه . أهـ .
 وقال الشوكانى (٤): ولكن أكثرهم لا يعلمون بهذا بل ينسبون الخير والشر إلى غير الله جهلاً منهم . أهـ .
 وقال السعدى (٥): فلذلك قالوا ما قالوا . أهـ .

وقال صاحب الظلال (٦): ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كالذين ينكرون غيب الله ، وقدره فى هذه الأيام باسم (العقلية العلمية) - العلمانية - وكالذين ينسبون إلى الطبيعة العاكسة باسم الاشتراكية العلمية كذلك !! وكلهم جهال ، وكلهم لا يعلمون . أهـ .

● كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية:

قال سليمان آل الشيخ (٧): وعبد الرحمن آل الشيخ (٨) وقال عبد الله بن جار الله (٩): قوله تعالى ﴿قالوا طائركم معكم﴾ المعنى والله أعلم: حظكم وما نالكم من شر

(١) معالم التنزيل (٢/٥٢٦)

(٢) التفسير الكبير (٧/١٤٠/٢٢٥).

(٣) تفسير القرطبى (٢٧٠٠/٢).

(٤) فتح القدير (٢/٢٤٨).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٢/١٤٤).

(٦) الظلال (٣/١٣٥٦).

(٧) تيسير العزيز الحميد (٣١٢).

(٨) فتح المجيد (٢/٤٠٢).

(٩) الجامع الفريد (١١٣، ١١٤).

معكم بسبب أفعالكم وكفركم ليس من أجلنا ولا بسببنا. أهـ بنحو كلام المفسرين، ونقل كلام ابن جرير المتقدم وغيره.

وقال ابن عثيمين^(١): فى معنى «يطيروا بموسى ومن معه» أنهم إذا جاءهم البلاء والجدب والقحط قالوا: هذا من موسى وأصحابه. فأبطل الله هذه العقيدة بقوله «إنا طائرهم عند الله» الذى قدره، ولأعلاقة لموسى وقومه به، بل إن الأمر يقتضى أن موسى وقومه سبب للبركة والخير ولكن هؤلاء - والعياذ بالله يلبسون على العوام ويوهمون الناس خلاف الواقع... أهـ.

قال القرعاوى^(٢):

الحسنة : أى خصب وسعة ويسر وعافية.

لنا هذه : نحن جديرون بها ومستحقون لها.

سيئة : أى جدب وضيق وبلاء ومرض.

يطيروا بموسى ومن معه: أى يتشاءمون بموسى وأصحابه ويزعمون أن مجاءهم من المصائب حاصل بسبب موسى وأصحابه.

ألا إنما طائرهم عند الله: إنما جاءهم الشؤم من قبل الله بسبب كفرهم وتكذيبهم بآيات الله.

ولكن أكثرهم لا يعلمون: أى لا يعلمون أن الخير والشر مقدر من الله. أهـ.

ثم قال: الفوائد من الآية:

١- أن الخير والشر مقدران من الله.

٢- تحريم كفر النعمة.

٣- تحريم الطيرة والتشاؤم.

٤- أن الجهل سبب لكل شر. أهـ.

قلت: وفيها انصاف المسلمين مع الجاهليين حيث تطيروا بهم ومع ذلك لم يتطير المسلمون بهم.



(١) القول المفيد (٢/ ٩٥).

(٢) الجديد (٢٥٠).

وقول الله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾

قوله: وقول الله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾

والآية التي قبلها ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١).

مناسبة الآية للباب وللتوحيد: هي نفس ما تقدمت في الآية السابقة.

الإعراب (٢):

طائركم مبتدأ ومعكم ظرف متعلق بمحذوف خبر والهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخى وإن شرطية وذكركم فعل ماض مبني للمجهول وهو فى محل جزم فعل الشرط وجواب الشرط محذوف والقاعدة عند سيبويه أنه إذا اجتمع شرط واستفهام يجاب الاستفهام ويحذف جواب الشرط وذهب غيره إلى إجابة الشرط، والتقدير عند سيبويه تتطهرون وعند الآخرين تطهروا بالجزم وبل حرف عطف واضراب أى ليس الأمر كذلك وأنتم مبتدأ وقوم خبر ومصرفون صفة أهد. وذكر نحو ذلك الشوكاني.

● ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:

وقال ابن كثير (٣): ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أى مردود عليكم. كقوله تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقال قوم صالح ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقال عز وجل ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أ. هـ.

وقال الشنقيطى: كقول الله تعالى ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

(١) يس (١٨، ١٩).

(٢) إعراب القرآن وبيانه (٨/ ١٨٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٠).

وقال فى تفسير آية يس: أى بليتكم جادتكم من ذنوبكم وكفركم. أهـ. (١).

وقال أيضاً فى موضع آخر (٢) فى المراد بالطائر فى آية الباب من سورة يس:

الأول: أن المراد بالطائر: العمل، من قولهم: طارله سهم إذا خرج له. أى الزمناه ما طارله من عمله.

الثانى: أن المراد بالطائر ما سبق له فى علم الله من شقاوة أو سعادة . والقولان مثلاً زمان؛ لأن ما يطير له من العمل هو سبب ما يؤول إليه من الشقاوة أو السعادة.

فإذا عرفت الوجهين المذكورين فأعلم أنا قدمنا فى ترجمه هذا الكتاب المبارك : أن الآية قد يكون فيها للعلماء قولان أو أقوالاً، حق ويشهد له قرآن - فنذكر جميع الأقوال وأدلتها من القرآن ؛ لأنها كلها حق، والوجهان المذكوران فى تفسير هذه الآية الكريمة لكلاهما يشهد له قرآن

أما على القول الأول بأن المراد بطائرة عمله فالآيات الدالة على أن عمل الإنسان لازم له كثيرة جداً كقوله تعالى ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا تَجْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ والآيات بمث لهذا كثير جداً.

وأما على القول بأن المراد بطائره نصيبه الذى طار له فى الأزل من الشقاوة أو السعادة فالآيات الدالة على ذلك أيضاً كثيرة، كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ وقوله ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أى للاختلاف إلى شقى وسعيد خلقهم ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ وقوله فريق فى الجنة وفريق فى السعير إلى غير ذلك من الآيات أهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

وعن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ قال : شؤمكم (٣).
وعن يحيى بن وثاب أنه قرأها ﴿أَتَيْنَ ذُكْرْتُمْ﴾ بالخفض وقرأها زر بن حبیش ﴿أَتَيْنَ ذُكْرْتُمْ﴾ بالنصب (٤).

(١، ٢) الدر المنثور (٧/ ٥١، ٥٠).

(٣، ٤) انظر الدر المنثور (٧/ ٥١، ٥٠).

ورعن مجاهد فى قوله ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَنْتِن ذُكِّرْتُمْ﴾ يقول: ماكتب عليكم واقع بكم (١).

قوله ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال ابن جرير (٢): يقول تعالى ذكره: قالت الرسل لأصحاب القرية ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَنْتِن ذُكِّرْتُمْ﴾ يقولون: أعمالكم وأرزاقكم وحظكم من الخير والشر معكم، ذلك كله فى أعناقكم، ومن ذلك من شؤمنا، أن أصابكم سوء فيما كتب عليكم وسبق لكم من الله.

ثم أسند عن ابن عباس وكعب: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أى أعمالكم معكم، وكذا قال قتادة.

قال البغوى (٣): يعنى شؤمكم معكم بكفركم، وتكذيبهم، أى أصابكم الشؤم من قبلكم وقال ابن عباس، والضحاك: حظكم من الخير والشر. هـ.

وقال الرزمخشرى (٤): أو أسباب شؤمكم معكم، وهى كفرهم ومعاصيهم. هـ.

وقال ابن الجوزى (٥): أى شؤمكم معكم بكفركم، لابنا. هـ.

وقال الفخر الرازى (٦): بنحو ذلك. اهـ.

وقال القرطبى (٧): قال ابن عباس معناه الأرزاق، والأقدار تتبعكم. وقال الفراء: رزقكم وعملكم، والمعنى واحد. هـ.

وقال الشوكانى (٨): بنحو كلام المفسرين المتقدم.

(١) انظر الدر المنثور (٧/ ٥٠، ٥١)

(٢) تفسير ابن جرير (١٠/ ٢٦/ ١٠٢)

(٣) معالم التنزيل (٤/ ٥٣٨)

(٤) الكشاف (٣/ ٢٨٣)

(٥) زاد المسير (٦/ ٢٧٦)

(٦) التفسير الكبير (١٣/ ٢٦/ ٥٤/ ٥٥).

(٧) تفسير القرطبى (٨/ ٥٤٦٠)

(٨) فتح القدير (٤/ ٣٥٣).

قراء الامصار وهى دخول ألف الاستفهام على حرف الجزاء وتشديد الكاف على المعنى الذى ذكرناه عن قارئه كذلك لاجماع الحجة من القراء عليه . أهـ.

قال البغوى (١): ﴿أَنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ أى وعظمت بالله تطيرتم بنا . أهـ.

وقال الزمخشري (٢): بنحو ماتقدم

وقال ابن الجوزى (٣): أى وعظمت وخوفتم، وهذا استفهام جوابه محذوف تقديره :

أئن ذكرتم تطيرتم بنا؟

وقيل : أنن ذكرتم قلتم هذا القول؟ . أهـ.

وقال الفخر الرازى (٤):

قالوا: أنن ذكرتم جواباً عن قولهم ﴿لَنَرَجُمَنَّكُمْ﴾ يعنى أنفعلون بنا ذلك . وإن ذكرتم أى بين لكم الأمر بالمعجز والبرهان . أهـ

وقال القرطبى (٥):

وفيه تسعة أوجه من القراءات :

(١) قرأ أهل المدينة ﴿أَنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ بتخفيف الهمزة الثانية

(٢) وقرأ أهل الكوفة ﴿أَنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ بتحقيق الهمزيتين

(٣) ﴿أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ بهمزتين بينهما ألف أدخلت الألف كراهة للجمع بين

الهمزتين .

(٤) ﴿أَإَيْنَ﴾ بهمزة بعدها ألف، وبعد الألف همزة مخففة .

(٥) ﴿أَأَنْ﴾ بهمزتين مفتوحتين بينهما ألف .

(٦) ﴿أَأَنْ﴾ بهمزتين مخففتين مفتوحتين، وحكى القراءات هذه قراءة أبى رزين .

قلت: وحكاها الثعلبى عن زرين حبيش وابن السميع .

(٧) وقرأ عيسى بن عمر والحسن البصرى ﴿أَنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ بمعنى حيث .

وقرأ يزيد بن القعقاع والحسن وطلحة ﴿ذُكِّرْتُمْ﴾ بالتخفيف . ذكر جميعه النحاس .

(٨) وذكر المهدوى عن طلحة بن مُصَرِّف وعيسى الهمزانى ﴿أَنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ بالمد على

أن الهمزة للاستفهام دخلت على همزة مفتوحة .

(٣) زاد المسير (٦/ ٢٧٦)

(٢) الكشف (٣/ ٢٨٣)

(١) معالم التنزيل (٤/ ٥٣٨)

(٥) تفسير القرطبى (٨/ ٥٤٦٠)

(٤) التفسير الكبير (١٣/ ٢٦/ ٥٥)

(٩) ﴿أَنْ﴾ للماجشون، بهمزة واحدة مفتوحة.

فهذه تسع قراءات. أهـ

وقال ابن كثير (١): ﴿أَنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ أى من أجل أننا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا. أهـ.

وقال السعدى (٢): أى بسبب أنا ذكرناكم مافيه صلاحكم وحظكم قلتم لنا ما قلتم.

وقال صاحب الظلال (٣): يعنى أترجموننا وتعذبوننا لأننا نذكركم! أفهذا جزاء التذكير؟!

قوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾:

● ماجاء فى الآية من أقوال المفسرين

قال ابن جرير (٤): يقول : قالوا لهم ما بكم التطير بنا، ولكنكم قوم أهل معاصى وآثام قد غلبت عليكم الذنوب والآثام. أهـ.

وقال البغوى (٥): ﴿مُسْرِفُونَ﴾ مشركون مجاوزون الحد. أهـ.

وقال الزمخشري (٦): ﴿مُسْرِفُونَ﴾ فى العصيان، ومن ثم أتاكم الشؤم لا من قبل رسل الله وتذكيرهم، أو ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ فى ضلالكم متمادون فى غيكم حيث تشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله. أهـ.

وقال ابن الجوزى (٧): المسرفون ها هنا المشركون. أهـ.

وقال الفخر الرازى (٨): ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ حيث تجعلون من يتبرك به كمن يتشاءم به وتقصدون إيلا من يجب فى حقه الإكرام أو ﴿مُسْرِفُونَ﴾ حيث تكفرون، ثم تصرون بعد ظهور الحق بالمعجز والبرهان فإن الكافر بالمسء فإذا تم عليه الدليل وأوضح له السبيل.

وبالإصرار يكون مسرفاً، والمسرف هو المجاوز الحد بحيث يبلغ الضد وهم كانوا كذلك فى كثير من الأشياء أما فى التبرك والتشاؤم فقد علم وكذلك الإيلا والإكرام،

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣٠)

(٢) الظلال (٥/ ٢٩٦٢).

(٣) معالم التنزيل (٤/ ٥٣٨).

(٤) زاد المسير (٦/ ٢٧٦).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢١٥).

(٦) تفسير ابن جرير الطبرى (١٠/ ٢٦/ ١٠٢).

(٧) الكشاف (٣/ ٢٨٣).

(٨) التفسير الكبير (١٣/ ٢٦/ ٥٥).

وأما فى الكفر فلأن الواجب اتباع الدليل ، فإن لم يوجد به فلا أقل من أن لا يعجزم بنقيضه وهم جزموا بالكفر بعد البرهان على الإيمان ، فإن قيل بل للإضراب فما الأمر المضرب عنه؟ نقول يحتمل أن يقال قوله (أئن ذكرتم) وارد على تكذيبهم ونسبتهم الرسل إلى الكذب بقولهم: (إن أنتم إلا تكذبون) فكانهم قالوا نحن كاذبون وإن جئنا بالبرهان ، لا ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ ويحتمل أن يقال نحن مستحقون للرجم والإيلام ، وإن بينا صحة ما أتينا به ، لا ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وأما الحكاية فمشهورة ، وهى أن عيسى - عليه السلام - بعث رجلين إلى أنطاكية فدعيا إلى التوحيد وأظهرا المعجزة من إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى فحبسهما الملك ، فأرسل بعدهما شمعون فأتى الملك ولم يدع الرسالة ، وقرب نفسه إلى الملك بحسن التدبير ، ثم قال له : إنى أسمع أن فى الحبس رجلين يدعيان أمراً بديعاً ، أفلا يحضران حتى نسمع كلاً منهما ؟ قال الملك بلى : فأحضرا وذكرنا مقالتهما الحقة ، فقال لهما شمعون : فهل لكما بينة؟ قالوا نعم ، فأبرأ الأكمة والأبرص وأحيا الموتى ، فقال شمعون أيها الملك إن شئت أن تغلبهم ، فقل للآلهة التى تعبدونها تفعل شيئاً من ذلك ، قال الملك : أنت لا يخفى عليك أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تقدر ولا تعلم ، فقال شمعون : فإذا ظهر الحق من جانبهم ، فأمن الملك وقوم وكفر آخرون ، وكانت الغلبة للمكذبين : اهـ .

وقال القرطبي^(١) : قال قتادة : (مسرفون) فى تطيركم ، وقال يحيى بن سلام : مسرفون فى كفركم ، وقال ابن بحر : السرف ههنا الفساد ، ومعناه : بل أنتم قوم مفسدون ، وقيل : مسرفون مشركون ، والإسراف مجاوز الحد ، والمشارك يجاوز الحد . اهـ .

وقال الشوكانى^(٢) : بل أنتم قوم عادتكم الإسراف فى معصية ، والإسراف فى الأصل : مجاوزة الحد فى مخالفة الحق اهـ .

وقال السعدى^(٣) : فلم يزدكم دعاؤهم إلا نفوراً واستكباراً . اهـ .

وقال صاحب الظلال^(٤) : تتجاوزون الحدود فى التفكير والتقدير ، وتجاوزون على الموعدة بالتهديد والوعيد ، وتردون على الدعوة بالرجم والتعذيب !

(٢) فتح القدير (٤/ ٣٥٣)

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٥٤٦٠)

(٤) الظلال (٥/ ٢٩٦٢)

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢١٥)

● ما جاء من كلام شرح كتاب التوحيد فى الآية:

قال سليمان آل الشيخ^(١): المعنى والله أعلم أى حظكم وما نالكم من خير وشر معكم بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا بل ببغيتكم وعداوتكم فطائر الباغى الظالم معه وهو عند الله كما قال تعالى : ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ ولو فقهوا أو فهموا لما تطيروا لما جئت به، لأن ليس فيما جاء به الرسول ﷺ ما يقتضى الطيرة كأنه خير محض لا شر فيه وصلاح لا فساد فيه، وحكمه لا عيب فيها ورحمة لا جور فيها.

فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا لأن الطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والحكمة والرحمة بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيتهم وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصائهم التى ينالونها منه بأعمالهم ويحتمل أن يكون المعنى (طائرهم معكم) أى راجع عليكم فالتطير الذى حصل لكم إنما يعود عليكم وهذا من باب القصاص فى الكلام ونظيره قوله عليه السلام: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم» ذكره ابن القيم. اهـ.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): نحو كلام سليمان باختصار.

● فائدة:

قال ابن عثيمين^(٣): ولا منافاة بين هذه الآية، التى ذكرها المؤلف قبلها، لأن (الأولى) تدل على أن المقدر لهذا الشيء هو الله (والثانية) تبين سببه، وهو أنه منهم؟ فهم فى الحقيقة طائرهم معهم (أى الشؤم) الحاصل عليهم معهم ملازم لهم؟ لأن أعمالهم نستلزمه، كما قال تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾^(٤) وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٥)

(١) تيسير العزيز الحميد (٣١٣).

(٢) فتح المجيد (٤٠٢/٢، ٤٠٣).

(٣) القول المفيد (٩٧، ٩٦/٢).

(٤) الروم : ٤١.

(٥) الأعراف : ٩٦.

● شرح الحديث

قوله: [عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا عدوى ...] أخرجه،
أى البخارى ومسلم.
قوله ﴿لا عدوى﴾

قال أبو السعادات: العدوى اسم من الإعداء كالدعوى والبقوى من الإبقاء. يقال: أعداه الداء يعديه إعداء، وهو أن يصيبه مثل ما بصاحب الداء. وذلك أن يكون يبعير جرب مثلاً يتقى مخالطته بابل أخرى حذار أن يتعدى ما به من الجرب إليها فيصيبها ما أصابه انتهى (١).

مسالك أهل العلم فى الجمع بين حديث «لا عدوى» ، وحديث «فر من المجذوم»:

قال ابن حجر (٢): أخرج ابن خزيمة فى «كتاب التوكل» له شاهد من حديث عائشة ولفظه «لا عدوى إذ رأيت المجذوم ففر منه كما تفر من الأسد» وأخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد الثقفى عن أبيه قال: «كان فى وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه رسول الله ﷺ: إنا قد بايعناك، فارجع (٣).

قال عياض: اختلفت الآثار فى المجذوم، فجاء ماتقدم عن جابر «أن النبى ﷺ أكل مع مجذوم وقال: ثقة بالله وتوكلاً عليه» (٤) قال فذهب عمر وجماعة من السلف إلى الأكل معه ورأوا أن الأمر باجتنابه منسوخ، وعن قال بذلك عيسى بن دينار من المالكية، قال والصحيح الذى عليه الأكثر ويتعين المصير إليه أن لانسخ، بل يجب الجمع بين الحديثين وحمل الأمر باجتنابه والفرار منه على الاستحباب والاحتياط، والأكل معه على بيان الجواز أهد.

هكذا اقتصر القاضى ومن تبعه على حكاية هذين القولين، وحكى غيره قولاً ثالث وهو الترجيح.

(١) تيسير العزيز الحميد (٣١٣).

(٢) فتح البارى (١٠/١٦٨: ١٧٢).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (١٤/٢٢٨ - النووى)

وانظر «الطب النبوى» (٤٦٦ بتحقيقنا)

(٤) [ضعيف مرفوعاً] أخرجه أبو داود (٣٩٢٥)، والترمذى (١٨١٧)، وابن ماجه (٣٥٤٢) عن جابر

وقد سلكه فريقان (أحدهما) سلك ترجيح الأخبار الدالة على نفى العدوى وتزيف الأخبار الدالة على عكس ذلك مثل حديث الباب فأعلوه بالشذوذ، وبأن عائشة أنكرت ذلك، فأخرج الطبري عنها «أن امرأة سألتها عنه فقالت: ما قال ذلك، ولكنه قال «لاعدوى»^(١) وقال «فمن أعدى الأول»^(٢)؟ قالت: وكان لى مولى به هذا الداء فكان يأكل فى صحافى ويشرب فى أقداحى وينام على فراشى وبأن أبا هريرة تردد فى هذا الحكم كما سيأتى بيانه فيؤخذ الحكم من رواية غيره، وبأن الأخبار الواردة من رواية غيره فى نفى العدوى كثيرة شهيرة بخلاف الأخبار المرخصة فى ذلك، ومثل حديث «لاتديموا النظر إلى المجذومين»^(٣) وقد أخرجه ابن ماجه وسنده ضعيف.

ومثل حديث عبدالله بن أبى أوفى رفعه «كلم المجذوم وبينك وبينه قيد رمحين» أخرجه أبو نعيم فى الطب بسند واه.

ومثل ما أخرجه الطبري من طريق معمر عن الزهرى «أن عمر قال لمعقيب: أجلس منى قيد رمح» ومن طريق خارجة بن زيد كان عمر يقول نحوه، وهما أثران منقطعان.

وأما حديث الشريد الذى أخرجه مسلم فليس صريحا فى أن ذلك بسب الجذام. والجواب عن ذلك: أن طريق الترجيح لا يصار إليها إلا مع تعذر الجمع، وهو ممكن، فهو أولى.

الفريق الثانى: سلكوا فى الترجيح عكس هذا المسلك، فردوا حديث لاعدوى بأن أبا هريرة رجع عنه إما لشكه فيه وإما لثبوت عكسه عنده كما سيأتى إيضاحه قالوا: والأخبار الدالة على الاجتناب أكثر مخارج وأكثر طرقا فالمصير إليها أولى، قالوا: وأما حديث جابر «أن النبى ﷺ أخذ بيد مجذوم فوضعها فى القصعة وقال: «كل ثقة بالله وتوكلاً عليه»^(٤) ففيه نظر، وقد أخرجه الترمذى وبين الاختلاف فيه على رواية ورجح وقفه على عمر، وعلى تقدير ثبوته فليس فيه أنه ﷺ أكل معه، وإنما فيه أنه وضع يده فى القصعة، قاله الكلاباذى فى «معانى الأخبار».

والجواب: أن طريق الجمع أولى كما تقدم.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ما قبله.

(٣) [حسن] أخرجه ابن ماجه (٣٥٤٣) عن ابن عباس به.

وانظر «الطب النبوى» (٤٦٣) - بتحقيقنا

(٤) تقدم تخريجه

وأيضاً فحديث لاعدوى ثبت من غير طريق أبى هريرة فصَح عن عائشة وابن عمر وسعد بن أبى وقاص وجابر وغيرهم، فلا معنى لدعوى كونه معلولاً، والله أعلم.

وفى طريق الجمع مسالك أخرى.

أحدها نفى العدوى جملة وحمل الأمر بالفرار من المجذوم على رعاية خاطر المجذوم، لأنه إذا رأى الصحيح البدن السليم من الآفة تعظم مصيبته وتزداد حسرته، ونحوه حديث «لا تديموا النظر إلى المجذومين»^(١) فإنه محمول على هذا المعنى.

ثانيها: حمل الخطاب بالنفى والإثبات على حالتين مختلفتين، فحيث جاء «لا عدوى» كان المخاطب بذلك من قوى يقينه وصحح توكله بحيث يستطيع أن يدفع عن نفسه اعتقاد العدوى، كما يستطيع أن يدفع التطير الذى يقع فى نفس كل أحد، لكن القوى اليقين لا يتأثر به، وهذا مثل ما تدفع قوة الطبيعة العلة فتبطلها، وعلى هذا يحمل حديث جابر فى أكل المجذوم من القصعة وسائر ماورد من جنسه، وحيث جاء «فر من المجذوم»^(٢) كان المخاطب بذلك من ضعف يقينه، ولم يتمكن من تمام التوكل فلا يكون له قوة على دفع اعتقاد العدوى، فأريد بذلك سد باب اعتقاد العدوى عنه بأن لا يباشر ما يكون سبباً لإثباتها.

وقريب من هذا كراهيته ﷺ الكى مع إذنه فيه كما تقدم تقريره، وقد فعل هو ﷺ كلا من الأمرين ليتأسى به كل من الطائفتين.

ثالث المسالك: قال القاضى أبو بكر الباقلانى: إثبات العدوى فى الجذام ونحوه مخصوص من عموم نفى العدوى، قال: فيكون معنى قوله «لا عدوى» أى إلا من الجذام والبرص والجرب مثلاً، قال: فكأنه قال لا يعدى شئ شيئاً إلا ما تقدم تبينى له أن فيه العدوى، وقد حكى ذلك ابن بطال أيضاً.

رابعها: أن الأمر بالفرار من المجذوم ليس من باب العدوى فى شئ بل هو لأمر طبيعى وهو انتقال الداء من جسد لجسد بواسطة الملامسة والمخالطة وشم الرائحة، ولذلك يقع فى كثير من الأمراض فى العادة انتقال الداء من المريض إلى الصحيح بكثرة المخالطة.

وهذه طريقة ابن قتيبة فقال: المجذوم تشتد رائحته حتى يسقم من أطال مجالسته

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه وانظر تمام تخريجه فى «فتح المجيد» (ج ٥٦٣) بتخريجنا.

ومحادثته ومضاجعته، وكذا يقع كثيراً بالمرأة من الرجل وعكسه، ويتزع الولد إليه، ولهذا يأمر الأطباء بترك مخالطة المجذوم لا على طريق العدوى بل على طريق التأثير بالرائحة لأنها تسقم من واطب اشتماها.

قال: ومن ذلك قوله ﷺ «لا يورد ممرض على مصح»^(١) لأن الجرب الرطب قد يكون بالبعير، فإذا خالط الإبل أو حككها وأوى إلى مباركها وصل إليها بالماء الذي يسيل منه، وكذا بالنظر نحو ما به .

قال: وأما قوله: «لا عدوى» فله معنى آخر، وهو أن يقع المرض بمكان كالطاعون فيفر منه مخافة أن يصيبه، لأن فيه نوعاً من الفرار من قدر الله.

(المسلك الخامس): أن المراد بنفى العدوى أن شيئاً لا يعدى بطبعه نفيًا لما كانت الجاهلية تعتقده أن الأمراض تعدى بطبعها من غير إضافة إلى الله، فأبطل النبي ﷺ اعتقادهم ذلك وأكل مع المجذوم ليبين لهم أن الله هو الذى يمرض ويشفى، ونهاهم عن الدنو منه ليبين لهم أن هذا من الأسباب التى أجرى الله العادة بأنها تفضى إلى مسبباتها، ففى نهيه إثبات الأسباب، وفى فعله إشارة إلى أنها لا تستقل، بل الله هو الذى إن شاء سلبها قواها فلا تؤثر شيئاً وإن شاء أبقاها فأنثرت، ويحتمل أيضاً أن يكون أكله ﷺ مع المجذوم أنه كان به أمر يسير لا يعدى مثله فى العادة، إذ ليس الجذمى كلهم سواء، ولا تحصل العدوى من جميعهم بل لا يحصل منه فى العادة عدوى أصلاً كالذى أصابه شئ من ذلك ووقف فلم يعد بقية جسمه فلا يعدى، وعلى الاحتمال الأول جرى أكثر الشافعية .

قال البيهقى بعد أن أورد قول الشافعى ما نصه: الجذام والبرص يزعم أهل العلم بالطب والتجارب أنه يعدى الزوج كثيراً، وهو داء مانع للجماع لا تكاد نفس أحد تطيب بجماعة من هو به ولا نفس امرأة أن يجامعها من هو به، أما الولد فيبين أنه إذا كان من ولده أجذم أو أبرص أنه قلما يسلم، وإن سلم أدرك نسله.

قال البيهقى: وأما ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا عدوى» فهو على الوجه الذى كانوا يعتقدونه فى الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى. وقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شئ من هذه العيوب سبباً لحدوث ذلك، ولهذا قال

(١) تقدم تخريجه وأنظر «فتح المجيد» (ح ٥٥٧) بتخريجنا.

«فر من المجذوم فرارك من الأسد»^(١) وقال «لا يورد ممرض على مصح»^(٢) وقال فى الطاعون : «من سمع به بأرض فلا يقدم عليه»^(٣) وكل ذلك بتقدير الله تعالى .

وتبعه على ذلك ابن الصلاح فى الجمع بين الحديثين ومن بعده وطائفة ممن قبله .

(المسلك السادس): العمل بنفى العدوى أصلاً ورأساً، وحمل الأمر بالمجانبة على حسم المادة وسد الذريعة لئلا يحدث للمخالط شيء من ذلك فيظن أنه بسبب المخالطة فيثبت العدوى التى نفاها الشارع، وإلى هذا القول ذهب أبو عبيد وتبعه جماعة فقال أبو عبيدة: ليس فى قوله : «لا يورد ممرض على مصح» إثبات العدوى، بل لأن الصحاح لو مرضت بتقدير الله تعالى ربما وقع فى نفس صاحبها أن ذلك من العدوى فيفتن وتشكك فى ذلك، فأمر باجتنابه .

قال: وكان بعض الناس يذهب إلى الأمر بالاجتناب إنما هو للمخافة على الصحيح من ذوات العاهة .

قال: وهذا شر ما حمل عليه الحديث، لأن فيه إثبات العدوى التى نفاها الشارع، ولكن وجه الحديث عندى ما ذكرته، وأظن ابن خزيمة فى هذا فى «كتاب التوكل» فإنه أورد حديث «لا عدوى» عن عدة من الصحابة وحديث «لا يورد ممرض على مصح» من حديث أبى هريرة .

وترجم للأول «التوكل على الله فى نفى العدوى» .

وللثانى: «ذكر خبر غلط فى معناه بعض العلماء، وأثبت العدوى التى نفاها النبى ﷺ» .

ثم ترجم «الدليل على أن النبى ﷺ لم يرد بإثبات العدوى بهذا القول» فساق حديث أبى هريرة «لا عدوى»، فقال أعرابى: فما بال الإبل يخالطها الأجرب فتجرب؟ قال : فمن أعدى الأول ثم ذكر طريقه عن أبى هريرة، ثم أخرجه من حديث ابن مسعود، ثم ترجم «ذكر خبر روى فى الأمر بالفرار من المجذوم قد يخطر لبعض الناس أن فيه إثبات العدوى وليس كذلك» وساق حديث «فر من المجذوم فرارك من الأسد»^(٤)

(١، ٢) تقدم تخريجه .

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٧٣) ، ومسلم فى السلام (٢٠٣/١٤) - النووى

وانظر «الطب النبوى» (٥٢١ - بتحقيقنا)

وانظر «فتح المجيد» (ح ٥٦٥) بتخريجنا .

(٤) تقدم تخريجه .

من حديث أبى هريرة ومن حديث عائشة، وحديث عمرو بن الشريد عن أبيه فى أمر المجذوم بالرجوع، وحديث ابن عباس «لا تديموا النظر إلى المجذومين»^(١) ثم قال : إنما أمرهم ﷺ بالفرار من المجذوم كما نهاهم أن يورد الممرض على المصح شفقة عليهم، وخشية أن يصيب بعض من يخالطه المجذوم الجذام، والصحيح من الماشية الجرب فيسبق إلى بعض المسلمين أن ذلك من العدوى فيثبت العدوى التى نفاها ﷺ فأمرهم بتجنب ذلك شفقة منه ورحمة ليسلموا من التصديق بإثبات العدوى، وبين لهم أنه لا يعدى شئ شئاً.

قال: ويؤيد هذا أكله ﷺ مع المجذوم ثقة بالله وتوكلاً عليه. وساق حديث جابر فى ذلك.

ثم قال: وأما نهيه عن إدامة النظر إلى المجذوم فيحتمل أن يكون لأن المجذوم يغتم ويكره إدمان الصحيح نظره إليه، لأنه قل من يكون به داء إلا وهو يكره أن يطلع عليه اهـ.

وهذا الذى ذكره احتمالاً سبقه إليه مالك، فإنه سئل عن هذا الحديث فقال: ما سمعت فيه بكراهية، وما أدرى ما جاء من ذلك إلا مخافة أن يقع فى نفس المؤمن شئ.

وقال الطبرى: الصواب عندنا القول بما صح به الخبر، وأن لا عدوى، وأنه لا يصيب نفساً إلا ما كتب عليها، وأما دنو عليل من صحيح فغير موجب انتقال العلة للصحيح إلا أنه لا ينبغى لذى صحة الدنو من صاحب العاهة التى يكرهها الناس، لا لتحريم ذلك، بل لخشية أن يظن الصحيح أنه لو نزل به ذلك الداء أنه من جهة دنوه من العليل فيقع فيما أبطله النبى ﷺ من العدوى.

قال: وليس فى أمره بالفرار من المجذوم معارضة لأكله معه، لأنه كان يأمر بالأمر على سبيل الإرشاد أحياناً وعلى سبيل الإباحة أخرى، وإن كان أكثر الأوامر على الإلزام، وإنما كان يفعل ما نهى عنه أحياناً لبيان أن ذلك ليس حراماً.

وقد سلك الطحاوى فى «معانى الآثار» مسلك ابن خزيمة فيما ذكره فأورد حديث «لا يورد ممرض على مصح»^(٢) ثم قال: معناه أن المصح قد يصبىه ذلك الممرض فيقول الذى أورده لو أنى ما أوردته عليه لم يصبه من هذا المرض شئ، والواقع أنه لو لم

(٢) تقدم تخريجه

(١) تقدم تخريجه

يورده لأصابه لكون الله تعالى قدره، فمنه عن إيراده لهذه العلة التي لا يؤمن غالباً وقوعها في قلب للمرء، ثم ساق الأحاديث في ذلك فاطنب وجمع بينها بنحو ما جمع به ابن خزيمة، ولذلك قال القرطبي في «المفهم»: «إنما نهى رسول الله ﷺ عن إيراده الممرض على المصح مخافة الوقوع فيما وقع فيه أهل الجاهلية من اعتقاد العدوى، أو مخافة تشويش النفوس وتأثير الأوهام، وهو نحو قوله «فر من المجذوم فرارك من الأسد»^(١) وإن كنا نعتقد أن الجذام لا يعدى، لكننا نجد في أنفسنا نفرة وكراهية لمخالطته، حتى لو أكره إنسان نفسه على القرب منه وعلى مجالسته لتأذت نفسه بذلك، فحيث لا أولى للمؤمن أن لا يتعرض إلى ما يحتاج فيه إلى مجاهدة، فيجتنب طرق الأوهام، ويباعد أسباب الآلام، ومع أنه يعتقد أن لا ينجم حذر من قدر، والله أعلم.

قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: الأمر بالفرار من الأسد ليس للوجوب، بل للشفقة، لأنه ﷺ كان ينهى أمته عن كل ما فيه ضرر بأى وجه كان، ويدلهم على كل ما فيه خير، وقد ذكر بعض أهل الطب أن الروائح تحدث في الأبدان خللاً فكان هذا وجه الأمر بالمجانبة، وقد أكل هو مع المجذوم، فلو كان الأمر بمجانبته على الوجوب لما فعله.

قال: ويمكن الجمع بين فعله وقوله بأن القول هو المشروع من أجل ضعف المخاطبين، وفعله حقيقة الإيمان، فمن فعل الأول أصاب السنة وهى أثر الحكمة، ومن فعل الثانى كان أقوى يقيناً لأن الأشياء كلها لا تأثير لها إلا بمقتضى إرادة الله تعالى وتقديره، كما قال تعالى «وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»^(٢) فمن كان قوى اليقين فله أن يتابعه ﷺ في فعله ولا يضره شيء، ومن وجد في نفسه ضعفاً فليتبع أمره في الفرار لئلا يدخل بفعله في إلقاء نفسه إلى التهلكة.

والحاصل: أن الأمور التي يتوقع منها الضرر وقد أباحت الحكمة الربانية الحذر منها فلا ينبغي للضعفاء أن يقربوها وأما أصحاب الصدق واليقين فهم في ذلك بالخيار. قال: وفي الحديث أن الحكم للأكثر لأن الغالب من الناس هو الضعف، فجاء الأمر بالفرار بحسب ذلك. اهـ.

ورجح سليمان آل الشيخ^(٣) قول ابن الصلاح ومن تبعه، فذكر أنه أحسن

(١) تقدم تخريجه

(٢) البقرة (١٠٢).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣١٥، ٣١٦.

الأقوال، فقال: وأحسن من هذا كله ما قاله البيهقي، وتبعه ابن الصلاح وابن القيم وابن رجب وابن مفلح وغيرهم أن قوله: «لا عدوى» على الوجه الذي كانوا يعتقدونه في الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى وأن هذه الأمراض تعدى بطبعها، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سبباً لحدوث ذلك، ولهذا قال: «فر من المجذوم كما تفر من الأسد» وقال: «لا يورد ممرض على مصح»^(١) وقال في الطاعون: «من سمع به بأرض فلا يقدم عليه»^(٢) وكل ذلك بتقدير الله تعالى كما قال ﷺ: «فمن أعدى الأول» يشير إلى أن الأول إنما جرب بقضاء الله وقدره، وكذلك الثاني وما بعده.

وروى الإمام أحمد والترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً، «لا يعدى شيء» قالها ثلاثاً فقال الأعرابي: يا رسول الله النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها، فقال رسول الله ﷺ: «فمن أجرب الأول لا عدوى ولا هامة ولا صفر خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصابها ورزقها»^(٣) فأخبر عليه السلام أن ذلك كله بقضاء الله وقدره كما دل عليه قوله تعالى: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا» .

وأما أمره بالفرار من المجذوم ونهيه عن إيراد الممرض على المصح وعن الدخول إلى موضع الطاعون، فإنه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى، وجعلها أسباباً للهلاك والأذى، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية، فكما أنه يؤمر أن لا يلقى نفسه في الماء أو في النار أو تحت الهدم أو نحو ذلك كما جرت العادة بأنه يهلك ويؤذى، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم، وقدم بلد الطاعون فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره.

وأما إذا قوى التوكل على الله، والإيمان بقضائه وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتماداً على الله ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك لا سيما إذا كانت فيه مصلحة عامة أو خاصة.

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٤٤٠)، والترمذي (٢١٤٣) عن ابن مسعود به وفي إسناده رجل لم

وعلى هذا يحمل الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى أن النبى ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه فى القصعة ثم قال: «كل باسم الله ثقة بالله وتوكلا عليه»^(١) وقد أخذ به الإمام أحمد . . وروى ذلك عن عمر وابنه وسلمان رضى الله عنهم ونظير ذلك ما روى عن خالد بن الوليد من أكل السم ومن مشى سعد بن أبى وقاص وأبى مسلم الخولانى بالجيش على متن البحر قاله ابن رجب. اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٢) مرجحاً بين هذه الأقوال المتقدم ذكرها:

الجدام مرض خبيث معدٍ بسرعة ويتلف صاحبه، حتى قيل: إنه الطاعون، فالأمر بالفرار من المجذوم لكى لاتقع العدوى منه إليك. وفيه إثبات لتأثير العدوى، لكن تأثيرها ليس أمراً حتماً بحيث تكون علة فاعلة، وأمر النبى ﷺ بالفرار^(٣)، وأن لا يورد ممرض على مصح^(٤) من باب تجنب الأسباب، لا من باب تأثير الأسباب بنفسها، فالأسباب لا تؤثر بنفسها، لكن ينبغي لنا أن نتجنب الأسباب التى تكون سبباً للبلاء، لقوله تعالى «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» ولا يمكن أن يقال: إن الرسول ﷺ ينكر تأثير العدوى؛ لأن هذا الأمر يطلبه الواقع والأحاديث الأخرى فإن قيل: إن الرسول ﷺ لما قال: «لا عدوى» قال رجل يا رسول الله! الإبل تكون صحيحة مثل الأطباء، فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟ فقال النبى ﷺ فمن أعدى الأولى؟^(٥) يعنى أن المرضى نزل على الأول بدون عدوى، بل نزل من عند الله - عز وجل - فذلك إذا انتقل بالعدوى، فقد انتقل بأمر الله، والشئ قد يكون له سبب معلوم، وقد لا يكون له سبب معلوم، فَجَرَبُ الأول ليس سببه معلوماً، إلا أنه بتقدير الله تعالى، وجرب الذى بعده له سبب معلوم، لكن لو شاء الله تعالى لم يَجَرَبْ، ولهذا أحياناً تصاب الإبل بالجرب، ثم يرتفع ولا تموت، وكذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية، وقد تدخل البيت فتصيب البعض فيموتون ويسلم آخرون ولا يصابون فالإنسان يعتمد على الله ويتوكل عليه وقد روى أن النبى ﷺ جاءه رجل مجذوم فأخذ بيده وقال له: «كل من الطعام»^(٦) الذى كان يأكل منه الرسول ﷺ لقوة توكله ﷺ، فهذا التوكل مقاوم لهذا السبب المعدى.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القول المفيد (٢/ ١٠٠، ١٠١، ١٠٢).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تقدم تخريجه.

وهذا الجمع الذى أشرنا إليه هو أحسن ما قيل فى الجمع بين الأحاديث. اهـ.

قوله عليه السلام: «فر من المجذوم فرارك من الأسد».

● خلاصة القول فى المسألة:

قال ابن حجر فى «النزهة»^(١): كلاهما فى الصحيح - أى الحديثين - وظاهرهما التعارض ووجه الجمع بينهما أن هذه الأمراض لا تعدى بطبعها، لكن الله سبحانه وتعالى جعل مخالطة المريض بها للصحيح سبباً لإعدائه مرضه. ثم قد يتخلف ذلك عن سببه كما فى غيره من الأسباب، كذا جمع بينهما ابن الصلاح تبعاً لغيره.

والأولى فى الجمع بينهما أن يقال: إن نفيه عليه السلام للعدوى باق على عمومه، وقد صح قوله عليه السلام لا يعدى شيء شيئاً وقوله عليه السلام لمن عارضه بأن البعير الأجرب يكون فى الإبل الصحيحة فيخالطها فتجرب، حيث رد عليه بقوله فمن أعدى الأول^(٢)؟ يعنى أن الله سبحانه وتعالى ابتدأ ذلك فى الثانى كما ابتدأ فى الأول.

وأما الفرار من المجذوم فمن باب سد الذرائع لئلا يستفقد للشخص الذى يخالطه شيء من ذلك بتقدير الله ابتداء لا بالعدوى المنسية، فيظن أن ذلك بسبب مخالطته فيعتقد صحة العدوى، فيقع فى الحرج، فأمر بتجنبه حسماً للمادة. والله أعلم اهـ.

● فائدة من حديث «فر من المجذوم»:

قال ابن حجر^(٣): واستدل بالأمر بالفرار من المجذوم لإثبات الخيار للزوجين فى فسخ النكاح إذا وجده أحدهما بالآخر، وهو قول جمهور العلماء.

وأجاب فيه من لم يقل بالنسخ بأنه لو أخذ بعمومه لثبت الفسخ إذا حدث الجذام ولا قائل به. ورد بأن الخلاف ثابت، بل هو الراجح عند الشافعية، وقد تقدم فى النكاح الإمام بشيء من هذا.

واختلف فى أمة الأجذم: هل يجوز لها أن تمنع نفسها من استمتاعه إذا أرادها؟ واختلف العلماء فى المجذومين إذا كثروا هل يمنعون من المساجد والجامع؟ وهل يتخذ لهم مسكن منفرد عن الأصحاء؟ ولم يختلفوا فى النادر أنه لا يمنع ولا فى شهود الجمعة. اهـ.

(١) نزهة النظر ص ١٠٣، ١٠٤.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) الفتح (١٠/١٧٢).

قوله [ولا طيرة]:

(تعريفها):

سيأتى فى نهاية هذا الباب فى تعريفها حديث الفضل بن العباس رضى الله عنهما: إنما الطيرة ما أمضاك أوردك. اهـ.

قال ابن حجر^(١): هى التشاؤم وهى مصدر تطير مثل تحير حيرة. اهـ.

وتقدم فى أول الباب كلام الحافظ مستفيضاً وكلام غيره من أهل العلم، وهل الطيرة والتشاؤم بمعنى واحد أم لا؟

وبينا الفرق بين الطيرة والفأل. فلا حاجة للتكرار ثانياً.

وقال ابن حجر^(٢) فى موضع آخر فىمن تطير: إذا اعتقد أن الذى يشاهده من حال الطير موجباً ما ظنه ولم يصف التدبير إلى الله تعالى، فأما إن علم أن الله هو المدبر ولكنه أشفق من الشر لأن التجارب قضت بأن صوتاً من أصواتها معلوماً أو حالاً من أحوالها معلومة يردفها مكروه فإن وطن نفسه على ذلك أساء، وإن سأل الله الخير واستعاذ به من الشر ومضى متوكلاً لم يضره ما وجد نفسه من ذلك، وإلا فيؤخذ به، وربما وقع به ذلك المكروه بعينه الذى اعتقده عقوبة له كما كان يقع كثيراً لأهل الجاهلية. والله أعلم اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٣):

قوله: «ولا طيرة» قال ابن القيم: هذا يحتمل أن يكون نفيًا أو يكون نهيًا أى لا تتطيرا، ولكن قوله فى الحديث: «ولا عدوى ولا صفر ولا هامة» يدل على أن المراد النفى وإبطال هذه الأمور التى كانت الجاهلية تعانيتها، والنفى فى هذا أبلغ من النهى، لأن النفى يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهى إنما يدل على المنع منه.

[قلت]: وسيأتى أيضاً فى متن المصنف حديث ابن مسعود: «الطيرة شرك الطيرة شرك» وحديث ابن عمر «من ردته الطيرة عن حاجة فقد أشرك» قال سليمان:

وفى «صحيح مسلم» عن معاوية بن الحكم السلمى أنه قال لرسول الله ﷺ «كنا نتطير» فقال: «ذاك شئ يبجده أحدكم فى نفسه فلا يصدنكم»^(٤) فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو فى نفسه وعقيدته لا فى التطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذى يطيره ويصدده لا ما رآه وسمعه، فأوضح ﷺ لأمتة الأمر وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه، ولتطمئن قلوبهم وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التى أرسل

(١) فتح البارى (١٠٠/٢٢٣).

(٢) فتح البارى (١٠/٢٢٦).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣١٦-٣٢٠.

(٤) تقدم تخريجه

بها رسله ونزل بها كتبه، وخلق لأجلها السموات والأرض، وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم، لئلا يبقى فيها علق منها ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار البتة، فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى واعتصم بحبله المتين، وتوكل على الله قطع هاجس الطيرة، من قبل استقرارها، وبادر خواطرها من قبل استمكانها.

قال عكرمة : كنا جلوساً عند ابن عباس فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير فقال ابن عباس: لا خير ولا شر فبادره بالإنكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر.

وخرج طاووس مع صاحب له فى سفر فصاح غراب فقال الرجل : خير فقال طاووس : وأى خير عند هذا لا تصحبنى؟ انتهى» ملخصاً.

● إشكال وجوابه: ولكن يشكل عليه :

ما رواه ابن حبان فى صحيحه عن أنس مرفوعاً : « لا طيرة، والطيرة على من تطير » فظاهر هذا أنها تكون سبباً لوقوع الشر بالتطير^(١).

وجوابه: أن المراد بذلك من تطير تطيراً منهياً عنه، وهو أن يعتمد على ما يسمعه ويراه حتى يمنعه مما يريد من حاجته، فإنه قد يصيبه ما يكرهه عقوبة له فأما من توكل على الله ووثق به بحيث علق قلبه بالله خوفاً ورجاءاً، وقطعه عن الالتفات إلى غير الله، وقال وفعل ما أمر به فإنه لا يضره ذلك.

وأما من اتقى أسباب الضرر بعد انعقادها بالأسباب المنهى عنها فإنه لا ينفعه ذلك غالباً كمن رده الطيرة عن حاجته خشية أن يصيبه ما تطير به، فإنه كثيراً ما يصاب بما يخشى به.

● إشكال ثانى وجوابه. وهو ما بويه البخارى بعنوان

● باب ما يذكر من شؤم الفرس ثم أسند عن سالم بن عبد الله أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت النبی ﷺ يقول «إنما الشؤم فى ثلاثة: فى الفرس، والمرأة والدار».

وأسند عن سهيل بن سعد الساعدي رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن كان فى شيء ففى المرأة والفرس والمسكن».

قال ابن حجر^(٢): قوله (باب ما يذكر من شؤم الفرس) أى هل هو على عمومه، أو مخصوص ببعض الخيل؟ وهل هو على ظاهره، أو مؤول؟ وسيأتى تفصيل ذلك، وقد أشار بإيراد حديث سهل بعد حديث ابن عمر إلى أن الحصر الذى فى حديث ابن عمر

(١) تقدم تخريجه.

(٢) فتح البارى (٦/ ٧١ : ٧٤).

ليس على ظاهره، وبترجمة الباب الذى بعده وهى «الخيل لثلاثة» إلى أن الشؤم مخصوص ببعض الخيل دون بعض وكل ذلك من لطيف نظره ودقيق فكره.

قوله (إنما الشؤم) بضم المعجمة وسكون الهمزة وقد تسهل فتصير واواً.

قوله (فى ثلاث) يتعلق بمحذوف تقديره كائن قاله ابن العربى، قال: والحصص فيها بالنسبة إلى العادة لا بالنسبة إلى الخلقة انتهى، وقال غيره: إنما خصت بالذكر لطول ملازمتها، وقد رواه مالك وسفيان وسائر الرواة بحذف «إنما» لكن فى رواية عثمان بن عمر «لا عدوى ولا طيرة، وإنما الشؤم فى الثلاثة»^(١) قال مسلم لم يذكر أحد فى حديث ابن عمر «لا عدوى» إلا عثمان بن عمر، قلت - يعنى ابن حجر -: ومثله فى حديث سعد بن أبى وقاص الذى أخرجه أبو داود، لكن قال فيه: «إن تكن الطيرة فى شىء» الحديث^(٢)، والطيرة والشؤم بمعنى واحد وظاهر الحديث أن الشؤم والطيرة فى هذه الثلاثة، قال ابن قتيبة: ووجهه أن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون فنهاهم النبى ﷺ وأعلمهم أن لا طيرة، فلما أبوا أن يتهوا بقيت الطيرة فى هذه الأشياء الثلاثة. قلت: أى: ابن حجر فمضى ابن قتيبة على ظاهره، ويلزم على قوله أن من تشاء بشىء منها نزل به على ما يكره، قال القرطبي: ولا يظن به أنه يحمله على ما كانت الجاهلية تعتقده بناء على ذلك يضر وينفع بذاته فإن ذلك خطأ، وإنما عنى أن هذه الأشياء هى أكثر ما يتطير به الناس، فمن وقع فى نفسه شىء أبيح له أن يتركه ويستبدل به غيره، قلت: - يعنى ابن حجر - وقد وقع فى رواية عمر العسقلانى - وهو ابن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر - عن أبيه عن ابن عمر بلفظ «ذكروا الشؤم فقال: إن كان فى شىء ففى» ولمسلم «إن يك من الشؤم شىء حق» وفى رواية عتبة بن مسلم «إن كان الشؤم فى شىء» وكذا فى حديث جابر عند مسلم^(٣) وهو موافق لحديث سهل بن سعد ثانى حديثى الباب، وهو يقتضى عدم الجزم بذلك بخلاف رواية الزهرى، وقال ابن العربى: معناه إن كان خلق الله الشؤم فى شىء مما جرى من بعض العادة وإنما يخلقه فى هذه الأشياء، قال المازرى: يحمل هذه الرواية إن يكن الشؤم حقاً فهذه الثلاث أحق به، بمعنى أن النفوس يقع فيها التساؤم بهذه أكثر مما يقع بغيرها، وجاء عن عائشة أنها أنكرت هذا

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٧٥٣) ومسلم فى السلام (١٤/ ٢٢٠ - ١ - النووى) عن ابن عمر به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٦٧٨ - بتخريجنا). وانظر «فتح المجيد» (ح ٥٧٥) بتخريجنا

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٢١)

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى السلام (٧/ ٤٧٩ - ١٢٠) عن جابر به.

لحديث، فروى أبو داود الطيالسي في مسنده عن محمد بن راشد عن مكحول قال: قيل لعائشة إن أبا هريرة قال «قال رسول الله ﷺ الشؤم في ثلاثة» فقالت: لم يحفظ، إنه دخل وهو يقول «قاتل الله اليهود، يقولون الشؤم في ثلاثة» فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله، قلت: - يعني ابن حجر - ومكحول لم يسمع من عائشة فهو منقطع، لكن روى أحمد وابن خزيمة والحاكم من طريق قتادة عن أبي حسان «أن رجلين من بني عامر دخلا على عائشة فقالا: إن أبا هريرة قال «إن رسول الله ﷺ قال: «الطيرة في الفرس والمرأة والدار» فغضبت غضباً شديداً، وقالت: ما قاله، وإنما قال: «إن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك»^(١) انتهى ولا معنى لإنكار ذلك على أبي هريرة مع موافقة من ذكرنا من الصحابة له في ذلك، وقد تأوله غيرها على أن ذلك سيق لبيان اعتقاد الناس في ذلك، لا أنه إخبار من النبي ﷺ بثبوت ذلك، وسياق الأحاديث الصحيحة المتقدم ذكرها يبعد هذا التأويل، قال ابن العربي: هذا جواب ساقط لأنه ﷺ لم يبعث ليخبر الناس عن معتقداتهم الماضية والحاصلة، وإنما بعث ليعلمهم ما يلزمهم أن يعتقدوه انتهى. وأما ما أخرجه الترمذي من حديث حكيم بن معاوية قال «سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا شؤم، وقد يكون اليمين في المرأة والدار والفرس»^(٢) ففى إسناده ضعف مع مخالفته للأحاديث الصحيحة، وقال عبد الرزاق في مصنفه عن معمر سمعت من يفسر هذا الحديث يقول: شؤم المرأة إذا كانت غير ولود وشؤم الفرس إذا لم يغز عليه، وشؤم الدار جار السوء^(٣). وروى أبو داود في الطب عن ابن القاسم عن مالك أنه سئل عنه فقال: كم من دار سكنها ناس فهلكوا^(٤).

قال المازري: فيحمله مالك على ظاهره، والمعنى أن قدر الله ربما اتفق ما يكره عند سكنى الدار فتصير في ذلك كالسبب فتسامح في إضافة الشيء إليه اتساعاً وقال ابن العربي: لم يرد مالك إضافة الشؤم إلى الدار، وإنما هو عبارة عن جرى العادة فيها فأشار إلى أنه ينبغي للمرء الخروج عنها صيانة لاعتقاده عن التعلق بالباطل.

وقيل: معنى الحديث أن هذه الأشياء يطول تعذيب القلب بها مع كراهة أمرها للازمتها بالسكنى والصحية ولو لم يعتقد الإنسان الشؤم فيها، فأشار الحديث إلى الأمر بفرافها ليزول التعذيب.

قلت: - يعني ابن حجر - وما أشار إليه ابن العربي في تأويل كلام مالك أولى،

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤٧٩/٢)، والبيهقي في «الكبرى» (١٤٠/٨) عن عائشة به.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٧٢٤) مكرر

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٤١١/١٠)

(٤) ذكره أبو داود (١٨/٤)

وهو نظير الأمر بالفرار من المجذوم مع صحة نفى العدوى، والمراد بذلك حسم المادة وسد الذريعة لثلا يوافق شيء من ذلك القدر فيعتقد من وقع له أن ذلك من العدوى أو من الطيرة فيقع فى اعتقاد ما نهى عن اعتقاده، فأشير إلى اجتناب مثل ذلك.

والطريق فيمن وقع له ذلك فى الدار مثلاً أن يبادر إلى التحول منها، لأنه متى استمر فيها ربما حمله ذلك على اعتقاد صحة الطيرة والتشاؤم .

وأما ما رواه أبو داود وصححه الحاكم من طريق إسحق بن طلحة عن أنس قال رجل: يا رسول الله إنا كنا فى دار كثير فيها عددنا وأموالنا، فتحولنا إلى أخرى فقل فيها ذلك، فقال: «ذروها ذميمة»^(١)، وأخرج من حديث فروة بن مسيك^(٢) بالمهملة مصغراً ما يدل على أنه هو السائل، وله شاهد من حديث عبد الله بن شداد بن الهاد أحد كبار التابعين، وله رواية بإسناد صحيح إليه عند عبد الرزاق^(٣)، قال ابن العربي ورواه مالك عن يحيى بن سعيد منقطعاً^(٤) قال: والدار المذكورة فى حديثه كانت دار مكمل بضم الميم وسكون الكاف وكسر الميم بعدها لام - وهو ابن عوف أخو عبد الرحمن ابن عوف - قال: وإنما أمرهم بالخروج منها لأعتقادهم أن ذلك منها، وليس كما ظنوا، لكن الخالق جل وعلا جعل ذلك وفقاً لظهور قضائه، وأمرهم بالخروج منها لثلاً يقع لهم بعد ذلك شيء فيستمر اعتقادهم. قال ابن العربي: وأفاد وصفها بكونها ذميمة جواز ذلك، وأن ذكرها بقبيح ما وقع فيها سائغ من غير أن يعتقد أن ذلك كان منها، ولا يمتنع ذم محل المكروه، وإن كان ليس منه شرعاً كما يذم العاصى على معصيته وإن كان ذلك بقضاء الله تعالى، وقال الخطايب: هو استثناء من غير الجنس، ومعناه إبطال مذهب الجاهلية فى التطير، فكأنه قال: «إن كانت لأحدكم دار يكره سكنها أو امرأة يكره صحبتها أو فرس يكره سيره فليفارقه».

قال وقيل إن شؤم الدار ضيقها وسوء جوارها، وشؤم المرأة أن لا تلد، وشؤم الفرس أن لا يغزى عليه.

وقيل المعنى ما جاء بإسناد ضعيف رواه الديلمى فى الخيل «إذا كان الفرس ضروباً فهو مشئوم»، وإذا حنت المرأة إلى بعلها الأول فهى مشئومة، وإذا كانت الدار بعيدة من المسجد لا يسمع منها الأذان فهى مشئومة.

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٢٤)

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٢٣)

(٣) أخرجه عبد الرزاق فى «مصنفه» (١٩٥٢٦)

(٤) أخرجه مالك فى «الموطأ» (٢/٧٤١/٢٣) عن يحيى بن سعيد به.

وقيل: كان قوله ذلك فى أول الأمر، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ الآية، حكاه ابن عبد البر، والنسخ لا يثبت بالاحتمال، لا سيما مع إمكان الجمع ولا سيما وقد ورد فى نفس هذا الخبر نفى التطير ثم إثباته فى الأشياء المذكورة.

وقيل يحمل الشؤم على قلة الموافقة وسوء الطباع، وهو كحديث سعد بن أبى وقاص رفعه «من سعادة المرء المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الهنيء ومن شقاوة المرء المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء»^(١) أخرجه أحمد، وهذا يختص ببعض أنواع الأجناس المذكورة دون بعض، وبه صرح ابن عبد البر فقال: يكون لقوم دون قوم، وذلك كله بقدر الله.

وقال المهلب ما حاصله: أن المخاطب بقوله «الشؤم فى ثلاثة» من التزم التطير، ولم يستطع صرفه عن نفسه، فقال لهم: إنما يقع ذلك فى هذه الأشياء التى تلازم فى غالب الأحوال، فإذا كان كذلك فاتركوها عنكم ولا تعذبوا أنفسكم بها. ويدل على ذلك تصديره الحديث بنفى الطيرة.

واستدل لذلك بما أخرجه ابن حبان عن أنس رفعه «لا طيرة، والطيرة على من تطير، وإن تكن فى شيء ففى المرأة»^(٢) الحديث، وفى صحته نظر لأنه من رواية عتبة بن حميد عن عبيد الله بن أبى بكر عن أنس، وعتبة مختلف فيه اهـ.

قال ابن حجر^(٣) فى موضع آخر: قال الشيخ تقي الدين السبكي: تخصيص الشؤم بمن تحصل منها العداوة والفتنة؟ لا كما يفهمه بعض الناس من التشاؤم بكمبها أو أن لها تأثيراً فى ذلك، وهو شيء لا يقول به أحد من العلماء؟ ومن قال إنها سبب فى ذلك فهو جاهل، وقد أطلق الشارع على من ينسب المطر إلى النوء الكفر فكيف بمن ينسب ما يقع من الشر إلى المرأة مما ليس لها فيه مدخل وإنما يتفق موافقة قضاء وقد رقت النفس من ذلك، فمن وقع له ذلك فلا يضره أن يتركها من غير أن يعتقد نسبة الفعل إليها. قلت: - يعنى ابن حجر - وفى الحديث أن الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن، ويشهد له قوله تعالى ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فجعلهن من حب الشهوات وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل فى ذلك، ويقع فى

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/١٦٨) عن سعيد بن أبى وقاص به.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) فتح البارى (٤١/٩).

المشاهدة حب الرجل ولد من امرأته التي هي عنده أكثر من حبه ولده من غيرها، ومن أمثلة ذلك قصة النعمان بن بشير في الهبة^(١) وقد قال بعض الحكماء: النساء شر كلهن وأشر ما فيهن عدم الاستغناء عنهن ومع أنها ناقصة العقل والدين تحمل الرجل على تعاطي ما فيه نقص العقل والدين كشغله عن طلب أمور الدين وحمله على التهالك على طلب الدنيا وذلك أشد الفساد وقد أخرج مسلم حديث أبي سعيد في أثناء حديث «واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»^(٢) اهـ.

● قال سليمان آل الشيخ وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة منها

قوله عليه السلام في حديث أنس «الطيرة على من تطير»^(٣) وقد يجعل الله سبحانه تطير العبد وتشاءمه سبباً لحلول المكروه كما يجعل الثقة به والتوكل عليه، وإفراجه بالخوف والرجاء من أعظم الأسباب التي يدفع بها الشر.

وقال ابن القيم: إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة، ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاه الله وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق أعياناً منها مشؤومة على من قاربها وسكنها، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطى سبحانه الوالدين ولدًا مباركًا يريان الخير على وجهه، ويعطى غيرهما ولدًا مشؤومًا يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس، والله سبحانه خالق الخير والشر والسعد والنحوس فيخلق بعض هذه الأعيان سعداء مباركة، ويقضى بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له، ويخلق بعضها نحوساً يتحس بها من قاربها، وكل ذلك بقضائه وقدره كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة، كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة، ولذئبها من قاربها من الناس، وخلق ضدها وجعلها سبباً لألم من قاربها من الناس، والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس فكذلك في الديار والنساء والخليل فهذا لون والطيرة الشركية لون انتهى.

(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٢٥٨٦)، ومسلم في الهبات (٦٥/١١) - النووي

وانظر «منا السبل» بتخريجنا

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والاستغفار (٥٥/١١) - النووي

«رياض الصالحين» (٧١) - بتخريجنا

(٣) تقدم.

قلت - يعنى سليمان آل الشيخ:- ولهذا يشرع لمن استفاد زوجة أو أمة أو دابة، أن يسأل الله من خيرها وخير ما جبلت عليه، ويستعيذ من شرها وشر ما جبلت عليه^(١) وكذلك ينبغى لمن سكن داراً أن يفعل ذلك ولكن يبقى على هذا أن يقال هذا جار فى كل مشؤوم فما وجه خصوصية هذه الثلاثة بالذكر؟ وجوابه أن أكثر ما يقع التطير فى هذه الثلاثة فخصت بالذكر. لذلك ذكره فى «شرح السنن».

ومنها ما روى مالك عن يحيى بن سعيد قال: «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله: دار سكنائها والعدد كثير والمال وافر فقل العدد وذهب المال، فقال النبى ﷺ: «دعوها ذميمة»^(٢) رواه أبو داود عن أنس بنحوه^(٣) وجوابه أن هذا ليس من الطيرة المنهى عنها، بل أمرهم بالانتقال لأنهم استقلوها واستوحشوا منها، لما لحقهم فيها ليتعجلوا الراحة مما دخلهم من الجزع، لأن الله قد جعل فى غرائز الناس استئصال ما نالهم الشر فيه، وإن كان لا سبب له فى ذلك وحب من جرى على يديه الخير لهم، وإن لم يردهم به، ولأن مقامهم فيها قد يقودهم إلى الطيرة، فيوقعهم ذلك فى الشرك والشر الذى يلحق التطير بسبب طيرته، وهذا بمنزلة الخارج من بلد الطاعون غير فار منه، ولو منع الناس الرحلة من الدار التى تتوالى عليهم فيها المصائب والمحن، وتعذر الأرزاق مع سلامة التوحيد فى الرحلة للزم، كل من ضاق عليه رزق فى بلد أو قلة فائدة صناعته أو تجارته فيها أن لا يتنقل عنها إلى غيرها ومنها.

فإن قيل: ما الفرق بين الدار وبين موضع الوباء حيث رخص فى الارتحال عن الدار دون موضع البلاء؟ أجب بعضهم أن الأمور بالنسبة إلى هذا المعنى ثلاثة أقسام.

أحدها: ما لا يقع التطير منه نادراً، أو لا مكرراً فهذا لا يصغى إليه كنعى الغراب فى السفر، وصرخ بومة فى دار، وهذا كانت العرب تعتبره .

ثانيها: ما يقع به ضرر، ولكنه يعم ولا يخص يندر ولا يتكرر كالوباء، فهذا لا يقدم عليه ولا يفر منه .

وثالثها: سبب محض ولا يعم ويلحق به الضرر لطول الملازمة كالمرأة، والفرس،

(١) أخرجه أبو داود (٢١٦٠) وابن ماجه (١٩١٨) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به .

وانظر «الأذكار» للنووى (٧٢١ - بتخريجنا) وصححه الألبانى فى آداب الزفاف .

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تقدم تخريجه .

والدار فيباح له الاستبدال، أو التوكل على الله، والإعراض عما يقع في النفس ذكره في «شرح السنن».

ومنها: حديث اللقحة لما منع النبي ﷺ حرباً ومرةً من حلبها وأذن ليعيش رواه مالك^(١).

وجوابه: أن ابن عبد البر قال: ليس هذا عندي من باب الطيرة لأنه محال أن ينهى عن شيء ويفعله، وإنما هو من طلب الفأل الحسن، وقد كان قد أخبرهم عن أقبح الأسماء أنه حرب ومرة، فالمراد بذلك حتى لا يتسمى بهما أحد، وقد روى ابن وهب في «جامعه» ما يدل على هذا فإنه قال في هذا الحديث «فقام عمر بن الخطاب فقال: أتكلم يا رسول الله أم أصمت؟ فقال: «بل أصمت وأخبرك بما أردت، ظننت يا عمر أنها طيرة ولا طير إلا طيره، ولا خير إلا خيره ولكن أحب الفأل الحسن» وعلى هذا تجرى بقية الأحاديث التي توهم بعضهم أنها من باب الطيرة. أهـ قوله: «ولا هامة».

قال ابن حجر^(٢): قال أبو زيد: هي بالتشديد، وخالفه الجميع فخففوها، وهو المحفوظ في الرواية، وكأن من شددوها ذهب إلى واحدة الهوام وهي ذوات السموم، وقيل دواب الأرض التي تهم بأذى الناس، وهذا لا يصح نفيه إلا أن أريد أنها لا تضره لذواتها وإنما تضر إذا أراد الله إيقاع الضرر بمن أصابته، وقد ذكر الزبير بن بكار في «الموفقيات» أن العرب كانت في الجاهلية تقول: إذا قتل الرجل ولم يؤخذ بثأره خرجت من رأسه هامة - وهي دودة - فتدور حول قبره فتقول: اسقوني اسقوني، فإن أدرك بثأره ذهبت وإلا بقيت، وفي ذلك يقول شاعرهم:

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

قال: وكانت اليهود تزعم أنها تدور حول قبره سبعة أيام ثم تذهب، وذكر ابن فارس وغيره من اللغويين نحو الأول: إلا أنهم لم يعينوا كونها دودة، بل قال القزاز: الهامة طائر من طير الليل، كأنه يعني البومة، وقال ابن الأعرابي: كانوا يشاءمون بها، إذا وقعت على بيت أحدهم يقول: نعت إلى نفسي أو أحداً من أهل دارى، وقال أبو عبيد: كانوا يزعمون أن عظام الميت تصير هامة فتطير، ويسمون ذلك الطائر الصدى،

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٤٧١/٢٤) عن يحيى بن سعيد به

(٢) الفتح ٢٥٢/١٠.

فعلى هذا فالمعنى فى الحديث لا حياة لهامة الميت، وعلى الأول لا شؤم بالبومة ونحوها، ولعل البخارى ترجم «لا هامة» مرتين بالنظر لهذين التفسيرين والله أعلم اهـ.
قوله: «ولا صفر»

قال البخارى: (باب لا صفر: وهو داء يأخذ بالبطن).

قال ابن حجر^(١): قوله (باب لا صفر وهو داء يأخذ البطن) كذا جزم بتفسير الصفر، وهو بفتحتين، وقد نقل أبو عبيدة معمر بن المثنى فى «غريب الحديث» له عن يونس بن عبيد الجرمى أنه سأل روية بن العجاج فقال: هى حية تكون فى البطن تصيب الماشية والناس، وهى أعدى من الجرب عند العرب، فعلى هذا فالمراد بنفى الصفر ما كانوا يعتقدونه فيه من العدوى، ورجح عند البخارى هذا القول لكونه قرن فى الحديث بالعدوى، وكذا رجح الطبرى هذا القول واستشهد له بقول الأعشى «ولا يعرض على شرسوفه الصفر» والشرسوف بضم المعجمة وسكون الراء ثم مهملة ثم فاء: الضلع، والصفر دود يكون فى الجوف ربما عض الضلع أو الكبد فقتل صاحبه، وقيل المراد بالصفر الحية لكن المراد بالنفى نفى ما كانوا يعتقدونه أن من أصابه قتله، فرد ذلك الشارع بأن الموت لا يكون إلا إذا فرغ الأجل، وقد جاء هذا التفسير عن جابر وهو أحد رواة حديث «لا صفر» قاله الطبرى، قيل فى الصفر قول آخر، وهو أن المراد به شهر صفر، وذلك أن العرب كانت تحرم صفر وتستحل المحرم، فجاء الإسلام برد ما كانوا يفعلونه من ذلك فلذلك قال ﷺ «لا صفر» قال ابن بطال: وهذا القول مروى عن مالك، والصفر أيضاً وجع فى البطن يأخذ من الجوع ومن اجتماع الماء الذى يكون منه الاستسقاء، ومن الأول حديث «صفرة فى سبيل الله خير من حمر النعم» أى جوعة، ويقولون صفر الإناء إذا خلا عن الطعام، ومن الثانى فى حديث ابن مسعود «أن رجلاً أصابه الصفر فنعت له السكر» أى حصل له الاستسقاء فوصف له النبيذ، وحمل الحديث على هذا لا يتجه، بخلاف ما سبق أ.هـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢):

وروى أبو داود عن محمد بن راشد عن سمعة يقول: أن أهل الجاهلية كانوا يستشمنون بـصفر، ويقولون: إنه شهر مشؤوم فأبطل النبي ﷺ ذلك قال ابن رجب: ولعل هذا القول أشبه الأقوال، وكثير من الجهال يتشاءم بصفر وربما ينهى عن السفر

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٢١)

(١) فتح البارى (١٠/١٨١).

فيه، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهى عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة. أهـ

قال ابن عثيمين^(١): والحديث في سياق التطير، والأقرب أن صفر يعنى الشهر وأن المراد نفى كونه مشؤوماً، أى لا شؤم فيه، وهو كغيره من الأزمان يُقدر فيه الخير ويقدر فيه الشر، وهذا النفي فى هذه الأمور الأربعة ليس نفيًا للوجود، لأنها موجودة، ولكنه نفى للتأثير، فالمؤثر هو الله، فما كان منها سبباً معلوماً، فهو سبب صحيح، وما كان منها سبباً موهوماً فهو سبب باطل، ويكون نفيًا لتأثيره بنفسه إن كان صحيحاً، ولكونه سبباً إن كان باطلاً. أهـ.

ثم قال^(٢): فالأزمنة لا دخل لها فى التأثير وفى تقدير الله - عز وجل - فصفر كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخير والشر، وبعض الناس إذا انتهى من شيء فى صفر أرخ ذلك وقال: انتهى فى صفر الخير، وهذا من باب مداواة البدعة بدعة، والجهل بالجهل، فهو ليس شهر خير ولا شهر شر.

أما شهر رمضان، وقولنا: إنه شهر خير، فالمراد بالخير العبادة، ولا شك أنه شهر خير، وقولهم: رجب المعظم، بناءً على أنه من الأشهر الحرم. ولهذا أنكر بعض السلف على من إذا سمع البومة تنعق قال: خيراً إن شاء الله، فلا يقال: خير ولا شر، بل هى تنعق كبقية الطيور.

فهذه الأربعة التى نفاها الرسول ﷺ تبين وجوب التوكل على الله وصدق العزيمة، ولا يضعف المسلم أمام هذه الأشياء، لأن الإنسان لا يخلو من حالين: إما أن يستجيب لها بأن يُقدم أو يُحجم أو ما أشبه ذلك، فيكون حينئذ قد علّق أفعاله بما لا حقيقة له ولا أصل له، وهو نوع من الشرك.

وإما أن لا يستجيب بأن يكون عنده نوع من التوكل ويقدم ولا يبالى، لكن يبقى فى نفسه نوع من الهم أو الغم، وهذا وإن كان أهون من الأول، لكن يجب ألا يستجيب لداعى هذه الأشياء التى نفاها الرسول ﷺ مطلقاً، وأن يكون معتمداً على الله - عز وجل.

وبعض الناس قد يفتح المصحف لطلب التفاؤل، فإذا نظر ذكر النار تشاءم، وإذا نظر ذكر الجنة قال: هذا فالطيب، فهذا مثل عمل الجاهلية الذين يستقسمون بالأزلام.

(٢) القول المفيد ٢/١٠٢، ١٠٣، ١٠٤.

(١) القول المفيد ٢/٩٩، ١٠٠.

فالحاصل أننا نقول: لا تجعل على بالك مثل هذه الأمور مطلقاً، فالأسباب المعلومة الظاهرة تقي أسباب الشر، وأما الأسباب الموهومة التي لم يجعلها الشر سبباً بل نفاها، فلا يجوز لك أن تتعلق بها، بل احمد الله على العافية وقل ربنا عليك توكلنا.

وهذا النفي فى هذه الأمور الأربعة ليس نفيًا للوجود، لأنها موجودة، ولكنه نفي للتأثير، فالمؤثر هو الله فما كان منها سبباً معلوماً، فهو سبب صحيح، وما كان منها سبباً موهوماً، فهو سبب باطل، ويكون نفيًا لتأثيره بنفسه إن كان صحيحاً، ولكونه سبباً إن كان باطلاً اهـ.

قوله: «ولا نوء» قال سليمان آل الشيخ^(١): واحد الأنواء وسيأتى الكلام عليه فى باب ما جاء فى الاستسقاء بالأنواء. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله «لا نوء» واحد الأنواء، والأنواء: هى منازل القمر، وهى ثمان وعشرون منزلة، كل منزلة لها نجم تدور بمدار السنة.

وهذه النجوم بعضها يسمى النجوم الشمالية، وهى لأيام الصيف، وبعضها يسمى النجوم الجنوبية، وهى لأيام الشتاء، وأجرى الله العادة أن المطر فى وسط الجزيرة العربية يكون أيام الشتاء، أما أيام الصيف، فلا مطر.

فالعرب كانوا يتشاءمون بالأنواء، ويتفاءلون به فيقولون: هذا نجم سعد وخير، ولهذا إذا أمطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا، ولا يقولون: مطرنا بفضل الله ورحمته، ولا شك أن هذا غاية الجهل.

ألسنا أدركنا هذا النوء بعينه فى سنة يكون فيه مطر وفى سنة أخرى لا يكون فيه مطر؟

ونجد السنوات تمر بدون مطر مع وجود النجوم الموسمية التى كانت كثيراً ما يكون فى زمنها الأمطار.

فالنوء لا تأثير له، فقولنا: طلع هذا النجم، كقولنا: طلعت الشمس، فليس له إلا طلوع وغروب، والنوء وقت تقدير، وهو يدل على دخول الفصول فقط.

وفى عصرنا الحاضر يعلق المطر بالضغط الجوى والمنخفض الجوى، وهذا وإن كان قد

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٢١).

(٢) القول المفيد (٢/ ١٠٤ و ١٠٥).

يكون سبباً حقيقياً ، ولكن لا يفتح هذا الباب للناس ، بل الواجب أن يقال: هذا من رحمة الله ، هذا من فضله ونعمه ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ (٢) .

فتعليق المطر بالمنخفضات الجوية ، من الأمور الجاهلية التي تصرف الإنسان عن تعلقه بربه .

فذهبت أنواء الجاهلية، وجاءت المنخفضات الجوية، وما أشبه ذلك من الأقوال التي تصرف الإنسان عن ربه - سبحانه وتعالى - . نعم المنخفضات الجوية قد تكون سبباً لنزول المطر، لكن ليست هي المؤثرة بنفسها . فتنبه ا.هـ . وسيأتى مزيد من الشرح له فى باب الاستسقاء .
قوله: «ولاغول» .

قال سليمان آل الشيخ (٣): هو بالفتح مصدر معناه البعد والهلاك وبالضم الاسم وجمعه أغوال وغيلان وهو المراد هنا .

قال أبو السعادات: الغول واحد الغيلان، وهو جنس من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أن الغول فى الفلاة تترأى للناس فتتغول تغولاً أى: تتلون تلوناً فى صور شتى وتتغولهم أى تضلهم عن الطريق وتهلكهم فنفاه النبى ﷺ وأبطله . وقيل: قوله: «لا غول» ليس نقياً لعين الغول ووجوده، وإنما فيه إبطال زعم العرب فى تلونه بالصور المختلفة واغتياله . فيكون المعنى بقوله: «لاغول» أنها لا تستطيع أن تضل أحداً ويشهد له .

الحديث الآخر: «لَا غَوْلَ وَلَكِنَّ السَّعَالَى سَحَرَةَ الْجَنِّ» أى ولكن فى الجن سحرة لهم تلبس وتخيل .

ومنه الحديث: «إِذَا تَغَوَّلَتِ الْغِيلَانُ فَبَادِرُوا بِالْأَذَانِ» (٤) أى: ادفعوا شرها بذكر الله،

(١) النور: ٤٣

(٢) الروم : ٤٨

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٢١ و٣٢٢

(٤) [مرسل] أخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة . (٥٢٤) عن جابر به .

وانظر «الأذكار» للنووى (٥٦٢) - بتخريجنا

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا عَدَوَى وَلَا طِيرَةٌ وَيُعْجِبُنِي
الْفَأَلُ». قَالُوا: وَمَا الْفَأَلُ؟ قَالَ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»^(١).

وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها عدها. ومنه حديث أبي أيوب كان لى تمر فى
سهوة فكانت الغول تحبىء فتأخذ. أهـ
قال ابن عثيمين^(٢): قوله: «ولا غول».

جمع غَوْلَةٌ أو غَوْلَةٌ، ونحن نسميها باللغة العامية: (الهولة)؛ لأنها تهول الإنسان.
والعرب كانوا إذا سافروا أو ذهبوا يميناً وشمالاً تلونت لهم الشياطين بألوان مفرقة
مخيفة، فتدخل فى قلوبهم الرعب والخوف، فتجدهم يكتبون ويستحشرون عن الذهاب
إلى هذا الوجه الذى أرادوا، وهذا لاشك أنه يضعف التوكل على الله، والشيطان
حريص على إدخال القلق والحزن على الإنسان بقدر ما يستطيع، قال تعالى: «إِنَّمَا
النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»^(٣).

وهذا الذى نفاه الرسول ﷺ هو تأثيرها؛ فلا تهمكم لأنها خوفتكم، فلا تلتفتوا
إليها، وليس المقصود بالنفى نفى الوجود، وأكثر ما يتلى الإنسان بهذه الأمور إذا كان
قلبه معلقاً بها، أما إن كان معتمداً على الله غير مبالٍ بها؛ فلا تضره ولا تمنعه عن وجهه
قصده أهـ.



قوله [ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:] الحديث

هذا الحديث رواه البخارى فى كتاب الطب فى باب الفأل ولفظه «لا طيرة وخيرها
الفأل. قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟ قال: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم». وهو لفظ
مسلم أيضاً.

مناسبة هذا الحديث للباب.

قال القرعاوى^(٤): حيث دل الحديث على إبطال الطيرة.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى «الطب» / باب: الفأل (٢٢٤/١٠) ح (٥٧٥٦) ومسلم فى
«السلام» / باب: الطيرة والفأل وما يكون من الشؤم (٢١٩/١٤/٥) وأبو داود فى «الطب» / باب: الطيرة
(٣٩١٦/١٧/٤).

وانظر: «رياض الصالحين» (ح ١٦٧٧) بتخريجنا وفتح المجيد (٥٥٩) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ٢/ ١٠٥ و ١٠١. (٣) المجادلة: ١٠. (٤) الجديد (٢٥٦).

— مناسبة الحديث للتوحيد.

قال القرعاوى^(١): حيث أنكر الحديث الطيرة وذلك لأنها تعليق للقلب بغير الله وهذا شرك به.

قوله: [ولهما عن أنس قال...]

أى : وعند البخارى ومسلم أيضاً عن أنس.

قوله: «لاعدوى، ولاطيرة».

تقدم الكلام على ذلك مفصلاً فى شرح الحديث الماضى.

قوله: «ويعجبني الفأل».

قال ابن القيم^(*): فى لفظ (وخيرها الفأل) وفى لفظ (وأصدقها الفأل) وفى لفظ (وكان يعجبه الفأل)

قال ابن حجر^(٢): بقاء ثم همزة وقد تسهل، والجمع فتول بالهمزة جزماً.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): قال أبو السعادات: الفأل مهموز فيما يسر ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيها يسر، يقال: تفاءلت بكذا، وتفاءلت على التخفيف والقلب. وقد أولع الناس بترك الهمزة تخفيفاً.

قال ابن القيم^(٤): ليس فى الإعجاب بالفأل ومحبه شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة، ومن حب الفطرة الإنسانية التى تميل إلى ما يوافقها ويلائمها كما أخبرهم ﷺ أنه حبيب إليه من الدنيا النساء والطيب^(٤) وكان يحب الحلوى والعسل^(٥) ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان، ويستمتع إليه، ويحب معالى الأخلاق، ومكارم الشيم.

وبالجملة: يحب كل كمال وخير، وما يفضى إليهما، والله سبحانه وتعالى قد جعل فى غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبه، وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهته والبشر، والفوز والظفر، ونحو ذلك.

فإذا قرعت هذه الأسماء الاسماع استبشرت بها النفس وانشرح لها الصدر، وقوى بها القلب، وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال، فأحزنها ذلك، وأثار لها

(١) الجديد (٢٥٦). (٢) الفتح ٢٢٥/١٠

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٢٢.

(٤) (*) مفتاح دار السعادة (٢/٢٤٤).

(٥) تقدم تخريجه (٦) تقدم تخريجه

خوفاً وطيرة وانكماشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه، فأورث لها ضرراً في الدنيا، ونقصاً في الإيمان، ومقارفة للشرك». اهـ.

ونقل سليمان آل الشيخ ذلك عنه.

قوله: «وقالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة».

قال ابن القيم(*) : وفي لفظ مسلم «ويعجبني الفأل الصالح» أى الكلمة الحسنة. وقال «إذا أريدتم إلى بريدٍ فأجعلوه حسن الاسم، حسن الوجه».

ثم قال ابن القيم: قال عبدالله بن عباس: لا طيرة لكنه فال، و الفأل المرسل : يسار، وسالم، ونحوه من الاسم يعرض لك على غير معاد.

وسئل بعض العلماء عن الفأل؟ فقال: أن تسمع وأنت قد أضللت بغيراً أو شيئاً. (يا واجد) . أو وأنت خائف (يا سالم).

وقال الأصمعي سألت ابن عون عن الفأل ؟ فقال: أن يكون مريضاً فيسمع (ياسالم) وأخبرك عن نفسى بقضية من ذلك، وهى أنى أضللت بعض الأولاد فى يوم التروية بمكة وكان طفلاً فجهدت فى طلبه والنداء عليه فى سائر الركب إلى وقت يوم الثامن فلم أقدر له على خبر، فأيست منه، فقال لى إنسان إن هذا عجز، اركب وأدخل الآن إلى مكة فتطلبه فيها، فركبت فرساً فما هو إلا أن استقبلت جماعة يتحدثون فى سواد الليل فى الطريق، وأحدهم يقول : ضاع له شيء فلقية فلا أدري انقضاء كلمته كان أسرع أم وجدانى الطفل مع بعض أهل مكة فى محملة عرفته بصوته.

فقول ﷺ: «ولا طيرة وخيرها الفأل» ينفى عن الفأل مذهب الطيرة من تأثير أو فعل أو شركة ويخلص الفأل منها. اهـ.

قال الحافظ(١): وقال فى حديث أنس «ويعجبني الفأل الصالح، الكلمة الحسنة» وفى حديث عروة بن عامر الذى أخرجه أبو داود قال: «ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «خيرها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله» وقوله: «وخيرها الفأل»(٢).

(١) الفتح ٢٢٥/١٠، ٢٢٦.

(*) مفتاح دار السعادة (٥٨٢- ٥٨٣)

(٢) سيأتى تخريجه

قال الكرمانى: تبعاً لغيره. هذه الإضافة تشعر بأن الفأل من جملة الطيرة، وليس كذلك بل هى إضافة توضيح، ثم قال: وأيضاً فإن من جملة الطيرة كما تقدم تقريره التيامن، فبين بهذا الحديث أنه ليس كل التيامن مردوداً كالتشاؤم، بل بعض التيامن مقبول.

قلت: - يعنى ابن حجر - وفى الجواب الأول دفع فى صدر السؤال، وفى الثانى تسليم السؤال ودعوى التخصيص وهو أقرب وقد أخرج ابن ماجه بسند حسن عن أبى هريرة رفعه: «كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة»^(١) وأخرج الترمذى من حديث حابس التميمى أنه سمع النبى ﷺ يقول: «العين حق، وأصدق الطيرة الفأل»^(٢) ففى هذا التصريح أن الفأل من جملة الطيرة لكنه مستثنى.

وقال الطيبى: الضمير المؤنث فى قوله: «وخيرها» راجع إلى الطيرة، وقد علم أن الطيرة كلها لا خير فيها، فهو كقوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً﴾ وهو مبنى على زعمهم؛ وهو من إرخاء العنان فى المخادعة بأن يجرى الكلام على زعم الخصم حتى لا يشمئز عن التفكير فيه، فإذا تفكر فأنصف من نفسه قبل الحق، فقوله: «خيرها الفأل» إطماع للسامع فى الاستماع والقبول، لا أن فى الطيرة خيراً حقيقة، أو هو من نحو قوله: «الصيف أحر من الشتاء» أى الفأل فى بابيه أبلغ من الطيرة فى بابها.

والحاصل: أن أفعل التفضيل فى ذلك إنما هو بين القدر المشترك بين الشئين، والقدر المشترك بين الطيرة والفأل تأثير كل منهما فيما هو فيه، والفأل فى ذلك أبلغ. قال الخطابى: وإنما كان ذلك لأن مصدر الفأل عن نطق وبيان، فكأنه خبر جاء عن غيب، بخلاف غيره فإنه مستند إلى حركة الطائر أو نطقه وليس فيه بيان أصلاً، وإنما هو تكلف ممن يتعاطاه، وقد أخرج الطبرى عن عكرمة قال: كنت عند ابن عباس، فمر طائر فصاح، فقال رجل: خير خير، فقال ابن عباس: ما عند هذا لاخير ولاشر اهـ وتقدم أثر ابن عباس وغيره عند قوله: (ولا طيرة). والله أعلم.

ثم قال: قال ابن بطال: جعل الله فى فطر الناس محبة الكلمة الطيبة والأنس بها كما جعل فيها الارتياح بالمنظر الأنيق والماء الصافى وإن كان لا يملكه ولا يشربه. وأخرج

(١) [رجاله ثقات] أخرجه ابن ماجه (٣٥٣٦) وقال البوصيرى: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦٧/٤)، (٧٠/٥)، والترمذى (٢٠٦١).

الترمذى وصححه من حديث أنس «أن النبي ﷺ كان إذا خرج لحاجته يعجبه أن يسمع: يا نجيح ياراشد»^(١) وأخرج أبو داود بسند حسن عن بريدة: «أن النبي ﷺ كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملاً يسأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رأى كراهة ذلك في وجهه»^(٢). اهـ.

[قلت] وتقدم في أول هذا الباب التفرقة بين الفأل والطيرة. والله أعلم.

ثم قال: قال الحلبي: وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال. وقال الطيبي: معنى الترخص في الفأل والمنع من الطيرة هو أن الشخص لو رأى شيئاً فظنه حسناً محرراً على طلب حاجته فليفعل ذلك. وإن رآه بضد ذلك فلا يقبله بل يمضي لسبيله. فلو قبل وانتهى عن المضي فهو الطيرة التي اختصت بأن تستعمل في الشؤم. والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): بين لهم ﷺ أن الفأل يعجبه، فدل على أنه ليس من الطيرة المنهى عنها. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): فـ «الكلمة الطيبة»

فـ «الكلمة الطيبة» تعجبه ﷺ؛ لما فيها من إدخال السرور على النفس والانبساط، والمضى قديماً لما يسعى إليه الإنسان، وليس هذا من الطيرة، بل هذا مما يشجع الإنسان؛ لأنها لا تؤثر عليه، بل تزيده طمأنينة وإقداماً وإقبالاً.

وظاهر الحديث: الكلمة الطيبة في كل شيء، لأن الكلمة الطيبة في الحقيقة تفتح القلب وتكون سبباً لخيرات كثيرة، حتى إنها تدخل المرء في جملة ذوى الأخلاق الحسنة.

وهذا الحديث جمع النبي ﷺ فيه بين محذورين ومرغوب؛ فالمحذوران هما العدوى والطيرة، والمرغوب هو الفأل، وهذا من حسن تعليم النبي ﷺ؛ فمن ذكّر المرهوب ينبغي أن يذكر معه ما يكون مرغوباً، ولهذا كان القرآن مثالي إذا ذكر أوصاف المؤمنين ذكر أوصاف الكافرين، وإذا ذكر العقوبة ذكر المثوبة، وهكذا. اهـ.



(١) أخرجه الترمذى (١٦١٦) عن أنس به

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٢٠) عن بريدة به.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٣٢٢)

(٤) القول المفيد ١٠٦/٢ و١٠٧

وَلَأَبَى دَاوُدَ بَسْتَدَ صَحِيحَ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: «ذُكِرَتِ الطَّيْرَةُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الْقَالُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^(١).

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال محمد القرعاوى^(٢): حيث أنكر الحديث الطيرة لأنها تعليق للقلب بغير الله وهذا شرك به. أهـ

● مناسبة الحديث للباب:

قال محمد القرعاوى^(٣): حيث دل الحديث على إبطال الطيرة.

قوله: «عن عقبه بن عامر».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قوله: عن عقبه بن عامر هكذا وقع في نسخ التوحيد، وصوابه عروة بن عامر كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما، وهو مكى اختلف في نسه، فقال أحمد بن حنبل في روايته: عن عروة بن عامر القرشى، وقال غيره الجهنى، واختلف في صحبته فقال الباوردي: له صحبة. وذكره ابن حبان في ثقات التابعين، وقال المزى لا صحبة له تصح.

قلت: قال المنذرى: وقال أبو القاسم الدمشقى: ولا صحبة له تصح، وذكر البخارى وغيره أنه سمع من ابن عباس فعلى هذا يكون الحديث مرسلًا^(*) أهـ.

(١) أخرجه أبو داود فى «الطب»/ باب: فى الطيرة (٤/١٨٢١٧/ح ٣٩١٩) والبيهقى فى «الكبرى» (٨/ ٢٤٠/ ح ٦٥٢١).

من طريق: وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن عروة بن عامر قال... فذكره.

وسند الحديث غير صحيح لعلتين: -

أحدهما: الاختلاف فى صحبة عروة بن عامر كما ذكر ذلك الإمام النووى والذهبى وابن حجر.

ثانيها: فى الإسناد عتنة حبيب بن أبى ثابت وهو مدلس.

وانظر: «رياض الصالحين» (ح ١٦٨٠) بتخريجنا، وفتح المجيد (٥٨٥ - بتخريجنا).

(٢ - ٣) الجديد ٢٥٨. (٤) تيسير العزيز الحميد ٣٢٣.

(*) عون المعبود (١٠/٤١٦)

قلت: وعلى ذلك فقول المصنف: «ولأبى داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر - عروة بن عامر - «أى بسند صحيح إليه لا إلى النبى ﷺ والله أعلم.

قوله: «قال: ذكرت الطيرة عند النبى ﷺ - أ.هـ.

قال ابن عثيمين^(١): وهذا الذكر إما ذكر شأنها، أو ذكر أن الناس يفعلونها، والمراد: تحدث الناس بها عند رسول الله ﷺ. أ.هـ.

قوله: «فقال: أحسنها الفأل».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قد تقدم أنه - ﷺ - كان يعجبه الفأل.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «أحسنها الفأل» أ.هـ.

قلت: تقدم فى أول الباب الفرق بين الطيرة والفأل، وسبق أن الفأل ليس من الطيرة، لكنه شبيه بالطيرة من حيث الإقدام؛ فإنه يزيد الإنسان نشاطاً وإقداماً فيما توجه إليه؛ فهو يشبه الطيرة من هذا الوجه، وإلا؛ فيسببها فرق لأن الطيرة توجب تعلق الإنسان بالمتطير به، وضعف توكله على الله، ورجوعه عما هم به من أجل ما رأى لكن الفأل يزيده قوة وثباتاً ونشاطاً؛ فالشبه بينهما هو التأثير فى كل منهما. أ.هـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٤): وروى الترمذى وصححه عن أنس أن النبى ﷺ كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع: ياغيح ياراشد^(٥).

وروى أبو داود عن بُريدة أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَتَطَيَّرُ مِنْ شَيْءٍ، وَكَانَ إِذَا بَعَثَ عَامِلاً سَأَلَ عَنْ اسْمِهِ فَإِذَا أَعْجَبَهُ فَرَّحَ بِهِ رَأَى بِشْرُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ وَإِنْ كَرِهَ اسْمَهُ، رَأَى كَرَاهِيَةَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. . . . الحديث^(٦) وإسناده حسن. فهذا فى استعمال الفأل. قال ابن القيم فى الكلام على الحديث المشروح: أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما ومضرة الآخر، ونظير هذا منعه من الرقى بالشرك وإذنه فى الرقية إذا لم يكن فيها شرك لما فيها من المنفعة الحالية عن المفسدة.

(١) القول المفيد ١٠٨/٢.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٢٣.

(٣) القول المفيد ١٠٨/٢.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٢٣، ٣٢٤.

(٥) تقدم تخريجه

(٦) تقدم تخريجه

قوله: «ولاترد مسلماً».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قال الطيبي تعرضه بأن الكافر بخلافه. أه
قوله: «فإن رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتني بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع
السيئات إلا أنت».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «اللهم لا يأتني بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع
السيئات إلا أنت» أى: لا تأتي الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات، بل أنت وحدك
لا شريك لك، الذى تأتى بالحسنات وتدفع السيئات. وهذا دعاء مناسب لمن وقع فى
قلبه شئ من الطيرة، وتصريح بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً، ويعد من اعتقدها
سفيهاً مشركاً.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «فإذا رأى أحدكم ما يكره».
فحينئذ قد تردُّ على قلبه الطيرة، ويبتعد عما يريد، ولا يقدم عليه، وقد ذكر النبی
ﷺ دواء لذلك وقال: «فليقل: اللهم لا يأتني بالحسنات.. إلخ».
قوله: «اللهم لا يأتني بالحسنات إلا أنت».

وهذا هو حقيق التوكل، وقوله: «اللهم». يعنى: يا الله، ولهذا بُنيت على الضم؛ لأن
المنادى علم، بل هو أعلم الأعلام وأعرف المعارف على الإطلاق، والميم عوض عن يا
المحذوفة، وصارت فى آخر الكلمة تبركاً بالابتداء باسم الله - سبحانه وتعالى -،
وصارت ميماً؛ لأنها تدل على الجمع؛ فكان الداعى جمع قلبه على الله.
قوله: «لا يأتني بالحسنات إلا أنت».

أى: لا يُقدِّرها ولا يخلقها ولا يوجدها للعبد إلا الله وحده لا شريك له، وهذا لا
ينافى أن تكون الحسنات بأسباب؛ لأن خالق هذه الأسباب هو الله، فإذا وجدت هذه
الحسنات بأسباب خلقها الله؛ صار الموجد حقيقةً هو الله.

والمراد بالحسنات: ما يستحسن المرء وقوعه، ويحسن فى عينه.
ويشمل ذلك الحسنات الشرعية؛ كالصلاة والزكاة وغيرها؛ لأنها تسر المؤمن،

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٢٤.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٢٤.

(٣) القول المفيد ١٠٨/٢ - ١١٠.

ويشمل الحسنات الدنيوية؛ كالمال والولد ونحوها، قال تعالى: ﴿إِنْ تَصَبَّكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تَصَبَّكَ مَصِيْبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾، وقال تعالى فى آية أخرى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تَصَبَّكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ (١).

وقوله: «إلا أنت».

فاعل يأتى: لأن الاستثناء هنا مفرغ.

قوله: «ولا يدفع السيئات إلا أنت».

السيئات: ما يسوء المرء وقوعه وينفر منه حالاً أو مآلاً، ولا يدفعها إلا الله، ولهذا إذا أصيب الإنسان بمصيبة التجأ إلى ربه تعالى، حتى المشركون إذا ركبوا فى الفلك، وشاهدوا الغرق دعوا الله مخلصين له الدين.

ولا ينافى هذا أن يكون دفعها بأسباب؛ فمثلاً لو رأى رجلاً غريقاً، فأنقذه فإنما أنقذه بمشيئة الله، ولو شاء الله لم ينقذه، فالسبب من الله.

فعمقيدة كل مسلم أنه لا يأتى بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئات إلا الله، وبمقتضى هذه العمقيدة؛ فإنه يجب أن لا يسأل المسلم الحسنات ولا يسأل دفع السيئات إلا من الله، ولهذا كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يسألون الله الحسنات ويسألون دفع السيئات، قال تعالى عن زكريا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ (٢)، وقال تعالى: عن أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسْنِىَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٣)، وهكذا يجب أن يكون المؤمن أيضاً.

قوله: «ولاحول ولا قوة إلا بك».

قال سليمان آل الشيخ (٤): قوله: «ولاحول ولا قوة إلا بك».

قوله: «ولاحول ولا قوة إلا بك» استعانة بالله تعالى على فعل التوكل، وعدم الالتفات إلى الطيرة التى قد تكون سبباً لوقوع المكروه وعقوبة لفاعلها وذلك إنما يصدر من تحقيق التوكل، الذى هو أقوى الأسباب فى جلب الخيرات، ودفع المكروهات، والحوال: التحول والانتقال من حال إلى حال، والقوة على ذلك، أى لا حول ولا قوة

(١) آل عمران: ١٢٠.

(٢) آل عمران: ٣٨.

(٣) الأنبياء: ٨٣.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٢٤.

على ذلك الحول إلا بك، وذلك يفيد التوكل على الله لأنه علم وعمل، فالعلم معرفة القلب بتوحد الله بالنفع والضرر، وعامة المؤمنين بل كثير من المشركين يعلمون ذلك، والعمل هو ثقة القلب بالله وفراغه من كل ما سواه، وهذا عزيز ويختص به خواص المؤمنين، وهو داخل في هذه الكلمة، لأن فيها التبرى من الحول والقوة والمشية، بدون حول الله وقوته ومشيته والاقرار بقدرته على كل شيء، وبعجز العبد عن كل شيء إلا ما أقدره عليه ربه، وهذا نهاية توحيد الربوبية الذى يثمر التوكل وتوحيد العبادة. أهـ

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بك».

فى معناها وجهان:

الأول: أنه لا يوجد حول ولا قوة إلا بالله؛ فالباء بمعنى فى، يعنى: إلا فى الله وحده، ومن سواه ليس لهم حول ولا قوة، ويكون الحول والقوة المنفيان عن غير الله هما الحول المطلق والقوة المطلقة؛ لأن غير الله فيه حول وقوة، لكنها نسبية ليست بكاملة؛ فالحول الكامل والقوة الكاملة فى الله وحده.

الثانى: أن الحول والقوة مضاف إلى المخلوق؛ فالباء للاستعانة أو للسببية، أى: لا حول لنا ولا قوة لنا إلا بالله - عز وجل -، وهذا المعنى أصح، وهو مقتضى ردها فى مواضعها؛ إذ إننا لا نتحول من حال إلى حال، ولا نقوى على ذلك إلا بالله؛ فيكون فى هذه الجملة كمال التفويض إلى الله، وأن الإنسان يبرأ من حوله وقوته إلا بما أعطاه الله من الحول والقوة.

فإن صحّ الحديث؛ فالرسول ﷺ أرشدنا إذا رأينا ما نكره مما يتشاءم به المتشائم أن نقول: «اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات، إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك». قلت: تقدم فى أول الباب جملة من الآثار فيها أسباب أخرى لعلاج الطيرة فراجعها.



(١) القول المفيد ٢/ ١١٠ و ١١١.

وعن ابن مسعود مرفوعاً: «الطِّيرَةُ شُرْكٌ، الطِّيرَةُ شُرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا.. وَلَكِنَّ اللَّهَ يَذْهَبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(١).

قوله: وعن ابن مسعود مرفوعاً الطيرة شرك الحديث
قال سليمان آل الشيخ^(٢): «هذا الحديث رواه أيضاً ابن ماجة وابن حبان ولفظ
أبي داود: «الطيرة شرك الطيرة شرك ثلاثاً». أهـ
- مناسبة الحديث للباب والتوحيد:
قال القرعاوي^(٣): حيث دل الحديث على أن الطيرة شرك. أهـ.
قوله: «الطيرة شرك الطيرة شرك».
قال سليمان آل الشيخ^(٤):

صريح في تحريم الطيرة وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب على غير الله. وقال
ابن حمدان في «الرعاية» تكره الطيرة. وكذا قال: غير واحد من أصحاب أحمد. قال
ابن مفلح: والأولى القطع بتحريمها. ولعل مرادهم بالكراهة التحريم قلت: - أى
سليمان آل الشيخ - بل الصواب القطع بتحريمها لأنها شرك وكيف يكون الشرك مكروهاً
الكراهة الاصطلاحية؟ فإن كان القائل بكراهتها أراد ذلك فلا ريب في بطلانه. قال في
«شرح السنن» وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم
نفعاً أو يدفع عنهم ضرراً. إذا عملوا بموجبه فكأنهم شركوه مع الله تعالى. أهـ.
قال ابن عثيمين^(٥): قوله: «الطيرة شرك، الطيرة شرك».
هاتان الجملتان يؤكد بعضهما بعضاً من باب التوكيد اللفظي.
وقوله: «شرك».

أى: إنها من أنواع الشرك، وليست الشرك كله، وإلا؛ لقال: الطيرة الشرك.
وهل المراد بالشرك هنا الشرك الأكبر المخرج عن الملة، أو أنها نوع من أنواع الشرك؟

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٨٩/١، ٤٣٨، ٤٤٠)، وأبو داود في الطب / باب في الطيرة
(٣٩١٠ / ١٦/٤) والترمذى في السير / باب ما جاء في الطيرة (٤ / ١٦٠ / ١٦١٤) والحاكم في «المستدرک»
(١٨/١)، والبيهقى في «الكبرى» (١٣٩/٨).

من طريق سلمة بن كهيل، عن عيسى بن عاصم، عن زر، عن عبد الله به.
قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح لانعرفه إلا من حديث سلمة بن كهيل، وروى شعبة أيضاً
عن سلمة هذا الحديث.

قال: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: كان سليمان بن حرب يقول في هذا الحديث وما منّا ولكن
الله يذهب بالتوكل. قال سليمان: هذا عندى قول عبد الله بن مسعود وما منّا وانظر فتح المجيد (ح ٥٨٨).
بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٢٤.
(٣) الجديد ٢٦٠.
(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٢٤ و ٣٢٥.
(٥) القول المفيد ١١١/٢: ١١٣.

نقول: هى نوع من أنواع الشرك؛ كقوله ﷺ: «اثنان فى الناس هما بهم كفر»^(١) أى: ليس الكفر المخرج عن الملة، وإلا؛ لقال: «هما بهم الكفر»، بل هما نوع من الكفر.

لكن فى ترك الصلاة قال: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»^(٢)، فقال: «الكفر»، فيجب أن نعرف الفرق بين «أل» المعرفة أو الدالة على الاستغراق، وبين خلو اللفظ منها، فإذا قيل: هذا كفر؛ فالمراد أنه نوع من الكفر لا يخرج من الملة، وإذا قيل: هذا الكفر؛ فهو المخرج من الملة.

فإذا تطير إنسان بشيء رآه أو سمعه؛ فإنه لا يعد مشركاً شركاً يخرج من الملة، لكنه أشرك من حيث إنه اعتمد على هذا السبب الذى لم يجعله الله سبباً، وهذا يضعف التوكل على الله ويوهن العزيمة، وبذلك يعتبر شركاً من هذه الناحية.

والقاعدة: «إن كل إنسان اعتمد على سبب لم يجعله الشرع سبباً؛ فإنه مشرك شركاً أصغر».

وهذا نوع من الإِشراك مع الله؛ إما فى التشريع إن كان هذا السبب شرعياً، وإما فى التقدير إن كان هذا السبب كونياً، لكن لو اعتقد هذا المشائم المتطير أن هذا فاعل بنفسه دون الله؛ فهو مشرك شركاً أكبر؛ لأنه جعل لله شريكاً فى الخلق والإيجاد. أهـ
قوله: «وما منّا إلا».

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «وما منّا».

«منّا»: جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، إما قبل (إلا) إن قدرت ما بعد إلا فعلاً؛ أى وما منّا أحد إلا تطير، أو بعد (إلا)؛ أى وما منّا إلا متطير.

والمعنى: ما منّا إنسان يسلم من التطير؛ فالإنسان يسمع شيئاً فيتشاءم، أو يبدأ، فى فعل؛ فيجد أوله ليس بالسهل فيتشاءم ويتركه. أهـ

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قوله: «وما منّا إلا». قال أبو القاسم الأصبهاني والمنذرى: فى الحديث إضممار والتقدير وما منّا إلا وقد وقع فى قلبه شيء من ذلك انتهى. وحاصله وما منّا إلا من يعتريه التطير ويسبق إلى قلبه الكراهة فيه. فحذف ذلك اعتماداً على فهم السامع. وقال الخلخالي: حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة وهذا نوع من أدب الكلام.

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) القول المفيد ٢/ ١٣/ ١١٤.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٢٥.

قوله: «ولكن الله يذهب بالتوكل».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «ولكن الله يذهب بالتوكل» أى ما منا إلا من يقع فى قلبه ذلك، ولكن لما توكلنا على الله وآمنا به، واتبعنا ما جاء به الرسول ﷺ واعتقدنا صدقه، أذهب الله ذلك عنا وأقر قلوبنا على السنة واتباع الحق. أهـ
قال ابن عثيمين^(٢):

والتوكل: صدق الاعتماد على الله فى جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله.
فلا يكفى صدق الاعتماد فقط، بل لا بد أن تثق به؛ لأنه سبحانه يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٣). أهـ

قوله: «وجعل آخره من قول ابن مسعود».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قوله: وجعل آخره من قول ابن مسعود قال الترمذى: سمعت محمد ابن إسماعيل يقول: كان سليمان بن حرب يقول فى هذا: «وما منا» هذا عندى من قول ابن مسعود، فالترمذى نقل ذلك عن سليمان بن حرب ووافقه على ذلك العلماء. قال ابن القيم: وهو الصواب، فإن الطيرة نوع من الشرك. أهـ
قلت: وكذا قال الخطابى: وهذه الجملة أى من قوله: «مامنا إلا...» إلى آخره ليست من قول النبى ﷺ وإنما هو قول عبدالله بن مسعود - رضى الله عنه وتقدم فى أول الباب عن ابن حجر^(*).

قال ابن عثيمين^(٥): قوله: «وجعل آخره من قول ابن مسعود».
وهو قوله: «وما منا إلا...» إلخ.

وعلى هذا يكون موقوفاً، وهو مدرج فى الحديث، والمدرج: أن يدخل أحد الرواة كلاماً فى الحديث من عنده بدون بيان، ويكون فى الإسناد والمتن، ولكن أكثره فى المتن، وقد يكون فى أول الحديث، وقد يكون فى وسطه، وقد يكون فى آخره، وهو الأكثر.

مثال ما كان فى أول الحديث: قول أبى هريرة رضى الله عنه: «أسبغوا الوضوء، ويلٌ للأعقاب من النار»^(٦)؛ فقوله: «أسبغوا الوضوء» من كلام أبى هريرة، وقوله: «ويلٌ للأعقاب من النار» من كلام الرسول ﷺ.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٢٥. (٢) القول المفيد ١١٤/٢ و ١١٥.

(٣) الطلاق: ٣. (٤) تيسير العزيز الحميد ٣٢٥.

(٥) القول المفيد ١١٤/٢. (*) عون المعبود (١٠/٤٠٦-٤٠٧).

(٦) [متفق عليه] أخرجه: البخارى (١٦٥)، ومسلم فى الطهارة (٣/١٣١ - النووى).

وَلَا حَمْدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ»
قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ يَقُولَ اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا
طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»^(١).

ومثال ما كان فى وسطه قول الزهرى فى حديث بدء الوحى: «كان رسول الله ﷺ
يَتَحَنَّنُ فى غار حراء، والتحنن: التبعذ»^(٢)، ومثال ما كان فى آخره: هذا الحديث الذى
ذكره المؤلف، وكذا حديث أبى هريرة، وفيه: «فمن استطاع منكم أن يطيل غرته؛
فليفعل»^(٣)، فهذا من كلام أبى هريرة^(٤).



قال سليمان آل الشيخ^(٥): هذا الحديث رواه الإمام أحمد والطبرانى عن عمرو بن
العاص مرفوعاً وفى إسناده ابن لهيعة وفيه اختلاف وبقية رجاله ثقات. أهـ

- مناسبة الحديث للباب وللتوحيد.

قال القرعاوى^(٦): حيث دل الحديث على شرك من ردته الطيرة عن المضى فى
حاجته. أهـ

قال سليمان آل الشيخ^(٧): قوله: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك» وذلك أن
التطير هو التشاؤم بالشئ المرئى أو المسموع فإذا استعملها الإنسان فرجع بها عن سفره
وامتنع بها عما عزم عليه؛ فقد قرع باب الشرك، بل ولجه وبرىء من التوكل على الله،

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/ ٢٢٠).

من طريق ابن لهيعة أخبرنا ابن مسيرة عن أبى عبد الرحمن الحلبى عن عبد الله بن عمرو.. فذكره.
وذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥/ ١٠٥) وقال: رواه أحمد والطبرانى وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه
ضعف.

وله شاهد من حديث بريدة عن أبيه أخرجه الطبرانى فى «الدعاء» (ح ١٢٧٠). وانظر «فتح المجيد» (ح
٥٩٠) بتخريجنا.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٣)، ومسلم فى الإيمان (١/ ٤٧٤/ ٢٥٢).

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (١٣٦)، ومسلم فى الطهارة (٢/ ١٣٦/ ٣٤) عن أبى هريرة به.

(٤) وانظر أمثله على ذلك فى كتابنا «التيسير والتأصيل والسلفية فى شرح المنظومة البيقونية» فى مبحث

المدرج

(٥) تيسير العزيز الحميد ٣٢٠.

(٦) الجديد ٢٦٢.

(٧) تيسير العزيز الحميد ٣٢٦.

وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله، وذلك قاطع له عن مقام «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» فيصير قلبه متعلقاً بغير الله، وذلك شرك فيفسد عليه إيمانه، ويبقى هدفاً لسهام الطيرة. ويقضي له الشيطان من ذلك ما يفسد عليه دينه ودنياه، وكم من هلك بذلك وخسر الدنيا والآخرة.

قوله: «من ردت الطيرة عن حاجته فقد أشرك».

قال ابن عثيمين^(١): قوله في حديث ابن عمرو: «من».

شرطية، وجواب الشرط: «فقد أشرك»، واقتران الجواب بالفاء؛ لأنه لا يصلح لمباشرة الأداة، وحينئذ يجب اقتراانه بالفاء، وقد جمع ذلك في بيت شعر معروف، وهو قوله:

اسمِيَّةٌ طَلِيَّةٌ وَيَجَامِدُ وَبِمَا وَقَدْ وَلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ
قوله: «من ردت الطيرة عن حاجته».

الحاجة: كل ما يحتاجه الإنسان بما تتعلق به الكمالات، وقد تطلق على الأمور الضرورية. أهـ

قوله: «فقد أشرك».

أى: شركاً أكبر إن اعتقد أن هذا المُتَشَاءم به يفعل ويحدث الشر بنفسه، وإن اعتقده سبباً فقط فهو أصغر؛ لأنه سبق أن ذكرنا قاعدة مفيدة في هذا الباب، وهى: «إن كل من اعتقد فى شىء أنه سبب ولم يثبت أنه سبب لا كوناً ولا شريعاً؛ فشركه شرك أصغر؛ لأنه ليس لنا أن نثبت أن هذا سبب إلا إذا كان الله قد جعله سبباً كوناً أو شريعاً؛ فالشرعى: كالقراءة والدعاء، والكونى: كالأدوية التى جُرِّبَ نفعها».

قوله: «قالوا: فما كفارة ذلك».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «فما كفاره ذلك إلى آخر الحديث. هذا كفارة لما يقع من الطيرة ولكن يمضى مع ذلك ويتوكل على الله أهـ

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «فما كفارة ذلك».

أى: ما كفارة هذا الشرك، أو ما هو الدواء الذى يزيد هذا الشرك؟ لأن الكفارة قد تطلق على كفارة الشئ بعد فعله، وقد تطلق على الكفارة قبل الفعل، وذلك لأن

(١) القول المفيد ١١٥/٢ : ١١٦ .

(٣) القول المفيد ١١٦/٢ .

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٢٦ .

الاشتقاق مأخوذ من الكفر، وهو الستر، والستر واق؛ فكفارة ذلك إن وقع وكفارة ذلك إن لم يقع.

قوله: «قال اللهم لاخير إلا خيرك ولاطير إلا طيرك».

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «اللهم لاخير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك».

أى: الطيور كلها ملكك؛ فهي لا تفعل شيئاً، وإنما هي مسخرة، قال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) فالهم أن الطير مسخرة بإذن الله؛ فالله تعالى هو الذى يديرها ويصرفها ويسخرها تذهب يميناً وشمالاً، ولا علاقة لها بالحوادث.

ويحتمل أن المراد بالطير هنا ما يتشاءم به الإنسان؛ فكل ما يحدث للإنسان من التشاؤم والحوادث المكروهة؛ فإنه من الله كما أن الخير من الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَأْثَرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٤).

لكن سبق لنا أن الشر فى فعل الله ليس بواقع، بل الشر فى الفعل، بل فعله تعالى كله خير؛ إما خير لذاته، وإما لما يترتب عليه من المصالح العظيمة التى تجمع له خيراً.

- ما يستفاد من هذا الحديث:

قال سليمان آل الشيخ^(٥): وفيه الاعتراف بأن الطير خلق مسخر مملوك لله، لا يأتى بخير ولايدفع شراً، وأنه لا خير فى الدنيا والآخرة إلا خير الله، فكل خير فيهما فهو من الله تعالى تفضلاً على عباده وإحساناً إليهم وأن الالهية كلها لله ليس فيها لأحد من الملائكة والانبياء عليهم السلام شركة، فضلاً عن أن يشرك فيها ما يراه ويسمعه مما يتشاءم به. أهـ

قال ابن عثيمين^(٦): يستفاد من هذا الحديث:

١ - أنه لايجوز للإنسان أن ترده الطيرة عن حاجته، وإنما يتوكل على الله ولا يبالى بما رأى أو سمع أو حدث له عند مباشرته للفعل أول مرة؛ فإن بعض الناس إذا حصل

(١) القول المفيد ١١٦/٢.

(٢) الملك: ١٩.

(٣) النحل: ٧٩.

(٤) الاعراف: ١٣١.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٣٢٦.

(٦) القول المفيد ١١٨/٢ و ١١٩.

وَلَهُ: مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ: «إِنَّمَا الطَّيْرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ» (١).

له ما يكره في أول مباشرته الفعل تشاءم، وهذا خطأ؛ لأنه ما دامت هناك مصلحة دنيوية أو دينية؛ فلا تهتم بما حدث.

٢ - أن الطيرة نوع من الشرك؛ لقوله: «من رده الطيرة عن حاجته؛ فقد أشرك».

٣ - أن من وقع في قلبه التطير ولم ترده الطيرة؛ فإن ذلك لا يضر كما سبق في حديث ابن مسعود: «وما منا إلا، ولكن الله يذهب بالتوكل» (٢).

٤ - أن الأمور بيد الله خيرها وشرها.

٥ - انفراد الله بالالوهية؛ كما انفرد بالخلق والتدبير.



قوله: من حديث الفضل....

قال سليمان آل الشيخ (٣):

هذا الحديث رواه أحمد في «المسند» ولفظه حدثنا حماد بن خالد قال: ثنا ابن عثالة عن مسلمة الجهني قال: سمعته يحدث عن الفضل بن عباس قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوماً فبرح ظبي فمال في شقه فاحتضته فقلت: يا رسول الله تطيرت قال: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك» هكذا رواه أحمد وفي إسناده نظر وقرأت بخط المصنف فيه رجل مختلف فيه، وفيه انقطاع أى: بين مسلم وبين الفضل وهو ابن العباس بن عبدالمطلب ابن عم النبي ﷺ وأكبر ولد العباس. قال ابن معين: قتل يوم اليرموك في عهد أبي بكر رضى الله عنه. وقال غيره: قتل يوم مرج الصفر، سنة ثلاث عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة. قال أبو داود: قتل بدمشق كان عليه درع النبي ﷺ. وقال الواقدي وابن سعد: مات في طاعون عمواس. أهـ

(١) [إسناده ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٠/٢).

من طريق حماد بن خالد عن ابن عثالة عن مسلمة الجهني عن الفضل بن عباس..... فذكره.

قال أحمد شاعر: إسناده ضعيف. لانقطاعه.

وذكره الحافظ في «المطالب العالية» (٢/٣٥٤ ح ٢٤٥٦) عن أبي أمامة. وانظر «فتح المجيد» (ح ٥٩١)

بتخريجنا.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٢٦.

قوله: «إنما الطيرة».

قال ابن عثيمين^(١): قوله في حديث الفضل: «إنما الطيرة».

هذه الجملة عند البلاغيين تسمى حصراً؛ أى ما الطيرة إلا ما أمضاك أو ردك لا ما حدث فى قلبك ولم تلتفت إليه، ولا ريب أن السلامة منها حتى فى تفكير الإنسان خير بلاشك، لكن إذا وقعت فى القلب ولم ترده ولم يلتفت لها؛ فإنها لا تضره، لكن عليه أن لا يستسلم، بل يدافع؛ إذ الأمر كله بيد الله. أهـ

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك». هذا حد للطيرة المنهى عنها بأنها ما أوجب للإنسان أن يمضى لما يريده ولو من الفأل، فإن الفأل إنما يستحب لما فيه من البشارة والملاءمة للنفس، فأما أن يعتمد عليه ويمضى لأجله مع نسيان التوكل على الله فإن ذلك من الطيرة. وكذلك إذا رأى أو سمع ما يكره فتشاءم به ورده عن حاجته فإن ذلك أيضاً من الطيرة. أهـ

قال ابن عثيمين^(٣): أما «ما ردك»؛ فلا شك أنه من الطيرة؛ لأن التطير يوجب الترك والتراجع.

وأما «ما أمضاك»؛ فلا يخلو من أمرين:

الأول: أن تكون من جنس التطير، وذلك بأن يستدل لنجاحه أو عدم نجاحه بالتطير، كما لو قال: سأزجر هذا الطير، فإذا ذهب إلى اليمين؛ فمعنى ذلك اليمُن والبركة، فيقدم؛ فهذا لاشك أنه تطير؛ لأن التفاؤل بمثل انطلاق الطير عن اليمين غير صحيح؛ لأنه لا وجه له؛ إذ الطير إذا طار؛ فإنه يذهب إلى الذى يرى أنه وجهته، فإذا اعتمد عليه؛ فقد اعتمد على سبب لم يجعله الله سبباً، وهو حركة الطير.

الثانى: أن يكون سبب المضى كلاماً سمعه أو شيئاً شاهده يدل على تيسير هذا الأمر له؛ فإن هذا فآل، وهو الذى يعجب النبي ﷺ، لكن إن اعتمد عليه وكان سبباً لإقدامه؛ فهذا حكمه حكم الطيرة، وإن لم يعتمد عليه ولكنه فرح ونشط وازداد نشاطاً فى طلبه؛ فهذا من الفأل المحمود.

(١) القول المفيد ١١٩/٢.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٢٧.

(٣) القول المفيد ١١٩ - ١٢٠.

فيه مسائل

الأولى: التنبيه على قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١) مع قوله تعالى ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾^(٢).

الثانية: نفى العدو.

الثالثة: نفى الطيرة.

الرابعة: نفى الهامة.

الخامسة: نفى الصفر.

والحديث في سنده مقال، لكن على تقدير صحته هذا حكمه.

فيه مسائل:

قال ابن عثيمين^(٣):

● الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، مع قوله: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾.

أى: لكى يتنبه الإنسان، فإن ظاهر الآيتين التعارض، وليس كذلك؛ فالقرآن والسنة لا تعارض بينهما ولا تعارض فى ذاتهما، إنما يقع التعارض حسب فهم المخاطب، وقد سبق بيان الجمع أن قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أن الله هو المقدر ذلك، وليس موسى ولا غيره من الرسل، وأن قوله: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ من باب السبب؛ أى: أنتم سببه.

● الثانية: نفى العدو.

وقد سبق أن المراد بنفيها نفى تأثيرها بنفسها لا أنها سبب للتأثير؛ لأن الله قد جعل بعض الأمراض سبباً للعدوى وانتقالها.

● الثالثة: نفى الطيرة. أى: نفى التأثير لا نفى الوجود.

● الرابعة: نفى الهامة. وقد سبق تفسيرها.

● الخامسة: نفى الصفر. وسبق تفسيره.

(٢) يس: ١٩.

(١) الأعراف: ١٣١.

(٣) القول المفيد ٢/ ١٢١ - ١٢٤.

السادسة: أَنَّ الْفَالَّ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مُسْتَحَبٌّ.

السابعة: تَفْسِيرُ الْفَالِّ.

الثامنة: أَنَّ الْوَاقِعَ فِي الْقُلُوبِ مِنْ ذَلِكَ مَعَ كَرَاهَتِهِ لَا يَضُرُّ بَلْ يَذْهَبُهُ اللَّهُ بِالتَّوَكُّلِ.

التاسعة: ذَكَرُ مَا يَقُولُ مَنْ وَجَدَهُ.

العاشرة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الطَّيْرَةَ شَرِكٌ.

الحادية عشرة: تَفْسِيرُ الطَّيْرَةِ الْمَذْمُومَةِ.

● السادسة: أَنَّ الْفَالَّ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مُسْتَحَبٌّ. تؤخذ من قول النبي ﷺ: «يعجبني الفأل»، وكل ما أعجب النبي ﷺ؛ فهو حسن، قالت عائشة رضى الله عنها: «كان النبي ﷺ يعجبه التيامن في تتعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله»^(١).

● السابعة: تفسير الفأل. فسره النبي ﷺ بأنه: الكلمة الطيبة، وسبق أن هذا التفسير على سبيل المثال لا على سبيل الحصر؛ لأن الفأل كل ما ينشط الإنسان على شيء محمود؛ من قوله، أو فعل مرئى أو مسموع.

● الثامنة: أَنَّ الْوَاقِعَ فِي الْقُلُوبِ مِنْ ذَلِكَ مَعَ كَرَاهَتِهِ لَا يَضُرُّ، بَلْ يَذْهَبُهُ اللَّهُ بِالتَّوَكُّلِ. أى: إذا وقع في قلبك وأنت كاره له؛ فإنه لا يضررك ويذهب الله بالتوكل؛ لقول ابن مسعود: «وما منا إلا.... ولكن الله يذهب بالتوكل».

● التاسعة: ذكر ما يقول من وجده. وسبق أنه شيثان. أن يقول: «اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

أو يقول: «اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك».

● العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك. وسبق أن الطيرة شرك، لكن بتفصيل، فإن اعتقد تأثيرها بنفسها؛ فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنها سبب؛ فهو شرك أصغر.

● الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة. أى: ما أمضاك أو ردك. أهـ



(١) سبق تخريجه.

ما جاء في التنجيم

● مناسبة هذا الباب لما قبله

قال ابن باز^(١): لما كان التنجيم شائعاً معمولاً به ذكره المؤلف، ولما كان من التنجيم كالطيرة من حيث التعدي على علم الغيب ناسب أن يأتي بالتنجيم وما جاء فيه بعد الطيرة. اهـ

● مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

قال السعدى^(٢): التنجيم ينافي التوحيد لما فيه من هذه الدعاوى الباطلة - لمشاركة الله في علم الغيب الذي انفرد به أو تصديق لمن ادعى ذلك -، ولما فيه من تعلق القلب بغير الله ولما فيه من فساد العقل، لأن سلوك الطرق الباطلة وتصديقها من مفسدات العقول والأديان. اهـ.

قلت: وقد تقدم ذلك في باب شيء من أنواع السحر
وقال عبد الله بن جبار الله^(٣): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هي أن بعض أنواع التنجيم من الشرك المنافي للتوحيد. اهـ.

● شرح الترجمة، وماذا أراد المصنف بها:

قال سليمان آل الشيخ^(٤): المراد هنا ذكر ما يجوز من التنجيم وما لا يجوز وما ورد فيه من الوعيد، قال شيخ الإسلام: «التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية»^(٥).

قلت: وتقدم في باب ما جاء في الكهان ونحوهم.
وقال الخطابي: علم النجوم المنهى عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن، والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح، ومجئ المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار، وما كان في معناها من الأمور التي يزعمون أنهم يدركون معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها، ويدعون أن لها

(٢) القول السديد (٨٣)

(٤) تيسير العزيز الحميد (٣٢٧)

(١) التعليق المفيد (١٦٧)

(٣) الجامع الفريد (١١٨).

(٥) مجموع الفتاوى (١٩٢/٣٥)

تأثيراً فى السفليات وأنها تجرى على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاطى لعلم قد استأثر الله به لا يعلم الغيب سواه^(١). اهـ.

قلت: وهو ما يفعله الكهان والعراف كما تقدم فى بابه.

وقال ابن باز^(٢): والتنجيم: مصدر ينجم تنجيماً أى حرز وحدس بما يعتقد فى النجوم، والتنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية فينظرون فى النجوم واجتماعها وافتراقها وطلوعها وغروبها وتقاربها وتباعدها ويستدلون بها على أنه يقع كذا، وهذا باطل من دعوى علم الغيب التى أبطلها الله بقوله ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أما النظر فى النجوم من باب التسيير لمعرفة منازل القمر لتحديد أوقات الصلاة والمطر فلا بأس به كما هو رأى أحمد وإسحاق بن راهوية. اهـ وسيأتى فى أنواع التنجيم. اهـ وقد تقدم من كلام الخطابى.

وقال ابن عثيمين^(٣): التنجيم: مصدر نجم بتشديد الجيم، أى تعلم علم النجوم، أو اعتقد تأثير النجوم. اهـ.

وقال صاحب فضل الغنى الحميد^(٤): هو الاستدلال بمطالع النجوم، والكواكب، أو غروبها على وقوع بعض الحوادث ومنه قراءة أو كتابة حظك اليوم، أو أنت والنجوم، كما هو مشاهد فى الجرائد والمجلات المعاصرة اهـ.

● أقسام التنجيم، وحكم كل قسم:

وقال الخطابى:

١- علم النجوم النهى عنه هو: فذكر ما تقدم أنه ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التى لم تقع وستقع فى مستقبل الزمان كأخبارهم بأوقات هبوب الرياح، ومجىء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار وما كان فى معانيها من الأمور، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب فى مجاريها، واجتماعها واقترائها، ويدعون لها تأثيراً فى السفليات وأنها تتصرف على أحكامها، وتجرى على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاطى لعلم استأثر الله سبحانه به لا يعلم الغيب أحد سواه.

٢- فأما علم النجوم الذى يدرك من طريق المشاهدة والحس الذى يعرف به الزوال

(٢) التعليق المفيد (١٦٧)

(١) معالم السنن (٢١٣، ٢١٢/٤)

(٤) فضل الغنى الحميد (٨٠).

(٣) القول المفيد (١٢٥/٢)

ويعلم به جهة القبلة، فإنه غير داخل في ما نهى عنه؛ وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل مادام متناقصاً فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي، وهذا علم يصح دركه من جهة المشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه بما اتخذوا له من الآلة التي يستغنى الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته.

وأما ما يستدل به من جهة النجوم على جهة القبلة، فإنما هي كواكب أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لانشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها، مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة، ويشاهدوها في حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم الدلالة عنها بالمعينة، وإدراكنا لذلك بقبولنا لخبرهم إذا كانوا غير متهمين في دينهم ولامقصرين في معرفتهم. اهـ.

وهناك تقسيم آخر، إلى: -

جائز ومحرم:

- فأما الجائز: فهو ما كان من جنس الحساب، ويدرك بطريق المشاهدة والخبر، كمعرفة حركات النجوم والكواكب تنقلاتها ومنازلها، وذلك للتعرف على نحو الكسوف والخسوف والزوال وجهة القبلة وما شابه ذلك. فهذا ونحوه ليس من باب علم الغيب في شيء، وإنما هو من جنس علم الحساب الذي علمه الله عباده.

وقد اخترع أهل هذه الصناعة لمعرفة ذلك منظارات مقربة وآلات حاسبة، ومراصد كاملة الأسباب والآلات، وتعرفوا من خلال ذلك على كثير من العوالم العلوية حتى أصبحت كأنها على الأرض.

ولا شك أن ما كان من هذا القبيل فلا يصح أن يختلف فيه مطلقاً، لأنه مما يعرف بالحساب كما سبق، وهو مما أجرى الله به العادة فلا يحرم أبداً، فكان الإخبار عنه بمنزلة الإخبار بأن الهلال يطلع إما ليلة الثلاثين أو الليلة التي بعدها، أو أن الشمس تغرب آخر النهار وأمثال ذلك.

قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ﴾^(٢).

(١) الرحمن: ٥.

(٢) يونس: ٥.

قال الخطايب: أما علم النجوم الذى يدرك من طريق المشاهدة والخبر، الذى يعرف به الزوال وتعلم به جهة القبلة فهو غير داخل فيما نهى الله عنه - وتقدم هذا - .

وقال ابن رجب: والمأذون فى تعلمه علم التسيير لا علم التأثير فإنه باطل محرم قليله وكثيره. وأما علم التسيير فتعلم ما يحتاج منه للاهتمام ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور، وما زاد عليه لا حاجة إليه لشغله عما هو أهم منه.

وقال ابن تيمية^(١): لاريب أن النجوم (نوعان): - حساب - وأحكام.

فأما الحساب فهو معرفة أقدار الأفلاك والكواكب. وصفاتها ومقادير حركاتها، وما يتبع ذلك فهذا فى الأصل علم صحيح لاريب فيه كمعرفة الأرض وصفاتها، ونحو ذلك لكن جمهور التدقيق منه كثير التعب، قليل الفائدة، كالعالم مثلاً بمقادير الدقائق والثوانى والثوالت فى حركة السبعة المتحيرة «الخنس، الجوار الكنس». اهـ.

وقال فى موضع آخر^(٢): وهو بصدد حديثه عن الكسوف والخسوف -: وما أخبر به النبى ﷺ لا ينافى لكون الكسوف له وقت محدد يكون فيه، حيث لا يكون كسوف الشمس إلا فى آخر الشهر ليلة السرار ولا يكون خسوف القمر إلا فى وسط الشهر وليالى الإدبار.

ومن ادعى خلاف ذلك من المتفقهة أو العامة فلعدم علمه بالحساب، ولهذا يمكن المعرفة بما مضى من الكسوف وما يستقبل، كما يمكن المعرفة بما مضى من الأهلة وما يستقبل إذ كل ذلك بحساب كما قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ وقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ وقال ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ﴾. اهـ.

ثم قال^(٣): وأما الأحكام التى هى من جنس السحر، منها ما هو دعاية الكواكب، وعبادة لها، وأنواع من الشرك.

وأما المحرم فهو قسمان:

الأول: الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث المستقبلية -

قال الفقير: مثل حظك اليوم وأنت والنجوم. ١. هـ وهو ما يدعيه أهل التنجيم من

(٢) مجموع الفتاوى (١٧٥/٣٥).

(١) مجموع الفتاوى (١٨١/٣٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٨١/٣٥).

الاستدلال على الحوادث بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها، وهذا من جنس الاستقسام بالأزلام، فهو تحكم على الغيب وتعاط لعلم قد استأثر الله به، ولا شك في فساد هذه الصناعة وحرمتها.

وقد علم الخاصة والعامة بالتجربة والتواتر أن الأحكام التي يحكم بها المنجمون يكون الكذب فيها أضعاف الصدق، فصدقهم كصدق الكهان، يصدقون في كلمة ويكذبون في مائة، وذلك أن مبنى علمهم أن الحركات العلوية هي السبب في الحوادث، والعلم بالسبب يوجب العلم بالمسبب، وهذا إنما يكون إذا علم السبب التام الذي لا يتخلف عنه حكمه، وهؤلاء - إن علموا - لا يعلمون إلا جزءاً يسيراً من جملة الأسباب الكثيرة، ولا يعلمون بقية الأسباب ولا الشروط ولا الموانع، وذلك مثل من يعلم أن الشمس في الصيف تعلو الرأس حتى يشتد الحر، فيريد أن يعلم من هذا مثلاً أن العنب الذي بأرض كذا يصير زبيباً، وهذا وإن كان يقع أحياناً ولكن أخذه من مجرد حرارة الشمس جهل عظيم، إذ قد يكون هناك عنب وقد لا يكون، وقد يثمر شجره أو لا يثمر، وقد يؤكل عنها وقد يعصر وقد يسرق، وكل ذلك وارد!

وقد أراد المنجمون أن يمنعوا علياً رضي الله عنه من السفر لقتال الخوارج قائلين له: إنك إن سافرت والقمر في العقرب هزم أصحابك! فقال علي: بل أسافر ثقة بالله وتوكلاً على الله. فبورك له في سفره هذا، وكتب له فيه النصر والغلبة.

قال الخطابي: علم النجوم المنهى عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح، ومجئ المطر، وتغير الأسعار، وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها، يدعون أن لها تأثيراً في السفليات وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاط لعلم قد استأثر الله به، ولا يعلم الغيب سواه.

وقال ابن تيمية: والسحر محرم بالكتاب والسنة والإجماع، وذلك أن النجوم التي من السحر نوعان: أحدهما علمي، وهو الاستدلال بحركات النجوم على الحوادث من جنس الاستقسام بالأزلام...

إلى أن قال: والدلالة الدالة على فساد هذه الصناعة وتحريمها كثيرة وليس هذا موضعها، وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»^(١) والعراف قد قيل: إنه اسم عام للكاهن والمنجم

(١) تقدم تخريجه

والرمال ونحوهم ممن يتكلم في تقدم المعرفة بهذه الطرق. ولو قيل: إنه في اللغة اسم لبعض هذه الأنواع. فساترها يدخل فيه بطريق العموم المعنوي، كما قيل في اسم الخمر والميسر ونحوهما^(١).

الثاني: القول بتأثير الكواكب في الأمور، وأن الحوادث مركبة على تأثيرها ولاشك أن هذا كفر بإجماع المسلمين

- قال الفقير: ويستدل له بحديث الأنواء وسيأتي - فإذا انضم إلى ذلك دعاؤها والاستعانة بها فقد بلغ الكفر غايته ومنتهاه.

قال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين. فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به.

وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أغرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا. ولعمري ما من نجم إلا ويولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والديم، وما عُلِمَ هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب؟! ولو أن أحداً أعلم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء قلت: وسيأتي هذا الأثر وشرحه حيث صدر به المصنف هذا الباب^(٢).

حكم من يعتقد أن النجوم مؤثرة في سعيه ونجسه

قال ابن تيمية: واعتقاد المعتقد أن نجماً من النجوم السبعة هو المتولى لسعيه ونجسه اعتقاد فاسد وإن اعتقد أنه هو المدير له فهو كافر، وكذلك إذا انضم إلى ذلك دعاؤه والاستعانة به كان كفراً وشركاً محضاً^(٣)(*).

وقال سليمان آل الشيخ^(٤): واعلم أن التنجيم على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما هو كفر بإجماع المسلمين، وهو القول بأن الموجودات في العالم السفلي

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٧١/٣٥ - ١٧٣.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧٧/٣٥.

(*) وانظر «أصول الإيمان» (١٠٤/١ - ١٠٧).

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٢٧ و ٣٣٢ و ٣٣٣.

مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات، وأن الكواكب فاعلة مختارة وهذا كفر بإجماع المسلمين، وهذا قول الصابئة المنجمين الذين بُعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا كانوا يعظمون الشمس والقمر والكواكب تعظيماً يسجدون لهم ويتذللون لها ويسبحونها تساييح معروفة في كتبهم، ويدعونها دعوات لاتنبغي إلا لخالقها وفاطرها وحده لا شريك له، وبينون لكل كوكب هيكلأ: أى موضعاً لعبادته ويصورون فيه ذلك الكوكب، ويتخذونه لعبادته وتعظيمه، ويزعمون أن روحانية ذلك الكوكب تنزل عليهم وتخاطبهم وتقضى حوائجهم. وتلك الروحانيات هى الشياطين تنزلت عليهم وخاطبتهم وقضت حوائجهم. وقد صنف بعض المتأخرين فى هذا الشرك مصنفاً وذكر صاحب «التذكرة» فيها.

الثانى: الاستدلال على الحوادث الأرضية بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها ونحو ذلك، ويقول: إن ذلك بتقدير الله ومشيئته فلا ريب فى تحريم ذلك، واختلف المتأخرون فى تكفير القائل بذلك. وينبغى أن يقطع بكفره لأنها دعوى لعلم الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه بما لا يدل عليه.

القسم الثالث: عن علم التنجيم وهو تعلم منازل الشمس والقمر، للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصوات والفصول، وهو كما ترى من اختلاف السلف فيه. فما ظنك بدينك القسمين ومنازل القمر ثمانية وعشرون كل ليلة فى منزلة منها فكره قتادة وسفيان بن عيينة تعلم المنازل.

وأجازه أحمد واسحاق وغيرهما قال الخطأبى: أما علم النجوم الذى يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذى يعرف به الزوال وتعلم به جهة القبلة، فإنه غير داخل فيما نهى عنه وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل ما دام متناقصاً. فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقى، وإذا أخذ فى الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربى. وهذا علم يصح دركه بالمشاهدة. إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوا له من الآلات التى يستغنى الناظر فيها عن مراعات مدته ومراصدته، وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لانشك فى عنايتهم بأمر الدين، ومعرفتهم بها وصدقهم فيما

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢١٢/٤) ونسبه لابن المنذر.

أخبروا به عنها. مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة، ويشاهدوها على حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعينة وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم، إذ كانوا عندنا غير متهمين فى دينهم، ولا مقصرين فى معرفته .

قلت: سليمان آل الشيخ: وروى ابن المنذر عن مجاهد أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر^(١) قلت - سليمان آل الشيخ - لأنه لا محذور فى ذلك .

وعن إبراهيم أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدى به . رواه ابن المنذر .
قال ابن رجب: والمأذون فى تعلمه علم التسيير لا علم التأثير فإنه باطل محرم قليله وكثيره . وأما علم التسيير فتعلم ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور وما زاد عليه لا حاجة إليه لشغله عما هو أهم منه ، وربما أدى تدقيق النظر فيه إلى إساءة الظن بمحارب المسلمين كما وقع من أهل هذا العلم قديماً وحديثاً، وذلك يفضى اعتقاده إلى خطأ السلف فى صلاتهم وهو باطل انتهى . مختصراً .

قلت - سليمان آل الشيخ - وهذا هو الصحيح إن شاء الله ، ويدل على ذلك الآيات والأحاديث التى تقدمت .

وهل يدخل فى النهى وقت الكسوف الشمسى والقمرى أم لا؟ رجح ابن القيم أنه لا يدخل .

قلت: ومن العلماء من جعلهم قسمين .

قال ناصر السعدى^(٢):

التنجيم نوعان: نوع يسمى علم التأثير : «وهو الاستدلال بالاحوال الفلكية على الحوادث الكونية فهذا باطل ودعوى لمشاركه الله فى علم الغيب الذى أنفرد به أو تصديق لمن ادعى ذلك ، وهذا ينافى التوحيد لما فيه من هذه الدعوى الباطلة، ولما فيه من تعلق القلب بغير الله ، ولما فيه من فساد العقل ، لان سلوك الطرق الباطلة، وتصديقها من مفسدات العقول والاديان .

النوع الثانى: علم التسيير وهو الاستدلال بالشمس والقمر والكواكب على القبلة والاقوات والجهات ، فهذا النوع لا بأس به ، بل كثير منه نافع قد حث عليه الشارع اذا كان وسيلة إلى معرفة اوقات العبادة أو إلى الإهتداء به فى الجهات .

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢١٢/٤) ونسبه لابن المنذر .

(٢) القول السديد ٨٣ و ٨٤ .

فيجب التفريق بين ما نهى عنه الشارع وحرمه، وبين ما أباحه أو استحبه أو أوجبه فالأول هو المنافي للتوحيد.

قلت: وجمع بين من قال أنه ثلاثة أقسام وبين من قال أنه قسمين ابن عثيمين بشرحه وتفصيله لهذه الأقسام.

فقال: وعلم النجوم^(١) ينقسم إلى قسمين:

١ - علم التأثير.

٢ - علم التسيير.

فالأول: علم التأثير.

وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

(أ) أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة، بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشور؛ فهذا شرك أكبر؛ لأن من ادعى أن مع الله خالقاً؛ فهو مشرك شركاً أكبر؛ فهذا جعل المخلوق المسخر خالقاً مُسخرًا.

(ب) أن يجعلها سبباً يدعى به علم الغيب؛ فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا؛ لأن النجم الفلاني صار كذا وكذا، مثل أن يقول: هذا الإنسان ستكون حياته شقاءً؛ لأنه ولد في النجم الفلاني، وهذا حياته ستكون سعيدة؛ لأنه ولد في النجم الفلاني؛ فهذا اتخذ تعلم النجوم وسيلةً لادعاء علم الغيب، ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملة؛ لأن الله يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾، وهذا من أقوى أنواع الحصر؛ لأنه بالنفي والإثبات، فإذا ادعى أحد علم الغيب؛ فقد كَذَّبَ القرآن.

(ج) أن يعتقد أنها سبباً لحدوث الخير والشر، أى أنه إذا وقع شيء نسبته إلى النجوم، ولا ينسب إلى النجوم شيئاً إلا بعد وقوعه؛ فهذا شرك أصغر.

مسألة: فإن قيل: يتقضى هذا بما ثبت عن النبي ﷺ في قوله في الكسوف: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بها عباده»^(٢)؛ فمعنى ذلك أنهما علامة إنذار.

(١) القول المفيد ٢/ ١٢٥ - ١٢٨.

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري (١٠٤١) ومسلم في الكسوف (٢١٥/٦ - النووي) عن أبي مسعود وانظر «منار السبيل» بتخريجنا.

والجواب من وجهين:

الأول: أنه لا يُسلم أن للكسوف تأثيراً فى الحوادث والعقوبات من الجَدْب والقَحْط والحروب، ولذلك قال النبى ﷺ: «إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»، لا فى ما مضى ولا فى المستقبل، وإنما يخوف الله بهما العباد لعلهم يرجعون، وهذا أقرب.

الثانى: أنه لو سلمنا أن لهما تأثيراً؛ فإن النص قد دل على ذلك، وما دل عليه النص يجب القول به، لكن يكون خاصاً به.

لكن الوجه الأول هو الأقرب: أننا لا نسلم أصلاً أن لهما تأثيراً فى هذا؛ لأن الحديث لا يقتضيه؛ فالحديث ينص على التخويف، والمُخَوِّف هو الله تعالى، والمُخَوِّف عقوبته، ولا أثر للكسوف فى ذلك، وإنما هو علامة فقط.

الثانى: علم التسيير.

وهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية؛ فهذا مطلوب، وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجباً، كما لو أراد أن يستدل بالنجوم على جهة القبلة؛ فالنجم الفلانى يكون ثلث الليل قبله، والنجم الفلانى يكون ربع الليل قبله؛ فهذا فيه فائدة عظيمة.

الثانى: أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية؛ فهذا لا بأس به، وهو نوعان:

النوع الأول: أن يستدل بها على الجهات؛ كمعرفة أن القطب يقع شمالاً، والجدى وهو قريب منه يدور حوله شمالاً، وهكذا؛ فهذا جائز، قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١).

النوع الثانى: أن يستدل بها على الفصول، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر؛ فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون.

والذين كرهوه قالوا: يخشى إذا قيل: طلع النجم الفلانى؛ فهو وقت الشتاء أو الصيف؛ أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذى يأتى بالبرد أو بالحر أو بالرياح. والصحيح عدم الكراهة؛ اهـ.



قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»: قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لثَلَاثَ: زِينَةَ
لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ، يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ؛
أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيحَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ». انتهى (١).

قوله : قال البخارى فى صحيحه قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث .. الأثر
قوله: «قال البخارى فى صحيحه».

قال ابن حجر (٢): وصله عبد بن حميد من طريق شيان عنه به وزاد فى آخره
«وأن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا فى هذه النجوم كهانة: من غرس بنجم كذا كان كذا
ومن سافر بنجم كذا كان كذا ولعمري ما من النجوم نجم إلا ويولد به الطويل والقصير
والأحمر والأبيض والحسن والديميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائفة من
هذا الغيب شيء. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ (٣): هذا الأثر علقه البخارى فى «صحيحه» كما قال المصنف
وأخرجه عبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ
والخطيب فى كتاب «النجوم» عن قتادة. ولفظه قال: «إن الله إنما جعل هذه النجوم
لثلاث خصال جعلها زينة للسما، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن
تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به،
وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا فى هذه النجوم كهانة: من غرس بنجم كذا وكذا كان
كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به
الأحمر والأسود، والطويل والقصير والحسن والديميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة
وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب، ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذى خلقه الله
بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء. اهـ.

(١) أخرجه البخارى تعليقاً (٣٤١/٦) ابن جرير (٣/٢٩).

قال: حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة.. فذكره.

وابن أبى حاتم فى تفسيره (١٠٠/٣٣٦٣ ح ١٨٩٣٠).

وذكره السيوطى فى «الدر المستور» (٦٣/٣) ونسبه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر
وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والخطيب فى «كتاب النجوم».

وانظر ابن أبى حاتم فى تفسيره وفتح المجيد (ح ٥٩٣) بتخريجنا..

(٢) الفتح (٣٤١/٦).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٣٢٨).

– مناسبة الأثر للباب^(١): قال القرعاوى: حيث أفاد الأثر رأى قتادة أنه لايجوز الاعتقاد فى النجوم أكثر من الامور الثلاثة المذكور.

– مناسبة الأثر للتوحيد^(٢): قال القرعاوى: حيث أنكر قتادة ما يدعيه أهل التنجيم من علم الغيب، لأن ذلك إشراك مع الله فى علم الغيب.
وكره قتادة تعلم منازل القمر ولم يرخص فيه ابن عيينة، ذكره حرب عن قتادة ورخص أحمد وإسحاق فى تعلم المنازل. اهـ.
قوله: [قال قتادة].

هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، الدوسى، أبو الخطاب، وكان أكمه.
وقال أبو بكر الأثرم: سمعت أحمد بن حنبل يقول: كان قتادة أحفظ أهل البصرة لايسمع شيئاً إلا حفظه؛ وقرئ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها.
وكان من العلماء، كان له خمس وخمسون سنة يوم مات.
وقال عبد الرزاق عن معمر: سمعت قتادة يقول: ما فى القرآن أية إلا قد سمعت فيها شيئاً.

وعن مطر الوراق: ما زال قتادة متعلماً حتى مات.
وعن همام: سمعت قتادة يقول: ما أفتيت بشئ من رأى منذ عشرين سنة.
وعن سعيد بن المسيب يقول: ما أتانى عراقى أحفظ من قتادة.
وعن بكر بن عبد الله المزنى: من سره أن ينظر إلى أحفظ من أدركنا فى زمانه أجدر أن يؤدى الحديث كما سمعه فليُنظر إلى قتادة؟ ما رأيت الذى هو أحفظ منه ولا أجدر أن يؤدى الحديث كما سمعه.

وعن مطر الوراق: كان قتادة إذا سمع الحديث يختطفه إختطافاً، وكان إذا سمع الحديث يأخذه العويل والزَّوِيل حتى يخطفه.

قال أبو حاتم: سمعت أحمد بن حنبل: وذكر قتادة، فأطنب فى ذكره فجعل يثر من علمه وفقهه، ومعرفته بالاختلاف والتفسير وغير ذلك، وجعل يقول: عالم بتفسير القرآن: وباختلاف العلماء. وصفه بالحفظ والفقه، فقال: قلّ ما تجد من يتقدمه أمّا المثل فلعل^(٣). اهـ.

(١) الحديد ٢٦٤.

(٢) الحديد ٢٦٤.

(٣) تهذيب الكمال (٢٣/٥٠٧ : ٥٠٩ : ٥١١).

قوله: [ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح] خلق الله هذه النجوم لثلاث].

قال ابن عثيمين^(١): اللام للتعليل؛ أى: لبيان العلة والحكمة.

قوله: «لثلاث».

ويجوز لثلاثة، لكن الثلاث أحسن، أى: لثلاث حكم، لهذا حذف تاء التانيث من

العدد. اهـ.

قوله: [زينة للسماء] لقوله الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾.

● التفسير: بأقوال المفسرين.

قال ابن جرير^(٢): بقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وهى

النجوم وجعلها مصابيح لإضاءتها وكذلك الصبح إنما قيل له صبح للضوء الذى يضىء للناس من النهار. اهـ.

قال البغوى^(٣): قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أراد الأدنى من الأرض وهى التى

يراها الناس، وقوله: ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ الكواكب، واحدا مصباح، وهو السراج. سمى الكواكب مصباحاً لإضاءته. اهـ.

قال الزمخشري^(٤): (الدنيا) القربى؛ لأنها أقرب السموات إلى الناس، ومعناه

السماء الدنيا منكم والمصابيح السرج سميت بها الكواكب، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بإثقاب المصابيح، فقيل، (ولقد زينا) سقف الدار التى اجتمعتم فيها (بمصباح) أى بأى مصابيح لاتوازيها مصابيحكم إضاءة. اهـ.

قال ابن حجر^(٥):

وذكر ابن دحية فى «التنوير» من طريق أبى عثمان النهدى عن سلمان الفارسى قال: النجوم كلها معلقة كالقناديل من السماء الدنيا كتعليق القناديل فى المساجد. اهـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد.

قال سليمان آل الشيخ^(٦): وفيه إشارة إلى أن النجوم فى السماء الدنيا كما هو

ظاهر الآية، وفيه حديث رواه ابن مردويه عن ابن مسعود قال:

(١) القول المفيد (٢/١٢٨).

(٣) معالم التنزيل (٥/٤٢٠).

(٥) فتح البارى (٦/٣٤١).

(٢) تفسير الطبرى (١٢/٢٩٠/٣).

(٤) الكشف (٤/١٢١).

(٦) تيسير العزيز الحميد (٣٢٨).

قال رسول الله ﷺ: «وأما السماء الدنيا فإن الله خلقها من دخان وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا، وزينها بمصابيح النجوم، وجعلها رجوما للشياطين وحفظا من كل شيطان رجيم».

قال ابن عثيمين^(١):

الأولى: زينة للسماء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾^(٢)؛ لأن الإنسان إذا رأى السماء صافية في ليلة غير مقمرة وليس فيها كهرباء يجد لهذه النجوم من الجمال العظيم مالا يعلمه إلا الله؛ فتكون كأنها غابة محلاة بأنواع من الفضة اللامعة، هذه نجمة مضيئة كبيرة تميل إلى الحمرة، وهذه تميل إلى الزرقة، وهذه خفيفة، وهذه متوسطة، وهذا شيء مشاهد.

وهل نقول: إن ظاهر الآية الكريمة أن النجوم مُرَصَّعة في السماء، أو نقول: لا يلزم ذلك؟

الجواب: لا يلزم من ذلك أن تكون النجوم مرصعة في السماء، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٣)؛ أى: يدورون، كل له فلك.

وأنا شاهدت بعيني أن القمر خسف نجمة من النجوم، أى غطاها، وهى من النجوم اللامعة الكبيرة كان يقرب حولها فى آخر الشهر، وعند قرب الفجر غطاها؛ فكنا لا نراها بالمرة، وذلك قبل عامين فى آخر رمضان.

إذن هى أفلاك متفاوتة فى الارتفاع والنزول، ولا يلزم أن تكون مُرَصَّعة فى السماء.

فإن قيل: فما الجواب عن قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾؟

قلنا: إنه لا يلزم من تزيين الشيء بالشيء أن يكون ملاصقاً له، أُرِيتَ لو أن رجلاً عمر قصرًا وجعل حوله ثريات من الكهرباء كبيرة وجميلة، وليست على جدرانها؛ فالناظر إلى القصر من بُعدٍ يرى أنها زينة له، وإن لم تكن ملاصقة له.

قلت: ويؤيد قول ابن عثيمين قول الرازى حيث قال^(٤): اعلم أن ظاهر هذه الآية

(٢) الملك: ٥

(١) القول المفيد ٢/ ١٢٨ و ١٢٩.

(٤) التفسير الكبير (١٥/ ٢٩/ ٦١).

(٣) الأنبياء: ٣٣.

لا يدل على أن هذه الكواكب مركوزة في السماء الدنيا، وذلك لأن السموات إذا كانت شفافة، فالكواكب سواء كانت في السماء في الدنيا أو كانت في سموات أخرى فوقها، فهي لا بد وأن تظهر في السماء الدنيا، وتلوح منها، فعلى التقدير السماء الدنيا مزينة بهذه المصابيح. اهـ.

قوله: [رجوماً للشياطين] لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾.

● أقوال المفسرين

قال ابن جرير^(١): يقول وجعلنا المصابيح التي زيننا بها السماء الدنيا رجوماً للشياطين ترجم بها. اهـ.

قال البغوي^(٢): ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ مرأى ﴿لِلشَّيَاطِينِ﴾ إذا استرقوا السمع. اهـ.

وقال الزمخشري^(٣): وضمننا إلى ذلك منافع أخر أنا ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ لأعداءكم ﴿لِلشَّيَاطِينِ﴾ الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات، وتهتدون بها في ظلمات البر والبحر، وعن محمد بن كعب: في السماء نجم والله ما لأحد من أهل الأرض، ولكنهم يتفنون الكهانة ويتخذون النجوم علة.

والرجوم: جمع رجم، وهو مصدر، سمي به ما يرم به، ومعنى كونها مراجم للشياطين أن الشهب تنقض لرمي المسترقة منهم منفصلة من نار الكواكب، لا أنهم يرمون بالكواكب أنفسها؛ لأنها قارة في الفلك على حالها وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار، والنار ثابتة كاملة لاتنقص.

وقيل: من الشياطين المرجومة من يقتله الشهاب. ومنهم: من يخلبه، وقيل معناه (وجعلناها) ظنونا ورجوماً بالغيب لشياطين الإنس، وهم النجamon. اهـ.

قال ابن حجر^(٤): قال أبو علي الفارسي في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ الضمير للسماء، أي وجعلنا شهبها رجوماً، على حذف مضاف، فصار الضمير للمضاف إليه. اهـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

(١) تفسير الطبري (١٢/٢٩٠/٣).

(٢) معالم التنزيل (٥/٤٢٠).

(٣) الكشف (٤/١٢١، ١٢٢).

(٤) فتح الباري (٦/٣٤١).

قال ابن عثيمين: (١)؛ أى: لشیاطین الجن، ولسوا شیاطین الإنس؛ لأن شیاطین الإنس لم یصلوها، لكن شیاطین الجن وصلوها؛ فهم أقدر من شیاطین الإنس، ولهم قوة عظيمة نافذة، قال تعالى عن عملهم الدال على قدرتهم: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ﴾ (٢)؛ أى: سخرنا لسلیمان: ﴿وَأَخْرَيْنَ مُقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ﴾ (٤)؛ أى: من سبأ إلى الشام، وهو عرش عظیم للملكة سبأ؛ فهذا يدل على قوتهم وسرعتهم ونفوذهم.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهُابًا رَّصَدًا﴾ (٥).

والرَّجْم: الرمی. اهـ.

قوله: [وعلامات يهتدى بها]: لقوله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وهذه هي الغاية الثالثة لخلق النجوم كما قال قتادة.

● أقوال أهل التفسير.

قال ابن جرير (٦): اختلف أهل التأويل في المعنى بالعلامات:

فقال بعضهم: معالم الطريق بالنهار، وبالنجم هم يهتدون بالليل. قاله ابن عباس.

وقال آخرون: عنى بها النجوم. قال إبراهيم: منها ما يكون علامات، ومنها ما يهتدون به. وكذا قال مجاهد، وقاتدة وقال (وعلامات): النجوم.

وقال آخرون: عنى بها الجبال. قاله الكلبي - كذا مختصراً -.

وقال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال أن الله تعالى ذكره عدّد على عباده من نعمه إناعمه عليهم بما جعلهم لهم من العلامات التي يهتدون بها في

(١) القول المفيد (٢/ ١٢٩).

(٢) ص: ٣٧.

(٣) ص: ٣٨.

(٤) النمل: ٣٩.

(٥) الجن: ٩.

(٦) تفسير الطبري (٧/ ١٤، ٦٣، ٦٤).

مسالكهم وطرقهم التي يسIRONها ولم يخصن بذلك بعض العلامات دون بعض، فكل علامة استدل بها الناس على طرقهم وفجاج سبلهم فداخل فى قوله: ﴿وَعَلَامَاتٌ﴾ والطرق المسبولة الموطوءة علامة للناحية المقصودة، والجبال علامات يهتدى بهن إلى قصد السيل، وكذلك النجوم بالليل، غير أن الذى هو أولى بتأويل الآية أن تكون العلامات من أدلة النهار إذا كان الله قد فصل منها أدلة الليل بقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

إلى أن قال: النجم الذى يهتدى به ليلاً الجدى والفرقدان؛ لأن بها اهتداء السفر دون غيرها من النجوم. اهـ.

وبنحو قول ابن جرير قال البغوى^(١)، وزاد: فى قوله: (وعلامات) قال بعضهم: هاهنا تم الكلام، ثم ابتدأ (وبالنجم هم يهتدون)..

وقال السدى: أراد بالنجوم الشريا، وبنات نعش، والفرقدان، والجدى يهتدون بها إلى الطرق والقبلة. اهـ.

وبنحو ذلك قال الزمخشري^(٢)، وزاد: قوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه ﴿النَّجْمُ﴾ مقحم فيه ﴿هُمْ﴾ كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون. فمن المراد بهم؟ قلت: - يعنى الزمخشري - كأنه أراد قريشاً كان لهم اهتداء بالنجوم فى مسائرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم، فخصصوا. اهـ.

وزاد ابن الجوزى^(٣): ﴿وَبِالنَّجْمِ﴾ أنه اسم جنس، والمراد جميع النجوم، قاله الزجاج.

- وقرأ الحسن والضحاك وأبو المتوكل ويحيى بن وثاب: (وبالنَّجْم) بضم النون، وإسكان الجيم، وقرأ الجحدري: (وبالنَّجْم) بضم النون والجيم. وقرأ مجاهد (وبالنجوم) بواو على الجمع. اهـ.

وبنحو من هذه الأقوال قال الرازى^(٤). وقال القرطبى^(٥): ﴿يَهْتَدُونَ﴾ فى

(١) معالم التنزيل (٣/٤٢١).

(٢) الكشف (٢/٣٢٥).

(٣) زاد المسير (٤/٣٣١).

(٤) التفسير الكبير (١٠/١٢٠/١٢).

(٥) تفسير القرطبى (٦/٣٧٠٨).

الأسفار، وهذا قول الجمهور وقال ابن العربي: أما جميع النجوم فلا يهتدى بها إلا العارف بمطالعها ومغاربها والفرق بين الجنوبي والشمالي منها، وذلك قليل فى الآخرين.. اهـ.

وقال ابن كثير^(١): ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فى ظلام الليل. اهـ.

• أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): (وعلامات).

أى دلالات على الجهات والبلدان ونحو ذلك يهتدى بها بصيغة المجهول. أى يهتدى بها الناس فى ذلك كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾^(٣). اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٤): الثالثة: علامات يُهْتَدَى بها، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِى أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾^(٥)؛ فذكر الله تعالى نوعين من العلامات التى يهتدى بها:

الأول: أرضية، وتشمل كل ما جعل الله فى الأرض من علامة؛ كالجبال، والأنهار، والطرق، والأودية، ونحوها.

والثانى: أفقية فى قوله تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

والنجم: اسم جنس يشمل كل ما يهتدى به، ولا يختص بنجم معين؛ لأن لكل قوم طريقة فى الاستدلال بهذه النجوم على الجهات، سواء جهات القبلة أو المكان، برأ أو بحرأ.

وهذا من نعمة الله أن جعل علامات علوية لا يحجب دونها شىء، وهى النجوم؛ لأنك فى الليل لاتشاهد جبالاً ولا أودية، وهذا من تسخير الله، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾^(٦).

قوله: [فمن تأول فيها بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف مالا علم له به].

(١) تفسير ابن كثير (٢/٥٤٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٢٩).

(٣) الأنعام: ٩٧.

(٤) القول المفيد (٢/١٣٠ - ١٣١).

(٥) النحل: ١٦.

(٦) الجاثية: ١٣.

قال ابن حجر^(١): قال الداوودي: قول قتادة في النجوم حسن، إلا قوله: (أخطأ وأضاع نفسه)؛ لأنه قصر في ذلك؛ بل قائل ذلك كافر. انتهى.

ولم يتعين الكفر في حق من قال ذلك، وإنما يكفر من نسب الاختراع إليها، وأما من جعلها علامة على حدوث أمر في الأرض فلا. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): وليس المراد يهتدون بها في علم الغيب ولهذا قال: فمن تأول فيها بغير ذلك. أى: زعم فيها غير ما ذكر الله تعالى في هذه الثلاث فادعى بها علم الغيب فقد أخطأ أى حيث تكلم رجماً بالغيب وأضاع نصيبه أى: حظه من عمره لأنه اشتغل بما لا فائدة فيه بل مضرة محضة. وتكلف ما لا علم له به أى: تعاطى شيئاً لا يتصور علمه، لأن أخبار السماء والأمور المغيبة لا تعلم إلا من طريق الكتاب والسنة، وليس فيهما أزيد مما تقدم. اهـ.

وقال ابن باز^(٣): قوله: (من تأول فيها بغير ذلك أخطأ).

لأن زعم أنها تدل على كذا وكذا من علوم الغيب، فقد أخطأ وأضاع نصيبه، أى من الآخرة، وتكلف ما لا يعلم. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ: فإن قلت: إن المنجمين قد يصدقون بعض الأحيان.

قيل: صدقهم كصدق الكهان يصدقون مرة ويكذبون مرة، وليس في صدقهم مرة ما يدل على أن ذلك علم صحيح كالكهان.

وقد استدل بعض المنجمين بآيات من كتاب الله على صحة علم التنجيم منها قوله [تعالى]: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

والجواب: أنه ليس المراد بهذه الآية أن النجوم علامات على الغيب يهتدى بها الناس في علم الغيب، وإنما المعنى وعلامات أى: دلالات على قدرة الله وتوحيده. وعن قتادة ومجاهد أن من النجوم ما يكون علامة لا يهتدى بها، وقيل: إن هذا من تمام الكلام الأول وهو قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ﴾ أى: وألقى لكم معالم يعلم بها الطريق والأراضى من الجبال الكبار والصغار يستدل بها المسافرون في طرقهم. وقوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ قال ابن عباس في الآية: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ يعنى: معالم الطرق بالنهار ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ قال:

(٣) التعليق المفيد (١٦٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٢٩).

(١) فتح الباري (١/٣٤١).

يهتدون به في البحر في أسفارهم^(١). رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. فهذا القول ونحوه هو معنى الآية، فالاستدلال بها على صحة علم التنجيم استدلال على ما يعلم فساد به بالاضطرار من دين الإسلام، بما لا يدل عليه لا نصاً ولا ظاهراً وذلك أفسد أنواع الاستدلال، فإن الأحاديث جاءت عن النبي ﷺ بإبطال علم التنجيم وذمه.

منها حديث: «مَنْ أَقْتَبَسَ شَعْبَةً مِنْ عِلْمِ النُّجُومِ فَقَدْ أَقْتَبَسَ شِعْبَةً مِنَ السَّحْرِ»^(٢) الحديث وقد تقدم. وعن عبد الله بن محيريز التابعي الجليل أن سليمان بن عبد الملك دعاه فقال: لو علمت علم النجوم فازددت إلى علمك فقال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي ثَلَاثٌ: حَيْفُ الْأَئِمَّةِ، وَتَكْذِيبُ الْقَدَرِ، وَإِيمَانُ بِالنُّجُومِ»^(٣) وعن رجاء بن حيوة أن النبي ﷺ قَالَ: «مِمَّا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي التَّصَدِيقُ بِالنُّجُومِ، وَالتَّكْذِيبُ بِالْقَدَرِ، وَحَيْفُ الْأَئِمَّةِ»^(٤) رواهما عبد بن حميد. فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث، لا سيما وقد احتج به من أرسله. وعن أبي محجن مرفوعاً: «أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي ثَلَاثًا: حَيْفُ الْأَئِمَّةِ، وَإِيمَانًا بِالنُّجُومِ، وَتَكْذِيبًا بِالْقَدَرِ»^(٥) رواه ابن عساكر وحسنه السيوطي. وعن أنس مرفوعاً «أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي خَصْلَتَيْنِ: تَكْذِيبًا بِالْقَدَرِ، وَإِيمَانًا بِالنُّجُومِ»^(٦) رواه أبو يعلى وابن عدى والخطيب في كتاب «النجوم» وحسنه السيوطي أيضاً.

روى الإمام أحمد والبخاري عن ابن عمر مرفوعاً: «مَقَانِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِ الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ»^(٧) لفظ البخاري.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢٤٩٦) وذكره السيوطي في «الدر» (٢١٢/٤) وزاد نسبه لابن جرير، وابن مردويه وانظر «فتح المجيد» (ح ٥٩٩) بتخريجنا.

(٢) تقدم.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (٢٣٥/٦) ونسبه لعبد بن حميد. وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٠٠) بتخريجنا.

(٤) المصدر السابق. وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٠٠) بتخريجنا.

(٥) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٣٩/٢) عن أبي محجن به.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر» (٦٥/٣) ونسبه لأبي يعلى، وابن مردويه، والخطيب. وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٠٢) بتخريجنا.

(٧) [صحيح] أخرجه البخاري (٧٣٧٩).

وعن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد طهر الله هذه الجزيرة من الشرك ما لم تضلهم النجوم» رواه ابن مردويه.

وعن ابن عمر مرفوعاً: «تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا»^(١).

وعن أبي هريرة قال: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ النَّظَرِ فِي النُّجُومِ»^(٢) رواه ابن مردويه والخطيب.

وعن سمرة بن جندب أنه خطب فذكر حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أما بعد: فَإِنَّ نَاسًا يَزْعُمُونَ أَنَّ كُسُوفَ هَذِهِ الشَّمْسِ، وَكُسُوفَ هَذَا الْقَمَرِ، وَزَوَالَ هَذِهِ النُّجُومِ عَنْ مَوَاضِعِهَا لِمُوتِ رِجَالٍ عَظَمَاءَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَأَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا وَلَكِنَّهَا آيَاتٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ يَعْتَبِرُ بِهَا عِبَادُهُ لِيَنْظُرَ مَنْ يُحَدِّثُ لَهُ مِنْهُمْ تَوْبَةً»^(٣) رواه أبو داود. وفي الباب أحاديث وآثار غير ما ذكرنا. فبين بهذا أن الاستدلال بالآية على صحة أحكام النجوم من أفسد أنواع الاستدلال.

ومنها قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

والجواب: أن هذا من جنس استدلاله بالآية الأولى في الفساد، فأين فيها ما يدل على صحة أحكام النجوم بوجه من وجوه الدلالات؟ وهل إذا رفع إنسان بصره إلى النجوم فنظر إليها دل ذلك على صحة علم النجوم عنده؟ وكل الناس ينظرون إلى النجوم فلا يدل ذلك على صحة علم أحكامها. وكأن هذا ما شعر أن إبراهيم عليه السلام إنما بعث إلى الصابئة المنجمين مبطلاً لقولهم مناظراً لهم على ذلك.

فإن قيل على هذا: فما فائدة نظرتة في النجوم؟

قيل: نظرتة في النجوم من معاريض الأفعال ليتوصل به إلى غرضه من كسر الأصنام كما كان قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ فمن ظن أن نظرتة في النجوم ليستنبط منها علم الأحكام وعلم أن طالعه يقتضى عليه بالنحس فقد ضل ضلالاً بعيداً.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٦٤/٣) ونسبه لابن مردويه، والخطيب.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (٦٤/٣) ونسبه لابن مردويه، والمرهبي، والخطيب.

(٣) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لأبي داود والخطيب.

وهو في أبي داود (١١٨٤) بدون موضع الشاهد.

قال: وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعْلَمُ مَنَازِلَ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ ذِكْرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا وَرَخِّصَ فِي تَعْلَمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ.

ولهذا جاء في حديث الشفاعة الصحيح أنه عليه السلام يقول: «لست هناكم وبيذكروهم خطاياهم التي أصابها»^(١) وعدها العلماء في قوله تعالى إخباراً عنه ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله عن سارة: هي أختي^(٢). فلو كان قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أخذه من علم النجوم لم يعتذر من ذلك، وإنما هي من معاريض الأفعال، فلهذا اعتذر منها كما اعتذر من قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ ذكر ذلك ابن القيم. لكن قوله: وعدها العلماء. يدل على أنه لم يستحضر الحديث الوارد في عدها. وقد:

رواه أحمد والبخاري وأصحاب «السنن» وابن جرير وغيرهم عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ غَيْرَ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ اثْنَتَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقولُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله فِي سَارَةَ هِيَ أُخْتِي» لفظ ابن جرير^(٣).

وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد مرفوعاً: «فِي كَلِمَاتِ إِبْرَاهِيمَ الثَّلَاثِ الَّتِي قَالَ: مَا مِنْهَا كَلِمَةٌ إِلَّا مَا حَالَ بِهَا عَنِ دِينِ اللَّهِ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وَقَالَ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وَقَالَ لِلْمَلِكِ حِينَ أَرَادَ أَمْرَئَتُهُ: «هِيَ أُخْتِي»^(٤) وفي إسناده ضعف. وقال قتادة في الآية: العرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم قال ابن كثير: يعني قتادة: أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يكذبهم به فقال: إِنِّي سَقِيمٌ أى ضعيف. اهـ.



قوله: [قال: وكره قتادة تعلم منازل القمر.... إلخ] الأثر.

● مناسبة الأثر للباب:

قال القرعاوي^(٥): حيث دل الأثر على أن قتادة وابن عيينة يكرهان تعلم منازل القمر وأما أحمد وإسحاق فإنهما يجوزانه. اهـ.

(١) تقدم في باب الشفاعة رواه البخاري.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (٥٧٨/٤) ونسبه لأبي يعلى..

(٥) الجليلي (٢٦٤).

• شرح الأثر:

قال سليمان آل الشيخ: هذا هو القسم الثالث من علم التنجيم، وهو تعلم منازل الشمس والقمر؛ للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصلوات والفصول، وهو كما ترى من اختلاف السلف فيه. فما ظنك بذيئك القسمين. اهـ أى المذكورين فى أول هذا الباب.

قال ابن عثيمين^(١):

قوله: «وكره قتادة تعلم منازل القمر».

أى: كراهة تحريم بناءً على أن الكراهة فى كلام السلف يراد بها التحريم غالباً.

وقوله: «تعلم منازل القمر» يحتمل أمرين:

الأول: أن المراد به معرفة منزلة القمر، الليلة يكون فى الشرطين، ويكون فى الأكليل؛ فالمراد معرفة منازل القمر كل ليلة؛ لأن كل ليلة له منزلة حتى يتم ثمانياً وعشرين وفى تسع وعشرين وثلاثين لا يظهر فى الغالب.

الثانى: أن المراد به تعلم منازل النجوم؛ أى: يخرج النجم الفلانى فى اليوم الفلانى، وهذه النجوم جعلها الله أوقاتاً للفصول؛ لأنها [٢٨] نجماً، منها [١٤] يمانية و[١٤] شمالية؛ فإذا حلت الشمس فى المنازل الشمالية صار الحر، وإذا حلت فى الجنوبية صار البرد، ولذلك كان من علامة دنو البرد خروج سهيل، وهو من النجوم اليمانية. اهـ.

قوله: «لم يرخص فيه ابن عينة».

هو سفيان بن عيينة بن أبى عمران، أبو محمد الكوفى.

ولد سفيان سنة سبع ومائة. قال الزهرى: ما رأيت طالباً لهذا الأمر أصغر سناً منه. وقال ابن عيينة: ما كتبت شيئاً قط إلا شيئاً حفظته قبل أن اكتبه وقال الشافعى: لولا مالك، وسفيان لذهب علم الحجاز. وقال ابن المبارك: سئل سفيان الثورى عن سفيان ابن عيينة فقال: ذاك أحد الأحمدين، ما كان أغربه!

وقال بشر بن المفضل: ما بقى على وجه الأرض أحد يشبه سفيان بن عيينة.

وقال يحيى بن سعيد: سفيان أمام اليوم منذ أربعين سنة. وقال الشافعى: ما رأيتُ أحداً من الناس فيه من آلة العلم ما فى سفيان بن عيينة، وما رأيتُ أحداً أكفاً عن الفتيا منه.

(١) القول المفيد ٢/ ١٣١ و ١٣٢.

وقال سفيان بن عيينة: ما أنعم الله على العباد نعماً أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله فإن لا إله إلا الله لهم فى الآخرة كالماء فى الدنيا.
وقال: العلم إن لم ينفعك ضرك^(١).

مناقبه كثيرة وفوائده غزيرة، له أقوال تظهر عليها نور الحكمة.

[قوله: ذكره حرب عنهما]

قال سليمان آل الشيخ^(٢): هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكرماني السفياني من أجلة أصحاب الإمام أحمد روى عن أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين وأبى خثيمة وابن أبى شيبه وغيرهم، وله مصنفات جليلة منها كتاب «المسائل» التى سئل عنها الإمام أحمد وغيره وأورد فيها الأحاديث والآثار وأظنه روى أثر قتادة وابن عيينة فيها. مات سنة ثمانين ومائتين. وإسحاق هو إبراهيم بن مخلد أبو يعقوب الحنظلي النيسابوري الإمام المعروف بابن راهويه روى عن ابن المبارك وأبى أسامة وابن عيينة وطبقتهما قال أحمد: إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين، وروى عنه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم، وروى هو أيضاً عن أحمد مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

[قوله: [أحمد]]

هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي، نزيل بغداد أبو عبدالله، أحد الأئمة، ثقة حافظ فقيه، مات سنة (٢٤١) وله سبع وسبعون سنة^(٣). وتقدمت ترجمته بأطول من ذلك.

[قوله: [وإسحاق]]

هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد، المعروف بابن راهويه. أحد أئمة المسلمين، وعلماء الدين، اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد، ورحل إلى العراق والحجاز واليمن والشام، وعاد إلى خراسان فاستوطن نيسابور إلى أن مات بها، وانتشر علمه عند أهلها.

ولما سئل أحمد بن حنبل عنه قال: مثل إسحاق يسأل عنه؟! إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين^(٤). مناقبه كثيرة.

(١) «تهذيب الكمال» للزمزى (١١/ ١٧٧ - ١٩٦) ترجمته فيها مطولة.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٣٣).

(٣) «التقريب» للناظر (ت/ ٩٦).

(٤) «تهذيب الكمال» (٢/ ٣٧٣ - ٣٨٨).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقُ السَّخْرِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» (٢).

قال ابن عثيمين (١) تعقيباً على الأثر:

والصحيح أنه لا بأس بتعلم منازل القمر؛ لأنه لا شرك فيها؛ إلا إن تعلّمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد، وأنها هي الجالبة لذلك؛ فهذا نوع من الشرك، أما مجرد معرفة الوقت بها: هل هو الربيع، أو الخريف، أو الشتاء؛ فهذا لا بأس به. اهـ.



قوله: وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة.....» الحديث. مناسبة الحديث للباب (٣):

قال القرعاوي: حيث دل الحديث على تحريم التصديق بجميع أنواع السحر ومنها التنجيم. اهـ.

- مناسبة الحديث للتوحيد (٤):

قال القرعاوي: حيث حرم الحديث التصديق بالسحر ومنه التنجيم وذلك لما فيه من دعوى علم الغيب وذلك إشراك مع الله في علمه. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ (٥): هذا الحديث رواه أيضاً الطبراني والحاكم وقال: صحيح وأقره الذهبي. وتام الحديث: «وَمَنْ مَاتَ وَهُوَ مُدْمِنُ الْخَمْرِ سَقَاهُ اللَّهُ مِنْ نَهْرِ الْغُوطَةِ نَهْرٌ يَجْرِي مِنْ فُرُوجِ الْمَوْسَاتِ يُؤْذِي أَهْلَ النَّارِ رِيحٌ فُرُوجُهُنَّ».

(١) القول المفيد (١٣٢/٢).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٩٩/٤) وابن حبان في «صحيحه» (٣٦٦/٧ ح ٥٣٢٢) وأبو يعلى في «مسنده» (٣٨٩/٦ ح ٧٢١٢)، والحاكم في «المستدرک» (١٥٦/٤). عن المعتمر بن سليمان عن الفضل بن مسيرة عن أبي جرير أن أبا بردة حدثه عن أبي مرسى.. فذكره. وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧٤/٥) وقال رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ورجال أحمد وأبو يعلى ثقات.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأخرجه أحمد في «مسنده» (١٤/٣)، (٨٣).

من طريق الأعمش عن سعد الطائي عن عطية بن سعد عن أبي سعيد الخدري. وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٠٥) بتخريجنا.

(٥) تيسير العزيز الحميد (٣٣٤).

(٣ - ٤) الجديد (٢٦٦).

قوله: (عن أبي موسى)

قال سليمان آل الشيخ^(١): هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بفتح المهملة وتشديد الضاد المعجمة أبو موسى الأشعري، صحابي جليل استعمله النبي ﷺ وأمره عمر ثم عثمان، وهو أحد الحكمين بصفين مات سنة خمسين.

قوله: [ثلاثة لا يدخلون الجنة]

قال سليمان آل الشيخ^(٢): هذا من نصوص الوعيد التي كره السلف تأويلها وقالوا: أمرها كما جاءت، وإن كان صاحبها لا يتقل عن الملة عندهم وكان المصنف رحمه الله يميل إلى هذا القول وقالت طائفة: هو على ظاهره فلا يدخل الجنة أصلاً مدمن الخمر ونحوه. ويكون هذا مخصصاً لعموم الأحاديث الدالة على خروج الموحدين من النار ودخولهم الجنة، وحمله أكثر الشراح على من فعل ذلك مستحلاً، أو على معنى أنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد العذاب إن لم يتوبوا والله أعلم. اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٣): هي الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين، وسُميت بذلك؛ لكثرة أشجارها لأنها تُجَن من فيها أى تستر.

وقوله: «ثلاثة لا يدخلون الجنة».

هل المراد الحصر وأن غيرهم يدخل الجنة؟

الجواب: لا؛ لأن هناك من لا يدخلون الجنة سوى هؤلاء؛ فهذا الحديث لا يدل على الحصر.

وهل هؤلاء كفار لأن من لا يدخل الجنة كافر؟

اختلف أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من أحاديث الوعيد على أقوال:

القول الأول: مذهب المعتزلة والخوارج الذين يأخذون بنصوص الوعيد، فيرون الخروج من الإيمان بهذه المعصية، لكن الخوارج يقولون: هو كافر، والمعتزلة يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، وتتفق الطائفتان على أنهم مخلصون في النار، فيُجرُّون هذا الحديث ونحوه على ظاهره، ولا ينظرون إلى الأحاديث الأخرى الدالة على أن من في قلبه إيمان وإن قل؛ فإنه لا بد أن يدخل الجنة.

القول الثاني: إن هذا الوعيد فيمن استحل هذا الفعل بدليل النصوص الكثيرة الدالة

(١ - ٢) تيسير العزيز الحميد (٣٣٤).

(٣) القول المفيد (١٣٣/٢).

على أن من فى قلبه إيمان وإن قل؛ فلا بد أن يدخل الجنة، وهذا القول ليس بصواب؛ لأن من استحله كافر ولو لم يفعله، فمن استحل قطيعة الرحم أو شرب الخمر مثلاً؛ فهو كافر وإن لم يقطع الرحم ولم يشرب الخمر.

القول الثالث: أن هذا من باب أحاديث الوعيد التى تمر كما جاءت ولا يتعرض لمعناها، بل يقال: هكذا قال الله وقال رسوله ونسكت؛ فمثلاً: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾^(١)، هذه الآية من نصوص الوعيد؛ فنؤمن بها، ولا نتعرض لمعناها ومعارضتها للنصوص الأخرى، ونقول: هكذا قال الله، والله أعلم بما أراد، وهذا مذهب كثير من السلف؛ كمالك وغيره، وهذا أبلغ فى الزجر.

القول الرابع: أن هذا نفى مطلق، والنفى المطلق يُحْمَلُ على المقيد؛ فيقال: لا يدخلون الجنة دخولاً مطلقاً يعنى لا يسبقه عذاب، ولكنهم يدخلون الجنة دخولاً يسبقه عذاب بقدر ذنوبهم، ثم مرجعهم إلى الجنة، وذلك لأن نصوص الشرع يُصدَّق بعضها بعضاً، ويلائم بعضها بعضاً، وهذا أقرب إلى القواعد وأبين حتى لا تبقى دلالة النصوص غير معلومة؛ فتقيد النصوص بعضها ببعض.

وهناك احتمال: أن من كانت هذه حاله حرى أن يختتم له بسوء الخاتمة، فيموت كافراً، فيكون هذا الوعيد باعتبار ما يؤول حاله إليه، وحينئذ لا يبقى فى المسألة إشكال، لأن من مات على الكفر؛ فلن يدخل الجنة، وهو مخلد فى النار، وربما يؤيده قوله ﷺ: «لا يزال المرء فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً»^(٢)؛ فيكون هذا قولاً خامساً.

قوله: [مدمن خمر].

قال سليمان آل الشيخ^(٣): أى المداوم على شربها. اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٤): هو الذى يشرب الخمر كثيراً، والخمر حده الرسول ﷺ بقوله: «كل مسكر خمر»^(٥)، ومعنى «أسكر»؛ أى: غَطَّى العقل، وليس كل ما غطى العقل فهو خمر؛ فالبنج مثلاً ليس بخمر، وإذا شرب دهنًا فأغمى عليه؛ فليس ذلك بخمر، وإنما الخمر الذى يغطى العقل على وجه اللذة والطرب؛ فتجد الشارب يحس أنه فى منزلة عظيمة وسعادة وما أشبه ذلك، قال الشاعر:

ونشربها فتركنا ملوكاً وأسدًا ما يهنتها اللقاء

وقال حمزة بن عبد المطلب - وكان قد سكر قبل تحريم الخمر - للنبي ﷺ: «وهل

(١) النساء: ٩٣.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٨٦٢). عن ابن عمر به.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٣٣٢).

(٤) القول المقيد (١٣٣/٢).

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الأشربة (٧٣/١٨٨/٧) عن ابن عمر به.

أنتم إلا عبيد أبي؛ فالذى يغطى العقل على سبيل اللذة محرم بالكتاب والسنة، ومن استحلّه؛ فهو كافر، إلا إن كان ناشئاً ببادية بعيدة، أو حديث عهد بالإسلام، ولا يعلم الحكم الشرعى فى ذلك؛ فإنه يعرف ولا يكفر بمجرد إنكاره تحريمه. اهـ.
قوله: [قاطع رحم].

قال سليمان آل الشيخ^(١): أى: القرابة كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾^(٢).

وقال ابن عثيمين^(٣): الرَّحِمُ: هم القرابة، قال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾^(٤)، وليس كما يظنه العامة أنهم أقارب الزوجين؛ لأن هذه تسمية غير شرعية، والشرعية فى أقارب الزوجين: أن يُسموا أصهاراً.

ومعنى قاطع الرحم: أن لا يصله، والصلة جاءت مطلقة فى الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾^(٥)، ومنه الارحام وما جاء مطلقاً غير مقيد؛ فإنه يتبع فيه العرف كما قيل:

وَكُلُّ مَا أَتَى وَلَمْ يُحَدِّدْ بِالشَّرْعِ كَالْحَرْزِ فَبِالْعَرَفِ احْدُدْ

فالصلة فى زمن الجوع والفقرة: أن يعطيهم ويلاحظهم بالكسوة والطعام دائماً، وفى زمن الغنى لا يلزم ذلك.

وكذلك الأقارب ينقسمون إلى قريب وبعيد؛ فأقربهم يجب لهم من الصلة أكثر مما يجب للبعد.

ثم الأقارب ينقسمون إلى قسمين من جهة أخرى: قسم من الأقارب يرى أن لنفسه حقاً لا بد من القيام به، ويريد أن تصله دائماً، وقسم آخر يقدر الظروف وينزل الأشياء منازلها؛ فهذا له حكم، وذلك له حكم.

والقطيعة يرجع فيها إلى العرف؛ إلا أنه يستثنى من ذلك مسألة، وهى: ما لو كان العرف عدم الصلة مطلقاً، بأن كنا فى أمة تشئت وتقطعت عرى صلتها كما يعرف الآن فى البلاد الغربية؛ فإنه لا يعمل حينئذ بالعرف، ونقول: لا بد من صلة، فإذا كان هناك صلة فى العرف اتبعناها، وإذا لم يكن هناك صلة؛ فلا يمكن أن نعطل هذه الشريعة التى أمر الله بها ورسوله.

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٣٢).

(٢) محمد: ٢٢.

(٣) القول المفيد (١٣٥، ١٣٤/٢).

(٤) الأحزاب: ١٦.

(٥) الرعد: ٢١.

والصلة ليس معناها أن تصل من وصلك؛ لأن هذا مكافأة، وليست صلة؛ لأن الإنسان يصل أبعد الناس عنه إذا وصله، إنما الواصل؛ كما قال الرسول ﷺ: «من إذا قطعت رحمه وصلها»^(١)، هذا هو الذى يريد وجه الله والدار الآخرة.

وهل صلة الرحم حق لله أو للآدمي؟

الظاهر أنها حق للآدمي، وهى حق لله باعتبار أن الله أمر بها.

قوله: (ومصدق السحر).

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «ومصدق بالسحر»^(٣) مطلقاً ويدخل فيه التنجيم لحديث: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس علماً من السحر» وهذا وجه مطابقة الحديث للباب. قال الذهبي: فى «الكبائر» ويدخل فيه تعلم السيمياء وعملها، وهو محض السحر، وعقد المرء عن زوجته، ومحبة الزوج لامرأته وبغضها وبغضه، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة قال: وكثير من الكبائر بل عامتها إلا الأقل يجهل خلق من الأمة تحريمة وما بلغه الزجر فيه ولا الوعيد عليه، فهذا الضرب فيهم تفصيل، فينبغى للعالم أن لا يجهل على الجاهل بل يرفق به ويعلمه سيما إذا قرب عهده بجهله، كمن أسر وجلب إلى أرض الإسلام وهو تركى فبالجهد أن يتلفظ بالشهادتين فلا يأثم أحد إلا بعد العلم بحاله وقيام الحجة عليه.

قال ابن عثيمين^(٤):

قوله: «ومصدق بالسحر». هذا هو شاهد الباب، ووجهه أن علم التنجيم نوع من السحر، فمن صدق به؛ فقد صدق بنوع من السحر، فقد سبق: «أن من اقتبس شعبة من النجوم؛ فقد اقتبس شعبة من السحر»، والمصدق به هو المصدق بما يخبر به المنجمون، فإذا قال المنجم: سيحدث كذا وكذا، وصدق به؛ فإنه لا يدخل الجنة، لأنه صدق بعلم الغيب لغير الله، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٥).

فإن قيل: لماذا لا يجعل السحر هنا عاماً ليشمل التنجيم وغير التنجيم؟

أجيب: إن المصدق بما يخبره به السحرة من علم الغيب يشمله الوعيد هنا، وأما المصدق بأن للسحر تأثيراً؛ فلا يلحقه هذا الوعيد؛ إذ لا شك أن للسحر تأثيراً، لكن تأثيره تخيل، مثل ما وقع من سحرة فرعون حيث سحروا أعين الناس حتى رأوا الحبال والعصى كأنها حيات تسعى، وإن كان لا حقيقة لذلك، وقد يسحر الساحر شخصاً

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٩٩١) عن عبدالله بن عمرو به وانظر «رياض الصالحين» (٣٢٤).

بتخریجنا).

(٣) تقدم تخریجه ..

(٥) النمل: ٦٥.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٣٤ و ٣٣٥.

(٤) القول المفيد ١٣٥/٢ و ١٣٦.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: الحكمةُ في خلقِ النُّجُومِ.

الثانية: الردُّ على مَنْ زَعَمَ غَيْرَ ذَلِكَ.

الثالثة: ذِكْرُ الْخِلَافِ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ.

الرابعة: الْوَعِيدُ فِيمَنْ صَدَّقَ بِشَيْءٍ مِنَ السَّحْرِ، وَلَوْ عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ.

فيجعله يحب فلاناً ويغض فلاناً؛ فهو مؤثر، قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾^(١)؛ فالتصديق بأثر السحر على هذا الوجه لا يدخله الوعيد لأنه تصديق بأمر واقع.

أما من صدق بأن السحر يؤثر في قلب الأعيان بحيث يجعل الخشب ذهباً أو نحو ذلك؛ فلا شك في دخوله في الوعيد؛ لأن هذا لا يقدر عليه إلا الله - عز وجل - اهـ.
قوله: فيه مسائل:

قال ابن عثيمين^(٢):

● الأولى: الحكمة في خلق النجوم. وهي ثلاث:

- أنها زينة للسماء - ورجوم للشياطين. - وعلامات يهتدى بها.
وربما يكون هناك حكم أخرى لانعلمها.

● الثانية: الرد على من زعم غير ذلك. لقول قتادة: «من تأول فيها غير ذلك؛ أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به».

ومراد قتادة في قوله: «غير ذلك» ما زعمه المنجمون من الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وأما ما يمكن أن يكون فيها من أمور حسية سوى الثلاث السابقة؛ فلا ضلال لمن تأوله.

● الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل. سبق ذلك.

● الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل: من صدق بشيء من التنجيم أو غيره من السحر بلسانه ولو اعتقد بطلانه بقلبه، فإن عليه هذا الوعيد، كيف يُصدق وهو يعرف أنه باطل، لأنه يؤدي إلى إغراء الناس وبتعلمه وبممارسته اهـ.



(٢) القول المفيد : ١٣٩/٢ ، ١٤٠ .

(١) البقرة: ١٠٢ .

ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

● مناسبة هذا الباب لما قبله

قال الفقير: لما كان الاستسقاء بالأنواء أعظم ما جاء في التنجيم أفرد له هذا الباب ولما كان متعلقاً بالتنجيم ناسب أن يأتي به بعده فالمصنف عم ثم خصص والله أعلم.

● مناسبة هذا الباب للتوحيد.

قال السعدي^(١): لما كان من التوحيد الاعتراف لله بتفردّه بالنعم ودفع النقم وإضافتها إليه قولاً واعترافاً واستعانة بها على طاعته كان قول القائل: مطرنا بنؤ كذا وكذا ينافي هذا المقصود أشد المنافاة لإضافة المطر إلى النوء.

والواجب إضافة المطر وغيره من النعم إلى الله فإنه الذي تفضل بها على عباده. ثم الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه وإنما السبب عناية المولى ورحمته وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال فينزل عليهم بحكمته ورحمته بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم.

فلا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلى جميع الخلق ويضيفها إليه ويستعين بها على عبادته وذكره وشكره وهذا الموضع من محققات التوحيد وبه يعرف كامل الإيمان وناقصه.

قال عبدالله بن جار الله^(٢): هي أن نسبة مجيء المطر إلى الأنواء واعتقاد أن لها تأثير في إنزال المطر شرك ينافي التوحيد اهـ.

● شرح الترجمة والتبويب وماذا أراد المصنف بهذا الباب.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء أى من الوعيد.

والمراد نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء جمع نوء وهى منازل القمر.

قال أبو السعادات: وهى ثمانية وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة منزلة منها ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ يستط فى الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع

(١) القول السديد (٨٤، ٨٥، ٨٦)

(٢) الجامع الفريد (١٢٠).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٣٥.

طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت فى الشرق فتتقضى جميعها مع انقضاء السنة. وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيها يكون مطر، وينسبونه إليها فيقولون: مطرنا بنوء كذا، وإنما سمي نوءاً لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالشرق. ينوء نوءاً أى: نهض وطلع.

قال ابن عثيمين^(١): الاستسقاء: طلب السُّقْيَا؛ كاستغفار: طلب المغفرة، والاستعانة: طلب المعونة، والاستعادة: طلب العَوْدَ، والاستهداء: طلب الهداية؛ لأن مادة استفعل فى الغالب تدل على الطلب، وقد لا تدل على الطلب، بل تدل على المبالغة فى الفعل، مثل: استكبر؛ أى: أن تطلب منها أن تسقيك.

حكم الاستسقاء بالأنواء

والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر، وله صورتان:

الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يا نوء كذا! اسقنا أو أغثنا، وما أشبه ذلك؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه دعا غير الله، ودعاء غير الله من الشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَفْعَلُ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النهى عن دعاء غير الله، وأنه من الشرك الأكبر.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هى الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يدعها؛ فهذا شرك أكبر فى الربوبية، والأول فى العبادة؛ لأن الدعاء من العبادة، وهو متضمن للشرك فى الربوبية؛ لأنه لم يدعها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضى الحاجة.

القسم الثانى: شرك أصغر، وهو أن يجعل هذه الأنواء سبباً مع اعتقاده أن الله هو الخالق الفاعل؛ لأن كل من جعل سبباً لم يجعله الله سبباً لا بوحيه ولا بقدره فهو مشرك شركاً أصغر. اهـ.

(١) القول المفيد ٢/ ١٤١ و ١٤٢.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾^(١).

قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

- مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): روى الإمام أحمد والترمذى وحسنه وابن جرير وابن أبى حاتم والضياء فى المختارة عن على رضى الله عنه قال وقال رسول الله ﷺ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ يقول: شركم، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا وينجم كذا وكذا^(٣) وهذا أولى ما فسرته به الآية، وروى عن على وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراسانى وغيرهم، وهو قول جمهور المفسرين. وبه يظهر وجه استدلال المصنف بالآية على الترجمة. اهـ.

قلت: وسيأتى تفصيل أقوال المفسرين فى الآية.

قال عبدالله بن جابر الله^(٤): أن من نسب نعمة من النعم إلى غير الله وهو المطر فى هذا الموضع إنه مشرك كافر.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى^(٥): حيث دلّت الآية على كفر من نسب النعم إلى غير الله ومنها نسبة المطر إلى الأنواء

قلت: سيأتى من كلام القرعاوى فى شرح أثر ابن عباس، فى سبب النزول أن المناسبة هى تكذيب الآية لمن نسب النعم رلى غير الله ومنها نسبة المطر إلى الأنواء لأن ذلك إشراك مع الله مع إنعامه.

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

(١) الواقعة ٨٢. (٢) تيسير العزيز الحميد ٣٣٥.

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١٠٨/١)، وابن جرير فى «تفسيره» (١١٩/٢٧)، والترمذى (٣٢٩٥) وذكره السيوطى فى «الدر» (٢٣٤/٦) وزاد نسبه لابن منيع، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والخرايطى فى مساوى الأخلاق، وابن مردويه، والضياء فى «المختارة» وانظر الإتيقان (١٧٦٢) - بتخريجنا).

(٤) الجامع الفريد ١٢٠ و ١٢١.

(٥) الجديد ٣٦٨.

الإعراب^(١): ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ الواو حرف عطف ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ فعل مضارع والواو فاعل و﴿رِزْقَكُمْ﴾ مفعول تَجْعَلُونَ الأول وأن واسمها وجملة تكذبون خبرها وأن وما فى حيزها فى موضع المفعول الثانى ولا بد من تقدير مضاف أى شكر رزقكم ا. هـ.

● سبب نزول الآية:

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكراً، ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة وضعها الله وقال بعضهم. لقد صدق نوء كذا، فنزلت هذه الآية ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾^(٢).

قلت: وسيأتى الأثر عند المصنف فى آخر الباب فانظر شرحه هناك

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ سافر فى حر شديد، فنزل الناس على غير ماء فعطشوا، فاستسقوا رسول الله ﷺ، فقال لهم: «فلعلى لو فعلت فسقيتم قلت هذا بنوء كذا وكذا»، قالوا: يا نبي الله ما هذا بحين أنواء، فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ ثم قام فصلى، فدعا الله تعالى، فهاجت ريح وثاب سحاب، فمطروا، حتى سال كل واد، فزعموا أن رسول الله ﷺ مر برجل يغرف بقدحه ويقول: هذا نوء فلان، فنزل ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾^(٣).

عن على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ﴾^(٤).

عن أبى عبد الرحمن السلمى قال: قرأ على رضى الله عنه الواقعات فى الفجر، فقال: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون» فلما انصرف قال: إبنى قد عرفت أنه سيقول قائل: لم

(١) إعراب القرآن ٩ / ٤٤٧ و ٤٤٨.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/ ٣٣٧/ ١٢٧) عن ابن عباس به وذكره السيوطى فى «الدر»

(٦/ ٢٣٣) وزاد نسبه لابن المنذر، وابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (١١٨٦٦ - بتخریجنا)

(٣) ذكره السوطى فى «الدر» (٦/ ٢٣٤) ونسبه لابن مردويه.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن مردويه.

وانظر فتح القدير» (١١٨٧١ - بتخریجنا).

قرأها هكذا؟ إني سمعت رسول الله ﷺ يقرأها كذلك، كانوا إذا مطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا، فأنزل الله ﴿وتجعلون شكركم أنكم إذ مطرتم تكذبون﴾^(١).

● التفسير.

● ما جاء في تفسير الآية من الأحاديث:

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لو أمسك الله المطر عن الناس ثم أرسله لأصبحت طائفة كافرين، قالوا: هذا بنوء الذبح يعنى الدبران»^(٢).

وعن زيد بن خالد الجهني قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح زمن الحديبية في أثر سماء، فلما أقبل علينا فقال: «ألم تسمعوا ما قال ربكم في هذه الآية: ما أنعمت على عبادى نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين. فأما من آمن بى وحمدنى على سقاي فذلك الذى آمن بى، وكفر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك الذى آمن بالكوكب وكفر بى»^(٣).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال يوماً لأصحابه: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إنه يقول: إن الذين يقولون نسقى بنجم كذا وكذا فقد كفر بالله، وآمن بذلك النجم، والذين يقولون سقانا الله فقد آمن بالله وكفر بذلك النجم»^(٤).

وعن عبد الله بن محيريز أن سليمان بن عبد الملك دعاه فقال: لو تعلمت علم النجوم فازددت إلى علمك، فقال: قال رسول الله ﷺ:

«إن أخوف ما أخاف على أمتى ثلاث، حيف الأئمة، وتكذيب بالقدر، وإيمان بالنجوم»^(٥).

وعن رجاء بن حيوة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «مما أخاف على أمتى التصديق بالنجوم والتكذيب بالقدر وظلم الأئمة»^(٦).

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن مردويه أيضاً.

وانظر «فتح القدير» (١١٨٧٣ - بتخريجنا).

(٢) أخرجه النسائى فى «الكبرى» (١٨٣٦) عن أبى سعيد به.

وانظر «فتح القدير» (١١٨٦٨ - بتخريجنا).

(٣) سيأتى تخريجه فى الباب

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٣٥/٦) ونسبه لعبد بن حميد.

(٦) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد.

(٥) تقدم تخريجه

وعن جابر السوائي رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أخاف على أمتي ثلاثاً استسقاء بالأنواء وحيف السلطان وتكذيباً بالقدر»^(١).

وعن معاوية الليثي رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون الناس مجتدين، فينزل الله عليهم رزقاً من رزقه فيصبحون مشركين، قيل له: كيف ذاك يا رسول الله؟ قال: يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا»^(٢).

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليصبح القوم بالنعمة أو يمسهم بها فيصبح بها قوم كافرين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا»^(٣).

ثانياً بأقوال السلف

● أولاً من الصحابة

عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يقرأ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: يعنى الأنواء وما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً وكانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، فأنزل الله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾^(٤).

وعن أبي عبد الرحمن قال: كان على رضى الله عنه يقرأ ﴿وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾^(٥).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: الاستسقاء بالأنواء^(٦).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله «وتجعلون شكركم» يقول: على ما أنزلت عليكم من الغيث والرحمة، يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وكان ذلك منهم كفراً بما أنعم الله عليهم^(٧).

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: ما مطر قوم إلا أصبح بعضهم كافراً يقولون:

-
- (١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٣٦/٦) ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير
 - (٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٢٩/٣) عن معاوية به.
 - (٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٣/٦)، ونسبه لابن جرير.
 - (٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٣٣/٦) ونسبه لأبى عبيد فى «فضائله» وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.
 - وانظر «فتح القدير» (١٨٧٢-١) بتخریجنا.
 - (٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٣٥/٦) ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير.
 - (٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٣٥/٦) ونسبه لعبد بن حميد.
 - (٧) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٣٦/٦) ونسبه لابن جرير

مطرنا بنوء كذا وكذا، وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون»^(١).

● ثانياً : من التابعين

وعن قتادة «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ» فقال: أما الحسن فقال: بش ما أخذ القوم لأنفسهم لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب، قال: وذكر لنا أن الناس أمحلوا على عهد نبي الله ﷺ، فقالوا يابى الله: لو استسقيت لنا؟ فقال: عسى قوم إن سقوا أن يقولوا سقينا بنوء كذا وكذا، فاستسقى نبي الله ﷺ، فمطروا، فقال رجل: إنه قد كان بقى من الأنواء كذا وكذا، فأنزل الله «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ»^(٢).

وعن مجاهد «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ» قال: قولهم فى الأنواء مطرنا بنوء كذا وكذا، فيقول: قولوا: هو من عند الله تعالى هو رزقه^(٣).

وعن عوف عن الحسن فى قوله «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ» قال: تجعلون حظكم منه أنكم تكذبون، قال عوف رضى الله عنه: وبلغنى أن مشركى العرب كانوا إذا مطروا فى الجاهلية قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا^(٤).

وعن عطاء الخراسانى رضى الله عنه فى قوله «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ» قال: كان ناس يمتطرون فيقولون مطرنا بنوء كذا وكذا^(٥).

● ثالثاً : من أقوال المفسرين

قال ابن الجوزى^(٦): وللمفسرين فى معنى هذه الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الرزق ها هنا بمعنى الشكر. روت عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ» قال: «شكركم»، وهذا قول على بن أبى طالب، وابن عباس. وكان على يقرأ «وَتَجْعَلُونَ شكركم».

والثانى: أن المعنى: وتجعلون شكر رزقكم تكذيبكم، قاله الأكثرون. وذلك أنهم كانوا يمتطرون، فيقولون: مطرنا بنوء كذا.

والثالث: أن الرزق بمعنى الحظ. فالمعنى: وتجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، ذكره الثعلبى. وقرأ أبى بن كعب، والمفضل عن عاصم «تَكْذِبُونَ» بفتح التاء، وإسكان الكاف، مخففةً الذال.

(١) نفس المصدر السابق. (٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٣٥/٦) ونسبه لعبد بن حميد

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٣٦/٦) ونسبه لابن جرير. (٦) زاد المسير ٧/ ٣٢٨ و ٣٣٩.

قال الطبري^(١): وتعملون شكر الله على رزقه إياكم التكذيب وذلك كقول القائل لآخر إحسانى إليك إساءة منك إلىّ، بمعنى جعلت شكر إحسانى أو ثواب إحسانى إليك إساءة منك إلىّ وقد ذكر عن الهيثم أن من لغة أزد شنوءة ما رزق فلان بمعنى ما شكر.

قال ناصر السعدى^(٢): وقوله «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ» أى: تعملون مقابلة منة الله عليكم بالرزق والتكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بنو كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها وموليها.

فهلا شكرتم الله على إحسانه، إذا أنزل اليكم، ليزيدكم من فضله. فإن التكذيب والكفر، داع لرفع النعيم وحلول النقم.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين^(٣):

قوله «رِزْقَكُمْ» الرِّزْق هو العطاء، والمراد به هنا: ما هو أعم من المطر؛ فيشمل معنيين:

الأول: أن المراد به رزق العلم؛ لأن الله قال: «فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ»؛ أى: تخافونهم فتداهنونهم، وتعملون شكر ما رزقكم الله به من العلم والوحي أنكم تكذبون به، وهذا هو ظاهر سياق الآية.

الثانى: أن المراد بالرزق المطر، وقد روى فى ذلك حديث عن النبى ﷺ^(٤) لكنه ضعيف؛ إلا أنه صح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير الآية: أن المراد بالرزق المطر، وأن التكذيب به نسبته إلى الأنواء، وعليه يكون ما ساق المؤلف الآية من أجله مناسباً للباب تماماً.

والقاعدة فى التفسير أن الآية إذا كانت تحتل المعنيين جميعاً بدون منافاة تحمل عليهما جميعاً، وإن حصل بينهما منافاة طلب المرجح.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١٦٦/٥ و ١٦٧.

(١) تفسير الطبري ١١٩/٢٧ و ١١٩.

(٤) تقدم تخريجه فى أول الباب

(٣) القول المفيد ١٤٢/٢ و ١٤٣ و ١٤٤.

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مَنْ أَمَرَ الْجَاهِلِيَّةَ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَخْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةِ». وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطْرَانٍَ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» (١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

ومعنى الآية: أن الله يوبخ هؤلاء الذين يجعلون شكر الرزق التكذيب والاستكبار والبعد؛ لأن شكر الرزق يكون بالتصديق والقبول والعمل بطاعة المنعم، والفطرة كذلك لا تقبل أن تكفر بمن ينعم عليها؛ فالفطرة والعقل والشرع كل منها يوجب أن تشكر من ينعم عليك، سواء قلنا: المراد بالرزق المطر الذي به حياة الأرض، أو قلنا: إن المراد به القرآن الذي به حياة القلوب؛ فإن هذا من أعظم الرزق؛ فكيف يليق بالإنسان أن يقابل هذه النعمة بالتكذيب؟!

واعلم أن التكذيب نوعان:

أحدهما: التكذيب بلسان المقال، بأن يقول: هذا كذب، أو المطر من النوء، ونحو ذلك.

والثاني: التكذيب بلسان الحال، بأن يُعْظَمَ الانواء والنجوم معتقداً أنها السبب، ولهذا وعظ عمر بن عبدالعزيز الناس يوماً؛ فقال: «أيها الناس! إن كنتم مصدقين؛ فأنتم حمقى، وإن كنتم مكذبين؛ فأنتم هلكى»، وهذا صحيح؛ فالذى يُصدَّق ولا يعمل أحق، والمكذب هالك؛ فكل إنسان عاصٍ نقول له الآن: أنت بين أمرين: إما أنك مصدق بما رُتِّبَ على هذه المعصية، أو مكذب، فإن كنت مصدقاً؛ فأنت أحق، كيف لا تخاف فتستقيم؟! وإن كنت غير مصدق؛ فالبلاء أكبر، فأنت هالك كافر.



قوله : عن أبي مالك الأشعري رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: أربع في أمتي من أمر الجاهلية .. الحديث «

قلت: أخرجه مسلم في الجنازات باب التشديد في النياحة.

- مناسبة الحديث للباب

قال القرعاوى (٢): حيث دل الحديث على تحريم الاستسقاء بالأنواء. اهـ.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في «الجنازات»/ باب التشديد في النياحة (٣/ ٥٠٧/ ح ٢٩). وأحمد في «مسنده» (٣٤٢/ ٥، ٣٤٤).

من حديث أبي مالك الأشعري وانظر فتح المجيد (ح ٦١٤) بتخريجنا.

(٢) الجديد ٢٧١.

- مناسبة الحديث للتوحيد

قال القرعاوى^(١): حيث أنكر الحديث الاستسقاء بالنجوم لأنه طلب للنفع من غير الله وذلك شرك به. اهـ.

قوله. «عن أبي مالك الأشعري».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): اسمه الحارث بن الحارث الشامي صحابي تفرد عنه بالرواية أبو سلام، وفي الصحابة أبو مالك الأشعري اثنان غير هذا جزم به الحافظ. اهـ.

قوله: «إن النبي ﷺ قال: أربع من أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن»

قال سليمان آل الشيخ^(٣):

قوله «أربع من أمتي»

أى: من أفعال أهلها بمعنى أنها معاصي ستفعلها هذه الأمة. إما مع العلم بتحريمها وإما مع الجهل بذلك كما كان أهل الجاهلية يفعلونها. والمراد بالجاهلية هنا ما قبل المبعث سموا بذلك لفرط جهلهم وكل ما يخالف ما جاءت به الأنبياء والمرسلون فهو جاهلية منسوبة إلى الجاهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جاهل وإنما يفعله جاهل.

قال شيخ الإسلام: أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذمًا لمن لم يتركه، وهذا يقتضى أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم فى دين الإسلام وإلا لم يكن فى إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها. ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْرَحْ جَاهِلِيَّةَ الْأُولَى﴾ فإن فى ذلك ذمًا للتبرج وذمًا لحلل الجاهلية الأولى وذلك يقتضى المنع من مشابهتهم فى الجملة. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله فى حديث أبى مالك: «أربع فى أمتي».

الفائدة من قوله: «أربع» ليس الحصر؛ لأن هناك أشياء تشاركها فى المعنى، وإنما

(١) الجديد ٢٧١

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٣٦.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٣٦.

(٤) القول المفيد ٢/ ١٤٥ - ١٤٧.

يقول النبي ﷺ ذلك من باب حصر العلوم وجمعها بالتقسيم والعدد؛ لأنه يقرب الفهم، ويثبت الحفظ.

قوله: «من أمر الجاهلية».

أمر هنا بمعنى شأن؛ أى: من شأن الجاهلية وهو واحد الأمور، وليس واحد الأوامر؛ لأن واحد الأوامر طلب الفعل على وجه الاستعلاء.

وقوله: «من أمر الجاهلية».

إضافتها إلى الجاهلية الغرض منها التوبيخ والتنفير؛ لأن كل إنسان يقال: فعلك فعل الجاهلية لا شك أنه يغضب؛ إذ إنه لا أحد يرضى أن يوصف بالجهل، ولا بأن فعله من أفعال الجاهلية؛ فالغرض من الإضافة هنا أمران:

١- التنفير.

٢- وبيان أن هذه الأمور كلها جهل وحمق بالإنسان؛ إذ ليست أهلاً بأن يراعيها الإنسان أو يعتنى بها؛ فالذى يعتنى بها جاهل.

قلت: وهذا ما فهمه أبو ذر من قول الرسول ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية» فيما عير بلالاً بأمة وقال له يا ابن السوداء وسيأتى اهـ.

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل البعثة؛ لأنهم كانوا على جهل وضلال عظيم حتى إن العرب كانوا أجهل خلق الله، ولهذا يُسمَّون بالأميين، والامى هو الذى لا يقرأ ولا يكتب؛ نسبةً إلى الأم، كان أمه ولدته الآن.

لكن لما بُعث فيهم هذا النبي الكريم؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١)؛ فهذه منة عظيمة أن بعث فيهم النبي عليه الصلاة والسلام لهذه الأمور السامية:

١- يتلو عليهم آيات الله.

٢- ويزكيهم؛ فيطهر أخلاقهم وعبادتهم وينميها.

٣- ويعلمهم الكتاب.

(١) آل عمران: ١٦٤.

هذه فوائد أربع عظيمة لو وزنت الدنيا بواحدة منها لوزنتها عند من يعرف قدرها، ثم بين الحال من قبل قال: «وَأِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»، و«وَأِنْ» هذه ليست نافية، بل مؤكدة؛ فهي مخففة من الثقلية، يعنى: وإنهم كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

إذن المراد بالجاهلية ما قبل البعثة؛ لأن الناس كانوا فيها على جهل عظيم. فجعلهم شامل للجهل فى حقوق الله وحقوق عباده، فمن جهلهم أنهم يُنصبون النُصب ويعبدونها من دون الله، ويقتل أحدهم ابنته لكى لا يُعير بها، ويقتل أولاده من ذكور وإناث خشية الفقر. اهـ.

قلت: الجاهلية : هى زمن ما قبل بعثة النبى ﷺ وسموا بذلك لفرط جهلهم والجاهلية: سلوك غير منضبط بضابط شرعى.

قال ابن تيمية فى «الإيمان الأوسط» من هذا الحديث : إن المسلم قد يكون فيه شئ من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يُوجب ذلك كفره ولا فسقه. اهـ فمن صور الجاهلية .

[١] حكم الجاهلية [٢] ظن الجاهلية [٣] تبرج الجاهلية [٤] حمية الجاهلية [٥] دعوى الجاهلية . . . والله أعلم (*).

قوله: (لا يتركونهن).

المراد: لا يتركون كل واحد منها باعتبار المجموع بالمجموع، بأن يكون كل واحد منها عند جماعة، والثانى عند آخرين، والثالث عند آخرين، والرابع عند آخرين، وقد تجتمع هذه الأقسام فى قبيلة، وقد تخلو بعض القبائل منها جميعاً، إنما الأمة كمجموع لا بد أن يوجد فيها شئ من ذلك؛ لأن هذا خبر من الصادق المصدوق ﷺ، والمراد بهذا الخبر التفسير؛ لأنه ﷺ قد يخبر بأشياء تقع وليس غرضه أن يؤخذ بها؛ كما قال ﷺ: «لتركن سنن من كان قبلكم اليهود والنصارى»^(١)؛ أى: فاحذروا، وأخبر ﷺ: «أن الظعينة تخرج من صنعاء إلى حضر موت لا تخشى إلا الله»^(٢)؛ أى: بلا محرم، وهذا خبر عن أمر واقع وليس إقراراً له شرعاً.

(*) وانظر تعليقي على «أحكام الجنائز» للألبانى

(١)، (٢) تقدم تخريجه

قوله: «أمتي».

أى: أمة الإجابة.

قوله: «الفخر بالأحساب»

قال سليمان آل الشيخ^(١): أى التشرف بالأباء والتعظيم بعد مناقبهم ومآثرهم وفضائلهم وذلك جهل عظيم، إذ لا شرف إلا بالتقوى كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

وروى أبو داود عن أبى هريرة مرفوعاً «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَّرَهَا بِالْأَبَاءِ مُؤْمِنٍ تَقَىٰ وَفَاجِرٌ شَقَىٰ أَنْتُمْ بَنَىٰ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ لِيَدَعْنَ رِجَالٌ فَخَرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنْما هُمْ فَحَمٌ مِنْ فَحَمٍ جَهَنَّمَ أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ»^(٢) والأحساب جمع حسب وهو ما يعده الإنسان له ولآبائه من شجاعة وفصاحة ونحو ذلك.

قال ابن عثيمين^(٣): الفخر: التعالى والتعظيم، والباء للسببية؛ أى: يفخر بسبب الحسب الذى هو عليه.

والحسبُ: ما يحتسبه الإنسان من شرف وسؤدد، كأن يكون من بنى هاشم فيفتخر بذلك، أو من آباء وأجداد مشهورين بالشجاعة، فيفتخر بذلك، وهذا من أمر الجاهلية؛ لأن الفخر فى الحقيقة يكون بتقوى الله الذى يمنع الإنسان من التعالى والتعظيم، والمتقى حقيقة هو الذى كلما ازدادت نعم الله عليه ازداد تواضعاً للحق وللخلق.

وإذا كان الفخر بالحسب من فعل الجاهلية؛ فلا يجوز لنا أن نفعله، ولهذا قال تعالى لنساء نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَبْرَحْنَ تَبْرِجُ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾، واعلم أن كل ما ينسب إلى الجاهلية؛ فهو مذموم ومنهى عنه. اهـ.

قلت: وجاء الذم والنهى صريحا فيما أخرجه أحمد عن أبى ريحانه أن النبى ﷺ

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٣٦ و ٣٣٧.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٦١/٢)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذى (٣٩٥٦)

وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا..

(٣) القول المفيد ١٤٨/٢

قال: «من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزاً وفخراً فهو عاشرهم في النار» (*).

إشكال: فإن قيل إن النبي ﷺ قال: «أنا ابن عبد المطلب وغير ذلك»

الجواب: يوب البخارى على هذا الحديث وغيره باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية.

قال ابن حجر أى جواز ذلك خلافاً لمن كرهه مطلقاً فإن محل الكراهة ما إذا أورده على طريق المفاخرة والمشاجرة واستدل لذلك بحديث أبى ريحانه المتقدم (**).

قال سليمان آل الشيخ (١):

قوله: «والطعن في الانساب» أى: الوقوع فيها بالذم والعيب أو يقدر في نسب أحد من الناس فيقول: ليس هو من ذرية فلان أو يعيره بما في آبائه من المطاعن.

ولهذا لما عيرَ أبو ذرٍ رضى الله عنه رجلاً بأمه، قالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ «أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ أَمْرُو فَيْكَ جَهْلِيَّةٌ...» الحديث (٢) متفق عليه. فدل ذلك أن التعبير بالانساب من أخلاق الجاهلية، وأن الرجل مع فضله وعلمه ودينه قد يكون فيه بعض هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره وفسقه. قاله شيخ الإسلام.

قوله: «والطعن في الانساب»

قال ابن عثيمين (٣):

قوله: «الطعن في الانساب».

الطَّعْنُ: العيب؛ لأنه وخز معنوى كوخز الطاعون فى الجسد، لهذا سُمِّي العيب طعنًا.

والانساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرابته، فيطعن فى نسبه كأن يقول: أنت ابن الدباغ، أو أنت ابن مقطعة البظور- وهى شئ فى فرج المرأة يقطع عند ختان النساء.

قال سليمان آل الشيخ (٤):

قوله: «والاستسقاء بالنجوم». أى نسبة السقيا ومجىء المطر إلى النجوم والأنواء، وهذا هو الذى خافه النبي ﷺ على أمته.

(*) قال الحافظ فى الفتح (٦/٦٣٧) رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن.

(**) الفتح (٦/٦٣٦، ٦٣٧). (١) تيسير العزيز الحميد ٣٣٧.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٠٥٠) ومسلم فى الإيمان (٦/١٤٦/٣٨) عن أبى ذر به

(٣) القول المفيد ٢/١٤٨. (٤) تيسير العزيز الحميد ٣٣٧ و ٣٣٨.

كما روى الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائي قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي ثَلَاثًا اسْتِسْقَاءَ بِالنُّجُومِ، وَحَيْفُ السُّلْطَانِ، وَتَكْذِيبُ الْقَدَرِ» (١) إذا تبين هذا، فالاستسقاء بالنجوم نوعان:

أحدهما: أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم، فهذا كفر ظاهر إذ لا خالق إلا الله، وما كان المشركون هكذا، بل كانوا يعلمون أن الله هو المنزل للمطر، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وليس هذا معنى الحديث، فالنبي ﷺ أخبر أن هذا لا يزال في أمته، ومن اعتقد أن النجم ينزل المطر فهو كافر.

الثاني: أن ينسب إنزال المطر إلى النجم، مع اعتقاده أن الله تعالى هو الفاعل لذلك المنزل له، لكن معنى أن الله تعالى أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم، فحكى ابن مفلح خلافاً في مذهب أحمد في تحريمه وكراهته، وصرح أصحاب الشافعي بجوازه، والصحيح أنه محرم، لأنه من الشرك الخفى، وهو الذى أرادته النبى ﷺ، وأخبر أنه من أمر الجاهلية، ونفاه، وأبطله، وهو الذى كان يزعم المشركون، ولم يزل موجوداً في هذه الأمة إلى اليوم، وأيضاً فإن هذا من النبى ﷺ حماية لجناب التوحيد وسد لذرائع الشرك ولو بالعبادات الموهمة التى لا يقصدها الإنسان، كما قال لرجل قال له: ما شاء الله وشئت، قال:

«أجعلتنى لله نداً، بل ما شاء الله وحده» (٢).

وفيه التنبيه على ما هو أولى بالمنع من نسبة السقيا إلى الأنواء كدعاء الأموات، وسؤالهم الرزق والنصر والعافية ونحو ذلك من المطالب، فإن هذا من الشرك الأكبر، سواء قالوا: إنهم شفعاؤنا إلى الله، كما قال تعالى إخباراً عن المشركين: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أو اعتقدوا أنهم يخلقون، ويرزقون، وينصرون استقلالاً على سبيل الكرامة، كما ذكره بعض عباد القبور في رسالة صنعها في ذلك؛ لأنه إذا منع من إطلاق نسبة السقيا إلى الأنواء مع عدم القصد والاعتقاد، فلأن يمنع من دعاء الأموات والتوجه إليهم في الملمات مع اعتقاد أن لهم أنواع التصرفات أولى وأحرى. اهـ.

قلت: واختصر ذلك الشيخ عبدالرحمن آل الشيخ وأتيت هنا بتمام الكلام للإفاده.

قوله «والإستسقاء بالنجوم»

قال ابن عثيمين^(١): أى: نسبة المطر إلى النجوم، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله - عز وجل -، أما إن اعتقد أن النجوم هي التي تخلق المطر والسحاب أو دعاها من دون الله لتنزل المطر؛ فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة. اهـ.

قوله: «والنياحة على الميت»

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «والنياحة» أى. رفع الصوت بالتدب على الميت، لأنها سخط لقضاء الله ومعارضة لأحكامه وسوء أدب مع الله، ولا كذلك ينبغي أن يفعل المملوك مع سيده، فكيف يفعل مع ربه وسيده ومالكة وإلهه الذى لا إله له سواه، الذى كل قضائه عدل، وأيضاً ففيها تفويت الأجر مع ذهاب المصيبة. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «والنياحة على الميت».

هذا هو الرابع، والنياحة: هي رفع الصوت بالبكاء على الميت قصداً، وينبغي أن يضاف إليه على سبيل الترح؛ كنوح الحمام. والتدب: تعداد محاسن الميت.

والنياحة من أمر الجاهلية، ولا بد أن تكون في هذه الأمة، وإنما كانت من أمر الجاهلية:

إما من الجهل الذى هو ضد العلم.

أو من الجهالة التى هي السقّة، وهى ضد الحكمة.

وإنما كانت كذلك لأمر، هي:

١- أنها لا تزيد النائح إلا شدة وحزناً وعذاباً.

٢- أنها تسخط من قضاء الله وقدره واعتراض عليه.

٣- أنها تُهيج أحزان غيره.

وقد ذكر عن ابن عقيل رحمه الله - وهو من علمائنا الحنابلة - أنه خرج في جنازة ابنه عقيل وكان أكبر أولاده وطالب علم، فلما كانوا في المقبرة صرخ رجل وقال: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ فقال له ابن عقيل رحمه الله: إن القرآن إنما نزل لتسكين الأحزان، وليس لتهيج الأحزان.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٣٨

(١) القول المفيد ١٤٨/٢ و ١٤٩.

(٣) القول المفيد ١٤٩/٢ و ١٥٠.

٤- أنه مع هذه المفاصد لا يردُّ القضاء، ولا يرفع ما نزل.

قوله: قال: «الناتحة إذا لم تتب قبل موتها»

قال النووي (*): فيه دليل على تحريم النياحة وهو مجمع عليه .

وفيه : صحة التوبة مالم يمت المكلف ولم يصل إلى الغرغرة . اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(١):

قوله: وقال «الناتحة إذا لم تتب قبل موتها». فيه تنبيه على أن الوعيد والذم لا يلحق من تاب من الذنب، وهو كذلك بالإجماع، فعلى هذا إذا عرف شخص بفعل ذنوب توعده الشرع عليها بوعيد لم يجز إطلاق القول بلحقه لذلك الشخص المعين، كما يظنه كثير من أهل البدع، فإن عقوبات الذنوب ترتفع بالتوبة، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة نبيهم ﷺ فيهم، وعفو الله عنهم.

وفيه أن من تاب قبل الموت ما لم يغرغر فإن الله يتوب عليه

كما في حديث ابن عمر مرفوعاً: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغِرْ»^(٢).

رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان في «صحيحه».

قال ابن عثيمين^(٣): والنياحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو امرأة، لكن الغالب

وقوعها من النساء، ولهذا قال: «الناتحة إذا لم تتب قبل موتها»؛ أى: إن تاب قبل الموت؛ تاب الله عليها، وظاهر الحديث أن هذا الذنب لا تكفره إلا التوبة، وأن الحسنات لا تمحوه لأنه من كبائر الذنوب، والكبائر لا تمحى بالحسنات فلا يحسبها إلا التوبة. اهـ.

قوله: «تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران»

قال سليمان آل الشيخ^(٤):

قوله: «تقام يوم القيامة». أى تبعث من قبرها، «وعليها سربال من قطران ودرع من

جرب».

قال القرطبي: السربال واحد السراويل، وهى الثياب والقمص؛ يعنى أنهم يلطخن

بالقطران، فيصير لهن كالقميمص حتى يكون اشتعال النار والتصاقها بأجسادهن- أعظم ورائحتهن أنتن وألمهن بسبب الجرب أشد. وروى عن ابن عباس أن القطران هو النحاس

(*) شرح مسلم (٥٠٩/٣)

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٣٩.

(٢) أخرجه أحمد فى «مستد» (١٣٢/٢)، والترمذى (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣) عن ابن عمر به

وانظر «رياض الصالحين» (١٩ - بتخريجنا).

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٣٩

(٣) القول المفيد ١٥٠ / ٢

المذاهب، وروى الثعلبي في «تفسيره» عن عمر بن الخطاب أنه سمع نائحة فأتاها، فضربها بالدرة حتى وقع خمارها، فقيل يا أمير المؤمنين: المرأة المرأة قد وقع خمارها قال: إنها لا حرمة لها. اهـ.

قوله: «ودرع من جرب»

قال ابن عثيمين^(١): الجرب: مرض معروف يكون في الجلد، يورق الإنسان، وربما يقتل الحيوان، والمعنى: إن كل جلدها يكون جرباً بمنزلة الدرع، وإذا اجتمع قطران وجرب زاد البلاء؛ لأن الجرب أى شيء يمسه يتأثر به؛ فكيف ومعه قطران؟! والحكمة أنها لما لم تُغطَّ المصيبة بالصبر غُطِّت بهذا الغطاء سربال من قطران ودرع من جرب؛ فكانت العقوبة من جنس العمل.

● ويستفاد من الحديث:

١- ثبوت رسالته ﷺ؛ لأنه أخبر عن أمر من أمور الغيب فوق كما أخبر قاله سليمان آل الشيخ.

٢- التنفير من هذه الأشياء الأربعة: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت.

٣- أن النياحة من كبائر الذنوب لوجود الوعيد عليه في الآخرة، وكل ذنب عليه الوعيد في الآخرة؛ فهو من الكبائر.

٤- أن كبائر الذنوب لا تكفر بالعمل الصالح؛ لقوله: «إذا لم تتب قبل موتها».

٥- أن من شروط التوبة أن تكون قبل الموت؛ لقوله: «إذا لم تتب قبل موتها»، ولقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾.

٦- أن الشرك الأصغر لا يخرج من الملة؛ فمن أهل العلم من قال: إنه داخل تحت المشيئة: إن شاء الله عذبه، وإن شاء غفر له.

ومن أهل العلم من قال: إنه ليس بداخل تحت المشيئة، وإنه لا بد أن يعاقب، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية لإطلاق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾؛ فقال: والشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، وبهذا نعرف عظم سيئة الشرك، قال ابن مسعود رضى الله عنه: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً»^(٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(١) القول المفيد ٢/ ١٥٠، ١٥١ و١٥٢

وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، قَالَ: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحَدِيثِ عَلَى أَثَرِ سَمَاءَ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يُقَالُ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»^(١).

لأن الحلف بغير الله من الشرك، والحلف بالله كاذباً من كبائر الذنوب، وسيئة أنشرك أعظم من سيئة الذنب.

٧- ثبوت الجزاء والبعث.

٨- أن الجزاء من جنس العمل.



قوله: ولهما عن زيد بن خالد - رضى الله عنه - قال «صلى لنا رسول الله.....» الحديث.

قلت: قوله: «ولهما» أى البخارى ومسلم فقد أخرجه البخارى فى كتاب الأذان باب يستقبل الامام الناس إذا سلم، ومسلم فى الإيمان.

- مناسبة الحديث للباب.

قال عبد الله بن جابر الله^(٢): أنه دل على نسبة مجيء المطر إلى الأنواء كفر بالله^(٣).

- مناسبة الحديث للتوحيد

قال القرعاوى^(٤): حيث أعتبر الحديث أن من نسب المطر إلى الأنواء كافراً لأنه نسب النعمة وهى المطر إلى غير الله فأشرك معه غيره. اهـ.

(١) [صحیح] أخرجه مالك فى «الموطأ» (١/ ١٧٠)، والبخارى فى الآذان/ باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم (٢/ ٣٨٨/ ٨٤٦)، ومسلم فى الإيمان/ باب كفر من قال : مطرنا بالنوء (٢/ ٥٩ - النوى)، وأحمد فى «مسنده» (٤/ ١١٧)، وأبو داود فى الطب / باب النجوم (٤/ ٣٩٠٦/ ١٥)، والسنائى فى «الكبرى» فى عمل اليوم والليلة (٦/ ٢٢٩/ ١٠٧٦١)، والبيهقى فى «الكبرى» (٣/ ٣٥٨)، واللبغوى فى «شرح السنة» (٤/ ٤١٩/ ١١٦٩). عن زيد بن خالد به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧٣٤ - بتحريجنا) وانظر فتح المجيد (ح ٦١٩) بتحريجنا.

(٤) الجديد ٢٧٤.

(٢)، (٣) الجامع الفريد ١٢٣.

قوله: عن زيد بن خالد
قال سليمان آل الشيخ^(١).

قوله: عن زيد بن خالد. أى الجهنى المدنى، صحابى مشهور، مات سنة ثمان وستين بالكوفة، وقيل غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: صلى لنا رسول الله ﷺ

قال ابن حجر^(٢) أى لأجلنا، أو اللام بمعنى الباء أى صلى بنا، وفيه جواز إطلاق ذلك مجازاً وإنما الصلاة لله تعالى. أهـ

قال ابن عثيمين^(٣): أى: إماماً؛ لأن الإمام يصلى لنفسه ولغيره، ولهذا يتبعه المأموم، وقيل: إن اللام بمعنى الباء، وهذا قريب، وقيل: إن اللام للتعليل؛ أى: صلى لأجلنا. أهـ

قوله: (بالحديثة):

قال النووى^(*): فيها لغتان: تخفيف الياء، وتشديدها، والتخفيف هو الصحيح المشهور المختار، وهو قول الشافعى وأهل اللغة وبعض المحدثين. أهـ.

قال ابن حجر^(٤): بالمهملة والتصغير وتخفيف ياءوها وتثقل، يقال سميت بشجره حدباء هناك.

قال ابن عثيمين^(٥): أى: صلاة الفجر، والحديثة فيها لغتان: التخفيف، وهو أكثر، والتشديد، وهى اسم بئر سمى بها المكان، وقيل: إن أصلها شجرة حدباء تسمى حديثة، والأكثر على أنها اسم بئر، وهذا المكان قريب من مكة بعضه فى الحل وبعضه فى الحرم، نزل به الرسول ﷺ فى السنة السادسة من الهجرة لما قدم معتمراً، فصدّه المشركون عن البيت، وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون، ويسمى الآن الشميسى. أهـ.

قوله: على إثر

قال النووى^(*): هو بكسر الهمزة وإسكان التاء ويفتحها جميعاً لغتان مشهورتان، والسماء: المطر.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٠.

(٢) الفتح (٢ ص ٦٠٧)، ونقله الشيخ سليمان فى تيسير العزيز الحميد وغيره.

(٣) القول المفيد ١٥٣/٢. (٤) الفتح (٢ ص ٦٠٧).

(٥) القول المفيد ١٥٣/٢. (*) شرح مسلم (١/٣٣٨).

قال ابن حجر (٥) بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور وهو ما يعقب الشيء .

قال ابن عثيمين (١): الإثر معناه العقب، والأثر: ما يتج عن السير . اهـ .

قوله: «سما» .

قال ابن حجر (٢) أى مطر واطلق عليه سماء لكونه ينزل من جهة السماء وكل جهة

علو تسمى سماء . اهـ .

قوله: كانت من الليل

قال ابن حجر (٣): كذا للأكثر وللمستملى والحموى (من الليلة) بالإنفراد

قال ابن عثيمين (٤): «من» لابتداء الغاية، هذا هو الظاهر - والله أعلم -، ويحتمل

أن تكون بمعنى فى للظرفية .

قوله: فلما انصرف

قال ابن حجر (٥): أى من صلاته أو من مكانه . اهـ .

قال سليمان آل الشيخ (٦) .

قوله: فلما انصرف . أى من صلاته لا من مكانه، كما يدل عليه قوله: أقبل على

الناس . أى التفت إليهم بوجهه الشريف، ففيه دليل على أنه لا ينبغي للإمام إذا صلى

أن يجلس مستقبل القبلة، بل ينصرف إلى المأمومين، كما صحت بذلك الأحاديث (٧) .

اهـ وقال بنحوه عبد الرحمن آل الشيخ .

قال ابن باز (٨)

من عاداته - ﷺ - أنه إذا سلم استغفر ثلاثاً وقال اللهم أنت السلام . . ثم يعطى الناس

وجهه ويذكر بقية الأذكار . اهـ .

قلت : وذلك ثانياً فى صحيح مسلم من حديث عائشة (٩) .

(٦) الفتح ٢ ص ٦٠٧ .

(١) القول المفيد ١٥٣/٢

(٣) الفتح ٢ ص ٦٠٧ .

(٢) الفتح ٢ ص ٦٠٧ .

(٥) الفتح ٢ ص ٦٠٧ .

(٤) القول المفيد ١٥٣/٢ .

(٧) قال نحوه بين عثيمين فى القول ٢٥٣/٢

(٦) تيسير العزيز الحميد ٣٤ .

(٨) التعليق المفيد ١٧١ .

(٩) [صحيح] أخرجه مسلم فى المساجد (٣/٩٧/١٣٦) عن عائشة به

قوله: هل تدرون

قال ابن حجر (١)

لفظ استفهام معناه التنبيه، ووقع في رواية سفيان عن صالح عند النسائي «ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة» وهذا من الأحاديث الإلهية وهي تحتمل أن يكون النبي ﷺ أخذها عن الله بلا واسطة أو بواسطة. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ (٢)

قوله: «هل تدرون». لفظ استفهام، ومعناه التنبيه. وفي رواية النسائي: «ألم تسمعوا مَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ» وهذا من الأحاديث القدسية.

قال الحافظ: وهي تحمل على أن النبي ﷺ أخذها عن الله بواسطة أو بلا واسطة، وفيه إلقاء العالم المسألة على أصحابه ليخبرهم، وإخراج العالم التعليم للمسألة بالاستفهام فيها ذكره المصنف. اهـ.

قال ابن عثيمين (٣)

الاستفهام يراد به التنبيه والتشويق لما سيلقى عليهم، وإلا؛ فالرسول ﷺ يعلم أنهم لا يعلمون ماذا قال الله؛ لأن الوحي لا ينزل عليهم.

ومعنى قوله: «هل تدرون» أى: هل تعلمون.

قوله «ماذا قال ربكم؟»

قال ابن عثيمين (٤)

والمراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة؛ لأن ربوبية الله للمؤمن خاصة كما أن عبودية المؤمن له خاصة، ولكن الخاصة لا تنافي العامة؛ لأن العامة تشمل هذا وهذا، والخاصة تختص بالمؤمن. اهـ.

قوله «قالوا: الله ورسوله أعلم»

قال سليمان آل الشيخ (٥)

فيه حسن الأدب للمسؤول عما لا يعلم، وإنه يقول ذلك أو نحوه، ولا يتكلف ما لا يعنيه اهـ.

(٣) القول المفيد ٢/ ١٥٤.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٤٠.

(١) الفتح (٢ ص ٦٠٨).

(٥) تيسير العزيز الحميد ٣٤٠.

(٤) القول المفيد ٢/ ١٥٤.

وذكر نحو ذلك ابن باز فقال: «الله ورسوله أعلم» هذا من أدب الصحابة رضى الله عنهم وبعد موته ﷺ يقال الله أعلم لأن الوحى انقطع فلا يعلم ما بعده كما فى حديث الحوض إلا ما يعرضه الله عليه كالصلاة عليه . اهـ.

قوله: «أصبح من عبادى»

قال ابن حجر (٢): هذه إضافة عموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر بخلاف مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ فإنها إضافة تشریف . اهـ.

قال سليمان آل الشيخ (٣): فإن قيل: هذا يدل على أن المراد بالكفر هنا هو الأكبر قيل: ليس فيه دليل إذ الأصغر يصدر من الكفار (٤).

قال النووي (*): اختلف العلماء فى كفر من قال (مطرنا بنوء كذا) على قولين:

أحدهما: هو كفر بالله تعالى سالب لأصل الإيمان مخرج من ملة الإسلام، قالوا: وهذا فيمن قال ذلك معتقداً أن الكوكب فاعل مدبر منشأ للمطر، كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم.

ومن اعتقد هذا فلاشك من كفره، وهذا القول هو الذى ذهب إليه جماهير العلماء والشافعى منهم، وهو ظاهر الحديث.

قالوا: وعلى هذا لو قال (مطرنا بنوء كذا) معتقداً أنه من الله تعالى وبرحمته وأن النوء ميقات له وعلامة اعتباراً للعادة، فكأنه قال: مطرنا فى وقت كذا، فهذا لا يكفر.

واختلفوا فى كراهته، والأظهر كراهته، لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها، وسبب الكراهية أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بصاحبها؛ ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكتهم.

والقول الثانى: فى أصل تأويل الحديث، أن المراد كفر نعمة الله تعالى؛ لاقتصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب، وهذا فيمن لايعتقد تدبير الكوكب، ويؤيد هذا التأويل الرواية الأخيرة فى الباب بلفظ: «أصبح من الناس شاكر وكافر» وفى الرواية الأخرى: «

(١) التعليق ١٧١.

(٢) الفتح ٢ ص ٦٠٨.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٤٠.

(٤) قال نحوه صاحب فتح المجيد ٥٤٣/٢.

(*) شرح مسلم (١/٣٣٨-٣٣٩).

ما أنعمت على عبادى من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين» وفى الرواية الأخرى: «ما أنزل الله تعالى من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين» فقوله «بها» يدل على أنه كفر بالنعمة والله أعلم. اهـ.

وقال ابن حجر^(١):

قوله (مؤمن بى وكافر) يحتمل أن يكون المراد بالكفر هنا كفر الشرك بقرينة مقابلة بالإيمان، ولأحمد من رواية نصر بن عاصم الليثى عن معاوية الليثى مرفوعاً «يكون الناس مجديين فينزل الله عليهم رزقاً من السماء من رزقه فيصبحون مشركين يقولون: مطرنا بنوء كذا»^(٢) ويحتمل أن يكون المراد به كفر النعمة، ويرشد إليه قوله فى رواية معمر عن صالح عن سفيان «فأما من حمدنى على سقاي وأثنى علىّ فذلك آمن بى» وفى رواية سفيان عند النسائي والإسماعيلي نحوه، وقال فى آخره «وكفر بى» أو قال «كفر نعمتى» وفى رواية أبى هريرة عند مسلم «قال الله: ما أنعمت على عبادى من نعمة إلا أصبح فريق منهم كافرين بها»^(٣) وله فى حديث ابن عباس «أصبح من الناس شاكراً ومنهم كافر»^(٤) وعلى الأول حملة كثير من أهل العلم، وأعلى ما وقفت عليه من ذلك كلام الشافعى، قال فى «الأم»: من قال مطرنا بنوء كذا وكذا على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلى أنه مطر نوء كذا فذلك كفر كما قال رسول الله ﷺ لأن النوء وقت والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ومن قال مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا فى وقت كذا فلا يكون كفراً، وغيره من الكلام أحب إلىّ منه، يعنى حسماً للمادة، وعلى ذلك يحمل إطلاق الحديث، وحكى ابن قتيبة فى «كتاب الأنواء» أن العرب كانت فى ذلك على مذهبين على نحو ما ذكره الشافعى، قال: وكانوا فى الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء إما بصنعه على زعمهم وإما بعلامته، فأبطل الشرع قولهم وجعله كفراً، فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنفاً فى ذلك فكفره كفر تشريك، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة فليس بشرك لكن يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة لأنه لم يقع فى شيء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة، فيحمل الكفر فيه على المعنيين لتناول الأمرين، والله أعلم.

(١) الفتح ٢/ص ٦٠٨.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١/٣٣٧/١٢٦)

(٤) تقدم تخريجه

ولا يرد الساكت، لأن المعتقد قد يشكر بقلبه أو يكفر، وعلى هذا فالقول في قوله «فأما من قال» لما هو أعم من النطق والاعتقاد، كما أن الكفر فيه لما هو أعم من كفر الشرك وكفر النعمة، والله أعلم بالصواب. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ مقرباً كلام ابن حجر وشارحاً له^(١):

قوله: «مؤمن بى وكافر». المراد بالكفر هنا هو الأصغر بنسبة ذلك إلى غير الله وكفران نعمته، وإن كان يعتقد أن الله تعالى هو الخالق للمطر المنزل له بدليل قوله في الحديث «فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته» إلى آخره، فلو كان المراد هو الأكبر، لقال أنزل علينا المطر نوء كذا، فأتى بباء السببية ليدل على أنهم نسبوا وجود المطر إلى ما اعتقدوه سبباً. وفي رواية: «فأما من حمدنى على سقياى وأثنى على، فذاك من آمن بى» فلم يقل: فأما من قال: إني المنزل للمطر فذاك من آمن بى، لأن المؤمنين والكفار يقولون ذلك: فدل على أن المراد إضافة ذلك إلى غير الله، وإن كان يعتقد أن الفاعل لذلك هو الله. وروى النسائي والإسماعيلي نحوه وقال فى آخره: «وكفر بى أو كفر نعمتى».

وفى رواية أبى صالح عن أبى هريرة عند مسلم قال رسول الله ﷺ: «أَلَمْ تَرَوْا إِلَى مَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالَ: مَا أَنْعَمْتُ عَلَى عِبَادِي مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِهَا كَافِرِينَ»^(٢). وله من حديث ابن عباس: «أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ» الحديث^(٣).

وفى حديث معاوية الليثى مرفوعاً: «يَكُونُ النَّاسُ مُجَدِّدِينَ فَيُنْزِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِزْقاً مِنْ رِزْقِهِ فَيُصْبِحُونَ مُشْرِكِينَ، يَقُولُونَ: مُطَرْنَا بِنُوءٍ كَذَا»^(٤) رواه أحمد، فبين الكفر والشرك المراد هنا بأن نسبة ذلك إلى غيره تعالى، بأن يقال: مطرنا بنوء كذا، قال ابن قتيبة: كانوا فى الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء إما بصنعه على زعمهم، وإما بعلامته؛ فأبطل الشرع قولهم، وجعله كفراً؛ فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنفاً فى ذلك، فكفره كفر شرك، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة، فليس بشرك؛ لكن

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤١، ٣٤٢.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة؛ لأنه لم يقع فى شيء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة، فيحمل الكفر فيه على المعنيين.

وقال الشافعى: من قال مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا فى وقت كذا، فلا يكون كفراً، وغيره من الكلام أحب إلى منه.

قلت: يعنى سليمان آل الشيخ: قد يقال: إن كلام الشافعى لا يدل على جواز ذلك، وإنما يدل على أنه لا يكون كفر شرك، وغيره من الكلام أحسن منه. أما كونه يجوز إطلاق ذلك أو لا يجوز، فالصحيح أنه لا يجوز، لما تقدم أن معنى الحديث هو نسبة السقيا إلى الأنواء لفظاً، وإن كان القائل لذلك يعتقد أن الله هو المنزل للمطر، فهذا من باب الشرك الخفى فى الألفاظ، كقوله: لولا فلان لم يكن كذا، وفيه معنى قوله تعالى ﴿وَعَسَى أَنْ تَحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ فإن كثيراً من النعم قد تخر الإنسان إلى شر، كالذين قالوا: «مطرنا بنوء كذا» بسبب نزول النعمة.

وفيه التفتن للإيمان فى هذا الموضع. ذكره المصنف، يشير إلى أن المراد به هنا نسبة النعمة إلى الله وحمده عليها، كما فى قوله: ﷺ إخباراً عن ربه تعالى: «فَأَمَّا مَنْ حَمَدَنِي عَلَى سُقْيَايَ وَأَتَنَى عَلَى فِدَاكَ مَنْ آمَنَ بِي» وقوله: «فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرَّنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ» الحديث

وفيه أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة. ذكره المصنف. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ (١)

قوله: «مؤمن بى وكافر» إذا اعتقد أن للنوء تأثيراً فى إنزال المطر، فهذا كفر؛ لأنه شرك فى الربوبية، والمشرك كافر. وإن لم يعتقد ذلك، فهو من الشرك الأصغر؛ لكونه نسب نعمة الله إلى غيره، ولأن الله لم يجعل النوء سبباً لإنزال المطر فيه، وإنما هو فضل من الله ورحمة. يحبس إذا شاء، ويتزله إذا شاء.

ودل هذا الحديث: أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره، ولو على سبيل المجاز.

وأيضاً، الباء تحتمل معانى، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ، فليست للسببية ولا للاستعانة؛ لما عرفت من أن هذا باطل. ولا تصدق أيضاً على أنها للمصاحبة، لأن

(١) فتح المجيد ٢/ ٥٤٣، ٥٤٤.

المطر قد يجيءُ في هذا الوقت وقد لا يجيء فيه. وإنما يجيء المطرُ في الوقت الذي أراد الله مجيئه فيه، برحمته وحكمته وفضله. فكلُّ معنى تُحمل عليه الباءُ في هذا اللفظ المنهى عنه فاسدٌ.

فيظهر على هذا: تحريمُ هذه اللفظة مطلقاً؛ لفساد المعنى. وقد تقدّم القطعُ بتحريمه في كلام صاحب (الفروع) و (الإِنصاف).

قوله: فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته

قال سليمان آل الشيخ^(١).

قوله: أى من نسبه إلى الله واعتقد أنه أنزله بفضله ورحمته من غير استحقاق من العبد على ربه وأثنى به عليه، فقال: «مطرنا بفضل الله ورحمته»، وفي الرواية الأخرى: «فأما من حمدنى على سقياى، وأثنى على فذاك من آمن بى» وهكذا يجب على الإنسان أن لا يضيف نعم الله إلى غيره ولا يحمدهم عليها بل يضيفها إلى خالقها ومقدرها الذى أنعم بها على العبد بفضله ورحمته، ولا يتنافى ذلك الدعاء لمن أحسن بها إليك، وذكر ما أولاكم من المعروف إذا سلم لك دينك، والسر فى ذلك- والله أعلم- أن العبد يتعلّق قلبه بمن يظن حصول الخير له من جهته وإن كان صنع له فى ذلك، وذلك نوع شرك خفى فمنع من ذلك.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): فالفضلُ والرحمةُ صِفَتان لله، ومذهب أهل السنة والجماعة: أنَّ ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات: كالحياة، والعلم. وصفات الأفعال؛ كالرحمة التى يرحم بها عباده، كلها صفات لله قائمة بذاته، ليست قائمةً بغيره، فتفتنُّ لهذا؛ فقد غلط فيه طوائف.

وفى هذا الحديث: أنَّ نعم الله لا يجوز أن تُضاف إلاَّ إليه وحده، وهو الذى يُحمد عليها، وهذه حالُ أهل التوحيد. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): أى: قال بلسانه وقلبه، والباء للسببية، والفضل: العطاء والزيادة.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٢.

(٢) فتح المجيد ٥٤٤/٢.

(٣) القول المفيد ١٥٦/٢.

والرحمة: صفة من صفات الله، يكون بها الإِنعام والإِحسان إلى الخلق.

قوله «فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب».

قال ابن باز^(١): لانه علم أن الله مُنزل الأمطار وهذا المطر من رحمة الله وفضله.

قال ابن عثيمين^(٢): لانه نسب المطر إلى الله ولم ينسبه إلى الكوكب، ولم ير له تأثيراً فى نزوله، بل نزل بفضل الله. اهـ.

قوله: «بنوء»

قال النووى^(*): فيه كلام طويل قد لخصه الشيخ أبو عمرو بن الصلاح - رحمه الله - فقال: النوء فى أصله ليس هو نفس الكوكب، فإنه مصدر ناء النجم بنوء نوء أى سقط وغاب وقيل أى نهض وطلع وبيان ذلك أن ثمانية وعشرين نجماً معروفة المطالع فى أزمئة السنة كلها، وهى المعروفة بمنازل القمر الثمانية والعشرين يسقط كل ثلاثة عشر ليلة نجم فى المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر يقابله فى المشرق من ساعته وكان أهل الجاهلية إذا كان عند ذلك مطر ينسبونه إلى الساقط الغارب منهما.

وقال الأصمعى: إلى الطالع منهما. قال أبو عبيد: ولم أسمع أحداً ينسب النوء للسقوط إلا فى هذا الموضع، ثم أن النجم نفسه قد يسمى نوءاً تسمية للفاعل بالمصدر.

قال أبو إسحاق الزجاج فى بعض أماليه: الساقطة فى الغرب هى الأنواء والطلاعة فى المشرق هى البوارح. والله أعلم. اهـ.

قال: ومعنى النوء سقوط نجم فى المغرب من النجوم الثمانية والعشرين التى هى منازل القمر، قال: وهو مأخوذ من ناء إذا سقط، وقال آخرون: بل النوء طلوع نجم منها، وهو مأخوذ من ناء إذا نهض، ولا تخالف بين القولين فى الوقت لأن كل نجم منها إذا طلع فى المشرق وقع حال طلوعه آخر فى المغرب لا يزال ذلك مستمراً إلى أن تنتهى الثمانية والعشرون بانتهاء السنة، فإن لكل واحد منها ثلاثة عشر يوماً تقريباً.

قوله: وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا

(١) التعليق المفيد ١٧١.

(٢) القول المفيد ١٥٦/٢.

(*) شرح مسلم (٣٣٩/١)

قال ابن حجر (١).

قوله (مطرنا بنوء كذا وكذا) فى حديث أبى سعيد عند النسائى «مطرنا بنوء المجدح» بكسر الميم وسكون الجيم وفتح الدال بعدها مهملة ويقال بضم أوله هو الدبران بفتح المهملة والموحدة بعدها، وقيل سُمى بذلك لاستدباره الثريا، وهو نجم أحمر صغير منير. قال ابن قتيبة: كل النجوم المذكورة له نوء غير أن بعضها أحمر وأغزر من بعض، ونوء الدبران غير محمود عندهم، انتهى. وكان ذلك ورد فى الحديث تنبيهاً على مبالغتهم فى نسبة المطر إلى النوء ولو لم يكن محموداً، أو اتفق وقوع ذلك المطر فى ذلك الوقت إن كانت القصة واحدة. وفى مغازى الواقدى أن الذى قال فى ذلك الوقت «مطرنا بنوء الشعري» هو عبدالله بن أبى المعروف بابن سلول أخرجه من حديث أبى قتادة. وفى هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم طرح الإمام المسألة على أصحابه وإن كانت لا تدرك إلا بدقة النظر. ويستنبط منه أن للولى المتمكن من النظر فى الإشارة أن يأخذ منها عبارات ينسبها إلى الله تعالى كذا قرأت بخط بعض شيوخنا، وكأنه أخذه من استنطاق النبى ﷺ أصحابه عما قال ربهم وحمل الاستفهام فيه على الحقيقة، لكنهم رضى الله عنهم فهموا خلاف ذلك، ولهذا لم يجيبوا إلا بتفويض الأمر إلى الله ورسوله. اهـ.

قلت : بل الأولى أن يستنبط من هذه الجزئية ماسياتى من كلام سليمان تبعاً للمصنف أن فيها إخراج العالم التعليم للمسألة بالاستفهام فيها، وذلك لأن هذا الاستنباط بعيد ومع بعده فيه شبهة للصوفية وغيرهم ممن ينصبون لأنفسهم أئمة ثم يغالون فيهم بل يدعون أنهم يعرفون الغيب أو العلم اللدنى أو غير ذلك.

قال سليمان آل الشيخ (٢): كالصریح فيما ذكرنا أن المراد نسبة ذلك إلى غير الله، وإن كان يعتقد أن المنزل للمطر هو الله. ولهذا لم يقل فأما من قال: أنزل علينا المطر أو أمطرنا نوء كذا.

قال المصنف: وفيه التفطن للكفر فى هذا الموضع يشير إلى أن المراد بالكفر هنا هو نسبة النعمة إلى غير الله كالتوء ونحوه على ما تقدم، ولما كان إنزال الغيث من أعظم نعم الله وإحسانه إلى عباده لما اشتمل عليه من منافعهم، فلا يستغنون عنه أبداً كان من شكره الواجب عليهم أن يضيفوه إلى البر الرحيم المنعم، ويشكروه فإن النفوس قد جبلت على حب من أحسن إليها، والله تعالى هو المحسن المنعم على الإطلاق الذى ما بالعباد من نعمة فمنه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾. اهـ.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٤٢.

(١) الفتح ٢/ ص ٦٠٨، ٦٠٩.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): قال القرطبي فى شرح حديث زيد بن خالد: وكانت العربُ إذا طلع نجمٌ من المشرق وسقط آخرُ من المغرب فحدث عند ذلك مطرٌ أو ريح، فمنهم من ينسبه إلى الطالع، ومنهم من ينسبه إلى الغارب؛ نسبةٌ إيجادٍ واختراعٍ، ويُطلقون ذلك القولَ المذكورَ فى الحديث. فنهى الشارعُ من إطلاق ذلك؛ لئلا يعتقد أحدٌ اعتقادهم، ولا يشتبه بهم فى نطقهم. انتهى.

قوله: فمنهم من ينسبه نسبةً إيجاد. يدلُّ على أنَّ بعضهم لا يعتقد ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فدلَّ على أنَّ منهم من يعرف ويقرُّ بأنَّ الله هو الذى أوجد المطر، وقد يعتقد هؤلاء أنَّ للنوء فيه شيئاً من التأثير.

والقرطبيُّ فى شرحه لم يُصرِّح أنَّ العرب كلَّهم يعتقدون ذلك المعتقد الذى ذكره، فلا اعتراض عليه بالآية؛ للاحتمال المذكور. أهـ

قال ابن باز^(٢).

لأنه من أنواع الكفر ولا يقول صدق نوء كذا أو سقينا بنوء كذا بل يقول مطرنا بفضل الله ورحمته.

«مطرنا بنوء كذا» أن قصد به أنه هو الذى خلق المطر وهو المتصرف فى الكون فهذا كفر أكبر وأن قصد أنه سبب لهذا المطر فهذا نوع من أنواع الكفر ولكنه كفر أصغر لأنه ليس هو المتسبب بل كله من الله تعالى والنجم ظرف من الظروف تقع فيه الحوادث كما تقع فى الأيام والليالى. أما إذا قال مطرنا فى الصيف أو نحوه فلا بأس لأنه إخبار عن الوقت. فالواجب الحذر من أخلاق الجاهلية والاعتراف بنعمة الله سبحانه. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): الباء للسببية؛ فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب، وصار كافراً بالله؛ لأنه أنكر نعمة الله ونسبها إلى سبب لم يجعله الله سبباً؛ فتعلقت نفسه بهذا السبب، ونسى نعمة الله، وهذا الكفر لا يُخرج من الملة؛ لأن المراد نسبة المطر إلى النوء على أنه سبب وليس إلى النوء على أنه فاعل.

(١) فتح المجيد (٢/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٢) التعليق المفيد ١٧١، ١٧٢.

(٣) القول المفيد ٢/ ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨.

لأنه قال: «مطرنا بنوء كذا»، ولم يقل: أنزل علينا المطر نوء كذا؛ لأنه لو قال ذلك؛ لكان نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد، وبه نعرف خطأ من قال: إن المراد بقوله: «مطرنا بنوء كذا» نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد؛ لأنه لو كان هذا هو المراد؛ لقال: أنزل علينا المطر نوء كذا ولم يقل مطرنا به.

فعلِم أن المراد أن من أقر بأن الذى خلق المطر وأنزله هو الله، لكن النوء هو السبب؛ فهو كافر، وعليه يكون من باب الكفر الأصغر الذى لا يخرج من الملة.

والمراد بالكوكب النجم، وكانوا ينسبون المطر إليه، ويقولون: إذا سقط النجم الفلانى جاء المطر، وإذا طلع النجم الفلانى جاء المطر، وليسوا ينسبونه إلى هذا نسبة وقت، وإنما نسبة سبب؛ فنسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- نسبة إيجاد، وهذه شرك أكبر.

٢- نسبة سبب، وهذه شرك أصغر.

٣- نسبة وقت، وهذه جائزة بأن يريد بقوله: مطرنا بنوء كذا؛ أى: جاءنا المطر فى هذا النوء أى فى وقته. ولهذا قال العلماء: يحرم أن يقول: مطرنا بنوء كذا، ويجوز مطرنا فى نوء كذا، وفرّقوا بينهما أن الباء للסיبىة، وفى للظرفية، ومن ثم قال أهل العلم: إنه إذا قال: مطرنا بنوء كذا وجعل الباء للظرفية فهذا جائز، وهذا وإن كان له وجه من حيث المعنى، لكن لا وجه له من حيث اللفظ؛ لأن لفظ الحديث: «من قال: مطرنا بنوء كذا»، والباء للسيبىة أظهر منها للظرفية، وهى وإن جاءت للظرفية كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَنْكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ﴾، لكن كونها للسيبىة أظهر، والعكس بالعكس؛ ف«فى» للظرفية أظهر منها للسيبىة وإن جاءت للسيبىة؛ كما فى قوله ﷺ: «دخلت امرأة النار فى هرة»^(١). أهـ

والحاصل أن الأقرب المنع ولو قصد الظرفية، لكن إذا كان المتكلم لا يعرف من الباء إلا الظرفية مطلقاً، ولا يظن أنها تأتى سببياً؛ فهذا جائز، ومع ذلك؛ فالأولى أن يقال لهم: قولوا: فى نوء كذا. أهـ.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٣١٨)، ومسلم فى البر والصلة (١٦/١٧٢ - النووى) عن ابن عمر

به، وانظر «رياض الصالحين» (١٦٠٣ - بتخريجنا)

● فوائد الحديث:

قال سليمان آل الشيخ (١): وفيه لقاء العالم للمسألة على أصحابه ليختبرهم وتقدمت هذه الفائدة من كلام ابن حجر.

- وإخراج العالم التعليم للمسألة بالاستفهام فيها.

قال عبدالرحمن آل الشيخ (٢):

- أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره ولو على سبيل المجاز.

- إن نعم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده وهو الذي يُحمد عليها، وهذا حال أهل التوحيد.

قال عبدالله بن جار الله (٣):

١- لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره.

٢- أن نعم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده.

٣- إثبات صفة الفضل والرحمة لله تعالى.

قال القرعاوي (٤)

١- استحباب انصراف الإمام بعد التسليم والتوجه إلى المأمومين.

٢- استحباب التشويق إلى العلم بالاستجواب.

٣- إثبات صفة القول لله.

٤- حسن الأدب للمستنول عمالا يعلم.

٥- تحريم الكفر بالنعم.

٦- إثبات صفة الرحمة لله

٧- نسبة النعمة إلى غير الله كفر بها.

٨- تحريم قول الإنسان مطرنا بنؤ كذا



(١) تيسير العزيز الحميد - ٣٤٠

(٢) فتح المجيد ٥٤٣/٢.

(٣) الجامع الفريد ١٢٣.

(٤) الجديد ٢٧٣.

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ، وَفِيهِ: «قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءٌ كَذًّا وَكَذَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ :

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (*) (١)

قوله : «ولهما من حديث ابن عباس ...» الحديث.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): الحديث لمسلم فقط ولفظه عن ابن عباس «مُطَرَّ النَّاسِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ - ﷺ - فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا: هَذِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَقَدْ صَدَقَ نَوْءٌ كَذًّا وَكَذَا وَقَالَ: فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾».

قلت: وتقدم عزو السيوطي له في «الدر» إلى مسلم فقط.

مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوي^(٣): حيث دلت الآية على كفر من نسب النعم إلى غير الله ومنها نسبة المطر إلى الأنواء. اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوي^(٤): حيث كذبت الآية من نسب النعم إلى غير الله ومنها نسبة المطر إلى الأنواء لأن ذلك إشراك مع الله في إنعامه. اهـ.

قوله «قال بعضهم».

قال سليمان آل الشيخ^(٥): ذكر الواقدي في مغازيه عن أبي قتادة أن عبد الله ابن أبي هو القائل في ذلك الوقت: مطرنا بنوء الشعري. وفي صحة ذلك نظر.

(*) الواقعة (٨٢-٧٥)

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٤٣.

(١) تقدم تخريجه.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٣٤٣.

(٣)، (٤) الجديد ٢٧٦.

قوله: «لقد صدق نوء كذا...»

تقدم قريباً تعريف النوء، وما جاء فيه من أقوال أهل العلم.

قوله [فأنزل الله هذه الآيات]

قال النووي(*) : قال الشيخ أبو عمرو - رحمه الله - : ليس مراده أن جميع هذا نزل في قولهم في الأنواء، فإن الأمر في ذلك وتفسيره يأبى ذلك وإنما النازل في ذلك قوله تعالى «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ» والباقي نزل في غير ذلك، ولكن اجتماعاً في وقت النزول، فذكر الجميع من أجل ذلك.

قال الشيخ أبو عمرو - رحمه الله - وما يدل على هذا أن في بعض الروايات عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في ذلك الاختصار على هذا القدر اليسير فحسب، هذا آخر كلام الشيخ - رحمه الله - اهـ.

قلت: ولهذا لم نفسر إلا هذه الآية على منهجنا في الكتاب والباقي فسرناه بكلام شراح التوحيد فقط.

قوله: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ» هذا قسم من الله عزَّ وجلَّ، يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمة المقسم به وتشريفه. وتقديره: أقسم بمواقع النجوم، ويكون جوابه: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ»، فعلى هذا تكون (لا) صلة لتأكيد النفي، فتقدير الكلام: ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم.

قال ابن جرير: قال بعض أهل العربية: معنى قوله: «فَلَا أُقْسِمُ» فليس الأمر كما تقولون، ثم استؤنف القسم بعد، فقيل: «أُقْسِمُ»؟ ومواقع النجوم. قال ابن عباس يعني نجوم القرآن، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً في السنين بعد، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية. ومواقعها نزولها شيئاً بعد شيء، وقيل: النجوم هي الكواكب، ومواقعها مساقطها عند غروبها، قال مجاهد: مواقع النجوم يقال: مطالعها ومشارقها، واختاره ابن جرير.

قال النووي(*) : وأما مواقع النجوم، فقال الأكثرون : المراد نجوم السماء، ومواقعها: مغاريبها.

وقيل مطالعها، وقيل: انكدارها، وقيل: انتشارها يوم القيامة، وقيل: النجوم نجوم

(*) شرح مسلم (١/٣٣٩)

القرآن، وهى أوقات نزوله، وقال مجاهد: مواقع النجوم محكم القرآن. والله أعلم اهـ.

ثم قال سليمان آل الشيخ

فائدة: وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم فى القسم وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه:

أحدها أن النجوم جعلها الله يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها فى ظلمات الغى والجهل؛ فتلك هداية فى الظلمات الحسية، وآيات القرآن هداية فى الظلمات المعنوية؛ فجمع بين الهدايتين مع ما فى النجوم من الزينة الظاهرة للعالم وفى القرآن من الزينة الباطنة؛ ومع ما فى النجوم من الرجوع للشياطين، وفى آيات القرآن من رجوع شياطين الإنس والجن؛ والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية؛ مع ما فى مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول، ذكره ابن القيم اهـ.

قال ابن عثيمين (١):

فإن قيل: ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم؛ لأن القسم إن كان لقوم يؤمنون به ويصدقون كلامه؛ فلا حاجة إليه، وإن كان لقوم لا يؤمنون به؛ فلا فائدة منه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾.

أجيب: أن فائدة القسم من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربى لتأكيد الأشياء بالقسم، وإن كانت معلومة عند الجميع، أو كانت منكراً عند المخاطب، والقرآن نزل بلسان عربى مبين.

الثانى: أن المؤمن يزداد يقيناً من ذلك، ولا مانع من زيادة المؤكّدات التى تزيد فى يقين العبد، قال تعالى عن إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾.

الثالث: أن الله يقسم بأمور عظيمة دالة على كمال قدرته وعظمته وعلمه؛ فكأنه يقسم فى هذا المقسم به البراهين على صحة ما أقسم عليه بواسطة عظم ما أقسم به.

الرابع: التنويه بحال المقسم به؛ لأنه لا يقسم إلا بشيء عظيم، وهذان الوجهان لا

يعودان إلى تصديق الخبر، بل إلى ذكر الآيات التي أقسم بها تنوياً لها وتنبهاً على عظمها.

الخامس: الاهتمام بالمقسم عليه، وأنه جدير بالعناية والإثبات.

وقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾

الله - سبحانه - يتحدث عن نفسه بضمير المفرد؛ لأنه يدل على الانفراد والتوحيد؛ فهو سبحانه واحد لا شريك له، ويتحدث عن نفسه بضمير الجمع؛ لأنه يدل على العظمة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ الآية، ولا يتحدث عن نفسه بالمتن؛ لأن المتن محصور باثنين.

والباء حرف قسم، والمواقع جمع موقع.

واختلف في النجوم؛ ف قيل: إنها النجوم المعروفة؛ فيكون المراد بمواقعها مطالعها ومغاربها.

وأقسم الله بها؛ لما فيها من الدلالة على كمال القدرة في هذا الانتظام البديع وما فيها من مناسبة المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن المحفوظ بواسطة الشهب؛ فإن السماء عند نزول الوحي ملئت حرساً شديداً وشهباً.

وقيل: إن المراد آجال نزول القرآن، ومنه قولهم: «نزل القرآن منجماً»، وقول الفقهاء: يجب أن يكون دين المكاتب مؤجلاً بنجمين فأكثر؛ فيكون الله أقسم بمواقع نزول القرآن، وقد سبقت لنا قاعدة مفيدة، وهى أنه إذا كان المعنيان لا يتنافيان تحمل الآية على كل منهما، وإلا؛ طلب المرجح. اهـ.

قلت: انتهى هنا محل الشاهد من الآيات وسنورد باقى التفسير تبعاً لشرح كتاب التوحيد مقتصرين على كلامهم فقط.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

قال سليمان آل الشيخ (١).

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ قال ابن كثير: أى وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمتة لعظمتهم المقسم عليه. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٤.

كَرِيمٌ ﴿ هذا هو المقسم عليه، وهو القرآن أى: أنه وحى الله وتنزيله وكلامه، لا كما يقول الكفار: إنه سحر وكهانة أو شعر، بل هو قرآن كريم أى: عظيم كثير الخير، لأنه كلام الله.

قال ابن القيم: فوصفه بما يقتضى حسناً وكثرة خيره ومنافعه وجلالته، فإن الكريم هو البهى الكثير الخير، العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره، وحسن منظره من النبات وغيره، ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن.

قال الأزهرى: الكريم اسم جامع لما يحمد، والله تعالى كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان، والعلم والحكمة. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١):

قوله: ﴿وَأِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾

﴿لَقَسَمٌ﴾: خبر إن، وهذا القسم أكد الله عظمته بإن واللام تنويهاً بالمقسم عليه وتعظيمه.

وقوله: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

مؤكد ثالث كأنه قال: ينبغى أن تعلموا هذا الأمر ولا تجهلوه؛ فهو أعظم من أن يكون مجهولاً؛ فإنه يحتاج إلى علم وانتباه، فلو تعلمون حق العلم لعرفتم عظمته؛ فانتبهوا.

قوله: ﴿لَقُرْآنٌ﴾.

مصدر مثل الغفران والشكران بمعنى اسم الفاعل، ويعنى اسم المفعول؛ فعلى الأول يكون المراد أنه جامع للمعاني التى تضمنتها الكتب السابقة من المصالح والمنافع، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾، وعلى الثانى يكون بمعنى المجموع؛ لأنه مجموع مكتوب.

قوله: ﴿كَرِيمٌ﴾.

يطلق على كثير العطاء، وهذا كمال فى العطاء متعد للغير، ويطلق على الشيء البهى الحسن، ومنه قول النبى ﷺ: «إياك وكرائم أموالهم»^(٢).

(١) القول المفيد ١٦١/٢ - ١٦٣.

(٢) تقدم تخريجه

أى: البهى منها والحسن، وهذا كمال فى الذات، وهذان المعنيان موجودان فى القرآن؛ فالقرآن لا أحسن منه بذاته، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

والقرآن يعطى أهله من الخيرات الدينية والدنيوية والجسمية والقلبية، قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾؛ فهو سلاح لمن تمسك به، ولكن يحتاج إلى أن يتمسك به بالقول والعمل والعقيدة؛ فلا بد أن يصدق العقيدة العمل، قال ﷺ: «ألا إن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»^(١).

ووصف الله القرآن فى آية أخرى بأنه مجيد، والمجد صفة العظمة والعزة والقوة، والقرآن جامع بين الأمرين: فيه قوة وعظمة، وكذا خيرات كثيرة وإحسان لمن تمسك به.

قوله ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾
قال سليمان آل الشيخ^(٢):

وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ قال ابن كثير: أى: معظم فى كتاب معظم محفوظ موقر. وقال ابن القيم: اختلف المفسرون فى هذا فقيل: هو اللوح المحفوظ والصحيح أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة وهو المذكور فى قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ ويدل على أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة. قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣):
قوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾.

كتاب فعال بمعنى مفعول، مثل: فراش بمعنى مفروش، وغراس بمعنى مغروس، وكتاب بمعنى مكتوب.

والمكنون: المحفوظ، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٢)، ومسلم فى المسافة (٢٧/١١ - النووى) عن النعمان بن بشير به وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٩ - بتخريجنا).

(٢) تيسير العزيز احميد ٣٤٤. (٣) القول المفيد ١٦٣/٢.

واختلف المفسرون في هذا الكتاب على قولين:

الأول: أنه اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء.

الثاني: وإليه ذهب ابن القيم أنه الصحف التي في أيدي الملائكة، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾؛ فقوله: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ يرجح أن المراد الكتب التي في أيدي الملائكة؛ لأن قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾؛ أي: الملائكة، يوازن قوله: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾، وعلى هذا يكون المراد بالكتاب الجنس لا الواحد. اهـ.

قوله ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾.

قال سليمان آل الشيخ^(١):

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال ابن عباس: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: الكتاب الذي في السماء. (٢).

وفي رواية: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ يعني: الملائكة (٣).

وقال قتادة: لا يمسّه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا فإنه يمسّه المجوسى النجس والمناقق الرجس. قال: وهى فى قراءة ابن مسعود: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٤)

واختار هذا القول كثيرون منهم ابن القيم ورجحه،

وقال ابن زيد: زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين فأخبر الله تعالى أنه: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ كما قال: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ إلى قوله: ﴿لَمَعَزُؤَلُونٌ﴾.

قال ابن كثير: وهذا قول جيد وهو لا يخرج عن القول قبله.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٤-٣٤٥.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٣٢/٦) ونسبه لأدم، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقى فى «المعرفة»

وانظر «فتح القدير» (١١٨٥٣) - بتخريجنا

(٣) ما قبله

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن جرير.

وقال البخارى فى «صحيحه» فى هذه الآية لا يجد طعمه إلا من آمن به .

قال ابن القيم : وهذا من إشارة الآية وتنبيهها وهو أنه لا يلتذ به وبقرائه وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقاً، وأنزله على رسوله وحياً . ولا ينال معانيه إلا من لم يكن فى قلبه منه حرج بوجه من الوجوه .

وقال آخرون : ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أى : من الجنابة والحدث قالوا : ولفظ الآية خير ومعناه الطلب . قالوا : والمراد بالقرآن ههنا المصحف كما فى :

حديث ابن عمر مرفوعاً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَنْهَى أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ مَخَافَةَ أَنْ يَتَّالَهُ الْعَدُوُّ^(١)، واحتجوا على ذلك بما .

رواه مالك فى «الموطأ» عن عبدالله بن محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن فى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ لعمر بن حزم أن لَا يَمَسَّ الْقُرْآنُ إِلَّا طَاهِرٍ^(٢) . اهـ .

قال ابن عثيمين^(٣) :

قوله : ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ .

الضمير يعود إلى الكتاب المكنون ؛ لأنه أقرب شئ ، وهو بالرفع ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ باتفاق القراء ، وإنما نبهنا على ذلك ؛ لدفع قول من يقول : إنه خبر بمعنى النهى ، والضمير يعود على القرآن ؛ أى : نهى أن يمس القرآن إلا طاهر ، والآية ليس فيها ما يدل على ذلك ، بل هى ظاهرة فى أن المراد به اللوح المحفوظ ؛ لأنه أقرب مذكور ، ولأنه خبر ، والأصل فى الخبر أن يبقى على ظاهره خبراً لا أمراً ولا نهياً حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك ، ولم يرد ما يدل على خلاف ذلك ، بل الدليل على أنه لا يراد به إلا ذلك ، وأنه يعود إلى الكتاب المكنون ، ولهذا قال الله : ﴿لَا الْمُطَهَّرُونَ﴾ باسم المفعول ، ولم يقل : إلا المطهرون ، ولو كان المراد المطهرين لقال ذلك ، أو قال : إلا المتطهرون ؛ كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ .

(١) أخرجه البخارى (٢٩٩٠) ، ومسلم فى الإمامة (٩٢/١٧/٧) وانظر «منار السبيل» بتخریجنا .

(٢) أخرجه مالك فى «الموطأ» (١٧٧/١)

وانظر مقدمه تخریجنا لمنار السبيل .

(٣) القول المفيد ٢/١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ .

والمطهرون: هم الذين طهرهم الله تعالى، وهم الملائكة، طهروا من الذنوب وأدناسها، قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، وفرق بين المطهر الذي يريد أن يفعل الكمال بنفسه، وبين المطهر الذي كمله غيره وهم الملائكة، وهذا مما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم أن المراد بالكتاب الكتب التي في أيدي الملائكة، وفي الآية إشارة على أن من طهر قلبه من المعاصي كان أفهم للقرآن، وأن من تنجس قلبه بالمعاصي كان أبعد فهماً عن القرآن؛ لأنه إذا كانت الصحف التي في أيدي الملائكة لم يمكن الله من مسحها إلا هؤلاء المطهرين؛ فكذاك معاني القرآن.

فاستنبط شيخ الإسلام من هذه الآية: أن المعاصي سبب لعدم فهم القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالُوا أَطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ فهم لا يصلون إلى معانيها وأسرارها؛ لأنه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

قلت: ويستدل على ذلك أيضاً بقوله تعالى: ﴿سَاصِرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: الآية

وقد ذكر بعض أهل العلم: أنه ينبغي لمن استفتى أن يقدم بين يدي الفتوى الاستغفار لمحو أثر الذنب من قلبه حتى يتبين له الحق، واستنبطه من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

قوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

قال سليمان آل الشيخ^(١)

وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال ابن كثير أي: هذا القرآن منزل من الله رب العالمين، وليس كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مزية فيه وليس وراءه حق نافع. وفي هذه الآية إثبات أنه كلام الله تكلم به.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٥-٣٤٦.

قال ابن القيم: ونظيره «ولكن حق القول مني» وقوله: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ» وإثبات علو الله سبحانه على خلقه، فإن النزول والتزليل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل، ولا يرد عليه قوله: «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ» لأننا نقول: إن الذي أنزلها فوق سمواته فأنزلها لنا بأمره.

قال ابن القيم: وذكر التزليل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة للملكه لهم، وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم وإحسانه وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى، ويدعهم هملاً، ويخلقهم عبثاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يشيهم ولا يعاقبهم؟ فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به. وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

فائدة: أى: تريدون أن تملؤوهم فيه وتركنوا إليهم.

قال ابن القيم: ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الأذهان فى غير موضعه وأنهم يدهنون فيما حقه أن يصدع به، ويفرق به، ويعض عليه بالتواجد، وتثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفتدة، ويحارب ويسالم لأجله ولا يلتوى عنه يمناً ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا ابتداء فى طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به. فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر، فكيف تطلب المداينة بما هذا شأنه؟! ولم ينزل للمداينة، وإنما أنزل بالحق وللحق، والمداينة إنما تكون فى باطل قوى لا تمكن إزالته، أو فى حق ضعيف لا تمكن إقامته، فيحتاج المداين إلى أن يترك بعض الحق، ويلتزم بعض الباطل. فأما الحق الذى قام به كل حق فكيف يداين فيه؟ وقوله: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ»، تقدم الكلام عليها أول الباب، والله أعلم^(١).

قال ابن عثيمين^(٢) قوله: «تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

(١) وانظر رسالتى (المداينة المداينة) يسر الله طبعها.

(٢) القول المفيد ٢/ ١٦٥ - ١٦٦.

خبر ثان لقوله: ﴿وَإِنَّهُ﴾، وهو كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وكقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾؛ فهو خبر مكرر مع قوله: ﴿لَقُرْآنٌ﴾. وتنزيل؛ أى: منزل؛ فهى مصدر بمعنى اسم المفعول منزل من رب العالمين، أنزله الله على قلب النبي ﷺ؛ لأنه محل الوعى والحفظ بواسطة جبريل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾. قال ابن عثيمين^(١):

ويستفاد من الآية ما يلى:

- ١- أن القرآن نازل لجميع الخلق؛ ففيه دليل على عموم رسالة النبي ﷺ.
- ٢- أنه نازل من ربهم، وإذا كان كذلك؛ فهو الحكم بينهم الحاكم عليهم.
- ٣- أن نزول القرآن من كمال ربوبية الله، فإذا أضيف إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾؛ علم أن القرآن رحمة للعباد أيضاً، وربوبية الله مبنية على الرحمة، قال تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وكل ما أمر الله به عباده أو نهاهم عنه؛ فهو رحمة بهم.

- ٤- أن القرآن كلام الله؛ لأنه إذا كان الله أنزله؛ فهو كلامه لا كلام غيره كما قاله السلف رحمهم الله، وهو غير مخلوق؛ لأن جميع صفات الله حتى الصفات الفعلية ليست مخلوقة.

والقرآن كلام الله منزل غير مخلوق.

فإن قيل: هل كل منزل غير مخلوق؟

قلنا: لا، لكن كل منزل يكون وصفاً مضافاً إلى الله؛ فهو غير مخلوق؛ كالكلام، وإلا؛ فإن الله أنزل من السماء ماء وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ والأنعام مخلوقة، فإذا كان المنزل من عند الله صفة لا تقوم بذاتها، وإنما تقوم بغيرها؛ لزم أن يكون غير مخلوق؛ لأنه من صفات الله.

(١) القول المفيد (٢/١٦٦-١٦٩)

قوله: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ﴾.

الاستهزام للإنكار والتوبيخ، والحديث: القرآن، والمذهن: الخائف من غيره الذى يحاييه بقوله وفعله.

والمعنى: أتذهنون بهذا الحديث وتخافون وتستخفون؟! لا ينبغي لكم هذا، بل ينبغي لمن معه القرآن أن يصدع به وأن يبينه ويجاهد به، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾.

أكثر المفسرين على أنه على حذف مضاف؛ أى: أنجعلون شكر رزقكم؛ أى: ما أعطاكم الله من أى شيء من المطر ومن إنزال القرآن؛ أى: تجعلون شكر هذه النعمة العظيمة أن تكذبوا بها، والنبي ﷺ وإن كان ذكرها فى المطر؛ فإنها تشمل المطر وغيره. وقيل: إنه ليس فى الآية حذف، والمعنى: تجعلون شكركم تكذيباً، وقال: إن الشكر رزق، وهذا هو الصحيح، بل هو من أكبر الأرزاق، قال الشاعر:

إذا كان شكرى نعمة الله نعمةً علىَّ له فى مثلها يجبُ الشُّكْرُ
فكيف بلوغُ الشُّكْرِ إلا بفضلِهِ وإن طالت الأيامُ واتصلَ العُمُرُ

فالنعمة تحتاج إلى شكر، ثم إذا شكرتها؛ فهي نعمة أخرى تحتاج إلى شكر ثانٍ، وإن شكرت فى الثانية؛ فهي نعمة تحتاج إلى شكر ثالث، وهكذا أبداً، قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾.

قوله: ﴿أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾

﴿أَنْ﴾ وما دخلت عليه فى تأويل مصدر مفعول تجعلون الثانى؛ أى: تُصَيِّرُونَ شكركم تكذيباً، ولا شك أن هذا من السفه أن يقابل الإنسان نعمة ربه بالتكذيب، إن كانت حياً كذب خبره ولم يمثل أمره ولم يجتنب نهيه، وإن كانت عطاءً تنمو به الأجسام نسبه إلى غير الله، قال: هذا من النوء أو هذا من عملى؛ كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾.



فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْوَاقِعَةِ.
- الثانية: ذِكْرُ الْأَرْبَعِ الَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ.
- الثالثة: ذِكْرُ الْكُفْرِ فِي بَعْضِهَا.
- الرابعة: أَنَّ مِنَ الْكُفْرِ مَا لَا يُخْرِجُ عَنِ الْمِلَّةِ.
- الخامسة: قوله: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ»، بِسَبَبِ نَزُولِ النِّعْمَةِ.

قوله: وفيه مسائل

- الأولى: تفسير آية الواقعة.
- قال ابن عثيمين (١)
- وهي قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾، وقد مر تفسيرها.
- الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية.
- وهي الطعن في الأنساب، والفخر بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء، والنياحة على الميت.
- الثالثة: ذكر الكفر في بعضها.
- وهي الاستسقاء بالأنواء، وكذلك الطعن في النسب، والنياحة على الميت؛ كما في حديث: «اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت».
- الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة.
- وهي أن الاستسقاء بالأنواء بعضه كفر مخرج عن الملة وبعضه كفر دون ذلك، وقد سبق بيان ذلك.
- قلت: وكذلك الطعن في النسب
- الخامسة: قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» بسبب نزول النعمة.

(١) القول المفيد ١٧٠/٢

السادسة: التَّفْطَنُ لِلإِيمَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

السابعة: التَّفْطَنُ لِلْكَفْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

الثامنة: التَّفْطَنُ لِقَوْلِهِ: «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءٌ كَذًّا وَكَذَا».

أى: إن الناس ينقسمون عند نزول النعمة إلى مؤمن بالله وكافر به، وقد سبق بيان حكم إضافة نزول المطر إلى النوء، والواجب على الإنسان إذا جاءته النعمة أن لا يضيفها إلى أسبابها مجردة عن الله، بل يعتقد أن هذا سبب محض إن كان هذا سبباً، مثال ذلك: رجل غرق فى ماء، وكان عنده رجل قوى، فتزل وأنقذه؛ فإنه يجب على هذا الذى نجى أن يعرف نعمة الله عليه، ولولا أن الله أمر أمراً قديراً وأمرأً شرعياً أن يتقذك هذا الرجل ما حصل إنقاذ، فأنت تعتقد أن هذا سبب محض.

أما إن غرق ويسر الله له، فخرج، فقال: إن الولي الفلانى أنقذنى؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه سبب غير صحيح، ثم إن إضافته إليه لا يظهر منها أنه يريد أنه سبب، بل يريد أنه متقذ بنفسه؛ لأن اعتقاد أنه سبب وهو فى قبره غير وارد، ولذلك كان أصحاب الأولياء إذا نزلت بهم شدة يسألون الأولياء دون الله تعالى؛ فيقعون فى الشرك الأكبر من حيث لا يعلمون أو من حيث يعلمون، ثم قد يفتنون؛ فيحصل لهم ما يريدون عند دعاء الأولياء لا به؛ لأننا نعلم أن هؤلاء الأولياء لا يستجيبون لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^(٢).

● السادسة: التَّفْطَنُ لِلإِيمَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

وهو نسبة المطر إلى فضل الله ورحمته.

● السابعة: التَّفْطَنُ لِلْكَفْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

وهو نسبة المطر إلى النوء؛ فيقال: هذا بسبب النوء الفلانى، وما أشبه ذلك.

● الثامنة: التَّفْطَنُ لِقَوْلِهِ: «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءٌ كَذًّا وَكَذَا».

(١) الأعراف: ١٩٨

(٢) الأحقاف: ٥

التاسعة: إخراجُ العالمِ للمُتعلِّمِ المسألةَ بالاستفهامِ عنها لِقَوْلِهِ: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟».

العاشرة: وَعِيدُ النَّائِحَةِ.

وهذا قريب من قوله: «مطرنا بنوء كذا» لأن الثناء بالصدق على النوء مقتضاه أن هذا المطر بوعده، ثم بتنفيذ وعده.

● التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها؛ لقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم؟».

وذلك أن يلقي العالم على المتعلم السؤال لأجل أن يتبّه له، وإلا؛ فالرسول : يعلم أن الصحابة لا يعلمون ماذا قال الله، لكن أراد أن ينبههم لهذا الأمر؛ فقال: «أتدرون ماذا قال ربكم؟»، وهذا يوجب استحضر قلوبهم.

قلت: وفي كلام الشيخ ابن عثيمين رد آخر على الفائدة التي أوردها ابن حجر من هذا الحديث وهي أن الولي قد يعرف بالإشارات عبارات ينسبها الله تعالى وحمل الاستفهام فيها على حقيقته وفهم الصحابة خلاف أي أن الاستفهام ليس على حقيقته لأنهم يعلمون أن الرسول يعلم أن الصحابة لا يعلمون ماذا قال الله وهو ماذهب إليه الشيخ هاهنا . والله أعلم.

● العاشرة: وعيد النائحة.

وذلك بقوله: «إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب، وهذا وعيد عظيم.



قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (١).

تمهيد: [قلت]: تقدم في الباب الخامس (تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله) مسائل الولاء (المحبة لله ورسوله) والبراء (بغض أعداء الله) بتفصيل فهذا الباب - الثلاثين - له علاقة بالباب الخامس أيضاً، ليس هذا فحسب بل وله علاقة بباب (التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده) حيث ذكر فيه حديث جندب بن عبد الله وفيه «ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليل» حيث ذكرنا هناك الفرق بين الخلّة والمحبة والمسائل المتفرعة عليهما، فالجمع بين هذين البابين مع هذا الباب يجمع لك الفوائد كلها.

● مناسبة هذا الباب لما قبله

قال الفقير: لما كان من أعظم أسباب حركة القلب وتعلقه بمحبوبه - سبحانه وتعالى - كثيرة ذكره ومطالعة آلائه ونعمائه كان الاستسقاء بالأنواء دليلاً على فراغ القلب من هذه المحبة ومن أسبابها التي منها مطالعة آلاء الله ونعمائه على العبد بل في هذا الاستسقاء صرف لهذه المحبة وأسبابها لغير الله لهذا ولغيره ناسب أن يذكر المصنف باب المحبة بعد باب الاستسقاء بالأنواء والله أعلم.

● ماذا أراد المصنف بهذا الباب.

قال الشيخ حامد بن محمد بن حسن: (٢) باب ماجاء في بيان المحبة وأنواعها المأمور بها والمنهى عنه. اهـ.

قال ابن عثيمين (٣): جعل المؤلف رحمه الله تعالى الآية هي الترجمة، ويمكن أن يُعنى بهذه الترجمة باب المحبة.

قال الرازي (٤): اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قرر التوحيد بالدلائل القاهرة القاطعة أردف ذلك بتقبيح ما يضاد التوحيد لأن تقبيح ضد الشيء مما يؤكد حسن الشيء ولذلك قال الشاعر: [وبضدها تتبين الأشياء].

وقالوا أيضاً: النعمة مجهولة، فإذا فقدت عرفت، والناس لا يعرفون قدر الصحة، فإذا مرضوا ثم عادت الصحة إليهم عرفوا قدرها، وكذا القول في جميع النعم. أهـ

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٣٤٨.

(٤) تفسير الرازي (٢/٤/٢٢٦).

(١) البقرة: ١٦٥

(٣) القول المفيد ١٧٣/٢.

● مناسبة الباب للتوحيد

قال سليمان آل الشيخ^(١): لما كانت محبة الله سبحانه، هي أصل دين الإسلام، الذى يدور عليه قطب رحاها، فبكمالها يكمل الإيمان، وينقصانها ينقص توحيد الإنسان، تبه المصنف رحمه الله، على وجوبها على الأعيان.

ولهذا جاء فى الحديث «أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ»^(٢) الحديث رواه الترمذى والحاكم.

وفى حديث آخر: «أَحِبُّوا اللَّهَ بِكُلِّ قَلْبِكُمْ»^(٣).

وفى حديث معاذ بن جبل، فى حديث المنام «وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَحُبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يَقْرِنُ بِكَ»^(٤) رواه أحمد والترمذى وصححه.

● إخلاص المحبة أصل التوحيد:

قال ابن تيمية^(*): اسم العبادة يتناول غاية الحب بغاية الذل وهكذا الدين الذى يدين به الناس فى الباطن والظاهر لابد فيه من الحب والخضوع، بخلاف طاعتهم للملوك ونحوهم، فإنها قد تكون خضوعاً ظاهراً فقط. اهـ وقال: أصل الإشراك العملى بالله الإشراك فى المحبة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الآية. اهـ.

قال ناصر السعدى^(٤): أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده وهى أصل التأله والتعبد له، بل هى حقيقة العبادة، ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه، وتسبق محبته جميع المحاب وتغلبها ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعا لهذه المحبة التى بها.

ومن تفريعها وتكمليلها الحب فى الله، فيحب العبد ما ينحبه الله من الأعمال والأشخاص، ويبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأعمال ويوالى أوليائه ويعادى أعداءه، وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.

أما اتخاذ أنداد من الخلق يحبهم كحب الله ويقدم طاعتهم على طاعة الله ويلهج

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٦، ٣٤٧.

(٢) أخرجه الترمذى (٣٧٨٩). والحاكم فى «المستدرک» (٣/ ١٥٠) وصححه وقال الترمذى: حسن غريب

(٣) ذكره فى «الدر» (٣/ ٦٧) ونسبه للبيهقى فى «الدلائل».

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٤٣)، والترمذى (٣٢٣٥) عن معاذ بن جبل به.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٤) القول السديد ٨٧، ٨٨.

(*) جامع الرسائل (٢/ ٢٢٠، ٢٢٥).

بذكرهم ودعائهم فهذا هو الشرك الأكبر، الذى لا يغفره الله وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد، وتعلق بغيره من لا يملك له شيئاً، وهذا السبب الواهى الذى تعلق به المشركون سينقطع يوم القيامة أحوج ما يكون العبد لعمله، وستقلب هذه المودة والموالة بغضا وعداوة. أهـ

قال ابن باز^(١): هذا الباب فى إثبات محبة الله وأنها من أهم العبادات وأفضل القربات وأساس الدين لأن حبه يقتضى الإخلاص له والامتثال لأمره: وترك نهيه والإنقياد له. أهـ

قال الشيخ ابن عثيمين^(٢): وأصل الأعمال كلها هو المحبة؛ فالإنسان لا يعمل إلا لما يحب؛ إما لجلب منفعة، أو لدفع مضرة، فإذا عمل شيئاً؛ فلأنه يحبه إما لذاته كالطعام، أو لغيره كالدواء. أهـ

قطر منزلة المحبة

قال ابن القيم^(٣): هى المنزلة التى يتنافس فيها المتنافسون، وإلى عملها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، فهى قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقررة العيون، وهى الحياة التى من حرمها، فهو من جملة الأموات، والنور الذى من فقده، ففى بحار الظلمات، والشفاء الذى من عدمه؛ حلت بقلبه جميع الأسقام واللذة التى من لم يظفر بها، فعيشه كله هموم وآلام، وهى روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال، التى متى خيلت منها؛ فهى كالجسد الذى لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها، وتوصلهم إلى منازل، لم يكونوا أبداً بدونها وأصليها، وتبوتهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولا هى داخلها.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، وقد قضى الله تعالى يوم قدر مقادير الخلائق، بمشيئته وحكمته البالغة، أن المرء مع من أحب، فيالها من نعمة على المحبين سابغة. تالله لقد سبق القوم السعادة، وهم على ظهور الفرش نائمون، ولقد تقدموا الركب بمراحل وهم فى مسيرهم واقفون، وأجابوا مؤذن الشوق، إذ نادى بهم: حى على الفلاح، وبذلوا نفوسهم فى طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بذلهم بالرضى والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح، تالله لقد حمدوا عند الوصول مسراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح. أهـ وأطال فى وصفها فراجعه فى «المدارج». أهـ

(١) التعليق المفيد ١٧٣

(٢) القول المفيد ١٧٤/٢

(٣) مدارج السالكين (٦/٣)، وانظر تيسير العزيز الحميد ٣٤٧.

قال ابن تيمية^(١): «اعلم أن محركات القلوب إلى الله - عز وجل - ثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة، وهى مقصودة لذاتها؛ لأنها تتراد فى الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف؛ فإنه يزول فى الآخرة.. والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق؛ فالمحبة تلقى العبد فى السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن الطريق، والرجاء يقوده؛ فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له؛ فإنها لاتصح له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره.

فإن قيل: فالعبد فى بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعته على طلب محبوبه؛ فأى شىء يحرك القلوب؟
قلنا: شيان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبيب؛ لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به.
والثانى: مطالعة آلائه ونعمائه... فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض، وما فيهما من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره فلا بد أن يثير عنده باعثاً.

وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد، والزجر، والعرض، والحساب، ونحوه.
وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم، والحلم، والعفو. أهـ
قال ابن عثيمين^(٢): وعادة الله مبنية على المحبة، بل هى حقيقة العبادة؛ إذ لو تعبدت بدون محبة صارت عبادتك قسراً لا روح فيها، فإذا كان الإنسان فى قلبه محبة لله وللوصول إلى جنته؛ فسوف يسلك الطريق الموصل إلى ذلك.
ولهذا لما أحب المشركون آلهتهم توصلت بهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله أومع الله. أهـ

● أقسام المحبة وحكم كل قسم.

قال ابن تيمية^(*): ومحبة الله ورسوله على درجتين: واجبة، وهى درجة المقتصدين ومستحبة وهى درجة السابقين.

[فالأولى]: تقتضى أن يكون الله ورسوله أحب إليه عما سواه، بحيث لا يحب شيئاً ييغضه كما قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وذلك يقتضى محبة جميع ما أوجبه الله تعالى ويغض ما حرمه الله تعالى، وذلك واجب.

(١) مجموع الفتاوى (١/٩٥). (٢) القول المفيد ٢/١٧٤. (*) جامع الرسائل (٢/٢٢٧، ٢٧٨).

[الثانية]: أما محبة السابقين بأن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة، وهذه حال المقرين الذين قريبهم الله إليه . اهـ .

قال الشيخ سليمان^(١): واعلم أن المحبة قسمان، مشتركة وخاصة: فالمشتركة ثلاثة أنواع:

[أحدها]: محبة طبيعية، كمحب الجائع للطعام، والظمان للماء ونحو ذلك . وهذه لا تستلزم التعظيم .

الثاني: محبة رحمة وإشفاق، كمحبة الوالد لولده الطفل، وهذه أيضاً لا تستلزم التعظيم .

الثالث: محبة أنس وألف، وهى محبة المشتركين فى صناعة، أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر، لبعضهم بعضاً، وكمحبة الإخوة، بعضهم بعضاً . فهذه الأنواع الثلاثة، التى تصلح للخلق، بعضهم من بعض، ووجودها فيهم، لا يكون شركاً فى محبة الله . ولهذا كان رسول الله ﷺ، يحب الحلواء والعسل، وكان يحب نساءه، وعائشة أحبهن إليه وكان يحب أصحابه وأحبههم إليه الصديق رضى الله عنه .

القسم الثانى: المحبة الخاصة التى لا تصلح إلا لله ومتى أحب العبد بها غيره كان شركاً لا يغفره الله .

وهى محبة العبودية، المستلزمة للذل، والخضوع والتعظيم، وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره، فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلاً كما حققه ابن القيم؛ وهى التى سوى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيها . كما قال تعالى فى الآية التى ترجم لها المصنف: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ . اهـ .

قال حامد بن حسن^(٢): اعلم أن أنواع المحبة التى تنسب إلى الله : محبة الله ومحبة فى الله ومحبة مع الله .

[فالمحبة التى لله]: محبته ومحبة ما يجه من النيات والأقوال والأفعال .

[والمحبة التى فى الله]: محبة من يحبه الله كالأنبياء والمرسلين وعبادة الصالحين .

[وأما المحبة التى مع الله]: فهى المحبة الشركية التى ذكرها فى كتابه المنهيه عنها وذلك قول الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ أُمِنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ . اهـ .

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٨ .

(٢) فتح الله الحميد المجيد . (٣٤٨) .

قال ناصر السعدى^(١): بهذه الأنواع الثلاثة للمحبة لله وفى الله ومع الله .

حيث قال: واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله التى هى أصل الإيمان والتوحيد.

الثانى: المحبة فى الله وهى محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم، ومحبة ما يحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرهم، وهذه تابعه لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله وهى محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر، وحجر، وبشر، وملك، وغيرها وهى أصل الشرك وأساسه.

ثم قال: وهنا قسم رابع: وهو المحبة الطبيعية التى تتبع ما يلائم العبد ويوافقه من طعام وشراب ونكاح ولباس وعشرة وغيرها، وهذه إذا كانت مباحة إن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت فى باب العبادات، وأن صدت عن ذلك وتوسل بها إلى ما لا يحبه الله دخلت فى المنهيات. وإلا بقيت من أقسام المباحات والله أعلم.

ولقد جمع ابن عثيمين بين أقوال أهل العلم فى أقسام المحبة شارحاً ومفصلاً كلام سليمان آل الشيخ وغيه فقال^(٢):

والمحبة تنقسم إلى قسمين

القسم الأول: محبة عبادة، وهى التى توجب التذلل والتعظيم، وأن يقوم بقلب الإنسان من إجلال المحبوب وتعظيمه ما يقتضى أن يمتثل أمره ويجتنب نهيه، وهذه خاصة بالله، فمن أحب مع الله غيره محبة عبادة؛ فهو مشرك شركاً أكبر، ويعبر العلماء عنها بالمحبة الخاصة.

القسم الثانى: محبة ليست بعبادة فى ذاتها، وهذه أنواع:

النوع الأول: المحبة لله وفى الله، وذلك بأن يكون الجالب لها محبة الله؛ أى: كون الشيء محبوباً لله تعالى من أشخاص؛ كالأنبياء، والرسل والصديقين، والشهداء، والصالحين.

أو أعمال؛ كالصلاة، والزكاة، وأعمال الخير، أو غير ذلك.

وهذا النوع تابع للقسم الأول الذى هو محبة الله.

النوع الثانى: محبة إشفاق ورحمة، وذلك كمحبة الولد، والصغار، والضعفاء.

النوع الثالث: محبة إجلال وتعظيم لاعبادته؛ كمحبة الإنسان لوالده، ولعلمه، ولكبير من أهل الخير.

النوع الرابع: محبة طبيعية؛ كمحبة الطعام، والشراب، والملبس، والمركب، والمسكن. وأشرف هذه الأنواع النوع الأول، والبقية من قسم المباح؛ إلا إذا اقترن بها ما يقتضى التعبد صارت عبادة؛ فالإنسان يحب والده محبة إجلال وتعظيم، وإذا اقترن بها أن يتعبد لله بهذا الحب من أجل أن يقوم بير والده صارت عبادة، وكذلك يحب ولده محبة شفقة، وإذا اقترن بها ما يقتضى أن يقوم بأمر الله بإصلاح هذا الولد صارت عبادة. أهـ.

● أقسام الناس من حيث المحبة والإرادة:

قال شيخ الإسلام(*) : أصل كل فعل وحركة فى العالم من الحب والإرادة، فهو أصل كل فعل ومبدؤه. وقال: وهنا انقسم الناس أربعة أقسام:

[القسم الأول]: قوم لهم قدرة، ولهم إرادة ومحبة غير مأمور بها، فهم يجاهدون ويستعملون جهدهم وطاقتهم لكن لا فى سبيل الله، بل فى سبيل آخر، إما محرمة، كالفواحش، ما ظهر منها وبطن، والإثم والسبغى بغير الحق والإشراك بالله ما لم ينزل به سلطاناً، والقول على بغير علم الحق.

وإما فى سبيل لا ينفع عند الله مما جنسه مباح، لاثواب فيه، لكن الغالب أن مثل هذا كثيراً ما يقتون به من الشبه، ما يجعله فى سبيل الله أو فى سبيل الشيطان.

[القسم الثانى]: قوم لهم إرادة صالحة، ومحبة كاملة لله، ولهم قدرة كاملة، فهؤلاء هم سادة المحبين المحبوبين المجاهدين فى سبيل الله، لا يخافون لومة لائم، كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة.

[القسم الثالث]: قوم فيهم إرادة صالحة ومحبة لله قوية تامة، لكن قدرتهم ناقصة، فهم يأتون بمحبوبات الحق من مقدورهم ولا يتركون مما يقوون عليه، لكن قدرتهم قاصرة، ومحببتهم كاملة، فهو مع القسم الذى قبله وما زال فى المؤمنين على عهد النبى ﷺ وبعده من هؤلاء خلق كثير، وفى مثل هؤلاء قال النبى ﷺ «إن بالمدينة لرجالاً ماسرتم مسيراً ولا سلكتم وادياً إلا كانوا معكم». قالوا: وهم بالمدينة؟! قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر» وقال له سعد بن أبى وقاص: يا رسول الله: الرجل يكون فى حامية القوم يسهم له مثلما يسهم لأضعفهم؟ فقال: «ياسعد وهل تنصرون إلا بضعفائكم؟ بدعائهم وصلواتهم واستغفارهم» - كلاهما فى «الصحيح» -.

(*) «جامع الرسائل» رسالة (قاعدة فى المحبة) (٢/ ١٩٣، ٢٨١، ٢٨٤).

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

[القسم الرابع] من قدرته قاصرة، وإرادته للحق قاصرة، وفيه من إرادة الباطل ما الله به عليم، فهؤلاء ضعفاء المجرمين، ولكن قد يكون لهم من التأثير بقلوبهم نصيب وحظ مع أهل باطلهم، كما يوجد في العلماء والعباد والزاهدين من المشركين وأهل الكتاب ومتافقي هذه الأمة مافيه مضاهاة لعلماء المؤمنين وعبادهم، وذلك أن الشيطان جعل لكل شيء من الخلق نظيراً في الباطل، فإن أصل الشر هو الإشراف بالله، كما أن أصل الخير هو الإخلاص لله. اهـ.



قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾ الآية

● مناسبة الآية للباب والتوحيد.

قال ابن عثيمين^(١): منع الإنسان أن يحب أحداً كمحبة الله؛ لأن هذا من الشرك الأكبر المخرج عن الملة، وهذا يوجد في بعض العباد وبعض الخدم؛ فبعض العباد يعظمون ويحبون بعض القبور أو الأولياء كمحبة الله أو أشد، وكذلك بعض الخدم تجدهم يحبون هؤلاء الرؤساء أكثر مما يحبون الله ويعظمونهم أكثر مما يعظمون الله، قال تعالى ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ اهـ.

قال القرعاوي^(٢): حيث دلت الآية على أن من أحب شيئاً كحب الله فقد إتخذته نداً مع الله وذلك هو الشرك. اهـ.

● الإعراب^(٣):

قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان أن بعض الناس لم يعتقد الوجدانية بعد أن ثبت بالدليل القاطع، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم^(٣).
وقوله ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾

﴿مَن﴾ اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر أو نكرة موصوفة في محل رفع مبتدأ

(٢) الجديد ٢٧٨.

(١) القول المفيد ١٧٩/٢ وقال نحوه عبد الله بن جابر الله.

(٣) إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين درويش (١/ ٢٣٠)

مؤخر (يتخذ) الجملة الفعلية لامحل لها لأنها صلة الموصول أوصفة له «من» وفاعل يتخذ ضمير مستتر تقديره هو يعود على لفظ من.

قوله ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

جار ومجرور متعلقان بـيَتَّخِذُ (أنداداً) مفعول به (١).

● ماجاء فى تفسير الآية من أحاديث وآثار:

فى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال : قلت يارسول الله أى الذنب أعظم؟ قال «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» (٢).

روى ابن جرير بسنده عند قتادة:

قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (٣) من الكفار لأوثانهم وبنحوه عن عكرمة (٤).

وبسنده عن مجاهد:

فى قوله تعالى ذكره (يحبونهم كحب الله) مباهة ومضاهاة للحق بالأنداد والذين آمنوا أشد حبا لله من الكفار لأوثانهم (٥).

وبسنده عن الربيع قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ مِنَ الْكُفَّارِ لَأَوْثَانِهِمْ﴾ (٦).

وبسنده عن ابن وهب قال: قال ابن زيد فى قوله ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله قال هؤلاء المشركون أندادهم ألهمهم التى عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله والذين آمنوا أشد حبا لله تعالى ذكره (٧).

(١) إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين درويش (١/ ٢٣٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢/ ٤٠) وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٣٠٤) ونسبه لعبد بن

حميد

(٤) ذكره السيوطى فى الموضوع السابق ونسبه لعبد بن حميد.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضوع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٣٠٣) وزاد نسبه لعبد بن

حميد وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٢٨) بتخريجنا.

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضوع السابق.

(٧) أخرجه ابن جرير فى الموضوع السابق. وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٢٩) بتخريجنا.

وبسنده عن السدي: ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله قال: الأنداد من الرجال يطيعونهم ما يطيعون الله إذا أمرهم أطاعوهم وعصوا الله (١).

● ماجاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى (٢). فإن قال قائل وكيف قيل كحب الله وهل يحب الله الأنداد وهل كان متخذ الأنداد يحبون الله فيقال يحبونهم كحب الله قيل أن معنى ذلك بخلاف ماذهبت إليه وإنما نظير ذلك قول القائل بعث غلامى كبيع غلامك بمعنى بعته كما بيع غلامك وكبيعتك غلامك و استوفيت حقى منه حقك بمعنى استفائك حقك فتحذف من الثانى كناية اسم المخاطب اكتفاء بكنايته فى الغلام والحق كما قال الشاعر.

فلست مسلماً مادمت حياً * على زيد بتسليم الأمير

يعنى بذلك كما يسلم على الأمير فمعنى الكلام إذا ومن الناس من يتخذ أيها المؤمنون من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله . أهـ

قال الرازى (٣): اختلفوا فى المراد بالأنداد على أقوال:

(أحدها) أنها هى الأوثان التى اتخذوها آلهة لتقريبهم إلى الله زلفى، ورجوا من عندها النفع والضرر، وقصدوها بالمسائل، ونذروا لها النذور، وقربوا لها القرابين، وهو قول أكثر المفسرين، وعلى هذا الأصنام أنداد بعضها لبعض، أى أمثال ليس إنها أنداداً لله، أو المعنى: إنها أنداد لله تعالى بحسب ظنونهم الفاسدة .

(وثانيها) إنهم السادة الذين كانوا يطيعونهم فيحلون لمكان طاعتهم ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، عن السدى، والقائلون بهذا القول رجحوا هذا القول على الأول من وجوه:

(الأول) أن قوله (يحبونهم كحب الله) الهاء والميم فيه ضمير العقلاء .

(الثانى) أنه يبعد أنهم كانوا يحبون الأصنام كمحبتهم الله تعالى مع علمهم بأنها لاتضر ولاتنفع .

(الثالث) أن الله تعالى ذكره بعد هذه الآية (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين) وذلك

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق

(٢) ٤٠ / ٢ .

(٣) التفسير الكبير ٢ / ٤ / ٢٢٦ / ٢٢٧

لا يلقى إلا بمن اتخذ الرجال أنداداً وأمثالا لله تعالى، يلتزمون من تعظيمهم والإنقياد لهم، ما يلتزمه المؤمنون من الإنقياد لله تعالى.

(القول الثالث) فى تفسير الأنداد قول الصوفية والعارفين، وهو أن كل شىء شغلت قلبك به سوى الله تعالى، فقد جعلته فى قلبك ندأ لله تعالى وهو المراد من قوله (أفرايت من اتخذ إلهه هواه) أهـ

قال ابن كثير^(١): يذكر تعالى حال المشركين به فى الدنيا ومآلهم فى الدار الآخرة حيث جعلوا له أنداداً أى أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه هو الله لا إله إلا هو ولا ضد له ولا ند له ولا شريك معه.

فائدة (٢):

(دون) ظرف للمكان وهونقيض فوق، نحو هو دونه أى أحط منه رتبة أو منزلة، ويأتى بمعنى أمام نحو: الشىء دونك أى أمامك، وبمعنى وراء نحو: قعد دون الصف، أى وراءه، وقد يأتى بمعنى ردىء وخسيس فلا يكون ظرفاً، نحو: هذا شىء دون، وهو حينئذ يتصرف فى وجوه الإعراب. ويأتى بمعنى غير كما فى الآية، وأكثر ما يستعمل حينئذ مجروراً بمن. أهـ

قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

● الإعراب:

(يحبونهم) فعل مضارع مرفوع وفاعل ومفعول به والجملة الفعلية صفة لأنداداً أو حال من الضمير المستكن فى يتخذ (كحب الله) الكاف ومجرورها فى موضع نصب صفة لمصدر محذوف فهو مفعول مطلق ويجوز الإعراب حالاً وقد روجه سيبويه والمصدر مضاف إلى مفعوله^(٣).

● أقوال المفسرين فى الآية:

قال ابن الجوزى^(٤):

وفى قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قولان.

أحدهما: أن معناه: يحبونهم كحب الذين آمنوا لله، هذا قول ابن عباس، وعكرمة، وأبى العالية، وابن زيد، ومقاتل، والفراء.

(٢) إعراب القرآن ١/ ٢٣١.

(٤) زاد المسير ١٤٧/

(١) تيسير القرآن العظيم ١/ ١٩٢

(٣) إعراب القرآن ١/ ٢٣١.

والثانى: يحبونهم كمحبتهم لله، أى : يسرون بين الأوثان وبين الله تعالى فى المحبة .
هذا اختيار الزجاج .

قال : والقول الأول ليس بشئ والدليل على نقضه قوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ .

قال المفسرون : أشد حبا لله من أهل الأوثان لأوثانهم . أهـ

قال الرازى^(١) : أما قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) فاعلم أنه ليس المراد محبة ذاتهم فلا بد من محذوف، والمراد يحبون عادتهم أو التقرب إليهم والإنقياد لهم، أوجميع ذلك، وقوله، (كحب الله) فيه ثلاثة أقوال :

قيل : فيه كحبهم لله، وقيل فيه : كالحب اللازم عليهم لله، وقيل فيه : كحب المؤمنين لله .

وإنما اختلفوا هذا الإختلاف من حيث إنهم اختلفوا فى أنهم هل كانوا يعرفون الله أم لا ؟

فمن قال : كانوا يعرفون مع اتخاذهم الأنداد تأول على أن المراد كحبهم لله .

ومن قال إنهم ماكانوا عارفين بربهم حمل الآية على أحد الوجهين الباقيين إما كالحب اللازم لهم أو كحب المؤمنين لله والقول الأول أقرب لأن قوله (يحبونهم كحب الله) راجع إلى الناس الذين تقدم ذكرهم، وظاهر قوله (كحب الله) يقتضى حبا لله ثابتا فيهم، فكأنه تعالى بين فى الآية السالفة أن الإله واحد، ونبه على دلائله، ثم حكى قوله من يشرك معه، وذلك يقتضى كونهم مقرين بالله تعالى .

● إشكاله وجوابه

فإن قيل : العاقل يستحيل أن يكون حبه للأوثان كحبه لله، وذلك لأنه بضرورة العقل يعلم أن هذه الأوثان أحجار لاتنصر، ولاتسمع، ولاتبصر، ولاتعقل، وكانوا مقرين بأن لهذا العالم صانعا مدبرا حكيما ولهذا قال تعالى ﴿وَلْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ومع هذا الاعتقاد كيف يعقل أن يكون حبه لتلك الأوثان كحبهم لله تعالى، وأيضا فإن الله تعالى حكى عنهم أنهم قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

(١) التفسير الكبير ٢/٤/٢٢٧، ٢٢٨ .

زَلْفَى» وإذا كان كذلك، كان المقصود الأصلي طلب مرضات الله تعالى، فكيف يعقل الاستواء مع هذا القول؟

قلنا قوله «يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ» أى فى الطاعة لها. والتعظيم لها، فالإستواء على هذا القول فى المحبة لا ينافى ما ذكرتموه. أهـ

قال عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ^(١): وهذه التسوية المذكورة فى قوله تعالى : حكاية عنهم وهم فى النار أنهم يقولون لألتهم وأندادهم وهى محضرة معهم فى العذاب «تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين» ومعلوم أنهم ما سווهم برب العالمين فى الخلق والربوبية وإنما سووهم به فى المحبة والتعظيم وهذا أيضاً هو العدل المذكور فى قوله تعالى «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» به غيره فى العبادة التى هى المحبة والتعظيم.

قال الشوكاني^(٢): أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة الأنداد ، بل أحبوها حباً عظيماً، وأفرطوا فى ذلك إفراطاً بالغاً، حتى صار حبهم لهذه الأوثان ونحوها متمكناً فى صدورهم، كتمكن حب المؤمنين لله سبحانه . فالمصدر فى قوله: «كحب الله» مضاف إلى المفعول، والفاعل محذوف وهو: المؤمنون.

ويجوز أن يكون المراد: كحبهم لله، أى عبدة الأوثان، قاله ابن كيسان والزجاج.

ويجوز أن يكون هذا المصدر من المبنى للمجهول، أى كما يحب الله.

والأول أولى، كقوله «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ»، فإنه استدراك لما يفيد التشبيه من التساوى، أى أن حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار للأنداد؛ لأن المؤمنين يخلصون الله سبحانه بالعبادة والدعاء، والكفار لا يخلصون أصنامهم بذلك، بل يشركون الله معهم، ويعترفون بأنهم إنما يعبدون أصنامهم ليقربوهم إلى الله. ويمكن أن يجعل هذا، أعنى قوله «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» دليلاً على الثانى؛ لأن المؤمنين إذا كانوا أشد حبا لله لم يكن حب الكفار للأنداد كحب المؤمنين لله؛

وقيل: المراد بالأنداد هنا: الرؤساء، أى يطيعونهم فى معاصى الله، ويقوى هذا الضمير فى قلوبهم: «يحبونهم» فإنه لمن يعقل، ويقويه أيضاً قوله سبحانه عقب ذلك: «إِذْ تَرَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا» الآية.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾

● الإعراب:

(والذين) الواو استئنافية أو حالية واسم الموصول مبتدأ (آمنوا) فعل وفاعله . والجمله صلة الموصول (أشد) خبر الموصول (حبا) تمييز (الله) الجار والمجرور متعلقان بحبا^(١) .

● أقوال المفسرين فى الآية:

قال البغوى^(٢):

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أى أثبت وأدوم على حبه من المشركين لأنهم لا يختارون على الله ماسواه . والمشركون إذا اتخذوا صنماً ثم رأوا أحسن منه طرحوا الأول واختار الثانى .

قال قتادة: إن الكافر يعرض عن معبوده فى وقت البلاء ويقبل على الله تعالى كما أخبر الله عزوجل عنهم فقال ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ والمؤمن لا يعرض عن الله فى السراء والضراء والشدة والرخاء .

قال سعيد بن جبیر: إن الله عزوجل يأمر يوم القيامة من أحرق نفسه فى الدنيا على رؤية الأصنام أن يدخلوا جهنم مع أصنامهم فلا يدخلون، لعلمهم أن عذاب جهنم على الدوام . ثم يقول للمؤمنين وهم بين أيدي الكفار إن كتبت أحبائى فادخلوا جهنم فيقتحمون فيها فينادى مناد من تحت العرش ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾

وقيل إنما قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ لأن الله تعالى أحبهم أولا ثم أحبه ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم قال تعالى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ .

قال الرازى^(٣): فى بيان أن الذين آمنوا هم أشد حبا لله، أما المتكلمون فقالوا: إن حبهم لله يكون من وجهين .

(أحدهما) أنه ما يصدر منهم من التعظيم، والمدح، والثناء والعبادة خالصة عن الشرك وعمّا لا ينبغى من الاعتقاد ومحبة غيرهم ليست كذلك .

(والثانى) - أى والإشكال الثانى - أن حبهم لله اقترن به الرجاء والثواب والرغبة فى عظيم منزلته والخوف من العقاب والأخذ فى طريق التخلص منه، ومن يعبد الله ويعظمه

(١) إعراب القرآن ١/ ٢٣١ .

(٢) معالم التنزيل ١/ ١٩٢ .

(٣) التفسير الكبير ١/ ٤/ ٢٣٠، ٢٣١ .

على هذا الحد تكون محبته أشد، وأما العارفون فقالوا المؤمنون هم الذين عرفوا الله بقدر الطاقة البشرية، وقد دللنا على أن الحب من لوازم العرفان فكلما كان عرفانهم أتم وجب أن تكون محبتهم أشد

فإن قيل: كيف يمكن أن يقال محبة المؤمنين لله تعالى أشد مع أنا نرى الهنود يأتون بطاعات شاقة لا يأتى بشيء منها أحد من المسلمين ولا يأتون بها إلا لله تعالى ثم يقتلون أنفسهم حباً لله .

(والجواب) من وجوه

(أحدها) أن الذين آمنوا لا يتضرعون إلا إلى الله بخلاف المشركين فإنهم يعدلون إلى الله عند الحاجة، وعند زوال الحاجة يرجعون إلى الأنداد، قال تعالى ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ إلى آخره والمؤمن لا يعرض عن الله فى الضراء والسرء والشدة والرخاء، والكافر قد يعرض عن ربه، فكان حب المؤمن أقوى

(وثانيها) أن من أحب غيره رضى بقضائه، فلا يتصرف فى ملكه، فأولئك الجهال قتلوا أنفسهم بغير إذنه، أما المؤمنون فقد يقتلون أنفسهم بإذنه، وذلك فى الجهاد .

(وثالثها) أن الإنسان إذا ابتلى بالعذاب الشديد لا يمكنه الاشتغال بمعرفة الرب، فالذى فعلوه باطل .

(ورابعها) قال ابن عباس: إن المشركين كانوا يعبدون صنماً، فإذا رأوا شيئاً أحسن منه تركوا ذلك وأقبلوا على عبادة الأحسن .

(وخامسها) أن المؤمنين يوحدون ربهم، والكفار يعبدون مع الصنم أصناماً فتتنقص محبة الواحد، أما الإله الواحد فتتضم محبة الجميع إليه .

قال ابن كثير (١):

قوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئاً بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجأون فى جميع أمورهم إليه . ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال . الآية . أهـ .

قال ناصر السعدى (١): فإنه تعالى، لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين، المزيلة لكل شك .

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٩٢ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/ ١١٠، ١١١ .

ذكر هنا أن ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ مع هذا البيان التام ﴿مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ لله
أى : نظراء ومثلاء، يساويهم فى الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة.

ومن كان بهذه الحالة - بعد إقامة الحجة، وبيان التوحيد - علم أنه معاند لله، مشاق
له. أو معرض عن تدبير آياته والتفكير فى مخلوقاته، فليس له أدنى عذر فى ذلك، بل
قد حقت عليه كلمة العذاب.

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله، لايسوونهم بالله فى الخلق والرزق والتدبير،
وإنما يسوونهم به فى العبادة، فيعبدونهم ليقربوهم إليه.

وفى قوله «اتخذوا» دليل على أنه ليس لله ند .

وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له، تسمية مجردة، ولفظاً فارغاً من
المعنى . كما قال تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ
أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ (١) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ (٢).

فالمخلوق ليس ندأ لله لأن الله هو الخالق، وغيره مخلوق، والرب هو الرازق. ومن
عداه مرزوق، والله هو الغنى وأنتم الفقراء.

وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه.

والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضرر والأمر شيء.

فعلم علماً يقيناً، بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً.

سواء كان ملكاً أو نبياً، أو صالحاً، أو صنماً، أو غير ذلك.

وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة، والذل التام.

فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أى : من أهل الأنداد
لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها.

(١) الرعد: ٣٣.

(٢) النجم : ٢٣

ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذى محبته هى عين صلاح العبد وسعادته وفوزه.

والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئاً، ومحبتهم عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره.

فلهذا توعدهم الله بقوله ﴿ولو يرى الذين ظلموا﴾ أمه.

● ماجاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ (١):

قوله ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ نتكلم عليها متابعة لبعض شراح كتاب التوحيد لتعلقها بما قبلها تكميلاً للفائدة، وإن لم يذكرها المصنف، وفيها قولان :

أحدهما: وهو الصحيح أن المعنى: والذين آمنوا أشد حباً لله محبة المشركين بالأنداد لله، فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة.

والثانى: والذين آمنوا أشد حباً لله من حب أصحاب الأنداد لأنادهم التى يحبونهم من دون الله، قال ابن القيم: والقولان مرتبان على القولين فى قوله تعالى ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ وفى الآية دليل على أن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وأن الشرك محبط للأعمال.

قال حامد بن حسن (٢): واعلم أن المحبة تستلزم الطاعة ولا بد كما هو المعلوم بالضرورة فمن يدعى محبه الله يلزمه طاعته فى متابعه رسوله كما قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فمخالفة الله ورسوله تخل بالمحبة وتقذح فيها وكلما زادت المخالفة والمعاصى على قدر بعدها من محبة الله وقربها من عداوته حتى تؤول إلى الشرك والكفر كما ورد المعاصى بريد الكفر، فالمخالف إذا ادعى المحبة فليس بصادق:

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٤٩

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٣٤٨، ٣٤٩

تعصى الآله وأنت تظهر حبه هذا وربى فى الإله شنيع
لو كان حبك صادقاً لاطعته إن المحب لمن يحب مطيع اهـ

● فائدة: فى معنى الشوق ودرجاته والفرق بينه وبين المحبة

قال ابن القيم^(١): والشوق أثر من آثار المحبة، وحكم من أحكامها فإنه سفر القلب إلى المحبوب فى كل حال.

والمحبة أعلى منه . لأن الشوق عنها يتولد، وعلى قدرها يقوى ويضعف.

قال يحيى بن معاذ: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.

وقال أبو عثمان: علامته حب الموت، مع الراحة والعافية، كحال يوسف لما ألقى فى الحب لم يقل (توفنى) ولما أدخل السجن لم يقل (توفنى) ولما تم له الأمر والأمن والنعمة، قال (توفنى مسلماً).

وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: شوق العابد إلى الجنة، ليأمن الخائف، ويفرح الحزين. ويظفر الأمل.

الدرجة الثانية: شوق إلى الله عز وجل زرع الحب الذى ينبت على حافات المن. فعلت قلبه بصفاته المقدسة. فاشتاق إلى معانية لطائف كرمه. وآيات بره وأعلام فضله. وهذا شوق تغشاه الميأ وتخالجه المسار ويقاومه الاصطياد.

والشوق إلى الله لا ينافى الشوق إلى الجنة، فإن أطيّب مافى الجنة قربه تعالى، ورؤيته، وسمع كلامه ورضاه.

الدرجة الثالثة: نار اضرمها صفو المحبة، فتغصت العين. وسلبت السلوة ولم ينهها معزى دون اللقاء. أهـ.

وليرجع إلى تفصيل ذلك إلى مدارج السالكين.



(١) مدارج السالكين ٣/ ٥٤ - ٦١.

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١).

● مناسبة الآية للباب:

قال عبدالله بن جابر الله أن فيها وعيد شديد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه (٢). أهـ

قال القرعاوي: حيث دلت الآية على تحريم تقديم حب هذه الأشياء الثمانية على حب الله ورسوله (٣). أهـ

● مناسبة الآية للتوحيد

قال القرعاوي: حيث دلت الآية على وجوب حب الله ورسوله، لذا يكون الحب نوعاً من العبادة وصرف العبادة لغير الله شرك (٤). أهـ

● سبب النزول:

عن مجاهد قال: أمروا بالهجرة فقال العباس بن عبدالمطلب: أنا أسقى الحاج. قال طلحة أخو بني عبدالدار: أنا أحجب الكعبة فلانهاجر، فانزلت ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحْبَبُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ (٥)

وعن مقاتل في هذه الآية قال: هي في الهجرة (٦).

قال القرطبي (٧):

لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة من مكة إلي المدينة جعل الرجل يقول لأبيه والأب لابنه والأخ لأخيه والرجل لزوجته: إنا قد أمرنا بالهجرة؛ فمنهم من سارع لذلك،

(١) [التوبة: ٢٤].

(٢) الجامع الفريد ١٢٦

(٣) الجديد: ٢٨٠.

(٤) الجديد: ٢٨٠.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٨٧) فانظره بتخريجنا.

وذكره السيوطي في «الدر» (٤٠٣/٣) وزاد نسبه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبى الشيخ.

(٦) ذكره السيوطي في الموضع السابق (٤٠٣/٣) ونسبه لابن أبي حاتم.

(٧) تفسير القرطبي / ٢٩٣٣، ٢٩٣٤

ومنهم من أبى أن يهاجر، فيقول: والله لئن لم تخرجوا إلى دار الهجرة لا أنفعكم ولا أنفق عليكم شيئاً أبداً ومنهم من تتعلق به امرأته وولده ويقولون له: أشدك الله ألا تخرج فنضيع بعدك؛ فمنهم من يرق فيدع الهجرة ويقيم معهم؛ فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾. يقول إن استحبوا الإقامة على الكفر بمكة على الإيمان بالله والهجرة إلى المدينة. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ﴾ بعد نزول الآية ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. ثم نزل في الذين تخلفوا ولم يهاجروا: (قل إن كان آباءكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم).

قال ابن الجوزي^(١):

في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في الذين تخلفوا مع عيالهم بمكة ولم يهاجروا، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أن على بن أبي طالب قدم مكة، فقال لقوم: ألا تهاجرون؟ فقالوا: نقيم مع إخواننا وعشائرتنا ومساكننا، فنزلت هذه الآية، قاله ابن سيرين.

والثالث: أنه لما نزلت الآية التي قبلها، قالوا: يارسول الله، إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين، قطعنا آباءنا وعشيرتنا، وذهب تجارتنا، وخربت ديارنا، فنزلت. حكيتها عن ابن عباس. أهـ

قوله (قل إن كان آباؤكم..)

الإعراب^(٢): إن شرطية وكان واسمها وما بعده عطف عليه وأحب خبر كان وإليكم حال ومن الله جار ومجرور متعلقان بأحب ورسوله وجهاد في سبيله عطف على الله أى من الهجرة إليهما.

● ماجاء في الآية من آثار :

روى ابن جرير بسنده عن السدى (وأموال اقترفتموها وتجاره تخشون كسادها) يقول تخشون أن تكسد فتبيعوها ومساكن ترضونها قال هي القصور والمنازل^(٣).

(١) زاد المسير ٣/ ٣١٢.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٧٧

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٠/ ٧٠) وذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٤٠٣) ونسبه لابن أبي

حاتم ، وأبى الشيخ.

عن قتادة رضى الله عنه فى قوله ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ قال أصبتموها^(١).

قوله «عشيرتكم»

● أقوال المفسرين:

قال البغوى^(٢): قرأ أبو بكر عن عاصم عشيراتكم بالآلف على الجمع والآخرين بلا ألف على التوحيد، لأن العشيرة واقعة على الجمع، ويقوى هذه القراءة أن أبا الحسن الأخفش قال: لا تكاد العرب تجمع العشيرة على العشيرات، إنما تجمعها على العشائر. أهـ

قال ابن الجوزى^(٣):

فأما العشيرة، فهم الأقارب الأذنون. وروى أبو بكر عن عاصم و«عشيرتكم» على الجمع. قال أبو على: وجهه أن كل واحد من المخاطبين له عشيرة، فإذا جمعت.

قلت: - أى ابن الجوزى - عشيراتكم؛ وحجة من أفرد: أن العشيرة واقعة على الجمع، فاستغنى بذلك عن جمعها. قال الأخفش: لا تكاد العرب تجمع عشيرة: عشيرات، إنما يجمعونها على عشائر. أهـ

قال القرطبى^(٤): هى الجماعة التى ترجع إلى عقد واحد كعقد العشرة فما زاد؛ ومنه المعاشرة وهى الاجتماع على الشيء. أهـ

قوله «وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا».

● أقوال المفسرين:

قال ابن الجوزى^(٥): والاقتراف يعنى الاكتساب. أهـ

قال القرطبى^(٦): وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا يقول: اكتسبتموها بمكة. وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره. أهـ

قال السعدى^(٧):

﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أى: اكتسبتموها، وتعبتم فى تحصيلها.

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.

(٢) (٣) (٥) زاد المسير ٣/ ٣١٢، ٣١٣

(٢) معالم التنزيل ٣/ ٢٣

(٤) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٣٤

(٧) تيسير الكريم ٢/ ٢٢٧

(٦) تفسير القرطبى ٤/ ٢٩٣٤

خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصاً عليها، ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولاكد. أهـ.

قوله: ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾.

● أقوال المفسرين:

قال القرطبي^(١):

﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ قال ابن المبارك: هي البنات والأخوات إذا كسدن في

البيت لا يجدن لهن خاطباً قال الشاعر :

كسدن من الفقر فى قومهن وقد زادهن مقامى كسوداً أهـ

قال الشوكاني^(٢): والتجارة الامتعة التى يشترونها ليربحوا فيها

قال السعدى^(٣): ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أى: رخصها نقصها، وهذا شامل

لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات، من الأثمان، والأوانى، والأسلحة، والامتعة، والحبوب، والحروث، والأنعام، وغير ذلك. أهـ

قوله ﴿وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا﴾

تقدم مارواه بن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى معنى المساكين.

● أقوال المفسرين:

قال القرطبي^(٤): ﴿وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا﴾ يقول: ومنازل تعجبكم الإقامة فيها. أهـ

قال الشوكاني^(٥): والمراد بالمساكين التى يرضونها: المنازل التى تعجبهم وتميل إليها أنفسهم ويرون الإقامة فيها أحب إليهم من المهاجرة إلى الله ورسوله.

قوله ﴿أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

● ما جاء فى الآية من الأحاديث:

أخرج أحمد البخارى عن عبدالله بن هشام رضى الله عنه قال: كنا مع رسول الله

(٢) فتح القدير ٣٦٦/٢.

(١) تفسير القرطبي ٢٩٣٤/٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢٢٧/٣).

(٥) فتح القدير ٣٦٦/٢.

(٤) تفسير القرطبي ٢٩٣٤/٤.

ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: والله لانت يا رسول الله أحب إلى من كل شيء إلا من نفسي فقال النبي ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» (١).

قال ابن كثير (٢): وانفرد بإخراجه البخاري فرواه عن يحيى بن سليمان عن ابن وهب حيوة بن شريح عن أبي عقيل زهرة بن معبد أنه سمع جده عبدالله بن هشام عن النبي ﷺ بهذا. اهـ.

● ما جاء في الآية من أقوال المفسرين:

قال القرطبي (٣): أحب إليكم من أن تهاجروا إلى الله ورسوله بالمدينة. «وأحب» خبر كان . ويجوز في غير القرآن رفع «أحب» على الابتداء والخبر ، واسم كان مضمرة فيها . وأنشد سيويه:

إذا متَّ كان الناسِ صنفانٍ: شامتٌ وآخرُ مثنٍ بالذي كنتُ أصنعُ
وأنشد:

هي الشفاء لدائي لو ظفرتُ بها وليس منها شفاءُ الداءِ مبذول
وفي الآية دليل على وجوب حب الله ورسوله، ولا خلاف في ذلك بين الأمة، وأن ذلك مقدم على كل محبوب أهـ.

قال السعدي (٤): فإن كانت هذه الأشياء «أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله» فأنتم فسقة ظلمة . أهـ.

قوله «وجهاد في سبيله».

● ما جاء في تفسير الآية من الأحاديث:

روى الإمام أحمد (٥): وأبو داود واللفظ له من حديث أبي عبد الرحمن الخراساني عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» (٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٣٠، ٣٣١

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٢٢٧

(١) تقدم تخريجه

(٣) تفسير القرطبي ٤/ ٢٩٣٤، ٢٩٣٥

(٥) تفسير القرطبي ٤/ ٢٩٣٤

(٦) [ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٢/٢) وأبو داود (٣٤٦٢) عن ابن عمر به وانظر «السلي» (١٥٣٨ - بتخريجنا). وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٣٠) بتخريجنا.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن يزيد بن هارون عن أبي حباب عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك^(١)، وهذا شاهد للذى قبله والله أعلم. أهـ

● كلام المفسرين:

قال القرطبي^(٢): «جهاد فى سبيله فتربصوا صيغته صيغة أمر ومعناه التهديد . يقول انتظروا .

قال القرطبي: «جهاد فى سبيله» دليل على فضل الجهاد، وإثاره على راحة النفس وعلائقها بالأهل والمال كفاية، والحمد لله . وفى الحديث الصحيح «إن الشيطان قعد لابن آدم ثلاث مقاعد قعد له فى طريق الإسلام فقال أتذر دينك ودين آبائك فخالفه وأسلم وقعد له فى طريق الهجرة فقال له أتذر مالك وأهلك فخالفه وهاجر ثم قعد له فى طريق الجهاد فقال له تجاهد فتقتل فينكح أهلكت ويقسم مالك فخالفه وجاهد فحق على الله أن يدخله الجنة»^(٣) وأخرجه النسائي من حديث سبرة بن أبى فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان...» فذكره^(٤). قال البخارى: «ابن الفاكه» ولم يذكر فيه اختلافاً. وقال ابن ابى عدى: يقال ابن الفاكه وابن أبى الفاكه. انتهى.

قوله ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

الإعراب^(٥):

﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣). الفاء رابطة وتربصوا فعل أمر وفاعل وحتى حرف غاية وجر ويأتى منصوب بأن مضمرة بعد حتى والله فاعل وبأمره جار ومجرور متعلقان بيأتى والله مبتدأ وجملة لا يهدى القوم الفاسقين خبر ومعنى الأمر هنا التهديد ومفعوله محذوف. أى انتظروا عقوبة عاجلة أو آجلة، وهذه الآية من أشد الآيات تهديداً وإرعاداً وإبراقاً وردعاً لكل من تسول له نفسه إثارة الفانية على الباقية ومراعاة جانب الأهل والعشيرة وترك جانب الله . أهـ

(١) ما قبله

(٢) تفسير القرطبي ٤/ ٢٩٣٤ .

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٨٣)، والنسائي فى «الكبرى» (٤٣٤٢) عن سبرة بن الفاكه به .

(٤) أما قبله

(٥) إعراب القرآن / ٧٧

قال البغوي (١):

(فتربصوا): فانتظروا (حتى يأتي الله بأمره) قال عطاء بقضائه وقال مجاهد ومقاتل بفتح مكة وهذا أمر تهديد ، (والله لا يهدي) ولا يوفق ولا يرشد (القوم الفاسقين). الخارجين عن الطاعة وقال نحوه ابن الجوزي.

قال الشوكاني (٢):

﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ فيكم وما تقتضيه مشيئته من عقوبتكم، وقيل المراد بأمر الله سبحانه: القتال وقيل فتح مكة وفيه بُعد، فقد روى أن هذه السورة نزلت بعد الفتح وفي هذا وعيد شديد ويؤكد إيهام الأمر وعدم التصريح به لتذهب أنفسهم كل مذهب وتتردد بين أنواع العقوبات ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أى الخارجين عن طاعته، النافرين عن امتثال أوامره ونواهيه. أهـ

روى ابن جرير: عن مجاهد (حتى يأتي الله بأمره بالفتح) (٣) وعنه أيضاً (فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) فتح مكة (٤).

قال ابن جرير (٥). يقول تبارك وتعالى لنبه محمد ﷺ قل يا محمد للمتخلفين عن الهجرة إلى دار الإسلام المقيمين بدار الشرك إن كان المقام مع (أبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم) وكانت (أموال اقترفتوها) يقول اكتسبتموها (وتجارة تخشون كسادها) بفراقكم بلدكم (ومساكن ترضونها) فسكتتموها (أحب إليكم من) الهجرة إلى (الله ورسوله) من دار الشرك ومن (جهاد في سبيله) يعنى فى نصره دين الله الذى ارتضاه (فتربصوا) يقول فتنتظروا (حتى يأتي الله بأمره) حتى يأتي الله بفتح مكة والله لا يهدي القوم الفاسقين يقول الله لا يوفق للخير الخارجين عن طاعته وفى معصيته وينحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل أهـ

قال الزمخشري (٦):

وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه هل يجد عنده من

(٢) فتح القدير ٣٦٦/٢

(١) معالم التنزيل ٢٣/٣

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٠/ ٧٠)

(٤) تفسير الطبرى ٧٠/ ١٠/ ٦

(٦) الكشف ١٤٥/٢

(٥) ما قبله

التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله أم يزوى الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته فلا يدرى أى طرفيه أطول ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره. أهـ

قال ناصر السعدى (١):

(فتربصوا) أى : انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الذى لا مرد له.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى : الخارجين عن طاعة الله ، المقدمين على محبة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة ، أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله ، وعلى تقديمها على محبة كل شيء .

وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد ، على من كان شيء من المذكورات أحب إليه من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله .

وعلاوة ذلك ، أنه إذا عرض عليه أمران ، أحدهما يحبه الله ورسوله ، وليس نفسه فيها هوى والآخر تحبه نفسه وتشتهيه ، ولكنه يفوت عليه محبوباً لله ورسوله ، أو ينقصه .

فإنه إن قدم ماتهواه نفسه ، على ما يحبه الله دل على أنه ظالم ، تارك لما يجب عليه. أهـ

● فوائد جلية

قال الرازى (٢)

وهذه الآية تدل على أنه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين جميع مهمات الدنيا ، وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا .

واعلم أنه تعالى ذكر الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار ، وهى أمور أربعة :

أولها : مخالطة الأقارب ، وذكر منهم أربعة أصناف على التفصيل وهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج ، ثم ذكر البقية بلفظ واحد يتناول الكل ، وهى لفظ العشيرة .

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٢٢٧، ٢٢٨

(٢) التفسير الكبير ٨/ ١٥ / ٢٠ .

وثانيها: الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة .

وثالثا : الرغبة فى تحصيل الأموال بالتجارة .

ورابعها : الرغبة فى المساكن .

ولا شك أن هذا الترتيب ترتيب حسن، فإن أعظم الأسباب الداعية إلى المخالطة القرابة . ثم إنه يتوصل بتلك المخالطة إلى إبقاء الأموال الحاصلة . ثم إنه يتوصل بالمخالطة إلى اكتساب الأموال التى هى غير حاصلة، وفى آخر المراتب الرغبة فى البناء فى الاوطان والدور التى بنيت لأجل السكني، فذكر تعالى هذه الأشياء على هذا الترتيب الواجب، وبين بالآخرة أن رعاية الدين خير من رعاية جملة هذه الأمور . أهـ

● ماجاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد

قال سليمان آل الشيخ^(١):

وهو تنبيه على أن من فعل ذلك؛ فهو من الفاسقين فهذا تشديد، ووعيد عظيم، ولا يخلص منه إلا من صح إيمانه فخلص لله سره وإعلانه، وعلى أن المحبة الصادقة تستلزم تقديم مرضى الله على هذه الثمانية كلها، فكيف بمن أثر بعضها على الله ورسوله، وجهاد فى سبيله .

فإن قلت: قد قال شيخ الإسلام: إن كثيراً من المسلمين أو أكثرهم بهذه الصفة .

قيل: مراده أن كثيراً من المسلمين قد يكون ما ذكر أحب إليه من الله ورسوله أى: فى إثارة ذلك على فعل أمر الله، وأمر رسوله الذى ينشأ عن المحبة لا فى الحب الذى يوجب قصد المحبوب بالتأله، فإن من ساوى بين الله وبين غيره فى هذا الحب؛ فهو مشرك، فكيف إذا كان غير الله أحب إليه كما هو الواقع من عباد القبور، فإنهم يحبون أندادهم أعظم من حب الله، وذلك أن أصل الحب يحتمل الشركة بخلاف الخلقة، فإنها لا تقبل الشركة أصلاً . أهـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢):

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾^(٣)

وذكر لهم أربع علامات :

أحدها : أنهم أذلة على المؤمنين، قيل معناه: أرقاء رُحماء مشفقين عليهم عاطفين عليهم. فلما ضمن (أذلة) هذا المعنى عداه بأداة (على) قال عطاء رحمه الله: للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده.

وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(١) - وهذه هي الثانية - العلامة الثالثة الجهاد في سبيل الله تعالى بالنفس واليد واللسان والمال وذلك يحقق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم، فهذا علامة صحة المحبة فكل محب أخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة. وقال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾^(٢) فذكر المقامات الثلاثة : الحب . وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة والرجاء والخوف يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعاً أنه لا يتنافس إلا في قرب من يحب قربه وحب قربه تبع لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه.

وعند الجهمية والمعتزلة : مامن ذلك كله شيء فإنه عندهم لا تقرب ذاته من شيء ولا يقرب من ذاته شيء، ولا يحب لذاته ولا يحب فأنكروا حياة القلوب ونعيم الأرواح وبهجة النفوس وقرّة العيون وأعلى نعيم الدنيا والآخرة.

ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة وضرب دونهم ودون الله حجاب على معرفته ومحبته فلا يعرفونه ولا يحبونه ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته فذكروهم أعظم آثامهم وأوزارهم، بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله ويرمونهم بالأدواء التي هم أحق بها وأهلها.

وحسب ذى البصيرة وحياة القلب، ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده والله المستعان.

وقال رحمه الله - يعنى ابن القيم - لأتحدّ المحبة بحدّ أوضح منها فالحدود لا تزيدها

إلا خفاء فحدها وجودها، ولا تنصف المحبة بوصف أظهر من المحبة وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدا وثمراتها وأحكامها. وأجمع ما قيل في ذلك ما ذكره أبو بكر الكتاني عن الجنيد.

قال أبو بكر : جرت مسألة في المحبة بمكة - أعزها الله - في أيام الموسم فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم سناً، فقالوا : هات ما عندك يا عراقى فأطرق رأسه ودمعت عيناه، ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه أحرق قلبه أنوار هيئته وصفا شرا به من كأس مودته، وانكشف لها الحياء من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله، فهو لله وبالله، ومع الله فبكى الشيوخ، وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله ياتاج العارفين.

● الأسباب لمحبة الله:

- وذكر رحمه الله تعالى - يعنى ابن القيم - : «أن الأسباب الجالبة للمحبة عشرة: أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.
- الثانى: التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض.
- الثالث : دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر هذا.
- الرابع: إثارة محابه على محابك عند غلبات الهوى.
- الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه فى رياض هذه المعرفة وميادينها.
- السادس: مشاهدة براه وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.
- السابع: وهو - أعجبها - إنكسار القلب بين يديه.
- الثامن: الخلوة وقت النزول الإلهي وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .
- التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطياب ثمرات كلامهم ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيداً لخالك، ومنفعة لغيرك.
- العاشر: مباحدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله - عز وجل -.
- فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب.»^(١).

(١) فتح المجيد ٥٥٥/٢

قال ابن عثيمين (١):

فدلت الآية على أن محبة هؤلاء وإن كانت من غير محبة العبادة إذا فُضلت على محبة الله صارت سبباً للعقوبة.

ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان يهمل أوامر الله لأوامر والده؛ فهو يحب أباه أكثر من ربه.

وما في القلوب وإن كان لا يعلمه إلا الله، لكن له شاهد في الجوارح، ولذا يروى عن الحسن - رحمه الله - أنه قال: «ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله تعالى على صفحات وجهه وقلتات لسانه»؛ فالجوارح مرآة القلب.

فإن قيل: المحبة في القلب ولا يستطيع الإنسان أن يملكها، ولهذا يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم إن هذا قسمى فيما أملك؛ فلا تلمني فيما لا أملك» (٢) وكيف للإنسان أن يحب شيئاً وهو ييغضه، وهل هذا إلا من محاولات جعل الممتنع ممكناً؟

أجيب: أن هذا إيراد ليس بوارد؛ فالإنسان قد تنقلب محبته لشيء كراهة وبالعكس، إما لسبب ظاهر أو لإرادة صادقة، فمثلاً: لك صديق تحبه فيسرق منك ويتهك حرمتك، فتكرهه لهذا السبب، أو لإرادة صادقة؛ كرجل يحب شرب الدخان، فصار عنده إرادة صادقة وعزيمة ثابتة، فكره الدخان، فأقلع عنه.

وقال عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ: «إنك لأحب إلى من كل شيء إلا من نفسي». قال النبي ﷺ: لا والذي نفسي بيده؛ حتى أكون أحب إليك من نفسك. قال: الآن والله لأنت أحب إلى من نفسي. فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر (٣)؛ فقد ازدادت محبة عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ.

وأقره النبي ﷺ على أن الحب قد يتغير.

وربما تسمع عن شخص كلاماً وأنت تحبه فتكرهه، ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب؛ فتعود محبتك إياه.



(١) القول المفيد ٢/ ١٨٠، ١٨١

(٢) [ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٤/٦)، وأبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)،

والنسائي (٦٤/٧) - السيوطي، وابن ماجه (١٩٧١) عن عائشة به.

وانظر «السلسلة» (٢١٣٤) - بتحريجنا

(٣) تقدم تخريجه

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ، مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (١) أَخْرَجَاهُ.

وهذا لفظ البخارى

وبوّب عليه باب حب الرسول - ﷺ - من الإيمان.

وذكر فيه حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فوالذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» (٢).

● مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جابر الله (٣)

أنَّ محبة الرسول - ﷺ - واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها أهـ.

قال ابن عثيمين (٤) مناسبة هذا الحديث ظاهرة، إن محبة الرسول ﷺ من محبة الله، ولأنه إذا كان لا يكمل الإيمان حتى يكون الرسول ﷺ. أحب إلى الإنسان من نفسه والناس أجمعين فمحبة من أولى وأعظم. أهـ

قال القرعاوى (٥): مناسبة الحديث للباب

حيث دل الحديث على وجوب محبة الله ورسوله على محبة من سواهما. أهـ .

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى (٦): حيث دل الحديث على وجوب تقديم محبة الله ورسوله على من سواهما لذا تكون المحبة عبادة وصرف العبادة لغير الله شرك. أهـ

قوله «لا يؤمن أحدكم» أى إيماناً كاملاً (٧).

قال سليمان آل الشيخ (٨):

قوله «لا يؤمن أحدكم». أى لا يخلص له الإيمان الذى تبرأ به ذمته، ويستحق به

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى «الإيمان» / باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١/ ٧٥/ ١٥) ومسلم فى الإيمان / باب وجوب محبة رسول الله ﷺ (١/ ٢٩٠/ ٧٠). من حديث أنس. وأنظر «فتح المجيد» (ج ٦٣١) بتخيرنا

(٣) الجامع الفريد ١٢٦.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (ج ١٤)

(٥) (٦) الجديد ٢٨٢

(٤) القول المفيد ١٨٦/ ٢.

(٨) تيسير العزيزا حميد ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣

(٧) قاله الحافظ فى الفتح ٧٥/ ١

دخول الجنة بلا عذاب حتى يكون الرسول ﷺ «أحب إليه من أهله وولده ووالده والناس أجمعين»، بل لا يحصل له ذلك حتى يكون الرسول أحب إليه من نفسه أيضاً.
كما فى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه المتقدم (١).

فمن لم يكن كذلك، فهو من أصحاب الكبائر، إذا لم يكن كافراً، فإنه لا يعهد فى لسان الشرع نفى اسم مسمى أمر الله به ورسوله إلا إذا ترك بعض واجباته فأما إذا كان الفعل مستحباً فى العبادة لم ينفها لاستفتاء المستحب، ولو صح هذا لنفى عن جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة والحج وحب الله ورسوله، لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه، وليس أحد يفعل أفعال البر مثل ما فعلها النبى ﷺ، بل ولا أبو بكر ولا عمر، فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه لجاز أن ينفى عن جمهور المسلمين، من الأولين والآخرين، وهذا لا يقوله عاقل. وعلى هذا فمن قال إن المنفى هو الكمال، فإن أراد أنه نفى الكمال الواجب الذى بذم تاركه يتعرض لللعوبة فقد صدق، وإن أراد أنه نفى الكمال المستحب فهذا لم يقع قط فى كلام الله ورسوله ﷺ قاله شيخ الإسلام. وأكثر الناس يدعى أن الرسول أحب إليه مما ذكر، فلا بد من تصديق ذلك بالعمل التابعة له، وإلا فالمدعى كاذب؛ فإن القرآن بين أن المحبة التى فى القلب تستلزم العمل الظاهر بحبها كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فنفى الإيمان عن من تولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله سمعوا وأطاعوا. فتيين أن هذا من لوازم الإيمان والمحبة، لكن كل مسلم لابد أن يكون محباً بقدر ما معه من الإسلام كما أن كل مؤمن لابد أن يكون مسلماً، وكل مسلم لابد أن يكون مؤمناً، وإن لم يكن مؤمناً الإيمان المطلق، لأن ذلك لا يحصل إلا لخواص المؤمنين، إن الاستسلام لله ومحبه لا تتوقف على هذا الإيمان الخاص.

قال شيخ الإسلام: وهذا الفرق يجده الإنسان من نفسه ويعرفه من غيره، فعامه الناس إذا أسلموا بعد كفر، أو ولدوا على الإسلام، التزموا شرائعه، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله، وهم مسلمون، ومعهم إيمان مجمل، لكن دخول حقيقة الإيمان إلى

قلوبهم يحصل شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك؛ وإلا فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين، ولا إلى الجهاد ولو شكُّوا لشكوا، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا، وليسوا كفاراً ولا منافقين. بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته وبقينه ما يدرك الرب، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه على الأهل والمال. وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب، وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق انتهى.

قال ابن عثيمين (١):

هذا نفى للإيمان، ونفى الإيمان تارة يراد به نفي الكمال الواجب، وتارة يراد به نفي الوجود؛ أى : نفي الأصل.

والمنفى فى هذا الحديث هو كمال الإيمان الواجب؛ إلا إذا خلا القلب من محبة الرسول ﷺ إطلاقاً؛ فلا شك أن هذا نفى لأصل الإيمان أهد.

قوله حتى أكون أحب إليه

قال ابن حجر (٢):

قوله (أحب) هو أفعل بمعنى المفعول، وهو مع كثرته على خلاف القياس، وفصل بينه وبين معموله بقوله «إليه» لأن المتنع الفصل بأجنى..... والمراد بالمحبة هنا حب الاختيار لأحب الطبع، قاله الخطايب.

وقال النووي: فيه تلميح إلى قضية النفس الأمانة والمطمئنة، فإن من رجح جانب المطمئنة كان حبه للنبي ﷺ راجحاً، ومن رجح جانب الأمانة كان حكمه بالعكس. وفى كلام القاضى عياض أن ذلك شرط فى صحة الإيمان، لأنه حمل المحبة على معنى التعظيم والإجلال. تعقبه صاحب المفهم بأن ذلك ليس مراداً هنا، لأن اعتقاد الأعظمية ليس مستلزماً للمحبة، إذ قد يجد الإنسان إعظام شيء مع خلوه من محبته.

قال : فعلى هذا من لم يجد من نفسه ذلك الميل لم يكمل إيمانه، وإلى هذا يومئ قول عمر الذى رواه البخارى فى «الإيمان والنذور» - وتقدم - من حديث عبد الله بن هشام أن عمر بن الخطاب قال للنبي ﷺ «لأنت يا رسول الله أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى. فقال : «لا والذى نفسى بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر : فإنك الآن والله أحب إلى من نفسى. فقال : الآن ياعمر» انتهى.

فهذه المحبة ليست باعتقاد الأعظمية فقط، فإنها كانت حاصلة لعمر قبل ذلك قطعاً أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١):

وفيه أن محبة الرسول ﷺ واجبة تابعه لمحبة الله لازمه لها، فإنها محبة لله ولأجله، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقص بنقصانها، وكل من كان محباً لله فإنما يحب في الله ولأجله كما يحب الإيمان والعمل الصالح. وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك كالاعتماد عليه ورجائه في حصول مرغوب منه أو دفع مرهوب منه، وما كان فيها ذلك فمحبته مع الله لما فيها من التعلق على غيره والرغبة إليه من دون الله، فبهذا يحصل التمييز بين المحبة في الله ولأجله، التي هي من كمال التوحيد، وبين المحبة مع الله التي هي محبة الإنداد من دون الله لما يتعلق في قلوب المشركين من الإلهية التي لا تجوز إلا لله وحده. أهـ

قال ابن عثيمين^(٢):

ومحبة رسول الله ﷺ تكون لأمر:

الأول: أنه رسول الله، وإذا كان الله أحب إليك من كل شيء؛ فرسوله أحب إليك من كل مخلوق.

الثاني: لما قام به من عبادة الله وتبليغ رسالته.

الثالث: لما آتاه الله من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

الرابع: أنه سبب هدايتك وتعليمك وتوجيهك أهـ

قلت: لقوله ﷺ «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم»^(٣). ولقوله ﷺ «من ترك مالا فلورثته ومن ترك ديناً فالى وعلي»^(٤). لقوله ﷺ «في الدجال» إن يظهر أنا فيكم فأنا حجيحكم وإن يظهر بعدى فامرؤ حجيح نفسه»^(٥). وغير ذلك، لذلك كان كثير من

(١) فتح المجيد ٥٦٢/٢.

(٢) القول المفيد ١٨٢/٢، ١٨٣.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/٢٤٧)، وأبو داود (٨)، النسائي (١/٣٨ - السيوطي)، وابن ماجه عن

أبي هريرة به.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٢٩٨)، ومسلم في الفرائض (١١/٥٦ - النووي) عن أبي هريرة به

وانظر «منار السبيل» (١٨٤٧ - بتخریجنا)

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم في الفتن (١٨/٦٣ - النووي) عن النواس بن سمعان به

الصحابه يجمعون له أبويهم (بأبى وهو أمى ﷺ) بل وأنفسهم بالقول والعمل كثيرا ما نسمعهم يقولون له فذاك نفسى يا رسول الله وتقرأ من سيرتهم معه أيضاً أنهم فادوه بأنفسهم لله درهم.

الخامس: لصبره على الأذى فى تبليغ الرسالة.

السادس: لبذل جهده بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله

قوله «من ولده ووالده»

قال ابن حجر (١):

قوله (من والده وولده) قدم الوالد للأكثرية لأن كل أحد له والد من غير عكس، وفى رواية النسائي فى حديث أنس تقديم الولد على الوالد، وذلك لمزيد الشفقة.

وذكر الولد والوالد أدخل فى المعنى لأنهما أعز على العاقل من الأهل والمال، بل ربما يكونان أعز من نفسه، ولهذا لم يذكر النفس أيضاً فى حديث أبى هريرة .

وهل تدخل الأم فى لفظ الوالد؟ إن أريد به من له الولد فيعم، أو يقال أكتفى بذكر أحدهما كما يكتفى عن أحد الضدين بالآخر ويكون ما ذكر على سبيل التمثيل والمراد الأعز، كأنه قال: أحب إليه من أعزته. أهـ

قوله: قلت: «والناس أجمعين»

قال ابن حجر (٢):

ذكر الناس بعد الوالد والولد من عطف العام على الخاص وهو كثير، وقدم الوالد على الولد فى رواية لتقدمه بالزمان والإجلال، وقدم الولد فى أخرى لمزيد الشفقة.

وهل تدخل النفس فى عموم قوله والناس أجمعين؟ الظاهر دخوله. وقيل إضافة المحبة إليه تقتضى خروجه منهم وهو بعيد، وقد وقع التنصيص بذكر النفس فى حديث عبدالله بن هشام أى حديث عمر بن الخطاب المتقدم - أهـ.

● من فوائد الحديث

قال سليمان آل الشيخ (٣):

إذا كان هذا شأن محبة الرسول ﷺ فما الظن بمحبة الله.

وانظر «رياض الصالحين» (١٨١١) بتخريجنا

(٢) الفتح ١/٧٦.

(١) الفتح ١/٧٦.

وفيه أن الأعمال من الإيمان؛ لأن المحبة عمل، وقد نفى الإيمان عن لم يكن الرسول ﷺ أحب إليه مما ذكر فدل على ذلك.

وفيه أن نفى الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام أهـ

قال ابن عثيمين^(١):

ويستفاد من هذا الحديث مايلي:

- ١- وجوب تقديم محبة الرسول ﷺ على محبة النفس.
- ٢- فداء الرسول ﷺ بالنفس والمال؛ لأنه يجب أن تقدم محبته على نفسك ومالك.
- ٣- أنه يجب على الإنسان أن ينصر سنة رسول الله ﷺ ويذل لذلك نفسه وماله وكل طاقته؛ لأن ذلك من كمال محبة رسول الله ﷺ، ولذلك قال بعض أهل العلم في قوله ﴿إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾؛ أى : مبغضك، قالوا : وكذلك من أبغض شريعته ﷺ؛ فهو مقطوع لآخر فيه.
- ٤- جواز المحبة التى للشفقة والإكرام والتعظيم؛ لقوله ﷺ: «أحب إليه من ولده ووالده....»؛ فثبت أصل المحبة، وهذا أمر طبعى لا ينكره أحد.
- ٥- وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس؛ لأن من لازم كونه أحب من كل أحد أن يكون قوله مقدماً على كل أحد من الناس؛ حتى على نفسك، فمثلاً: أنت تقول شيئاً وتهواه وتفعله، فيأتى إليك رجل ويقول لك: هذا يخالف قول الرسول ﷺ، فإذا كان الرسول أحب إليك من نفسك؛ فأنت تنتصر للرسول أكثر مما تنتصر لنفسك، وترد على نفسك بقول الرسول ﷺ؛ فتدع ماتهباه من أجل طاعة الرسول ﷺ، وهذا عنوان تقديم محبته على محبة النفس، ولهذا قال بعضهم:

تعصى الإله وأنت تزعم حبه هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع^(٢)

قال ابن تيمية: محبة الله مستلزمة لمحبة ما يحبه من الواجبات كما قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ فإن اتباع رسوله هو من أعظم ما أوجبه الله تعالى على عباده وأحبه، وهو سبحانه أعظم شئ بغضاً لمن لم يتبع

(١) القول المفيد ٢/ ١٨٣ ١٨٦.

(٢) «جامع الرسائل» (٢/ ٢٥٨) وقال (٢٨٤).

رسوله، فمن كان صادقاً فى دعوى محبة الله اتبع رسوله لامحالة، وكان الله رسوله أحب إليه مما سواهما.

«والذنوب تنقص من محبة الله تعالى بقدر ذلك، ولكن لاتزِيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة فى القلب ولم تكن الذنوب عن نفاق؛ كما فى «صحيح البخاري» عن عمر بن الخطاب: حديث حمار الذى كان يشرب الخمر، وكان النبى ﷺ يقيم عليه الحد، فلما كثر ذلك منه لعنه رجل، فقال النبى ﷺ «لاتلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله...»؛ فكما أن المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات وكمال المحبة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات، والمعاصى تنقص المحبة، وهذا معنى قول الشبلى لما سئل عن المحبة؛ فقال: ماغنت به جارية فلان: فذكر البيتين.

«والعبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل؛ فالعابد محب خاضع، بخلاف من يحب من لا يخضع له، بل يحبه ليتوصل به إلى محبوب آخر، وبخلاف من يخضع لمن لا يحبه كما يخضع للظالم؛ فإن كلاً من هذين ليس عبادة محضة، وإن كان محبوباً لغير الله ومعظم لغير الله؛ ففيه شوب العبادة؛ كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار...»

قال ابن عثيمين: إذا يؤخذ من هذا الحديث وجوب تقديم قول الرسول، على قول كل الناس حتى على قول أبى بكر وعمر عثمان، وعلى قول الأئمة الأربعة ومن بعدهم، قال الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (١).

ولكن إذا وجدنا حديثاً يخالف الأحاديث الأخرى الصحيحة أو مخالفاً لقول أهل العلم وجمهور الأمة؛ فالواجب الثبوت والتأني فى الأمر؛ لأن اتباع الشذوذ يؤدى إلى الشذوذ.

ولهذا إذا رأيت حديثاً يخالف ماعليه أكثر الأمة أو يخالف الأحاديث الصحيحة التى كالجبال فى رؤسها؛ فلاتتعجل فى قبوله، بل يجب عليك أن تراجع وتطالع فى سنده حتى يتبين لك الأمر، فإذا تبين؛ فإنه لا بأس أن يخصص الأقوى بأضعف منه إذا كان حجة؛ فالمهم الثبوت فى الأمر، وهذه القاعدة تنفعك فى كثير من الأقوال التى ظهرت أخيراً، وتركها الأقدمون وصارت محل نقاش بين الناس، فإنه يجب اتباع هذه القاعدة، ويقال: أين الناس من هذه الأحاديث؟ ولو كانت هذه الأحاديث من شريعة الله؛ لكانت

(٢) «جامع الرسائل» (٢/٢٥٨) وقال (٢٨٤)

وَلَهُمَا^(١) عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثٌ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ
 الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ
 إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ
 فِي النَّارِ).

وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى ..» إِلَى آخِرِهِ.

منقولة باقية معلومة مثل ما ذكر أن الإنسان إذا لم يطف طواف الإفاضة قبل أن تغرب
 الشمس يوم العيد، فإنه يعود محرماً، فإن الحديث وإن كان ظاهر سننه الصحة، ولكنه
 ضعيف وشاذ، ولهذا لم يذكر أنه عمل به إلا رجل أو رجلان من التابعين، وإلا،
 فالأمة على خلافه فمثل هذه الأحاديث يحب أن يتحرى الإنسان فيها ويشبث،
 ولا نقول: إنها لا يمكن أن تكون صحيحة. أهـ.



قوله: [ولهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ ثلاث من كن] الحديث

ذكره البخارى فى أربع مواضع:

أولهم: فى كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان وهو اللفظ الذى جاء به المصنف.

الثانى: باب من كره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار من الإيمان.
 ولفظه (٢): ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما
 ومن أحب عبداً لا يحبه إلا الله ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن
 يلقى فى النار.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الإيمان / باب: حلاوة الإيمان (١/٧٧/١) ح، ومسلم فى
 «الإيمان» / باب خصال الإيمان (١/١٣/٢) - النسوى وأحمد فى «مسنده»
 (٣/١٠٣، ١٧٢، ٢٣٠، ٢٤٨، ٢٧٥، ٢٨٨) والترمذى فى «الإيمان» / باب ما جاء فى ترك الصلاة
 (٥/١٥) ح (٢٦٢٤) والنسائى فى الكبرى فى الإيمان وشرائعه / باب حلاوة الإيمان (٦/٥٢٧) ح (١١٧١٩) وابن
 ماجه فى «الفتن» / باب: الصبر على البلاء (٢/١٣٣٨) ح (٤٠٣٣) وابن حبان فى «صحيحه»
 (١/٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٧، ٢٣٨ - الإحسان) وعبدالرزاق فى «مصنفه» (١١/٢٠٠) ح (٢٠٣٢٠) والبخارى فى
 شرح السنة (١١/٤٩) ح (٢١) جميعاً من طريق: عبد الوهاب الثقفى عن أيوب أبى قلابة عن أنس مرفوعاً
 به. وأنظر «فتح المجيد» (ح ٦٣٣) بتخريجنا

الثالث: فى كتاب الأدب، باب الحب فى الله . ولفظه^(١)

«لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا الله، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

الرابع: فى كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ولفظه^(٢):

«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار».

● مناسبة الحديث للباب :

قال القرعاوى^(٣):

حيث دل الحديث على وجوب تقديم محبة الله ورسوله على محبة من سواهما. أهـ

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى^(٤):

حيث دل الحديث على وجوب تقديم حب الله ورسوله على من سواهما وهذا يدل على أن المحبة نوع من العبادة وصرف العبادة لغير الله شرك. أهـ

قوله : [ولهما عنه قال]

أى : وللبخارى ومسلم عن أنس بن مالك - رضى الله عنه -

قوله «ثلاث»

قال ابن حجر^(٥): هو مبتدأ والجملة الخبر وجاز الابتداء بالنكرة لأن التنوين عوض من المضاف إليه فالتقدير خصال يحتمل فى إعرابه غير ذلك.

وذكر ذلك ابن عثيمين واستدل عليه بقول ابن مالك فى الألفية فقال^(٦).

وإعراب «ثلاث»: مبتدأ، وجاز الابتداء بها لأنها مفيدة على حد قول ابن مالك أهـ.

ولايجز الابتداء بالنكرة ما لم تفد... ..

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٧): أى ثلاث خصال.

(٣) الجديد للقرعاوى ٢٨٤

(٢) ٦٩٤١

(١) ح ٦٠٤١

(٥) الفتح ٧٧/١ ط دار الحديث

(٤) الجديد للقرعاوى ٢٨٤

(٧) فتح المجيد ٥٦٣/٢

(٦) القول المفيد ١٨٧/٢

قوله «من»: شرطية (١):

قوله «كن» أى حصلن، فهي تامة (٢).

قال ابن عثيمين (٣):

«كن» أصلها كان؛ فتكون فعلاً ماضياً ناسخاً، والنون اسمها .

قوله (فيه) خبرها (٤):

قوله «وجد بهن»

قال ابن عثيمين (٥):

وجد: فعل ماض فى محل جزم جواب الشرط ، والجملة من فعل الشرط وجوابه فى محل رفع خبر المبتدأ. أهـ

قوله «حلاوة الإيمان»

قال ابن حجر (٦): وفى قوله: حلاوة الإيمان استعارة تخيلية، شبه رغبة المؤمن فى الإيمان بشىء حلّو وأثبت له لازم ذلك الشىء وأضافه إليه وفيه تلميح إلى قصة المريض والصحيح لأن المريض الصفراوى يجد طعم العسل مرّاً والصحيح يذوق حلاوته على ماهى عليه وكلما نقصت الصحة شيئاً ما نقص ذوقه بقدر ذلك فكانت هذه الاستعارة من أوضح مايقوى استدلال المصنف على زيادة والنقص قال الشيخ أبو محمد بن ابى جمرة:

إنما عبر بالحلاوة لأن الله شبه الإيمان بالشجرة فى قوله: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة» فالكلمة هى كلمة الإخلاص والشجرة أصل الإيمان وأغصانها اتباع الأمر واجتناب النهى وورقها ما يهتم به المؤمن من الخير وثمرها عمل الطاعات وحلاوة الثمر جنى الثمرة وغاية كماله تنهى نضج الثمرة وبه تظهر حلاوتها. أهـ.

وقال النووى (٧) معنى حلاوة الإيمان:

استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق وإيثار ذلك على أغراض الدنيا ومحبة العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته وكذلك الرسول.

(١) القول المفيد ١٨٧/٢

(٢) قاله الحافظ فى الفتاح ٧٧/١ دار الحديث

(٣) القول المفيد ١٨٧/٢

(٤) القول المفيد ١٨٧/٢

(٥) القول المفيد ١٨٧/٢

(٦) فتح المجيد ٥٦٣/٢

(٧) القول المفيد ١٨٧/٢

(٨) الفتاح ٧٧/١ ط دار الحديث

قال سليمان آل الشيخ^(١):

والشجرة لها ثمرة والثمرة لها حلاوة فكذلك شجرة الإيمان لا بد لها من ثمرة ولا بد لتلك الثمرة من حلاوة. لكن قد يجدها المؤمن وقد لا يجدها وإنما يجدها بما ذكر في الحديث. أهـ

قوله «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

قال ابن حجر^(٢):

معناه أن من استكمل الإيمان علم أن حق الله ورسوله أكد عليه من حق أبيه وأمه وولده وزوجه وجميع الناس، لأن الهدى من الضلال والخلاص من النار إنما كان بالله على لسان رسوله، ومن علامات محبته نصر دينه بالقول والفعل والذب عن شريعته والتخلق بأخلاقه، والله أعلم. أهـ

وقال أيضاً^(٣): قوله «أحب إليه»

منصوب لأنه خبر يكون. قال البيضاوي:

المراد بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إيثار ما يقتضى العقل السليم رجحانه وإن كان على خلاف هوى النفس كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولا ينهى إلا بما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل والعقل يقتضى رجحان جانب ذلك، تمرن على الاثمار بأمره بحيث يصير هواه تبعاً له ويلتذ بذلك التذاذ عقلياً إذ الإلتذاذ العقلي إدراك ماهو كمال وخير من حيث هو كذلك. أهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٤): في التعليق على كلام البيضاوي المتقدم.

وكلامه - يعنى البيضاوي - على قواعد الجهمية ونحوهم من نفى محبة المؤمنين لربهم لهم. والحق خلاف ذلك بل المراد في الحديث أن يكون الله ورسوله عند العبد أحب إليه مما سواهما حباً قلبياً كما في بعض الأحاديث.

«أحبوا الله بكل قلوبكم» فيميل بكلية إلى الله وحده حتى يكون وحده محبوبه

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٥٤

(٢) الفتح ٤٧٨/١٠

(٣) الفتح ٧٧/١ ط دار الحديث

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٥٤

ومعبوده، وإنما يحب من سواه تبعاً لمحبتة كما يحب الأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين لما كان يحبهم ربه سبحانه؛ وذلك موجب لمحبة ما يحبه سبحانه وكرهه ما يكره، وإيثار مرضاته على ماسواه والسعى فيما يرضيه ما استطاع وترك ما يكره. فهذه علامات المحبة الصادقة ولوازمها. وأما مجرد إيثار ما يقضى العقل رجحانه، وإن كان على خلاف هوى النفس كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه إلى آخر كلامه. فهذا قد يكون في بعض الأمور علامة على الحب ولازمه لا أنه هو الحب. أهـ

ثم قال ابن حجر (١):

قال البيضاوى: وعبر الشارع عن هذه الحالة بالحلاوة لأنها أظهر اللذائذ المحسوسة قال: وإنما جعل هذه الأمور الثلاثة عنواناً لكمال الإيمان لأن المرء إذا تأمل أن المنعم بالذات هو الله تعالى وأن لامانع ولا مانع فى الحقيقة سواه، وأن ماعده وسائط وأن الرسول هو الذى يبين له مراد ربه اقتضى ذلك أن يتوجه بكلية نحوه: فلا يحب إلا ما يحب ولا يحب من يحب إلا من أجله وأن يتيقن أن جملة ما وعد وأوعد حق يقيناً ويخيل إليه الموعود كالواقع فيحسب أن مجالس الذكر رياض الجنة وأن العود إلى الكفر إلقاء فى النار انتهى ملخصاً وشاهد الحديث من القرآن قوله تعالى ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم - إلى قوله - أحب إليكم من الله ورسوله﴾ ثم هدد على ذلك ويوعده بقوله ﴿فتربصوا﴾.

● فائدة: فيه إشارة إلى التحلى بالفضائل والتخلّى عن الرذائل، فالأول من الأول والآخر من الثانى. وقال غيره: محبة الله على قسمين فرض وندب، فالفرص المحبة التى تبعث على امتثال أوامره والانتهاز عن معاصيه والرضا بما يقدره، فمن وقع فى معصية من فعل محرم أو ترك واجب فلتقصيره فى محبة الله حيث قدم هوى. نفسه والتقصير تارة يكون مع الإسترسال فى المباحات والإستكثار منها، فيورث الغفلة المقتضية للتوسع فى الرجاء فيقدم على المعصية أو تستمر الغفلة فيقع. وهذا الثانى يسرع إلى الإقلاع مع الندم. وإلى الثانى يشير حديث «لا يزنى الزانى وهو مؤمن» (٢) والندب أن يواظب على النوافل ويتجنب الوقوع فى الشبهات، والمتصف عموماً بذلك نادر. قال: وكذلك محبة الرسول على قسمين كما تقدم، ويزاد أن لا يتلقى شيئاً من المأمورات والمنهيات إلا من مشكاته، ولا يسلك إلا طريقته، ويرضى بما شرعه حتى لا يجد فى نفسه

(١) الفتح ٧٩، ٧٨/١ ط دار الحديث

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٥٧٨)، ومسلم فى الإيمان (١/٣١٧/١٠٠) عن أبى هريرة به.

وأنظر «فتح المجيد» (ح ٧٣٥) بتخريجنا

حرجاً مما قضاه، ويتخلق بأخلاقه فى الجود والإيثار والحلم والتواضع وغيرها، فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان، وتتفاوت مراتب المؤمنين بحسب ذلك.

وقال محبى الدين: هذا حديث عظيم أصل من أصول الدين. ومعنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات، وتحمل المشاق فى الدين، وإيثار ذلك على أعراض الدنيا، ومحبة العبد لله تحصل بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك الرسول وإنما قال «مما سواهما» ولم يقل «من» ليعم من يعقل ومن لا يغفل .

● إشكال وجوابه

قال النووى: وفيه دليل على أنه لا بأس بهذه التثنية. و أما قوله للذى خطب فقال ومن يعصهما «بنس الخطيب أنت»^(١) فليس من هذا، لأن المراد فى الخطب الإيضاح، وأما هنا فالمراد الإيجاز فى اللفظ ليحفظ، ويدل عليه أن النبى ﷺ حيث قاله فى موضع آخر قال «ومن يعصهما فلا يضر إلا نفسه»^(٢) واعترض بأن هذا الحديث إنما ورد أيضاً فى حديث خطبة النكاح، وأجيب بأن المقصود فى خطبة النكاح أيضاً الإيجاز فلا نقض. وثم أجوبة أخرى، منها دعوى الترجيح، فيكون حيز المنع أولى لأنه عام. والآخر يحتمل الخصوصية، ولأنه ناقل والآخر مبنى على أصل، ولأنه قول والآخر فعل . ورد بأن احتمال التخصيص فى القول أيضاً حاصل بكل قول. ليس فيه صيغة عموم أصلاً، ومنها دعوى أنه من الخصائص، فيمتنع من غير النبى ﷺ ولا يمتنع منه، لأن غيره إذا جمع أوهم إطلاقه التسوية، بخلافه هو فإن منصبه لا يتطرق إليه إيهام ذلك. وإلى هذا مال ابن عبد السلام . و منا دعوى التفرقة بوجه آخر وهو أن كلامه ﷺ هنا جملة واحدة فلا يحسن إقامة الظاهر فيها مقام المضمّر، وكلام الذى خطب جملتان لا يكره إقامة الظاهر فيهما مقام المضمّر، وتعقب هذا بأنه لا يلزم من كونه لا يكره إقامة الظاهر فيهما مقام المضمّر أن يكره إقامة المضمّر فيهما مقام الظاهر، فما وجه الرد على الخطيب مع أنه هو ﷺ جمع كما تقدم؟ ويجاب بأن قصة الخطيب - كما قلنا - ليس فيها صيغة عموم، بل هى واقعة عين، فيحتمل أن يكون فى ذلك المجلس من يخشى عليه توهم التسوية كما تقدم . ومن محاسن الأجوبة فى الجمع بين حديث الباب وقصة الخطيب أن تثنية الضمير هنا للإيماء إلى أن العتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة منهما، فإنها وحدها لاغية إذا لم ترتبط بالأخرى . فمن يدعى حب إليه مثلاً ولا يحب رسوله

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجمعة (٣/ ٤٢٠/ ٤٨) عن عدى بن حاتم به

وانظر «فقه الخطابة وزاد الخطيب» للمؤلف

(٢) أخرجه أبو داود (٢١١٩) عن ابن مسعود به .

لا ينفعه ذلك، ويشير إليه قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فأوقع متابعتة مكتسفة بين قطرى محبة العباد ومحبة الله تعالى للعباد. وأما أمر الخطيب بالإفراد فلأن كل واحد من العصيانيين مستقل باستلزام الغواية، إذ العطف فى تقدير التكرير، والأصل استقلال كل من المعطوفين فى الحكم، ويشير إليه قوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ فأعاد ﴿أَطِيعُوا﴾ فى الرسول ولم يعده فى أولى الأمر لأنهم لا استقلال لهم فى الطاعة كاستقلال الرسول. أنتهى ملخصاً من كلام البيضاوى والطيبى. ومنها أجوبة أخرى فيها تكلم: منها أن المتكلم لا يدخل فى عموم خطابه، ومنها أن له أن يجمع بخلاف غيره. أهـ.

قلت: وفيما قاله الإمام النووى إشكال وتعقبات للشيخ الألبانى فأنظرها فى كتابنا «فقه الخطابة» فى الباب الرابع، والله أعلم.

قال حامد بن محمد^(١): وأيضاً تستلزم المحبة: الحب فيه والبغض فيه والمولاه فيه والمعاداة فيه كما هو المشاهد المتعارف شرعاً وعرفاً ومن لم يكن كذلك فليس بصادق فى محبته ولو فعل ما فعل من الطاعة.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): قوله

«أن يكون الله ورسوله أحب إليه ما سواهما»، يعنى بالسوى: ما يحبه الإنسان بطبيعة كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوها، فتكون: أحب هنا على بابها. وأما المحبة الشركية - التى قد تقدم بيانها - فقليلها وكثيرها ينافى محبة الله ورسوله وفى بعض الأحاديث «أحبوا الله بكل قلوبكم». - وتقدم -

فمن علامات محبة الله ورسوله: أن يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله ويؤثر مرضاته على ماسواه. ويسعى فى ما يرضى ما استطاع ويبعد عما حرمه ويكرهه أشد الكراهة ويتابع رسوله ويمثل أمره ويترك نهيه كما قال تعالى ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

فمن أثر أمر غيره على أمره وخالف مانهى عنه فذلك علم على عدم محبة الله ورسوله فإن محبة الرسول من لوازم محبة الله. فمن أحب الله وأطاعة أحب الرسول وأطاعة ومن لا فلا. كما فى آية المحنة ونظائرها والله المستعان.

وانظر «فقه الخطابة وزاد الخطيب» للمؤلف

قلت: - يعنى عبدالرحمن آل الشيخ - ومجبة الله تعالى تستلزم مجبة طاعته فإنه يحب من عبده أن يطيعه والمحب يحب ما يحبه محبوبه ولا بد.

ومن لوازم مجبة الله أيضاً. مجبة أهل طاعته كمجبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده فمجبة ما يحبه الله ومن يحبه الله من كمال الإيمان كما فى حديث ابن عباس الآتى. أهـ.

قوله «وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله»

قال يحيى بن معاذ^(١): حقيقة الحب فى الله أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء أهـ
قال ابن عثيمين^(٢):

قوله «وأن يحب المرء» يشمل الرجل والمرأة.

قوله: «لا يحبه إلا الله»: اللام للتعليل؛ أى: من أجل الله؛ لأنه قائم بطاعة الله - عز وجل -.

وحب الإنسان للمرء له أسباب كثيرة: يحبه للدنيا، ويحبه للقرابة، ويحبه للزمالة، ويحب المرء زوجته للاستمتاع، ويحب من أحسن إليه، لكن إذا أحببت هذا المرء لله؛ فإن ذلك من أسباب وجود حلاوة الإيمان. أهـ.

قوله «وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذا أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار»
قال ابن حجر^(٣): قوله «وأن يكره أن يعود فى الكفر».

زاد أبو نعيم فى المستخرج من طريق الحسن بن سفيان عن محمد بن المشنى شيخ البخارى «بعد إذا أنقذه الله منه» وكذا هو فى طريق أخرى للبخارى، والإنقاذ أعم من أن يكون بالعصمة منه ابتداء بأن يولد على الإسلام ويستمر أو بالإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان كما وقع لكثير من الصحابة وعلى الأول فيحمل قوله يعود على معنى الصيرورة بخلاف الثانى فإن العود فيه ظاهره.

فإن قيل: فلم عدى العود بفى ولم يعده بإلى؟ فالجواب أنه ضمنه معنى الاستقرار وكأنه قال يستقر فيه ومثله قوله تعالى «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا»

● تنبيه: استدل به على فضل من أكره على الكفر فترك ذلك إلى أن قتل وأخرجه من

(٢) القول المفيد ٢/ ١٨٨

(١) الفتح ١/ ٧٩ ط دار الحديث

(٣) الفتح ١/ ٧٩، ٨٠

هذا الوجه في الأدب في فضل الحب في الله ولفظه في هذه الرواية: «وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه» وهي أبلغ من لفظ حديث الباب لأنه سوى فيه بين الأمرين وهنا جعل الوقوع في نار الدنيا أولى من الكفر الذي أنقذه الله بالخروج منه من نار الأخرى وكذا رواه مسلم من هذا الوجه، وصرح النسائي في روايته والإسماعيلي بسماع قتادة له من أنس والله الموفق وأخرجه النسائي من طريق طلق بن حبيب عن أنس وزاد في الخصلة الثانية ذكر البغض في الله ولفظه: «وأن يحب في الله ويبغض في الله»^(١) وقد تقدم البخاري ترجمته «والحب في الله والبغض في الله من الإيمان» وكأنه أشار بذلك إلى هذه الرواية والله أعلم.

وقال أيضاً (٢):

سوى - أي البخاري - في ترجمة باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر بين كراهية الكفر وكراهية دخول النار، والقتل والضرب والهوان أسهل عند المؤمن من دخول النار فيكون أسهل من الكفر إن اختار الأخذ بالشدة، ذكره ابن بطلال وقال أيضاً: فيه حجة لأصحاب مالك، وتعقبه ابن التين بأن العلماء متفقون على اختيار القتل على الكفر، وإنما يكون حجة من يقول إن التلفظ بالكفر أولى من الصبر على القتل، ونقل عن المهلب أن قوماً منعوا من ذلك واحتجوا بقوله تعالى «ولا تقتلوا أنفسكم» الآية، ولا حجة فيه لأنه قال تلو الآية المذكورة «ومن يفعل ذلك عدونا وظلماً» فقيده بذلك، وليس من أهلك نفسه في طاعة الله ظالماً ولا معتدياً.

وقد أجمعوا على جواز تقحم المهالك في الجهاد انتهى، وهذا يقدر في نقل ابن التين الاتفاق المذكور وأن ثم من قال بأولوية التلفظ على بذل النفس للقتل، وإن كان قائل ذلك يعمم فليس بشيء، وإن قيده بمالو عرض ما يرجح المفضل كما لو عرض على من إذا تلفظ به نفع متعدد ظاهراً فينتجه.

قال ابن عثيمين (٣):

قوله: «وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار». هذه الصورة في كافر أسلم؛ فهو يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار، وإنما ذكر هذه الصورة؛ لأن الكافر يألف ما كان عليه أولاً؛ فربما يرجع إليه، بخلاف من لا يعرف الكفر أصلاً.

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٧١٨)

(٣) القول المفيد ٢/ ١٨٨، ١٨٩

(٢) الفتوح ١٢/ ٣٣١

فمن كره العود فى الكفر كما يكره القذف فى النار؛ فإن هذا من أسباب وجود حلاوة الإيمان.

قوله: «وفى رواية: لا يجد أحد حلاوة الإيمان».

قال عبدالرحمن آل الشيخ: قوله : وفى رواية (لا يجد أحد) هذه الرواية أخرجه البخارى فى الأدب من صحيحه : ولفظه «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا الله، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه وحتى أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما». وقد تقدم أن المحبة هنا: عبارة عما يجده المؤمن من اللذة والبهجة والسرور؛ والإجلال والهيبة ولوازم ذلك . قال الشاعر:

أهابك إجلالا وما بك قدرة على ولكن ملء عين حبيبها. اهـ

أتى المؤلف بهذه الرواية؛ لأن انتفاء وجدان حلاوة الإيمان بالنسبة للرواية الأولى عن طريق المفهوم، وهذه عن طريق المنطوق، ودلالة المنطوق أقوى من دلالة المفهوم. أهـ

قال سليمان آل الشيخ (١): قال شيخ الإسلام:

أخبر النبى ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأن وجود الحلاوة للشئ يتبع المحبة له فمن أحب شيئاً واشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك. واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذى هو المحبوب أو المشتهى قال : فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح يتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور تكميل هذه المحبة وتفريعها ودفع ضدها. فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فإن محبة الله ورسوله، لا يكتفى فيها بأصل الحب، بل لابد أن يكون الله ورسوله، أحب إليه مما سواهما.

قلت - يعنى سليمان آل الشيخ -: ولا يكون كذلك، إلا إذا وافق ربه، فيما يحبه وما يكرهه، وقال : وتفريعها أن يحب المرء لا يحبه إلا الله.

قلت - يعنى سليمان آل الشيخ -: فإن من أحب مخلوقاً لله، لا لغرض آخر، كان هذا من تمام حبه لله، فإن محبة محبوب المحبوب، من تمام محبة المحبوب، فإذا أحب أنبياء الله، وأوليائه، لأجل قيامهم بمحوبات الله، لالشئ آخر، فقد أحبه الله لالغيره قال: ودفع ضدها أن يكره ضد الإيمان، كما يكره أن يقذف فى النار.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٥٤، ٣٥٥

قلت - يعنى سليمان آل الشيخ - : وإنما كره الضد، لما دخل قلبه من محبة الله، فانكشف له بنور المحبة محاسن الإسلام، ورذائل الجهل، والكفران، وهذا هو المحب الذى يكون مع من أحب.

كما فى «الصحيحين» عن أنس قال : قال رجل : يا رسول الله متى الساعة؟ قال : «وما أعددت لها؟» قال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ : «أنت مع من أحببت»^(١) وفى رواية للبخارى فقلنا : ونحن كذلك، قال : نعم . قال أنس : ففرحنا يومئذ، فرحاً شديداً.^(٢) أهـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣) : قوله (كما يكره أن يقذف فى النار).

أى يستوى عنده الأمان وفيه : رد على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص فى حقه مطلقاً وإن تاب منه .

والصواب : أنه إن لم يتب كان نقصاً وإن تاب فلا ولهذا كان المهاجرون والأنصار أفضل هذه الأمة مع كونهم فى الأصل كفاراً فهداهم الله إلى الإسلام . والإسلام يحو ما قبله كذلك الهجرة كما صح الحديث بذلك. أهـ

فوائد الحديث:

قال سليمان آل الشيخ^(٤) : وفى الحديث من الفوائد، أن الله تعالى يحبه المؤمنون، وهو تعالى يحبهم، كما قال : «يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ»

وفيه رد ما يظنه بعض الناس، من أنه من ولد على الإسلام؛ أفضل ممن كان كافراً فأسلم، فمن اتصف بهذه الأمور؛ فهو أفضل ممن لم يتصف بهامطلقاً، ولهذا كان السابقون الأولون، أفضل ممن ولد على الإسلام.

وفيه رد على الغلاة، الذى يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص فى حقه مطلقاً، والصواب أنه إن لم يتب كان نقصاً وإن تاب فلا، ولهذا كان المهاجرون والأنصار، أفضل هذه الأمة، وإن كانوا فى أول الأمر كفاراً يعبدون الأصنام، بل المنتقل من الضلال إلى الهدى، ومن السيئات إلى الحسنات، يضاعف له الثواب، قاله شيخ الإسلام.

وفيه دليل على عداوة المشركين وبغضهم؛ لأن من أبغض شيئاً أبغض من اتصف به، فإذا كان يكره الكفر كما يكره أن يلقى فى النار، فكذلك يكره من اتصف به. أهـ



(١) تقدم تخريجه

(٢) ما قبله

(٣) فتح المجيد ٥٦٧، ٥٦٦/٢

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٥٦

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَوَالَّى فِي اللَّهِ، وَعَادَى فِي اللَّهِ، فَإِنَّمَا تَنَالُ وَلَايَةَ اللَّهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ - حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُوَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا»^(١) رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

● مناسبة هذا الأثر للباب والتوحيد (٢):

حيث أفاد الأثر أن ابن عباس - رضى الله عنه - يرى أن المحبة عبادة وصرف العبادة لغير الله شرك

وقال ابن عباس رضى الله عنه - فى قوله تعالى «وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ» قال المودة. اهـ وسيأتى الأثر الثانى بعد قريباً.

قوله «من أحب فى الله»

قال ابن عثيمين (٣):

من : شرطية، وفعل الشرط أحب، وجوابه جملة: «فإنما تنال ولاية الله بذلك».

و«فى»: يحتمل أن تكون للظرفية؛ لأن الأصل فيها الظرفية، ويحتمل أن تكون للسببية؛ لأن «فى» تأتى أحياناً للسببية؛ كما فى قوله ﷺ: «دخلت امرأة النار فى هرة»^(٤)، أى : بسبب هرة.

وقوله: «فى الله».

أى : من أجله، إذا قلنا: إن فى للسببية، وأما إذا قلنا: إنها للظرفية؛ فالمعنى : من أحب فى ذات الله؛ أى : فى دينه وشرعه لا لعرض الدنيا. اهـ

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠/٣٣٤٤ ح/١٨٨٤٨) عن ابن عباس به

وأخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١٢/٤١٧ ح/١٣٥٣٧) عن ابن عمر موقوفاً.

وأخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (١/٣١٢)

من طريق ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن ابن عمر مرفوعاً

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (١/٩٠) وقال رواه الطبرانى فى الكبير» وفيه ليث بن أبى سليم والاكثرون على ضعفه .

وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٦/٢٧٤) ونسبه لابن أبى شيبه و الحكييم الترمذى فى «نوارى الأصول» وأنظر «فتح المجيد» (ح ٦٤٠ بتخریجنا)

(٢) الجديد ٢٨٥ .

(٣) القول المفيد ٢/ ١٩٠

(٤) سبق تخريجه

قال سليمان آل الشيخ (١):

قوله «من أحب في الله» أى أحب المسلمين والمؤمنين في الله . أهـ
قلت: وتقدم فى الباب الخامس علاقة شهادة أن لا إله إلا الله بالحب في الله ،
والبغض في الله ، وتقدم صوره هذه الموالاة والمعاداة فليُنظر فيه مع هذا الموضع تجد فوائد
غزيرة والله المستعان .

قوله «وأبغض في الله» .

قال سليمان آل الشيخ (٢):

قوله: (وأبغض في الله) أى: أبغض الكفار والفاسقين في الله لمخالفتهم لربهم وإن
كانوا أقرب الناس إليه كما قال تعالى ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ الآية .

قال ابن عثيمين (٣):

قوله: «وأبغض في الله»

البغض الكره؛ أى : أبغض في ذات الله إذا رأى من يعصى الله كرهه .
وفرق بين «فى» التى للسببية و«فى» التى للظرفية؛ فالسببية الحامل له على المحبة أو
البغضاء هو الله ، والظرفية موضع الحب أو الكراهة هو فى ذات الله - عز وجل -؛
فيبغض من أبغضه الله ، ويحب من أحبه .

قوله «ووالى فى الله»

قال سليمان آل الشيخ (٤):

قوله: ووالى فى الله: هذا بيان للآزم المحبة فى الله وهو الموالاة فيه إشارة إلى أنه لا
يكفى فى ذلك مجرد الحب، بل لابد مع ذلك من الموالاة التى هى لازم الحب ، وهى
النصرة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين باطناً وظاهراً. أهـ

قال ابن عثيمين (٥):

الموالاة : هى المحبة والنصرة وما أشبه ذلك أهـ .

قوله «وعادى فى الله»

قال سليمان آل الشيخ (٦):

قوله : (وعادى فى الله) هذا بيان للآزم البغض فى الله وهو المعاداة فيه أى: إظهار

وذكره السيوطى فى «الدر المشور» (٦/ ٢٧٤) ونسبه لابن أبى شيبة و الحكيمة الترمذى فى «نوادير
الأصول» وأنظر «فتح المجيد» (ج ٦٤٠) بتخريجنا
(٢) الجديد ٢٨٥ . (٣) القول المفيد ٢/ ١٩٠ . (٤) سبق تخريجه

العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله والبراء منهم، والبعد عنهم باطناً وظاهراً إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾

فهذا علامة الصدق في البغض في الله . أهـ

قال ابن عثيمين^(١):

قوله: «وعادى في الله»

المعاداة ضد الموالات؛ أى : يتعد عنهم ويبغضهم ويكرههم في الله .

قوله: «فإنما تنال ولاية الله بذلك»

قال سليمان آل الشيخ^(٢):

قوله : (فإنما تنال ولاية الله بذلك): يجوز فتح الواو وكسرهما أى: لا يكون العبد من أولياء الله ولا تحصل له ولاية الله إلا بما ذكر من الحب فى الله، والبغض فى الله، والموالات فى الله والمعاداة فى الله .

كما روى الإمام أحمد والطبرانى عن النبى ﷺ قال: «لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب الله ويبغض الله، فإذا أحب الله وأبغض الله فقد استحق الولاية لله»^(٣) .

وفى حديث آخر : «أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله عز وجل»^(٤) رواه الطبرانى وغيره . وينبغى لمن أحب شخصاً فى الله أن يأتبه فى بيته فيخبره أنه يحبه فى الله .

كما روى أحمد والضياء عن أبى ذر مرفوعاً: «إذا أحب أحدكم صاحبه فيأته فى منزله فليخبره أنه يحبه لله»^(٥) وفى حديث ابن عمر عند البيهقى فى «الشعب» «فإنه يجد مثل الذى يجد له»^(٦) .

(١) القول المفيد ١٩١/٢

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٥٧، ٣٥٨

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٣٠ / ٣) قال الهيثمى فى «المجمع» (٨٩ / ١): وفيه رشدين بن سعد

وهو منقطع ضعيف - وأنظر «فتح المجيد» (ح ٦٤١) بتخريجنا

(٤) تقدم تخريجه فى مبحث الولاء والبراء وأنظر «فتح المجيد» (ح ٦٤٢) بتخريجنا

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٥ / ٥) وفيه ابن لهيعة

(٦) أخرجه البيهقى فى «الشعب» (٩٠ / ١٠) عن ابن عمر به

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «فإنما تنال ولاية الله بذلك».

هذا جواب الشرط؛ أى : يدرك الإنسان ولاية الله ويصل إليها؛ لأنه جعل محبته وبغضه وولايته ومعاداته لله.

وقوله «ولاية».

يجوز فى الواو وجهان: الفتح والكسر، قيل :معناها واحد، وقيل : بالفتح بمعنى النصرة، قال تعالى ﴿من ولايتهم من شيء﴾ ، بالكسر بمعنى الولاية على الشيء .
قوله «بذلك».

الباء للسببية، والمشار إليه الحب فى الله والبغض فيه، والموالاتة فيه والمعاداة فيه .
وهذا الأثر موقوف، لكنه بمعنى المرفوع؛ لأن ترتيب الجزاء على العمل لا يكون إلا بتوقيف، إلا أن الأثر ضعيف.

فمعنى الحديث: أن الإنسان لا يجد طعم الإيمان وحلاوته ولذته حتى يكون كذلك، ولو كثرت صلاته وصومه، وكيف يستطيع عاقل فضلاً عن مؤمن أن يوالى أعداء الله، فىرى أعداء الله يشركون به ويكفرون به ويصفونه بالنقائص والعيوب، ثم يوالىهم ويحبهم؟! فهذا لو صلى وقام الليل كله وصام الدهر كله؛ فإنه لا يمكن أن ينال طعم الإيمان، فلا بد أن يكون قلبك مملوءاً بمحبة الله وموالاته، ويكون مملوءاً ببغض أعداء الله ومعاداتهم، وقال ابن القيم رحمه الله تعالى :

أُحِبُّ أَعْدَاءَ الْحَبِيبِ وَتَدَعَى حُبَّ لَهُ مَا ذَاكَ فِى إِمْكَانٍ

قلت: ولعل الشيخ ابن عثيمين: استفاد من كلام الشيخ سليمان الآتى بعده.
وقال الإمام أحمد رحمه الله: «إذا رأيت النصرانى أغمض عينى؛ كراهة أن أرى بعينى عدو الله».

هذا الذى يجد طعم الإيمان، أما - والعياذ بالله - الذى يرى أن اليهود أو النصارى على دين مرضى ومقبول عند الله بعد بعثة النبى ﷺ؛ فهو خارج عن الإسلام، مكذب بقول الله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢) وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٣) وقوله ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٤) ولكثرة

(٢) المائدة: ٣

(١) القول المفيد ٢/ ١٩١، ١٩٢.

(٤) آل عمران: ٨٥

(٢) آل عمران: ١٩

اليهود والنصارى والوثنيين صار فى هذه المسألة خطر على المجتمع، وأصبح كثير من الناس الآن لا يفرق بين مسلم وكافر، ولا يدرى أن غير المسلم عدو لله - عزوجل - ، بل هو عدو له أيضاً؛ لقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾^(١)؛ فهم أعداء لنا ولو تظاهروا بالصدقة، قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

فالآن أصبحنا فى محنة وخطر عظيم؛ لأنه يخشى على أبنائنا وأبناء قومنا أن يركنوا إلى هؤلاء ويوادوهم يحبوهم، ولذلك يجب أن تخلص هذه البلاد بالذات منهم؛ فهذه البلاد قال فيها الرسول ﷺ: «أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً»^(٣)، وقال: «أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب»^(٤)، وقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»^(٥)، وهذا كله من أجل أن لا يشتبه الأمر على الناس ويختلط أولياء الله بأعدائه. أهـ

قوله : «ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك»
قال سليمان آل الشيخ^(٦):

قوله : (ولن يجد عبد طعم الإيمان) إلى آخره، أى : لا يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يحب فى الله، ويبغض فى الله، ويعادى فى الله، ويوالى فى الله، وهذا متزع من حديث أنس السابق.

وفى حديث أبى أمامة مرفوعاً «من أحب الله، وأبغض الله، وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان»^(٧) رواه أبو داود. والعجب ممن يدعى محبة الله وهو على خلاف ذلك، وما أحسن ما قال ابن القيم:

أُحِبُّ أَعْدَاءَ الْحَبِيبِ وَتَدَعَى حُبَّاهُ مَا ذَاكَ فِى إِمْكَانِ

(١) المتنحة: ١

(٢) المائدة: ٥١

(٣) [صحيح] أخرجه : مسلم فى الجهاد (٦/ ٣٣٥/ ٦٣) عمر بن الخطاب عن به .

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٠٥٣)، ومسلم فى الوصية (٦/ ١٠٠/ ٢٠) والحديث الذى بعده

بلفظ الحديث

(٦) تيسير العزيز الحميد ٣٥٨

(٥) ما قبله

(٧) أبو داود (٤٦٨١) عن أبى أمامة به وأنظر «فتح المجيد» (٦٤٣) بتخريجنا

قوله «وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدى على أهله شيئاً».

قال سليمان آل الشيخ^(١):

أى: المؤاخاة على أمر الدنيا لا يجدى على أهله شيئاً أى: لا ينفعهم أصلاً بل يضرهم كما قال تعالى ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فهذا حال كل خلة ومحنة كانت فى الدنيا على غير طاعة الله فإنها تعود عداوة وندامة يوم القيامة بخلاف المحبة والخلة على طاعة الله فإنها من أعظم القربات كما جاء فى: حديث السبعة الذين يظلمهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله قال: «ورجلان تحاباً فى الله اجتمعاً عليه وتفرقاً عليه». ^(٢) أهـ

قال ابن عثيمين^(٣):

قوله: «وقد صار عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدى على أهله شيئاً»
قوله «عامة»

أى: أغلبية.

وقوله: «مؤاخاة الناس».

أى: مودتهم ومصاحبتهم.

أى: أكثر مودة الناس ومصاحبتهم على أمر الدنيا، وهذا قاله ابن عباس، وهو بعيد العهد منا قريب العهد من النبوة، فإذا كان الناس قد تغيروا فى زمنه؛ فما بالك بالناس اليوم؟

فقد صارت مؤاخاة الناس - إلا النادر - على أمر الدنيا، بل صار أعظم من ذلك، يبيعون دينهم بدنياهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ^(٤)، ولما كان غالب ما يحمل على الخيانة هو المال وحب الدنيا أعقبها بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٥). أهـ

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٥٩، ٣٦٠.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٧٩)، ومسلم فى الزكاة (١٢٠ / ٧) - النووي) عن أبى هريرة به وانظر «رياض الصالحين» (٣٧٧) - بتخریجنا).

(٤) الأنفال: ٢٧

(٣) القول المفيد ١٩٣/٢ - ١٩٥

(٥) الأنفال: ٢٨

قلت: ومن صور الموالاة على أمر الدنيا أن يحب الرجل لأنه سيزوجه قريبه أو غريبه وإن كان هذا الرجل شيخاً أو عالماً يحب لعلمه أو دعوته أو يحبه لأنه يبحث له عن عمل أو سيعطيه مالا ولو على سبيل القرض أو المصلحة من مصالح الدنيا لا الدين مثل وجاهته ورياسته فى الدنيا أو وظيفته.

فوائد الأثر

قال ابن عثيمين ويستفاد من أثر ابن عباس رضى الله عنهما:

أن لله تعالى أولياء، وهوثابت بنص القرآن، قال تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٢)، فله أولياء يتولون أمره وقيمون دينه، وهويتولاهم بالمعونة والتسديد والحفظ والتوفيق، والميزان لهذه الولاية قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ^(٤).

قال شيخ الإسلام: «من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً»، والولاية سبق أنها النصرة والتأييد والإعانة.

والولاية تنقسم إلى : ولاية من الله للعبد، وولاية من العبد لله؛ فمن الأولى قوله تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٥)، ومن الثانية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾^(٦).

والولاية التى من الله للعبد تنقسم إلى عامة وخاصة؛ فالولاية العامة هى الولاية على العباد بالتدبير والتصريف، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق؛ فالله هو الذى يتولى عبادته بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالى ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾^(٧).

والولاية الخاصة : أن يتولى الله العبد بعنايته وتوقيفه وهدايته، وهذه خاصة

(١) البقرة : ٢٥٧

(٢) المائدة : ٥٥

(٣) يونس: ٦٢

(٤) البقرة : ٢٥٧

(٥) المائدة: ٥٦

(٦) الأنعام : ٦٢

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾^(١) قَالَ: (المودة)^(٢).

بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾^(٣). وقال ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ^(٥).
قال ابن باز^(٥):

بل قد يضرهم إذا صدهم عن الحق وخالف شرع الله أما إذا اشتغلوا بالدنيا في البيع والشراء وطلب الرزق وكان لا يضر إيمانهم ولا يوقعهم في المعاصي ويستعينون بذلك على طاعة الله فهذا لا حرج فيه. أهـ



قوله: [وقال ابن عباس في قوله تعالى.....]

قال سليمان آل الشيخ^(٦): هذا الأثر رواه عبد بن حميد، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه. أهـ

● مناسبة تفسير ابن عباس للباب والتوحيد:

قال القرعاوى^(٧): حيث أفاد تفسير ابن عباس لآية أن المودة إذا لم تكن لله سيخسرها صاحبها يوم القيامة لأنها إشراك مع الله في المحبة. أهـ
قوله: «وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - في قوله ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قال «المودة».

قلت: الأثر أخرجه ابن جرير في «تفسيره» وابن أبي حاتم في «تفسيره»، والحاكم في «المستدرک» وصححه.

(١) البقرة: ١٦٦.

(٢) أخرجه ابن جرير (٤٣/٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٧٨/١ ح ١٤٩٢)، والحاكم في «المستدرک» (٢٧٢/٢).

عن طريق أبي عاصم عن عيسى قال أخبرني قيس بن سعد عن عطاء عن ابن عباس... فذكره.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣٠٤/١) ونسبه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي

حاتم والحاكم وصححه.

وانظر ابن أبي حاتم بتخريجنا و«فتح القدير» (١١٣٧ ح) و«فتح المجيد» (٦٤٦ ح) بتخريجنا

(٣) البقرة: ٢٥٧ (٤) يونس: ٦٢ (٥) التعليق الفيد ١٧٥.

(٦) تيسير العزيز الحميد ٣٦٠. (٧) الجديد ٢٨٢.

قال ابن عثيمين (١):

يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

الأسباب: جمع سبب، وهو كل ما يتوصل به إلى شيء..

وفى اصطلاح الأصوليين: ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم؛ فكل ما يوصل إلى شيء، فهو سبب، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾، ومنه سُمِيَ الحبل سبباً؛ لأن الإنسان يتوصل به إلى استخراج الماء من البئر. اهـ

قلت وتقدم في باب بيان أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم الغلو في الصالحين. قوله: «المودة».

قال سليمان آل الشيخ (٢):

المودة: أي: المحبة التي كانت بينهم في الدنيا تقطعت بهم وخانتهم أحوج ما كانوا إليها وتبرأ بعضهم من بعض. كما قال تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام: أنه قال لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ وهذه الآية وإن كانت نزلت في المشركين عباد الأوثان الذين يحبون أندادهم وأوثانهم كحب الله، فإنها عامة لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ولهذا قال قتادة: وتقطعت بهم الأسباب قال: أسباب الندامة يوم القيامة والأسباب المواصلات التي يتواصلون بها ويتحابون بها فصارت عداوة يوم القيامة، يلعن بعضهم بعضاً. رواه عبد بن حميد وابن جرير فهذا حال من كانت مودته لغير الله فاحذر من ذلك. أهـ

قال ابن عثيمين (٣):

هذا الأثر ضعفه بعضهم، لكن معناه صحيح؛ فإن جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون لتنجيهم تقطع بهم، ومنها محبتهم لأصنامهم وتعظيمهم إياها؛ فإنها

(١) القول المفيد ١٩٦/٢.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٦٠.

(٣) القول المفيد ١٩٦/٢ و ١٩٧.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (البقرة).

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ (براءة).

الثالثة: وَجُوبُ مُحِبَّتِهِ ﷺ عَلَى النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ.

لا تنفعهم، ولعل ابن عباس رضى الله عنهما أخذ ذلك من سياق الآيات؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ...﴾، ثم قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

وبه تعرف أن مراده المودة الشريكية، فأما المودة الإيمانية كمودة الله تعالى ومودة ما يحبه من الأعمال والأشخاص؛ فإنها نافعة موصلة للمراد، قال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ...﴾ الآية.



قال ابن عثيمين^(١):

قوله: فيه مسائل:

● الأولى: تفسير آية البقرة.

وهى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، وسبق ذلك.

● الثانية: تفسير آية براءة.

وهى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ الآية، وسبق تفسيرها.

● الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال.

وفى نسخة: «وتقديمها على النفس والأهل والمال».

ولعل الصواب: وجوب تقديم محبته كما هو مقتضى الحديث، وأيضاً قوله: «على النفس» يدل على أنها قد سقطت كلمة تقديم أو وتقدمها، وتؤخذ من حديث أنس السابق ومن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

(٤) القول المفيد ٢/ ١٩٧ و ١٩٩.

الرابعة: أن نفى الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.
الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فذكر الأقارب والأموال.

● الرابعة: أن نفى الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

سبق أن المحبة كسبية، وذكرنا في ذلك حديث عمر رضى الله عنه لما قال للرسول ﷺ: «والله إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي». فقال له ومن نفسك. فقال: الآن، أنت أحب إلي من نفسي»، وقوله: «الآن» يدل على حدوث هذه المحبة، وهذا أمر ظاهر، وفيه أيضاً أن نفى الإيمان المذكور في قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده...» لا يدل على الخروج من الإسلام؛ لقوله في الحديث الآخر: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان»؛ لأن حلاوة الإيمان أمر زائد على أصله؛ أي: إن الدليل مركب من الدليلين.

ونفى الشيء له ثلاث حالات: فالأصل أنه نفى للوجود، وذلك مثل: «لا إيمان لعبايد صنم»، فإن منع مانع من نفى الوجود؛ فهو نفى للصحة، مثل: «لا صلاة بغير وضوء»^(١)، فإن منع مانع من نفى الصحة؛ فهو نفى للكمال، مثل: «لا صلاة بحضرة طعام»^(٢)؛ فقوله: «لا يؤمن أحدكم» نفى للكمال الواجب لا المستحب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لا ينفي الشيء إلا لانتفاء واجب فيه ما لم يمنع من ذلك مانع».

● الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.

تؤخذ من قوله: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان»، وهذا دليل انتفاء الحلاوة إذا انتفت هذه الأشياء.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الطهارة (٣/ ١٠٢ - النووي) عن ابن عمر به.

وانظر «منار السيل» (١٤٨ - بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في المساجد (٥/ ٤٦ - ٥٦٠) عن عائشة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧٥٦ - بتخريجنا).

السادسة: أَعْمَالُ الْقَلْبِ الْأَرْبَعِ الَّتِي لَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللَّهِ إِلَّا بِهَا، وَلَا يَجِدُ أَحَدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِهَا.

السابعة: فَهْمُ الصَّحَابِيِّ لِلْوَاقِعِ، أَنَّ عَامَّةَ الْمُوَاخَاةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا.

الثامنة: تَفْسِيرُ «تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ».

التاسعة: أَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ يَحِبُّ اللَّهُ حُبًّا شَدِيدًا.

● السادسة: أعمال القلب الأربعة التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

وهي: الحب في الله، والبغض في الله، والولاء في الله، والعداء في الله. لا تنال ولاية الله إلا بها، فلو صلى الإنسان وصام ووالى أعداء الله؛ فإنه لا ينال ولاية الله، قال ابن القيم:

أُحِبُّ أَعْدَاءَ الْحَبِيبِ وَتَدَعَى حُبًّا لَهُ مَا ذَاكَ فِي إِمْكَانٍ

وهذا لا يقبله حتى الصبيان أن توالى من عاداهم.

وقوله: «ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها» مأخوذة من قول ابن عباس: «ولن يجد عبد طعم الإيمان...» إلخ.

● السابعة: فهم الصحابي للواقع أن عامة المواخاة على أمر الدنيا.

الصحابي يعنى به ابن عباس رضى الله عنهما، وقوله: «إن عامة المواخاة على أمر الدنيا»، هذا في زمنه؛ فكيف بزماننا؟! اهـ

قلت: وفيه أن دراسة الواقع لفهمه أمر سلفى وليس بدعى وأنه لا بد منه مع العلم الشرعى للضمان من الزلل في الفتوى أو الحكم بوجه عام وعلى الناس بوجه خاص فإذا كان معه العلم الشرعى مع فهمه للواقع الذى يسقط عليه هذا العلم أصاب وإلا أخطأ والله أعلم.

● الثامنة: تفسير قوله: «وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ».

فسرها بالمودة، وتفسير الصحابي إذا كانت الآية من صيغ العموم تفسير بالمثل؛ لأن العبرة فى نصوص الكتاب والسنة بعموماتها، فإذا ذكر فرد من أفراد هذا العموم؛ فإنما يقصد به التمثيل، أي: مثل المودة، لكن حتى الأسباب الأخرى التى يتقربون بها إلى الله وليست بصحيحة؛ فإنها تقطع بهم ولا ينالون منها خيراً.

العاشرة: الوعيدُ عَلَى مَنْ كَانَ الثَّمَانِيَةَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِهِ.

الحادية عشرة: أَنْ مَنْ اتَّخَذَ نَدًا تَسَوَّى مَحَبَّتُهُ مَحَبَّةَ اللَّهِ، فَهُوَ الشَّرُّ الْأَكْبَرُ.

[قلت]: وهذا مؤدى قول شيخ الإسلام فى «مقدمة التفسير» حيث قال فى اختلاف التنوع أنه نوعان الثانى أن يذكر كل واحد من المختلفين من الأسم العام بعض أفرادهِ على سبيل التمثيل لاسبيل ذكر الحد المطابق للمحدود فى عمومهِ وخصوصهِ

● التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، وهم يحبون الأصنام حباً شديداً، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا﴾؛ فأشد: اسم تفضيل يدل على الاشتراك بالمعنى مع الزيادة؛ فقد اشتركوا فى شدة الحب، وزاد المؤمنون بكونهم أشد حباً من هؤلاء لأصنامهم. اهـ

[قلت]: ومع حبهم الشديد لله لم ينفعهم ذلك لما أشركوا معه غيره فى هذه المحبة فما الظن بمن أحب الله حباً قليلاً بل بمن لم يحب الله أصلاً؟! بل ما الظن بمن يبغض الله ويعاديه؟!

● العاشرة: الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينهِ.

الثمانية هى المذكورة فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

والوعيد فى قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾؛ فأفاد المؤلف - رحمه الله - تعالى أن الأمر هنا للوعيد.

● الحادية عشرة: أن من اتخذ ندأ تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، ثم بيّن فى سياق الآيات أنهم مشركون شركاً أكبر، بدليل ما لهم من العذاب. اهـ

[قلت]: فمن باب أولى من أحب الشركاء أكثر من الله أو من لم يحب الله أو عاداه أشرك شرك أكبر والله أعلم.



باب (٣١)

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ﴾ (١).

- مناسبة الباب لما قبله:

قال ابن عثيمين (٢).

● مناسبة الباب لما قبله: أن المؤلف - رحمه الله - أعقب باب المحبة بباب الخوف؛

لأن العبادة تركز على شيئين: المحبة، والخوف.

فبالمحبة يكون امتثال الأمر، وبالخوف يكون اجتناب النهي، وإن كان تارك المعصية

يطلب الوصول إلى الله، ولكن هذا من لازم ترك المعصية، وليس هو الأساس.

فلو سألت من لا يزني لماذا؛ لقال: خوفاً من الله.

ولو سألت الذى يصلى؛ لقال: طمعاً فى ثواب الله ومحبة له.

وكل منهما ملازم للآخر؛ فالخائف والمطيع يريدان النجاة من عذاب الله والوصول

إلى رحمته. اهـ.

مناسبة الباب للتوحيد

قال ناصر السعدى (٣): هذا الباب عقده المصنف - رحمه الله - لوجوب تعلق الخوف

والخشية بالله وحده والنهي عن تعلقه بالمخلوقين وبيان أنه لا يتم التوحيد إلا بذلك أهـ.

قال ابن عثيمين (٤): ومناسبة الخوف للتوحيد أن من أقسام الخوف ما يكون شركاً

منافياً للتوحيد. اهـ.

- ماذا أراد المصنف بهذا الباب

قال ابن باز (٥): أراد المؤلف أن يبين وجوب خوف الله تعالى خوفاً يحمله على

الإخلاص له وأداء ما فرض عليه والوقوف عند حدوده. أهـ

(١) آل عمران ١٧٥.

(٢) القول المفيد ٢/٢٠٢.

(٣) القول السديد ٨٩.

(٤) القول المفيد ٢/٢٠٦.

(٥) التعليق المفيد (١٧٧).

بَيَانُ مَنْزِلَةِ الْخَوْفِ وَأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ مَقَامَاتِ الدِّينِ

قال سليمان آل الشيخ ^(١): الخوف من أفضل مقامات الدين وأجلها فلذلك قال المصنف على وجوب إخلاصه لله تعالى وقد ذكره الله تعالى في كتابه عن سادات المقربين من الملائكة والأولياء والصالحين قال الله تعالى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ ^(٢)

وقال الله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ^(٣)

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ^(٤) وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ ^(٥) وأمر بإخلاصه له فقال تعالى: ﴿وَأَيُّيَ فَارْهُوْنَ﴾ ^(٦)

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي﴾ ^(٧)

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ ^(٨)

- هل الأفضل للإنسان أن يغلب جانب الخوف أو يغلب جانب الرجاء؟

قال ابن عثيمين ^(٩): وهل الأفضل للإنسان أن يغلب جانب الخوف أو يغلب جانب الرجاء؟

اختلف في ذلك:

ف قيل: ينبغي أن يغلب جانب الخوف؛ ليحملة ذلك على اجتناب المعصية ثم فعل الطاعة.

وقيل: يغلب جانب الرجاء؛ ليكون متفانلاً، والرسول ﷺ كان يعجبه الفأل.

وقيل: في فعل الطاعة: يغلب جانب الرجاء؛ فالذي من عليه بفعل هذه الطاعة سيمن عليه بالقبول، ولهذا قال بعض السلف: إذا وفقك الله للدعاء؛ فانتظر الإجابة لأن

(٢) الأنبياء: ٢٨

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٦١)

(٣) النحل الآية: ٥٠.

(٤) المؤمنون: الآية ٥٧.

(٦) البقرة الآية: ٤٠

(٥) الأحزاب: الآية ٩٠

(٨) النحل الآية: ٥٢

(٧) المائدة الآية: ٤٤

(٩) القول المفيد ٢/ ٢٠٢ - ٢٠٤

الله يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١)، وفي فعل المعصية يغلب جانب الخوف؛ لأجل أن يمنعه منها ثم إذا خاف من العقوبة تاب.

وهذا أقرب شيء، ولكن ليس بذلك القرب الكامل؛ لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾^(٢)؛ أى: يخافون أن لا يقبل منهم، لكن قد يقال بأن هذه الآية يعارضها أحاديث أخرى؛ كقوله ﷺ في الحديث القدسي عن ربه: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني»^(٣).

وقيل: فى حال المرض يغلب جانب الرجاء، وفى حال الصحة يغلب جانب الخوف؛ فهذه أربعة أقوال.

وقال الإمام أحمد: ينبغى أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً؛ فأيهما غلب هلك صاحبه؛ أى: يجعلهما كجناحي الطائر، والجناحان للطائر إذا لم يكونا متساويين سقط. أهـ
وخوف الله تعالى درجات؛ فمن الناس من يغلو فى خوفه، ومنهم من يفرط، ومنهم من يعتدل فى خوفه.

والخوف العدل هو الذى يرد عن محارم الله فقط، وإن زدت على هذا؛ فإنه يوصلك إلى اليأس من روح الله.

ومن الناس من يفرط فى خوفه بحيث لا يردعه عما نهى الله عنه. أهـ

أقسام الخوف ودرجاته

قال الفقير:

والخوف فى الأصل ينقسم إلى قسمين:

أ - خوف السر، أو خوف العباد والتذلل والتعظيم والخضوع.

ب - الخوف الطبيعى.

فمن قسمه إلى أربعة أقسام كصاحب «التيسير» وعبدالله بن جابر الله والقرعاوى فإنما

ذلك باعتبار تقسيم كل قسم إلى قسمين، فخوف السر: ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الخوف من الله، أو من وعيده، وهو التأله والتعبد له، وهو من أعظم

الواجبات الإيمانية.

(٢) المؤمنون الآية: ٦٠.

(١) غافر الآية: ٦٠.

(٣) تقدم تخريجه

القسم الثاني: إن كان لغير الله كالوثن أو الطاغوت أو غائباً فهو الشرك.

والخوف الطبيعي ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إن كان يحمل على ترك واجب، كالجهاد، والأمر بالمعروف، وغير ذلك، فهو محرم.

القسم الثاني: إن كان لا يحمل على ذلك فهو مباح، وإن كاوهماً فينبغي أن يدفعه المؤمن.

ومن قسمه إلى ثلاثة أقسام فقط كابن باز، فلانما ذلك باعتبار تقسيمه لقسم دون الآخر.

واليك بيان ذلك:

قال سليمان آل الشيخ^(١): وهو - أى الخوف - على ثلاثة أقسام:-

أحدها: خوف السر وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك؛ بقدرته ومشيته سواء ادعى أن ذلك كرامة للمخوف بالشفاعة أو على سبيل الإستقلال، فهذا الخوف لا يجوز تعلقه بغير الله أصلاً لأن هذا من لوازم الإلهية، فمن اتخذ مع الله نداً يخافه هذا الخوف فهو مشرك. وهذا هو الذى كان المشركون يعتقدونه فى أصنامهم وآلهتهم ولهذا يخوفون بها أولياء الرحمن كما خوفوا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال لهم: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * ﴿٢﴾ وقال تعالى عن قوم هود إنهم قالوا له: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُون * ﴿٣﴾ وقال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ (٤) وهذا القسم هو الواقع اليوم من عباد القبور، فإنهم يخافون الصالحين بل الطواغيت كما يخافون الله بل أشد.

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٦١) ٥٢.

(٢) الأنعام الآية: ١٨.

(٣) هود الآية: ٥٤/٥٥.

(٤) الزمر الآية: ٣٦.

ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الإيمان كاذباً أو صادقاً فإن كان اليمين بصاحب التربة لم يقدم على اليمين إن كان كاذباً، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أخوف عنده من الله ولا ريب أن هذا ما بلغ إليه شرك الأولين بل جهد أيمانهم اليمين بالله تعالى، وكذلك لو أصاب أحداً منهم ظلم لم يطلب كشفه إلا من المدفونين في التراب. وإذا أراد أن يظلم أحداً فاستعاذ بالله أو بيته لم يعذه، ولو استعاذ بصاحب التربة أو بتربته لم يقدم عليه أحداً ولم يتعرض له بالأذى حتى أن بعض الناس أخذ من التجار أموالاً عظيمة أيام موسم الحاج، ثم بعد أيام أظهر الإفلاس فقام عليه أهل الأموال، فالتجأ إلى قبر في جدة يقال له المظلوم فما تعرض له أحد بمكروه خوفاً من سر المظلوم وأشباه هذا من الكفر، وهذا الخوف لا يكون العبد مسلماً إلا بإخلاصه لله تعالى وإفراده بذلك دون من سواه.

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بغير عذر إلا لخوف من الناس فهذا محرم وهو الذي نزلت فيه الآية المترجم لها وهو الذي جاء فيه: الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُتَكَبِّرَ أَنْ لَا تُغَيِّرَهُ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبَّ خَشِيتُ النَّاسَ فَيَقُولُ: إِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى» (*) رواه أحمد

الثالث: خوف وعيد الله الذي توعده به العصاة وهو الذي قال الله فيه: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٌ﴾ (١) وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٤) وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان، ونسبة الأول إليه كنسبة الإسلام إلى الإحسان وإنما يكون محموداً إذا لم يوقع في القنوط واليأس من روح الله، ولهذا قال شيخ الإسلام: هذا الخوف ما حجزك عن معاصي الله فما زاد على ذلك فهو غير محتاج إليه.

(*) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧/٣)، وابن ماجه (٤٠٠٨) عن أبي سعيد به.

وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٤٧) بتخريجنا.

(٢) الرحمن الآية: ٤٦

(١) إبراهيم الآية: ١٤

(٤) الإنسان الآية: ٧

(٣) الطور الآية: ٢٦

بقى قسم رابع: وهو الخوف الطبيعي كالخوف من عدو وسبع وهدم وغرق ونحو ذلك، فهذا لا يذم وهو الذى ذكره الله عن موسى عليه الصلاة والسلام فى قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾^(١) إذا تبين هذا فمعنى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أى يخوف أولياءه ويوهمكم أنهم ذو بأس وشدة أهـ. وتابعه على ذلك عبدالرحمن آل الشيخ^(٢).

قال حامد بن محمد بن حسن^(٣): واعلم أن الخوف خوفان:

الأول: خوف من الله وهذا الذى هو أحد جناحى طير الإيمان فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه. وهذا هو المأمور به وهو علامة الإيمان كما قال تعالى ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

والثانى: خوف مع الله بمعنى أنك تخاف من غيره مثل خوفه أو أشد كما ذكر الله فى شأن المنافقين إنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وهذا الخوف الشركى المنهى عنه الذى صاحبه يخلد فى النار ولا يكون هذا إلا لعدم إيمانه بالله وعظمته وجلاله وقهره وملكوته على جميع الخلق وقد ذم الله الذين جعلوا فتنه الناس كعذاب الله فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾^(٥) ومعلوم بالضرورة أنه إذا لاحظ ما يجرى عليه من محن الناس وفتنتهم عند نطقه بالحق وجعله كعذاب الله سواء حينئذ أرضاهم بسخط الله فيسخط عليه الله ويسخط عليه الناس. أهـ.

قال ناصر السعدى^(٦): ولا بد فى هذا الموضع من تفصيل يتضح به الأمر ويزول الإشتباه اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة وتارة يقع طبيعة وعادة وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته.

«فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه وكان يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سرى يزجر عن معصية من يخافه؛ كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله؛ لأنه

(١) القصص الآية: ٢١.

(٢) فتح المجيد (٢/٤٦٣-٤٦٤)

(٣) فتح الله اخميد المجيد ٣٥٣.

(٤) آل عمران الآية ١٧٥.

(٥) العنكبوت الآية: ١٠.

(٦) القول السديد ٩٠ و٩١.

أشرك فى هذه العبادة التى هى من أعظم واجبات القلب غير الله مع الله، وربما زاد على خوفه من غير الله على خوفه من الله».

وأيضاً فمن خشى الله وحده على هذا الوجه فهو مخلص موحد ومن خشى غيره فقد جعل لله نداً فى المحبة وذلك كمن يخشى من صاحب القبر أن يوقع به مكروهاً أو يغضب عليه فيسلبه نعمة أو نحو ذلك مما هو واقع من عباد القبور وإن كان الخوف طبيعياً كمن يخشى من عدو أوسع أو حية أو نحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهرى فهذا النوع ليس عبادة وقد يوجد من كثير من المؤمنين ولاينافى الإيمان.

وهذا إذا كان خوفاً محققاً قد انعقدت أسباب الخوف فليس بمذموم وإن كان هذا خوفاً وهمياً كالخوف الذى ليس له سبب أصلاً أوله سبب ضعيف فهذا مذموم يدخل صاحبه فى وصف الجبناء وقد تعود ﷺ من الجن فهو من الأخلاق الرذيلة ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا النوع حتى أن خواص المؤمنين وأقويائهم تنقلب المخاوف فى حقهم أمناً وطمأنينة لقوة إيمانهم وشجاعتهم القلبية وكمال توكلهم ولهذا أتبعه بهذا الباب. أهـ

قال عبدالله بن جابر الله^(١): وهو أربعة أنواع:

- ١- خوف الله تألهاً وتعبداً له وتقرباً إليه، وهو من أعظم واجبات الإيمان.
- ٢- خوف السر، وهو أن يخاف الإنسان من غير الله من وثن أو طاغوت أو ميت أو غائب أن يصيبه بما يكره، وهذا شرك أكبر ينافى التوحيد.
- ٣- أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفاً من بعض الناس فهذا محرم وهو نوع من الشرك بالله المنافى لكمال التوحيد.
- ٤- الخوف الطبيعى، وهو الخوف من عدو أو سبع ونحو ذلك مما يخشى ضرره، فهذا جائز ولايذم فاعله. أهـ.

قال ابن باز^(٢): الخوف ثلاثة أقسام:

- الأول: الخوف من الله: وهو أعظمها وأوجبها، ويحب فيه الرخلاص، وصرفه لغيره شرك، شرك إن خاف منها أن تصيبه بمكروه.
- الثانى: خوف يحمل على فعل معصية الله وترك الواجب وهو الخوف من المخلوق

(١) الجامع الفريد (١٣١)

(٢) التعليق المفيد (١٧٧، ١٧٨).

وهو معصية وفيه نزل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُون﴾ ويحملة على ترك الجهاد، والواجب أن لا يخاف الإنسان من المخلوق إلا خوفاً يحمله على ما شرعه الله، وأباحه ولا يحمله على المعاصي، فالخوف من المخلوق في الأشياء الحسية والطبيعية جائز لأبأس به، فهو فطري، ويشرع الحذر من مقتضاه كالخوف من اللص فيغلق بابيه أو يخاف من سبع فيحمل السلاح أو المرض أو نحوها.

والترجمة في النوع الثاني، وهو الذي حدث في أحد من بث الشيطان الخوف في قلوب المؤمنين من الكافرين، والتشيط عن الجهاد، فنهاهم الله وأمرهم بالثبات، فنفر إليهم النبي ﷺ بعد أحد ولم يحصل قتال.

الثالث: الخوف الطبيعي من اللص والسبع والمرض ونحوه. أهـ
والخوف أقسام:

والأول: خوف العبادة والتذلل والتعظيم والخضوع، وهو ما يسمى بخوف السر. وهذا لا يصلح إلا لله - سبحانه -، فمن أشرك فيه مع الله غيره؛ فهو مشرك شركاً أكبر، وذلك مثل: من يخاف من الأصنام أو الأموات، أو من يزعمونهم أولياء ويعتقدون نفعهم وضرهم؛ كما يفعله بعض عبّاد القبور: يحاف من صاحب القبر أكثر مما يخاف الله.

الثاني: الخوف الطبيعي والجبلي؛ فهذا في الأصل مباح؛ لقوله تعالى عن موسى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ (١)، وقوله عنه أيضاً: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون﴾ (٢)، لكن إن حمل على ترك واجب أو فعل محرم؛ فهو محرم، وإن استلزم شيئاً مباحاً كان مباحاً، فمثلاً من خاف من شيء لا يؤثر عليه وحمله هذا الخوف على ترك صلاة الجماعة مع وجوبها؛ فهذا الخوف محرم، والواجب عليه أن لا يتأثر به.

وإن هدده إنسان على فعل محرم، فخافه وهو لا يستطيع أن ينفذ ما هدده به؛ فهذا خوف محرم لأنه يؤدي إلى فعل محرم بلا عذر، وإن رأى ناراً ثم هرب منها ونجا بنفسه؛ فهذا خوف مباح، وقد يكون واجباً إذا كان يتوصل به إلى إنقاذ نفسه.

وهناك ما يسمى بالوهم وليس بخوف، مثل أن يرى ظل شجرة تهتز، فيظن أن هذا عدو يتهدده؛ فهذا لا ينبغي للمؤمن أن يكون كذلك، بل يطارد هذه الأوهام لأنه لا حقيقة لها، وإذا لم تطاردها؛ فإنها تهلكك. أهـ.

(١) القصص الآية: ٢١.

(٢) القصص الآية: ٣٣.

قال القرعاوى^(١): للخوف أربعة أقسام.

أولاً: خوف السر : وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما شاء من مرض أو فقر ونحو ذلك بقدرته ومشيتته، سوءاً أذى أن ذلك كرامة للمخلوق بالشفاعة أو على سبيل الاستقلال فهذا الخوف لا يجوز لأنه شرك أكبر.

ثانياً: الخوف من المخلوق : المؤدى إلى فعل محرم أو ترك واجب فهذا حرام.

ثالثاً: خوف وعيد الله : الذى وعد به العصاة، وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان

رابعاً: الخوف الطبيعي : كخوف الإنسان من السبع ونحوه، وهذا جائز. أهـ

قوله: قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ الآية

- مناسبة الآية للباب

قال القرعاوى^(٢): حيث دلت الآية على وجوب إخلاص الخوف لله تعالى. اهـ.

- مناسبة الآية للتوحيد:

قال عبد الله بن جار الله^(٣): أنها دلت على وجوب إفراد الله بالخوف لأنه عبادة

فصرفه لغير الله شرك ينافى التوحيد. اهـ.

قال القرعاوى^(٤): حيث دلت الآية على وجوب إخلاص الخوف لله لذا يكون

الخوف نوعاً من العبادة وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

قوله: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾.

الإعراب:

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان القائل وإنما كافة

ومكفوفة وذلكم مبتدأ والشيطان مبتدأ ثان وجملة يخوف خبر الشيطان والمبتدأ الثانى

وخبره خبر اسم الإشارة ويجوز أن نعرب ذلكم مبتدأ والشيطان بدلا من ذلكم وجملة

(١) الجديد / ٢٨٧.

(٢) الجديد / ٢٨٧.

(٣) الجامع الفريد ١٣٠.

(٤) الجديد ٢٨٧.

يخوف خبر ذلكم ويجوز أيضاً أن نعرب ذلكم مبتدأ والشيطان خبره وجملة يخوف أولياءه مستأنفة أو حالاً. اهـ. (١).

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار

أخرج ابن جرير (٢) بسنده :-

وعن ابن عباس ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ ﴾ يقول الشيطان يخوف المؤمنين بأوليائه (٣).

وعن عطاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ ﴾ (٤).
عن قتادة قوله : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ ﴾ يخوف والله المؤمن بالكافر ويرهب المؤمن بالكافر (٥).

قال مجاهد : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ ﴾ قال يخوف المؤمنين بالكفار (٦).
وعن ابن إسحق : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ ﴾ أى أولئك الرهط يعنى النفر من عبد القيس الذين قالوا لرسول الله ﷺ ما قالوا وما ألقى الشيطان على أفواههم يخوف أولياءه أى يرهبكم بأوليائه (٧).

وعن سالم الأقطس فى قوله : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ ﴾ قال يخوفكم بأوليائه (٨) عن السدى قال ذكر أمر المشركين وعظمهم فى أعين المنافقين فقال : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ ﴾ يعظم أولياءه فى صدوركم فتخافونهم (٩).
عن أبى مالك ﴿ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ ﴾ قال : يعظم أولياءه فى أعينكم (١٠).

(١) إعراب القرآن ١١٢/٢ . (٢) تفسير ابن جرير (٤/ ١٢٢).

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق من طريق العوفى عنه .

(٤) ذكره السيوطى فى « الدر » (٢/ ١٨٢) ونسبه للقرائى، وعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، وابن الأنبارى فى « المصاحف » .

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق .

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى « الدر » (٢/ ١٨٢) وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر .

(٧) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق .

(٨) المصدر السابق .

(٩) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق .

(١٠) ذكره السيوطى فى « الدر » (٢/ ١٨٢) ونسبه لعبد بن حميد، وابن أبى حاتم . وانظر الأخير

بتخريجنا .

عن عكرمة فى الآية قال: تفسيرها يخوفكم بأوليائه^(١).

عن إبراهيم فى الآية قال: يخوف الناس أوليائه^(٢).

عن الحسن فى الآية قال: إنما كان ذلك تخويف الشيطان، ولا يخاف الشيطان إلا ولى الشيطان^(٣).

● ما جاء من أقوال المفسرين فى تفسير الآية:

قال الطبرى^(٤): فإن قال قائل: وكيف قيل يخوف أوليائه وهل يخوف الشيطان أوليائه قيل: إن كان معناه يخوفكم بأوليائه يخوف أوليائه قيل: ذلك نظير قوله: «لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا» بمعنى: لينذركم بأسه الشديد وذلك أن البأس لا ينذر وإنما ينذر به وقد كان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول معنى ذلك يخوف الناس أوليائه كقول القائل هو يعطى الدراهم ويكسو الثياب بمعنى هو يعطى الناس الدراهم ويكسوهم الثياب فحذف ذلك للإستغناء عنه وليس الذى شبه ذلك بمشبه لأن الدراهم فى قول القائل هو يعطى الدراهم معلوم أن المعطى هى الدراهم وليس كذلك الأولياء فى قوله يخوف أوليائه مخوفين بل التخويف من الأولياء لغيرهم فلذلك افترقا. اهـ.

قال البغوى^(٥):

قوله تعالى: «إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ». يعنى ذلك الذى قال لكم «إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ» من فعل الشيطان ألقى فى أفواههم لترهبوهم وتجنبوا عنهم. اهـ.

قال ابن الجوزى^(٦):

قوله تعالى: «إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ» قال الزجاج: معناه: ذلك التخويف كان فعل الشيطان، سؤله للمخوفين. اهـ.

وقال أيضاً^(٧): والذى نختاره فى الآية: أن المعنى: يخوفكم أوليائه. تقول العرب: قد أعطيت الأموال، يريدون: أعطيت القوم الأموال، فيحذفون القوم، ويقتصرون على

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن المنذر.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا.

(٤) تفسير الطبرى ٣/٤/١٢٢.

(٥) معالم التنزيل (١/٥٨٨).

(٦) زاد المسير ١/٤٠٣.

(٧) زاد المسير ١/٤٠٤.

ذكر المفعول الثاني. فهذا أشبه من ادعاء «باء» ما عليها دليل، ولا تدعوا إليها ضرورة. اهـ.

قال الرازي (١): اعلم أن قوله ﴿الشَّيْطَانُ﴾ خبر ﴿ذَلِكُمْ﴾ بمعنى: إنما ذلكم المبتط هو الشيطان و﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ جملة مستأنفة بيان لتثبيطه، أو ﴿الشَّيْطَانُ﴾ صفة لإسم الإشارة و﴿يُخَوِّفُ﴾ الخبر، والمراد بالشيطان الركب، وقيل: نعيم بن مسعود، وسمى شيطاناً لعتوه وتمرده في الكفر، كقوله (شياطين الإنس والجن) وقيل هو الشيطان يخوف بالوسوسة.

أما قوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ ففيه سؤال: وهو أن الذين سماهم الله بالشيطان إنما خوفوا المؤمنين، فما معنى قوله ﴿الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ والمفسرون ذكروا فيه ثلاثة أوجه: الأول تقدير الكلام: ذلكم الشيطان يخوفكم بأوليائه فحذف المفعول الثاني وحذف الجار، ومثال حذف المفعول الثاني قوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أى فإذا خفت عليه فرعون، ومثال حذف الجار قوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ معناه: لينذركم ببأس وقوله: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ أى لينذركم بيوم التلاق وهذا قول الفراء، والزجاج، وأبى على. قالوا: ويدل عليه قراءة أبى بن كعب (يخوفكم بأوليائه).

القول الثاني: أن هذا على قول القائل: خوفت زيدا عمرا، وتقدير الآية: يخوفكم أَوْلِيَاءَهُ، فحذف المفعول الأول، كما تقول: أعطيت الأموال، أى أعطيت القوم الأموال، قال ابن الأنبارى وهذا أولى من ادعاء جار لا دليل عليه وقوله: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا﴾ أى لينذركم بأساً وقوله: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ أى لينذركم يوم التلاق والتخويف يتعدى إلى مفعولين من غير حرف جر تقول: خاف زيد القتال، وخوفته القتال وهذا الوجه يدل عليه قراءة ابن مسعود (يخوفكم أَوْلِيَاءَهُ).

القول الثالث: أن معنى الآية: يخوف أَوْلِيَاءَهُ المتأففين ليقعدوا عن قتال المشركين، والمعنى الشيطان يخوف أَوْلِيَاءَهُ الذين يطيعونه ويؤثرون أمره، فأما أَوْلِيَاءَهُ الله، فإنهم لا يخافونه إذا خوفهم ولا يتقادون لأمره ومراده منهم، وهذا قول الحسن والسدى، فالقول الأول فيه محذوفان.

والثاني فيه محذوف واحد.

والثالث لا حذف فيه.

(١) التفسير الكبير ٥ / ٩ / ١٠٥ و ١٠٦.

وأما الأولياء فهم المشركون والكفار. اهـ.

قال القرطبي (١): وقال الحسن والسدي: المعنى يخوف أولياءه المنافقين؛ ليقعدوا عن قتال المشركين. فأما أولياء الله فإنهم لا يخافونه إذا خَوْفَهُمْ. وقد قيل: إن المراد هذا الذى يخوفكم بجمع الكفار شيطان من شياطين الإنس؛ إما نُعيم بن مسعود أو غيره، على الخلاف فى ذلك كما تقدم. اهـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد :

قال عبد الرحمن آل الشيخ: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ ﴾ أى يخوفكم أولياءه. اهـ.

قال ابن عثيمين (٢): وأوليائه: أى: أنصاره الذين ينصرون الفحشاء والمنكر؛ لأن الشيطان يأمر بذلك؛ فكل من نصر الفحشاء والمنكر؛ فهو من أولياء الشيطان، ثم قد يكون النصر فى الشرك وما ينافى التوحيد؛ فيكون عظيماً وقد يكون دون ذلك.

وقوله: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ﴾ من ذلك ما وقع فى الآية التى قبلها، حيث قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾، وذلك ليصدوهم عن واجب من واجبات الدين، وهو الجهاد، فيخوفونهم بذلك، وكذلك ما يحصل فى نفس من أراد أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، فيخوفه الشيطان ليصده عن هذا العمل، وكذلك ما يقع فى قلب الداعية.

والحاصل: أن الشيطان يخوف كل من أراد أن يقوم بواجب، فإذا ألقى الشيطان فى نفسك الخوف؛ فالواجب عليك أن تعلم أن الإقدام على كلمة الحق ليس هو الذى يدنى الأجل، وليس السكوت والجبن هو الذى يبعد الأجل؛ فكم من داعية صدع بالحق ومات على فراشه؟! وكم من جبان قتل فى بيته؟!

وانظر إلى خالد بن الوليد، كان شجاعاً مقداماً ومات على فراشه، وما دام الإنسان قائماً بأمر الله؛ فليثق بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وحزب الله هم الغالبون. اهـ.

قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

(١) تفسير القرطبي ٣ / ١٥٢٤ و ١٥٢٥.

(٢) القول المفيد ٢ / ٢٠٦ و ٢٠٧.

الإعراب^(١): ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الفاء هي الفصيحة أى إذا وثقتم بهذا فلا تخافوهم وخافون عطف على لا تخافوهم والواو فاعل والنون للوقاية وحذفت ياء المتكلم جوازاً باتفاق القراء السبعة فى الرسم، وإن شرطية، كنتم كان واسمها فعل الشرط فى محل جزم بأن. والجواب محذوف دل عليه ما قبله، ومؤمنين خبر كنتم. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن :

قال ابن كثير^(٢): ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا علىّ والجأوا إلىّ فإنى كافىكم وناصركم عليهم كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

● ما جاء فى تفسير الآية بالسنة :

وعن أبى سعيد مرفوعاً: إن من ضعف اليقين أن ترضى بسخط الله وأن تحمدهم على رزق الله وأن تزدحمهم على ما لم يؤتكم الله إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا كراهية كاره^(٣).

وعن عائشة رضى الله عنها. أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضى الله بسخط

(٢) تفسير ابن كثير ١/٧٠٤ و٤٠٨.

(١) إعراب القرآن ٢/١١٢.

(٣) وسياق تخرجه.

الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ومن التمس رضى الله بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس^(١).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين :

قال البغوى^(٢): قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ فى ترك أمرى.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مصدقين بوعدى لأنى متكفل لكم بالنصر والظفر. اهـ.

قال ابن الجوزى^(٣): قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ يعنى أولياء الشيطان ﴿وَخَافُونِ﴾ فى ترك أمرى. وفى «إن» قولان:

أحدهما: أنها بمعنى: «إذ» قاله ابن عباس، ومقاتل.

والثانى: أنها للشرط، وهو قول الزجاج فى آخرين.

قال الرازى^(٤): وقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الكناية فى القولين الأولين عائدة إلى الأولياء، وفى القول الثالث عائدة إلى (الناس) فى قوله ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ فتقعدوا عن القتال وتجنبوا ﴿وَخَافُونِ﴾ فجاهدوا مع رسولى وسارعوا إلى ما يأمركم به ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعنى أن الإيمان يقتضى أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس. اهـ.

قال القرطبى^(٥): قوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ﴾ أى خافون فى ترك أمرى إن كنتم مصدقين بوعدى. والخوف فى كلام العرب الدُّعْرُ. وخَاوَفْنِي فلان فَخَفْتُهُ، أى كنت أشدَّ خوفًا منه. والخَوَفَاءُ الْمَفَازَةُ لا ماء بها. ويقال: ناقةٌ خَوَفَاءٌ وهى الجَرَبَاءُ. والخافة كالخريطة من الأَدَمِ يُشْتَارُ فيها العَسَلُ.

قال سهل بن عبد الله: اجتمع بعض الصديقين إلى إبراهيم الخليل فقال: ما الخوف؟ فقال: لاتأمن حتى تبلغ المأمن.

قال سهل: وكان الربيع بن خثيم إذا مرَّ بِكَبِيرٍ يُغَشَى عليه؛ فقليل لعلّى ابن أبى طالب ذلك؛ فقال: إذا أصابه ذلك فأعلمونى. فأصابه فأعلموه، فجاءه فأدخل يده فى قميصه فوجد حركته عالية فقال: أشهد أن هذا أخوف زمانكم.

(٢) معالم التنزيل ٥٨٩/١.

(٤) التفسير الكبير ١٠٦/ ٩ / ٥.

(١) سياىى تخريجه.

(٣) زاد المسير ٤٠٤/ ١.

(٥) تفسير القرطبى ٣ / ١٥٢٥ و ١٥٢٦.

فالحائف من الله تعالى هو أن يخَافَ أن يُعاقِبَه إِمَّا فى الدنيا وإِمَّا فى الآخرة؛ ولهذا قيل: ليس الحائف الذى يبكى ويمسح عينيه، بل الحائف الذى يترك ما يخَافُ أن يُعَذَّبَ عليه.

ففرض الله تعالى على العباد أن يخافوه فقال: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وقال ﴿وَأَيُّى فَاَرَهُبُونَ﴾. ومدح المؤمنين بالخوف فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾. ولأرباب الإشارات فى الخوف عبارات مرجعها إلى ما ذكرنا.

قال الأستاذ أبو على الدقاق: دخلت على أبى بكر بن فورك رحمه الله عائدا، فلما رآنى دمعت عيناه، فقلت له: إِنَّ الله يعافيك وَيَسْفِيكَ. فقال لى: أترانى أخاف من الموت؟ إنما أخاف مما وراء الموت.

وفى سُنَنِ ابن ماجه عن أبى ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أظن السماء وحق لها أن تظن ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملكٌ واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفراشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله والله لوددت أنى كنت شجرة تعضد

أخرجه الترمذى وقال: حديث حسن غريب ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذر قال: لوددت أنى كنت شجرة تعضد. والله أعلم. اهـ.

قال الشوكانى^(١): ﴿وَخَافُونَ﴾ فافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه؛ لأنى الحقيق بالخوف منى، والمراقبة لأمرى ونهى لكون الخير والشر بيدي، وقيده بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يقتضى ذلك. اهـ.

● ما جاء فى الآية من كلام سراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قال ابن القيم: ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه لئلا يجاهدوهم ولا يأمرهم بمعروف ولا ينهوهم عن منكر فأخبر تعالى أن هذا من كيده وتخويفه، ونهائنا أن نخافهم.

قال: والمعنى عند جميع المفسرين يخوفكم بأوليائه قال قتادة: يعظمهم فى صدوركم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فكلما قوى إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمان العبد قوى خوفه منهم.

(١) فتح القدير ١ / ٤٨٣.

(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٣٦٣.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾^(١).

قلت: - يعنى سليمان آل الشيخ - فأمر تعالى بإخلاص هذا الخوف له، وأخبر أن ذلك شرط فى الإيمان، فمن لم يأت به لم يأت بالإيمان الواجب؛ ففيه أن إخلاص الخوف لله من الفرائض. اهـ.

قال ناصر السعدى^(٢): وفى هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده وأنه من لوازم الإيمان فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله أهـ.



وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾. الآية.

● مناسبة الآية للباب:

قال عبدالله بن جار الله^(٣): أنها دلت على أن المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات أفردوا الله بالخوف والخشية دون سواء. اهـ.

قال القرعاوى^(٤): حيث دلت على وجوب إخلاص خشية التعظيم لله. اهـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى^(٥): دلت الآية على وجوب إخلاص خشية التعظيم لله، لذا تكون هذه الخشية نوعاً من العبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

الإعراب^(٦): إنما كافة ومكفوفة ويعمر مساجد الله فعل مضارع ومفعول به مقدم والمراد بعمارته رَمَ ما استمر منها، وتنظيفها وتنويرها وتعظيمها وتأثيرها بالرياش الفاخر المقتنى، ومن اسم موصول فاعل يعمر وجملة آمن صلة وما بعده عطف عليه وإعرابه ظاهر. اهـ.

(٢) تيسير الكريم الرحمن . .

(١) التوبة: ١٨.

(٣) الجامع الفريد ١١٣.

(٤) الجديد ٢٨٩.

(٥) الجديد ٢٨٩.

(٦) إعراب القرآن (٦٩).

● سبب نزولها كما قال ابن الجوزي: أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر فيهم العباس بن عبد المطلب، فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فغيروهم بالشرك، وجعل علي بن أبي طالب يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ فقالوا: وهل لكم من محاسن؟ قالوا: نعم، لنحن أفضل منكم أجراً؛ إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقى الحجيج، ونفك العاني، فنزلت هذه الآية(*)، قال مقاتل في جماعة.

● ما جاء في تفسير الآية من أحاديث الآثار:

روى ابن جرير عن ابن عباس: قوله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يقول من وحد الله وآمن باليوم الآخر، يقول أقر بما أنزل الله ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ يعنى الصلوات الخمس ولم يخش إلا الله يقول ثم لم يعبد إلا الله، قال ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ﴾ يقول أن ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ كقوله لنيه ﴿يَعْنَتُكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ يقول إن ربك سيعثك مقاما محمودا وهى الشفاعة وكل عسى فى القرآن فهى واجبة^(١).

وابن إسحق قال ثم ذكر قول قريش إنا أهل الحرم وسقاة الحاج وعمار هذا البيت ولا أحد أفضل منا فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى أن عمارتكم ليست على ذلك ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ أى من عمرها بحقها ﴿مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ فأولئك عمارها ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ وعسى من الله حق^(٢).

وهناك أحاديث كثيرة فى فضل بناء المساجد وتعميرها يرجع إليها فى تفسير هذه الآية من كتاب الدر المنثور وغيره.

واقصر على ما أخرجه البغوى فى «معالم التنزيل»^(٣) فروى بإسناده عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله قال: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر»^(٤).

(*) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٣٩٥) ونسبه لابن جرير، وأبى الشيخ عن الضحاك بنحوه.

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٦ / ١٠، ٦٧).

(٢) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق. (٣) معالم التنزيل ١٧/٣.

(٤) أخرجه الترمذى (٢٦١٧)، وابن ماجه (٨٠٢) عن أبى سعيد بسند ضعيف وانظر «رياض الصالحين»

وانظر «فتح المجيد» (٦٤٩) بتحريجنا.

وعن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح»^(١).

وعن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أراد بنا المسجد فكره الناس ذلك وأحبوا أن يدعه، فقال عثمان: سمعت النبي ﷺ يقول: «من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً كهيته في الجنة»^(٢).

وعن أبي عاصم بهذا الإسناد وقال: بنى الله له بيتاً في الجنة^(٣).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين :

قال ابن الجوزى^(٤): «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ» على الجمع. وقرأ عاصم، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائى على الجمع فيهما.

وفى المراد بالعمارة قولان:

أحدهما: دخوله والجلوس فيه.

والثانى: البناء له وإصلاحه؛ فكلاهما محظور على الكافر. اهـ.

قال الرازى^(٥): إنه تعالى لما بين أن الكافر ليس له أن يشتغل بعمارة المسجد، بين أن المشتغل بهذا العمل يجب أن يكون موصوفاً بصفات أربعة:

الصفة الأولى: قوله: «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» وإنما قلنا إنه لا بد من الإيمان بالله لأن المسجد عبارة عن الموضع الذى يعبد الله فيه، فمن لم يكن مؤمناً بالله، امتنع أن يبنى موضعاً يعبد الله فيه، وإنما قلنا أنه لا بد من أن يكون مؤمناً بالله واليوم الآخر لأن الاشتغال بعبادة الله تعالى إنما تفيد فى القيامة، فمن أنكر القيامة لم يعبد الله، ومن لم يعبد الله لم يبن بناء لعبادة الله تعالى.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يَذَكَرِ الْإِيمَانُ بِرَسُولِ اللَّهِ؟

قلنا فيه وجوه:

الأول: أن المشركين كانوا يقولون: إن محمداً إنما ادعى رسالة الله طلباً للرياسة

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٦٢٤)، ومسلم فى المساجد (١٧٠/٥/٢ - النووى) وانظر (ح ١٢٥) رياض الصالحين بتخريجنا.

(٢) أخرجه البغوى فى «معالم التنزيل» (١٧/٣) وفى الباب عن واثلة بن الأسقع، وابن عباس، وغيرهما.

(٣) أخرجه البغوى فى «معالم التنزيل» (١٧/٣) بإسناده.

(٤) زاد المسير (٤٠٤/١). (٥) التفسير الكبير (١٠/١٦/٨).

والملك، فههنا ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، وترك النبوة كأنه يقول مطلوبى من تبليغ الرسالة ليس إلا الإيمان بالمبدأ والمعاد، فذكر المقصود الأصلي وحذف ذكر النبوة تنبيها للكفار على أنه لا مطلوب له من الرسالة إلا هذا القدر.

الثاني: أنه لما ذكر الصلاة، والصلاة لا تتم إلا بالأذان والإقامة والشهد، وهذه الأشياء مشتملة على ذكر النبوة كان ذلك كافيا.

الثالث: أنه ذكر الصلاة، والمفرد المحلى بالألف واللام ينصرف إلى المعهود السابق، ثم المعهود السابق من الصلاة من المسلمين ليس إلا الأعمال التى كان قد أتى بها محمد ﷺ، فكان ذكر الصلاة دليلا على النبوة من هذه الوجوه.

الصفة الثانية: قوله ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ والسبب فيه أن المقصود الأعظم من بناء المساجد إقامة الصلوات، فالإنسان ما لم يكن مقرا بوجوب الصلوات امتنع أن يقدم على بناء المساجد. اهـ.

قلت: فما القول فيمن لا يصلى فى المسجد وبنى مسجداً !

الصفة الثالثة: قوله ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾.

واعلم أن اعتبار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى عمارة المسجد كأنه يدل على أن المراد من عمارة المسجد الحضور فيه، وذلك لأن الإنسان إذا كان مقيما للصلاة فإنه يحضر فى المسجد فتحصل عمارة المسجد به، وإذا كان مؤتيا للزكاة فإنه يحضر فى المسجد طوائف الفقراء والمساكين لطلب أخذ الزكاة فتحصل عمارة المسجد به. وأما إذا حملنا العمارة على مصالح البناء فإيتاء الزكاة معتبر فى هذا الباب أيضاً لأن إيتاء الزكاة واجب وبناء المسجد نافلة، والإنسان ما لم يفرغ عن الواجب لا يشتغل بالنافلة والظاهر أن الإنسان ما لم يكن مؤديا للزكاة لم يشتغل ببناء المساجد. اهـ.

قلت: وستأتى الصفة الرابعة عند تفسير قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

قال القرطبي^(١): قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ دليل على أن الشهادة لغمار المساجد بالإيمان صحيحة؛ لأن الله سبحانه ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها، وقد قال بعض السلف: إذا رأيت الرجل يعمر المسجد فحسنوا به الظن.

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الرجل

(١) تفسير القرطبي ٢/٤٩٢٩.

يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(١).

فى رواية: «يتعاهد المسجد»^(٢). قال: حديث حسن غريب.

قال ابن العربي: وهذا فى ظاهر الصلاح ليس فى مقاطع الشهادات؛ فإن الشهادات لها أحوال عند العارفين بها؛ فإن منهم الذكىّ الفطن المحصل لما يعلم اعتقاداً وإخباراً، ومنهم المغفل، وكل واحد ينزل على منزلته ويقدر على صفته. اهـ.

قال الشوكانى^(٣): واقتصر على ذكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيها بما هو من أعظم أمور الدين على ما عدها مما افترضه الله على عباده؛ لأن كل ذلك من لوازم الإيمان، وقد تقدّم الكلام فى وجه جمع المساجد وفى بيان ماهية العمارة، ومن جوز الجمع بين الحقيقة والمجاز حمل العمارة هنا عليهما. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد :

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٤): فأنبت لهم عمارة المسجد بعد أن نفاه عن المشركين، لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح، والمشرك وإن عمل فعمله ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ أو ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ وما كان كذلك فالعدم خير منه فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان الذى معظمه التوحيد، مع العمل الخالص من شوائب الشرك والبدع. وذلك كله داخل فى مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والجماعة. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٥): قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، والمراد بالعمارة العمارة المعنوية، وهى عمارتها بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ونحوها، وكذلك الحسية بالبناء الحسى؛ فإن عمارتها به حقيقة لانكون إلا ممن ذكرهم الله؛ لأن من يعمرها وهو لم يؤمن بالله واليوم الآخر لم يعمرها حقيقة؛ لعدم انتفاعه بهذه العمارة؛ فالعمارة النافعة الحسية والمعنوية من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، ولهذا لما افتخر المشركون بعمارة المسجد الحرام؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ما قبله.

(٣) فتح القدير ٢/ ٣٦٤.

(٤) فتح المجيد ٢/ ٤٦٥ - ٤٦٦.

(٥) القول المفيد ٢/ ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢١٠.

اللَّهُ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وأضاف سبحانه المساجد إلى نفسه تشريفاً؛ لأنها موضع عبادته.

قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾.

﴿مَنْ﴾: فاعل يعمر، والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور، وهى:

- الإيمان بوجوده.

- وربوبيته.

- وألوهيته.

- وأسمائه وصفاته.

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هو يوم القيامة، وسُمِّي بذلك؛ لأنه لا يوم بعده.

قال شيخ الإسلام: ويدخل فى الإيمان بالله واليوم الآخر كل ما أخبر به النبى ﷺ مما يكون بعد الموت مثل فتنة القبر وعذابه ونعيمه.

لأن حقيقة الأمر أن الإنسان إذا مات قامت قيامته وارتحل إلى دار الجزاء.

ويقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر كثيراً؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يحمل الإنسان إلى الامتثال، فإنه إذا آمن أن هناك بعثاً وجزاء؛ حمّله ذلك على العمل لذلك اليوم، ولكن من لا يؤمن باليوم الآخر لا يعمل؛ إذ كيف يعمل لشيء وهو لا يؤمن به؟!.

قوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾.

أى: أتى بها على وجه قويّم لانقضى فيه، والإقامة نوعان:

إقامة واجبة: وهى التى يقتصر فيها على فعل الواجب من الشروط والأركان والواجبات.

وإقامة مستحبة: وهى التى يزيد فيها على فعل ما يجب فيأتى بالواجب والمستحب.

قوله: ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾.

﴿أَتَى﴾ تنصب مفعولين: الأول هنا الزكاة، والثانى: محذوف تقديره مستحبها.

﴿الزَّكَاةَ﴾: هى المال الذى أوجبه الشارع فى الأموال الزكوية وتختلف مقاديرها حسب

ما تقتضيه حكمة الله - عز وجل -.

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾.

الإعراب^(١): الواو عاطفة ولم حرف وقلب وجزم ويخش مجزوم بلم والفاعل مستتر يعود على من آمن وإلا أداة حصر ولفظ الجلالة مفعول به .

قال الرازي^(٢): قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ وفيه وجوه:

الأول: أنا أبا بكر رضى الله عنه بنى فى أول الإسلام على باب داره مسجدا وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن والكفار يوذونه بسببه، فيحتمل أن يكون المراد هو تلك الحالة، يعنى إنا وإن خاف الناس من بناء المسجد إلا أنه لا يلتفت إليهم ولا يخشاهم ولكنه يبنى المسجد للخوف من الله تعالى .

الثانى: يحتمل أن يكون المراد منه أن يبنى المسجد لا لأجل الرياء والسمعة وأن يقال إن فلاناً يبنى مسجداً، ولكنه يبنيه لمجرد طلب رضوان الله تعالى ولمجرد تقوية دين الله .

فإن قيل: كيف قال ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ والمؤمن قد يخاف الظلمة والمفسدين؟ قلنا: المراد من هذه الخشية الخوف والتقوى فى باب الدين، وأن لا يختار على رضا الله رضا غيره .

قال القرطبي^(٣): قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ إن قيل: ما من مؤمن إلا وقد خشى غير الله، وما زال المؤمنون والأنبياء يخشون الأعداء من غيرهم. قيل له: المعنى ولم يخش إلا الله مما يعبدك؛ فإن المشركين كانوا يعبدون الأوثان ويخشونها ويرجونها جواب ثان - أى لم يخف فى باب الدين إلا الله .

قال الشيخ سليمان^(٤): وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قال ابن عطية: يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولامحالة أن الإنسان يخشى غيره، ويخشى المحاذير الدنيوية، وينبغى أن يخشى فى ذلك كله قضاء الله وتصريفه .

قلت - أى سليمان -: ولهذا قال ابن عباس الآية: لم يعبد إلا الله فإن الخوف كما قال ابن القيم: عبودية القلب، فلا يصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب .

قال ابن عثيمين^(٥): قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ .

(١) إعراب القرآن ٣/ ٦٩ و ٧٠ .

(٢) التفسير الكبير ١١/ ١٦/ ٨ .

(٣) تفسير القرطبي ٤ / ٢٩٢٩ .

(٤) تفسير العزيز الحميد ٣٦٤ .

(٥) القول المفيد ٢ / ٢١٠ و ٢١١ .

فى هذه الآفة حصر طريقة الإثبات والنفى .

﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ نفى ، ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ إثبات ، والمعنى : إن خشيته انحصرت فى الله - عزوجل - ؛ فلا يخشى غيره .

والخشفة نوع من الخوف ، لكنها أخص منه ، والفرق بينهما :

١- أن الخشفة تكون مع العلم بالمخشى وحاله ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ، والخوف قد يكون من الجاهل .

٢- أن الخشفة تكون بسبب عظمة المخشى ، بخلاف الخوف ؛ فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المخوف .

قوله : ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ .

الإعراب^(١) : الفاء الفصيحة وعسى فعل ماض من أفعال الرجاء وأولئك اسمها وأن يكونوا خبرها ومن المهتدين خبر يكونوا ، أى فحال هؤلاء الموصوفين بالصفات الأربع مرجوة والعاقبة عند الله معلومة .

قال الرازى^(٢) : ثم أنه تعالى لما ذكر هذه الأوصاف قال ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ وفيه وجوه :

الأول : قال المفسرون ﴿فَعَسَىٰ﴾ من الله واجب لكونه متعاليا عن الشك والتردد .

الثانى : قال أبو مسلم ﴿فَعَسَىٰ﴾ ههنا راجع إلى العباد وهو يفيد الرجاء فكان المعنى إن الذين يأتون بهذه الطاعات إنما يأتون بها على رجاء الفوز بالاهتداء لقوله تعالى : ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ والتحقيق فيه أن العبد عند الإتيان بهذه الأعمال لا يقطع على الفوز بالثواب ، لأنه يجوز على نفسه أنه قد أخل بقيد من القيود المعتبرة فى حصول القبول .

والثالث : وهو أحسن الوجوه ما ذكره صاحب الكشف وهو أن المراد منه تبعيد المشركين عن مواقف الاهتداء ، وحسم إطماعهم فى الإنتفاع بأعمالهم التى استعظموها وافتخروا بها ، فإنه تعالى بين أن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع

(١) إعراب القرآن ٣ / ٧٠ .

(٢) التفسير الكريم ٨ / ١٦ / ١١ و ١٢ .

وَضَمُّوا إِلَيْهَا الْخَشْيَةَ مِنَ اللَّهِ ، فَهَؤُلَاءِ صَارَ حَصُولُ الْإِهْتِدَاءِ لَهُمْ دَاثِرًا بَيْنَ - لَعَلِّ وَعَسَى -
فَمَا بَالُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكِينَ يَقْطَعُونَ بِأَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ وَيَجْزَمُونَ بِفَوْزِهِمْ بِالْخَيْرِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
تَعَالَى وَفِي هَذَا الْكَلَامِ وَنَحْوِهِ لُطْفٌ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي تَرْجِيحِ الْخَشْيَةِ عَلَى الرَّجَاءِ .

قال الشوكاني^(١) : وفي قوله : ﴿ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ حَسْمٌ لِأَطْمَاعِ
الْكُفَّارِ فِي الِاتِّفَاعِ بِأَعْمَالِهِمْ ، فَإِنَّ الْمُصَوِّفِينَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ إِذَا كَانَ اهْتِدَاؤُهُمْ مَرْجُواً
فَقَطْ ، فَكَيْفَ بِالْكُفَّارِ الَّذِينَ لَمْ يَتَصَفَوْا بِشَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ وَقِيلَ : « عَسَى مِنْ اللَّهِ
وَاجِبَةٌ » وَقِيلَ : هِيَ بِمَعْنَى خَلِيقٍ ، أَيْ فَخَلِيقٌ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . وَقِيلَ : إِنْ الرَّجَاءُ
رَاجِعٌ إِلَى الْعِبَادَةِ .

قال ابن عثيمين^(٢) : قوله : ﴿ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : « عَسَى مِنْ اللَّهِ وَاجِبَةٌ »^(٣) وجاءت بصيغة الترجي؛ لئلا يأخذ الإنسان
الغرور بأنه حصل على هذا الوصف ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾^(٤) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ
عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ؛ فَاللَّهُ لَا يَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا ؛ فَالَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً
وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا جَدِيرُونَ بِالْعَفْوِ .

الشاهد من الآية : قوله : ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوْا
النَّاسَ وَآخِشُوا ﴾ ، ومن علامات صدق الإيمان أن لا يخشى إلا الله في كل ما يقول
ويفعل .

ومن أراد أن يصحح هذا المسير؛ فليتأمل قول الرسول ﷺ : «واعلم أن الأمة لو
اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على
أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»^(٥) . اهـ .



(١) فتح القدير ٣٦٤ / ٢ .

(٢) القول المفيد ٢ / ٢١١ و ٢١٢ .

(٣) أخرجه البيهقي (١٣ / ٩) وانظر تفسير ابن أبي حاتم بتخريجنا .

(٤) تقدم تخريجه .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ (١).

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا..... الآية﴾

● مناسبة الآية للباب

قال سليمان آل الشيخ: وإنما حمل ضعيف البصيرة على أن جعل فتنة الناس كعذاب الله، وهو الخوف منهم أن ينالوه بما يكره بسبب الإيمان بالله، وذلك من جملة الخوف من غير الله، وهذا وجه مطابقة الآية للترجمة،

قال عبدالله بن جارالله (٢): هي أنه إذا كان الله هو الكافي لعبده وجب أن لا يتوكل إلا عليه. اهـ.

وقال القرعاوى (٣): حيث دلت الآية على تحريم مساواة الخوف من الله بالخوف من المخلوق. اهـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٤): دلت على وجوب تقديم خوف الله على خوف سواه لذا يكون الخوف عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

● الإعراب (٥):

قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان حال المنافقين بعد أن بين حال المؤمنين والكافرين فيما تقدم ومن الناس خبر مقدم ومن نكرة موصوفة مبتدأ مؤخر أى ناس وهو أولى من جعلها موصولة وجملة يقول صفة لمن على اللفظ وجملة آمنا مقول القول وبالله متعلقان بآمننا. اهـ.

● سبب نزول الآية

وما جاء فى تفسيرها من الآثار

روى ابن جرير (٦) بسنده عن ابن عباس قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا

(١) العنكبوت: ١٠. (٢) الجامع الفريد ١٣٢.

(٣) و(٤) الجديد ٢٩١. (٥) إعراب القرآن ٤٠٥/٧.

(٦) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢٠/٨٥، ٨٦)، وابن أبى حاتم فى تفسيره (١٧١٧٥) عن ابن عباس

أَوْذَى فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴿١﴾ قَالَ فَتَنَّهُ أَنْ يَرْتَدَّ عَنْ دِينِ اللَّهِ إِذَا أَوْذَى فِي اللَّهِ (١).

وعن مجاهد قوله : ﴿فَإِذَا أَوْذَى فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ قال أناس يؤمنون بالسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا فجعلوا ذلك في الدنيا كعذاب الله في الآخر (٢).

وبسنده عن الضحاك يقول قوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون فإذا أودوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الكفر مخافة من يؤذيهم وجعلوا أذى الناس في الدنيا كعذاب الله (٣).

وبسنده عن ابن زيد: في قول الله ﴿فَإِذَا أَوْذَى فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ قال هو المنافق إذا أودى في الله رجع عن الدين وكفر وجعل فتنة الناس كعذاب الله وذكر أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل الإيمان كانوا بمكة فخرجوا مهاجرين فأدركوا وأخذوا فأعطوا المشركين لما نالهم أذاهم ما أرادوا منهم (٤).

وبسنده عن ابن عباس قال كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بإسلامهم فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بهم قبل بعض فقال المسلمون كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاسغفروا لهم فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ إلى آخر الآية قال فكتب إلى من بقى بمكة من المسلمين بهذه الآية أن لا عذر لهم فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فنزلت فيهم هذه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أَوْذَى فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية فكتب المسلمون إليهم بذلك فخرجوا وأيسوا من كل خير ثم نزلت فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل (٥).

(٢) تقدم تخريجه .

(١) العنكبوت: ١٠ .

(٣) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧١٧).

وذكره السيوطي في «الدر» (٥/ ٢٧٠) وزاد نسبه للفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٤) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق.

(٥) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق وأنظر الدر (٥/ ٢٧١).

وبسنده وعن قتادة قوله «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ» إلى قوله: «لَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ» قال هذه الآيات أنزلت في القوم الذين ردّهم المشركون إلى مكة وهذه الآيات العشر مدنية إلى ههنا وسائرهما مكى (١). اهـ.

- سبب نزولها:

قال ابن الجوزى (٢): قوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ» اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في المؤمنين الذين أخرجهم المشركون إلى بدر فارتدوا، رواه عكرمة عن ابن عباس (٣).

الثاني: نزلت في قوم كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم وأموالهم افتتروا، قاله مجاهد (٤).

الثالث: نزلت في ناس من المنافقين بمكة، كانوا يؤمنون، فإذا أُوذوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الشرك، قاله الضحاك (٥).

الرابع: أنها نزلت في عيَاش بن أبي ربيعة، كان أسلم، فخاف على نفسه من أهله وقومه، فخرج من مكة هارباً إلى المدينة، وذلك قبل قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة، فجذعت أمه فقالت لأخويه أبي جهل والحارث ابني هشام - وهما أخواه لأمه: والله لا أوى بيتاً ولا أكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تأتاني به، فخرجا في طلبه فظفرا به، فلم يزالا به حتى تابعهما وجاءا به إليها، فقيدته، وقالت: والله لا أحلّك من وثاقل حتى تكفر بمحمد، ثم أقبلت تجلده بالسياط وتعذّبه حتى كفر بمحمد عليه السلام جزعاً من الضرب، فنزلت فيه هذه الآية، ثم هاجر بعد حسن إسلامه، هذا قول ابن السائب، ومقاتل. وفي رواية عن مقاتل أنهما جلّدها في الطريق مائتي جلدة، فتهرباً من دين محمد، فنزلت هذه الآية. اهـ.

(١) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧١٧).

(٢) زاد المسير ٦ / ١٢٨.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(١): يقول تعالى ذكره ومن الناس من يقول أقررنا بالله فوجدناه فإذا آذاه المشركون فى إقراره بالله جعل فتنة الناس إياه فى الدنيا كعذاب الله فى الآخرة فارتد عن إيمانه بالله راجعاً على الكفر به ولئن جاء نصر من ربك يا محمد أهل الإيمان به ليقولن هؤلاء المرتدون عن إيمانهم الجاعلون فتنة الناس كعذاب الله إنا كنا أيها المؤمنون معكم نصركم على أعدائكم كذباً وإفكاً يقول الله أوليس الله بأعلم أيها القوم من كل أحد بما فى صدور جميع خلقه القائلين آمنا بالله فإذا أودى فى الله ارتد عن دين الله وغيرهم فكيف يخادع من كان لا يخفى عليه خافية ولا يستتر عنه سر ولا علانية. اهـ.

قال الرازى^(٢): أقسام المكلفين ثلاثة مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده، وكافر مجاهر بكفره وعنده، ومذبذب بينهما يظهر الإيمان بلسانه ويضمّر الكفر فى فؤاده، والله تعالى لما بين القسمين بقوله تعالى ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ وبين أحوالهما بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بين القسم الثالث وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا﴾ ولم يقل آمنت مع أنه وحد الأفعال التى بعده كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ وذلك لأن المنافق كان يشبه نفسه بالمؤمن، ويقول إيمانى كإيمانك فقال ﴿آمَنَّا﴾ يعنى أنا والمؤمن حقاً آمنا، إشعاراً بأن إيمانه كإيمانه، وهذا كما أن الجبان الضعيف إذا خرج مع الأبطال فى القتال، وهزموا خصومهم يقول الجبان خرجنا وقتلناهم وهزمناهم، فيصح من السامع لكلامه أن يقول وماذا كنت أنت فيهم حتى تقول خرجنا وقتلنا؟ وهذا الرد يدل على أنه يفهم من كلامه أن خروجه وقتاله كخروجهم وقتالهم، لأنه لا يصح الإنكار عليه فى دعوى نفس الخروج والقتال، وكذا قول القائل أنا والملك ألفينا فلاناً واستقبلناه ينكر، لأن المفهوم منه المساواة فهم لما أرادوا إظهار كون إيمانهم كإيمان المحقين كان الواحد يقول ﴿آمَنَّا﴾ أى أنا والمحق. اهـ.

قال ابن كثير^(٣): يقول تعالى مخبراً عن قوم من الذين يدعون الإيمان بالسنتهم ولم

(٢) التفسير الكبير ١٣/ ٢٥، ٣٨، ٣٩.

(١) الطبرى ١٠ / ٢٠ / ٨٥.

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٣) وانظر تيسير العزيز الحميد (٢٦٥، ٢٦٦).

يثبت الإيمان في قلوبهم بأنهم إذا جاءتهم محنة في الدنيا اعتقدوا أنها من نعمة الله بهم، فارتدوا عن الإسلام. قال ابن عباس يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أودى في الله.

وقال ابن القيم: الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين إما أن يقول أحدهم آمناً، وإما أن لا يقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر؛ فمن قال: آمناً امتحنه ربه وابتلاه وفتنه، والفتنة. الابتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب؛ ومن لم يقل: آمناً فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه فمن آمن بالرسل وأطاعهم، عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتلى بما يؤله؛ ومن لم يؤمن بهم، ولم يطعهم، عوقب في الدنيا والآخرة، وحصل له ما يؤله، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت، أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة؛ والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء، ثم يصير له الألم الدائم. والإنسان لا بد أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه، وعذبه، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب تارة منهم وتارة من غيرهم؛ كمن عنده دين وتقى حل بين قوم فجار ظلمة، ولا يتمكنون من فجورهم إلا بموافقتهم لهم أو سكوتهم عنهم، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم، فلا بد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم، فالخزم كل الخزم بما قالت أم المؤمنين لمعاوية. مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَّاهُ اللَّهُ مَوْنَةَ النَّاسِ وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ لَمْ يُغْنَوْا عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً. فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه، امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصر على عداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم.

قوله: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.

الإعراب^(١): ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ الفاء حرف عطف وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وفي الله متعلقان بأوذى وجملة أوذى في محل جر بإضافة الظرف إليها أى في سبيل الله وجملة جعل لامحل لأنها جواب إذا وفتنة الناس مفعول جعل الأول وكعذاب الله في موضع المفعول الثاني، أو الكاف اسم بمعنى

(١) إعراب القرآن (٤٠٥ و ٤٠٦).

مثل فى موضع المفعول الثانى والمعنى جزع من أذى الناس، فأطاعهم كما يطيع الله من يخافه ﴿وَلَّيْنِ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وإن حرف شرط جازم وجاءهم فعل ماض فى محل جزم فعل الشرط والهاء مفعول به ونصر فاعل ومن ربك متعلقان بجاءهم أو بمحذوف صفة لنصر، ليقولن: اللام واقعة فى جواب القسم ويقولن فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالى الأمثال وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل وجملة إنا مقول القول وإن واسمها وجملة كنا خبرها ومعكم ظرف متعلق بمحذوف خبر كنا.

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين :

قال البغوى^(١): أى: جعل أذى الناس وعذابهم كعذاب الله فى الآخرة. أى: جزع من عذاب الناس ولم يصبر عليه، فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عذابه، هذا قول السدى وابن زيد قالوا: هو المنافق إذا أودى فى الله رجع عن الدين وكفر ﴿وَلَّيْنِ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أى: فتح ودولة للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ يعنى: هؤلاء المنافقين للمؤمنين ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ على عدوكم وكنا مسلمين، وإنما أكرهنا حتى قلنا ما قلنا، فكذبهم الله وقال: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ من الإيمان والنفاق. اهـ.

قال ابن الجوزى^(٢): قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِى اللَّهِ﴾ أى: ناله أذى أو عذاب بسبب إيمانه ﴿جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ أى: ما يصيبه من عذابهم فى الدنيا ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ فى الآخرة؛ وإنما ينبغى للمؤمن أن يصبر على الأذى فى الله تعالى لما يرجو من ثوابه ﴿وَلَّيْنِ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ يعنى دولة للمؤمنين ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ يعنى المنافقين للمؤمنين ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ على دينكم، فكذبهم الله عز وجل وقال: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) من الإيمان والنفاق. اهـ.

قال الرازى^(٤): قوله ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِى اللَّهِ﴾ هو فى معنى قوله ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِى سَبِيلِ﴾ غير أن المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد ههنا الذين لم يصبروا عليها فقال هناك ﴿وَأُودُوا فِى سَبِيلِ﴾ وقال ههنا ﴿أُوذِيَ فِى اللَّهِ﴾ ونم يقل فى سبيل الله واللطفية فيه أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة

(٢) زاد المسير ١٢٩/٦.

(١) معالم التنزيل ٤ / ٣٦٧.

(٤) التفسير الكبير ١٣ / ٢٥ / ٣٩ و ٤٠.

(٣) المعنكوت / ١٠.

المنافق الكافر فقال هناك أودى المؤمن فى سبيل الله لىترك سبيله ولم يتركه، وأودى المنافق الكافر فترك الله بنفسه، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم إن بلغ الإيذاء إلى حد الإكراه، ويكون قلبه مطمئناً بالإيمان فلا يترك الله، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية، والمؤمن أودى ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلمتى الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة.

قوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ قال الزمخشري: جعل فتنة الناس صارفة عن الإيمان كما أن عذاب الله صارف عن الكفر، وقيل جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله.

وبالجملة معناه أنهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الأليم الدائم حتى ترددوا فى الأمر، وقالوا إن آمانا نتعرض للتأذى من الناس وإن تركنا الإيمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام، واختاروا الاحتراز عن التأذى العاجل ولا يكون التردد إلا عند التساوى ومن أين إلى أين تعذيب الناس لا يكون شديداً، ولا يكون مديداً لأن العذاب إن كان شديداً كعذاب النار وغيره يموت الإنسان فى الحال فلا يدوم التعذيب، وإن كان مديداً كالحبس والحصر لا يكون شديداً وعذاب الله شديد وزمانه مديد، وأيضاً عذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع، وأيضاً عذاب الناس عليه ثواب عظيم، وعذاب الله بعده عذاب أليم، والمشقة إذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذاباً كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذاباً.

قال ﴿فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ ولم يقل عذاب الناس لأن فعل العبد ابتلاء وامتحان من الله وفتنته تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الإيمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحاناً وهذا إشارة إلى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحاناً من الإنسان كالصبر على العبادات.

لو قال قائل هذا يقتضى منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه، لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه احترازاً عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله، فنقول ليس كذلك، لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله، لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً، وهذا المؤمن المكره لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله، بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهراً وباطناً، بل فى باطنه الإيمان، ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ يعنى دأب المنافق أنه إن رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر المعية وادعى التبعية، وفيه فرائد نذكرها فى مسائل:

الأولى: قال ﴿وَلَّيْنِ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ ولم يقل من الله، مع أن ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله ﴿أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ وقوله ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ وذلك لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة.

المسألة الثانية: لم يقل ولئن جاءكم أو جاءك بل قال ﴿وَلَّيْنِ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وهذا يقتضى أن يكونوا قائلين: إنا معكم إذا جاء نصر سواء جاءهم أو جاء المؤمنين، فنقول هذا الكلام يقتضى أن يكونوا قائلين إنا معكم إذا جاء النصر، لكن النصر لا يجيء إلا للمؤمن، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل أن أحد الجيشين إن انهزم في الحال، ثم كر المنهزم كرة أخرى وهزموا الغالبين، لا يطلق اسم المنصور إلا على من كان له العاقبة، فكذلك المسلم وإن كسر في الحال فالعاقبة للمتقين، فالنصر لهم في الحقيقة.

المسألة الثالثة: في ليقولن قراءتان:

إحداهما: الفتح حملا على قوله ﴿مَنْ يَقُولُ آمَنَّا﴾ يعنى من يقول آمنا إذا أُوذِيَ يترك ذلك القول، وإذا جاء النصر يقول إنا كنا معكم.

وثانيهما: الضم على الجمع إسناداً للقول إلى الجميع الذين دل عليهم المفهوم. فإن المنافقين كانوا جماعة. اهـ.

قال ابن كثير^(١): أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أُوذِيَ في الله جعل فتنة الناس له، وهى أذاهم له، ونيلهم إياه بالمكروه، وهو الألم الذى لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك فى فراره منه وتركه السبب الذى يناله به كعذاب الله الذى فر منه المؤمنون بالإيمان. فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب، وهذا لضعف بصيرته فر من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، وفر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس فى الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله؛ وغبن كل الغبن إذا استجار من الرمضاء بالنار، وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال إني كنت معكم والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق انتهى. اهـ.

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٨٣.

● ما جاء فى تفسير الآية فى أقوال شراح كتاب التوحيد :

قال سليمان آل الشيخ^(١): وفى الآية رد على المرجئة والكرامية، وفيها الخوف على نفسك، والإستعداد للبلاء إذ لا بد منه مع سؤال الله العافية. اهـ.

قال صاحب الظلال^(٢): ذلك النموذج من الناس يعلن كلمة الإيمان فى الرخاء يحبسها حقيقة الحمل هيئة المؤونة لا تكلف إلا نطقها باللسان، «فإذا أودى فى الله» بسبب الكلمة التى قالها وهو آمن معافى ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ فاستقبلها فى جزع واختلت فى نفسه القيم واهتزت فى ضميره العقيدة وتصور أن لعذاب بعد هذا الأمر الذى يلقاه حتى عذاب الله وقال فى نفسه: ها هو ذا عذاب شديد أليم ليس وراءه شىء فعلام أصبر على الإيمان وعذاب لا يزيد على ما أنا فيه من عذاب؟ وإن هو إلا الخلط بين أذى يقدر على مثله البشر، وعذاب الله الذى لا يعرف أحد مداه. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ ومعلوم أن الإنسان يفر من عذاب الله، فيوافق أمره؛ فهذا يجعل فتنة الناس كعذاب الله؛ فيفر من إيذائهم بموافقة أهوائهم وأمرهم جعلاً لهذه الفتنة كالعذاب؛ فحينئذ يكون قد خاف من هؤلاء كخوفه من الله؛ لأنه جعل إيذاءهم كعذاب الله، ففر منه بموافقة أمرهم؛ فالآية موافقة للترجمة. وفى هذه الآية من الحكمة العظيمة، وهى ابتلاء الله للعبد لأجل أن يمحس إيمانه، وذلك على قسمين:

الأول: ما يقدره الله نفسه على العبد؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٥).

الثانى: ما يقدره الله على أيدي الخلق من الإيذاء امتحاناً واختباراً، وذلك كآلية التى ذكر المؤلف.

وبعض الناس إذا أصابته مصائب لا يصبر، فيكفر ويرتد أحياناً - والعياذ بالله - ،

(٢) الظلال ٥/ ٢٧٢٣ - ٢٧٢٤.

(٤) الحج: ١١.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٦٦.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢١٣ : ٢١٥.

(٥) البقرة: ١٥٦/ ١٥٥.

وأحياناً يكفر بما خالف فيه أمر الله - عزوجل - فى موقفه فى تلك المصيبة، وكثير من الناس ينقص إيمانه بسبب المصائب نقصاً عظيماً؛ فليكن المسلم على حذر؛ فالله حكيم يمتحن عباده بما يتييسن به تحقق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَبَلُّوْكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾. قوله: «الآية».

أى: إلى آخر الآية: وهى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

كانوا يدعون أن ما يحصل لهم من الإيذاء بسبب الإيمان، فإذا انتصر المسلمون قالوا: نحن معكم نريد أن يصيبنا مثل ما أصابكم من غنمة وغيرها. اهـ. قوله: ﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾. الإعراب (١):

﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ الهمزة للاستفهام التقريرى التوبيخى والواو عاطفة على محذوف يقتضيه السياق وليس فعل ماض ناقص والله اسمها والباء حرف جر زائد وأعلم مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه خبر ليس وبما متعلقان بأعلم وفى صدور العالمين صلة ما.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين:

قال الرازى (٢): بين الله تعالى أنهم أرادوا التلبس ولا يصح ذلك لهم. لأن التلبس إنما يكون عندما يخالف القول القلب، فالسامع يبنى الأمر على قوله ولا يدرك ما فى قلبه فيلتبس الأمر عليه. وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور، وهو أعلم بما فى صدر الإنسان من الإنسان فلا يلتبس عليه الأمر، وهذا إشارة إلى أن الاعتبار بما فى القلب، فالمتأفق الذى يظهر الإيمان ويضم الكفر كافر، والمؤمن المكره الذى يظهر الكفر ويضم الإيمان مؤمن والله أعلم بما فى صدور العالمين، ولما بين أنه أعلم بما فى قلوب العالمين، بين أنه يعلم المؤمن المحق وإن لم يتكلم.

(١) إعراب القرآن (٤٠٦).

(٢) التفسير الكبير ١٣/٢٥/٤٠.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد :

قال ابن عثيمين^(١) : وقوله : ﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ .

قيل فى مثل هذا السياق : إن الواو عاطفة على محذوف يُقدَّر بحسب ما يقتضيه السياق .

وقيل : إنها عاطفة على ما سبقها على تقدير أن الهمزة بعدها ؛ أى : وأليس الله .

قوله : ﴿أَعْلَمَ﴾ مجرور بالفتحة ؛ لأنه ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل .

فالله أعلم بما فى صدور العالمين ، أى بما فى صدور الجميع ؛ فالله أعلم بما فى نفسك منك ، وأعلم بما فى نفس غيرك ، لأن علم الله عام .

وكلمة ﴿أَعْلَمَ﴾ : اسم تفضيل ، وقال بعض المفسرين ولاسيما المتأخرون منهم : ﴿أَعْلَمَ﴾ بمعنى عالم ، وذلك فراراً من أن يقع التفضيل بين الخالق والمخلوق ، وهذا التفسير الذى ذهبوا إليه كما أنه خلاف اللفظ ؛ فيه فساد المعنى ؛ لأنك إذا قلت : أعلم بمعنى عالم ، فإن كلمة عالم تكون للإنسان وتكون لله ، ولاتدل على التفاضل ؛ فالله عالم والإنسان عالم .

وأما تحريف اللفظ ؛ فهو ظاهر ، حيث حرفوا اسم التفضيل الدال على ثبوت المعنى وزيادة إلى اسم فاعل لا يدل على ذلك والصواب أن (أعلم) على بابها وانها اسم تفضيل ، وإذا كانت اسم تفضيل ؛ فهي دالة دلالة واضحة على عدم تماثل علم الخالق وعلم المخلوق ، وأن علم الخالق أكمل .

وقوله : ﴿بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ .

المراد بالعالمين : كل من سوى الله ؛ لأنهم علّم على خالقهم ، فجميع المخلوقات دالة على كمال الله وقدرته وربوبيته .

والله أعلم بنفسك منك ومن غيرك ؛ لعموم الآية .

وفى الآية تحذير من أن يقول الإنسان خلاف ما فى قلبه ، ولهذا لما تخلف كعب بن مالك فى غزوة تبوك قال للرسول ﷺ حين رجع : «إني قد أوتيت جدلاً، ولو جلست إلى غيرك من ملوك الدنيا؛ لخرجت منهم بعدر، لكن لا أقول شيئاً تعذرني فيه فيفضحني الله فيه»^(٢) .

(١) القول المفيد ٢/ ٢١٥ : ٢١٦ .

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٧٠)، ومسلم فى التوبة (٩/ ١٠٠/ ٥٣) عن كعب به .

وانظر «رياض الصالحين» (٢١ - بتخريجنا) .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حَرِصٌ حَرِيصٌ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةٌ كَارِهَةٌ»^(١).

الشاهد من الآية: قوله: «فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً النَّاسَ كَعَذَابِ اللَّهِ»؛ فخاف الناس مثل خوف الله تعالى. اهـ.



قوله [عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: ...].

- مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جارية^(٢): أن فيه ذم لمن خاف الناس وقدم رضاهم على رضى الله. اهـ.

وقال القرعاوى^(٣): دل الحديث على تحريم ترك شيء من الواجب خوفاً من الناس. اهـ.

- مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى^(٤): حيث أفاد الحديث أن الخوف نوع من العبادة، والعبادة لغير الله شرك. اهـ.

● شرح الحديث :

قوله : عن أبى سعيد - رضى الله عنه مرفوعاً : «إن من ضعف اليقين ...» الحديث .

[قلت]: لم يعزه المصنف - رحمه الله - لأحد من المصنفين والحديث أخرجه أبو نعيم فى «الحلية»، والبيهقى فى «الشعب» من طريق عطية العوفى عن أبى سعيد به . وعطية العوفى ضعيف الحديث وكان يلدس . قال مسلم بن الحجاج : قال أحمد وذُكر عطية العوفى فقال : هو ضعيف الحديث . ثم قال : بلغنى أن عطية العوفى كان يأتى الكلبى ويسأله عن التفسير وكان يكتنيه بأبى سعيد فيقول : قال أبو سعيد، وكان هشيم

(١) [ضعيف] أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (١٠٦/٥)، (٤١/١٠)، والبيهقى فى «الشعب» (٢٢١/١)

(٢) من طريق عطية العوفى، عن أبى سعيد به . وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٥١) بتخريجنا .

(٣) الجديد ٢٩٣ .

(٢) الجامع الفريد ١٣٣ .

(٤) الجديد ٢٩٣ .

يضعف حديثه عطية. وقال أحمد: حدثنا أبو أحمد الزبيري قال: سمعت الكلبي قال: كنانى عطية أبا سعيد (*) . اهـ.

قوله^(١): «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ».

«من»: للتبعية، والضعف ضد القوة، ويقال: ضَعَفُ أو ضَعُفٌ، وكلاهما بمعنى واحد؛ أى: من علامة ضعف اليقين.

قال فى المصباح: والضعف بفتح الضاد فى لغة تميم وبضمها فى لغة قريش خلاف القوة والصحة واليقين، المراد به الإيمان كله^(٢).

كما قال ابن مسعود: «الْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ، وَالصَّبْرُ نَصْفُ الْإِيمَانِ»^(٣)، رواه الطبراني بسند صحيح ورواه أبو نعيم فى «الحلية» والبيهقى فى «الزهد» من حديثه مرفوعاً^(٤) ولا يثبت رفعه. قاله الحافظ ويدخل فى ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق.

كما فى حديث ابن عباس مرفوعاً: «فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ بِالرَّضَىٰ فِي الْيَقِينِ فَأَفْعَلْ، وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرًا»^(٥).

وفى رواية أخرى فى إسناده ضعف: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْيَقِينِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْلَمَ أَنْ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»^(٦).

قوله: «أَنْ تَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ».

قال سليمان آل الشيخ^(٧): قوله: أَنْ تَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ أى: تؤثر رضاهم

(*) تهذيب الكمال (١٤٧/٢٠).

(١) القول المفيد ٢/٢١٦.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٦٧.

(٣) علقه البخارى (١/ ٦٠ - الفتح) بالشطر الأول منه ووصله البرانى فى «اليد» (٩/ ١٠٧/ ١٥٤٤).

قال الهيثمى فى «المجمع» (١/ ٥٧): رجاله رجال الصحيح. وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٥٣) بتخريجنا.

(٤) أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (٥/ ٣٤).

(٥) أخرجه الحاكم فى «الم تدرک» (٣/ ٥٤١) وتعقبه الذهبى بقوله: لم يخرج الشيخان لابن خراش لا القداح لأن القداح قالس أبو ح تم،: متروك والآخر مختلف فيه وعب الملك لم يسمع من ابن عباس فيما أرى، وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٥٤) بتخريجنا.

(٦) أخرجه ابن جرير فى «تف يره» (٢٨/ ٧٩- ٨٠) وانظر «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٢٦) و«فتح المجيد» (ح ٦٥٥) بتخريجنا.

(٧) تيسير العزيز الحميد ٣٦٧.

على رضى الله، فتوافقهم على ترك الأمور، أو فعل المحذور استجلاً لرضاهم فلولا ضعف اليقين لما فعلت ذلك، لأن من قوى يقينه علم أن الله وحده هو النافع الضار وأنه لا معول إلا على رضاه، وليس لسواه من الأمر شيء، كائناً ما كان فلا يهاب أحداً، ولا يخشاه لخوف ضرر يلحقه من جهته كما قال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾.

قوله: «أن ترضى».

قال ابن عثيمين^(١): اسم إن مؤخر، وخبرها مقدم: «من ضعف اليقين»، والتقدير: إن إرضاء الناس بسخط الله من ضعف اليقين.

قوله: «بسخط الله».

الباء للعوض، يعنى: أى تجعل عوض إرضاء الناس سخط الله، فتستبدل هذا بهذا؛ فهذا من ضعف اليقين. اهـ.

قلت: وعن عائشة مرفوعاً «من أرضى الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ومن أرضى الله يسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس»*

قال ابن عثيمين^(١): واليقين أعلى درجات الإيمان، وقد يراد به العلم، كما تقول: تيقنت هذا الشيء، أى: علمته يقيناً لا يعتريه الشك، فمن ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله؛ إذ إنك خفت الناس أكثر مما تخاف الله، وهذا مما ابتليت به الأمة الإسلامية اليوم؛ فتجد الإنسان يجرى إلى شخص فيمدحه، وقد يكون خالياً من هذا المدح، ولا يبين ما فيه من عيوب، وهذا من النفاق وليس من النصح والمحبة، بل النصح أن تبين له عيوبه ليتلافها ويحترز منها، ولا بأس أن تذكر له محامده تشجيعاً إذا أمن فى ذلك من الغرور. اهـ.

قوله: «وأن تحمدهم على رزق الله».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «وأن تحمدهم على رزق الله» أى: تحمدهم وتشكرهم على ما وصل إليك على أيديهم من رزق؛ بأن تضيفه إليهم وتنسى المنعم المتفضل على الحقيقة وهو الله رب العالمين الذى قدر هذا الرزق لك وأوصله إليك بلطفه ورحمته فإنه لطيف لما يشاء وهو العليم الحكيم فإذا أراد أمراً قيص له أسباباً ولا ينافى ذلك:

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٦٨.

(١) القول المفيد ٢/٢١٧.

(*) سيأتى تخريج.

حديث: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ»^(١) لأن المراد هنا إضافة النعمة إلى السبب ونسيان الخالق، والمراد بشكر الناس عدم كفر إحسانهم ومجازاتهم على ذلك بما استطعت فإن لم تجد فجازهم بالدعاء. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): الحمدُ: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم. ولكنه هنا ليس بشرط المحبة والتعظيم؛ لأنه يشمل المدح.

و«رزق الله»: عطاء الله؛ أي: إذا عطوك شيئاً حمدتهم ونسيت المُسبَّب وهو الله، والمعنى: أن تجعل الحمد كله لهم متناسياً بذلك المسبب، وهو الله؛ فالذي أعطاك سبب فقط، والمعطى هو الله، ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ، وَاللَّهُ يَعْطِي».

أما إن كان في قلبك أن الله هو الذي منّ عليك بسياق هذا الرزق، ثم شكرت الذي أعطاك؛ فليس هذا داخلاً في الحديث، بل هو من الشرع؛ لقوله ﷺ: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا؛ فَكَافَتْهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تَكْفُونَهُ بِهِ؛ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَفَأْتُمُوهُ»^(٣).

إذن الحديث ليس على ظاهره من كل وجه؛ فالمراد بالحمد أن تحمدهم الحمد المطلق ناسياً المُسبَّب وهو الله - عزوجل -، وهذا من ضعف اليقين، كأنك نسيت المنعم الأصلي، وهو الله - عزوجل -، الذي له النعمة الأولى، وهو سفه أيضاً؛ لأن حقيقة الأمر أن الذي أعطاك هو الله، فالبشر الذي أعطاك هذا الرزق لم يخلق ما أعطاك، فالله هو الذي خلق ما بيده، وهو الذي عطف قلبه حتى أعطاك، أرأيت لو أن إنساناً له طفل، فأعطى طفله ألف درهم وقال له: أعطها فلاناً، فالذي أخذ الدراهم يحمد الأب؛ لأنه لو حمد الطفل فقط لعدّ هذا سفهاً؛ لأن الطفل ليس إلا مرسلأً فقط، وعلى هذا؛ فنقول: إنك إذا حمدتهم ناسياً بذلك ما يجب لله من الحمد والثناء؛ فهذا هو الذي من ضعف اليقين، أما إذا حمدتهم على أنهم سبب من الأسباب، وأن الحمد كله لله - عزوجل -؛ فهذا حق، وليس من ضعف اليقين. اهـ.

قلت: وقد تقدم الحديث القدسي «إني والأنس والجن لفي نأٍ عظيم أخلق ويعيد غيري وأرزق ويشكر سواي» وفيه ضعيف إلا أن معناه صحيح.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/٢٥٨)، وأبو داود (١١/٤٨٠)، والترمذي (١٩٥٤) عن أبي هريرة به. وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٥٦) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ٢/٢١٨ و ٢١٩.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/٦٨، ٩٩، ١٢٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٦)، وأبو داود (/ ٣١٠)، والنسائي (٥/٨٢).

وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٥٧) بتخريجنا.

قوله: «وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله» أى: إذا طلبتهم شيئاً فمنعوك ذمتهم على ذلك، فلو علمت يقيناً أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده وأن المخلوق مدبر لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره، وأن الله لو قدر لك رزقاً؛ أنك ولو اجتهد الخلق كلهم فى دفعه، وأن أرادك بمنع لم يأتك مرادك ولو اجتمع الخلق كلهم فى إيصاله إليك لقطعت العلائق عن الخلائق وتوجهت بقلبك إلى الخالق تبارك وتعالى ولهذا قرر ذلك بقوله: «إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره» فلا ترض الخلق بما يسخط الله، ولا تحمدهم على رزق الله، ولا تذمهم على ما لم يؤتك الله طلباً لحصول رزق من جهتهم فـ ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

قال شيخ الإسلام: اليقين يتضمن اليقين فى القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقته وتدييره، فإذا ارضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً لا بوعد الله ولا برزق الله، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميل إلى ما فى أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب فى الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفأك مؤنتهم وإرضائهم بما يسخطه إنما يكون خوفاً منهم، ورجاء لهم وذلك من ضعف اليقين، وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك فالأمر فى ذلك إلى الله لا لهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذمتهم على ما يقدر كان ذلك من ضعف يقينك فلا تخفهم ولا ترجمهم، ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود، ومن ذمة الله ورسوله فهو المذموم.

ولَمَّا قَالَ بَعْضُ وَفَدِ بَنِي تَمِيمٍ: أَيْ مُحَمَّدٌ أَعْطَانِي فَإِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ وَدَمِّي شَيْنٌ قَالَ ﷺ: «ذَاكَ اللَّهُ»(*) وفى الحديث: أن الإيمان يزيد ويتقص، وأن الأعمال داخلية فى الإيمان وإلا لم تكن هذه الثلاث من ضعفه وأضدادها من قوته. أهـ

قال ابن عثيمين^(٢): هذه عكس الأولى؛ فمثلاً: لو أن إنساناً جاء إلى شخص يوزع دراهم، فلم يعطه، فسيبه وشتمه؛ فهذا من الخطأ لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٦٨ و ٣٦٩.

(*) أخرجه الترمذى (٣٢٦٧) عن البراء به قال الترمذى: حسن غريب

وانظر «فتح القدير» (١١٣٨٨) و«فتح المجيد» (ح ٦٥٩) بتخريجنا

(٢) القول المفيد ٢/٢١٩ و ٢٢٠.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ التَّمَسَّ رَضِيَ اللَّهُ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسُ، وَمَنْ التَّمَسَّ رَضِيَ النَّاسُ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ النَّاسُ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ (١).

لكن من قَصَرَ بواجب عليه، فَيُذَمَّ لأجل أنه قَصَرَ بالواجب لا لأجل أنه لم يعط؛ فلا يذم من حيث القَدَر؛ لأن الله لو قَدَّر ذلك لوجدت الأسباب التي يصل بها إليك هذا العطاء.

وقوله: «المالم يؤتك».

علامة جزمه حذف الياء، والمفعول الثاني محذوف؛ لأنه فضله، والتقدير: مالم يؤتك. أهـ

قوله: «إنَّ رزق الله لا يحجره حرص حريص ولا يردّه كراهية كاره».

قال ابن عثيمين (٢): هذا تعليل؛ لقوله: «أنَّ محمدهم وأن تدمهم».

و «رزق الله»: عطاؤه، لكن حرص الحريص من سببه بلا شك، فإذا بحث عن الرزق وفعلت الأسباب؛ فإنه يكون فعل الأسباب الموجبة للرزق، لكن ليس المعنى أن هذا السبب موجب مستقل، وإنما الذي يرزق هو الله تعالى، وكم من إنسان يفعل أسباباً كثيرة للرزق ولا يرزق، وكم من إنسان يفعل أسباباً قليلة فيرزق، وكم من إنسان يأتيه الرزق بدون سعي، كما لو وجد ركازاً في الأرض أو مات له قريب غنى يرثه، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: «ولا يردّه كراهية كاره».

أى: أن رزق الله إذا قَدَّر للعبد، فلن يمنعه عن كراهية كاره؛ فكم من إنسان حسده الناس، وحاولوا منع رزق الله فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.



قوله: [وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال «من التمس رضى الله...]

مناسبة الحديث للباب:

قال ابن عثيمين (٣): قوله: «ومن التمس رضا الناس بسخط الله»؛ أى: خوفاً منهم

حتى يرضوا عنه؛ فقدم خوفهم على مخافة الله تعالى. أهـ

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٢٤٧/١ - الإحسان) من طريق

واقد العمرى، عن أبيه، عن محمد بن المكندر، عن عروة، عن عائشة به. وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٦٠) بتخريجنا.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٢٢.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٢٠.

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى^(١): حيث دل الحديث على وجوب إخلاص الخوف لله . لذا يكون الخوف نوعاً من العبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. أهـ
قوله: [رواه ابن حبان في «صحيحه»].

قال ابن حبان في «صحيحه» أخبرنا الحسن بن سفيان، قال: حدثنا عبد الله بن عمر الجعفي قال: حدثني عبدالرحمن المحاربي، عن عثمان بن واقد العمرى، عن أبيه، عن محمد بن المنكدر، عن عروة، عن عائشة . . . الحديث». قوله: من التمس رضى الله بسخط الناس.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «من التمس» أى: طلب.

قال شيخ الإسلام: كتبت عائشة إلى معاوية وروى أنها رفعت «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً»^(٣) هذا لفظ المرفوع ولفظ الموقوف «من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً»^(٤) هذا اللفظ المأثور عنها، وهذا من أعظم الفقه في الدين والمأثور أحق وأصدق، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه. وكان عبده الصالح والله يتولى الصالحين وهو كاف عبده «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» والله يكفيه مؤنة الناس بلاريب، وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد يحصل ذلك، لكن يرضون إذا سلموا من الاغراض، وإذا تبين لهم العاقبة، «ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً»، كالظالم الذى يعرض على يديه، وأما كون حامده ينقلب ذاماً فهذا يقع كفوفاً ويحصل فى العاقبة، فإن العاقبة للتقوى لا تحصل ابتداء عند أهوائهم. قلت: وإنما يحمل الإنسان على إرضاء الخلق بسخط الخالق هو الخوف منهم. فلو كان خوفه خالصاً لله لما أرضاهم بسخطه، فإن العبيد فقراء عاجزون لا قدرة لهم على نفع ولا ضرر البتة، وما بهم من نعمة فمن الله، فكيف يحسن بالموحد المخلص أن يؤثر رضاهم على رضاء رب العالمين؟ الذى له الملك كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، ومنه الخير كله، وإليه

(١) الجديد ٢٩٥.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٦٩ و ٣٧٠.

(٣) أخرجه الترمذى (٢٤١٤) عن عائشة به. وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٦٢) بتخریجنا.

(٤) أخرجه الترمذى تحت الموضوع السابق وموقوفاً وهو أشبه. وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٦٣) بتخریجنا.

يرجع الأمر كله، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. وقد أخبر تعالى أن ذلك من صفات المنافقين في قوله: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وما أحسن ما قيل:

إذا صح منك الود يا غاية المنى فكل الذي فوق التراب تراب

قال ابن رجب: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يرضى التراب بسخط الملك الوهاب؟.

﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾

وفي الحديث: عقوبة من خاف الناس واثّر رضاهم على رضى الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين عياداً بالله من ذلك. فإن المصيبة في الأديان أعظم من المصيبة في الأموال والأبدان.

وفيه شدة الخوف على عقوبات الذنوب، لاسيما في الدين فإن كثيراً من الناس يفعل المعاصي ويستهيئ ولا يرى أثراً لعقوبتها، ولا يدري المسكين بماذا أصيب؟ فقد تكون عقوبته في قلبه كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، ويعفوك من عقوبتك، وبك منك، لانحصى إثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. أهـ

قال ابن عثيمين^(١): «التمس»: طلب، ومنه قوله ﷺ في ليلة القدر: «التمسوها في العشر»^(٢).

وقوله: «رضا الله».

أى: أسباب رضاه، قوله: «بسخط الله»: الباء للعوض؛ أى: إنه طلب ما يرضى الله ولو سخط الناس به بدلاً من هذا الرضا، وجواب الشرط: «رضى الله عنه وأرضى عنه الناس».

قوله: «رضى الله عنه وأرضى عنه الناس».

هذا ظاهر، فإذا التمس العبد رضا ربه بنية صادقة رضى الله عنه؛ لأنه أكرم من عبده وأرضى عنه الناس، وذلك بما يلقى في قلوبهم من الرضا عنه ومحبته؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

(٢) تقدم تخريجه

(١) القول المفيد ٢/ ٢٢١ و ٢٢٢ .

قوله: «ومن التمس رضا الناس بسخط الله».

«التمس»: طلب؛ أى: طلب ما يرضى الناس، ولو كان بسخط الله؛ فنتيجة ذلك أن يعامل بنقيض قصده، لهذا قال: «سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»؛ فألقى فى قلوبهم سخطه وكرهيته. أهـ

قال ابن عثيمين^(١): فيستفاد من الحديث ما يلي:

- ١- وجوب طلب ما يرضى الله وإن سخط الناس؛ لأن الله هو الذى ينفع ويضر.
 - ٢- أنه لا يجوز أن يلتبس ما يسخط الله من أجل إرضاء الناس كائناً من كان.
 - ٣- إثبات الرضا والسخط لله على وجه الحقيقة، لكن بلا مماثلة للمخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، وأما أهل التعطيل؛ فأنكروا حقيقة ذلك، قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، وهذا لا يليق بالله، وهذا خطأ؛ لأنهم قاسوا سخط الله أو غضبه بغضب المخلوق، فنرد عليهم بأمرين: بالمنع، ثم النقض:
- فالمنع: أن نمنع أن يكون معنى الغضب المضاف إلى الله - عز وجل - كغضب المخلوقين.

والنقض: فنقول للأشاعرة: أنتم أثبتم لله - عز وجل - الإرادة، وهى ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة، والرب عز وجل لا يليق به ذلك، فإذا قالوا: هذه إرادة المخلوق. نقول: والغضب الذى ذكرتم هو غضب المخلوق.

وكل إنسان أبطل ظواهر النصوص بأقيسة عقلية؛ فهذه الأقيسة باطلة لوجوه:

الأول: أنها تبطل دلالة النصوص، وهذا يقتضى أن تكون هى الحق، ومدلول النصوص باطل، وهذا ممتنع.

الثانى: أنه تقول على الله بغير علم؛ لأن الذى يبطل ظاهر النص يؤوله إلى معنى آخر؛ فيقال له: ما الذى أدراك أن الله أراد هذا المعنى دون ظاهر النص؟ فيه تقول على الله فى النفى والإثبات فى نفى الظاهر، وفى إثبات مالم يدل عليه دليل.

الثالث: أن فيه جنابة على النصوص، حيث اعتقد أنها دالة على التشبيه؛ لأنه لم يعطل إلا لهذا السبب؛ فيكون ما فهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كفراً أو ضلالاً.

الرابع: أن فيها طعنًا بالرسول ﷺ وخلفائه الراشدين؛ لأننا نقول: هذه المعانى التى صرفتم النصوص إليها هل الرسول ﷺ وخلفاؤه يعلمون بها أم لا؟

فيه مسائل

الأولى: تفسير آية (آل عمران).

فإن قالوا: لا يعلمون؛ فقد اتهموهم بالقصور، وإن قالوا: يعلمون ولم يبينوها؛ فقد اتهموهم بالتقصير.

فلا تستوحش من نص دل على صفة أن تثبتها، لكن يجب عليك أن تحتنب أمرين هما:

التمثيل والتكليف؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(٢)، فإذا أثبت الله لنفسه وجهاً أو يدين؛ فلا تستوحش من إثبات ذلك؛ لأن الذي أخبر به عن نفسه أعلم بنفسه من غيره وأصدق قليلاً وأحسن حديثاً، وهو يريد لخلق الهداية، وإذا أثبت رسوله ذلك له؛ فلا تستوحش من إثباته؛ لأنه ﷺ: - أصدق الخلق.

- وأعلمهم بما يقول عن الله.

- وأبلغهم نطقاً وفصاحةً.

- وأنصح الخلق للخلق.

فمن أنكر صفة أثبتها الله لنفسه أو أثبتها له رسوله، وقال: هذا تقشعر منه الجلود وتنكره القلوب؛ فيقال: هذا لا ينكره إلا إنسان في قلبه مرض، أما الذين آمنوا؛ فلا تنكره قلوبهم، بل تؤمن به وتطمئن إليه، ونحن لم نكلف إلا بما بلغنا، والله يريد لعباده البيان والهدى، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾^(٣)؛ فهو لا يريد أن يعمى عليهم الأمر، فيقول: إنه يغضب وهو لا يغضب، ويقول: إنه يهرول وهو لا يهرول هذا خلاف البيان. أهـ



قوله «فيه مسائل»:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

قال ابن عثيمين^(٤):

وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وسبق.

(٢) الإسراء: ٣٦.

(٤) القول المفيد ٢/ ٢٢٦ و ٢٢٧.

(١) النحل: ٧٤.

(٣) النساء: ٢٦.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ (بَرَاءةٍ).

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ (العَنْكَبُوتِ).

الرابعة: أَنَّ الْيَقِينَ يَضْعُفُ وَيَقْوَى.

الخامسة: عَلَامَةٌ ضَعْفِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ: هَذِهِ الثَّلَاثُ.

السادسة: أَنَّ إِخْلَاصَ الْخَوْفِ لِلَّهِ مِنَ الْفَرَائِضِ.

السابعة: ذِكْرُ ثَوَابٍ مَنْ فَعَلَهُ.

الثانية: تفسير آية براءة.

وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾، وسبق.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت.

وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾، وقد تكلمنا على تفسيرها فيما سبق.

الرابعة: أَنَّ الْيَقِينَ يَضْعُفُ وَيَقْوَى.

تؤخذ من الحديث: «إِنْ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينَ...» الحديث.

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث.

وهي: أَنْ تَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذْمَهُمْ عَلَى مَا لَمْ يَوْتِكَ اللَّهُ.

السادسة: أَنَّ إِخْلَاصَ الْخَوْفِ لِلَّهِ مِنَ الْفَرَائِضِ.

وتؤخذ من قوله في الحديث: «مَنْ التَّمَسَّ...» الحديث، ووجهه ترتيب العقوبة على مَنْ قَدَّمَ رِضَا النَّاسِ عَلَى رِضَى اللَّهِ تَعَالَى.

السابعة: ذِكْرُ ثَوَابٍ مَنْ فَعَلَهُ.

وهو رِضَا اللَّهِ عَنْهُ، وَأَنَّهُ يَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَهُوَ الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ.

الثامنة: ذِكْرُ عِقَابٍ مَنْ تَرَكَهُ.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.

وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس، ولا ينال مقصوده.

وخلاصة الباب:

أنه يجب على المرء أن يجعل الخوف من الله فوق كل خوف، وأن لا ييألى بأحد في شريعة الله تعالى، وأن يعلم أن من التمس رضا الله تعالى وإن سخط الناس عليه؛ فالعاقبة له، وإن التمس رضا الناس وتعلق بهم وأسخط الله انقلبت عليه الأحوال، ولم ينل مقصوده، بل حصل له عكس مقصوده، وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس. أهـ.

قلت: وهو في تعاسة وانتكاس دائماً وفيه قوله ﷺ تعس عبد الدرهم نعس عبد الدينار وفي الحديث أن اعطى رضى وإن عم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش وتقدم الحديث وشرحه.



قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١).

● تمهيد:

قال الفقير: تقدم فى باب (من حقق التوحيد دخل الجنة) شىء مما يتعلق بهذا الباب، فى حديث وصف السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فكان من وصفهم «وعلى ربهم يتوكلون».

ونقلنا عن ابن حجر قول الجمهور فى معرفة التوكل وحقيقته وبيانه، حيث قالوا: التوكل يحصل بأن يثق بوعد الله ويوقن بأن قضاءه واقع، ولا يترك اتباع السنة فى ابتغاء الرزق مما لا بد له منه من مطعم، ومشرب، وتحرز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه، بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعاً ولا تدفع ضرراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى، والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى السبب قدح فى توكله، وهم مع ذلك فيه على قسمين: واصل وسالك.

فالأول: صفة الواصل، وهو الذى لا يلتفت إلى الأسباب ولوتعاطاها.

وأما السالك: فيقع له الالتفات إلى السبب أحياناً، إلا أنه يدفع ذلك عن نفسه بالطرق العلمية والأذواق الحالية إلى أن يرتقى إلى مقام الواصل. أهـ.

ثم ذكر - هناك - أدلة مشروعية الإكتساب وأنه من أفعال المتوكلين، كحديث أبى

هريرة:

«أفضل ما أكل الرجل من كسبه، وكان داود يأكل من كسبه» (***) وأيضاً الحذر

لا ينافى التوكل قال تعالى ﴿خذوا حذرکم﴾ ... وغير ذلك من المسائل المتعلقة بالتوكل ذكرناها هناك بشىء من الإجمال، وهنا نتوسع عما سبق بما يناسب الباب، والله الموفق للصواب.

● مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال ناصر السعدى (*): إن كان هذا خوفاً وهمياً كالخوف الذى ليس له سبب أصلاً

أوله سبب ضعيف فهذا مذموم يدخل صاحبه فى وصف الجبناء، وقد تعود ﷺ من الجبن فهو من الأخلاق الرذيلة، ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا

(**) أخرجه البخارى (٢٠٧٢) عن المقدم بنحوه.

(١) المائدة الآية: ٢٣.

(*) القول السديد (٩٠، ٩١)

النوع حتى أن خواص المؤمنين وأقويائهم تنقلب المخاوف في حقهم أمناً وطمأنينة لقوة إيمانهم وشجاعتهم القلبية وكمال توكلهم لهذا أتبعه بهذا الباب. أهـ.

وقال ابن عثيمين^(١): - هي أن الإنسان إذا أفرد الله - سبحانه - بالتوكل؛ فإنه يعتمد عليه في حصول مطلوبه وزوال مكروهه، ولا يعتمد على غيره. أ.هـ.

قلت: أى أن سبب تخويف الشيطان لأوليائه أنهم والوه وتركوا ولاية الله لهذا لم يعتمدوا عليه ولم يتوكلوا عليه فكانوا عرضة لتخويف الشيطان. والله أعلم.

● مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): فى الآية دليل على أن التوكل على الله عبادة، وعلى أنه فرض، وإذا كان كذلك فصرفه لغير الله شرك. أهـ.

وقال حامد بن محمد^(٣): والتوكل هو الاعتماد على الله فى جلب منافعه ودفعه مضاره وهذا أمر يختص لله تعالى ومنحصر عليه فمن توكل على غيره أشرك الشرك الأكبر الذى يخلد صاحبه فى النار إن مات عليه. أهـ.

● مناسبة الآية لكتاب التوحيد:-

قال عبدالله بن جار الله^(٤): أن التوكل على الله عبادة يجب إخلاصه لله فصرفه لغيره شرك ينافى التوحيد. أهـ.

قال ابن عثيمين^(*): وهذه الآية تقتضى انتفاء كمال الإيمان بانتفاء التوكل على الله، إلا إن حصل اعتماد كلى على غير الله، فهو شرك أكبر ينتفى له الإيمان كله. أهـ وسيأتى ذلك فى موضعه.

وقال القرعاوى^(٥): حيث دلت الآية على أن التوكل على الله نوع من العبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. أهـ

- ماذا أراد المصنف بهذا الباب.

قال سليمان آل الشيخ^(٦): - ومراد المصنف بهذه الترجمة النص على أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى لأنه من أفضل العبادات، وأعلى مقامات التوحيد بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين، كما تقدم فى صفة السبعين ألفاً الذين

(١) القول المفيد (٢/٢٢٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٧١

(٣) فتح الله الحميد المجيد (٣٥٦).

(٤) الجامع الفريد ١٣٤.

(*) القول المفيد (٢/٢٣٦).

(٥) الجديد (٢٩٨).

(٦) تيسير العزيز الحميد ٣٧١.

يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ ولذلك أمر الله به غير آية من القرآن أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، بل جعله شرطاً في الإيمان والإسلام ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والإسلام عند انتفائه كما في الآية المترجم لها. أهـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): وأراد المصنف - رحمه الله - بهذه الترجمة للآية بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصها لله تعالى، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر، أى : وعلى الله توكلوا لاعلى غيره، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة، فإنه إذا اعتمد على الله فى جميع أمور الدين والدنيا دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى فهو من أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله كما فى هذه الآية، وكما قال تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ وقوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ والآيات فى الأمر به كثيرة جداً. أهـ.

قال عبدالعزيز بن باز^(٢): أراد المصنف بهذه الترجمة بيان وجوب التوكل على الله، والاعتماد عليه فى جميع أمور الدين والدنيا، والتوكل هو التفويض إلى الله والثقة به والإيمان بأنه مسبب الأسباب وكل شئ بيده وما شاءه كان وما لم يشاء لم يكن، ويعلم أن القدر قد سبقه بكل شئ، وليس للعبد قدرة على أى شئ لما يشاءه الله سبحانه وتعالى مع الأخذ بالأسباب. أهـ

● معنى التوكل لغة

قال أبو السعادات^(٣) :- يقال: توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان أى: ألتأته واعتمدت عليه فيه، وكل فلان فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجز عن القيام بأمر نفسه انتهى.

وقال أحمد بن عبدالرحمن بن قدامة^(٤) : اعلم أن التوكل مأخوذ من الوكالة، يقال: وكل فلان أمره إلى فلان، أى فرض أمره واعتمد فيه عليه.

● حقيقة التوكل اصطلاحاً

قال الغزالي^(٥): التوكل منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالى درجات المقربين.

(٢) التعليق المفيد (١٨١)

(١) فتح المجيد (٤٧٦/٢)

(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر (٢٢١/٥) مادة: وكل

(٤) مختصر منهاج القاصدين (٩٣٣٢). (٥) إحياء علوم الدين (١١٥/٥)

وهو فى نفسه غامض من حيث العلم، ثم هو شاق من حيث العمل.
ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك فى
التوحيد، والتثاقل عنها بالكلية طعن فى السنة وقدح فى الشرع.
والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً تغيير فى وجه العقل وانغماس فى
غمرة الجهل.

وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد أهـ.
وقدما من كلام ابن حجر قول الجمهور فى حقيقته.

قال أحمد عبدالرحمن بن قدامة^(١): فالتوكل عبارة على اعتماد القلب على
الموكل، ولايتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء: الشفقة. والقوة. والهداية.
فإذا عرفت هذا فقتست عليه التوكل على الله سبحانه وإذا ثبت فى نفسك أنه لا فاعل
سواه، واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة، وأنه ليس وراء قدرته قدرة،
ولا وراء علمه علم، ولا وراء رحمته رحمة، اتكل قلبك عليه وحده لامحالة ولم يلتفت
إلى غيره بوجه، فإن كنت لاتجد هذه الحالة من نفسك، فسببها أحد أمرين:
إما ضعف اليقين بأحد هذه الخصال.

وإما بضعف القلب باستيلاء الجبن عليه، وانزعاجه بسبب الأوهام السالبة عليه - فإن
القلب قد ينزعج بإبقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان فى اليقين، فإنه من كان يتناول
عسلاً فشبّه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه منه وتعذر عليه تناوله.

ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت فى قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه من ذلك،
وإن كان متيقناً كونه ميتاً جماداً فى الحال، ولاينفر طبعه عن سائر الجمادات، وذلك جبن
فى القلب، وهو نوع ضعف قلماً يخلو الإنسان منه، وقد يقوى ذلك حتى يصير مرضاً،
حتى يخاف أن يبيت فى البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه.
فإذا لم يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً أهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب. وقال أبو
إسماعيل الأنصارى: التوكل كلة الأمر إلى مالكة والتعويل على وكالته. إذا تبين ذلك
فمعنى الآية المترجم لها أن موسى عليه السلام أمر قومه بدخول الأرض المقدسة التى
كتبها الله لهم، ولا يرتدوا على أديبارهم خوفاً من الجبارين، بل يمضوا قدماً لا يهابونهم

(١) مختصر منهاج القاصدين (٣٣٢).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٧١).

ولا يخشونهم، متوكلين على الله فى هزيمتهم، مصدقين بصحة وعده لهم إن كانوا مؤمنين. أهـ

قال ناصر السعدى^(١): - حقيقة التوكل على الله: أن يعلم العبد أن الأمر كله لله. وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطى المانع، وأنه لا حول ولا قوة الا بالله، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه فى جلب مصالح دينه ودنياءه، وفى دفع المضار ويثق غايه الوثوق بربه فى حصول مطلوبه، وهو مع هذا بأذل جهده فى فعل الأسباب النافعة. فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة وليبشر بكفاية الله له ووعدته للمتوكلين

قال القرطبى^(٢): التوكل الإعتماد على الله مع إظهار العجز، والاسم التكلان. يقال منه: اتكلت عليه فى أمرى، وأصله «اتكلت» قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ثم أبدلت منها التاء وأدغمته فى تاء الافتعال. ويقال وكلته بأمرى توكيلاً، والاسم الوكالة بكسر الواو وفتحها. أهـ

وقال ابن عثيمين^(٣):

والتوكل

هو الاعتماد على الله - سبحانه وتعالى - فى حصول المطلوب، ودفع المكروه، مع الثقة به وفعل الأسباب المأذون فيها، وهذا أقرب تعريف له. أهـ

● درجات التوكل:

قال ابن القيم^(٤):

الدرجة الأولى: فأول ذلك: معرفة بالرب وصفاته: من قدرته، وكفايته، وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه فى مقام التوكل.

الدرجة الثانية: إثبات فى الأسباب والمسببات.

فإن من نفاها فتوكله مدخول. وهذا عكس ما يظهر فى بدوات الرأى: أن إثبات الأسباب يقدح فى التوكل، وأن نفيها تمام التوكل.

فالتوكل من أعظم الأسباب التى يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر

(٢) تفسير القرطبى ٣/ ١٤٩٥.

(٤) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥ - ١٢٨).

(١) القول السديد ٩٢ و ٩٣.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٢٨.

الأسباب لم يستقم منه التوكل . ولكن من تمام التوكل : عدم الركون إلى الأسباب . وقطع علاقة القلب بها . فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها . وحال بدنه قيامه بها .

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه . والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره . فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل . ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية . والله سبحانه وتعالى أعلم .

الدرجة الثالثة : رسوخ القلب فى مقام توحيد التوكل .

فإنه لا يستقم توكل العبد حتى يصح له توحيده . بل حقيقة التوكل : توحيد القلب . فما دامت فيه علائق الشرك ، فتوكله معلول مدخول . وعلى قدر تجريد التوحيد : تكون صحة التوكل ، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة قلبه . فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب . وهذا حق . لكن رفضها عن القلب لاعن الجوارح . فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب ، وتعلق الجوارح بها . فيكون منقطعاً منها متصلاً بها . والله سبحانه وتعالى أعلم .

الدرجة الرابعة : اعتماد القلب على الله ، واستناده إليه ، وسكونه إليه .

بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ، ولا سكون إليها . بل يخلع السكون إليها من قلبه . ويلبسه السكون إلى مسببها .

وعلامه هذا : أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها . ولا يضطرب قلبه ، ويخفق عند إدبار ما يحب منها ، وإقبال ما يكره . لأن اعتماده على الله ، وسكونه إليه ، واستناده إليه ، قد حصنه من خوفها ورجائها .

الدرجة الخامسة : حسن الظن بالله عز وجل .

فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له . يكون توكلك عليه . ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله .

والتحقيق : أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه . إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ، ولا التوكل على من لا ترجوه . والله أعلم .

الدرجة السادسة : استسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلها إليه ، وقطع منازعته .

وبهذا فسر من قال : أن يكون العبد بين يدى الله . كالميت بين يدى الغاسل ، يقلبه كيف أراد . لا يكون له حركة ولا تدبير .

وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير. يعنى الاستسلام لتدبير الرب لك.
وهذا فى غير باب الأمر والنهى. بل فيما يفعله بك. لا فيما أمرك بفعله.
فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده، وانقياده له. وترك منازعات نفسه وإرادتها مع سيده. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرجة السابعة: التفويض

وهو روح التوكل ولُبُّه وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإتزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراراً. بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره: كل أموره إلى أبيه، العالم بشقيقته عليه ورحمته، وتمام كفايته، وحسن ولايته له، وتدبيره له. فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه. وقيامه بمصالحه وتولية لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتولية لها. فلا يجد له أصح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه، وراحته من حمل كَلْفَها وثقل حملها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم من فوض إليه وقدرته وشفقته.

فإذا وضع قدمه فى هذه الدرجة. انتقل منها إلى درجة «الرضى»

الدرجة الثامنة: الرضا

هى ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل: بها. فإنما فسر بأجل ثمراته، وأعظم فوائده.
فإنه إذا توكل حق التوكل رضى بما يفعله وكيهله.

وكان شيخنا - رضى الله عنه - يقول: المقدور يكتفه أمران: التوكل قبله، والرضى بعده. فمن توكل على الله قبل الفعل ورضى بالمقضى له بعد الفعل. فقد قام بالعبودية. أو معنى هذا.

قلت - ابن القيم -: وهذا معنى قول النبى ﷺ فى دعاء الاستخارة «اللهم إنى أستخيرك بعلمك. وأستقدر بقدرتك. وأسألك من فضلك العظيم» فهذا توكل وتفويض. ثم قال: «فإنك تعلم ولا أعلم. وتقدر ولا أقدر. وأنت علام الغيوب» فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحوال والقوة وتوسل إليه سبحانه بصفاته التى هى أحب ما توسل إليه بها المتوسلون. ثم سأل ربه أن يقضى له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً، أو آجلاً، وأن يصرفه عنه إن كان فيه ضرته عاجلاً أو آجلاً. فهذا هو حاجته التى سألتها. فلم يبق عليه إلا الرضى بما يقضيه له. فقال: «وأقدر لى الخير حيث كان. ثم رَضِيتُ به»^(١).

(١) البخارى تقدم تخريجه

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية، التى من جملتها: التوكل والتفويض . قبل وقوع المقدور . والرضى بعده . وهو ثمرة التوكل . والتفويض علامة صحته، فإن لم يرض بما قضى له . فتفويضه معلول فاسد .

فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل . وثبت قدمه فيه . وهذا معنى قول بشر الخافى : يقول أحدهم : توكلت على الله، يكذب على الله . لو توكل على الله لرضى بما يفعله الله به .

وقول يحيى بن معاذ - وقد سئل : متى يكون الرجل متوكلاً؟ - فقال إذا رضى بالله وكلياً . أهـ .

التوكل أصل لجميع مقامات الإسلام والإيمان والإحسان :- قال سليمان آل الشيخ (١) :-

قال ابن القيم : فجعل التوكل على الله شرطاً فى الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه وفى الآية الأخرى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٢) فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وقال : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٣) فذكر اسم الإيمان ههنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد . والله تبارك وتعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام . وبين التوكل والهداية . فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقوماته إلا على ساق التوكل .

قلت - يعنى سليمان آل الشيخ (٤) :- وفى الآية دليل على أن التوكل على الله عبادة، وعلى أنه فرض، وإذا كان كذلك فصرفه لغير الله شرك .

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٧٢ .

(٢) يونس : ٨٤ .

(٣) إبراهيم : ١١ .

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٧١ .

قال شيخ الإسلام: وما جاء أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَّقَ الطَّيْرُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (١). أهـ.

«التوكل» من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى.

قال ابن القيم (*): فإن التوكل له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات.

فله تعلق باسم «الغفار»، والتواب، والعفو، والرؤوف، والرحيم، وتعلق باسم «الفتاح»، والوهاب، والرزاق، والمعطي، والمحسن، وتعلق باسم «المعز المذل»، الحافظ. الرافع، المانع من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه وخفضهم ومنعهم أسباب النصر، وتعلق بأسماء «القدرة»، والإرادة وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى ولهذا فسرهُ من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله. وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل. وكلما كان بالله أعرف، كان توكله أقوى أهـ.

التوكل من أعظم واجبات التوحيد والإيمان.

قال ناصر السعدى (٢):- التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد الإيمان وبحسب قوة توكل العبد على الله يقوى إيمانه ويتسع توحيده والعبد مضطر إلى التوكل على الله والاستعانة به في كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه. أهـ.

قال ابن عثيمين بعد ما بين أقسام التوكل (٣):-

وما سبق يتبين أن التوكل من أعلى المقامات، وأنه يجب على الإنسان أن يكون مصطحباً له في جميع شؤونه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولا يكون للمعطلة أن يتكولوا على الله ولا للمعتزلة القدريّة؛ لأن المعطلة يعتقدون انتفاء الصفات عن الله تعالى، والإنسان لا يعتمد إلا على من كل كامل الصفات المستحقة لأنه يعتمد عليه.

(١) الحج: ٣١

(*) مدارج السالكين (٢/ ١٣٠)

(٢) القول السديد ٩١ و ٩٢

(٣) القول المفيد ٢٣٤ و ٢٣٥.

وكذلك القدرية؛ لأنهم يقولون: إن العبد مستقل بعمله، والله ليس له تصرف فى أعمال العباد.

ومن ثمَّ نعرف أن طريق السلف هو خير الطرق، وبه تكمل جميع العبادات وتتم به جميع أحوال العابدين. أهـ

● دعاوى تشبه بالتوكل والرد عليها:

قال ابن القيم^(١): وكثيراً ما يشبه فى هذا الباب المحمود الكامل بالمدوم الناقص. فيشبه التفويض بالإضاعة. فيضيع العبد حظه. ظناً منه أن ذلك تفويض وتوكل. وإنما هو تضييع لتفويض. فالتضييع فى حق الله. والتفويض فى حقك.

ومنه: اشتباه التوكل بالراحة، وإلقاء حمل الكلِّ. فيظن صاحبه أنه متوكل. وإنما هو عامل على عدم الراحة.

وعلاوة ذلك: أن المتوكل مجتهد فى الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد مستريح من غيرها لتعبه بها. والعامل على الراحة آخذ من الأمر مقدار ما تندفع به الضرورة. وتسقط به عنه مطالبة الشرع. فهذا لون. وهذا لون.

ومنه: اشتباه خلع الأسباب بتعطيلها. فخلعها توحيد، وتعطيلها إلحاد وزندقة. فخلعها عدم اعتماد القلب عليها، ووثوقه وركون إليها مع قيامه بها. وتعطيلها إلغاؤها عن الجوارح.

ومنه: اشتباه الثقة بالله بالغرور والعجز. والفرق بينهما: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله فى طلوع ثمرته، وتنميتها وتركيتها، كغارس الشجرة، وبأذر الأرض. والمغتر العاجز: قد فرط فيما أمر به، وزعم أنه واثق بالله. والثقة إنما تصح بعد بذلك المجهول.

ومنه: اشتباه الطمأنينة إلى الله والسكون إليه، بالطمأنينة إلى المعلوم، وسكون القلب إليه. ولا يميز بينهما إلا صاحب البصيرة. كما يذكر عن أبى سليمان الداراني: أنه رأى رجلاً بمكة لا يتناول شيئاً إلا شربة من ماء زمزم. فمضى عليه أيام. فقال له أبو سليمان يوماً: أرايت لو غارت زمزم؛ أى شئ كنت تشرب؟ فقام وقبل رأسه، وقال: جزاك الله خيراً، حيث أرشدتنى. فإنى كنت أعبد زمزم منذ أيام. ثم تركه ومضى.

وأكثر المتوكلين سكونهم وطمأنينتهم إلى المعلوم. وهم يظنون أنه إلى الله. وعلامة

(١) مدارج السالكين (٢/١٢٨، ١٢٩، ١٣٠)

ذلك : أنه متى انقطع معلوم أحدهم حضره هَمٌّ وَبَتْهُ وخوفه . فعلم أن طمأنينته وسكونه لم يكن إلى الله .

ومنه : اشتباه الرضى عن الله بكل ما يفعله بعبده - مما يحبه ويكرهه - بالعزم على ذلك ، وحديث النفس به . وذلك شيء والحقيقة شيء آخر . كما يحكى عن أبى سليمان أنه قال : أرجو أن أكون أعطيت طرفاً من الرضى ، لو أدخلنى النار لكنت بذلك راضياً .

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : هذا عزم منه على الرضى وحديث نفس به . لو أدخله النار لم يكن من ذلك شيء . وفرق بين العزم على الشيء وبين حقيقته .

ومنه : اشتباه علم التوكل بحال التوكل فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله . فيظن أنه متوكل . وليس من أهل التوكل . فحال التوكل : أمر آخر من وراء العلم به . وهذا كمعرفة المحبة والعلم بها وأسبابها ودواعيها . وحال المحب العاشق وراء ذلك ، وكمعرفة علم الخوف وحال الخائف وراء ذلك وهو شبيه بمعرفة المريض ماهية الصحة وحقيقتها وحاله بخلافها .

فهذا الباب يكثر اشتباه الدعاوى فيه بالحقائق ، والعوارض بالمطالب ، والآفات القاطعة بالأسباب الموصلة . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وكثير من المتوكلين يكون مغبوناً فى توكله ، وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله . ويمكنه نيلها بأيسر شيء . وتفريغ قلبه للتوكل فى زيادة الإيمان والعلم ، ونصرة الدين ، والتأثير فى العالم خيراً فهذا توكل العاجز القاصر الهمة . كما يصرف بعضهم همته وتوكله . ودعائه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء ، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف ، أو نصف درهم ، ويدع صرفه إلى نصرة الدين . وقمع المتبدعين ، وزيادة الإيمان ، ومصالح المسلمين والله أعلم . اهـ .

● أقسام التوكل على غير الله .

قال سليمان آل الشيخ (١) :-

التوكل على غير الله قسمان .

أحدهما : التوكل فى الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله ، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت فى رجاء مطالبهم من النصر والحفظ والرزق والشفاعة ؛ فهذا شرك أكبر فإن هذه الأمور ونحوها لا يقدر عليها إلا الله تبارك وتعالى .

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٧٣ .

الثانى: التوكل فى الأسباب الظاهرة العادية، كمن يتوكل على أمير أو سلطان، فيما جعله الله بيده من الرزق أو دفع الأذى ونحو ذلك. فهذا نوع شرك خفى.

والوكالة الجائزة: هى توكل الإنسان فى فعل مقدور عليه. ولكن ليس له أن يتوكل وإن وكله بل يتوكل على الله ويعتمد عليه فى تيسير ما وكله فيه كما قرره شيخ الإسلام. أهـ.

وقال ابن عثيمين^(١): شارحاً ومفصلاً كلام سليمان آل الشيخ فى التوكل على غير الله.

والتوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توكل عبادة وخضوع، وهو الاعتماد المطلق على من توكل عليه، بحيث يعتقد أن بيده جلب النفع ودفع الضرر؛ فيعتمد عليه اعتماداً كاملاً، مع شعوره بافتقاره إليه؛ فهذا يجب إخلاصه لله تعالى، ومن صرفه لغير الله؛ فهو مشرك شركاً أكبر؛ كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين، وهذا لا يكون إلا ممن يعتقد أن لهؤلاء تصرفاً خفياً فى الكون، فيعتمد عليهم فى جلب المنافع ودفع المضار.

الثانى: الاعتماد على شخص فى رزقه ومعاشه وغير ذلك، وهذا من الشرك الأصغر، وقال بعضهم: من الشرك الخفى، مثل اعتماد كثير من الناس على وظيفة فى حصول رزقه، ولهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا اعتماد افتقار؛ فتجد فى نفسه من المحابة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر؛ فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب، بل جعله فوق السبب.

الثالث: أن يعتمد على شخص فيما فوض إليه التصرف فيه، كما لو وكلت شخصاً فى بيع شئ أو شرائه، وهذا لا شئ فيه؛ لأنه اعتمد عليه وهو يشعر أن المنزلة العليا له فوقه؛ لأنه جعله نائباً عنه، وقد وكل النبی ﷺ على بن أبى طالب أن يذبح ما بقى من هديه^(٢)، ووكّل أبا هريرة على الصدقة^(٣)، ووكّل عروة بن الجعد أن يشتري له أضحية^(٤)، وهذا بخلاف القسم الثالث؛ لأنه يشعر بالحاجة إلى ذلك، ويرى اعتماده على المتوكل عليه اعتماد افتقار. أهـ

(١) القول المفيد ٢/ ٢٣٣ و ٢٣٤.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحج (٤/ ٤٢٩/ ١٤٧) عن جابر به.

(٣) أخرجه البخارى تعليقاً وتقدم

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٦٤٣) وانظر «بلوغ المرام» بتخريجنا وانظر شرحى «لزاد المعاد» لابن

قال سليمان آل الشيخ^(١):- «وكل سبب لم يأذن به الله باطل مضر لمتخذه؛ فلا يتعاطى، وإذا حقق المؤمن أن الله - سبحانه - رب كل شيء وخالقه ومليكه؛ فإنه لا ينكر ما خلقه الله تعالى من الأسباب، كما جعل المطر سبباً للنبات.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾^(٢)، وجعل الشمس والقمر سببين لما يخلقه بهما، والدعاء سبباً لما يحصل للمدعو له أو عليه، والدواء سبباً لذهاب الداء، قد نبه على ذلك النبي ﷺ بقوله: «لم ينزل الله داءً إلا أنزل له شفاء» (يعنى: دواء)، «علمه من علمه، وجهله من جهله»^(٣).

رواه: الإمام أحمد في «مسنده» من حديث أسامة بن شريك، وفي لفظ: «إن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواءً أو شفاءً إلا داءً واحداً. قالوا: يارسول الله! وما هو؟ قال: الهرم»^(٤).

وهذا يعم داء القلب والروح والبدن، أرشد ﷺ العرنين لما شكوا له الوخم ووجع البطن أن يلحقوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها،^(٥) وجعل الجهل داءً ودواؤه سؤال العلماء.

قال رسول الله ﷺ في قصة صاحب الشجرة: «قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذا لم يعلموا؛ فإنما شفاء العى السؤال»^(٦)، كما أن وجود الداء سبب للألم.

روى مسلم في «صحيحه» من حديث سهل بن حنيف عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «العين حق، ولو أن شيئاً سبق القدر لسبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»^(٧)، وكذا السحر، قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾^(٨)؛ فهو سبب لألم الفؤاد، ويوجب البغضاء والفرقة بين الزوجين، والنار سبب للإحراق، والسكين سبب للقطع، والحبل سبب لإظهار الماء في الدلو، وأكل الطعام سبب لذهاب ألم الجوع، وشرب الماء سبب لذهاب ألم العطش، والكدح بالاجتهاد في تحصيل العلم سبب للفهم، والمتاجرة بالمال سبب لفائدة الريح، وطاعة الله سبب لرضائه ورحمته،

(١) التوضيح عن توحيد الخلاق للشيخ سليمان ص ١٦٩ ص - ١٧٢ نقلاً عن حاشية القول المفيد ٢٢٨/٢ و٢٣١.

(٢) البقرة: ١٦٤. (٣) تقدم تخريجه (٤) تقدم تخريجه

(٥) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٦٨٦)، ومسلم فى القسامة (٥٣/١١) - النووى) عن أنس به وانظر «السلسلة» (٢٥٣٠ - بتخريجنا) وانظر شرحى «لزاد المعاد».

(٦) تقدم تخريجه (٧) تقدم تخريجه (٨) البقرة: ١٠٢.

ومعصيته سبب لسخطه انتقامه؛ فالأسباب المنصوص عليها لا تنكر، ولا يتكل عليها؛ إذ في إنكارها نقص في العقل، وفي الاتكال عليها شرك في الدين، وكل من الإنكار والاتكال متفٍ شرعاً، لكن قد يتخلف المسبب عنه مع قيام السبب؛ إذ الضر والنفع والمعطى والمنع هو الله وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(٢)، وتتخلف إحراق النار عن إبراهيم عليه السلام حين وضع فيها، وحدة السكين حين أمرها الخليل على حلقوم ولده إسماعيل عليهما السلام، ولا محيص عن الأخذ في الأسباب؛ فليس المتوكل من فتح للمسارقات الباب، ولا من قال: أنا متوكل أستغنى عن الطعام والشراب.

قال أفضل الأحباب لمن سأل: أيعقل الناقة أو يتكل؟! قال: «اعقلها وتوكل»^(٣)

وأفضل المتوكلين أشد عباد الله حرصاً على فعل الأسباب؛ فقد أمر بإطفاء السراج والتسمية وإغلاق الأبواب^(٤)، ونفض الفرش وطى الثياب^(٥)، وحفظ الصبيان أول الليل لانتشار الشياطين^(٦)، وهذا الباب لا يحصيه العادون من سنن المرسلين؛ فالأخذ فيها لا ينافي التوكل؛ لأنه الانقطاع عن جميع الخلق، وتفويض الأمور إلى الملك الحق وحده، وحيث؛ فلا بد أن يعرف فيها ثلاثة أمور:

أحدها: أنها لا تستقل بالمطلوب، بل تتعاطى عن غير ركون إليها، ومع هذا؛ فلها موانع، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود، وهو سبحانه ما شاء كان وإن لم يشأ الخلق، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الخلق.

الثاني: أنه غير جائز اعتقاد أن الشيء سبب إلا بعلم، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو بما يخالف الشريعة؛ كان مبطلاً في إثباته، أثماً في اعتقاداته.

(١) البقرة: ١٠٢

(٢) الأنفال: ١٧.

(٣) حسن أخرجه الترمذى (٢٥/٧) عن أنس به.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال في تخريج أحاديث الظلال» (٧١٩) وقلنا هناك (حسن).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٦٥٣)، ومسلم فى الأشربة (٩٦/٢٠١/٧) عن جابر به.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الدعوات (٦٣٢٠)، ومسلم فى الذكر والدعاء (٣٧/١٧) - بالنووى

عن أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٤٦٣) - بتخريجنا.

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى الأشربة (٩٧/٢٠٢/٧) عن جابر به.

الثالث: أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ شيء منها سبباً إلا أن يكون مشروعاً، إما استجباً، أو مأذوناً؛ فإن العبادات مبناه على التوقيف؛ فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وأن يقول على الله بلا علم، فيدعو غير الله بما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى، وإن ظن أن ذلك سبب في حصول غرضه لاعتقاده أن ذلك المدعو يشفع له فيما دعاه فيه؛ لأنه جنس ما اعتقده الأولون في آلهتهم، وكذلك لا يجوز أن يعبد الله بالبدع المخالفة للشرعية، وإن ظن أن ذلك سبب في حصول ما يطلبه من أغراض دنياه أو ثواب أخراه على زعم اعتقاده؛ فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده؛ إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به، والرسول ﷺ إنما بعث لتحقيق المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما أمر الله به؛ فمصلحته راجحة، وما نهى عنه؛ فمفسدته راجحة، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (١).

من ذلك: قول المحرمات وقول السخريات ليتوصل بها إلى تحصيل شيء من أمتعة الدنيا أو القرب لدى ملك من ملوكها، قال تعالى ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ (٢)، وكل شرك زور ولا عكس، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (٣).

ومنه: التداوى بالمحرمات، فلم يجعل الله الشفاء فيما حرمه، بل نزع عنه وأوهنه، والبدع التي ليست من شريعة الإسلام في شيء، بل هي من شعب الشرك الظاهرة، كأتربة أضرحة القبور لا يحل استعمالها أدوية، ولا تعاطيها لما في استعمالها من الاعتقادات الباطلة، والمفاسد في الدين الظاهرة؛ فهي أشبه بما فعله المشركون الأولون بآلهتهم من تعظيم الأصنام والتبرك والتمسح بها في كل مشهد خاص وعام.

ومنه: ما اعتنى به بعض الأغبياء الجهال وعوام الضلال دعوتهم بدعاء تمخسياً وتمشياً، ودعوتهم في الشدائد بأسماء أصحاب الكهف، وشمخ وغيرهم، وباللدعوات المجهولات، يزعمون أن هذه من الأسماء العظام والأدعية المستجابات، وأنه من الإنجيل والتوراة؛ فكل هذا من تلبس إبليس على هؤلاء الجند الذين اختاروه واختارهم؛ فلسنا ملتزمين في شريعتنا - ملة الإسلام - بتلك الأدعية في الصباح والمساء، ولم يقله أحد من العلماء الأدباء، بل الأغبياء السفهاء من القصاص اختاروها لتعزيز العوام وجمع الخطام؛

(٢) الحج: ٣١

(١) النور: ٤٠

(٣) هود: ١١٣

فلم يعاملوا الله بالإخلاص، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (١)، وأما الأسماء المنهى عنها؛ فإن الشيطان يظهر تأثيرات ويورى تلبسه فيها منافع ظاهرة في أكثر الأحيان، وهى حسرات، بل قد يكون التلفظ بتلك الكلمات كفرة لا يعرف معناها بالعربية، قال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٢)، وكل واسطة أو وسيلة نهى الشارع عنها لا يجوز اتخاذها فى جلب نفع أو كشف ضرر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِ﴾ (٣) الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (٥)، قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دهلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا، فأمر الله المسلمين أن يخلصوا له الدعوة إذا دخلوا مساجدهم (٦).

وقال سعيد بن جبير: المساجد الأعضاء التى يقع عليها السجود مخلوقة لله، فلا تسجدوا عليها لغيره فى كل ما أريد إبداءه من خير يتفعه أو ضرر يضره، قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (٧)، وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٨)، أى لا أحد؛ فلا يدانيه سبحانه أحد، ولا يستقبل سواه تعالى بما أَرَادَهُ، ولا يعطى لما منعه؛ فهذه الأسباب التى تتخذ وسائط ووسائل فى الجلب والدفع الذين لا يقدر عليهما إلا الله وحده منفية بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية؛ إلا أسباباً وردت عن الله أو رسوله؛ كالتوحيد، والصلاة بحضور قلب وخشوع وذل وانكسار، والدعاء، والاستغفار بعد الإقلاع عن الذنب والندم على فعله والعزم على ألا يعود إليه، والأعمال الصالحة؛ من صدقة، وصلة رحم، وطاعة الله وتقواه؛ فهى الأسباب فى جلب الخير، ودفع الشر، كما صرح به القرآن الكريم والسنة.

(١) الأعراف: ١٨٠

(٢) الأنعام: ٣٨

(٣) يونس: ١٠٦

(٤) الأنعام: ١٧

(٥) الجن: ١٨

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤٣٦/٦) ونسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر

(٨) البقرة: ٢٥٥

(٧) الرعد: ١٤

● ضوابط الأسباب المشروعة والمنوعة وعلاقة ذلك بالتوكل

قال ابن عثيمين: ولا بد - أى للتوكل - من أمرين (١) :

الأول: أن يكون الاعتماد على الله اعتماداً صادقاً حقيقياً.

الثاني: فعل الأسباب المأذون فيها.

فمن جعل أكثر اعتماده على الأسباب؛ نقص توكله على الله، ويكون قادحاً فى كفاية الله؛ فكأنه جعل السبب وحده هو العمدة فيما يصبو إليه من حصول المطلوب وزوال المكروه.

ومن جعل اعتماده على الله ملغياً للأسباب؛ فقد طعن فى حكمة الله؛ لأن الله جعل لكل شىء سبباً، فمن اعتمد على الله اعتماداً مجرداً؛ كان قادحاً فى حكمة الله؛ لأن الله حكيم، يربط الأسباب بمسبباتها، كمن يعتمد على الله فى حصول الولد وهو لا يتزوج.

والنبي ﷺ أعظم المتوكلين، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب؛ فكان يأخذ الزاد فى السفر، ولما خرج إلى أحد ظاهر بين درعين؛ أى: لبس درعين اثنين، ولما خرج مهاجراً أخذ من يده الطريق، ولم يقل سأذهب مهاجراً وأتوكل على الله، ولن أصطحب معى من يدلنى الطريق، وكان ﷺ يتقى الحر والبرد، ولم ينقص ذلك من توكله.

ويذكر عن عمر رضى الله عنه أن قدم ناس من أهل اليمن إلى الحج بلا زاد، فجئ بهم إلى عمر، فسألهم، فقالوا: نحن المتوكلون على الله. فقال: لستم المتوكلين، بل أنتم المتواكلون.

والتوكل نصف الدين، ولهذا نقول فى صلاتنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٢)؛ فنطلب من الله العون اعتماداً عليه سبحانه بأنه سيعيننا على عبادته.

وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ

الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٤)، ولا يمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكل؛ لأن الإنسان لو وُكِّل إلى نفسه وُكِّل إلى ضعف وعجز، ولم يتمكن من القيام بالعبادة؛ فهو حين يعبد الله يشعر أنه متوكل على الله، فينال بذلك أجر العبادة وأجر التوكل، ولكن الغالب عندنا ضعف التوكل، وأتينا لا نشعر حين نقوم بالعبادة أو العادة بالتوكل على الله والاعتماد عليه فى

(٢) الفاتحة: ٥.

(١) القول المفيد ٢/ ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣.

(٤) التوبة: ١٢٩.

(٣) هود: ١٢٣.

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١).

أن ننال هذا الفعل، بل نعتمد في الغالب على الأسباب الظاهرة وننسى ما وراء ذلك؛ فيفوتنا ثواب عظيم، وهو ثواب التوكل، كما أننا لا نُوفِّقُ إلى حصول المقصود كما هو الغالب، سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها أو عوارض توجب نقصها. أهد وانظر أيضاً كلام ابن القيم في: (باب من الشرك لبس الحلقة). أهد.



● الإعراب (٢) ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الواو استئنافية، والجملة مستأنفة مسوقة لتوصيتهم بالانكال على الله أولاً، والأخذ بأسباب الحيطة والحذر ثانياً، والفاء في قوله، [فتوكلوا] جواب أمر مخدوف لا بد من تقديره: تنبهوا فتوكلوا على الله، وعلى الله متعلقان بتوكلوا كما قالت العرب: زيداً فاضرب، تقديره: تنبه فاضرب زيداً، وكثيراً ما يأتي معمول ما بعد الفاء متقدماً عليها. وإن شرطية، وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمها ومؤنين خبرها، وجواب الشرط. محذوف دل عليه ما قبله، أي: فتوكلوا. أهد.

وقال ابن عثيمين (٣): قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾

﴿عَلَى اللَّهِ﴾ متعلقة بقوله: ﴿تَوَكَّلُوا﴾، وتقديم المعمول يدل على الحصر؛ أي: على الله لا على غيره، ﴿فَتَوَكَّلُوا﴾؛ أي: اعتمدوا.

والفاء لتحسين اللفظ وليست عاطفة؛ لأن في الجملة حرف عطف وهو الواو، ولا يمكن أن نعطف الجملة بعاطفين؛ فتكون لتحسين اللفظ؛ كقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾، والتقدير: «بل الله اعبد».

قوله: ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

﴿إِن﴾: شرطية، وفعل الشرط ﴿كُنْتُمْ﴾، وجوابه قيل: إنه محذوف دل عليه ما قبله، وتقدير الكلام: إن كنتم مؤمنين فتوكلوا، وقيل: إنه في مثل هذا التركيب لا يحتاج إلى جواب اكتفاء بما سبق؛ فيكون ما سبق كأنه فعل معلق بهذا الشيء، وهذا أرجح؛ لأن الأصل عدم الحذف.

(٢) إعراب القرآن ٢/ ٤٤٤

(١) المائدة: ٢٣.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٣٥ و ٢٣٦.

وقول أصحاب موسى في هذه الآية يفيد أن التوكل من الإيمان ومن مقتضياته، كما لو قلت: إن كنت كريماً فأكرم الضيف. فيقتضى أن إكرام الضيف من الكرم.

وهذه الآية تقتضى انتفاء كمال الإيمان بانتفاء التوكل على الله؛ إلا إن حصل اعتماد كلّي على غير الله؛ فهو شرك أكبر ينتفى له الإيمان كله. اهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبري: (١) وهذا أيضاً خبر من الله جل وعز عن قول الرجلين اللذين يخافان الله أنهما قالوا لقوم موسى يشجعانهم بذلك ويرغبانهم في المضى لأمر الله بالدخول على الجبارين في مدينتهم توكّلوا أيها القوم على الله في دخولكم عليهم ويقولون لهم ثقوا بالله فإنه معكم إن أطعته فيما أمركم من جهاد عدوكم، وعينا بقولهما إن كنتم مؤمنين إن كنتم مصدقني نبيكم ﷺ فيما أنبأكم عن ربكم من النصرة والظفر عليهم وفي غير ذلك من أخباره عن ربه ومؤمنين بأن ربكم قادر على الوفاء لكم بما وعدكم من تمكينكم في بلاد عدوه وعدوكم. اهـ.

قال الرازي: (٢) ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني لما وعدكم الله تعالى النصر فلا ينبغي أن تصيروا خائفين من شدة قوتهم وعظم أجسامهم بل توكّلوا على الله في حصول هذا النصر لكم إن كنتم مؤمنين مقرين بوجود الإله القادر ومؤمنين بصحة نبوة موسى عليه السلام. اهـ.

قال ابن كثير: (٣) ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن توكّلتم على الله واتبعتم أمره ووافقتم رسوله نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم ودخلتم البلد التي كتبها لكم فلم ينفع ذاك فيهم شيئاً. اهـ.

قال السعدي: (٤) ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن في التوكل على الله - وخصوصاً في هذا الموطن - تيسيراً للأمر ونصراً على الأعداء.

(١) الطبري ١١٥/٦/٤.

(٢) الفخر الرازي ٢٠٤/١١/٦.

(٣) ابن كثير ٣٧/٢.

(٤) تفسير الكريم الرحمن (١/٤٦٤).

وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١)(*)

دل هذا على وجوب التوكل وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله. اهـ.

قال صاحب الظلال (٢):

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فعلى الله وحده - يتوكل المؤمن وهذه هي خاصية الإيمان وعلامته وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه ولكن لمن يقولان هذا الكلام؟ لبنى إسرائيل؟! اهـ.



قوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

● مناسبة الآية الباب:-

قال القرعاوى: (٣) حيث دلت الآية على وجوب التوكل على الله دون من سواه. اهـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:-

قال القرعاوى (٤) حيث دلت الآية أن التوكل نوع من العبادة، وصدق العبادة لغير الله شرك. اهـ.

قوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

● الإعراب: (٥).

إنما كافة ومكفوفة، والمؤمنون مبتدأ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان من أراد بالمؤمنين، بذكر أوصافهم الجليلة المستتعبة لما ذكر من الخصال الثلاث الآتية، والذين خبر، وإذا ظرف لما يستقبل متضمن معنى الشرط، وجملة ذكر الله فى محل جر بالإضافة، والله نائب فاعل، وجملة وجلت قلوبهم لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم. اهـ.

(١) الأنفال: ٢

(*) تنبيه/ بعض شراح كتاب التوحيد أتى بالآية هكذا والبعض زاد ﴿وَإِذَا تَلَّيْت عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

(٢) ظلال التفسير ٢/ ٨٧٠.

(٣ - ٤) الجديد ٣٠٠

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٥٢٧

فإن إيمان هذه الساعة زيادةً على إيمان أمس؛ فمن صدق ثانياً وثالثاً فهو زيادة تصديق بالنسبة إلى ما تقدّم. وقيل: هو زيادة انشراح الصدر بكثرة الآيات والأدلة؛ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أى الذى استوى فى الإيمان ظاهرهم وباطنهم. ودل هذا على أن لكل حق حقيقة؛ وقد قال عليه السلام لحارثة: «إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟» الحديث.

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد؛ أؤمن أنت؟ فقال له: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن. وإن كنت تسألنى عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فوالله ما أدرى أنا منهم أم لا.

وقال أبو بكر الواسطي: من قال أنا مؤمن بالله حقاً؛ قيل له: الحقيقة تشير إلى إشراف وإطلاع وإحاطة؛ فمن فقداه بطل دعواه فيها.

يريد بذلك ما قاله أهل السنة: إن المؤمن الحقيقى من كان محكوماً له بالجنة، فمن لم يعلم ذلك من سرِّ حكمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقاً غير صحيح. اهـ.

قال ابن كثير^(١): قد استدلل البخارى وغيره من الأئمة بهذه الآية، وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله فى القلوب كما هو مذهب جمهور الأئمة بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعى وأحمد بن حنبل وأبى عبيد كما بينا ذلك مستقصى فى أول شرح البخارى والله الحمد والمنة. اهـ.

قلت: وهذا فيه رد على الرازى وغيره كالقرطبى الذين قالوا أن الإيمان هو التصديق فقط كما تقدم.

قال الشوكانى^(٢): والمراد من تلاوة آياته تلاوة الآيات المنزلة، أو التعبير عن بديع صنعته، وكمال قدرته فى آياته التكوينية بذكر خلقها البديع، وعجائبها التى يخشع عند ذكرها المؤمنون. قيل: والمراد بزيادة الإيمان هو زيادة انشراح الصدر، وطمأنينة القلب، وانثلاج الخاطر عند تلاوة الآيات. وقيل: المراد بزيادة الإيمان زيادة العمل؛ لأن الإيمان شىء واحد لا يزيد ولا ينقص والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه. اهـ.

(٢) فتح القدير ٢/ ٣٠٢.

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٥.

قال ناصر السعدى^(١): ووجه ذلك، أنهم يلقون له السمع، ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم

لأن التدبر من أعمال القلوب، لأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه ويتذكرون ما كانوا نسوه.

أو يحدث فى قلوبهم رغبة فى الخير واشتياقاً إلى كرامة ربهم.

أو وجلًا من العقوبات وازدجاراً عن المعاصى، وكل هذا مما يزيد به الإيمان.

قال صاحب الظلال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

والقلب المؤمن يجد فى آيات هذا القرآن ما يزيده إيماناً، وما ينتهى به إلى الاطمئنان.. إن هذا القرآن يتعامل مع القلب البشرى بلا وساطة، ولا يحول بينه وبينه شئ إلا الكفر الذى يحجبه عن القلب ويحجب القلب عنه؛ فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن.

لذلك يتكرر فى القرآن تقرير هذه الحقيقة فى أمثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.. ومن ذلك قول أحد الصحابة - رضوان الله عليهم: كنا نوتى الإيمان قبل أن نوتى القرآن.

وبهذا الإيمان كانوا يجدون فى القرآن ذلك المذاق الخاص. يساعدهم عليه ذلك الجو الذى كانوا يتنسمونه؛ وهم يعيشون القرآن فعلاً وواقعاً؛ ولا يزاولونه مجرد تذوق وإدراك؛ وفى الروايات الواردة فى نزول الآية قول سعد بن مالك وقد طلب أن ينفله رسول الله ﷺ السيف، قبل أن ينزل القرآن الذى يرد ملكية الأنفال للرسول ﷺ فيتصرف فيها بما يريد. وقد قال له: «إن هذا السيف لا لك ولا لى، ضعه» فلما نودى سعد من ورائه بعد وضعه السيف وانصرافه، توقع أن يكون الله - سبحانه - قد أنزل فيه شيئاً؛ قال: «قلت: قد أنزل الله فىّ شيئاً» قال رسول الله ﷺ: «كنت سألتنى السيف وهو ليس لى، وإنه قد وهب لى، فهو لك»^(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٨٤.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٩١) ونسبه لأحمد، وابن مردويه، وأبى داود، والترمذى وصححه، والنسائى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والبيهقى.

قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الإعراب^(١): ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ صفة ثالثة داخلية في نطاق الصلة للموصول، وعلى ربهم جار ومجرور متعلقان بـيتوكلون، والتقديم يفيد الاختصاص، أى: عليه لا على غيره.

● ما جاء فى الآية من الآثار:

روى ابن جرير بسنده عن قتادة وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون قال هذا نعت أهل الإيمان فأثبت نعتهم ووصفهم فأثبت صفتهم^(٢).

عن سعيد بن جبيرة قال: التوكل على الله جماع الإيمان^(٣).

عن ابن عباس قال: التوكل جماع الإيمان^(٤).

عن سعيد بن جبيرة قال: التوكل على الله نصف الإيمان^(٥).

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبري^(٦): ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول والله يوقنون فى أن قضاءه فيهم ماض فلا يرجون غيره ولا يرهبون سواه. اهـ.

قال البغوى^(٧): قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: يفوضون إليه أمورهم ويثقون به، ولا يرجون غيره، ولا يخافون سواه.

قال الرازى^(٨): الصفة الثالثة: للمؤمنين قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ واعلم أن صفة المؤمنين أن يكونوا واثقين بالصدق فى وعده ووعيده، وأن يقولوا صدق الله ورسوله، وأن لا يكون قولهم كقول المنافقين ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ثم نقول: هذا الكلام يفيد الحصر، ومعناه: أنهم لا يتوكلون إلا على ربهم، وهذه الحالة

(١) إعراب القرآن ٥٢٧/٣. (٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٢١/٩).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٩٧/٣) ونسبه لابن أبى شيبه، وأحمد فى «الزهد» وعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، والبيهقى فى «الشعب».

وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للبيهقى.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٩٨/٣) ونسبه لابن أبى حاتم، فانظره بتخريجنا.

(٦) ابن جرير (١٢٠/٩). (٧) معالم التنزيل ٥٩٦/٢.

(٨) التفسير الكبير ١٢٤/٨.

مرتبة عالية ودرجة شريفة. وهى: أن الإنسان بحيث يصير لا يبقى له اعتماد فى أمر من الأمور إلا على الله.

واعلم أن هذه الصفات الثلاثة مرتبة على أحسن جهات الترتيب، فإن المرتبة الأولى هى: الوجل من عقاب الله.

والمرتبة الثانية: هى الانقياد لمقامات التكليف لله.

والمرتبة الثالثة: هى الانقطاع بالكلية عما سوى الله، والاعتماد بالكلية على فضل الله، بل الغنى بالكلية عما سوى الله تعالى. اهـ.

قال ابن كثير^(١): ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ وأنه المتصرف فى الملك وحده لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان. اهـ.

قال ناصر السعدى^(٢): ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له.

﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: يعتمدون فى قلوبهم على ربهم، فى جلب مصالحهم، ودفع مضارهم الدينية، والدنيوية، ويثقون بأن الله تعالى سيفعل. والتوكل: هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل إلا به. اهـ.

قال صاحب «الظلال»: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

عليه وحده.. كما يفيد بناء العبارة. لا يشركون معه أحداً يستعينون به ويتوكلون عليه.. أو كما عقب عليها الإمام ابن كثير فى التفسير: «أى لا يرجون سواه»، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف فى الملك لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان^(٣).

وهذا هو إخلاص الاعتقاد بوحدانية الله؛ وإخلاص العبادة له دون سواه فما يمكن أن

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٨٤.

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٥ و ٢٧٦.

(٣) تقدم تخريجه.

يجتمع فى قلب واحد، توحيد الله والتوكل على أحد معه سبحانه. والذين يجدون فى قلوبهم الاتكال على أحد أو على سبب يجب أن يبحثوا ابتداء فى قلوبهم عن الإيمان بالله!

وليس الاتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ الأسباب. فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها؛ ولكنه لا يجعل الأسباب هى التى تنشئ النتائج فيتكل عليها. إن الذى ينشئ النتائج - كما ينشئ الأسباب - هو قدر الله. ولا علاقة بين السبب والنتيجة فى شعور المؤمن اتخاذ السبب عبادة بالطاعة وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلا الله.. وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها؛ وفى الوقت ذاته وهو يستوفىها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله فى استيفائها.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.

وهنا نرى للإيمان صورة حركية ظاهرة - بعد ما رأيناه فى الصفات السابقة مشاعر قلبية باطنة - ذلك أن الإيمان هو ما قر فى القلب وصدقه العمل. فالعمل هو الدلالة الظاهرة للإيمان التى لا بد من ظهورها للعيان، لتشهد بالوجود الفعلى لهذا الإيمان. وإقامة الصلاة ليست مجرد أدائها. إنما هى الأداء الذى يحقق حقيقتها. الأداء الكامل اللاتق بوقفة العابد فى حضرة المعبود - سبحانه - لامجرد القراءة والقيام والركوع والسجود والقلب غافل! وهى فى صورتها الكاملة تلك تشهد للإيمان بالوجود فعلاً.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

فى الزكاة وغير الزكاة.. وهم ينفقون ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾.. فهو بعض مما رزقهم الرازق.. وللنص القرآنى دائماً ظلاله وإيحاءاته. فهم لم يخلقوا هذا المال خلقاً، إنما هو مما رزقهم الله إياه - من بين ما رزقهم وهو كثير لا يحصى - فإذا أنفقوا فإنما ينفقون بعضه. ويحتفظون منه ببقية، والأصل هو رزق الله وحده!

تلك هى الصفات التى حدد الله بها - فى هذا المقام - الإيمان. وهى تشمل الاعتقاد فى وحدانية الله؛ والاستجابة الوجدانية لذكره؛ والتأثر القلبى بآياته؛ والتوكل عليه وحده؛ وإقامة الصلاة له، والإنفاق من بعض رزقه. اهـ.



وَقَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

قوله: [﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾].

● مناسبة الآية للباب.

قال عبدالله بن جابر الله (٢): هي أنه إذا كان الله هو الكافي لعبده وجب أن لا يتوكل إلا عليه. اهـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى (٣): حيث دلت الآية على أن التوكل نوع من العبادة وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

● الإعراب (٤):

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حسبك خبر مقدم والله مبتدأ مؤخر أو بالعكس ومن عطف على الله وجملة اتبعك صلة ومن المؤمنين حال.

والمعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون، أى كافيك الله وكافيك المؤمنون ويحتمل أن تكون بمعنى مع وما بعده منصوب، كما تقول: حسبك وزيداً درهم، والمعنى كافيك وكافى المؤمنين الله، لأن عطف الظاهر على المضمّر فى مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرر فى علم النحو، وأجازه الكوفيون، قال الفراء: ليس بكثير فى كلامهم أن تقول: حسبك وأخيك، بل المستعمل أن يقال: حسبك وحسب أخيك، بإعادة الجار فلو كان قوله ومن اتبعك مجزوراً لقل: حسبك الله وحسب من اتبعك، واختار النصب على المفعول معه النحاس. اهـ.

● الفوائد اللغوية والنحوية:

حسب: قال أبوحيان: وحسبك مبتدأ مضاف إلى الضمير وليس مصدراً ولا اسم فاعل.

قال سيبويه: «قالوا حسبك وزيداً درهم لما كان فيه من معنى كفاك وقبح أن يحملوه على المضمّر نوا الفعل كأنه قال: حسبك وبحسب أخاك درهم ولذلك كفيك» كفيك

(١) الأنفال: ٦٤.

(٢) الجامع الفريد ١٣٦.

(٣) الجديد ٣٠١.

(٤) إعراب القرآن ٤/٣٨ و ٣٩.

وهو من كفاه يكفيه، وكذلك قطعك تقول: كفيك وزيداً درهم، وقطك وزيداً درهم، وليس هذا من باب المفعول معه وإنما جاء سيبويه به حجة للحمل على الفعل للدلالة. فحسبك يدل على كفاك وبحسبني مضارع أحسبني فلان إذا أعطاني حتى أقول حسبي. فالنائب في هذا فعل يدل عليه المعنى، وهو في: كفيك وزيداً درهم. أوضح لأنه مصدر للفعل المضمر أى ويكفى زيداً. وفي قطعك وزيداً درهم التقدير فيه أبعد، لأن قطعك ليس فى الفعل المضمر شيء من لفظه، إنما هو مفسر من حيث المعنى فقط. وفى ذلك الفعل المضمر فاعل يعود على الدرهم، والنية بالدرهم التقديم، فيصير من عطف الجمل، ولا يجوز أن يكون من باب الأعمال لأن طلب المبتدأ للخبر وعمله فيه ليس من قبيل طلب الفعل أو ما جرى مجراه ولا عمله، فلايتوهم ذلك فيه.

وقال الزجاج: «حسب اسم فعل والكاف نصب والواو بمعنى مع»، فعلى هذا يكون الله فاعلاً لحسبك، وعلى هذا التقدير يجوز فى: ومن أن يكون معطوفاً على الكاف لأنها مفعول باسم الفعل لا مجرور، لأن اسم الفعل لا يضاف، إلا أن مذهب الزجاج خطأ لدخول العوامل على حسبك، تقول: بحسبك درهم وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ ولم يثبت كونه اسم فعل فى مكان فيعتقد فيه أنه يكون اسم فعل واسماً غير اسم فعل كرويد. اهـ.

قال الشنقيطى: قال بعض العلماء: إن قوله: ﴿وَمَنْ اتَّبَعَكَ﴾ فى محل رفع بالعطف على اسم الجلالة، أى حسبك الله، وحسبك أيضاً من ابتعك من المؤمنين. ومن قال بهذا: الحسن، واختاره النحاس وغيره، كما نقله القرطبى، وقال بعض العلماء، هو فى محل خفض بالعطف على الضمير الذى هو الكاف فى قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾ وعليه.

فإن قيل: هذا الوجه الذى دل عليه القرآن، فيه أن العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، ضعفه غير واحد من علماء العربية، قال ابن مالك فى [الخلاصة]:

وعود خافض لى عطف على ضمير خفض لازماً قد جعلنا فالجواب من أربعة أوجه:

الأول: أن جماعة من علماء العربية صححوا جواز العطف من غير إعادة الخافض، قال ابن مالك فى [الخلاصة]:

وليس عندى لازماً إذ قد أتى فى النظم والنثر الصحيح مثبتاً

وقد قدمنا في «سورة النساء» في الكلام على قوله: ﴿وَمَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ (١) شواهد العربية، ودلالة قراءة حمزة عليه، في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ (٢).

الوجه الثاني: أنه من العطف على المحل، لأن الكاف مخفوض في محل نصب، رذ معنى ﴿حَسْبُكَ﴾ يكفيك، قال في [الخلاصة]:

وجر ما يتبع ما جر ومن راعى في الاتباع المحل فحسن

الوجه الثالث: نصبه بكونه مفعولاً معه، على تقدير ضعف وجه العطف، كما قال في [الخلاصة]:

والعطف إن يمكن بلا ضعف أحق والنصب مختار لدى ضعف النسق

الوجه الرابع: أن يكون ﴿وَمَنْ﴾ مبتدأ خبره محذوف، أى ﴿وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فحسبهم الله أيضاً، فيكون من عطف الجملة، والعلم عند الله تعالى. اهـ
قال ابن عثيمين: و ﴿النَّبِيِّ﴾.

فيل بمعنى مفعّل بفتح العين ومفعّل بكسرهما؛ أى: مُنبأ، ومُنْبِئ؛ فالرسول ﷺ منبأ من قبل الله، ومنبئ لعباد الله.
قوله: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾.

أى: كافيك، والحسبُ: الكافى، ومنه قوله: أعطى درهماً فحسب، وحسب خبر مقدم، والله مبتدأ مؤخر، والمعنى: ما الله إلا حسبك، ويجوز العكس؛ أى: أن تكون حسب مبتدأ والله خبره، ويكون المعنى: ما حسبك إلا الله، وهذا أرجح.

قوله: ﴿وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿مَنْ﴾: اسم موصوف مبنية على السكون، وفى عطفها رأبان لأهل العلم: قيل: حسبك الله، وحسبك من اتبعك من المؤمنين؛ ف ﴿مَنْ﴾ معطوفة على الله لأنه أقرب، ولو كان العطف على الكاف فى حسبك؛ لَوَجَبَ إعادة الجار، وهذا كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بُنْصُرَهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فالله أيد رسوله بالمؤمنين، فيكونون حسباً له هنا كما كان الله حسباً له.

وهذا ضعيف، والجواب عنه من وجوه:

أولاً: قولهم: عطف عليه لكونه أقرب ليس بصحيح؛ فقد يكون العطف على شيء سابق، حتى إن النحويين قالوا: إذا تعددت المعطوفات يكون العطف على الأولى.

ثانياً: قولهم: لو عطف على الكاف لوجب إعادة الجار، والصحيح أنه ليس بلامزم، قال ابن مالك: إذ قد أتى في النظم والنثر الصحيح مثبتاً.

ثالثاً: استدلالهم بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فالتأييد لهم غير كونهم حسبه؛ لأن معنى كونهم حسبه أن يعتمد عليهم، ومعنى كونهم يؤيدونه أي ينصرونه مع استقلاله بنفسه، وبينهما فرق.

رابعاً: أن الله - سبحانه - حينما يذكر الحسب يخلصه لنفسه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾؛ ففرق بين الحسب والإيتاء، وقال تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، فكما أن التوكل على غير الله لا يجوز؛ فكذلك الحسب لا يمكن أن يكون غير الله حسباً، فلو كان؛ لجاز التوكل عليه، ولكن الحسب هو الله، وهو الذي عليه يتوكل المتوكلون.

خامساً: أن في قوله: ﴿وَمَنْ اتَّبَعَكَ﴾ ما يمنع أن يكون الصحابة حسباً للرسول ﷺ، وذلك لأنهم تابعون؛ فكيف يكون التابع حسباً للمتبع؟! هذا لا يستقيم أبداً؛ فالصواب أنه معطوف على الكاف في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾؛ أي: وحسب من اتبعك من المؤمنين، فتوكلوا عليه جميعاً أنت ومن اتبعك. اهـ.

● تفسير القرآن بالقرآن:

قال الشنقيطي: فالمعنى حسبك الله أي كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين، وبهذا قال الشعبي، وابن زيد وغيرهما، وصدر به صاحب الكشاف، واقتصر عليه ابن كثير وغيره، والآيات القرآنية تدل على تعيين الوجه الأخير، وأن المعنى كافيك الله، وكافي من اتبعك من المؤمنين لدلالة الاستقراء في القرآن على أن الحسب والكفاية لله وحده، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾^(١)، فجعل الإيتاء لله، ورسوله، كما قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾^(٢)، وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل

جعل الحسب مختصاً به وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(١)؟ فخص الكفاية التي هي الحسب به وحده، وتمدح تعالى بذلك في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعياده.

وقد أثنى سبحانه وتعالى على أهل التوحيد والتوكل من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾^(٥) الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

● ما جاء في تفسير الآية من الآثار:

أولاً: تفسيرها بما جاء عن الصحابة:

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما أسلم عمر رضى الله عنه قال المشركون: قد انتصف القوم منا اليوم، وأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦).

عن ابن عباس قال: لما أسلم مع النبي ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة، ثم أن عمر رضى الله عنه أسلم، فصاروا أربعين فنزل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٧).

ثانياً: تفسيرها بما جاء عن التابعين

عن سعيد بن جبيرة قال: لما أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة، ثم أسلم مع النبي ﷺ عمر نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ...﴾ الآية^(٨).

(١) الزمر: ٣٦.

(٢) الطلاق: ٣.

(٣) الأنفال: ٦٢.

(٤) آل عمران: ١٧٣.

(٥) التوبة: ١٢٩.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر» (٣/٣٦٢) ونسبه للبخاري. وانظر «الاتقان» للسيوطي بتخريجنا.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر» (٣/٣٦٢) ونسبه للطبراني، وأبى الشيخ، وابن مردويه.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩١٣٥) وذكره السيوطي في «الدر» (٣/٣٦٢) وزاد نسبة لابن

المنذر، وابن مردويه.

عن سعيد بن المسيب قال: لما أسلم عمر رضى الله عنه، أنزل الله فى إسلامه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ (١).

عن الزهرى فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: فقال: نزلت فى الأنصار (٢).

عن الشعبى فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حسبك الله وحسبك من اتبعك (٣).

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: أسلمت رابع أربعين، فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤).

عن مجاهد فى الآية قال: يقول: حسبك الله والمؤمنون (٥).

وروى ابن جرير عن الشعبى: فى قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال حسبك وحسب من معك (٦).

وعن الشعبى أيضاً بنحوه إلا أنه قال حسبك الله وحسب من شهد معك (٧).

عن ابن زيد فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال يا أيها النبى حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين أن حسبك أنت وهم الله (٨).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٩١٣٦) وذكره السيوطى فى الموضع السابق وزاد نسبه لابن إسحاق.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للبخارى فى «التاريخ»، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى محمد إسماعيل بن على الخطبى فى «الأول» من تحديده.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٢٦/١٠، ٢٧) وتقدم عنه بنحوه.

(٧) نفس المصدر السابق.

(٨) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» ٦/ ١٠/ ٢٦ و ٢٧.

قال ابن جرير: فمن من قوله ومن اتبعك من المؤمنين على هذا التأويل الذى ذكرناه عن الشعبى نصب عطفًا على معنى الكاف فى قوله حسبك الله لافظه لأنها فى محل خفض فى الظاهر وفى محل نصب فى المعنى؛ لأن معنى الكلام يكفيك الله ويكفى من اتبعك من المؤمنين. وقد قال بعض أهل العربية فى من أنها فى موضع رفع على العطف على اسم الله كأنه قال: حسبك الله ومتبعوك إلى جهاد العدو من المؤمنين دون القاعدين عنك منهم.

واستشهد على صحة قوله ذلك بقوله حرص المؤمنين على القتال.

قال الطبرى^(١): يقول تعالى ذكره لنبى محمد ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الله يقول لهم - جل ثناؤه - ناهضوا عدوكم فإن الله كافىكم أمرهم ولا يهولنكم كثرة عددهم وقلة عددكم فإن الله مؤيدكم بنصره. اهـ.

قال ابن الجوزى^(٢): ﴿حَسْبُكَ﴾ فيها قولان:

أحدهما: حسبك الله وحسب من اتبعك، هذا قول أبى صالح عن ابن عباس وبه قال ابن يزيد ومقاتل، والأكثرون.

والثانى: حسبك الله ومتبعوك، قاله مجاهد وعن الشعبى كالقولين وأجاز الفراء والزجاج الوجهين.

قال أبو سليمان الدمشقى: هذا لا يحفظ والسورة مدنية بإجماع، والقول الأول أصح. اهـ.

قال القرطبى^(٣): ليس هذا تكريرًا؛ فإنه قال فيما سبق: ﴿وَأِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ وهذه كفاية خاصة. وفى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أراد التعميم؛ أى حسبك الله فى كل حال. وقال ابن عباس: نزلت فى إسلام عمر؛ فإن النبى ﷺ كان أسلم معه ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة؛ فأسلم عمر وصاروا أربعين. والآية مكية، كُتبت بأمر رسول الله ﷺ فى سورة مدنية، ذكره القشيرى.

قلت: - يعنى القرطبى - ما ذكره من إسلام عمر رضى الله عنه عن ابن عباس؛ فقد

(١) تفسير الطبرى ٦ / ١٠ / ٢٦.

(٢) زاد المسير ٣ / ٢٨٦.

(٣) تفسير القرطبى ٤ / ٢٨٨١ و ٢٨٨٢.

وقع فى السيرة خلافة. عن عبد الله بن مسعود قال: ما كنا نقدر على أن نُصلّى عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

قال ابن إسحاق: وكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغاراً أو ولدوا بها، ثلاثة وثمانين رجلاً، إن كان عمار بن ياسر منهم. وهو يُشكّ فيه. وقال الكلبي: نزلت الآية بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: المعنى حسبك الله، وحسبك المهاجرون والأنصار.

وقيل: المعنى كافيك الله، وكافى من تبعك؛ قاله الشعبى وابن زيد. والأول عن الحسن. واختاره النحاس وغيره.

فـ «من» على القول الأول فى موضع رفع، عطفاً على اسم الله تعالى. على معنى: فإن حسبك الله وأتباعك من المؤمنين. وعلى الثانى على إضمار. ومثله قوله ﷺ: «يَكْفِيَنِيهِ اللهُ وَأَبْنَاءُ قَبِيلَةٍ».

وقيل: يجوز أن يكون «ومن اتبعهم من المؤمنين» حسبهم الله؛ فيضمّر الخبر. ويجوز أن يكون «من» فى موضع نصب، على معنى: يكفىك الله ويكفى من اتبعك. اهـ.

قال ابن كثير(*) : يحرض تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال، ومناجزة الأعداء، ومبارزة الأقران ويخبرهم أنه حسبهم، أى كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم، وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. اهـ.

قال ناصر السعدى^(١): أى وكافى أتباعك من المؤمنين.

وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفالة والنصرة على الأعداء، فإذا أتوا بالسبب، الذى هو الإيمان والإتباع فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

(*) تفسير ابن كثير (٣١٢/٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ٢١٠.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان الشيخ^(١): قال ابن القيم: أى: الله وحده كافيك وكافى أتباعك، فلاتحتاجون معه إلى أحد، وقيل: المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون.

قال ابن القيم: وهذا خطأ محض لايجوز حمل الآية عليه؛ فإن الحسب والكفاية لله وحده كالتركول والتقوى والعبادة. قال تعالى: ﴿وَأَن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) ففرق بين الحسب والتأييد؛ فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٣) ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، فإذا كان هذا قولهم ومدح الرب تعالى لهم بذلك فكيف يقول لرسوله: الله وأتباعك حسبك؟ وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب، ولم يشركوا بينه وبين رسوله، فكيف يشرك بينه وبينهم فى حسب رسوله ﷺ؟ هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل. ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾^(٤).

فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول كما قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾^(٥) وجعل الحسب له، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالص حقه، كما قال: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ولم يقل وإلى رسوله؛ بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال: ﴿وَالَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾^(٦) فالرغبة والتركول والإنابة والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى انتهى كلامه.

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة، لأن الله تعالى أخبر أنه حسب رسول، وحسب أتباعه. أى: كافيههم وناصرهم، فتعم المولى ونعم النصير، وفى ضمن ذلك أمر لهم بإفراده تعالى بالحسب، استكفاء بكفايته تبارك وتعالى وذلك هو التركول. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٧): المراد به الرسول ﷺ يخاطب الله رسوله بوصف النبوة أحياناً

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٧٤ و ٣٧٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٥٩.

(٥) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٦) سورة الشرح، الآية: ٨.

(٧) القول المفيد ٢٣٨/٢ و ٢٤٠.

قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١).

وبوصف الرسالة أحياناً، فحينما يأمره أن يُبَلِّغْ يناديه بوصف الرسالة، وأما في الأحكام الخاصة؛ فالغالب أن يناديه بوصف النبوة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾.



قوله: [﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾] الآية.

● مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى^(٢): حيث دلت الآية على وجوب التوكل على الله لأن الله بالتوكل يحفظ عبده ويكفيه. اهـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى^(٣): حيث دلت الآية على أن التوكل نوع من العبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك. اهـ.

● الإعراب: (٤)

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ عطف على ما تقدم ومن شرطية مبتدأ ويتوكل فعل الشرط وعلى الله متعلقان بيتوكل والفاء رابطة وهو مبتدأ وحسبه خبر والجملة في محل جزم جواب الشرط وفعل الشرط وجوابه خبر من.

● ما جاء في تفسير الآية من أحاديث وآثار:

أولاً: تفسيرها من السنة:

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»^(٥).

(١) الطلاق: ٣.

(٢) الجديد: ٣٠٢.

(٣) الجديد: ٣٠٣.

(٤) إعراب القرآن ١٠/ ١٢١.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر» (٣٥٧/٦) ونسبه لسعيد بن منصور، والبيهقي في «الشعب».

وانظر «فتح القدير» (١٣٠٣٢ - بتخريجنا).

عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «من رضى وقنع وتوكل كُفى الطلب»^(١).

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو أجل»^(٢).

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاع أو احتاج فكتمه الناس وأفضى به إلى الله كان على الله أن يفتح له قوت سنة من حلال»^(٣).

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أوحى الله إلى عيسى اجعلنى من نفسك لهمك، واجعلنى زخراً لمعادك وتوكل على أكفك ولا تول غيرى فأخذلك^(٤).

ثانياً: تفسيرها من أقوال السلف (الصحابية والتابعين):

وأخرج أحمد فى الزهد عن عمار بن ياسر قال: كفى بالموت واعظاً. وكفى باليقين عنى وكفى بالعبادة شغلاً^(٥).

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: ليس المتوكل الذى يقول تقضى حاجتى، وليس كل من توكل على الله كفاه ما أهمه، ودفع عنه ما يكره، وقضى حاجته، ولكن الله جعل فضل من توكل على من لم يتوكل أن يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً^(٦).

عن وهب قال: يقول الله تبارك وتعالى: «إذا توكل على عبدى لو كاته السموات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج»^(٧).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(٨): «ومن يتوكل على الله فهو حسبه ومعنى ذلك أن الله بالغ أمره بكل حال توكل عليه العبد أولم يتوكل عليه وينحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل، ذكر من قال ذلك: ثم ذكر بسنده عن مسروق ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن مردويه.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٨٩/١)، وأبو داود (١٦٤٥)، والترمذى (٢٣٢٦) عن ابن مسعود به.

(٣) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٢٣٥٨) عن أبى هريرة به وانظر «الدر» (٣٥٧/٦).

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبدالله بن أحمد فى «زوائد الزهد».

(٥) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأحمد فى «الزهد».

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣٥٦/٦) ونسبه لابن مردويه.

وانظر «فتح القدير» (١٣٥١ - بتخریجنا).

(٧) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣٥٧/٦) ونسبه لأحمد فى «الزهد» وتقدم.

(٨) تفسير الطبرى (٩٠/٢٨/١٢).

بَالِغُ أَمْرِهِ ﴿ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ أَوْ لَمْ يَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ غَيْرَ أَنَّ الْمُتَوَكِّلَ يَكْفُرُ عَنْ سَيِّئَاتِهِ وَيَعْظُمُ لَهُ أَجْرًا ^(١) .

ويسنده عن الشعبي قال تجالس شتير بن شكل ومسروق فقال شتير إما أن تحدث ما سمعت من ابن مسعود فأصدقك وإما أن أحدث فتصدقني قال مسروق لا بل حدث فأصدقك فقال سمعت ابن مسعود يقال أن أكبر آية في القرآن تفويضاً ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ قال مسروق صدقت ^(٢) . اهـ.

قال الرازي ^(٣) : يدل على عدم الإحتياج للكسب في طلب الرزق . اهـ.

قال القرطبي ^(٤) : قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أى من قَوَّضَ إليه أمره كفاه ما أهمه . وقيل : أى من اتقى الله وجانب المعاصى وتوكل عليه ، فله فيما يعطيه فى الآخرة من ثوابه كفاية . ولم يرد الدنيا ؛ لأن المتوكل قد يصاب فى الدنيا وقد يُقْتَل . اهـ.

قال ابن كثير ^(٥) : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يونس ثنا ليث ثنا قيس بن الحجاج عن حنشل الصنعاني عن عبدالله بن عباس أنه حدثه أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال له رسول الله ﷺ « يا غلام إني معلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » ^(٦) وقد رواه الترمذى من حديث الليث بن سعد وابن لهيعة به وقال حسن صحيح ، وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا بشير بن سلمان عن سيار أبي الحكم عن طارق بن شهاب عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمنا أن لا تسهل حاجته ، ومن أنزلها بالله تعالى أناء الله برزق عاجل أو بموت أجل » ^(٧) ثم رواه عن عبدالرزاق عن سفيان عن بشير عن سيار أبي حمزة ثم قال وهو الصواب ، وسيار أبو الحكم لم يحدث عن طارق . اهـ.

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق .

(٢) المصدر السابق .

(٣) التفسير الكبير ١٥ / ٣٠ / ٣٤ .

(٤) تفسير القرطبي ١٠ / ٦٦٤٠ .

(٥) ٣٦٧ / ٤ .

(٦) تقدم تخريجه .

(٧) تقدم تخريجه .

قال ناصر السعدى^(١): «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» فى أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله فى جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ويثق به تسهيل ذلك «فَهُوَ حَسْبُهُ» أى: كافيه الأمر الذى توكل عليه فيه.

وإذا كان الأمر فى كفالة الغنى القوى، العزيز الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شىء.

ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيرها إلى الوقت المناسب له فلهذا قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ بِأَلْعُ أَمْرِهِ» أى: لابد من نفوذ قضائه وقدره.

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان الشيخ^(٢): قال ابن القيم: أى: كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه؛ فلا مطعم فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش. وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً؛ وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء، وهو فى الحقيقة إحسان إليه، واضرار بنفسه؛ وبين الضرر الذى يشتفى به منه.

قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، فقال: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ»^(٣) ولم يقل: فله كذا وكذا من الأجر، كما قال فى الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافى عبده المتوكل عليه، وحسبه، وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن، لجعل له مخرجاً، وكفاه، ونصره، انتهى.

وفى أثر رواه أحمد فى «الزهد» عن وهب بن منبه، قال الله عز وجل فى بعض كتبه: «بِعِزَّتِي إِنَّهُ مَنْ اعْتَصَمَ بِي فَإِنْ كَادَتْهُ السَّمَاوَاتُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالْأَرْضُونَ بِمَنْ فِيهِنَّ؛ فَإِنِّي أَجْعَلُ لَهُ بِذَلِكَ مَخْرَجاً، وَمَنْ لَمْ يَعْصِمْ بِي، فَإِنِّي أَقْطَعُ يَدَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ السَّمَاءِ؛ وَأُخْصِفُ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ الْأَرْضَ؛ فَأَجْعَلُهُ فِي الْهَوَاءِ ثُمَّ أَكُلُهُ إِلَى نَفْسِهِ، كَفَاً لِعَبْدِي مَالاً، إِذَا كَانَ عَبْدِي فِي طَاعَتِي أُعْطِيَ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَنِي، وَأُسْتَجِيبُ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْعُونِي، فَأَنَا أَعْلَمُ بِحَاجَتِهِ الَّتِي تَرَفُقُ بِهِ مِنْهُ»^(٤). وفى الآية دليل على فضل التوكل، وأنه أعظم

(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٣٧٥ و ٣٧٦.

(٤) تقدم تخريجه.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢٥٣/٥.

(٣) سورة الصلاق، الآية ٣.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. (*) (١)

الأسباب فى جلب المنافع، ودفع المضار؛ لأن الله علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه؛ لأنه تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسباً له، ذكره شيخ الإسلام. وفيها تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل؛ لأنه تبارك وتعالى ذكر التقوى، ثم ذكر التوكل، كما قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٢) فجعل التقوى الذى هو قيام بالأسباب المأمور بها، فحينئذ إذا توكل على الله، فهو حسبه، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوباً بنوع من التوكل، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً، ولا عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التى لا يتم المقصود إلا بها كلها. ذكر معناه ابن القيم. اهـ.

قال ابن عثيمين (٣): جملة شرطية تفيد بمنطوقها أن من يتوكل على الله، فإن الله يكفيه مهماته ويسر له أمره؛ فالله حسبه ولو حصل له بعض الأذى، فإن الله يكفيه الأذى، والرسول ﷺ سيد المتوكلين، ومع ذلك يصيبه الأذى ولا تحصل له المضرة؛ لأن الله حسبه؛ فالنتيجة لمن اعتمد على الله أن يكفيه ربه المؤونة.

والآية تفيد بمفهومها أن من توكل على غير الله خذل؛ لأن غير الله لا يكون حسباً كما تقدم، فمن توكل على غير الله تخلى الله عنه، وصار موكولاً إلى هذا الشيء ولم يحصل له مقصوده، وابتعد عن الله بمقدار توكله على غير الله. اهـ.



قوله: [وعن ابن عباس قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم ...].

قوله: «قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار».

(*) آل عمران: ١٧٣.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى التفسير/ باب ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ الآية (ح ٤٥٦٣، ٤٥٦٤). وانظر «فتح المجيد» (٦٧٠ - بتخریجنا).

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٤٠ و ٢٤١.

قال سليمان آل الشيخ^(١): رواه البخارى وقد ذكر الله القصة فى سورة الأنبياء.

اهـ.

قال ابن حجر^(٢): قوله: (قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار) فى الرواية التى بعدها «أن ذلك آخر ما قال» وكذا وقع فى رواية الحاكم المذكورة، ووقع عند النسائى من طريق يحيى بن أبى بكير عن أبى بكر كذلك، وعند أبى نعيم فى «المستخرج» من طريق عبيد الله بن موسى عن إسرائيل بهذا الإسناد «أنها أول ما قال» فيمكن أن يكون أول شيء وآخر شيء قال، والله أعلم. اهـ.

● فائدة فى التوكل:

قال سليمان آل الشيخ^(٣): قال ابن القيم: وهو حسب من توكل عليه، وكافى من لجأ إليه، وهو الذي يُؤمَّنُ خوف الخائف ويجير المستجير وهو نعم المولى، ونعم النصير؛ فمن تولاه، واستنصر به، وتوكل عليه وانقطع بكيته إليه، تولاه، وحفظه وحرصه، وصانته. ومن خافه، واتقاه أمنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٤): قوله: (قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار) قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ الآية. اهـ.

وقال ابن باز^(٥): قالها إبراهيم فأنجاه الله من النار حين ألقاه النمرود، وقال ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ فكفاه شرمهم ونجاه منهم، وصارت آية معجزة تدل على صدق رسالته. اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٦): وقول ابن عباس رضى الله عنهما (إن إبراهيم قالها حين ألقى فى النار) قول لامجال للرأى فيه، فيكون له حكم الرفع. اهـ. وسيأتى تنمة قول ابن عثيمين.

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٧٥).

(٢) الفتح ٧٧/٨.

(٤) فتح المجيد (٢/٤٨٤).

(٥) التعليق المفيد (١٨٢).

(٦) القول المفيد (٢/٢٤٣).

قوله: «وقالها محمد ﷺ... إلى آخره».

قال ابن حجر^(١): قوله: «حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم» فيه إشارة إلى ما أخرجه ابن إسحق مطولاً في هذه القصة، وأن أبا سفيان رجع بقریش بعد أن توجه من أحد فلقيه معبد الخزاعي فأخبره أنه رأى النبی ﷺ في جمع كثير، وقد اجتمع معه من كان تخلف عن أحد وندموا، فثنى ذلك أبا سفيان وأصحابه فرجعوا، وأرسل أبو سفيان ناساً فأخبروا النبی ﷺ أن أبا سفيان وأصحابه يقصدونهم فقال: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ».

ورواه الطبري من طريق السدي نحوه ولم يسم معبداً قال «أعرايبا» ومن طريق ابن عباس موصولاً لكن بإسناد لين قال «استقبل أبو سفيان عيراً وأردت المدينة» ومن طريق مجاهد أن ذلك كان من أبى سفيان في العام المقبل بعد أحد، وهي غزوة بدر الموعد، ورجح الطبري الأول.

ويقال إن الرسول بذلك كان نعيم بن مسعود الأشجعي، ثم أسلم نعيم فحسن إسلامه.

قيل إطلاق الناس على الواحد لكونه من جنسهم كما قال فلان يركب الخيل وليس له إذ ذاك إلا فرس واحد. قلت: وفي صحة هذا المثال نظر. اهـ.

وقال نحو ذلك شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله في أثر ابن عباس رضى الله عنهما: «قالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾».

وهذا في نص القرآن لما انصرف أبو سفيان من أحد أراد أن يرجع إلى النبی ﷺ وأصحابه ليقتضى عليهم بزعمه، فلقى ركباً، فقال لهم: إلى أين تذهبون؟ قالوا: نذهب إلى المدينة. قال: بلغوا محمداً وأصحابه أننا راجعون إليهم ففاضون عليهم. فجاء الركب إلى المدينة، فبلغوهم؛ فقال رسول الله ﷺ ومن معه: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ». وخرجوا في نحو سبعين راكباً، حتى بلغوا حمراء الأسد، ثم إن أبا سفيان تراجع عن رأيه وانصرف إلى مكة^(٣)، وهذا من كفاية الله لرسوله وللمؤمنين؛ حيث اعتمدوا عليه تعالى. اهـ.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٤١ و ٢٤٢.

(١) الفتح ٨/ ٧٧ و ٧٨.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (١٧٧/٢) ونسبه لابن إسحاق، وابن جرير، والبيهقي في «الدلائل» وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

قوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أى: نعم الموكل إليه المتوكل عليه؛ كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ فقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة التوكل على الله والالتجاء إليه. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: «قال لهم الناس».

أى: الركب قوله: «إن الناس».

أى: أبا سفيان ومن معه، وكلمة الناس هنا يمثل بها الأصوليون للعام الذى أريد به الخصوص.

قوله: ﴿حَسْبُنَا﴾.

أى: كافينا، وهى مبتدأ والله خبره.

قوله: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

﴿نِعْمَ﴾: فعل ماضٍ، ﴿الْوَكِيلُ﴾: فاعل، والمخصوص محذوف تقديره: هو؛ أى: الله، والوكيل: المعتمد عليه سبحانه، والله - سبحانه - يطلق عليه اسم وكيل، وهو أيضاً موكَّل، والوكيل فى مثل قوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾، وأما الموكل؛ ففى مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

وليس المراد بالتوكيل هنا إنابة الغير فيما يحتاج إلى الاستنابة فيه؛ فليس توكيله سبحانه من حاجة له، بل المراد بالتوكيل الاستخلاف فى الأرض لينظر كيف يعملون. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): ففى هاتين القصتين فضل هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام فى الشدائد.

ولهذا جاء فى الحديث: «إِذَا وَقَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ الْعَظِيمِ فَقُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٤٢ و ٢٤٣.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٧٦.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٧٧.

الْوَكِيلُ^(١) رواه ابن مردويه وأن القيام بالأسباب مع التوكل على الله لا يتنافيان، بل يجب على العبد القيام بهما، كما فعل الخليلان عليهما الصلاة والسلام.

ولهذا جاء في الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن عوف بن مالك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمَقْضَى عَلَيْهِ لَمَّا أَذْبَرَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رُدُّوْا عَلَى الرَّجُلِ» فَقَالَ مَا قُلْتُ؟ قَالَ: قُلْتُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَسْرِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ، فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ^(٢)» وفى الآية دليل على أَنَّ الإيمان يزيد وينقص. قال مجاهد فى قوله: «فَرَادَهُمْ إِيْمَانًا» قال: الإيمان يزيد وينقص، وعلى أن ما يكرهه الإنسان قد يكون خيراً له، وأن التوكل أعظم الأسباب فى حصول الخير، ودفع الشر فى الدنيا والآخرة. اهـ.

قال حامد بن محمد^(٣): فالتوكل معظم منازل السائرين إلى الله تعالى معتمدين عليه فيما يتوكلهم لا ينظرون إلى غيره لعلمهم أنه الكافى فى جميع أمورهم، فهو حسبهم، «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا». اهـ.

وقال عبدالله بن جابر الله^(٤): معنى (حسبنا) كافينا ومتول أمورنا، فلا نتكل إلا عليه (ونعم الوكيل) أى نعم الموكول إليه والمعتمد عليه.

من فضل هذه الكلمة العظيمة أنها قول الخليلين عليهما الصلاة والسلام فى الشدائد وجاء فى الحديث «إذا وقعت فى الأمر العظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»^(٥) والله أعلم. اهـ.

وقال ابن باز^(٥): وقال محمد ﷺ بعد أحد حين قالوا له أن المشركين قد جمعوا لكم ليكروا عليكم ثانية، فقال: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» فكفاه الله.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (١٨١/٢) ونسبه لابن مردويه عن أبى هريرة به.

وانظر «فتح القدير» و«فتح المجيد» (ح ٦٧٢) بتحريجنا.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٤/٦)، وأبو داود (٣٦٢٧)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠٤٦٢) عن

عوف بن مالك به.

وانظر «الأذكار للنوى» (٣٣٣ - بتحريجنا).

(٤) إجماع الفريد (١٣٧).

(٣) فتح الله الحميد المجيد (٣٥٧).

(٥) التعليق المفيد (١٨٢).

(*) سبق تخريجه قريباً.

فيه مسائل

الأولى: أَنَّهُ التَّوَكَّلَ مِنَ الْفَرَائِضِ.

وهكذا ينبغي للمسلم أن يقولها عند الشدائد، لكن هذا لا يمنع من الأخذ بالأسباب لأن النبي ﷺ قالها، وقد لبس الدرع وحمل السلاح ووضع الخوذة على رأسه، وكذلك فعل أصحابه، ويوم الأحزاب حفرُوا الخندق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): وقول ابن عباس رضى الله عنهما: إن إبراهيم قالها حين ألقى فى النار قول لامجال للرأى فيه؛ فيكون له حكم الرفع.

وابن عباس ممن يروى عن بنى إسرائيل؛ فيحتمل أنه أخذه منهم، ولكن جزمه بهذا، وقرنه لما قاله الرسول ﷺ عما يبعد أن يكون أخذه من بنى إسرائيل.

الشاهد من الآية: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾؛ حيث جعلوا حسبهم الله وحده.

● (تنبيه):

قولنا: «وابن عباس ممن يروى عن بنى إسرائيل» قول مشهور عند علماء المصطلح، لكن فيه نظر؛ فإن ابن عباس رضى الله عنهما ممن ينكر الأخذ عن بنى إسرائيل؛ ففي «صحيح البخارى» أنه قال: «يا معشر المسلمين! كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يُشَبَّ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب؟! فقالوا: هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟! ولا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أنزل عليكم». اهـ^(٢).



قوله: «وفيه مسائل».

قال ابن عثيمين^(٣):

● الأولى: أن التوكّل من الفرائض.

(٢) صحيح أخرجه البخارى (٢٦٨٥).

(١) القول المفيد ٢/٢٤٣.

(٣) القول المفيد ٢/٢٤٤ و٢٤٥.

الثانية: أَنَّهُ مِنْ شُرُوطِ الْإِيمَانِ.

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ (الْأَنْفَالِ).

الرابعة: تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِي آخِرِهَا.

الخامسة: تَفْسِيرُ آيَةِ (الطَّلَاقِ).

السادسة: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمُحَمَّدٍ ﷺ فِي الشَّدَائِدِ.

ووجهه أن الله علّق الإيمان بالتوكل في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وسبق تفسيرها.

● الثانية: أنه من شروط الإيمان.

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

● الثالثة: تفسير آية الأنفال.

وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ الآية، والمراد بالإيمان هنا الإيمان الكامل، وإلا؛ فالإنسان يكون مؤمناً وإن لم يتصف بهذه الصفات، لكن معه مطلق الإيمان، وقد سبق تفسير ذلك.

● الرابعة: تفسير الآية في آخرها أي آخر الأنفال.

وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: حَسْبُكَ وَحَسْبُ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وهذا هو الراجح على ما سبق.

● الخامسة: تفسير آية الطلاق.

وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، وقد سبق تفسيرها.

● السادسة: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُحَمَّدٍ ﷺ فِي الشَّدَائِدِ.

يعنى قول: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

وفى الباب مسائل غير ما ذكره المؤلف، منها:

زيادة الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

ومنها: أنه عند الشدائد ينبغي للإنسان أن يعتمد على الله مع فعل الأسباب؛ لأن الرسول ﷺ وأصحابه قالوا ذلك عندما قيل لهم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، ولكنهم قَوَّضُوا الأمر إلى الله، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ومنها: أن اتباع النبي ﷺ مع الإيمان سبب لكفاية الله للعبد. اهـ.

قلت: ما ذكره المؤلف على الإجمال تضمن هذه المسائل وزيادة والله أعلم.



باب (٣٣)

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١).

● مناسبة الباب لما قبله:

قال الفقير: ومناسبتة لما قبله ظاهرة في أن التوكل على الله والثقة به كان من أعظم ما يدفع عن المتوكل تخويف الشيطان إذا أراد أن يخوفه؛ لأنه بهذا التوكل دخل في ولاية الرحمن وخرج من ولاية الشيطان فلا سبيل له عليه، وإن خوفه لم يخف إلا الله، لهذا كان من ثمرات التوكل على الله الخوف منه والرجاء فيه، ولهذا ناسب أن يورد المصنف هذا الباب بعد باب التوكل. وتقدم في باب من حقق التوحيد ما حكاه النووي عن أبي جعفر الطبري وغيره من السلف أنهم قالوا: لا يستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى.

● ماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبتة لكتاب التوحيد:-

قال سليمان آل الشيخ^(٢):

المراد بهذه الترجمة التنبية على الجمع بين الرجاء والخوف، ولذلك ذكر بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾^(٣) هذا هو مقام الأنبياء والصديقين كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾^(٤) فابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب بحبه وطاعته، ثم ذكر الرجاء والخوف وهذه أركان الإيمان.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾^(٥).

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾^(٦).

وقال إخباراً عن شعيب: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّ عُدُنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٧٨ - ٣٨٠.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٥٧.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٨٠.

(١) الأعراف: ٩٩.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا» (١) فوكلا الأمر إلى مالكه، وقال تعالى عن الملائكة عليهم السلام: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٢).

وقال النبي ﷺ: «قُوَّ اللَّهُ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً» (٣) وكلما قوى إيمان العبد وبقينه قوى خوفه ورجاؤه مطلقاً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (٤) وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٥).

قالت عائشة: يارسول الله هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب؟ قال: «لا يابنت الصديق هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه» رواه الإمام أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه (٦).

قال ابن القيم: «الخوف من أجل منازل الطريق، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهم به أليق وله ألزم؛ فإن العبد إما أن يكون مستقيماً أو مائلاً عن الاستقامة. فإن كان مائلاً عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف، فنشأ الخوف من الله عند المعصية وهو ينشأ من ثلاثة أمور أحدها معرفته بالجناية وقبحها.

والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

الثالث: أنه لا يعلم أنه يمنع من التوبة، ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وسبب قوتها وضعفها يكون قوة الخوف، وضعفه، هذا قبل الذنب، فإذا عملته كان خوفه أشد. وبالجمله فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوقوف باتيانها بالتوبة النصوح؛ حاج من

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٠.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦١٠١) - ومسلم فى الفضائل (١٢٧/٨) عن عائشة به.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٥) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠.

(٦) أخرجه الترمذى (٣١٧٦)، والحاكم فى المستدرک (٣٩٥/٢)، وأبو نعيم فى الحلية (١٨٢/٨).

وانظر الإتيان للسيوطى (١٧٠٦ - بتخریجنا).

قلبه من الخوف ما لا يملكه، ولا يفارقه حتى ينجو وأما إن كان مستقيماً مع الله؛ فخوفه يكون من جريان الأنفاس لعلمه بأن الله مقلب القلوب وما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن - عز وجل - فإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاعه، كما ثبت عن النبي ﷺ (١).

وكانت أكثر يمينه «لا ومقلب القلوب» (٢) ويكفى هذا قوله تعالى: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» (٣) فأى قرار لمن هذه حاله ومن أحق بالخوف منه، بل خوفه لازم له فى كل حال، وإن توارى عنه بغلبة حال أخرى عليه، فالخوف حشو قلبه، لكن توارى عنه بغلبة غيره، فوجود الشيء غير العلم به، فالخوف الأول ثمرة العلم بالوعد والوعيد، وهذا الخوف ثمرة العلم بقدره الله عز وجل وعزته وجلاله، وأنه الفعال لما يريد، وأنه المحرك للقلب المصروف له كيف يشاء، لا إله إلا هو العزيز الحكيم انتهى. فهذا الخوف الثانى هو من خوف المكر. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ (٤): قصد المصنّف - رحمه الله - تعالى بهذه الآية، التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب وأنه ينافى كمال التوحيد، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك، وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، كما دلّ على ذلك الكتاب والسنة وأرشد إليه السلف والأئمة.

وقال أيضاً فى «قرة عيون الموحدين» (٥): أراد المصنّف - رحمه الله تعالى - أن الأمن من مكر الله يدل على ضعف الإيمان فلا يبالى صاحبه بما ترك من الواجبات، وفعل المحرمات، لعدم خوفه من الله بما فعل أو ترك وهذا من أعظم الذنوب وأجمعها للعيوب. اهـ.

قال ناصر السعدى (٦): مقصود الترجمة أنه يجب على العبد أن يكون خائفاً من الله، راجياً له راجباً راهباً، إن نظر الى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه خشى ربه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمع، إن وفق لطاعة رجا من ربه

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد فى مسنده (٢٩١/٦)، وأبو يعلى (٤٦٦٩) وانظر القواعد المثلى (٧٨ - بتخريجنا). وأصله فى «الصحيح» وهو الذى بعده.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٦١٧) وانظر القواعد المثلى (٧٨ - بتخريجنا).

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٤. (٤) فتح المجيد ٥٩٧/٢.

(٥) ١٧٥.

(٦) القول السديد ٩٣ - ٩٥.

تمام النعمة بقبولها وخاف من ردها بتقصيره فى حقها. وان ابتلى بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها وخشى بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنوب أن يعاقب عليها، وعند النعم والمساير يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكار والمصائب يرجو الله دفعها ويتنظر الفرج بحلها، ويرجو أيضاً أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر ويخشى من اجتماع المصيبتين فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفق للقيام بالصبر الواجب، فالمؤمن الموحد فى كل أحواله ملازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب وهو النافع، وبه تحصل السعادة، ويخشى على العبد من خلقين رذيلين:

(أحدهما) أن يستولى عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله وروحه.

(الثانى) أن يتجارى به الرجاء حتى يأمن مكر الله وعقوبته فتمتى بلغت به الحال إلى هذا فقد ضيع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد وواجبات الإيمان.

● أسباب القنوط من رحمة الله.

قال ناصر السعدى^(١): وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران:

(أحدهما) أن يسرف العبد على نفسه ويتجراً على المحارم فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله لأجل أنه مقيم على الأسباب التى تمنع الرحمة فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفاً وخلقاً لازماً. وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد. ومتى وصل إلى هذا الحد لم يرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوى.

(الثانى) أن يقوى خوف العبد بما جنت يده من الجرائم ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب وتضعف إرادته فيأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه، وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها.

فلو عرف هذا ربه ولم يخلد الى الكسل لعلم أن أدنى سعى يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه.

● أسباب الأمن من مكر الله.

قال ناصر السعدى^(٢): وللامن من مكر الله أيضاً سببان مهلكان:

(١) (٢) انظر الموضع السابق.

(أحدهما) إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك فلا يزال معرضاً غافلاً مقصراً عن الواجبات منهما في المحرمات حتى يضمحل خوف الله من قلبه ولا يبقى في قلبه من الإيمان شيء لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوى والأخروى.

السبب الثانى: أن يكون العبد عابداً جاهلاً معجباً بنفسه مغروراً بعمله فلا يزال به جهله حتى يدل بعمله ويزول الخوف عنه، ويرى أن له عند الله المقامات العالية فيصير آمناً من مكر الله متكللاً على نفسه الضعيفة المهينة، ومن هنا يخذل ويحال بينه وبين التوفيق إذ هو الذى جنى على نفسه.

فهذا التفصيل تعرف منافاة هذه الأمور للتوحيد. اهـ.

● تعريف المكر:

قال ابن الجوزى^(١): المكر من الخلق خبث وخداع، ومن الله - عز وجل - المجازاة. فسمى باسم ذلك. لأنه مجازاة عليه كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ لأن مكره مجازاة ونصر للمؤمنين. اهـ.

قال الرازى^(٢): أصل المكر فى اللغة السعى بالفساد فى خفية ومداجاة، قال الزجاج: يقال مكر الليل، وأمكر إذا أظلم: وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ وقال: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ وقيل أصله من اجتماع الأمر وإحكامه، ومنه امرأة ممكورة، أى مجتمعة الخلق.

وإحكام الرأى يقال له الإجماع والجمع قال الله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ فلما كان المكر رأياً محكماً قوياً مصوناً عن جهات النقص والفتور. لاجرم سمي مكرًا.

قال محيى الدين درويش^(٣): المكر فى اللغة: الستر، يقال: مكر الليل أى أظلم وستر بظلمته ما فيه، واشتقاقه من المكر، وهو شجر ملتف كأنهم تخيلوا أن المكر يلف الممكور به. وامرأة ممكورة أى ملتفة ثم خصصوه بالخبث والخداع. اهـ.

(١) زاد المسير ٣٢١/١.

(٢) التفسير الكبير ٧٣/٨/٤.

(٣) إعراب القرآن ٥١٧/١.

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١).

قوله: وقول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ - الآية.

● مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى^(٢): حيث دلت الآية الكريمة على وجوب الخوف من مكر الله.

● مناسبة الآية للتوحيد: -

قال القرعاوى^(٣): حيث دلت الآية على تحريم الأمن من مكر الله لأن ذلك يستلزم

تنقيص كمال الله المطلق وذلك مناف لكمال التوحيد. اهـ.

وبنحو ذلك ذكر عبد الله بن جابر الله.

قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

● الإعراب^(٤): الهمزة للاستفهام الاستنكارى التوبيخى والفاء عاطفة والتكرير

لزيادة التكرير والتوبيخ وقد تقدم القول فى المراد بمكر الله.

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الفاء عاطفة ولا نافية (يؤمن مكر الله) فعل

ومفعول به وإلا أداة حصر والقوم فاعل والخاسرون صفة.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:-

عن هشام بن عروة قال: كتب رجل إلى صاحب له: إذا أصبت من الله شيئاً يسرك

فلا تأمن أن يكون فيه من الله مكر ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٥).

عن زيد بن أسلم أن الله تبارك وتعالى قال للملائكة «ما هذا الخوف الذى قد بلغكم

وقد أنزلتكم المنزلة التى لم أنزلها غيركم؟ قالوا: ربنا لا نأمن مكرك، لا يَأْمَنُ مَكْرَكَ

إلا القوم الخاسرون»^(٦).

عن على بن أبى حليمة قال: كان ذر بن عبد الله الخولانى إذا صلى العشاء يختلف

(١) الأعراف : ٩٩ .

(٢) الجديد : ٣٠٦ .

(٣) الجديد : ٣٠٧ .

(٤) الإعراب : ٤١٤ / ٣ .

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ١٩٣) ونسبه لابن أبى حاتم.

(٦) نفس المصدر السابق .

فى المسجد؁ فإذا أراد أن ىنصرف رفع صوته بهذه الآية ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١).

عن إسماعيل بن رافع قال: من الأمن لمكر الله إقامة العبد على الذنب ىتمنى على الله المغفرة (٢).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى (٣): ىقول تعالى ذكره: أفامن يا محمد هؤلاء الذين يكذبون الله ورسوله ويجحدون آياته؁ استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم فى دنياهم من صحة الأبدان ورخاء العيش كما استدراج الذين قص عليهم قصصهم من الأمم قبلهم فإن مكر الله لا يأمنه ىقول لا يأمن ذلك أن ىكون استدراج جامع مقامهم على كفرهم وإصرارهم على معصيتهم إلا القوم الخاسرون وهم الهالكون. اهـ.

قال البغوى (٤): ومكر الله استدراجه إياهم بما أنعم عليهم فى دنياهم.

وقال عطية: أخذه وعذابه. اهـ.

قال الرازى (٥): ويدل قوله: ﴿أَفَأْمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أن المراد أن يأتىهم عذابه من حيث لا ىشعرون. قاله على وجه التحذير وسمى هذا العذاب مكرأ توسعأ؁ لأن الواحد منا إذا أراد المكر بصاحبه؁ فإنه ىوقعه فى البلاء من حيث لا ىشعر به؁ فسمى العذاب مكرأ لنزوله بهم من حيث لا ىشعرون؁ وىبين أنه لا يأمن نزول عذاب الله على هذا الوجه ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وهم الذين لغفلتهم وجهلهم لا ىعرفون ربهم؁ فلا ىخافونه؁ ومن هذه سبيله؁ فهو أخسر الخاسرين فى الدنيا والآخرة؁ لأنه أوقع نفسه فى الدنيا فى الضرر؁ وفى الآخرة فى أشد العذاب. اهـ.

قال القرطبى (٦): قوله تعالى: ﴿أَفَأْمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أى عذابه وجزاءه على مكرهم

وقيل: مكره استدراجه بالنعمة والصحة. اهـ.

قال ابن كثير (٧): أى بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله: المؤمن ىعمل بالطاعة وهو مشفق وجل خائف والفاجر ىعمل بالمعاصى وهو آمن. اهـ.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/١٩٤) ونسبه لعبد الله بن أحمد فى «زوائد الزهد».

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم.

(٣) الطبرى ٧/٩٦. (٤) معالم التنزيل ٢/٥١٤.

(٥) التفسير الكبير ٧/١٤١٤. (٦) القرطبى ٤/٢٦٩٠. (٧) تفسير ابن كثير ٢/٢٢٥.

قال الشوكاني^(١): «أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ» للتقريع والتوبيخ وإنكار ما هم عليه من أمان مالا يؤمن من مكر الله بهم وعقوبته لهم، وفي تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير، لإنكار ما أنكره عليهم، ثم بين حال من آمن مكر الله فقال: «فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ»، أى الذين افراطوا فى الخسران، ووقعوا فى وعيده الشديده وقيل: مكر الله هنا: هو استدراجه بالنعمة والصحة والأولى حملة على ما هو أعم من ذلك. اهـ.

قال ناصر السعدى^(٢): وهذه الآية الكريمة، فيها من التخويف البليغ، على أن العبد، لا ينبغي له أن يكون آمناً، على ما معه من الإيمان.

بل لا يزال خائفاً وجلاً، أن يتلى بيلية، تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعياً بقوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك».

وأن يعمل ويسعى، فى كل سبب يخلصه من الشر، عند وقوع الفتن، فإن العبد - ولو بلغت به الحال ما بلغت - فليس على يقين من السلامة. اهـ.

قال صاحب الظلال^(٣): «أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ» وتدبيره الخفى المغيب عن البشر ليتقوه ويحذروه.

«فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ».

فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسار ومن يغفل عن مكر الله هكذا إلا الذين يستحقون هذا الخسار!

أفأمنوا مكر الله وهم يرثون الارض من بعد أهلها الذاهبين، الذين هلكوا بذنوبهم، وجنت عليهم غفلتهم؟ أما كانت مصارع الغابرين تهديهم وتنبئ لهم طريقهم. اهـ.

[قلت]: وكلام المفسرين السابق فى المكر المذكور فى الآية يحمل على تفسير وبيان معنى المكر لاعلى تأويل الصفة، وصرفها عن حقيقتها، كما قال مالك فى صفة الاستواء: الاستواء معلوم - أى معناه معلوم - والكيف مجهول - كذلك يقال فى صفة المكر وبيان معناه فإنه معلوم، وأما كيفيته مجهولة، والسؤال عنه بدعة. بل الأمر فى صفة المكر كما قال ابن عثيمين: لاتنفى عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق، بل إنها فى مقام التنى تكون مدحاً يوصف بها، وفى المقام التنى لاتكون مدحاً لا يوصف بها. اهـ وسيأتى كلامه كاملاً قريباً. والله أعلم.

(٢) تيسير الكريم الرحمن / ١٣٦.

(١) فتح القدير ٢/ ٢٣٨.

(٣) الظلال (٣/ ١٣٤٠).

● ماجاء فى الآيه من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): إذا علمت هذا فمعنى الآية المترجم لها أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل، بين أن الذى حملهم على ذلك هو الأمن من عذاب الله، وعدم الخوف منه، كما قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ * أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ ثم بين أن ذلك بسبب الجهل والغرة بالله، فأمنوا مكره فيما ابتلاهم به من السراء والضراء، بأن يكون استدراجاً، فقال: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أى: الهالكون. فدل على وجوب الخوف من مكر الله.

قال الحسن: من وسع عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأى له.

وقال قتادة: بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قومًا قط إلا عند سلوتهم وغرتهم ونعمتهم. فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر به إلا القوم الفاسقون. رواهما ابن أبى حاتم. وفى الحديث «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ؛ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِذْجَارٌ»^(٢) رواه أحمد وابن جرير وابن أبى حاتم. وقال إسماعيل بن رافع: من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب، يتمنى على الله المغفرة. رواه ابن أبى حاتم. اهـ^(٣).

قال حامد بن محمد^(٤): الأمن من مكر الله: اطمئنان القلب بعدم عقوبة الله وعدم مراقبتها والغفلة عنها وهو على معاصى الله ومساخطه فلا يحذر الله فيما هو عليه ولا يخافه فكأنه شك وأنكر اسمه القهار وأن لا يكون له مظهر فإذا ما تدركه العقوبة فإذا هو من الخاسرين كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^(٥).

فالأمن من مكر الله من المهالك التى لانجاة منها إلا بفضل الله ورحمته وكذلك القنوط من رحمة الله لما يرى من رداءة نفسه وقلة طاعته له فيأس حينئذ من رحمة الله وذلك من المهالك لأنه يقنط من رحمته الواسعة ولم يتدارك لما فاتته من التلف ولم يرجوا الله فى توفيقه إياه على ما يجب ويرضى وعفوه عما مضى فكأنه شك أو أنكر

(١) تيسير العزيز الحميد / ٣٨٠.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٤٥/٤) عن عقبه بن عامر به، وانظر تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا.

(٣) تقدم تخريجه. (٤) فتح الله الحميد المجيد ٣٥٩ (٥) الأنعام ٤٤.

اسمه الغفور الرحيم العفو وأن يكون له مظهر فما يضل عن صراط الله الذي أرسل به الرسول ﷺ وهدى عليه أوليائه .

قال ابن عثيمين^(١): «أَفَأَمِنُوا الضمير يعود على أهل القرى؛ لأن ما قبلها قوله تعالى: «أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ» .

فقوله: «وَهُمْ نَائِمُونَ» يدل على كمال الأمن لأنهم في بلادهم، وأن الخائف لا ينام، وقوله: «ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ» يدل أيضاً على كمال الأمن والرخاء وعدم الضيق؛ لأنه لو كان عندهم ضيق في العيش لذهبوا يطلبون الرزق والعيش وما صاروا في الضحى - في رابعة النهار - يلعبون .

والاستفهامات هنا كلها للإنكار والتعجب من حال هؤلاء؛ فهم نائمون وفي رغد، ومقيمون على معاصي الله وعلى اللهو، ذاكرون لترفهم، غافلون عن ذكر خالقهم؛ فهم في الليل نائمون، وفي النهار لعب، فبين الله - عز وجل - أن هذا من مكره بهم، ولهذا قال: «أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ»، ثم ختم الآية بقوله: «فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ» فالذي يَمُنُّ الله عليه بالنعيم والرغد والترف وهو مقيم على معصيته يظن أنه رابح وهو في الحقيقة خاسر .

فإذا أنعم الله عليك من كل ناحية: أطعمك من جوع، وآمنك من خوف، وكساك من عرى؛ فلا تظن أنك رابح وأنت مقيم على معصية الله، بل أنت خاسر؛ لأن هذا من مكر الله بك .

قوله: «إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ» .

الاستثناء للحصر، وذلك لأن ما قبله مُفَرَّغٌ له؛ فالقوم فاعل، والخاسرون صفتهم .

وفي قوله تعالى: «أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ» دليل على أن الله مكرراً، والمكر هو: التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر، ومنه ما جاء في الحديث: «الحرب خدعة»^(٢) .

فإن قيل: كيف يوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟

قيل: إن الماكر في محله محمود يدل على قوة المكر، وأنه غالب على خصمه،

(٢) تقدم تخريجه .

(١) القول المفيد ٢/ ٢٤٦ - ٢٤٩ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾^(١).

ولذلك لا يوصف الله به على الإطلاق؛ فلا يجوز أن تقول: إن الله ماهر، وإنما تذكر هذه الصفة في مقام تكون فيه مدحاً، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرَأًا وَمَكْرُئًا مَكْرَأًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٣)، ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، ولا تنفى عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق، بل إنها في المقام التى تكون مدحاً يوصف بها وفى المقام التى لا تكون مدحاً لا يوصف بها. وكذلك لا يسمّى الله بها؛ فلا يقال: إن من أسماء الله الماهر.

وأما الخيانة؛ فلا يوصف الله بها مطلقاً لأنها ذم بكل حال؛ إذ إنها مكر فى موضع الائتمان، وهو مذموم، قال تعالى: ﴿وَأِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾^(٤)، ولم يقل: فخانهم.

وأما الخداع فهو كالمكر يوصف الله به حيث يكون مدحاً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾^(٥)، والمكر من الصفات الفعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئة الله - سبحانه -.

● ويستفاد من هذه الآية:

١ - الحذر من النعم التى يجلبها الله للعبد لئلا تكون استدراجاً؛ لأن كل نعمة فله عليك وظيفة شكرها، وهى القيام بطاعة المنعم، فإذا لم تقم بها مع توافر النعم؛ فاعلم أن هذا من مكر الله.

٢ - تحريم الأمن من مكر الله، وذلك لوجهين:
الأول: أن الجملة بصيغة الاستفهام الدال على الإنكار والتعجب.
الثانى: قوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.



قوله: ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

● مناسبة الآية للباب.

قال عبدالله بن جار الله^(٦): أن القنوط من رحمة الله ذنب عظيم ينافى كمال التوحيد كما أن الأمن من مكر الله كذلك.

(٣) النمل: ٥٠.

(٦) الجامع الفريد .

(٢) الأنفال: ٣٠.

(٥) النساء: ١٤٢.

(١) الحجر/ ٥٥.

(٤) الأنفال: ٧١.

● مناسبة الآية للتوحيد.

قال القرعاوى^(١): حيث دلت الآية الكريمة على تحريم القنوط من رحمة الله لأن ذلك تنقيص لكرم الله المطلق وذلك مناف لكمال التوحيد.

● ما جاء فى تفسير الآية من وجوه القراءات:

قال الطبرى^(٢): واختلفت القراء فى قراءة قوله من القانطين فقرأته عامة قرآء الأمصار من القانطين بالالف.

وذكر عن يحيى بن وثاب أنه كان يقرأ ذلك القنطين والصواب من القراءة فى ذلك ما عليه قراء الأمصار لإجماع الحجة على ذلك وشذوذ ما خالفه وقوله قال (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) يقول تعالى ذكره قال إبراهيم للضيف ومن ييأس من رحمة الله إلا القوم الذين قد أخطؤا سبيل الصواب وتركوا قصد السبيل فى تركهم رجاء الله ولا يخيب من رجاء فضلوا بذلك عن دين الله.

واختلفت القراء فى قراءة قوله (ومن يقنط) فقرأ ذلك عامة قراء المدينة والكوفة ومن يقنط بفتح النون إلا الأعمش والكسائى فإنهما كسرا النون من يقنط فأما الذين فتحوا النون منه ممن ذكرنا فإنهم قرؤا من بعد ما قنطوا بفتح القاف والنون وأما الأعمش فكان يقرأ ذلك من بعد ما قنطوا بكسر النون وكان الكسائى يقرؤه بفتح النون وكان أبو عمرو ابن العلاء يقرأ الخرفين جميعاً على النحو الذى ذكرنا من قراءة الكسائى وأولى القرآت فى ذلك بالصواب قراءة من قرأ من بعد ما قنطوا بفتح النون ومن يقنط بكسر النون لإجماع الحجة من القراء على فتحها فى قوله من بعد ما قنطوا فكسرهما فى ومن يقنط أولى إذا كان مجمعاً على فتحها فى قنط لأن فعل إذا كانت عين الفعل منها مفتوحة ولم تكن من الحروف الستة التى هى حروف الحلق فإنها تكون فى يفعل مكسورة أو مضمومة فأما الفتح فلا يعرف ذلك فى كلام العرب. اهـ.

الإعراب^(٣): الواو عاطفه و(من) اسم استفهام معناه النفى فى محل رفع مبتدأ.

وجمله (يقنط) خبره و(من رحمة ربه) متعلقان بيقنط و(إلا) أداة حصر و(الضالون) بدل من الضمير المستتر فى يقنط بدل بعض من كل ولم يؤت معه بضمير لقوة تعلق المستثنى بالمستثنى منه.

● ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث:

(٢) تفسير الطبرى ٢٨/١٤/٧.

(١) الجديد ٣٠٨.

(٣) إعراب القرآن ٢٤٧/٥.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الفاجر الراجي لرحمة الله، أقرب منها من العابد القانط»^(١).

● ما جاء في تفسير الآية من الآثار:

عن السدي ﴿مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ قال: الآيسين^(٢).

الأعمش، عن يحيى أنه قرأها «فلا تكن من القنطين» بغير ألف. قال: وقرأ ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾ مفتوحة النون^(٣).

عن سفيان بن عيينة قال: من ذهب يقنط الناس من رحمة الله، أو يقنط نفسه فقد أخطأ، ثم نزع بهذه الآية ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾^(٤).

عن السدي ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾ قال: من ييأس من رحمة ربه^(٥).

عن موسى بن علي، عن أبيه قال: بلغني أن نوحًا عليه السلام قال لابنه سام: يا بني، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الشرك بالله؛ فإنه من يأت الله عز وجل مشركاً فلا حجة له. ويا بني، لا تدخل القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الكبر فإن الكبر رداء الله، فمن ينازع الله رداءه يغضب الله عليه. ويا بني، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من القنوط؛ فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا ضال^(٦).

● ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين.

قال البغوي^(٧): «من رحمة ربه إلا الضالون».

أي الخاسرون والقنوط من رحمة الله كبيرة.

قال: أمن من مكروه. اهـ.

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (١٩١/٤) ونسبه للحكيم الترمذي في «نوادير الأصول».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢٤١٠) فانظر بتخريجنا، وأنظر «الدر» (١٩١/٤).

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (١٩١/٤) ونسبه لأبي عبيد، وابن المنذر.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٤١١) وأنظر «الدر» (١٩١/٤).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (١٢٤١٢) وأنظر «الدر» في الموضع السابق.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢٤١٣) وزاد نسبته السيوطي في «الدر» في الموضع السابق.

لأحمد في «الزهد».

(٧) معالم التنزيل ٤٠٦/٣.

قال الزمخشري^(١): «ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الصواب أو إلا الكافرون. كقوله ﴿لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾» يعنى لم أشكو ذلك قنوطاً من رحمته ولكن استبعاداً له فى العادة التى اجراها الله. اهـ.

قال ابن الجوزى^(٢): «والقنوط بمعنى اليأس ولم يكن إبراهيم قانطاً ولكنه استبعد وجود الولد. اهـ.

قال الرازى^(٣): «وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ» وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذا الكلام حق، لأن القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بأمور أحدها: أن يجهل كونه تعالى قادراً عليه.

وثانيها: أن يجهل كونه تعالى عالماً باحتياج ذلك العبد إليه.

وثالثها: أن يجهل كونه تعالى منزهاً عن البخل والحاجة والجهل، فكل هذه الأمور سبب للضلال، فلهذا المعنى قال: «وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ». اهـ.

قال السعدى^(٤): الذين لا علم لهم بربهم وكمال اقتداره.

وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه، لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق، لرحمة الله شيئاً كثيراً.

قال صاحب الظلال^(٥): قال: «وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ».

وبرزت كلمة «الرحمة» فى حكاية قول إبراهيم تنسيقاً مع المقدمة فى هذا السياق وبرزت معها الحقيقة الكلية: أنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون. الضالون عن طريق الله، الذين لا يستروحون روحه، ولا يحسون رحمته، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته. فأما القلب السدى بالإيمان، المتصل بالرحمن، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد، ومهما ادلهمت حوله الخطوب، ومهما غام الجو وتلبد، وغاب وجه الأمل فى ظلام الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر. فإن رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتدين. وقدرة الله تنشئ الأسباب كما تنشئ النتائج، وتغير الواقع كما تغير الموعود. اهـ.



(٢) زاد المسير ٣٠٩/٤.

(١) الكشف ٣١٥/٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ١٤/٣.

(٣) التفسير الكبير ٣٠٦/١٩/١٠.

(٥) ٢١٤٨/٤.

● ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾، نبه المصنف رحمه الله بهذه الآية على الجمع بين الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط من رحمة الله، بل يرجوها مع العمل الصالح. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ذكر سبحانه أنهم يرجون رحمة الله مع الاجتهاد فى الأعمال الصالحة فأما الرجاء مع الإصرار على المعاصى، فذاك من غرور الشيطان؛ إذا تبين ذلك، فقله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ﴾ حكاية قول إبراهيم عليه السلام لما بشرته الملائكة بولده إسحاق عليه السلام، فقال: ﴿أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾^(٢) استبعاداً لوقوع هذا فى العادة مع كبر السن منه ومن زوجته قالوا: ﴿بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أى: الذى لا ريب فيه ولا مشنوية، بل هو أمر الذى ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣) وإن بعد مثله فى العادة التى أجراها فإن ذلك عليه يسير؛ إذا أَرَادَهُ، فلا تكن من القانطين، أى لا تياس من رحمة الله، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ فأجابهم بأنه ليس بقانط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر، وأسنت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

قال السدى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾ قال: من يياس من رحمة ربه^(*). رواه ابن أبى حاتم: ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ قال بعضهم: إلا المخطئون طريق الصواب، أو الكافرون، كقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٤).

وفى حديث مرفوع «الْفَاجِرُ الرَّاجِي لِرَحْمَةِ اللَّهِ أَقْرَبُ مِنْهَا مِنَ الْعَابِدِ الْقَانِطِ» رواه الحيكيم الترمذى والحاكم فى «تاريخه»^(٥).



(٢) الحجر ٥٤.

(*) تقدم.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٨١.

(٣) يس: ٨٢.

(٤) يوسف: ٨٧.

(٥) ذكره الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (٤٠٢٢) ونسبه للحكم والشيرازى فى «الألقاب» وقال

الألبانى: موضوع.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكِبَائِرِ؟ فَقَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ،
وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ»^(١).

قوله: [وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكِبَائِرِ؟..... إلخ].

قال سليمان آل الشيخ^(٢): هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان متكئاً، فدخل عليه رجل، فقال: ما الكبائر؟ فقال: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ» وذكر الحديث. ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر فقال ابن معين: ثقة، ولينه ابن أبي حاتم، ومثل هذا يكون حسناً. وقال ابن كثير: في إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً. اهـ.

[قلت]: قوله لينه ابن أبي حاتم، وجدناه في «تهذيب الكمال» أبو حاتم وقوله (ومثل هذا يكون حسناً) لكننا رأينا جرحاً مفسراً ذكره في «تهذيب الكمال» قال ابن حبان: يخطئ كثيراً، وقال الحافظ: صدوق يخطئ، فمثل هذا لا يحسن إلا بمتابع. لاسيما وابن كثير رجح وقفه مما يدل على احتمال الخطأ منه في هذه الرواية فهو رفعه، وغيره وقفه. والله أعلم.

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوي^(٣): حيث دل الحديث على وجوب الجمع بين الرجاء والخوف من الله سبحانه وتعالى. اهـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوي^(٤): حيث دلّ الحديث على وجوب الجمع بين الرجاء والخوف من الله لأن ذلك يثبت الكمال المطلق لله تعالى وهذا محقق لكمال التوحيد. اهـ.

قوله: «سئل عن الكبائر فقال».

قال ابن عثيمين^(٥): الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد دلّ على ذلك القرآن، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾، والكبائر ليست على درجة واحدة فبعضها أكبر من بعض.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق شبيب وانظر فتح المجيد (٦٧٦ - بتخریجنا).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٨٢. (٣ - ٤) الجديد ٣١٠.

(٥) القول المفيد ٢/ ٢٥٢.

واختلف العلماء: هل هي معدودة أو محدودة؟

قال بعض أهل العلم: إنها معدودة، وصار يعددها ويتتبع النصوص الواردة في ذلك.

وقيل: إنها محدودة، وقد حدّها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؛ فقال: «كل ما رُتّب عليه عقوبة خاصة، سواء كانت في الدنيا أو الآخرة، وسواء كانت بفوات محبوب أو بحصول مكروه»، وهذا واسعٌ جداً يشمل ذنباً كثيرةً.

ووجه ما قاله: أن المعاصي قسمان: قسم نهى عنه فقط ولم يذكر عليه وعيد؛ فعقوبة هذا تأتي بالمعنى العام للعقوبات، وهذه المعصية مكفرة بفعل الطاعات؛ كقوله ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»^(١)، وكذلك ما ورد في العمرة إلى العمرة، والوضوء من تكفير الخطايا؛ فهذه من الصغائر.

وقسم رُتّب عليه عقوبة خاصة؛ كاللعن، أو الغضب، أو التبرؤ من فاعله، أو الحد في الدنيا، أو نفى الإيمان، وما أشبه ذلك؛ فهذه كبيرة تختلف في مراتبها. والسائل في هذا الحديث إنما قصّده معرفة الكبائر ليجنبها، خلافاً لحال كثير من الناس اليوم حيث يسأل ليعلم فقط، ولذلك نقصت بركة علمهم. اهـ.

قلت: وقد تقدم في باب «ما جاء في السحر» في شرح حديث «اجتنبوا السبع الموبقات»^(٢): حد الكبيرة واختلاف العلماء في ذلك والراجع. قوله: «الشرك بالله».

قال سليمان آل الشيخ^(٣): قوله: «الشرك بالله» هو أكبر الكبائر، إذ مضمونه تنقيص رب العالمين وإلههم ومالكهم وخالقهم الذي لا إله إلا هو، وعدل غيره به، كما قال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فهو أظلم الظلم، وأقبح القبيح، ولهذا لا يغفر إن لم يتب منه، بخلاف غيره من الذنوب، ففي مشيئة الله إن شاء غفرها، وإن شاء عذب بها. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «الشرك بالله».

ظاهر الإطلاق: أن المراد به الشرك الأصغر والأكبر، وهو الظاهر؛ لأن الشرك

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الطهارة (١٤/١١٨/٢) عن أبي هريرة به.

(٢) تقدم تخريجه. (٣) تيسير العزيز الحميد ٣٨٢. (٤) القول المفيد ٢/١٠٢٥٣.

الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا»^(١)، وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب؛ فدل على أن الشرك من الكبائر مطلقًا.

والشرك بالله يتضمن الشرك بربوبيته، أو بالوهيته، أو بأسمائه وصفاته. اهـ.
قوله: «والياس من روح الله».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «والياس من روح الله» أي: قطع الرجاء والأمل من الله فيما يرومه ويقصده قال تعالى: ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ وذلك إساءة ظن بكرم الله ورحمته وجوده ومغفرته. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): اليأس: فَقْدُ الرجاء، والروح بفتح الراء قريب من معنى الرحمة، وهو الفرج والتنفيس، والياس من روح الله من كبائر الذنوب لستائجه السيئة. اهـ.

قوله: «الأمن من مكر الله».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قوله: «والأمن من مكر الله» أي: من استدراجه للعبد أو سلبه ما أعطاه من الإيمان - نعوذ بالله من غضبه - وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها.

واعلم أن هذا الحديث لم يرد فيه حصر الكبائر فيما ذكر، بل الكبائر كثيرة، لكن ذكر ما هو أكبرها، أو من أكبرها، ولهذا قال ابن عباس: «هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع»^(٥)، رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم. وفي رواية «هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»^(٦). اهـ.

قال ابن عثيمين: بأن يعصى الله مع استدراجه بالنعم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾^(٧).

(١) تقدم تخريجه وسيأتي تخريجه. (٢) تيسير العزيز الحميد ٣٨٢.

(٣) القول المفيد ٢/٢٥٣. (٤) تيسير العزيز الحميد ٣٨٢.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/٢٦١) ونسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الشعب».

وانظر «تفسير ابن أبي حاتم» بتخريجنا.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر» (٢/٢٦١) ونسبه لابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٧) الإعراف: ١٨٣.

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: «أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَالْقَنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ» رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ. (١)

وظاهر هذا الحديث: الحصر، وليس كذلك لأن هناك كبائر غير هذه، ولكن الرسول ﷺ يجيب كل سائل بما يناسب حاله؛ فلعله رأى هذا السائل عنده شيء من الأمن من مكر الله أو اليأس من روح الله، فأراد أن يبين له ذلك، وهذه مسألة ينبغي أن يفتن لها الإنسان فيما يأتي من النصوص الشرعية مما ظاهره التعارض، فيحمل كل واحد منها على الحال المناسبة ليحصل التآلف بين النصوص الشرعية. اهـ.



قوله: «وعن ابن مسعود قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله... إلخ»
قال سليمان آل الشيخ^(٢): هذا الاثر رواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود، قال ابن كثير: وهو صحيح إليه بلا شك، ورواه الطبراني أيضاً. اهـ.
- مناسبة الحديث للباب: قال القرعاوي^(٣): حيث دل على وجوب الرجاء والخوف من الله. اهـ.

- مناسبة الحديث للتوحيد: قال القرعاوي^(٤): حيث دل على وجوب الجمع بين الرجاء والخوف من الله لأن ذلك مثبت لكمال الله المطلق وذلك محقق لكمال التوحيد. اهـ.

قوله: «أكبر الكبائر».
قال سليمان آل الشيخ^(٥): قوله أكبر الكبائر: الإشراك بالله. أى: فى ربوبيته أو عبادته وهذا بالإجماع. اهـ.
قال ابن عثيمين^(٦): قوله فى أثر ابن مسعود: «الإشراك بالله»: هذا أكبر الكبائر؛ لأنه انتهاك لأعظم الحقوق، وهو حق الله تعالى الذى أَوْجَدَكَ وَأَعَدَّكَ وَأَمَدَّكَ؛ فلا أحد أكبر عليك نعمة من الله تعالى.
قوله: «الأمن من مكر الله» سبق شرحه.

(١) أخرجه عبد الرزاق فى «مصنفه» (٤٥٩/١٠ - ٤٦٠ / ١٩٧٠.١) ومن طريقه الطبرانى فى «الكبير» (٨٧٨٤/١٧١ / ٩) عن معمر، عن أبى إسحاق، عن ويرة، عن عامر بن الطفيل، عن ابن مسعود به. وانظر «فتح المجيد» (٦٧٨) بتخريجنا.
(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٨٢.
(٣) (٣ - ٤) الجديد ٣١٢.
(٤) القول المفيد ٢/ ٢٥٤ و ٢٥٥.
(٥) تيسير العزيز الحميد ٣٨٣.

قال سليمان آل الشيخ:

قوله. «والقنوط من رحمة الله». قال أبو السعادات: هو أشد اليأس من الشيء قلت: يعنى سليمان آل الشيخ- فعلى هذا يكون الفرق بينه وبين اليأس كالفرق بين الاستغاثة والدعاء، فيكون القنوط من اليأس، وظاهر القرآن أن اليأس أشد لأنه حكم لأهله بالكفر، ولأهل القنوط بالضلال، وفيه التنبيه على الجمع بين الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس، وكان السلف يستحبون أن يقوى فى الصحة الخوف، وفى المرض الرجاء، هذه طريقة أبى سليمان وغيره، قال: وينبغى للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف فإذا كان الغالب عليه الرجاء فسد، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا خشيته فى الغيب والشهادة إنه على كل شيء قدير. اهـ.

قال ابن عثيمين: المراد بالقنوط أن يستبعد رحمة الله ويستبعد حصول المطلوب، والمراد باليأس هنا أن يستبعد زوال المكروه، وإنما قلنا ذلك؛ لئلا يحصل تكرار فى كلام ابن مسعود.

والخلاصة: أن السائر إلى الله يعتريه شيان يُعَوِّقانه عن ربه، وهما الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، فإذا أصيب بالضراء أو فأت عليه ما يحب؛ تجده إن لم يتداركه ربه يستولى عليه القنوط ويستبعد الفرج ولا يسعى لأسبابه، وأما الأمن من مكر الله؛ فتجد الإنسان مقيماً على المعاصى مع توافر النعم عليه، ويرى أنه على حق فيستمر فى باطله؛ فلا شك أن هذا استدراج. اهـ.

قلت: تقدم عن عقبة بن عامر عن النبى ﷺ قال: «إذا رأيت الله يعطى العبد فى الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية، والآية التى بعدها»^(١).

وفى الحديث أيضاً عن أبى موسى مرفوعاً: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ الآية^(٢) وهو فى الصحيح وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ الآية.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٦٨٦)، مسلم فى البر والصلة (١٦/١٣٧ - النووى) عن أبى موسى به.

وانظر «رياض الصالحين» (٢٠٩ - بتخريجنا).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الْحَجَرِ.

الثالثة: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِيمَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللَّهِ.

الرابعة: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي الْقَنُوطِ.

قوله: «وفيه مسائل».

● الأولى: تفسير آية الأعراف

قال ابن عثيمين^(١): قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

الْخَاسِرُونَ﴾، وقد سبق تفسيرها.

● الثانية: تفسير آية الحجر.

وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾، وقد سبق تفسيرها.

● الثالثة: شدة الوعيد فيمن آمن مكر الله.

وذلك بأنه من أكبر الكبائر؛ كما في الآية والحديث؛ وتؤخذ من الآية الأولى،

والحديثين.

● الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.

تؤخذ من الآية الثانية والحديثين. اهـ.



مِنْ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ

● مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال الفقير: ولما كان من ثمرات التوكل الخوف والرجاء - كما تقدم - ولذا جاء هذا الباب في الترتيب بعد التوكل أيضاً مناسب أن يأتي بعد التوكل الصبر على أقدار الله والرضا بها؛ لأن الرضا بالقدر، والصبر عليه من ثمرات التوكل أيضاً، بل هي حقيقته.

- مناسبة الباب للتوحيد

قال ناصر السعدي^(١): وأما الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، فهو ظاهر لكل أحد أنهما من الإيمان بل هما أساسه وفرعه. فإن الإيمان كله صبر على ما يحبه ويرضاه ويقرب إليه، وصبر عن محارم الله فإن الدين يدور على ثلاثة أصول.

تصديق خير الله ورسوله وامتنال أمر الله ورسوله، واجتناب نهيهما.

فالصبر على أقدار الله المؤلمة داخل في هذا العموم ولكن خص بالذكر لشدة الحاجة إلى معرفته والعمل به. فإن العبد متى علم أن المصيبة بإذن الله، وإن الله أتم الحكمة في تقديرها وله النعمة السابعة في تقديرها على العبد، رضى بقضاء الله وسلم لأمره وصبر على المكاره، تقربا إلى الله ورجاء لثوابه وخوفاً من عقابه واغتناماً لأفضل الأخلاق، فاطمأن قلبه وقوى إيمانه وتوحيده. أهـ.

قال عبد الله بن جابر^(٢): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هي أن عدم الصبر على أقدار الله وتسخطها ينافي التوحيد والإيمان. أهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): وخص المؤلف - رحمه الله - في هذا الباب الصبر على أقدار الله؛ لأنه مما يتعلق بتوحيد الربوبية؛ لأن تدبير الخلق والتقدير عليهم من مقتضيات ربوبية الله تعالى. أهـ.

● ماذا أراد المصنف بهذا الباب؟

قال ابن باز: أراد المصنف بهذا الباب أن يبين أن الصبر على ما يقدره الله من

(١) القول السديد ٩٥ و ٩٦.

(٢) الجامع الفريد (١٤١).

(٣) القول المفيد ٢٥٩/٢.

الإيمان وأن المؤمن لا ينبغي له أن يجذع عند المصيبة في نفسه أو ولده أو ماله أو أهله بل يتحمل . اهـ .

● شرح التوبى :

قال سليمان آل الشيخ^(١): لما كان بيدى حكمة ولطيف رحمة، قضى أن يتلى النوع الإنسانى بالأوامر والنواهى والمصائب التى قدرها عليهم أمرهم بالصبر على ذلك، وافترضه عليهم تسلياً لهم وتقوية على ذلك، ووعدهم عليه الثواب بغير حساب اهـ .

- تعريف الصبر

قال ابن عثيمين^(٢): فى اللغة: الحبس، ومنه قولهم: «قتل صبراً»؛ أى: محبوساً مأسوراً.

وفى الاصطلاح: حبس النفس على أشياء وعن أشياء . اهـ .

- أنواعه^(٣):

الأول: الصبر على طاعة الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾^(٥) فاصبر لحكم ربك^(٦)، وهذا من الصبر على الأوامر؛ لأنه إنما نزل عليه القرآن لسيلغته؛ فيكون مأموراً بالصبر على الطاعة .

وقال تعالى: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٧) واصبر^(٨)؛ فهذا صبر عن معصية الله .

الثالث: الصبر على أقدار الله، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، فيدخل فى هذه

(٢) القول المفيد ٢/٢٥٧

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٨٣) .

(٣) القول المفيد ٢/٢٥٧ و ٢٥٩ .

(٤) طه: ١٣٢ .

(٥) الإنسان: ٢٣/٢٤ .

(٦) الكهف: ٢٨ .

(٧) يوسف: ٣٣ .

الآية حكيم الله القدرى، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾^(١)؛ لأن هذا صبر على تبليغ الرسالة وعلى أذى قومه، ومنه قوله ﷺ لرسول إحدى بناته: «مرها؛ فلتصبر ولتحتسب»^(٢).

إذن الصبر ثلاثة أنواع، أعلامها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله.

وهذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلق به، وإلا؛ فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة إذا فتن الإنسان مثلاً بامرأة جميلة تدعوه إلى نفسها فى مكان خال لا يطلع عليه إلا الله وهو رجل شاب ذو شهوة؛ فالصبر عن هذه المعصية أشق ما يكون على النفوس، قد يصلى الإنسان مئة ركعة وتكون أهون عليه من هذا.

وقد يصاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة؛ فقد يموت له مثلاً قريب أو صديق أو عزيز عليه جداً، فتجده يتحمل من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة.

وبهذا يندفع الإيراد الذى يورده بعض الناس ويقول: إن هذا الترتيب فيه نظر؛ إذ بعض المعاصى يكون الصبر عليها أشق من بعض الطاعات، وكذلك بعض الأقدار يكون الصبر عليها أشق؛ فنقول: نحن نذكر المراتب من حيث هى بقطع النظر عن الصابر.

وكان الصبر على الطاعة أعلى؛ لأنه يتضمن إلزاماً وفعلاً، فتلزم نفسك الصلاة فتصلى، والصوم فتصوم، والحج فتحج... ففيه إلزام وفعل وحركة فيها نوع من المشقة والتعب، ثم الصبر عن المعصية لأن فيه كفاً فقط؛ أى: إلزاماً للنفس بالترك، أما الصبر على الأقدار؛ فلأن سببه ليس باختيار العبد، فليس فعلاً ولا تركاً، وإنما هو من قدر الله المحض^(٣). اهـ.

- منزلة الصبر:

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قال الإمام أحمد ذكر الله الصبر فى تسعين موضعاً.

(١) الأحقاف: ٣٥.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٢٨٤)، ومسلم فى الجنائز (٢٢٤/٦، ٢٢٥- النوى) عن أسامة بن زيد به وانظر «رياض الصالحين» (٣٠- بتخريجنا).

(٣) القول المفيد ٢/٢٥٨ و ٢٥٩.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٨٣ و ٣٨٤.

وقال عليه السلام: «مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^(١) رواه البخارى ومسلم.

وفى حديث آخر: «الصَّبْرُ نَصْفُ الْإِيمَانِ»^(٢) رواه أبو نعيم والبيهقى فى «الشعب». وقال عمر: وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ^(٣). رواه البخارى. وقال على بن أبى طالب: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس بار الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له.

والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة واشتقاقه من صبر إذا حبس ومنع، فالصبر حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكى والسخط، والجوارح عن لطم الحدود، وشق الجيوب ونحوهما ذكره ابن القيم^(٣). اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤):

قوله: «على أقدر الله» جمع قَدَرَ، وتطلق على المقدور وعلى فعل المقدّر، وهو الله تعالى، أما بالنسبة لفعل المقدّر؛ فيجب على الإنسان الرضا به والصبر، وبالنسبة للمقدور؛ فيجب عليه الصبر ويستحب له الرضا.

مثال ذلك: قدر الله على سيارة شخص أن تحترق، فكون الله قَدَرَ أن تحترق هذا قدر يجب على الإنسان أن يرضى به؛ لأنه من تمام الرضا بالله رباً.

وأما بالنسبة للمقدور الذى هو احتراق السيارة؛ فالصبر عليه واجب، والرضا به مستحب وليس بواجب على القول الراجح.

والمقدور قد يكون طاعات، وقد يكون معاصى، وقد يكون من أفعال الله المحضة؛ فالطاعات يجب الرضا بها، والمعاصى لايجوز الرضا بها من حيث هى مقدور، أما من حيث كونها قدر الله؛ فيجب الرضا بتقدير الله بكل حال، ولهذا قال ابن القيم:

فَلِذَاكَ نَرْضَى بِالْقَضَاءِ وَنَسْخَطُ الْـ حَقِّقُ حِينَ يَكُونُ بِالْعَصِيَانِ

فمن نظر بعين القضاء والقدر إلى رجل يعمل معصية؛ فعليه الرضا لأن الله هو الذى قَدَرَ هذا، وله الحكمة فى تقديره، وإذا نظر إلى فعله؛ فلايجوز له أن يرضى به لأنه معصية، وهذا هو الفرق بين القدر والمقدور. اهـ.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٤٦٩)، ومسلم فى الزكاة (١٤٤/٧ - النووى) عن أبى سعيد به.

وانظر «رياض الصالحين» (٢٧) - بتخريجنا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) علقه البخارى باب (٣٠٩/١١ - الفتح) قال الحافظ: ووصله أحمد فى «الزهد» بسند صحيح.

(٤) القول المفيد ٢/٢٥٩ و٢٦٠.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾^(١).

قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾

وأول الآية: قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

- مناسبة الآية للباب:

قال عبد الله بن جابر الله^(٢): أنها بينت ثواب الصبر والتحلى به والحث عليه .

قال القرعاوى^(٣): حيث دلت الآية الكريمة على أن الصبر على أقدار الله وعدم الجزع من علامات الإيمان بالله . اهـ

قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

الإعراب^(٤): ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الواو) حرف عطف (ومن) اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ (ويؤمن) فعل الشرط (وبالله) متعلقان (يؤمن) (ويهد) جواب الشرط وعلامة جزمه حذف حرف العلة (وقلبه) مفعول به وفعل الشرط والجزاء خبر (من) والله مبتدأ (وبكل شيء) متعلقان (بعليم) (وعليم) خبر (الله) . اهـ

● ما جاء فى تفسير الآية من أحاديث وآثار

وفى الحديث المتفق عليه «عجبا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»^(٥).

وقال أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا الحارث بن يزيد عن على بن رباح أنه سمع جنادة بن أبى أمية يقول سمعت عبادة بن الصامت يقول إن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أى العمل أفضل لله قال «إيمان بالله وتصديق به وجهاد فى سبيل الله» قال أريد أهون من هذا يا رسول الله؟ قال: «لا تنهم الله فى شىء قضى لك به»^(٦).

(١) التباين: ١١ . (٢) الجامع الفريد ١٤٢ . (٣) الجديد ٣١٤ .

(٤) ١١٤/١٠ إعراب القرآن .

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الزهد (١٨/١٢٥ - النووى) عن صهيب بن سنان به .

وانظر «رياض الصالحين» (٢٨ - بتحريجنا) .

(٦) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣١٨/٥) عن عبادة به وفيه ابن لهيعة وحاله معروف .

عن ابن عباس: قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعنى يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطاه لم يكن ليصيبه^(١).

وعن أبي ظبيان قال كنا عند علقمة فقرأ عند هذه الآية ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فمثل عن ذلك فقال هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيسلم ذلك ويرضى^(٢).

وعن علقمة أيضاً مثله غير أنه قال فى حديثه فيعلم أنها من قضاء الله فيرضى بها ويسلم^(٣) وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول والله بكل شيء ذو علم بما كان ويكون وما هو كائن من قبل أن يكون^(٣).

عن ابن مسعود رضى الله عنه فى الآية قال: هى المصيبات تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى^(٤).

عن ابن جريج فى الآية قال: من أصاب من الإيمان ما يعرف به الله فهو مهتدى القلب^(٥).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(٦): يقول تعالى ذكره: لم يصب أحدا من الخلق مصيبة إلا بإذن الله يقول إلا بقضاء الله وتقديره ذلك عليه ومن يؤمن بالله يهد قلبه يقول ومن يصدق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله بذلك يهد قلبه يقول يوفق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه. اهـ.

قال البغوى^(٧): ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ فصدق أنه لا يصيبه مصيبة إلا بإذن الله ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يوفقه لليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطاه لم يكن ليصيبه فيسلم لقضائه.

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٧٩/٢٨، ٨٠)، وذكره السيوطى فى «الدر» (٣٤٤/٦) وزاد نسبه لابن المنذر.

وانظر «فتح القدير» (١٣٠٠٤ - بتخريجنا).

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» فى الموضوع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٣٤٤/٦) ونسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقى فى «الشعب».

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣٤٤/٦) ونسبه لسعيد بن منصور.

وانظر «فتح القدير» (١٣٠٠٣ - بتخريجنا).

(٥) ذكره السيوطى فى الموضوع السابق ونسبه لابن المنذر.

(٦) تفسير الطبرى ٧٩/٢٨/١٢.

(٧) معالم التنزيل ٣٩٦/٥.

قال ابن الجوزى^(١): ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فيه ستة أقوال:

أحدها: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس^(٢). وقال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة: فيعلم أنها من قبل الله تعالى، فيسلم، ويرضى^(٣).

والثانى: يهد قلبه للاسترجاع، وهو أن يقول: إنا لله، وإنا إليه راجعون قاله مقاتل.

والثالث: أنه إذا ابتلى صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر، قاله ابن السائب وابن قتيبة.

والرابع: يهد قلبه، أى: يجعله مهتدياً، قاله الزجاج.

والخامس: يهد وليه بالصبر والرضى، قاله أبو بكر الوراق.

والسادس: يهد قلبه لاتباع السنة إذا صح إيمانه، قاله أبو عثمان الحيرى. وقرأ

أبو بكر الصديق، وعاصم الجحدري، وأبو نهيك: «يَهْدُ» بياء مفتوحة. ونصب الدال «قَلْبُهُ» بالرفع. قال الزجاج: هذا من هداً يهدأ: إذا سكن. فالمعنى: إذا سَلِمَ لأمر الله سَكَنَ قَلْبُهُ. وقرأ عثمان بن عفان، والضحاك، وطلحة بن مصرف، والأزرق عن حمزة: «نَهْدُ» بالنون. وقرأ على بن أبى طالب، وأبو عبد الرحمن: «يُهْدُ» بضم الياء، وفتح الدال «قَلْبُهُ» بالرفع اهـ.

قال الرازى^(٤): قوله تعالى: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أى عند المصيبة أو عند الموت أو المرض

أو الفقر أو القحط، ونحو ذلك فيعلم أنها من الله تعالى فيسلم لقضاء الله تعالى ويسترجع، فذلك قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أى للتسليم لأمر الله، ونظيره قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا هَذَا مِنْ أَتْلَافِنَا﴾، وهو معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما يهد قلبه إلى عند الرخاء والصبر عند البلاء، وهو معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما يهد قلبه إلى ما يحب ويرضى وقرأ «نهد قلبه» بالنون وعن عكرمة «يهد قلبه» بفتح الدال وضم الياء، وقرأ «يهدأ» قال الزجاج هداً قلبه يهدأ إذا سكن، والقلب بالرفع والنصب ووجه النصب أن يكون مثل سفه نفسه ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى اطمئنان القلب عند المصيبة، وقيل ﴿عَلِيمٌ﴾ بتصديق من صدق رسوله فمن صدقه فقد هدى قلبه. اهـ

(١) تقدم تخريجه قريياً (٢) الرازى ١٥ / ٣٠ / ٢٧.

(٣) تقدم تخريجه

قلت: وتأويل الرازي لقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يُشَمُّ من القول الأول تأويله لصفة العلم والقول الثانى الذى ذكره بصيغة التمرىض هو الأقرب لإثبات صفة العلم لله كما قال القرطبى وابن كثير والسعدى وغيرهم من أهل العلم وتقدم من قول علقمة التصريح بذلك.

قال القرطبى (١): قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ أى: يصدق ويعلم أنه لا يصيبه مصيبة إلا بإذن الله.

﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ للصبر والرضا. وقل: يُثَبِّتْهُ عَلَى الْإِيمَانِ. وقال أبو عثمان الجيزى: من صح إيمانه يهد الله قلبه لاتباع السنة. وقيل: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ عند المصيبة. فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ قاله ابن جبير. وقال ابن عباس: هو أن يجعل الله فى قلبه اليقين؛ ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وقال الكلبي: هو إذا ابتلى صبراً، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر. وقيل: يهد قلبه إلى نيل الثواب فى الجنة.

وقراءة العامة «يَهْدِ» بفتح الياء وكسر الدال؛ لذكر اسم الله أولاً. وقرأ السُّلَمي وقتادة «يُهْدَ قَلْبَهُ» بضم الياء وفتح الدال على الفعل المجهول ورفع الباء؛ لأنه اسم فعل لم يسم فاعله.

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف والأعرج «نَهْدِ» بنون على التعظيم «قَلْبَهُ» بالنصب. وقرأ عكرمة «يَهْدُ قَلْبَهُ» بهمزة ساكنة ورفع الباء، أى يسكن ويطمئن. وقرأ مثله مالك بن دينار، إلا أنه لَيِّن الهمزة. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه تسليم من انقاد وسَلَمَ لأمره، ولا كراهة من كرهه. اهـ

قال ابن كثير (٢): ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى فى قلبه ويقينا صادقا وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيرا منه.

(١) تفسير القرطبى ١٠/٦٦١٨ و٦٦١٩

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٣٦٢.

قال سليمان آل الشيخ^(١): أخير تعالى أن ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في الأنفس إلا بإذن الله ، أى: بقدر وأمره كما قال في آية أخرى ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ قال ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلا بأمر الله ، يعنى : من قدره ومشيتته ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله جازاه الله تعالى بهداية قلبه التى هى أصل كل سعادة وخير فى الدنيا والآخرة.

وقد يخلف عليه أيضاً فى الدنيا ما أخذه منه أو خيراً منه كما قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ قال ابن عباس: يهد قلبه اليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه (*) . اهـ .
قلت: وتقدم أثر ابن عباس .

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢) مثل ما قاله سليمان: وزاد : قوله ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته ، وذلك يوجب الصبر والرضا . اهـ .

قال عبد الله بن جار الله^(٣) مثل من سبقه وزاد: ويستفاد من هذه الآية أن الصبر على المصيبة سبب لهداية القلوب ، وطمانيتها ، وأنها من ثواب الصابرين . اهـ .
وقال ابن عثيمين^(٤): ﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم ، وفعل الشرط ﴿يُؤْمِنُ﴾ وجوابه ﴿يَهْدِ﴾ والمراد بالإيمان بالله هنا الإيمان بقدره اهـ .

وقال القرعاوى^(٥): ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يهد قلبه للصبر والرضا بالمصيبة اهـ .
قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ .

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٨٤ ، ٣٨٥) .

(*) تقدم تخريجه .

(٢) فتح المجيد (٢/ ٤٩٤) .

(٣) الجامع الفريد (١٤٢) .

(٤) القول المفيد (٢/ ٢٦٠-٢٦١) .

(٥) الجديد (٣١٣) .

قَالَ عُلُقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»^(١).

يرزقه الطمأنينة، وهذا يدل على أن الإيمان يتعلق بالقلب، فإذا اهتدى القلب اهتدت الجوارح؛ لقوله ﷺ: «إِنْ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةٌ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٢). اهـ.

قوله: قَالَ عُلُقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ...»

قال سليمان الشيخ^(٣): هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن علقمة وهو صحيح، وعلقمة هو ابن قيس بن عبدالله النخعي الكوفي ولد في حياة النبي ﷺ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم، وهو من كبار التابعين وأجلانهم وعلمائهم وثقاتهم مات بعد الستين. اهـ.

مناسبة الأثر للباب

قال القرعاوي^(٤): حيث دلَّ الأثر على أن علقمة - رحمه الله تعالى - يرى أن الصبر على المصائب والتسليم من علامات الإيمان.

قوله: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ».

تقدم قول ابن عباس في قوله: «مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ» يعني يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه^(٥).

وعن ابن مسعود في قوله: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» الآية هي المصيبات تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم الأمر لله ويرضى بذلك^(٦).

قال سليمان^(٧): هذا تفسير للإيمان المذكور في الآية لكنه تفسير باللازم وهو صحيح، لأن هذا لازم للإيمان الراسخ في القلب، وقريب منه تفسير سعيد بن جبير ومن يؤمن بالله يهد قلبه يعني: يسترجع يقول: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ». وفي الآية أن الصبر سبب لهداية القلب، وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وأن الأعمال من الإيمان وفيها إثبات القدر. اهـ.

(١) تقدم تخريجه قريباً

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٨٥.

(٤) الجديد ٣١٥.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) القول المفيد ٢/ ٢٦١.

(٧) تقدم تخريجه.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اِئْتَنَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمَا كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»^(١).

قال ابن عثيمين^(٢): وتفسير علقمة هذا من لازم الإيمان؛ لأن من آمن بالله علم أن التقدير من الله، فيرضى ويُسلم، فإذا علم أن المصيبة من الله اطمأن القلب وارتاح، ولهذا كان من أكبر الراحة والطمأنينة الإيمان بالقضاء والقدر. اهـ.

قلت: وفيه اتباع المصنّف لهدى السلف في التفسير بالمأثور
قوله: وفي صحيح مسلم. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اِئْتَنَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمَا كُفْرٌ...»

- مناسبة الحديث للباب: قال عبدالله بن جابر الله^(٣): أنه دل على تحريم النياحة لما فيها من التسخط على القدر المنافي للصبر اهـ وقال بنحوه القرعاوى في الجديد.
قوله: «اِئْتَنَانِ»^(٤).

قوله في حديث أبي هريرة: «اِئْتَنَانِ». مبتدأ، وسَوَّغَ الابتداء به التقسيم، أو أنه مفيد للخصوص.
قوله: «فِي النَّاسِ هُمَا» أى: الاِئْتَنَانِ^(٥).
قلت: وفي المسند بلفظ: «اِئْتَنَانِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرَكُهَا النَّاسُ»
قوله: «بِهِمَا كُفْرٌ».

قال النووي^(٦): وفيه أقوال أصحها: أن معناه هما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية.

والثاني: أنه يؤدي إلى الكفر.

والثالث: أنه كفر النعمة والإحسان.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان/ باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة (٥٧/٢/١) وأحمد في «مسنده» (٣٧٧/٢) مختصراً وأيضاً فيه (٤٣١/٢) بلفظ اِئْتَنَانِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرَكُهَا النَّاسُ... من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

وانظر «رياض الصالحين» (ح ٢٦٦٩) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ٢/٢٦١.

(٣) الجامع الفريد ١٤٢.

(٤) القول المفيد ٢/٢٦٢.

(٥) قاله صاحب التيسير ٣٨٥.

(٦) النووي شرح مسلم ١/٣٣٤.

والرابع: أن ذلك فى المستحل.

وفى هذا الحديث تغليظ تحريم الطعن فى النسب والنياحة، وقد جاء فى كل واحد منهما نصوص معروفة. والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ^(١): أى: هاتان الخصلتان هما كفر قائم فى الناس. فنفس الخصلتين حيث كانتا فى أعمال الكفار، وهما قائمتان بالناس، لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً الكفر المطلق، حتى تقوم به حقيقة الكفر، كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمناً حتى يقوم به أصل الإيمان. وفرق بين الكفر المعروف باللام كما فى قوله ﷺ: «ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة»^(٢) وبين كفر منكر فى الإثبات. اهـ.

قال الشيخ ابن عثيمين^(٣): قوله: «بهما»: الباء يحتمل أن تكون بمعنى «من»؛ أى: هما منهم كفر، ويحتمل أن تكون بمعنى «فى»؛ أى: هما فيهم كفر. قوله: «كفر» أى: هاتان الخصلتان كفر ولا يلزم من وجود خصلتين من الكفر فى المؤمن أن يكون كافراً، كما لا يلزم من وجود خصلتين فى الكافر من خصال الإيمان؛ كالحياء، والشجاعة، والكرم؛ أن يكون مؤمناً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله: أى فى شرح كلمة «بهما كفر»^(*) «بخلاف قول رسول الله ﷺ: «بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة» فإنه هنا أتى بأل الدالة على الحقيقة؛ فالمراد بالكفر هنا الكفر المخرج عن الملة، بخلاف مجيء «كفر» نكرة؛ فلا يدل على الخروج عن الإسلام. اهـ.

قوله: «الطعن فى النسب».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): أى عيبه، ويدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه فى ظاهر الشرع، ذكره بعضهم. اهـ.

(١) نقلاً عن كتاب تيسير العزيز الحميد ٣٨٦.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) القول المفيد ٢/٢٦٢.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٨٦.

(*) وباب القوسين أهناه للمنع من اللبس.

قوله: «النياحة على الميت».

قال سليمان آل الشيخ^(١): أى رفع الصوت بالنذب بتعدد شمائله لما فى ذلك من التسخط على القدر والجزع المنافى للصبر، وذلك كقول النائحة: واعضداه واناصره، واكاسياه ونحوه. وفيه دليل على أن الصبر واجب لأن النياحة منافيه له، فإذا حرمت دل على وجوبه، وفيه أن من الكفر ما لا ينقل عن الملة. اهـ

قال ابن عثيمين^(٢): قوله «النياحة». أى: أن يبكى الإنسان على الميت بكاء على صفة نوح الحمام؛ لأن هذا يدل على التضجر وعدم الصبر، فهو مناف للصبر الواجب، وهذه الجملة هى الشاهد للباب.

والناس حال المصيبة على مراتب أربع:

الأولى: التسخط، وهو إما أن يكون بالقلب كأن يسخط على ربه ويغضب على قدر الله عليه، وقد يؤدى إلى الكفر، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾، وقد يكون باللسان؛ كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وقد يكون بالجوارح؛ كلطم الخدود، وشق الجيوب، وتنف الشعور، وما أشبه ذلك.

الثانى: الصبر، وهو كما قال الشاعر:

الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقُهُ لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

فيرى الإنسان أن هذا الشيء ثقيل عليه ويكرهه، لكنه يتحملة ويتصبر، وليس وقوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا ولكن إيمانه يحميه من السخط.

الثالثة: الرضا، وهو أعلى من ذلك، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدره وإن كان قد يحزن من المصيبة؛ لأنه رجل يسبح فى القضاء والقدر، أينما ينزل به القضاء والقدر فهو نازل به على سهل أو جبل، إن أصيب بنعمة أو أصيب بضدها؛ فالكل عنده سواء، لا لأن قلبه ميت؛ بل لتمام رضاه بربه - سبحانه وتعالى - يتقلب فى تصرفات الرب - عز وجل -، ولكنها عنده سواء؛ إذ إنه ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه، وهذا الفرق بين الرضا والصبر.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٨٦.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٦٢ و ٢٦٤.

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ،
وَدَعَى بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»^(١).

الرابعة: الشكر، وهو أعلى المراتب، وذلك أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة، وذلك يكون في عباد الله الشاكرين حين يرى أن هناك مصائب أعظم منها، وأن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته وربما لزيادة حسناته شكر الله على ذلك، قال النبي ﷺ: «ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا شيء إلا كفر له بها، حتى الشوكة يشاكها»^(٢).

كما أنه قد يزداد إيمان المرء بذلك. اهـ.

قوله: ولهما عن ابن مسعود مرفوعًا: «ليس منا من ضرب الخدود...» الحديث.
ذكره البخاري في أربعة مواضع في الصحيح الأولى: باب ليس منا من شق الجيوب.
ولفظه «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية».

الثانية: باب: ليس منا من ضرب الخدود.

الثالثة: باب: ما ينهى عن الويل ودعوى الجاهلية.

الرابعة: باب: ما ينهى من دعوى الجاهلية.

وذكر لفظة المصنف في تبويبه.

مناسبة الحديث للباب

أنه أفاد تحريم هذه الأشياء وأنها تنافي الصبر والإيمان الواجب.

قوله: «ليس منا من شق الجيوب».

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري في الجنايز/ باب ليس منا من شق الجيوب (١٢٩٤/١٩٥/٣)، ومسلم في الإيمان/ باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب (١٠٩/٢، ١١٠ - النووي).
عن عبدالله بن مسعود به.

وانظر «السلسلة» (٩٥٤ - بتخريجنا). وانظر «فتح المجيد» (٦٨٧) بتخريجنا.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٦٤٢)، ومسلم (في البر والصلة ١٦/ ١٣٠ - النووي) وانظر «رياض الصالحين» (٣٨ - بتخريجنا).

(٣) الجامع الفريد ١٤٣. وقال نحوه القرعاوي.

قال ابن حجر:

قال الزين^(١) بن المنير:

أفرد - أى البخارى - هذا القدر بترجمة ليشعر بأن النفى الذى حاصله التبرى يقع بكل واحد من المذكورات لا بمجموعها.

قلت - يعنى ابن حجر - : ويؤيده رواية لمسلم بلفظ «أو شق الجيوب، أو دعا» إلخ. قوله: «ليس منا».

قال ابن حجر^(٢): أى من أهل سنتنا وطريقتنا، وليس المراد به إخراجه عن الدين، ولكن فائدة إيراد هذا اللفظ المبالغة فى الردع عن الوقوع فى مثل ذلك كما يقول الرجل لولده عند معاتبته: لست منك ولست منى، أى ما أنت على طريقي.

وقال الزين بن المنير ما ملخصه: التأويل الأول يستلزم أن يكون الخبر إنما ورد عن أمر وجودى، وهذا يضان كلام الشارع عن الحمل عليه، والأولى أن يقال: المراد أن الواقع فى ذلك قد تعرض لأن يهجر ويعرض عنه فلا يختلط بجماعة السنة تأديباً له على استصحابه حالة الجاهلية التى قبحها الإسلام، فهذا أولى من الحمل على مالا يستفاد منه قدر زائد على الفعل الموجود.

وحكى عن سفيان أنه كان يكره الخوض فى تأويله ويقول: ينبغى أن يمسك عن ذلك ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ فى الزجر وقيل: المعنى ليس على ديننا الكامل، أى أنه خرج من فرع من فروع الدين وإن كان معه أصله، حكاها ابن العري.

ويظهر لى - أى ابن حجر - أن هذا النفى يفسره التبرى الآتى فى حديث أبى موسى حيث قال «برىء منه النبى ﷺ» وأصل البراءة الانفصال من الشيء، وكأنه توعد به بأن لا يدخله فى شفاعته مثلاً. وقال المهلب: قوله أنا برىء أى من فاعل ما ذكر وقت ذلك الفعل، ولم يرد نفيه عن الإسلام.

قلت: - يعنى ابن حجر - بينهما واسطة تعرف بما تقدم أول الكلام، وهذا يدل على تحريم ما ذكر من شق الجيب وغيره. وكان السبب فى ذلك ما تضمنه ذلك من عدم الرضا بالقضاء، فإن وقع التصريح بالاستحلال مع العلم بالتحريم أو التسخط مثلاً بما وقع فلا مانع من حمل النفى على الإخراج من الدين. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٣) تبعاً لابن حجر: قوله: «ليس منا» هذا من نصوص

(١) الفتح ٣/ ١٩٥.

(٢) الفتح ٣/ ١٩٥.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٨٦.

الوعيد، وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهة تأويلها ليكون أوقع فى النفوس، وأبلغ فى الزجر، وقيل أى: ليس من أهل سنتنا وطريقتنا، لأن الفاعل لذلك ارتكب محرماً، وترك واجباً. ولس المراد إخراجه من الإسلام بل المراد المبالغة فى الردع عن الوقوع فى ذلك، كما يقول الرجل لولده عند معاقبته: لست منى ولست منك، فالمراد أن فاعل ذلك ليس من المؤمنين الذين قاموا بواجبات الإيمان. اهـ.

قوله: «لطم الخدود».

قال ابن حجر^(١): خص الخد بذلك لكونه الغالب فى ذلك، وإلا فضرب بقية الوجه داخل فى ذلك. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): بل ولو ضرب غير الوجه كالصدر فكما لو ضرب الخد فيدخل فى معنى ضرب الخد إذ الكل جزع مناف للصبر فيحرم. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): «قوله: من ضرب الخدود» العموم يراد به الخصوص؛ أى: من أجل المصيبة. اهـ.

قوله: «وشق الجيوب».

قال الحافظ^(٤): جمع جيب بالجيم والموحدة وهو ما يفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس والمراد بشقه إكمال فتحه إلى آخره وهو من علامات التسخط. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٥): هوطوق القميص الذى يدخل منه الرأس، وذلك عند المصيبة تَسَخُّطاً. وعدم تحمل لما وقع فيه. اهـ.

قلت: ويشهد لمعنى الجيب قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

قوله: «ودعى بدعوى الجاهلية».

قال ابن حجر^(٦): فى رواية «دعى بدعوى الجاهلية» فى رواية مسلم «بدعوى أهل الجاهلية» أى من النياحة ونحوها، وكذا الندابة كقولهم: واجبله وكذا الدعاء بالويل والثبور. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٧).

قوله: «ودعى بدعوى الجاهلية» قال شيخ الإسلام: هو نذب الميت وقال ابن القيم:

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٨٧/٣٨٦.

(٤) الفتاح ١٩٥/٣.

(٧) تيسير العزيز الحميد ٣٨٧ و ٣٨٨.

الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصية للإنسان، ومثله التعصب للمذاهب والطوائف، والمشايخ وتفضيل بعض على بعض فى الهوى والعصبية وكونه متتبساً إليه يدعو إلى ذلك، ويوالى عليه، ويعادى ويزن الناس به، فكل هذا من دعوى الجاهلية.

قلت: يعنى سليمان آل الشيخ: الصحيح أن دعوى الجاهلية يعم ذلك كله وقد جاء لعن من فعل ما فى هذا. الحديث عند ابن ماجة، وصححه ابن حبان عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ «لَعَنَ الْخَامِشَةَ وَجَهَهَا، وَالشَّاقَّةَ جَيْبَهَا، وَالْدَّاعِيَةَ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ»^(١) وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، لأنها مشتملة على التسخط على الرب وعدم الصبر الواجب، والإضرار بالنفس من لطم الوجه، وإتلاف المال؛ بشق الثياب وتمزيقها وذكر الميت بما ليس فيه، والدعاء بالويل والثبور والتظلم من الله تعالى وبدون هذا يثبت التحريم الشديد، فأما الكلمات اليسيرة إذا كانت صدقاً لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم، ولا تنافى الصبر الواجب.

نص عليه أحمد لما رواه فى «مسنده» عن أنس أن أبا بكر رضى الله عنه دخل على النبى ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه ووضع يديه على صدغيه وقال: «وَأَنْبِيَاءُ وَاخْلِيَاءُ وَأَصْفِيَاءُ»^(٢).

وكذلك صح عن فاطمة رضى الله عنها أنها نذبت أباهما ﷺ فقالت: يَا أَبَتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ... الحديث^(٣).

واعلم أن الحديث المشروح لا يدل على النهى عن البكاء أصلاً، وإنما يدل على النهى عما ذكر فيه فقط. وكذلك يدل على النهى عما فى معناه كالبكاء برنة، وحلق الشعر، وخمش الوجوه، ونحو ذلك. أما البكاء على وجه الرحمة، والرقعة ونحو ذلك فيجوز. بل قال شيخ الإسلام: البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب ولا ينافى الرضى بقضاء الله، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه.

قلت: - يعنى الشيخ سليمان - ويدل لذلك قوله عليه السلام لما مات ابنه إبراهيم: «تَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا تَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَاللَّهُ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ»^(٤) وهو فى «الصحيح».

(١) أخرجه ابن ماجة (١٥٨٥) وابن حبان فى «صحيحه» (٦٢/٥) - الإحسان.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٢١٩/٦ - ٢٢٠) عن عائشة به.

(٣) [صحيح] أخرجه رواه البخارى (٤٤٦٢)...

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٣٠٣)، ومسلم فى الفضائل (٧٤/١٥) - النووى) عن أنس به.

وانظر «رياض الصالحين» (٩٢٩) - بتخريجنا).

وَعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

وفى «الصحيحين» عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ انطلق إلى أحد بناته ولها صبي في الموت. فَرَفَعَ إِلَيْهِ الصَّبِيَّ وَنَفْسُهُ تَقَعَّقُ كَأَنَّهَا فِي شَنْةٍ. فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ. فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءَ» (٢).

قال ابن عثيمين (٣): قوله: «ودعى بدعوى الجاهلية».

دعوى مضاف والجاهلة مضاف إليه، وتنازع هنا أمران:

الأول: صيغة العموم (دعوى الجاهلية)؛ لأنه مفرد مضاف فيعم.

الثاني: القرينة؛ لأن ضرب الخدود وشق الجيوب يفعلان عند المصيبة فيكون دعا بدعوى الجاهلية عند المصيبة، مثل قولهم: وا ويلاه! وانقطاع ظهراه! والأولى أن ترجع صيغة العموم، والقرينة لا تخصصه؛ فيكون المقصود بالدعوى كل دعوى منشؤها الجهل.

وذكر هذه الأصناف الثلاثة؛ لأنها غالباً ما تكون عند المصائب، وإلا؛ فمثله هدم البيوت، وكسر الأواني، وتخريب الطعام، ونحوه مما يفعله بعض الناس عند المصيبة. اهـ.

وهذه الثلاثة من الكبائر؛ لأن النبي ﷺ تبرأ من فاعلها.

ولا يدخل في الحديث ضرب الخد في الحياة العادية؛ مثل: ضرب الأب لابنه، لكن يكره الضرب على الوجه للنهي عنه، وكذلك شق الجيب لأمر غير المصيبة. اهـ.

قوله: «وعن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد بعبده الخير...» الحديث.

قال سليمان آل الشيخ (٤): هذا الأثر رواه الترمذى، والحاكم، وحسنه الترمذى

(١) أخرجه الترمذى فى «الزهد» / باب: ما جاء فى الصبر على البلاء (٤/ ٦٠١ / ح ٢٣٩٦) وابن ماجه فى «الفتن» / باب: الصبر على البلاء (٢/ ١٣٣٨ / ح ٤٠٣١) والبيهقى فى «الشعب» (٧/ ١٤٤ / ح ٩٧٨٢). من طريق: يزيد بن أبى حبيب عن سعد بن سنان عن أنس.

وقال الترمذى: حسن غريب.

وهو عند الحاكم فى «المستدرک» (٤/ ٦٩٠).

من طريق حميد عن أنس بغير هذا اللفظ. وانظر «فتح المجيد» (ح ٦٩١) بتخريجنا.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٢٨٤)، ومسلم فى الجنايز (٦/ ٢٢٤ - النووى) عن أسلمه بن زيد به.

و: انظر «رياض الصالحين» (٣٠ - بتخريجنا) ..

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٦٥. (٤) تيسير العزيز الحميد: ٣٨٩.

وفى: سنده سعد بن سنان. قال الذهبي فى موضع: سعد ليس حجة وفى آخر كأنه غير صحيح، وأخرجه الطبرانى. والحاكم عن عبد الله بن مغفل، وأخرجه ابن عدى عن أبى هريرة والطبرانى عن عمار بن ياسر وحسنه السيوطى. اهـ.

- مناسبة الحديث للباب: قال عبدالله بن جابر الله^(١). أنه دل على المصائب التى يبتلى بها الإنسان مكفريات لذنوبه إذا صبر واحتسب. اهـ.

قال القرعاوى^(٢): حيث دل الحديث على أن من اتصف بالإيمان صبر على ما قدر عليه من المصائب لأنها خير له. اهـ.

قوله: «إذا أراد الله بعبد الخير عجل له العقوبة فى الدنيا».

قال سليمان آل الشيخ^(٣): قوله: «إذا أراد الله بعبد الخير عجل له العقوبة فى الدنيا» قال شارح «الجامع الصغير»: أى: بصب البلاء والمصائب عليه جزاء لما فرط من الذنوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافى به يوم القيامة، كما يعلم من مقابله الآتى ومن فعل به فقد أعظم اللطف به، لأن من حوسب بعمله عاجلاً فى الدنيا خف جزاؤه عليه حتى يكفر بالشوكة يشاكها، حتى بالقلم يسقط من الكاتب فيكفر عن المؤمن بكل ما يلحقه فى دنياه حتى يموت على طهارة من دنسه.

قلت - يعنى سليمان آل الشيخ -: وفى الصحيح «لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»^(٤).

وفى «المسند» وغيره من حديث أبى هريرة مرفوعاً «لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي جَسَدِهِ وَمَالِهِ وَفِي وَلَدِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»^(٥) قال شيخ الإسلام: المصائب نعمة، لأنها مكفريات للذنوب؛ ولأنها تدعو إلى الصبر؛ فيثاب عليها؛ ولأنها تقتضى الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة فنفس البلاء يكفر الله به الخطايا، ومعلوم أن هذا من أعظم النعم، ولو كان رجل من أفجر الناس فإنه لابد أن يخفف الله عنه عذابه بمصائبه. فالمصائب رحمة ونعمة فى حق عموم الخلق إلا أن يدخل صاحبها بسببها فى معاصى أعظم مما كان قبل ذلك؛ فتكون شراً عليه من جهة ما أصابه فى دينه، فإن من الناس من إذا ابتلى بفقر أو مرض أو جوع

(١) الجامع الفريد (١٤٣).

(٢) الجديد ٣٢٠.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٣٨٩ و ٣٩٠.

(٤) انظر ما بعده

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٨٧/٢، ٤٥٠)، والترمذى (٢٣٩٩) عن أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٥٠ - بتخریجنا).

حصل له من الجزع والسخط والنفاق ومرض القلب، أو الكفر الظاهر، أو ترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له ضرراً في دينه بحسب ذلك؛ فل هذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة المصيبة، كما من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة كانت في حقه نعمة دينية؛ فهي بعينها فعل الرب عز وجل رحمة للخلق، والله تبارك وتعالى مجمود عليها، فإن اقترن بها طاعة كان ذلك نعمة ثانية على صاحبها وإن اقترن بها للمؤمن معصية، فهذا مما تتنوع فيه أحوال الناس كما تتنوع أحوالهم في العافية، فمن ابتلى فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعدما كفر من خطايا رحمة، وحصل له بثناؤه على ربه صلاة ربه عليه حيث قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ فحصل له غفران السيئات، ورفع الدرجات وهذا من أعظم النعم. فالصبر واجب على كل مصاب؛ فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك انتهى ملخصاً. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): قوله في حديث أنس: «إذا أراد الله بعبده الخير».

الله يريد بعبده الخير والشر، ولكن الشر المراد الله تعالى ليس مراداً لذاته بدليل قول النبي ﷺ: «والشر ليس إليك»،^(٢) ومن أراد الشر لذاته كان إليه، ولكن الله يريد الشر لحكمة، وحيثئذ يكون خيراً باعتبار ما يتضمنه من الحكمة.

قوله: «عجل له بالعقوبة في الدنيا».

العقوبة: مؤاخذه المجرم بذنبه، وسميت بذلك؛ لأنها تعقب الذنب، ولكنها لا تنقل إلا في المؤاخذه على الشر.

وقوله: «عجل له بالعقوبة في الدنيا».

كان ذلك خيراً من تأخيرها للآخرة؛ لأنه يزول ويتهى، ولهذا قال النبي ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»^(٣).

وهناك خير أولى من ذلك وهو العفو عن الذنب، وهذا أعلى؛ لأن الله إذا لم يعاقبه في الدنيا ولا في الآخرة؛ فهذا هو الخير كله، ولكن الرسول ﷺ جعل تعجيل العقوبة خيراً باعتبار أن تأخر العقوبة إلى الآخرة أشد؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾^(٤).

(١) القول المفيد ٣٦٦/٢ و ٣٦٧. (٢) تقدم تخريجه من حديث علي - رضي الله عنه.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٣١٢)، ومسلم في اللعان (١٢٤/١٠ - النووي) عن ابن عمر به. وانظر «السلسلة» بتخريجنا.

(٤) طه: ١٢٧.

قلت: أو لأن في التعجيل قطع برفع العذاب الأخرى الأشد أما إذا لم يعجل له فلا يقطع بالعمو بل هو في خطر المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء عفا عنه وهناك ما يدل على أنه إلى الأخذ بالعقوبة أقرب من العفو مثل حديث أبى هريرة قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: «هل أخذتك أم ملدم قط؟ قال وما أم ملدم؟ قال: حر يكون بين الجلد وللحم. قال: ما وجدت هذا قط. قال: فهل أخذلو الصداق قط؟ قال: وما الصداق؟ قال: عرق يضرب فى الرأس. قال: ما وجدت هذا قط. فقال رسول الله ﷺ - من سره أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا»(*) .

والعقوبة أنواع كثير:

منها: ما يتعلق بالدين، وهى أشدها؛ لأن العقوبات الحسية قد يتنبه لها الإنسان، أما هذه؛ فلا يتنبه لها إلا من وقَّفه الله، وذلك كما لو خفت المعصية فى نظر العاصي؛ فهذه عقوبة دينية تجعله يستهين بها، وكذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغيرة على حرمان الله، وعدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك من المصائب، ودليله قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَأَعْلَمُ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾.

ومنها: العقوبة بالنفس، وذلك كالأمراض العضوية والنفسية.

ومنها: العقوبة بالأهل؛ كفقدانهم، أو أمراض تصيبهم.

ومنها: العقوبة بالمال؛ كنقصه أو تلفه وغير ذلك. اهـ.

قلت: ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ الآية.

قوله: «وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه».

أى: أخرّ عنه العقوبة بذنبه^(١).

قال ابن عثيمين^(٢): «أمسك عنه»؛ أى: ترك عقوبته.

والإمسك فعل من أفعال الله، وليس معناه تعطيل الله عن الفعل، بل هو لم يزل ولا يزال فعلاً لما يريد، لكنه يمسك عن الفعل فى شىء ما لحكمه بالغة؛ ففعله حكمة، وإمسাকে حكمة. اهـ.

(*) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٣٢/٢)، والنسائى فى «الكبرى» (٧٤٩١) عن أبى هريرة به.

(١) تيسير العزيز الحميد - ٣٩٠. (٢) القول المفيد ٢/٢٦٧ و ٢٦٨..

قوله: «حتى يوافي به يوم القيامة».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «حتى يوافي به يوم القيامة» هو بضم الياء وكسر الفاء منصوباً بحتى مبنياً للفاعل. قال العزیزی: أى: لا يجازيه بذنبه فى الدنيا حتى يجيء فى الآخرة مستوفراً الذنوب وافيها فيستوفى ما يستحقه من العقاب؟

قلت - يعنى سليمان الشيخ - وهذا مما يزهّد العبد فى الصحة الدائمة خوفاً أن تكون طيباته عجلت له فى الحياة الدنيا، والله تعالى لم يرض الدنيا لعقوبة أعدائه، كما لم يرضها لإثابة أوليائه بل جعل ثوابهم أن أسكنهم فى جواره ورضى عنهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

لهذا لما ذكرَ النَّبِيُّ ﷺ الْأَسْقَامَ قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْأَسْقَامُ؟ وَاللَّهِ مَا مَرِضْتُ قَطٍ. قَالَ: «قُمْ عَنَّا فَلَسْتَ مَنًّا» رواه أبوداود^(٢).

وهذه الجملة هى آخر الحديث فأما قوله: وقال النبى ﷺ: «إن عظم الجزاء» إلى آخره فهو أول حديث آخر لكن لما رواهما الترمذى بإسناد واحد عن صحابى واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد.

وفيه من الفوائد أن البلاء للمؤمن من علامات الخير خلافاً لما يظنه كثير من الناس، وفيه الخوف من الصحة الدائمة أن تكون علامة شر، وفيه تنبيه على رجاء الله وحسن الظن به فيما يقضيه لك مما تكره، وفيه معنى قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ الآية.

قلت: وتقدم حديث أبى هريرة فى الرجل الذى لم يمرض قط وتدعوه الرسول بالنار.

قال الشيخ ابن عثيمين^(٣): قوله: «حتى يوافي به يوم القيامة». أى: يوافيه الله به: أى: يجازيه به يوم القيامة، وهو الذى يقوم فيه الناس من قبورهم لله رب العالمين. وسمى بيوم القيامة لثلاثة أسباب:

١- قيام الناس من قبورهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٨٩)

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٩٠.

(٣) القول المفيد ٢/٢٦٨ و ٢٧٠.

(٤) المطففين: ٦.

٢- قيام الأشهاد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (١).

٣- قيام العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (٢).

والغرض من سياق المؤلف لهذا الحديث: تسلية الإنسان إذا أصيب بالمصائب لثلاث يجزى، فإن ذلك قد يكون خيراً، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فيحمد الله أنه لو يؤخر عقوبته إلى الآخرة.

وعلى فرض أن أحداً لم يأت بخطيئة وأصابته مصيبة؛ فنقول له: إن هذا من باب إمتحان الإنسان على الصبر، ورفع درجاته باحتساب الأجر، لكن لا يجوز للإنسان إذا أصيب بمصيبة، وهو يرى أنه لم يخطئ أن يقول: أنا لم أخطئ؛ فهذه تزكية، فلو فرضنا أن أحداً لم يصب ذنباً وأصيب بمصيبة؛ فإن هذه المصيبة لا تلاقى ذنباً تكفره لكنها تلاقى قلباً تمحصه؛ فيتلى الله الإنسان بالمصائب لينظر هل يصبر ولا؟ ولهذا كان أخشى الناس لله - عز وجل - وأتقاهم محمد ﷺ، يوعك كما يوعك رجلان من (٣)، وذلك لينال أعلى درجات الصبر فينال مرتبة الصابرين على أعلى وجوها، ولذلك شدد عليه ﷺ عند النزاع، ومع هذه الشدة كان ثابت القلب، ودخل عليه عبدالرحمن بن أبي بكر وهو يستاك، فأمدّه بصره (يعنى: ينظر إليه)، فعرفت عائشة رضى الله عنها أنه يريد السواك، فقالت: آخذه لك؟ فأشار برأسه نعم. فأخذت السواك وقضته وألانتها للرسول ﷺ، فأعطته إيّاه، فاستن به، قالت عائشة: ما رأيته استن استناناً أحسن منه، ثم رفع يده وقال: «فى الرفيق الأعلى» (٤).

فانظر إلى هذا الثبات واليقين والصبر العظيم مع هذه الشدة العظيمة، كل هذا لأجل أن يصل الرسول ﷺ أعلى درجات الصابرين، صبر لله، وصبر بالله، وصبر فى الله حتى نال أعلى الدرجات.

فمن أصيب بمصيبة، فحدثته نفسه أن مصائبه أعظم من معائبه؛ فإنه يدل على ربه بعمله ويمن عليه به، فليحذر هذا.

(١) غافر: ٥١.

(٢) الأنبياء: ٤٧.

(٣) [متفق عليه] أخرجه: البخارى (٥٦٤٨)، ومسلم فى البر والصلة (١٦/١٢٧- النووى)؛ عن حديث عبدالله بن مسعود به.

وانظر «رياض الصالحين» (٣٩ - بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٤٣٨) عن عائشة به.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ عَظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ» (١) حَسَنُهُ التِّرْمِذِيُّ.

ومن ذلك يتضح لنا أمران:

- ١- إن إصابة الإنسان بالمصائب تعتبر تكفيراً لسيئاته وتعجيلاً للعقوبة في الدنيا، وهذا خير من تأخيرها له في الآخرة.
- ٢- قد تكون المصائب أكبر من المعائب ليصل المرء بصبره أعلى درجات الصابرين، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. اهـ.



وقوله: وقال النبي ﷺ: «إِنَّ عَظَمَ الْجَزَاءِ...» الحديث.

قال سليمان آل الشيخ (٢): هذا الحديث رواه الترمذى ولفظه حدثنا قتيبة، ثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن سعد بن سنان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَهُ الْخَيْرَ» الحديث الذى قبل هذا ثم قال: وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ عَظَمَ الْجَزَاءِ» الحديث ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ورواه ابن ماجه وصححه السيوطى.

وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد مرفوعاً: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزَعَ فَلَهُ الْجَزَعُ» قال المنذرى: رواه ثقات (٣).

مناسبة الحديث للباب:

قال عبد الله بن جابر الله (٤): أن فيه وعيد لمن سخط أقدار الله ولم يصبر على البلاء. اهـ.

قال القرعاوى: حيث حرم الحديث الجزع من أقدار الله وهذا يدل على أن الصبر على أقدار الله من الإيمان. اهـ.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٤٣٨) عن عائشة به.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٩١.

(٣) [جيد] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٢٧/٥، ٤٢٨) عن محمود بن لبيد به وجوده شيخنا الفاضل

«محمد عمرو» فى تبييض الصحيفة (ص: ١٢).

(٤) الجامع الفريد ١٤٤.

قوله: «إنَّ عَظَمَ الْجُزْءِ مِنْ عَظَمِ الْبَلَاءِ».

قال سليمان آل الشيخ ^(١): قوله: «إنَّ عَظَمَ الْجُزْءِ مِنْ عَظَمِ الْبَلَاءِ» بكسر المهملة وفتح الظاء فيهما ويجوز ضمها مع سكون الظاء أى: من كان ابتلاؤه أعظم فجزاؤه أعظم، فعظمة الأجر وكثرة الثواب مع عظم البلاء كيفية وكمية جزاء وفاقاً.

قلت - يعنى سليمان آل الشيخ - ولما كان الأنبياء عليهم السلام أعظم الناس جزاء كانوا أشد الناس بلاءً.

كما فى حديث سَعْدِ سُلَيْمَانَ النَّبِيِّ ﷺ: أَيْ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلْبًا أَشَدَّ بَلَاءً، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَةٌ ابْتُلِيَ عَلَى قَدَرِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكُهُ يَمْشَى عَلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» ^(٢) رواه الدارمى، وابن ماجه، والترمذى وصححه. وقد يحتج بقوله: «إنَّ عَظَمَ الْجُزْءِ مِنْ عَظَمِ الْبَلَاءِ» (و) من يقول: إن المصائب والأسقام (و) يثاب(*) عليها غير تكفير الخطايا، ورجح ابن القيم وغيره أن ثوابها تكفير الخطايا فقط إلا أن كانت سبباً لعمل صالح كالنوبة، والإستغفار والصبر والرضى، فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها.

كما فى حديث «إِذَا سَبَقَتْ لِلْعَبْدِ مِنْ اللَّهِ مَنَزَلَةٌ لَمْ يَلْفِهَا، أَوْ قَالَ: لَمْ يَنْلُهَا بِعَمَلِهِ ابْتِلَاهُ اللَّهُ فِي جَسَدِهِ، أَوْ فِي بَلَدِهِ، أَوْ فِي مَالِهِ، ثُمَّ صَبَّرَهُ حَتَّى يُلَافِهُهُ الْمَنَزَلَةُ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» رواه أبو داود فى رواية ابن داسه والبخارى فى «تاريخه» وأبو يعلى فى «مسنده» وحسنه بعضهم. وعلى هذا فيجيب عن الأول إن عظم الجزاء مع عظم البلاء أى: إذا صبر واحتسب أهـ.

قال ابن عثيمين ^(٤): «إنَّ عَظَمَ الْجُزْءِ مِنْ عَظَمِ الْبَلَاءِ» يتقابل عظم الجزاء مع البلاء، فكلما كان البلاء أشد وصبر الإنسان صار الجزاء أعظم؛ لأن الله عدل لا يعجزى المحسن بأقل من إحسانه، فليس الجزاء على الشوكة يشاكها كالجزاء على الكسر إذا كسر، وهذا دليل على كمال عدل الله، وأنه لا يظلم أحداً، وفيه تسلية المصاب. اهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٩١ و ٢٩٢.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١/ ١٧٢)، والترمذى (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣) عن سعد بن أبى وقاص به.

(*) كذا فى الكتاب والكلام يستقيم بحذفهما.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٧٢)، وأبو داود (٣٠٩٠) عن خالد السلمى عن أبيه به.

(٤) «القول المفيد».

قوله: «وإن الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم»

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «وإن الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم» صريح فى حصول الابتلاء لمن أحبه الله ولما كان الأنبياء عليهم السلام أفضل الأحاب كانوا أشد الناس بلاء، وأصابهم من البلاء فى الله مالم يصيب أحداً لينالوا بذلك الثواب العظيم، والرضوان الأكبر وليأتى بهم من بعدهم، ويعلموا أنهم بشر تصيبهم المحن والبلايا فلا يعبدونهم.

فإن قلت: كيف يتلى الله أحبابه.

قيل: لما كان أحد لا يخلو من ذنب كان الابتلاء تطهيراً لهم كما صحت بذلك الأحاديث وفى أثر إلهي «أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب» ولأنه زيادة فى درجاتهم لما يحصل مع المصيبة للمؤمن من الأعمال الصالحة كما تقدم فى حديث: «إذا سبقت للعبد من الله منزلة»(*) الحديث ولأن ذلك يدعو إلى التوبة فإن الله تعالى يتلى العباد بعذاب الدنيا ليتوبوا من الذنوب كما قال تعالى: «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»^(٢) فمن رزقه الله التوبة بسبب المصيبة كان ذلك من أعظم نعم الله عليه، ولأن ذلك يحصل به دعاء الله والتضرع إليه؛ ولهذا ذم الله من لا يستكين لربه ولا يتضرع عند حصول البأساء كما قال تعالى: «وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ»^(٣) ودعاء الله والتضرع إليه من أعظم النعم، فهذه النعمة والتى قبلها من أعظم صلاح الدين، فإن صلاح الدين فى أن يعبد الله وحده ويتوكل عليه، وأن لا تدع مع الله إلهاً آخر لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة. فإذا حصلت لك التوبة التى مضمونها أن تعبد الله وحده، وتطيع رسله بفعل المأمور، وترك المحذور، كنت ممن يعبد الله، وإذا حصل لك الدعاء الذى هو سؤال الله حاجاتك فتسأله ما تنتفع به وتستعيد به عما تستضر به كان هذا من أعظم نعم الله عليك، وهذا كثيراً ما يحصل بالمصائب. وإذا كانت هذه النعم فى المصائب فأولى الناس بها أحبابه، فعليهم حينئذ أن يشكروا الله. لخصت ذلك من كلام شيخ الإسلام رحمه الله أه.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: «وإن الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم». أى: اختبرهم بما يقدر

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٩٢ و ٣٩٣. (٢) الروم: ٤١.

(*) تقدم تخريجه قريباً

(٤) القول المفيد ٢/ ٢٧١.

(٣) المؤمنون: ٧٦.

عليهم من الأمور الكونية؛ كالأمراض، وفقدان الأهل، أو بما يكلفهم به من الأمور الشرعية، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴿ فذكره الله بالنعمة وأمره بالصبر؛ لأن هذا الذي نُزل عليه تكليف يكلف به.

كذلك من الابتلاء الصبر عن محارم الله؛ كما فى الحديث: «ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال: إني أخاف الله» (١)؛ فهذا جزاؤه أن الله يظله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله. اهـ.

قوله: «فمن رضى فله الرضى»

قال سليمان آل الشيخ (٢): قوله: «فمن رضى فله الرضى» أى: من رضى بما قضاه الله وقدره عليه من الابتلاء فله الرضى من الله جزاءً وفاقاً كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (٣) وهذا دليل على فضيلة الرضى؛ وهو أن لا يعترض على الحكم ولا يتسخطه ولا يكرهه.

وقد وصى النبي ﷺ رجلاً فقال: «لَا تَتَّهِمِ اللَّهَ فِي شَيْءٍ قَضَاهُ لَكَ» (٣) فإذا نظر المؤمن بالقضاء والقدر فى حكمة الله ورحمته وأنه غير متهم فى قضائه دعاه ذلك إلى الرضى، قال ابن مسعود: إن الله بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح فى اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط.

قال ابن عون: ارض بقضاء الله من عسر ويسر فإن ذلك أقل لهمك، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضى حتى يكون رضاه عند الفقر والبلاء كرضاه عند الغنى والرخاء كيف تستقضى الله فى أمرك ثم تسخط إن رأيت قضاء مخالفاً لهواك؟ ولعل ما هويت من ذلك لو وفق لك لكان فيه هلاكك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك؛ وذلك لقلّة علمك بالغيب، إذا كنت كذلك ما أنصفت من نفسك، ولا أصبت باب الرضى ذكره ابن رجب قال: وهذا كلام حسن. اهـ.

قال ابن عثيمين (٤): قوله: «فمن رضى؛ فله الرضى، ومن سخط، فله السخط». «من»: شرطية، والجواب: «فله الرضا»؛ أى: فله الرضا من الله، وإذا رضى الله عن

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٤٧٩)، ومسلم فى الزكاة (١٢٠ / ٧) - النووى عن أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٣٧٧) - بتخريجنا).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٩٢.

(٣) البينة: ٨.

(٤) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥٩ / ١) ونسبه لأحمد قال: وفى إسناده ابن لهيعة

شخص أرضى الناس عنه جميعاً، والمراد بالرضا: الرضا بقضاء الله من حيث إنه قضاء الله، وهذا واجب بدليل قوله: «ومن سخط».

قوله: «ومن سخط فله السخط».

قال سليمان آل الشيخ: قوله: «ومن سخط» هو بكسر الخاء قال أبو السعادات: السخط الكراهية للشيء وعدم الرضى به أى: من سخط أقدار الله فله السخط أى: من الله وكفى بذلك عقوبة. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وفيه دليل أن السخط من أكبر الكبائر وقد يستدل به على إيجاب الرضى كما هو اختيار ابن عقيل. واختار القاضى عدم الوجوب ورجحه شيخ الإسلام، وابن القيم. قال شيخ الإسلام: ولم يجرى الأمر به كما جاء الأمر بالصبر. وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم قال وأما ما جاء من الأثر «من لم يصبر على بلائى، ولم يرض بقضائى فليتخذ رباً سواى» فهذا إسرائيلى ليس يصح عن النبى ﷺ قلت - يعنى سليمان آل الشيخ - قد روى الطبرانى فى الأوسط معناه.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعاً: «مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَيُؤْمِنْ بِقَدَرِ اللَّهِ فَلْيَلْتَمِسْ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ»^(١) قال الهيثمى: فيه حزم بن أبى حزم وثقه ابن معين، وضعفه جمع وبقية رجاله ثقات فإن ثبت هذا دل على وجوبه.

قال شيخ الإسلام: وأعلى من ذلك أى من الرضى أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله تعالى عليه بها انتهى.

واعلم أنه لاتنافى بين الرضى وبين الإحساس بالألم فكثير ممن له آتئين من وجع وشدة مرض قلبه مشحون من الرضى والتسليم لأمر الله.

فإن قيل: ما الفرق بين الرضى والصبر؟

فالجواب: قال طائفة من السلف منهم عمر بن عبدالعزيز، والفضيل، وأبو سليمان، وابن المبارك، وغيرهم: إن الراضى لايتمنى غير حاله التى هو عليها بخلاف الصابر، وقال الخواص: الصبر دون الرضى، الرضى أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راضى بأى ذاك كان، والصبر أن يكون بعد نزول المصيبة يصبر.

قلت: - يعنى سليمان آل الشيخ - كلام الخواص هذا عزم على الرضى ليس هو الرضى فإنه إنما يكون بعد القضاء.

(١) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط» (٧٢٧٣) عن أنس به وذكره الهيثمى فى «المجمع» (٢٠٧/٧): «رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه سهيل بن أبى حزم وثقه ابن معين وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات».

كما فى الحديث «وَأَسْأَلُكَ الرَّضَىٰ بَعْدَ الْقَضَاءِ»^(١) لأن العبد قد يعزم على الرضى بالقضاء قبل وقوعه فإذا وقع انفسخت تلك العزيمة، فمن رضى بعد وقوع القضاء فهو الراضى حقيقة قاله ابن رجب. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: «ومن سخط» فقابل الرضا بالسخط، وهو عدم الصبر على ما يكون من المصائب القدرية الكونية.

ولم يقل هنا «فعلية السخط» مع أن مقتضى السياق أن يقول فعلية؛ كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾^(٣).

فقال بعض العلماء: إن اللام بمعنى على؛ كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾؛ أى: عليهم اللعنة.

وقال آخرون: إن اللام على ما هى عليه، فتكون للاستحقاق؛ أى: صار عليه السخط باستحقاقه له، فتكون أبلغ من «على»؛ كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾؛ أى: حَقَّتْ عليهم باستحقاقهم لها، وهذا أصح.

● ويستفاد من الحديث:

إثبات المحبة والسخط والرضا لله - عزوجل -، وهى من الصفات الفعلية لتعلقها بمشيئة الله تعالى؛ لأن (إذا) فى قوله: «إذا أحب قوماً» للمستقبل، فالحب يحدث؛ فهو من الصفات الفعلية.

والله تعالى يحب العبد عند وجود سبب المحبة، ويغضه عند وجود سبب بغض، وعلى هذا؛ فقد يكون هذا الشخص فى يوم من الأيام محبوباً إلى الله وفى آخر مُبْغَضاً إلى الله؛ لأن الحكم يدور مع علته.

وأما الأعمال؛ فلم يزل الله يحب الخير والعدل والإحسان ونحوها، وأهل التأويل ينكرون هذه الصفات، فيؤوّلون المحبة والرضا بالثواب أو إرادته، والسخط بالعقوبة أو إرادتها، قالوا: لأن إثبات هذه الصفات يقتضى النقص ومثابته المخلوقين، والصواب ثبوتها لله - عزوجل - على الوجه اللائق به كسائر الصفات التى يشبّتها من يقول بالتأويل.

(١) أخرجه أحمد «مسند» (٢٦٤/٤)، والنسائي فى «الكبرى» (١٢٢٨) عن عمارين يا سر به.

(٢) القول المفيد ٢/٢٧١ و٢٧٣.

(٣) فصلت: ٤٦.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ التَّغَابُنِ.

الثانية: أَنَّ هَذَا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ.

الثالثة: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ.

الرابعة: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِيمَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ.

ويجب في كل صفة أثبتها الله لنفسه أمران:

١- إثباتها على حقيقتها وظاهرها.

٢- الحذر من التمثيل أو التكييف.

قلت: ويستفاد فيه أن الجزاء من جنس العمل.

أن العبد قد يحبه الله ثم يفعل ما يوجب سخطه تعالى فيسخط عليه.

قال ابن عثيمين^(١):

قوله: «فيه مسائل».

● الأولى: تفسير آية التغابن:

وهي قوله تعالى: «وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ»، وقد فسرها علقمة كما سبق تفسيراً مناسباً للباب.

قلت: وابن عباس وابن مسعود - رضى الله عنهما - كذلك.

● الثانية: أن هذا من الإيمان بالله.

المشار إليه بقوله: (هذا): هو الصبر على أقدار الله.

● الثالثة: الطعن في النسب.

وهو عيبة، وهو من الكفر، لكنه لا يُخرج من الملة.

● الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، أو شق الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهلية.

(١) القول المفيد ٢/ ٢٧٣ : ٢٧٥.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.

السادسة: إرادة الله به الشر.

السابعة: علامة حب الله للعبد.

الثامنة: تحريم السخط.

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء.

لأن النبي ﷺ تبرأ منه.

[قلت]: قوله ﷺ: «ليس منا» وينسب ذلك العمل إلى الكفر تارة وإلى الجاهلية أخرى.

● الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.

وهو أن يُعجل له الله العقوبة في الدنيا.

● السادسة: إرادة الله به الشر.

أى: علامة إرادة الله به الشر، وهو أن يؤخر له العقوبة في الآخرة.

● السابعة: علامة حب الله للعبد.

وهى الابتلاء.

قلت: بقوله: «إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم» ويؤيده قوله ﷺ: فى الصحيح «من يرد الله به خيراً يصب منه».

● الثامنة: تحريم السخط.

يعنى: مما يتلى به العبد؛ لقوله ﷺ: «ومن سخط؛ فله السخط»، وهذا وعيد.

● التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء.

وهو رضا الله عن العبد؛ لقوله ﷺ: «من رضى؛ فله الرضا». اهـ.



(٣٥) بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

● مناسبة الباب لما قبله.

قلت: أن الرياء من أعظم الأسباب للجدع وعدم الصبر على أقدار الله ذلك لأن المنافق المرائي إنما قصد بعمله غير وجه الله تعالى من وجهة ومشرف أو غير ذلك فإذا لم يجد ذلك بل وجد ضده من زلازل وفتن ومحن؛ تزلزل وقال في جزع وخوف ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهم تدور اعينهم كالذى يغشى عليه من الموت».

مناسبة الباب للتوحيد

قال سليمان آل الشيخ^(١): ولما كان خلوص العمل من الشرك والرياء شرطاً في قبوله لمنافاة الشرك والرياء للتوحيد نبه المصنف على ذلك تحقيقاً للتوحيد. اهـ.

قال ناصر السعدى^(٢): اعلم أن الإخلاص لله أساس الدين، وروح التوحيد، والعبادة وهو أن يقصد العبد بعمله كله وجه الله، وثوابه، وفضله، فيقوم بأصول الإيمان الستة وشرائع الإسلام الخمس، وحقائق الإيمان التي هى الإحسان بحقوق الله وحقوق عباده. مكملًا لها قاصداً بها وجه الله والدار الآخرة لا يريد بذلك رياء ولا سمعة ولا رياسة ولا دنيا، وبذلك يتم إيمانه وتوحيده. اهـ.

قال عبدالله بن جار الله^(٣): وعلاقة هذا الباب بكتاب التوحيد: أن الرياء شرك أصغر مناف لكمال التوحيد. اهـ.

- شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال ابن باز^(٤): هذا الباب عقده المؤلف للتحذير من الرياء. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٥): المؤلف - رحمه الله تعالى - أطلق الترجمة، فلم يفصح بحكمه لأجل أن يحكم الإنسان بنفسه على الرياء على ما جاء فيه. اهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد ٣٩٤.

(٢) القول السديد ٩٧.

(٣) الجامع الفريد ١٤٥.

(٤) التعليق المفيد (١٨٩).

(٥) القول المفيد (٢/٢٧٦).

تعريف الرياء

قال ابن حجر^(١): الرياء بكسر الراء وتخفيف التحتانية والمد وهو مشتق من الرؤية والمراد به اظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها. ا. هـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): والرياء مصدر رأى يرائى مرأاة ورياء؛ وهو أن يرى الناس أنه يعمل عملاً على صفة وهو يضمّر في قلبه صفة أخرى، فلا اعتداد ولا ثواب إلا بما خلصت فيه النية لله تعالى. ذكره القاضي أبو بكر بمعناه. ا. هـ.

قال ابن عثيمين^(٣): مصدر رآى يرائى، أى: عمل عملاً ليراه الناس ويقال مرأاة كما يقال جاهد يجاهد مجاهده، ويدخل فى ذلك من عمل العمل ليسمعه الناس ويقال له مُسَمَّعٌ، وفى الحديث عن النبى ﷺ أنه: «من رأى رآى الله به ومن سمع سمع الله به»^(٤).

والرياء خلق ذميم، وهو من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. ا. هـ.

قلت: وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ الآية.
حكم الرياء والعمل المخالط له.

قلت: سيأتى من كلام سليمان آل الشيخ نقلاً عن ابن رجب الحنبلى تفصيل أبسط وأدل فى شرح الحديث الأول لكن إليك كلام ناصر السعدى وابن عثيمين كالتوطئة قبل الدخول فى الباب وتفصيلاته وشروحه.

قال ناصر السعدى^(٥): واعلم أن الرياء فيه تفصيل: فإن كان الحامل للعبد على العمل قصد مرأاة الناس واستمر على هذا القصد الفاسد فعمله حابط وهو شرك أصغر. ويخشى أن يتدرع به الشرك الأكبر.

(١) الفتوح (٣٤٤/١١).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٩٤ و ٣٩٥.

(٣) القول المفيد ٢/٢٧٦.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٤٩٩)، ومسلم فى الزهد والرقائق (١٨/١١٦ - النووى) عن جندب بن عبد الله به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٦٢٢ - بتخريجنا).

(٥) القول السديد ٩٨ و ٩٩.

وإن كان الحامل على العمل إرادة وجه الله مع إرادة مراعاة الناس، ولم يقلع عن الرياء بعمله. فظاهر النصوص أيضاً بطلان هذا العمل.

وإن كان الحامل للعبد على العمل وجه الله وحده، ولكن عرض له الرياء فى أثناء عمله، فإن دنعه وخلص إخلاصه لله لم يضره. وإن ساكنه واطمأن إليه نقص العمل وحصل لصاحبه من ضعف الإيمان والإخلاص بحسب ما قام فى قلبه من الرياء، وتقاوم العمل لله وما خالطه من شائبة الرياء.

والرياء آفة عظيمة ويحتاج إلى علاج شديد وتمرين النفس على الإخلاص ومجاهدتها فى مدافعة خواطر الرياء والأغراض الضارة والإستعانة بالله على دفعها لعل الله يخلص إيمان العبد ويحقق توحيده اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): موضحاً ومفصلاً لكلام ناصر السعدى والرياء يبحث فى مقامين:

المقام الأول: فى حكمه.

ف نقول: الرياء من الشرك الأصغر؛ لأن الإنسان قصد بعبادته غير الله، وقد يصل إلى الأكبر، وقد مثل ابن القيم للشرك الأصغر؛ فقال: «مثل يسير الرياء»، وهذا يدل على أن الرياء كثير قد يصل إلى الأكبر.

المقام الثانى: فى حكم العبادة إذا خالطها الرياء، وهو على ثلاثة أوجه:

الأول: أن يكون الباعث على العبادة مراعاة الناس من الأصل، كمن قام يصلى من أجل مراعاة الناس ولم يقصد وجه الله؛ فهذا شرك والعبادة باطلة.

الثانى: أن يكون مشاركاً للعبادة فى أثنائها، بمعنى أن يكون الحامل له فى أول أمره الإخلاص لله ثم يطرأ الرياء فى أثناء العبادة.

فإن كانت العبادة لا يبنى آخرها على أولها؛ فأولها صحيح بكل حال، والباطل آخرها.

مثال ذلك: رجل عنده مئة ريال قد أعدها للصدقة فتصدق بخمسين مخلصاً وراءى فى الخمسين الباقية؛ فالأولى حكمها صحيح، والثانية باطلة.

أما إذا كانت العبادة يبنى آخرها على أولها؛ فهى على حالين:

(١) القول المفيد ٢/٢٧٦ و ٢٧٩.

لأنه أن يدافع الرياء ولا يسكن إليه، بل يعرض عنه ويكرهه؛ فإنه لا يؤثر عليه شيئاً؛ لقول النبي ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم»^(١).

مثال ذلك: رجل قام يصلي ركعتين مخلصاً لله، وفي الركعة الثانية أحس بالرياء فصار يدافعه؛ فإن ذلك لا يضره ولا يؤثر على صلاته شيئاً.

ب - أن يطمئن إلى هذا الرياء ولا يدافعه؛ فحينئذ تبطل جميع العبادة؛ لأن آخرها مبنى على أولها ومرتبطة به.

مثال ذلك: رجل قام يصلي ركعتين مخلصاً لله، وفي الركعة الثانية طرأ عليه الرياء لإحساسه بشخص ينظر إليه، فاطمأن لذلك ونزع إليه؛ فتبطل صلاته كلها لارتباط بعضها ببعض.

الثالث: ما يطرأ بعد انتهاء العبادة؛ فإنه لا يؤثر عليها شيئاً، اللهم إلا أن يكون فيه عدوان؛ كالمَنِّ والأذى بالصدقة، فإن هذا العدوان يكون إثمه مقابلاً لأجر الصدقة فيبطلها؛ لقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى»^(٢) وسيأتي.

وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته؛ لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة.

وليس من الرياء أيضاً أن يفرح الإنسان بفعل الطاعة في نفسه، بل ذلك دليل على إيمانه، قال النبي ﷺ: «من سرته حسناته وسأته سيئاته؛ فذلك المؤمن»^(٣) وقد سئل النبي ﷺ عن ذلك؛ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»^(٤).

وقد تقدم هذا أيضاً من كلام القرطبي عند تفسير قوله تعالى «وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً».

قلت: وليس من الرياء أن يحسن العمل كقراءة القرآن للشيخ وهو يعرضه عليه للاختبار وليس من الرياء تحسين العلم في هذه الحالة أيضاً لهذا الغرض وليس من الرياء أن يحسنه تحسيناً لإرضاء الشيخ إذا علم منه أنه يرضى ويفرح لذلك فعند أبي

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم في الإيمان (٢٠١/٤٢٣/١) عن أبي هريرة به..

(٢) البقرة: ٢٦٤.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨/١)، والترمذي (٢١٦٥)، والنسائي في «الكبرى» (٩٢٢٣) من عمر

به.

(٤) [متفق عليه] أخرجه مسلم في البرد والصلة (١٨٩/١٤ - النووي) عن أبي ذر به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٦٢٤ - بتخريجنا).

.....
يعلى من حديث أبى موسى حين مر به الرسول وهو يقرأ فى بيته فلما أصبح ﷺ قال لأبى موسى: لو رأيتنى وأنا استمع قراءتك البارحة فقال أبو موسى: «أما إني لو علمت بمكانك لحبرته لك تحبيراً»^(١) الحديث.

وليس من الرياء أن يظهر للكفار من القوة ما يرهبهم وإن كان الأمر على خلاف ذلك؛ لما ثبتت فى الصحيح^(٢) أن النبى ﷺ أمرهم أن يرملوا فى الأشواط الثلاثة وأن يضطجعوا، وفى بعض الألفاظ فى الصحيح^(٣) «ليرى المشركين قوتهم» وفى خارج «الصحيح» بلفظ «رأينا المشركين».

قال ابن حجر^(٤): ويؤخذ منه جواز إظهار القوة بالعدة والسلاح ونحو ذلك للكفار إرهاباً لهم، ولا يعد ذلك من الرياء المذموم. أ.هـ.

الفرق بين الرياء والسمعة:

قال ابن حجر^(٥): الرياء بكسر الراء التحتانية والمد وهو مشتق من الرؤية والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها وقد تقدم.

والسمعة بضم المهملة وسكون الميم مشتقة من سمع - والمراد بها نحو ما فى الرياء لكنها تتعلق بحاسة السمع والرياء بحاسة البصر.

قال الغزالي: المعنى طلب المنزلة فى قلوب الناس بأن يريهم الخصال المحمودة، والمرائى هو العامل.

وقال ابن عبدالسلام: الرياء أن يعمل لغير الله والسمعة أن يخفى عمله لله ثم يحدث به الناس. اهـ.

ونقل ذلك سليمان آل الشيخ بنحوه.



(١) [صحيح] أخرجه أبو يعلى فى «مسنده» (٧٢٤٢) عن أبى موسى به.

(٢) فتح البارى (ج ١٦٠٢).

(٣) فتح البارى (ج ٤٢٥٦).

(٤) فتح البارى (٣/ ٥٤٩). (٥) الفتح ٣٤٤/١١.

● فصل فى ما جاء فى ذم الرياء والترهيب منه :

عن أبى هريرة، أن رجلاً قال: «يا رسول الله، الرجل يجاهد فى سبيل الله وهو يتغنى عرضاً من الدنيا؟ قال: لا أجر له. فأعظم الناس هذه فعاد الرجل، فقال: لا أجر له»^(١).

عن شداد بن أوس قال: كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر^(٢).

عن شداد بن أوس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى يرأى فقد أشرك، ومن صام يرأى فقد أشرك، ومن تصدق يرأى فقد أشرك. ثم قرأ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾^(٣) الآية.

عن شداد بن أوس رضى الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يخبر عن ربه عز وجل يقول: «أنا خير قسيم لمن أشرك بى، من أشرك بى شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به، أنا عنه غنى»^(٤).

عن عبدالرحمن بن غنم أنه قيل له: «أسمعت رسول الله ﷺ يقول: من صام رياء فقد أشرك، ومن صلى رياء فقد أشرك، ومن تصدق رياء فقد أشرك؟؟ قال: بلى، ولكن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ فشق ذلك على القوم واشتد عليهم فقال: «ألا أفرجها عنكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: «هى مثل الآية التى فى الروم ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيرَبُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٥) فمن عمل رياء لم يكتب لا له ولا عليه.

عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الشرك الخفى، أن يقوم الرجل يصلى لمكان رجل»^(٦).

(١) أخرجه الحاكم فى «المستدرک» (٣٧١/٢) وصححه وزاد نسبه السيوطى والبيهقى.

(٢) أخرجه الحاكم فى «المستدرک» (٣٢٩/٤) وصححه، وذكره السيوطى فى «الدر» وزاد نسبه لابن أبى الدنيا، وابن مردويه، والبيهقى.

(٣) أخرجه الحاكم فى «المستدرک» (٣٢٩/٤) وذكره السيوطى وزاد نسبه لأحمد، وابن أبى الدنيا، وابن مردويه، والبيهقى.

(٤) ذكره السيوطى ونسبه للطيالسى، وأحمد، وابن مردويه.

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤٦٠/٥) ونسبه للبخارى، وابن منده، والبيهقى، وابن عساكر.

(٦) سيأتى تخريجه.

وعن شداد ابن أوس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أخاف على أمتي الشرك والشهوة الخفية قلت: أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: نعم، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون الناس بأعمالهم. قلت: يا رسول الله، فالشهوة الخفية؟ فقال: يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ويواقع شهوته»^(١).

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن ربه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه، وهو للذي أشرك»^(٢).

عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله يوم القيامة: إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»^(٣).

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة في صحف مختمة، فيقول الله: القوا هذا واقبلوا هذا. فتقول الملائكة: يا رب، والله ما رأينا منه إلا خيراً. فيقول: إن عمله كان لغير وجهي ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي»^(٤).

عن الضحاك بن قيس قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: أنا خير شريك، فمن أشرك معي أحداً فهو لشريكي. يا أيها الناس، أخلصوا الأعمال لله فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له، ولا تقولوا هذا لله وللرحم، فإنه للرحم وليس لله منه شيء»^(٥).

عن عبد الله بن عمرو، أنه قال: يا رسول الله، أخبرني عن الجهاد والغزو. قال: يا عبد الله، إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً؛ وإن قاتلت مرأئياً مكاثراً على أي حال قاتلت أو قتلت، بعثك الله على تلك الحال»^(٦).

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤/ ٣٣٠) ذكره السيوطي في «الدر» (٥/ ٤٧٥) وزاد نسبه لأحمد، والحكيم الترمذي والبيهقي.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) ذكره السيوطي ونسبه لأحمد، والبيهقي.

(٤) ذكره السيوطي ونسبه للبخاري، والبيهقي.

(٥) ذكره السيوطي ونسبه للبخاري، وابن مردويه، والبيهقي بسند لا بأس به.

(٦) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٢/ ٨٥ - ٨٦) وصححه.

عن يحيى بن الوليد بن عبادة عن جده، أن النبي ﷺ قال: «من غزا وهو لا ينوي في غزاته إلا عقلاً، فله ما نوى»^(١).

عن يعلى بن منبه قال: «كان النبي ﷺ يبعثني في سراياه، فبعثني ذات يوم وكان رجل يركب فقلت له: ارحل. قال: ما أنا بخارج معك. قلت: لم؟ قال: حتى تجعل لي ثلاثة دنائير. قلت: الآن حين ودعت النبي ﷺ ما أنا براجع إليه، ارحل ولك ثلاثة دنائير. فلما رجعت من غزاتي ذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: أعطها إياه فإنها حظه من غزاته»^(٢).

عن أبي أمامة قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال: رسول الله ﷺ: لا شيء له. فأعادها ثلاث مرات يقول رسول الله ﷺ: لا شيء له. ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى به وجهه»^(٣).

عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ما ابتغى به وجه الله عز وجل»^(٤).

عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «من يسمع يسمع الله به، ومن يرائي يرائي الله به»^(٥).

عن عبدالله بن عمر: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قام بخطبة لا يلتبس بها إلا رياء وسمعة، أوقفه الله عز وجل يوم القيامة في موقف رياء وسمعة»^(٦).

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «من يرائي يرائي الله به، ومن يسمع يسمع الله به»^(٧).

عن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم وشرك السرائر. قالوا: وما

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣١٥/٥)، والنسائي (٢٤/٦ - السيوطي)، والحاكم في «المستدرک» (١٠٩/٢)، وذكره السيوطي وزاد نسبه، للدارمي، والرويانى، وابن بيان، والطبرانى.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١١٠/٢) وانظر «الدر» في الموضع السابق.

(٣) أخرجه النسائي (٢٥/٦ - السيوطي) والطبرانى في «الكبير» (١٦٥/٨ - ٧٦٢٨)، وذكره السيوطي في «الدر» (٤٧٥/٥) وزاد نسبه لأبي داود.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» ونسبه للطبرانى بسند لا بأس به.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر» ونسبه لابن أبي شيبة، وأحمد.

(٧) ذكره السيوطي في «الدر» ونسبه لابن أبي شيبة، وأحمد عن أبي سعيد.

شرك السرائر؟ قال: أن يقوم أحدكم يريد صلاته جاهداً لينظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر»^(١).

عن ابن مسعود قال: من صلى صلاة والناس يرونه، فليصل إذا خلا مثلها، وإلا فإنما هي استهانة يستهين بها ربه^(٢).
وعن حذيفة مثله^(٣).

عن عمرو بن عبسة قال: إذا كان يوم القيامة؛ جرى بالدنيا فيميز منها ما كان لله وما كان لغير الله رمى به في نار جهنم^(٤).

عن أبي موسى الأشعري قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «أيها الناس، اتقوا الشرك فإنه أخفى من ديب النمل. فقالوا: وكيف نتقيه وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله! قال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفر لما لانعلم»^(٥).

عن عبادة بن الصامت قال: يجاء بالدنيا يوم القيامة فيقال: ميزوا ما كان لله فيميز، ثم يقول: القوا سائرهما في النار^(٦).

عن معاذ بن جبل: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن يسيراً من الرياء شرك، وإن من عادی أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، وإن الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الدجى، يخرجون من كل غبراء مظلمة»^(٧).

عن أبي الدرداء، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الاتقاء على العمل أشد من العمل، إن الرجل ليعمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر، يضعف أجره سبعين ضعفاً، فلا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس، فيكتب علانية ويمحى تضعيف أجره كله، ثم

(١) ذكره السيوطي في الدر ونسبه لابن أبي شيبة وتقدم بنحوه.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ونسبه لابن أبي شيبة عن ابن مسعود.

(٣) ذكره السيوطي في الدر ونسبه لابن أبي شيبة عن حذيفة.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ونسبه للبيهقي.

(٥) ذكره السيوطي في الدر ونسبه لابن أبي شيبة.

(٦) ذكره السيوطي في الدر ونسبه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، والبيهقي في «الشعب».

(٧) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٢٩/٤) وصححه وذكره السيوطي في «الدر» وزاد نسبه، والبيهقي

في «الشعب».

لا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس الثانية ويجب أن يذكر ويحمد عليه فيمحي من العلانية ويكتب رياء، فاتقى الله امرؤ صان دينه فإن الرياء شرك»^(١).

عن أبى أمامة، عن النبى ﷺ قال: «أن أحسن أوليائى عندى منزلة، رجل ذو حظ من صلاة.. أحسن عبادة ربه فى السر وكان غامضاً فى الناس لا يشار إليه بالأصابع، عجلت منيته وقل ترانه وقلت بواكيه»^(٢).

عن أبى هند الدارى: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قام رياء أو سمعة، رايأ الله به يوم القيامة وسمع به»^(٣).

عن عمر بن النضر قال: بلغنى أن فى جهنم وادياً تعود منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة أعد ذلك للمرائين من القراء»^(٤).

عن أبى هريرة قال: خرج النبى ﷺ فقال: «تعوذ بالله من جب الحزن، قيل من يسكنه؟ قال: المراءون بأعمالهم»^(٥).

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عزوجل: كل من عمل عملاً أراد به غيره فأنا منه برىء»^(٦).

عن أبى هريرة قال: رسول الله ﷺ: «اتقوا الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء يوم يجازى الله العباد بأعمالهم، يقول: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا، انظروا... هل تصيبون عندهم جزاء؟»^(٧).

عن محمد بن الحنفية قال: كل مالا يتغنى به وجه الله يضمحل»^(٨).

عن أبى العالية قال: قال لى أصحاب محمد ﷺ: يا أبا العالية، لا تعمل لغير الله فيكلك الله عزوجل إلى من عملت له»^(٩).

عن ربيع بن خثيم قال: مالم يرد به وجه الله عزوجل يضمحل»^(١٠).

(١) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه للبيهقى وضعفه.

(٢) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لأحمد، والبيهقى.

(٣) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن سعد، وأحمد، والبيهقى.

(٤) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه للبيهقى عن عمر.

(٥) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه للبيهقى عن أبى هريرة.

(٦) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه للبيهقى عن جابر.

(٧) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن مردويه.

(٨) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤/٤٦٢) ونسبه لأبى نعيم فى «الحلية».

(٩) ذكره السيوطى فى «الدر» ونسبه لابن أبى شيبه، وأحمد فى «الزهد».

(١٠) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن أبى شيبه.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ (١).

قوله الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ.....﴾ الآية.

- مناسبة الآية للباب والتوحيد

قال عبدالله بن جاره الله (٢): أن السعادة والخير والفلاح في لقاء الله تبارك وتعالى وأن لقاء الله يحصل بالعمل الصالح الخالص من الرياء والسمعة. اهـ.

قال القرعاوى (٣): دلت الآية الكريمة على أن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالياً من الشرك. ومن الشرك الرياء. اهـ.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾.

الإعراب (٤): ﴿إِنَّمَا﴾ كافة ومكفوفة.

وأنا مبتدأ و﴿بَشَرٌ﴾ و﴿مِثْلُكُمْ﴾ صفة. اهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من آثار:

قال ابن عباس: علم الله رسوله المتواضع لثلاث يزهو على خلقه، فأمره الله أن يقر، فيقول: أنا آدمي مثلكم، إلا أنني خصصت بالوحي وأكرمني الله به (٥).

● ما جاء في الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبري (٦): يقول تعالى ذكره: قل لهؤلاء المشركين يا محمد: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ من بني آدم لا علم لي إلا ما علمني الله وأن الله يوحى إلى أن معبودكم الذي يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً معبوداً واحداً لاثنائى له ولا شريك اهـ.

قال الشنقيطي (٧): أمر جل وعلا نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للناس:

(١) الكهف: ١١١.

(٢) الجامع الفريد ١٤٦.

(٣) الجديد ٣٢٤.

(٤) إعراب القرآن ٦/ ٥٠.

(٥) معالم التنزيل ٦/ ٦٠٦ وذكره بنحوه ابن الجوزي في زاد المسير.

(٦) الطبري (١٦/ ٣١ - ٣٢).

(٧) الأضواء ٤/ ١٥١ و ١٥٢.

﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أى لا أقول لكم إني ملك ولا غير بشر، بل أنا بشر مثلكم أى بشر من جنس البشر، إلا أن الله تعالى فضلني وخصني بما أوحى إلى من توحده وشرعه. اهـ.

● ما جاء فى الآية من كلام سراح كتاب التوحيد.

قال سليمان آل الشيخ^(١): يقول الله تعالى لنبهه ﷺ: قل يا محمد للناس ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أى فى البشرية، ولكن الله منّ علىّ وفضلنى بالرسالة، وليس لى من الربوبية، ولا من الإلهية شئ، بل ذلك لله وحده لا شريك له. اهـ.

قال حامد بن محمد^(٢): دلت هذه الآية مطابقة وتضمناً والتزاماً على فوائد جليلة:

الأولى: أن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والأموال ولكن ينظر إلى القلوب العامرة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾^(٣) وقال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٤).

وفى رواية: «ولكن ينظر إلى القلوب العامرة».

الثانية: دلت على عمومية الحكم والأمر لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾^(٥).

الثالثة: الإيمان الحقيقى الذى لا يزلزله شئ لأن الإيمان الذى لا ثبات له لا ينفع معه العمل.

الرابعة: الإيمان باليوم الآخر لقوله تعالى: لقاء ربه.

الخامسة: الإيمان بالرسول والكتاب لقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ والصالح لا

(١) تيسير العزيز الحميد (٣٩٥).

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٣٦٧ - ٣٦٨ - ٣٦٩).

(٣) سبأ: ٣٧.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر. والصلة (٨/٣٦٣/٢٤) عن أبى هريرة به.

(٥) الكهف: ١١٠.

يكون إلا على ما أمر الله تعالى وأمر الله لا يتصور إلا بإرسال رسول معه كتاب من ربه فيه أوامره ونواهيه .

السادسة: الإيمان بالملائكة والأنبياء والرسل الذين من قبل والكتب لأنه منها أمره بالرسول المرسل والقرآن المنزل لزمه الإيمان بذلك كله لأنها مذكورة فيه وذكره الرسول ﷺ فالإيمان بهذه الأمور أصل الأعمال الدينية وهو كما قال الحسن: «ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى بل ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال»^(١) أى أعمال الجنان واللسان والأركان؛ ولذا عقب الله تعالى العمل الصالح بفاء التفريع أى من كان يرجو لقاء ربه فليعمل فذلك دليل إيمانه صادقاً محققاً.

والعمل الصالح جنس يشمل أعمال الجوارح كلها فينبغى لداعى الإيمان: نية خالصة، وعمل خالص من الرياء، ولسان صادق، وأفعال جميلة، وسمت مرضى، وخلق حسن، وطريقة مستقيمة، وسيرة مديمة، وبصيرة قوية، وذكر كثير، وتفكر وتدبر .

أما النية قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾^(٢).

وأما العمل الخالص قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾^(٣).

وأما اللسان الصادق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٤).

وأما الأفعال الجميلة قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٥).

وأما السمت المرضي قوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ

(١) تقدم تخريجه .

(٢) الشورى: ٢٠ .

(٣) الزمر: ٢، ٣ .

(٤) التوبة: ١١٩ .

(٥) التوبة: ٧١ .

يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾
وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿١﴾.

وأما الخلق الحسن قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (٢).

وأما السيرة الدائمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ (٣).

وأما الطريقة المستقيمة فمناها على البصيرة القوية والبصيرة القوية مناها على العلم
اليقيني وقد ذكرها الله على الترتيب قال تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤). فبين
الله أنه لا يعلم الحق من الباطل ولا يميزه إلا الذين أوتوا العلم فيستبصر بالبصيرة
النافذة القوية ويميز حيثنذ بين الحق والباطل ويخبت له قلبه، ثم بين أن ذلك هو
الصراط المستقيم.

وأما الذكر قوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًا﴾ (٥).

وأما التفكير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي
خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٦﴾.

ولما كان أصل الأعمال الدينية كلها التوحيد والإخلاص الذي لا يشوبه شرك قال
تعالى: ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (٧) والشرك أكبر وأصغر، فالأكبر يحبط الأعمال

(١) الشورى: ٣٦ - ٣٩.

(٢) الفرقان: ٦٣.

(٣) فصلت: ٣٠.

(٤) الحج: ٥٤.

(٥) الأحزاب: ٣٥.

(٦) آل عمران: ١٩٠، ١٩.

(٧) الكهف: ١١٠.

كلها كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١). وأما الشرك الأصغر فهو الرياء والسمعة والتصنع للناس في الأعمال الدينية، فذا يحبط العمل الذي راءى فيه أو سمع فيه لا غير. عن أبي هريرة مرفوعاً: قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيرى تركته وشركه»^(٢). رواه مسلم. وعن أبي سعيد مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى، قال: الشرك الخفى يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل»^(٣).

قال ابن عثيمين^(٤): يأمر الله نبيه أن يقول للناس: إنما أنا بشر مثلكم، وهو قصر النبى ﷺ على البشرية، وأنه ليس رباً ولا ملكاً، وأكد هذه البشرية بقوله: ﴿مِثْلُكُمْ﴾، فذكر المثل من باب تحقيق البشرية. ١. هـ.

قوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

الإعراب^(٥): جملة ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة لبشر ﴿إِلَىٰ﴾ متعلقان بيوحى ﴿أَنَّمَا﴾ كافة ومكشوفة ولكنها لم تخرج عن المصدرية فهى وما بعدها فى محل رفع نائب فاعل و﴿إِلَهُكُمُ﴾ مبتدأ وإله خبر و﴿وَاحِدٌ﴾ صفة. ١. هـ.

قال ابن عثيمين^(٦):

قوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ﴾.

أولاً: تعريف الوحي:

الوَحْيُ فى اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(٧).

(١) الزمر: ٦٥.

(٢-٣) سيأتى تخريجه.

(٤) القول المفيد ٢/ ٢٧٩.

(٥) إعراب القرآن ٦/ ٥٠.

(٦) القول المفيد ٢/ ٢٧٩ و ٢٨٠.

(٧) مريم: ١١.

قلت: وهى مؤدى قول ابن تيمية فى «مقدمة التفسير»^(١) حيث قال: «هو إعلام سريع خفى». ا.هـ.

وفى الشرع: إعلام الله بالشرع.

والوحى: هو الفرق بيننا وبينه ﷺ؛ فهو متميز بالوحى كغيره من الأنبياء والرسل. اهـ.

● ما جاء فى الآية من كلام المفسرين:

قال الطبرى^(٢): «يُوحَى إِلَى أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ» إن الله يوحى إلى أن معبودكم الذى يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً معبوداً واحداً لا ثانى له ولا شريك له وقد تقدم.

قال الشنقيطى^(٣): وقوله هنا: «يُوحَى إِلَى أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ» أى فوحده ولا تشركوا به غيره. وهذا الذى بينه تعالى فى هذه الآية؛ أوضحه فى مواضع آخر. كقوله فى أول «فصلت»: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَى أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ»^(٤).

وقوله تعالى: «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّىَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا»^(٥).

وقوله: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِ خَزَائِنِ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنِّى أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَى»^(٦) الآية. وهذا الذى أمر الله به نبيه ﷺ فى هذه الآية من أنه يقول للناس أنه بشر، ولكن الله فضله على غيره بما أوحى إليه من وحيه جاء مثله عن الرسل غيرهم صلوات الله وسلامه عليهم فى قوله تعالى: «قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ»^(٧) الآية. فكون الرسل مثل البشر من حيث أن أصل الجميع وعنصرهم واحد، وأنهم تجرى على جميعهم الأعراض البشرية

(١) «النكت المتصلة على مقدمة ابن تيمية» ص ٥٧ للمؤلف.

(٢) الطبرى (٣١/١٦ - ٣٢). (٣) أضواء البيان ١٥٢/٤.

(٤) فصلت: ٧/٦. (٥) الإسراء: ٩٣.

(٦) الأنعام: ٥٠. (٧) إبراهيم: ١١.

لا ينافى تفضيلهم على سائر البشر بما خصهم الله به من وحيه واصطفائه وتفضيله كما هو ضرورى .

وقال بعض أهل العلم: معنى هذه الآية قل يا محمد للمشركين: إنما أنا بشر مثلكم، فمن زعم منكم أنى كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإننى لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به عما سألتكم عنه من أخبار الماضين كقصة أصحاب الكهف. وخبر ذى القرنين. وهذا له اتجاه والله تعالى أعلم. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين: قوله: ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾. هذه الجملة فى تأويل مصدر نائب فاعل ﴿يُوحَى﴾، وفيها حصر طريقه ﴿أَنَّمَا﴾؛ فيكون معناها: ما إلهكم إلا إله واحد، وهو الله، فإذا ثبت ذلك؛ فإنه لا يليق بك أن تشرك معه غيره فى العبادة التى هى خالص حقه، ولذلك قال تعالى بعد هذا: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. ١. اهـ.

قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. ١. اهـ.

الإعراب^(١): الفاء استئنافية و﴿مَنْ﴾ اسم شرط جازم فى محل رفع مبتدأ و﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص واسمها يعود على ﴿مَنْ﴾ وجملة ﴿يَرْجُوا﴾ خبرها و﴿لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ مفعول به، ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط واللام لام الأمر و﴿يعمل﴾ فعل مضارع مجزوم بلام الأمر و﴿عَمَلًا﴾ مفعول مطلق أو مفعول به و﴿صَالِحًا﴾ صفة ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ لا ناهية و﴿يُشْرِكْ﴾ فعل مضارع مجزوم بلا الناهية و﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ﴾ متعلقان بيشرك و﴿أَحَدًا﴾ مفعول يشرك. اهـ.

سبب نزول الآية وما جاء فى ذلك من أحاديث وآثار:

عن مجاهد قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أتصدق بالصدقة وألتمس بها ما عند الله، وأحب أن يقال لى خيراً: فنزلت ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية^(٢).

(٢) ذكره السيوطى ونسبه لهناد فى «الزهد».

(١) إعراب القرآن ٦ / ٥٠.

عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية. قال: نزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله إلهاً غيره، وليست هذه في المؤمنين^(١).

عن طاوس قال: قال رجل: يا نبي الله، إني أقف مواقف أبتغي وجه الله، وأحب أن يرى موطني. فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٢).

وموصولاً عن طاوس عن ابن عباس^(٣).

وعن مجاهد قال: كان من المسلمين من يقاتل وهو يحب أن يرى مكانه، فأنزل الله ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾^(٤) الآية.

عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان جندب بن زهير إذا صلى أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له فزاد في ذلك لمقالة الناس، فلامه الله فنزل في ذلك ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٥).

● التفسير بالمأثور.

● أولاً قول النبي ﷺ.

قال النبي ﷺ: «إن ربكم يقول: أنا خير شريك، فمن أشرك معي في عمله أحداً من خلقي تركت العمل كله له ولم أقبل إلا ما كان لي خالصاً». ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٦).

عن شدد بن أوس قال: قال النبي ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ببقيع واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي، قال: أنا خير شريك، كل عمل عمل لي في دار الدنيا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٣٠/١٣) فانظره بتخريجنا، والحاكم في «المستدرک» (٤/٣٣٠) وذكره السيوطي في «الدر» (٤٦٩/٥ - ٤٧٥) ونسبه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٣٠/١٤) فانظره بتخريجنا، وذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لعبد الرزاق، وابن أبي الدنيا في الإخلاص، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم.

(٣) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه للحاكم وصححه، والبيهقي موصولاً.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٣٠/١٥) وانظر «الدر» (٤/٤٥٩).

(٥) ذكره السيوطي في الموقع السابق ونسبه لابن منده، وأبي نعيم في «الصحابة»، وابن عساكر.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» وانظر «الدر» (٤/٤٥٩).

كان لى فيه شريك، فانا أدعه اليوم ولا أقبل اليوم إلا خالصاً ثم قرأ: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١).

عن أبى سعد بن أبى فضالة الأنصارى - وكان من الصحابة - : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك فى عمل عمله لله أحدًا، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»^(٢).

● ثانيًا من أقوال التابعين :

عن سعيد فى قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ قال: ثواب ربه: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ﴾ قال: لا يرانى ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٣).

عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ قال: من كان يخشى البعث فى الآخرة ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ من خلقه.

عن كثير بن زياد قال: قلت للحسن قول الله ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ قال: فى المؤمن نزلت. قلت: أشرك بالله؟ قال: لا، ولكن أشرك بذلك العمل عملاً يريد الله به والناس، فذلك عليه^(٤).

عن عبدالواحد بن زيد قال: قلت للحسن: أخبرنى عن الرياء، أشرك هو؟ قال: نعم يا بنى، وما تقرأ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٥).

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(٦): فى تفسير ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ

(١) أخرجه الطبرانى فى «الدر» (٧/ ٢٩٠/ ٧١٦٧) ذكره السيوطى ونسبه للطبرانى.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣/ ٤٦٦)، والترمذى (٣١٥٤)، وابن ماجه (٤٢٠٣) وزاد نسبه

السيوطى لابن سعد، والبيهقى.

(٣) نسبه السيوطى فى «الدر» لهناد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، والبيهقى.

(٤) ذكره السيوطى فى الموقع السابق ونسبه لابن أبى حاتم عن كثير بن زياد.

(٥) ذكره السيوطى فى الموقع السابق ونسبه لابن أبى حاتم.

(٦) تفسير الطبرى ٨/ ١٦/ ٣١ و ٣٢.

بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه يقول فمن يخاف ربه يوم لقائه ويراقبه على معاصيه ويرجو ثوابه على طاعته فليعمل عملاً صالحاً يقول فليخلص له العبادة وليفرد له الربوبية. اهـ.

قال الشنقيطي^(١): اعلم أن الرجاء كقوله هنا «يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ» يستعمل في رجاء الخير، ويستعمل في الخوف أيضاً. واستعماله في رجاء الخير مشهور. ومن استعمال الرجاء في الخوف قول أبي ذؤيب الهذلي:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عواسل
فقوله «لم يرج لسعها» أى لم يخف لسعها. ويروى حالفها بالخاء والخاء، ويروى عواسل بالسين، وعواسل بالميم.

فإذا علمت أن الرجاء يطلق على كلا الأمرين المذكورين - فاعلم أنهما متلازمان، فمن كان يرجوا ما عند الله من الخير فهو يخاف ما لديه من الشر كالعكس. ا.هـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ: قال شيخ الإسلام^(٢): أما اللقاء فقد فسر طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة والمشاهدة بعد السلوك والسير وقالوا: إن لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى وأطال في ذلك واحتج له، وقال سعيد بن جبير: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ» قال: من كان يخشى البعث في الآخرة رواه ابن أبي حاتم. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): والمراد باللقاء هنا الملاقاة الخاصة؛ لأن اللقاء على نوعين:

الأول: عامة لكل إنسان، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ»^(٤)، ولذلك قال مُفَرَّغاً على ذلك: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا» «وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ...» الآية.

الثاني: الخاصة بالمؤمنين، وهو لقاء الرضا والنعيم كما في هذه الآية، وتتضمن رؤيته تبارك وتعالى، كما ذكر ذلك بعض أهل العلم.

(١) أضواء البيان ٤/ ١٥٣.

(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد ٣٩٥.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٨٠.

(٤) الانشقاق: ٩.

قوله (١): ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾. الفاء رابطة لجواب الشرط، والأمر الإرشاد؛ أى: من كان يريد أن يلقي الله على الوجه الذى يرضاه سبحانه؛ فليعمل عملاً صالحاً. والعمل الصالح: ما كان خالصاً صواباً.

وهذا وجه الشاهد من الآية.

فالخالص: ما قُصِدَ به وجه الله، والدليل على ذلك قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» (٢).

والصواب: ما كان على شريعة الله، والدليل على ذلك قوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» (٣).

ولهذا قال العلماء: هذان الحديثان ميزان الأعمال.

فالأول: ميزان الأعمال الباطنة.

والثانى: ميزان الأعمال الظاهرة. اهـ.

قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

قال سليمان آل الشيخ (٤):

قال ابن القيم: كما أنه إله واحد لا إله سواه فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة انتهى. وهذان ركنا العمل المتقبل لابد أن يكون صواباً خالصاً فالصواب أن يكون على السُّنة وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ والخالص أن يخلص من الشرك الجلى والخفى وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

روى عبدالرزاق وابن أبى الدنيا فى كتاب «الإخلاص» وابن أبى حاتم والحاكم عن طاوس قال: قَالَ رَجُلٌ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أَقِفُ الْمَوَاقِفَ أَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ وَأُحِبُّ أَنْ يَرَى مَوْطِنَ قَلَمٍ يَرُدُّ عَلَيْهِ شَيْئًا حَتَّى تَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا

(١) القول المقيد ٢٨٠، ٢٨١.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٣٩٥.

صَالِحاً وَلَا يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا^(١) رواه الحاكم وصححه موصولاً عن طاوس عن ابن عباس^(٢) وفى الآية دليل على الشهادتين ، وأن الله تعالى فرض على نبيينا ﷺ أن يخبرنا بتوحيد الإلهية ، وإلا فتوحيد الربوبية لم ينكره الكفار الذين كذبوه وقاتلوه ذكر المصنف ، وفيها تسمية الرياء شركاً وفيها أن من شروط الإيمان بالله واليوم الآخر أن لا يشرك بعبادة ربه أحداً ، ففيه التصريح بأن الشرك الواقع من المشركين إنما هو فى العبادة لا فى الربوبية وفيها الرد على من قال : أولئك يتشفعون بالأصنام ونحن نستشفع بصالح لأنه تعالى قال : ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ فليس بعد هذا بيان افتتح الآية بذكر براءة النبي ﷺ الذى هو أقرب الخلق إلى الله وسيلة أى : براءته من الإلهية وختمها بقوله : ﴿أَحَدًا﴾ . اهـ .

قال ابن عثيمين^(٣) : والشاهد من الآية : أن الرياء من الشرك ، فيكون داخلأ فى النهى عنه .

وفى هذه الآية دليل على ملاقة الله تعالى ، وقد استدلل بها بعض أهل العلم على ثبوت رؤية الله ؛ لأن الملاقاة معناها المواجهة .

وفيها دليل على أن الرسول ﷺ بشر لا يستحق أن يعبد ، لأنه حصر حاله بالبشرية ، كما حصر الألوهية بالله .

قال سليمان آل الشيخ^(٤) : واعلم رحمك الله أن هذه الآية المعرفة التى [تنفعه]^(٥) إلا من ميز بين توحيد الربوبية وبين توحيد الإلهية تمييزاً تاماً وعرف ما عليه غالب الناس إما طواغيت ينازعون الله فى توحيد الربوبية الذى لم يصل إليه شرك المشركين ، وإما مصدق لهم تابع لهم ، وإما شاك لا يدرى ما أنزل الله على رسوله ، ولا يميز بين دين الرسول ﷺ وبين دين النصارى ، ذكره المصنف وفيها أن أصل دين النبي ﷺ الذى بعث به هو الإخلاص كما فى هذه الآية وقوله : ﴿كِتَابُ أَحْكَمَتِ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ وذلك هو دعوة الرسل من

(١ - ٢) تقدم تخريجه .

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٨٢ .

(٤) تيسير العزيز الحميد / ٣٩٦ .

(٥) هكذا فى المطبوع ولعلها (لاتنفع) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَرْفُوعًا: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَنَا أَغْنِي الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

أولهم إلى آخرهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وذلك هو الخنيفة الإبراهيمية جعلنا الله من أهلها بمنه وكرمه.



قوله: «عن أبي هريرة مرفوعاً. قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك..» الحديث.

قال الفقير: وهذا الحديث أخرجه مسلم في الزهد والرقائق في باب من أشرك في عمله غير الله، وأحمد في المسند وابن ماجه في الزهد باب الرياء والسمعة والبيهقي في الشعب جميعاً من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة.

قال ابن عثيمين^(٢): هذا الحديث يرويه النبي ﷺ عن ربه، ويسمى هذا النوع بالحديث القدسي

- مناسبة الحديث للباب:

قال عبد الله بن جابر الله: ^(٣) أن عمل المرأى باطل لا ثواب له فيه بل يآثم به.

- مناسبة الحديث للباب والتوحيد:

قال القرعاوي: ^(٤) دلّ الحديث على بطلان العمل الذي وقع فيه شرك ومن الشرك الرياء.

- قوله (قال الله تعالى أنا أغنى).

قال ابن عثيمين^(٥): «أغنى» اسم تفضيل وليست فعلاً ماضياً ولهذا أضيفت إلى الشركاء. اهـ.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في «الزهد والرقائق»/ باب: من أشرك في عمله غير الله (٢/ ٥٩٢ - الحلبي) وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠١، ٤٥٣) وابن ماجه في «الزهد»/ باب الرياء والسمعة (٢/ ٩٤٠٥ ح ٤٢٠٢) والبيهقي في «الشعب» (٥/ ٣٢٩ ح ٦٨١٥).

جميعاً من طريق العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه عن أبي هريرة.

وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٦١٩) و«فتح المجيد» (ح ٧٠٠) بتخريجنا.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٨٢. (٣) الجامع الفريد ١٤٦.

(٤) الجدي ٣٢٦. (٥) القول المفيد (٢/ ٢٨٢).

- قوله: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك).

قال النووي^(١): أنا أغنى عن المشاركة وغيرها. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك»، لما كان المرائي قاصداً بعمله الله تعالى وغيره، كان قد جعل الله تعالى شريكاً، فإذا كان كذلك فالله تعالى هو الغنى على الإطلاق والشركاء بل جميع الخلق فقراء إليه بكل اعتبار؛ فلا يليق بكرمه وغناه التام أن يقبل العمل الذي جعل له فيه شريك، فإن كماله تبارك وتعالى وكرمه وغناه يوجب أن لا يقبل ذلك ولا يلزم من اسم التفضيل إثبات غنى للشركاء، فقد تقع المفاضلة بين الشيئين وإن كان أحدهما لا فضل فيه كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾^(٤). اهـ.

قال ابن عثيمين^(٥): إذا كان بعض الشركاء يستغنى عن شركته مع غيره؛ فالله أغنى الشركاء عن المشاركة.

فالله لا يقبل عملاً له فيه شرك أبداً، ولا يقبل إلا العمل الخالص له وحده، فكما أنه الخالق وحده؛ فكيف تصرف شيئاً من حقه إلى غيره؟ فهذا ليس عدلاً، ولهذا قال الله عن لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٦)، فالله الذي خلقك وأعدَّك إعداداً كاملاً بكل مصالحك وأمدك بما تحتاج إليه، ثم تذهب وتصرف شيئاً من حقه إلى غيره؟! فلا شك أن هذا من أظلم الظلم. اهـ.

قال ابن عثيمين: قوله: (من عمل عملاً). قوله (عملاً) نكرة في سياق الشرط فتعم أي عمل من صلاة أو صيام، أو حج، أو جهاد، أو غيره. اهـ.

قوله: (من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري).

(١) مسلم بشرح النووي ٣٤٣/٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٩٦، ٣٩٧.

(٣) النمل: ٥٩.

(٤) الفرقان: ٢٤.

(٥) القول المفيد ٢/٢٨٢، ٢٨٣.

(٦) لقمان: ١٣.

قال النووي^(١): فمن عمل شيئاً لى ولغيرى لم أقبله بل تركته لذلك الغير والمراد أن عمل المرائى باطل لا ثواب عليه ويأثم به.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «من عمل عملاً أشرك معي فيه غيرى» أى: من قصد بذلك العمل الذى يعمل له لوجهى غيرى من المخلوقين تركته وشركه، وفى رواية عند ابن ماجه وغيره: «فَأَنَا مِنْهُ بَرِيٌّ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ».

قال الطيبي: الضمير المنصوب فى تركته يجوز أن يرجع إلى العمل والمراد من الشرك الشريك.

قال ابن رجب: واعلم أن العمل لغير الله أقسام فتارة يكون رياءً محضاً فلا يراد به سوى مراعاة المخلوقين لغرض دنيوى، كحال المنافقين فى صلاتهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ وكذلك وصف الله الكفار بالرياء فى قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن فى فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر فى الصدقة الواجبة، أو الحج أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التى يتعدى نفعها فإن الإخلاص فيها عزيز وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه ثم ذكر أحاديث تدل على ذلك منها الحديث الذى ذكره المصنف. [قلت]: وسبق ذكر الأحاديث والآثار فى ذلك فى فصل مستقل بعد تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾.

قال ابن رجب: فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء مثل أخذ أجره للخدمة أو أخذ شئ من الغنيمة أو التجارة نقص بذلك أجر جهادهم ولم يبطل بالكلية.

وفى «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُصِيبُونَ الْغَنِيمَةَ، إِلَّا تَعَجَّلُوا ثَلَاثَ أَجْرِهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ. وَيَقْبَى لَهُمُ الثَّلَاثُ وَإِنْ لَمْ يَصِيبُوا غَنِيمَةً تَمَّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ»^(٣) قلت - يعنى سليمان آل الشيخ - هذا لا يدل على أنهم غزوا لأجلها فلا يدل على ثبوت الأجر لمن غزا يلتمس عرضاً قال: وقد ذكرنا فيما مضى

(٢) تيسير العزيز الحميد ٣٩٧ و ٤٠٠.

(١) شرح النووي ٣٤٣/٩.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (٥٩/٧) (١٥٣).

أحاديث تدل على أن من أراد بجهاده عرضاً من الدنيا أنه لا أجر له وهي محمولة على أنه لم يكن له غرض في الجهاد إلا الدنيا قلت. يعنى سليمان آل الشيخ ظاهر حديث أبى هريرة أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ يَسْتَعِي عَرَضاً مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا أَجْرَ لَهُ» فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ وَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفْهَمْ، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ يَسْتَعِي عَرَضاً مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا؟ قال: «لَا أَجْرَ لَهُ». فقالوا للرجل عُدْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقال له الثالثة فقال له: «لَا أَجْرَ لَهُ» فأعاد عليه ثلاثاً والنبي ﷺ يقول: «لَا أَجْرَ لَهُ»^(١) رواه أبو داود. يدل على أن نية الجهاد إذا خالطها نية أجرة الخدمة أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة لم يكن له أجر، ويحتمل أن يكون معنى يريد الجهاد أى: يريد سفر الجهاد ولم يتو الجهاد إنما نوى عرض الدنيا.

قال ابن رجب: وقال الإمام أحمد: التاجر والمستأجر والمكاري أجرهم على قدر ما يخلص من نيتهم في غزواتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه، وماله لا يخلط به غيره.

وقال أيضاً: فيمن يأخذ جعلاً على الجهاد إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس كانه خرج لدينه فإن أعطى شيئاً أخذه وكذا روى عن عبد الله بن عمرو قال: إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقاً فلا بأس بذلك وإما أن أحدكم إن أعطى درهماً غزا وإن لم يعط درهماً لم يغز فلا خير في ذلك.

قلت: - يعنى سليمان آل الشيخ - هذا يدل على الفرق بين ما كانت نية الدنيا مخالطة له من أول مرة، بحيث تكون هي الباعث له على العمل، أو من جملة ما يبعث عليه، كالذى يلتبس الأجر والذكر، فهذا الأجر له وبين ما كانت النية خالصة لله من أول مرة، ثم عرض له أمر من الدنيا لا يبالى به، سواء حصل له أو لم يحصل، كالذى أجمع على الغزو سواء أعطى أو لم يعط. فهذا لا يضره ونحوه التجارة في الحج كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وعلى هذا ينزل ما روى عن مجاهد أنه قال في حج الجمال وحج الأجير وحج التاجر: هو تام لا ينقص من أجورهم شيء: أى: لأن قصدهم الأصلي كان هو الحج دون التكسب.

(١) أخرجه أبو داود (٢٥١٦) عن أبى هريرة به.

قال: وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطراً ودفعه؛ فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك، ويجازى على أصل نيته؟ فى ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبرى ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروى عن الحسن البصرى وغيره، ويستدل لهذا القول.

بما أخرجه أبوداود فى مراسيله عن عطاء الخراسانى أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ بَنَى سَلَمَةَ كُلَّهُمْ يُقَاتِلُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ لِلدُّنْيَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ تَجَدَّةً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ، قَالَ: «كُلُّهُمْ إِذَا كَانَ أَصْلُ أَمْرِهِ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَّا» (١). وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو عمل مرتبط آخره بأوله، كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه، كالقراءة والذكر، وانفاق المال ونشر العلم؛ فإنه ينقطع بنية الرياء، الطارئة عليه، ويحتاج إلى تجديد نية. فأما إذا عمل العمل لله خالصاً، ثم ألقى الله له الثناء الحسن فى قلوب المؤمنين، ففرح بفضل الله ورحمته، واستبشر بذلك؛ لم يضره، وفى هذا المعنى جاء فى:

حديث أبى ذر عن النبى ﷺ أنه سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ فَقَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ» (٢). رواه مسلم انتهى ملخصاً وسبق من كلام ابن عثيمين.

إذا تبين هذا؛ فقد دل الكتاب والسنة على حيوط العمل بالرياء، وجاء الوعيد بالعذاب عليه، قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نَوْفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ (٣) والآية بعدها.

وروى مسلم فى «صحيحه» حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار، المقاتل ليقال جرى، والمتعلم ليقال عالم، والمتصدق ليقال جواد (٤).

فأما ما رواه البزار وابن مندة والبيهقى عن معاذ بن جبل مرفوعاً «مَنْ عَمِلَ رِيَاءً لَا يُكْتَبُ لَهُ، وَلَا عَلَيْهِ» (٥). ذكره السيوطى فى «الدر» ولم أقف على إسناده فما أظنه يثبت، والكتاب والسنة يدلان على خلافه، بل هو موضوع. اهـ.

وتقدم ذلك مختصراً فى أول الباب

(١) رواه أبوداود فى المراسيل (٢، ١). (٢) تقدم تخريجه.

(٣) سورة هود، الآية: ١٥.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمامة (١٣/ ٥٠ - النووى) عن أبى هريرة به وأنظر «رياض

الصالحين» (١٦٢٠ - بتخريجنا).

(٥) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (٥٤/ ٧) وقال: رواه البزار وفيه محمد بن السائب الكلبى وهو كذاب.

قوله: (تركته وشركه).

قال النووي^(١): هكذا وقع في بعض الأصول (وشركه)، وفي بعضها (وشريكه) وفي بعضها (وشركته). اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): أي: لم أثبه على عمله الذي أشرك فيه.

وقد يصل هذا الشرك إلى حد الكفر، فيترك الله جميع أعماله؛ لأن الشرك يحبط الأعمال إذا مات عليه.

والمراد بشركه، عمله الذي أشرك فيه، وليس المراد شريكه؛ لأن الشريك الذي أشرك به مع الله قد لا يتركه، كمن أشرك نبياً أو ولياً؛ فإن الله لا يترك ذلك النبي والولي. اهـ.

قلت: وهذا دليل الغنى الكامل من الله تعالى إذ أن المخلوق إن شاركه أحدٌ في حقه عنوةً بغير حق قيل ذلك وإن كان مستغنى عن هذه الشراكة إلا أنه قد يقبل هذا الوضع إما مضطراً أو حاجةً أما الغنى الحميد بالذات العليم التقدير بالذات فهو يجير ولا يجار عليه لذا يتركه وشركه والله أعلم.

المستفاد من الحديث

قال ابن عثيمين^(٣):

● ويستفاد من هذا الحديث:

- ١- بيان غنى الله تعالى؛ لقوله: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك».
- ٢- بيان عظم حق الله وأنه لا يجوز لأحد أن يشرك أحداً مع الله في حقه.
- ٣- بطلان العمل الذي صاحبه الرياء؛ لقوله: «تركته وشركه».
- ٤- تحريم الرياء؛ لأن ترك الإنسان وعمله وعدم قبوله يدل على الغضب، وما أوجب الغضب؛ فهو مُحَرَّمٌ.
- ٥- أن صفات الأفعال لا حصر لها؛ لأنها متعلقة بفعل الله، ولم يزل الله ولا يزال فعلاً. اهـ.



(١) شرح مسلم ٣٤٣/٩.

(٢) القول المفيد ٢/٢٨٣.

(٣) القول المفيد ٢/٢٨٣ - ٢٨٤.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعاً: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّيُ فَيُزِينُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ» (١). رَوَاهُ أَحْمَدُ.

قوله: [وعن أبي سعيد مرفوعاً ألا أخبركم بما هو أخوف.... الحديث]
قال سليمان آل الشيخ (٢): هذا الحديث رواه أحمد كما قال المصنف، ورواه ابن ماجه، وابن أبي حاتم، والبيهقي، وفيه خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نتذكر المسيح الدجال فقال: «ألا أخبركم» الحديث وفي سنده ضعف. ومعناه صحيح.

وروى ابن خزيمة في صحيحه معناه عن محمود بن لبيد قَالَ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَشِرْكُ السَّرَائِرِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ: «يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّيُ فَيُزِينُ صَلَاتَهُ جَاهِداً لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ الرَّجُلِ إِلَيْهِ فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ» (٣). اهـ.

مناسبة الحديث للباب وللتوحيد

قال القرعاوى (٤): دل الحديث على أن النبي ﷺ أخوف ما يخاف علينا الشرك الخفي وهو الرياء، لذا يجب اجتنابه والحذر منه. اهـ.
قوله: (ألا).

قال ابن عثيمين (٥): أداة عَرْض، والغرض منها تنبيه المُخَاطَب؛ فهو أبلغ من عدم الإتيان بها. اهـ.

قوله: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجال».

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٠/٣)، وابن ماجه في الزهد/ باب الرياء والسمعة (٤/٢٠٤). (١٤٠٦).

من طريق كثير بن زيد، عن ربيع بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه، عن أبي سعيد به. قال في «الزوائد»: إسناده حسن، وكثير بن زيد وربيح بن عبد الرحمن مختلف فيهما. وانظر «فتح المجيد» (ح ٧٠٤) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٠١.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) الجديد ٣٢٧.

(٥) القول المفيد ٢/٢٨٤.

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح الدجال» إنما كان الرياء كذلك، لحفائه وقوة الداعي إليه، وعسر التخلص منه لما [لا]^(*) يزينه الشيطان، والنفس الأمارة في قلب صاحبه. اهـ.

قوله: «بما هو».

قال ابن عثيمين^(٢): ما: اسم موصول بمعنى الذي.

قوله: (أخوف عليكم عندي).

قال ابن عثيمين^(٣): أى عند الرسول ﷺ لأنه ﷺ من رحمته بالمؤمنين يخاف عليهم كل الفتن، وأعظم فتنة فى الأرض هى فتنة المسيح الدجال، لكن خوف النبى ﷺ من فتنة هذا الشرك الخفى أشد من خوفه من فتنة المسيح الدجال، وإنما كان كذلك؛ لأن التخلص منه صعب جداً، ولذلك قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسى على شيء مجاهدتها على الإخلاص»، وقال النبى ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتى من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه^(*)»، ولا يكفى مجرد اللفظ بها، بل لابد من إخلاص وأعمال يتعبد بها الإنسان لله - عز وجل -.

قوله: (المسيح الدجال).

قال ابن عثيمين^(٤): المسيح؛ أى: ممسوح العين اليمنى، فذكر النبى عيسى فى الدجال:

أحدهما: حسى، وهو أن الدجال أعور العين اليمنى؛ كما قال النبى ﷺ: «إن الله لا يخفى عليكم، إنه ليس بأعور وإن الدجال أعور العين اليمنى»^(٥).

والثانى: معنوى، وهو الدجال؛ فهو صيغة مبالغة، أو يقال بأنه نسبة إلى وصفه الملازم له، وهو الدجل والكذب والتمويه، وهو رجل من بنى آدم، ولكن الله - سبحانه وتعالى - بحكمته يخرجهم ليفتن الناس به، وفتنته عظيمة؛ إذ ما فى الدنيا منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أشد من فتنة الدجال.

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٠١.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٨٤، ٢٨٥.

(*) تقدم تخريجه.

(٤) القول المفيد ٢/ ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٤٣٩)، ومسلم فى الفتن (٥٩/ ١٨) - النووى عن عبد الله بن

عمر به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٨٢٢ - بتخريجنا).

والمسيح الدجال ثبتت به الأحاديث واشتهرت حتى كان من المعلوم بالضرورة؛ لأن النبي ﷺ أمر أمته أن يتعوذوا بالله منه فى كل صلاة، وقد حاول بعض الناس إنكاره وقالوا: ما ورد من صفته متناقض ولا يمكن أن يصدق به، لكن هؤلاء يقيسون الأحاديث بعقولهم وأهوائهم، وقدرة الله بقدرتهم، ويقولون: كيف يكون اليوم الواحد عن سنة والشمس لها نظام لاتتعدها؟ وهذا لاشك جهل منهم بالله؛ فالذى جعل هذا النظام وهو الله، وهو القادر على أن يُغيّره متى شاء؛ فيوم القيامة تُكَوِّرُ الشمس، وتُكَدِّرُ النجوم، وتُكْشِطُ السماء، كل ذلك بكلمة «كن»، وَرَدَّ هذه الأحاديث بمثل هذه التعاليل دليل على ضعف الإيمان وعدم تقدير الله حق قدره، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (١).

فالذى نؤمن به أنه سَيَخْرُجُ فى آخر الزمان، ويحصل منه كل ما ثبت عن رسول الله ﷺ.

ونؤمن أن الله على كل شىء قدير، وأنه قادر على أن يبعث على الناس من يفتنهم عن دينهم؛ ليميز المؤمن من الكافر والخبيث من الطيب، مثل ما ابتلى الله بنى إسرائيل بالحيثان يوم سبّتهم شرعا ويوم لايتون لاتأتيهم ومثل ما ابتلى الله المؤمنين بأن أرسل عليهم الصيد وهم حُرْمٌ، تناله أيديهم ورماحهم ليعلم الله من يخافه بالغيب، وقد يتلى الله أفراد الناس بأشياء يمتحنهم بها، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾. اهـ.

قوله: «قالوا: بلى».

قال سليمان آل الشيخ (٢): قوله: قالوا: بلى. فيه الحرص على العلم، وأن من عرض عليك أن يخبرك بما فيك فلا ينبغي لك رده، بل قابله بالقبول والتعلم.

قوله: (قال الشرك الخفى).

قال سليمان آل الشيخ (٣): قوله: قال: «الشرك الخفى» سُمي الرياء شركاً خفياً، لأن صاحبه يظهر أن عمله لله، ويخفى فى قلبه أنه لغيره، وإنما تزين بإظهاره أنه لله بخلاف الشرك الجلى. وفى حديث محمود بن لبيد الذى تقدم فى باب الخوف من الشرك تسميته بالشرك الأصغر.

(١) الزمر: ٦٧.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٠١.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٠١.

وعن شداد بن أوس قال: كُنَّا نَعُدُّ الرِّيَاءَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، الشُّرْكَ الْأَصْغَرَ^(١). رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الإخلاص» وابن جرير في «التهذيب» والطبراني والحاكم وصححه. فظاهره أنه من الأصغر مطلقاً وهو ظاهر قول الجمهور.

وقال ابن القيم: وأما الشرك الأصغر؛ فكيسر الرياء والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك ومالي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا، وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده انتهى.

ففسر الشرك الأصغر باليسير من الرياء، فدل على أن كثيره أكبر، وضد الشرك الأكبر والأصغر التوحيد والإخلاص، وهو أفراد الله تعالى بالعبادة باطنا وظاهراً كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿٢﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ (٤).

وقيل: الإخلاص استواء أحوال العبد في الظاهر والباطن، والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه أي: لملاحظة الخلق، والصدق في الإخلاص أن يكون باطنه أعمر من ظاهره. اهـ.

وأوضح ذلك أكثر ابن عثيمين فقال^(٥):

الشرك قسمان خفي وجلي:

فالجليّ: ما كان بالقول مثل الحلف بغير الله أو قول ما شاء الله وشئت، أو بالفعل مثل الانحناء لغير الله تعظيماً.

والخفيّ: ما كان في القلب، مثل الرياء؛ لأنه لا يبين؛ إذ لا يعلم ما في القلوب إلا الله، ويُسمّى أيضاً «شرك السرائر»، وهذا هو الذي بيّنه الله بقوله: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾؛

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الزمر: ٢/٣.

(٣) الزمر: ١١.

(٤) الزمر: ١٤.

(٥) القول المفيد ٢/٢٨٧ و ٢٨٩.

لأن الحساب يوم القيامة على السرائر، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾، وفي الحديث الصحيح فيمن كان يأمر بالمعروف ولا يفعل، وينهى عن المنكر ويفعله: أنه «يلقى في النار حتى تَنَدَلِقَ أَقْتَابُ بطنه، فيدور عليها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار، فيسألونه، فيخبرهم أنه كان يأمر بالمعروف ولا يفعل، وينهى عن المنكر ويفعله»^(١).

قلت: وهذا كقوله تعالى: «يوم تبلى السرائر فماله من قوة ولا ناصر» الآية.

قوله: «يقوم الرجل، فيصلى، فيزين صلاته».

يتساوى في ذلك الرجل والمرأة، والتخصيص هنا يسمى مفهوم اللقب، أى أن الحكم يُعلّق بما هو أشرف، لا لقصد التخصيص ولكن لضرب المثل. اهـ.

قوله: «فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل» فسر الشرك الخفى بهذا أن يعمل الرجل العمل لله، لكن يزيد فيه صفة كتحيينه وتطويله ونحو ذلك، لما يرى من نظر رجل فهذا هو الشرك الخفى، وهو الرياء. والحامل له على ذلك هو حب الرياسة، والجاه عند الناس. اهـ.

قلت: لكن لا يدخل فيه حال أبى موسى مع النبى ﷺ وقوله: «لو علمت مكانك يارسول الله لحبرته لك تحبراً»^(*) لما تقدم ولأنه لم يطمع من ذلك فى رياسة ولا وجاهة بل إدخال السرور على الرسول ﷺ فإذا كان إدخاله على المسلم خير ويسر فالرسول ﷺ من باب أولى.

قال ابن عثيمين^(٣): وقوله: «فيزين صلاته». أى: يحسنها بالطمأنينة، ورفع اليدين عند التكبير، ونحو ذلك.

قوله: «لما يرى من نظر رجل إليه».

«ما» موصولة، وحذف العائد؛ أى: للذى يراه من نظر رجل، وهذه هى العلة لتحسين الصلاة؛ فقد زين صلاته ليراه هذا الرجل فيمدحه بلسانه أو يعظمه بقلبه، وهذا شرك. اهـ.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٠٢ - ٤٠٣.

(١) تقدم تخريجه.

(*) تقدم تخريجه.

(٣) القول المفيد ٢/ ٢٨٩.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ.

— ما يستفاد من الحديث: التحذير من هذا الرياء الخفى وهذه الشهوة الخفية:

قال سليمان آل الشيخ^(١):

قال الطيبي: وهو من أضر غوائل النفس، وبواطن مكائدها، يتلى به العلماء والعباد، والمشمرون عن ساق الجذ لسلك طريق الآخرة، فإنهم مهما قهروا أنفسهم وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات؛ عجزت نفوسهم عن الطمع فى المعاصى الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى الظاهر بالخير، وإظهار العلم والعمل. فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق. ولم يقتنع باطلاع الخالق تبارك وتعالى، وفرحت بحمد الناس، ولم تقنع بحمد الله وحده، فأحببت مدحهم، وتبركهم بمشاهدته وخدمته وإكرامه وتقديمه فى المحافل فأصابته النفس فى ذلك أعظم اللذات، وأعظم الشهوات، وهو يظن أن حياته بالله تعالى، وبعباداته، وإنما حياته هذه الشهوة الخفية التى تعمى عن دركها العقول النافذة، قد أثبت اسمه عند الله من المنافقين، وهو يظن أنه عند الله من عباده المقربين. وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ولذلك قيل: آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة. انتهى كلامه. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ: وفى الحديث من الفوائد شفقتة ﷺ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال، والحذر من الرياء ومن الشرك الأكبر إذ كان ﷺ يخاف الرياء على أصحابه مع علمهم وفضلهم، فغيرهم أولى بالخوف. اهـ.

فيه مسائل:

قال ابن عثيمين^(٢):

● الأولى: تفسير آية الكهف.

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٠٣/٤٠٢.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٩٠ - ٢٩١.

الثانية: الأمر العظيم في ردّ العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنى.

الرابعة: أن من الأسباب أنه خير الشركاء.

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء.

وسبق الكلام عليها.

قلت: وهى قوله تعالى: «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك... الآية».

● الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

وذلك لقوله: «تركته وشركه»، وصار عظيماً؛ لأنه ضاع على العامل خساراً، وفحوى الحديث تدل على غضب الله - عزوجل - من ذلك.

● الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنى.

يعنى: الموجب للرد هو كمال غنى الله - عزوجل - عن كل عمل فيه شرك، وهو غنى عن كل عمل، لكن العمل الصالح يقبله ويثيب عليه.

● الرابعة: أن من الأسباب أنه تعالى خير الشركاء.

أى: من أسباب رد العمل إذا أشرك فيه العامل مع الله أحداً، أن الله خير الشركاء، فلا يتأزع من جعل شريكاً له فيه.

قلت: لأن المشارك قد ينازع شريكه ليخلق لاسيما وقد دخل هذه الشركة عنوة بغير حق أما الله سبحانه فيترك ذلك من باب الخيرية المطلقة لا الضعف والغنى المطلق ولا العوز والحاجة والفقر والله أعلم.

● الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء.

وذلك لقوله ﷺ: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال». وإذا كان يخاف ذلك على أصحابه؛ فالخوف على من بعدهم من ذلك من باب أولى.

قلت: فالخوف على غير العاملين من البطالين إنما هو ابتداءً وانتهاءً من الدجال أم على الأولياء والأصفياء والعمال إنما الخوف عليهم من الرياء أكبر من الدجال لأنهم أقدر

السادسة: أَنَّهُ فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَنَّ الْمَرْءَ يُصَلِّيَ لِلَّهِ، لَكِنْ يُزِينُهَا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ.

على صدفتته من البطالين لكن نخشى على عملهم من الرياء وأما البطال فليس له من عمل يخشى عليه من الرياء إلا النذر اليسير إن وجد والله الموفق لأرب سواه.

● السادسة: أَنَّهُ فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَنَّ الْمَرْءَ يُصَلِّيَ لِلَّهِ، لَكِنْ يُزِينُهَا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ.

وهذا التفسير ينطبق تماماً على الرياء؛ فيكون أخوف علينا عند رسوله ﷺ من المسيح الدجال.

ولم يذكر المؤلف مسألة خوف النبي ﷺ على أمته من المسيح الدجال؛ لأن المقام في الرياء لا فيما يخافه النبي ﷺ على أمته. اهـ.



مِنْ الشَّرْهِكَ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

● الفرق بين هذه الترجمة والتي قبلها، ومناسبتها للباب السابق:

قال سايمان آل الشيخ^(١): قد ظن بعض الناس أن هذا الباب داخل في الرياء، وأن هذا مجرد تكرير فأخطأ، بل المراد بهذا أن يعمل الإنسان عملاً صالحاً يريد به الدنيا كالذى يجاهد للقطفة والحملة ونحو ذلك، ولهذا سماه النبي ﷺ، عبداً لذلك بخلاف المرائي، فإنه إنما يعمل ليراه الناس ويعظموه، والذي يعمل لأجل الدراهم والقطفة ونحو ذلك أعقل من المرائي، لأن ذلك عمل لدنيا يصيبها. والمرائي عمل لأجل المدح، والجلالة في أعين الناس، وكلاهما خاسر نعوذ بالله من موجبات غضبه، وأليم عقابه. اهـ.

- قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): بينهما عموم وخصوص مطلق؛ يجمعان في مادة، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء، فهذا رياء كما تقدم بيانه كحال المنافقين، وهو أيضاً إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام. ويفارقه الرياء بكونه عمل عملاً صالحاً أراد به عرضاً من الدنيا، كمن يجاهد ليأخذ مالاً كما في الحديث: «تعب عبد الدينار... أو يجاهد للمغنم أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخنا عن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): وعنوان الباب له ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يكون مكرراً مع ما قبله، وهذا بعيد أن يكتب المؤلف ترجمتين متتابعتين لمعنى واحد.

الثاني: أن يكون الباب الذى قبله أخص من هذا الباب؟ لأنه خاص في الرياء، وهذا أعم، وهذا محتمل.

الثالث: أن يكون هذا الباب نوعاً مستقلاً عن الباب الذى قبله، وهذا هو الظاهر؛ لأن

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٠٣).

(٢) فتح المجيد (٥١٢/٢).

(٣) القول المفيد (٢٩٣/٢).

الإنسان فى الباب السابق يعمل رياء يريد أن يمدح فى العبادة، فيقال: هو عابد، ولا يريد النفع المادى. اهـ.

● مناسبة الباب للتوحيد.

قال عبد الله بن جار الله^(١): هى أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافى كمال التوحيد الواجب ويحبط الأعمال. اهـ.

قال السعدى^(٢): من أعظم ما ينافى هذا - التوحيد - مراعاة الناس، والعمل لأجل مدحهم وتعظيمهم، أو العمل لأجل الدنيا، فهذا يقدر فى الإخلاص والتوحيد. اهـ.

● ماذا أراد المصنف بهذه الترجمة:

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): أراد المصنف - رحمه الله - بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافى كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من الرياء؛ لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، وأما الرياء فقد يعرض له فى عمل دون عمل، ولا يسترسل معه، والمؤمن يكون حذرًا من هذا وهذا. اهـ.

● شرح الترجمة:

قال حسن بن محمد^(٤): باب - فى بيان ما جاء أن - من الشرك - الأكبر الذى يخلد صاحبه فى النار، ولا ينجى منه إلا من أراد الله نجاته، وهو الشرك فى النية.

قال ابن القيم: وهو البحر الذى لاساحل له وقل من ينجو منه فمن أراد بعمله غير وجهه أو نوى شيئاً غير التقرب لله وطلب الجزاء منه فقد أشرك فى نيته والإخلاص أن يخلص لله فى أفعاله وأقواله وإراداته ونياته وهذه هى فى الحقيقة ملة إبراهيم التى أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهى حقيقة الإسلام ومن يتبع غير الإسلام دينا فهو فى الآخرة من الخاسرين وهى ملة إبراهيم التى من رغب عنها فقد سفه نفسه أنهى كلامه رحمه الله.

فإذا ثبت أن من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا فلتنظر نفس ما هى عليه حتى تتدارك

(١) الجامع الفريد (١٤٨).

(٢) القول السديد (٩٨).

(٣) فتح المجيد (٥١٣/٢).

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٣٧٣/٢).

نفسها بالانكسار بين يدي الله، والتضرع إليه لأن ينجيه من هذا الأمر العظيم والخطب الجسيم . اهـ.

وقال ناصر السعدي^(١): وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أعراضها؛ فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا القصد ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة؛ فهذا ليس له في الآخرة من نصيب، وهذا العمل على هذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن وإن كان ضعيف الإيمان لابد أن يريد الله والدار الآخرة.

وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان؛ فهذا وإن كان مؤمناً فإنه ناقص الإيمان والتوحيد والإخلاص، وعمله ناقص لفقده كمال الإخلاص.

وأما من عمل لله وحده وأخلص في عمله إخلاصاً تاماً، لكنه يأخذ على عمله جُعلاً معلوماً يستعين به على العمل والدين؛ كالجُعالات التي تجعل على أعمال الخير، وكالمجاهد الذي يرتب على جهاده غنمة أو رزق، وكالأوقاف التي تجعل على المساجد والمدارس والوظائف الدينية لمن يقوم بها؛ فهذا لا يضر أخذه في إيمان العبد وتوحيده لكونه لم يرد بعمله الدنيا، وإنما أراد الدين وقصد أن يكون ما حصل له معيناً على قيام الدين، ولهذا جعل الله في الأموال الشرعية؛ كالزكوات وأموال الفئء وغيرها جزءاً كبيراً لمن يقوم بالوظائف الدينية والدينية النافعة . اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٢): قوله: ﴿من الشرك﴾.

﴿من﴾ للتبعيض؛ أي: بعض الشرك.

قوله: ﴿الدنيا﴾ مفعول بإرادة؛ لأن إرادة مصدر مضاف إلى فاعله، وإذا أردت أن تعرف المصدر إن كان مضافاً إلى فاعلة أو مفعولة؛ فحواله إلى فعل مضارع مقرون بأن، فإذا قلنا: باب من الشرك أن يريد الإنسان بعمله الدنيا؛ فالإنسان فاعل، وعلى هذا؛ فإرادة مصدر مضاف إلى فاعله، والدنيا مفعول به.

وفي هذا الباب لا يريد أن يمدح بعبادته ولا يريد المראה، بل يعبد الله مخلصاً له، ولكنه يريد شيئاً من الدنيا؛ كالمال، والمرتبة، والصحة في نفسه وأهله وولده وما أشبه ذلك، فهو يريد بعمله نفعاً في الدنيا غافلاً عن ثواب الآخرة . اهـ.

(١) القول السديد (٩٩، ١٠٠).

(٢) القول المفيد (٢٩٣/٢، ٢٩٤).

● الفرق بين الرياء فى العبادة والتشريك فيها:-

قال القرافى (١):

اعلم أن الرياء شرك وتشريك مع الله تعالى فى طاعته، وهو موجب للمعصية والإثم والبطلان فى تلك العبادة؛ فالرياء: أن يعمل العمل المأمور به المتقرب به إلى الله تعالى ويقصد به وجه الله تعالى، وأن يعظمه الناس أو يعظمهم؛ فيصل إليه نفعهم أو يندفع به ضررهم.

وأما مطلق التشريك كمن يجاهد لتحصيل طاعة الله بالجهاد وليحصل له المال من الغنيمة؛ فهذا لا يضره ولا يحرم عليه بالإجماع؛ لأن الله جعل له هذا فى العبادة، ففرق بين جهاده ليقول الناس: هذا شجاع، أو ليعظمه الإمام فيكثر عطاؤه من بيت المال، هذا ونحوه رياء وحرام، وبين أن يجاهد لتحصيل السبايا والكراع والسلاح من جهة أموال العدو مع أنه قد أشرك، ولا يقال لهذا: رياء بسبب أن الرياء أن يعمل ليراه غير الله من خلقه.

وكذلك من حج وأشرك فى حجة غرض المتجر، وكذلك من صام ليصح جسده، أو ليحصل له زوال مرض من الأمراض التى ينافيها الصوم، ولا يقدح هذا فى صومه، بل أمر به صاحب الشرع فى قوله: «يامعشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع؛ فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء» (٢) أى: قاطع، فأمر الرسول ﷺ بالصوم لهذا الغرض، ولو كان ذلك قادحاً لم يأمر به ﷺ فى العبادة.

فهذه الأغراض لا يدخل فيها تعظيم الخلق، بل هى تشريك أمور من المصالح ليس لها إدراك، ولا تصلح للإدراك ولا للتعظيم، ولا يمنع أن هذه الأغراض المخالطة للعبادة قد تنقص الأجر، وأن العبادة إذا تجردت عنها زاد الأجر وعظم الثواب.

وقال العز بن عبد السلام فى «قواعد الأحكام»: إن قيل: هل يكون انتظار الإمام المسبوق ليدركه فى الركوع شركاً فى العبادة أم لا؟ قلت: ظن بعض العلماء ذلك، وليس كما ظن، بل هو جمع بين قربتين؛ لما فيه من الإعانة على إدراك الركوع، وهى قربة أخرى؛ والإعانة على الطاعات من أفضل الوسائل عند الله.

(١) نقلاً من القول المفيد ٢/ ٢٩٤.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٩٠٥) ومسلم فى النكاح (١٧٢/٩، ١٧٥ - النووى) عن ابن مسعود به وأنظر «السليلى» (١٩٩٤ - بتخريجنا).

● أمثلة تبين كيفية إرادة الإنسان بعمله الدنيا.

قال ابن عثيمين^(١):

- ١ - أن يريد المال؛ كمن أذّن ليأخذ راتب المؤذن، أو حج ليأخذ المال.
- ٢ - أن يريد المرتبة؛ كمن تعلم في كلية ليأخذ الشهادة فترتفع مرتبته.
- ٣ - أن يريد دفع الأذى والأمراض والآفات عنه؛ كمن تعبد لله كي يجزيه الله بهذا في الدنيا بمحبة الخلق له ودفع السوء عنه وما أشبه ذلك.
- ٤ - أن يتعبد لله يريد صرف وجوه الناس إليه بالمحبة والتقدير وهناك أمثلة كثيرة.

مسألة:

قال ابن عثيمين^(٢): فإن قيل: هل يدخل فيه من يتعلمون في الكلّيات أو غيرها يريدون شهادة أو مرتبة بتعلمهم؟

والجواب: إنهم يدخلون في ذلك إذا لم يريدوا غرضاً شرعياً، فتقول لهم: أولاً: لا تقصدوا بذلك المرتبة الدنيوية، بل اتخذوا هذه الشهادة وسيلة للعمل في الحقول النافعة للخلق؛ لأن الأعمال في الوقت الحاضر مبنية على الشهادات، والناس لا يستطيعون الوصول إلى منفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة، وبذلك تكون النية سليمة. ثانياً: أن من أراد العلم لذاته قد لا يجده إلا في الكلّيات؛ فيدخل الكلية أو نحوها لهذا الغرض، وأما بالنسبة للمرتبة؛ فإنها لا تهمه.

ثالثاً: أن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنيين - حسنى الدنيا وحسنى الآخرة -؛ فلا شيء عليه لأن الله يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(٣)؛ فرغبه في التقوى بذكر المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب.

فإن قيل: من أراد بعمله الدنيا كيف يقال إنه مخلص مع أنه أراد المال مثلاً؟

أجيب: إنه أخلص العبادة ولم يرد بها الخلق إطلاقاً، فلم يقصد مراعاة الناس ومدحهم، بل قصد أمراً مادياً؛ فأخلاصه ليس كاملاً لأن فيه شركاً، ولكن ليس كشرك الرياء يريد أن يمدح بالتقرب إلى الله، وهذا لم يرد مدح الناس بذلك، بل أراد شيئاً دنيئاً غيره.

قلت: ليستعين بهذا الشيء المادى أو الدنيوى على أمر الآخرة فهذا لاشيء عليه كما

مر من كلام السعدى ثم قال ابن عثيمين:

(٣) انطلاق : ٣/٢.

(٢، ١) القول المفيد ٢٩٦ - ٢٩٨.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾.

ولا مانع أن يدعو الإنسان في صلاته ويطلب أن يرزقه الله المال، ولكن لا يصلى من أجل هذا الشيء؛ فهذه مرتبة دنيئة.

أما طلب الخير في الدنيا بأسبابه الدنيوية؛ كالبيع، والشراء، والزراعة؛ فهذا لاشيء فيه، والأصل أن لا نجعل في العبادات نصيباً من الدنيا، وقد سبق البحث في حكم العبادة إذا خالطها الرياء في باب الرياء.

● ملاحظة:

بعض الناس عندما يتكلمون على فوائد العبادات يحولونها إلى فوائد دنيوية. فمثلاً يقولون: في الصلاة رياضة وإفادة للأعصاب، وفي الصيام فائدة إزالة الرطوبة وترتيب الوجبات، والمفروض ألا نجعل الفوائد الدنيوية هي الأصل؛ لأن الله لم يذكر ذلك في كتابه، بل ذكر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. وعن الصوم أنه سبب للتقوى؛ فالفوائد الدينية في العبادات هي الأصل والدنيوية ثانوية، لكن عندما نتكلم عند عامة الناس؛ فإننا نخاطبهم بالنواحي الدينية، وعندما نتكلم عند من لا يقتنع إلا بشيء مادي؛ فإننا نخاطبه بالنواحي الدينية والدنيوية، ولكل مقام مقال أهـ.



وقوله الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا...﴾ الآيتين. مناسبة الآيتين للباب.

قال عبد الله بن جابر الله (٢): أن فيهما وعيد لمن قصد بعمله الدنيا بإحباط عمله ودخول النار. أهـ.

وقال ابن باز (٣): وهذا وعيد، والآية في الكفار والذين عبدوا الله لأجل الدنيا كالمناققين، وعمومه يوجب الحذر من إرادة الإنسان بعمله الدنيا ولو كان ذلك في بعض الأمور. أهـ.

(٣) التعليق المفيد (١٩١).

(٢) الجامع الفريد (١٤٨).

(١) هود / (١٥، ١٦).

قال القرعاوى^(١): دلت الآيتان على أن طلب الدنيا بعمل الآخرة مبطل لثوابها. اهـ.

قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾.

الإعراب:

قال القرطبي^(٢):

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ﴾ زائدة، ولهذا أجزم الجواب فقال: ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ﴾ قاله الفراء.

وقال الزجاج: ﴿مَنْ كَانَ﴾ فى موضع جزء بالشرط وجوابه ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ﴾ أى من يكن يريد، والأول فى اللفظ ماض والثانى مستقبل، كما قال زهير:

ومن هاب أسبابَ المنية يلقها ولو رام أسبابَ السماء يسلم

وقال صاحب الإعراب^(٣): (من) اسم شرط جازم فى محل رفع مبتدأ واسم كان ضمير مستتر يعود على (من) وجملة (يريد الحياة الدنيا) خبر كان (وكان) فعل الشرط مجزوم محلاً (وزيبتها) عطف على الحياة (ونوف) جواب الشرط مجزوم بحذف حرف العلة (واليهم) جار ومجرور متعلقان (بنوف) (وأعمالهم) مفعول به وفيها متعلقان بمحذوف حال وهم الواو حالية وهم مبتدأ (وفيها) متعلقان (يببخسون) وجملة (لا يببخسون) خبر هم.

وقال الفراء: (كان) هنا زائدة وتقديره (من يرد الحياة الدنيا)، وهو قول جميل وطريف لولا أنه غير مطرد ولا يسوغ حمل القرآن عليه. اهـ.

● سبب نزول الآية:

عن أنس رضى الله عنه فى قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا﴾ قال: نزلت فى اليهود والنصارى^(٤).

عن الضحاك فى الآية قال: نزلت فى أهل الشرك^(٥).

(١) الجديد (٣٢٩).

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٣٢٤١).

(٣) إعراب القرآن (٤/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٧٣٦) وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٤) وزاد نسبه لابن

أبى حاتم، وأبى الشيخ، وابن المردويه.

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٧٤٠) وأنظر «الدر» (٣/ ٥٨٤).

قال ابن الجوزى^(١): اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال.

أحدها: أنها عامة في جميع الخلق، وهو قول الأكثرين.

والثاني: في أهل القبلة، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أنها في اليهود والنصارى قال أنس.

والرابع: أنها في أهل الرياء أهـ.

وقال الفخر الرازي^(٢): المسألة الأولى: اعلم أن في الآية قولين:-

القول الأول: أنها مختصة بالكفار، لأن قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يندرج فيه المؤمن والكافر والصدیق والزنديق. لأن كل أحد يريد التمتع بلذات الدنيا وطيباتها والانتفاع بخيراتها وشهواتها، إلا أن آخر الآية يدل على أن المراد من هذا العام والخاص وهو الكافر، لأن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لا يليق إلا بالكفار، فصار تقدير الآية: من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فقط، أى تكون إرادته مقصورة على حب الدنيا وزينتها ولم يكن طالباً لسعادات الآخرة، كان حكمه كذا وكذا، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فيه.

فمنهم من قال: المراد منهم منكروا البعث فإنهم ينكرون الآخرة ولا يرغبون إلا في سعادات الدنيا. وهذا قول الأصم وكلامه ظاهر.

والقول الثاني: أن الآية نزلت في المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع الرسول عليه السلام الغنائم من دون أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها.

والقول الثالث: أن المراد اليهود والنصارى؛ وهو منقول عن أنس.

والقول الرابع: وهو الذى اختاره القاضى أن المراد: من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها أهـ.

القول الثانى: وهو أن تجرى الآية على ظاهرها فى العموم، ونقول: إنه يندرج فيه المؤمن الذى يأتى بالطاعات على سبيل الرياء والسمعة، ويندرج فيه الكافر الذى هذا صفته، وهذا القول مشكل، لأن قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ لا يليق بالمؤمن، إلا إذا قلنا: المراد ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ بسبب

(١) زاد المسير (٤/٦٥٢٦٤).

(٢) التفسير الكبير (٩/١٧/٢٠٧٢٢).

هذه الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة المقرونة بالرياء، ثم القائلون بهذا القول ذكروا أخباراً كثيرة في هذا الباب. روى أن الرسول عليه السلام قال «تعوذوا بالله من جب الحزن قل وما جب الحزن؟ قال عليه الصلاة والسلام «واد في جهنم يلقي فيه القراء المراءون»^(١) وقال عليه الصلاة والسلام «أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس أن فيه خيراً ولا خير فيه».

وقال عليه الصلاة والسلام «أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس أن فيه خيراً ولا خير فيه».

قال القرطبي^(٢): والصحيح العموم أهـ.

وقال ابن عثيمين^(٣): اختلف فيمن نزلت فيه آية هود:

١- قيل: نزلت في الكفار؛ لأن الكافر لا يريد إلا الحياة الدنيا، ويدل لهذا سياقها والجزاء المرتب على هذا، وعليه يكون وجه مناسبتها للترجمة أنه إذا كان عمل الكافرين يراد به الدنيا، فكل من شاركهم في شيء من ذلك؛ ففيه شيء من شركهم وكفرهم.

٢- وقيل: نزلت في المرائين؛ لأنهم لا يعملون إلا للدنيا؛ فلا ينفعهم يوم القيامة.

٣- وقيل: نزلت فيمن يريد مالا بعمله الصالح.

والسياق يدل للقول الأول؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. أهـ.

ثمر ذكر الحديث عن أبي هريرة المتقدم وماذا فعل معاوية عند ما سمعه.

● تنبيه:

اقتصر المؤلف - رحمه الله - على الإشارة إلى تكميل الآية الأولى، وزدنا الآية التالية سهواً وعسى أن يكون خيراً. هكذا قال ابن عثيمين أهـ.

● التفسير بالقرآن.

قال الشنقيطي^(٤): ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾^(٥) ولكنه تعالى بين في سورة بنى إسرائيل تعليق ذلك على مشيئته جل وعلا

(٢) تفسير القرطبي (٥/٣٢٤٢).

(١) تقدم تخريجه.

(٤) أضواء البيان (٣/١١).

(٣) القول المفيد (٢/٢٩٨، ٢٩٩).

(٥) الشورى: ٢٠.

بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ (١) الآية. اهـ.

[قلت] وكفوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (٢).

● ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث والآثار:

● أولاً: التفسير بالمرفوع:

عن عقبة بن مسلم حدثه أن شفى بن مانع الأصبحى حدثه أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال من هذا فقالوا أبو هريرة فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس فلما سكت وخلي قلت أنشدك بحق وبحق لما حدثنى حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته قال فقال أبوهريرة أفعل لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ ثم نشخ نشغة ثم أفاق فقال لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ فى هذا البيت ما فيه أحد غيرى وغيره ثم نشخ أبوهريرة نشغة شديدة ثم مال خارا على وجهه واشتد به طويلاً ثم أفاق فقال حدثنى رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى القيامة ليقتضى بينهم وكل أمة جائية فأول من يدعى به رجل جمع القرآن ورجل قتل فى سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله للقارىء ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى قال بلى يارب قال فماذا عملت فيما علمت قال كنت أقوم آتاء الليل وآتاء النهار فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله له بل أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك حتى لم أدعك محتاج إلى أحد قال بلى يارب قال فماذا عملت فيما أتيتك قال كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذلك ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله فيقال له فيما ذا قتلت فيقول أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله له بل أردت أن يقال فلان جرى وقد قيل ذلك ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال أباهريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر لهم النار يوم القيامة قال الوليد أبو عثمان فأخبرنى عقبة أن شفياً هو الذى دخل على معاوية فأخبره بهذا. عن العلاء بن أبى حكيم أنه كان سيفاً لمعاوية قال فدخل عليه رجل فحدثه بهذا عن أبى هريرة فقال أبو هريرة وقد فعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقى من الناس ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى

(١) الإسراء: ١٨.

(٢) آل عمران: ١٤٥.

ظننا أنه هلك وقلنا هذا الرجل شر ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه فقال صدق الله ورسوله من كان يريد الحياة الدنيا وزيتها نوف إليهم أعمالهم فيها وقرأ إلى وباطل ما كانوا يعملون^(١).

عن أنس رضى الله عنه^(٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاثة فرق. فرقة يعبدون الله خالصا، وفرقة يعبدون الله رياء، وفرقة يعبدون الله يصيبون به دنيا، فيقول للذى كان يعبد الله للدنيا: بعزتي وجلالى ما أردت بعبادتي؟ فيقول: الدنيا. فيقول: لا جرم لا ينفعك ما جمعت ولا ترجع إليه انطلقوا به إلى النار، ويقول للذى يعبد الله رياء: بعزتي وجلالى ما أردت بعبادتي؟ قال: الرياء. فيقول: إنما كانت عبادتك التى كنت ترائى بها لا يصعد إلى منها شيء ولا ينفعك اليوم انطلقوا به إلى النار، ويقول للذى كان يعبد الله خالصا: بعزتي وجلالى ما أردت بعبادتي فيقول: بعزتك وجلالك لا أنت أعلم به منى كنت أعبدك لوجهك ولدارك. قال: صدق عبدى انطلقوا به إلى الجنة»^(٣).

وعن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بناس بين الناس إلى الجنة، حتى إذا دنوا منها استنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها فيقولون: يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من الثواب وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون. قال: ذلك أردت بكم كنتم إذا خلوتهم بارزتموني بالعظيم، وإذا لقيتهم الناس لقيتموهم مخبتين ولم تجلوني، وتركتم للناس ولم تتركوا إلى، فاليوم اذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتهم من الثواب»^(٤).

● ثانياً: التفسير بأقوال السلف:

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٢/ ١٠، ١١)، والترمذى (٢٣٨٢) عن أبى هريرة به وتقدم نحوه. وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٤) وزاد نسبه لابن المنذر، والبيهقى فى «الشعب» وانظر «فتح المجيد» (ح ٧١٠) بتخريجنا.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٢٥٨٤) ونسبه للنحاس فى «ناسخه»..

(٣) ذكره السيوطى فى الموضوع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٤) نفس المصدر السابق.

عن ابن عباس رضى الله عنهما ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى ثوابها ﴿وَزَيَّتَهَا﴾ مالها^(١).

عن السدى مثله^(٢).

عن ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية فقال: من عمل صالحاً التماس الدنيا، صوم أو صلاة، أو تهجد بالليل، لا يعملها إلا لالتماس الدنيا^(٣).

عن عبدالله بن معبد قال: قام رجل إلى على - رضى الله عنه - فقال: أخبرنا عن هذه الآية ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّتَهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال له: نعم. ويحك، ذاك من كان يريد الدنيا، ولا يريد الآخرة^(٤).

عن مجاهد كان يقول فى هذه الآية: هم أهل الرياء، هم أهل الرياء^(٥).

عن مجاهد: ممن لا تقبل منه يصوم ويصلى، يريد به الدنيا، ويدفع عنها^(٦).

عن قتادة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يقول: من كانت الدنيا همته وسدمه وطلبته، ونيتته^(٧).

وعنه أيضاً: من كان إنما همته الدنيا إياها يطلب^(٨).

وأخرج أيضاً عن مجاهد: ممن لا يقبل منه^(٩).

وعن سعيد بن جبير، فى هذه الآية: هو الرجل يعمل عمل الدنيا، لا يريد بها الله، وهى مثل الآية فى الروم ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لَيْرَبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّو عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١٠).

وعن الضحاك: يقول من عمل عملاً صالحاً يريد به وجه الله فى غير تقوى يعنى من أهل الشرك^(١١).

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» الدر المشور (٣/ ٥٨٤، ٥٨٥).

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» الطبرى (١٢/ ١٠، ١١، ١٢) وذكره السيوطى فى الموضع السابق وزاد نسبه لابن أبى حاتم.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسير» (ح ١٠٧٣٨) وذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن

جرير

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٤) وزاد نسبه لأبى الشيخ.

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضع الأخير.

(٧) أخرجه ابن جرير فى الموضع الأخير وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/ ٥٨٥) ونسبه لأبى الشيخ.

(٨) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٩-١١) المصدر السابق.

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين:

- قال ابن جرير^(١): يقول تعالى ذكره: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا، وأثائها، وزيتها يطلب به أهـ.

- قال البغوي^(٢): قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أى: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَزِينَتَهَا﴾ نزلت في كل من عمل عملاً يريد به غير الله عزوجل. أهـ.

قلت: وتقدم في أسباب النزول ذكر الاختلاف في نزولها فانظره.

- قال الفخر الرازي^(٣): اعلم أن الكفار كانوا ينازعون محمدا ﷺ في أكثر الأحوال، فكانوا يظهرون من أنفسهم أن محمدا مبطل ونحن محقون، وإنما نبالغ في منازعته لتحقيق الحق وإبطال الباطل، وكانوا كاذبين فيه، بل كان غرضهم محض الحسد والاستنكاف من المتابعة، فأنزل الله تعالى هذه الآية لتقرير هذا المعنى.

ثم قال: أن المراد: من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها، وعمل الخير قسمان: العبادات، وإيصال المنفعة إلى الحيوان، ويدخل في هذا القسم الثاني البر وصلة الرحم والصدقة وبناء القناطر وتسوية الطرق والسعى في دفع الشرور وإجراء الأنهار. فهذه الأشياء إذا أتى بها الكافر لأجل الثناء في الدنيا، فإن بسببها تصل الخيرات والمنافع إلى المحتاجين، فكلها تكون من أعمال الخير. فلا جرم هذه الأعمال تكون طاعات سواء صدرت من الكافر أو المسلم. وأما العبادات: فهي إنما تكون طاعات بنيات مخصوصة، فإذا لم يؤت بتلك النية، وإنما أتى فاعلها بها على طلب زينة الدنيا، وتحصيل الرياء والسمة فيها صار وجودها كعدمها فلا تكون من باب الطاعات.

وإذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ المراد منه الطاعات التي يصح صدورها من الكافر أهـ.

(١) تفسير ابن جرير (١٠/١٢/٧).

(٢) معالم التنزيل (١٩٧/٣).

(٣) التفسير الكبير (٢٠٦/١٧/٩).

قال الشوكاني^(١): وإدخال ﴿كَانَ﴾ في الآية يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم لا يكادون يريدون الآخرة، ولهذا قيل: إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعذبون في الآخرة لأنهم جردوا قصدهم إلى الدنيا ولم يعملوا للآخرة أهـ.

قال صاحب الظلال^(٢): ونحن نشهد في هذه الأرض أفراداً اليوم وشعوباً وأما تعمل لهذه الدنيا، وتنال جزاءها فيها. ولدنياها زينة، ولدنياها انتفاخ!

فلا يجوز أن نعجب ولا أن نسأل: لماذا؟ لأن هذه هي سنة الله في هذه الأرض: ولكن التسليم بهذه السنة وتناجها لا يجوز أن ينسبنا أن هؤلاء كان يمكن أن يعملوا نفس ما عملوه ونفوسهم تتطلع للآخرة وتراقب الله في الكسب والمتاع فينالوا زينة الحياة الدنيا لا يبخسون منها شيئاً وينالوا كذلك متاع الحياة الآخرة إن العمل للحياة الأخرى لا يقف في سبيل العمل للحياة الدنيا. بل إنه هو مع الاتجاه إلى الله فيه. ومراقبة الله في العمل لا تقلل من مقداره ولا تنقص من آثاره، بل تزيد وتبارك الجهد والثمر، وتجعل الكسب طيباً والمتاع به طيباً، ثم تضيف إلى متاع الدنيا متاع الآخرة. إلا أن يكون الغرض من متاع الدنيا هو الشهوات الحرام وهذه مردية لا في الآخرة فحسب، بل كذلك في الدنيا ولو بعد حين وهي ظاهرة في حياة الأمم وفي حياة الأفراد. وعبر التاريخ شاهدة على مصير كل أمة اتبعت الشهوات على مدار القرون. أهـ.

قال ناصر السعدى^(٣): ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾.

أى: كل إرادته، مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زينتها، من النساء، والبنين والقناطير المقطرة، من الذهب والفضة، والخيول المسومة، والأنعام، والحراث.

قد صرف رغبته، وسعيه، وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئاً. فهذا لا يكون إلا كافراً، لأنه لو كان مؤمناً، لكان ما معه من الإيمان ما يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا.

بل نفس إيمانه، وما تيسر له من الأعمال، أثر من آثار إرادته الدار الآخرة. أهـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قال الضحاك: من عمل صالحاً من أهل الإيمان من

(١) فتح القدير (٢/ ٥٠١).

(٢) الظلال (٤/ ١٨٦٢، ١٨٦٣).

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٠٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٤٥/ ٣٤٦).

غير تقوى؛ عجل له ثواب عمله في الدنيا، واختاره الفراء (١).

قال ابن القيم: وهذا القول أرجح. ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وقالت طائفة: هذه الآية في حق الكفار. اهـ.

قال ابن عثيمين (٢): قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

أى: البقاء في الدنيا.

قوله: ﴿وَزِينَتَهَا﴾.

أى: المال، والبنين، والنساء، والحرث، والأنعام، والخيول المُسومة؛ كما قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

● قوله: ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾.

● التفسير بالمأثور من المرفوع والموقوف والمقطوع.

عن محمد بن كعب القرظي أن النبي ﷺ قال: «من أحسن من محسن، فقد وقع أجره على الله، في عاجل الدنيا، وآجل الآخرة» (٣).

عن ابن عباس رضى الله عنهما: ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة، والسرور في الأهل، والمال، والولد (٤).

عن قتادة قال: من كان إنما همته الدنيا إياها يطلب، أعطاه الله مالا، وأعطاه فيها ما يعيش وكان ذلك قصاصاً له بعمله (٥).

عن مجاهد رضى الله عنه ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ قال: من عمل للدنيا لا يريد به الله وفاه ذلك العمل في الدنيا أجر ما عمل (٦).

عن سعيد بن جبير في قوله ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ قال: ثواب ما عملوا في الدنيا من خير أعطوه في الدنيا، وليس لهم في الآخرة إلا النار (٧).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القول المفيد ٢/ ٢٩٨، ٢٩٩.

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ١١).

(٤ - ٧) تقدمت مصادرهم قريباً.

عنه أيضاً: وربما عملوا من خير أعطوه في الدنيا، وليس لهم في الآخرة إلا النار^(١).
عنه أيضاً: من عمل للدنيا، وفيه في الدنيا^(٢).

عن مجاهد قال: عن لا يقبل منه، جوزى به، يعطى ثوابه^(٣).

عن مجاهد: لا يريد بها وجه الله أعطاه الله في الدنيا ثواب ذلك مثل ما أنفق فذلك قوله: ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾^(٤).

وعن مجاهد في قوله: قال: نعجل لمن لا يتقبل منه^(٥).

وعن الضحاك في قوله: ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ قال: يقول يعجل الله له ثواب عمله في الدنيا، يوسع عليه في المعيشة، والرزق، ويقر عينه فيما حوله، ويدفع عنه من مكاره الدنيا، في نحو هذا، وليس له في الآخرة من نصيب^(٦).

وعن الضحاك في الآية يقول من عمل عملاً صالحاً في غير تقوى، يعنى من أهل الشرك، أعطى على ذلك أجراً في الدنيا يصلرحماً، يعطى سائلاً، يرحم مضطراً في نحو هذا من أعمال البر، يعجل الله له ثواب عمله في الدنيا، يوسع عليه في المعيشة والرزق، ويقر عينه فيما حوله، ويدفع عنه من مكاره الدنيا في نحو هذا، وليس له في الآخرة من نصيب^(٧).

وعن الحسن في قوله: ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ قال: طيباتهم^(٨).

● أقوال أهل التفسير.

- قال ابن جرير^(٩): نوف إليهم أجور أعمالهم فيها، وثوابها أهـ.

- وقال البغوي^(١٠): قوله تعالى: ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا﴾ أى: نوف لهم أجور أعمالهم في الدنيا بسعة الرزق، ودفع المكاره، وما أشبهها أهـ.

(١-٣) تقدمت مصادرهم قريباً.

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/٧، ١٠، ١١).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢/٦، ١٠، ١١).

(٦) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/٧، ١٠، ١١).

(٧) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٢/٧، ١٠).

(٨) أخرجه ابن جرير في الموقع السابق وانظر «الدر» (٣/٥٨٥).

(٩) المصدر السابق. (١٠) معالم التنزيل (٣/١٩٧).

- وقال الزمخشري^(١): «نُوفَ إِلَيْهِمْ» نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا وهو ما يرزقونه فيها من الصحة والرزق وقيل هم أهل الرياء يقال للقرءاء منهم أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك. ولمن وصل الرحم وتصدق فعلت حتى يقال فقيل ولمن قاتل فقتل قاتلت حتى يقال فلان جرى فقد قيل.

وقرىء يوف بالياء على أن الفعل لله عز وجل توف إليهم أعمالهم بالثناء على البناء للمفعول وفي قراءة الحسن نوفي بالتخفيف بإثبات الياء لأن الشرط وقع ما فيا كقوله يقول لا غائب مالي ولا حرم أهـ.

- وقال ابن الجوزي^(٢): «نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ» أى أجور أعمالهم أهـ.

- وقال الفخر الرازي^(٣): المراد من توفية أجور تلك الأعمال هو أن كل ما يستحقونه بها من الثواب فإنه يصل إليهم حال كونهم فى دار الدنيا، فإذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من تلك الأعمال أثر من آثار الخيرات، بل ليس لهم منها إلا النار.

واعلم أن العقل يدل عليه قطعاً، وذلك لأن من أتى بالأعمال لأجل طلب الثناء فى الدنيا، ولأجل الرياء، فذلك لأجل أنه غلب على قلبه حب الدنيا، ولم يحصل فى قلبه حب الآخرة، إذ لو عرف حقيقة الآخرة وما فيها من السعادات لامتنع أن يأتى بالخيرات لأجل الدنيا ويسئ أمر الآخرة، فثبت أن الآتى بأعمال البر لأجل الدنيا لا بد وأن يكون عظيم الرغبة فى الدنيا عديم الطلب للآخرة ومن كان كذلك فإذا مات فإنه يفوته جميع منافع الدنيا ويبقى عاجزاً عن وجدانها غير قادر على تحصيلها، ومن أحب شيئاً ثم يحل بينه وبين المطلوب فإنه لا بد وأن تشتعل فى قلبه نيران الحسرات فثبت بهذا البرهان العقلى، أن كل من أتى بعمل من الأعمال لطلب الأحوال الدنيوية فإنه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللائقة بذلك العمل، ثم إذا مات فإنه لا يحصل له منه إلا النار ويصير ذلك العمل فى الدار الآخرة محبطاً باطلا عديم الأثر.

قال القرطبي^(٤): قال بعض العلماء: معنى هذه الآية قوله عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات» وتدل هذه الآية على أن من صام فى رمضان لا عن رمضان لايقع عن رمضان، وتدل على أن من توضأ للتبريد والتنظف لايقع قربة عن جهة الصلاة، وهكذا كل ما كان فى معناه.

(١) الكشاف (٢/ ٢١٠).

(٢) زاد المسير (٤/ ٦٤، ٦٥).

(٣) تفسير الكبير (٩/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٤) القرطبي (٥/ ٣٢٤٢).

وذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة، وكذلك الآية التي في الشورى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ الآية.

وكذلك ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ قيدها وفسرها التي في «سبحان»: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ إلى قوله: ﴿مَحْظُورًا﴾ فأخبر سبحانه أن العبد ينو ويريد والله سبحانه يحكم ما يريد. وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ منسوخة بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾.

والصحيح ما ذكرناه وأنه من باب الإطلاق والتقييد، ومثله قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل داع دائماً على كل حال، وليس كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ والنسخ في الأخبار لا يجوز، لاستحالة تبدل الواجبات العقلية، ولاستحالة الكذب على الله تعالى؛ فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه، على ما هو مذكور في الأصول وينحو كلام القرطبي قال الشوكاني.

● أقوال شراح كتاب التوحيد.

قال سليمان آل الشيخ: فقال إن السلف كانوا يسمون التقييد والتخصيص نسخاً وإلا فالآية محكمة أهد.

قال ابن عثيمين^(١): قوله: ﴿نُوفَ إِلَيْهِمْ﴾ فعل مضارع معتل الآخر مجزوم بحذف حرف العلة - الياء؛ لأنه جواب الشرط.

والمعنى: أنهم يُعْطُونَ ما يريدون في الدنيا، ومن ذلك الكفار لا يُسْعَوْنَ إلا للدنيا وزينتها، فعجلت لهم طياتهم في حياتهم الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْبَتُمْ طِيَّاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾.

ولهذا لما بكى عمر حين رأى النبي ﷺ قد أثر في جنبه الفراش، فقال: «ما يبكيك؟». قال: يا رسول الله! كسرى وقصر يعيشان فيما يعيشان فيه من نعيم وأنت على هذه الحال. فقال رسول الله ﷺ: «أولئك قوم عَجَلْتُ لَهُمْ طِيَّاتِهِمْ»^(٢)، وفي الحقيقة هي ضرر عليهم؛ لأنهم إذا انتقلوا من دار النعيم إلى الجحيم؛ صار عليهم أشد وأعظم في فقد ما متعوا به في الدنيا. أهد.

(١) القول المفيد (٢/ ٢٩٨، ٢٩٩).

(٢) أصله أخرجه مسلم في الطلاق (٥/ ٣٣٩/ ٣٠) عن عمر به.

قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾.

● التفسير بالمأثور

أولاً من الموقوف.

عن ابن عباس فى قوله ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ قال: وهو فى الآخر من الخاسرين^(١).

ثانياً من المقطوع.

عن مجاهد ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ أجر ما عملوا فيها^(٢).

عن قتادة: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ يقول: لا يظلمون - فى الآخرة -^(٣).

عن الضحاك ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ ليس له فى الآخرة من نصيب^(٤).

عن مجاهد: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ قال: لا ينقصون^(٥).

● أقوال أهل التفسير.

قال ابن جرير^(٦): ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ وهم فى الدنيا ﴿لَا يُخْسُونَ﴾ يقول: لا ينقصون أجرها، ولكنهم يوفونه فيها أهـ.

- وقال البغوى^(٧): أى فى الدنيا لا ينقص حظهم أهـ.

- وقال ابن الجوزى^(٨) بنحو ذلك.

- وقال الشوكانى^(٩): قال القاضى: معنى الآية من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزيتها نوف إليهم أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا، وهم ما ينالون من الصحة والكفاف وسائر اللذات والمنافع، فخص الجزاء بمثل ما ذكره، وهو حاصل لكل عاملاً للدنيا، ولو كان قليلاً يسيراً. أهـ.

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٢/٧).

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق ونسبه السيوطى فى «الدر» (٥٨٥/٣) لأبى الشيخ.

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٥) المصدر السابق (٦) ابن جرير فى الموضع السابق.

(٧) معالم التنزيل (١٩٧/٣).

(٨) زاد المسير (٦٤/٤، ٦٥).

(٩) فتح القدير (٥٠٠/٢).

- وقال السعدي^(١): لا ينقصون شيئاً مما قدر لهم، ولكن هذا نعيمهم أهـ.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾.

الإعراب^(٢): اسم الإشارة مبتدأ والذين خبره وجملة ليس صلة ولهم خبر مقدم وليس وفي الآخرة حال وإلا أداة حصر والنار اسم ليس المؤخر.

الواو عاطفة (وحبط) فعل ماض (وما) فاعله وجملة (صنعوا) صلة ويجوز أن تكون ما مصدرية وهي مع مدخولها في تأويل مصدر فاعل (حبط) وفيها متعلقان (بصنعوا أو بحبط وباطل والواو عاطفة وباطل خبر مقدم وما اسم موصول مبتدأ مؤخر ويجوز أن تكون ما مصدرية وهي مع مدخولها في تأويل مصدر مبتدأ مؤخر وكانوا كان واسمها وجملة يعملون خبرها.

● التفسير بالمأثور.

عن الضحاك في الآية: يقول: ما عملوا من عمل صالح في شركهم عجل الله لهم ثوابه في الدنيا، ولم يكن لهم في الآخرة إلا النار^(٣).

● أقوال أهل التفسير.

- قال ابن جرير^(٤): ذكر هؤلاء الذين ذكرت أنا نوفيهم أجور أعمالهم في الدنيا ليس لهم في الآخرة إلا النار يصلونها وحبط ما صنعوا فيها يقول وذهب ما عملوا في الدنيا وباطل ما كانوا يعملون لأنهم كانوا يعملون لغير الله فأبطله الله وأحبط عامله أجره أهـ.

- وقال البغوي^(٥)، بنحوه وكذا ابن الجوزي^(٦)

وقال القرطبي: قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ إشارة إلى التخليد، والمؤمن لا يخلد، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ الآية. فهو محمول على ما لو كانت موافاة هذا المرائي على الكفر.

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) إعراب القرآن (٤/٣٢٦).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٦/٢٠١٠، ٢٠١١).

(٤) ابن جرير (٧/١٢/١٠).

(٥) معالم التنزيل (٣/١٩٧).

(٦) زاد المسير (٤/٦٤/١٦٥).

وقيل ليس لهم إلا النار فى أيام معلومة ثم يخرج؛ إما بالشفاعة، وإما بالقبضة.
والآية تقتضى الوعيد بسلب الإيمان. اهـ.

- وقال الشوكانى^(١): الإشارة إلى المريدين المذكورين، ولا بد من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشيء من الأعمال المعتد بها، الموجبة للجزاء الحسن فى الدار الآخرة، أو تكون خاصة بالكفار كما تقدم أهـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد.

- وقال سليمان آل الشيخ^(٢): ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ أى: أنهم لم يعملوا إلا للحياة الدنيا وزيتها.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾. المشار إليه الذين يريدون الحياة الدنيا وزيتها.

● قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾.

فيه حصر طريقة النفى والإثبات، وهذا يعنى أنهم لن يدخلوا الجنة؛ لأن الذى ليس له إلا النار محروم من الجنة والعياذ بالله.

● قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾.

● قوله: ﴿وَحَبِطَ﴾.

● التفسير بالمأثور.

عن السدى عن أبى مالك ﴿وَحَبِطَ﴾ يعنى: بطل^(٤).

● قوله: ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾.

وعن ابن عباس: وحبط عمله الذى كان يعمل إلتماس الدنيا وهو فى الآخرة من الخاسرين^(٥).

(١) فتح القدير (٢/٥٠١).

(٢) تيسير العزيز الحميد

(٣) القول المفيد (٢/٢٩٨، ٢٩٩).

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٦/٢٠١٢) وانظر «الدر» (٣/٥٨٦).

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم فى الموضع السابق.

وعن ابن عباس: ﴿وَحِطَّ مَا صَنَعُوا﴾ في الدنيا^(١).

وعن السدي: ﴿وَحِطَّ مَا صَنَعُوا﴾ قال: وحبط ما عملوا من خير^(٢).

● قوله: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الإعراب:

قال القرطبي^(*): ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ابتداء وخبر؛ قال أبو حاتم: وحذف الهاء؛ ال النحاس: هذا لا يحتاج إلى حذف؛ لأنه بمعنى المصدر؛ أى وباطل عمله. وفي حرف أبي وعبدالله: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وتكون «ما» زائدة؛ أى وكانوا يعملون باطلا. اهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من الآثار:

وعن ابن عباس^(٣): ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

وعن السدي: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال: وباطل في الآخرة ليس لهم فيها جزاء^(٥).

وعن أبي بن كعب أنه قرأ ﴿وَبَاطِلًا مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٦).

● أقوال أهل التفسير.

وقال الزمخشري^(٧): ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى كان عملهم فى نفسه باطلا لأنه لم يعمل لوجه صحيح والعمل الباطل لا ثواب له وقرئ وبطل على الفعل وعن عاصم وباطلا بالنصب وفيه وجهان أن تكون ما إبهامية ويتنصب بيعملون ومعناه وباطلا أى باطل كانوا يعملون وأن تكون بمعنى المصدر على وبطل بطلانا ما كانوا يعملون.

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر.

(*) القرطبي (٦/٣٢٤٣).

(٣) ابن أبي حاتم (٦/٢٠١٢).

(٤) (٥) نفس المصدر.

(٦) ذكره السيوطي في «الدر» (٣/٥٨٤، ٥٨٥) ونسبه لأبي عبيد، وابن المنذر.

(٧) الكشف.

● أقوال شراح كتاب التوحيد.

قال سليمان آل الشيخ^(١): «وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا».

قال بعض المفسرين - قلت: هو الزمخشري كما تقدم ولعله أبهمه لاعتزاله لكن هذا النقل حجة لى فى النقل عنه بعيداً عن بدعته واعتزاله. :أى: وحبط فى الآخرة ما صنعوه، أو صنيعهم يعنى: لم يكن لهم ثواب، لأنهم لم يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفى إليهم ما أرادوا: «وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» أى: كان عمله فى نفسه باطلاً؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له. انتهى.

قال ابن عثيمين^(٢): الحُبوب: الزوال؛ أى: زال عنهم ما صنعوا فى الدنيا.

قوله: «وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

«وَبَاطِلٌ»: خبر مقدم لأجل مراعاة الفواصل فى الآيات والمبتدأ «ما» فى قوله: «مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»؛ فثبت الله أنه ليس لهؤلاء إلا النار وأن ما صنعوا فى الدنيا قد حبط، وأن أعمالهم باطلة.

وقوله تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ» مخصوصة بقوله تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا».

مسألة/

قال سليمان آل الشيخ^(٣): فإن قيل: الآية على القول الأول تقتضى تخليد المؤمن

من المرید بعمله الدنيا فى النار.

[قلت]: وقد تقدم معنا هذا من قول القرطبي، حيث قال أن الآية فيها إشارة إلى ذلك أى التخليد ثم أجاب بقوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ.. الآية» وغير ذلك والله أعلم.

ثم قال - أى سليمان آل الشيخ - : قيل: إن الله سبحانه ذكر جزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها، وهو النار، وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٠٢.

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٠٤.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٠٤، ٤٠٥.

وبطل؛ لم يبق معه ما ينجيه. فإن كان معه إيمان لم يرد به الحياة الدنيا وزينتها، بل أراد به الله والدار الآخرة، لم يدخل هذا الإيمان فى العمل الذى حبط وبطل. ونجاء هذا الإيمان من الخلود فى النار، وإن دخلها بحبوط عمله الذى به النجاة المطلقة فالإيمان إيمانان إيمان يمنع دخول النار، وهو الإيمان الباعث على أن تكون الأعمال لله وحده يتغنى بها وجهه وثوابه، وإيمان يمنع الخلود فى النار، فإن كان مع المرائى شىء منه، وإلا كان من أهل الخلود، فالآية لها حكم نظرناها من آيات الوعيد. ذكره ابن القيم.

وقد سئل شيخ الإسلام المصنف عن معنى هذه الآية فأجاب بما ملخصه: ذكر عن السلف من أهل العلم فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم، ولا يعرفون معناه.

فمن ذلك العمل الصالح الذى يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله من صدقة وصلاة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان، أو يتركه خالصاً لله، لكنه لا يريد ثوابه فى الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظه أهله وعياله، أو إدامة النعم عليهم، ولا همة له فى طلب الجنة، والهرب من النار، فهذا يعطى ثواب عمله فى الدنيا، وليس له فى الآخرة نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثانى: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذى ذكره مجاهد فى الآية أنها نزلت فيه، وهو أن يعمل أعمالاً صالحة، ونية رياء الناس لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً مثل أن يحج لمال يأخذه، لا لله، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل الغنم، فقد ذكر أيضاً هذا النوع فى تفسير هذه الآية. وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكتبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويؤاظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد، كما هو واقع كثيراً، وهؤلاء أعقل من الذين قبلهم، لأنهم عملوا لمصلحة يحصلونها، والذين قبلهم عملوا من أجل المدح والجلالة فى أعين الناس. ولا يحصل لهم طائل، والنوع الأول أعقل من هؤلاء. لأنهم عملوا لله وحده لاشريك له، لكن لم يطلبوا منه الخير الكثير الدائم وهو الجنة، ولم يهربوا من الشر العظيم وهو النار.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصاً فى ذلك لله وحده لاشريك له، لكنه على عمل يكفره كفره يخرج عن الإسلام مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام الكلية إذا أطاعوا الله طاعة خالصة، يريدون بها ثواب الله فى الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم. فهذا النوع أيضاً قد ذكر فى هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره. وكان السلف يخافون منها، قال

بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل منى سجدة واحدة لتمنيت الموت، لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ثم قال: بقی أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله طالباً ثواب الآخرة ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قاصداً بها الدنيا مثل أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا، كما هو واقع؛ فهو لما غلب عليه منهما. وقد قال بعضهم: القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة الخالص، وأهل الناس الخالص، ويسكت عن صاحب الشائبين وهو هذا وأمثاله. انتهى. وقد أجاد وأفاد رحمه الله.

قال ابن عثيمين^(١): فإن قيل: لماذا لا نجعل آية هود حاكمة على آية الإسراء ويكون الله توعده من يريد العاجلة في الدنيا أن يجعل له ما يشاء لمن يريد؟ ثم وعد أن يعطيه ما يشاء؟

أجيب: إن هذا المعنى لا يستقيم لأمرين:
أولاً: أن القاعدة الشرعية في النصوص أن الأخص مُقَدَّم على الأعم، وآية هود عامة؛ لأن كل من أراد الحياة الدنيا وزيتها وفي إليه العمل وأعطى ما أراد أن يعطى، أما آية الإسراء؛ فهي خاصة: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾، ولا يمكن أن يُحكم بالأعم على الأخص.

الثاني: أن الواقع يشهد على ما تدل عليه آية الإسراء؛ لأن في فقراء الكفار من هو أفقر من فقراء المسلمين؛ فيكون عموم آية هود مخصوصاً بآية الإسراء؛ فالأمر موكول إلى مشيئة الله وفيمن يريده.

قلت: وقد تقدم الكلام في ذلك عن القرطبي وغيره.

قال سليمان آل الشيخ: وفي الآية من الفوائد.

الأولى: أن الشرك محبط للأعمال.

الثانية: وأن إرادة الدنيا وزيتها بالعمل كذلك.

الثالثة: وأن الله يجازي الكافر بحسناته.

الرابعة: وكذلك طالب الدنيا، ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة.

الخامسة:

السادس: الفرق بين الحبوط والبطلان. اهـ.



(١) القول المفيد ٢/ ٣٠٠، ٣٠١.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ، رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ؛ سَخَطَ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا أَنْتَقَشَ. طُوبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بَعْنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْنَعَتْ رَأْسُهُ، مَغْبَرَةٌ قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ إِنْ اسْتَاذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ. وَإِنْ شَفَّعَ لَمْ يُشَفَّعْ^(١).

قال الفقير: ذكره البخارى فى موضعين فى الصحيح. فى باب بالحراسة فى الغزو فى سبيل الله.

ولفظه: تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، وإن أُعطي رضى وإن لم يعط لم يرض.

وفى [باب ما يتقى من فتنة المال وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾]. ولفظه تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أُعطي رضى وإن لم يعط لم يرضى.

مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جابر الله^(٢): أن العمل الصالح إذا كان القصد منه طلب الدنيا فهو شرك ينافى التوحيد. اهـ.

قال القرعاوى^(٣): دل الحديث على أن من كانت الدنيا غاية أمره ومنتهى قصده فقد عبدها واتخذها شريكا مع الله. اهـ.

● ماذا أراد المصنف بهذا الحديث: -

قال ابن عثيمين^(٤): وقد أراد المؤلف بهذا الحديث أن يتبين أن من الناس من يعبد الدنيا؛ أى: يتذلل لها ويخضع لها، وتكون مناه وغايته، فيغضب إذا فقدت ويرضى إذا

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب الحراسة فى الغزو (٣٨٨٧) وأطرافه (٢٨٨٦)، (٢٨٨٧)، (٦٤٣٥) وتقدم تخريجه.

(٢) الجامع الفريد (١٤٩/ ١٥٠).

(٣) الجديد (٣٣٢).

(٤) القول المفيد (٣٠٣/ ٢).

وجدت، ولهذا سَمَّى النبي ﷺ من هذا شأنه عبداً لها، وهذا من يعنى بجمع المال من الذهب والفضة؛ فيكون مريداً بعمله الدنيا. اهـ.

قوله: [تعس].

- قال ابن حجر^(١): بفتح أوله وكسر المهملة ويجوز فتحها وهوضد سعد، تقول تعس فلان أى ثقى، وقيل معنى التعس الكب على الوجه، قال الخليل: التعس أن يعثر فلا يفيق من عثرته وقيل التعس الشر وقيل البعد وقيل الهلاك، وقيل التعس أن يخر على رأسه، وقيل تعس أخطأ حجته. ويغيت. اهـ.

- وقال فى موضع آخر^(٢): والمراد هنا هلك وقال ابن الأنبارى: التعس الشر، قال تعالى: ﴿فَتَعَسَّ لَهُمْ﴾ أراد ألزهمهم الشر، وقيل التعس البعد أى بعداً لهم. وقال غيره قولهم تعسا لفلان نقيض قوله لعا له، فتعسا دعاء عليه بالعترة ولعا دعاء له بالانتقاش. اهـ.

- وقال سليمان آل الشيخ^(٣): قال أبو السعادات: يقال: تعس يتعس، إذا عثر، وانكب لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك أهـ.
- قوله [عبدالدينار، تعس عبدالدرهم].

الدينار من الذهب، والدرهم من الفضة أهـ^(٤).

الدينار: هو النقد من الذهب، والدينار الإسلامى زنته مثقال، وسماء عبدالدينار؛ لأنه تعلق به تعلق العبد بالرب فكان أكبر همه، وقدمه على طاعة ربه، ويقال فى عبدالدرهم ما قيل فى عبدالدينار، والدرهم هو النقد من الفضة، وزنة الدرهم الإسلامى سبعة أعشار المثقال؛ فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل أهـ^(٥).

قال ابن حجر^(٦): أى طالبه الحريص على جمعه القائم على حفظه، فكأنه لذلك خادمه وعبده.

قال الطيبى: قيل خص العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه فى محبة الدنيا وشهواتها كالأسير الذى لا يجد خلاصاً، ولم يقل مالك الدينار ولا جامع الدينار لأن المذموم من الملك والجمع الزيادة على قدر الحاجة.

(٢) فتح البارى (١١/٢٥٩).

(٤) التعليق المفيد (١٩٢).

(٦) فتح البارى (١١/٢٥٩).

(١) فتح البارى (٦/٩٧).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٤٠٦).

(٥) القول المفيد (٢/٣٠٢، ٣٠٣).

وقال غيره: جعله عبداً لهما لشغفه وحرصه، فمن كان عبداً لهواه لم يصدق في حقه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فلا يكون من اتصف بذلك صديقاً. اهـ.

وقال سليمان آل الشيخ مهذباً لكلام ابن حجر ومختصراً له^(١): فإن قيل: لم سماه النبي ﷺ عبدالدينار والدرهم.

قيل: لما كان ذلك هو مقصوده ومطلوبه الذي عمل له، وسعى في تحصيله بكل ممكن حتى صارت نيته مقصورة عليه يغضب ويرضى له صار عبداً له.

قال شيخ الإسلام: فسماه النبي ﷺ عبدالدينار والدرهم، وعبدالقطيفة، وعبدالخميصه وذكر فيه ما هو دعاء وخبر وهو قوله (تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش).

وهذه حال من أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلاص من المكروه وهذه حال من عبد المال. وقد وصف ذلك بأنه إن أعطى رضى وإن منع سخط كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة، أو نحو ذلك من هواء نفسه إن حصل له رضى، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده إلى أن قال: وهكذا أيضاً طالب المال فإن ذلك يستعبده ويسترقه.

وهذه الأمور نوعان:

فمنها: ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيكون المال عنده، يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه من غير أن يستعبده فيكون هلوياً.

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد فهذه ينبغي أن لا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها وربما صار مستعبداً معتمداً على غير الله فيها، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: «تعس عبدالدرهم، تعس عبدالدينار، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الحميلة» وهذا هو عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله، فإن الله إذا عطاها إياها رضى، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويجب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ما

(١) تيسير العزيز الحميد (٦-٤٠، ٤٠٧).

أبغض الله ورسوله، ويوالى أولياء الله، ويعادى أعداء الله، فهذا الذى استكمل الإيمان، انتهى ملخصاً. اهـ.

قوله: [تعس عبد الخميصة]

قال ابن حجر^(١): كساء مربع، له علمان. اهـ.

وقال أيضاً^(٢): قال الأصمعي: الحمائص: ثياب خز أو صوف معلمة، وهى سود، كانت من لباس الناس.

وقال أبو عبيد: هو كساء مربع له علمان، وقيل: هى كساء رقيق من أى لون كان، وقيل: لا تسمى خميصة حتى تكون سوداء معلمة. اهـ.

وقول أبى السعادات بنحو هذا.

قوله [تعس عبد الخميصة]

قال أبو السعادات^(٣): والخميصة بفتح الحاء المعجمة .

الخميل والخميصة: القطيفة، وهى ثوب له خمل من أى شىء كان.

وقيل: الخميل الأسود من الثياب. اهـ.

وقال فى اللسان^(٤): الحَمِيلَة والحَمَل والخمالة: ريش النعام، والجمع الحَمِيل، والحَمَلَة والحَمْلَة والحَمِيلَة: القطيفة.

قال أبو خراش:

وظلت تُراعى الشمس حتى كأنها فُوق البضيع فى الشعاع حَمِيل

وقال السكرى: الخميل: القطيفة ذات الحَمَل... اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٥): وهذا من يعنى بمظهره وأثاثه، لأن الخميصة كساء جميل والخميصة فراش وثير، ليس له همٌّ إلا هذا الأمر، فإذا كان عابداً لهذه الأمور لأنه صرف لها جهوده وهمته، فكيف بمن أراد بالعمل الصالح شيئاً من الدنيا فجعل الدين وسيلة للدنيا؟! فهذا أعظم. اهـ.

قلت: وهذا هو عبدالموضه فلا يعمل إلا لها وعليها إذا قيل له أو قيل لها لم هذا الثياب الكاسى العارى قالت: الموضه كده لم هذا الأثاث الذى جاوز حد الاسراف ولم

(٢) فتح البارى (١٠/٢٩١)

(١) فتح البارى (١/٥٧٦)

(٥) القول المفيد (٢/٣٠٣).

(٤) اللسان (٢٢١/مادة خمل)

(٣) النهاية (٢/٨١)

تلقى من أجله آثاءً فاخراً جديداً قالوا لأن الموضة كده فإن قيل لهم هذا إسراف والله لا يحب المرففين قالوا لكن الموضة العام هنا كذا وكذا ولا يجوز أن نتخلف عنها أو نخالفها فهذا أو هذه هي أو هو المتعوس لأن سيظل هكذا إلى أن يموت لا هو نال مراده لانه الموضة لاتثبت ولا دفع عنه المكروه . . والله أعلم .

قوله: [إن أعطى رضى، وإن لم يعط سخط]

تقدم أن ابن تيمية^(١) قال: وَصِفَ بَأَنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة، أو نحو ذلك من هواء نفسه إن حصل له رضى، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له .

إلى أن قال : ولو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاه إياها رضى، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله، ويسخطه ما يسخط الله . . . اهـ .

وقال ابن حجر^(٢): وعند ابن ماجه والإسماعيلي بلفظ آخر «الوفاء عوض الرضا» وأحدهما ملزوم للآخر غالباً . اهـ .

وقال حامد بن محمد^(٣): أى سخطه ورضاه لأطماع الدنيا، إن حصلت رضى، وإن لم تحصل سخط قاطعاً النظر عن رضى الله، وسخطه، فصار عبد الدينار والدرهم والخميصة والخميلة بهذه الحثية فدعا رسول الله ﷺ على من هذا حاله اهـ .

وقال ابن عثيمين^(٤): يحتمل أن يكون المعطى هو الله فيكون الإعطاء قدرياً، أى: إن قدر الله له الرزق والعطاء رضى وانشرح صدره، وإن مُنِعَ وحُرِمَ المال سخط بقلبه وقوله، كأن يقول : لماذا كنت فقيراً وهذا غنياً؟ وما أشبه ذلك، فيكون ساخطاً على قضاء الله وقدره لأن الله منعه .

والله سبحانه وتعالى - يعطى ويمنع لحكمة، ويعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن يحب .

(١) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد (٤٠٦، ٤٠٧)

(٢) فتح البارى (٢٥٩/١١)

(٣) فتح الله الحميد المجيد (٣٧٤، ٣٧٣)

(٤) القول المفيد (٢/٢٠٣، ٢٠٤)

والواجب على المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره، إن أعطى شكر، وإن منع صبر. ويحتمل أن يراد بالإعطاء هنا الإعطاء الشرعى، أى : إن أعطى من مال يستحقه من الأموال الشرعية رضى، وإن لم يعط سخط، وكلا المعنيين حق، وهما يدلان على أن هذا الرجل لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له، ولهذا سماه الرسول ﷺ عبداً له. اهـ.

قوله [تعس وانتكس]

قال ابن حجر^(١): تقدم معنى التعاسة: وهى الشقاوة، والكب على الوجه، أو يعثر فلا يفيق من عثرته أو هو الهلاك. . .

وقوله «وانتكس» بالهملة أى عاوده المرض، وقيل إذا سقط اشتغل بسقطته حتى يسقط أخرى، وحكى عياض أن بعضهم رواه «انتكش» بالمعجمة وفسره بالرجوع، وجعله دعاء له لا عليه، والأول أولى.

وقال فى موضع آخر^(٢): وقوله وانتكس فعلى ما تقدم من تفسير التعس بالسقوط يكون المراد أنه إذا قام من سقطته عاوده السقوط، ويحتمل أن يكون المعنى بانتكس بعد تعس انقلب على رأسه بعد أن سقط، ثم وجدته فى شرح الطيبي، قال فى قوله «تعس وانتكس» فيه الترقى فى الدعاء عليه لأنه إذا تعس انكب على وجهه فإذا انتكس انقلب على رأسه، وقيل التعس الخر على الوجه والتكس الخر على الرأس. اهـ.

وذكر سليمان آل الشيخ كلام ابن حجر بالنص، وزاد قول أبى السعادات وهو قريب من هذا.

وقال ابن عثيمين^(٣): تعس أى : خاب وهلك، وانتكس، أى: انتكست عليه الأمور بحيث لا تيسر له، فكلما أراد شيئاً انقلبت عليه الأمور خلاف ما يريد. اهـ.

قوله: [إذا شيك فلا انتقش]

قال ابن حجر^(٤): قوله: «وإذا شيك فلا انتقش»: بكسر المعجمة وسكون التحتانية بعدها كاف.

(١) الفتح ٩٧/٦

(٢) الفتح ٢٥٩/١١

(٣) القول المفيد ٣٠٤/٢

(٤) الفتح ٩٧/٦

وانتقش: بالقاف والمعجمة.

والمعنى إذا أصابته الشوكة فلا وجد من يخرجها منه بالمناقش، تقول نقشت الشوك إذا استخرجته. وذكر ابن قتيبة أن بعضهم رواه بالعين المهملة بدل القاف، ومعناه صحيح لكن مع ذكر الشوكة تقوى رواية القاف.

ووقع في رواية الأصيلي عن أبي زيد المروزي «وإذا شيت» بمثابة فوقانية بدل الكاف وهو تغيير فاحش، وفي الدعاء بذلك إشارة إلى عكس مقصوده لأن من عثر فدخلت في رجله الشوكة فلم يجد من يخرجها يصير عاجزاً عن الحركة والسعى في تحصيل الدنيا.

وقال أيضاً^(١): وفيه إشارة إلى الدعاء عليه بما يثبطه عن السعى والحركة، وسوغ الدعاء عليه، كونه قصر عمله على جمع الدنيا واشتغل بها عن الذي أمر به من التشاغل بالواجبات والمندوبات.

قال الطيبي: وإنما خص انتقاش الشوكة بالذكر لأنه أسهل ما يتصور من المعاونة، فإذا انتفى ذلك الأسهل انتفى ما فوق بطريق الأولى. اهـ.

وقال بنحوه سليمان آل الشيخ وذكر نص كلام ابن حجر وزاد من كلام أبي السعادات بنحوه.

قال ابن عثيمين^(٢): أى: إذا أصابته شوكة، فلا يستطيع أن يزيل ما يؤذيه عن نفسه.

وهذه الجمل الثلاث يحتمل أن تكون خبراً منه ﷺ عن حال هذا الرجل، وأنه في تعاسة وانتكاس وعدم خلاص من الأذى، ويحتمل أن يكون من باب الدعاء على مَنْ هذه حاله، لأنه لا يهتم إلا للدنيا، فدعا عليه أن يهلك، وأن لا يصيب من الدنيا شيئاً، وأن لا يتمكن من إزالة ما يؤذيه، وقد يصل إلى الشرك عندما يصدّه ذلك عن طاعة الله حتى أصبح لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له. اهـ.

قلت: وإن كان خبراً فهو الصدق وإن كان دعاءً فهو مستجاب ففي كلا الحالتين الوعيد محققه والدر أعلم.

قوله: [طوبى لعبد]

(١) الفتح ٢٥٩/١١

(٢) القول المفيد ٣٠٤/٢

قال ابن حجر: إشارة إلى الخوض على العمل بما يحصل به خير الدنيا والآخرة.
وقال سليمان آل الشيخ^(١): قال أبو السعادات: طوبى اسم الجنة، وقيل: هى شجرة فيها.

وقد روى ابن وهب عن عمرو بن الحارث أن دراجاً حَدَّثَهُ أَنَّ أبا الهيثم حدثه عن أبي سعيد فى حديث فقال رجل: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا طُوبَى؟ قال: «شَجَرَةٌ فِى الْجَنَّةِ مَسِيرَةٌ مِائَةً سَنَةً ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا» رواه حرملة عنه^(٢).

ورواه أحمد فى «مسنده» من حديث عتبة بن عبد السلمي جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الْخَوْصِ وَذَكَرَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ وَفِيهَا فَأكِهَةٌ. قال: «نَعَمْ وَفِيهَا شَجَرَةٌ تُدْعَى طُوبَى» الحديث^(٣).

قال الزجاج: فى قوله: طوبى لهم ومعناه: العيش الطيب.
وقال ابن الأنبارى: الحال المستطابة لهم لأنه فُعِلَى من الطيب، وقيل: معناه هنيئاً بطيب العيش لهم وهذه الأقوال ترجع إلى قول واحد. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): و«طوبى» فُعِلَى من الطيب، وهى اسم تفضيل، فأطيب للمذكر وطوبى للمؤنث، والمعنى: أطيب حال تكون لهذا الرجل، وقيل: إن طوبى شجرة فى الجنة، والأول أعم، كما قالوا فى ويل: كلمة وعيد، وقيل: وادٍ فى جهنم، والأول أعم.

وقوله [آخذ بعنان فرسه]

قال سليمان آل الشيخ^(٥): أى فى طريق الجهاد. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٦): أى: ممسك بمقود فرسه الذى يقاتل عليه وهذا عكس الأول، فهو لا يهتم للدنيا، وإنما يهتم للآخرة، فهو فى استعداد دائم للجهاد فى سبيل الله. اهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٠٧، ٤٠٨

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٧١/٣) بإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٨٣/٤)

(٤) القول المفيد ٣٠٤/٢، ٣٠٥.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٠٨

(٦) القول المفيد ٣٠٤/٢، ٣٠٥.

قوله: [فى سبيل الله]

قال ابن عثيمين^(١): ضابطه أن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا للحمية أو الوطنية أو ما أشبه ذلك، لكن إن قاتل وطنية وقصد حماية وطنه لكونه بلداً إسلامياً يجب الذود عنه، فهو فى سبيل الله، وكذلك من قاتل دفاعاً عن نفسه أو ماله أو أهله، فإن النبى ﷺ قال: «من قتل دون ماله، فهو شهيد»^(٢) فأما من قاتل للوطنية المحضة، فليس فى سبيل الله، لأن هذا قتال عصبية يستوى فيه المؤمن والكافر، فإن الكافر يقاتل من أجل وطنه أهد.

قلت: أو تحمل الأدلة على حالين الأولى حالة الجماعة المسلمة فجهادها لا يكون إلا لتكون كلمة الله هي العليا والحالة الثانية هي حالة الافراد فهم قد يقاتلون عن أموالهم وغير ذلك من ممتلكاتهم الشخصية التى لا يجوز للجماعة أن تحارب من أجلها إلا إذا كان ذلك فى سبيل الله والله كأن يكون المال لله فقاموا لرده أو ليستيعنوا به على إعلاء كلمة الله وإذلا له الكفر وأهله كما خرج الصحابة فى بدر وهم يودون أن غير ذات الشوك تكون لهم وهى العير والله أعلم.

قوله [أشعث رأسه، مغبرة قدماء]

قال ابن حجر^(٣): قوله «أشعث» صفة لعبد وهو مجرور بالفتحة لعدم الصرف. و«رأسه» بالرفع الفاعل.

قال الطيبى «أشعث رأسه مغبرة قدماء» حالان من قوله «العبد» لأنه موصوف.

قال الكرمانى: يجوز الرفع ولم يوجهه وقال غيره: ويجوز فى أشعث الرفع على أنه صفة رأس، أى رأسه أشعث، وكذا قوله «مغبرة قدماء». اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قوله: «أشعث الرأس» هو بنصب أشعث صفة لعبد لأنه غير مصروف للصفة ووزن الفعل، ورأسه مرفوع على الفاعلية لأشعث وهو مغبر الرأس وفيه فضل إصابة الغبار فى سبيل الله.

قوله: «مغبرة قدماء» هو كأشعث فى الإعراب والمراد به كثرة الغبار له فى سبيل الله لكثرة جهاده ومصابرته. اهـ.

(١) القول المفيد ٢/ ٣٠٥.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٤٨٠)، ومسلم فى الإيمان (١٦٤/٢ - النووى) وانظر «رياض الصالحين» (١٣٥٨ - بتخريجنا).

(٣) الفتح ٦/ ٩٧.

(٤) تيسير العزيز الخميذ ٤٠٨.

قال ابن عثيمين^(١): أى رأسه أشعث من الغبار فى سبيل الله، فهو لا يهتم بحاله ولا بدنه ما دام هذا الأمر ناتجاً عن طاعة الله- عز وجل- وقدماء مغبرة من السير فى سبيل الله، وهذا دليل على أن أهم شىء عنده هو الجهاد فى سبيل الله، أما أن يكون شعره أو ثوبه أو فراشه نظيفاً، فليس له هم فيه.

قوله: [إن كان فى الحراسة، فهو فى الحراسة، وإن كان فى الساقّة، فهو فى الساقّة]

قال ابن حجر^(٢): هذا من المواضع التى اتحد فيها الشرط والجزاء لفظاً لكن المعنى مختلف، والتقدير إن كان المهم فى الحراسة كان فيها، وقيل معنى «فهو فى الحراسة» أى فهو فى ثواب الحراسة، وقيل هو للتعظيم أى إن كان فى الحراسة فهو فى أمر عظيم، والمراد منه لازمه أى فعليه أن يأتى بلوازمه ويكون مشغولاً بخويصة عمله.

وقال ابن الجوزى: المعنى أنه خامل الذكر لا يقصد السمو، فإن اتفق له السير سار، فكأنه قال: إن كان فى الحراسة استمر فيها وإن كان فى الساقّة استمر فيها. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): قوله: «إن كان فى الحراسة» قال بعضهم: هو بكسر الحاء أى: حماية الجيش ومحافظتهم عن أن يهجم عليهم عدوهم.

قوله: «كان فى الحراسة» أى: امثل غير مقصر فيها بالنوم والغفلة ونحوهما.

قوله: «وإن كان فى الساقّة كان فى الساقّة» أى: أن جعل فى مؤخرة الجيش صار فيها ولزمها.

وقال الخلقالى: والمعنى ائتماره لما أمر وإقامته حيث أقيم لا يفقد من مكانه، وإنما ذكر الحراسة والساقّة لأنهما أشد مشقة وأكثر آفة.

قلت: - يعنى سليمان آل الشيخ - وفيه فضيلة الحرس فى سبيل الله.

قال ابن عثيمين^(٤): الحراسة والساقّة ليست من مُقدّم الجيش، فالحراسة أن يحرس الإنسان الجيش، والساقّة أن يكون فى مؤخرته، وللجملتين معنيان:

(١) القول المفيد ٢/٣٠٣

(٢) الفتح ٦/٩٧

(٣) تيسير العزيز الحميد ٨٠٨، ٨٠٩

(٤) القول المفيد ٢/٣٠٦

أحدهما: أنه لا يبالى أين وضع، وإن قيل له: أحرس، حرس، وإن قيل: له: كن فى الساقة، كان فيها، فلا يطلب مرتبة أعلى من هذا المحل كمقدم الجيش مثلاً.

الثانى: إن كان فى الحراسة أدى حقها، وكذا إن كان فى الساقة، والحديث الصالح لمعنيين، يحمل عليهما جميعاً إذا لم يكن بينهما تعارض، ولا تعارض هنا.

قوله: [إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع]

قال ابن حجر^(١): فيه ترك حب الرياسة والشهرة وفضل الخمول والتواضع. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «إن استأذن لم يؤذن له» أى: إن استأذن على الأمراء، ونحوهم لم يأذنوا له، لأنه ليس بذى جاه ولا يقصد بعمله الدنيا فيطلبها منهم، ويتردد إليهم لأجلها بل هو مخلص لله.

قوله: «وإن شفع» بفتح أوله وثانيه مبنى للفاعل، ويشفع بتشديد الفاء، مبنى للمفعول، والمراد والله أعلم أنه لا يشفع عند الملوك ونحوهم، لعدم جاهه عندهم وعلى تقدير شفاعته، إن شفع لم يشفع بل يردون شفاعته.

قال بعضهم: قيل: إن هذا إشارة إلى عدم التفاته إلى الدنيا وأربابها بحيث لا يبتغى مالا ولا جاهاً عند الناس، بل يكون عند الله وحيهاً ولم يقبل الناس شفاعته، ويكون عند الله شافعاً مشفعاً.

كما فى الحديث الذى رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة مرفوعاً: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ»^(٣). اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): أى هو عند الناس ليس له جاه ولا شرف، حتى إنه إن استأذن لم يؤذن له، وهكذا عند أهل السلطة ليس له مرتبة، فإن شفع لم يُشَفَّعْ، ولكنه وجيه عند الله وله المنزلة العالية، لأنه يقاتل فى سبيله.

والشفاعة: هى التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

قلت وقد تقدم المعنى اللغوى والاصطلاحي فى باب الشفاعة.

(١) الفتح ٩٨/٦

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٠٩

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم (٢٦٢٢).

(٤) القول المفيد ٣٠٣/٢.

والاستئذان: طلب الإذن بالشئ.

والحديث قَسَمَ الناس إلى قسمين:

الأول: ليس لهم إلا الدنيا، إما لتحصيل المال، أو لتجميل الحال، فقد استعبدت قلبه حتى أشغلته عن ذكر الله وعبادته.

الثاني: أكبر همَّ الآخرة، فهو يسعى لها في أعلى ما يكون مشقة وهو الجهاد في سبيل الله، ومع ذلك أدى ما يجب عليه من جميع الوجوه.

ويستفاد من الحديث:

قال سليمان آل الشيخ^(١): وفيه أن هذه الأمور ونحوها لا تكون لهوان المؤمن على الله بل لكرامته، وفيه الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات، قاله المصنف. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢):

١- أن الناس قسمان كما سبق.

٢- أن الذى ليس له هم إلا الدنيا قد تتقلب عليه الأمور، ولا يستطيع الخلاص من أدنى أذية وهى الشوكة، بخلاف الحازم الذى لا تهمة الدنيا، بل أراد الآخرة ولم ينس نصيبه من الدنيا، وقنع بما قدره الله له.

٣- أنه ينبغي لمن جاهد فى سبيل الله ألا تكون همّة المراتب بل، يكون همّة القيام بما يجب عليه، إما فى الحراسة، أو الساقة، أو القلب، أو الجنب، حسب المصلحة.

٤- أن دنو مرتبة الإنسان عند الناس لا يستلزم منه دنو مرتبته عند الله - عز وجل - فهذا الرجل الذى إن شفع لم يُشَفَّع وإن استأذن لم يُؤْذَنَ له قال فيه الرسول ﷺ «طوبى له» ولم يقل: إن سأل لم يُعْطَ، بل لا تهمة الدنيا حتى يسأل عنها، لكن يهيمه الخير فيشفع للناس ويستأذن للدخول على ذوى السلطة للمصالح العامة. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله^(٣): ما يستفاد من هذا الباب:

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٠٩

(٢) القول المفيد (٣٠٧/٢).

(٣) الجامع الفريد (١٥٠).

- ١- تحريم إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.
- ٢- وعيد من قصد الدنيا بعمل الآخرة بإحباط عمله ودخوله النار.
- ٣- الحث على إخلاص العمل لله.
- ٤- ترك حب الرئاسة والشهرة.
- ٥- فضل الخمول والتواضع.
- والله سبحانه وتعالى أعلم . اهـ.
- وقال قراوى^(١): الفوائد:

- ١- جواز الدعاء على أهل المعاصي على سبيل العموم .
- ٢- ذم شدة الحرص على الدنيا.
- ٣- من كانت الدنيا أكبر همه وقع فى المشاكل.
- ٤- استحبابه الاستعداد للجهاد وقيل يجب .
- ٥- فضل الجهاد فى سبيل الله .
- ٦- الانضباط العسكرى من تعاليم الإسلام.
- ٧- فضل حراسة الجيش .
- ٨- يقاس المرء بعمله لا بمظهره .
- ٩- لا يلزم من وجاهة الشخص عند الله وجاهته فى الدنيا . اهـ.
- ١٠ - قلت: وفيه فضل سقاية الجيش .
- ١١ - فيه معنى قوله ﷺ: «البذاذه من الإيمان»(*) .
- ١٢ - فيه أن النهى عن عدم تسكين الشعر بالمشط ليس على إطلاقه فإذا كان ذلك فى سبيل الله فهو منقبه وإلا فهذا تشبه بالشيطان .
- ١٣ - أن على المجاهد أن يوجد حيث أمره إمامه وقائدة فلا يجوز أن يجاهد بشرط أن يوضع فى مقدمه أو مؤخره أو ميمنة أو ميسرة .

(١) الجديد (٣٣٢).

(*) أخرجه البيهقى فى «الشعب» (٨١٣٥) عن كعب بن مالك به .

فيه مسائل:

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

الثانية: تفسير آية هود.

الثانية: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميسة.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطى رضى، وإن لم يعط سخط.

١٤ - فيه معنى قوله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئا»^(١).

فيه مسائل:

قال ابن عثيمين^(٢):

● الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

وهذا من الشرك، لأنه جعل عمل الآخرة وسيلة لعمل الدنيا، فيطغى على قلبه حب الدنيا حتى يقدمها على الآخرة، والحزم والإخلاص أن يجعل عمل الدنيا للآخرة.

● الثانية: تفسير آية هود.

وقد سبق ذلك

● الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميسة:

وهذه العبودية لا تدخل فى الشرك ما لم يصل بها إلى حد الشرك، ولكنها نوع آخر يخل بالإخلاص، لأنه جعل فى قلبه محبة زاحمت محبة الله - عز وجل - ومحبة أعمال الآخرة.

● الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط.

هذا تفسير لقوله ﷺ: «عبد الدينار، عبد الدرهم، عبد الخميسة، عبد الخميعة إن

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٦/١٧٧ - النووى) عن أبى ذر به وانظر «رياض

الصالحين» (١٢٢ - بتخريجتنا).

(٢) القول المفيد (٢/٣٠٨، ٣٠٩).

الخامسة: قَوْلُهُ (تَعْسَ وَانْتَكَسَ).

السادسة: قَوْلُهُ «وَإِذَا شَيْكَ، فَلَا انْتَقَشَ».

السابعة: الثَّنَاءُ عَلَى الْمُجَاهِدِ الْمُوصُوفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ.

أعطى رضى وإن لم يعط سخط» وهذه علامة عبوديته لهذه الأشياء أن يكون رضاء وسخطه تابعاً لهذه الأشياء .

● الخامسة: قوله: «تعس وانتكس».

قلت: تقدم المعنى أنه لانال مراده ومطلوبه ولافر من مكروهه فهو لهذا فى شقاء كلما أراد أن يخرج فيه من غم أعيد فيه .

● السادسة: قوله: «إذا شيك فلا انتقش»

يحتمل أن تكون الجمل الثلاث خبراً أو دعاءً، وسبق شرح ذلك .

● السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات .

فقوله فى الحديث «طوبى لعبد..» يدل على الثناء عليه، وأنه هو الذى يستحق أن يمدح لا أصحاب الدراهم والدنانير، وأصحاب الفرش والمراتب .



باب (٣٧)

مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأَمْرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا.

● يحتوى هذا الباب على المسائل الآتية:

● ترجمة الباب:

١- مناسبة الباب لما قبله ولكتاب التوحيد

٢- ماذا أراد المصنف بهذه الترجمة .

٣- مسألة/ تعارض الترجمة مع قوله تعالى ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ

مِنْكُمْ ﴾ والجواب عليه .

٤- شرح الترجمة .

● أثر ابن عباس/ يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء:

١- مناسبة الأثر للباب وللتوحيد .

٢- شرح الأثر .

٣- فوائد الأثر .

٤- وقوف السلف عند حكم رسول الله ﷺ والرجوع عن حكمهم إن خالف .

● قول الإمام أحمد/ عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأى
سفيان.

١- شرح قول الإمام أحمد .

٢- تفسير قوله تعالى ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ التى ذكرها الإمام أحمد

فى قوله -

٣- قول شراح التوحيد فى شرح الأثر فى التقليد والاتباع .

٤- فصل فى التقليد .

(١) تعريف التقليد لغة واصطلاحاً .

(٢) حكم التقليد .

(٣) فساد التقليد ونفيه، والفرق بين التقليد والاتباع .

(٤) قبول قول الرسول والعمل به ليس تقليداً .

(٥) الفرق بين التقليد والاتباع.

(٦) تقليد العامة للعلماء.

(٧) ماذا يقال للمقلد.

(٨) حجج المقلدين والجواب عليها من كلام ابن القيم.

• تنبيهات مهمة تتعلق بالتقليد

(٩) بعض أسباب رد الشرع لقول الشيخ ممن يقلده.

(١٠) هل للمقلد عذر في الخطأ كما للمجتهد.

(١١) لا يجوز للمقلد أن يفتي بما أفتاه به شيخه

(١٢) شبهة المقلدين، والرد عليها.

(١٣) الضرورة عذر في التقليد للمضطر.

(١٤) نحب الأئمة جميعاً، وحبنا للحق أشد.

(١٥) الأعذار لمخالفة رسول الله ﷺ.

(١٦) لا بد لمن يرى التقليد أن يفرق بين كلام إمامه وكلام ما ألحق بعده على قواعد

مذهبه.

(١٧) الرد على من قال بإغلاق الاجتهاد.

(١٨) خطورة الإعراض عن الكتاب والسنة بكتب الفروع.

• حديث عدى بن حاتم أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم﴾.

١- مناسبة الحديث للباب وللتوحيد.

٢- شرح الحديث.

٣- ما استفاد من الحديث.

وفيه تقسيم اتباع العلماء أو الأمراء إلى ثلاثة أقسام. (وفيه كلام محمد بن إبراهيم

في رسالته تحكيم القوانين.

٤- فائدة (ومن لم يحكم بمن أنزل الله فأولئك هم الكافرون) و(الظالمون)

و(الفاسقون)

- خلاصة القول في شبهة التسوية بين العلمانية وبين انحرافات التطبيق الجزئية.

- شبهة وجوبها.

- فتاوى أئمة المسلمين في علمانية التشريع.

• مسائل الباب.

- شرح المسائل.



بَابُ

مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأَمْرَاءَ فِي تَحْرِيمٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلٍ مَا حَرَّمَ فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا.

● مناسبة هذا الباب لما قبله.

قال الفقير: وعلاقة هذا الباب بالذى قبله أن الرياء وإرادة الدنيا بالعمل يجتمعان كما تقدم في أن كلاً منهما تزين وتضع بالعمل عند الناس، وأغلب هذا التزين واشتباه إنما يكون للعلماء والأمرء وربما جرَّ ذلك إلى مدهانتهم ومصانعتهم في مخالفة أمر الله وأمر رسول الله ﷺ إما بالإقرار على المخالفة منهم أو بالمخالفة من أجلهم فإن كان التزين للعلماء فالغالب على العمل المستزين به لهم الصلاح وإن كان هو في حقيقته فيه مخالفة إبتغاء طاعتهم، وذلك بخلاف العمل للأمرء لكسب عرض دنيوى منهم، فالغالب عليه الفساد كما فعل غياث بن إبراهيم حينما دخل على المهدي وهو يلعب بالحمام فوضع حديثاً على رسول الله ﷺ بلفظ «لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر أو جناح» فزاد جناح وكذب على الرسول مدهانة للمهدي ببدرة^(١).

فالأول الغالب عليه الرياء والثاني الغالب عليه إرادة الإنسان بعمله الدنيا وهما صورتان من صور طاعة العلماء والأمرء في مخالفة الشرع. والله الموفق.

● مناسبة الباب وللتوحيد.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): لما كانت الطاعة من أنواع العبادة، بل هي العبادة، فإنها طاعة الله بامثال ما أمر به على السنة رسله عليهم السلام.

نبه المصنف - رحمه الله تعالى - بهذه الترجمة على وجوب اختصاص الخالق تبارك وتعالى بها، وأنه لا يُطاع أحد من الخلق إلا حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله وإلا فلا تجب طاعة أحد من الخلق استقلالاً.

والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك غير الرسول ﷺ فإنه لا ينطق عن الهوى فهو مشرك كما بينه الله تعالى في قوله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾ أى علماءهم ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١) الموضوعات لابن الجوزى (٤٢/١).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٠٩، ٤١٠).

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾
وفسرها النبی ﷺ بطاعتهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام، كما سيأتى في حديث
عدى(*) . أهـ وتقدم ذلك أيضاً .

وقال عبدالله بن جابر الله^(١): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هي أن طاعة
الرؤساء في تحريم الحلال، وتحليل الحرام، شرك أكبر ينافي التوحيد . أهـ .

قال ناصر السعدى^(٢): ووجه ما ذكره المصنف ظاهر، فإن الرب، والإله هو الذى له
الحكم القدرى، والحكم الشرعى، والحكم الجزائى، وهو الذى يؤله ويعبد وحده
لا شريك له، ويطاع طاعة مطلقة، فلا يعصى بحيث تكون الطاعات كلها تبعاً لطاعته .
فإذا اتخذ العبد العلماء والأمرء على هذا الوجه، وجعل طاعتهم هي الأصل وطاعة الله
ورسوله تبعاً لها، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله يتألههم، ويحكم إليهم، ويقدم
حكمهم على حكم الله ورسوله، فهذا هو الكفر بعينه، فإن الحكم كله لله، كما أن
العبادة كلها لله . أهـ .

(قلت): وقد بين المصنف فى أبواب الكتاب المقدمة على التفصيل المتقدم، بعض
أنواع الشرك، وهنا يذكر نوعاً آخر من أنواع الشرك وهو شرك التحليل والتحريم
والحكمية فأفرده ليدلل على أن الطاعة التامة المطلقة لله ولما جاء به رسول الله ﷺ وأن
هذه عبادة، وصرفها لغير الله شرك، وأكثر ما يقع هذا الشرك عند طاعة العلماء والأمرء
فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أرباباً .

● ماذا أراد المصنف بهذه الترجمة .

قال ابن باز^(٣): أراد المصنف بهذه الترجمة تحقيق التوحيد، واتباع الشريعة،
وتعظيم أمر الله ونهيه، والحذر من تقليد الشيوخ والأمرء فى ما يخالف شرع الله وهو
التقليد الأعمى - إلى أن قال - فالطاعة إما تكون فى المعروف، فطاعتهم فى خلاف شرع
الله حرام، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، فلا يطيع والده أو ولده أو زوجه فى
خلاف الشرع من الحل والحرم، وطاعتهم فيما يخالف الشرع، وهو اتخاذهم آلهة من
دون الله . أهـ .

وقال حامد بن محمد^(٤): باب ماجاء فى بيان أن من أطاع العلماء والأمرء فى

(*) سبق تخريجه .

(١) الجامع الفريد (١٥١) .

(٢) القول السديد (١٠١، ١٠٢، ١٠٣) .

(٣) التعليق المفيد (١٩٥) .

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٣٧٧) .

تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله، لجعله إياهم المطاعون في مخالفة الله وتغيير حكمه. أهـ.

مسألة:

فإن قيل : قد قال الله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ وقيل : هم العلماء، وقيل هم الأمراء. وهما روايتان عن أحمد. وقال ابن القيم: والتحقيق: بأن الآية تعم الطائفتين.

الجواب: قال سليمان آل الشيخ^(١): قيل : إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله وطاعة رسوله، فكان العلماء مبلغين لأمر الله وأمر رسوله، والأمراء منفذين له فحينئذ تجب طاعتهم تبعاً لطاعة الله ورسوله ، كما قال ﷺ:

«لا طاعة في المعصية، إنما الطاعة في المعروف»^(٢) وقال «على المرء المسلم فيما أحب وكره، إلا أن يأمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^(٣) حديثان صحيحان، فليس في هذه الآية ما يخالف آية براءة. أهـ.

قلت: وسبب ورود قوله ﷺ: إنما الطاعة في المعروف من أقطع الأجوبة أيضاً على هذه المسألة حيث إن عبد الله بن حذافة كان أميراً أمره الرسول ﷺ على السرية فأمرهم بجمع الحطب ثم إضمار النار فيها ثم الدخول في النار حتى قال بعضهم: منها فررتم فلم يدخلوا ولما رجعوا سألوا رسول الله ﷺ فقال: لو دخلتموها ما خرجتم إلى يوم القيامة إنما الطاعة في المعروف^(٤) وسيأتي الحديث وشرحه في الصفحة القادمة أو بعدها. وسيأتي مزيد بيان من كلام الشنقيطي في الفرق بين التقليد والاتباع.

● شرح الترجمة:

قال ابن عثيمين^(٥): قوله : «من أطاع العلماء».

«من» يحتمل أن تكون شرطية، بدليل قوله: «فقد اتخذهم»؛ لأنها جواب الشرط، ويحتمل أن تكون موصولة؛ أي «باب الذي أطاع العلماء». وقوله: «فقد اتخذهم».

خير المبتدأ، وقرنت بالفاء؛ لأن الاسم الموصول كالشرط في العموم، وعلى الأول

(١) تيسير العزيز الحميد (٤١٠).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧١٤٥)، ومسلم في الإمامة (٣٩/٤٦٧/٦) عن علي به وتقدم.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم في الإمامة (٣٨/٤٦٦/٦) عن ابن عمر به.

(٤) تقدم قبل حديث. (٥) القول المفيد (٢/ ٣١٠-٣١٢).

تقرأ «باب» بالتثنية، وعلى الثاني بدون تثنية، و الأول أحسن.

والمراد بالعلماء بشرع الله، وبالأمراء: أولو الأمر المنفذون له، وهذان الصنفان هم المذكوران في قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ فجعل الله طاعته مستقلة وطاعة رسوله مستقلة، وطاعة أولى الأمر تابعة، ولهذا لم يكرر الفعل ﴿أَطِيعُوا﴾؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وأولو الأمر هم أولو الشأن، وهم العلماء؛ لأنه يستند إليهم في أمر الشرع والعلم به، والأمراء؛ لأنه يستند إليهم في تنفيذ الشرع وإمضائه، وإذا استقام العلماء والأمراء استقامت الأمور، وبفسادهم تفسد الأمور؛ لأن العلماء أهل الإرشاد والدلالة، والأمراء أهل الإلزام والتنفيذ.

قوله: «في تحريم ما أحل الله».

أى: فى جعله حراماً؛ أى: عقيدة أو عملاً.

«أو تحليل ما حرم الله».

أى: فى جعله حلالاً عقيدة أو عملاً؛ فتحريم ما أحل الله لا ينقص درجة فى الإثم عن تحليل ما حرم الله، وكثير من ذوى الغيرة من الناس تجدهم يميلون إلى تحريم ما أحل الله أكثر من تحليل الحرام، بعكس المتهاونين، وكلاهما خطأ، ومع ذلك؛ فإن تحليل الحرام فيما الأصل فيه الحل أهون من تحريم الحلال؛ لأن تحليل الحرام إذا لم يتبين تحريمه فهو مبني على الأصل، وهو الحل، ورحمة الله - سبحانه - سبقت غضبه؛ فلا يمكن أن نحرم إلاماتين تحريمه، ولأنه أضيق وأشد، والأصل أن تبقى الأمور على الحل والسعة حتى يتبين التحريم.

أما فى العبادات فيشدد؛ لأن الأصل المنع والتحريم حتى يبينه الشرع كما قيل:

والأصل فى الأشياء حل وأمنع عبادة إلا بإذن الشارع

قوله «أرباباً» جمع رب، وهو المتصرف المالك.

والتصرف نوعان: تصرف قدرى، وتصرف شرعى.

فمن أطاع العلماء فى مخالفة أمر الله ورسوله؛ فقد اتخذهم أرباباً من دون الله باعتبار التصرف الشرعى؛ لأنه اعتبرهم مشرعين واعتبر تشريعهم شرعاً يعمل به، وبالعكس الأمراء. أهـ.

قوله (..... والأمراء).

تقدم الكلام على طاعة العلماء، وأما طاعة الأمراء، فقد بوب البخارى فى صحيحه. باب السمع والطاعة للإمام، ما لم تكن معصية (١).

باب السمع والطاعة للإمام، ما لم تكن معصية (١).

وأُسند - عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة (٢).

وبسنده عن ابن عباس يرويه قال: قال النبي ﷺ: من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية (٣).

وبسنده عن عبد الله رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» (٤).

وبسنده عن علي رضى الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سرية وأمر عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه، فغضب عليهم وقال: أليس قد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى قال: قد عزمت عليكم لما جمعتهم خطباً وأوقدتهم ناراً ثم دخلتم فيها. فجمعوا خطباً فأوقدوا ناراً؛ فلما هموا بالدخول فقاموا ينظر بعضهم إلى بعض فقال بعضهم: إنما تبعنا النبي ﷺ فراراً من النار افندخلها؟ فينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه فذكر للنبي ﷺ فقال: لو دخلوها ماخرجوا منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف (٥).

قال ابن حجر (٦): قوله «باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية» إنما قيده بالإمام وإن كان في أحاديث الباب الأمر بالطاعة لكل أمير ولو لم يكن إماماً لأن محل الأمر بطاعة الأمير أن يكون مؤمراً من قبل الإمام.

قوله «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل» بضم المثناة على البناء للمجهول أى جعل عاملاً بأن أمر إمارة عامة على البلد مثلاً أو ولى فيها ولاية خاصة كالإمامة فى الصلاة أو جباية الخراج أو مباشرة الحرب، فقد كان فى زمن الخلفاء الراشدين من يجتمع له الأمور الثلاثة ومن يختص ببعضها.

قوله «حبشى» بفتح المهملة والموحدة بعدها معجمة منسوب إلى الحبشة. وفى الصلاة فى «باب إمارة العبد». عن محمد بن بشار عن يحيى القطان بلفظ «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل حبشى» ومن رواية غندر عن شعبة بلفظ، قال النبي ﷺ لأبى ذر «اسمع وأطع ولو لحبشى».

(١) فتح البارى (١٣/ ١٣٠ - الفتح). (٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٧١٤٢).

(٣) [متفق عليه] البخارى (٧١٤٣)، ومسلم فى الإمامة (٦/ ٥٥/ ٤٨٠).

(٤) [صحيح] البخارى (٧١٤٤). (٥) [صحيح] البخارى (٧١٤٥) وتقدم.

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمامة (٦/ ٤٦٥/ ٣٦) عن أبى ذر بنحوه.

وقد أخرج مسلم من طريق غندر عن شعبة بإسناد آخر إلى أبي ذر أنه انتهى إلى الربذة فإذا عبد يؤمهم فذهب يتأخر لأجل أبي ذر فقال أبو ذر «أوصاني خليلي»^(١) فذكر نحوه. وظهرت بهذه الرواية الحكمة في تخصيص أبي ذر بالأمر في هذه الرواية، وقد جاءت في حديث آخر الأمر بذلك عموماً.

ولمسلم أيضاً من حديث أم الحصين «اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله»^(٢).

قوله «كأن رأسه زبيبة» واحدة الزبيب المأكول المعروف الكائن من العنب إذا جف، وإنما شبه رأس الحبشى بالزبيبة لتجمعها ولكون شعره أسود، وهو تمثيل فى الحقايرة وبشاعة الصورة وعدم الاعتداد بها.

نقل ابن بطال عن المهلب قال: قوله «اسمعوا وأطيعوا» لا يوجب أن يكون المستعمل للعبد إلا إمامة قرشى، لما تقدم أن الإمامة لا تكون إلا فى قرىش، وأجمعت الأمة على أنها لا تكون فى العبيد.

قلت - أى ابن حجر - : ويحتمل أن يسمى عبداً باعتبار ما كان قبل العتق، وهذا كله إنما هو فيما يكون بطريق الاختيار، وأما لو تغلب عبد حقيقة بطريق الشوكة فإن طاعته تجب إخماًداً للفتنة مالم يأمر بمعصية كما تقدم تقريره.

وقيل المراد أن الإمام الأعظم إذا استعمل العبد الحبشى على إمارة بلد مثلاً وجبت طاعته، وليس فيه أن العبد الحبشى يكون هو الإمام الأعظم.

وقال الخطابى: قد يضرب المثل بما لا يقع فى الوجود، يعنى وهذا من ذاك أطلق العبد الحبشى مبالغة فى الأمر بالطاعة وإن كان لا يتصور شرعاً أن يلى ذلك.

● حرمة طاعة الامام والأمير فى المعصية والأدلة على ذلك.

قوله «مالم يؤمر بمعصية» هذا يفيد ما أطلق فى الحديثين الماضيين من الأمر بالسمع والطاعة ولو حبشى، ومن الصبر على ما يقع من الأمير مما يكره، والوعيد على مفارقة الجماعة.

قوله «فإذا أمر بمعصية فلاسمع ولاطاعة» أى لا يجب ذلك بل يحرم على من كان قادراً على الامتناع، وفى حديث معاذ عند أحمد «لا طاعة لمن لا يطع الله»^(٣).

(١) فتح البارى (١٣/ ١٣٠: ١٣٢)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإمارة (٤٦٦/٦) عن أم الحصين به.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢١٣/٣) عن أنس أن معاذاً... الحديث.

قال الهيثمى فى «المجمع» (٣٢٥/٥): رواه أحمد، وأبو يعلى وفيه عمرو بن زبىن ولم أعرفه وبقيّة رجاله رجال الصحيح.

وعنده وعند البزار في حديث عمران بن حصين والحكم بن عمرو الغفاري «لا طاعة في معصية الله»^(١) وسنده قوى.

وفي حديث عبادة بن الصامت عند أحمد والطبراني «لا طاعة لمن عصى الله تعالى»^(٢) وحديث عبادة في الأمر بالسمع والطاعة «إلّا أن تروا كُفراً بواحد»^(٣).

ثم قال ابن حجر: وملخصه أنه ينزل بالكفر إجماعاً فيجب على كل مسلم القيام في ذلك، فمن قوى على ذلك فله الثواب، ومن داهن فعله الإثم، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض.

ومن صور الأمر من الأمير في المعصية ما أمر به عبد الله ابن حذافه السريه^(٤).

وبقوله: (فأوقدوا ناراً) كذا وقع في المغازي والأحكام: أن أميرهم غضب منهم فقال أوقدوا ناراً، وبقوله «قد عزمت عليكم لما فعلتم» بالتخفيف وجاء بالتشديد قيل إنها بمعنى «إلا».

لذا قال عليه السلام: «لو دخلوها ماخرجوا منها» قال الداودي: يريد تلك النار لأنهم يموتون بتحريقها فلا يخرجون منها أحياء.

قال: وليس المراد بالنار نار جهنم ولا أنهم مخلدون فيها لأنه قد ثبت في حديث الشفاعة «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان»^(٥).

قال: وهذا من المعارض التي فيها مندوحة، يريد أنه سيق مساق الزجر والتخويف ليفهم السامع أن من فعل ذلك خلد في النار، وليس ذلك مراداً وإنما أريد به الزجر والتخويف.

وقد قيل إنه لم يقصد دخولهم النار حقيقة وإنما أشار لهم بذلك إلى أن طاعة الأمير واجبة ومن ترك الواجب دخل النار، فإذا شق عليكم دخول هذه النار فكيف بالنار الكبرى، وكأن قصده أنه لو رأى منهم الجد في ولوجها لمنعهم. أهـ.

وقال ابن حجر: في موضع آخر^(٦): وفيه أن الأمر المطلق لا يعم الأحوال لأنه عليه السلام أمرهم أن يطيعوا الأمير، فحملوا ذلك على عموم الأحوال حتى في حال الغضب وفي حال الأمر بالمعصية فبين لهم عليه السلام أن الأمر بطاعته مقصور على ما كان منه في غير معصية واستنبط منه الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة أن الجمع من هذه الأمة لا يجتمعون

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٦/٥) قال الهيثمي في «المجمع» (٢٢٦/٥): ورجال أحمد رجال

الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٢٥/٥) عن عبادة بن الصامت به.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في الإمامة (٤٢/٤٦٨/٦) عن عبادة به.

(٤) تقدم تخريجه. (٥) تقدم في باب الشفاعة. (٦) فتح الباري (٦٥٧/٧)

على خطأ لانقسام السرية قسمين: منهم من هان عليه دخول النار فظنه طاعة و منهم فهم حقيقه الأمر وأنه مقصور على مالميس بمعصية، فكان اختلافهم سبباً لرحمة الجميع.

وبوب البخارى فى الجهاد باب السمع والطاعة للإمام، وزاد الكشميهنى (مالم يأمر بمعصية).

قال ابن حجر: والإطلاق محمول عليه قوله ﷺ «السمع والطاعة حق مالم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلاسمع ولاطاعة». والمراد نفى الحقيقة الشرعية لالوجودية. أهـ. (١).

قال ابن حجر (٢): فى تفسير قوله ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية.

بعد أن ذكر الاشكال الذى أورده الداودى فى سبب نزول الآية فى عبدالله بن حذافة أمير السرية: ويتفنى الإشكال الذى أبداه لأنهم تنازعوا فى إمتثال ما أمرهم به، وسببه أن الذين هموا أن يطيعوه وقفوا عند إمتثال الأمر بالطاعة، والذين إمتنعوا عارضه عندهم الفرار من النار، فناسب أن ينزل فى ذلك مايرشدهم إلى مايفعلونه عند التنازع وهو الرد إلى الله ورسوله، أى إن تنازعتم فى جواز الشئ وعدم حوازه فارجعوا إلى الكتاب والسنة، والله أعلم. أهـ.

قلت: فعلى هذا إن أمر بمعصية أو كفر فلاطاعة له كما تقدم وإن أمر بالمعروف فله السمع والطاعة، وإن أمر بأمر معروف من وجه ومنكر من وجه فهنا يقع التنازع فوجب الرد إلى كتاب الله وهكذا يظهر أن طاعة الأمراء والرؤساء ليست مطلقة إنما هى فى طاعة الله وهذا مؤدى كلام ابن القيم حيث قال فى تفسير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾: فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلالاً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً، سواء ما أمر به فى الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتى الكتاب ومثله معه، ولم يأمر بطاعة أولى الأمر استقلالاً، بل حذف الفعل، وجعل طاعتهم فى ضمن طاعة الرسول إيداناً بأنهم يطاعون تبعاً لطاعة الرسول، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلاسمع ولاطاعة. أهـ. (٣).



(٣) إعلام الموقعين (١/٣٩).

(٢) فتح البارى (٨/١٠٢).

(١) فتح البارى (٦/١٣٥).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!) (١).

قوله: «وقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة....».

● مناسبة الأثر للباب وللتوحيد:

قال ابن باز (٢): فهذا يدل على أن لا يجوز مخالفة أمر الله ورسوله بقول أبي بكر وعمر، ولو قال أبو بكر وعمر - وهم خير الناس بعد الأنبياء - فمن دونهم من باب أولى أن لا يطاعوا فيما يخالف الشرع. أهـ.

وقال القرعاوي (٣): حيث دل الأثر على أن رأى ابن عباس تحريم تقديم رأى المخلوقين على سنة رسول الله ﷺ، وإنما حرم ذلك ابن عباس؛ لأنه شرك مع الله في الطاعة أهـ.

● مناسبة ورود هذا القول:

قال سليمان وتبعه عبدالرحمن آل الشيخ (٤): هذا القول من ابن عباس رضى الله عنهما جواب لمن قال له إن أبابكر وعمر رضى الله عنهما، لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج، ويريان أن أفراد الحج أفضل، أو ماهو معنى هذا، وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب، ويقول: «إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حل من عمرته شاء أم أبى» لحديث سراقه بن مالك حين أمرهم النبي ﷺ أن يجعلوها عمرة، ويحلوا إذا طافوا البيت، وسعوا بين الصفا والمروة، فقال سراقه يارسول الله ﷺ: ألعامنا هذا أم للأبد؟ فقال «للأبد» (٥) والحديث فى الصحيحين.

(١) أخرجه الخطيب فى «الفتىة والمتفق» (٣٧٩، ٣٨٠) عن ابن عباس به.

وانظر «فتح المجيد (٧٢١) بتخريجنا.

(٢) التعليق المفيد (١٩٥).

(٣) الجديد (٣٣٤).

(٤) فتح المجيد (٥٢٨/٢) والمعنى لسليمان، واللفظ لعبد الرحمن إلا آخره..

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٥٠٥)، ومسلم فى الحج (٤٠٦/٤) عن جابر به.

وحينئذ فلاعذر لمن استفتى أن ينظر في مذاهب العلماء، وما استدبل به كل إمام ويأخذ من أقوالهم، مادل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك كما قال تعالى ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

وللبخارى ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معى الهدى لأحللت»^(١) هذا لفظ البخارى فى حديث عائشة رضى الله عنها. ولفظه فى حديث جابر: «افعلوا ما أمرتكم به، فلو لا أنى سقت الهدى لفعلت مثل الذى أمرتكم»^(٢) فى عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس.

وبالجملة: فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء...» الحديث.

فقال هذا الكلام الصادر عن محض الإيمان، وتجريد المتابعة للرسول ﷺ وإن خالفه من خالفه كائناً من كان. أهـ.

الشرح:

قوله: «يوشك»

قال سليمان آل الشيخ^(٣): (يوشك) بضم أوله وكسر الشين العجمة. قال أبو السعادات: أى يقرب ويدنو ويسرع.

وقوله (أن تنزل عليكم حجارة من السماء)

قال حامد بن محمد^(٤): غضباً من الله تعالى ومقتاً. أهـ.

وقال ابن باز^(٥): وعيد لهم بالعقوبة. أهـ.

وقال ابن عثيمين^(٦): أى من فوق تنزل عليكم عقوبة لكم، ونزول الحجارة من السماء ليس بالأمر المستحيل، بل هو ممكن، قال تعالى فى أصحاب الفيل: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ وقال تعالى فى قوم لوط ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ والخاصب الحجارة تحصبهم من السماء

(١) سيأتى تخريجه فى باب ما جاء فى اللو.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الحج (٤/٤٠٧/١٤٣) عن جابر به.

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٣٧٧)

(٣) تيسير العزيز الحميد (٤١٠)

(٦) القول المفيد (٣١٢/٢)

(٥) التعليق المفيد (١٩٥)

قوله « أقول (قال رسول الله ﷺ) وتقولون (قال ابو بكر وعمر)؟! »

قال سليمان آل الشيخ^(١): قال الشافعي أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد فإذا كان هذا كلام ابن عباس لمن عارضه بأبي بكر وعمر، وهما من هما، فماذا تظنه يقول لمن يعارض سنة رسول الله ﷺ بإمامه وصاحب مذهبه الذي يتسبب إليه؟!

ويجعل قوله عياراً على الكتاب والسنة، فما وافقه قبَّله، وما خالفه رده أو تأوله فالله المستعان.

وما أحسن ما قال بعض المتأخرين:

لما كان للأبأ إليه ذهب

فإن جاءهم فيه الدليل فيه موافقاً

ويركب للتأويل فيه صعب

رضوه وإلا قيل هذا مؤول

ولاريب أن هذا داخل في قوله تعالى «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ»
الاية أهد.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى: «مامنا إلا راد ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر ﷺ». وكلام الأئمة في هذا المعنى كثير^(٣):

وما زال العلماء رحمهم الله يجتهدون في الوقائع: فمن أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله أجر، كما في الحديث^(٤). لكن إذا استبان لهم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم. وأما إذا لم يبلغهم الحديث، أو لم يثبت عن النبي ﷺ عندهم فيه حديث، أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك. فحينئذ يسوغ للإمام أن يجتهد.

وفي عصر الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى إنما كان طلب الأحاديث ممن هي عنده باللقى والسماع، ويسافر الرجل في طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين. ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف ودونوا الأحاديث ورووها بأسانيدها، وبينوا صحيحها من حسناتها من

(١) تيسير العزيز الحميد (٤١١)

(٢) فتح المجيد (٥٢٩/٢، ٥٣٠)

(٣) راجع في ذلك: إيقاظ همم أولى الأبصار للقلاني، ومقدمة صفة صلاة النبي ﷺ للألباني.

(٤) سبق تخريجه

ضعيفها والفقهاء صنفوا في كل مذهب. وذكروا حجج المجتهدين. فسهل الأمر على طالب العلم. وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده.

وفي كلام ابن عباس رضي الله عنهما ما يدل على أن من بلغه الدليل فلم يأخذ به - تقليداً لإمامه - فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ؛ لمخالفته الدليل. وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عمر البزاز، حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا أبو عبيدة الحداد، عن مالك بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع، غير النبي ﷺ».

وعلى هذا: فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء، كائناً من كان ونصوص الأئمة على هذا. وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد التي لا دليل فيها يرجع إليه من كتاب ولا سنة، فهذا هو الذي عناه بعض العلماء بقوله: لا إنكار في مسائل الاجتهاد. وأما من خالف الكتاب والسنة: فيجب الرد عليه، كما قال ابن عباس والشافعي ومالك وأحمد، وذلك مجمع عليه. كما تقدم في كلام الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أه.

● وسيأتي مزيد نقل عن سليمان وعبد الرحمن آل الشيخ في مسألة اتباع الدليل وذم التقليد. وفي مسألة الاجتهاد، بعد تفسير الآية. والله المستعان.

وقال حامد بن محمد^(١): (أقول قال رسول الله ﷺ) ومع هذا تقابلون قول رسول الله ﷺ بقول غيره (وتقولون قال أبو بكر وعمر).

قلت: فإذا كان هذا المقت العظيم فيمن يقابل قول رسول الله ﷺ بقول خليفته أبي بكر وعمر، فكيف بمن يقابل قول الله وقول رسوله بغيرهما، ويرد حكم الله ورسوله بقول غيرهما؟! أه.

وقال ابن باز^(٢): المعنى احتج عليكم في المسألة بأمر الله ورسوله، فتخالفون وتردون على بخلاف أمر الله ورسوله، بقول أبي بكر وعمر؟

وهذا حث من ابن عباس على اتباع الشرع والحذر من تعظيم الرجال فيما يخالف الشرع. أه.

(١) فتح الله الحميد المجيد (٣٣٧)

(٢) التعليق المنيد (١٩٥)

وقال ابن عثيمين^(١): قوله «أقول قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!»

أبو بكر وعمر أفضل هذه الأمة وأقربها إلى الصواب، قال النبي ﷺ: «إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا». رواه مسلم^(٢)، وروى عنه ﷺ؛ أنه قال «أقتدوا بالذين من بعدى أبا بكر وعمر»^(٣)، وقال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»^(٤). ولم يعرف عن أبي بكر أنه خالف نصاً فى رأيه، فإذا كان قول أبي بكر وعمر إذا عارض الإنسان بقولهما قول الرسول ﷺ، فإنه يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء؛ فما بالك بمن يعارض قوله ﷺ بمن هو دون أبي بكر وعمر؟! والفرق بين ذلك كما بين السماء والأرض؛ فيكون هذا أقرب للعقوبة.

وفى الأثر التحذير عن التقليد الأعمى والتعصب المذهبي الذى ليس مبنياً على أساس سليم.

وبعض الناس يرتكب خطأ فاحشاً إذا قيل له: قال رسول الله ﷺ، قال: لكن فى الكتاب الفلانى كذا وكذا؛ فعليه أن يتقى الله الذى قال فى كتابه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٥)، ولم يقل ماذا أجبت فلاناً وفلاناً، أما صاحب الكتاب، فإنه إن علم أنه يحب الخير ويريد الحق؛ فإنه يدعى له بالمغفرة والرحمة إذا أخطأ، ولا يقال: إنه معصوم، يعارض بقوله قول الرسول ﷺ.

وقال القرعاوى^(١): الفوائد من الحديث:

(١) بيان فضل ابن عباس، ودقة فهمه.

(١) القول المفيد (٢/٣١٢)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى المساجد، (٣/١٩٧/٣١١) عن أبي قتادة به.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/٣٨٢)، والترمذى (٣٦٦٢)، وابن ماجه (٩٧) عن حذيفة به وحسنه الترمذى.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/١٢٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذى (٢٦٦٧)، وابن ماجه

(٤٤) عن العرياض بن سارية به

وأنظر «رياض الصالحين» (١٥٩ - بتخريجنا)

(٥) القصص: ٦٥.

(١) الجديد (٣٣٣)

(٢) لا يلتفت لآى رأى يخالف الكتاب والسنة مهما كان مصدره.

(٣) وجوب الغضب من أجل الله ورسوله. أهـ.

(قلت) وفيه أيضاً.

١- شدة خوف الصحابة من عقوبة الله إذا خالفوا.

٢- احتمال نزول حجارة من السماء على المخالفين للكتاب والسنة، ولما أخرجه البخارى فى «صحيحه» عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه سمع النبى ﷺ يقول: ليكونن أقوام من أمتى يستحلون الحرّ والخير والخرير والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم . يعنى الفقير - لحاجته فيقولوا أرجع إلينا غداً فيبينهم الله، ويضع العلم، ويسمخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة. (١)

قال ابن حجر (٢): (يبينهم الله) أى يهلكهم ليلاً، (ويسمخ آخرين...) قال ابن العربى يحتمل على الحقيقة كما وقع للأمم السابقة، ويحتمل أن يكون كناية عن تبدل أخلاقهم.

قلت: والأول أليق بالسياق.

(يضع العلم) قال ابن بطال إن كان العلم جبلاً فيدكده، وإن كان بناء فيهدمه، ونحو ذلك. أهـ.

قلت والأخير موضع الشاهد والله أعلم.

٣- الاتباع فيه النجاة من عذاب الله وسخطه وغضبه، فى الدنيا والآخرة.

٤ - الانكار على المخالف بالشدّة والإغلاظ عليه أحياناً لا يخالف الحكمة التى أمر بها الداعى إلى الله ولا يقع تحت قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ الآية.

وفى الباب عن سالم بن عبد الله بن عمر قال «إنى لجالس مع ابن عمر - رضى الله عنهما - فى المسجد، إذ جاء رجل من أهل الشام، فسأله عن التمتع بالعمرة إلى الحج؟ فقال ابن عمر: حسن جميل. فقال: فإن أباك كان ينهى عن ذلك؟! فقال: ويلك! فإن كان أبى قد نهى عن ذلك، وقد فعله رسول الله ﷺ وأمر به، فبقول أبى تأخذ أم بأمر رسول الله ﷺ؟! قال: بأمر رسول الله ﷺ، فقال: فقم سنى (٣).

(١) علقه البخارى (٥٥٩٠) عن أبى مالك به.

(٢) فتح البارى (١٠/٥٩، ٦٠).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٩٥/٢)، وانترمذى (٨٢٤) عن ابن عمر بنحوه.

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصَحَّتْ يَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشَّرْكُ. لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضُ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكُ!!

وقوف السلف عند حكم رسول الله ﷺ

والرجوع عن حكمهم إن خالفه

عن ابن أبي ذئب قال: قضى سعد بن إبراهيم: يعني ابن عبد الرحمن بن عوف - على رجل برأى ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن، فأخبرته عن رسول الله ﷺ بخلاف ما قضى به فقال سعد لربيعة، هذا ابن أبي ذيب، وهو عندي ثقة، يحدث عن النبي ﷺ بخلاف ما قضيت به، فقال له ربيعة، قد اجتهدت ومضى حكمك فقال سعد: واعجباً! أنفذ قضاء سعد، ولا أنفذ قضاء رسول الله ﷺ؟ بل أرد قضاء سعد بن أم سعد، وأنفذ قضاء رسول الله ﷺ فدعا سعد بكتاب القضية فشقه، وقضى للمقضى عليه^(١).



● شرح قول الإمام أحمد

قوله «وقال أحمد بن حنبل».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): هذا الكلام من أحمد رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب، قال الفضل عن أحمد: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول في ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾^(٣)، الآية وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة إلا الشرك لعله إذا أراد بعض قوله: أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه؛ فيهلكه وجعل يتلو هذه الآية ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾^(٤)، قال أبو طالب عن أحمد وقيل له: إن قوماً يدعون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان، فقال: عجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره. قال الله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وتدرى ما الفتنة؟ الكفر. قال الله تعالى

(١) ذكره الألباني في حاشية «صفة الصلاة» (٥٤) وعزاه لابن عساكر (٧/٥١/١)

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤١١)

(٣) سورة النور: ٦٣.

(٤) النساء: ٦٥.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(١) فيدعون الحديث عن رسول الله وتغلبهم أهواءهم إلى الرأي . ذكر ذلك شيخ الإسلام .

قلت: وكلام أحمد في ذمه التقليد وإنكار تأليف كتب الرأي كتب كثيرة مشهور
أهـ.

قوله (عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته).

قال سليمان آل الشيخ: قوله: عرفوا الإسناد أى: إسناد الحديث وصحته أى: حكمه، وسلم إلى فلان فى كذا، أى تركه [قلت]: وصحته كدليل يستدل به لغيره.

وقال حامد بن محمد^(٢): علموا أنه عن رسول الله ﷺ وثبت عندهم، أهـ.
وقال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣): أى: إسناد الحديث وصحته، فإذا صح إسناد الحديث فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء. أهـ.

وقال عبدالله بن جار الله^(٤): عجب الإمام أحمد بمعنى الإنكار على أولئك الذين يعرفون إسناد الحديث، وأنه صحيح عن رسول الله ﷺ، لامجال للكذب والظعن فيه، ويتركونه، ويأخذون برأى بعض الناس، كسفيان الثوري. أهـ.
وقال ابن باز^(٥): بنحو ماتقدم.

وقال ابن عثيمين^(٦): قول أحمد رحمه الله: «عجبت».

العجب نوعان:

الأول: عجب استحسان؛ كما فى حديث عائشة رضى الله عنها: «كان الرسول ﷺ يعجبه التيامن فى تتعله وترجله وطهوره وفى شأنه كله»^(٧).

الثانى: عجب إنكار؛ كما فى قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾^(٨)، والعجب فى كلام الإمام أحمد هنا عجب إنكار.

قوله «الإسناد». المراد به هنا رجال السند لانسبة الحديث إلى روايه؛ أى: عرفوا صحة الحديث بمعرفة رجاله أهـ.

قلت: أى مع سائر الشروط الأخرى كما لا يخفى إذ ليس شرطاً لصحة الحديث

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٣٧٧)

(٤) الجامع الفريد (١٥٢)

(٦) القول المفيد (٣٦٥/٢)

(٨) الصافات: ١٢

(١) سورة البقرة: ١٩١

(٣) فتح المجيد (٥٣١/٢)

(٥) التعليق المفيد (١٩٦)

(٧) تقدم تخريجه

صحة الإسناد فقط بل قد يكون الحديث صحيحاً الإسناد وهو ضعيف فكم من حديث صحيح الإسناد ولكن متنه معلول.

فمثلاً: حديث على رضي الله عنه في صلاة أربع ركعات ومعها دعاء لحفظ القرآن^(١)، فإن الحافظ الذهبي قال فيه: مع نظافة سنده، حديث منكر جداً في نفسى منه شيء. اهـ. كذا في «الميزان»، وقال في «تلخيصه على المستدرک»: وقد حيرنى والله جودة إسناده. اهـ.

وقد بين علم «علل الأحاديث» الأحاديث الموضوعة التي رُكِّبت على متون صحيحة الإسناد عن طريقة مخالفة أو معارضة المتن للقرآن أو لأحاديث متواترة صحيحة أو بأخطاء في التواريخ أو عن طريق سماجة ألفاظه أو ركائنه وغير ذلك من طرق بيان علل الأحاديث سواء صحت أسانيدنا أو لا، وذكر جملة من ذلك ابن القيم في كتاب «المنار المنيف» والله أعلم.

قوله «سقيان»

قال سليمان آل الشيخ^(٢): الثوري الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه، وكان له أصحاب ومذهب مشهور فانقطع. اهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣): الإمام الزاهد، العابد الثقة الفقيه^(٤). وكان له أصحاب يأخذون عنه، ومذهبه مشهور يذكره العلماء رحمهم الله في الكتب التي يذكر فيها مذاهب الأئمة، «كالتمهيد» لابن عبد البر، و«الاستذكار» له، وكتاب «الإشراف على مذاهب الأشراف» لابن المنذر، و«المحلى» لابن حزم، و«المغنى» لأبي محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة الحنبلي، وغير هؤلاء. اهـ.

قلت: وله ترجمة تقدمت.

وقيل الشروع في شرح الموضوع وهو كلام الإمام نفس الآية لما في ذلك من بيان لغرض الإمام والله المستعان.

تفسير الآية

تمام الآية ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٥).

(١) تقدم تخريجه

(٢) فتح المجيد (٥٣١/٢)

(٣) تيسير العزيز الحميد (٤١٢)

(٤) ترجمته في: السير (٢٢٩/٧) وتذكرة الحفاظ (٢٠٣/١) وحلية الأولياء (٣٥٦/٦: ١٤٤/٧).

(٥) سورة النور (٦٣)

سبب نزول الآية:

عن عروة ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما أقبلت قريش عام الأحزاب، نزلوا بمجمع الأسياال من بئر رومة بالمدينة قائدها أبو سفيان، وأقبلت غطفان حتى نزلوا بتغمين إلى جانب أحد، وجاء رسول الله ﷺ الخبر، وضرب الخندق على المدينة وعمل فيه، وعمل المسلمون فيه، وابطأ رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل، فيتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابتة نابتة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في الحقوق لحاجته، فيأذن له فإذا قضى حاجته رجع، فأنزل الله في أولئك المؤمنين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ...﴾ إلى قوله ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١)

وعن مقاتل بن حيان في قوله ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُم لُوَاذًا﴾ قال: هم المنافقون. كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة - ويعنى بالحديث الخطبة - فيلوذون ببعض الصحابة حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي ﷺ في يوم الجمعة بعدما يأخذ في الخطبة، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي ﷺ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل، لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي يخطب بطلت جمعته (٢).

وعن مقاتل قال: كان لا يخرج أحد لرعاف، أو أحداث، حتى يستأذن النبي ﷺ يشير إليه بأصبعه التي تلى الإبهام، فيأذن له النبي ﷺ يشير إليه بيده، وكان من المنافقين من يثقل عليه الخطبة والجلوس في المسجد، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المناق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج، فأنزل الله ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُم لُوَاذًا﴾ (٣).

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (١١٠/٥) ونسبه لابن إسحاق، وابن المنذر، والبيهقي في «الدلائل».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٦٥٧/٨) فأنظره بتخريجنا

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (١١١/٥) ونسبه لابي داود في مراسيله.

وعن الضحاك فى قوله ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(١) قال: كان لا يستأذنه إذا غزا إلا المنافقون. فكان لا يحل لأحد أن يستأذن رسول الله ﷺ أو يتخلف بعده إذا غزا، ولا تنطلق سرية إلا بإذنه. ولم يجعل الله للنبي ﷺ أن يأذن لأحد حتى نزلت الآية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ يقول: أمر طاعة ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ فجعل الاذن إليه يأذن لمن يشاء. فكان إذا جمع رسول الله ﷺ الناس لأمر يأمرهم وينهاهم صبر المؤمنون فى مجالسهم، وأحبوا ما أحدث لهم رسول الله ﷺ بما يوحى إليه، وبما أحبوا وكرهوا، فإذا كان شئ مما يكره المنافقون، خرجوا يتسللون يلوذ الرجل بالرجل يستتر لكى لا يراه النبي ﷺ. فقال الله تعالى: إن الله تعالى يبصر الذين يتسللون منكم لوذا^(٢).

هذا فى سبب نزول الآية عامة، وأما موضع الشاهد منها الذى استشهد به الإمام أحمد فهو قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

فقوله ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾

قال القرطبى^(٣): احتج الفقهاء على أن الأمر للوجوب بهذه الآية، ووجهها أن الله تبارك وتعالى قد حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها أهد.

تفسير الآية بما جاء فى القرآن.

وقال الشنقى^(٤): الضمير فى قوله: عن أمره راجع إلى الرسول ﷺ أو إلى الله والمعنى واحد، لأن الأمر من الله والرسول مبلّغ عنه، والعرب تقول: خالف أمره وخالف عن أمره: وقال بعضهم: يخالفون: مضمن معنى يصدون، أى يصدون عن أمره.

وهذه الآية الكريمة قد استدل بها الأصوليون على أن الأمر المجرد عن القرائن يقتضى

(١) التوبة: ٤٤.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (١١٢/٥) ونسبه لأبى الشيخ.

(٣) تفسير القرطبى (٤٧١٥/٧).

(٤) أضواء البيان (١٧٢/٦).

الوجوب، لأنه جل وعلا توعد المخالفين عن أمره بالفتنة أو العذاب الأليم وحذرهم من مخالفة الأمر. وكل ذلك يقتضى أن الأمر للوجوب، مالم يصرف عنه صارف، لأن غير الواجب لا يستوجب تركه الوعيد الشديد والتحذير.

(وهذا المعنى الذى دلت عليه هذه الآية الكريمة من اقتضاء الأمر المطلق الوجوب دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ فإن قوله: ﴿ارْكَعُوا﴾ أمر مطلق، وذمه تعالى للذين لم يمثلوه بقوله: ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ يدل على أن أمثاله واجب. وكقوله تعالى لإبليس ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ عَلَىَّ أَنْ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ (١) فإنكاره تعالى على إبليس موبخاً بقوله: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ عَلَىَّ أَنْ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ يدل على أنه تارك واجباً. وأن امثال الأمر واجب مع أن الأمر المذكور مطلق، وهو قوله تعالى: ﴿اسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ (٢) وكقوله تعالى عن موسى ﴿أَفَعْصَيْتَ أَمْرِي﴾ (٣) فسمى مخالفة الأمر معصية، وأمره المذكور مطلق، وهو قوله: ﴿اخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤) وكقوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٥) وإطلاق اسم المعصية على مخالفة الأمر يدل على أن مخالفة عاص، ولا يكن عاصياً إلا بترك واجب، أو ارتكاب محرم. وكقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (٦) فإنه يدل على أنها أمر الله، وأمر رسوله مانع من الاختيار موجب للمثال، وذلك يدل على اقتضائه الوجوب كما ترى. وأشار إلى أن مخالفته معصية بقوله بعده: ﴿وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٧).

اعلم أن اللغة تدل على اقتضاء الأمر المطلق الوجوب بدليل أن السيد لو قال لعبده اسقني ماء مثلاً، ولم يمثل العبد أمر سيده فعاقبه السيد فليس للعبد أن يقول: عقابك

(١) الأعراف : ١٢

(٢) البقرة : ٣٤

(٣) طه : ٩٣

(٤) الأعراف : ١٤٢

(٥) التحريم : ٦

(٦) الأحزاب : ٣٦

(٧) الأحزاب : ٣٦

لى ظلم لأن صيغة الأمر فى قولك: اسقنى ماء لم توجب عَلَى الامتثال فقد عاقبتنى على ترك ما لا يلزمنى، بل يُفهم من نفس الصيغة أن الامتثال يلزمه، وأن العقاب على عدم الامتثال واقع موقعه. أهـ.

تفسير الآية بما جاء من أقوال السلف.

أخرج ابن جرير^(١) عن ابن زيد، قال: هؤلاء المنافقون الذين يرجعون بغير إذن رسول الله.

وأخرج ابن أبى حاتم^(٢) عن ابن حيان: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾

يعنى المنافقون

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن بن صالح قال: إني لحائف على من ترك المسح على الخفين أن يكون داخلاً فى هذه الآية ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ الذين يصنعون هذا.

تفسير الآية بما جاء من أقوال السلف

قال ابن جرير^(٣): فليتق من يفعل ذلك منكم الذين يخالفون أمر الله فى الإنصراف عن رسول الله ﷺ إلا بإذنه، أن تصيبهم فتنة من الله أو عذاب أليم. أهـ.
ثم قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ وأدخلت (عن)؛ لأن معنى الكلام: فليحذر الذين يلوذون عن أمره، ويدبرون عنه معرضين. هـ.

وقال البغوى^(٤): بنحو قول ابن جرير.

قال الزمخشرى^(٥): الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين، وهم المنافقون، فحذف المفعول؛ لأن الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه.

(١) تفسير ابن جرير (٩/١٨/١٣٥)

(٢) تفسير ابن أبى حاتم (٨/٢٦٥٧)

(٣) تفسير ابن جرير (٩/١٨/١٣٥)

(٤) معالم التنزيل (٤/٢٢٣، ٢٢٤)

(٥) الكشف (٣١/٨٧)

والضمير في (أمره) لله سبحانه وتعالى أو لرسول الله ﷺ والمعنى عن طاعته ودينه
أهـ.

وقال ابن الجوزي^(١): في هاء الكناية قولان - فذكر ما قاله الزمخشري، وعزى
الأول لمجاهد والثاني لقتادة - ثم قال وفي (عن) قولان:
أحدهما أنها زائدة. قاله الأخفش،
والثاني هو ما ذكره الطبري سابقاً. أهـ.

وقال الفخر الرازي^(٢): كما تقدم ذكر الرسول فقد تقدم ذكر الله تعالى لكن
القصد هو الرسول فإنه ترجع الكناية وقال أبو بكر الرازي الأظهر أنها لله تعالى لأنه
عليه، وحكم الكناية رجوعها إلى ما يليها دون ما تقدم أهـ.

قلت: ورجع ابن عثيمين أن الضمير يعود على الرسول ﷺ.

وقال ابن كثير^(٣): أي عن أمر رسول الله ﷺ، وهو سبيله، ومنهاجه، وطريقته،
وسته، وشريعته. فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل،
وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما
عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»(*) أي:
فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً وظاهراً. أهـ.

وقال الشوكاني^(٤): (فليحذر) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي يخالفون أمر
النبي ﷺ بترك العمل بمقتضاه، وعدى فعل المخالفة بـ (عن) مع كونه متعدداً بنفسه؛
لتضمينه معنى الإعراض أو الصد، وقيل الضمير لله سبحانه؛ لأنه الأمر بالحقيقة. أهـ
وسبق كلام الزمخشري عن الضمير هنا.

وقال ناصر السعدي^(٥): ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي يذهبون إلى بعض
شئونهم عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شؤونه؟! وإنما ترك
أمر الله من دون شغل له. أهـ

قوله (أن تصيبهم فتنة)

تفسيرها من القرآن

قال الشنقيطي^(٦): قد دل استقراء القرآن العظيم أن الفتنة فيه أطلقت على أربعة
معان.

(٢) التفسير الكبير (١٢/٢٣/٤١)

(٤) فتح القدير (٤/٥٨)

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٣/٣٨٤)

(٧) الذاريات/ ١٣

(١) زاد المسير (٥/٤٠١)

(٣) تفسير ابن كثير (٣/٢٩٢)

(*) تقدم تخرجه

(٦) أضواء البيان (٦/١٧٢)

الأول: أن يراد بها الإحراق بالنار كقوله تعالى ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (٧) وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فُتِنُوا بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (١) الآية. أى أحرقوهم بنار الأخدود على القول بذلك.

الثاني: وهو أشهرها إطلاق الفتنة على الاختبار كقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (٢) الآية وقوله تعالى: ﴿لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ (٦) لَنَفْتِهِمْ فِيهِ (٣).

والثالث: إطلاق الفتنة على نتيجة الاختيار إن كانت سيئة كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ (٤). وفى الأنفال ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (٥) فقوله ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ (٦). أى حتى لا يبقى شرك على أصح التفسيرين، ويدل على صحته قوله بعده: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾، لأن الدين لا يكون كله لله حتى لا يبقى شرك كما ترى، ويوضح ذلك قوله ﷺ، «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» (*) كما لا يخفى.

والرابع: إطلاق الفتنة على الحجة فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٧)، أى لم تكن حجتهم، كما قال به بعض أهل العلم. والأظهر عندى : أن الفتنة فى قوله هنا: ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أنه من النوع الثالث من الأنواع المذكورة.

وأن معناه أن يفتنهم الله أى يزيدهم ضلالاً بسبب مخالفتهم، عن أمره، وأمر رسوله ﷺ.

وهذا المعنى تدل عليه آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، كقوله جل وعلا: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨) وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (٩) وقوله تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ (١٠) الآية. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ (١١) الآية والآيات بمثل ذلك كثيرة والعلم عند الله تعالى .

(١) البروج: ١٠	(٢) الأنبياء: ٣٥
(٣) الجن ١٦-١٧	(٤) البقرة: ١٩٣
(٥) الأنفال: ٣٩	(٦) البقرة: ١٩٣
(٧) الأنعام: ٢٣	(٨) المطففين: ١٤
(٩) الصف: ٥	(١٠) البقرة: ١٠
	(١١) التوبة: ١٢٥

(*) تقدم تخريجه

تفسيرها بما جاء عن السلف والمفسرين

قال ابن جرير^(١): الفتنة ههنا: الكفر. أهـ.

وذكر ابن أبي حاتم^(٢) هذا القول عن: مقاتل، وروى عن السدى،
وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ذلك.

وقال البغوي^(٣): قال مجاهد: بلاء في الدنيا أهـ.

وقال الزمخشري^(٤): الفتنة: محنة في الدنيا.

وعن ابن عباس (فتنة): قتل. وعن عطاء: زلازل وأهوال. وعن جعفر بن محمد:
يسلط عليهم سلطاناً جائراً. أهـ.

وقال ابن الجوزي^(٥): في الفتنة هنا ثلاثة أقوال:

أحدها: الضلالة. قالها ابن عباس.

والثاني والثالث تقدماً.

وقال الفخر الرازي^(٦): قال الحسن: الفتنة هي ظهور نفاقهم. أهـ.

وقال القرطبي^(٧): الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول. أهـ.

وقال ابن كثير^(٨): (فتنة) أى فى قلوبهم من كفر، أو نفاق، أو بدعة. أهـ.

وقال الشوكاني^(٩): الفتنة هنا غير مقيدة. أهـ ثم ذكر بعض هذه الأقوال.

وقال السعدى^(١٠): (فتنة) أى شرك، وشر. أهـ.

قلت: وخلاصة الأقوال فى الفتنة اثنا عشرة قولاً:

(١) الكفر (٢) النفاق (٣) بلاء فى الدنيا ومحنة (٤) زلازل وأهوال

(٥) سلطان جائر (٦) الضلالة (٧) ظهور نفاقهم (٨) الطبع على القلوب

(٩) بدعة (١٠) شرك (١١) شر (١٢) مطلقة غير مقيدة (فتنة) أى عامة.

(١) تفسير ابن جرير (١٣٤، ١٣٣/١٨/١٩)

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢٦٥٧/٨)

(٣) معالم التنزيل (٢٢٤/٤) (٤) الكشف (٨٧/٣)

(٥) زاد المسير (٤٠١/٥) (٦) التفسير الكبير (٤٣/٢٣/١٢)

(٧) تفسير القرطبي (٤٧١٥/٧)

(٨) تفسير ابن كثير (٢٩٢/٣) (٩) فتح القدير (٥٨/٤)

(١٠) تيسير الكريم الرحمن (٣٨٤/٣).

فائدة :

وقال الفخر الرازي^(١): إنما ردد الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الأمرين «فتنة أو عذاب إليم» لأن ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدنيا وقد يعرض له ذلك في الدنيا، فلهذا السبب أورده تعالى على سبيل التريديد أهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): الفتنة فسرّها الإمام أحمد بالشرك، وعلى هذا يكون الوعيد بأحد أمرين: إما الشرك، وإما العذاب الأليم. أهـ.

قلت: ولما منع من إعمال هذه المعاني جميعاً لأن هذا من قبيل اختلاف التنوع لا التضاد لأن الآية تحتل ذلك كله وهذا مؤدى قول الشوكاني والله أعلم.

قوله تفسيرها بالمأثور

أولاً من السنة «أو يصيبهم عذاب أليم»

عن يحيى بن أبي كثير قال: نهى رسول الله ﷺ أصحابه أن يقاتلوا ناحية من خير، فانصرف الرجال عنهم وبقى رجل، فقاتلهم، فرموه، فقتلوه، فجيء به إلى النبي ﷺ فقال: أبعد ما نهينا عن القتال؟ فقالوا: نعم. فتركه ولم يصل عليه^(٣).

وعن مجاهد قال: أشد حديث سمعناه عن النبي ﷺ قوله في سعد ابن معاذ في أمر القبر. ولما كانت غزوة تبوك قال: «لا يخرج معنا إلا رجل مَقُوء» فخرج رجل على بكر له صعب، فصرعه، فمات فقال الناس: الشهيد الشهيد. فأمر النبي ﷺ بلالاً أن ينادى في الناس «لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا يدخل الجنة عاص»^(٤).

وعن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه ذات يوم وهو مستقبل العدو: لا يقاتل أحد منكم، فعمد رجل منهم ورمى العدو وقاتلهم، فقتلوه، فقيل للنبي ﷺ استشهد فلان فقال: أبعد ما نهيت عن القتال؟ قالوا: نعم قال «لا يدخل الجنة عاص»^(٥).

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «مثلث ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضأّت ما حولها، جعل الفراش، وهذه الدواب اللاتي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبته فيقترحن فيها قال: فذلك مثلث ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبوني وتقتحمون فيها»^(٦) أخرجاه من حديث عبد الرزاق. أهـ.

(٢) القول المفيد (٢/٣١٦)

(١) التفسير الكبير (١٢/٢٣/٤٣)

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (٥/١١١) ونسبه لعبد الرزاق في «المصنف»

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (٥/١١٥) ونسبه لعبد الرزاق.

(٦) تقدم تخريجه

(٥) نفس المصدر السابق

ثانياً من السلف وأقوال المفسرين

- (١) القتل : أخرج ابن أبي حاتم^(١) عن مقاتل . وذكره ابن الجوزي^(٢) .
(٢) . أويصيههم فى عاجل الدنيا عذاب من الله موجه على صنيعهم ذلك . أخرجه ابن جرير^(٣) عن الضحاك .
(٣) وجيع فى الآخرة . قاله البغوى^(٤) ، والزمخشري^(٥) ، وابن الجوزي ، والشوكاني^(٦) .

(٤) عذاب فى الدنيا بقتل ، أو حد ، أو حبس ، أونحو ذلك . قاله ابن كثير^(٧)

وقال الشوكاني) وكلمة (أو) لمنع الخلو . أهـ

وهذا أوان الشروع فى الموضوع وهو شرح كلام الامام أحمد

قال سليمان آل الشيخ^(٨): ومراد أحمد الإنكار على من يعرف إسناد الحديث وصحته ثم بعد ذلك يقلد سفيان أو غيره، ويعتذر بالأعذار الباطلة إما بأن الأخذ بالحديث اجتهاد والاجتهاد انقطع منذ زمان، وإما بأن هذا الإمام الذى قلدته أعلم منى فهو لا يقول إلا بعلم . ولا يترك هذا الحديث مثلاً إلا عن علم، وإما بأن ذلك اجتهاد ويشترط فى المجتهد أن يكون عالماً بكتاب الله عالماً بسنة رسول الله ﷺ، وناسخ ذلك ومنسوخه، وصحيح السنة وسقيمها، عالماً بوجوه الدلالات، عالماً بالعربية والنحو والأصول، ونحو ذلك من الشروط التى لعلها لاتوجد تامة إلا فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، كما قاله المصنف . فيقال له : هذا إن صح فمرادهم بذلك المجتهد المطلق، أما أن يكون ذلك شرطاً فى جواز العمل بالكتاب والسنة فكذب على الله، وعلى رسوله ﷺ، وعلى أئمة العلماء بل الفرض والحتم على المؤمن إذا بلغه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعلم معنى ذلك فى أى شىء كان أن يعمل به ولو خالفه من خالفه؛ فبذلك أمرنا ربنا تبارك وتعالى ونبينا ﷺ .

(١) تفسير ابن أبى حاتم (٢٦٥٧/٨)

(٢) زاد المسير (٤٠١/٥)

(٣) تفسير ابن جرير (١٣٥/١٨/٩)

(٤) معالم التنزيل (٢٢٤/٤)

(٥) الكشاف (٨٧/٣)

(٦) فتح القدير (٥٨/٤)

(٨) تيسير العزيز الحميد (٤١٢)

(٧) تفسير ابن كثير (٢٩٢/٣)

وأجمع على ذلك العلماء قاطبة إلا جهال المقلدين وجفاتهم، ومثل هؤلاء ليسوا من أهل العلم كما حكى الإجماع على أنهم ليسوا من أهل العلم، منهم - أبو عمر بن عبد البر وغيره. قال الله تعالى : ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿وَإِن تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(٢) فشهد تعالى لمن اطاع الرسول ﷺ بالهداية. وعند جفافة المقلدين أن من أطاعه ﷺ ليس بمهتدى إنما المهتدى من عصاه، وعدل عن أقواله، ورغب عن سنته إلى مذهب أو شيخ ونحو ذلك.

وقد وقع في هذا التقليد المحرم خلق كثير ممن يدعى العلم والمعرفة بالعلوم ويصنف التصانيف في الحديث والسنن ثم بعد ذلك تجده جامداً على أحد هذه المذاهب يرى الخروج عنها من العظائم.

وفي كلام أحمد إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم، إنما المذموم المنكر الحرام الإقامة على ذلك بعد بلوغ الحجة، نعم وينكر الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والإقبال على تعلم الكتب المصنفة في الفقه استغناء بها عن الكتاب والسنة، بل إن قرأوا شيئاً من كتاب الله وسنة رسوله فإنما يقرأون تبركاً لاتعلماً وتفقهاً، أو لكون بعض الموقفين وقف على من قرأ البخاري مثلاً؛ فيقرأونه لتحصيل الوظيفة لا لتحصيل الشريعة؛ فهؤلاء من أحق الناس بدخولهم في قول الله تعالى ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۖ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ۖ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾^(٣) وقوله تعالى ﴿وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾^(٤) إلى قوله ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾^(٥).

فإن قلت فماذا يجوز للإنسان من قراءة هذه الكتب المصنفة في المذاهب؟

قيل: يجوز من ذلك قراءتها على سبيل الاستعانة بها على فهم الكتاب والسنة وتصوير المسائل، فتكون من نوع الكتب الآلية أما أن تكون هي المقدمة على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، الحاكمة بين الناس فيما اختلفوا فيه، المدعو إلى التحاكم إليها دون

(٢) سورة النور : ٥٤

(٤) طه : ١٢٤

(١) سورة الأعراف : ٣

(٣) سورة طه : ٩٩، ١٠٠، ١٠١

(٥) طه : ١٢٧

التحاكم إلى الله والرسول ﷺ؛ فلا ريب أن ذلك مناف للإيمان مضاد له قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١) فإن كان التحاكم عند المشاجرة إليها دون الله، ورسوله، ثم إذا قضى الله ورسوله أمراً وجدت الحرج في نفسك، وإن قضى أهل الكتاب بأمر لم تجد حرجاً، ثم إذا قضى الرسول ﷺ، بأمر لم تسلم له، وإن قضوا بأمر سلمت له. فقد أقسم الله تعالى أنك لست بمؤمن والحالة هذه وبعد ذلك؛ فقد قال الله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾^(٢) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ^(٣) على أن الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل العلم، قد نهوا عن تقليدهم مع ظهور السنة؛ فكلام أحمد الذي ذكره المصنف كاف عن تكثير النقل عنه.

وقال أبو حنيفة: إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين؛ فنحن رجال وهم رجال . وفي «روضة العلماء» سئل أبو حنيفة إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه قال: اتركوا قولي لكتاب الله، قيل: إذا كان قول الرسول يخالفه قال: اتركوا قولي لخبر الرسول ﷺ، قيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه قال: اتركوا قولي لقول الصحابة، فلم يقل: هذا الإمام ما يدعيه جفاة المقلدين له أنه لا يقول قولاً يخالف كتاب الله، حتى أنزلوه بمنزلة المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى.

وروى البيهقي في «السنن» عن الشافعي أنه قال: إذا قلت قولاً وكان عن النبي ﷺ خلاف قولي فما يصح من حديث رسول الله ﷺ أولى فلا تقلدوني. وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله، ودعوا ما قلت:

وتواتر عنه أنه قال: إذا صح الحديث - أي: بخلاف قولي - فاضربوا بقولي الحائط.

وقال مالك كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وكلام الأئمة مثل هذا كثير.

[قلت]: مثل ما سيأتى من نقل الإمام الشنقيطي أهـ ثم قال: فخالف المقلدون ذلك وجمدوا على ما وجدوه في الكتب المذهبية، سواء كان صواباً أم خطأ مع أن كثيراً من هذه الأقوال المنسوبة إلى الأئمة ليست أقوالاً لهم منصوباً عليها، وإنما هي تفريعات ووجوه واحتمالات وقياس على أقوالهم.

ولسنا نقول: إن الأئمة على خطأ بل هم إن شاء الله على هدى من ربهم. وقد قاموا بما أوجب الله عليهم من الإيمان بالرسول ﷺ ومتابعته، ولكن العصمة منتفية عن غير الرسول، فهو الذى قال فيه تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فما العذر فى اتباعهم وترك اتباع الذى لا ينطق عن الهوى؟!.

قال الشنقيطى^(١): أعلم أن الأئمة الأربعة رحمهم الله، متفقون على منع تقليدهم، التقليد الأعمى الذى يتعصب له من يدعون أنهم أتباعهم.

ولو كانوا أتباعهم حقاً لما خالفوهم فى تقليدهم الذى منعوا ونهوا عنه.

قال الإمام أبو عمر بن عبد البر رحمه الله فى جامعه:

أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد القاضى المالكى، قال حدثنا موسى بن إسحاق، قال حدثنا إبراهيم بن المنذر، قال حدثنا معن بن عيسى، قال سمعت مالك بن أنس يقول: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا فى رأى، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه. أهـ. محل الغرض منه بلفظه.

فمالك - رحمه الله - مع علمه وجلالته وفضله يعترف بالخطأ وينهى عن القول بما خالف الوحي من رأيه.

فمن كان مالكياً فليمتثل قول مالك ولا يخالفه بلا مستند.

وقال أبو عمر بن عبد البر - رحمه الله - فى «جامعه» أيضاً:

أخبرنى أحمد بن عبد الله بن محمد بن على حدثنى أبى حدثنا محمد بن عمر بن لبابة قال: حدثنا مالك بن على القرشى، قال أنبأنا عبد الله بن مسلمة القعنبي قال:

دخلت على مالك فوجدته باكياً فسلمت عليه فرد على ثم سكت عنى ييكى، فقلت له:

يا أبا عبد الله ما الذى يبكىك؟ فقال لى يا ابن قعنب إنا لله على ما فرط منى، ليتنى جلدت بكل كلمة تكلمت بها فى هذا الأمر بسوط. ولم يكن فرط منى ما فرط من هذا الرأى، وهذه المسائل قد كانت لى سعة فيما سبقت إليه. أهـ محل الغرض منه بلفظه.

ومن المعلوم بالضرورة أن مالكا - رحمه الله - لا يسره ولا يرضيه تقديم رأيه هذا الذى

يسترجع ويكى ندماً عليه، ويتمنى لو ضرب بالسياط ولم يكن صدر منه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فليتق الله وليستحي من الله من يقدم مثل هذا الرأى على الكتاب والسنة زاعماً أنه متبع مالكا فى ذلك.

وهو مخالف فيه للمالك، ومخالف فيه لله ورسوله، ولأصحابه ولكل من يعتد به من أهل العلم.

وقال ابن القيم - رحمه الله - فى «أعلام الموقعين».

وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة.

فقال الشافعى: مثل الذى يطلب العلم بلا حجة، كمثل حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري، ذكره البيهقى.

وقال إسماعيل بن عيسى المزنى فى أول مختصره: اختصرت هذا من علم الشافعى، ومن معنى قوله لأقربه على من أراده مع إعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه، ويحاط فيه لنفسه إلى أن قال:

وقال أحمد بن حنبل: لا تقلدنى، ولا تقلد مالكا، ولا الثورى ولا الأوزاعى، وخذ من حيث أخذوا.

وقال: من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال.

وقال بشر بن الوليد: قال أبو يوسف: لا يحل لأحد أن يقول مقالنا حتى يعلم من أين قلنا.

وقد صرح مالك بأن من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعى أنه يستتاب، فكيف بمن ترك قول الله ورسوله لقول من هو دون إبراهيم أو مثله أهد محله الغرض منه.

ومما لاشك فيه أن الأئمة الأربعة - رحمهم الله - نهوا عن تقليدهم فى كل ما خالف كتاباً أو سنة كما نقله عنهم أصحابهم.

كما هو مقرر فى كتب الحنفية عن أبى حنيفة.

وكتب الشافعية عن الشافعى القائل: إذا صح الحديث فهو مذهبي .

وكتب المالكية، والحنابلة عن مالك وأحمد رحمهم الله جميعاً.

وكذلك كان غيرهم من أفاضل العلماء يمتنعون من تقليدهم فيما لم يوافق الكتاب والسنة وقد يتحفظون منه ولا يرضون.

قال أبو عمر بن عبد البر- رحمه الله- فى جامعه.

وذكر محمد بن حارث فى أخبار سحنون بن سعيد عن سحنون، قال كان مالك بن أنس وعبد العزيز بن أبى سلمة ومحمد بن إبراهيم بن دينار وغيرهم يختلفون إلى ابن هرمز، فكان إذا سأله مالك وعبد العزيز أجابهما.

وإذا سأله محمد بن إبراهيم بن دينار وذووه لم يجبهما.

فقال له:

يسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما، وأسألك أنا وذوى فلا تجيبنا؟

فقال:

أوقع ذلك يا ابن أخى فى قلبك؟

قال: نعم: فقال له:

إنى قد كبرت سنى ورق عظمى، وأنا أخاف أن يكون خالطنى فى عقلى مثل الذى خالطنى فى بدنى.

ومالك وعبد العزيز عالمان فقيهان، إذا سمعا منى حقاً قبلاه، وإذا سمعا خطأ تركاه. وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه.

قال محمد بن حارث: وهذا والله هو الدين الكامل، والعقل الراجح.

لا كمن يأتى بالهذيان، يريد أن ينزل من القلوب منزلة القرآن. أهد. منه.

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: [لعله] أى: لعل الإنسان الذى تصح عنده سنة رسول الله ﷺ.

قوله: [إذا رد بعض قوله] أى قول النبى ﷺ.

قوله [أن يقع فى قلبه شيء من الزيف فيهلك] هذا تنبيه على أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيف القلب الذى هو سبب الهلاك فى الدنيا والآخرة، فإذا كانت إساءة الأدب معه فى الخطاب سبباً لحبوط الأعمال كما قال تعالى ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ (٢) ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٣) فما ظنك برد أحكامه وستته لقول أحد من الناس كائناً من كان؟

(١) تيسير العزيز الحميد (٤١٢)

(٢) سورة الحجرات: ٢

(٣) الحجرات: ٢

قال شيخ الإسلام: فإذا كان المخالف عن أمره قد حذر من الكفر والشرك، أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر إنما هو لما يقترب به من استخفاف بحق الأمر كما فعل إبليس لعنه الله. فإذا علمت أن المخالفة عن أمره ﷺ سبب للفتنة، التي هي الشرك والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة علمت أن من رد قوله وخالف أمره لقول أبي حنيفة، أو مالك أو غيرهما: لهم النصيب الكامل، والحظ الوافر من هذه الآية، وهذا الوعيد على مخالفة أمره ﷺ، وقد استدل بهذه الآية كثير من العلماء على أن أصل الأمر للوجوب حتى يقوم دليل على استحبابه. أهـ. وتقدم ذكر ذلك من قول الشنقيطي.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): فقول الإمام أحمد رحمه الله: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته.. إلخ» إنكار منه لذلك. وأنه يؤول إلى زيغ القلوب الذي يكون به المرء كافراً.

وقد عمت البلوى بهذا المنكر، خصوصاً ممن يتسب إلى العلم، نصبوا الحوائل في الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة، وصدوا عن متابعة الرسول ﷺ وتعظيم أمره ونهيه، فمن ذلك قولهم: لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد، والاجتهاد قد انقطع. ويقول: هذا الذي قلده أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه، ونحو ذلك من الأقوال التي غايتها ترك متابعة الرسول ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ، وغيره من الأئمة يخالفه ويمنع قوله بدليل، فما من إمام إلا والذي معه بعض العلم لا كله.

فالواجب على كل مكلف، إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معني ذلك: أن ينتهي إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه، كما قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾^(٢) وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

قلت - عبد الرحمن آل الشيخ - : ولا ويخالف في ذلك إلا جهال المقلدة، لجهلهم بالكتاب والسنة، ورغبتهم عنهما، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم قد اتبعوا الأئمة، فإنهم في الحقيقة قد خالفوهم، واتبعوا غير سبيلهم، كما قدمنا من قول مالك والشافعي وأحمد أهـ

(٣) العنكبوت (٥١)

(٢) الأعراف: ٣

(١) فتح المجيد (٢/ ٥٣١: ٥٣٣) مختصراً

فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على مافي الكتاب والسنة. فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لابد أن يذكر دليله، والحق في المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم، فالمنصف يجعل النظر في كلامهم وتأمله طريقاً إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهنياً، وتميزاً للصواب من الخطأ بالأدلة التي يذكرها المستدلون، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه.

والأدلة على هذا الأصل في كتاب الله أكثر من أن تحصر، وفي السنة كذلك، كما أخرج أبو داود بسنده عن أناس من أصحاب معاذ: «أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال: كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضى بكتاب الله تعالى، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو، قال: فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله». وساق بسنده عن الحارث بن عمر عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل رضى الله عنه: «أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن...» بمعناه^(١).

والأئمة رحمهم الله لم يقصروا في البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانَت السنة، لعلمهم أن من العلم شيئاً لم يعلموه، وقد يبلغ غيرهم، وذلك كثير، كما لا يخفى على من نظر في أقوال العلماء. أ هـ .

● ولأهمية مسألة التقليد وعلاقتها بالتوحيد سنفرد لها فصلاً يحوى معناه لغة واصطلاحاً وحكمه والفرق بينه وبين الاتباع وشبهه من قال به مطلقاً ومن منعه مطلقاً والراجع في هذا الأمر مع صور للتقليد المذموم إجمالاً وتنبهات مهمة على هذا الأمر والله الموفق لأرب سواه .

فصل في التقليد

تعريف التقليد لغة:

قال الشوكاني^(٢): أما التقليد : فأصله في اللغة مأخوذ من القلادة، التي يقلد غيره

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٣٠)، وأبو داود (٣٥٩٣) عن معاذ به .

وأنظر كتابنا «فتح ذى الجلال في فتح تخريج أحاديث الظلال» (٨٥٨)

(٢) إرشاد الفحول (١/ ٣٤٥)

بها، ومنه تقليد الهدى فكان المقلد جعل ذلك الحكم، الذى قلد فيه المجتهد كالقلادة فى عنق من قلده^(١). أهـ.

قال الشنقيطى^(٢): تقليد الولاية هو جعل الولايات قلائد فى أعناقهم ومنه قول لقيط الأيادى:

وقلدوا أمركم لله دركم ربح الذراع بأمر الحرب مضطلعا أهـ.

تعريف التقليد المذموم اصطلاحاً:

قال الشوكانى^(٣): وفى الاصطلاح: هو العمل بقول الغير من غير حجة.

وقال ابن الهمام فى «التحرير»: التقليد العمل بقول من ليس قوله إحدى الحجج بلا حجة. وهذا الحد أحسن من الذى قبله.

وقال القفال: هو قبول قول القائل، وأنت لاتعلم من أين قاله.

وقال الشيخ أبو حامد، والأستاذ أبو منصور: هو قبول القول من غير حجة تظهر على قوله.

وقيل: هو قبول قول الغير دون حجته، أى حجة القول.

والأولى أن يقال: هو قبول رأى من لاتقوم به الحجة بلا حجة^(٤). وفوائد هذه القيود معروفة بما تقدم^(٥).

وقال الشنقيطى^(٦): هو الأخذ بمذهب الغير من غير معرفة دليله.

والمراد بالمذاهب: هو ما يصح فيه الاجتهاد خاصة، ولا يصح الاجتهاد البتة فى شيء يخالف نصاً من كتابه أو سنة ثابتة، سالماً من المعارض؛ لأن الكتاب والسنة حجة على كل أحد كائناً من كان، لاتسوغ مخالفتها البتة لأحد كائناً من كان فيجب التفتن، لأن المذهب الذى فيه التقليد يختص بالأمور الاجتهادية ولا يتناول ما جاء فيه نص صحيح من الوحي سالم من المعارض

(١) انظر: فى تعريف التقليد: (الحدود للباجى ص ٦٤، الإحكام لابن حزم ١/٣٧)، المستنقى ٣٨٧/٢، البرهان ١٣٥٧/٢، تيسير التحرير ٤/٢٤١.

(٢) إرشاد الفحول (١/٣٤٥)

(٣) أضواء البيان (٧/٣١٧)

(٤) انظر تيسير التحرير (٤/٢٤١)

(٥) انظر: الإحكام للآمدى (٤/٢٢١)، مختصر ابن الحاجب مع شرح العبد (٢/٣٠٥)

(٦) أضواء البيان (٧/٣١٧، ٣١٨)

قال الشيخ الخطاب في شرحه لقول خليل في مختصره: مختصراً على مذهب الإمام مالك بن أنس مانصه:

(والمذهب لغة الطريق ومكان الذهاب، ثم صار عند الفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة من الأحكام الاجتهادية) أهـ. محل الغرض منه بلفظه.

فقوله: من الأحكام الاجتهادية تدل على أن اسم المذهب لم يتناول مواقع النصوص الشرعية السالمة من المعارض.

وذلك أمر لاخلاف فيه لإجماع العلماء على أن المجتهد المطلق إذا أقام باجتهاده دليلاً، مخالفاً لنص من كتاب أو سنة أو إجماع، أن دليله ذلك باطل بلا خلاف.

وأنه يرد بالقادح المسمى في الأصول بفساد الاعتبار.

وفساد الاعتبار الذي هو مخالفة الدليل لنص أو إجماع من القوادح التي لانزاع في إبطال الدليل بها. وإليه الإشار بقول صاحب مراقى الصعود في القوادح.

والخلف للنص أو إجماع دعا فسادا لاعتبار كل من وعى أهـ.

حكم التقليد

وبما ذكرنا تعلم أنه لا اجتهاد أصلاً ولا تقليد أصلاً في شيء يخالف نصاً من كتاب أو سنة أو إجماع.

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن بعض الناس من المتأخرين أجاز التقليد، ولو كان فيه مخالفة نصوص الوحي.

وعليه أكثر المقلدين للمذاهب في هذا الزمان وأزمان قبله.

وبعض العلماء منع التقليد مطلقاً، ومن ذهب إلى ذلك ابن خويز مندد من المالكية، والشوكاني في القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد.

● والتحقيق أن التقليد

منه ماهو جائز.

ومنه مالميس بجائز.

ومنه ماخالف فيه المتأخرون المتقدمين من الصحابة وغيرهم من القرون الثلاثة المفضلة.

وسنذكر كل الأقسام هنا إن شاء الله مع بيان الأدلة.

النوع الأول :

أما التقليد الجائز: الذى لا يكاد يخالف فيه أحد من المسلمين فهو تقليد العامى عالمأ أهلاً للفتيا فى نازلة نزلت به، وهذا النوع من التقليد كان شائعاً فى زمن النبى ﷺ ولا خلاف فيه .

فقد كان العامى، يسأل من شاء من أصحاب رسول الله ﷺ، عن حكم النازلة تنزل به فيفتيه فيعمل بفتياه .

وإذا نزلت به نازلة أخرى لم يرتبط بالصحابى الذى أفتاه أولاً بل يسأل عنها من شاء من أصحاب رسول الله ﷺ ثم يعمل بفتياه .

قال صاحب نشر البنود فى شرحه لقوله فى «مراقى الصعود» .

رجوعه لغيره فى آخر يجوز للإجماع عند الأكثر

مانصه: يعنى أن العامى يجوز له عند الأكثر، الرجوع إلى قول غير المجتهد الذى استفثاه أولاً فى حكم آخر لإجماع الصحابة رضى الله عنهم، على أنه يسوغ للعامى السؤال لكل عالم، ولأن كل مسألة لها حكم نفسها .

فكما لم يتعين الأول للإتباع فى المسألة الأولى إلا بعد سؤاله، فكذلك فى المسألة الأخرى. قاله الخطاب شارح مختصر خليل .

قال القرافى : انعقد الإجماع على أن من أسلم فله أن يقلد من شاء من العلماء من غير حجر .

وأجمع الصحابة على أن من استفثى أبا بكر وعمر وقلدهما فله أن يستفتى أبا هريرة ومعاذ بن جبل وغيرهما، ويعمل بقولهم بغير تكبر .

فمن أدعى رفع هذين الإجماعين فعليه الدليل أهد. محل الغرض منه .

وما ذكره من انعقاد الإجماعين صحيح كما لا يخفى، فالأقوال المخالفة لهما من متأخرى الأصوليين كلها مخالفة للإجماع .

وبعض العلماء يقول: إن تقليد العامى المذكور للعالم وعمله بفتياه من الاتباع لا من التقليد .

والصواب : أن ذلك تقليد مشروع مجمع على مشروعيته .

النوع الثاني: التقليد الذي لا يجوز

أما ما ليس من التقليد بجائز لاختلاف فهو تقليد المجتهد الذي ظهر له الحكم باجتهاده، مجتهداً آخر يرى خلاف ماظهر له هو، للإجماع على أن المجتهد إذا ظهر له الحكم باجتهاده لايجوز له أن يقلد غيره المخالف لرأيه.

النوع الثالث:

وأما نوع التقليد الذي خالف فيه المتأخرون، الصحابة وغيرهم من القرون المشهود لهم بالخير، فهو تقليد رجل واحد معين دون غيره، من جميع العلماء.

فإن هذا النوع من التقليد، لم يرد به نص من كتاب ولا سنة، ولم يقل به أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا أحد من القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير.

وهو مخالف لأقوال الأئمة رحمهم الله، فلم يقل أحد منهم بالجمود على قول رجل واحد معين دون غيره، من جميع علماء المسلمين.

فتقليد العالم المعين من بدع القرن الرابع، ومن يدعى خلاف ذلك، فليعين لنا رجلاً واحداً من القرون الثلاثة الأولى، التزم مذهب رجل واحد معين ولن يستطيع ذلك أبداً، لأنه لم يقع البتة. أهـ.

فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والإتباع.

قال ابن عبد البر: قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه، فقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (١).

وروى عن حذيفة وغيره قالوا: «لم يعبدوهم من دون الله ولكنهم أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم».

وقال عدی بن حاتم: أتيت رسول الله ﷺ، وفي عنقي الصليب فقال لي: «يا عدی: ألقى هذا الوثن من عنقك، فانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال قلت يا رسول الله: إنا لم نتخذهم أرباباً. قال بلى أليس يحلون لكم ما حرم عليكم فتحلونه ويحرمون عليكم ما أحل الله لكم فتحرمونه؟ فقلت بلى فقال: تلك عبادتهم».

(١) التوبة ٣١.

(٢) تقدم تخريجه

حدثنا عبدالوارث بن سفيان ثم ساق السند إلى أن قال عن أبي البختری فی قوله عزوجل: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أما إنهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ولكنهم أمروهم، فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية^(١).

قال وحدثنا ابن وضاح، ثم ساق السند إلى أن قال عن أبي البختری قال: قيل لخليفة في قوله: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أكانوا يعبدونهم؟ فقال لا، ولكن كانوا يحلون لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه^(٢).

وقال جل وعز: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم^(٣).

فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء، فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٤). وفي هؤلاء ومثلهم قال الله عزوجل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٥).

وقال: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ورَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ وقال الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ^(٦).

وقال عزوجل عائياً لأهل الكفر وذاماً لهم: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ قالوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ^(٧).

وقال ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ﴾^(٨).

ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء.

وقد احتج العلماء بهذه الآيات، في إبطال التقليد ولم يمنعه كفر أولئك من الاحتجاج بها، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر.

(١) أخرجه ابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (١٠٩/٢)

(٢) المصدر السابق

(٣) الزخرف: ٢٣، ٢٤

(٤) الأنفال: ٢٢

(٥) الأنبياء: ٥٣، ٥٢

(٦) البقرة: ١٦٦، ١٦٧

(٧) الأحراب: ٦٧

(٨) الأحراب: ٦٧

وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغیر حجة للمقلد، كما لو قلد رجل فكفر وقلد آخر فأذنب وقلد آخر فی مسألة دنیاہ فأخطأ وجهها ، كان كل واحد ملوماً على التقليد بغیر حجة .

لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً، وإن اختلفت الأثام فيه .

وقال الله عزوجل : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ .

وقد ثبت الاحتجاج بما قدمنا فی الباب هذا، وفي ثبوته إبطال التقليد أيضاً .

فإذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا وجب التسليم للأصول التي يجب التسليم لها، وهي الكتاب والسنة أو ماكان في معناهما بدليل جامع بين ذلك .

أخبرنا عبدالوارث ثم ساق السند إلى أن قال : حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إني لأخاف على أمتي من بعدى من أعمال ثلاثة، قال وماهي يا رسول الله ؟ قال : أخاف عليهم من زلة العالم ومن حكم جائر، ومن هوى متبع»^(١) .

وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال : «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله»^(٢) . هذا لفظ أبي عمر في «جامعه» .

وكثير بن عبد الله المذكور في الإسناد ضعيف، وأبوه عبد الله مقبول .

ولكن المتنين المرويين بالإسناد المذكور كلاهما له شواهد كثيرة تدل على أن أصله صحيح .

ثم ذكر أبو عمر بن عبدالبر في «جامعه» بإسناده عن زياد بن حدير عن عمر ابن الخطاب رضی الله عنه أنه قال : ثلاث يهدمن الدين : زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون^(٣) .

ثم ذكر بالإسناد المذكور عن ابن مهدي عن جعفر بن حبان، عن الحسن قال : قال أبو الدرداء : إن فيما أخشى عليكم زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، والقرآن حق وعلى القرآن منار كأعلام الطريق^(٤) .

ثم أخرج بإسناده عن معاذ بن جبل رضی الله عنه أنه كان يقول في مجلسه كل يوم، قلما يخطئه أن يقول ذلك «الله حكم قسط هلك المرتابون إن وراءكم فتنا يكثُر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يقرأه المؤمن والمنافق، والمرأة والصبي والأسود والأحمر

(١) أخرجه ابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (١١٠ / ٢)

(٣) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق

فيوشك أحدهم أن يقول : قد قرأت القرآن، فما أظن أن يتبعونى حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع، فإن كل بدعة ضلالة، وإياكم وزيغة الحكيم^(١).

إلى آخر ما ذكره - رحمه الله - من الآثار الدالة على نحو ماتقدم من أن زلة العالم من أخوف المخاوف على هذه الأمة.

وإنما كانت كذلك لأن من يقلد العالم تقليداً أعمى يقلده فيما زل فيه فيقول على الله أن تلك الزلة التى قلد فيها العالم من دين الله، وأنها مما أمر الله بها ورسوله، وهذا كما ترى والتنبيه عليه هو مراد ابن عبد البر ومرادنا أيضاً بإيراد الآثار المذكورة.

ثم قال أبو عمر بن عبد البر - رحمه الله - فى «جامعه» مانصه :

وشبه الحكماء زلة العالم بانكسار السفينة ، لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير .
وإذا صح وثبت أن العالم يزل ويخطئ، لم يجز لأحد أن يفتى ويدين بقول لا يعرف وجهه .

حدثنا عبدالرحمن بن يحيى ثم ساق السند إلى أن قال : عن ابن مسعود أنه كان يقول : «اغد عالماً أو متعلماً ولا تغد إمعة فيما بين ذلك»^(٢).

ثم ساق الروايات فى تفسيرهم الإمامة .

ومعنى الإمامة معروف .

قال الجوهري فى «صاحبه» : يقال الإمع والإمعة أيضاً للذى يكون لضعف رأيه مع كل أحد، ومنه قول ابن مسعود : لا يكونن أحدكم إمعة . أهـ . منه .
ولقد أصاب من قال :

شمر وكن فى أمور الدين مجتهداً ولا تكن مثل عير قيد فانقادا

وذكر ابن عبد البر بإسناده عن ابن مسعود فى تفسير الإمامة أنه قال :

كنا ندعو الإمامة فى الجاهلية الذى يدعى إلى الطعام فيذهب معه بغيره، وهو فيكم اليوم المحقب دينه الرجال .

ثم ذكر أبو عمر بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال :

ويل للأتباع من عثرات العالم، قيل كيف ذلك؟ قال : يقول العالم شيئاً برأيه ثم يجد من هو أعلم برسول الله ﷺ منه فيترك قوله ذلك ثم تمضى الأتباع^(٣).

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لكميل بن زياد النخعى، وهو حديث مشهور

(١) أخرجه ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم» (١١١/٢)

(٢) المصدر السابق (١١٢/٢)

(٣) المصدر السابق

عند أهل العلم، يستغنى عن الإسناد لشهرته عندهم: ياكميل إن هذه القلوب أوعية،
فخيرها أوعاها للخير، والناس ثلاثة : فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجات، وهمج
رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، إلى آخر
الحديث^(١).

وفيه : أف لحامل حق لا يصيره له، ينقذح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا
يدري أين الحق، إن قال أخطأ، وإن أخطأ لم يدر، مشغوف بما لا يدري حقيقته، فهو
فتنة لمن افتتن به، وإن من الخير كله من عرفه الله دينه، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف
دينه.

ولا شك أن المقلد غيره تقليداً أعمى يدخل فيما ذكره على رضى الله عنه في هذا
الحديث، ، لأنه لا يدري عن دين الله شيئاً إلا أن الإمام الغلاني عمل بهذا.
فعلمه محصور في أن من يقلده من الأئمة ذهب إلى كذا ولا يدري أمصيب هو فيه أم
مخطيء.

ومثل هذا لم يستضيء بنور العلم ولم يلجأ إلى ركن وثيق لجواز الخطأ على متبوعه،
وعدم ميزه هو بين الخطأ والصواب.

ثم ذكر أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في «جامعه» بإسناده عن ابن مسعود رضى الله
عنه أنه قال:

ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة في الشر.
وقال في «جامعه» أيضاً رحمه الله: وثبت عن النبي ﷺ مما قد ذكرناه في كتابنا هذا
أنه قال: «تذهب العلماء ثم تتخذ الناس رؤساء جهالاً يسألون فيفتون بغير علم فيضلون
ويضلون».

وهذا كله نفى للتقليد، وإبطال له لمن فهمه وهدى لرشده.

ثم ذكر رحمه الله آثاراً نحو ما تقدم ثم قال:

وقال : عبيد الله بن المعتز : لافرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد.

وهذا كله لغير العامة، فإن العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها.

لأنها لاتبين موقع الحجة ولاتصل لعدم الفهم إلى علم ذلك، لأن العلم درجات لا
سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها.

وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة . والله أعلم .

ولاشك أن المقلد أعمى عما يفتى به لأن علمه به محصور في أن فلاناً قاله مع علمه بأن فلاناً ليس بمعصوم من الخطأ والزلل .

ثم قال أبو عمر رحمه الله : وقال أهل العلم والنظر حد العلم التبيين وإدراك المعلوم على ماهو به ، فمن بان له الشيء فقد علمه .

قالوا : والمقلد لا علم له . ولم يختلفوا في ذلك إلى أن قال رحمه الله ، وقال أبو عبدالله بن خويز منداد البصرى المالكي .

التقليد : معناه في الشرع الرجوع إلى قول لاحجة لقائله عليه .

وذلك ممنوع منه في الشريعة .

والاتباع : ما ثبت عليه حجة .

وقال في موضع آخر من كتابه : كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قبوله لدليل يوجب عليك ذلك فأنت مقلده .

والتقليد في دين الله غير صحيح .

وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه .

والاتباع في الدين مسوغ والتقليد ممنوع .

وقال أبو عمر في آخر كلامه في هذا الباب مانصه .

ولا خلاف بين أئمة الأمصار في فساد التقليد فأغنى ذلك عن الإكثار .

قال الشنقيطي : أعلم أن مما لا بد منه معرفة ، الفرق بين الاتباع والتقليد وأن محل الاتباع لا يجوز التقليد فيه بحال .

وإيضاح ذلك : أن كل حكم ظهر دليله من كتاب الله ، أو سنة رسوله ﷺ ، أو إجماع المسلمين ، لا يجوز فيه التقليد بحال .

لأن كل اجتهاد يخالف النص ، فهو اجتهاد باطل ، ولاتقليد إلا في محل الاجتهاد .

لأن نصوص الكتاب والسنة ، حاكمة على كل المجتهدين ، فليس لاحد منهم مخالفتها كائناً من كان .

ولايجوز التقليد فيما خالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً إذ لا أسوة في غير الحق .

فليس فيما دلت عليه النصوص إلا الاتباع فقط .

ولا اجتهاد، ولا تقليد فيما دل عليه نص، من كتاب أو سنة، سالم من المعارض.
والفرق بين التقليد والاتباع أمر معروف عند أهل العلم، لا يكاد ينازع في صحة معناه
أحد من أهل العلم.

كلام ابن خويز منداد الذي نقله عنه ابن البر في «جامعه».
وهو قوله: التقليد معناه في الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه، وذلك ممنوع
منه في الشريعة، والاتباع ما ثبت عليه حجة.

وقال في موضع آخر من «كتابه»
كل من اتبع قول من غير أن يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فأنت مقلده،
والتقليد في دين الله غير صحيح.
وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه والاتباع في الدين مسوغ والتقليد
ممنوع. أهـ.

● الفرق بين التقليد والاتباع والأدلة على ذلك

وقال ابن القيم رحمه الله في «اعلام الموقعين».

وقد فرق الإمام أحمد رحمه الله - بين التقليد والاتباع.

فقال أبو داود:

سمعت يقول: الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه، ثم هو
من بعد في التابعين مخير. انتهى محل الغرض منه.

قال مقيد عفا الله عنه، وغفر له: أما كون العمل بالوحي اتباعاً لاتقليد فهو أمر

قطعي

والآيات الدالة على تسميته اتباعاً كثيرة جداً.

كقوله تعالى ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا
تَذَكَّرُونَ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣).

(٣) الأعراف: ٢٠٣.

(٢) الزمر: ٥٥

(١) الأعراف: ٣

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٤).

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

فالعمل بالوحي، هو الاتباع كما دلت عليه الآيات.

ومن المعلوم الذي لاشك فيه، أن اتباع الوحي المأمور به في الآيات لا يصح اجتهاد يخالفه من الوجوه، ولا يجوز التقليد في شيء يخالفه.

فاتضح من هذا الفرق بين الاتباع والتقليد، وأن مواضع الاتباع ليست محلاً أصلاً للاجتهاد ولا للتقليد.

فنصوص الوحي الصحيحة الواضحة الدلالة السالمة من المعارض لا اجتهاد ولا تقليد معها ألبتة.

لأن اتباعها والإذعان لها فرض على كل أحد كائناً من كان كما لا يخفى.

وبهذا تعلم أن شروط المجتهد التي يشترطها الأصوليون إنما تشترط في الاجتهاد وموضع الاتباع ليس محل اجتهاد.

فجعل شروط المجتهد في المتبع مع تباين الاجتهاد والاتباع وتباين مواضعهما خلط وخبط، كما ترى.

والتحقيق أن اتباع الوحي لا يشترط فيه إلا علمه بما يعمل به من ذلك الوحي الذي يتبعه.

وأنه يصح علم حديث والعمل به، وعلم آية والعمل بها.

(٢) الأنعام: ١٥٥

(٤) الأحقاف: ٩

(١) يونس: ١٥

(٣) الأنعام: ١٠٦

ولا يتوقف ذلك على تحصيل جميع شروط الاجتهاد.

فيلزم المكلف أن يتعلم ما يحتاج إليه من الكتاب والسنة، ويعمل بكل ما علم من ذلك، كما كان عليه أول هذه الأمة، من القرون المشهود لها بالخير.

قبول قول الرسول صلى الله عليه وسلم والعمل به ليس تقليداً

قال الشوكاني^(١): وقد عرفت من حد المقلد، على جميع الحدود المذكورة أن قبول قول النبي ﷺ، والعمل به ليس من التقليد في شيء؛ لأن قوله صلى الله عليه وآله وسلم وفعله نفسه الحجة.

قال القاضي حسين في «التعليق»: لا خلاف أن قبول قول غير النبي صلى الله عليه وآله وسلم، من الصحابة، والتابعين، يسمى تقليداً، وأما قبول قوله صلى الله عليه وآله وسلم، فهل يسمى تقليداً؟ فيه وجهان يبينان على الخلاف في حقيقة التقليد ماهو؟ وذكر الشيخ أبو حامد أن الذي نص عليه الشافعي أنه يسمى تقليداً، فإنه قال في حق قول الصحابي لما ذهب إلى أنه لا يجب الأخذ به، مانصه: «وأما أن يقلده، فلم يجعل الله ذلك لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»^(٢) انتهى.

ولا يخفائك أن مراده بالتقليد ههنا غير ما وقع عليه الاصطلاح، ولهذا قال الروياني في «البحر»: أطلق الشافعي على جعل القبول من النبي صلى الله عليه وآله وسلم تقليداً، ولم يرد حقيقة التقليد، وإنما أراد القبول من غير السؤال عن وجهه، وفي وقوع اسم التقليد عليه وجهان.

قال: والصحيح من المذهب أنه يتناول هذا الاسم.

قال الزركشي في «البحر»: وفي هذا إشارة إلى رجوع الخلاف إلى اللفظ، وبه صرح إمام الحرمين في «التلخيص» حيث قال: وهو اختلاف في عبارة يهون موقعها عند ذوى التحقيق انتهى.

وبهذا تعرف أن التقليد بالمعنى المصطلح عليه لا يشمل ذلك، وهو المطلوب.

قال ابن دقيق العيد: إن قلنا إن الأنبياء لا يجتهدون؛ فقد علمنا أن سبب أقوالهم الوحي، فلا يكون تقليداً، وإن قلنا إنهم يجتهدون؛ فقد علمنا أن السبب أحد الأمرين:

(١) إرشاد الفحول (١/ ٣٤٦-٣٤٨)

(٢) انظر: البحر المحيط (٦/ ٢٧٠) المستصفى (٢/ ١٢٢)

إما الوحى، أو الاجتهاد، وعلى كل تقدير، فقد علمنا السبب، واجتهادهم اجتهاد معلوم العصمة انتهى.

وقد نقل القاضى فى «التقريب» الإجماع على أن الآخذ بقول النبى صلى عليه وآله وسلم والراجع إليه ليس بمقلد، بل هو صائر إلى دليل وعلم يقين انتهى^(١).

تقليد العامة للعلماء

ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المرادون بقول الله عزوجل: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيرهم ممن يثق بميزه فى القبلة إذا أشكلت عليه.

فكذلك من لاعلم له ولابصر بمعنى مايدين به لا بد من تقليد عالمه، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لايجوز لها الفتيا.

وذلك والله أعلم لجهلها بالمعانى التى منها يجوز التحريم والتحليل، والقول فى العلم.

ثم ذكر أبو عمر بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال: من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار، ومن استشار أخاه فأشار عليه بغير رشده فقد خانته، ومن أفتى بفتيا من غير ثبت فإنما إثمها على من أفثاه»^(٣)

ثم ذكر بسنده أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: من أفتى بفتيا وهو يعمى عنها كان إثمها عليه^(٤). أهـ

(١) انظر: البحر المحيط (٦/ ٢٧٠)

(٢) النحل: ٤٣. والأنبياء: ٧

(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٥٧)، وابن عبد البر فى «الجامع» (١١٦/٢)

(٤) أخرجه ابن عبد البر فى «الجامع» (١١٦/٢)

حجج المقلدين

قال الشنقيطي ملخصاً لكلام ابن القيم في «إعلام الموقعين».

واعلم أن حاصل جميع حجج المقلدين منحصر في قولهم.

(١) نحن معاصر المقلدين يمثلون قول الله تعالى : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا

تَعْلَمُونَ﴾

فأمر سبحانه من لا علم له أن يسأل من هو أعلم منه، وهذا نص قولنا.

(٢) وقد أرشد النبي ﷺ من لا يعلم إلى سؤال من يعلم، فقال في حديث صاحب

الشجرة: «أَلَا سَأَلُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا، إِنَّمَا شَفَاءُ الْعَمَى السُّؤَالُ»^(١).

(٣) وقال أبو العسيف الذي زنى بامرأة مستأجرة: «وإني سألت أهل العلم فأخبروني

أن ماعلى ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم فلم ينكر عليه تقليد من هو أعلم منه»^(٢).

(٤) وهذا عالم الأرض عمر قد قلد أبا بكر.

فروى شعبة عن عاصم الأحول، عن الشعبي أن أبا بكر قال في الكلالة: أقضى فيها

فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله منه برىء: هو ما دون الولد والوالد، فقال عمر بن الخطاب إنني لأستحيى من الله أن أخالف أبا بكر^(٣).

(٥) وصح عنه أنه قال له:

رأينا لرأيك تبع.

(٦) وصح عن ابن مسعود أنه كان يأخذ بقول عمر.

(٧) وقال الشعبي عن مسروق: كان ستة من أصحاب رسول الله ﷺ يفتنون الناس

ابن مسعود وعمر بن الخطاب وعلى وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وأبو موسى.

وكان ثلاثة منهم يدعون قولهم لقول ثلاثة.

كان عبدالله يدع قوله لقول عمر، وكان أبو موسى يدع قول لقول على، وكان زيد

يدع قوله لقول أبي بن كعب.

(١) تقدم تخريجه

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٦٩٥)، ومسلم في الحدود (١١/٢٠٥ - النوى) عن أبي هريرة به.

وأنظر «منار السبيل» (بتخريجنا

(٣) أخرجه الدارمي في سننه ٢/٣٦٥ - ٣٦٦)

وقال جندب : ماكنت أدع قول ابن مسعود لقول أحد من الناس .

(٨) وقد قال النبي ﷺ «إن معاذاً قد سن لكم سنة فكذاك فافعلوا» فى شأن الصلاة حيث آخر فصلى مافاته من الصلاة مع الإمام بعد الفراغ، وكانوا يصلون ما فاتهم أولاً ثم يدخلون مع الإمام .

وقال المقلدة أيضاً :

(٩) وقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأولى الأمر وهم العلماء أو العلماء والأمراء، وطاعتهم تقليدهم فيما يقتون به .

فإنه لولا التقليد لم يكن هناك طاعة تختص بهم
ثم نقل الشنقيطى عن ابن القيم بقية أدلتهم التى بلغت خمسا وخمسين دليلاً ثم قال :

مقدمة بين يدى الرد على حجج المقلدة:

قال فى «إعلام الموقعين» بعد ذكره حجج المقلدين التى ذكرناها آنفاً مانصه :
قال أصحاب الحجة :

عجباً لكم معاشر المقلدين، الشاهدين على أنفسهم مع شهادة أهل العلم بأنهم ليسوا من أهله، ولا معدودين فى زمرة أهله .

كيف أبطلتم مذهبكم، بنفس دليلكم، فما للمقلد وما للاستدلال؟
وأي منصب المقلد من منصب المستدل؟

وهل ماذكرتم من الأدلة إلا ثياباً استعرقوها، من صاحب الحجة فتجملتم بها، بين الناس، وكنتم فى ذلك متشبهين بما لم تعطوه، ناطقين من العلم بما شهدتم على أنفسكم أنكم لم تؤتوه، وذلك ثوب زور لبستموه، ومنصب لستم من أهله غضبتموه .
فأخبرونا، هل صرتم إلى التقليد لدليل قادكم إليه، وبرهان دلكم عليه، فنزلتم به من الاستدلال أقرب منزل، وكنتم به عن التقليد بمعزل، أم سلكتم سبيله اتفاقاً، وتخميناً من غير دليل .

وليس إلى خروجكم عن أحد هذين القسمين، سبيل، وأيهما كان فهو بفساد مذهب التقليد حاكم، والرجوع إلى مذهب الحجة منه لازم .

ونحن إن خاطبناكم بلسان الحجة، قلتم لنا من أهل هذا السبيل، وإن خاطبناكم بحكم التقليد، فلامعنى لما أقمتوه من الدليل .

والعجب أن كل طائفة من الطوائف، وكل أمة من الأمم، تدعى أنها على حق،
حاشا فرقة التقليد، فإنهم لا يدعون ذلك، ولو ادعوه لكانوا مبطلين، فإنهم شاهدون
على أنفسهم بأنهم لم يعتقدوا تلك الأقوال لدليل قادم إليها، وبرهان دلهم عليها،
وإنما سيلهم محض التقليد.

والمقلد لا يعرف الحق من الباطل، ولا الحالى من العاطل.

وأعجب من هذا أن أئمتهم نهوهم عن تقليدهم فعصوهم وخالفوهم، وقالوا نحن
على مذاهبهم، وقد دانوا بخلافهم فى أصل المذهب الذى بنوا عليه.

فإنهم بنوا على الحجة ونهوا عن التقليد وأوصوهم إذا ظهر الدليل أن يتركوا أقوالهم
ويتبعوه، فخالفوهم فى ذلك كله.

وقالوا نحن من أتباعهم، تلك أمانيتهم، وما أتباعهم إلا من سلك سيلهم، واقتفى
آثارهم فى أصولهم وفروعهم.

وأعجب من هذا أنهم مصرحون فى كتبهم ببطلان التقليد، وتحريمه، وأنه لا يحل
القول به فى دين الله.

ولو أشرط الإمام على الحاكم أن يحكم بمذهب معين لم يصح شرطه ولا توليته.
ومنهم من صحح التولية وأبطل الشرط.

وكذلك المفتى عليه الإفتاء بما لا يعلم صحته باتفاق الناس.

والمقلد لا علم له بصحة القول وفساده إذ طريق ذلك مسدودة عليه.

ثم كل منهم يعرف من نفسه أنه مقلد لمتبعوه لا يفارق قوله، ويترك له كل ماخالفه
من كتاب أو سنة أو قول صاحب، أو قول من هو أعلم من متبعوه أو نظيره.

وهذا من أعجب العجب.

وأيضاً فإننا نعلم بالضرورة، أنه لم يكن فى عصر الصحابة، رجل واحد اتخذ رجلاً
منهم يقلده فى جميع أقواله، فلم يسقط منها شيئاً وأسقط أقوال غيره، فلم يأخذ منها
شيئاً.

ونعلم بالضرورة، أن هذا لم يكن فى عصر التابعين، ولاتابعى التابعين.

فليكنذبنا المقلدون برجل واحد، سلك سيلهم الوخيمة، فى القرون الفضيلة على
لسان رسول الله ﷺ.

وإنما حدثت هذه البدعة فى القرن الرابع المذموم على لسانه ﷺ. (*)

فالمقلدون لمبتوعهم فى جميع ما قالوه ، يسيحون به الفروج ، والدماء والأموال ، ويحرمونها ، ولا يدرون أذلك صواب أم خطأ على خطر عظيم ، ولهم بين يدى الله موقف شديد يعلم فيه من قال على الله مالا يعلم أنه لم يكن على شيء أهـ. محل الغرض منه بلفظه .

وعلى كل حال فأنتم أيها المقلدون : تقولون إنه لا يجوز العمل بالوحي إلا بخصوص المجتهدين فلم سوغتم لأنفسكم الاستدلال على التقليد بآية : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١) وآية ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ (٢) .

هل رجعتكم عن قولكم بأن الاستدلال بالوحي لا يجوز لغير المجتهد ، أو ارتكبتم ما تعتقدون أنه حرام من استدلالكم بالقرآن مع شدة بعدكم عن رتبة الاجتهاد؟ وفى هذا رد إجمالى لما استدلتكم به على التقليد الذى أنتم عليه .

ثم يقال : أليست هذه الآيات التى استدلتكم بها فى زعمكم ، من ظواهر الكتاب ، التى سن لكم الصاوى وأمثاله ، أن العمل بها من أصول الكفر .

فإنه لم يستثن شيئاً من ظواهر القرآن يكون العمل به ليس من أصول الكفر . فلم تجرأتكم على شيء هو من أصول الكفر وسوغتم لأنفسكم الاستدلال بالقرآن ، مع أنه لا يجوز عندكم إلا للمجتهدين .

وسنذكر رد استدلال المقلدين تفصيلاً ، بإيجاز إن شاء الله تعالى .

(١) أما استدلالهم بآية ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهو استدلال فى غير محله .

فإن الآية لاتدل على هذا النوع من التقليد الأعمى الذى هو عليه من التزم جميع أقوال رجل واحد وترك جميع ما سواها .

ولاشك أن المراد بأهل الذكر أهل الوحي الذين يعلمون ماجاء من عند الله كعلماء الكتاب والسنة .

فقد أمروا أن يسألوا أهل الذكر ليفتوهم بمقتضى ذلك الذكر الذى هو الوحي .

ومن سأل عن الوحي وأعلم به ، وبين له كان عمله به اتباعاً للوحي لا تقليداً واتباع الوحي لانزاع فى صحته .

(٢) التوبة : ١٢٢ .

(١) النحل : ٤٣ .

(*) تقدم ذلك فى حكم التقليد فى النوع الثالث

وإن كانت الآية تدل على نوع تقليد فى الجملة، فهى لاتدل إلا على التقليد الذى قدمنا أنه لاختلاف فيه بين المسلمين، وهو تقليد العامى الذى تنزل به النازلة عالماً من العلماء، وعمله بما أفناه به من غير التزام منه لجمع ما يقوله ذلك العالم، ولا تركه لجميع ما يقوله غيره.

(٢) وأما استدلالهم بالحديث الوارد فى الرجل الى أصابته شجة فى رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه: هل يعلمون له رخصة فى التيمم؟

فقالوا : مانرى لك رخصة وأنت قادر على الماء، فاغتسل فمات.

فبلغ النبى ﷺ فقال «قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإنما شفاء العيى السؤال»^(١).

فهو استدلال أيضاً فى غير محله، وهو حجة أيضاً على المقلدين لا لهم.

قال فى إعلام الموقعين فى بيان وجه ذلك مانصه:

إن النبى ﷺ إنما أرشد المستفتين، كصاحب الشجة بالسؤال عن حكمه، وستته فقال: .

«قتلوه قتلهم الله»، فدعا عليهم حين أفتوا بغير علم.

وفى هذا تحريم الإفتاء بالتقليد.

فإنه ليس علماً باتفاق الناس.

فإنما دعا رسول الله ﷺ على فاعله، فهو حرام وذلك أحد أدلة التحريم .

فما احتج به المقلدون هو من أكبر الحجج عليهم.

(٣) وكذلك سؤال أبى العيف الذى زنى بامرأة مستأجرة لأهل العلم^(٢).

(٤) وأما استدلالهم بأن عمر قال فى الكلالة: إني لأستحيى من الله أن أخالف أبا بكر^(٣)، وأن ذلك تقليد منه له . فلا حجة لهم فيه أيضاً.

وخالف عمر لأبى بكر رضى الله عنهما أشهر من أن يذكر .

كما خالفه فى سبى أهل الردة فسيبهم أبو بكر، وخالفه عمر.

وبلغ خالفه إلى أن ردهن حرائر إلى أهلهم إلا لمن ولدت لسيدها منهن.

ونقص حكمه، ومن جملمتهن خولة الحنفية أم محمد بن على .

(١) سبق تخريجه

(٢) سبق تخريجه

(٣) سبق تخريجه

وخالفه فى أرض العنوة فقسمها أبو بكر ووقفها عمر .

وخالفه فى المفاضلة فى العطاء ، فرأى أبو بكر التسوية ، ورأى عمر المفاضلة .

وخالفه فى الاستخلاف ، فاستخلف أبوبكر عمر على المسلمين ، ولم يستخلف عليهم عمر أحداً إيثاراً لفعل رسول الله ﷺ على فعل أبى بكر رضى الله عنهم (١) .

وخالفه فى الجد والإخوة ، مع أن خلاف أبى بكر الذى استحيى منه عمر هو خلافه فى قوله : إن يكون صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله منه برىء ، هو مادون الولد والوالد (٢) فاستحيى عمر من مخالفة أبى بكر فى اعترافه بجواز الخطأ عليه ، وأنه ليس كلامه كله صواباً مأموناً عليه الخطأ .

ويدل على ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أقر عند موته أنه لم يقض فى الكلالة بشيء .

وقد اعترف أنه لم يفهما (٣) ، قاله فى «إعلام الموقعين» .

ومن العجب : استدلال المقلدين على تقليدهم ، باستحياء عمر من مخالفة أبى بكر ، مع أنهم لم يستحيوا من مخالفة أبى بكر وعمر ، وجميع الصحابة ، ومخالفة الكتاب والسنة إذا كان ذلك ، لايوافق مذهب إمامهم ، كما هو معلوم من عاداتهم .

وكما أوضحه الصاوى فى الكلام على قوله تعالى «وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٣٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ» (٤) .

فقد قال : إن من خرج عن المذاهب الأربعة فهو ضال مضل ، ولو وافق الصحابة ، والحديث الصحيح والآية .

وربما أداه ذلك إلى الكفر ، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر !

فمن هذا مذهبه ودينه ، كيف يستدل باستحياء عمر من مخالفة أبى بكر (٥) ؟

بل كيف يستدل بنص من نصوص الوحي ، أو قول أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ؟

مع أن أبابكر خليفة راشد أمر النبى بالاعتداء به فى قوله : «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى» (٦) . الحديث .

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى الأحكام حديث (٧٢١٨) ، ومسلم فى الإمارة (١١/٤٤٤/٦)

عن ابن عمر به

(٢) سبق تخريجه

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفرائض (٩/٦٣/٦)

(٤) الكهف : ٢٣ ، ٢٤

(٥) سبق تخريجه (٦) تقدم تخريجه

فليس الاقتداء بالخلفاء كالإقتداء بغيرهم.

(٥) وأما استدلالهم على تقليدهم بقول عمر لأبى بكر رضى الله عنهما: رأينا لرأيك تبع.

فيكفى فى رده ما قدمنا قريباً، من مخالفة عمر لأبى بكر، مع القصة التى قال له فيها رأينا لرأيك تبع، رد فيها على أبى بكر بعض ما قاله.

وأيد الصحابة ما قال عمر فى رده على أبى بكر رضى الله عنهما.

لأن الحديث المذكور فى وفد بزاخة من أسد وغطفان حين قدموا على أبى بكر يسألونه الصلح، فخيرهم أبو بكر بين الحرب المجلية والسلم المخزية.

فقالوا هذه المجلية قد عرفناها فما المخزية؟

قال: تنزع منكم الحلقة والكراع، ونغنم ما أصبنا لكم وتردون لنا ما أصبتم منا؟ وتدنون لنا قتلانا إلى آخر كلامه.

وفيه : فقام عمر بن الخطاب فقال: قد رأيت رأياً سنشير عليك.

أما ما ذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزية فنعم ماذكرت.

وما ذكرت من أن نغنم ما أصبنا منكم، وتردون ما أصبتم منا، فَنِعَمَ ماذكرت.

وأما ما ذكرت من أن تدون قتلانا وتكون قتلاكم فى النار.

فإن قتلانا قد قاتلت فقتلت على ما أمر الله أجورها على الله، ليس لها ديات.

فتتابع القوم على ما قال عمر رضى الله عنه.

فهذه القصة الثابتة: هى التى فى بعض ألفاظها ورأينا لرأيك تبع.

وأنت ترى عمر رضى الله عنه لم يقلد فيها أبا بكر رضى الله عنه، إلا فيما يعتقد صوابه.

فإنما ظهر له أنه صواب قال له فيه: نعم ماذكرت.

وما ظهر له أنه ليس بصواب رده على أبى بكر، وهو قول أبى بكر بدفع ديات الشهداء.

لأن عمر يعتقد أن الشهيد فى سبيل الله لادية له، لأن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١).

وذلك يوضح ذلك أن الصحابة رضى الله عنهم لا يعدلون عن الكتاب والسنة إلى قول أحد.

(٦) وأما احتجاجهم بتقليد ابن مسعود لعمر فهو ظاهر السقوط، ولو وافق عمر في بعض المسائل فهو من قبيل موافقة بعض العلماء لبعض، لاتفاق رأيهم لالتقليد بعضهم لبعض.

وقد خالف ابن مسعود عمر رضى الله عنهما في مسائل كثيرة جداً، كمخالفته له في أم الولد، لأن ابن مسعود يقول فيها إنها تعتق من نصيب ولدها، ومن ذلك أن ابن مسعود كان يطبق في ركوعه إلى أن مات، وعمر كان يضع يديه على ركبتيه.

وكان ابن مسعود يقول في الحرام هي يمين وعمر يقول: إنه طلبة واحدة.

وكان ابن مسعود يحرم النكاح بين الزانيين وعمر يتوبهما، وينكح أحدهما الآخر.

وكان ابن مسعود يرى بيع الأمة طلاقها، وعمر يرى عدم ذلك وأمثال هذا كثيرة معلومة.

مع أن ابن مسعود يقول: إنه أعلم الصحابة بكتاب الله وأنه لو كان أحداً أعلم منه به لرحل إليه.

ولم ينكر عليه أحد من الصحابة.

وقد قدمنا عنه قوله: كن عالماً أو متعلماً ولا تكن إمعة.

فليس ابن مسعود من أهل التقليد، مع أن المقلدين المحتجين بتقليد ابن مسعود لعمر، لا يقلدون ابن مسعود، ولا عمر ولا غيرهما من أصحاب رسول الله ﷺ.

ولا يأخذون بقول الله ولا رسوله وإنما يفضلون على ذلك كله تقليد أحد الأئمة أصحاب المذاهب رحمهم الله.

(٧) وأما استدلالهم على التقليد بأن عبد الله كان يدع قوله لقول عمر.

وأبو موسى كان يدع قوله لقول على.

وزيد يدع قوله لقول أبي بن كعب فهو ظاهر السقوط أيضاً

لأنه من المعلوم أن الصحابة المذكورين رضى الله عنهم لا يدعون سنة رسول الله ﷺ لقول أحد، وهذا لا شك فيه.

وكان ابن عمر يدع قول عمر، إذا ظهرت له السنة.

وكان ابن عباس يقول: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول : قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر (١).

قلت: وهذا الأثر هو الذى معنا فى هذا الباب من كتاب التوحيد

(٨) وأما استدلالهم على التقليد بأن معاذاً رضى الله عنه صلى مسبقاً فصلى ما أدرك مع الإمام أولاً: ثم قضى ما فاتة بعد سلام الإمام، وكانوا قبل ذلك يصلون ما فاتهم أولاً ثم يدخلون مع الإمام فى الباقي.

وأن النبى ﷺ قال فى ذلك «إن معاذاً قد سن لكم سنة، فكذاك فافعلوا» فهو ظاهر السقوط أيضاً، لأن ذلك لم يكن سنة إلا بأمر رسول الله ﷺ كما لا يخفى.

فلا حاجة قطعاً فى قول أحد كائناً من كان، ورسول الله ﷺ موجود

وإنما العبرة بقوله ﷺ وفعله وتقريره.

وهذا معلوم بالضرورة من الدين.

(٩) وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» (٢).

قائلين إن المراد بأولى الأمر العلماء، وأن طاعتهم المأمور بها فى الآية هى تقليدهم، فهو ظاهر السقوط أيضاً.

لأنه لا يجوز طاعة أولى الأمر إجماعاً فيما خالف كتاباً أو سنة، ولا طاعة لهم إلا فى المعروف كما جاءت به الأحاديث الصحيحة عنه ﷺ.

ولانزاع بين المسلمين فى أنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

والتحقيق فى معنى الآية الكريمة أن المراد بأولى الأمر: ما يشمل الأمراء والعلماء.

لأن العلماء مبلغون عن الله وعن رسوله، والأمراء منفذون، ولا تجوز طاعة أحد منهم إلا فيما أذن الله فيه.

لأن ما أمر به أولو الأمر لا يخلو من أحد أمرين.

أحدهما : أن يكون طاعة الله ولرسوله من غير نزاع، وطاعة أولى الأمر فى مثل هذا من طاعة الله ورسوله

والثانى: أن يحصل فيه نزاع هل هو من طاعة الله ورسوله أو لا؟

وفى هذه الحالة لا تجوز الطاعة العمياء لأولى الأمر ولا التقليد الأعمى كما صرح الله تعالى بذلك فى نفس الآية.

لأنه تعالى لما قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ واتبع ذلك بقوله ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (١)

فالآية صريحة فى رد كل نزاع إلى الله ورسوله.

والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله ﷺ، هو الرد إليه فى حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته ﷺ.

وبعض الأحاديث الصحيحة الدالة على أنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق، كحديث ابن عمر أن النبی ﷺ قال «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» (٢).

وحديث على رضى الله عنه عن النبی ﷺ أنه قال فى السرية الذين أمرهم أميرهم أن يدخلوا فى النار «لو دخلوها ماخرجوا منها أبداً إنما الطاعة فى المعروف» (٣).

وفى الكتاب العزيز: ﴿وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾.

ولا يخفى أن طاعة الله وطاعة رسوله المأمور بها فى الآية لا يتحقق وجودها إلا بمعرفة أمر الله ورسوله ونهى الله ورسوله.

والقلدون مقرون على أنفسهم بأنهم لا يعلمون أمر الله ولأنهيه، ولا أمر رسوله ولا نهيه.

وغاية ما يدعون علمه هو أن الإمام الذى قلده قال كذا، مع عجزهم عن التمييز بين ما هو خطأ وما هو صواب، بل أكثرهم لا يميزون بين قول الإمام وبين ما ألحقه أتباعه بعده مما قاسوه على أصول مذهبه.

ولاشك أن طاعة العلماء هى اقتفاء ما كانوا عليه من النظر فى كتاب الله وسنة رسوله وتقديمها على كل قول وعلى كل رأى كائناً ما كان.

فمن قلدهم التقليد الأعمى وترك الكتاب والسنة لأقوالهم، فهو المخالف لهم المتباعد عن طاعتهم كما تقدم.

ردود عقلية على المقلدين

وقال أبو عمر بن عبد البر- رحمه الله- ، فى كلامه عن التقليد مانصه:
وقد احتج جماعة من الفقهاء وأهل النظر على من أجاز التقليد بحجج نظرية عقلية
بعدها تقدم.

فأحسن ما رأيت من ذلك قول المزنى - رحمه الله -، وأنا أورده قال:
يقال لمن حكم بالتقليد هل لك من حجة فيما حكمت به؟
فإن قال: نعم، أبطل التقليد لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد.
وإن قال: حكمت به بغير حجة.

قيل له : فلم أرتق الدماء، وأبحت الفروج وأتلفت الأموال، وقد حرم الله ذلك إلا
بحجة.

قال الله عزوجل ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أى من حجة بهذا؟
فإن قال: أنا أعلم أنى قد أصبت وإن لم أعرف الحجة، لأنى قلدت كبيراً من
العلماء وهو لا يقول إلا بحجة خفيت على .

قيل له : إذا جاز تقليد معلمك لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت عليك، فتقليد معلم
معلمك أولى لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت على معلمك: كما لم يقل معلمك إلا بحجة
خفيت عليك.

فإن قال : نعم ترك تقليد معلمه إلى تقليد معلم معلمه .
وكذلك من هو أعلا حتى ينتهى الأمر إلى أصحاب رسول الله ﷺ .
وإن أبى ذلك نقض قوله .

وقيل له : كيف تجوز تقليد من هو أصغر، وأقل علماً؟
ولا تجوز تقليد من هو أكبر وأكثر علماً، وهذا تناقض؟
فإن قال: لأن معلمى وإن كان أصغر فقد جمع علم من هو فوقه إلى علمه، فهو
أبصر بما أخذ وأعلم بما ترك.

قيل له : كذلك من تعلم من معلمك، فقد جمع علم معلمك وعلم من فوقه إلى
علمه، فيلزمك تقليده وترك تقليد معلمك .

وكذلك أنت أولى أن تقلد نفسك من معلمك . لأنك جمعت علم معلمك وعلم من هو فوقه إلى علمك .

فإن أعاد قوله جعل الأصغر ومن يحدث من صغار العلماء ، أولى بالتقليد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .
وكذلك الصاحب عنده يلزمه تقليد التابع والتابع من دونه فى قياس قوله . و الأعلى للأدنى أبداً .

وكفى بقول يؤول إلى هذا تناقضاً وفساداً أهـ .

ثم قال أبو عمر رحمه الله بعد هذا ما نصه :

يقال لمن قال بالتقليد: لم قلت به ، وخالفت السلف فى ذلك فإنهم لم يقلدوا؟

فإن قال : قلدت لأن كتاب الله لا علم لى بتأويله وسنة رسوله ﷺ لم أحصها والذى قلدته قد علم ذلك فقلدت من هو أعلم منى .

قيل له : أما العلماء ، إذا أجمعوا على شىء من تأويل الكتاب أو حكاية عن سنة رسوله ﷺ ، أو اجتمع رأيهم على شىء فهو الحق لاشك فيه .

ولكن قد اختلفوا فيما قلدت فيه بعضهم دون بعض .

فما حجتك فى تقليد بعضهم دون بعض .

وكلهم عالم ، والعالم الذى رغبت عن قوله ، أعلم من الذى ذهبت إلى مذهبه .

فإن قال : قلدته لأنى أعلم أنه صواب .

قيل له : علمت ذلك بدليل من كتاب الله أو سنة أو إجماع؟

فإن قال : نعم أبطل التقليد وطولب بما إدعاه من الدليل .

وإن قال : قلدته لأنه أعلم منى .

قيل له : فقلد كل من هو أعلم منك .

فإنك تجد من ذلك خلقاً كثيراً ولا تخص من قلدته إذ علتك فيه أنه أعلم منك .

فإن قال : قلدته لأنه أعلم الناس .

قيل له : فإنه إذا أعلم من الصحابة وكفى بقول مثل هذا قبحاً .

فإن قال : أنا أقلد بعض الصحابة .

قيل له: فما حجتك في ترك من لم تقلد منهم، ولعل من تركت قوله منهم أفضل ممن أخذت بقوله؟

على أن القول لا يصح لفضل قائله، وإنما يصح بدلالة الدليل عليه.

وقد ذكر ابن مزين بن عيسى بن دينار، عن ابن القاسم عن مالك، قال ليس كل ما قال رجل قولاً وإن كان له فضل يتبع عليه لقول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾. فإن قال قصرى وقلة علمى يحملنى على التقليد.

قيل له: أما من قلد فيما يتزل؛ من أحكام شريعته عالماً يتفق له على علمه، فيصدر فى ذلك عما يخيره فمعذور، لأنه قد أدى ما عليه وأدى ما لزمه فيما نزل به لجهله ولا بد له من تقليد عالم، فيما جهله، لإجماع المسلمين أن المكفوف يقلد من يثق بخيره فى القبلة لأنه لا يقدر على أكثر من ذلك.

ولكن من كانت هذه حاله هل تجوز له الفتيا فى شرائع دين الله؟ فيحمل غيره على إباحة الفروج وإراقة الدماء واسترقاق الرقاب وإزالة الأملاك ويصيرها إلى غير من كانت فى يديه بقول لا يعرف صحته ولا قام له الدليل عليه؟

وإن كان متبع هل يجوز له أن يفتى أو يقول بما يترجح عنده؟ وهو مقر أن قائله يخطئ ويصيب، وأن مخالفه فى ذلك ربما كان المصيب، فيما خالفه فيه.

فإن أجاز الفتوى لمن جهل الأصل والمعنى لحفظه الفروع، لزمه أن يجيزه للعامة وكفى بهذا جهلاً، ورداً للقرآن قال الله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (١). وقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢).

وقد أجمع العلماء على أن مالم يتبين ويستيقن فليس بعلم، وإنما هو ظن، والظن لا يغنى من الحق شيئاً أهـ. كله من «جامع ابن عبد البر» رحمه الله.

تنبيهات(*) مهمة تتعلق بمسألة التقليد

اعلم أن المقلدين، اغتروا بقضيتين ظنوهما صادقتين، وهما بعيدتان من الصدق. وظن صدقهما يدخل أولاً فى عموم قوله تعالى ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ وقوله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» (٣).

(١) الإسراء: ٣٦ (٢) الأعراف: ٢٨

(*) ذكرها الشنيطى فى «أضواء البيان» (٣٩٢: ٣٥١/٧)

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٢٠ - النووى) عن أبى هريرة به.

وأنظر «رياض الصالحين» (٢٣٧ - بتخريجنا)

فإنهم ظنوا أن بعض أسباب رد الشرع لقول الشيخ ممن يلقيه منهما فهي ظنهم، أن الإمام الذي قلده لا بد أن يكون قد اطلع على جميع معاني كتاب الله، ولم يفته منها شيء.

ولذلك فإن كل آية وكل حديث قد خالفا قوله فلا شك عندهم أن ذلك الإمام اطلع على تلك الآية وعلم معناها، وعلى ذلك الحديث وعلم معناه. وأنه ماترك العمل بهما إلا لأنه أطلع على ما هو أقوى منهما وأرجح.

ولذلك يجب تقديم ذلك الأرجح الذي تخيلوه شيء من الوحي الموجود بين أيديهم وهذا الظن كذب باطل بلا شك والأئمة كلهم معترفون بأنه ما أحاطوا بجميع نصوص الوحي كما تقدم إيضاحه

ومن أصرح ذلك أن الإمام مالكا رحمه الله، إمام دار الهجرة المجمع على علمه وفضله وجلالته، لما أراد أبو جعفر المنصور أن يحمل الناس على العمل بما جمعه في موطنه لم يقبل ذلك من أبي جعفر ورده عليه.

وأخبره أن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في أقطار الدنيا، كلهم عنده علم ليس عند الآخر.

ولم يجمع الحديث جمعا تاما بحيث أمكن جمع جميع السنة إلا بعد الأئمة الأربعة. لأن أصحاب رسول الله ﷺ الذين تفرقوا في أقطار الدنيا روى عنهم كثير من الأحاديث لم يكن عند غيرهم، ولم يتيسر الإطلاع عليه إلا بعد أزمان. وكثرة علم العالم لاتستلزم إطلاعه على جميع النصوص.

فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو عجز عن أن يفهم معنى الكلالة حتى مات رضى الله عنه.

وقد سأل النبي ﷺ عنها كثيرا فبينها له ولم يفهم.

فقد ثبت عنه رضى الله عنه أنه قال: ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألت عن الكلالة، حتى طعن بإصبعه في صدرى، وقال لى «يكفيك آية الصيف في آخر سورة النساء»

فهذا من أوضح البيان، لأن مراد النبي ﷺ بآية الصيف «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ» (١). والآية تبين معنى الكلالة بيانا شافيا، لأنها أوضحت أنها: مادون الولد والوالد.

فبينت نفى الولد بدلالة المطابقة فى قوله تعالى ﴿إِنْ أَمْرُؤُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ وبينت نفى الوالد بدلالة الالتزام فى قوله تعالى ﴿وَلَهُ أَخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ لأن ميراث الأخت يستلزم نفى الوالد.

ومع هذا البيان النبوى الواضح لهذه الآية الكريمة، فإن عمر رضى الله عنه لم يفهم . وقد صح عنه أن الكلالة لم تزل مشكلة عليه . وقد خفى معنى هذا أيضاً على أبى بكر الصديق رضى الله عنه فقال فى الكلالة: أقول فيها برأى. فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان، هو مادون الولد والوالد.

فوافق رأيه معنى الآية.

والظاهر أنه لو كان فاهماً للآية لكفته عن الرأى.

كما قال النبى ﷺ لعمر رضى الله عنه . «تكفيك آية الصيف».

وهو تصريح منه ﷺ بأن فى الآية كفاية عن كل ماساوها فى الحكم المسؤول عنه.

ومما يوضح ذلك أن عمر طلب من النبى ﷺ بيان الآية.

وتأخير البيان عن وقت الحاجة لايجوز فى حقه ﷺ.

فمأاحال عمر على الآية إلا لأن فيها من البيان مايشفى ويكفى.

وقد خفى على أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن النبى ﷺ «أعطى الجدة السدس

حتى أخبره المغيرة بن شعبه ومحمد بن مسلمة أن النبى ﷺ أعطاهما السدس»^(١) فرجع إلى قولهما.

ولم يعلم عمر رضى الله عنه بأن النبى ﷺ: قضى فى دية الجنين بغرة عبد أو وليدة

حتى أخبره المذكوران قبل.

ولم يعلم عمر رضى الله عنه بأن المرأة تترث من دية زوجها. حتى أخبره الضحاك

بن سفيان أن النبى ﷺ كتب إليه: أن يورث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها.

ولم يعلم أيضاً بأخذ الجزية من المجوس حتى أخبره عبدالرحمن بن عوف . بأن

النبى ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر.

ولم يعلم بحكم الاستئذان ثلاثاً حتى أخبره أبو موسى الأشعرى وأبو سعيد الخدرى

رضى الله عنه.

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٩٤)، والترمذى (٢١٠٠)، والنسائى فى «الكبرى» (٦٣٣٩)، وابن ماجه

ولم يعلم عثمان رضى الله عنه بوجوب السكنى للمتوفى عنها حتى أخبرته فريضة بنت مالك أن النبی ﷺ ألزمها بالسكنى فى المحل الذى مات عنها زوجها فيه حتى تنقضى عدتها.

وأمثال هذا أكثر من أن تحصر.

فهؤلاء الخلفاء الراشدون وهم هم، خفى عليهم كثير من قضايا رسول الله ﷺ وأحاديثه مع ملازمته لهم، وشدة حرصهم على الأخذ منه.

فتعلموه ممن هو دونهم فى الفضل والعلم فما ظنك بغيرهم من الأئمة الذين نشأوا وتعلموا بعد تفرق الصحابة فى أقطار الدنيا؟

وروى عنه الأحاديث عدول من الأقطار التى ذهبوا إليها؟

والحاصل: أن ظن إحاطة الإمام بجميع نصوص الشرع ومعانيها ظن لا يغنى من الحق شيئاً، وليس بصحيح قطعاً.

لأنه لاشك أنه يفوته بعض الأحاديث فلم يطلع عليها ويرويه بعض العدول عن الصحابة فيثبت عند غيره.

وهو معذور فى ترك العمل به، بعدم إطلاعه عليه مع أنه بذل المجهود فى البحث.

ولذا كان له أجر الاجتهاد والعذر فى الخطأ.

هل للمقلد عذر فى الخطأ كما للمجتهد؟

ظن المقلدون أن لهم مثل مالإمام من العذر فى الخطأ.

وإيضاحه: أنهم يظنون أن الإمام لو أخطأ فى بعض الأحكام وقلدوه فى ذلك الخطأ يكون لهم من العذر فى الخطأ والأجر مثل ما لذلك الإمام الذى قلدوه

لأنهم متبعون له فيجربى عليهم ماجربى عليه.

وهذا ظن كاذب باطل بلاشك. لأن الإمام الذى قلدوه بذل جهده فى تعلم كتاب الله وسنة رسوله وأقوال أصحابه وفتاويهم.

فقد شمر وما قصر فيما يلزم من تعلم الوحى والعمل به وطاعة الله على ضوء الوحى المنزل.

ومن كان هذا شأنه فهو جدير بالعذر فى خطئه والأجر فى اجتهاده.

وأما مقلدوه فقد تركوا النظر فى كتاب الله وسنة رسوله وأعرضوا عن تعلمها إعراضاً

كلياً مع يسره وسهولته ونزلوا أقوال الرجال الذين يخطئون ويصيبون منزلة الوحي المنزل من الله .

فأين هؤلاء من الأئمة الذين قلدوهم؟

وهذا الفرق العظيم بينهم، وبينهم، يدل دلالة واضحة، على أنهم ليسوا ماجورين في الخطأ في تقليد أعمى إذ لا اقتداء ولا أسوة في غير الحق .

وليسوا معذورين لأنهم تركوا ما يلزمهم تعلمه من أمر الله ونهيه على ضوء وحيه المنزل .

والذى يجب عليهم من تعلم ذلك، هو ماتدعوهم الحاجة للعمل به، كأحكام عباداتهم ومعاملاتهم .

وأغلب ذلك تدل عليه نصوص واضحة، سهلة التناول من الكتاب والسنة .

والحاصل : أن المعرض عن كتاب الله، وسنة رسوله المفرط في تعلم دينه، مما أنزل الله، وما سنه رسوله، المقدم كلام الناس على كتاب الله، وسنة رسوله، ولا يكون له ألبتة ما للإمام الذى لم يعرض عن كتاب الله وسنة رسوله، ولم يقدم عليهما شيئاً ولم يفرط في تعلم الأمر والنهى من الكتاب والسنة .

فأين هذا من هذا؟

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

لا يجوز للمقلد أن يفتى بما أفتاه به شيخه

اعلم أن المقلدين للأئمة هذا التقليد الأعمى قد دل كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع من يعتقد به من أهل العلم، أنه لا يجوز لأحد منهم أن يقول: هذا حلال وهذا حرام .

لأن الحلال ما أحله الله، على لسان رسوله ﷺ في كتابه أو سنة رسوله، والحرام ما حرمة الله على لسان رسوله ﷺ في كتابه، أو سنة رسوله .

ولا يجوز ألبتة للمقلد أن يزيد على قوله: هذا الحكم قاله الإمام الذى قلدته أو أفتى

به .

أما دلالة القرآن على منع ذلك فقد قال تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ

فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ (٢).

ومعلوم أن العبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب .

ومما يوضح هذا أن المقلد الذي يقول : هذا حلال وهذا حرام من غير علم بأن الله حرمه على لسان رسوله ﷺ، يقول على الله بغير علم قطعاً.

فهو داخل بلا شك في عموم قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

فدخوله في قوله ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كما ترى

وهو داخل أيضاً في عموم قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤).

وأما السنة، فقد أخرج مسلم بن الحجاج في صحيحه عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال «اغزوا باسم الله، في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله» (٥) الحديث .

وفيه «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري، أتصيب حكم الله فيهم أم لا» (٦).

هذا لفظ مسلم في صحيحه

وفيه النهى الصريح من النبي ﷺ عن نسبة حكم إلى الله، حتي يعلم بأن هذا حكم الله الذي شرعه على لسان رسوله ﷺ.

(٢) الأنعام : ١٥٠

(١) النحل ١١٦

(٤) البقرة : ١٦٩ .

(٣) الأعراف : ٣٣

(٥) سيأتي تخريجه في باب ماجاء في ذمه الله وذمه نبيه .

(٦) ما قبله

ولأجل هذا كان أهل العلم لا يتجرؤون على القول بالتحريم والتحليل إلا بنص من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ.

قال أبو عمر بن عبد البر - رحمه الله - في «جامعه».

قال الربيع بن خثيم:

إياكم أن يقول الرجل في شيء: وإن الله حرم هذا أو نهى عنه فيقول الله: كذبت لم أحرمه ولم أنه عنه.

قال أو يقول:

إن الله أحل هذا وأمر به، فيقول: كذبت لم أحله ولم أمر به.

وذكر ابن وهب وعتيق بن يعقوب أنهما سمعا مالك بن أنس يقول: لم يكن من أمر الناس ولا من مضي من سلفنا ولا أدركت أحداً اقتدى به يقول في شيء: هذا حلال وهذا حرام.

ماكانوا يجترئون على ذلك.

وإنما كانوا يقولون: نكره هذا.

ونرى هذا حسناً.

ونتقى هذا، ولا نرى هذا.

وزاد عتيق بن يعقوب، ولا يقولون حلال وحرام.

أما سمعت قول الله عز وجل ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَى لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (١).

الحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله: قال أبو عمر: معنى قول مالك هذا إن ما أخذ من العلم رأياً واستحساناً لم نقل فيه حلال ولا حرام والله أعلم. أهـ. محل الغرض منه.

وقال أبو عبد الله القرطبي - رحمه الله - في تفسيره، في الكلام على قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ (٢). الآية مانصه

أسند الدارمي أبو محمد في مسنده أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال: ما سمعت إبراهيم قط يقول: حلال ولا حرام ولكن كان يقول: كانوا يكرهون وكانوا يستحبون.

وقال ابن وهب: قال مالك: لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام.

ولكن يقولون: إياكم وكذا وكذا. ولم أكن لأصنع هذا. ومعنى هذا أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان، إلا أن يكون [البارئ تعالى بذلك عنه] (*). وما يؤدي إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول: إنى أكره كذا.

وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى أهد محل الغرض منه. وإذا كان مالك وإبراهيم السنخعي وغيرهما من أكابر أهل العلم لا يتجرؤون أن يقولوا في شيء من مسائل الاجتهاد والرأى: هذا حلال أو حرام. فما ظنك بغيرهم من المقلدين الذين لم يستضيئوا بشيء من نور الوحي؟ فتجرؤهم على التحريم والتحليل بلا مستند من الكتاب إنما نشأ لهم من الجهل بكتاب الله وسنة رسوله، وآثار السلف الصالح.

وآية يونس المتقدمة صريحة فيما ذكرنا صراحة تغني عن كل ما سواها. لأنه تعالى لما قال: ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ أتبع ذلك بقوله ﴿قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (١).

ولم يجعل واسطة بين إذنه في ذلك وبين الافتراء عليه. فمن كان عنده إذن من الله بتحريم هذا أو تحليلا فليعتمد على إذن الله في ذلك. ومن لم يكن عنده إذن من الله في ذلك فليحذر من الافتراء على الله. إذ لا واسطة بين الأمرين. ومعلوم أن العبرة بعموم لفظ الآية لا بخصوص سببها.

(١) يونس: ٥٩.

(*) كذا في طبعة «أضواء البيان» والأظهر أن تكون [حكم بذلك فيه]

فالذين يقولون من الجهلة المقلدين: هذا حلال وهذا حرام، وهذا حكم الله، ظناً منهم أن أقوال الإمام الذي قلده تقوم مقام الكتاب والسنة وتغني عنهما. وإن ترك الكتاب والسنة والاكتفاء بأقوال من قلده أسلم لدينه أعمتهم ظلمات الجهل المتراكمة عن الحقائق حتى صاروا يقولون هذا. فهم كما ترى، مع أن الإمام الذي قلده، ما كان يتجرأ على مثل الذي نجرؤوا عليه، لأن علمه يمنعه من ذلك. والله جل وعلا يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

شبهة للمقلدين والرد عليها

اعلم أنه لا يخفى علينا أن المقلدين التقليد الأعمى المذكور يقولون: هذا الذي تدعوننا إليه وتأمروننا به من العمل بالكتاب والسنة، وتقديمهما علي آراء الرجال من التكليف بما لا يطاق.

لأننا لا قدرة لنا على معرفة الكتاب والسنة حتى نعمل بهما. ولا يمكننا معرفة شيء من الشرع إلا عن طريق الإمام الذي نقلده. لأننا لم نتعلم نحن ولا آباؤنا شيئاً غير ذلك. فإذا لم تقلد إمامنا بقينا في حيرة لا نعلم شيئاً من أحكام عبادتنا ولا معاملاتنا، وتعطلت بيننا الأحكام إذ لا نعرف قضاء ولا فتوى ولا غير ذلك من الأحكام إلا عن طريق مذهب إمامنا.

لأن أحكامه مدونة عندنا وهي التي نتعلمها ونتدارسها دون غيرها من الكتاب أو السنة وأقوال الصحابة ومذاهب الأئمة الآخرين ونحن نقول :

والله لقد ضيقتم واسعاً. وادعيتم العجز، وعدم القدرة في أمر سهل. ولا شك أن الأحوال الراهنة للمقلدين التقليد الأعمى، للمذاهب المدونة تقتضي صعوبة شديدة جداً في طريق التحول من التقليد الأعمى إلى الاستضاء بنور الوحي. وذلك إنما نشأ من شدة التفريط في تعلم الكتاب والسنة والإعراض عنهما إعراضاً كلياً يتوارثه الأبناء عن الآباء عن الأجداد.

فالداء المستحكم من مئات السنين لا بد لعلاجه من زمن طويل .
ونحن لانقول : إن الجاهل بالكتاب والسنة يعمل بهما باجتهاده .
بل نعوذ بالله من أن نقول ذلك .

ولكننا نقول : إن الكتاب والسنة يجب تعلمهما ، ولايجوز الإعراض عنهما وأن كل
ما علمه المكلف منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم صحيح وجب عليه العمل به .
فالبلية العظمى إنما نشأت من توارث الإعراض عنهما إعراضاً كلياً اكتفاء عنهما
بغيرهما .

وهذا من أعظم المنكر وأشنع الباطل .
فالذى ندعو إليه هو المبادرة بالرجوع إليهما بتعلمهما أولاً ثم العمل بهما والتوبة
إلى الله من الإعراض عنهما .

ودعوى أن تعلمهما غير مقدور عليه ، لايشك فى بطلانها عاقل ، ونعيذ أنفسنا
وإخواننا بالله أن يدعوا على أنفسهم أن على قلوبهم أكنة ، وفى آذانهم وقراً يمنعهم من
فهم كتاب الله

لأن ذلك قول الكفار لا قول المسلمين قال الله تعالى ﴿حَمِّ (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ
فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ
حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَاعْمَلُونَ﴾ (١) .

فاحذر يا أخى وارحم نفسك أن تقول مثل قول هؤلاء الكفرة وكنت تسمع ربك
يقول : ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ (٢) . ويقول : ﴿فَإِنَّمَا يَسْرُنَاهُ بِلِسَانِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٣) .

ويقول ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٤) .
فلاتخرج نفسك من عموم أولى الألبياب الذين هم أصحاب العقول ، لأنك إن
فعلت ذلك اعترفت على نفسك أنك لست من جملة العقلاء .

(٢) القمر : ١٧

(٤) ص : ٢٩

(١) فصلت : ٥١ .

(٣) الدخان : ٥٨

وعلى كل حال فلا يخلو المقلدون، التقليد الأعمى، من أحد أمرين:
أحدهما: ألا يلتفتوا إلى نصح ناصح.

بل يستمرون على تقليدهم الأعمى، والإعراض عن نور الوحي عمداً.
وتقديم رأى الرجال عليه.

وهذا القسم منهم لانعلم له عذراً فى كتاب الله ولاسنة رسوله.

ولافى قول أحد من الصحابة، ولا أحد من القرون المشهود لهم بالخير.

لأن حقيقة ما هم عليه، هو الإعراض عما أنزل الله عمداً مع سهولة تعلم القدر
المحتاج إليه منه، والاستغناء عنه بأقوال الأئمة.

ومن كان هذا شأنه وهو تام العقل والفهم قادر على التعلم فعدم عذره كماترى.

الأمر الثانى: هو أن يندم المقلدون على ماكانوا عليه من التفريط فى تعلم الوحي،
والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ويبادروا إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة ويشرعوا فى ذلك بجدة. تائبين مما كانوا
عليه من التفريط قبل ذلك، وهذا القسم على هدى من الله .
وهوالذى ندعو إخواننا إليه.

الضرورة عذر فى التقليد للمضطر

لاخلاف بين أهل العلم فى أن الضرورة لها أحوال خاصة تستوجب أحكاماً غير
أحكام الاختيار.

فكل مسلم أجبأت الضرورة إلى شىء إلباءً صحيحاً حقيقياً، فهو فى سعة من أمره
فيه.

وقد استثنى الله جل وعلا، حالة الاضطرار فى خمس آيات من كتابه، ذكر فيها
المحرمات الأربع التى هى من أغلظ المحرمات، تحريماً وهى الميتة والدم ولحم الخنزير وما
أهل لغير الله به.

فإن الله تعالى كلما ذكر تحريمها استثنى منها حالة الضرورة، فأخرجها من حكم
التحريم.

قال تعالى فى سورة الأنعام:

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِى مَا أُوحِىَ إِلَىٰ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

وقال فى الأنعام أيضاً.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّتُمْ إِلَيْهِ ﴾ (٢).

وقال تعالى فى النحل

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣).

وقال تعالى فى البقرة:

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤).

وقال تعالى فى المائدة

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمَ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ (٥). إلى قوله ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٦).

وبهذا تعلم أن المضطر للتقليد الأعمى اضطراراً حقيقياً، بحيث يكون لاقدرة له ألبتة، على غيره مع عدم التفريط لكونه لاقدرة له أصلاً على الفهم.

أو له قدرة على الفهم وقد عاقته عوائق قاهرة عن التعلم.

أو هو فى أثناء التعلم ولكنه يتعلم تدريجاً لأنه لايقدر على تعلم كل ما يحتاجه فى وقت واحد.

أو لم يجد كفتاً يتعلم منه ونحو ذلك فهو معذور فى التقليد المذكور للضرورة.

(٣) النحل : ١١٥

(٢) الأنعام : ١١٩

(١) الأنعام : ١٤٥

(٥) (٦) المائدة : ٣

(٤) البقرة : ١٧٣

لأنه لا مندوحة له عنه .

أما القادر على التعلم المفرط فيه .

والمقدم آراء الرجال على ما علم من الوحي .

فهذا الذى ليس بمعذور

نحب الأئمة جميعاً وحبنا للحق أشد

إعلم أن موقفنا من الأئمة رحمهم الله من الأربعة وغيرهم . هو موقف سائر المسلمين المتصفين منهم .

وهو موالاتهم، ومحبتهم، وتعظيمهم، وإجلالهم، والثناء عليهم، بما هم عليه من العلم والتقوى، واتباعهم فى العمل بالكتاب والسنة وتقديهما على رأيهم وتعلم أقوالهم للاستعانة بها على الحق، وترك ماخالف الكتاب والسنة منها .

وأما المسائل التى لانص فيها فالصواب النظر فى اجتهادهم فيها .

وقد يكون اتباع اجتهادهم أصوب من اجتهادنا لأنفسنا .

لأنهم أكثر علماً وتقوى منا .

ولكن علينا أن ننظر ونحتاط لأنفسنا فى أقرب الأقوال إلى رضى الله وأحوطها وأبعدها من الاشتباه .

كما قال ﷺ: «دع ما يريك إلى ما لا يريك» (١) .

وقال : «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه» (٢) .

وحقيقة القول الفصل فى الأئمة رحمهم الله أنهم من خيار علماء المسلمين، وأنهم ليسوا معصومين من الخطأ، فكل ما أصابوا فيه فلهم فيه أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وما أخطأوا فيه فهم مأجورون فيه باجتهادهم معذورون فى خطئهم فهم مأجورون على كل حال، لا يلحقهم ذم ولا عيب ولا نقص فى ذلك .

ولكن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ حاكمان عليهم وعلى أقوالهم كما لا يخفى .

فلا تغل فى شيء من الأمر واقتصد كلا طرفى قصد الأمور ذمياً .

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٠٠ / ١)، والترمذى (٢١٥٨) عن الحسن بن على به .

وأنظر «رياض الصالحين» (٥٦- بتخریجنا)

(٢) تقدم تخریجه

فلا تك ممن يذمهم وينتقصهم ولا ممن يعتقد أقوالهم مغنية عن كتاب الله وسنة رسوله أو مقدمة عليهما

الأعذار لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال ابن تيمية: وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته؛ دقيق ولا جليل؛ فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له من عذر في تركه.

وجميع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدهما: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.

الثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.

الثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ. أهـ^(١).

لابد لمن يرى التقليد أن يفرق بين كلام إمامه

وبين ما ألحق بعده على قواعد مذهبه

اعلم أن كل من يرى أنه لابد له من تقليد الإمام في كل شيء بدعوى أنه لا يقدر على الاستدلال بكتاب ولا سنة، ولا قول أحد من الصحابة ولا التابعين، ولا أحد غير ذلك الإمام.

يجب عليه أن يتنبه تنبهاً تاماً للفرق بين أقوال ذلك الإمام التي قالها حقاً، وبين ما ألحق بعده على قواعد مذهبه، وما زاده المتأخرون وقتاً بعد وقت من أنواع الاستحسان التي لا أساس لها في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ.

ولو علم الإمام بإلحاقهم بمذهبه، لتبرأ منها، وأنكر على ملحقها، فنسبة جميع ذلك للإمام من الباطل الواضح.

ويزيده بطلاناً نسبته إلى الله ورسوله، بدعوى أنه شرع ذلك على لسان رسوله. ونحو هذا كثير في المختصرات في المذاهب وكتب المتأخرين منهم.

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام (ص ٦).

الرد على من قال بإغلاق الاجتهاد

اعلم أن الدعوى التى اتفق عليها متأخرو الأصوليين التى تتضمن حكمهم على خالق السماوات والأرض جل وعلا لايجوز لمسلم يريد الحق والانصاف أن يعتقدها، ولا أن يصدقهم فيها لظهور عدم صحتها ومخالفتها للنص، والحكم فيها على الله بلا مستند، وهو جل وعلا الذى يحكم لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

وهذه الدعوى المذكورة هى المترتبة مما يأتى، وهو أن الاجتهاد قد انقرض فى الدنيا وانسد بابه.

وأن الله تعالى محكوم عليه بأن لا يخلق مجتهدا ولا يعلم أحداً من خلقه علماً يمكن أن يكون به مجتهداً إلى ظهور المهدي المنتظر.

وأنه لايجوز لأحد أن يعمل بكتاب ولا سنة ولأن يقلد أحداً كائناً من كان غير الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المدونة، كما نص على هذه الدعوى حاكياً إجماعهم عليها صاحب مراقى السعود فى قوله.

والمجمع اليوم عليه الأربعة وقفوا غيرها الجميع منعه
حتى يجيء الفاطم المجدد دين الهدى لأنه مجتهد.

ومراده بالفاطمى المهدي المنتظر لأنه شريف.

وقوله : حتى يجيء. حرف غاية، والمغنياً به، منع تقليد أحد غير الأربعة المذكور فى قوله : وقفوا غيرها الجميع منعه.

وهذا صريح فى أنهم حاكمون على الله القدير العليم، بأنه لا يخلق مجتهداً قبل وجود المهدي المنتظر، وهذا الذى قاله صاحب مراقى السعود هو المقرر فى كتب المتأخرين من الأصوليين من أهل المذاهب المدونة.

وهذا الحكم على الله الذى كل يوم هو فى شأن بأنه لا يخلق مجتهداً قبل المهدي من مدة انقراض الاجتهاد المزعوم هو يا أخى كما ترى.

ولاشك أنك إن لم يعمك التعصب المذهبي تقطع أنه لا مستند له، وهذا الذى ذكره صاحب مراقى السعود قد صرح بما يناقضه فى قوله قبله :

والأرض لم عن قائم مجتهد تخلو إلى ترززل القواعد

وهذا النقيض الأخير هو الصحيح الموافق للحق.

لأن النبي ﷺ قد ثبت عنه في الصحيحين وغيرهما أنه قال: «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله»^(١) الحديث. وهو حديث مشهور متفق عليه لاتزاع في صحته.

ولا شك في أن هذه الطائفة التي صرح النبي ﷺ : بأنها لا تزال ظاهرة على الحق حتى يأتي أمر الله أنها طائفة على كتاب الله، وسنة رسوله، وليست ألبتة من المقلدين التقليد الأعمى.

لأن الحق هو ما جاء به محمد ﷺ من الكتاب والسنة كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٢) وقال في الأنعام: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾^(٣). وقال في النمل: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾^(٤). وقال في يونس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٥). والآيات بمثل ذلك كثيرة.

فدعوى أن الأرض لم يبق فيها مجتهد ألبتة، وأن ذلك مستمر إلى ظهور المهدي المنتظر مناقضة لهذا الحديث الثابت ثبوتاً لامطعن فيه، عن النبي ﷺ. وما لاتزاع فيه أن كل ما يناقض الحق فهو ضلال، لأن الله جل وعلا يقول: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتَى تُصْرَفُونَ﴾^(٦). والعلم عند الله تعالى.

خطورة الإعراض عن الكتاب والسنة بكتب الفروع

اعلم يا أخى أن هذا الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واعتقاد الاستغناء عنهما بالمذاهب المدونة الذي عم جل من في المعمورة من المسلمين من أعظم المآسى والمصائب، والدواهي التي دعت المسلمين من مدة قرون عديدة. ولأشك أن النتائج الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن الكتاب والسنة من جملتها ما عليه المسلمون في واقعهم الآن من تحكيم القوانين الوضعية المنافي لأصل الإسلام.

(١)[متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٣١١)، ومسلم في الإمامة (٧/٧٤/١٧١) عن المغيرة به.

(٢) النساء: ١٧٠.

(٣) الأنعام: ٦٦.

(٤) النمل: ٧٩.

(٥) يونس: ١٠٨.

(٦) يونس: ٣٢.

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ:

﴿اتَّخِذُوا أَعْبَارَهُمْ وَرُهَيْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾^(١).. فَقُلْتُ لَهُ إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ.
قَالَ: أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟
فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ^(٢).

لأن الكفار إنما احتاجوهم بفصلهم عن دينهم بالغزو الفكري عن طرق الثقافة وإدخال الشبه والشكوك في دين الإسلام.

ولو كان المسلمون يتعلمون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويعملون بما فيهما لكان ذلك حصناً منيعاً لهم من تأثير الغزو الفكري في عقائدهم ودينهم.

ولكن لما تركوا الوحي ونبذوه وراء ظهورهم واستبدلوا به أقوال الرجال لم تقم لهم أقوال الرجال ومذاهب الأئمة رحمهم الله مقام كلام الله والاعتصام بالقرآن، وكلام النبي ﷺ والتحصن بسنته.

ولذلك وجد الغزو الفكري طريقاً إلى قلوب الناشئة المسلمين.

ولو كان سلاحهم المضاد القرآن والسنة لم يجد إليهم سبيلاً

ولاشك أن كل منصف يعلم أن كلام الناس، ولو بلغوا ما بلغوا من العلم والفضل، لا يمكن أن يقوم مقام كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

وبالجملة فمما لاشك فيه أن هذا الغزو الفكري الذي قضى على كيانه المسلمين، ووحدتهم وفصلهم عن دينهم، لو صادفهم وهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله لرجع مدحوراً في غاية الفشل لوضوح أدلة الكتاب والسنة، وكون الغزو الفكري المذكور لم يستند إلا على الباطل والتمويه كما هو معلوم.

قوله : [وعن عدى بن حاتم : أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية]

قال سليمان آل الشيخ^(٣): هذا الحديث قد روى عن طرق فرواه ابن سعد، وعبد ابن حميد، وابن المنذر، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في «السنن» وفيه قصة اختصرها المصنف.

(١) التوبة : ٣١

(٢) تقدم تخريجه

وقد حسنه شيخ الإسلام في «الإيمان» (ص ٦٤).

(٣) تيسير العزيز الحميد (٤١٥)

● مناسبة الحديث للباب وللتوحيد

قال عبدالرحمن آل الشيخ ^(١): الحديث دليل على أن طاعة الأخبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله؛ لقوله تعالى فى آخر الآية: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلدوهم، لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف للمقلد، وهو من هذا الشرك، ومنهم من يغلو فى ذلك ويعتقد أن الأخذ بالدليل - والحالة هذه - يكره، أو يحرم، فعظمت الفتنة. ويقول: هم أعلم منا بالأدلة، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد. وربما تفوهوا بدم من يعمل بالدليل، ولاريب أن هذا من غربة الإسلام كما قال شيخنا رحمه الله فى المسائل ^(٢).

فغيرت الأحوال، وآلت إلى هذه الغاية. فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هى أفضل الأعمال، ويسمونها ولاية، وعبادة الأخبار هى العلم والفقه. ثم غيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثانى من هو من الجاهلين.

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله: فقد عمت بها البلوى قديما وحديثا فى أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلم جراً. وقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وعن زياد بن حدير قال: قال لى عمر رضى الله عنه: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا. قال يهدمه زلة العالم، وجدال المناق بالقرآن، وحكم الأئمة المضلين». رواه الدارمى ^(٣).

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون. أهـ.

وقال عبدالله بن جابر الله ^(٤): أنه أفاد أن طاعة الأخبار والرهبان فى معصية الله عبادة لهم من دون الله ومن الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله. أهـ.

(١) فتح المجيد (٢/٥٣٦، ٥٣٧)

(٢) مسائل الجاهلية بشرح محمود شكرى الألوسى ص (٢٠).

(٣) تقدم بنحوه

(٤) الجامع التفرید (١٥٢)

وقال قرعاوى^(١): حيث دل الحديث على شرك من أطاع العلماء فى تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله . أهـ.

قوله [عدى بن حاتم]

قال ابن الأثير^(٢): عدى بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس ابن عدى ابن أخزم بن أبى أخزم بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طمى الطائى، وأبوه حاتم هو الجواد الموصوف بالجود، الذى يضرب به المثل، يكنى عدى أبا طريف. وقيل: أبو وهب، يختلف النسابون فى بعض الأسماء إلى طيء. وقد عدى على النبى ﷺ سنة تسع فى شعبان، وقيل: سنة عشر، فأسلم وكان نصرانياً.

عن أبى عبيدة بن حذيفة قال: كنت أسأل عن حديث عدى بن حاتم، وهو إلى جنبى، فقلت ألا أتيه فأسأله؟ فأتيته فسألته، فقال: بعث رسول الله ﷺ حين بعث، فكرهته أشد ما كرهت شيئاً قط، فانطلقت حتى إذا كنت فى أقصى الأرض مما يلي الروم، فكرهت مكانى ذلك مثلما كرهته أو أشد، فقلت: لو أتيت هذا الرجل فإن كان كاذباً لم يخف على، وإن كان صادقاً اتبعته؟ فأقبلت، فلما قدمت المدينة استشرفتنى الناس وقالوا: عدى بن حاتم! عدى بن حاتم! فأتيته، فقال لى: ياعدى بن حاتم، أسلم تسلم قلت: إن لى ديناً. قال: أنا أعلم بدينك منك. قلت: أنت أعلم بدينى منى؟ قال: نعم، مرتين أو ثلاثاً، قال: أألت ترأس قومك؟ قال، قلت: بلى. قال: أألت وكوسياً^(٣)؟ أألت تأكل^(٤) المربع؟ قلت: بلى. قال: فإن ذلك لا يحل فى دينك. قال: فنضضت^(٥) لذلك، ثم قال: ياعدى، أسلم تسلم. قال: قد أظن - أو: قد أرى، أو: كما قال رسول الله ﷺ - أنه ما يمنعك أن تسلم إلا غضاضة تراها ممن

(١) الجديد (٧٣٣)

(٢) أسد الغابة (١٠/٤)

(٣) الكوسية: دين النصارى والصابئين.

(٤) المربع: ربع الغنيمة، وكان رئيس القوم المطاع فيهم يأخذه دون أصحابه فى الجاهلية.

(٥) نضضت: حركت لسانى فى فمى

حولى، وإنك ترى الناس علينا إلها^(١) واحد. قال : هل أتيت الحيرة؟ قلت: لم آتها، وقد علمت مكانها. قال : يوشك الظعينة^(٢) أن ترحل من الحيرة بغير جوار، حتى تطوف بالبيت، ولتفتحن علينا كنز كسرى بن هرمز! قال : كسرى بن هرمز، مرتين أو ثلاثاً، وليفيضن المال حتى يهيم الرجل^(٣) من يقبل صدقته. قال عدى : قد رأيت اثنتين: الظعينة ترحل بغير جوار حتى تطوف بالبيت، وقد كنت فى أول خيل أغارت على كنوز كسرى بن هرمز، وأحلف بالله لتجيئن الثالثة أنه قال رسول الله ﷺ^(٤).

وقيل : إنه لما بعث النبى ﷺ سرية إلى طيء أخذ عدى أهله، وانتقل إلى الجزيرة، وقيل : إلى الشام، وترك أخته سفانة بنت حاتم، فأخذها المسلمون، فأسلمت وعادت إليه فأخبرته، ودعته إلى رسول الله ﷺ، فحضر معها عنده، فأسلم وحسن إسلامه.

وروى عن النبى ﷺ أحاديث كثيرة، ولما توفى رسول الله ﷺ قدم على أبى بكر الصديق فى وقت الردة بصدقة قومه، وثبت على الإسلام ولم يرد، وثبت قومه معه. وكان جواداً شريفاً فى قومه، معظماً عندهم وعند غيرهم، حاضر الجواب؛ روى عنه أنه قال : «مادخل على وقت صلاة إلا وأنا مشتاق إليها». وكان رسول الله ﷺ يكرمه إذا دخل عليه.

وعن عامر الشعبي قال: لما كان زمن عمر، رضى الله عنه، قدم عدى بن حاتم على عمر، فلما دخل عليه كأنه رأى منه شيئاً - يعنى جفاء - قال : يا أمير المؤمنين، أما تعرفنى؟ قال : بلى، والله أعرفك، أكرمك الله بأحسن المعرفة، أعرفك والله، وأسلمت إذ كفروا، وعرفت إذ أنكروا، ووفيت إذ غدروا وأقبلت إذا أدبروا. فقال . حسبي يا أمير المؤمنين حسبي.

قال الشعبي: أرسل الأشعث بن قيس إلى عدى بن حاتم يستعير منه قدور حاتم، فملأها، وحملها الرجال إليه، فأرسل إليه الأشعث: إنما أردناها فارغة! فأرسل إليه عدى: إنا لانعيرها فارغة.

(١) أى : مجتمعين

(٢) الظعينة: المرأة مادامت فى اليهودج

(٣) أى : يحزنه.

(٤) أخرج الإمام أحمد نحوه عن يزيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين عن أبى عبيدة

عن رجل قال : قلت عدى بن حاتم... وذكره. المسند : ٢٥٧/٤.

وكان عدى يفت الخبز للنمل ويقول : إنهن جارات، ولهن حق.

وكان عدى منحرفاً عن عثمان، فلما قتل قال : «لا يحق»^(١) فى قتله عناق». فلما كان يوم الجمل فقت عينه، وقتل ابنه محمد مع على، وقتل ابنه الآخر مع الخوارج، فقيل له: يا أبا طريف، هل حَبَقَ فى قتل عثمان عناق؟! قال : إى والله، والتيس الأعظم. وتوفى سنة سبع وستين، وقيل : سنة ثمان . وقيل : سنة تسع وستين، وله مائة وعشرون سنة : قيل : مات بالكوفة أيام المختار، وقيل : مات بقرقيساء، والأول أصح.

النضضة: تحريك اللسان. والغضاضة: الذلة. والنقيصة وقيل : إنما هى «خاصة» بالخاء، وهى الفقر. أهـ.

قوله [أنه سمع النبى ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ

دُونِ اللَّهِ﴾ الآية].

تقدمت أقوال المفسرين فى تفسير الآية فى الباب الخامس / تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: [فقلت : إنا لسنا نعبدهم]

قال سليمان آل الشيخ^(٢) ظن عدى أن العبادة، من السجود والذبح والنذر ونحو ذلك فقال : إنا لسنا نعبدهم. أهـ.

وقال ابن عثيمين^(٣) : أى : لانعبد الأحبار والرهبان، ولانسجد لهم ولانركع ولانذبح ولا ننذر لهم، وهذا صحيح بالنسبة للأحبار والرهبان بدليل قوله: «أليس يعرّمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلّون ما حرم الله فتحلّونه؟!». .

فإن هذا الوصف لا ينطبق على عيسى أبداً؛ لأنه رسول الله، فما أحله؛ فقد أحله الله، وما حرمه؛ فقد حرمه الله، وقد حاول بعض الناس أن يجعل الحديث لهذا المعنى مع ضعف سنده، والحديث حسنه الترمذى والألبانى وآخرون وضعفه آخرون.

ويجاء عن التعليل المذكور بأن قول عدى: «لسنا نعبدهم» يعود على الأحبار والرهبان، أما عيسى ابن مريم؛ فالمعروف أنهم يعبدونه.

وبدأ بتحريم الحلال؛ لأنه أعظم من تحليل الحرام، وكلاهما محرم؛ لقوله تعالى :

(١) لا يحق: لا يضطر.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤١٥)

(٣) القول المفيد (٣١٩/٢، ٣٢٠)

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ (١).

قوله : «فلك عبادتهم» .

ووجه كونها عبادة: أن من معنى العبادة: الطاعة، وطاعة غير الله عبادة للمطاع، ولكن بشرط أن تكون في غير طاعة الله، أما إذا كانت في طاعة الله؛ فهي عبادة لله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله، كما لو أمرك أبوك بالصلاة فصليت؛ فلا تكون قد عبدت أبوك بطاعتك له، ولكن عبدت الله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله؛ ولأن أمر غير الله بطاعة الله وامثال أمره هو امثال لأمر الله. أهـ

قوله : [أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه....]

قال سليمان آل الشيخ^(٢): صرح ﷺ في هذا الحديث بأن عبادة الأخبار والرهبان هي طاعتهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام، وهو طاعتهم في خلاف حكم الله ورسوله. قال شيخ الإسلام: وهؤلاء الذين اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وعكسه يكونون على وجهين

أحدهما: أنهم يعلمون أنهم بدلوا دين الله؛ فيتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر. وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال، وتحليل الحرام ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما ثبت.

في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الطاعة في معروف»^(٣) ثم نقول: اتباع هذا المحلل للحرام والمحرّم للحلال إن كان مجتهداً قصده اتباع الرسول ﷺ، لكن خفى عليه الحق في نفس الأمر. وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذ الله بخطئه بل يشبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه. ولكن من علم أن هذا الخطأ فيما جاء به رسول الله ﷺ، ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول ﷺ، فله نصيب من الشرك الذي ذمه الله، لا سيما إن اتبعه في ذلك لهواه ونصره باللسان واليد مع علمه بأنه مخالف للرسول ﷺ، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه.

(١) النحل: ١١٦

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤١٤، ٤١٧).

(٣) تقدم تخريجه

ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لايجوز تقليد أحد في خلافه. وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل، وقد فعل ما يقدر عليه مثله من الاجتهاد في التقليد، فهذا لا يؤاخذ أن أخطأ كما في القبله. وأما إن قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن الحق معه فهذا من أهل الجاهلية فإن كان متبرعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً كمن قال في القرآن برأيه، فإن أصاب فقد أخطأ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار. انتهى ملخصاً. أهـ

[قلت]: وتقدم تفصيل ذلك المبحث السابق في التقليد أيضاً في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

وقال ابن عثيمين^(١):

● ويستفاد من الحديث

- ١- أن الطاعة بمعنى العبادة عبودية مقيدة.
 - ٢- أن الطاعة في مخالفة شرع الله من عبادة المطاع، أما في عبادة الله؛ فهي عبادة الله
 - ٣- أن اتباع العلماء والعباد في مخالفة شرع الله من اتخاذهم أرباباً.
- واعلم أن أتباع العلماء أو الأمراء في تحليل ما حرم الله أو العكس ينقسم إلى ثلاثة أقسام.

الأول: أن يتابعهم في ذلك راضياً بقولهم، مقدماً له، سائحاً لحكم الله؛ فهو كافر لأنه كره ما أنزل الله، فأحبط الله عمله، ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر، فكل من كره ما أنزل الله؛ فهو كافر.

الثاني: أن يتابعهم في ذلك راضياً في حكم الله وعالمياً بأنه أمثل وأصلح للعباد والبلاد، ولكن لهوى في نفسه اختاره، كأن يريد مثلاً وظيفة؛ فهذا لا يكفر، ولكنه فاسق وله حكم غيره من العصاة.

الثالث: أن يتابعهم جاهلاً، فيظن أن ذلك حكم الله؛ فينقسم إلى قسمين:

(أ) أن يمكنه أن يعرف الحق بنفسه فهو مفرط أو مقصر، فهو آثم؛ لأن الله أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.

(ب) أن لا يكون عالم ولا يمكنه التعلم فيتابعهم تقليداً ويظن أن هذا هو الحق؛ فهذا

(١) القول المفيد (٣٢٠: ٣٢٨)

لاشئ عليه لأنه فعل ما أمر به وكان معذوراً بذلك، لذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن «من أفتى بغير علم؛ فإنما إثمه على من أفتاه»^(١) لو قلنا: بإثمه بخطأ غيره؛ للزم من ذلك الحرج والمشقة، ولم يثق الناس بأحد لاحتمال خطئه.

فإن قيل : لماذا لا يكفر أهل القسم الثاني؟

أجيب: إننا لو قلنا بكفرهم لزم من ذلك تكفير كل صاحب معصية يعرف أنه عاص لله ويعلم أنه حكم الله أمره.

وقد تقدم معنا في الباب الخامس ما قاله وأن الكفر ينقسم إلى نوعين.

كما قال محمد بن إبراهيم في رسالته «تحكيم القوانين»^(٢) فانظر كيف سجل الله تعالى على الحاكمين بغير ما أنزل الله الكفر والظلم والفسوق . ومن الممتنع أن يسمى الله - سبحانه - الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ولا يكون كافراً، بل هو كافر مطلقاً؛ إما كفر عمل، وإما كفر اعتقاد، و ما جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما في تفسير هذه الآية من رواية طاووس وغيره يدل أن الحاكم بغير ما أنزل الله كافر؛ إما كفر اعتقاد ناقل عن الملة، وإما كفر عمل لا ينقل عن الملة.

أما الأول : وهو كفر الاعتقاد -، فهو أنواع

أحدها: أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله... وهذا ما لانزاع فيه بين أهل العلم، فإن الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم أن من جحد أصلاً من أصول الدين أو فرعاً مجمعاً عليه، أو أنكر حرفاً مما جاء به الرسول ﷺ قطيعاً؛ فإنه كافر الكفر الناقل عن الملة.

الثاني: ألا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقاً، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع ؛ إما مطلقاً أو بالنسبة لما استجد من الحوادث. هذا لا ريب أنه كفر.

الثالث: ألا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكنه اعتقد أنه مثله؛ فهذا كالنوعين اللذين قبله في كونه كافراً الكفر الناقل عن الملة لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق.

الرابع: ألا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلاً لحكم الله ورسوله لكن

(١) تقدم تخريجه

(١) ص (٥ - ٨)

اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله ؛ فهذا كالذى قبله لاعتقاده جواز ما علم بالنصوص الصحيحة الصريحة القاطعة تحريمه .

الخامس : وهو أعظمها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلاً وحكماً وإلزاماً ومراجع ومستمدات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؛ فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملحق من شرائع شتى وقوانين كثيرة؛ كالقانون الفرنسى، والقانون الأمريكى، والقانون البريطانى وغيرها من القوانين .
فأى كفر فوق هذا الكفر، وأى مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة ؟!

السادس : مايحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادر ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم التى يسمونها «سلومهم» يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به عند النزاع؛ إبقاءً على أحكام الجاهلية، وإعراضاً ورغبة عن حكم الله ورسوله .

وأما القسم الثانى من قسمى كفر الحاكم بغير ما أنزل الله، وهو الذى لا يخرج من الملة؛ فقد تقدم أن تفسيران عباس رضى الله عنهما لقول الله عز وجل - فيقوله رضى الله عنه «كفر دون كفر...» وذلك بأن تحمله شهوته وهواه على الحكم فى القضية بغير ما أنزل الله، مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق، واعترافه على نفسه بالخطأ، ومجانبة الهدى وهذا وإن لم يخرج كفرة عن الملة فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر ؛ كالزنا، وشرب الخمر، والسرقة، فإن معصية سماها الله كفراً أعظم من معصية لم يسمها كفراً . أهـ .

● فائدة:

قال ابن عثيمين^(١): وصف الله الحاكمين بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف:

- ١- قال تعالى : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾
- ٢- قال تعالى : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾
- ٣- وقال تعالى : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾^(٢).

واختلف أهل العلم فى ذلك :

ف قيل : إن هذه الأوصاف لموصوف واحد ؛ لأن الكافر ظالم ؛ لقوله تعالى : ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١) ، و فاسق ؛ لقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ (٢) ؛ أى : كفروا .

وقيل : إنها لموصوفين متعددين ، وإنها على حسب الحكم ، وهذا هو الراجح .
فيكون كافراً فى ثلاثة أحوال .

أ - إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل ، بدليل قوله تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ (٣) ، فكل ماخالف حكم الله ؛ فهو من حكم الجاهلية ، بدليل الإجماع القطعى على أنه لا يجوز الحكم بغير ما أنزل الله فالمحل والمبيح للحكم بغير ما أنزل الله مخالف لإجماع المسلمين القطعى ، وهذا كافر مرتد ، وذلك كمن اعتقد حل الزنا أو الخمر أو تحريم الخبز أو اللبن .

ب - إذا اعتقد أن حكم غير الله مثل حكم الله .

ج - إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله .

بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٤) ؛

فتضمنت الآية أن حكم الله أحسن الأحكام ، بدليل قوله تعالى مقررأ ذلك : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ (٥) ، فإذا كان الله أحسن الحاكمين أحكاماً وهو أحكم الحاكمين ؛ فمن ادعى أن حكم غير الله مثل حكم الله أو أحسن فهو كافر لأنه مكذب للقرآن .
ويكون ظالماً :

إذا اعتقد أن الحكم بما أنزل الله أحسن الأحكام ، وأنه أنفع للعباد والبلاد ، وأنه الواجب تطبيقه ، ولكن حمله البغض والحقد للمحكوم عليه حتى حكم بغير ما أنزل الله ؛ فهو ظالم .

ويكون فاسقاً :

إذا كان حكمه بغير ما أنزل الله لهوى فى نفسه مع اعتقاده أن حكم الله هو الحق .
لكن حكم بغيره لهوى فى نفسه ؛ أى : محبة لما حكم به لا كراهة لحكم الله ولا يضر

(٣) المائدة : ٥٠

(٢) السجدة : ٢٠

(١) البقرة : ٢٥٤

(٥) التين : ٨

(٤) المائدة : ٥٠

أحداً به، مثل : أن يحكم لشخص لرشوة رشى إياها، أو لكونه قريباً أو صديقاً، أو يطلب من ورائه حاجة، وما أشبه ذلك مع اعتقاده بأن حكم الله هو الأمثل والواجب اتباعه؛ فهذا فاسق، وإن كان أيضاً ظالماً، لكن وصف الفسق في حقه أولى من وصف الظلم^(١).

أما بالنسبة إلى وضع قوانين تشريعه مع علمه بحكم الله وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله؛ فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين، فهو كافر لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله، وعندما نقول بأنه كافر؛ فنعني بذلك أن هذا الفعل يوصل إلى الكفر.

ولكن قد يكون الواضع له معذوراً، مثل أن يغرر به كأن يقال: إن هذا لا يخالف الإسلام، أو هذا من المصالح المرسله، أو هذا مما رده الإسلام إلى الناس.

فيوجد بعض العلماء وإن كانوا مخطئين يقولون: إن مسألة المعاملات لاتعلق لها بالشرع، بل ترجع إلى ما يصلح الاقتصاد في كل زمان بحسبه، فإذا اقتضى الحال أن نضع بنوكاً للربا أو ضرائب على الناس؛ فهذا لا شيء فيه.

وهذا لاشك في خطئه؛ فإن كانوا مجتهدين غفر الله لهم، وإلا؛ فهم على خطر عظيم، واللائق بهؤلاء أن يلقبوا بأنهم من علماء الدولة لاعلماء الملة.

ومما لاشك فيه أن الشرع جاء بتنظيم العبادات التي بين الإنسان وربه والمعاملات التي بين الإنسان مع الخلق في العقود والأنكحة والموارث وغيرها؛ فالشرع كامل من جميع الوجوه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾^(٢).

وكيف يقال: إن المعاملات لاتعلق لها بالشرع وأطول آية في القرآن نزلت في المعاملات، ولولا نظام الشرع في المعاملات لفسد الناس؟!!

وأنا لا أقول: نأخذ بكل ما قاله الفقهاء؛ لأنهم قد يصيرون وقد يخطئون، بل يجب أن نأخذ بكل ما قاله الله ورسوله ﷺ، ولا يوجد حال من الأحوال، تقع بين

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: «إن حكم به - أي: بغير ما أنزل الله - هوى ومعصية؛ فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين».

وقال شيخ الإسلام في «منهاج السنة» (١٣١/٥) «أما من كان ملتزماً لحكم الله ورسوله باطنياً وظاهراً، لكن عصى واتب هواه؛ فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة»

(٢) المائدة: ٣

الناس إلا فى كتاب الله وسنة رسوله ما يزيل إشكالها ويحلها، ولكن الخطأ إما من نقص العلم أو الفهم، وهذا قصور، أو نقص التدبر، وهذا تقصير

أما إذا وفق الإنسان بالعلم والفهم وبذل الجهد فى الوصول إلى الحق؛ فلا بد أن يصل إليه حتى فى المعاملات، قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَذَكِّرُوا الْقَوْلَ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ (٣) قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (٤) ، فكل شئ يحتاجه الإنسان فى دينه أو دنياه؛ فإن القرآن بينه بياناً شافياً.

ومن سن قوانين تخالف الشريعة وأدعى أنها من المصالح المرسله؛ فهو كاذب فى دعواه لأن المصالح المرسله والمقيدة إن اعتبرها الشرع ودل عليها فهو حق ومن الشرع، وإن لم يعتبرها؛ فليست مصالح، ولا يمكن أن تكون كذلك، ولهذا كان الصواب أنه ليس هناك دليل يسمى بالمصالح المرسله، بل ما اعتبره الشرع؛ فهو مصلحة، ومانفاه؛ فليس بمصلحة، وما سكت عنه؛ فهو عضو.

والمصالح المرسله توسع فيها كثير من الناس؛ فأدخل فيها بعض المسائل المنكرة من البدع وغيرها؛ كعيد ميلاد الرسول، فزعموا أن فيه شحذاً للهمم وتنشيطاً للناس لأنهم نسوا ذكر رسول الله ﷺ، وهذا باطل؛ لأن جميع المسلمين فى كل صلاة يشهدون أن محمداً عبده ورسوله ويصلون عليه، والذى لا يحى قلبه بهذا وهو يصلى بين يدي ربه كيف يحى قلبه بساعة يؤتى فيها بالقصائد الباطلة التى فيها من الغلو ما ينكره رسول الله ﷺ؟! فهذه مفسدة وليست بمصلحة.

فالمصالح المرسله وإن وضعها بعض أهل العلم المجتهدين الكبار؛ فلا شك أن مرادهم نصر الله ورسوله، ولكن استخدمت هذه المصالح فى غير ما أَرَادَهُ أولئك العلماء وتوسّع فيها، وعليه؛ فإنها تقاس بالمعيار الصحيح، فإن اعتبرها الشرع قبلت، وإلا؛ فكما قال الإمام مالك: «كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر»، وهناك قواعد كليات تطبق عليها الجزئيات.

وليعلم أنه يجب على الإنسان أن يتقى ربه فى جميع الأحكام؛ فلا يتسرع فى البت بها خصوصاً فى التكفير الذى صار بعض أهل الغيرة والعاطفة يطلقونه بدون تفكير ولا

(٢) المؤمنون: ٦٨

(٤) النحل: ٨٩

(١) النساء: ٨٢

(٣) ص: ٢٩

روية، مع أن الإنسان إذا كفر شخصاً ولم يكن الشخص أهلاً له؛ عاد ذلك إلى قائله، وتكفير الشخص يترتب عليه أحكام كثيرة؛ فيكون مباح الدم والمال، ويترتب عليه جميع أحكام الكفر، وكما لا يجوز أن نطلق الكفر على شخص معين حتى يتبين شروط التكفير في حقه يجب أن لا نجبن عن تكفير من كفره الله ورسوله، ولكن يجب أن نفرق بين المعين وغير المعين؛ فالمعين يحتاج الحكم بتكفيره إلى أمرين:

١- ثبوت أن هذه الخصلة التي قام بهما يقتضى الكفر.

٢- انطباق شروط التكفير عليه، وأهمها العلم بأن هذا مكفر، فإن كان جاهلاً؛ فإنه لا يكفر، ولهذا ذكر العلماء أن من شروط إقامة الحد أن يكون عالماً بالتحريم، وهذا هو إقامة حد وليس بكفر، والتحرز من التكفير أولى وأحرى.

قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ (٣) ولا بد مع توفر الشروط من عدم الموانع؛ فلو قام الشخص بما يقتضى الكفر إكراهاً أو ذهولاً لم يكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (٤) ولقول الرجل الذي وجد دابته في مهلكه: «اللهم! أنت عبدى وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح» (٥)، فلم يؤخذ بذلك أحد.

خلاصة القول في شبهة التسوية بين العلمانية وبين انحرافات التطبيق الجزئية

قال الدكتور صلاح الصاوى: اعلم أن توحيد الألوهية يقتضى إفراد الله بالطاعة والانقياد، وأن الإيمان المجمل هو التصديق والانقياد، وأن الكفر هو عدم الإيمان، سواء أكان معه تكذيب أو استكبار أو إباء أو إعراض، وأن من لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر.

وعلى هذا يمكن تفصيل القول في قضية الحكم بغير ما أنزل الله، ذلك أن تعبير الحكم بغير ما أنزل الله، قد يقصد به عمل القضاة والمنفذين، وقد يقصد به عمل

(٢) الإسراء: ١٥

(١) النساء: ١٦٥

(٣) التوبة: ١١٥

(٤) النحل: ١٠٦

(٥) [صحيح] [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٣٠٩)، ومسلم فى التوبة (٧/٧٢/٩) عن أنس به

الأصوليين المشرعين، وعلى حسب الدقة فى تحديد المناط تكون الدقة فى سلامة الحكم وموافقته لمراد الشارع.

● فإن قصد به عمل القضاة والمنفذين نظراً: فإن كان مرده إلى تكذيب الحكم الشرعى أو رده فهو كفر أكبر يخرج من الملة، وإن كان مرده إلى عارض من هوى أو شهوة أو نحوه مع بقاء التحاكم ابتداء إلى الكتاب والسنة أو ما حمل عليهما بطريق الاجتهاد فهو من جنس الذنوب والمعاصى، وأصحابه فى مشيئة الله إن شاء الله عذبهم وإن شاء غفر لهم.

وهذه هى صورة الحكم بغير ما أنزل الله، التى عرفت فى تاريخ الإسلام، والتى قال فيها علماء الإسلام ما قالوا وفصلوا فيها من الأحكام ما فصلوا، إذ لم تعرف الدولة فى تاريخها الطويل نبذاً كاملاً لأحكام الله واطراحاً مجملًا لشريعة الله، وتحاكماً من حيث المبدأ إلى كتاب غير القرآن وإلى دين غير الإسلام. اللهم إلا مرة واحدة فى أيام التتار ولقد جزم أهل العلم يومها بأن هذه الصورة المستحدثة لتكليف لها إلا الكفر، وأن أصحابها كفار بلا خلاف وأنه يجب قتالهم حتى يرجعوا إلى حكم الله ورسوله.

قال ابن كثير رحمه الله عما كان يحكم به التتار من السياسات الملكية (فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير) (١).

ويقول فى البداية والنهاية: (فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه، من فعل فقد كفر بإجماع المسلمين) (٢).

● أما إن قصد به المعنى الأصولى التشريعى الذى هو خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين على سبيل الاقتضاء أو التخيير أو الوضع، وأريد به اصدار قواعد تشريعية عامة تبدل بها شرائع الإسلام وتكون لها السيادة فى الأمة بدلاً من سيادة الكتاب والسنة وتصبح هى المرجع فى الحكم عند التنازع ويقدم العمل بها على العمل بأحكام الشريعة المطهرة فلا جدال فى أن هذه الصورة مناطها واحد وتكليف واحد وهو الكفر الأكبر المخرج من الملة الذى لا تبقى معه من الإيمان حبة خردل، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (٣).

(٢) البداية والنهاية (١٣/١١٩)

(١) تفسير ابن كثير (٢/٦٧)

(٣) الشورى: ٢١

يقول ابن تيمية : (والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرم الحلال المجمع عليه أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرا مرتدا باتفاق الفقهاء)(١).

وقد سبق قول ابن كثير : (فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء ﷺ وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلي الياسق وقدمها عليه؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين).

ولقد أدى اللبس في هذه القضية وعدم تحديد مناطات الحكم في صوره المختلفة إلى اضطراب كثير من أهل العلم من متسبى الحركة الإسلامية وغيرهم في تقريرها مما أتاح للمبطلين أن يجدوا من بين فرجات اختلافهم مدخلا لهم يلبسون به على العامة، ويسبغون به الشرعية على هذه العلمانية الغازية التي تقوم على رد شرائع الإسلام، واستباحة الحكم بغير ما أنزل الله، وإهدار سيادة الشريعة الإسلامية، وحمل الأمة كلها على تحكيم القوانين الوضعية وذلك بإشاعة القول بأن الكفر الوارد في قوله تعالى : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ هو الكفر الأصغر الذي لا ينتقل عن الملة، ويسوقون في ذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين في بيان أنه كفر دون كفر، وليس كمن كفر بالله وملائكته، فتصبح بذلك أمام خلل جزئي أو انحراف فروعى لا يبرر أنعدام الشرعية ولا سقوط واجب الطاعة.

ولقد نبه محمود شاكر- رحمه الله- في تعليقه على الطبرى إلى هذا الخلل، وفصل القول في مثل هذه الآثار عند تعليقه على ما أورده الطبرى في تفسير قوله تعالى : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ من قول أبى مجلز وهو تابعى ثقة لمن سألته من الإباضية عن معنى هذه الآية وأرادوا أن يلزموه الحجة في تكفير الأمراء لأنهم في معسكر السلطان، ولأنهم ربما ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه فأجابهم أبو مجلز بقوله : (إنهم يعملون بما يعملون - يعنى الأمراء - ويعلمون أنه ذنب ! قال : بينما أنزلت هذه الآية في اليهود والنصارى، قالوا : أما والله إنك لتعلم مثل ما نعلم، ولكنك تخشاهم ! قال : أنتم أحق بذلك منا، أما نحن فلا نعرف ما نعرفون ! قالوا : ولكنكم تعرفونه ولكن يمنعكم أن تمضوا أمركم من خشيتهم!)(٢).

يقول الشيخ محمود شاكر- رحمه الله- : تعليقا على ذلك (فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا، من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية : (٣/٢٦٧)

(٢) تفسير الطبرى (٦/٢٥٢، ٢٥٣).

أهل الإسلام، ولا فى إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله فى كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ فهذا الفعل إعراض عن حكم الله، ورغبة عن دينه وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم فى تكفير القائل به والداعى إليه.

والذى نحن فيه اليوم هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء، وإيثار حكم غير حكمه فى كتابه وسنة نبيه، وتعطيل لكل ما فى شريعة الله، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفصيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزل، وادعاء المحتجين بذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا، ولعلل وأسباب انقضت فسقطت الأحكام كلها بانقضائها.

فأين هذا مما بيناه من حديث أبى مجلز، والنفر من الإباضية من بنى عمرو ابن سدوس!! (١).

ويقول فى موضع آخر: (ولو كان الأمر على ما ظنوا فى خبر أبى مجلز، أنهم أرادوا مخالفة السلطان فى حكم من أحكام الشريعة، فإنه لم يحدث فى تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكما وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها، هذه واحدة، وأخرى أن الحاكم الذى حكم فى قضية بعينها بغير حكم الله فيها، فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل، فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة، وإما أن يكون حكم بها هوى ومعضية فهذا ذنب تناله التوبة وتلحقه المغفرة، وإما أن يكون حكم به متأولا حكما يخالفه به سائر العلماء فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب، وسنة رسول الله ﷺ وأما أن يكون فى زمن أبى مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء فى أمر، جاحدا لحكم من أحكام الشريعة، أو مؤثرا لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام، فذلك لم يكن قط فلا يمكن صرف كلام أبى مجلز والإباضيين إليه.

فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما فى غير بابهما، وصرفهما إلى غير معناهما رغبة فى نصرة سلطان، أو احتيالا على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله وفرض على عباده، وفحكمه فى الشريعة حكم الجاحد بحكم من أحكام الله: أن يستتاب، فإن أصر وكابر وجحد حكم الله، ورضى بتبديل الأحكام فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين (١).

(١) راجع تفسير الطبرى بتحقيق أحمد شاكر (٣٤٩/١٠)

(٢) تفسير الطبرى بتحقيق محمود شاكر (٣٥٨/١٠).

والذى نخلص إليه من ذلك كله أن قول بعض السلف كفر دون كفر فى تفسير هذه الآية لا ينصرف مناطه إلى مناط العلمانية التى ترد مرجعية الشريعة، وتهدر سيادتها فى علاقة الدين بالدولة وتجعل من التحاكم إليها خروجاً على الشرعية وسبباً قاطعاً من أسباب بطلان الحكم ونقضه!

شبهة وجوابها

ولكن تبقى بعد ذلك شبهة: وهى أن هذه النصوص السابقة إنما هى فى قوم رفضوا الدخول فى الإسلام من البداية، وأبوا أن يذعنوا له رغم معرفتهم بأنه حق من عند الله، أما هؤلاء الممتنعون عن التزام الشرائع أو الحكم بها فقد أعلنوا قبولهم للإسلام فى الجملة.

ويجاب عن هذا بأنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لافرق بين من يدفع جميع ما أنزل الله على عباده، ومن يدفع شيئاً واحداً من ذلك، كما لافرق بين من يكذب بالقرآن كله ومن يكذب بسورة واحدة من سوره أو حتى آية واحدة من آياته، ولا بين من يجحد الإسلام من البداية ومن يجحد حكماً واحداً من أحكامه القطعية، فمن أعلن قبوله للإسلام والتزامه بشرائعه جملة، ثم رد شيئاً من أحكامه القطعية فقد خرق بذلك قاعدة الخضوع والتزام الطاعة، وهى التى تمثل إحدى دعائم التوحيد كما سبق القول.

ولكن سؤالاً يرد فى هذا المقام:

هل مجرد التحاكم إلى الشرائع الوضعية والتزامها يعد خلعاً للربقة وتحللاً من الالتزام بشرائع الله؟

وفى الجواب على هذا تفصيل لاغنى عن ذكره.

أولاً: لاشك أن الإقدام على نقض أحكام الله وتبديل شرائعه، وإحلال أهواء البشر محلها طوعية واختياراً بلا عارض من تأويل أو إكراه، [أو غير ذلك من الموانع الشرعية المعتمدة] وحمل الأمة على ذلك بقوة السلطان يعد شركاً بالله العظيم وكفر بربوبيته وألوهيته.

ثانياً: أما من توارث ذلك عن سبقه من الولاة، ولم يتبدى جريمة التبديل والفصل بين الدين والدولة فلا يخلو حاله من صورة من هذه الصور:

- أن يرضى بهذه العلمانية، ويعلن التزامه بها، ويسعى للتمكين لها، ويعقد ولاءه وبراءه عليها، فهذا لاشك فى كفره، لأن الرضا بالكفر والتزامه كفر بالاتفاق.

- أن يعلن الكفر بهاء العزم على تغييرها، ويتخذ بهذا الصدد خطوات حقيقية تبين صدقه في دعواه، فهذا قد برىء من الرضا والمتابعة، وذلك هو المسلم الذى له ذمة الله ورسوله، ويجب على الأمة عونه وتأييده، وقد يستغرق استكمال التغيير مدداً تطول أو تقصر، ولكن هذا لا يقدح فى صحه إسلامه ما صدقت أفعاله أقواله.

- أن يروغ فى مواقفه، فلا يعلن صريح الرضا والمتابعة، ولا صريح الانخلاع والبراءة وإنما تتذبذب مواقفه بين الفريقين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فهذا هو النفاق الذى مافتتت تواجهه الدعوات على مدار التاريخ، وعلى الأمة أن تتابع مواقفه، وأن تلجئه إلى التزام أحد المنهجين لتفوت عليه ما يريده من الخداع والتليس، فإذا ما أظهر نفاقه بيقين فقد زالت شرعيته وسقطت طاعته.

والحق أن هذا الموقف الأخير هو أخطر ما يواجه الدعوة إلى إقامة الدين فى هذا العصر؛ لأنه يجعل الناس فى هؤلاء المارقين فئتين:

- فئة تحسن الظن بأقوالهم، فتلقى إليهم السلم، وتشايهم بالقول والعمل، وتتهم الآخرين بالعلو والشطط!

- وفئة أخرى حاكت أقوالهم إلى أعمالهم، فتبين لها كذب المقالات وزيف الشعارات، فلم تقم لها وزناً وحكمت عليهم بما أسفر عنه استقراء واقعهم، ورصد حقيقتهم.

وإن المعركة الحقيقية فى مثل هذه المواقع لا بد أن تكون على محورين.

- **الأول:** بيان حقيقة التوحيد وتبليغها للكافة حتى يستفيض العلم بأنه لا حكم إلا لله، وأن العلمانية والإسلام نقيضان، وأن تحكيم القوانين الرضعية لا يجتمع مع أصل الإيمان بحال من الأحوال.

- **الثانى:** بيان حقيقة الواقع ورصده بمنتهى الموضوعية والدقة، حتى يتبين للناس الحقيقة والدعوى فى هذه المزاعم والادعاءات.

ذلك أن من الناس من يجهل حقيقة التوحيد وعلاقته بتحكيم الشريعة ووجوب إفراد الله بالطاعة.

ومنهم من يجهل حقيقة الواقع تحت تأثير أبواق التضليل والدعاية وخبراء الخداع والتليس! وهؤلاء يمثلون فى الواقع نسبة عالية لا يستهان بها، وفيهم الدعاة والهداة من حملة القرآن والسنة ممن يقرون بالقضية فى جانبها العلمى، وتعتبر عند كثير منهم من

البديهيّات والمسلّمات، ولكنهم فُتِنُوا بالشعارات والتصريحات التي تطلقها أبقراط العلمانية فشوشت عليهم الرؤية وجعلتهم في أمر مريح!

بقيت مسألة في غاية الأهمية وهي أن موقف الدعوة من العلمانية موقف عقدي ثابت، فالعلمانية والإيمان نقيضان، وهي من الطواغيت التي تَعْبِدُ اللَّهَ عباده بالكفر بها واجتنابها، ومهما تفاوتت اجتهادات الدعاة في أشخاص القائلين عليها من طواغيت البشر فلا علاقة لذلك بالقضية الأصلية وهي رفض هذا المنهج وعدم مشايعة سدنته بقول أو عمل والله هو الهادي لسبيل الرشاد ولصالح القول والعمل أمه.

من فتاوى أئمة المسلمين في علمانية التشريع

الإمام أبو بكر الجصاص:

يقول في أحكام القرآن في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ (وفي هذه دلالة على أن من رد شيئا من أوامر الله تعالى أو أوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام، سواء رده من جهة الشك فيه أو من جهة ترك القبول والامتناع عن التسليم وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكاة وقتلهم وسبى ذراريهم لأن الله تعالى حكم بأن من لم يسلم للنبي ﷺ قضاءه وحكمه فليس من أهل الإيمان^(١)).

قال ابن تيمية

(والإنسان متى أحل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافراً مرتداً باتفاق الفقهاء)^(٢).

وقال ابن تيمية، رحمه الله تعالى في موضع آخر: حول معنى قوله تعالى ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، حيث قال: ﴿لَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ فَهُوَ كَافِرٌ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا وَهِيَ تُؤَمِّرُ بِالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ، وَقَدْ يَكُونُ الْعَدْلُ فِي دِينِهَا مَا رَأَتْ أَكْبَارُهُمْ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ، يَحْكُمُونَ بِعَادَاتِهِمْ الَّتِي لَمْ يَنْزِلْهَا اللَّهُ، كَسَوَالِيفِ الْبَادِيَةِ. وَيُرَوْنَ أَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي الْحُكْمُ بِهِ دُونَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهَذَا هُوَ الْكُفْرُ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ

* نقلا من «أصول الإيمان» المقرر على طلبة كلية الدراسات الإسلامية بالجامعة الأمريكية المفتوحة

(١٤٩: ١٤٢/١)

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٨١)

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ٢٦٧)

أسلموا، ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التي يأمر بها المطاعون، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله، فلم يلتزموا ذلك، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار^(١).

وفى نفس الموضوع يقول شارح العقيدة الطحاوية: (وهنا أمر يجب أن يتفطن له وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة، وذلك بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب، وأنه مخير فيه أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر^(٢)).

ابن كثير:

قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾^(٣).

(ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات، وكما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكيز خان الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في عينهم شرعاً يقدمونها على الحكم بالكتاب والسنة، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير^(٤)).

ويقول في البداية والنهاية^(٥): (فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه؟! من فعل فقد كفر بإجماع المسلمين).

ويقول أحمد شاكر^(٦) تعليقا على كلام ابن كثير السابق: (أقول أفيجوز - مع هذا - في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربا الوثنية الملحدة؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة، يغيرونه ويبدلونه كما يشاءون، لا ليأبى واضعه أوافق شريعة الإسلام أم خالفها؟

(١) منهاج السنة، ومجموعة التوحيد (١٩٣)

(٢) الطحاوية (٣٦٣)

(٣) المائدة: ٥٠

(٤) تفسير ابن كثير (٦٧/٢)

(٥) البداية والنهاية (١١٩/١٣)

(٦) عمدة التفسير اختيار وتحقيق أحمد شاكر (ج٤/ ١٧١، ١٧٢)

إن المسلمين لم يبلوا بهذا قط - فيما نعلم من تاريخهم - إلا فى ذلك العهد، عهد التار، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له، بل غلب الإسلام التار، ثم مزجهم، فأدخلهم فى شرعته، وزال أثر ماصنعوا، بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم . وبما أن الحكم السىء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة، ولم يتعلموه، ولم يعلموه أبناءهم، فما أسرع ما زال أثره .

أفرايتم هذا الوصف القوى من الحافظ ابن كثير - فى القرن الثامن - لذاك القانون الوضعى، الذى صنعه عدو الإسلام جنكيزخان؟ أستم ترونه يصف حال المسلمين فى هذا العصر، فى القرن الرابع عشر؟ إلا فى فرق واحد، أشرنا إليه آنفا: أن ذلك كان فى طبقة خاصة من الحكام، أتى عليها الزمن سريعا، فاندمجت فى الأمة الإسلامية وزال أثر ماصنعت .

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالا، وأشد ظلما وظلاما منهم، لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تندمج فى هذه القوانين المخالفة للشرعية، والتى هى أشبه شىء بذاك (الياسق) الذى اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر . هذه القوانين التى يصطنعها ناس يتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين، ويفخرون بذلك آباء وأبناء، ثم يجعلون مرد أمرهم إلى معتنقى هذا (الياسق العصرى) ويحقرون من يخالفهم فى ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم (رجعيا) و(جامدا) إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة .

بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقى فى الحكم من التشريع الإسلامى، يريدون تحويله إلى (ياقسهم) الجديد بلهوينيا واللين تارة، وبالمكر والخديعة تارة، وبما ملكت أيديهم من السلطات تارات، و يصرحون، ولا يستحيون، بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين! أفيجوز إذن - مع هذا - لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد أعنى التشريع الجديد؟ . . .

أو يجوز لرجل مسلم أن يلى القضاء فى ظل هذا (الياسق العصرى) وأن يعمل به ويعرض عن شريعته السيئة؟ ما أظن أن رجلا مسلما يعرف دينه، ويؤمن به جملة وتفصيلا، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله كتابا محكما لا يأتىه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذى جاء به واجبة قطعية الوجوب فى كل حال - ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم غير متردد ولا متأول، بأن ولاية القضاء فى هذه الحال باطلة بطلانا أصليا، لا يلحقه التصحيح ولا الإجازة؟

.....
إن الأمر فى هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هى كفر بواح، لاختفاء فيه ولامداراة، ولاعذر لاحد ممن ينتسب للإسلام - كائنان كان - فى العمل بها، أو الخضوع لها أو إقرارها، فليحذر كل امرؤ لنفسه، وكل امرئ حسيب نفسه)

٣- ويقول أحمد شاكر أيضاً فيمن ينكرون حد السرقة: (هذا حكم الله فى السارق والسارقة، قاطع صريح اللفظ والمعنى، لايحتمل أى شك فى الثبوت ولا فى الدلالة . وهذا حكم رسول الله تنفيذاً لحكم الله وطاعة أمره، فى الرجال والنساء، وقطع اليد، لاشك فيه، حتى ليقول ﷺ «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

فانظروا إلى ما فعل بنا أعداؤنا المبشرون المستعمرون؟ لعبوا بديننا، وضربوا علينا قوانين وثنية ملعونة، نسخوا بها حكم الله وحكم رسوله، ثم ربوا فينا ناسا ينسبون إلينا، أشربوا فى قلوبهم بغض هذا الحكم، ووضعوا على ألسنتهم كلمة الكفر: إن هذا حكم قاس لايناسب هذا العصر الماجن، عصر المدنية المتهتكة. وجعلوا هذا الحكم موضوع سخريتهم وتندرهم فكان عن هذا أن امتألت السجون - فى بلادنا وحدها - بمئات الألوف من اللصوص، بما وضعوا فى القوانين من عقوبات للسرقة، ليست برادعة، ولن تكون أبداً رادعة، ولن تكون أبداً علاجاً لهذا الداء المستشرى.

ثم أدخلوا فى عقول الطبقة المثقفة، وخاصة القائمين على هذه القوانين الوثنية مايسمونه (علم النفس)، وهو ليس بعلم ولا شبيه به، بل هو أهواء متناقضة متباينة، لكل إمام من أئمة الكفر فى هذا العلم رأى ينقض رأى مخالفه، ثم جاءوا فى التطبيق يلتمسون الأعذار من علم النفس لكل لص بحبسه. ثم زاد الأمر شراً أن يكتب للصوص أنفسهم كلاماً يلتمسون به الأعذار لجرمهم، وقام المدافعون عنهم المقامات التى توردهم النار: يعلمون أن الجريمة ثابتة، فلايحاولون إنكارها، بل يحاولون التهوين من شأنها بدراسة نفسية المجرم وظروفه!!

ولقد جادلت منهم رجالا كثيراً من أساطينهم، فليس عندهم إلا أن حكم القرآن فى هذا لايناسب العصر!! وأن المجرم إن هو إلا مريض يجب علاجه لاعتقابه، ثم ينسون قول الله سبحانه فى هذا الحكم ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَ نَكَالاً مِنَ اللَّهِ﴾ هذه العقوبة للتشكيل بالسارقين، نصاً قاطعاً صريحاً، فأين يذهب هؤلاء الناس؟

المسألة عندنا - نحن المسلمين - هى من صميم العقيدة، ومن صميم الإيمان، فهؤلاء

المتسبون إلى الإسلام ، المنكرون حد القطع أو الراغبون عنه ، سنسألهم : أتؤمنون بالله ، وبأنه خلق هذا الخلق؟ فيقولون: نعم . أفؤمنون بأنه يعلم ماكان و ما يكون ، وبأنه أعلم بخلقه من أنفسهم ، وبما يصلحهم وبما يضرهم؟ فيقولون نعم . أفؤمنون بأنه أرسل رسوله محمد بالهدى ودين الحق ، وأنزل عليه هذا القرآن من لدنه هدى للناس وإصلاحاً لهم في دينهم ودنياهم؟ فيقولون: نعم أفؤمنون بأن هذه الآية بعينها ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ من القرآن؟ فيقولون: نعم . إذن فأنى تصرفون؟ وعلى أى شرع تقومون؟ أما من أجاب - ممن يتسب للإسلام - على أى سؤال من هذه السؤالات بأن : لا ، فقد فرغنا منه وعرفنا مصيره . وقد أيقن كل مسلم من عالم أو جاهل ، مثقف أو أمى ، أن من يقول فى شىء من هذا : لا ، فقد خرج من الإسلام وتردى فى حمأة الردة . وأما من عدا المسلمين ، ومن عدا المتسبين للإسلام ، فلن نجادلهم فى هذا ، ولن نسايرهم فى الحديث عنه ، إذ لم يؤمنوا بمثل ما آمناء ، ولن يرضوا عنا أبداً إلا أن نقول مثل قولهم وعياداً بالله من ذلك .

ولو عقل هؤلاء - الذين ينتسبون للإسلام - لعلموا أن بضعة أيد من أيدى السارقين ، لو قطعت كل عام ، لنجت البلاد من سبة اللصوص ، ولما وقع كل عام إلا بضع سرقات ، كالشئ النادر ، ولحلت السجون من مئات الألوف التى تجعل السجون مدارس حقيقية للتفنن فى الجرائم . أو عقلوا لفعلوا . ولكنهم يصرون على باطلهم ، ليرضى عنهم سادتهم ومعلموهم وهيات) أهـ .

قال ابن القيم^(١) : والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفر الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم ، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً - مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة - فهذا كفر أصغر ، وإن اعتقد أنه مخير فيه - مع تيقنه أنه حكم الله - فهذا كفر أكبر ، وإن جهله أو أخطأ ، فهذا مخطئ له حكم المخطئين أهـ .

النسفى:

ويقول النسفى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٢) إن

(١) مدراج السالكين (١/ ٣٣٧)

(٢) الأحزاب : ٣٥ .

كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطأ وفسق .

مصطفى صبرى «شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية

فصل الدين عن الدولة ارتداد عن الإسلام من الحكومة أولاً ومن الأمة ثانياً، وإن لم يكن ارتداد الداخلين فى حوزة تلك الحكومة باعتبارهم أفراداً فباعتبارهم جماعة وهو أقصر طريق إلى الكفر من ارتداد الأفراد، بل إنه يتضمن ارتداد الأفراد أيضاً لقبولهم الطاعة لتلك الحكومة المرتدة.

محمد الأمين الشنقيطى:

ويقول الشنقيطى: وبهذه النصوص السماوية التى ذكرنا، يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التى شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جل وعلا على ألسنة رسله، أنه لا يشك فى كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم)

ويقول فى موضع آخر: (وأما النظام الشرعى المخالف لتشريع خالق السماوات والأرض فتحكيمه كفر بخالق السماوات والأرض، كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى فى الميراث ليس بإنصاف بل يلزم استواؤهما فى الميراث، وكدعوى أن تعدد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوها أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان ونحو ذلك.. فتحكيم هذا النوع من النظام فى أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم كفر بخالق السماوات والأرض وتمرد على نظام السماء الذى وضعه من خلق الخلائق كلها وهو أعلم بمصالحها سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مشرع آخر علواً كبيراً) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ(١).

محمد بن إبراهيم آل الشيخ:

(إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين

ثم أخذ يعدد أنواع الحكم بغير ما أنزل الله التى تخرج من الملة فقال:

(١) أضواء البيان.

(من أعظم ذلك وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه، ومشاقة له ورسوله، إيجاد المحاكم الوضعية التي مراجعها القانون الوضعي، كالقانون الفرنسي أو الأمريكى أو البريطانى، أو غير ذلك من مذاهب الكفار، وأى كفر فوق هذا الكفر وأى مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة؟)(١).

قلت: تقدم هذا فى موضع قريب، وكررناه هنا للمناسبة.

محمد حامد الفقى ذكر فى تعليقه على كتاب فتح المجيد معقباً على كلام ابن كثير فى قوله تعالى ﴿أفحكم الجاهلية يبغون...﴾ الآية.

(ومثل هذا وشر منه من اتخذ كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها فى الدماء والفروج والأموال، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله، ولا ينفعه أى اسم تسمى به، ولا أى عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام ونحوها)(٢).

قلت: وتقدم هذا فى موضع قريب، ووضعناه هنا للمناسبة.

أحمد شاكر:

(إن الأمر فى هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هى كفر بواح لا خفاء فيه ولا مداورة، ولا عذر لأحد ممن يتنسب إلى الإسلام كائناً من كان فى العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها، فليحذر امرؤ لنفسه، وكل امرئ حسيب نفسه)(٣).

قلت: وتقدم هذا فى موضع قريب، ووضعناه هنا للمناسبة.

عبدالعزیز بن باز:

ويقول الشيخ عبدالعزیز بن باز فى معرض نقده لدعوة القومية العربية: (إن الدعوة إليها والتكتل حول رايها يقضى بالمجتمع ولا بد إلى رفض حكم القرآن، لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا تحكيم القرآن، فيوجب ذلك لزعماء القومية أن يتخذوا أحكاماً وضعية تخالف حكم القرآن، حتى يستوى مجتمع القومية فى تلك الأحكام، وقد صرح الكثير منهم بذلك كما سلف، وهذاهو الفساد العظيم والكفر المستبين والردة السافرة كما

(١) رسالة تحكيم القوانين : ٧، ١

(٢) فتح المجيد (٦-٤)

(٣) عمده التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٧٤ / ٤.

قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وقال تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وقال تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

وكل دولة لاتحكم بشرع الله، ولاتنتصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة بنص هذه الآيات المحكمات يجب على أهل الإسلام بغضها ومعاداتها في الله حتى تؤمن بالله وحده وتحكم شريعته كما قال عزوجل : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ (١).

ويقول في موضع آخر: (وقد أجمع على أن من زعم أن حكم غير الله أحسن من حكم الله، أو أن غير هدى رسول الله ﷺ أحسن من هدى الرسول ﷺ فهو كافر، كما أجمعوا على أن من زعم أنه يجوز لأحد من الناس الخروج على شريعة محمد ﷺ أو تحكيم غيرها فهو كافر ضال، وبما ذكرناه من الأدلة القرآنية، وإجماع أهل العلم يعلم السائل وغيره، أن الذين يدعون إلى الاشتراكية أو إلى الشيوعية أو غيرها من المذاهب الهادمة المناقضة لحكم الإسلام، كفار ضلال أكفر من اليهود والنصارى، لأنهم ملاحدة لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يجوز أن يجعل أحد منهم خطيباً أو إماماً في مسجد من مساجد المسلمين ولا تصح الصلاة خلفهم، وكل من ساعدهم على ضلالهم، وحسن ما يدعون إليه وذم دعاة الإسلام ولمزهم، فهو كافر ضال، حكمه حكم الطائفة الملحدة، التي سار في ركابها وأيدها في طلبها، وقد أجمع علماء الإسلام على أن من ظاهر الكفار على المسلمين وساعدهم عليهم بأي نوع من أنواع المساعدة، فهو كافر مثلهم.

* الكوثري

(وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن دين الإسلام جامع لمصلحتي الدنيا

(١) فكرة القومية العربية لصالح العبود (٢٦٨).

* والمقصود من إيراد مقالة الكوثري في هذا المقام رغم وجود بعض الاستدراكات الجوهرية على منهجه بيان أن الأمة كلها على اختلاف طوائفها ومدارسها الفكرية والعقدية تبرا من نحلة العلمانية وتجمع على خروجها على محكمات الملة وقواطع الشريعة.

(١) مجموع الفتاوى ومقالات متنوعة (٢٧٤/١)

والآخرة ولاحكامهما دلالة واضحة لارتياب فيها، فتكون محاولة فصل الدين عن الدولة كضراً صريحاً منابذاً لإعلاء كلمة الله، وعداءً موجهاً إلى الدين الإسلامى فى صميمه، ويكون هذا الطلب من الطالب إقراراً منه بالانتباز والانفصال، فنلزمه بإقراره فنعده عضواً مفصولاً عن جماعة المسلمين وشخصاً منفصلاً عن عقيدة أهل الإسلام! فلا تصح مناكحته ولا نحل ذبيحته؛ لأنه ليس من المسلمين ولا من أهل الكتاب!

محمد الحضر حسين شيخ الأزهر سابقاً.

(أما أن تفعل البلاد الإسلامية مافعلته الدولة الغربية من تجريد السياسة من الدين، فهو رأى لا يصدر إلا من يُكنّ فى صدره أن ليس للدين من سلطان على السياسة، وهذا ما يشهده فئة يريدون أن ينقضوا حقيقة الإسلام من أطرافها، حتى تكون بمقدار غيرها من الديانات الروحية التى فصلها أهلها عن السياسة، ثم يصبغوا هذا المقدار بأى صبغة أرادوا فيذهب الإسلام، فلا القرآن نزل ولا محمد ﷺ بعث! ولا الخلفاء الراشدون جاهدوا فى الله حق جهاده! ولا الراسخون فى العلم سهروا فى تعرف الأصول من مواردها وانتزاع الأحكام من أصولها!)

يوسف القرضاوى:

(بل إن العلمانى الذى يرفض «مبدأ» تحكيم الشريعة من الأساس، ليس له من الإسلام إلا اسمه، وهو مرتد عن الإسلام بيقين، يجب أن يستتاب وتزاح عنه الشبهة وتقام عليه الحجة، وإلا حكم القضاء عليه بالردة، وجرى من انتماؤه إلى الإسلام، أو سحبت منه «الجنسية الإسلامية» وفرق بينه وبين زوجه وولده، وجرى عليه أحكام المرتدين المارقين فى الحياة وبعد الوفاة^(١).



(١) الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه للقرضاوى: ٧٣، ٧٤.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ (النُّور).

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ (بِرَاءة).

الثالثة: التَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى الْعِبَادَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا عَدِيٌّ.

الرابعة: تَمْثِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَتَمْثِيلُ أَحْمَدَ بِسُفْيَانَ.

قال ابن عثيمين (١).

قوله : «فيه مسائل»

● الأولى: تفسير آية النور.

وهي قوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وسبق تفسيرها.

● والثانية: تفسير آية براءة.

وهي قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية ، وقد سبق ذلك .

● الثالثة : التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدى.

لأن العبادة هي التعبد لهم بالطاعة ، والتذلل لهم بالركوع والسجود والنذر وما أشبهه ، لكن بين ﷺ المراد من عبادتهم بأنها طاعتهم فى تحليل الحرام وتحريم الحلال .

● الرابعة : تمثيل ابن عباس بأبى بكر وعمر وتمثيل أحمد بسفيان .

أى : إذا كان أبو بكر وعمر لا يمكن أن يعارض قول النبى ﷺ بقولهما ؛ فما بالك بمن عارض قول النبى ﷺ بقول من دونهما ؟! فهو أشد وأقبح ، وكذلك مثل الإمام أحمد بسفيان الثورى وأنكر على من أخذ برأيه وترك ما صح به الإسناد عن رسول الله ﷺ واستدل بقوله تعالى ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ الآية .

(١) القول المفيد (٢ / ٣٣٠)

الخامسة: تَحَوُّلُ الْأَحْوَالِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، حَتَّى صَارَ عِنْدَ الْأَكْثَرِ عِبَادَةُ الرُّهْبَانِ هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، وَتُسَمَّى الْوَلَايَةُ، وَعِبَادَةُ الْأَخْبَارِ هِيَ الْعِلْمُ وَالْفَقْهُ، ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ إِلَى أَنْ عَبْدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَعَبَدَ بِالْمَعْنَى الثَّانِي مَنْ هُوَ مِنَ الْجَاهِلِينَ.

● الخامسة: تحول الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة... إلخ.

قال سليمان آل الشيخ^(١).

قوله: صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، يشير إلى ما يعتقده كثير من الناس فيمن ينتسب إلى الولاية من الضر والنفع، والعطاء والمنع، ويسمون ذلك الولاية والسر ونحو ذلك وهو الشرك.

قوله: وعبادة الأخبار هي العلم والفقه أي: هي التي تسمى اليوم العلم والفقه المؤلف على مذاهب الأئمة ونحوهم، فيطيعونهم في كل ما يطيعوك سواء وافق حكم الله أم خالفه، بل لا يعبأون بما خالف ذلك من كتاب وسنة، بل يردون كلام الله وكلام رسوله لأقوال من قلده، ويصرحون بأنه لا يحل العمل بكتاب ولا سنة، وأنه لا يجوز تلقي العلم والهدى منهما، وإنما العلم والفقه والهدى عندهم هو ما وجدوه في هذه الكتب. بل أعظم من ذلك وأطم رمى كثير منهم كلام الله وكلام رسوله بأنه لا يفيد العلم ولا اليقين، في باب معرفة أسماء الله وصفاته وتوحيده. ويسمونها ظواهر لفظية، ويسمون ما وضعه الفلاسفة المشركون القواطع العقلية، ثم يقدمونها في باب الأسماء والصفات والتوحيد على ما جاء من عند الله، ثم يرمون من خرج عن عبادة الأخبار والرهبان إلى طاعة رب العالمين، وطاعة رسوله وتحكيم ما أنزل الله في موارد النزاع بالبدعة أو الكفر.

وقوله: ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من ليس من الصالحين، وذلك كاعتقادهم في كثير ممن ينتسب إلى الولاية من الفساق والمجاذيب.

وقوله: وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين، وذلك كاعتقادهم العلم في أناس من جهلة المقلدين فيحسنون لهم البدع والشرك فيطيعونهم، ويظنون أنهم أعلماء مصلحون: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤١٦- ٤١٧)

قال ابن عثيمين^(١): يقول المؤلف رحمه الله تعالى : تغيرت الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال . وهذا لاشك أنه أشد من معارضة قول الرسول ﷺ بقول أبي بكر وعمر، ثم قال: «ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين»؛ أى : يركع ويسجد له، ويعظم تعظيم الرب، ويوصف بما لا يستحق، وهذا يوجد عند كثير من الشعراء الذين يمدحون الملوك والوزراء وهم لا يستحقون أن يكونوا بمنزلة أبي بكر وعمر.

ثم قال: «وعبد بالمعنى الثانى»: وهو الطاعة والاتباع من هو من الجاهلين؛ فأطيع الجاهل فى تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، ما يوجد فى بعض النظم والقوانين المخالفة للشرعة الإسلامية؛ فإن واضعيها جهال لا يعرفون من الشرعة ولا الأديان شيئاً، فصاروا يعبدون بهذا المعنى، فيطاعون فى تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله. وهذا فى زمان المؤلف؛ فكيف بزماننا؟! وقد قال النبى ﷺ فيما رواه البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه، عن النبى ﷺ؛ أنه قال: «لا يأتى زمان على الناس إلا وما بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم»^(٢)، وقال النبى ﷺ للصحابه: «ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً»^(٣)، وعصر الصحابة أقرب إلى الهدى من عصر من بعدهم.

والناس لا يحسون بالتغير؛ لأن الأمور تأتى رويداً رويداً، ولو غاب أحد مدة طويلة ثم جاء؛ لوجد التغير الكثير المزعج - نسأل الله السلامة - ، فعلينا الحذر، أن نعلم أن شرع الله يجب أن يحمى وأن يصاب، ولا يطاع أحد فى تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله أبداً مهما كانت منزلته، وأن الواجب أن نكون عباداً لله - عز وجل - تذلاً وتعبداً وطاعة.



(١) القول المفيد (٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تقدم تخريجه من حديث العرياض بن سارية

قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (١).

● مناسبة الباب لما قبله:

قال السعدى (٢): ووجه ما ذكره المصنف ظاهر، فإن الرب والإله هو الذى له الحكم القدري، والحكم الشرعى، والحكم الجزائى، وهو الذى يؤله ويعبد وحده لا شريك له ويطاع طاعة مطلقة فلا يعصى بحيث تكون الطاعات كلها تبعاً لطاعته.

فإذا اتخذ العبد العلماء والأمرء على هذا الوجه وجعل طاعتهم هى الأصل وطاعة الله ورسوله تبعاً لها فقد اتخذهم أرباباً من دون الله يتألههم ويتحاكم إليهم ويقدم حكمهم على حكم الله ورسوله، فهذا هو الكفر بعينه فإن الحكم كله لله كما أن العبادة كلها لله والواجب على كل أحد أن لا يتخذ غير الله حَكَمًا، وأن يرد ما تنازع فيه الناس إلى الله ورسوله وبذلك يكون دين العبد كله لله وتوحيده خالص لوجه الله.

وكل من حاكم إلى غير حكم الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت وإن زعم أنه مؤمن فهو كاذب.

فالإيمان لا يصح ولا يتم إلا بتحكم الله ورسوله فى أصول الدين وفروعه، وفى كل الحقوق كما ذكره المصنف فى الباب الآخر.

فمن حاكم إلى غير الله ورسوله فقد اتخذ ذلك رباً وقد حاكم إلى طاغوت... ١هـ.

قال ابن عثيمين (٣): هذا الباب له صلة قوية بما قبله، لأن ما قبله فيه حكم من أطاع العلماء والأمرء فى تحليل ما حرم الله. أو تحريم ما أحل الله، وهذا فيه الإنكار على من أراد التحاكم إلى غير الله ورسوله. ١هـ.

(١) النساء/ ٦٠.

(٢) القول السديد (١٠١ : ١٠٤).

(٣) القول المفيد (٢/ ٣٣٤).

● مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): لما كان التوحيد الذى هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله مشتملاً على الإيمان بالرسول ﷺ، مستلزماً له، وذلك هو الشهادتان، ولهذا جعلهما النبى ﷺ ركناً واحداً فى قوله: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَالْحَجُّ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ»^(٢)، ففى هذا الباب ما تضمنه التوحيد، واستلزمه من تحكيم الرسول ﷺ فى موارد النزاع، إذ هذا هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، ولازمها الذى لا بد منه لكل مؤمن، فإن من عرف أن لا إله إلا الله فلا بد من الانقياد لحكم الله والتسليم لأمره، الذى جاء من عنده على يد رسوله محمد ﷺ فمن شهد أن لا إله إلا الله، ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول ﷺ فى موارد النزاع فقد كذب فى شهادته.

وإن شئت قلت: لما كان التوحيد مبنياً على الشهادتين، إذ لا تنفك إحداها عن الأخرى لتلازمهما، وكان ما تقدم من هذا الكتاب فى معنى شهادة أن لا إله إلا الله التى تتضمن حق الله على عباده، نبه فى هذا الباب على معنى شهادة أن محمداً رسول الله، التى تتضمن حق الرسول ﷺ فإنها تتضمن أنه عبد لا يعبد، ورسول صادق لا يكذب، بل يطاع ويتبع، لأنه المبلغ عن الله تعالى، فله عليه الصلاة والسلام منصب الرسالة والتبليغ عن الله والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، إذ هو لا يحكم إلا بحكم الله ومحبه على النفس، والأهل والمال والوطن، وليس له من الإلهية شىء، بل هو عبد الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

وقال ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(٣) ومن لوازم ذلك متابعتة وتحكيمه فى موارد النزاع، وترك التحاكم إلى غيره كالمنافقين، الذين يدعون الإيمان به، ويتحاكمون إلى غيره، وبهذا يتحقق العبد بكمال التوحيد وكمال المتابعة وذلك هو كمال سعاده، وهو معنى الشهادتين. اهـ.

قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية

● مناسبة الآية للباب:

وقال القرعاوى^(٤): حيث دلت الآية على تكذيب من ادعى الإيمان بما أنزل الله

ثم تحاكم إلى غيره اهـ.

(٢) تقدم تخريجه.

(٤) الجديد (٣٤٠).

(١) تيسير العزيز الحميد (٤١٧).

(٣) تقدم تخريجه.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى^(١): حيث أنكرت الآية على من لم يقم بـلازم شهادة أن لا إله إلا الله، وهو الإيمان بحكم رسول الله ﷺ المقتضى العمل بشرعيته . اهـ.

● ماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال حامد بن محمد^(٢): باب فى بيان أن من آمن بالله ورسوله وما أنزل إليه حقاً وصدقاً لم يتحاكم إلى الطاغوت، ومن تحاكم إليهم من الكهنة والسحرة وأشباههم مطمئناً بهم مصداقاً قولهم فليس بمؤمن، ويدل على ذلك الآية، وذلك لزعمه أن حكم الطاغوت أصلح، ولا يعلم المطيع على قلبه أن غير الحق هو الإفساد ويدل عليه - الآية الثانية فى الباب- وذلك لأنه رغب عن حكم الإسلام الذى ارتضاه الله فى آخر الزمان، وبغى حكم الجاهلية ويدل عليه الآية الثالثة فى الباب . . . اهـ.

وقال ابن باز^(٣): أراد المؤلف بيان التحذير من التحاكم إلى غير الله، وأن الواجب التحاكم إلى شريعة الله فى كل الأمور.

ثم قال: فهذه الآية تدل على وجوب التحاكم إلى شرع الله، وأنه لا يجوز التحاكم إلى غيره كائنًا من كان، وهذا أصل مجمع عليه، اهـ.

تنبيه: قبل الشروع فى التفسير نلفت النظر إلى اختلاف شراح التوحيد فى إتمام الآيات أو الاختصار ٨ على آية معينة دون أخرى.

(أولاً): سليمان آل الشيخ: ذكر الآيات من (٦٠ : ٦٥) من سورة النساء

(ثانياً): حامد بن محمد بن حسن: ذكر الآيتين (٥٩ : ٦٠).

(ثالثاً): عبدالرحمن آل الشيخ: ذكر الآيتين رقم (٦٠ : ٦١).

(رابعاً): ناصر السعدى: ذكر الآية رقم (٦٠) فقط، ثم قال: الآيات.

(خامساً): عبدالله بن جار الله: ذكر الآية رقم (٦٠) فقط.

(سادساً): عبدالعزيز بن باز: ذكر الآيتين (٦٠ : ٦١).

(سابعاً): ابن عثيمين: ذكر الآيتين (٦٠ : ٦١).

(١) الجديد (٣٤٠).

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٣٧٩).

(٣) التعليق المفيد (١٩٩).

(ثامناً): محمد بن عبدالعزيز القرعاوى: ذكر الآية رقم (٦٠) فقط.

قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُتْرِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُتْرِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾

الإعراب^(١): كلام مستأنف مسوق لبيان مكان التعجب من حال هؤلاء الذين ادعوا لأنفسهم أنهم قد جمعوا بين الإيمان بما أنزل على رسول الله وهو القرآن وما أنزل على من قبله من الأنبياء فجاءوا بما يناقض هذه الدعوى ويطيح بها من أساسها وهو إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت، فجمعوا بين النقيضين وألّفوا بين الضدّين. والهمزة للاستفهام التعجبي (ولم) حرف نفى وقلب وجزم و(تر) فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت والمخاطب هو رسول الله ﷺ (وإلى الذين) متعلقان بتر، وقد علق فعل الرؤية إن كانت قبلية وجملة (يزعمون) صلة الموصول (وأنهم): أن واسمها وجملة (آمنوا) خبرها وقد سدت (أن) واسمها مسدّ مفعولى (يزعمون) (وبما) جار ومجرور متعلقان (بآمنوا) (وأنزل) فعل ماضى مبنى للمجهول والجملة صلة (وإليك) متعلقان (بأنزل). أ. هـ.

● علاقة الآية بالآية التي قبلها:

- قال الفخر الرازى^(٢): اعلم أنه تعالى لما أوجب فى الآية الأولى على جميع المكلفين أن يطيعوا الله، ويطيعوا الرسول، ذكر فى هذه الآية أن المنافقين والذين فى قلوبهم مرض لا يطيعون الرسول، ولا يرضون بحكمه، وإنما يريدون حكم غيره. أ. هـ.

● أسباب النزول:

[قلت]: سيذكر المصنف فى آخر الباب آثرين فى سبب نزول الآية، وسوف نفصل فى شرحهما هناك فانظرهما. والله المستعان.

عن ابن عباس فى قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ الآية قال «نزلت فى رجل من المنافقين يقال له بشر، خاصم يهوديا فدعاه اليهودى إلى النبى ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم إنهما احتكما إلى النبى ﷺ، ففضى لليهودى فلم يرض المنافق. وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب. فقال اليهودى لعمر: قضى لنا رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه. فقال للمنافق: أكذلك؟! قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما. فدخل عمر فاشتعل على سيفه، ثم خرج فضرب عنق المنافق حتى برد ثم قال: هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله: فنزلت»^(٣).

(١) إعراب القرآن الكريم وبيانه (٢/ ٢٤٤). (٢) التفسير الكبير (٥/ ١٠/ ١٥٩).

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٢٠) ونسبه الثعلبى وسيأتى.

قلت: وهذا الأثر ذكره المصنف فى المتن فى سبب نزول الآية وسيأتى بسط الكلام فيه فى موضعه.

عن ابن عباس قال: كان أبو برزة الأسلمى كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين. فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ إلى قوله ﴿إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (١).

عن ابن عباس قال «كان الجلاس ابن الصامت قبل توبته، ومعتب بن قشير، ورافع بن زيد، وبشير، كانوا يدعون الإسلام، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين فى خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ فدعوههم إلى الكهان حكام الجاهلية. فأنزل الله فيهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية (٢).

وذكر ابن جرير الطبرى فى سبب نزول الآيات عدة أحاديث بإسناده، من ذلك: الشعبى فى هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ قال كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فكان المنافق يدعو إلى اليهود لانه يعلم أنهم يقبلون الرشوة وكان اليهودى يدعو إلى المسلمين لانه يعلم أنهم لا يقبلون الرشوة فاصطلحا أن يتحاكما إلى كاهن من جهيئة فانزل الله فيه هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ (٣).

[قلت]: وهذا الأثر عن الشعبى ذكره المصنف فى متن الكتاب فى سبب نزول الآية، وسيأتى بسط شرحه فى موضعه إن شاء الله.

- وبسند آخر عنه فى هذه الآية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ فذكر نحوه وزاد فانزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾

(١) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١١/٣٧٣/١٢٠٤٥) عن ابن عباس به.

قال الهيثمى فى «المجمع» (٦/٧): رجاله رجال الصحيح.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٢/٣١٩) وزاد نسبه لابن أبى حاتم وقال: بسند صحيح.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/٣١٩) ونسبه لابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

وانظر «الاتقان» للسيوطى (١٢٢٣ - بتخريجنا).

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٥/٩٦: ٩٨) وانظر «الدر» (٢/٢١٩).

يعنى المنافقين ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعنى اليهود يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت يقول إلى الكاهن ﴿وَقَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أمر هذا فى كتابه وأمر هذا فى كتابه أن يكفر بالكاهن^(١).

- وعنه قال كانت بين رجل ممن يزعم أنه مسلم وبين رجل من اليهود خصومة فقال اليهودى أحاكمك إلى أهل دينك أو قال إلى النبى لأنه قد علم أن رسول الله ﷺ لا يأخذ الرشوة فى الحكم فاختلغا فاتفقا على أن يأتيا كاهنا فى جهينة قال فترلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعنى الذى من الانصار ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعنى اليهودى ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ إلى الكاهن ﴿وَقَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ به يعنى أمر هذا فى كتابه وأمر هذا فى كتابه وتلا ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ وقرأ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ إلى ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٢).

- وعن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال: زعم حضرمى أن رجلاً من اليهود كان قد أسلم فكانت بينه وبين رجل من اليهود مداراة فى حق.

فقال اليهودى له: انطلق إلى نبى الله فعرف أنه سيقضى عليه، قال: فأبى، فانطلقا إلى رجل من الكهان فتحاكما إليه، قال الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾^(٣).

- عن قتادة قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية حتى بلغ ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ذكر لنا أن هذه الآية نزلت فى رجلين: رجل من الانصار يقال له: بشر. وفى رجل من اليهود، فى مداراة كانت بينهما فى حق فتدارا بينهما فيه فتنافرا إلى كاهن بالمدينة يحكم بينهما وتركنا نبى الله ﷺ فعاب الله عز وجل ذلك.

وذكر لنا أن اليهودى كان يدعوه إلى النبى ﷺ ليحكم بينهما، وقد علم أن نبى الله ﷺ لن يجور عليه فجعل الانصارى يأبى عليه وهو يزعم أنه مسلم ويدعوه إلى الكاهن فأنزل الله تبارك وتعالى ما تسمعون، فعاب ذلك على الذى يزعم أنه مسلم وعلى

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق. (٢) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٣١٩/٢) ونسبه لابن جرير.

اليهودى الذى هو من أهل الكتاب فقال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله ﴿صُدُّوهُمْ﴾.

وعن السدى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ قال: كان ناس من اليهود قد أسلموا، ونافق بعضهم. وكانت قريظة والنضير فى الجاهلية إذا قتل الرجل من بنى النضير قتله بنو قريظة قتلوا به منهم، فاذا قتل الرجل من بنى قريظة قتله النضير أعطوا دية ستين وسقا من تمر فلما أسلم ناس من بنى قريظة والنضير، قتل رجل من بنى النضير رجلاً من بنى قريظة فتحاكموا إلى النبى ﷺ فقال النضيرى: يا رسول الله إنا كنا نعطيهم فى الجاهلية الدية فنحن نعطيهم اليوم ذلك. فقالت قريظة: لا ولكننا إخوانكم فى النسب والدين ودمائنا مثل دمائكم ولكنكم كنتم تغلبونا فى الجاهلية، فقد جاء الله بالاسلام فأنزل الله يعيرهم بما فعلوا فقال ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ فيعيرهم ثم ذكر قول النضيرى كنا نعطيهم فى الجاهلية ستين وسقاً ونقتل منهم ولا يقتلوننا فقال ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ وأخذ النضيرى فقتله بصاحبه فتفاخرت النضير وقريظة فقالت النضير: نحن أكرم منكم. وقالت قريظة: نحن أكرم منكم ودخلوا المدينة إلى أبى برزة الكاهن الاسلمى. فقال المنافق من قريظة والنضير: انطلقوا إلى أبى برزة ينفر بيتنا. وقال المسلمون من قريظة والنضير: لابل النبى ﷺ ينفر بيتنا، فتعالوا إليه، فأبى المنافقون.

وانطلقوا إلى أبى برزة فسألوه فقال: أعظموا اللقمة. يقول أعظموا الخطر فقالوا: لك عشرة أسواق. قال: لابل مائة وسق ديتى فأبى أخاف أن أنفر النضير تقتلنى قريظة، أو أنفر قريظة فتقتلنى النضير.

فأبوا أن يعطوه فوق عشرة أسواق، وأبى أن يحكم بينهم، فأنزل الله عز وجل ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ وهو أبو برزة وقد أمروا ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ إلى قوله ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١).

- وزاد الفخر الرازى^(٢) فى أسباب النزول أثر الحسن:

إن رجلاً من المسلمين كان له على رجل من المنافقين حق، فدعاه المنافق إلى وثن كان أهل الجاهلية يتحاكمون إليه، ورجل قائم يترجم الأباطيل عن الوثن، فالمراد بالطاغوت هو ذلك الرجل.

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وانظر «الدر» (٣١٩/٢).

(٢) التفسير الكبير (٥/ ١٠٩/ ١٥٩: ١٦٦).

كانوا يتحاكمون إلى الأوثان، وكان طريقهم أنهم يضربون القداح بحضرة الوثن،
فما خرج على القداح عملوا به، وعلى هذا القول فالطاغوت هو الوثن.

● خلاصة القول:

قال الرازى^(١): واعلم أن المفسرين اتفقوا على أن هذه الآية نزلت في بعض المنافقين، ثم قال أبو مسلم: ظاهر الآية يدل على أنه كان منافقاً من أهل الكتاب، مثل زنه كان يهودياً فأظهر الإسلام على سبيل النفاق لأن قوله تعالى ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إنما يليق بمثل هذا المنافق. اهـ.

ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين:

- قال الطبرى^(٢): يعنى بذلك جل ثناؤه ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد بقلبك فتعلم ﴿إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ﴾ صدقوا ﴿بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ من الكتب و﴿إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا﴾ و﴿أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الكتب ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا﴾ فى خصوصتهم ﴿إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ يعنى إلى من يعظمونه ويصدرون عن قوله ويرضون بحكمه من دون حكم الله ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ يقول وقد أمرهم الله أن يكذبوا بما جاءهم به الطاغوت الذى يتحاكمون إليه فتركوا أمر الله واتبعوا أمر الشيطان ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ يعنى أن الشيطان يريد أن يصد هؤلاء المتحاكمين إلى الطاغوت عن سبيل الحق والهدى فيضلهم عنها ضلالاً بعيداً يعنى فيجور بهم عنها جوراً شديداً. اهـ.

وقال ابن الجوزى^(٣): والزعم والزعم لغتان، وأكثر ما يستعمل فى قول ما لا تتحقق صحته وفى ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قولان: أحدهما: أنه المنافق.

والثانى: إن الذى زعم أنه آمن بما أنزل إليه المنافق، والذى زعم أنه آمن بما أنزل من قبله اليهودى أهـ.

- وقال الفخر الرازى^(٤): قال الليث: أهل العربية يقولون «زعم فلان» إذا شكوا فيه فلم يعرفوا أكذب أو صدق، فكذلك تفسير قوله ﴿هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ أى بقولهم

(٢) تفسير الطبرى (٩٦/٥/٤).

(١) التفسير الكبير (١٥٩/١٠/٥).

(٤) التفسير الكبير (١٥٩/١٠/٥).

(٣) زاد المسير (٧٢/٢).

الكذب. قال الأصمعى: الزعوم من الغنم التى لا يعرفون أبها شحم أم لا، وقال ابن الأعرى: الزعم يستعمل فى الحق، وأنشد لامية بن الصلت:

وإنى أدين لكم أنه سينجزكم ريكم ما زعم

إذا عرفت هذا فنقول: الذى فى هذه الآية المراد به الكذب، لأن الآية نزلت فى المنافقين أهد.

- وقال القرطبي^(١) بنحو مما تقدم.

- وقال ابن كثير^(٢): هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعى الإيمان بما أنزل على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم فى فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله كما ذكر فى سبب نزول الآية. أهد.

- وقال الشوكانى^(٣): فيه تعجيب لرسول الله ﷺ من حال هؤلاء الذين ادعوا لأنفسهم أنهم قد جمعوا بين الإيمان بما أنزل على رسول الله وهو القرآن وما أنزل على من قبله من الأنبياء، فجاءوا بما ينقض عليهم هذه الدعوة ويطلبها من أصلها، ويوضح أنهم ليسوا على شئ من ذلك أصلاً وهو إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت، وقد أمروا فيما أنزل على رسول الله وعلى من قبله أن يكفروا به.

- وقال السعدى^(٤): يُعَجَّبُ تعالى عباده من حالة المنافقين ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾

قوله [الطاغوت] تقدم الكلام عليه مستفيضاً فى أول الكتاب

وقال ابن تيمية^(٥):

الطاغوت: فعلوت من الطغيان. كما أن الملكوت فعلوت من الملك، والرحموت والرهوت، والرغبوت.

والطغيان: مجاوزة الحد، وهو الظلم والبغى. فالمعبود من دون الله إذا لم يكن كارهاً لذلك: طاغوت؛ ولهذا سُمى النبي ﷺ الأصنام طواغيت فى الحديث الصحيح لما قال: «ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت»، والمطاع فى معصية الله، والمطاع اتباع غير الهدى والدين الحق - سواء كان مقبلاً خيره المخالف لكتاب الله أو مطاعاً أمره المخالف لأمر الله - هو طاغوت، ولهذا سُمى من تحوكم إليه - من حكم بغير كتاب

(١) تفسير القرطبي (٣/١٨٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٤٩٢).

(٣) فتح القدير (١/٥٧٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (١/٣٤٨).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٠١).

الله - طاغوت، وسمى الله فرعون وعاداً طغاة وقال في صيحة ثمود ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ أهـ.

قوله ﴿وَقَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾.

قال مقاتل (١): أن يتبرءوا من الكهنة

● ما جاء في الآية من أقوال المفسرين:

قال الرازي (٢): مقصود الكلام إن بعض الناس أراد أن يتحاكم إلى بعض أهل الطغيان ولم يرد التحاكم إلى محمد ﷺ.

قال القاضي: ويجب أن يكون التحاكم إلى هذا الطاغوت كالكفر، وعدم الرضا بحكم محمد عليه الصلاة والسلام كفر، ويدل عليه وجوه:

الأول: إنه تعالى قال ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ فجعل التحاكم إلى الطاغوت يكون إيماناً به، ولا شك أن الإيمان بالطاغوت كفر بالله، كما أن الكفر بالطاغوت إيمان بالله.

الثاني: قوله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ إلى قوله ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

وهذا نص في تكفير من لم يرض بحكم الرسول عليه الصلاة والسلام.

الثالث: قوله تعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهذا يدل على أن مخالفته معصية عظيمة.

وفي هذه الآيات دلائل على أن من رد شيئاً من أوامر الله أو أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام فهو خارج عن الإسلام، سواء رده من جهة الشك أو من جهة التمرد، وذلك يوجب صحة ما ذهب الصحابة إليه من الحكم بارتداد مانعي الزكاة وقتلهم وسبي ذراريهم أ.هـ.

قال السعدى (٣): «الطاغوت» وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت أ.هـ.

قال الشنقيطي (٤): - وقد أوضح تعالى هذا المفهوم موبخاً للمتحاكمين إلى غير كتاب الله وسنة نبيه ﷺ مبيناً أن الشيطان أضلهم ضلالاً بعيداً عن الحق بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ

(٢) التفسير الكبير ٥/ ١٠ / ١٦٠ و ١٦١.

(١) زاد المسير ٢/ ٧٢.

(٤) أضواء البيان ١/ ٣٦١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٣٤٨.

إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى
الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١﴾

وأشار إلى أنه لا يؤمن أحد حتى يكفر بالطاغوت بقوله ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ
وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ (١).

ومفهوم الشرط أن من لم يكفر بالطاغوت لم يستمسك بالعروة الوثقى وهو كذلك
ومن لم يستمسك بالعروة الوثقى فهو بمعزل عن الإيمان لأن الإيمان بالله هو العروة
الوثقى، والإيمان بالطاغوت يستحيل إجتماعه مع الإيمان بالله لأن الكفر بالطاغوت
شرط في الإيمان بالله أو ركن منه كما هو صريح قوله ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ الآية.

قال صاحب الظلال (٢): وهذا الدرس يتولى بيان هذا النظام الأساسى، قائماً
ومنبثقاً من التصور الإسلامى لشرط الإيمان وحد الإسلام!

إنه يتولى تحديد الجهة التى تتلقى منها الأمة المسلمة منهج حياتها؛ والطريقة التى
تتلقى بها؛ والمنهج الذى تفهم به ما تتلقى، وترد إليه ما يجد من مشكلات وأقضية لم
يرد فيها نص وتختلف الأفهام فيها؛ والسلطة التى تطيعها وعلّة طاعتها ومصدر
سلطانها.. ويقول: إن هذا هو شرط الإيمان وحد الإسلام.

وعندئذ يلتقى «النظام الأساسى» لهذه الأمة؛ بالعقيدة التى تؤمن بها.. فى وحدة لا
تتجزأ؛ ولا تفترق عناصرها..

وهذا هو الموضوع الخطير الذى يجلوّه هذا الدرس جلاء دقيقاً كاملاً.. وهذه هى
القضية التى تبدو، بعد مطالعة هذا الدرس، بديهية يعجب الإنسان كيف يجادل «مسلم»
فيها!

إنه يقول للأمة المسلمة: إن الرسل أرسلت لتطاع- بإذن الله- لا لمجرد الإبلاغ
والإقناع:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾..

ويقول لها: إن الناس لا يؤمنون- ابتداء- إلا أن يتحاكموا إلى منهج الله؛ ممثلاً- فى
حياة الرسول ﷺ- فى أحكام الرسول. وباقياً بعده فى مصدره القرآن والسنة بالبداة؛

(١) البقرة: ٢٥٦

(٢) فى ظلال التفسير ٢/٦٨٦-٦٨٨، ٦٩٣.

ولا يكفى أن يتحاكموا إليه- ليحسبوا مؤمنين- بل لابد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.. فهذا هو شرط الإيمان وحد الإسلام.

ويقول لها: إن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت- أى إلى غير شريعة الله- لا يقبل منهم زعمهم أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله. فهو زعم كاذب. يكذبهم أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

ويقول لها: إن علامة النفاق أن يصدوا عن التحاكم إلى ما أنزل الله والتحاكم إلى رسول الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.

ويقول لها: إن منهجها الإيماني ونظامها الأساسى، أن تطيع الله- عز وجل- فى هذا القرآن- وأن تطيع رسول الله - ﷺ - فى سنته- وأولى الأمر من المؤمنين الداخلين فى شرط الإيمان وحد الإسلام معكم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

ويقول لها: إن المرجع، فيما تختلف فيه وجهات النظر فى المسائل الطارئة المتجددة. والأقضية التى لم ترد فيها أحكام نصية.. أن المرجع هو الله ورسوله.. أى شريعة الله وسنة رسوله:

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾..

وبهذا يبقى المنهج الربانى مهيمناً على ما يطرأ على الحياة من مشكلات وأقضية كذلك، أبد الدهر، فى حياة الأمة المسلمة.. وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسى، الذى لا تكون مؤمنة إلا به، ولا تكون مسلمة إلا بتحقيقه.. إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك، ورد المسائل التى تجد وتختلف فيها وجهات النظر إلى الله ورسوله.. شرط الإيمان وحد الإسلام.. شرطاً واضحاً ونصاً صريحاً:

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾..

ولا ننس ما سبق بيانه عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾. . من أن اليهود وصموا بالشرك بالله، لأنهم كانوا يتخذون أبحارهم أرباباً من دون الله- لا لأنهم عبدوهم- ولكن لأنهم قبلوا منهم التحليل والتحرير؛ ومنحوهم حق الحاكمية والتشريع- ابتداء من عند أنفسهم- فجعلوا بذلك مشركين.. الشرك الذى يغفر الله كل ما عداه. حتى الكبائر.. «وإن زنى وإن سرق. وإن شرب الخمر».. فرد الأمر كله إلى أفراد الله- سبحانه- بالالوهية. ومن ثم إفراده بالحاكمية. فهى أحص خصائص الألوهية. وداخل هذا النطاق يبقى المسلم مسلماً ويبقى المؤمن مؤمناً. ويطمع أن يغفر له ذنوبه ومنها كبائره.. أما خارج هذا النطاق فهو الشرك الذى لا يغفره الله أبداً.. إذ هو شرط الإيمان وحد الإسلام. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

هذا هو الموضوع الخطير الذى يتناوله هذا الدرس.

إن هذا التصوير لهذه المجموعة التى تصفها النصوص، يوحى بأن هذا كان فى أوائل العهد بالهجرة. يوم كان للنفاق صولة؛ وكان لليهود- الذين يتبادلون التعاون مع المنافقين- قوة..

وهؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله- إلى الطاغوت- قد يكونون جماعة من المنافقين- كما صرح بوصفهم فى الآية الثانية من هذه المجموعة- وقد يكونون جماعة من اليهود الذين كانوا يُدْعَوْنَ- حين تجدد لهم أقضية مع بعضهم البعض أو أهل المدينة- إلى التحاكم إلى كتاب الله فيها.. التوراة أحياناً، وإلى حكم الرسول أحياناً- كما وقع فى بعض الأقضية- فيرفضون ويتحاكمون إلى العرف الجاهلى الذى كان سائداً.. ولكننا نرجح الفرض الأول لقوله فيهم: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.. واليهود لم يكونوا يسلمون أو يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول. إنما كان المنافقون هم الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله كما هو مقتضى العقيدة الإسلامية من الإيمان بالرسول كلهم.

وهذا لم يكن يقع إلا فى السنوات الأولى للهجرة. قبل أن تخضع شوكة اليهود فى بنى قريظة وفى خيبر. وقبل أن يتضاءل شأن المنافقين بانهاء شأن اليهود فى المدينة!.. هـ.

قوله ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

الإعراب^(١) : الواو عاطفة ويريد الشيطان عطف على يريدون وأن يضلهم مصدر مؤول مفعول يريد وضلالاً مفعول مطلق وبعيداً صفة.

● التفسير بالقرآن

كما قال الله تعالى حكاية عن الشيطان: ﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْئِيَهُمْ فَلْيَتَكَنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْئِيَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾

وقال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ والآيات كثيرة فى عداوة الشيطان

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام السلف والمفسرين:

أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: إنما سُمى الشيطان؛ لأنه تشيطن^(٢). أهـ.

قال ابن جرير: يعنى أن الشيطان يريد أن يصد هؤلاء المتحاكمين إلى الطاغوت عن سبيل الحق فيضلهم ضلالاً بعيداً أهـ^(٣).

قال ابن الجوزى^(٤): ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ الطويل أهـ.

- وقال القرطبي^(٥): ﴿ضَلَالًا﴾ على المعنى، أى فيضلون ضلالاً، ومثله قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَنْتَبَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾.

وقال الشوكانى^(٦): ﴿ضَلَالًا﴾ مصدر الفعل، أو مصدر لفعل محذوف دل عليه الفعل المذكور، والتقدير: ويريد الشيطان أن يضلهم فيضلون ضلالاً. أهـ.

قال ناصر السعدى^(٧) ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً عن الحق.

قال صاحب الظلال^(٨): فهذه هى العلة الكامنة وراء إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت. وهذا هو الدافع الذى يدفعهم إلى الخروج من حد الإيمان وشرطه بإرادتهم

(١) إعراب القرآن ٢/ ٢٤٥.

(٢) تفسير ابن أبى حاتم (٢/ ٩٩٢).

(٣) تفسير الطبرى (٥/ ٩٨/ ١٠).

(٤) زاد المسير/ ٧٢.

(٥) تفسير القرطبي (٣/ ١٨٣٤). (٦) فتح القدير (١/ ٥٧٣).

(٧) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٣٤٨. (٨) ٩٦٤/ ٢.

التحاكم إلى الطاغوت! هذا هو الدافع يكشفه لهم. لعلهم يتنبهون فيرجعوا. ويكشفه للجماعة المسلمة، لتعرف من يحرك هؤلاء ويقف وراءهم كذلك أ. هـ.

● ما جاء في الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): وقوله: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

أى: لأن إرادة التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من طاعة الشيطان، وهو إنما يدعو أحزابه ليكونوا من أصحاب السعير. وفي الآية دليل على أن ترك التحاكم إلى الطاغوت، الذى هو ما سوى الكتاب والسنة، من الفرائض وأن التحاكم (*) إليه غير مؤمن بل ولا مسلم أ. هـ.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾

جنس يشمل شياطين الإنس والجن.

قوله: ﴿أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

أى: يوقعهم فى الضلال البعيد عن الحق، ولكن لا يلزم من ذلك أن يتقلهم إلى الباطل مرة واحدة، ولكن بالتدرج.

فقوله: ﴿بَعِيدًا﴾.

أى: ليس قريباً، لكن بالتدرج شيئاً فشيئاً حتى يوقعهم فى الضلال البعيد.

قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.

الإعراب^(٣) - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾

كلام مستأنف مسوق لتكملة مادة التعجب من حالهم. والواو استئنافية و(إذا) ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب وهو رأيت وجملة (قيل) فى محل جر بالإضافة و(لهم) متعلقان بقيل وجملة (تعالوا) مقول القول و(إلى ما أنزل الله) متعلقان بتعالوا وجملة (أنزل الله) صلة الموصول و(إلى الرسول) عطف على قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

(١) تيسير العزيز الحميد ٤١٩.

(*) لعل الأصح «التحاكم» والله أعلم.

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٣٥، ٣٣٦.

(٣) إعراب القرآن ٢/ ٢٤٦.

تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴿﴾ (رأيت) فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم و(المنافقين) مفعول به وجملة يصدون حالية إن كانت الرؤية بصرية أو مفعول به تارة إن كانت الرؤية قلبية و(عنك) متعلقان بيصدون و(صدوداً) مفعول مطلق.

علاقة هذه الآية بما قبلها:

قال الرازي^(١): اعلم أن في اتصال هذه الآية بما قبلها وجهين.

الأول: أن قوله ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ كلام وقع في البين، وما قبل هذه الآية متصل بما بعدها هكذا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ يعنى أنهم فى أول الأمر يصدون عنك أشد الصدود، ثم بعد ذلك يجيئونك ويحلفون بالله كذباً على أنهم ما أرادوا بذلك الصد إلا الإحسان والتوفيق، وعلى هذا التقدير يكون النظم متصلاً، وتلك الآية وقعت فى البين كالكلام الأجنبى، وهذا يسمى اعتراضاً، وهو كقول الشاعر:

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

فقوله: وبلغتها، كلام أجنبى وقع فى البين، إلا أن هذا الكلام الأجنبى شرطه أن يكون له من بعض الوجوه تعلق بذلك المقصود كما فى هذا البيت، فإن قوله: بلغتها دعاء للمخاطب وتلطف فى القول معه، والآية أيضاً كذلك، لأن أول الآية وآخرها فى شرح قبائح المنافقين وفضائحهم وأنواع كيدهم ومكرهم، فإن الآية أخبرت بأنه تعالى حكى عنهم فى أول الآية أنهم يتحاكمون إلى الطاغوت مع أنهم أمروا بالكفر به، ويصدون عن الرسول مع أنهم أمروا بطاعته، فذكر بعد هذا ما يدل على شدة الأحوال عليهم بسبب هذه الأعمال السيئة فى الدنيا والآخرة فقال ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أى فكيف حال تلك الشدة، وحال تلك المصيبة، فهذا تقرير هذا القول، وهو قول الحسن البصرى، واختيار الواحدى من المتأخرين.

الوجه الثانى: أنه كلام متصل بما قبله، وتقديره أنه تعالى لما حكى عنهم فى الآية المتقدمة أنهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويفرون من الرسول عليه الصلاة والسلام أشد

(١) التفسير الكبير ٥/ ١٠٠/ ١٦٣.

الفرار دل ذلك على شدة نفرتهم من الحضور عند الرسول والقرب منه، فلما ذكر ذلك قال ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعنى إذا كانت نفرتهم من الحضور عند الرسول فى أوقات السلامة هكذا، فكيف يكون حالهم فى شدة الغم والحسرة إذا أتوا بجناية خافوا بسببها منك، ثم جاؤك شاؤا أم أبوا ويحلفون بالله على سبيل الكذب : أنا ما أردنا بتلك الجناية إلا الخير والمصلحة، والغرض من هذا الكلام بيان أن ما فى قلبهم من النفرة عن الرسول لا غاية له، سواء غابوا أم حضروا ، وسواء بعدوا أم قربوا، ثم أنه تعالى أكد هذا المعنى بقوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ والمعنى أن من أراد المبالغة فى شيء قال : هذا شيء لا يعلمه إلا الله يعنى أنه لكثرت وقوته لا يقدر أحد على معرفته إلا الله تعالى، ثم لما عرف الرسول عليه الصلاة والسلام شدة بغضهم ونهاية عداوتهم ونفرتهم أعلمه أنه كيف يعاملهم فقال ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ وهذا الكلام على ما قرناه منتظم حسن الاتساق لا حاجة فيه إلى شيء من الحذف والإضمار، ومن طالع كتب التفسير علم أن المتقدمين والمتأخرين كيف اضطربوا فيه والله أعلم.

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام السلف

عن عطاء: فى قوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ قال : الصدود الإعراض (١).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن جرير (٢): يعنى بذلك جل ثناؤه ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من المنافقين وإلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما ﴿أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من أهل الكتاب يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ يعنى بذلك وإذا قيل لهم تعالوا هلموا إلى حكم الله الذى أنزله فى كتابه ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ ليحكم بيننا ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ﴾ يعنى بذلك يمتنعون من المصير إليك لتحكم بينهم ويمنعون من المصير إليك كذلك غيرهم ﴿صُدُودًا﴾ وقال ابن

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥٨٣/٢) ونسبه لابن المنذر.

(٢) تفسير الطبرى (٥/ ٩٨/ ٩٩).

جريح فى ذلك ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ ، قال: دعا المسلم المنافق إلى رسول الله ﷺ ليحكم قال ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ﴾ .

وأما على تأويل قول من جعل الداعى إلى النبى ﷺ اليهودى والمدعو إليه المنافق .

وقال البغوى^(١): يصدون عنك صدوداً: أى يعرضون عنك إعراضاً . اهـ .

وقال ابن الجوزى^(٢): قال مجاهد: هذه الآية والتي قبلها نزلت فى خصومة اليهودى والمنافق والهاء والميم فى ﴿لَهُمْ﴾ إشارة إلى الذين يزعمون ، و﴿إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أحكام القرآن ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أى: إلى حكمه اهـ .

قال الرازى^(٣): بين فى الآية الأولى رغبة المنافقين فى التحاكم إلى الطاغوت وبين بهذه الآية نفرتهم عن التحاكم إلى الرسول ﷺ . قال المفسرون: إنما صد المنافقون عن حكم الرسول عليه الصلاة والسلام لأنهم كانوا ظالمين وعلموا أنه لا يأخذ الرشا وإنه لا يحكم إلا بحكمهم ، وقيل: كان ذلك الصد لعداوتهم فى الدين .

﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ أى يعرضون عنك وذكر المصدر للتأكيد والمبالغة كأنه قيل: صدوداً أى صدوداً . هـ .

قال ابن كثير^(٤): وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ .

أى يعرضون عنك إعراضاً كالمستكبرين عن ذلك كما قال تعالى عن المشركين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ .

قال الشنقيطى^(٥): ذكر فى هذه الآية الكريمة أن المنافقين إذا دعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ﷺ يصدون عن ذلك صدوداً أى: يعرضون إعراضاً وذكر فى موضع آخر: أنهم إذا دعوا إلى الرسول ﷺ ليستغفر لهم لووا رؤوسهم وصدوا واستكبروا

(١) معالم التنزيل (٩٨/٢) .

(٢) زاد المسير (٩٢/٦١/٢) .

(٣) التفسير الكبير ٢/ ١٠٠/ ١٦١ ، ١٦٢ .

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٢ .

(٥) أضواء البيان ١/ ٢٦٢ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ .

قال صاحب الظلال^(١): ويمضى السياق فى وصف حالهم إذا ما دعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول وما أنزل من قبله . . ذلك الذى يزعمون أنهم آمنوا به: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾

يا سبحان الله ! إن النفاق يأبى إلا أن يكشف نفسه ! ويأبى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطرى . . . وإلا ما كان نفاقاً . . .

إن المقتضى الفطرى البديهى للإيمان، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به، وإلى من آمن به، فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل، وبالرسول وما أنزل إليه، ثم دعى إلى هذا الذى آمن به، ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه، كانت التلبية الكاملة هى البديهة الفطرية، فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهة الفطرية، ويكشف عن النفاق، وينبئ عن كذب الزعم الذى زعمه من الإيمان!

وإلى هذه البديهة الفطرية يحاكم الله - سبحانه - أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله، ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله، بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدوداً!

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد وغيرهم:

قال ابن تيمية^(٢): والمؤمن ببعض الرسالة دون بعض كافر أيضاً

ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يَرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٢٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ ثم قال : ذم المدعين الإيمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله كما يصيب ذلك كثير عن يدعى الإسلام ويتحلل فى تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة

(١) ٦٩٤/٢

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٣٣٩، ٣٤٠).

وغيرهم، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الإسلام من ملوك الترك وإذا قيل لهم: ﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وسنة رسوله، أعرضوا عن ذلك إعراضاً. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(١): أى إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول أعرضوا إعراضاً مستكبرين كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

قال ابن القيم: هذا دليل على أن من دعى إلى تحكيم كتاب الله والسنة فلم يقبل وأبى ذلك أنه من المنافقين ويصدون هنا لازم لا متعد هو بمعنى يعرضون لا بمعنى يمنعون غيرهم ولهذا أتى مصدره على صدود ومصدر التعدى صداً فإذا كان المعرض عن ذلك قد حكم الله سبحانه بنفاقهم فكيف بمن ازداد إلى إعراضه منع الناس من تحكيم الكتاب والسنة والتحاكم إليهما بقوله وعمله وتصانيفه، ثم يزعم مع ذلك أنه إنما أراد الإحسان والتوفيق، الإحسان فى فعله ذلك ، والتوفيق بين الطاغوت الذى حكمه وبين الكتاب والسنة وهذا حال كثير ممن يدعى العلم والإيمان فى هذه الأزمان إذا قيل لهم تعالوا نتحاكم إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيتهم يصدون وهم مستكبرون ويعتذرون أنهم لا يعرفون ذلك ولا يعقلون، بل لعنهم الله بكفرهم قليلاً ما يؤمنون أ.هـ.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أى: قال لهم الناس: أقبلوا ﴿إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ نفسه فى حياته وستة بعد وفاته، والمراد هنا الرسول ﷺ نفسه فى حياته.

قوله: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.

الرؤية هنا رؤية حال لا رؤية بصر، بدليل قوله: ﴿تَعَالَوْا﴾ فهى تدل على أنهم ليسوا حاضرين عنده.

والمعنى: كأنما تشاهدهم.

وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.

يعرضون عنك إعراضاً.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤١٩).

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٣٦، ٣٣٧.

وقوله: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾.

إظهار في موضع الإضمار لثلاث فوائد:

الأولى: أن هؤلاء الذين يزعمون الإيمان كانوا منافقين.

الثانية: أن هذا لا يصدر إلا من منافق، لأن المؤمن حقاً لا بد أن ينقاد لأمر الله ورسوله بدون صدود.

الثالثة: التنبيه لأن الكلام إذا كان على نسق واحد قد يغفل الإنسان عنه، فإذا تغير، حصل له انتباه.

وقوله: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾ جواب «إذا» وكلمة «صد» تستعمل لازمة، أى: يُوصف بها الشخص ولا يتعداه إلى غيره، ومصدرها صدود، كما فى هذه الآية، ومتعدية، أى: صد غيره، ومصدرها صد، كما فى قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. ١. هـ.

قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾^(١)

الإعراب^(٢): الفاء استئنافية و(كيف) اسم استفهام مبنى على الفتح فى محل نصب حال أى: كيف يصنعون، أو كيف تراهم؟ ويجوز أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف أى: فكيف صنعهم أو حالهم؟ و(إذا) ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب المحذوف وجملة (أصابتهم) فى محل جر بالإضافة و(مصيبة) فاعل و(بما) متعلقان بأصابتهم ويجوز فى ما أن تكون مصدرية أو موصولة وجملة قدمت أيديهم لا محل لها، وأيديهم فاعل ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (ثم جاءوك) عطف على أصابتهم ولا أرى مساعاً لصنع بعضهم فى عطفها على جملة يصدون كما يرى البيضاوى وجملة (يحلفون بالله) حالية و(إن) نافية و(أردنا) فعل وفاعل و(إلا) أداة حصر، و(إحساناً) مفعول به و(توفيقاً) عطف على إحساناً.

قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾

(١) النساء: ٦٢.

(٢) إعراب القرآن ٢/٢٤٦ و ٢٤٧.

الباء: هنا للسببية ، و﴿مَا﴾ اسم موصول، و﴿قَدَمْتُ﴾ صلته، والعائد محذوف تقديره بما قدمت أيديهم ، وفى اللغة العربية يطلق هذا التعبير باليد ويراد به نفس الفاعل، أى: بما قدموه من الأعمال السيئة.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن مجاهد: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ فى أنفسهم، وبين ذلك ما بينهما من القرآن، هذا من تقديم القرآن^(١).

عن ابن جريج فى قوله: ﴿أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ يقول: بما قدمت أيديهم فى أنفسهم، وبين ذلك ما بين ذلك ﴿وَقُلْ لَهُمْ فى أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾^(٢).

عن الحسن ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: عقوبة لهم بنفاقهم وكرهم حكم الله^(٣).

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(٤): يعنى بذلك جل ثناؤه ﴿فَكَيْفَ﴾ بهؤلاء الذين ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ وهم ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ يعنى: إذا نزلت بهم نقمة من الله ﴿بِمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعنى بذنوبهم التى سلفت منهم ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ يقول: ثم جاءوك يحلفون بالله كذبًا وزورًا ﴿إِن أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين أنهم لا يردعهم عن النفاق العبر والنقم وأنهم وإن تأتتهم عقوبة من الله على تحاكمهم إلى الطاغوت لم ينيبوا ولم يتوبوا ولكنهم يحلفون بالله كذبًا، وجراءة على الله: ما أردنا باحتكامنا إليه إلا الإحسان من بعضنا إلى بعض والصواب فيما احتكمتنا فيه إليه. اهـ.

قال البغوى^(٥): قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ هذا وعيد، أى فكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة ﴿بِمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعنى عقوبة صدودهم، وقيل: هى

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣٢١/٢) ونسبه لابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم فانظره بتخريجنا (٩٩٢/٣).

(٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير الطبرى (٩٩/٥/٤).

(٥) معالم التنزيل (٩٩/٩٨/٢).

كل مصيبة تصيب جمع المنافقين فى الدنيا والآخرة، وتم الكلام ههنا ثم عاد الكلام إلى ما سبق، يخبر عن فعلهم، فقال ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ يعنى يتحاكمون إلى الطاغوت ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ أى يجيئك يحلفون وقيل: أراد بالمصيبة قتل عمر رضى الله عنه المنافق - ثم جاءوا يطلبون دية قوله ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا﴾ ما أردنا بالعدول عنه فى المحاكمة أو بالترافع إلى عمر ﴿إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ قال الكلبي: إلا إحسانًا فى القول، وتوفيقًا صوابًا، وقال ابن كيسان: حقًا وعدلاً، نظيره: ﴿وَلْيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ وقيل: هو إحسان بعضهم إلى بعض وقيل: هو تقرب الأمر من الحق، لا القضاء على مر الحكم، والتوفيق هو موافقة الحق، وقيل: هو التآليف والجمع بين الخصمين وقريب من قول البغوى قال ابن الجوزى^(١): المراد بالمصيبة قولان:

(أحدهما): أنه تهديد ووعيد.

(والثانى): أنه قتل المنافق الذى قتله عمر.

وزاد الرازى فيه قولاً ثالثاً سيأتى إن شاء الله.

وفى الذى ﴿قَدَمْتُ أَيْدِيَهُمْ﴾ ثلاثة أقوال:

(أحدها): نفاقهم واستهزاؤهم.

(والثانى): ردهم حكم النبى ﷺ.

(والثالث): معاصيهم المتقدمة.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ بمعنى: ما أردنا.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه لما قتل عمر صاحبهم، جاؤوا يطلبون بدمه، ويحلفون ما أردنا بالمطالبة بدمه إلا إحسانًا إلينا، وما يوافق الحق فى أمرنا.

والثانى: ما أردنا بالترافع إلى عمر إلا إحسانًا وتوفيقًا.

والثالث: أنهم جاؤوا يعتذرون إلى النبى ﷺ من محاكمتهم إلى غيره، ويقولون: ما أردنا فى عدولنا عنك إلا إحسانًا بالتقريب فى الحكم، وتوفيقًا بين الخصوم دون الحمل على مَرُّ الحق. اهـ.

(١) زاد المسير (٢/ ٧٢، ٧٣).

وقال الفخر الرازى^(١) بنحو ما تقدم، وزاد: قولاً ثالثاً فى معنى المصيبة:

قال أبو على الجبائى، المراد من هذه المصيبة ما أمر الله تعالى الرسول عليه الصلاة والسلام من أنه لا يستصحبهم فى الغزوات، وأنه يخصهم بمزيد الإذلال والطرده عن حضرته، وهو قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدَوْا وَقَتِلُوا قَتِيلًا﴾^(٢) وقوله: ﴿قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾^(٣).

وبالجملة: فأمثال هذه الآيات توجب لهم الذل العظيم، فكانت معدودة فى مصائبهم، وإنما يصيبهم ذلك لأجل نفاقهم.

وعنى بقوله: ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ أى وقت المصيبة يحلفون ويعتذرون أننا ما أردنا بما كان منا من مداراة الكفار إلا الإصلاح، وكانوا فى ذلك كاذبين، لأنهم أضرموا خلاف ما أظهروه ولم يريدوا بذلك الإحسان الذى هو الإصلاح. اهـ.

وقال الفخر الرازى أيضاً: قال أبو مسلم الأصفهاني: إنه تعالى لما أخبر عن المنافقين أنهم رغبوا فى حكم الطاغوت وكرهوا حكم الرسول، بشر الرسول ﷺ أنه ستصيبهم مصائب تلجئهم إليه وإلى أن يظهروا له الإيمان به، وإلى أن يحلفوا بأن مرادهم الإحسان والتوفيق.

قال: ومن عادة العرب عند التبشير والإنذار أن يقولوا: كيف أنت إذا كان كذا وكذا، ومثاله قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾^(٤) وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(٥) ثم أمره تعالى إذا كان منهم ذلك أن يعرض عنهم ويعظمهم. اهـ.

وقال القرطبي^(٦) بنحو ما تقدم

وقال ابن كثير^(٧): ثم قال تعالى فى ذم المنافقين: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا

(١) التفسير الكبير (٥/١٠٠/١٦٣، ١٦٤).

(٢) الأحزاب (٦٠، ٦١).

(٣) التوبة (٨٣).

(٤) النساء (٤١).

(٥) آل عمران (٣٥).

(٦) تفسير القرطبي (٣/١٨٣٥).

(٧) تفسير ابن كثير (٢/٣٠٥ - دار الشعب).

قَدَمْتُ أَيْدِيَهُمْ ﴿١﴾ أى: فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك فى مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك فى ذلك.

ثم قال: والتوفيق: أى المداراة والمصانعة، لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة، كما أخبرنا تعالى عنهم فى قوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ اهـ.

وقال الشوكانى (٢) بنحو ما تقدم وقال: المراد ﴿بِمَا قَدَمْتُ أَيْدِيَهُمْ﴾ ما فعلوه من المعاصى التى من جملتها التحاكم إلى الطاغوت . اهـ.

قال السعدى (٣): ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ وهم كَذَبَةٌ فى ذلك فإن الإحسان تحكيم الله ورسوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ اهـ.

وقال فى الظلال (٤):

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَمْتُ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ وهذه المصيبة قد تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم فى وسط الجماعة المسلمة - يومذاك - حيث يصبحون معرضين للنبد والمقاطعة ، والازدراء فى الوسط المسلم، فما يطبق المجتمع المسلم أن يرى من بينه ناساً يزعمون أنهم آمنوا بالله وما أنزل، وبالرسول وما أنزل إليه، ثم يميلون إلى التحاكم لغير شريعة الله، أو يصدون حين يدعون إلى التحاكم إليها . . . إنما يقبل مثل هذا فى مجتمع لا إسلام له ولا إيمان، وكل ما له من إيمان زعم كزعم هؤلاء وكل ما له من الإسلام دعوى واسماء!

أو قد تصيبهم المصيبة من ظلم يقع بهم، نتيجة التحاكم إلى غير نظام الله العادل، ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت فى قضية من قضاياهم.

أو قد تصيبهم المصيبة ابتلاء من الله لهم، لعلهم يتفكرون ويهتدون.

وأيّاً ما كان سبب المصيبة، فالنص القرآنى، يسأل مستنكراً: فكيف يكون الحال حينئذ، كيف يعودون إلى الرسول ﷺ.

(١) المائدة (٥٢).

(٢) فتح القدير (١/٥٧٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/٣٤٨).

(٤) الظلال (٢/٦٩٤، ٦٩٥).

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ ..

إنها حال مخزية .. حين يعودون شاعرين بما فعلوا .. غير قادرين على مواجهة الرسول ﷺ بحقيقة دوافعهم وفي الوقت ذاته يحلفون كاذبين: أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى الطاغوت - وقد يكون هنا هو عرف الجاهلية - إلا رغبة في الإحسان والتوفيق! وهي دائماً دعوى كل من يحدون عن الاحتكام إلى شريعة الله! ويريدون التوفيق بين العناصر المختلفة والاتجاهات المختلفة والعقائد المختلفة ... إنها حجة الذين يزعمون الإيمان - وهم غير مؤمنين - ، وحجة المنافقين المتلويين .. هي هي دائماً فى كل حين! ا.هـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال أهل العلم وسراح كتاب التوحيد:

قال ابن تيمية^(١): وإذا أصابتهم مصيبة فى عقولهم ودينهم وديناهم بالشبهات والشهوات، أو فى أنفسهم وأموالهم عقوبة على نفاقهم قالوا: إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق، ونوفق بين الدلائل الشرعية والقواطع العقلية، التى هى فى الحقيقة ظنون وشبهات، أو «الذوقية» التى هى فى الحقيقة أوهام وخيالات. ا.هـ.

وقال ابن القيم^(٢): المصيبة فضيحتهم إذا أنزل القرآن بحالهم، ولا ريب أن هذا أعظم المصيبة والإضرار فالمصائب التى تصيبهم بما قدمت أيديهم فى أبدانهم وقلوبهم وأديانهم بسبب مخالفة الرسول عليه الصلاة والسلام، أعظمها مصائب القلب والدين، فىرى المعروف منكراً، والهدى ضلالاً، والرشاد غيياً، والحق باطلاً، والصالح فساداً، وهذا من المصيبة التى أصيب بها فى قلبه، وهو الطبع الذى أوجبه مخالفة الرسول ﷺ وتحكيم غيره قال سفيان الثورى فى قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ قال: هى أن تطيع على قلوبهم ا.هـ.

قال ابن عثيمين^(٣): وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُمْ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ الاستفهام هنا يراد به التعجب، أى: كيف حالهم إذا أصابتهم مصيبة، والمصيبة هنا تشمل المصيبة الشرعية والدنيوية لعدم تضاد المعنيين.

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٤٠)

(٢) نقلاً عن تيسير العزيز الحميد (٤٢٠).

(٣) القول المفيد ٢/ ٣٣٧، ٣٣٨

فالدنيوية مثل: الفقر، والجذب، وما أشبه ذلك، فيأتون يشكون إلى النبي ﷺ، فيقولون: أصابتنا هذه المصائب ونحن ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

والشرعية: إذا أظهر الله رسوله على أمرهم، خافوا وقالوا: يا رسول الله! ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾

﴿إِنْ﴾ بمعنى: «ما» أى: ما أردنا إلا إحسانًا بكوننا نسلم من الفضيحة والعار، وتوفيقًا بين المؤمنين والكافرين أو بين طريق الكفر وطريق الإيمان، أى: نمشى معكم ونمشى مع الكفار، وهذه حال المنافقين، فهم قالوا: أردنا أن نحسن المنهج والمسلك مع هؤلاء وهؤلاء ونوفق بين الطرفين.

قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (١)

الإعراب (٢): ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الجملة مستأنفة مسوقة لزيادة التنبيه على نفاقهم، و﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ و﴿الَّذِينَ﴾ خبر اسم الإشارة وجملة ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ صلة الموصول و﴿مَا﴾ إسم موصول مفعول به، و﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ متعلقان بمحذوف صلة الموصول ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ الفاء الفصيحة وهى التى أفصحت عن شرط مقدر أى: إذا كانت حالهم كذلك فأعرض عنهم ولا تقبل لهم عذرًا، و﴿أَعْرِضْ﴾ فعل أمر وفاعله أنت و﴿عَنْهُمْ﴾ جار ومجرور متعلقان بأعرض والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط محذوف غير جازم و﴿عِظْهُمْ﴾ عطف على أعرض و﴿وَقُلْ لَهُمْ﴾: عطف على أعرض ولهم متعلقان بقل، و﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فى متعلق هذا الجار والمجرور ثلاثة أوجه متساوية فى الصحة والجودة:

١- أنهما متعلقان ببليغًا لأن أمره بتهديدهم بلغ صميم قلوبهم وسياق التهديد فى قوله: ﴿كَفَيْكَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ يشهد له.

٢- أنهما متعلقان بقل، ومعناه: قل لهم فى معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المنطوية

(١) النساء : ٦٣ .

(٢) إعراب القرآن ٢/ ٢٤٧، ٢٤٨

على الشر «قولا» بليغاً، ويلانمه من السياق قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ» من دواخل الغي ونوازع الضلال.

٣- إنهما متعلقان بمحذوف حال أى حالة كون المقول سرّاً لا يتجاوز نفوسهم ولا يتعداها ، وتشهد له سيرة النبي ﷺ وتلائم مع حرص النبي على الستر والملاينة، رجاء أن يثوبوا إلى الرشد ويخلدوا إلى الصواب، و«قولا» مفعول مطلق «بليغاً» صفة أو حال كوناً خالياً بهم، والنصيحة في السر أنفع منها في العلانية . اهـ.

● ما جاء في الآية من الآثار:

عن مجاهد قال: تنازع رجل من المنافقين ورجل من اليهود فقال المنافق: اذهب بنا إلى كعب بن الأشرف، وقال اليهودى: اذهب بنا إلى النبي ﷺ فقال الله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا» (١).

عن ابن جريج «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» وذلك لقوله «وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا» (٢).

● ما جاء في الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن جرير (٣): أخبر جل ثناؤه بقوله أولئك هؤلاء المنافقون الذين وصفت لك يا محمد صفتهم يعلم الله ما في قلوبهم في احتكامهم إلى الطاغوت وتركهم الاحتكام إليك وصدودهم عنك من النفاق والزيغ وإن حلفوا بالله ما أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ» يقول فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم ولكن عظمم بتخويفك إياهم بأس الله أن يحل بهم، وعقوبته أن تنزل بدارهم، وحذرهم من مكروه ما هم عليه من الشك في أمر الله وأمر رسوله «وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا» يقول: مروهم باتقاء الله، والتصديق به، وبرسوله ووعدته ووعدته . اهـ.

وقال البغوي (٤): قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ» من النفاق، أى علم أن ما في قلوبهم خلاف ما فى ألسنتهم.

«فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» أى عن عقوبتهم.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم فى «تفسيره» (٩٩٣/٣) وذكره السيوطى فى «الدر» (٣٢٠/٢) وزاد نسبه لعبد

بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥٨٣/٢) ونسبه لابن المنذر.

(٣) تفسير الطبرى (٩٩/٥). (٤) معالم التنزيل (٩٩/٥). (١٠٠).

وقيل: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ عن قبول عذرهم.

﴿وَعِظْهُمْ﴾ باللسان.

﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ قيل: هو التخويف بالله.

وقيل: أن يوعدهم بالقتل إن لم يتوبوا.

قال الحسن: القول البليغ أن يقول لهم: إن أظهرتم ما في قلوبكم من النفاق قتلتم؛ لأنه يبلغ من نفوسكم كل مبلغ.

وقال الضحاك: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ في الملاء ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ في السر والخلاء وقيل: هو منسوخ بآية القتال. اهـ.

وقال ابن الجوزي^(١): قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من النفاق والزيف.

وقال ابن عباس: إضمارهم خلاف ما يقولون ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تعاقبهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ بلسانك ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: تقدم إليهم: إن فعلتم الثانية عاقبتكم.

وقال الزجاج: يقال: بلغ الرجل يبلغُ بلاغة فهو بليغ: إذا كان يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه. اهـ.

فائدة: وقد تكلم العلماء في حدّ «البلاغة» فقال بعضهم: «البلاغة»: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.

وقيل: «البلاغة»: حسن العبارة مع صحة المعنى.

وقيل: البلاغة: الإيجاز مع الإفهام، والتصرف من غير إضجار.

قال خالد بن صفوان: أحسن الكلام ما قلّت ألفاظه، وكثُرَت معانيه، وخير الكلام ما شوق أوله إلى سماع آخره.

وقال غيره: إنما يستحق الكلام اسم البلاغة إذا سبق لفظه معناه، ومعناه لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك. اهـ.

(١) زاد المسير (٢/٧٣، ٧٤).

وقال الفخر الرازي^(١): قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾

والمعنى أنه لا يعلم ما في قلوبهم من النفاق والغيب والعداوة إلا الله.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ واعلم أنه تعالى أمر رسوله ﷺ أن يعاملهم بثلاثة أشياء:

الأول: قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وهذا يفيد أمرين.

أحدهما: أن لا يقبل منهم ذلك العذر ولا يغتر به، فإن من لا يقبل عذر غيره ويستمر على سخطه قد يوصف بأنه معرض عنه غير ملتفت إليه.

والثاني: أن هذا يجري مجرى أن يقول له: اكتف بالإعراض عنهم ولا تهتك سترهم، ولا تظهر لهم أنك عالم بكنه ما في بواطنهم، فإن من هتك ستر عدوه وأظهر له كونه عالماً بما في قلبه فربما يجرئه ذلك على أن لا يبالي بإظهار العداوة فيزداد الشر، ولكن إذا تركه على حاله بقي في خوف ووجل فيقل الشر.

النوع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ والمراد أن يزجرهم عن النفاق والمكر والكيد والحسد والكذب ويخوفهم بعقاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾.

النوع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في قوله ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وجوه:

الأول: أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا والتقدير: وقل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم يغتمون به اعتماداً ويستشعرون منه الخوف استشعاراً.

الثاني: أن يكون التقدير: وقل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولاً بليغاً، وإن الله يعلم ما في قلوبكم فلا يغنى عنكم إخفاؤه، فطهروا قلوبكم من النفاق وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك أو شراً من ذلك وأغلظ.

الثالث: قل لهم في أنفسهم خالياً بهم ليس غيرهم على سبيل السر، لأن النصيحة على الملاءمة تقرع وفي السر محض المنفعة.

(١) التفسير الكبير (٥/ ١٠/ ١٦٤، ١٦٥).

المسألة الثانية: فى الآية قولان:

أحدهما: أن المراد بالوعظ التخويف بعقاب الآخرة، والمراد بالقول البليغ التخويف بعقاب الدنيا، وهو أن يقول لهم: إن ما فى قلوبكم من النفاق والكيد معلوم عند الله، ولا فرق بينكم وبين سائر الكفار، وإنما رفع الله السيف عنكم لأنكم أظهرتم الإيمان، فإن واطبتم على هذه الأفعال القبيحة ظهر للكل بقاؤكم على الكفر، وحينئذ يلزمكم السيف.

الثانى: أن القول البليغ صفة للوعظ، فأمر تعالى بالوعظ، ثم أمر أن يكون ذلك الوعظ بالقول البليغ، وهو أن يكون كلاماً بليغاً طويلاً حسن الألفاظ حسن المعانى مشتملاً على الترغيب والترهيب والإحذار، والإنذار والثواب والعقاب، فإن الكلام إذا كان هكذا عظم وقعه فى القلب، وإذا كان مختصراً ركيك اللفظ قليل المعنى لم يؤثر البتة فى القلب. اهـ.

قال القرطبى^(١): ابتدأ يُخبر عن فعلهم، وذلك أن عمر لما قَتَلَ صاحبهم جاء قومُه يطلبون ديتَه ويحلفون ما نريد بطلب ديتِه إلا الإحسان وموافقة الحق.

وقيل: المعنى ما أردنا بالعدول عنك فى المحاكمة إلا التوفيق بين الخصوم، والإحسان بالتقريب فى الحكم.

وعن ابن كيسان: عدلاً وحقاً، نظيرها «وَلْيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى» فقال الله تعالى مكذباً لهم: «أَوَلَيْكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ» قال الزجاج: معناه قد علم الله أنهم منافقون. والفائدة لنا: اعلّموا أنهم منافقون. «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» قيل: عن عقابهم، وقيل: عن قبول اعتذارهم «وَعِظْهُمْ» أى خوفهم، قيل: فى الملاء. «وَقُلْ لَهُمْ فِى أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا» أى ازجرهم بأبلغ الزجر فى السرّ والخلاء وعن الحسن: قل لهم إن أظهرتم ما فى قلوبكم قتلتكم، وقد بَلَغَ القول بلاغة، ورجل بليغٌ يبلِغُ بلسانه كُنْهَ ما فى قلبه. والعرب تقول: أحْمَقُ بَلْغٌ وبلِغٌ، أى نهاية فى الحماقة، وقيل: معناه يبلغ ما يريد وإن كان أحْمَقَ، ويقال: إن قوله تعالى: «فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» نزل فى شأن الذين بنّوا مسجد الضُّرَّار، فلما أظهر الله نفاقهم، وأمرهم بهدم

(١) تفسير القرطبى ٣/ ١٨٣٤، ١٨٣٥.

المسجد حلفوا لرسول الله ﷺ دفاعاً عن أنفسهم، «ما أردنا ببناء المسجد إلا طاعة الله وموافقة الكتاب». اهـ.

قال ابن كثير^(١): قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ هذا الضرب من الناس هم المنافقون والله يعلم ما فى قلوبهم وسيجزئهم على ذلك فإنه لا تخفى عليه خافية فاكثف به يا محمد فيهم فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم، ولهذا قال له ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أى لا تعنفهم على ما فى قلوبهم.

﴿وَعِظْهُمْ﴾ أى وانهم عما فى قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أى وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم.

● ما جاء فى الآية من كلام أهل العلم وشرح كتاب التوحيد:

قال ابن القيم^(٢): أمر الله رسوله ﷺ فيهم بثلاثة أشياء: أحدها: الإعراض عنهم إهانة لهم، وتحقيراً لشأنهم وتصغيراً لأمرهم، لا إعراض متاركة وإهمال، وبهذا يعلم أنها غير منسوخة.

الثانى: قوله ﴿وَعِظْهُمْ﴾ وهو تخويفهم، عقوبة الله وبأسه ونقمته إن أصروا على التحاكم إلى غير الله ورسوله ﷺ وما أنزل عليه.

الثالث: قوله ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أى يبلغ تأثيره إلى قلوبهم، ليس قولاً ليناً لا يتأثر به المقول له، وهذه المادة تدل على بلوغ المراد بالقول فهو قول يبلغ به مراد قائله من الزجر والتخويف ويبلغ تأثيره إلى نفس المقول له، ليس هو كالقول الذى يمر على الأذن صفحاً.

وهذا القول البليغ يتضمن ثلاثة أمور:

أحدها: عظم معناه، وتأثير النفوس به.

الثانى: فخامة ألفاظه وجزالتها.

الثالث: كيفية القائل فى إلقائه إلى المخاطب فإن القول كالسهم والقلب كالقوس الذى يدفعه، وكأنسيف، والقلب كالساعد الذى يضرب به.

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٩٢، ٤٩٣) (٢) تيسير العزيز الحميد (٤٢٠، ٤٢١) نقله عن ابن القيم.

وفى متعلق قوله: ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ قولان: أحدهما بقوله: ﴿بَلِيغًا﴾ أى: قولاً بليغاً فى أنفسهم، وهذا حسن من جهة المعنى، ضعيف من جهة الإعراب، لأن صفة الموصوف لا تعمل فيما قبلها .

والقول الثانى: أنه متعلق بقل وفى المعنى على هذا قولان:

أحدهما قل لهم فى أنفسهم خالياً بهم ليس معهم غيرهم بل مسراً لهم النصيحة .
والثانى: أن معناه قل لهم فى معنى أنفسهم كما يقال: قل لفلان فى كيت وكيت، أى: فى ذلك المعنى. اهـ.

قلت: يعنى سليمان وهذا القول أحسن. اهـ.

وقال ابن عثيمين^(١): قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾

توعدهم الله بأنه يعلم ما فى قلوبهم من النفاق والمكر والخداع، فالله علام الغيوب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾، بل الله أعلم منك بما فىك، قال تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ وهذا من أعظم ما يكون من العلم والخبرة أن الله يحول بين المرء وقلبه، ولهذا قيل لأعرابى: «بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم، وصرف الهمم» .

فالإنسان يعزم على الشيء ثم لا يدرى إلا وعزمته منتقضة بدون سبب ظاهر.
قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ .

وهذا من أبلغ ما يكون من الإهانة والاحتقار.
قوله: ﴿وَعَظُّهُمْ﴾ .

أى: ذكّرهم وخوّفهم، لكن لا تجعلهم أكبر همك، فلا تخافهم، وقم بما يجب عليك من الموعظة لتقوم عليهم الحجة .

قوله: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾
اختلف المفسرون فيها على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الجار والمجرور فى أنفسهم متعلق ببلغ، أى: قل لهم قولاً بليغاً فى أنفسهم، أى: يبلغ فى أنفسهم مبلغاً مؤثراً

الثانى: أن المعنى: انصحهم مسراً فى أنفسهم .

الثالث: أن المعنى: قل لهم فى أنفسهم (أى: فى شأنهم وحالهم) قولاً بليغاً فى

(١) القول المفيد (٢/ ٣٣٨، ٣٤٠).

قلوبهم يؤثر عليها، والصحيح أن الآية تشمل المعاني الثلاثة، لأن اللفظ صالح لها جميعاً، ولا منافاة بينها، وهذه قاعدة في التفسير ينبغي التنبيه لها، وهي أن المعاني المحتملة للآية والتي قال بها أهل العلم، إذا كانت الآية تحتملها وليس بينها تعارض: فإنه يؤخذ بجميع المعاني.

وبلاغة القول تكون في أمور:

الأول: هيئة التكلم بأن يكون إلقاؤه على وجه مؤثر.

وكان النبي ﷺ إذا خطب، احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيشاً، يقول: «صَبِّحْكُمْ وَمَسَاءَكُمْ»^(١).

الثاني: أن تكون ألفاظه جَزَلَةً مترابطة محددة الموضوع.

الثالث: أن يبلغ من الفصاحة غايتها بحسب الإمكان، بأن يكون كلامه: سليم التركيب، موافقاً للغة العربية، مطابقاً لمقتضى الحال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن هذه الآيات تنطبق تماماً على أهل التحريف والتأويل في صفات الله، لأن هؤلاء يقولون: إنهم يؤمنون بالله ورسوله، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، يعرضون، ويصدون، ويقولون: نذهب إلى فلان وفلان، وإذا اعترض عليهم، قالوا: نريد الإحسان والتوفيق، وأن نجتمع بين دلالة العقل ودلالة السمع» ذكره رحمه الله في «الفتوى الحموية». اهـ.

قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾. كذا قال ابن كثير.

● ماجاء في تفسيرها بالمأثور

عن مجاهد، في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال: واجب لهم أن يطيعهم من شاء الله لا يطيعهم أحد إلا بإذن الله^(٢). اهـ.

● ما جاء في الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن جرير^(٣) بعد قول مجاهد: وإنما هذا تعريض من الله تعالى ذكره لهؤلاء

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الجمعة (١٥٣/٦ - النووي) عن جابر بن سمرة به.

وانظر «منار السبيل» (٦٦٥) - بتخريجنا).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٩٩/٥) وذكره السيوطي في «الدر» (٣٢١/٢) وزاد نسبته لابن

المنذر.

(٣) ابن جرير في الموضع السابق.

.....
المنافقين بأن تركهم طاعة الله وطاعة رسوله ، والرضا بحكمه إنما هو للسابق لهم من خذلانه وغلبة الشقاوة عليهم ولولا ذلك لكانوا ممن أذن له فى الرضا بحكمه والمساواة إلى طاعته اهـ.

وقال أيضاً قبل هذا: إنما هذا من الله توبيخ للمحتكمين من المنافقين الذين كانوا يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إلى النبي ﷺ فيما اختصموا فيه إلى الطاغوت صدوداً عن رسول الله ﷺ يقول لهم تعالى ذكره ما أرسلت رسولاً إلا فرضت طاعته على من أرسلته إليه، فمحمد ﷺ من أولئك الرسل، فمن ترك طاعته والرضا بحكمه، واحتكم إلى الطاغوت فقد خالف أمرى، وضع فرضى، ثم أخبر جل ثناؤه أن من أطاع رسله فإنما يطيعهم بإذنه، يعنى بتقديره ذلك وقضائه السابق فى علمه ومشيتته اهـ.

وقال البغوى: (١) قال الزجاج: ليطاع بإذن الله، لأن الله قد أذن فيه، وأمر به، وقيل: (إلا ليطاع) كلام تام كاف، (بإذن الله) أى بعلم الله وقضائه، أى وقوع طاعته يكون بإذن الله.

وقال ابن الجوزى: (٢) قال الزجاج: (من) دخلت للتوكيد، ثم قال: وفى قوله ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قولان:

أحدهما: أنه بمعنى الأمر، قاله ابن عباس.

الثانى: إنه الإذن لنفسه، قاله مجاهد اهـ.

وقال الفخر الرازى (٣) بنحو ما سبق، وزاد: قال أصحابنا: الآية دالة على أنه لا يوجد شيء من الخير والشر والكفر والإيمان والطاعة والعصيان إلا بإرادة الله تعالى.

ثم قال: الآية دالة على أن الأنبياء عليهم السلام معصومون عن المعاصى والذنوب لأنها دلت على وجوب طاعتهم مطلقاً، فلو أتوا بمعصية لوجب علينا الاقتداء بهم فى تلك المعصية... وإنه لمحال.

والآية دالة أنه لا رسول إلا ومعه شريعة ليكون مطاعاً فى تلك الشريعة ومتبوعاً فيها اهـ.

وقال صاحب «عصمة الأنبياء» (٤):

والذى ترجع عندى فى هذه المسألة بعد مراجعة كلام العلماء وأدلتهم النقلية والعقلية

(١) معالم التنزيل (٢/ ١٠٠). (٢) زاد المسير (٢/ ٧٤).

(٣) التفسير الكبير (٥/ ١٦٧).

(٤) «عصمة الأنبياء» لمحمد الخضر بن الناجي (٢٩٣ - ٢٩٤ - ٢٩٥).

هو أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون قطعاً بعد النبوة من التحريف فيما طريقه التبليغ ومن الكبار، ومن صفات الخسة، وأنهم يصدر منهم بعض مادون هذا كله، وأنهم معصومون من الأقرار على ذلك والدليل على هذا إستقراء القرآن الكريم أى الآيات التى مر ذكرها من سورة البقرة إلى سورة «الم نشرح» وأدلهم فى ذلك أبونا آدم عليه السلام لما ذكر الله جل وعلا ما صدر منه ذكر أنه نبهه، وأنه تاب وأناب وغفر له، قال: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.

وقال فى نوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ إلى قوله: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ الآية، وبعده إبراهيم عليه السلام، ولم يذكر عنه أنه صدر منه ذنب ولا عصيان. هذا فى القرآن، وأما السنة فقد ذكرت أنه لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات كلها فى الله، وأما يوسف عليه السلام، فليس هناك ذنب وإنما أوردت حوله بعض الشبه وقد أجيب عنها بما يكفى للمنصف رائد الحق.

وأما موسى عليه السلام فقد ذكر فى القرآن الكريم أنه قتل ذلك القبطى الكافر بدون وحى من ربه ولكنه تنبه لذلك، واستغفر ربه، وقد غفره الله جل وعلا له.

قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وكذلك الأمر داود عليه السلام قال تعالى: ﴿وَهَذَا دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ الآية.

وكذلك الحال فى سليمان عليه السلام قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾.

وكذلك محمد ﷺ لما أخذ الفداء من أسرى بدر، نبهه الله جلا وعلا على ما هو الأولى والأفضل، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآيات، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ وكتوبه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ الآيات.

وبهذا يرد على القائلين بأنه لو جاز صدور شيء منهم كلنا مأمورين باتباعهم فيه لأنه

لو قدر جواز ذلك منهم لزم ألا يقرأوا عليه، وإذا لم يقرأوا عليه، وثبت توبتهم منه وغفرانه لهم بطل اتباعهم به قطعاً، والعلم عند الله تعالى. اهـ.

وقال القرطبي^(١): (من) زائدة للتوكيد. (إلا ليطاع) فيما أمر به، ونهى عنه. اهـ.

وقال ابن كثير^(٢): نحو ما سبق.

وقال صاحب «الظلال»^(٣): إن الناس لا يؤمنون ابتداءً إلا أن يتحاكموا إلى منهج الله، ممثلاً في حياة الرسول ﷺ في أحكام الرسول، وبقايا بعده في مصدرية الكتاب والسنة بالبداهة، ولا يكفي أن يتحاكموا إليه ليحسبوا مؤمنين، بل لابد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين اهـ.

● ماجاء في الآية من أقوال شراح التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

قال ابن كثير: أى إنما فرضت طاعته على من أرسلته إليهم. اهـ.

وقال ابن القيم: هذا تنبيه على جلالة منصب الرسالة، وعظم شأنها، وأنه سبحانه لم يرسل رسلاً عليهم الصلاة والسلام إلا ليطاعوا بإذنه، فتكون الطاعة لهم لا لغيرهم، لأن طاعتهم طاعة مرسلهم، وفي ضمنه أن من كذب رسوله محمداً ﷺ، فقد كذب الرسل، والمعنى أنك واحد منهم تجب طاعتك، وتتعين عليهم، كما وجبت طاعة من قبلك من المرسلين، فإن كانوا قد أطاعوهم كما زعموا وآمنوا بهم فما لهم لا يطيعونك، ويؤمنون بك؟ والإذن ههنا هو الإذن الأمري لا الكونى، إذ لو كان إذناً كونياً قدرياً لما تخلفت طاعتهم، وفي ذكره نكتة، وهى أنه بنفس إرساله تتعين طاعته، وإرساله نفسه إذن فى طاعته، فلا تتوقف على نص آخر سوى الإرسال بأمر فيه بالطاعة، بل متى تحققت رسالته، وجبت طاعته، فرسالته نفسها متضمنة الآن فى الطاعة، ويصح أن يكون الإذن ههنا إذناً كونياً قدرياً، ويكون المعنى ليطاع بتوفيق الله وهدايته، فتضمن الآية الأمرين الشرع والقدر، ويكون فيها دليل على أن أحداً لا يطيع رسلاً إلا بتوفيقه وإرشاده وهدايته، وهذا حسن جداً، والمقصود أن الغاية من الرسل هى طاعتهم ومتابعتهم، فإذا كانت الطاعة والمتابعة لغيرهم، لم تحصل الفائدة المقصودة من إرسالهم. اهـ.

تنبيه: قلت لم يتكلم فى تفسير الآية هذه أحد من شراح كتاب التوحيد إلا سليمان آل الشيخ.

(١) تفسير القرطبي (٣/ ١٨٣٥)

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٦)

(٣) الظلال (٢/ ٦٨٧)

(٤) تيسير العزيز الحميد (٤١١).

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

● ماجاء فى تفسير الآية من آثار:

عن مجاهد فى قوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية قال: هذا فى الرجل اليهودى والرجل المسلم اللذين تحاكما إلى كعب بن الأشرف^(١).

عن سعيد بن جبیر: الاستغفار على نحوين ، أحدهما فى القول والآخر فى العمل ، فأما استغفار القول ، فإن الله يقول ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ ، وأما استغفار العمل فإن الله يقول ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فبنى بذلك أن يعملوا عمل الغفران ، ولقد علمت أن أناساً سيدخلون النار وهم يستغفرون الله بالاستتهم عن لا يدعى بالإسلام ومن سائر الملل^(٢). أهـ

● ماجاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

وقال ابن جرير^(٣) فى تفسير الآية: يعنى بذلك جل ثناؤه أن هؤلاء المنافقين الذين وصف صفتهم فى هاتين الآيتين الذين إذا دعوا إلى حكم الله وحكم رسوله صدوا صدوداً إذ ظلموا أنفسهم باكتسابهم إياها العظیم من الإثم فى احتكامهم إلى الطاغوت وصدودهم عن كتاب الله وسنة رسوله ، إذ دعوا إليها ، جاءوك يا محمد حين فعلوا ما فعلوا من مصيرهم إلى الطاغوت راضين بحكمه دون حكمك ، جاءوك تائبين منيبين ، فسألوا الله أن يصفح لهم عن عقوبة ذنبهم بتغطيته عليهم ، وسأل لهم الله رسوله ﷺ مثل ذلك وذلك هو معنى قوله: ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ وأما قوله: ﴿لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ فإنه يقول لو كانوا فعلوا ذلك فتابوا من ذنبهم ﴿لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا﴾ يقول راجعاً لهم عما يكرهون إلى ما يحبون ﴿رَحِيمًا﴾ بهم فى تركه عقوبتهم على ذنبهم الذى تابوا منه . أهـ

وقال البغوى^(٤): بنحو ذلك مختصراً.

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٠٠ / ٥) ، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٩٩٣ / ٣) عن مجاهد به . وانظر «الدر» (٣٢١ / ٢) .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٩٩٣ / ٣) وذكره السيوطى فى «الدر» (٣٢١ / ٢) وزاد نسبه لابن

المنذر .

(٤) معالم التنزيل (١٠٠ / ٢)

(٣) تفسير الطبرى (١٠٠ / ٥ / ٤) .

وقال ابن الجوزي^(١): قال ابن عباس: ظلموا أنفسهم بسخطهم قضاء رسول الله ﷺ ﴿جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من صنيعهم . اهـ .

وقال الفخر الرازي^(٢): فى سبب النزول وجهان:

(الأول): المراد من تقدم ذكره من المنافقين .

(الثانى): قال أبو بكر بن الأصم: إن قومًا من المنافقين اصطالحوا على كيد فى حق الرسول ﷺ ثم دخلوا عليه، لأجل ذلك الغرض، فأتاه جبريل عليه السلام فأخبره به، فقال ﷺ: «إن قومًا دخلوا يريدون أمرًا لا ينالونه، فليقوموا وليستغفروا الله حتى استغفر لهم، فلم يقوموا. فقال: ألا تقومون، فلم يفعلوا، فقال ﷺ: قم يا فلان، قم يا فلان، حتى عد اثنى عشر رجلاً منهم، فقاموا، وقالوا: كنا عزمنا على ما قلت، ونحن نتوب إلى الله من ظلمنا أنفسنا فاستغفر لنا فقال: الآن اخرجوا أنا كنت فى بدء الأمر أقرب إلى الاستغفار، وكان الله أقرب إلى الإجابة، اخرجوا عنى . اهـ .

فائدة أولى^(٣): لقائل أن يقول: أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه صحيح، لكانت توبتهم مقبولة، فما الفائدة فى ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم؟
الجواب: قال الرازى: الجواب عنه من وجوه:

(الأول) أن ذلك التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم الله، وكان أيضاً إساءة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وإدخال للغم فى قلبه، ومن كان كذلك وجب عليه عليه الاعتذار عن ذلك الذنب لغيره، فلهذا المعنى وجب عليهم أن يطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم .

(الثانى) أن القوم لما لم يرضوا بحكم الرسول ظهر منهم ذلك التمرد، فإذا تابوا وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك التمرد، وما ذاك إلا بأن يذهبوا إلى الرسول ﷺ ويطلبوا منه الاستغفار .

(الثالث): لعلهم إذا تابوا بالتوبة أتوا بها على وجه الخلل، فإذا انضم إليها استغفار الرسول، صارت مستحقة للقبول . والله أعلم .

فائدة ثانية^(٤): إنما قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ ولم يقل: (واستغفرت لهم) إجلالاً للرسول ﷺ .

(٢) التفسير الكبير (٥/ ١٠٠ / ١٦٨)

(١) زاد المسير (٢/ ٧٤)

(٣-٤) التفسير الكبير (٥/ ١٠٠ / ١٦٨) .

.....
[قلت] لاسيما في هذا الموضع الذي تنكروا فيه للرسالة والرسول ﷺ حتى تحاكموا إلى غيره.

فائدة ثالثة^(١): الآية دالة على الجزم بأن الله تعالى يقبل توبة التائب، لأنه تعالى لما ذكر عنهم الاستغفار قال بعده ﴿لَوْ جَدُّوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ وهذا الجواب إنما ينطلق عن ذلك الكلام، إذا كان المراد من قوله ﴿تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ هو أن يقبل توبتهم ويرحم تضرعهم ولا يرد استغفارهم اهـ.

وقال القرطبي^(٢): روى أبو صالح عن علي قال: قدم علينا أعرابيا بعد ما دفنا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر رسول الله ﷺ وحشى على رأسه من ترابه فقال: قلت يا رسول الله فسمعنا قولك، ووعيت عن الله فوعينا عنك، وكان فيما أنزل الله عليك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية، وقد ظلمت نفسي وجتتك تستغفر لي، فنودي من القبر أنه قد غفر لك.

ومعنى ﴿لَوْ جَدُّوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أى قابلاً لتوبتهم، وهما مفعولان لا غير. اهـ.
[قلت]: ورواية أبي صالح الكلبي هذه منكرة، وقد قال ابن كثير^(٣): وقد ذكر جماعة، منهم الشيخ أبو نصر الصباغ في كتابه «الشامل» الحكاية المشهورة عن العتبي، فذكرها. اهـ.

وقال ناصر السعدى: وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته، لأن السياق يدل على ذلك، لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا فى حياته وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك. اهـ^(٤).

[قلت]: سيأتى رد سليمان آل الشيخ على من أجاز إتيان قبر الرسول وطلب الاستغفار منه، أو الاستشفاع به.

وقال ابن كثير: يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان، أن يأتوا للرسول ﷺ فى حياته فيستغفروا الله عنده، ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا

(١) التفسير الكبير (٥/ ١٠/ ١٦٨).

(٢) تفسير القرطبي (٣/ ١٨٣٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٦ - الشعب).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٥٠).

فعلوا ذلك تاب الله عليهم ، ورحمهم وغفر لهم ، ولهذا قال : ﴿لَوْ جَدُّوا اللَّهَ تَوَابًا رَحِيمًا﴾ . اهـ .

وقال الشوكاني^(١) : قوله ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ على طريقة الالتفات ، لقصر التفتيح لشأن الرسول ﷺ .

● ماجاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد :

وقال سليمان آل الشيخ^(٢) : وقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَابًا رَحِيمًا﴾

قال ابن القيم : لما علم سبحانه أن المرسل إليهم لا بد لهم من ظلم أنفسهم ، واتباع لأهوائهم ، ارشدهم إلى ما يدفع عنهم شر ذلك الظلم وموجبه ، وهو شيان : أحدهما : منهم ، وهو استغفارهم ربهم عزَّ وجلَّ ،

والثانى من غيرهم ، وهو استغفار الرسول ﷺ لهم إذا جاءوه ، وانقادوا له ، واعترفوا بظلمهم ، فمتى فعلوا ذلك وجدوا الله تواباً رحيماً يتوب عليهم فيمحوا أثر سيئاتهم ، وبقية شرها ، ويزيدهم مع ذلك رحمته وبره وإحسانه .

فإن قلت : فما حظ من ظلم نفسه بعد موت النبي ﷺ ، من هذه الآية ؟ وهل كلام بعض الناس فى دعوى المجيء إلى قبره ﷺ ، والاستغفار عنده ، والاستشفاع به ، والاستدلال بهذه الآية على ذلك صحيح أم لا ؟

الجواب : قيل : أما حظ من ظلم نفسه بعد موت النبي ﷺ من هذه الآية فالاستغفار ، وأن يتوب إلى الله توبة نصوحاً فى كل زمان ومكان ، ولا يشترط فى صحة التوبة المجئ إلى قبره ، والاستغفار عنده بالإجماع ، وأما المجئ إلى قبره ، والاستغفار عنده ، والاستشفاع به ﷺ والاستدلال بالآية على ذلك ، فهو استدلال على ما لا تدل الآية عليه بوجه من وجوه الدلالات ، لأنه ليس فى الآية إلا المجئ إليه ﷺ لا المجئ إلى قبره ، واستغفاره لهم ، لاستشفاعهم به بعد موته ، فعلم أن ذلك باطل ، يوضح ذلك أن الصحابة الذين هم أعلم الناس بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، ما فهموا هذا من الآية ، فعلم أن ذلك بدعة ، وأكثر ما استدل به من أجاز ذلك رواية العتيبي عن أعرابي مجهول على أن التصة لا نعلم لها إسناداً ، ومثل هذا لو كان حديثاً أو أثرًا عن

(١) فتح القدير (١/ ٥٧٣)

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٢٢)

صحابي لم يجز الاحتجاج به، ولم يلزمنا حكمه، لعدم صحته، فكيف يجوز الاحتجاج في هذا بقصة لا تصح عن بدوى لا يعرف اهـ.

وتقدم قول ناصر السعدي: أن هذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته، لأن السياق يدل على ذلك، لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك اهـ.

قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

سبب نزول الآية: عن الزهري. أن عروة بن الزبير حدث عن الزبير بن العوام: أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ في شراح من الحرة كانا يسقيان به كلاهما النخل. فقال الأنصارى: سرح الماء يمر. فأبى عليه، فقال رسول الله ﷺ: «اسق يا زبير ثم أرسل إلى جارك». فغضب الأنصارى وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمك؟! فتلّون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر» ثم أرسل الماء إلى جارك واسترعى رسول الله ﷺ للزبير حقه، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه السعة له وللأنصارى، فلما أحفظ رسول الله ﷺ الأنصارى استرعى للزبير حقه في صريح الحكم، فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾ (١) الآية.

عن أم سلمة قالت «خاصم الزبير رجلاً إلى رسول الله ﷺ، ففضى للزبير، فقال الرجل: إنما قضى له لأنه ابن عمته؛ فأنزل الله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ الآية (٢).

عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

قال: «أنزلت في الزبير بن العوام وحاطب بن أبى بلتعة اختصما في ماء، ففضى النبي ﷺ أن يسقى الأعلى ثم الأسفل» (٣).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٣٥٩)، ومسلم في الفضائل (٨/١١٨/١٢٩) عن عبدالله بن الزبير

به.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٢) أخرجه الطبرانى في «الكبير» (٢٣/٢٩٤/٦٥٢) عن أم سلمة به. وذكره السيوطى في «الدر» (٣٢٢/)

(٢) وزاد نسبه للحميدى في «مسنده»، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطى في الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم.

عن عكرمة فى قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾ قال: نزلت فى اليهود^(١).

عن مجاهد فى قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ...﴾ الآية . قال: هذا فى الرجل اليهودى والرجل المسلم اللذين تحاكما إلى كعب بن الأشرف^(٢).

عن الشعبي ، مثله إلا أنه قال: إلى الكاهن^(٣).

وعن ابن لهيعة عن أبى الأسود قال: «اختصم رجلان إلى رسول الله ﷺ فقضى بينهما فقال الذى قضى عليه: ردنا إلى عمر بن الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، انطلقا إلى عمر»، فلما أتيا عمر قال الرجل: يا ابن الخطاب قضى لى رسول الله ﷺ على هذا، فقال: ردنا إلى عمر، فردنا إليك، فقال: أكن ذلك؟! قال: نعم ، فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما فأقضى بينكما ، فخرج إليهما مشتملاً على سيفه، فضرب الذى قال: ردنا إلى عمر فقتله، وأدبر الآخر فاراً إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قتل عمر - والله - صاحبى ولولا أنى أعجزته لقتلنى ، فقال رسول الله ﷺ: «ما كنت أظن أن يجترئ عمر على قتل مؤمنين؟!» فانزل الله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾ الآية .. فهدر دم ذلك الرجل، وبرأ عمر من قتله ، فكره الله أن يسن ذلك بعد فقال ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَشَدُّ تَنَبُّهُ﴾^(٤).

عن عتبة بن ضمرة عن أبيه «أن رجلين اختصما إلى النبى ﷺ، فقضى للمحق على المبطل، فقال المقضى عليه، لا أرضى، فقال صاحبه: فما تريد ؟ قال: أن تذهب إلى أبى بكر الصديق، فذهبا إليه فقال: أنتما على ما قضى به النبى ﷺ فأبى أن يرضى قال: نأتى عمر فأتياه فدخل عمر منزله وخرج والسيف فى يده، فضرب به رأس الذى أبى أن يرضى فقتله، وأنزل الله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ...﴾ الآية^(٥).

عن مكحول قال «كان بين رجل من المنافقين ورجل من المسلمين منازعة فى شىء، فأتيا رسول الله ﷺ فقضى على المنافق ، فانطلقا إلى أبى بكر فقال: ما كنت لأقضى بين من يرغب عن قضاء رسول الله ﷺ فانطلقا إلى عمر، فقصاً عليه فقال عمر: لا تعجلا حتى أخرج إليكما، فدخل فاشتمل على سيفه وخرج، فقتل المنافق ثم قال: هكذا أقضى بين من لم يرض بقضاء رسول الله ﷺ ، فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: إن عمر قد قتل الرجل وفرق الله بين الحق والباطل على لسان عمر، فسمى الفاروق»^(٦).

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣٢٢/٢) ونسبه لابن أبى حاتم.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير.

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم، وابن مردويه.

(٥) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للمحافظ دميم فى «تفسيره».

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣٢٣/٢) ونسبه للحكيم الترمذى فى «نوادير الأصول».

أقوال المفسرين فى أسباب النزول:

قال أبو جعفر^(١): والصواب استوعب وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه الشفقة له وللأنصارى فلما أحفظ رسول الله ﷺ الأنصارى استوعب للزبير حقه فى صريح الحكم قال فقال الزبير ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك فلا ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية .

ثم قال أبو جعفر وهذا القول أعنى قول من قال عني به المحتكمان إلى الطاغوت للذنان وصف الله شأنهما فى قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أولى بالصواب لأن قوله فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم فى سياق قصة الذين أسدى الله الخبر عنهم بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ ولا دلالة تدل على انقطاع قصتهم فإلحاق بعض ذلك ببعض ما لم تأت دلالة على انقطاعه أولى فإن ظن ظان أن فى الذى روى عن الزبير وابن الزبير من قصته وقصة الأنصارى فى شراج الحرة وقول من قال فى خبرهما فنزلت فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ما ينبىء عن انقطاع حكم هذه الآية وقصتها من قصة الآيات قبلها، فإنه غير مستحيل أن تكون الآية نزلت فى قصة المحتكمين إلى الطاغوت ويكون فيها بيان ما احتكم فيه الزبير وصاحبه الأنصارى إذ كانت الآية دالة على ذلك وإذا كان ذلك غير مستحيل كان إلحاق معنى بعض ذلك ببعض أولى ما دام الكلام متسقة معانيه على سياق واحد إلا أن تأتى دلالة على انقطاع بعض ذلك من بعض فيعدل به عن معنى ما قبله .

وأما قوله ﴿وَيَسْلَمُوا﴾ فإنه منصوب عطفاً على قوله ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ وقوله ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ نصب عطفاً على قوله ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ .

قال القرطبي^(٢): وقالت طائفة: نزلت فى الزبير مع الأنصارى، وكانت الخصومة فى سقى بستان، فقال عليه السلام للزبير: «أستق أرضك ثم أرسل الماء إلى أرض جارك» فقال الخصم : أراك تحابى ابن عمك، فتلون وجه رسول الله ﷺ وقال للزبير: «استق ثم احبس الماء حتى يبلغ الجذر» ونزل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الحديث ثابت

(١) تفسير الطبرى (٤/٥/١٠٠، ١٠١).

(٢) تفسير القرطبي (٣/١٨٣٦، ١٨٣٧).

صحيح رواه البخارى عن على بن عبد الله عن محمد بن جعفر عن معمر، ورواه مسلم عن قتيبة كلاهما عن الزهرى.

واختلف أهل هذا القول فى الرجل الأنصارى ، فقال بعضهم: هو رجل من الأنصار من أهل بدر.

وقال مكى والنحاس: هو حاطب بن أبى بلتعة.

وقال الثعلبى، والواحدى، والمهدوى: هو حاطب، وقيل: ثعلبة بن حاطب، وقيل غيره، والصحيح: القول الأول، لأنه غير معين ولا مُسمى ، وكذا فى البخارى ومسلم أنه رجل من الأنصار، واختار الطبرى أن يكون نزول الآية فى المنافق واليهودى، كما قال مجاهد، ثم تناول بعمومها قصة الزبير.

قال ابن العربى: وهو الصحيح، فكل من اتهم رسول الله ﷺ فى الحكم فهو كافر، لكن الأنصارى زلّ زلّة فأعرض عنه النبى ﷺ وأقال عشرته لعلمه بصحة يقينه، وأنها كانت فلتة وليست لأحد بعد النبى ﷺ وكل من يرض بحكم الحاكم وطعن فيه ورده فهى ردة يستتاب - أى صاحبها - وأما إن طعن فى الحاكم نفسه لا فى الحكم فله تعزيره وله أن يصفح عنه. اهـ.

● ما جاء فى سبب نزول الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد وغيرهم:

● ذكر البخارى فى التفسير حديث الزبير فى سبب نزول الآية، ثم قال ابن حجر:

قوله (فقال الزبير والله إنى لأحسب هذه الآية نزلت فى ذلك) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ زاد فى رواية شعيب «إلى قوله: تسليما» ووقع فى رواية ابن جريج الآتية «فقال الزبير: والله إن هذه الآية أنزلت فى ذلك» وفى رواية عبدالرحمن بن إسحاق «ونزلت فلا وربك الآية».

والراجح رواية الأكثر وأن الزبير كان لايجزم بذلك، لكن وقع فى رواية أم سلمة عند الطبرى والطبرانى الجزم بذلك وأنها نزلت فى قصة الزبير وخصمه، وكذا فى مرسل سعيد بن المسيب وجزم مجاهد والشعبي بأن الآية إنما نزلت فىمن نزلت فيه الآية التى قبلها وهى قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَتَزَلَّ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ الآية، فروى إسحاق بن راهويه فى تفسيره بإسناد صحيح عن الشعبي قال «كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة،

فدعا اليهودى المنافق إلى النبى ﷺ لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة، ودعا المنافق اليهودى إلى حكامهم لأنه علم أنهم يأخذونها، فأنزل الله هذه الآيات إلى قوله «وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا»^(١) رواه الطبرى بإسناد صحيح عن ابن عباس «إن حاكم اليهود يؤمئذ كان أبا برزة الأسلمى قبل أن يسلم ويصحب»^(٢)، وأيضاً بإسناد صحيح إلى مجاهد «أنه كعب ابن الأشرف»^(٣)، وروى الكلبي فى تفسيره عن أبى صالح عن ابن عباس قال «نزلت هذه الآية فى رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودى خصومة فقال اليهودى: انطلق بنا إلى محمد، وقال المنافق: بل نأتى كعب بن الأشرف» فذكر القصة وفيه أن عمر قتل المنافق وأن ذلك سبب نزول هذه الآيات وتسمية عمر «الفاروق»^(٤).

وهذا الإسناد وإن كان ضعيفاً لكن تقوى بطريق مجاهد ولا يضره الاختلاف لإمكان التعدد، وأفاد الواحدى بإسناد صحيح عن سعيد عن قتادة أن اسم الأنصارى المذكور قيس، ورجح الطبرى فى تفسيره وعزاه إلى أهل التأويل فى تهذيبه أن سبب نزولها هذه القصة ليتسق نظام الآيات كلها فى سبب قال: ولم يعرض بينها ما يقتضى خلاف ذلك.

ثم قال: ولا مانع أن تكون قصة الزبير وخصمه وقعت فى أثناء ذلك فيتناولها عموم الآية . والله أعلم . أهـ.

قال سليمان آل الشيخ فى سبب نزول الآية: ورد فى «الصحيح» أن سبب نزولها قصة الزبير لما اختصم هو والأنصارى فى شراج الحرة، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فإذا كان سبب نزولها مخاصمة فى مسيل ماء قضى فيه رسول الله ﷺ بقضاء فلم يرضه الأنصارى فنفى تعالى عنه الإيمان بذلك ، فما ظنك بمن لم يرض بقضائه ﷺ وأحكامه فى أصول الدين وفروعه، بل إذا دعوا إلى ذلك تولوا وهم معرضون، ولم يكفهم ذلك حتى صدوا الناس عنه ، ولم يكفهم ذلك حتى كفروا، أو بدعوا من اتبعه ﷺ، وحكمه فى أصول الدين وفروعه، ورضى بحكمه فى ذلك ، ولم يبع عنه حولاً أهـ.

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) تقدم تخريجه .

● ما جاء فى تفسيرها من كلام المفسرين:

قال ابن جرير^(١): يقول فى تأويل قوله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ يعنى جل ثناؤه بقوله فلا فليس الأمر كما ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ ويصدون عنك إذا دعوا اليك يا محمد، واستأنف القسم جل ذكره فقال ﴿وَرَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى لا يصدقون بى وبك وبما أنزل إليك ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يقول حتى يجعلوك حكما بينهم فيما اختلط أنهم من أمورهم فالتبس عليهم حكمه يقال شجر يشجر شجورا وشجرا وتشاجر القوم إذا اختلفوا فى الكلام والأمر مشاجرة وشجارا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ يقول: لا يجدوا فى أنفسهم ضيقا مما قضيت وإنما معناه ثم لا تخرج أنفسهم مما قضيت أى لاتائم بإنكارها ما قضيت وشكها فى طاعتك وأن الذى قضيت به بينهم حق لا يجوز لهم خلاف. أ.هـ.

قال ابن الجوزى^(٢): قوله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لا يكونون مؤمنين حتى يحكموك، وقيل «لا» رد لزعمهم أنهم مؤمنون، والمعنى: فلا، أى: ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا، وهم يخالفون حكمك. ثم استأنف، فقال: وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، أى: فيما اختلفوا فيه. أ.هـ.

قال الفخر الرازى^(٣): مسألة: «لا» فى قوله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ فيه قولان:

الأول: معناه فوربك، كقوله ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ و«لا» مزيدة لتأكيد معنى القسم، كما زيدت فى ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ﴾ لتأكيد وجوب العلم و﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جواب القسم والثانى: أنها مفيدة، وعلى هذا التقدير ذكر الواحدى فيه وجهين:

الأول: أنه يفيد نفى أمر سبق والتقدير: ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا وهم يخالفون حكمك، ثم استأنف القسم بقوله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾.

(١) تفسير الطبرى (١٠٠/٥/٤).

(٢) زاد المسير (٧٤/٢).

(٣) التفسير الكبير (١٦٨/١٠/٥).

(والثاني): أنها لتوكيد النفي الذى جاء فيما بعد، لأنه إذا ذكر فى أول الكلام وفى آخره كان أوكد وأحسن .

مسألة: يقال شجر يشجر شجوراً وشجراً إذا اختلف واختلط، وشاجره إذا نازعه وذلك لتداخل كلام بعضهم فى بعض عند المنازعة، ومنه لحشبات اليهودج شجار، لتداخل بعضها فى بعض .

قال أبو مسلم الأصفهاني: وهو مأخوذ عندى من التفاف الشجر، فإن الشجر يتداخل بعض أغصانه فى بعض، وأما الحرج فهو الضيق .

قال الواحدى: يقال للشجر الملف الذى لا يكاد يوصل إليه: حرج، وجمعه حراج، وأما التسليم فهو تفعيل يقال: سلم فلان أى عوفى ولم ينشب به نائبة، وسلم هذا الشيء لفلان، أى خلص له من غير منازع، فإذا ثقلته بالتشديد فقلت: سلم له فمعناه أنه سلمه وخلصه له، هذا هو الأصل فى اللغة، وجميع استعمالات التسليم راجع إلى الأصل فقولهم: سلم عليه، أى دعا له بأن يسلم، وسلم إليه الوديعة، أى دفعها إليه بلا منازعة. وسلم إليه أى رضى بحكمه، وسلم إلى فلان فى كذا، أى ترك منازعته فيه، وسلم إلى الله أمره أى فوض إليه حكم نفسه، على معنى أنه لم ير لنفسه فى أمره أثراً ولا شركة، وعلم أن المؤثر الصانع هو الله تعالى وحده لا شريك له .

مسألة: اعلم أن قوله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قسم من الله تعالى على أنه لا يصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط:
أولها: قوله تعالى ﴿حَتَّى يُحْكَمُوا فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول لا يكون مؤمناً .

قلت: وستأتى باقى الشروط .

ثم قال: واعلم أن من يتمسك بهذه الآية فى بيان أنه لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بارشاد النبى المعصوم قال: لأن قوله ﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحْكَمُوا فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ تصريح بأنه لا يحصل لهم الإيمان إلا بأن يستعينوا بحكم النبى عليه الصلاة والسلام فى كل ما اختلفوا فيه، ونرى أهل العلم مختلفين فى صفات الله تعالى، فمن معطل ومن شبه ومن قدرى ومن جبرى، فلزم بحكم هذه الآية أن لا يحصل الإيمان إلا بحكمه وإرشاده وهدايته، وحققوا ذلك بأن عقول أكثر الخلق ناقصة وغير وافية بإدراك هذه الحقائق، وعقل النبى المعصوم كامل مشرق، فإذا اتصل اشراق نوره بعقول الأمة قويت

عقولهم وانقلبت من النقص إلى الكمال، ومن الضعف إلى القوة، فقدروا عند ذلك على معرفة هذه الأسرار الإلهية. والذي يؤكد ذلك أن الذين كانوا في زمان الرسول ﷺ كانوا جازمين متيقنين كاملي الإيمان والمعرفة، والذين بعدوا عنه اضطربوا واختلفوا، وهذه المذاهب ماتولدت إلا بعد زمان الصحابة والتابعين، فثبت أن الأمر كما ذكرنا، والتمسك بهذه الآية رأيته في كتب محمد بن عبد الكريم الشهرستاني.

قلت: ثم رد الرازي على هذا الكلام بطريقة في التفسير منها شيد، لذلك ضربنا عن هذا الرد صفحاً.

قال القرطبي^(١): قال مجاهد وغيره: المراد بهذه الآية من تقدم ذكره ممن أراد التحاكم إلى الطاعوت وفيهم نزلت. وقال الطبري: قوله «فلا» رد على ماتقدم ذكره، تقديره فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، ثم استأنف القسم بقوله: «وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ». وقال غيره: إنما قدم «لا» على القسم اهتماماً بالنفى وإظهاراً لقوته، ثم كرره بعد القسم تأكيداً للهمم بالنفى، وكان يصح إسقاط «لا» الثانية ويبقى أكثر الاهتمام بتقديم الأولى، وكان يصح إسقاط الأولى ويبقى معنى النفي ويذهب معنى الاهتمام. و«شجر» معناه اختلف واختلط؛ ومنه الشجر لاختلاف أغصانه. ويقال لعصا اليهودج: شجار؛ لتداخل بعضها في بعض. قال الشاعر:

نفسى فداؤك والرماح شواجر والقوم ضنك للقاء قيام

وقال طرفة:

وهم الحكماء أرباب الهدى وسعاة الناس في الأمر الشجر اهـ

وتقدم شيء من ذلك في كلام الفخر الرازي السابق.

وأما قوله «ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»

● ما جاء في تفسير الآية عن الآثار:

عن مجاهد في قوله «حَرَجًا» قال شكا^(٢).

وعن الضحاك في قوله «حَرَجًا» قال : إنما^(٣).

(١) تفسير القرطبي (٣/١٨٣٦/١٨٣٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٥/١٠٠) وذكره السيوطي في «الدر» (٢/٣٢٣) وزاد نسبه لعبد

بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق وذكره السيوطي في «الدر» (٢/٣٢٣) وزاد نسبه لابن المنذر.

عن أبي سعيد الخدري: أنه نازع الأنصار في الماء من الماء فقال لهم: رأيت أني علمت أن ما تقولون كما تقولون واغتسل أنا؟ فقالوا له: لا والله حتى لا يكون في صدرك حرج مما قضى به رسول الله ﷺ والله أعلم. اهـ. (١).

عن الضحاك في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ قال إنما ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ يقول ويسلموا الفضائل وحكمك إذعانا منهم بالطاعة وإقراراً لك بالنبوة تسليماً (٢).

● ما جاء في الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبري (٣): ﴿لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ يقول: لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً.. اهـ.

قال ابن الجوزي (٤): وفي «الحرج» قولان:

أحدهما: أنه الشك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي في آخرين.

والثاني: الضيق، قاله أبو عبيدة، والزجاج.

وفي قوله ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ قولان:

أحدهما: يسلموا لما أمرتهم به، فلا يعارضونك، هذا قول ابن عباس، والزجاج، والجمهور.

والثاني: يسلموا ما تنازعوا فيه لحكمك، ذكره الماوردي.

قال الرازي (٥):

الشرط الثاني: قوله ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ قال الزجاج: لا تضيق صدورهم من أقضيتك. اهـ.

وتقدم في كلام ابن الجوزي ذلك.

واعلم أن الراضى بحكم الرسول عليه الصلاة والسلام قد يكون راضياً به في الظاهر دون القلب فبين في هذه الآية أنه لا بد من حصول الرضا به في القلب.

واعلم أن ميل القلب ونفرته شيء خارج عن وسع البشر، فليس المراد من الآية ذلك، بل المراد منه أن يحصل الجزم واليقين في القلب بأن الذي يحكم به الرسول هو الحق والصدق.

(١) ذكره السيوطي الدر المنثور (٢/ ٣٢٢، ٣٢٣). ونسبه لابن المنذر.

(٣) تفسير الطبري (٤/ ٥/ ١٠٠).

(٥) التفسير الكبير.

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٤) زاد المسير (٢/ ٧٥).

الشرط الثالث: قوله تعالى ﴿وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا﴾ واعلم أن من عرف بقلبه كون ذلك الحكم حقاً وصدقاً قد يتمرّد عن قبوله على سبيل العناد أو يتوقف فى ذلك القبول. فبين تعالى أنه كما لا بد فى الإيمان من حصول ذلك اليقين فى القلب. فلا بد أيضاً من التسليم معه فى الظاهر، فقوله ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ المراد به الانقياد فى الباطن، وقوله ﴿وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا﴾ المراد منه الانقياد فى الظاهر والله أعلم.

مسألة: من الفقهاء من تمسك بقوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ على أن ظاهر هذا الأمر للوجوب، وهو ضعيف لأن القضاء هو الإلزام، ولانزع فى أنه للوجوب.

مسألة: ظاهر الآية يدل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس، لأنه يدل على أنه يجب متابعة قوله وحكمه على الإطلاق، وأنه لا يجوز العدول عنه إلى غيره، ومثل هذه المبالغة المذكورة فى هذه الآية قلما يوجد فى شيء فى التكليف، وذلك يوجب تقديم عموم القرآن والخبر على حكم القياس، وقوله ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ مشعر بذلك لأنه متى خطر بباله قياس يفضى إلى نقيض مدلول النص فهناك يحصل الحرج فى النفس، فبين تعالى أنه لا يكمل إيمانه إلا بعد أن لا يلتفت إلى ذلك الحرج، ويسلم النص تسليماً كلياً، وهذا الكلام قوى حسن لمن أنصف. اهـ.

وقال ابن كثير (١): قوله : ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة : أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ فى جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذى يجب الانقياد له باطنا وظاهرا. ولهذا قال : ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا﴾، أى : إذا حكموك يطيعونك فى بواطنهم فلا يجدون فى أنفسهم حرجا مما حكمت به، وينقادون له فى الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليما كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، كما ورد فى الحديث : «والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» (٢) اهـ.

قال السعدى (٣): ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة، أنهم لا يؤمنون، حتى يحكموا رسوله، فيما شجر بينهم أى : فى كل شيء يحصل فيه اختلاف.

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٠٦ - الشعب).

(٢) تقدم (٢) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٣٥٠).

بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة.
 ثم لا يكفي هذا التحكيم، حتى يتفنى الحرج من قلوبهم والضييق، وكونهم يحكمونه
 على وجه الإغماض.
 ثم لا يكفي هذا التحكيم، حتى يسلموا لحكمه تسليماً، بإنشراح صدر، وطمأنينة
 نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.
 فالتحكيم فى مقام الإسلام، وانتفاء الحرج، فى مقام الإيمان، والتسليم فى مقام
 الإحسان.

فمن استكمل هذه المراتب، وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها.
 ومن ترك هذا التحكيم المذكور، غير ملتزم له، فهو كافر.
 ومن تركه - مع التزامه - فله حكم أمثاله من العصيين ا.هـ.

● لم يذكر أحد من شراح كتاب التوحيد كلاماً فى هذه الآية غير
 سليمان آل الشيخ^(١) حيث قال: قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا
 شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

قال ابن القيم: أقسم سبحانه بأجل مقسم به، وهو نفسه عزوجل على أنه لا يشئ
 لهم الإيمان، ولا يكونون من أهله حتى يحكم لرسوله ﷺ فى جميع موارد النزاع، وفى
 جميع أبواب الدين فإن لفظة (ما) من صيغ العموم، ولم يقتصر على هذا حتى ضم إليه
 انشراح صدورهم بحكمه، بحيث لا يجدون فى أنفسهم حرجاً، وهو الضيق والحصر من
 حكمه، بل يقبلون حكمه بالانشراح، ويقابلونه بالقبول، لا يأخذونه على إغماض،
 ويشربونه على قذى فإن هذا مناف للإيمان، بل لا بد أن يكون أخذه بقبول ورضى،
 وانشراح صدر.

ومتى أراد العبد شاهداً فليتنظر فى حاله، ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف
 هواه وغرضه، أو على خلاف ما قلد فيه أسلافه من المسائل الكبار ومادونها ﴿بَلِ الْإِنسَانُ
 عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۚ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ فسبحان الله! كم من حزازة فى نفوس كثير من
 النصوص، وبودهم أن لو لم ترد، وكم من حرارة فى أكبادهم منها، وكم من شجى فى
 حلوقهم من موردها، ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضم إليه قوله ﴿وَيُسَلِّمُوا
 تَسْلِيمًا﴾ فذكر الفعل مؤكداً له بالمصدر القائم مقام ذكره مرتين، وهو الخضوع والانقياد

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٢٢، ٤٢٣).

لما حكم به طوعاً ورضاً وتسليماً، لاقهراً أو مصابرة، كما يسلم المقهور لمن قهره كرهاً، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذى هو أحب شئ إليه، يعلم أن سعادته وفلاحه فى تسليماته. انتهى. أهـ.

وذكر سليمان آل الشيخ^(١): قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾^(٢). وقال :

المعنى والله أعلم أى: لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بنى إسرائيل من قتلهم أنفسهم، أو خروجهم من ديارهم حين استتبوا من عبادة العجل ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾^(٣)، وهذا توبيخ لمن لم يحكم الرسول ﷺ فى موارد الشجار أى: نحن لم نكتب عليهم ذلك، بل إنما أوجبنا عليهم ما فى وسعهم، فما لهم لا يحكمونك، ولا يرضون بحكمك؟.

ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَبَتُّبًا (٦٦) وَإِذَا لَا تَأْنِيَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(٤).

قال ابن القيم : أخبر تعالى أنهم لو فعلوا ما يعظهم به، وهو أمره ونهيه المقرون بوعدده ووعيدة. لكان فعل أمره، وترك نهيه خيراً لهم فى دينهم ودنياهم، وأشد تبتُّباً لهم على الحق، وتحقيقاً لإيمانهم، وقوة لعزائمهم وإرادتهم، وثباتاً لقلوبهم عند جيوش الباطل، وعند واردات الشبهات المضلة، والشهوات المردية. فطاعة الله تعالى، ورسوله ﷺ هى سبب ثبات القلب، وقوته وقوة عزائمه وإرادته، ونفاذ بصيرته، وهذا دليل على أن طاعة الرسول ﷺ ثمر الهداية، وثبات القلب عليها، ومخالفته ثمر زيغ القلب، واضطرابه، وعدم ثباته. ثم قال تعالى : ﴿وَإِذَا لَا تَأْنِيَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(٥)، فهذه أربعة أنواع من الجزاء المرتب على طاعة الرسول ﷺ،

أحدها: حصول الخير المطلق بها.

الثانى: الثبت والقوة المتضمن للنصر والغلبة.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٢٤، ٤٢٥).

(٢) سورة النساء: ٦٦ (٣) النساء: ٦٦.

(٤) النساء، الآيات: ٦٦، ٦٧، ٦٨.

(٥) النساء، الآيات ٦٧، ٦٨.

قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١).

والثالث: حصول الأجر العظيم لهم في الآخرة.

والرابع: هدايتهم الصراط المستقيم. وهذه الهداية هي هداية ثانية أوجبها طاعة الرسول ﷺ فطاعته ثمرة الهداية السابقة عليها فهي محفوفة بهدائيتين: هداية قبلها وهي سبب الطاعة، وهداية بعدها هي ثمرة لها، وهذا يدل على انتفاء هذه الأمور الأربعة عند انتفاء طاعة الرسول ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٢).

قال ابن القيم: فأخبر سبحانه أن طاعته، وطاعة رسوله ﷺ توجب مرافقة المنعم عليهم، وهم أهل السعادة الكاملة، وهم أربعة أصناف النبيون وهم أفضلهم ثم الصديقون وهم بعدهم في الدرجة، ثم الشهداء، ثم الصالحون فهؤلاء المنعم عليهم النعمة التامة وهم السعداء الفائزون، ولا فلاح لأحد إلا بمرافقتهم، والكون معهم، ولا سبيل إلى مرافقتهم إلا بطاعة الرسول ﷺ، ولا سبيل إليها إلا بمعرفة سنته وما جاء به فدل على أن من عدم العلم بسنته وما جاء به؛ فليس له إلى مرافقة هؤلاء سبيل، بل هو ممن يعرض على يديه يوم القيامة، ويقول: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٣).

قلت - أي سليمان -: (ما) لمن لم يحكم الرسول ﷺ في موارد النزاع إلى مرافقة هؤلاء المنعم عليهم سبيل، وكيف يكون له سبيل إلى ذلك، وعنده أن من حكم الرسول ﷺ في موارد النزاع فهو إما زنديق أو مبتدع، وأنى له بطاعة الله ورسوله، وهذا أصل اعتقاده الذي بنى عليه دينه، ومع ذلك يحسبون أنهم مهتدون إذا حكموا غير الرسول ﷺ، ونبذوا حكمه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.



قوله [﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾].

مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ: (٤): ومطابقة الآية للترجمة ظاهر؛ لأن من دعا إلى

(٢) النساء: ٦٩.

(٤) تيسير العزيز الحميد

(١) البقرة: ١١.

(٣) الفرقان: ٢٧.

التحاكم إلى غير ما أنزل الله فقد أتى بأعظم الفساد. أهـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): مناسبة الآية للترجمة أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين وهو من الفساد فى الأرض.

قال عبدالله بن جار الله^(٢): أن التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله من أعمال المنافقين ومن الإفساد فى الأرض ومن الحكم بالطاغوت أ.هـ.

وقال ابن عثيمين^(٣): مناسبة الآية للباب ظاهرة، وذلك أن التحاكم إلى غير ما أنزل الله من أكبر أسباب الفساد فى الأرض.

وقال القرعاوى^(٤): بنحو ماتقدم.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى^(٥): تضمنت الآية النهى عن التحاكم إلى غير ما أنزل الله؛ لأن ذلك منافى لشهادة لا إله إلا الله. اهـ.

قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾

الإعراب^(٦): (وَإِذَا) الواو استئنافية والجملة بعدها مستأنفة لامحل لها ويجوز أن تكون الواو عاطفة والجملة بعدها معطوفة على جملة يكذبون فتكون فى موضع نصب عطفاً على خبر كان والمعطوف على الخبر خبر فهى بهذه المثابة جزء من السبب الذى استحقوا به العذاب الأليم وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه منصوب بجوابه.

(قيل) فعل ماض مبنى للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر فيه تقديره يعود على الله تعالى وفى هذا التعبير بحث وجملة قيل فى محل جر بإضافة الظرف إليها.

(لهم) الجار والمجرور متعلقان بقيل.

(لا تفسدوا فى الأرض) (لا) الناهية الجازمة (تفسدوا) فعل مضارع مجزوم بلا علامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة والواو فاعل.

(١) فتح المجيد (٢/٦٥٩).

(٢) الجامع الفريد (١٥٦).

(٣) القول المفيد (٢/٣٤١).

(٤-٥) الجليلد (٣٤٤).

(٦) إعراب القرآن الكريم وبيانه (١/٣٤).

قال القرطبي^(١): (إذا) فى موضع نصب على الظرف والعامل فيها قالوا؛ وهى تؤذن بوقوع الفعل المنتظر. قال الجوهري: إذا اسم يدل على زمان مستقبل ولم تستعمل إلا مضافة إلى جملة، تقول: أجيئك إذا أحمر البسر وإذا قدم فلان؛ والذى يدل على أنها اسم وقوعها موقع قولك: آتيك يوم يقدم فلان؛ فهى ظرف وفيها معنى المجازاة. وجزاء الشرط ثلاثة: الفعل والفاء وإذا؛ فالفعل قولك: إن تأتني آتك، والفاء إن تأتني فأنا أحسن إليك؛ وإذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْتُلُونَ﴾. وما جاء من المجازاة بإذا فى الشعر قول قيس بن الخطيم:

إذا قصرت أسيفنا كان وصلها * خطانا إلى أعدائنا فنضارب

فعطف فنضارب بالجزم على موضع كان لأنه مجزوم، ولو لم يكن مجزوما لقال فنضارب بالنصب. وقد تزداد على إذا، ما تأكيدا فيجزم بها أيضا؛ ومنه قول الفرزدق:

فقام أبو ليلى إليه ابن ظالم وكان إذا ما يسلل السيف يضرب

قال سيويه: والجيد ما قال كعب بن زهير:

وإذا ما تشاء تبعث منها مغرب الشمس ناشطا مذعورا

يعنى أن الجيد ألا يجزم بإذا كما لم يجزم فى هذا البيت. وحكى عن المبرد: أنها فى قولك فى المفاجأة خرجت فإذا زيد ظرف مكان لأنها تضمنت جنة، وهذا مردود لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد، فإنما تضمنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان؛ ومنه قوله: «اليوم خمر وغدا أمر» فمعناه وجود خمر ووقوع أمر. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(٢): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ اختلف أهل التأويل فى تأويل هذه الآية.

فروى عن سلمان الفارسي أنه كان يقول: لم يجرى هؤلاء بعد^(٣).

وعن عباد بن عبد الله عن سلمان قال: ما جاء هؤلاء بعد، الذين ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾^(٤).

(١) تفسير القرطبي (١/ ١٧٤، ١٧٥).

(٢) تفسير الطبرى ١ / ١ / ٩٧، ٩٨.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (١/ ٦٨) وزاد نسبه لوكيع، وابن

أبى حاتم.

(٤) ما قبله.

وعن زيد بن وهب وغيره عن سلمان: أنه قال في هذه الآية ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ قال: ماجاء هؤلاء بعد (١).

عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ هم المنافقون أما لا تفسدوا في الأرض فإن الفساد هو الفر والعمل بالمعصية (٢).

وعن الربيع: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: لاتعصوا في الأرض قال: فكان فسادهم على أنفسهم ذلك معصية الله جل ثناؤه؛ لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض؛ لأن إصلاح الأرض والسماء بالطاعة (٣).

وأولى التأويلين بالآية: تأويل من قال: أن قول الله تبارك اسمه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ نزلت في المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وإن كان معناها بها كل من كان بمثل صفتهم من المنافقين بعدهم إلى يوم القيامة.

وقد يحتمل قول سلمان عند تلاوة هذه الآية ماجاء هؤلاء بعد، أن يكون قاله بعد فناء الذين كانوا بهذه الصفة على عهد رسول الله ﷺ خيراً منه عمن جاء منهم بعدهم ولما يجيء بعد، لا أنه عنى أنه لم يمض ممن هذه صفته أحد.

وإما قلنا أولى التأويلين بالآية ما ذكرنا لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك صفة من كان بين ظهرائي أصحاب رسول الله ﷺ على عهد رسول الله ﷺ من المنافقين، وأن هذه الآيات فيهم نزلت، والتأويل المجمع عليه أولى بتأويل القرآن من قول لا دلالة على صحته من أصل ولا نظير.

والإفساد في الأرض العمل فيها بما نهى الله جل ثناؤه عنه وتضييع ما أمر الله بحفظه فذلك جملة الإفساد كما قال جل ثناؤه في كتابه مخبراً عن قيل ملائكته ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ يعنون بذلك: أتجعل في الأرض من يعصيك ويخالف أمرك فكذاك صفة أهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم

(١) نفس المصدر السابق وانظر «فتح القدير» (٢٦٦ - بتخريجنا).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٩٧/١، ٩٨) وانظر «الدر» (٦٨/١) وانظر «فتح القدير» (٢٦٣ - بتخريجنا).

(٣) أخرجه ابن جرير في الموضوع السابق.

وركوبهم فيها مانهاهم عن ركوبه وتضييعهم فرائضه وشكهم في دين الله الذي لا يقبل من أحد عملاً إلا بالتصديق به والايقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون الشك والريب وبمظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً فذلك إفساد المنافقين في أرض الله وهم يحسبون أنه يفعلهم ذلك مصلحون فيها، فلم يسقط الله جل ثناؤه عنهم عقوبته، ولا خفف عنهم أليم ما أعد من عقابه لأهل معصيته بحسبانهم أنهم فيما أتوا من معاصي الله مصلحون بل أوجب لهم الدرك الأسفل من ناره والآليم من عذابه والعار العاجل بسبب الله إياهم وشمته لهم، فقال تعالى **﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** وذلك من حكم الله جل ثناؤه فيهم أدل الدليل على تكذيبه تعالى قول القائلين أن عقوبات الله لا يستحقها إلا المعتاد ربه فيما لزمه من حقوقه وفروضه بعد عمله وثبوت الحجة عليه بمعرفته بلزوم ذلك إياه اهـ.

قال البغوي (١): قوله **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾** يعني المنافقين، وقيل لليهود، أى قال لهم المؤمنون.

قال الفخر الرازي (٢): فمنهم من قال : ذلك القائل هو الله تعالى.

ومنهم من قال : هو الرسول عليه السلام.

ومنهم من قال بعض المؤمنين.

وكل ذلك محتمل، ولا يجوز أن يكون القائل بذلك من لا يختص بالدين والنصيحة، وإن كان الأقرب هو أن القائل لهم ذلك من شافههم بذلك، فإما أن يكون الرسول عليه السلام بلغه عنهم النفاق ولم يقطع بذلك فنصحهم فأجابوا بما يحقق إيمانهم وأنهم في الصلاح بمنزلة سائر المؤمنين، وإما أن يقال : إن بعض من كانوا يلحقون إليه الفساد كان لا يقبله منهم وكان ينقلب واعظاً لهم قائلاً لهم **﴿لا تفسدوا﴾** فإن قيل : أفما كانوا يخبرون الرسول عليه السلام بذلك؟ قلنا نعم، إلا أن المنافقين كانوا إذا عوتبوا عادوا إلى إظهار الإسلام والندم وكذبوا الناقلين عنهم وحلفوا بالله عليه كما أخبر تعالى عنهم في قوله **﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾** وقال **﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾**

قال ابن الجوزي (٣): وفي المراد بالفساد هاهنا خمسة أقوال:

أحدها: أنه الكفر، قاله ابن عباس.

(٢) التفسير الكبير (١/١/٧٤)

(١) معالم التنزيل (٤٣/١).

(٣) زاد المسير ٢٧/١.

والثاني: العمل بالمعاصي، قاله أبو العالية، ومقاتل.

والثالث: أنه الكفر والمعاصي، قاله السدي عن أشياخه.

والرابع: أنه ترك امثال الأوامر، واجتناب النواهي، قاله مجاهد.

والخامس: أنه النفاق الذي صادفوا به الكفار، وأطلعوهم على أسرار المؤمنين، ذكره شيخنا علي بن عبيد الله.

قال الرازي^(١): الفساد خروج الشيء عن كونه متنعاً به، ونقيضه الصلاح فأما كونه فساداً في الأرض فإنه يقيد أمراً زائداً، وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدي: أن المراد بالفساد في الأرض إظهار معصية الله تعالى.

وتقريره ما ذكره القفال رحمه الله وهو أن إظهار معصية الله تعالى إنما كان إفساداً في الأرض، لأن الشرائع سنن موضوعة بين العباد، فإذا تمسك الخلق بها زال العدوان ولزم كل أحد شأنه، فحققت الدماء وسكنت الفتن، وكان فيه صلاح الأرض وصلاح أهلها، أما إذا تركوا التمسك بالشرائع وأقدم كل أحد على ما يهواه لزم الهرج والمرج والاضطراب، ولذلك قال تعالى ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ نيههم على أنهم إذا أعرضوا عن الطاعة لم يحصلوا إلا على الإفساد في الأرض به.

وثانيها: أن يقال ذلك الفساد هو مداراة المنافقين للكافرين ومخالطتهم معهم، لأنهم لما مالوا إلى الكفر مع أنهم في الظاهر مؤمنون أوهم ذلك ضعف الرسول ﷺ، وضعف أنصاره، فكان ذلك يجرى الكفرة على إظهار عداوة الرسول ونصب الحرب له وطمعهم في الغلبة، وفيه فساد عظيم في الأرض.

وثالثها: قال الأصم: كانوا يدعون في السر إلى تكذيبه، وجحد الإسلام، وإلقاء الشبه.

قال القرطبي^(٢): لانفسدوا قوله ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾ لانهي، والفساد ضد الصلاح، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها. فسد الشيء يفسد فساداً وفسوداً وهو فاسد وفسيد. والمعنى في الآية لانفسدوا في الأرض بالكفر وموالة أهله، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن. وقيل: كانت الأرض قبل أن يبعث النبي ﷺ فيها الفساد، ويفعل فيها بالمعاصي؛ فلما بعث النبي ﷺ ارتفع الفساد وصلحت الأرض؛ فإذا

(١) التفسير الكبير ١/ ٧٤/ ٢.

(٢) تفسير القرطبي ١/ ١٧٦.

عملوا بالمعاصي فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها؛ كما قال في آية أخرى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾^(١)

● ما جاء في الآية من شرح كتاب التوحيد:

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): قال أبو العالية: يعنى: لاتعصوا في الأرض ، لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله: فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله^(٣).

وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام، في قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَدْنَىٰ مَوْذِنًا أَيْتَهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾^(٧٠) قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ^(٧١) قَالُوا نَفَقْدُ صُرَاعَ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ^(٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ فدللت الآية على أن كل معصية فساد في الأرض ا.هـ.

قال ابن باز^(٤): صلاح الأرض باتباع الشرع وتحكيمه، وفسادها بمخالفة أمر الله، والتحاكم إلى غيره. ا.هـ.

قال ابن عثيمين^(٥): الإفساد في الأرض نوعان:

الأول: إفساد حسي مادي، وذلك مثل هدم البيوت وإفساد الطرق وما أشبه ذلك.

الثاني: إفساد معنوي، وذلك بالمعاصي؛ فهي من أكبر الفساد في الأرض، قال تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٧)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٨)، وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾^(٩) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ^(١٠).

(٢) فتح المجيد (٢/٦٥٢)

(٤) التعليق المفيد (٢٠٠).

(٦) الروم : ٤١.

(٨) الأعراف: ٩٦.

(١) الأعراف: ٥٦

(٣) فتح المجيد ٢/٦٥٩.

(٥) القول المفيد : ٢/٣٤٠، ٣٤١.

(٧) الشورى : ٣٠.

(٩) المائدة : ٦٥/٦٦.

قال القرعاوى^(١): حقيقة الإفساد ترك الاستقامة إلى ضدها والمراد هنا لا تفسدوا في

الأرض بالمعاصي. ا.هـ.

الإعراب:

قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾^(٢): الجار والمجرور متعلقان بتفسدوا. ا.هـ.

قال القرطبي^(٣): قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الأرض مؤنثة وهي اسم جنس، وكان حق الواحدة منها أن يقال أرضة، ولكنهم لم يقولوا، والجمع أرضات لأنهم قد يجمعون المؤنث الذی ليست فيه هاء التأنيث بالتاء كقولهم: عرسات، ثم قالوا أرضون فجمعوا بالواو والنون، والمؤنث لا يجمع بالواو والنون إلا أن يكون منقوصاً كُتُبة وظبة، ولكنهم جعلوا الواو والنون، عوضاً من حذفهم الألف والتاء وتركوا فتحة الراء على حالها، وربما سكنت، وقد تجمع على أروض؛ وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون: أرض وأراض، كما قالوا: أهل وآهال؛ والأراضى أيضاً على غير قياس كأنهم جمعوا أرضاً؛ وكل ماسفل فهو أرض؛ وأرض أرضه أى زكية بيئة الأراضة، وقد أرضت بالضم أى زكت. قال أبو عمر: نزلنا أرضاً أرضة أى معجبة للعين؛ ويقال: لا أرض لك، كما يقال: لأم لك. والأرض أسفل قوائم الدابة؛ قال حميد يصف فرساً:

ولم يقلب أرضها البيطار * ولا لحبليه بها حبار

أى أثر؛ والأرض: النفضة والردة. روى حماد بن سلمة عن قتادة عن عبد الله بن الحارث قال: زلزلت الأرض بالبصرة، فقال ابن عباس: والله ما أدري؟ أزلزلت الأرض بى أم بى أرض؟ أى أم رعدة؛ وقال ذو الرمة يصف صائداً:

إذا توجس ركزا من ستابكها * أو كان صاحب أرض أو به الموم

والأرض: الزكام، وقد أرضه الله إيراًضاً، أى أزكمه فهو مأروض؛ وفسيل مستأرض، وودية مستأرضة بكسر الراء وهو أن يكون له عرق فى الأرض؛ فأما إذا نبت على جذع النخل فهو الراكب.

والأراض بالكسر: بساط ضخمة من صوف أو وبر، ورجل أريض، أى متواضع خلق للخير؛ قال الأصمعى يقال: هو أرضهم أن يفعل ذلك أى أخلقهم؛ وشيء عريض أريض اتباع له؛ وبعضهم يفرد ويقول: جدى أريض أى سمين. ا.هـ.

(١) الجديد (٣٤٢).

(٢) إعراب القرآن ٣٥/١.

(٣) تفسير القرطبي: ٩٨/١، ٩٩.

قوله: «قالوا إنما نحن مصلحون».

الإعراب: (١) (إنما) كافة ومكفوفة (نحن) مبتدأ (مصلحون) خبر نحن مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة في محل نصب مقول القول اهـ.

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين:

وروى الطبري: عن ابن عباس قوله إنما نحن مصلحون أى قالوا إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب (٢).

وخالفه فى ذلك غيره عن مجاهد وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قال إذا ركبوا معصية الله ففعل لهم لا تفعلوا كذا وكذا قالوا إنما نحن على الهدى مصلحون (٣).

قال أبو جعفر: وأى الأمرين كان منهم فى ذلك أعنى دعواهم أنهم مصلحون فهم لاشك أنهم كانوا يحسبون أنهم فيما أتوا من ذلك مصلحون فسواء بين اليهود والمسلمين كانت دعواهم الإصلاح أوفى أديانهم وفيما ركبوا من معصية الله وكذبهم المؤمنين فيما أظهروا لهم من القول وهم لغير ما أظهروا مستبطنون لأنهم كانوا فى جميع ذلك من أمرهم عند أنفسهم محسنين وهم عند الله مسيئون ولأمر الله مخالفون لأن الله جل ثناؤه قد كان فرض عليهم عداوة اليهود وحربهم مع المسلمين وألزمهم التصديق برسول الله ﷺ وبما جاء به من عند الله كالذى ألزم من ذلك المؤمنين فكان لقاءهم اليهود على وجه الولاية منهم لهم وشكهم فى نبوة رسول الله ﷺ وفيما جاء به أنه من عند الله أعظم الفساد وإن كان ذلك عندهم إصلاحا وهدى فى أديانهم أو فيما بين المؤمنين واليهود فقال جل ثناؤه فيهم «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ» دون الذين ينهونهم من المؤمنين عن الإفساد فى الأرض «وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ» اهـ.

قال ابن الجوزي (٤): قوله تعالى «إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ» فيه خمسة أقوال:

أحدها: أن معناه إنكار ما عرفوا به، وتقديره: ما فعلنا شيئا يوجب الفساد والثاني: أن معناه: إنا نقصد الإصلاح بين المسلمين والكافرين، والقولان عن ابن عباس.

والثالث: أنهم أرادوا مضافة الكفار صلاح، لا فساد، قاله مجاهد، وقتادة.

(١) إعراب القرآن ٣٥/١.

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩٨/١) وذكره السيوطى فى «الدر» (٦٨/١) وزاد نسبته لابن

إسحاق، وابن أبى حاتم.

وانظر «فتح القدير» (٢٦٤) - بتخريجنا.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وانظر «الدر» (٦٨/١).

(٤) زاد المسير ٢٨/٢٧/١.

والرابع: أنهم أرادوا أن فعلنا هذا هو الصلاح، وتصديق محمد هو الفساد، قاله السدى.

والخامس: أنهم ظنوا أن مضافة الكفار صلاح في الدنيا لا في الدين، لأنهم اعتقدوا أن الدولة إن كانت للنبي ﷺ فقد أمنوه بمبايعته وإن كانت للكفار فقد أمنوهم بمصافاتهم، ذكره شيخنا.

قال الرزاي (١): الذين قالوا إنما نحن مصلحون هم المنافقون، والأقرب في مرادهم أن يكون نقيضاً لما نهوا عنه، فلما كان الذي نهوا عنه هو الإفساد في الأرض كان قولهم «إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ» كالمقابل له، وعند ذلك يظهر احتمالان:

أحدهما: أنهم اعتقدوا في دينهم أنه هو الصواب، وكان سعيهم لأجل تقوية ذلك الدين، لا جرم قالوا إنما نحن مصلحون، لأنهم في اعتقادهم ما سعوا إلا لتطهير وجه الأرض عن الفساد.

وثانيهما: أنا إذا فسرنا «لَا تُفْسِدُوا» بمدارة المنافقين للكفار فقولهم «إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ» يعنى به أن هذه المدارة سعى في الإصلاح بين المسلمين والكفار، ولذلك حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا «إِن أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا» فقولهم «إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ» أى نحن نصلح أمور أنفسنا.

قال القرطبي (٢): قوله تعالى مصلحون اسم فاعل من أصلح؛ والصلاح: ضد الفساد، وصلاح الشيء بضم اللام وفتحها لغتان قاله ابن السكيت. والصلوح بضم الصاد مصدر صلح بضم اللام؛ قال الشاعر:

فكيف بإطرافي إذا ما شتمتي وما بعد شتم الوالدين صلوح

وصلاح من أسماء مكة؛ والصلح بكسر الصاد: نهر.

وإنما قالوا ذلك على ظنهم، لأن إفسادهم عندهم إصلاح، أى إن عمالتنا للكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين. قاله ابن عباس وغيره.



قوله «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ». الإعراب (٣):

لا حرف تنبيه يستفتح بها الكلام «إِنَّهُمْ» إن حرف مشبه بالفعل والهاء اسمها «هُمْ» ضمير فصل أو عماد لا محل له من الإعراب ولك أن تعرب هم مبتدأ (المفسدون) خبره والجملة الاسمية فى محل رفع خبر إن «وَلَكِنْ» الواو عاطفة ولكن مخففة من الثقيلة

(١) التفسير الكبير ١/ ٧٥، ٧٤. (٢) تفسير القرطبي ١/ ١٧٧. (٣) إعراب القرآن ١/ ٣٥.

لمجرد الاستدراك (لا) نافية (يشعرون) فعل مضارع مرفوع والواو فاعل الجملة معطوفة على ماتقدم.

● ما جاء في الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبري^(١): وهذا القول من الله جل ثناؤه تكذيب للمنافقين في دعواهم إذا أمروا بطاعة الله فيما أمرهم الله به ونهوا عن معصية الله فيما نهاهم الله عنه قالوا إنما نحن مصلحون لا مفسدون نحن على رشد وهدى فيما أنكرتموه علينا دونكم لأضالون فكذبهم الله عزوجل ففى ذلك من قيلهم فقال ألا إنهم هم المفسدون المخالفون أمر الله عزوجل المتعدون حدوده الراكبون معصيته التاركون فروضه وهم لا يشعرون ولا يدرون أنهم كذلك لا الذين يأمرونهم بالقسط من المؤمنين وينهونهم عن معاصى الله فى أرضه من المسلمين.

قال ابن الجوزى^(٢): قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ قال الزجاج: (ألا): كلمة يبتدأ بها، ينبه بها المخاطب، تدل على صحة ما بعدها. و«هم»: تأكيد للكلام.

وفى قوله تعالى: ﴿ولكن لا يشعرون﴾ قولان:

أحدهما: لا يشعرون أن الله يطلع نبيه على فسادهم.

والثانى: لا يشعرون أن ما فعلوه فساد لا صلاح.

قال الرازى^(٣): واعلم أن العلماء استدلوا بهذه الآية على أن من أظهر الإيمان وجب إجراء حكم المؤمنون عليه، وتجوز خلافه لا يطمئن فيه، وتوبة الزنديق مقبولة والله أعلم. وأما قوله ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ فخرج على وجه ثلاثة.

أحدها: أنهم مفسدون لأن الكفر فساد فى الأرض، إذ فيه كفران نعمة الله، وإقدام كل أحد على ما يهواه، لأنه إذا كان لا يعتقد وجود الإله ولا يرجو ثواباً ولا عقاباً تهاجر الناس، ومن هذا ثبت أن النفاق فساد؛ ولهذا قال ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض﴾ على ماتقدم تقريره.

قال ابن كثير^(٤): من الفساد فى الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ثم قال ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾

(٢) زاد المسير ٢٨/١.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤٩/١.

(١) تفسير الطبري ٩٩ / ٤ / ١ -

(٣) التفسير الكبير ٧٥ / ١ / ١

فالتناقض لما كان ظاهرة الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين فكان الفساد من جهة المناقض حاصل لأنه هو الذي غر المؤمنين بقوله الذي لاحقيقة له ووالى الكافرين على المؤمنين ولو أنه استمر على حاله الأول لكان شره أخف ولو أُخْلِصَ العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح ولهذا قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أى نريد أن ندارى الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء كما قال محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن محمد بن عكرمة أو سعيد بن جببر عن ابن عباس ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أى إِنَّمَا نُرِيدُ الإِصْلَاحَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ يَقُولُ اللَّهُ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول ألا إن هذا الذى يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): قال ابن القيم: قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصى والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها يبعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله فإن عبادة غير الله، والدعوة إلى غيره، والشرك به هو أعظم فساد فى الأرض، بل فساد الأرض فى الحقيقة إنما هو بالشرك به، ومخالفة أمره. فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقام معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ هو أعظم الفساد فى الأرض، ولا إصلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ. فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته؛ فلا سمع له ولا طاعة. من تدبر أحوال العالم، وجد كل صلاح فى الأرض فسيبه توحيد الله وعبادته، وطاعة رسوله ﷺ، وكل شر فى العالم، وقتة وبلاء، وقحط وتسليط عدو وغير ذلك، فسيبه مخالفة الرسول، والدعوة إلى غير الله ورسوله، انتهى وبهذا يتبين وجه مطابقة الآية للترجمة، لأن من يدعو إلى التحاكم إلى غير ما أنزل الله وإلى الرسول، فقد أتى بأعظم الفساد. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): وفى الآية: التنبيه على عدم الاغترار (بأقوال أهل الأهواء وإن زخرفوها بالدعوى وفيها: التحذير من الاغترار) بالرأى: ما لم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فما أكثر من يصدق بالكذب ويكذب بالصدق إذ جاءه، وهذا من الفساد فى الأرض، ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة تخرج صاحبها من الحق وتدخله فى الباطل. نسأل الله العفو والعافية والمعافة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٢٥، ٤٢٦).

(٢) فتح المجيد (٢/٤٤٣).

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (*).

فتدبر تجد ذلك فى حال الأكثر: إلا من عصمه الله، ومنَّ عليه بقوة داعى الإيمان، وأعطاه عقلاً كاملاً عند ورود الشهوات، وبصراً نافذاً عند ورود الشبهات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.



قوله: [وقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾].

مناسبة الآية للباب:

قال عبدالرحمن آل الشيخ (١): ووجه مطابقه هذه الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصى، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله، وهو سبيل المؤمنين. كما قال تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله (٢): أن التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أعظم ما يفسد فى الأرض، وأنه لاصلاح لها إلا بتحكيم الكتاب والسنة وهو سبيل المؤمنين. اهـ.

قال ابن عثيمين (٣): ومناسبة الآية للباب أن التحاكم إلى ما أنزل الله هو الإصلاح وأن التحاكم إلى غيره هو الإفساد. اهـ.

وقال القرعاوى (٤): حيث نهت الآية عن الإفساد فى الأرض ومن الإفساد التحاكم إلى غير الله ورسوله. اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد:

وقال القرعاوى (٥): حيث تضمنت الآية النهى عن التحاكم إلى غير الله ورسوله لأن ذلك منافى لشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. اهـ.

قوله: «ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها»

الإعراب (٦):

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ كلام مستأنف مسوق لتحذير البشر من الفساد

(٢) الجامع الفريد (١٥٦).

(٦) رعراب القرآن ٣٦٩.

(١) فتح المجيد ٦٦١/٢.

(٤ - ٥) الجديد ٣٤٢.

(*) الأعراف : ٥٦ .

(٣) القول المفيد ٣٤٢/٢ .

فى الأرض. و(لا) ناهية، و(تفسدوا) فعل مضارع مجزوم بلا، و(فى الأرض) جار ومجرور متعلقان بتفسدوا، و(بعد) ظرف متعلق بتفسدوا أيضاً، و(إصلاحها) مضاف إليه.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن أبى صالح فى قوله «وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا» قال: بعدما صلحها الأنبياء وأصحابهم^(١).

عن أبى بكر بن عياش أنه سئل عن قوله «وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا» فقال: إن الله بعث محمداً إلى أهل الأرض وهم فى فساد فأصلحهم الله بمحمد ﷺ، فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين فى الأرض^(٢).

عن أبى سنان فى قوله: «وَلَا تُفْسِدُوا...» قال: قد أحللت حلالى وحرمت حرامى وحددت حدودى فلا تعتدوا^(٣).

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(٤): يعنى تعالى ذكره بقوله «وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا» لاتشركوا بالله فى الأرض، ولا تعصوه فيها؛ وذلك هو الفساد فيها وقد ذكرنا الرواية فى ذلك فيما مضى، وبيننا معناه بشواهد «بَعْدَ إِصْلَاحِهَا» بقول بعد إصلاح الله إياها لأهل طاعته باتباعه فيهم الرسل دعاء إلى الحق وإيضاحه حجة لهم. اهـ.

قال البغوى^(٥): قوله تعالى «وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا». أى لاتفسدوا فيها بالمعاصى والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل. وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله، وهذا معنى قول الحسن، والسدى، والضحاك، والكلبى.

وقال عطية: لاتعصوا فى الأرض فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم، فعلى هذا معنى قوله: «بَعْدَ إِصْلَاحِهَا» أى بعد إصلاح الله إياها بالمطر والخصب.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (١٧٢/٣) ونسبه لابن أبى حاتم.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) تفسير الطبرى ٨/٥ / ١٤٧.

(٥) معالم التنزيل ٤٨٣.

قال ابن الجوزي (١): قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فيه ستة

أقوال:

أحدها: لاتفسدوها بالكفر بعد إصلاحها بالإيمان.

والثاني: لاتفسدوها بالظلم بعد إصلاحها بالعدل.

الثالث: لاتفسدوها بالمعصية بعد إصلاحها بالطاعة.

والرابع: لاتعصوا، فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم بعد أن أصلحها بالمطر والخصب.

الخامس: لاتفسدوها بقتل المؤمن بعد إصلاحها ببقائه.

والسادس: لاتفسدوها بتكذيب الرسل بعد إصلاحها بالوحي.

قال الرازي (٢):

قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ معناه ولا تفسدوا شيئاً في الأرض فيدخل فيه المنع من إفساد النفوس بالقتل ويقطع الأعضاء، وإفساد الأموال بالغصب والسرقة ووجوه الخيل وإفساد الأديان بالكفر والبدعة، وإفساد الأنساب بسبب الأقدام على الزنا واللواطه وسبب القذف، وإفساد العقول بسبب شرب المسكرات، وذلك لأن المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة: النفوس والأموال والأنساب والأديان والعقول.

فقوله ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ منع عن إدخال ماهية الإفساد في الوجود، والمنع من إدخال الماهية في الوجود يقتضي المنع من جميع أنواعه وأصنافه، فيتناول المنع من الإفساد في هذه الإقسام الخمسة.

وأما قوله ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فيحتمل أن يكون المراد بعد أن أصلح خلقتها على الوجه المطابق لمنافع الخلق والموافق لمصالح المكلفين.

ويحتمل أن يكون المراد بعد إصلاح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب كأنه تعالى قال: لما أصلحت مصالح الأرض بسبب إرسال الأنبياء وإنزال الكتب وتفصيل الشرائع فكونوا متقادين لها، ولا تقدموا على تكذيب الرسل وإنكار الكتب والتمرد عن

(١) زاد المسير ١٦٥/٣.

(٢) التفسير الكبير ١٣٩/٧/٤، ١٤٠.

قبول الشرائع، فإن ذلك يقتضى وقوع الهرج والمرج فى الأرض، فيحصل الإفساد بعد الإصلاح، وذلك مستكره فى بداهة العقول.

مسألة: هذه الآية تدل على أن الأصل فى المضار الحرمه والمنع على الإطلاق.

إذا ثبت هذا فنقول: إن وجدنا نصاً خاصاً دل على جواز الإقدام على بعض المضار قضينا به تقديماً للخاص على العام وإلا بقى على التحريم الذى دل عليه هذا النص.

واعلم أنا كنا قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ أن هذه الآية تدل على أن الأصل فى المنافع والملاذات الإباحة والحل، ثم بينا أنه لما كان الأمر كذلك دخل تحت تلك الآية جميع أحكام الله تعالى، فكذلك فى هذه الآية أنها تدل على أن الأصل فى المضار والآلام: الحرمه.

وإذا ثبت هذا كان جميع أحكام الله تعالى داخلاً تحت عموم هذه الآية، وجميع ما ذكرناه من المباحث واللطائف فى تلك الآية فهى موجودة فى هذه الآية، فتلك الآية دالة على أن الأصل فى المنافع الحل، وهذه الآية دالة على أن الأصل فى جميع المضار الحرمه، وكل واحدة من هاتين الآيتين مطابقة للآخرى مؤكدة لدلولها مقررمة لمعناها، وتدل على أن أحكام جميع الوقائع داخله تحت هذه العمومات.

وأيضاً هذه الآية دالة على أن كل عقد وقع التراضى عليه بين الخصمين فإنه انعقد وصح وثبت، لأن رفعه بعد ثبوته يكون إفساداً بعد الإصلاح، والنص يدل على أنه لا يجوز.

إذا ثبت هذا فنقول: أن مدلول هذه الآية من هذا الوجه متأكد بعموم قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ وبعموم قوله تعالى: ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كِبَر مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ وتحت سائر العمومات الواردة فى وجوب الوفاء بالعهود والعقود.

إذا ثبت هذا فنقول: إن وجدنا نصاً دالاً على أن بعض العقود التى وقع التراضى به من الجانبين غير صحيح، قضينا فيه بالبطلان تقديماً للخاص على العام، وإلا حكمنا فيه بالصحة رعاية لدلول هذه العمومات.

وبهذا الطريق البين الواضح ثبت أن القرآن واف ببيان جميع أحكام الشريعة من أولها إلى آخرها. اهـ.

قال القرطبي (١): قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فيه مسألة واحدة - وهو أنه سبحانه نهى عن كل فساد قل أو كثر بعد صلاح قل أو كثر.

فهو على العموم على الصحيح من الأقوال.

وقال الضحاك: معناه لا تعوروا الماء المعين، ولا تقطعوا الشجر المثمر ضراراً.

وقد ورد: قطع الدنانير من الفساد في الأرض.

وقد قيل، تجارة الحكام من الفساد في الأرض.

وقال القشيري: المراد ولا تشركوا؛ فهو نهى عن الشرك وسفك الدماء والهرج في الأرض. وأمر بلزوم الشرائع بعد إصلاحها بعد أن أصلحها الله ببعثة الرسل وتقدير الشرائع ووضوح ملة محمد ﷺ.

قال ابن عطية: وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصه بالذكر.

قلت: وأما ما ذكره الضحاك فليس على عموم، وإنما ذلك إذا كان فيه ضرر على المؤمن، وأما ما يعود ضرره على المشركين فذلك جائز؛ فإن النبي ﷺ قد عور ماء قليب بدر وقطع شجر الكافرين. اهـ.

قال الشوكاني (٢): قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ نهاهم الله سبحانه عن الفساد في الأرض بوجه من الوجوه قليلاً كان أو كثيراً وأمنه: قتل الناس، وتخريب منازلهم وقطع أشجارهم، وتغيير أنهارهم. ومن الفساد في الأرض: الكفر بالله والوقوف في معاصيه ومعنى ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: بعد أن أصلحها الله بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وتقرير الشرائع. اهـ.

وقال السعدى (٣): ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بعمل الماضي ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بالطاعات، فإن المعاصي، تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ كما أن الطاعات، تصلح بها، الأخلاق، والأعمال والأرزاق، وأحوال الدنيا والآخرة. اهـ.

قال صاحب «الظلال» (٤): وفي ظل مشهد التضرع في الدعاء، وهيئة الخشوع والانكسار فيه لله. ينهى عن الاعتداء على سلطان الله، فيما يدعونه لأنفسهم في الجاهلية -

(٢) فتح القدير ٢/ ٢٢٢

(٤) ٤/ ١٢٩٨

(١) تفسير القرطبي ٤/ ٢٦٦٢، ٢٦٦٣

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١١٨

من الحاكمة التى لا تكون إلا لله . كما ينهى عن الفساد فى الأرض بالهوى ، وقد أصلحها الله بالشريعة . . والنفس التى تتضرع وتخضع خفية للقريب المجيب ، لاتعتدى كذلك ولا تنفسد فى الأرض بعد إصلاحها . . فبين الانفعاليين اتصال داخلى وثيق فى تكوين النفس والمشاعر . والمنهج القرآنى يتبع خلجات القلوب وانفعالات النفوس . وهو منهج من خلق الذى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال سليمان آل الشيخ:

قال أبو بكر^(١): قال أبو بكر بن عياش فى الآية: إن الله بعث محمداً ﷺ إلى أهل الأرض، وهم فى فساد فأصلحهم الله بمحمد ﷺ فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين فى الأرض.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يشمل الفساد المادى والمعنوى كما سبق.

قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

من قبل المصلحين، ومن ذلك الوقوف ضد دعوة أهل العلم، والوقوف ضد دعوة السلف، وضد من ينادى بأن يكون الحكم بما فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقوله ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ من باب تأكيد اللوم والتوبيخ إذ كيف يفسد الصالح وهذا غاية ما يكون من الوقاحة والخبث والشر؟ فالإفساد بعد الإصلاح أعظم وأشد من أن يَمْضَى الإنسان فى فساد قبل الإصلاح، وإن كان المطلوب هو الإصلاح بعد الفساد. اهـ.

فوائد:

قال القرعاوى^(٣):

- ١- النهى عن الإفساد فى الأرض على أى وجه كان.
- ٢- كل صلاح فى الأرض فسيبه طاعة الله ورسوله.
- ٣- الإعراض عن شرع الله سبب لجميع الشرور وواقع المسلمين يشهد لذلك .

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٢٥، ٤٢٦

(٢) القول المفيد ٣٤٢/٢

(٣) الجديد (٣٤٢).

٤- يسير المسلم إلى الله بين الخوف والرجاء.

٥- إثبات صفة الرحمة لله على وجه يليق بمقامه.

قوله ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

الإعراب^(١): عطف على ماتقدم، و(خوفاً وطمعاً) منصوبان على الحال، أى : خائفين وطماعين، أو على أنهما صفة لمصدر محذوف أو على أنهما مفعولان لأجلهما.

● ما جاء فى تفسيرها من آثار:

عن ابن عباس فى قوله « وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا » قال : خوفًا منه ، وطمعاً لماعنده ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعنى من المؤمنين ومن لم يؤمن بالله فهو من المفسدين^(٢).

عن مطر الوراق قال : تنجزوا موعود الله بطاعة الله، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين^(٣):

● ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(٤): (ادعوه خوفًا وطمعاً) يقول وأخلصوا له الدعاء والعمل ولا تشركوا فى عملكم له شيئاً غيره من الآلهة والأصنام وغير ذلك وليكن ما يكون منكم فى ذلك خوفاً من عقابه وطمعاً فى ثوابه وإن من كان دعاؤه إياه على غير ذلك فهو بالآخرة من المكذبين لأن من لا يخف عقاب الله ولم يرج ثوابه لم يبال ماركب من أمر يسخطه الله ولا يرضاه. اهـ.

قال البغوى^(٥): قوله تعالى ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾. أى خوفاً منه ومن عذابه وطمعاً فيما عنده من مغفرته وثوابه، وقال ابن جريج: خوف العدل وطمع الفضل. اهـ.

قال ابن الجوزى^(٦): وفى قوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قولان:

أحدهما: خوفاً عن عقابه، وطمعاً فى ثوابه.

والثانى: خوفاً من الردّ وطمعاً فى الإجابة.

(١) الإعراب (٣٦٩).

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (١٧٢/٣) ونسبه لأبى الشيخ.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.

(٤) تفسير الطبرى ١٤٧/٨/٥. (٥) معالم التنزيل ٤٨٣ / ٢.

(٦) زاد المسير ١٦٥ / ٣.

قال الرازي (١): ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وفيه سؤالات:

السؤال الأول: قال فى أول الآية ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ ثم قال ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ ثم قال ﴿وَادْعُوهُ﴾ وهذا يقتضى عطف الشيء على نفسه وهو باطل.

والجواب: أن الذين قالوا فى تفسير قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ أى اعبدوه، إنما قالوا ذلك خوفا من هذا الاشكال.

فإن قلنا بهذا التفسير فقد زال السؤال، وإن قلنا المراد من قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ هو الدعاء كان الجواب أن قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ يدل على أن الدعاء لابد وأن يكون مقروناً بالتضرع وبالإخفاء، ثم بين فى قوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أن فائدة الدعاء هو أحد هذين الأمرين، فكانت الآية الأولى فى بيان شرط صحة الدعاء، والآية الثانية فى بيان فائدة الدعاء ومنفعته.

المراد: وادعوه مع الخوف من وقوع التقصير، فى بعض الشرائط المعتبرة فى قبول ذلك الدعاء، ومع الطمع فى حصول تلك الشرائط بأسرها، وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل؟

سؤال: هل تدل هذه الآية على أن الداعى لا بد وأن يحصل فى قلبه هذا الخوف والطمع؟

الجواب قال الرازي: أن العبد لا يمكنه أن يقطع بكونه آتيا بجميع الشرائط المعتبرة فى قبول الدعاء ولأجل هذا المعنى يحصل الخوف، وأيضا لا يقطع بأن تلك الشرائط مفقودة فوجب كونه طامعا فى قبولها فلا جرم.

قلنا: بأن الداعى لا يكون داعيا إلا إذا كان كذلك فبقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أى أن تكونوا جامعين فى نفوسكم بين الخوف والرجاء فى كل أعمالكم، ولا تقطعوا أنكم وإن اجتهدتم فقد أديتم حق ربكم. ويتأكد هذا بقوله: ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾. اهـ.

قال القرطبي (٢): ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أمر بأن يكون الإنسان فى حالة تقرب وتخوف وتأميل لله عز وجل، حتى يكون الرجاء والخوف للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه فى طريق استقامته. وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان، قال الله تعالى: ﴿نَبِيٌّ

(٢) تفسير القرطبي ٤ / ٢٦٦٣.

(١) التفسير الكبير ٧ / ١٤ - ١٤٠ - ١٤١.

عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿١﴾ فَرَجِّيْ وَخَوْفٍ . فیدعو الإنسان خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه ؛ قال الله تعالى : ﴿وَيَدْعُونَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ .

والخوف : الانزعاج لما لا يؤمن من المضار .

والطمع : توقع المحبوب ؛ قاله القشيري .

وقال بعض أهل العلم : ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة ، فإذا جاء الموت غلب الرجاء . قال النبي ﷺ : «لَا يَمُوتُنْ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يَحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ» (*) . صحيح أخرجه مسلم . اهـ .

قال الشوكاني (١) : قوله : ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فيه أنه يشرع للداعي أن يكون عند دعائه خائفاً ورجاءاً طامعاً في إجابة الله لدعائه . فإنه إذا كان عند الدعاء جامعاً بين الخوف والرجاء ، ظفر بمطلوبه ، والخوف : الانزعاج من المضار التي لا يؤمن من وقوعها . والطمع : توقع حصول الأمور المحبوبة .

قال السعدي (٢) : ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي : خوفاً من عقابه ، وطمعاً في ثوابه . طمعاً في قبولها ، وخوفاً من ردها ، لا دعاء عبد مدل على ربه قد أعجبتة نفسه ، ونزل نفسه فوق منزلته ، أو دعاء من هو غافل لاه .

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء : الإخلاص فيه لله وحده ، لأن ذلك يتضمنه الخفية .

وإخفاؤه وإسراره ، أن يكون القلب خائفاً طامعاً ، لا غافلاً ، ولا آمناً ولا غير مبال بالإجابة ، وهذا من إحسان الدعاء فإن الإحسان في كل عبادة ، بذل الجهد فيها ، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، ولهذا قال : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

قوله : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

الإعراب (٣) : الجملة تعليل لما ذكر ، و(إن) واسمها ، و(قريب) خبرها ، و(من) المحسنين) جار ومجرور متعلقان بقريب .

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين :

قال الطبري (٤) : ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

(*) تقدم تخريجه . (١) فتح القدير ٢/ ٢٢٢ . (٢) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١١٨ .

(٣) إعراب القرآن / ٣٦٩ . (٤) تفسير الطبري ٤/ ١٤٧ و ١٤٨ .

يقول تعالى ذكره أن ثواب الله الذي وعد المحسنين على إحسانهم في الدنيا قريب منهم وذلك هو رحمته لأنه ليس بينهم وبين أن يصيروا إلى ذلك من رحمته وما أعد لهم من كرامته إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم ولذلك من المعنى ذكر قوله قريب وهو من خبر الرحمة والرحمة مؤنثة لأنه أريد به القرب في الوقت لافى النسب والأوقات بذلك المعنى إذا رفعت أخبار الاسماء أجرتها العرب مجرى الحال فوحدتها مع الواحد والاثنين والجميع وذكرتها مع المؤنث فقالوا كرامة الله بعيد من فلان وهى قريب من فلان كما يقولون هند قريب منا والهندان منا قريب والهندات منا قريب لأن معنى ذلك هى فى مكان قريب منا فاذا حذفوا المكان وجعلوا القريب خلفاً منه ذكروه ووحدوه فى الجمع كما كان المكان مذكراً وموحداً فى الجمع وأما اذا أنشؤه أخرجوه مثنى مع الاثنين ومجموعاً مع الجميع فقالوا هى قريباً منا وهما منا قريبتان كما قال عروة بن الورد.

عشية لاعفراء منك قرية فندنوا ولا عفراء منك بعيد

فأنت قرية وذكر بعيداً على ما وصفت ولو كان القريب من القرابة فى النسب لم يكن مع المؤنث إلا مؤنثاً ومع الجمع إلا مجموعاً، وكان بعض نحويى البصرة يقول ذكر قريب وهو صفة للرحمة؛ وذلك كقول العرب (ريح خريق) و(ساحفة حديد) و(شاة سديس) قال: وإن شئت قلت تفسير الرحمة ههنا المطر ونحوه فلذلك ذكر كما قال: ﴿وإن كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا﴾ فذكر لأنه أراد الناس وإن شئت جعلته كبعض ما يذكرون من المؤنث كقول الشاعر:

* ولا أرض أبقل أبقالها *

وقد أنكر ذلك من قبله بعض أهل العربية، ورأى أنه يلزمه أن جاز أن يذكر قريباً توجيهاً منه للرحمة إلى معنى المطر أن يقول (هند قام) توجيهاً منه لهند وهى امرأة الى معنى إنسان ورأى أن مشابهة به قوله ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بقوله: ﴿وإن كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا﴾ غير مشبهة وذلك أن الطائفة فيما زعم مصدر بمعنى الطيف كما الصيحة والصياح بمعنى ولذلك قيل: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ اهـ.

قال البغوى^(١): قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. ولم يقل قرية

(١) معالم التنزيل ٢/ ٤٨٣ و ٤٨٤.

قال سعيد بن جبير: الرحمة ههنا الثواب، فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ كقوله : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ ولم يقل منها، لأنه أراد الميراث والمال.

وقال الخليل بن أحمد: القريب والبعيد يستوى فيهما المذكر والمؤنث. والواحد والجمع.

قال أبو عمرو بن العلاء: القريب في اللغة يكون بمعنى القرب وبمعنى المسافة، تقول العرب: هذه امرأة قريبة منك إذا كانت بمعنى القرابة. وقريب منك إذا كانت بمعنى المسافة. اهـ.

قال ابن الجوزي^(١): قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال الفراء: رأيت العرب تؤنث القرية في النسب لا يختلفون في ذلك فإذا قالوا دارك منا قريب أو فلانة منا قريب من القرب والبعيد ذكروا وأنثوا وذلك أنهم جعلوا القريب خلفاً من المكان، كقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبِيعْدٍ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾^(٣) ولو أنث ذلك لكان صواباً.

وقال الزجاج: إنما قيل: «قريب» لأن الرحمة والغفران والعفو بمعنى واحد وكذلك كل تأنيث ليس بحقيقي. اهـ.

وقال الاخفش: جائز أن تكون الرحمة هاهنا في معنى المطر. اهـ.

قال الرازي: لقائل أن يقول مقتضى علم الإعراب أن يقال: إن رحمة الله قريبة من المحسنين فما السبب في حذف علامة التأنيث؟

ذكروا في الجواب عنه وجوها.

الأول: أن الرحمة تأنيثها ليس بحقيقي وما كان كذلك فإنه يجوز فيه التذكير والتأنيث عند أهل اللغة.

الثاني: قال الزجاج: إنما قال (قريب) لأن الرحمة والغفران والعفو والإنعام بمعنى واحد فقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بمعنى إنعام الله قريب وثواب الله قريب فاجرى حكم أحد اللفظين على الآخر.

الثالث: قال النضر بن شميل: الرحمة مصدر ومن حق المصادر التذكير كقوله:

(١) زاد المسير ٣/١٦٥.

(٢) هود: ٨٣.

(٣) الاحزاب: ٦٣.

﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾ فهذا راجع الى قول الزجاج لأن الموعظة أريد بها الرعظ، فلذلك ذكره قال الشاعر:

إن السماحة وبالمروءة ضمنا قبرا بمرء على الطريق الواضح

قيل: أراد بالسماحة السخاء وبالمروءة الكرم.

الرابع: أن يكون التأويل إن رحمة الله ذات مكان قريب من المحسنين كما قالوا: حائض ولابن وتامر أى ذات حيض ولبن وتمر.

قال الواحدى: أخبرنى العروضى عن الأزهري عن المنذرى عن الحرانى عن ابن السكيت قال تقول العرب هو قريب منى وهما قريب منى وهم قريب منى وهى قريب منى، لأنه فى تأويل هو فى مكان قريب منى وقد يجوز أيضاً قريبة وبعيدة تنبئها على معنى قريب وبعدت بنفسها.

قال الرازى^(٤): قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا فى أن الرحمة عبارة عن إيصال الخير والنعمة أو عن إرادة إيصال الخير والنعمة، فعلى التقدير الأول تكون الرحمة من صفات الأفعال، وعلى هذا التقدير الثانى تكون من صفات الذات.

المسألة الثانية: قال بعض أصحابنا: ليس لله فى حق الكافر رحمة ولا نعمة. واحتجوا بهذه الآية.

وبيانه: أن هذه الآية تدل على أن كل ما كان رحمة فهى قريبة من المحسنين، فيلزم أن يكون كل ما لا يكون قريباً من المحسنين، لا يكون رحمة، والذي حصل فى حق الكافر غير قريب من المحسنين، فوجب أن لا يكون رحمة من الله ولا نعمة منه.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: الآية تدل على أن رحمة الله قريب من المحسنين، فلما كان كل هذه الماهية حصل للمحسنين وجب أن لا يحصل منها نصيب لغير المحسنين، فوجب أن لا يحصل شئ من رحمة الله فى حق الكافرين، والعفو عن العذاب رحمة، والتخلص من النار بعد الدخول فيها رحمة، فوجب أن لا يحصل ذلك لمن لم يكن من المحسنين، والعصاة وأصحاب الكبائر ليسوا محسنين، فوجب أن لا يحصل لهم العفو عن العقاب، وأن لا يحصل لهم الخلاص من النار.

والجواب: أن من آمن بالله وأقر بالتوحيد والنبوة، فقد أحسن بدليل أن الصبى إذا بلغ وقت الضحوة، وآمن بالله ورسوله واليوم الآخر ومات قبل الوصول الى الظهر فقد

(١) التفسير الكبير ١٤/٧ - ١٤١ - ١٤٣.

أجمعت الأمة على أنه دخل تحت قوله (للذين أحسنوا الحسنى) ومعلوم أن هذا الشخص لم يأت بشيء من الطاعات سوى المعرفة والإقرار، لأنه لما بلغ بعد الصبح لم تجب عليه صلاة الصبح، ولما مات قبل الظهر لم تجب عليه صلاة الظهر، وظاهره أن سائر العبادات لم تجب عليه. فثبت أنه محسن، وثبت أنه لم يصدر منه إلا المعرفة والإقرار، فوجب كون هذا القدر إحساناً، فيكون فاعله محسناً.

إذا ثبت هذا فنقول: كل من حصل له الإقرار والمعرفة كان من المحسنين، ودلت هذه الآية على أن رحمة الله قريب من المحسنين، فوجب بحكم هذه الآية أن تصل إلى صاحب الكبيرة من أهل الصلاة رحمة الله، وحيثئذ تنقلب هذه الآية حجة عليهم.

فإن قالوا: المحسنون هم الذين أتوا بجميع وجوه الإحسان.

فنقول: هذا باطل، لأن المحسن من صدر عنه مسمى الإحسان وليس من شرط كونه محسناً أن يكون آتياً بكل وجوه الإحسان كما أن العالم هو الذى له العلم وليس من شرطه أن يحصل جميع أنواع العلم. فثبت أن السؤال الذى ذكروه ساقط وأن الحق ما ذهبنا إليه.

المسألة الرابعة: تفسير هذا القرب هو أن الإنسان يزداد فى كل لحظة قريباً من الآخرة، وبعداً من الدنيا، فإن الدنيا كالماضى، والآخرة كالمستقبل، والإنسان فى كل ساعة ولحظة ولمحة يزداد بعداً عن الماضى، وقرباً من المستقبل. ولذلك قال الشاعر:

فلا زال ما تهواه أقرب من غد ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

ولما ثبت أن الدنيا تزداد بعداً فى كل ساعة، وأن الآخرة تزداد قرباً فى كل ساعة، وثبت أن رحمة الله إنما تحصل بعد الموت، لاجرم ذكر الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بناء على هذا التأويل. اهـ.

قال القرطبي^(١): قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل قريبة. فيه سبعة أوجه:

أولها: أن الرَّحْمَةَ والرَّحْمَ واحد، وهى بمعنى العفو والغفران، قاله الزجاج واختاره النحاس.

وقال النضر بن شميل: الرحمة مصدر، وحق المصدر التذكير، كقوله: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾. وهذا قريب من قول الزجاج؛ لأن الموعظة بمعنى الوعظ.

(١) تفسير القرطبي: ٤/ ٢٦٦٣ و ٢٦٦٤.

وقيل: أراد بالرحمة الإحسان، ولأن ما لا يكون تأنيته حقيقةً جاز تذكيره؛ ذكره الجوهرى.

وقيل: أراد بالرحمة هنا المطر؛ قاله الأخفش. ويجوز أن يذكر كما يذكر بعض المؤنث. وأنشد:

فلا مُرْنَةٌ وَدَقَّتْ وَدَقَّتْهَا ولا أَرْضٌ أَبْقَلَ يُقَالُهَا

وقال أبو عبيدة: ذَكَرَ «قريب» على تذكير المكان، أى مكاناً قريباً.

قال على بن سليمان: وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان «قريب» منصوباً فى القرآن؛ كما تقول: إن زيدا قَرِيبٌ منك.

وقيل: ذَكَرَ على النسب؛ كأنه قال: إن رحمة الله ذات قُرْبٍ؛ كما تقول: امرأة طالق وحائض.

وقال الفراء: إذا كان القريب فى معنى المسافة يذكر ويؤنث، وإن كان فى معنى النسب يؤنث بلا اختلاف بينهم. تقول: هذه المرأة قريبتى، أى ذات قرابتى؛ ذكره الجوهرى.

وذكر غيره عن الفراء: يقال فى النسب قرية فلان، وفى غير النسب يجوز التذكير والتأنيث؛ يقال: دارك منا قريب، وفلانة منا قريب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾. وقال من أحتج له: كذا كلام العرب كما قال امرؤ القيس:

له الوَيْلُ إِنْ أَمْسَى وَلَا أُمَّ هَاشِمٍ قَرِيبٌ وَلَا الْبَسْبَاسَةُ ابْنَةُ يَشْكُرًا

قال الزجاج: هذا خطأ؛ لأن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالها.

قال الشوكانى^(١): قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: هذا إخبار من الله سبحانه بأن رحمته قريبة من عباده المحسنين بأى نوع من الأنواع كان إحسانهم. وفى هذا ترغيب للعباد إلى الخير وتنشيط لهم. فإن قرب هذه الرحمة التى يكون بها الفوز بكل مطلب مقصود لكل عبد من عباد الله.

وقد اختلف أئمة اللغة والإعراب فى وجه تذكير خبر رحمة الله، حيث قال: «قريب» ولم يقل: قريبة، فقال الزجاج: إن الرحمة مؤولة بالرحم لكونها بمعنى: العفو والغفران. ورجح هذا التأويل النحاس. وقال النضر بن شميل: الرحمة مصدر بمعنى: الترحم. وحق المصدر التذكير. اهـ.

(١) فتح القدير ٢/٢٢٢.

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١).

قال ناصر السعدى^(٢): ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فى عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله.

فكلما كان العبد أكثر إحساناً، كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريباً منه برحمته. وفى هذا الحث على الإحسان، ما لا يخفى. اهـ.

قال الشنقيطى^(٣): ووجه تذكير وصف الرحمة مع أنها مؤنثة فى قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ ولم يقل قريبة، فيه للعلماء أقوال تزيد على العشرة: نذكر منها إن شاء الله بعضاً، ونترك ما يظهر لنا ضعفه أو بعده عن الظاهر.

ومنها: أن الرحمة مصدر بمعنى الرحم، فالتذكير باعتبار المعنى.

ومنها: أن من أساليب اللغة العربية أن القرابة إذا كانت قرابة نسب تعين التأنيث فيها فى الأثنى فتقول: هذا المرأة قريبتى أى فى النسب ولا تقول: قريب منى؛ وإن كانت قرابة مسافة جاز التذكير والتأنيث. فتقول: داره قريب وقريبة منى، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾^(٤).

ومنها: أن وجه ذلك إضافة الرحمة إلى الله جل وعلا.

ومنها: أن قوله ﴿قَرِيبٌ﴾ صفة موصوف محذوف أى شئ قريب من المحسنين.

ومنها: أنها شبهت بفعيل بمعنى مفعول الذى يستوى فيه الذكر والأنثى.

ومنها: أن الأسماء التى على فعيل ربما شبهت بالمصدر الآتى على فعيل، فأفردت لذلك؛ قال بعضهم: ولذلك أفرد الصديق فى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ

صَدِيقُكُمْ﴾^(٥)، وقوله الشاعر:

وهن صديق لمن لم يشب اهـ



قوله: «أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون».

● تنبيه: هذه الآيات من سورة المائدة قد قال ابن تيمية^(٦) فى هذه السورة: سورة المائدة أجمع سورة فى القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريم، والأمر والنهى؛

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١١٨/٢.

(٤) الشورى: ١٧.

(٦) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٤٨).

(١) المائدة آية / ٥٠.

(٣) أضواء البيان / ٢٤١.

(٥) النور: ٦١.

ولهذا روى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي آخر القرآن نزولاً، فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها»^(١) ولهذا أفتحت بقوله: «أوفوا بالعقود»، والعقود هي العهود، وذكر فيها من التحليل والتحريم، والإيجاب مالم يذكر في غيرها. . . اهـ.

- مناسبة الآية للبَاب:

قال سليمان آل الشيخ: في الآية إشارة إلى أن من ابتغى غير حكم الله ورسوله فقد ابتغى حكم الجاهلية كائناً ما كان. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله^(٢): أن من عدل عن الكتاب والسنة وفضل حكم الجاهلية عليها فقد حكم بالطاغوت. اهـ.

- مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوي^(٣): دل الحديث على تحريم التحاكم إلى غير ما جاء به رسول الله ﷺ لأن ذلك منافي للشهادتين المتلازمتين.

الإعراب^(٤): قوله: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ» الكلام معطوف على ما تقدم، مسوق لبيان غمط من تعتتهم، وجريهم على سبيل الباطل. والهمزة للاستفهام الإنكارى، والفاء عاطفة على مقدّر يقتضيه المقام، أى أيتولون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية؟ (حكم) مفعول به مقدم لقوله: (يبغون)، و(الجاهلية) مضاف إليه، ويبغون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعل.

● سبب النزول:

عن عروة قال: كانت تسمى الجاهلية العالمية حتى جاءت امرأة فقالت: يا رسول الله، كان في الجاهلية كذا وكذا. فأنزل الله ذكر الجاهلية^(٥).

قال ابن الجوزي^(٦): وسبب نزولها: أن النبي ﷺ لما حكم بالرّجم على اليهوديين تعلّق بنو قريظة ببنى النضير، وقالوا: يا محمد هؤلاء إخواننا، أبونا واحد، وديننا واحد، إذا قتلوا منا قتيلاً أعطونا سبعين وسقاً من تمر، وإن قتلنا منهم واحداً أخذوا منا

(١) أخرجه أحمد في «مسند» (١٨٨/٦)، والنسائي في «تفسيره» (١٥٨) عن عائشة به.

وانظر «الائقان» للسيوطي (٢٩٩ - بتحريجنا).

(٢) الجامع الفريد ١٥٧. (٣) الجديد ٣٤٦. (٤) إعراب القرآن / ٤٩٨.

(٥) ذكره السيوطي في «الدر» (٥١٤/٢) ونسبه لابن أبي حاتم فانظره بتحريجنا.

(٦) زاد المسير ٢٢٢/٢ - ٢٢٣.

أربعين ومائة وسق، وإن قتلنا منهم رجلاً قتلوا به رجلين، وإن قتلنا امرأة قتلوا بها رجلاً، فاقض بيننا بالعدل، فقال رسول الله ﷺ: «ليس لبنى النضير على بنى قريظة فضل فى عقل ولا دم» فقال بنو النضير: والله لا نرضى بقضائك، ولا نطيع أمرك، ولناخذن بأمرنا الأول، فتزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. اهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من الآثار:

عن مجاهد: فى قول الله (أفحكم الجاهلية يبغون) قال أفحكم الجاهلية يبغون يهود^(١).

عن قتادة فى قوله: ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ﴾ قال: هذا فى قتل اليهود، أن أهل الجاهلية كان يأكل شديدهم ضعيفهم وعزيزهم ذليلهم. قال: ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ﴾^(٢).

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «أبغض الناس الى الله مبتغ فى الإسلام سنة جاهلية، وطالب امرئ بغير حق ليريق دمه»^(٣).

عن السدى قال: الحكم حكمان: حكم الله، وحكم الجاهلية، ثم تلا هذه الآية: ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٤).

قال ابن كثير: وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هلال بن فياض حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح، قال: كان طاوس إذا سأله رجل: أفضل بين ولدى فى النحل؟ قرأ ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ﴾ الآية.

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(٥): يقول تعالى ذكره أيغى هؤلاء اليهود الذين احتكموا إليك فلم يرضوا بحكمك وقد حكمت فيهم بالقسط حكم الجاهلية يعنى أحكام عبدة الأوثان من أهل الشرك وعندهم كتاب الله فيه بيان حقيقة الحكم الذى حكمت به فيهم وأنه الحق الذى لا يجوز خلافه. اهـ.

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٧٧/٦) وذكره السيوطى فى «الدر» (٥١٤/٢).

وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥١٤/٢) ونسبه لعبد بن حميد.

(٣) أخرجه البخارى (٦٨٨٢) وانظر «الدر» (٥١٤/٢).

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٥١٤/٢) ونسبه لأبى الشيخ.

(٥) تفسير الطبرى ١٧٧ / ٦ / ٥.

قال الرازي^(١): وفى الآية وجهان:

الأول: قال مقاتل: كانت بين قريظة والنضير دماء قبل أن يبعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام، فلما بعث تحاكموا إليه، فقالت بنو قريظة: بنو النضير إخواننا، أبونا واحد، وديننا واحد، وكتابنا واحد ثم ذكره الأثر باللفظ المتقدم.

قال الرازي^(٢): «أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ» يعنى حكمهم الأول. وقيل: إنهم كانوا إذا وجب الحكم على ضعفائهم ألزموهم إياه، وإذا وجب على أقويائهم لم يأخذوهم به، فمنعهم الله تعالى منه بهذه الآية.

الثانى: أن المراد بهذه الآية أن يكون تعبيراً لليهود بأنهم أهل كتاب وعلم مع أنهم ييغون حكم الجاهلية التى هى محض الجهل وصريح الهوى.

ثم قال^(٣): قوله تعالى: «أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ» قرأ الجمهور «ييغون» بالياء، لأن قبله غيبة، وهى قوله: «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ». وقرأ ابن عامر «تبغون» بالتاء، على معنى: قل لهم.

قال القرطبي: قرأ ابن وثاب والنخعي: «أَفْحَكُمُ» بالرفع على معنى ييغونه؛ فحذف الهاء كما حذفها أبو النجم فى قوله:

قد أصبحت أم الحِيارِ تدعى على ذنباً كله لم أضنع

فيمن روى «كله» بالرفع. ويجوز أن يكون التقدير: أفحكم الجاهلية حكم ييغونه، فحذف الموصوف.

وقرأ الحسن وقتادة والأعرج والأعمش «أَفْحَكُمُ» بنصب الحاء والكاف وفتح الميم؛ وهى راجعة إلى معنى قراءة الجماعة إذ ليس المراد نفس الحكم، وإنما المراد الحكم؛ فكأنه قال: أفحكم حكم الجاهلية ييغون. وقد يكون الحكم والحاكم فى اللغة واحداً وكأنهم يريدون الكاهن وما أشبهه من حكام الجاهلية؛ فيكون المراد بالحكم الشيوع والجنس، إذا لا يراد به حاكم بعينه؛ وجاز وقوع المضاف جنساً كما جاز فى قولهم: «منعت مصر إردبها» وشبهه.

وقرأ ابن عامر «تبغون» بالتاء، والباقون بالياء. اهـ.

قال الزجاج^(٤): ومعنى الآية: أنطلب اليهود حكماً لم يأمر الله به، وهم أهل كتاب الله، كما تفعل الجاهلية؟!.

(١) زاد المسير ٢/ ٢٢٣.

(٢) زاد المسير ٢/ ٢٢٢.

(٣) التفسير الكبير ٧/ ١٤/ ١٧.

قال القرطبي^(١): قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ «أفحكم» نصب بـ «يبغون» والمعنى أن الجاهلية كانوا يجعلون حكم الشريف خلاف حكم الوضع وكانت اليهود تقيم الحد على الضعفاء الفقراء ولا يقيمونه على الأقوياء الأغنياء، فصارعوا الجاهلية في هذا الفعل.

روى سفيان ابن عيينه عن ابن أبي نجيح عن طاوس قال كان إذا سألوه عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض يقرأ هذه الآية ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ فكان طاوس يقول: ليس لأحد أن يفضل بعض ولده على بعض فإن فعل لم ينفذ وفسخ.

وبه قال أهل الظاهر.

وروى عن أحمد بن حنبل مثله، وكره الثوري وابن المبارك وإسحق فإن فعل ذلك أحد نفذ ولم يرد.

وأجاز ذلك مالك والليث والشافعي وأصحاب الرأي واستدل بفعل الصديق في نحله عائشة دون سائر ولده وبقوله عليه السلام: «فارجعه» وقوله: «فأشهد على هذا غيري».

واحتج الأولون بقوله عليه السلام لبشير: ألك ولد سوى هذا قال: نعم فقال: «أكلهم وهبت لهم مثل هذا، فقال لا». قال: «فلا تشهدني إذا فإني لا أشهد على جور» في رواية «وإني لا أشهد إلا على حق»^(٢). قالوا: وما كان جوراً وغير حق فهو باطل لا يجوز. وقوله: «أشهد على هذا غيري» ليس إذناً في الشهادة وإنما هو زجر عنها؛ لأنه عليه السلام قد سماه جوراً وامتنع من الشهادة فيه؛ فلا يمكن أن يشهد أحد من المسلمين في ذلك بوجه. وأما فعل أبي بكر فلا يعارض به قول النبي ﷺ، ولعله قد كان نحل أولاده نحلاً يعادل ذلك.

فإن قيل: الأصل تصرف الإنسان في ماله مطلقاً، قيل له: الأصل الكلى والواقعة المعينة المخالفة لذلك^(٢) لا أصل لا تعارض بينهما كالعموم والخصوص. وفي الأصول أن الصحيح بناء العام على الخاص؛ ثم إنه ينشأ عن ذلك العقوق الذي هو أكبر الكبائر، وذلك محرم، وما يؤدي إلى المحرم فهو ممنوع؛ ولذلك قال ﷺ: «أتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم». قال النعمان: فرجع أبي فرد تلك الصدقة، والصدقة لا يعترضها الأب بالإتفاق وقوله: «فارجعه» محمول على معنى «فاروده»، والرد ظاهر في الفسخ كما قال

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٢١١: ٢٢١٣).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٥٨٦٠)، وملم في الهبات (١١/٦٥ - النوى) عن النعمان بن بشير

به.

وانظر «منار السبيل» بتخريجنا.

عليه السلام «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١) أى مردود مفسوخ. وهذا كله ظاهر قوى، وترجيح جلى فى المنع.

قال ابن كثير^(٢): وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا

لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهى عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريع، الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذى وضع لهم الياستق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها. وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت فى بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أى يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها فإنه تعالى هو العالم بكل شىء القادر على كل شىء العادل فى كل شىء اهـ.

قال الشوكانى^(٣): قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر كما فى نظائره، والمعنى: أيعرضون عن حكمك بما أنزل الله عليك ويتولون عنه ويبتغون حكم الجاهلية. اهـ.

قال ناصر السعدى^(٤): ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أى: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك، حكم الجاهلية؟ وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية.

فمن أعرض عن الأول، ابتلى بالثانى المبنى على الجهل، والظلم، والغى، ولهذا، أضافه الله للجاهلية.

وأما حكم الله تعالى، فمبنى على العلم، والعدل، والقسط، والنور، والهدى. اهـ.

قال صاحب الظلال^(٥): ثم يقفهم على مفرق الطريق.. فإنه إما حكم الله، وإما حكم الجاهلية. ولا وسط بين الطرفين ولا بديل.. حكم الله يقوم فى الأرض، وشرعية

(١) تقدم تخريجه. (٢) تفسير القرآن العظيم ٦٥/٢. (٣) فتح القدير ٢ / ٥١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٢ / ٤٨١. (٥) الظلال ٢ / ٩٠٤.

الله تنفذ في حياة الناس، ومنهج الله يقود حياة البشر.. أو أنه حكم الجاهلية، وشريعة الهوى، ومنهج العبودية... فأيهما يريدون؟

ثم قال: إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص. فالجاهلية - كما يصفها الله ويحددها قرآنه - هي حكم البشر للبشر، لأنها هي عبودية البشر للبشر، والخروج من عبودية الله، ورفض ألوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بالوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله..

إن الجاهلية - في ضوء هذا النص - ليست فترة من الزمان، ولكنها وضع من الأوضاع. هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غداً، فيأخذ صفة الجاهلية، المكافحة للإسلام، والمناقضة للإسلام.

والناس - في أي زمان وفي أي مكان - إما أنهم يحكمون بشريعة الله - دون فتنة عن بعض منها - ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً، فهم إذن في دين الله. وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر - في أي صورة من الصور - ويقبلونها فهم إذن في جاهلية؛ وهم في دين من يحكمون بشريعتهم، وليسوا بحال في دين الله. والذي لا يتغنى حكم الله يتغنى حكم الجاهلية؛ والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية، ويعيش في الجاهلية.

وهذا مفرق الطريق، يقف الله الناس عليه. وهم بعد ذلك بالخيار.

ما جاء في الآية من كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن باز^(١): ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ﴾ أي يريد هؤلاء المتحاكمين إلى اليهود وغيرهم من الطواغيت التحاكم إلى حكم الجاهلية، وهل هناك حكم أحسن من حكم الله، فهو أعلم بمصالح عباده، والعالم بما تنتهي إليه أمورهم وعواقبهم، فهو عالم بكل شيء. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): وقوله تعالى: ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ﴾ ﴿حكم﴾: مفعول مقدم لـ «يَبْغُونَ»، وقُدِّم لإفادة الحصر، والمعنى: أفلا يَبْغُونَ إلا حكم الجاهلية. و«يَبْغُونَ»: يطلبون، والإضافة في قوله: ﴿حكم الجاهلية﴾ تحتل معنيين: أحدهما: أن يكون المعنى: أفحكم أهل الجاهلية الذين سبقوا الرسالة يَبْغُونَ، فيريدون أن يعيدوا هذه الأمة إلى طريق الجاهلية التي أحكامها معروفة، ومنها: البحائر، والسوائب، وقتل الأولاد.

ثانيها: أن يكون المعنى: أفحكم الجهل الذي لا يبنى على العلم يَبْغُونَ، سواء كانت عليه الجاهلية السابقة أم لم تكن، وهذا أعم.

(١) التعليق المفيد (٢٠٠).

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٤٢ و ٣٤٣.

والإضافة للجاهلية تقتضى التقييح والتنفير.

وكل حكم يخالف حكم الله؛ فهو جهل وجهالة.

فإن كان مع العلم بالشرع؛ فهو جهالة، وإن كان مع خفاء الشرع؛ فهو جهل، والجهالة هى العمل بالخطأ سفهاً لا جهلاً، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾، وأما من يعمل سوءً بجهل فلا ذنب عليه، لكن عليه أن يتعلم.

تنبيه (٢)

قال صاحب الإعراب: فى قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

فإنَّ طريف، وهو فن الإيغال، وفحواه أن يستكمل المتكلم كلامه قبل أن يأتى بمقطعه، فإذا أراد الإتيان بذلك أتى بما يفيد معنى زائداً على معنى ذلك الكلام. وهو ضربان:

(منها) إيغال تخيير: كما فى هذه الآية، فإنَّ المعنى قد تمَّ بقوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ ولما احتاج الكلام الى فاصلة تناسب ما قبلها وما بعدها، أتت تفيد معنى زائداً، لولاها لم يحصل. وذلك أنه لا يعلم أن حكم الله أحسن من كل حكم إلا من أيقن أنه واحد حكيم عادل ليقى توحيد الشريك فى الحكم الذى انفرد به. ولم يكن له معارض فيه ولا مناقض له، ويحصل من حكمته وضع الشيء فى موضعه فيؤمن منه وضع الحق فى غير موضعه، وينفى العدل عنه الجوار فى الحكم، ثم عدل عن قوله: «يعلمون» الى قوله: «يوقنون» ليكون علمهم بربهم علم قطع ويقين. اهـ.

الإعراب (١): ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. الواو استئنافية، و(من) اسم استفهام فى محل رفع مبتدأ، و(أحسن) خبره، و(من الله) متعلقان بأحسن، و(حكماً) تمييز، و(لقوم) متعلقان بمحذوف حال، وقال الجلال وغيره: اللام بمعنى عند، متعلقة بأحسن، أى: عند قوم (يوقنون)، وجملة يوقنون صفة لقوم.

ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى (٢): قال تعالى ذكره موبخاً لهؤلاء الذين أبوا قبول حكم رسول الله ﷺ عليهم ولهم من اليهود ومستجهاً فعلهم ذلك منهم، ومن هذا الذى هو أحسن

(١) إعراب القرآن / ٤٩٩.

(٢) تفسير الطبرى / ١٧٧.

حكماً أيها اليهود من الله تعالى ذكره عند من كان يوقن بوحدانية الله ويقرّ بربوبيته يقول تعالى ذكره: أَيْ حُكْمَ أَحْسَنَ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ إِنْ كُتِمَ مَوْقِنِينَ أَنْ لَكُمْ رَبًّا وَكُتِمَ أَهْلَ تَوْحِيدٍ وَإِقْرَارٍ بِهِ . اهـ .

قال ابن الجوزي^(١): قوله تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا» قال ابن عباس: ومن أعدل؟!

وفى قوله: «لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» قولان:

أحدهما: يوقنون بالقرآن، قاله ابن عباس.

والثاني: يوقنون بالله، قاله مقاتل. وقال الزجاج: مَنْ أَيْقَنَ تَبَيَّنَ عَدْلَ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ . اهـ .

قال الرازي^(٢): ثم قال تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» اللام فى قوله «لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» للبيان كاللام فى «هَيْتَ لَكَ» أى هذا الخطاب وهذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنهم هم الذين يعرفون أنه لا أحد أعدل من الله حكماً، ولا أحسن منه بياناً . اهـ .

قال القرطبي^(٣): وقوله تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» هذا استفهام على جهة الإنكار بمعنى: لا أحد أحسن؛ فهذا ابتداء وخبر. و«حكماً» نصب على البيان. [لقوله] «لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» أى عند قوم يوقنون . اهـ .

قال الشوكاني^(٤): الاستفهام فى «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» للإنكار أيضاً، أى لا أحسن من حكم الله عند أهل اليقين، لا عند أهل الجهل والأهواء . اهـ .

قال ناصر السعدى^(٥): «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» فالوقن، هو الذى يعرف الفرق بين الحكمين ويميز - بإيقانه - ما فى حكم الله، من الحسن والبهاء، وأنه يتعين - عقلاً وشرعاً - اتباعه.

واليقين، هو العلم التام، الموجب للعمل.

(١) زاد المسير / ٢٢٣ .

(٢) الفخر الرازى / ١٧ .

(٣) تفسير القرطبي / ٢٢١٣ .

(٤) فتح القدير / ٥١ .

(٥) تيسير الكريم الرحمن / ٤٨١ .

قال صاحب «الظلال»^(٢): يسألهم سؤال استنكار لا بتغائهم حكم جاهلية وسؤال تقرير لافضلية حكم الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. وأجل! فمن أحسن من الله حكماً؟

ومن ذا الذى يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس. ويحكم فيهم. خيراً مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدى هذا الادعاء العريض؟

أستطيع أن يقول: إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟ أستطيع أن يقول: إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ أستطيع أن يقول: إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟ أستطيع أن يقول: إن الله - سبحانه - وهو يشرع شريعته الأخيرة، ويرسل رسوله الأخير؛ ويجعل رسوله خاتم النبيين، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات، ويجعل شريعته شريعة الأبد... كان - سبحانه - يجهل أن أحوالاً ستطرأ، وأن حاجات ستستجد، وأن ملابسات ستقع، فلم يحسب حسابها فى شريعته لأنها كانت خافية عليه، حتى انكشفت للناس فى آخر الزمان؟!!

ما الذى يستطيع أن يقوله من ينحى شريعة الله عن حكم الحياة، ويستبدل بها شريعة الجاهلية، وحكم الجاهلية، ويجعل هواه هو أو هوى شعب من الشعوب، أو هوى جيل من أجيال البشر، فوق حكم الله، وفوق شريعة الله؟

ما الذى يستطيع أن يقوله... وبخاصة إذا كان يدعى أنه من المسلمين؟! الظروف؟ الملابسات؟ عدم رغبة الناس؟ الخوف من الأعداء؟.. ألم يكن هذا كله فى علم الله؟ وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته، وأن يسيروا على منهجه، وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله؟

قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة، والأوضاع المتجددة، والأحوال المتغلبة؟ ألم يكن ذلك فى علم الله؟ وهو يشدد هذا التشديد، ويحذر هذا التحذير؟

يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء... ولكن المسلم... أو من يدعون الإسلام... ما الذى يقولونه من هذا كله. ثم ييقون على شيء من الإسلام؟

إنه مفرق الطريق. الذى لا معدى عنده من الاختيار؛ ولا فائدة فى المماحكة عنده ولا الجدل... .

إما إسلام وإما جاهلية. إما إيمان وإما كفر. إما حكم الله وإما حكم الجاهلية.

والذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون الظالمون الفاسقون. والذين لا يقبلون حكم الله من المحكومين ما هم بمؤمنين.

إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم؛ وألا يتردد في تطبيقها على واقع الناس في زمانه؛ والتسليم بمقتضى هذه الحقيقة ونتيجة هذا التطبيق على الأعداء والأصدقاء!

وما لم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية، فلن يستقيم له ميزان؛ ولن يتضح له منهج، ولن يفرق في ضميره بين الحق والباطل، ولن يخطو خطوة واحدة في الطريق الصحيح.. وإذا جاز أن تبقى هذه القضية غامضة أو مائعة في نفوس الجماهير من الناس؛ فما يجوز أن تبقى غامضة ولا مائعة في نفوس من يريدون أن يكونوا «المسلمين» وأن يحققوا لأنفسهم هذا الوصف العظيم.. اهـ

قال ابن عثيمين^(١): قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾.

﴿مَنْ﴾: اسم استفهام بمعنى النفي؛ أى: لا أحد أحسن من الله حكماً، وهذا النفي مُشَرَّبٌ معنى التحدى؛ فهو أبلغ من قول: ﴿لَا أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾؛ لأنه متضمن للنفي وزيادة.

قوله: ﴿حُكْمًا﴾.

تمييز؛ لأنه بعد اسم التفضيل، وهو مبهم؛ فبيّن هذا التمييز المبهم وميزه. والحكم هنا يشمل الكونى والشرعى.

فإن قيل: يوجد فى الأحكام الكونية ما هو ضار مثل الزلازل والفيضانات وغيرها؛ فأين الحُسن فى ذلك؟

أجيب: أن الغايات المحمودة فى هذه الأمور تجعلها حسنة، كما يضرب الإنسان ولده تربية له، فيعد هذا الضرب فعلاً حسناً؛ فكذلك الله يصيب بعض الناس بهذه المصائب لتربيتهم، قال تعالى فى القرية التى قلب الله أهلها قردة خاسئين: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وهذا الحسن فى حكم الله ليس بيناً لكل أحد، كما قال تعالى: ﴿لَقَوْمٌ يُوقِنُونَ﴾، وكلما ازداد العبد يقيناً وإيماناً ازداد معرفة بحسن أحكام الله، وكلما نقص إيمانه ويقينه ازداد جهلاً بحسن أحكام الله، ولذلك تجدد أهل

(١) القول المفيد ٢/ ٣٤٣ - ٣٤٥.

عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ» (١). قال النووي: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ «الْحُجَّةِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ».

العلم الراسخين فيه إذا جاءت الآيات التشابهات بينوا وجه ذلك بأكمل بيان ولا يرون في ذلك تناقضاً، وعلى هذا؛ فإنه يبين قوة الإيمان واليقين بحسب ما حصل للإنسان من معرفته بحسن أحكام الله الكونية الشرعية.

وقوله: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

خبر لا يدخله الكذب ولا النسخ إطلاقاً، ولذلك هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فجمعوا بين التشابهات والمختلفات من النصوص، وقالوا: «كل من عند ربنا»، وعرفوا حسن أحكام الله تعالى، وأنها أحسن الأحكام وأنفعها للعباد وأقومها لمصالح الخلق في المعاش والمعاد؛ فلم يرضوا عنها بديلاً.

قوله: (وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو) إلى قوله: قال النووي: حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

قال ابن رجب (٢): يريد بصاحب كتاب الحجة الشيخ أبا الفتح نصر بن إبراهيم المقدسى الشافعى الفقيه الزاهد نزيل دمشق، وكتابه هذا هو كتاب الحجة على تاركى سلوك طريق المحجة، يتضمن ذكر أصول الدين على قواعد أهل الحديث والسنة. وقد خرج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم فى كتاب «الأربعين» وشرط فى أولها أن تكون من صحاح الأخبار وحياد الآثار مما أجمع الناقلون على عدالة ناقله، وخرجه الأئمة فى مسانيدهم ثم خرجه عن الطبرانى. حدثنا الوزير عبد الرحمن بن حاتم المرادى حدثنا نعيم بن حماد حدثنا عبد الوهاب الثقفى عن هشام بن حسان عن

(١) (ضعيف) أخرجه ابن أبى عاصم فى «السنة» (١/١٢/١ ح ١٥)، والبيهقى فى «شرح السنة» (٢١٣/١).

- من حديث عبد الله بن عمرو. قلت: انظر كلام ابن رجب على الحديث. أعلاه وانظر «فتح ذى الجلال» (ح ٧٢٥) بتخريجنا. وانظر «فتح المجيد» (٧٣٤) بتخريجنا. تنبيه: قد ورد القرآن بمثل هذا فى غير موضع. (٢) جامع العلوم والحكم (٢/٦٨٦) بتخريجنا.

محمد بن سيرين عن عقبة بن أوس عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ولا يزيغ عنه»** ورواه الحافظ أبو بكر بن عاصم الأصبهاني عن ابن واره عن نعيم بن حماد حدثنا عبد الوهاب الثقفي حدثنا بعض مشايخنا هشام أو غيره عن ابن سيرين فذكره وليس عنده «ولا يزيغ عنه».

قال الحافظ أبو موسى المديني: هذا الحديث مختلف فيه على نعيم، وقيل فيه حدثنا بعض مشيختنا مثل هشام وغيره.

قلت- أي ابن رجب- تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه: منها أنه حديث ينفرد به نعيم بن حماد المروزي، ونعيم هذا وإن كان وثقة جماعة من الأئمة وخرج له البخاري فإن أئمة الحديث كانوا يحسنون به الظن لصلابته في السنة وتشدده في الرد على أهل الأهواء وكانوا ينسبونه إلى أنه يهم ويشبه عليه في بعض الأحاديث، فلما كثر عثورهم على مناكيره حكموا عليه بالضعف، فروى صالح بن محمد الحافظ عن ابن معين أنه سئل عنه فقال: ليس بشيء إنما هو صاحب سنة، قال صالح: وكان يحدث من حفظه، عنده مناكير كثيرة لا يتابع عليها. وقال أبو داود: عند نعيم نحو عشرين حديثاً عن النبي ﷺ ليس لها أصل. وقال النسائي: ضعيف وقال مرة: ليس ثقة. قال مرة: قد كثر تفرد عن الأئمة المعروفين في أحاديث كثيرة فصار في حد من لا يحتج به. وقال أبو زرعة الدمشقي: يصل أحاديث يقفها الناس: يعني أنه يرفع الموقوفات. وقال أبو عروبة الخوافي: هو مظلم الأمر. وقال أبو سعيد بن يونس: روى أحاديث مناكير عن الثقات ونسبه آخرون إلى أنه كان يضع الحديث، أين كان أصحاب عبد الوهاب الثقفي وأصحاب ابن سيرين عن هذا الحديث حتى ينفرد به نعيم؟ ومنها أنه قد اختلف على نعيم في إسناده، فروى عنه الثقفي عن هشام وروى عنه الثقفي حدثنا بعض مشيختنا حدثنا هشام أو غيره، وعلى هذه الرواية يكون الشيخ الثقفي غير معروف عنه، وروى عن الثقفي حدثنا بعض مشيختنا حدثنا هشام أو غيره. وعلى هذه الرواية، فالثقفي رواه عن شيخ مجهول، وشيخه رواه عن غير معين فتزداد الجهالة في إسناده. ومنها أن في إسناده عقبة بن أوس السدوسي البصري، ويقال فيه يعقوب بن أوس أيضاً. وقد خرج له أبو داود والنسائي وابن ماجه حديثاً عن عبد الله بن عمرو ويقال عبد الله بن عمر، وقد اضطرب في إسناده، وقد وثقه العجلي وابن سعد وابن حبان. وقال ابن خزيمة: روى عنه ابن سيرين مع جلالته وقال ابن عبد البر: هو مجهول. وقال الغلابي في تاريخه: يزعمون أنه لم يسمع من عبد الله بن عمرو وإنما يقول: قال عبد الله بن عمرو، فعلى هذا تكون رواياته عن عبد الله بن عمرو منقطعة والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ^(١): ومعناه: صحيح قطعاً وإن لم يصح إسناده وأصله في القرآن كثير كقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

وقوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وغير ذلك من الآيات، فلا يضر عدم صحة إسناده. اهـ.

قلت: أما قوله [معناه صحيح قطعاً] فهذا واضح صوابه، وأما قوله: [فلا يضر عدم صحة إسناده] بل يضر عدم صحة إسناده لقوله ﷺ.

«من حدث عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين»^(٢)، و«من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٣).

فإلصاق هذا القول بالنبي ﷺ - بعدما تبين ضعف الإسناد إليه - خطأ ينبغي العدول عنه. والله الموفق للصواب.

● مناسبة الحديث للباب.

قال سليمان^(٤): ومطابقة الحديث للباب ظاهرة من جهة أن الرجل لا يؤمن حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، في كل شيء حتى في الحكم وغيره، فإذا حكم بحكم أو قضى بقضاء فهو الحق الذي لا محيد للمؤمن عنه، ولا اختيار له بعده. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٥): بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي في أقوالهم وأفعالهم وإراداتهم. اهـ.

- وقال عبد الله بن جار الله^(٦): أنه أبان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي في أقوالهم وأفعالهم وإرادتهم والله سبحانه وتعالى أعلم. اهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٢٧).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في المقدمة (٩٥/١) عن المغيرة بن شعبة به.

(٣) [صحيح] أخرجه البخاري (١١٠)، ومسلم في المقدمة (٣/١٠٠) عن أبي هريرة به.

(٤) تيسير العزيز الحميد (٤٢٩). (٥) فتح المجيد (٢/٦٦٧).

(٦) الجامع الفريد (١٥٧).

• وقال القرعاوى^(١): دل الحديث على تحريم التحاكم إلى غير ما جاء به رسول الله ﷺ لأن ذلك منافي للشهادتين المتلازميتين. اهـ

• مناسبة الحديث للتوحيد.

قال القرعاوى^(١): حيث دل الحديث على تحريم التحاكم إلى غير شرع الله.

• شرح الحديث.

قال ابن رجب^(٢): وأما معنى الحديث: فهو أن الإنسان لا يكون مؤمناً كاملاً إلايمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها فيحب ما أمر به ويكره ما نهى عنه. وقد ورد القرآن بمثل هذا في غير موضع. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(٤) وذم سبحانه من كره ما أحبه الله وأحب ما كرهه الله، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ﴾^(٦) فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما وجب عليه منه، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً، وأن يكره ما كرهه الله تعالى كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهاً كان ذلك فضلاً. وقد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين»^(٧) فلا يكون المؤمن مؤمناً حتى يقدم محبة الرسول على محبة جميع الخلق، ومحبة الرسول تابعة لمحبة مرسله، والمحبة الصحيحة تقتضى المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

(١) الجديد (٣٤٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٦٨٤: ٦٩٠) بتخريجنا.

(٣) النساء/ ٦٥.

(٤) الأحزاب / ٣٦.

(٥) محمد / ٩.

(٦) محمد / ٢٨.

(٧) سيأتى تخريجه فى باب قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا...﴾ الآية.

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴿١﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (٢) قال الحسن: قال أصحاب النبي ﷺ: «يارسول الله إنا نحب ربنا حباً شديداً، فأحب الله أن يجعل لحبه علماً. فأنزل الله هذه الآية» (٣). وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار» (٤) فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب له ذلك أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، ويرضى ما يرضى الله ورسوله. ويسخط ما يسخط الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله أو ترك بعض ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه دلّ ذلك على نقص محبته الواجبة فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة.

قال أبو يعقوب النهرجوري: كل من ادّعى محبة الله تعالى ولم يوافق الله في أمره فدعواه باطلة، وكل محب ليس يخاف الله فهو مغرور.

وقال يحيى بن معاذ: ليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده.

وسئل رويم عن المحبة فقال: الموافقة في جميع الأحوال، وأنشد:

ولو قلت لى مت مت سَمْعاً وطاعةً وقلتُ لداعى الموتِ أهلاً ومرحباً
ولبعضهم:

تعصى الإله وأنت تزعمُ حبه هذا لعمري فى القياس شنيعُ
لو كان حُبُّكَ صادقاً لأطعته إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ

(١) التوبة / ٢٤.

(٢) آل عمران / ٣١.

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٣/ ١٥٥). عن الحسن به.

وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٢/ ٣٠). ونسبه لابن جرير وابن المنذر.

(٤) سيأتى تخريجه فى الباب الذى أشرنا إليه من قبل.

• فجميع المعاصي إنما تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى فى مواضع من كتابه فقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ (١).

وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، ولهذا يسمى أهلها أهل الأهواء.

وكذلك المعاصي إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ورسوله ومحبة ما يحبه. وكذلك حب الأشخاص الواجب فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ فيجب على المؤمن محبة الله ومحبة من يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً، ولهذا كان من علامات وجوده خلاوة الإيمان أن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وتحريم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عموماً، وبهذا يكون الدين كله لله.

ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان، ومن كان حبه ويغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه كان ذلك نقصاً فى إيمانه الواجب فيجب عليه التوبة من ذلك والرجوع إلى اتباع ما جاء به الرسول ﷺ من تقديم محبة الله ورسوله وما فيه رضا الله ورسوله على هوى النفس ومراداتها كلها.

قال وهيب بن الورد: بلغنا والله أعلم أن موسى عليه السلام قال: يارب أوصنى؟ قال: أوصيك بى، قالها ثلاثاً حتى قال فى الأخرى: أوصيك بى أن لا يعرض لك أمر إلا أثرت فيه محبتى على ما سواها فمن لم يفعل ذلك لم أركه ولم أرحمه.

تعريف الهوى: والمعروف فى استعمال الهوى عند الإطلاق أنه الميل إلى خلاف الحق كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٣).

وقد يطلق الهوى بمعنى المحبة والميل مطلقاً، فيدخل فيه الميل إلى الحق وغيره.

وربما استعمل بمعنى محبة الحق خاصة والانقياد إليه. وسئل صفوان بن عسال هل سمعت النبى ﷺ يذكر الهوى؟ فقال: سأله أعرابى عن الرجل يحب القوم ولم يلحق

(١) القصص / ٥٠.

(٢) ص / ٢٦.

(٣) النزعات / ٤١.

بهم قال: «المرء مع من أحب»^(١) ولما نزل قوله تعالى: ﴿تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾^(٢). قالت عائشة للنبي ﷺ: «ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»^(٣).

وقال عمر في قصة المشاورة في أسارى بدر: فهوى رسول الله ﷺ للذى قال أبو بكر ولم يهو ما قلت^(٤).

وهذا الحديث مما جاء في استعمال الهوى بمعنى المحبة المحموده.

وقد وقع مثل ذلك في الآثار الإسرائيلية كثيراً وكلام مشايخ القوم وإشاراتهم نظماً ونثراً يكثر في هذا الاستعمال، ومما يناسب معنى الحديث من ذلك قول بعضهم:

إن هـواك الذى بقلبي صيرنى سامعاً مطيعاً
أخذ قلبى وغمض عينى سلبتنى النوم والهجوم
فذر فؤادى وخذ رقادى فقال: لابل هما جميعاً. اهـ

● كلام شراح كتاب التوحيد.

قوله: «لا يؤمن أحدكم».

قال سليمان آل الشيخ^(٥): أى لا يحصل له الإيمان الواجب ولا يكون من أهله. اهـ. وتقدم من كلام الحافظ ابن رجب.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٦): قوله: «لا يؤمن أحدكم».

أى لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذى وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار وقد يكون فى درجة أهل الإساءة والمعاصى من أهل الإسلام.

قال ابن باز^(٧): أى لا يؤمن الإيمان الكامل الواجب حتى يكون هواه وإرادته

(١) أخرجه الترمذى (٢٣٨٧/٤)، والنسائى (١١١٧٨)، وأحمد (٢٣٩/٤).

من حديث صفوان بن عسال.

وقال الترمذى: حسن صحيح.

وأنظر «فتح المجيد» بتخريجنا

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٧٨٨)، ومسلم فى الرضاع (٤٩/٣٠٥/٥) عن عائشة به.

وأنظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجهاد (٨٦/١٢) عن عمر به.

وأنظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (٥٢٠).

(٢) الأحزاب/ ٥١. (٥) تيسير العزيز الحميد ٤٢٧.

(٦) فتح المجيد ٢/٦٦٣. (٧) التعليق المفيد: ٢٠٠.

وقصده وطلبه تبعاً لما جئت به وهكذا ينبغي أن تكون ميول المؤمن ونياته خاضعة لحكم الله .

قال ابن عثيمين^(١): أى: إيماناً كاملاً إلا إذا كان ليهوى ما جاء به النبي ﷺ بالكلية؛ فإنه ينتفى عنه الإيمان بالكلية، لأنه إذا كره ما أنزل الله؛ فقد حبط عمله لكفره، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ .
قوله: «حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» .

قال سليمان آل الشيخ: بنحو كلام ابن رجب المتقدم .
وقال ابن عثيمين^(٢): الهوى بالقصر هو: الميل، وبالمد هو: الريح، والمراد الأول .
وتقدم تعريف الهوى لابن رجب .

و«حتى»: للغاية، والذي جاء به النبي ﷺ هو القرآن والسنة .
وإذا كان هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ؛ لزم من ذلك أن يوافقه تصديقاً بالأخبار، وامتنالاً للأوامر، واجتناباً للنواهي .

واعلم أن أكثر ما يطلق الهوى على هوى الضلال لا على هوى الإيمان، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ، وغيرها من الآيات الدالة على ذم من اتبع هواه، ولكن إذا كان الهوى تبعاً لما جاء به النبي ﷺ؛ كان محموداً، وهو من كمال الإيمان .

وقد سبق بيان أن من اعتقد أن حكم غير الله مساوٍ لحكم الله، أو أحسن، أو أنه يجوز التحاكم إلى غير الله؛ فهو كافر .

وأما من لم يكن هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ، فإن كان كارهاً له؛ فهو كافر، وإن لم يكن كارهاً ولكن أثر محبة الدنيا على ذلك؛ فليس بكافر، لكن يكون ناقص الإيمان . أهـ

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): فإن كان الذى تُحِبُّ وتُغَيِّلُ إليه نفسه ويعمل به تابِعاً لما جاء به رسول الله ﷺ لا يخرج عنه إلى ما يُخَالِفُه . فهذه صفة أهل الإيمان المطلق .

(١) القول المفيد ٢/ ٣٤٥ .

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٤٩ .

(٣) فتح المجيد ٢/ ٦٦٣ - ٦٦٥ .

وإن كان بخلاف ذلك أو في بعض أحواله أو أكثرها انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب، كما في حديث أبي هريرة: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ» (١). يعنى أنه بالمعصية يَنْتَفَى عنه كمال الإيمان الواجب، وينزل عنه في درجة الإسلام، وينقص إيمانه، فلا يُطْلَق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية، أو الفُسُوق، فيقال: مؤمن عاص، أو يقال: مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بمعصيته، فيكون معه مطلق الإيمان الذي لا يصح إسلامه إلاً به. كما قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ (٢).

والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها - أن الإيمان قولٌ وعَمَلٌ ونية، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية: من كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ - أكثر من أن تُحْصَرَ.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ (٣) أى: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، وقول النبي ﷺ لو فد عبد القيس: «أَمَرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، أَتَذَرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» (٤) الحديث. وهو في الصحيحين والسُنَنِ.

والدليل على أن الإيمان يزيد قوله تعالى: ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ (٥) وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (٦) خلافاً لمن قال: إن الإيمان هو القول، وهم المرجئة، ومن قال: إن الإيمان هو التصديق كالاشاعرة.

ومن المعلوم عقلاً وشرعاً: أن نية الحق تصديق، والعمل به تصديق، وقول الحق تصديق. وليس مع أهل البدع ما يُنَافِي قول أهل السنة والجماعة، والله الحمد والمنة.

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ (٧) أى: فيما عملوا به في هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة. وشاهده في كلام العرب قولهم: حملة صادقة. وقد سَمَّى الله تعالى: «الهُوَى» الْمُخَالَفَ لما جاء به الرَّسُول ﷺ إلهاً، قال تعالى:

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (٨) قال بعض المفسرين: لَا يَهْوَى شَيْئاً إِلَّا رَكِبَهُ. اهـ.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٥٧٨)، ومسلم فى الإيمان (١/٣١٧/١) عن أبى هريرة به.

(٢) النساء: ٩٢. (٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (١٣٩٨)، ومسلم فى الإيمان (١/٢١٢/٢٤) عن ابن عباس به.

(٥) المدثر: ٣١. (٦) التوبة: ١٢٤.

(٧) البقرة: ١٧٧. (٨) الفرقان: ٤٣.

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: «كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ؛ عَرِفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهِينَةٍ، فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَتَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾^(١).

قوله: وقال الشعبي «كان بين رجل... الخ

● مناسبة الأثر للباب (٢): دل الأثر على تحريم التحاكم إلى غير رسول الله ﷺ.

● مناسبة الأثر للتوحيد (٣): حيث حرم الأثر التحاكم إلى غير رسول الله ﷺ لأن ذلك مناف للشهادتين المتلازمتين. أهـ.

قلت: والأثر أخرجه ابن جرير وعزاه السيوطي في «الدر» لابن المنذر. وقد تقد الأثر في أسباب نزول آية هذا الباب وهنا نشرع في شرح الأثر، والله المستعان.

قوله (الشعبي): هو عامر بن شراحيل الكوفي عالم أهل زمانه، وكان حافظاً علامه ذا فنون. كان يقول ما كتبت سوداء في بيضاء. وأدرك خلقاً من الصحابة، وعاش بضعا وثمانين سنة قاله الذهبي (٤).

وقوله [قال الشعبي] أى في تفسير الآية (٥)

قوله: [كان بين رجل من المنافقين، ورجل من اليهود خصومة].

قال سليمان آل الشيخ: لم أقف على تسمية هذين الرجلين، وقد روى ابن إسحاق وابن المنذر، وابن أبي حاتم قال: كان بين الجلّاس بين الصامت قبل توبته، ومعتب بن قشير، ورافع بن زيد وبشير، كانوا يدعون الإسلام، فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الكهان حكام الجاهلية فأنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية. فيحتمل أن يكون المنافق المذكور في قصة الشعبي أحد هؤلاء، بل روى الثعلبي عن ابن عباس أن المنافق اسمه بشر.

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره» (٩٦/٥ - ٩٧)

من طريق داود عن عامر الشعبي به. وذكره السيوطي في «الدر» (٣١٩/٢) وزاد نسبه لابن المنذر.

(٥) القول المقيّد ٣٤٧/٢

(٤) فتح المجيد ٦٦٨/٢

(٣ - ٢) الجديد ٣٥١

قال ابن باز (١): يدل على أن المنافق أشر من اليهود لأنهم يلبسون على الناس أمرهم، ويحصل بهم الضلال فصاروا بذلك في الدرك الأسفل من النار .

قال ابن عثيمين (٢): قوله : «رجل من المنافقين»

هو من يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وسمى منافقاً من النفاق، وهي جحر اليربوع، واليربوع له جحر له باب وله نافقاء أى يحفر إلى الأرض خندقاً حتى يصل متهمى جحره ثم يحفر إلى أعلى، فإذا بقى شئ قليل بحيث يتمكن من دفعه برأسه توقف - ، فإذا جحر عليه من الباب خرج من النفاق .

قوله «ورجل من اليهود»

اليهود هم المستببون إلى دين موسى عليه السلام، وسما بذلك إما من قوله: ﴿إنا هدنا إياك﴾؛ أى: رجعنا، أونسبة إلى أبيهم يهوذا، ولكن بعد التعريب صار بالدال .
قوله : [إلى محمد]:

قال ابن عثيمين (٣): أى : النبى ﷺ، ولم يذكره بوصف الرسالة؛ لأنهم لا يؤمنون برسالته، ويزعمون أن النبى الموعود به سيأتى .

قوله : [عرف أنه لا يأخذ الرشوة]:

قال سليمان آل الشيخ: هى بثليث الرء (٤).

قال أبو السعادات: وهو الوصلة إلى الحاجة بالمصانعة، وأصله من الرشاء الذى يتوصل به إلى الماء . والراشى من يعطى الذى يعينه على الباطل، والمرتشى الآخذ .

قلت - أى سليمان آل الشيخ- : فعلى هذا رشوة الحاكم هى مايعطاه ليحكم بالباطل، وسواء طلبها أم لا . وفيه دليل على شهادة أن محمداً رسول الله؛ لأن أعداءه يعلمون عدله فى الأحكام، ونزاهته عن قدر الرشوة ﷺ بخلاف حكام الباطل . اهـ .

قال ابن عثيمين (٥): قوله : «عرف أنه لا يأخذ الرشوة» .

تعليل لطلب التحاكم إلى النبى ﷺ .

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٤٧ .

(١) التعليق المفيد ٢٠١ .

(٣) القول المفيد ٢/ ٣٤٨ .

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

(٥) القول المفيد ٢/ ٣٤٨ .

والرشوة : مثلثة الرء؛ فيجوز الرشوة، الرشوة، و الرشوة، وهى : المال المدفوع للتوصل إلى شىء.

قال أهل العلم: «لا تكون محرمة إلا إذا أراد الإنسان أن يتوصل بها إلى باطل أو دفع حق، أما من بذلها ليتوصل بها إلى حق له منع منه أو ليدفع بها باطلاً عن نفسه؛ فليست حراماً على الباذل، أما على آخذها؛ فحرام». قوله: [فاتقوا على أن يأتيا كاهناً فى جهينة].

قال سليمان آل الشيخ^(١): لم أقف على تسمية هذا الكاهن. وفى قصة رواها ابن جرير، وابن أبى حاتم، عن السدى فى سبب نزول الآية قال: فتفاخرت النضير وقريظة فقالت النضير: نحن أكرم من قريظة وقالت قريظة: نحن أكرم منكم. فدخلوا المدينة إلى أبى برزة الكاهن الأسلمى، وفى بعض النسخ أبى برزة الأسلمى وذكر القصة^(٢). وأبو برزة هذا غير أبى برزة الصحابى. اهـ

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «فاتقوا أن يأتيا كاهناً فى جهينة»

كأنه صار بينهما خلاف، وأبى المنافق أن يتحاكما إلى النبى ﷺ.

والكاهن: من يدعى علم الغيب فى المستقبل، وكان للعرب كهان تنزل عليهم الشياطين بخبر السماء، فيقولون: سيحدث كذا وكذا، فربما أصابوا مرة من المرات، وربما أخطؤوا، فإذا أصابوا ادعوا علم الغيب، فكان العرب يتحاكمون إليهم؛ فنزل قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية. اهـ.

وفى قصة عمر: بيان أن المنافق المغموض بالنفاق إذا أظهر نفاقه قتل، كما فى الصحيحين. وغيرهما: أن النبى ﷺ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفاً للناس، فإنه قال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»^(٤)

فصلوات الله وسلامه عليه.



(١) تيسير العزيز الحميد ٤٣٠.

(٢) تقدم تخريجه

(٣) القول المفيد ٣٤٨/٢.

(٤) البخارى (٣٥١٨) ومسلم فى البر والصلة (٨ / ٦٣) عن جابر به

وَقِيلَ: «نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: تَرَفَّعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ الْآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَفَّعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكْذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضْرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ» (١).

قوله: [وقيل: نزلت في رجلين اختصما...].

[قلت] وهذا الأثر تقدم معنا في أول الباب في عرض أسباب نزول الآية التي صدر بها المصنف الباب، وهنا فشرح في شرح الأثر، والله المستعان.

وقال سليمان الشيخ (٢): هذه القصة قد رويت من طرق متعددة من أقربها لسياق المصنف، ما رواه الثعلبي وذكره البغوي عن ابن عباس في قوله «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا» (٣). الآية. قال: نزلت في رجل من المنافقين يقال له بشر خاصم يهودياً فدعاه اليهودى إلى رسول الله ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ثم إنهما احتكما للنبي ﷺ، ففضى لليهودى فلم يرض المنافق، وقال: تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب. فقال اليهودى لعمر: قضى لنا رسول الله ﷺ، فلم يرض بقضائه. فقال للمنافق: كذلك؟ قال: نعم فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل عمر فاشتعل على سيفه، ثم خرج فضرب عنق المنافق حتى برد، ثم قال: هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله، فنزلت (٤).

وروى الحكيم الترمذى في «نوادير الأصول» هذه القصة عن مكحول وقال في آخرها: فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ، فقال إن عمر قد قتل الرجل، وفرق الله بين الحق والباطل على لسان عمر، فسمى الفاروق، ورواه أبو إسحاق بن دحيم في تفسيره على ما ذكره شيخ الإسلام وابن كثير، ورواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق ابن لهيعة، عن أبي الأسود وذكر القصة، وفيه قال رسول الله ﷺ: «ما كنت أظن أن يجترأ عمر على قتل مؤمن»، فأنزل الله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهدر دم ذلك الرجل وبرأ عمر من قتله، فكره الله أن يسب ذلك بعد، فقال ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَشَدُّ تَنْبِيْثًا﴾ (٥).

وبالجملة: فهذه القصة مشهورة متداولة بين السلف والخلف تداولاً يغنى عن الإسناد، ولها طرق كثيرة ولا يضرها ضعف إسنادها. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ (٦): وفيما قاله الشعبي ما يبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى. ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان، كما هو الواقع في هذه الأزمته وقبلها من إغاثة العدو على المسلمين، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان. اهـ.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢/ ٣٢٠) ونسبه للثعلبى عن ابن عباس وأنظر «فتح المجيد» (ج ٧٣٨)

(٢) تيسير العزيز الحميد: ٤٣، ٤٣١، ٤٣٢. (٣) تقدم تخريجه

(٤) فتح المجيد

(٥) النساء: ٦٠

من تدبر ما فى التاريخ وما وقع منهم من الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديماً وحديثاً، وقد حذر الله نبيه ﷺ من طاعتهم والقرب منهم، وحضه على جهادهم فى مواضع من كتابه، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وفى قصة عمر رضى الله عنه وقته المنافق الذى طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودى: دليل على قتل من أظهر الكفر والتناق.

وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي ﷺ والأذى له، والإظهار لعداوته، فانتقض به عهده. وحل به قتله. وروى مسلم فى صحيحه عن عمر: سمعت جابراً يقول: قال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله». قال محمد بن مسلمة: يارسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: نعم. قال: ائذن لى فلاقل. قال: قل، فأتاه فقال له، وذكر ما بينهما وقال: إن هذا الرجل قد أراد صدقة وقد عتانا. فلما سمعه قال: وأيضاً والله لتملنّه. قال: إنا قد اتبعناه الآن، ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير أمره، قال: وقد أردت أن تسلفنى سلفاً. قال: فما ترهننى؟ قال: ماتريد؟ قال: ترهننى نساءكم؟ قال: أنت أجمل العرب، أنرهنك نساءنا؟ قال: ترهنونى أولادكم؟ قال: يسب ابن أحدنا فيقال: رهن فى وسقين من تمر. ولكن ترهنك اللأمة- يعنى السلاح - قال: نعم. وواعده أن يأتيه بالحارث وأبى عبيس ابن جبر وعباد بن بشر: قال: فجاؤوا فدعوه ليلاً فتزل إليهم، قال سفيان قال غير عمرو: قالت له امرأته: إنى أسمع صوتاً كأنه صوت دم، قال: إنما هذا محمد بن مسلمة ورضيعه وأبو نائلة إن الكريم لو دعى إلى طعنة ليلاً لأجاب، قال محمد: إنى إذا جاء فسوف أمد يدي إلى رأسه، فإذا استمكنك منه فدونكم، قال: فلما نزل - وهو متوشح - قالوا: نجد منك ريح الطيب، قال: نعم تحتى فلانة أعطر نساء العرب، قال فتأذن لى أن أشم منه؟ قال: نعم فشم، فتناول فشم، ثم قال: أتأذن لى أن أعود؟ قال: فاستمكن من رأسه. ثم قال: دونكم. قال فقتلوه^(١).

قال ابن عثيمين^(٢): وهذه القصة التى قبلها تدل على أن من لم يرض بحكم رسول الله ﷺ كافراً يجب قتله، ولهذا قتله عمر رضى الله عنه.

فإن قيل: كيف يقتله عمر رضى الله عنه والأمر إلى الإمام وهو النبي ﷺ؟
أجيب: إن الظاهر أن عمر لم يملك نفسه لقوة غيرته فقتله؛ لأنه عرف أن هذا ردة عن

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٠٣٧)، ومسلم فى الجهاد (١١٩/٤٠١/٦) عن جابر به.

(٢) القول المفيد ٣٤٩/٢، ٣٥٠.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ النَّسَاءِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِعَانَةِ عَلَى فَهْمِ الطَّاغُوتِ .

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ .

الإسلام، وقد قال النبي ﷺ «من بدل دينه فاقتلوه»^(١) .

قال الشيخ حامد بن محمد^(١):

لنا كى يمضى الوحى فى الناس شائعا	فيارب يسر صولة عمرية
ولم يك للوحين فى الحكم سامعا	ويردع من يبنى الجهالة حكمها
يصد عن الوحين فى الدين بادعا	فكم من ترى فى زى علم وهمة
ولالذى قال الرسول مطاوعا	فلا لكتاب الله يصغى سماعه
بآياتك الفصحى سيوفاً قواطعا	فيا رب عجل بالذى ينصر الهدى
عليه صلاة الله ما البدر لامعا	كما كان فى وقت الرسول محمد

قوله : فيه مسائل :

● الأولى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت .

قال ابن عثيمين^(٢): وهى قوله تعالى «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ» .

وقوله «وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِعَانَةِ عَلَى فَهْمِ الطَّاغُوتِ» .

أى : أن الطاغوت مشتق من الطغيان، وإذا كان كذلك؛ فيشتمل كل ما تجاوز به العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع؛ فالأصنام والأمراء والحكام الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال طواغيت .

● الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ .

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٩٢٢) عن ابن عباس به . وأنظر «منار السيل» (٢٦٦٢) - بتخریجنا

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٣٨٢ .

(٣) القول المفيد ٢ / ٣٥٠ .

الثالثة: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

الرابعة: تَفْسِيرُ ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ﴾.

الخامسة: مَا قَالَهُ الشَّعْبِيُّ فِي سَبَبِ نَزُولِ الْآيَةِ الْأُولَى.

السادسة: تَفْسِيرُ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ.

السابعة: قِصَّةُ عُمَرَ مَعَ الْمُنَافِقِ.

الثامنة: كَوْنُ الْإِيمَانِ لَا يَحْصُلُ لِأَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ.

ففيها دليل على أن النفاق فساد في الأرض؛ لأنها في سياق المنافقين، والفساد يشمل جميع المعاصي.

● الثالثة: تفسير آية الأعراف ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

وقد سبق.

● الرابعة: تفسير ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ﴾.

وقد سبق ذلك، وقد بينا أن المراد بحكم الجاهلية كل ما خالف الشرع، وأضيف للجاهلية للتنفير منه وبيان قبحه، وأنه مبني على الجهل والضلال.

● الخامسة: ما قاله الشعبى في سبب نزول الآية الأولى

● السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب.

فالإيمان الصادق يستلزم الإذعان التام والقبول والتسليم لحكم الله ورسوله، والإيمان الكاذب بخلاف ذلك.

● السابعة: قصة عمر مع المنافق

حيث جعل عدوله عن الترافع إلى النبي ﷺ ميسحاً لقتله لردته، وأقدم على قتله لقوة غيرته فلم يملك نفسه.

● الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ

وهذا واضح من الحديث.



مَنْ جَعَلَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

مناسبة الباب لما قبله:

قال الفقير: هو أن الباب الماضى إنما عقد لمن زعم أنه آمن ثم حكم الطاغوت وكذلك الجاحد بأسماء الله وصفاته - ممن يزعم الإيمان ويتسبب إلى الإسلام - بضرب من ضروب التأويل الغير مستساغة أو بغير تأويل أصلاً فهو من جنس المنافقين الذين ذكروا فى الآية ولهذا ناسب أن يأتى المصنف بهذا الباب بعد الباب الماضى .

قال ابن تيمية: فى الباب السابق لهذا فى قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ إلى آخر الآيات، قال: إن هذه الآيات تنطبق تماماً على أهل التحريف والتأويل فى صفات الله، لأن هؤلاء يقولون إنهم يؤمنون بالله ورسوله، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول يعرضون ويصدون ويقولون نذهب إلى فلان وفلان، وإذا اعترض عليهم قالوا: نريد الإحسان والتوفيق، وأن نجمع بين دلالة العقل ودلالة السمع ذكره رحمه الله فى الفتوى الحموية. اهـ

وقال ابن كثير(*) : مؤكداً على هذا المعنى الذى ذهبت إليه: وفعل المنافقين الذى ذكر الله عنهم فى هذه الآية - ألم تر إلى الذين يزعمون - هو بعينه الذى يفعله المحرفون للكلم عن مواضعه، الذين يقولون: إنما قصدت التوفيق بين القواطع العقلية بزعمهم التى هى الفلسفة والكلام، وبين الأدلة النقلية، ثم يجعلون الفلسفة التى هى سفاهة وضلالة الأصل، ويردون بها ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة؛ زعموا أن ذلك يخالف الفلسفة التى يسمونها القواطع فتطلبوا له وجوه التأويلات البعيدة، وحملوه على شواذ اللغة التى لاتكاد تُعرف. اهـ.

مناسبة الباب للتوحيد

قال سليمان آل الشيخ (١): لما كان تحقيق التوحيد، بل التوحيد لا يحصل إلا بالإيمان بالله، والإيمان بأسمائه وصفاته نبه المصنف على وجوب الإيمان بذلك، وايضاً فالتوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد العبادة.

(*) تفسير ابن كثير (١/ ٤٩٢)

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٣٢

والأولان وسيلة إلى الثالث فهو العناية والحكمة المقصود بالخلق والأمر، وكلها متلازمة فتاسب التنبيه على الإيمان بتوحيد الصفات. اهـ.

قال ناصر السعدى^(١): أصل الإيمان وقاعدته التى ينبنى عليها هو الإيمان بالله وبأسمائه، وصفاته وكلما قوى علم العبد بذلك وإيمانه به، وتعبد لله بذلك، قوى توحيده، فإذا علم أن الله متوحد بصفات الكمال متفرد بالعظمة والجلال والجمال ليس له فى كماله مثيل، أوجب له ذلك أن يعرف ويتحقق أنه هو الإله الحق، وأن الهية ما سواه باطلة، فمن جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته فقد أتى بما يناقض التوحيد وينافيه، وذلك من شعب الكفر. اهـ.

قال عبدالله بن جابر الله^(٢): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هى أن من جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته فقد أتى بما يناقض التوحيد وينافيه وذلك من شعب الكفر. اهـ.

● شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب

قال حامد بن محمد^(٣): باب ماجاء فى بيان أن من جحد شيئاً من الأسماء والصفات التى تثبت بالكتاب والسنة يكفر بالإتفاق إن كان غير مؤول وإن كان مؤولا ففيه الاختلاف: فالنوع الأول: قوله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾

قال سليمان آل الشيخ^(٤): باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات أى من أسماء الله وصفاته والمراد ما حكمه هل هوناج أو هالك؟

قال ابن باز^(٥): هذا الباب عقده المؤلف لبيان وجوب إثبات أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى من غير تحريف لاتعطيل ولا تكيف ولاتمثيل وإن لا يغتر بأقوال أهل الاعتزال وأهل الباطل بل يجب الأخذ بما قاله أهل السنة والجماعة من الصحابة ومن سلك سبيلهم وهو الذى جاءت به الرسل جاءوا بإثبات أسماء الله وصفاته وأحاديثها كما جاءت واثبتوا ما دلت عليه من الأسماء والصفات عملاً بقوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أى لاسمى له ولا كفؤ له سبحانه وتعالى وأنكرت الجهمية الأسماء والصفات وتأولوا الأسماء والصفات حتى صاروا معطلة ومقتضى قولهم نقى وجود الله بالكلية ولهذا حكم عليهم

(٢) الجامع الفريد (١٥٨).

(١) القول السديد (١٠٤، ١٠٥).

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٣٢

(٣) فتح الله الحميد الجيد ٣٨٥.

(٥) التعليق المفيد ٢٠٣.

أهل السنة بالكفر والواجب قتلهم إن لم يتوبوا فيستأبوا لذلك لإنكارهم ماجاء فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة والإجماع وأطلق المؤلف الترجمة ولم يحكم على جاحد الأسماء والصفات، وحكمه الكفر. أهـ

قلت: لكن المصنف أطلق لأن فى المسألة تفصيل سيأتى من كلام ابن عثيمين

● حكم من جحد شيئاً من الاسماء والصفات.

قال ابن عثيمين (١):

الجحد: الإنكار، والإنكار نوعان:

الأول: إنكار تكذيب، وهذا كفر بلا شك، فلو أن أحداً أنكر اسماً من أسماء الله أوصفه من صفاته الثابتة فى الكتاب والسنة، مثل أن يقول: ليس لله يد، أو أن الله لم يستو على عرشه، أو ليس له عين؛ فهو كافر بإجماع المسلمين؛ لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مخرج عن الملة بالإجماع.

الثانى: إنكار تأويل، وهو أن لا ينكرها ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها، وهذا نوعان:

١- أن يكون للتأويل مسوغ فى اللغة العربية؛ فهذا لا يوجب الكفر.

٢- أن لا يكون له مسوغ فى اللغة العربية؛ فهذا حكمه الكفر لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار فى الحقيقة تكذيباً، مثل أن يقول: المراد بقوله تعالى ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ تجرى بأراضينا؛ فهذا كافر لأنه نفاها نفياً مطلقاً، فهو مكذب.

ولو قال فى قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ المراد بيديه: السماوات والأرض؛ فهو كفر أيضاً لأنه لا مسوغ له فى اللغة العربية، ولا هو مقتضى الحقيقة الشرعية؛ فهو منكر ومكذب، لكن إن قال: المراد بالسيد النعمة أو القوة؛ فلا يكفر لأن اليد فى اللغة تطلق بمعنى النعمة، قال الشاعر:

وكم لظلام الليل عندك من يد تحدث أن المانوية تكذب

فقوله: «من يد»؛ أى: من نعمة؛ لأن المانوية يقولون: إن الظلمة لا تخلق الخير، وإنما تخلق الشر.

قوله: «من الأسماء»

جمع اسم، واختلف فى اشتقاقه؛ فقيل: من السمو، وهو الارتفاع، ووجه هذا أن المسمى يرتفع باسمه ويتبين ويظهر.

(١) القول المفيد (٢/٣٥٣: ٣٦١).

وقيل: من البسمة وهى العلامة، ووجهه: أنه علامة على مسماه، والراجع أنه مشتق من كليهما.

والمراد بالأسماء هنا أسماء الله - عز وجل - وبالصفتان صفات الله - عز وجل -، والفرق بين الاسم والصفة أن الاسم ما تسمى به الله والصفة ما تصف به

قال ابن عثيمين (١):

البحث فى أسماء الله:

المبحث الأول:

أن أسماء الله أعلام وأوصاف، وليست أعلاماً محضة؛ فهى من حيث دلالتها على ذات الله تعالى أعلام، ومن حيث دلالتها على الصفة التى يتضمنها هذا الاسم أوصاف، بخلاف أسمائنا؛ فالإنسان يسمى ابنه محمداً وعلياً دون أن يلحظ معنى الصفة، فقد يكون اسمه علياً وهو من أضع الناس، أو عبد الله وهو من أكفر الناس، بخلاف أسماء الله؛ لأنها متضمنة للمعانى؛ فالله هو العلى لعلو ذاته وصفاته، والعزیز يدل على العزة، والحكيم يدل على الحكمة، وهكذا.

ودلالة الاسم على الصفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: دلالة مطابقة، وهى دلالة على جميع معناه المحيط به.

الثانى: دلالة تضمن، وهى دلالة على جزء معناه.

الثالث: دلالة التزام، وهى دلالة على أمر خارج لازم.

مثال ذلك: الخالق يدل على ذات الله وحده، وعلى صفة الخلق وحدها دلالة تضمن، ويدل على ذات الله وعلى صفة الخلق فيه دلالة مطابقة، ويدل على العلم والقدرة دلالة التزام.

كما قال الله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (٢)؛ فعلمنا القدرة من كونه خلق السماوات والأرض، وعلمنا العلم من ذلك أيضاً؛ لأن الخلق لا بد فيه من علم، فمن لا يعلم لا يخلق، وكيف يخلق شيئاً لا يعلمه؟!

المبحث الثانى:

أن أسماء الله مترادفة متابينة.

(١) القول المفيد ٢/ ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١

(٢) الطلاق: ١٢

الترادف: ما اختلف لفظه واتفق معناه، والمتباين: ما اختلف لفظه ومعناه؛ فأسماء الله مترادفة باعتبار دلالتها على ذات الله - عزوجل - ؛ لأنها تدل على مسمى واحد، فالسميع، البصير، العزيز، الحكيم؛ كلها تدل على شيء واحد هو الله، ومتباينة باعتبار معانيها؛ لأن معنى الحكيم غير معنى السميع وغير معنى البصير، وهكذا .

المبحث الثالث:

أسماء الله ليست محصورة بعدد معين، والدليل على ذلك قوله ﷺ في حديث ابن مسعود الحديث الصحيح المشهور: «اللهم ! إني عبدك، ابن عبدك، وابن أمتك... إلى أن قال - أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»^(١)، وما استأثر الله به في علم الغيب لا يمكن أن يعلم به، وما ليس بمعلوم ليس بمحصور.

وأما قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»^(٢)؛ فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة، فقلوه: «من أحصاها» تكميل للجمله الأولى، وليست استثنائية متفصلة، ونظير هذا قول القائل: عندي مئة فرس أعدتها للجهاد في سبيل الله؛ فليس معناه أنه ليس عنده إلا هذه المئة، بل معناه أن هذه المئة معدة لهذا الشيء.

المبحث الرابع:

الاسم من أسماء الله يدل على الذات وعلى المعنى كما سبق؛ فيجب علينا أن نؤمن به اسماً من الأسماء، ونؤمن بما تضمنته من الصفة، ونؤمن بما تدل عليه هذه الصفة من الأثر والحكم إن كان الاسم متعدياً؛ فمثلاً: السميع نؤمن بأن من أسمائه تعالى السميع، وأنه دال على صفة السمع، وأن لهذا السمع حكماً وأثراً وهو أنه يسمع به؛ كما قال تعالى: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ»^(٣)، أما إن كان الاسم غير متعد؛ كالعظيم، والحي، والجليل، فنثبت الاسم والصفة، ولاحكم له يتعد إليه.

(١) سيأتي تخريجه.

أنظر «القواعد المثلى» بتخريجنا.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) المجادلة: ١

المبحث الخامس:

هل أسماء الله تعالى غيره، أو أسماء الله هي الله؟
إن أريد بالاسم اللفظ الدال على المسمى؛ فهي غير الله - عز وجل -، وإن أريد بالاسم مدلول ذلك اللفظ؛ فهي المسمى.

فمثلاً: الذى خلق السماوات والأرض هو الله؛ فالاسم هنا هو المسمى، فليست «اللام - والهاء» هي التي خلقت السماوات والأرض، وإذا قيل: اكتب باسم الله فكُتبت بسم الله؛ فالمراد به الاسم دون المسمى، وإذا قيل: اضرب زيداً. فضربت زيداً المكتوب في الورقة لم تكن ممثلاً؛ لأن المقصود المسمى، وإذا قيل: اكتب زيد قائم. فالمراد الاسم الذى هو غير المسمى.

البحث في صفات الله:

المبحث الأول:

تنقسم صفات الله إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ذاتية ويقال معنوية.

الثاني: فعلية.

الثالث: خبرية.

فالصفات الذاتية: هي الملازمة لذات الله، والتي لم يزل ولا يزال متصفاً بها، مثل: السمع والبصر وهي معنوية؛ لأن هذه الصفات معانى.

والفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته إن شاء فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها، مثل: النزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والكلام من حيث آحاده، والخلق من حيث آحاده، لا من حيث الأصل؛ فأصل الكلام صفة ذاتية، وكذلك الخلق.

والخبرية: هي أبعاد وأجزاء بالنسبة لنا، أما بالنسبة لله؛ فلا يقال هكذا بل يقال: صفات خبرية ثبت بها الخبر من الكتاب والسنة، وهي ليست معنى ولافعلاً، مثل: الوجه، والعين، والساق، واليد.

المبحث الثاني:

الصفات أوسع من الأسماء؛ لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة تكون اسماً، وهناك صفات كثيرة تطلق على الله وليست من أسمائه؛ فيوصف الله بالكلام والإرادة، ولا يسمى بالتكلم أو المريد.

المبحث الثالث:

أن كل ما وصف الله به نفسه؛ فهو حق على حقيقته، لكن يتزه عن التمثيل والتكييف، أما التمثيل؛ فلقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ والتعبير بنفى التمثيل أحسن من التعبير بنفى التشبيه؛ لوجوه ثلاثة:

أحدهما: أن التمثيل هو الذى جاء به القرآن وهو منفى مطلقاً، بخلاف التشبيه؛ فلم يأت القرآن بنفيه.

الثانى: أن نفى التشبيه على الإطلاق لا يصح؛ لأن كل موجودين فلا بد أن يكون بينهما قدر مشترك يشبهان فيه ويتميز كل واحد بما يختص به؛ فـ: «الحياة» مثلاً وصف ثابت فى الخالق والمخلوق، فبينهما قدر مشترك، ولكن حياة الخالق تليق به وحياة المخلوق تليق به.

الثالث: أن الناس اختلفوا فى مسمى التشبيه، حتى جعل بعضهم إثبات الصفات التى أثبتها الله لنفسه تشبيهاً، فإذا قلنا من غير تشبيه؛ فهم هذا البعض من هذا القول نفى الصفات التى أثبتها الله لنفسه.

وأما التكييف؛ فلا يجوز أن نكيف صفات الله، فمن كيف صفة من الصفات؛ فهو كاذب عاص، كاذب لأنه قال بما لا علم عنده فيه، عاص لأنه واقع فيما نهى الله عنه وحرمه فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية^(٢)، ولأنه لا يمكن إدراك الكيفية؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾^(٣)، وقوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(٤).

وسواء كان التكييف باللسان تعبيراً أو بالجنان تقديرأ أو بالبنتان تحويرأ، ولهذا قال مالك رحمه الله حين سئل عن كيفية الاستواء: «الكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة»، وليس معنى هذا أن لانعتقد أن لها كيفية، بل لها كيفية، ولكنها ليست معلومة لنا؛ لأن ما ليس له كيفية ليس بموجود؛ فالاستواء والتزول واليد والوجه والعين لها كيفية،

(٢) الأعراف: ٣٣

(١) الإسراء: ٣٦

(٤) الأنعام: ١٠٣

(٣) طه: ١١٠

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الْآيَةُ (١) (*).

لكننا لا نعلمها؛ ففرق بين أن نشبث كيفية معينة ولو تقديراً وبين أن نؤمن بأن لها كيفية غير معلومة، وهذا هو الواجب؛ فنقول: لها كيفية، لكن غير معلومة.

فإن قيل: كيف يتصور أن نعتقد للشيء كيفية ونحن لا نعلمها؟

أجيب: إنه متصور؛ فالواحد منا يعتقد أن لهذا القصر كيفية من داخله، ولكن لا يعلم هذه الكيفية إلا إذا شاهدها، أو شاهد نظيرها، أو أخبره شخص صادق عنها. اهـ.

قلت: وهناك مباحث أخرى غير ذلك ستأتى من كلام الرازى والقرطبى وابن كثير فى باب قوله الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

قوله: [وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الْآيَةُ]

مناسبة الآية للترجمة والتوحيد

قال سليمان آل الشيخ^(٢): ومطابقة الآية للترجمة ظاهرة، لأن الله تعالى سمي جحود اسم من أسمائه ككراً، فدل على أن جحود شيء من أسماء الله وصفاته كفر، فمن جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته من الفلاسفة، والجهمية والمعتزلة ونحوهم فله نصيب من الكفر بقدر ما جحد من الاسم أو الصفة. فإن الجهمية والمعتزلة ونحوهم، وإن كان يقرون بجنس الأسماء والصفات فعند التحقيق لا يقرون بشيء، لأن الأسماء عندهم أعلام محضة، لا تدل على صفات قائمة بالرب تبارك وتعالى وهذا نصف كفر الذين جحدوا اسم الرحمن. اهـ.

قال القرعاوى^(٣): دلت الآية على أن إنكار شيء من أسماء الله وصفاته كفر وذلك ينافى توحيد الأسماء والصفات اهـ

(١) الرعد: ٣٠.

(*) تنبيه: هذه الآية اختلف شراح كتاب التوحيد فى كتابتها كاملة أو الاقتصار على جزء منها، وموضع الشاهد منها ما أثبتناه فى المتن.

(٢) الجديد ٣٥٣.

(٣) تيسير العزيز الحميد (٤٣٢).

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾.

الإعراب (١):

(وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) الواو للحال أى وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن والجار والمجرور متعلقان بيكفرون ولا مانع من جعلها استئنافية كما قال بعضهم. اهـ.

● ما جاء فى سبب نزول الآية من الأحاديث والآثار وأقوال المفسرين.

عن قتادة فى قوله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ - زمن الحديبية - حين صالح قريشا، كتب فى الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقالت قريش: أما الرحمن فلا نعرفه، وكان أهل الجاهلية يكتبون: باسمك اللهم. فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم. قال: لا، ولكن اكتبوا كما يريدون» (٢).

وعن ابن جريج فى الآية قال: هذا لما كاتب رسول الله ﷺ قريشا فى الحديبية، كتب «بسم الله الرحمن الرحيم». فقالوا: لا نكتب الرحمن وما ندرى ما الرحمن!... ومانكتب إلا باسمك اللهم» فأنزل الله تعالى ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الآية (٣).

قال البغوى (٤): والمعروف أن الآية مكية، وسبب نزولها: أن أبا جهل سمع النبى ﷺ، وهو فى الحجر يدعو يا الله يا رحمن، فرجع إلى المشركين فقال: إن محمداً يدعو إلهين: يدعو الله، ويدعو إلهاً آخر يسمى الرحمن. ولانعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

قال ابن الجوزى (٥): فى سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن النبى ﷺ لما قال لكفار قريش: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن؟ فنزلت هذه الآية، وقيل لهم: إن الرحمن الذى أنكرتم هو ربى، هذا قول الضحاك عن ابن عباس.

والثانى: أنهم لما أرادوا كتاب الصلح يوم الحديبية، كتب على - رضى الله عنه -

(١) إعراب القرآن / ١٢٢

(٢) ذكره السيوطى فى «الدر» (ح/ ١١٦) ونسبه لابن جرير، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ.

(٣) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وابن المنذر.

(٤) زاد المسير ٤/ ٢٥٢

(٥) معالم التنزيل (٣/ ٣٥٦).

بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو: مانعرف الرحمن إلا مسيلمه، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة، وابن جريج، ومقاتل.

والثالث: أن رسول الله ﷺ كان يوماً في الحجر يدعو، وأبو جهل يستمع إليه وهو يقول: يارحمن، فولى مدبراً إلى المشركين فقال: إن محمداً كان ينهانا عن عبادة آلهة وهو يدعو إلهين! فنزلت هذه الآية، ذكره على بن أحمد النيسابوري.

قال الفخر الرازي^(١):

قيل: نزل قوله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ في عبد الله بن أمية المخزومي، كان يقول أما الله فنعرفه، وأما الرحمن فلانعرفه، إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمه الكذاب، فقال تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

وكقوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾.

وقيل إنه عليه السلام حين صالح قريشا من الحديبية كتب «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» فقال المشركون: إن كنت رسول الله وقد قاتلناك فقد ظلمنا، ولكن اكتب، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فكتب كذلك، ولما كتب في الكتاب «بسم الله الرحمن الرحيم» قالوا أما الرحمن فلانعرفه، وكانوا يكتبون باسمك اللهم، فقال - عليه السلام - ساكتبوا كما تريدون.

● ما جاء في الآية من أقوال المفسرين:

قال ابن جرير^(٢): ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ يقول وهم يجحدون وحدانية الله ويكذبون بها. اهـ.

قال الزمخشري: وهم يكفرون وحال هؤلاء أنهم يكفرون (بالرحمن) بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء ومابهم من نعمة فمنه فكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وأنزل هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم^(٣).

قال الرازي: واعلم أن قوله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ إذا حملناه على هاتين الروايتين كان معناه أنهم كفروا باطلاق هذا الاسم على الله تعالى، لا أنهم كفروا بالله تعالى.

وقال آخرون: بل كفروا بالله إما جحداً له وإما لإثباتهم الشركاء معه.

(١) التفسير الكبير (٥٨/١٩/١٠)

(٢) تفسير الطبري (١٠١/١٣/٧).

(٣) الكشف ٢/٢٨٨.

قال القاضي: وهذا القول أليق بالظاهر، لأن قول تعالى ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ يقتضى أنهم كفروا بالله، وهو المفهوم من الرحمن، وليس المفهوم منه الاسم كما لو قال قائل: كفروا بمحمد وكذبوا به لكان المفهوم هو، دون اسمه. اهـ.

قال ابن كثير (١): ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أى هذه الأمة التى بعثناك فيها يكفرون بالرحمن لايقرون به لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا ماندرى ما الرحمن الرحيم، قاله قتادة والحديث فى صحيح البخارى (*)، وقد قال الله تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وفى صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «أن أحب الأسماء إلى الله تعالى عبدالله وعبد الرحمن» (**). اهـ.

قال الشوكانى (٢): أى بالكثير الرحمة لعباده، ومن رحمته لهم إرسال الرسل إليهم، وأنزال الكتب عليهم كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. اهـ.

قال ناصر السعدى (٣):

أرسلنا فيهم رسلنا. فلست بيدع من الرسل، حتى يستكروا رسالتك. ولست تقول من تلقاء نفسك. بل تتلوا عليهم آيات الله، التى أوحاها الله إليك، التى تطهر القلوب، وتزكى النفوس.

والحال أن قومك، يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه - التى أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولا، وأنزلنا عليك كتابا - بالقبول والشكر، بل قابلوها بالإنكار والرد.

فلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم، من القرون المكذبة، كيف أخذهم الله بذنوبهم. اهـ.

قال صاحب الظلال (٤):

العجيب أنهم يكفرون بالرحمن، العظيم الرحمة، الذى تطمئن القلوب بذكره واستشعار رحمته الكبرى. وماعليك إلا أن تتلوا عليهم الذى أوحينا إليك فلماذا أرسلناك. اهـ.

(*) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٦٩٩)، ومسلم فى الجهاد والسير (٩٣/٣٧٧/٦) عن أنس به.
(**) [صحيح] أخرجه مسلم فى الآداب (٢/٣٦٥/٧) عن ابن عمر به وانظر «تحفة المودور» بتخریجنا.

(٢) فتح القدير: ٨٣/٣.

(١) تفسير ابن كثير: ٤٩٧/٢.

(٤) الظلال ٢٠١٦/٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٢/٤٤٨، ٤٤٩).

ما جاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد.

قال سليمان آل الشيخ (١):

أى: يجحدون هذا الاسم لا أنهم يجحدون الله فإنهم يقرون به كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (٢) والمراد بهذا كفار قريش أو طائفة منهم فإنهم جحدوا هذا الاسم عناداً أوجهاً.

ولهذا لما قال النبى ﷺ لعلى يوم الحديبية: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم». فقالوا: لانعرف الرحمن ولا الرحيم» وفى بعض الروايات لانعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. يعنون مسيلمة الكذاب، فإنه قبحه الله كان قد تسمى بهذا الاسم وأما كثير من أهل الجاهلية فيقرون بهذا الاسم كما قال بعضهم: [ومايشأ الرحمن يعقد ويطلق]. اهـ.

وقال حامد بن محمد (٣):

حكاية عن كفار قريش أنهم أنكروا على الرسول ﷺ صفة الرحمن قالوا: أما الرحمن فلانعرفه فقل مثل ماكننا نقول سبحانهك اللهم: فالعالم العارف ينبغى أن يحدث الناس بما يدخل فى عقولهم لئلا يكذبوا الله ورسوله ولا ينكروا شيئاً مما ثبت عن الله ورسوله ﷺ لاياتى بما ينكروه إلا بعد مقدمات تبينه وتوضحه لهم. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ (٤):

فإذا كان المشركون جحدوا اسماً من أسمائه تعالى، وهو من الأسماء التى دلت على كماله سبحانه ويحمده: فجحدوا معنى هذا الاسم ونحوه من الأسماء يكون كذلك. فإن جهم بن صفوان ومن تبعه: يزعمون أنها لاتدل على صفة قائمة بالله تعالى وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم؛ فهذا كفرهم كثير من أهل السنة؛ قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -

ولقد تقلد كفرهم خمسون فى
واللالكائى الإمام حكاه عنه
عشر من العلماء فى البلدان
هم بل حكاه قبله الطبرانى

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٣٢، ٤٣٣

(٢) الزخرف: ٨٧.

(٣) فتح الله الحميد ٣٨٥

(٤) فتح المجيد ٢/ ٦٧١-٦٧٤.

فإن هؤلاء الجهمية، ومن وافقهم على التعطيل: جحدوا ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل أصل باطل أصوله من عند أنفسهم، فقالوا: هذه الصفات هي صفات الأجسام فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسماً

هذا منشأ ضلال عقولهم، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين. فشبهاوا الله في ابتداء رأيهم الفاسد بخلقه، ثم عطلوه من صفات كماله، وشبهوه بالناقصات والجفادات والمعدومات .

فشبهاوا أولاً ، وعطلوا ثانياً، وشبهاوا ثالثاً بكل ناقص أو معدوم فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة، من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته .

هذا هو الذى عليه سلف الأمة وأئمتها؛ فإنهم أثبتوا لله ما أثبتة لنفسه وأثبتة رسوله ﷺ، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل؛ فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتذى حذوه فكما أن هؤلاء المعطلة يشبّون لله ذاتاً لا تشبه الذوات فأهل السنة يقولون ذلك، ويشبّون ما وصف الله به نفسه، ووصفه رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، لا تشبه صفات خلقه .

فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولم يتناقضوا. وأولئك المعطلة: كفروا بما في الكتاب والسنة من ذلك، فتناقضوا.

فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل - والله الحمد والمنة - وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين.

وقد صنف العلماء - رحمهم الله - تعالى في الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم، في إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافت: كالإمام أحمد رحمه الله تعالى في رده المشهور ، و(كتاب السنة) لابنه عبد الله ، وصاحب (الحيدة)، عبدالعزيز الكنانى في رده على بشر المريسى و(كتاب السنة) لأبى عبد الله المروزى ، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد وهو بشر المريسى، و(كتاب التوحيد) لإمام الأئمة محمد بن خزيمة الشافعى و (كتاب السنة) لأبى بكر الخلال ، وأبى عثمان الصابونى الشافعى، وشيخ الإسلام الأنصارى، وأبى عمر بن عبد البر، وخلق كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وتابعيهم، أهل الحديث. ومن متأخريهم: أبو محمد ، وعبد الله بن أحمد ابن قدامة وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأصحابه وغيرهم. فله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها، مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء، والله أعلم.

قال ابن باز^(١): قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ بين الله تعالى أن الرحمن هو ربنا وإلهنا وأن كفر الكافرين بالرحمن كفر بالله فيجب على المؤمن أن يحذر من صفات هؤلاء الضالين وعليه أن يسلك مسلك أهل العلم والإيمان. وسمى إنكارهم الصفة كفر بالرحمن فدل على كفر من أنكر الصفات أھـ.

قال ابن عثيمين^(٢): ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾.

المрад: أنهم يكفرون بهذا الاسم لا بالمسمى، فهم يقرون به، قال تعالى ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وفي حديث سهيل بن عمرو لما أراد النبي ﷺ أن يكتب الصلح في غزوة الحديبية قال للكاتب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» قال سهيل: أما الرحمن؛ فوالله ما أدري ماهي ولكن اكتب باسمك اللهم^(٣)، وهذه من الأمثلة التي يراد بها الاسم دون المسمى.

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: بأى اسم من أسمائه تدعونه؛ فإن له الأسماء الحسنى، فكل أسمائه حسنى؛ فادعوا بما شئتم من الأسماء، ويراد بهذه الآية الإنكار على قريش. وفي الآية دليل على أن من أنكر اسماً من أسمائه تعالى فإنه يكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، ولأنه مكذب لله ولرسوله، وهذا كفر، وهذا وجه استشهاد المؤلف بهذه الآية.

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾
الإعراب^(٤):

(قل هو ربي لا إله إلا هو) (هو ربي مبتدأ وخبر والجملة الاسمية مقول القول. أھـ).
وقال ابن عثيمين^(٥).

خير «لا» النافية للجنس محذوف، والتقدير لا إله حق إلا هو، وأما الإله الباطل فكثير، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٦١، ٣٦٢.

(١) التعليق المفيد ٤- ٢.

(٣) تقدم تخريجه.

(٥) القول المفيد (٢/ ٣٦٢).

(٤) إعراب القرآن / ١٢٢

● تفسير الآية بأقوال المفسرين والشرح.

قال الطبرى^(١): يقول أن كفر هؤلاء الذين أرسلناك إليهم يا محمد بالرحمن فقل أنت الله ربى لا إله إلا هو. اهـ.

قال الزمخشري^(٢): (قل هو ربى) الواحد المتعال عن شركاء.

قال البغوى^(٣): قال الله تعالى ﴿قُلْ لَهُمْ يَامُحَمَّدُ. إِنَّ الرَّحْمَنَ الَّذِي أَنْكُرْتُمْ مَعْرِفَتَهُ قُلْ هُوَ رَبِّى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. اهـ.

قال القرطبى^(٤): ﴿قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: الَّذِي أَنْكُرْتُمْ قُلْ هُوَ رَبِّى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه؛ هو واحد بذاته، وإن اختلفت أسماء صفاته. اهـ.

قال ابن كثير^(٥): أى هذا الذى تكفرون به أنامؤمن به معترف مقر له بالربوبية والإلهية هو ربى لا إله إلا هو. اهـ.

قال السعدى^(٦): ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا متضمن التوحيدين، توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية.

فهو ربى، الذى ربانى بنعمه، منذ أوجدنى. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٧): أى: قل يا محمد راداً عليهم فى كفرهم بالرحمن تبارك وتعالى هوأى: الرحمن عزوجل ربى لا إله إلا هو أى: لا معبود سواه.

قوله: ﴿عليه توكلت وإليه متاب﴾.

الإعراب: (٨).

(عليه توكلت وإليه متاب) عليه متعلقان بتوكلت وإليه خبر مقدم ومتاب مبتدأ مؤخر. اهـ.

● الأثر فى تفسير الآية .

عن مجاهد^(٩) - رضى الله عنه - ﴿وإليه متاب﴾ قال: توتى.

(١) الطبرى ١٠١/١٣/٧	(٢) الكشف: ٢٨٨/٢
(٣) معالم التنزيل ٣٥٦/٣	(٤) القرطبى: ٣٥٤٧
(٥) تفسير ابن كثير ٤٩٧/٢	(٦) تيسير الكريم الرحمن ٤٤٩/
(٧) تيسير العزيز الحميد ٤٣٣.	(٩) الدر ٦٥١/٤ ونسبه لابن أبى حاتم.
(٨) إعراب القرآن/ ١٢٢	

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى (١): إليه مرجعى وأوبتى وهو مصدر من قول القائل تبت متابة وتوبة أهـ.

قال الزمخشري (٢): نصرنى عليكم (واليه متاب) فيثينى على مصابرتكم ومجاهدtkم. أهـ.

قال الشوكانى (٣): (إليه) لا إلى غيره، (متاب) توبتى، وفيه تعريض بالكفار وحث لهم على الرجوع إلى الله والتوبة من الكفر والدخول فى الإسلام. أهـ.

قال صاحب الظلال (٤): فإن يكفروا فأعلن لهم أن اعتمادك على الله وحده وأنتك نائب إليه وراجع ولا تتجه إلى أحد سواه أهـ.

● ما جاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ (٥): وفى الآية دليل على أن التوكل عبادة، وعلى أن التوبة عبادة، وإذا كان كذلك فالتوبة إلى غيره شرك.

ولما قال سارق، وقد قطعت يده، للنسبى رحمته الله: اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد قال النبى رحمته الله «عرف الحق لأهله» (٦) رواه أحمد.

قال ابن عثيمين (٧): قوله تعالى: ﴿عليه توكلت﴾.

أى: عليه وحده؛ لأن تقديم المعمول يدل على الحصر، فإذا قلت مثلاً: «ضربت زيداً» فإنه يد على أنك ضربته، ولكن لا يدل على أنك لم تضرب غيره، وإذا قلت: «زيداً ضربت» دلت على أنك ضربت زيداً ولم تضرب غيره، وسبق معنى التوكل وأحكامه.

قوله ﴿وإليه متاب﴾.

أى: إلى الله، و﴿متاب﴾ أصلها متابى، فحذفت الباء تخفيفاً، والمتاب بمعنى التوبة؛ فهو مصدر ميمى؛ أى: وإليه توبتى.

والتوبة: هى الرجوع إلى الله تعالى من المعصية إلى الطاعة، ولها شروط خمسة.

١- الإخلاص لله تعالى بأن لا يحمل الإنسان على التوبة مراعاة أحد أو محاباة أو شىء من الدنيا.

(١) تفسير الطبرى (٧/١٣/١٠١).

(٢) فتح القدير ٨٣/٣

(٢) الكشف ٢٨٨/٢

(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٣٣

(٤) الظلال ٢١١٦/٤

(٧) القول المفيد ٢/٤٦٣، ٣٦٤

(٦) تقدم تخريجه.

وفى «صحيح البخارى»: قَالَ عَلَى: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يَكْذَبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!» (١).

٢- أن تكون فى وقت قبول التوبة، وذلك قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل حضور الموت.

٣- الندم على ما مضى من فعله، وذلك بأن يشعر بالتحسر على ما سبق ويتمنى أنه لم يكن.

٤- الإقلاع عن الذنب وعلى هذا، فإذا كانت التوبة من مظالم الخلق؛ فلا بد من رد المظالم إلى أهلها أو استحللهم منها.

٥- العزم على عدم العودة، والتوبة التى لا تكون إلا لله هى توبة العبادة؛ كما فى الآية السابقة، وأما التوبة التى بمعنى الرجوع؛ فإنها تكون له ولغيره، ومنه قول عائشة حين جاء النبى ﷺ فوجد غمرقة فيها صور، فوقف بالباب ولم يدخل، وقالت: «أتوب إلى الله ورسوله، ماذا أذنبت؟» (٢) فليس المراد بالتوبة هنا توبة العبادة؛ لأن توبة العبادة لا تكون للرسول ﷺ ولا لغيره من الخلق بل لله وحده، ولكن هذه توبة رجوع، ومن ذلك أيضاً حين يضرب الإنسان ابنه لسوء أدبه؛ يقول الابن: أتوب. أهـ.



قوله: [وفى صحيح البخارى قال على: حدثوا الناس بما يعرفون...].

قال سليمان آل الشيخ (٣): هذا الأثر رواه البخارى مستنداً لامعلاً لكنه فى بعض الروايات علقه أولاً ثم ذكر إسناده، وفى بعضها ساق إسناده أولاً فرواه عن عبيد الله ابن موسى عن معروف بن خربوذ عن أبى الطفيل عن على به ولفظه «أتحبون أن يكذب الله ورسوله». أهـ.

مناسبة الأثر للباب وللتوحيد

قال القرعاوى (٤): والأثر على منع تحديث الناس بما لا تدرکه عقولهم ومن ذلك

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى العلم/باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا (١٢٧/٢٧٢/١)

عن عبيد الله بن موسى، عن معروف بن خربوذ، وعن أبى الطفيل، عن على به.

وأنظر «فتح المجيد» (٧٤١) بتخريجنا

(٢) [متفق عليه] أخرجه: البخارى (٥٩٥٧)، ومسلم فى اللباس (٧/٣٣٧/٩٦) عن عائشة به.

(٤) الجديد (٤٠٥).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٣٣

التفاصيل والتوسع فى أسماء الله وصفاته لأن ذلك قد يؤدى إلى إنكارها وهو كفر بها وذلك يتنافى توحيد الأسماء والصفات.

قال ابن عثيمين^(١):

● مناسبة هذا الأثر لباب الصفات.

مناسبتة ظاهرة؛ لأن بعض الصفات لا تختملها أفهام العامة فيمكن إذا حدثهم بها كان لذلك أثر سىء عليهم؛ كحديث النزول إلى السماء الدنيا^(٢) مع ثبوت العلو، فلو حدثت العامى بأنه نفسه ينزل إلى السماء الدنيا مع علوه على عرشه، فقد يفهم أنه إذ نزل؛ صارت السماوات فوقه وصار العرش خالياً منه، وحيث لا بد فى هذا من حديث تبلغه عقولهم فتبين لهم أن الله - عزوجل - ينزل نزولاً لا يماثل نزول المخلوقين مع علوه على عرشه، وأنه لكمال فضله ورحمته يقول: «من يدعونى فأستجيب له...» الحديث.

والعامى يكفيه أن يتصور مطلق المعنى، وأن المراد بذلك بيان فضل الله - عزوجل - فى هذه الساعة من الليل.

قوله (على).

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣): على: هو أمير المؤمنين أبو الحسن، على بن أبى طالب، وأحد الخلفاء الراشدين. اهـ.

قلت: وتقدم بعض مناقبة فى باب الدعاء إلى شهادة لا إله إلا الله.

قوله (حدثوا الناس)

قال ابن عثيمين^(٤): قوله فى أثر على رضى الله عنه: «حدثوا الناس» أى: كلموهم بالمواعظ وغير المواعظ. اهـ.

قوله (بما يعرفون).

قال ابن حجر^(٥): والمراد بقوله «بما يعرفون» أى يفهمون. وزاد آدم بن أبى إياس

(١) القول المفيد ٣٦٥، ٣٦٦

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٣٢١) ومسلم فى صلاة المسافرين عن أبى هريرة به.

(٣) فتح المجيد ٢/ ٦٧٤

(٤) القول المفيد ٢/ ٦٤٣.

(٥) الفتح ١/ ٢٧٢.

فى كتاب العلم له عن عبدالله بن داود عن معروف فى آخره «ودعوا ماينكرون» أى يشتبه عليهم فهمه. وكذا رواه أبو نعيم فى المستخرج.

وفيه دليل على أن المتشابه لاينبغى أن يذكر عند العامة. مثله قول ابن مسعود «ما أنت محدثاً قوماً حديثاً لاتبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة» رواه مسلم.

وعمن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد فى الأحاديث التى ظاهرها الخروج على السلطان ومالك فى أحاديث الصفات، وأبو يوسف فى الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة ونحوه عن حذيفة، وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنين لأنه اتخذها وسيلة إلى ماكان يعتمد من المبالغة فى سفك الدماء بتأويله الواهى، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوى البدعة وظاهره فى الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب. والله أعلم أهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(١) وما ذكره - يعنى الحافظ - عن مالك فى أحاديث الصفات ما أظنه يثبت عن مالك، وهل فى أحاديث الصفات أكثر من آيات الصفات التى فى القرآن؟ فهل يقول مالك أو غيره من علماء الإسلام: إن آيات الصفات لاتلى على العوام. ومازال العلماء قديماً وحديثاً من أصحاب النبى ﷺ ومن بعدهم يقرأون آيات الصفات، وأحاديثها بحضرة عوام المؤمنين وخواصهم، بل شرط الإيمان هو الإيمان بالله، وصفات كماله التى وصف بها نفسه فى كتابه، أو على لسان رسوله الله ﷺ، فكيف يكتفى ذلك عن عوام المؤمنين؟! بل نقول: من لم يؤمن بذلك فليس من المؤمنين، ومن وجد فى قلبه حرجاً من ذلك فهو من المنافقين. ولكن هذا من بدع الجهمية وأتباعهم الذين يتفنون صفات الرب تبارك وتعالى، فلما رأوا أحاديث الصفات مبطله لمذاهبهم، قامعة لبدعهم تواصوا بكتمانها عن عوام المؤمنين؛ لئلا يعلموا ضلالهم، وفساد اعتقادهم فاعلم ذلك. وفى الأثر دليل على أنه إذا خشى ضرر من تحديث الناس ببعض ما لا(*) يعرفون فلا ينبغى تحديثهم به. وليس ذلك على إطلاق، وإن كثيراً من الدين والسنن يجهله الناس، فإذا حدثوا به كذبوا بذلك وأعظموه، فلايترك العالم تحديثهم، بل يعلمهم برفق ويدعوهم بالتى هى أحسن. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): وسبب هذا القول - والله أعلم - ماحدث فى خلافته يعنى على بن أبى طالب من كثرة إقبال الناس على الحديث، وكثرة القصاص وأهل الوعظ، فيأتون فى قصصهم بأحاديث لاتعرف من هذا القبيل. فربما استنكروها بعض الناس وردوها، وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح، فيقع بعض المفسد

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٣٤.

(٢) فتح المجيد ٢/ ٦٧٤، ٦٧٥.

لذلك. فأرشدهم أمير المؤمنين رضى الله عنه إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف، ينفع الناس فى أصل دينهم وأحكامه، من بيان الحلال والحرام الذى كلّفوا به علما وعملا، دون ما يشغل عن ذلك، مما يؤدى إلى رد الحق وعدم قبوله، فيُفضى بهم إلى التكذيب، لاسيما مع اختلاف الناس فى وقته، وكثرة خوضهم وجدلهم.

وقد كان شيخنا - المصنف رحمه الله - لا يُحب أن يُقرأ على الناس إلا ما ينفعهم فى أصل دينهم وعبادتهم ومعاملاتهم الذى لا غنى لهم عن معرفته، وينهاهم عن القراءة فى مثل كتب ابن الجوزى: (كالنecش)، (والمرعش)، (والتبصرة)، لما فى ذلك من الإعراض عما هو أوجب وأنفع، وفيها ما أعلم به الله أن لا ينبغي اعتقاده، والمعصوم من عصمه الله.

وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان ينهى القُصّاص عن القَصَص؛ لما فى قصصهم من الغرائب والتساهل فى النقل وغير ذلك، ويقول: لا يقص إلا أمير أو مأمور(*).

وكلُّ هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علماً وعملاً ونية وقصدًا، وترك كلِّ ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها، والله الموفق للصواب، ولا حول ولا قوة إلا بالله. اهـ.

قال ابن باز^(١): والمعنى: أنه يجب على الواعظ والمذكر أن يذكر الناس بالألفاظ التى يعرفونها والأساليب التى يعقلونها حتى يستفيدوا ويتفهموا. لأن كل قوم لهم أساليب لأنك إذا حدثت قوماً بما لا يفهمون قد يصدقونك على غير ما أردت. وقد يفهمون غير ما قصدت. سواء فى أسماء الله وصفاته أو أحكامه سواء باللغة العربية أو الإنجليزية أو الأردية أو غيرها. والعرب أنفسهم يختلفون فى فهمهم فيحدث كل أناس بما يعرفون من العبارات التى اعتادوها حتى يفهموا ما قلت وحتى لا يكذب الله ورسوله.

وهؤلاء الذين كذبوا الله ورسوله فى لغات الصفات وقعوا فى خطر عظيم لأنهم تأولوا الصفات على غير تأويله وتكلموا فيها بغير ما ينبغى حتى عطلوا صفات الله. وكثير منهم قد يكون فهم الأمر على غير ما هو عليه لعجمته كما قال بعض السلف لعمر بن عبيد قال: إن العصاة مخلصون فى النار لأن الله أوعدهم بذلك.

فقالوا له: إن الله يخلف إيعاده ولا يخلف مواعده. لأن إخلاف الإيعاد كرم وجود وأما إخلاف الموعد فلؤم ولهذا يتنزه الله عنه، وقال له: من عجمتك أوتيت أى ظننت إخلاف الإيعاد أمر مستقبح وليس كذلك كما قال الشاعر:

(١) التعليق المفيد ٢٠٤، ٢٠٥.

(*) انظر تخريجه فى كتابي «فقه الخطابة» مع خلاصة القول فى القصص.

وإني وإن أوعدته أو واعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدى

فهذا مدح . اهـ .

قال ابن عثيمين^(١): أى: بما يمكن أن يعرفوه وتبلغه عقولهم حتى لا يفُتَوا، ولهذا جاء عن ابن مسعود رضى الله عنه؛ قال: «إنك لن تُحدِّثَ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»^(٢)، ولهذا كان من الحكمة فى الدعوة ألا تباغت الناس بما لا يمكنهم إدراكه، بل تدعوهم رويداً رويداً حتى تستقر عقولهم، وليس معنى «بما يعرفون»؛ أى: بما يعرفونه من قبل؛ لأن الذى يعرفونه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل .

قوله: «أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!» .

الاستفهام للإنكار؛ أى: أتريدون إذا حدثتم الناس بما لا يعرفون أن يكذب الله ورسوله، لأنك إذا قلت: قال الله وقال رسوله كذا وكذا، قالوا: هذا كذب إذا كانت عقولهم لا تبلغه، وهم لا يكذبون الله ورسوله، ولكن يكذبونك بحديث تنسبه إلى الله ورسوله؛ فيكونون مكذبين لله ورسوله، لا مباشرة ولكن بواسطة الناقل .

فإن قيل: هل ندع الحديث بما لا تبلغه عقول الناس وإن كانوا محتاجين لذلك؟

أجيب: لا ندعه، ولكن نحدثهم عن طريق تبلغه عقولهم، وذلك بأن نقلهم رويداً رويداً حتى يقبلوا هذا الحديث ويطمئنون إليه، ولا ندع ما لا تبلغه عقولهم ونقول: هذا شيء مستنكر لا نتكلم به .

ومثل ذلك العمل بالسنة التى لا يعتادها الناس ويستنكرونها؛ فإننا نعمل بها ولكن بعد أن نخبرهم بها؛ حتى تقبلها نفوسهم ويطمئنون إليها .

ويستفاد من هذا الأثر أهمية الحكمة فى الدعوة إلى الله - عز وجل -، وأنه يجب على الداعية أن ينظر فى عقول المدعوين وينزل كل إنسان منزلته .

قلت: وقد تقدم حديث معاذ «أندري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله» الحديث وأن البخارى ذكر فى كتاب العلم تحت باب من خص بالعلم قوماً دون قوم، وأيضاً قال فى آخره «فحدثت بها تأمناً» وهو لا يعارض هذا الأثر وقد تقدمت الإجابة على ذلك فى موضعه فليرجع إليه .

(١) القول المفيد ٢/ ٣٦٤، ٣٦٥ .

(٢) [صحيح] رواه مسلم . وتقدم فى كلام ابن حجر عزوه لمسلم .

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ اسْتِنكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ: مَا فَرْقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟!» انتهى (*) .

قلت: هذا الأثر رواه عبد الرزاق في تفسيره

مناسبة الأثر للباب والتوحيد

قال القرعاوي^(١): دل الأثر على وجوب الإيمان بجميع أسماء الله وصفاته وذلك تحقيقاً لتوحيد الأسماء والصفات . اهـ .

قوله: (وروى عبد الرزاق عن معمر).

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): عبد الرزاق: هو ابن همام الصنعاني المحدث، محدث اليمن صاحب التصانيف، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهري . وهو شيخ عبد الرزاق، يروى عنه كثيراً روى عنه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وخلق لا يحصون مات سنة إحدى عشرة ومائتين .

ومعمر - بفتح الميم وسكون العين - أبو عروة بن أبي عمرو، راشد الأزدي الحراني ثم اليماني، أحد الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهري، يروى عنه كثيراً ثقة ثبت، مات سنة أربع وخمسين ومائة، وله ثمان وخمسون سنة . اهـ .

وذكر ذلك سليمان آل الشيخ مع شيء من الاختصار .

قوله: (عن ابن طاووس).

هو عبد الله بن طاووس اليماني . قال معمر: كان أعلم الناس بالعربية . وقال ابن عيينة: مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

قوله: (عن أبيه).

هو طاووس بن كيسان الجندی - بفتح الجيم والنون - الإمام العلم، قيل: اسمه ذكوان، ثقة فقيه فاضل من جلة أصحاب ابن عباس وعلمائهم، مات سنة ست ومائة . قاله ابن الجوزي .

(*) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره»، (١١/٤٢٣/٢٠٨٩٥) .

عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه قال: سمعت رجلاً يحدث عن ابن عباس . . فذكره .

وأنظر «فتح المجيد» (ج ٧٤٢) تخريجنا

(٢) فتح المجيد ٢/٦٧٥، ٦٧٦ .

(١) الجديد ٣٥٦ .

وهو من أئمة التفسير، ومن أوعية العلم. قال فى (تهذيب الكمال): عن الوليد الموقري، عن الزهرى: قال: قدمتُ على عبد الملك بن مروان، فقال: من أين قدمت يا زهرى؟ قال: قلتُ: من مكة، قال: من خلّفت يسودها وأهلها؟ قلتُ: عطاء بن أبى رباح، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قلتُ: من الموالى، قلت: فبِمَ سادهم؟ قال، قلتُ: بالديانة والرواية. قال: إنّ أهل الديانة والرواية لينبغى أن يسودوا. قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلتُ: طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قل: من الموالى؟ قال: فبِمَ سادهم؟ قلتُ: بما ساد به عطاء، قال: إنه لينبغى ذلك، قال: فمن يسود مصر؟ قلت: يزيد بن أبى حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالى، قلت من الموالى قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول، قال فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من الموالى عبد نوبى أعتقته امرأة من هذيل، قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قلتُ: من الموالى، قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلتُ: الضحاك بن مزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من الموالى. قال: فمن يسود أهل البصرة؟

قال: قلنا: الحسن البصرى، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلتُ: من الموالى، قال: ويلك، ومن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلتُ: إبراهيم النخعى، قال: فمن العرب أم من الموالى؟ قال: قلت: من العرب، قال: ويلك يا زهرى، فرجّت عنى، والله لتسودن الموالى على العرب فى هذا البلد، حتى يُخطب لها على المنابر والعرب تحتها، قال: قلتُ: يا أمير المؤمنين، إنّما هو دين. من حفظه سادَ ومن ضيّعه سقط. اهـ.

قوله: (عن ابن عباس).

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): قد تقدّم، وهو خبرُ الأمة وترجمان القرآن، ودعا له النبىُّ ﷺ، وقال: «اللهم فقّهه فى الدين، وعلمّه التأويل»^(*) وروى عنه أصحابه أئمة التفسير، كمجاهد، وسعيد ابن جبّير، وعطاء بن أبى رباح، وطاوس وغيرهم. اهـ.

قوله: (إنه رأى رجلاً).

(١) فتح المجيد ٥٦٠ و ٥٦١.

(*) أخرجه البخارى (١٤٣)، ومسلم فى الفضائل (٣٧/١٦ - النووى). بغير هذا اللفظ.

وانظر «الاتقان للسيوطى» (٤٨٢ - «فتح المجيد» (ح ٧٤٣) بتخریجنا).

قال سليمان آل الشيخ^(١): لم يسم هذا الرجل . اهـ.

قوله: «انتفض».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): أى: ارتعد لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ، فاستنكره، إما لأن عقله لا يحتمله، أو لكونه اعتقد عدم صحته فأنكره.

قال ابن عثيمين^(٣): أى: اهتزّ جسمه، والرجل مُهَمَمٌ، والصفة التى حَدَّثَ بها لم تَبَيَّنْ، وبيان ذلك ليس مهماً، وهذا الرجل انتفض استنكاراً لهذه الصفة لا تعظيماً لله، وهذا أمر عظيم صعب؛ لأن الواجب على المرء إذا صح عنه شيء عن الله ورسوله أن يقر به ويصدق ليكون طريقه طريق الراسخين فى العلم حتى وإن لم يسمعه من قبل أو يتصوره. اهـ.

قوله: (فقال).

قال سليمان آل الشيخ^(٤): أى ابن عباس وهو عبدالله - رضى الله عنه - . اهـ.
قوله: (ما فرق هؤلاء).

قال سليمان آل الشيخ^(٥): يحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون ما استفهامية إنكارية. وفرق بفتح الفاء والراء: هو الخوف والفرع أى: ما فرق هذا وأضرابه من أحاديث الصفات واستنكارهم لها؟ والمراد الانكار عليهم، فإن الواجب على العبد التسليم والإذعان والإيمان بما صح عن الله وعن رسوله ﷺ وإن لم يحط به علماً. ولهذا قال الشافعى: آمنت بالله، وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله، وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله.

والثانى: أن يكون بفتح الفاء وتشديد الراء، ويجوز تخفيفها. «وما» نافية أى: ما فرّق هذا وأضرابه بين الحق الباطل، ولا عرفوا ذلك، فلهذا قال: يجدون رقة وهى ضد القسوة، أى: ليناً وقبولاً للمحكم، ويهلكون عند متشابهه، أى ما يشبهه يشبه عليهم فهمه، لأن آيات الصفات هى المتشابهة كما تقوله الجهمية ونحوهم. ولأن فى القرآن متشابهاً لا يعرف معناه كالألفاظ الأعجمية، فإن لفظ التشابه والمتشابه يدل على بطلان ذلك، وإنما المراد بالمتشابه أى: ما يشبه فهمه على بعض الناس دون بعض، فالمتشابه أمر نسبي إضافي؛ فقد يكون مشتبهاً بالنسبة إلى قوم بينما جلياً بالنسبة إلى آخرين.

(١ - ٢) تيسير العزيز الحميد ٤٣٥.

(٣) القول المفيد ٣٦٦/٢، ٣٦٧.

(٤ - ٥) تيسير العزيز الحميد ٤٣٥ و ٤٣٧.

ولهذا قال النبي ﷺ، خرج على قوم يتراجعون في القرآن فغضب وقال: **«بِهَذَا ضَلَّتْ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ؛ بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»** وَضَرَبَ الْكِتَابَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ. **«وَإِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزَلْ لِيُكَذَّبْ بَعْضُهُ بَعْضًا وَلَكِنْ لَأَنْ يُصَدَّقَ بَعْضُهُ بَعْضًا. فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَأَعْمَلُوا بِهِ وَمَا تَشَابَهَ عَلَيْكُمْ فَأَمْنُوا بِهِ»** (١) رواه ابن سعد، وابن الضريس وابن مردويه. وأما قوله تعالى: **«هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ»** (٢).

فقال ابن كثير: يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات أى: بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أخر فيها اشتباه فى الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم. فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى، ومن عكس انعكس. ولهذا قال: **«هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ»** أى: أصله الذى يرجع إليه عند الاشتباه **«وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ»** أى: تحتل دلالتهما موافقة المحكم، وقد تحتل أشياء أخرى من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد، ولهذا قال تعالى: **«فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ»** أى: ضلال، وخروج عن الحق إلى الباطل **«فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ»** أى: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذى يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه. فأما الحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دافع لهم، وحجة عليهم؛ ولهذا قال: **«ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ»** أى: الاضلال لأتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة عليهم لا لهم. انتهى.

وقال ابن عباس: **«فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ»** يعنى أهل الشك؛ فيحملون المحكم على المتشابه، والمتشابه على المحكم، ويلبسون، فلبس الله عليهم. **«وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ»** قال: تأويله يوم القيامة لا يعلمه إلا الله. رواه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

وقوله: **«وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ»** تقدم كلام ابن عباس.

(١) رواه أحمد فى المسند (٦٧١٤ ج ٢) فى مسند عمرو بن شعيب والبخارى فى خلق أفعال العباد (ص ٦١) وابن ماجه (٨٥).
(٢) آل عمران: ٧.

وقال مقاتل والسدى: يبتغون أن يعلموا ما يكون، وما عواقب الأشياء من القرآن. قلت - أى سليمان - فهذا التأويل الذى انفرد الله بعلمه هو العلم بحقائق الأشياء وما تؤول إليه وعواقبها. كالأخبار بما يكون، وما فى الجنة من النعيم، وما فى النار من العذاب؛ فإن هذه الأمور وإن علمناها لكن العلم بحقائقها مما لا يعلمه إلا الله.

ولهذا قال ابن عباس: لَيْسَ فى الدُّنْيَا مِمَّا فى الْجَنَّةِ إِلَّا الْأَسْمَاءُ^(١). فعلى هذا يكون الوقف على الجلالة كما روى عن جماعة من السلف، وقيل: الوقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فى الْعِلْمِ﴾ أى: ما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم. فأما أهل الزيغ فلا يعلمون تأويله، وعلى هذا فالمراد بتأويله هو تفسيره وفهم معناه، وهذا هو المروى عن ابن عباس وجماعة من السلف. قال ابن أبى نجیح عن مجاهد عن ابن عباس: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله. وقال مجاهد: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فى الْعِلْمِ﴾ يعرفون تأويله. ويقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾، وكذا قال الربيع بن أنس وغيره. فقد تبين والله الحمد أنه ليس فى الآية حجة للمبطلين، فى جعلهم ما أخبر الله به من صفات كماله هو المتشابه، ويحتجون على باطلهم بهذه الآية، فيقال: وأين فى الآية ما يدل على مطلوبكم؟ وهل جاء نص عن الله أو عن رسوله ﷺ أنه جعل ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله متشابهاً؟! ولكن أصل ذلك أنهم ظنوا أن التأويل المراد فى الآية هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى ما يحتمله اللفظ لدليل يقترب بذلك. وهذا هو اصطلاح كثير من المتأخرين، وهو اصطلاح حادث، فأرادوا حمل كلام الله على هذا الاصطلاح فضلوا ضلالاً بعيداً، وظنوا أن لنصوص الصفات تأويلاً يخالف ما دلت عليه، لا يعلمه إلا الله كما يقول أهل التجهيل. أو يعلمه المتأولون كما يقوله أهل التأويل وفى الأثر المشروح دليل على ذكر آيات الصفات، وأحاديثها بحضرة عوام المؤمنين وخواصهم، وأن من رد شيئاً منها أو استنكره بعد صحته فهو ممن لم يفرق بين الحق والباطل، بل هو من الهالكين وأنه ينكر عليه استنكاره. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): قوله: (ما فَرَّقَ هؤلاء) يستفهم من أصحابه، يشير إلى أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس، فإذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن ومعناه، حصل معهم فَرَقٌ. أى: خوف، فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا

(١) وقال المنذرى فى الترغيب (٤/ ٥٦٠) رواه البيهقى موقوفاً بإسناد جيد.

(٢) فتح المجيد ٢/ ٦٧٧ و ٦٨٠.

كالمكرين له ، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذى أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين .

قال الذهبي: حدث وكيع - عن إسرائيل - بحديث: إذا جلس الربُّ على الكرسي . فاقشعر رجل عند وكيع . فغضب وكيع ، وقال: أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها . أخرجه عبد الله فى (كتاب الرد على الجهمية).

وربما حصل معهم من عدم تلقّيه بالقبول تركُّ ما وجب من الإيمان به ، فتشبه حالهم حال من قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (١) . فلا يسلم من الكفر إلاّ من عمل بما وجب عليه فى ذلك ، من الإيمان بكتاب الله كله واليقين؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ .

فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس - رضى الله عنهما - تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن ، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن . وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى الذى أراد الله ، فيحمله على غير معناه؛ كما جرى لأهل البدع ، كالخوارج والرافضة والقدرية ، ونحوهم ممن يتأول بعض آيات القرآن على بدعته .

وقد وقع منهم ما وقع ، من الابتداع والخروج عن الصراط المستقيم . فإنّ الواقع من أهل البدع ، وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس .

وسببُ هذه البدع جهلُ أهلها وقصورهم فى الفهم ، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها وتلقّيها من أهلها العارفين لمعناها ، الذين وفقهم الله تعالى : لمعرفة المراد ، والتوفيق بين النصوص ، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضاً ، وردّ التشابه إلى المحكم . وهذه طريقة أهل السنة والجماعة فى كل زمان ومكان . فله الحمد لا نحصى ثناءً عليه . اهـ .

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «ما فرق».

فيها ثلاث روايات:

١- «فَرَّقَ»؛ بفتح الراء، وضم القاف.

٢- «فَرَّقَ»؛ بفتح الراء مشددة، وفتح القاف.

٣- «فَرَّقَ»؛ بفتح الراء مخففة، وفتح القاف.

فعلى رواية «فَرَّقَ»: تكون «ما» استفهامية مبتدأ، و«فرق»: خبر المبتدأ، أى: ما خوف هؤلاء من إثبات الصفة التى تُلِيَتْ عليهم وبلغتهم، لماذا لا يثبتونها لله - عز وجل - كما أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله؟ وهذا يَنْصَبُ تماماً على أهل التعطيل والتحريف الذين ينكرون الصفات، فما الذى يُخَوِّفُهُم من إثباتها والله تعالى قد أثبتها لنفسه؟

وعلى رواية «فَرَّقَ» أو «فَرَّقَ» تكون فعلاً ماضياً بمعنى ما فرقهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَانَا﴾^(٢)؛ أى: فرقناه و«ما» يحتمل أن تكون نافية، والمعنى: ما فرق هؤلاء بين الحق والباطل، فجعلوا هذا من المتشابه وأنكروه ولم يحملوه على المحكم، ويحتمل أن تكون استفهامية والمعنى: أى شيء فرقهم فجعلهم يؤمنون بالمُحَكَّم ويهلكون عند المتشابه؟ اهـ.

قوله: «يجدون رقة عند محكمه».

قال ابن باز^(٣): «يجدون رقة» أى أنهم إذا سمعوا الآيات المحكمات من القرآن والسنة يجدون رقة وخشوعاً وإذا سمعوا آيات الصفات اشتبهت عليهم وهلكوا عندها بالجزع والإنكار. وهذا يدل على أن هذا الشيء قديم وأنه وجد فى زمن الصحابة فيهلكون عند الآيات والأحاديث التى تشبه عليهم بإنكارها والشك فيها والريب فدل على أن إنكار ما بيّنه الله لعباده أو الشك فيه هلاك.

والحق الإيمان بما أخبر الله به ورسوله فإن فهمته فالحمد لله وإلا فكله إلى عالمه وقل الله أعلم بمراده واسأل أهل العلم وإياك والإنكار والجزع فإنه طريق المنافقين والهاككين. أما أهل السنة والجماعة فيؤمنون بكل ما جاء فى الكتاب والسنة ويرقون له ويعملون به وإذا اشتبهت عليهم الآيات ردوها إلى المحكمات والبيّنات وفسروها بما اتضح من حكم

(١) القول المفيد ٣/٣٦٧، ٣٦٨.

(٢) الإسراء: ١٠٦.

(٣) التعليق المفيد ٢٠٦/٢٠٥.

الله ولا يضربون كتاب الله وسنة رسوله بعضها ببعض ولا يشكون ويعلمون أن المشابه لا يخالف المحكم بل هو من جنس المحكم ويكلون ما جهلوا إلى العالم بالكيفية وهو الله سبحانه. وأما معانيها فمعلومة من طريق اللغة العربية التي خاطب الله بها الناس، ولذا قال مالك حين سئل كيف استوى؟ قال: الاستواء معلوم. والسؤال عنه بدعة. أى عن الكيفية.

فبين أن معنى الاستواء معلوم والكيفية مجهولة.

فائدة: من قال أن الجنة والنار تفنيان فهو كافر فقد قال الله ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾ اهـ.

قلت: وهذا كما روى البخاري في كتاب «خلق أفعال العباد» عن علي بن الحسن: سمعت ابن مصعب يقول: كفرت الجهمية في غير موضع في كتاب الله قولهم: إن الجنة تفنى. وقال الله: ﴿إِنْ هَذَا الرِّزْقُ مَالُهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ فمن قال: إنها تنفذ فقد كفر(*).

قال الشيخ ابن عثيمين^(١): الرقة: اللين والقبول، و «محكمة»؛ أى: محكم القرآن.

قوله: «ويهلكون عند مشابهه».

أى: مشابه القرآن.

والمحكم الذى اتضح معناه وتبين، والمتشابه هو الذى يخفى معناه، فلا يعلمه الناس، وهذا إذا جمع بين المحكم والمتشابه، وأما إذا ذكر المحكم مفرداً دون المتشابه؛ فمعناه المتقن الذى ليس فيه خلل: لا كذب فى أخباره، ولا جور فى أحكامه، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، وقد ذكر الله الإحكام فى القرآن دون المتشابه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾.

وإذا ذكر المتشابه دون المحكم صار المعنى أنه يشبه بعضه بعضاً فى جودته وكماله، ويصدق بعضه بعضاً ولا يتناقض، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى﴾^(٢)، والتشابه نوعان: تشابه نسبي، وتشابه مطلق.

(*) خلق أفعال العباد ص ١٢.

(٢) الزمر: ٢٣.

(١) القول المفيد ٢/ ٣٦٨، ٣٦٩.

والفرق بينهما: أن المطلق يخفى على كل أحد، والنسبي يخفى على أحد دون أحد، وبناءً على هذا التقسيم ينبى الوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾^(١)؛ فعلى الوقف على ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ يكون المراد بالمتشابه المتشابه المطلق، وعلى الوصل ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ يكون المراد بالمتشابه المتشابه النسبي، وللسلف في ذلك قولان:

القول الأول: الوقف على ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾، وعليه أكثر السلف، وعلى هذا؛ فالمراد بالمتشابه المتشابه المطلق الذي لا يعلمه إلا الله، وذلك مثل كيفية وحقات صفات الله، وحقات ما أخبر الله به من نعيم الجنة وعذاب النار، قال الله تعالى في نعيم الجنة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(٢)؛ أى: لا تعلم حقائق ذلك، ولذلك قال ابن عباس: «ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء»^(٣).

والقول الثاني: الوصل، فيقرأ: ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وعلى هذا؛ فالمراد بالمتشابه المتشابه النسبي، وهذا يعلمه الراسخون في العلم ويكون عن غيرهم متشابهاً، ولهذا يروى عن ابن عباس؛ أنه قال: «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله»^(٤) ولم يقل هذا مدحاً لنفسه أو ثناء عليها، ولكن ليعلم الناس أنه ليس في كتاب الله شيء لا يعرف معناه؛ فالقرآن معانيه كلها بينة، لكن بعض القرآن يشبه على ناس دون آخرين حتى العلماء الراسخون في العلم يختلفون في معنى القرآن، وهذا يدل على أنه خفى على بعضهم، والصواب بلا شك مع أحدهم إذا كان اختلافهم اختلاف تضاد لا تنوع، أما إذا كانت الآية تحمل المعنيين جميعاً بلا منافاة ولا مرجح لأحدهما؛ فإنها تحمل عليهما جميعاً.

وبعض أهل العلم يظنون أن في القرآن ما لا يمكن الوصول إلى معناه؛ فيكون من المتشابه المطلق، ويحملون آيات الصفات على ذلك، وهذا من الخطأ العظيم؛ إذ ليس من المعقول أن يقول تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾، ثم تستثنى آيات الصفات وهي أعظم وأشرف موضوعاً وأكثر من آيات الأحكام، ولو قلنا بهذا القول؛

(١) آل عمران: ٧.

(٢) السجدة: ١٧.

(٣) و(٤) تقدم.

لكان مقتضاه أن أشرف ما في القرآن موضوعاً، يكون خفياً، ويكون معنى قوله تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾؛ أى: آيات الأحكام فقط، وهذا غير معقول، بل جميع القرآن يفهم معناه؛ إذ لا يمكن أن تكون هذه الأمة من رسول الله ﷺ إلى آخرها لا تفهم معنى القرآن، وعلى رأيهم يكون الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر وجميع الصحابة يقرؤون آيات الصفات وهم لا يفهمون معناها، بل هي عندهم بمنزلة الحروف الهجائية أ، ب، ت... والصواب أنه ليس في القرآن شيء متشابه على جميع الناس من حيث المعنى، ولكن الخطأ في الفهم.

فقد يقصر الفهم عن إدراك المعنى أو يفهمه على معنى خطأ، وأما بالنسبة للحقائق، فما أخبر الله به من أمر الغيب؛ فمتشابهة على جميع الناس. اهـ.

● ذكر ما ورد عن علماء السلف في التشابه:

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): قال في (الدُرُّ المثور): أخرج الحاكم - وصححه - عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «كان الكتابُ الأوَّلُ ينزل من باب واحد على حرف واحد، فنزل القرآنُ من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال. فأحلُّوا حلاله، وحرَّموا حرامه، وافعلوا ما أُمِّرتُم به، وانتَهوا عما نُهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمُحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كلُّ من عند ربنا»^(٢).

قال: وأخرج عبدُ بن حُميد، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، قال: طلب القومُ التأويل، فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة، وطلبوا ما تشابه منه، فهلكوا بين ذلك^(٣).

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ قال: من هنا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾^(٤) إلى ثلاث آيات، ومن هنا: ﴿وَقَضَىٰ

(١) فتح المجيد.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/١١٥)، والحاكم في «المستدرک» (٢/٢٩٠) عن ابن مسعود به. وانظر «الاتقان» (٤٢٠ - «فتح المجيد» (ح ٧٤٤) بتخريجنا).

(٣) ذكره السيوطي في «الدُر» (٢/١٣) ونسبه لعبد بن حميد. وأنظ «فتح المجيد» (ح ٧٤٥) بتخريجنا.

(٤) الأنعام: (١٥٣/١٥١) ..

رَبُّكَ الْأَتَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ^(١) إلى ثلاث آيات بعدها (٢).

وأخرج ابن جرير، من طريق أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود وناس من الصحابة: المُحْكَمَات: النسخات التي يعمل بهن، والمتشابهات: المنسوخات (٣).

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن إسحاق بن سويد: أن يحيى ابن يعمر، وأبا فاختة ترجعا هذه الآية: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فقال أبو فاختة: هن فواتح السور، منها يُستخرج القرآن ﴿الْم﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ منها استُخرجت البقرة و ﴿الْم﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ منها استُخرجت آل عمران. وقال يحيى: هن اللاتي فيهن الفرائض، والأمر والنهي والحلال، والحدود وعماد الدين (٤).

وأخرج ابن جرير، عن محمد بن جعفر بن الزبير، قال: ﴿مُحْكَمَات﴾ حُجَّة الرب وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس فيها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ في الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد، كما ابتلاهم في الحلال والحرام، لا يصرفن إلى الباطل، ولا يحرفن عن الحق (٥).

وأخرج ابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان: إنما قال ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ لأنه ليس من أهل دين لا يرضى بهن ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ يعنى فيما بلغنا ﴿الْم﴾ و ﴿الْمَص﴾ و ﴿الْمَر﴾ (٦).

قلت - أى عبد الرحمن - : وليس فى هذه الآثار ونحوها ما يُشعر بأن أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه، وما قاله النفاة: من أنها من المتشابه، دعوى بلا برهان.



(١) الإسراء: (٣٩/٣٢).

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١١٤/٣)، والحاكم فى «المستدرک» (٢٨٨/٢) وانظر «الإتقان» ٩٢١ - «فتح المجید» (ح ٨٤٦ بتخریجنا).

(٣) ابن جریر الطبری فى «التفسیر» ذكره السيوطى فى «الدر» (٧/٢) ونسبه لابن جرير. وانظر «فتح المجید» (ح ٨٤٧ بتخریجنا).

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١١٧/٣) وانظر «الاتقان» (٩٢٠ - فتح المجید) (ح ٧٤٨ بتخریجنا).

(٥) ذكره السيوطى فى «الدر» (٧/٢) ونسبه لابن جرير. وانظر «فتح المجید» (ح ٧٤٩ بتخریجنا).

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (٧/٢) ونسبه لابن أبي حاتم، وانظر «الاتقان» (٩٢٤ - وانظر «فتح المجید» (ح ٥٧٠ بتخریجنا).

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ (١)(٢).

قوله: «ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ...».

قال سليمان آل الشيخ (٣): هكذا ذكر المصنف هذا الأثر بالمعنى. اهـ.

مناسبة الأثر للباب وللتوحيد

قال القرعاوى (٤): دل الأثر على كفر من أنكر شيئاً من أسماء الله وصفاته لأن ذلك ينافي بتوحيد الأسماء والصفات. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ (٥): وقد روى ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في الآية، قال: هذا لما كاتب رسول الله ﷺ، قريشا في الحديبية، كتب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فقالوا: لا نكتب الرحمن ولا ندرى ما الرحمن، ولا نكتب إلا باسمك اللهم، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ (٦) الآية.

وفيه دليل على أن من أنكر شيئاً من الصفات فهو من الهالكين، لأن الواجب على العبد الإيمان بذلك سواء فهمه أم لم يفهمه، وسواء قبله عقله أو أنكره. فهذا هو الواجب على العبد في كل ما صح عن الله ورسوله ﷺ، وهو الذي ذكر الله تعالى عن الراسخين في العلم أنهم ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

قال حامد بن محمد (٧): وقد ورد أن في الحديث محكم ومتشابه كما في القرآن محكم ومتشابه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا

(١) الرعد: ٣٠.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/١٠١) عن مجاهد مرسلأ. وفيه عنبة ابن جريج وهو مدلس.

وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٣٧.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٣٧.

(٦) تقدم.

(٤) الجديد ٣٥٧.

(٧) فتح الله الحميد المجيد ٣٨٥، ٣٨٦.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: عَدَمُ الْإِيمَانِ بِجَحْدِ شَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

يَذْكُرُ إِلَّا أَوَّلُوا الْأَلْبَابِ^(١) فبين الله أن من الآيات محكمات هن أم الكتاب في اتخاذ الأمر والنهي منها والعمل بها وآخر متشابهات أنزلها الله لحكمة لا يعلمها إلا هو، فأما الذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله أي المتشابه إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا أي إنهم يؤمنون بالكل أنه منزل من الله لكن المحكم يعملون به والمتشابه يكلونه إلى الله فكذلك الحديث ما هو محكم يلزم العمل به وما هو متشابه نؤمن به ونُكِلَ معناه إلى الله.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: «ولما سمعت قريش رسول الله يذكر الرحمن».

أصل ذلك أن سهيل بن عمرو أحد الذين أرسلتهم قريش لمفاوضة النبي ﷺ في صلح الحديبية، وأمر النبي ﷺ أن يكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال: «أما الرحمن؛ فلا والله ما أدري ما هي، وقالوا: إنا لانعرف رحماناً إلا الرحمن السيمامة. فأنكروا الاسم دون المسمى؛ فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾؛ أي: بهذا الاسم من أسماء الله.

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسماً من أسماء الله الثابتة في الكتاب أو السنة؛ فهو كافر لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾.

وقوله: «ولما سمعت قريش».

الظاهر - والله أعلم - أنه من باب العام الذي أريد به الخاص، وليس كل قريش تنكر ذلك، بل طائفة منهم، ولكن إذا أقرت الأمة الطائفة على ذلك ولم تنكر؛ صح أن ينسب لهم جميعاً، بل إن الله نسب إلى اليهود في زمن النبي ﷺ ما فعله أسلافهم في زمن موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، وهذا لم يكن في عهد المخاطبين.

قلت: وقد تقدم ذكر سبب نزول الآية وما المقصود منها في أول الباب بما يغني عن إعادته هنا



قوله فيه مسائل:

● الأولى: عَدَمُ الْإِيمَانِ بِجَحْدِ شَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

قال ابن عثيمين^(٣):

(١) القول المفيد ٣/ ٣٧٢ و ٣٧٤.

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٧١، ٣٧٢.

(٣) آل عمران: ٧.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الرَّعْدِ.

الثالثة: تَرَكُ التَّحْدِيثِ بِمَا لَا يَفْهَمُ السَّامِعُ.

الرابعة: ذِكْرُ الْعِلَّةِ؛ أَنَّهُ يُفْضَى إِلَى تَكْذِيبِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَوْ لَمْ يَتَّعَمِدِ الْمُنْكَرُ.

الخامسة: كَلَامُ ابْنِ عَبَّاسٍ لِمَنْ اسْتَنْكَرَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ أَهْلَكَهُ.

عدم بمعنى انتفاء؛ أى: انتفاء الإيمان بسبب جحد شيء من الأسماء والصفات، وسبق التفصيل فى ذلك.

● الثانية: تفسير آية الرعد.

وهى قوله تعالى: «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ».

وسبق تفسيرها.

● الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع.

وهذا ليس على إطلاقه، وقد سبق التفصيل فيه عند شرح الأثر.

● الرابعة: ذكر العلة أنه يفضى إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر.

وهى أن الذى لا يبلغ عقله ما حدث به يفضى به التحديث إلى تكذيب الله ورسوله، فَيُكْذَّبُ ويقول: هذا غير ممكن، وهذا يوجد من بعض الناس فى أشياء كثيرة مما أخبر به النبى ﷺ مما يكون يوم القيامة؛ كما أخبر النبى ﷺ: «إِنَّ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ خُبْرَةً وَاحِدَةً يَتَكَفَّوْهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَتَكَفَّفُ أَحَدُكُمْ خُبْرَتَهُ»، وما أشبه ذلك، وكما أن الصراط أخذ من السيف وأدق من الشعرة وغير هذه الأمور، لو حدثنا بها إنساناً عاماً لأوشك أن ينكر، لكن يجب أن تُبَيَّنَ له بالتدرج حتى يتمكن من عقلها مثل ما نعلم الصبى شيئاً فشيئاً.

وقوله: «ولو لم يتعمد المنكر».

أى: ولو لم يقصد المنكر تكذيب الله ورسوله، ولكن كَذَّبَ نسبة هذا الشيء إلى الله ورسوله، وهذا يعود بالتالى إلى رد خبر الله ورسوله.

● الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك وأنه أهلكه.

وذلك قوله: «ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة - أى ليناً - عند محكمه فيقبلونه، ويهلكون عند متشابهة فينكرونها؟» أهـ.



● مناسبة الباب لما قبله:

قال الفقير: لعل المصنف يرى أن من أنعم النعيم هو كلام الله المبين الشارح لأسمائه وصفاته كما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قيل: القرآن، وقيل: محمد ﷺ المبلغ بستته الشارحة لأسماء الله وصفاته كما قال الشافعي إن جميع ما في القرآن والسنة شارح لأسماء الله الحسنی، فكان من جحد شيئاً من الأسماء والصفات جحد أنعم النعم لذلك ناسب أن يأتي بباب ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ والله أعلم.

● مناسبة هذا الباب للتوحيد:

قال ناصر السعدي (٢):

الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولاً «واعترافاً» كما تقدم وبذلك يتم التوحيد فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه فذلك كافر ليس معه من الدين شيء. ومن أقر بقلبه أن النعم كلها من الله وحده، وهو بلسانه تارة يضيفها إلى الله، وتارة يضيفها إلى نفسه وعمله، وإلى سعى غيره كما هو جار على السنة كثير من الناس، فهذا يجب على العبد أن يتوب منه وأن لا يضيف النعم إلا إلى موليتها وإن يجاهد نفسه على ذلك ولا يتحقق الإيمان والتوحيد إلا بإضافة النعم إلى الله قولاً واعترافاً، فإن الشكر الذي هو رأس الإيمان مبني على ثلاثة أركان: اعتراف القلب بنعم الله كله عليه وعلى غيره، والتحدث بها والثناء على الله بها والاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته، والله أعلم اهـ.

قل عبد الله بن جار الله (٣): أن إضافة نعم الله إلى غيره بالقلب واللسان كفر يتنافى التوحيد، وأما إضافتها إلى غير الله باللسان مع اعتقاد أنها من عند الله فهو يتنافى كمال

(١) النحل الآية ٨٣

(٢) القول السديد ١٠٥ ، ١٠٦

(٣) الجامع الفريد ١٤١

التوحيد لأن الواجب أن تضاف النعم إلى مسديها وهو الله وحده وبذلك يتم التوحيد. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): أن من أضاف نعمة الخالق إلى غيره، فقد جعل معه شريكاً في الربوبية، لأنه أضافها إلى السبب على أنه فاعل، هذا من وجه، ومن وجه آخر: أنه لم يقم بالشكر الذي هو عبادة من العبادات، وترك الشكر مناف للتوحيد، لأن الواجب أن يُشكّر الخالق المنعم - سبحانه وتعالى - فصارت لها صلة بتوحيد الربوبية وبتوحيد العبادة، فمن حيث إضافتها إلى السبب على أنه فاعل هذا إخلال بتوحيد الربوبية، ومن حيث ترك القيام بالشكر الذي هو العبادة هذا إخلال بتوحيد الألوهية. اهـ.

● شرح الترجمة وإذا أراد المصنف بهذا الباب :

قال حامد بن محمد بن حسن^(٢):

باب ما جاء في بيان أن من نسب نعم الله إلى غيره فقد كفر كفر النعمة

قال سليمان آل الشيخ^(٣):

المراد بهذه الترجمة التأدب مع جناب الربوبية، عن الألفاظ الشركية الخفية بنسبة النعم إلى غير الله، فإن ذلك باب من أبواب الشرك الخفى، وضده باب من أبواب الشكر كما في الحديث الذى رواه ابن حبان فى «صحيحه» عن جابر مرفوعاً «مَنْ أُولَى مَعْرُوفًا فَلَمْ يَجِدْ لَهُ جَزَاءَ إِلَّا الثَّنَاءَ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ»^(٤).

وفى رواية جيدة لأبى داود «مَنْ أَبْلَى فَذَكَرَهُ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَإِنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ»^(٥) قال المنذرى «من أبلى» أى: من أنعم عليه، الإيلاء الأنعام، فإذا كان ذكر المعروف الذى يقدره الله على يدى إنسان من شكره، فذكره معروف رب العالمين، وآلائه وإحسانه ونسبة ذلك إليه أولى بأن يكون شكراً أهـ.

(١) القول المقيد ٣٧٦/٢.

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٣٨٨

(٣) تيسير العزيز ٣٤٨

(٤) أخرجه ابن حبان فى «صحيحه» (١٧٥/٥) عن جابر به.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٨١٤) عن جابر به.

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾^(١).

قال ابن باز^(٢):

أراد المؤلف الحث على الإعراف بنعم الله وشكره سبحانه على ذلك لأن كثيراً من الناس قد يشغل عن هذا فيتمتع بنعم الله ولكنه لا يشكره بل ينسبها إلى أسبابه وقوته وأعماله، ونحو ذلك ويغفل عن المنعم سبحانه ولو شاء الله لسلبه الأسباب، وسلبه القوة فهو الذى أعطاه السمع والبصر والذكاء والحذق وغير ذلك. وهذا من خلُق الكافرين أن يقول مثلاً هذا مالى ورثته من آبائى وما أشبه ذلك. اهـ.

قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا...﴾ الآية.

● مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى^(٣): حيث دلت الآية على أن من نسب النعمة إلى غير الله فقد كفر

بها. اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى^(٤): حيث كَفَرَت الآية من نسب النعمة إلى غير الله لأنه جعله

شريكاً مع الله فى الإنعام. اهـ.

قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾.

الإعراب:

قال محبى الدين درويش^(٥): يعرفون نعمة الله يعرفون فعل مضارع والواو فاعل

ونعمة الله مفعول به وثم حرف عطف للتراخى ينكرونها عطف على يعرفون وعطف بـثم للدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد توفر دلائل المعرفة.

قلت: وسيجىء الكلام على (ثم) من كلام المفسرين:

قال الشوكانى^(٦): وجملة [يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها] استئناف لبيان توليهم

أى هم يعرفون نعمة الله التى عددها، ويعترفون بأنها من عند الله سبحانه ثم ينكرونها بما يقع من أفعالهم القبيحة من عبادة غير الله وبأقوالهم الباطلة، حيث يقولون: هى من الله ولكنها بشفاعاة الأصنام، وحيث يقولون: إنهم ورثوا تلك النعم من آبائهم، وأيضاً كونهم لا يستعملون هذه النعم فى مرضاة الرب سبحانه. اهـ.

(٢) التعليق المفيد ٢٠٧.

(١) النحل (٨٣)

(٤) الجديد ٣٥٩.

(٣) الجديد ٣٥٩

(٦) فتح القدير ١٨٩/٣.

(٥) إعراب القرآن ٣٥١/٥

● التفسير بالقرآن.

قال القرطبي^(١): نظيرها: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾. اهـ.

قال الشنقيطي^(٢): ذكر - جلّ وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الكفار يعرفون نعمة الله لأنهم يعلمون أنه هو الذى يرزقهم ويعافهم، ويدبر شؤونهم، ثم ينكرون هذه النعمة، فيعبدون معه غيره، ويسوونه بما لا ينفع ولا يضر، ولا يغنى شيئاً.

وقد أوضح - جلّ وعلا- هذا المعنى فى آيات كثيرة كقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

فقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ دليل على معرفتهم نعمته.

وقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ دليل على إنكارهم لها والآيات بمثل هذا كثيرة جداً. اهـ.

● ماء جاء فى تفسير الآية من الأحاديث:

عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبی ﷺ فسأله فقراً عليه رسول الله ﷺ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ قال الأعرابى نعم، قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ قال الأعرابى: نعم ثم قرأ عليه كل ذلك يقول نعم، حتى بلغ ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فولى الأعرابى، فأنزل الله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٣).

● التفسير بالمأثور من أقوال التابعين.

عن مجاهد فى قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ قال: هى المساكن والأنعام وما ترزقون منها، والسرايل من الحديد والسياب، تعرف هذا كفار قريش، ثم تنكروه بأن تقول هذا كان لأبائنا فورثونا إياه^(٤).

(١) تفسير القرطبي ١٧٧٨/٦.

(٢) أضواء البيان ٢٤٦/٣.

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٦٢٠) وانظر «الدر» (٢٣٨/٤).

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٦٢١) وذكره السيوطى فى «الدر» (٢٣٨/٤) وزاد نيته لابن

أبى شيبة، وابن جرير، وابن المنذر. وانظر «فتح المجيد» (ح ٧٥٤)، (٧٥٦) بتحريجنا

عن عبد الله بن كثير فى الآية قال: يعلمون أن الله خلقهم وأعطاهم بعدما أعطاهم يكفرون فهو معرفهم نعمته، ثم إنكارهم إياها كفرهم بعد^(١).

عن عون بن عبد الله فى قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ قال: إنكارهم إياها، أن يقول الرجل: لولا فلان أصابنى كذا وكذا، ولولا فلان لم أصب كذا وكذا^(٢).

عن السدى فى قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ قال محمد عليه السلام ولفظ ابن أبى حاتم قال: هذا فى حديث أبى جهل والأخنس حين سأل الأخنس أبا جهل عن محمد: فقال: هو نبي^(٣).

● أقوال أهل التفسير.

قال الطبرى^(٤): وأما قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا فى المعنى بالنعمة التى أخبر الله تعالى ذكره عن هؤلاء المشركين أنهم ينكرونها مع معرفتهم بها فقال بعضهم هو النبى عليه السلام عرفوا نبوته ثم جحدوها وكذبوه.

ثم قال: فقال آخرون بل معنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره فى هذه السورة من النعم من عند الله وأن الله هو المنعم بذلك عليهم ولكنهم ينكرون ذلك فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.

ثم قال: وقال آخرون معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم من رزقكم أقروا بأن الله هو الذى رزقهم ثم ينكرون ذلك بقولهم رزقنا ذلك بشفاعه آلهتنا.

ثم قال: وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب وأشبهها بتأويل الآية قول من قال عنى بالنعمة التى ذكرها الله فى قوله يعرفون نعمة الله النعمة عليهم بإرسال محمد عليه السلام - إليهم داعياً - إلى ما بعثه بدعائهم إليه وذلك أن هذه الآية بين آيتين كلتاها خبر عن رسول الله عليه السلام وعما بعث به فأولى ما بينهما أن يكون فى معنى ما قبله وما بعده إذ لم يكن معنى يدل على انصرافه عما قبله وعما بعده فالذى قبل هذه الآية قوله فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وما بعده ويوم نبعث من كل أمة

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه لابن جرير.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٦٢٢) وذكره السيوطى فى الموضع السابق وزاد نسبه لسعيد بن منصور، وابن جرير، وابن المنذر.

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» وذكره السيوطى فى الموضع السابق وزاد نسبه لابن أبى شيبة، وابن جرير، وابن المنذر.

(٤) تفسير الطبرى ١٠٥/١٤/٧.

شهيذاً وهو رسولها، فإذا كان ذلك كذلك فمعنى الآية يعرف هؤلاء المشركون بالله نعمة الله عليهم يا محمد بك ثم ينكرونك ويجحدون نبوتك وأكثرهم الكافرون يقول وأكثر قومك الجاحدو نبوتك لا المقرون بها اهـ.

ثم قال: وقد بين - جل وعلا- أن بعثة النبي ﷺ فيهم من منن الله عليهم - كما قال تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية.

وبين في موضع آخر: أنهم قابلوا هذه النعمة بالكفران وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ وقيل: يعرفون نعمة الله في الشدة ثم ينكرونها في الرخاء، وقد تقدمت الآيات الدالة على ذلك. كقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ونحوها من الآيات - إلى غير ذلك من الأقوال في الآية. اهـ.

قال الزمخشري^(١): يعرفون نعمة الله التي عددناها حيث يعترفون بها وأنها من الله ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم هي من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا وقيل إنكارهم قولهم ورثناها من آبائنا وقيل قولهم لولا فلان ما أصبت كذا لبعض نعم الله وإنما لا يجوز التكلم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنها من الله وأنه أجراها على يد فلان وجعله سبباً في نيلها اهـ.

التفسير من قول شراح كتاب التوحيد.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ﴾ أى: يدركون بحواسهم أن النعمة من عند الله.

قوله: [نعمة الله]:

واحدة والمراد بها الجميع، فهي ليست واحدة، بل هي لا تحصى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ والقاعدة الأصولية، أن المفرد المضاف يعم - قلت يعني يفيد العموم كما ذكر ذلك ناصر السعدى فى القواعد الحسان وفى أول تفسيره تيسير الكريم الرحمن - والنعمة تكون بجلب المحبوبات وتطلق أحياناً على رفع المكروهات.

(٢) القول المفيد ٢/ ٣٧٥.

(١) الكشاف ٢/ ٣٤٠.

قوله [ثم ينكرونها]:

أى : ينكرون إضافتها إلى الله لكونهم يضيفونها إلى السبب متناسين المُسَبَّب الذى هو الله سبحانه - وليس المعنى أنهم ينكرون هذه النعمة، مثل أن يقولوا: ما جاءنا مطر أو ولد أو صحة، ولكن ينكرونها بإضافتها إلى غير الله، متناسين الذى خلق السبب فَوُجِدَ به المُسَبَّب.

معنى ثم:

قال الزمخشري^(١): فإن قلت ما معنى (ثم) قلت الدلالة على أن - إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة لأنَّ حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر اهـ. وقال الرازى نحو هذا^(٢).

قوله [وأكثرهم الكافرون]

الإعراب^(٣): الواو للحال وأكثرهم مبتدأ والكافرون خبره أو بالعكس أى أنهم كانوا يعرفون وينكفرون اهـ.

تفسيرها بما جاء من أقوال المفسرين.

قال ابن الجوزى^(٤): قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾. قال الحسن: وجميعهم كفار، فذكر الأكثر، والمراد به الجميع. اهـ.

قال الرازى^(٥): فإن قيل: ما معنى قوله ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ مع أنه كان كلهم كافرين؟

قلنا: الجواب من وجوه.

الأول: وإنما قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ لأنه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة ممن لم يبلغ حد التكليف، أو كان ناقص العقل معتوهاً فأراد بالأكثر البالغين الأصحاء.

الثانى: أن يكون المراد بالكافر: الجاحد المعاند، وحينئذ تقول إنما قال ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ لأنه كان فيهم من لم يكن معانداً بل كان جاهلاً بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام وما ظهر له كونه نبياً حق من عند الله.

الثالث: أنه ذكر الأكثر والمراد الجميع، لأنَّ أكثر الشئ يقوم مقام الكل، فذكر الأكثر كذكر الجميع، وهذا كقوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والله أعلم اهـ.

(٢) التفسير الكبير ١٠ / ٢٠ / ٩٨ ..

(٤) زاد المسير ٤ / ٣٦٥.

(١) الكشف ٢ / ٣٤٠

(٣) إعراب القرآن ٣٢١ / ٣٥٢

(٥) التفسير الكبير ١٠ / ٢٠ / ٩٨.

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثَتُهُ عَنْ آبَائِي».

قال الشوكاني^(١): وكفر بعضهم بسبب تكذيب الرسول ﷺ مع اعترافهم بالله وعدم الجحد لربوبيته ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ اهـ.

قال السعدي^(٢): «وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ» لا خير فيهم، وما ينفعهم توالى الآيات، لفساد مشاعرهم وسوء قصدهم، سيرون جزاء الله لكل جبار عنيد كفور للنعم، متمرد على الله، وعلى رسله اهـ.

تفسيرها بما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين^(٣): الجملة الأولى أضافها إلى الكل، والثانية أضافها إلى الأكثر، وذلك لأنّ منهم من هو عامي لا يعرف ولا يفهم، ولكن أكثرهم يعرفون ثم يكفرون اهـ.

قوله: قال مجاهد ما معناه: «هو قول الرجل.. إلخ» الآية.

قال سليمان آل الشيخ^(٤): هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، لفظه كما في (الدر) قال: المساكن والأنعام وسرايل الثياب، والحديث يعرفه كفار قريش ثم ينكرون بأن يقولوا: هذا كان لأبائنا ورثناه عنهم اهـ.

● مناسبة الأثر للباب:

قال القرعاوي^(٥): حيث أفاد الأثر أنّ مجاهد يرى أنّ من نسب النعمة إلى غير الله فقد كفر بها. اهـ.

● مناسبة الأثر للتوحيد:

قال القرعاوي^(٦): حيث مجاهد كفر من نسب النعمة إلى غير الله لأن ذلك شرك مع الله في إنعامه. اهـ.

قوله [قال مجاهد]:

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٧): هو شيخ التفسير الإمام الرباني، مجاهد بن جبر المكي مولى بنى مخزوم. قال الفضل بن ميمون: سمعت مجاهداً يقول: عرضت

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٤٨/ ٣٠١.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٣٨.

(٧) فتح المجيد ٥٦٩/ ٢.

(١) فتح القدير ١٨٩/ ٣.

(٣) القول المفيد ٣٧٦/ ٢.

(٥، ٦) الجديد ٣٥٩.

المصحف على ابن عباس مرات، أوقفه عند كل آية، وأسأله: فيم نزلت؟ وكيف نزلت؟ وكيف معناها؟ توفي سنة اثنتين ومائة، وله ثلاث وثمانون سنة - رحمه الله (*) . اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): وقال سفيان الثوري. إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به أى: كافيك، ومع هذا فليس معصوماً عن الخطأ. اهـ.

قوله [ما معناه]

قال ابن عثيمين^(٢): أى: كلاماً معناه، وعلى هذا ف [ما]: نكرة موصوفة، وفيه أن الشيخ - رحمه الله لم ينقله بلفظه. اهـ.

قوله [هو قول الرجل]

قال ابن عثيمين^(٣): هذا من باب التغليب والتشريف لأن الرجل أشرف من المرأة وأحق بتوجيه الخطاب إليه منها، وإلا، فالحكم واحد. اهـ.

قلت: لحديث أبي داود: «النساء شقائق الرجال»^(٤) وفهم الخطابي ان ذلك فى الاوامر والنواهي. اهـ.

قوله [هذا مالى ورثته عن آبائى]

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قال ابن القيم ما معناه. لما أضافوا النعمة إلى غير الله فقد أنكروا نعمة الله بنسبتها على غيره، فإن الذى يقول هذا جاحد لنعمة الله عليه غير معترف بها، وهو كالأبرص، والأقرع الذين ذكرهما الملك بنعم الله عليها فأنكرها وقالوا: إنما ورثنا هذا كائناً عن كائناً^(٦)، وكونها موروثه الآباء أبلغ فى إنعام الله عليهم إذ أنعم بها على آبائهم ثم ورثهم إياها فتمتعوا هم وآباؤهم بنعمته. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٧): قوله [هذا مالى ورثته عن آبائى] ظاهر هذه الكلمة أنه لا شيء فيها، فلو قال لك واحد: من أين لك هذا البيت؟ قلت: ورثته عن آبائى، فليس فيه شيء لأنه خبر محض لكن مراد مجاهد أن يضيف القائل تملكه للمال إلى السبب الذى

(*) ينظر ترجمته فى كتابى «النكت المتممة لمقدمه ابن تيمية».

(١) القول المفيد ٣٧٧/٢ (٢) القول المفيد ٣٧٧.

(٣) القول المفيد ٣٧٧/٢

(٤) أخرجه أبو داود (٢٣٧)، والترمذى (١١٣) عن عائشة به.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٣٩

(٦) وحديث الأقرع والأبرص فى الصحيح وسيأتى.

(٧) القول المفيد ٣٧٧/٢.

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: «يَقُولُونَ: لَوْلَا فَلَانٌ؛ لَمْ يَكُنْ كَذَا»^(١).

هو الإرث متناسياً المسبب الذى هو الله؛ فبتقدير الله - عزوجل - أنعم على آبائك وملكوا هذا البيت، وبشرع الله - عزوجل - انتقل هذا البيت إلى ملكك عن طريق الإرث؛ فكيف تناسى المسبب للأسباب القدريّة والشرعية فتضيف الأمر إلى ملك آبائك وإرثك إياه بعدهم، فمن هنا صار هذا القول نوعاً من كفر النعمة.

أما إذا كان قصد الإنسان مجرد الخبر كما سبق: فلا شيء فى ذلك، ولهذا ثبت أن النبى ﷺ - قيل له يوم الفتح: «أتنزل فى دارك غداً، فقال: وهل ترك لتناعيل من دار أو رباع»^(٢) فبين ﷺ أن هذه الدور انتقلت إلى عقيل بالإرث فتبين أن هناك فرقا بين إضافة الملك إلى الإنسان على سبيل الخبر، وبين إضافته إلى سببه متناسياً المسبب وهو الله - عزوجل - أهـ.

قلت: وهذا كما قال قارون فيما حكاه الله تعالى عنه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أى علم عندى بصنعة الذهب أو لفضل علمى أو على علم عندى بوجه المكاسب أو غير ذلك مما حكاه المفسرون وعلى أى قول من هذه الأقوال فهو نسب نعمة الله إلى مهارته وعلمه وليست إليه سبحانه.

قوله: وقال عون بن عبد الله: «يقولون: لولا فلان؛ لم يكن كذا».

مناسبة الأثر للباب:

قال القرعاوى^(٢): حيث دل الأثر على أن عون بن عبد الله يرى أن تعليق وجود النعم بقدره المخلوقين كفرها.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): هذا الأثر رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ولفظه كما فى (الدر) لولا فلان أصابنى كذا وكذا ولولا فلان لم أصب كذا وكذا.

وعون هذا هو ابن عبد الله بن عتب ابن مسعود الهذلى أبو عبد الله الكوفى ثقة عابد مات قبل سنة عشرين ومائة.

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (١٠٦/١٤)

قال: حدثنا أبى وكيع قال: ثنا معاوية، عن عمرو، عن أبى إسحاق الفزارى عن ليث، عن عون بن عبد الله بن عتبة به. وابن أبى حاتم فى تفسيره (٢٢٩٦/٧ ح ١٢٦٢٢) فانظره بتخريجنا وانظر «فتح المجيد» (٧٥٥) بتخريجنا

وذكره السيوطى فى «الدر» (٢٣٨/٤) وزاد نسبه إلى سعيد بن منصور وابن المنذر:

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (١٥٨٨).

(٣) الجديد ٣٦٠

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٣٩.

قوله (لولا فلان.... إلى آخر)

قال سليمان آل الشيخ: قال ابن القيم مامعناه : هذا يتضمن قطع إضافة النعمة عن من لولاه لم تكن، وإضافتها إلى من لم يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره، وغايته أن يكون جزءاً من أجزاء السبب أجرى الله نعمته على يده. والسبب لا يستقل بالإياد وجعله سبباً هو من نعم الله عليه. فهو المنعم بتلك النعمة وهو المنعم بما جعله من أسبابها، فالسبب والمسبب من إنعامه. وهو تعالى كما أنه قد ينعم بذلك السبب، فقد ينعم بدونه ولا يكون له أثر وقد يسلبه سببته، وقد يجعل لهامعارضاً يقاومها، وقد يرتب على السبب ضد مقتضاه فهو وحده المنعم على الحقيقة.

قال ابن عثيمين^(١): قوله : «وقال عون بن عبدالله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا».

وهذا القول من قائلة فيه تفصيل إن أراد به الخبر وكان الخبر صدقاً مطابقاً للواقع؛ فهذا لا بأس به، وإن أراد بها السبب؛ فلذلك ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون سبباً خفياً لاتأثير له إطلاقاً، كأن يقول: لولا الولي الفلاني ما حصل كذا وكذا؛ فهذا شرك أكبر لأنه يعتقد بهذا القول أن لهذا الولي تصرفاً في الكون مع أنه ميت، فهو تصرف سرى خفى.

الثانية: أن يضيفه إلى سبب صحيح ثابت شرعاً أو حساً؛ فهذا جائز بشرط أن لا يعتقد أن السبب مؤثر بنفسه، وأن لا يتناسى المنعم بذلك.

الثالثة: أن يضيفه إلى سبب ظاهر، لكن لم يثبت كونه سبباً لاشرعاً ولا حساً؛ فهذا نوع من الشرك الأصغر، وذلك مثل: التولة، والقلائد التي يقال: إنها تمنع العين، وما أشبه ذلك؛ لأنه أثبت سبباً لم يجعله الله سبباً، فكان مشاركاً لله في إثبات الأسباب.

ويدل لهذا التفصيل أنه ثبت إضافة (لولا) إلى السبب وحده بقول النبي ﷺ في عمه أبي طالب: «لولا أنا؛ لكان في الدرك الأسفل من النار»^(*)، ولا شك أن النبي ﷺ أبعد الناس عن الشرك، وأخلص الناس توحيداً لله تعالى، فأضاف النبي ﷺ الشيء إلى سببه، لكنه شرعى حقيقى؛ فإنه أذن له بالشفاعة لعمه بأن يخفف عنه، فكان في ضحضاح من النار، عليه نعلان يغلى منهما دماغه لا يرى أن أحداً أشد منه عذاباً؛ لأنه لو يرى أن أحداً أشد منه عذاباً هان على ابالتسلى؛ كما قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

(١) القول المقيّد ٢/٣٧٨، ٣٧٩.

(*) تقدم تخريجه.

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: «يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهِتَا».

ولولا كثرة الباكين حولي
وما يبكون مثل أخى ولكن
على إخوانهم لقتلت نفسي
أسلّي النفس عنه بالتأسي

وابن القيم رحمه الله - وإن كان قول العالم ليس بحجة لكن يستأنس به - قال في القصيدة الميمية يمدح الصحابة .

أولئك أتباع النبی وحزبه
ولولا همو كادت تميد بأهلها
ولولا هموما كان في الأرض مسلم
ولكن رواسيها وأوتادها هم
ولكن همو كانت ظلما بأهلها
ولكن همو فيها بدور وأنجم

فأضاف (لولا) إلى سبب صحيح . اهـ .

قوله: وقال ابن قتيبة: [يقولون هذا...].

مناسبة الأثر للباب:

قال القرعاوى^(١): حيث دل الأثر على أن ابن قتيبة يرى أن إضافة النعمة إلى شفاعاة الأصنام كفر . اهـ .

قوله (وقال ابن قتيبة)

قال سليمان آل الشيخ^(٢): ابن قتيبة هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الحافظ، صاحب التفسير والمعارف وغيرها. وثقة الخطيب وغيره، ومات سنة سبع وستين ومائتين، أو قبلها

قوله (يقولون: هذا بشفاعة آلِهِتَا)

قال سليمان آل الشيخ^(٣): قال ابن القيم: هذا يتضمن الشرك مع إضافة النعمة إلى غير وليها؛ فالآلهة التي تعبد من دون الله أحقر وأذل من أن تشفع عند الله، وهي محضرة في الهوان والعذاب مع عابديها وأقرب الخلق إلى الله، وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن ارتضاه؛ فالشفاعة بإذنه من نعمه، فهو المنعم بالشفاعة، وهو المنعم بقبولها، وهو المنعم بتأهيل المشفوع له. إذ ليس كل أحد أهلاً أن يشفع له. فمن المنعم على الحقيقة سواء؟ قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ فالعبد لا يخرج

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ....». الْحَدِيثُ (١). وَقَدْ تَقَدَّمَ: «وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، يَذْمُ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِمْ كَانَتْ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَأَحُ حَازِقًا... وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى السَّنَةِ كَثِيرَةٌ».

له عن نعمة الله وفضله ومته وإحسانه طرفة عين، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا ذم سبحانه من آتاه شيئاً من نعمه فقال: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾

قال ابن عثيمين (٢): هؤلاء أخبت عن سبقهم، لأنهم مشركون يعبدون غير الله، ثم يقولون: إن هذه النعم حصلت بشفاعاة آلهتهم. فالعزى مثلاً شفعت عند الله أن ينزل المطر فهؤلاء أثبتوا سبباً من أبطال الأسباب لأن الله - عز وجل - لا يقبل شفاعاة آلهتهم، قال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ والله عز وجل - لا يأذن لهذه الأصنام بالشفاعة، فهذا أبطال من الذي قبله لأن فيه محذورين.

١- الشرك بهذه الأصنام.

٢- إثبات سبب غير صحيح. أهـ.

قوله: وقال أبو العباس.....

مناسبة الأثر للباب والتوحيد:

قال القروعاى (٣): حيث أفاد الأثر أن ابن تيمية يرى أن من نسب النعمة إلى غير الله فقد كفر بها أو أشرك مع الله غيره. أهـ.

هو شيخ الإسلام ابن تيمية. رحمه الله

قوله (وهذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره...)

قال ابن عثيمين (٤): وذلك مثل الاستسقاء بالأتواء، وإنما كان هذا مذموماً؛ لأنه

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القول المفيد ٢ / ٣٨٠.

(٣) الجديد ٣٦٢.

(٤) القول المفيد ٢ / ٣٨١.

لوأتى إليك عبد فلان بهدية من سيده فشكرت العبد دون السيد؛ كان هذا سوء أدب مع السيد وكفراناً لنعمته، وأقبح من هذا لو أضفت النعمة إلى السبب دون الخالق؛ لما يأتى:

١- الخالق لهذه الأسباب هو الله؛ فكان الواجب أن يشكر وتضاف النعمة إليه.

٢- أن السبب قد لا يؤثر؛ كما ثبت فى «صحيح مسلم» أنه ﷺ قال: «ليس السنة أن لاتمطروا، بل السنة أن تمطروا ثم لاتنبت الأرض»^(١).

٣- أن السبب قد يكون له مانع يمنع من تأثيره، وبهذا عرف ضعف إضافة الشيء إلى سببه دون الالتفات إلى المسبب جل وعلا.

قوله: «كانت الريح طيبة والملاح حاذقاً»

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، الملاح هو سائس السفينة. والمعنى أن السفن إذا جرين بريح طيبة بأمر الله جرياً حسناً نسبوا ذلك إلى طيبة الريح، وحذق الملاح فى سياسة السفينة، ونسوا ربهم الذى أجرى لهم الفلك فى البحر رحمة بهم كما قال تعالى «رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً»^(٣). فيكون نسبة ذلك إلى طيب الريح، وحذق الملاح من جنس نسبة المطر إلى الأنواء. وإن كان المتكلم بذلك لم يقصد أن الريح والملاح هو الفاعل لذلك من دون خلق الله وأمره وإغا أراد أنه سبب. لكن لا ينبغي أن يضيف ذلك إلى الله وحده؛ لأن غاية الأمر فى ذلك أن يكون الريح والملاح سبباً، أو جزء وسبب. ولو شاء الرب تبارك وتعالى لسلبه سببيته، فلم يكن سبباً أصلاً. فلا يليق بالمنعم عليه المطلوب منه الشكر أن ينسى من يده الخير كله وهو على كل شيء قدير، ويضيف النعم إلى غيره، بل يذكرها مضافة منسوبة إلى مولاه والمنعم بها، وهو المنعم على الإطلاق كما قال تعالى: «وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ»^(٤). فهو المنعم بجميع النعم فى الدنيا والآخرة وحده لا شريك له. فإن ذلك من شكرها. وضده من إنكارها. ولا ينافى ذلك الدعاء والإحسان إلى من كان سبباً أوجزء سبب فى بعض ما يصل إليك من النعم من الخلق. قال المصنف: وفيه اجتماع الضدين فى القلب. اهـ.

(١) [صحيح] أخرجه: مسلم فى الفتى (٢٥٧/٩) ٤٤ عن أبى هريرة به.

(٢) تسير العزيز الحميد ٤٤٠ (٣) سورة الإسراء: ٦٦

(٣) تسير العزيز الحميد ٤٤٠

(٤) سورة النحل: ٥٣.

فيه مسائل

الأولى: تَفْسِيرُ مَعْرِفَةِ النُّعْمَةِ وَإِنْكَارِهَا.

الثانية: مَعْرِفَةُ أَنَّ هَذَا جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرَةٍ.

الثالثة: تَسْمِيَةُ هَذَا الْكَلَامِ إِنْكَاراً لِلنُّعْمَةِ.

الرابعة: اجْتِمَاعُ الضَّادَيْنِ فِي الْقَلْبِ.

قال ابن عثيمين (١): هذا في السفن الشراعية التي تجرى بالرياح، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾، فكانوا إذا طاب سير السفينة قالوا: كانت الريح طيبة، وكان الملاح - هو قائد السفينة - حاذقاً - أى: مُجيداً للقيادة فيضيفون الشيء إلى سببه وينسون الخالق - جل وعلا - . اهـ.

قال ابن عثيمين (٢):

فيه مسائل

● الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها. وسبق ذلك

● الثانية: معرفة أن هذا جارٍ على ألسنة كثيرة.

وذلك مثل قول بعضهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، وما أشبه ذلك.

● الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة. يعنى: إنكاراً لتفضل الله تعالى بها وليس إنكاراً لوجودها؛ لأنهم يعرفونها يحسون بوجودها.

● الرابعة: اجتماع الضدين في القلب.

وهذا من قوله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾؛ فجمع بين المعرفة والإنكار، وهذا كما يجتمع في الشخص الواحد خصلة إيمان وخصلة كفر، وخصلة فسوق وخصلة عدالة.

قلت: وسيأتى مزيد تفصيل ومن الفوائد غير ذلك فى باب قول الله تعالى: ﴿وَلْتَن أَذْقَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مِنْهُ لِيَقُولَن هَذَا لِي﴾.



(٢) القول المفيد ٢/ ٣٨٢، ٣٨٣.

(١) القول المفيد ٢/ ٣٨١.

٤١ باب

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١)

● مناسبة الباب لما قبله:

قال الفقير: مناسبة هذا الباب لما قبله ظاهرة، حيث أن الباب الماضي فيه النهي عن اتخاذ الند والنظير مع الله: بنسبة النعم لهذه الأنداد ببعض الألفاظ الشركية الخفية والغير خفية فناسب أن يحذر المصنف في هذا الباب من هذا الشرك في الألفاظ وغيرها بقوله ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أى نسبة النعم لغيره تعالى وفى غير ذلك مما يؤول إلى اشرك والله أعلم.

● مناسبة الباب لكتاب التوحيد :-

قال سليمان آل الشيخ^(٢): اعلم أن من تحقيق التوحيد الاحتراز من الشرك بالله فى الألفاظ، وإن لم يقصد المتكلم بها معنى لايجوز، بل ربما تجرى على لسانه من غير قصد، كمن يجرى على لسانه ألفاظ من أنواع الشرك الأصغر لايقصدها. فإن قيل: الآية نزلت فى الأكبر.

قيل: السلف يحتجون بما نزل فى الأكبر. كما فسرهما ابن عباس، وغيره فيما ذكره المصنف عنه بأنواع من الشرك الأصغر، وفسرها أيضاً بالشرك الأكبر. وفسرها غيره بشرك طاعة، وذلك لأن الكل شرك.

قال ابن القيم: فتأمل هذه، وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها، وظفر العقل بها بأول وهلة، وخلوصها من كل شبهة وريب وقادح إذا كان الله وحده هو الذى فعل هذه الأفعال. فكيف تجعلون له أنداداً وقد علمتم أنه لاند له يشاركه فى فعله؟! أهـ.

وقال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣): وهذه الآية دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له. وقد استدلل بها كثير من المفسرين على وجود الصانع، وهى دالة على ذلك بطريق الأولى. والآيات الدالة على هذا المقام فى القرآن كثيرة جداً.

(١) البقرة: ٢٢.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٤١).

(٣) فتح المجيد (٥٧٤/٢).

وسئل أبو نواس عن ذلك؟ فأنشد:

تأمل فى نَبَاتِ الأرضِ، وانظر
عُيُونُ من لَجَيْنِ نَاطِرَاتُ
إلى آثارِ ما صَنَعَ المَلِيكُ
على قُضْبِ الزَّبَرَجَدِ شَاهِدَاتُ
بأُحْدَاقِ هِىَ الذَّهَبِ السَّيِّكُ
بأنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

وقال ابن المعتز:

فَيَا عَجَبًا، كَيْفَ يُغْضَى الإِلَهُ — هـ، أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ؟
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ^(١)

وقال ناصر السعدى^(٢): الترجمة السابقة على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ يقصد بها الشرك الأكبر، بأن يجعل لله ندأ فى العبادة والحب، والخوف والرجاء، وغيرها من العبادات.

وهذه الترجمة المراد بها الشرك الأصغر، والشرك فى الألفاظ كالحلف بغير الله، وكالتشريك بين الله وبين خلقه فى الألفاظ، كلولا الله وفلان، وهذا بالله وبك، وكإضافة الأشياء ووقوعها لغير الله، كلولا الحارث لأتانا اللصوص ولولا الدواء الفلانى لهلكت، ولولا حذق فلان فى المكسب الفلانى لما حصل.... فكل هذا ينافى التوحيد. والواجب أن تضاف الأمور ووقوعها ونفع السبب إلى إرادة الله، وإلى الله ابتداء، ويذكر مع ذلك مرتبة السبب ونفعه، فيقول: لولا الله، ثم كذا.... ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره.

فلا يتم توحيد العبد حتى لا يجعل لله ندأ فى قلبه وقوله وفعله أهـ.

- وقال عبد الله بن جارا الله^(٣) بنحو ما تقدم من كلام السعدى، حيث قال:

(١) الأبيات فى ديوان أبى العتاهية ص (١٢٢) مع أبيات أخر. وكذا نسبها لأبى العتاهية أبو الفرج فى أغانيه (٣٥/٤) وفى الديوان: أن أبى نواس لما رأى هذه الأبيات قال لمن هذا؟ فقيل له: لأبى العتاهية فقال: لو وددتها لى بجميع شعر.

ولذلك نسبها ابن خلكان فى وفيات الأعيان (١٣٨/٧) إلى أبى نواس.

(٢) القول السديد (١٠٧، ١٠٨).

(٣) الجامع الفريد (١٦٢).

الغرض من هذا الباب النهى عن الشرك الأصغر كالحلف بغير الله والتشريك بين الله وبين خلقه فى الألفاظ كلولا الله وفلان وهذا بالله وبك وإضافة الأشياء لغير الله كلولا الحارس لأتانا السارق ولولا الدواء الفلانى لهلكت ونحو ذلك فكل هذا فى معناه ينافى كمال التوحيد. لأن الواو تقتضى مساواة المعطوف للمعطوف عليه والواجب أن تضاف الأمور كلها إلى الله ابتداءً ويؤتى بعد ذلك بمرتبة السبب فيقال لولا الله ثم كذا ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره. اهـ.

وقال القرعاوى^(١): حيث دلت الآية على وجوب تجنب الشرك الظاهر والخفى، ومن الخفى قول القائل لولا الحارس لأتانا اللصوص أهـ.
- ماذا أراد المصنف بهذا الباب.

قال حامد بن حسن بن محسن^(٢): باب فى بيان أن لفظ السند يشمل الشرك الأكبر والأصغر والخفى والكل ظلم وذميم عند الله والكل يوجب السخط من الله والعقاب، والشرك من حيث هو هضم لجناح الربوبية ومساواته تعالى مع غيره فى الألوهية من أكبر الكبائر وأقبح القبائح وأشنع الشنائع وبينه على ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال ناصر السعدى: الترجمة السابقة يقصد بها الشرك الأكبر. وهذه الترجمة يراد بها الشرك الأصغر أهـ.

وتقدم تمام كلامه بنصه فى مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد.

قال ابن باز^(٣): أراد المؤلف بهذا الباب تحذير الناس من اتخاذ الأنداد وهو جمع ند وهو المثل والتظير وسمى الله من اتخذ الهاً أنداداً لأنهم عبدوه مع الله كالقبور والأشجار والكواكب وغيرها كلها تسمى أنداداً إذا دعاه أو استغاث به أو طلب منه شيئاً أو اعتقد نفعه أو ضره أهـ.

قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(١) الجديد (٢٦٤).

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٣٩١.

(٣) التعليق المقيد ٢٠٩.

قال محي الدين درويش^(١): الفاء تعليلية ولا ناهية.

وقال ابن عثيمين^(٢) شارحاً ومفصلاً لذلك بقوله: لما ذكر سبحانه ما يقر به هؤلاء من أفعاله التي لم يفعلها غيره: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٧١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ فكل من أقرَّ بذلك لزمه أن لا يعبد إلا المقرَّ له، لأنه لا يستحق العبادة من لا يفعل ذلك، ولا ينبغي أن يُعبدَ إلا من فعل ذلك ولذلك أتى بالفاء الدالة على التفريع والسبب، أي: فسبب ذلك لا تجعلوا لله أنداداً. ولا هذه ناهية، أي: فلا تجعلوا له أنداداً في العبادة، كما أنكم لم تجعلوا له أنداداً في الربوبية، وأيضاً لا تجعلوا له أنداداً في أسمائه وصفاته؛ لأنهم قد يصفون غير الله بأوصاف الله - عز وجل - كاشتقاق العزى من العزيز، وتسميتهم رحمن اليمامة اهـ.

الإعراب^(٣): ﴿تَجْعَلُوا﴾ فعل مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حرف النون والواو فاعل والجملة تعليلية لا محلَّ لها بمثابة الإستنافية والمعنى أن هذا النهي متسبب عن إيجاد هذه الآيات الباهرة ﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف في موضع المفعول الثاني لتجعلوا ﴿أَنْدَادًا﴾ معقول تجعلوا الأول.

● التفسير بالمأثور

أولاً: من المرفوع

عن عوف بن عبد الله قال خرج النبي ﷺ ذات يوم من المدينة فسمع منادياً ينادي للصلاة فقال: الله أكبر الله أكبر فقال رسول الله ﷺ على الفطرة فقال: أشهد أن لا إله إلا الله فقال: «خلع الأنداد»^(٤).

عن ابن عباس قال: قال رجل للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت فقال: «جعلتني لله نداً، ما شاء الله وحده»^(٥).

- عن قتيلة بنت صيفي قالت: جاء حير من الأحبار إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون قال: وكيف؟ قال: يقول أحديكم: لا والكعبة. فقال

(١) إعراب القرآن ٢٤/١.

(٢) القول المفيد ٣٨٤/٢.

(٣) إعراب القرآن ٥٤/١.

(٤) ذكره السيوطي في «الدر» (٧٦/١) ونسبه لابن أبي حاتم.

(٥) تقدم تخريجه وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال في تخريج أحاديث الغلال» (١٢).

النبي ﷺ: أنه قد قال فمن حلف فليحلف برب ذاك؟! قال: يقول أحدكم ما شاء الله وشئت فقال النبي ﷺ للحبر: «أنه قد قال فمن قال منكم فليقل ما شاء ثم شئت» (١).
عن حذيفة ابن اليمان عن النبي ﷺ قال: «لاتقولوا ما شاء الله وشاء فلان». قولوا: «ما شاء الله ثم شاء فلان» (٢).

- عن طفيل بن سخبرة أنه رأى فيما يرى النائم كأنه مر برهط من اليهود فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تزعمون أن عزيزاً ابن الله فقال: وأنتم نعم القول لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد. ثم مر رهط من النصارى فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله قالوا: وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبح أخبر النبي ﷺ فخطب فقال: «إن طفيلاً رأى رؤيا، وأنكم تقولون كلمة كان يمتنعى الحياء منكم، فلا تقولوها ولكن قولوا: ما شاء الله وحده لاشريك له» (٣).

ثانياً: من أقوال الصحابة

وعن ابن عباس قال [الأنداد] هو الشرك (٤).

وعن ابن عباس فى قوله: [الأنداد] قال: أشياها (٥).

وعن ابن مسعود فى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَاداً﴾ قال: أكفاء من الرجال تطيعونهم فى معصية الله (٦).

وعن ابن عباس. أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرنى عن قول الله - عزوجل - ﴿أُنْدَاداً﴾ قال: الأشباه والأمثال قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول ليبيد: أحمد الله فلا ندَّ له بيديه الخير ما شاء فعل (٧).

وعن قتادة فى قوله ﴿أُنْدَاداً﴾ قال: شركاء (٨).

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٧٦/١) ونسبه لابن سعد. وانظر «فتح القدير» (٣٢٦ - بتخریجنا) وفتح ذى الجلال.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٠٤/٥)، وأبو داود (٤٩٨٠)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠٨٢١). وانظر «رياض الصالحين» (١٧٤٨ - بتخریجنا).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٧٢/٥)، وابن ماجه (٢١١٨) عن طفيل به.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٧٦/١) ونسبه لابن أبى حاتم.

(٥) تقدم تخريجه. (٦) تقدم تخريجه.

(٧) تقدم تخريجه. (٨) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد.

ثالثاً: عن التابعين

وعن قتادة فى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أُنْدَاداً﴾ أى عدلاء^(١). وعنه أيضاً: شركاء^(*)
وعن مجاهد فى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أُنْدَاداً﴾ أى عدلاء^(٢) اهـ.

● تنبيه:

تقدم - بأوسع من ذلك - معنى الأنداد، والراجع فيها، فى باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

● أقوال أهل التفسير:

قال الطبرى^(٣): قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أُنْدَاداً﴾ قال أبو جعفر والأنداد جمع ند والند العدل والمثل كما قال حسان بن ثابت:

أتهجوا ولست له بند فشركما لخيركما الفداء.

يعنى بقوله ولست له بند لست له بمثل ولا عدل وكل شىء كان نظيراً لشىء وشبيها فهو له ندا. اهـ.

قال البغوى^(٤): قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أُنْدَاداً﴾ أى أمثالا تعبدونهم كعبادة الله.

وقال أبو عبيدة: السند الضدّ. وهو من الأضداد والله تعالى برىء من المثل وال ضد اهـ.

قال ابن الجوزى^(٥): ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أُنْدَاداً﴾ يعنى: شركاء، أمثالا يقال: هذا ند هذا، ونديده وفيما أريد بالأنداد هاهنا قولان:

أحدهما: الأصنام، قاله ابن زيد:

والثانى: رجال كانوا يطيعونهم فى معصية الله، قاله السدى اهـ.

قال الرازى^(٦): بم تعلق قوله ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾؟

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٧٧/١) ونسبه لابن جرير.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تفسير الطبرى ١٢٦/١. (٤) معالم التنزيل ٥٢/١.

(٥) زاد المسير ٤١/١.

(٦) التفسير الكبير ١٢٣/٢.

(*) ذكره السيوطى فى الدر ونسبه لعبد بن حميد

الجواب فيه ثلاثة أوجه.

أحدها: أن يتعلق بالأمر، أى عبدوا فلا تجعلوا لله أنداداً فإنَّ أصل العبادة وأساسها التوحيد.

وثانيها: بلعلّ، والمعنى خلقكم لى تتقوا وتخافوا عقابه فلا تثبتوا له ندأ فإنه من أعظم موجبات العقاب.

وثالثها، بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ أى هو الذى خلق لكم هذه الدلائل الباهرة فلا تتخذوا له شركاء اهـ.

ثم قال (١): ما الند؟

الجواب: أنه المثل المنازع وناددت الرجل نافرته من ندّ ندوداً إذا نفر كأن كل واحد من الندين يناد صاحبه أى نافرته ويعانده، فإن قيل إنهم لم يقولوا إن الأصنام تنازع الله. قلنا لما عبدوها وسموها آلهة أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة قادرة على منازعته فقليل لهم ذلك على سبيل التهكم وكما تهكم بلفظ الند شنع عليهم بأنهم جعلوا أنداداً كثيرة لمن لا يصلح أن يكون له ند قط، وقرأ محمد من السميع فلا تجعلوا لله ندأ اهـ.

قال ابن كثير (٢): أى لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذى يدعركم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق الذى لا شك فيه وهكذا قال قتادة اهـ.

قال ناصر السعدى (٣): ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أى: أشباهاً ونظراء من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبونه، وهم مثلكم، مخلوقون، مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا ينفعونكم ولا يضررون اهـ.

قال صاحب الظلال (٤): والأنداد التى يشدد القرآن فى النهى عنها لتخلص عقيدة التوحيد نقية واضحة، قد لا تكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذى كان يزاوله المشركون. فقد تكون الأنداد فى صور أخرى خفية. قد تكون فى تعليق الرجاء بغير

(١) التفسير الكبير ١/٢/١٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ١/٢٠.

(٤) الظلال ١/٤٨.

الله فى أى صورة، وفى الخوف من غير الله فى أى صورة. وفى الإعتقاد بنفع أو ضرر فى غير الله فى أى صورة.

عن ابن عباس قال: «الأنداد هو الشرك أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل. وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتى.. ويقول: لولا كلية هذا لأنانى للصوص البارحة. ولولا البط فى الدار لأنى للصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت! وقول الرجل: لولا الله وفلان. هذا كله به شرك»^(١) وفى الحديث أن رجلا قال لرسول الله ﷺ ما شاء الله وشئت قال: «أجعلتنى لله ندا»^(٢)!

هكذا كان سلف هذه الأمة ينظر إلى الشرك الخفى والأنداد مع الله.. فلننظر نحن أين نحن من هذه الحساسية المرهفة، وأين نحن من حقيقة التوحيد الكبيرة!!! اهـ.

قوله: «وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

الإعراب^(٣): «وَأَنْتُمْ» الواو حالية وأنتم ضمير منفصل فى محل رفع مبتدأ «تَعْلَمُونَ» فعل مضارع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل والجملة الفعلية فى محل رفع خبر أنتم والجملة الاسمية فى موضع نصب على الحال اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله «وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» الجملة فى موضع نصب حال من فاعل «تَجْعَلُوا»، أى: والحال أنكم تعلمون اهـ.

فائدة لغوية: إذا تقدّم النعت على المنعوت أعرب حالا وساغ لذلك أن يكون صاحب الحال نكرة مع أنه محكوم عليه أن يكون معرفة لأن الحكم على المجهول لا يفيد فى الغالب.

● التفسير بالمأثور

أولاً: من السنة

فى مسند أحمد عن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السّلام بخمس كلمات: أن يعمل بهنّ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهنّ، وأنه كاد أن يبطيء بها. فقال له عيسى عليه السّلام: إن الله أشرك بخمس كلمات:

(١) انظر تخريجه فى هذا الباب، وكتابنا «فتح ذى الجلال».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) إعراب القرآن ١/ ٥٤.

(٤) القول المفيد ٢/ ٣٨٥.

أَنْ تَعْمَلَ بِهِذِهِ، وَأَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ فِيمَا تَبْلَغُهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ أَبْلَغَهُنَّ، فَقَالَ: يَا أَخِي إِنِّي أَخْشَى أَنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذِّبَ أَوْ يُخَسِّفَ بِي. قَالَ: فَجَمَعَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدَ وَقَعْدَ عَلَى الشَّرَفِ. فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ: أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَمُرَّكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ.

أُولَاهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا: فَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرَقٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيْكُمْ يَسْرُهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، فَاعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

وَأَمُرَّكُمْ بِالصَّلَاةِ: فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لَوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فِإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا.

وَأَمُرَّكُمْ بِالصِّيَامِ: فَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكِ فِي عَصَابَةِ كُلِّهِمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِسْكِ. وَإِنْ خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطِيبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ.

وَأَمُرَّكُمْ بِالصَّدَقَةِ: فَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ أَسْرَهُ الْعَدُوَّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ.

وَأَمُرَّكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا: فَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى حَصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ.

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَأَنَا أَمُرُّكُمْ بِخَمْسٍ، اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: الْجَمَاعَةَ، وَالسَّمْعَ، وَالطَّاعَةَ، وَالْهَجْرَةَ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قَيْدَ شَيْءٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرَا جَع، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُنَى جَهَنَّمَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ صَلَّيْتُ وَصَامْتُ فَقَالَ: وَإِنْ صَلَّيْتُ وَصَامْتُ، وَزَعَمْتُ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمُ الَّتِي سَمَّاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ، عِبَادَ اللَّهِ» (١).

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٣٠)، والترمذي (٢٨٦٣) عن الحارث به.

وانظر «فتح المجيد» (ح ٧٦٣) بتخريجنا

وهذا حديث حسن، والشاهد منه في هذه الآية قوله: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فاعْبُدوه ولا تُشْرِكُوا به شيئاً» (١) اهـ.

ثانياً: من أقوال الصحابة والتابعين

وروى الطبري عن ابن عباس قال نزل ذلك في الفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين.

وروى أيضاً عن مجاهد فلا تجعلوا الله أنداداً وأنتم تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل (٢).

وعنه أيضاً وأنتم تعلمون يقول وأنتم تعلمون أنه لا ند له في التوراة والإنجيل أ.هـ.

ثالثاً: أقوال أهل التفسير

قال الطبري (٣): اختلف أهل التأويل في الذين عنوا بهذه الآية فقال بعضهم عنى بها جميع المشركين من مشركي العرب وأهل الكتاب وقال بعضهم عنى بذلك أهل الكتابين التوراة والإنجيل.

ثم قال: وأحسب أن الذي دعا مجاهد إلى هذا التأويل وإضافة ذلك إلى أنه خطاب لزهل التوراة والإنجيل دون غيرهم، الظن منه بالعرب أنها لم تكره تعلم أن الله خالقها ورازقها بجحودها وحدانية ربها وإشراكها معه في العبادة غيره وإن ذلك لقول ولكن الله - جل ثناؤه - قد أخبر في كتابه عنها أنها كانت تقرُّ بوحدانيته غير أنها كانت تشرك في عبادته ما كانت تشرك فيها فقال - جل ثناؤه - «وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» وقال «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ» فالذي هو أولى بتأويل قوله وأنتم تعلمون إذ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانية الله وأنه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم نظير الذي كان من ذلك عند أهل الكتابين ولم يكن في الآية دلالة على أن الله جل ثناؤه - عنى بقوله وأنتم تعلمون أحد الحزبين بل خرج الخطاب بذلك عام للناس كافة لهم لأنه تحدى الناس كلهم بقوله «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ» أن يكون تأويله ما قاله ابن عباس وقتادة من أنه يعنى بذلك كل مكلف عالم

(١) فتح المجيد (٢/ ٥٧٢ - ٥٧٤).

(٢) ذكره السيوطي في «الدرر» (١/ ٧٧) ونسبه لوكيع، وعبد بن حميد، وابن جرير.

(٣) تفسير الطبري ١/ ١٢٧.

بوحداية الله وأنه لا شريك له في خلقه يشرك معه في عبادته غيره كائناً من كان من الناس عربياً كان أو أعجمياً كاتباً أو أمياً وإن كان الخطاب لكفار أهل الكتاب الذين كانوا حوالى دار هجرة رسول الله ﷺ وأهل النفاق منهم وعن بين ظهرائهم ممن كان مشركاً فانتقل إلى النفاق بمقدم رسول الله ﷺ اهـ.

قال البغوى (١): قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه واحد خالق هذه الأشياء ا.هـ.

قال ابن الجوزى (٢): قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه ستة أقوال:

أحدها: وأنتم تعلمون أنه خلق السماء، وأنزل الماء، وفعل ما شرحه فى هذه الآيات، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس وقتادة ومقاتل.

والثاني: وأنتم تعلمون أنه ليس ذلك فى كتابكم التوراة والإنجيل، روى عن ابن عباس أيضاً، وهو يخرج على قول من قال: الخطاب لأهل الكتاب.

والثالث: وأنتم تعلمون أنه لاند له، قاله مجاهد.

والرابع: أن العلم هاهنا بمعنى العقل، قاله ابن قتيبة.

الخامس: وأنتم تعلمون أنه لايقدر على فعل ما ذكره أحد سواه. ذكره شيخنا على بن عبيدالله.

والسادس: وأنتم تعلمون أنها حجارة، سمعته من الشيخ أبى محمد بن الخشاب اهـ.

قال الرازى (٣): معناه إنكم لكمال عقولكم تعلمون أن هذه الأشياء لايصح جعلها أنداداً لله تعالى، فلا تقولوا ذلك فإن القول القبيح ممن علم قبحه يكون أقبح. اهـ.

قال ناصر السعدى (٤): ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله ليس له شريك، ولانظير، لافى الخلق، والرزق، والتدبير ولا فى الألوهية والكمال.

فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه. وهذه الآية، جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهى عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة ما سواه، وهو ذكر توحيد الربوبية، المتضمن انفراد بالخلق والرزق والتدبير فإن كان كل واحد، مقراً بأنه ليس له

(٢) زاد المير ٥٢/١.

(١) معالم التنزيل ٥٢/١.

(٣) التفسير الكبير ١٢٣/٢/١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٢٠/١.

شريك بذلك، فكذلك فليكن الإقرار بأن الله ليس له شريك فى عبادته وهذا أوضح دليل عقلى، على وحدانية البارئ تعالى، وبطلان، الشرك أهـ.

- إشكال وجوابه:

قال القرطبى^(١): فإن قيل كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الختم والطبع والصمم والعمى؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: وأنتم تعلمون، يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل الماء وأنبأ الرزق، فيعلمون أنه المنعم عليهم دون الأنداد.

الثانى: أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتهم، والله أعلم. وفى هذا دليل على الأمر باستعمال حجج العقول، وإبطال التقليد، وقال ابن فورك: يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين؛ فالمعنى لا تتردوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أنداداً بعد علمكم الذى هو نفى الجهل بأن الله واحد أهـ.

- فائدة جلية:

قال ناصر السعدى^(٢): حذف المتعلق المعمول فيه: يفيد تعميم المعنى المناسب له. وهذه قاعدة مفيدة جداً. متى اعتبرها الإنسان فى الآيات القرآنية أكسبته فوائد جلية. وذلك أن الفعل وما هو فى معناه متى قيد بشئ تقيده به. فإذا أطلقه الله تعالى، وحذف المتعلق كان القصد من ذلك التعميم. ويكون الحذف هنا أحسن وأفيد كثيراً من التصريح بالمتعلقات، وأجمع للمعانى النافعة ولذلك أمثلة كثيرة جداً:

منها: أنه قال فى عدة آيات:

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٣).

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٤).

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٥).

(١) تفسير القرطبى ١/ ١٩٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٥/ ٤٩٦.

(٣) النور: ٦١.

(٤) الأنعام: ١٥٢.

(٥) البقرة: ٢١.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ: «الْأَنْدَادُ هُوَ الشَّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى صِفَاةِ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي، وَتَقُولَ: لَوْ لَا كَلْبِيَّةٌ هَذَا؛ لِأَنَّا الْلُصُوصُ، وَلَوْ لَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ، لَا تَنِي

فيدل ذلك على أن المراد لعلكم تعقلون عن الله كل ما أرشدكم إليه وكل ما علمكموه، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة، ولعلكم تذكرون، فلا تتسبون ولا تغفلون، فتكونون دائماً متيقظين مرهفي الحواس، تحسون كل ما تمرّون به سنة الله وآياته، فتذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية. ولعلكم تتقون جميع ما يجب اتقاؤه من الغفلة والجهل والتقليد، وكل ما يحاول عدوكم أن يوقعكم فيه من جميع الذنوب والمعاصي، يدخل في ذلك ما كان سياق الكلام فيه وهو فرد من أفراد هذا المعنى العام ولهذا كان قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١).

يفيد كل ما قيل في حكمة الصيام، أي لعلكم تتقون المحارم عموماً، ولعلكم تتقون ما حرم الله على الصائمين من قول الزور والعمل به، ومن كل الأحوال والصفات السيئة الخبيثة، وتتقون وتستجنبون المفطرات والممنوعات، ولعلكم تتصفون بصفة التقوى وتحصلون على كل ما يقيكم مما تكرهون، وتتخلقون بأخلاقها. وهكذا سائر ما ذكر فيه هذه اللفظة مثل قوله: [هدى للمتقين]... ثم قال: وهذا شيء كثير لو ذهبنا نذكر الأمثلة عليه لطالت ولكن قد فتح لك الباب، فامشي على هذا السبيل المفضي إلى رياض بهيجة من أصناف العلوم اهـ.

وبنحو من هذه القاعدة قال سليمان آل الشيخ^(٢): ومعنى الآية أن الله تبارك وتعالى نهى الناس أن يجعلوا لله أنداداً أي: أمثلاً في العبادة والطاعة، وهم يعلمون أن الذي فعل تلك الأفعال فهو ربهم وخالقهم. وخالق من قبلهم، وجاعل الأرض فراشاً، والسماء بناءً، والذي أنزل من السماء ماء فأخرج به من أنواع الثمرات رزقاً لهم. فإذا كنتم تعلمون ذلك فلا تجعلوا لله أنداداً اهـ.

قوله: وقال ابن عباس في الآية: الأنداد هو الشرك..

● مناسبة الأثر للباب وللتوحيد:

(١) البقرة: ١٨٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٤١.

اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ : لَوْلَا
اللَّهُ وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ».

رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (١).

- قال عبدالرحمن آل الشيخ (٢): بَيَّنَّ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ هَذَا كُلَّهُ مِنَ الشِّرْكِ، وَهُوَ الْوَاقِعُ الْيَوْمَ عَلَى أَلْسِنٍ كَثِيرٍ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ التَّوْحِيدَ وَلَا الشِّرْكَ. فَتَنَّبَهُ لِهَذِهِ الْأُمُورِ. فَإِنَّهَا مِنَ الْمُنْكَرِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَجِبُ النَّهْيُ عَنْهُ وَالتَّغْلِيظُ فِيهِ؛ لِكَوْنِهِ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ وَهَذَا مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تَنْبِيهًُ بِالْأَدْنَى مِنَ الشِّرْكِ عَلَى الْأَعْلَى أَهـ.

- وقال القرعاوى (٣): حَيْثُ دَلَّ الْأَثَرُ عَلَى أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ يَرَى أَنَّ مِنَ الشِّرْكِ الْخَفِيِّ الْقِسْمِ بَغِيرِ اللَّهِ، كَقَوْلِكَ: وَحَيَاتِكَ، وَكَذَا تَعْلِيْقُ نَفْعٍ عَلَى فِعْلٍ مَخْلُوقٍ كَقَوْلِكَ: لَوْلَا الْحَارِسُ لَا تَأْتَانَا لِلْصُّوَصِ، وَكَذَلِكَ تَعْلِيْقُ نَفْعٍ عَلَى فِعْلِ اللَّهِ، وَمَعَهُ غَيْرُهُ كَقَوْلِكَ لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ لَا حَرَقَ الْمَنْزِلَ أَهـ.

● شرح الأثر:

قوله: [عن ابن عباس في الآية...] إلخ

أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو بْنُ أَبِي عَاصِمٍ الضَّحَّاكُ بْنُ مَخْلَدٍ، حَدَّثَنِي أَبُو عَمْرٍو، حَدَّثَنِي أَبُو عَاصِمٍ، أَبْنَا شَيْبَةَ بْنِ بَشْرٍ، ثَنَا عِكْرَمَةُ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ الْأَثَرِ وَسَبَقَ أَنْ تَكَلَّمْنَا عَلَى شَيْبَةَ بْنِ بَشْرٍ هَذَا فِي أَثَرِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ذِكْرِ الْكِبَائِرِ.

قوله [قال ابن عباس] تقدمت ترجمته.

قوله: [في الأنداد] تقدم تفسير الأنداد من أقوال المفسرين.

قوله: [الشرك أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل].

- قال سليمان آل الشيخ (٤): قوله: هو الشرك أخفى من ديب النمل إلى آخره أَيْ: إِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ مِنَ الشِّرْكِ خَفِيَّةٌ فِي النَّاسِ، لَا يَكَادُ يَتَفَقَّطُنَ لَهَا وَلَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الْقَلِيلُ، وَضُرِبَ الْمَثَلُ لَخَفَائِهَا بِمَا هُوَ أَخْفَى شَيْءً وَهُوَ أَثَرُ النَّمْلِ، فَإِنَّهُ خَفِيَ. فَكَيْفَ إِذَا

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٢٢٩/٩٢/١) بِتَخْرِيجِنَا.

وَأَنْظَرَ «فَتْحَ الْمَجِيدِ» (ح٧٦٤) بِتَخْرِيجِنَا.

(٢) فَتْحَ الْمَجِيدِ (٢/٥٧٥).

(٣) الْجَدِيدِ (٣٦٥).

(٤) تَيْسِيرَ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٤٤٢).

كان على صفاة؟^(١) فكيف إذا كانت سوداء، فكيف إذا كانت في ظلمة الليل؟ وهذا يدل على شدة خفائه على من يدعى الإسلام، وعسر التخلص منه، ولهذا جاء في حديث أبي موسى قال: خَطَبَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ، فَقَالَ لَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرَكَ لِمَا لَا نَعْلَمُهُ» رواه أحمد والطبراني^(٢).

وقال ابن عثيمين^(٣): قوله: «وقال ابن عباس في الآية».

أى: فى تفسيرها.

قوله: «هو الشرك».

هذا تفسير بالمراد؛ لأن التفسير تفسيران:

١- تفسير بالمراد، وهو المقصود بسياق الجملة بقطع النظر عن مفرداتها.

٢- تفسير بالمعنى، وهو الذى يسمى تفسير الكلمات، فعندنا الآن وجهان للتفسير.

أحدهما: التفسير اللفظى وهو تفسير الكلمات، وهذا يقال فيه: معناه كذا وكذا.

والثانى: التفسير بالمراد، يقال: المراد بكذا وكذا، والآخر هنا هو المراد.

فإذا قلنا: الأنداد الأشباه والنظراء؛ فهو تفسير بالمعنى، وإذا قلنا: الأنداد الشركاء أو الشرك؛ فهو تفسير بالمراد، يقول رضى الله عنه: «الأنداد هو الشرك»، فإذا الند الشرك المشارك لله - سبحانه وتعالى - فيما يختص به.

قوله: «ديب».

أى: أثر ديب النمل، وليس فعل النمل.

قوله: «على صفاة».

هى الصخرة الملساء.

قلت: الصلد الضخم لا يَنْبِتُ كما فى القاموس

قوله: «سوداء».

وليس على بيضاء؛ إذ لو كان على بيضاء؛ لبان أثر السير أكثر.

(١) الصَّافَةُ: الْحَجَرُ الصَّلْدُ الضَّخْمُ لَا يَنْبِتُ. (القاموس).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) القول المفيد (٢/ ٣٨٥: ٣٨٧).

قوله: «فى ظلمة الليل».

وهذا أبلغ ما يكون فى الخفاء.

فإذا كان الشرك فى قلوب بنى آدم أخفى من هذا؛ فسأل الله أن يعين على التخلص منه، ولهذا قال بعض السلف: «ما عاجلت نفسى معالجتها على الإخلاص»، ويروى عن النبى ﷺ أنه لما قال مثل هذا؛ قيل له: كيف نتخلص منه؟ قال: «قولوا: اللهم! إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»^(١).

قوله: [وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان].

- قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلانة. وحياتى أى: إن من الحلف بغير الله، الحلف بحياة المخلوق وسيأتى الكلام عليه اهـ.

- وقال ابن عثيمين^(٣): قوله: «والله وحياتك».

فيها نوعان من الشرك:

الأول: الحلف بغير الله.

الثانى: الإشراك مع الله بقوله: والله! وحياتك! فضمها إلى الله بالواو المقتضية للتسوية فيها نوع من الشرك، والقسم بغير الله إن اعتقد الحالف أن المُقسم به بمنزلة الله فى العظمة؛ فهو شرك أكبر، وإلا؛ فهو شرك أصغر.

قوله: «وحياتى».

فيه حلف بغير الله؛ فهو شرك اهـ.

قوله: [وتقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص].

قال سليمان آل الشيخ^(٤): أى: السراق. والمعنى إن من الشرك نسبة عدم السرقة إلى الكلبة التى إذا رأت السراق نبحتهم، فاستيقظ أهلها وهرب السراق. وربما امتنعوا من إتيان المحل الذى هى فيه خوفاً من نباحها؛ فيعلم بهم أهلها كما روى بن أبى الدنيا «فى الصمت» عن ابن عباس قال: إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه يقول: لولاه لسرقنا الليلة اهـ.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٤٢).

(٣) القول المفيد (٣٨٨/٢).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٤٤٢، ٤٤٣).

- وقال ابن عثيمين^(١): كلبية تصغير كلب، والكلب يتفع به للصيد وحراسة الماشية والحرث.

وقوله: «لولا كلبية هذا» يكون فيه شرك إذا نظر إلى السبب دون المسبب، وهو الله - عزوجل -، أما الاعتماد على السبب الشرعى أو الحسى المعلوم؛ فقد تقدم أنه لا بأس به، وأن النبى ﷺ قال: «لولا أنا؛ لكان فى الدرك الأسفل من النار»(*) لكن قد يقع فى قلب الإنسان إذا قال: لولا كذا لحصل كذا أو ما كان كذا، قد يقع فى قلبه من الشرك بالاعتماد على السبب بدون نظر إلى المسبب، وهو الله - عزوجل - اهـ.

قوله: [ولولا البط فى الدار لأتانا اللصوص].

قال سليمان آل الشيخ^(٢): البط بفتح الموحدة طائر معروف يتخذ فى البيوت، وإذا دخلها غريب صاح واستكره، وهو الأوز بكسر الهمزة وفتح الواو ومعناها كالذى قبله. والواجب نسبة ذلك إلى الله تعالى، فهو الذى يحفظ عباده ويكلوهم بالليل والنهار كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ اهـ. قلت: وكما قال تعالى أيضاً: والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين اهـ.

- وقال ابن عثيمين^(٣): البَطُّ طائر معروف، وإذا دخل اللص البيت وفيه بط، فإنه يصرخ، فينتبه أهل البيت ثم يجتنبه اللصوص اهـ.

قوله: [وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت] سيأتى الكلام عليها إن شاء الله. فى باب مستقل بعد القادم.

وقال ابن عثيمين^(٤): فيه شرك؛ لأنه شرك غير الله مع الله بالواو، فإن اعتقد أنه يساوى الله - عزوجل - فى التدبير والمشيئة؛ فهو شرك أكبر، وإن لم يعتقد ذلك واعتقد أن الله - سبحانه وتعالى - فوق كل شيء؛ فهو شرك أصغر، وكذلك قوله: «لولا الله وفلان» اهـ.

(١) القول المفيد (٢/٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٤٢، ٤٤٣).

(٣) القول المفيد (٢/٣٨٨، ٣٨٩).

(*) تقدم تخريجه.

(٤) القول المفيد (٢/٣٨٩).

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ (١).

قوله: [وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلان].

قال سليمان آل الشيخ (٢): هكذا ثبت بخط المصنف بلا تنوين، والمعنى: لا تجعل فيها أى فى هذه الكلمة فلان فتقول: لولا الله وفلان، بل قل: لولا الله وحده، ولا تقل: لولا الله وفلان فهو نهى عن ذلك. اهـ.

قوله: «هذا كله شرك».

قال سليمان آل الشيخ (٣): قوله: هذا كله به. أى: بالله شرك، وأعاد الضمير على الله؛ لأنه قد تقدم ذكر اسمه عزَّ وجلَّ، فتبين أن هذه الأمور ونحوها من الألفاظ الشركية الخفية كما نص عليه ابن عباس رضى الله عنه. اهـ.

وقال ابن عثيمين (٤): (شرك) المشار إليه ما سبق، وهو شرك أكبر أو أصغر حسب ما يكون فى قلب الشخص من نوع هذا التشريك. اهـ.

قوله: وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: من حلف.... الحديث.

قال سليمان آل الشيخ (٥): قوله: [عن عمر بن الخطاب] هكذا وقع فى الكتاب، وصوابه عن ابن عمر كذلك أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذى، والحاكم. وصححه ابن حبان. وقال الزين العراقى فى «أماليه» إسناده ثقات. اهـ.

قلت: قول العراقى: إسناده ثقات لا يلزم منه صحه الحديث كما هو معروف عند أهل هذا الشأن وإليك التفصيل

(١) [ضعيف بهذا اللفظ] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٤/٢، ٦٩)، وأبو داود فى الأيمان والنذور / باب فى كراهية الحلف بالأبواء (٣/٢١٩/٣٢٥١)، والترمذى فى النذور والأيمان/ باب فى كراهية الحلف بغير الله (٤/١١٠/١٥٣٥) والحاكم فى «المستدرک» (١/١٨)، (٤/٢٩٧)، والبيهقى فى «الكبرى» (٢٩/١٠).

من طريق سعد بن عبيدة أن عبد الله بن عمر - فذكره.

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

قال البيهقى: وهذا مما لم يسمعه سعد بن عبيدة من ابن عمر.

وانظر الكلام عليه فى «منار السبيل» (٢٧٥٩ - بتحريجنا) الطبعة الأولى.

وانظر «فتح المجيد» (ح ٧٦٥) بتحريجنا

(٢) (٣) تيسير العزيز الحميد (٤٤٣: ٤٤٦).

(٤) القول المفيد (٢/٣٨٩)

(٥) تيسير العزيز الحميد (٤٤٣: ٤٤٦)

لفظ الترمذى: حدثنا قتيبة، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن الحسن بن عبيد الله، عن سعد بن عبيدة أن ابن عمر سمع رجلاً يقول: لا والكعبة فقال ابن عمر: لا يحلف بغير الله فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك».

قال البيهقى فى «سننه الكبرى»^(١) بعد أن ذكر هذا الحديث: وهذا مما لم يسمعه سعد بن عبيدة من ابن عمر. ثم أورد الحديث من طريق الإمام أحمد^(٢) قال: ثنا محمد ابن جعفر، ثنا شعبة، عن منصور، عن سعد بن عبيدة قال: كنت عند عبد الله بن عمر - رضى الله عنها - فقممت وتركت رجلاً عنده من كندة فأتيت سعيد بن المسيب قال: فجاء الكندى فرعاً فقال: جاء ابن عمر رجل فقال: أحلف بالكعبة؟ قال: لا ولكن أحلف برب الكعبة فإن عمر كان يحلف بأبيه فقال رسول الله ﷺ: لا تحلف بأبيك فإنه من حلف بغير الله فقد أشرك.

فهذا حجة البيهقى فى انقطاع الحديث حيث أن الذى حدث سعد بن عبيدة بهذا الحديث عن ابن عمر هو الرجل الذى كان جالساً عنده وهو رجل من كندة. ووافق شعبة على هذه الرواية أيضاً شيان بن عبد الرحمن التيمى.

فقد أخرجه أحمد فى «مسنده»^(٣) قال: ثنا حسين بن محمد، ثنا شيان، عن منصور، عن سعد بن عبيدة قال: جلست أنا ومحمد الكندى إلى عبد الله بن عمر ثم قمت من عنده فجلست إلى سعيد بن المسيب قال: فجاء صاحبى وقد اصفر وجهه وتغير لونه فقال: قم إلى قلت: ألم أكن جالساً معك الساعة فقال سعيد: قم إلى صاحبك. قال: فقممت إليه فقال: ألم تسمع إلى ما قال ابن عمر؟ قلت: وما قال. قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن أعلّى جناح أن أحلف بالكعبة؟ قال: ولم تحلف بالكعبة إذا حلقت بالكعبة فاحلف برب الكعبة فإن عمر كان إذا حلف قال: كلا وأبى فحلف بها يوماً عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: لا تحلف بأبيك ولا بغير الله فإنه من حلف بغير الله فقد أشرك. وفى هذه الرواية تسمية الرجل المبهم وهو: محمد الكندى. فهذان ثقتان جليلان اتفقا على رواية الحديث بانقطاع بين سعد بن عبيدة، وابن عمر.

فشعبه علم غنى عن التعريف وشيان بن عبد الرحمن التيمى قال عنه أحمد: شيان صاحب كتاب صحيح وقال أيضاً: شيان ثبت فى كل المشايخ وقال ابن معين: ثقة وهو

(١) (٢٩/١٠).

(٢) المسند (٢/١٢٥).

(٣) «المستدرک» (٢/٦٩).

صاحب كتاب^(١) أما الحسن بن عبيد الله صاحب الرواية المتصلة فهو ثقة أيضاً فقد وثقه ابن معين، والعجلي، وأبو حاتم، والنسائي، وضعفه الدارقطني بالنسبة للأعمش^(٢).

إلا أنه روى ابن أبي شيبة في «مصنفه»^(٣)، وأحمد في «مسنده»^(٤) كلاهما عن وكيع، ثنا الأعمش، عن سعد بن عبيدة قال: كنت مع ابن عمر في حلقة فسمع رجلاً في حلقة أخرى وهو يقول: لا وأبى فرماه ابن عمر بالحصى وقال: إنها كانت يمين عمر فنهاه النبي ﷺ عنها وقال: «إنها شرك» واللفظ لأحمد. وفي رواية ابن أبي شيبة: قال ابن عمر: «إنها كانت يميني فنهاه النبي ﷺ وقال: «إنها شرك».

فرواية الأعمش هنا متصلة ورواية منصور بن المعتمر السابقة فيها انقطاع عند الترجيح يقدم رواية منصور.

قال ابن أبي خيثمة: سمعت يحيى بن معين وأبى حاضر يقول: إذا اجتمع منصور والأعمش فقدم منصوراً.

وقال ابن أبي حاتم: سئل أبي عن الأعمش ومنصور فقال: الأعمش حافظ يخلط ويدلس ومنصور آتقن لا يخلط ولا يدلس^(٥).

وقال علي بن المديني: سمعت يحيى بن سعيد يقول: قال سفيان: كنت لا أحدث الأعمش عن أحد من أهل الكوفة إلا رده فإذا قلت: منصور، سكت^(٥).

فلعل الأعمش أخذه من الحسن بن عبيد الله صاحب الرواية الأولى ودلسه عنه أو عن غيره خاصة وأنه لم يصرح بالتحديث فعاد مدار الحديث على روايتين رواية الحسن بن عبيد الله ورواية منصور التي تابعه عليها شيان بن عبد الرحمن التيمي.

ولابقول ان الاتصال في رواية الحسن بن عبيد الله زيادة من ثقة وزيادة الشقة مقبولة لأن هذا القول ليس على إطلاقه فالحسن بن عبيد الله ليس في الثقة والاتقان كمثله منصور وشيخان وكلاهما من الاتقان بمكان وقد اثني الأئمة على شيان وصحة كتابه وثبته في روايته عن شيوخه فقبول زيادة الحسن بن عبيد الله على ذلك فيها نظر والله أعلم وهذا باب كبير من علم علل الحديث قل من يظن إليه فانتبه رحمى الله وإياك.

أما الوساطة المذكورة في حديث منصور وشيخان وهو محمد الكندي فقد نص أبو حاتم في «الجمع والتعديل» لابنه بجهالته

قلت: وقد حسنه الألباني - حفظه الله - بحديث رواه أحمد في «مسنده» من طريق

(١) ترجمته في «تهذيب الكمال» (١٢/٥٩٢).

(٢) انظر ترجمته في «تهذيب الكمال». (١/٢٠٦).

(٤) (٢/٨٥).

(٣) (٣/٤٨٠).

(٥) انظر ترجمته في «تهذيب الكمال» (٢٨/٥٤٩ - ٥٥٤).

سالم، عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ من حلف بغير الله، فقال فيه قولاً شديداً.

قال الألبانى: كأنه يشير إلى قوله: «فقد أشرك». والله أعلم. (١). اهـ

وهذا القول يحتمل أن يكون: «فقد أشرك» ويحتمل أن يكون سباً وهذا هو الأقرب لأنهم لا يبهمون عن النبي ﷺ إلا مثل هذا وإن كان المقصود فقد أشرك» لصرح به الراوى كما صرح به فى أحاديث أخرى وعلي أية حال فبالاحتمال يسقط الاستدلال، ويبقى أن الأصل النهى عن الحلف بغير الله وهو ثابت عن النبي ﷺ أما لفظ: «فقد أشرك» فلا يثبت من حيث اللفظ وإن كانت ثابتة من حيث المعنى لأثر ابن مسعود ولغيره على ما فصل الشراح لهذا الحديث وغيره والله أعلم.

قوله: [من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك].

قال سليمان آل الشيخ (٢): قال بعضهم ما معناه: رواه الترمذى بأو التى للشك، وفى ابن حبان والحاكم عدمها. وفى رواية للحاكم «كل يمين يحلف بها دون الله شرك». اهـ.

وقال ابن باز: على شك الراوى: والمعنى واحد اهـ.

مناسبة ورود الأثر:

قال ابن حجر (٣): أخرج الترمذى من وجه آخر «عن ابن عمر أنه سمع رجلاً يقول لا والكعبة، فقال: لا تحلف بغير الله، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك» قال الترمذى حسن وصححه الحاكم، والتعبير بقوله فقد كفر أو أشرك للمبالغة فى الزجر والتغليظ فى ذلك، وقد تمسك به من قال بتحريم ذلك. اهـ.

• أنواع الأيمان، وحكم الحلف بغير الله

قال ابن تيمية (٤): أن اليمين تشتمل على جملتين: جملة مقسم بها، وجملة مقسم عليها، ومسائل الأيمان إما فى حكم المحلوف به، وإما فى حكم المحلوف عليه، فأما المحلوف به فالأيمان التى يحلف بها المسلمون مما قد يلزم بها حكم «سنة أنواع» ليس لها سابع.

أحدها: اليمين بالله، وما فى معناها مما فيه التزام كفر على تقدير الخبر كقوله هو يهودى أو نصرانى إن فعل كذا. على ما فيه من الخلاف بين الفقهاء.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٤٧)

(٤) مجموع الفتاوى (٢٩٠ / ٣٥).

(١) الإرواء (١٩١ / ٨)

(٣) فتح البارى (٥٤٠ / ١١).

الثاني: اليمين بالنذر الذي يسمى «نذر اللجاج والغضب» كقوله على الحج لا أفعل كذا، أو إن فعلت كذا فعلى الحج، أو مالى صدقة إن فعلت كذا، ونحو ذلك.

الثالث: اليمين بالطلاق.

الرابع: اليمين بالعاق.

الخامس: اليمين بالحرام، كقوله على الحرام لا أفعل كذا.

السادس: الظهار: كقوله: أنت على كظهر أمي إن فعلت كذا فهذا مجموع ما يحلف به المسلمون مما فيه حكم.

فأما «الحلف بالمخلوقات» كالحلف بالكعبة، أو قبر الشيخ، أو بنعمة السلطان. أو بالسيف. أو بجاه أحد من المخلوقين: فما أعلم بين العلماء خلافاً أن هذه اليمين مكروهة منهي عنها، وأن الحلف بها لا يوجب حثاً. ولا كفارة. وهل الحلف بها محرم. أو مكروه كراهة تنزيه؟ فيه قولان في مذهب أحمد وغيره: أصحهما أنه محرم أم.

وقوله: [فقد كفر أو أشرك]

قال سليمان آل الشيخ^(١): أخذ به طائفة من العلماء فقالوا: يكفر من حلف بغير الله كفر شرك، قالوا ولهذا أمره النبي ﷺ بتجديد إسلامه بقول: لا إله إلا الله. فلو لا أنه كفر ينقل عن الملة لم يؤمر بذلك وقال الجمهور: لا يكفر كفرأ ينقله عن الملة، لكنه من الشرك الأصغر كما نص على ذلك ابن عباس وغيره. وأما كونه أمر من حلف باللات والعزى أن يقول: لا إله إلا الله؛ فلأن هذا كفارة له مع استغفاره.

كما قال في الحديث الصحيح: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٢) وفي رواية «فَلْيَسْتَغْفِرْ» فهذا كفارة له في كونه تعاطى صورة تعظيم الصنم، حيث حلف به لا أنه لتجديد إسلامه ولو قدر ذلك فهو تجديد لإسلامه لنقصه بذلك لا لكفره لكن الذي يفعله عباد القبور إذا طلبت من أحدهم اليمين بالله، أعطاك ما شئت من الإيمان صادقاً أو كاذباً. فإذا طلبت منه اليمين بالشيخ أو تربته أو حياته. ونحو ذلك، لم يقدم على اليمين به إن كان كاذباً. فهذا شرك أكبر بلا ريب؛ لأن المحلوف به عنده أخوف وأجل وأعظم من الله. وهذا ما بلغ إليه شرك عباد الأصنام؛ لأن جهد اليمين عندهم هو الحلف بالله كما قال تعالى: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتٍ» فمن كان جهد يمينه الحلف بالشيخ أو بحياته، أو تربته فهو أكبر شركاً منهم، فهذا هو تفصيل القول في هذه المسألة، والحديث دليل على أنه لا تجب الكفارة بالحلف بغير الله مطلقاً؛ لأنه لم يذكر فيه كفارة للحلف بغير الله ولا في غيره من الأحاديث، فليس فيه كفارة إلا النطق بكلمة التوحيد، والاستغفار. وقال بعض المتأخرين: تجب الكفارة بالحلف برسول الله ﷺ خاصة، وهذا قول باطل ما أنزل الله به من سلطان، فلا يلتفت إليه وجوابه المنع. اهـ.

(٢) تقدم تخريجه.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٤٦، ٤٤٧).

وقال ابن عثيمين^(١): قوله فى حديث ابن عمر رضى الله عنهما: «من حلف بغير الله».

«من»: شرطية؛ فتكون للعموم.

قوله: «أو أشرك».

شك من الراوى، والظاهر أن صواب الحديث «أشرك».

قوله: «بغير الله».

ليس المراد بغير هذا الاسم، بل المراد بغير المسمى بهذا الاسم، فإذا حلف بالله أو بالرحمن أو بالسميع؛ فهو حلف بالله.

والحلف: تأكيد الشيء بذكر مُعْظَم بصيغة مخصوصة بالباء أو التاء أو الواو.

وحروف القسم ثلاثة: الباء، والتاء، والواو.

وبالباء: أعمها؛ لأنها تدخل على الظاهر والمُضْمَر وعلى اسم الله وغيره، ويذكر معها

فعل القسم ويحذف، فيذكر معها فعل القسم؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ

أَيْمَانِهِمْ﴾^(٢)، ويحذف مثل قولك: بالله لأفعلن؛ وتدخل على المضمر مثل قولك: الله

عظيم أحلف به لأفعلن، وعلى الظاهر كما فى الآية وعلى غير لفظ الجلالة، مثل

قولك: بالسميع لأفعلن، وأما الواو؛ فإنه لا يذكر معها فعل القسم، ولا تدخل على

الضمير، ويحلف بها مع كل اسم، وأما التاء؛ فإنه لا يذكر معها فعل القسم وتختص

بالله ورب، قال ابن مالك: «والتاء لله ورب».

والحلف بغير الله شرك أكبر إن اعتقد أن المحلوف به مساو لله تعالى فى التعظيم

والعظمة، وإلا؛ فهو شرك أصغر.

وهل يغفر الله الشرك الأصغر؟

قال بعض العلماء: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾^(٣)؛ أى: الشرك

الأكبر، «وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ»؛ يعنى: الشرك الأصغر والكبائر.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: إن الشرك لا يغفره الله ولو كان

أصغر^(٣)؛ لأن قوله: ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ مصدر مؤوّل؛ فهو نكرة فى سياق النفى، فيعم

الأصغرا والأكبر، والتقدير: لا يغفر شركاً به أو إشراكاً به.

وقوله «من حلف بغير الله» يشمل كل محلوف به سوى الله، سواء بالكعبة أو الرسول

ﷺ أو السماء أو غير ذلك، ولا يشمل الحلف بصفات الله؛ لأن الصفة تابعة

للموصوف، وعلى هذا؛ فيجوز أن تقول: وعزة الله؛ لأفعلن كذا.

(١) القول المفيد (٢/ ٣٩٠، ٣٩٢).

(٢) الأنعام: ١٠٩.

(٣) النساء: ١١٦.

(٣) انظر: «آلرد على البكرى» تلخيص «كتاب الاستغاثة» (ص ١٤٦) وتقدم ذلك فى أكثر من موضع.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بغيرِهِ صَادِقًا»^(١).

قال الفقير: والأدلة على جواز الحلف بصفة من صفات الله كثيرة منها قوله ﷺ والذي نفسى بيده أو والذي نفس محمد بيده. . . . إلخ الحديث وعلى هذا يجوز الحلف بالمصحف لانه كلام الله وكلامه سبحانه صفة من صفاته ولأنه إذا جاز الاستعاذة بكلمات الله فيجوز الحلف بها لكان بشرطين.

الأول: أن يقصد الحلف بالصفة لا بالمداد والورق الذى كتب به القرآن لأنهما مخلوقان ولا يجوز الحلف بها.

الثانى: أن لا يحلف بالصفة فقط غير منسوبه إلى الله بل يقول وكتاب الله وكلام الله لا بالكتاب فقط أو بالكلام فقط أو المصحف فقط. والله أعلم.

قوله: وقال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذباً أحبُّ إلىَّ من أن أحلف بغيره صادقاً».

قال سليمان آل الشيخ: هكذا ذكر المصنف هذا الأثر عن ابن مسعود ولم يعزه، وقد ذكره ابن جرير غير مسند أيضاً، قال: وقد جاء عن ابن عباس وابن عمر نحوه، ورواه الطبرانى بإسناد موقوفاً هكذا، قال المنذرى: ورواه رواة الصحيح.

قلت: ورواه عبد الرزاق فى مصنفه وتقدم غير مرة فى الشرح. اهـ.

وقال «أحلف بالله صادقاً أو كاذباً، ولا تحلف بغيره» رواه ابن أبى الدنيا فى «الصمت» وأجمع العلماء على أن اليمين لا تكون إلا بالله، أو بصفاته، وأجمعوا على المنع من الحلف بغيره، قال ابن عبد البر: لا يجوز الحلف بغير الله بالإجماع. انتهى. ولا اعتبار بمن قال من المتأخرين: إن ذلك على سبيل كراهة التنزيه، فإن هذا قول باطل. وكيف يقال ذلك لما أطلق عليه الرسول ﷺ أنه كفر أو شرك، بل ذلك محرم.

ولهذا اختار ابن مسعود رضى الله عنه أن يحلف بالله كاذباً، ولا يحلف بغيره صادقاً، فهذا يدل على أن الحلف بغير الله أكبر من الكذب، مع أن الكذب من المحرمات فى جميع الملل فدل ذلك أن الحلف بغير الله من أكبر المحرمات.

(١) أخرجه عبد الرزاق فى «مصنفه» (٤٦٩/٨ / ١٥٩٢٩)، والطبرانى فى «الكبير» (٢٠٥/٩ / ٨٩٠٢). قال الهيثمى فى «المجمع» (٤/ ١٧٧): رجاله رجال الصحيح وانظر تمام الكلام عليه فى تخريجنا «الفتح المجيد» (٧٦٦ ح) وتقدم.

عنه الحلف بالله كاذباً على الحلف بغيره صادقاً، لأن الحلف بالله توحيد والحلف بغيره شرك، وإن قدر الصديق في الحلف بغير الله فحسنة التوحيد أعظم من حسنة الصديق، وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك. ذكره شيخ الإسلام. وفيه دليل على أن الحلف بغير الله صادقاً أعظم من اليمين الغموس، وفيه دليل على أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، وفيه شاهد للقاعدة المشهورة وهي: ارتكاب أقل الشرين ضرراً إذا كان لا بد من أحدهما. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذباً كبيرة من الكبائر، لكن الشرك أكبر من الكبائر، وإن كان أصغر، كما تقدم بيان ذلك، فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر، فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به، والرغبة إليه، وإنزال حوائجه به، كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها: من تعظيم القبور، واتخاذها أوثاناً، والبناء عليها، واتخاذها مساجد، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة من بُنيت باسمه وتعظيمه، والإقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال.

وقد عَظُمَتِ الْبَلْوَى بِهَذَا الشَّرْكَ الْأَكْبَرِ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ، وَتَرَكُوا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ مِنَ النَّهْيِ عَنْ هَذَا الشَّرْكَ وَمَا يُوصَلُ إِلَيْهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٢) كَفَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِدَعْوَتِهِمْ مِنْ كَانُوا يَدْعُونَهُ مِنْ دُونِهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا.

وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (٤) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٤).

وهؤلاء المشركون عَكَّسُوا الْأَمْرَ، فخالفوا ما بلغ به الأمة وأخبر به عن نفسه ﷺ، فَعَامَلُوهُ بِمَا نَهَاَهُمْ عَنْهُ مِنَ الشَّرْكَ بِاللَّهِ وَالتَّعَلُّقِ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ:

(١) فتح المجيد ٥٧٦.

(٢) الأعراف / ٣٧

(٣) الجن / ١٨.

(٤) الجن / ٢٠، ٢١.

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَالِي مِنَ الْوَدُ بِهِ سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ
إِنْ لَمْ تَكُنْ فِي مَعَادِي أَخَذًا بِيَدِي فَضْلًا، وَإِلَّا فَقُلْ: يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ
فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضُرَّتِهَا وَمِنْ عِلْمِكَ عِلْمُ الْلُوحِ وَالْقَلَمِ

فانظر إلى هذا الجهل العظيم، حيث اعتقد أنه لا نَجَاةَ له إلا بِعِيَاذِهِ وَلِيَاذِهِ بِغَيْرِ اللَّهِ، وانظر إلى هذا الإطراء العظيم الذي تَجَاوَزَ الحد في الإطراء، الذي نهى عنه ﷺ بقوله: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنِ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(١) رواه مالك، وغيره، وقد قال تعالى: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾. فانظر إلى هذه المعارضة العظيمة للكتاب والسنة، والمحادة لله ورسوله، وهذا الذي يقوله هذا الشاعر هو الذي في نفوس كثير، خُصُوصًا مَنْ يَدْعُونَ العلم والمعرفة، ورأوا قراءة هذه المَنْظُومَةِ^(٢) ونحوها لذلك وتعظيمها من القُرْبَاتِ، فإنا لله وإنا إليه راجعون. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله في أثر ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا». اللام: لام الابتداء، و«أن» مصدرية، فيكون قوله: «أن أحلف» مؤولاً بمصدر مبتدأ تقديره لحلفي بالله.

قوله: «أحب إلي».

خبر المبتدأ، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾^(٤). قوله: «كاذبًا».

حال من فاعل أحلف.

قوله: «أحب إلي».

هذا من باب التفضيل الذي ليس فيه شيء من الجانبين، وهذا نادر في الكلام، لأن التفضيل في الأصل يكون فيه المعنى ثابتاً في الْمُفْضَّلِ وفي المُفْضَّلِ عليه، وأحياناً في المُفْضَّلِ دون المُفْضَّلِ عليه، وأحياناً لا يوجد في الجانبين، فابن مسعود رضى الله عنه لا يحب لا هذا ولا هذا، ولكن الحلف بالله كاذباً أهون عليه من الحلف بغيره صادقاً. قلت: ومن هذا الباب كان شعبه يقول: «لأن أزنى أحب إلي من أن أدلس».

(٢) يقصد بردة البوصيري.

(٤) البقرة / ١٨٤.

(١) تقدم تخريجه.

(٣) القول المفيد (٢/ ٣٩٥: ٣٩٧).

قال ابن عثيمين: فالخلف كاذباً بالله مُحَرَّم من وجهين:

١- أنه كذب، والكذب محرم لذاته.

٢- أن هذا الكذب قُرْن باليمين، واليمين تعظيم لله - عز وجل - فإذا كان على كذب صار فيه شيء من تَنْقِصٍ لله - عز وجل - حيث جعل اسمه مُؤَكِّدًا لأمر كذب، ولذلك كان الحلف بالله كاذباً عند بعض أهل العلم من اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار.

وأما الحلف بغير الله صادقاً، فهو محرم من وجه واحد وهو الشرك لكن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، وأعظم من سيئة الحلف بالله كاذباً، وأعظم من اليمين الغموس، إذا قلنا: أن الحلف بالله كاذباً اليمين الغموس لأن الشرك لا يغفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾^(١)، وما زرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا لإبطال الشرك، فهو أعظم الذنوب، قال تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) وسئل النبي ﷺ أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»^(٣) والشرك متضمن للكذب، فإن الذى جعل غير الله شريكاً لله كاذباً، بل من أكذب الكاذبين، لأن الله لا شريك له. اهـ.

فائدة متعلقة بالأثر:

قال النووي^(٤): من أقبح الألفاظ المذمومة ما يعتاده كثيرون من الناس إذا أراد أن يحلف على شيء فيتورع عن قوله والله كراهية الحنث أو إجلالاً لله تعالى وتصوناً عن الحلف، ثم يقول: الله يعلم ما كان كذا، أو لقد كان كذا ونحوه وهذه العبارة فيها خطر فإن كان صاحبها متيقناً أن الأمر كما قال فلا بأس بها، وإن كان تشكك في ذلك فهو أقبح القبائح لأنه تعرض للكذب على الله، فإنه أخبر أن الله تعالى يعلم شيئاً لا يتيقن كيف هو، وفيه دقيقة أخرى أقبح من هذا وهو أنه تعرض لوصف الله تعالى بأنه يعلم الأمر على خلاف ما هو، وذلك لو تحقق كان فينبغي للإنسان اجتناب هذه العبارة. اهـ.

قلت: ولا يبعد حينئذ أن يتنزل عليه قوله تعالى: «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصام..» الآية.



(٢) لقمان: ١٣.

(٤) الأذكار (٢/ ٤٤٤) بتحقيقنا.

(١) النساء: ١١٦.

(٣) تقدم تخريجه.

قلت: فالحلف بغير الله يشمل الحلف بالنبي والكعبة والأمانة.. إلخ فلذا أفردنا لهذه الأنوع فصلاً أولها.

● الجلف بالنبي ﷺ ●

قال ابن تيمية: تنازع الناس هل يحلف بالنبي ﷺ؟ مع اتفاقهم بأنه لا يحلف بشيء من المخلوقات المعظمة كالعرش والكرسى والكعبة والملائكة. فذهب جمهور العلماء كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد في أحد قولي إلى أنه لا يحلف بالنبي، ولا تعتقد اليمين، كما لا يحلف بشيء من المخلوقات. ولا تجب الكفارة على من حلف بشيء من ذلك وحنث، فإنه ﷺ قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «لا تحلفوا إلا بالله». وقال: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»^(١). وفي السنن: «من حلف بغير الله فقد أشرك»^(٢). وعن أحمد بن حنبل رواية أنه يحلف بالنبي ﷺ خاصة؛ لأنه يحب الإيمان به خصوصاً. ويجب ذكره في الشهادتين والأذان. فالإيمان به اختصاص لا يشركه فيه غيره.

وقال ابن عقيل: بل هذا لكونه نبياً. وطرد ذلك في سائر الأنبياء. مع أن الصواب الذي عليه عامة علماء المسلمين سلفهم وخلفهم أنه لا يحلف بمخلوق لاني ولا غير نبى، ولا ملك من الملائكة. ولا ملك من الملوك، ولا شيخ من الشيوخ.

والنهي عن ذلك نهى تحريم عند أكثرهم كمذهب أبي حنيفة وغيره وهو أحد القولين في مذهب أحمد، كما تقدم حتى إن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما يقول أحدهم: لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغير الله صادقاً^(٣). وفي لفظ: لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أضاهى. فالحلف بغير الله شرك، والشرك أعظم من الكذب. وغاية الكذب أن يشبه بالشرك، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله» قالها مرتين أو ثلاثاً^(٤). وقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَجْتَبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حَقًّا لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٦٤٦)، ومسلم فى الإيمان (١١/١٠٥ - النووى) عن ابن عمر به.

وانظر «منار السبيل» (٢٧٥٥ - بتخريجنا).

(٢) تقدم قريباً.

(٣) سيأتى فى أحاديث الباب.

(٤) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٢١/٤)، وأبو داود (٣٥٩٩)، والترمذى (٢٣٠٠)، وابن ماجه

(٢٣٧٢) عن خريم بن فاتك به.

فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿١﴾ وهذا المنهى عنه بل المحرم - الذى هو أعظم من اليمين السفاجرة عند الصحابة رضوان الله عليهم قد ظن طائفة من أهل العلم أنه مشروع غير منهى عنه. ولهذا نظائر كثيرة، لكن قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وما أمر الله ورسوله به فهو حق.

وهو ﷺ نهى عن الحلف بغير الله، وعن الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها^(١). وعن اتخاذ القبور مساجد^(٢) واتخاذ قبره عيداً^(٣) ونهى عن السفر إلى غير المساجد الثلاثة^(٤)، وأمثال ذلك لتحقيق إخلاص الدين لله، وعبادة الله وحده لا شريك له. فهذا كله محافظة على توحيد الله عز وجل، وأن يكون الدين كله لله، فلا يعبد غيره ولا يتوكل إلا عليه، ولا يدعى إلا هو، ولا يتقى إلا هو، ولا يصلى ولا يصام إلا له، ولا ينذر إلا له، ولا يحلف إلا به، ولا يحجج إلا إلى بيته اهـ^(٥).

قال الصاوى^(*): والصواب ما عليه عامة المسلمين سلفهم وخلفهم أنه لا يحلف مخلوق بمخلوق، لا نبي ولا بغير نبي، ولا ملك من الملائكة، ولا ملك من الملوك، ولا شيخ من الشيوخ، وذلك لعموم الأدلة التى تنهى عن الحلف بغير الله. اهـ.

● ثانياً - الحلف بالآباء ●

بوب البخارى على من يحلف بغير الله باب لا تحلفوا بأبائكم ثم أخرج بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب - وهو يسير في ركب، يحلف بأبيه - فقال: «ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»^(٦).

وقال ابن عمر سمعت عمر يقول قال لى رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم». قال عمر فوالله ما حلفتُ بها منذ سمعت النبى - ﷺ -، ذاكرأ ولا أثراً^(٧). ﴿أو أثارة من علم﴾.

(١) تقدم تخريجه. (٢ - ٤) تقدم تخريجه.

(٥) مجموع الفتاوى (٢٧/٣٤٩: ٣٥١).

(*) أصول الإيمان (١/١١٣). المقرر على طلبة كلية الدراسات الإسلامية بالجامعة الأمريكية.

(٦) [صحيح] البخارى (٦٦٤٦) وتقدم.

(٧) [صحيح] البخارى (٦٦٤٧).

وعن عبدالله بن دينار قال سمعت عبدالله بن عمر رضى الله عنهما يقول قال رسول الله ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم» (١).

وعن زهده بن الحارث قال «كان بين هذا الحى من جرم وبين الأشعرين ود وإخاء، فكنّا عند أبى موسى الأشعرى، فقرب إليه طعام فيه لحم دجاج، وعنده رجل من بنى تميم الله أحمر كأنه من الموالي، فدعاه إلى الطعام، فقال: إني رأيتُ يَأْكُلُ شيئاً فقذرتُه، فحلفتُ أن لا أكله. فقال: قُمْ فلأحدثنك عن ذاك، إني أتيتُ رسولَ الله ﷺ فى نفر من الأشعرين نَسَحَملُهُ، فقال: والله لا أحملكُم، وما عندي ما أحملكُم. فأتى رسولُ الله ﷺ بنهب إبل، فسأل عنا فقال: أين النفرُ الأشعريون؟ فأمرَ لنا بخمس ذود غُرِّ الذرى. فلما انطلقنا قلنا: ما صنعنا؟ حلف رسولُ الله ﷺ لا يحملنا وما عنده ما يحملنا، ثم حملنا. تَغَفَّلنا رسول الله ﷺ يمينه، والله لأنفُح أبدأ. فرجعنا إليه فقلنا له: إنا أتيناك لتحملنا فحلفت أن لا تحملنا وما عندك ما تحملنا. فقال: إني لست أنا حملتكم، ولكن الله حملكم، والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيتُ الذى هو خير، وتحملتُها» (٢).

قال ابن حجر: أخرج النسائي وأبو داود فى رواية ابن داسة عنه من حديث أبى هريرة مثله بزيادة ولفظه «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد ولا تحلفوا إلا بالله» (٣) الحديث.

قوله: (يحلف بأبيه) فى رواية سفيان بن عيينة عن ابن شهاب «أن رسول الله ﷺ سمع عمر وهو يحلف بأبيه وهو يقول وأبى وأبى» وفى رواية إسماعيل بن جعفر عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر من الزيادة «وكانت قريش تحلف بآبائها».

قوله: (فقال ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم) فى رواية الليث عن نافع «فناداهم رسول الله ﷺ» ووقع فى مصنف ابن أبى شيبة من طريق عكرمة قال «قال عمر: حدثت قوماً حديثاً فقلت: لا وأبى، فقال رجل من خلفى: لا تحلفوا بآبائكم، فالتفت فإذا رسول الله ﷺ يقول: لو أن أحدكم حلف بالمسيح هلك والمسيح خير من آبائكم» وهذا مرسل يتقوى بشواهد.

قوله: (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت) قال العلماء: السر فى النهى عن

(١) البخارى (٦٦٤٨).

(٢) [صحيح] البخارى (٦٦٤٩).

(٣) [صحيح] أخرجه أبو داود (٣٢٤٨)، والنسائي (٥/٧ - السيوطى) عن أبى هريرة به.

الحلف بغير الله أن الحلف بالشئ يقتضى تعظيمه والعظمة فى الحقيقة إنما هى لله وحده، وظاهر الحديث تخصيص الحلف بالله خاصة، لكن قد أئفق الفقهاء على أن اليمين تنعقد بالله وذاته وصفاته العلية، واختلفوا فى انعقادها ببعض الصفات، وكأن المراد بقوله «بالله» الذات لا خصوص لفظ الله، وأما اليمين بغير ذلك فقد ثبت المنع فيها، وهل المنع للتحريم؟ قولان عند المالكية، كذا قال ابن دقيق العيد، والمشهور عندهم الكراهة، والخلاف أيضاً عند الحنابلة لكن المشهور عندهم التحريم، وبه جزم الظاهرية.

وقال ابن عبد البر: لا يجوز الحلف بغير الله بالإجماع.

ومراده بنفى الجواز الكراهة أعم من التحريم والتزيره، فإنه قال فى موضع آخر: أجمع العلماء على أن اليمين بغير الله مكروهة منهى عنها لا يجوز لأحد الحلف بها، والخلاف موجود عند الشافعية من أجل قول الشافعى: أخشى أن يكون الحلف بغير الله معصية، فأشعر بالتردد، وجمهور أصحابه على أنه للتزيره.

وقال إمام الحرمين: المذهب القطع بالكراهة، وجزم غيره بالتفصيل، فإن اعتقد فى المحلوف فيه من التعظيم ما يعتقده فى الله حرم الحلف به وكان بذلك الاعتقاد كافراً، وعليه يتنزل الحديث المذكور.

وأما إذا حلف بغير الله لاعتقاده تعظيم المحلوف به على ما يليق به من التعظيم فلا يكفر بذلك ولا تنعقد يمينه.

قال الماوردى: لا يجوز لأحد أن يحلف أحداً بغير الله لا بطلاق ولا عتاق ولا نذر، وإذا حلف الحاكمُ أحداً بشئ من ذلك وجب عزله لجهله.

قوله: (ذاكراً) أى عامداً.

قوله: (ولا أثراً) بالمد وكسر المثلثة أى حاكياً عن الغير، أى ما حلفت بها ولا حكيت ذلك عن غيرى، ويدل عليه ما وقع فى رواية عقيل عن ابن شهاب عند مسلم «ما حلفت بها منذ سمعت رسول الله ﷺ ينهى عنها، ولا تكلمت بها» وقد استشكل هذا التفسير لتصدير الكلام بحلفت والحاكى عن غيره لا يسمى حالفاً، وأجيب باحتمال أن يكون العامل فيه محذوفاً أى ولا ذكرتها أثراً عن غيرى، أو يكون ضمن حلفت معنى تكلمت ويقويه روايه عقيل: وجوز شيخنا فى شرح الترمذى لقوله أثراً معنى آخر أى مختاراً، يقال أثر الشئ إذا اختاره، فكأنه قال ولا حلفت بها مؤثراً لها على غيرها، قال شيخنا: ويحتمل أن يرجع قوله أثراً إلى معنى التفاخر بالأباء فى الإكرام لهم، ومنه قولهم مائة ومأثر وهو ما يروى من المسفاخر فكأنه قال: ما حلفت بأبائى ذاكراً لمأثرهم. وجوز فى

قوله «ذاكراً» أن يكون من الذكر بضم المعجمة كأنه احترز عن أن يكون ينطق بهم ناسياً، وهو يناسب تفسير أثره بالاختيار كأنه قال لا عامداً ولا مختاراً. وجزم ابن التين في شرحه بأنه من الذكر بالكسر لا بالضم، قال: وإنما هو لم أقله من قبل نفسي ولا حدثت به عن غيري أنه حلف به، قال وقال الداودي: يريد ما حلفت بها ولا ذكرت حلف غيري بها كقوله إن فلاناً قال وحق أبي مثلاً. واستشكل أيضاً أن كلام عمر المذكور يقتضي أنه تورع عن النطق بذلك مطلقاً فكيف نطق به في هذه القصة؟ وأجيب بأنه اغتفر ذلك لضرورة التبليغ.

فوائد الحديث:

قال ابن حجر (١):

وفي هذا الحديث من الفوائد.

الزجر عن الحلف بغير الله، وإنما خص في حديث عمر بالآباء لوروده على سببه المذكور، أو خص لكونه كان غالباً عليه لقوله في الرواية الأخرى «وكانت قريش تحلف بآبائهم» ويدل على التعميم قوله «من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله».

● إشكالات والرد عليها.

● الأول: ما أقسم الله به في القرءان من مخلوقاته ●

قال ابن حجر (٢): وأما ما ورد في القرآن من القسم بغير الله ففيه جوابان:

أحدهما: أن فيه حذفاً والتقدير ورب الشمس ونحوه.

والثاني: أن ذلك يختص بالله فإذا أراد تعظيم شيء من مخلوقاته أقسم به وليس لغيره ذلك. اهـ.

وبنحو هذا قال ابن عثيمين (٣): فالجواب عنه وجهين:

الأول: أن هذا من فعل الله والله لا يُسأل عما يفعل، وله أن يقسم سبحانه بما شاء من خلقه، وهو سائل غير مسؤول وحاكم غير محكوم عليه.

الثاني: أن قَسَمَ الله بهذه الآيات دليل على عظمته وكمال قدرته وحكمته؛ فيكون القسم بها الدال على تعظيمها ورفع شأنها متضمناً للثناء على الله - عز وجل - بما تقتضيه من الدلالة على عظمته.

وأما نحن؛ فلا نقسم بغير الله أو صفاته؛ لأننا منهيون عن ذلك.

(١) فتح الباري (١١/٤٢٢٥٤)، (٥٤٣٢٥). (٢) فتح الباري (١١/٤٢٢٥٤)، (٥٤٣٢٥).

(٣) القول المفيد (٢/٣٩٢).

● الثاني: نهيه ﷺ عن الجلف بغير الله.

● وقوله ﷺ «أفلح وأبيه إن صدق»؟! ●

والجواب:

قال ابن حجر^(١): وأما ما وقع مما يخالف ذلك كقوله ﷺ للأعرابي «أفلح وأبيه إن صدق»^(٢) فقد ذكرت في «باب الزكاة من الإسلام» في كتاب الأيمان الجواب عن ذلك وأن فيهم من طعن في صحة هذه اللفظة.

قال ابن عبد البر: هذه اللفظة غير محفوظة وقد جاءت عن راويها وهو إسماعيل عن جعفر بلفظ «أفلح والله إن صدق» قال: وهذا أولى من رواية من روى عنه بلفظ: «أفلح وأبيه لأنها لفظة منكورة تردّها الآثار الصحاح، ولم تقع في رواية مالك أصلاً.

وزعم بعضهم أن بعض الرواة عنه صحف قوله «وأبيه» من قوله «والله» وهو محتمل ولكن مثل ذلك لا يثبت بالاحتمال، وقد ثبت مثل ذلك من لفظ أبي بكر الصديق في قصة السارق الذي سرق حلى ابنته فقال في حقه «وأبيك ما ليك بلسيل سارق»^(٣) أخرجه في الموطأ وغيره قال السهيلي: وقد ورد نحوه في حديث آخر مرفوع قال للذي سأل أي الصدقة أفضل فقال «وأبيك لتنبأ»^(٤) أخرجه مسلم.

قال ابن عثيمين: معلّقاً على هذا القول: أن هذا القول ضعيف لأن الحديث ثابت، وما دام يمكن حمله على وجه صحيح، فإنه لا يجوز إنكاره.

قال ابن حجر: فإذا ثبت ذلك فيجاب بأجوبة .

(الأول): أن هذا اللفظ كان يجري على ألسنتهم من غير أن يقصدوا به القسم، والنهي إنما ورد في حق من قصد حقيقة الحلف، وإلى هذا جنح البيهقي، وقال النووي: إنه الجواب المرضي.

قال سليمان آل الشيخ^(٥): هذا جواب فاسد، بل أحاديث النهي عامة مطلقة ليس فيها تفريق بين من قصد القسم وبين من لم يقصد، ويؤيد ذلك أن سعد ابن أبي وقاص

(١) فتح الباري (١١/٥٤٢، ٥٤٣) وكلامه الآتي من نفس المصدر

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (١/١٩٩/٩).

(٣) [صحيح] أخرجه مالك وفي «الموطأ» (٢/٦٣٧/٣٠).

(٤) أخرجه مسلم في الزكاة (٤/١٣٣/٩٣) عن أبي هريرة به.

(٥) تفسير العزيز الحميد (٤٤٥ : ٤٤٦) وكلامه الآتي من نفس المصدر.

رضى الله عنه حلف مرة باللات والعزى، فقال النبي ﷺ: «قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم انثث عن يسارك ثلاثاً، ثم تعوذ، ولا تعد»^(١).

ويبعد أن يكون أراد حقيقة الحلف بهما، ولكنه جرى على لسانه من غير قصد على ما كانوا يعتادونه قبل ذلك، ومع هذا نهى النبي ﷺ، غاية ما يقال: أن من جرى ذلك على لسانه من غير قصد معفو عنه، أما أن يكون أمراً جائزاً للمسلم أن يعتاده فكلاً، وأيضاً فهذا يحتاج إلى نقل أن ذلك كان يجرى على ألسنتهم من غير قصد للقسم، وأن النهى إنما ورد في حق من قصد حقيقة الحلف وأنى يوجد ذلك.

قال ابن عثيمين عن هذا الوجه من الجمع^(٢): «غير صحيح لأن النهى وارد مع أنه كان يجرى على ألسنتهم كما جرى على لسان سعد فنهى النبي ﷺ ولو صح هذا، لصح أن يقال لمن فعل شركاً اعتاده لا ينهى، لأن هذا من عادته، وهذا باطل.

قال ابن حجر: (الثاني): أنه كان يقع في كلامهم على وجهين:

أحدهما: للتعظيم والآخر للتأكيد، والنهى إنما وقع عن الأول فمن أمثلة ما وقع في كلامهم للتأكيد لا للتعظيم قول الشاعر «لعمري أبي الواشين أنى أحبها» وقول الآخر.

فإن تك ليلي استودعني أمانة فلا وأبى أعدائها لا أذيعها

فلا يظن أن قاتل ذلك قصد تعظيم والد أعدائها كما لم يقصد الآخر تعظيم والد من وشى به، فدل على أن القصد بذلك تأكيد الكلام لا التعظيم، وقال البيضاوى: هذا اللفظ من جملة ما يزداد في الكلام لمجرد التقرير والتأكيد ولا يراد به القسم، كما تزداد صيغة النداء لمجرد الاختصاص دون القصد إلى النداء، وقد تعقب الجواب بأن ظاهر سياق حديث عمر يدل على أنه كان يحلفه لأن في بعض طرقه أنه كان يقول لا وأبى لا وأبى فقليل له لا تحلفوا، فلولا أنه أتى بصيغة الحلف ما صادف النهى محلاً.

قال سليمان آل الشيخ: وهذا أفسد من الذى قبله، وكان من قال ذلك لم يتصور ما قال فهل يراد بالحلف إلا تأكيد المحلوف عليه بذكر من يعظمه الحالف والمحلوف له؟ فتأكيد المحلوف عليه بذكر المحلوف به مستلزم لتعظيمه. وأيضاً فالأحاديث مطلقة ليس

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/١٨٣)، والنسائي (٧/٧ - السيوطي)، وابن ماجه (٢٠٩٧) عن

سعد به.

(٢) القول المفيد (٢/٣٩٢: ٣٩٥) وكلامه الآتى من نفس المصدر.

فيها تفرق، وأيضاً فهذا يحتاج إلى نقل ذلك جائز للتأكيد دون التعظيم وذلك معدوم. اهـ.

قلت: والاستدلال بشعر العرب لا يصح في الأحكام.

قال ابن حجر: ومن ثم بعضهم وهو (الجواب الثالث): إن هذا كان جائزاً ثم نسخ قاله الماوردي وحكاه البيهقي، وقال السبكي: أكثر الشراح عليه، حتى قال ابن العربي: وروى أنه ﷺ كان يحلف بأبيه حتى نهى عن ذلك، قال: وترجمة أبي داود تدل على ذلك، يعنى قوله: «باب الحلف بالآباء» ثم أورد الحديث المرفوع الذى فيه «أفلح وأبيه إن صدق» قال السهيلي ولا يصح لأنه لا يظن بالنبي ﷺ أنه كان يحلف بغير الله ولا يقسم بكافر، تالله إن ذلك لبعيد من شيمته، وقال المنذرى: دعوى النسخ ضعيفة لإمكان الجمع ولعدم تحقق التاريخ.

قال سليمان آل الشيخ عن النسخ: وهذا الجواب هو الحق، يؤيده أن ذلك كان مستعملاً شائعاً، حتى ورد النهى عن ذلك كما فى :

حديث ابن عمر أن النبي ﷺ أدرك عمر بن الخطاب يسير فى ركب يحلف بأبيه فناداهم رسول الله ﷺ : فقال: «ألا إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»^(١) رواه البخارى، ومسلم.

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ : «من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله» وكانت قریش تحلف بأبائهم فقال: «لا تحلفوا بأبائكم»^(٢) رواه مسلم.

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: حلفت مرة باللات والعزى فقال النبي ﷺ «قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم أنفث عن يسارك ثلاثاً وتعوذ ولا تعد»^(٣) رواه النسائي، وابن ماجه، وهذا لفظه، وفى هذا المعنى أحاديث، فما ورد فيه ذكر الحلف بغير الله فهو جار على العادة قبل النهى، لأن ذلك هو الأصل حتى ورد النهى عن ذلك. اهـ.

قال ابن عثيمين: أقربها - هذا الوجه - أنه منسوخ، ولا نجزم بذلك لعدم العلم

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم.

(٣) تقدم تخريجه.

.....
بالتاريخ، ولهذا قلنا أقربها والله أعلم، وإن كان النووي - رحمه الله - ارتضى أن هذا مما
يجرى على اللسان بدون قصد، لكن هذا ضعيف لا يمكن القول به، ثم رأيت بعضهم
جزم بشذوذها لانفراد مسلم بها عن البخارى مع مخالفة راويها للثقات، فالله أعلم.

ولو قال قائل: نحن نقلب عليكم الأمر، ونقول: إن المنسوخ هو النهي، لأنهم لما
كانوا حديثى عهد بشرك نهوا أن يشركوا به كما نهى الناس حين كانوا حديثى عهد
بشرك عن زيارة القبور ثم أذن لهم فيها؟

فالجواب عنه: إن هذا اليمين كان جارياً على ألسنتهم، فتركوا حتى استقر الإيمان فى
نفوسهم ثم نهوا عنه، ونظيره إقرارهم على شرب الخمر أولاً ثم أمروا باجتنابه. اهـ.

قلت: ويؤيده قول من يقول فى مثل هذا الأمر أن الأصل الإباحة فأحاديث النهي
ناقلة عن الأصل فهى الناسخة.

قال ابن حجر: (والجواب الرابع) أن فى الجواب حذفاً تقديره أفلح ورب أبيه قاله
البيهقى وقد تقدم. اهـ.

وقال ابن عثيمين عن هذا الجواب: ضعيف لأن الأصل عدم الحذف، ولأن الحذف هنا
يستلزم فهمًا باطلاً، ولا يمكن أن يتكلم الرسول ﷺ بما يستلزم ذلك بدون بيان المراد،
وعلى هذا فيكون أقربها أنه منسوخ. اهـ.

قال ابن حجر: (الخامس) أنه للتعجب قاله السهيلي: قال: ويدل عليه أنه لم يرد
بلفظ «أبى» وإنما ورد بلفظ «وأبيه» أو «وأبيك» بالإضافة إلى ضمير المخاطب حاضراً أو
غائباً. اهـ.

(السادس) أن ذلك خاص بالشارع دون غيره من أمته، وتعقب بأن الخصائص لا
تثبت بالاحتمال. اهـ.

وقال ابن عثيمين: دعوى التخصيص تحتاج إلى دليل، وإلا فالأصل التأسى به.
وزاد ابن عثيمين قولاً آخر - وهو الجواب السابع - فقال: أن بعض العلماء أنكروا هذه
اللفظة، وقال: إنها لم تثبت فى الحديث، لأنها مناقضة للتوحيد، وما كان كذلك، فلا
تصح نسبته إلى رسول الله ﷺ فيكون باطلاً.

والجواب: أن هذا القول ضعيف لأن الحديث ثابت، وما دام يمكن حمله على وجه
صحيح، فإنه لا يجوز إنكاره.

● الحلف بالكعبة ●

تقدم أن ابن تيمية قال باتفاقهم - أى أهل العلم - بأنه لا يحلف بشيء من المخلوقات المعظمة كالعرش والكرسى والكعبة والملائكة ... اهـ.

(قلت): وتقدم عن قتيبة بنت صفى الجهنية قالت: أتى حبر من الأحبار رسول الله ﷺ فقال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون! قال سبحانه الله! وما ذاك؟ قال: تقولون إذا حلفت: والكعبة قالت فأهل رسول الله ﷺ شيئاً ثم قال: إنه قد قال فمن حلف فليحلف برب الكعبة ... الحديث (١)، وسيأتى فى باب ما شاء الله وشئت. ففيه دليل لإجماع أهل العلم واتفاقهم على المنع من الحلف بالكعبة، والله المستعان.

هل يتعقد يمين من حلف بالكعبة؟ وهل عليه كفارة؟

وقال ابن حجر: قال الطبرى: أن اليمين لا تتعقد إلا بالله، وأن من حلف بالكعبة أو آدم أو جبريل، ونحو ذلك لم تتعقد يمينه ولزمه الاستغفار، لإقدامه على ما نهى عنه، ولا كفارة فى ذلك. اهـ.

وقال ابن حجر (٢): من فوائد حديث عمر «لا تحلفوا بأبائكم من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت».

قال: فيه أن من حلف بغير الله مطلقاً لم تتعقد يمينه سواء كان المحلوف به يستحق التعظيم ... كالكعبة ... أو لا يستحق التعظيم ... اهـ.

وسيأتى فى آخر هذا الفصل الجواب عن انعقاد اليمين بغير الله وفى أضعافه ما تقدم فى الحلف بالكعبة.

● الحلف بالأمانة ●

عن بريدة قال قال رسول الله ﷺ: «من حلف بالأمانة فليس منا» (٣).

(١) تقدم وسيأتى ان شاء الله. (٢) فتح البارى (١١/٥٤٢، ٥٤٣).

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/٣٥٥)، وأبو داود (٣٢٥٨)، والنسائى فى «الكبرى» (٤٧١٣)،

وابن ماجه (٣١٠٠).

وانظر «رياض الصالحين» (١٧١٢ - بتخريجنا)

وأبو داود (٣٢٥٣) واللفظ له. وابن حبان (١٣١٨) والحاكم (٤/٢٩٨) وصححه. قال فى «المجمع»:

رواه أحمد والبيزار ورجال أحمد رجال الصحيح خلا الوليد بن ثعلبة وهو ثقة.

قال القاضي: أى من ذوى أسرتنا، بل هو من المشبهين بغيرنا، فإنه من ديدن أهل الكتاب ولعله أراد به الوعيد عليه. قاله القارى.

وقال فى النهاية: يشبه أن تكون الكراهة فيه لأجل أنه أمر أن يحلف بأسماء الله وصفاته والأمانة أمر من أموره فنهوا عنها من أجل التسوية بينها وبين أسماء الله تعالى كما نهوا أن يحلفوا بأبائهم.

وإذا قال الحالف: وأمانة الله كانت يمينا عند أبى حنيفة، والشافعى لا يعدها يمينا والأمانة تقع على الطاعة والعبادة والوديعة والنقد والأمانة، وقد جاء فى كل منها حديث. اهـ^(١).

الحلف بتربة فلان، أو حياة والذى فلان، أو جرمة شيخك

- قال ابن تيمية^(٢) فيمن يتوكل إلى غيره بوسيلة فيطلب من تلك الوسيلة الشفاعة له عند ذلك:-

مثل أن يقسم عليه، كما يقول: بحياة ولدك فلان، وبتربة أهلك فلان، وبجرمة شيخك فلان، ونحو ذلك.

والإقسام على الله تعالى بالمخلوقين لا يجوز، ولا يجوز الإقسام على مخلوق بمخلوق. اهـ.

[قلت]: وقد جرى على السنة كثير من عامة الناس الحلف برحمة أهلك، وغلاوة أهلك أو أهلك أو، ورأس أبويك أو غير ذلك، ورحمة النبى، و..... وهذا وغيره من الحلف بغير الله عزوجل لايجوز، لقوله ﷺ: «من كان حالفاً فليحلف بالله». ولنهي عن الحلف بالكعبة والآباء والأمانة..... والله نال أن يخلص المسلمين من هذه المعصية وشؤمها، وأن يصرف عنا الشرك ما صغر منه وما كبر.

● رابعاً الحلف بخير ملة الإسلام ●

وبوب البخارى: باب من حلف بملة سوى ملة الإسلام.

وقال النبى ﷺ: من حلف بالآلات والعزى فليقل لا إله إلا الله^(٣)، ولم ينسبه إلى الكفر.

(١) عون المعبود (٩/ ٨٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٣٣٨).

(٣) تقدم تخريجه.

وأُسند عن ثابت بن الضحاك قال قال النبي ﷺ: «من حَلَفَ بغير ملة الإسلام فهو كما قال. ومن قَتَلَ نفسه بشيء عُدبَ به في نار جهنم، ولعن المؤمن كقتله، ومن رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله»^(١).

قال ابن حجر^(٢): (قوله: باب من حلف بملة سوى الإسلام) الملة بكسر الميم وتشديد اللام والدين والشريعة، وهى نكرة فى سياق الشرط فتعم جميع الملل من أهل الكتاب كاليهودية والنصرانية، ومن لحق بهم من المجوسية والصابئة وأهل الأوثان والدهرية والمعطلة وعبدة الشياطين والملائكة وغيرهم.

ولم يجزم البخارى بالحكم هل يكفر الحالف بذلك، أو لا، لكن تصرفه يقتضى أن لا يكفر بذلك لأنه علق حديث «من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله»^(٣) ولم ينسبه إلى الكفر وتماهى الاحتجاج أن يقول لكونه اقتصر على الأمر بقول لا إله إلا الله، ولو كان ذلك يقتضى الكفر لأمره بتمام الشهادتين، وقد وصل البخارى الحديث المذكور فى الباب الذى قبله وأورده فى كتاب الأدب فى «باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلاً».

قال ابن المنذر: اختلف فيمن قال أكفر بالله ونحو ذلك إن فعلت ثم فعل فقال ابن عباس وأبو هريرة وعطاء وقتادة وجمهور فقهاء الأمصار: لا كفارة عليه ولا يكون كافراً إلا إن أضمر ذلك بقلبه.

وقال الأوزاعي والثوري والحنفية وأحمد وإسحاق هو يمين، وعليه الكفارة.

قال ابن المنذر: والأول أصح لقوله: «من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله» ولم يذكر كفارة، زاد غيره: ولذا قال: «من حلف بملة غير الإسلام فهو كما قال» فأراد التغليظ فى ذلك حتى لا يجترئ أحد عليه، ونقل أبو الحسن بن القصار من المالكية عن الحنفية أنهم احتجوا لإيجاب الكفارة بأن فى اليمين الامتناع من الفعل وتضمن كلامه بما ذكر تعظيماً للإسلام، وتعقب ذلك بأنهم قالوا فيمن قال وحق الإسلام إذا حنث لا تجب عليه كفارة فأسقطوا الكفارة إذا صرح بتعظيم الإسلام وأثبتوها إذا لم يصرح.

وأما قوله: «ومن حلف بغير ملة الإسلام» فوقع فى رواية على بن المبارك «من حلف

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٠٤٧)، ومسلم فى الإيمان (١١٨/٢ - النووى).

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٥٤ - بتخريجنا).

(٣) تقدم.

(٢) فتح البارى (٥٤٦/١١، ٥٤٧، ٥٤٨).

على ملّة غير الإسلام» وفي رواية مسلم من حلف على يمين بملّة غير الإسلام كاذباً متعمداً فهو كما قال .

قال ابن دقيق العيد: الحلف بالشئ حقيقة هو القسم به وإدخال بعض حروف القسم عليه كقوله والله والرحمن، وقد يطلق على التعليق بالشئ يمين كقولهم من حلف بالطلاق فالمراد تعليق الطلاق وأطلق عليه الحلف لمشابهة باليمين في اقتضاء الحث والمنع.

وإذا تقرر ذلك فيحتمل أن يكون المراد المعنى الثاني لقوله «كاذباً متعمداً» والكذب يدخل القضية الإخبارية التي يقع مقتضاها تارة ولا يقع أخرى، وهذا بخلاف قولنا والله وما أشبهه فليس الإخبار بها عن أمر خارجي بل هي لإنشاء القسم فتكون صورة الحلف هنا على وجهين:

(أحدهما) أن يتعلق بالمستقبل كقوله إن فعل كذا فهو يهودى .

(والثاني): يتعلق بالماضى كقوله إن كان فعل كذا فهو يهودى، وقد يتعلق بهذا من لم ير فيه الكفارة لكونه لم يذكر فيه كفارة بل جعل المرتب على كذبه قوله «فهو كما قال».

قال ابن دقيق العيد: ولا يكفر في صورة الماضى إلا إن قصد التعظيم، وفيه خلاف عند الحنفية لكونه يتخير معنى فصار كما لو قال هو يهودى، ومنهم من قال: إن كان لا يعلم أنه يمين لم يكفر وإن كان يعلم أنه يكفر بالحث به كفر لكونه رضى بالكفر حين أقدم على الفعل .

وقال بعض الشافعية: ظاهر الحديث أنه يحكم عليه بالكفر إذا كان كاذباً، والتحقيق التفصيل فإن اعتقد تعظيم ما ذكر كفر وإن قصد حقيقة التعليق فينظر فإن كان أراد أن يكون متصفاً بذلك كفر لأن إرادة الكفر كفر وإن أراد البعد عن ذلك لم يكفر، لكن هل يحرم عليه ذلك أو يكره تنزيهاً؟
(الثاني) هو المشهور .

وقوله: «كاذباً متعمداً» قال عياض: تفرد بزيادتها سفيان الثوري وهى زيادة حسنة يستفاد منها أن الحالف المتعمد إن كان مطمئن القلب، بالإيمان وهو كاذب في تعظيم ما لا يعتقد تعظيمه لم يكفر، وإن قاله معتقداً لليمين بتلك الملّة لكونها حقاً كفر، وإن قالها لمجرد التعظيم لها احتمل .

قلت: - يعنى ابن حجر - وينقدح بأن يقال إن أراد تعظيمها باعتبار ما كانت قبل النسخ لم يكفر أيضاً .

ودعواه أن سفيان تفرد بها إن أراد بالنسبة لرواية مسلم فعسى فإنه أخرجه من طريق شعبة عن أيوب وسفيان عن خالد الحذاء جميعاً عن أبي قلابة وبين أن لفظ «متعمداً» لسفيان، ولم ينفرد بها سفيان فقى صحيح البخارى فى كتاب الجنائز من طريق يزيد بن ذريع عن خالد، وكذا أخرجه النسائى من طريق محمد بن أبى عدى عن خالد، ولهذه الخصلة فى حديث ثابت بن الضحاك شاهد من حديث بريدة أخرجه النسائى وصححه من طريق الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رفعه «من قال إنى برئ من الإسلام فإن كان كاذباً فهو كما قال وإن كان صادقاً لم يعد إلى الإسلام سالماً»^(١) يعنى إذا حلف بذلك، وهو يؤيد التفصيل الماضى، ويخصص بهذا عموم الحديث الماضى، ويحتمل أن يكون المراد بهذا الكلام التهديد والمبالغة فى الوعيد لا الحكم وكأنه قال فهو مستحق مثل عذاب من اعتقد ما قال، ونظيره «من ترك الصلاة فقد كفر»^(٢) أى استوجب عقوبة من كفر، وقال ابن المنذر : قوله «فهو كما قال» ليس على إطلاقه فى نسبته إلى الكفر بل المراد أنه كاذب ككذب المعظم لتلك الجهة. اهـ.

● خامساً الحلف باللات والعزى ●

بواب البخارى فى الحلف بغير الله: (باب لا يُحلفُ باللاتِ والعُزَّى، ولا بالطواغيت):

وأُسند عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «مَنْ حلف فقال فى حلفه باللاتِ والعُزَّى فليقل لا إلهَ إلا الله، ومن قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدق»^(٣).

قال ابن حجر^(٤): قوله: [باب لا يحلف باللات والعزى ولا بالطواغيت] أما الطواغيت فوقع فى حديث أخرجه مسلم والنسائى وابن ماجه من طريق هشام بن حسان عن الحسن البصرى عن عبد الرحمن بن سمرة مرفوعاً «لا تحلفوا بالطواغيت ولا بأبائكم»^(٥).

وفى رواية مسلم وابن ماجه «بالطواغي»^(٦) وهو جمع طاغية والمراد الصنم.

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٥٢/٥)، وأبو داود (٣٢٥٣) عن بريدة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧١٣ - بتخريجنا).

(٢)، (٣) تقدم تخريجه. (٤) فتح البارى (٥٤٥/١١).

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى الأضاحى (١٠٨/١١ - النووى) عن عبد الرحمن بن سمرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧١١ - بتخريجنا).

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فيما سبق، وابن ماجه (٢٠٩٥).

ومنه الحديث الآخر «طاغية دوس» أى صنمهم، سُمى باسم المصدر لطغيان الكفار بعبادته لكونه السبب فى طغيانهم، وكل من جاوز الحد فى تعظيم أو غيره فقد طغى، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾.

وأما الطواغيت فهو جمع طاغوت وقد تقدم بيانه .

ويجوز أن يكون الطواغى مرخمًا من الطواغيت بدون حرف النداء على أحد الآراء، ويدل عليه مجيء أحد اللفظين موضع الآخر فى حديث واحد، ولذلك اقتصر المصنف على لفظ الطواغيت لكونه الأصل وعطفه على اللات والعزى لاشتراك الكل فى المعنى، وإنما أمر الخالف بذلك بقول لا إله إلا الله لكونه تعاطى صورة تعظيم الصنم حيث حلف به .

قلت: وتقدم ذلك فى أول الكتاب فصل «من سُمى من عبد من دون الله من الأولياء وغيرهم طواغيت .

هل من حلف باللات أو غيرها على كفارة؟!

قال جمهور العلماء: من حلف باللات والعزى أو غيرهما من الأصنام أو قال إن فعلت كذا فأنا يهودى أو نصرانى أو برئى من الإسلام أو من النبى ﷺ لم تتعد يمينه وعليه أن يستغفر الله ولا كفارة عليه ويستحب أن يقول لا إله إلا الله .

وعن الحنفية تحب الكفارة إلا فى مثل قوله أنا مبتدع أو برئى من النبى ﷺ، واحتج بإيجاب الكفارة على المظاهر مع أن الظاهر منكر من القول وزور كما قال الله تعالى والحلف بهذه الأشياء منكر .

وتعقب بهذا الخبر لأنه لم يذكر فيه إلا الأمر بلا إله إلا الله ولم يذكر فيه كفارة والأصل عدمها حتى يقام الدليل .

وأما القياس على الظاهر فلا يصح لأنهم لم يوجبوا فيه كفارة الظاهر واستثنوا أشياء لم يوجبوا فيها كفارة أصلاً مع أنه منكر من القول .

وقال النووي فى «الأذكار»: الحلف بما ذكر حرام تحب التوبة منه، وسبقه إلى ذلك الماوردى وغيره ولم يتعرضوا لوجوب قول لا إله إلا الله وهو ظاهر الخبر وبه جزم ابن درباس فى «شرح المذهب» .

وقال البغوى فى «شرح السنة» تبعًا للخطابى: فى هذا الحديث دليل على أن الكفار على من حلف بغير الإسلام وإن أثم به لكن يلزمه التوبة لأنه ﷺ أمره بكلمة التوحيد فأشار إلى أن عقوبته تختص بذنبه ولم يوجب عليه فى ماله شيئًا، وإنما أمره بالتوحيد لأن الحلف باللات والعزى يضاهى الكفار فأمره أن يتدارك بالتوحيد .

هل يتعقد يمين من حلف بالآباء؟ وهل عليه كفارة؟

قال ابن حجر (*): وفيه أن من حلف بغير الله مطلقاً لم تتعقد يمينه سواء كان المحلوف به يستحق التعظيم لمعنى غير العبادة كالأنبياء والملائكة والعلماء والصلحاء والملوك والآباء والكعبة، أو كان لا يستحق التعظيم كالأحاد، أو يستحق التحقير والإذلال كالشياطين والأصنام وسائر من عبد من دون الله، واستثنى بعض الحنابلة من ذلك الحلف بنبينا محمد ﷺ فقال: تتعقد باليمين وتجب الكفارة بالحنث، فاعتل بكونه أحد ركني الشهادة، التي لا تتم إلا به. اهـ.

وتقدم كلام ابن تيمية في الحلف بالنبي، ورد من قال بجواز ذلك. ونقله ابن حجر دون غرو إليه. والله أعلم.

وأطلق ابن العربي نسبه لمذهب أحمد وتعقبه بأن الأيمان عند أحمد لا تتم إلا بفعل الصلاة فيلزمه أن من حلف بالصلاة أن تتعقد يمينه ويلزمه الكفارة إذا حنث، ويمكن الجواب عن إيراده والانفصال عما ألزمهم به.

وفيه الرد على من قال إن فعلت كذا فهو يهودى أو نصرانى أو كافر أنه يتعقد يميناً ومتى فعل تجب عليه الكفارة، وقد نقل ذلك عن الحنفية والحنابلة، ووجه الدلالة من الخبر أنه لم يحلف بالله ولا بما يقوم مقام ذلك.

وفيه أن من قال أقسمت لأفعلن كذا لا يكون يميناً، وعند الحنفية يكون يميناً وكذا قال مالك وأحمد لكن بشرط أن ينوى بذلك الحلف بالله وهو متجه، وقد قال بعض الشافعية: إن قال على أمانة الله لأفعلن كذا وأراد اليمين أنه يمين وإلا فلا.

وقال ابن المنذر: اختلف أهل العلم فى معنى النهى عن الحلف بغير الله، فقالت طائفة هو خاص بالأيمان التي كان أهل الجاهلية يحلفون بها تعظيماً لغير الله تعالى كاللات والعزى والآباء، فهذه يأثم الخالف بها ولا كفارة فيها، وأما ما كان يؤول إلى تعظيم الله كقوله وحق النبي والإسلام والحج والعمرة والهدى والصدق والعق ونحوها مما أو به تعظيم الله والقرب إليه فليس داخلأ فى النهى، وعمن قال بذلك أبو عبيد وطائفة ممن لقيناه، واحتجوا بما جاء عن الصحابة من إيجابهم على الخالف بالعق والهدى والصدقة، ما أوجبوه مع كونهم رأوا النهى المذكور، فدل على أن ذلك عندهم ليس على عمومته، إذ لو كان عاماً لنهوا عن ذلك ولم يوجبوا فيه شيئاً انتهى.

وتعقبه ابن عبد البر بأن ذكر هذه الأشياء وإن كانت بصورة الحلف فليست يميناً فى الحقيقة وإنما خرج عن الاتساع، ولا يمين فى الحقيقة إلا بالله، وقال المهلب: كانت

(*) فتح البارى (١١/٥٤٣).

العرب تحلف بأبائها وآلئها فأراد الله نسخ ذلك من قلوبهم لينسيهم ذكر كل شئ سواه، ويبقى ذكره، لأنه الحق المعبود فلا يكون اليمين إلا به، والحلف بالخلقوات فى حكم الحلف بالآباء، وقال الطبرى: فى حديث عمر - يعنى حديث الباب- أن اليمين لا تعتقد إلا بالله وأن من حلف بالكعبة أو آدم أو جبريل ونحو ذلك لم تعتقد يمينه ولزمه الاستغفار لإقدامه على ما نهى عنه ولا كفارة فى ذلك، وأما ما وقع فى القرآن من القسم بشئ من المخلوقات فقال الشعبى: فالخالق يقسم بما شاء من خلقه والمخلوق لا يقسم إلا بالخالق.

قال: ولأن أقسم بالله فأحنت أحب إلى من أن أقسم بغيره فأبر.

وجاء مثله عن ابن عباس وابن مسعود وابن عمر. ثم أسند عن مطرف عن عبد الله أنه قال: إنما أقسم الله بهذه الأشياء ليعجب بها المخلوقين ويعرفهم قدرته لعظم شأنها عندهم ولدالاتها على خالقها.

وقد أجمع العلماء على من وجبت له يمين على آخر فى حق عليه أنه لا يحلف له إلا بالله، فلو حلف بغيره وقال نويت رب المحلوف به لم يكن ذلك يميناً وقال ابن هبيرة فى كتاب «الإجماع»: أجمعوا على أن اليمين منعقدة بالله وبجميع أسمائه الحسنى وبجميع صفات ذاته كعزته وجلاله وعلمه وقوته وقدرته، واستثنى أبو حنيفة علم الله فلم يره يميناً وكذا حق الله، واتفقوا على أنه لا يحلف بمعظم غير الله كالنبي، وانفرد أحمد فى رواية فقال تعتقد.

وقال عياض: لا خلاف بين فقهاء الأمصار أن الحلف بأسماء الله وصفاته لازم إلا ما جاء عن الشافعى، من إشتراط فيه اليمين من الحلف بالصفات وإلا فلا كفارة وتعقب إطلاقه ذلك عن الشافعى وإنما يحتاج إلى النية عنده ما يصح إطلاقه عليه سبحانه وتعالى على غيره، وأما ما لا يطلق فى معرض التعظيم شرعاً إلا عليه تعتقد اليمين به وتحب الكفارة إذا حنت كمقلب القلوب وخالق الخلق ورازق كل حى ورب العالمين وفالق الحب وبارئ النسمة، وهذا فى حكم الصريح كقوله والله، وفى وجه لبعض الشافعية أن الصريح الله فقط، ويظهر أثر الخلاف فيما لو قال قصدت غير الله هل ينفعه فى عدم الحنث، والمشهور عن المالكية التعميم، وعن أشهب التفصيل فى مثل وعزة الله إن أراد التى جعلها بين عبادة فليست بيمين، وقياسه أن يطرد نى كل ما يصح إطلاقه عليه وعلى غيره، وقال به ابن سحنون منهم فى عزة الله، وفى «العنتية» أن من حلف بالمصحف لا تعتقد، واستنكره بعضهم ثم أولها على أن المراد إذا أراد جسم المصحف، والتعميم عند الخنابلة حتى لو أراد بالعلم والقدرة المعلوم والمقدور اعتقدت والله أعلم. اهـ.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ^(١).

الحكمة من ذكر انغمار بعد الحلف باللات

وقال الطيبي: الحكمة في ذكر القمار بعد الحلف باللات أن من حلف باللات وافق الكفار في حلفهم فأمر بالتوحيد، ومن دعا إلى المقامرة وافقهم في لعبهم فأمر بكفارة ذلك بالتصدق.

وقال النووي: فيه أن من عزم على المعصية حتى استقر ذلك في قلبه أو تكلم بلسانه أنه تكتبه عليه الحفظة، كذا قال، وفي أخذ هذا الحكم من هذا الدليل وقفة.



قوله: وعن حذيفة - رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان... الحديث.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): هذا الحديث رواه أبو داود، كما قال المصنف، ورواه أحمد وابن أبي شيبة، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي وله علة وله شواهد، وهو صحيح المعنى بلا ريب، وسيأتى الكلام على معناه في باب ما شاء الله وشئت إن شاء الله. اهـ.

قوله: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان..»

وقال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): وذلك لأنَّ المعطوف بالسوا يكون مساوياً للمعطوف عليه، لكونها إنما وضعت لمطلق الجمع، فلا تقتضى ترتيباً، ولا تعقيماً، وتَسْوِيَةُ المخلوق بالخالق شَرَكٌ، إن كان فى الأصغر - مثل هذا - فهو أصغر-، وإن كان فى الأكبر، فهو أكبر. كما قال الله تعالى عنهم فى الدار الآخرة: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤) بخلاف المعطوف بـ «ثم» فإنَّ المعطوف بها يكون مُتَرَاخِياً عن المعطوف عليه بمهلة. فلا مَحْذُور لكونه صار تابعاً. اهـ.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٠٤/٥)، وأبو داود في الأدب/ باب لا يقال: خبت نفسى (٢٩٧/٤)، والنسائي في «الكبرى» فى اليوم والليلة (١٠٨٢١/٢٤٥/٦)، والبيهقي فى «الكبرى» (٢١٦/٣). من طريق شعبة، عن منصور، عن عبد الله بن يسار، عن حذيفة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧٤٨ - بتخريجنا) وانظر «فتح المجيد» (ج ٧٦٨) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٤٨).

(٣) فتح المجيد (٥٧٨/٢).

(٤) الشعراء: ٩٧ - ٩٨.

قال ابن عثيمين^(١): قوله في حديث حذيفة رضى الله عنه: «لا تقولوا».

«لا»: ناهية، ولهذا جُزِمَ الفعل بعدها بحذف النون.

قوله: «ما شاء الله وشاء فلان».

والعلة في ذلك أن الواو تقتضى تسوية المعطوف بالمعطوف عليه؛ فيكون القائل: ما شاء الله وشئت مُسَوِّياً مشيئة الله بمشيئة المخلوق، وهذا شرك، ثم إن اعتقد أن المخلوق أعظم من الخالق، أو أنه مساو له، فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه أقل؛ فهو شرك أصغر.

قوله: «ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان».

لما نهى عن اللفظ المحرم بين لفظ المباح؛ لأن «ثم» للترتيب والتراخي، فتفيد أن المعطوف أقل مرتبة من المعطوف عليه.

أما بالنسبة لقوله: «ما شاء الله فشاء فلان»؛ فالحكم فيها أنها مرتبة بين مرتبة (الواو) ومرتبة (ثم)؛ فهي تختلف عن (ثم) بأن (ثم) للتراخي والفاء للتعقيب، وتوافق (ثم) بأنها للترتيب؛ فالظاهر أنها جائزة، ولكن التعبير بـ (ثم) أولى؛ لأنه اللفظ الذى أرشد إليه النبي ﷺ، ولأنه أبين في إظهار الفرق بين الخالق والمخلوق.

● ويستفاد من هذا الحديث:

١- إثبات المشيئة للعبد؛ لقوله: «ثم شاء فلان»، فيكون فيه رد على الجبرية حيث قالوا: إن العبد لا مشيئة له ولا اختيار.

٢- أنه ينبغي لمن سَدَّ على الناس باباً مُحَرَّماً أن يفتح لهم الباب المباح؛ لقوله:

«ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»، ونظير ذلك قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا»، لَمَّا نهاهم عن قول راعنا؛ قال: «وَقُولُوا انظُرْنَا»، وكذلك النبي ﷺ لما جىء له بتمر جيد وأخبره الآتى به أنه أخذ الصاع بالصاعين والصاعين بالثلاثة؛ قال: «لا تفعل، ولكن بعْ الجمع بالدرهم، ثم اشتر بالدرهم جَنِيًّا»^(٢)؛ أى: تمرأ جيداً، فأرشدته إلى الطريق المباح حين نهاء عن الطريق المحرم.

(١) القول المفيد (٢/٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٢٠١)، ومسلم فى المسافة (٤/٢١/١١) وانظر كتابنا فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال (١٢٥).

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ «أَنَّهُ يُكْرَهُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ»، قَالَ «وَيَقُولُ لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فَلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ» (*).

قلت: وكقوله من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله ومن قال لأخيه تعالى أقامرك فليتصدق وتقدم وغيره.

وتقدم أن هذا لا يلزم على إطلاقه بل محله إذا كان هناك بديل مباح كما يفهم من كلام الشيخ هنا حفظه الله وإلا سيقع بل وقع مالا يحمد عقبه. اهـ.

قال ابن عثيمين: وفي هذا فائدتان عظيمتان:

الأولى: بيان كمال الشريعة وشمولها، حيث لم تُسدَّ على الناس باباً إلا فتحت لهم ما هو خير منه.

والثانية: التسهيل على الناس ورفع الحرج عنهم؛ فعامل الناس بهذا ما استطعت، كلما سددت عليهم باباً ممنوعاً؛ فافتح لهم من المباح ما يغني عنه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً حتى لا يقعوا في الحرج أهـ.

قوله: «وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره.... الأثر».

قال سليمان آل الشيخ^(١): هذا الأثر رواه المصنف غير معزو، وقد رواه عبدالرزاق، وابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت» عن مغيرة قال: كان إبراهيم يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويرخص أن يقول: أعوذ بالله ثم بك. ويكره أن يقول: لولا الله وفلان، ويرخص أن يقول: لولا الله ثم فلان. لفظ ابن أبي الدنيا، وذلك - والله أعلم - لأن الواو تقتضي مطلق الجمع؛ فمنع منها للجمع لثلاث توهم الجمع بين الله وبين غيره. كما منع من جمع اسم الله، واسم رسوله في ضمير واحد. وثم إنما تقتضي الترتيب فقط، فجاز ذلك لعدم المانع، ومطابقة الحديثين والأثرين لترجمة ظاهرة على ما فسر به ابن عباس رضي الله عنه الآية.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: «عن إبراهيم النخعي».

(*) أخرجه عبد الرزاق في «مصفه» (١١/٢٧/١٩٨١١) عن معمر، عن مغيرة، عن إبراهيم فذكره.

وأنظر «فتح المجيد» ٧٦٨ بتخريجنا.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٤٨).

(٢) القول المفيد (٢/٣٣٩).

من فقهاء التابعين، لكنه قليل البضاعة في الحديث؛ كما ذكر ذلك حماد بن زيد.
قلت: وقال الشعبي: ما ترك أحداً أعلم منه.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): وقد تقدّم الفرق بين ما يجوز من ذلك. وهذا إما
هو في الحى الحاضر الذى له قدرة وسبب في الشيء. وهو الذى يجرى في حقه مثل
ذلك. وأما في حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم، ولا قدرة لهم على نفع
ولا ضرر. فلا يقال في حقهم شيء من ذلك. فلا يجوز التعلق عليه بشيء ما، بوجه من
الوجوه. والقرآن يبين ذلك ويثابدى بأنه يجعلهم آلهة إذا سئلوا شيئاً من ذلك، أو رغب
إليهم أحد بقوله، أو عمله الباطن أو الظاهر. فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على
بصيرة من دينه. وبالله التوفيق.

والعلم لا يؤخذ قسراً، وإنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعضهم في قوله:

أخى، لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إِلَّا بِسِتَّةٍ سَأْتِيكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بَبَيَانٍ
ذِكَا، وَحِرْصٍ، وَاجْتِهَادٍ، وَبُلْغَةٍ وَإِرْشَادٍ أَسْتَاذٍ، وَطَوِيلِ زَمَانٍ

وأعظم من هذه الستة: من رزقه الله تعالى الفهم والحفظ، وأتعب نفسه في تحصيله،
فهو الموفق لمن شاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكَ عَظِيماً﴾^(٢).

ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمة الله تعالى حيث قال:

وَالْجَهْلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشَفَاؤُهُ أَمْرَانِ فِي التَّرَكِيبِ مُتَّفِقَانِ
نَصْرٌ مِنَ الْقُرْآنِ، أَوْ مِنْ سُنَّةِ وَطَبِيبٌ ذَاكَ الْعَالَمِ الرَّبَّانِي
وَالْعِلْمُ أَقْسَامٌ ثَلَاثٌ، مَالِهَا مِنْ رَابِعٍ، وَالْحَقُّ ذُو تَبَيَّانٍ
عِلْمًا بِأَوْصَافِ الْإِلَهِ وَفِعْلِهِ وَكَذَلِكَ الْأَسْمَاءُ لِلرَّحْمَنِ

(١) فتح المجيد (٢/٥٧٩، ٥٨٠).

(٢) النساء: ١١٣.

والأمر والنهي الذي هو دينه وجَزَاؤُهُ يَوْمَ الْمَعَادِ الثَّانِي
والكل في القرآن والسنة التي جَاءَتْ عَنِ الْمُبْعُوثِ بِالْقُرْآنِ
والله ما قَالَ أَمْرًا مُتَحَذِّقًا بِسِوَاهُمَا إِلَّا مِنَ الْهَذْيَانِ^(١)

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: «يكره أعوذ بالله وبك».

العياذ: الاعتصام بالاستعاذة به عن المكروه، واللياذ بالشخص: هو اللجوء إليه لطلب
المحبوب، قال الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أأمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

وهذان البيتان يخاطب بهما رجلاً، لكن كما قال بعضهم: هذا القول لا ينبغي أن
يكون إلا لله.

قلت: وتقدم بأبسط من ذلك في باب الاستعاذة بغير الله.

وقوله: «أعوذ بالله وبك».

هذا مُحَرَّمٌ؛ لأنه جمع بين الله والمخلوق بحرف يقتضى التسوية وهو
الواو.

ويجوز بالله ثم بك؛ لأن «ثم» تدل على الترتيب والتراخي، فإن قيل: سبق أن من
الشرك الاستعاذة بغير الله، وعلى هذا يكون قوله: أعوذ بالله ثم بك محرماً.

أجيب: أن الاستعاذة بمن يقدر على أن يعيذك جائزة؛ لقوله ﷺ في «صحيح
مسلم» وغيره: «من وجد ملجأ، فَلْيَعُذْ بِهِ»، لكن لو قال: أعوذ بالله ثم بفلان. وهو
ميت؛ فهذا شرك أكبر لأنه لا يقدر على أن يعيذك، وأما استدلال الإمام أحمد

(١) الكافية الشافية (٢/ ٢٤٠) بشرح هراس.

(٢) القول المفيد (٢/ ٤٠٠، ٤٠١).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ فِي الْأُنْدَادِ.

الثانية: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَفْسَرُونَ الْآيَةَ النَّازِلَةَ فِي الشَّرْكِ الْأَكْبَرِ أَنَّهَا تَعْمُ الْأَصْغَرَ.

على أن القرآن غير مخلوق بقوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»^(١)، ثم قال رحمه الله: والاستعاذة لا تكون بمخلوق، فيحمل كلامه على أن الاستعاذة بكلام لا تكون بكلام مخلوق بل بكلام غير مخلوق، وهو كلام الله، والكلام تابع للمتكلم به، إن كان مخلوقاً، فهو مخلوق، وإن كان غير مخلوق؛ فهو غير مخلوق. اهـ.

قلت: وتقدم في باب الاستعاذة ذلك بتفصيله وتدليله فراجعه إن شئت.

قال ابن عثيمين^(٢):

قوله: فيه مسائل:

● الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد.

وقد سبق.

قلت: وهى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وليس كما ظن

البعض أنها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أُنْدَادًا﴾ كما تقدم.

● الثانية: أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر.

لأن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ نازلة في الأكبر؛ لأن المخاطب بها هم المشركون، وابن عباس فسرهما بما يقتضى الشرك الأصغر؛ لأن الند يشمل النظر المساوى على سبيل الإطلاق أو فى بعض الأمور.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) القول المفيد (٢/٤٠١، ٤٠٢).

الثالثة: أَنَّ الْحَلْفَ بِغَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ.

الرابعة: أَنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ صَادِقًا فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْيَمِينِ الْغَمُوسِ.

الخامسة: الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَاوِ وَ(ثُمَّ) فِي اللَّفْظِ.

قلت: أو لأن الشرك الأكبر يشمل الأصغر كما تقدم.

● الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك.

لحديث ابن عمر رضى الله عنهما.

● الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً؛ فهو أكبر من اليمين الغموس.

واليمين الغموس عند الحنابلة أن يحلف بالله كاذباً، وقال بعض العلماء - وهو الصحيح -: أن يحلف بالله كاذباً ليقطع بها مال امرئ مسلم.

● الخامسة: الفرق بين الواو و(ثم) فى اللفظ.

لأن الواو تقتضى المساواة؛ فتكون شركاً، و(ثم) تقتضى الترتيب والتراخي؛ فلا تكون شركاً. اهـ.



مَا جَاءَ فِيْمَنْ لَمْ يَقْتَحْ بِالْحَلْفِ بِاللّٰهِ

● مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال الفقير: هي أن الباب الماضي إنما عقده المصنف للحض على تعظيم الله بالحلف به والنهي عن الحلف بغيره، فإذا امتثل العبد لذلك فحلف بالله معظمًا له، فلا بد من الاقتناع به، وبحلفه على هذا الوجه، ذلك لأن عدم الاقتناع به والحال هذه، عدم تعظيم الله ولحكمه، فلهذا ناسب أن يذكر المصنف هذا الباب بعد الباب الماضي، أو لعله أراد أن يؤكد على النهي عن الحلف بغير الله ويرغب في الحلف بالله بأنه أدعى أن يصدق فلا تحلف إلا به، والله أعلم...

● مناسبة الباب للتوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله، أي من الوعيد، لأن ذلك يدل على قلة تعظيمه لجناب الربوبية، إذ القلب الممتلئ بمعرفة عظمة الله وجلاله وعزته وكبريائه لا يفعل ذلك. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله^(٢). هي أن عدم القناعة بالحلف بالله وعدم الرضا به ينافي كمال التوحيد، لأن ذلك استخفافًا بالله وتنقص له. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): إن الاقتناع بالحلف بالله من تعظيم الله، لأن الحالف أكد ما حلف عليه بالتعظيم باليمين، وهو تعظيم المحلوف به، فيكون من تعظيم المحلوف به أن يُصدق ذلك الحالف وعلى هذا يكون عدم الاقتناع بالحلف فيه شيء نقص تعظيم الله، وهذا ينافي كما التوحيد. اهـ.

● شرح الترجمة، وماذا أراد المصنف بها:

قال سليمان آل الشيخ^(٤): (ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله) أي: من الوعيد. اهـ.

وقال حامد بن محمد^(٥): ما قدر الله حق قدره، واستوجب الوعيد الشديد. اهـ.

وقال السعدى^(٦): ويراد بهذا إذا توجهت اليمين على خصمك وهو معروف بالصدق أو ظاهره الخير والعدالة، فإنه يتعين عليك الرضا والقناعة بيمينه، لأنه ليس

(٢) الجامع الفريد (١٦٥)

(٤) تيسير العزيز الحميد (٤٤٩)

(٦) القول السديد (١٠٨، ١٠٩).

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٤٩).

(٣) القول المفيد (٤٠٣/٢).

(٥) فتح الله الحميد المجيد (٣٩٤)

عندك يقين يعارض صدقه، وما كان عليه المسلمون من تعظيم ربهم، وإجلاله يوجب عليك أن ترضى بالحلف بالله، وكذلك لو بذلت له اليمين بالله فلم يرض إلا الحلف، بالطلاق، أو دعاء الخصم على نفسه بالعقوبات، فهو داخل الوعيد، لأن ذلك سوء أدب وترك لتعظيم الله، واستدراك على حكم الله ورسوله.

وأما من عُرف منه الفجور، والكذب فإذا حلف على ما يقن كذبه فيه فإنه لا يدخل تكذبه في الوعيد للعلم بكذبه، وأنه ليس في قلبه من تعظيم الله ما يطمئن الناس إلى يمينه فتعين إخراج هذا النوع من الوعيد، لأن حالته متيقنة. والله أعلم. اهـ.

وقال عبد الله بن جابر الله^(١): بنحو ما تقدم:

وقال ابن باز^(٢): أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان وجوب القنع باليمين، وإن كان في نفسه شيء من صدق الحالف، أو علم كذبه، أو تهمته بذلك، ومع ذلك فعليه أن يقنع بالحكم الشرعي ويرضى به، لأنه ليس للناس، إلا ما ظهر، وكذلك ليس للقاضي إلا ما ظهر بشهادة العدول أو يمين الخصم عند عدم البينة. اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٣): بنحو قول السعدى، حيث قال: والافتناع بالحلف بالله لا يخلو من أمرين:

الأول: أن يكون ذلك من الناحية الشرعية، فإنه يجب الرضا بالحلف بالله فيما إذا توجهت اليمين على المدعى عليه فحلف، فيجب الرضا بهذا اليمين بمقتضى الحكم الشرعي.

الثاني: أن يكون ذلك من الناحية الحسية، فإن كان الحالف موضع صدق وثقة، فإنك ترضى بيمينه، وإن كان غير ذلك، فلك أن ترفض الرضا بيمينه، ولهذا لما قال النبي ﷺ **لَحُوبِيصَةٌ وَمُحِيصَةٌ**: «تبرئكم يهود بخمسين يمينًا» قالوا: كيف نرضى يا رسول الله بأيمان يهود؟!^(٤) فأقرهم النبي ﷺ على ذلك. اهـ.

(١) الجامع الفريد (١٦٥)

(٢) التعليق المفيد (٢١٣).

(٣) القول المفيد (٤٠٣/٢)

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦١٤٢)، ومسلم فى القسامة (١/١٥٨/٦) عن رافع بن خديج،

وسهل بن أبى حشمة.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ، فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ، فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ (رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ (١)).

قوله: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم....» الحديث.

قال ابن حجر في الفتح (٢): وسنده حسن. اهـ.

قلت: ولعل المصنف حسنه تبعاً له

وقال سليمان آل الشيخ (٣): هذا الحديث رواه ابن ماجه في «سننه» وترجم عليه من «حلف له بالله فليرض» حدثنا محمد بن إسماعيل بن سمرة، ثنا أسباط بن محمد بن عجلان، عن نافع عن ابن عمر، قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يحلف بأبيه فقال: «لا تحلفوا بآبائكم» (٤) الحديث، وهذا إسناد جيد على شرط مسلم عند الحاكم وغيره، فإنه متصل ورواه ثقات.

بل قد روى مسلم عن ابن عجلان عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يأتي قباء راكباً وماشيّاً، وأصل هذا الحديث في «الصحيحين» عن ابن عمر بلفظ «لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت» (٥) وليس فيه هذه الزيادة. اهـ.

● مناسبة الحديث للباب:

قال عبد الله بن جبار الله (٦): والشاهد من الحديث للباب قوله: «ومن لم يرض فليس من الله» اهـ.

وقال القرعاوي (٧): حيث دل الحديث على وجوب رضا من حلف له بالله. اهـ.

(١) أخرجه ابن ماجه فى الكفارات / باب: من حلف بالله فليرض (١/٦٧٩/ح ١٠١) عن ابن عمر، وقال فى «الزوائد»: رجال إسناده ثقات.

وانظر «فتح المجيد» (٧٦٩) بتخريجنا.

(٢) فتح البارى (١١/٥٤٤)

(٣) تيسير الله العزيز الحميد (٣٧١)

(٤) تقدم تخريجه

(٥) تقدم تخريجه

(٦) الجامع الفريد (١٦٥، ١٦٦).

(٧) الجديد (٣٧١)

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى^(١): حيث دل الحديث على وجوب رضا من حلف له بالله لأن ذلك تعظيم لله وذلك من كمال التوحيد ا.هـ.

● شرح الحديث:

قوله: [عن ابن عمر] تقدمت ترجمته.

قوله: «لا تحلفوا بأبائكم»

قال سليمان آل الشيخ^(٢): تقدم ما يتعلق به في الباب قبله. اهـ.

قال ابن باز^(٣): نهى عن الحلف بالأبَاء والأمهات وغيرهم وكانوا يحلفون بهم في أول الإسلام وفي أول الهجرة إلى المدينة ثم نهى عنه. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله في الحديث: «لا تحلفوا».

«لا»: ناهية، ولهذا جُزم الفعل بعدها بحذف النون، و«آباءكم»: جمع أب، ويشمل الأب والجد، وإن علا فلا يجوز الحلف بهم، لأنه شرك، وقد سبق بيانه. اهـ.

قوله: «من حلف بالله فليصدق».

قال سليمان آل الشيخ^(٥): أى وجوباً، لأن الصدق واجب، ولو لم يحلف بالله فكيف إذا حلف به؟ وأيضاً فالكذب حرام لو لم يؤكد الخبر باسم الله فكيف، إذا أكده باسم الله؟

قال حامد بن محمد^(٦): لأنه حلف بالله العظيم الجبار القهار الذى ليس كمثلته شئ فكيف يجترئ على الكذب به ا.هـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٧): هذا مما أوجبه الله على عباده وحضهم عليه في كتابه، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ».

(١) الجديد (٣٧١)

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٤٩.

(٣) التعليق المفيد ٢/٣

(٤) القول المفيد ٢/٤٠٤

(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٤٩.

(٦) فتح الله الحميد المجيد (١٣٩٤).

(٧) فتح المجيد ٢/

وقال: «وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ» وقال: «فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ» وهو حال أهل البر، كما قال تعالى: «وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ» إلى قوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» اهـ.

وقال عبد الله بن جابر الله^(١): يفيد الحديث - الصدق في اليمين، ووجوب الرضا على المحلوف له بالله. اهـ.

قال ابن باز^(٢): أى يجب على من حلف بالله أن يصدق ويتحره ويحذر الكذب، ولهذا قال النبي ﷺ «من حلف على يمين وهو كاذب لقي الله تعالى وهو عليه غضبان»^(٣) فيجب الحذر من الحلف بالله كاذبًا خاصة في الخصومات.

واقطع حق المسلم باليمين الكاذبة، ولهذا ورد في الحديث الآخر: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله عليه النار وحرم عليه الجنة»^(٤) قالوا: وإن كان شيئًا يسيرًا، قال: «وإن كان قدر النواة» رواه مسلم.

فالواجب الحذر من ذلك، وأن لا يأخذ حق أخيه المسلم إلا ببينة شرعية ووجه شرعى، وإذا طلب اليمين فليحذر الكذب. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٥): قوله: «من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض».

هنا أمران:

الأمر الأول: للحالف، فقد أمر أن يكون صادقًا، والصدق: هو الإخبار بما يطابق الواقع، وضده الكذب، وهو: الإخبار بما يخالف الواقع، فقوله: «من حلف بالله فليصدق» أى: فليكن صادقًا في يمينه، وهل يشترط أن يكون مطابقًا للواقع أو يكفى الظن؟

الجواب: يكفى الظن، فله أن يحلف على ما يغلب على ظنه، كقول الرجل للنبي ﷺ: والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر منى، فأقره النبي ﷺ^(٦).

(١) الجامع الفريد (١٦٥) (٢) التعليق المفيد ٢١٣.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» ٤٠/١٩١، والنسائي في «الكبير» (٥٩٩٦).

(٤) [متفق عليه] أخرجه مسلم في الأيمان (١٥٧/٢) - النووي) عن إياس بن ثعلبة به وانظر «رياض الصالحين» (٢١٦ - بتخریجنا).

(٥) القول المفيد (٤٠٤/٢) (٤٠٥).

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٩٣٦)، مسلم في الصيام (٨١/٢٤٠) عن أبى هريرة به.

الثانى: للمحلف له، فقد أمر أن يرضى بيمين الخالف له.

فإذا قرنت هذين الأمرين بعضهما ببعض، فإن الأمر الثانى يُنزل على ما إذا كان الخالف صادقاً، لأن الحديث جمع أمرين: أمراً مَوْجَّهاً للخالف، وأمراً مَوْجَّهاً للمحلف له، فإذا كان الخالف صادقاً، وجب على المحلف له الرضا.

فإن قيل: إن كان صادقاً فإننا نصدقه، وإن لم يحلف؟

أجيب: أن اليمين تزيده تأكيداً. اهـ.

قوله: [ومن حلف له بالله فليرض] .

قال سليمان آل الشيخ^(١): أى: وجوباً كما يدل عليه قوله: «ومن لم يرض فليس من الله» ولفظ ابن ماجة «ومن لم يرض بالله فليس من الله» وهذا وعيد كقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾.

قال ابن كثير: أى: فقد برئ من الله، وهذا عام فى الدعاوى وغيرها، ما لم يفض إلى إلغاء حكم شرعى، كما تشهد عليه البينة الشرعية، فيحلف على تكذيبها فلا يقبل حلفه.

ولهذا لما رأى عيسى عليه السلام رجلاً يسرق فقال له: «سَرَقْتَ؟ قال: كَلَّا والله الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللَّهِ، وَكَذَّبْتَ عَيْنِي» رواه البخارى^(٢).

قال ابن حجر^(٣): فى شرح حديث أبى هريرة فى الصحيح عن النبى ﷺ قال: «رأى عيسى بن مريم رجلاً يسرق، فقال له: أَسَرَقْتَ؟ قال كلا والله الذى لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني» ووقع فى رواية مسلم «وكذبت نفسى» وفى رواية ابن طهمان «وكذبت بصرى» قال ابن التين: قال عيسى ذلك على المبالغة فى تصديق الخالف.

وأما قوله «وكذبت عيني» فلم يرد حقيقة التكذيب، وإنما أراد كذبت عيني فى غير هذا: قال ابن الجوزى وفيه بُعد.

وقيل: أراد بالتصديق والتكذيب ظاهر الحكم لا باطن الأمر، وإلا فالمشاهدة أعلى اليقين فكيف يكذب عينه ويصدق قول المدعى؟ ويحتمل أن يكون رآه مَد يده إلى الشئ فظن أنه تناوله، فلما حلف له رجع عن ظنه.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٥٠). (٢) فتح البارى (٦/٥٦٤، ٥٦٥).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٤٤٤)، ومسلم فى الفضائل (٨/١٣٢/١٤٩) عن أبى هريرة به.

وقال القرطبي: ظاهر قول عيسى للرجل «سرت» أنه خبر جازم عما فعل الرجل من السرقة لكونه رآه أخذ مالا من حرز في خفية وقول الرجل «كلا» نفى لذلك ثم أكده باليمين وقول عيسى «أمنت بالله وكذبت عيني» أي صدقت من حلف بالله. وكذبت ما ظهر لي من كون الأخذ المذكور سرقة فإنه يحتمل أن يكون الرجل أخذ ما له فيه حق، أو ما أذن له صاحبه في أخذه، أو أخذه ليقبله وينظر فيه ولم يقصد الغصب والاستيلاء.

قال: ويحتمل أن يكون عيسى كان غير جازم بذلك، وإنما أراد استفهامه بقوله: سرت؟ وتكون أداة الاستفهام محذوفة وهو سائح كثير انتهى.

واحتمال الاستفهام بعيد مع جزمه وَاللَّهِ بأن عيسى رأى رجلاً يسرق، واحتمال كونه يحل له الأخذ بعيد أيضاً بهذا الجزم بعينه، والأول مأخوذ من كلام القاضي عياض. وقد تعقبه ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان» فقال: هذا تأويل متكلف، والحق أن الله كان في قلبه أجل من أن يحلف به أحد كاذباً، فدار الأمر بين تهمة الخالف وتهمة بصره فرد التهمة إلى بصره، كما ظن آدم صدق إبليس لما حلف له أنه له ناصح. قلت يعني ابن حجر: وليس بدون تأويل القاضي في التكلف، والتشبيه غير مطابق والله أعلم.

واستدل به على درء الحد بالشبهة، وعلى منع القضاء بالعلم. والراجع عند المالكية والحنابلة منعه مطلقاً، وعند الشافعية جوازه إلا في الحدود وهذه الصورة من ذلك اهـ.

وقال سليمان^(١) آل الشيخ بعد عرض كلام ابن القيم الذي نقله ابن حجر: هذا القول أحسن من الأول وهو الصواب إن شاء الله تعالى، وحدثت عن المصنف أنه حمل حديث الباب على اليمين في الدعاوى، كمن يتحاكم عند الحاكم فيحلف على خصمه باليمين، فيحلف فيجب عليه أن يرضى. اهـ.

قلت: وفي الحديث معنى قوله وَاللَّهِ «المؤمن غرٌّ كريم»^(٢).

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٥٠) (٣) فتح المجيد ٥٨٢/٢.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٠/٢٩٤) عن أبي هريرة به.

إلا اليمين فأحلفه، فلا ريب أنه يجب عليه الرضا، وأما إذا كان فيما يجرى بين الناس مما قد يقع فى الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك، فهذا من حق المسلم على المسلم أن يقبل منه إذا حلف له معتذراً أو متبرئاً من تهمة، ومن حقه عليه: أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه، كما فى الأثر عن عمر رضى الله عنه: «ولا تظن بكلمة خرجت من مسلم شرّاً وأنت تجد لها فى الخير محملاً»

قال ابن باز^(١): هذا هو الشاهد أى ليرضى وليقتنع وليس له إلا هذا لأنه هو الذى فرط ولم يشهد ولم يكتب ولم يجعل بينه فعليه أن يلوم نفسه وليس له إلا الحكم الشرعى باليمين لتفريطه وسوف يعطيه الله حقه يوم القيامة. اهـ

قوله: «ومن لم يرض، فليس من الله».

تقدم قول سليمان آل الشيخ أن هذا كقوله تعالى: «فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ» وقول ابن كثير أى برئ من الله.

قال ابن باز^(٢): وعيد شديد على من لم يرض بحكم الله ولم يطمئن إليه. اهـ

قال ابن عثيمين^(٣): أى: من لم يرض بالحلف بالله إذا حلف له، فليس من الله، وهذا تبرؤ منه يدل على أن عدم الرضا من كبائر الذنوب، ولكن لابد من ملاحظة ما سبق، وقد أشرنا أن فى حديث القسامة دليلاً على أنه إذا كان الخالف غير ثقة، فلك أن ترفض الرضا به، لأنه غير ثقة، فلو أن أحداً حلف لك، وقال: والله، أن هذه الحقيقة من خشب، وهى من جلد، فيجوز أن لا ترضى به لأنك قاطع بكذبه، والشرع لا يأمر بشئ يخالف الحس والواقع، بل لا يأمر إلا بشئ يستحسنه العقل ويشهد له بالصحة والحسن، وإن كان العقل لا يدرك أحياناً مدى حسن هذا الشئ الذى أمر به الشرع، ولكن ليعلم علم اليقين أن الشرع لا يأمر إلا بما هو حسن، لأن الله تعالى يقول: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» فإذا اشتبه عليك حُسن شئ من أحكام الشرع، فاتهم نفسك بالقصور أو بالتقصير، أما أن تتهم الشرع، فهذا لا يمكن، وما صح عن الله ورسوله، فهو حق وهو أحسن الأحكام.

ما يستفاد من الحديث

قال عبدالرحمن آل الشيخ: فيه: من التواضع والألفة والمحبة وغير ذلك من المصالح التى يحبها الله ما لا يخفى على من له فهم، وذلك من أسباب اجتماع القلوب

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: النَّهْيُ عَنِ الْحَلْفِ بِالْأَبَاءِ.

الثانية: الْأَمْرُ لِلْمَحْلُوفِ لَهُ بِاللَّهِ أَنْ يَرْضَى.

الثالثة: وَعِيدٌ مَنْ لَمْ يَرْضَ.

على طاعة الله، ثم إنه يدخل في حُسن الخلق الذي هو أثقل ما يوضع في ميزان العبد كما في الحديث، وهو من مكارم الأخلاق.

فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى: من القيام بحقوقه وحقوق عباده، فإدخال السرور على المسلمين وترك الانقباض عنهم والترفع عليهم، فإن فيه من الضرر مالا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال، وبسط هذه الأمور وذكر ما ورد فيها مذكور في كتب الأدب وغيرها: فمن رزق ذلك والعمل بما ينبغي العمل به منه، وترك ما يجب تركه من ذلك: دل على وفور دينه وكمال عقله والله الموفق، والمعين لعبده الضعيف المسكين، والله أعلم. اهـ.

قال ابن باز^(١): كفارة من حلف كاذباً أن يتوب ويرد الحق لأصحابه.

قوله: فيه مسائل:

قال ابن عثيمين^(٢):

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء.

لقوله: «لا تحلفوا بأبائكم» والنهي للتحريم.

الثانية: الأمر للمحْلُوف له بالله أن يرضى.

لقوله: «ومن حلف له بالله فليرض» وسبق التفصيل في ذلك.

الثالثة: وعيد من لم يرض.

لقوله: «ومن لم يرض، فليس من الله».

الرابعة: ولم يذكرها المؤلف: أمر الحالف أن يَصْدُقَ لأن الصدق واجب في غير

اليمين - فكيف باليمين؟!

وقد سبق أن من حلف على يمين كاذبة أنه آثم، وقال بعض العلماء: إنهما اليمين

الغموس.

وأما بالنسبة للمحْلُوف له، فهل يلزمه أن يَصْدُقَ أم لا؟

المسألة لا تخلو من أحوال خمس:

(٢) القول المفيد ٢/٤٠٦، ٤٠٧..

(١) التعليق المفيد ٢١٤.

الأولى: أن يعلم كذبه، فلا أحد يقول: إنه يلزم تصديقه.

الثانية: أن يترجح كذبه، فكذلك لا يلزم تصديقه.

الثالثة: أن يتساوى الأمران، فهذا يجب تصديقه.

الرابعة: أن يترجح صدقه، فيجب أن يصدق.

الخامسة: أن يعلم صدقه، فيجب أن يصدقه.

وهذا في الأمور الحسية، أما الأمور الشرعية في باب التحاكم، فيجب أن يرضى

باليمين ويلتزم بمقتضاها، لأن هذا من باب الرضا بالحكم الشرعى، وهو واجب. اهـ



(٤٣) بَابُ قَوْلُ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتِ

● مناسبة هذا الباب لما قبله :

قال ناصر السعدى (١) : هذه الترجمة داخله فى الترجمة السابقة ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ . اهـ .

قلت :

ويظهر ذلك من قول النبى ﷺ «أجعلتنى لله ندًا» وسيأتى مراده بالسابقة أى قبل السابقة أو على اعتبار السابقة والتى قبلها فى موضوع واحد .

● مناسبة الباب لكتاب التوحيد

قال ابن عثيمين (٢) : أن قول (ما شاء الله وشئت) (٢) من الشرك الأكبر أو الأصغر ؛ لأنه إن اعتقد أن المعطوف مساوٍ لله ؛ فهو شرك أكبر ، وإن اعتقد أنه دونه لكن أشرك به فى اللفظ ؛ فهو أصغر ، وقد ذكر بعض أهل العلم : أن من جملة ضوابط الشرك الأصغر أن ما كان وسيلة للأكبر فهو أصغر . اهـ .

قال عبد الله بن جار الله (٣) :

مناسبة هذا الباب للتوحيد هى أن التشريك بين الله وبين خلقه فى المشيئة من الشرك الأصغر المنافى لكمال التوحيد . اهـ .

قلت : أو من الأكبر المنافى لأصله كما تقدم من قول ابن عثيمين .

ماذا أراد المصنف بالباب ؟

قال سليمان آل الشيخ (٤) .

أى ماحكم التكلم بذلك ، هل يجوز أم لا وإذا قلنا : لا يجوز فهل هو من الشرك أم لا ؟! اهـ .

قال ابن باز (٥) : أراد المؤلف بيان حكم قول ما شاء الله وشاء فلان وما أشبه ذلك وأنه يجب أن يقول ثم فلان وهذا هو مقتضى التوحيد والإخلاص وفيه كمال التوحيد

(٢) القول المفيد ٢/ ٤٠٨ .

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٥٠ .

(١) القول السديد ١٠٩ .

(٣) الجامع الفريد ١٦٧ .

(٥) التعليق المفيد ٢١٥ .

عَنْ قُتَيْبَةَ: (أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، وَتَقُولُونَ. وَالْكَعْبَةُ: فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَخْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبَّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: (مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتُ). رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ^(١)).

والبعد عن الشرك دقيقه وجليله فحكم هذا أنه لايجوز. فقول المؤلف باب كذا أى حكم كذا.

فالأكمل ماشاء الله وحده، وماشاء الله ثم شاء فلان وهذا جائز وماشاء الله وشاء فلان لايجوز وهو من الشرك الأصغر ومنقص للتوحيد وهكذا أمثاله. اهـ



قوله: عَنْ قُتَيْبَةَ « أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : ».

قال سليمان الشيخ^(٢): هذا الحديث رواه النسائي في «السنن» و«اليوم والليلة» وهذا لفظه في اليوم والليلة «أخبرنا يوسف بن عيسى قال : ثنا الفضل بن موسى قال : أنا مسعر عن معبد بن خالد، عن عبد الله بن يسار، عن قتيلة امرأة من جهينة أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنددون وتشركون تقولون : ما شاء الله وشئت وتقولون : والكعبة فأمرهم النبي عليه السلام إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا «رب الكعبة، ويقول أحدكم : ماشاء الله ثم شئت» رواه عن أحمد بن حفص حدثني أبي، حدثني إبراهيم بن طهمان، عن مغيرة عن معبد بن خالد عن قتيلة امرأة من جهينة قالت: دخلت يهودية على عائشة فقالت : إنكم تشركون وساق الحديث ولم يذكر عبد الله بن يسار والمشهور ذكره وقد رواه ابن سعد، والبطراني وابن منده وأشار ابن سعد إلى أنها ليس لها غيره. اهـ

● مناسبة هذا الحديث للباب وكتاب التوحيد:

قال القرعاوى^(٣): دل الباب على أن قول ما شاء الله وشئت شرك أصغر.

(١) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور / باب الحلف بالكعبة (٦/٧ - السيوطي).

من طريق يوسف بن عيسى، قال : ثنا الفضل بن موسى، قال ثمامسر، عن معبد بن خالد، عن عبد الله بن يسار، عن قتيلة امرأة من جهينة فذكره.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال في تخريج أحاديث الظلال» (١١) وانظر «فتح المجيد» (٧٧٢) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٥١ .

(٣) الجديد ٣٧٣.

قوله «عن قتيلة»

قال سليمان آل الشيخ: ^(١) هو بضم القاف وفتح التاء بعدها مشاة تحتية مصغراً .
بنت صيفى الجهنية أو الأنصارية صحابية . اهـ .

قوله : أن يهودياً

قال ابن عثيمين ^(٢) : اليهودى : هو المتسبب إلى شريعة موسى عليه السلام ، وسموا بذلك من قوله تعالى «إِنَّا هَدَيْنَا إِلَيْكَ» ؛ أى : رجعنا ، أو لأن جدهم اسمه يهوذا بن يعقوب ؛ فتكون النسبة من أجل النسب ، ومن الأول تكون النسبة من أجل العمل ، ولا يبعد أن تكون من الاثنين جميعاً . اهـ .

قوله : «إنكم تشركون بالله، تقولون : ما شاء الله وشئت»

وعلى هذا بوب البخارى فى الأيمان والنذور باب : ما شاء الله وشئت ، وهل يقول : أنا بالله ثم بك ؟

وأخرج بسنده : عن أبى هريرة أنه سمع النبى ﷺ يقول : «إن ثلاثة فى بنى إسرائيل أراد الله أن يتليهم ، فبعث ملكاً فأتى الأبرص فقال : تقطعت بى الجبال فلا بلاغ لى إلا بالله ثم بك» ^(٣) .

● سبب الترجمة للبخارى

قال ابن حجر ^(٤) : كأنه أشار بالصورة الأولى إلى ما أخرجه النسائى فى كتاب الأيمان والنذور وصححه من طريق عبد الله بن يسار بتحتانية ومهملة عن قتيلة بقاف ومثناة فوقانية والتصغير امرأة من جهينة «أن يهودياً أتى النبى ﷺ فقال : إنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشئت ، وتقولون والكعبة ، فأمرهم النبى ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا ورب الكعبة وأن يقولوا ما شاء الله ثم شئت» .

وأخرج النسائى وابن ماجه أيضاً وأحمد من رواية يزيد بن الأصم عن ابن عباس رفعه «إذا حلف أحدكم فلا يقل ما شاء الله وشئت ، ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت» ^(٥) .

وفى أول حديث النسائى قصة وهى عند أحمد ولفظه «أن رجلاً قال للنبى ﷺ ما شاء الله وشئت ، فقال له : «اجعلتنى والله عدلاً ، لابل ما شاء الله وحده» .

(٢) القول المفيد ٢/ ٤٠٩ .

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٥١

(٤) فتح البارى (١١/ ٥٤٨، ٥٤٩)

(٣) سيأتى تخريجه .

(٥) تقدم تخريجه .

وأخرج أحمد والنسائي وابن ماجه أيضاً عن حذيفة «أن رجلاً من المسلمين رأى رجلاً من أهل الكتاب فى المنام فقال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون تقولون ماشاء الله وشاء محمد، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد» (١).

وفى رواية النسائي أن الراوى لذلك هو حذيفة الراوى، هذه رواية ابن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربيع عن حذيفة، وقال أبو عوانة عن عبد الملك عن ربيع عن الطفيل بن سخبرة أخى عائشة بنحوه أخرجه ابن ماجه أيضاً.

قلت وسيأتى نقل سليمان آل الشيخ لكلام ابن حجر فى الفتح عند الكلام مع سند الحديث الآتى فى المتن.

وهكذا قال حماد بن سلمة عند أحمد وشعبة وعبد الله بن إدريس عن عبد الملك، وهو الذى رجحه الحفاظ وقالوا: إن ابن عيينة وهم فى قوله عن حذيفة والله أعلم.

● إشكال وجوابه.

قال ابن حجر: حكى ابن التين عن أبى جعفر الداودى قال: ليس فى الحديث الذى ذكره نهى عن القول المذكور فى الترجمة، وقد قال الله تعالى «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ» وقال تعالى «وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» وغير ذلك.

● الجواب:

وتعقبه بأن الذى قاله أبو جعفر ليس بظاهر لأن قوله «ما شاء الله وشئت» تشريك فى مشيئة الله تعالى.

وأما الآية فإنما أخبر الله تعالى أنه أغناهم وأن رسوله أغناهم وهو من الله حقيقة لأنه الذى قدر ذلك ومن الرسول حقيقة باعتبار تعاطى الفعل، وكذا الإنعام أنعم الله على زيد بالإسلام وأنعم عليه النبي ﷺ بالعتق، وهذا بخلاف المشاركة فى المشيئة فإنها منصرفة لله تعالى فى الحقيقة وإذا نسبت لغيره فبطريق المجاز.

وقال المهلب: إنما أراد البخارى أن قوله «ما شاء الله ثم شئت» جائز مستدلاً بقوله «أنا بالله ثم بك» وقد جاء هذا المعنى عن النبي ﷺ، وإنما جاز بدخول «ثم» لأن مشيئة الله سابقة على مشيئة خلقه، ولما لم يكن الحديث المذكور على شرطه استنبط من الحديث الصحيح الذى على شرطه ما يوافقه.

وأخرج عبدالرزاق عن إبراهيم النخعي أنه كان لا يرى بأساً أن يقول «ما شاء الله ثم شئت» وكان يكره «أعوذ بالله وبك ويجيز «أعوذ بالله ثم بك» وهو مطابق لحديث ابن عباس وغيره مما أشرت إليه . ١. هـ.

قلت: وقد تقدم في الباب قبل الماضي ومعه شرحه

وقال سليمان آل الشيخ^(١) بنحو كلام الحافظ وزاد عليه، فقال:

وهذا نص في أن هذا اللفظ من الشرك؛ لأن النبي ﷺ أقر اليهودى على تسمية هذا اللفظ تنديداً أو شركاً ونهى النبي ﷺ عن ذلك، وأرشد إلى استعمال اللفظ البعيد من الشرك وقول: «ما شاء الله ثم شئت» وإن كان الأولى قول: «ما شاء الله وحده كما يدل عليه حديث ابن عباس وغيره، وعلى النهى عن قول ما شاء الله وشئت جمهور العلماء، إلا أنه حكى عن أبى جعفر الداودى ما يقتضى جواز ذلك احتجاجاً بقوله تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ ونحو ذلك . والصواب القول الأول فإن النبي ﷺ أنكر ذلك وقال لمن قال له ذلك: «أجعلتنى لله نداً» وأقرن من أسمائه تنديداً وشركاً على تسميته ومن المحال أن يكون هذا أمراً جائزاً وأما ما احتج من القرآن فقد ذكروا عن ذلك جوابين . أحدهما: أن ذلك لله وحده، لا شريك له . كما أنه تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته فكذلك هذا .

الثانى: أن قوله: ما شاء الله وشئت . تشريك فى مشيئة الله، وأما الآية فإنما أخبر بها عن فعلين متغايرين، فأخبر تعالى أنه أغناهم وأن رسوله أغناهم . وهو من الله حقيقة، لأنه الذى قدر ذلك، ومن الرسول ﷺ حقيقة باعتبار تعاطى الفعل، وكذا الإنعام أنعم الله على زيد بالإسلام . والنبي ﷺ أنعم عليه بالعتق، وهذا بخلاف المشاركة فى الفعل الواحد؛ فالكلام إنما هو فيه، والمنع إنما هو منه . فإن قلت: قد ذكر النحاة أن ثم تقتضى اشتراك المعطوف والمعطوف عليه فى الحكم كالواو فلم جاز ذلك بشم؟ ومنع الواو . وغاية ما يقال: إن ثم تقتضى الترتيب بخلاف الواو؛ فإنها تقتضى مطلق الجمع، وهذا لا يغير صورة الاشتراك قبل النهى عن ذلك؛ إنما هو إذا أتى بصورة التشريك جميعاً . وهذا لا يحصل إلا بالواو بخلاف ثم؛ فإنها لا تقتضى الجمع، إنما تقتضى الترتيب . فإذا أتى بها زالت صورة التشريك والجمع فى اللفظ . و أما المعنى

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٥١، ٤٥٢)

فله تعالى ما يختص به من المشيئة، وللمخلوق ما يختص به، فلو أتى بشم وأراد أنه شريك لله تعالى في المشيئة كلولا الله ثم فلان، مثلاً لم يوجد ذلك فالنهي باق بحاله، بل يكون في هذه الصورة أشد من أتى بالواو مع عدم هذا الاعتقاد ويشبه ذلك الجمع بين اسم الله واسم غيره في ضمير واحد . و لهذا أنكره النبي ﷺ على الخطيب (لما) قال : ومن يعصهما فقد غوى فقال له : «بئس الخطيب أنت (قل) : ومن يعص الله ورسوله» (١) ا.هـ.

وقال ابن عثيمين (٢): قوله إنكم تشركون تقولون : ما شاء الله وشئت .

أى : تقعون في الشرك أيها المسلمون .

قوله «ما شاء الله وشئت» .

الشرك هنا أنه جعل المعطوف مساوياً للمعطوف عليه، وهو الله - عزوجل - ، حيث كان المعطوف بالواو المفيدة للتسوية ا.هـ .

قال عبدالرحمن آل الشيخ (٣): وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عام، لا يصلح منه شيء لالملك مقرب ولا لنبي مرسل، ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه .

وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم، من الحلف بالكعبة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله . ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع، وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها، وجعلها للأمة قبلة . فالطواف بها مشروع، والحلف بها ودعاؤها ممنوع .

فميز أيها المكلف بين ما يشرع وما يمنع، وإن خالفك من خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً .

قوله : ﴿إنكم تشركون ؛ تقولون : ما شاء الله وشئت﴾ ، والعبد وإن كان له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله، ولا قدرة له على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه، كما قال تعالى ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾ (٤) وقوله تعالى ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٥)﴾ .

(١) [صحيح] أخرجه مسلم (٨٧٠) وتقدم .

(٢) القول المفيد (٢/٤٠٩) .

(٣) فتح المجيد ٢/٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١ .

(٤) التكويد ٢٨-٢٩ .

(٥) الإنسان : ٢٩ - ٣٠ .

وفى هذه الآيات والحديث : الرد على القدرية والمعتزلة نفاة القدر، الذين يشبثون للعبد مشيئة تخالف ما أراد الله تعالى من العبد وشاءه.

وسياتى ما يبطل قولهم - فى باب ماجاء فى منكرى القدر - إن شاء الله، وأنهم مجوس هذه الأمة.

وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتاب والسنة فى هذا الباب وغيره، واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله فى كل شيء، مما وافق ما شرعه الله وما يخالفه: من أفعال العباد وأقوالهم. فالكل بمشيئته وإرادته، فما وافق شرعه رضىه وأحبه، وما خالفه كرهه من العبد؛ كما قال تعالى : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (١).

وفيه : بيان أن الحلف بالكعبة شرك؛ فإن النبى ﷺ أقر اليهودى على قوله : إنكم تشركون أ.هـ.

قال ابن باز (٢): وهذا القول «ما شاء الله وفلان» من الشرك الأصغر وقد يكون من الأكبر إذا أراد أن له أشياء مستقلة يتصرف فيها أ.هـ.
قوله «والكعبة»:

قال ابن عثيمين (٣): والشرك هنا أنه حلف بغير الله
قوله «فأمرهم النبى ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة».
قال ابن عثيمين (٤): ولم ينكر النبى ﷺ ما قال اليهودى، بل أمر بتصحيح هذا الكلام؛ فأمرهم إذا حلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة؛ فيكون القسم بالله.
وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله، ثم شئت؛ فيكون الترتيب بسم بين مشيئة الله ومشية المخلوق، وبذلك يكون الترتيب صحيحاً، أما الأول؛ فلأن الحلف صار بالله، وأما الثانى؛ فلأنه جعل بلفظ يتبين به تأخر مشيئة العبد عن مشيئة الله، وأنه لامساواة بينهما.

● فوائد الحديث

قال سليمان آل الشيخ (٥): معرفة اليهود بالشرك الأصغر، وكثير ممن يدعى

(١) الزمر : ٧

(٢) التعليق المفيد ٢١٦.

(٣) القول المفيد ٤٠٩/٢.

(٤) المصدر السابق ٤٠٩.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٥٢، ٤٥١.

الإسلام لا يعرف الشرك الأكبر، بل يصرف خالص العبادات من الدعاء والذبح، والنذر لغير الله ويظن أن ذلك من دين الإسلام، فعلمت أن اليهود في ذلك الوقت أحسن حالاً ومعرفة منهم.

وفيه فهم الإنسان إذا كان له هوى كما نبه عليه المصنف وسيأتى شرحه من كلام ابن باز.

وأن المعرفة بالحق لا تستلزم الإيمان ولا العمل وقبول الحق ممن جاء به، وإن كان عدواً مخالفاً في الدين.

وإن الحلف بغير الله من الشرك.

وأن الشرك الأصغر لا يمرق به الإنسان من الإسلام أ.هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): وفيه قبول الحق ممن جاء به كائناً من كان.

وسيأتى من كلام حامد بن محمد وفيه بيان النهى عن الحلف بالكعبة مع أنها بيت الله التي حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة.

قال ابن باز^(٢): وفيه أن الناس من أهل الباطل قد يفهمون أشياء ومساائل إذا كان عندهم هوى وإن كانوا هم واقعون في ذنب وفسق وكفر أعظم من ذلك ولهذا عاب اليهود على المسلمين لما في قلوبهم من الغيظ والحقد على الرسول ﷺ وقد أصابوا في قولهم ولهذا أمرهم النبي ﷺ أن يقولوا ماشاء الله ثم شئت وأن يقولوا ورب الكعبة. أ.هـ.

قال حامد بن محمد^(٣): وفي هذا إغراء على أخذ الحق من أى شخص كان وبأى وجه كان، إذ هو حال المتصفيين المتواضعين لله تعالى لأن قائدهم الحق أينما دار داروا وأينما توجه توجهوا كما قال ﷺ «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها لقطها»^(٤) بخلاف المتكبرين فإنه يغمط الناس ويطر الحق انظر إلى ماجاء اليهودى وقال الحق أخذه النبي ﷺ وهو المرسل من الله إلى الخلق أ.هـ.

ومن الفوائد أيضاً:

قال ابن عثيمين^(٥): النبي ﷺ لم ينكر على اليهودى مع أن ظاهر قصده الذم واللوم للنبي ﷺ وأصحابه؛ لأن ما قاله حق.

(١) فتح المجيد (٧٠١/٢).

(٢) التعليق المفيد ٢١٥، ٢١٦.

(٣) فتح الله الحميد المجيد ٣٩٧.

(٤) أخرجه الترمذى (٣٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩) وضعفه الترمذى. وانظر المقاصد الحسنة (٤١٥).

(٥) القول المفيد ٢/٤٠٩ - ٤١٠.

وَلَهُ أَيْضاً عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، فَقَالَ: «أَجْعَلَنِي اللَّهُ نِدَاءً؟! بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَخَذَهُ» (١).

- ١- مشروعية الرجوع إلى الحق وإن كان من نَبَّ عليه ليس من أهل الحق.
- ٢- أنه ينبغي أن يُغَيَّرَ الشيء إلى شيء قريب منه؛ لأن النبي ﷺ أمرهم أن يقولوا: «ورب الكعبة»، ولم يقل: احلفوا بالله، وأمرهم أن يقولوا: «ما شاء الله، ثم شئت». قلت: وفيه حجه لمن قال إن النهي عن تصديق اليهود من قوله ﷺ: «ولا تصدقوا ولا تكذبوا» (٢) ليس على إطلاقه بل إن قالوا ما يوافق الحق الذي معنا نصده وإن قالوا ما يخالفه يكذبه والله أعلم.

وفيه أيضاً خبث اليهود حيث قدموا المدح بين أيدي القدح

● إشكال وجوابه:

- وهو أن يقال: كيف لم يُنَبَّ على هذا العمل إلا هذا اليهودي؟
 وجوابه: أنه يمكن أن الرسول ﷺ لم يسمعه ولم يعلم به.
 ولكن يقال: بأن الله يعلم؛ فكيف يقرهم؟
 فيبقى الإشكال، لكن يجاب: إن هذا من الشرك الأصغر دون الأكبر؛ فتكون الحكمة هي ابتلاء هؤلاء اليهود الذين انتقدوا المسلمين بهذه اللفظة مع أنهم يشركون شركاً أكبر ولا يرون عيبهم.
 قلت: فقيه معنى ما جاء عن الحسن البصري - رحمه الله - : لا تبصر القذاة في عين أخيك وتنسى الجذع أو الجذل في عينك.
 وكذلك اليهود في هذا الأثر بل وفي كل عصر ومصر.



قوله: وله أيضاً عن ابن عباس، أن رجلاً قال للنبي ﷺ ما شاء الله... الحديث.
 قال سليمان آل الشيخ (٣): هذا الحديث رواه النسائي، كما قال المصنف لكن في «اليوم والليلة» وهذا لفظه. أخبرنا علي بن خشرم عن عيسى، عن الأجلح عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فكلمه في بعض الأمر فقال: ما شاء الله

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٦/٤)، وأبو داود (٣٦٤٤) عن ابن أبي غلة به.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٥٣.

وشئت فقال النبي ﷺ: «أجعلتني لله عدلاً؟ قل: ما شاء الله وحده». ورواه ابن ماجه في الكفارات من «السنن» عن هشام بن عمار، عن عيسى نحوه. ولفظه «إذا حلف أحدكم فلا يقل: ما شاء الله وشئت» الحديث. وقد تابع عيسى على هذا الحديث سفيان الثوري، وعبد الرحمن المجازلي، وجعفر بن عون عن الأجلح وكلهم ثقات. وخالفهم القاسم بن مالك وهو ثقة فرواه عن الأجلح، عن أبي الزبير عن جابر، والأول أرجح. ويحتمل أن يكون عند الأجلح عنهما جميعاً أ.هـ.

● مناسبة الحديث للباب وللتوحيد:

قال القرعاوي^(١): حيث دل الحديث على أن قول ما شاء الله وشئت شرك أصغر.

قوله: [أن رجلاً قال للنبي ﷺ]:

قال ابن عثيمين^(٢): الظاهر أنه قاله للنبي ﷺ تعظيماً، وأنه جعل الأمر مقوضاً لمشيئة الله ومشية رسوله أ.هـ.

قوله: «أجعلتني لله ندأ».

قال سليمان آل الشيخ^(٣): قوله: «أجعلتني لله ندأ» هذه رواية ابن مردويه، والرواية عند النسائي وابن ماجه «أجعلتني لله عدلاً» والمعنى واحد.

قال ابن القيم: ومن ذلك أى: من الشرك بالله في الألفاظ قول القائل للمخلوق: ما شاء الله وشئت، كما ثبت عن النبي ﷺ، أنه قال له رجل: ما شاء الله وشئت، وذكر الحديث المشروح. ثم قال هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة. لقوله: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ فكيف بمن يقول: أنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، ومالي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لى في السماء وأنت لى في الأرض. والله وحياة فلان أو يقول: نذراً لله ولفلان، وأنا تائب لله ولفلان، وأرجو الله ولفلاناً. فوازن بين هذه الألفاظ، وبين قول القائل: ما شاء الله وشئت، ثم انظر أيهما أفحش. يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبي ﷺ القائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعله ندأ بها، فهذا قد جعل من

(١) الجديد ٣٧٤.

(٢) القول المفيد ٢/ ٤١٠ و ٤١١.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٥٣، ٤٥٤.

لا يداني رسول الله ﷺ فى شىء من الأشياء، بل لعله أن يكون من أعدائه ندأً لرب العالمين. فالسجود، والعبادة، والتوكل، والإنابة، والتقوى، والخشية، والتوبة، والنذر، والحلف، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً، والطواف بالبيت والدعاء. كل ذلك محض حق الله الذى لا يصلح ولا ينبغي لسواه، من ملك مقرب ولا نبي مرسل. وفى «مسند الإمام أحمد» أَنَّ رَجُلًا أَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَدْ أَذْنَبَ فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقَالَ: «عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ»^(١).

قلت يعنى سليمان آل الشيخ: إذا كان هذا كلامه ﷺ، لمن قال له: ما شاء الله وشئت فكيف بمن يقول فيه؟!.

فإن من جودك الدنيا وضرتها
ومن علومك علم اللوح والقلم
ويقول فى همزته:

هذه علتي وأنت طيبسى
ليس يخفى عليك فى القلب داء
وأشبه هذا من الكفر الصريح ا.هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): هذا يقرر ما تقدم: من أن هذا شرك لوجود التسوية فى العطف بالواو. وقوله: [أجعلتنى لله ندأً] فيه بيان أن من سوى العبد بالله ولو فى الشرك الأصغر فقد جعله ندأً لله، شاء أم أبى. خلافاً لما يقوله الجاهلون بما يختص بالله تعالى من عبادته، وما يجب النهى عنه من الشرك بنوعيه. ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ا.هـ.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «أجعلتنى لله ندأً؟!». الاستفهام للإنكار، وقد ضُمَّن معنى التعجب، ومن جعل للخالق ندأً؛ فقد أتى شيئاً عجاباً.

والندأ: هو النظير والمساوى؛ أى: أ جعلتنى لله مساوياً فى هذا الأمر؟!
قوله: «بل ما شاء الله وحده».

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٣٥/٣) عن الأسود بن سريع.

(٢) فتح المجيد ٧٠١/٢.

(٣) القول المفيد ٤١١/٢ و٤١٢.

أرشد النبي ﷺ إلى ما يقطع عنه الشرك، ولم يرشده إلى أن يقول ما شاء الله ثم شئت حتى يقطع عنه كل ذريعة عن الشرك وإن بُعِدَتْ.

● يستفاد من الحديث:

١- أن تعظيم النبي ﷺ بلفظ يقتضى مساواته للخالق شرك، فإن كان يعتقد المساواة؛ فهو شرك أكبر، وإن كان يعتقد أنه دون ذلك؛ فهو أصغر، وإذا كان هذا شركاً؛ فكيف بمن يجعل حق الخالق للرسول ﷺ؟!

هذا أعظم؛ لأنه ﷺ ليس له شيء من خصائص الربوبية، بل يلبس الدرع، ويحمل السلاح، ويجوع، ويتألم، ويمرض، ويعطش كبقية الناس، ولكن الله فضَّله على البشر بما أوحى إليه من هذا الشرع العظيم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ فهو بشر، وأكد هذه البشرية بقوله: ﴿مِثْلُكُمْ﴾، ثم جاء التمييز بينه وبين بقية البشر بقوله تعالى: ﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، ولا شك أن الله أعطاه من الأخلاق الفاضلة التي بها الكمالات من كل وجه: أعطاه من الصبر العظيم، وأعطاه من الكرم ومن الجود، لكنها كلها في حدود البشرية، أما أن تصل إلى خصائص الربوبية؛ فهذا أمر لا يمكن، ومن ادعى ذلك؛ فقد كفر بمحمد ﷺ وكفر بمن أرسله.

فالمهم أننا لا نغلو في الرسول عليه الصلاة والسلام فننزله في منزلة هو ينكرها، ولانهضم حقه الذي يجب علينا فنعطيه ما يجب له، ونسأل الله أن يعيننا على القيام بحقه، ولكننا لاننزله منزلة الرب - عز وجل -.

٢- إنكار المنكر وإن كان في أمر يتعلق بالمنكر؛ لقوله ﷺ: «أجعلتني لله نداً؟!»، مع أنه فعل ذلك تعظيماً للنبي ﷺ، وعلى هذا إذا انحى لك شخص عند السلام؛ فالواجب عليك الإنكار.

٣- أن من حسن الدعوة إلى الله - عز وجل - أن تذكر ما يباح إذا ذكرت ما يحرم؛ لأنه ﷺ لما منعه من قول: «ما شاء الله وشئت» أرشده إلى الجائز، وهو قوله: «بل ما شاء الله وحده».

قلت: وتقدم غير مرة التحذير من أن يفهم هذا الكلام بعيداً عن قيوده التي تفهم من كلام الشيخ بل صرح بها هنا منها الإباحة للبديل فلا يكون بدعة منكورة.



ولابن ماجه عن الطفيل أخى عائشة لأمها؛ قال: رأيتُ كأنى أتيتُ على نفرٍ من اليهود؛ قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزيرُ ابنُ الله. قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررتُ بنفرٍ من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيحُ ابنُ الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرتُ، ثم أتيتُ النبی ﷺ فأخبرته؛ قال: «هل أخبرت بها أحدا؟» قلتُ: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد؛ فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم. وإنكم قلتم كلمة يَمْنَعُنِي كذا وكذا أن أنهاكم عنها؛ فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ما شاء الله وحده» (١).

قوله: ولابن ماجه عن الطفيل أخى عائشة لأمها.

- قال سليمان آل الشيخ (٢): هذا الحديث لم يروه ابن ماجه بهذا اللفظ عن الطفيل. إنما رواه عن حذيفة ولفظه: حدثنا هشام بن عمار ثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة بن اليمان أن رجلاً من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلاً من أهل الكتاب فقال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، وذكر ذلك النبي ﷺ، فقال: «أما والله إن كنت لأعرفها لكم قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد».

ورواه أحمد والنسائي بنحوه. وفي رواية للنسائي أن الراوى لذلك هو حذيفة نفسه. هذه رواية ابن عيينة، ثم ذكر ابن ماجه حديث الطفيل هذا فساق إسناده ولم يذكر اللفظ. فقال: حدثنا ابن أبي الشوارب، ثنا ابن عوانة عن عبد الملك، عن ربعي بن حراش، عن الطفيل بن سخبرة أخى عائشة لأمها، عن النبي ﷺ، بنحوه، هذا لفظ ابن ماجه. وهكذا رواه حماد بن سلمة وشعبة وابن إدريس عن عبد الملك، فقالوا: عن

(١) أخرجه ابن ماجه فى الكفارات/ باب النهى أن يقال ما شاء الله وشئت (١/٦٨٥/٢١١٨).

قال: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، ثنا أبو عوانة، عن عبد الملك، عن ربعي بن حراش، عن الطفيل بن سخبرة أخى عائشة... الحديث.

قال فى الزوائد: رجال الإسناد ثقات على شرط البخارى وانظر «فتح المجيد» (ح ٧٧٤) بتخريجنا.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٥٥.

الطفيل وهو الذى رجحه الحفاظ، وقالوا ابن عينة وهم فى قوله: عن حذيفة فقد تبين أن هذا الحديث المذكور لم يروه ابن ماجة بهذا اللفظ، لكن رواه أحمد والطبرانى بنحو مما ذكره المصنف ١. هـ.

ـ مناسبة الحديث للباب وللتوحيد:

قال القرعاوى^(١): دل الحديث على تحريم عطف مشيئة المخلوق على مشيئة الله بالواو لأن الواو تقتضى التشريك بين المتعاطفين وذلك يؤدى إلى الشرك بالله ١. هـ. قوله: «عن الطفيل».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «عن الطفيل» هو ابن سخبرة وفى حديثه هذا أنه أخو عائشة لأُمها، وكذا قال الحربى. وقال: الذى عندى أن الحارث بن سخبرة قدم مكة، فحالف أبا بكر فمات فخلف أبو بكر على أم رومان فولدت له عبدالرحمن وعائشة، وكان لها من الحارث الطفيل بن الحارث، فهو أخو عائشة لأُمها. وقيل غير ذلك. وهو صحابى ليس له إلا هذا الحديث قال البغوى لا أعلم له غيره ١. هـ.^(٣)

قوله: «رأيت كائى أتيت على نفر من اليهود».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قوله: «رأيت فيما يرى النائم». كما روى أحمد، والطبرانى. قلت/ وتقدم التخريج من كلام ابن حجر فى الفتح قال ابن عثيمين^(٥): أى رؤيا فى المنام. قوله: «كأن».

قال ابن عثيمين^(٦): إسمها «الياء» وجملتها «أتيت» خبرها. قوله: «على نفر من اليهود».

قال سليمان آل الشيخ^(٧): قوله: «على نفر من اليهود» وفى رواية أحمد، والطبرانى، كائى مررت برهط من اليهود فقلت: من أئتم فقالوا: نحن اليهود، والنفر

(١) الجديد ٣٧٧.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٥٥.

(٣) ذكره ابن الأثير فى «أسد الغابة» (٧٧/٣، ٧٨) والحافظ فى الإصابة (٢١٦/٢) وقال الحافظ: وكان عبدالله بن الحارث بن سخبرة قدم مكة فحالف أبا بكر، فمات، فخلفه أبو بكر بعده على أم رومان. فيكون الطفيل أكبر من عائشة ومن أخيها عبدالرحمن.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٥٥.

(٥) القول المفيد ٤١٢/٢.

(٦) القول المفيد ٤١٣/٢.

(٧) تيسير العزيز الحميد ٤٥٥.

رھط الإنسان وعشيرته. وهو اسم جمع يقع على جماعة من الرجال خاصة، ما بین الثلاثة إلى العشرة. ولا واحد له من لفظه قاله أبو السعادات ا.هـ.

قال سليمان آل الشيخ^(١): وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله ﷺ وعمل بمقتضاها فنهاهم أن يقولوا: ما شاء الله وشاء محمد وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله وحده ا.هـ.
قوله: «فقلت إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزيز ابن الله».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): أى نعم القوم أنتم لولا ما أنتم عليه من الشرك، والمسبة لله بنسبة الولد إليه وهذا لفظ الطبراني، ولفظ أحمد قال: أنتم القوم .
قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «لأنتم القوم».

كلمة مدح؛ كقولك: هؤلاء هم الرجال.
وقوله: «عزيز».

هو رجل صالح ادَّعى اليهود أنه ابن الله، وهذا من كذبهم، وهو كفر صريح، واليهود لهم مثالب كثيرة، لكن خصّت هذه؛ لأنها من أعظمها وأشهرها عندهم ا.هـ.

قوله: «قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): عارضوه بذكر شيء مما فى المسلمين من الشرك الأصغر فقالوا له: هذا الكلام أى: نعم القوم أنتم لولا ما فيكم من الشرك، وكذلك جرى له مع النصارى ا.هـ.

قال ابن عثيمين^(٥): قوله: «ما شاء الله وشاء محمد».

هذا شرك أصغر؛ لأن الصحابة الذين قالوا هذا ولا شك أنهم لا يعتقدون أن مشيئة الرسول ﷺ مساوية لمشيئة الله، فانتقدوا عليهم تسوية مشيئة الرسول ﷺ بمشيئة الله - عز وجل - باللفظ مع عظم ما قاله هؤلاء اليهود فى حق الله - جل وعلا - .
قوله: تقولون: المسيح ابن الله».

قال: ابن عثيمين: هو عيسى بن مريم، وسُمّي مسيحاً بمعنى ماسح؛ فهو فعيل بمعنى فاعل؛ لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برىء بإذن الله؛ كالأكمة والأبرص.

(١) فتح المجيد ٧٠٢/٢ . (٢) تيسير العزيز الحميد ٤٥٥ و ٤٥٦

(٣) القول المفيد ٤١٤ . (٤) تيسير العزيز الحميد ٤٥٥ و ٤٥٦

(٥) القول المفيد ٤١٤/٢ و ٤١٥ .

قلت: وقد تقدّم معناه بالتفصيل فى شرح قوله: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ». (فى باب فضل التوحيد وما بكفر من الذنوب).

قال ابن عثيمين: والشيطان لعب بالنصارى، فقالوا: هو ابن الله؛ لأنه أتى بدون أب، ولا سيما إذا كان فى الإنجيل؛ كما فى القرآن: «فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا»^(١)، قالوا: هو جزء من الله؛ لأن الله أضافه إليه، والجزء هو الابن.

والروح على الراجح عند أهل السنة: ذات لطيفة تدخل الجسم وتحل فيه كما يحل الماء فى الطين اليابس، ولهذا يقبضها الملكُ عند الموت وتُكْفَنُ ويصعد بها ويراهها الإنسان عند موته؛ فالصحيح أنها ذات وإن كان بعض الناس يقول: إنها صفة، ولكنه ليس كذلك، والحياة صحيح أنها صفة لكن الروح ذات، إذاً نقول لهؤلاء النصارى: إن الله أضاف روح عيسى إليه كما أضاف البيت والمساجد والناقة إليه وما أشبه ذلك على سبيل التشريف والتعظيم، ولا شك أن المضاف إلى الله يكتسب شرفاً وعظمة، حتى إن بعض الشعراء يقول فى معشوقته:

لَا تَدْعُنِي إِلَّا يَبَا عَبْدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

قلت: وتقدم الرد عليهم فى باب فضل التوحيد

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): وهذا الحديث الذى قبله أمرهم فيه أن يقولوا ما شاء الله وحدة ولا ريب أن هذا أكمل فى الإخلاص وأبعد عن الشرك من أن يقولوا: ثم شاء فلان لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافى للتسديد من كل وجه. فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال فى مقام التوحيد والإخلاص أ.هـ.

قوله: «فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت».

قال سليمان آل الشيخ^(٣): وفى رواية أحمد فلما أصبح أخبر بها من أخبر، وفى الطبرانى فلما أصبحت أخبرت بها أناساً.

قوله: «هل أخبرت بها أحداً».

قال ابن عثيمين^(٤): سأل النبى ﷺ هذا السؤال؛ لأنه لو قال: لم أخبر أحداً؛ فالتوقع أن الرسول عليه الصلاة والسلام سيقول له: لاتخبر أحداً، هذا هو الظاهر، ثم يبين له الحكم عليه الصلاة والسلام، لكن لما قال: إنه أخبر بها؛ صار لا بد من بيانها للناس عموماً؛ لأن الشيء إذا انتشر يجب أن يعلن عنه، بخلاف إذا كان خاصاً؛ فهذا يخبر به من وصله الخير أ.هـ.

(١) الأنبياء: ٩١. (٢) فتح المجيد ٢/٢٠٧.

(٣) تيسير العزيز الحميد. (٤) القول المفيد ٢/٤١٥/٤١٦.

قوله: «ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله ثم أتيت النبي ﷺ، فأخبرته. فيه حسن خلقه ﷺ، وعدم احتجابه عن الناس كالمملوك بحيث إذا أراد أحد الوصول إليه أمكنه ذلك بلا كلفة ولا مشقة، بل يصلون إليه ويقضى حاجتهم ويخبرونه بما يحتاجون إليه من أمر دينهم ودنياهم. ويقصون عليه ما يرونه فى المنام، بل كان ﷺ يعتنى بالرويا لأنها من أقسام الرقى. وكان إذا صلى الصبح كثيراً ما يقول: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟»^(٢).

قوله: «فحمد الله وأثنى عليه».

قال سليمان آل الشيخ^(٣): قوله: فحمد الله وأثنى عليه. وفى رواية أحمد فلما أصبحوا خطبهم فحمد الله وأثنى عليه. وفى رواية الطبرانى فلما صلى الظهر قام خطيباً. ففيه مشروعية حمد الله والثناء عليه فى الخطب، وفيه الخطبة فى الأمور المهمة. وأما معنى الحمد فقد تقدم فى باب قول الله تعالى: «أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً»^(٤). وأما الثناء فقال ابن القيم: هو تكرار المحامد.

قوله: ثم قال: «أما بعد» فى رواية أحمد، والطبرانى. ثم قال: «إن طفيلاً رأى رؤياً» ولم يذكر أما بعد. وفى رواية للطبرانى فقام نبي الله على المنبر فقال: «إن أخاكم رأى رؤياً قد حدثكم بما رأى» فيه مشروعية: أما بعد فى الخطب فى هذا الحديث، وإلا فلا يضر فإنها ثابتة فى خطبه عليه السلام، وفى غيره أ.هـ.

قلت: وراجع فى ذلك كتابى فقه الخطابة باب من قال فى الخطبة بعد الثناء.. أما بعد فقد ذكرت المواضع التى ذكرت فيها وإعرابها ومعناها وأنها فصل ما بعدها عما قبلها وأنها فصل الخطاب الذى آتاه الله لداود.

قوله: «وإنكم قلتم كلمة يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها».

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قوله: «وإنكم قلتم كلمة كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها» وفى رواية أحمد، والطبرانى «وإنكم كنتم تقولون كلمة كان يمنعنى الحياء

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٥٦) ..

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٧ - ٧)، ومسلم فى الرويا (٨/ ٣٧/ ٢٣) عن سمره به

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٥٦

(٤) الأعراف: ١٩١.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٥٦ و ٤٥٧.

منكم أن أنهاكم عنها». وهذا الحياء منهم ليس على سبيل الحياء من الإنكار عليهم، بل كان ﷺ يكرهها ويستحى أن يذكرها؛ لأنه لم يأمر بإنكارها، فلما جاء الأمر الإلهي بالرؤيا الصالحة أنكرها، ولم يستحى فى ذلك وفيه دليل على أنها من الشرك الأصغر؛ إذ لو كانت من الأكبر لأنكرها من أول مرة قالوها. وفيه ما كان عليه النبي ﷺ، من الحياء وأنه من الأخلاق المحمودة أ.هـ.

وقال بنحوه عبدالرحمن آل الشيخ وسيأتى

قلت: وبهذا قد يتأيد القول بأن قوله - ﷺ - «أفلح وأبىه إن صدق - منسوخ وقد تقدم الكلام على ذلك فى باب «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا»

قال عبدالرحمن آل الشيخ (١): وقوله: «كان يمتنع كذا وكذا أن أنهاكم عنها». وفى بعض الطرق أنه كان يمتنع الحياء منهم. وبعد هذا الحديث الذى حدثه به الطفيل عن رؤياه خطبهم ﷺ فتفى عن ذلك نهياً بليغاً فما زال ﷺ يبلغهم حتى أكمل الله له الدين وأتم له به النعمة، وبلغ البلاغ الميسن صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين أ.هـ.

قال ابن عثيمين (٢): قوله: «يمتنع كذا وكذا».

أى: يمتنع الحياء كما فى رواية أخرى، ولكن ليس الحياء من إنكار الباطل، ولكن من أن ينهى عنها دون أن يأمره الله بذلك، هذا الذى يجب أن تحمل عليه هذه اللفظة إن كانت محفوظة: أن الحياء الذى يمتنع ليس الحياء من الإنكار؛ لأن الرسول ﷺ لا يستحى من الحق، ولكن الحياء من أن ينكر شيئاً قد درج على الألسنة وألفه الناس قبل أن يؤمر بالإنكار، مثل الخمر بقى الناس يشربونها حتى حرمت فى سورة المائدة؛ فالرسول ﷺ لما لم يؤمر بالنهى عنها سكنت، ولما حصل التنبيه على ذلك بإنكار هؤلاء اليهود والنصارى رأى ﷺ أنه لا بد من إنكارها لدخول اللوم على المسلمين بالنطق بها أ.هـ.

قوله: «فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله وحده».

قال سليمان آل الشيخ (٣): هذا على سبيل الاستحباب وإلا فيجوز أن يقول: ما

(١) فتح المجيد ٢/ ٧٠٢ و ٧٠٣.

(٢) القول المفيد ٢/ ٤١٦ و ٤١٧.

(٣) تيسير العزيز الحميد.

شاء الله ثم شاء فلان كما تقدم . وفيه أن الرؤيا قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام كما
فى الحديث ، وحديث الأذان ، وحديث الذكر بعد الصلوات ١. هـ .

قال ابن عثيمين^(١): نهاهم عن الممنوع وبين لهم الجائز ١. هـ .
فوائد(٢):

١- فضل الطفيل رضى الله عنه .

٢- إثبات المشيئة لله .

٣- تحريم عطف مشيئة المخلوق على مشيئة الله بالواو حمل على الشرك الأصغر .

٤- أن الرؤيا قد تكون سبباً لتشريع بعض الأحكام فى عهد رسول الله ﷺ وسيأتى
فى آخر مسئلة من الباب .

قلت: لكن هذا محله زمن الوحي أما بعد إنقطاعه وإكمال الدين وإتمام النعمة فلا
يلتفت إلى ذلك .

قلت: وتقدم ما فيه .

٥- فيه حسن خلقه ﷺ حيث لم يحتجب عن الناس وقد تقدم من كلام سليمان آل
الشيخ .

٦- مشروعية ابتداء الخطيب بحمد الله والثناء عليه .

٧- مشروعية الخطبة فى الأمور الهامة .

٨- مشروعية أما بعد فى الخطبة .

٩- مشروعية التثبت وعدم التسرع فى الأمور .

١٠- الأمر بإفراد الله بالمشيئة ١. هـ .

- فائدة: وفيه معنى قوله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من
النبوّة»(٣) .

(١) القول المفيد ٢/ ٤١٧ .

(٢) الجديد ٣٧٧ .

(٣) تقدم تخريجه .

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى.

قال عبد الرحمن آل الشيخ: وإن كان رؤيا منام فهي وحى يشبث بها ما ثبت بالوحي أمراً ونهياً والله أعلم.



فيه مسائل:

قال ابن عثيمين^(١).

● الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

لقوله: «إنكم لتشركون».

● الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى.

أى: إذا كان له هوى فهم شيئاً، وإن كان هو يرتكب مثله أو أشد منه؛ فاليهود - مثلاً - أنكروا على المسلمين قولهم: «ما شاء الله وشئت»، وهم يقولون أعظم من هذا، يقولون: عزيز ابن الله، ويصفون الله تعالى بالتقائص والعيوب.

ومن ذلك بعض المقلدين يفهم النصوص على ما يوافق هواه؛ فتجده يحمل النصوص من الدلالات ما لا تحتل كذلك أيضاً بعض العصريين يحملون النصوص ما لا تحتمله حتى توافق ما اكتشفه العلم الحديث فى الطب والفلك وغير ذلك، كل هذا من الأمور التى لا يحمد الإنسان عليها؛ فالإنسان يجب أن يفهم النصوص على ما هى عليه، ثم يكون فهمه تابعاً لها، لا أن يُخضع النصوص لفهمه أو لما يعتقده، ولهذا يقولون: استدل ثم اعتقد، ولا تعتقد ثم تستدل؛ لأنك إذا اعتقدت ثم استدلت ربما يحملك اعتقادك على أن تُحرّف النصوص إلى ما تعتقده كما هو ظاهر فى جميع الملل والمذاهب المخالفة لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، تجدهم يحرفون هذه النصوص لتوافق ما هم عليه، والحاصل أن الإنسان إذا كان له هوى؛ فإنه يحمل النصوص ما لا تحتمله من أجل أن توافق هواه ١. هـ.

(١) القول المفيد ٢/٤١٧ و ٤٢١.

الثالثة: قَوْلُهُ ﷺ: «أَجْعَلَنِي اللَّهُ نَذَاءً؟!» فَكَيْفُ بَيْنَ قَالَ: يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي
مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ...» وَالْبَيْتَيْنِ بَعْدَهُ؟

الرابعة: أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الشَّرْكِ الْأَكْبَرِ، لِقَوْلِهِ «يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا».

الخامسة: أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ مِنْ أَقْسَامِ الْوَحْيِ.

● الثالثة: قَوْلُهُ ﷺ: «أَجْعَلَنِي اللَّهُ نَذَاءً؟!».

فكيف بمن قال:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك

والبيتين بعده؟!

قوله: «أَجْعَلَنِي اللَّهُ نَذَاءً».

هو قوله: «ما شاء الله وشئت».

وقوله: «فكيف من قال: يا أكرم الخلق...» يشير رحمه الله إلى بيتين للبوصيري في

البردة - القصيدة المشهورة -، يقول:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ	سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ
إِنْ لَمْ تَكُنْ أَخْذًا يَوْمَ الْمَعَادِ يَدِي	عَفْوًا وَإِلَّا فَقُلْ يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ
فإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا	وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

وهذا غاية الكفر والغلو؛ فلم يجعل الله شيئاً، والنبي ﷺ شرفه بكونه عبد الله
ورسوله، لا لمجرد كونه محمد بن عبد الله.

● الرابعة: أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الشَّرْكِ الْأَكْبَرِ.

لقوله: «يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا»؛ لأنه لو كان من الشرك الأكبر ما منعه شيء من
إنكاره.

● الخامسة: أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ مِنْ أَقْسَامِ الْوَحْيِ.

تؤخذ من حديث الطفيل، ولقوله ﷺ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا
مِنَ النَّبُوَّةِ»، لأن أول الوحي كان بالرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ مِنْ رِبْعِ الْأَوَّلِ إِلَى رَمَضَانَ، وَهَذَا سِتَّةَ
أَشْهُرٍ، فَإِذَا نُسِبَتْ هَذَا إِلَى بَقِيَةِ زَمَنِ الْوَحْيِ؛ كَانَ جُزْءًا مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا؛ لِأَنَّ
الْوَحْيَ كَانَ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ مُقَدِّمَةً لِلْوَحْيِ الْأَتَمِّ.

السادسة: أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام.

والرؤيا الصالحة: هي التي تتضمن الصلاح، وتأتي منظمة وليست بأضغاث أحلام. أما أضغاث الأحلام؛ فإنها مشوشة غير منظمة، وذلك مثل التي قصّها رجل على النبي ﷺ قال: إني رأيت رأسي قد قُطع، وإنّي جعلت أشدّ وراءه سعيّاً. فقال النبي ﷺ: «لا تُحدّث الناس بتلاعب الشيطان بك في منامك»^(١)، والغالب أن المرأى المكروهة من الشيطان، قال الله تعالى: «إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»^(٢)، ولذلك أرشد النبي ﷺ لمن رأى ما يكره أن يتفلّ عن يساره، أو ينفث ثلاث مرات، وأن يقول: «أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت وأن يتحوّل إلى الجانب الآخر، وأن لا يخبر أحداً»^(٣)، وفي رواية: «أمره أن يتوضأ وأن يصلي»^(٤).

● السادسة: أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام.

من ذلك رؤيا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه يذبح ابنه، وهذا الحديث، وكذلك أثبت النبي ﷺ رؤيا عبدالله بن زيد في الأذان، وقال النبي ﷺ: «إنها رؤيا حق»^(٥)، وأبو بكر رضي الله عنه أثبت رؤيا من رأى ثابت بن قيس بن شماس؛ فقال للذي رآه: إنكم ستجدون درعى تحت برمة، وعندها فرس يستن. فلما أصبح الرجل ذهب إلى خالد بن الوليد وأخبره، فذهبوا إلى المكان ورأوا الدرع تحت البرمة عندها الفرس^(٦)، فنقذ أبو بكر وصيته؛ لوجود القرائن التي تدل على صدقها، لكن لو دلّت على ما يخالف الشريعة؛ فلا عبرة بها، ولا يلتفت إليها؛ لأنها ليست رؤيا صالحة أ.هـ.



(١) [صحيح] أخرجه: مسلم في الرؤيا (١٤/٣١/٨) عن جابر به.

(٢) المجادلة: ١٠.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في الرؤيا (٢٠/١٥) - النووي عن جابر به.

وانظر «رياض الصالحين» (٨٤٤) - بتخریجنا.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧٠١٧)، ومسلم في الرؤيا (٦/٢٢/٨) عن أبي هريرة به.

(٥) حسن أخرجه: أحمد (٤٣/٤)، وأبو داود (٤٩٩)، والترمذي (١٨٩)، وابن ماجه (٧٠٦) وانظر

«السلسلة» (٢٦٧) - بتخریجنا.

(٦) ذكره الهيثمي في «المجمع» (٣٢١/٩)، وقال: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح».

مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ، فَقَدْ آذَى اللَّهَ

مناسبة هذا الباب لما قبله

قال الفقير: مناسبة هذا الباب للذي قبله تظهر في أمور منها.

١ - انهما يدخلان في قوله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا﴾ وهو الباب قبلهما.

٢ - أنهما تضمنا جملة من الألفاظ المنهى عنها لمخالفتها للتوحيد فناسب أن يأتي بها المصنف على نسق واحد وترتيب واحد.

- مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة؛ لأن سب الدهر يتضمن الشرك كما سيأتي بيانه أ.هـ.

- شرح الترجمة:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): ولفظ الأذى في اللغة هو لما خف أمره، وضعف أثره من الشرك والمكروه. ذكره الخطابي.

قال شيخ الإسلام: وهو كما قال. وهذا بخلاف الضرر. فقد أخبر سبحانه أن العباد لا يضررونه كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ فبين سبحانه أن الخلق لا يضررونه، لكن يؤذونه إذا سبوا مقلب الأمور أ.هـ.

قال ابن عثيمين^(٣): السب: الشتم، والتقيح، والذم، وما أشبه ذلك.

الدَّهْر: هو الزمان والوقت.

وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللوم؛ فهذا جائز، مثل أن يقول: تعبنا من شدة حر هذا اليوم أو برده، وما أشبه ذلك؛ لأن الأعمال بالنيات، ومثل هذا اللفظ صالح

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٥٧.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٥٧.

(٣) القول المفيد ٢ / ٢٢٢ ر ٤٢٣.

لمجرد الخير، ومنه قول لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

قلت/ وكقوله تعالى ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾

الثاني: أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل، كأن يعتقد بسب الدهر أن الدهر هو الذى يُقَلَّبُ الأمور إلى الخير والشر؛ فهذا شرك أكبر لأنه اعتقد أن مع الله خالقاً؛ لأنه نسب الحوادث إلى غير الله، وكل من اعتقد أن مع الله خالقاً؛ فهو كافر، كما أن من اعتقد أن مع الله إلهاً يستحق أن يعبد؛ فإنه كافر.

الثالث: أن يسب الدهر لا لاعتقاده أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل، لكن يسبه لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده؛ فهذا محرم، ولا يصل إلى درجة الشرك، وهو من السفه فى العقل والضلال فى الدين؛ لأن حقيقة سبه تعود إلى الله - سبحانه؛ لأن الله تعالى هو الذى يصرف الدهر ويكون فيه ما أراد من خير أو شر، فليس الدهر فاعلاً، وليس هذا السب يُكفِّر؛ لأنه لم يسب الله تعالى مباشرة.

قوله: «فقد آذى الله».

لا يلزم من الأذية الضرر؛ فالإنسان يتأذى بسماع القبيح أو مشاهدته، ولكنه لا يتضرر بذلك، ويتأذى بالرائحة الكريهة كالبصل والثوم ولا يتضرر بذلك، ولهذا أثبت الله الأذية فى القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾^(١)، وفى الحديث القدسي: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار»^(٢)، ونفى عن نفسه أن يضره شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾^(٣)، وفى الحديث القدسي: «يا عبادى! إنكم لن تبلفوا ضرى فتضرونى»^(٤). رواه مسلم أ.هـ.

- ماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال ابن باز^(٥): أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان أن سب الدهر وغيره من المعاصى من جملة الأشياء التى تناقض التوحيد وتضعفه وتنافى كماله، فالواجب الحذر من

(١) الأحزاب: ٥٧. (٢) يأتى: تخريجه.

(٣) آل عمران: ١٧٦.

(٤) [صحيح] أخرجه: مسلم فى البر والصلة (١٦/١٣٢ - النووى) عن أبى ذر به. وانظر «رياض الصالحين» (١١٢) - بتخريجنا.

(٥) التعليق المفيد ٢١٩.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (١).

الأسباب التي تضعف الإيمان من المعاصي وسب الدهر وسب الريح وسب ما لا يستحق السب وما يغضب الله، لأن الدهر مخلوق مُدَبَّر ليس في يده تصرف فهو مدبر من الله تعالى وهو الليل والنهار فسيبه إيذاء الله والله لا يضره شيء ولكن المعاصي تؤذي الله لأنها تغضبه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ١. هـ.

قال ناصر السعدي (٢): وهذا واقع كثيراً في الجاهلية، وتبعهم على هذا كثير من الفساق والمجان والحمقى إذا جرت تصاريف الدهر على خلاف مرادهم جعلوا يسبون الدهر والوقت، وربما لعنوه. وهذا ناشئ من ضعف الدين ومن الحمق والجهل العظيم، فإن الدهر ليس عنده من الأمر شيء، فانه مدبر مصرف والتصاريف الواقعة فيه تدبير العزيز الحكيم، ففي الحقيقة يقع العيب والسب على مدبره.

وكما أنه نقص في الدين فهو نقص في العقل فيه تزداد المصائب ويعظم وقعها ويغلق باب الصبر الواجب، وهذا منافي للتوحيد.

أما المؤمن فإنه يعلم أن التصاريف واقعة بقضاء الله وقدره وحكمته، فلا يتعرض لعب ما لم يعبه الله ولا رسوله، بل يرضى بتدبير الله ويسلم لأمره وبذلك يتم توحيده وطمأنينته أ. هـ.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الآية.

- مطابقة الآية للترجمة:-

قال سليمان آل الشيخ (٣): فإن قلت: فأين مطابقة الآية للترجمة إذا كانت خبراً عن الدهرية المشركين؟.

قيل: المطابقة ظاهرة؛ لأن من سب الدهر فقد شاركهم في سبه، وإن لم يشاركهم في الاعتقاد أ. هـ.

وقال ابن عثيمين (٤):

(١) الجاثية: ٢٤.

(٢) القول السديد ١١١.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٥٨.

(٤) القول المفيد ٢/٤٢٦.

مناسبة الآية للباب:

إن في الآية نسبة الحوادث إلى الدهر، ومن نسبها إلى الدهر؛ فسوف يَسُبُّ الدهر إذا وقع فيه ما يكرهه أ.هـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى^(١): حيث ذمت الآية من نسب الحوادث إلى الدهر لأنه قد جعل الدهر شريكاً مع الله بفعله أ.هـ.

قوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

الإعراب^(٢): الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لتفنيد مزاعمهم إذ كانوا يزعمون أن هلاك الأنفس منوط بمرور الأيام والليالي، وسيرد المزيد من هذا البحث في باب الفوائد، وما نافية وهي مبتدأ وإلا أداة حصر وحياتنا مبتدأ والدنيا خبر وجملة نموت مستأنفة مسوقة لإيراد المزيد من عقائدهم الفاسدة وجملة نحيا عطف عليها والواو حالية وما نافية ويهلكنا فعل مضارع ومنفعل به مقدم وإلا أداة حصر والدهر فاعل يهلكنا أ.هـ.

● التفسير بالقرآن:

قال الشنقيطي^(٣): قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من إنكار الكفار للبعث بعد الموت، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ وقوله ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَافاً أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ﴾ (٣٥) هِيَاتُ هِيَاتُ لِمَا تُوْعَدُونَ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٤) وقوله تعالى عنهم ﴿أَنَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجَعٌ بَعِيدٌ﴾ (٥) وقوله تعالى عنهم: ﴿أَنَّا لَمُرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ (١٠) أءِذَا كُنَّا عِظَافاً نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذْ كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (٦) وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧) والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

(١) الجديدي: ٣٨٠

(٢) إعراب القرآن / ١٥٥

(٣) أضواء البيان / ٢٣٤

(٤) المؤمنون: ٣٥ - ٣٧

(٥) ق: ٣

(٦) النازعات: ١٠ - ١٢

(٧) يس: ٧٨

وقد قدمنا البراهين القاطعة القرآنية، على تكذيبهم فى إنكارهم البعث، وبيننا دلالتها على أن البعث واقع لامحالة، فى سورة البقرة، وسورة النحل وسورة الحج، وأول سورة الجاثية.

وبينا فى سورة الفرقان الايات الموضحة أن إنكار البعث كفر بالله، والآيات التى فيها وعيد منكرى البعث بالنار فى الكلام على قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ (١). ا. هـ.

● التفسير بالمأثور

أولاً: من السنة

روى الطبرى باسناده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال كان أهل الجاهلية يقولون انما يهلكنا الليل والنهار وهو الذى يهلكنا ويميتنا ويحيينا فقال الله فى كتابه وقالوا ما هى ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قال فيسبون الدهر فقال الله تبارك وتعالى «يؤذنى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدى الأمر أقلب الليل والنهار» (٢).

قلت: وروى أيضاً عن ابن عيينة وسيأتى فى شرح الحديث بعد الآية من كلام ابن حجر.

وعنه سمعت رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدى الليل والنهار» (٣).

وعنه أن النبى ﷺ قال: «يقول الله استقرضت عبدى فلم يعطنى وسبنى عبدى يقول وادهراه وأنا الدهر» (٤).

وعنه عن النبى ﷺ أن الله قال لا يقولن أحدكم ياخيبة الدهر فانى أنا الدهر أقلب ليله ونهاره واذا شئت قبضتهما (٥).

(١) الفرقان: ١١.

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩٢/١١) وسيأتى وانظر «فتح المجيد» (ح ٧٧٨) بتخريجنا.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق والحاكم فى «المستدرک» (٤١٨/١) وصححه وانظر «الدر»

(٧٥٩/٥).

(٥) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق.

ثانياً: من قول الصحابة

وعنه قال لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم إلا يظنون يقول تعالى ذكره وما لهؤلاء المشركين القائلين ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر بما يقولون من ذلك من علم يعنى من يقين علم لأنهم يقولون ذلك تخرصاً بغير خبراتهم من الله ولا برهان عندهم بحقيقته إن هم إلا يظنون يقول جل ثناؤه ماهم إلا فى ظن من ذلك وشك يخبر عنهم أنهم فى حيرة من اعتقادهم حقيقة ما ينطقون من ذلك بالسستهم^(١).

ثالثاً: من قول التابعين

عن قتادة وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا أى لعمرى هذا قول مشركى العرب^(٢).

عن مجاهد وما يهلكنا إلا الدهر قال الزمان^(٣).

عن قتادة فى قوله وما يهلكنا إلا الدهر قال ذلك مشركوا قريش ما يهلكنا إلا الدهر إلا العمر^(٤).

• التفسير بأقوال المفسرين

قال الطبرى^(٥): يقول تعالى ذكره وقال هؤلاء المشركون الذين تقدم خبره عنهم ما حياة إلا حياتنا الدنيا التى نحن فيها لاحياة سواها تكذيباً منهم بالبعث بعد الممات.

وقوله: نموت ونحيا نموت نحن ونحيا أبناؤنا بعدنا فجعلوا حياة أبنائهم بعدهم حياة لهم لأنهم منهم وبعضهم فكأنهم بحياتهم أحياء وذلك نظير قول الناس مامات من خلف ابناً مثل فلان لأنه بحياة ذكره به كأنه حى غير ميت وقد يحتمل وجهاً آخر وهو أن يكون معناه نحيا ونموت على وجه تقديم الحياة قبل الممات كما يقال قمت وقعدت بمعنى قعدت وقمت والعرب تفعل ذلك فى الواو خاصة اذا أرادوا الخبر عن شيئين أنهما كانا أو يكونان ولم تقصد الخبر عن كون أحدهما قبل الآخر تقدّم المتأخر حدوثاً على المتقدّم حدوثه منهما أحياناً فهذا من ذلك لأنه لم يقصد فيه الى الخبر عن كون الحياة قبل

(١) أخرجه ابن جرير فى المصدر السابق

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق «ذكره السيوطى فى «الدر» (٧٥٨/٥) وزاد نسبه لعبد بن

جميد، وابن المنذر.

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٥) تفسير الطبرى ٩١/١١.

المات فقدّم ذكر الممات قبل ذكر الحياة إذ كان القصد الى الخبر عن أنهم يكونون مرة أحياء وأخرى أمواتا وقوله وما يهلكنا إلا الدهر يقول تعالى ذكره مخبرا عن هؤلاء المشركين أنهم قالوا وما يهلكنا فيقينا إلا مرّ الليالي والايام وطول العمر انكارا منهم أن يكون لهم رب يفنيهم ويهلكهم وقد ذكرناها فى قراءة عبد الله وما يهلكنا إلا دهر يمر ١. هـ. وذكر بنحو ذلك الرازى وسيأتى.

قال ابن الجوزى^(١): قوله: «ما يهلكنا إلا الدهر» أى اختلاف الليل والنهار ١. هـ.
قال الرازى^(٢): واعلم أنه تعالى حكى عنهم بعد ذلك شبهتهم فى إنكار القيامة وفى إنكار الإله القادر، أما شبهتهم فى إنكار القيامة فهى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ فإن قالوا الحياة مقدّمة على الموت فى الدنيا فمتكروا القيامة كان يجب أن يقولوا نحيا ونموت، فما السبب فى تقديم ذكر الموت على الحياة؟ قلنا فيه وجوه.

الأول: المراد بقوله (نموت) حال كونهم نطفاً فى أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، ويقولوه (نحيا) ما حصل بعد ذلك فى الدنيا.

الثانى: نموت نحن ونحيا بسبب بقاء أولادنا.

الثالث: يموت بعض ويحيا بعض.

الرابع: وهو الذى خطر بالبال عند كتابة هذا الموضع أنه تعالى قدم ذكر الحياة فقال (ماهى إلا حياتنا الدنيا) ثم قال بعده (نموت ونحيا) يعنى أن تلك الحياة منها ما يطرأ عليها الموت وذلك فى حق الذين ماتوا، ومنها ما لم يطرأ الموت عليها، وذلك فى حق الأحياء الذين لم يموتوا بعد. وأما شبهتهم فى إنكار الإله الفاعل المختار، فهو قولهم وما يهلكنا إلا الدهر يعنى تولد الأشخاص إنما كان بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع. وإذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة، وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت، فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك، ولا حاجة فى هذا الباب إلى إثبات الفاعل المختار، فهذه الطائفة جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة ١. هـ.

(١) زاد المسير ٧ / ١٦٥.

(٢) التفسير الكبير / ٢٧١.

قال ابن كثير^(١): يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أى ما ثم إلا هذه الدار يموت قوم ويعيش آخرون وما ثم معاد ولا قيامه وهذا يقوله مشركوا العرب المنكرون المعاد وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم وهم ينكرون البدأة والرجعة وتقوله الفلاسفة الدهرية الدرية المنكرون للصانع المعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ماكان عليه وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى فكابروا العقول وكذبوا المنقول ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾. وقال بنحو ذلك أهل التفسير غيرهم أ.هـ.

قال ناصر السعدى^(٢): ﴿وَقَالُوا﴾ أى منكرو البعث ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ إن هى إلا عادات وجرى على رسوم الليل والنهار، يموت أناس ويحيا أناس ومن مات، فليس يرجع إلى الله ولا مجازى بعمله أ.هـ.
وقال نحو ذلك أهل التفسير غيرهم.

● التفسير بأقوال شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين^(٣): قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾. المراد بذلك المشركون الموافقون للدهرية - بضم الدال على الصحيح عند النسبة؛ لأنه مما تغير فيه الحركة -، والمعنى وما الحياة والوجود إلا هذا؛ فليس هناك آخرة، بل يموت بعض ويحيا آخرون، هذا يموت فيدفن وهذا يولد فيحيا، ويقولون: إنها أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شيء سوى هذا.
قوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

أى: ليس هلاكنا بأمر الله وقدره، بل بطول السنين لمن طالت مدته، والأمراض والهموم والغموه لمن قصرت مدته؛ فالمهلك لهم هو الدهر.

قال ابن باز^(٤): وسب الدهر هو سب الزمان وهو الليل والنهار كأن يقول قاتل الله هذه الساعة ولعن الله هذه الساعة وهذا اليوم ولا بارك الله فى هذا اليوم وما أشبه ذلك

(١) تفسير ابن كثير ١٤٦/٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١١ و ١٢).

(٣) القول المفيد ٢/ ٤٢٤.

(٤) التعليق ٢١٩.

فب الدهر هو شتمه أو لعنه أو الدعاء عليه أما وصفه بالشدة فليس من السب كأن يقول: هذا يوم شديد وعسر ونحس أو بارد أو حار.

ولم يذكر باقى الشراح مزيداً على ما تقدم فيما نعلم.

قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

الإعراب^(١): وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون الواو للحال وما نافية ولهم خبر مقدم وبذلك متعلقان بعلم ومن حرف جر زائد وعلم مجرور لفظاً مرفوع محلاً على أنه مبتدأ مؤخر وإن نافية وهم مبتدأ وإلا أداة حصر وجملة يظنون خبرهم. ١. هـ.

● التفسير بأقوال المفسرين

قال ابن الجوزى^(٢): ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: ما قالوه عن علم، إنما قالوه شاكين فيه ومن أجل هذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» أى: هو الذى يهلككم لا ماتوهمونه من مرور الزمان وما بعد هذا ظاهر أ. هـ.

قال الرازى^(٣): ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ والمعنى أن قبل النظر ومعرفة الدليل الاحتمالات بأسرها قائمه، فالذى قالوه يحتمل وضده أيضاً يحتمل. وذلك هو أن يكون القول بالبعث والقيامة حقاً، وأن يكون القول بوجود الإله الحكيم حقاً، فإنهم لم يذكروا شبهة ضعيفة ولا قسرية فى أن هذا الاحتمال الثانى باطل، ولكنه خطر ببالهم ذلك الاحتمال الأول فجزموا به وأصروا عليه من غير حجة ولا بينة، فثبت أنه ليس علم ولا جزم ولا يقين فى صحة القول الذى اختاروه بسبب الظن والحسبان وميل القلب إليه من غير موجب، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بغير حجة وبينة قول باطل فاسد، وأن متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى أ. هـ.

قال القرطبى^(٤): ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى علم. و«من» زائدة؛ أى قالوا ما قالوا شاكين ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أى ما هم إلا يتكلمون بالظن. وكان المشركون أصنافاً، منهم هؤلاء، ومنهم من كان يثبت الصانع وينكر البعث، ومنهم من كان يشك فى البعث ولا يقطع بإنكاره. وحدث فى الإسلام أقوام ليس يمكنهم إنكار البعث خوفاً

(١) إعراب القرآن / ١٥٥.

(٢) زاد المسير / ١٦٥ / ٧.

(٣) التفسير الكبير / ٢٧١.

(٤) تفسير القرطبى / ٥٩٩٢.

من المسلمين؛ فيتأولون ويرون القيامة موت البدن، ويرون الثواب والعقاب إلى خيالات تقع للأرواح بزعمهم - كما قلت زعم ذلك ابن محمود في العصر الحديث - فشر هؤلاء أضر من شر جميع الكفار؛ لأن هؤلاء يلبسون على الحق، ويغتر بتلبيسهم الظاهر. والمشارك المجاهر بشره يحذر المسلم. وقيل: نمت ونحيا آثارنا؛ فهذه حياة الذكر. وقيل أشاروا إلى التناسخ؛ أى يموت الرجل فتجعل روحه فى موات فتحيا به أ.هـ.

قال السعدى^(١): قولهم هذا صادر عن غير علم ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلهم ولابرهان. إن هى إلا ظنون وإستعدادات خالية عن الحقيقة أ.هـ.

قال ابن عثيمين^(٢): الظن هنا بمعنى الوهم؛ فليس ظنهم مبنياً على دليل يجعل الشئ مظنوناً، بل هو مجرد وهم لا حقيقة له؛ فلا حجة لهم إطلاقاً، وفى هذا الدليل على أن الظن يستعمل بمعنى الوهم، وأيضاً يستعمل بمعنى العلم واليقين؛ كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾^(٣).

والرد على قولهم بما يلى:

أولاً: قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾.

وهذا يرده المقول والمعقول:

أما المنقول؛ فالكتاب والسنة تدل على ثبوت الآخرة ووجوب الإيمان باليوم الآخر، وأن للعباد حياة أخرى سوى هذه الحياة الدنيا، والكتب السماوية الأخرى تقرر ذلك وتؤكد.

قلت: وتنتهى الأدلة النقلية إلى خمسة أصول.

الأول: - أن البعث خبر عن الله - عز وجل ومن أصدق من الله حديثاً، قال تعالى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ كُفُّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

الثانى: - الإستدلال بالنشئة الأولى على الثانية، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

(١) تيسير الكريم ١١/٥، ١١٢.

(٢) القول المفيد ٢/٤٢٤ و ٤٢٥ و ٤٢٦.

(٣) البقرة.

والثالث: - قدرة الله على خلق السموات والأرض قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الرابع: - إحياء الأرض بالنبات، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الخامس: - لا بد من البعث للحساب وإلا كان خلق الخلق عبثاً، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾. ١. هـ ثم قال ابن عثيمين

وأما المعقول: فإن الله فرض على الناس الإسلام والدعوة إليه والجهاد لإعلاء كلمة الله، مع ما في ذلك من استحابة الدماء والأموال والنساء والذرية، فمن غير المعقول أن يكون الناس بعد ذلك تراباً لا بعث ولا حياة ولا ثواب ولا عقاب، وحكمة الله تأتي هذا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾^(١)؛ أي: الذي أنزل عليك القرآن وفرض العمل به والدعوة إليه لا بد أن يردك إلى معاد تجازى عليه ويجازى عليه كل من بلغته الدعوة.

ثانياً: قوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾؛ أي: إلا مرور الزمن وهذا يرده المنقول والمحسوس.

فأما المنقول: فالكتاب والسنة تدل على أن الإحياء والإماتة بيد الله - عز وجل - ، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾^(٢)، وقال عن عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وأما المحسوس: فإننا نعلم من يبقى سنين طويلة على قيد الحياة؛ كنوح عليه السلام وغيره ولم يهلكه الدهر، ونشاهد أطفالاً يموتون في الشهر الأول من ولادتهم، وشباباً يموتون في قوة شبابهم، فليس الدهر هو الذي يميتهم ١. هـ.

(١) القصص: ٦٥.

(٢) يونس/٥٦.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » وَفِي رِوَايَةٍ « لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ » (١).

قوله: وفي الصحيح عن: أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال: قال الله تعالى (يؤذني ابن آدم...).

أخرج البخارى هذا الحديث فى ثلاثة مواضع.

الأول (٢): فى كتاب التفسير باب سورة الجاثية ولفظه ما ذكره المصنّف.

الثانى (٣): فى كتاب الأدب فى باب لا تسبوا الدهر وأسند عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ قال الله: يَسُبُّ بَنُو آدَمَ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.

الثالث (٤): فى كتاب التوحيد فى باب قول الله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله) إنه لقول فصل.

وستأتى ألفاظ أخرى للحديث عند الشرح من كلام ابن حجر فى الفتح.

- مناسبة الحديث للباب:

قال عبد الله بن جابر الله (٥): وأسند «عن أبى هريرة قال: قال النبي ﷺ: قال الله تعالى يؤذني ابن آدم يسبب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار» أن من أضاف إلى الدهر فعلاً من الأفعال أو أمراً من الأمور فقد آذى الله تعالى: ولا يضر الله شيئاً. والله سبحانه وتعالى أعلم أ.هـ.

قال القرعاوى (٦): دل الحديث على أن سب الدهر يؤذى الله عز وجل أ.هـ.

- مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى (٦): أخبر البارى عز وجل أن سب الدهر يؤذيه وذلك لأن الذين

يسبون الدهر يعتقدون أنه فاعل مع الله وذلك شرك فى الربوبية. أ.هـ.

(١) [متفق عليه] أخرجه مالك فى «الموطأ» (٢/٩٨٤/٣)، والبخارى فى التفسير / باب سورة الجاثية (٨/٤٨٢٦)، (١١٨١)، (٧٤٩١)، ومسلم فى الألفاظ من الأدب / باب ما ينهى عن سب الدهر (١٥/٢)، وأحمد فى «مسنده» (٢/٢٥٩، ٢٧٢، ٣٩١، ٣٩٤، ٤٩٦، ٤٩٩)، وأبو داود فى الأدب / باب فى الرجل سب الدهر (٤/٣٧١/٥٢٧٤).

عن أبى هريرة به .

وانظر «القواعد المثلى» (ص: ١٣ - بتخريجنا) و«فتح المجيد» (ح ٧٧٦ - ٧٧٧) بتخريجنا.

(٢) ٤٨٢٦/٨ - الفتح.

(٣) ح ٦١٨١، ب (١٠) الفتح (٤) ح ٧٤٩١، ج ٣٥، ح ١٣ الفتح

(٥) الجامع الفريد / ١٧١. (٦) الجديد / ٣٨٨.

قوله: [وفى الصحيح].

[قلت]: القول مُشعر أن الحديث فى أحدهما دون الآخر وإنما هو عندهما فى «صحيحهما» بنفس اللفظ والرواية الأخرى لمسلم.

قوله: «قال الله تعالى»:

قال ابن حجر^(١): قال ابن بطلال: أراد أن كلام الله تعالى صفة قائمة به وأنه لم يزل متكلساً ولا يزال، والذى يظهر أن غرضه أن كلام الله لا يختص بالقرآن فإنه ليس نوعاً واحداً كما تقدم نقله عن قاله وأنه وإن كان غير مخلوق وهو صفة قائمة به فإنه يلقيه على من يشاء من عبادة بحسب حاجتهم فى الأحكام الشرعية وغيرها من مصالحهم وأحاديث الباب كالمصرحة بهذا المراد أ. هـ.

قال ابن عثيمين^(٢):

قوله: «قال الله تعالى» تعالى من العلو وجاءت بهذه الصيغة للدلالة على ترفعه - جل وعلا - عن كل نقص وسفل؛ فهو متعال بذاته وصفاته، وهى أبلغ من كلمة علا؛ لأنها تحمل معنى الترفع والتزُّه عما يقوله المعتدون علواً كبيراً. أ. هـ.

قوله: «يؤذنى ابن آدم يسب الدهر».

قلت: وهذا من الأحاديث القدسية وتقدم الكلام عليها فى غير باب

قال ابن حجر^(٣): قوله: «يؤذنى ابن آدم» كذا أورده مختصراً، وقد أخرجه الطبرى عن أبى كريب عن ابن عسينة بهذا الإسناد عن النبى ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار، هو الذى يميئتنا ويحيئنا، فقال الله فى كتابه ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الآية، قال فيسبون الدهر، قال الله تبارك وتعالى: «يؤذنى ابن آدم» فذكره أ. هـ.

قال القرطبى: معناه يخاطبني من القول بما يتأذى من يجوز فى حقه التأذى، والله منزّه عن أن يصل إليه الأذى، وإنما هذا من التوسع فى الكلام، والمراد أن من وقع ذلك منه تعرض لسخط الله أ. هـ.

قلت: وفى كلام القرطبى تأويل يجاب عليه بما سيأتى من قول ابن عثيمين ان الأذية

(١) الفتح ٤٧٥/١٣.

(٢) القول المفيد ٤٢٧/٢.

(٣) الفتح ٤٣٨/٨.

لله ثابتة ويجب علينا إثباتها لأن الله أثبتها لنفسه فلنسا أعلم من الله بالله ولكنها ليست كأذية المخلوق بدليل قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أ.هـ

قوله: «وأنا الدهر» قال الخطابي: معناه أنا صاحب الدهر ومدير الأمور التي ينسبونها إلى الدهر، فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور عاد سبه إلى ربه الذي هو فاعلها، وإنما الدهر زمان جعل ظرفاً لمواقع الأمور. وكانت عادتهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر فقالوا: يؤسا للدهر، وتبا للدهر.

وقال النووي: قوله: «أنا الدهر» بالرفع في ضبط الأكثرين والمحققين، ويقال بالنصب على الظرف أي أنا باق أبداً، والموافق لقوله «إن الله هو الدهر» الرفع وهو مجاز، وذلك أن العرب كانوا يسيون الدهر عند الحوادث فقال: لا تسبوه فإن فاعلها هو الله، فكأنه قال: لا تسبوا الفاعل فإنكم إذا سببتموه سببتموني. أو الدهر هنا بمعنى الداهر، فقد حكى الراغب أن الدهر في قوله «إن الله هو الدهر» غير الدهر في قوله «يسب الدهر» قال: والدهر الأول الزمان والثاني المدير المصروف لما يحدث، ثم استضعف هذا القول لعدم الدليل عليه. ثم قال: لو كان كذلك لعد الدهر من أسماء الله تعالى انتهى.

وكذا قال محمد بن داود محتجاً لما ذهب إليه من أنه بفتح الراء فكان يقول: لو كان بضمها لكان الدهر من أسماء الله تعالى. وتعقب بأن ذلك ليس بلازم، ولا سيما مع روايته «فإن الله هو الدهر».

قال ابن الجوزي: يصوب ضم الراء من أوجه:

أحدها أن المضبوط عند المحدثين بالضم.

ثانيها لو كان بالنصب يصير التقدير فأنا الدهر ألقبه، فلا تكون علة النهي عن سبه مذكورة لأنه تعالى يقلب الخير والشر فلا يستلزم ذلك منع الدم.

ثالثها: الرواية التي فيها «فإن الله هو الدهر» انتهى. وهذه الأخيرة لا تعين الرفع لأن للمخالف أن يقول: التقدير فإن الله هو الدهر يقلب، فترجع للرواية الأخرى، وكذا ترك ذكر علة النهي لا يعين الرفع لأنها تعرف من السياق، أي لا ذنب له فلا تسبوه أ.هـ.

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «يؤذني ابن آدم يسب الدهر» فيه أن سب الدهر

(١) تيسير العزيز الحميد / ٤٥٨ - ٤٦٠.

يؤذى الله تبارك وتعالى. قال الشافعى فى تأويله والله أعلم: إن العرب كان من شأنها أن تدم الدهر وتسبه عند المصائب التى تنزل بهم، من موت، أو هرم، أو تلف، أو غير ذلك. فيقولون: إنما يهلكنا الدهر وهو الليل والنهار. ويقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، فيجعلون الليل والنهار يفعلان الأشياء. فيذمون الدهر بأنه الذى يفتنيهم، ويفعل بهم. فقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الدهر». على أنه الذى يفتنيكم والذى يفعل بكم هذه الأشياء، فانكم إذا سببتم فاعل هذه الأشياء فإنما تسبون الله تبارك وتعالى، فإنه فاعل هذه الأشياء.

ثم قال: والظاهر أن المشركين نوعان.

أحدهما: من يعتقد أن الدهر هو الفاعل؛ فيسبه لذلك. فهؤلاء هم الدهرية.
الثانى: من يعتقد أن المدير للأمور هو الله وحده لاشريك له، ولكن يسبون الدهر لما يجرى عليهم فيه من المصائب والحوادث، فيضيفون ذلك إليه من إضافة الشيء إلى محله، لا لأنه عندهم فاعل لذلك. والحديث صريح فى النهى عن سب الدهر مطلقاً، سواء اعتقد أنه فاعل أو لم يعتقد ذلك، كما يقع كثيراً ممن يعتقد الإسلام.
كقول ابن المعتز:

يا دهر ويحك ما أبقيت لى أحداً وأنت والد سوء تأكل الولدا
وقول أبى الطيب:

قبحاً لوجهك يا زمان كأنه وجه له من كل قبح برقع
وقول الطرقي:

إن تبلى بلثام الناس يرفعهم عليك دهر لأهل الفضل قد خانا
وقول الحريرى:

ولا تأمن من الدهر الخؤون ومكره فكـم خامل أخنى عليه ونابه
ونحو ذلك كثير. وكل هذا داخل فى الحديث.

قال ابن القيم: وفى هذا ثلاث مفاسد عظيمة.

أحدها: سبه من ليس أهلاً للسب. فإن الدهر خُلِقَ مسخر من خلق الله متقاد لأمره، متذلّل لتسخيره فسابه أولى بالسب منه.

والثانية: أن سبه متضمن للشرك، فإنه إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع، وأنه مع ذلك

ظالم قد ضر من لا يستحق العطاء، ورفع من لا يستحق الرفعة، وحرّم من لا يستحق الحرمان. وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة في سبه كثيرة جداً. وكثير من الجهال يصرح بلعنه وتقييحه.

الثالثة: أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال، التي لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السموات والأرض، وإذا وافقت أهواءهم حمدوا الدهر وأثنوا عليه، وفي حقيقة الأمر، قرب الدهر هو المعطى المانع الخافض الرافع المعز المذل، والدهر ليس له من الأمر شيء، فمسبتهم الدهر مسبة لله عزّ وجلّ، ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى، فساب الدهر دائر بين أمرين لا بد له من أحدهما. إما مسبة الله أو الشرك به فإنه إن اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك، وهو يسب من فعله فهو يسب الله تعالى. انتهى. وأشار ابن أبي حمزة إلى أن النهي عن سب الدهر تنبيه بالأعلى على الأدنى، وأنه فيه إشارة إلى ترك سب كل شيء مطلق، إلا ما أذن الشرع فيه؛ لأن العلة واحدة^(١). هـ.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: «يؤذيني ابن آدم».

أى: يلحق بى الأذى؛ فالأذية لله ثابتة ويجب علينا إثباتها؛ لأن الله أثبتها لنفسه، فلما أعلم من الله بالله، ولكنها ليست كأذية المخلوق؛ بدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٣) وقُدّم النفي فى هذه الآية على الإثبات، لأجل أن يرد الإثبات على قلب خال من توهم المماثلة، ويكون الإثبات حينئذ على الوجه اللائق به تعالى، وأنه لا يماثل فى صفاته كما لا يماثل فى ذاته، وكل ما وصف الله به نفسه؛ فليس فيه احتمال للتمثيل؛ إذ لو كان احتمال التمثيل جائزاً فى كلامه سبحانه وكلام رسوله فيما وصف به نفسه؛ لكان احتمال الكفر جائزاً فى كلامه سبحانه وكلام رسوله.

قوله: «ابن آدم».

شامل للذكور والإناث، وآدم هو أبو البشر، خلقه الله تعالى من طين وسواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وعلمه الأسماء كلها.

واعلم أنه من المؤسف أنه يوجد فكرة مضلة كافرة، وهى أن الآدميين نشؤوا من قرد لا من طين، ثم تطور الأمر بهم حتى صاروا على هذا الوصف، ويمكن على مر السنين

(١) تيسير العزيز الحميد / ٤٥٨ - ٤٦٠.

(٢) القول المفيد / ٤٢٧ - ٤٢٩.

(٣) الشورى: ١١.

أن يتطوروا حتى يصيروا ملائكة، وهذا القول لاشك أنه كفر وتكذيب صريح للقرآن؛ فيجب علينا أن ننكره إنكاراً بالغاً، وأن لا نقره فى كتب المدارس، فمن زعم هذه الفكرة يقال له: بل أنت قرد فى صورة إنسان، ومثلك كما قال الشاعر:

إذا ما ذكرنا آدمًا وفعاله وتزويجه بتنيه بابنيه فى الخنا

علمنا بأن الخلق من نسل فاجر وأن جميع الناس من عنصر الزنا

وأجابه بعض العلماء بجواب؛ فقال: أنت الآن أقررت أنك ولد زنا، وإقرارك على نفسك مقبول وعلى غيرك غير مقبول، ومثلك كما قال الشاعر:

كذلك إقرار الفتى لازم له وفى غيره لغوٌ كما جاء شرعنا

ولكن أنا فى الحقيقة يؤلمنى أن يوجد هذا بين أيدى شبابنا؛ فبعض الناس أخذوا به على أنه أمر محتمل، والواقع أنه لا يحتمل سوى البطلان والكذب والدرس على المسلمين بالتشكيك بما أخبرهم الله به عن خلق آدم وبنيه.

وأيضاً مما يحذر عنه كلمة (فكر إسلامى)؛ إذ معنى هذا أننا جعلنا الإسلام عبارة عن أفكار قابلة للأخذ والرد، وهذا خطر عظيم أدخله علينا أعداء الإسلام من حيث لا نشعر، والإسلام شرع من عند الله وليس فكراً لمخلوق.
قوله: «يسب الدهر».

الجملة تعليل للأذية أو تفسير لها؛ أى: بكونه يسب الدهر؛ أى: يشتمه ويُقبحه ويلومه وربما يلعنه - والعياذ بالله - يؤذى الله، والدهر: هو الزمن والوقت، وقد سبق بيان أقسام سب الدهر أ.هـ.

وجاء فى بعض روايات الصحيح صفة هذا السب بلفظ: «لا تقولوا خيبة الدهر..» الحديث.

قال ابن حجر^(١) قوله: «ولا تقولوا خيبة الدهر» كذا للأكثر، وللسنن «ياخية الدهر» وفى غير البخارى «واخية الدهر» الخيبة بفتح الحاء المعجمة وإسكان التحتانية بعدها موحدة الحرمان، وهى بالنصب على الندة، كأنه فقد الدهر لما يصدر عنه مما يكرهه فندبه متوجعاً عليه أو متوجعاً منه.

وقال الداودى: هو دعاء على الدهر بالخيبة وهو كقولهم قحط الله نوءها يدعون على

(١) الفتح ١٢ / ٥٨١ و ٥٨٢.

الأرض بالقحط وهى كلمة هذا أصلها ثم صارت تقال لكل مذموم ووقع فى رواية العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة عند مسلم بلفظ «وادره وادره»^(١) ومعنى النهى من سب الدهر أن من اعتقد أنه الفاعل للمكروه فسيب أخطأ فإن الله هو الفاعل، فإذا سببتم من أنزل ذلك بكم رجع السب إلى الله. وقد تقدم شرح الحديث فى تفسير سورة الجاثية. ومحصل ما قيل فى تأويله ثلاثة أوجه: أحدها أن المراد بقوله «إن الله هو الدهر» أى المدبر للأمور.

ثانيها أنه على حذف مضاف أى صاحب الدهر.

ثالثها التقدير مقلب الدهر، ولذلك عقبه بقوله «بيدى الليل والنهار» ووقع فى رواية زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة بلفظ «بيدى الليل والنهار أجده وأبليه وأذهب بالملوك» أخرجه أحمد.

وقال المحققون: من نسب شيئاً من الأفعال إلى الدهر حقيقة كفر، ومن جرى هذا اللفظ على لسانه غير معتقد لذلك فليس بكافر، لكنه يكره له ذلك لشبهة بأهل الكفر فى الإطلاق، وهو نحو التفصيل الماضى فى قولهم: مطرنا بكذا.

الرد على من زعم - من هذا الحديث - أن من أسماء الله الحسنى الدهر.

قال عياض: زعم بعض من لا تحقيق له أن الدهر من أسماء الله، وهو غلط فإن الدهر مدة زمان الدنيا، وعرفه بعضهم بأنه أحد مفعولات الله فى الدنيا أو فعله لما قبل الموت، وقد تمسك الجهلة من الدهرية والمعتلة بظاهر هذا الحديث واحتجوا به على من لارسوخ له فى العلم، لأن الدهر عندهم حركات الفلك وأمد العالم ولا شئ عندهم ولا صانع سواه وكفى فى الرد عليهم قوله فى بقية الحديث «أنا الدهر أقلب ليله ونهاره» فكيف يقلب الشئ نفسه؟ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

قال القرطبي^(٢): وقد استدلل بهذا الحديث من قال: إن الدهر من أسماء الله.

وقال: من لم يجعله من العلماء اسماً إنما خرج رداً على العرب فى جاهليتها؛ فإنهم كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل كما أخبر الله عنهم فى هذه الآية؛ فكانوا إذا أصابهم ضرر أَوْضِيْمٌ أو مكروه نسبوا ذلك إلى الدهر فقليل لهم على ذلك لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر؛ أى إن الله هو الفاعل لهذه الأمور التى تضيفونها إلى الدهر فيرجع السب

(١) تقدم.

(٢) تفسير القرطبي / ٥٩٩١ - ٥٩٩٢.

إليه سبحانه، فَهَوُّوا عَنْ ذَلِكَ. ودل على صحة هذا ما ذكرناه من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى يؤذيني ابن آدم...» الحديث. ولقد أحسن من قال، وهو أبو على الثقفى:

يا عاتب الدهر إذا نابهُ	لا تُلِّم الدهرَ على غَدْرِه
الدهرُ مأمورٌ، له أمرٌ	ويتهى الدهرُ إلى أمره
كم كافرٍ أمواله جَمَّةٌ	تزداد أضعافاً على كفره
ومؤمنٍ ليس له درهمٌ	يزداد إيماناً على فقره

وروى أن سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيراً ما يذكر الدهر فزجره أبوه وقال: إياك يابنى وذكر الدهر ! وأنشد:

فما الدهر بالجانى لشيءٍ لحينِه	ولا جالبَ البَلَوَى فلا تشتم الدهراً
ولكن متى ما يبعث الله باعثاً	على معشرٍ تجعل مياسيرهم عُسراً

وقال أبو عبيد: ناظرت بعض الملاحدة فقال: ألا تراه يقول «فإن الله هو الدهر» فقلت: وهل كان أحد يسب الله فى آباد الدهر، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى:

إن محلاً وإن مُرْتَحِلاً	وإن فى السُفَرِ إذ مَضَوْا مَهْلاً
استأثر الله بالوفاء وبالعد	ل وولّى الملامةَ الرِّجْلاً

قال أبو عبيد: ومن شأن العرب أن يذموا الدهر عند المصائب والنوائب؛ حتى ذكروه فى أشعارهم، ونسبوا الأحداث إليه. قال عمرو بن قَمِيْة.

رمتنى بنات الدهر من حيث لا أرى	فكيف بمن يُرْمَى وليس برام
فلو أنها نبل إذا لاتقيتها	ولكنى أرمى بغير سهام
على راحتين مرة وعلى العصا	أنوء ثلاثاً بعدهن قيامى

ومثله كثير فى الشعر. ينسبون ذلك إلى الدهر ويضيفونه إليه، والله سبحانه الفاعل لارب سواه أ. هـ.

قال ابن كثير^(١): قال الشافعى وأبو عبيدة: وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله ﷺ «لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ١٤٦.

بلاء أو نكبة قالوا ياخيبة الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه وإنما فاعلها هو الله تعالى فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل لأنه فاعل ذلك في الحقيقة فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار لأن الله تعالى هو الدهر الذى يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال، هذا أحسن ما قيل فى تفسيره وهو المراد والله أعلم. وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية فى عدهم الدهر من الاسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث أ.هـ.

قال ابن حجر:- وقال الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة: لا يخفى أن من سب الصنعة فقد سب صانعها، فمن سب نفس الليل والنهار أقدم على أمر عظيم بغير معنى، ومن سب ما يجرى فيهما من الحوادث، وذلك هو أغلب ما يقع من الناس، وهو الذى يعطيه سياق الحديث حيث نفى عنهما التأثير، فكأنه قال: لا ذنب لها فى ذلك، وأما الحوادث فمنها ما يجرى بوساطة العاقل المكلف فهذا يضاف شرعاً ولغة إلى الذى جرى على يديه ويضاف إلى الله تعالى لكونه بتقديره، فأفعال العباد من أكسابهم، ولهذا ترتبت عليها الأحكام، وهى فى الابتداء خلق الله. ومنها ما يجرى بغير وساطة فهو منسوب إلى قدرة القادر، وليس الليل والنهار فعل ولا تأثير لا لغة ولا عقلاً ولا شرعاً، وهو المعنى فى هذا الحديث.

قلت: وسيأتى مزيد من الرد لابن عثيمين. ١.هـ.

● ما يلتحق بالدهر فى النهى عن سبه

وقال ابن حجر عن ابن أبى جمرة: ويلتحق بذلك ما يجرى من الحيوان غير العاقل. ثم أشار بأن النهى عن سب الدهر تنبيه بالأعلى على الأدنى، وأن فيه إشارة إلى ترك سب كل شئ مطلقاً إلا ما أذن الشرع فيه، لأن العلة واحدة، والله أعلم انتهى ملخصاً. واستنبط منه أيضاً منع الخيلة فى البيوع كالعينة لأنه نهى عن سب الدهر لما ينول إليه من حيث المعنى وجعله سباً لخالقه أ.هـ.

قوله: «وأنا الدهر».

قال ابن حجر^(١): قوله: «وأنا الدهر» قال الخطابى: معناه أنا صاحب الدهر ومدير الأمور التى ينسبونها إلى الدهر، فمن سبب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور عاد سبه إلى ربه الذى هو فاعلها، وإنما الدهر زمان جعل ظرفاً لمواقع الأمور. وكانت عاداتهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر فقالوا: يؤسا للدهر، وتبا للدهر.

(١) الفتح ٤٣٨/١٣.

وقال النووي: قوله «أنا الدهر» بالرفع فى ضبط الأكثرين والمحققين، ويقال بالنصب على الظرف أى أنا باق أبداً، والموافق لقوله «إن الله هو الدهر» الرفع وهو مجاز، وذلك أن العرب كانوا يسبون الدهر عند الحوادث فقال: لا تسبوه فإن فاعلها هو الله، فكانه قال: لا تسبوا الفاعل فإنكم إذا سببتموه سببتمونى. أو الدهر هنا بمعنى الداهر، فقد حكى الراغب أن الدهر فى قوله «إن الله هو الدهر» غير الدهر فى قوله «يسب الدهر» قال: والدهر الأول الزمان والثانى المدير المصرف لما يحدث، ثم استضعف هذا القول لعدم الدليل عليه. ثم قال: لو كان كذلك لعد الدهر من أسماء الله تعالى انتهى. وكذا قال محمد بن داود محتجا لما ذهب إليه من أنه بفتح الراء فكان يقول: لو كان بضمها لكان الدهر من أسماء الله تعالى. وتعقب بأن ذلك ليس بلازم، ولا سيما مع روايته «فإن الله هو الدهر».

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «وأنا الدهر».

أى: مدبر الدهر ومُصرفه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٢)، ولقوله فى الحديث: «أقلب الليل والنهار»، والليل والنهار هما الدهر. ولا يقال بأن الله هو الدهر، ومن قال ذلك؛ فقد جعل الخالق مخلوقاً، والمقلب بفتح اللام مقلباً بكسر اللام.

فإن قيل: أليس المجاز ممنوعاً فى كلام الله وكلام رسوله وفى اللغة؟

أجيب: إن الكلمة حقيقة فى معناها الذى دل عليه السياق والقرائن، وهنا فى الكلام محذوف تقديره: وأنا مقلب الدهر؛ لأنه فسر به بقوله: «أقلب الليل والنهار»، والليل والنهار هما الدهر، ولأن العقل لا يمكن أن يجعل الخالق الفاعل هو المخلوق المفعول، المقلب هو المقلب، وبهذا عرف خطأ من قال: إن الدهر من أسماء الله، كابن حزم - رحمه الله -؛ فإنه قال: «إن الدهر من أسماء الله»، وهذا غفلة عن مدلول هذا الحديث، وغفلة عن الأصل فى الأسماء، فأما مدلول الحديث؛ فإن القائلين بذلك لم يريدوا أن الذى يهلكهم هو الله، وإنما أرادوا مرور الزمن؛ فالدهر هو الزمن فى مرادهم، وأما الأصل فى الأسماء؛ فالأصل فى أسماء الله أن تكون حسنى؛ أى: باللغة فى الحسن

(١) القول المفيد ٢/٢٩٢ و ٤٣٠.

(٢) آل عمران: ١٤٠.

أكمله، فلا بد أن تشتمل على وصف ومعنى هو أحسن ما يكون من الأوصاف والمعاني في دلالة هذه الكلمة، ولهذا لا تجد في أسماء الله تعالى اسماً جامداً أبداً؛ لأن الاسم الجامد ليس فيه معن أحسن أو غير أحسن، لكن أسماء الله كلها حسنى؛ فيلزم من ذلك بأن تكون دالة على معانٍ، والدهر اسم من أسماء الزمن ليس فيه معنى إلا أنه اسم زمن، وعلى هذا؛ فينتفى أن يكون اسماً لله تعالى لوجهين:

الأول: أن سياق الحديث يأباه غاية الإباء.

الثانى: أن أسماء الله حسنى، والدهر اسم جامد لا يحمل معنى إلا أنه اسم لأوقات. فلا يحمل المعنى الذى يوصف بأنه أحسن، وحينئذ فليس من أسماء الله تعالى، بل إنه الزمن، ولكن مقلب الزمن هو الله، ولهذا قال: «أقلب الليل والنهار» أ.هـ. قلت: وتقدم فى فصل مستقل الرد على من قال أن الدهر من أسماء الله الحسنى من كلام القاضى ومحمد ابن أبى جمرة والقرطبى وابن كثير.

قوله: «بيدى الأمر أقلب الليل والنهار».

قال سليمان آل الشيخ^(١): وفى رواية لأحمد: «بيدى الليل والنهار أجده وأبليه وأذهب بالملوك». أ.هـ.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: «أقلب الليل والنهار».

أى: ذواتهما وما يحدث فيهما؛ فالليل والنهار يُقَلَّبَان من طول إلى قصر إلى تساو، والحوادث تتقلب فيه فى الساعة وفى اليوم وفى الأسبوع وفى الشهر وفى السنة، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣)، وهذا أمر ظاهر، وهذا التقلب له حكمة قد تظهر لنا وقد لا تظهر؛ لأن حكمة الله أعظم من أن تحيط بها عقولنا، ومجرد ظهور سلطان الله - عز وجل - وقام قدرته هو من حكمة الله لأجل أن يخشى الإنسان صاحب هذا السلطان والقدرة، فيتضرع ويلجأ إليه أ. هـ.

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٦.

(٢) القول المفيد ٢ / ٤٣٠ و ٤٣١.

(٣) آل عمران: ٢٦.

قوله: «وفى رواية لاتسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: وفى رواية: هذه الرواية رواها مسلم وغيره.

قال المصنّف: وفيه أنه قد يكون سباً ولو لم يقصد بقلبه أهد.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): ومعنى هذه الرواية: هو ما صرّح به فى الحديث، من قوله: «وأنا الدهر، أقلبُ الليل والنهار» يعنى: أن ما يجرى فيه من خير وشر بإرادة الله وتدييره بعلم منه تعالى وحكمة، لا يشاركه فى ذلك غيره، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. فالواجب عند ذلك حمده فى الحالتين، وحسنُ الظن به سبحانه وبحمده، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْنَاَهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٣)، وقال: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْخَيْرِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(٤). ونسبة الفعل إلى

الدهر، ومسبته كثيراً فى أشعار المولّدين، كابن المعتز، والمتنبى، وغيرهما.

وليس منه وصفُ السنين بالشدة ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾^(٥) قال بعضُ الشعراء:

تُطَوِّى وتُنشِرُ بينها الأعمارُ	إنَّ الليالى من الزمان مهولةٌ
وطوالهن مع السرور قصار	فقصارهن مع الهموم

وقولُ أبى تمام:

ذكرُ النوى، فكأنها أيامُ	أعوامٌ وصل كاد يُنسى طيها
نحوى أسى، فكأنها أعوام	ثم انبرت أيام هجر أعقبت
فكأنها وكأنهم أحلام	ثم انقضت تلك السنون وأهلها

قال ابن عثيمين^(٦): قوله: «وفى رواية: لاتسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر».

وفائدة هذه الرواية أن فيها التصريح فى النهى عن سب الدهر.

قوله: «فإن الدهر هو الله»؛ والصواب: «فإن الله هو الدهر».

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٦٠. (٢) فتح المجيد ٧٠٨/٢ و ٧٠٩.

(٣) الأعراف: ١٦٨.

(٤) الأنبياء: ٣٥.

(٥) يوسف ٤٨.

فيه مسائل

الأولى: النهي عن سب الدهر.

الثانية: تسميته أذى الله.

الثالثة: التأمل في قوله: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ».

الرابعة: أنه قد يكون سباً، ولو لم يقصده بقلبه.

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»؛ أي: فإن الله هو مدير الدهر ومصرفه، وهذا تعليل للنهي، ومن بلاغة كلام الله ورسوله قرن الحكم بالعلة لبيان الحكمة وزيادة الطمأنينة، ولأجل أن تتعدى العلة إلى غيرها فيما إذا كان المعلل حكماً؛ فهذه ثلاث فوائد في قرن العلة بالحكم.



قال ابن عثيمين^(١): فيه مسائل

● الأولى: النهي عن سب الدهر.

لقوله: «لاتسبوا الدهر».

● الثانية: تسميته أذى لله.

تؤخذ من قوله: «يؤذيني ابن آدم».

● الثالثة: التأمل في قوله: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ».

فإذا تأملنا فيه وجدنا أن معناه أن الله مُقَلِّبُ الدهر ومُصَرِّفُهُ وليس معناه أن الله هو الدهر، وقد سبق بيان ذلك.

● الرابعة: أنه قد يكون سباً ولو لم يقصده بقلبه.

تؤخذ من قوله: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر»، ولم يذكر قصداً ولو عبر الشيخ بقوله: أنه قد يكون مؤذياً لله وإن لم يقصده؛ لكان أوضح وأصح؛ لأن الله صرح بقوله: «يسب الدهر»، والفعل لا يضاف إلا لمن قصده.

وقد فات على الشيخ - رحمه الله - بعض المسائل، منها: تفسير آية الجاثية، وقد سبق ذلك.



(١) القول المفيد ٢/ ٤٣٢ و ٤٣٣.

التَّسْمِي بِقَاضِي الْقَضَاةِ وَتَحْوِيهِ

مناسبة هذا الباب لما قبله.

قال الفقير: ومناسبة هذا الباب للذي قبله تظهر في أمور، منها:-

١ - أن هذا الباب وبايين قبله يدخلون في قوله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٢ - أن هذه الأبواب تضمنت جملة من الألفاظ المنهى عنها لمخالفتها للتوحيد فناسب أن يأتي بها المصنف على نسق واحد وترتيب واحد.

● مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

قال ناصر السعدي^(١): وكل هذا حفظ للتوحيد ولأسماء الله وصفاته. ودفع لوسائل الشرك حتى في الألفاظ التي يخشى أن يتدرج منها إلى أن يظن مشاركة أحد الله في شيء من خصائصه وحقوقه.

قال ابن عثيمين: إن من تسمى بهذا الاسم؛ فقد جعل نفسه شريكاً مع الله فيما لا يستحقه إلا الله؛ لأنه لا أحد يستحق أن يكون قاضي القضاة أو حاكم الحكام أو ملك الأملاك إلا الله - سبحانه وتعالى -؛ فالله هو القاضي فوق كل قاضٍ، وهو الذي له الحكم، ويرجع إليه الأمر كله كما ذكر الله ذلك في القرآن.

وقد تقدم أن قضاء الله ينقسم إلى قسمين:

١- قضاء كوني.

٢- قضاء شرعي.

والقضاء الكوني لا بد من وقوعه، ويكون فيما أحب الله وفيما كرهه، قال تعالى ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾^(٢)؛ فهذا قضاء كوني متعلق بما يكرهه الله؛ لأن الفساد في الأرض لا يحبه الله، والله لا يحب المفسدين، وهذا القضاء الكوني لا بد أن يقع ولا معارض له إطلاقاً.

(١) القول السديد ١١٣

(٢) الإسراء: ٤

أما النوع الثاني من القضاء، وهو القضاء الشرعى؛ فمثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(١)، والقضاء الشرعى لا يلزم منه وقوع المقضى، فقد يقع وقد لا يقع، ولكنه يتعلق فيما يجبه الله، وقد سبق الكلام على ذلك.

فإن قلت: إذا أضفنا القضاة وحصرناها بطائفة معينة، أو ببلد معين، أو بزمان معين، مثل أن يقال: قاضى القضاة فى الفقه، أو قاضى قضاة المملكة العربية السعودية، أو قاضى قضاة مصر أو الشام، أو ما أشبه ذلك؛ فهل يجوز هذا؟

فالجواب: أن هذا جائز؛ لأنه مقيد، ومعلوم أن قضاء الله لا يتقيد، فحيث لا يكون فيه مشاركة لله عز وجل -، على أنه لا ينبغى أيضاً أن يسمى الإنسان بذلك أو يسمى به وإن كان جائزاً؛ لأن النفس قد تصعب السيطرة عليها فيما إذا شعر الإنسان بأنه موصوف بقاضى قضاة الناحية الفلانية، فقد يأخذ الإعجاب بالنفس والغرور حتى لا يقبل الحق إذا خالف قوله، وهذه مسألة عظيمة لها خطرها إذا وصلت بالإنسان إلى الإعجاب بالرأى بحيث يرى أن رأيه مفروض على من سواه؛ فإن هذا خطر عظيم، فمع القول بأن ذلك جائز لا ينبغى أن يقبله اسماً لنفسه أو وصفاً له، ولا أن يسمى به.

إذا قيد بزمان أو مكان ونحوهما؛ قلنا: إنه جائز، ولكن الأفضل ألا يفعل، لكن إن قيد بفن من الفنون؛ هل يكون جائزاً؟

مقتضى التقيد أن يكون جائزاً، لكن إن قيد بالفقه بأن قيل: (عالم العلماء فى الفقه)، وقلنا: إن الفقه يشمل أصول الدين وفروعه على حد قول الرسول ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»^(٢)؛ صار فيه عموم واسع، ومعنى هذا أن مرجع الناس كلهم فى الشرع إليه؛ فهذا فى نفسى منه شىء، والأولى التنزه عنه.

وأما إن قيد بقبيلة؛ فهو جائز، لكن يجب مع الجواز مراعاة جانب الموصوف أن لا يغتر ويعجب بنفسه، ولهذا قال النبى ﷺ للمادح: «قطعت عنق صاحبك»^(٣).

وأما التسمى بـ (شيخ الإسلام)؛ مثل أن يقال: شيخ الإسلام ابن تيمية، أو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، أى أنه الشيخ المطلق الذى يرجع إليه الإسلام؛ فهذا

(١) الإسراء: ٢٣.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٧١) ومسلم فى الزكاة (١٢٨/٧) - النووى عن معاوية به وانظر «رياض الصالحين» (١٣٧٩) - بتخریجنا.

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٠٦١) ومسلم فى الزهد (١٢٦/١٨) - النووى وانظر «رياض الصالحين» (١٧٩٢) - بتخریجنا.

لا يصح؛ إذ إن أبا بكر رضى الله عنه أحق بهذا الوصف؛ لأنه أفضل الخلق بعد النبيين، ولكن إذا قصد بهذا الوصف أنه جدد فى الإسلام وحصل له أثر طيب فى الدفاع عنه؛ فلا بأس بإطلاقه^(١).

وأما بالنسبة للتسمية بـ (الإمام)؛ فهو أهون بكثير من التسمية بـ (شيخ الإسلام)؛ لأن النبي ﷺ سُمى إمام المسجد إماماً ولو لم يكن عنده إلا اثنان.

لكن ينبغى أنه ينبه أنه لا يتسامح فى إطلاق كلمة إمام إلا على من كان قدوة وله اتباع؛ كالإمام أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم ممن له أثر فى الإسلام؛ لأن وصف الإنسان بما لا يستحق هضم للأمة؛ لأن الإنسان إذا تصور أن هذا إمام وهذا الإمام هان الإمام الحق فى عينه، قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا
ومن ذلك أيضاً: (آية الله، حجة الله، حجة الإسلام)؛ فإنها ألقاب حادثة لا تنبغى لأنه لاحجة لله على عباده إلا الرسل.

وأما آية الله، فإن أريد به المعنى الأعم؛ فلا مدح فيه لأن كل شيء آية لله، كما قيل
وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وإن أريد المعنى الأخص؛ أى: أن هذا الرجل آية خارقة؛ فهذا فى الغالب يكون مبالغاً فيه، والعبارة السليمة أن يقال: عالم، مفتٍ، قاضٍ، حاكم، إمام لمن كان مستحقاً لذلك.

قال بكر بن عبدالله أبو زيد: الأصل التاسع (فى الأسماء المكروهة - فذكر احدى عشر عنصر فى الأسماء المكروهة، منها:

«وتكره التسمية بكل اسم أو مصدر أو صفة مشبهة مضاف إلى لفظ «الدين»، أو لفظ «الإسلام»؛ مثل: نور الدين، ضياء الدين، نور الإسلام، وذلك لعظيم منزلة هذين اللفظين: «الدين» و«الإسلام»؛ فالإضافة إليهما على وجه لتسمية فيها دعوى فجأة تطل على الكذب، ولهذا نص بعض العلماء على التحريم، والأكثر على الكراهة؛ لأن منها ما يوهم معانى غير صحيحة مما لا يجوز إطلاقه، وكانت فى أول حدوثها ألقاباً زائدة على الاسم، ثم استعملت أسماء، وقد يكون الاسم منهياً عنه من جهتين، مثل: شهاب الدين، فإن الشهاب: الشعلة من النار، ثم إضافة ذلك إلى الدين، وكان النوى

(١) انظر رسالته «تسمية المولود» (ص ٥١ : ٥٨).

رحمه الله يكره تلقيبه بمحیی الدين، وشیخ الإسلام ابن تیمیة یكره تلقيبه بتقی الدين،
ويقول : لكن أهلی لقبونی بذلك فاشتھر.

شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بها.

قال سليمان آل الشيخ (١): كقاضی القضاة، وحاكم الحکام، أوسيد الناس ونحو
ذلك. أى: ما حكم التسمی بذلك هل يجوز أم لا؟ ١. هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ (٢): ذكر المصنف رحمه الله هذه الترجمة إشارة إلى
النهي عن التسمی بقاضی القضاة قياساً على ما في حديث الباب لكونه يشبه فى المعنى
فينهى عنه أ. هـ.

قال ابن باز (٣): أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان النهی عن الأسماء التى يكون لها
تعلق بمشابهة أسماء الله تعالى لأنه سبحانه له أسماء يختص بها ليس لأحد أن يتسمى
بها مثل الرحمن ومالك الملك والخلاق ورب العالمين وحاكم الحکام وسلطان
السلطين ونحوها. لأن كمال التوحيد وتام التوحيد عدم التسمی بهذه الأسماء والتسمی
بها ينقض التوحيد والإيمان ودخول فيما لا ينبغي.

قال ابن عثيمين (٤): قوله «باب التسمی بقاضی القضاة»

أى: وضع الشخص لنفسه هذا الاسم، أورضاه به من غيره.

قوله: «قاضی القضاة»

قاضى: بمعنى حاكم، والقضاة؛ أى: الحکام، و«أل» للعموم.

والمعنى: التسمی بحاكم الحکام ونحوه، مثل ملك الأملاك، وسلطان السلطين، وما
أشبه ذلك، مما يدل على النفوذ والسلطان؛ لأن القاضى جمع بين الإلزام والإفتاء،
بخلاف المفتى؛ فهو لا يلزم، ولهذا قالوا: القاضى جمع بين الشهادة والإلزام والإفتاء؛
فهو يشهد أن هذا الحكم حكم الله، وأن الحق للمحكوم له على المحكوم عليه، ويفتى ؛
أى: يخبر عن حكم الله وشرعه، ويلزم الخصمين بما حكم به ١. هـ.



(١) تيسير العزيز الحميد ٤٦١ .

(٢) فتح المجيد ٧١١/٢ .

(٣) التعليق المفيد ٢٢١ .

(٤) القول المفيد ٢٩٥/٣ .

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنْ أَخْنَعَ اسْمَ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكَ الْأَمْلاَكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ» (١).

قوله: فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنْ أَخْنَعَ اسْمَ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكَ الْأَمْلاَكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ».

قال: الفقير: بوب عليه الإمام البخارى فى كتاب الأدب باب (أبغض الأسماء إلى الله) (٢).

ومسلم فى الأدب باب تحريم التسمى ملك الأملاك وملك الملوك ١. هـ.

مناسبة الحديث للباب

قال القرعاوى (٣): حيث دل الحديث على تحريم التسمى بملك الأملاك ١. هـ.

مناسبة الحديث للتوحيد

قال القرعاوى (٤): حيث منع الحديث التسمى بملك الأملاك ونحوه لأن ذلك شرك مع الله فى ربوبيته ١. هـ.

قوله: أَخْنَعَ فى رواية (أخنى)

قال ابن حجر (٥): كذا فى رواية شعيب بن أبى حمزة للأكثر من الخنا بفتح المعجمة وتخفيف النون مقصور وهو الفحش فى القول، ويحتمل أن يكون من قولهم أخنى عليه الدهر أى أهلكه «وَأَخْنَعَ» بعين مهملة هو المشهور فى رواية سفيان بن عيينة وهو من الخنوع وهو الذل، وقد فسر به بذلك الحميدى شيخ البخارى عقب روايته له عن سفيان قال: «أَخْنَعَ: أَذَلَّ» وأخرج مسلم عن أحمد بن حنبل قال: سألت أبا عمرو الشيبانى يعنى إسحق اللغوى عن أَخْنَعَ فقال: أَوْضَعَ، قال عياض: معناه أنه أشد الأسماء صغاراً. وينحو ذلك فسر أبو عبيد، والخانع الذليل وخنع الرجل ذل، قال ابن بطل:

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى «الأدب» باب: أبغض الأسماء إلى الله (١٠/٦٠٤/٦٢٠٦) ومسلم فى «الأدب» / باب: تحريم التسمى بملك الأملاك أو بملك الملوك (٥/١٤/١٢١) وأحمد فى «مسنده» (٢/٢٤٤) وأبو داود فى «الأدب» / باب: فى تغيير الاسم القبيح (٤/٢٩٢/٤٩٦١) والترمذى فى «الأدب» / باب: ما يكره من الأسماء (٥/١٣٤/٣٨٣٧) والبيهقى (٩/٥١٦/١٩٣١٢).

من طريق: سفيان عن أبى الزناد عن الأعرج، عن أبى هريرة.

وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٧٢٧) بتخريجنا. وانظر فتح المجيد (٧٨٤) بتخريجنا.

(٢) الفتح ١٠ / باب رقم ٧١١. (٣) الجديد (٣٨٤).

(٤) الجديد ٣٨٤. (٥) فتح البارى ٦٠٥.

وإذا كان الاسم أذل الأسماء كان من تسمى به أشد ذلاً، وقد فسر الخليل أئنع بأفجر فقال: أئنع الفجور، يقال أئنع الرجل إلى المرأة إذا دعاها للفجور. قلت: - يعنى بن حجر - وهو قريب من معنى أئنا وهو الفحش. ووقع عند الترمذى فى آخر الحديث «أئنع أئنع» وذكر أبو عبيد أنه ورد بلفظ «أئنع» بتقديم التون على المعجمة وهو بمعنى أهلك لأن أئنع الذبح والقتل الشديد، وتقدم أن فى رواية همام «أغيط» بغين وظاء معجمتين، ويؤيده «أئند غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك»^(١) أخرجه الطبرانى. ووقع فى شرح شيخنا ابن الملقن أن فى بعض الروايات «أفحش الأسماء» ولم أرها، وإنما ذكر ذلك بعض الشراح فى تفسير أئنى وقوله «أئنع اسم عند الله، وقال سفيان غير مرة أئنع الأسماء» أى قال ذلك أكثر من مرة، وهذا اللفظ يستعمل كثيراً فى إرادة الكثرة وسأذكر توجيه الروايتين ١.هـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «إن أئنع» ذكر المصنف أن معناه: أوضع. وهذا التفسير رواه مسلم عن الإمام أحمد، عن أبى عمرو الشيبانى، وفى رواية «أئند غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك». رواه الطبرانى^(٣):

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «إن أئنع اسم»

أى: أوضع اسم، والمراد بالاسم المسمى، فأوضع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك؛ لأنه جعل نفسه فى مرتبة عليا، فالملك أعلى طبقات البشر من حيث السلطة؛ فجعل مرتبته فوق مرتبتهم، وهذا لا يكون إلا الله - عز وجل، ولهذا عوقب بنقيض قصده؛ فصار أوضع اسم عند الله إذ قصده أن يتعظم حتى على الملك، فأهين، ولهذا كان أحب اسم عند الله مادل على التذلل والخضوع، مثل عبدالله وعبدالرحمن، وأبغض اسم عند الله ما دل على الجبروت والسلطة والتعظيم ١.هـ.

قلت: وقد عامل الله شاهان شاه الإيرانى بنقيض قصده شرعاً وقدرأ فصار أذل وأوضع الناس بعد ذهاب ملكه.

قوله «عندالله»

قال ابن حجر^(٥): زاد أبو داود والترمذى فى روايتهما «يوم القيامة» وهذه الزيادة ثابتة ١.هـ.

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٩٢/٢)، والحاكم فى «المستدرک» (٢٧٥/٤) وصححه.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٦١.

(٣) تقدم.

(٤) القول المفيد ١٠، ٩/٣.

(٥) الفتح ٦٠٦، ٦٠٥.

قوله «تسمى»

قال ابن حجر^(١): قوله «تسمى» أى سُمى نفسه أو سُمى بذلك فرضى به واستمر عليه.

قوله «بملك الأملاك» بكسر اللام من ملك، والأملاك جمع ملك بالكسر وبالفتح وجمع ملك. ١. هـ.

قوله: «لا مالك إلا الله».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): ثم أكد النبی ﷺ التشديد فى تحريم التسمى بذلك بقوله: «لا مالك إلا الله» فالذى تسمى بهذا الاسم قد كذب وفجر وارتنى إلى ما ليس له بأهل، بل هو حقيق برب العالمين، فإنه الملك فى الحقيقة، فلهذا كان أذل الناس عند الله يوم القيامة والفرق بين الملك والمالك أن المالك هو المتصرف بفعله وأمره، ذكره ابن القيم. فالذى تسمى ملك الأملاك، أو ملك الملوك قد بلغ الغاية فى الكفر والكذب. ولقد كان بعض السلاطين المساكين يفتخر بهذا الاسم فأذله الله ١. هـ.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «لا مالك إلا الله».

أى لا مالك على الحقيقة الملك المطلق إلا الله تعالى.

وأيضاً لا ملك إلا الله - عز وجل -، ولهذا جاءت آية الفاتحة بقراءتين:

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ و﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٤)، لكى يجمع بين الملك وتمام السلطان؛ فهو - سبحانه - ملك مالك، ملك ذو سلطة وعظمة وقول نافذ، ومالك متصرف مدبر لجميع مملكته.

فالله له الخلق والملك والتدبير؛ فلا خالق إلا الله ولا مدبر إلا الله، ولا مالك إلا الله، قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٥)؛ فالاستفهام بمعنى النفى، وقد أشرب معنى التحدى، أى إن وجدتموه فهاتوه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^(٦)، فيها تأكيد وحصر، وهذا دليل انفراد بالخلق، وقال تعالى: ﴿إِنَّ

(١) الفتح / ٦٠٦.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٦٢.

(٣) القول المفيد ٣/ ١٠، ١١.

(٤) الفاتحة : ٤

(٦) الحجر : ٨٦

(٥) فاطر : ٣

قال سفيان: «مثل شاهان شاه».

وفى رواية: «أَغْيَظُ رجل على الله يوم القيامة وأخْبَنُهُ».

قوله: «أَخْتَعُ» يعنى: أَوْضَعُ.

الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ^(١)؛ فـ «الَّذِينَ»: اسم موصول يشمل كل من يدعى من دون الله «لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا»، وهذا على سبيل المبالغة؛ وما كان على سبيل المبالغة؛ فلا مفهوم له كثرة أوقلة.

وقال تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ»^(٢)، وقال تعالى: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ»^(٣)، وهذا دليل انفراده بالملك، وقال تعالى: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ»^(٤)، وقال تعالى: «قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ»^(٥). ا. هـ.

قوله: «قال سفيان» «مثل شاهان شاه..... إلخ».

● تحريم التسمية بملك الملوك وما أدى معناه بأى لسان كان

وفى زيادة فى حديث أبى هريرة: قال سفيان: يقول غيره تفسيره: شاهان شاه قوله: «تفسيره شاهان شاه».

قال ابن حجر^(٦): قوله «تفسيره شاهان شاه» هكذا ثبت لفظ تفسيره فى رواية الكشميهنى، ووقع عند أحمد عن سفيان قال سفيان «مثل شاهان شاه» فلعل سفيان قاله مرة نقلاً ومرة من قبل نفسه، وقد أخرجه الإسماعيلي من رواية محمد بن الصباح عن سفيان مثله وزاد مثل ذلك الصين، وشاهان شاه يسكون النون وبهاء فى آخره وقد تنون وليست هاء تأنيث فلا يقال بالثناة أصلاً. وقد تعجب بعض الشراح من تفسير سفيان ابن عيينة اللفظة العربية باللفظة العجمية وأنكر ذلك آخرون، وهو غفلة منهم عن مراده وذلك أن لفظ شاهان شاه كان قد كثر التسمية به فى ذلك العصر فنبه سفيان على أن الاسم الذى ورد الخبر بزمه لا ينحصر فى ملك الأملاك بل كل ما أدى معناه بأى لسان كان فهو مراد بالذم، ويؤيد ذلك أنه وقع عند الترمذى «مثل شاهان شاه» وقوله شاهان

(٣) آل عمران: ٢٦.

(٢) الملك: ١.

(١) الحج: ٧٣.

(٦) الفتح: ١٠ / ٦٠٦، ٦٠٧.

(٥) المؤمنون: ٨٨.

(٤) يونس: ٣١.

شاه هو المشهور في روايات هذا الحديث، وحكى عياض عن بعض الروايات «شاه شاه» بالتونين بغير إشباع في الأولى والأصل هو الأولى، وهذه الرواية تخفيف منها، وزعم بعضهم أن الصواب شاه شاهان وليس كذلك لأن قاعدة العجم تقديم المضاف إليه على المضاف، فإذا أرادوا قاضي القضاة بلسانهم قالوا موبدان موبذ، فموبذ هو القاضي وموبدان جمعه فكذا شاه هو الملك وشاهان هو الملوك، قال عياض: استدل به بعضهم على أن الاسم غير المسمى، ولا حجة فيه بل المراد من الاسم صاحب الاسم، ويدل عليه رواية همام «أعِظْ رجل» فكأنه من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، ويؤيده قوله «تسمى» فالتقدير أن أختع اسم اسم رجل تسمى بدليل الرواية الأخرى «وأن أختع الأسماء».

● تحريم التسمية بملك الملوك وما في معناه مثل أحكم الحاكمين

قال ابن حجر: واستدل بهذا الحديث على تحريم التسمية بهذا الاسم لورود الوعيد الشديد، يلتحق به مافى معناه مثل خالق الخلق وأحكم الحاكمين وسلطان السلاطين وأمير الأمراء، وقيل يلتحق به أيضاً من تسمى بشيء من أسماء الله الخاصة به كالرحمن والقدوس والجبار. وهل يلتحق به من تسمى قاضي القضاة أو حاكم الحكام؟ اختلف العلماء في ذلك فقال الزمخشري في قوله تعالى ﴿أَحْكُمُ الْحَاكِمِينَ﴾: أى أعدل الحكام وأعلمهم، إذ لأفضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل، قال: ورب غريق في الجهل والجور من مقلدى زماننا في لقب أقضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر، وتعقبه ابن المنير بحديث «أقضاكم على»^(١) قال: فيستفاد منه أن لا حرج على من أطلق على قاض يكون أعدل القضاة أعدل القضاة أو أعلمهم في زمانه أقضى القضاة، أو يريد أقبلمه أو بلده. ثم تكلم في الفرق بين قاضى القضاة وأقضى القضاة، وفي اصطلاحهم على أن الأول فوق الثانى وليس من غرضنا هنا. وقد تعقب كلام ابن المنير علم الدين العراقي فصوب ما ذكره الزمخشري من المنع ورد ما احتج به من قضية على بأن التفضيل فى ذلك وقع فى حق من خوطب به من يلتحق بهم فليس مساوياً لإطلاق التفضيل بالآلف واللام، قال ولا يخفى ما فى إطلاق ذلك من الجراءة وسوء الأدب، ولا عبرة بقول من ولى القضاء فنعت بذلك فلذ فى سمعه فاحتال فى الجواز فإن الحق أحق أن يتبع، انتهى كلامه.

(١) [مرفل] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٨١/٣)، والترمذى (٣٧٩١)، وابن ماجه (١٥٤) عن أنس به واللفظ لابن ماجه.

وهو فى البخارى (٤٤٨١) من قول عمر: «أقضانا على» وانظر «بلوغ المرام» (٩٠٣ - بتخریجنا).

● نواذر سلفية ومواقف مع من تسمى بهذا الاسم

قال ابن حجر: ومن النواذر أن القاضى عز الدين بن جماعة قال أنه رأى أباه فى المنام فسأله عن حاله فقال: ماكان على أضر من هذا الاسم، فأمر الموقعين أن لا يكتبوا له فى السجلات قاضى القضاة بل قاضى المسلمين، وفهم من قول أبيه أنه أشار إلى هذه التسمية مع احتمال أنه أشار إلى الوظيفة، بل هو الذى يترجح عندى، فإن التسمية بقاضى القضاة وجدت فى العصر القديم من عهد أبى يوسف صاحب أبى حنيفة، وقد منع الماوردى من جواز تلقيب الملك الذى كان فى عصره بملك الملوك مع أن الماوردى كان يقال له أقضى القضاة، وكان وجه التفرقة بينها الوقوف مع الخبر وظهور إرادة العهد الزمانى فى القضاة، وقال الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة: يلتحق بملك الأملاك قاضى القضاة وإن كان اشتهر فى بلاد الشرق من قديم الزمان إطلاق ذلك على كبير القضاة، وقد سلم أهل المغرب من ذلك فاسم كبير القضاة عندهم قاضى الجماعة، قال: وفى الحديث مشروعية الأدب فى كل شىء، لأن الزجر عن ملك الأملاك والوعيد عليه يقتضى المنع منه مطلقاً، سواء أراد من تسمى بذلك أنه ملك على ملوك الأرض أم على بعضها، سواء كان محققاً فى ذلك أم مبطلاً، مع أنه لا يخفى الفرق بين من قصد ذلك وكان فيه صادقاً ومن قصده وكان فيه كاذباً ١ هـ.

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: مثل شاهان شاه - هو بكسر النون والهاء فى آخره، وقد تنون وليست هاء تأنيث فلا يقال: بالثناة أصلاً.

والحديث صريح فى تحريم التسمى بملك الأملاك ونحوه، كملك الملوك وسلطان السلاطين.

قال ابن القيم: لما كان الملك الحق لله وحده ولا ملك على الحقيقة سواه، كان أخنع اسم وأوضعه عند الله، وأبغضه له اسم «شاهان شاه» أى: ملك الملوك، وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غير الله. فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل، والله لا يحب الباطل وقد ألحق أهل العلم بهذا «قاضى القضاة» وقالوا: ليس قاضى القضاة لإلّا من يقضى الحق وهو خير الفاصلين، الذى إذا أقضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون. ويلى هذا الاسم فى القبح والكراهة والكذب سيد الناس وسيد الكل، وليس ذلك إلا لرسول الله ﷺ.

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٦٢. ٤٦٣.

خاصة كما قال: «أنا سيد ولد آدم»^(١) فلا يجوز لأحد قط أن يقول عن غيره: هو سيد الناس. كما لا يجوز له أن يقول: أنا سيد ولد آدم هـ. (٢).

ثم أورد سليمان آل الشيخ ما نقله ابن حجر مما يخالف ما تقدم عن ابن القيم هـ. فقال: وقد زعم بعض المتأخرين أن التسمي بقاضى القضاة ونحوها جائز.

واستدل له بحديث «أفضاكم على»^(٣). قال: فيستفاد منه أن لا حرج على من أطلق على قاض أن يكون أعدل القضاة، وأعلمهم في زمان أقضى القضاة، أو يريد إقليمه، أو بلده. وتعقبه العالم العراقي فصوب المنع، ورد ما احتج به بأن التفضيل فى ذلك وقع فى حق من خوطب به، ومن يلتحق بهم، فليس مساوياً لإطلاق التفضيل بالألف واللام. قال: ولا يخفى ما فى ذلك من الجرأة وسوء الأدب. ولا عبرة بقول من ولى القضاة، فنعت بذلك، فلذ فى سمعه واحتال فى الجواز، فإن الحق أحق أن يتبع.

قال ابن عثيمين: «شاهان شاه».

وهذا باللغة الفارسية؛ فشاهان: جمع بمعنى أملاك، وشاه مفرد بمعنى ملك، والتقدير أملاك ملك؛ أى: ملك الأملاك، لكنهم فى اللغة الفارسية يقدمون المضاف إليه على المضاف.

قوله: وفى رواية: «أغیظ رجل على الله يوم القيام وأخبئه»

أغیظ: من الغیظ وهو الغضب؛ أى ان أغضب شىء عند الله - عزوجل وأخبئه هو هذا الاسم، وإذا كان سبباً لغضب الله وخيبته؛ فإنه من الكبائر.

قوله: «أغیظ»

فيه إثبات الغیظ لله - عزوجل -، فهى صفة تليق بالله - عزوجل - كغيرها من الصفات، والظاهر أنها أشد من الغضب.

مايستفاد من الحديث

قال ابن عثيمين^(٤): ويستفاد من الحديث أيضاً:

(١) تقدم تخريجه فى باب الشفاعة.

(٢) زاد المعاد (٢/ ٣٤٠) وانظر «تحفة المودود» ص ٨١.

(٣) تقدم قريباً.

(٤) القول المفيد (٣/ ١٠، ١١).

فِيهِ مَسَائِلٌ

الأولى: النهيُ عَنِ التَّسْمِي بِمَلِكِ الْأَمْلاكِ.
الثانية: أَنَّ مَا فِي مَعْنَاهُ مِثْلُهُ. كَمَا قَالَ سَفِيَانُ.

١- إثبات صفة الغيظ لله - عز وجل -، وأنه يتفاضل لقوله: «أغيظ»، وهو اسم تفضيل.

٢- حكمة الرسول ﷺ في التعليم؛ لأنه لما بين أن هذا أخنع اسم وأغيظه أشار إلى العلة، وهو: «لا مالك إلا الله»، وهذا من أحسن التعليم والتعبير، ولهذا ينبغي لكل إنسان يعلم الناس أن يقرن الأحكام بما تطمئن إليه النفوس من أدلة شرعية أو علل مرعية، قال ابن القيم:

العلم معرفة الهدى بدليله ماذاك والتقليد يستويان

فالعلم أن تربط الأحكام بأدلتها الأثرية أو النظرية؛ فالأثرية ما كان من كتاب وسنة أو إجماع، والنظرية: العقلية؛ أي: العلل المرعية التي يعتبرها الشرع. هـ.

قال القرعاوي^(١): وفيه وجوب التأدب بترك الألفاظ المحتملة معناً مذموماً. هـ.

قوله: فيه مسائل

قال ابن عثيمين^(٢): فيه مسائل:

● الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك.

وتؤخذ من قول الرسول ﷺ: «إن أخنع اسم عند الله - عز وجل - رجل تسمى ملك الأملاك»، والمؤلف يقول: النهي عن التسمي... والنهي شرعاً لا يستفاد من الصيغة المعينة المعروفة فحسب، بل إذا ورد الذم عليه، أو سب فاعله، أو ما أشبه ذلك؛ فإنه يفيد النهي، وصيغة النهي هو المضارع المقرون بـ «لا» الناهية، مثل: لاتفعل، ولكن إذا كان هناك ذم أو وعيد أو ما أشبه ذلك؛ فهو متضمن للنهي وزيادة.

قلت: وقد تقدم من كلام الخضرى الأساليب الذى يستفاد منها الكف فى باب ما جاء فى النشرة.

● الثانية: أن ما فى معناه مثله. كما قال سفيان.

(١) الجديد ٣٨٤.

(٢) القول المفيد ١١/٣ - ١٤.

الثالثة: التَّفْطَنُ لِلتَّغْلِيظِ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ. مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الْقَلْبَ لَمْ يَقْصِدْ
مَعْنَاهُ.

الرابعة: التَّفْطَنُ أَنَّ هَذَا لِأَجْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

والذى فى معناه: قاضى القضاة، وحاكم الحكام، وشاهان شاه فى الفارسية.

قلت: وسليمان السلاطين.

● الثالثة: التَّفْطَنُ لِلتَّغْلِيظِ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ، مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الْقَلْبَ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

أى: لم يقصد أنه ملك الأملاك أو قاضى القضاة؛ لعلمه أن هناك من هو أبلغ ملكاً
وأحكم قضاءً.

وإذا سمينا شخصاً بقاضى القضاة أو حاكم الحكام وهو ليس كذلك، بل هو من
أجهل القضاة ومن أضعف الحكام؛ جمعنا بين أمرين: بين الكذب، والوقوع فى اللفظ
المنهى عنه، وأما إذا كان أعلم أهل زمانه، أو أعلم أهل مكانه، ويرجع القضاة إليه؛
فهذا وإن كان القول مطابقاً للواقع لكنه منهى عنه، مع أن القلب لم يقصد معناه.

● الرابعة: التَّفْطَنُ أَنَّ هَذَا لِأَجْلِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - .

يؤخذ من قوله «لامالك إلا الله»؛ فالرسول ﷺ أشار إلى العلة، وهى: «لامالك إلا
الله»؛ فكيف تقول: ملك الأملاك وهو لامالك إلا الله - عز وجل - .

● الفرق بين ملك ومالك.

ليس كل ملك مالكا، ليس كل مالك ملكاً؛ فقد يكون الإنسان ملكاً، ولكنه لا يكون
بيده التدبير، وقد يكون الإنسان مالكاً ويتصرف فيما يملكه فقط؛ فالملك من ملك
السلطة المطلقة، لكن قد يملك التصرف فيكون ملكاً مالكا، وقد لا يملك فيكون ملكاً
وليس بمالك، وأما المالك؛ فهو الذى له التصرف بشيء معين؛ كمالك البيت، ومالك
السيارة وما أشبه ذلك؛ فهذا ليس بملك؛ يعنى: ليس له سلطة عامة. أ.هـ. وقد تقدم
نحو ذلك أيضاً من كلام ابن حجر.



٤٦ باب

احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَغْيِيرُ الْإِسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ

● مناسبة هذا الباب لما قبله.

قال الفقير: - القول فى هذه المناسبة ما قيل فى سوابقها، أن هذه الأبواب تضمنت الألفاظ المنافية للتوحيد فلذا بوبها المصنف على هذا الترتيب إمعاناً منه فى حماية جناب التوحيد وعدم الوقوع فى النهى المذكور فى قوله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ويزاد أن هذا الباب إنما هو لمن تسمى بالفعل ملك الملوك وما شابه ذلك فينبغى عليه الله وتعظيمه أن يغير هذا الاسم لذلك ناسب أن يأتى بالباين على هذا الترتيب والله أعلم.

● مناسبة الباب للتوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): أي: لأجل احترامها وهو تعظيمها، وذلك من تحقيق التوحيد، ويستفاد منه المنع من التسمى بهذا ابتداء من باب الأولى، لكن فى الأسماء المختصة بالله تعالى.

● ماذا أراد المصنف بهذا الباب.

قال ابن باز^(٢): أراد المؤلف بيان وجوب احترام أسماء الله والحذر من امتهانها أو احتقارها أو تسمية غير الله بها من الأسماء التى اختص بها ولهذا شرع تغيير الاسم لأجل احترامها وتعظيمها. أهـ

● تمهيد

قال ابن القيم رحمه الله فى «بدائع الفوائد»^(٣) ما ملخصه:

«ما يجرى صفة أو خبراً عن الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كشىء، وموجود.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية، كالسميع، والعليم، والقدير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله، كخالق، والرازق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولا بد من تضمنه ثبوتاً، إذ لا كمال فى العدم المحض كالقدوس، السلام.

(٢) التعليق المفيد ٢٢٣

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٦٣

(٣) (١٥٩/١).

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة، كالمجيد، العظيم، الصمد، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة.

السادس: صفة تحصل من أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغنى الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد...
فإن الغنى صفة الكمال والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر.

ثم قال ابن القيم: «ويجب أن يعلم هنا أمور:
أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه، فإنه يخبر عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا. قلت: وكذلك المنعم أهـ

الثاني: أن الصفة إذا انقسمت إلى كمال ونقص، فلا تدخل بمطلقها في أسمائه، وصفاته كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه، فإنه يخبر عنه ولا يدخل بمطلقها في أسمائه، كالصانع، والفاعل، والمريد، فلذا لم يطلق على نفسه من هذا إلا أكمله فعلاً وخبراً، كقوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

الثالث: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بفعل مقيد أن يشتق له منه اسم مطلق ولذا غلط من سماه بالمضل والماكر والقاتن.

الرابع: أن أسماءه الحسنى أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافي العلمية بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات:
دلالة على الذات والصفة بالمطابقة. ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم.

السادس: أن أسماءه الحسنى لها اعتباران:
اعتبار من حيث الذات.
واعتبار من حيث الصفات.

فهى بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثانى متباينة.
السابع: أن ما يطلق عليه فى باب الأسماء والصفات توقيفى، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفاً، كالقديم، والشيء، والموجود، والقائم بنفسه.

الثامن: أن الاسم إذا أطلق جاز أن يشتق منه المصدر والفعل، فيخبر به عنه فعلاً ومصدرًا ، نحو: السميع، البصير، القدير، يطلق عليه منه السمع والبصر والقدر، ويخبر عنه بالأفعال نحو: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ هذا إن كان الفعل متعديًا ، فإن كان لازماً يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل كالحي .

التاسع: أن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته ، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم، فالرب تبارك وتعالى فعاله عن كماله، والمخلوق كماله عن فعاله ،... ، فالرب لم يزل كاملاً، فحصلت أفعاله عن كماله، لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمّل الكمال اللائق به .

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم .
الحادى عشر: أسماؤه كلها حسنى ، وأفعاله صادرة عنها، فالشر ليس إليه فعلاً ولا وصفاً، وإنما يدخل فى مفعولاته البائنة عنه دون فعله الذى هو وصفه .
الثانى عشر: إحصاء أسماء الله تعالى له مراتب، وقد سبق أن بينها الشارح حفظه الله .

الثالث عشر: أسماء الله الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا عد .

الرابع عشر: من أسمائه ما يطلق عليه مفرداً ومقترناً بغيره، وهو غالبها ، كالسميع، والبصير ونحوهما، فيسوغ أن يدعا به ويثنى عليه ويخبر عنه مفرداً ومقترناً بغيره، فتقول يا عزيز ! يا حليم! ومنها: ما لا يطلق إلا مقروناً بغيره ، لكون الكمال لا يحصل إلا به، كالضار، والمتقم، والمانع، فلا تطلق إلا مقرونة بمقابلها، كالضار النافع، والمتقم العفو، والمانع المعطي، إذ كمال التصرف لا يحصل إلا به .

قال شيخنا فى كتابه «المتقى»^(١) : «قلت: لكن لو أطلق عليه من ذلك اسم المدح لم يمتنع، فيسوغ أن يقال: العفو من دون المتقم كما ورد فى القرآن الكريم، ومثله النافع والمعطي، فإن هذه الأسماء تستلزم الثناء والمدح المطلق، على أن شيخ الإسلام رحمه الله ينكر تسمية الله المستقم ويقول: إن هذا لم يرد إلا مقيداً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مَنْتَقِمُونَ﴾ .

الخامس عشر: اختلف النظار فى الأسماء التى تطلق على الله وعلى العباد، كالحي، والسميع، ونحوهما، فقالت طائفة: هى حقيقة فى العبد مجاز فى الرب ، وهذا قول غلاة الجهمية، وهو أخبث الأقوال .

(١) (ص: ١٥) .

الثاني: أنها حقيقة في العبد مجاز في الرب، وهذا قول أبي العباس الناشي.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قول أهل السنة، وهو الصواب، وللرب تعالى ما يليق به، وللعبد ما يليق به، واختلاف الحقيقتين لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما.

السادس عشر: أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاث اعتبارات:

اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد.

الاعتبار الثاني: اعتباره مضافاً للرب مختصاً به.

الاعتبار الثالث: اعتباره مضافاً إلى العبد مقيداً به.

السابع عشر: الصفات أنواع: صفات كمال، وصفات نقص، وصفات لا تقتضي واحداً منهما، وصفات تقتضيها باعتبارين، والرب تعالى منزّه عن هذه الثلاثة موصوف بالأول، وهكذا أسماء كمال، فلا يقوم بغيرها، وإذا عرفت هذا، فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمل، فله من صفة الإدراكات: العليم الخبير دون العاقل الفقيه، والسميع البصير دون السامع والباصر، والناظر، ومن صفات الإحسان: البر الرحيم دون الرفيق الشفوق، وكذلك العلي العظيم دون الرفيع الشريف.

الثامن عشر: الإلحاد في أسمائه أنواع:

الأول: أن يسمى به غيره من الأصنام.

الثاني: أن يسمى بما لا يليق بجلاله كتسميته أباً أو علة فاعله.

الثالث: وصفه بما ينزه عنه، كقول أئمة اليهود: إنه فقير.

الرابع: تعطيلها عن معانيها وجحد حقائقها، كقول الجهمية: أنها ألفاظ مجردة لا تدل على أوصاف، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر.

الخامس: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً هـ.

● شرح الترجمة:

قال ابن عثيمين^(١): أسماء الله - عز وجل - هي: التي سمى بها نفسه أو سمّاه بها رسوله ﷺ.

وقد سبق لنا الكلام فيها في مباحث كثيرة منها.

وقلنا: باعتبار دلالتها على الذات مترادفة، لأنها تدل على ذات واحدة، وهو الله -

(١) القول المفيد ٣/ ١٥-٢٢.

عز وجل - وباعتبار دلالتها على المعنى والصفة التى تحملها متباينة، وإن كان بعضها قد يدل على ما تَصَمَّنَه الآخر من باب دلالة اللزوم، فمثلاً: (الْحَلَّاقُ) يتضمن الدلالة على العلم المستفاد من اسم العليم، لكنه بالالتزام، وعلى القدرة المستفادة من اسم القدير، لكن بالالتزام.

الثاني: هل أسماء الله مشتقة أو جامدة (يعني: هل المراد بها الدلالة على الذات فقط، أو على الذات والصفة)؟

الجواب: على الذات والصفة، أما أسماؤنا نحن، فيراد بها الدلالة على الذات فقط، فقد يُسمى محمداً وهو من أشد الناس ذمًّا، وقد يسمى عبدَ الله وهو من أفجر عباد الله.

أما أسماء الله - عز وجل - وأسماء الرسول ﷺ، وأسماء القرآن، وأسماء اليوم الآخر، وما أشبه ذلك، فإنها أسماء متضمنة للأوصاف.

الثالث: أسماء الله بعضها معلوم لنا وبعضها غير معلوم بدليل قول الرسول، فى الحديث الصحيح فى دعاء الكرب: «أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِكُلِّ اسمٍ هو لك سُميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو عَلَّمْتَهُ أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبى...»^(١) ومعلوم أن ما استأثر الله بعلمه لا يعلمه أحد.

الرابع: أسماء الله، هل هى محصورة بعدد معين؟

والجواب: غير محصورة، وقد سبق الكلام على ذلك، والجواب عن قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة»^(٢).

الخامس: أن هذه التسعة والتسعين غير معينة، بل موكولة لنا لنبحث حتى نحصل على التسعة والتسعين، وهذا من حكمة إيهامها لأجل البحث حتى نصل إلى هذه الغاية، ولهذا نظائر، منها: أن الله أخفى ليلة القدر، وساعة الإجابة يوم الجمعة، وساعة الإجابة فى الليل، ليجتهد الناس فى الطلب.

السادس: معنى إحصاء هذه التسعة والتسعين التى يترتب عليه دخول الجنة ليس معنى ذلك أن تكتب فى رقاع ثم تكرر حتى تحفظ فقط، ولكن معنى ذلك:

أولاً: الإحاطة بها لفظاً.

(١) أخرجه ابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» (٣٤١) عن أبى موسى به وانظر «الأذكار للنووى» ٣٢٦ -

بتخريجنا).

(٢) تقدم تخريجه

ثانياً: فهمها معني

ثالثاً: التعبد لله بمقتضاها، ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن تدعو الله بها، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (١) بأن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك، فتختار الاسم المناسب لمطلوبك، فعند سؤال المغفرة تقول: يا غفور! وليس من المناسب أن تقول يا شديد العقاب! اغفر لى، بل هذا يشبه الاستهزاء، بل تقول: أجرنى من عقابك.

الوجه الثاني: أن تعرض فى عبادتك لما تقتضيه هذه الأسماء، فمقتضى الرحيم الرحمة، فاعمل العمل الصالح الذى يكون جالباً لرحمة الله ومقتضى الغفور المغفرة، إذا فعل ما يكون سبباً فى مغفرة ذنوبك، هذا هو معنى إحصائها، فإذا كان كذلك، فهو جدير لأن يكون ثمناً لدخول الجنة، وهذا الثمن ليس على وجه المقابلة، ولكن على وجه السبب، لأن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة وليست بدلاً، ولهذا ثبت فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ قوله: «لن يدخل الجنة أحد بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته» (٢).

فلا تغتر يا أخى بعملك، ولا تعجب فتقول: أنا عملت بكذا وكذا وسوف أدخل الجنة، قال تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا مَعَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ (٣) هذا باعتبار ما نراه نحن نحو أعمالنا، فيجب أن نرى الله المنة والفضل علينا، لكن باعتبار الجزاء، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (٤) فنؤمن بأن الله تعالى يجزى الإحسان بالإحسان.

السابع: أسماء الله - عز وجل - ودلالاتها على الذات والصفة جميعاً دلالة مطابقة، ودلالاتها على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تَصْمَن، دلالتها على أمر خارج دلالة التزام.

مثال ذلك: (الخالق) دلّ على الذات، وهو الرب - عز وجل - وعلى الصفة وهى الخلق جميعاً دلالة مطابقة، ودل على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تَصْمَن، ودلّ على القدرة والعلم دلالة التزام.

الثامن: أسماء الله - عز وجل - لا يتم الإيمان بها إلا بثلاثة أمور إذا كان الاسم مُتَعَدِّياً: الإيمان بالاسم اسماً لله، والإيمان بما تضمنه من صفة، وما تضمنه من أثر وحكم، فالعليم مثلاً، لا يتم الإيمان به حتى نؤمن بأن العليم من أسماء الله، ونؤمن بما

(١) الأعراف: ١٨٠.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٦٧٣)، ومسلم (٩/١٧٤/١٧١) عن أبى هريرة به.

(٣) الحجرات: ١٧.

(٤) الرحمن: ٦٠.

عَنْ أَبِي شَرِيحٍ؛ أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ». فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ، أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ. فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَالِكَ مِنَ الْوَلَدِ؟ قُلْتُ: شَرِيحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ. قَالَ: فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟ قُلْتُ: شَرِيحٌ. قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شَرِيحٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ^(١).

تضمنه من صفة العلم، ونؤمن بالحكم المرتب على ذلك، وهو أنه يعلم كل شيء، وإذا كان الاسم غير متعدد، فنؤمن بأنه من أسماء الله وبما يتضمنه من صفة .

التاسع: أن من أسماء الله ما يختص به، مثل الله ، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك، ومنها ما لا يختص به، مثل: الرحيم، السميع، العليم، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٢) وقال تعالى عن النبي ﷺ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

قوله: «باب احترام أسماء الله»

أي: وجوب احترام أسماء الله ، لأن احترامها احترام الله - عز وجل - ومن تعظيم الله - عز وجل - فلا يسمى أحد باسم مختص بالله، وأسماء الله تنقسم إلى قسمين: الأول: ما لا يصح إلا لله، فهذا لا يُسمى به غيره، وإن سُميَ وجب تغييره، مثل: الله ، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك.

الثاني: ما يصح أن يوصف به غير الله ، مثل: الرحيم، والسميع، والبصير، فإن لوحظت الصفة منع من التسمية به، وإن لم تلاحظ الصفة جاز التسمية به على أنه علم محض.



قوله: عن أبي شريح؛ أنه كان يكنى أبا الحكم فقال له النبي ﷺ «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ»... الحديث

(١) أخرجه أبو داود في «الأدب» / باب. في تغيير الاسم القبيح (٤/ ٢٩٠ ح ٤٩٥٥) والنسائي في «النجاشي» (٨/ ٢٢٧) السيوطي وابن حبان في «صحيحه» (١/ ٣٦١ ح ٥٠٤ - الإحسان) والحاكم في «المستدرک» (١/ ٢٤)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/ ١٤٥).

جميعاً من طريق يزيد بن مقدام بن شريح عن أبيه عن جده شريح عن أبيه هاني... فذكره.

وأنظر «فتح المجيد» (٧٨٩) بتخريجنا

(٣) التوبة: ١٢٨.

(٢) الإنسان: ٢.

قال سليمان آل الشيخ^(١): هذا الحديث رواه أبو داود كما قال المصنف، ورواه النسائي ولفظ أبي داود من طريق يزيد بن المقدم بن شريح عن أبيه عن جده عن أبيه هانئ، وهو أبو شريح أنه لما وفد على رسول الله ﷺ مع قومه سمعهم يكتنونه بأبي الحكم، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله هو الحكم، وإليه الحكم فلم تكني أبا الحكم؟ فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء» الحديث، قال ابن مفلح وإسناده جيد، ورواه الحاكم وزاد: «فدعاه ولوالده» أ. هـ.

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوي^(٢): حيث دل الحديث على وجوب تغيير الاسم إذا كان يوهم مشابهة أسماء الله وصفاته أ. هـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوي^(٣): حيث أنكر الحديث التشبه بأسماء الله لأن ذلك شرك مع الله في أسمائه وصفاته أ. هـ.

قوله «عن أبي شريح»

قال سليمان آل الشيخ^(٤): عن أبي شريح بضم المعجمة، وفتح الراء وآخره مهملة مصغر، واسمه هانئ بن يزيد الكندي.

قال الحافظ: وقيل: الحارثي الضبابي قاله المزي. وقيل: المذحجي وقيل: غير ذلك، صحابي نزل الكوفة، ولا عبرة بقول من قال: إنه الخزاعي، ولا من ظن أنه النخعي والد شريح القاضي فإن ذلك خطأ فاجش أ. هـ.

قوله: «إنه كان يكنى أبا الحكم»

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قال بعضهم: الكنية قد تكون بالأوصاف كأبي الفضائل، وأبي المعالي، وأبي الخير، وأبي الحكم، وقد تكون بالنسبة إلى الأولاد كأبي سلمة، وأبي شريح إلى ما يلبسه كأبي هريرة فإنه عليه السلام رآه ومعه هرة فكناه بأبي هريرة، وقد تكون للعلمية الصرفة كأبي بكر أ. هـ.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٦٤).

(٢) الجديد ٣٨٧.

(٣) الجديد ٣٨٧.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٦٤.

(٥) المصدر السابق ٤٦٤.

قال ابن عثيمين^(١): والكنية: ما صدر بأب أو أم، وقال بعضهم: أو أخ أو عم أو خال، وقد تكون للمدح كما في الحديث وقد تكون للذم، كأبى جهل وقد تكون لمصاحبه الشيء مثل أبى هريرة، وقد تكون مجرد علم كأبى بكر، وأبى العباس ابن تيمية إذ ليس له ولد أ. هـ.

قوله «إن الله هو الحكم وإليه الحكم»

قال سليمان آل الشيخ^(٢): أما الحكم فهو من أسماء الله تبارك وتعالى كما في هذا الحديث، وقد ورد عده في الأسماء الحسنى مقروئاً بالعدل، فسيحان الله ما أحسن اقتران هذين الإسمين.

قال في «شرح السنة» الحكم هو الحاكم الذى إذا حكم لا يرد حكمه، وهذه الصفة لا تليق بغير الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾.

وقال بعضهم: عرف الخبر فى الجملة الأولى - أى بقوله إن الله هو الحكم - وأتى بضمير الفصل - هو - فدل على الحصر، وإن هذا الوصف مختص به لا يتجاوز إلى غيره، وأما قوله: «وإليه الحكم» أى: إليه الفصل بين العباد فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْصُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ وفيه الدليل على المنع من التسمى بأسماء الله المختصة به، والمنع مما يوهم عدم الاحترام لها كالتكنى بأبى الحكم ونحوه أ. هـ وقد تقدم.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «إن الله هو الحكم وإليه الحكم»

«هو الحكم» أى: المستحق أن يكون حاكماً على عباده، حاكماً بالفعل، يدل له قوله: «وإليه الحكم».

الخبر فيه جار ومجرور مقدم، وتقديم الخبر يفيد الحصر، وعلى هذا يكون الحكم راجعاً إلى الله وحده. وقد تقدم من كلام سليمان آل الشيخ.

وحكم الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: كونى، وهذا لا راد له، فلا يستطيع أحد أن يرده، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَبُّ الْأَرْضِ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(٤).

(١) القول المفيد (٣/ ٢٥)

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٦٤

(٣) القول المفيد ٣/ ٢٣-٢٥.

(٤) يوسف : ٨٠

الثاني: شرعي، وينقسم الناس فيه إلى قسمين مؤمن وكافر، فمن رضيه وحكم به فهو مؤمن، ومن لم يرض به ولم يحكم به فهو كافر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ (١).

وأما قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٣) فهو يشمل الكوني والشرعي، وإن كان ظاهر الآية الثانية أن المراد الحكم الشرعي، لأنه في سياق الحكم الشرعي، والشرعي يكون تابعاً للمعجبة والرضا والكراهة والسخط، والكوني عام في كل شيء.

وفي الحديث دليل على أن من أسمائه تعالى: «الحكم»

وأما بالنسبة للعدل، فقد ورد عن بعض الصحابة أنه قال: «إن الله حكّم عدل» ولا أعرف فيه حديثاً مرفوعاً، ولكن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ لا شك أنه متضمن للعدل وزيادة أ.هـ.

قلت: أخرج البيهقي بسند فيه ضعف عن شداد بن أوس قال: سمعت رسول الله ﷺ «أيها الناس إنما الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك عادل بحق فيها الحق ويبطل الباطل» وعنه أيضاً «وإن الآخرة وحد صادق يقضى فيها ملك قادر» (*).

قوله: فقال: «إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني»

قال سليمان آل الشيخ (٤): أي: أنا لم أكن نفسي بهذه الكنية، وإنما كنت أحكم بين قومي فكنوني بها.

وفيه جواز التحاكم إلى من يصلح للقضاء، وإن لم يكن قاضياً، وأنه يلزم حكمه، ولهذا قال النبي ﷺ: «ما أحسن هذا» قال الخليلي: للتعجب أي: الحكم بين الناس حسن، ولكن هذه الكنية غير حسنة، وقال غيره: أي: الذي ذكرته من الحكم بالعدل. وقيل: ما أحسن هذا، أي: ما ذكرت من وجه الكنية، قال بعضهم: وهو الأولى. قلت - يعنى سليمان آل الشيخ: فعلى هذا يكون حكمه لقومه قبل إسلامه إذ يبعد أن

(١) الشورى: ١٠

(٢) التين: ٨

(٣) المائدة: ٥٠

(*) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٢١٦/٣) عن شداد بن أوس به.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٦٥.

يكون قاضياً لهم قبل أن يلقي رسول الله ﷺ ويتعلم منه، لأن هذه القصة كانت بعد إسلامه بقليل، لأنه كان مع وفد قومه حين أسلموا، وقدموا على رسول الله ﷺ، ولا يظن أن رسول الله ﷺ يحسن أمر حكام الجاهلية. ١. هـ.

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني» هذا جواب عن سؤال الرسول، له، لأن الرسول ﷺ سأله: لماذا يُكنونك بهذه الكنية؟

قوله: «ما أحسن هذا»

الإشارة تعود إلى إصلاحه بين قومه لا إلى تسميته بهذا الاسم، لأن النبي ﷺ غيره. اهـ.

قوله: «قال شريح ومسلم وعبد الله»

قال سليمان آل الشيخ^(٢): صريح في أن الواو لا تقتضي الترتيب وإنما تقتضي مطلق الجمع، فلذا سأله رسول الله ﷺ، عن الأكبر، إذ لو كانت دالة على الترتيب لم يحتاج إلى سؤال عن أكبرهم. اهـ.

قال ابن عثيمين: قوله «شريح ومسلم وعبد الله» الظاهر: أنه ليس له إلا الثلاثة، لأن الولد في اللغة العربية يشمل الذكر والأنثى، فلو كان عنده بنات لعدهن. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٣):

قوله: «فأنت أبو شريح» أي رعاية للأكبر منافي التكريم والإجلال، فإن الكبير أولى بذلك، قال في «شرح السنة» فيه أن يكن الرجل بأكبر بنيه، فإن لم يكن له ابن فأكبر بناته. وكذلك المرأة تكن فأكبر بنيتها فأكبر بناتها. انتهى. وفيه تقدماً لأكبر. وفيه أن استعمال اللفظ الشريف الحسن مكروه في حق من ليس كذلك ومنه أن يقول المملوك لسيده وغيره. «ربي» نبه عليه ابن القيم. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): - قوله: «فأنت أبو شريح» غيره النبي، لأمرين:

الأول: أن الحكم هو الله، فإذا قيل: يا أبا الحكم! كأنه قيل: يا أبا الله!

الثاني: إن هذا الاسم الذي جعل كنية لهذا الرجل لوحظ فيه معنى الصفة وهي

(١) القول المفيد ٢٥/٣

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٦٥

(٣) تيسير العزيز الحميد ٤٦٥

(٤) القول المفيد ٢٩-٢٥/٣

الحكم، فصار بذلك مطابقاً لاسم الله، وليس لمجرد العَلَمِيَّة المحضة، بل للعلمية المتضمنة للمعنى، وبهذا يكون مشاركاً لله - سبحانه وتعالى - في ذلك، ولهذا كُتِبَ للنبي ﷺ بما ينبغى أن يُكْتَبَ به ١.هـ.

● فوائد الحديث:

قال ابن باز^(١): ينبغى احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك ولهذا غير اسمه من أبى الحكم إلى - أبى - شريح، وفيه أن الأفضل أن يكتب الإنسان بأكبر أولاده. وفيه شرعية الإصلاح بين الناس وأنه شيء مطلوب وأنه ينبغى لكبراء الناس أن يتوسطوا في حل الخصومات: حتى لا تبقى الشحناء والعداوة.

والإصلاح بينهم أفضل من الحكم لأن الحكم يحصل به حزازات، لكن إذا اصطلحوا عن طيب نفس كان أفضل لزوال ما في النفوس، وتحل المحبة والمودة ١.هـ.

قال ابن عثيمين^(٢):

١- أنه ينبغى لأهل الوعظ والإرشاد والنصح إذا أغلقوا باباً محرماً أن يبينوا للناس المباح، وقد سبق تقرير ذلك.

٢- أن الحكم لله، لقوله ﷺ: «وإليه الحكم» أما الكوني، فلا نزاع فيه بين أحد من الخلق ولا يعارض الله أحد في أحكامه الكونية.

وأما الشرعي، فهو محك الفتنة والامتحان والاختبار، فمن شرع للناس شرعاً سوى شرع الله ورأى أنه أحسن من شرع الله وأنفع للعباد، أو أنه مساوٍ لشرع الله، أو أنه يجوز ترك شرع الله إليه، فإنه كافر لأنه جعل نفسه نداً لله - عز وجل - سواء في العبادات أو المعاملات، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٣) فدلّت الآية على أنه لا أحد أحسن من حكم الله ولا مساوٍ لحكم الله، لأن أحسن اسم تفضيل: معناه لا يوجد شيء في درجته، ومن زعم ذلك، فقد كذّب الله - عز وجل - وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٤) وهذا دليل على أنه لا يجوز العدول عن شرع الله إلى غيره، وأنه كفر.

(١) التعليق المفيد ٣٢٣، ٢٣٤.

(٢) القول المفيد ٣/ ٢٧-٢٩.

(٣) المائدة : ٥٠

(٤) المائدة : ٤٤

فإن قيل: قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

قلنا: قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٢)﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٣) وهذا دليل على كفرهم ، لأنه قال : ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ وهذا إنكار لإيمانهم ، فظاهر الآية أنهم يزعمون بلا صدق ولا حق .

فقوله ﷺ: «وإليه الحكم» يدل على أن من جعل الحكم لغير الله ، فقد أشرك . هـ .
تنبيه:

قال ابن عثيمين (٣): يجب على طالب العلم أن يعرف الفرق بين التشريع الذى يجعل نظاماً يمشى عليه ويستبدل به القرآن ، وبين أن يحكم فى قضية معينة بغير ما أنزل الله ، فهذا قد يكون كفراً أو فسقاً أو ظلماً .

فيكون كفراً إذا اعتقد أنه أحسن من حكم الشرع أو مماثل له .

ويكون فسقاً إذا كان لهوى فى نفس الحاكم .

ويكون ظلماً إذا أراد مضرة المحكوم عليه ، وظهور الظلم فى هذه أبين من ظهوره فى

الثانية ، وظهور الفسق فى الثانية أبين من ظهوره فى الثالثة .

٣- تغيير الاسم إلى ما هو أحسن إذا تَضَمَّنَ أمراً لا ينبغي ، كما غَيَّرَ النبى ﷺ

بعض الأسماء المباحة ، ولا يحتاج ذلك إلى إعادة العقيقة كما يتوهمه بعض العامة أهـ .

قال القرعاوى (٤):

١- إن الإسلام يحو ما قبله .

٢- يعذر الجاهل بجهله .

قلت: وقد تقدم الكلام عن مسئلة العذر عند الكلام على حديث طارق بن شهاب .

٣- وجوب إنكار المنكر .

٤- إثبات اسم من أسماء الله هو الحكم

قلت: وقد تقدم أيضاً

٥- جواز التحاكم إلى من يصلح للقضاء وإن لم يكن قاضياً معيناً ويلزم حكمه ما

(١) النساء: ٦٠/٦١

(١) المائدة: ٤٧

(٤) الجديد ٣٨٦ .

(٣) القول المفيد (٢٩/٣) .

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته. ولو لم يقصد معناه.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية.

لم ينسحب أحد الطرفين قبل الحكم وقد تقدم. قلت: ومحلّه إذا كان هذا المصلح عالماً بالشرع كما لا يخفى أهـ.

٦- استحباب قبول الاعتذار من المسلم إذا كان وجيهاً.

وقد تقدم في باب من لم يقنع بالحلف بالله.

٧- جواز التكني بالبت لأن الولد يطلق على الذكر والأنثى.

٨- مشروعية التكني بأكبر الأبناء.



قال ابن عثيمين^(١): فيه مسائل

● الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه.

قوله: «ولو لم يقصد معناه» هذا في النفس منه شيء، لأنه إذا لم يقصد معناه، فهو جائز، إلا إذا سُمّي بما لا يصح إلا لله مثل: الله الرحمن، رب العالمين، وما أشبهه، فهذه لا تطلق إلا على الله مهما كان، وأما ما لا يختص بالله، فإنه يُسمّى به غير الله إذا لم يلاحظ معنى الصفة، بل كان المقصود مجرد العلمية فقط، لأنه لا يكون مطابقاً لاسم الله، ولذلك كان في الصحابة من اسمه «الحكم» ولم يغيره النبي ﷺ لأنه لم يقصد إلا العلمية، وفي الصحابة من اسمه «حكيم» وأقره النبي ﷺ.

فالذي يحترم من أسمائه تعالى: ما يختص به، أو ما يقصد به ملاحظة الصفة.

● الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك: وقد سبق الكلام عليه.

● الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية: تؤخذ من سؤال النبي ﷺ: «فمن أكبرهم؟»

قال: شريح، قال: فأنت أبو شريح.

ولا يؤخذ من الحديث استحباب التكني، لأن النبي ﷺ أراد أن يغير كنيته إلى كنية مباحة ولم يأمره النبي ﷺ أن يُكنّى ابتداءً.

قلت: - ولو أمره النبي - ﷺ - بالتكني ابتداءً لكان واجباً ولكن إقراره على التكني وفعله - ﷺ - مع نفسه ومع أصحابه يدل على استحباب ذلك. والله أعلم.



(١) القول المفيد.

مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ

● مناسبة هذا الباب لما قبله.

قال الفقير: أن المسمى بما لا يليق إلا بالله - كقاضى القضاة ونحوه أو من سبَّ الدهر - فيه عدم تعظيم لله بل فيه استهزاء بالله وقد يكون استهزاء بحكمه أو كتابه أو رسوله أو هؤلاء جميعاً فناسب أن يأتى المصنف بهذا الباب المبين لحكم من هزل بشيء من هؤلاء والله أعلم.

أو لأن إحترام أسماء الله تعالى لا تكون إلا بترك الإستهزاء بشيء فيه ذكره فلهذا ناسب أن يأتى بهذا الباب بعد الأبواب المتقدمة.

شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد.

قال الفقير: أراد أن يبين حكم من هزل بهؤلاء.

● حكمه من أقوال أهل العلم.

قال الرازى: قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يدل على أحكام:

الأول: أن الاستهزاء بالدين كان كفر بالله، وذلك لأن الاستهزاء يدل على الإستخفاف والعمدة الكبرى فى الإيمان تعظيم الله تعالى بأقصى الإمكان والجمع بينهما محال.

قال ابن تيمية فى الصارم(*) : إن سب الله أو سب رسوله كفر ظاهراً وباطناً سواء كان الساب يعتقد أن ذلك محرم، أو كان مستحلاً له، أو كان ذاهلاً عن اعتقاده، هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل.

وقد قال الإمام أبويعقوب المعروف بابن راهوية - وهو أحد الأئمة، يعدل بالشافعى وأحمد: - قد أجمع المسلمون أن من سب الله أو سب رسوله عليه الصلاة والسلام أو دفع شيئاً مما أنزل الله أو قتل نبياً من أنبياء الله أنه كافر بذلك وإن كان مقراً بما أنزل الله وكذلك قال محمد بن سحنون - وهو أحد الأئمة من أصحاب مالك أجمع العلماء أن شاتم النبى عليه الصلاة والسلام المتقصر له كافر.

(*) (ص: ٥١٢).

وقد نص على مثل هذا غير واحد من الأئمة وكذلك نقل عن الشافعي أنه سئل عن هزل بشيء من آيات الله تعالى أنه قال: وهو كافر، واستدل بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ اهـ.

وقال القاضي أبو يعلى فى (المسند). من سب الله ورسوله فإنه يكفر، سواء استحلَّ سبه أو لم يستحله، فإن قال: لم أستحل ذلك لم يقبل منه فى ظاهر الحكم، رواية واحدة. وكان مرتدأ، لأن الظاهر خلاف ما أخبر. اهـ.

● حكمه من كلام شراح كتاب التوحيد

قال سليمان آل الشيخ^(١): أى: إنه يكفر بذلك لاستخفافه بجناح الربوبية والرسالة، وذلك مناف للتوحيد. ولهذا أجمع العلماء على كفر من فعل شيئاً من ذلك فمن استهزأ بالله، أو بكتابه أو برسوله، أو بدينه كفر ولو هازلاً لم يقصد حقيقة الاستهزاء اجماعاً. اهـ.

وذكر القاضي عياض فى «الشفأ» فى معرض بيان لحد السب والاستهزاء والتقص قال: «كل من سبه أو عابه أو ألحق به نقصاً فى نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عَرَضَ به أو شبهه بشيء على طريق السب له أو الإزاء عليه أو التصغير لشأنه أو الغض منه والعيب له، وكذلك من لعنه أو دعى عليه أو تمنى مضرة له، أو نَسَبَ إليه مالا يليق بمنصبه على طريق الذم أو عبث فى جهته العزيزة بِسُخْفٍ من الكلام أو غَيَّرَ بشيء مما جرى عليه من البلاء أو المحنة عليه أو غَمَصَ ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه. وهذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى هلم جرا». اهـ (*) .

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): أى فقد كفر.

قال حامد بن محمد^(٣): باب ما جاء فى بيان أن من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول يكفر ولو كان مؤمناً قبل ولا ينفعه إيمانه، ولا أعماله الصالحة التى فعلها قبل ذلك والدليل على ذلك قول الله تعالى ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٦٥ .

(*) انظر «الشفأ بتعريف حقوق المصطفى» للقاضى عياض (٢/ ٢٨٥ - ٢٨٧) طبعة «دار التراث» .

(٢) فتح المجيد ٢/ فتح الله الحميد المجيد .

وَنَلْعَبُ قُلُوبَ أَهْلِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ ۖ اهـ.

قال ناصر السعدي^(١):- أى فإن هذا مناف للإيمان بالكلية. ومخرج من الدين.
لأن أصل الدين الإيمان بالله وكتبه ورسوله. ومن الإيمان تعظيم ذلك. ومن المعلوم أن
الاستهزاء والهزل بشيء من هذه أشد من الكفر المجرد. لأن هذا كفر وزيادة احتقار
وازدراء.

فإن الكفار نوعان: معرضون ومعارضون.

فالمعارض المحارب لله ورسوله، القادح بالله وبدينه ورسوله أغلظ كفراً وأعظم فساداً.
والهازل بشيء منها من هذا النوع. ١. هـ. وسيأتى تفصيل ذلك من كلام ابن
عثيمين.

قال ابن باز^(٢): هذا الباب لبيان حكم المستهزئين بالله وبالقُرآن وبالرسول - ﷺ
وأن حكمهم أنهم مرتدون إذا كانوا مسلمين وأن الاستهزاء رده وكفر. وجواب الشرط
فقد كفر وهو معلوم لقوله تعالى ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ
وَآيَاتِهِ﴾ الآية ١. هـ.

قال ابن عثيمين^(٣): هذه الترجمة فيها شيء من الغموض، والظاهر أن المراد من
هزل بشيء فيه ذكر الله مثل الأحكام الشرعية، أو هزل بالقرآن أو هزل بالرسول ﷺ؛
فيكون معطوفاً على قوله بشيء.

والمراد بالرسول هنا: اسم الجنس، فيشمل جميع الرسل، وليس المراد محمداً ﷺ؛
فـ (أل) للجنس وليست للعهد.

قوله: «من هزل»

سخر واستهزأ ورآه لعباً ليس جدّاً.

ومن هزل بالله أو بآياته الكونية أو الشرعية أو برسوله؛ فهو كافر؛ لأن منافاة
الاستهزاء للإيمان منافاة عظيمة.

كيف يسخر ويستهزئ بأمر يؤمن به؟! فالؤمن بالشئ لا بد أن يعظمه وأن يكون في
قلبه من تعظيمه ما يليق به.

(٢) التعليق ٢٢٥.

(١) القول السديد ١١٣ و ١١٤.

(٣) القول المفيد ٣ / ٣٠ - ٣٣.

والكفر كفران: كفر إعراض، وكفر معارضة، والمستهزئ كافر كفر معارضة؛ فهو أعظم من يسجد لصنم فقط، وهذه المسألة خطيرة جداً، ورب كلمة أوقعت بصاحبها البلاء بل والهلاك وهو لا يشعر؛ فقد يتكلم الإنسان بالكلمة من سخط الله - عز وجل - لا يلقى لها بالاً يهوى بها في النار.

قمن استهزأ بالصلاة - ولو نافلة -، أو بالزكاة، أو الصوم، أو الحج؛ فهو كافر بإجماع المسلمين، كذلك من استهزأ بالآيات الكونية بأن قال مثلاً: إن وجود الحر في أيام الشتاء سفه، أو قال: إن وجود البرد في أيام الصيف سفه؛ فهذا كفر مخرج عن الملة؛ لأن الرب - عز وجل - كل أفعاله مبنية على الحكمة وقد لا نستطيع بلوغها بل لا نستطيع بلوغها.

● هل تقبل توبة من سب الله أو الرسول أو الدين؟

قال ابن تيمية: (١) في الرد على من قال «إنما وجب قتله لأجل الأمرين - أي الكفر والسب - فسقط بزوال أحدهما» قال: فتقول:

«إنه اجتمع في الساب سببان كل منهما يوجب نوعاً من القتل مخالف للنوع الآخر، وإن كان أحدهما يستلزم الآخر؛ فالكفر يوجب القتل للكفر الأصلي أو الكفر الارتدادي، وله أحكام معروفة، والسب يوجب القتل لخصوصه حتى يندرج فيه قتل الكفر وقتل الردة، وهذا هو المذهب في حق مثل هذا...» إلى أن قال: «إذا سقط موجب الكفر والردة؛ لم يسقط موجب السب».

وقال: «فعوده إلى الإسلام يسقط موجب الردة المحضة، ويبقى خصوص السب، ولا بد من إقامة حده، كما أن توبة القاطع قبل القدرة عليه تسقط تحتم القتل ويبقى حق أولياء المقتول».

وقال: «إن الذي عصم دم ابن أبي السرح عفو النبي ﷺ، وأنه بالإسلام والتوبة انمحي عنه الإثم، وبعفو النبي ﷺ احتقن الدم، وليس للأمة أن يعفوا عن حقه».

وقال: «أن قتل السباب لا يسقط عن مسلم ولا معاهد بالتوبة».

التصريح بأنه حد. ١. هـ.

قال ابن عثيمين: وأعلم أن العلماء اختلفوا فيمن سب الله أو رسوله أو كتابه: هل تقبل توبته؟ على قولين:

(١) «الصارم السلول» (٤٤٠، ٣٦١، ٣٣٧، ٤١٥، ٣٩٥).

القول الأول: أنها لا تقبل، وهو المشهور عند الحنابلة، بل يقتل كافراً، ولا يُصلى عليه، ولا يُدعى له بالرحمة، ويدفن في محل بعيد عن قبور المسلمين، ولو قال: إنه تاب أو إنه أخطأ؛ لأنهم يقولون: إن هذا الردة أمرها عظيم وكبير لا تنفع فيها التوبة. وقال بعض أهل العلم: إنها تقبل إذا علمنا صدق توبته إلى الله، وأقر على نفسه بالخطأ، ووصف الله تعالى بما يستحق من صفات التعظيم، وذلك لعموم الأدلة الدالة على قبول التوبة؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، ومن الكفار من يسبون الله، ومع ذلك تقبل توبتهم.

وهذا هو الصحيح، إلا أن سبَّ الرسول ﷺ تقبل توبته ويجب قتله، بخلاف من سبَّ الله؛ فإنها تقبل توبته ولا يقتل، لا لأن حق الله دون حق الرسول ﷺ، بل لأن الله أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد إليه بأنه يغفر الذنوب جميعاً، أما سبَّ الرسول ﷺ؛ فإنه يتعلق به أمران:

الأول: أمر شرعى لكونه رسول الله ﷺ، ومن هذا الوجه تقبل توبته إذا تاب.

الثانى: أمر شخصى لكونه من المرسلين، ومن هذا الوجه يجب قتله لحقه ﷺ ويقتل بعد توبته على أنه مسلم، فإذا قتل؛ غَسَلْنَاهُ وَكَفَّنَاهُ وَصَلَيْنَا عَلَيْهِ وَدَفَنَاهُ مع المسلمين.

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد أَلَّفَ كتاباً فى ذلك اسمه: «الصارم المسلول فى حكم قتل سبَّ الرسول»، أو: «الصارم المسلول على شاتم الرسول»، وذلك لأنه استهان بحق الرسول ﷺ، وكذا لو قذفه؛ فإنه يقتل ولا يجلد.

فإن قيل: أليس قد ثبت أن من الناس من سبَّ الرسول ﷺ وقَبِلَ منه وأطلقه؟

أجيب: بلى، هذا صحيح، لكن هذا فى حياته ﷺ، وقد أسقط حقه، أما بعد موته؛ فلا ندرى، فنتفد ما نراه واجباً فى حق من سبه ﷺ.

فإن قيل: احتمال كونه يعفو عنه أو لا يعفو موجب للتوقف؟

أجيب: إنه لا يوجب التوقف؛ لأن المفسدة حصلت بالسب، وارتفاع أثر هذا السب غير معلوم، والأصل بقاءه.

فإن قيل: أليس الغالب أن الرسول ﷺ عفا عَمَّنْ سبه؟

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾^(١)

أجيب: بلى، وربما كان في حياة الرسول ﷺ إذا عفا قد تحصل المصلحة ويكون في ذلك تأليف، كما أنه ﷺ يعلم أعيان المنافقين ولم يقتلهم؛ لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، لكن الآن لو علمنا أحداً بعينه من المنافقين لقتلناه، قال ابن القيم: إن عدم قتل المنافق المعلوم إنما هو في حياة الرسول ﷺ فقط.



قوله تعالى: ﴿لَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ.....﴾ الآية

- مناسبة الآية للبَاب -

قال القرعاوي^(٢):- حيث دلت الآية على كفر من استهزأ بالله أو بآياته أو

برسوله. اهـ.

الإعراب^(٣) ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ مقول القول وجملة

نخوض خبر كنا قل: أبا لله وآياته ورسوله كستم. وهو في محل جزم فعل الشرط وليقولن اللام واقعة في جواب القسم ويقولن فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو فاعل والنون المشددة للتوكيد وجملة إنما كنا نخوض ونلعب مقول القول وجملة نخوض خبر كنا. ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى التوبيخى وبالله متعلقان يستهزئون وآياته ورسوله عطف على الله وكنتم تستهزئون كان واسمها والجملة الفعلية خبرها. لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم لانهية وتعذروا مضارع مجزوم بلا الناهية وقد حرف تحقيق وكفرتم فعل وفاعل وبعد متعلق بكفرتم وإيمانكم مضاف إليه. اهـ.

● التفسير بالمأثور.

أولاً من السنة

عن شريح بن عبيد رضى الله عنه. أن رجلاً قال لأبى الدرداء رضى الله عنه: يا معشر القراء ما بالكم أجبن منا وأبخل إذا سئلتهم، وأعظم لقماً إذا أكلتم؟ فاعرض عنه أبو الدرداء ولم يرد عليه شيئاً، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فانطلق

(١) التوبة ٦٥ و ٦٦.

(٢) الجديد ٣٨٩.

(٣) إعراب القرآن ٤/ ١٢٧

عمر الى الرجل الذى قال ذلك. فقال له بثوبه وخنقه وقاده الى النبى ﷺ فقال الرجل: إنما كنا نخوض ونلعب. فأوحى الله تعالى الى نبيه ﷺ: ﴿وَلَن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ (١).

وعن عبد الله بن عمر قال: «قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس يوما: ما رأينا مثل قرائتنا هؤلاء، لا أرغب بطونا، ولا أكذب السنة، ولا أجبن عند اللقاء. ! فقال رجل فى المجلس: كذبت، ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيت متعلقا يحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكيه وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب. والنبى ﷺ يقول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟» (٢).

وعن ابن عمر قال: «رأيت عبد الله بن أبى وهو يشتد قدام النبى ﷺ والاحجار تنكيه، وهو يقول: يا محمد إنما كنا نخوض ونلعب، والنبى ﷺ يقول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟» (٣).

وعن سعيد بن جبیر قال «بينما النبى ﷺ فى مسيره واناس من المنافقين يسرون أمامه، فقالوا: إن كان ما يقول محمد حقا فلنحن أشر من الحمير. فأنزل الله تعالى ما قالوا، فارسل اليهم. ما كنتم تقولون؟ فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب» (٤).

عن كعب بن مالك قال: «قال مخشى بن حمير: لوددت انى أقاضى على أن يضرب كل رجل منكم مائة على أن ينجو من أن ينزل فينا قرآن. فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر «أدرك القوم فانهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا، فان هم أنكروا وكنتموا فقل بلى قد قلت كذا وكذا، فادركهم فقال لهم. فجاءوا يعتذرون، فأنزل الله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ الآية. فكان الذى عفا الله عنه محشى بن

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٤٥٥) ونسبه لأبى نعيم فى «الحلية».

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٤٧) وذكره السيوطى فى الموضع السابق وزاد نسبته لابن جرير، وأبى الشيخ، وابن مردويه. وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠٤١) وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٤٥٦) وزاد نسبته لابن المنذر، والعقلى فى «الضعفاء»، وأبى الشيخ، وابن مردويه، والخطيب فى «رواة مالك».

(٤) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للفريابى، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وابن مردويه.

حمير، فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمقتله. فقتل باليمامة لا يعلم مقتله، ولا من قتله، ولا يرى له أثر ولا عين»^(١).

وعن مجاهد في قوله «وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ» قال: قال رجل من المنافقين يحدثنا محمد: أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا فـى يوم كذا وكذا، وما يدرىه بالغيب؟^(٢).

وعن قتادة في الآية قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته الى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين، فقالوا: يرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات...! فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فقال نبي الله ﷺ «احبسوا على هؤلاء الركب. فأتاهم فقال: قلتم كذا قلتم كذا. قالوا: يانبي الله انما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم ما تسمعون»^(٣).

ورتب هذه الآثار ابن الجوزى مختصراً فقال: ^(٤)

قوله تعالى: «وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ» في سبب نزولها ستة أقوال:

أحدها: أن جد بن قيس، ووديعة بن خدام، والجهمير بن خُمير، كانوا يسرون بين يدي رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك، فجعل رجلاً منهم يستهزاء برسول الله ﷺ، والثالث يضحك مما يقولان ولا يتكلم بشيء، فنزل جبريل فأخبره بما يستهزئون به ويضحكون؛ فقال لعمار بن ياسر «اذهب فسلهم عما كانوا يضحكون منه، وقل لهم: أحرقكم الله» فلما سألهم، وقال: أحرقكم الله؛ علموا أنه قد نزل فيهم قرآن، فأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ، وقال الجهمير والله ما تكلمت بشيء، وإنما ضحكت تعجباً من قولهم؛ فنزل قوله: «لَا تَعْتَذِرُوا» يعنى جد بن قيس، ووديعة «إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٤٠٢) وذكره السيوطى في «الدر» (٤٥٦/٣) وزاد نسبه لابن إسحاق، وابن المنذر.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٠٤٨) وذكره السيوطى في «الدر» (٤٥٦/٣) وزاد نسبه لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وأبى الشيخ.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٠٤٩) وذكره السيوطى في «الدر» (٤٥٦/٣) وزاد نسبه لابن المنذر، وأبى شيخ.

(٤) زاد المسير / ٣٥٠ و ٣٥١..

مَنْكُمْ ﴿ يعنى الجهير ﴾ نعذب طائفة ﴿ يعنى الجدّ ووديعه، هذا قول أبى صالح عن ابن عباس (١).

والثاني: أن رجلاً من المنافقين قال: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، ولا أرغبَ بطوناً، ولا أكذبَ، ولا أجبنَ عند اللقاء؛ يعنى رسول الله ﷺ وأصحابه؛ فقال له عوف بن مالك: كذبت، لكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ؛ فذهب ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه؛ فجاء ذلك الرجل، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، هذا قول ابن عمر (٢)، وزيد بن أسلم، والقرطبي.

والثالث: أن قوماً من المنافقين كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ، فقالوا: إن كان ما يقول هذا حقاً، لنحن شرٌّ من الحمير؛ فأعلم الله نبيه ما قالوا، ونزلت ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ﴾، قاله سعيد بن جبير (٣).

والرابع: أن رجلاً من المنافقين قال: يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادى كذا وكذا، وما يُدرى ما الغيب؟ فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد (٤).

والخامس: أن ناساً من المنافقين قالوا: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات؛ فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: «احبسوا على الركب»، فاتاهم، فقال: «قلتم كذا وكذا»، فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب؛ فنزلت هذه الآية، قاله قتادة (٥).

والسادس: أن عبد الله بن أبى، ورهطاً معه، كانوا يقولون فى رسول الله وأصحابه ما لا ينبغي، فإذا بلغ رسول الله ﷺ قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ «أَبَالَهُ وَأَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ»، قاله الضحاك. فقله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ﴾ أى؛ عما كانوا فيه من الاستهزاء ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أى: نلهو بالحديث. وقوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ أى: قد ظهر كفركم بعد إظهاركم الإيمان؛ وهذا يدل على أن الجدّ واللعب فى إظهار كلمة الكفر سواء. اهـ.

● أقوال أهل التفسير:

قال الطبرى (٦): يقول تعالى - جل ثناؤه - لنبية محمد - ﷺ - ولئن سألت يا

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٤٥٦/٣) ونسبه لابن مردويه عن ابن عباس بنحوه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) تفسير الطبرى ١١٨ / ٦ / ١١٩.

محمد هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب ليقولن لك انما قلنا ذلك لعبا وكنا نخوض فى حديث لعبا وهزوا يقول الله لمحمد ﷺ قل يا محمد أبا الله وآيات كتابه ورسوله كنتم تستهزون^(١). اهـ.

قال الرازى^(١): قال الواحدى: أصل الخوض الدخول فى مائع من الماء والطين، ثم كثر حتى صار اسما لكل دخول فيه تلويث وأذى، والمعنى: أنا كنا نخوض ونلعب فى الباطل من الكلام كما يخوض الركب لقطع الطريق، فأجابهم الرسول بقوله: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فرق بين قولك استهزىء بالله، وبين قولك أبالله تستهزىء، فالأول يقتضى الإنكار على عمل الاستهزاء، والثانى: يقتضى الإنكار على إيقاع الاستهزاء فى الله، كأنه يقول هب أنك قد تقدم على الاستهزاء ولكن كيف أقدمت على إيقاع الاستهزاء فى الله ونظيره قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ والمقصود: ليس نفى الغول، بل نفى أن يكون خمر الجنة محللا للغول.

المسألة الثانية: أنه تعالى حكى عنهم أنهم يستهزئون بالله وآياته ورسوله، ومعلوم أن الاستهزاء بالله محال.

قلت: شرعاً أما قدراً فقد يقع كما حدث.

فلا بد له من تأويل.

قلت: لانذهب إلى تأويل نص شرعى إلا إذا خالف نص شرعى آخر - وفيه وجوه:
الأول: المراد بالاستهزاء بالله هو الاستهزاء بتكاليف الله تعالى - والاستهزاء بتكاليف الله هو استهزاء به على الحقيقة كما تقدم فى الباب السابق.

الثانى: يحتمل أن يكون المراد الاستهزاء بذكر الله، فان أسماء الله قد يستهزى الكافر بها كما أن المؤمن يعظمها ويمجدها. قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فأمر المؤمن بتعظيم اسم الله. وقال ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ فلا يمتنع أن يقال (أبالله) ويراد: أبذكر الله.

قلت: وظاهر كلامه أنه يقول بأن الإسم غير المسمى وهو مذهب يخالف ما ذهب إليه أهل السنة وقد تقدم أن الاسم هو المسمى، وأيضاً الكلام يحمل على الحقيقة ولا داعى للتأويل بدون دليل ونقول أن المراد بالله ذكره.

(١) التفسير الكبير / ١٢٥ - ١٢٧.

ثم قال: الثالث: لعل المنافقين لما قالوا: كيف يقدر محمد على أخذ حصون الشام وقصورها. قال بعض المسلمين: الله يعينه على ذلك وينصره عليهم، ثم إن بعض الجهال من المنافقين ذكر كلاما مشعرا بالقدح فى قدرة الله كما هو عادات الجهال والملاحدة، فكان المراد ذلك.

قلت: لو حدث ذلك لُنقل - وأما قوله «وآياته» فالمراد بها القرآن، وسائر ما يدل على الدين. وقوله (ورسوله) معلوم، وذلك يدل على أن القوم إنما ذكروا ما ذكروه على سبيل الاستهزاء.

قال تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: نقل الواحدى عن أهل اللغة فى لفظ الاعتذار قولين:

القول الأول: أنه عبارة عن محو الذنب من قولهم: اعتذرت المنازل إذا درست.

يقال: مررت بمنزل معتذر، والاعتذار هو الدرس وأخذ الاعتذار منه. لأن المعتذر يحاول إزالة أثر ذنبه.

والقول الثانى: حكى ابن الأعرابى أن الاعتذار هو القطع، ومنه يقال للقلفة عذرة لأنها تقطع، وعذرة الجارية سميت عذرة. لأنها تعذر أى تقطع، ويقال اعتذرت المياه إذا انقطعت، فالعذر لما كان سببا لقطع اللوم سمي عذرا، قال الواحدى: والقولان متقاربان، لأن محو أثر الذنب وقطع اللوم يتقاربان.

المسألة الثانية: أنه تعالى بين أن ذلك الاستهزاء كان كفرا، والعقل يقتضى أن الاقدام على الكفر لأجل اللعب غير جائز، فثبت أن قولهم إنما كنا نخوض ونلعب، ما كان عذرا حقيقيا فى الاقدام على ذلك الاستهزاء، فلما لم يكن ذلك عذرا فى نفسه نهاهم الله عن أن يعتذروا به لأن المنع عن الكلام الباطل واجب. فقال (لا تعتذروا) أى لا تذكروا هذا العذر فى دفع هذا الجرم.

المسألة الثالثة: قوله ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يدل على أحكام.

الحكم الأول

أن الاستهزاء بالدين كان كفر بالله، وذلك لأن الاستهزاء يدل على الاستخفاف والعمدة الكبرى فى الإيمان تعظيم الله تعالى بأقصى الإمكان والجمع بينهما محال.

قلت: / وكان فى كلام الرازى هنا لاتدل على أنه نُسخ ذلك ولكن هى دليل على الاستمرار فالاستهزاء بالدين كفر ولايزال وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

الحكم الثانى

أنه يدل على بطلان قول من يقول، الكفر لا يدخل إلا فى أفعال القلوب.
قلت: / يقصد الرازى - رحمه الله - أن الآية ترد على من جعل الكفر هو الجحود فقط أو أنه منحصر فى عمل القلب أى الكفر الاعتقادى بل من الكفر العملى أيضاً ما يخرج من الملة.

الحكم الثالث

يدل على أن قولهم الذى صدر منهم كفر فى الحقيقة، وإن كانوا منافقين من قبل وأن الكفر يمكن أن يتجدد من الكافر حالاً فحالاً.
قلت: ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾.

الحكم الرابع

يدل على أن الكفر إنما حدث بعد أن كانوا مؤمنين.
ولقائل أن يقول: القوم لما كانوا منافقين فكيف يصح وصفهم بذلك؟
قلنا: قال الحسن المراد كفرتم بعد إيمانكم الذى أظهرتموه، وقال آخرون: ظهر كفركم للمؤمنين بعد أن كنتم عندهم مسلمين، والقولان متقاربان. اهـ.
قال الشوكانى^(١): قوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أى ولئن سألتهم عما قالوه من الطعن فى الدين وثلث المؤمنين بعد أن يبلغ إليك ذلك ويطلعك الله عليه ليقولن: إنما كنا نخوض ونلعب، ولم تكن فى شيء من أمرك ولا أمر المؤمنين. ثم أمره الله أن يجيب عنهم فقال: ﴿قُلْ أَلْبَلَّهٖ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ والاستفهام: للتقريع والتوبيخ، وأثبت وقوع ذلك منهم ولم يعبأ بإنكارهم، لأنهم كانوا كاذبين فى الإنكار، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيث جعل المستهزأ به، والباء لحرف^(*) التنفى، فإن ذلك إنما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوتها، ثم قال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ نهياً لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطنة^(**)، فإن ذلك غير مقبول منهم. وقد نقل الواحدى عن أئمة اللغة: أن معنى الاعتذار: محو أثر الذنب وقطعه، من قولهم: اعتذر المنزل: إذا درس، واعتذرت المياه: إذا انقطعت ﴿فَدُ كَفَرْتُمْ﴾ أى أظهرتم

(*) هكذا فى المطبوع ولعلها (حرف).

(١) فتح القدير / ٣٩٦.

(**) هكذا فى المطبوع ولعلها (الباطلة).

الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أى بعد إظهاركم الإيمان مع كونكم تبطنون الكفر.

قال ناصر السعدى^(١): فإن الاستهزاء بالله ورسوله، كفر مخرج عن الدين.

لأن أصل الدين، مبنى على تعظيم الله، وتعظيم دينه ورسوله.

والاستهزاء بشيء من ذلك، مناف لهذا الأصل، ومناقض له أشد المناقضة.

ولهذا لما جاءوا إلى الرسول، يعتذرون بهذه المقالة، والرسول لايزيدهم على قوله:

﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم.

● أقوال شراح كتاب التوحيد.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قال شيخ الإسلام: فقد أمره أن يقول: كفرتم بعد

إيمانكم. وقول من يقول: إنهم قد كفروا بعد إيمانهم بلسانهم، مع كفرهم أولاً

بقلوبهم لا يصح؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر. فلا يقال: ﴿قَدْ

كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ فإنهم لم يزالوا كافرين فى نفس الأمر. وإن أريد إنكم أظهرتم

الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يظهروا ذلك إلا لخوضهم. وهم مع خوضهم ما

زالوا هكذا، بل لما نافقوا وحذروا أن تنزل عليهم سورة تبين ما فى قلوبهم من النفاق

وتكلموا بالاستهزاء أى: صاروا كافرين بعد إيمانهم. ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا

منافقين إلى أن قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فاعترفوا

ولهذا قيل: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً﴾

فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفراً، بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر. فتبين

أن الاستهزاء بآيات الله ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه، فدل على أنه كان

عندهم إيمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذى عرفوا أنه محرم. ولكن لم يظنوه كفراً

وكان كفراً كفروا به، فإنهم لم يعتقدوا جوازه. وقوله: ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبُ

طَائِفَةً﴾ قال ابن كثير: أى: لا يعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضهم بأنهم

كانوا مجرمين بهذه المقالة الفاجرة. قيل: إن الطائفة مخشى بن حمير عفا الله عنه

وتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم مقتله، فقتل يوم اليمامة ولم

(١) تيسير الكريم الرحمن / ٢٥٥.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٦٦ و ٤٦٧.

يعلم مقتله ولا من قتله ولا يدري له عين ولا أثر. وقيل: إن الطائفة زيد بن ودية. والأول أشهر، ويحتمل أن الله عفا عنهما جميعاً. وفي الآية دليل على أن الرجل إذا فعل الكفر ولم يعلم أنه كفر لا يعذر بذلك، بل يكفر وعلى أن الساب كافر بطريق الأولى نبه عليه شيخ الإسلام. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): ويستفاد من الآيتين:

١ - بيان علم الله - عز وجل - بما سيكون؛ لقوله: ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾، وهذا مستقبل؛ فالله عالم ما كان وما سيكون؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ﴾.

٢ - أن الرسول ﷺ يحكم بما أنزل الله إليه حيث أمره أن يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ...﴾.

٣ - أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله من أعظم الكفر؛ بدليل الاستفهام والتوبيخ.

٤ - أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله أعظم استهزاء وقبحاً؛ لقوله: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ...﴾، وتقديم المتعلق يدل على الحصر كأنه ما بقى إلا أن تستهزؤا بهؤلاء الذين ليسوا محلاً للاستهزاء؛ بل أحق الحق هؤلاء الثلاثة.

٥ - أن المستهزىء بالله يكفر؛ لقوله: ﴿لَا تَعْتَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

٦ - استعمال الغلظة في محلها، وإلا؛ فالأصل أن من جاء يعتذر يرحم، لكنه هنا ليس أهلاً للرحمة.

٧ - قبول توبة المستهزىء بالله؛ لقوله: ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ...﴾، وهذا أمر قد وقع، فإن من هؤلاء من عفى عنه وهُدِيَ للإسلام وتاب وتاب الله عليه، وهذا دليل للقول الراجح أن المستهزىء بالله تقبل توبته، لكن لا بد من دليل بين على صدق توبته؛ لأن كفره من أشد الكفر أو هو أشد الكفر، فليس مثل كفر الإعراض أو الجحد.

وهؤلاء الذين حضروا السب مثل الذين سبوا، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾ وهم يستطيعون المفاارقة، والنبي ﷺ امثل أمر الله

(١) القول المفيد ٣٦/٢ - ٣٨.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةَ؛ دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ: «أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَائِنَا هَؤُلَاءِ؛ أَرْغَبُ بَطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ. يُعْنَى: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الْقُرَاءَ. فَقَالَ لَهُ عَوْفُ ابْنِ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ؛ لِأَخْبَرَنَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ أُرْتَحَلَ وَرَكَبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ قَالَ ابْنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنَسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّ الْحِجَارَةَ لَتَنُكِبُ رَجُلِيهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَأَيَّاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ»^(١).

بتبليغهم، حتى إن الرجل الذي جاء يعتذر صار يقول له: ﴿أَبِاللَّهِ وَأَيَّاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم، ولا يزيد على هذا أبداً مع إمكان أن يزيد توبيخاً وتقريعاً. اهـ.



قوله: [عن ابن عمر ومحمد بن كعب...].

قال سليمان الشيخ^(٢): هذا الاثر ذكره المصنف مجموعاً من رواية ابن عمر،

(١) [ضعيف] أما أثر ابن عمر أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١١٩/١٠) من طريق هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر به.

أما أثر محمد بن كعب فقد أخرجه ابن جرير في الموضع السابق قال: حدثنا الحارث قال ثنا عبد العزيز قال ثنا أبو معمر عن محمد بن كعب .. فذكره.

أما أثر زيد بن أسلم أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١١٩/١٠).

قال: حدثنا علي بن داود قال ثنا عبد الله بن صالح قال ثنا الليث قال ثنى هشام بن مسعود عن زيد بن أسلم... فذكره.

أما أثر قتادة أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١١٩/١٠).

قال: حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال ثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة .. فذكره.

وانظر كتابنا «فتح ذى الجلال فى تخريج أحاديث الظلال» (ح ٥٥٠). «وفتح المجيد» (ح ٧٨٠) بتخريجنا

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤١٧.

ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة، وقد ذكره قبله كذلك شيخ الإسلام. فأما أثر ابن عمر فرواه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وغيرهما بنحو ما ذكره المصنف. وأما أثر محمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة فهي معروفة لكن بغير هذا اللفظ. اهـ.

- مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى^(١): حيث دلّ الحديث المتضمن الآية على كفر من استهزأ بالله أو كتابه أو رسوله. اهـ.

قوله: «عن ابن عمر... إلخ».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: «عن ابن عمر» هو عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، ومحمد بن كعب هو محمد بن كعب بن سليم أبو حمزة القرظي المدني. قال البخاري: إن أباه كان ممن لم يثبت من بنى قريظة، وهو ثقة عالم مات سنة عشرين ومئة وزيد بن أسلم هو مولى عمر بن الخطاب، والد عبد الرحمن وإخوته، يكنى أبا عبد الله، ثقة مشهور مات سنة ست وثلاثين ومئة وقتادة هو ابن دعامة وتقدم اهـ.

قوله: «دخل حديث بعضهم فى بعض».

قال سليمان آل الشيخ^(٣): أى: إن الحديث مجموع من رواياتهم فلذلك دخل بعضه فى بعض. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): إن هذا الحديث مجموع من كلامهم، وهذا يفعله بعض أئمة الرواة كالزهرى وغيره، فيحدثه جماعة بشأن قصة من القصص كحديث الإفك مثلاً، فيجمعون هذا ويجعلونه فى حديث واحد، ويشيرون إلى هذا، فيقولون - مثلاً: دخل حديث بعضهم فى بعض، أو يقول: حدثنى بعضهم بكذا وبعضهم بكذا، وما أشبه ذلك.

[قلت]: ويؤيده قول النووى^(٥): «هذا الذى ذكره الزهرى من جمعه الحديث - أى

(١) الجديد ٣٩٢.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٦٧.

(٣) تيسير العزيز المجيد ٤٦٨.

(٤) القول المفيد ٣٩/٢.

(٥) [صحيح] شرح مسلم ١٢٣/٩.

حديث الأفك - عنهم جائز، لامنعه منه ولا كراهة فيه... إلخ. ونقل ابن رجب في شرح العلل عن أبي يعلى الخليلي في كتابه الارشاد أى الرجل إذا جمع بين حديث جماعة وساق الحديث سياقة واحدة فالظاهر أن لفظهم لم يتفق فلا يقبل هذا الجمع إلا من حافظ متقن لحديثه يعرف شيوخته واختلافهم كما كان الزهرى يجمع بين شيوخي له في حديث الإفك وغيره. أ.هـ. (١).

قلت: وهذا الصنيع حجة للشيخ الألبانى - رحمه الله - فى جمعه لحديث جابر فى «حجة النبى» ﷺ على حديث واحد وكذلك خطبة الحاجة وغيرهما ولهذا جمعت حديث، حذيفة فى الصحيح فى باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة فى الفتن فى كتابى «كيف الأمر» على حديث واحد والله الموفق لأرب سواه ثم وجدت أن ابن حجر نقل عن عياض: أنهم انتقضوا على الزهرى ما صنعه من روايته لهذا الحديث مليفة عن هؤلاء الأربعة، وقالوا: كان ينبغى له أن يفرد حديث كل واحد منهم عن الآخر. أ.هـ.

قال ابن حجر: وقد تتبع طرقه فوجدته من رواية عروة على إفراده، ومن رواية علقمة بن وقاص ومن سياق كل منهما مخالافات ونقص وبعض زيادة لما فى سياق الزهرى عن الأربعة. ثم سألت شيخنا (محمد عمرو عبداللطيف) فكان من جملة جوابه أن صنيع الزهرى خلاف الأولى، وأن أدق كلام هو كلام الحافظ ابن حجر، وأن مذهب الشيخ الألبانى - رحمه الله - فى الجمع على النحو المتقدم فى النفس منه شىء. والله أعلم.

قوله: «أنه قال رجل فى غزوة تبوك».

قال سليمان آل الشيخ (٢): قوله: «إنه قال رجل فى غزوة تبوك» لم أقف على تسمية القائل لذلك أبهم اسمه فى جميع الروايات التى وقفت عليها. ولكن قد ورد تسمية جماعة ممن نزلت فيهم الآية مع اختلاف الرواية فيما قالوه من الكلام. ففى بعض الروايات أنهم قالوا ما ذكره المصنف. أ.هـ.

قال ابن عثيمين (٣): قوله: «فى غزوة تبوك».

تبوك فى أطراف الشام، وكانت هذه الغزوة فى رجب حين طابت الثمار، وكان مع الرسول ﷺ فى هذه الغزوة نحو ثلاثين ألفاً، ولما خرجوا رجع عبد الله بن أبى بنحو

(١) شرح العلل لابن رجب (٣٥٩).

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٦٨.

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٩ - ٤٣.

نصف المعسكر، حتى قيل: إنه لا يدرى أى الجيشين أكثر: الذين رجعوا، أو الذين ذهبوا؟ مما يدل على وفرة السفاق فى تلك السنة، وكانت فى السنة التاسعة، وسببها أنه قيل للنبي ﷺ: إن قوماً من الروم ومن متصرة العرب يجمعون له، فأراد أن يغزوهم ﷺ إظهاراً للقوة وإيماناً بنصر الله - عز وجل - اهـ.

قوله: «ما رأينا».

قال ابن عثيمين^(١): تحتمل أن تكون بصرية، وتحتمل أن تكون علمية قلبية.

قوله: «مثل قرائنا»: المفعول الأول، والمراد بهم الرسول ﷺ وأصحابه.

قوله: «أرغب بطوننا» المفعول الثانى؛ أى: أوسع، وإنما كانت الرغبة هنا بمعنى السعة؛ لأنه كلما اتسع البطن رغب الإنسان فى الأكل.

قوله: «ولا أكذب ألسناً» الكذب: هو الإخبار بخلاف الواقع، والألسن: جمع لسان، والمراد: ولا أكذب قولاً، واللسان يطلق على القول كثيراً فى اللغة العربية؛ كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾؛ أى: بلغتهم.

قوله: «ولا أجبن عند اللقاء».

الجبن: هو خور فى النفس يمنع المرء من الإقدام على ما يكره؛ فهو خلق نفسى دميم، ولهذا كان النبي ﷺ يستعيز منه لما يحصل فيه من الإحجام عما ينبغى الإقدام إليه؛ فلن هذا كان صفة ذميمة، وهذه الأوصاف تنطبق على المنافقين لا على المؤمنين، فالؤمن يأكل بمعى واحد: ثلث لطعامه، وثلث لشربه وثلث لنفسه، والكافر يأكل بسبعة أمعاء، والمؤمن أصدق الناس لساناً ولاسيما النبي ﷺ وأصحابه؛ فإن الله وصفهم بالصدق فى قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾. والمنافقون أكذب الناس؛ كما قال الله فيه: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وجعل النبي ﷺ الكذب من علامات النفاق (*)، والمنافقون من أجبن الناس، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صِحَّةٍ عَلَيْهِمْ﴾ فلو سمعوا أحداً يتشد ضالته؛ لفعلوا عدو، عدو، وهم أحب الناس للدنيا؛ إذ أصل نفاقهم من أجل الدنيا ومن أجل أن نحمل دماؤهم وأموالهم وأعراضهم.

(١) القول المفيد (٤١١٣).

(*) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٣)، ومسلم فى الإيمان (٤٦/٢ - النووى) عن أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٢٠١ - بتخريجنا).

قوله: «كذبت».

أى: أخبرت بخلاف الواقع، وفى ذلك دليل على تكذيب الكذب مهما كان الأمر، وأن السكوت عليه لا يجوز.

قوله: «ولكنك منافق».

لأنه لا يطلق هذه الأوصاف على رسول الله ﷺ وأصحابه رجل تسمى بالإسلام إلا منافق، وبهذا يعرف أن من يسب أصحاب رسول الله ﷺ أنه كافر؛ لأن الطعن فيهم طعن فى الله ورسوله وشريعته.

فيكون طعنًا فى الله: لأنه طعن فى حكمته، حيث اختار لأفضل خلقه أسوأ خلقه. وطعنًا فى الرسول ﷺ: لأنهم أصحابه، والمرء على دين خليله، والإنسان يُستدل على صلاحه أو فساد أو سوء أخلاقه أو صلاحها بالقرين.

وطعنًا فى الشريعة: لأنهم الوسطة بينا وبين الرسول ﷺ فى نقل الشريعة، وإذا كانوا بهذه المثابة؛ فلا يوثق بهذه الشريعة^(١).

قوله: «فوجد القرآن قد سبقه».

أى: بالوحي من الله تعالى، والله عليم بما يفعلون وبما يريدون وبما يبيتون، قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾^(٢).

قوله: «وقد ارتحل وركب ناقته».

الظاهر أن هذا من باب عطف التفسير؛ لأن ركوب الناقة هو الارتحال^(٣).

قوله: «كأنى أنظر إليه».

كان إذا دخلت على مشتق؛ فهى للتوقع، وإذا دخلت على جامد؛ فهى للتشبيه، وهنا دخلت على جامد، والمعنى: كأنه الآن أمامى من شدة يقينى به^(٤).

قوله: «بنسعة».

هى الحزام الذى يربط به الرحل^(٥).

قوله: «والحجارة تنكب رجليه».

(١ - ٥) القول المفيد (٤١، ٤٢، ٤٣).

أى: يمشى والحجارة تضرب رجله وكأنه - والله أعلم - يمشى بسرعة، ولكنه لا يحس فى تلك الحال؛ لأنه يريد أن يعتذر^(١).

قوله: «وما يزيد عليه».

أى: لا يزيد على ما ذكر من توبيخ امتثالاً لأمر الله - عز وجل -، وكفى بالقول الذى أرشد الله إليه نكايَةً وتوبيخاً^(٢).

- مسألة فى سب الصحابة رضى الله عنهم.

قال ابن تيمية^(٣): «وأما سبهم سباً لا يقدح فى عدالتهم ولا فى دينهم، مثل وصف بعضهم بالبخل، أو الجبن، أو قلة العلم، أو عدم الزهد ونحو ذلك؛ فهو الذى يستحق التأديب والتعزير، ولا نحكم بكفره بمجرد ذلك، وعلى هذا يحمل كلام من لم يكفرهم من العلماء».

وذكر أبو يعلى من الأمثلة على ذلك اتهامهم بقلة المعرفة بالسياسة.

قال الهيثمى^(٤): «ثم الكلام - أى الخلاف - إنما هو فى سب بعضهم، أما سب جميعهم؛ فلا شك فى أنه كفر».

قال الذهبى فى «الكبائر»^(*) فيمن سب الصحابة: فمن طعن فيهم أو سبهم فقد خرج من الدم الدين، ومرق من ملة الإسلام، لأن الطعن فيهم لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم وإضرار الحق فيهم، وإنكار ما ذكره الله تعالى فى كتابه من ثنائه عليهم وما لرسول ﷺ من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبهم وحبهم، ولأنهم أرضى الوسائل من المأثور، والوسائل من المنقول، والطعن فى الوسائل طعن فى الأصل، والازدراء بالنقل ازدراء بالمنقول؛ وهذا ظاهر لمن تدبره، وسلم من النفاق، ومن الزندقة والإلحاد فى عقيدته... إلخ.

قال محمد بن عبد الوهاب^(٥): «ومن خص بعضهم بالسب، فإن كان ممن تواتر النقل فى فضله وكمالته كالخلفاء، فإن اعتقد حقية سبه أو إباحته؛ فقد كفر لتكذيبه ما ثبت قطعاً عن رسول الله ﷺ، ومكذبه كافر، وإن سبه من غير اعتقاد حقية سبه أو إباحته؛ فقد فسق لأن سباب المسلم فسوق، وقد حكم البعض فيمن سب الشيخين بالكفر مطلقاً».

(١ - ٢) القول المفيد.

(٣) الصارم المدلول ٥٨٦ - ٥٨٧ كما فى «الصارم المدلول» (ص ٥٧١).

(٤) الصواعق المحرقة ٣٧٩. (*) «الكبائر» (ص ٢٦١) الكبيرة السبعون.

(٥) الرد على الرافضة ١٩٠.

وقال أيضاً: «وإن كان ممن لم يتواتر النقل فى فضله وكماله؛ فالظاهر أن سابه فاسق، إلا أن يسبه من حيث صحبته لرسول الله ﷺ؛ فإنه يكفر». اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): «وأما من جاوز ذلك إلى أن زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفرأ قليلاً لا يبلغون بضعة عشرة نفساً، أو أنهم فسقوا عامتهم؛ فهذا لاريب أيضاً فى كفره؛ لأنه مكذب لما نصه القرآن فى غير موضع من الرضا عنهم والثناء عليهم، بل من يشك فى كفر هذا؛ فإن كفره متعين... إلى أن قال: «وكفر هذا بما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام». اهـ.

قال ابن كثير^(٢): «وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها - أى: عائشة - بعد هذا ورمائها بما رماها به بعد هذا الذى ذكر فى الآية؛ فإنه كافر لأنه معاند للقرآن.

وانظر القول بتكفير من قذق عائشة رضى الله عنها فى: «الشفاء»^(٣)، «الصارم المسلول»^(٤)، و«تفسير ابن جرير»^(٥)، و«تفسير القرطبي»^(٦)، و«المحلى»^(٧).

وإليك بعض هذه النقولات عن الأئمة الأعلام:-

قال ابن جرير فى تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: يقول تعالى ذكره ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ بالفاحشة ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ يعنى العفيفات ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ عن الفواحش ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالله ورسوله، وما جاء به من عند الله ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يقول أبعادوا من رحمة الله فى الدنيا والآخرة، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وذلك عذاب جهنم اختلف أهل التأويل فى المحصنات اللاتى هذا حكمهن، فقال بعضهم: إنما ذلك لعائشة خاصة وحكم من الله فيها وفيمن رماها دون سائر أمه نبينا ﷺ. أ. هـ ثم قال أن هذا هو أولى الأقوال بالصواب، - أى أنها نزلت فى عائشة - والحكم بها عام فى كل من كان بالصفة التى وصفها الله بها فيها. أ. هـ.

وقال ابن حزم: قال مالك فى قوله تعالى ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾: فمن رماها فقد خالف القرآن ومن خالف القرآن قتل. قال أبو محمد: قول مالك ههنا

(١) القول المفيد (٣/ ٤٣)

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٦.

(٣) (٢/ ١١٠٩).

(٤) (٥/ ٨٣).

(٥) (١٨/ ٨٣).

(٦) (١١/ ٤١٥).

(٧) (١/ ٤٦٠، ٢/ ٤٦٠).

صحيح، وهى ردة تامة وتكذيب لله تعالى فى قطعه ببرائتها، وكذلك القول فى سائر أمهات المؤمنين ولا فرق؛ لأن الله تعالى يقول ﴿وَالطَّيَّاتُ لِلطَّيِّينَ وَالطَّيُّونَ لِلطَّيَّاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ فكلهن مبرئات من قول إفك، والحمد لله رب العالمين.

وقال ابن تيمية فى «الصارم»: «فأما من سب أزواج النبى ﷺ فقال القاضى أبو يعلى: من قذف عائشة بما برأها الله منه كفر بلا خلاف، وقد حكى الإجماع على هذا غير واحد، وصرح به غير واحد من الأئمة بهذا الحكم.

ثم قال: وأما من سب غير عائشة من أزواجه ﷺ ففيه قولان: أحدهما: أنه كسبٌ غيرهن من الصحابة.

الثانى: وهو الأصح أنه من قذف واحدة من أمهات المؤمنين فهو كقذف عائشة رضى الله عنها - أ.هـ.

قلت: والقول الأول والثانى الراجح قتل من فعل هذا، كما بين ابن تيمية بعد ذلك الموضع. والله أعلم.

وقال القرطبى: قال قوم: هى فى عائشة وسائر ازواج النبى ﷺ. قاله ابن عباس والضحاك وغيرهما ولا تنفع التوبة، ومن قذف غيرهن من المحصنات فقد جعل الله له توبة. أ.هـ. وذكر باقى الأقوال.

وقال فى «حاشية القول المفيد»: وأما قذف بقية أمهات المؤمنين؛ فلا كثرون على كفر فاعل ذلك لأن المذوف زوجة رسول الله ﷺ، والله تعالى إنما غضب لها لأنها زوجته؛ فهى وغيرها منهن سواء، وفيه نقص وأذى لرسول الله ﷺ. انظر: «الشفاء»^(١) و«البداية والنهاية»^(٢)، و«الصواعق المحرقة»^(٣) و«المحلى»^(٤). أ.هـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٥): وفى هذا الحديث من الفوائد:

أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به، وأشدّها، خطراً إرادات القلوب فهى كالبحر الذى لا ساحل له.

وفيد الخوف من النفاق الأكبر، فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيماناً قبل أن يقولوا ما قالوه، كما قال ابن أبى مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، نسأل الله السلامة والعفو والعافية فى الدنيا والآخرة. أ.هـ.

(٢) (٩٥/٨).

(٤) (٩٥/٨).

(١) (١١٣/٢).

(٣) (ص: ٣٨٧).

(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٦٩.

فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى: وهى العَظِيمَةُ؛ أَنَّ مَنْ هَزَلَ بِهَذَا إِنَّهُ كَافِرٌ.
الثانية: أَنَّ هَذَا تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَائِنًا مَنْ كَانَ.
الثالثة: الْفَرْقُ بَيْنَ النَّمِيمَةِ وَالنَّصِيحَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ.
الرابعة: الْفَرْقُ بَيْنَ الْعَفْوِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَبَيْنَ الْغِلْظَةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ.
-

قال ابن عثيمين:

قوله فيه مسائل:

- الأولى - وهى العظيمة - : أن من هزل بهذا كافر.
المشار إليه: ﴿أَبَاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ﴾.
- الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان.
أى: سواء كان منافقاً أو غير منافق ثم استهزأ؛ فإنه يكفر كائناً من كان.
- الثالثة: الفرق بين النميمة والنصيحة لله ولرسوله.
النميمة: من تَمَّ الحديث؛ أى: نقله ونسبه إلى غيره، وهى نقل كلام الغير للغير بقصد الإفساد، وهى من أكبر الذنوب، قال ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام»^(١)، وأخبر عن رجل يعذب فى قبره؛ لأنه كان يمشى بالنميمة^(٢)، وأما النصيحة لله ورسوله؛ فلا يقصد بها ذلك، وإنما يقصد بها احترام شعائر الله - عز وجل - وإقامة حدوده وحفظ شريعته، وعوف بن مالك نقل كلام هذا الرجل لأجل أن يقام عليه الحد أو ما يجب أن أن يقام عليه وليس قصده مجرد النميمة.
ومن ذلك لو أن رجلاً اعتمد على شخص ووثق به، وهذا الشخص يكشف سره ويستهزئ به فى المجالس، فإنك إذا أخبرت هذا الرجل بذلك؛ فليس هذا من النميمة، بل من النصيحة.
- الرابعة: الفرق بين العفو الذى يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله.

العفو الذى يحبه الله: هو الذى فيه إصلاح؛ لأن الله اشترط ذلك فى العفو فقال:

(١) [صحيح] أخرجه: البخارى (٦٠٥٦)، ومسلم فى الإيمان (١١٢/٢ - النووى) عن حذيفة بن

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٣٩ - بتخريجنا).

(٢) تقدم تخريجه.

الخامسة: أَنْ مِنَ الْاِعْتِذَارِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْبَلَ.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أى: كَانَ عَفْوُهُ مُشْتَمِلًا عَلَى الْإِصْلَاحِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَى أَصْلَحَ الْوَدَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ قَاصِرٌ، وَالصَّوَابُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَصْلَحَ فِي عَفْوِهِ؛ أَى: كَانَ فِي عَفْوِهِ إِصْلَاحٌ.

فَمَنْ كَانَ عَفْوُهُ إِفْسَادًا لَا إِصْلَاحًا؛ فَإِنَّهُ آثَمُ بِهَذَا الْعَفْوِ، وَوَجْهُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَةِ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿عَفَا وَأَصْلَحَ﴾، وَلِأَنَّ الْعَفْوَ إِحْسَانٌ وَالْفُسَادُ إِسَاءَةٌ، وَدَفَعَ الْإِسَاءَةَ أَوَّلَى، بَلِ الْعَفْوُ حَيْثُذُ مُحَرَّمٌ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ غَلَّظَ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ لِكُونِهِ ﷺ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، وَلَا يَزِيدُ عَلَى هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ مَعَ أَنَّ الْحِجَارَةَ تَنْكُبُ رَجُلَ الرَّجُلِ، وَلَمْ يَرْحَمْهُ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَرْقُ لَهُ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ شَدِيدًا فِي مَوْضِعِ الشَّدَةِ، قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ: ﴿أَشْدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا وَأَهُمُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي سَوْرَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مِنْ أَهَمِّ مَا يَكُونُ، لَكِنْ اسْتَعْمَالَ اللَّيْنِ أحيانًا لِلدَّعْوَةِ وَالتَّالِيفِ قَدْ يَكُونُ مُسْتَحْسَنًا.

● الخامسة: أَنْ مِنَ الْاِعْتِذَارِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْبَلَ.

فَالْأَصْلُ فِي الْاِعْتِذَارِ أَنْ يُقْبَلَ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْمُعْتَذِرُ مُحْسِنًا، لَكِنْ حَصَلَتْ مِنْهُ هَفْوَةٌ، فَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ اِعْتَذَرَ بِاطِلٍ؛ فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ.

قُلْتُ: جَاءَ الْاِعْتِذَارُ عَلَى انْحَاءِ مِنْهَا:

- (١) نَهَى الْإِنْسَانُ عَنْ مَا يُوْجِبُ الْاِعْتِذَارَ قَالَ ﷺ: «... وَإِيَّاكَ وَمَا يَعْتَذِرُ مِنْهُ».
- (٢) فَإِذَا فَعَلَ مَا يُوْجِبُ الْعِذْرَ مَعَ إِحْسَانِهِ يُقْبَلُ عِذْرُهُ وَيُؤَيِّخُ مَنْ لَمْ يُقْبَلْ عِذْرُهُ لَمَّا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَإِسْرَاعُ أَبِي بَكْرٍ فِيهِ بِكْرَةٌ وَكَلِمَةٌ وَعَدَمُ قَبُولِ عُمَرَ لِعِذَارِ أَبِي بَكْرٍ فَوَيَّخَ النَّبِيُّ ﷺ (١) وَلَقَوْلُهُ ﷺ: «اقْبِلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عِثْرَاتِهِمْ» (٢) لِحَدِيثِ الْمَرْأَةِ الْمُخْزَوْمِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ (٣) وَلِلْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ «اقْبِلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عِثْرَاتِهِمْ إِلَّا فِي الْحُدُودِ» وَلَمَّا كَانَ مَا وَقَعَ فِيهِ الْمُنَافِقُونَ مِنْ اسْتِهْزَاءٍ حَدٍّ مِنَ الْحُدُودِ وَلَمْ يُقْبَلْ عِذْرُهُمُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.



(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٣٦٦١) عن أبي الدرداء به.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨١/١)، وأبو داود، والنسائي في «الكبرى» (٧٢٩٣) عن عائشة به.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤٨) باب قول الله تعالى

﴿وَلَنِ ادْقَنَاهُ رَحْمَةً مِّنَا مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ (١)

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ» (٢).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ «يُرِيدُ: مِنْ عِنْدِي»

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (٣).

قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَّاسِبِ».

وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيْتُهُ عَلَى شَرَفٍ».

● مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال الفقير: مناسبة هذا الباب لما قبله أن كلاهما قدح في الربوبية وإنكار لنعم الله.

● ماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبته لكتاب التوحيد.

قال حامد بن محمد (٤): باب ماجاء في بيان أن من أنواع كفر النعمة نسبة ما أنعم الله عليه إلى نفسه. اهـ.

قال السعدي (٥): مقصود هذه الترجمة أن كل من زعم أنما أوتيته من النعم والرزق فهو بكده وحذقه وفسطته، وأنه مستحق لذلك لما يظن له على الله من الحق، فإن هذامناف للتوحيد لأن المؤمن حقاً من يعرف بنعم الله الظاهرة والباطنة ويشنى على الله بها، ويضيفها إلى فضله وإحسانه، ويستعين بها على طاعته، ولا يرى له حقاً على الله، وإنما الحق كله لله، وأنه عبد محض من جميع الوجوه، فهذا يتحقق الإيمان والتوحيد، وبضده يتحقق كفران النعم. والعجب بالنفس والإدلال الذي هو من أعظم العيوب. اهـ.

(١) فصلت : ٥٠.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/٢٥) قال: حدثني محمد بن عمرو قال: ثنا أبو عاصم قال: ثنا

عيسى. وحدثني الحارث قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء. جميعاً عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد. فذكره.

وانظر «فتح المجيد» (ح ٧٩٧) بتخريجنا.

(٣) القصص : ٧٨.

(٤) فتح الله الحميد المجيد ٤١٢

(٥) القول السديد ١١٥، ١١٦.

قال ابن باز (١): هذا الباب عده المؤلف لبيان ما غلب على النفوس من إنكارها النعم وجحدها وكفرانها وعدم الإعراف بها لمعطيها سبحانه وتعالى. اهـ.

قال ابن عثيمين (٢): مناسبة الباب لـ «كتاب التوحيد»: أن الإنسان إذا أضاف النعمة إلى عمله وكسبه؛ ففيه نوع من الإشراك بالربوبية، وإذا أضافها إلى الله لكنه زعم أنه مستحق لذلك وأن ما أعطاه الله ليس محض تفضل، لكن لأنه أهل؛ ففيه نوع من التعلی والترفع في جانب العبودية. وقد ذكر الشيخ فيه آيتين.

[قوله: ﴿وَلَئِنْ أَدْقَنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾] الآية.

● مناسبة الآية لكتاب التوحيد:

قال عبدالله بن جار الله (٣): مناسبة الآية لكتاب التوحيد أن تقييد نعم الله بشكره والثناء عليه بها من كمال التوحيد وأن إنكار النعم وجحودها من الكفر الذي ينافي كمال التوحيد. ا.هـ.

● مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى (٤): حيث دلت الآية على أن نسبة النعم إلى غير الله كفر بها وأن ذلك إشراك في الربوبية. ا.هـ.

قوله: ﴿وَلَئِنْ أَدْقَنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾

● الإعراب (٥): ﴿وَلَئِنْ أَدْقَنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وإن شرطية وأدقناه فعل ماضى وفاعل ومفعول به والجميلة فى محل جزم فعل الشرط ورحمة مفعول به ثانى ومن بعد نعت لرحمة أو متعلقان بأدقناه وضراء مضاف إليه وجر بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف لألف التانيث الممدودة واللام جواب القسم وجواب الشرط محذوف لسد جواب القسم مسده على القاعدة المشهورة وهذا مبتدأ ولى خبر واللام للاستحقاق أى أستحققه بعملى. اهـ.

● التفسير بالقرآن:

وكما قال تعالى مخبراً عن قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ

(٢) القول المفيد ٤٨/٣

(٤) الجديد ٣٩٤.

(١) التعليق المفيد ٢٢٩.

(٣) الجامع الفريد ١٧٨

(٥) إعراب القرآن ٦/٩.

عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون». وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾.

● التفسير بالمأثور:

روى ابن جرير بسنده عن مجاهد «لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي»: أى بعملى وأنا محقق بهذا^(١).

وذكر بن الجوزى عن ابن عباس: يريد من عندى.

● أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(٢): يقول تعالى ذكره ولئن نحن كشفنا عن هذا الكافر ما أصابه من سقم فى نفسه وضر وشدة فى معيشته وجهد (رحمة منا) فوهبنا له العافية فى نفسه بعد السقم ورزقناه مالا فوسعنا عليه فى معيشته من بعد الجهد والضر ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ عند الله لأن الله راض عني برضاه عملى وما أنا عليه مقيم. ١. هـ.

قال الرازى^(٣): بين تعالى أن هذا الذى صار آيساً قانطاً لو عاودته النعمة والدولة، وهو المراد من قوله ﴿وَلَيِّنْ أَدَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ﴾ فإن هذا الرجل يأتى بثلاثة أنواع من الأقاويل الفاسدة والمذاهب الباطلة الموجبة للكفر والبعد عن الله تعالى «فأولها» أنه لا بد وأن يقول هذا لى وفيه وجهان:

«الأول» معناه أن هذا حقى وصل إلى، لأننى استوجبت بما حصل عندى من أنواع الفضائل وأعمال البر والقربة من الله ولا يعلم المسكين أن أحداً لا يستحق على الله شيئاً. وذلك لأنه إن كان ذلك الشخص عارياً عن الفضائل فهذا الكلام ظاهر الفساد وإن كان موصوفاً بشيء من الفضائل والصفات الحميدة، فهى بأسرها إنما حصلت له بفضل الله وإحسانه، وإذا تفضل الله بشيء على بعض عبده، امتنع أن يصير تفضله عليك بتلك العطية سبباً لأن يستحق على الله شيئاً آخر. فثبت بهذا فساد قوله إنما حصلت هذه الخيرات بسبب استحقاقى.

«والوجه الثانى» أن هذا لى أى لا يزول عني ويبقى على وعلى أولادى وذريتى. ١. هـ.

قال القرطبى^(٤): قوله تعالى: ﴿وَلَيِّنْ أَدَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ عافية ورخاء وغنى من بعد

(٢) تفسير الطبرى ١١/٢٥/٣

(١) تقدم تخريجه.

(٤) تفسير القرطبى ٨/٨١٧

(٣) التفسير الكبير ١٤/٢٧/١٣٨.

ضراء مستة أى ضر وسقم وشدة وفقر. ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى﴾ أى هذا شئ أستحقه على الله لرضاه بعملى؛ فىرى النعمة حتما واجبا على الله - تعالى . . و لم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة. ليتبين شكره وصبره. اهـ.

قال ابن كثير^(١): رحمه الله فى معنى قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ يخبر أن الإنسان فى حال الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه ويدعوه، ثم إذا خوله نعمة منه تعالى طغى وبغى وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى لما يعلم من استحقاقى له، ولولا أنى عند الله حظيظ لما خولنى هذا . قال تعالى : ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أى ليس الأمر كما زعمتم، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة، لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك. ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أى اختبار ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، كما قال تعالى مخبرا عن قارون ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾ قال إنما أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وقال تعالى ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾. اهـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين^(٢): قوله تعالى ﴿وَلَنْ أَذْقَنَاهُ﴾.

الضمير يعود على الإنسان، والمراد به الجنس. وقيل: المراد به الكافر.

والظاهر أن المراد به الجنس؛ إلا أنه يمنع من هذه الحال الإيمان، فلا يقول ذلك المؤمن، قال تعالى فى أول الآية: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا

(٢) القول المفيد ٤٨/٣

(١) تفسير ابن كثير ١٠١/٤.

وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ (٤٨) لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ، هذه حال الإنسان من حيث هو إنسان، لكن الإيمان يمنع الخصال السيئة المذكورة.
قوله: ﴿مَتَى﴾.

أضافه الله إليه؛ لوضوح كونها من الله، ولتمام مته بها.

قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْ﴾.

أى: أنه لم يذق الرحمة من أول أمره، بل أصيب بضراء؛ كال فقر وفقد الأولاد وغير ذلك، ثم أذاقه بعد ذلك الرحمة حتى يحس بها وتكون لذتها والسرور بها أعظم مثل الذائق للطعام بعد الجوع.

قوله: ﴿مَسَّتْ﴾.

أى: أصابته وأثرت فيه.

قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾.

هذا كفر بنعمة الله وإعجاب بالنفس، واللام فى قوله ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ واقعة فى جواب القسم المقدر قبل اللام فى قوله: ﴿وَلَيَنْ أَدْفَنَاهُ﴾. اهـ.

ولم يزد باقى الشراح على أقوال المفسرين إلا بنحوهم.

قوله ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّى إِنَّ لىٰ عِنْدَهُ الْحُسْنَىٰ﴾.

الإعراب (١): الواو عاطفة وماتافيه وأظن فعل مضارع والفاعل مستر والساعة مفعول واظن الأول وقائمة مفعولها الثانى والواو عاطفه واللام موطنه للقسم وإن شرطيه ورجعت فى محل جزم فعل الشرط وإلى ربي متعلقان برجعت وإن وما فى حيزها جواب القسم ولى خبر إن وعنده حال واللام المزحلقة والحسنى إن وجملة إن لى عنده للحسنى لامحل لها لأنها جواب القسم لسبقه الشرط ﴿فَلَنَنْبِئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ الفاء الفصيحة لأنها جواب لقول الكافر ولئن رجعت واللام موطنه للقسم وننبئن فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والذين

مفعول به وجملة كفروا صلة وبما في محل نصب مفعول ثانٍ لنبتن و«ما» يحتمل أن تكون موصولة أو مصدرية ولنديقنهم عطف على فلنبتن ومن عذاب في موضع المفعول الثاني وغلظ نعت.

● التفسير من القرآن:

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾.

● أقوال أهل التفسير:

قال الرازي^(١): والنوع الثاني: من كلماتهم الفاسدة أن يقول ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ يعني أن يكون شديد الرغبة في الدنيا عظيم النفرة عن الآخرة فإذا آل الأمر إلى أحوال الدنيا يقول (إنها لي) وإذا آل الأمر إلى الآخرة يقول ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾. النوع الثالث: من كلماتهم الفاسدة أن يقول ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ﴾ يعني أن الغالب على الظن أن القول بالبعث والقيامة باطل، وبتقدير أن يكون حقاً، فإن لي عنده للحسنى، وهذه الكلمة تدل على جزمهم بوصولهم إلى الثواب من وجوه:

(الأول) أن كلمة إن تفيد التوكيد.

(الثاني) أن تقدير كلمه لي تدل على هذا التأكيد.

(الثالث) قوله (عنده) يدل على أن تلك الخيرات حاضرة مهينة عنده كما تقول لي عند فلان كذا من الدنانير، فإن هذا يفيد كونها حاضرة عنده، فلو قلت إن لي عند فلان كذا من الدنانير لا يفيد ذلك.

(الرابع) اللام في قوله (للحسنى) تفيد التأكيد.

(الخامس) للحسنى يفيد الكمال في الحسن.

قال القرطبي^(٢): ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ﴾

أي الجنة واللام للتأكيد. يتمنى الأمانى بلا عمل. قال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب: للكافر أمنيستان أما في الدنيا فيقول ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ

(٢) تفسير القرطبي ٥٨١٧/٨

(١) التفسير الكبير ١٣٩، ١٣٨/٢٧/١٤

لِلْحُسْنَى ﴿ وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فيقول : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ و﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى لنجزينهم . قسم أقسم الله عليه . ﴿ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ شديد .

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين (١): قوله ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ .

بعد أن انغمس في الدنيا نسي الآخرة، بخلاف المؤمن إذا أصابته الضراء لجأ إلى الله ، ثم كشفها ، ثم وجد بعد ذلك لذة وسروراً يشكر الله على ذلك ، أما هذا فقد نسي الآخرة وكفر بها .

قوله : ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ ﴾

(إن) : شرطية وتأتى فيما يمكن وقوعه وفيما لا يمكن وقوعه ؛ كقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ ، والمعنى : على فرض أن أرجع إلى الله إن لى عنده للحسنى .

والحسنى : اسم تفضيل ؛ أى : الذى هو أحسن من هذا ، واللام للتوكيد . اهـ .
ولم يزد شراح كتاب التوحيد إلا بنحو ما تقدم .

قوله : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

● أقوال المفسرين:

قال الطبرى (٢): ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ يقول تعالى ذكره فلنخبر هؤلاء الكفار بالله المستمين عليه الأباطيل يوم يرجعون إليه بماعملوا فى الدنيا من المعاصى واجترحوا من السيئات ثم لنجازين جميعهم على ذلك جزاءهم ولنذيقنهم من عذاب غليظ . وذلك العذاب تخليدهم فى نار جهنم لا يموتون فيها ولا يحيون .

وذكر المفسرون وشراح الكتاب بنحو هذا .

قوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾

قال ابن عثيمين (٣): فى القرآن آيتان : آية قال الله فيها : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ

(٢) تفسير الطبرى ٢٥ / ١١

(١) القول المفيد ٤٩ / ٣ . ٥

(٣) القول المفيد ٥٠ / ٣ . ٥٢

.....
هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾، والثانية: ﴿إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾، والظاهر من تفسير المؤلف أنه يريد الآية الثانية .

قوله ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

فى معناه أقوال:

الأول: قال قتادة : على علم منى بوجوه المكاسب ، فيكون العلم عائداً على الإنسان؛ أى : إبنى عالم بوجوه المكاسب ولافضل لأحد على فيما أوتيته، وإنما الفضل لى، وعليه يكون هذا كفرة بنعمة الله وإعجاباً بالنفس .

الثانى: قال آخرون : على علم من الله أنى له أهل ؛ فيكون بذلك مدلا على الله، وأنه أهل ومستحق لأن ينعم الله عليه، والعلم هنا عائد على الله؛
أى : أوتيت هذا الشيء على علم من الله أنى مستحق له وأهل له .

الثالث: قول مجاهد : «أوتيته على شرف»، وهو من معنى القول الثانى، فصارمعنى الآية يدور على وجهين:

الوجه الأول : أن هذا إنكار أن يكون ما أصابه من النعمة من فضل الله، بل زعم أنها من كسب يده وعلمه ومهارته .

الوجه الثانى: أنه أنكر أن يكون لله الفضل عليه، وكأنه هو الذى له الفضل على الله ؛ لأن الله أعطاه ذلك لكونه أهلا لهذه النعمة .

فيكون على كلا الأمرين غير شاكر لله - عزوجل - والحقيقة أن كل ما نؤتاه من النعم فهو من الله ؛ فهو الذى يسرها حتى حصلنا عليها، بل كل مانحصل عليه من علم أو قدرة أو إرادة فمن الله ؛ فالواجب علينا أن نضيف هذه النعم إلى الله سبحانه، قال تعالى : ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، حتى ولو حصلت لك هذه النعمة بعلمك أو مهارتك؛ فالذى أعطاك هذا العلم أو المهارة هو الله - عزوجل -، ثم إن المهارة أو العلم قد لا يكون سبباً لحصول الرزق؛ فكم من إنسان عالم أو ماهر حاذق ومع ذلك لا يوفق بل يكون عاطلاً؟!!

وشكر النعمة له ثلاثة أركان:

١- الاعتراف بها فى القلب .

٢- الشناء على الله باللسان .

٣- العمل بالجوارح بما يرضى المنعم .

فمن كان عنده شعور فى داخل نفسه أنه هو السبب لمهارته وجودته وحذقه؛ فهذا لم

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتْلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا: فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْ أَنَّ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ بِهِ». قَالَ «فَمَسَحَهُ، فَذْهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، فَأَعْطَى لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ أَوِ الْبَقَرُ (شَكَّ إِسْحَاقُ). فَأَعْطَى نَاقَةً عَشْرَاءَ، وَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا». قَالَ: «فَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ بِهِ. فَمَسَحَهُ فَذْهَبَ عَنْهُ، وَأَعْطَى شَعْرًا حَسَنًا. فَقَالَ أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْبَقَرُ أَوِ الْإِبِلُ. فَأَعْطَى بَقْرَةً حَامِلًا، قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: يَرُدُّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ. فَمَسَحَهُ فَردَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصْرَهُ. قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ. فَأَعْطَى شَاةً وَالِدًا. فَأُتِيَ هَذَانِ وَوُلِدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ».

قَالَ: «ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مُسْكِينٌ وَأَبْنٌ سَبِيلٌ قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ؛ بَعِيرًا أَتَبْلُغُ بِهِ فِي

يشكر النعمة، وكذلك لو أضاف النعمة بلسانه إلى غير الله أو عمل بمعصية الله في جوارحه، فليس بشاكر لله تعالى.

وتقدم كلام الرازي.



قوله [وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إى ثلاثة من بنى إسرائيل... الحديث]

مناسبة الحديث للباب:

قال عبدالله بن جابر الله^(١) أن فيه وعيد لمن أنكر نعم الله وإضافها إلى غيره. اهـ.

(١) الجامع الفريد ١٧٩

سَفَرَى. فَقَالَ: الْحَقُّوكُ كَثِيرَةٌ فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْدَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا، فَأَعْطَاكَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلَّ الْمَالُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ. قَالَ: «ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَثْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلُ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلُ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا؛ فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ» قَالَ: «وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ: رَجُلٌ مُسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بَيْنَ الْحَبَالِ فِي سَفَرَى؛ فَلَا بَلَغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؛ شَاةٌ» أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرَى. قَالَ: كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ. فَوَاللَّهِ؛ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْءً أَخَذْتَهُ اللَّهُ. فَقَالَ: أَمْسِكْ مَا لَكَ؛ فَإِنَّمَا ابْتَلَيْتُمْ؛ فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» (١). أَخْرَجَاهُ.

قال القرعاوى (٢): حيث دل الحديث على أن نسبة النعم إلى غير الله كفر بها اهـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القروعاى (٣): حيث حرم الحديث نسبة النعم إلى غير الله لأن ذلك إشراك مع

الله فى الربوبية ١. هـ.

قوله: «وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن ثلاثة من بنى إسرائيل».

قال ابن عثيمين (٤): جميع القصص الواردة فى القرآن وصحيح السنة ليس المقصود منها مجرد الخبر، بل يقصد منها العبرة والعظة مع ما تكسب النفس من الراحة والسرور، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾.

قوله: «من بنى إسرائيل».

فى محل نصب نعت لـ «ثلاثة»، وبنوا إسرائيل هم ذرية يعقوب بن إسحاق بن

إبراهيم.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء. باب أبرص وأقرع فى بنى إسرائيل (٥٧٨/٦) ح ٣٤٦٤ - الفتح ومسلم فى «الزهد» (٩٧/١٨/٦) - النووى والبيهقى فى «الشعب» (٣/٢٢٨/٢) ح ٣٤٠٢ جميعاً من طريق: إسحاق بن عبد الله عن عبد الرحمن عن أبى عمرة عن أبى هريرة . وانظر رياض الصالحين (٦٦) ح ٦٦٦ بتخريجنا . وانظر «فتح المجيد» (٧٩٨) ح ٧٩٨ بتخريجنا . (٤) القول المفيد ٥٣/٣ .

قوله: «أبرص»

قال ابن عثيمين^(١): أى: فى جلده برص، والبرص داء معروف، وهو من الأمراض المستعصية التى لا يمكن علاجها بالكلية، وربما توصلوا أخيراً إلى عدم انتشارها وتوسيعها فى الجلد، لكن رفعها لا يمكن، ولهذا جعلها الله آية لعيسى، قال تعالى: ﴿وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾

قوله: «أقرع».

من ليس على رأسه شعر.

قوله: «أعمى»

من فقد البصر. اهـ.

قوله: «فأراد الله»

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: «فأراد الله» وفى بعض النسخ: «أراد الله».

فعلى إثبات الفاء يكون خبر (إن) محذوفاً دل عليه السياق تقديره: إن ثلاثة من بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أنعم الله عليهم فأراد الله أن يتليهم. ولا يمكن أن يكون «أبرص وأقرع وأعمى» خبراً؛ لأنها بدل. وعلى حذف الفاء يكون الخبر جملة: «أراد الله»، والإرادة هنا كونية.

قلت: فلا بد أن تقع ولايحول بينها وبين الوقوع حائل .

قلت: وفى رواية البخارى بلفظ «بدا لله»

قال ابن حجر^(٣): قوله «بدا لله»

بتخفيف الدال المهملة بغير همز أى سبق فى علم الله فأراد إظهاره، وليس المراد أنه ظهر له بعد أن كان خافياً لأن ذلك محال فى حق الله تعالى، وقد أخرج مسلم عن شيبان بن فروخ عن همام بهذا الإسناد بلفظ «أراد الله أن يتليهم» فلعل التغيير فيه من الرواة، مع أن فى الرواية أيضاً نظراً لأنه لم يزل مريداً والمعنى أظهر الله ذلك فيهم. وقيل: معنى أراد قضى. وقال صاحب (المطالع) اضطناه على متقنى شيوختنا بالهمز أى ابتداء الله أن يتليهم، قال: رواه كثير من الشيوخ بغير همز وهو خطأ انتهى. وسبق إلى

(٢) القول المفيد ٣/ ٥٤٠٥٣.

(١) القول المفيد ٣/ ٥٣.

(٣) الفتح ٦/ ٥٧٩.

التخطة أيضاً الخطابي، وليس كما قال لأنه موجه كما ترى، وأولى ما يحمل عليه أن المراد قضى الله أن يتليهم، وأما البدء الذى يراد به تغير الأمر عما كان عليه فلا. اهـ.

قوله: «أن يتليهم».

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «يتليهم».

أى يختبرهم؛ كما قال الله تعالى ﴿وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ وقال تعالى: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

قوله: «فبعث إليهم ملكاً»

قال ابن عثيمين^(٢): قوله «ملكاً»

أحد الملائكة: هم عالم غيبى خلقهم الله من نور وجعلهم قائمين بطاعة الله، لا يأكلون، ولا يشربون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، لهم أشكال وأعمال ووظائف مذكورة فى الكتاب والسنة، ويجب الإيمان بهم، وهو أحد أركان الإيمان الستة.

قال أهل اللغة: وأصل الـ(ملك) مأخوذ من الألوكة، وهى الرسالة، وعلى هذا يكون أصله مألِك؛ فصار فيه إعلال قلبى، فصار ملأك، ثم نقلت حركة الهمزة إلى اللام الساكنة وحذفت الهمزة تخفيفاً، فصار ملك، ولهذا فى الجمع تأتى الهمزة: ملائكة. اهـ.

قوله: «فأتى الأبرص». فقال: أى شئ أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذى قدرنى الناس به».

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «ويذهب»

يجوز فيه الرفع والتصب، والرفع أولى. اهـ.

قال ابن حجر^(٤): قوله: «قدرنى الناس».

بفتح القاف والذال المعجمة المكسورة أى: إشمأزوا من رؤيتى. وفى رواية حكاها الكرماني «قدرونى الناس» وهى على لغة أكلونى البراغيث. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «قدرنى»

(٢) القول المفيد ٥٤/٣

(٤) الفتح ٥٧٩/٦

(١) القول المفيد ٥٤/٣

(٣) القول المفيد ٥٥/٥٤/٣

(٥) القول المفيد ٥٥/٣

أى : استقذرنى وكرهوا مخالطتى من أجله .
وقوله : «به» .

الباء للسبية ؛ أى : بسببه .

قوله : «قال : فمسحه»

قال ابن حجر (١) : قوله « فمسحه » أى مسح على جسمه . اهـ .

قال ابن عثيمين (٢) : قوله « فمسحه » .

ليتبين أن لكل شىء سبباً ، وبرىء بإذن الله - عز وجل . اهـ .

قوله : «فذهب عنه قذره» .

قال ابن عثيمين (٣) : بدأ بذهاب القذر قبل اللون الحسن والجلد الحسن ؛ لأنه يبدأ بزوال المكروه قبل حصول المطلوب ، كما يقال : التخلية قبل التحلية .

قوله : «فأعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً» قال : فأى المال أحب إليك . اهـ .

قال ابن حجر (٤) : قوله : «فقال وأى المال» فى رواية الكشمهينى بحذف الواو . اهـ .

قوله : «قال : الإبل أو البقر (شك إسحاق)» .

قال ابن حجر (٥) : وقع عند مسلم عن شيبان بن فروخ عن همام التصريح بأن الذى شك فى ذلك هو إسحاق بن عبدالله بن أبى طلحة راوى الحديث . اهـ .

قوله : «فأعطى ناقة عشراء»

قال ابن حجر (٦) : أى الذى تمنى الإبل ، والعشراء بضم العين المهملة وفتح الشين المعجمة هى الحامل التى أتى عليها فى حملها عشرة أشهر من يوم طرقتها الفحل ، وقيل يقال لها ذلك إلى أن تلد وبعدما تضع ، وهى من أنفس المال . اهـ .

قال ابن عثيمين (٧) : ولعلها كانت قريبة من الملك فأعطاه إياها . اهـ .

قوله : «وقال : بارك الله لك فيها»

وفى رواية للبخارى «يبارك لك فيها» .

قال ابن حجر (٦) : قوله «يبارك لك فيها» كذا وقع يبارك بضم أوله . وفى رواية

شيبان «بارك الله» بلفظ الفعل الماضى وإبراز الفاعل .

(١) القول المفيد ٥٥/٣ .

(٢) الفتحة ٥٧٩/٦ .

(٣) الفتحة ٥٨٠/٦ .

(٤) الفتحة ٥٨٠/٦ .

(٥) الفتحة ٥٨٠/٦ .

(٦) الفتحة ٥٨٠/٦ .

(٧) القول المفيد ٥٦/٥٥/٣ .

(١) الفتحة ٥٧٩/٦ .

(٢) القول المفيد ٥٥/٣ .

(٣) الفتحة ٥٨٠/٦ .

(٤) الفتحة ٥٨٠/٦ .

(٥) الفتحة ٥٨٠/٦ .

(٦) الفتحة ٥٨٠/٦ .

(٧) القول المفيد ٥٦/٥٥/٣ .

قال ابن عثيمين (١): يحتمل أن لفظه لفظ الخير ومعناه الدعاء، وهو الأقرب؛ لأنه أسلم من التقدير، ويحتمل أنه خبر محض، كأنه قال: هذه ناقة عشراء مبارك لك فيها ويكون المعنى على تقدير (قد)؛ أى: قد بارك الله لك فيها. اهـ.

قوله: قال: فأتى الأقرع.

وهو الرجل الثانى فى الحديث (٢):

قوله: «فقال: أى شىء أحب إليك؟ قال: شعر حسن».

ولم يكتف بمجرد الشعر، بل طلب شعراً حسناً (٣). اهـ.

قوله: «فمسحه، فذهب عنه قدره، وأعطى شعراً حسناً، فقال: أى المال أحب إليك؟ قال البقر أو الإبل. فأعطى بقرة حاملاً؛ قال: بارك الله لك فيها».

قال ابن عثيمين (٤): قوله: «فذهب عنه قدره».

يقال فى تقديم ذهاب القدر ماسبق، وهذه نعمة من الله عز وجل أن يستجاب للإنسان. اهـ.

قوله: «فأتى الأعمى فقال: أى شىء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلى بصرى».

هذا هو الرجل الثالث فى هذه القصة (٥). اهـ.

قلت: لم يطلب ذلك من الملك ولا من غيره كما يفهم من سياق كلام صاحبيه ولكن طلب ذلك من الله وهذا يدل على النتيجة من بداية الاختبار.

قوله: «فأبصر به الناس».

قال ابن عثيمين (٦): لم يطلب بصرأ حسناً كما طلبه صاحبه، وإنما طلب بصرأ يبصر به الناس فقط مما يدل على قناعته بالكفاية. اهـ.

قوله: «فمسحه».

قال ابن حجر (٧): أى على عينية. اهـ.

قوله: «فرد الله إليه بصره».

قال ابن عثيمين (٨): الظاهر أن بصره الذى كان معه من قبل هو ما يبصر به الناس

فقط. اهـ.

(١) القول المفيد ٥٦/٣.

(٣) المصدر السابق.

(٥) القول المفيد ٧٥/٣.

(٧) الفتح ٥٨٠/٦.

(٢) القول المفيد ٥٦/٣.

(٤) المصدر السابق ٥٧/٥٦/٣.

(٦) القول المفيد ٥٧/٣.

(٨) القول المفيد ٥٧/٣.

قوله «قال : فأى المال أحب إليك؟ قال : الغنم»

قال ابن عثيمين (١): قوله : قال: الغنم»

هذا يدل على زهده كما يدل على أنه صاحب سكية وتواضع؛ لأن السكينة فى أصحاب الغنم. اهـ.

قلت: ولأن النبى ﷺ بين أنها بركة وأذن فى الصلاة فى مراتبها بخلاف الإبل قال إن له أوابد كأوابد الشياطين ولم ياذن فى الصلاة فى معاطنها وأمر بالوضوء من لحمها(*) .

قوله: (فأعطى شاة والدأ)

قال ابن حجر (٢): أى ذات ولد ويقال حامل .

قال ابن عثيمين (٣): قوله «شاة والدأ» .

قيل : إن المعنى قرية الولادة، ويؤيده أن صاحبيه أعطيا أنثى حاملاً، ولما يأتى من قوله : «فأنج هذان وولد هذا»، والشىء قد يسمى بالاسم القريب؛ فقد يعبر عن الشىء حاصلاً وهو لم يحصل، لكنه قريب الحصول. اهـ.

قوله : «فأنج هذان»

قال ابن حجر (٤): أى صاحب الإبل والبقر . . وأنج فى مثل هذا شاذ والمشهور فى اللغة نتجت الناقة بضم النون ونتج الرجل الناقة أى حمل عليها الفعل، وقد سمع أنتجت الفرس إذا ولدت فهى نتوج. اهـ.

قوله: «وولد هذا»

قال ابن حجر (٥): أى صاحب الشاة. اهـ.

قال ابن عثيمين (٦): قوله: «وولد هذا» .

أى : صار لشاته أولاد، قالوا : والمتج من أنتج، والناج من نتج، والمولد من

(١) القول المفيد ٥٧/٣ .

(*) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٩٧/٥)، وأبو داود (١٨٤)، والترمذى (٨١)، وابن ماجه (٤٩٤) عن

البراء بن عازب به .

وانظر «السلسيل» (١٤٥) - بتخريجنا .

(٢) القول المفيد ٥٧/٣ .

(٣) الفتوح ٥٨٠ / ٦

(٤) الفتوح ٥٨٠ / ٦

(٥) الفتوح ٥٨٠ / ٦

(٦) القول المفيد ٥٨ / ٣ .

ولد، ومن تولى توليد النساء يقال له : القابلة، ومن تولى توليد غير النساء يقال له: منتج أوناتج أو مولد. اهـ.

قوله: «فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم»

قال ابن عثيمين^(١): قوله : فكان لهذا واد من الإبل

مقتضى السياق أن يقول : فكان لذلك؛ لأنه أبعد المذكورين، لكنه استعمل الإشارة للقریب فى مكان البعيد، وهذا جائز، وكذا العكس. اهـ.

قوله : «قال : ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته»

قال ابن حجر^(٢): أى فى الصورة التى كان عليها لما اجتمع به وهو أبرص ليكون ذلك أبلغ فى إقامة الحجة عليه. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): الصورة فى الجسم والهيئة فى الشكل واللباس، وهذا هو الفرق بينهما.

قوله «رجل مسكين».

قال ابن عثيمين^(٤): قوله «رجل مسكين»

خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أنا رجل مسكين، والمسكين: الفقير، وسمى الفقير مسكيناً؛ لأن الفقر أسكنه وأذله، والغنى فى الغالب يكون عنده قوة وحركة. اهـ.

قوله «وابن سبل»

قال ابن حجر^(٥): أنها زيادة من شيان. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٦): قوله : «وابن السبل»

أى : مسافر سعى بذلك لملازمته للطريق، ولهذا سعى طير الماء: إبن الماء لملازمته له غالباً، فكل شىء يلازم شيئاً؛ فإنه يصح أن يضاف إليه بلفظ البنوة. اهـ.

قوله: «قد انقطعت به الحبال فى سفرى»

وفى رواية للبخارى «تقطعت به الحبال فى سفرة». اهـ.

(٢) الفتح ٥٨٠ / ٩.

(٤) القول المفيد ٥٨٠ / ٣.

(٦) القول المفيد ٩ / ٣.

(١) القول المفيد ٥٨٠ / ٣.

(٣) القول المفيد ٥٩ / ٣.

(٥) الفتح ٥٨٠ / ٦.

قال ابن حجر^(١): والجبال بكسر المهملة بعدها موحدة خفيفة جمع جبل أى الاسباب التى يقطعها فى طلب الرزق، وقيل العقبات، وقيل الجبل هو المستطيل من الرمل ولبعض رواه مسلم «الجبال» بالمهملة والتحتانية جمع حيلة. أى لم يبق لى حيله ولبعض رواة البخارى «الجبال» وبالجيم الموحدة وهو تصحيف قال ابن التين قول الملك له «رجل مسكين إلخ» أراد أنك كنت هكذا، وهو من المعارض والمراد به ضرب المثل لىتيقظ المخاطب. اهـ.

قوله «فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك»

قال ابن عثيمين^(٢): «لا» نافية للجنس، والبلاغ بمعنى الوصول، ومنه تبليغ الرسالة؛ أى : إيصالها إلى المرسل إليه، والمعنى: لاشئ يوصلنى إلى أهلى إلا بالله ثم بك؛ فالمسألة فيها ضرورة.

قلت: وتقدم فى باب ما شاء وثبت جواز قول ما شاء الله ثم شئت من هذا الحديث وذكرنا هناك أن البخارى بوب عليها باب لا يقول ما شاء الله وشئت، وهل يقول أنا بالله ثم بك.

قوله «أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال».

قال ابن عثيمين^(٣): السؤال هنا ليس سؤال استخبار بل سؤال استجداء؛ لأن «سأل» تأتى بمعنى استجدى وبمعنى استخير، تقول: سألتك عن فلان؛ أى : استخبرته، وسألتك مالا؛ أى : استجديته واستعطيته، وإنما قال: «أسألك بالذى أعطاك»، ولم يقل: أسألك بالله؛ لأجل أن يذكره بنعمة الله عليه؛ ففيه إغراء له على الإعانة لهذا المسكين؛ لأنه جمع بين أمرين: كونه مسكيناً، وكونه ابن السبيل؛ ففيه سببان يقتضيان الإعطاء. اهـ.

قوله «بعيراً أتبلغ به فى سفرى» وفى رواية البخارى: «أتبلغ عليه». اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): وقوله: «بعيراً»

يدل على أن الأبرص أعطى الإبل، وتعبير إسحاق «الإبل أو البقر» من باب ورعه. اهـ.

قال ابن حجر^(٥): وأتبلغ بالغين المعجمة من البلغة وهى الكفاية والمعنى أتوصل به إلى مرادى. اهـ.

(٢) القول المفيد ٣/ ٦٠.

(٤) القول المفيد ٣/ ٦٠.

(١) الفتح ٥٨/ ٦.

(٣) القول المفيد ٣/ ٦٠.

(٥) الفتح ٥٨٠/ ٦.

قال ابن عثيمين^(١): قوله «أتبلغ به فى سفرى» أى: ليس أطيب الإبل وإنما يوصلنى إلى أهلى فقط. اهـ.

قوله «فقال: الحقوق كثيرة»

قال ابن عثيمين^(٢): أى: هذا المال الذى عندى متعلق به حقوق كثيرة، ليس حقك أنت فقط، وتناسى - والعياذ بالله - أن الله هو الذى من عليه بالجلد الحسن واللون الحسن والمال. اهـ.

قوله «فقال له: كأنى أعرفك».

قال ابن عثيمين^(٣): قوله «كأنى أعرفك»

كأن هنا للتحقيق لا للتشبيه؛ لأنها إذا دخلت على جامد فهى للتشبيه، وإذا دخلت على مشتق؛ فهى للتحقيق أو للظن والحسبان، والمعنى أنى أعرفك معرفة تامة. اهـ.

قوله «ألم تكن أبرص يقذرک الناس فقيراً، فأعطاك الله - عزوجل - المال».

قال ابن عثيمين^(٤): ذكره الملك بنعمة الله عليه، وعرفه بما فيه من العيب السابق حتى يعرف قدر النعمة، والاستفهام للتقرير لدخوله على «لم»؛ كقوله تعالى «أَلَمْ نُشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ». اهـ.

قوله «فقال: إنما ورثتُ هذا المال كابرأ عن كابر».

وفى رواية للبخارى: «لقد ورثت لكابر عن كابر».

قال ابن حجر^(٥): وفى رواية الكشميهنى «كابرأ عن كابر» وفى رواية شيان «إنما ورثت هذا المال كابرأ عن كابر» أى كبير عن كبير فى العز والشرف. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٦): أنكر أن المال من الله، لكنه لم يستطع أن ينكر البرص.

و«كابرأ» منصوبة على نزع الخافض؛ أى: من كابرأ؛ أى: ممن يكبرنى وهو الأب،

(١) القول المفيد ٣/ ٦٠.

(٢) القول المفيد ٣/ ٦٠/ ٦١.

(٣) القول المفيد ٣/ ٦١.

(٤) القول المفيد ٣/ ٦١.

(٥) الفتح ٦/ ٥٨٠.

(٦) القول المفيد ٣/ ٦١.

عن كابر له وهو الجدد، وقيل : المراد الكبير المعنوى؛ أى : إننا شرفاء وسادة وفى نعمة من الأصل، وليس هذا المال مما تجدد، واللفظ يحتمل المعنيين جميعاً. اهـ.

قلت: وهذا متضمن أيضاً لمعنى ما نهى عنه الرسول ﷺ من الفخر بالأحساب. اهـ.

قوله: «فقال: إن كنت كاذباً؛ فصيرك الله إلى ماكنت».

قال ابن حجر^(١): قوله «فقال إن كنت كاذباً فصيرك الله» أورد بلفظ الفعل الماضى لأنه أراد المبالغة فى الدعاء عليه. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): قوله «إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ماكنت».

«إن» شرطية ولها مقابل، يعنى: وإن كنت صادقاً فأبقى الله عليك النعمة.

فإن قيل: كيف يأتى بـ«إن» الشرطية الدالة على الاحتمال مع أنه يعرف أنه كاذب؟

أجيب: إن هذا من باب التنزل مع الخصم، والمعنى: إن كنت كما ذكرت عن نفسك؛ فأبقى الله عليك هذه النعمة، وإن كنت كاذباً وأنت لم ترثه كابرأ عن كابر؛ فصيرك الله إلى ماكنت من البرص والفقر، ولم يقل: «إلى ما أقول»؛ لأنه كان على ذلك بلا شك.

والتنزل مع الخصم يرد كثيراً فى الأمور المتيقنة؛ كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ومعلوم أنه لانسبة، وأن الله خير مما يشركون، ولكن هذا من باب محاجة الخصم لإدحاض حجته. اهـ.

قوله: «قال: وأتى الأقرع فى صورته»

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «وأتى الأقرع فى صورته»

الفاعل الملك، وهنا قال: «فى صورته» فقط وفى الأول قال: «فى صورته وهيئته»؛ فالظاهر أنه تصرف من الرواة، وإلا؛ فالغالب أن الصورة قريبة من الهيئة، وإن كانت الصورة تكون خلقة، والهيئة تكون تصنعاً فى اللباس ونحوه، وقد جاء فى رواية البخارى «فى صورته وهيئته». اهـ.

قوله «فقال له مثل ما قال لهذا»

المشار إليه الأبرص^(٤).

(٢) القول المفيد ٣/٦١، ٦٢.

(٤) القول المفيد ٣/٦٢.

(١) الفتح ٦/٥٨٠.

(٣) القول المفيد ٣/٦٢.

قوله «فرد عليه» أى الأقرع^(١). اهـ.

قوله «مثل ما رد عليه هذا» أى الأبرص^(٢):

قال ابن عثيمين^(٣): فكلا الرجلين - والعباذ بالله - غير شاكر لنعمة الله ولا معترف بها ولا راحم لهذا المسكين الذى انقطع به السفر. اهـ.

قوله «فقال إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت»

قال ابن حجر^(٤): أورد بلفظ الفعل الماضى لأنه أراد المبالغة فى الدعاء عليه. اهـ.

قوله: «قال: وأتى الأعمى فى صورته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل. قد انقطعت به الجبال فى سفرى. فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى رد عليك بصرى؛ شاة أتبلغ بها فى سفرى. قال: كنت أعمى فرد الله على بصرى».

قال ابن عثيمين^(٥): قوله: «فرد الله إلى بصرى».

اعترف بنعمة الله، وهذا أحد أركان الشكر، والركن الثانى: العمل بالجوارح فى طاعة المنعم، والركن الثالث: الاعتراف بالنعمة فى القلب، قال الشاعر:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

قلت: قنع الأعمى بهذه الذكرى ولم يماطل ماطلة الآخرين حتى يكرر الملك عليه ما كرره عليهما فلم يقل له: «كأنى أعرفك... إلخ» بل اعترف فور الذكرى بنعمة الله وبادر إلى شكرها والله أعلم.

قوله: «فخذ ماشئت»

قال ابن حجر^(٦): زاد الشيبانى «ودع ماشئت». اهـ.

قال ابن عثيمين^(٧): هذا من باب الشكر بالجوارح؛ فيكون هذا الأعمى قد أتم أركان الشكر.

قوله: «فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله» فى البخارى: «لا أحمذك...».

قال ابن حجر^(٨): قوله «لا أحمذك اليوم بشيء أخذته لله»: كذا فى البخارى بالمهملة والميم كذا قال عياض إن رواية البخارى لم تختلف فى ذلك، وليس كما قال، والمعنى لا أحمذك على ترك شيء تحتاج إليه من مالى، كما قال الشاعر:

(١-٢) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٦) الفتح ٥٨٠/٦.

(٨) الفتح ٥٨٠، ٥٨١/٦.

(٣) الفتح ٥٨٠/٦.

(٥) القول المفيد ٦٤، ٦٣/٣.

(٧) القول المفيد ٦٤/٣.

وليس على طول الحياة تندم.

أى فوت طول الحياة ، وفى رواية كريمة وأكثر روايات مسلم «لا أجهدك» بالجيم والهاء أى لا أشق عليك فى رد شىء تطلبه منى أو تأخذه، قال عياض : لم يتضح هذا المعنى لبعض الناس فقال : لعله «لا أحدك» بمهملة، وتشديد الدال بغير ميم أى لا أمنعك، قال : وهذا تكلف انتهى ويحتمل أن يكون قوله «أحمدك» بتشديد الميم أى لا أطلب منك الحمد، ومن قولهم فلان يتحمد على فلان أى يمتن عليه، أى لا أمتن عليك. اهـ.

قوله «فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتكم»

قال ابن حجر (١): أى امتحتهم. اهـ.

قال ابن عثيمين (٢): والذى ابتلاهم هو الله تعالى، ظاهر الحديث أن قصتهم مشهورة معلومة بين الناس؛ لأن قوله: «إنما ابتليتكم» يدل على أن عنده علماً بما جرى لصاحبيه وغالباً أن مثل هذه القصة تكون مشهورة بين الناس. اهـ.

قوله: «فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك».

قال ابن حجر (٣): بضم أوله على البناء للمجهول فى رضى وسخط. اهـ.

قال ابن عثيمين (٤): قوله «فقد رضى الله عنك»

يعنى: لأنك شكرت نعمة الله بالقلب واللسان والجوارح

قوله: «وسخط على صاحبيك»

لأنهما كفرا نعمة الله - سبحانه -، وأنكرا أن يكون الله منَّ عليهما بالشفاء والمال.

قال ابن حجر (٥): قال الكرمانى «ماحصله كان مزاج الأعمى أصح من مزاج رفيقيه، لأن البرص مرض يحصل من فساد المزاج وخلل الطبيعة وكذلك القرع، بخلاف العمى فإنه لا يستلزم ذلك بل قد يكون من أمر خارج، فلهذا حسنت طباع الأعمى وساءت طباع الآخرين. وفى الحديث جواز ذكر ما اتفق لمن مضى ليتعظ به من سمعه ولا يكون ذلك غيبة فيهم، ولعل هذا هو السر فى ترك تسميتهم، ولم يفصح بما اتفق لهم بعد ذلك، والذى يظهر أن الأمر فيهم وقع كما قال الملك.

(٢) القول المفيد ٣/ ٦٤.

(٤) القول المفيد ٣/ ٦٤، ٩٥.

(١) الفتح ٥٨١/ ٦.

(٣) الفتح ٥٨١/ ٦.

(٥) الفتح ٥٨١/ ٦.

وفيه التحذير من كفران النعم والترغيب فى شكرهم والاعتراف بها وحمد الله عليها وفيه فضل الصدقة والحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم وتبليغ مآربهم، وفيه الزجر عن البخل، لأنه حمل صاحبه على الكذب وعلى جحد نعمة الله تعالى. اهـ.

قلت: ففيه معنى قوله ﷺ: إياكم والبخل فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم... الحديث.

قال ابن عثيمين^(١): وفى هذا الحديث من العبر شئ كثير، منها.

١- أن الرسول ﷺ يقص علينا أبناء بنى إسرائيل لأجل الاعتبار والاتعاظ بما جرى، وهو أحد الأدلة لمن قال: إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، ولا شك أن هذه قاعدة صحيحة.

٢- بيان قدرة الله - عز وجل - بإبراء الأبرص والأقرب والأعمى من هذه العيوب التى فيهم بمجرد مسح الملك لهم.

٣- أن الملائكة يتشكلون حتى يكونوا على صورة البشر؛ لقوله: «فأتى الأبرص فى صورته»، وكذلك الأقرب والأعمى، لكن هذا - والله أعلم - ليس إليهم وإنما يتشكلون بأمر الله تعالى.

قلت: ويشهد لذلك ما جاء فى الصحيح أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فى صورة حية الكلبى.

٤- أن الملائكة أجسام وليسوا أرواحاً أو معانى أو قوى فقط.

٥- حرص الرواة على نقل الحديث بلفظه.

٦- أن الإنسان لا يلزمه الرضاء بقضاء الله - أى بالمقضى - لأن هؤلاء الذين أصيبوا قالوا: أحب إلينا كذا وكذا، وهذا يدل على عدم الرضاء.

وللإنسان عند المصائب أربع مقامات.

- جزع، وهو محرم.

- صبر، وهو واجب.

- رضاء، وهو مستحب.

- شكر، وهو أحسن وأطيب.

وهنا إشكال، وهو كيف يشكر الإنسان ربه على المصيبة وهى لا ثلاثه؟

أجيب: أن الإنسان إذا آمن بما يترتب على هذه المصيبة من الأجر العظيم عرف أنها تكون بذلك نعمة، والنعمة تشكر.

(١) القول المفيد ٣/ ٦٥-٧٠.

وأما قوله ﷺ: «فمن رضى؛ فله الرضا، ومن سخط؛ فعليه السخط»^(١)؛ فالمراد بالرضا هنا الصبر، أو الرضا بأصل القضاء الذى هو فعل الله؛ فهذا يجب الرضا به لأن الله - عزوجل - حكيم، ففرق بين فعل الله والمقضى.

والمقضى ينقسم إلى : مصائب لا يلزم الرضا بها، وإلى أحكام شرعية يجب الرضا بها.

٧- جواز الدعاء المعلق؛ لقوله: «إن كنت كاذباً؛ فصيرك الله إلى ما كنت»، وفى القرآن الكريم قال الله تعالى: «وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ»^(٢)، «وَالْخَامِسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ»^(٣)، وفى دعاء الاستخارة: «اللهم! إن كنت تعلم.. إلخ».

٨- جواز التنزل مع الخصم فيما لا يقربه الخصم المنزل لأجل إفحام الخصم؛ لأن الملك يعلم أنه كاذب، ولكن بناء على قوله: إن هذا ما حصل، وإن المال ورثه كابرًا عن كابر، وقد سبق بيان وروده فى القرآن، ومنه أيضاً قوله تعالى ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٤)، ومعلوم أن الرسول ﷺ وأصحابه على هدى وأولئك على ضلال، ولكن هذا من باب التنزل معهم من باب العدل.

٩- أن بركة الله لانهاية لها، ولهذا كان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

١٠- هل يستفاد منه أن دعاء الملائكة مستجاب أو أن هذه قضية عين؟

الظاهر أنه قضية عين، وإلا؛ لكان الرجل إذا دعا لأخيه بظهر الغيب، وقال الملك: آمين ولك بمثل، علمنا أن الدعاء قد استجيب.

١١- بيان أن شكر كل نعمة بحسبها؛ فشكر نعمة المال أن يبذل فى سبيل الله، وشكر نعمة العلم أن يبذل لمن سأل به بلسان الحال أو المقال، والشكر الأعم أن يقوم بطاعة النعم فى كل شئ.

ونظير هذا ما مر أن التوبة من كل ذنب بحسبه، لكن لا يستحق الإنسان وصف التوبة المطلق إلا إذا تاب من جميع الذنوب.

١٢- جواز التمثيل، وهو أن يتمثل الإنسان بحال ليس هو عليها فى الحقيقة، مثل أن

(١) سبق تخريجه

(٢) النور ٧.

(١) النور ٩

(٤) سبأ ٢٤

يأتي بصورة مسكين وهو غنى وما أشبه ذلك إذا كان فيه مصلحة وأراد أن يختبر إنساناً بمثل هذا ؛ فله ذلك .

قلت: لكن هذا محله إذا لم يكن فى ذلك تهكم بأحد أو تنقص منه وغيبه له أو همز أو لمز أو استخفاف واستهزاء . . إلخ ما فهمه العلماء من قوله ﷺ لعائشة حينما حاكّت إنساناً فقال: ما يحب أن يكون لى كذا وكذا^(١) وهو عند أبى داود وغيره وأن لا يشمل أى معصية أخرى أو لم يكن فيه تمثيل للصحابة وغيرهم من أعلام الدين كما قررت ذلك رابطة العالم الإسلامى والقول الذى هو القول أنه لو توافرت هذه وقال أحد بال منع سداً للذريعة لثلا يحتج الجاهليون على تمثيلهم بهذا التمثيل لكان محقاً والله أعلم .

١٣- أن الابتلاء قد يكون عاماً وظاهراً يؤخذ من قوله . «فإنما ابتليتكم» ، وقصتهم مشهورة كما سبق .

١٤- فضيلة الورع والزهد، وأنه قد يجز صاحبه إلى ما تحمد عقباه؛ لأن الأعمى كان زاهدا فى الدنيا؛ فكان شاكراً لنعمة الله .

١٥- ثبوت الإرث فى الأمم السابقة؛ لقوله: «ورثته كابرأ عن كابر» .

١٦- أن من صفات الله - عزوجل - الرضا والسخط والإرادة ، وأهل السنة والجماعة يشبونها على المعنى اللائق بالله على أنها حقيقة .

وإرادة الله نوعان: كونية ، وشرعية .

والفرق بينهما أن الكونية يلزم فيها وقوع المراد ولايلزم أن يكون محبوباً لله ، فإذا أراد الله شيئاً قال له كن فيكون .

وأما الشرعية بمعنى المحبة والكونية بمعنى المشيئة ، فإن قيل : هل الله يريد الخير والشر كوناً أو شرعاً؟

أجيب: إن الخير إذا وقع؛ فهو مراد لله كوناً وشرعاً، وإذا لم يقع؛ فهو مراد لله شرعاً فقط، وأما الشر فإذا وقع؛ فهو مراد لله كوناً وشرعاً وإذا لم يقع؛ فهو غير مراد كوناً ولا شرعاً، وأعلم أن الشر لاينسب إلى فعل الله - سبحانه -، ولكن إلى مخلوقات الله؛ فكل فعل الله تعالى خير؛ لأنه صادر عن حكمة ورحمة، ولهذا قال النبى ﷺ «الخير بيدك والشر ليس إليك»، وأما مخلوقات الله؛ ففيها خير وشر

وإثبات صفة الرضا لله - سبحانه - لا يقتضى انتفاء صفة الحكمة . بخلاف رضا

(١) حرجه بوداود (٤٨٧٥) عن عائشة به

المخلوق؛ فقد تتفى معه الحكمة، فإن الإنسان إذا رضى عن شخص مثلاً فإن عاطفته قد تحمله على أن يرضى عنه فى كل شىء ولا يضبط نفسه فى معاملته لشدة رضاه عنه، قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليله كما أن عين السخط تبدى المساويا

لكن رضا الله مقرون بالحكمة، كما أن غضب الخالق ليس كغضب المخلوق؛ فلا تتفى الحكمة مع غضب الخالق، بخلاف غضب المخلوق؛ فقد يخرج عنه الحكمة فيتصرف بما لا يليق لشدة غضبه.

ومن فسر الرضاب بالثواب أو إرداته؛ فتفسيره مردود عليه، فإنه إذا قيل: إن معنى «رضى»؛ أى: أراد أن يثيب، فمقتضاه أنه لا يرضى، ولو قالوا: لا يرضى لكفروا؛ لأنهم نفوها نفى جحود، لكن أولوها تأويلاً يستلزم جواز نفى الرضا؛ لأن المجاز معناه نفى الحقيقة، وهذا أمر خطير جداً.

ولهذا بين شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم: أنه لامجاز فى القرآن ولا فى اللغة، خلافاً لمن قال: كل شىء فى اللغة مجاز.

١٧- أن الصحبة تطلق على المشاكلة فى شىء من الأشياء ولا يلزم منها المقارنة؛ لقوله «وسخط على صاحيك»؛ فالصاحب هنا: من يشبه حاله فى أن الله أنعم عليه بعد البؤس.

١٨- اختبار الله - عز وجل - بما أنعم عليهم به.

١٩- أن التذكير قد يكون بالأقوال أو الأفعال أو الهيئات.

٢٠- أنه يجوز للإنسان أن ينسب لنفسه شيئاً لم يكن من أجل الاختبار؛ لقول الملك: إنه فقير وابن سبيل.

قلت: ولعل هذا حجة لأهل العلم الذين قلبوا أسانيد ومتون بعض الأحاديث من أجل اختار بعض العلماء مثل ما حصل من يحيى بن معين وأحمد ابن حنبل مع أبى نعيم ولما روى من اختار البخارى - رحمه الله - بهذه الطريقة أيضاً والله أعلم.

٢١- أن هذه القصة كانت معروفة مشهورة؛ لقوله: «فقد رضى الله عنك وسخط على صاحيك».

قلت: وفيها معنى قوله ﷺ: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه ثم جعل

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

الثانية: مَا مَعْنَى: (لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي)

الثالثة: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: (أُوتِيَتْهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي).

الرابعة: مَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ مِنَ الْعِبَرِ الْعَظِيمَةِ.

من حوائج المسلمين إليه فيتبرم فقد عَرَضَ تلك النعمة للزوال^(١) وأيضاً قوله ﷺ
الثابت في سنن الترمذى من حديث أسماء بنت أبى بكر قالت: قلت يا رسول الله! إنه
ليس لى من شىء إلا ما أدخل على الزبير أفأعطى؟ قال: «نعم لانوكى فيوكى
عليك»^(٢) قال أبو عيسى: يقول لا تحصى فيحصى عليك.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله فيه مسائل:

● الأولى: تفسير الآية.

وهى قوله تعالى: ﴿وَلَنُؤَذِّقَنَّهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ وقد
سبق أن الضمير فى قوله: ﴿أَذِّقَنَّهُ﴾ يعود على الإنسان باعتبار الجنس.

● الثانية: مامعنى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾

اللام للاستحقاق، والمعنى: إني حقيق به وجدير به.

● الثالثة: مامعنى قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَى عِلْمٍ﴾.

قلت: سبق أنه على علم منى بوجوه والمكاسب وغير ذلك.

● الرابعة: ما فى هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة

وقد سبق ذكر عبر كثيرة منها، وهذا ليس استيعاباً، ومن ذلك الفرق بين الأبرص
والأقرع والأعمى؛ فإن الأبرص والأقرع جحدا نعمة الله - عزوجل -، والأعمى اعترف
بنعمة الله عندما طلب الملك من الأعمى المساعدة؛ قال: «خذ ماشئت؛ فدل هذا على
جوده وإخلاصه؛ لأنه قال: «فوالله؛ لا أجهدك اليوم بشىء أخذته الله - عزوجل -، بخلاف
الأبرص والأقرع حيث كانوا أشحاء بخلاء منكربن نعمة - الله عزوجل - . اهـ.



(١) أخرجه الطبرانى فى «الأوسط»، وإسناده جيد، «مجمع الزوائد» (١٩٢/٨) انظر كتابى «فقه

الخطابة»

(٣) القور - نفيد ٣/ ٧٠، ٧١

(٢) سياتى تخريجه وهو فى الصحيح

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ (١).

● مناسبة هذا الباب لما قبله.

قال الفقير :- لما كان الباب الماضي فى عدم شكر الله على نعمه بنسبتها إلى غيره وكان ذلك كفران للنعم متلف للتوحيد وكان من أنعم الله عليهم بالاولاد وكمل لهم هذه النعمة بأن جعلهم صالحين فى أبدانهم فعبدوا اولادهم لغير الله أو أضافوا النعم لغير الله فأصبحوا بذلك كافرين بنعم الله متلفين للتوحيد ناسب أن يذكر المصنف هذا الباب بعد الباب الماضى للقاسم المشترك بينهما أولاً فى كفر النعم ثانياً فى إتلاف التوحيد.

- ماذا أراد المصنف بهذا الباب؟! ومناسبته لكتاب التوحيد.

قال حامد بن حسن بن محسن (٢): باب ما جاء فى بيان أن من نسب العبودية إلى غير الله نية أو قولاً أو فعلاً حقيقة أو مجازاً فقد دخل فى عمومية الشرك، أما النية قوله تعالى: ﴿عَتَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ وأما القول فقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣).

وأما الفعل فقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ وأما الحقيقة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (٤) إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير.

وأما المجاز فقوله تعالى ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ اهـ.

قال ناصر السعدى (٤): مقصود الترجمة أن من أنعم الله عليهم بالاولاد وكمل الله النعمة بهم بأن جعلهم صالحين فى أبدانهم وتعام ذلك أن يصلحوا فى دينهم، فعليهم أن يشكروا الله على أنعامه، وأن لا يعبدوا اولادهم لغير الله أو يضيفوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم متلف للتوحيد اهـ.

(٢) فتح الله الحميد المجيد. (٤١٥).

(٤) القول السديد ١١٧ و ١١٨.

(١) الأعراف: ١٩٠.

(٣) طه/ ١١١.

قال ابن باز^(١): أراد المؤلف بيان تحريم التعبد لغير الله وأنه لا يجوز أن يُعبد أحد لغير الله فلا يقال عبد النبي أو عبد الكعبة أو عبد الحسين وما أشبه ذلك بل يكون التعبد لله وحده كعبد الرحمن وعبد الله . . . إلخ لأن الله ذم من فعل ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ . . وهذا ذم وعيب لمن فعله . اهـ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا . . .﴾ الآية .

● مناسبة الآية للباب والتوحيد:

قال الرازي^(٢): اعلم أنه تعالى رجع في هذه الآية إلى تقرير أمر التوحيد وإبطال الشرك . اهـ.

قال القرعاوي^(٣): مناسبة الآية للباب وللتوحيد حيث دلت الآية على تفسير ابن عباس أن التعبد لغير الله في الأسماء شرك . اهـ.

● شرح الآية:

قال ابن عثيمين: قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾ الضمير يعود على ما سبق، ولهذا ينبغي أن يكون الشرح من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ . . .﴾ .

قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾

الإعراب^(٤): هو الذي خلقكم من نفس واحدة كلام مستأنف لخطاب أهل مكة، وهو مبتدأ، والذي خبره، وجملة خلقكم صلة، ومن نفس جار ومجرور متعلقان بخلقكم وواحدة صفة . اهـ.

قال الشوكاني^(٥): قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر نعم الله على عباده، وعدم مكافأتهم لها، مما يجب من الشكر، والاعتراف بالعبودية، وأنه المنفرد بالالهية . اهـ.

● التفسير بالمأثور:

روى الطبرني عن مجاهد خلقكم من نفس واحدة قال آدم عليه السلام^(٦). ورواه أيضاً عن قتادة^(٧).

(٢) التفسير الكبير ٨/ ١٥/ ٩٠.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٥٥٨.

(٦) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٩٧/٩).

(١) التعليق المفيد ٢٣٣.

(٣) الجديد .

(٥) فتح القدير ٢/ ٢٨٩.

(٧) المصدر السابق .

● أقوال المفسرين:

قال الطبري^(١): يعنى بالنفس الواحدة آدم، وقاله البغوى^(٢).

قال الزمخشري^(٣): من نفس واحدة هى نفس آدم عليه السلام أهـ.
وقاله الرازى أيضاً^(٤).

قال القرطبي^(٥): قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة . آدم.

قال السعدى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ» أيها الرجال والنساء، المنتشرون فى الأرض على كثرتكم وتفرقكم «مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» وهو :آدم أبو البشر ﷺ أهـ.
قال صاحب الظلال: فهى نفس واحدة فى طبيعة تكوينها، وإن اختلفت وظيفتها بين الذكر والأنثى. أهـ.

قوله: «وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا»

الإعراب: جعل بمعنى خلق معطوف على خلقكم ، وفاعله ضمير مستتر، ومنها جار ومجرور متعلقان، بجعل، وزوجها مفعول به. أهـ.

قال ابن عثيمين^(٦): من للتبعيض، لأن حواء خلقت من ضلع آدم. أهـ.
● التفسير بالقرآن:

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ». وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا».

● التفسير بالمأثور:

روى الطبري^(٧): عن قتادة وجعل منها زوجها حواء فجعلت من ضلع من أضلاعه.

● أقوال المفسرين:

قال الطبري^(٧): ويعنى بقوله وجعل منها زوجها وجعل من النفس الواحدة وهى آدم زوجها حواء. أهـ.

(٢) معالم التنزيل ٥٨١/٢.

(٤) التفسير الكبير ٩٠/١٥/٨.

(٦) القول المفيد ٧٢/٣.

(١) تفسير الطبراني ٩٧/٩/٦.

(٣) الكشف ١٠٨/٢.

(٥) تفسير القرطبي ٢٧٧٣/٣.

(٧) تفسير الطبري ٩٧/٩/٦.

قلت: وبهذا قال البغوي:

قال الزمخشري^(١): ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه أو من جنسها كقوله ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾. اهـ.

قال الرازي^(٢): وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ المراد حواء، قالوا ومعنى كونها مخلوقة من نفس آدم، أنه تعالى خلقها من ضلع من أضلاع آدم. قالوا: والحكمة فيه أن الجنس من الجنس أميل، والجنسية علة الضم، وأقول هذا الكلام مشكل لأنه تعالى. لما كان قادراً على أن يخلق آدم ابتداءً فما الذي حملنا على أن نقول أنه تعالى خلق حواء من جزء من أجزاء آدم؟، ولم لا نقول: إنه تعالى خلق حواء أيضاً ابتداءً؟ وأيضاً الذي يقدر على خلق إنسان من عظم واحد فلم لا يقدر على خلقه ابتداءً، وأيضاً الذي يقال: إن عدد أضلاع الجانب الأيسر أنقص من عدد أضلاع الجانب الأيمن فيه مؤاخذه تنبني عن خلاف الحس والتشريح، بقي أن يقال: إذا لم تقل بذلك، فما المراد من كلمة (من) في قوله ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فنقول: قد ذكرنا أن الإشارة إلى الشيء تارة تكون بحسب شخصه؛ وأخرى بحسب نوعه قال عليه الصلاة والسلام «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به»^(٣) وليس المراد ذلك الفرد المعين بل المراد ذلك النوع. وقال عليه الصلاة والسلام في يوم عاشوراء هذا هو اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون.

والمراد أنه خلق من النوع الإنساني زوجة آدم، والمقصود التنبيه على أنه تعالى جعل زوج آدم إنساناً مثله. اهـ.

قلت/ لقد جاء التصريح بأن المرأة خلقت من ضلع أعوج في قول النبي ﷺ(*) ونفى الرازي لهذا خطأ فاحش أما قوله بأن حواء جعلها الله إنساناً مثل آدم فهو صحيح وفي كلام ابن كثير القادح رد عليه أيضاً وتأمل كذلك قول ابن عثيمين.

قال ابن كثير^(٤): ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته حواء ثم انتشر الناس منهما. كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ

(١) الكشف ١٠٨/٢.

(٢) التفسير الكبير. ٩٣/١٥/٨/.

(٣) [ضعيف] أخرجه ابن ماجه (٤١٩) عن ابن عمر به

وانظر «منار السيل» (١٠٠ - بتخریجنا).

(*) [صحيح] أخرجه مسلم في الرضاع (٦٢/٣١٣/٥) عن أبي هريرة به.

(٤) تفسير ابن كثير ٢٦٤/٢.

مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴿١﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الآية أهـ.

قال الشوكاني^(١): وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ معطوف على ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أى هو الذى خلقكم من نفس آدم، وجعل من هذه النفس زوجها وهى حواء، خلقها من ضلع من أضلاعه. وقيل المعنى ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ علة للجعل، أى جعله منها لأجله ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾. أهـ.

قال السعدى^(٢): ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى: خلق من آدم زوجته حواء أهـ.

التفسير بكلام شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين^(٣): فيها قولان:

الأول: أن المراد بالنفس الواحدة: العين الواحدة؛ أى: من شخص مُعَيَّن وهو آدم عليه السلام.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (من) للتبعض، لأن حواء خلقت من ضلع آدم.

الثانى: أن المراد بالنفس الجنس، وجعل من هذا الجنس زوجة ولم يجعل زوجها من جنس البقر أو الضأن مثلاً، والنفس قد يراد بها الجنس؛ كما فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾^(٤) أى: من جنسهم أهـ.

قلت: وكلا القولين صحيح ولا يلزم من كونها خلقت من جنسها ونوعها أنها لم تخلق من ضلع منه ولا يلزم من أنها خلقت من ضلع منه أن الله غير قادر على أن يخلقها من العدم فهو الخلاق العليم ففى ذلك رد على كلام الرازى المتقدم والله أعلم.

قوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾.

الإعراب^(٥): واللام للتعليل ويسكن فعل مضارع منصوب وفاعله هو . وإليها جار ومجرور متعلقان بيسكن والمراد بالنفس آدم، وتأنيث الضمير بإعتبار لفظ النفس أهـ.

(١) فتح القدير ٢/ ٢٨٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٧٥.

(٣) القول المفيد ٣/ ٧٢ و ٧٣.

(٤) إعراب القرآن ٣/ ٥٠٨.

(٤) آل عمران: ١٦٤.

● التفسير بالقرآن:

قال ابن كثير^(١): ﴿لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا﴾ أى: ليألفها ويسكن بها كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما تونصل يكبده إلى التفرقة بين المرء وزوجه أهـ.

قال الشنقيطي^(٢): ذكر في هذه الآية الكريمة أنه خلق حواء من آدم ليسكن إليها، أى: ليألفها ويطمئن بها، ويبن في موضع آخر أنه جعل أزواج ذريته كذلك، وهو قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(٣). أهـ.

● أقوال المفسرين:

قال الطبري^(٤): يعنى بقوله ﴿لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا﴾ ليأوى إليها لقضاء الحاجة ولذاته أهـ.

قال البغوي^(٥): قوله تعالى: ﴿لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا﴾. ليأنس بها، ويأوى إليها أهـ. وهو نفس ما قاله ابن الجوزي.

قال الزمخشري^(٦): ﴿لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا﴾ ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آس وإذا كانت بعضاً منه كان السكون والمحبة أبلغ كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه وقال ليسكن فذكر بعدما أنث في قوله واحدة منه زوجها ذهاباً إلى معر النفس ليسين أن المراد بها آدم ولأن الذكر هو الذى يسكن إلى الأنثى ويتغشاها فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى أهـ.

قال القرطبي^(٧): ﴿لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا﴾ ليأنس إليها ويطمئن، وكان هذا كله فى الجنة. ثم ابتداء بحالة أخرى هى فى الدنيا بعد هبوطهما فقال ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾... أهـ.

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٦٤.

(٢) أضواء البيان ٢/٢٥٤.

(٣) الروم: ٢١.

(٤) تفسير الطبري ٦/٩٧.

(٥) معالم التنزيل ٢/٥٨١.

(٦) الكشف ٢/١٠٨.

(٧) تفسير القرطبي ٤/٢٧٧٣.

قال الشوكاني^(١): «لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا» علة للجعل، أى جعله منها لأجل «لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا» يأنس إليها، ويطمئن بها، فإنَّ الجنس بجنسه أسكن، وإليه آنس، وكان هذا فى الجنة، كما وردت بذلك الأخبار. ثم ابتداء سبحانه بحالة أخرى كانت بينهما فى الدنيا بعد هبوطهما. فقال «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا» . . أهـ.

قال السعدى^(٢): «لَيْسَكُنْ إِلَيْهَا» لأنها إذا كانت منه، حصل بينهما من المناسبة والموافقة، ما يقتضى سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كلُّ منهما إلى صاحبه، يزمام الشهوة أهـ.

قال صاحب «الظلال»^(٣): وهذه هى نظرة الإسلام لحقيقة الإنسان. ووظيفة الزوجية فى تكوينه. وهى نظرة كاملة وصادقة جاء بها هذا الدين منذ أربعة عشر قرناً. يوم أن كانت الديانات المحرفة تعد المرأة أصل البلاء الإنسانى، وتعتبرها لعنة ونجساً وفخاً للغواية تحذر منه تحذيراً شديداً، ويوم أن كانت الوثنيات - ولاتزال - تعدّها من سقط المتاع أو على الأكثر خادماً أدنى مرتبة من الرجل ولا حساب له فى ذاته على الإطلاق والأصل فى التقاء الزوجية هو السكن والاطمئنان والأنس والاستقرار. ليظل السكون والأمن جوَّ المحضن الذى تنمو فيه الفراخ الزغب. وينتج فيه المحصول البشرى الثمين، ويؤهل فيه الجيل الناشئ لحمل تراث التمدن البشرى والإضافة إليه. ولم يجعل هذا الالتقاء لمجرد اللذة العابرة والنزوة العارضة. كما أنه لم يجعله شقاً ونزاعاً، وتعارضاً بين الاختصاصات والوظائف، أو تكراراً للاختصاصات والوظائف كما تخطط الجاهليات فى القديم والحديث سواء! أهـ.

كلام شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين^(٤): سكون الرجل إلى زوجته ظاهر من أمرين:

أولاً: لأنَّ بينهما من المودة والرحمة ما يقتضى الأنس والاطمئنان والاستقرار.

ثانياً: سكون من حيث الشهوة، وهذا سكون خاص لا يوجد له نظير حتى بين الأم وابنها.

(١) فتح القدير ٢/ ٢٨٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٧٥.

(٣) الظلال ٣/ ١٤١١.

(٤) القول المفيد ٣/ ٧٣.

قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾.

الإعراب^(١): الفاء عاطفة، ولما رابطة أو حينية أهـ.

● التفسير بالقرآن:

قال الفقير: وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ وكقوله: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ وكقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ وكقوله تعالى: ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ إلخ.

● التفسير بالمأثور:

جاء عن ابن عباس أنه عبر عن الجماع بالغشيان والإفضاء والميس والإتيان أو كما قال(*).

● التفسير بكلام المفسرين:

قال الطبري^(٢): ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ فلما تذرّها قضاء حاجته منها فقضى حاجته منها، حملت حملاً خفيفاً وفي الكلام محذوف ترك ذكره استغناء بما ظهر عما حذف وذلك قوله فلما تغشاهما حملت وإنما الكلام فلما تغشاهما فقضى حاجته منها حملت أهـ.

قال البغوي^(٣): قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أى: واقعها وجامعها أهـ.

قال الزمخشري^(٤): والتغشى كناية عن الجماع وكذلك الغشيان والإتيان أهـ.

قال ابن الجوزي^(٥): ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أى: جامعها، قال الزجاج وهذا أحسن كناية عن الجماع أهـ.

قال الرازي^(٦): ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أى: جامعها، والغشيان إتيان الرجل المرأة وقد غشاه وتغشاه إذا علاها، وذلك لأنه إذا علاها فقد صار كالغاشية لها. ومثله يجللها، وهو يشبه التغطى واللبس قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ﴾ أهـ.

قال القرطبي^(٧): ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ كناية عن الوقاع أهـ.

(١) إعراب القرآن ٥٠٨/٣.

(*) وانظر في ذلك كتابنا «الاتحاف بأحكام وحقوق العاقد قبل الزفاف».

(٣) معالم التنزيل ٥٨١/٢.

(٢) تفسير الطبري ٩٧/٩/٦.

(٥) زاد المسير ٢٣٠/٣.

(٤) الكشف ١٠٨/٢.

(٧) تفسير القرطبي ٢٧٧٣/٤.

(٦) التفسير الكبير ٩٣/١٥/٨.

قال ابن كثير^(١): «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا» أى وطئها أهـ.

قال الشوكانى^(٢): «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا» والتغشى كناية عن الرقاع، أى فلما جامعها أهـ.

قال السعدى^(٣): «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا» أى: تجللها مجامعاً لها قدر البارى أن وجد من تلك الشهوة، وذلك الجماع، النسل، وحيثند حملت حملاً خفيفاً أهـ.

قال صاحب الظلال^(٤): «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا» والتعبير القرآنى يلفظ ويدق ويشف عند تصوير العلاقة الأولية بين الزوجين.. «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا».. تنسيقاً لصورة المباشرة مع جو السكن؛ وترقيقاً لحاشية الفعل حتى ليبدوا امتزاج طائفين لا إلتقاء جسدين، إيحاء للإنسان بالصورة الإنسانية فى المباشرة، وافتراقها عن الصورة الحيوانية الغليظة!.. كذلك تصوير الحمل فى أول أمره.. خفيفاً.. تمر به الأم بلا ثقله كأنها لا تحسه أهـ.

شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين^(٥): قوله: «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا».. أى: جامعها، وعبرة القرآن والسنة التكنية عن الجماع، قال تعالى: «أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ»^(٦)، وقال: «الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ»^(٧) وقال تعالى: «وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ»^(٨)، كأن الإستحياء من ذكره بصريح اسمه أمر فطرى، ولأن الطباع السليمة تكره أن تذكر هذا الشيء باسمه إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فإنه قد يُصرح به، كما فى قوله ﷺ لما عز وقد أقرَّ عنده بالزنى، (أنكثها لا يَكُنِّي)^(٩)؛ لأن الحاجة هنا داعية للتصريح حتى يتبين، الأمر جلياً، ولأن الحدود تدرأ بالشبهات.

وتشبيهه علو الرجل المرأة بالغشيان أمر ظاهر، كما أن الليل يستر الأرض بظلامه، قال تعالى: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى»^(١٠) وعبرَ بقوله: «تَغَشَّاهَا» ولم يقل، غشيها؛ لأنَّ

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٧٥.

(٣) القول المفيد ٣/ ٧٣ و ٧٤.

(٤) النساء: ٤٣.

(٥) النساء: ٢٣.

(٦) النساء: ٢١.

(٧) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٨٢٤) عن ابن عباس به.

وانظر "منار السبيل" (٢٥٠٥ جتخريجنا).

(١٠) الليل: ١.

تَغَشَّى أبلغ، وفيه شيء من المعالجة، ولهذا جاء في الحديث: «إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها»^(١).

الجلوس بين شعبها الأربع هذا غشيان جهدها هذا تَغَشَّى أهد.

قوله: ﴿حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً﴾.

الإعراب^(٢): وجملة حملت لامحلّ لها، وحملاً إن كانت مصدرأ فهي مفعول مطلق، وإن كانت بمعنى الجنين فهي مفعول به، وخفيفاً نعت أتى به للإشعار بعدم التأذي به كما يصيب الحوامل عادة من آلام الحمل، أو إشارة إلى ابتدائه وكونه نقطة لاتثقل البطن أهد.

● التفسير بالمأثور:

روى الطبري عن السدي^(٣): قوله: ﴿حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً﴾ قال هي النطفة أهد.

● أقوال المفسرين:

قال الطبري^(٣): وقوله: ﴿حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً﴾ يعني بخفة الحمل الماء الذي حملته حواء في رحمها من آدم أنه كان حملاً خفيفاً وكذلك هو حمل المرأة ماء الرجل خفيف عليها أهد.

قال البغوي^(٤): قول تعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً﴾ وهو أول ما تحمل المرأة من النطفة يكون خفيفاً أهد.

قال الزمخشري^(٥): ﴿حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً﴾ خفّ عليها ولم تلق منه ما يلقي بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذى ولم تستثقله كما يستثقلنه وقد تسمع بعضهن تقول في ولدها ما كان أخفه على كبدى حين حملته أهد.

قال ابن الجوزي^(٦): والحمل، بفتح الحاء، ما كان فى بطن، أو أخرجه شجرة. والحمل، بكسر الحاء: ما يُحمل المراد بالحمل الخفيف الماء أهد.

قال الرازي^(٧): وقوله: ﴿حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً﴾ قالوا يريد النطفة والمنى والحمل

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٩١)، ومسلم فى الحيف (٢/٢٧٤/٨٧) عن أبى هريرة به.

(٢) تفسير الطبري ٩/٦/٩٧.

(٣) إعراب القرآن ٣/٥٠٨.

(٤) الكشاف ٢/١٠٨ و ١٠٩.

(٥) معالم التنزيل ٢/٥٨١.

(٦) التفسير الكبير ٨/١٥/٩٤.

(٧) زاد المسير ٣/٢٣٠.

بالفتح ما كان فى البطن أو على رأس الشجر، والحمل بكسر الحاء ما حمل على ظهر أو على الدابة أهـ.

قال القرطبي^(١): ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ كل ما كان فى بطن أو على رأس شجرة فهو حَمَلٌ بالفتح، وإذا كان على ظهر أو على رأس فهو حِمْلٌ بالكسر. وقد حكى يعقوب فى حمل النخلة الكسر، وقال أبو سعيد السيرافى: يقال فى حمل المرأة حَمَلٌ وحِمْلٌ، يُشبه مسرّه لاستبطانه بحمل المرأة، ومسرّة لبروزه وظهوره بحمل الدابة. والحَمْلُ أيضاً مصدر حَمَلَ عليه يحمل حَمْلًا إذا مال أهـ.

قال ابن كثير^(٢): ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ وذلك أول الحمل لاتبعد المرأة له ألماً إنما هى النطفة ثم العلقة ثم المضغة أهـ.

قال الشوكانى^(٣): ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ علقت به بعد الجماع، ووصفه بالخفة لأنه عند إلقاء النطفة أخف منه عند كونه علقة، وعند كونه علقة أخف منه عند كونه مضغة وعند كونه نطفة أخف مما بعده. وقيل: إنه خف عليها هذا الحمل من ابتدائه إلى انتهائه، ولم تجد منه ثقلًا كما تجد الحوامل من النساء لقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أى استمرت بذلك الحمل تقوم وتقعّد وتمضى فى حوائجها لاتبعد به ثقلًا، والوجه الأول أولى لقوله: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ فإن معناه: فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد فى بطنها أهـ.

قال السعدى^(٤): ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ وذلك فى ابتداء الحمل، لاتحس به الأنثى، ولا يثقلها أهـ.

قال صاحب الظلال^(٥): ﴿خَفِيفًا﴾. تمر به الأم بلا ثقله كأنها لاتحسه أهـ.

قال ابن عثيمين^(٦): الحمل فى أوله خفيف: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة. قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾.

(١) تفسير القرطبي ٤/ ٢٧٧٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٤.

(٣) فتح القدير ٢/ ٢٨٩.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٧٥.

(٥) ١٤١٢/ ٣.

(٦) القول المفيد ٣/ ٧٤.

الإعراب^(١): والفاء عاطفة، ومرت عطف على حملت، وبه جارا متعلقان بمرت،
أى: ترددت فى إيجاز مها مها وإظهارها من غير مشقة ولا إعنات أهـ.

● التفسير بالمأثور:

روى الطبرى: عن أبى أيوب قال سألت الحسن عن قوله: ﴿حَمَلْتُ حَمْلًا خَفِيفًا﴾
فمرت به قال لو كنت امرأة عربياً لعرفت ما هى إنما هى فاستمرت به^(٢).

وروى عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال فشكت أحملت أم لا^(٣).

وروى أيضاً عن قتادة^(٢) ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلْتُ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ فمرت به استبان حملها.

وروى أيضاً عن مجاهد ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال استمر حملها^(٤).

وروى عن السدى وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ يقول استمرت به^(٥).

● أقوال المفسرين.

قال البغوى^(٦): أى استمرت به. وقامت وقعدت به. ولم يثقلها أهـ.

قال ابن الجوزى^(٧): قوله تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أى: استمرت به، قعدت وقامت
ولم يُثقلها. وقرأ سعد بن أبى وقاص، وابن مسعود وابن عباس، والضحاك:
(فاستمرت به) وقرأ أبى بن كعب، والجونى: ﴿استمارت به﴾ بزيادة ألف، وقرأ عبدالله
بن عمرو، والجحدري: (فمارت به) بألف وتشديد الراء. وقرأ أبو العالية، وأيوب،
ويحيى بن يعمر: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ خفيفة الراء، أى: شكت وتمازت أحلت، أم لا؟ أهـ.
وذكر نحو ذلك الرازى^(٨).

(١) إعراب القرآن ٥٠٨/٣.

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩٧/٩)، وذكره السيوطى فى «الدر» (٢٧٨/٣) وزاد نسبه لأبى
الشيخ.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضوع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٢٧٨/٣). وزاد نسبه لابن أبى
حاتم، فانظر بتخريجنا.

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضوع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» وزاد نسبه لابن أبى حاتم،
وعبد بن حميد، وأبى الشيخ.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضوع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٢٧٨/٣) وزاد نسبه لابن أبى
حاتم.

وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٧) زاد المسير ٢٣٠/٣.

(٦) إعراب القرآن ٥٠٨/٣.

(٨) التفسير الكبير ٩٤/١٥/٨.

قال القرطبي^(١): وقيل: المعنى فاستمر بها الحمل، فهو من المقلوب؛ كما تقول: أدخلت القلنسوة في رأسي وقرأ عبدالله بن عمر (فمات به) باللف والتخفيف من مار يمور إذا ذهب وجاء وتصرف. وقرأ ابن عباس ويحيى بن يعمر ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ خفيفة من المربة، أي شكت فيما أصابها هل هو حمل أو مرض، أو نحو ذلك أهـ. وينحو هذا ذكر جميع المفسرين.

قوله: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾.

الإعراب^(٢): الفاء عاطفة، ولما رابطة أو حينية أهـ.

● **التفسير بالمأثور:**

وروى الطبري: عن السدي فلما أثقلت كبر الولد في بطنها^(٣).

● **أقوال أهل التفسير:**

قال الطبري^(٤): يعني بقوله: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ فلما صار ما في بطنها من الحمل الذي كان خفيفاً ثقيلاً ودنت ولادتها يقال منه أثقلت فلانه إذا صارت ذات ثقل بحملها كما يقال أثمر فلان إذا صار ذا ثمر أهـ.

قال البغوي^(٥): قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي: كبر الولد في بطنها، وصارت ذات ثقل بحملها ودنت ولادتها أهـ.

قال الزمخشري^(٦): ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ حان وقت ثقل حملها كقولك أقربت وقرىء أثقلت على البناء للمفعول أي أثقلها الحمل أهـ.

قال ابن الجوزي^(٧): ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي: صار حملاً ثقيلاً؛ وقال الأخفش: صارت ذات ثقل. يقال أثمرنا، أي: صدنا ذوى ثمر أهـ.

قال القرطبي^(٨): ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ صارت ذات ثقل، كما تقول: أثمر النخل. وقيل: دخلت في الثقل، كما تقول: أصبح وأمسى أهـ.

قال الشوكاني: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ فإن معناه: فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد في بطنها.

(١) تفسير القرطبي ٤/ ٢٧٧٣.

(٢) إعراب القرآن ٣/ ٥٠٨.

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٩٨/٩).

(٤) المصدر السابق.

(٥) معالم التنزيل ٢/ ٥٨١.

(٦) الكشف ٢/ ١٠٩.

(٧) زاد المسير ٣/ ٢٣٠.

(٨) تفسير القرطبي ٢/ ٢٧٧٤.

قال السعدى^(١): ﴿قَلَمًا﴾ استمرت، و ﴿أَثْقَلَتْ﴾ به حين كبر فى بطنها، فحيث صار فى قلوبهما الشفقة على الولد، وعلى خروجه حياً، صحيحاً، سالماً لا آفة فيه. لذلك ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ الآية أهـ.

قال صاحب الظلال^(٢): لقد تبين الحمل، وتعلّقت به قلوب الزوجين، وجاء دور الطمع فى أن يكون المولود سليماً صحيحاً صبوراً. . إلى آخر ما يطمع الآباء والأمهات أن تكون عليه ذريتهم، وهى أجنة فى ظلام البطون وظلام الغيوب. . . وعند الطمع تستيقظ الفطرة، فتوجه إلى الله، تعترف له بالربوبية وحده، وتطمع فى فضله وحده، لإحساسها اللدنى بمصدر القوة والنعمة والإفضال الوحيد فى هذا الوجود. لذلك ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لِنِ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾. . أهـ.

قوله: ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾.

قال الإعراب^(٣): الفاء عاطفة، ولما رابطة أو حينية، ودعوا الله فعل ماض وفاعل ومفعول به وربهما بدل أهـ.

● أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(٤): ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ يقول نادى آدم وحواء ربهما وقالوا يا ربنا لنن آتيتنا. . الآية أهـ.

قال البغوى^(٥): ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ يعنى آدم وحواء أهـ.

قال الزمخشري^(٦): ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذى هو الحقيقى بأن يدعى ويلتجأ إليه أهـ.

قال ابن الجوزى^(٧): يعنى آدم وحواء أهـ.

قال الرازى^(٨): يعنى آدم وحواء أهـ.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٧٥.

(٢) ٣/ ١٤١٢.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٥٠٨.

(٤) تفسير الطبرى ٦/ ٩٨/٩.

(٥) معالم التنزيل ٢/ ٥٨١.

(٦) الكشف ٢/ ١٠٩.

(٧) زاد المسير ٣/ ٢٣٠.

(٨) التفسير الكبير ٨/ ١٥/ ٩٤.

قال الشوكاني^(١): قوله: ﴿دَعُوا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ جواب لما، أى دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما أهـ.

● شرح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: ﴿دَعُوا اللَّهَ﴾، ولم يقل: دعيا؛ لأن الفعل واوى؛ فعاد إلى أصله.

قوله: ﴿اللَّهُ رَبَّهُمَا﴾ أى بالالوهية والربوبية؛ لأن الدعاء يتعلق به جانبان:

الأول: جانب الالوهية من جهة العبد أنه داع، والدعاء عبادة.

الثانى: جانب الربوبية؛ لأن فى الدعاء تحصيلاً للمطلوب، وهذا يكون متعلقاً بالله من حيث الربوبية. والظاهر أنهما قالوا: اللهم ربنا، ويحتمل أن يكون بصيغة أخرى أهـ.

قوله: ﴿لَنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

الإعراب^(٣): اللام موطئة للقسم، وجملة القسم مستأنفة لتدل على الجملة القسمية، وإن شرطية، وآتينَا فعل وفاعل وهو فعل الشرط، ونا مفعول به، وصالحاً صفة لمفعول محذوف ثابت عنه، أى: ولداً صالحاً، واللام واقعة فى جواب القسم لتقدمه، ونكونن فعل مضارع ناقص، مبنى على الفتح، واسمها ضمير مستتر تقديره نحن، ومن الشاكرين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها، وجملة، لَنْ آتَيْنَا تفسيرية لجملة دعوا الله، كأنه قيل: فما كان دعاؤهما؟ ما قالاه، ولك أن تجعلها مقولاً لقول محذوف تقديره: فقالا: لَنْ آتَيْنَا، وجملة لنكونن جواب القسم، وجواب الشرط محذوف على ما تقرر أهـ.

● التفسير بالمأثور:

روى الطبرى عن الحسن فى قوله: ﴿لَنْ آتَيْنَا صَالِحًا﴾ قال غلاماً^(٤).

وروى عن ابن عباس قال: شققا أن يكون بهيمة^(٥).

(٢) القول المفيد ٧٤/٢

(١) فتح القدير ٢٨٩/٢.

(٣) إعراب القرآن ٥٠٨/٣.

(٤) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩٨/٩) وذكره السيوطى فى «الدر» (٢٧٨/٣).

ونسبه لعبدالرزاق، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

وروى أيضاً عن أبي البختری: قال أشفقاً أن يكون شيئاً دون الإنسان^(١).

وعنه أيضاً أشفقاً أن لا يكون إنساناً^(٢).

قلت: وسيأتي المصنف في آخر الباب بنفس الأثر عن مجاهد، وقال: وذكر معناه عن الحسن وسعيد. وغيرهما - وسيأتي مزيد لشرحه هناك.

وروى أيضاً عن أبي صالح قال: لما حملت امرأة آدم فأنزلت كانا يشفقان أن يكون جهمية فدعوا ربهما لئن آتيتنا صالحاً الآية^(٣).

وروى عن سعيد بن جبیر لما هبط آدم وحواء ألقیت الشهوة في نفسه فأصابها فليس إلا أن أصابها حملت فليس إلا أن حملت تحرك في بطنها ولدها قالت ما هذا فجاءها إبليس فقال أترين في الأرض إلا ناقة أو بقرة أو ضائنة أو ماعزة هو بعض ذلك قالت والله ما منى شيء إلا وهو يضيق عن ذلك قال فأطيعيني وسميه عبدالحرث تلدى شيهكما مثلكما قال فذكرت ذلك لآدم عليه السلام فقال هو صاحبنا الذي قد أخرجنا من الجنة فمات ثم حملت بآخر فجاءها فقال أطيعيني وسميه عبدالحرث وكان اسمه في الملائكة الحرث وإلا ولدت ناقة أو بقرة أو ضائنة أو ماعزة أو قتلتني أنا قتلت الأول قال فذكرت ذلك لآدم فكأنه لم يكرهه فسمته عبدالحرث فذلك قوله لئن آتيتنا صالحاً يقول شهنأ مثلنا فلما آتاها صالحاً قال شيهما مثلهما^(٤).

وروى أيضاً عن السدي فلما أثقلت كبر الولد في بطنها جاءها إبليس فخوفها وقال لها ما يدريك ما في بطنك لعله كلب أو خنزير أو حمار وما يدريك من أين يخرج أمن دبرك فيقتلك أو من قلبك أو ينشق بطنك فيقتلك فذلك حين دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً يقول مثلنا لنكونن من الشاكرين^(٥).

● أقوال المفسرين:

قال الطبري^(٦): واختلف أهل التأويل في معنى الصلاح الذي أقسم آدم وحواء عليهما السلام أنه أن آتاها صالحاً في حمل حواء لنكونن من الشاكرين فقال بعضهم ذلك هو أن يكون الحمل غلاماً، ثم روى ذلك عن الحسن.

ثم قال: وقال آخرون بل هو أن يكون المولود بشراً سوياً مثلهما ولا يكون بهيمة.

ثم روى ذلك عن أبي البختری وأبي صالح وابن عباس وسعيد ابن جبیر والسدي.

ثم قال: والصواب من القول في ذلك أن يقال إن الله أخبر عن آدم وحواء أنهما

(١، ٢) المصادر السابق.

(٣) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق.

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٧٧/٣) وذكره السيوطي في «الدر» (٢٧٧/١) ونسبه لابن المنذر.

وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق.

(٦) تفسير الطبري ٩٨/٩/٦

دعوا الله ربهما بحمل حواء وأقسما لأن أعطاهما ما فى بطن حواء صالحاً ليكونان لله من الشاكرين والصالح قد يشمل معانى كثيرة منها الصلاح فى استواء الخلق ومنها الصلاح فى الدين والصالح فى العقل والتدبير وإذا كان ذلك كذلك ولا خبر عن الرسول ﷺ يوجب الحجة بأن ذلك على بعض معانى الصلاح دون بعض ولا فيه من العقل دليل وجب أن يعم كما عمه الله فيقال أنهما قالاً لئن أتينا صالحاً بجميع معانى الصلاح أهـ.

قال الرزمخشري^(١): ﴿لئن آتيتنا﴾ لئن وهبت لنا ﴿صالحاً﴾ ولدأً سوياً قد صلح بدنه وبرئ وقيل ولدأً ذكراً لأن الذكورة من الصلاح والجودة والضمير فى آتيتنا ولنكونن لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما أهـ.

قال ابن كثير^(٢): ﴿... لئن آتيتنا صالحاً﴾ أى بشراً سوياً وبنحو ذلك ذكر الشوكانى.

قال السعدى^(٣): ﴿صالحاً﴾ أى: صالح الخلق تامها، لانقص فيه أهـ.

● شرح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين^(٤): وقوله: ﴿صالحاً﴾، هل المراد صلاح البدن أو المراد صلاح الدين، أى لئن آتيتنا بشراً سوياً ليس فيه عاهة ولا نقص، أو صالحاً بالدين؛ فيكون تقياً قائماً بالواجبات؟.

الجواب: يشمل الأمرين جميعاً، وكثير من المفسرين لم يذكر إلا الأمر الأول، وهو الصلاح الدينى، لكن لا مانع من أن يكون شاملاً للأمرين جميعاً أهـ.

قلت: وهو ما رجحه الطبرى ولعل من لم يقل بتعميم الصلاح يشمل الدين أيضاً قوله تعالى: ﴿جعلنا له شركاء فيما آتاهما﴾ فلو كان الصلاح دينياً أيضاً لما وقع المولود فى هذه الشراكة لكن قد يجاب عن ذلك أن الآية بينت أن هذا كان من جهة الأبوين لا من جهة الولد لاسيما وقد سماه الله صالحاً والله أعلم.

قوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

الإعراب:

قال ابن عثيمين^(٥): قوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: من القائمين بشكرك على

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٦٥.

(٤) القول المفيد ٣/ ٧٥.

(١) الكشف ٢/ ١٠٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٧٥.

(٥) القول المفيد ٣/ ٧٥.

هذا الولد الصالح. والجملة هنا جواب قسم وشرط. قسم متقدم وشرط متأخر، والجواب فيه للقسم ولهذا جاء مقروناً باللام. لنكونن أهد.

● أقوال المفسرين:

قال الطبري^(١): وأما معنى قوله: «لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» فإنه لنكونن ممن يشكرك على ما وهبت له من الولد الصالح أهد.

قوله: «فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا».

● أقوال المفسرين:

قال الزمخشري^(٢): «فَلَمَّا آتَاهُمَا» ما طلباه من الولد الصالح السوي أهد.

قال الرازي^(٣): «فَلَمَّا آتَاهُمَا» الله أهد.

قال الشوكاني^(٤): «فَلَمَّا آتَاهُمَا» ما طلباه من الولد الصالح، وأجاب دعاءهما أهد.

قال السعدي^(٥): «فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا» على وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه أهد.

قال ابن عثيمين^(٦): قوله: «فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا» هنا حصل المطلوب، لكن النتيجة بالعكس؛ فلم يحصل الشكر الذي وعدا الله به، بل جعل له شركاء فيما آتاهما أهد.

قوله: «جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

قال الزمخشري^(٧): «جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ» أى جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه وكذلك «فِيمَا آتَاهُمَا» أى أتى أولادهما وقد دلَّ على ذلك بقوله: «فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» حيث جمع الضمير وآدم وحواء بريثان من الشرك أهد.

قال صاحب الإعراب^(٨): شركاء مفعول جعلاً، وله جار ومجرور متعلقان

(١) تفسير الطبري ٩٩/٩/٦.

(٣) التفسير الكبير ٩٤/١٥/٨.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ١٧٢/٢.

(٧) الكشاف ١٠٩/٢.

(٢) الكشاف ١٠٩/٢.

(٤) فتح القدير ٢٨٩/٢.

(٦) القول المفيد ٧٦/٣.

(٨) إعراب القرآن ٥٠٩/٣.

بمحذوف حال، لأنه كان في الأصل صفة لشركاء وتقدّم، وفيما جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لشركاء، وجملة أتاهما صلة، والمعنى: أتى أولادهما، وقد دل على ذلك قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضمير، وأدم وحواء بريثان من الشرك والفاء حرف عطف، وجملة تعالى الله عطف على خقلكم، وما بينهما اعتراض. ويجوز أن تكون الفاء استئنافية، والجملة مستأنفة، والله فاعله، وعما جار ومجرور متعلقان بتعالى، وجملة يشركون لامحل لها لأنها صلة الموصول أهـ.

● وجوه القراءات في قوله تعالى: ﴿شُرَكَاءَ﴾.

قال الطبري^(١): واختلف القراء في قراءة قوله شركاء فقرأ ذلك عامة قراء أهل المدينة وبعض المكيين والكوفيين جعلوا له شركا بكسر الشين بمعنى الشركة.

وقرأه بعض المكيين وعامة قراء الكوفيين وبعض البصريين جعلوا له شركاء بضم الشين بمعنى جمع شريك.

وهذه القراءة أولى القراءتين بالصواب لأن القراءة لو صحت بكسر الشين لوجب أن يكون الكلام فلما أتاهما صالحا جعلنا لغيره فيه شركا لأن آدم وحواء لم يدينا بأن ولدهما من عطية إبليس ثم يجعلنا الله فيه شركا لتسميتهما إياه بعبد الله وإنما كانا يدينان لآشك بأن ولدهما من رزق الله وعطيته ثم سمياه عبدالحرث فجعلنا لإبليس فيه شركا بالاسم فلو كانت قراءة من قرأ شركا صحيحه وجب ما قلنا أن يكون الكلام جعلنا لغيره فيه شركا.

فذلك قوله ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو وحزمة، والكسائي، وحفص عن عاصم: (شركاء) بضم الشين والمد، جمع شريك. وقرأ نافع. وأبو بكر عن عاصم. (شركا) مكسورة الشين على المصدر، لا على الجمع. قال أبو علي: من قرأ (شركا) حذف المضاف، كأنه أراد: جعلنا له ذا شرك، وذو شريك؛ فيكون المعنى: جعلنا لغيره شركا، لأنه إذا كان التقدير: جَعَلْنَا لَهُ ذُو شَرْكَ فَالْمَعْنَى: جَعَلْنَا لْغَيْرِهِ شَرْكَاً؛ وهذه القراءة في المعنى كقراءة من قرأ (شركاء). وقال غيره: معنى (شركاء) وشريكا. فأوقع الجمع موقع الواحد كقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾^(٢). والمراد بالشريك إبليس، لأنهما أطاعاه في الاسم، فكان الشرك في الطاعة، لا في العبادة؛ ولم يقصدا أن الحارث ربهما. لكن قصدا أنه سبب نجاة ولدهما؛ وقد يُطلق العبد على من ليس بمملوك. قال الشاعر.

(١) الطبري ١٠١/٦.

(٢) العمران ١٧٣.

وإني لعبدٌ الضيف ما دام ثاوياً وما فيّ إلا تلك من شيمة العبد

● التفسير بالمأثور:

أولاً من السنة

- روى الطبري عن الحسن عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ قال كانت حواء لا يعيش ولدها فنذرت لئن عاش لها ولد لتسمينه عبدالحرث فعاش لها ولد فسمته عبدالحرث وإنما كان ذلك من وحي الشيطان^(١).

ثانياً من قول الصحابة والتابعين عن ابن عباس قال كانت حواء تلد لآدم فتعبدهم الله وتسميه عبدالله وعبيدالله ونحو ذلك فيصيبهم الموت فأتاها إبليس وآدم فقال إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه لعاش فولدت له رجلاً فسماه عبدالحرث ففیه أنزل الله تبارك وتعالى هو الذي خلقكم من نفس واحدة إلى قوله ﴿جعلاً له شركاء فيما آتاهما﴾ إلى آخر الآية^(٢).

قلت: وسيأتي أثر ابن عباس من كلام المصنف في آخر الباب..

وعن ابن عباس قوله في آدم هو الذي خلقكم من نفس واحدة إلى قوله فمرت به فشكت أحبلت أم لا فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً الآية فأتاهما الشيطان فقال هل تدريان ما يولدكما أم هل تدريان ما يكون أبهيمه تكون أم لا وزين لهما الباطل أنه غوى مبين وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فساتا فقال لهما الشيطان أنكما أن لم تسمياه بي لم يخرج سويوا ومات كما مات الأولان فسميا ولدهما عبدالحرث فذلك قوله: ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاهما﴾ الآية^(٣).

وقال ابن عباس لما ولد له أول ولد آتاه إبليس فقال إني سأنصح لك في شأن ولدك هذا تسميه عبدالحرث فقال آدم أعوذ بالله من طاعتك إني أطعتك في أكل الشجرة فأخرجتني من الجنة فلن أطيعك فمات ولده ثم ولد له بعد ذلك ولداً آخر فقال أطعني وإلا مات كما مات الأول فعصاه فمات فقال لا أزال أقتلهم حتى تسميه عبدالحرث فلم يزل به حتى سماه عبدالحرث فذلك قوله جعلاً له شركاء فيما آتاهما أشركه في طاعته في غير عبادة ولم يشرك بالله ولكن أطاعه^(٤).

وعن سعيد بن جبير قوله ﴿أثقلت دَعَوَا اللَّهِ رَبَّهُمَا﴾ إلى قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا

(١) ضعيف جداً أخرجه أحمد في «مسنده» (١١/٥)، والترمذي (٣٠٧٧)، وابن جرير (٩٩/٩).

وانظر «الائقان» للسيوطي (٦٤) - بتخریجنا. وسيأتي في الشرح تعليل ابن كثير وغيره له.

(٢) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق، وانظر «الدر» (٢٧٨/٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٩٩/٩).

يُشْرِكُونَ﴾ قال: لما حملت حواء في أول ولد ولدته حين أثقلت أتاها إبليس قبل أن تلد فقال يا حواء ما هذا الذى فى بطنك فقالت ما أدرى فقال من أين يخرج من أنفك أو من عينك أو من أذنك قالت لا أدرى قال أرأيت أن خرج سليما أتطيعينى أنت فيما أمرك به قالت نعم قال سميه عبدالحرث وقد كان يسمى إبليس الحرث فقالت نعم ثم قالت بعد ذلك لأدم أتانى أت فى النوم فقال لى كذا وكذا فقال أن ذلك الشيطان فاحذريه فإنه عدونا الذى أخرجنا من الجنة ثم أتاها إبليس فأعاد عليها فقالت نعم فلما وضعته أخرجته الله سليما فسمته عبدالحرث فهو قوله ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١).

وعن عكرمة قال ما أشرك آدم ولا حواء وكان لا يعيش لهما ولد فأتاها الشيطان فقال إن سركما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبدالحرث فهو قوله ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ (٢).

وعن قتادة ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا﴾ قال: كان آدم عليه السلام لا يولد له ولد إلا مات فجاءه الشيطان فقال: إن شرك أن يعيش ولدك هذا فسمه عبدالحارث ففعل قال فأشركا فى الاسم ولم يشركا فى العبادة (٣).

وعن قتادة ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ ذكر لنا أنه كان لا يعيش لهما ولد فأتاها الشيطان فقال لهما سمياه عبدالحارث وكان من وحى الشيطان وأمره وكان شركا فى طاعته ولم يكن شركا فى عبادته (٤).

عن مجاهد ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قال كان لا يعيش لأدم وامرأته ولد فقال لهما الشيطان إذا ولد لكما ولد فسمياه عبدالحارث ففعلوا وأطاعاه فذلك قول الله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ الآية (٥).

وعن سعيد بن جبیر قال قيل له أشرك آدم قال أعوذ بالله أن أزعم أن آدم أشرك ولكن حواء لما أثقلت أتاها إبليس فقال لها من أين يخرج هذا من أنفك أو من عينك أو من فيك فقطعها ثم قال أرأيت أن خرج سويا لم يضرك ولم يقتلك أتطيعينى قالت نعم قال فسميه عبدالحرث ففعلت فإنما كان شركة فى الاسم (٦).

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩/ ١٠٠، ١٠١).

(٤) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء وكان لا يعيش لها ولد آتاها الشيطان، فقال: سمياه عبدالحارث يعيش لكما، فسمياه عبدالحارث فكان ذلك من وحى الشيطان وأمره^(١).

عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء آتاها الشيطان، فقال: أنطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سميه عبدالحارث فلم تفعل، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك: فلم تفعل، ثم حملت الثالث فجاءها فقال لها: أن تطيعيني سلم لك، وإلا فإنه يكون بهيمة، فهي بها، فأطاعته^(٢).

وعن السدي قال فولدت غلاما يعنى حواء فأتاهما إبليس فقال سموه عبدى وإلا قتلته قال له آدم عليه السلام قد أطعتك وأخرجتني من الجنة فأبى أن يطيعه فسماه عبد الرحمن فسلط الله عليه إبليس فقتله فحملت بآخر فلما ولدته قال لها سميه عبدى وإلا قتلته قال له آدم قد أطعتك فأخرجتني من الجنة فأبى فسماه صالحا فقتله فلما أن كان الثالث قال لهما فياذ غلبتم فسموه عبدالحارث وكان اسم إبليس وإنما سمى إبليس حين أبلس فلما فذلك حين يقول الله ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ يعنى فى التسمية^(٣).

وروى عن الحسن ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قال كان هذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم^(٤).

وقال الحسن عنى بهذا ذرية آدم من أشرك منهم بعده يعنى بقوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾^(٥).

وعن قتادة قال كان الحسن يقول هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاد فهودوا ونصروا^(٦).

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٧٧/٣) ونسبه لعبد بن حميد، وأبى الشيخ.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضوع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ. وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريجنا.

(٣) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٠٠/٩، ١٠١).

(٤) المصدر السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٢٧٨/٣) وزاد نسبه لأبى الشيخ.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضوع السابق وانظر «الدر» (٢٧٩/٣).

(٦) أخرجه ابن جرير فى الموضوع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٢٧٩/٣) وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم.

● أقوال أهل التفسير:

قال الطبري^(١): اختلف أهل التأويل في الشركاء التي جعلها فيما أوتيا من المولود فقال بعضهم جعلاً له شركاء في الاسم ثم قال وقال آخرون بل المعنى بذلك رجل وامرأة من أهل الكفر من بنى آدم جعلاً لله شركاء من الآلهة والأوثان حين رزقهما ما رزقهما من الولد وقالوا معنى الكلام هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاهما أى هذا الرجل الكافر حملت حملاً خفيفاً فلما أثقلت دعوا الله ربهما قالوا وهذا عما ابتدئ به الكلام على وجه الخطاب ثم رد إلى الخبر عن الغائب كما قيل هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وقد بينا نظائر ذلك بشواهد فيما مضى قبل.

ثم قال أولى القولين بالصواب قول من قال عني بقوله فلما آتاها صالِحاً جعلاً له شركاء في الاسم لا في العبادة وأن المعنى بذلك آدم وحواء لاجتماع الحجة من أهل التأويل على ذلك.

فإن قال قائل فما أنت قائل إذ كان الأمر على ما وصفت في تأويل هذه الآية وأن المعنى بها آدم وحواء في قوله فتعالى الله عما يشركون أهو استنكاف من الله أن يكون له في الأسماء شريك أو في العبادة فإن قلت في الأسماء دل على فساده قوله أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون وإن قلت في العبادة قيل لك أفكان آدم أشرك في عبادة الله غيره.

قيل له أن القول في تأويل قوله فتعالى الله عما يشركون ليس بالذي ظننت وإنما القول فيه فتعالى الله عما يشرك به مشركو العرب ومن عبدة الأوثان فأما الخبر عن آدم وحواء فقد انقضى عند قوله جعلاً له شركاء فيما آتاها ثم استؤنف قوله فتعالى الله.

ثم أسند عن السدي قوله فتعالى الله عما يشركون يقول هذه فصل من آية آدم خاصة في آلهة العرب.

وفي نزول وحى الله بقوله جعلاً له ما يوضح عن أن الصحيح من القراءة شركاء بضم الشين على ما بينت قبل.

فإن قال قائل فإن آدم وحواء إنما سميا أبنيهما عبدالحارث والحارث واحد وقوله شركاء جماعة فكيف وصفهما جل ثناؤه بأنهما جعلاً له شركاء وإنما أشركا واحداً.

(١) الطبري ١٠١/٩/٦.

قيل قد دللنا فيما مضى على أن العرب تخرج الخبر عن الواحد مخرج الخبر عن الجماعة إذا لم تقصد واحدا بعينه ولم تسمه كقوله الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم وإنما كان القائل ذلك واحدا فأخرج الخبر مخرج الخبر عن الجماعة إذا لم يقصد قصده وذلك مستفيض في كلام العرب وأشعارها أهـ.

قلت: ولقد آيد ذلك بغوى.

فقال (١): قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قرأ أهل المدينة وأبو بكر شركا بكسر الشين والتنوين. أى شركة.

قال أبو عبيدة: أى حظاً ونصيباً.

وقرأ الآخرون: شركاء بضم الشين معدوداً على جمع شريك، يعنى إيليس؛ أخبر عن الواحد بلفظ الجمع، أى جعلاً له شريكاً إذ سمياه عبدالحارث، ولم يكن هذا إشراكاً فى العبادة. ولا أن الحارث ربهما، فإن آدم كان نبياً معصوماً من الشرك، ولكن قصد إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه، وقد يطلق اسم العبد على من لا يرد به أنه معبود هذا، كالرجل إذا نزل به ضيف يسمى نفسه عبدالضيف على وجه الخضوع لا على وجه أن الضيف ربه، ويقول للغير: أنا عبدك، وقال يوسف لعزيز مصر (إنه ربي) ولم يرد به أنه معبوده، كذلك هذا أهـ.

ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبدمنة وعبد شمس وما أشبه ذلك مكان عبدالله وعبدالرحمن وعبدالرحيم ووجه آخر وهو أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا فى عهد رسول الله - ﷺ - وهم آل قصى ألا ترى إلى قوله فى قصة أم معبد:

فيا لقصى ما زوى الله عنكم به من فخار لا يبارى وسودد

ويراد هو الذى خلقكم من نفس قصى وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوى جعلاً له شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبدالعزى وعبد قصى وعبدالدار وجعل الضمير فى يشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما فى الشرك وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه. وقرىء شركاً أى ذوى شرك وهم الشركاء أو أحلنا لله شركا فى الولد أهـ.

قال ابن الجوزى (٢): شرح السبب فى دعائها.

(٢) زاد المسير ٣/ ٢٣٠ و ٢٣٢.

(١) معالم التنزيل ٢/ ٥٨٢.

ذكر أهل التفسير أن إبليس جاء حواء، فقال: ما يدريك ما فى بطنك، لعله كلب أو خنزير أو حمار، وما يدريك من أين يخرج، أيشق بطنك، أو يخرج من فيك، أو من فخذيك، فأحزنها ذلك، فدعوا الله حينئذ، فجاء إبليس فقال: كيف تجدنيك؟ قالت: ما أستطيع القيام إذا قعدت، فقال: أفرأيت إن دعوتُ الله، فجعله إنساناً مثلك ومثل آدم؛ أنسمينه بإسمى؟ قالت: نعم. فلما ولدته سوياً، جاءها إبليس فقال: لم لا تُسمينه بى كما وعدتني؟ فقالت: وما اسمك؟

قال الحارث، وكان اسم إبليس فى الملائكة الحارث، فسمته: عبدالحارث، وقيل: عبدشمس برضى آدم.

وقال مجاهد: كان لا يعيش لآدم ولد؛ فقال الشيطان: إذا وُلِدَ لكما ولد فسمياه عبدالحارث فأطاعاه فى الاسم. فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾. هذا قول الجمهور. وفيه قول كان. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال «ما أشرك آدم» إن أول الآية لشكر: وأخرها مثل ضربه الله لمن بعده^(١) فى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ وروى عن قتادة عن الحسن. فقال: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهودوهم ونصروهم^(٢). وروى عن الحسن. وقاتدة قالوا: الضمير فى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ عائد إلى النفس وزوجه من ولد آدم. لا إلى آدم وحواء. وقيل: الضمير راجع إلى الولد الصالح. وهو السليم الخلق، فالمعنى: جعل له ذلك الولدُ شركاء.

وإنما قيل: ﴿جَعَلَا﴾ لأن حواء كانت تلد فى كل بطن ذكراً وأنثى. قال ابن الأنبارى: الذين جعلوا له شركاء اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار الذين هم أولاد آدم وحواء.

فتأويل الآية: فلما آتاهما صالحاً، جعل أولادهما له شركاء فحذف الأولاد وأقامها مقامهم كما قال ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾^(٣) وذهب السدى إلى أن قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فى مشركى العرب خاصة وأنها مفصولة عن قصة آدم وحواء. أهـ.

قال الرازى^(٤): - المروى عن ابن عباس ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهى

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٧٩/٣) ونسبه لابن المنذر، وابن أبى حاتم.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) يوسف: ٨٢.

(٤) التفسير الكبير ٨/ ١٥ / ٩٠.

نفس آدم ﴿وجعل منها زوجها﴾ أى حواء خلقها الله من ضلع آدم عليه السلام من غير أذى ﴿فلما تغشاها﴾ آدم ﴿حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلماً أثقلت﴾ أى ثقل الولد فى بطنها أتاها إبليس فى صورة رجل وقال: ما هذا يا حواء أنى اخاف أن يكون كلباً أو بهيمة أو ما يدريك من أين يخرج؟ أمن دبرك فيقتلك أو ينشق بطنك؟ فخافت حواء، وذكرت ذلك لآدم عليه السلام، فلم يزالا فى هم من ذلك، ثم أتاها وقال: إن سألت الله أن يجعله صالحاً سوياً مثلك ويسهل خروجه من بطنك تسميه عبدالحارث، وكان اسم إبليس فى الملائكة الحارث فذلك قوله ﴿فلما أتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ أى لما أتاهما الله ولدأ سوياً صالحاً جعلا له شريكاً أى جعل لآدم وحواء له شريكاً، والمراد به الحارث هذا تمام القصة.

ثم قال:

واعلم ان هذا التأويل فاسد ويدل عليه وجوه.

الأول: أنه تعالى قال ﴿فتعالى الله عما يُشْرِكُونَ﴾ وذلك يدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة.

الثانى: أنه تعالى قال بعده ﴿أُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ وهذا يدل على أن المقصود من هذه الآية الرد على من جعل الأصنام شركاء لله تعالى، وما جرى لأبليس اللعين فى هذه الآية ذكر.

الثالث: لو كان المراد إبليس لقال: أيشركون من لا يخلق شيئاً، ولم يقل مالا يخلق شيئاً، لأن العاقل إنما يذكر بصيغة «من» لا بصيغة «ما».

الرابع: أن آدم عليه السلام كان أشد الناس معرفة بابليس، وكان عالماً بجميع الاسماء كما قال تعالى ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ فكان لابد وأن يكون قد علم أن اسم إبليس هو الحارث فمع العدواة الشديدة التى بينه وبين آدم ومع علمه بأن اسمه هو الحارث كيف سمى ولد نفسه بعبد الحارث؟ وكيف ضاقت عليه الاسماء حتى أنه لم يجد سوى هذا الاسم؟

الخامس: أن الواحد منا لو حصل له ولد يرجو منه الخير والصلاح، فجاءه إنسان ودعاه إلى أن يسميه يمثل هذه الاسماء لزعجه وأنكر عليه أشد الانكار فأدم عليه الملام مع نبوته وعلمه الكثير الذى حصل من قوله ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ وتجاربه الكثيرة

التي حصلت له بسبب الزلّة التي وقع فيها لأجل وسوسة ابليس، كيف لم يتنبه لهذا القدر وكيف لم يعرف أن ذلك من الأفعال المنكرة التي وجب على العاقل الاحتراز منها.

السادس: ان بتقدير آدم عليه السلام، سماه بعبد الحارث، فلا يخلو إما ان يقال انه جعل هذا اللفظ اسم علم له، أو جعله صفة له، بمعنى انه أخبر بهذا اللفظ أنه عبدالحارث ومخلوق من قبله. فان كان الأول لم يكن هذا شركا بالله لأن أسماء الأعلام والألقاب لا تنفي في المسميات فائدة، فلم يلزم من التسمية بهذا اللفظ حصول الاشراك، وإن كان الثاني كان هذا قولاً بأن آدم عليه السلام اعتقد ان لله شريكاً في الخلق والإيجاد والتكوين وذلك يوجب الجزم بتكفير آدم، وذلك لا يقوله عاقل. فثبت بهذه الوجوه ان هذا القول فاسد ويجب على العاقل المسلم أن لا يلتفت اليه.

إذا عرفت هذا فنقول: في تأويل الآية وجوه صحيحة سليمة خالية عن هذه المفاصد.

التأويل الأول: ما ذكره القفال فقال: إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل وبيان ان هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم. وقولهم بالشرك وتقرير هذا الكلام كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية، فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل، دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولداً صالحاً سوياً لنتكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك. فلما آتاها الله ولداً صالحاً سوياً جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاها، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبايع كما هو قول الطبايعين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الاصنام والاولئان كما هو قول عبدة الاصنام.

ثم قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى تنزه الله عن ذلك الشرك، وهذا جواب في غاية الصحة والساد.

التأويل الثاني: بأن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ وهم آل قصي.

والمراد من قوله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ﴾ قصي ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ جنسها ﴿زَوْجَهَا﴾ عربية قريشية ليسكن اليها، فلما آتاها ما طلبا من الولد الصالح سوى جعلاً له شركاء فيما آتاها حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد اللات، وجعل الضمير في (يشركون) لهما ولاعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك

التأويل الثالث: أن نسلم أن هذه الآية وردت في شرح قصة آدم عليه السلام وعلى هذا التقدير ففى دفع هذا الاشكال وجوه.

الأول: أن المشركين كانوا يقولون إن آدم عليه السلام كان يعبد الأصنام، ويرجع فى طلب الخير ودفع الشراليها، فذكر تعالى قصة آدم وحواء عليهما السلام، وحكى عنهما أنهما قالا ﴿لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى ذكر أنه تعالى لو آتاهما ولدا سويا صالحا لاستغلو بشكر تلك النعمة، ثم قال ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ فقلوه ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ ورد بمعنى الاستفهام على سبيل الانكار والتبديد.

والتقرير: فلما آتاهما صالحا جعللا له شركاء فيما أهما؟ ثم قال ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون بالشرك وينسبونه إلى آدم عليه السلام، ونظيره أن ينعم رجل على رجل بوجوه كثيرة من الأنعام، ثم يقال لذلك المنعم: ان ذلك المنعم عليه يقصد ذمك وإيصال الشراك، فيقول ذلك المنعم: فعلت فى حق فلان كذا وأحسنيت إليه بكذا وكذا، ثم إنه يقابلنى بالشر والإساءة والبغى؟ على التبديد فكذا ههنا.

الوجه الثانى: فى الجواب أن نقول: أن هذه القصة من أولها إلى آخرها فى حق آدم وحواء ولا أشكال فى شىء من ألفاظها إلا قوله ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ فيما آتاهما فنقول: التقدير: فلما آتاهما ولدا صالحا سويا جعللا له شركاء أى جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذا فيما آتاهما، أى فيما أتى أولادهما ونظيره قوله ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ أى وأسأل أهل القرية.

فان قيل: فعلى هذا التأويل ما الفائدة فى التثنية فى قوله ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ قلنا: لأن ولده قسمان ذكر وانثى فقلوه ﴿جَعَلَا﴾ المراد منه الذكر والانثى مرة عبر عنهما بلفظ التثنية لكونهما صنفين ونوعين، ومرة عبر عنهما بلفظ الجمع وهو قوله ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

الوجه الثالث: فى الجواب سلمنا أن الضمير فى قوله ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ فيما آتاهما عائداً إلى آدم وحواء عليهما السلام، إلا أنه قيل: إنه تعالى لما آتاهما الولد الصالح عزا على أن يجعلاه وقفا على خدمة الله وطاعته وعبوديته على الاطلاق. ثم بدا لهم فى ذلك، فتارة كانوا يتفغون به فى مصالح الدنيا ومنافعها، وتارة كانوا يأمرونه بخدمة الله

وطاعته، وهذا العمل وإن كان منا قرينة وطاعة، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين،
 فلهذا قال تعالى ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والمراد من هذه الآية ما نقل عنه عليه الصلاة
 والسلام أنه قال حاكياً عن الله سبحانه «أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، من عمل عملاً
 وأشرك فيه غيري تركته وشركه»^(١) وعلى هذا التقدير: فالإشكال زائل.

الوجه الرابع: فى التأويل أن نقول: سلمنا صحة تلك القصة المذكورة، إلا أنا نقول:
 إنهم سموا بعبد الحارث لأجل أنهم اعتقدوا أنه إنما سلم من الآفة والمرض بسبب دعاء
 ذلك الشخص السمي بالحارث. وقد يسمى المنعم عليه عبداً للمنعم، يقال فى المثل: أنا
 عبد من تعلمت منه حرفاً، ورأيت بعض الأفاضل كتب على عنوان: كتابة عبد وده
 فلان. قال الشاعر:

وإني لعبد الضيف مادام ثاوياً ولا شيمة لى بعدها تشبه العبد

فأدّم وحواء عليهما السلام سمياً ذلك الولد بعبد الحارث تنبيهاً على أنه إنما سلم من
 الآفات ببركة دعائه، وهذا لا يقدح فى كونه عبداً لله من جهة أنه مملوكه ومخلوقه، إلا أنا
 قد ذكرنا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فلما حصل الاشتراك فى لفظ العبد لا جرم
 صار آدم عليه السلام معاتباً فى هذا العمل بسبب الاشتراك الحاصل فى مجرد لفظ العبد،
 فهذا جملة ما نقوله فى تأويل هذه الآية. أ.هـ.

قال القرطبي^(٢): قال المفسرون: كان شركاً فى التسمية والصفة، لا فى العبودية
 والربوبية. وقال أهل المعانى: إنهما لم يذهبا إلى أن الحارث ربهما بتسميتهما ولدهما
 عبدالحارث، لكنهما قصدا إلى أن الحارث كان سبب نجات الولد فسمياه به كما يسمى
 الرجل نفسه عبد طيفه على وجه الخضوع له، لا على أن الضيف ربُّه؛ كما قال حاتم:

وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً وما فى إلّا تيك من سيمه العبد

وقال قوم: إن هذا راجع إلى جنس الآدميين والتبيين عن حال المشركين من ذرية آدم
 عليه السلام، وهو الذى يُعوّل عليه. فقوله ﴿جَعَلَا لَهُ﴾ يعنى الذكر والأنثى الكافرين،
 ويعنى به الجنسين. ودلّ على هذا ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولم يقل يُشركان هذا قول

(١) تقدم مراراً.

(٢) فى قوله ﷺ: «الشهداء سبعة سوى القتل فى سبيل الله المطعون شهيد والفرق شهيد وصاحب ذات
 الجنب شهيد والمبطلون شهيد والحرق شهيد والذى يموت تحت الهدم شهيد والمرأة تموت يُجمع شهيد» أى
 تموت وفى بطنها ولد.

حسن وقيل: المعنى «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» من هيئة واحدة وشكل واحد «وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا» أى من جنسها «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا» يعنى الجنسين. وعلى هذا القول لا يكون لأدم وحواء ذكر فى الآية؛ فإذا آتاهاما الولد صالحا سليما سوياً كما أراده صرفاه عن الفطرة إلى الشرك، فهذا فعل المشركين. قال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة- فى رواية الملة- أبواه يهودانه ويُنصرّانه ويُمجّسانه»^(١). قال عكرمة لم يخص بها آدم، ولكن جعلها عامة لجميع الخلق بعد آدم.

وقال الحسين بن الفضل هذا أعجب إلى أهل النظر؛ لما فى القول الأول من المضاف من العظائم ببنى الله آدم وقرأ أهل المدينة وعاصم «شركاً» على التوحيد. وأبو عمرو وسائر أهل الكوفة بالجمع على مثل فعلا جميع شريك.

وأكثر الأخفش سعيد القراءة الأولى، وهى صحيحة على حذف المضاف أى جعلاً له وأشرك؛ مثل «وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ» فيرجع المعنى على أنهم جعلوا له شركه.

ودلت الآية على أن الحمل مرض من الأمراض روى ابن القاسم ويحيى عن مالك قال: أول الحمل بشر وسرور، وآخره مرض من الأمراض وهذا الذى قاله مالك «إنه مرض من الأمراض» يعطيه ظاهر قوله «دَعُوا اللَّهَ رِبَّهُمَا» هذه الحالة مشاهدة فى الحُمَال، ولأجل عظم الأمر وشدة الخطب جعل موتها شهادة. كما ورد فى الحديث. وإذا ثبت هذا من ظاهر الآية فحال الحامل حال المريض فى أفعاله. ولا خلاف بين علماء الأمصار أن فعل المريض فيما يَهَب ويُحَابى فى ثلثه.

وقال أبو حنيفة والشافعى^(٢): إنما يكون ذلك فى الحامل بحال الطَّلَق، فأما قبل ذلك فلا. واحتجوا بأن الحمل عادة والغالب فيه السلامة.

قلنا: كذلك أكثر الأمراض غالبه السلامة، وقد يموت من لم يمرض أ.هـ.

قال ابن كثير^(٣): «فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ» يذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث سمرة عن النبى ﷺ قال «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبدالحارث فانه يعيش فسمته عبدالحارث فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره»^(٤).

(٢) القرطبى ٢٧٧٦/٤، ٢٧٧٧.

(٤) تقدم تخريجه.

(١) تقدم تخريجه.

(٣) ابن كثير ٢٦٤ - ٢٦٦.

هكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار بئندار عن عبدالصمد بن عبدالوارث به ورواه الترمذى فى تفسيره هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبدالصمد به . وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبدالصمد به . وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبدالصمد ولم يرفعه، ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث عبدالصمد مرفوعاً، ثم قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيره عن أبى زرعة الرازى عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعاً، وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من حديث شاذ بن فياض عن عمر بن إبراهيم مرفوعاً: قلت وشاذ هو هلال وشاذ لقبه .

والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه .

(أحدها) أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصرى وقد وثقه ابن معين ولكن قال أبو حاتم الرازى لا يحتج به، ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً فالله أعلم .

(الثانى) أنه قد روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً كما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبدالأعلى حدثنا المعتمر عن أبيه حدثنا بكر بن عبدالله بن سليمان التيمى عن أبى العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال: سمى آدم ابنه عبدالحارث .

(الثالث) أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه .

قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قال كان هذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم^(١) .

وحدثنا محمد بن عبدالأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال: قال الحسن عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعد يعنى ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾^(٢) وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا^(٣) .

(٢) تقدم تخريجه .

(١) تقدم تخريجه .

(٣) تقدم تخريجه .

وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضى الله عنه أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره ولا سيما مع تقواه لله وورعه فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتى بيانه إن شاء الله إلا أننا برثنا من عهدة المرفوع والله أعلم.

فأما الآثار فقال محمد بن إسحق بن يسار عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدهم الله ويسميهم عبدالله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيهم الموت، فأتاهما إبليس فقال إنكما لو سميتماه بغير الذى تسميانه به لعاش، قال فولدت له رجلاً فسماه عبدالحارث ففيه أنزل الله يقول ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحاً لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ إلى آخر الآية (١).

وقال العوفي عن ابن عباس قوله فى آدم ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ﴾ شكت حملت أم لا؟ ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحاً لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فأتاهما الشيطان فقال هل تدریان ما يولد لكما؟ أم هل تدریان ما يكون أبهيمه أم لا؟ وزين لهما الباطل إنه غوى مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان إنكما إن لم تسمياه بى لم يخرج سويا ومات كما مات الأول فسميا ولدهما عبدالحارث فذلك قول الله تعالى ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ الآية (٢).

وقال عبدالله بن المبارك عن شرك عن خصيف عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس فى قوله ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قال: قال الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ آدم ﴿حَمَلَتْ﴾ آتاهما إبليس لعنه الله فقال إني صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة لتطيعانى أو

لأجعلن له قرني أيل (*) فيخرج من بطنك فيشقّه، ولا فعلن ولا فعلن يخوفهما فسمياه عبدالحارث فأيا أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم حملت يعنى الثانى فأتاهما أيضاً فقال أنا صاحبكما الذى فعلت ما فعلت لتفعلن أو لأفعلن- يخوفهما- فأيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً فذكر لهما فأدركها حب الولد فسمياه عبدالحارث فذلك قوله تعالى ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ رواه ابن أبى حاتم^(١).

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبيرة وعكرمة، ومن الطبقة الثانية قتادة والسدى وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة وكأنه والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب فإن ابن عباس رواه عن أبى بن كعب كما رواه ابن أبى حاتم، حدثنا أبى حدثنا أبو الجماهر حدثنا سعيد يعنى ابن بشير عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال: لما حملت حواء أتاه الشيطان فقال لها أتطيعينى ويسلم لك ولدك: سميه عبدالحارث، فلم تفعل فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال إن تطيعينى يسلم وإلا فإنه يكون بهيمة فهييهما فاطاعا^(٢).

وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»^(٣) ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام.

فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله.

ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً.

ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون فى روايته بقوله عليه السلام «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج»^(٤) وهو الذى لا يصدق ولا يكذب لقوله «فلا تصدقوهم ولا

(*) أثبتنا أنها أيل بالياء وليست إيل بالياء لأن الإيل ليس لها قرون أما القرون فهى للأبائل ولهذا لزم التنويه والله أعلم بالصواب.

(١) سيأتى تخريجه. (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٣٦/٤)، وأبو داود (٣٦٤٤) عن أبى غنم الأنصارى به.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٤٦١) وانظر «النكت المتمة لمقدمة ابن تيمية» (٩٣ - للمؤلف).

تكذبوهم»، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى رحمه الله فى هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ثم قال فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ الآية، ومعلوم أن المصابيح وهى النجوم التى زينت بها السماء ليست هى التى يرمى بها وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ولهذا نظائر فى القرآن والله أعلم. أهـ.

قال السعدى^(١) ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أى: جعل الله شركاء فى ذلك الولد، الذى انفرد الله بإيجاده، والنعمة به، وأقرَّ به أعين والديه، فعبَّاه لغير الله إما أن يسمياه بعبد غير الله كـ «عبدالحارث» و «عبدالعزى» و «عبدالكعبة» ونحو ذلك.

أو يشركا فى الله فى العبادة، بعد ما منَّ الله عليهما بما منَّ به، من النعم التى لا يحصيها أحد من العباد.

وهذا انتقال من النوع إلى الجنس، فإن أول الكلام، فى آدم وحواء. ثم انتقل الكلام فى الجنس.

ولا شك أن هذا موجود فى الذرية كثيراً، فلذلك قرره الله على بطلان الشرك، وأنهم فى ذلك، ظالمون، أشد الظلم، سواء كان الشرك فى الأقوال، أم فى الأفعال فإن الله، هو الخالق لهم، من نفس واحدة، الذى خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة، ما يسكن بعضهم إلى بعض، ويألفه، ويلتذ به.

ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللذة، والأولاد، والنسل.

ثم أوجد الذرية فى بطون الأمهات، وقتاً موقوتاً، تشوف إليه نفوسهم ويدعون الله أن يخرجهم سوياً صحيحاً، فآتى الله عليهم النعمة وأتاهم مطلوبهم.

أفلا يستحق أن يعبدوه، ولا يشركوا فى عبادته أحداً، ويخلصوا له الدين. أهـ.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢/ ١٧٥، ١٧٦.

قال الشنقيطي^(١): فى هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير مصروفان عند العلماء، والقرآن يشهد لأحدهما.

الأول: أن حواء كانت لا يعيش لها ولد فحملت: فجاءها الشيطان، فقال لها سمي هذا الولد عبدالحارث فإنه يعيش، والحارث من أسماء الشيطان، فسمته عبدالحارث فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ أى ولدًا إنسانًا ذكرًا جعلاً له شركاء بتسميته عبدالحارث، وقد جاء بنحو هذا حديث مرفوع وهو معلول كما أوضحه ابن كثير فى تفسيره.

الوجه الثانى: أن معنى الآية أنه لما أتى آدم وحواء صالحاً أشرك ذريتهما بعد ذلك كثير منهم، وأسند فعل الذرية إلى آدم وحواء، لأنهما أصل لذريتهما كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أى بتصويرنا لأبيكم آدم لأنه أصلهم بدليل قوله بعده ﴿ثُمَّ قَلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ويدل لهذا الوجه الأخير أنه تعالى قال بعده: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى شركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون وهذا نص قرآنى فى صريح فى أن المراد المشركون من بنى آدم.

لا آدم وحواء- واختار هذا الوجه غير واحد لدلالة القرآن عليه، ومن ذهب إليه الحسن البصرى.

واختاره ابن كثير - والعلم عند الله تعالى. أ.هـ.

قال صاحب الظلال^(٢): إن بعض الروايات فى التفسير تذكر هذه القصة على أنها قصة حقيقية وقعت لآدم وحواء.. إذ كان أبناؤهما يولدون مشوهين. فجاء إليهما الشيطان فأغرى حواء أن تسمى ما فى بطنها «عبدالحارث».. والحارث اسم لإبليس. ليولد صحيحاً ويعيش؛ ففعلت وأغرت آدم معها! وظاهر ما فى هذه الرواية من طابع إسرائيلى ذلك أن التصور الإسرائيلى المسيحى كما حرفوا ديانتهم - هو الذى يلقى عبء الغواية على حواء، وهو مخالف تماماً للتصور الإسلامى الصحيح.

ولا حاجة بنا إلى هذه الإسرائيليات لتفسير هذا النص القرآنى.. فهو يصور مدارج الانحراف فى النفس البشرية.. ولقد كان المشركون على عهد رسول الله - ﷺ - وقبله، يندرونه بعض أبنائهم للآلهة، أو لخدمة معابد الآلهة! تقرباً وزلفى إلى الله! ومع

(١) أضواء البيان ٢/ ٢٥٤ و ٢٥٥.

(٢) «الظلال» (٣/ ١٤١٢) ..

توجههم فى أول الأمر لله، فإنهم بعد درجة من قمة التوحيد إلى درك الوثنية كانوا يندرون لهذه الآلهة أبناءهم لتعيش وتصح وتوقى المخاطر! كما يجعل الناس اليوم نصيباً فى أبدان أبنائهم للأولياء والقديسين. كأن يستبقوا شعر الغلام لا يحلق أول مرة إلا على ضريح ولى أو قديس. أو أن يستبقوه بلا ختان حتى يختن هناك. مع أن هؤلاء الناس اليوم يعترفون بالله الواحد. ثم يتبعون هذا الإعراف بهذه الإنجاهات المشتركة. والناس هم الناس!

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

وتزعه عن الشرك الذى يعتقدوهن ويزاولونه! على أننا نرى فى زماننا هذا صنوفاً وألواناً من الشرك، ممن يزعمون أنهم يوحدون الله ويسلمون له، ترسم لنا صورة من مدارج الشرك التى ترسمها هذه النصوص.

إن الناس يقيمون لهم اليوم آلهة يسمونها (القوم) ويسمونها (الوطن). ويسمونها (الشعب). إلى آخر ما يسمون. وهى لاتعدو أن تكون أصناماً غير مجسدة كالأصنام الساذجة التى كان يقيمها الوثنيون.

ولا تعدو أن تكون آلهة تشارك الله - سبحانه - فى خلقه، وينذر لها الأبناء كما كانوا يندرون للآلهة القديمة أو يضحون لها كالذبائح التى كانت تقدم فى المعابد على نطاق واسع!

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين^(١) قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾.

الذين يُرجّحون أن المراد بالصلاح صلاح البدن يقولون إنه قال: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾.

والجواب متعقب للشرط وهذا يدل على أن الشرك منهما حصل حين الإتيان وهو صغير، ومثل هذا لا يعرف أ يصلح فى دينه فى المستقبل أم لا يصلح؟ ولهذا كان أكثر المفسرين على أن المراد بالصلاح الصلاح البدنى.

فمعاهدة الإنسان ربه أن يفعل العبادة مقابل تفضل الله عليه بالنعمة الغالب أنه لا يفى بها؛ ففى سورة التوبة قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لئن آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ

(١) القول المفيد ٣/ ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٠.

وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ وفى هذه الآية قال تعالى: ﴿لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾؛ فكانا من المشركين لا من الشاكرين، وبهذا نعرف الحكمة من نهى النبى ﷺ عن النذر؛ لأن النذر معاهدة مع الله - عز وجل -، ولهذا نهى النبى ﷺ عن النذر وقال: «إنه لا يأتى بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل»^(١)، وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى تحريم النذر، وظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يميل إلى تحريم النذر؛ لأن رسول الله ﷺ نهى عنه ونفى أنه يأتى بخير.

إذا ما الذى نستفيد من أمر نهى عنه الرسول ﷺ وقال إنه لا يأتى بخير؟

الجواب: لا نستفيد إلا المشقة على أنفسنا وإلزام أنفسنا بما نحن منه فى عافية، ولهذا؛ فالقول بتحريم النذر قول قوى جداً، ولا يعرف مقدار وزن هذا القول إلا من عرف أسئلة الناس وكثرتها ورأى أنهم يذهبون إلى كل عالم لعلهم يجدون خلاصاً عما نذروا.

قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾.

هذا الولد الذى آتاهما الله - عز وجل - كان واحداً؛ فكيف جعلاً فى هذا الولد الواحد شركاً بل شركاء؟

نقول هذا على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يعتقدا أن الذى أتى بهذا الولد هو الولى الفلانى أو الصالح الفلانى؛ فهذا شرك أكبر لأنهما أضافا الخلق إلى غير الله.

ومن هذا أيضاً ما يوجد عند بعض الأمم الإسلامية الآن؛ فتجد المرأة التى لا يأتيتها الولد تأتى إلى قبر الولى الفلانى، كما يزعمون أنه ولى الله - والله أعلم بولايته -، فتقول: يا سيدى فلان! أعطنى الولد.

الوجه الثانى: أن يضيف سلامة المولود ووقايته إلى الأطباء وإرشاداتهم وإلى القوابل وما أشبه ذلك، فيقولون مثلاً: سَلِمَ هذا الولد من الطلق؛ لأن القابلة امرأة متقنة جيدة؛

(١) تقدم تخريجه.

فهنا أضاف النعمة إلى غير الله، وهذا نوع من الشرك ولا يصل إلى حد الشرك الأكبر؛ لأنه أضاف النعمة إلى السبب ونسى المسبب وهو الله - عز وجل.

الوجه الثالث: أن لا يشرك من ناحية الربوبية، بل يؤمن أن هذا الولد خرج سالماً بفضل الله ورحمته، ولكن يشرك من ناحية العبودية؛ فيقدم محبته على محبة الله ورسوله ويليه عن طاعة الله ورسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(١)؛ فكيف تجعل هذا الولد ندّاً لله في المحبة وربما قدمت محبته على محبة الله، والله هو المتفضل عليك به؟!!

قلت: وهناك وجه رابع أن يجعل شركاء فى تربيته فلا يربى الولد على منهج الله ورسوله ولكن على مناهج اليهود والنصارى والمجوس وفى هذا وغيره قال ﷺ «قل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو بنصرانه أو مجسانه»^(٢) الحديث اهـ.

ولهذا قال: ﴿قَلَمًا أَتَاهُمَا﴾؛ فقيه نقد لاذع أن يجعل فى هذا الولد شريكاً مع الله، مع أن الله هو المتفضل به، ثم قال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أى: ترفع وتقدس عما يشركون به من هذه الأصنام وغيرها.

فالآية صريحة وواضحة دالة على أن قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ أى: من جنس واحد، وليس فيها تعرّض لآدم وحواء بوجه من الوجوه، ويكون السياق فيها جارياً على الأسلوب العربى الفصيح الذى له نظير فى القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾^(٣)؛ أى: من جنسهم، وبهذا التفسير الواضح البين يسلّم الإنسان من إشكالات كثيرة.

أما على القول الثانى بأن المراد بقوله تعالى: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ أى: آدم، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾^(٤)؛ أى: حواء؛ فيكون معنى الآية خلقكم من آدم وحواء.

فلما جامع آدم حواء حملت حملاً خفيفاً، فمرّت به، فلما أثقلت دعوا - أى آدم

(١) التغاين: ١٥.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) آل عمران: ١٦٤.

(٤) الأعراف:

وحواء - الله ربهما: ﴿لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، فأشرك آدم وحواء بالله، لكن يقولون: إشراك طاعة لا إشراك عبادة، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهذا التفسير منطبق على المروى عن ابن عباس رضى الله عنهما، وسنين - إن شاء الله تعالى - وجه ضعفه وبطلانه. قلت: أى فى آخر الباب.

وهناك قول ثالث: أن المراد بقوله تعالى: ﴿مَنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ أى: آدم وحواء، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ انتقل من العين إلى النوع؛ أى: من آدم إلى النوع الذى هو جنس بنى آدم، أى: فلما تَغَشَّى الإنسان الذى تسلسل من آدم وحواء زوجته... إلى آخره، ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالجمع ولم يقل عما يشركان، ونظير ذلك فى القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾، أى: جعلنا الشهب الخارجة منها رجوماً للشياطين وليست المصابيح نفسها، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ أى جعلناه بالنوع فأول الآية فى آدم وحواء، ثم صار الكلام من العين إلى النوع.

وهذا التفسير له وجه. وفيه تنزيه آدم وحواء من الشرك، لكن فيه شيء من الركافة لتشتت الضمائر.

وأما قوله تعالى ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ فجمع لأن المراد بالمشنى اثنان من هذا الجنس، فصح أن يعود الضمير إليهما مجموعاً؛ كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ ولم يقل: اقتتلتا، لأن الطائفتين جماعة. أهـ.

قلت: خلاصة القول هو ما قاله ابن كثير من ضعف رواية ابن جندب مرفوعاً وفيها إغراء وإغواء إبليس بسمية آدم وحواء ولدهما عبدالحارث، أما الموقوف، فعلى فرض صحته عن ابن عباس فهو مما أخذه عن أهل الكتاب وقد نهينا أن نأخذ عنهم إلا ما وافق الحق الذى معنا ولولا أنى شرطت أن أفسر الآية بما جاء فيها من آثار ولو لا أن المصنف نفسه أوردها كما سيأتى ما سودت كتابى بذكر هذه الآثار لأن تسويد الورق من تسويد الصحف والقلوب، نسأل الله أن يبيض وجوهنا يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

قال ابن حزم: «اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعْبَدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍ، وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدَ الْمُطَّلَبِ».

قلت: وقول ابن حزم هذا فى كتابه «مراتب الإجماع» ونقله عنه ابن القيم فى كتابه «تحفة المودود»^(١).

قوله : «قال ابن حزم».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري المشهور صاحب كتاب (الإجماع) (الإيصال) و(المحلى) وغيرهما من المصنفات أهر.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣): هو عالم الأندلس صاحب التصانيف. أهر. قوله «اتَّفَقُوا».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): الظاهر أن المراد أجمعوا، فمقصوده حكاية الإجماع لاحكاية الاتفاق على طريقة المتأخرين.

قال ابن عثيمين^(٥): أى أجمعوا والإجماع أحد الأدلة الشرعية التى تثبت بها الأحكام، والأدلة هى الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس.

قوله: «اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعْبَدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ، كَعَبْدِ عَمْرٍ، وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ».

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٦): حكى - رحمه الله - اتفاق العلماء على تحريم كل ماعبد لغير الله؛ لأنه شرك فى الربوبية والإلهية؛ لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له. استعبدتهم لعبادته وحده، وتوحيده فى ربوبيته وإلهيته، فمنهم من عبد الله ووحده فى ربوبيته وإلهيته، ومنهم من أشرك به فى إلهيته وأقر له بربوبيته وأسمائه وصفاته، وأحكامه القدريّة جارية عليهم ولا بد كما قال تعالى ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ فهذه هى العبودية العامة. وأما العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة، كما قال تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ونحوها. أهر.

قوله : «وما أشبه ذلك»

(١) تحفة المودود (ص ٨).

(٢) فتح المجدد ٦١٦.

(٣) القول المفيد ٨٠ / ٣.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٤٧٥.

(٥) تيسير العزيز الحميد ٤٧٥.

(٦) فتح المجدد ٦١٧.

قال ابن عثيمين^(١): مثل : عبد الحسين، وعبد الرسول، وعبد المسيح، وعبد على وأما قوله ﷺ «تعس عبدالدينار، وتعس عبدالدرهم...»^(٢). الحديث ؛ فهذا وصف وليس علماً، فشبّه التهمك بحجة هذه الأشياء المقدم لها على ما يرضى الله بالعباد لها، وبقولك عابد الدينار؛ فهو وصف، فلا يعارض الإجماع أهـ.
قوله «حاشا عبدالمطلب».

قال سليمان آل الشيخ^(٣): قوله : حاشا عبدالمطلب

قال ابن القيم : لا تلح التسمية بعبد على، وعبدالحسين، ولا عبدالكعبة.

وقد روى ابن أبي شيبة عن هانئ بن شريح قال: وفد على النبي ﷺ قوم فسمعهم يسمون رجلاً عبدالحجر فقال له: «ما اسمك» قال : عبد الحجر . فقال له رسول الله ﷺ : «إنما أنت عبد الله»^(٤).

ف قيل : كيف يتفقون على تحريم الاسم المعبد لغير الله؟

وقد صح عنه ﷺ «تعس عبدالدينار» الحديث^(٥).

وصح عنه أنه قال : «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب»^(٦).

فالجواب: أما قوله «تعس عبدالدينار» فلم يرد الاسم، وإنما أراد به الوصف والدعاء على من يعبد قلبه للدينار والدرهم؛ فرضى بعبوديتهما عن عبودية الله تبارك وتعالى.

وأما قوله : «أنا ابن عبدالمطلب» فهذا ليس من باب إنشاء التسمية بذلك، وإنما هو من باب الإخبار بالاسم الذي عرف به المسمى دون غيره. والإخبار بمثل ذلك على وجه تعريف المسمى لا يحرم . ولا وجه لتخصيص أبي محمد ابن حزم ذلك بعبد المطلب خاصة، فقد كان أصحابه يسمون بعبد شمس، وبنى عبدالدر بأسمائهم، ولا ينكر عليهم النبي ﷺ ذلك. فباب الأخبار أوسع من الإنشاء فيجوز فيه ما لا يجوز في الإنشاء. انتهى ملخصاً، وهو حسن، ولكن بقي إشكال وهو أن في الصحابة من اسمه المطلب بن ربيعة ابن الحارث بن عبدالمطلب.

(١) القول المفيد ٣/ ٨١

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تيسير العزيز ٤٧٥

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٩/ ١٥٩/ ٦).

(٥) تقدم

(٦) تقدم تخريجه.

فالجواب: أما من اسمه عبد شمس فغيره النبي ﷺ إلى عبد الله كما ذكروا ذلك في تراجمهم، وأما المطلب بن ربيعة فذكر ابن عبد البر أن اسمه عبدالمطلب وقال : كان على عهد رسول الله ﷺ يغير اسمه فيما علمت .

وقال ابن حجر: وفيما قاله نظر، فإن الزبير أعلم من غيره بنسب قریش، ولم يذكر أن اسمه إلا المطلب، وقد ذكر العسکری أن أهل النسب إنما يسمونه المطلب .

وأما أهل الحديث فمنهم من يقول : المطلب، ومنهم من يقول : عبدالمطلب . و أما عبد يزيد أبو ركانة فذكره الذهبي في «التجريد» وقال أبو ركانة: طلق امرأته وهذا لا يصح . والمعروف أن صاحب القصة ركانة .

وروى حديثه أبو داود، في «السنن» عن ابن عباس قال: طلق عبد يزيد أبو ركانة وإخوته أم ركانة وذكر الحديث (١)، ثم قال : وحديث نافع بن عجير، وعبدالله بن علي بن يزيد بن ركانة عن أبيه عن جده أن ركانة طلق امرأته البتة، فجعلها النبي ﷺ، واحدة أصح؛ لأنهم ولد الرجل وأهله، وهم أعلم به . فقد تبين أنه ليس في الصحابة من أولاء، من تصح له صحبته . فعلى هذا لا تجوز التسمية بعبد المطلب ولا غيره، مما عبد لغير الله، وكيف تجوز التسمية وقد أجمع العلماء على تحريم التسمية بـ: عبد النبي . وعبدالرسول، وعبدالمسيح، وعبد علي، وعبد الحسين، وعبد الكعبة؟ وكل هذه أولى بالجواز من عبدالمطلب لجواز التسمية به . وأيضاً فقد نص النبي ﷺ على أن التسمية بعبد الحارث من وحى الشيطان، وأمره بعبد المطلب كعبد الحارث، لافرق بينهما . إلا أن أصدق الأسماء الحارث وهمام، فلعله أولى بالجواز . لا يقال : إن الحارث اسم للشيطان؛ لأنه وإن كان اسماً له فلا فرق في ذلك بين جميع من اسمه الحارث . فلا يجوز التسمية به وإن نوى عبدالحارث بن هشام أو غيره .

فإن قلت : إذا كان ابن حزم قد حكى الإجماع على جواز التسمية بعبد المطلب فكيف يجوز خلافه؟

قلت - سليمان آل الشيخ: كلام ابن حزم ليس صريحاً في حكاية الإجماع على جواز ذلك بعبد المطلب؛ فإن لفظة اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله، كعبد العزى وعبد هبل، وعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك حاشاً عبدالمطلب . واتفقوا على إباحة كل اسم بعد ما ذكرنا ما لم يكن اسم نبي، واسم ملك إلى آخر كلامه . فيحتمل

(١) [مضطرب] أخرجه أبو داود (١١٧٧)، والترمذي (١١٧٧)، وابن ماجه (٢٠٥١).

وانظر «السلسلة» ٢١٦٧ بتخريجنا).

أن مراده حكاية الخلاف فيه، ويكون التقدير : اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله حاشا عبد المطلب، أى: فإنهم لم يتفقوا على تحريمه، بل اختلفوا، ويؤيده أنه قال بعده: واتفقوا على إباحة كل اسم بعدما ذكرنا إلى آخره. ويكون المراد حاشا عبد المطلب، فلا أحفظ ما قالوا فيه، ويكون سكوتا منه عن حكاية إجماعاً، أو خلاف فيه، وعلى تقدير أن مراده حكاية الإجماع من جواز ذلك، فليس كل من حكى إجماعاً يسلم له، ولا كل إجماع يكون حجة أيضاً، فكيف والخلاف موجود، والسنة فاصلة بين المتنازعين؟ وغاية حجة من أجازة قوله عليه السلام: «أنا ابن عبد المطلب» ونحوه، أو أن بعض الصحابة اسمه عبد المطلب. وقد تقدم الجواب عن ذلك، وأيضاً فلو كان قوله: «أنا ابن عبد المطلب». حجة على جواز التسمية به لكان قوله: إنما بنو هاشم، وبنو عبد مناف شيء واحد حجة على جواز التسمية بعد مناف، ولكن فرق بين إنشاء التسمية وبين الأخبار بذلك عن هو اسمه. أهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): قوله: «حاشا عبد المطلب».

هذا استثناء من العموم المستفاد من «كل» وذلك أن تسميته بهذا الاسم لا محذور فيها، لأن أصله من عبودية السرق، وذلك أن المطلب أخو هاشم قدم المدينة، وكان ابن أخيه «شيبه» هذا قد نشأ فى أخواله بنى النجار من الخزرج، لأن هاشماً تزوج فيهم امرأة، فجاءت منه بهذا الابن. فلما شب فى أخواله، وبلغ سن التمييز سافر به عمه عبد المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته، فقدم به مكة وهو رديفه، فرآه أهل مكة وقد تغير لونه بالسفر، فحسبوه عبداً للمطلب، فقالوا: هذا عبد المطلب، فعلق به هذا الاسم وركبه، فصار لا يذكر ولا يدعى إلا به، فلم يبق للأصل معنى مقصود.

وقد قال النبى ﷺ، «أنا ابن عبد المطلب»^(٢). وقد صار معظماً فى قريش والعرب، فهم سيد قريش وأشرفهم فى جاهليته، وهو الذى حفر زمزم وصارت له السقاية وفى ذريته من بعده. أهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله «حاشا عبد المطلب»

حاشا الاستثنائية إذا دخلت عليها (ما) وجب نصب ما بعدها، وإلا جاز فيه النصب والجر.

وبالنسبة لعبد المطلب مستثنى من الإجماع على تحريمه؛ فهو مختلف فيه، فقال بعض أهل العلم: لا يمكن أن نقول بالتحريم والرسول ﷺ قال:

(٢) تقدم تخريجه.

(١) فتح المجيد ٦١٧/٦١٨.

(٣) القول المفيد ٨١/٣، ٨٢.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ؛ قَالَ: «لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ؛ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجَكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، لَتُطِيعَانِي أَوْ لِأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنِي إِيْلَ، فَيَخْرُجَ مِنْ بَطْنِكَ، فَيَشْقَهُ، وَلَا فَعْلَنَ وَلَا فَعْلَنَ؛ يُخَوِّفُهُمَا، سَمِيَّاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَأَيَّاهُ أَنْ يُطِيعَاهُ فَخَرَجَ مَيِّتًا. ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الْوَلَدِ، فَسَمِيَّاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (١).

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» (٢).

فالنبي ﷺ لا يفعل حراماً ؛ فيجوز أن يعبد للمطلب إلا إذا وجد ناسخ، وهذا تقرير ابن حزم - رحمه الله -، ولكن الصواب تحريم التعبد للمطلب؛ فلا يجوز لأحد أن يسمي ابنه عبد المطلب، وأما قوله ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب»؛ فهو من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء، فالتسبيح ﷺ أخبر أن له جداً اسمه عبد المطلب، ولم يرد عنه ﷺ أنه سمي عبد المطلب، أو أنه أمر أحد صحابته بذلك، ولا أنه أقر أحداً على تسميته عبد المطلب، والكلام في الحكم لافي الإخبار، وفرق بين الأخبار وبين الإنشاء والإقرار، ولهذا قال النبي ﷺ: «إنما بنو هاشم وبنو عبد مناف شيء واحد» ولا يجوز التسمية بعبد مناف.

وقد قال العلماء: إن حاكي الكفر ليس بكافر؛ فالرسول ﷺ يتكلم عن شيء قد وقع وانتهى ومضى؛ فالصواب أنه لا يجوز أن يعبد لغير الله مطلقاً لا يعبد المطلب ولا غيره، وعليه؛ فيكون التعبد لغير الله من الشرك. أهـ.

قوله: [وعن ابن عباس في الآية؛ قال: لما تغشاهما آدم؛ حملت....].

[قلت]: تقدم أثر ابن عباس في تفسير الآية من عند ابن جرير وغيره باللفاظ متقاربة، ويروى بأكثر من إسناده.

قلت: أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» وسعيد بن منصور، وابن المنذر.

قال القرعاوي (٣): حيث دل الأثر على أن التعبد لغير الله في الأسماء شرك. أهـ.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٣٤/٨٦٥٤).

من طريق عبد الله بن المبارك، عن شريك، عن خفيف، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس فذكره.

وذكره السيوطي في «الدر» (٣/٢٧٧) ونسبه لسعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس.

وانظر فتح القدير «(ح ٥٤١٢ - بتخریجنا). و«فتح المجيد» (٨٠٦) بتخریجنا.

(٢) تقدم تخريجه. (٣) الجديد ٤٠٢.

قال ابن عثيمين^(١): قوله: [وعن ابن عباس في الآية قال: لما تغشاها. . . إلخ.

مناسبة الأثر للباب وللتوحيد:

قوله: «في الآية» أى: المترجم لها.

قوله: «تغشاها» أى: حواء، أى: وطئها عليهما السلام.

قوله: «فأتا هما أبلّيس»

على وزن إفعيل، فقليل: من أبلّس إذا يشس؛ لأنه يشس من رحمة الله.

قوله: «فقال: إني صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة لتطيعاني».

جملة قسمية؛ أى: والله لتطيعاني. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢):

قوله: «أو لأجعلن له» أى: لولد كما.

قوله: «قرنى أيل». هو بالثنية أو الإضافة، وأيل بفتح الهمزة وكسر المثناة التحتية المشددة ذكر الأوعال، والمعنى: انه يخوفهما بكونه يجعل للولد قرنى وعل؛ فيخر من بطنها فيشق كما قال: فيخرج من بطنك فيشق.

قوله «ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما» بغير ما ذكر، ويزعم أنه يفعل بهما غير ذلك.

قوله: «سمياه عبدالحارث» قال سعيد بن جبیر: كان اسمه فى الملائكة الحارث، وكان مراده أن سمياه بذلك، ليكون قد وجد له صورة الاشراك به، فإن هذا من باب كيد إبليس، إذا عجز عن الأدمى أن يوقعه فى المعصية الكبيرة، قنع منه بالصغيرة، وأيضاً فإنه يحصل له منهما طاعته كما أطاعاه أول مرة كما روى ابن جرير، وابن أبى حاتم عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «خدعها مرتين» قال: زيد خدعهما فى الجنة وخدعهما فى الأرض^(٤).

«فايا أن يطيعاه فخرج ميتاً».. إلخ

قال سليمان آل الشيخ^(٣): هذا والله أعلم من الامتحان فإن الإنسان لا عزم له، وإن عاين ماذا عساه أن يعاين من الآيات إلا بتوفيق الله تعالى. فإن الطبيعة البشرية تغلب عليه كما غلبت على الأبوين مرتين، مع ما وقع لهما قبل من التحذير والإنذار عن كيد

(١) القول المفيد ٣/ ٨٣.

(٢-٣) تيسير العزيز الحميد ٤٧٧، ٤٧٨.

ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٧٧/٣) ونسبه لابن أبى حاتم، فانظره بتخريجنا.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ.

إبليس وعداوته لهما، ومع ذلك أدركهما حب الولد فسمياه عبدالحارث، وكان ذلك شركاً في التسمية وإن لم يقصدا العبادة للشيطان، بل قصدا به فيما ظنا، إما دفع شره عن حواء وإما الخوف على الولد من الموت.

كما روى عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال: أتطيعيني ويسلم ولدك؟ سميه عبدالحارث فلم تفعل فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل. ثم حملت الثالثة فقال: أتطيعيني يسلم لك ولدك وإلا فإنه يكون بهيمة فهيها فأطاعاه. رواه ابن أبي حاتم^(١).

قلت - يعنى سليمان ال الشيخ - : وإسناده : صحيح . ورواه سعيد بن منصور وابن المنذر .

وعن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لأدم أولاداً فتعبدهم الله، وتسميه عبدالله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت، فأتاها إبليس وآدم فقال: إنكما لو تسميانه بغير ماتسميانه لعاش، فولدت له رجلاً فسمياه عبدالحارث ففيه انزل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآية. رواه ابن مردويه^(٢).



قوله: [وله بسند صحيح عن قتادة، قال: «شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته»]^(٣).

مناسبة الأثر للباب وللتوحيد

قال القرعاوى^(٤): حيث أفاد الأثر أن التعبد لغير الله في التسمية شرك.

قوله: «شركاء في طاعته»

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قوله: شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته أى: لكونهما أطاعاه في التسمية بعبد الحارث، لا أنهما عباده فهو دليل على الفرق بين شرك الطاعة وبين شرك العبادة.

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (٢٧٩/٣) وعزاه بعبد بن حميد عن ابن عباس رضى الله عنه .

أنظر «فتح القدير» (ح) ٥٤٢٣ «وفتح المجيد» (ح) ٨٠٧ - بتخريجتنا

(٤) الجديد ٤٠٢ .

(٥) تسير العزيز ٤٧٩ .

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لئن آتَيْنَا صَالِحًا﴾؛ قَالَ: أَشْفَقَا أَنْ لَا يَكُونُ إِنْسَانًا^(١).

وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الْحَسَنِ^(٢) وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا^(٣).

قال بعضهم : تفسير قتادة في هذه الآية بالطاعة ، لأن المراد بها على كلام كثير من المفسرين آدم وحواء عليهما السلام ، فناسب تفسيرها بالطاعة ؛ لأنهما أطاعا الشيطان في تسمية الولد بعبدالحارث . وقد استشكله بعض المعاصرين بما حاصله أنهم قد فسروا العبادة بالطاعة ، فيلزم على قول قتادة أن يكون الشرك في العبادة .

والجواب : أن تفسير العبادة بالطاعة من التفسير اللازم ؛ فإنه لازم العبادة أن يكون العابد مطيعاً لمن عبده بها ، فلذا فسرت بالطاعة . أو يقال : هو من التفسير بالملزوم وإرادة اللازم أى لما كانت الطاعة ملزوماً للعبادة لازمة لها ، فلا تحصل إلا بالطاعة ؛ جاز تفسيرها بذلك وهو أصح وبالجمله فلا إشكال في ذلك بحمد الله .

فإن قلت : قد سمي النبي ﷺ طاعة الأحرار والرهبان في معصية الله عبادة .

قلت : راجع الكلام على حديث عدى يتضح الجواب . اهـ .

قال ابن عثيمين^(٤) : أى : أطاعاه فيما أمرهما به ، لافى العبادة لكن عبدا الولد لغير الله ، وفرق بين الطاعة والعبادة ، فلو أن أحداً أطاع شخصاً فى معصية الله لم يجعله شريكاً مع الله فى العبادة ، لكن أطاعه فى معصية الله . اهـ .



قوله «أشفقا أن لا يكون إنساناً»

قال سليمان آل الشيخ^(٥) : قوله : «أشفقا» أى : خافا أى : آدم وحواء أن لا يكون إنساناً .

قال أبو صالح : أشفقا أن يكون بهيمة فقال : لئن آتينا بشراً سوياً . رواه ابن أبى

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٨٦٤٨) عن مجاهد به . .

وذكره السيوطى فى «الدر» (٢٧٨/٣) وانظر «فتح القدير» (ح ٥٤٢١) «وفتح المجيد» (٨٠٨) بتخريجنا .

(٢) أخرجه عبدالرزاق فى «تفسيره» (٩٨٣) وابن جرير (٩٨/٩) وابن أبى حاتم فى تفسيره .

وانظر فتح القدير» (ح ٥٤٢٢) «وفتح المجيد» (٨٠٩ ، ٨١٠) بتخريجنا .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٨٦٥١)

(٤) القول المفيد ٨٤/٣ .

(٥) تيسير العزيز ٤٧٩ .

حاتم. وفي هذا أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم ذكره المصنف، وذلك أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعلها غير سوية، وأن يجعلها من غير الجنس. فلا ينبغي للرجل أن يسخط مما وهبه الله له كما يفعل أهل الجاهلية، بل يحمد الله الذي جعلها بشرية سوية. ولهذا كانت عائشة رضى الله عنها إذا بشرت بمولود لم تسأل إلا عن صورته لا عن ذكوريته وأنوثيته. اهـ.

قلت: وتقدم معنا في تفسير الآية رواية هذا عن ذكره المصنف، وعن أبي البخترى أيضاً.

قال ابن عثيمين^(١): أى: خاف آدم وحواء أن يكون حيواناً أو جنياً أو غير ذلك.

قوله: «وذكر معناه عن الحسن»

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: وذكر أى: ذكر ابن أبي حاتم فإنه روى ذلك عن ذكر المصنف معناه عن الحسن: هو البصرى.

قوله: وسعيد أى ابن جبير وغيره كالسدى. وغيره.

قال ابن عثيمين^(٣): لكن الصحيح أن الحسن رحمه الله قال: إن المراد بالآية غير آدم وحواء، وإن المراد بها المشركون من بنى آدم كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله فى «تفسيره» وقال: «أمانحن؟ فعلى مذهب الحسن البصرى رحمه الله فى هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته» اهـ.

وهذه القصة باطلة من وجوه:

الوجه الأول: أنه ليس فى ذلك خبر صحيح عن النبى ﷺ، وهذا من الأخبار التى لاتلقى إلا بالوحى، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة: إنها رواية خرافة مكذوبة موضوعة.

الوجه الثانى: أنه لو كانت هذه القصة فى آدم وحواء؛ لكان حالهما إما أن يتوبا من الشرك أو يموتا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه؛ كان ذلك أعظم من قول بعض الزنادقة:

إذا ما ذكرنا آدمًا وفعاله وتزويجه بنتيه بابنيه بالحننا

علمنا بأن الخلق من نسل فاجر وأن جميع الناس من عنصر الزنا

فمن جوز موت أحد من الأنبياء على الشرك فقد أعظم الفرية، وإن كانا تابا من الشرك؛ فلا يلقى بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا، ولم يذكر توبتهما، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها كما فى قصة آدم نفسه حين أكل من الشجرة وزوجه وتابا من ذلك.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَحْرِيمُ كُلِّ اسْمٍ مُعْبَدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ.

الوجه الثالث: أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء.

الوجه الرابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة^(١) وهو معصية، لو وقع منه الشرك؛ لكان اعتذاره به أقوى وأولى وأحرى.

الوجه الخامس: أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليها وقال: «أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة»، وهذا لا يقول من يريد الإغواء، وإنما يأتي بشيء يقرب قبول قوله، فإذا قال: «أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة»، فسيعلمان علم اليقين أنه عدو لهما، فلا يقبلان منه صرفاً ولا عدلاً.

الوجه السادس: أن في قوله في هذه القصة: «لأجعل له قرني إيل»: إما أن يصدق أن ذلك ممكن في حقه؛ فهذا شرك في الربوبية لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله، أو لا يصدق فلا يمكن أن يقبل قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه.

الوجه السابع: قوله تعالى ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بضمير الجمع، ولو كان آدم وحواء؛ لقول: عما يشركان.

فهذه الوجوه تدل على أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شرك بأي حال من الأحوال، والأنبياء منزّهون عن الشرك مبرؤون منه باتفاق أهل العلم، وعلى هذا؛ فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها عائدة إلى بني آدم الذين أشركوا شركاً حقيقياً، فإن منهم مشركاً ومنهم موحداً أهـ.

قال ابن عثيمين^(٢):

فيه مسائل:

● الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله.

تؤخذ من الإجماع على ذلك، والإجماع الأصل الثالث من الأصول التي يعتمد عليها

(١) [صحيح] أخرجه البخاري (٣/ ٢٥٠) ومسلم (١/ ١٨٤)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) القول المفيد ٨٧/ ٣

الثانية: تفسیرُ الآية.

الثالثة : أَنَّ هَذَا الشِّرْكَ فِي مُجَرَّدِ تَسْمِيَةٍ لَمْ تُقْصَدَ حَقِيقَتُهَا .

فى الدين، والصحيح أنه ممكن وأنه حجة إذا حصل؛ لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (١)، و ﴿ إِنْ ﴾ هذه شرطية لاتدل على وقوع التنازع، بل إن فرض ووقع؛ فالمراد إلى الله ورسوله، فعلم منه أننا إذا أجمعنا فهو حجة .

لكن ادعاء الإجماع يحتاج إلى بيته، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية : الإجماع الذى ينضبط ماكان عليه السلف الصالح؛ إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة، ولما قيل للإمام أحمد: إن فلاناً يقول : أجمعوا على كذا؛ أنكر ذلك وقال : وما يدرىه لعلمهم اختلفوا، فمن ادعى الإجماع؛ فهو كاذب .

ولعل الإمام أحمد قال ذلك؛ لأن المعتزلة وأهل التعطيل كانوا يتذرعون إلى إثبات تعطيلهم وشبههم بالإجماع، فيقولون : هذا إجماع المحققين، وما أشبه ذلك .

وقد سبق أن الصحيح أنه لايجوز التعييد للمطلب، وأن قول الرسول ﷺ : «أنا ابن عبد المطلب» (٢) أنه من قبيل الإخبار وليس إقرارا ولا إنشاء، والإنسان له أن يتسب إلى أبيه وإن كان معبداً لغير الله، وقد قال النبى ﷺ : «يابنى عبد مناف» (٣)، وهذا تعييد لغير الله لكنه من باب الإخبار .

● الثانية: تفسیرُ الآية:

يعنى قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا ﴾ الآية، سبق تفسيرها .

● الثالثة : أَنَّ هَذَا الشِّرْكَ فِي مُجَرَّدِ تَسْمِيَةٍ لَمْ تُقْصَدَ حَقِيقَتُهَا .

وهذا بناء على ما ذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير الآية، والصواب: أن هذا الشرك حق حقيقة، وأنه شرك من إشراك بنى آدم لآمن آدم وحواء، ولهذا قال تعالى فى الآية نفسها: ﴿ أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾؛ فهذا الشرك الحقيقى الواقع من بنى آدم .

(٢) سبق .

(١) النساء : ٥٩ .

(٣) تقدم تخريجه .

الرابعة : أَنَّ هِبَةَ اللَّهِ لِلرَّجُلِ الْبَنَتِ السَّوِيَّةِ مِنَ النِّعَمِ.

الخامسة: ذِكْرُ السَّلَفِ الْفَرْقَ بَيْنَ الشِّرْكِ فِي الطَّاعَةِ وَالشِّرْكِ فِي الْعِبَادَةِ.

● الرابعة : أَنَّ هِبَةَ اللَّهِ لِلرَّجُلِ الْبَنَتِ السَّوِيَّةِ مِنَ النِّعَمِ.

هذا بناء على ثبوت القصة، وأن المراد بقوله : ﴿صَالِحًا﴾ ؛ أى : بشراً سوياً، وأتى المؤلف بالبنت دون الولد؛ لأن بعض الناس يرون أن هبة البنت من النعم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١)، وإلا؛ فهبة الولد الذكر السوى من باب النعم أيضاً، بل هو أكبر نعمة من هبة الأنثى، وإن كانت هبة البنت بها أجر عظيم فيمن (٢) كفلها ورباها وقام عليها.

قلت: ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ فسمى ولادة البنت وبدأ بها قبل الذكر وصح عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في فضل عال جاريتين أو ثلاثة وأحسن صحبتهن وصبر على لأوائهن وكانت عائشة إذا ولد لهم ولد لم يقال ذكر أم أنثى إذا ولد سالماً من العيب معافى وانخطر ذلك كله في كتابي «تربية البنات».

● الخامسة : ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

وقبل ذلك نبين الفرق بين الطاعة وبين العبادة؛ فالطاعة إذا كانت منسوبة لله؛ فلا فرق بينها وبين العبادة، فإن عبادة الله طاعته.

وأما الطاعة المنسوبة لغير الله؛ فإنها غير العبادة، فنحن نطيع الرسول، لكن لانعبده، والإنسان قد يطيع ملكاً من ملوك الدنيا وهو يكرهه.

فالشرك بالطاعة: أننى أطعته لاجباً وتعظيماً وذلاً كما أحب الله وأتذلل له وأعظمه، ولكن طاعته اتباع لأمره فقط، هذا هو الفرق.

وبناء على القصة؛ فإن آدم وحواء أطاعا الشيطان ولم يعبداه عبادة، وهذا مبني على صحة القصة. اهـ.



(٢) هكذا في المطبوع ولعلها (لن).

(١) النحل ٥٨: ٥٩.

٥٠ باب قول الله تعالى

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾^(١).

● مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال الفقير: الأولى بالمصنف - رحمه الله - أن يأتي بباب «احترام أسماء الله تعالى» ثم «التسبيح بقاضى القضاة» ثم «من جحد شيئاً من الأسماء والصفات» وباب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الأولى أن يأتي بهذه الأبواب هكذا بهذا الترتيب أو قريباً منه فتظهر المناسبة بينها والارتباط، لكن ليس هناك مناسبة ظاهرة لى بين هذا الباب والذى قبله والله أعلم.

- مناسبة الباب لكتاب التوحيد.

قال ناصر السعدى^(٢): أصل التوحيد أثبات ما أثبتته الله لنفسه. أو أثبتته له رسوله من الاسماء الحسنى. ومعرفة ما احتوت عليه من المعانى الجليلة. والمعارف الجميلة. والتعبد لله بها ودعاؤه بها.

فكل مطلب يطلبه العبد من ربه من أمور دينه ودنياه. فليتوسل إليه باسم مناسب له من أسماء الله الحسنى. فمن دعاه لحصول رزق فليسأله باسمه الرزاق. ولحصول رحمة ومغفرة فباسمه الرحيم الرحمن البر الكريم العفو الغفور التواب ونحو ذلك.

وأفضل من ذلك أن يدعوه بأسمائه وصفاته دعاء العبادة. وذلك باستحضار معانى الأسماء الحسنى وتحصيلها فى القلوب حتى تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها. وتمتلىء بأجل المعارف.

فمثلاً أسماء العظمة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلوب تعظيماً لله وإجلالاً له.

وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله وشوقاً وحمداً له وشكراً.

وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة تملأ القلب مراقبة لله فى الحركات والسكنات وحراسة للخواطر عن الأفكار الرديئة والإرادات الفاسدة.

(١) الأعراف: ١٨.

(٢) القول السديد.

وأسماء الغنى واللفظ تملأ القلب افتقارا واضطرارا إليه، والتفاتا إليه كل وقت، فى كل حال.

فهذه المعارف التى تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته، وتعبده بها الله لا يحصل العبد فى الدنيا أجل ولا أفضل ولا أكمل منها، وهى أفضل العطايا من الله لعبده، وهى روح التوحيد وروحه.

ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخاص، والإيمان الكامل الذى لا يحصل إلا للكامل من الموحدين.

وإثبات الأسماء والصفات هو الأصل لهذا المطلب الأعلى.

وأما الإلحاد فى أسماء الله وصفاته فإنه ينافى هذا المقصد العظيم أعظم منافاة.

والإلحاد أنواع.

إما أن ينفى الملحد معانيها كما تفعله الجهمية ومن تبعهم.

وإما بتشبيهها بصفات المخلوقين كما يفعله المشبهة من الرافضة وغيرهم.

وإما بتسمية المخلوقين بها كما يفعله المشركون حيث سمو اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، فاشتقوا لها من أسماء الله الحسنى، فشيئوها بالله ثم جعلوا لها من حقوق العبادة ما هو من حقوق الله الخاصة.

فحقيقة الإلحاد فى أسماء الله هو الميل بها عن مقصودها لفظاً أو معنى، تصريحاً، أو تأويلاً، أو تحريفاً. وكل ذلك مناف للتوحيد والإيمان. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): هذا الباب يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن هذا الكتاب جامع لأنواع التوحيد الثلاثة: توحيد العبادة، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وتوحيد الأسماء والصفات هو أفراد الله - عز وجل - بما ثبت له من صفات الكمال على وجه الحقيقة، بلا تمثيل ولا تكيف ولا تعطيل.

لأنك إذا عطلت لم تثبت، وإن مثَّلت لم توحَّد، والتوحيد مركب من إثبات ونفى؛ أى: إثبات الحكم للمُوحَّد ونفيه عما عداه، فمثلاً إذا قلت: زيد قائم؛ لم توحده بالقيام؛ وإذا قلت: زيد غير قائم؛ لم تثبت له القيام، وإذا قلت: لا قائم إلا زيد؛ وحدته بالقيام.

(١) القول المفيد ٢/ ٩٠.

وإذا قلت: لا إله إلا الله؛ وَحَدَّثَهُ بِاللَّوْهِيَّةِ، وإذا أثبت لله الأسماء والصفات دون أن يماثله أحد؛ فهذا هو توحيد الأسماء والصفات، وإن نفيتها عنه؛ فهذا تعطيل، وإن مثلت؛ فهذا إشراك. اهـ.

– ماذا أراد المصنّف بهذا الباب؟

قال حامد بن محمد^(١): باب ماجاء فى بيان أن الله تعالى له الاسماء الحسنى. اهـ.

قال عبدالله بن جار الله^(٢): مقصوده الرد على من يتوسل بالاموات وأن المشروع هو التوسل باسماء الله وصفاته والأعمال الصالحة. اهـ.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾.
مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى^(٣): دلت الآية على تحريم الإلحاد فى أسماء الله وصفاته. اهـ.
مناسبة الآية للتوحيد:

قال عبدالله بن جار الله^(٤): أن الإلحاد فى أسماء الله ونفيها وتعطيلها ينافى التوحيد والإيمان. اهـ.

قال محمد القرعاوى^(٥): حرمت الآية الإلحاد فى أسماء الله وصفاته، ومن الإلحاد تسمية المخلوق بأسماء الله وتسمية الله بأسماء المخلوقين وهذا شرك فى أسماء الله وصفاته. اهـ.

تنبيه: ستلاحظ تكراراً بعض الشيء فى كلام أهل العلم فى تفسيرهم لهذه الآية وأتيت به دون حذف أو إختصار بقدر المستطاع إلا ما دعت إليه الحاجة وذلك حتى يترسخ فى ذهن القارئ منهج السلف الصالح فى توحيد الأسماء والصفات وأنهم جميعاً على طريق واحد فمن شذ عن طريقهم فهو الضال.

سبب نزول الآية:

قال ابن الجوزى^(٦): قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ سبب نزولها أن رجلاً

(١) فتح الله الحميد المجيد: ٤٢٠.

(٢) الجامع الفريد ١٨٥.

(٣) الجديد ٤٠٥.

(٤) الجامع الفريد ١٨٥.

(٥) الجديد ٤٠٥.

(٦) زاد المسير ٢٢٤/٣.

دعا الله في صلاته، ودعا الرحمن، فقال أبو جهل: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فأنزل الله هذه الآية، قال مقاتل. فأما الحسنی، فهي تأنيث الأحسن.

ومعنى الآية أن أسماء الله حسنى، وليس المراد أن فيها ما ليس بحسن. وذكر الماوردى أن المراد بذلك ما مالت إليه النفوس من ذكره بالعمو والرحمة دون السخط والنقمة.

وقوله: ﴿فَادْعُوْهُ بِهَا﴾ أى: نادوه بها، كقولك: يا الله، يا رحمن. اهـ.

الإعراب^(١): ﴿وَلِلّٰهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوْهُ بِهَا﴾ الواو استئنافية، ﴿وَلِلّٰهِ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، و﴿الْأَسْمَاءُ﴾ مبتدأ مؤخر، و﴿الْحُسْنَىٰ﴾ صفة، ﴿فَادْعُوْهُ﴾ الفاء الفصيحة، و (وادعوه) فعل وفاعل ومفعول به، و﴿بِهَا﴾ جار ومجرور متعلقان (بادعوه). اهـ.

اللغة^(٢): ﴿الْحُسْنَىٰ﴾: مؤنث الأحسن، كالكبرى والصغرى، وقيل: الحسنى: مصدر وصف به كالرجعى، وأفرده كما أفرد وصف مالا يعقل فى قوله: ﴿وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَىٰ﴾، ولو طوبق به لكان التركيب الحسن كقوله: ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

● تفسير القرآن بالقرآن:

قال الرازى: ﴿وَلِلّٰهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ مذكورة فى سور أربعة: أولها هذه السورة وثانيها فى آخر سورة بنى إسرائيل فى قوله: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ وثالثها: فى أول طه وهى قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ ورابعها فى آخر الحشر وهو قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

● التفسير بالمأثور:

أولاً: من السنة

عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال إن الله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها كلها دخل الجنة^(٣).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الله مائة اسم غير اسم، من دعاء بها استجاب الله له دعاءه» (١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «قال: قال الله عز وجل: لى تسعة وتسعون اسما من أحصاها دخل الجنة» (٢).

وعن ابن عباس وابن عمر قالا: قال رسول الله ﷺ «ان لله تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد، من أحصاها دخل الجنة» (٣).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ان لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة، انه وتر يحب الوتر، هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلى، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولى، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد، المحي، المميت، الحى، القيوم، الواحد، الماجد، الواحد، الأحد، الصمد، القادر، المقدر، المقدم، المؤخر، الاول، الآخر، الظاهر، الباطن، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك، الملك، ذو الجلال، والاکرام، الوالى، المتعال، المقسط، الجامع، الغنى، المغنى، المانع، الضار، النافع، النور، الهادى، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور» (٤).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ان لله تسعة وتسعين اسما، من أحصاها دخل الجنة، اسأل الله الرحمن، الرحيم، الاله، الرب، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الحليم، العليم، السميع، البصير، الحى، القيوم، الواسع، اللطيف، الخبير، الحنان، المنان، البديع، الغفور، الودود، الشكور، المجيد، المبدئ، المعيد، النور، البادئ، وفى لفظ: القائم، الاول، الآخر الظاهر، الباطن، العفو، الغفار، الوهاب، الفرد، وفى لفظ: القاهر، الأحد، الصمد، الوكيل، الكافى،

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٦٩/٣) ونسبه لأبى نعيم، وابن مردويه.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه للدارقطنى فى «الغرائب».

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (٢٧٠/٣) ونسبه لابن مردويه، وأبى نعيم.

(٤) أخرجه الترمذى (٣٥٠٦) عن أبى هريرة به، وانظر «فتح المجيد» (ح ٨١٤) بتخريجنا.

وانظر الكلام عليه فى «القواعد المثلى» (٢٠ - بتخريجنا).

الباقى، المغيث، الدائم، المتعالى، ذا الجلال، وفى لفظ: المجيب، المحيى، المميت، الحميد. وفى لفظ: الجميل، الصادق، الحفيظ، المحيط، الكبير، القريب، الرقيب، الفتاح، التواب، القديم، الوتر، الفاطر، الرزاق، العلّام، العلى، العظيم، الغنى، المليك، المقتدر، الاكرم، الرؤوف، المدبر، المالك، القاهر، الهادى، الشاكر، الكريم، الرفيع، الشهيد، الواحد، ذا الطول، ذا المعارج، ذا الفضل، الكفيل، الجليل» (١).

وعن ابن عباس وابن عمر قالا: قال رسول الله ﷺ: «الله تسعة وتسعون اسما، من أحصاها دخل الجنة وهى فى القرآن» (٢).

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابه هم أو حزن فليقل: اللهم انى عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتى فى يدك، ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك، أسالك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى، ونور بصري، وذهاب همى، وجلاء حزنى، قال رسول الله ﷺ: ما قالهن مهموم قط إلا أذهب الله همه وأبدله بهمه فرجا. قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلم هذه الكلمات؟ قال: بلى، فتعلموهن وعلموهن» (٣).

وعن عائشة. انها قالت: يا رسول الله علمنى اسم الله الذى إذا دعى به أجاب. قال لها: «قومى فتوضئى وادخلى المسجد فصلّى ركعتين، ثم أدعى حتى أسمع. ففعلت، فلما جلست للدعاء قال النبى ﷺ: اللهم وفقها. فقالت: اللهم إنى أسالك بجميع أسمائك الحسنى كلها ما علمنا منها وما لم نعلم، واسألك باسمك العظيم الاعظم الكبير الاكبر الذى من دعاك به أجبته، ومن سألك به أعطيته. قال النبى ﷺ: أصبته أصبته» (٤).

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦١٤/٣ - ٦١٥) ونسبه لابن أبى الدنيا فى «الدعاء»، والطبرانى، وأبى الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، وأبى نعيم، والبيهقى.

وانظر «القواعد المثلث» (٢٠ - بتخريجنا).

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى نعيم.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٧١٢ - شاكر)، والحاكم فى «المستدرک» (٥٠٩/١)، وابن حبان فى «صحيحه» (٩٦٨).

وانظر «القول المثلث» (١٩ - بتخريجنا) وفتح المجيد» (ح ٨١٥) بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» فى الموضع السابق ونسبه للبيهقى.

● من أقوال الصحابة:

عن ابن عباس والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ومن أسمائه العزيز الجبار وكل أسماء الله حسن^(١).

عن محمد بن جعفر قال: سألت أبي جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء التسعة والتسعين التي من أحصاها دخل الجنة؟ فقال: هي في القرآن، ففي الفاتحة خمسة أسماء: يا الله، يارب، يارحمن، يارحيم، يامالك. وفي البقرة ثلاثة وثلاثون اسماً: يا محيط، ياقدير، يا عليم، يا حكيم، يا على، يا عظيم، ياتواب، يابصير، ياولى، يا واسع، ياكافى، يارؤف، يا بديع، يا شاكراً، يا واحد، ياسميع، يا قابض، يا باسط، يا حى، ياقويم، يا غنى، يا حميد، ياغفور، ياحليم، يا إله، يا قريب، يا مجيب، ياعزيز، يا نصير، يا قوى، يا شديد، يا سريع، يا خبير.

وفى آل عمران: يا وهَّاب، يا قائم، يا صادق، يا باعث، يا منعم، يا مانفصل.
وفى الانعام: يا فاطر، يا قاهر، يا لطيف، يابرهان. وفى الأعراف: يامحى، ياميت.
وفى الانفال: يا نعم المولى، يا نعم النصير. وفى هود: ياحفيظ، يا مجيد، يا ودود، يا فعال لما يريد.

وفى الرعد: يا كبير، يا متعال.

وفى ابراهيم: يا منَّان، يا وارث.

وفى الحجر: يا خلاق.

وفى مريم: يا فرد.

وفى طه: ياغفار.

وفى قد أفلح: يا كريم.

وفى النور: يا حق، يامبين.

وفى الفرقان: يا هادى.

وفى سبأ: يا فتَّاح.

وفى الزمر: يا عالم.

وفى غافر: يا قابل التوبة، يا ذا الطول، يا رفيع.

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩١/٩).

وفى الذاريات: يارزاق، يا ذا القوة، يا متين.

وفى الطور: يابر.

وفى اقتربت: يا ملك: يا مقتدر.

وفى الرحمن: يا ذا الجلال والاكرام، يارب المشرقين، يارب المغربين، يا باقى.

وفى الحديد: يا أول، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن.

وفى الحشر: ياملك، يا قدوس، ياسلام، يا مؤمن، يامهيمن، ياعزيز، ياجبار، يامتكبر، ياخالق، يابارى، يا مصور.

وفى البروج: يامبدى، يامعبد.

وفى الفجر: ياوتر.

وفى الاخلاص: يا أحد، ياصمد^(١).

● التفسير بأقوال المفسرين:

قال الزمخشري^(٢): التى هى أحسن الأسماء لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك «فادعوه بها» فسموه بتلك الأسماء. اهـ.

قال الرازى^(٣): اعلم أنه تعالى لما وصف المخلوقين لجهنم بقوله اولئك هم الغافلون) امر بعده بذكر الله تعالى فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهذا كالتنبيه على أن الموجب لدخول جهنم هو الغفلة عن ذكر الله، والمخلص عن عذاب جهنم هو ذكر الله تعالى وأصحاب الذوق والمشاهدة يجدون من أرواحهم أن الامر كذلك فإن القلب إذا غفل عن ذكر الله وأقبل على الدنيا وشهواتها وقع فى باب الحرص وزمهير الحرمان، ولا يزال يتنقل من رغبة الى رغبة ومن طلب الى طلب، ومن ظلمة الى ظلمة، فإذا انفتح على قلبه باب ذكر الله ومعرفة الله تخلص عن نيران الآفات وعن حشرات الخسارات، واستشعر بمعرفة رب الأرض والسماوات وفى الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ مذكور فى سور أربعة:

أولها: هذه السورة.

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق لأبى نعيم.

(٢) الكشف ١٠٥/٢.

(٣) الفخر الرازى ٦٩/١٥/٨ - ٧٥.

وثانيها: فى آخر سورة بنى اسرائيل فى قوله: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ .

وثالثها: فى أول طه وهو قوله ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ .

ورابعها: فى آخر الحشر وهو قوله: ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ .

إذا عرفت هذا فنقول (الأسماء) ألفاظ دالة على المعانى فهى إنما تحسن بحسن معانيها ومفهوماتها، ولا معنى للحسن فى حق الله تعالى إلا ذكر صفات الكمال ونعوت الجلال، وهى محصورة فى نوعين: عدم افتقاره الى غيره، وثبوت افتقار غيره اليه .

واعلم ان لنا فى تفسير أسماء الله كتاباً كبيراً كثير الدقائق شريف الحقائق سميناه «بلوامع البينات فى تفسير الأسماء والصفات»، من أراد الاستقصاء فيه فليرجع إليه، ونحن نذكر ههنا لمعاً ونكتاً منها .

قلت: يحذر من الكتاب ومن أشعرية صاحبه كما سيأتى . اهـ .

فنقول: إن أسماء الله يمكن تقسيمها من وجوه كثيرة .

الوجه الأول: أن نقول: الاسم إما أن يكون اسماً للذات، أو لجزء من أجزاء الذات، أو لصفة خارجة عن الذات قائمة بها . أما اسم الذات فهو المسمى بالاسم الأعظم، وفى كشف الغطاء عما فيه من المباحثات أسرار .

وأما اسم جزء الذات فهو فى حق الله تعالى محال، لأن هذا إنما يفعل فى الذات المركبة من الاجزاء، وكل ما كان كذلك فهو ممكن، فواجب الوجود يمتنع أن يكون له جزء .

وأما اسم الصفة فنقول: الصفة إما أن تكون حقيقة أو إضافية أو سلبية، أو ما يتركب عن هذه الثلاثة، وهى أربعة، لأنه إما أن يكون صفة حقيقية مع إضافة أو مع سلب أو صفة سلبية مع إضافة أو مجموع صفة حقيقية وإضافة وسلبية .

أما الصفة الحقيقية العارية عن الاضافة فكقولنا موجود عند من يقول: الوجود صفة، أو قولنا واحد، عند من يقول: الوحدة صفة ثانية، وكقولنا حى، فإن الحياة صفة حقيقية عارية عن النسب والاضافات، وأما الصفة الاضافية المحضة، فكقولنا: مذكور ومعلوم، وأما الصفة السلبية، فكقولنا: القدوس السلام . وأما الصفة الحقيقية مع الأضافة، فكقولنا: عالم وقادر، فإن العلم صفة حقيقية، وله تعلق بالمعلوم والقادر، فإن القدرة

صفة حقيقية، ولها تعلق بالمقدور، وأما الصفة الحقيقية مع السلبية. فكقولنا: قديم أزلي، لأنه عبارة عن موجود لا أول له. وأما الصفة الاضافية مع السلبية، فكقولنا: أول. فانه هو الذى سبق غيره وما سبقه غيره، وأما الصفة الحقيقية مع الإضافة والسلب، فكقولنا: حكيم، فانه هو الذى يعلم حقائق الأشياء، ولا يفعل ما لايجوز فعله فصفة العلم صفة حقيقية، وكون هذه الصفة متعلقة بالمعلومات، نسب وإضافات، وكونه غير فاعل لما لاينبغى سلب.

إذا عرفت هذا فنقول: السلوب، غير متناهية، والاضافات أيضاً غير متناهية، فكونه خالفاً للمخلوقات صفة إضافية، وكونه محيياً ومميتاً إضافات مخصوصة، وكونه رازقاً أيضاً إضافة أخرى مخصوصة. فيحصل بسبب هذين النوعين من الاعتبارات أسماء لا نهاية لها لله تعالى، لأن مقدراته غير متناهية، ولما كان لا سبيل إلى معرفة كنه ذاته، وإنما السبيل إلى معرفته بمعرفة أفعاله فكل من كان وقوفه على أسرار حكمته فى مخلوقاته أكثر كان علمه بأسماء الله أكثر. ولما كان هذا بحراً لا ساحل له ولا نهاية له، فكذلك لانهاية لمعرفة أسماء الله الحسنى.

النوع الثانى: فى تقسيم أسماء الله ما قاله المتكلمون: وهو أن صفات الله تعالى ثلاثة أنواع: ما يجب، ويجوز، ويستحيل على الله تعالى، والله تعالى بحسب كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة أسماء مخصوصة.

والنوع الرابع: فى تقسيم أسماء الله تعالى إما أن يجوز إطلاقها على غير الله تعالى أو لايجوز.

أما القسم الأول؛ فهو كقولنا: الكريم الرحيم العزيز اللطيف الكبير الخالق فإن هذه الألفاظ يجوز إطلاقها على العباد، وإن كان معناها فى حق الله تعالى مغايراً لمعناها فى حق العباد.

وأما القسم الثانى: فهو كقولنا: الله الرحمن.

أما القسم الأول: فانها إذا قيدت بقيود مخصوصة صارت بحيث لا يمكن إطلاقها إلا فى حق الله تعالى كقولنا: يا أرحم الراحمين، ويا أكرم الأكرمين، ويا خالق السموات والأرضين.

النوع الخامس: فى تقسيم أسماء الله أن يقال: من أسماء الله ما يمكن ذكره وحده كقولنا: يا الله يا رحمن يا حى يا حكيم. ومنها ما لا يكون كذلك، كقولنا: مميت وضار فانه لايجوز إفراده بالذكر، بل يجب أن يقال: يا محيى يا مميت يا ضار يا نافع.

النوع السادس: فى تقسيم أسماء الله تعالى أن يقال: أول ما يعلم من صفات الله

تعالى كونه محدثاً للأشياء مرجحاً لوجودها على عدمها، وذلك لأننا نعلم وجوده سبحانه بواسطة الاستدلال بوجود الممكنات عليه، فإذا دل الدليل على أن هذا العالم المحسوس ممكن الوجود والعدم لذاته، قضى العقل بافتقاره الى مرجح يرجح وجوده على عدمه، وذلك المرجح ليس إلا الله سبحانه، فثبت أن أول ما يعلم منه تعالى هو كونه مرجحاً ومؤثراً، ثم نقول ذلك المرجح إما أن يرجح على سبيل الوجوب أو على سبيل الصحة، والأول باطل، وإلا لدام العالم بدوامه، وذلك باطل. فبقى أنه إنما رجح على سبيل الصحة وكونه مرجحاً على سبيل الصحة ليس إلا كونه تعالى قادراً، فثبت أن المعلوم منه بعد العلم بكونه مرجحاً، هو كونه قادراً. ثم إننا بعد هذا نستدل بكون أفعاله محكمة متقنة على كونه عالماً، ثم إننا إذا علمنا كونه تعالى قادراً عالماً، وعلمنا أن العالم القادر يمتنع أن يكون إلهياً، علمنا من كونه قادراً عالماً، كونه حياً. فظهر بهذا أنه ليس العلم بصفاته تعالى وبأسمائه واقع في درجة واحدة، بل العلم بها علوم مترتبة يستفاد بعضها من بعض.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ يفيد الحصر، ومعناه أن الأسماء الحسنى ليست إلا لله تعالى، والبرهان العقلي قد يدل على صحة هذا المعنى، وذلك لأن الموجود إما واجب الوجود لذاته، وإما ممكن لذاته، والواجب لذاته ليس إلا الواحد وهو الله سبحانه، وأما ما سوى ذلك الواحد، فهو ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته، فهو محتاج في ماهيته وفي وجوده وفي جميع صفاته الحقيقية والإضافية والسلبية الى تكوين الواجب لذاته، ولولا لبقى على العدم المحض والسلب الصرف، فالله سبحانه كامل لذاته، وكمال كل ما سواه فهو حاصل بجموده وإحسانه، فكل كمال وجلال وشرف، فهو له سبحانه بذاته ولذاته وفي ذاته، ولغيره على سبيل العارية، والذي لغيره من ذاته، فهو الفقر والحاجة والنقصان والعدم، فثبت بهذا البرهان البين أن الأسماء الحسنى ليست إلا لله، والصفات الحسنى ليست إلا لله، وأن كل ما سواه، فهو غرق فى بحر الفناء والنقصان.

المسألة الثالثة: دلت هذه الآية على أن أسماء الله ليست إلا لله، والصفات الحسنى ليست إلا لله، فيجب كونها موصوفة بالحسن والكمال فهذا يفيد أن كل اسم لا يفيد فىسمى صفة كمال وجلال فإنه لا يجوز إطلاقه على الله سبحانه.

قلت/ وهذه المقدمة صحيحة تتفق وكلام ابن القيم وابن عثيمين المتقدم فى باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات وباب احترام أسماء الله تعالى، إلا أنه بنى عليها ما خالف فيه أهل السنة وأتبع فيه قول جهم من عدم إطلاق اسم الشئ على الله سبحانه وتعالى وأتى بشبه جهم التى ضربنا عن ذكرها صفحاً ويكفيها فى الرد عليه ما بوب به

البخارى فى كتاب التوحيد من صحيحه باب قل أى شىء أكبر شهادة قل الله، فسمى الله تعالى نفسه شيئاً وسمى النبى ﷺ القرآن شيئاً وهو صفة من صفات الله، وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ثم أسند عن سهل بن سعد قال النبى ﷺ: لرجل أمعك من القرآن شىء قال نعم (١).

قال ابن حجر (٢): قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ الإستدلال بهذه الآية للمطلوب يبنى على أن الإستثناء فيها متصل فإنه يقتضى إندراج المستثنى فى المستثنى منه وهو الراجح وعلى أن لفظ شىء يطلق على الله تعالى وهو الراجح أيضاً. وسيأتى عن ابن عثيمين أن الله لا يسمى بالشىء لكن يخبر بذلك عنه.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ يدل على أنه تعالى حصلت له أسماء حسنة، وأنه يجب على الإنسان أن يدعو الله بها، وهذا يدل على أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية. ومما يؤكد هذا أنه يجوز أن يقال: يا جواد، ولا يجوز أن يقال: يا سخى، ولا أن يقال يا عاقل يا طيب يا فقيه، وذلك يدل على أن أسماء الله تعالى توقيفية لا اصطلاحية.

المسألة الخامسة: دلت الآية على أن الاسم غير المسمى لأنها تدل على أن أسماء الله كثيرة لأن لفظ الأسماء لفظ الجمع، وهى تفيد الثلاثة فما فوقها، فثبت أن أسماء الله كثيرة ولا شك أن الله واحد، فلزم القطع بأن الاسم غير المسمى وأيضاً قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ يقتضى إضافة الاسماء الى الله، وإضافة الشىء الى نفسه محال. وأيضاً فلو قيل: والله الذوات لكان باطلاً. ولما قال ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ﴾ كان حقاً وذلك يدل على أن الاسم غير المسمى.

قلت/ وقد تقدم أن الاسم هو المسمى وهو مذهب أهل السنة لكن إن قصد أنها مترادفة ومتباينة أى من حيث دلالتها على ذات واحدة فهى مترادفة ومن حيث أن اسم السلام يخالف معنى المؤمن فهى متغايرة فهذا كلام ابن تيمية وابن عثيمين.

المسألة السادسة: قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ يدل على أن الإنسان لا يدعو ربه إلا بتلك الأسماء الحسنى، وهذه الدعوة لا تنأتى إلا إذا عرف معانى تلك الأسماء، وعرف بالدليل أن له إلهاً ورباً خالقاً موصوفاً بتلك الصفات الشريفة المقدسة، فإذا عرف بالدليل ذلك فحينئذ يحسن أن يدعو ربه بتلك الأسماء والصفات.

(١) [صحح] البخارى (٧٤١٧).

(٢) الفتح ١٣/١٣ و ٤١٤.

قلت: لم يعرف عن أحد من السلف أنه اشترط للدعاء بهذه الاستماء أن يعرفها بدليلها حتى من تعرض منهم كشرح قوله ﷺ: من أحصاها دخل الجنة بل هذا الذي ذكره الرازي من جنس كلام المعتزلة الذين شرطوا لإسلام العبد أن يعرف ربه بالدليل وقد تقدم الرد عليهم. اهـ.

ثم إن لتلك الدعوة شرائط كثيرة مذكورة بالاستقصاء في كتاب المنهاج لأبى عبد الله الحلبي، وأحسن ما فيه أن يكون مستحضر لأمرين.

أحدهما: عزة الربوبية.

الثانية: ذلة العبودية. فهناك يحسن ذلك الدعاء ويعظم موقع ذلك الذكر. فأما إذا لم يكن كذلك كان قليل الفائدة، وأنا أذكر لهذا المعنى مثالا، وهو أن من أراد أن يقول فى تحريمة صلاته الله أكبر، فانه يجب ان يستحضر فى النية جميع ما أمكنه من معرفة آثار حكمة الله تعالى فى تخلق نفسه وبدنه وقواه العقلية والحسية أو الحركية، ثم يتعدى من نفسه الى استحضار آثار حكمة الله فى تخلق جميع الناس، وجميع الحيوانات، وجميع أصناف النبات والمعادن، والآثار العلوية من الرعد والبرق والصواعق التى توجد فى كل أطراف العالم، ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى فى تخلق طبقات العناصر السفلية والعلوية ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى فى تخلق الأرضين والجبال والبحار والمفاوز، ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى فى تخلق أطباق السموات على سعتها وعظمتها، وفى تخلق أجرام النيرات من الثوابت والسيارات، ثم يستحضر آثار قدرة الله تعالى فى تخلق الكرسى وسدره المنتهى، ثم يستحضر آثار قدرته فى تخلق العرش العظيم المحيط بكل هذه الموجودات، ثم يستحضر آثار قدرته فى تخلق الملائكة من حملة العرش والكرسى وجنود عالم الروحانيات، فلا يزال يستحضر من هذه الدرجات والمراتب أقصى ما يصل اليه فهمه وعقله وذكره وخاطره وخياله، ثم عند استحضار جميع هذه الروحانيات والجسمانيات على تفاوت درجاتها وتباين منازلها ومراتبها، ويقول الله أكبر، ويشير بقوله - الله - الى الموجود الذى خلق هذه الأشياء وأخرجها من العدم الى الوجود، وربها بما لها من الصفات والنعوت، ويقول - أكبر - أى أنه لا يشبه لكبريائه وجبروته وعزه وعلوه وصمديته هذه الأشياء بل هو أكبر من أن يقال: إنه أكبر من هذه الأشياء. فاذا عرفت هذا المثال الواحد فقس الذكر الحاصل مع العرفان والشعور، وعند هذا يفتح على عقلك نسمة من الأسرار المودعة تحت قوله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾. اهـ.

قلت/ وهناك قواعد أخرى ذكرها ابن عثيمين وتقدمت فى باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات وفى باب احترام أسماء الله تعالى.

قال القرطبي^(١): قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أمر بإخلاص العبادة لله، ومجانبة المشركين والمُلْحِدِينَ. قال مقاتل وغيره من المفسرين: نزلت الآية في رجل من المسلمين، كان يقول في صلاته: يارحمن يارحيم. فقال رجل من مشركى مكة: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربًّا واحداً، فما بأل هذا يدعُو ربَّين اثنين! فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

الثانية: جاء في كتاب الترمذى وسنن ابن ماجه وغيرهما حديثٌ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نصٌّ فيه (أن لله) تسعة وتسعين اسماً؛ فى أحدهما ما ليس فى الآخر، وقد بينا ذلك فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى). قال ابن عطية - وذكر حديث الترمذى^(٢) - : وذلك الحديث ليس بالمتواتر، وإن كان قد قال فيه أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث. وإنما المتواتر منه قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة». ومعنى «أحصاها» عدّها وحفظها. وقيل غير هذا مما قد بيناه فى كتابنا. وذكرنا هناك تصحيح حديث الترمذى، وذكرنا من الأسماء ما اجتمع عليه وما اختلف فيه مما وقفنا عليه فى كتب أئمتنا ما يُنْفَى على ما تسمى اسم. وذكرنا قبل تعيينها فى مقدمة الكتاب اثنين وثلاثين فصلاً فيما يتعلق بأحكامها، فمن أراد وقف عليه هناك وفى غيره من الكتب الموضوععة فى هذا الباب. والله الموفق، لا ربَّ سواه.

قلت: ومن تتبع كتابه وتفسيره هذا علم أنه مؤول أشعري العقيدة وهو يعتمد فى نقله فى باب الأسماء والصفات على أئمة الأشاعرة كالجوينى والباقلانى والرازى وابن عطية وغيرهم فلزم التنبيه.

الثالثة - واختلف العلماء من هذا الباب فى الاسم والمسمى، وقد ذكرنا ما للعلماء من ذلك فى (الكتاب الأسنى). قال ابن الحصار: وفى هذه الآية وقوعُ الاسم على المسمى ووقوعه على التسمية. فقولُه: «ولله» وقع على المسمى، وقوله «الأسماء» وهو جمع اسم واقع على التسميات، يدل على صحة ما قلناه قوله «فادعوه بها»، والهاء فى قوله «فادعوه» تعود على المسمى سبحانه وتعالى، فهو المدعو. والهاء فى قوله «بها» تعود على الأسماء وهى التسميات التى يُدْعَى بها لا غيرها. هذا الذى يقتضيه لسان العرب. ومثل ذلك

(٢) تقدم تخريجه.

(١) القرطبي ٤/٢٧٦١.

قول رسول الله ﷺ: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءَ أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ»^(١) الحديث. والذي يذهب إليه أهل الحق أن الاسم هو الْمُسَمَّى، أو صفة له تتعلق به، وأنه غير التسمية. قال ابن العربي عند كلامه على قوله تعالى: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى»: فيه ثلاثة أقوال. قال بعض علمائنا: في ذلك دليل على أن الاسم المسمى؛ لأنه لو كان غيره لوجب أن تكون الأسماء لغير الله تعالى.

الثاني - قال آخرون: المراد به التسميات؛ لأنه سبحانه واحد والأسماء جمع. قلت: - يعني القرطبي - ذكر ابن عطية في تفسيره أن الأسماء في الآية بمعنى التسميات إجماعاً من المتأولين لا يجوز غيره، وقال القاضي أبو بكر في كتاب التمهيد: وتأويل قول النبي ﷺ: «لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ أَسْمَاءً مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» أي أن له تسعة وتسعين تسمية بلا خلاف، وهي عبارات عن كون الله تعالى على أوصاف شتى، منها ما يستحقه لنفسه ومنها ما يستحقه لصفة تتعلق به، وأسماءه العائدة إلى نفسه هي هو، وما تتعلق بصفة له فهي أسماء له. ومنها صفات لذاته، ومنها صفات أفعال. وهذا هو تأويل قوله تعالى: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا» أي التسميات الحسنى.

الثالث - قال آخرون منهم: والله الصفات.

قلت/ أما القول الأول فهو قول أهل الحق كما قال القرطبي أن الاسم هو المسمى والثاني هو ما ذهب إليه إجماع المؤلّين كما نقل ذلك القرطبي عن ابن عطية والثالث هو صحيح كالأول لأن الأسماء كلها بالنسبة للفظ الجلالة (الله) صفات لأن القاعدة أن أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف وسيأتي الدليل على ذلك إن شاء الله تعالى.

الرابعة - سَمَّى الله سبحانه أسماءه بالحُسْنَى لأنها حسنة في الأسماع والقلوب؛ فإنها تدل على توحيده وكرمه وجوده ورحمته وإفضاله. والحُسْنَى مصدرٌ وُصف به. ويجوز أن يقدَّر «الحسنى» فعلى، مؤنث الأحسن؛ كالكبرى تأنيث الأكبر، والجمع الكُبرى والحُسْن. وعلى الأول أفرد كما أفرد وصف مالا يعقل؛ كما قال تعالى: «مَآ رَبُّ أُخْرَى» و «يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ».

الخامسة - قوله تعالى: «فَادْعُوهُ بِهَا» أي اطلبوا منه بأسمائه؛ فيُطلب بكل اسم ما يليق به، تقول: يا رحيم ارحمني، يا حكيم أحكم لى، يارازق ارزقنى، يا هادى

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٥٣٢)، ومسلم فى الفضائل (١٢٤/١١٥/٨) عن جبير بن مطعم به.

اهدنى، يا فتاح افتح لى، ياتواب تُبْ على؛ هكذا. فإن دعوت بإسم عام قلت: يا مالك ارحمنى، يا عزيز أحكم لى، يا لطيف أرزقنى. وإن دعوت بالأعم الأعظم فقلت: يا الله؛ فهو تضمن لكل اسم. ولا تقول: يارزاق اهدنى؛ إلا أن تريد يارزاق أرزقنى الخير. قال ابن العربى: وهكذا، رتب دعاءك تكن من المخلصين.

السادسة - أدخل القاضى أبو بكر بن العربى عدة من الأسماء فى أسمائه سبحانه، مثل مَتم نوره، وخير الوارثين، وخير الماكرين، ورابع ثلاثة، وسادس خمسة، والطيب، والمعلم؛ وأمثال ذلك. قال ابن الحصار: واقتدى فى ذلك بابن برّجان، إذ ذكر فى الأسماء «النظيف» وغير ذلك مما لم يرد فى كتاب ولا سنة.

قلت - يعنى القرطبى -: أما ما ذكر من قوله «مما لم يرد فى كتاب ولا سنة» فقد جاء فى صحيح مسلم «الطيب»^(١). وخرج الترمذى «النظيف» بلفظ «إن الله نظيف يحب النظافة»^(٢) وخرج عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يقول فى دعائه: «رب أعنّى ولا تُعن على وانصرنى ولا تنصر على وآمكر لى ولا تمكر على»^(٣).

الحديث. وقال فيه: حديث حسن صحيح. فعلى هذا جائز أن يقال: يا خير الماكرين أمكر لى ولا تمكر على. والله أعلم.

قلت/ ولا يلزم من جواز القول بهذا أن يكون هذا من أسماء الله سبحانه وتعالى فإن الدعاء يكون بالثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله. والله أعلم. ثم قال القرطبى: وقد ذكرنا «الطيب، والنظيف» فى كتابنا وغيره مما جاء ذكره فى الأخبار، وعن السلف الأخيار، وما يجوز أن يُسمى به ويدعى، وما يجوز أن يُسمى به ولا يدعى، وما لا يجوز أن يُسمى به ولا يدعى. حسب ما ذكره الشيخ أبو الحسن الأشعرى. وهناك يتبين لك ذلك إن شاء الله تعالى. اهـ.

قال ابن كثير^(٤) ثم يعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة فى تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبى سلمة

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الزكاة (٧/ ١٠٠ - النووى) عن أبى هريرة به.

وانظر «القواعد المثلى» (٣٣ - بتخريجنا).

(٢) أخرجه الترمذى (٢٧٩٩) وصفقه.

(٣) [صحيح] أخرجه أبوداود (١٥١٠)، والترمذى (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠).

وانظر «الأذكار للنووى» (١٠٤١ - بتخريجنا).

(٤) ابن كثير ٢/ ٢٥٩.

الجهنى عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن، فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحاً» فقييل يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال «بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها»^(١) وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي في صحيحه بمثله، وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه الأحوذى في شرح الترمذى أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم فالله أعلم. اهـ. وقد تقدم.

قلت/ وقد تقدم كلام ابن عثيمين مختصراً لذلك ومهذباً له.

قال الشوكاني^(٢) - رحمه الله هذه الآية مشتملة على الإخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل.

والحسنى تأنيث الأحسن، أى التى هى أحسن الأسماء، لدلالاتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول، ثم أمرهم بأن يدعوه بها عند الحاجة، فإنه إذا دعى بأحسن أسمائه كان ذلك من أسباب الإجابة، وقد ثبت فى الصحيح: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»

قال ابن حزم: جاءت فى إحصائها، يعنى الأسماء الحسنى أحاديث مضطربة لا يصح منها شئ أصلاً، وقد أخرجها بهذا العدد الذى أخرجه الترمذى وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس وابن عمر قالوا: قال رسول الله ﷺ . . . فذكره^(٣).

قال السعدى^(٤) - رحمه الله هذا بيان، لعظيم جلاله، وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنى، أى: له كل اسم حسن.

وضابطه: أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى.

(١) ابن كثير ٢/ ٢٥٩.

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) فتح القدير ٢/ ٢٨٢.

(٤) السعدى ٢/ ١٧٠ - ١٧١.

فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علماً محضاً، لم تكن حسنى.
وكذلك لو دلت على صفة، ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة
إلى المدح والقدح، لم تكن حسنى.
فكل اسم من أسمائه، دال على جميع الصفة، التى اشتق منها، مستغرق لجميع
معناها.

وذلك نحو «العليم» الدال على أن له علماً محيطاً عاماً لجميع الأشياء.
فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.
و«الرحيم» الدال على أنه له رحمة عظيمة، واسعة لكل شىء.
و«القدير» الدال على أن له قدرة عامة، لا يعجزها شىء، ونحو ذلك.
ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهذا
شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة.
فيدعى فى كل مطلوب، بما يناسب ذلك المطلوب.

فيقول الداعى مثلاً: اللهم اغفر لى وارحمنى، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب عَنّى
ياتوب، وارزقنى يارزاق، والطف بى يا لطيف ونحو ذلك. اهـ. وقد تقدم من كلام
الرازى وغيره.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): ويخبر تعالى أن له أسماء وصفها بكونها حسنى أى:
حسان. وقد بلغت الغاية فى الحسن فلا أحسن منها، كما يدل عليه من صفات الكمال،
ونعوت الجلال، فأسماءه الدالة على صفاته هى أحسن الأسماء وأكملها، فليس فى
الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها. وتفسير الإسم منها بغيره ليس تفسيراً بمراد
محض، بل هو على سبيل التقريب والتفهم، فله من كل صفة كمال أحسن اسم
وأكملة وأتمه معنى وأبعده، وأنزهه عن شائبة نقص، فله من صفة الإدراكات العليم
الخبير دون العالم الفقيه، والسميع البصير دون السامع والباصر، ومن صفات الإحسان
البر الرحيم الودود، دون الرفيق والشقيق والمشوق. وكذلك العلى العظيم، دون الرفيع
الشريف، وكذلك الكريم، دون السخى. والخالق البارئ المصور، دون الصانع الفاعل

(١) التيسير ٤٨٠.

المشكّل، والغفور والغفور، دون الصفوح السائر. وكذلك سائر أسماء الله تعالى يجرى على نفسه أكملها وأحسنها، ولا يقوم غيره مقامه فأسماءه أحسن الأسماء، كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا نعدل عما سمي به نفسه إلى غيره، كما لا يتجاوز ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ إلى ما وصفه به المبطلون. ومن هنا يتبين لك خطأ من أطلق عليه اسم الصانع والفاعل والمربى ونحوها؛ لأن اللفظ الذي أطلقه سبحانه على نفسه، وأخبر به عنها أتم من هذا، و أكمل وأجل شأنًا، فإنه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها وأعلاها. فيوصف من الإرادة بأكملها، وهو الحكمة وحصول كل ما يريد بإرادته. كما قال تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾^(١) وإرادة اليسر لا العسر. كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٢) وإرادة الإحسان ونظام النعمة على عبادة كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾^(٣) فإرادة التوبة له وإرادة الميل المبتغى الشهوات.

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾^(٤) وكذلك العليم الخبير أكمل من الفقيه العارف، والكريم الجواد أكمل من السخي، والرحيم أكمل من الشفيق، والخالق الباري المصور أكمل من الفاعل الصانع؛ ولهذا لم تحيء هذه في أسمائه الحسنى، فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه على نفسه من الأسماء والصفات، والوقوف معها وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه، ما لم يكن مطابقاً لمعنى أسمائه وصفاته. وحينئذ فيطلق المعنى لمطابقته لها دون اللفظ، ولا سيما إذا كان مجملاً، أو منقسماً، أو ما يمدح به وغيره، فإنه لا يجوز إطلاقه إلا مقيداً، وهذا كلفظ الفاعل والصانع، فإنه لا يطلق عليه في أسمائه الحسنى، إلا إطلاقاً مقيداً كما أطلقه على نفسه كقوله: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(٥) وقوله: ﴿صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٦) فإن اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى إلى ما يمدح عليه

(١) البرج: ١٦.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) النساء: ٢٧.

(٤) المائدة: ٦.

(٥) إبراهيم: ٢٧.

(٦) النمل: ٨٨.

ويذم؛ فلهذا المعنى والله أعلم لم يجيء في الأسماء الحسنى المرید، كما جاء فيها السميع البصير، ولا المتكلم الأمر الناهي؛ لانقسام مسمى هذه الأسماء، بل وصف نفسه بكمالاتها، وشرف أنواعها. ومن هنا يعلم غلط بعض المتأخرين، وزلقه الفاحش في اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسماً مطلقاً، وأدخله في أسمائه الحسنى، فاشتق منها اسم الماكر، والمخادع، والفاتن، والمضل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. انتهى ملخصاً من كلام الإمام ابن القيم. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١). قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

طريق التوحيد هنا تقديم الخبر لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر؛ ففي الآية توحيد الأسماء لله.

وقوله: ﴿الْحُسْنَى﴾.

مؤنث أحسن؛ فهي اسم تفضيل، ومعنى الحسنى؛ أى: البالغة في الحسن أكمله؛ لأن اسم التفضيل يدل على هذا، والتفضيل هنا مطلق؛ لأن اسم التفضيل قد يكون مطلقاً مثل: زيد الأفضل، وقد يكون مقيداً مثل: زيد أفضل من عمرو.

وهنا التفضيل مطلق؛ لأنه قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

فأسماء الله تعالى بالغة في الحسن أكمله من كل وجه، ليس فيها نقص لافرضاً ولا احتمالاً.

وما يُخبر به عن الله أوسع مما يُسمى به الله؛ لأن الله يُخبر عنه بالشئ ويخبر عنه بالمتكلم والمرید، مع أن الشئ لا يتضمن مدحاً والمتكلم والمرید يتضمنان مدحاً من وجه وغير مدح من وجه، ولا يسمى الله بذلك؛ فلا يسمى بالشئ ولا بالمتكلم ولا بالمرید، لكن يخبر بذلك عنه.

قوله: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

الدعاء هو السؤال، والدعاء قد يكون بلسان المقال، مثل: اللهم! اغفر لى يا غفور وهكذا، أو بلسان الحال وذلك بالتعبد له، ولهذا قال العلماء: إن الدعاء دعاء مسألة ودعاء عبادة؛ لأن حقيقة الأمر أن المتعبد يرجو بلسان حاله رحمة الله ويخاف عقابه.

(١) القول المفيد ٩١/٣.

والأمر بدعاء الله بها يتضمن الأمر بمعرفتها؛ لأنه لا يمكن دعاء الله بها إلا بعد معرفتها.

وهذا خلافاً لما قاله بعض المدهنيين فى وقتنا الحاضر: إن البحث فى الأسماء والصفات لا فائدة فيه ولا حاجة إليه.

أيريدون أن يعبدوا شيئاً لا أسماء له ولا صفات؟!!

أم يريدون أن يدهنوا هؤلاء المحرفين حتى لا يحصل جدل ولا مناظرة معهم؟!.

وهذا مبدأ خطير أن يقال للناس لا تبحثوا فى الأسماء والصفات، مع أن الله أمرنا بدعائه بها.

والأمر للوجوب، ويقتضى وجوب علمنا بأسماء الله، ومعلوم أيضاً أننا لا نعلمها أسماء مجردة عن المعانى، بل لابد أن لها معانى فلا بد أن نبحث فيها؛ لأن علمها ألفاظاً مجردة لا فائدة فيه، وإن قُدِّر أن فيه فائدة بالتعبد باللفظ؛ فإنه لا يحصل به كمال الفائدة.

مسألة فصل الخطاب فى أسماء الله الحسنى، هل هى توقيفية أم لا؟

قال سليمان آل الشيخ - رحمه الله (١) وحاصله أن ما يطلق عليه من باب الأسماء والصفات توقيفى، وما يطلق من باب الأخبار لا يجب أن يكون توقيفياً، كالقديم والشئ الموجود، والقائم بنفسه، والصانع، ونحو ذلك. فادعوه بها أى اسألوه، وتوسلوا إليه بها كما تقول: اغفر لى وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم. فإن ذلك من أقرب الوسائل وأحبها إليه. كما فى «المسند» والترمذى «أَلْظُوا بِإِذَا الْجَلالَ وَالْإِكْرَامَ» (٢) والحديث الآخر:

سمع النبى ﷺ رجلاً يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ: اَللّهُمَّ إِنِّى اسْأَلُكَ بِأَنِّى أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الذى لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِى لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللهُ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِى إِذَا دُعِىَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ» (٣) رواه الترمذى وغيره.

(١) التيسير ٤٨١.

(٢) أخرجه الترمذى (٣٥٢٤) عن أنس به.

وانظر «الأذكار للنووى» (١٠٤٠ - بتخريجنا).

(٣) [حسن] أخرجه أبوداود (١٤٩٣) والترمذى (٣٤٧٥) وابن ماجه (٣٨٥٧) وانظر «الأذكار للنووى»

(١٠٢٢ - بتخريجنا).

وقوله عليه السلام: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(١). حديث صحيح رواه مسلم، وغيره.

ومنه «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْمَنَّانُ، بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ»^(٢) رواه الترمذى بنحوه، واللفظ لغيره.

قال ابن القيم: فهذا سؤال له، وتوسل إليه بحمده وأنه لا إله إلا هو المَنَّان. فهو توسل إليه بأسمائه، وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعاً عند السؤال. واعلم أن الدعاء بها أحد مراتب إحصائها الذى:

قال فيه النبى ﷺ «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٣) رواه البخارى، وغيره.

مسألة ما هى مراتب الإحصاء؟

قال سليمان آل الشيخ^(٤) وهى ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: إحصاء الفاظها واسمائها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما فى الآية وهى نوعان:

دعاء ثناء وعبادة، ودعاء طلب ومسألة، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وكذا لا يسأل إلا بها. فلا يقال: يا موجود ويا شىء ويا ذات اغفر لى، بل يسأل فى كل مطلوب باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب. فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم. ومن تأمل أدعية الرسل، لا سيما خاتمهم عليه وعليهم السلام، وجدها مطابقة لهذا كما تقول: رب اغفر لى وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم. ولا يحسن: إنك أنت السميع العليم البصير، ولكن أسماءُ تعالى منها ما يطلق عليه مفرداً. وهو غالب الأسماء: كالقدير، والسميع، والبصير، والحكيم. فهذا يسوغ أن يدعى به مفرداً، ومقترباً بغيره. فتقول: يا عزيز، يا حكيم، يا قدير، يا سميع، يا بصير. وإن انفرد

(١) [صحيح] رواه مسلم فى الصلاة (٢/ ٤٤٠/ ٢٢٢) عن عائشة رضى الله عنه.

(٢) [استاده ضعيف] أخرجه أبوداود (١٤٩٥)، والنسائى (٣/ ٥٢ - السيوطى) عن أنس به.

وانظر «الأذكار للنووى» (١٠٢٣ - بتحريجنا).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) التيسير ٤٨٢ - ٤٨٣.

كل اسم. وكذلك فى الثناء عليه، والخبر عنه. وبه يسوغ لك الأفراد والجمع. ومنها ما يطلق عليه مفرداً، بل مقرونًا بمقابله. كالمانع، والضار، والمتقم، والمذل، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطى، والنافع، والعفو، والعزير، والمعز. فهو: المعطى المانع، الضار النافع، المتقم العفو، المعز المذل؛ لأن الكمال فى اقتران كل اسم من هذا بمقابله، لأنه يراد به أنه المتفرد بالربوبية، وتدبير الخلق، والتصرف فيهم إعطاء ومنعاً، ونفعاً وضراً، وانتقاماً، وإعزازاً وإذلالاً. فأما الثناء عليه بمجرد المنع والانتقام والاضرار، فلا يسوغ، فهذه الاسماء الممزوجة يجرى الاسمان منها مجرى الاسم الواحد، الذى يتمتع فصل بعض حروفه من بعض. ولذلك لم تجيء مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة. فلو قلت: يا ضار يا مانع، يا مذل، لم تكن مثنيًا عليه، ولا حامداً له حتى تذكر مقابلتها. انتهى ملخصاً من كلام ابن القيم. وفيه بعض زيادة.

وبه يظهر الجواب عما قد يرد على ما سبق ذكر الأسماء الحسنى التى ورد عددها فى الحديث. لما كان إحصاء الأسماء الحسنى والعمل بها أصلاً للعلم بكل معلوم، وكانت سعادة الدنيا والآخرة مرتبة عليها فما حصل من آثارها للعباد. هو الذى أوجب لهم دخول الجنة، ولهذا جاء الحديث الصحيح المتفق عليه أن «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ». وذكرنا مراتب الاحصاء، لأن العبد محتاج، بل مضطر إلى معرفتها فوق كل ضرورة. وقد قيل: إن الله ذكرها كلها فى القرآن. ولا ريب أن الله تعالى ذكر أكثرها بلفظها، ولم يذكره بلفظه، ففى القرآن ما يدل عليه. قال شعيب بن أبى حمزة: عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَسْمَعُهُ وَتَسْمَعِينَ أَسْمَاءَ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. الرَّحْمَنُ. الرَّحِيمُ. الْمَلِكُ. الْقُدُّوسُ. السَّلَامُ. الْمُؤْمِنُ. الْمُهِمِّنُ. الْعَزِيزُ. الْجَبَّارُ. الْمُتَكَبِّرُ. الْخَالِقُ. الْبَارِئُ. الْمُصَوِّرُ. الْغَفَّارُ. الْقَهَّارُ. الْوَهَّابُ. الرَّزَّاقُ. الْفَتَّاحُ. الْعَلِيمُ. الْقَابِضُ. الْبَاسِطُ. الْخَافِضُ. الرَّافِعُ. الْمُعِزُّ. الْمُذِلُّ. السَّمِيعُ. الْبَصِيرُ. الْحَكَمُ. الْعَدْلُ. اللَّطِيفُ. الْخَبِيرُ. الْحَلِيمُ. الْعَظِيمُ. الْغَفُورُ. الشَّكُورُ. الْعَلِيُّ. الْكَبِيرُ. الْحَفِيزُ. الْمُقِيتُ. الْحَسِيبُ. الْجَلِيلُ. الْكَرِيمُ. الرَّقِيبُ. الْمُجِيبُ. الْوَاسِعُ. الْحَكِيمُ. الْوَدُودُ. الْمَجِيدُ. الْبَاعِثُ. الشَّهِيدُ. الْحَقُّ. الْوَكِيلُ. الْقَوِيُّ. الْمُتَيْنُ. الْوَلِيُّ. الْحَمِيدُ. الْمُحْصِى. الْمُبْدِئُ. الْمُعِيدُ. الْمُحْيِى. الْمُمِيتُ. الْحَيُّ. الْقَيُّومُ. الْوَاجِدُ. الْمَاجِدُ. الْوَاحِدُ. الْأَحَدُ. الصَّمَدُ. الْقَادِرُ. الْمُقْتَدِرُ. الْمُقَدِّمُ. الْمُؤَخِّرُ. الْأَوَّلُ. الْآخِرُ. الظَّاهِرُ. الْبَاطِنُ. الْوَلِى. الْمُتَعَالِ الْبَرُّ. التَّوَّابُ. الْمُتَنَقِّمُ. [المنعم]. الْعَفْوُ. الرَّوُّوفُ. مَالِكُ الْمُلْكِ. ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

المُقْسَطُ. الجَامِعُ. الغَنَى. المُنْعَى. المَانِعُ. الضَّارُّ. النَّافِعُ. النُّورُ. الهَادِي. البَدِيعُ. البَاقِي.
الْوَارِثُ. الرَّشِيدُ. الصَّبُورُ^(١).

هذا حديث غريب جداً حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث.

وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ لا نعلم فى كبير شىء من الروايات ذكر الأسماء الحسنى فى هذا الحديث، وقد روى آدم عن أبى إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبى هريرة عن النبي ﷺ وذكر فيه الأسماء، وليس له إسناد صحيح. قلت: - يعنى سليمان آل الشيخ - يشير إلى عدد الأسماء سرداً، وإلا فصدر الحديث متفق عليه. وقد خرج به بالعدد المذكور ابن المنذر، وابن خزيمة فى «صحيحه» وابن حبان والطبرانى، والحاكم فى «المستدرک» وغيرهم به، ولم يذكروا فيه «المعطى» وإسناده صحيح، ولكن المغترب منه ذكر العدد. ورواه ابن ماجة، من طريق عبد الملك بن الصنعانى عن زهير بن محمد التميمى عن موسى بن عقبة عن الأعرج، وساق الأسماء، وخالف سياق الترمذى والترتيب والزيادة والنقص، فأما الزيادة فهى «البارى» الراشد البرهان الشديد الواقى القائم الحافظ الناظر السامع المعطى الأبد المنير التام القديم الوتر» وعبد الملك لىن الحديث، وزهير مختلف فيه، وحديث الوليد أصح إسناداً وأحسن سياقاً وأجدر أن يكون مرفوعاً ولهذا قال النووى هو حديث حسن. قال بعضهم: والعلة فى كونهما لم يخرجاه بذكر الأسماء تفرد الوليد بن مسلم عالم الشاميين ثقة. وقد قيل: إن العدد المذكور مدرج. قال فى «الإرشاد» ما معناه: ذكر جماعة من الحفاظ المحققين المتقنين أن سرد الأسماء فى حديث أبى هريرة مدرج فيه، وأن جماعة من أهل العلم جمعوها من القرآن، كما روى ذلك عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينه، وأبى زيد اللغوى، وقال البيهقى: يحتمل أن يكون التفسير للأسماء وقع من بعض الرواة، ولهذا الاحتمال ترك الشيخان إخراج حديث الوليد فى «الصحيح» قال فى «البدر»: والدليل على ذلك وجهان أحدهما أن أصحاب الحديث لم يذكروها، والثانى أن فيها تفسيراً بزيادة ونقصان، وذلك لا يليق بالمرتبة العليا النبوية، كذا قال، وفيه نظر، فإن الزيادة والنقصان قد تكون من الرواة، وإن كان الحديث صحيحاً كما فى غير ذلك من الأحاديث. وقد رواه الطبرانى فى الدعاء، والحاكم وغيرهما، فزادوا «الرب الإله الحنان المنان البارى» وفى لفظ «القائم الفرد» وفى لفظ «القادر» بدل الفرد و«المغيث

(١) تقدم تخريجه.

الدائم الحميد» وفي لفظ «الجميل الصادق المولى النصير القديم الوتر الفاطر العلام المليك الأكرم المدير المالك الشاكر الرفيع ذو الطول المعارج ذو الفضل الخلاق» ولا أظنه يثبت، وإن كان بعض العدد صحيحاً. وعد جعفر بن محمد منها «المنعم المتفضل السريع».

وقال ابن حزم: جاءت في إحصائها أحاديث مضطربة، لا يصح منها شيء أصلاً، ونقل عنه أنه قال: صح عندى قريباً من ثمانين اسماً، اشتمل عليها الكتاب، والصحاح من الأخبار، فليطلب الباقي بطريق الاجتهاد.

وقال القرطبي في «شرح الأسماء الحسنى» العجب من ابن حزم، ذكر من الأسماء الحسنى نيفاً وثمانين فقط، والله يقول: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ثم ساق ما ذكره ابن حزم.

وفيه من الزيادة على ما تقدم «الرب الإله الأعلى الأكبر الأعز السيد السبوح الوتر المحسن الجميل الرفيق الدهر». وقد عدها الحافظ فزاد «الحفي السريع الغالب العالم الحافظ المستعان». وفي هذا نظر يفهم مما تقدم، وإن كان قد ذكر بعضها فيما لا يثبت من الحديث، فهذه خمسة وستون ومائة اسم، أقربها من جهة الإسناد سياق الترمذی، وما عدا ذلك ففيه أسماء صحيحة ثابتة، وفي بعضها توقف، وبعضها خطأ محض، كالأبد والناظر والسامع والقائم والسريع، فهذه وإن ورد عددها في بعض الأحاديث؛ فلا يصح ذلك أصلاً. وكذلك الدهر والفعال والفالق والمخرج والعالم، مع أن هذه لم ترد في شيء من الأحاديث إلا حديث.

«لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»^(١) وقد مضى معناه، وبيننا خطأ ابن حزم في عده من الأسماء الحسنى هناك.

واعلم أن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر، ولا تحد بعدد فإن الله تعالى أسماء وصفات استأثرت بها في علم الغيب عنده، ولا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

كما في الحديث الصحيح «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أُنْزِلَتْهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلِمْتُهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتُ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»^(٢) رواه أحمد وابن حبان في «صحيحه» وغيرهما.

قال ابن القيم: فجعل أسمائه ثلاثة أقسام: قسم سمي به نفسه فأظهره لمن شاء من

(٢) تقدم تخريجه.

(١) تقدم.

ملائكته أو غيرهم، ولم ينزل به كتابه، وقسم أنزل به كتابه، وتعرف به إلى عباده، وقسم استأثر به في علم غيبه، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه، ولهذا قال: «استأثرت به» أى: انفردت بعلمه، وليس المراد انفراذه بالمسمى به، لأن هذا الانفرد ثابت في الأسماء التي أنزل بها كتابه.

ومن هذا قوله عليه السلام في حديث الشفاعة «فَيَفْتَحُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ بِمَا لَا أَحْسِنُهُ الْآنَ»^(١). وتلك المحامد هي بأسمائه وصفاته ومنه:

قوله ﷺ: «لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ»^(٢).

وأما قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَسْعَةُ وَتِسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٣) فالكلام جملة واحدة، وقوله: «من أحصاها دخل الجنة» صفة لا خبر مستقبل، والمعنى: له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة، وهذا كقولك: لفلان ألف شاة أعداها للأضياف فلا يدل على أنه لا يملك غيرها. وهذا لا خلاف بين العلماء فيه. اهـ.

فصل

فيما جاء في اسم الله الأعظم

قال حامد بن محمد بن حسن^(٤) تنبيه: اعلم أن أسماء الله كلها عظيمة لا يجوز تفضيل بعضها على بعض ذهب إلى ذلك قوم منهم أبو جعفر الطبري، وأبو الحسن الأشعري، وأبو حاتم ابن حبان، وأبو بكر الباقلاني، ونحوه قول مالك وغيره، كما لا يجوز تفضيل بعض القرآن على بعض، وحمل هؤلاء ما ورد في ذكر الاسم الأعظم على أن المراد به العظيم.

وعبارة الطبري: «اختلفت الآثار في تعيين الاسم الأعظم والذي عندي أن الأقوال كلها صحيحة إذ لم يرد في خبر منها أنه الاسم الأعظم ولا شيء أعظم منه، فكأنه يقول: كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم فيرجع إلى معنى عظيم».

وقال ابن حبان: الأعظمية الواردة في الأخبار المراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك كما أطلق ذلك في القرآن، والمراد به مزيد ثواب القارئ.

والقول الثاني: أنه مما استأثر الله بعلمه، وكَمْ يُطْلَعُ عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ كَمَا قِيلَ بِذَلِكَ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ، وَفِي سَاعَةِ الْإِجَابَةِ، وَفِي الصَّلَاةِ الْوَسْطَى.

القول الثالث: أنه (هو) نقله الإمام الفخر الرازي عن بعض أهل العلم واحتج له بأن

(١) تقدم في الشفاعة.

(٢) تقدم.

(٣) فتح الله الحميد المجيد ٤٢١ - ٤٢٨.

(٤) تقدم.

من أراد أن يعبر عن كلام معظم بحضرته لم يقل: أنت قلت كذا وكذا وإنما يقول: «هو» يقول تأدبا معه،

القول الرابع: أنه «الله» لأنه اسم لا يطلق على غيره ولأنه الأصل في الأسماء الحسنى ومن ثم أضيفت إليه.

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: ثنا الحسن بن محمد بن الصباح ثنا إسماعيل بن علي عن أبي رجاء حدثني رجل عن جابر بن زيد أنه قال: اسم الله الأعظم هو الله، ألم تسمع أنه يقول: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. وقال ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء: ثنا إسحاق بن إسماعيل عن سفيان بن عيينة عن مسعر قال الشعبي: اسم الله الأعظم يا الله.

القول الخامس: الله الرحمن الرحيم.

قال ابن حجر في شرح البخاري(*) : «ولعل مستنده ما أخرجه ابن ماجه عن عائشة أنها سألت النبي ﷺ أن يعلمها الاسم الأعظم فلم يفعل فصلت ودعت: اللهم إني أدعوك الله وأدعوك الرحمن وأدعوك الرحيم وأدعوك بأسمائك الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم الحديث، وفيه أنه ﷺ قال لها: «إنه لفي الأسماء التي دعوت بها»(١). وقال سنده ضعيف. وفي الاستدلال به نظر». انتهى.

قلت - يعني حامد بن محمد - أقوى منه في الاستدلال ما أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه عن ابن عباس أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال: «هو اسم من أسماء الله تعالى وما بينه وبين الاسم إلا كما بين سواد العين وبياضها من القرب»(٢). وفي مسند الفردوس للدليمي من حديث ابن عباس - رضى الله عنهما - مرفوعاً: «اسم الله الأعظم في ست آيات من آخر سورة الحشر»(٣).

القول السادس: الرحمن الرحيم والحي القيوم؛ لحديث الترمذى وغيره عن أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وفاتحة سورة آل عمران ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾»(٤).

(*) ولقد أتى به حامد بن حسن بن محسن مختصراً ومهذباً ومزبلاً ولم يأت ينصه كاملاً.

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨٥٩).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٥٥٢/١) وصححه. وانظر «فتح القدير» - بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (٦/٣٠٠) ونسبه للدليمي.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٦١/٦)، وأبوداود (١٤٩٦)، والترمذى (٣٤٧٨)، وابن ماجه

(٣٨٥٥) عن أسماء به.

القول السابع: الحى القيوم؛ لحديث ابن ماجه والحاكم عن أبى أمامة، وفيه الاسم الأعظم فى ثلاث سور: البقرة، وآل عمران، وطه^(١). قال القاسم الراوى عن أبى أمامة: التمسته فيها فعرفت أنه الحى القيوم، قواه الفخر الرازى واحتج أنهما يدلان من صفات العظمة بالربوبية ما لا يدل على ذلك غيرهما لدلالتهما.

القول الثامن: الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام لحديث أحمد وأبى داود وابن حبان والحاكم عن أنس أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً فأتى برجل ثم دعا: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد أنت الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام يا حى يا قيوم، فقال ﷺ: «لقد دعا الله تعالى باسمه الأعظم الذى إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى»^(٢).

القول التاسع: بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام، أخرج أبو يعلى من طريق السرى بن يحيى عن رجل من طى وأثنى عليه خيراً قال: كنت أسأل الله أن يرينى الاسم الأعظم فرأيت مكتوباً فى الكواكب فى السماء يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام.

القول العاشر: ذو الجلال والإكرام؛ لحديث الترمذى عن معاذ سمع النبى ﷺ رجلاً يقول: يا ذا الجلال والإكرام فقال: «قد استجيب لك فاسأل»^(٣). وأخرج ابن جرير فى تفسير سورة النمل عن مجاهد قال: الاسم الذى إذا دُعِيَ به أجاب: يا ذا الجلال والإكرام.

واحتج له الفخر بأنه يشمل جميع الصفات المعبرة فى الإلهية، لأن فى الجلال إشارة إلى جميع السلوب وفى الإكرام إشارة إلى جميع الصفات.

القول الحادى عشر: الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد لحديث أبى داود والترمذى وابن حبان والحاكم عن بريدة أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إنى أسألك بأننى أشهد أنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال: لقد سألت الله

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨٥٦) عن أبى أمامة به.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٥/ ٢٣١)، والترمذى (٣٥٢٧) عن معاذ به.

بالاسم الذى إذا سئل به أعطى، وإذا دُعِيَ به أجاب، وفى لفظ عند أبى داود: لقد سأل الله باسمه الأعظم^(١).

قال الحافظ ابن حجر: وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد فى ذلك.
القول الثانى عشر: رب رب.

أخرج الحاكم عن أبى الدرداء وابن عباس قالا: اسم الله الأكبر رب رب^(٢).
وأخرج ابن أبى الدنيا عن عائشة مرفوعاً وموقوفاً: إذا قال العبد يا رب يا رب قال الله تعالى لبيك عبدى سل تعط.

القول الثالث عشر: ولم أر من ذكره مالك الملك.

أخرج الطبرانى فى «الكبير» بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:
اسم الله الأعظم الذى إذا دُعِيَ به أجاب فى هذه الآية من آل عمران: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرَزُّقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣).

القول الرابع عشر: دعوة ذى النون فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع به مسلم قط إلا استجاب الله له. ذكره النسائى والحاكم عن فضالة بن عبيد رفعه^(٤).

القول الخامس عشر: كلمة التوحيد، نقله عياض.

القول السادس عشر: هو الله الذى لا إله إلا هو رب العرش الكريم، نقله الرازى عن زين العابدين.

القول السابع عشر: وهو مخفى فى الأسماء الحسنى وهو الأصوب.

القول الثامن عشر: كل اسم إذا دُعِيَ العبد به ربه بحيث لا يكون فى فكره غير الله، قال جعفر الصادق والجنيد وغيرهما: أخرج أبو نعيم فى الحلية عن أبى يزيد البسطامى أنه سأل رجلاً عن الاسم الأعظم فقال: ليس له حد محدود إنما هو فراغ قلبك بوحديته فإذا كنت كذلك فادفع إلى أى اسم شئت فإنك تحصل مقصودك.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الحاكم فى «المستدرک» (٥٠٥/١) عنهما وسكت عليه.

(٣) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (١٢٧٩٢/١٧١/١٢) بإسناد ضعيف.

(٤) أخرجه الترمذى (٣٥٠٥) والنسائى فى «الكبرى» (١٠٤٩١) والحاكم فى «المستدرک» (٥٠٥/١) عن

سعيد بن أبى وقاص به.

وأخرج أبو نعيم عن أبي سليمان الداراني قال: سألت بعض المشايخ عن الاسم الأعظم فقال: تعرف قلبك؟ قلت: نعم، قال: فإذا رأيته قد أقبل ورق فاسأل الله تعالى حاجتك فذاك اسم الله الأعظم، فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم أطمع الله يطعك. القول التاسع عشر: اللهم.

قال الحسن البصري: اللهم مجمع الدعاء، وقال النضر بن شميل: من قال اللهم فقد دعى الله بجميع أسمائه. القول العشرون: أكم.

أخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: أكم اسم الله الأعظم^(١). وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أكم اسم من أسماء الله الأعظم^(٢) انتهى. الحاصل أن المشروع المرضى المأمور به أن يدعو الله بأسمائه الحسنى كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾. أو تدعوه بالأعمال الصالحة كما سأل الله أصحاب الغار بأعمالهم الصالحة ففرج الله عنهم.

فإن قلت: الأنبياء لهم جاه وإنني أسأل الله بجاههم، قلت: بلى لهم جاه كما قال تعالى عن موسى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾^(٣). وقال عن عيسى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾^(٤). ولكن جاههم وقربهم عند الله من الله عليهم باتباعهم أمر الله واجتنابهم نهيه وذا نفعه لهم خاصة بما عملوا فضلاً من الله ورحمة ولا لنا منفعة من ذلك الجاه والقرب تعود علينا فبأى شيء نتوسل إلى الله به؟ بلى إن توسلت إلى الله بإيمانك بهم وبما جاؤا به ويحبك لهم فيكون، لأن ذلك كله من الأعمال الصالحة.

قال أبو العباس ابن تيمية: «ولا ريب أن لهم جاهاً كما قال في موسى ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾، وقال في المسيح: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ لكن ما لهم عند الله من المنازل والدرجات ما يعود إلينا نفعه إلا اتباعنا لهم ومحبتنا لهم فإذا توسلت إلى الله بإيمانك بنبيه ﷺ مثلاً ومحبته وموالاته واتباع سنته فهذا من أعظم الوسائل، وأما التوسل بنفس ذاته مع عدم التوسل بالإيمان به وطاعته فلا يجوز، فالتوسل

(١) ذكره السيوطي في «الدر» (٥٤/١) ونسبه لابن جرير وانظر «الاتقان» للسيوطي بتخريجنا.

(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن جرير، وابن أبي حاتم وانظر «الاتقان» بتخريجنا أيضاً.

(٤) آل عمران: ٤٥.

(٣) الأحزاب: ٦٩.

بالمخلوق [إذا لم يتوسل لا بما من المتوسل به مثل دعائه ولا بما منه] (*) مثل الإيمان به ومولاته واتباع سنته إن كان نبياً مرسلأً إليه وإلى قومه فبأى شيء يتوسل؟ والإنسان إذا توسل إلى غيره بوسيلة فإما أن يطلب من الوسيلة الشفاعة عند ذلك مثل أن يقال لأبى الرجل وصديقه أو من يكرم عليه: اشفع لى عند فلان وهو حى وهذا جائز، وإما أن تقسم والإقسام على الله بالمخلوق لا يجوز بل ولا يجوز الإقسام على مخلوق بمخلوق والدعاء بالنبي أو الصالح إما أن يكون إقساماً به وإما تسبياً به، فإن كان إقساماً به فلا يقسم على الله إلا به، وإن كان تسبياً فهو تسبب بما جعله سبحانه سبباً وهو دعاء الله وعبادته، وإذا قال القائل: أسألك بحق الملائكة أو بحق الأنبياء أو الصالحين. فإن كان يقسم بذلك على مخلوق فهو لا يجوز له فإذا كان لم يجز له أن يحلف به أو يقسم به على مخلوق فكيف يقسم على الخالق به؟ بل إنما يقسم بالله بأسمائه وصفاته كما ذكر عن الرسول ﷺ أنه يقول: «أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حى يا قيوم»^(١)، «أسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»^(٢). وإن كان لا يقسم به وإنما يتسبب به فليس فى مجرد ذواتهم سبب يوجب تحصيل مقصوده لكن لابد من سبب منه كالإيمان بهم أو منهم كدعائهم، فمن قال: أسألك بإيمانى بك وبرسولك ونحو ذلك أو بإيمانى برسولك ومحبتى له ونحو ذلك فقد أحسن كما قال تعالى فى دعاء المؤمنين الذين يقولون: «رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»^(٣). وقال تعالى عن الحوارين: «رَبَّنَا أَمْنَا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ»^(٤). وكان ابن مسعود يقول: اللهم أمرتني فأطعتك ودعوتني فأجبتك وهذا سحرٌ فاغفر لى، ومن هذا الباب حديث الثلاثة الذين أصابهم المطر فأووا إلى الغار وانطبقت عليهم الصخرة ثم دعوا الله بأعمالهم الصالحة ففرج عنهم^(٥). وقد مضت السنة أن الحى يطلب منه الدعاء كما يطلب منه سائر ما يقدر عليه. وأما المخلوق الغائب والميت فلا يطلب منه شيء، قال الشيخ أبو الحسن القدورى: المسألة بخلقه لا تجوز لأنه لا حق للمخلوق على الخالق فلا تجوز أعنى وفاقاً. وروى فى كتاب «الحلية» لأبى نعيم أن داود عليه السلام قال: يارب بحق آبائى عليك إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فأوحى الله إليه يا داود، أى حق لأبائك على. هذا

(١) تقدم تخريجه.

(*) كذا فى المطبوع ولكنه غير مستقيم.

(٣) آل عمران: ١٦.

(٢) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه البخارى (٣٤٦٥) عن ابن عمر به.

(٤) آل عمران: ٥٣.

وإن لم يكن من الأدلة الشرعية فالإسرائيليات يعتضد بها ولا يعتمد عليها، انتهى كلامه رحمه الله تعالى. محصول الحاصل أن المأمور في الدعاء أن تدعو الله بأسمائه الحسنی وأعمالك الصالحة كما مضى.

قال ابن عثيمين^(١) واعلم أن دعاء الله بأسمائه له معنيان:

الأول: دعاء العبادة، وذلك بأن تتعبد لله بما تقتضيه تلك الاسماء، ويطلق على الدعاء عبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾^(٢)، ولم يقل: عن دعائي؛ فدل على أن الدعاء عبادة.

فمثلاً: الرحيم يدل على الرحمة، وحيثئذ تتطلع إلى أسباب الرحمة وتفعّلها. والغفور يدل على المغفرة، وحيثئذ تتعرض لمغفرة الله - عز وجل - بكثرة التوبة والاستغفار كذلك وما أشبه ذلك.

والقريب: يقتضى أن تتعرض إلى القرب منه بالصلاة وغيرها، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

والسميع: يقتضى أن تتعبد لله بمقتضى السمع، بحيث لا تسمع الله قولاً يفضبه ولا يرضاه منك.

والبصير: يقتضى أن تتعبد لله بمقتضى ذلك البصر بحيث لا يرى منك فعلاً يكرهه منك.

الثانى: دعاء المسألة، وهو أن تقدمها بين يدي سؤالك متوسلاً بها: إلى الله تعالى. مثلاً: يا حى! يا قيوم! اغفر لى وارحمنى، وقال ﷺ: «فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم»^(٣)، والإنسان إذا دعا وعلل؛ فقد أثنى على ربه بهذا الاسم طالبا أن يكون سببا للإجابة، والتوسل بصفة المدعو المحبوبة له سبب للإجابة؛ فالثناء على الله بأسمائه من أسباب الإجابة.

قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾

قال صاحب الإعراب: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الواو عاطفة، وذروا فعل أمر وفاعل، والذين اسم موصول مفعول به، وجملة يلحدون صلة الموصول، وفى

(١) القول المفيد ٩٣/٣ - ٩٥.

(٢) غافر: ٦٠.

(٣) [متفق عليه] أخرجه: البخارى (٨٣٤)، ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧/١٧) - النووى) عن أبى بكر.

أسمائه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال، والمعنى واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيه.

ثم قال (١) ﴿يُلْحِدُونَ﴾: مضارع ألحد بمعنى مال وانحرف.

وأصل الإلحاد في اللغة: الميل ومنه اللحد في القبر، ومعنى إلحادهم في أسمائه هو كاشتقاقهم اسم اللات من اسم الله واسم العزى من اسم العزيز واسم مناة من المنان ونحو ذلك والعرب تقول لحد وألحد بمعنى واحد، وعليهما القراءتان يلحدون بفتح الياء وإلحاء من الأول، وبضمها وكسر إلحاء من الثاني. اهـ.

● التفسير بالقرآن:

قال الشنقيطي (٢) حدد تعالى في هذه الآية الذين يلحدون في أسمائه بتهديدين

الأول: في صيغة الأمر بقوله: ﴿وَذَرُوا﴾ فانها للتهديد.

والثاني: في قوله ﴿سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهدد الذين يلحدون في آياته في سورة حم (السجدة) بأنهم لا يخفون عليه في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ ثم اتبع ذلك بقوله: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ﴾ الآية اهـ.

● التفسير بالمأثور:

روى الطبري: عن ابن عباس ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال إلحاد الملحدين أن دعوتهم اللات في أسماء الله (٣):

وعن مجاهد وذروا الذين يلحدون في أسمائه قال اشتقوا العزى من العزيز واشتقوا اللات من الله (٤).

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله يلحدون فقال بعضهم يكذبون ذلك فعن ابن عباس قوله ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال الإلحاد التكذيب (٥).

(٢) الأضواء ٢/ ٢٥٣.

(١) الإعراب ٣/ ٥٠١.

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٩١/ ٩١ - ٩٢) وذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٢٧١) ونسبه لابن أبي

حاتم فانظره بتخريجنا.

(٤) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق.

(٥) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق وذكره السيوطي في «الدر» (٣/ ٢٧١) وزاد نسبه لابن المنذر

وابن أبي حاتم وانظر الأخير بتخريجنا.

قال آخرون معنى ذلك يشركون فعن عن قتادة ﴿يُلْحِدُونَ﴾ قال يشركون^(١).

وعن عطاء في الآية قال: الإلحاد المضاهاة^(٢).

عن الأعمش أنه قرأ ﴿يُلْحِدُونَ﴾ بنصب الياء والحاء من اللحد، وقال تفسيريها يدخلون فيها ما ليس منها^(٣).

عن قتادة ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال: يكذبون في اسمائه^(٤).

● أقوال أهل التفسير:

قال الطبري^(٥) وأما قوله وذروا الذين يلحدون في أسمائه فانه يعنى به المشركين وكان الحادهم في أسماء الله أنهم عدلوا بها عما هي عليه فسموا بها آلهتهم وأوثانهم وزادوا فيها ونقصوا منها فسموا بعضها اللات اشتقاقاً منهم لها من اسم الله الذي هو الله وسموا بعضها العزى اشتقاقاً لها من اسم الله الذي هو العزيز وبنحو الذي قلنا في ذلك. قال أهل التأويل:

وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد والجور عنه والإعراض ثم يستعمل في كل معوج غير مستقيم ولذلك قيل للحد القبر لحد لانه في ناحية منه وليس في وسطه يقال منه ألد فلان يلحد الحادا ولحد يلحد لحداً ولحدوا وقد ذكر عن الكسائي أنه كان يفرق بين الإلحاد واللحد فيقول في الإلحاد انه العدول عن القصد وفي اللحد انه الركون إلى الشيء وكان يقرأ جميع ما في القرآن يلحدون بضم الياء وكسر الحاء إلا التي في النحل فإنه كان يقرؤها يلحدون بفتح الياء والحاء ويزعم أنه بمعنى الركون وأما سائر أهل المعرفة بكلام العرب فيرون أن معناهما واحد و أنهما لغتان جاءتا في حرف واحد بمعنى واحد.

واختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء أهل المدينة وبعض البصريين والكوفييسن يلحدون بضم الياء وكسر الحاء من ألد يلحد في جميع القرآن وقرأ ذلك عامة قراء أهل الكوفة يلحدون بفتح الياء والحاء من لحد يلحد والصواب من القول في

(١) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق وذكره السيوطي في «الدر» (٢٧٢/٣) وزاد نسبه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد.

(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن أبي حاتم. وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٣) ذكره السيوطي في «الدر» (٢٧٢/٣) ونسبه لابن أبي حاتم فانظره بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لعبد بن حميد، وأبي الشيخ.

(٥) الطبري ٦/ ٩١ - ٩٢.

ذلك أنهما لغتان بمعنى واحد فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب في ذلك غير أنى اختار القراءة بضم الياء على لغة من قال ألحد لأنها أشهر اللغتين وأفصحهما وكان ابن زيد يقول في قوله وذروا الذين يلحدون في أسمائه أنه منسوخ قال ابن زيد في قوله وذروا الذين يلحدون في أسمائه قال هؤلاء أهل الكفر وقد نسخ نسخة القتال ولا معنى لما قال ابن زيد في ذلك من أنه منسوخ لأن قوله ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ ليس بأمر من الله لنبيه ﷺ بترك المشركين أن يقولوا ذلك حتى يأذن له في قتالهم وإنما هو تهديد من الله للملحدين في أسمائه ووعيد منه لهم كما قال في موضع آخر ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل الآية وكفوله ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون وهو كلام خرج مخرج الأمر بمعنى الوعيد والتهديد ومعناه أن تمهل الذين يلحدون يا محمد في أسمائه الله إلى أجل هم بالغوه فسوف يجزون إذا جاءهم أجل الله الذى أجله اليهم جزاء أعمالهم التى كانوا يعملونها قبل ذلك من الكفر بالله والاحاد في أسمائه وتكذيب رسوله^(١). اهـ.

قال البغوى^(٢): قوله تعالى ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾. قرأ حمزة يلحدون بفتح الياء والحاء حيث كان، وافقه الكسائى فى النحل، والباقون بضم الياء وكسر الحاء ومعنى الإلحاد هو الميل عن القصد، يقال: ألحد يلحد إلحاداً، والحد يلحد لحداً ولحوداً إذا مال قال يعقوب بن السكيت: الإلحاد هو العدول عن الحق وإدخال ما ليس منه فيه. يقال: ألحد فى الدين، ولحد، وبه قرأ حمزة وقال أهل المعانى: الإلحاد فى أسماء الله تسميته بما لم يتسم به، ولم ينطق به كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ، وجملته: أن أسماء الله تعالى على التوقيف، فإنه يسمى جواداً ولا يسمى سخياً، وإن كان فى معنى الجواد، ويسمى رحيماً ولا يسمى رفيقاً، ويسمى عالماً ولا يسمى عاقلاً. وقال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ وقال عز من قائل ﴿وَمَكْرُوا اللَّهَ﴾ ولا يقال فى الدعاء يا مخادع، يا مكار، بل يدعى بأسمائه التى ورد بها التوقيف على وجه التعظيم فيقال: يا الله، يا رحمن. يا رحيم، يا عزيز، يا كريم، ونحو ذلك. اهـ.

قال الزمخشري^(٣) ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ وتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه

(٢) البغوى ٣/ ٥٧٥ - ٥٧٦.

(١) الطبرى ٦/ ٩١/ ٩٢ - ٩٢.

(٣) الكشف ٢/ ١٠٥ - ١٠٦.

كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم يا أبا المكارم يا أبيض الوجه يا نخى أو أن يابوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى نحو أن يقولوا يا الله ولا يقولوا يارحمن وقد قال الله تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ويجوز أن يراد والله الأوصاف الحسنى وهى الوصف بالعدل والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق فصفوه بها وذروا الذين يلحدون فى أوصافه فيصفونه بمشينة القبائح وخلق الفحشاء والمنكر وبما يدخل فى التشبيه كالرؤية ونحوها. اهـ.

قلت: وصف الله بالمشينة لكل شىء ليس إلحاداً قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فله مشينة وللعبد مشينة ومشينة العبد تابعة لمشينة الرب كما تقدم مراراً من كلام أهل العلم وخلق الله لكل شىء ووصفه بذلك ليس إلحاداً قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إلا أنه لا يخلق الشر لذاته ولا المنكر لذاته بل لحكمة تجعل من خلق القبيح مليحاً كما خلق المرض للكفارة ورفع الدرجات والفتن للتمييز كما تقدم ذلك مراراً ورؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة لاتقتضى تشبيهاً وهى ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة كما استدل الشافعى بقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ واستدلوا بقوله تعالى فى أولياءه ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ لكن الإلحاد ما ذهب إليه الزمخشري ومن شابهه من المعتزلة.

قال ابن الجوزى^(١) قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قال الزجاج: ولا ينبغى لأحد أن يدعوه بما لم يسم به نفسه، فيقول: يا جواد، ولا يقول: يا سخي، ويقول: يا قوى، ولا يقول: يا جلد، ويقول: يا رحيم، ولا يقول: يا رفيق، لأنه لم يصف نفسه بذلك. قال أبو سليمان الخطابي: ودليل هذه الآية أن الغلط فى أسمائه والزيغ عنها إلحاد، وما يسمع على ألسنة العامة قولهم: يا سبحان، يا برهان، وهذا مهجور مستهجن لا قدوة فيه، وربما قال بعضهم: يارب طه ويس. وقد أنكر ابن عباس على رجل قال: يارب القرآن. عن ابن عباس أن إلحادهم فى أسمائه أنهم سموا بها أوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فاشتقوا اللات من الله والعزى من العزيز، ومناة من المنان(*) .

فصل: والجمهور على أن هذه الآية محكمة. لأنها خارجة مخرج التهديد، كقوله:

(*) تقدم تخريجه .

(١) زاد المسير ٣/ ٢٢٤ - ٢٢٥ .

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾^(١) وقد ذهب بعضهم إلى أنها منسوخة بآية القتال، لأن قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ يقتضى الإعراض عن الكفار، وهذا قول ابن زيد. اهـ.

قال الرازى^(٢) أما قوله تعالى ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ فيه مسائل:
المسألة الأولى: قال أبو عمرو من أهل اللغة: الإلحاد: العدول عن الاستقامة والانحراف عنها. ومنه اللحد الذى يحفر فى جانب القبر.

قال الواحدى رحمه الله: والأجود قراءة العامة لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ﴾ والإلحاد أكثر فى كلامهم لقولهم: ملحد، ولاتكاد تسمع العرب يقولون لاحد.
المسألة الثانية: قال المحققون: الإلحاد فى أسماء الله يقع على ثلاثة أوجه:

الأول: إطلاق أسماء الله المقدسة الطاهرة على غير الله. مثل أن الكفار كانوا يسمون الأوثان بآلهة، ومن ذلك أنهم سموا أصناما لهم باللات والعزى والمناة، واشتقاق اللات من الإله، والعزى من العزيز، واشتقاق مناة من المنان مسيلمة الكذاب لقب نفسه بالرحمن.

والثانى: أن يسموا الله بما لا يجوز تسميته به، مثل تسمية من سماه - أبا - للمسيح. وقول جمهور النصارى: أب، وابن وروح القدس، ومثل أن الكرامية يطلقون لفظ الجسم على الله سبحانه ويسمونه به، ومثل أن المعتزلة قد يقولون فى أثناء كلامهم، لو فعل تعالى كذا وكذا لكان سفيها مستحقا للذم، وهذه الألفاظ مشعرة بسوء الأدب.

قال أصحابنا: وليس كل ما صح معناه جاز إطلاقه باللفظ فى حق الله، فانه ثبت بالدليل أنه سبحانه هو الخالق لجميع الأجسام، ثم لايجوز أن يقال: يا خالق الديدان والقروذ والقردان، بل الواجب تنزيه الله عن مثل هذه الأذكار، وأن يقال: يا خالق الأرض والسموات يا مقيل العثرات يا راحم العبرات الى غيرها من الأذكار الجميلة الشريفة.

والثالث: أن يذكر العبد ربه بلفظ لا يعرف معناه ولايتصور مسماه، فانه ربما كان مسماه أمراً غير لائق بجلال الله فهذه الأقسام الثلاثة هى الإلحاد فى الأسماء.

فإن قال قائل: هل يلزم من ورود الأول فى إطلاق لفظه على الله تعالى أن يطلق عليه سائر الألفاظ المشتقة منه على الإطلاق؟

قلنا: الحق عندى أن ذلك غير لازم لا فى حق الله تعالى، ولا فى حق الملائكة

والأنبياء وتقريره: أن لفظ «علم» ورد في حق الله تعالى في آيات منها قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ثم لا يجوز أن يقال في حق الله تعالى يا معلم، وأيضاً ورد قوله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ثم لا يجوز عندى أن يقال يا محب. وأما في حق الأنبياء فقد ورد في حق آدم عليه السلام ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ثم لا يجوز أين يقال إن آدم كان عاصياً غاوياً، وورد في حق موسى عليه السلام ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ ثم لا يجوز أن يقال إنه عليه السلام كان أجييراً، والضابط أن هذه الألفاظ الموهمة يجب الاختصار فيها على الوارد، فاما التوسع باطلاق الألفاظ المشتقة منها فهي عندى ممنوعة غير جائزة.

ثم قال تعالى: ﴿سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فهو تهديد ووعد لمن ألد في أسماء الله. اهـ. وسيتأتى أنواع أخرى من الإلحاد من كلام ابن القيم.
قال القرطبي^(١): قوله تعالى: ﴿وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ... والإلحاد يكون بثلاثة أوجه:

أحدها بالتغيير فيها كما فعله المشركون، وذلك أنهم عدلوا بها عما هي عليه فسموا بها أوثنائهم؛ فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان؛ قاله ابن عباس وقتادة.

الثانى - بالزيادة فيها.

الثالث - بالنقصان منها؛ كما يفعله الجهال الذين يخترعون أدعيةً يسمون فيها الله تعالى بغير أسمائه، ويذكرونه بغير ما يذكر من أفعاله؛ إلى غير ذلك مما لا يليق به؛ قال ابن العربي «فحذارٍ منها، ولا يدعون أحدكم إلا بما في كتاب الله والكتب الخمسة؛ وهى البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى. فهذه الكتب التى يدور الإسلام عليها، وقد دخل فيها ما فى الموطأ الذى هو أصل التصانيف، وذروا ما سواها، ولا يقولن أحدكم دعاء كذا وكذا؛ فإن الله قد اختار له، وأرسل بذلك إلى الخلق رسوله ﷺ».

الثانية: - معنى الزيادة فى الأسماء التشبيه، والنقصان التعطيل. فإن المشبهة وصفوه بما لم يأذن فيه، والمعطلة سلبوه ما أتصف به؛ ولذلك قال أهل الحق: إن ديننا طريق

(١) القرطبي ٤/ ٢٧٦٤ - ٢٧٦٥.

بين طريقتين، لا بتشبيه ولا بتعطيل. وسئل الشيخ أبو الحسن البوشنجي عن التوحيد فقال: إثبات ذات غير مشبهة بالذوات، ولا معطلة من الصفات. وقد قيل في قوله تعالى «وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ»: معناه اتركوهم ولا تحاجوهم ولا تعرّضوا لهم. فالآية على هذا منسوخة بالقتال؛ قاله ابن زيد. وقيل: معناه الوعيد؛ كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ وقوله ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾. وهو الظاهر من الآية؛ لقوله تعالى: ﴿سَيَجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. والله أعلم. اهـ. وقد تقدم تأييد ذلك من كلام ابن الجوزي.

قال السعدي^(١): وحقيقة الإلحاد، الميل بها، عما جعلت له.

إما بأن يسمى بها، من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لألّهمهم.

وإما بنفى معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أَرَادَهُ اللهُ ولا رسوله.

وإما أن يشبه بها غيرها.

فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢). اهـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٣): وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أى:

اتركوهم، وأعرضوا عن مجادلهم.

قال ابن القيم: والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل، كما يدل عليه مادة اللحد، ومنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط، ومنه اللحد في الدين المائل عن الحق إلى الباطل. إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه.

أحدها: أن يسمى الأصنام بها، كتسميتهم اللات من الإله، والعزى من العزيز، وتسميتهم الصنم إلهاً، وهذا إلحاد حقيقة، فهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وألّهمهم الباطلة.

(٢) تقدم تخريجه.

(١) السعدي: ١٧١/٢.

(٣) التيسير: ٤٨٧ - ٤٨٨.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أباً وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته، أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخصب اليهود: إنه فقير، وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم: يد الله مغلوله، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء الحسنى عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة، لا تتضمن صفات، ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم، ويقولون لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعاً ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين. فإن أولئك أعطوا من أسمائه وصفاته لألهتهم، وهؤلاء سلبوا كماله، وجحدوها وعطلوها، وكلاهما ألحد في أسمائه، ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي والمتوسط والمتلوث، وكل من جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسول ﷺ فقد ألحد في ذلك فليقل أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً، فهذا الإلحاد في مقابله إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفات كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه، وبرأ الله أتباع رسوله، وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يتجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظاً ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات فكان إثباتهم بريئاً من التشبيه، وتنزيههم خالياً من التعطيل، لا كمن شبه كانه يعبد صنماً، أو عطل حتى كانه لا يعبد إلا عدماً، وأهل السنة وسط في النحل، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل توقد مصابيح معارفهم من ﴿شَجَرَةٌ مُبَارَكَةٌ زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (١) ﴿سَيَجْزُونُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢) وعيد وتهديد. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ (٣): والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة - متقدمهم

(٢) الأعراف: ١٨٠.

(١) النور: ٣٥.

(٣) فتح المجيد ٢/٦٢٥: ٦٢٦.

ومتأخرهم - : إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل؛ كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١).

وأنَّ الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذى حذوه ومثاله. وكما أنه يجب العلم بأنَّ الله ذاتاً حقيقة لا تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين.

فله صفات حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله، أو تأوَّله على غير ما ظهر من معناه: فهو جهميٌّ، قد اتبع غير سبيل المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٢).

وقال العلامة أيضاً:

فائدة جليلة: ما يجرى صفة أو خبراً على الرب تبارك وتعالى، أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك: ذات، وموجود.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية: كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله: كالخالق، والرازق.

الرابع: التنزيه المحض، ولا بدَّ من تضمُّنه ثبوتاً؛ إذ لا كمال في العدم المحض،

كالقدوس، والسلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس - : وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لاتختص بصفة معينة، بل دالٌّ على معان، نحو المجيد، العظيم، الصمد؛ فإنَّ المجيد: من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدلُّ على هذا. فإنَّه موضوعٌ للسعة والكثرة والزيادة. فمنه: استمجد المَرْخُ والعَفَّارُ، وأمجد الناقة: علفها، ومنه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (٣) صفة للعرش، لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمل كيف جاء بهذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله، كما علَّمناه ﷺ: بأنَّه في مقام طلب المزيد والتعرُّض لسعة العطاء، وكثرته ودوامه. فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، فهو

(٢) النساء: ١١٥.

(١) الشورى: ١١.

(٣) البروج: ١٥.

راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه، ومنه الحديث الذي في (المستند) والترمذي «الْطُّلُوبُ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(١)، ومنه «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام»^(٢).

فهذا سؤال له وتوسل إليه بحمده، وأنه: لا إله إلا هو المنان. فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعاً عند المسؤول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الإسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما، نحو: الغنى الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد. وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن؛ فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر. فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم. فتأمله، فإنه من أشرف المعارف. اهـ.

قال ابن باز^(٣): والإلحاد قسمان:

الأول: إلحاد أكبر: وهو ما يقع من الكفرة.

الثاني: إلحاد ناقص: وهو ما يقع من بعض المسلمين في عدم انقيادهم للحق على التمام والكمال فيكون لهم نوع إلحاد وميل عن الحق فيفوتهم من الإيمان والإسلام بقدر ذلك. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله تعالى: «وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ».

«وَذَرُوا»: اتركوا، «الَّذِينَ»: مفعول به، وجملة يلحدون صلة الموصول.

ثم توعدهم بقوله: «سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، وهو الإلحاد؛ أي: سيجزون جزاءه المطابق للعمل تماماً، ولهذا يعبر الله تعالى بالعمل عن الجزاء إشارة للعدل، وأنه لا يجزى الإنسان إلا بقدر عمله.

(١) تقدم.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) التعليق: ٢٣٧.

(٤) القول المفيد ٩٥/٣ - ٩٧.

والمعنى: ذروهم؛ أى: لا تسلكوا مسلكهم ولا طريقهم: فإنهم على صلال وعدوان، وليس المعنى عدم مناصحتهم وبيان الحق لهم؛ إذ لا يترك الظالم على ظلمه، ويحتمل أن المراد بقوله ﴿وَذَرُوا﴾ تهديداً للملحدين.

والإلحاد: مأخوذ من اللحد، وهو الميل، لحد وألحد بمعنى مال، ومنه سُمي الحفر بالقبر لحداً؛ لأنه مائل إلى جهة القبلة.

والإلحاد فى أسماء الله: الميل بها عما يجب فيها، وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئاً من الأسماء أو مما دلت عليه من الصفات أو الأحكام، ووجه كونه إلحاداً أنه مال بها عما يجب لها؛ إذ الواجب إثباتها وإثبات ما تتضمنه من الصفات والأحكام.

الثانى: أن يثبت لله أسماء لم يسم الله بها نفسه؛ كقول الفلاسفة فى الله: إنه علة فاعلة فى هذا الكون تفعل، وهذا الكون معلول لها، وليس هناك إله.

وبعضهم يسميه العقل الفعّال؛ فالذى يدير هذا الكون هو العقل الفعال، وكذلك النصارى يسمون الله أباً وهذا إلحاد.

الثالث: أن يجعلها دالة على التشبيه، فيقول: الله سميع بصير قدير، والإنسان سميع بصير قدير، اتفقت هذه الأسماء؛ فيلزم أن تتفق المستميات، ويكون الله - سبحانه وتعالى - مماثلاً للخلق، فيتدرج بتوافق الأسماء إلى التوافق بالصفات.

ووجه الإلحاد: أن أسماءه دالة على معانٍ لا تائق بالله لا يمكن أن تكون مشابهة لما تدل عليه من المعانى فى المخلوق.

الرابع: أن يشتق من هذه الأسماء أسماء للأصنام؛ كتسمية اللات من الإله أو من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المَنان حتى يلقوا عليها شيئاً من الألوهية ليبرروا ما هم عليه.

واعلم أن التعبير بنفى التمثيل أحسن من التعبير بنفى التشبيه؛ لوجوه ثلاثة:

١ - أنه هو الذى نفاه الله فى القرآن؛ فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

٢ - أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما تشابه من بعض الوجوه، واشتركا فى المعنى من بعض الوجوه.

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ : «يُشْرِكُونَ»^(١).

فمثلاً: الخالق والمخلوق اشتركا فى معنى الوجود، لكن وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه، وكذلك العلم والسمع والبصر ونحوها اشترك فيها الخالق والمخلوق فى أصل المعنى، ويتميز كل واحد منهما بما يختص به.

٣ - أن الناس اختلفوا فى معنى التشبيه حتى جعل بعضهم إثبات الصفات تشبيهاً؛ فيكون معنى بلا تشبيه؛ أى: بلا إثبات صفات على اصطلاحهم.

قوله تعالى: ﴿سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لم يقل سيجزون العقاب إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل، وهذا وعيد، وهو كقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾^(٢)؛ وليس المعنى أن الله - عز وجل - مشغول الآن وسيخلفه الفراغ فيما بعد. قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾.

العمل يطلق على القول والفعل؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، وهذا يكون فى الأفعال والأقوال. اهـ.



قوله: [ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ يشركون]. مناسبة الاثر للباب وللتوحيد.

قال القرعاوى^(٣): أفاد الأثر أن رأى ابن عباس أن الالحاد فى أسماء الله شرك.

(١) أخرجه ابن جرير (٩١/٩) وابن أبي حاتم فى «تفسيره» (٥/١٦٢٣/ح ٨٥٨٣).

من طريق المثنى قال ثنا عبد الله قال ثنى معاوية عن على عن ابن عباس. وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٣/٢٧١) وزاد نسبه لابن المنذر عن ابن عباس رضى الله عنه بلفظ آخر.

وانظر فتح القدير: (ح ٥٣٧٨ - بتخریجنا).

وبلفظ الباب أخرجه عبد الرزاق فى «تفسيره» (١/٢٢٨/ح ٩٦١) وابن جرير (٩/٩١)، وابن أبي حاتم فى «تفسيره» (٥/١٦٢٣/ح ٨٥٨٦).

كلاهما من طريق معمر عن قتادة به.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٢٧٢). وزاد نسبه لعبد بن حميد.

وانظر «فتح القدير» (ح ٥٣٨٢ - «وفتح المجيد» (ح ٨١١) بتخریجنا).

(٢) الرحمن : ٣١. (٣) القول المفيد ٣/٩٥.

وعنه «سَمَوْا اللَّاتَ مِنَ الْإِلَهِ، والعزى مِنَ الْعَزِيزِ».

قوله: (١) «ذكر ابن أبى حاتم عن ابن عباس».

قال سليمان آل الشيخ (٢): وهذا الاثر لم يروه ابن أبى حاتم عن ابن عباس، إنما رواه عن قتاده، فاعلم ذلك. اهـ.

قوله: «يلحدون فى أسمائه: «يشركون». اهـ.

قال سليمان آل الشيخ (٣): قوله تعالى: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ يشركون، أى: يشركون غيره فى أسمائه كتسميتهم الصنم إلهاً، ويحتمل أن المراد الشرك فى العبادة، لأن أسماءه تعالى تدل على التوحيد، فالإشراك بغيره إلحاد فى معانى أسمائه سبحانه وتعالى لا سيما مع الإقرار بها، كما كانوا يقرون بالله ويعبدون غيره، فهذا الاسم وحده أعظم الأدلة على التوحيد، فمن عبد غيره، فقد ألحد فى هذا الاسم، وعلى هذا بقية الأسماء. اهـ. س

قال ابن عثيمين (٤): تفسير للإلحاد، ويتضمن الإشراك بها من جهتين:

١ - أن يجعلوها دالة على المماثلة.

٢ - أو يشتقوا منها أسماء للأصنام؛ كما فى الرواية الثانية عن ابن عباس التى ذكرها المؤلف، فمن جعلها دالة على المماثلة؛ فقد أشرك لأنه جعل لله مثيلاً، ومن أخذ منها أسماء لأصنام؛ فقد أشرك لأنه جعل مسميات هذه الأسماء مشاركة لله - عز وجل -. اهـ.

قوله: «سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز».

مناسبة الاثر للباب وللتوحيد:

قال محمد القرعاوى (٥): افاد الاثر أن ابن عباس يرى أن تسمية الأصنام بأسماء

الله إلحاد فى اسماء الله وقد ثبت أن الإلحاد فى أسماء الله شرك. اهـ.

قوله: «وعنه».

(١) الجديد ٤٨ .

(٢) (٣ - ٤٨٨) التيسير: ٤٨٨ .

(٤) القول المفيد ٩٨/٣ .

(٥) الجديد: ٤٠٧ .

وَعَنِ الْأَعْمَشِ: «يَدْخُلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا».(١)

قال سليمان آل الشيخ^(٢): هذا الاثر معطوف على سابقه أى رواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): أى: ابن عباس. اهـ.

قال ابن باز^(٤): فهذا نوع من الإلحاد وكذلك الوقوع فى المعاصى نوع من الإلحاد ولكنه أصغر ومن جحد الله أو أشرك معه فهو إلحاد أكبر. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٥): وهذا أحد نوعى الإشراك بها أن يشتق منها أسماء للأصنام. اهـ.

● تنبيه:

فيه كلمة تقولها النساء عندنا وهى: (وعزّالى)؛ فما هو المقصود بها؟

الجواب: المقصود أنها من التعزية؛ أى: أنها تطلب الصبر والتقوية وليست تندب العزى التى هى الصنم؛ لأنها قد لاتعرف أن هناك صنماً اسمه العزى ولا يخطر ببالها هذا، وبعض الناس قال: يجب إنكارها؛ لأن ظاهر اللفظ أنها تندب العزى، وهذا شرك، ولكن نقول: لو كان هذا هو المقصود لوجب الإنكار، لكننا نعلم علم اليقين أن هذا غير مقصود، بل يقصد بهذا اللفظ التَّقَوَّى والصبر والثبات على هذه المصيبة.

قوله: وعن الأعمش «يدخلون فيها ما ليس منها».

مناسبة الاثر للباب وللتوحيد.

قال محمد القرعاوى^(٦): حيث أفاد الأثر أن الاعمش يرى أن تسميه الله بما لم

يسم به نفسه إلحاد فى الاسماء وقد ثبت أن الإلحاد فى أسماء الله شرك. اهـ.

(١) وأخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٥/١٦٢٣ / ح ٧٥٨٧).

من طريق مبشر بن عبيد القرشى قال: قال الأعمش... فذكره.

وذكره السيوطى فى «الدر» (٣/٢٧٢) وعزاه لابن أبى حاتم عن الأعمش.

وانظر «فتح القدير» (٦/٥٣٨١ - «فتح المجيد» (ح ٨١٢) بتخريجنا).

(٢) التيسير: ٤٨٨.

(٣) القول المفيد ٩٨/٣.

(٤) التعليق ٢٣٨.

(٥) القول المفيد ٩٨/٣ - ٩٩.

(٦) الجديد / ٤٠٧.

قوله: «وعن الأعمش».

قال سليمان آل الشيخ^(١): معطوف على سابقه أى: رواه ابن أبي حاتم عنه. والأعمش اسمه سليمان بن مهران أبو محمد الكوفي الفقيه ثقة حافظ ورع مات سنة ١٤٧ وكان مولده أول سنة ٦١. هـ.

قوله: «يدخلون فيها ما ليس منها».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: يدخلون فيها ما ليس منها أى: كسمية النصارى له أباً ونحوه كما سبق. هـ.

قال ابن باز^(٣): هذا نوع من الإلحاد أن يسمى الله بأسماء ما أنزل بها من سلطان فهي نوع من الإلحاد. أى نوع من الباطل. هـ.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «عن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها».

هذا أحد أنواع الإلحاد، وهو أن يُسمى الله بما لم يسم به نفسه، ومن زاد فيها فقد ألحد؛ لأن الواجب فيها الوقوف على ما جاء به السمع.

● تمة:

جاءت النصوص بالوعيد على الإلحاد فى آيات الله تعالى كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾؛ فقوله: ﴿لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ فيها تهديد؛ لأن المعنى سنعاقبهم، والجملة مؤكدة بأن.

● وآيات الله تنقسم إلى قسمين:

١ - آيات كونية: وهى كل المخلوقات من السماوات والأرض والنجوم والجبال والشجر والدواب وغير ذلك، قال الشاعر:

فَوَاعَجَباً كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

والإلحاد فى الآيات الكونية ثلاثة أنواع:

١ - اعتقاد أن أحداً سوى الله منفرد بها أو ببعضها.

٢ - اعتقاد أن أحداً مشارك لله فيها.

(١ - ٢) التيسير ٤٨٨.

(٣) التعليق: ٢٣٨.

(٤) القول المفيد ٩٩/٣ - ١٠١.

فيه مسائل

الأول: إثباتُ الأسماء.

٣ - اعتقاد أن الله فيها مُعِيناً في إيجادها وخلقها وتديرها.

والدليل قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾، ظهير؛ أى: معين.

وكل ما يُخَلِّ بتوحيد الربوبية؛ فإنه داخل في الإلحاد في الآيات الكونية.

٢ - آيات شرعية: وهو ما جاءت به الرسل من الوحي كالقرآن، قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾.

والإلحاد في الآيات الشرعية ثلاثة أنواع:

١ - تكذيبها فيما يتعلق بالأخبار.

٢ - مخالفتها فيما يتعلق بالأحكام.

٣ - التحريف في الأخبار والأحكام.

والإلحاد في الآيات الكونية والشرعية حرام.

ومنه ما يكون كفراً؛ كتكذيبها، فمن كَذَّبَ شيئاً مع اعتقاده أن الله ورسوله أخبراً به؛ فهو كافر.

ومنه ما يكون معصية من الكبائر؛ كقتل النفس والزنا.

ومنه ما يكون معصية من الصغائر؛ كالنظر لأجنبية لشهوة.

قال الله تعالى في الحَرَمِ: ﴿ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْإِحْدَادِ بِظُلْمٍ نَذَقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾، فَسَمَى الله المعاصي والظلم إحْدَاداً؛ لأنها ميل عما يجب أن يكون عليه الإنسان؛ إذ الواجب عليه السير على صراط الله تعالى، ومن خالف؛ فقد أَلْحَدَ. اهـ.

قوله: فيه مسائل:

قال ابن عثيمين^(١):

● الأولى: إثباتُ الأسماء.

(١) القول المفيد ٣/ ١٠١ - ١٠٢.

الثانية: كَوْنُهَا حُسْنَى.

الثالثة: الأَمْرُ بِدَعَائِهِ بِهَا.

الرابعة: تَرْكُ مَنْ عَارَضَ مِنَ الْجَاهِلِينَ الْمُلْحِدِينَ.

الخامسة: "تَفْسِيرُ الْإِلْحَادِ فِيهَا.

السادسة: وَعَيْدُ مَنْ الْحَدَّ.

يعنى الله تعالى، وتؤخذ من قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ﴾، وهذا خبر متضمن لدلوله من ثبوت الأسماء لله، وفى الجملة حَصْرٌ لتقديم الخبر، والخصر باعتبار كونها حسنى لا باعتبار الأسماء.

وأكرر الجهمية وغلاة المعتزلة ثبوت الأسماء لله تعالى.

● الثانية: كونها حسنى.

أى: بلغت فى الحسن أكمله؛ لأن «حسنى» مؤنث أحسن، وهى اسم تفضيل.

● الثالثة: الأمر بدعائه بها.

والدعاء نوعان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، وكلاهما مأمور فيه أن يُدعى الله بهذه الأسماء الحسنى، وسبق تفصيل ذلك.

● الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدِين.

أى: ترك سبيلهم، وليس المعنى أن لا ندعوهم ولا نُبَيِّن لهم، والآية تتضمن أيضاً التهديد.

● الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

وقد سبق بيان أنواعه.

● السادسة: وعيد من ألحد.

وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قلت: ومن أول الآية: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ كما فى قوله تعالى:

﴿ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ وقد تقدم ذلك كله والله الموفق لارب سواه.



مناسبة الباب لما قبله:

قال ابن عثيمين^(١): ومناسبة هذا الباب لما قبله ظاهرة؛ لأن موضوع الباب الذي قبله إثبات الأسماء الحسنى لله المتضمنة لصفاته، وموضوع هذا الباب سلامة صفاته من كل نقص، وهذا يتضمن كمالها؛ إذ لا يتم الكمال إلا بإثبات صفات الكمال ونفى ما يضادها، فإنك لو قلت: زيد فاضل أثبت له الفضل، وجاز أن يلحقه نقص، وإذا قلت: زيد فاضل ولم يسلك شيئاً من طرق السفول، فالآن أثبت له الفضل المطلق في هذه الصفة.

والرب سبحانه وتعالى يتصف بصفات الكمال، ولكنه إذا ذكر ما يضاد تلك الصفة صار ذلك أكمل، ولهذا أعقب المؤلف - رحمه الله - الباب السابق بهذا الباب إشارة إلى أن الأسماء الحسنى والصفات العلى لا يلحقها نقص أحد.

قلت: أو لأن قولهم: السلام على الله نوع إلحاد لأنه يوهم أن الله يلحقه نقص على ما تقدم شرحه فناسب أن يأت به بعد الباب الماضى والله أعلم.

مناسبة الباب للتوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): لما كان حقيقة لفظ الإسلام السلامة والبراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، فإذا قال المسلم: السلام عليكم فهو دعاء للمسلم عليه، وطلب له أن يسلم من الشر كله، والله هو المطلوب منه لا المطلوب له، وهو المدعو لا المدعو له، وهو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض، استحال أن يسلم عليه سبحانه وتعالى، بل هو المسلم على عباده كما قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾^(٣) وقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾^(٤) وقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾^(٥) فهو السلام ومنه السلام لا إله غيره ولا رب سواه أحد.

(١) القول المفيد (٣/ ١٠٤).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٨٨، ٤٨٩).

(٣) النمل: ٥٩. (٤) الصفات: ١٨١.

(٥) الأحزاب: ٤٤.

وقال عبد الله بن جبار الله^(١): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هي أن اسم السلام لا يصلح إلا لله، فمن سمي به غير الله فقد أتى بما يناقض التوحيد أهـ.

وقال ابن عثيمين^(٢): ومناسبة الباب لتوحيد الصفات ظاهرة؛ لأن صفاته عليا كاملة كما أن أسماءه حسنى، والدليل على أن صفاته عليا قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤).

والمثل الأعلى: الوصف الأكمل، فإذا قلنا: السلام على الله أوهم ذلك أن الله - سبحانه - قد يلحقه النقص، وهذا ينافى كمال صفاته أهـ.

● شرح الترجمة:

- قال حامد بن محمد^(٥): باب ما جاء في بيان أنه لا يقال السلام على الله؛ لأنه تعالى هو السلام ومنه السلام، فإذا سلمت على أحد فأنت طالب من الله أن يسلمه الله تعالى من الآفات والشرور، ويرحمه، ويبارك عليه، وهذا المعنى لا يتصور في جانب الله تعالى؛ لأنه هو السلام ومنه السلام لغيره أهـ.

- وقال ناصر السعدى^(٦): وقد بين ﷺ هذا المعنى بقوله: «إِن الله هو السلام»^(٧) فهو تعالى السلام، السالم من كل عيب ونقص، وعن مماثلة أحد من خلقه له. وهو المسلم لعبادة من الآفات والبليات، فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هم الفقراء إليه، المحتاجون إليه في جميع أحوالهم، وهو الغنى الحميد أهـ.

- وقال ابن باز^(٨): السلام له معنيان:-

(الأول): أى السالم من كل نقص وعيب، فله الكمال المطلق من جميع الوجوه فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

(١) الجامع الفريد (١٨٩).

(٢) القول المفيد (١٠٣/٣).

(٣) النحل: ٦٠.

(٤) الروم: ٢٧.

(٥) فتح الله الحميد المجيد (٤٣١/٣).

(٦) القول السديد (١٢١).

(٧) سيأتى تخريجه.

(٨) التعليق المفيد (٢٣٩).

(الثاني): المسلم لعباده أى الذى يعطى السلام، فلا يقال السلام على الله؛ لأن هذا دعاء، والله غنى عن أحد، وليس بحاجة إلى دعاء الناس وإنما المشروع هو تعظيمه وتقديسه، والإيمان بأنه موصوف بصفات الكمال، وأنه المحسن والضار.

ويقال للمخلوق: السلام عليك؛ لأنه محتاج إلى العافية والدعاء.

لولا الله ثم دعوة الرسول أهـ. لولا الرسول ما اهتدينا. وأراد دعوة الرسول لا بأس، والأفضل أن يقول لولا الله ثم دعوة الرسول أهـ.

وقال ابن عثيمين^(١): هذه الترجمة أتى بها المؤلف بصيغة النفى، وهو محتمل للكرامة والتحريم، لكن استدلاله بالحديث يقتضى أنه للتحريم وهو كذلك. والسلام له عدة معانٍ.

١- التحية؛ كما يقال: سلم على فلان؛ أى: حيَّاه بالسلام.

٢- السلامة من النقص والآفات؛ كقولنا: «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته».

٣- السلام: اسم من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾. قوله: «لا يقال السلام على الله».

أى: لا تقول: السلام عليك يا رب؛ لما يلى:

أ- أن مثل هذا الدعاء يوهم النقص فى حقه، فتدعو الله أن يُسلم نفسه من ذلك؛ إذ لا يُدعى لشيء بالسلام من شيء إلا إذا كان قابلاً أن يتصف به، والله - سبحانه - مُنزّه عن صفات النقص.

ب- إذا دعوت الله أن يسلم نفسه؛ فقد خالفت الحقيقة؛ لأن الله يُدعى ولا يدعى له، فهو غنى عنا، لكن يثنى عليه بصفات الكمال مثل غفور، سميع، عليم. والسلام اسم ثبوتى سلبى.

فسلبى؛ أى أنه يراد به نفى كل نقص أو عيب يتصوره الذهن أو يتخيله العقل، فلا يلحقه نقص فى ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه.

وثبوتى: أى يراد به ثبوت هذا الاسم له، والصفة التى تضمنها وهى السلامة أهـ.

(١) القول المفيد (٣/١٠٣، ١٠٤).

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ»^(١).

قوله: فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ... الحديث.

قلت: هذا رواية مسلم ولفظه^(٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ: «قَالَ كُنَّا نَقُولُ فِي الصَّلَاةِ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ. السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ. فَإِذَا قَعَدَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَقُلْ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ. السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، فَإِذَا قَالَهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ، فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الْمَسْأَلَةِ مَا شَاءَ».

قوله: «فِي الصَّحِيحِ» قَالَ سَلِيمَانُ آلَ الشَّيْخِ أَيُّ فِي الصَّحِيحِينَ^(*). قلت: - وَطَرَقَهُ عِنْدَ الْبَخَارِيِّ فِي «صَحِيحِهِ».

عَنْ شَقِيقٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ^(٣) فِي كِتَابِ «الْإِسْتِزْنَانِ» فِي بَابِ: السَّلَامُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قُلْنَا السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ قَبْلَ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى جَبْرِيلَ، السَّلَامُ عَلَى مِيكَائِيلَ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ. فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَتَبَلَّ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ، فَإِذَا جَلَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَقُلْ (التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ - فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ ذَلِكَ أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ - أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ. ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الْكَلَامِ مَا شَاءَ).

(١) «صحيح» أخرجه البخاري «الأذان»/ باب: التشهد في الآخرة (٢/٣٦٣/ح ٨٣١ واطرافه ٨٣٥، ١٢٠٧، ٦٢٣٠، ٦٢٦٥، ٦٣٢٨، ٧٣٨١) ومسلم في «الصلاة»/ باب: التشهد في الصلاة (٤/١١٥/ح ٤٠٢) وأبو داود في «الصلاة»/ باب: التشهد (١/٥٢/ح ٩٦٨) والترمذي في «الصلاة»/ باب: ما جاء في التشهد (٢/٨/ح ٢٨٩) والنسائي في «الافتتاح»/ باب: كيف التشهد الأول (٢/٢٣٧: ٢٤١).
من حديث ابن مسعود. وانظر تمام تخريجه في «تيسير العلام» - بتخريجنا. «فتح المجيد» (ح ٨٢٢) بتخريجنا.

(٣) [صحيح] البخاري ١١/٦٢٣٠.

(٢) [صحيح] مسلم ٢/٤٠٢.

(*) تيسير الفريد الحميد.

ورواه البخارى^(١) عن عبد الله بن سخبه أبو معمر فى كتاب «الاستئذان» فى باب الأخذ باليد. قال «سمعت ابن مسعود يقول: علمنى رسول الله - ﷺ - وكفى بين كفىة - التشهد كما يعلمنى السورة من القرآن: التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله - وهو بين ظهرانينا، فلما قبض قلنا السلام. يعنى على النبى - ﷺ -».

ورواه البخارى عن أبى وائل^(٢) عن عبد الله رضى الله عنه فى كتاب «الدعوات» باب الدعاء فى الصلاة - قال: كنا نقول فى الصلاة: السلام على الله والسلام على فلان. فقال لنا النبى - ﷺ - ذات يوم: إن الله هو السلام، فإذا قعد احدكم فى الصلاة فليقل: التحيات لله - الى قوله - الصالحين. فإذا قالها أصاب كل عبد لله فى السماء والارض صالح. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبد ورسوله، ثم يتخير من الشاء ما شاء.

ورواه البخارى أيضاً عن شقيق بن مسلمه^(٣) فى كتاب «التوحيد» باب قوله الله تعالى السلام المؤمن. قال (قال عبد الله: كنا نصلى خلف النبى ﷺ فنقول: السلام على الله، فقال النبى - ﷺ -: إن الله هو السلام ولكن قولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات والسلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله.

ورواه البخارى عن شقيق عن عبد الله^(٤) فى كتاب «الاذان» باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب قال «كنا إذا كنا مع النبى - ﷺ - فى الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان فقال النبى ﷺ: لاتقولوا السلام على الله، فإن الله هو السلام ولكن قولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبى ورحمه الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - فإنكم إذا قلتم أصاب كل عبد فى السماء أو بين السماء والارض - أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله. ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو».

ورواه البخارى بسنده عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه-^(٥) فى

(٢) [صحيح] البخارى ١١/٦٣٢٨.

(٤) [صحيح] البخارى ٢/٨٣٥.

(١) [صحيح] البخارى ١١/٦٥٠٦٥.

(٣) [صحيح] البخارى ١٣/٧٣٨١.

(٥) [صحيح] البخارى ٣/١٢٠٢.

كتاب «العمل في الصلاة» باب من سَمَّى قوماً أو سَلَّمَ في الصلاة على غيره مواجهة وهؤلاء يعلمُ. كنا نقول: التحية في الصلاة ونسَمي ويسلم بعضنا على بعض، فسمعه رسول الله - ﷺ - فقال: قولوا التحيات لله والصلاة والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله. فإنكم إن فعلتم ذلك فقد سلمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض.

مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوي^(١): دل الحديث على تحريم قول السلام على الله. اهـ.

- مناسبة الحديث للتوحيد.

قال القرعاوي^(٢): أفاد الحديث أن السلام على الله نافى للتوحيد وذلك أن السلام دعاء بالسلامة من العيوب والنقائص والله منزّه عن ذلك. اهـ.

قوله: «في الصحيح».

قال ابن عثيمين^(٣): هذا أعم من أن يكون ثابتاً في «الصحيحين»، أو أحدهما، أو غيرهما، وهذا الحديث المذكور في «الصحيحين». اهـ.

قوله: «كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا».

قال ابن حجر^(٤): ولأبي داود «إذا جلسنا» ومثله للإسماعيلي.

وللبخارى في الصلاة: «كنا إذا صلينا خلف النبي ﷺ قلنا» وفي العمل في الصلاة «كنا نقول التحية في الصلاة ونُسَمي ويسلم بعضنا على بعض، فسمعه رسول الله ﷺ فقال... الحديث.

وقال ابن عثيمين^(٥): الغالب أن المعية مع النبي ﷺ في الصلاة لا تكون إلا في الفرائض؛ لأنها هي التي يشرع لها صلاة الجماعة، ومشروعية صلاة الجماعة في غير الفرائض قليلة؛ كالاستسقاء. اهـ.

(١ - ٢) الجديد (٤٠٩).

(٣) القول المفيد (١٠٦/٣).

(٤) فتح الباري (٣٦٣/٢).

(٥) القول المفيد (١٠٦/٣).

قلت: ولأن لفظ ابن مسعود يفيد الاستمرار والتكرار وهذا لا يكون في الغالب إلا في الفرائض.

قوله: «قلنا: السلام على الله من عباده».

قال ابن حجر^(١): وقال أهل العلم: معنى السلام في حقه سبحانه وتعالى الذي سلم المؤمنون من عقوبته وكذا في تفسير المؤمن الذي أمن المؤمنون من عقوبته وقيل السلام من سلم من كل نقص وبرئ من كل آفة وعيب فهي صفة سلبية وقيل: المسلم على عباده لقوله: «سلام قولاً من رب رحيم» فهي صفة كلامية وقيل: الذي سلم الخلق من ظلمه وقيل: منه السلامة لعباده فهي صفة فعلية. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: قلنا: السلام على الله أى: يقولون ذلك في التشهد الأخير كما هو مصرح به في بعض ألفاظ الحديث كنا نقول قبل أن يفرض التشهد: السلام لى الله، فقال النبى ﷺ: «إن الله هو السلام، ولكن قولوا التحيات لله».

قال ابن عثيمين^(٣): أى: يطلبون السلامة لله من الآفات، يسألون الله أن يسلم نفسه من الآفات، أو أن اسم السلام على الله من عباده؛ لأن قول الإنسان السلام عليكم خبر بمعنى الدعاء، وله معنيان:

١ - اسم السلام عليك؛ أى: عليك بركاته باسمه.

٢ - السلامة من الله عليك؛ فهو سلام بمعنى تسليم، ككلام بمعنى تكليم. اهـ.

قال عبد الله ابن جابر^(٤): كان الصحابة - رضى الله عنهم - في أول الاسلام يقولون في الصلاة قبل ان يفرض عليهم التشهد السلام على الله من عباده السلام على جبريل وميكائيل فنهاهم النبى ﷺ - عن ذلك لأن السلام دعاء بالسلام والله تعالى هو المدعو هو السلام أى السالم من كل عيب ونقص وعن مماثلة أحد من خلقه، وهو المسلم لعبادة من الآفات والبلبات فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه بل هم الفقراء إليه المحتاجون إليه في جميع أحوالهم وهو الغنى الحميد. اهـ.

(١) الفتحة ١٣ / ص ٣٧٨.

(٢) التيسير ٤٨٩.

(٣) القول المفيد ١٠٦/٣.

(٤) الجامع ١٨٩.

قوله: «السلام على فلان وفلان».

قال ابن حجر^(١): فى روايه عبد الله ابن غير عن الأعمش عند ابن ماجه: يعنون الملائكة، وللإسماعيلى من روايه على بن مسهر (فنعذ الملائكة) ومثله للسراج من رواية محمد بن فضيل عن الأعمش بلفظ (فنعذ من الملائكة ما شاء الله). اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: السلام على فلان وفلان: اختلف العلماء فى معنى السلام المطلوب عند التحية على قولين:

أحدهما: أن المعنى اسم السلام عليكم، والسلام هنا هو الله عز وجل. ومعنى الكلام نزلت بركة اسم السلام عليكم، وحملت عليكم فاختر فى هذا المعنى من أسمائه اسم السلام دون غيره، ويدل عليه قوله فى آخر الحديث.

ما رواه أبو داود: عن ابن عمر أن رجلاً سلم على النبى ﷺ، فلم يرد عليه حتى استقبل الجدار، ثم تيمم ورد عليه وقال: «إِنِّى كَرِهْتُ أَنْ أَذْكَرَ الله إِلَّا عَلَى طَهْرٍ»^(٣) ففى هذا بيان أن السلام ذكر لله وإنما يكون ذكراً إذا تضمنت اسماً من أسمائه.

الثانى: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعوى عند التحية؛ لأنه ينكر بلا ألف ولا ميم. فيجوز أن يقول المسلم: سلام عليكم، ولو كان اسماً من أسمائه تعالى لم يستعمل كذلك، بل كان يطلق عليه معروفاً كما يطلق على سائر أسمائه الحسنى. فيقال: السلام، المؤمن، المهيمن، فإن التكرير لا يصرف اللفظ إلى معين، فضلاً عن أن يصرفه إلى الله وحده. بخلاف المعرف فإنه ينصرف إليه تعييناً إذا ذكرت أسماءه الحسنى. ويدل على ذلك عطف الرحمة والبركة عليه فى قوله: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ولأنه لو كان اسماً من أسمائه تعالى لم يستقم الكلام بالإضمار، وذلك خلاف الأصل ولا دليل عليه، ولأنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خيراً ودعاءً.

قال ابن القيم: والصواب فى مجموعهما أى: القولين، وذلك أن من دعا الله بأسمائه الحسنى يسأل فى كل مطلوب ويتوسل إليه بالاسم المقتضى لذلك المطلوب المناسب لحصوله؛ حتى كأن الداعى مستشفع إليه، متوسل به. فإذا قال: رب اغفر لى، وتب

(١) الفتح ٣٦٣/٢.

(٢) التيسير ٤٨٩.

(٣) رواه أبو داود (٣٣٠) عن عبد الله بن عمر بنحوه.

على إنك أنت التواب الرحيم الغفور. فقد سأله أمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه، مقتضيين لحصول مطلوبه وهذا كثير جداً، وإذا ثبت هذا المقام لما كان طلب السلامة التي هي أهم ما عند الرجل أتى بلفظها بصيغة اسم من أسمائه تعالى، وهو السلام الذي تطلب منه السلامة. فتضمن لفظ السلام معنيين.

أحدهما: ذكر الله تعالى كما في حديث ابن عمر.

والثاني: طلب السلامة وهو المقصود من المسلم. فقد تضمن «سلام عليكم» اسماً من أسماء الله، وطلب السلامة منه. انتهى ملخصاً. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): أى: جبريل وميكائيل، وكلمة فلان يُكنى بها عن الشخص، وهي مصروفة؛ لأنها ليست علماً ولا صفة؛ كصفوان في قوله تعالى: ﴿كَمْثِلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾^(٢).

وقد جاء في لفظ آخر: «السلام على جبريل وميكال»^(٣) كانوا يقولون هكذا في السلام. اهـ.

قوله: «لاتقولوا السلام على الله، فإن الله هو السلام».

قال ابن حجر^(٤): فالسلام ثبت في القرآن، وفي الحديث الصحيح أنه من أسماء الله تعالى، وقد أطلق على التحية الواقعة بين المؤمنين.

وقال أهل العلم: معنى السلام في حقه سبحانه وتعالى الذي سلم المؤمنون من عقوبته.

(وقيل): السلام من سلم من كل نقص، وبرئ من كل آفة وعيب.

(وقيل): المسلم على عبادة، لقوله ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ (وقيل): الذي سلم الخلق من ظلمه.

(وقيل): منه السلامة لعباده. اهـ.

في موضع آخر: قال ابن حجر^(٥): قال البيضاوى ما حاصله: أنه ﷺ - أنكر التسليم على الله وبين أن ذلك عكس ما يجب أن يقال، فإن كل سلام ورحمة له ومنه

(٢) البقرة: ٢٦٤.

(١) القول المفيد (١٠٦/٣).

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى فيما تقدم.

(٤) فتح البارى (٣٧٨/١٣).

(٥) فتح البارى (٣٦٤/٢).

وهو ما لكها ومعطيها وقال التوريشتي: وجه النهى عن السلام على الله لأنه المرجوع إليه بالوسائل، المتعالى عن المعانى المذكورة فكيف يدع له وهو المدعو على الحالات.

وقال الخطايبى: المراد أن الله هو ذو السلام فلا تقولوا السلام على الله فإن السلام منه بدأ واليه يعود ومرجع الامر فى إضافته اليه أنه ذو السلام من كل آفة وعيب ويحتمل ان يكون مرجعها إلى حظ العبد فيما يطلبه من السلامه من الآفات والمهالك.

وقال النووى: معناه أن السلام اسم من أسماء الله تعالى، يعنى السالم من النقائص، ويقال: المسلم أولياؤه وقيل: المسلم عليهم، قال ابن الانبارى أو هم ان يصرفوه إلى الخلق لحاجتهم الى السلامه وعناه سبحانه وتعالى عنها. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «فإن الله هو السلام». أنكر عليه السلام التسليم على الله، وأخبر أن ذلك عكس ما يجب له سبحانه، فإن كل سلام ورحمة له ومنه فهو مالکها ومعطيها، وهو السلام، وقال غيره: وهذا كله حماية منه ﷺ لجناب التوحيد حتى يعرف الله تعالى ما يستحقه من الأسماء والصفات وأنواع العبادات.

وقال أيضاً: فهذا صريح فى كون السلام اسماً من أسمائه، فإذا قال المسلم: السلام عليكم؛ كان معناه اسم السلام عليكم، يدل عليه. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): ومعنى قوله: «إن الله هو السلام» إن الله سالم من كل نقص، ومن كل تمثيل. فهو الموصوف بكل كمال - المنزه عن كل عيب ونقص.

قال العلامة ابن القيم فى «بدائع الفوائد»: والسلام اسم مصدر، وهو من ألفاظ الدعاء، يتضمن الإنشاء والإخبار، فجبهة الخبرية فيه لاتناقض الجهة الإنشائية.

وهو معنى السلام المطلوب عند التحية وفيه قولان مشهوران.

الأول: أن السلام هنا هو الله عز وجل، ومعنى الكلام: نزلت بركته عليكم ونحو ذلك. فاختير فى هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم السلام دون غيره من الأسماء.

الثانى: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعوبه عند التحية. ومن حجة أصحاب هذا القول أنه يأتى منكرًا، فيقول المسلم: «سلام عليك» ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك.

ومن حجته: أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه: الإيذان بالسلامة خبراً ودعاءً.

(١) التيسير ٤٨٩.

(٢) فتح المجيد (٦٢٩ - ٦٣١).

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله -: وفصل الخطاب أن يقال: الحق في مجموع القولين، فكل منهما بعض الحق، والصواب في مجموعهما، وإنما يتبين ذلك بقاعدة وهي: أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب، ويتوسل بالاسم مقتضى لذلك المطلوب، المناسب لحصوله حتى إن الداعي متشفع إلى الله تعالى متوسل به إليه، فإذا قال: رب اغفر لي وتب على إنك أنت التواب الغفور. فقد سأل أمراً، وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه.

وقال ﷺ لأبي بكر - رضى الله عنه - وقد سأل ما يدعو به «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظملاً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١).

فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم عند الرجل، أتى في طلبها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى وهو: «السلام» الذي تطلب منه السلامة.

فتضمن لفظ السلام معنيين:

أحدهما: ذكر الله.

والثاني: طلب السلامة وهو مقصود المسلم.

فقد تضمن «سلام عليكم» اسماً من أسماء الله، وطلب السلامة منه. فتأمل هذه الفائدة.

وحقيقته: البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب. وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه، فمن ذلك قولهم: سلمك الله.

ومنه دعاء المؤمنين على الصراط «رب سلم سلم» ومنه: سلم الشيء لفلان، أى خلص له وحده. قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ أى: خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره. ومنه السلم: ضد الحرب، لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر، ولهذا بنى فيه على المفاعلة، فقليل المسألة مثل المشاركة، ومنه: القلب السليم وهو النقى من الدغل والعيب، وحقيقته الذى قد سلم لله وحده، فخلص من دغل الشرك وغله، ودغل الذنوب، والمخالفات، فهو مستقيم على صدق حبه، وحسن معاملته، وهذا هو الذى ضمن له النجاة من عذاب الله

(١) تقدم تخريجه.

والفوز بكرامته، ومنه أخذ الإسلام، فإنه من هذه المادة لأنه الإستسلام والإنقياد لله، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له، كالعبد الذى سلم لمولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون، ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه، وللمشرك به. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): وهذا نهى تحريم، والسلام لا يحتاج إلى سلام، هو نفسه - عز وجل - سلام سالم من كل نقص ومن كل عيب.

وفيه دليل على جواز السلام على الملائكة؛ لأن النبي ﷺ لم يته عنه، ولأنه عليه الصلاة والسلام لما أخبر عائشة أن جبريل يسلم عليها قالت: «عليه السلام»^(٢). اهـ.

● فائدة.

فى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: «أتى جبريل» النبي ﷺ - فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب، لاصخب فيه ولا نصب»^(٣).

قال ابن حجر^(٤): قوله: «فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى»، زاد الطبرانى فى الرواية المذكورة. فقالت: هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام، وللنساءى من حديث أنس قال: «قال جبريل للنبي ﷺ -: إن الله يقرئ خديجة السلام» يعنى فأخبرها «فقالت: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته»^(٥) زاد ابن السنى من وجه آخر «وعلى من سمع السلام، إلا الشيطان»^(٦) قال العلماء: فى هذه القصة دليل على وفور فقهها، لأنها لم تقل «وعلىه السلام» كما وقع لبعض الصحابة حيث كانوا يقولون فى التشهد «السلام على الله»^(٧)

(١) القول المفيد ١٠٧/٣.

(٢) أخرجه: البخارى (٣٢١٧)، ومسلم فى فضائل الصحابة (٢١٢/١٥ - التورى) وأنظر «رياض الصالحين» (٨٥٣ - بتخريجنا).

(٣) أخرجه البخارى (٣٨٢٠)، وسلم فى الفضائل (٧١/٢١٣/٨).

(٤) «الفتح» (١٧٢/٧، ١٧٣).

(٥) أخرجه النسائى فى «الكبرى» (٨٣٥٨).

(٦) أخرجه ابن السنى فى عمل «اليوم والقبله» (٢٤٠) عن عمر بن وهب مرسلاً

(٧) تقدم تخريجه.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى : تَفْسِيرُ السَّلَامِ.

فنهاهم النبي ﷺ - وقال «إن الله هو السلام، فقولوا التحيات لله»^(١) فعرفت خديجة لصحة فهمها أن الله لا يرد عليه السلام كما يرد على المخلوقين، لأن السلام اسم من أسماء الله، وهو أيضاً دعاء بالسلامة، وكلاهما لا يصلح أن يرد به على الله فكأنها قالت: كيف أقول عليه السلام والسلام اسمه، ومنه يطلب، ومنه يحصل، فيستفاد منه أنه لا يليق بالله إلا الثناء عليه فجعلت مكان رد السلام عليه الثناء عليه، ثم غايرت بين ما يليق بالله وما يليق بغيره فقالت وعلى جبريل السلام ثم قالت «وعليك السلام».

ويستفاد منه رد السلام على من أرسل السلام وعلى من بلغه. والذي يظهر أن جبريل كان حاضراً عند جوابها فردت عليه وعلى النبي ﷺ - مرتين؛ مرة بالتخصيص ومرة بالتعميم، ثم أخرجت الشيطان ممن سمع لأنه لا يستحق الدعاء بذلك. اهـ.

● فائدة أخرى

ذكر الشراح من أدله إثبات اسم السلام من قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ...﴾.

وأيضاً مما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ فعن قتادة في قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ قال: الجنة^(٢).

وعن جابر بن زيد قال: السلام: هو الله^(٣).

وعن السدي ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ قال: الله هو السلام، وداره الجنة^(٤).

قوله: فيه مسائل:

قال ابن عثيمين^(٥):

● الأولى: تفسير السلام.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (٨٤/٣) ونسبه لعبد الرزاق، وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن أبي حاتم فانظره بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لأبي الشيخ.

(٥) القول المفيد ١٠٧/٣ - ١٠٨.

الثانية : أَنَّهُ تَحِيَّةٌ.

الثالثة : أَنَّهَا لَا تُصَلِّحُ اللَّهَ.

الرابعة : الْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ.

الخامسة : تَعْلِيمُهُمُ التَّحِيَّةَ الَّتِي تُصَلِّحُ اللَّهَ.

فبالنسبة لكونه اسماً من أسماء الله معناه السالم من كل نقص وعيب، وبالنسبة لكونه تحية له معنيان :

الأول: تقدير مضاف؛ أي؛ اسم السلام عليك؛ أي اسم الله الذي هو السلام عليك.

الثاني: أن السلام بمعنى التسليم اسم مصدر كالكلام بمعنى التكليم؛ أي: تخبر خبراً يراد به الدعاء؛ أي: أسأل الله أن يُسَلِّمَكَ تسليماً.

● الثانية: أَنَّهُ تَحِيَّةٌ.

وسبق ذلك.

● الثالثة: أَنَّهَا لَا تُصَلِّحُ اللَّهَ.

وإذا كانت لا تصلح له كانت حراماً.

قلت: لأنها كما تقدم توهم النقص لله ولا تثبت الكمال.

● الرابعة: الْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ.

وهي أن الله هو السلام، وقد سبق بيانها.

● الخامسة: تَعْلِيمُهُمُ التَّحِيَّةَ الَّتِي تُصَلِّحُ اللَّهَ.

وتؤخذ من تكملة الحديث: «فإذا صلى أحدكم؛ فليقل: التحيات لله...»، وفيه حسن

تعليم الرسول ﷺ من وجهين:

الأول: أَنَّهُ حِينَما نَهَاہُمْ عِلَلَ النِّہْیِ.

وفى ذلك فوائد:

١ - طمأنينة الإنسان إلى الحكم إذا قرن بالعلة.

٢ - بيان سمو الشريعة الإسلامية وأن أوامرها ونواهيها مقرونة بالحكمة؛ لأن العلة

حكمة.

٣ - القياس على ما شارك الحكم المُعلَّل بتلك العلة.

الثاني: أنه حين نهاهم عن ذلك بين لهم ما يباح لهم؛ فيؤخذ منه أن المتكلم إذا ذكر ما ينهى عنه فليذكر ما يقوم مقامه مما هو مباح، ولهذا شواهد كثيرة من القرآن والسنة سبق شيء منها.

ويستفاد من الحديث: أنه لا يجوز الإقرار على المحرم؛ لقوله: «لا تقولوا: السلام على الله»، وهذا واجب على كل مسلم، ويجب على العلماء بيان الأمور الشرعية لئلا يستمر الناس فيما لا يجوز ويرون أنه جائز، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ (١). اهـ.

قلت: وفي الحديث:

(١) أن النبي ﷺ - قد لا يعلم لفترة ما قد وقع فيه بعض الصحابة من مخالفات وفي ذلك الرد على أدعياء الغيب من الصوفية وغيرهم، .

(٢) أن العبد إذا ارتكب محرماً بجهل يلام على ذلك لأن النبي ﷺ - نهاهم وبين لهم وجه الصواب ولم يلمهم وإن كان الخطأ متعلق بأسماء الله وصفاته.

(٣) عدم جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة لأنه بين لهم فور سماعه لمخالفتهم كما جاء في بعض الروايات.



(٥٢) بَابُ

قَوْلٍ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِثْمَ شَيْئَةٍ

● مناسبة الباب لما قبله:

قال الفقير: مناسبة هذا الباب لما قبله من وجهين الأول: أن موضوع الباب الماضي سلامة صفاته من كل نقص وهذا يتضمن كمالها وكذلك هذا الباب عقده المؤلف لما تضمنته أدلته من كمال سلطان الله وكمال جوده وفضله وذلك من صفات الكمال فلذلك ناسب أن يأتى به بعد الباب الماضي.

الثاني: أن البابين تضمننا التحذير من أقوال تخالف توحيد الاسماء والصفات.

● مناسبة الباب للتوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(١): لما كان العبد لاغناء له عن رحمة الله ومغفرته طرفة عين، بل فقير بالذات إلى الغنى بالذات كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ نهى عن قول ذلك؛ لما فيه من إيهام الاستغناء عن مغفرة الله ورحمته كما سيأتى، وذلك مضاد للتوحيد أهـ.

قال عبد الله بن جار الله^(٢): ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هي أن تعليق الدعاء بالمشيئة مما ينافى كمال التوحيد؛ لأنه سوء أدب مع الله حيث أنه يوهم دعوى الاستغناء عن مغفرة الله أهـ.

وقال ابن عثيمين^(٣): عقد المؤلف هذا الباب لما تضمنه هذا الحديث من كمال سلطان الله وكمال جوده وفضله، وذلك من صفات الكمال.

ثم قال^(٤): مناسبة الباب للتوحيد من وجهين:

١- من جهة الربوبية، فإن من أتى بما يشعر بأن الله له مكره لم يقم بتمام ربوبيته تعالى؛ لأن تمام الربوبية أنه لا مكره له، بل إنه لا يسأل عما يفعل؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

وكذلك فيه نقص من ناحية الربوبية من جهة أخرى، وهوان الله يتعاضم الأشياء التي يعطيها؛ فكان فيه قدح فى جوده وكرمه.

(٢) الجامع الفريد (١٩٠)

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٩١)

(٤) القول المفيد (٣/ ١١٤، ١١٥)

(٣) القول المفيد (٣/ ١١٠)

٢- من ناحية العبد؛ فإنه يشعر باستغنائه عن ربه، وهذا نقص في توحيد الإنسان، سواء من جهة الألوهية أو الربوبية أو الأسماء والصفات، ولهذا ذكره المصنف في الباب الذى يتعلق بالأسماء والصفات .أهـ.

قلت: وهذه من الألفاظ التى تجرى على السنة العامة بسبب تخلفهم عن التوحيد، وتجرحهم الشرك بطريقة أو بأخرى.

● شرح الترجمة، وماذا أراد المصنف بهذا الباب.

قال حامد بن محمد^(١): باب ماجاء فى بيان أن (قوله : اللهم اغفر لى إن شئت) [منهى]^(*)؛ لأن الله تعالى ماخلق عباده إلا لدعائه دعاء المسألة ودعاء العبادة، قال تعالى ﴿قُلْ مَا يَعْجَبُكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ فى الحديث «والدعاء مخ العبادة»^(٢). وأنه تعالى أمرهم أن يدعوه فيما ينوبهم ووعدهم بالإجابة وأوعد من ترك دعاءه بجحهم قال تعالى : ﴿ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فإذا علمت أن أكرم الأكرمين دعاك إلى فضله وإحسانه وأوعدك على ترك ذلك العقوبة العظيمة فكيف يتصور قولك : اللهم اغفر لى إن شئت لأنه إن لم يشأ ما أمرك بالدعاء ولا أوعدك بجحهم إذا تركته . أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣) : «باب: قول : اللهم اغفر لى إن شئت» : يعنى أن ذلك لايجوز لورود النهى عنه فى حديث الباب: أهـ.

قال السعدى^(٤): الأمور كلها وإن كانت بمشيئة الله وإرادته؛ فالمطالب الدينية كسؤال الرحمة والمغفرة، والمطالب الدنيوية المعينة على الدين كسؤال العافية والرزق وتوابع ذلك، قد أمر العبد أن يسألها من ربه طالباً ملحاً جازماً، وهذا الطلب عين العبودية ومخها، ولا يتم ذلك إلا بالطلب الجازم الذى ليس فيه تعليق بالمشيئة؛ لأنه مأمور به، وهو خير محض لا ضرر فيه، والله تعالى لا يتعاطمه شيء.

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين سؤال بعض المطالب المعينة التى لا يتحقق مصلحتها ومنفعتها، ولا يجزم أن حصولها خير للعبد؛ فالعبد يسأل ربه ويعلقه على اختيار ربه له

(١) فتح الله الحميد المجيد (٤٣٣).

(*) هكذا فى الأصل ولعلها (منهى عنه).

(٢) تقدم تخريجه. (٣) فتح المجيد (٢/٦٣٢).

(٤) القول السديد (١٢١، ١٢٢).

أصلح الأمرين؛ كالدعاء المأثور: «اللهم ! أحييني...»^(١) وكدعاء الاستخارة^(٢).

فافهم هذا الفرق اللطيف البديع بين طلب الأمور النافعة المعلوم نفعها وعدم ضررها، وأن الداعى يجزم بطلبها ولا يعلقها، وبين طلب الأمور التى لا يدرى العبد عن عواقبها، ولا رجحان نفعها على ضررها، فالداعى يعلقها على اختيار ربه، الذى أحاط بكل شىء علماً وقدره ورحمة ولطفاً. أهـ. وسيأتى بنحو هذا كلام ابن عثيمين.

وقال ابن باز^(٣): أراد المؤلف بهذا أن يبين أن من كمال الإيمان وكمال التوحيد: العزم على المسألة وعدم التردد وأن المؤمن إذا دعا ربه فليعزم ولا يتردد فإن جود الله عظيم وهو الغنى الحميد فلا يليق بالمؤمن أن يستثنى فى سؤاله وإنما يستثنى فى سؤال المخلوق لأنه قد يعجز أو يمتنع، أما الرب فهو الغنى القادر. أهـ.

وقال ابن عثيمين^(٤): قوله «اللهم!»

معناه: يا الله! لكن لكثرة الاستعمال حذفت يا النداء وعوض عنها الميم، وجعل العوض فى الآخر تيمناً بالابتداء بذكر الله. أهـ.

قوله: «اغفر لى»

المغفرة: ستر الذنب مع التجاوز عنه؛ لأنها مشتقة من المغفر، وهو ما يستر به الرأس للوقاية من السهام، وهذا لا يكون إلا بشىء سائر واقٍ، ويدل له قول الله - عز وجل - للعبد المؤمن حينما يخلو به ويقرره بذنوبه يوم القيامة:

«قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»^(٥).

قوله: «إن شئت».

أى: إن شئت أن تغفر لى فاغفر، وإن شئت فلا تغفر. أهـ.

ثم قال^(٦): فإن قلت: ما الجواب عما ورد فى دعاء الاستخارة: «اللهم ! إنى أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٣٥١)، ومسلم فى الذكر والدعاء (٧/١٧ - النووى) عن أنس به.

وانظر «رياض الصالحين» (٤١ - بتخريجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (١١٦) عن جابر به.

وانظر «رياض الصالحين» (٧١٩ - بتخريجنا).

(٤) القول المفيد (٣/ ١١٠)

(٣) التعليق المفيد - (٢٤١)

(٦) القول المفيد (٣/ ١١٦).

(٥) [إسناده ضعيف] أخرجه الترمذى (٢٢٧١) وإسناده ضعيف

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ. اللَّهُمَّ أَرْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ. لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مَكْرَهَ لَهُ» (١).

أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم ! إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري؛ فاقدريه لي ويسره لي ثم بارك لي فيه وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به» (٢)، وكذا ما ورد في الحديث المشهور: «اللهم ! أحيني ماكانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي» (٣)؟

فالجواب: إنني لم أعلق هذا بالمشيئة، ما قلت: فاقدريه لي إن شئت، لكن لأعلم أن هذا خير لي أو شر والله يعلم؛ فأقول: إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي فاقدريه لي؛ فالتعليق فيه لأمر مجهول عندي لا أعلم هل هو خير لي أولاً؟ وكذا بالنسبة للحديث الآخر؛ لأن الإنسان لا يعلم هل طول حياته خير أو شر؟ ولهذا كره أهل العلم أن تقول للشخص: أطل الله بقاءك؛ لأن طول البقاء لا يعلم؛ فقد يكون خيراً، وقد يكون شراً، ولكن يقال: الله أطل بقاءك على طاعته وما أشبه ذلك حتى يكون الدعاء خيراً بكل حال، وعلى هذا؛ فلا يكون في حديث الباب معارضة لحديث الاستخارة (٤) ولا حديث: «اللهم ! أحيني ماكانت الحياة خيراً لي» (٥)؛ لأن الدعاء مجزوم به وليس معلقاً بالمشيئة، والنهي إنما هو عما كان معلقاً بالمشيئة.

لكن لو قال: اللهم ! اغفر لي إن أردت وليس إن شئت؛ فالحكم واحد لأن الإرادة هنا كونية، فهي بمعنى المشيئة؛ فالخلاف باللفظ لايعتبر مؤثراً بالحكم أه.

قوله: في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت... الحديث

● مناسبة الحديث للباب:

قال قرقاوى (٦): حيث دل الحديث على تحريم تعلق الدعاء بالمشيئة. أه.

● مناسبة الحديث للتوحيد :

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٣٣٩، ٧٤٧٧) ومسلم (١٧/٦) وانظر «الأذكار» للنووي بتخريجنا (٩٦٣)، «فتح المجيد» (ح ٨٢٧) بتخريجنا.

(٦) الجديد : (٤١١)

(٢ - ٥) تقدم تخريجه.

قال قرقاوى: حيث دل الحديث على تحريم تعلق الدعاء بالمشيئة؛ لأن ذلك يشعر بضعف الافتقار إلى الله، وذلك مناف للتوحيد أهـ.

● شرح الحديث:

قوله «فى الصحيح»

قال سليمان آل الشيخ^(١): أى الصحيحين . أهـ.

قلت:

● وقد ذكره البخارى فى موضعين:

(الأول) فى كتاب الدعوات/ باب : ليعزم المسألة، فإنه لامكره له .

(الثانى) فى كتاب التوحيد/ باب : فى المشيئة والإرادة .

قوله : (لا يقولن: أحكم).

[قلت]: وهذا اللفظ (يقولن) لم يذكره من شراح كتاب التوحيد إلا سليمان آل الشيخ . والباقون بلفظ (لا يقل). وكلا اللفظين فى صحيح البخارى .

قال ابن عثيمين^(٢): لانهية دليل جزم الفعل بعدها. أهـ.

قوله (اللهم اغفر لى إن شئت، اللهم ارحمنى إن شئت)

قلت: وفى كتاب التوحيد فى «الصحيح» باب المشيئة والإرادة بلفظ: «اللهم اغفر إن شئت، ارحمنى إن شئت، ارزقنى إن شئت»^(٣). أهـ.

قال ابن حجر^(٤): وهذه كلها أمثلة، ورواية العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة عند مسلم تتناول جميع ما يدعى به . أهـ.

(قلت): رواية مسلم «ولا يقل اللهم إن شئت فاعطنى» من حديث أنس، وأما رواية العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة بلفظ «اللهم اغفر لى إن شئت». فقط،

وقال فى عون المعبود^(٥): قيل منع عن قوله (إن شئت)؛ لأنه شك فى القبول، والله تعالى كريم، لا يخل عنده، فليستيقن بالقبول. أهـ.

(قلت) وهذا النهى المذكور فى الحديث لأن فى هذه الصيغة المذكورة إعتداء.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٩١)

(٢) القول المفيد (٣/ ١١١)

(٤) فتح البارى (١١/ ١٤٤)

(٣) [صحيح] البخارى (١٣/ ٤٥٦/ ح ٧٤٧٧)

(٥) عون المعبود (٤/ ٣٥٦)

ولهذا قال ابن تيمية^(١): «نوع من الدعاء» ينهى عنه: كالاعتداء مثل أن يسأل الرجل مالا يصلح من خصائص الأنبياء وليس هو بنبي، وربما هو من خصائص الرب سبحانه وتعالى، مثل: أن يسأل لنفسه الوسيلة التي لاتصلح إلا لعبادته. أو يسأل الله تعالى أن يجعله بكل شيء عليمًا أو: على كل شيء قدير. وأن يرفع عنه كل حجاب يمنعه من مطالعة الغيوب.

وأمثال ذلك، أو: مثل من يدعوه ظاناً أنه محتاج إلى عبادته، وأنهم يصلغون ضره ونفعه، فيطلب منه ذلك الفعل. و يذكر أنه إذا لم يفعله حصل له من الخلق ضرير. وهذا ونحوه جهل بالله واعتداء في الدعاء. وإن وقع في ذلك طائفة من الشيوخ ومثل أن يقولون: «اللهم اغفر لي إن شئت» فيظن أن الله قد يفعل الشيء مكرهاً وقد يفعل مختاراً. كالمملوك فيقول: «اغفر لي إن شئت». وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك فقال: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت اللهم أرحمني إن شئت ولكن ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له»، ومثل: أن يقصد السجع في الدعاء ويتشبه ويتشدد، وأمثال ذلك. فهذه الأدعية ونحوها منهي عنها أهد.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله «اللهم اغفر لي إن شئت» قال القرطبي: إنما نهى الرسول ﷺ عن هذا القول؛ لأنه يدل على فتور الرغبة، وقلة الاهتمام بالمطلوب. وكان هذا القول يتضمن أن هذا المطلوب إن حصل وإلا استغنى عنه، ومن كان هذا حاله لم يتحقق من حاله الافتقار والاضطرار، الذي هو روح عبادة الدعاء، وكان ذلك دليلاً على قلة معرفته بذنوبه، وبرحمة ربه. وأيضاً فإنه لا يكون موقناً بالإجابة. وقد قال عليه السلام: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل»^(٣).

وقال عبدالرحمن آل الشيخ^(٤): بخلاف العبد، فإنه قد يعطى السائل مسألته لحاجته إليه، أو لخوفه أو رجائه، فيعطيه مسألته وهو كاره. فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلق حصول حاجته على مشيئة المسؤول، مخافة أن يعطيه وهو كاره، بخلاف رب العالمين، فإنه تعالى لا يلبق به ذلك لكمال غناه عن جميع خلقه، وكمال جوده وكرمه، وكلهم فقير إليه، ومحتاج لا يستغنى عن ربه طرفة عين، وعطاؤه كلام.

(٢) تيسير العزيز الحميد: ٤٩١

(١) مجموع الفتاوى (٧١٤، ٧١٣/١٠).

(٣) [ضعيف] رواه الترمذى (٣٤٧٩) واستغربه وانظر «الأذكار للنووي» (١٠٤٩ - بتخریجنا).

(٤) فتح المجيد ٦٣٢/٢

وفى الحديث «يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار؛ أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم تغض ما فى يمينه، وفى يده الأخرى القسط يخفضه ويرفعه»^(١): يعطى تعالى لحكمة، ويمنع لحكمة، وهو الحكيم الخبير. اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٢): فى الجملة الأولى: «اغفر لى» النجاة من المكروه، وفى الثانية: «ارحمنى» الوصول إلى المطلوب؛ فيكون هذا الدعاء شاملاً لكل ما فيه حصول المطلوب وزوال المكروه. اهـ.

قلت: لكن تقدم أن فى بعض الالفاظ: «ارزقنى» لذا قال ابن حجر: ارحمنى هذا للتمثيل وليس هذا كل ما يدعى الله به.
قوله: «ليعزم المسألة».

قال ابن حجر^(٣): ولمسلم من طريق عطاء بن ميناء عن أبى هريرة «ليعزم فى الدعاء» وله من رواية العلاء «ليعزم وليعظم الرغبة» ومعنى قوله ليعظم الرغبة أى يبالغ فى ذلك بتكرار الدعاء والإلحاح فيه، ويحتمل أن يراد به الأمر بطلب الشيء العظيم الكثير ويؤيده ما فى آخر هذه الرواية «فإن الله لا يتعاطمه شيء». المراد بالمسألة الدعاء، والضمير أن الله تعالى، أو الأول ضمير الشأن والثانى لله تعالى جزماً.

قال الداودى: معنى قوله «ليعزم المسألة» أن يجتهد ويلح ولا يقل إن شئت كالمستثنى، ولكن دعاء البائس الفقير.
قلت: - أى ابن حجر - وكأنه أشار بقوله كالمستثنى إلى أنه إذا قالها على سبيل التبرك لا يكره وهو جيد.

فى رواية أنس قال: (فليعزم المسألة) فى رواية أحمد عن إسماعيل المذكور «الدعاء» ومعنى الأمر بالعزم الجهد فيه، وأن يعزم بسوقه مطلوبه ولا يعلق ذلك بمشيئة الله تعالى، وإن كان مأموراً فى جميع ما يريد فعله أن يعلقه بمشيئة الله تعالى. وقيل: معنى العزم أن يحسن الظن بالله فى الإجابة.

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قوله: «ليعزم المسألة» قال القرطبى أى: ليعزم فى

(١) [متفق عليه] البخارى (٥٣٥٢) ومسلم فى الزكاة (٣٦/٨٦/٤) عن أبى هريرة به.

(٢) القول المفيد ١١١/٣. (٣) الفتح ٦٣٣٨، ٧٤٦٤.

(٤) تيسير العزيز ٤٩٢.

طلبت، ويحقق رغبته، ويتيقن الإجابة، فإنه إذا فعل ذلك دل على علمه بعظيم ما يطلب من المغفرة والرحمة، وعلى أنه مفتقر إلى ما يطلب مضطر إليه، وقد وعد الله المضطر بالإجابة بقوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): اللام لام أمر، ومعنى عزم المسألة: أن لا يكون فى تردد بل يعزم بدون تردد ولا تعليق.

و«المسألة» السؤال ؛ أى: ليعزم فى سؤاله فلا يكون متردداً بقوله: إن شئت. اهـ.
قوله «فإن الله لا مكره له».

قال ابن تيمية^(٢): فبين أن الرب سبحانه يفعل ما يشاء لا يكرهه أحد على ما اختاره، كما قد يكره الشافع المشفوع إليه. وكما يكره السائل المسؤل إذا ألح عليه وآذاه بالمسألة فالرغبة يجب أن تكون إليه... والرهبة تكون من الله. اهـ.

قال ابن حجر^(٣): ومكره بضم أوله وكسر ثالثه وفى رواية (فإنه لامستكره له) وهما بمعنى، والمراد أن الذى يحتاج إلى التعليق بالمشيئة ما إذا كان المطلوب منه يتأتى إكراهه على الشيء فيخفف الأمر عليه ويعلم بأنه لا يطلب منه ذلك الشيء إلا برضاء، وأما الله سبحانه فهو منزّه عن ذلك فليس للتعليق فائدة. وقيل: المعنى أن فيه صورة الاستغناء عن المطلوب والمطلوب منه، والأول أولى. وقد وقع فى رواية عطاء بن ميناء «فإن الله صانع ما شاء» وفى رواية العلاء «فإن الله لا يتعاطمه شيء أعطاه».

قال ابن عبد البر: لا يجوز لأحد أن يقول اللهم أعطني إن شئت وغير ذلك من أمور الدين والدنيا لأنه كلام مستحيل لاوجه له لأنه لايفعل إلا ما شاءه، وظاهره أنه حمل النهى على التحريم، وهو الظاهر، وحمل النووى النهى فى ذلك على كراهة التنزيه وهو أولى، ويؤيده حديث الاستخارة.

قال ابن بطال: فى الحديث أنه ينبغى للداعى أن يجتهد فى الدعاء ويكون على رجاء الإجابة، ولا يقنط من الرحمة فإنه يدعو كريماً. وقد قال ابن عيينة: لا يمتنع أحداً الدعاء ما يعلم فى نفسه - يعنى من التقصير - فإن الله قد أجاب دعاء شر خلقه وهو إبليس حين قال ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُعْثَرُونَ﴾^(٤). اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قوله: فإنه لا مكره له. أى: فإن الله لا مكره له هذا

(١) القول المفيد ١١١/٣

(٢) مجموع الفتاوى (٧٣/٢٧)

(٤) ص: ٧٩

(٣) الفتح ١٤٤/١١

(٥) تيسير العزيز ٤٩٢

لفظ البخارى فى الدعوات، ولفظ مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله: «لا يقولن أحدكم اللهم اغفرلى إن شئت، اللهم ارحمنى إن شئت، ليعزم على المسألة فى الدعاء، فإن الله صانع ما شاء، لا مكره له».

قال القرطبي: هذا إظهار لعدم فائدة تقبل الاستغفار والرحمة بالمشيئة. كأن الله تعالى لا يضطره إلى فعل شيء دعاء ولا غيره، بل يفعل ما يريد ويحكم ما يشاء. ولذلك قيد الله تعالى الإجابة بالمسألة فى قوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾^(١) فلا معنى لاشتراط المشيئة بقله. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): فاللائق بمن سأل الله أن يعزم المسألة، فإنه لا يعطى عبده شيئاً عن كراهة، ولا عن عظم مسألة. وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه:

ويعظم فى عين الصغير صغارها ويصغر فى عين العظيم العظام

وهذا بالنسبة إلى ما فى نفوس أرباب الدنيا، وإلا فإن العبد يعطى تارة، ويمنع أكثر، ويعطى كرهاً؛ والبخل عليه أغلب. وبالنسبة إلى حاله هذه قليس عطاؤه بعظيم. وأما ما يعطيه الله تعالى عباده فهو دائم مستمر، وجود بالنوال قبل السؤال، من حين وضعت النطفة فى الرحم. فنعمه على الجنين فى بطن أمه دأبه، يربيه أحسن تربية، فإذا وضعت أمه عطف عليه والديه ورباه بنعمه حتى يبلغ أشده، يتقلب فى نعم الله مدة حياته، فإن كانت حياته على الإيمان والتقوى ازدادت نعم الله تعالى عليه إذا توفاه أضعاف أضعاف ما كان عليه فى الدنيا من النعم التى لا يقدر قدرها إلا الله، مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين.

وكل ما يناله العبد فى الدنيا من النعم وإن كان بعضها على يد مخلوق، فهو بإذن الله وإرادته وإحسانه إلى عبده، فالله تعالى هو الم محمود على النعم كلها، فهو الذى شاءها وقدرها، وأجرها عن كرمه وجوده وفضله. فله النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن. قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ وقد يمنع سبحانه عبده إذا سألته لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع، وقد يؤخر ما سألته عبده لوقته المقدر، أوليعطيه أكثر. فتبارك الله رب العالمين اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: (فإنه لا مكره له).

(٢) فتح المجيد ٢/ ٦٣٤.

(١) الأنعام : ٤١.

(٣) القول المفيد (٣/ ١١٢: ١١٤)

تعليق للنهي عن قول : «اللهم ! اغفر لي إن شئت، اللهم ! ارحمني إن شئت» ؛
أى: لا أحد يكرهه على ما يريد فيمنعه منه، أو مالا يريد فيلزمه بفعله ؛ لأن الأمر كله
لله وحده.

والمحظور في هذا التعليق من وجوه ثلاثة:

الأول: أنه يشعر بأن الله له مكره على الشيء، وأن وراءه من يستطيع أن يمنعه،
فكأن الداعي بهذه الكيفية يقول: أنا لا أكرهك، إن شئت فاغفر وإن شئت فلا تغفر .

الثاني: أن قول القائل: «إن شئت» كأنه يرى أن هذا أمر عظيم على الله فقد لا يشاؤه
لكونه عظيماً عنده، ونظير ذلك أن تقول لشخص من الناس - والمثال للصورة بالصورة
لا للحقيقة بالحقيقة -: أعطني مليون ريال إن شئت، فإنك إذا قلت له ذلك ؛ ربما يكون
الشيء عظيماً يتناقله، فقولك: إن شئت ؛ لأجل أن تهون عليه المسألة ؛ فالله - عز وجل
- لا يحتاج أن تقول له: إن شئت ؛ لأنه - سبحانه وتعالى - لا يتعاضمه شيء أعطاه،
ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «وليُعْظَمَ الرغبة؛ فإن الله لا يتعاضمه شيء أعطاه».

«وليُعْظَمَ الرغبة» ؛ أى: ليسأل ماشاء من قليل وكثير ولا يقل: هذا كثيراً أسأل الله
إياه، ولهذا قال: «فإن الله لا يتعاضمه شيء أعطاه» ؛ أى: لا يكون الشيء عظيماً عنده
حتى يمنعه ويبخل به - سبحانه وتعالى - كل شيء يعطيه، فإنه ليس عظيماً عنده؛ فالله
- عز وجل - يبعث الخلق بكلمة واحدة، وهذا أمر عظيم، لكنه يسير عليه، قال تعالى:
﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(١): وليس بعظيم؛ فكل
ما يعطيه الله - عز وجل - لأحد من خلقه فليس بعظيم يتعاضمه؛ أى: لا يكون الشيء
عظيماً عنده حتى لا يعطيه، بل كل شيء عنده هين.

الثالث: أنه يشعر بأن الطالب مستغن عن الله، كأنه يقول: إن شئت فافعل، وإن
شئت فلا تفعل فأنا لا يهمني، ولهذا قال: «وليُعْظَمَ الرغبة» ؛ أى: يسأل برغبة عظيمة،
والتعليق ينافي ذلك؛ لأن المعلق للشيء المطلوب يشعر تعليقه بأنه تعليق مستغن عنه،
والإنسان ينبغي أن يدعو الله تعالى وهو يشعر أنه مفتقر إليه غاية الافتقار، وأن الله قادر
على أن يعطيه ما سأل، وأن الله ليس يعظم عليه شيء، بل هو هين عليه، إذا من
آداب الدعاء أن لا يدعو بهذه الصيغة، بل يجزم فيقول: اللهم ! اغفر لي، اللهم !
ارحمني، اللهم وفقني ! وما أشبه ذلك.

(١) التغابن: ٧.

وَلِمُسْلِمٍ «وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاضَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ» (*) .

وهل يجزم بالإجابة؟

الجواب: إذا كان الأمر عائداً إلى قدرة الله ؛ فهذا يجب أن تجزم بأن الله قادر على ذلك ، قال الله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (١) .

أما من حيث دعائك أنت باعتبار ما عندك من الموانع ، أو عدم توافر الاسباب ؛ فإنك قد ترددت في الإجابة ، ومع ذلك ينبغي أن تحسن الظن بالله ؛ لأن الله - عز وجل - قال : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ؛ فالذى وفقك لدعائه أولاً سيمن عليك بالإجابة آخراً ، لا سيما إذا أتى الإنسان بأسباب الإجابة وتجنب الموانع ، ومن الموانع الاعتداء في الدعاء ، كأن يدعو بإثم أو قطيعة رحم .

ومنها أن يدعو بما لا يمكن شرعاً أو قدراً :

فشرعاً كأن يقول : اللهم ! اجعلني نبياً .

وقدراً بأن يدعو الله تعالى بأن يجمع بين النقيضين ، وهذا أمر لا يمكن ؛ فالاعتداء بالدعاء مانع من إجابته ، وهو محرم ، لقوله تعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ، وهو أشبه ما يكون بالاستهزاء بالله - سبحانه - أهـ .

قوله ولمسلم : «وليعظم الرغبة ، فإن إليه لا يتعاضم شيء أعطاه» .

قال النووي في «شرح مسلم» (٢) : ومعنى الحديث : استحباب الجزم في الطلب ، وكراهة التعليق على المشيئة ، قال العلماء : سبب كراهته أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حق من يتوجه عليه الإكراه ، والله تعالى منزّه عن ذلك ، وهو معنى قوله ﷺ في آخر الحديث «فإنه لا مستكره له» وقيل : سبب الكراهة أن في هذا اللفظ صورة الاستعفاء على المطلوب والمطلوب منه . أهـ .

وقال أيضاً : قال العلماء : عزم المسألة الشدة في طلبها ، والجزم من غير ضعف في الطلب ، ولا تعليق على مشيئة ونحوها ، وقيل : هو حسن الظن بالله تعالى في الإجابة . أهـ .

(١) غافر : ٦٠ .

(٢) مسلم بشرح النووي (٩/ ١٠) .

(*) تقدم تخريجه .

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «وليعظم الرغبة» هو بالتشديد، فإن الله لا يتعاضمه شيء أعطاه يقال: تعاضم زيد هذا الأمر أى: كبر عليه وعسر. قال: والرغبة يعنى الطلبة والحاجة التى يريد.

وقيل: السؤال والطلب تعظيم على هذا بالإلحاح. والأول أظهر أى: لسعة جوده وكرمه، لايعظم عليه إعطاء شيء، بل جميع الموجودات فى أمره يسير، وهو أكبر من ذلك. وهذا هو غاية المطالب، فالإقتصار على الذاتى فى المسألة إساءة ظن بجوده وكرمه. اهـ.

قال حامد بن محمد^(٢): فكيف والدنيا كلها ماتسوى عند الله جناح بعوضة كما ورد فى الحديث: «لو تسوى الدنيا عند الله جناح بعوضة ماسقى كافراً شربة ماء» اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣): قوله: «وليسلم» وليعظم الرغبة» أى: فى سؤاله ربه حاجته، فإنه يعطى العظام كرمأ وجوداً وإحساناً. فالله تعالى لايتعاضمه شيء أعطاه، أى ليس شيء عنده بعظيم، وإن عظم فى نفس المخلوق؛ لأن سائل المخلوق لايسأله إلا ما يهون عليه بذله، بخلاف رب العالمين، فإن عطائه كلام: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» ف سبحانه من لايقدر الخلق قدره، لا إله غيره، ولارب سواه. اهـ.

قال ابن باز: بل هو الله تعالى العظيم الشأن الغنى الحميد وكل شيء يعطيه عباده فهى عنده قليلة يسيره وإن أعطاهم شيئاً عظيماً سبحانه وتعالى.

فعلى المؤمن أن يكون شديد الرغبة فيما عندالله شديد التعلق بالله شديد اللجوء إليه والإنكسار وأن يسأله سؤال الراغب المضطر ولايستثنى وكذلك إذا دعا لإخوانه لايقول غفر الله لك إن شاء أو رحمك إن شاء الله. بل يجزم ولايقول إن شاء الله ولو تبركاً فلا يستثنى أبداً. ولايقول اللهم اغفر لى ماشئت. اهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٩٢)

(٢) فتح الله الحميد المجيد (٤٣٣).

(٣) فتح المجيد (٦٣٣/٢، ٦٣٤).

مَسَائِل

الأولى : التَّهْنِىُّ عَنِ الْإِسْتِثْنَاءِ فِي الدُّعَاءِ.

الثانية : بَيَانُ الْعِلَّةِ فِي ذَلِكَ .

الثالثة : قَوْلُهُ «لِيَعَزِمَ الْمَسْأَلَةَ».

الرابعة : إعْظَامُ الرَّغْبَةِ.

قال ابن عثيمين:

قوله وفيه مسائل:

● فيه مسائل:

● الأولى: النهى عن الاستثناء فى الدعاء.

والمراد بالاستثناء هنا الشرط، فإن الشرط يسمى استثناء بدليل قوله ﷺ لضباعة بنت الزبير: «حجى واشترطى؛ فإن لك على ربك ما استثنيت»^(١)، ووجهه أنك إذا قلت: أكرم زيدا إن أكرمك؛ فهو كقولك: أكرم زيدا إلا ألا يكرمك؛ فهو بمعنى الاستثناء فى الحقيقة.

● الثانية: بيان العلة فى ذلك

وقد سبق أنها ثلاث علل:

١- أنها تشعر بأن الله له مكره، والأمر ليس كذلك .

٢- أنها تشعر بأن هذا أمر عظيم على الله قد يثقل عليه ويعجز عنه، والأمر ليس كذلك .

٣- أنها تشعر باستغناء الإنسان عن الله، وهذا غير لائق وليس من الأدب .

قلت: ولأن ذلك من الدعاء كما تقدم.

● الثالثة: قوله «ليعزم المسألة».

تفيد أنك إذا سألت فاعزم ولا تتردد.

● الرابعة: إعظام الرغبة .

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٩/ ٥٠)، ومسلم فى الحج (٨/ ١٣١ - النووى) وانظر «السلسيل» (١٤٠٨ - بتخريجنا).

الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

لقلوه، «وليعظم الرغبة»؛ أى: ليسأل ما بدا له فلا شيء عزيز أو ممتنع على الله. قلت: اللهم أجعلنى من العلماء العاملين وما ذلك على الله بعزيز ذلك لأن من إعظام الرغبة طلب الفردوس الأعلى كما جاء فى الأثر إذا سئلت الله فستلوه الفردوس (*) «الأعلى» ولأن ابن حجر قال فى شرح الحديث وفيه إشارة إلى أن درجة المعاهد قد ينالها غير المعاهد إما بالنية الخالصة أو بما يوازيه من الأعمال الصالحة لأنه - ﷺ - أمر الجميع بالدعاء بالفردوس بعد أن علمهم أنه أعد للمجاهدين، وقيل فيه جواز الدعاء بما لا يحصل للداعي لما ذكرته والأول أولى والله أعلم. اهـ.

● الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

يستفاد من قوله: «فإن الله لا يتعاطمه شيء، أولاً مكره له» وقوله «وليعظم الرغبة»، وفى هذا حسن تعليم الرسول ﷺ إذا ذكر شيئاً قرنه بعلة.

وفى ذكر علة الحكم فوائد:

الأولى: بيان سمو هذه الشريعة، وأنه مامن شيء تحكم به إلا وله علة وحكمة.

الثانية: زيادة طمأنينة الإنسان؛ لأنه إذا فهم العلة مع الحكم اطمأن، ولهذا لما سئل ﷺ عن بيع الرطب بالتمر لم يقل حلال أو حرام، بل قال: «أينقص إذا جف؟» قالوا: نعم فنهى عنه (١):

«والرجل الذى قال: إن امرأتى ولدت غلاماً أسود - لم يقل الولد لك - ، بل قال: هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: ما ألوانها؟ قال: حمر قال: هل فيها من أورك - الأورق: الأشهب الذى بين البياض و السواد؟ قال: نعم. قال: من أين؟ قال: لعله نزعة عرق، قال: لعل ابنك نزعه عرق» (٢)، فاطمأن، وعرف الحكم، وأن هذا هو الواقع؛ فقرن الحكم بالعلة يوجب الطمأنينة ومحبة الشريعة والرغبة فيها.

الثالثة: القياس إذا كانت المسألة فى حكم من الأحكام؛ فيلحق بها ما شاركها فى العلة. اهـ.



(*) [صحيح] الحديث أخرجه البخارى (٢٧٩٠).

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد فى «مسنده» (٦٧٥/١)، وأبو داود (٣٣٥٩)، والنسائى (٦٠٣٤)، والترمذى (٣٣٥٩)، وابن ماجه (٢٢٦٤) عن سعد بن أبى وقاص به.

وأنظر «السلسيل» (١٥٩٦ - بتخریجنا).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥٣٠٥)، ومسلم فى اللعان (١٣٣/١٠ - النووى) عن أى هريرة به.

أنظر «تيسير العلام» بتخریجنا.

باب (٥٣) لَا يَقُولُ : عَبْدِي وَأَمْتِي

● مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال الفقير: - ان كلا البابين تضمن من الأدلة ما ينفي النقص عن الله بضرب الأمثال له أو بما يوهم ذلك وهذا إثبات للكمال في الربوبية وفي ذاته وأسماءه وصفاته ولأنها جميعاً تنهى عن كل لفظ يقدح في ربوبيته أو أولوحيته أو أسمائه أو صفاته فناسب أن يذكرها المصنف رحمة الله على نسق واحد وترتيب واحد.

● مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

- قال سليمان آل الشيخ^(١): لما في ذلك من الإيهام من المشاركة في الربوبية، فنهى عن ذلك أدباً مع جناب الربوبية، وحماية لجناب التوحيد. أ. هـ

- وقال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): هذه الألفاظ المُنْهَى عنها. وإن كانت تُطْلَق لغة، فالنبي ﷺ نهى عنها تحقيقاً للتوحيد، وسدّاً لذرائع الشُّرك، لما فيها من التَّشْرِك في اللفظ؛ لأنَّ الله تعالى هو رب العباد جميعهم. فإذا أُطلق على غيره شاركه في الاسم. فينهى عنه لذلك. وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التي هي وصف الله تعالى. وإنما المعنى أن هذا مالك له، فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار. فالنهي عنه حسماً لمادة التَّشْرِك بين الخالق والمخلوق، وتحقيقاً للتوحيد، وبعداً عن الشُّرك حتَّى في اللفظ.

وهذا من أحسن مقاصد الشريعة، لما فيه من تعظيم الرب تعالى، وبعد عن مشابهة المخلوقين. أ. هـ

- وقال عبدالله بن جار الله بنحو ما تقدم حيث قال^(٣): هي أن إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله مما ينافي كمال التوحيد؛ لما فيهما من التشريك في اللفظ بين الخالق والمخلوق. اهـ.

- وقال ابن باز بنحو ما تقدم فقال^(٤): - هذا الباب مما ينافي كمال التوحيد. أي عندما يخاطب الرجل غلامه أو جاريته فلا يقول عبدي وأمتي تأدباً مع الله تعالى بل

(٢) فتح المجيد (٢/ ٦٣٥، ٦٣٦).

(٤) التعليق المفيد (٢٤٣).

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٩٢).

(٣) الجامع الفريد (١٦٤).

قال فى الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعَمَ رَبِّكَ، وَصَيَّءَ رَبِّكَ. وَلَيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ. وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأُمْتِي. وَلَيَقُلْ فَتَاىَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي» (١).

يقول فتاى وفتاتى وغلامى وخادمى ونحو ذلك لأن العبيد عبيد الله والإماء إماء الله. فهذا من باب الكمال والتأدب مع الله عز وجل والاعتراف له سبحانه بأنه المالك لكل شىء والمتصرف فى كل شىء.

أما إذا قيل عبد فلان أو إماء فلان فهذا من باب الإخبار وهو أسهل وليس من باب الإضافة إلى النفس. أهـ

قال ابن عثيمين: والعلة فى النهى أن فيه إشعاراً بالعبودية، وكل هذا من باب حماية التوحيد والبعد عن التشريك حتى فى اللفظ. أهـ.

● شرح الترجمة:

وقال السعدى (٢): وهذا على وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول عبدى وأمتى إلى فتاى وفتاتى، تحفظاً عن اللفظ الذى فيه أيهام ومحذور ولو على وجه بعيد وليس حراماً وإنما الأدب كمال التحفظ بالالفاظ الطيبة التى لا توهم محذوراً بوجه. فإن الأدب فى الالفاظ دليل على كمال الإخلاص خصوصاً هذه الالفاظ التى هى أمس بهذا المقام. أهـ

قال ابن عثيمين: هذه الترجمة تحتل كراهة هذا القول وتحريمه، وقد اختلف العلماء فى ذلك، وسيأتى التفصيل فيه. أهـ.

وسيأتى تفصيل ذلك من كلام النووى، وابن حجر وشراح كتاب التوحيد.

قوله: قال فى الصحيح عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: لا يقل أحدكم: أطعم ربك....

● مناسبة الحديث للباب:

قال قراوى (٣): حيث نهى الحديث عن تسمية المملوك عبداً، والمملوكة أمة. أهـ

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى العتق/ باب: كراهية السطاول على الرقيق وقوله عبدى أو أمتى (٥/ ٢١٠ - ح ٢٥٥٢ - الفتح) ومسلم فى «الالفاظ من الأدب وغيرها»/ باب: حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد (٥/ ١٥٠ - ح ٧٢٦ - النووى)

وانظر «الأذكار» للنووى (ح ٩٥٤) وانظر «فتح المجيد» (ح ٨٣٠) بتخريجنا

(٢) القول السديد (١٢٢، ١٢٣). (٣) الجديد (٤١٣).

● مناسبة الحديث للتوحيد:

وقال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): وهذا من باب حماية المصطفى ﷺ جناب التَّوْحِيد، فقد بلغ ﷺ أمته كل ما فيه لهم نفع، ونهاهم عن كل ما فيه نقصٌ في الدين. فلا خير إلا دَلَّهم عليه، خصوصاً في تحقيق التَّوْحِيد، ولا شر إلا حذرهم منه، خصوصاً ما يقرب من الشُّرْك لفظاً، وإن لم يقصد به. وبالله التوفيق. اهـ.

قال قرعاوى^(٢): حيث نهى الحديث عن تسمية المملوك عبداً، والمملوكة أمة؛ لأن ذلك إشراك مع الله في الربوبية. أ.هـ.

شرح الحديث:

قوله: قال في الصحيح: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ... إلخ.

قلت: أى في الصحيحين

بوب البخارى عليه باب^(٣) (كراهية التطاول على الرقيق، وقوله عبدي أو أمتي) وقوله الله تعالى: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ وقال: ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ وقال: ﴿وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ وقال: ﴿مَنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ وقال النبي ﷺ: «قوموا إلى سيدكم»^(٤) وقال تعالى: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾: سيدك و«مَنْ سيدكم».

ومسلم في الجهاد

- قوله [وفي الصحيح]:

قال سليمان آل الشيخ^(٥): أى في الصحيحين. أ.هـ.

وقال ابن عثيمين^(٦): سبق التنبيه على مثل هذه العبارة في كلام المؤلف، وهذا الحديث في الصحيحين؛ فيكون المراد بقوله «في الصحيح»؛ أى: في الحديث الصحيح، ولعله أراد «صحيح البخارى»؛ لأن هذا لفظه، أما لفظ مسلم؛ فيختلف عنه. أ.هـ.

قوله «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمَ رَبِّي»

(١) فتح المجيد (٢/٦٣٦).

(٢) الجديد (٤١٣).

(٣) فتح البارى (٥/٢١٠).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤١٢٢)، ومسلم في الجهاد (٦/٣٣٥/٦٤) عن أبي سعيد به.

(٥) تيسير العزيز الحميد (٤٩٣).

(٦) القول المفيد (٣/١٢٠).

قلت: فى مسلم بلفظ: «لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامى وجارىتى وفتاى وفتاتى».

قال النووى^(١): قوله ﷺ: «لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامى وجارىتى وفتاى وفتاتى» وفى رواية «ولا يقل العبد: ربى ولكن ليقل: سيدى» وفى رواية: «ولا يقل العبد لسيدته: مولاي، فإن مولاكم الله» وفى رواية: «لا يقولن أحدكم: اسق ربك أو أطعم ربك أو وضئ ربك، ولا يقل أحدكم: ربى، وليقل: سيدى ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدى أمتى، وليقل: فتاى وفتاتى، غلامى».

قلت: وهو لفظ الباب.

● سبب النهى وعلاقته بالتوحيد:

- وقال ابن حجر^(٢) فى سبب النهى: والسبب فى النهى أن حقيقة الربوبية لله تعالى، لأن الرب هو المالك والقائم بالشئ فلا توجد حقيقة ذلك إلا لله تعالى.

قال الخطابى: سبب المنع أن الإنسان مريب متعبد بإخلاص التوحيد لله وترك الإشراك معه، فكره له المضاهاة فى الاسم لئلا يدخل فى معنى الشرك، ولا فرق فى ذلك بين الحر والعبد، فأما ما لا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجمادات فلا يكره إطلاق ذلك عليه عند الإضافة كقوله رب الدار ورب الثوب.

قال النووى: قال العلماء: مقصود الأحاديث شيان:

أحدهما: نهى المملوك أن يقول لسيدته (ربى)؛ لأن الربوبية إنما حقيقتها لله تعالى؛
الأن الرب هو المالك، أو القائم بالشئ، ولا يوجد حقيقة هذا إلا فى الله تعالى.

● ما جاء فى حكم.

قول الرجل (عبدى، وأمتى وسيدى...):

قال النووى: فإن قيل: فقد قال النبى ﷺ فى أشراط الساعة: «أن تلد الأمة ربتها، أو ربتها»^(٣)؟

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ١٠/٩/٨ - دار الحديث) وينحو هذا قال فى «الأذكار».

(٢) فتح البارى (٢١٣/٥).

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (١٥٧/١ - النووى) عن عمر رضى الله عنه وهو فى

الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه. وأنظر «جامع العلوم والحكم» (٢ - بتخريجنا).

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن الحديث الثاني لبيان الجواز، وأن النهي في الأول للأدب، وكراهة التنزيه لا التحريم.

الثاني: أن المراد النهي عن الإكثار من استعمال هذه اللفظة، واتخاذها عادة شائعة، ولم ينه عن إطلاقها في نادر من الأحوال، وأختار القاضي هذا الجواب

ولأنه في قول المملوك: (سیدی)؛ لقوله ﷺ: «ليقل سيدي» لأن لفظة السيد غير مختصة بالله تعالى اختصاص الرب، ولا مستعملة فيه كاستعمالها، حتى نقل القاضي عن مالك أنه كره الدعاء بسیدی، ولم يأت تسمية الله بالسيد في القرآن، ولا في حديث متواتر، وقد قال النبي ﷺ: «إن ابني هذا سيد»^(١) و «قوموا لسيدكم»^(٢) يعني سعد بن معاذ. وفي الحديث الآخر: «اسمعوا ما يقول سيدكم»^(٣) يعني سعد بن عباد، فليس في قول العبد سيدي إشكال ولا لبس؛ لأنه يستعمله غير العبد والأمة.

ولابأس أيضا بقول العبد لسيد: (مولای)، فإن المولى وقع على ستة عشر معنى، منها: الناصر، والمالك.

قال القاضي: وأما قوله في كتاب مسلم في رواية وكيع وأبي معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رفعه: «ولا يقل العبد لسيد: مولای» فقد اختلف الرواة عن الأعمش في ذكر هذه اللفظة، فلم يذكرها عنه آخرون، وحذفها أصح، والله أعلم.

والثاني: يكره للسيد أن يقول لمملوكه: عبدی وأمتی، بل يقول: غلامی وجاريتی وفتای، وفتاتى؛ لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالى، ولأن فيها تعظيماً بما لا يليق بالخلق استعماله لنفسه، وقد بين النبي ﷺ العلة في ذلك: «كلكلم عبيد الله» فهى عن التطاول في اللفظ كما نهى عن التطاول في الأفعال، وفي إسبال الإزار وغيره.

وأما غلامى وجاريتى وفتاتى وفتاتى، فليس دالة على الملك كدلالة عبدى، مع أنها تطلق على الحر والمملوك، وإنما هى للاختصاص، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ «وَقَالَ لِفَتَايَنِهِ» «قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ».

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٢٧٠٤) عن أبي بكره به.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم في اللعان (١٤/٣٨٣/٥) عن أبي هريرة به.

وأما استعماله الجارية في الحرة الصغيرة فمشهور معروف في الجاهلية والإسلام.
والظاهر أن المراد بالنهاي من استعماله على جهة التعظيم والارتفاع، لا للوصف
والتعريف. أ. هـ.

**قال ابن حجر: وقال ابن بطال: لا يجوز أن يقال لأحد غير الله رب، كما لا يجوز
أن يقال له إله. اهـ.**

والذي يختص بالله تعالى إطلاق الرب بلا إضافة، أما مع الإضافة فيجوز إطلاقه
كما في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾. وقوله ﴿ارْجِعْ
إِلَيَّ رَبِّكَ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام في أشراط الساعة «أن تلد الأمة ربتها»^(١). اهـ.

**قال سليمان آل الشيخ: فإن قلت: قد قال الله تعالى حكاية عن يوسف عليه
السلام: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾^(٢).**

وقال النبي ﷺ في أشراط الساعة: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَةُ رَبَّتَهَا»^(٣) فهذا يدل على الجواز.
قيل: فأما الآية ففيها جوابان.

أحدهما وهو الأظهر: أن هذا جائز في شرع من قبلنا، وقد ورد شرعنا بخلافه.
والثاني: أنه ورد لبيان الجواز، والنهاي للأدب والتسزيه، دون التحريم. وأما الحديث
فليس من هذا الباب للتأنيث، والنهاي عنه أن يقول ذلك للذكر لما فيه من إيهاام المشاركة،
وهو معدوم في الأنثى. أو يقال بحمله على الكراهة في الأنثى أيضاً لورود الحديث
بذلك دون الذكر، لأنه لم يرد فيه إلا النهي، ويقال وهو أظهر: إن هذا ليس فيه إلا
وصفها بذلك لا دعاؤها به، وتسميتها به. وفرق بين الدعاء والتسمية، وبين الوصف،
كما تقول: زيد فاضل؛ فتصفه بذلك ولا تسميه به ولا تدعوه به.

وقال ابن حجر^(٤): قوله «عبدى أو أمتى» أى: كراهية ذلك من غير تحريم،
ولذلك استشهد - البخارى - للجواز بقوله تعالى ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾
وبغيرها من الآيات والأحاديث الدالة على الجواز، ثم أردفها بالحديث الوارد في النهي

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

(٣) تقدم.

(٤) فتح البارى (٢١٣/٥).

عن ذلك، واتفق العلماء على أن النهى الوارد فى ذلك للتنزيه، حتى أهل الظاهر، إلا ما سنذكره عن ابن بطال فى لفظ الرب. اهـ.

وقال أيضاً: فدل على أن النهى فى ذلك محمول على الإطلاق.

ويحتمل أن يكون النهى للتنزيه، وما ورد من ذلك فليبان الجواز.

وقيل هو مخصوص بغير النبى ﷺ ولا يرد ما فى القرآن.

أو المراد النهى عن الإكثار من ذلك واتخاذ استعمال هذه اللفظة عادة. وليس المراد النهى عن ذكرها فى الجملة أ.هـ. قلت:

وتقدم أن هذا إختيار القاضى.

وقال ابن عثيمين^(١): أى: لا يقل أحدكم لعبد غيره، ويحتمل أن يشمل قول السيد لعبده حيث يضع الظاهر موضع المضمّر تعاضاً.

واعلم أن إضافة الرب إلى غير الله تعالى تنقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن تكون الإضافة إلى ضمير المُخاطَب؛ مثل: أطعم ربك، وَصَّى ربك؛ فيكره ذلك للنهى عنه؛ لأن فيه محذورين:

١- من جهة الصيغة؛ لأنه يوهم معنى فاسداً بالنسبة لكلمة رب؛ لأن الرب من أسمائه سبحانه، وهو سبحانه يُطعم ولا يُطعم، وإن كان بلا شك أن الرب هنا غير رب العالمين الذى يطعم ولا يطعم، ولكن من باب الأدب فى اللفظ.

٢- من جهة المعنى أنه يشعر العبد أو الأمة بالذل؛ لأنه إذا كان السيد رباً كان العبد أو الأمة مربوباً.

القسم الثانى: أن تكون الإضافة إلى ضمير الغائب؛ فهذا لا بأس به: كقوله ﷺ فى حديث أشراط الساعة: «أن تلد الأمة ربها»^(٢)، وأما لفظ: «ربتها»؛ فلا إشكال فيه لوجود تاء التأنيث، فلا اشتراك مع الله فى اللفظ؛ لأن الله لا يقال له إلا رب، وفى حديث الضالة - وهو متفق عليه -: «حتى يجدها ربها»^(٣)، وقال بعض أهل العلم: إن حديث الضالة فى بهيمة لا تعبد ولا تتذل؛ فليست كالإنسان، والصحيح عدم الفارق؛ لأن البهيمة تعبد الله عبادة خاصة، قال تعالى: «اللَّهُ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ

(١) القول المفيد (٣/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٣٧٢) ومسلم فى اللفظة (١١/ ٢٠ - النووى) عن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه. به

فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ﴿١﴾ ، وقال في الناس: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ ليس جميعهم: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ (١)، وعلى هذا؛ فيجوز أن تقول: أطعم الرقيق ربّه، ونحوه..

القسم الثالث: أن تكون الإضافة إلى ضمير المتكلم، بأن يقول العبد: هذا ربّي؛ فهل يجوز هذا؟

قد يقول قائل: إن هذا جائز لأن هذا من العبد لسيده، وقد قال تعالى عن صاحب يوسف: ﴿رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى﴾ (٢)؛ أي: سيدي، ولأن المحذور من قول: ﴿رَبِّي﴾ هو إذلال العبد، وهذا منتف؛ لأنه هو بنفسه يقول: هذا ربّي.

القسم الرابع: أن يضاف إلى الاسم الظاهر، فيقال: هذا رب الغلام؛ فظاهر الحديث الجواز، وهو كذلك ما لم يوجد محذور فيمنع، كما لو ظن السامع أن السيد رب حقيقى خالق ونحو ذلك.

قوله: «وضىء ربك».

- قال سليمان آل الشيخ (٣): أمر من الوضوء وفيهما في هذا الحديث زيادة «استق ربك». وكأن المؤلف اقتصرها.

- وذكر كلام الخطابي المتقدم - قال الخطابي: وسبب المنع أن الإنسان مريبوب معبد باخلاص التوحيد لله تعالى، وترك الإشراك به، فترك المضاهاة بالاسم لثلا يدخل في معنى الشرك، ولا فرق في ذلك بين الحر والعبد. وأما من لا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجمادات، فلا يكره أن يطلق ذلك عليه عند الإضافة كقوله: رب الدار والثوب.

قال ابن مفلح في «الفروع»: وظاهر النهى التحريم، وقد يحتمل أنه للكراهية. وجزم به غير واحد من العلماء. اهـ، وتقدم تفضيل المسألة سابقاً.

- وقال حامد بن محمد (٤): تأدباً ولو أنه جائز إطلاق لفظ الرب على صاحب المال كما قال عبدالمطلب لأبرهة: أنا رب الإبل وللييت رب سيمنه. اهـ.

(١) الحج: ١٨.

(٢) القول المفيد (٣/١٢٢، ١٢٣).

(٣) تيسير العزيز ٤٩٤.

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٤٣٥).

قوله: «وليقُل: سيدى ومولاي».

قال ابن حجر (١):

قوله (وليقُل سيدى مولاي) فيه جواز إطلاق العبد على مالكة سيدى.

قال القرطبي وغيره: إنما فرق بين الرب والسيد لأن الرب من أسماء الله تعالى اتفاقاً، واختلف في السيد، ولم يرد في القرآن أنه من أسماء الله تعالى. فإن قلنا إنه ليس من أسماء الله تعالى فالفرق واضح إذ لا التباس وإن قلنا إنه من أسمائه فليس فى الشهرة والاستعمال كلفظ الرب فيحصل الفرق بذلك أيضاً، وقد روى أبو داود والنسائي وأحمد والبخارى فى «الأدب المفرد» من حديث عبدالله بن الشخير عن النبى ﷺ قال «السيد الله» (٢) وقال الخطابى: إنما أطلقه لأن مرجع السيادة إلى معنى الرياسة على من تحت يده والسياسة له وحسن التدبير لأمره، ولذلك سُمى الزوج سيداً، قال: وأما المولى فكثير التصرف فى الوجوه المختلفة من ولى وناصر وغير ذلك، ولكن لا يقال السيد ولا المولى على الإطلاق من غير إضافة إلا فى صفة الله تعالى أنتهى.

وفى الحديث جواز إطلاق مولاي أيضاً، وأما ما أخرجه مسلم والنسائي من طريق الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة فى هذا الحديث نحوه وزاد «ولا يقل أحدكم مولاي فإن مولاكم الله، ولكن ليقُل سيدى» (٣) فقد بين مسلم الاختلاف فى ذلك على الأعمش وأن منهم من ذكر هذه الزيادة ومنهم من حذفها، وقال عياض حذفها أصح.

وقال القرطبي، المشهور حذفها قال: وإنما صرنا إلى الترجيح للتعارض مع تعذر الجمع وعدم العلم بالتاريخ. انتهى.

ومقتضى ظاهر هذه الزيادة أن إطلاق السيد أسهل من إطلاق المولى، وهو خلاف المتعارف، فإن المولى يطلق على أوجه متعددة منها الأسفل والأعلى، والسيد لا يطلق إلا على الأعلى، فكان إطلاق المولى أسهل وأقرب إلى عدم الكراهة والله أعلم. وقد رواه محمد بن سيرين عن أبى هريرة فلم يتعرض للفظ المولى إثباتاً ولا نفيًا، أخرجه أبو داود والنسائي والبخارى فى «الأدب المفرد» بلفظ «لا يقولن أحدكم عبدى ولا أمتى ولا

(١) الفتح ٥/٢١٣.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤/١١٥)، وأبو داود (٤٨٠٦)، والنسائي فى «الكبرى» (١٠٠٧٤) عن عبدالله بن الشخير به.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الألفاظ من الأدب (٩/٨).

يقول المملوك ربى وربتى، ولكن ليقول المالك فتاى وفتاتى والمملوك سيدى وسيدتى، فإنكم المملوكون والرب الله تعالى»^(١) ويحتمل أن يكون المراد النهى عن الإطلاق كما تقدم من كلام الخطابى، ويؤيد كلامه حديث ابن الشخير المذكور والله أعلم، وعن مالك تخصيص الكراهة بالنداء فيكره أن يقول يا سيدى ولا يكره فى غير النداء. اهـ.

قلت: وتقدم تفصيل المسألة من كلام النواوى وابن حجر سابقاً.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): بعد أن ذكر شرح ابن حجر المتقدم.

وحديث ابن الشخير لا ينفى إطلاق لفظ السيد على غير الله، بل المراد أن الله هو الأحق بهذا الاسم بأنواع العبارات، كما أن غيره لا يسمى به. ومولائى. قال النووى: المولى يطلق على ستة عشر معنى، منها النظار والمولى والمالك، وحينئذ فلا بأس أن يقول: مولائى. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣). وهذا من أحسن مقاصد الشريعة، لما فيه من تعظيم الرب تعالى، وبعده عن مشابهة المخلوقين. فأرشدهم إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ. وهو قوله: «سيدى ومولائى» اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤) المتوقع أن يقول: وليقل سيدك ومولاك؛ لأن مقتضى الحال أن يرشد إلى ما يكون بدلاً عن اللفظ المنهى عنه بما يطابقه، وهنا ورد النهى بلفظ الخطاب، والإرشاد بلفظ التكلم، وليقل: «سيدى ومولائى»؛ ففهم المؤلف رحمه الله - كما سيأتى فى المسائل - أن فيه إشارة إلى أنه إذا كان الغير قد نهى أن يقول للعبد: أطعم ربك؛ فالعبد من باب أولى أن ينهى عن قول: أطعمت ربى، وضأت ربى، بل يقول: سيدى ومولائى.

وأما إذا قلنا بأن أطعم ربك خاص بمن يخاطب العبد لما فيه من إذلال العبد بخلاف ما إذا قال هو بنفسه: أطعمت ربى، فإنه يتفنى الإذلال؛ فإنه يقال: إن الرسول ﷺ لما وجه الخطاب لمن يخاطب العبد وجه الخطاب إلى العبد نفسه، فقال: «وليقل: سيدى ومولائى»، أى بدلاً عن قوله: أطعمت ربى، وضأت ربى.

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٢٣/٢)، وأبو داود (٤٩٧٥)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠٠٧٢) عن

أبى هريرة به.

(٣) فتح المجيد ٦٣٦/٢.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٤٩٤.

(٤) القول المفيد ١٢٥/٣.

وقوله: «سیدی».

السيادة في الأصل علو المنزل؛ لأنها من السُّؤْدَدَ والشرف والجاه وما أشبه ذلك.

والسيد يطلق على معان، منها: المالك، والزوج، والشریف المطاع.

وسیدی هنا مضافة إلى ياء المتكلم وليست على وجه الإطلاق.

فالسيد على وجه الإطلاق لا يقال إلا لله - عز وجل -، قال ﷺ: «السيد الله»^(١).

وأما السيد مضافة فإنها تكون لغير الله، قال تعالى: ﴿وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾^(٢).

وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»^(٣)، والفقهاء يقولون: إذا قال السيد لعبده؛ أي: سيد العبد لعبده.

● تنبيه^(٤):

اشتهر عند بعض الناس إطلاق السيدة على المرأة، فيقولون مثلاً: هذا خاص بالرجال، وهذا خاص بالسيدات، وهذا قلب للحقائق؛ لأن السادة هم الرجال، قال تعالى: ﴿وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾، وقال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾^(٥)، وقال ﷺ: «إن النساء عوان عندكم»^(٦)؛ أي: بمنزلة الأسير، وقال في الرجل: «راع في أهله ومسؤول عن رعيته»^(٧)؛ فالصواب أن يقال للواحدة امرأة وللجماعة منهن نساء.

قوله: «مولای».

أي: وليقل مولای، والولاية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ولاية مطلقة، وهذه لله - عز وجل - لا تصلح لغيره؛ كالسيادة المطلقة.

وولاية الله نوعان:

النوع الأول: عامة، وهي الشاملة لكل أحد، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ

(١) تقدم تخريجه

(٢) يوسف: ٢٥.

(٣) تقدم تخريجه في الشفاعة.

(٤) القول المقيّد ١٢٦/٣.

(٥) النساء: ٣٤.

(٦) أخرجه: أحمد (٧٢/٥)، والترمذي (١١٦٣)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٦٩)، وابن ماجه

(١٨٥١) عن عمرو بن الأحوص به. وانظر «رياض الصالحين» (٢٧٨ - بتخريجنا).

(٧) [متفق عليه] أخرجه: البخاري (٨٩٣)، ومسلم في الإمامة (٢١٣/١٢ - النووي) عن ابن عمر

مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ»^(١)؛ فجعل له ولاية على هؤلاء المفتريين، وهذه ولاية عامة.

النوع الثاني: خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾^(٢)، وهذه ولاية خاصة، ومقتضى السياق أن يقال: وليس مولى الكافرين، لكن قال: ﴿لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾؛ أى: لا هو مولى للكافرين ولا أولياؤهم الذين يتخذونهم آلهة من دون الله موالى لهم لأنهم يوم القيامة يتبرؤون منهم.

القسم الثاني: ولاية مقيدة مضافة؛ فهذه تكون لغير الله، ولها فى اللغة معان كثيرة، منها: الناصر، والمتولى للأمر، والسيد، والعتيق.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، قال ﷺ فيما يروى عنه: «من كنت مولاه؛ فعلى مولاه»^(٤)، وقال ﷺ: «إنما الولاء لمن أعتق»^(٥).

ويقال للسلطان ولى الأمر، وللعتيق مولى فلان لمن أعتقه، وعليه يعرف أنه لا وجه لاستنكار بعض الناس لمن خاطب ملكاً بقوله: مولاي؛ لأن المراد بمولاي أى متولى أمرى، ولا شك أن رئيس الدولة يتولى أمورها؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٦). اهـ.

قوله ﷺ: «ولا يقل أحدكم عبدى وأمتى».

قال ابن عثيمين^(٧): قوله (لا يقل) الجملة نهى

(قوله عبدى) أى: للغلام.

قوله (أمتى) أى: للجارية والأمة: الأثنى من المملوكات وتسمى الجارية.

(١) يونس: ٣٠

(٢) محمد: ١١.

(٣) التحريم: ٤.

(٤) أخرجه: أحمد (٣٧٢/٤) عن زيد بن أنعم به.

(٥) [متفق عليه] أخرجه: البخارى ومسلم فى العتق (١٠/١٤٠ - النووى) عن عائشة رضى الله عنها -.

(٦) النساء: ٥٩.

(٧) القول المفيد (٣/١٢٠).

قال ابن حجر^(١) قوله (ولا يقل أحدكم عبدي أمتي) زاد البخاري في «الأدب المفرد» ومسلم من طريق العلاء ابن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة «كلكم عبيد الله وكل نسايتكم إماء الله» ونحو ما قدمته من رواية ابن سيرين، فأرشد رحمته إلى العلة في ذلك لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالى، ولأن فيها تعظيماً لا يليق بالمخلوق استعماله لنفسه.

قال الخطابي: المعنى في ذلك كله راجع إلى البراءة من الكبر والتزام الذل والخضوع لله عز وجل، وهو الذي يليق بالمربوب.

وقال ابن حجر^(٢): واتفق العلماء على أن النهي الوارد في ذلك للتنزيه حتى أهل الظاهر. أه وتقدم شيء من هذا.

قال سليمان آل الشيخ^(٣): - قوله: «ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي»؛ لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالى، ولأن فيها تعظيماً لا يليق بالمخلوق، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم العلة في ذلك.

كما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمْتِي، وَلَا يَقُولَنَّ الْمَمْلُوكُ: رَبِّي وَرَبَّتِي، وَلَيَقُلَّ الْمَالِكُ: فَتَايَ وَفَتَاتِي، وَلَيَقُلَّ الْمَمْلُوكُ: سَيِّدِي وَسَيِّدَتِي، فَإِنَّكُمْ الْمَمْلُوكُونَ، وَالرَّبُّ اللَّهُ تَعَالَى»^(٤) ورواه أيضاً بإسناد صحيح موقوفاً، فهذه علة له. وفي رواية لمسلم «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي فَكُلُّكُمْ عِبْدُ اللَّهِ» قال في «مصابيح الجامع» النهي إنما جاء متوجهاً إلى السيد إذ هو في مظهر الاستطالة، وأما قول الغير: هذا عبد زيد، وهذه أمة خالد فجائر؛ لأنه يقول: إخبار أو تعريفاً، وليس في مظهر الاستطالة.

قلت: - سليمان آل الشيخ - وهو حسن، وقد رويت أحاديث تدل على ذلك، وقال أبو جعفر النحاس: لا نعلم بين العلماء خلافاً أنه لا ينبغي لأحد أن يقول لأحد من المخلوقين: مولاي، ولا يقول: عبدك وعبدي، وإن كان مملوكاً، وقد حظر رسول الله صلى الله عليه وسلم على المملوكين، فكيف للأحرار؟. اهـ.

(١) الفتح ٥/٢١٢.

(٢) الفتح ٥/٢١١.

(٣) تيسير العزيز ٤٩٥.

(٤) تقدم تخريجه.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١):- وكذا قوله: «وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأُمِّي» لأن العبيد عبيد الله. والإماء إماء الله. قال الله تعالى: «إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا»^(٢) ففي إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تَشْرِيْكٌ في اللفظ، فهناهم عن ذلك تعظيماً لله تعالى، وأدباً وبعداً عن الشُّرك، وتحقيقاً للتَّوْحِيد.

قال ابن عثيمين^(٣): هذا خطاب للسيد أن لا يقول: عبدى وأمتى لمملوكه ومملوكته؛ لأننا جميعاً عباد الله، ونساؤنا إماء الله، قال النبي ﷺ: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ»^(٤).

فالسيد منهمى أن يقول ذلك؛ لأنه إذا قال: عبدى وأمتى؛ فقد تَشَبَّهَ بالله - عز وجل - ولو من حيث ظاهر اللفظ؛ لأن الله - عز وجل - يخاطب عباده بقوله: عبدى؛ كما فى الحديث: «عبدى استطعمتك فلم تطعمنى...»^(٥) وما أشبه ذلك.

و«أمتى»؛ أى: للجارية.

والحكم فى ذلك ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يضيفه إلى غيره، مثل أن يقول: عبد فلان أو أمة فلان؛ فهذا جائز، قال تعالى: «وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ»، وقال النبي ﷺ: «ليس على المسلم فى عبده ولا فرسه صدقة»^(٦).

الثانى: أن يضيفه إلى نفسه، وله صورتان:

الأولى: أن يكون بصيغة الخبر، مثل: أطعمت عبدى، كسوت عبدى، أعققت عبدى، فإن قاله فى غيبة العبد أو الأمة؛ فلا بأس به، وإن قاله فى حضرة العبد أو الأمة؛ فإن تَرَبَّ عليه مفسدة تتعلق بالعبد أو السيد منع، وإلا؛ فلا لأن قائل ذلك لا يقصد العبودية التى هى الذل، وإنما يقصد أنه مملوك.

(١) فتح المجيد ٦٣٦.

(٢) مريم: ٦٩.

(٣) القول المفيد ١٢٨/٣، ١٢٩.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩٠٠)، ومسلم فى الصلاة (١٣٦/٣٩٧/٢) عن ابن عمر به.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٤٦٣)، ومسلم فى الزكاة (٥٥/٧ - النووى) عن أبى هريرة به.

وأنظر «السلسلة» (١٠١٧ - بتخريجنا).

الثانية: أن يكون بصيغة النداء، فيقول السيد: يا عبدى! هات كذا؛ فهذا منهى عنه، وقد اختلف العلماء فى النهى: هل هو للكرامة أو التحريم؟ والراجح التفصيل فى ذلك، وأقل أحواله الكرامة.

وإن كان السيد يريد بقوله: «عبدى»؛ أى: مملوكى؛ فالنهى من باب التَّزَرُّع عن اللفظ الذى يوهم الإشراك، وقد سبق بيان حكم ذلك.

وقوله: «وأمتى»

الأمة: الأئمة من المملوكات، وتسمى الجارية.

والعلة من النهى: أن فيه إشعاراً بالعبودية، وكل هذا من باب حماية التوحيد والبعد عن التشريك حتى فى اللفظ، ولهذا ذهب بعض أهل العلم ومنهم شيخنا عبدالرحمن السعدى رحمه الله إلى أن النهى فى الحديث ليس على سبيل التحريم، وأنه على سبيل الأدب والأفضل والأكمل، وقد سبق بيان حكم ذلك مفصلاً. اهـ.

قوله: «وليقل: فتأى وفتاتى».

قال ابن حجر^(١): قوله (وليقل فتأى وفتاتى وغلामى) زاد مسلم فى الرواية المذكورة «وجاريتى» فأرشد ﷺ إلى ما يؤدى المعنى مع السلامة من التعاضم، لأن لفظ الفتى والغلام ليس دالاً على محض الملك كدلالة العبد، فقد كثر استعمال الفتى فى الحر وكذلك الغلام والجارية، قال النووى - وقدما كلامه كاملاً فى أول شرح الحديث -: المراد بالنهى من استعماله على جهة التعاضم لا من أراد التعريف انتهى. ومحل ما إذا لم يحصل التعريف بدون ذلك استعمالاً للأدب فى اللفظ كما دل عليه الحديث. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: وليقل: فتأى وفتاتى، وغلामى أى: لأنها ليست دالة على الملك كدلالة عبدى وأمتى، فأرشد عليه السلام، إلى ما يؤدى المعنى من السلامة من الإيهام والتعاضم، مع أنها تطلق على الحر والمملوك، لكن إضافته تدل على الإخلاص.

قال ابن عثيمين^(٣) مثله جاريتى وغلामى؛ فلا بأس به.

وفى هذا الحديث من الفوائد:

(١) الفتح ٢١٤/٥.

(٢) تيسير العزيز ٤٩٦.

(٣) القول ١٢٩/٣.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ عَبْدِي وَأُمِّي.

الثانية: لَا يَقُولُ الْعَبْدُ: رَبِّي، وَلَا يُقَالُ لَهُ: أَطْعِمِ رَبِّكَ.

١- حسن تعليم الرسول ﷺ، حيث إنه إذا نهى عن شيء فتح للناس ما يباح لهم، فقال: «لا يقل: عبدى وأمتى، وليقل: فتاى وفتاتى»، وهذه كما هى طريقة النبى ﷺ؛ فهى طريقة القرآن أيضاً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾^(١)، وهكذا ينبغي أيضاً لأهل العلم وأهل الدعوة إذا سدوا على الناس باباً محرماً أن يفتحوا لهم الباب المباح حتى لا يضيقوا على الناس ويسدوا الطرق أمامهم؛ لأن فى ذلك فائدتين عظيمتين:

الأولى: تسهيل ترك المحرم على هؤلاء؛ لأنهم إذا عرفوا أن هناك بدلاً عنه هان عليهم تركه.

الثانية: بيان أن الدين الإسلامى فيه سعة، وأن كل ما يحتاج إليه الناس؛ فإن الدين الإسلامى يسعه، فلا يحكم على الناس أن لا يتكلموا بشيء أو لا يفعلوا شيئاً إلا وفتح لهم ما يغنى عنه، وهذا من كمال الشريعة الإسلامية.

٢- أن الأمر يأتى للإباحة؛ لقوله: «وليقل: سيدى ومولائى»، وقد قال العلماء: إن الأمر إذا أتى فى مقابلة شيء ممنوع صار للإباحة، وهنا جاء الأمر فى مقابلة شيء ممنوع، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُلِلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾^(٢).

فيه مسائل:

● الأولى: النهى عن قول: عبدى وأمتى.

قال ابن عثيمين

تؤخذ من قوله: «ولا يقل أحدكم عبدى وأمتى»، وقد سبق بيان ذلك.

● الثانية: لا يقول العبد: ربى، ولا يقال له: أطعم ربك.

تؤخذ من الحديث، وقد سبق بيان ذلك،

(١) البقرة: ١٠٤.

(٢) المائدة: ٢.

الثالثة: تَعْلِيمُ الْأَوَّلِ قَوْل: فَتَاىَ وَفَتَاتِى وَغَلَامِى.

الرابعة : تَعْلِيمُ الثَّانِى قَوْلَ : سَيِّدِى وَمَوْلَاىَ.

الخامسة:التَّنْبِيْهُ لِلْمَرَادِ، وَهُوَ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ حَتَّى فِى الْأَلْفَاظِ.

● الثالثة: تعليم الأول (وهو السيد) قول: فتاى وفتاتى وغلामى.

● الرابعة: تعليم الثانى (وهو العبد) قول: سيدى ومولائى.

● الخامس: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى فى الألفاظ.

وقد سبق ذلك.

وفى الباب مسائل أخرى لكن هذه المسائل هى المقصوده.



● مناسبة الباب لما قبله.

قال الفقير:- أن ما قبله لتعظيم الله بإثبات الكمال له ونفى النقص عنه وكذلك لما كان من تعظيمه وإجلاله تعالى وكمال توحيده عدم رد من سئل به ناسب أن يأتي المصنف بهذا الباب المنعقد لذلك بعد الأبواب الماضية والله أعلم.

● مناسبة الباب للتوحيد

قال ابن باز^(١): ذكر المؤلف هذا الباب لما فيه من تعظيم الله وإجلاله في إعطاء من سأله. اهـ.

قال عبد الله جار الله^(٢): هي أن رد من سأل الله مما ينافي كمال التوحيد لأن رده دليل على عدم إعظام الله تعالى. اهـ.

● شرح الترجمة:

قال سليمان آل الشيخ^(٣): أي: إعظاماً وإجلالاً لله تعالى أن يسأل به في شيء ، ولا يجاب السائل إلى سؤاله ومطلوبه، ولهذا أمر النبي ﷺ بإبرار القسم وتنازعوا هل هو أمر استحباب، أو إيجاب.

وظاهر كلام شيخ الإسلام التفريق بين أن يقصد إلزامه بالقسم فتجب إجابته، أو يقصد إكرامه فلا تجب عليه.

ولهذا أوجب على المقسم في الأولى الكفارة، إذا لم يفعل المحلوف عليه، دون الثانية، لأنه كالأمر، ولا يجب إذا كان للإكرام لأمر النبي ﷺ أبا بكر بوقوفه في الصف ولم يقف، ولأن أبا بكر أقسم على النبي ﷺ ليخبرنه بالصواب والخطأ لما فسر الرؤيا فقال النبي ﷺ: «لا تُقسِم»^(٤) كما في «الصحيحين» قال: لأنه علم أنه لم يقصد الإقسام عليه مع المصلحة المقتضية للكتم اهـ.

(١) التعليق المفيد (٢٤٥)

(٢) الجامع الفريد (١٦٥)

(٣) تيسير العزيز الحميد (٤٩٧)

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٠٤٦) ومسلم في الرؤيا (١٧/٣٢/٨) عن ابن عباس به.

وقال حامد بن محمد^(١): (باب) ما جاء فى بيان أنه (لا يرد من سأل بالله) لأنه أكبر من كل كبير كما قيل:

رأيت الله أكبر كل شيء محاولة وأكثرهم جنوداً

وهو قيم السموات والأرض ومن فيهن ومالك السموات والأرض ومن فيهن ونور السموات والأرض ومن فيهن كما فى الحديث الصحيح عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقول إذا قام إلى الصلاة: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن»^(٢) الحديث.

وأنه تعالى أعظم من كل عظيم لقد عظم السبع الطباق وما حوت والله خلاق الخليفة أعظم ملك على الأكوان عال على الورى له الأمر فيها وهو بالخلق قيم:

ولو لم يكن نور الذى خالق الورى لكان نهار الدهر كالليل أظلم
فسبحانه سبحانه جل قدره فعنه لسان العقل والفهم أبكم
تقاصرت الأفهام عن كنه ذاته ولكن رب الخلق بالخلق أعلم

قال أبو موسى: قام فينا رسول الله بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه، ما انتهى إليه بصره من خلقه» ثم قرأ: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^(٣) فاستنار ذلك بنور وجهه ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى بصره، فمن هذا قدره وعظمته وجلاله، فرض أن يعظم حق العظمة ولا يرد من سأل بالله وقاراً وعظمة له^(٤). اهـ.

قال ابن عثيمين^(٥):

قوله: «باب لا يرد».

«لا»: نافية بدليل رفع المضارع بعدها، والنفي يحتمل أن يكون للكراهة، وأن يكون للتحريم. اهـ.

(١) فتح الله الحميد المجيد (٤٣٧)

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١١٢٠) ومسلم فى صلاة المسافرين (٥٤/٦ - النووى) عن ابن عباس به،

وانظر «الأذكار» النووى (٦٤ - بتخريجنا).

(٣) النمل: ٨ (٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢٩٣/١٦/٢) عن أبى موسى به.

(٥) القول المفيد (١٣٢/٢، ١٣٣)

قال ابن قاسم^(١):

«لأن منع من سأل بالله أو بوجه الله من عدم إعظام الله وإجلاله، وقد جاء الوعيد على ذلك، لحديث أبي موسى رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من سأل بوجه الله وملعون من سئل بوجه الله ثم منع سائله ما لم يسأل هجرًا»^(٢).

وقوله: «من سأل بالله»

قال ابن عثيمين^(٣):

أى: من سأل غيره بالله.

والسؤال بالله ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: السؤال بالله بالصيغ، مثل أن يقول: أسألك بالله كما تقدم فى حديث الثلاثة حيث قال الملك: «أسألك بالذى أعطاك الجلد الحسن واللون الحسن بغيراً»^(٤).

الثانى: السؤال بشرع الله - عز وجل - أى: يسأل سؤالاً يبيحه الشرع، كسؤال الفقير من الصدقة، والسؤال عن مسألة من العلم، وما شابه ذلك.

وحكم من رد من سأل بالله الكراهة أو التحريم حسب حال المسؤل والسائل. اهـ.

فعلى هذا التبويب عدة مسائل:

المسألة الأولى: هل يجوز للإنسان أن يسأل بالله أم لا؟

قال ابن القيم رحمه الله تعالى فى «مدارج السالكين» والمسألة فى الأصل حرام، وإنما أبيحت للحاجة والضرورة، لأنها ظلم فى حق الربوبية، وظلم فى حق المستؤل، وظلم فى حق السائل.

قلت: واستدل على ذلك بأدلة منها ماسياتى من كلام ابن عثيمين.

قال ابن عثيمين^(٥): وهذه المسألة لم يتطرق إليها المؤلف - رحمه الله -، فنقول

أولاً: السؤال من حيث هو: مكروه، ولا ينبغى للإنسان أن يسأل أحداً شيئاً إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولهذا كان مما بايع النبوﷺ أصحابه (أن لا يسألوا الناس شيئاً

(١) القول المفيد (٣٤٧)

(٢) ذكره الهيثمى فى «المجمع» (١٠٣/٣) ونسبه للطبرانى فى «الكبير» قال: وإسناده حسن، على

ضعف فى بعضه مع توثيق.

(٣) [صحيح] القول المفيد (١٣٢/٢، ١٣٣).

(٤) تقدم تخريجه فى حديث الأبرص والأعمى

(٥) القول المفيد ١٣٣/٣٠ : ١٣٥

حتى إنَّ عصا أحدهم لیسقط منه وهو على راحلته، فلا یقول لأحد: ناويله، بل ینزله ویأخذه.

والمعنى یقتضیه ، لأنك إذا أعززت نفسك ولم تذللها لسؤال الناس بقيت محترماً عند الناس، وصار لك منعة من أن تذلل وجهك لأحد، لأن من أذل وجهه لأحد، فإنه ربما یحتاجه ذلك الأحد لأمر یكره أن یعطیه إياه، ولكنه إذا سأله اضطر إلى أن یجیبه، ولهذا روى عن النبی ﷺ أنه قال: «ازهد فیما عند الناس یحبك الناس»^(١) فالسؤال أصلاً مكروه أو محرم إلا لحاجة أو ضرورة .

فسؤال المال محرم: فلا یجوز أن یسأل من أحد مالاً إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وقال الفقهاء رحمهم الله فی باب الزكاة: «إن من أبیح له أخذ شیء أبیح له سؤال» ولكن فیما قالوه، نظر فإن الرسول ﷺ حذر من السؤال، وقال: «إن الإنسان لا یزال یسأل الناس حتى یأتی یوم القيامة وما فی وجهه مزعة لحم»^(٢) وهذا یدل على التحريم إلا للضرورة.

وأما سؤال المعونة بالجاء أو المعونة بالبدن، فهذه مكروهة، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

وأما إجابة السائل، فهو موضوع بابنا هذا، ولا یخلو السائل من أحد أمرین: الأول: أن یسأل سؤالاً مجرداً، كأن یقول مثلاً: یا فلان! اعطنی هذا وكذا فإن كان عما أباحه الشارع له، فإنك تعطیه، كالفقیير یسأل شیئاً من الزكاة.

الثانی: أن یسأل بالله، فهذا تحییه وإن لم یكن مستحقاً، لأنه سأل بعظیم، فإجابته من تعظیم هذا العظیم، لكن لو سأل إنمًا أو كان فی إجابته ضرر على المسؤول، فإنه لا یجاب.

مثال الأول: أن یسأل بالله نقوداً لیشتري بها محرماً كالخمر. ومثال الثانی: أن یسأل بالله أن تخبره عما فی سرك وما تفعله مع أهلک، فهذا لا یجاب لأن فی الأول إعانة على الإثم، وإجابته فی الثانی ضرر على المسؤول. اهـ.

(١) [ضعیف] أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) بإسناد ضعیف وانظر «جامع العلوم والحكم» بتخریجنا وفق الخطابه.

(٢) [متفق علیه] أخرجه البخاری (١٤٧٤) ومسلم فی الزكاة (٤/١٤٠/١٠٣)

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ؛ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ؛ فَأَعِذُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ؛ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا؛ فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ؛ فَأَدْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ (١).

قوله: عن ابن عمر - رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ من سأل بالله، فأعطوه.. حديث.

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوي (٢): حيث دل الحديث على وجوب إعطاء من سأل بالله. اهـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوي (٣): حيث دل الحديث على تحريم رد من سأل بالله لأن ذلك مناف لتعظيم الله وذلك مناف للتوحيد. اهـ.

قوله: «عن ابن عمر رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: من سأل بالله.. إلخ. قلت: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» وأبو داود، والنسائي، وصححه ابن حبان، والحاكم في المستدرک ورواه البيهقي أيضاً في «سننه الكبرى».

قوله: «من استعاذ»

قال شمس الحق (٤): أى من سأل منكم الإعاذة مستغيثاً اهـ.

قوله «بالله فأعِذوه»

قال شمس الحق (٥):

قال الطيبي: أى استعاذ بكم وطلب منكم دفع شركم أو شر غيركم قائلًا: بالله عليك أن تدفع عني شرك فأجيبوه، وادفعوا عنه الشر تعظيمًا لاسم الله تعالى، فالتقدير

(١) [صحيح] أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢١٦)، وأبو داود في الزكاة / باب عطية من سأل بالله (١٦٧٢/١٣١/٢)، والنسائي في «الكبرى» في الزكاة / باب من سأل بالله (٢٣٣٤٨/٤٣/٢)، وابن حبان في «صحيحه» (١٧٧/٥ - الإحسان)، والحاكم في «المستدرک» (٤١٢/١)، والبيهقي في «الكبرى» (١٩٩/١) من طريق الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عمر به.

وانظر «فتح المجيد» (٨٣٢ - بتخريجنا).

(٢، ٣) الجديد ٤١٦، ٤١٧.

(٤، ٥) عون المعبود (٦١/٥/٣).

من استعاذ منكم متوسلاً بالله مستعظماً به، ويحتمل أن يكون الباء صلة استعاذ، أى من استعاذ بالله فلا تعرضوا له بل أعيذوه، وادفعوا عنه الشر فوضع أعيذوا موضع ادفعوا، ولا تعرضوا بمبالغة اهـ.

وينحو هذا قال سليمان آل الشيخ^(١)، وزاد:

ولهذا قالت الجونية للنبي ﷺ: أعوذ بالله منك قال لها: «لقد عذت بعظيم»^(٢) الحقى بأهلك» ولفظ أبى داود، «من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سألكم بوجه الله فأعطوه»^(٣).

وقال ابن باز^(٤): فمن استعاذ بالله شرع أن يعاذ، إذا لم يكن حقاً عليه، فإن استعاذ بالله، فى إسقاط حق عليه، فلا يعاذ، لأن الله أمر بأداد الحقوق، كما إذا قال: أعوذ بالله من أن تلزموني بالصلاة أو الزكاة أو الدين أو الكفارات، ونحو ذلك.

فإن استعاذ من تولية القضاء مع وجود من يقوم مقامه، أو الإمارة ونحو ذلك مما فيه خطر، شرع إعادته، كما يروى عن ابن عمر لما أمره عثمان بالقضاء، استعاذ بالله أن يولى القضاء، فأعاده عثمان.

وهذا إن صح فهو محمول على أن هناك من يقوم مقامه، وكان الصالحون فى عهد عثمان لذلك كثيرون اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٥): لكن يستثنى من ذلك لو استعاذ من أمر واجب عليه، فلا تعذه، مثل أن تلزمه بصلاة الجماعة، فقال: أعوذ بالله منك.

وكذلك لو ألزمته بالإقلاع عن أمر محرم، فاستعاذ بالله منك، فلا تعذه لما فيه من التعاون على الإثم والعدوان، ولأن الله لا يعيذ عاصياً، بل العاصى يستحق العقوبة، لا الانتصار له وإعادته.

وكذلك من استعاذ بملجأ صحيح يقتضى الشرع أن يعيذه - وإن لم يقل استعيذ بالله - فإنه يجب عليك أن تعيذه كما قال أهل العلم: لو جنى أحد جنابة ثم لجأ إلى الحرم، فإنه لا يقام عليه الحد ولا القصاص فى الحرم، ولكنه يُضَيَّقُ عليه، فلا يبايع، ولا يشتري منه، ولا يؤجر حتى يخرج.

بخلاف من انتهك حرمة الحرم بأن فعل الجنابة فى نفس الحرم، فإن الحرم لا يعيذه لأنه انتهك حرمة الحرم اهـ.

قلت: ولما تقدم عند مسلم مرفوعاً من حديث على: «لعن الله من آوى محدثاً»^(*) وهذا يشمل ما إذا آواه ابتداء أو طلب المحدث منه ذلك ثم فصل.

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٩٧). (٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٥٢٥٤) عن عائشة به.

(٣) تقدم تخريجه. (٤) التعليق المفيد (٢٤٥) (٥) القول المفيد ١٣٠/٣، ١٣٧.

(*) [صحيح] أخرجه مسلم فى الأضاحى (٤٣/١٥٥) وتقدم.

وقال السندي^(١) في حاشية «سنن النسائي» حاصله من توسل بالله في شيء، ينبغي أن لا يُحرم ما أمكن . اهـ.

[قلت]: تقدم معنا في باب (من الشرك الاستعاذة بغير الله) تعريف الاستعاذة من كلام ابن القيم وغيره حيث قال هي الالتجاء، والاعتصام، والتحرز، وحقيقتها: الهرب من الشيء تخافه إلى من يعصمك منه ولهذا يسمى المستعاذ به معاذاً وملجأً ووزراً... إلخ، وقدمنا أقسام الاستعاذة وحكم كل قسم منها، وذكرنا أن من أقسام الاستعاذة الاستعاذة المشروعة الثابتة من حديث جابر أن امرأة من بني مخزوم سرت، فأتى بها إلى النبي ﷺ فعاذت بأمر سلمة زوج النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: واللّه لو سرت فاطمة لقطعت يدها. فقطعت.

وعن أبي مسعود أنه كان يضرب غلامه فجعل يقول: أعوذ بالله قال: فجعل يضربه، فقال: أعوذ برسول الله فتركه، فقال رسول الله ﷺ: واللّه لله أقدر عليك منك عليه. فأعتقه. كلاهما في «صحيح مسلم» وانظر تمام الكلام هناك. والله المستعان.

قوله (ومن سأل الله فأعطوه)

قال سليمان آل الشيخ^(٢): وفي حديث ابن عباس عند أحمد وأبي داود «ومن سألكم بوجه الله فأعطوه»^(٣) ومعناه ظاهر، وهو يقول أسألك بالله أو بوجه الله ونحو ذلك، أن تفعل أو تعطيني كذا، ويدخل في ذلك القسم عليه بالله أن يفعل كذا، وظاهر الحديث، وجوب إعطائه ما سأل ما لم يسأل إثمًا، أو قطيعة رحم، وقد جاء الوعيد على ذلك في عدة أحاديث، منها:

حديث أبي موسى مرفوعاً: «ملعون من سئل بوجه الله، وملعون من يسأل بوجهه ثم منع سائله ما لم يسأل هجرًا»^(٤) رواه الطبراني، قال في «تنبية الغافلين» ورجال إسناده رجال الصحيح، إلا شيخه يحيى بن عثمان بن صالح، والأكثر على توثيقه، فإن بلغ هذا الإسناد أو إسناد غيره مبلغًا يحتج به كان ذلك من الكبائر.

وعن أبي عبيدة مولى رفاعة بن رافع مرفوعاً «ملعون من سأل بوجه الله وملعون من سئل بوجه الله فمنع سائله»^(٥) رواه الطبراني أيضًا.

(١) «حاشية المجتبى» (٨٢/٢). (٢) تيسير العزيز الحميد (٤٦٧، ٤٩٨).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٩/١)، وأبو داود (٥١٠٨) عن ابن عباس به. وانظر «فتح المجيد» (٨٣٥) بتخريجنا.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) [ضعيف] أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩٤٣/٣٧٧/٢٢) وقال الهيثمي في المجمع (١٠٣/٣): وفيه

من لم أعرفه.

وعن ابن عباس مرفوعاً: «ألا أخبركم بشرَّ النَّاسِ؟ رجل يُسأل بالله ولا يُعطى» (١)
رواه الترمذى وحسنه، وابن حبان فى «صحيحه».

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشر البرية؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «الذى يُسأل بالله ولا يُعطى» رواه أحمد (٢).

إذا تبين هذا فهذه الأحاديث دالة على إجابة من سأل بالله أو أقسم به، ولكن قال شيخ الإسلام: إنما تجب على معين، فلا تجب على سائل يقسم على الناس، وظاهر كلام الفقهاء أن ذلك مستحب كإبرار القسم، والأول أصح.

قال عبد الرحمن آل الشيخ (٣): ظاهر الحديث النهى عن رد السائل إذا سأل بالله، لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل بحسب ما ورد فى الكتاب والسنة، فيجب إذا سأل السائل ما له فيه حق كيئ المال أن يُجَاب، فيعطى منه على قد حاجته وما يستحقه وجوباً، وكذلك إذا سأل المحتاج من فى ماله فضل فيجب أن يعطيه على حسب حاله ومسألته، خصوصاً إذا سأل من لا فضل عنده، فيستحب أن يعطيه على قدر حال المسؤول ما لا يضره ولا يضر عائِلته، وإن كان مضطراً وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته.

ومقام الإنفاق من أشرف مقام الدين، وتفاوت الناس فيه بحسب ما جبلوا عليه من الكرم والجود وضدَّهما من البخل والشح.
فالأول محمودٌ فى الكتاب والسنة.
والثانى: مذموم فيهما.

وقد حث الله تعالى عباده على الإنفاق، لعظيم نفعه وتعدّيه، وكثرة ثوابه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٤)﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ (٥) وذلك الإنفاق فى

(١) [إسناده صحيح] أخرجه أحمد (٢١١٦، ٢٩٣٠، ٢٩٣١ شاكراً) والترمذى (١٦٥٢) والنسائى (٨٣/٥). قال أحمد شاكراً: إسناده صحيح.

(٢) [ضعيف] أخرجه أحمد (٩١٥٣) وقال فى المجمع (٢٧٩/٥) فيه أبو معشر نجيح: ضعيف.

(٣) فتح المجيد ٢/٧٥٨/٧٥٩

(٤) البقرة: ٢٦٧/٢٦٨.

(٥) الحديد: ٧.

خصال البر المذكورة في قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

فذكره بعد ذكر أصول الإيمان، وقبل ذكر الصلاة، وذلك والله أعلم لتعدي نفعه، وذكره تعالى في الأعمال التي أمر بها عباده، وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء، نصحا للأمة وحثا لهم على ما ينفعهم عاجلاً وأجلاً.

وقد أثنى الله سبحانه على الانتصار رضى الله عنهم بالإيثار، فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١). والإيثار من أفضل خصال المؤمن كما نفيد هذه الآية الكريمة، وقد قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا^(٢).

والآيات والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة جداً، ومن كان سعيه للدار الآخرة رغب في هذا ورغب وبالله التوفيق.

وقال ابن عثيمين^(٣): (من سأل بالله) (من) شرطية للعموم: وقوله: «فأعطوه».

(١) الحشر: ٩.

(٢) القول المفيد (٣/ ١٣٥: ١٣٦).

الأمر هنا للوجوب ما لم يتضمن السؤال إثماً أو ضرراً على المسؤول، لأن في إعطائه إجابة لحاجته وتعظيماً لله - عز وجل - الذي سأل به.

ولا يشترط أن يكون سؤاله. بلفظ الجلالة بل بكل اسم يختص بالله، كما قال الملك الذي جاء إلى الأبرص والأقرع والأعمى: «أسألك بالذي أعطاك كذا وكذا»^(١). اهـ.

قوله [ومن دعاكم فأجيبوه]

[قلت]: بوب البخارى فى صحيحه: (باب/ حق إجابة الوليمة والدعوة) ثم أسند عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعى أحدكم إلى الوليمة فليأتها»^(٢). وبسنده أيضاً عن أبى موسى عن النبى ﷺ: «فكوا العانى، وأجيبوا الداعى، وعودوا المريض»^(٣).

وبسنده عن البراء بن عازب: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع»^(٤). وفيها «إجابة الداعى». أى مما أمر به الرسول ﷺ.

● حكم إجابة الدعوة

قال ابن حجر^(٥): قول البخارى «حق إجابة» فيشير إلى وجوب الإجابة. اهـ.

ومسلم فى صحيحه فى [باب: الأمر بإجابة الداعى إلى الدعوة]

قال النووى^(٦): هل أمر الرسول ﷺ «فليأتها» إيجاب أو ندب؟

فيه خلاف الأصح فى مذهبنا أنه فرض عين على كل من دعى، لكن يسقط بأعذار سنذكرها إن شاء الله تعالى.

والثانى: أنه فرض كفاية.

والثالث: مندوب. هذا مذهبنا فى وليمة العرس، وأما غيرها ففيها وجهان لأصحابنا:

أحدهما: أنها كوليمة العرس.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥١٧٣)، ومسلم فى النكاح (٩٦/٢٤٩/٥).

(٣) [صحيح] البخارى (٥١٧٤).

(٤) [صحيح] البخارى (٥١٧٥).

(٥) «الفتح» (١٤٩/٩).

(٦) مسلم بشرح النووى (٣٥٣/٦).

والثاني: أن الإجابة إليها ندب وإن كان في العرس واجبة.

ونقل القاضى اتفاق العلماء على وجوب الإجابة فى وليمة العرس.

قال: واختلفوا فيما سواها، فقال مالك والجمهور: لا تجب الإجابة إليها وقال أهل الظاهر: تجب الإجابة إلى كل دعوة من عرس وغيره، وبه قال بعض السلف.

وقال ابن حجر^(١): وقد نقل ابن عبد البر ثم عياض ثم النووى الاتفاق على القول بوجوب الإجابة لوليمة العرس وفيه نظر، نعم المشهور من أقوال العلماء الوجوب، وصرح جمهور الشافعية والحنابلة بأنها فرض عين ونص عليه مالك، وعن بعض الشافعية والحنابلة أنها مستحبة، وذكر اللخمي من المالكية أنه المذهب، وكلام صاحب الهداية يقتضى الوجوب مع تصريحه بأنها سنة، فكأنه أراد أنها وجبت بالسنة وليست فرضاً كما عرف من قاعدتهم، وعن بعض الشافعية والحنابلة هى فرض كفاية.

الأعذار التى يسقط بها وجوب إجابة الدعوة أو ندبها.

قال النووى: وأما الأعذار التى كسقط بها وجوب إجابة الدعوة أو ندبها.

فمنها: أن يكون فى الطعام شبهة، أو يخص بها الأغنياء، أو يكون هناك من يتأذى بحضوره معه، أو لا تليق به مجالسته، أو يدعوه لخوف شره أو لطمع فى جاهه، أو ليعاونه على باطل، وأن لا يكون هناك منكر من خمر أو لهو أو فرش حرير أو صورة حيوان غير مفروشة أو آنية ذهب أو فضة، فكل هذه أعذار فى ترك الإجابة. ومن الأعذار أن يعتذر إلى الداعى فيتركه، ولو دعاه ذمى لم تجب إجابته على الأصح. ولو كانت الدعوة ثلاثة أيام فالأول: تجب الإجابة فيه، والثانى: تستحب، والثالث: تكره.

وحكى ابن دقيق العيد فى «شرح الإمام» أن محل ذلك - أى فرص الكفاية- إذا عمت الدعوة أما لو خص كل واحد بالدعوة فإن الإجابة تتعين، وشرط وجوبها أن يكون الداعى مكلفاً حراً رشيداً، أو أن لا يخص الأغنياء دون الفقراء، وأن لا يظهر قصد التودد لشخص بعينه لرغبة فيه أو رهبة منه، وأن يكون الداعى مسلماً على الأصح وأن يختص باليوم الأول على المشهور، وأن لا يسبق فمن سبق تعينت الإجابة له دون الثانى، وإن جاء معاً قدم الأقرب رحماً على الأقرب جواراً على الأصح، فإن استويا أقرع، وأن لا يكون هناك من يتأذى بحضوره من منكر وغيره.

(١) فتح البارى (٩/ ١٥٠، ١٥١)

وأن لا يكون له عذر وضبطه الماوردي بما يرخص به في ترك الجماعة.

● حكم إجابة الدعوة في غير العرس

قال النووي: قوله ﷺ: «إذا دعى أحدكم إلى وليمة عرس فليجب» قد يحتج به من يخص وجوب الإجابة بوليمة العرس، ويتعلق الآخرون بالروايات المطلقة.

ولقوله ﷺ في رواية أخرى: «إذا دعى أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو نحوه»^(١) ويحملون هذا على الغالب أو نحوه من التأويل. اهـ.

وبوب البخاري^(٢) عليها باب إجابة الداعي في العرس وغيره.

وأخرج بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ «أجيبوا هذه الدعوة إذا دُعيتُم لها» قال: كان عبد الله يأتي الدعوة في العرس وغير العرس وهو صائم^(٣).

قال ابن حجر: قوله: (باب إجابة الداعي في العرس وغيره) ذكر فيه حديث ابن عمر «أجيبوا هذه الدعوة» وهذه اللام يحتمل أن تكون للعهد، والمراد وليمة العرس ويؤيده رواية ابن عمر الأخرى «إذا دعى أحدكم إلى الوليمة فليأتها» وقد تقرر أن الحديث الواحد إذا تعددت ألفاظه وأمكن حمل بعضها على بعض تعين ذلك، ويحتمل أن تكون اللام للعموم وهو الذى فهمه راوى الحديث فكان يأتي الدعوة للعرس ولغيره.

وقد أخرج مسلم عن نافع بلفظ «إذا دعى أحدكم إلى وليمة عرس فليجب» وأخرجه مسلم وأبو داود من طريق أيوب عن نافع بلفظ «إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو نحوه» ولمسلم من طريق الزبيدي عن نافع بلفظ «من دعى إلى عرس أو نحوه فليجب».

وهذا يؤيد ما فهمه ابن عمر وأن الأمر بالإجابة لا يختص بطعام العرس.

وقد أخذ بظاهر الحديث بعض الشافعية فقال بوجوب الإجابة إلى الدعوة مطلقاً عرس كان أو غيره بشرطه.

ونقله ابن عبد البر عن عبيد الله بن الحسن العنبري قاضى البصرة وزعم ابن حزم أنه قول جمهور الصحابة والتابعين. ويعكر عليه ما نقلناه عن عثمان بن أبي العاص وهو

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في النكاح (٥/ ٢٥٠ / ١٠٠) عن ابن عمر به.

(٢) فتح الباري (٩/ ١٥٥).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥١٧٩)، ومسلم في النكاح (٥/ ٢٥٠ / ١٠٣) عن ابن عمر به.

من مشاهير الصحابة أنه قال في وليمة الختان، لم يكن يدعى لها، لكن يمكن الانفصال عنه بأن ذلك لا يمنع القول بالوجوب لو دعوا، وعند عبد الرزاق بإسناد صحيح عن ابن عمر أنه دعا بالطعام فقال رجل من القوم: اعفنى، فقال ابن عمر: إنه لا عافية لك من هذا. فقم^(١)، وأخرج الشافعى وعبد الرزاق بسند صحيح عن ابن عباس أن ابن صفوان دعاه فقال: إني مشغول، وإن لم تعفنى جنته، وجزم بعدم الوجوب في غير وليمة النكاح المالكية والحنفية والحنابلة وجمهور الشافعية، وبالف السرخسى منهم فنقل فيه الإجماع، ولفظ الشافعى: إتيان دعوة الوليمة حق، والوليمة التى تعرف وليمة العرس، وكل دعوة دعى إليها رجل وليمة فلا أرخص لأحد فى تركها، ولو تركها لم يتبين لى أنه عاص فى تركها كما تبين لى فى وليمة العرس.

ومن قال بالوجوب استدل بوقوع الوعيد عليه وإطلاق لفظ العاصى عليه، ولذلك بوب البخارى فى صحيحه: (باب من ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله) وذكر بسنده: عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول «شر الطعام طعام الوليمة، يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله ﷺ»^(٢).

قال ابن حجر^(٣): قوله: (فقد عصى الله ورسوله) هذا دليل وجوب الإجابة، لأن العصيان لا يطلق إلا على ترك الواجب ووقع فى رواية لابن عمر عند أبى عوانة «من دعى إلى وليمة فلم يأتها فقد عصى الله ورسوله» اهـ.

مسألة وهل تجب إجابة الدعوة على الصائم؟

ففى حديث ابن عمر أنه كان يأتى الدعوة فى العرس وغير العرس وهو صائم. قال النووى^(٤): قوله ﷺ: «إذا دعى أحدكم إلى طعام فإن شاء طعم وإن شاء ترك»^(٥) وفى الرواية الأخرى: «فليجب فإن كان صائماً فليصل وإن كان مفطراً فليطعم»^(٦) اختلفوا فى معنى (فليصل) قال الجمهور: معناه: فليدع لأهل الطعام

(١) أخرجه عبد الرزاق فى «مصنفه» (١٩٦٦٣).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٥١٧٧)، ومسلم فى النكاح (٢٣٧/٩) وانظر «رياض الصالحين»

(٢٦٨ - بتخریجنا).

(٣) فتح البارى (١٥٣/٩، ١٥٤).

(٤) مسلم بشرح النووى (٢٥٤/٦).

(٥) [صحيح] أخرجه مسلم فى النكاح (١٠٥/٢٥١/٥) عن جابر به.

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم فى النكاح (١٠٦/٢٥١/٥) عن أبى هريرة به.

بالمغفرة والبركة، ونحو ذلك، وأصل الصلاة فى اللغة الدعاء ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ وقيل: المراد الصلاة الشرعية بالركوع والسجود، أى: يشتغل بالصلاة ليحصل له فضلها ، ولتبرك أهل المكان والحاضرين، وأما المفطر فى الرواية الثانية أمره بالأكل، وفى الأولى مخير واختلف العلماء فى ذلك، والأصح فى مذهبنا أنه لا يجب الأكل فى وليمة العرس، ولا فى غيرها، فمن أوجبه اعتمد الرواية الثانية ، وتأول الأولى على من كان صائماً، ومن لم يوجبه اعتمد التصريح بالتخيير فى الرواية الأولى، وحمل الأمر فى الثانية على الندب ، وإذا قيل بوجوب الأكل فأقله لقمة، ولا تلزمه الزيادة، لأنه يسمى أكلاً ، ولهذا لو حلف لا يأكل حنث بلقمة، ولأنه قد يتخيل صاحب الطعام أن امتناعه لشبهة يعتقدها فى الطعام، فإذا أكل لقمة زال ذلك التخيل ، هكذا صرح باللقمة جماعة من أصحابنا، وأما الصائم فلا خلاف أنه لا يجب عليه الأكل، لكن إن كان صومه فرضاً لم يجز له الأكل، لأن الفرض لا يجوز الخروج منه، وإن كان نفلاً جاز المفطر وتركه، فإن كان يشق على صاحب الطعام صومه فالأفضل الفطر وإلا فإتمام الصوم. والله أعلم.

قوله: (قبل هذا وكان عبد الله - يعنى ابن عمر - يأتى الدعوة فى العرس وغير العرس ويأتئها وهو صائم) فيه: أن الصوم ليس بعذر فى الإجابة، وكذا قاله أصحابنا ، قالوا: إذا دعى وهو صائم لزمه الإجابة ، كما يلزم المفطر ويحصل المقصود بحضوره، وإن لم يأكل فقد يتبرك به أهل الطعام والحاضرون ، وقد يتجملون به، وقد يتفجعون بدعائه أو بإشارته أو ينصانون عما لا ينصانون عنه فى غيبته. والله أعلم.

وقال ابن حجر^(١) شارحاً لكلام النووى ومفسراً له:

ولمسلم من حديث أبى هريرة «فإن كان صائماً فليصل» ووقع فى رواية هشام بن حسان فى آخره «والصلاة الدعاء» وهو من تفسير هشام راويه، ويؤيده الرواية الأخرى، وحمله بعض الشراح على ظاهره فقال: إن كان صائماً فليشتغل بالصلاة ليحصل له فضلها ، ويحصل لأهل المنزل والحاضرين بركتها، وفيه نظر لعموم قوله: «لا صلاة بحضرة طعام»^(٢) لكن يمكن تخصيصه بغير الصائم ، أبى بن كعب أنه لما حضر الوليمة وهو صائم أثنى ودعا، وعند أبى عوانة من طريق عمر بن محمد عن نافع: كان

(١) فتح البارى (١٥٧/٦).

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى المساجد (٥٦٠/٤٦/٥) عن عائشة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧٥٦ - بتخريجنا).

ابن عمر إذا دعى أجاب ، فإن كان مفطراً أكل ، وإن كان صائماً دعا لهم وبرك ثم انصرف .

وفى الحضور فوائد أخرى كال تبرك بالمدعو والتجمل به والانتفاع بإشارته، والصيانة عما لا يحصل له الصيانة لو لم يحضر، وفى الإخلال بالإجابة تفويت ذلك، ولا يخفى ما يقع للداعى من ذلك من التشويش، وعرف من قوله «فليدع لهم» حصول المقصود من الإجابة بذلك وأن المدعو لا يجب عليه الأكل .

وهل يستحب له أن يفطر إن كان صومه تطوعاً؟

قال أكثر الشافعية وبعض الحنابلة: إن كان يشق على صاحب الدعوة صومه فالأفضل الفطر وإلا فالصوم، وأطلق الرويانى وابن الفراء استحباب الفطر . وهذا على رأى من يجوز الخروج من صوم النفل، وأما من يوجب فلا يجوز عنده الفطر كما فى صوم الفرض ، ويبعد إطلاق استحباب الفطر مع وجود الخلاف ولا سيما الإفطار فقد قرب، ويؤخذ من فعل ابن عمر أن الصوم ليس عذراً فى ترك الإجابة ولا سيما مع ورود الأمر للصائم بالحضور والدعاء، نعم لو اعتذر به المدعو فقبل الداعى عذره لكونه يشق عليه أن لا يأكل إذا حضر أو لغير ذلك كان ذلك عذراً له فى التأخر ، ووقع فى حديث جابر عند مسلم «إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب^(١) فإن شاء طعم وإن شاء ترك» فيؤخذ منه أن المفطر ولو حضر لا يجب عليه الأكل، وهو أصح الوجهين عند الشافعية .

وقال ابن الحاجب فى مختصره: ووجب أكل المفطر محتمل، وصرح الحنابلة بعدم الوجوب، واختار النووى الوجوب، وبه قال أهل الظاهر، والحجة لهم قوله فى إحدى روايات ابن عمر عند مسلم «فإن كان مفطراً فليطعم»^(٢) قال النووى : وتحمل رواية جابر على من كان صائماً، ويؤيده رواية ابن ماجه فيه بلفظ «من دعى إلى طعام وهو صائم فليجب فإن شاء طعم وإن شاء ترك»^(٣) ويتعين حملة على من كان صائماً نفلاً، ويكون فيه حجة لمن استحب له أن يخرج من صيامه لذلك ويؤيده ما أخرجه الطيالسى والطبرانى فى «الأوسط» عن أبى سعيد قال «دعا رجل إلى طعام، فقال رجل : إني صائم، فقال النبى ﷺ : دعاكم أخاكم وتكلف لكم، أفطر وصم يوماً مكانه إن شئت»^(٤) فى إسناده راو ضعيف لكنه توبع، والله أعلم اهـ .

(١) تقدم تخريجه . (٢) تقدم تخريجه عن أبى هريرة به .

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٧٥١) عن جابر به .

(٤) أخرجه البيهقى فى «الكبرى» (٢٧٩/٤) عن أبى سعيد به .

وانظر «اللسيل» (٢١٠٤ - بتخريجنا) .

وقال شمس الحق^(١): «ومن دعاكم فأجيبوه» أى إلى دعوة «فأجيبوه» أى إن لم يكن مانع شرعى. اهـ.

وقال سليمان آل الشيخ^(٢) مختصراً لكلام النووى وابن حجر.

قوله: «ومن دعاكم فأجيبوه» أى: من دعاكم إلى طعام فأجيبوه فإن كانت وليمة عرس وتوفرت الشروط المبينة فى كتب الفقه وجبت الإجابة، وإن كان لغيرها استحب إجابتها، وتجب مطلقاً وهو الصحيح لظاهر الأحاديث، وهى لم تفرق بين وليمة العرس وغيرها، وإن كانت وليمة العرس أكد وأوجب اهـ.

قلت: وتقدم تفصيل ذلك من كلام النووى وابن حجر.

وقال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض إجابة دعوة المسلم، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين. اهـ.

قال ابن باز^(٤): شرعت الإجابة سواء كان لعرس أو غيره وأهمها العرس وفى الحديث «من لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله» رواه مسلم . فالواجب أن تجاب إلا:

أن يكون له ما يمنعه كأن يكون مرضاً أو بعيداً أو يشق عليه الإتيان إن كان فيها مانع: بأن يكون فيها منكر كالملاهى والأغانى والخمر فإن كانت الدعوة سليمة وجب أن يجيب أو تأكد على الأقل لهذا الحديث ولا تجب الدعوة إلا إذا خصه بها. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٥): قوله: «ومن دعاكم فأجيبوه»

«من» شرطية للعموم، والظاهر: أن المراد بالدعوة هنا الدعوة للإكرام، وليس المقصود بالدعوة هنا النداء.

وظاهر الحديث وجوب إجابة الدعوة فى كل دعوة، وهو مذهب الظاهرية.

وجمهور أهل العلم: أنها مستحبة إلا دعوة العرس، فإنها واجبة لقوله ﷺ فيها: «شر الطعام طعام الوليمة، يُدعى إليها من أبأها ويمنعها من يأتيها، ومن لم يجب، فقد عصى الله ورسوله»^(٦).

وسواء قيل بالوجوب أو الاستحباب، فإنه يشترط لذلك شروط:

[قلت]: وهذه الشروط ذكر النووى بعضها، وكذلك ابن حجر، وزاد ابن عثيمين شرحاً لذلك فقال:

(٢) تيسير العزيز ٤٩٨ .

(٤) التعليق المفيد ٢٤٦ .

(٦) تقدم تخريجه .

(١) عون المعبود ٣/٥٦١ .

(٣) فتح المجيد ٢/٧٥٩ .

(٥) القول المفيد ٣/١٣٧-١٤٠ .

١- أن يكون الداعى ممن لا يجب هجره أو يسن .

٢ ألا يكون هناك منكر فى مكان الدعوة ، فإن كان هناك منكر ، فإن أمكنه إزالته ، وجب عليه الحضور لسببين :

- إجابة الدعوة .

- وتغيير المنكر .

وإن كان لا يمكنه إزالته حرم عليه الحضور ، لأن حضوره يستلزم إثمه ، وما استلزم الإثم ، فهو إثم .

٣- أن يكون الداعى مسلماً ، وإلا لم تجب الإجابة ، لقوله ﷺ «حق المسلم على المسلم ست...» وذكر منها : «إذا دعاك فأجبه»^(١) قالوا : وهذا مقيد للعموم الوارد .

٤- أن لا يكون كسبه حراماً ، لأن إجابته تستلزم أن تأكل طعاماً حراماً ، وهذا لا يجوز ، وبه قال بعض أهل العلم .

وقال آخرون : ما كان محرماً لكسبه ، فإنما إثمه على الكاسب لا على من أخذه بطريق مباح من الكاسب ، بخلاف ما كان محرماً لعينه ، كالخمر والمغصوب ونحوهما ، وهذا القول وجيه قوى ، بدليل أن الرسول ﷺ اشترى من يهودى طعاماً لأهله^(٢) ، وأكل من الشاة التى أهدتها له اليهودية بخير^(٣) وأجاب دعوة اليهودى^(٤) ، ومن المعلوم أن اليهود معظمهم يأخذون الربا ويأكلون السحت ، وربما يقوى هذا القول قوله ﷺ فى اللحم الذى تصدق به على بريرة : «هو لها صدقة ولنا منها هدية»^(٥) .

وعلى القول الأول : فإن الكراهة تقوى وتضعف حسب كثرة المال الحرام وقلته ، فكلما كان الحرام أكثر كانت الكراهة أشد ، وكلما قل كانت الكراهة أقل .

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٢٤٠) ، ومسلم فى السلام (١٤/١٤٣ - النووى) عن أبى هريرة به واللفظ لمسلم .

وانظر «رياض الصالحين» (٢٤٠ - بتخريجنا) .

(٢) [متفق عليه] أخرجه : البخارى (٢٠٦٨) ، ومسلم فى المساقاة (٣٩/١١ - النووى) عن عائشة رضى الله عنها به وانظر «السليلى» (١٦٤٢ - بتخريجنا) .

(٣) [متفق عليه] أخرجه : البخارى (٢٦١٧) ، ومسلم فى السلام (٧/٤٣٣/٤٥) عن أنس رضى الله عنه .

(٤) [متفق عليه] أخرجه أحمد فى «المسند» (٣/٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٧٠) عن أنس به . وانظر «منار السبيل» (٤١ - بتخريجنا) .

(٥) [صحيح] أخرجه : البخارى (١٤٩٣) فى الزكاة (٤/١٩٤/١٧١) عن عائشة به .

٥- أن لا تتضمن الإجابة إسقاط واجب أو ما هو أوجب منها، فإن تضمنت ذلك حرمت الإجابة.

٦- أن لا تتضمن ضرراً على المجيب، مثل أن تحتاج إجابة الدعوة إلى سفر أو مفارقة أهله المحتاجين إلى وجوده بينهم.

مسألة:

هل إجابة الدعوة حق لله أو للآدمي؟

الجواب: حق للآدمي، ولهذا لو طلبت من الداعي أن يقلبك فقبل، فلا إثم عليك، لكنها واجبة بأمر الله - عز وجل- ولهذا ينبغي أن تلاحظ أن إجابتك طاعة لله وقيام بحق أخيك، لكن لصاحبها أن يسقطها كما أن له أن لا يدعوك أيضاً، ولكن إذا أقالك حياء منك وخجلاً من غير اقتناع، فإنه لا ينبغي أن تدع الإجابة.

مسألة:

هل بطاقات الدعوة : التي توزع كالدعوة بالمشافهة؟ اهـ.

الجواب: البطاقات ترسل إلى الناس ولا يُدرى لمن ذهبت إليه، فيمكن أن نقول: إنها تشبه دعوة الجفلى فلا تجب الإجابة، أما إذا علم أو غلب على الظن أن الذي أرسلت إليه مقصود بعينه، فإنه لها حكم الدعوة بالمشافهة.

قوله: [من صنع إليكم معروفاً فكافئوه].

بواب النووى فى الأذكار^(١) باب: (دعاء الإنسان لمن صنع معروفاً إليه أو إلى الناس كلهم أو بعضهم، والثناء عليه، وتحريضه على ذلك)

واستدل بما رواه الشيخان عن ابن عباس منها، قال: «أتى النبى ﷺ الخلاء فوضعت له وضوءاً، فلما خرج قال: من وضع هذا ؟ فأخبر، قال : «اللهم فقهه»^(٢).

[قلت]: وكان ﷺ لا يترك أحداً له يدا عنه إلا كافأه عليها، لما رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يداً يكافئه الله به يوم القيامة...»^(٣).

(١) الأذكار بتخریجنا (٣٦٦/٢).

(٢) [متفق عليه] البخارى (١٤٣)، ومسلم (١٤٣/١٦) عن ابن عباس به. وانظر «الأذكار للنووى»

(٨٠٩) - بتخریجنا).

(٣) الترمذى (٣٦٦١) وابن ماجه (٩٤) واللفظ له عن أبى هريرة به.

بل وجعل شكر الناس على المعروف مكافأة له هو من شكر الله، لما روى الترمذى وصححه عن أبي هريرة مرفوعاً : «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»^(١) وعنده أيضاً عن أبي سعيد مرفوعاً «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»^(٢) وعنده عن أسامة بن زيد «من صنع إليه معروفًا فقال لفاعله جزاك الله خيرًا فقد أبلغ في الثناء»^(٣). اهـ.

قال شمس الحق^(٤) : أى أحسن إليكم إحسانًا قوليًا أو فعليًا (فكافئوه) من المكافأة أى أحسنوا إليه مثل ما أحسن إليكم لقوله تعالى : «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ» «وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ» .

وقال سليمان آل الشيخ^(٥) : «فكافئوه» أى على إحسانه بمثله أو خير منه، وقد أشار شيخ الإسلام إلى مشروعية المكافأة لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، فهو إذا أحسن إليه ولم يكافئه يبقى فى قلبه نوع تألهه لمن أحسن إليه، فشرع قطع ذلك بالمكافأة ، فهذا معنى كلامه، وقال غيره إنما أمر بالمكافأة ليخلص القلب من إحسان الخلق ويتعلق بالحق، ولفظ أبى داود : «من أتى إليكم معروفًا» اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٦) : ندبهم ﷺ على المكافأة على المعروف، فإنَّ المكافأة على المعروف من المروءة التى يحبها الله تعالى ورسوله ، كما دلَّ عليه هذا الحديث، ولا يُهمَل المكافأة على المعروف إلا اللئيم من الناس، وبعض اللئام يكافئ على الإحسان بالإساءة ، كما يقع ذلك كثيرًا من بعضهم نسأل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة.

بخلاف حال أهل التقوى والإيمان، فإنَّهم يدفعون بالحسنة السيئة ، طاعة لله ومحبّة لما يحبه لهم ويرضاه، كما قال تعالى : «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ»^(٧) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ^(٨) وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يَحْضُرُونُ» وقال تعالى : «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٥٨/٢)، وأبوداود (٤٨١١)، والترمذى (١٩٥٤) ولقدّم.

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٢٠/٣)، والترمذى (١٩٥٥) عن أبى سعيد وفيه عطية العوفى وهو

ضعيف.

(٣) أخرجه الترمذى (٢٠٣٥)، والنسائى فى «الكبرى» (١٠٠٨) عن أسامة بن زيد به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٤٩٩ - بتخريننا) وانظر «فقه الخطابة وزاد الخطيب» خطبة «حسن العهد».

(٤) عون المعبود (٦١/٥). (٥) تيسير العزيز الحميد (٤٩٨٠).

(٦) فتح المجيد ٧٦٠/٢.

حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٤﴾ وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): فمن أحسن إليك بهدية أو غيرها، فكافته، فإذا أحسن إليك بإنجاز معاملة وكان عمله زائداً عن الواجب عليه، فكافته، وهكذا لكن إذا كان كبير الشأن ولم تجر العادة بمكافاته، فلا يمكن أن تكافته، كالملك والرئيس... مثلاً إذا أعطاك هدية، فمثل هذا يدعى له، لأنك لو كافته لرأى أن في ذلك غضاً من حقه فتكون مسيئاً له، والنبي ﷺ أراد أن تكافته لإحسانه.

وللمكافاة فائدتان:

١- تشجيع ذوى المعروف على فعل المعروف:

٢- أن الإنسان يكسر بها الذل الذى حصل له بصنع المعروف إليه لأن من صنع إليك معروفاً فلا بد أن يكون فى نفسك رقة له، فإذا رددت إليه معروفاً زال عنك ذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى»^(٢) واليد العليا هى يد المعطى، وهذه فائدة عظيمة لمن صنع له معروف، لئلا يرى لأحد عليه منة إلا الله - عز وجل -. قوله: «فإن لم تجدوا ما تكافئوه»

قال شمس الحق^(٣): «فإن لم تجدوا ما تكافئوا به» أى بالمال والأصل تكافئون فسقط النون بلا ناصب وجازم إما تخفيفاً أو سهواً من الناسخين كذا ذكره الطيبي والمُعتمد الأول لأن الحديث على الحفظ معول ونظيره «كما تكونوا يولى عليكم»^(٤) على ما رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى بكرة.

قال سليمان آل الشيخ: هكذا ثبت بحذف النون فى خط المصنف، وهكذا هو فى غيره من أصول الحديث.

قال الطيبي: سقطت من غير ناصب ولا جازم، إما تخفيفاً أو سهواً من الناسخ. اهـ.

قال شمس الحق^(٥): «فادعوا له»: أى للمحسن يعنى فكافئوه بالدعاء له. اهـ.

(١) القول المفيد ١٤١/٣.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (١٤٢٧) عن أبى هريرة به وانظر «رياض الصالحين» (٢٩٨ - بتخريجنا).

(٤) [ضعيف] ذكره السخاوى فى «المقاصد» (٨٣٥) ونسبه للحاكم والديلمى. وللبيهقى فى «شعب الإيمان» (ح ٧٣٩١) وقال الحافظ فى إسناده مجاهيل وانظر «فقه الخطابة» خطبة: «كيفما تكونوا يولى عليكم» (٤٤٥/٢).

(٥) عون المعبود الحميد ٦٢/٥/٣.

وقال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «فادعوا له إلى ... إلخ» يعنى من أحسن إليكم أى إحسان فكافئوه بمثله، فإن لم تقدروا فبالغوا فى الدعاء له جهدكم حتى تحصل المسألة، ووجه المبالغة أنه رأى فى نفسه تقصيراً فى المجازاة لعدم القدرة عليها، فأحالها إلى الله، ونعم المجازى هو، وهذا الحديث رواه أيضاً أحمد بإسناد صحيح، وابن حبان، والحاكم، وصححه النووى.

وقد روى الترمذى وصححه النسائى وابن حبان عن أسامة بن زيد مرفوعاً: «ومن صنع إليكم معروفاً فقال الفاعل: جزاك الله خيراً فقد أبلغ فى الثناء»^(٢) اهـ. وقد تقدم.

قال ابن عثيمين: لكن بعض الناس يكون كريماً جداً، فإذا كافأته بدل هديته أعطاك أكثر مما أعطيته، فهذا لا يريد مكافأة، ولكن يدعى له، لقوله ﷺ: «فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له» وكذلك الفقير إذا لم يجد مكافأة الغنى، فإنه يدعو له.

ويكون الدعاء بعد الإهداء مباشرة، لأن من باب المسارعة إلى أمر الرسول ﷺ، ولأن به سرور صانع المعروف. اهـ.

قوله: «حتى تروا أنكم قد كافأتموه»

قال شمس الحق: «حتى تروا» بضم التاء أى تظنوا وبفتحها أى تعلموا أو تحسبوا «أنكم قد كافأتموه» أى كرروا الدعاء حتى تظنوا أن قد أدبتم حقه، وقد جاء من حديث أسامة مرفوعاً: «من صنع إليه معروف فقال لفاعله جزاك الله خيراً فقد أبلغ فى الثناء»^(*) رواه النسائى والترمذى وابن حبان، فدل هذا الحديث على أن من قال لأحد جزاك الله خيراً مرة واحدة فقد أدى العوض وإن كان حقه كثيراً. قال المنذرى: وأخرجه النسائى. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): قوله: «فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له» أرشدكم ﷺ إلى أن الدعاء فى حق من لم يجد المكافأة للمعروف، فادعوا له بحسب معروفه.

قوله: «حتى تروا» بضم التاء، أى: تظنوا - أنكم قد كافأتموه» ويحتمل أنها

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٩٨.

(٢) تقدم تخريجه.

(*) تقدم تخريجه.

(٣) فتح المجيد ٢/ ٧٦٠.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى : إِعَاذَةٌ مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ.

مفتوحة بمعنى: تعلموا، ويؤيده ما في «سنن أبي داود» في حديث ابن عمر «حتى تعلموا» فتعين الثاني للتصريح به.

وفيه: «ومن سألكم بالله فأجيبوه» أى: إلى ما سأل، فيكون بمعنى: أعطوه! وعند أبي داود- في رواية أبي نهيك- عن ابن عباس «من سألكم بوجه الله فأعطوه»^(١) وفي رواية عبيد الله القواريري لهذا الحديث «ومن سألكم بالله» كما في حديث ابن عمر. اهـ.

قال ابن باز^(٢): لا ينبغي دعاء صفات الله فلا يقال يا وجه الله أو يا علم الله افعل كذا، وإنما يدعى الله بأسمائه وصفاته فيقال يا رحمن، فالصفات يتوسل بها ولا تدعى وأقر شيخ الإسلام. الإجماع على هذا. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): «تروا» بفتح التاء بمعنى تعلموا، وتجاوز بالضم بمعنى تظنوا، أى: حتى تعلموا أو يغلب على ظنكم أنكم قد كافأتموه، ثم أمسكوا. اهـ.

قال حامد بن محمد^(٤): وفي هذا تنبيه على الترقى من الأدنى إلى الأعلى بطريق الأولوية، وذلك إذا كان عبد مثلك إذا صنع إليك معروفاً يلزمك مكافأته فكيف ببرك الذى خلقتك من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم خلق العظام والمفاصل وكسا العظام لحماً ثم صورك أحسن الصور ثم رزقك من الطيبات فمكافأته عليه أولى وألزم بشكر نعمه وطاعته ومعصية عدوه إبليس.

قال ابن عثيمين:

قوله فيه مسائل:

● الأولى: إعادة من استعاذ بالله.

وسبق أن من استعاذ بالله وجبت إعادته، إلا أن يستعيز عن شيء واجب، فعلاً أو تركاً، فإنه لا يعاذ.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) التعليق ٢٤٦.

(٣) القول المفيد ١٤٢/٣.

(٤) فتح الله ٤٣٨.

الثانية: إعطاء مَنْ سألَ باللهِ.

الثالثة : إجابة الدعوةِ.

الرابعة: المكافأة على الصنعةِ.

الخامسة : أنَّ الدعاءَ مُكَافَأَةٌ لِمَنْ لَمْ يَقْدِرْ إِلَّا عَلَيْهِ.

السادسة: قوله: حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَفَأْتُمُوهُ».

● الثانية: إعطاء من سأل بالله

وسبق التفصيل فيه .

● الثالثة: إجابة الدعوة.

وسبق كذلك التفصيل فيها .

● الرابعة: المكافأة على الصنعة .

أى: على صنعة من صنع إليك معروفاً ، وسبق التفصيل فى ذلك .

● الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لا يقدر إلا عليه.

وسبق أنه مكافأة فى ذلك وفيما إذا كان الصانع لا يكافأ مثله عادة .

● السادسة : قوله «حتى تروا أنكم قد كافأتموه».

أى : أنه لا يقصر فى الدعاء ، بل يدعو له حتى يعلم أو يغلب على ظنه أنه قد كافأه .

وفيه مسائل أخرى ، لكن ما ذكره المؤلف هو المقصود . اهـ .



باب ٥٥ لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ

● مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال ناصر السعدي^(١): الباب الأول خطاب للمسئول وأنه إذا أدلى على الإنسان أحد بحاجة وتوسل إليه بأعظم الوسائل . وهو السؤال بالله أن يجيبه احتراماً وتعظيماً لحق الله . وأداء لحق أخيه حيث أدلى بهذا السبب الأعظم خطاب للسائل . وأن عليه أن يحترم أسماء الله وصفاته وأن لا يسأل شيئاً من المطالب الدنيوي بوجه الله . بل لا يسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد وهي الجنة بما فيها من النعيم المقيم . ورضا الرب والنظر الى وجهه الكريم والتلذذ بخطابه، فهذا المطلب الأسنى هو الذى يُسأل بوجه الله وأما المطالب الدنيوية والأمور الدنيئة وإن كان العبد لا يسألها إلا من ربه فإنه لا يسألها بوجهه . اهـ . وقال نحوه ابن باز .

● مناسبة الباب للتوحيد.

قال ابن قاسم: أى لا يجوز ذلك إجلالاً لله وإكراماً وإعظاماً له أن يسأل بوجهه العظيم ما هو حقير لديه من حوائج الدنيا ما لم يرد به غاية المطالب، وهي الجنة، أو الإعانة على أعمال الآخرة الموصلة إلى الجنة، وأما سؤال المخلوق بوجه الله؛ فتقدم النهى عنه فى الباب قبله . اهـ^(٢).

قال ابن باز^(٣): وهذا من كمال التوحيد والإيمان أن لا يسأل بوجه الله إلا الجنة أو ما يقرب اليها كالعمل الصالح والاستقامة والعافية من مضلات الفتن . اهـ .

قال ابن عثيمين^(٤): أن فيه تعظيم وجه الله - عز وجل - ، بحيث لا يسأل به إلا الجنة . اهـ .

قال عبدالله بن جار الله^(٥): هى أن السؤال بوجه الله غير الجنة معصية ينافى كمال التوحيد حيث نهى عنه ولعن فاعله . اهـ .

(١) القول السديد (١٢٤).

(٢) حاشية على كتاب التوحيد.

(٣) التعليق المفيد: (٢٤٧).

(٢) القول المفيد (٣/١٤٤).

(٥) الجامع الفريد (١٩٣).

عن جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُسْأَلُ بَوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ^(١).

● شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بها:

قال سليمان آل الشيخ^(٢): أى إعظماً وإجلالاً وإكراماً لوجه الله أن لا يسأل به إلا غاية المطالب، وهذا من معانى قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٣). اهـ.

قال حامد بن محمد^(٤): لأنه غاية مطلوب العارفين وعبادته ومحبته نهاية منازل السائرين فكما أنه الغاية فى الطلب فلا يسأل بوجهه من المخلوقات إلا ما هو الغاية فى الفضل والإحسان وهو رضا الله والجنة. اهـ.



قوله: [عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ لا يسأل بوجه الله.....] الحديث.

قال ابن باز^(*): (لا يسأل بوجه الله إلا الجنة) وذلك لأن هى أعلى المطالب وفيها النظر إلى وجه الله سبحانه وفيها النعيم المقيم، ووجه الله له شرفه العظيم، فلا يسأل به إلا الجنة، وكذلك ما يقرب إليها، كأن يسأل الإخلاص والتوفيق للخير والاستقامة على الطاعة فما يقرب إلى الجنة هو من طلب الجنة. اهـ.

قال ابن باز^(٥): واسناد الحديث فيه لين وضعف لكنه ينجبر بما جاء فى الروايات الاخرى من النهى عن السؤال بوجه الله فيكون هذا خاصاً بالسؤال بوجه الله الكريم أو ما يقرب إليها وما يدعو إليها. اهـ.

[قلت]: أخرجه أبو داود فى الزكاة وقال: باب كراهية المسألة بوجه الله عز وجل. حدثنا أبو العباس الفلوري أخبرنا يعقوب بن إسحاق الحضرمي عن سليمان بن معاذ التيمي أخبرنا ابن المنكدر عن جابر... الحديث.

(١) [ضعيف] أخرجه أبو داود فى الزكاة/ باب كراهية المسألة بوجه الله تعالى (٢/ ١١٣١/ ١٦٧١) من طريق ابن المنكدر عن جابر... الحديث. وأظفر فتح المجيد (٨٣٧ - بتخریجنا).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٩٩).

(٣) الرحمن/ ٢٧.

(٤) فتح الله الحميد المجيد (٤٤٠).

(٥) (*) التعليق ٧٢٤.

قال المنذرى: فى إسناده سليمان بن معاذ، قال الدارقطني: هو: سليمان بن معاذ هو سليمان بن قرم. وذكر أبو أحمد بن عدى هذا الحديث فى ترجمة سليمان بن قرم وقال: هذا الحديث لا أعرفه عن محمد بن المنكدر إلا من رواية سليمان بن قرم، وعن سليمان يعقوب بن إسحاق الحضرمي، وعن يعقوب أحمد بن عمرو العصفري اهـ.

قال صاحب «عون المعبود» وهذا الإسناد هو الذى أخرجه أبوداود فى سننه وأحمد بن عمرو العصفري هو أبو العباس القلورى الذى روى عنه أبوداود هذا الحديث وسليمان بن قرم تكلم فيه غير واحد انتهى^(١).

● مناسبة الحديث للباب.

قال القرعاوى^(٢): دل الحديث على تحريم سؤال غير الجنة بوجه الله. اهـ.

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى^(٣): دل الحديث على تحريم سؤال غير الجنة بوجه الله لأن ذلك منافٍ لتعظيم الله وذلك منافٍ للتوحيد. اهـ.

قوله: «عن جابر».

قال سليمان آل الشيخ^(٤): هو جابر بن عبد الله. اهـ.

قوله: «لا يسأل بوجه الله».

قال: سليمان آل الشيخ^(٥): روى بالنفى والنهى، وروى بالبناء للمجهول، وهو الذى فى الأصل، وروى بالخطاب للمفرد، وفيه إثبات الوجه خلافاً للجهمية ونحوهم، فإنهم أولوا الوجه بالذات، وهو باطل، إذ لا يسمى ذات الشيء وحقيقته وجهاً، فلا يسمى الإنسان وجهاً، ولا تسمى يده وجهاً، ولا تسمى رجله وجهاً، والقول فى الوجه عند أهل السنة كالقول فى بقية الصفات، فيثبتونه لله على ما يليق بجلاله وكبريائه من غير كيف ولا تحديد، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٦): اختلف فى المراد بذلك على قولين:

القول الأول: أن المراد: لا تسألوا أحداً من المخلوقين بوجه الله، فإذا أردت أن تسأل أحداً من المخلوقين؟ فلا تسأله بوجه الله؛ لأنه لا يسأل بوجه الله إلا الجنة، والمخلوق لا

(١) «عون المعبود» ٦٠/٣، ٦١.

(٢) - (٣) الجديد ٤١٨.

(٤) - (٥) تيسير العزيز الحميد ٤٩٩.

(٦) القول المفيد ١٤٥/٣.

يقدرون على إعطاء الجنة، فإذا لايسألون بوجه الله مطلقاً، ويظهر أن المؤلف يرى هذا الرأي في شرح الحديث، ولذلك أعقبه بقوله: «باب لايرد من سأل بالله».

قلت/ كذا قال الشيخ ولعلها (ولذلك أعقبه بعد قوله).

القول الثاني: أنك إذا سألت الله، فإن سألت الجنة وما يستلزم دخولها؛ فلا حرج أن تسأل بوجه الله، وإن سألت شيئاً من أمور الدنيا؛ فلا تسأله بوجه الله؛ لأن وجه الله أعظم من أن يسأل به لشيء من أمور الدنيا.

فأمور الآخرة تسأل بوجه الله؛ كقولك مثلاً: أسألك بوجهك أن تنجينى من النار، والنبى ﷺ استعاذ بوجه الله لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾؛ قال: أعوذ بوجهك؛ ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾؛ قال: أعوذ بوجهك، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾^(١)؛ قال: هذه أهون أو أيسر^(٢).

ولو قيل: إنه يشمل المعنيين جميعاً؛ لكان له وجه.

قوله: «بوجه الله».

فيه إثبات الوجه لله - عز وجل -، وهو ثابت بالقرآن والسنة وإجماع السلف؛ فالقرآن في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾^(٤)، والآيات كثيرة.

والسنة كما في الحديث السابق: «أعوذ بوجهك»^(٥).

واختلف في هذا الوجه الذى أضافه الله إلى نفسه: هل هو وجه حقيقى، أو أنه وجه يعبر به عن الذات وليس لله وجه بل له ذات، أو أنه يعبر به عن الشيء الذى يراد به وجهه وليس هو الوجه الحقيقى، أو أنه يعبر به عن الجهة، أو أنه يُعبر به عن الثواب؟ فيه خلاف، لكن هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فقالوا: إنه وجه حقيقى؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَيَقْبَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٦)، ولما أراد

(١) الأنعام: ٦٥.

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٤٦٢٨) عن جابر به.

وانظر «جزء سعدان» (ح ٤) بتخريجنا.

(٣) القصص: ٨٨.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) الرحمن: ٢٧.

غير ذاته؛ قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(١)؛ ف ﴿ذِي﴾ صفة لرب وليست صفة لاسم، و ﴿ذُو﴾ صفة لوجه وليست صفة لرب، فإذا كان الوجه موصوفاً بالجلال والإكرام؛ فلا يمكن أن يراد به الثواب أو الجهة أو الذات وحدها؛ لأن الوجه غير الذات.

وقال أهل التعطيل: إن الوجه عبارة عن الذات أو الجهة أو الثواب، قالوا: ولو أثبتنا لله وجهاً حقيقياً للزم أن يكون جسماً، والأجسام متماثلة، ويلزم من ذلك إثبات المثل لله - عز وجل -، والله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٢)؛ وإثبات المثل تكذيب للقرآن، وأنتم يا أهل السنة تقولون: إن من اعتقد أن الله مثيلاً فيما يختص به فهو كافراً؛ فنقول لهم:

أولاً: ما تعنون بالجسم الذى فررتم منه؛ أتعتنون به المُرْكَب من عظام وأعصاب ولحم ودم بحيث يفتر كل جزء منه إلى الآخر؟ إن أردتم ذلك؛ فنحن نوافقكم أن الله ليس على هذا الوجه ولا يمكن أن يكون كذلك، وإن أردتم بالجسم الذات الحقيقية المتصفة بصفات الكمال؛ فلا محذور فى ذلك، والله تعالى وصف نفسه بأنه أحد صمد، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾^(٣)، قال ابن عباس رضى الله عنهما: الصَّمَد: الذى لا جوف له^(٤).

ثانياً: قولكم: إن الأجسام متماثلة قضية من أكذب القضايا؛ فهل جسم الدب مثل جسم النملة؟ فبينهما تباين عظيم فى الحجم والرق واللين وغير ذلك. فإذا بطلت هذه الحجة بطلت النتيجة وهى استلزام ماثلة الله لخلقه.

ونحن نشاهد البشر لا يتفوقون فى الوجوه؛ فلا تجد اثنين متماثلين من كل وجه ولو كانا توأمين، بل قالوا: إن عروق الرجل واليد غير متماثلة من شخص إلى آخر. ويلاحظ أن التعبير بنفى الماثلة أولى من التعبير بنفى المشابهة؛ لأنه اللفظ الذى جاء به القرآن، ولأنه ما من شيتين مَوْجُودَيْنِ إلا ويشبهان من وجه ويفترقان من وجه آخر؛ فنفى مطلق المشابهة لا يصح، وقد تقدم.

(١) الرحمن: ٧٨.

(٢) الشورى: ١١.

(٣) الإخلاص: ١ - ٢.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٧٠٥/٦) ونسبه للطبرانى فى «السنة» عن الضحاك.

وأما حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن النبی ﷺ قال: «إن الله خلق آدم على صورته»^(١)، ووجه الله لا يماثل أوجه المخلوقين؛ فيجاء عنه.

أولاً: أنه لا يراد به صورة تماثل صورة الرب - عز وجل - بإجماع المسلمين والعقلاء؛ لأن الله - عز وجل - وسع كرسيه السماوات والأرض، والسماوات والأرضون كلها بالنسبة للكرسى - موضع القدمين - كحَلَقَةِ أَلْقِيَتِ فى فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة؛ فما ظنك برب العالمين؟ فلا أحد يحيط به وصفاً ولا تخيلاً، ومَنْ هذا وصفه لا يمكن أن يكون على صورة آدم ستون ذراعاً، وإنما يراد به أحد معنيين:

الأول: أن الله خلق آدم على صورة اختارها وجعلها أحسن صورة فى الوجه، وعلى هذا؛ فلا ينبغي أن يقبح أو يضرب لأنه لما أضافه إلى نفسه اقتضى من الإكرام ما لا ينبغي معه أن يقبح أو أن يضرب.

الثانى: أن الله خلق آدم على صورة الله - عز وجل - ولا يلزم من ذلك المماثلة بدليل قوله ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أضواء كوكب فى السماء»^(٢)، ولا يلزم أن يكون على صورة نفس القمر؛ لأن القمر أكبر من أهل الجنة، وأهل الجنة يدخلونها طول أحدهم ستون ذراعاً، وعرضه سبعة أذرع كما فى بعض الأحاديث.

وقال بعض أهل العلم: على صورته؛ أى: صورة آدم؛ أى: أن الله خلق آدم أول أمره على هذه الصورة، وليس كبنية يتدرج فى الإنشاء نقطة ثم علقه ثم مضغه. قلت: وقال ابن خزيمة: على صورة المضروب أى إذا ضربت تنجب الوجه فإن خلق آدم على صورته أى المضروب(*) . اهـ.

لكن الإمام أحمد رحمه الله أنكر هذا التأويل، وقال: هذا تأويل الجهمية، ولأنه يُفقد الحديث معناه، وأيضاً يعارضه اللفظ الآخر المُفسَّر للضمير وهو بلفظ: «على صورة الرحمن».

(١) [متفق عليه] أخرجه: البخارى: (٦٢٢٧)، ومسلم فى الجنة (٩/١٩٤/٢١) عن أبى هريرة به.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٢٤٥)، ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (١٧/١٧٣ - النووى) عن

أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٨٨٥ - بتخريجنا).

(*) التوحيد لابن خزيمة ص ٣٦ وبعدها.

قوله: «إلا الجنة».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «إلا الجنة» كأن يقول: اللهم إني أسألك بوجهك الكريم أن تدخلني الجنة وقيل: المراد لا تسألوا من الناس شيئاً بوجه الله، كأن يقول: أعطني شيئاً بوجه الله، فإن الله أعظم من أن يُسأل به شيء من الحطام.

قلت - يعني سليمان آل الشيخ - والظاهر أن كلا المعنيين صحيح، قال الحافظ العراقي: وذكر الجنة إنما هو للتنبيه به على الأمور العظام لا للتخصيص، فلا يسأل بوجه في الأمور الدنيئة، بخلاف الأمور العظام تحصيلاً أو دفعاً، كما يشير إليه استعادة النبي ﷺ به.

قلت - يعني سليمان آل الشيخ - والظاهر أن المراد لا يسأل بوجه الله إلا الجنة، أو ما هو وسيلة إليها كالاستعادة بوجه الله ومن غضبه ومن النار ونحو ذلك مما هو وارد في أدعيته ﷺ وتعوداته ولما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾^(٢) قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» وَأَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ^(٣) فقال النبي ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ» رواه البخاري^(٤). وهذا الحديث رواه أيضاً في «المختارة» أيضاً ولكن في إسناده سليمان بن معاذ. قال ابن معين: ليس بشيء، وضعفه عبد الحق وابن القطان. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٥): وحديث الباب: من جملة الأدلة المتواترة في الكتاب والسنة على إثبات الوجه لله تعالى؛ فإنه صفة كمال، وسلبه غاية النقص والتشبيه بالنقصات، كسلبهم جميع الصفات أو بعضها. فوقعوا في أعظم مما فروا منه، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وطريقة أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً: الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه، ووصفه به رسول الله ﷺ في سنته، على ما يليق بجلال الله وعظمته، فيثبتون ما أثبتته لنفسه في كتابه وأثبتته له رسوله ﷺ، وينفون عنه مشابهة المخلوق؛ فكما أن ذات الرب تعالى لا تشبه الذوات، فصفاته كذلك لا تشبه الصفات، فمن نفاها فقد سلبه الكمال.

(١) تيسير العزيز الحميد (٥٠٠).

(٢ - ٣) الأنعام: ٦٥.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) فتح المجيد (٢/ ٧٩١).

مسأله^(١): وهنا سؤال: وهو أنه قد ورد في دعاء النبي ﷺ عند مُنصرفه من الطائف، حين كذبه أهل الطائف ومن في الطائف من أهل مكة، فدعا ﷺ بالدعاء المأثور «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يك بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي» وفي آخره «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة: أن يحلَّ عليَّ غضبك، أو ينزل بي سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢)، والحديث المروى في الأذكار «اللهم أنت أحقُّ من ذُكر، وأحقُّ من عُبد - وفي آخره - أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض»^(٣).

وفي حديث آخر «أعوذ بوجه الله الكريم، وباسم الله العظيم وبكلماته التامة، من شر السَّامة واللامَّة، ومن شر ما خلقت أي رب، ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده ومن شر الدنيا والآخرة»^(٤) وأمثال ذلك في الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٥): فالجواب: أن ما ورد من ذلك فهو في سؤال ما يُقرب إلى الجنة، أو ما يمنعه من الأعمال التي تمنعه من الجنة، فيكون قد سأل بوجه الله ونور وجهه ما يُقرب إلى الجنة؛ كما في الحديث الصحيح «اللهم إني أسألك الجنة وما يقرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول أو عمل»^(٦).

بخلاف ما يختصُّ بالدنيا، كسؤال المال والرزق والسعة في المعيشة رغبةً في الدنيا، مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة. فلا ريب أن الحديث يدلُّ على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله.

وعلى هذا: فلا تعارض بين الأحاديث، كما لا يخفى، والله أعلم.

(١) فتح المجيد ٧٦١/٢ - ٧٦٣.

(٢) ذكره الهيثمي في «المجمع» (٣٥/٦) ونسبه للطبراني قال: وفيه ابن إسحاق وهو ثقة وبقية رجاله ثقات.

وانظر كتابنا «فتح ذي الجلال في تخريج أحاديث الظلال».

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨/٣١٦/٨٠٢٧) عن أبي أمامة به وضعفه الهيثمي في «المجمع» (١١٧/١٠).

(٤) أخرجه أبو داود (٥٠٥٢)، والنسائي في «الكبرى» (٧٧٣٢) عن علي بالشرط الأول منه.

(٥) فتح المجيد ٧٦١/٢ - ٧٦٣.

(٦) أخرجه ابن ماجه.

ففيه مسائلُ

الأولى : النَّهْيُ عَنْ أَنْ يُسْأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا غَايَةَ الْمَطَالِبِ.
الثانية : إِبْتَاتُ صِفَةِ الْوَجْهِ.

قوله فيه مسائل:

قال ابن عثيمين^(١):

● الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

تؤخذ من حديث الباب، وهذا الحديث ضَعَّفَهُ بعض أهل العلم، لكن على تقدير صحته؛ فإنه من الأدب أن لا تسأل بوجه الله إلا ما كان من أمر الآخرة: الفوز بالجنة، أو النجاة من النار.

● الثانية: إبتات صفة الوجه. اهـ.



(١) القول المفيد ٣ / ١٠.

باب ٥٦ ما جاء في الله

● مناسبة هذا الباب للذي قبله :

قال الفقير: مناسبة هذا الباب للذي قبله أن هذا الباب عقد أيضاً للنهاى عن الألفاظ التى قد تقع فى الربوبية أو الأسماء والصفات وإن كان هذا الباب يتميز عما قبله بالكلام فى القدر.

● مناسبة الباب للتوحيد

قال سليمان آل الشيخ^(١): اعلم أن من كمال التوحيد الاستسلام للقضاء والقدر (كالمصائب إذا جرى بها القدر رضا بالله رباً فإن هذا من جنس المصائب)، والعبد مأمور عند المصائب بالصبر والإرجاع والتوبة. وقول : لو، لايجدى عليه إلا الحزن والتحسر مع ما يخالف توحيده من نوع المعاندة للقدر الذى لا يكاد يسلم منها من وقع منه هذا إلا ما شاء الله، فهذا وجه إirاده هذا الباب فى التوحيد.

قال عبدالله بن جار الله^(٢): هى أن من قال لو معارضاً بها أقدار الرب تعالى كالبلايا والمصائب إذا جرى بها القدر فإن هذا مما ينافى كمال التوحيد.

قال ابن عثيمين^(٣): أن من جملة أقسام (لو) الاعتراض على القدر، ومن اعترض على القدر؛ فإنه لم يرض بالله رباً، ومن لم يرض بالله رباً؛ فإنه لم يحقق توحيد الربوبية. والواجب أن ترضى بالله رباً، ولا يمكن أن تستريح إلا إذا رضيت بالله رباً تمام الرضا، وكأن لك أجنحة تميل بها حيث مال القدر، ولهذا قال ﷺ : «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر؛ فكان خيراً له»^(٤)، ومهما كان؛ فالأمر سيكون على ما كان، فلو خرجت مثلاً فى سفر ثم أصبت فى حادث؛ فلا تقل: لو أنى ما خرجت فى السفر ما أصبت؛ لأن هذا مقدر لا بد منه. اهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد: ٥٠٠

(٢) الجامع الفريد ١٦٨.

(٣) القول المفيد ٣/ ١٥٦.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى الزهد (١٨/ ١٢٥ - النووى) عن صهيب به وانظر «رياض الصالحين»

(٢٨ - بتخريجنا).

● شرح الترجمة والتبويب وماذا أراد المصنّف بها.

قال حامد بن محمد بن حسن^(١): باب ماجاء في بيان أن المسلم ما ينبغي له إذا أصابه شيء من المصائب أن يقول (لو) فعلت كذا لكان كذا، لأن المقدر كائن لامحالة ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك فإن صبرت فانت مأجور، والمقدر كائن وإن ماصبرت فانت مأزور والمقدر كائن فلا يزيد المتردد في ذكر لو إلا الحسرة والندامة والأسف. أهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): أى : من النهى عنه عند الأمور المكروهة، كالمصائب إذا جرى بها القدر؛ لما فيه من الإشعار بعدم الصبر والأسى على مافات، مما لا يمكن استدراكه.

فالواجب التسليم للقدر، والقيام بالعبودية الواجبة، وهو الصبر على ما أصاب العبد مما يكره. والإيمان بالقدر، أصل من أصول الإيمان الستة. وأدخل المصنف رحمه الله أداة التعريف على (لو) وهذه في هذا المقام لاتفيد تعريفاً كنظائرها - لأن المراد هذا اللفظ، كما قال الشاعر:

رأيت الوليد بن يزيد مباركاً شديداً بأعباء الخلافة كاهله

قال ابن باز^(٣): أى في حكم هذه الكلمة وهل تجوز أو لا تجوز، والمقصود أنه لاينبغي استعمالها لمعارضة القدر بل يجب التسليم والصبر وعدم المعارضة للقدر بكلمة لو، عند موت قريب أو مرض أو مصيبة.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «فى اللو».

دخلت «أل» على «لو» وهى لاتدخل إلا على الأسماء، قال ابن مالك:

بالجر والتنوين والندا وأل ومسد للاسم تمييز حصل

لأن المقصود بها اللفظ؛ أى : باب ماجاء في هذا اللفظ.

والمؤلف رحمه الله جعل الترجمة مفتوحة ولم يجزم بشيء؛ لأن «لو» تستعمل على عدة أوجه:

(١) فتح الله الحميد ٤٤٢

(٢) فتح المجيد ٢/٦٤٤

(٣) التعليق المفيد ٢٤٩

(٤) القول المفيد ٣/١٥١-١٥٣

الوجه الأول: أن تستعمل في الاعتراض على الشرع، وهذا محرم، قال الله تعالى ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ في غزوة أحد حينما تخلف أثناء الطريق عبدالله بن أبي في نحو ثلث الجيش، فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلاً اعترض المنافقون على تشريع الرسول ﷺ، وقالوا: لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قتلوا، فرأينا خير من شرع محمد، وهذا محرم وقد يصل إلى الكفر.

الثاني: أن تستعمل في الاعتراض على القدر، وهذا محرم أيضاً، قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾^(١)؛ أي لو أنهم بقوا ما قتلوا؛ فهم يعترضون على قدر الله.

الثالث: أن تستعمل للندم والتحسر، وهذا محرم أيضاً؛ لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منتهى عنه؛ لأن الندم يكسب النفس حزناً وانقباضاً، والله يريد منا أن نكون في انشراح وانبساط، قال ﷺ «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(٢). مثال ذلك: رجل حرص أن يشتري شيئاً يظن أن فيه ربحاً فخرس، فقال: لو أني ما اشتريته ما حصل لي خسارة؛ فهذا ندم وتحسر، ويقع كثيراً، وقد نهى عنه.

الرابع: أن تستعمل في الاحتجاج بالقدر على المعصية؛ كقول المشركين ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾^(٣)، وهذا باطل.

الخامس: أن تستعمل في التمني، وحكمه حسب التمني: إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ في قصة النفر الأربعة قال أحدهم: «لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان»؛ فهذا تمنى خيراً، وقال الثاني: «لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان»؛ فهذا تمنى شراً. فقال النبي ﷺ في الأول: «فهو بنيتي، فأجرهما سواء» وقال في الثاني: «فهو بنيتي، فوزرهما سواء»^(٤).

(١) آل عمران: ١٥٦

(٢) يأتي تخريجه.

(٣) الأنعام: ١٤٨

(٤) أخرجه أحمد (٢٣١/٤) والترمذي (٢٣٥) وابن ماجه (٤٢٢٨)؛ عن أبي كبشة الأنماري به. وانظر

«رياض الصالحين» (٥٥٨ - بتخريجنا).

السادس: أن تستعمل في الخير المحض.

وهذا جائز، مثل : لو حضرت الدرس لاستفدت، ومنه قوله ﷺ : «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى ولأحللت معكم»^(١)، فأخبر النبي ﷺ أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ماساق الهدى ولأحل، وهذا هو الظاهر لى.

وبعضهم قال : إنه من باب التمنى، كأنه قال : ليتنى استقبلت من أمرى ما استدبرت حتى لا أسوق الهدى.

لكن الظاهر: أنه خبر لما رأى من أصحابه، والنبي ﷺ لا يتمنى شيئاً قدر الله خلافه اهـ.

قلت: ومن ذلك حديث عائشة رضی الله عنها قالت: «رجع إلى رسول الله ﷺ جنازة بالبقيع، وأنا أجد صداعاً في رأسى، وأقول : وارأساه، فقال: بل أنا وارأساه ما ضرك لومت قبلى ففلسنك وكفتك، ثم صليت عليك ودفنتك»^(٢).

وعنها رضی الله عنها قالت «لو كنت استقبلت من أمرى ما استدبرت ما غسل النبي ﷺ إلا نساؤه»^(٣).

حكم استعمال كلمة لو

قال ناصر السعدى^(٤): اعلم أن استعمال العبد للفظه «لو» تقع على قسمين: مذموم ومحمود.

أما المذموم: فإن يقع منه أو عليه أمر لا يحبه فيقول: لو أنى فعلت كذا لكان كذا. فهذا من عمل الشيطان. لان فيه محذورين.

أحدهما: أنها تفتح عليه باب الندم والسخط والحزن الذى ينبغى له إغلاقه وليس فيها نفع.

الثانى: أن فى ذلك سوء أدب مع الله وعلى قدره فإن الأمور كلها والحوادث دقيقها وجليلها بقضاء الله وقدره. وما وقع من الأمور فلا بد من وقوعه. ولا يمكن رده. فكان فى قوله: لو كان كذا أو لو فعلت كذا كان كذا. نوع اعتراض ونوع ضعف إيمان بقضاء الله وقدره.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٢٣٠)، ومسلم فى الحج (١٥٨/٨ - النووى) عن جابر به.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

(٣) أخرجه أحمد وابن ماجه والدارمى - وانظر هذا الذى قبله «أحكام الجنائز» للألبانى.

(٤) القول السديد ١٢٤ - ١٢٦.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ (١).

ولا ريب أن هذين الأمرين المحذورين لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد إلا بتركهما.

وأما المحمود من ذلك فإن يقولها العبد تمنيا للخير.

كقوله ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ماسقت الهدى ولأهللت بالعمرة» (٢).

وقوله في الرجل المتمنى للخير «لو أن لى مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان» (٣).

و«لو صبر أخى موسى لقص الله علينا من نبأهما» أى فى قصته مع الخضر (٤).

وكما أن (لو) تكون بحسب الحال الحامل عليها.

أن حمل عليها الضجر والحزن وضعف الإيمان بالقضاء والقدر أو تمنى الشر كان مذموماً.

وأن حمل عليها الرغبة فى الخير والإرشاد والتعليم كان محموداً ولهذا جعل المصنف الترجمة محتملة للأمرين.

قلت: وقد تقدم من كلام ابن عثيمين أن لو تستعمل على ستة أوجه أربعة منها محرمة وهى الاستعمال فى الاعتراض على الشرع والقدر والندم والتحسر والاحتجاج بالقدر وواحدة جائزة وهى أن تستعمل فى الخير المحض وواحدة مترددة بين الحظر والإباحة وهى التمنى بحسب التمنى.



قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾

● مناسبة الآية للباب:

قال سليمان آل الشيخ: لأن قول «لو» فى الأمور المقدرة من كلام المنافقين، ولهذا رد الله عليهم ذلك بأن هذا قدر، فمن كتب عليه شيء فلا بد أن يناله، فماذا يغنى عنكم قول «لو» و«ليت» إلا الحسرة والندامة؟! فالواجب عليكم فى هذه الحالة الإيمان بالله

(٢) تقدم تخريجه.

(١) آل عمران: ١٥٤

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرج القصة البخارى (١-٣٤٠)، ومسلم فى الفضائل (٨/١٤٨/١٧٠) عن أبى بن كعب به.

.....
والتعزى بقدره مع ماترجون من حسن ثوابه، وفي ذلك عين الفلاح لكم فى الدنيا والآخرة، بل يصل الأمر إلى أن تنقلب المخاوف أماناً والأحزان سروراً وفرحاً كما قال عمر بن عبدالعزيز: أصبحت ومالى سرور إلا فى مواقع القضاء والقدر. اهـ.

قال عبد الله بن جابر الله: أن الله ذم فيهما - أى الآيتين - المنافقين على معارضة القدر. اهـ.

قال القرعاوى^(١) دلت على تحريم الاعتراض على القدر. اهـ.

مناسبة الآية للتوحيد

قال القرعاوى: (٢)

حيث دلت الآية على وجوب الاستسلام للقضاء والقدر لأن ذلك من كمال التوحيد أهـ.

الإعراب^(٣): يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا» جملة (يقولون) مستأنفة مسوقة لبيان ما قبله، ولتكون بمثابة شروع فى الحديث عنهم مجدداً تطرية لنشاط السامع واسترعاء لانتباهه. (ولو) شرطية وكان فعل ماض ناقص (ولنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كان المقدم ومن الأمر جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وشيء اسم كان المؤخر وما نافية وقتلنا فعل ماض مبنى للمجهول ونائب فاعل (وجملة ماقتلنا لامحل لها لأنها جواب شرط غير جازم، وها هنا الهاء للتنبيه (وهنا) اسم اشارة فى محل نصب ظرف مكان متعلق بقتلنا قل لو كنتم فى بيوتكم) (الجملة مستأنفة مسوقة لبيان أن الاجال مكتوبة وأنهم لو أقاموا فى المدينة لحدث لهم أسباب يخرجون فيها للملاقاة حتوفهم وأنهم إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. ولو شرطية وكنتم كان واسمها، وفى بيوتكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر والجملة فى محل نصب مقول القول. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤):

قوله: «يقولون»

الضمير للمناقضين.

قوله: «ماقتلنا»

أى: ما قتل بعضنا؛ لأنهم لم يقتلوا كلهم، ولأن المقتول لا يقول.

(١ - ٢) الجديد ٤٢١

(٣) الإعراب ٧٨/٢.

(٤) القول المفيد ٣/ ١٥٤، ١٥٥

قوله: «لو كان لنا من الأمر»

(لو) : شرطية، وفعل الشرط: (كان)، وجوابه: (ما قتلنا)، ولم يقترن الجواب باللام؛ لأن الألفصح إذا كان الجواب منفيًا عدم الاقتران، فقولك: لو جاء زيد ما جاء عمرو أفصح من قولك: لو جاء زيد لما جاء عمرو، وقد ورد قليلاً اقترانها مع النفي؛ كقول الشاعر:

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الليالي

● ما جاء في سبب نزول الآية :

قال ابن إسحاق : حدثني يحيى بن عبادة بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا ارسل الله علينا النوم، فما منا رجل إلا ذقته في صدره فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم «يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا» فحفظتها منه وفي ذلك أنزل الله عز وجل «يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا» لقول معتب(*) رواه ابن أبي حاتم.

عن السدي: أن المشركين انصرفوا يوم أحد بعد الذي كان من أمرهم وأمر المسلمين فواعدوا النبي ﷺ بداراً من قابل، فقال لهم: نعم، فتخوف المسلمون أن يتزلوا المدينة، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً فقال: انظر، فإن رأيتهم قد قعدوا على أثقالهم، وجنبوا خيط لهم؛ فإن القوم ذاهبون، وإن رأيتهم قد قعدوا على خيولهم، وجنبوا على أثقالهم، فإن القوم يتزلون المدينة، فاتقوا الله واصبروا، ووطنهم على القتال، فلما أبصرهم الرسول قعدوا على الأثقال سراعاً عجباً؛ نادى بأعلى صوته بذهابهم، فلما رأى المؤمنون ذلك صدقوا نبي الله ﷺ فناموا وبقي أناس من المنافقين يظنون أن القوم يأتونهم، فقال الله يذكر حين أخبرهم النبي ﷺ «ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ» الآية (١).

وفي رواية أخرى عن أنس عن أبي طلحة قال: «والطائفة الأخرى: المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم أجبن قوم، وأرعبه، وأخذله للحق، يظنون بالله غير الحق ظن

(*) ذكره السيوطي في «الدر» (١٥٦/٢) ونسبه لابن إسحاق، وابن راهوي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الدلائل».
وانظر «فتح المجيد» (ح ٨٤٤) بتخريجنا.
(١) أخرجه ابن جرير (٩٤/٤/٣).

الجاهلية، كذبهم إنما هم أهل شك وريبة في الله»^(١).

عن ابن عباس قال معتب: الذي قال يوم «لو كان لنا من الأمر شيء ما قلنا ههنا» فانزل الله في ذلك من قولهم «طائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله» إلى آخر القصة^(٢):

وروى ابن جرير: عن الزبير قال والله إنني لأسمع قول مُعْتَب بن قُشَيْر أخى بنى عمر وبن عوف والنعاس يغشاني ما أسمعه إلا كالحلم حين قال: «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هَاهُنَا»^(٣).

عن الربيع في قوله: «يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَدُونُ» كان مما اخفوا في أنفسهم أن قالوا: «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هَاهُنَا»^(٤).

عن الحسن أنه سئل عن هذه الآية فقال: لما قتل من قتل من أصحاب محمد أتوا عبدالله بن أبي فقالوا له: ماترى؟ فقال: أنا - والله - من «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هَاهُنَا»^(٥).

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين :

قال الطبري: أظهر الله نبيه على ما كانوا يخفونه بينهم من نفاقهم والخسرة على حضورهم مع المسلمين مشهدهم بأحد فقال مخبراً عن قيلهم الكفر وإعلانهم النفاق بينهم يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قلنا ههنا يعنى بذلك أن هؤلاء المنافقين يقولون لو كان الخروج إلى حرب ما خرجنا لحربه من المشركين إلينا ما خرجنا إليهم ولا قتل منا أحد في الموضع الذي قتلوا فيه بأحد وذكر أن ممن قال هذا القول معتب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف .

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخارى والترمذى والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ والطبرانى وابن مودويه وأبو نعيم والبيهقى كلاهما في «الدلائل» كذا في «الدر المشور» (٣٥٣/٢). وانظر «فتح المجيد» (ح ٨٤٥) بتخريجنا

(٢) ذكره السيوطى في «الدر» (١٥٦/٢) ونسبه لابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن ابن عباس به. وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» ٩٤/٤٣.

(٤) ذكره السيوطى في «الدر» (١٥٦/٢) ونسبه لابن إسحاق، وابن أبي حاتم عن ابن عباس به. وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٥) ذكره السيوطى في الموضع السابق ونسبه لابن أبي حاتم. وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

قال البغوى (١): وذلك أن المنافقين قال بعضهم لبعض : لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة. ولم يقتل رؤساؤنا. وقيل : لو كنا على الحق ما قتلنا هاهنا قال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما: «يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ»، يعنى التكذيب بالقدر وهو قولهم: «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هَاهُنَا».

قال ابن الجوزى (٢): قوله تعالى: «يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ» فى الذى أخفوه ثلاثة أقوال:

أحدها : أنه قولهم: لو كنا فى بيوتنا ما قتلنا هاهنا.

والثانى : أنه إسرارهم بالكفر، والشك فى أمر الله.

والثالث : الندم على حضورهم مع المسلمين بأحد . اهـ.

قال الفخر الرازى (٣): وصف الله تعالى هذه الطائفة - أى المنافقين - بأنواع من الصفات :

[الصفة الأولى]: «يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ» أنهم كانوا يقولون فى أنفسهم لو كان محمد محقاً فى دعواه لما سلط الكفار عليه، وهذا ظن فاسد.

وقيل: أن ذلك الظن هو أنهم كانوا ينكرون إله العالم بكل المعلومات، القادر على كل المقدورات وينكرون النبوة، والبعث.

[الصفة الثانية]: «يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ» والمعنى: هل لنا من أمر يطاع، وهو استفهام على سبيل الإنكار، والتقدير: أنطمع أن تكون لذا الغلبة عليه هؤلاء. والغرض منه تصيير المسلمين فى التشديد فى الجهاد والحرب مع الكفار، ثم إن الله سبحانه أجاب عن هذه الشبهة بقوله: «قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ».

[الصفة الثالثة]: «يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هَاهُنَا» وهو ما كان يقوله عبد الله بن أبى من أن محمداً لو أطاعنى وما خرج من المدينة ما قتلناهمنا.

(٢) زاد المسير (٣٨٦/٢ - ٣٨٧).

(١) البغوى ١/ ٥٦٨.

(٣) التفسير الكبير (٥/ ٤٩، ٥٠).

قال الفخر الرازي^(١): واعلم أنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من ثلاثة أوجه.
الوجه الأول من الجواب : قوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾

قال الرازي^(٢): والمعنى أن الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير، فالذين قدر الله عليهم القتل لا بد وأن يقتلوا على جميع التقديرات، لأن الله تعالى لما أخبر أنه يقتل، فلو لم يقتل لانقلب علمه جهلاً، وقد بينا أيضاً أن ممكن فلا بد من انتهائه إلى إيجاد الله تعالى، فلو لم يوجد لانقلبت قدرته عجزاً، وكل ذلك محال، وما يدل على تحقيق الوجوب كما قررنا قوله: ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ وهذه الكلمة تفيد وجوب الفعل، وهاهنا لا يمكن حملها على وجوب الفعل، فوجب حملها على وجوب الوجود وهذا كلام في غاية الظهور لمن أيدته الله بالتوفيق، ثم نقول للمفسرين: فيه قولان : الأول: لو جلستم في بيوتكم لخرج منكم من كتب الله عليهم القتل إلى مضاجعهم ومصارعهم حتى يوجد ما علم الله أنه يوجد..

والثاني: كأنه قيل للمنافقين لوجلستم في بيوتكم وتخلفتم عن الجهاد لخرج المؤمنون الذين كتب عليهم قتال الكفار إلى مضاجعهم، ولم يتخلفوا عن هذه الطاعة بسبب تخلفكم.

الوجه الثاني في الجواب عن تلك الشبهة: قوله: ﴿وَلَيَبْتَليَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ وذلك لأن القوم زعموا أن الخروج إلى تلك المقاتلة كان مفسدة، ولو كان الأمر إليهم لما خرجوا إليها، فقال تعالى: بل هذه المقاتلة مشتملة على نوعين من المصلحة:

أن يتميز الموافق من المنافق، وفي المثل المشهور: لا تكثرهوا الفتن فإنها حصاد المنافقين.

فإن قيل: لم ذكر الابتلاء وقد سبق ذكره في قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾. قلنا: لما طال الكلام أعاد ذكره، وقيل الابتلاء الأول هزيمة المؤمنين، والثاني سائر الأحوال.

الوجه الثالث في الجواب: قوله: ﴿لِيَمْحَصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وفيه وجهان.

(١) الفخر ٥/٩/٥٢.

(٢) الفخر ٥/٩/٥٢.

أحدهما: أن هذه الواقعة تمحص قلوبكم عن الوسواس والشبهات.

الثانى : أنها تصير كفارة لذنوبكم فتمحصكم عن تبعات المعاصى والسيئات، وذكر فى الابتلاء: الصدور، وفى التمحيص: القلوب، وفيه بحث ثم قال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

واعلم أن ذات الصدور هى الأشياء الموجودة فى الصدور، وهى الأسرار والضمائر، وهى ذات الصدور، لأنها حالة فيها مصاحبة لها، وصاحب الشيء ذوه وصاحبه ذاته، وإنما ذكر ذلك ليدل به على أن ابتلاءه لم يكن لأنه يخفى عليه ما فى الصدور، أو غير ذلك، لأنه عالم بجميع المعلومات وإنما ابتلاهم أما لمحض الألوية، أو للإستصلاح.

قال القرطبى (١): فرد الله عليهم فقال ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ أَى خَارِجَ الَّذِينَ كُتِبَ أَى فرض. ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ يعنى فى اللوح المحفوظ. ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أى مصارعهم . وقيل: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ أى فرض عليهم القتال؛ فعبر عنه بالقتل لأنه قد يؤول إليه. وقرأ أبو حيو «لبرز» بضم الياء وشد الراء، بمعنى يجعل يخرج. وقيل : لو تخلفتم أيها المنافقين لبرزتم إلى موطن آخر غيره تصرعون فيه حتى يتلى الله ما فى الصدور ويظهره للمؤمنين. و الواو فى قوله «وليتلى» مقحمة كقوله: ﴿وليكون من الموقنين﴾ أى ليكون، وحذف الفعل الذى مع لام كى. والتقدير ﴿وليتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم﴾ فرض الله عليكم القتال والحرب ولم ينصركم يوم أحد ليختبر صبركم وليمحص عنكم سيئاتكم إن تبتم وأخلصتم. وقيل : معنى «ليتلى» ليعاملكم صبركم معاملة المختبر. وقيل : ليقع منكم مشاهدة ما علمه غيباً. وقيل : هو على حذف مضاف، والتقدير ليتلى أولياء الله تعالى . وقد تقدم معنى التمحيص. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى ما فيها من خير وشر. وقيل : ذات الصدور هى الصدور؛ لأن ذات الشيء نفسه.

قال ابن كثير (٢): بعد أن ذكر أثر أنس عن أبى طلحة المتقدم عند الطبرى وفيه: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أى: إنما هم أهل شك وريب فى الله عز وجل. هكذا رواه البيهقى بهذه الزيادة، وكأنها من كلام قتادة - أحد رواة الحديث - وهو كما

(١) تفسير القرطبى ٣/ ١٤٨٥.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٥).

قال، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾، يعنى أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق وهم جازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله وينجز له مأموله، ولهذا قال : ﴿طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يعنى لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كما قال فى الآية الأخرى ﴿لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ إلى آخر الآية، وهكذا اعتقدوا أن المشركين لما ظهوراتلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد آباد وأهله.

وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة. اهـ.

قال الشوكانى (١) ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ استئناف كأنه قيل: ما هو الأمر الذى يخفون فى أنفسهم ؟ فقيل: يقولون فيما بينهم أوفى أنفسهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أى ما قتل من قتل منا فى هذه المعركة.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد :

قال سليمان (٢): قال وقول الله تعالى ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ الآية. ش: قال ابن كثير : فسر ما أخفوه فى أنفسهم بقوله : ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أى يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ.

قال الله تعالى : ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أى : هذا قدر مقدر من الله عز وجل، وحكم حتم لازم لا محيد عنه ولا مناص منه.

قلت: سليمان آل الشيخ : فتبين وجه إيراد المصنف الآية على الترجمة.

قال عبد الرحمن آل الشيخ (٣): قوله: وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ قاله بعض المنافقين يوم أحد، لخوفهم وجزعهم، وخورهم اهـ.

(٢) تيسير العزيز ٤٤٩

(١) فتح القدير ٤٧٤ / ١

(٣) فتح المجيد (٢/ ٦٤٤).

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ (١).

قال عبد الله بن جابر الله (٢): قاله - أى: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية - بعض المنافقين يوم غزوة أحد لجزعهم وخوفهم من ذلك اليوم . اهـ.

قال ابن باز (٣): هذا ذم لهم وعيب . اهـ.

قال ابن عثيمين (٤) قوله: «هاهنا»

أى: فى أحد.

هذا من الاعتراض على الشرع؛ لأنهم عتبوا على الرسول ﷺ حيث خرج بدون موافقتهم، ويمكن أن يكون اعتراضاً على القدر أيضاً؛ أى: لو كان لنا من حسن التدبير والرأى شيء ما خرجنا فنقتل . اهـ.

قال القرعاوى (٥) يكشف - الله - نفاقهم مخبراً أنهم لم يثقوا بوعد الله ورسوله مستدلين على ذلك بقتلهم فى غزوة أحد، لكن الله سبحانه وتعالى يؤكد أن كل ما جرى حاصل بقضائه وقدره، فذلك امتحاناً لإخلاصهم، وإظهاراً لحقيقتهم.

الفوائد ١: أن الخير والشر مقدر من الله عز وجل.

٢ - أن الشدائد تظهر الحقائق.

٣ - الاعتراض على القدر من علامات النفاق الإعتقادي.

٤ الأسباب لا تمنع الأقدار . اهـ.



قوله: وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾

● مناسبة الآية للباب:

قال عبد الله بن جابر الله (٦) أن الله ذم فيهما - الآيتين - المنافقين على معارضة القدر . اهـ .

(١) آل عمران: ١٦٨

(٢) الجامع الفريد (١٩٧).

(٣) التعليق المفيد (٢٤٩).

(٤) القول المفيد ٣/ ١٥٤، ١٥٥.

(٦) الجامع الفريد (١٩٦)

(٥) الجديد (٤٢١) ..

قال القرعاوى^(١) دلت الآية على تحريم الاعتراض على القدر للتوحيد . اهـ .
مناسبة الآية للتوحيد^(٢) : حيث دلت الآية على وجوب الاستسلام للقضاء والقدر
لأن ذلك من كمال التوحيد . اهـ .

الإعراب: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا ﴾ .

قال الرازى : محل ﴿ الَّذِينَ ﴾ . وجوه .

أحدها: نصب على البدل من ﴿ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ .

ثانيها: الرفع من البدل من الضمير فى ﴿ يَكْتُمُونَ ﴾ .

وثالثها: الرفع على خبر الابتداء بتقدير : هم الذين .

ورابعها: أن يكون نصباً على الذم . اهـ .

قال الرازى: الذين اسم موصول لك فى إعرابه وجوه متساوية منها أن تعربه بدلا
من اسم الموصول فى الآية المتقدمة أى الذين نافقوا أو من الواو فى نافقوا أو تنصبه على
الذم بفعل محذوف تقديره أذم وهو شائع فى كلامهم ويدل على تجسيد وتصوير ولك أن
ترفعه على أنه خبر لمبتدأ محذوف فتكون الجملة مستأنفة وجملة قالوا صلة ولاخوانهم
جار ومجرور متعلقان بقالوا والواو يجوز فيها أن تكون حالية أو عاطفة والجملة أما
حالية من الواو فى قالوا وقد مقدرة وأما معطوفة على جملة قالوا . اهـ .

● أسباب نزول الآية :

عن قتادة قوله: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ الآية ذكر لنا أنها
نزلت فى عدو الله عبد الله بن أبى^(٢) .

وعن السدى قال: هم عبدالله بن أبى وأصحابه^(٣) .

عن ابن جريج قال هو عبدالله بن أبى البذى قعد وقال لآخوانه الذين خرجوا مع
النبي ﷺ يوم أحد ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾^(٤) الآية .

(١) (٢٤١) الجديد (٤٢٣) . . .

(٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (١٦٧/٢) وزاد نسبه لابن المنذر .

(٣) أخرجه ابن جرير فى المصدر .

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (١٦٧/٢) وزاد نسبه لابن أبى

حاتم فانظر بتخريجنا .

قال ابن جريج عن مجاهد قال قال جابر : هو عبد الله بن أبي ابن سلول^(١) .
وعن الربيع قوله الذين ﴿ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا ﴾ الآية قال نزلت في عدو الله
عبدالله بن أبي^(٢) .

عن السدي قال : خرج رسول الله ﷺ يوم أحد في ألف رجل وقد وعدهم الفتح إن
صبروا فلما خرجوا رجع عدالله بن أبي في ثلاث مائة فتبعهم أبو جابر السلمى يدعوهم ،
فلما غلبوه وقالوا له : مانعلم قتالا ولئن أطعنا لترجعن معنا . فذكر الله . قولهم : ولئن
أطعنا لترجعن ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾^(٣) .

وعن ابن عباس : نزلت في عبد الله بن أبي .
عن ابن شهاب قال : إن الله أنزل على نبيه في القدرية ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا
لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾^(٤) .

● ما جاء في تفسير الآية من آثار :

روى عن ابن إسحاق ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ الذى أصيبوا معكم من عشائهم
وقومهم ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ الآية أى لا بد من الموت فإن استطعتم أن تدفعوه عن
أنفسكم فافعلوا وذلك أنهم إنما نافقوا وتركوا الجهاد فى سبيل الله حرصا على البقاء فى
الدنيا وقرارات من الموت ذكر من قال ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ هذا القول هم الذين قال
الله فيهم ﴿ لَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ نافقوا ﴾^(٥)

عن الحسن فى الآية قال : هم الكفار يقولون لإخوانهم ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا قُتِلُوا ﴾ ،
يحسبون أن حضورهم للقتال هو يقدمهم إلى الأجل^(٦) .

● ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين :

قال الطبرى^(٧) : يعنى تعالى ذكره بذلك وليعلم الله الذين نافقوا الذين قالوا

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وانظر «الدر» (١٦٧/٢) .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (١٦٧/٢) ونسبه لابن جرير .

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (١٦٨/٢) ونسبه لابن أبى حاتم .

(٥) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١١٢/٤) وذكره السيوطى فى «الدر» (١٦٧/٢) وزاد نسبه لابن أبى

حاتم .

(٦) ذكره السيوطى فى «الدر» (١٦٨/٢) ونسبه لابن أبى حاتم .

(٧) الطبرى ١١٢/٣/٤ .

لإخوانهم وقعدوا فموضع الذين نصب على الإبدال من الذين نافقوا وقد يجوز أن يكون رفعاً على الترجمة عما في قوله يكتمون من ذكر الذين نافقوا فمعنى الآية وليعلم الله الذين قالوا لإخوانهم الذين أصيبوا مع المسلمين في حربهم المشركين بأحد يوم أحد فقتلوا هنالك من عشائريهم وقومهم وقعدوا يعنى وقعد هؤلاء المنافقون القاتلون ما قالوا مما أخبر الله عز وجل عنهم من قبلهم عن الجهاد مع إخوانهم وعشائريهم في سبيل الله لو أطاعونا يعنى لو أطاعنا من قتل بأحد من إخواننا وعشائرينا ما قتلوا يعنى ما قتلوا هنالك. قال الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء القائلين هذه المقالة من المنافقين فادروا يعنى فادفعوا من قول القائل درأت عن فلان القتل بمعنى دفعت عنه أدرؤه درأً ومنه قول الشاعر

تقول وقد درأت لها وضئى أهذا دينه زيدا ودينى

يقول تعالى ذكره قل لهم فادفعوا إن كنتم أيها المنافقون صادقين في قبلكم لو أطاعنا إخواننا في ترك الجهاد في سبيل الله مع محمد ﷺ وقتالهم أبا سفيان ومن معه من قريش ما قتلوا هنالك بالسيف ولكانوا أحياء بقعودهم معكم وتخلفهم عن محمد ﷺ وشهود جهاد أعداء الله معه الموت فانكم قد قعدتم عن حربهم وقد تخلفتم عن جهادهم وأنتم لا محالة ميتون.

قال البغوى (١): قوله: «وَقَعْدُوا»، يعنى قعد هؤلاء القاتلون عن الجهاد.

قوله: «لَوْ أَطَاعُونَا» وانصرفوا عن محمد ﷺ وقعدوا في بيوتهم. اهـ.

قال ابن الجوزى (٢): قوله تعالى: «الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ» في إخوانهم قولان:

أحدهما: أنهم في النفاق، قاله ابن عباس.

الثانى: إخوانهم في النسب، قاله مقاتل.

فعلى الأولى يكون المعنى: قالوا لإخوانهم المنافقين. لو أطاعنا الذين قتلوا مع محمد ما قتلوا.

وعلى الثانى يكون المعنى: قالوا عن إخوانهم الذين استشهدوا بأحد لو أطاعونا ما قتلوا.

(١) معالم التنزيل (١/٥٧٨، ٥٧٩).

(٢) زاد المسير ١/٣٩٨.

قال الرازى (١): اعلم أن الذين حكى الله عنهم أنهم ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ وصفهم الله تعالى بأنهم كما قعدوا واحتجوا لقعودهم، فكذلك ثبطوا غيرهم واحتجوا لذلك، فحكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا لإخوانهم إن الخارجين لو أطاعونا ماقتلوا، فخوفوا من مراده موافقة الرسول ﷺ، في محاربة الكفار بالقتل لما عرفوا ماجرى يوم أحد من الكفار على المسلمين من القتل، لأن المعلوم من الطباع محبة الحياة فكان وقوع هذه الشبهة في القلوب يجرى مجرى ما يورده الشيطان من الوسواس، وفي الآية مسائل.

المسألة الأولى: قال المفسرون: المراد ﴿بِالَّذِينَ قَالُوا﴾ عبدالله بن أبى وأصحابه، وقال الأصم: هذا لا يجوز لأن عبد الله بن أبى خرج مع النبي ﷺ في الجهاد يوم أحد، وهذا القول فهو واقع فيمن قد تخلف لأنه قال ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإخوانهم وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا﴾ أى فى القعود ما قتلوا فهو كلام متأخر عن الجهاد، قاله لمن خرج إلى الجهاد ولن هو قوى النية فى ذلك ليجعله شبهة فيما بعده صارفاً لهم عن الجهاد.

المسألة الثانية: ﴿قَالُوا لإخوانهم﴾: أى قالوا لأجل إخوانهم، وقد سبق بيان المراد من هذه الأخوة، الأخوة فى النسب، أو الأخوة بسبب المشاركة فى الدار، أو فى عداوة الرسول ﷺ، أوفى عبادة الأوثان؟ والله أعلم.

المسألة الثالثة: قال الواحدى: السواو فى قوله: ﴿لإخوانهم﴾ للحال ومعنى هذا القعود القعود عن الجهاد يعنى من قتل بأحد لو قعدوا كما قعدنا وفعلوا كما فعلنا لسلموا ولم يقتلوا، ثم أجاب الله عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قال ناصر السعدى (٢): وفى هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصله كفر، وخصله إيمان وقد يكون إحداهما أقرب من الآخر. هذه الآيات الكريمات فيها فضل الشهداء وكرامتهم، وما من الله عليهم به من فضله وإحسانه.

وفى ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم، وتعزيتهم، وتنشيطهم للجهاد فى سبيل الله والتعرض للشهادة. فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا﴾

(١) «التفسير الكبير» (٩/٥) (٩٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/٢٧٦.

● ما جاء فى الآية من كلام شرح كتاب التوحيد :

قال سليمان آل الشيخ (١): ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾
إخوانهم هم المسلمون المجاهدون، وسموا إخوانهم لموافقتهم فى الظاهر. وقيل :
إخوانهم فى النسب لافى الدين ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

قال ابن كثير : لوسمعو مشورتنا عليهم فى القعود، وعدم الخروج ما قتلوا مع من
قتل.

قال ابن عثيمين (٢):

قوله: ﴿وَقَعَدُوا﴾.

الواو إما أن تكون عاطفة والجملة معطوفة على ﴿قَالُوا﴾، ويكون وصف هؤلاء
بأمرين :

- بالاعتراض على القدر بقولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

- وبالجبن عن تنفيذ الشرع «الجهاد» بقولهم ﴿وَقَعَدُوا﴾، أو تكون الواو للحال
والجملة حالية على تقدير «قد»؛ أى : والحال أنهم قد قعدوا؛ ففيه توبيخ لهم حيث
قالوا: قعودهم، ولو كان فيهم خير لخرجوا مع الناس، لكن فيهم الاعتراض على
المؤمنين وعلى قضاء الله وقدره.

قوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾

قيل: فى النسب لا فى الدين، وقيل: فى الدين ظاهراً؛ لأن المنافقين يتظاهرون
بالإسلام، ولو قيل: إنه شامل للأمرين؛ لكان صحيحاً.

قوله: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

الإعراب (٣): ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ ﴿لَوْ﴾ شرطية ﴿وَأَطَاعُونَا﴾ فعل ماض
وفاعل ومفعول به ﴿وَمَا﴾ نافية ﴿وَقُتِلُوا﴾ فعل ماض مبنى للمجهول والواو نائب فاعل

(١) تيسير العزيز الحميد ٤٩٩.

(٢) القول المفيد ١٥٥/٣.

(٣) إعراب القرآن ١٠٥/٢.

وجملة ﴿ مَا قُتِلُوا ﴾ لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وجملة ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا ﴾ في محل نصب مقول القول. اهـ.

○ ما جاء في الآية من أقوال المفسرين :

قال الرزاي^(١): فإن قيل : ما وجه الاستدلال بذلك مع أن الفرق ظاهر فإن التحرز عن القتل ممكن أما التحرز عن الموت فهو غير ممكن البتة.

والجواب : هذا الدليل الذي ذكره الله تعالى لا يتمشى إلا إذا اعترفنا بالقضاء والقدر، وذلك لأننا إذا قلنا لا يدخل الشيء في الوجود إلا بقضاء الله وقدره، اعترفنا بأن الكافر لا يقتل المسلم إلا بقضاء الله، وحينئذ لا يبقى بين القتل وبين الموت فرق، فيصح الاستدلال أما إذا قلنا بأن فعل العبد ليس بتقدير الله وقضائه، كان الفرق بين الموت والقتل ظاهراً من الوجه الذي ذكرتم، فتفضي إلى فساد الدليل الذي ذكره الله تعالى، ومعلوم أن المفضي إلى ذلك يكون باطلاً، فثبت أن هذه الآية دالة على أن الكل بقضاء الله.

● ما جاء في الآية من كلام شراح كتاب التوحيد :

قال سليمان آل الشيخ^(٢):

قال الله تعالى ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة. فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

قال مجاهد: عن جابر عبد الله نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي. ^(٣)

قلت - سليمان: وكان أشار على رسول الله ﷺ، يوم أحد بعدم الخروج، فلما قدر الله الأمر قال ذلك تصويهاً لرأيه، ورفعاً لشأنه فرد الله عليه وعلى أمثاله: ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فلا تعذرون عن ذلك. فعلم أن ذلك بقضاء الله

(١) الفخر الرازي ٩١/٩/٥.

(٢) تيسير العزيز ٥٠٠.

(٣) تقدم تخريجه.

وقدره أى: يستوى الذى فى وسط الصفوف والذى فى البروج المشيدة فى القتل والموت. بل ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ فلا ينجى حذر عن قدر. وفى ضمن ذلك قول (لو) ونحوه فى مثل هذا المقام؛ لأن ذلك لا يجدى شيئاً، إذ المقدر قد وقع فلا سبيل إلى دفعه أبداً ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾

ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وإن كنتم قاعدين؛ فلا تستطيعون أيضاً أن تدرؤوا عن أنفسكم الموت. فهذه الآية والتى قبلها تدل على أن الإنسان محكوم بقدر الله كما أنه يجب أن يكون محكوماً بشرع الله.

قال عبد الرحمن آل الشيخ (١):

قال شيخ الإسلام (٢) - رحمه الله - لما ذكر ما وقع من عبد الله بن أبى فى غزوة أحد، قال: فلما اتخذ يوم أحد وقال: يدع رأى ورأيه، ويأخذ برأى الصبيان؟ - أو كما قال - اتخذ معه خلق كثير، كان كثير منهم لما ينافق قبل ذلك، فأولئك كانوا مسلمين، وكان معهم إيمان هو الضوء الذى ضرب الله به المثل، فلو ماتوا قبل المحنة والتفارق لماتوا على الإسلام الذى يثابون عليه، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين امتحنوا فثبتوا على المحنة ولا من المنافقين حقاً الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة.

وهذا حال كثير من المسلمين فى زماننا أو أكثرهم، إذا ابتلوا بالمحنة التى يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيراً، وينافق كثير منهم، ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً، وقد رأينا - ورأى غيرنا - من هذا ما فيه عبرة، وإذا كانت العافية، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين، وهم مؤمنون بالرسول باطناً وظاهراً، لكنه إيمان لا يثبت على المحنة، ولهذا يكثر فى هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم، وهؤلاء من الذين قالوا آمنا، فقليل لهم ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: الإيمان المطلق الذى أهله هم المؤمنون حقاً، فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق فى كتاب الله تعالى، كما دل عليه الكتاب والسنة فلم يحصل لهم ريب عند المحن التى تقلقل الإيمان فى القلوب انتهى.

(١) فتح المجيد (٢/ ٦٤٦، ٦٤٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٠، ٢٨١).

[قلت] - أى عبد الرحمن آل الشيخ - : قوله: (وقد رأينا - ورأى غيرنا - من هذا ما فيه عبرة) ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو، من إعاتهم العدو على المسلمين، والظعن فى الدين، وإظهار العداوة والشماتة، وبذل الجهد فى إطفاء نور الإسلام، وذهاب أهله، وغير ذلك مما يطول ذكره. والله المستعان . اهـ.

قلت: ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو والجاهلية من إعانة الجاهلين على المسلمين وكشف عوارثهم عندهم والتقرب إليهم بسبهم أو الظعن عليهم أو على منهجهم وإظهار العداوة بالقول والفعل وإظهارك الشماتة. . إلخ

قال عبد الله بن جابر السهلي^(١): يقول تعالى مخبراً عن المنافقين الذين قالوا لإخوانهم ممن قتلوا فى غزوة أحد مع رسول الله ﷺ لو سمعوا مشورتنا عليهم بالعودة وعدم الخروج للجهاد ما قتلوا مع من قتل . اهـ.

قال ابن باز^(٢): الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴿ فدل هذا على أنه لا يجوز استعمالها عند معارضة القدر فى مرض أو هزيمة أو نحو ذلك، وإن هذا من شأن المنافقين لأن قدر الله ماض وشأنه نافذ، وإنما شرع الأسباب لحكمة بالغة، فعلى المسلم أن يتعاطى الأسباب، فإذا نزل القضاء فليس له أن يعترض بعد ذلك . اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ هذا غير صحيح، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَأَدْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وإن كنتم قاعدين، فلا تستطيعون أيضاً أن تدرؤوا عن أنفسكم الموت.

فهذه الآية والتى قبلها تدل على أن الإنسان محكوم بقدر الله كما أنه يجب أن يكون محكوماً بشرع الله . اهـ.

قال القرعاوى^(٤): يخبرنا الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية عما جرى من المحاورة بين المؤمنين والمنافقين حينما جنوا وقعدوا عن الجهاد وشمتموا بالمؤمنين الذين قتلوا فى أحد فى الهزيمة التى سببها مخالفة أمر رسول الله ﷺ وزعموا أن المؤمنين لو أخذوا

(١) الجامع الفريد (١٩٧).

(٢) التعليق المفيد (٢٤٩).

(٣) القول المفيد (٣/١٥٦، ١٥٥).

(٤) الجديد (٤٢٢، ٤٢٣).

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « احرص على ما ينفعك، واستعين بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء؛ فلا تقل: لو أني فعلت كذا؛ لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن (لو) تفتح عمل الشيطان »^(١).

بمشورتهم وجلسوا في المدينة لسلموا ثم تحداهم الله سبحانه وتعالى بأن ينجوا أنفسهم من الموت إذا حل بهم إن كانوا صادقين أن الحذر ينجي من القدر.

الفوائد : (١) مشروعية الجهاد في سبيل الله.

(٢) حظر المنافقين على المسلمين.

(٣) الحذر لا ينجي من القدر. اهـ.

● مناسبة الحديث للباب :

قال القرعاوى : حيث دل الحديث على تحريم الاعتراض على القدر. اهـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد :

قال القرعاوى : حيث دل الحديث على وجوب الاستسلام للقضاء والقدر لأن ذلك من تمام التوحيد. اهـ.

قوله: في الصحيح

قال سليمان آل الشيخ^(٢) أى: (صحيح مسلم). اهـ.

والحديث بتمامه: فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ. وَفِي كُلِّ خَيْرٍ. احرص على ما ينفعك واستعين بالله. ولا تعجزن. وإن أصابك شيء؛ فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا. ولكن قل: قدر الله. وما شاء فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان».

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في «القدر»/ باب. الإيمان بالقدر والإيمان (٦/١٦/٢١٥ - النووي)، وابن ماجه فى الزهد باب: التوكل من اليقين (٢/١٣٩٥/١٣٦٨) وابن حبان فى «صحيحه» (٧/٤٩٠/ح ٥٦٩٢ - الإحسان).

من طريق الأعرج وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٠١) بتخريجنا.

(٢) التيسير ٥٠٠.

قوله: (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف).

قال النووي^(١) والمراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة فى أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداماً على العدو فى الجهاد، وأسرع خروجاً إليه، وذهاباً فى طلبه، وأشد عزيمة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والصبر على الأذى فى كل ذلك، واحتمال المشاق فى ذات الله تعالى، وأرغب فى الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلباً لها، ومحافظة عليها، ونحو ذلك.

قال سليمان آل الشيخ^(٢) فيه أن الله سبحانه موصوف بالمحبة، وأنه يحب على الحقيقة كما قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ وفيه أنه سبحانه يحب مقتضى أسمائه وصفاته، وما يوافقها فهو القوى، ويحب المؤمن القوى، وهو وتر يحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلماء، ومحسن يحب المحسنين، وصبور يحب الصابرين، وشكور يحب الشاكرين.

قلت - أى سليمان - : الظاهر أن المراد القوة فى أمر الله وتنفيذه، والمسابقة بالخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والصبر على ما يصيب فى ذات الله ونحو ذلك، لاقوة البدن. ولهذا مدح الله الأنبياء بذلك فى قوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ﴾ فالأيدى القوة، والعزائم فى تنفيذ أمر الله وقوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «القوى».

أى: فى إيمانه وما يقتضيه إيمانه، وفى إيمانه؛ يعنى: ما يحل فى قلبه من اليقين الصادق الذى لا يعتريه شك، وفيما يقتضيه؛ يعنى: العمل الصالح من الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والحزم فى العبادات وما أشبه ذلك.

وهل يدخل فى ذلك قوة البدن؟

الجواب: لا يدخل فى ذلك قوة البدن إلا إذا كان فى قوة بدنه ما يزيد إيمانه أو يزيد ما يقتضيه؛ لأن «القوى» وصف عائد على موصوف وهو المؤمن؛ فالمراد: القوى فى إيمانه أو ما يقتضيه، ولا شك أن قوة البدن نعمة، إن استعملت فى الخير فخير، وإن استعملت فى الشر فشر.

(١) شرح مسلم فى الموضع قبل السابق.

(٢) تيسير العزيز الحميد (٥٠٣).

(٣) القول المفيد ٣/ ١٥٧ - ١٥٨.

قلت: ويؤيد الدخول على التفصيل المتقدم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ الآية وقوله ﷺ «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»

قوله: «خير وأحب إلى الله».

قال ابن عثيمين: خير في تأثيره وآثاره؛ فهو ينفع ويُقْتَدَى به، وأحب إلى الله باعتبار الثواب.

قوله: «من المؤمن الضعيف».

وذلك في الإيمان أو فيما يقتضيه لا في قوة البدن.

قوله: «وفي كل خير».

قال النووي^(١): وأما قوله ﷺ: «وفي كل خير» فمعناه: في كل من القوى والضعيف خير؛ لاشتراكهما في الإيمان مع ما يأتي به الضعيف من العبادات.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): أى: كل من المؤمن القوى والمؤمن الضعيف على خير وعافية، لاشتراكهما في الإيمان والعمل الصالح. ولكن القوى في إيمانه ودينه أحب إلى الله. وفيه أن محبة المؤمنين تتفاضل فيحب بعضهم أكثر من بعض.

قال ابن عثيمين^(٣): أى: في كل من القوى والضعيف خير، وهذا النوع من التذليل يسمى عند البلاغيين بالاحتباس حتى لا يظن أنه لا خير في الضعيف.

فإن قيل: إن الخيرية معلومة في قوله: «خير وأحب»؛ لأن الأصل في اسم التفضيل اتفاق المفضل والمفضل عليه في أصل الوصف؟

فالجواب: أنه قد يخرج عن الأصل؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ مع أن أهل النار لا خير في مستقرهم.

كذلك الإنسان إذا سمع هذه الجملة: «خير وأحب» صار في نفسه انتقاص للمؤمن المفضل عليه، فإذا قيل: «وفي كل خير» رفع من شأنه، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٠٣.

(١) شرح مسلم للنووي / ٤٩٧.

(٣) القول المفيد ٣/ ١٥٨ - ١٥٩.

قلت: وفيه تفاضل أهل الإيمان بزيادة الإيمان ونقصه وفي الرد على الخوارج الذين يقولون إن الآيمان يزيد ولا ينقص

قوله: «أحرص على ما ينفعك».

قال النووي^(١) - رحمه الله بكسر الراء.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): وقوله: «أحرص على ما ينفعك» هو بفتح الراء وكسرهما.

قال ابن القيم: سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاذه ، والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع ، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محموداً ، وكماله كله في مجموع هذين الأمرين أن يكون حريصاً ، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به ، فإن حرص على مالا ينفعه أو فعل ما ينفعه بغير حرص فإنه من الكمال بحسب ما فاتته من ذلك ، فالخير كله في الحرص على ما ينفع . اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): أى : فى معاشك ومعاذك . والمراد: الحرصُ على فعل الأسباب التى تنفع العبد فى دُنياه وأُخراه ، مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة ، ويكون العبدُ فى حال فعله السبب مُستعيناً بالله وحده دون كل ما سواه ، ليتم له سببه وينفعه ، فيكون اعتمادهُ على الله تعالى فى ذلك ، لأنه تعالى هو الذى خلق السبب والمسبب ، ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه الله به ، فيكون اعتماده فى فعل السبب على الله تعالى ، ففعل السبب سنة والتوكل على الله توحيد فإذا جمع بينهما : تم له مراده . اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤):

قوله: «أحرص على ما ينفعك»

الحرص: بذل الجهد لئيل ما ينفع من أمر الدين أو الدنيا.

وأفعال العباد بحسب السِّرِّ والتقسيم لا تخلو من أربع حالات .

١- نافعة، وهذه مأمور بها .

٢- ضارة، وهذه محذر منها.

٣- فيها نفع وضرر .

(٢) فتح المجيد ٧٦٩/٢.

(٤) القول المفيد ١٥٩/٣.

(١) شرح مسلم . ٤٦٧ .

(٣) فتح المجيد ٧٦٩/٢.

٤- لا نفع فيها ولا ضرر، وهذه لا تتعلق بها أمر ولا نهى، لكن الغالب أن لا تقع إلا وسيلة إلى ما فيه أمر أو نهى، فتأخذ حكم الغاية، لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

فالأمر لا يخلو من نفع أو ضرر، إما لذاته أو لغيره، فحديثنا العام قد لا يكون فيه نفع ولا ضرر، لكن قد يتكلم الإنسان ويتحدث لأجل إدخال السرور على غيره فيكون نفعاً، ولا يمكن أن تجد شيئاً من الأمور والحوادث ليس فيها نفع ولا ضرر، إما ذاتي، أو عارض إنما ذكرناه لأجل تمام السبر والتقسيم.

والعقل يشع بوقته أن يصرفه فيما لا نفع فيه ولا ضرر، قال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت»^(١).

واتصال هذه الجملة بما قبلها ظاهراً جذاً، لأن من القوة الحرص على ما ينفع.

«وما»: اسم موصول بفعل (ينفع) والاسم الموصول يحول بصلته إلى اسم فاعل، كأنه قال: احرص على النافع، وإنما قلت ذلك لأجل أن أقول: إن النبي ﷺ أمرنا بالحرص على النافع، ومعناه أن تقدم الأنفع على النافع، لأن الأنفع مشتمل على أصل النفع وعلى الزيادة، وهذه الزيادة لا بد أن نحرص عليها، لأن الحكم إذا علق بوصف كان تأكد ذلك الحكم بحسب ما يشتمل عليه تأكد لك الوصف، فإن قلت: أنا أكره الفاسقين كان كل من كان أشد في الفسق إليك أكره، فنقدم الأنفع على النافع لوجهين:

١- أنه مشتمل على النفع وزيادة.

٢- أن الحكم إذا علق بوصف كان تأكد ذلك الحكم بحسب تأكد ذلك الوصف وقوته.

ويؤخذ من الحديث وجوب الابتعاد عن الضار، لأن الابتعاد عنه انتفاع وسلامة.

قلت: وفيه أنه إذا حصص على النافع ما استطاع بما آتاه الله من قوة فهذا ادعى لعدم الندم والرضى إذا فاته مقصوده ولم يوفق له.

قوله (استعن بالله).

(١)[متفق عليه] أخرجه: البخارى (١١)، ومسلم (فى الإيمان ١٢/٢ - النووى)، عن أبى هريرة رضى الله عنه.
وانظر «رياض الصالحين» (١٥١٥ - بتخریجنا).

[قلت]:

تقدم معنا فى باب (من الشرك الاستعاذة بغير الله) والباب الذى بعده (من الشرك أن يستغيث بغير الله) الفرق بين الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة، ومن اعتبرها مرادفات، كان صرف شيء من ذلك شرك، فالتوحيد أن يستعيذ ويستغيث ويستعين بالله، لذا قال ﷺ: مرشداً لهذا النوع من التوحيد (استعن بالله) لأن التوحيد فيه القوة، العجز يؤدى للشرك، فالاستعانة بالله فى جميع الأمور تنفع العبد وتقوى إيمانه. والله أعلم.

قال سليمان آل الشيخ^(١):

قال ابن القيم: لما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته، وتوفيقه، أمره أن يستعين به ليجتمع له مقام «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» فإن حرصه على ما ينفعه عبادة الله، ولا تتم إلا بمعونته: فأمره بأن يعبد ويستعين به، وقال غيره: «استعن بالله» أى: اطلب الإعانة فى جميع أمورك من الله لا من غيره، كما قال تعالى: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»^(٢) فإن العبد عاجز لا يقدر على شيء إن لم يعنه الله عليه، فلا معين له على مصالح دينه ودنياه، إلا الله عز وجل، فمن أعانته الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول.

وقد كان النبى ﷺ يقول فى خطبته ويعلم أصحابه أن يقولوا: إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَغِيثُهُ وَنُسْتَعِينُهُ^(٣).

[قلت] ومن دعاء القنوت «اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَغِيثُكَ»^(٤).

وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع فى دبر كل صلاة أن يقول: «اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(٥) وكان ذلك من دعائه ﷺ

(١) تيسير العزيز الحميد ٥٠٣

(٢) الفاتحة: ٥

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجمعة (٤٦/٤١٩/٣) عن ابن عباس بدون «ونستهديه» فقد ذكر الشيخ الألبانى - رحمه الله - أنها لا أصل لها فى مقدمة الصحيحة الجزء الخامس.

(٤) أخرجه ابن أبى شيبه فى «مصنفه» (١١٥/٧)، والبيهقى فى «الكبرى» (٢/٢١٠ - ٢١١) عن عمر به وانظر «الإتقان» (٥٣٨ - بتخريجنا).

(٥) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائى (٥٣/٣) - السيوطى - عن معاذ به.

وانظر «رياض الصالحين» (٣٨٥ - بتخريجنا).

ومنه أيضاً : «رب أعنى ولا تعن على»^(١) وإذا حقق العبد مقام الاستعانة وعمل به ، كان مستعيناً بالله عز وجل متوكلاً عليه ، راغباً وراغباً إليه ، فيستحق له مقام التوحيد إن شاء الله تعالى . اهـ .

قال ابن عثيمين^(٢) : الواو تقتضى الجمع فتكون الاستعانة مقرونة بالحرص ، والحرص سابق على الفعل ، فلا بد أن تكون الاستعانة مقارنة للفعل من أوله .

والاستعانة : طلب العون بلسان المقال ، كقولك : «اللهم أعنى ، أو : لا حول ولا قوة إلا بالله» عند شروعه بالفعل .

أو بلسان الحال ، وهى أن تشعر بقلبك أنك محتاج إلى ربك - عز وجل - أن يعينك على هذا الفعل ، وأنه إن وكلك إلى نفسك وكلك إلى ضعف وعجز وعورة .

أو طلب العون بهما جميعاً ، والغالب أن من استعان بلسان المقال ، فقد استعان بلسان الحال .

ولو احتاج الإنسان إلى الاستعانة بالمخلوق كحمل صندوق مثلاً ، فهذا جائز ولكن لا تشعر نفسك أنها كاستعانتك بالخالق ، وإنما عليك أن تشعر أنها كمعونة بعض أعضائك لبعض ، كما لو عجزت عن حمل شيء بيد واحدة ، فإنك تستعين على حمله باليد الأخرى ، وعلى هذا ، فالاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه كالاستعانة ببعض أعضائك ، فلا تنافى قوله ﷺ : «استعن بالله» . اهـ .

قوله : (ولا تعجزن) .

[قلت] : كذا وجدناها بإثبات النون ، وفى صحيح مسلم بحذفها .

قال النووي^(٣) : بكسر الجيم : وحكى فتحهما جميعاً ومعناه : ولا تعجز ولا تكسل على طلب الطاعة ، ولا عن طلب الإعانة .

قال سليمان آل الشيخ^(٤) : قوله : «ولا تعجزن» وهو بكسر الجيم وفتحها ، استعمل الحرص والاجتهاد ، وفى تحصيل ما ينفعك من أمر دينك ودنياك التى تستعين بها على صيانة دينك ، وصيانة عيالك ، ومكارم أخلاقك ، ولا تفرط فى طلب ذلك ولا

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٠) ، والترمذى (٣٥٥١) ، وابن ماجه (٣٨٣٥) عن ابن عباس به .

وانظر «الأذكار للنووى» (١٠٤١ - بتخريجنا) .

(٢) القول المفيد (٣/١٦١) .

(٣) شرح مسلم ٤٦٧

(٤) تيسير العزيز الحميد ٥٠٤

تتعاجز عنه متكلأً على القدر ، أو متهاوناً بالأمر فتنسب للتقصير وتلام على التفريط شرعاً وعقلاً ، مع إنهاء الاجتهاد نهايته ، وبلاغ الحرص غايته ، فلا بد من الاستعانة بالله والتوكل عليه والالتجاء في كل الأمور إليه ، فمن ملك هذين الطريقين حصل على خير الدارين .

وقال ابن القيم: العجز ينافي حرصه على ما ينفعه ، وينافي استعانته بالله ، فالحرص على ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز ، فهذا إرشاد له قبل رجوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله ، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده ، ومصدرها منه ومردّها إليه . اهـ .

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): (قوله: «ولا تعجزن» النون نون التأكيد الخفيفة، نهائاً ﷺ عن العجز وذمه والعجز مذموم شرعاً وعقلاً).

وفى الحديث «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني»^(٢). اهـ .

قلت: لذلك كان ﷺ يستعيز بالله من العجز كما في الصحيح من حديث أنس: «كان رسول الله ﷺ يقول اللهم إني أعوز بك من العجز والكسل»^(٣).

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «ولا تعجزن» فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة، و«لا»: ناهية، والمعنى: لا تفعل فعل العاجز من التكاسل وعدم الحزم والعزيمة وليس المعنى: لا يصيبك عجز، لأن العجز عن الشيء غير التعاجز، فالعجز بغير اختيار الإنسان، لأن ذلك لا طاقة له به، فلا يتوجه عليه نهى، ولهذا قال النبي ﷺ: «صل قائماً، فإن لم تستطيع، فقاعدًا، فإن لم تستطع، فعلى جنب»^(٥).

فإذا اجتمع الحرص وعدم التكاسل، اجتمع في هذا صدق النية بالحرص والعزيمة بعدم التكاسل .

(١) فتح المجيد ٢/ ٧٦٩

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٤/٤) ، والترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) عن شداد بن أوس به .

وانظر «رياض الصالحين» (٦٧ - بتخريجنا).

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٣٦٧)، ومسلم (٢٩/١٧/٦)

وانظر تخريجنا «رياض الصالحين» (ح ١٤٧٧)

(٤) القول المفيد ٣/ ١٦١ - ١٦٢ .

(٥) [صحيح] أخرجه البخاري (١١٧) عن عمران بن حصين به .

وانظر «السلسلة» (٤٣٩ - بتخريجنا).

لأن بعض الناس يحرص على ما ينفعه ويشرع فيه، ثم يتعاجز ويتكاسل ويدعيه، وهذا خلاف ما أمر به الرسول ﷺ فما دمت عرفت أن هذا نافع، فلا تدعه، لأنك إذا عجزت نفسك خسرت العمل الذي عملت ثم عودت نفسك التكاسل والتدنى من حال النشاط والقوة إلى حال العجز والكسل، وكم من إنسان بدأ العمل - ولا سيما النافع - ثم أتاه الشيطان فثبطه؟!

لكن إذا ظهر في أثناء العمل أنه ضار " فيجب عليه الرجوع عنه؛ لأن الرجوع إلى الحق خير من التمادى في الباطل.

وذكر في ترجمة الكسائي أنه بدأ في طلب علم النحو ثم صعب عليه، فوجد غلة تحمل طعاماً تريد أن تصعد به حائطاً، كلما صعدت قليلاً سقطت، وهكذا حتى صعدت؛ فأخذ درساً من ذلك، فكابد حتى صار إماماً في النحو. اهـ.

قوله: «وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا»

قال النووي^(١): قال القاضي عياض: قال العلماء: هذا النهي إنما هو لمن قاله معتقداً ذلك حتماً، وأنه لو فعل ذلك لم تصبه قطعاً، فأما من رد ذلك إلى مشيئة الله تعالى بأنه لن يصيبه إلا ما شاء الله فليس من هذا، واستدل بقول أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في الغار (لو أن أحدهم رفع رأسه لرآنا)^(٢). قال القاضي: وهذا لا حجة فيه، لأنه إنما أخبر عن مستقبل وليس فيه دعوى لرد قدر بعد وقوعه، قال: وكذا جميع ما ذكره البخاري في باب (ما يجوز من اللو) كحديث (لولا حدثان عهد قومك بالكفر لأتممت البيت على قواعد إبراهيم)^(٣) (ولو كنت راجماً بغير بينة لرجمت هذه)^(٤) (ولولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك)^(٥) وشبه ذلك، فكله مستقبل لا اعتراض فيه على قدر فلا كراهة فيه لأنه إنما أخبر عن اعتقاده فيما كان

(١) شرح مسلم / ٤٩٧

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٨ / ١٦٠ / ١) عن أبي بكر به.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧٢٤٣)، ومسلم في الحج (٥ / ٩٩ / ٤٠٠) عن عائشة به.

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧٢٣٨)، ومسلم في اللعان (٥ / ٣٨٣ / ١٣) عن ابن شداد به.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧٢٤٠)، ومسلم في الضحارة (٢ / ١٤٣ / ٤٢) عن أبي هريرة به.

يفعل لولا المانع، وعما هو في قدرته، فأما ما ذهب فليس في قدره، قال القاضي فالذى عندى في معنى الحديث، أن النهى على ظاهره وعمومه، لكنه نهى تنزيه ويدل عليه قوله ﷺ: (فإن لو تفتح عمل الشيطان). اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: «فإن أصابك شيء» إلى آخره، العبد إذا فاته ما لم يقدر له فله حالتان: حالة عجز وهي مفتاح عمل الشيطان فيلقيه العجز إلى «لو» ولا فائدة في «لو» ههنا، بل هي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا المفتاح، وأمره بالحالة الثانية، وهي النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قدر له لم يفته، ولم يغلبه عليه أحد فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر، ومشية الرب النافذة التي توجب وجود المقدور وإذا انتفت امتنع وجوده، فلهذا قال: «وإن أصابك شيء» أى: غلبك الأمر ولم يحصل المقصود بعد بذل جهده والاستعانة بالله فلا تقل: «لو أنى فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل» فأرشده إلى ما ينفعه في الحالين. حالة حصول مطلوبه، وحالة فواته، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغنى عنه العبد أبداً، بل هو أشد شيء إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب، والاختيار، والقيام بالعبودية باطناً وظاهراً في حالتى حصول المطلوب وعدمه، هذا معنى كلام ابن القيم، وقال القاضي كما تقدم من نقل النووي عنه -: قال بعض العلماء: هذا النهى إنما هو لمن قاله معتقداً ذلك حتماً، وأنه لو فعل ذلك لم يصبه قطعاً ذلك فأما من رد ذلك إلى مشيئة الله تعالى، وأنه لن يصيبه إلا ما شاء الله فليس من هذا، واستدل بقوة أبى بكر الصديق في الغار: لو أن أحدهم رفع رأسه لرآنا، قال القاضي: وهذا ما لا حجة فيه، لأنه أخبر عن مستقبل، وليس فيه دعوى لرد القدر بعد وقوعه. قال: وكذا جميع ما ذكره البخارى فيما يجوز من اللو.

وكله مستقبل لا اعتراض فيه على قدر ولا كراهة فيه، لأنه إنما أخبر عن اعتقاده فيما كان يفعل لولا المانع وعما هو في قدرته فأما ما ذهب فليس في قدرته. فإن قيل: ما تصنعون.

(١) تيسير العزيز الحميد (٥٠٤).

بقوله ﷺ: (لو استقبلت من أمرى ما استدبرت، لم أسق الهدى وجعلتها عمرة)^(١) قيل: هذا كقوله: «لولا حدثان قومك بالكفر»^(٢) ونحوه مما هو خبر عن مستقبل لا اعتراض فيه على قدر، بل هو إخبار لهم أن لو استقبل الإحرام بالحج؛ ماساق الهدى ولا أحرم بالعمرة بقوله لهم لما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة حثاً لهم وتطبيلاً لقلوبهم لما رآهم توقفوا في أمره، فليس من المنهى عنه، بل هو إخبار لهم عما كان يفعل في المستقبل لو حصل، ولا خلاف في جواز ذلك، وإنما ذلك في معارضة القدر مع اعتقاد أن ذلك المانع لو يقع لوقع خلاف المقدور. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣): فأرشدني ﷺ في هذا الحديث إذا أصابه ما يكره، فلا يقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن يقول: قدر الله وما شاء فعل، أى: هذا قدر الله، والواجب التسليم للقدر، والرضى به، واحتساب الثواب عليه.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «إن أصابك شيء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا».

هذه هي المرتبة الرابعة مما ذكر في هذا الحديث العظيم إذا حصل خلاف المقصود.

فالمرتبة الأولى: الحرص على ما ينفع.

والمرتبة الثانية: الاستعانة بالله.

والمرتبة الثالثة: المضى في الأمر والاستمرار فيه وعدم التعاجز.

وهذه المراتب إليك.

المراتب الرابعة: إذا حصل خلاف المقصود؛ فهذه ليست إليك، وإنما هي بقدر الله، ولهذا قال: «وإن أصابك...»؛ ففوض الأمر إلى الله تعالى.

قوله: «وإن أصابك شيء».

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) فتح المجيد ٧٦٩/٢.

(٤) القول المفيد ١٦٣/٣ - ١٦٤.

أى: مما لاتحبه ولا تريده ومما يعوقك عن الوصول إلى مرامك فيما شرعت فيه من نفع.

فمن خالفه القدر ولم يأت على مطلوبه لا يخلو من حالين:

الأولى: أن يقول: لو لم أفعل ما حصل كذا.

الثاني: أن يقول لو فعلت كذا لأمر لم يفعله لكان كذا.

مثال الأول قول القائل: لو لم أسافر ما فاتنى الربح.

ومثال الثاني أن يقول: لو سافرت لربحت.

وذكر النبي ﷺ الثانى دون الأول؛ لأن هذا الإنسان عامل فاعل؛ فهو يقول: لو أنى فعلت الفعل الفلانى دون هذا الفعل لحصلت مطلوبى، بخلاف الإنسان الذى لم يفعل وكان موقفه سلبياً من الأعمال.

قوله «كذا».

كناية عن مبهم، وهى مفعول لفعلت.

قوله: «لكان كذا».

فاعل كان، والجملة جواب لو.

قوله «قدر الله».

خبر لمبتدأ محذوف؛ أى: هذا قدر الله.

وقدر بمعنى مقدور؛ لأن قدر الله يطلق على التقدير الذى هو فعل الله، ويطلق على المقدور الذى وقع بتقدير الله، وهو المراد هنا؛ لأن القائل يتحدث عن شىء وقع عليه، فقدر الله أى مقدوره، ولا مقدر إلا بتقدير؛ لأن المفعول نتيجة الفعل.

والمعنى: إن هذا الذى وقع قدر الله وليس إلى، أما الذى إلى فقد بذلت ماأراه نافعا كما أمرت، وهذا فيه التسليم التام لقضاء الله - عزوجل - وأن الإنسان إذا فعل ماأمر به على الوجه الشرعى؛ فإنه لا يلام على شىء، ويفوض الأمر إلى الله. اهـ.

قوله: «قدر الله وما شاء فعل».

قال ابن عثيمين^(١): قوله «وما شاء فعل».

(١) القول المفيد ٣/ ١٦٤ - ١٦٥

جملة مصدرة بـ «ما» الشرطية، و«شاء»: فعل الشرط، وجوابه «فعل»: أى: ما شاء الله أن يفعله فعله؛ لأن الله لا يراد لقضائه ولا معقب لحكمه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(١) وقد سبق ذكر قاعدة، وهى أن كل فعل لله تعالى معلق بالمشيئة؛ فإنه مقرون بالحكمة، وليس شئ من فعله معلقاً بالمشيئة المجردة؛ لأن الله لا يشرع ولا يفعل إلا بالحكمة، وبهذا التقرير نفهم أن المشيئة يلزم منها وقوع المشاء، ولهذا كان المسلمون يقولون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وأما الإرادة ووقوع المراد؛ ففيه تفصيل:

فالإرادة الشرعية لا يلزم منها وقوع المراد، وهى التى بمعنى المحبة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾^(٢) بمعنى يحب، ولو كانت بمعنى يشاء لتاب الله على جميع الناس.

والإرادة الكونية يلزم منها وقوع المراد؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾^(٣).

قوله: «فإن لو تفتح عمل الشيطان»

قال النووي^(٤): أى: يلقى فى القلب معارضة القدر، ويوسوس به الشيطان، هذا كلام القاضى.

قال سليمان آل الشيخ^(٥): قوله: «فإن لو تفتح عمل الشيطان» أى: من الجزع والعجز واللوم والسخط من القضاء والقدر ونحو ذلك، ولهذا من قالها على وجه النهى عنه، فإن سلم من التكذيب بالقضاء والقدر لم يسلم من المعاندة له واعتقاد أنه لو فعل ما زعم لم يقع المقدور ونحو ذلك، وهذا من عمل الشيطان. فإن قيل: ليس فى هذا رد للقدر ولا تكذيب به، إذ تلك الأسباب التى تمنّاها من القدر، فهو يقول: لو أنى وقفت لهذا لاندفع القدر المكروه فأما إذا ما وقع فلا سبيل إلى دفعه، وإن كان له سبب إلى دفعه أو تخفيفه بقدر آخر فهو أولى به من قول: لو كنت فعلت. بل وحقيقته فى هذه الحال أن يستقبل فعله الذى يدفع به المكروه ولا يمتنى ما لا مطمع فى وقوعه، فإنه عجز

(١) الرعد: ٤١

(٢) النساء: ٢٧

(٣) البقرة: ٢٥٣.

(٤) شرح مسلم / ٤٦٨

(٥) تيسير العزيز الحميد (٥٠٥)

محض والله يلوم على العجز ويحب الكيس ويأمر به والكيس مباشرة الأسباب التي ربط الله بها بمسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاذه. انتهى ملخصاً من كلام ابن القيم.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): قوله: «فإن لو تفتح عمل الشيطان» أي: لما فيها من التأسف على مافات والتحسر ولوم القدر، وذلك يتنافى الصبر والرضى. والصبر واجب، والإيمان بالقدر فرض؛ قال تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(٢).

قال أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

وقال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن.

قال شيخ الإسلام - وذكر حديث الباب بتمامه - ثم قال في معناه: لاتعجز عن مأمور، ولا تجزع من مقدور. ومن الناس من يجمع كلا الشرين، فأمر النبي ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله.

والأمر يقتضى الوجوب، وإلا فالاستحباب. ونهى عن العجز، وقال: «إن الله يلوم على العجز» والعاجز ضد الذين هم يتصرفون فالأمر بالصبر والنهى عن الجزع مأمور به في مواضع كثيرة؛ وذلك لأن الإنسان بين أمرين: أمر أمر بفعله فعليه أن يفعله ويحرص عليه، ويستعين الله ولا يعجز. وأمر أصيب به من غير فعله، فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه.

ولهذا قال بعض العقلاء - ابن المقفع أو غيره - الأمور أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه.

وهذا في جميع الأمور، لكن عند المؤمن: الذى فيه حيلة هو ما أمر الله به وأحبه له؛ فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها وقد أمره بكل خير له فيه حيلة. وما لا حيلة فيه هو ما أصيب به من غير فعله واسم الحسنات والسيئات يتناول قسمين:

(١) فتح المجيد ٢/ ٧٧٠

(٢) الحديد: ٢٢، ٢٣

فالأفعال : مثل قوله تعالى ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا ﴾ (١).

ومثل قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (٢).

ومثل قوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ (٣).

ومثل قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ (٤).

إلى آيات كثيرة من هذا الجنس :

والقسم الثاني، مايجرى على العبد بغير فعله من النعم والمصائب؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ (٥) . والآية قبلها. فالحسنة فى هاتين الآيتين: النعم . والسيئة : المصائب وهذا هو الثانى من القسمين .

وأظن شيخ الإسلام ذكره فى هذا الموضع ، ولعل النار أسقطه ، والله أعلم ثم قال رحمه الله تعالى : فإن الإنسان ليس مأموراً أن ينظر إلى القدر عندما يؤمر به من الأفعال ، ولكن عندما يجرى عليه من المصائب التى لاحيلة له فى دفعها فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه ، وأرض وسلم؛ قال تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ (٦) ولهذا قال آدم لموسى : أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أن أخلق بأربعين سنة؟ فحج آدم لأن موسى قال له : «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة» (٦) فلامه على المصيبة التى حصلت بسبب فعله ، لا لأجل كونها ذنباً .

أما كونه لأجل الذنب - كما يظنه طوائف من الناس - فليس مراداً بالحديث؛ فأما آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ولايجوز لوم التائب باتفاق الناس . انتهى .

(١) الأنعام : ١٦٠

(٢) الإسراء : ٧

(٣) الشورى : ٤٠

(٤) البقرة : ٨١

(٥) النساء : ٧٩

(٦) التغاين : ١١

(٧) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٦١٤) ، ومسلم فى القدر (٨/ ١٣/٤٥٠) عن أبى هريرة به .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: فتضمن هذا الحديث الشريف، أصولاً عظيمة من أصول الإيمان.

أحدها: أن الله سبحانه موصوف بالمحبة، وأنه يحب حقيقة.

الثاني: أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القوى ويحب المؤمن القوى وهو وتر يحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلماء، ونظيف يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين، وشاكر يحب الشاكرين.

ومنها: أن محبته للمؤمنين تتفاضل، فيحب بعضهم أكثر من بعض.

ومنها: أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعهاده، والحرص: هو بذل الجهد واستفراغ الوسع. فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محموداً، وكماله كله في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصاً، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به. فإن حرص على ما لا ينفعه، أو فعل ما ينفعه بغير حرص: فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص على ما ينفع.

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه: أمره أن يستعين بالله ليجتمع له مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن حرصه على ما ينفعه عبادة الله تعالى، ولا يتم إلا بمعونته، فأمره أن يعبد وأن يستعين به. فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله، ضد العاجز. فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمه الأمور بيده، ومصدرها منه، وموردها إليه.

فإن فاته ما لم يقدر له، فله حالتان: عاجز، وهو مفتاح عمل الشيطان؛ فيلقيه العجز إلى لو. ولا فائدة في لوها هنا، بل هي مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان. فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح، وأمره بالحالة الثانية، وهي: النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قدر، لم يفته ولم يغلبه عليه أحد. فلم يبق له هاهنا أنفع من شهود القدر، ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجود المقدور، وإن انتفت امتنع وجوده؛ ولهذا قال: «فإن غلبك أمر فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل» فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين: حاله حصول مطلوبه وحاله فواته. فلهذا كان هذا الحديث مملاً يستغنى عنه

العبد أبداً بل هو أشد ضرورة إليه، وهو يتضمن إثبات القدر، والكسب والاختيار، والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً في حاله حصوله المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق. انتهى.

قال ابن باز^(١): فإذا أصابك شيء فقل قَدَّرَ الله وما شاء فعل، وبعضهم ضبطها بـ قَدَّرَ الله وما شاء فعل أى قدر هذا الشيء الواقع والمعنى الأول أظهر أى أن هذا الواقع هو قدر الله أى مقدور الله وما شاء الله فعل.

«لو تفتح عمل الشيطان» أى تفتح على العبد عمل الشيطان أى وساوسه وتشكيكه فينبغي للمؤمن أن يتجنبها حتى لا يقع في حبال الشيطان واملائه مالا ينبغي لأن هذه أمور الله هو الذى قدرها. ولهذا قال تعالى: **«وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ»** (٢) وقال ﷺ: «ما من عبد يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتى واخلف لى خيراً منها إلا أجره الله من مصيبتيه وأخلفه خيراً منها» (٣) فمثلاً إذا عالج مريض عند طبيب ثم مات لا يقولوا لو ذهب به إلى طبيب آخر أو الخارج... إلخ بل يقول قدر الله وما شاء فعل إنا لله وإنا إليه راجعون ولا يعترض بلو.

أما إذا كانت لو لبيان ما ينبغي كقوله ﷺ: **«لو استقبلت من أمرى ما استدبرت...»** (٤) فهذا ليس اعتراضاً بل هو لبيان الأفضل كقولك لو علمت أن هذا واقع لفعلت كذا وكذا مما يبين للناس أنه الأفضل وكقول: لو علمت فلاناً مريضاً لزرته.

وما أشبه ذلك مما يخبر به عن أسفه على ما فات وليس على سبيل الاعتراض فهذا ليس داخلياً فى الباب وإنما الممنوع الاعتراض على القدر.

قال ابن عثيمين^(٥): «لو» اسم ان قصد لفظها؛ أى فإن هذا اللفظ يفتح عمل الشيطان وعمله: ما يلقيه فى قلب الإنسان من الحسرة والندم والحزن فإن الشيطان يحب ذلك، قال تعالى: **﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** حتى فى المنام يربه أحلاماً مخيفة ليعكر عليه صفوه ويشوش فكره، وحينئذ

(١) التعليق المفيد ٢٤٥

(٢) البقرة: ١٥٧

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجنائز (٦/ ٢٢١ - النووى) عن أم سلمة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٩٢٣ - بتخريجنا).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) القول المفيد ١٦٥ - ١٦٦

لا يتفرغ للعبادة على ما ينبغي، ولهذا نهى النبي ﷺ عن الصلاة حال تشوش الفكر؛ فقال ﷺ: «لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان»^(١)، فإذا رضى الإنسان بالله ربا، وقال : هذا قضاء الله وقدره، وأنه لا بد أن يقع؛ اطمأنت نفسه وانشرح صدره.

مايستفاد من الحديث

قال ابن عثيمين^(٢):

١- إثبات المحبة لله - عزوجل -؛ لقوله «خير وأحب».

٢- اختلاف الناس فى قوة الإيمان وضعفه؛ لقوله: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».

٣- زيادة الإيمان ونقصانه؛ لأن القوة زيادة والضعف نقص، وهذا هو القول الصحيح الذى عليه عامة أهل السنة.

وقال بعض أهل السنة: يزيد ولا ينقص؛ لأن النقص لم يرد فى القرآن، قال تعالى : «وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا»^(٣) وقال تعالى : «لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ»^(٤).

والراجح القول الأول؛ لأنه من لازم ثبوت الزيادة ثبوت النقص عن الزائد، وعلى هذا يكون القرآن دالاً على ثبوت نقص الإيمان بطريق اللزوم، كما أن السنة جاءت به صريحة فى قوله ﷺ: «مارأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل من إحداهن»^(٥)؛ يعنى : النساء.

والإيمان يزيد بالكمية والكيفية؛ فزيادة الأعمال الظاهرة زيادة كمية، وزيادة الأعمال الباطنة كاليقين زيادة كيفية، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لَيْطُمِئِنَّ قُلُوبِي»^(٦).

والإنسان إذا أخبره ثقة بخبر، ثم جاء آخر فأخبره نفس الخبر؛ زاد يقينه، ولهذا قال أهل العلم: إن المتواتر يفيد العلم اليقيني، وهذا دليل على تفاوت القلوب بالتصديق، وأما الأعمال؛ فظاهر، فمن صلى أربع ركعات أزيد من صلى ركعتين.

(١) تقدم تخريجه عن عائشة - رضى الله عنها - به .

(٢) القول المفيد (٣/ ١٦٦ - ١٧٠)

(٣) المدثر: ٣١

(٤) الفتح : ٤ .

(٥) [صحيح] أخرجه : مسلم فى الإيمان (١/ ٢٤٣/ ١٣٢) عن ابن عمر رضى الله عنه .

وانظر «رياض الصالحين» (١٨٨٢ - بتخريجنا).

(٦) البقرة : ٢٦٠ .

٤- أن المؤمن وإن ضعف إيمانه فيه خير؛ لقوله: «وفى كل خير».

٥- أن الشريعة جاءت بتكميل المصالح وتحقيقها؛ لقوله: «أحرص على ما ينفعك»، فإذا امثل المؤمن أمر الرسول ﷺ؛ فهو عبادة وإن كان ذلك النافع أمراً دنيوياً.

٦- أنه لا ينبغي للعاقل أن يمضى جهده فيما لا ينفع؛ لقوله: «أحرص على ما ينفعك».

٧- أنه ينبغي للإنسان الصبر والمصابرة؛ لقوله: «ولا تعجزن».

٨- أن مالا قدرة للإنسان فيه فله أن يحتج عليه بالقدر؛ لقوله: «ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل»، وأما الذى يمكنك؛ فليس لك أن تحتج بالقدر.

وأما حاجة آدم وموسى حيث لام موسى آدم عليهما الصلاة والسلام، وقال له: «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال: أتلومنى على شيء قد كتبه الله على»^(١)؛ فهذا احتجاج بالقدر.

فالقدرية الذين ينكرون القدر يكذبون هذا الحديث؛ لأن من عادة أهل البدع أن ماخالف بدعتهم إن أمكن تكذيبه كذبوه، وإلا حرفوه، ولكن هذا الحديث ثابت فى «الصحيحين» وغيرهما.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هذا من باب الاحتجاج بالقدر على المصائب لأعلى العائب؛ فموسى لم يحتج على آدم بالمعصية التى هى سبب الخروج، بل احتج بالخروج نفسه.

معناه: أن فعلك صار سبباً لخروجنا، وإلا؛ فإن موسى عليه الصلاة والسلام أبعد من أن يلوم أباه على ذنب تاب منه واجتبه ربه وهداه، وهذا ينطبق على الحديث.

وذهب ابن القيم رحمه الله إلى وجه آخر فى تخريج هذا الحديث، وهو أن آدم احتج بالقدر بعد أن مضى وتاب من فعله، وليس كحال الذين يحتجون على أن يسبقوا فى المعصية ويستمروا عليها؛ فالمشركون لما قالوا: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا»^(٢) كذبهم الله؛ لأنهم لا يحتجون على شيء مضى ويقولون: تبنا إلى الله؛ ولكن يحتجون على البقاء فى الشرك.

٩- أن للشيطان تأثيراً على بنى آدم؛ لقوله: «فإن لو تفتح عمل الشيطان»، وهذا لاشك فيه، ولهذا قال النبى ﷺ «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»^(٣).

(١) تقدم تخريجه

(٢) الأنعام: ١٤٨.

(٣) تقدم تخريجه

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ فِي آلِ عِمْرَانَ.

فقال بعض أهل العلم: إن هذا يعنى الوسوس التى يلقيها فى القلب فتجرى فى العروق.

وظاهر الحديث: أن الشيطان نفسه يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وهذا ليس ببعيد على قدرة الله - عزوجل -، كما أن الروح تجرى مجرى الدم، وهى جسم، إذا قبضت تكفن وتحنط وتصعد بها الملائكة إلى السماء.

ومن نعمة الله أن للشيطان ما يضاده، وهى لمة الملك؛ فإن الشيطان فى قلب ابن آدم لمة وللملك لمة، ومن وفر غلبت عنده لمة الملك لمة الشيطان، فهما دائماً يتصارعان نفس مطمئنة ونفس أمارة ونفس لوامة، وهذه وصف للنفسين جميعاً.

١٠- حسن تعليم النبي ﷺ حين قرن النهى عن قول «لو» ببيان علته؛ لتبين حكمة الشريعة، ويزداد المؤمن إيماناً وامثالاً.



قال ابن عثيمين^(١): قوله: (فيه مسائل).

● الأولى: تفسير الآيتين فى آل عمران.

وهما:

الأولى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾

الثانية: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أى: ما أخرجنا وما قتلنا، ولكن الله تعالى أبطل ذلك بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾، والآية الأخرى: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾، فأبطل الله دعواهم هذه بقوله: إن كنتم صادقين فى البقاء وأن عدم الخروج مانع من القتل، فادروا عن أنفسكم الموت، فإنهم لن يسلموا من الموت، بل لا بد أن يموتوا، ولكن لو أطاعوهم وتركوا الجهاد، لكانوا على ضلال مبين.

(١) القول المفيد (٣/ ١٧٠ - ١٧٣).

الثانية: النهي الصريح عن قول: «لو» إذا أصابك شيء.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله.

السادسة: النهي عن ضد ذلك. وهو العجز.

● الثانية : النهي الصريح عن قول «لو» إذا أصابك شيء.

لقول الرسول فعلت كذا لكان كذا».

● الثالثة : تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

فالنهي عن قول «لو» علتها أنها تفتح عمل الشيطان وهو الوسوسة، فيتحسر الإنسان بذلك ويندم ويحزن.

● الرابعة : الإرشاد إلى الكلام الحسن.

لقوله : «ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل».

● الخامسة : الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله.

لقوله ﷺ: «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله».

● السادسة: النهي عن ضد ذلك، وهو العجز

لقوله : «ولا تعجزن» باختيار الإنسان، فالإنسان قد يصاب بمرض فيعجز؛ فكيف نهى النبي ﷺ عن أمر لا قدرة للإنسان عليه

أجيب : بأن المقصود هنا التهاون والكسل عن فعل الشيء؛ لأنه هو الذي في مقدور الإنسان. أهـ.



النهى عن سب الرياح

● مناسبة الباب لما قبله من الأبواب:

قال ناصر السعدى^(١): «وهذا نظير ما سبق فى سب الدهر إلا أن ذلك الباب عام فى سب جميع حوادث الدهر، وهذا خاص بالرياح، ومع تحريره، فإنه حمق وضعف فى العقل والرأى، فإن الرياح مصرفة مدبرة بتدبير الله وتسخيرها، فالسب لها يقع سبه على من صرفها، ولولا أن المتكلم بسب الرياح لا يخطر هذا المعنى فى قلبه غالباً، لكان الأمر أفظع من ذلك، ولكن لا يكاد يخطر بقلب مسلم». اهـ.

قلت: لما عقد الباب الماضى فيما جاء فى اللو اعتراض على القدر وعدم الرضى به ناسب أن يأتى بباب النهى عن سب الرياح لأن فيه عدم رضى بالقدر.

● مناسبة الباب للتوحيد:

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): «فى هذا عبودية لله وطاعة له ولرسوله واستدفاع للشروع به وتعرض لفضله ونعمته وهذه حال أهل التوحيد والإيمان خلافاً لحال أهل الفسوق والعصيان الذين حرموا ذوق طعم التوحيد الذى هو حقيقة الإيمان. اهـ.

قال ابن باز^(٣): «لما كان سب الرياح وغيرها من المخلوقات نقصاً فى الإيمان وقدحاً فى التوحيد نبه المؤلف على ذلك ليعلم المؤمن أن سائر المعاصى تنقص التوحيد وتنقص الإيمان وتضعفه والإيمان يزيد وينقص والتوحيد يزيد وينقص وسب الرياح ينقص الإيمان لأن الرياح مخلوق مدبر يرسل بالخير والشر فلا يسب الرياح بل يعمل المؤمن بما أمره به الرسول ﷺ. اهـ.

وقال عبد الله بن جار الله^(٤):

هى أن الرياح فى تدبير مدبر وهو الله تعالى فسبها اعتراض عليه فهو قاذح فى التوحيد. اهـ.

(١) القول السديد ١٢٦

(٢) فتح المجيد ٦٥٤/٢

(٣) التعليق المفيد ٢٥٣.

(٤) الجامع الفريد : ٧٠.

• شرح الترجمة والتبويب.

قال حامد بن محمد^(١): (باب) ما جاء فى بيان أن الله جنود السموات والأرض والريح من جنوده مأمورة منهية فلا ينبغى لمسلم أن يسب الريح إذا جاءته بما يكره ولذا ورد (النهى عن سب الريح). اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): أى لأنها مأمورة ولا تأثير لها فى شىء إلا بأمر الله فسبها كسب الدهر، وقد تقدم النهى عنه، فكذلك الريح. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): لأنها - أى الريح - إنما تهب عن إيجاد الله تعالى وخلقه لها وأمره، لأنه هو الذى أوجدها وأمرها، فمسبها مسببة للفاعل، وهو الله سبحانه، كما تقدم فى النهى عن سب الدهر، وهذا يشبهه ولا يفعله إلا أهل الجهل بالله ودينه بما شرعه لعباده. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): المؤلف رحمه الله أطلق النهى ولم يفصح: هل المراد به التحريم أو الكراهة، سيتبين إن شاء الله من الحديث. قوله: «الريح».

الهواء الذى يُصرفه الله - عز وجل - وجمعه رياح. وأصولها أربعة: الشمال، والجنوب، والشرق، والغرب، وما بينهما يسمى النكباء، لأنها ناكبة عن الاستقامة فى الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب. وتصريفها من آيات الله - عز وجل - فأحياناً تكون شديدة تقلع الأشجار وتهدم البيوت وتدفن الزروع ويحصل معها فيضانات عظيمة، وأحياناً تكون هادئة، وأحياناً تكون باردة، وأحياناً حارة، وأحياناً عالية، وأحياناً نازلة، كل هذا بقضاء الله وقدره، ولو أن الخلق اجتمعوا كلهم على أن يصرفوا الريح عن جهتها التى جعلها الله عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولو اجتمعت جميع المكاين العالمية النَّفَاثَة لتوجد هذه الريح الشديدة ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولكن الله - عز وجل - بقدرته يُصرفها كيف يشاء وعلى ما يريد.

فهل يحق للمسلم أن يسب هذه الريح؟

(١) فتح الله الحميد المجيد. ٤٤٤.

(٢) تيسير العزيز الحميد / ٥٨.

(٣) فتح المجيد ٢/ ٦٥٣.

(٤) القول المفيد ٣/ ١٧٣، ١٧٤.

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ؛ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا. وَخَيْرِ مَا أَمَرْتَ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أَمَرْتَ بِهِ» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ^(١).

الجواب: لا، لأن هذه الريح مُسَخَّرَةٌ مدبرة، وكما أن الشمس أحياناً تضر بإحراقها بعض الأشجار، ومع ذلك لا يجوز لأحد أن يسبها، فكذلك الريح، ولهذا قال: «لا تسبوا الريح». اهـ.



● قوله [عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ» الحديث.

قال الفقير: الحديث بوب عليه الترمذى باب ما جاء فى النهى عن سب الرياح. وقال فى الباب عن عائشة وأبى هريرة وعثمان بن أبى العاص وأنس وابن عباس وجابر وقال: هذا حديث حسن صحيح.

هذا الحديث أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه وأحمد والبخارى فى الأدب المفرد والحاكم فى المستدرک وابن السنى فى عمل اليوم والليلة جميعاً من طريق الأعمش عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه عن أبى بن كعب.

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى^(٢): حيث دل الحديث على تحريم سب الريح. اهـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى^(٤): حيث نهى الحديث عن سب الريح لأن سبها مدبرها وذلك ينافى التوحيد. اهـ.

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (٣١/٧) والترمذى فى «الفتن» / باب: ما جاء فى النهى عن سب الرياح (٤/١١٥ ح ٢٢٥٢) وأحمد (١٢٣/٥) والبخارى فى الأدب المفرد (ح ٧٤٠) والحاكم فى المستدرک (٢٧٢/٢) وابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» (ح ٢٩٩).
من طريق: الأعمش عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه عن أبى بن كعب به.

ورواه الحاكم: بواسطة بين حبيب، وسعيد وهو. ذر، قال الترمذى: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

وانظر «رياض الصالحين» (ح: ١٧٣٠) بتخرجنا.

(٢، ٣) الجديد ٤٢٧

قوله: (عن أبي بن كعب).

قال سليمان آل الشيخ^(١): أى ابن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصارى الخزرجى أبو المنذر: صحابى بدرى جليل وكان من قراء الصحابة وقضاتهم وعلمائهم وله مناقب مشهورة اختلف فى سنة موته، فقال الهيثم ابن عدى: مات سنة تسعة عشر وقال خليفة بن خياط سنة اثنين وثلاثين: يقال فيها مات أبى بن كعب، ويقال: بل مات فى خلافة عمر. قلت يعنى سليمان آل الشيخ: وقيل غير ذلك. اهـ.

قوله: «لا تسبوا الريح»

قال: المباركفورى^(٢): فإن المأمور معذور وفى حديث ابن عباس الذى أشار إليه الترمذى: لا تلعنوا الريح فإنها مأمورة وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه^(٣). اهـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٤):

قوله: «لا تسبوا الريح» أى لا تشتموها ولا تلعنوها للحق ضرر فيها فإنها مأمورة مقهورة فلا يجوز سبها بل تجب التوبة عند الضرر بها وهو تأديب من الله تعالى لعباده، وتأديبه رحمة للعباد، فلهذا جاء فى:

حديث أبى هريرة مرفوعاً «الريح من روح الله» قال سلمة: فروح الله تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها^(٥) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وكونها قد تأتى بالعذاب لا ينافى كونها من رحمة الله.

وعن ابن عباس أن رجلاً لعن الريح عند النبى ﷺ فقال: «لا تلعنوا الريح، فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة إليه»^(٦) رواه الترمذى، وقال غريب.

(١) تيسير العزيز الحميد ٥٠٧.

(٢) تحفة الأحوذى ٤٣٥/٦.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٠٨)، والترمذى (١٩٧٨) عن ابن عباس به.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٥٠٧.

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢/٢٦٨)، وأبو داود (٥٠٩٧)، والنسائى (١٠٧٦٧) وابن ماجه

(٣٧٢٧) عن أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧٣١ - بتخريجنا).

(٦) تقدم قريباً.

قال الشافعي : لا ينبغي شتم الريح فإنها خلق مطيع لله ، وجند من جنوده ، يجعلها الله رحمة إذا شاء ، ونقمة إذا شاء .

ثم روى بإسناده حديث منقطع أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ الفقر فقال له : «لعلك تسب الريح»^(١) وقال مطرف : لو حبست الريح عن الناس لأنن ما بين السماء والأرض . اهـ .

وفى حديث أبي هريرة مرفوعاً «الريح روح من الله - عز وجل - تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فلا تسبوها واسألوا الله خيرها وتعوذوا من شرها» .

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢) : نهى النبي ﷺ أهل الإيمان عما يقوله أهل الجهل والجفاء . اهـ .

قال ابن عثيمين^(٣) : «لا» ناهية ، والفعل مجزوم بحذف النون ، والواو فاعل ، والريح مفعول به .

والسب : الشتم ، والعيب والقدح ، واللعن ، وما أشبه ذلك ، وإنما نهى عن سبها ، لأن سب المخلوق سب لخالقه ، فلو وجدت قصراً مبنياً وفيه عيب ، فسبته ، فهذا السب ينصب على من بناه ، وكذلك سب الريح ، لأنها مدبرة مسخرة على ما تقتضيه حكمة الله - عز وجل .

قوله : «إذا رأيتم ما تكرهون» .

قال سليمان آل الشيخ^(٤) : أى : الريح إما شدة حرها ، أو بردها ، أو قوتها . اهـ .

قال المباركفوري^(٥) : أى ريحاً تكرهونها لشدة حرارتها أو برودتها أو تأذيتها لشدة هبوبها . اهـ .

قال ابن عثيمين^(٦) : إذا كانت الريح مزعجة ، فقد أرشد النبي ﷺ إلى ما يقال حينئذ . اهـ .

(١) أخرجه الشافعي في «الأم» (٢٢٤/١) معضلاً .

وانظر الأذكار ، للنووي (٤٧٢ - بتخریجنا) .

(٢) فتح المجيد ٦٥٤/٢ .

(٣) القول المفيد ١٧٥/٣ .

(٤) تيسير العزيز الحميد ٥٠٨ .

(٥) تحفة الأحوزي ٤٣٥/٦ .

(٦) القول المفيد ١٧٥/٣ .

قوله: فقولوا: «اللهم إنا نسألك من خير هذه الرياح».
قال المباركفوري^(١): أى راجعين إلى خالقها وأمرها.

واللهم إنا... إلخ أى خير ذاتها ا.هـ.

قال سليمان آل الشيخ^(٢): أمر ﷺ بالرجوع إلى خالقها، وأمرها الذى أزمه الأمور كلها بيده، ومصدرها عن قضائه، فما استجلبت نعمة بمثل طاعته وشكره، ولا استدفعت نقمة بمثل الالتجاء إليه والتعوذ به، والاضطرار إليه والاستكانة له ودعائه، والتوبة إليه والاستغفار من الذنوب قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الرياح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به قالت: إذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا مطرت سرى عنه، فعرفت ذلك فى وجهه قالت عائشة فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا ۖ ﴾»^(٣) رواه البخارى ومسلم فهذا ما أمر به ﷺ وفعله عند الرياح وغيرها من الشدائد المكروهات، فأين هذا ممن يستغيث بغير الله من الطواغيت والأموات، فيقولون: يا فلان أَلزَمها أو أزلها؟ فالله المستعان. اهـ.

قوله: «من خير هذه الرياح»

قال ابن عثيمين^(٤): الرياح نفسها فيها خير وشر، فقد تكون عاصفة تقلع الأشجار وتهدم الديار وتفيض البحار والأنهار، وقد تكون هادئة تبرد الجو وتكسب النشاط. اهـ.

قوله: «وخير ما فيها»

قال المباركفوري^(٥): أى من منافعها كلها. ا.هـ.

قال ابن عثيمين^(٦): أى: ما تحمله، لأنها قد تحمل خيراً، كتلقيح الثمار، وقد تحمل رائحة طيبة الشم، وقد تحمل شراً، كإزالة لقاح الثمار، وأمراض تضر الإنسان، والبهائم

(١) تحفة الأحوزى ٤٣٥/٦.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الاستسقاء (٣/٤٦٤/١٥) عن عائشة وأصله عند البخارى (٤٨٢٩).

وانظر الأذكار للنووى (٤٦٥ - بتخريجنا).

(٤) القول المفيد ١٧٥/٣.

(٥) تحفة الأحوزى ٤٣٥/٦.

(٦) القول المفيد ١٧٥/٣.

قوله: «وخير ما أمرت به».

قال المباركفوري^(١): أى بخصوصها فى وقتها وهو بصيغة المفعول. قال الطيبي: يحتمل الفتح على الخطاب. ١. هـ.

قال ابن عثيمين^(٢): مثل إثارة السحاب وسوقه إلى حيث شاء الله. ١. هـ.

قلت: ومن خيرها النصر قال رسول الله ﷺ - نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور (*).

قوله: «ونعوذ بك».

أى: نعتصم ونلجأ.

قوله: «من شر هذه الرياح»

أى: شرها بنفسها، كقلع الأشجار ، ودفن الزروع ، وهدم البيوت.

قوله: «وشر ما فيها».

أى: ما تحملها من الأشياء الضارة، كالأتان ، والقاذورات ، والأوبئة، وغيرها.

قوله: «وشر ما أمرت به».

قال المباركفوري^(٣): على بناء المفعول ليكون من قبيل «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» وقوله ﷺ «الخير كله بيدك والشر ليس إليك».

قال ابن عثيمين^(٤): كالأهلاك والتدمير، قال تعالى فى ريح عاد: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا» وتيسس الأرض من الأمطار، ودفن الزروع، وطمس الآثار والطرق، فقد تؤمر بشر الحكمة بالغة قد نعجز عن إدراكها.

وقوله: «ما أمرت به».

هذا الأمر حقيقى، أى: يأمرها الله أن تهب ويأمرها أن تتوقف، وكل شيء من المخلوقات فيه إدراك بالنسبة إلى أمر الله ، قال الله تعالى للأرض والسماء: «أَتَتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ»^(٥) وقال للقلم: «اكتب، قال: ربي وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى قيام الساعة».

(١) تحفة الأحوزى ٤٣٦/٦..... (٢) القول المفيد ١٧٥/٣.

(٣) تحفة الأحوزى ٤٣٦/٦. (٤) القول المفيد.

(*) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٠٣٥)، ومسلم فى الاستسقاء (١٧/٤٦٦/٣) عن ابن عباس به.

(٥) فصلت: ١١.

فجعل

ما ينبغي قوله وفعله عند هبوب الريح غير ما تقدم.

أولاً: الدعاء:

وقد تقدم أن النبي ﷺ كان يدعو: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها»^(١).

ثانياً: التعوذ بها بالمعوذتين وبغيرهما:

ويستدل بهذا من حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ بين الأبواء والجحفة إذ غشيتنا ريح وظلمة، فجعل رسول الله ﷺ يتعوذ، «أعوذ برب الفلق، وأعوذ برب الناس»، ويقول: «يا عقبة تعوذ بهما، فما تعوذ متعوذ بمثلها ثم سمعته يؤم بها فى الصلاة»^(٢).

وفيه عن ابن عائشة مرفوعاً: يا ابن أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون فقلت: بلى، فقال: كل أعوذ برب الفلق والناس^(٣).
ثالثاً: التكبير.

فعن ابن عمر رضى الله عنهما، كان إذا عصفت الريح يقول: شدوا التكبير، فإنه يذهب الروح^(٤).

وأخرجه ابن السنى عن أنس وجابر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ، قال: إذا وقعت كبيرة أو هاجت ريح عظيمة، فعليكم بالتكبير فإنه يجلو العجاج الأسود^(٥).

رابعاً: الفرع إلى المساجد:

فعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا كانت ليلة ريح كان مفزعه إلى المسجد، حتى تسكن الريح، فإذا حدث من السماء حدث من كسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى تنجلي»^(٦).

(١) انظر الترمذى (الجزء ٤/ ص ٥٢١ ح ٢٢٩٢). (٢) الدعاء للطبرانى (ص ٣٠٣).

(٣) الطبرانى فى الدعاء (ص ٣٠٣، ٣٠٤). (٤) كتاب العظمة (ص ٣٤٧).

(٥) [ضعيف جداً] أخرجه ابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» (ج ٢٨٥) من طريق الوليد بن مسلم، عن عنبسة بن عبد الرحمن، عن محمد بن زاذان عن أنس بن مالك مرفوعاً به.

وفيه الوليد بن مسلم وهو مدلس وقد عنعنه وفيه أيضاً محمد بن زاذان وهو ضعيف منكر الحديث لا يكتب حديثه لم يرو عنه غير عنبسة بن عبد الرحمن.

وقال أبو حاتم: محمد بن زاذان، عن أنس متروك.

قلت: وعنبسة بن عبد الرحمن وإمى الحديث، قال البخارى فيه: تركوه وفى رواية: ذاهب الحديث وقال أبو حاتم: كان يضع الحديث.

قال الحافظ: هذا حديث غريب وسنده ضعيف جداً.

وانظر الأذكار للنووي (ح ٤٧٠ بتخریجنا).

(٦) كتاب العظمة (ص ٣٤٦) وإسناده ضعيف.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى : النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ.

الثانية: الإرشادُ إلى الكلامِ النَّافعِ إِذَا رَأَى الْإِنْسَانُ مَا يَكْرَهُ.

الثالثة: الإرشادُ إلى أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ.

الرابعة: أَنَّهَا قَدْ تُوْمَرُ بِخَيْرٍ وَقَدْ تُوْمَرُ بِشَرٍّ.

خامساً: الاستعداد والمراقبة واللجوء إلى الله عند حصول ما يخاف منه:

قال ابن حجر^(١) عند شرح حديث كان ﷺ إذا هبت الريح عرف ذلك في وجهه..

قال - أى ابن حجر - وفيه الاستعداد بالمراقبة لله والالتجاء إليه عند اختلاف الأحوال، وحدث ما يخاف بسببه.

فيه مسائل:

● الأولى: النهي عن سب الريح.

قال ابن عثيمين^(٢): وهذا النهي للتحريم، لأن سبها سب لمن خلقها وأرسلها.

● الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

أى: منها، وهو أن يقول: «اللهم إني أسألك من خيرها..» الحديث، مع فعل الأسباب الحسية أيضاً، كالالتقاء من شرها بالجدران أو الجبال ونحوها.

● الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.

لقوله: «ما أمرت به».

● الرابعة: أنها قد تُوْمَرُ بخير وقد تُوْمَرُ بشر.

لقوله: «خير ما أمرت به وشر ما أمرت به».

والحاصل: أنه يجب على الإنسان أن لا يعترض على قضاء الله وقدره وأن لا يسبه وأن يكون مستسلماً لأمره الكونى كما يجب أن يكون مستسلماً لأمره الشرعى، لأن هذه المخلوقات لا تملك أن تفعل شيئاً إلا بأمر الله سبحانه وتعالى. اهـ.



(١) الفتح (٢/٦٠٤).

(٢) القول المفيد.

(٥٨) باب قول الله تعالى:

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ (١).

● مناسبة هذا الباب لما قبله

لما كان سب الريح ينم عن عدم رضى بقدر الله وإعتراض عليه (كالباب) الذى قبله ناسب أن يأتى المصنف بعدهما بهذا الباب الذى عقده لبيان أن كثيراً من الناس لا يسلم لحكمة الله ولا لقدره السابق حتى أسأوا الظن به - سبحانه - من وجوه كثيرة والله أعلم.

● ماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبة لكتاب التوحيد:؟

قال سليمان آل الشيخ: (٢) أراد المصنف بهذه الترجمة التنبيه على وجوب حسن الظن بالله، لأن ذلك من واجبات التوحيد، ولذلك ذم الله من أساء الظن به، لأن مبنى حسن الظن على العلم برحمة الله وعزته وإحسانه وقدرته وعلمه وحسن اختياره وقوة المتوكل عليه، فإذا تم العلم بذلك أثمر له حسن الظن بالله وقد ينشأ حسن الظن من مشاهدة بعض هذه الصفات وبالجمله فمن قام بقلبه حقائق معانى أسماء الله وصفاته؛ قام به من حسن الظن ما يناسب كل اسم وصفة، لأن كل صفة لها عبودية خاصة، وحسن ظن خاص. وقد جاء الحديث القدسى، قال الله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي» رواه البخارى ومسلم (٣). وعن جابر رضى الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، قَبْلَ وَقَاتِهِ بِثَلَاثٍ يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ» (٤) رواه مسلم وأبوداود. وفى حديث عند أبى داود وابن حبان «حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ الْعِبَادَةِ» رواه الترمذى والحاكم، ولفظهما: «حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ مِنْ حُسْنِ الْعِبَادَةِ» (٥).

قال حامد بن محمد بن حسن بن محسن (٦).

-
- (١) آل عمران: ١٥٤. (٢) تيسير العزيز الحميد ٥٠٨. (٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٥٣٧)، ومسلم فى الذكر من الدعاء (٢/٥/٩) عن أبى هريرة به وانظر «رياض الصالحين» (٤٤١) - بتخریجنا. (٤) [صحیح] أخرجه مسلم فى الجنة (٢٠٩/١٧) - النوى) عن جابر به وانظر «رياض الصالحين» (٤٤٢) - بتخریجنا. (٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٩٧/٢)، وأبو داود (٤٩٩٣)، والترمذى (٣٦٠٤). عن أبى هريرة به.

(٦) فتح الله الحميد المجيد ٤٤٧.

باب ما جاء فى بيان أن ﴿الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم ولهم عذاب أليم﴾ ، لأن الله تعالى كامل من كل الوجوه ذاتاً وأسماءً وصفاتٍ وأفعالاً وأقوالاً ذاته منزهة عن جميع العيوب والنقائص وأسماءه حسنى فصفاته عليا وأفعاله حسنة جميلة وأقواله صدق وعدل وكلماته تامة فلا يعزى اليه سوء ولا شر ولا نقص ولا عيب ليس كمثله شئ وهو السميع البصير . اهـ .

قال ابن قاسم: (١) أراد - رحمه الله - بهذه الترجمة التنبيه على وجوب حسن الظن بالله وأنه من واجبات التوحيد أ هـ .

قال ناصر السعدى: (٢) وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه، وصفاته، وكماله وتصديقه بكل ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله . وتصديقه بكل ما أخبر به، وأنه بفعله، وما وعد به من نصر الدين . وإحقاق الحق، وإبطال الباطل فاعتقاد هذا من الإيمان وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان وكل ظن ينافى ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافية للتوحيد لأنها سوء ظن بالله، ونفى لكماله وتكذيب لخبره وشك فى وعده . والله أعلم .

أراد المؤلف بهذا الباب:

قال عبد الله بن جابر الله: (٣) التنبيه على وجوب حسن الظن بالله تعالى لأن ذلك من واجبات التوحيد وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر به وأنه يفعله، وما وعد به من نصر الدين وإحقاق الحق وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان، وكل ظن ينافى ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافية للتوحيد لأنها سوء ظن بالله ونفى لكماله وتكذيب لخبره وشك فى وعده والله سبحانه وتعالى أعلم . اهـ .

قال ابن باز: (٤) المقصود من هذا الباب أن كثيراً من الناس لا يسلم لحكمة الله ولا يسلم لله قدره السابق ولا يسلم له سبحانه ما أراده من تنبيه العباد على أغلاطهم وأخطائهم حتى يستعدوا ويتبهاوا . بل أساؤا الظن بالله من وجوه كثيرة .

● فمنهم من يظن أن الأشياء التى تقع مما تخالف هواه لم تكن بحكمته ولم تكن بقدر سابق .

● ومنهم من يظن أنه بمجرد المشيئة لا عن حكمة تقع .

(١) نقلاً عن حاشية القول المفيد ٣/ ١٧٩ . (٢) «القول السديد» ١٢٧ - ١٢٩ .

(٣) الجامع الفريد ٢٠١ . (٤) «التعليق المفيد» ٢٥٥ .

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١).

● ومنهم من يظن أن الله جار على العباد وظلمهم حتى فعل كذا وكذا وظلم فلان وهزم فلان فلماذا هذا كله؟!.

فهذه ظنون الناس وهي كثيرة أهد.

● مناسبة الباب لتوحيد:

قال ابن عثيمين^(٢): ومناسبة الباب للتوحيد: أن ظن السوء ينافي كمال التوحيد، وينافي الإيمان بالأسماء والصفات، لأن الله قال في الأسماء: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فإذا ظن بالله ظن السوء، لم تكن الأسماء الحسنى، وقال في الصفات: ﴿وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ وإذا ظن بالله ظن السوء لم يكن له المثل الأعلى أهد.



قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...﴾.

● مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى^(٣): حيث دلت الآية على تحريم سوء الظن بالله أهد.

- مناسبة الآية للتوحيد.

قال القرعاوى^(٣): حيث دلت الآية على وجوب حسن الظن بالله لأن ذلك من واجبات التوحيد. أهد.

● سبب النزول:

وأخرج^(٤) ابن اسحاق وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال معتب الذي قال يوم أحد ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ﴾ إلى آخر القصة.

قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

(٢) «القول المفيد» (٢/١٩٦، ١٩٧).

(١) آل عمران ١٥٤.

(٤) الدر ٢/٣٥٤.

(٣) الجديد ٤٢٨.

الإعراب: (١) ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ جملة يظنون حالية من الهاء فى (اهمتهم)، ويجوز جعل «قد أهتمهم أنفسهم» صفة وجملة (يظنون) هى الخبر، وبالله جار ومجرور متعلقان (يظنون) (وغير الحق) صفة لمفعول مطلق محذوف والمعنى (يظنون بالله غير الظن الحق الذى يجب أن يساور النفوس، (وظن الجاهلية) بدل من «غير الحق» أو منصوب على المصدرية التشبيهية، أى ظناً مثل ظن الجاهلية أو منصوب بنزع الخافض، وعلى هذا لم يذكر ليظنون مفعولين وتكون الباء ظرفية كما تقول: ظننت بزيد، وإذا كان ذلك كذلك لم تعد «ظننت» إلى مفعولين، وقد نص النحاة على ذلك وعليه قول الشاعر:

فقلت لهم ظنونا بألفى مدجج سراتهم فى السابرى المسرد أهـ

قال ابن عثيمين: (٢) قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ﴾ الضمير يعود على المنافقين، والأصل فى الظن: أنه الاحتمال الراجح، وقد يطلق على اليقين؛ كما فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ (٣)؛ أى: يتيقنون، وضد الراجح المرجوح، ويسمى وهماً. قوله: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

عطف بيان لقوله: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾.

﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾: الحال الجاهلية، والمعنى: يظنون بالله ظن الملة الجاهلية التى لا يعرف الظان فيها قدر الله وعظمته، فهو ظن باطل مبنى على الجهل أهـ. ● التفسير بالقرآن:

قال ابن كثير: (٤) ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كما قال فى الآية الأخرى ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ إلى آخر الآية وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفصلة وأن الإسلام قد باد وأهله وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة أهـ.

قول: «يظنون».

● التفسير بالمأثور من أقوال التابعين:

(٢) القول المفيد ٣/ ١٧٩، ١٨١.

(١) إعراب القرآن ٧٧/ ٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٩٥.

(٣) البقرة: ٤٦.

أخرج ابن جرير: عن قتادة قال والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم الا أنفسهم اجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق يظنون بالله غير الحق ظنونا كاذبة إنما هم أهل شك وريبة فى أمر الله يقولون لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم).

عن الربيع قال: والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم همة الا أنفسهم ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ لو كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ قال الله عزوجل: ﴿قُلْ لو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ الآية. (١)

وعن ابن اسحق وطائفة قد أهمتهم أنفسهم قال أهل النفاق قد أهمتهم أنفسهم تخوف القتل وذلك أنهم لا يرجون عاقبة اهـ (٢).

● أقوال أهل التفسير:

قال الطبرى (٣): يعنى ذلك الطائفة المنافقة التى قد أهمتهم أنفسهم يقولون ليس لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله ولو كان لنا من الامر شيء ماخرجنا لقتال من قاتلنا فقتلونا. اهـ.

قال الرازى (٤):

فى هذا الظن احتمالان:

أحدهما: وهو الأظهر: هو أن ذلك الظن أنهم كانوا يقولون فى أنفسهم لو كان محمد محقاً فى دعواه لما سلب الكفار عليه وهذا ظن فاسد، أما على قول أهل السنة والجماعة، فلا أنه سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد عليه، فإن النبوة من الله سبحانه يشرف عبده بها وليس يجب فى العقل أن المولى إذا شرف عبده بخلة أن يشرفه بخلة أخرى، بل له الأمر والنهى كيف شاء بحكم الالهية، وأما على قول من يعتبر المصالح فى أفعال الله وأحكامه، فلا يبعد أن يكون لله تعالى فى التخلية بين الكافر والمسلم، بحيث يقهر الكافر المسلم، حكم خفية وألطف مرعية، فان الدنيا دار الامتحان والابتلاء، ووجوه المصالح مستورة عن العقول، وربما كانت المصلحة فى التخلية بين الكافر والمؤمن حتى يقهر الكافر المؤمن، وربما كانت المصلحة فى تسليط الفقر والزمانة على المؤمنين.

قال القفال: لو كان كون المؤمن محقاً يوجب زوال هذه المعانى لوجب أن يضطر

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩٣/٤). (٢) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٣) الطبرى ٩٤/٤.

(٤) التفسير الكبير ٤٩/٩/٥.

لناس إلى معرفة المحق بالجبر، وذلك ينافي التكليف واستحقاق الثواب والعقاب، بل الإنسان إنما يعرف كونه محقاً بما معه من الدلائل والبيّنات، فأما القهر فقد يكون من المبطل للمحق، ومن المحق للمبطل، وهذه جملة كافية في بيان أنه لا يجوز الاستدلال بالدولة والشوكة ووفور القوة على أن صاحبها على الحق.

الثاني: أن ذلك الظن هو أنهم كانوا ينكرون إله العالم بكل المعلومات، القادر على كل المقدورات، وينكرون النبوة والبعث، فلا جرم ما وثقوا بقول النبي ﷺ في أن الله يقويهم وينصرهم. ١. هـ.

قوله: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾.

قال ابن الجوزي (١) فيه أربعة أقوال

أحدهما: أنهم ظنوا أن الله لا ينصر محمداً وأصحابه رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أنهم ظنوا أن محمداً قد قتل. قاله مقاتل

والثالث: أنهم كذبوا بالقدر، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والرابع: ظنوا أن أمر النبي ﷺ مضمحل، قاله الزجاج.

● أقوال شراح كتاب التوحيد

● أنواع الظن بالله:

قال ابن عثيمين: والظن بالله - عز وجل - على نوعين:

الأول: أن يظن بالله خيراً.

الثاني: أن يظن بالله شراً.

والأول له متعلقان:

١- متعلق بالنسبة لما يفعله في هذا الكون؛ فهذا يجب عليك أن تحسن الظن بالله - عز وجل - فيما يفعله - سبحانه وتعالى - في هذا الكون، وأن تعتقد أن ما فعله إنما هو لحكمة بالغة قد تصل العقول إليها وقد لا تصل، وبهذا يتبين عظمة الله وحكمته في تقديره؛ فلا يظن أن الله إذا فعل شيئاً في الكون فعله لإرادة سيئة، حتى الحوادث والتكبات لم يحدثها الله لإرادة السوء المتعلق بفعله، أما المتعلق بغيره بأن يحدث ما يريد به أن يسوء هذا الغير؛ فهذا واقع؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ (١).

(١) زاد المسير ٢٨٦/١.

(٢) الأحزاب: ١٧.

٢- متعلق بالنسبة لما يفعله بك؛ فهذا يجب أن تظن بالله أحسن الظن، لكن بشرط أن يوجد لديك السبب الذى يوجب الظن الحسن، وهو أن تعبد الله على مقتضى شريعته مع الإخلاص، فإذا فعلت ذلك؛ فعليك أن تظن أن الله يقبل منك ولا تسيء الظن بالله بأن تعتقد أنه لن يقبل منك، وكذلك إذا تاب الإنسان من الذنب؛ فيحسن الظن بالله أنه يقبل منه، ولا يسيء الظن بالله بأن يعتقد أنه لا يقبل منه.

وأما إن كان الإنسان مُفَرِّطاً فى الواجبات فاعلاً للمحرمات، وظن بالله ظناً حسناً؛ فهذا هو ظن المتهاون المتهالك فى الأمانى الباطلة، بل هو من سوء الظن بالله؛ إذ إن حكمة الله تأبى مثل ذلك.

النوع الثانى: وهو أن يظن بالله سوءً، مثل أن يظن فى فعله سفهاً أو ظلماً أو نحو ذلك؛ فإنه من أعظم المحرمات وأقبح الذنوب، كما ظن هؤلاء المنافقون وغيرهم ممن يظن بالله غير الحق أهـ.

قوله ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ﴾.

● التفسير بما أثر عن التابعين

أخرج ابن جرير بسنده عن قتاده فى قوله ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ﴾ قال ظن أهل الشرك (١).

وعن الربيع قوله ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ﴾ قال ظن أهل الشرك (٢).

● أقوال المفسرين

قال البغوى (٣): ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ﴾ أى كظن أهل الجاهلية والشرك أهـ.

وذكره ابن الجوزى عن ابن عباس وذكره القرطبى (٤) أيضاً فقال ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ﴾ أى ظن أهل الجاهلية. أهـ.

قال الرازى (٥): - فى قوله ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ﴾ قولان:

أحدهما: أنه كقولك: حاتم الجود، وعمر العدل، يريد الظن المختص بالملة الجاهلية.

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (٩٤/٤) وانظر «الدر» (١٥٦/٢)

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) معالم التنزيل ٥٦٩/١. (٤) القرطبى ١٤٨٤/٣.

(٥) التفسير الكبير ٤٩/٩/٥.

والثاني: المراد ظن أهل الجاهلية.

فائدة: -

قال الرازي (١): ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ في حكم المصدر، ومعناه: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به و﴿ظَنُّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدل منه، والفائدة في هذا الترتيب أن غير الحق: أديان كثيرة، وأقبحها مقالات أهل الجاهلية، فذكر أولاً أنهم يظنون بالله غير الظن الحق، ثم بين أنهم اختاروا من أقسام الأديان التي غير حقة أركانها وأكثرها بطلاناً، وهو ظن أهل الجاهلية، كما يقال فلان دينه ليس بحق، دينه دين الملاحدة أهـ.

[قلت]: وسيأتي كلام ابن القيم في نهاية هذا الباب في معنى ظن الجاهلية وسوء الظن بالله، فانظره.

قوله: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

الإعراب: (٢)

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ جملة (يقولون) بدل من جملة (يظنون) (وهل) حرف استفهام إنكارى معناه النفي أى: ليس لنا، (ولنا) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم و(من الأمر) جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لـ ﴿شَيْءٍ﴾ ثم تقدمت الصفة على الموصوف فأعربت حالا، (ومن) حرف جر زائد (وشئ) مجرور بمن لفظاً في محل رفع مبتدأ مؤخر والجملة مقول القول أهـ.

● أقوال أهل التفسير:

قال الطبري (٣): يعنى بذلك الطائفة المنافقة التي قد أهمتهم أنفسهم يقولون ليس لنا من الأمر من شيء قل إن الامر كله لله ولو كان لنا من الأمر شيء ما خرجنا لقتال من قاتلنا فقتلونا أهـ.

قال ابن الجوزي (٤): قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لفظه لفظ الإستفهام ومعناه: إلى حد، تقديرة: مالنا من الأمر من شيء قال الحسن: قالوا: لو كان

(١) المصدر السابق.

(٢) إعراب القرآن ٧٧/٩/٥.

(٣) زاد المسير ٣٨٦/١.

(٤) تفسير الطبري ٩٤/٤/٣.

الأمر إلينا ما خرجنا وإنما خرجنا كرهاً. وقال غيره: المراد بالأمر: النصر والظفر، قالوا: إنما النصر للمشركين.

قال الرازي^(١): من الصفات التي ذكرها الله تعالى لهؤلاء المنافقين قوله تعالى ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

واعلم أن قوله ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ حكاية للشبهة التي تمسك أهل النفاق بها، وهو يحتمل وجوها:

الأول: أن عبد الله بن أبي لما شاوره النبي ﷺ في هذه الواقعة أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة، ثم إن الصحابة ألخوا على النبي ﷺ في أن يخرج إليهم، فغضب عبد الله بن أبي من ذلك، فقال عصاني وأطاع الولدان، ثم لما كثر القتل في بني الخزرج ورجع عبد الله بن أبي قيل له: قتل بنو الخزرج، فقال هل لنا من الأمر من شيء، يعنى أن محمداً لم يقبل قولى حين أمرته بأن يسكن في المدينة ولا يخرج منها، ونظيره ما حكاه الله عنهم أنهم قالوا ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ والمعنى: هل لنا من أمر يطاع وهو استفهام على سبيل الإنكار.

الوجه الثانى فى التاويل: أن من عادة العرب إذا كانت الدولة لعدوه قالوا عليه الأمر، فقوله ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى هل لنا من الشيء الذى كان يعدنا به محمد، وهو النصرة والقوة شيء وهذا استفهام على سبيل الإنكار، وكان غرضهم منه الاستدلال بذلك على أن محمداً ﷺ كان كاذباً فى ادعاء النصرة أو العصمة من الله تعالى لأمرته، وهذا استفهام على سبيل الإنكار.

الثالث: أن يكون التقدير: أنطمع أن تكون لنا الغلبة على هؤلاء، والغرض منه تبصير المسلمين فى التشديد فى الجهاد والحرب مع الكفار، ثم إن الله سبحانه أجاب عن هذه الشبهة بقوله ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

قال القرطبي^(٢): ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لفظة استفهام ومعناه الجحد أى مالنا شئ من الأمر أى من أمر الخروج وإنما خرجنا كرهاً. يدل عليه قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ قال الزبير: أرسل علينا النوم ذلك اليوم، وإنى لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ

(٢) تفسير القرطبي ١٤٨٤/٣.

(١) التفسير الكبير ٥٠/٩/٥.

شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا^(١). وقيل: المعنى يقولون ليس لنا من الظَّفر الذى وعدنا به محمد شىء والله أعلم. اهـ.

قال الشوكانى^(٢): أى يقولون لرسول الله ﷺ ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾؟ أى هل لنا من أمر الله نصيب وهذا الاستفهام معناه: الجحد أى ما لنا شئ؟ أى هل لنا من أمر الله نصيب وهذا الإستفهام معناه: الجحد أى ما لنا شئ من الأمر. وهو النصر والإستظهار على العدو.

وقيل: هو الخروج أى إنما خرجنا مكرهين» اهـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين^(٣):

قوله: ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

مرادهم بذلك أمران:

الأول: رفع اللوم عن أنفسهم.

الثانى: الاعتراض على القدر.

وقوله: ﴿لَنَا﴾: خبر مقدم.

وقوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمّة المقدرة على آخره منع من ظهورها

اشتغال المحل بحركة حرف الجر اهـ.

- فائدة.

قال محيى الدين درويش^(٤): فى كلمة «شئ» من قوله: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ

شَيْءٍ﴾ التى احتوت على ما تضيق عنه الصحف كالنصر والظهور على العدو بعد أن

اشتدت وطأته وضراوته. اهـ.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

- الاعراب^(٥):

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الجملة معترضة (وأن) واسمها، (وكله) تأكيد لـ «الأمر» لأنه

يتجزأ والله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر إن والجملة فى محل نصب مقول القول.

(٢) فتح القدير ١/ ٤٧٤.

(١) تقدم تخريجه.

(٤) إعراب القرآن ٢/ ٧٧.

(٣) القول المفيد ٣/ ١٨١.

(٥) إعراب القرآن ٢/ ٨٠.

● أقوال أهل التفسير:

قال الطبري^(١):- وهذا أمر مبتدأ من الله عزوجل يقول لنبه محمد ﷺ (قل) يا محمد لهؤلاء المنافقين (إن الامر كله لله) يصرفه كيف يشاء ويدبره كيف يحب أهـ.

قال ابن الجوزي^(٢):- «قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ» أى: النصر والظفر والقضاء والقدر (لله) والأكثرون قرؤوا (إن الأمر كله لله) بنصب اللام وقرأ عمرو برفعها، قال أبو على: حجة من نصب أن «كله» بمنزلة «أجمعين» فى الإحاطة والعموم: فلو قال إن الامر أجمع لم يكن إلا النصب «وكله» بمنزلة «أجمعين» ومن رفع، فلأنه قد ابتدأ به، كما ابتدأ بقوله تعالى: «وكلهم آتية».

قال الرازى^(٣): الوجه فى تقرير هذا الجواب ما بينا: أنا قلنا بمذهب أهل السنة لم يكن على الله اعتراض فى شىء من أفعاله فى الإمامة والإحياء والفقر والإغناء والسراء والضراء، وإن قلنا بمذهب القائلين برعاية المصالح، فوجه المصالح مخفية لا يعلمها إلا الله تعالى، فربما كانت المصلحة فى إيصال السرور واللذة، وربما كانت فى تسليط الأحران والآلام، فقد اندفعت شبهة المنافقين من هذا الوجه.

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن جميع المحدثات بقضاء الله وقدره، وذلك لأن المنافقين قالوا أن محمداً لو قبل منا رأينا ونصحن، لما وقع فى هذه المحنة، فأجاب الله عنه بأن الأمر كله لله، وهذا الجواب: إنما ينتظم لو كانت أفعال العباد بقضاء الله وقدره ومشئته إذ لو كانت خارجة عن مشيئته لم يكن هذا الجواب دافعا لشبهة المنافقين: فثبت أن هذه الآية دالة على ما ذكرنا. وأيضاً فظاهر هذه الآية مطابق للبرهان العقلى، وذلك لأن الموجود، إما واجب لذاته أو ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه إلا عند الانتهاء إلى الواجب لذاته، فثبت أن كل ما سوى الله تعالى مستند إلى إيجادهِ وتكوينهِ، وهذه القاعدة لا اختصاص لها بمحدث دون محدث، أو ممكن دون ممكن، فتدخل فيه أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم، وذلك هو المراد بقوله «قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ» وهذا كلام فى غاية الظهور لمن وفقه الله للإنصاف. ا.هـ.

[قلت]: وكلامه رحمه الله فيه تكلف على عادة أهل الكلام ولو اقتصر على قوله (احتج أصحابنا... وقدره) لكان أفضل، والله أعلم.

(١) تفسير الطبري ٩٤/٤/٣.

(٢) زاد المسير ٣٨٦/١.

(٣) التفسير الكبير ٥٠/٩/٥.

- قوله: ﴿كُلُّهُ﴾.

قال الطبرى^(١): واختلفت القراءة فى قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ﴾ بنصب الكل على وجه النعت للأمر والصفة له وقراء بعض قراء أهل البصرة ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ برفع الكل على توجيه الكل إلى أنه اسم وقوله لله خبره كقول القائل إن الأمر بعضه لعبد الله وقد يجوز أن يكون الكل فى قراءة من قرأ بالنصب منصوباً على البدل والقراءة التى هى القراءة عندنا النصب فى الكل لإجماع أكثر القراء عليه من غير أن تكون القراءة الأخرى خطأ فى معنى أو غريبة ولو كانت القراءة بالرفع فى ذلك مستفيضة فى القراء لكانت سواء عندى القراءة بأى ذلك قرئ لاتفاق معانى ذلك بأى وجهه قرئ وذكر ذلك القرطبي وغيره.

قال الشوكاني^(٢): فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ وليس لكم ولا لعدوكم منه شئ فالنصر بيده والظفر منه. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أى: فإذا كان كذلك؛ فلا وجه لاحتجاجكم على قضاء الله وقدره، فالله - عزوجل - يفعل ما يشاء من النصر والخذلان.

وقوله: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ﴾ واحد الأمور لا واحد الأوامر؛ أى: الشأن كل الشأن الذى يتعلق بأفعال الله وأفعال الله وأفعال المخلوقين كله لله - سبحانه -؛ فهو الذى يقدر الذل والعز والخير والشر، لكن الشر فى مفعولاته لا فى فعله.

قوله: ﴿يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُدُونُ لَكَ﴾.

- الإعراب: (٤) ﴿يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُدُونُ لَكَ﴾ جملة (يخفون) حال من ضمير (يقولون)، أى: يقولون فيما بينهم متسارين، (وفى أنفسهم) جار ومجرور متعلقان (يخفون) (وما) اسم موصول مفعول به (ولا نافية وجملة (يبدون) لا محل لها لأنها صلة ما (ولك) جار ومجرور متعلقان ببديون.

● التفسير بما أثر عن التابعين:

(١) تفسير الطبرى ٣/ ٩٤/ ٤.

(٢) فتح القدير ١/ ٤٧٤.

(٣) القول المفيد ٣/ ١٨٢.

(٤) إعراب القرآن ٢/ ٧٧ و ٧٨.

عن الربيع فى قوله: «يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ» كان مما أخفوا فى أنفسهم أن قالوا «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا» (١). اهـ.

قال الطبرى (٢): ثم عاد إلى الخبر عن ذكر نفاق المنافقين فقال يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقول يخفى يا محمد هؤلاء المنافقون الذين وصفت لك صفتهم فى أنفسهم من الكفر والشك فى الله ما لا يبدون لك.

قال ابن الجوزى: (٣) قوله تعالى: «يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ» فى الذى أنفسهم ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنه قولهم «لو كنا فى بيوتنا ماقتلنا هاهنا».

والثانى: أنه إسرارهم الكفر والشك فى أمر الله.

والثالث: الندم على حضورهم مع المسلمين بأحد. اهـ.

قال الرازى (٤): واعلم أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: هل لنا من الأمر من شىء، وهذا الكلام محتمل لعل قائله كان من المؤمنين المحقين، وكان غرضه منه إظهار الشفقة، وأنه متى يكون الفرج؟ ومن أين تحصل النصرة؟ ولعله كان من المنافقين، وإنما قاله طعنا فى نبوة محمد ﷺ وفى الإسلام فبين تعالى فى هذه الآية أن غرض هؤلاء من هذا الكلام هذا القسم الثانى، والفائدة فى هذا التنبيه أن يكون النبى ﷺ متحرراً عن مكرهم وكيدهم.

قال الشوكانى (٥): - وقوله: «يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ». أى يضمرون فى أنفسهم النفاق ولا يبدون لك ذلك بل يسألونك سؤال المسترشدين.

قال ابن عثيمين (٦): قوله: «يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ». أى: ما لا يظهرون لك، فمن شأن المنافقين عدم الصراحة والصدق؛ فيخفى فى نفسه ما لا يديه لغيره؛ لأنه يرى من جنبه وخوفه أنه لو أخبر بالحق لكان فيه هلاكه، فهو يخفى الكفر والفسوق والعصيان. اهـ.

(١) ذكره السيوطى فى «الدر» (١٥٦/٢) ونسبه لابن أبى حاتم.

(٢) تفسير الطبرى: ٩٤/٤/٣. (٣) زاد المسير ٣٨٦/١.

(٤) التفسير الكبير ٥١/٩/٥. (٥) فتح القدير ٤٧٤/١.

(٦) القول المفيد ١٨٢/٣.

قوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

- الإعراب^(١): جملة ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ جملة ﴿يَقُولُونَ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما قبله، ولتكون بمثابة شروع فى الحديث عنهم مجدداً تطرية لنشاط السامع واسترعاء لانتباهه. و﴿لَوْ﴾ شرطية و﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص و﴿لَنَا﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كان المقدم و﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال وشيء اسم كان المؤخر و﴿مَّا﴾ نافية و﴿قُتِلْنَا﴾ فعل ماض مبنى للمجهول ونا نائب فاعل وجملة ﴿مَّا قُتِلْنَا﴾ لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم، و﴿هَاهُنَا﴾ الهاء للتنبيه وهنا اسم إشارة فى محل نصب ظرف مكان متعلق بقتلنا. اهـ.

● التفسير بما أثر عن الصحابة والتابعين:

عن عبدالله من الزبير عن الزبير قال والله إني لأسمع قول معتب بن قشير أخى بن عمرو بن عوف والنعاس يغشاني ما أسمعه إلا كالحلم حين قال لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا^(٢).

عن الحسن أنه سأل عن هذه الآية فقال: لما قتل من قتل من أصحاب محمد أتو عبدالله بن أبى فقالوا له: ما ترى؟ فقال أنا - والله - ما نؤامر «لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هنا»^(٣).

● أقوال أهل التفسير:

قال الطبرى^(٤): ثم أظهر نبيه ﷺ على ما كانوا يخفونه بينهم من نفاقهم والحسرة التى أصابتهم على حضورهم مع المسلمين مشهدهم بأحد فقال مخبراً عن قيلهم الكفر وإعلانهم النفاق بينهم (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا) يعنى بذلك أن هؤلاء المنافقين يقولون لو كان الخروج إلى حرب من خرجنا لحربه من المشركين إلينا ما خرجنا إليهم ولا قتل منا أحد فى الموضع الذى قتلوا فيه بأحد وذكر أن عن قال هذا القول معتب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف. اهـ.

(١) إعراب القرآن ٢ / ٧٨.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره السيوطى فى «الدر» (١٥٦/٢) ونسبه لابن أبى حاتم.

«فتح القدير» بتخريجنا.

(٤) «تفسير الطبرى» (٩٣/٤/٣).

قال الرازي^(١): من الأشياء التي حكى الله عن المنافقين، قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، وفيه إشكال، وهو أن لقائل أن يقول: ما الفرق بين هذا الكلام وبين ما تقدم من قوله: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ويمكن أن يجاب عنه من وجهين:

الأول: أنه تعالى لما حكى عنهم قولهم: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فأجاب عنه بقوله: ﴿الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ واحتج المنافقون على الطعن في هذا الجواب بقولهم: (لو كان لنا من الأمر شيء) لما أخرجنا من المدينة و(ما قتلنا ههنا)، فهذا يدل على أنه ليس الأمر كما قلتم من أن الأمر كله لله، وهذا هو بعينه المناظرة الدائرة بين أهل السنة وأهل الاعتزال فإن السني يقول: الأمر كله في الطاعة والمعصية والإيمان والكفر بيد الله، فيقول المعتزلي: ليس الأمر كذلك، فإن الإنسان مختار مستقل بالفعل، إن شاء آمن، وإن شاء كفر، فعلى هذا الوجه لا يكون هذا الكلام شبهة مستقلة بنفسها، بل يكون الغرض منه الطعن فيما جعله الله تعالى جواباً عن الشبهة الأولى.

الوجه الثاني: أن يكون المراد من قوله ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ هو أنه هل لنا من النصرة التي وعدنا بها محمد شيء، ويكون المراد من قوله ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ وهو ما كان يقوله عبد الله بن أبي من أن محمداً لو أطاعني، وما خرج من المدينة؛ ما قتلنا ههنا. اهـ.

واعلم أنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من ثلاثة أوجه.

الوجه الأول من الجواب: قوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾. وسيأتي الوجه الثاني والثالث.

قوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ الإعراب^(٢):

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ الجملة مستأنفة مسوقة لبيان أن الآجال مكتوبة وأنهم لو أقاموا في المدينة لحدثت لهم أسباب يخرجون فيها لملاقاة حتوفهم وأنهم إذا جاء أجلهم

(١) الضيق الكبير ٥ / ٩ / ٥١، ٥٢.

(٢) إعراب القرآن ٢ / ٧٨.

لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، و﴿لُر﴾ و﴿كُتُم﴾ كان واسمها ، ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر والجملة فى محل نصب مقول القول.

﴿لَبَّرَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ اللام واقعة فى الجواب وبرز الذين فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وجملة ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ صلة الذين ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ جار ومجرور متعلقان ببرز أى إلى مصارعهم. اهـ.

● أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(١): يعنى بذلك جل ثناؤه (قل) يا محمد للذين وصفت لك صفتهم من المنافقين (لو كنتم فى بيوتكم) لم تشهدوا مع المؤمنين مشهدهم ولم تحضروا معهم حرب أعدائهم من المشركين فيظهر للمؤمنين ما كنتم تخفونه من نفاقكم وتكتمونه من شرككم فى دينكم ﴿لَبَّرَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ يقول لظهر للموضع الذى كتب عليه مصرعه فيه من قد كتب عليه القتل منهم ويخرج من بيته إليه حتى يصرع فى الموضع الذى كتب عليه أن يصرع فيه. اهـ.

قال الرازى^(٢): والمعنى أن الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير، فالذين قدر الله عليهم القتل لا بد وأن يقتلوا على جميع التقديرات، لأن الله تعالى لما أخبر أنه يقتل، فلو لم يقتل لانقلب علمه جهلاً ، وقد بينا أيضاً أنه ممكن فلا بد من انتهائه إلى إيجاد الله تعالى، فلو لم يوجد لانقلبت قدرته عجزاً ، وكل ذلك محال، وما يدل على تحقيق الوجوب كما قررنا قوله ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ وهذه الكلمة تفيد الوجوب، فإن هذه الكلمة فى قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ تفيد وجوب الفعل، وما هنا لا يمكن حملها على وجوب الفعل، فوجب حملها على وجوب الوجود وهذا كلام فى غاية الظهور لمن أيدته الله بالتوفيق، ثم نقول للمفسرين : فيه قولان:

الأول: لو جلستم فى بيوتكم لخرج منكم من كتب الله عليهم القتل إلى مضاجعهم ومصارعهم حتى يوجد ما علم الله أنه يوجد .

والثانى: كأنه قيل للمنافقين لو جلستم فى بيوتكم وتخلفتكم عن الجهاد لخرج المؤمنون الذين كتب عليهم قتال الكفار إلى مضاجعهم ، ولم يتخلفوا عن هذه الطاعة بسبب تخلفكم. اهـ.

قلت: وسيأتى شرح ابن عثيمين لمعنى الكتابة فى الآية قريباً.

قال السعدي^(١): ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى : لو كان لنا فى هذه الواقعة رأى ومشورة ﴿مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

وهذا إنكار منهم، وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأى رسول الله ﷺ، ورأى أصحابه، وتزكية منهم، لأنفسهم فرد الله عليهم بقوله:

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ التى هى أبعد شئ عن مظان القتل.

﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ فالأسباب - وإن عظمت - إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء.

فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً، بل لابد أن يمضى الله ما كتب فى اللوح المحفوظ، من الموت والحياة. اهـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين^(٢): قوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾.

هذا رد لقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

وهذا الاحتجاج لا حقيقة له، لأنه إذا كتب القتل على أحد، لم ينفعه تحصنه فى بيته، بل لابد أن يخرج إلى مكان موته، والكتابة قسمان:

١- كتابة شرعية: وهذا لا يلزم منها وقوع المكتوب، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(٣)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾^(٤).

٢- كتابة كونية: وهذه يلزم منها وقوع المكتوب كما فى هذه الآية، ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٥) وقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلِنَ أَنَا وَرُسُلِي﴾^(٦).

فائدة:

(٢) القول المفيد ٣/ ١٨٢.

(٤) البقرة: ١٨٣.

(٦) المجادلة: ٢١.

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٢٦٧، ٢٦٨.

(٣) النساء: ١٠٣.

(٥) الأنبياء: ١٠٥.

قال محيي الدين درويش^(١): فى الآية كنى الله بالمضاجع عن المصارع حيث لا قوا حتفهم وصافحوا منايهم.

المخالفة فى جواب لو، فقد جاء مرة بغير لام وجاء مرة مقترنا بها وفى هذا سر عجب فقد قال: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ ثم قال: ﴿لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ والقاعدة المعروفة هى أن جواب لو إذا كان منفيا بما فالأكثر عدم اللام وفى الإيجاب بالعكس لأن الإيجاب أحوج إلى التثبيت والترسيخ وهذا من الأسرار التى تميز كتاب الله بها ليكون المعجزة أبد الدهر. اهـ.

قوله: ﴿وَلِيَتْلَى اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾

الإعراب^(٢):

الواو عاطفة على محذوف تقديره: وفعل ما فعله فى أحد لمصالح جمعة ﴿وَلِيَتْلَى﴾، اللام للتعليل ﴿وَلِيَتْلَى﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل المحذوف أى فعل ذلك لمصالح تجهلونها وليتلى ما فى الصدور و﴿مَا﴾ اسم موصول مفعول به و﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف لا محل له لانه صلة الموصول. اهـ.

● أقوال أهل التفسير:

قال الطبرى^(٣): ﴿وَلِيَتْلَى اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾

وأما فى قوله: ﴿لِيَتْلَى اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ فإنه يعنى به وليتلى الله ما فى صدوركم أيها المنافقون كتتم تبرزون من بيوتكم إلى مضاجعكم ويعنى بقوله ﴿وَلِيَتْلَى اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ وليختبر الله الذى فى صدوركم من الشك فيميزكم بما يظهره للمؤمنين من تفاقكم من المؤمنين، وقد دللنا فيما مضى على أن معانى نظائر قوله ليتلى الله وليعلم الله وما أشبه ذلك وإن كان فى ظاهر الكلام مضاف إلى الله الوصف به فمراد به أوليائه وأهل طاعته وأن معنى ذلك وليختبر أولياء الله وأهل طاعته الذى فى صدوركم من الشك والمرض فيعرفوكم من أهل الإخلاص واليقين. اهـ.

(٢) إعراب القرآن ٢/ ٧٨

(١) إعراب القرآن ٢/ ٨٠.

(٣) تفسير الطبرى ٣/ ٩٥.

قال الرازي (١): ﴿وَلْيَتْلَى اللَّهُ﴾

الوجه الثاني في الجواب عن تلك الشبهة - أى ما قاله المنافقون لو كان لنا من الأمر شيء - قوله: ﴿وَلْيَتْلَى اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ وذلك لأن القوم زعموا أن الخروج إلى تلك المقاتلة كان مفسدة، ولو كان الأمر إليهم لما خرجوا إليها، فقال تعالى: بل هذه المقاتلة مشتملة على نوعين من المصلحة: أن يتميز الموافق من المنافق، وفي المثل المشهور: لا تكرهوا الفتن فإنها حصاد المنافقين، ومعنى الابتلاء فى حق الله تعالى قد مر تفسيره. فإن قيل: لم ذكر الابتلاء وقد سبق ذكره فى قوله ﴿ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ قلنا: لما طال الكلام أعاد ذكره، وقال الابتلاء الأول هزيمة المؤمنين، والثاني سائر الأحوال. اهـ.

قال السعدي (٢): ﴿وَلْيَتْلَى اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أى يختبر ما فيها من نفاق وإيمان وضعف إيمان. اهـ. وبنحو ما تقدم ذكر أهل التفسير بما يغنى عن تكراره.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين (٣): قوله: ﴿وَلْيَتْلَى اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أى : يختبر ما فى صدوركم من الإيمان بقضاء الله وقدره والإيمان بحكمته، فيختبر ما فى قلب العبد بما يُقدِّره عليه من الأمور المكروهة، حتى يتبين من استسلم لقضاء الله وقدره وحكمته ممن لم يكن كذلك. اهـ.

قوله: ﴿وَلْيَمْحَصْ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾

الإعراب (٤):

عطف على ﴿لِيَبْتَلَى اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾. اهـ.

● التفسير بما أثر عن التابعين:

قال ابن الجوزي (٥): قال قتادة: أراد ليظهرها من الشك والارتياب بما يريكم من عجائب صنعه من الأمانة وإظهار سرائر المنافقين وهذا التمهيص خاص بالمؤمنين .

(١) التفسير الكبير ٥٢/ ٩/ ٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢٦٨/ ١.

(٣) القول المفيد ١٨٣/ ٣.

(٤) إعراب القرآن ٧٩/ ٢.

(٥) زاد المسير ٣٨٧/ ١.

وقال غيره: أراد بالتمحيص إيابة ما فى القلوب من الاعتقاد لله ولرسوله وللمؤمنين فهو خطاب للمنافقين.

● أقوال أهل التفسير:

قال الطبرى^(١): ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يقول وليستينوا ما فى قلوبكم من الاعتقاد لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين من العداوة أو الولاية. اهـ.

قال الرازى^(٢): قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وفيه وجهان:

أحدهما: أن هذه الواقعة تمحص قلوبكم عن الوسواس والشبهات .

والثانى: أنها تصير كفارة لذنوبكم فتمحصكم عن تبعات المعاصى والسيئات، وذكر فى الابتلاء الصدور وفى التمحيص القلوب وفيه بحث. اهـ.

قال السعدى^(٣): ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من وسواس الشيطان، وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة. اهـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ هذه حكمة أخرى، وهى تمحيص ما فى قلوب المؤمنين وهو تخليصه وتنقيته وتهذيبه ، فإن القلوب يخالطها تغليب الطباع وميل النفوس، وحكم العادة وتزيين الشيطان، واستيلاء الغفلة مما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى فلو تركت فى عافية دائمة مستمرة ، لم تتخلص من هذه المخاطر ولم تتمحص منه، فاقتضت حكمة العزيز الرحيم أن قيض لها من المحن والبلايا ما يكون، كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيب بإزالته وتنقيته ممن هو فى جسده وإلا خيف عليه من الفساد والهلاك فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكثرة والهزيمة، وقتل من قتل منهم تعادل نعمته عليهم بنصره، وتأييدهم وظفرهم بقدرتهم، فله عليهم النعمة التامة فى هذا وهذا. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٥): قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾

أى: إذا حصل الابتلاء فقبول بالصبر، صار فى ذلك تمحيص لما فى القلب، أى: تطهير له وإزالة لما يكون قد علق به من بعض الأمور التى لا تنبغى.

(٢) التفسير الكبير ٥/٩/٥٣، ٥٣.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٥١٠.

(١) تفسير الطبرى ٩٥/٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٢٦٨/١.

(٥) القول المفيد ٣/١٨٣، ١٨٤.

وقد حصل الابتلاء والتمحيص في غزوة أحد بدليل أن الصحابة لما ندبهم الرسول ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ (١) خرجوا إلى حمراء الأسد ولم يجدوا غزواً فرجعوا، ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٢). اهـ.

قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

الإعراب (٣):

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الواو استئنافية والجملة مستأنفة لتأكيد علمه تعالى بالسرائر والكوامن، و﴿وَاللَّهُ﴾ مبتدأ و﴿عَلِيمٌ﴾ خبر و﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ جار ومجرور متعلقان بعليم. اهـ.

● التفسير بالقرآن:

قال ابن عثيمين (٤): قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

جملة خبرية فيها أن الله عليم بذات الصدور، أى: بصاحبة الصدور، والمراد بها القلوب، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ فالله لا يخفى عليه شيء فيعلم ما في قلب العبد وما ليس في قلبه متى يكون وكيف يكون. اهـ.

● أقوال أهل التفسير:

قال الطبري (٥): ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قل : والله ذو علم بالذى فى صدور خلقه من خير وشر وإيمان وكفر ولا يخفى عليه شيء من أمورهم سرائرها وعلايتها وهو لجميع ذلك حافظ حتى يجازى جميعهم جزائهم على قدر استحقاقهم. اهـ.

قال ابن الجوزي (٦): قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى بما فيها، وقال ابن الأثير : معناه: عليم بحقيقة ما فى الصدور من المضمرة فتأنيث ذات بمعنى الحقيقة، كما تقول العرب لقيته ذات يوم: فيؤنثون لأن مقصدهم: لقيته مرة فى يوم. اهـ.

(٢) آل عمران: ١٧٤.

(٤) القول المفيد ٣/ ١٨٤.

(٦) زاد المسير ١/ ٣٨٧.

(١) آل عمران: ١٧٢.

(٣) إعراب القرآن ٢/ ٧٩.

(٥) تفسير الطبري ٣/ ٩٥.

وَقَوْلُهُ: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ﴾ (١).

قال الرازى (٢): واعلم أن ذات الصدور هي الأشياء الموجودة في الصدور، وهي الأسرار والضمائر، وهي ذات الصدور، لأنها حالة فيها مصاحبة لها، وصاحب الشيء ذوه وصاحبه ذاته، وإنما ذكر ذلك ليدل به على أن ابتلاء لم يكن لأنه يخفى عليه ما في الصدور، أو غير ذلك، لأنه عالم بجميع المعلومات وإنما ابتلاهم إما لمحض الآلية، أو للاستصلاح. اهـ.

قال السعدى (٣) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى : بما فيها، وما أكتته.

فاقتضى علمه وحكمته، أن قدر من الأسباب، ما به يظهر مخبئات الصدور وسرائر الأمور. اهـ.

● فائدة: فى تقديم المنافقين على المشركين فى الذكر.

قال الرازى (٤): واعلم أنه قدم المنافقين على المشركين فى الذكر فى كثير من المواضع لأمر:

(أحدها): أنهم كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه، وهو كان يفشى أسرارهم، وإلى هذا أشار النبى ﷺ بقوله: «أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك» والمنافق على صورة الشيطان فإنه لا يأتى الإنسان على أنه عدوك، وإنما يأتى على أنه صديقك، والمجاهر على خلاف الشيطان من وجه، ولأن المنافق كان يظن أنه يتخلص للمخادعة، والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلب يفديه، فأول ما أخبر الله أخبر عن المنافق. اهـ.



قوله: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ﴾.

● مناسبة الآية للباب:

قال القرعاوى (٥): حيث دلت الآية على تحريم سوء الظن بالله. اهـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

(١) الفتح : ٦ .

(٢) التفسير الكبير ٥ / ٩ / ٥٣ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن / ٢٦٨ .

(٤) التفسير الكبير ٥ / ٩ / ٨٤ ، ٨٥ .

(٥) الجديد / ٤٣٠ .

قال القرعاوى^(١): حيث دلت الآية على وجوب حسن الظن بالله لأنه من واجبات التوحيد. اهـ.

قوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ﴾.

الإعراب^(٢):

﴿الظَّانِّينَ﴾ نعت للمنافقين والمشركين و﴿بِاللَّهِ﴾ متعلقان بالظانين و﴿ظَنُّ السَّوِّ﴾ مفعول مطلق و﴿السَّوِّ﴾ بفتح السين ومعناه الذم وبضمها معناه العذاب والهزيمة والشر وقيل هما لغتان غير أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه والمضموم جرى مجرى الشر وكلاهما في الأصل مصدر والإضافة ليست من قبيل إضافة الموصوف إلى صفته فإنها غير جائزة عند البصريين لأن الصفة والموصوف عبارة عن شيء واحد فإضافة أحدهما إلى الآخر إضافة الشيء إلى نفسه بل السوء صفة لموصوف محذوف أى ظن الأمر السوء فحذف المضاف إليه وأقيمت صفة مقامه . و﴿عَلَيْهِمْ﴾ خبر مقدم ﴿دَائِرَةُ السَّوِّ﴾ مبتدأ مؤخر والجملة دعائية لا محل لها والدائرة في الأصل عبارة عن الخطر المحيط بالمركز ثم استعملت في الحادثة المحيطة بمن وقعت عليه إلا أن الغالب في استعمالها للمكروه وإضافة الدائرة إلى السوء من إضافة العام إلى الخاص فهى للبيان كخاتم فضة والمراد الإحاطة والشمول بحيث لا يتخطاهم السوء ولا يتجاوزهم. اهـ.

● أقوال أهل التفسير:

[قلت]: وسيأتى فى نهاية هذا الباب كلام ابن القيم فى سوء الظن بالله، بطريقة بديعة جامعة لما ذكره المفسدون وزيادة.

قال الطبرى^(٣) : يقول تعالى: ذكره لنبىه محمد ﷺ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ

لَكَ اللَّهُ﴾ (وليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ويعذب المنافقين والمنافقات) بفتح الله لك يا محمد ما فتح لك من نصرك على مشركى قريش فيكتبوا لذلك ويحزنوا ويخيب رجاؤهم الذى كانوا يرجون من رؤيتهم فى أهل الإيمان بك من الضعف والوهن والتولى عنك فى عاجل الدنيا وصلى النار والخلود فيها فى آجل الآخرة

(١) الجديد ٤٣٠ .

(٢) إعراب القرآن ٩/٢٣٢، ٢٣٣ .

(٣) تفسير الطبرى ٤٩/٤ .

﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ يقول وليعذب كذلك أيضاً المشركين والمشركات (الظانين بالله) أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك ولن يظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به وذلك كان (السوء) من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع، يقول تعالى ذكره على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن (دائرة السوء) يعنى دائرة العذاب تدور عليهم به واختلف القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراءة الكوفة ﴿دَائِرَةُ السَّوِّءِ﴾ بفتح السين وقرأ بعض قراء البصرة (دائرة السوء) بضم السين، وكان الفراء يقول الفتح أفشى في السين، قال: وقلما تقول العرب (دائرة السوء) بضم السين والفتح في السين أعجب إلى من الضم؛ لأن العرب تقول: هو رجل سوء بفتح السين، ولا تقول: هو رجل سوء، وقوله (وغضب الله عليهم) يقول ونالهم الله بغضب منه، (ولعنهم) يقول وأبعدهم فأقصاهم من رحمته، (وأعدلهم جهنم) يقول وأعدلهم جهنم يصلونها يوم القيامة (وساءت مصيراً) يقول وساءت جهنم منزلاً لا يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات. اهـ.

[قلت]: وسيأتى قريباً في نهاية كلام القرطبي وجه الجمع بين القراءتين

قال ابن الجوزي^(١): قوله تعالى ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّءِ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: أنهم ظنوا أن الله شريكاً.

والثاني: أن الله لا ينصر محمداً وأصحابه .

والثالث: أنهم ظنوا به حين خرج إلى الحديبية أنه سيقتل أو يهزم ولا يعود ظافراً.

والرابع: أنهم ظنوا أنهم ورسول الله ﷺ بمنزلة واحدة عند الله .

والخامس: ظنوا أن الله لا يبعث الموتى .

قال الرازي^(٢): قول ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّءِ﴾ هذا الظن يحتمل وجوهاً.

أحدهما: هو الظن الذي ذكره الله بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ﴾ .

ثانيها: ظن المشركين بالله في الإشراك كما قال تعالى ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ﴾ .

(١) زاد المسير ٢٠٣/٧ .

(٢) التفسير الكبير ١٤ / ٢٨ / ٨٥ .

ثانيها: ظن المشركين بالله في الإشراك كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ﴾. إلى أن قال ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾.

ثالثها: ظنهم أن الله لا يرى ولا يعلم كما قال ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

والأول: أصح أن نقول المراد جميع ظنونهم حتى يدخل فيه ظنهم الذي ظنوا أن الله لا يحيى الموتى، وأن العالم خلقه باطل، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويؤيد هذا الوجه الألف واللام الذي في السوء وفيه وجوه.

أحدها: ما اختاره المحققون من الأدباء... وهو أن السوء صار عبارة عن الفساد، والصدق عبارة عن الصلاح يقال مررت برجل سوء أى فاسد، وسئلت عن رجل صدق أى صالح فإذا كان مجموع قولنا رجل سوء يؤدي معنى قولنا فاسد، فالسوء وحده يكون بمعنى الفساد، وهذا ما اتفق عليه الخليل والزجاج واختاره الزمخشري، وتحقيق هذا أن السوء في المعاني كالفساد في الأجساد، يقال ساء مزاجه، وساء خلقه، وساء ظنه، كما يقال فسد اللحم، وفسد الهواء، بل كل ما ساء فقد فسد وكل ما فقد فسد ساء غير أن أحدهما كثير الاستعمال في المعاني والآخر في الإجماع قال الله تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وقال ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذا ما يظهر لى من تحقيق كلامهم.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أى دائرة الفساد وحق بهم الفساد بحيث لا خروج لهم منه.

قال القرطبي (١): ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ يعنى ظنهم أن النبى ﷺ لا يرجع إلى المدينة، ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية، وأن المشركين يستأصلونهم، كما قال: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ وقال الخليل وسيبويه: ﴿السَّوْءِ﴾ هنا الفساد.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ فى الدنيا بالقتل والسبى والأسر، وفى الآخرة بجهنم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ بالضم، وفتح الباقون، قال الجوهري:

(١) تفسير القرطبي ٦٠٨٥/٩.

ساء يسوءه سَوْءًا (بالفتح) ومساءة ومساية، نقيض سره، والاسم السَّوء (بالضم) ،
وقرئ ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ﴾ يعنى الهزيمة والشر، ومن فتح فهو من المساءة. اهـ.

قال ابن كثير (١): ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوءِ﴾ أى يتهمون الله تعالى فى حكمه
ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ولهذا قال
تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أى أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. اهـ.

قال الشوكاني (٢): ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوءِ﴾ وهو ظنهم أن النبى ﷺ يغلب وأن
كلمة الكفر تعلق كلمة الإسلام، وما ظنوه ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنَا
يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ﴾ أى ما يظنونه
ويتربصونه بالمؤمنين دائر عليهم حائق بهم، والمعنى: أن العذاب والهلاك الذى يتوقعونه
للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم، قال الخليل وسيبويه: السوء هنا: الفساد، قرأ
الجمهور: ﴿السَّوءِ﴾ بفتح السين، وقرأ ابن كثير وأبو عمر بضمها ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ، لما بين سبحانه أن دائرة السوء عليهم فى
الدنيا، بين ما يستحقونه مع ذلك من الغضب واللعة وعذاب جهنم. اهـ.

قال صاحب الظلال (٣): وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين
والمشركات هى (ظن السوء بالله) فالقلب المؤمن حسن الظن بربه، يتوقع منه الخير دائماً،
يتوقع منه الخير فى السراء والضراء، ويؤمن بأن الله يريد به الخير فى الحالين وصر ذلك
أن قلبه موصول بالله. وفيض الخير من الله لا ينقطع أبداً، فمتى اتصل القلب به لمس
هذه الحقيقة الأصلية، وأحسها إحساس مباشرة وتذوق، فأما المنافقون والمشركون فهم
مقطوعوا الصلة بالله، ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها، فيسوء ظنهم بالله،
وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور، ويبنون عليها أحكامهم، ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم
وللمؤمنين، كلما كانت ظواهر الأمور توحى بهذا، على غير ثقة بقدر الله وقدرته وتديره
الحفى اللطيف.

(١) تفسير القرآن العظيم ١٧٩/٤.

(٢) فتح القدير ٤٧/٥.

(٣) ٣٣١٩.

وقد جمع الله في الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع، وبين حالهم عنده، وما أعد لهم في النهاية ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيْرًا حَكِيْمًا﴾

قال ابن عثيمين: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أى: أن السوء محيط بهم جميعاً من كل جانب كما تحيط الدائرة بما فى جوفها، وكذلك تدور عليهم دوائر السوء، فهم وإن ظنوا أنه تعالى تخلص عن رسوله وأن أمره سيضمحل، فإن الواقع خلاف ظنهم، ودائرة السوء راجعة عليهم.

قوله: ﴿وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾

الغضب من صفات الله الفعلية التى تتعلق بمشيئته ويترتب عليه الانتقام، وأهل التعطيل قالوا: إن الله لا يغضب حقيقة فمنهم من قال: المراد بغضبه الانتقام.

قلت: ولقد تقدم معناه.

ومنهم من قال: المراد إرادة الانتقام. قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، ولهذا قال النبى ﷺ: «إنه جمرة يلقيها الشيطان فى قلب ابن آدم». فيجاب عن ذلك: بأن هذا هو غضب الإنسان، ولا يلزم من التوافق فى اللفظ التوافق فى المثلية والكيفية، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١)، ويدل على أن الغضب ليس هو الانتقام قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْفَرْنَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾^(٢). فـ﴿أَسْفَرْنَا﴾: بمعنى أغضبونا «انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ»: فجعل الانتقام مرتباً على الغضب، فدل على أنه غيره.

وقوله: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾.

اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله. ولقد تقدم.

(١) الشورى: ١١

(٢) الزخرف: ٥٥

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى: فُسرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَتَصَرُّ رَسُولُهُ،
وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيُضْمَحِلُّ، وَفُسرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ.
فَفُسرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ وَإِنْكَارِ أَنْ يَتِمَّ أَمْرُ رَسُولِهِ ﷺ. وَأَنَّ يُظْهَرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.
وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوَاءِ. الَّذِي ظَنَّهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ.

قوله: «وأعد لهم جهنم».

أى : هياها لهم وجعلها سكناً لهم ومستقراً.

قوله: «وساءت مصيراً».

أى : مرجعاً يصار إليه .

و«مصيراً» تمييزاً، والفاعل مستتر؛ أى . ساءت النار مصيراً يصيرون إليه
فوائد (١):

١- المنافقون أشد خطراً على المسلمين من الكفار .

٢- تحريم سوء الظن بالله .

٣- من أسلوب القرآن الكريم تقديم الرجل على المرأة فى الخطاب .

٤- سوء الظن بالله من علامات النفاق الإعتقادي .

٥- إثبات صفة الغضب لله عزوجل على وجه يليق بجلاله .

٦- جواز لعن الكفار على سبيل العموم .

٧- إثبات أن النار موجودة الآن . اهـ .

قوله : قال ابن القيم (١):

هو محمد ابن قيم الجوزية، أحد تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الكبار الملازمين له
رحمهما الله، وقد ذكره فى «زاد المعاد» عقيب غزوة أحد تحت بحث الحكم والغايات
المحمودة التى كانت فيها .

(١) الجديد ٤٢٩ .

(٢) القول المفيد ٣/ ١٨٧ .

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنُّ السَّوِّءِ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرٍ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ
وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقَرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الْحَقُّ.
أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرَهُ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدْرُهُ لِحِكْمِهِ
بِالْغَةِ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ؛ فـ ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بغيرِهِمْ وَلَا
يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ. مُوجِبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ.
فَلْيَعْتَزَّ اللَّيِّبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتَّبِعْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ
بِرَبِّهِ ظَنُّ السَّوِّءِ.

وَلَوْ فَتَشْتَمَنْ مَنْ فَتَشْتَمَ؛ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَتُّاً عَلَى الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ. وَأَنَّهُ كَانَ
يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَاً وَكَذَاً؛ فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثَرٌ، وَفَتَشَمَ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟
فَإِنْ تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجَّ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالَكَ نَاجِياً

قوله: «فِي الْآيَةِ الْأُولَى»

قال ابن عثيمين (١): يعنى قوله: «يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنُّ الْجَاهِلِيَّةِ»

قوله: «فَسَّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَن سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ».

قال سليمان الشيخ (٢): هذا تفسير غير واحد من المفسرين وهو مأخوذ [وهو

تفسير] (*) قتادة والسدى، وذكر ذلك عنهما ابن جرير وغيره بالمعنى. اهـ.

قوله: «وإن أمره سيضمحل».

(١) المصدر السابق ٣/ ١٨٧٧.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥١٢، ٥١٣.

(*) هكذا في الأصل ولعلها (من تفسير).

قال سليمان آل الشيخ: أى سيذهب جملة حتى لا يبقى له أثر. والاضمحلال.
ذهاب الشيء جملة. اهـ.

قوله: «وفسر أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته»

قال سليمان آل الشيخ: قال القرطبي: وقال جوير عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله: تعالى «يُظَنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ»: يعنى التكذيب بالقدر وذلك أنهم تكلموا فيه، فقال: «قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ» يعنى: القدر خيرُه وشرُه من الله. اهـ.

قوله: «فسر بإنكار حكمته وإنكاراً لقدرته».

قال سليمان آل الشيخ: وأما تفسيره بإنكار الحكمة؛ فلم أقف عليه من السلف، فهو تفسير صحيح فمن أنكر أن ذلك لم يكن لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد والشكر؛ فقد ظن بالله ظن السوء، وقد أشار تعالى إلى بعض الحكم والغايات المحمودة فى ذلك، فى سورة «آل عمران» فذكر شيئاً كثيراً منها فى الآية المفسرة «وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» فهذا بعض الحكمة فى ذلك فمن أنكره فقد ظن ظن السوء بالله وحكمته وعلمه ورحمته لكمال علمه وقدرته ورحمته ولأن من أسمائه الحق وذلك هو موجب لهيبته وربوبيته. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): فسر بأن الله لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل؛ أى: يزول وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته، يؤخذ هذا التفسير من قولهم: «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا»؛ ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ وأن يظهره الله على الدين كله.

فسر بما يكون طعناً فى الربوبية وطعناً فى الأسماء والصفات؛ فالطعن فى القدر طعن فى ربوبية الله عزوجل؛ لأن من تمام ربوبيته - عزوجل - أن يؤمن بأن كل ماجرى فى الكون فإنه بقضاء الله وقدره، والطعن فى الأسماء والصفات تضمنته الطعن فى أفعاله وحكمته، حيث ظننا أن الله تعالى لا ينصر رسوله وسوف يضمحل أمره؛ لأنه إذا ظن الإنسان هذا الظن بالله؛ فمعنى ذلك أن إرسال الرسول عليه الصلاة والسلام عبث وسفه؛ فما الفائدة من أن يرسل رسولاً ويؤمر بالقتال وإتلاف الأموال والأنفس، ثم تكون النتيجة أن يضمحل أمره وينسى؟ فهذا بعيد.

(١) القول المفيد ٣/ ١٨٧، ١٨٨.

ولاسيما رسول الله ﷺ الذي هو خاتم النبيين؛ فإن الله تعالى قد أذن بأن شريعته سوف تبقى إلى يوم القيامة. اهـ.

قوله: «لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه وما يليق بحكمته وحمده».

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه أى: لأن الذى يليق به سبحانه أنه يظهر الحق على الباطل وينصره، فلا يجوز فى عقل ولا شرع أن يظهر الباطل على الحق قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾. اهـ.

قوله: ولا يليق بحكمته وحمده، أى: أن الذى يليق بحكمته وحمده أن لا يكون فى السموات ولا فى الأرض حركة ولا سكون إلا وله فى ذلك الحكمة البالغة والحمد الكامل التام عليها، فكيف بمثل هذا الأمر العظيم الذى وقع على سيد المرسلين ﷺ، وعلى سادات الأولياء، رضى الله عنهم، فله سبحانه وتعالى فى ذلك الحكمة، وله عليه الحمد، بل والشكر، ومن تأمل ما فى سورة «آل عمران» فى سياق القصة؛ رأى من ذلك العجب، فمن ظن بالله تعالى أنه لا يفعل ذلك بقدرة وحكمة يستحق عليها الحمد والشكر؛ فقد ظن به ظن سوء. اهـ.

قوله: «ووعده الصادق».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: ووعده الصادق، لأن الله تعالى وعد رسوله ﷺ، أن يظهر أمره ودينه على الدين كله ولو كره المشركون، فمن ظن به تعالى أن دين نبيه ﷺ سيضمحل ويبطل، ولا يظهر على الدين كله، فقد ظن به ظن سوء، لأنه ظن أنه يخلف الميعاد والله تعالى لا يخلف الميعاد. اهـ.

قوله «فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق».

قال سليمان آل الشيخ^(٣): فهذا ظن سوء، لأنه نسه - أى سبحانه - إلى ما لا يليق بجلاله وكماله ونعوته وصفاته، فإن حمده وحكمته وعزته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين المعاندين له، فمن ظن به ذلك، فما عرفه ولا عرف أسماء وصفاته وكماله.

(١) تيسير العزيز الحميد ٥١٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥١٤.

(٣) المصدر السابق ٥١٣.

قوله « وأنكر أن يكون ماجرى بقضائه وقدره »

قال سليمان آل الشيخ^(١): قوله: أى: فذلك ظن السوء، لأنه نسبة له إلى مالا يليق بربوبيته وملكه وعظمته. اهـ.

قوله: « وأنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشينة مجردة » **﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾**.

قال ابن القيم^(٢): وكذلك من أنكر أن يكون قدر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة وغاية محمودة يستحق عليها الحمد، وأن ذلك إنما صدر عن مشينة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هو أحب إلى من قوتها، وأن تلك الأسباب المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لانضمامها إلى ما يجب، وإن كانت مكروهة له فما قدرها سدى ولا شاءها عبثاً ولا خلقها باطلاً **﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾** (٣):

قوله: قال ابن القيم رحمه الله «وهذا هو ظن السوء الذى ظنه المنافقون والمشركون فى سورة الفتح»

قال ابن عثيمين^(٤): وخلاصة ما ذكر ابن القيم فى تفسير ظن السوء ثلاثة أمور:
الأول: أن يظن أن الله يدل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمنحل معها الحق؛ فهذا هو ظن المشركين والمنافقين فى سورة الفتح قال تعالى: **﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَتَقَلَّبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾**.

الثانى: أن ينكر أن يكون ماجرى بقضاء الله وقدره؛ لأنه يتضمن أن يكون فى ملكه سبحانه مالا يريد، مع أن كل ما يكون فى ملكه فهو بإرادته.

الثالث: أن ينكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليه الحمد؛ لأن هذا يتضمن أن تكون تقديراته لعباً وسفهاً، ونحن نعلم علم اليقين أن الله لا يقدر شيئاً أو يشرعه إلا لحكمة، قد تكون معلومة لنا وقد تقصر عقولنا عن إدراكها، ولهذا يختلف الناس فى علل الأحكام الشرعية اختلافاً كبيراً بحسب ما عندهم من معرفة حكمة الله - سبحانه وتعالى - .

(١) تيسير العزيز الحميد ٥١٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥١٣، ٥١٤.

(٣) ص: ٢٧.

(٤)

ورأى الجهمية والجبرية أن الله يقدر الأشياء لمجرد المشيئة لا لحكمة، قالوا: لأنه لا يسأل عما يفعل، وهذان أعظم سوء الظن بالله ؛ لأن المخلوق إذا تصرف لغير حكمة سمى سفيهاً؛ فما بالك بالخالق الحكيم؟! .

قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ؛ فالظن بأنها خلقت باطلاً للحكمة عظيمة ظن الذين كفروا، وقال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ الذي هو ضد الباطل، وهؤلاء قالوا: إن الله تعالى خلقهما باطلاً لغير حكمة، قال الله : ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ؛ أى : الذين يظنون أن الله خلقهما باطلاً وعبثاً سفهاً ولعباً.

والمعتزلة على العكس من ذلك، يقولون : لا يقدر إلا لحكمة، ويفرضون على الله ما يشاؤون، وقد ذكر صاحب «مختصر التحرير الفتوحى» رحمه الله: أن فى المسألة قولين فى المذهب.

ولكن الصواب بلا ريب أنه لا يفعل شيئاً ولا يُقدِّره على عبده ولا يشرع شيئاً إلا لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد والشكر. اهـ.

قوله : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ .

﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأ، وساغ الابتداء بالنكرة: للتعظيم، وخبر المبتدأ: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، والجار والمجرور ﴿مِنَ النَّارِ﴾ بيان لويل، وفى هذا دليل على أن كلمة ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة وعيد وليست كما قيل: وإد فى جهنم، ولهذا نقول: ويل لك من البرد، ويل لك من فلان، ويقول المتوجع: ويلاه، وإن كان قد يوجد واد فى جهنم اسمه ويل، لكن ويل فى مثل هذه الآية كلمة وعيد. اهـ.

قول: «وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء، فيما يختص بهم، وفيما يفعله غيرهم». [قلت]: تقدم من أقوال المفسرين ما جاء فى معنى سوء الظن بالله، وهذا الموضع زيادة بيان وتفسير لكلامهم، وفيه فوائد زائدة عن كلامهم، فنسأل الله العافية من سوء الظن به، وأن يرزقنا حسن الظن به إنه جواد كريم.

قال ابن عثيمين: قوله: «وأكثر الناس».

أى: من بنى آدم لا من المؤمنين يظنون بالله ظن السوء ؛ أى: العيب فيما يختص بهم، كما إذا دعا الله على الوجه المشروع يظنون أن الله لا يجيبهم، أو إذا عبدوا الله بمقتضى شريعته يظنون أن الله لا يقبل منهم، وهذا ظن السوء فيما يختص بهم.

قوله: «فيما يفعله بغيرهم».

كما إذا رأوا أن الكفار انتصروا على المسلمين بمعركة من المعارك ظنوا أن الله يدل هؤلاء الكفار على المسلمين دائماً؛ فالواجب على المسلم أن يحسن الظن بالله مع وجود الأسباب التي تقتضى ذلك.

قال سليمان آل الشيخ^(١): قال ابن القيم: فمن قنط من رحمته، وأيس من روحه؛ فقد ظن به ظن سوء.

ومن جوز عليه أن يعذب أوليائه مع إحسانهم وإخلاصهم ويسوى بينهم وبين أعدائه؛ فقد ظن به ظن سوء.

ومن ظن أنه يترك خلقه سدى معطلين عن الأمر والنهي، ولا يرسل إليهم رسله، ولا ينزل إليهم كتبه؛ فقد ظن به ظن سوء، ومن ظن أنه لن يجمعهم بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازى فيها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويبين لخلقهم حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه، وصدق رسله، وأن أوليائه كانوا هم الصادقين؛ فقد ظن به ظن سوء.

ومن ظن أنه يضع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه على امثال أمره، ويطله عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يعاقبه على فعله سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله، وأنه يحسن منه كل شيء حتى يعذب من أفنى عمره في طاعته، أي: كمحمد ﷺ، فيخلده في الجحيم، أو في أسفل سافلين، ومن استنفد عمره في عداوته، وعداوة رسله ودينه، كأبي جهل فیرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين في الحسن سواء عنده، ولا يعرف امتناع أحدهما، ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضى بقيح أحدهما، وحسن الآخر؛ فقد ظن به ظن سوء.

ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه وتمثيل، وترك الحق لم يخبر به، وإنما رمز إليهم رموزاً بعيدة، وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، وإعانتهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لأعلى كتابه مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويريههم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل؛ فقد ظن به ظن سوء.

(١) تيسير العزيز الحميد ٥١٤

ومن ظن به أن يكون له في ملكه مالايشاء ولايقدر على إيجاده وتكوينه؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه لاسمع له، ولابصر، ولاعلم، ولاإرادة، ولا كلام يقوم به، وأنه لم يكلم أحداً من الخلق، ولايتكلم أبداً؛ فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه ليس فوق سمواته على عرشه بائناً من خلقه، وأن نسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين، وأنه أسفل كما أنه أعلى، وأن من قال: سبحان ربي الأسفل كمن قال: سبحان ربي الأعلى؛ فقد ظن به أقبح الظن.

ومن ظن أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان والفساد، ولايجب الإيمان والبر والطاعة والصلاح؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه لايجب، ولايرضى، ولايغضب، ولايوالى، ولايعادى، ولايقرب من أحد من خلقه، ولايقرب عنده أحد، وأن ذوات الشياطين في القرب منه، كذوات الملائكة المقربين فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يسوى بين المتضادين، أو يفرق بين المتساويين في كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلده في الجحيم لتلك الكبيرة، كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين، واستنفد عمره في مساخطه، ومعاداة رسله ودينه؛ فقد ظن به ظن السوء.

وبالجملة: فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه، ووصفه به رسله؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أن له ولداً أو شريكاً، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه، أوأن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه، يتقربون بهم إليه؛ ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم، فيدعونهم، ويخافونهم، ويرجونهم؛ فقد ظن به أقبح الظن وأسوءه.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما ينال بطاعته، والتقرب إليه، هو من ظن السوء.

ومن ظن أنه إذا ترك لأجله شيئاً لم يعرضه خيراً منه، أو من فعل شيئاً لأجله، لم يعطه أفضل منه؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يغضب على عبده، ويعاقبه بغير جرم، ولاسبب من العبد إلا بمجرد المشيئة؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه إذا صدق في الرغبة والرهبة، وتضرع إليه وسأل واستعان به، وتوكل عليه أنه يخيه فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه يشبه إذا عصاه، كما يشبه إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه؛ فقد ظن به خلاف ما هو أهله، ومالا يفعله.

ومن ظن أنه إذا أغضبه وأسخطه ووقع في معاصيه، ثم اتخذ من دونه أولياء، ودعا من دونه ملكاً، أو بشراً حياً أو ميتاً يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه، ويخلصه من عذابه، فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن به أنه يسلط على رسوله محمد ﷺ أعداءه تسليطاً مستقراً دائماً في حياته ومماته، وابتلاه بهم لا يفارقونه، فلما مات استبدوا بالأمر دون وصيه، وأهل بيته. وسلبوهم حقهم، وأذلّوهم من غير جرم، ولا ذنب لأوليائه، وأهل الحق، وهو يرى ذلك، ويقدر على نصرته أوليائه وحزبه، ولا ينصرهم، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه في حفرته تسلم أمته عليه وعليهم كل وقت، كما تظنه الرافضة فقد ظن به أقبح الظن. انتهى اختصاراً.

هو ينبهك على إحسان الظن بالله في كل شيء، فليعتز اللبيب.

اللب العقل. واللييب العاقل. اهـ.

قوله: ولا يسلم من ذلك

قال ابن عثيمين^(١): أى: من الظن السوء.

قوله: «إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكيمته وحمده».

صدق رحمه الله، لا يسلم من ظن السوء إلا من عرف الله - عز وجل - وماله من الحكم والأسرار فيما يقدره ويشعره، وكذلك عرف أسماء وصفاته معرفة حقة لا معرفة تحريف وتأويل.

ولهذا حُجِبَ المحرفون والمؤوكون عن معرفة أسماء الله وصفاته؛ فتجد قلوبهم مظلمة غالباً، تحاول أن تورد الإشكالات والتشكيك والجدل، أما من أبقى أسماء الله وصفاته على مادلت عليه وسلك في ذلك مذهب السلف؛ فإن قلبه لا يرد عليه مثل هذه الاعتراضات التي ترد على قلوب أولئك المحرفين؛ لأن المحرفين إنما أوتوا من جهة ظنهم بالله ظن السوء، حيث ظنوا أن الكتاب والسنة دل ظاهرهما على التمثيل والتشبيه،

(١) القول المفيد ٣/ ١٩١-١٩٤.

فأخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه وينكرون ما أثبت الله لنفسه، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن كل معطل ممثل، وكل ممثل معطل.

أما كون كل معطل ممثلاً؛ فلأنه إنما عطل لكونه ظن أن دلالة الكتاب والسنة تقتضى التمثيل، فلما ظن هذا الظن السيئ بنصوص الكتاب والسنة أخذ يحرفها ويصرفها عن ظاهرها؛ فمثل أولاً، وعطل ثانياً، ثم إنه إذا عطل صفات الله تعالى خوفاً من تشبيهه بالموجود؛ فقد شبهه بالمعدوم.

وأما كون كل ممثل معطلاً؛ فلأن الممثل عطل الله تعالى من كماله الواجب حيث مثله بالمخلوق الناقص؛ وعطل كل نص يدل على نفى مماثلة الخالق للمخلوق.

وعلى هذا؛ فالذى عرف أسماء الله وصفاته معرفة على ماجرى عليه سلف هذه الأمة وأئمتها، وعرف موجب حكمة الله؛ أى: مقتضى حكمة الله؛ لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء.

وقوله: «موجب».

موجب؛ بالفتح: هو المسبب الناتج عن السبب بمعنى المقتضى، وبالكسر: السبب الذى يقتضى الشيء بمعنى المقتضى، والمراد هنا الأول.

فالذى يعرف موجب حكمة الله وما تقتضيه الحكمة؛ فإنه لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء أبداً، ولاحظ الحكمة التى حصلت للمسلمين فى هزيمتهم فى حنين وفى هزيمتهم فى أحد؛ فإن فى ذلك حكماً عظيمة ذكرها الله فى سورة آل عمران والتوبة؛ فهذه الحكم إذا عرفها الإنسان لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء، وأنه أراد أن يخذل رسوله وحزبه، بل كل ما يجريه الله فى الكون؛ كمنع الإنبيات والفقراء؛ فهو لحكمة بالغة قد لانعلمها، ولا يمكن أن يظن أن الله بخل على عباده؛ لأنه - عز وجل - أكرم الأكرمين، وعلى هذا فقس.

قوله: (الليب الناصح لنفسه وليتب إلى الله وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء).

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «الليب».

على وزن فعيل، ومعناه: ذو اللب، وهو العقل.

قوله «بهذا».

(١) القول المفيد (٣/ ١٩٤).

المشار إليه هو الظن بالله - عز وجل - ؛ ليعتنى بهذا حتى يظن بالله ظن الحق، لا ظن
السوء وظن الجاهلية.

قوله «وليتب إلى الله».

أى : يرجع إليه ؛ لأن التوبة الرجوع من المعصية إلى الطاعة.

قوله : «وليستغفره».

أى : يطلب منه المغفرة، واللام فى قوله : «فليتب» وقوله : «وليستغفره» . للأمر.

قوله «ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر، وملامة له، وأنه كان ينبغي
أن يكون كذا وكذا».

قال سليمان آل الشيخ^(١): بل ييؤحون بذلك، ويصرحون به جهاراً فى أشعارهم
وكلامهم.

قال ابن عقيل فى «الفنون» : الواحد من العوام إذا رأى مراكب مقلدة بالذهب
والفضة، وداراً مشيدة مملوءة بالخدم والزينة؛ قال : انظر إلى إعطائهم مع سوء أفعالهم،
ولا يزال يلعنهم، و يذم معطيهم حتى يقول : فلان يصلى الجماعات والجمع، ولا يؤذى
الذر، ولا يأخذ مالىس له، ويؤدى الزكاة إذا كان له مال، ويحج ويجاهد، ولا ينال خلة
بقلبه، ويظهر الإعجاب كأنه ينطق إنه لسوكانت الشرائع حقاً لكان الأمر بخلاف ماترى،
وكان الصالح غنياً، والفاسق فقيراً.

قال أبو الفرج ابن الجوزى: وهذه حالة قد شملت خلقاً كثيراً من العلماء والجهال
أولهم إبليس فإنه نظر بعقله، فقال : كيف يفضل الطين على جوهر النار؟! وفى ضمن
اعتراضه : إن حكمتك قاصرة وأنا أجود.. وتابع إبليس فى تفضيله واعتراضه خلق
كثير ، مثل الراوندى والمعري، ومن قوله .

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنوناً وترزق أحماً
ولا ذنب يارب السماء على امرئ رأى منك ما لا ينتهى فتزندقا

وأمثال ذلك كثير فى أولئك الذين ابتعدوا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وانطلقوا
إلى أهوائهم، واعتمدوا على عقولهم القاصرة التى جعلتهم يعترضون على الله جل
وعلا.

وكان أبو طالب المكى يقول: ليس على المخلوق أضر من الخالق.

(١) تيسير العزيز الحميد ٥١٦، ٥١٧.

قال ابن الجوزي: ودخلت على صدقة بن الحسين الحداد، وكان فقيهاً غير أنه كان كثير الاعتراض، وكان عليه جرب، فقال: هذا ينبغي أن يكون على حمد لاعلى. وكان يتفقد بعض الاكابر أكول، فيقول: بعث لى هذا على الكبر وقت لا أقدر على اكله.

وكان رجل يصحبني قد قارب ثمانين سنة، كثير الصلاة والصوم، فمرض واشتد به المرض، فقال: إن كان يريد أن أموت فليميتنى، وأما هذا التعذيب، فما له معنى، والله لو أعطاني الفردوس كان مكفوراً.

ورأيت آخر تزياً بالعلم إذا ضاق عليه رزقه يقول: إيش هذا التدبير؟ وعلى هذا كثير من العوام إذا ضاقت أرزاقهم اعترضوا، وربما قالوا: ما يريد يصلى. إذا رأوا رجلاً صالحاً موزياً(*) قالوا: ما يستحق، قدحاً فى القدر، وكان قد جرى فى زماننا تسلط من الظلمة، وقال بعض من تزياً بالدين: هذ حكم بارد. ومافهم ذلك الأحق، فإن الله على الظالم أن يسلط عليه أظلم منه.

وفى الحمقى من يقول: أى فائدة فى خلق الحيات والعقارب، وما علم أن ذلك أنموذج لعقوبة المخالف، وهذا أمر قد شاع، ولهذا مددت لنفس فيه. واعلم أن المعارض قد ارتفع أن يكون شريكاً وعلا الخالق بالحكم عليه، وهؤلاء كلهم كفر، لأنهم رأوا حكمة الخالق قاصرة، وإذا كان قد توقف القلب عن الرضى بحكم الرسول ﷺ، يخرج عن الإيمان قال: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ فكيف يصح الإيمان مع الاعتراض على الله.

وكان فى زمن ابن عقيل رجل رأى بهيمة على غاية من السقم، فقال: وراحمتى لك، واقلة حيلتى فى إقامة التأويل لمعذبك. فقال له ابن عقيل: إن لم تقلد على حمل هذا الامر لأجل رقبتك الحيوانية ومناسبتك الجنسية، فعندك عقل تعرف به حكم الصانع وحكمته يوجب عليك التأويل، فإن لم تجد استطرحت الفاطر العقل، حيث خانك العقل عن معرفة الحكمة فى ذلك. انتهى.

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «تعتنا على القدر وملامة له».

أى: إذا قدر الله شيئاً لا يلائمه تجده يقول: ينبغي أن نتصر، ينبغي أن يأتى المطر، ينبغي أن لانصاب بالجوائح، وأن يوسع لنا فى هذا الرزق وهكذا. اهـ.

(*) هكذا فى الأصل ولعلها (مؤذاً). (١) القول المفيد ٣/ ١٩٤.

قوله: فمستقل ومستكر.

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «فمستقل ومستكر».

«مستقل»: مبتدأ، وخبره محذوف

و«مستكر»: مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: فمن الناس مستقل ومنه مستكر، ونظير ذلك قوله تعالى: «فمنهم شقى وسعيد»؛ فـ «سعيد» مبتدأ خبره محذوف تقديره: ومنهم سعيد، ولا يقال بأن «سعيد» معطوف على شقى؛ لكونه يلزم أن يكون الوصفان لموصوف واحد.

قوله: وفتش نفسك: هل أنت سالم

قال سليمان آل الشيخ: قوله: «وفتش نفسك هل أنت سالم».

قال ابن القيم: أكثر الخلق إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق، وظن السوء، فإن غالب بنى آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمنى ربى، ومنعنى ما أستحقه، ونفسي تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره، ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه وتغلغل فى معرفة دقائقها وطواياها، ورأى ذلك فيها كامناً كمن النار فى الزناد، فاقرع زناد من شئت ينبتك شرارها عما فى زناده، فليعقلن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وليتب إلى الله ويستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التى هى مأوى كل سوء وصنيع كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهو أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغنى الحميد الذى له الغنى التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء فى ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك وأفعاله كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل، وأسمائه كلها حسنى.

فإن الله أولى بالجميل
فكيف بظالم جان جهول
كذاك وخيرها كالمستحيل
فتلك مواهب الرب الجليل
من الرحمن فاشكر للدليل اهـ.

فلا تظن بربك ظن السوء
ولا تظن بنفسك قط خيراً
وظن بنفسك السوأى تجدها
وما بك من تقى فيها وخير
وليس لها ولا منها ولكن

ولقد ذكره صاحب فتح المجيد دون اختصاصة.

(١) القول المفيد ٣/ ١٩٤.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَفْسِيرُ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ

قال ابن عثيمين ^(١): قوله «وفتش نفسك، هل أنت سالم» وهذا ينبغي أن يكون في جميع المسائل مما أوجبه الله، فتش عن نفسك: هل أنت سالم من التقصير فيه؟ وما حرمه الله عليك: هل أنت سالم من الوقوع فيه؟ اهـ. قوله «فإن تنج منها».

قال سليمان آل الشيخ ^(٢): أى من هذه الخصلة العظيمة. اهـ. قال ابن عثيمين ^(٣): «تنج» الأول فعل الشرط مجزوم بحذف الواو، «تنج» الثانية جوابه مجزوم بحذف الواو. اهـ.

قوله «من ذى عظيم». قال سليمان آل الشيخ ^(٤): أى: تنج من شر عظيم. قال ابن عثيمين ^(٥): أى من أى بلية عظيمة. قوله: «وإلا فإن لأخالك ناجيا» قال سليمان آل الشيخ ^(٦): قوله: «وإني لا إخالك» هو بكسر الهمزة. أى: أظنك والله أعلم. اهـ.

قال ابن عثيمين ^(٧): قوله: «وإلا؛ فإنني لا إخالك ناجياً». التقدير؛ أى: «وإلا تنج من هذه البلية؛ فإنني لا إخالك ناجياً». ومعنى إخالك: أظنك، وهى تنصب مفعولين: الأول هنا الكاف والثاني ناجياً. اهـ.



قال ابن عثيمين ^(٨):

قوله: فيه مسائل:

● الأولى: تفسیر آية آل عمران.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥١٨.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٥١٨.

(٦) تيسير العزيز الحميد ٥١٨.

(٨) القول المفيد ١٩٦ و ١٩٧.

(١) القول المفيد ٣/ ١٩٤.

(٣) القول المفيد ٣/ ١٩٥.

(٥) القول المفيد ٣/ ١٩٥.

(٧) القول المفيد ٣/ ١٩٥.

الثانية: تَفْسِيرُ آيَةِ الْفَتْحِ.

الثالثة: الإِخْبَارُ بِأَنَّ ذَلِكَ أَنْوَاعٌ لَا تُخْصَرُ.

الرابعة: أَنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ وَعَرَفَ نَفْسَهُ.

وهي قوله تعالى: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...﴾ (١) وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين.

● الثانية: تفسير آية الفتح.

وهي قوله تعالى: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ...﴾ (٢)، وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين.

● الثالثة: الإِخْبَارُ بِأَنَّ ذَلِكَ أَنْوَاعٌ لَا تُخْصَرُ.

أى: ظن السوء، والذي أخبر بذلك ابن القيم رحمه الله، وضابط هذه الأنواع أن يظن بالله ما لا يليق به.

● الرابعة: أَنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ وَعَرَفَ نَفْسَهُ.

أى: لا يسلم من ظن السوء بالله إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده وعرف نفسه ففتش عنها، والحقيقة أن الإنسان هو محل النقص والسوء، وأما الرب؛ فهو محل الكمال المطلق الذى لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه.

وَلَا تَظُنَّ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ



(١) آل عمران: ١٥٤.

(٢) الفتح: ٦.

مَا جَاءَ فِي مَنَكِرِ الْقَدَرِ

● مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال الفقير: لما كان من الظن السيء بالله التكذيب بالقدر وإنكاره كما مر من كلام أهل العلم في الباب الماضي وشرحه ناسب أن يعقب المصنف ذلك بجزء هذا المنكر أو المعارض بالنظر لما قبل الباب الماضي من أبواب فأتى بباب ما جاء في منكرى القدر وحكمهم وجزاءهم والله أعلم.

● مناسبة هذا الباب للتوحيد:

قلت وهى واضحة جداً لما سيأتى من كلام أهل العلم.

قال سليمان آل الشيخ - (١) ذكر المصنف ما جاء في الوعيد فيمن أنكره تنبيهاً على وجوب الإيمان، ولهذا عده النبي - ﷺ من أركان الإيمان. كما ثبت في حديث جبريل عليه السلام لما سئل عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخرة وتؤمن بالقدر خيره وشره» قال: صدقة (٢).

- وعن عبدالله بن عمرو بن العاص. قال: سمعت رسول الله - ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال وعرضه على الماء» (٣).

- وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال (٤): قال رسول الله - ﷺ: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس» رواهما مسلم في صحيحه.

- وعن ابن عمر رضى الله عنه قال: (٥) قال رسول الله - ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن باريح: يشهد أن لا اله الا الله، وأنى رسول الله بعثنى بالحق، ويؤمن بالموت، والبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر» رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم في صحيحه. الأحاديث فى ذلك كثيرة جداً، قد أفردوا العلماء بالتصنيف.

قال البغوى فى (شرح السنة) الإيمان بالقدر فرض لازم. وهو أن يعتقد أن الله تعالى خالق أعمال العباد خيراً وشرها كتبها عليهم فى اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فالإيمان والكفر والطاعة وعدها عليها الثواب، ولا

(١) تيسير العزيز الحميد ٥١٨ و ٥١٩. (٢) [صحيح] تقدم تخريجه وهو نفس حديث الباب.

(٣) أخرجه مسلم فى القدر (١٦/٤٥٢/٨). (٤) [صحيح] أخرجه مسلم فى القدر (١٨/٤٥٥/٨).

(٥) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٩٧/١)، والترمذى (٢١٤٥)، وابن ماجه (٨١) عن على به.

يرضى الكفر والمعصية ووعد عليهما العقاب قال الله تعالى: ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾.

قال ابن باز: (١) لما كان الإيمان بالقدر من أصول الإيمان وضع المؤلف هذه الباب لأن هذا مما يحصل - به التوحيد ويتنفي به الكفر. اهـ.

شرح الترجمة وماذا أراد المصنف

- تعريف القضاء والقدر:

اختلفت عبارات العلماء في تعريف القضاء والقدر، فمنهم من جعلها شيئاً واحداً ومنهم من عرف القضاء تعريفاً مغايراً للقدر، فقال:

القدر: علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات في المستقبل.

والقضاء: إيجاد الله تعالى الأشياء حسب علمه وإرادته.

قلت/ وهذا هو الراجح لقوله تعالى: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ... ﴾ وقوله: ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وقوله: ﴿ كَانَ عَلَىٰ رِيكٍ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ وقد عكس بعضهم، فجعل تعريف القضاء السابق للقدر، وتعريف القدر للقضاء، والأمر محتمل.

ومن عرفها تعريفاً واحداً قال: هو النظام المحكم الذي وضعه الله لهذا الوجود والقوانين العامة، والسنن التي ربط بها الأسباب بمسبباتها.

وهذا المعنى هو ما وردت به آيات القرآن التي ذكرت القدر، مثل قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾.

وما أجمل جواب الإمام أحمد عندما سئل عن القدر فقال: القدر قدرة الرحمن يقول ابن القيم في قصيدته الكافية الشافية:

فحقيقة القدر الذي حار الورى فى شأنه هو قدره الرحمن

واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد لما حكاه عن الرضى الربانى

قلت/ فالقدر لغة: القضاء والحكمة ومبلغ الأمر وقال تعالى: ﴿ يفعل ما يشاء إنه على كل شيء قدير ﴾.

واصطلاحاً: ما سبق به العلم.

قال ابن حجر: المراد أن الله علم مقادير الأشياء قبل إيجادها.

القضاء لغة: الفصل والحكم والقطع.

اصطلاحاً: إيجاد الله تعالى الأشياء حسب علمه وإرادته وسيأتي.

● درجات الإيمان بالقدر:

قال ابن تيمية: الإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون، بعلمه القديم الذي هو موصوف به أولاً، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال. ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق، فأول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب قال ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطاه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام وطويت الصحف، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

وأما الدرجة الثانية: فهي الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله - سبحانه - لا يكون في ملكه إلا ما يريد، وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات، فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره، ولارب سواه ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا، وعملوا الصالحات ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعبادة الكفر، ولا يحب الفساد، والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر، والمصلى والصائم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالق قدرتهم وإرادتهم.

فيحصل من كلام ابن تيمية - رحمه الله - أن الإيمان بالقدر يشمل على أربع مراتب هي:

الأولى: الإيمان بعلم الله القديم وأنه علم أعمال العباد قبل أن يعملوها.

الثانية: كتابه ذلك في اللوح المحفوظ.

قلت:

ويدل لذلك ما تقدم مرفوعاً «أن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة».

قلت: يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

الثالثة: مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة.

قلت/ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

الرابعة: إيجاد الله لكل المخلوقات، وأنه الخالق وكل ما سواه مخلوق.

قلت/ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾(*) . وستأتى هذه المراتب الأربعة من كلام ابن عثيمين.

قال سليمان آل الشيخ^(١): (باب) ما جاء فى منكرى القدر أى من الوعيد. والقدر بالفتح السكون، ما يقدره الله من القضاء ولما كان توحيد الربوبية لا يتم إلا باثبات القدر قال القرطبي: القدر: مصدر قدرت الشيء بتخفيف الدال أقدره وأقدره قدرأ إذا حصلت بمقداره. ويقال فيه: قدرت أقدر تقدير مشدد الدال، فاذا قلنا: إن الله تعالى قدر الأشياء، فمعناه: إنه تعالى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ثم أوجد منها ما سبق فى علمه أنه يوجد على نحو ما سبق فى علمه فلا يحدث فى العالم العلوى والسفلى إلا هو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته هذا هو المعلوم من دين السلف الماضين الذى دلت عليه البراهين. اهـ.

قال حامد بن محمد^(٢): باب ما جاء فى بيان أن منكرى القدر خالفوا الكتاب والسنة واتبعوا أهوائهم وأنهم فى ضلال مبين ومالهم على الله إلا مجرد دعوة الشيطان كما قال تعالى عنه لعنه الله أنه يقول يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٣) فقد بين الله تعالى أنه يخاطبهم بأنهم تبعوه بلا سلطان بل أنه دعاهم الى الباطل فاستجابوا له إما بمخالفتهم الكتاب فقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾^(٤) أى نخلقها، وقوله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٥) قال البغوى: أى فى اللوح المحفوظ. وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾^(٦) وقوله

(١) تيسير العزيز الحميد ٥١٨. (٢) فتح الله الحميد المجيد ٤٥١.

(٣) إبراهيم: ٢٢. (٤) الحديد: ٢٢.

(٥) الأنعام: ٣٨. (٦) القمر: ٥٣.

(*) «الإيمان» لمحمد نعيم ياسين (ص ١١٠) .

تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (١) روى عن عمر أنه كان يطوف ويكي ويقول: اللهم إن كنت قد كتبتني من أهل السعادة فاثبتني فيها، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة فامحني واثبتني في أهل السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، ومعلوم بالضرورة أن المحو لم يكن إلا بعد الكتابة والقرينة عليه قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فإنه ورد في الحديث الثابت عنه - ﷺ - قال: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب، قال وماذا اكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم الدين» (٢). اهـ.

قال ابن عثيمين (٣): قوله: «منكرى» أصله منكرين - جمع مذكر سالم-؛ فحذفت النون للإضافة كما يحذف التنوين أيضاً، قال الشاعر:

كَأَنِّي تَنْوِينٌ وَأَنْتَ إِضَافَةٌ فَأَيْنَ تَرَانِي لَا تَحِلَّ جَوَارِي

وقيل: «مكاني» بدل «جوارى».

قوله: «القدر».

هو تقدير الله - عز وجل - للكائنات، وهو سر مكتوم لا يعلمه إلا الله أو من شاء من خلقه.

قال بعض أهل العلم: القدر سر الله - عز وجل - في خلقه، ولا نعلمه إلا بعد وقوعه، سواء كان خيراً أو شراً.

والقدر يطلق على معنيين:

الأول: التقدير؛ أي: إرادة الله الشيء - عز وجل -.

الثاني: المُقَدَّر؛ أي: ما قَدَّرَهُ الله - عز وجل -.

والتقدير يكون مصاحباً للفعل وسابقاً له؛ فالمصاحب للفعل هو الذي يكون به الفعل، والسابق هو الذي قدره الله - عز وجل - في الأزل، مثال ذلك:

خلق الجنين في بطن الأم فيه تقدير سابق علمي قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وفيه تقدير مقارن للخلق والتكوين، وهذا الذي يكون به الفعل؛ أي: تقدير الله لهذا الشيء عند خلقه.

والإيمان بالقدر يتعلق بتوحيد الربوبية خصوصاً، وله تعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأنه من صفات الكمال لله - عز وجل -.

(٢) سيأتي تخريجه.

(١) الرعد: ٣٩.

(٣) القول المفيد ١٩٨/٣.

والناس فى القدر ثلاثة طوائف :

الأولى: الجبرية الجهمية، أثبتوا قدر الله تعالى وغلوا فى إثباته حتى سلبوا العبد اختياره وقدرته، وقالوا: ليس للعبد اختيار ولا قدرة فى ما يفعله أو يتركه؛ فأكله وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها بغير اختيار منه ولا قدرة، ولا فرق بين أن ينزل من السطح عبر الدرج مختاراً وبين أن يلقى من السطح مكرهاً.

الطائفة الثانية: القدرية المعتزلة، أثبتوا للعبد اختياراً وقدرة فى عمله وغلوا فى ذلك حتى نفوا أن يكون لله تعالى فى عمل العبد مشيئة أو خلق، ونفى غلاتهم علم الله به قبل وقوعه؛ فأكل العبد وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها واقعة باختياره التام وقدرته التامة وليس لله تعالى فى ذلك مشيئة ولا خلق، بل ولا علم قبل وقوعه عند غلاتهم.

استدل الأولون الجبرية:

بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(١)، والعبد وفعله من الأشياء.

وبقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

وبقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(٣)؛ فنفى الله الرمى عن نبيه حين رمى وأثبت لنفسه.

وبقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾^(٤).

ولهم شبه أخرى تركناها خوف الإطالة.

والرد على شبهاتهم بما يلى:

أما قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ فاستدلّهم بها معارض بالنصوص الكثيرة التى فيها إثبات إرادة العبد وإضافة عمله إليه وإثباته عليه كرامة أو إهانة، وكلها من عند الله، ولو كان مجبراً عليها ما كان لإضافة عمله إليه وإثباته عليه فائدة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ فهو حجة عليهم؛ لأنه أضافه العمل إليهم، وأما كون الله تعالى خالقه؛ فلأن عمل العبد حاصل بإرادته الجازمة وقدرته التامة، والإرادة والقدرة مخلوقان لله - عز وجل -؛ فكان الحاصل بهما مخلوقاً لله.

(٢) الصافات: ٩٦.

(٤) الأنعام: ١٤٨.

(١) الزمر: ٦٢.

(٣) الأنفال: ١٧.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾؛ فهو حجة عليهم؛ لأن الله تعالى أضاف الرمي إلى نبيه ﷺ، لكن الرمي في الآية له معنيان:

أحدهما: حذف المرمى، وهو فعل النبي ﷺ الذي أضافه الله إليه.

والثاني: إيصال المرمى إلى أعين الكفار الذين رماهم النبي ﷺ بالتراب يوم بدر فأصاب عين كل واحد منهم، وهذا من فعل الله؛ إذ ليس بمقدور النبي ﷺ أن يوصل التراب إلى عين كل واحد منهم.

وأما قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾؛ فَلَعَمْرُؤُا لله؛ إنه لحجة على هؤلاء الجبرية، فقد أبطل الله تعالى حجة هؤلاء المشركين الذين احتجوا بالقدر على شركهم حين قال في الآية نفسها: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾؛ وما كان الله ليذيقهم بأسه وهم على حق فيما احتجوا به.

ثم نقول: القول بالجبر باطل بالكتاب والسنة والعقل والحس وإجماع السلف، ولا يقول به من قَدَّرَ الله حق قَدْرَهُ وعرف مقتضى حكمته ورحمته. فمن أدلة الكتاب:

قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾^(١)؛ فأنبت للعبد إرادة.

وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(٢).

وقال: ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾^(٣).

وقال: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

فأنبت للعبد إرادة وقولاً وفعللاً وعملاً.

ومن أدلة السنة قول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»، وقوله: «ما نهيتكم عنه؛ فاجتنبوه، وما أمرتكم به؛ فأتوا منه ما استطعتم»^(٥).

ولهذا إذا أكره المرء على قول أو فعل وقلبه مطمئن بخلاف ما أكره عليه؛ لم يكن لقوله أو فعله الذي أكره عليه حكم فاعله اختياراً.

(٢) آل عمران: ١٦٧.

(٤) المنافقون: ١١.

(١) آل عمران: ١٥٢.

(٣) النمل: ٨٨.

(٥) تقدم تخريجه.

وأما إجماع السلف على بطلان القول بالجبر؛ فلم ينقل عن أحد منهم أنه قال به، بل رد من أدرك منهم بدعته موروث معلوم.

وأما دلالة العقل على بطلانه؛ فلائه لو كان العبد مُجْبَرًا على عمله؛ لكانت عقوبة العاصي ظلمًا ومثوبة الطائع عبثًا، والله تعالى مُتَزَّهٌ عن هذا وهذا، ولأنه لو كان العبد مجبراً على عمله لم تقم الحجة بإرسال الرسل؛ لأن القدر باق مع إرسال الرسل، وما كان الله ليقيم على العباد حجة مع انتفاء كونها حجة.

وأما دلالة الحس على بطلانه؛ فإن الإنسان يدرك الفرق بين ما فعله باختياره؛ كأكله وشربه وقيامه وقعوده، وبين ما فعله بغير اختياره؛ كارتعاشه من البرد والخوف ونحو ذلك.

واستدلت الطائفة الثانية (القدرية) بقوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾^(١)؛ فأثبت للعبد إرادة، ويقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾^(٢)، ونحوها من النصوص القرآنية والنبوية الدالة على أن للعبد إرادة، وأنه هو العامل الكاسب الراكب الساجد ونحو ذلك.

والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن الآيات والأحاديث التي استدلو بها نوعان:

نوع مقيد لإرادة العبد وعمله بأنه بمشيئة الله؛ كقوله تعالى ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٤)، وكقوله تعالى في العمل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾^(٥).

والنوع الثاني: مطلق؛ كقوله تعالى: ﴿فَاتُوا حَرِّكُمْ أَنِّي شَتِّمُ﴾^(٦)، وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(٧)، وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ

(٢) فصلت: ٤٦.

(٤) الإنسان: ٢٩ - ٣٠.

(٦) البقرة: ٢٢٣.

(١) آل عمران: ١٥٢.

(٣) التكوين: ٢٨ - ٢٩.

(٥) البقرة: ٢٥٣.

(٧) الكهف: ٢٩.

لِمَنْ تُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١﴾﴾.

وهذا النوع المطلق يحمل على الْمُقَيَّد كما هو معلوم عند أهل العلم.

الثاني: أن إثبات استقلال العبد بعمله مع كونه مملوكاً لله تعالى يقتضى إثبات شيء فى مُلْك الله لا يريده الله، وهذا نوع إشراك به، ولهذا سَمَّى النَّبِيُّ ﷺ القدرية مجوس هذه الأمة.

الثالث: أن نقول لهم: هل تُقَرُّون بأن الله تعالى عالم بما سيقع من أفعال العباد؟ فسيقول غير الغلاة منهم: نعم، نقر بذلك، فنقول: هل وقع فعله على وفق علم الله أو على خلافه؟ فإن قالوا: على وفقه؛ قلنا: إذن قد أَرَادَهُ، وإن قالوا: على خلافه؛ فقد أنكروا علمه، وقد قال الأئمة - رحمهم الله - فى القدرية: ناظروهم بالعلم، فإن أقراباه؛ خُصِّمُوا، وإن أنكروه؛ كفروا.

وهاتان الطائفتان - الجبرية والقدرية - ضالتان طريق الحق؛ لأنهما بين مفرط غال ومفرط مقصر؛ فالجبرية غلوا فى إثبات القدر وقَصَّروا فى إرادة العبد وقدرته، والقدرية غلوا فى إثبات إرادة العبد وقدرته وقصروا فى القدر.

ولهذا كان الأسعد بالدليل والأوفق للحكمة والتعليل هم:

الطائفة الثالثة: أهل السنة والجماعة، الطائفة الوسط، الذين جمعوا بين الأدلة وسلوكوا فى طريقهم خير ملة؛ فأَمَنُوا بِقَضَاءِ اللَّهِ وقدره، وبأن للعبد اختياراً وقدره؛ فكل ما كان فى الكون من حركة أو سكون أو وجود أو عدم؛ فإنه كائن بعلم الله تعالى ومشيتته، وكل ما كان فى الكون فمخلوق لله تعالى، لا خالق إلا الله ولا مدبر للخلق إلا الله - عز وجل -، وآمَنُوا بِأَنَّ للعبد مشيئة وقدره، لكن مشيئته مربوطة بمشيئة الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، فإذا شاء العبد شيئاً وفعله؛ علمنا أن مشيئة الله تعالى قد سبقت تلك المشيئة.

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين الدليل المنقول والمعقول؛ فأدلَّتهم على إثبات القدر هى أدلة المثبتين له من الجبرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التى استدل بها نفاة القدر.

وأدلتهم على إثبات مشيئة العبد وقدرته هي أدلة المثبتين لذلك من القدرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التي استدل بها نفاة مشيئة العبد وقدرته.

وبهذا نعرف أن كلاً من الجبرية والقدرية نظروا إلى النصوص بعين الأعور الذي لا يبصر إلا من جانب واحد؛ فهدى الله أهل السنة والجماعة لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

حكاية: مما يحكى أن القاضي عبد الجبار الهمداني المعتزلي دخل على صاحب ابن عباد وكان معتزلياً أيضاً، وكان عنده الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، فقال عبد الجبار على الفور سبحان من تنزه عن الفحشاء! فقال أبو إسحاق فوراً: سبحان من لم يقع في ملكه إلا ما يشاء! فقال عبد الجبار وفهم أنه قد عرف مراده: أريد ربنا أن يعصى؟ فقال أبو إسحاق: أيعصى ربنا قهراً؟ فقال له عبد الجبار: أرايت إن منعني الهدى وقضى على بالردى؛ أحسن إلى أم أساء؟ فقال له أبو إسحاق: إن كان منعك ما هو لك فقد أساء وإن كان منعك ما هو له؛ فيختص برحمته من يشاء فانصرف الحاضرون وهم يقولون: والله؛ ليس عن هذا جواب. اهـ.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن أهل السنة والجماعة وسط بين فرق المبتدعة في خمس أصول ذكرها في العقيدة الوسطية فلترجع هناك.

● مراتب القدر:

وهي أربع يجب الإيمان بها كلها.

المرتبة الأولى: العلم، وذلك بأن تؤمن بأن الله تعالى علم كل شيء جملة وتفصيلاً، فعلم ما كان وما يكون؛ فكل شيء معلوم لله، سواء كان دقيقاً أم جليلاً من أفعاله أو أفعال خلقه.

ودليل ذلك في الكتاب كثير منها قوله تعالى: ﴿عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فالأوراق التي تتساقط منه أى ورقة كانت صغيرة أو كبيرة فى بر أو بحر؛ فإن الله تعالى يعلمها، والورقة التي تخلق يعلمها من باب أولى.

ولا حظ سعة علم الله - عز وجل - وإحاطته، فلو فرض أنه فى ليلة مظلمة ليس فيها قمر وفيها سحب متراكم ممطر وحة فى قاع البحر المائج العميق، فهذه ظلمات متعددة وظلمة الطبقة الأرضية، وظلمة البحر وظلمة السحاب، وظلمة المطر، وظلمة الأمواج،

وظلمة الليل، فكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا حِجَّةَ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ ثم جاء العموم المطلق ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ولا كتابة إلا بعد علم. ففى هذه الآية إثبات العلم وإثبات الكتابة.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ففى الآية أيضاً إبات العلم وإثبات الكتابة. المرتبة الثانية: الكتابة، وقد دلت عليها الآيتان السابقتان.

المرتبة الثالثة: المشيئة، وهى عامة، ما من شىء فى السماوات والأرض إلا وهو كائن بإرادة الله ومشيئته؛ فلا يكون فى ملكه ما لا يريد أبداً، سواء كان ذلك فيما يفعله بنفسه أو يفعله المخلوق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١)، وقال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٣) الآية.

المرتبة الرابعة: الخلق؛ فما من شىء فى السماوات ولا فى الأرض إلا الله خالقُه ومالِكُه ومديرُه وذو سلطانه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (٤)، وهذا العموم لا مُخصَّصٌ له، حتى فعل المخلوق مخلوق لله؛ لأن فعل المخلوق من صفاته، وهو وصفاته مخلوقان، ولأن فعله ناتج عن أمرين:

١- إرادة جازمة.

٢- قدرة تامة.

والله هو الذى خلق فى الإنسان الإرادة الجازمة والقدرة التامة، ولهذا قيل لأعرابى: بم عرف ربك؟ قال: بنقض العزائم، وصرف الهمم.

والعبد يتعلق بفعله شيئان:

١- خلق، وهذا يتعلق بالله.

٢- مباشرة، وهذا يتعلق بالعبد وينسب إليه، قال تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا

(٢) الأنعام: ١١٢.

(٤) الزمر: ٦٢.

(١) يس: ٨٢.

(٣) البقرة: ٢٥٣.

يَعْمَلُونَ»^(١)، وقال تعالى: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»^(٢)، ولولا نسبة الفعل إلى العبد ما كان للثناء على المؤمن المطيع وإثابته فائدة، وكذلك عقوبة العاصي وتوبيخه.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بجميع هذه المراتب الأربع، وقد جمعت في بيت:

علمُ كتابة مولانا مشيئته وخَلْقُه وهو إيجاد وتكوينُ

وهناك تقديرات أخرى نسبية:

قال ابن القيم رحمه الله في «شفاء العليل»^(٣) في الباب الرابع في ذكر التقدير الثالث والجنين في بطن أمه وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله وسائر ما يلقاه، وذكر الجمع بين الأحاديث الواردة في ذلك: «فاجتمعت هذه الأحاديث والآثار على تقدير رزق العبد وأجله وشقاوته وسعادته وهو في بطن أمه، واختلفت في وقت هذا التقدير... ففي حديث ابن مسعود أن هذا التقدير يقع بعد مئة وعشرين يوماً من حصول النطفة في الرحم، وحديث أنس غير مؤقت، أما حديث حذيفة بن أسيد؛ فقد وقت فيه التقدير بأربعين يوماً، وفي لفظ: بأربعين ليلة، وفي لفظ: ثنتين وأربعين ليلة، وفي لفظ: بثلاث وأربعين ليلة، وهو حديث تفرد به مسلم ولم يروه البخاري».

وكثير من الناس يظن التعارض بين الحديثين، ولا تعارض بينهما بحمد الله ثم جمع رحمه الله بين هذه الآثار بأن هناك تقديرين:

الأول: قبل نفخ الروح، وذلك أن الملك الموكل بالنطفة يكتب ما قدره الله - سبحانه - على رأس الأربعين الأولى حين يأخذ في الطور الثاني، وهو العلقه.

الثاني: حين نفخ الروح؛ فيؤمر الملك الذي ينفخ فيه الروح، عند نفخ الروح فيه يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقاوته، وسعادته.

قال ابن القيم رحمه الله في «شفاء العليل»^(٤): «الباب الأول في تقدير المقادير قبل خلق السماوات والأرض: عن عبدالله بن عمرو بن العاص؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء». رواه مسلم، وفيه دليل على أن خلق العرش سابق على خلق القلم».

وقال^(٥): «الباب الثاني في تقدير الرب تبارك وتعالى: شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وأجالهم وأعمالهم قبل خلقهم، وهو تقدير ثانٍ بعد التقدير الأول، عن أبي طالب رضي الله عنه؛ قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فقعده وقعدنا

(٢) النحل: ٣٢.

(١) الواقعة: ٢٤.

(٣) (٤) (٥) انظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص ٤٣، ١٣، ١٧).

حوله... ثم قال: ما منكم من أحد ما من نفس منقوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتب شقية أو سعيدة. قال: فقال رجل: يا رسول الله! أفلا نكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة؛ فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة؛ فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة. ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى...﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعَصْرِ﴾. رواه: البخارى، ومسلم.

ثم ذكر ابن القيم أحاديث، منها: ما رواه هشام بن حكيم بن حزام: أن رجلاً قال: يا رسول الله! أتبتدأ الأعمال؟ أم قد مضى القضاء؟ فقال: «إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بكفيه، فقال: هؤلاء للجنة، وهؤلاء للنار». رواه أحمد، وحسنه فى «المجمع» (١).

وقال (٢): «الباب الرابع: فى ذكر التقدير الثالث والجنين فى بطن أمه، وهو تقدير شقاوته وسعادته ورزقه وأجله وعمله وسائر ما يلقاه... عن عبد الله بن مسعود؛ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون فى ذلك علقه مثل ذلك، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أو سعيد». متفق عليه.

وقال (٣): «الباب الخامس: فى ذكر التقدير الرابع ليلة القدر، قال تعالى: ﴿حَمْدٌ لِلَّهِ بِمَا وَصَّى بِهِ نَبِيَّكَ وَإِنَّهُ لَفِي وَصْيَانِكَ﴾ (١) «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» (٢) فيها يفرق كل أمر حكيم»، وهذه ليلة القدر قطعاً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ...﴾، عن ابن عباس؛ قال: «يكتب من أم الكتاب ليلة القدر ما يكون فى السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج، يقال: حج فلان ويحج فلان».

وقال (٤): «الباب السادس: فى التقدير الخامس اليومى، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ...﴾».

وقال مجاهد والكلبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وعطاء ومقاتل: من شأنه أن يحيى ويميت، ويرزق ويمنع، وينصر ويعز ويذل، ويفك عانياً، ويشف مريضاً، ويعطي سائلاً، ويتوب على قوم، ويكشف كرباً، ويغفر ذنباً، ويضع قوماً، ويضع آخرين، دخل كلام بعضهم فى بعض. اهـ. نقلاً عن حاشية القول المفيد.

قال ابن عثيمين: منها: تقدير عمرى: حين يبلغ الجنين فى بطن أمه أربعة أشهر يرسل إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد (٥).

(١) (٢) (٣) (٤) انظر المصدر السابق.

(٥) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٣٢٠٨)، ومسلم فى القدر (١٦/١٩٠ - النووى) عن ابن مسعود

ومنها: التقدير الحزلي، وهو الذى يكون فى ليلة القدر، يكتب فيها ما يكون فى

السنة، قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (١).

ومنها التقدير اليومى: كما ذكره بعض أهل العلم (٢) واستدل له بقوله تعالى:

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (٣)؛ فهو كل يوم يغنى فقيراً، ويفقر غنياً، ويوجد معدوماً، ويعدم موجوداً، ويسط الرزق ويقدره، وينشئ السحاب والمطر، وغير ذلك.

فإن قيل: هل الإيمان بالقدر ينافى ما علم بالضرورة من أن الإنسان يفعل الشيء باختياره؟

الجواب: لا ينافيه؛ لأن ما يفعله الإنسان باختياره من قدر الله؛ كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أقبل على الشام، وقالوا له: إن فى الشام طاعوناً يفتك بالناس، فجمع الصحابة وشاورهم، فقال بعضهم: نرجع. فعزم على الرجوع، فجاء أمين هذه الأمة أو عبيدة عامر بن الجراح، فقال: يا أمير المؤمنين! أفراراً من قدر الله؟ فأجاب عمر: نفر من قدر الله إلى قدر الله (٤).

يعنى: إن مضينا فى السفر بقدر الله ورجوعنا بقدر الله، ثم ضرب له مثلاً، قال: أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له شعبتان إحداهما خصبه والأخرى جديبة؛ أليس إن رعيت الخصبه فبقدر الله، وإن رعيت الجديبة فبقدر الله؟

وقال أيضاً: أرأيت لو رعى الجديبة وترك الخصبه؛ أكنت معجزه؟ قال: نعم. قال: فسرّ إذن. ومعنى معجزه: ناسباً إياه إلى العجز.

فالإنسان وإن كان يفعل؛ فإنما يفعل بقدر الله.

فإن قيل: إذا تقرر ذلك؛ لزم أن يكون العاصى معذوراً بمعصيته؛ لأنه عصى بقدر

الله؟

أجيب: إن احتجاج العاصى بالقدر باطل بالشرع والنظر.

أما بطلانه بالشرع: فقد قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ (٥)؛ فهم قالوا هذا على سبيل الاحتجاج بالقدر

على معصية الله، فرد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾، ولو

وانظر «جامع العلوم والحكم» (٤) - بتخريجنا).

(١) الدخان: ٤.

(٢)

(٥) الأنعام: ١٤٨.

(٤) تقدم تخريجه.

(٣) الرحمن: ٢٩.

كانت حجتهم صحيحة ما أذاقهم الله بأسه، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا﴾ ولو كان حجتهم صحيحة ما أذاقهم الله بأسه، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (١)، وهذا دليل واضح على بطلان احتجاجهم بالقدر على معصية الله، وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (٢)؛ فأبطل الله الحجة على الناس بإرسال الرسل، ولو كان القدر حجة ما انتفت بإرسال الرسل؛ لأن القدر باق حتى مع إرسال الرسل، وهذا يدل على بطلان احتجاج العاصي على معصيته بقدر الله.

وأما بطلانه بالنظر؛ فنقول: لو فرض أنه نشر في جريدة ما عن وظيفة مرتبها كذا وكذا، ووظيفة أخرى أقل منها؛ فإنك سوف تطلب الأعلى، فإن لم يكن؛ طلبت الأخرى، فإذا لم يحصل له شيء منها؛ فإنه يلوم نفسه على تفريطه بعدم المسارعة إليها مع أول الناس.

وعندنا وظائف دينية الصلوات الخمس كفارة لما بينها، وهي كتهر على باب أحدنا يغتسل منه في كل يوم خمس مرات، وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة؛ فلماذا تترك هذه الوظائف وتحتج بالقدر وتذهب إلى الوظائف الدنيوية الرفيعة؛ فكيف لا تحتج بالقدر فيما يتعلق بأمور الدنيا وتحتج به فيما يتعلق بأمور الآخرة؟!

مثال آخر: رجل قال: عسى ربي أن يرزقني بولد صالح عالم عابد، وهو لم يتزوج؛ فنقول: تزوج حتى يأتيك. فقال: لا؛ فلا يمكن أن يأتيه الولد، لكن إذا تزوج؛ فإن الله بمشيئته قد يرزقه الولد المطلوب.

وكذلك من يسأل الله الفوز بالجنة والنجاة من النار، ولا يعمل لذلك؛ فلا يمكن أن ينجو من النار ويفوز بالجنة لأنه لم يعمل لذلك.

فبطل الاحتجاج بالقدر على معاصي الله بالآثر والنظر، ولهذا قال النبي ﷺ كلمة جامعة مانعة نافعة: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من الجنة ومقعده من النار». قالوا: يا رسول الله! أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال: «اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له» (٣)؛ فالنبي ﷺ أعطانا كلمة واحدة، فقال: «اعملوا...»، وهذا فعل أمر، «فكل ميسر لما خلق له».

(٢) النساء: ١٦٥.

(١) الأنعام: ١٤٨.

(٣) [متفق عليه] أخرجه: البخاري (١٣٦٢)، ومسلم في القدر (١٦/١٩٥ - النوى).

وانظر «رياض الصالحين» (٩٤٧ - بتخريجنا).

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أَحَدِ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُ، حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ اسْتَدَلَ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ» (١).

وللإيمان بالقدر فوائد عظيمة، منها:

- ١- أنه من تمام توحيد الربوبية.
 - ٢- أنه يوجب صدق الاعتماد على الله - عز وجل -؛ لأنك إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله وقدره صدق اعتمادك على الله.
 - ٣- أنه يوجب للقلب الطمأنينة، إذا علمت أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ اطمأنتت بما يصيبك بعد فعل الأسباب النافعة.
 - ٤- منع إعجاب المرء بعمله إذا عمل عملاً يشكر عليه؛ لأن الله هو الذى منَّ عليه وقدره له، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ؛ أى: فرح بظر وإعجاب بالنفس.
 - ٥- عدم حزنه على ما أصابه؛ لأنه من ربه، فهو صادر عن رحمة وحكمة.
 - ٦- أن الإنسان يفعل الأسباب؛ لأنه يؤمن بحكمة الله - عز وجل -؛ وأنه لا يقدر الأشياء إلا مربوطة بأسبابها.
- قوله: [وقال ابن عمر: والذى نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه فى سبيل الله ما قبله الله منه،... إلخ].

قال الفقير: وهذا جزء من حديث طويل رواه مسلم فى كتاب الإيمان فى باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

(١) (صحيح) أخرجه مسلم فى «الإيمان/باب: تعريف الإسلام والإيمان (١/٥٧ - التورى) وأبو داود فى السنة/باب: فى القدر (٤/٢٢٢ - ٢٢٣ ح ٤٦٩٥)، والزمزى فى الإيمان/باب ماجاء فى وصف جبريل للنبي ﷺ (٥/٧ ح ٢٦١٠) والنسائى فى الإيمان/باب نعت الإسلام (٦/٥٢٨ ح ١١٧٢١ الكبرى) وابن ماجه فى المقدمة/باب الإيمان (١/٢٤ ح ٦٣) وأحمد فى «مسنده» (١/٢٧، ٢٨، ٥١، ٥٢، ٥٣) وابن حبان فى صحيحة (١/١٩٥ - ١٩٦ - الإحسان).

من حديث عمر بن الخطاب.

وانظر «جامع العلوم والحكم» (٢ - بتخريجنا).

قال سليمان آل الشيخ: وهذا قطعة من حديث جبريل عليه السلام، وقد أخرجه مسلم بطوله أول كتاب الإيمان في «صحيحه» من حديث يحيى بن معمر عن ابن عمر، ولفظه: عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحמיד بن عبدالرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فَوُفِّقَ لَنَا عبدالله بن عمر بن الخطاب داخل المسجد، فأكتفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام، إلى فقلت: يا أبا عبدالرحمن إنه قد ظهر قبلنا أناس يقرأون القرآن وَيَتَفَقَّرُونَ العلم، وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنْفٌ. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني برىء منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبدالله بن عمر «لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه، ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، فقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، وذكر الحديث.

- مناسبة الأثر للباب: -

قال القرعاوي: (١) حيث دل الأثر على كفر منكري القدر. اهـ.

- مناسبة الأثر للتوحيد: -

قال القرعاوي: (٢) حيث دل الأثر على كفر من أنكر القدر وذلك لأن إنكار القدر شرك مع الله في الربوبية. اهـ.

قوله: وقال ابن عمر هو عبدالله بن عمر بن الخطاب.

قوله: «والذي نفس ابن عمر بيده»

قال ابن عثيمين: (٣) - (الصيغة هنا قسم، جوابه: جملة «لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله؛ ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر»). اهـ.

قال النووي: (٤) **قوله:** - «لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر».

(٣) القول المفيد ٣/ ٢١٥.

(١ - ٢) الجديد ٤٣٣

(٤) مسلم شرح النووي ١/ ١٩٢.

هذا الذى قاله ابن عمر - رضى الله عنهما - ظاهر فى تكفيره القدرية، قال القاضى عياض - رحمه الله -: هذا فى القدرية الأول الذين نفوا تقدم علم الله تعالى بالكائنات، قال: والقائل بهذا كافر بلا خلاف، وهؤلاء الذين ينكرون القدر هم الفلاسفة فى الحقيقة، قال غيره: ويجوز أنه لم يرد بهذا الكلام التكفير المخرج من الملة فيكون من قبيل كفران النعم، إلا أن قوله: ما قبله الله منه، ظاهر فى التكفير؛ فإن إحباط الأعمال إنما يكون بالكفر إلا أنه يجوز أن يقال فى المسلم لا يقبل عمله لمعصيته وإن كان صحيحاً، كما أن الصلاة فى الدار المغصوبة صحيحة: غير محوجة إلى القضاء عند جماهير العلماء؛ بل بإجماع السلف، وهى غير مقبولة فلا ثواب فيها على المختار عند أصحابنا والله أعلم.

قوله: وتقدم هذا الكلام فى شرح حديث مسلم من أننى كاهناً أو عرافاً لم تقبل صلاة أربعين يوماً، فى باب ما جاء فى الكهان ونحوهم.

وقوله: فأنفقته، يعنى فى سبيل الله تعالى، أى: طاعته كما جاء فى رواية أخرى، قال نفطويه: سمى الذهب ذهباً لأنه يذهب ولا يبقى. اهـ.

قال سليمان آل الشيخ: (١) قوله: لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً، ثم أنفقته فى سبيل الله ما قبله الله منه الخ. هذا قول ابن عمر لغلاة القدرية الذين أنكروا أن يكون الله تعالى عالم بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها منهم، وإنما يعلمها بعد كونها منهم كما تقدم عنهم.

قال القرطبى: ولا شك فى تكفير من يذهب إلى ذلك، فإنه جحد معلوم من الشرع بالضرورة، لذلك تبرأ منهم ابن عمر، وأفتى بأنهم لا تقبل منهم أعمالهم ولا نفقاتهم، وأنهم كمن قال الله فيهم: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ وهذا المذهب قد ترك اليوم، فلا يعرف من ينسب إليه من المتأخرين من أهل البدع المشهورين. فقال شيخ الإسلام لما ذكر كلام ابن عمر هذا، وكذلك كلام ابن عباس، وجابر بن عبد الله، ووائل بن الأسقع وغيرهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسائر أئمة المسلمين: فيهم كثير، حتى قال فيهم الأئمة، كمالك، والشافعى، وأحمد بن حنبل وغيرهم: إن المنكرين لعلم الله المتقدم ينكرون القدر.

وقوله: ثم استدل بقول النبي ﷺ [عندما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان]. قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر تؤمن بالقدر خيره وشره».

فجعل النبي ﷺ في هذا الحديث كأنه لما سئل عن الإسلام، ذكر أركان الإسلام الخمسة لأنها أصل الإسلام، ولما سئل عن الإيمان أجاب بقوله: «أن تؤمن بالله» إلى آخره، فيكون المراد حينئذ بالإيمان جنس تصديق القلب، وبالإسلام جنس العمل، والقرآن والسنة مملوءان بإطلاق الإيمان على الأعمال، كما هما مملوءان بإطلاق الإسلام على الإيمان الباطن، مع ظهور دلالتهما أيضاً على الفرق بينهما، ولكن حيث أفرد أحد الاسمين دخل فيه الآخر، وإنما يفرق بينهما حيث فرق بين الاسمين، ومن أراد تحقيق ما أشرنا إليه فليراجع كتاب «الإيمان» الكبير لشيخ الإسلام. إذا تبين هذا، فوجه استدلال ابن عمر بالحديث من جهة أن النبي ﷺ عد الإيمان بالقدر من أركان الإيمان، فمن أنكره فلم يكن مؤمناً، إذ الكافر ببعض الكافر بالكل، فلا يكون مؤمناً متقياً، والله لا يقبل إلا من المتقين.

قال ابن عثيمين: (١) قول: «أن تؤمن بالله».

والإيمان بالله - عز وجل - يتضمن أربعة أمور:

١- الإيمان بوجوده.

٢- وبربوبيته.

٣- وبألوهيته.

٤- وبأسمائه وصفاته.

فمن أنكر وجود الله؛ فليس بمؤمن، ومن أقر بوجوده وأنه رب كل شيء، لكنه أنكر أسمائه وصفاته، أو أنكر أن يكون مختصاً بها؛ فهو غير مؤمن بالله.

قوله: «وملائكته».

والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

١- الإيمان بوجودهم.

٢- الإيمان باسم من علمنا اسمه منهم.

٣- الإيمان بأفعالهم.

٤- الإيمان بصفاتهم.

(١) القول المفيد ٣/ ٢١٧، ٢٢٧.

فَمِمَّنْ عَلَّمَنَا صِفَاتِهِ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَّمَنَا عَلَى خَلْقِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا لَهُ مِثْلُ مِثَّةِ جَنَاحٍ، قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ؛ كَمَا أَخْبَرَنَا بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَتِهِ، وَأَنَّهُ كَبِيرٌ جَدًّا؛ فَهُوَ فَوْقَ مَا نَتَصَوَّرُ، وَمَعَ ذَلِكَ يَأْتِي أحياناً بِصُورَةٍ بَشَرٍ؛ فَأَتَى مَرَّةً بِصُورَةٍ دَحِيَّةٍ الْكَلْبِيِّ، وَأَتَى مَرَّةً بِصُورَةٍ رَجُلٍ شَدِيدٍ سَوَادَ الشَّعْرِ شَدِيدٍ بَيَاضَ الثِّيَابِ لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثَرَ سَفَرٍ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ جُلُوسَةَ الْمُتَعَلِّمِ الْمُتَأَدِّبِ (١).

قوله: «وكتبه».

أى: الكتب التى أنزلها على رسله.

والإيمان بالكتب يتضمن ما يلى:

١- الإيمان بأنها حق من عند الله.

٢- تصديق أخبارها.

٣- التزام أحكامها ما لم تنسخ، وعلى هذا؛ فلا يلزمنا أن نلتزم بأحكام الكتب السابقة؛ لأنها كلها منسوخة بالقرآن، إلا ما أقره القرآن.

وكذلك لا يلزمنا العمل بما نسخ فى القرآن؛ لأن القرآن فيه أشياء منسوخة.

٤- الإيمان بما علمناه مُعَيَّنًا منها؛ مثل: التوراة، والإنجيل، والقرآن، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى.

٥- الإيمان بأن كل رسول أرسله الله معه كتاب؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ (٢)، وقال عيسى: ﴿إِنِّ عَبْدُ اللَّهِ آتَانِى الْكِتَابَ﴾، وقال عن يحيى كذلك (٣).

● تنبيه:

الكتب التى بأيدي اليهود والنصارى اليوم قد دخلها التحريف والكتمان؛ فلا يوثق بها، والمراد بما سبق الإيمان بأصل الكتب.

(١) تقدم فى حديث الباب.

(٢) مريم: ٣٠.

(٣) كما فى قوله تعالى ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

قوله: «ورسله».

هم الذين أوحى الله إليهم وأرسلهم إلى الخلق ليبلغوا شريعة الله.
والإيمان بالرسل يتضمن ما يلي:

١- أن نؤمن بأنهم حق صادقون مصدقون.

٢- أن نؤمن بما صح عنهم من الأخبار، وبما ثبت عنهم من الأحكام؛ ما لم تنسخ.

٣- أن نؤمن بأعيان من علمنا أعيانهم، وما لم نعلمه؛ فنؤمن بهم على سبيل الإجمال، ونعلم أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وأن الله - سبحانه وتعالى - أرسل لكل أمة رسولا تقوم به الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (١).

والبشر إذا لم يأتهم رسول يبين لهم معذورون؛ لأنهم يقولون: يا ربنا! ما أرسلت إلينا رسولا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِّن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (٢)؛ فلا بد من رسول يهدى به الله الخلق.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿على فترة من الرسل﴾ (٣) يدل على أنه فيه فترة ليس فيها رسول؛ فهل قامت عليهم الحجة؟

الجواب: أن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام طويلة، وقد قامت عليهم الحجة؛ لأن فيها بقايا؛ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في «صحيحه»: «إن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم؛ إلا بقايا من أهل الكتاب» (٤)، وكما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَجَجْنَا مِنْهُمُ﴾ (٥).

قوله: «واليوم الآخر»

أى: اليوم النهائى الأبدى الذى لا يوم بعده، وهو يوم القيامة الكبرى. قال شيخ

(١) آل عمران: ١٦٥. (٢) طه: ١٣٤.

(٣) المائدة: ١١٩.

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم في الجنة (٦٣/٢١٤/٩) عن عياض بن حمار به.

(٥) هود: ١١٦.

الإسلام ابن تيمية رحمه الله: يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، ذكر هذا في «العقيدة الواسطية»، وهو كتاب مختصر؛ لكنه مبارك من أفيد ما كتب في بابه.

وعلى هذا؛ فالإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه من الإيمان باليوم الآخر.

والإيمان بالنفخ في الصور وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلاً بهماً من الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالموازين والصحف والصراف والحوض والشفاعة والجنة وما فيها من النعيم والنار وما فيها من العذاب الآليم؛ كل هذا من الإيمان باليوم الآخر.

ومنه ما هو معلوم بالقرآن، ومنه ما هو معلوم بالسنة بالتواتر وبالأحاد فكل ما صحت به الأخبار عن رسوله الله ﷺ من أمر اليوم الآخر، فإنه يجب علينا أن نؤمن به.

قوله: «وتؤمن بالقدر خيره وشره».

هنا أبعاد الفعل ولم يكتف بواو العطف؛ لأن الإيمان بالقدر مهم، فكأنه مستقل برأسه.

والإيمان بالقدر: هو أن تؤمن بتقدير الله - عزوجل - للأشياء كلها، سواء ما يتعلق بفعله أو ما يتعلق بفعل غيره، وأن الله - عزوجل - قدرها وكتبها عنده قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعلوم أنه لا كتابة إلا بعد علم؛ فالعلم سابق على الكتابة، ثم إنه ليس كل معلوم الله - سبحانه وتعالى - مكتوباً؛ الذي كُتب إلى يوم القيامة، وهناك أشياء بعد يوم القيامة كثيرة أكثر مما في الدنيا هي معلومة عند الله - عزوجل -، ولكنه لم يرد في الكتاب والسنة أنها مكتوبة.

وهذا القدر، قال بعض العلماء: إنه سر من أسرار الله، وهو كذلك لم يُطلع الله عليه أحداً؛ لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا؛ إلا ما أوحاه الله - عزوجل - إلى رسله أو وقع فعلم به الناس، وإلا؛ فإنه سر مكتوم، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ

غداً﴾^(١)، وإذا قلنا: إنه سر مكتوم؛ فإن هذا القول يقطع احتجاج العاصي بالقدر على معصيته؛ لأننا نقول لهذا الذي عصى الله - عزوجل - وقال: هذا مُقدَّر عليّ: ما الذي أعلمك أنه مقدر عليك حتى أقدمت؛ أفلا كان الأجدر بك أن تُقدّر أن الله تعالى قد كتب لك السعادة وتعمل بعمل أهل السعادة لأنك لا تستطيع أن تعلم أن الله كتب عليك الشقاء إلا بعد وقوعه منك؟

(١) لقمان: ٣٤.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾^(١)؛ فالقول بأن القدر سر من أسرار الله مكتوم لا يطلع عليه إلا بعد وقوع المقدور تطمئن له النفس، وينشرح له الصدر، وتنقطع به حجة البطالين.

وقوله: «خير وشر».

قال سليمان آل الشيخ: وقوله: خير وشره، أى: خير القدر وشره، أى: أنه تعالى قدر الخير والشر قبل خلق الخلق، وإن جميع الكائنات بقضائه وقدره وإرادته، لقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾^(٢) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣) ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٤) وغير ذلك.

فإن قلت: كيف قال: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»! وقد قال فى الحديث: «والشرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(٥).

قيل: إثبات الشر فى القضاء والقدر، إنما هو بالإضافة إلى العبد، والمفعول إن كان مقدراً عليه، فهو بسبب جهله وظلمه وذنبه، لا إلى الخالق، فله فى ذلك من الحكم ما تقتصر عنه أفهام البشر، لأن الشر إنما هو بالذنوب وعقوباتها فى الدنيا والآخرة، فهو شر بالإضافة إلى العبد، أما بالإضافة إلى الرب سبحانه وتعالى، فكله خير وحكمة، فإنه صادر عن حكمه وعلمه، وما كان كذلك فهو خير محض بالنسبة إلى الرب سبحانه وتعالى، إذ هو موجب أسمائه وصفاته، ولهذا قال: «والشر ليس إليك» أى: تمتنع إضافته إليك بوجه من الوجوه، فلا يضاف الشر إلى ذاته وصفاته، ولا أسمائه ولا أفعاله فإن ذاته منزهة عن كل شر وصفاته كذلك إذ كلها صفات كمال ونعوت جلال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وأسماءُ كلها حسن ليس فيها اسم ذم ولا عيب، وأفعاله حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل. لا تخرج عن ذلك البتة، وهو المحمود على ذلك كله، فتستحيل إضافة الشر إليه، فإنه ليس شر فى الوجود إلا الذنوب وعقوبتها، وكونها ذنباً تأتى من نفس العبد، فإن سبب الذنب الظلم والجهل، وهما فى نفس العبد. فانه ذات مستلزمة للجهل والظلم، وما فيه من العلم والعدل فإنما حصل له

(١) الصف: ٥.

(٢) الفرقان ٢.

(٣) الصافات ٩٦.

(٤) القمر ٤٩.

(٥) تقدم تخريجه.

بفضل الله عليه، وهو أمر خارج عن نفسه، فمن أراد الله به خيراً أعطاه الفضل فصدر منه الإحسان والبر والطاعة، ومن أراد به شراً أمسكه عنه وَخَلَّاهُ ودَوَّاعَى نفسه وطبعه وموجبها، فصدر عنه موجب الجهل والظلم من كل شر وقبيح، وليس منعه من ذلك شراً، والله فى ذلك الحكمة التامة، والحجة البالغة، فهذا عدله، وذلك فضله يوتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وهو العلى الحكيم، هذا معنى كلام ابن القيم، وهو الحق.

وحاصله أن الشر راجع إلى مفعولاته، لا إلى ذاته وصفاته، ويتبين ذلك بمثال: والله المثل الأعلى، لو أن ملكاً من ملوك العدل كان معروفاً بقمع المخالفين وأهلالفساد، مقيماً للحدود والتعزيرات الشرعية على أبواب أصحابها، لعدوا ذلك خيراً يحمده عليه الملوك، ويمدحه الناس ويشكرونه على ذلك، فهو خير بالنسبة إلى الملوك، يمدح ويشنى به ويشكر عليه وإن كان شراً بالنسبة إلى من أقيم عليه، فرب العالمين أولى بذلك، لأن له الكمال المطلق من جمع الوجوه والاعتبارات. وأيضاً فلولا الشر هل كان يعرف الخير، فان الضد لا يعرف إلا بضده، فان لم تحط به خيراً فاذا ذكر كلام ابن عقيل فى الباب الذى قبل هذا، أسلم تسلم، والله أعلم.

قلت: ولقد لخص هذا صاحب فتح المجيد وأتيت بتمام الكلام من تيسير العزيز الحميد للإفادة.

ولقد شرح ابن عثيمين هذا فقال:

الخير: ما يلائم العبد، والشر: ما لا يلائمه.

ومعلوم أن المقدورات خير وشر؛ فالطاعات خير، والمعاصى شر، والغنى خير، والفقر شر، والصحة خير، والمرض شر، وهكذا.

وإذا كان القدر من الله؛ فكيف يقال: الإيمان بالقدر خير وشره والشر لا ينسب إلى الله.

فالجواب أن الشر لا ينسب إلى الله، قال النبى ﷺ: «والشر ليس إليك» (١)؛ فلا ينسب إليه الشر لا فعلاً ولا تقديرًا ولا حكماً، بل الشر فى مفعولات الله لا فى فعله، ففعله كله خير وحكمة، فتقدير الله لهذه الشرور له حكمة عظيمة، وتأمل قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢)؛ تجد أن هذا الفساد الذى ظهر فى البر والبحر كان لما يرمى به من العقابة

(١) [صحيح] أخرجه: مسلم برقم (٧٧١).

(٢) الروم: ٤١.

الحميدة، وهى الرجوع إلى الله - عزوجل -، ويظهر الفرق بين الفعل والمفعول فى المثال التالى:

ولذلك حينما يشتكى ويحتاج إلى كَى تكويه بالنار؛ فالكى شر، لكن الفعل خير؛ لأنك تريد مصلحته، ثم إن ما يقدره الله لا يكون شراً محضاً، بل فى محله وزمانه فقط، فإذا أخذ الله الظالم أخذ عزيز مقتدر؛ صار ذلك شراً بالنسبة له، وقد يكون خيراً له من وجه آخر، أما لغيره ممن يتعظ بما صنع الله به؛ فيكون خيراً، قال تعالى فى القرية التى اعتدت فى السبت: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١).

وكذا إذا استمرت النعم على الإنسان حملة ذلك على الأشر والبطر، بل إذا استمرت الحسنات ولم تحصل منه سيئة تكسر من حدة نفسه؛ فقد يغفل عن التوبة وينساها ويغتر بنفسه ويعجب بعمله.

وكم من إنسان أذنب ذنباً ثم تذكر واستغفر وصار بعد التوبة خيراً منه قبلها؛ لأنه كلما تذكر معصيته هانت عليه نفسه وحدّ من عليائها؛ فهذا آدم عليه الصلاة والسلام لم يحصل له الاجتباء والتوبة والهداية إلا بعد أن أكل من الشجرة وحصل منه الندم، وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢)؛ فقال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (٣).

والثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فخلّفوا ماذا كانت حالهم بعد المعصية وبعد المصيبة التى أصابتهم؛ حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضائق عليهم أنفسهم، وصار ينكرهم الناس حتى أقاربهم - صار قريبه يشاهده وكأنه أجنبى منه -، ومن شدة ما فى نفسه تنكرت نفسه عليه؛ فبعد هذا الضيق العظيم صار لهم بعد التوبة فرح ليس له نظير أبداً، وصارت حالهم أيضاً بعد أن تاب الله عليهم أكمل من قبل، وصار ذكرهم بعد التوبة أكبر من قبل، فقد ذكروا بأعيانهم، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٤)؛ فهذه آيات عظيمة تتلى فى

(٢) الأعراف: ٢٣.

(١) البقرة: ٦٥.

(٤) التوبة: ١١٨ والحديث تقدم تخريجه.

(٣) طه: ١٢٢.

محارِب المسلمين ومنابرهم إلى يوم القيامة ويتقرب العبد إلى ربه بقراءة خبرهم واستماعه. وهذا شيء عظيم.

وسواء كان ذلك فى الأمور الشرعية أو فى الأمور الكونية، ولكن ها هنا أمر يجب معرفته، وهو أن الخيرىة والشرىة ليست باعتبار قضاء الله - سبحانه وتعالى - ؛ فقضاء الله تعالى كله خير، حتى ما يقضيه الله من شر هو فى الواقع خير، وإنما الشر فى المقضى، أما قضاء الله نفسه؛ فهو خير، والدليل قول النبى ﷺ «الخير بيدك، والشر ليس إليك» (١)، ولم يقل: والشر بيدك؛ فلا ينسب الشر إلى الله أبداً، فضلاً عن أن يكون بيديه، فلا ينسب الشر إلى الله لا إرادة ولا قضاء؛ فالله لا يريد بقضاء الشر شراً، لكن الشر يكون فى المقضى، وقد يلائم الإنسان وقد لا يلائمه، وقد يكون طاعة وقد يكون معصية؛ فهذا فى المقضى، ومع ذلك؛ فهو وإن كان شراً فى محله فهو خير فى محل آخر، ولا يمكن أن يكون شراً محضاً، حتى المقضى وإن كان شراً ليس شراً محضاً، بل هو شر من وجه خير من وجه، أو شر فى محل خير فى محل آخر.

ولنضرب لذلك مثلاً: الجذب والفقر شر، لكنهما خير باعتبار ما ينتج عنهما، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢)، والرجوع إلى الله - عز وجل - من معصيته إلى طاعته لا شك أنه خير وينتج خيراً كثيراً؛ فآلم الفقر وآلم الجذب وآلم المرض وآلم فقد الأنفس كله ينقلب إلى لذة إذا كان يعقبه الصلاح، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وكم من أناس طغوا بكثرة المال وزادوا ونسوا الله - عز وجل - واشتغلوا بالمال، فإذا أصيبوا بفقر؛ رجعوا إلى الله، وعرفوا أنهم ضالون؛ فهذا الشر صار خيراً باعتبار آخر.

كذلك قطع يد السارق لا شك أنه شر عليه، لكنه خير بالنسبة له وبالنسبة لغيره، أما بالنسبة له؛ فلأن قطعها يسقط عنه العقوبة فى الآخرة وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وهو أيضاً خير فى غير السارق؛ فإن فيه ردعاً لمن أراد أن يسرق، وفيه أيضاً حفظ للأموال؛ لأن السارق إذا عرف أنه إذا سرق ستقطع يده؛ امتنع من السرقة، فصار فى ذلك حفظ لأموال الناس، ولهذا قال بعض الزنادقة:

يد بخمس مئين عسجداً ودبت ما بالها قطعت فى ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له ونستجير بمولانا من النار

(١) تقدم تخريجه من حديث على - رضى الله عنه - .

(٢) الروم: ٤١ .

وَعَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ؛ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ - تَعَالَى - الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، يَا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

لكنه أجيب في الرد عليه ردًا مفحمًا؛ فقل فيهِ:

قل للمعري عار أيما عارى جهل الفتى وهو من ثوب التقى عارى
يد بخمس مئين عسجداً وديت لكنها قطعت فى ربع دينار
حماية النفس أغلاها وأرخصها حماية المال فافهم حكمة البارى اهـ



قوله: وعن عبادة بن الصامت؛ أَنَّهُ قَالَ لِابْنَةِ: يَا بُنَيَّ

وقد بيض المصنف آخر هذا الحديث ليعزوه، وقد رواه أبو داود وهذا لفظه، ورواه أحمد والترمذى وغيرهما.

قال الفقير: هذا الحديث رواه أحمد فى مسنده وأبو داود فى السنة باب فى القدر والترمذى فى القدر وفى التفسير باب من سورة [ن] وابن أبى عاصم فى السنة.

جميعاً من حديث عبادة بن الصامت وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الترمذى فى صفة القيامة.

● مناسبة الحديث للباب

قال القرعاوى^(٢): حيث دل الحديث على كفر من أنكر القدر. اهـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد.

قال القرعاوى^(٣): حيث دل الحديث على كفر من أنكر القدر لأن ذلك شرك مع

الله فى ربوبيته. اهـ.

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣١٧/٥)، وأبو داود فى «السنة»/باب: فى القدر (٢٢٥/٤) ح (١٤٧٠)، والترمذى فى «القدر»/باب رقم ١٧ (٤٥٧/٤ ح ١٥٥)، وفى «التفسير»/باب: من سورة ن (٤٢٤/٥ ح ٣٣١٩) وابن أبى عاصم فى «لسنه» (ح ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥).

جميعاً من حديث عبادة بن الصامت. وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الترمذى فى «صفة القيامة»/باب: بدون ترجمة (٦٦٧/٤ ح ٢٥١٦) وأحمد فى «مسنده» (٢٩٣/١ ح ٣٠٣) وانظر تمام تخريجه فى «رياض الصالحين» (ح ٦٣ - بتخريجه).

(٢ - ٣) الجديد ٤٣٦.

قول في حديث عباده «أنه قال لابنه: يَا بُنَيَّ .. إلخ

قال سليمان آل الشيخ^(١): ابنه هذا هو الوليد بن عبادة كما صرح به الترمذى في

روايته. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): أفاد حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه أنه ينبغي للأب

أن يسدى النصائح لأبنائه ولأهله، وأن يختار العبارات الرقيقة التى تلين القلب، حيث قال: «يا بني!» وفي هذا التعبير من اللطافة وجذب القلب ما هو ظاهر. اهـ.

قوله: «إنك لن تجد طعم الإيمان»

قال سليمان آل الشيخ^(٣): وفيه أن للإيمان طعماً. وهو كذلك، فإن له حلاوة

وطعماً، من ذاته تسلى به عن الدنيا وما عليها. اهـ.

وقد قال النبى ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ...»^(٤) الحديث وإنما

يكون العبد كذلك إذا كان مؤمناً بالقدر، إذ يمتنع أن توجد الثلاث فيه وهو لا يؤمن بالقدر بل يكذب به ويرد على الله كلامه وعلى الرسول ﷺ مقالته، فإن المحبة التامة تقتضى المتابعة التامة، فمن لم يؤمن بالقدر، لم يكن الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فلا يجد حلاوة الإيمان ولا طعمه، بل إن كان منكراً للعلم القديم، فهو كافر كما تقدم، ولهذا روى عن بعض الأئمة القدريّة الكبار بإسناد صحيح أنه قال لما ذكر حديث ابن مسعود رضى الله عنه «حدثني الصادق المصدوق»^(٥) الحديث: ولو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبت، ولو سمعت زيد بن وهب يقول هذا لأجبت، ولو سمعت عبدالله بن مسعود يقول هذا ما قبلته، ولو سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا لرددته، وذكر كلمة بعدها، فهذا كفر صريح، نعوذ بالله من موجبات غضبه، وأليم عقابه. وقد بين فى الحديث كيفية الإيمان بالقدر: أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

- وهذا كما قال النبى ﷺ فى حديث جابر رضى الله عنه: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ

(١) تيسير العزيز الحميد ٥٢.

(٢) القول المفيد ٢٢٧/٣.

(٣) تيسير العزيز الميد ٥٢٤ و ٢٥٢.

(٤) [صحيح] البخارى وقد تقدم.

(٥) تقدم تخريجه.

بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ حَتَّى أَنْ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ» (١) رواه الترمذى، والمعنى: أن العبد لا يؤمن حتى يعلم أن ما يصيبه إنما أصابه فى القدر، أى: قدر عليه من الخير والشر، لم يكن ليخطئه، أى: يجاوزه فلا يصيبه، وإنما أخطأه من الخير والشر فى القدر، أى: لم يقدر عليه، ما لم يكن ليصيبه، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٣).

قال ابن عثيمين (٤): قوله: «لن تجد طعم الإيمان» هذا يفيد أن للإيمان طعماً كما جاءت به السنة، وطعم الإيمان ليس كطعم الأشياء المحسوسة؛ فطعم الأشياء المحسوسة إذا أتى بعدها طعام آخر أزالها، لكن طعم الإيمان يبقى مدة طويلة، حتى إن الإنسان أحياناً يفعل عبادة فى صفاء وحضور قلب وخشوع لله - عز وجل -، فتجده يتعظم بتلك العبادة مدة طويلة؛ فالإيمان له حلاوة وله طعم لا يدركه إلا من أسبغ الله عليه نعمته بهذه الحلاوة وهذا الطعم.

قوله: «حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك»

قال ابن عثيمين: (٥) قد تقول: ما أصابنى لم يكن ليخطئنى، هذا تحصيل حاصل؛ لأن الذى أصاب الإنسان أصابه، فلا بد أن نعرف معنى هذه العبارة؛ فتحمل هذه العبارة على أحد معنيين أو عليهما جميعاً:

الأول: أن المعنى «ما أصابك»؛ أى: ما قدر الله أن يصيبك، فَعَبَّرَ عن التقدير بالإصابة؛ لأن ما قدر الله سوف يقع، فما قدر الله أن يصيبك لم يكن ليخطئك مهما عملت من أسباب.

الثانى: ما أصابك؛ فلا تفكر أن يكون مخطئاً لك، فلا تقل: لو أننى فعلت كذا ما حصل كذا؛ لأن الذى أصابك الآن لا يمكن أن يخطئك؛ فكل التقديرات التى تقدرها

(١) أخرجه الترمذى (٢١٤٤) قال الترمذى: وعبد الله بن ميمون منكر الحديث.

(٢) الحديد: ٢٢.

(٣) التوبة: ٥١.

(٤) القول المفيد ٢٢٨/٣.

(٥) القول المفيد ٢٢٨/٣ و ٢٢٩ و ٢٠٣.

وتقول: لو أنى فعلت كذا ما حصل كذا هي تقديرات يائسة، لا تؤثر شيئاً، وأياً كان؛ فالمعنى صحيح على الوجهين، فما قدره الله أن يصيب العبد فلا بد أن يصيبه ولا يمكن أن يخطئه، وما وقع مصيباً للإنسان؛ فإنه لن يمنعه شيء، فإذا آمنت هذا الإيمان ذقت طعم الإيمان؛ لأنك تطمئن وتعلم أن الأمر لا بد أن يقع على ما وقع عليه، ولا يمكن أن يتغير أبداً.

مثال ذلك: رجل خرج بأولاده للنزهة، فدبَّ بعض الأولاد إلى بركة عميقة، فسقط، فغرق، فمات؛ فلا يقول: لو أننى ما خرجت لما مات الولد، بل لا بد أن تجرى الأمور على ما جرت عليه، ولا يمكن أن تتغير؛ فما أصابك لم يكن ليخطئك، فحينئذ يطمئن الإنسان ويرضى، ويعرف أنه لا مفر، وأن كل التقديرات والتخيلات التى تقع فى ذهنه كلها من الشيطان؛ فلا تقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان، وحينئذ يرضى ويسلم، وقد أشار الله إلى هذا المعنى فى قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١).

فأنت إذا علمت هذا العلم وتيقنته بقلبك؛ ذقت حلاوة الإيمان، وأطمأنت، واستقر قلبك، وعرفت أن الأمر جارٍ على ما هو عليه لا يمكن أن يتغير، ولهذا كثيراً ما يجد الإنسان أن الأمور سارت ليصل إلى هذه المصيبة؛ فتجده يعمل أعمالاً لم يكن من عادته أن يعملها حتى يصل إلى ما أراد الله - عزوجل - مما يدل على أن الأمور بقضاء الله وقدره.

قوله: «وما أخطأك لم يكن ليصيبك».

قال ابن عثيمين: (٢) نقول فيه مثل الأول؛ يعنى: ما قدر أن يخطئك فلن يصيبك، فلو أن أحداً سمع بموسم تجارة فى بلد ما وسافر بأمواله لهذا الموسم، فلما وصل وجد أن الموسم قد فات؛ نقول له: ما أخطأك من هذا الربح الذى كنت تعد له لم يكن ليصيبك مهما كان ومهما عملت، أو نقول: لم يكن ليصيبك؛ لأن الأمر لا بد أن يجرى على ما قضاه الله وقدره، وأنت جرب نفسك تجد أنك إذا حصلت على هذا اليقين ذقت حلاوة الإيمان. ثم استدل لما يقول.

بقوله سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أول ما خلق الله القلم»

قال سليمان آل الشيخ^(١): قال شيخ الإسلام: قد ذكرنا أن للسلف في العرش والقلم أيهما خلق قبل الآخر قولين، كما ذلك ذكر الحافظ أبو العلي الهمداني وغيره: أحدهما: أن القلم أولاً، كما أطلق ذلك غير واحد، وهذا هو الذي يفهم في ظاهر كتب المصنف في «الأوائل» للحافظ أبي عروبة الحراني ولد القاسم الطبراني، للحديث الذي رواه أبو داود في «سننه» عن عبادة بن الصامت، وذكر الحديث المشروح.

والثاني: أن العرش خلق أولاً. قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في تصنيفه في «الرد على الجهمية»: حدثنا محمد بن كثير العبدى، أنبأنا سفيان الثوري، ثنا أبو هاشم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى عَرْشِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا، فَكَانَ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ مَا هُوَ كَاتِنٌ، وَأَنْ مَا يَجْرِي عَلَى النَّاسِ عَلَى أَمْرِ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ»^(٢) وكذلك ذكر الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات» لما ذكر بدء الخلق، ثم ذكر حديث الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس، أَنَّهُ سِئِلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾^(٣) عَلَى أَى شَيْءٍ؟ قَالَ: عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ^(٤).

وروى حديث القاسم بن مرة، عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ الْقَلَمَ، وَأَمَرَهُ فَكَتَبَ كُلُّ شَيْءٍ يَكُونُ»^(٥) قال البيهقي: وإنما أراد - والله أعلم - أول شيء خلقه بعد خلق الماء والريح والعرش، وذلك في: حديث عمران بن حصين الذي أشار إليه، وهو ما رواه البخاري من غير وجه مرفوعاً عنه: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَرَاتِ وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ»^(٦) رواه البيهقي كما رواه محمد هارون الرويانى

(١) تيسير العزيز الحميد ٥٢٥ - ٥٢٧.

(٢) الأجرى في الشريعة (١٧٩).

(٣) هود : ٧.

(٤) أخرجه ابن جرير (٤/١٢) والحاكم في «المستدرک» (٣٤١/٢) وذكره السيوطى في «الدر» (٥٨٢/٣) وزاد نسبته لعبد الرزاق فى «المصنف»، والفریابی، وابن المنذر، وأبى الشيخ، والبيهقى فى «الأسماء والصفات»..

(٥) أخرجه أبو نعيم فى «الحلیة» (١٨١/٨).

(٦) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٤١٨) عن عمران بن حصين به.

فى «مسند» وعثمان بن سعيد الدارمى وغيرهما، من حديث الثقات المتفق على ثقتهم، عن أبى إسحاق، عن الأعمش، عن جامع بن شداد، عن صفوان بن محرز، عن عمران ابن حصين، عن النبى ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شىء غيره، وكان عرشه على الماء، ثم كتب فى الذكر كل شىء، ثم خلق السموات» وذكر أحاديث وآثاراً، ثم قال ما معناه: فثبت فى النصوص الصحيحة أن العرش خلق أولاً. وقال ابن كثير: قال قائلون: خلق القلم أولاً، وهذا اختيار ابن جرير وابن الجوزى وغيرهما. قال ابن جرير: وبعد القلم السحاب الرقيق، وبعده العرش، واحتجوا بحديث عبادة.

والذى عليه الجمهور أن العرش مخلوق قبل ذلك، كما دل على ذلك الحديث الذى رواه مسلم فى «صحيحه» يعنى حديث عبدالله بن عمرو بن العاص الذى تقدم. قالوا: وهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير، وقد دل الحديث أن ذلك بعد خلق العرش، فثبت تقديم العرش على القلم الذى كتب به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجماهير. ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم. انتهى بمعناه.

قال ابن عثيمين: (١) القلم بالرفع، وروى بالنصب.

فعلى رواية الرفع يكون المعنى: أن أول ما خلق الله هو القلم، لكن ليس من كل المخلوقات، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

وأما على رواية النصب؛ فيكون المعنى: أن الله أمر القلم أن يكتب عند أول خلقه له؛ يعنى: خلقه ثم أمره أن يكتب، وعلى هذا المعنى لا إشكال فيه، لكن على المعنى الأول الذى هو الرفع: هل المراد أن أول المخلوقات كلها هو القلم؟

الجواب: لا؛ لأننا لو قلنا: إن القلم أول المخلوقات، وإنه أمر بالكتابة عندما خلق، لكننا نعلم ابتداء خلق الله للأشياء، وأن أول بدء خلق الله كان قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ونحن نعلم أن الله - عز وجل - خلق أشياء قبل هذه المدة بأزمنة لا يعملها إلا الله - عز وجل -؛ لأن الله - عز وجل - لم يزل ولا يزال خالقاً، وعلى هذا؛ فيكون: إن أول ما خلق الله القلم يحتاج إلى تأويل ليطابق ما علم بالضرورة من أن الله تعالى له مخلوقات قبل هذا الزمن.

قال أهل العلم: وتأويله: إن المعنى: أن أول ما خلق الله القلم بالنسبة لما نشاهده

(١) القول الفيد ٣/ ٢٣٠ و٢٣١.

فقط من المخلوقات؛ كالسماوات والأرض... فهي أولية نسبياً، وقد قال ابن القيم في نونيته:

والناسُ مختلفون في القلم الذي
هل كان قبلَ العرش أو هو بعده
والحق أن العرش قبل لأنه
قوله: «فقال له: اكتب».

قال ابن عثيمين^(١): القائل هو الله - عز وجل - يخاطب القلم، والقلم جماد، لكن كل جماد أمام الله مُدْرِكٌ وعَاقِلٌ ومريد، والدليل على هذا قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلْسَائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا * أَي: لا بد أن تنقادا لأمر الله طوعاً أو كرهاً؛ فكان الجواب: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٢)؛ فقد خاطب الله السماوات والأرض وأجابتا ودل قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾ على أن لها إرادة وأنها ططيع؛ فكل شيء أمام الله؛ فهو مدرك مريد ويجب ويمثل.

قوله: «فقال: رَبِّي وماذا أكتب؟»

قال ابن عثيمين: (٣) قوله: «ماذا»: اسم استفهام مفعول مقدم، و«اكتب»: فعل مضارع مرفوع بالضمة الظاهرة، هذا إذا ألغيت «ذا»، أما إذا لم تلغ؛ فنقول: «ما» اسم استفهام مبتدأ، و«ذا»: خبره؛ أى: ما الذى أكتب؟ والعائد على الموصول محذوف تقديره: ما الذى أكتبه؟

وفى هذا دليل على أن الأمر المجمل لا حرج على المأمور فى طلب استنباطه، وعلى هذا؛ فإننا نقول: إذا كان الأمر مجملاً؛ فإن طلب استنباطه لا يكون معصية؛ فالقلم لا شك أنه ممثّل لأمر الله - سبحانه وتعالى -، ومع ذلك قال: «رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة» حتى يعظم اليهو

فإن قيل : هل القلم يعلم الغيب؟

(۲) فصلت: ۱۰، ۱۱.

(١) القول المفيد ٣/ ٢٣١ و ٢٣٢.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٢٣٢ و٢٣٣.

فالجواب: لا، لكن الله أمره، ولا بد أن يمثل لأمر الله، فكتب هذا القلم الذى يعتبر جماداً بالنسبة لفهومنا، كتب كل شىء أمره الله أن يكتبه؛ لأن الله إذا أراد شيئاً قال له: كن؛ فيكون على حسب مراد الله.

قوله: «قال: اكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة»

قال سليمان آل الشيخ^(١): قال شيخ الإسلام: وكذلك فى حديث ابن عباس وغيره، وهذا يبين أنه إنما أمره حينئذ أن يكتب مقدار هذا الخلق إلى قيام الساعة، لم يكن حينئذ ما يكون بعد ذلك.

قال ابن عثيمين^(٢) و«كل»: من صيغ العموم؛ فتعم كل شىء مما يتعلق بفعل الله أو بفعل المخلوقين.

وقوله: «حتى تقوم الساعة».

الساعة هى القيامة، وأطلق عليها لفظ الساعة؛ لأن كل شىء عظيم من الدواهي له ساعة؛ يعنى: الساعة المعهودة التى تذهل الناس وتحيق بهم وتغشاهم حين تقوم، وذلك عند النفخ فى الصور.

قوله: «يا بنى إني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «من مات على غير هذا فليس منى».

قال ابن عثيمين^(٣) أى: الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شىء، قوله: فليس منى». تبرأ منه الرسول - ﷺ - لأنه كافر. والرسول ﷺ برىء من كل كافر.

قال سليمان آل الشيخ^(٤): قوله: «من مات على غير هذا لم يكن منى» أى: لأنه إذا كان جاحداً للعلم القديم فهو كافر، كما قال كثير من أئمة السلف: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوا كفروا، يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد، وأن الله قسمهم قبل خلقهم إلى شقى وسعيد. وكتب ذلك عنده فى كتاب حفيظ، فقد كذب القرآن، فيكفر بذلك، كما نص عليه الشافعى وأحمد وغيرهما، وإن أقروا بذلك وأنكروا أن الله خلق أفعال العباد، وشاءها وأرادها بينهم إرادة كونية قدرية، فقد خصموا، لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه، وفى تكفير هؤلاء نزاع مشهور.

وبالجملة: فهم أهل بدعة شنيعة، والرسول ﷺ برىء منهم، كما هو برىء من الأولين أهد.

(١) تيسير العزيز الحميد ٥٢٧.

(٢) القول المفيد ٣/ ٢٣٣.

(٣) القول المفيد ٣/ ٢٣٣.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٥٢٧.

وفي رواية لأحمد: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَاتِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

● فوائد الحديث

قال ابن عثيمين^(٢): ويستفاد من هذا الحديث:

- ١- ملاطفة الأبناء بالموعظة، وتؤخذ من قوله: «يا بني!». وقد تقدم.
 - ٢- أنه ينبغي أن يُلقَّن الأبناء الأحكام بأدلتها، وذلك أنه لم يقل: إن الله كتب... وسكت، ولكنه أسند إلى الرسول ﷺ؛ فمثلاً: إذا أردت أن تقول لابنك: سَمِ اللَّهَ عَلَى الْأَكْلِ، واحمد الله إذا فرغت؛ فإنك إذا قلت ذلك يحصل به المقصود، لكن إذا قلت: سَمِ اللَّهَ عَلَى الْأَكْلِ، وأحمد الله إذا فرغت؛ لأن النبي ﷺ أمر بالتسمية عند الأكل^(٣)، وقال: «إِنَّ اللَّهَ ليرضى عن العبد يأكل الأكلة ويحمده عليها، ويشرب الشربة ويحمده عليها»^(٤)، وإذا فعلت ذلك استفدت فائدتين:
- الأولى: أن تعود ابنك على اتباع الأدلة.

الثانية: أن تربيته على محبة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن الرسول ﷺ هو الإمام المتبع الذي يجب الأخذ بتوجيهاته، وهذه في الحقيقة كثيراً ما يغفل عنها؛ فأكثر الناس يوجه ابنه إلى الأحكام فقط، لكنه لا يربط هذه التوجيهات بالمصدر الذي هو الكتاب والسنة.



قوله: وفي رواية لأحمد: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ،...» الحديث.

قال ابن عثيمين^(٥): ظاهره أن هذا في حديث عبادة، وابن وهب أحد حفاظ الحديث.

قال ابن عثيمين^(٦): هذه الرواية تفيد أمراً زائداً على ما سبق، وهو قوله: «فجرى في تلك الساعة»؛ فإنه صريح في أن القلم امتثل، والحديث الأول ليس فيه أنه كتب إلا

(١) تقدم قبله.

(٢) القول المفيد ٣/ ٢٣٣ و ٢٣٤.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم في الأشربة (١٣/ ١٩٢) - النووي عن عمر بن

سلمة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٣٠١) - بتخريجنا).

(٤) [صحيح] أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٩/ ٥٩) عن أنس به.

(٥) القول المفيد ٣/ ٢٣٦. (٦) القول المفيد ٣/ ٢٣٤ و ٢٣٥.

وفي رواية لابن وهب: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدْرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ».

عن طريق اللزوم بأنه سيكتب امتثالاً لأمر الله تعالى؛ فيستفاد منه ما سبق من كتابة الله — سبحانه وتعالى — كل شيء إلى قيام الساعة، وهذا مذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» (١)؛ وقال تعالى: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا» (٢) أى: من قبل أن نبرأ الخليقة، «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ». قوله: «إلى يوم القيامة».

هو يوم البعث، وسمى يوم القيامة؛ لقيام أمور ثلاثة فيه:

الأول: قيام الناس من قبورهم لرب العالمين؛ كما قال تعالى: «لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» (٣).

الثاني: قيام الأشهاد الذين يشهدون للرسول وعلى الأمم؛ لقوله تعالى: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» (٤).

الثالث: قيام العدل؛ لقوله تعالى: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٥).



قوله: «وفي رواية لابن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار».

قال سليمان آل الشيخ: (٦) وهو الإمام الحافظ عبدالله بن وهب بن مسلم القرشي مولاهم المصري الفقيه، ثقة إمام مشهور عابد، له مصنفات، منها «الجامع» وغيره، مات سنة سبع وتسعين ومائة وله اثنان وسبعون سنة.

قوله: «قال: قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار».

اهـ.

(٢) المطففين: ٥

(٤) الأنبياء: ٤٧.

(٦) تيسير العزيز الحميد ٥٢٧.

(١) الحج: ٧٠.

(٣) غافر: ٥١.

(٥) الحديد: ٢٢-٢٣.

قال ابن عثيمين (١): في هذا دليل على أن الإيمان بالقدر واجب ولا يتم الإيمان إلا به، وأما من لم يؤمن به؛ فإنه يحرق بالنار. اهـ.

قوله: «أحرقه الله بالنار».

قال سليمان آل الشيخ (٢): أى: لكفره أو بدعته إن كان ممن يقر بالعلم السابق وينكر خلق أفعال العباد، فإن صاحب البدعة متعرض للوعيد كأصحاب الكبائر، بل أعظم. اهـ.

قال ابن عثيمين (٣): وقوله: «أحرقه الله بالنار» بعد قوله: «فمن لم يؤمن» يدل على أن من أنكر أو شك فإنه يحرق بالنار؛ لأن لدينا ثلاث مقامات:

الأول: الإيمان والجزم بالقدر بمراتبه الأربع.

الثاني: إنكار ذلك.

وهذان واضحا؛ لأن الأول إيمان والثاني كفر.

الثالث: الشك والتردد.

فهذا يلحق بالكفر، ولهذا قال: «فمن لم يؤمن»، ودخل في هذا النفي: من أنكر ومن شك.

وفي قوله: «أحرقه الله بالنار» دليل على أن عذاب النار محرق، وأن أهلها ليس كما زعم بعض أهل البدع يتكيفون لها حتى لا يحسون لها بألم، بل هم يحسون بالألم وتحرق أجسامهم، وقد ثبت في حديث الشفاعة أن الله يخرج من النار من كان من المؤمنين حتى صاروا حمما (٤)؛ يعنى: فحماً أسود، وقد دل عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٥)، وفي قول تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (٦).

(١) القول المفيد ٣/ ٢٣٦.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٢٧.

(٣) القول المفيد ٣/ ٢٣٦ و ٢٣٧ و ٢٣٨.

(٤) تقدم تخريجه في باب الشفاعة.

(٥) الحج: ٢٢.

(٦) النساء: ٦٥.

وفي «المُسْنَدِ والسُّنَنِ» عَنْ أَبِي الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: «أَتَيْتُ أَبِيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ لَهُ وَمَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ؛ فَحَدَّثَنِي بِشَيْءٍ، لَعَلَّ اللَّهَ يَذْهَبُهُ مِنْ قَلْبِي. فَقَالَ: لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أَحَدِ ذَهَبًا، مَا قَبَلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ. وَحَدِثَ بَنَ الْيَمَانَ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ؛ فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي «صَحِيحِهِ» (١).

قوله: «وفي المسند والسُنَنِ» عن أبي الديلمي قال: «أتيت أبي بن كعب فقلت في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيءٍ لعلَّ الله يذهب من قلبي، فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهباً... الحديث.

قال سليمان آل الشيخ (٢): قوله: وفي «المُسْنَدِ» أي: «مسند الإمام أحمد» و«السُنَنِ» أي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» وابن ماجة فقط، بمعنى ما ذكر المصنف، وفيه زيادة اختصرها المصنف، ولفظ ابن ماجة: حدثنا علي بن محمد، حدثنا إسحاق بن سليمان، قال: سمعت أبا سنان عن وهب بن خالد الحمصي عن أبي الديلمي قال: وقع في نفسي شيء من هذا القدر خشيت أن يفسد على ديني وأمرى، فأتيت أبي بن كعب فقلت: يا أبا المنذر إنه قد وقع في قلبي شيء من هذا القدر: فخشيت على ديني وأمرى، فحدثني من ذلك بشيء لعلَّ الله أن ينفعني. فقال: لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل أحد ذهباً أو مثل جبل أحد تنفقة في سبيل الله ما قبل منك حتى تؤمن

(١) [صحيح] أخرجه أحمد في مسنده «١٨٢/٥، ١٨٥، ١٨٩»، وأبو داود في «السنة / باب في السنة / ٢٢٤/٤ ح ٤٦٩٩»، وابن ماجة في المقدمة / باب: القدر (١/٢٩ ح ٧٧)، وابن أبي عاصم في السنة (ح ٣٤٥)، وابن حبان في صحيحه «٥٥/٢ ح ٥٢٥ - الإحسان»، والطبراني في «الكبير» (١٦/٥ ح ٤٩٤٠).

جمعياً من طريق أبي سنان عن وهب بن خالد الحميري عن ابن الديلمي .. فذكره.

وقال الألباني إسناده صحيح.

وأخرجه الطبراني في الكبير (١/٢٨٥ ح ١٠٥٦٤).

من حديث عمران بن حصين وابن مسعود وأبي بن كعب.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/١٩٨ - ١٩٩) وقال: رواه الطبراني بإسنادين رجال هذه الطريق

ثقات.

(٢) تفسير العزيز الحميد ٥٢٨/٢٩.

بالقدر فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإنك إن مت على غير هذا دخلت النار، ولا عليك أن تأتي يا أخى عبد الله بن مسعود فتسأل، فأتيت عبد الله فسألته، فذكر مثل ما قال أبى، وقال لى: لا عليك أن تأتي حذيفة، فأتيت حذيفة فسألته، فقال مثل ما قال: انت زيد بن ثابت فأسأله، فأتيت زيد بن ثابت فسألته فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو كان مثل أحد أو مثل جبل أحد ذهباً تنفقه فى سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر كله فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإنك إن مت على غير هذا دخلت النار» هذا حديث ابن ماجة. ولفظ أبى داود كما ذكره المصنف إلا أنه قال: ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثنى عن النبى ﷺ بمثل ذلك. اهـ.

قوله: «عن أبى الديلمى».

قال سليمان آل لشيخ^(١): هو عبد الله بن فيروز الديلمى. وفيروز قاتل الأسود العنسى الكذاب. وعبد الله هذا ثقة من كبار التابعين، بل ذكره بعضهم فى الصحابة. والديلمى نسبة إلى جبل الديلم، وهو من أبناء الفرس الذين بعثهم كسرى إلى اليمن. اهـ.

قوله: «أتيت أبى بن كعب فقلت له وقع فى نفسى شيء من القدر».

قال سليمان آل لشيخ^(٢): قوله: وقع فى نفسى شيء من القدر أى: شك أو اضطراب يؤدى إلى شك فيه أو جحد له. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «فى نفسى شيء من القدر».

لم يفصح عن هذا الشيء، لكن لعله لما حدثت بدعة القدر، وهى أول البدع حدوثاً صار الناس يتشككون فيها ويتكلمون فيها، وإلا؛ فإن الناس قبل حدوث هذه البدعة كانوا على الحق، ولا سيما أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم وهم يتكلمون فى القدر، فغضب النبى عليه الصلاة والسلام من ذلك، وأمرهم بأن لا يتنازعوا وأن لا يختلفوا، فكف الناس عن هذا^(٤)؛ حتى قامت بدعة القدرية وحصل ما حصل من الشبه، فلهذا يقول ابن الديلمى: «فى نفسى شيء من القدر...». اهـ.

(١) تيسير العزيز الحميد ٥٢٩.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٢٩.

(٣) القول المفيد ٢٣٨/٣.

(٤) حسن أخرجه. ابن ماجة (٨٥/١) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده.

قوله: «فحدثني بشيء لعل الله تعالى أن يذهب من قلبي».

قال ابن عثيمين^(١): أى: يذهب هذه الشيء، وهكذا يجب على الإنسان إذا أصيب بمرض أن يذهب إلى أطباء ذلك المرض، وأطباء مرض القلوب هم العلماء، ولا سيما مثل الصحابة رضى الله عنهم؛ كأبي بن كعب؛ فلكل داء طبيب.

قوله: «ولو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر. وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك».

قال سليمان آل الشيخ^(٢): قوله: هذا تمثيل على سبيل الفرض لا تحديد، إذا لو فرض إنفاق ملء السموات والأرض كان ذلك.

قوله: «حتى تؤمن بالقدر». أى: بأن جميع الأمور الكائنة خيرها وشرها، وحلوها ومرها، ونفعها وضرها، وقليلها وكثيرها، وكبيرها وصغيرها بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته وأمره، كما ذكر عن على رضى الله عنه. اهـ.

قوله: «لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر».

هذا يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر؛ لأن الذى لا تقبل منه التفقات هم الكفار، وسبق نحوه عن ابن عمر رضى الله عنهما.

قوله: «ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار».

قال ابن عثيمين^(٣): جزم أبى بن كعب رضى الله عنه بأنه إذا مات على غير هذا كان من أهل النار، لأن من أنكر القدر فهو كافر، والكافر يكون من أهل النار الذين هم أهلها المخلدون فيها.

وهل هذا الدواء يفيد؟

الجواب: نعم يفيد، وكل مؤمن بالله إذا علم أن منتهى من لم يؤمن بالقدر هو هذا؛ فلا بد أن يرتدع، ولا بد أن يؤمن بالقدر على ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. اهـ.

قوله: قال: ثم أتيتُ عبدالله بن مسعود وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، كلهم حدثني بمثل ذلك عن النبى - ﷺ - .

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٢٩.

(١) القول المفيد ٣/ ٢٣٨.

(٣) القول المفيد ٣/ ٢٣٩ و ٢٤٠.

قال ابن عثيمين^(١): وقوله: «فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت؛ فكلهم حدثني بمثل ذلك».

المشار إليه الإيمان بالقدر، وأن يعلم الإنسان أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهؤلاء العلماء الأجلاء كلهم من أهل القرآن.

فأبى بن كعب من أهل القرآن ومن كتبه القرآن، حتى إن الرسول ﷺ دعاه ذات يوم وقرأ عليه سورة: ﴿لَمْ يَكُنْ...﴾ البينة، وقال: «إن الله أمرنى أن أقرأها عليك»، فقال: يارسول الله! سمانى الله لك. قال: «نعم»^(٢). فبكى رضى الله عنه بكاء فرح أن الله - عز وجل - سمّاه باسمه لِنَبِيِّهِ، وأمر نبيه أن يقرأ عليه هذه السورة.

وأما عبد الله بن مسعود؛ فقد قال النبی ﷺ: «من سره أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل؛ فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»^(٣).

وأما زيد بن ثابت، فهو أحد كتّاب القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه^(٤). وحذيفة بن اليمان صاحب السر الذى أسرَّ إليه النبی ﷺ بأسماء المنافقين^(٥). والحاصل أن هذا الباب يدل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر بمراتبه الأربع. مسألة: الإيمان بالقدر هل هو متعلق بتوحيد الربوبية، أو بالألوهية، أو بالأسماء والصفات؟

الجواب: تعلقه بالربوبية أكثر من تعلقه بالألوهية والأسماء والصفات، ثم تعلقه بالأسماء والصفات أكثر من تعلقه بالألوهية، وتعلقه بالألوهية أيضاً ظاهر؛ لأن الألوهية بالنسبة لله يسمى توحيد الألوهية، وبالنسبة للعبد يسمى توحيد العبادة، والعبادة فعل العبد؛ فلها تعلق بالقدر، فالإيمان بالقدر له مساس بأقسام التوحيد الثلاثة.

مسألة: هل اختلف الناس فى القدر.

(١) القول المفيد ٣/ ٢٤٠ - ٢٤٢.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٩٦٠)، ومسلم فى الفضائل (١٢٢/٢٥٧/٨) عن أنس به.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٤٥/١) عن ابن مسعود به.

وانظر «الإتقان» للسيوطى بترجيحنا.

(٤) أخرجه: البخارى (٤٩٨٩). (٥) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٧٤٢).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى : بَيَانُ فَرَضِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ.

الثانية : بَيَانُ كَيْفِيَةِ الْإِيمَانِ بِهِ.

الثالثة : إِحْبَاطُ عَمَلٍ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ

الجواب: نعم، اختلفوا فيه على ثلاث فرق، وقد سبق. اهـ.

قال ابن عثيمين (١):

قوله: فيه مسائل:

● الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر:

دليله قوله: «الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

● الثانية: بيان كيفية الإيمان.

أى: بالقدر، وهو أن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

ولم يتكلم المؤلف عن مراتب القدر؛ لأنه لم يذكرها، ونحن ذكرناها وأنها أربع مراتب جمعت اختصاراً في بيت واحد، وهو قوله:

عِلْمُ كِتَابَةِ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ وَخَلْقُهُ وَهُوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينٌ

والإيمان بهذه المراتب داخل في كيفية الإيمان بالقدر.

● الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

تؤخذ من قول ابن عمر: «لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر».

ويتفرع منه ما ذكرناه سابقاً بأنه يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر؛ لأن الكافر هو الذي لا يقبل منه العمل.

(١) القول المفيد ٣/ ٢٤٢ - ٢٤٧.

الرابعة : الإخبارُ أَنَّ أَحَدًا لَا يَجِدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِهِ.

الخامسة : ذَكَرُ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللَّهُ.

السادسة : أَنَّهُ جَرَى بِالْمَقَادِيرِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

السابعة : بَرَاءَتُهُ ﷺ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنَ بِهِ.

● الرابعة: الإخبار أن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

أى: بالقدر، وهو كذلك؛ لقول عبادة بن الصامت لابنه: يا بنى! إنك لن تجد طعم الإيمان... إلخ.

وقد سبق أن الإيمان بالقدر يوجب طمأنينة الإنسان بما قضاه الله - عز وجل - ويستريح؛ لأنه علم أن هذا أمر لا بد أن يقع على حسب المقدور، لا يتخلف أبداً، ولا تقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا؛ لأن لو تفتح عمل الشيطان»، ولا ترفع شيئاً وقع مهما قلت.

● الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

ظاهر كلام المؤلف: الميل إلى أن القلم أول مخلوقات الله، ولكن الصحيح خلافه، وأن القلم ليس أول مخلوقات الله؛ لأنه ثبت في «صحيح البخارى»: «كان الله ولم يكن شئ قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر مقادير كل شئ»^(١)، وهذا واضح فى الترتيب، ولهذا كان الصواب بلا شك أن خلق القلم بعد خلق العرش، وسبق لنا تخريج الروایتين، وأنه على الرواية التى ظاهرها أن القلم أول ما خلق تحمل على أنه أول ما خلق بالنسبة لما يتعلق بهذا العالم المشاهد؛ فهو قبل خلق السماوات والأرض، فتكون أوليته نسبية.

● السادسة: أنه جرى بالمقادير فى تلك الساعة إلى يوم قيام الساعة.

لقوله فى الحديث: «فجرى فى تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة».

وفيه أيضاً من الفوائد: توجيه خطاب الله إلى الجماد، وأنه يعقل أمر الله؛ لأن الله وَجَّهَ الخطاب إلى القلم ففهم واستجاب، لكنه سأل فى الأول وقال: «ماذا أكتب؟».

● السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.

الثامنة: عَادَةُ السَّلَفِ فِي إِزَالَةِ الشُّبْهَةِ بِسُؤَالِ الْعُلَمَاءِ.

التاسعة: أَنَّ الْعُلَمَاءَ أَجَابُوهُ بِمَا يُزِيلُ شُبْهَتَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَسَبُوا الْكَلَامَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَطَّ.

لقلوله: «من مات على غير هذا؛ فليس مني»، وهذه البراءة مطلقة؛ لأن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر كفراً مخرجاً من الملة.

● الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

لأن ابن الديلمي يقول: «فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت بعد أن أتى أبي بن كعب؛ فدل هذا على أن عادة السلف السؤال عما يشبهه عليهم. وفيه أيضاً مسألة ثانية، وهي جواز سؤال أكثر من عالم للتثبت؛ لأن ابن الديلمي سأل عدة علماء، أما سؤال أكثر من عالم لتتبع الرخص؛ فهذا لا يجوز كما نص على ذلك أهل العلم، وهذا من شأن اليهود؛ فاليهود لما كان في التوراة أن الزاني يرجم إذا كان محصناً وكثر الزنا في أشرافهم؛ غيَّروا هذا الحد، ولما قدم النبي ﷺ المدينة، وزنا منهم رجل بامرأة قالوا: اذهبوا إلى هذا الرجل لعلمكم تجدون عنده شيئاً آخر؛ لأجل أن يتبعوا الرخص.

● التاسعة: أَنَّ الْعُلَمَاءَ أَجَابُوهُ بِمَا يُزِيلُ شُبْهَتَهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَسَبُوا الْكَلَامَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَطَّ.

لقول ابن الديلمي: «كلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ»، وهذا مزيل للشبهة، فإذا نسب الأمر إلى الله ورسوله؛ زالت الشبهة تماماً، لكن تزول عن المؤمن؛ أما غير المؤمن فلا تنفعه؛ فالله - عز وجل - يقول: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١)، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٢)، لكن المؤمن هو الذي تزول شبهته هو الذي تزول شبهته بما جاء عن الله ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(٣)، ولهذا لما قالت عائشة للمرأة: «كان يصيبننا ذلك -

(٢) يونس: ٩٦، ٩٧.

(١) يونس: ١٠١.

(٣) الأحزاب: ٣٦.

تعنى الحيز-؛ فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة^(١) لم تذهب تعلق، ولكن لا حرج على الإنسان أن يذكر الحكم بعلمه لمن لم يؤمن لعلمه يؤمن، ولهذا يذكر الله - عز وجل - إحياء الموتى ويذكر الأدلة العقلية والحسية على ذلك؛ فقال فى أدلة العقل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾^(٢)؛ فهذه دلالة عقلية؛ فالعقل يؤمن إيماناً كاملاً بأن من قدر على الابتداء فهو قادر على الإعادة من باب أولى.

وذكر أدلة حسية، منها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾^(٣). فإذا لا مانع أن تأتى بالأدلة العقلية أو الحسية من أجل أن تقنع الخصم وتطمئن الموافق.

وفيه دليل رابع، وهو دليل الفطرة؛ فلا مانع أيضاً أن تأتى به للاستدلال على ما تقول من الحق لتلزم الخصم به وتطمئن الموافق، وما زال العلماء يسلكون هذا المسلك، وقد مر علينا قصة أبى المعالى الجوينى مع الهمدانى حيث إن أبى المعالى الجوينى - غفر الله لنا وله - كان يقرر نفى استواء الله على عرشه، فقال له الهمدانى: «دعنا من ذكر العرش؛ فما تقول فى هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا: ما قال عارف قط: يا الله! إلا وجد من قلبه ضرورة يطلب العلو». فصرخ أبو المعالى ولطم على رأسه، وقال: حيرنى الهمدانى، حيرنى الهمدانى.

فإذا الأدلة سمعية وعقلية وفطرية وحسية. وأشدّها إقناعاً للمؤمن هو الدليل السمعى؛ لأنه يقف عنده ويعلم أن كل ما خالف دلالة السمع فهو باطل، وإن ظنه صاحبه حقاً. اهـ.

قلت: وفى الباب من الفوائد غير ما تقدم:

- (١) تواضع علماء الصحابة وذلة بعضهم لبعض وهذا حال علماء الآخرة.
- (٢) فيه جواز سؤال أكثر من عالم فى المسألة الواحدة.
- (٣) وأن العالم لا يغضب من ذلك بل يرشد السائل إليه.
- (٤) إجماع السلف على مسألة الإيمان بالقدر ونبذ المخالف.



(١) [متفق عليه] أخرجه: البخارى (٣٢١)، ومسلم فى الحيز (٦٨/٢٦٢/٢) عن عائشة به.

(٣) فصلت: ٣٩.

(٢) الروم: ٢٧.

● تمهيد:

تقدم معنا في الباب التاسع عشر (مَاجَاءُ فِي التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبْدُ اللَّهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ فَكَيْفَ إِذَا عَبْدُهُ؟!) حديث عائشة عن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة بأرض الحيشة، وها فيها من الصور، فقال: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله قال المصنف: فهؤلاء جمعوا بين الفتنين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل. اهـ. قدمنا هناك كلام شيخ الإسلام وابن رجب وابن حجر، وشرح التوحيد. فيما يختص بهذه التصاویر، وهنا في هذا الباب مزيد تفصيل عن التصاویر مَاجَاءُ فِيهَا، فبالجمع بين الموضوع السابق وهذا الباب تظاهر الفوائد، والله المستعان.

● مناسبة هذا الباب لما قبله من أبواب:

قال ناصر السعدي^(١): وهذا من فروع الباب السابق أنه لا يحل أن يجعل لله ندا في النيات، والأقوال، والأفعال. والنسبة المشابهة ولو بسوجه بعيد فاتخاذ الصور الحيوانية تشبه بخلق الله، وكذب على الخلقة الإلهية، وتمويه وتزوير، فلذلك زجر الشارع عنه اهـ.

قلت: ولأن المصور فيه نوع معانده للقدر الذي هو قدرة الرحمن على الخلق فلهذا ناسب أن يأتي به المصنف بعد باب إنكار القدر.

● شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبته لكتاب التوحيد:

● تنبيه:

قلت: ولو قال المصنف باب مَاجَاءُ فِي الْمُصَوِّرِينَ وقول الله تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ لكان أظهر لعلاقة الباب بالتوحيد. أو وقول الله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ العلاقة الآية بالقدر، ولأن هذا تبويب البخاري كما سيأتي.

(١) القول السديد ١٣١: ١٣٢.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؛ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً». أَخْرَجَاهُ (١).

قال حامد بن محمد بن حسن (٢) باب ما جاء في بيان ما عند الله من الوعيد الشديد والتهديد الاكيد للمصورين الذين يضاهون بخلق الله تصور الصور جثثا مجازية لاحقيقة لها أ.هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ (٣): قوله: باب ما جاء في المصورين.

أي: من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه. وقد ذكر النبي ﷺ العلة: وهي المضاهاة بخلق الله؛ لأن الله تعالى له الخلق والأمر، فهو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق كل شيء، وهو الذي صور جميع المخلوقات، وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿ فالصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صار مضاهياً لخلق الله. فصار ما صور عذاباً له يوم القيامة، وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ. فكان أشد الناس عذاباً؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب.

فإذا كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان. فكيف بحال من سوي المخلوق برب العالمين، وشبهه بخلقه، وصرف له شيئاً من العبادة التي ما خلق الله الخلق إلا ليعبده وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه؟ فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه، وجعله شريكاً له فيما اختص به تعالى وتقدس؛ هو أعظم ذنب عصي الله تعالى به. ولهذا أرسل رسله، وأنزل كتبه، لبيان هذا الشرك والنهي عنه، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري في «اللباس» / باب نقض الصور (١٠/٣٩٨ ح ٥٩٥٣) ومسلم في «اللباس والزينة» / باب: تحريم تصور صورة الحيوان (٥/٩٣، ٩٤) وأحمد في «مسنده» (٢/٣٩١).

وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٦٨٦) «فتح المجيد» (ح ٨٦٦) بتخريننا.

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٤٥٨.

(٣) فتح المجيد ٥٣١ - ٥٣٢.

تعالى. فنجي الله تعالى رسله ومن أطاعهم، وأهلك من جحد التوحيد، واستمر علي الشرك والتنديد، فما أعظمه من ذنب ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

قال ابن باز^(١): يريد المؤلف من هذا الباب أن التصوير من جملة الكبائر التي تقدح في التوحيد وتعرض فاعله لغضب الله والنار وتنقص أيمانهم وتضعفه، والمصورون هم الذن يضاھئون بخلق الله في تصوير الحيوانات سواء باليد أو بأي آلة كان المصور من ذوي الأرواح.

قال ابن عثيمين^(٢): ومناسبة هذا الباب للتوحيد: أن في التصوير خلقاً وإبداعاً «يكون به المصور مشاركاً» لله في ذلك الخلق والإبداع.



قوله: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال رسول الله - ﷺ - قال الله تعالى: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي...» الحديث.

ولفظه في البخاري قال^(٣): حَدَّثَنَا مُوسَى حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ حَدَّثَنَا عُمَارَةُ حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ قَالَ «دَخَلْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ دَاراً بِالْمَدِينَةِ، فَرَأَى فِي أَعْلَاهَا مُصَوِّراً يُصَوِّرُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلِيَخْلُقُوا حَبَةً، وَلِيَخْلُقُوا ذَرَّةً. ثُمَّ دَعَا بَتُّورَ مِنْ مَاءٍ فَفَسَلَ يَدَيْهِ حَتَّى بَلَغَ إِبْطَهُ. فَقُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشَيْءٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: مُتَّهَى الْحَلِيةِ».

ويوب عليه باب نقض الصور، وذكره في كتاب التوحيد ولفظه^(٤) عن أبي زرعة سمع أبا هريرة - رضي الله عنه - قال «سمعت النبي ﷺ - يقول: قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذره أو ليخلقوا حبة أو شعيرة». ويوب عليه باب قوله الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

(١) التعليق ٢٦٣.

(٢) القول المفيد ٢٤٨/٣.

(٣) ح ٥٩٥٣.

(٤) ح ٧٥٥٩.

● مناسبة الحديث للباب (١):

قال القرعاوي: حيث دل علي تحريم التصوير. اهـ

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال محمد القرعاوي (٢): حيث حرم الحديث التصوير لأن فيه مشابهة لخلق الله وذلك شرك مع الله في ربوبيته. اهـ

قوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».

قال ابن حجر (٣): هكذا في البخاري، وقد وقع نحو ذلك في حديث آخر لأبي هريرة وفيه حذف بينه ما وقع في رواية جرير المذكورة «أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «ومن أظلم» إلخ، ونحوه في رواية ابن فضيل، وقوله «ذهب» أي قصد وقوله «كخلقي» التشبيه في فعل الصورة وحدها لا من كل الوجوه، قال ابن بطال: فهم أبو هريرة أن التصوير يتناول ما له ظل وما ليس له ظل، فلهذا أنكروا ما ينقش في الحيطان. قلت - يعني - ابن حجر -: هو ظاهر من عموم اللفظ، ويحتمل أن يقصر علي ماله ظل من جهة قوله «كخلقي» فإن خلقه الذي اخترعه ليس صورة في حائط بل هو خلق تام، لكن بقية الحديث تقتضي تعميم الزجر عن تصوير كل شيء وهي قوله «فليخلقوا حبة وليخلقوا ذرة» ويجب عن ذلك بأن المراد إيجاد حبة علي الحقيقة لا تصويرها.

قال ابن عثيمين (٤): قوله: «ومن أظلم».

«من»: اسم استفهام والمراد به النفي: أي: لا أحد أظلم، وإذا جاء النفي بصيغة الاستفهام كان أبلغ من النفي المحض؛ لأنه يكون مشرباً معنى التحدي والتعجيز.

فإن قيل: كيف يجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وغير ذلك من النصوص؟ فالجواب من وجهين؟

الأول: أن المعني أنها مشتركة في الأظلمية، أي أنها في مستوي واحد في كونها في قمة الظلم.

(٣) الفتح ١٠ / ٣٩٩.

(٢-١) الحديد ٤٤١.

(٤) القول المفيد ٣ / ٢٤٩ - ٢٥٠.

الثانية: أن الأظلمية نسبية، أي أنه لا أحد أظلم من هذا في نوع هذا العمل لا في كل شيء، فيقال مثلاً: من أظلم في مشابهة أحد في صنعه ممن ذهب يخلق كخلق الله، ومن أظلم في منع حق ممن منع مساجد الله، ومن أظلم في افتراء الكذب ممن افتري علي الله كذباً.

قوله: «يخلق».

حال من فاعل ذهب؛ أي: ممن ذهب خالقاً.

والخلق في اللغة: التقدير، قال الشاعر:

ولأنت تَقْرِي ما خَلَقْتَ وبعضُ الناسِ يَخْلُقُ ثم لا يَقْرِي

تقري؛ أي: تفعل، ما خلقت؛ أي: ما قدرت.

ويطلق الخلق علي الفعل بعد التقدير، وهذا هو الغالب، والخلق بالنسبة للإنسان يكون بعد تأمل ونظر وتقدير، وأما بالنسبة للخالق؛ فإنه لا يحتاج إلي تأمل ونظر لكمال علمه، فالخلق بالنسبة للمصور يكون بمعنى الصنع بعد النظر والتأمل.

قوله: «يخلق كخالقي».

فيه جواز إطلاق الخلق علي غير الله، وقد سبق الكلام علي هذا والجواب عنه في أول الكتاب اهـ.

قال ابن باز^(١): قوله: «يخلق كخالقي» أي: يصور كتصويري. فإن كانت عندهم قوة، فليخلقوا ذرة يكون لها صفات الذرة من العقل والمشي وغيرها وهي مع صغرها فهي حيوان عجيب. أو ليخلقوا حبة لها صفات من الأنبات والنفع للناس فإن كانوا يعجزون في الجماد والنبات فكيف في الحيوان أ.هـ.

قوله: «فليخلقوا ذرة».

قال ابن حجر^(٢): وهي بفتح المعجمة وتشديد الراء. . والمراد بالذرة النملة اهـ.

قلت: وبوب أبو داود في «سننه»^(**). باب في قتل الذر، وذكر فيه حديث أبي هريرة مرفوعاً «إن نملة قرصت نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحقت فأوحى الله إليه: في أن قرصتك نملة أهلكت أمه من الأمم تسبح»

(٢) الفتح / ٣٩٩.

(١) التعليق المفيد ٢٦٣.

(**) [صحيح] سنن أبي داود (٢٥٦٦) وهو في «صحيح البخاري»

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «فليخلقوا ذرة». اللام للأمر، والمراد به التحدي والتعجيز، وهذا من باب التحدي في الأمور الكونية، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ من باب التحدي في الأمور الشرعية.

والذرة: واحدة الذر، وهي النمل الصغار، وأما من قال: بأن الذرة هي ما تتكون منها القنبلة الذرية فقد أخطأ؛ لأن النبي ﷺ يخاطب الصحابة بلغة العرب وهم لا يعرفون القنبلة الذرية، وذكر الله الذرة لأن فيها روحاً، وهي من أصغر الحيوانات أهد. قوله: «أو ليخلقوا حبة» أهد.

قال ابن حجر^(٢): المراد إيجاد حبة علي الحقيقة لا تصويرها. ووقع لابن الفضيل من الزيادة «وليخلقوا شعره»^(*) والمراد بالحبة حبة القمح بقرينة ذكر الشعير، أو الحبة أعم.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «أو ليخلقوا حبة». «أو» للتنوع؛ أي: انتقل من التحدي بخلق الحيوان ذي الروح إلى خلق الحبة التي هي أصل الزرع من الشعير وغيره وليس لها روح أهد. قوله: «أو ليخلقوا شعيرة».

قال ابن عثيمين^(٤): قوله: «أو ليخلقوا شعيرة» يحتمل أن المراد شجرة الشعير، فيكون في الأول ذكر التحدي بأصل الزرع وهي الحبة، ويحتمل أن المراد الحبة من الشعير ويكون هذا من باب ذكر الخاص بعد العام؛ لأن حبة الشعير أخص من الحب. أو تكون «أو» شكاً من الراوي.

فإن الله تحدى الخلق إلى يوم القيامة أن يخلقوا ذرة أو يخلقوا حبة أو شعيرة.

فإن قيل: يوجد رز أمريكي مصنوع.

أجيب: إن هذا المصنوع لا ينبت كالطبيعي، ولعل هذا هو السر في قوله: «أو ليخلقوا حبة»، ثم قال: «أو ليخلقوا شعيرة»؛ لأن الحبة إذا غرست في الأرض فلحقها الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾؛ أي: اجتمعوا لخلقهم متعاونين عليه وقد هيؤوا

(٢) الفتح / ٣٩٩ و ٤٠٠.

(٣) القول المفيد ٢٥٠ و ٢٥١.

(١) القول المفيد ٣ / ٢٥٠.

(*) هكذا نقلته من الفتح ولعلها شعيرة.

(٤) القول المفيد ٣ / ٢٥١ و ٢٥٢.

كل ما عندهم، ﴿وَأِنْ سَأَلْتَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

قال العلماء: لو أن الذباب وقع علي هذه الأصنام فامتص شيئاً من طيبها ما استطاعوا أن يستنقذوه منه، فيكون الذباب غالباً لها، ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ﴾؛ أي: العابد والمعبود.

﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾؛ أي: الذباب أ.هـ.

قال ابن حجر^(١): والغرض تعجيزهم تارة بتكليفهم خلق حيوان وهو أشد وأخري بتكليفهم خلق جماد وهو أهون، ومع ذلك لاقدرة لهم علي ذلك أ.هـ.

قال ابن عثيمين^(٢): ويستفاد من هذا الحديث، وهو ما ساقه المؤلف من أجله: تحريم التصوير؛ لأن المصور ذهب يخلق كخلق الله ليكون مضاهياً لله في صنعه، والتصوير له أحوال:

الحالة الأولى:

أن يصور الإنسان ما له ظل كما يقولون: أي: ما له جسم علي هيكل إنسان أو بعير أو أسد أو ما أشبهها؛ فهذا أجمع العلماء فيما أعلم علي تحريمه،

فإن قلت: إذا صور الإنسان لا مضاهاةً لخلق الله، ولكن صَوَّرَ عبثاً؛ يعني: صنع من الطين أو من الخشب أو من الأحجار شيئاً على صورة حيوان وليس قصده أن يضاهي خلق الله، بل قصده العبث أو وضعه لصبي ليهدّئه به؛ فهل يدخل في الحديث؟

فالجواب: نعم، يدخل في الحديث؛ لأنه خلق كخلق الله، ولأن المضاهاة لا يشترط فيها القصد، وهذا هو سر المسألة، فمتي حصلت المضاهاة ثبت حكمها، ولهذا لو أن إنساناً لبس لباساً يختص بالكفار ثم قال: أنا لا أقصد التشبه بهم؛ نقول: التشبه منك بهم حاصل أردته أم لم ترده، وكذلك لو أن أحداً تشبّه بامرأة في لباسها أو في شعرها أو ما أشبه ذلك وقال: ما أردت التشبه؛ قلنا له: قد حصل التشبه؛ قلنا له: قد حصل التشبه، سواء أردته أم لم ترده.

الحال الثانية:

أن يصور صورة ليس لها جسم بل بالتلوين والتخطيط؛ فهذا مُحَرَّمٌ لعموم الحديث، ويدل عليه حديث التمرقة حيث أقبل النبي ﷺ إلى بيته، فلما أراد أن يدخل رأى نمرقة

(١) الفتح ١٠ / ٣٩٩ و ٤٠٠.

(٢) القول المفيد ٣ / ٢٥٢ و ٢٥٦.

فيها تصاوير، فوقف وتأثر، وعرفت الكراهة في وجهه، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما أذنبت يا رسول الله؟ فقال: «إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»^(١)؛ فالصور بالتلوين كالصور بالتجسيم، وقوله في «صحيح البخاري»: «إلا رقماً في ثوب»^(٢)، إن صحت الرواية هذه؛ فالمراد بالاستثناء ما يحل تصويره من الأشجار ونحوها.

الحالة الثالثة:

أن تلتقط الصور التقاطاً بأشعة معينة بدون أي تعديل أو تحسين من الملتقط؛ فهذا محل خلاف بين العلماء المعاصرين:

فالقول الأول: أنه تصوير، وإذا كان كذلك؛ فإن حركة هذا الفاعل للآلة يعد تصويراً؛ إذ لولا تحريكه إياها ما انطبعت هذه الصورة علي هذه الورقة، ونحن متفقون علي أن هذه صورة؛ فحركته تعتبر تصويراً، فيكون داخلاً في العموم.

القول الثاني: أنها ليست بتصوير؛ لأن التصوير فعل المصور، وهذا الرجل ما صورها في الحقيقة وإنما التقطها بالآلة، والتصوير من صنع الله.

ويوضح ذلك لو أدخلت كتاباً في آلة التصوير، ثم خرج من هذه الآلة؛ فإن رسم الحروف من الكاتب الأول لا من المحرك، بدليل أنه قد يشغلها شخص أمي لا يعرف الكتابة إطلاقاً أو أعمى في ظلمة، وهذا القول أقرب؛ لأن المصور بهذه الطريقة لا يعتبر مبدعاً ولا مخططاً، ولكن يبقى النظر: هل يحل هذا الفعل أو لا؟

والجواب: إذا كان لغرض محرم صار حراماً، وإذا كان لغرض مباح صار مباحاً، لأن الوسائل لها أحكام المقاصد، وعلي هذا؛ فلو أن شخصاً صور إنساناً لما يسمونه للذكرى، سواء كانت هذه الذكرى للتمتع بالنظر إليه أو التلذذ به أو من أجل الحنان والشوق إليه؛ فإن ذلك محرم ولا يجوز لما فيه من اقتناء الصور؛ لأنه لاشك أن هذه صورة ولا أحد ينكر ذلك.

وإذا كان لغرض مباح كما يوجد في التابعة والرخصة والجواز وما أشبهه؛ فهذه يكون مباحاً، فإذا ذهب الإنسان الذي يحتاج إلي رخصة إلي هذا المصور الذي تخرج منه الصورة فورية بدون عمل لا تخميص ولا غيره، وقال: صورني، فصوره؛ فإن هذا المصور

(١) [صحيح] أخرجه: مسلم في الباس (٩٦/٣٣٧/٧) عن عائشة به.

(٢) [متفق عليه] أخرجه: البخاري (٥٩٥٨) ومسلم في اللباس (٥٩٥٨).

لأنقول: إنه دخل في الحديث؛ أي: حديث الوعيد على التصوير، أما إذا قال: صورني لغرض آخر غير مباح؛ صار من باب الإغانة على الإثم والعدوان.

الحالة الرابعة:

أن يكون التصوير لما لا روح فيه، وهذا على نوعين:

النوع الأول: أن يكون مما يصنعه آدمي؛ فهذا لا بأس به بالاتفاق؛ لأنه إذا جاز الأصل جازت الصورة؛ مثل أن يصور الإنسان سيارته؛ فهذا يجوز؛ لأن صنع الأصل جائز، فالصورة التي هي فرع من باب أولي.

النوع الثاني: ما لا يصنعه آدمي وإنما يخلقه الله؛ فهذا نوعان: نوع نامي، ونوع غير نامي، فغير النامي؛ كالجبال، والأودية، والبحار، والأنهار؛ فهذه لا بأس بتصويرها بالاتفاق، أما النوع الذي ينمو؛ فاختلف في ذلك أهل العلم، فجمهور أهل العلم على جواز تصويره لما سيأتي في الأحاديث.

وذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف إلى منع تصويره، واستدل بأن هذا من خلق الله - عز وجل -، والحديث عام: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي»؛ ولأن الله - عز وجل - تحدي هؤلاء بأن يخلقوا حبة أو يخلقوا شعيرة، والحبة أو الشعيرة ليس فيها روح، لكن لاشك أنها نامية، وعلي هذا؛ فيكون تصويرها حراماً، وقد ذهب إلى هذا مجاهد رحمه الله - أعلم التابعين بالتفسير -، وقال: إنه يحرم على الإنسان أن يصور الأشجار، لكن جمهور أهل العلم على الجواز، وهذا الحديث هل يؤيد رأي الجمهور أو يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله؟

الجواب: يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله أمران:

أولاً: العموم في قوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».

ثانياً: قوله: «أولئخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة» وهذه ليست ذات روح، فظاهر الحديث هذا مع مجاهد ومن يري رأيه، ولكن الجمهور أجابوا عنه بالأحاديث التالية، وهي قوله: «أحيوا ما خلقتهم» وقوله: «كلف أن ينفخ فيها الروح» يدل على أن المراد تصوير ما فيه روح، وأما قوله: «أولئخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة»، فذكر على سبيل التحدي، أي: إن أولئك المصورين عاجزون حتي عن خلق ما لا روح فيه.

قال الألباني^(١): حذرنا - ﷺ - بن اتباع سنتهم - يعني اليهود - فقال: «لا تتركبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»^(٢)، وإسناده جيد ما قال ابن تيمية

(١) آداب الزفاف (١٩١-١٩٥).

(٢) رواه ابن بطّة في «جزء إبطال الحيل» - ص: ٢٤ - آداب الزفاف للألباني

وابن كثير، ولكن ذلك كله كما أغنى شيئاً بعض هؤلاء المتشبهين بهم، لهوى فى نفوسهم، أعادنا الله منه، وانظر «الغاية»^(١).

وقريب من هذا تفريق بعضهم بين الرسم باليد، وبين التصوير الشمسى، يزعم أنه ليس من عمل الإنسان! وليس من عمله فيه إلا إمساك الظل فقط! كذا زعموا، أما ذلك الجهد الجبار الذى صرفه المخترع لهذه الآلة حتى استطاع أن يصور فى لحظة ما لا يستطيعه دونها فى ساعات، فليس من عمل الإنسان عند هؤلاء! وكذلك توجيه المصور للآلة وتسيدها نحو الهدف المراد تصويره، وقبيل ذلك تركيب ما يسمونه بالقلم، ثم بعد ذلك تحميضه، وغير ذلك مما لا أعرفه، فهذا أيضاً ليس من عمل الإنسان عند أولئك أيضاً! وقد تولى بيان كيف يتم التصوير الشمسى الأستاذ أبو الوفاء درويش فى رده على فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتى الديار السعودية^(٢) وخلاصته أنه لا بد للمصور من أن يأتى بأحد عشر نوعاً من الأفعال حتى تخلق الصورة ومع هذا كله فالأستاذ المذكور العليم بهذه الأنواع يقول دون أى تردد:

«إن هذه الصورة ليست من عمل الإنسان»!!

وثمرة هذا التفريق عندهم أنه يجوز تعليق صورة رجل مثلاً فى البيت إذا كانت مصورة بالتصوير الشمسى، ولا يجوز ذلك إذا كانت مصورة باليد! ولو أن مصوراً صور هذه الصورة اليدوية بالآلة جاز تعليقها أيضاً عندهم، فهل رأيت أيها القارىء جموداً على ظواهر النصوص مثل هذا الجمود؟ أما أنا فلم أر له مثلاً إلا جمود بعض أهل الظاهر قديماً، مثل قول أحدهم فى حديث: «نهى رسول الله ﷺ عن البول فى الماء الراكد»^(٣). قال:

فلمتنهى عنه هو البول فى الماء مباشرة، أما لو بال فى إناء ثم أراقه فى الماء، فهذا ليس منهياً عنه! يقول هذا مع أن تلويث الماء حاصل بالطريقين، ولكن جموده على النص منعه من فهم الغاية من النص.

وكذلك هؤلاء الميحدون للتصوير الشمسى؛ جمدوا على طريقة التصوير التى كانت معروفة فى عهد النهى عنه، ولم يلحقوا بها هذه الطريقة الجديدة من التصوير الشمسى، مع أنها تصوير لغة وشرعاً وأثراً وضرراً كما يتبين ذلك بالتأمل فى ثمرة التفريق المذكور آنفاً.

(٢) (ص ٤٣ - ٤٥)

(١) (١١)

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الطهارة (٢/ ١٩٠ / ٩٤) عن جابر به

لقد قلت لأحدهم منذ سنين: يلزمكم على هذا أن تبيحوا الأصنام التى لا تحت نحتاً، وإنما بالضغظ على الزر الكهربائى الموصول بألة خاصة تصدر عشرات الأصنام فى دقائق كما هو معروف بالنسبة للعب الأطفال ونحوها من تماثيل الحيوانات، فما تقول فى هذا؟ فبهت.

ومن الغريب أن هؤلاء الظاهريين المحدثين فى غفلة من ظاهريتهم إلى درجة أن بعضهم وصفهم بقوله: «وأولئك هم الذين فهموا النص على حقيقته!» وقد آن للقارئ اللبيب أن يتبين من هم أولئك؟ فاعتبروا يا أولى الأبصار.

وقبل أن أنهى هذه الكلمة، لا يفوتنى أن ألفت النظر إلى أننا وإن كنا نذهب إلى تحريم التصوير بنوعيه جازمين بذلك، فإننا لا نرى مانعاً من تصوير ما فيه فائدة متحققة، دون أن يقترن بها ضرر ما، ولا تيسر هذه الفائدة بطريقة أصله مباح، مثل التصوير الذى يحتاج إليه فى الطب، وفى الجغرافيا، وفى الاستعانة على اصطيد المجرمين، والتحذير منهم، ونحو ذلك؛ فإنه جائز، بل قد يكون بعضه واجباً فى بعض الأحيان، والدليل على ذلك حديثان:

الأول: عن عائشة أنها كانت تلعب بالبنات، فكان النبى ﷺ يأتى لى بصواحبى يلعبن معى (١).

وفى رواية عنها أنه كان لها بنات - تعنى اللعب - فكان إذا دخل النبى ﷺ استتر بثوبه منها. قال أبو عوانة: لكى لا تمتنع (٢).

وفى حديث آخر لها فى اتخاذها «فرساً له جناحان من رقا». قال الحافظ: «واستدل بهذا الحديث على جواز اتخاذ صور البنات واللعب من أجل لعب البنات بهن، وخص ذلك من عموم النهى عن اتخاذ الصور، وبه جزم عياض، ونقله عن الجمهور، وأنهم أجازوا بيع اللعب للبنات لتدريهن من صغرن على أمر بيوتهن وأولادهن».

والثانى: عن الربيع بنت معوذ قالت:

أرسل النبى ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأمصار التى حول المدينة، من أصبح مفطراً

(١) أخرجه البخارى، ومسلم فى فضائل الصحابة (٨/٢١/٨١) عن عائشة به.

(٢) أخرجه ابن سعد (٨/٦٥) وسنده صحيح - آداب الزفاف للالباني.

وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهَتُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ» (١).

بقية يومه، ومن أصبح صائماً فليصم، قالت: فكنا نصوم بعد، ونصوم صبياننا [الصغار منهم إن شاء الله ونذهب إلى المسجد]، ونجعل لهم اللعبة من العهن، [فنذهب به معنا]، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار، (وفى رواية: فإذا سألونا الطعام أعطيناهم اللعبة تلهيهم حتى يتموا صومهم) (٢).
والزيادات مع الرواية الأخرى له.

فقد دل هذان الحديثان على جواز التصوير واقتنائه إذا ترتبت من وراء ذلك مصلحة تربوية تعين على تهذيب النفس وتثقيفها وتعليمها، فيلحق بذلك كل ما فيه مصلحة للإسلام والمسلمين من التصوير والصور، ويبقى ما سوى ذلك على الأصل - وهو التحريم - مثل صور المشايخ والعظماء والأصدقاء ونحوها، مما لا فائدة فيه، بل فيه التشبه بالكفار عبدة الأصنام. والله أعلم.



قوله: ولهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ - قال: أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله»

قال الفقير: هذا الحديث رواه البخاري في ثلاثة مواضع

فذكره في كتاب المظالم في باب: هل تكسر الدنان التي فيها خمر، أو تُحرق الزقاق؟

ولفظه: عن عائشة رضي الله عنها «أنها كانت اتخذت علي سهوة لها سترأ فيه تماثيل فهتكه النبي ﷺ فاتخذت منه نُمرقتين. فكانتا في البيت يجلس عليهما».

وذكره في كتاب اللباس في باب ما وُطيء من التصاوير ولفظه «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله». قالت: فجعلناه وسادة، أو وسادتين.

وذكره في نفس الباب بلفظ «قدم النبي ﷺ من سفر وعلقت درنوكاً فيه تماثيل،

(١) [صحيح] أخرجه البخاري في اللباس/ باب: ما وُطيء من التصاوير (١٠/ ٤٠٠/ ٥٩٥٤) ومسلم في اللباس والزينة/ باب: تخريج تصوير صور الحيوان (٥/ ١٤/ ٨٨، ٨٩).

وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٦٨٢) «وفتح المجيد» (ح ٨٦٧) بتخريجنا.

(٢) [صحيح] أخرجه البخاري (١٩٦٠)، ومسلم في الصيام (٤/ ٢٦٨/ ١٣٦) عن الربيع به

فأمرني أن أنزعه، فترعته.

وذكره في كتاب الأدب في باب ما يجوز من الغضب والسدة لأمر الله تعالى، ولفظه: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ وفي البيت قرام فيه صور، فتلّون وجهه، ثم تناول الستر فهتكه». وقالت: قال النبي ﷺ من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يصوِّرون هذه الصور.

وذكره مسلم بهذه الألفاظ وبغيرها في باب تحرم تصوير صور الحيوان من كتاب اللباس والزينة.

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوي^(١): حيث دل الحديث علي تحريم التصوير أ.هـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوي^(٢): حيث حرم الحديث التصوير لأنه مشابهة لخلق الله وذلك شرك مع الله في ربوبيته أ.هـ.

● شرح الحديث:

قوله: «أشد».

قال ابن عثيمين^(٣): كلمة أشد اسم تفضيل بمعنى أعظم وأقوى.

قوله: «الناس».

قال ابن عثيمين^(٤): للعموم، والمراد الذين يعذبون.

قوله: «عذاباً».

قال ابن عثيمين^(٥): تمييز مبيّن للمراد بالأشد؛ لأن التمييز كما قال ابن مالك:

اسمٌ بمعنى من مَبِينٍ نكرة يُنصَبُ تمييزاً بما قد فُسِّرَ

والعذاب يطلق علي العقاب ويطلق علي ما يؤلم ويؤذي وإن لم يكن عقاباً؛ فمن الأول قوله تعالى: «ادْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»؛ أي: العقوبة والنكال؛ لأنه يدخل النار والعياذ بالله؛ كما قال الله تعالى: «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ».

(١ - ٢) الجديد ٤٤٢.

(٣) القول المفيد ٣/٢٥٦.

(٤) القول المفيد ٣/٢٥٦.

(٥) القول المفيد ٣/٢٥٧.

ومن الثاني قول النبي عليه الصلاة والسلام: «السفر قطعة من العذاب»^(١)، وقوله: «الميت يعذب بالنياحة عليه»^(٢).

قوله: «يوم القيامة».

هو اليوم الذي يبعث فيه الناس، وسبق وجه تسميته بذلك.

وقوله: «أشد» مبتدأ، و «الذين يضاهون» خبره، ومعنى يضاهون؛ أي: يشابهون.

قال ابن حجر: أي يشبهون ما يصنعون بما يصنعه الله^(٣).

● إشكال وجوابه:

قال ابن حجر^(٤): وقد استشكل كون المصور أشد الناس عذاباً مع قوله تعالى:

﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ فإنه يقتضي أن يكون المصور أشد عذاباً من آل فرعون.

وأجاب الطبري: بأن المراد هنا من يصور ما يعبد من دون الله وهو عارف بذلك قاصداً له فإنه يكفر بذلك، فلا يبعد أن يدخل مدخل آل فرعون وأما من لا يقصد ذلك فإنه يكون عاصياً بتصويره فقط. وأجاب غيره بأن الرواية بإثبات «من» ثابتة وبحذفها محمولة عليها، وإذا كان من يفعل التصوير من أشد الناس عذاباً كان مشتركاً مع غيره، وليس في الآية ما يقتضي اختصاص آل فرعون بأشد العذاب بل هم في العذاب الأشد، فكذلك غيرهم يجوز أن يكون في العذاب الأشد، وقوي الطحاوي ذلك بما أخرجه من وجه آخر عن ابن مسعود رفعه «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً أو قتله نبي، وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين»^(٥) وكذا أخرجه أحمد. وقد رفع بعض هذه الزيادة في رواية ابن أبي عمر التي أشرت إليها فاقصر علي المصور وعلي من قتله نبي، وأخرج الطحاوي أيضاً من حديث عائشة مرفوعاً «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل هجا رجلاً فهجا القبيلة بأسرها» قال الطحاوي: ما حاصله: أن الوعيد بهذه الصيغة إن ورد في حق

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٨٠٤)، ومسلم في الإمارة (٧٠/١٣) - النووي) عن أبي هريرة به وانظر «رياض الصالحين» (٩٨٦ - بتحريجنا).

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري (١٢٩٢)، ومسلم في الجنائز (٢٢٩/٦) - النووي) عن عمر به.

(٣) الفتح ٤١/١٠.

(٤) الفتح ٣٩٦/١٠ و٣٩٧.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٠٧/١).

كافر فلا إشكال فيه لأنه يكون مشتركاً في ذلك مع آل فرعون ويكون فيه دلالة علي عظيم كفر المذكور، وإن ورد في حق عاص فيكون أشد عذاباً من غيره من العصاة ويكون ذلك دالاً علي عظم المعصية المذكورة. وأجاب القرطبي في «المفهم» بأن الناس الذين أضيف إليهم «أشد» لا يراد بهم كل الناس بل بعضهم وهم من يشارك في المعني المتوعد عليه بالعذاب، ففرعون أشد الناس الذين ادعوا الإلهية عذاباً، ومن يقتدي به في ضلالة كفره أشد عذاباً ممن يقتدي به في ضلالة فسقه، ومن صور صورة ذات روح للعبادة أشد عذاباً ممن يصورها لا للعبادة. واستشكل بالناس من ينسب إلي آدم، وأما في ابن آدم فأجيب بأن الثابت في حقه أن عليه مثل أوزار من يقتل ظلماً، ولا يمتنع أن يشاركه في مثل تعذيبه من ابتدأ الزنا مثلاً فإن عليه مثل أوزار من يزني بعده لأنه أول من سن ذلك، ولعل عدد الزناة أكثر من القاتلين.

قال ابن عثيمين: قوله: «أشد الناس عذاباً».

فيه إشكال؛ لأن فيهم من هو أشد من المصورين ذنباً؛ كالمشركين والكفار، فيلزم أن يكونوا أشد عذاباً، وقد أجيب عن ذلك بوجه:

الأول: أن الحديث على تقدير «من»؛ أي: من أشد الناس عذاباً بدليل أنه قد جاء ما يؤيده بلفظ: «إن من أشد الناس عذاباً».

الثاني: أن الأشدّية لا تعني أن غيرهم لا يشاركهم، بل يشاركهم غيرهم، قال تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، ولكن يشكل على هذا أن المصور فاعل كبيرة فقط؛ فكيف يسوّى مع من هو خارج عن الإسلام ومستكبر؟!

الثالث: أن الأشدّية نسبية، يعني أن الذين يصنعون الأشياء ويبعدونها أشدهم عذاباً الذين يضاهئون بخلق الله، وهذا أقرب.

الرابع: أن هذا من باب الوعيد الذي يطلق لتغيير النفوس عنه، ولم أر من قال بهذا، ولو قيل بهذا؛ لسلمنا من هذه الإيرادات، وعلى كل حال ليس لنا أن نقول إلا كما قال النبي ﷺ: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله» أ.هـ.

قوله: «الذين يضاهئون بخلق الله».

قال ابن حجر^(١): قال النووي قال العلماء: تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم وهو من الكبائر لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد، وسواء صنعه لما يمتنع أم

(١) الفتحة ٣٩٧/١٠ و ٣٩٨.

لغيره فصنعه حرام بكل حال، وسواء كان في ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو إناء أو حائط أو غيرها، فأما تصوير ما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام.

قلت: - يعني ابن حجر - ويؤيد التعميم فيما له ظل وفيما لا ظل له ما أخرجه أحمد من حديث علي «أن النبي ﷺ قال: «أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثناً إلا كسره ولا صورة إلا لطخها أي طمسها» الحديث؛ وفيه «من عاد إلى صنعة شيء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد»^(١)

وقال الخطابي: إنما عظمت عقوبة المصور لأن الصور كانت تعبد من دون الله، ولأن النظر إليها يفتن، وبعض النفوس إليها تميل.

قال: والمراد بالصور هنا التماثيل التي لها روح وقيل يفرق بين العذاب والعقاب، فالعذاب يطلق على ما يؤلم من قول أو فعل كالعتب والإنكار، والعقاب يختص بالفعل فلا يلزم من كون المصور أشد الناس عذاباً أن يكون أشد الناس عقوبة. هكذا ذكره الشريف المرتضى في «الغرر» وتعقب بالآية المشار إليها وعليها انبنى الإشكال، ولم يكن هو عرج عليها، فلماذا ارتضى التفرقة، والله أعلم.

واستدل به أبو على الفارسي في «التذكرة» على تكفير المشبهة فحمل الحديث عليهم وأنهم المراد بقوله المصورون أي الذين يعتقدون أن الله صورة، وتعقب بالحديث الذي بعده في الباب بلفظ «إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون» وبحديث عائشة بلفظ «إن أصحاب هذه الصور يعذبون» وغير ذلك، ولو سلم له استدلاله لم يرد عليه الإشكال المقدم ذكره. وخص بعضهم الوعيد الشديد بمن صور قاصداً أن يضاهي، فإنه يصير بذلك القصد كافراً.

وعند البخاري بلفظ (أشد الناس عذاباً الذين يضاهون بخلق الله تعالى) وأما من عداه فيحرم عليه ويأثم لكن إثمه دون إثم المضاهي.

قلت - يعني ابن حجر -: وأشد منه من يصور ما يعبد من دون الله كما تقدم وذكر القرطبي أن أهل الجاهلية كانوا يعملون الأصنام من كل شيء حتى إن بعضهم عمل صنمه من عجوة ثم جاع فأكله. اهـ

قال ابن عثيمين^(٢): «بخلق الله» أي: بمخلوقات الله - سبحانه وتعالى.

والذين يضاهون بخلق الله هم المصورون؛ فهم يضاهون بخلق الله سواء كانت هذه المضاهاة جسمية أو وصفية؛ فالجسمية أن يصنع صورة بجسمها، والوصفية أن يصنع

(١) القول المفيد ١٠/٢٥٧ و ٢٥٩

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٧/١)، (١١٠) عن علي به

صورة ملونة؛ لأن التلوين والتخطيط باليد وصف للخلق، وإن كان الإنسان ما خلق الورقة ولا صنعها لكن وضع فيها هذا التلوين الذي يكون وصفاً لخلق الله - عز وجل -.

هذا الحديث يدل علي أن المصورين يعذبون، وأنهم أشد الناس عذاباً، وأن الحكمة من ذلك مضاهاتهم خلق الله - وليست الحكمة كما يدعيه كثير من الناس أنهم يصنعونها لتُعبَد من دون الله؛ فذلك شيء آخر، فمن صنع شيئاً ليعبد من دون الله؛ فإنه حتي ولو لم يصور كما لو أتني بخشبة وقال: اعبدوها؛ فقد دخل في التحريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾؛ لأنه أعان علي الإثم والعدوان. وقوله: «يضاهئون». هل الفعل يشعر بالنية بمعنى أنه لابد أن يقصد المضاهاة، أو نقول: المضاهاة حاصلة سواء كانت بنية أو بغير نية؟

الجواب: الثاني؛ لأن المضاهاة حصلت سواء نوي أم لم ينو؛ لأن العلة هي المُشَابَهة، وليست العلة قصد المشابهة، فلو جاء رجل وقال: أنا لا أريد أن أضاهي خلق الله، أنا أصور هذا للذكرى مثلاً وما أشبه ذلك؛ نقول: هذا حرام؛ لأنه متى حصلت المشابهة ثبت الحكم؛ لأن الحكم يدور مع علته كما قلنا فيمن لبس لباساً خاصاً بالكفار: إنه يحرم عليه هذا اللباس، ولو قال: إنه لم يقصد المشابهة؛ نقول: لكن حصل التشبه؛ فالحكم المقرُّون بعله لا يشترط فيه القصد، فمتى وجدت العلة ثبت الحكم. اهـ

قال ابن عثيمين^(١):

فيستفاد من الحديث:

١- تحريم التصوير، وأنه من الكبائر؛ لثبوت الوعيد عليه، وأن الحكمة من تحريمه المضاهاة بخلق الله - عز وجل -.

٢- وجوب احترام جانب الربوبية، وأن لا يطمع أحد في أن يخلق كخلق الله - عز وجل -؛ لقوله: «يضاهئون بخلق الله»، ومن أجل هذا حرم الكبر؛ لأن فيه منازعة للرب - عز وجل -، وحرَم التعاضم على الخلق؛ لأن فيه منازعة للرب - سبحانه وتعالى -، وكذلك هذا الذي يصنع ما يصنع فيضاهي خلق الله فيه منازعة لله - عز وجل - في ربوبيته في أفعاله ومخلوقاته ومصنوعاته؛ فيستفاد من هذا الحديث وجوب احترام جانب الربوبية. اهـ



(١). القول المفيد ٢٥٩/٣ و ٢٦٠.

وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ»^(١).
وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعاً: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا؟ كَلَفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»^(٢).

قوله: ولهما عن ابن عباس سمعت رسول الله ﷺ - يقول: كل مصوِّر في النار يُجعل له بكل صورة صوَّرها نفس يُعَذَّبُ بها في جهنم.

قال ابن عثيمين: الحديث في مسلم وليس في الصحيحين.

قلت: وأخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة في باب تحريم تصوير صورة الحيوان بلفظ «جاء رجل إلى ابن عباس. فقال: إني رجلٌ أصوِّرُ هذه الصُّورَ. فأفتني فيها فقال له: ادن مني. فدنا منه. ثم قال: ادن مني فدنا. حتى وَّضَعَ يَدُهُ عَلَى رَأْسِهِ. قال: أَتَبْكُ بِمَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - يقول: «كل مصور في النار: يجعل له، بكل صورة صوَّرها، نفساً فتُعَذَّبُ في جهنم». وقال: «إن كنت لا بد فاعلاً، فاصنع الشجر وما لأنفس له.

وهذا اللفظ الذي اختاره المصنّف مختصراً.

● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوي^(٣): حيث دل الحديث على تحريم التصوير لذوات الأرواحاً. هـ.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري في «اليوع»/ باب: بيع التصاوير (٤/ ٤٨٥ ح ٢٢٢٥) ومسلم في «اللباس والزينة»/ باب: تحريم تصوير صورة الحيوان (٥/ ١٤ ح ٩٣) وأحمد في «مسنده» (٣٠٨/١).
جميعاً من طريق: سعيد قال: سمعت النضر بن أنس بن مالك يحدث عن قتادة قال: كنت عند ابن عباس.

وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٦٨٣) «وفتح المجيد» (ح ٨٦٩) بتخريجنا.

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخاري في اللباس/ باب من لعن المصور (١٠/ ٤٠٧ ح ٥٩٦٣) ومسلم في «اللباس والزينة»/ باب: تخريج تصوير صور الحيوان (٥/ ١٤ ح ٩٣ - النووي) والترمذي في «اللباس»/ باب: ما جاء في المصورين (٤/ ٢٣١ ح ١٧٥١) والنسائي في «الزينة»/ باب: التصاوير (٥/ ٢٠٢ ح ٩٧٨٣) والبيهقي (٧/ ٤٣٩ ح ١٤٥٧٢).

ومطولا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وانظر «رياض الصالحين» (ح ١٦٨٤) «وفتح المجيد» (ح ٨٦٩) بتخريجنا.

(٣) الجديد ٤٤٤ ..

● مناسبة الحديث للتوحيد:-

قال القرعاوى^(١): حيث حرم الحديث التصوير لأن ذلك مشابهة لخلق الله وذلك شرك مع الله في ربوبيته أ.هـ.

قوله: «كل مصور في النار».

قال ابن عثيمين^(٢):

«كل»: من أعظم ألفاظ العموم، وأصلها من الإكليل، وهو ما يحيط بالشيء، ومنه الكلالة في الميراث للحواشي التي تحيط بالإنسان.

فيشمل من صَوَّرَ الإنسان أو الحيوان أو الأشجار أو البحار، لكن قوله: «يجعل له بكل صورة صورها نفساً» يدل على أن المراد صورة ذوات النفوس؛ أي: ما فيه روح أ.هـ.

قوله: «يجعل له بكل صورة صورها نفس»

قال النووي^(٣): (يجعل له) فهو بفتح الباء من (يجعل) والفاعل هو الله تعالى، أضمر للعلم به. قال القاضى: في رواية ابن عباس تحتمل أن معناها أن الصورة التى صورها هى تعذبه بعد أن يجعل فيها الروح ، وتكون الباء فى بكل بمعنى (فى) قال: ويحتمل أن يجعل له بعدد كل صورة ومكانها شخص يعذبه، وتكون الباء بمعنى لام السبب. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): «يجعل» بالبناء للفاعل، وعلى هذا تكون «نفساً» بالنصب، وتماه: فتعذبه في جهنم.

قوله: «يعذب بها».

كيفية التعذيب ستأتي في الحديث الذي بعده أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

وقوله: «كل مصور في النار».

(١) الجديد ٤٤٤

(٢) القول المفيد ٣/ ٢٦٠ و ٢٦١.

(٣) شرح مسلم (٧/ ٢٤٥) - دار الحديث

(٤) القول المفيد ٣/ ٢٦١ و ٢٦٢.

أي: كائن في النار

وهذه الكينونة عند المعتزلة والخوارج كينونة خلود؛ لأن فاعل الكبيرة عندهم مخلد في النار، وعند المرجئة أن المراد بالمصور الكافر؛ لأن المؤمن عندهم لا يدخل النار أبداً، وعند أهل السنة والجماعة أنه مستحق لدخول النار وقد يدخلها وقد لا يدخلها، وإن دخلها لم يخلد فيها اهـ.

قلت: وسيأتي كلام ابن حجر في هذه المسألة في شرح الحديث الآتي بعده



قوله: ولهما عنه مرفوعاً: «من صور صورة في الدنيا؟ كلف أن ينفخ فيها الروح وليس نافخ».

قلت: هذا الحديث ذكره البخاري في ثلاثة مواضع، أذكر منها اثنين فقط لأن الثالث في كتاب التعبير وليس له علاقة بهذا الباب بل ذكره هناك من أجل أمر آخر متصل بالأحلام.

فذكره في كتاب اللباس في باب من لعن المصور قال حدثنا عياش بن الوليد حدثنا عبد الأعلى حدثنا سعيد قال سمعت النضر بن أنس بن مالك يحدث قتاده قال: كنت عند ابن عباس وهم يسألونه ولا يذكر النبي ﷺ حتى سئل فقال: سمعتُ محمداً ﷺ يقول: «من صور صورة في الدنيا كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ».

وذكره في كتاب السيوع في باب بيع التصاوير التي ليس فيها روح، وما يكره من ذلك وأستد عن ابن أبي الحسن قال «كنت عند ابن عباس - رضى الله عنهما - إذا أتاه رجل فقال: يا ابن عباس إننى إنسان إنما معيشتى من صنعة يدي، وإنى أصنع هذه التصاوير. فقال ابن عباس: لا أحدثك إلا ما سمعتُ من رسول الله - ﷺ - سمعته يقول: من صور صورة فإن الله مُعَذِّبُهُ حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبداً. فربما الرجل ربوة شديدة واصفر وجهه. فقال: ويحك إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر كل شيء ليس فيه روح».

قوله: «من صور صورة في الدنيا»

قال ابن حجر^(١): قوله (من صور صورة في الدنيا) كذا أطلق وظاهره التعميم فيتناول صورة مالا روح فيه، لكن الذى فهم ابن عباس من بقية الحديث التخصيص بصورة ذوات الأرواح من قوله «كلف أن ينفخ فيها الروح» فاستثنى مالا روح فيه كالشجر.

قوله: «كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ».

قال ابن حجر^(٢): قوله (كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ) فى رواية سعد بن أبى الحسن «فإن الله يعذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبداً» واستعمال «حتى» هنا نظير استعمالها فى قوله تعالى «حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ» وكذا قولهم: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب،

قال الكرمانى: ظاهره أنه من تكليف مالا يطاق، وليس كذلك وإنما القصد طول تعذيبه وإظهار عجزه عما كان تعاطاه ومبالغة فى توبيخه وبيان قبح فعله.

قال ابن عثيمين: قوله (كلف) أى ألزم، والمكلف له هو الله عز وجل أهـ.

وقوله «ليس بنافخ»

أى لا يمكنه ذلك فيكون معذباً دائماً، وعند البخارى فى «باب عذاب المصورين» من حديث ابن عمر أنه يقال للمصورين أحيوا ما خلقتم وأنه أمر تعجيز.

● إشكال وجوابه:

قال ابن حجر: وقد استشكل هذا الوعيد فى حق المسلم، فإن وعيد القاتل عمداً ينقطع عند أهل السنة مع ورود تخليده بحمل التخليد على مدة مديدة، وهذا الوعيد أشد منه لأنه مغيا بما لا يمكن وهو نفخ الروح، فلا يصح أن يحمل على أن المراد أنه يعذب زماناً طويلاً ثم يتخلص والجواب أنه يتعين تأويل الحديث على أن المراد به الزجر الشديد بالوعيد بعقاب الكافر ليكون أبلغ فى الارتداد وظاهره غير مراد، وهذا فى حق العاصى بذلك، وأما من فعله مستحلاً فلا إشكال فيه.

قال ابن عثيمين: قوله (وليس بنافخ) أى: كلف بأمر لا يمكن منه زيادة فى تعذيبه، عذاب بهذا العذاب ليدوق جزاء ما عمل، وبهذا تزداد حسرته وأسفه، حيث إنه عذب بما كان فى الدنيا يراه راحة له، إما باكتساب أو بإرضاء صاحب أو إبداع صنعة. أهـ.

(٢) الفتح ٤٠٨/١٠ و ٤٠٩.

(١) الفتح ٤٠٨/١٠.

● فوائد أخرى من الحديث:

قال ابن حجر: واستدل به على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى للحقوق الوعيد بمن تشبه بالخالق، فدل على أن غير الله ليس بخالق حقيقة. وقد أجاب بعضهم - أي عن الإشكال السابق - بأن الوعيد وقع على خلق الجواهر، ورد بأن الوعيد لاحق باعتبار الشكل والهيئة، وليس ذلك بجوهر، وأما استثناء غير ذى الروح فورد مورد الرخصة كما قررته.

[٢] - وفي قوله «كلف يوم القيامة» رد على من زعم أن الآخرة ليست بدار تكليف، وأجيب بأن المراد بالنفى أنها ليست بدار تكليف بعمل يترتب عليه ثواب أو عقاب، وأما مثل هذا التكليف فليس بممتنع لأنه نفسه عذاب، وهو نظير الحديث الآخر «من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يجأ بها نفسه يوم القيامة»^(١) وأيضاً فالتكليف بالعمل فى الدنيا حسن على مصطلح أهل علم الكلام، بخلاف هذا التكليف الذى هو عذاب.

[٣] - واستدل به على جواز التكليف بما لا يطاق، والجواب ما تقدم. وأيضاً فنفي الروح فى الجماد قد ورد معجزة للنبي ﷺ، فهو يمكن وإن كان فى وقوعه خرق عادة. والحق أنه خطاب تعجيز لا تكليف كما تقدم، والله أعلم.

[٤] - وفي زيادة سعيد بن أبى الحسن فى روايته أن ابن عباس قال للرجل «ويحك إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر» الحديث، مع ضبط لفظه وإعرابه. واستدل به على جواز تصوير ما لا روح له من شجر أو شمس أو قمر، ونقل الشيخ أبو محمد الجوينى وجها بالمنع لأن من الكفار من عبدها. قلت - يعنى ابن حجر -: ولا يلزم من تعذيب من يصور ما فيه روح بما ذكر تجويز تصوير ما لا روح فيه فإن عموم قوله «الذين يضاؤون بخلق الله» وقوله : «ومن أظلم من ذهب يخلق كخلقى» يتناول ما فيه روح وما لا روح فيه، فإن خص ما فيه روح بالمعنى من جهة أنه مما لم تجر عادة الأديمين بصنعه وجرت عادتهم بغرس الأشجار مثلاً امتنع ذلك فى مثل تصوير الشمس والقمر، ويتأكد المنع بما عبد من دون الله فإنه يضاهاى صورة الأصنام التى هى الأصل فى منع التصوير،

وقد قيد مجاهد صاحب ابن عباس جواز تصوير الشجر بما لا يثمر وأما ما يثمر فألحقه بما له روح، قال عياض: لم يقله أحد غير مجاهد، وردده الطحاوى بأن الصورة لما أبيضت بعد قطع رأسها التى لو قطعت من ذى الروح لما عاش دل ذلك على إباحة ما لا

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٠٤٣). ومسلم فى الإيمان (١/٣٩٥/١٧٥) عن أبى هريرة به.

وَلَمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ؛ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا تَدْعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا؛ إِلَّا سَوَّيْتُهُ».

وفي رواية: وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا^(١).

قلت - ابن حجر -: وقضيته أن تجويز تصوير ماله روح بجميع أعضائه إلا الرأس فيه نظر لا يخفى، وأظن مجاهدا سمع حديث أبي هريرة الماضي ففيه «فليخلقوا ذرة، وليخلقوا شعيرة» فإن في ذكر الذرة إشارة إلى ماله روح وفي ذكر الشعيرة إشارة إلى ما ثبت مما يؤكد، وأما ما لا روح فيه ولا يثمر فلا تقع الإشارة إليه. ويقابل هذا التشديد ما حكاه أبو محمد الجويني أن نسج الصورة في الثوب لا يمتنع، لأنه قد يلبس، وطرده المتولى في التصوير على الأرض ونحوها، وصحح النووي تحريم جميع ذلك قال النووي: ويستثنى من جواز تصوير ماله ظل ومن اتخاذه لعب البنات لما ورد من الرخصة في ذلك. اهـ.

وقوله: «بكل صورة صورها».

يقتضي أنه لو صور في اليوم عشر صور ولو من نسخة واحدة؛ فإنه يجعل له في النار عشر صور يقال له: انفخ فيها الروح، وظاهر الحديث أنه يبقى في النار مُعَذَّبًا حتى تنتهي هذه الصور.



قلت: هذا الحديث أخرجه مسلم وأبو داود في كتاب الجنائز في باب الأمر بتسوية القبر.

● مناسبة الحديث للباب.

قال القرعاوي^(٢) حيث دل الحديث على تحريم التصوير واتخاذ الصور. اهـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد

قال القرعاوي^(٣) حيث حرم الحديث التصوير لأنه مشابهة لخلق الله وذلك شرك مع الله في ربوبيته. اهـ.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الجنائز/ باب الأمر بتسوية القبر (٤/ ٤١/ ح ٩٣). وأبو داود في «الجنائز/ باب في تسوية القبر (٣/ ٢١٢/ ح ٣٢١٨) من حديث أبي هياج الأسدي. «فتح المجيد» (ح ٨٧٠) بتخريجنا (٢-٣) الجديد ٤٤٨.

● شرح الحديث

قوله: «عن أبي الهياج»

قال النووي: (١) - قوله: [عن أبي الهياج] هو بفتح الهاء وتشديد الياء واسمه حيان ابن حصين.

قوله: - «قال: قال لى على»: هو أمير المؤمنين على بن أبي طالب - رضى الله عنه . وقد تقدمت ترجمته .

قوله: - «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله - ﷺ»

قال عبدالرحمن آل الشيخ (٢) -: فيه تصريح بأن النبي - ﷺ بعث علياً لذلك . اهـ .

قال ابن عثيمين (٣) :

قال: «ألا أبعثك» .

البعث: الإرسال بأمر مهم؛ كالدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ .

قوله: «على ما بعثني» .

يحتمل أن تكون «على» على ظاهرها للاستعلاء؛ لأن المبعوث يمشي على ما بعث عليه، كأنه طريق له، وهذا هو الأوّل؛ لأن ما وافق ظاهر اللفظ من المعاني فهو أولى بالاعتبار، ويحتمل أن «على» بمعنى الباء؛ أي: بما بعثني عليه .

قد بعث النبي ﷺ علياً إلى اليمن بعد قسمة غنائم حنين، وقدم على النبي ﷺ وهو في مكة في حجة الوداع .

قوله: «أن لا تدع»

قال ابن عثيمين (٤) : قوله: [أن لا تدع]

قوله: «أن لا تدع» .

«أن»: مصدرية، «لا»: نافية، «تدع»: منصوب بأن المصدرية وهي بدل بعض من كل

(١) النووي شرح مسلم ٤/٤٢ :

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٣٢ .

(٣) القول المفيد ٣/٢٦٣ .

(٤) القول المفيد ٣/٢٦٣ .

من «ما» في قوله: «على ما بعثني»؛ لأن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب بأكثر من ذلك، لكن هذا مما بعثه النبي ﷺ.

قوله «صورة»

قال سليمان آل الشيخ^(١): أما الصور: فلمضاهاتها لخلق الله وأما تسوية القبور: فلما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها، وهو من ذرائع الشرك ووسائله، فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته، ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور، وعظمت الفتنة بأرباب القبور، وصارت محطاً لرجال العابدين المعظمين لها، فصرفوا لها جل العبادة، من الدعاء والاستعانة والاستغاثة، والتضرع لها، والذبح لها، والتذوق، وغير ذلك من كل شرك محظور.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به، ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم، رأى أحدهما مضاداً للآخر، مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً، فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها وإليها، ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسمونها مشاهد، مضاهاة لبيوت الله، ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها، ونهى عن أن تتخذ عيداً، وهؤلاء يتخذونها أعياداً، ومناسك، ويتجمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر. وأمر بتسويتها، كما روى مسلم في «صحيحه» عن أبي الهياج الأسدي - فذكر حديث الباب - وحديث ثمامة بن شفي.

وهو عند مسلم أيضاً قال: «كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسوي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها»^(٢) وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين، يرفعونها عن الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب. ونهى عن تخصيص القبر والبناء عليه.

كما روى مسلم في «صحيحه» عن جابر رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يُجصَّصَ القبرُ، وأن يُقعدَ عليه، وأن يُبنى عليه»^(٣) ونهى عن الكتابة عليها.

(١) تيسير العزيز الحميد ٥٣٢ - ٥٣٨.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الجنائز (٩٢/٤١/٤) عن ثمامة بن شفي به.

وانظر «فتح المجيد» (ج ٨٧٦).

(٣) تقدم تخريجه.

كما روى أبو داود في «سننه» عن جابر أن رسول الله ﷺ «نهى عن تخصيص القبور، وأن يكتب عليها»^(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره، ونهى أن يزداد عليها غير ترابها.

كما روى أبو داود عن جابر أيضاً: أن رسول الله ﷺ «نهى عن أن يجصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزداد عليه»^(٢) وهؤلاء يزيدون عليه الأجر والجص والأحجار. قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون الأجر على قبورهم.

والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور، المتخذيها أعياداً، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ، محادون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها وهو من الكبائر، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسي: ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله، ولأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام. قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر.

ولأن النبي ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(٣) يحذر ما صنعوا متفق عليه. ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها. انتهى.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً، ووضعوا لها مناسك، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً سماه: «مناسك حج المشاهد»، مضاهية منه القبور بالبيت الحرام، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عباد الأصنام، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصده.

● المفاسد المترتبة على اتخاذ المساجد على القبور (*):

قال سليمان آل الشيخ: ولا ريب أن في ذلك من المفساد ما يعجز عن حصره. فمنها: تعظيم الموقع في الافتتان بها.

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تقدم تخريجه.

(*) وقد تقدم شيء من ذلك في باب ماجاء في التغليب فيمس عبد الله عند قبر رجل صالح.

ومنها: اتخاذها أعياداً.

ومنها: السفر إليها.

ومنها: مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها، وتعليق الستور عليها، وعبادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانها أفضل من خدمة المساجد، والويل عندهم لقيمتها ليلة يطفىء القنديل المعلق عليها.

ومنها: النذر لها ولسدنتها.

ومنها: اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء، وينصر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكروب، وتقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف إلى غير ذلك.

ومنها: الدخول في لعنة الله ورسوله، باتخاذ المساجد عليها، وإيقاد السرج عليها.

ومنها: الشرك الأكبر الذي يفعل عندها.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم، فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهية، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى عند قبره، وكذلك غيره من الأنبياء والمساكين يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرأون منهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾. قال الله تعالى للمشركين: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ هَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾.

ومنها: إماتة السنن وإحياء البدع.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله. فإن عباد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام، والخشوع ورقة القلب، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريباً منه.

ومنها: أن الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكّر الآخرة، والإحسان إلى المزور بالدعاء له والترحم عليه، والاستغفار له، وسؤال العافية له؛ فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت، فقلب هؤلاء المشركون الأمر، وعكسوا الدين وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعائه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزل البركة منه، ونصره لهم على الأعداء، ونحو ذلك، فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت.

وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور^(١) سداً للذريعة. فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هجراً، ومن أعظم الهجر: الشرك عندها قولاً وفعلًا.

وفي «صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فَرُّوا الْقُبُورَ، فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ»^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقُبُورِ الْمَدِينَةِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ. فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْقُبُورِ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ، أَنْتُمْ سَلَفُنَا وَنَحْنُ بِالْآثَرِ»^(٣) رواه أحمد والترمذي وحسنه.

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته، وعلمهم إياها. هل تجد فيها شيئاً مما يعتمد به أهل الشرك والبدع؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها. ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم، ونقص إيمانهم أعرضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك.

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر، ثم دعا. ونص على ذلك الأئمة الأربعة: أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء، وحتى لا يدعوا عند القبر، فإن الدعاء عبادة.

وفي الترمذي وغيره: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»^(٤) فجرد السلف العبادة لله، ولم يفعلوا عند

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٥٣) عن ابن عباس به.

وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٥ - بتخريجنا).

(٤) تقدم تخريجه.

القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله ﷺ من الدعاء لأصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم.

وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنتُمْ»^(١) وإسناده جيد، ورواته ثقات مشاهير.

وقوله: «ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً» أي: لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري النافلة في البيوت، ونهى عن تحري النافلة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم.

ثم إن في تعظيم القبور، واتخاذها أعياداً، من المفساد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار الله وغيره على التوحيد، وتهجين وتقبيح للشرك، ولكن ما لجرح بميت إيلام.

فمن المفساد: اتخاذها أعياداً والصلاة إليها، والطواف بها، وتقبلها واستلامها، وتعفير الخدود على ترابها، وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الدين، وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وغير ذلك من أنواع الطلبات، التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم. فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيداً، وقد نزلوا عن الأكواز والدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجباه، وقبلوا الأرض، وكفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد أربوا في الريح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يبدى ولا يعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ما لم يحرزه من صلى إلى القبلتين، فتراهم حول القبر ركعاً سجداً، يتغنون فضلاً من الميت ورضواناً، وقد ملأوا أكفهم خيبة وخسراناً.

فلغير الله - بل للشيطان - ما يراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة ذوي العاهات والبليات، ثم اثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهاً له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركاً وهدى للعاملين، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام. أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام؟ ثم عفروا لديه تلك

(١) القول المفيد ٣/ ٢٦٦ : ٢٦٦.

الجباه والحدود، التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود. ثمكملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق، واستمتعوا بخلاقتهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق، وقد قربوا لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين، فلو رأيتهم يهنيء بعضهم بعضاً ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظاً، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام. فيقول: لا ولا بحجك كل عام.

هذا، ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم؛ إذ هي فوق ما يخطر بالبال، ويدور في الخيال، وهذا مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم وكل من شمس أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور سد الذريعة إلى المحظور، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه، وأحكم في نهيه عنه وتوعده عليه، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته، والشر والضلال في معصيته ومخالفته، انتهى كلامه. اهـ

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «صورة».

نكرة في سياق النفي فتعم.

وجمهور أهل العلم: أن المحرم هو صور الحيوان فقط؛ لما ورد في «السنن» من حديث جبريل أن النبي ﷺ قال: «فمر برأس التمثال يقطع، فيصير كهية الشجرة»^(١)، وسبق بيان ذلك قريباً.

قوله: «إلا طمسها».

إن كانت ملونة فطُمسها بوضع لون آخر يزيل معالمها، وإن كانت تمثالاً فإنه يقطع رأسه؛ كما في حديث جبريل السابق، وإن كانت محفورة فيحفر على وجهه حتى لا تتبين معالمه؛ فالطمس يختلف، وظاهر الحديث سواء كانت تُعبد من دون الله أولاً.

قول: «ولا قبراً مشرفاً».

أي: عالياً.

قوله: «إلا سويته».

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٠٥/٢)، وأبو داود (٤١٥٨)، والترمذي (٢٨٠٦) عن أبي هريرة

له معنيان:

الأول: أي سويته بما حوله من القبور.

الثاني: جعلته حسناً على ما تقتضيه الشريعة، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾، أي: سَوَّى خلقه أحسن ما يكون، وهذا أحسن، والمعنيان متقاربان. والإشراف له وجوه:

الأول: أن يكون مشرقاً بكبر الأعلام التي توضع عليه، وتسمى عند الناس (نصائل) أو (نصائب)، ونصائب أصح لغة من نصائل.

الثاني: أن يني عليه، وهذا من كبائر الذنوب، لأن النبي ﷺ: «لعن المتخذين عليها المساجد والسرج»^(١).

الثالث: أن تُشرف بالتلوين، وذلك بأن يوضع على أعلامها ألوان مزخرفة.

الرابع: أن يرفع تراب القبر عما حوله فيكون بيتاً ظاهراً.

فكل شيء مشرف، أي: ظاهر على غيره متميز عن غيره يجب أن يسوى بغيره، لئلا يؤدي ذلك إلى الغلو في القبور والشرك.

مناسبة ذكر القبر المشرف مع الصور:

أنَّ كلاً منهما قد يتخذ وسيلة إلى الشرك، فإن أصل الشرك في قوم نوح أنهم صوروا صور رجال صالحين، فلما طال عليهم الأمد عبدوها، وكذلك القبور المشرفة قد يزداد فيها الغلو حتى تجعل أوثاناً تعبد من دون الله، وهذا ما وقع في بعض البلاد الإسلامية، وقد أطل الشارح رحمه الله في هذا الباب في البناء على القبور، وذلك لأن فتنتها في البلاد الإسلامية قديمة وباقية، ما عدا بلادنا والله الحمد، فإنها سالمة من ذلك، نسأل الله أن يديمها عليها وأن يحمي بلاد المسلمين من شرها. اهـ.

عقوبة المصور.

قال ابن عثيمين^(٢): عقوبة المصور ما يلي:

١- أنه أشد الناس عذاباً أو من أشدهم عذاباً.

٢- أن الله يجعل له في كل صورة نفساً يُعذب بها في نار جهنم.

(١) تقدم تخريجه

(٢) القول المفيد ٣/٢٦٦/٢٦٨.

٣- أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

٤- أنه في النار.

٥- أنه ملعون؛ كما في حديث أبي جحيفة في «البخاري» وغيره.

● فائدتان:

الأولى: «كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ» يقتضي أن المراد التصوير تصوير الجسم كاملاً، وعلى هذا؛ فلو صور الرأس وحده بلا جسم أو الجسم وحده بلا رأس؛ فالظاهر الجواز، ويؤيده ما سبق في الحديث: «مُرُّ برأس التمثال فليقطع»، ولم يقل: فليكسر، لكن تصوير الرأس وحده عندي فيه تردد، أما بقية الجسم بلا رأس؛ فهو كالشجرة لا تردد فيه عندي.

الثاني: يؤخذ من حديث علي رضي الله عنه، وهو قوله: «أن لا تدع صورة إلا طمستها» أنه لا يجوز اقتناء الصور، وهذا محل تفصيل؛ فإن اقتناء الصور على أقسام:

القسم الأول: أن يقتنيها لتعظيم المصور؛ لكونه ذا سلطان أو جاه أو علم أو عبادة أو أبوة أو نحو ذلك؛ فهذا حرام بلا شك، ولا تدخل الملائكة بيتاً فيه هذه الصورة؛ لأن تعظيم ذوي السلطة باقتناء صورهم ثلّم في جانب الربوبية، وتعظيم ذوي العبادة باقتناء صورهم ثلّم في جانب الألوهية.

القسم الثاني: اقتناء الصور للتمتع بالنظر إليها أو التلذذ بها؛ فهذا حرام أيضاً؛ لما فيه من الفتنة المؤدية إلى سفاسف الأخلاق.

القسم الثالث: أن يقتنيها للذكرى حناناً أو تلطفاً، كالذين يصورون صغار أولادهم لتذكيرهم حال الكبر؛ فهذا أيضاً حرام للحقوق الوعيد به في قوله ﷺ: «إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة»^(١).

القسم الرابع: أن يقتني الصور لا لرغبة فيها إطلاقاً، ولكنها تأتي تبعاً لغيرها؛ كالتى تكون في المجلات والصحف ولا يقصدها المقتني، وإنما يقصد ما في هذه المجلات والصحف من الأخبار والبحوث العلمية ونحو ذلك؛ فالظاهر أن هذا لا بأس به؛ لأن الصور فيها غير مقصودة، لكن إن أمكن طمسها بلا حرج ولا مشقة؛ فهو أولى.

القسم الخامس: أن يقتني الصور على وجه تكون فيه مُهانةً لملقة في الزبل، أو

(١)[متفق عليه] أخرجه: البخاري في (٣٢٢٥)، ومسلم في اللباس والزينة (٨٤/١٤ - النووي)؛ عن أبي طلحة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٦٨٧ - بتخريجنا).

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: التَّغْلِيظُ الشَّدِيدُ فِي الْمَصُورِينَ.

الثانية: التَّنْبِيهُ عَلَى الْعِلَّةِ، وهي ترك الأدب مع الله؛ لِقَوْلِهِ: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».

مفترشة، أو موطوءة؛ فهذا لا بأس به عند جمهور العلماء، وهل يلحق بذلك لباس ما فيه صورة لأن في ذلك امتهاناً للصورة ولا سيما إن كانت الملابس داخلية؟
الجواب: نقول: لا يلحق بذلك، بل لباس ما فيه الصور محرم على الصغار والكبار، ولا يلحق بالمفروش ونحوه؛ لظهور الفرق بينهما، وقد صرح الفقهاء رحمهم الله بتحريم لباس ما فيه صورة، سواء كان قميصاً أو سراويل أم عمامة أم غيرها.
وقد ظهر أخيراً ما يسمى بالحفاظ؛ وهي خرقة تلف على الفرجين للأطفال والحائض ثلاثاً يتسرب النجس إلى الجسم أو الملابس؛ فهل تلحق بما يلبس أو بما يمتن؟
هي إلى الثاني أقرب، لكن لما كان امتهاناً خفياً وليس كالمفترش والموطوء صار استحباب التحرز منها أولى.

القسم السادس: أن يلجأ إلى اقتنائها إلباء؛ كالصور التي تكون في بطاقة إثبات الشخصية والشهادات والدراهم فلا إثم فيه لعدم إمكان التحرز منه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

قال ابن عثيمين: فيه مسائل:

● الأولى: التَّغْلِيظُ الشَّدِيدُ فِي الْمَصُورِينَ.

قال ابن عثيمين (١)

تؤخذ من قوله: «أشد الناس عذاباً...» الحديث.

● الثانية: التنبيه على العلة، وهي ترك الأدب مع الله، تؤخذ من قوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».

فمن ذهب يخلق كخلق الله؛ فهو مسيء للأدب مع الله - عز وجل - لمحاولته أن يخلق مثل خلق الله تعالى، كما أن من ضاده في شرعه فقد أساء الأدب معه.

(١) القول المفيد ٣/ ٢٦٩ - ٢٧١.

الثالثة: التَّنْبِيهِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَجْزِهِمْ؛ لِقَوْلِهِ: «فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ شَعِيرَةً».

الرابعة: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا.

الخامسة: أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ بَعْدَ كُلِّ صُورَةٍ نَفْسًا يُعَذِّبُ بِهَا الْمَصُورَ فِي جَهَنَّمَ.

السادسة: أَنَّهُ يُكَلِّفُ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ.

السابعة: الْأَمْرُ بِطَمْسِهَا إِذَا وَجِدَتْ.

● الثالثة: التنبية على قدرته وعجزهم؛ لقوله: «فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ شَعِيرَةً».

لأن الله خلق أكبر من ذلك وهم عجزوا من خلق الذرة أو الشعيرة.

● الرابعة: التصريح بأنهم أشد عذاباً.

لقوله: «أشد الناس عذاباً...» الحديث.

● الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يُعَذِّبُ بها المصور في جهنم.

لقوله: «يجعل له بكل صورة صورها نفساً فتعذبه في جهنم».

● السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

لقوله: «كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»، وهذا نوع من التعذيب من أشق

العقوبات.

● السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

لقوله: «أن لا تدع صورة إلا طمستها».

ويؤخذ من حديث الباب أيضاً: الجمع بين فتنة التماثيل وفتنة القبور؛ لقوله: «أن لا

تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلى سويته»: لأن في كل منهما وسيلة إلى الشرك.

ويؤخذ منه أيضاً: إثبات العذاب يوم القيامة، وأن الجزاء من جنس العمل؛ لأنه

يُجْعَلُ له بكل صورة صورها نفساً فتُعَذِّبُ في جهنم.

ويؤخذ منه: وقوع التكليف في الآخرة بما لا يطاق على وجه العقوبة. اهـ.

قلت: وتقدم ذلك من كلام ابن حجر.



باب (٦١) ما جاء في كثرة الحلف

● مناسبة هذا الباب لما قبله.

قال الفقير: القاسم المشترك بين المصور ومن كثر حلفه بالله أن كليهما مستخف بجنا ب الله غير معظم له فلهذا ناسب أن يذكرهما المصنف على نسق وترتيب واحد.

● شرح الترجمة:

قال ابن عثيمين: (١) الحلف هو اليمين والقسم، وهو تأكيد الشيء بذكر مُعْظَم بصيغة مخصوصة بأحد حروف القسم، وهى: الباء، والواو، والتاء. اهـ.

● ماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبته لكتاب التوحيد:

قال حامد بن محمد (٢): باب ما جاء فى بيان إثم كثرة الحلف وعقوبتها وما يؤول اليمين.

قال ناصر السعدى: (٣) أصل اليمين انما شرعت تأكيداً للامر المخلوف عليه وتعظيماً للخالق، ولهذا وجب أن لا يحلف إلا بالله وكان الحلف بغيره من الشرك ومن تمام هذا التعظيم أن لا يحلف بالله إلا صادقاً ومن تمام هذا التعظيم أن يحترم اسمه العظيم عن كثره الحلف، فالكذب وكثره الحلف تنافى التعظيم الذى هو روح التوحيد. اهـ.

قال ابن باز (٤): أراد المؤلف بهذا الباب بيان أن كثرة الحلف نقص فى الإيمان ونقص فى التوحيد لأن كثرة الحلف تفضى إلى:

- التساهل فى ذلك وعدم المبالاة.

- الكذب

- ظن الكذب به. فإن من كثرت أيمانه وقع فى الكذب فينبغى التقلل من ذلك وعدم

الإكثار من الأيمان ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.

(١) القول المفيد ٣/ ٢٧٢.

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٤٦٢.

(٣) القول السديد ١٣٢ و ١٣٣.

(٤) التعليق المفيد ٢٦٧.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾^(١).

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد:

قال ابن عثيمين^(٢): أن كثرة الحلف بالله يدل على أنه ليس في قلب الخالف من تعظيم الله ما يقتضى هية الحلف بالله، وتعظيم الله تعالى من تمام التوحيد. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله مستفيداً من كلام ناصر السعدى المتقدم^(٣): - مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: هي أن كثرة الحلف ينافى كمال التوحيد، لأن اليمين إنما شرعت للأمر المخلوف عليه وتعظيماً للخالق ولهذا وجب أن لا يحلف إلا بالله، وكان الحلف بغيره من الشرك ومن تمام هذا التعظيم ألا يحلف بالله إلا صادقاً ومن تمام هذا التعظيم أن يحترم اسمه العظيم عن كثرة الحلف فالكذب وكثرة الحلف تنافى التعظيم الذى هو روح التوحيد. اهـ.

قوله: وقول الله ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.



● مناسبة الآية للباب وللتوحيد:

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٤): والمصنف أراد من الآية المعنى الذى ذكره ابن عباس؛ فإن القولين متلازمان، فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الاستخفاف وعدم التعظيم لله، وغير ذلك مما ينافى كمال التوحيد الواجب أو عدمه.

قال القرعاوى^(٥): دلت الآية على تحريم الإكثار من الحلف لغير سبب.

ومناسبة الآية للتوحيد: حيث دلت الآية على تحريم الإكثار من الحلف لأن ذلك تنقص لتعظيم الله وذلك مناف للتوحيد.

● الإعراب: (٦) ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾: الواو عاطفة، ﴿وَاحْفَظُوا﴾ فعل أمر وفاعل، ﴿أَيْمَانَكُمْ﴾ مفعول به. اهـ.

● التفسير بالمأثور عن النبى ﷺ والصحابة والتابعين

أولاً عن ما جاء عن النبى ﷺ

عن عبدالرحمن بن سمرة قال: قال النبى ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل

(١) القول المقيّد ٣/ ٢٧٢. (٢) المائدة: ٨٩.

(٣) الجامع الفريد ١/ ٢.

(٤) فتح المجيد ٢/ ٩٨٤.

(٥) الجديد ٥١٤.

(٦) إعراب القرآن / ١١.

الإمارة فانك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير» (١).

ثانياً عن الصحابة

عن عائشة قالت: كان أبو بكر إذا حلف لم يحنث، حتى نزلت آية الكفارة، فكان بعد ذلك يقول: لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وقبلت رخصة الله (٣).

عن ابن عباس قال: من حلف على ملك يمين ليضربه فكفارته تركه، ومع الكفارة حسنة (٤).

جبير بن مطعم. أنه افتدى يمينه بعشرة آلاف درهم، وقال: ورب هذه القبلة لو حلفت لحلفت صادقاً، وإنما هو شيء افتديت به يميني (٥).

ثالثاً عن التابعين

عن سعيد بن جبير «ذلك» يعني الذي ذكر من الكفارة «كفارة أيمانكم إذا حلفتم» يعني اليمين العمد «واحفظوا أيمانكم» يعني لا تعمدوا الإيمان الكاذبة «كذلك» يعني هكذا «يبين الله لكم آياته» يعني ما ذكر من الكفارة «لعلكم تشكروا» فمن صام من كفارة اليمين يوماً أو يومين ثم وجد ما يطعم فليطعم، ويجعل صومه تطوعاً (٢).

عن أبي نجيح. أن ناساً من أهل البيت حلفوا عند البيت خمسين رجلاً قسامة، فكأنهم حلفوا على باطل، ثم خرجوا حتى إذا كانوا في بعض الطريق قالوا تحت صخرة، فبينما هم قائلون تحتها إذا انقلبت الصخرة عليهم، فخرجوا يشتدون من تحتها، فانقلبت خمسين فلقة، فقتلت كل فلقة رجلاً (٦).

● أقوال المفسرين

قال الطبري (٧): يعني تعالى ذكره بقوله ذلك هذا الذي ذكرت لكم أنه كفارة

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم في الإيمان (١١/١١٦ - النووي).

وانظر «رياض الصالحين» (٦٧٥ - بتخریجنا).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (٥٥٦/٢) ونسبه لابن أبي حاتم، وأبى الشيخ.

وانظر «تفسير ابن أبي حاتم بتخریجنا».

(٣) [صحيح] أخرجه البخاري (٤٦١٤) وذكره السيوطي في «الدر» (٥٥٦/٢) وزاد نسبه لعبد

الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن مردويه.

(٤) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لابن المنذر.

(٥) ذكره السيوطي في الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ.

(٦) نفس المصدر السابق. (٧) تفسير الطبري / ٢١.

أيمانكم من طعام العشرة المساكين أو كسوتهم أو تحرير الرقبة وصيام الثلاثة الأيام إذا لم تجدوا من ذلك شيئاً كفارة أيمانكم التي عقدتموها إذا حلفتُمْ ﴿وَاحْفَظُوا﴾ أيها الذين آمنوا أيمانكم أن تحشوا فيها ثم تصنعوا الكفارة فيها بما وصفته لكم ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ كما بين لكم كفارة أيمانكم كذلك يبين الله لكم جميع آياته يعنى أعلام دينه فيوضحها لكم لئلا يقول المضيع المفرط فيما ألزمه الله لم أعلم حكم الله في ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول لشكروا الله على هدايته إياكم وتوفيقه لكم. اهـ.

قال البغوى (١): - قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾. قيل أراد به ترك الحلف، أى لا تحلفوا. وقيل، هو الأصح، أراد به إذا حلفتُمْ فلا تحشوا، فالمراد منه حفظ اليمين عن الحنث، هذا إذا لم يكن يمينه على ترك مندوب، أو فعل مكروه، فإن حلف على فعل مكروه، أو ترك مندوب، فالأفضل أن يحنث نفسه ويكفر. اهـ.

قال الجصاص (٢): - وما يدل على نفي الكفارة فى اليمين على الماضى قوله تعالى فى نسق التلاوة: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ وحفظها مراعاتها لأداء كفارتها عند الحنث فيها، ومعلوم امتناع حفظ اليمين على الماضى لوقوعها على وجه واحد لا يصح فيها المراعاة والحفظ.

فإن قال قائل: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ يقتضى عمومهُ إيجاب الكفارة فى سائر الأيمان إلا ما خصه الدليل. قيل له: ليس كذلك؛ لأن معلوم أنه قد أراد به اليمين المعقودة على المستقبل، فلا محالة أن فيه ضميراً يتعلق به وجوب الكفارة وهو حنث؛ وإذا ثبت أن فى الآية ضميراً سقط الاحتجاجُ بظاهرها لأنه لا خلاف أن اليمين المعقودة لا تجب بها كفارة قبل الحنث، فثبت أن فى الآية ضميراً فلم يجز اعتبار عمومها إذ كان حكمها متعلقاً بضمير غير مذكور فيها. وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ يقتضى أن يكون جميع ما تجب فيه الكفارة من الأيمان هى التى ألزمتنا حفظها، وذلك إنما هو فى اليمين المعقودة التى تمكن مراعاتها وحفظها لأداء كفارتها، واليمين على الماضى لا يقع فيها حنثٌ فيتتظمها اللفظ، ألا ترى أنه لا يصح دخول الاستثناء عليها فتقول: «كان أمس الجمعة إن شاء الله» و«الله لقد كان أمس الجمعة» إذا كان الحنث وجود معنى بعد اليمين بخلاف ما عقد عليه. ويدل على أن الكفارة إنما

(١) معالم التنزيل / ٢٩٧.

(٢) أحكام القرآن / ٦٣٨.

تتعلق بالحنث في اليمين بعد العقد أنه لو قال: «والله» ذلك قَسَمًا ولم تلزمه كفارة بوجود هذا القول، لأنه لم يتعلق به حنثٌ. اهـ.

قال ابن الجوزي (١): - وفي قوله «وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ» ثلاثة أقوال.
- أحدها: أقلوا منها ويشهد له قوله: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ» وأنشدوا قليل إلا لا يحافظ ليمينه.

- والثاني: احفظوا أنفسكم من الحنث فيها.
وذكر القولين الرازي (٢) ثم قال: واللفظ محتمل للوجهين، إلا أن على هذا التقدير يكون مخصوصاً بقوله عليه السلام «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير ثم ليكفر عن يمينه». اهـ.
قال الرازي:

الثالث: راعوها لكي تؤدي الكفارة عند الحث فيها اهـ.
قال القرطبي: (٣) «وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ» أى بالبدار إلى ما لزمكم من الكفارة إذا حنثتم. اهـ.

قال السعدي: (٤) «وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ» عن الحلف بالله كاذباً، وعن كثرة الإيمان واحفظوا إذا حلفتهم عن الحنث فيها، إلا إذا كان الحنث خيراً، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير ولا يكون يمينه عرضه لذلك الخير. اهـ.

● أقوال شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين (٥): هذه الآية ذكرها الله في سياق كفارة اليمين، وكل يمين لها ابتداء وانتهاء ووسط؛ فالابتداء الحلف، والانتهاء الكفارة، والوسط الحنث، وهو أن يفعل ما حلف على تركه، أو يترك ما حلف على فعله، وعلى هذا كل يمين على شيء ماض فلا حنث فيه، وما لا حنث فيه فلا كفارة فيه، لكن إن كان صادقاً؛ فقد بر، وإلا؛ فهو آثم؛ لأن الكفارة لا تكون إلا على شيء مُستقبل.

وهل يجوز أن يحلف على ما في ظنه؟

(١) زاد المسير ٢ / ٢٥٠

(٢) التفسير الكبير ٦ / ١٢ / ٨٣.

(٣) تفسير القرطبي ٤ / ٢٢٨٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ١ / ٥١.

(٥) القول المفيد ١ / ٢٧٢ و ٢٧٥.

الجواب: نعم، ولذلك أدلة كثيرة، منها قول المُجَامِع في نهار رمضان لرسول الله ﷺ: والله؛ ما بين لَابْتِيهَا أهل بيت أفقر مني.

لكن إن حلفت على مستقبل بناء على غلبة الظن ولم يحصل؛ فقليل: تلزمك كفارة، وقيل: لا تلزمك، وهو الصحيح، كما لو حلفت على ماض.

مثاله: فلو قلت: والله؛ ليقدمن زيد غداً. بناء على ظنك، فلم يقدم؛ فالصحيح أنه لا كفارة عليك؛ لأنك حلفت على ما في قلبك وهو حاصل، كأنك تقول: والله؛ إن هذا هو ظني، لكم هل يجوز لك أن تحلف على ما في ظنك؟ سبق ذلك قريباً.

إذن قوله: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بعد أن ذكر اليمين والكفارة والحنث؛ فما المراد بحفظ اليمين: هل هو الابتداء أو الانتهاء أو الوسط؟ أى: هل المراد: لا تكثرُوا الحلف بالله؟ أو المراد: إذا حلفتُمْ فلا تحشوا؟ أو المراد: إذا حلفتُمْ فحتثتم فلا تتركوا الكفارة؟

الجواب: المراد كلها؛ فتشمل أحوال اليمين الثلاثة، ولهذا جاء المؤلف بها في هذا الباب؛ لأن من معنى حفظ اليمين عدم كثرة الحلف، وإليك قاعدة مهمة في هذا، وهي أن النص من قرآن أو سنة إذا كان يحتمل عدة معاني لا ينافي بعضها بعضاً ولا مرجح لأحدها؛ وجب حمله على المعاني كلها.

والمراد بعدم كثرة الحلف: ما كان معقوداً ومقصوداً، أما ما يجرى على اللسان بلا قصد، مثل: لا والله؛ وبلى والله؛ في عرض الحديث، فلا مؤاخذه فيه؛ لقول تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

وكذلك من حفظ اليمين عدم الحنث فيها، وهذا فيه تفصيل؛ لأن النبي ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمره: «إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها؛ فكفر عن يمينك، واث الذي هو خير»^(١)، فحفظ اليمين في الحنث أن لا يحنث إلا إذا كان خيراً، وإلا؛ فالأحسن حفظ اليمين وعدم الحنث.

مثال ذلك: رجل قال: والله؛ لا أكلم فلاناً. وهو من المؤمنين الذين يحرم هجرهم؛ فهذا يجب أن يحنث في يمينه ويكلمه وعليه الكفارة.

مثال آخر: رجل قال: والله؛ لأعین فلاناً على شيء محرم. فهذا يجب الحنث فيه والكفارة ولا يعينه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٢).

وإذا كان الأمر متساوياً والحنث وعدمه سواء في الإثم؛ فالأفضل حفظ اليمين. كذلك من حفظ اليمين إخراج الكفارة بعد الحنث، والكفارة واجبة فوراً؛ لأن الأصل في الواجبات هو الفورية، وهو قيام بما تقتضيه اليمين.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) المائدة: ٢

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْحَلْفُ مَنْفَقَةٌ لِلسَّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ» أَخْرَجَاهُ^(١).

والكفارة: إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، وهذا على سبيل التخير، فمن لم يجد؛ فصيام ثلاثة أيام، وفي قراءة ابن مسعود متباعدة (٢).

فحفظ اليمين له ثلاثة معان:

١- حفظها ابتداء، وذلك بعدم كثرة الحلف، وليعلم أن كثرة الحلف تضعف الثقة بالشخص وتوجب الشك في أخباره.

٢ - حفظها وسطاً، وذلك بعدم الحنث فيها، إلا ما استثنى كما سبق.

٣- حفظها انتهاء في إخراج الكفارة بعد الحنث.

ويمكن أن يضاف إلى ذلك معنى رابع، وهو أن لا يحلف بغير الله؛ لأن الرسول ﷺ سَمَى الْقِسْمَ بِغَيْرِ اللَّهِ حَلْفًا. اهـ

فوائد الحديث (٣): -

١- بيان سماحة الإسلام.

٢- لا إثم ولا كفارة في لغو اليمين.

٣- تحريم الحنث في اليمين المقصودة لغير مصلحة.

٤- وجوب الكفارة في اليمين التي حنث فيها وهي كما فصلها الله في الآية.

٥- سبق الإسلام إلى تحريم العييد وحث على ذلك.

٦- تحريم الإكثار من الحلف.

٧- وجوب حفظ اليمين عن الكذب.



قوله: عن أبي هريرة - رضى الله عنه - : قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسَّلْعَةِ، ممحقة للكسب» أَخْرَجَاهُ.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى فى «البيع» /باب «يمسح الله الربا ويربى الصدقات» (٤/٣٦٩/ح ٢٠٨٧) ومسلم فى المساقاة/ باب: النهى عن الحلف فى البيع (٤/١١/ح ٤٤) والنوى والنسائى وفى الكبرى كتاب «البيع»/باب: المتفق سلعتة بالحلف الكاذب (٤/٦/ح ٦٠٥٢) والبيهقى فى الشعب/ب (٤/٢١٩/ح ٤٨٤٧) فى السنن الكبرى (٥/٢٦٥/ح ١٠٤٦).

جميعاً عن طريق ابن المسيب عن أبى هريرة.

وانظر رياض الصالحين (ح ١٧٢٣) بتخريجنا.

(٢) أخرجه: ابن جرير، (٥/٧/٢١)، وعبدالرزاق (٢/١٦١)، والبيهقى (١٠/٦٠).

(٣) الجديد (٤٥٠).

قال الفقير: «قوله أخرجاه» أى البخارى ومسلم

هذا الحديث أخرجه البخارى فى البيوع وبوّب عليه باب «يمحق الله الربا يربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم» وأسند بنفس هذا اللفظ. ومسلم فى المساقاة باب النهى عن الحلف فى البيع والنسائي فى الكبرى باب المنفق سلعته بالحلف الكاذب والبيهقى فى الشعب باب حفظ اللسان جميعاً عن طريق ابن المسيب عن أبى هريرة.

مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى^(١):

دل الحديث على تحريم الإكثار من الحلف لغير سبب.

مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى^(٢):

حرم الحديث الإكثار من الحلف لأن ذلك تنقص لتعظيم الله وذلك ينافى التوحيد. اهـ.

قوله: «الحلف»

قال ابن حجر^(٣): بفتح المهملة وكسر اللام أى اليمين الكاذبة. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): المراد به الحلف الكاذب، كما بيته رواية أحمد: «اليمين الكاذبة» أما الصادقة، فليس فيها عقوبة، لكن لا يكثر منها كما سبق. اهـ.

قوله: «منفقة للسلعة».

قال ابن حجر^(٥): (منفقة) بفتح الميم والفاء بينهما نون ساكنة مفعلة من النفاق بفتح النون وهو الرواج ضد الكساد، والسلعة بكسر السين المتاع، وقوله محقة بالمهملة والقاف وزن الأول وحكى عياض ضم أوله وكسر الحاء، والمحق النقص والإبطال.

وقال القرطبى: المحدثون يشددونها، والأول أصوب والهاء للمبالغة ولذلك صح خبراً عن الحلف، وفى مسلم اليمين، ولأحمد اليمين الكاذبة، وهى أوضح، وهما فى الأصل مصدران مزيدان محدودان بمعنى النفاق والمحق. اهـ.

(٢، ١) الجديد ٤٥٢، ٤٥٣.

(٣) الفتح ٣٦٩/٤.

(٤) القول المفيد ٢٧٦/٣.

(٥) الفتح ٣٦٩/٤.

وَعَنْ سَلْمَانَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ: أَشِيمِطُ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهُ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): والمعنى: أنه إذا حلف على سلعة أنه أعطى فيها كذا وكذا، أو أنه اشتراها بكذا وكذا، وقد يظنه المشتري صادقاً فيما حلف عليه، فيأخذها بزيادة على قيمتها، والبائع كذاب، وحلف طمعاً في الزيادة، فيكون قد عصى الله تعالى، فيعاقب بمحق البركة، فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأساً، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وإن تزخرفت الدنيا للعاصي فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب. اهـ.

قل ابن عثيمين^(٢): قوله: «منفقة للسلعة».

أى: ترويج للسلعة مأخوذ من التفاق وهو مضى الشيء ونفاذه، والحلف على السلعة، قد يكون حلفاً على ذاتها أو نوعها أو وصفها أو قيمتها.

الذات: كأن يحلف أنها من المصنع الفلاني المشهور بالجودة وليست منه.

النوع: كأن يحلف أنها من الحديد، وهى من الخشب.

الصفة: كأن يحلف أنها طيبة، وهى رديئة.

القيمة: كأن يحلفها أن قيمتها بعشرة، وهى بثمانية. اهـ.

قرله: «محققة للكسب».

قال ابن عثيمين^(٣): أى: متلفة له، والإتلاف الحسى بأن يسلط الله على ماله شيئاً يتلفه من حريق أو نهب أو مرض يلحق صاحب المال فيتلفه فى العلاج، والإتلاف المعنوى بأن ينزع الله البركة من ماله، فلا ينتفع به لا ديناً ولا دنياً، وكم من إنسان عنده مال قليل، لكن نفعه الله به ونفع غيره ومن وراءه، وكم من إنسان عنده أموال لكن لم ينتفع به صار - والعياذ بالله - بخيلاً يعيش عيشة الفقراء وهو غنى، لأن البركة قد محقت. اهـ..



قوله: وعن سلمان: أن رسول الله قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم...» الحديث

(١) فتح المجيد / ٣٦٩.

(٢) القول المفيد ٢٧٦/٣.

(٣) القول المفيد ٢٧٦/٣.

إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ». رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ^(١).

قال الفقير: هذا الحديث أخرجه الطبراني في «الكبير» وفي «الأوسط» من طريق عاصم الأحول عن أبي عثمان النهدي عن سلمان. اهـ.

● مناسبة الحديث للباب:

قال ابن عثيمين: أن من جعل الله بضاعته، فإن الغالب أنه بغير الحلف بالله - عز وجل. اهـ.

قال القرعاوي^(٢): حيث دلّ الحديث على تحريم الإكثار من الحلف بغير سبب.

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوي^(٣): حرم الحديث الإكثار من الحلف لأنه استخفاف بالله وذلك يتنافى التوحيد. اهـ.

قوله: «وعن سلمان»:

قال سليمان آل الشيخ^(٤): لعلة سلمان الفارسي، أبو عبد الله، أسلم مقدم النبي ﷺ المدينة وشهد الخندق، روى عنه أبو عثمان النهدي، وشرحيل بن السمط وغيرهما، قال النبي ﷺ: «سَلَمَانٌ مِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ»،^(٥) إن الله يحب من أصحابي أربعة: عليّاً، وأبا ذر، وسلمان، والمقداد^(٦) أخرجه الترمذي وابن ماجه.

قال الحسن: كان سلمان أميراً على ثلاثين ألفاً يخطب بهم في عباءة يفرش نصفها ويلبس نصفها، توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه.

قال أبو عبيدة: سنة ستة وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة. ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبي. اهـ.

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦/٢٤٦/٦) ح (٦١١). وفي «الأوسط» (٥/٣٦٧/٥) ح (٥٥٧٧).

من طريق عاصم الأحول عن أبي عثمان النهدي عن سلمان... فذكره.

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٤/٧٨) وقال: رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح.

(٢) القول المفيد ٢٨٣/٣.

(٣) الجديد ٤٥٥.

(٤) تيسير العزيز الحميد ٥٤٠.

(٥) أخرجه الحاكم (٣/٥٩٨)، والطبراني في «الكبير» (٦/٢١٢/٦) ح (٦٠٤٠).

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/٣٥١)، والترمذي (٣٧١٨) وابن ماجه (١٤٩) عن بريدة به.

قوله: «ثلاثة»:

قال ابن عثيمين^(١): مبتدأ وسوغ الابتداء بها أنها أفادت التقسيم.

قوله: «لا يكلمهم الله».

قال النووي: قيل: أى لا يكلمهم تكليم أهل الخيرات، وبإظهار الرضى، بل بكلام أهل السخط والغضب. وقيل: المراد الإعراض عنهم.

وقال جمهور المفسرين: لا يكلمهم كلاماً ينفعهم ويسرهم، وقيل: لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): نفى كلام الرب تعالى وتقدس عن هؤلاء العصاة دليل على أنه يكلم من أطاعه، وأن الكلام صفة من صفات كماله، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه، وهذا هو الذى عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله سبحانه، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً ولم يزل متصفاً به، فهو حادث الآحاد قديم النوع، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي، وأحمد وسائر الطوائف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣) فأتى بالحروف الدالة على الحال والاستقبال أيضاً، وذلك فى القرآن كثير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإذا قالوا لنا- يعنى النفاة: فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به؟ ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل، ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الأعراض والنقائص والله تعالى منزّه عن ذلك- ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك، مما دل عليه الكتاب والسنة.

والقول الصحيح: هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون: لم يزل الله متكلماً إذا شاء، كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة. اهـ.

قلت: - يعنى عبد الرحمن آل الشيخ - ومعنى قيام الحوادث به تعالى: قدرته عليها، وإيجاده لها بمشيئته وأمره. والله أعلم.

قال ابن عثيمين^(٤): التكليم: هو إسماع القول، وأما ما يقدره الإنسان فى نفسه، فلا يسمى كلاماً على سبيل الإطلاق وإن كان يسمى قولاً بالقييد بالنفس، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾^(٥) وقال عمر رضى الله عنه - فى قصة السقيفة: «زورت فى نفسى كلاماً» أى: قدرته.

(١) القول المفيد (٢٧٧/٣) فتح المجيد (٦٨٦/٢) وانظر تيسير العزيز الحميد ٥٣٩ و ٥٤٠.

(٣) يس: ٨٢ (٤) القول المفيد ٢٧٧/٣ - ٢٧٩.

(٥) المجادلة: ٨. (*) شرح مسلم (٢٩٣/١).

فالكلام عند الإطلاق لا يكون إلا بحرف وصوت مسموع.

واختلف الناس فى كلام الله إلى ثمانية أقوال كما ذكره ابن القيم فى «الصواعق المرسله».

لكن إذا رجعنا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأخذنا منهما عقيدتنا صافية، وقطعنا النظر عن هذه المجادلات لأنه ما أوتى الجدل قوم إلا ضلوا، علمنا أن كلام الله حقيقى يسمع، ولكن الصوت ليس كأصوات المخلوقين، أما ما يسمع من كلام الله، فلا شك أنه يحرف يفهمها المُخاطب، إذ لو كان يتكلم بحروف لا تشبه الحروف التى يتكلم بها المخاطب لم يفهم كلامه أبداً، فالحروف التى تسمع هى حروف اللغة التى يخاطب الله بها من يخاطبه، والله - عز وجل - يخاطب كل أحد بلغته.

ونفى الكلام هنا دليل على إثبات أصله، لأنه لما نفاه عن قوم دل على ثبوته لغيرهم. وبهذه الطريقة استدل بها أهل العلم على إثبات رؤية الله يوم القيامة للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾^(١) فما حجب الفجار عن رؤيته، إلا ورآه الأبرار، إذ لو امتنعت الرؤية مطلقاً لكان الفجار والأبرار سواء فيها، كذلك هنا لو انتفى كلام الله - عز وجل - عن كل أحد، فلا وجه للتخصيص بنفى الكلام عن هؤلاء.

ولا يلزم من كلامه - سبحانه - أن يكون له آلة كالآدمى، كاللسان والأسنان، والخلق، وما أشبه ذلك، كما لا يلزم من سماع الله أن يكون له أذن، فالأرض مثلاً تسمع وتحدث وليس لها لسان ولا آذان، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾^(٢)، وكذا الجلد ينطق يوم القيامة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣) وكذا الأيدي والأرجل، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٤) فالأيدي والأرجل والالسن والجلود والسمع والأبصار ليس لها لسان ولا شفتان، هذا هو المعلوم لنا.

فإن قيل: إن الله يكلم من هو أعظم منهم جرماً وهم أهل النار؟

(١) المطففين: ١٥.

(٢) الزلزلة: ٥/٤.

(٣) فصلت: ٢٠.

(٤) النور: ٢٤.

فالجواب: إن المراد بنفى الكلام هنا كلام الرضا، أما كلام الغضب والتوبيخ، فإن هذا الحديث لا يدل على نفيه.

قوله: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾

قال النووى: لا يظهريهم من دنس ذنوبهم، وقال الزجاج وغيره: معناه لا يثني عليهم. أهـ

قال ابن عثيمين^(١)

التزكية: بمعنى التوثيق والتعديل، فيوم القيامة لا يوثقهم، ولا يعدلهم، ولا يشهد عليهم بالإيمان، لما فعلوه من هذه الأفعال الخبيثة.

قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قال النووى: أى مؤلم، قال الواحدى: هو العذاب الذى يخلص إلى قلوبهم وجعه. قال: والعذاب كل ما يعى الإنسان ويشق عليه، قال: وأصل العذاب فى كلام العرب من العذب، وهو المنع، يقال: عذبت عذبا إذا منعت، وعذب عذوبا. أى امتنع، وسمى الماء عذبا لأنه يمنع العطش، فسمى العذاب عذابا؛ لأنه يمنع المعاقب من معاودة مثل جرمه، ويمنع غيره من مثل فعله، والله أعلم أهـ (*).

قال سليمان آل الشيخ^(٢)

لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم، فعوقبوا بهذه الثلاث التى هى أعظم العقوبات. ﴿عَذَابٌ﴾

قال ابن عثيمين^(٣): عقوبة، و﴿أَلِيمٌ﴾، أى: شديد موجع مؤلم.

قوله: «أشيمط».

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٤): «قوله: أشيمط زان» صغره تحقيرا له، وذلك لأن داعى المعصية ضعف فى حقه، فدل على أن الحامل له على الزنا: محبة المعصية والفجور، وعدم خوفه من الله، وضعف الداعى إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليب العقوبة عليه، بخلاف الشاب، فإن قوة داعى الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله، وقد يرجع على نفسه بالندم، ولومها على المعصية، فيتتهى ويرجع. أهـ.

(١) القول المفيد ٢٧٩/٣.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٤٠.

(٣) القول المفيد ٢٧٩/٣.

(*) شرح مسلم - (١/٣٩٣)

(٤) تيسير العزيز الحميد ٥٤١.

قال ابن عثيمين:

هو الذى اختلط سواده ببياضه لكبر سنه ، وكبير السن قد بردت شهوته ، وليس فيه ما يدعو إلى الزنا ، ولكنه زنا مما دل على خبث فى إرادته ، ولأنه عادة قد بلغ أشده واستوى وعرف الحكمة ، وملكه عقله أكثر من هواه ، فالزنا منه غريب ، إذ ليس عن شهوة ملحّة ، ولكن عن سوء نية وقصد وضعف إيمان بالله ، فصار السبب المقتضى لزناه ضعيفاً ، والحكمة التى نالها ببلوغ الأشد كبرى ، وكأنه تقادم سنه يستلزم أن يغلب جانب العقل ، ولكنه خالف مقتضى ذلك ، ولهذا صغره تحقيراً لشأنه ، فقال : «أشيمط» تصغير أشمط .

قوله: «زان».

صفة لأشيمط ، وهو مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة ، والحركة التى على النون ليست حركة إعراب .

والزنا: فعل الفاحشة فى قبل أو ذبر ، وقد نهى الله عنه ويَسْنُ أنه فاحشة ، فقال : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (١).

قوله: «عائل مستكبر».

قال عبد الرحمن آل الشيخ (٣): وكذا العائل المستكبر ليس له ما يدعو إلى الكبر ، لأن الداعى إلى الكبر فى الغالب كثرة المال والنعمة والرياسة ، و«العائل» الفقير لا داعى له إلى أن يستكبر ، فاستكباره مع عدم الداعى إليه يدل على أن الكبر طبيعة له ، كامن فى قلبه ، فعظمت عقوبته ، لعدم الداعى إلى هذا الخلق الذمى ، الذى هو من أكبر المعاصى . اهـ .

قال ابن عثيمين (٢):

أى: فقير ، قال تعالى ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ فالمقابلة هنا فى قوله: ﴿فَأَغْنَى﴾ بينت أن معنى عائلاً: فقيراً .

والاستكبار: الترفع والتعاضم ، وهو نوعان:

- استكبار عن الحق بأن يردّه أو يترفع عن القيام به .

(١) الإسراء: ٣٢ .

(٢) القول المفيد ٣ / ٢٨٠ .

(٣) فتح المجيد تيسير العزيز الحميد ٥٤١ .

- واستكبار على الخلق باحتقارهم واستدلالهم، كما قال النبي ﷺ: «الكبر بضر الحق وغمط الناس»^(١).

فالفقير داعي الاستكبار عنده ضعيف، فيكون استكباره دليلاً على ضعف إيمانه وخبث طويته، ولذلك كانت عقوبته أشد. اهـ.

قوله: «رجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه»

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): قوله: «ورجل جعل الله بضاعته» بنصب الاسم الشريف، أى: الحلف به، جعله بضاعته، لملازمته له وغلبته عليه.

وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحدًا فتوحيدة ضعيف، وأعماله ضعيفة، بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصي العظيمة على قلة الداعي إليها، نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ بالله من كل عمل لا يحبه ربنا ولا يرضاه. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): أى: جعل الحلف بالله بضاعة له، وإنما ساغ التأويل هنا، لأن النبي ﷺ هو الذى فُسِّرَ بذلك، حيث قال: «لا يشتري إلا بيمينه...» وإذا كان المتكلم هو الذى أخرج كلامه عن ظاهره، فهو أعلم بمراده، وهذا كما فى الحديث القدسى: «عبدى! استطعمتك فلم تطعمنى، استسقيتك فلم تسقنى»^(٤) فبينه الله - عز وجل - بقوله: «عبدى فلان جاع فلم تطعمه، استسقاك فلم تسقه».

فقوله: «لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه» استثنائية تفسيرية، لقوله: «جعل الله بضاعته» ومعناها: أنه كلما اشترى حلف، وكلما باع حلف طلباً للكسب، واستحق هذه العقوبة، لأنه إن كان صادقاً فكثرة إيمانه تشعر باستخفافه واستهاتته باليمين ومخالفته قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.

وإن كان كاذباً جمع بين أربعة أمور محذورة:

١- استهاتته باليمين ومخالفته أمر الله بحفظ اليمين.

٢- كذبه.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٨٩/٢ - النووى) عن ابن مسعود به.

وانظر «رياض الصالحين» (٦١٣ - بتخريجنا):

(٢) فتح المجيد و تيسير العزيز الحميد ٥٤١.

(٣) القول المفيد ٢٨١/٣، ٢٨٢.

(٤) تقدم تخريجه.

٣- أكله المال بالباطل .

٤- أن يمينه يمين غموس، وقد ثبت عن النبي ﷺ ، أنه قال: «من حلف على يمين هو فيها فاجر يقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان» (١).

وكل ما في هذا الحديث يجب الحذر منه والبعد عنه، لأن هذا ما يريده النبي ﷺ من الإخبار به، وإلا، فما الفائدة من سماعنا له إذا لم تظهر مقتضيات النصوص على معتقداتنا وأقوالنا وأفعالنا؟ فنحن والجاهل سواء، بل نحن أعظم، ولذلك لا ينبغي أن نمر علينا بلا فائدة فنعرف معناها فقط، بل يجب أن نعرف معناها ونعمل بمقتضاها، ثم يجب علينا أيضاً بوصفنا ممن أتاهاهم الله العلم أن نُحذر الناس منها لنكون وارثين للرسول ﷺ فالنبي ﷺ كان عالماً عاملاً داعياً ، أما طالب العلم، فإنه ليس وارثاً للرسول عليه الصلاة والسلام حتى يقوم بما قام به من العمل والدعوة، فعلينا أن نُحذر إخواننا المسلمين من هذا العمل الكثير بين الناس، وهو جعل الله بضاعة لهم، لا يبيعون إلا بأيمانهم، ولا يشترون إلا بأيمانهم. اهـ.

فوائد الحديث (٢):

١- إثبات الكلام لله عز وجل - على وجه يليق بجلاله .

٢- إثبات أن الله يكلم أهل الطاعة .

٣- تحريم الزنا والإكثار من اليمين. اهـ.

قلت: وفي الباب أيضاً حديث أبي هريرة في الصحيحين بلفظ «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالفلاة يمنع من ابن السيل، ورجل بايع رجلاً بسعة بعد العصر فحلف بالله لأخذها بكذا وكذبه فصدقه، وهو على غير ذلك، ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وفي، وإن لم يعطه منها لم يوف» وفي رواية لمسلم من حديث أبي ذر، قال أبو ذر «خابوا وخسروا. من هم يارسول الله؟ قال: المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» وله «بالخلف الفاجر» ولمسلم أيضاً من حديث أبي هريرة بزيادة «شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»، فنسأل الله العفو والعافية.



(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٢٣٦٥) ومسلم في الإيمان (١/٢/١٥٨) عن ابن مسعود به .

وانظر «رياض الصالحين» (١٧١٥) - بتخریجنا).

(٢) الجديد ٤٥٤ .

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ عُمَرَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» (قَالَ عُمَرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟)، ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَهْدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذَرُونَ وَلَا يُؤْفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ^(١).

قوله: - وفي الصحيح عن عمران بن حصين - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتى قرنى ...» الحديث.

قوله: «وفي الصحيح» أى الصحيحين. وغيرهما.

قال الفقير: هذا الحديث أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة باب فضائل أصحاب النبى ﷺ، ومسلم فى فضائل الصحابة باب فضل الصحابة وأبو داود فى السنة باب فضل أصحاب رسول الله ﷺ والترمذى باب ما جاء فى القرآن من حديث عمران بن حصين.

وذكره البخارى فى أربع مواضع من صحيحه.

قال: باب لا يشهد على شهادة زور إذا أشهد ولفظه^(٢): «عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ: «خيركم قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران: لا أدرى أذكر النبى ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة - قال النبى ﷺ: «إن بعدكم قوماً يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن».

وذكره فى باب فضائل أصحاب النبى ﷺ ولفظه^(٣): «خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، قال عمران: فلا أدرى أذكر بعد قرنيه أو ثلاثاً ثم إن

(١)[متفق عليه] أخرجه البخارى فى: فضائل الصحابة/ باب: فضائل أصحاب النبى ﷺ (٧/٥٠٥ ح/٣٦٥١)، (٢٦٥١) ومسلم فى «فضائل الصحابة: /باب: فضل الصحابة (٨/٣٢٦ ح/٢١٤) وأبو داود فى السنة: /باب: فضل أصحاب رسول الله ﷺ (٤/٢١٣ ح/٤٦٥٧)، والترمذى فى «الفتن» /باب: ما جاء فى القرن الثانى (٤/٥٠٠ ح/٢٢٢٢).

من حديث عمران بن حصين.

(٢) ح ٢٦٥١.

(٣) ح/ ٣٦٥٠.

بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن.

وذكره في باب ما يحذر من زهرة الدنيا، والتنافس فيها ولفظه^(١): «عن عبد الله رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء من بعدهم قوم تسبق شهادتهم أيمانهم وأيمانهم شهادتهم»، وسيأتي. وذكره في باب: إثم من لا يفي بالنذر.

ولفظه: عن عمران بن حصين يحدث عن النبي ﷺ قال: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، قل عمران: لا أدري ذكر اثنين أو ثلاثًا بعد قرنه ثم يجيء قوم ينذرون ولا يوفون، ويخونون ولا يؤتمنون ويشهدون ولا يستشهدون، ويظهر فيهم السمن.

وفى لفظ عند مسلم^(٢): (خير هذه الأمة القرن الذين بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم) زاد في حديث أبو عوانة قال: والله أعلم أذكر الثالث أم لا، بمثل حديث زهدم عن عمران، وزاد في حديث هشام عن قتادة (أو يحلفون ولا يحلفون). [قوله عن عمران بن حصين] تقدمت ترجمته.

قوله: «خير أمتي قرني» قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): لفضيلة أهل ذلك القرن في العلم والإيمان، والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون، ويتفاضل فيها العاملون، فغلب فيها وكثر أهله، وقل الشر فيها وأهله، واعتز فيها الإسلام والإيمان، وكثر فيها العلم والعلماء: «ثم الذين يلونهم» فضلوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم، وكثرة الداعي إليه، والراغب فيه والقائم به، وما ظهر فيه من البدع أنكر واستعظم وأزيل، كبعدة الخوارج والقدرية والرافضة فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت، فأهلها في غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب. اهـ.

وبهذا يظهر أن المصنف جمع بين بعض ألفاظ الحديث.

قوله: «خير أمتي قرني»

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) [صحيح] مسلم (٢١٤/٣٢٦/٨).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٥٤٢.

قال ابن عثيمين (١): (خير): مبتدأ و(قرنى) خبر.

قال ابن حجر (٢): أى أهل قرنى.

والقرن أهل زمان واحد مستقارب اشتركوا فى أمر من الأمور المقصودة ، ويقال إن ذلك مخصوص بما إذا اجتمعوا فى زمن نبى أو رئيس يجمعهم على ملة أو مذهب أو عمل ، ويطلق القرن على مدة من الزمان .

واختلفوا فى تحديدها من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين لكن لم أر من صرح بالسبعين ولا بمائة وعشرة ، وما عدا ذلك فقد قال به قائل .

وذكر الجوهري بين الثلاثين والثمانين ، وقد وقع فى حديث عبد الله بن بسر عند مسلم ما يدل على أن القرن مائة وهو المشهور .

وقال صاحب المطالع ، القرن أمة هلكت فلم يبق منهم أحد ، وثبت المائة فى حديث عبد الله بن بسر وهى ما عند أكثر أهل العراق ، ولم يذكر صاحب «المحكم» الخمسين وذكر من عشر إلى سبعين ثم قال ، هذا هو القدر المتوسط من أعمار أهل كل زمن ، وهذا أعدل الأقوال وبه صرح ابن الأعرابي وقال : إنه مأخوذ من الأقران ، ويمكن أن يحمل عليه المختلف من الأقوال المتقدمة ممن قال إن القرن أربعون فصاعداً ، أما من قال إنه دون ذلك فلا يلتزم على هذا القول والله أعلم .

والمراد بقرن النبى ﷺ فى هذا الحديث الصحابة وفى الحديث : «وبعث فى خير قرون بنى آدم» وفى رواية بريدة عند أحمد «خير هذه الأمة القرن الذين بعثت فيهم» (٣) وقد ظهر أن الذى بين البعثة وآخر من مات من الصحابة مائة سنة وعشرون سنة أو دونها أو فوقها بقليل على الاختلاف فى وفاة أبى الطفيل ، وإن اعتبر ذلك من بعد وفاته ﷺ فيكون مائة سنة أو تسعين أو سبعاً وتسعين .

وأما قرن التابعين فإن اعتبر من سنة مائة كان نحو سبعين أو ثمانين ، وأما الذين بعدهم فإن اعتبر منها كان نحواً من خمسين ، فظهر بذلك أن مدة القرن تختلف باختلاف أعمار أهل كل زمان والله أعلم .

واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين ، وفى هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً ، وأطلقت المعتزلة ألسنتها ، ورفعت الفلاسفة رؤسها ، وامتنح أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن ، وتغيرت الأحوال تغيراً شديداً ، ولم يزل الأمر فى نقص إلى الآن ، وظهر قوله ﷺ : «ثم يفشو الكذب» ظهوراً بيناً حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات والله المستعان .

(١) القول المفيد (٢٨٣/٣) (٢) الفتح ٨/٧ .

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٣٥٠ / ٥) عن بريدة به .

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «خير أمتى قرنى» وفى لفظ لهما: «خيركم قرنى» وفى حديث ابن مسعود عند البخارى: «خير الناس قرنى»^(٢) وهذا هو المراد إذ المراد بالخيرية هنا الخيرية المضافة إلى الناس عموماً وليس للأمة فقط، ولهذا ثبت عنه عليه السلام أنه قال: «بعثت من خير قرون بنى آدم»^(٣).

وعليه: فالخيرية فى القرن الأول خيرية عامة على جميع الناس وليس على هذه الأمة فقط.

وأما قوله: «خير أمتى».

فإنه يقال: إن الخيرية إذا كانت مضافة إلى عموم الناس دخل فيها هذه الأمة، لكن إذا خصصناها بهذه الأمة خرج بقية الناس، والأخذ بالعموم الداخلى فيه الخاص أولى، وقد يقال: إن معنى اللفظين واحد، فإن هذه الأمة خير الأمم، فإذا كان الصحابة خير قرونهم لزم أن يكونوا خير الناس.

والقرن مأخوذ من الاقتران، والمراد: الطائفة المقترنون بشئ من الأشياء كالملة، أو السن، أو ما أشبه ذلك.

فمن العلماء عرّفه: بالطائفة كما سبق، ومنهم من عرّفه بالزمن، وهؤلاء اختلفوا فيه على أقوال:

فمنهم من حده بأربعين، ومنهم من حده بثمانين، ومنهم من حده بمائة، ومنهم حده بمائة وعشرين سنة.

فعلى الأول يكون معنى «خير أمتى قرنى»: خير أمتى الصحابة، سواء بلغوا مائة سنة أم لا، والمعروف أن آخر من مات من الصحابة مات سنة مائة وعشرة أو مائة وعشرين، فإذا قلنا مائة وعشرين، فهذه المدة زائدة على المائة، وإذا اعتبرناها من البعثة تكون مائة وثلاثاً وثلاثين سنة، لأن التقويم مبتدأ من الهجرة، والهجرة كانت بعد البعثة بثلاث عشرة سنة، وهذا القرن الأول، أما التابعون، فإن آخرهم مات سنة مائة وثمانين، فيكون بينهم وبين الصحابة ستون سنة، وأما تابعو التابعين، فإن آخرهم مات سنة مائتين وعشرين، وهذا منتهى القرن الثالث.

(١) القول المفيد ٢٨٣/٣ - ٢٨٥.

(٢) سيأتى تخريجه.

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٥٥٧) عن أبى هريرة به.

.....
قرن الصحابة إن ابتدأته من البعثة صار ثلاثاً وثلاثين ومائة سنة، وإن ابتدأته من الهجرة صار عشرين ومائة سنة .

وقرن التابعين ستون سنة .

وقرن تابع التابعين أربعون سنة .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن القرن معتبر بمعظم الناس، فإن كان معظم الناس التابعين فالقرن قرنهم، وهكذا .

قوله: «أمتي» .

المراد أمة إجابة، لأن أمة الدعوة إذا لم يؤمنوا فليس فيهم خير . اهـ .

قوله: «ثم الذين يلونهم» ، ثم الذين يلونهم

قال ابن حجر^(١): «قوله: «ثم الذين يلونهم» .

قوله: «ثم الذين يلونهم» أى القرن الذى بعدهم وهم التابعين .

(ثم الذين يلونهم) وهم أتباع التابعين، واقتضى هذه الحديث أن تكون الصحابة

أفضل من التابعين والتابعون أفضل من أتباع التابعين،

لكن هل هذه الأفضلية بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد؟

محل بحث، وإلى الثانى نحا الجمهور، والأول قول ابن عبد البر، والذى يظهر أن

من قاتل مع النبى ﷺ أو فى زمانه بأمره أو أنفق شيئاً من ماله بسببه لا يعدله فى

الفضل أحد بعده كائناً من كان، وأما من لم يقع له ذلك فهو محل البحث، والأصل

فى ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْبَرُ مِنْ دَرَجَةِ

مَنْ آتَى الْفَتْحَ مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا﴾ الآية واحتج ابن عبد البر بحديث: «مثل أمتى مثل

المطر لا يدرى أوله خير أم آخره» وهو حديث حسن له طرق قد يرتقى بها إلى الصحة،

وأغرب النووى فعزاه فى فتاويه إلى مستند أبى يعلى من حديث أنس بإسناد ضعيف،

مع أنه عند الترمذى بإسناد أقوى منه من حديث أنس، وصححه ابن حبان من

(١) الفتح ٨/٧ .

حديث عمار^(١) وأجاب عنه النووي بما في حاصله، أن المراد من يشبهه عليه الحال في ذلك من أهل الزمان الذين يدركون عيسى بن مريم عليه السلام ويرون في زمانه من الخير والبركة وانتظام كلمة الإسلام ودحض كلمة الكفر، فيشبهه الحال على من شاهد ذلك أى الزمانين خير، وهذا الاشتباه مندفع بصريح قوله ﷺ: «خير القرون قرني» والله أعلم. وقد روى ابن أبي شيبة من حديث عبد الرحمن بن جبير بن نفير أحد التابعين بإسناد حسن قال، قال رسول الله ﷺ: «ليدركن المسيح أقواماً إنهم لمثلکم أو خير - ثلاثاً - ولن يخزي الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها»^(٢).

وروى أبو داود والترمذى من حديث أبى ثعلبة رفعه: «تأتى أيام للعامل فيهن أجر خمسين، قيل: منهم أو منا يارسول الله قال: «بل منكم»^(٣) وهو شاهد لحديث «مثل أمتي مثل المطر» واحتج ابن عبد البر أيضاً بحديث عمر رفعه «أفضل الخلق إيماناً قوم في أصلاب الرجال يؤمنون بى ولم يروني»^(٤) الحديث أخرجه الطيالسى وغيره لكن إسناده ضعيف فلا حجة فيه، وروى أحمد والدارمى والطبرانى من حديث أبى جمعة قال: «قال أبو عبيدة: يا رسول الله أحد خير منا؟ أسلمنا معك، وجاهدنا معك. قال: «قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بى ولم يروني»^(٥) وإسناده حسن وقد صححه الحاكم، واحتج أيضاً بأن السبب في كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار حينئذ وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم، قال: فكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على الطاعة حين ظهور المعاصى والفتن كانوا أيضاً عند ذلك غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الزمان كما زكت أعمال أولئك، ويشهد له ما رواه مسلم عن أبى هريرة رفعه «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء»^(٦) وقد تعقب كلام ابن عبد البر بأن مقتضى كلامه أن يكون فيمن يأتى بعد

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٠ / ٣)، والترمذى (٢٨٦٩) عن أنس به وقال الترمذى: حسن غريب.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣١٩ / ٤)، وابن حبان في «صحيحه» (١٧٦ / ٩) - الإحسان - عن عمار بن ياسر به.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٤٢ / ٥٦٧)، عن عبد الرحمن بن جبير مرسلأ. ولطائف المعارف (٢١٧ / ١) وانظر «كتايب فقه الخطابة» (٢٧٥ / ١)

(٤) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذى (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤) عن أبى ثعلبة به.

وانظر «الإتقان» للسيوطى بترجيحنا.

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٦ / ٤)، الطبرانى في «الدرن» (٣٥٣٧ / ٢٢ / ٤)، والحاكم في «المستدرک» (٨٥ / ٤).

عن أبى جمعة به.

وانظر «فتح القدير» بترجيحنا.

(٦) [صحيح] أخرجه مسلم في الإيمان (٢ / ٤٥٣ / ٢٣٢) عن أبى هريرة به.

الصحابة من يكون أفضل من بعض الصحابة، وبذلك صرح القرطبي ، لكن كلام ابن عبد البر ليس على الإطلاق فى حق جميع الصحابة، فإنه صرح فى كلامه باستثناء أهل بدر والحديبية، نعم والذى ذهب إليه الجمهور أن فضيلة الصحبة لا يعد لها عمل لمشاهدة رسول الله ﷺ ، وأما من اتفق له الذب عنه والسبق إليه بالهجرة أو النصرة وضبط الشرع المتلقى عنه وتبليغه لمن بعده فإنه لا يعد له أحد ممن يأتى بعده لأنه ما من خصلة من الخصال المذكورة إلا والذى سبق بها مثل أجر من عمل بها من بعده، فظهر فضلهم ، ومحصل النزاع يتمحض فيمن لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة كما تقدم، فإن جمع بين مختلف الأحاديث المذكورة كان متجهًا ، على أن حديث «للعامل منهم أجر خمسين منكم»^(١) لا يدل على أفضلية غير الصحابة على الصحابة، لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة، وأيضًا فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله فى ذلك العمل فأما ما فاز به من شاهد النبى ﷺ من زيادة فضيلة المشاهدة فلا يعدله فيها أحد، فهذه الطريق يمكن تأويل الأحاديث المتقدمة ، وأما حديث أبى جمعة^(٢) ، فلم تتفق الرواة على لفظ فقد رواه بعضهم بلفظ الخيرية كما تقدم ، ورواه بعضهم بلفظ «قلنا يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجرًا؟» الحديث أخرجه الطبرانى وإسناد هذه الرواية أقوى من إسناد الرواية المتقدمة، وهى توافق حديث أبى ثعلبة^(٣) ، وقد تقدم الجواب عنه والله أعلم. اهـ.

قوله: «قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا؟»

قال ابن حجر^(٤): «قوله: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة» وقع مثل هذا الشك فى حديث ابن مسعود وأبى هريرة عند مسلم^(٥)، وفى حديث بريدة عند أحمد^(٦)، وجاء فى أكثر الطرق بغير شك، منها عن النعمان بن بشير عند أحمد^(٧)، وعن مالك عند مسلم عن عائشة «قال رجل: يا رسول الله أى الناس خير؟ قال: «القرن الذى أنا فيه، ثم الثانى، ثم الثالث»^(٨) ، ووقع فى رواية الطبرانى وسمويه ما يفسر به هذا السؤال، وهو ما أخرجاه من طريق بلال بن سعد بن تميم عن أبيه قال قلت: يا رسول

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) تقدم أيضاً .

(٤) الفتح ٩/٧ ، ١٠ .

(٥) تقدم تخريجهما .

(٦) تقدم تخريجه .

(٧) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٦٧/٤) عن النعمان به .

(٨) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٢١٦/٣٢٧/٨) عن عائشة به .

الله أى الناس خير؟ فقال: «أنا وقرني»^(١) فذكر مثله، وللطبالسى من حديث عمر رفعه «خير أمتى القرن الذى أنا منهم، ثم الثانى، ثم الثالث» ووقع فى حديث جعدة بن هبيرة عند أبى شيبة والطبرانى إثبات القرن الرابع ولفظه «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(٢) ورجاله ثقات، إلا أن جعدة مختلف فى صحبته والله أعلم. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٣): قوله: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً؟ هذا شك من راوى الحديث عمران بن حصين رضى الله عنه. والمشهور فى الروايات: أن القرون المفضلة ثلاثة الثالث دون الأولين فى الفضل، لكثرة البدع فيه، لكن العلماء متوافرون، والإسلام فيه ظاهر، والجهاد فيه قائم، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء فى الدين وكثرة الأهواء. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): وإذا كان عمران لا يدري، فالأصل أنه ذكر مرتين، فتكون القرون المفضلة ثلاثة، وهذا هو المشهور. اهـ.

قوله: «ثم إن بعدهم قوم»

قال ابن عثيمين^(٥): «قوله «ثم إن بعدكم قومًا»

وفى رواية البخاري: «ثم إن بعدكم قومًا» بنصب «قومًا»، وهذا لا إشكال فيه، لكن فى هذه الرواية برفع «قوم» فيه إشكال، لأن «قوم» اسم إن، وقد اختلف العلماء فى هذا:

ف قيل على لغة ربيعة: الذين لا يقفون على المنصب بالألف، فلم يثبت الكاتب الألف، فصارت «قوم».

وهذا جواب ليس بسديد، لأن الرواية ليست مكتوبة فقط، بل تكتب وتقرأ باللفظ عند أخذ التلاميذ الرواية من المشايخ، ولأن هذا ليس محل وقف.

وقيل: إن «إن» اسمها ضمير الشأن محذوف، إلحاقاً لها بإن المخففة، لأن «إن» المخففة تعمل بضمير الشأن، قال الشاعر:

(١) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٤٤/٦ / ٥٤٦٠) قال الهيثمى فى «المجمع». (١٩/١٠): رجاله ثقات.

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٢/٢٨٥ / ٢١٨٧) عن جعدة به.

وقال الهيثمى فى «المجمع» (١٠/٢٠): رجاله رجال الصحيح إلا أن إدريس بن يزيد الأودى لم يسمع والحاكم فى «المستدرک» (٣/١٩١) من جعدة والله أعلم.

(٣) تيسير العزيز الحميد ٥٤٢.

(٤) القول المفيد ٣/٢٨٥.

(٥) القول المفيد ٣/٢٨٥ و٢٨٦.

* وإن مالك كانت كرام المعادن *

فإن المشددة هنا حملت على إن المخففة ، فاسمها ضمير الشأن محذوف وعليه يكون «بعدكم» : خبر مقدم، و«قوم» مبتدأ مؤخر، والجملة خبر «إن».

وقيل: إن هنا بمعنى نعم ، فيكون المعنى: ثم نعم بعدكم قوم، وهذا فيه تكلف. والظاهر: القول الثانى إن صَحَّت الرواية. اهـ.

قال ابن حجر (١): «قوله»ثم إن بعدهم قومًا».

واستدل بهذا الحديث على تعديل أهل القرون الثلاثة وإن تفاوتت منازلهم فى الفضل ، وهذا محمول على الغالب والأكثرية، فقد وجد فيمن بعد الصحابة من القرنين من وجدت فيه الصفات المذكورة المذمومة لكن بقله، بخلاف من بعد القرون الثلاثة فإن ذلك كثر فيهم واشتهر، وفيه بيان من ترد شهادتهم وهم من اتصف بالصفات المذكورة، وإلى ذلك الإشارة بقوله «ثم يفشوا الكذب» أى يكثر، واستدل به على جواز المفاضلة بين الصحابة قاله المازري.

قال ابن حجر (٢): قوله: (ويشهدون ولا يستشهدون) يحتمل أن يكون المراد التحمل بدون التحميل أو الأداء بدون طلب، والثانى أقرب.

ويعارضه ما رواه مسلم من حديث زيد بن خالد مرفوعاً «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذى يأتى بالشهادة قبل أن يسألها» (٣).

واختلف العلماء فى ترجيحهما، فجنح ابن عبد البر إلى ترجيح حديث زيد بن خالد لكونه من رواية أهل المدينة فقدّمه على رواية أهل العراق، وبالفزع أن حديث عمران هذا لا أصل له.

وجنح غيره إلى ترجيح حديث عمران لإتفاق صاحبه الصحيح عليه، وانفراد مسلم بإخراج حديث زيد بن خالد.

وذهب آخرون إلى الجمع بينهما فأجابوا بأجوبة:

أحدها: أن المراد بحديث زيد من عنده شهادة لإنسان بحق لا يعلم بها صاحبها فيأتى إليه فيخبره بها، أو يموت صاحبها العالم بها ويخلف ورثة فيأتى الشاهد إليهم أو

(١) الفتح ١٠/٧.

(٢) الفتح ٣٠٧-٣٠٨.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الأفضية (٦/٢٥٨/١٩) عن زيد بن خالد به.

إلى من يتحدث عنهم فيعلمهم بذلك، وهذا أحسن الأجوبة، وبهذا أجاب يحيى بن سعيد شيخ مالك ومالك وغيرهما.

ثانيهما: أن المراد به شهادة الحسبة، وهي ما لا يتعلق بحقوق الآدميين المختصة بهم محضاً ويدخل في الحسبة مما يتعلق بحق الله أو فيه شائبة منه العتاق والوقف والوصية العامة والعدة والطلاق والحدود ونحو ذلك.

وحاصله: أن المراد بحديث ابن مسعود الشهادة في حقوق الآدميين، والمراد بحديث زيد بن خالد الشهادة في حقوق الله.

ثالثها: أنه محمول على المبالغة في الإجابة إلى الأداء، فيكون لشدة استعداده لها كالى أداها قبل أن يسألها، كما يقال فى وصف الجواد: إنه ليعطى قبل الطلب، أى يعطى سريعاً عقب السؤال من غير توقف.

وهذه الأجوبة مبنية على أن الأصل فى أداء الشهادة عند الحاكم أن لا يكون إلا بعد الطلب من صاحب الحق، فيخص ذم من يشهد بمن ذكر ممن يخير بشهادة عنده لا يعلم صاحبها بها أو شهادة الحسبة.

وذهب بعضهم إلى جواز أداء الشهادة قبل السؤال على ظاهر عموم حديث زيد بن خالد، وتألوا حديث عمران بتأيلات:

أحدها: أنه محمول على شهادة الزور، أى يؤدون شهادة لم يسبق لها تحملها، وهذا حكاه الترمذى عن بعض أهل العلم.

ثانيها: المراد بها الشهادة فى الحلف، يدل عليه قول إبراهيم فى آخر حديث ابن مسعود «كانوا يضرّبوننا على الشهادة» (*) أى قول الرجل أشهد بالله ما كان إلا كذا على معنى الحلف، فكره ذلك كما كره الإكثار من الحلف، واليمين قد تسمى شهادة كما قال تعالى: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ وهذا جواب الطحاوي.

ثالثها: «المراد بها الشهادة» على المغيب من أمر الناس، فيشهد على قوم أنهم فى النار وعلى قوم أنهم فى الجنة بغير دليل، كما يصنع ذلك أهل الأهواء، حكاه الخطابى.

رابعها: المراد به من يتتصب شاهداً وليس من أهل الشهادة.

خامسها: المراد به التسارع إلى الشهادة وصاحبها بها عالم من قبل أن يسأله. والله أعلم.

(*) [صحيح] أخرجه مسلم فى الفضائل (٨/٣٢٤/٢١١) بنحوه من قول إبراهيم.

وقوله : «يشهدون ولا يستشهدون» استدل به على أن من سمع رجلا يقول : لفلان عندى كذا فلا يسوغ له أن يشهد عليه بذلك إلا إن استشهده . وهذا بخلاف من رأى رجلا يقتل رجلا أو يغصبه ماله فإنه يجوز له أن يشهد بذلك وإن لم يستشهده الجاني . اهـ .

قال ابن عثيمين ^(١) : قوله (يشهدون) أى : يخبرون عما علموه مما شاهدوه أو سمعوه أو لمسوه أو شموه ؛ لأن الشهادة إخبار الإنسان بما يعلم ، قال تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ^(٢) . ولا يشترط أن تكون بلفظ أشهد على الصحيح ، وقد قيل للإمام أحمد : إن فلاناً يقول : «إن العشرة فى الجنة ولا أشهد» . فقال : إن قاله ؛ فقد شهد . اهـ .

ثم ذكر بنحو ما تقدم من كلام ابن حجر .

قوله : «ويخونون ولا يؤتمنون» .

قال ابن حجر ^(٣) : قوله : «ولا يؤتمنون» أى إنها خيانة بحيث لا يأتهم أحد بعد ذلك .

قال ابن بطال ماملخصه : سوى بين من يخون أمانته ومن لا يفى بنذره ، والخيانة مذمومة فيكون ترك الوفاء بالنذر مذموماً ، وبهذا تظهر المناسبة للترجمة ، وقال الباجي : ساق ما وصفهم به مساق العيب ، والجائر لا يعاد فدل على أنه غير جائز .

قال ابن عثيمين : قوله «يخونون ولا يؤتمنون» ^(٤) :

هذا هو الوصف الثانى لهم ؛ أى : أنهم أهل خيانة وليسوا أهل أمانة ، فلا يأتهم الناس ، وليس المعنى أنه تقع منهم الخيانة بعد الائتمان حتى يقال : لماذا لم يقل : يؤتمنون ويخونون؟ فكأن الخيانة طبيعة لهم ؛ فلخياتهم لا يؤتمنون .

الخيانة : الغدر والخداع فى موضع الائتمان ، وهى من الصفات المذمومة بكل حال .

وأما المكر والخديعة ؛ فهى مذمومة فى حال دون حال ، فقد تكون محمودة إذا كانت فى مقاتلة عدو ماكر خادع لدالتها على القوة والإيقاع بالعدو من حيث لا يشعر ، ولهذا يوصف الله - سبحانه وتعالى - بالمكر والخداع فى الحال التى يكون فيها مدحاً ، قال

(١) القول المفيد ٣/٢٨٦ ، ٢٨٨ .

(٢) الزخرف ٨٦ .

(٣) الفتاح (١١/٥٨٩) .

(٤) القول المفيد ٣/٢٨٨ ، ٢٨٩ .

تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ .

وأما الخيانة فلا يوصف الله بها أبداً؛ لأنها ذم بكل حال، ولهذا كان قول العامة : خان الله من خان حراماً؛ لأنهم وصفوا الله بما لا يصح أن يوصف به، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ ، ولم يقل : فخانهم .
قوله : «لا يؤتمنون»

أى : ليسوا أهلاً للأمانة؛ فلا يؤتمنون على الدماء، ولا الأموال، ولا الأعراض، ولا أى شيء، والظاهر أن هذا فى القرن الرابع؛ فما بالك بالقرن الخامس عشر؟! وفى حديث آخر : «ويقتشو بينهم الكذب» (١) .

قوله : «وينذرون ولا يوفون» .

وفى لفظ «يقون» وهما لغتان قاله الحافظ .

وقوله «ينذرون» بفتح أوله وبكسر الذال المعجمة وبضمها .

قاله ابن حجر أيضاً :

قال ابن عثيمين (٢) : النذر : إلزام الإنسان نفسه بالشئ، وقد يكون للآدمي، وهذا بمعنى العهد الذى يوقعه الإنسان بينه وبين غيره، وقد يكون لله؛ كنذر العبادة يجب الوفاء به .

قال ابن عثيمين (٣) : قوله : «وينذرون ولا يوفون» .

أى لا يؤدون ماوجب عليهم، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم، وعدم إيمانهم .

قال ابن عثيمين (٤) : قوله «وينذرون ولا يوفون» .

هذا هو الوصف الثالث لهم .

فهم ينذرون لله ولا يوفون له، ويعاهدون المخلوق ولا يوفون له، وهذا من صفات النفاق . اهـ .

قوله : «ويظهر فيهم السمن» .

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٨/١)، والترمذى (٢٣٠٣)، وابن ماجه (٢٣٦٣) عن عمر به .

(٢) (٣، ٢) تيسير القرآن الحميد ٥٢٤ .

(٤) القول المفيد ٣/٢٨٩، ٢٩٠ .

قال ابن حجر^(١): قوله (ويظهر فيهم السمن) بكسر المهملة وفتح الميم بعدها نون أى يحبون التوسع فى المأكول والمشارب، وهى أسباب السمن بالتشديد.

قال ابن التين: المراد ذم محبته وتعاطيه لآمن تخلق بذلك، وقيل: المراد يظهر فيهم كثرة المال.

وقيل المراد أنهم يتسمنون أى يتكثرون بما ليس فيهم ويدعون ما ليس لهم من الشرف، ويحتمل أن يكون جميع ذلك مراداً. وقد رواه الترمذى من طريق هلال بن يساف عن عمران بن حصين بلفظ «ثم يجيء قوم يتسمنون ويحبون السمن»^(٢)، وهو ظاهر فى تعاطى السمن على حقيقته. فهو أولى ما حمل عليه خبر الباب، وإنما كان مذموماً لأن السمين غالباً بليد الفهم ثقيل عن العبادة كما هو مشهور. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣): قوله: «ويظهر فيهم السمن»

لرغبتهم فى الدنيا، ونيل شهواتهم والتنعيم بها، وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها. وفى حديث أنس: «لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم» قال أنس: سمعته من نبيكم ﷺ^(٤)، فما زال الشر يزيد فى الأمة، حتى ظهر الشرك والبدع فى كثير منهم، حتى فيمن يتسبب إلى العلم، ويتصدر للتعليم والتصنيف.

قلت - يعنى عبد الرحمن آل الشيخ -: بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع، وصنفوا فى ذلك نظماً ونثراً، فعوذ بالله من موجبات غضبه. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٥): هذا هو الوصف الرابع لهم.

«السمن»: كثرة الشحم واللحم، وهذا الحديث مشكل؛ لأن ظهور السمن ليس باختيار الإنسان؛ فكيف يكون صفة ذم؟!

قال أهل العلم: المراد أن هؤلاء يعتنون بأسباب السمن من المطاعم والمشارب والترف، فيكون همهم إصلاح أبدانهم وتسمينها.

أما السمن الذى لا اختيار للإنسان فيه؛ فلا يذم عليه، كما لا يذم الإنسان على كونه طويلاً أو قصيراً أو أسود أو أبيض، لكن يذم على شيء يكون هو السبب فيه.

(١) الفتح / ٣٠٨.

(٢) أخرجه الترمذى (٢٢٢١).

(٣) تيسير العزيز الحميد ٥٤٢، ٥٤٣.

(٤) [صحيح] أخرجه البخارى (٧٠٦٨) عن أنس به.

(٥) القول المفيد ٢٩٠ / ٣.

وَفِيهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ» .
وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : كَانُوا يَضْرِبُونَنا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ (١) .

فوائد (٢) :

- ١- تفضيل القرون الأربعة الأولى .
- ٢- تحريم الخيانة .
- ٣- وجوب الوفاء بالنذر .
- ٤- تحريم الاشتغال بالدنيا وملذاتها عن الآخرة



قوله : وفيه عن ابن مسعود ، أن النبي ﷺ - قال : «خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ...» الحديث

قال الفقير : أخرجه البخارى فى الشهادات باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد ، ومسلم فى فضائل الصحابة باب فضل الصحابة من حديث ابن مسعود .

ذكره البخارى فى ثلاثة مواضع

قال باب فضائل الصحابة ولفظه (٣) ما ذكره المصنف .

وبوب عليه باب «ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها . ولفظه (٤) (خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يجيئ من بعدهم قوم تسبق شهادتهم إيمانهم وإيمانهم شهادتهم) .

وبوب عليه باب إذا قال : أشهد بالله ، وأشهدت بالله .

ولفظه (٥) : عن عبدالله قال : سئل النبى ﷺ أى الناس خير؟ قال؟ قال : «قرنى

(١) [صحيح] أخرجه البخارى فى الشهادات / باب : لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢٠٦/٣٠ ح ٢٦٥٢ ، ٦٤٢٩ ، ٦٦٥٨) ومسلم فى فضائل الصحابة / باب فضل الصحابة (٨/٣٢٤ ح ٢١١) من حديث ابن مسعود به .

(٢) الجديد ٤٥٦

(٣) ح ٣٦٥١

(٤) ح (٦٤٢٩)

(٥) ح ٦٦٥٨

ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» قال إبراهيم : (كان أصحابنا ينهونا - ونحن غلمان - أن نحلف بالشهادة والعهد)

ولفظ مسلم^(١) : خير أمتي القرن الذين يلوني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته يذكر هناد القرن في حديثه . وقال قتيبة (ثم يجيء أقواماً).

● مناسبة الحديث للباب

قال القرعاوى^(٢): دل الحديث على تحريم المسارعة فى الحلف. اهـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد

قال القرعاوى^(٣): حيث حرم الحديث المسارعة فى الحلف لأن ذلك استخفاف بالله وتنقص لتعظيمه وذلك مناف للتوحيد. اهـ.

قوله: «خير الناس»:

قال ابن عثيمين^(٤):

دليل على أن قرنه خير الناس؛ فصاحبه ﷺ أفضل من الحوارين الذين هم أنصار عيسى، وأفضل من النقباء السبعين الذين اختارهم موسى ﷺ . وقد تقدم شرحه .

قوله : ثم يجيء قوم».

قال ابن عثيمين^(٥):

أى : بعد القرون الثلاثة .

قوله: «تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته».

قال ابن حجر^(٦):

قال الطحاوي: أى يكثر الإيمان فى كل شيء حتى يصير لهم عادة فيحلف أحدهم حيث لا يراد منه اليمين ومن قبل أن يستحلف وقال غيره : المراد يحلف على تصديق شهادته قبل أداؤها أو بعده وهذا إذا صدر من الشاهد قبل الحكم سقطت شهادته . وقيل المراد التسرع إلى الشهادة واليمين والحرص على ذلك حتى لا يدري بأيهما يبدأ لقلة مبالاته. اهـ.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم ح (٢٥٣٣)

(٤) القول المفيد ٣/ ٢٩١

(٢ - ٣) الجديد ٤٥٨

(٦) الفتح ١١/ ٥٥٢

(٥) القول المفيد ٣/ ٢٩١ .

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».

يحتمل ذلك وجهين:

الأول: أنه لقلّة الثقة بهم لا يشهدون إلا بيمين؛ فتارة تسبق الشهادة، وتارة تسبق اليمين.

الثاني: أنه كناية عن كون هؤلاء لا يبالون بالشهادة ولا باليمين؛ حتى تكون الشهادة واليمين في حقهم كأنهما متساقتان.

والمعنيان لا يتنافيان؛ فيحمل عليهما الحديث جميعاً.

وقوله: «ثم يجيء قوم» يدل على أنه ليس كل أصحاب القرن على هذا الوصف؛ لأنه لم يقل: ثم يكون الناس، والفرق واضح.

وهذه الأفضلية أفضلية من حيث العموم والجنس، لا من حيث الأفراد؛ فلا يعني أنه لا يوجد في تابعي التابعين من هو أفضل من التابعين، أو لا يوجد في التابعين من هو أعلم من بعض الصحابة، أما فضل الصحبة؛ فلا يناله أحد غي الصحابة ولا أحد يسبقهم فيه، وأما العلم والعبادة؛ فقد يكون فيمن بعد الصحابة من هو أكثر من بعضهم علماً وعبادة.

● تنبيه:

ساق المؤلف رحمه الله الحديث بتكرار قوله: «ثم الذين يلونهم» ثلاث مرات، وهو في «الصحيحين» تكررهما مرتين. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا، ونسى المعاد، فخف أمر الشهادة واليمين عنده تحملاً وأداء؛ لقلّة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك وهذا هو الغالب على الأكثر، والله المستعان. فإذا كان هذا قد وقع في صدر الإسلام الأول فما بعده أكثر بأضعاف، فكن من الناس على حذر. اهـ.

قوله قال ابراهيم.

قال ابن حجر^(٣): هو النخعي، وهو موصول بالسند المتقدم. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): هو إبراهيم النخعي، من التابعين ومن فقهاءهم. اهـ.

(١) القول المفيد ٣/ ٢٩١، ٢٩٢

(٢) الفتح ١/ ٥٥٣

(٣) التيسير ٥٤٣

(٤) القول المفيد ٣/ ٢٩٢

قوله : كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار

قال عبد الرحمن (١): وذلك لكثرة علم التابعين وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه من أفضل الجهاد، ولا يقوم الدين إلا به، وفي هذا الرغبة في تمرين الصغار على طاعة ربهم، ونهيهم عما يضرهم: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. اهـ.

قال ابن عثيمين (٣): في نسخة : «على الشهادة والعهد»، والظاهر أن الذي يضربهم ولى أمرهم .

وقوله : «على الشهادة»

أى : يضربوننا عليها إن شهدنا زوراً، أو إذا شهدنا ولم نقم بأدائها، ويحتمل أن المراد بذلك ضربهم عن المبادرة باليمين والعهد، وبه فسرہ ابن عبدالبر .

قال ابن عثيمين: (٤) قوله : «والعهد»:

أى : إذا تعاهدوا يضربونهم على الرفاء بالعهد .

قوله: «ونحن صغار»

الجملة حالية، إنما يضربونهم وهم صغار للتأديب .

ويستفاد من كلام إبراهيم أن الصبى تقبل منه الشهادة؛ لأن قوله : «ونحن صغار» ؛

أى : لم يبلغوا، وهذا محل خلاف بين أهل العلم .

فقال بعضهم: يشترط لأداء الشهادة أن يكون بالغاً، فإذا تحمل وهو صغير؛ لم تقبل منه حتى يبلغ .

وقال بعضهم: شهادة لصغار بعضهم على بعض مقبولة تحملاً وأداء؛ لأن لبلغ يندر أن يوجد بين الصغار .

وقال بعضهم: تقبل شهادة الصغار بعضهم على بعض إن شهدوا فى الحال؛ لأنه بعد التفرق يحتمل النسيان أو التلقين، ولا يسع العمل إلا بهذا، وإلا؛ لضاعت حقوق كثيرة بين الصبيان .

ويستفاد من هذا الأثر جواز ضرب الصبى على الأخلاق إذا لم يتأدب إلا بالضرب .

(١-٢) القول المفيد ٢٩٢/٣

(٣) التيسير ٥٤٣

(٤) القول المفيد ٢٩٣/٣ .

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: الوَصِيَّةُ بِحِفْظِ الْإِيمَانِ.

الثانية: الإِخْبَارُ بِأَنْ الْحَلْفَ مَنَفَقَةً لِلسَّلْعَةِ، مَمَحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ.

الثالثة: الوَعِيدُ الشَّدِيدُ فِيمَنْ لَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ .

الرابعة: التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الذَّنْبَ يَعْظُمُ مَعَ قَلَّةِ الدَّاعِي.

الخامسة: ذَمُّ الَّذِينَ يَحْلِفُونَ وَلَا يَسْتَخْلِفُونَ.

قال ابن عثيمين^(١):

قوله «فيه مسائل».

● الأولى: الوصية بحفظ الإيمان.

تؤخذ من قوله تعالى ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ ، والأمر وصية.

● الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة محقة للبركة.

تؤخذ من قوله ﷺ : «الحلف منفقة للسلعة ...» إلخ.

● الثالثة : الوعيد الشديد لمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه.

تؤخذ من قوله ﷺ : «ورجل جعل الله بضاعته؛ لا يشتري إلا بيمينه...» إلخ في

ضمن الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ولا يزكيهم.

● الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي

تؤخذ من حديث سلمان، حيث ذكر الأشيمط الزاني والعائل المستكبر، وغلظ في

عقوبتهم؛ لأن الداعي إلى فعل المعصية المذكورة ضعيف عندهما.

● الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

لقوله ﷺ : «ورجل جعل الله بضاعته؛ لا يشتري إلا بيمينه...».

ولكن هذا ليس على إطلاقه، بل النبي ﷺ حلف ولم يستحلف في

(١) القول المفيد ٣/ ٢٩٤- ٢٩٧

السادسة: ثَنَاؤُهُ ﷺ عَلَى الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ أَوْ الْأَرْبَعَةِ ، وَذِكْرُ مَا يَحْدُثُ بَعْدَهُمْ.

السابعة: ذَمُّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ وَلَا يَسْتَشْهَدُونَ .

الثامنة: كَوْنُ السَّلَفِ يَضْرِبُونَ الصِّغَارَ عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ.

مواضع عديدة، بل أمره الله - سبحانه - أن يحلف في ثلاثة مواضع من القرآن بدون أن يستحلف:

في قوله : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي ﴾ (١).

وفي قوله : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ (٢).

وفي قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمْ ﴾ (٣).

وعليه؛ فإن الحلف إذا دعت الحاجة إليه أو اقتضته المصلحة؛ فإنه جائز بل قد يكون مندوباً إليه؛ كحلف النبي ﷺ في قصة المخزومية، حيث قال: «وايم الله؛ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (٤) فقد وقع موقعاً عظيماً من هؤلاء القوم الذين أهمهم شأن المخزومية ومن يأتي بعدهم.

● السادسة: ثَنَاؤُهُ ﷺ عَلَى الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ أَوْ الْأَرْبَعَةِ وَذِكْرُ مَا يَحْدُثُ.

تؤخذ من قوله : «خير الناس قرني...»، وقوله : «أو الأربعة» بناء على ثبوت ذكر الرابع، وأكثر الروايات وأثبتها على حذفه.

● السابعة: ذَمُّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ وَلَا يَسْتَشْهَدُونَ .

تؤخذ من حديث عمران، وكذا ذم الذين يسخنون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، والذين يتعاطون أسباب السمن ويغفلون عن سمن القلب بالإيمان والعلم.

● الثامنة: كَوْنُ السَّلَفِ يَضْرِبُونَ الصِّغَارَ عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ.

(١) يونس : ٥٣

(٢) التغابن : ٧

(٣) سبأ : ٣

(٤) تقدم تخريجه .

تؤخذ من قول إبراهيم النخعي: «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد»؛ فيؤخذ منه تعظيم شأن العهد والشهادة وضرب الصغار على ذلك، ويؤخذ منه أيضاً عناية السلف بتربية أولادهم، وأن من منهجهم الضرب على تحقيق ذلك استناداً إلى إرشاد نبيهم ﷺ، حيث أمر بضرب من بلغ عشر سنين على الصلاة، لكن يشترط لجواز الضرب:

الأول: أن يكون الصغير قابلاً للتأديب؛ فلا يضرب من لا يعرف المراد بالضرب.

الثاني: أن يكون التأديب ممن له ولاية عليه.

الثالث: أن لا يسرف في ذلك كمية أو كيفية أو نوعاً أو موضعاً أو غير ذلك.

الرابع: أن يقع من الصغير ما يستحق التأديب عليه.

الخامس: أن يقصد تأديبه لا الانتقام لنفسه، فإن قصد الانتقام؛ لم يكن مؤدباً، بل منتصر. أهـ



مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ

● مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال الفقير : لما كان الحلف والأيمان مع العهود والمواثيق متشابهان من جهة أن الأول للتأكيد، والثاني كذلك مع الإلزام، أى التأكيد على ما التزم به فى العهد ناسب لذلك أن يذكر المصنف ما جاء فى ذمة الله وذمة نبيه بعد باب ما جاء فى كثرة الحلف، ولأنه فى الباب الأول أمر بحفظ الأيمان، وفى الثانى نهى عن نقضها، فناسب أن يتابعان أيضاً ولأن كثرة الحلف بالله لا يدل على تعظيمه وكذلك العهد بالله وعدم الوفاء بعهده فناسب أن يتعاقبان والله أعلم.

● ماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبته لكتاب التوحيد؟

قال حامد بن محمد^(١): باب ما جاء فى بيان أجر من حفظ ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وكبر إثم من خفر ذمة الله وذمة رسوله ﷺ من الكتاب والسنة.

أما الكتاب فذلك قوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾^(٢)، فأمر الله تعالى بحفظ العهد والوفاء به، ونهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها وذكر تعالى مآل الغدر ونقض الأيمان فى قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٣). وقد علم بالضرورة العقلية والتقليدية وتجارب الأمم أن الغدر، ونقض الأيمان، وخفر الذمة مايورث إلا شراً.

إياك والغدر كم من غادر وقع	فى شر ما كان قبل الغدر متخذ ^(*)
يقول ياليت لم أغدر وليس له	فك من الشر والخسران والخذل
أيضاً ولا تنقضوا الأيمان مدخلاً	تزل أقدام ناس بعد ذا الدخل
كن ناصحاً وصدوقاً موفياً فطناً	الصدق يعلو نقض القول فى السفلى

(١) فتح الله الحميد المجيد ٤٦٦

(٢) النحل : ٩١

(٣) النحل : ٩٤

(*) هكذا فى الكتاب ولعلها (متخذ)

فكم محنة نزلت بالمسلمين بسبب شيء من ذلك رأيناه عياناً وسماعاً ولكن أين أولوا الأبواب والأبصار ليعتبروا ولم يخذل المسلمون قديماً وحديثاً وسلط عليهم العدو وتشتتوا واختلوا إلا به وأمثاله من المعاصي ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله، وأرجو أن الله يتوب على المسلمين ويسوفقهم لما يحب ويرضى ويظهرهم على أعداء الدين في مشارق الأرض ومغاربها إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جديراً. هـ.

قال ابن قاسم^(١): في «حاشيته على كتاب التوحيد»: «أى: من الدليل على وجوب حفظها والوفاء بها، والمراد التي تدخل في العهود، وأن عدم الوفاء عدم تعظيم له؛ فهو قذح في التوحيد» أ. هـ.

قال ناصر السعدي^(٢): المقصود من هذه الترجمة البعد والحذر من التعرض للأحوال التي يخشى منها نقض العهود والإخلال بها بعد ما يجعل للأعداء المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله فإنه متى وقع النقض في هذه الحال كان انتهاكاً من المسلمين لذمة الله وذمة نبيه وتركاً لتعظيم الله، وارتكاباً لأكبر المفسدين كما نبه عليه ﷺ وفي ذلك أيضاً تهوين للدين والإسلام وتزهيد الكفار به، فإن الوفاء بالعهود خصوصاً المؤكدة بأغلب المواثيق من محاسن الإسلام الداعية للأعداء المتصفين إلى تفضيله واتباعه أ. هـ.

قال ابن باز^(٣): أى باب ماجاء فيه من تعظيمهما والتحذير من إخفارهما والتحذير أيضاً من جعلهما للناس لأن هذا وسيلة إلى إخفارهما فالواجب على ولاة الأمور أن لا يجعلوا للناس ذمة الله وذمة نبيه وإنما يجعلون لهم ذمة الرئيس والملك وأصحابه.

وهذا من باب تعظيم ذمة الله وذمة رسوله وهو من باب إكمال التوحيد والإيمان وإخفارهما نقص في التوحيد ووسيلة إلى التلاعب.

قال ابن عثيمين^(٤): مناسبة الباب للتوحيد: أن عدم الوفاء بعهد الله تنقص له، وهذا مخل بالتوحيد.

قال عبدالله بن جار الله^(٥): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هي أن نقض العهد دليل على عدم تعظيم الله تعالى فهو قاذح في التوحيد.

(١) نقلاً عن حاشية كتاب القول المفيد ٢٩٨/٣.

(٢) القول السديد ١٣٣.

(٣) التعليق المفيد ٢٧١.

(٤) القول المفيد ٣/٣٠٠.

(٥) الجامع الفريد (٢١٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾
الآية (١).

ثم نقل كلام السعدى المتقدم بنصه (٢)

● شرح الترجمة:

قال ابن عثيمين (٣): الذمة: العهد، وسُمي بذلك ؛ لأنه يلتزم به كما يلتزم صاحب الدين بدينه في ذمته.

والله له عهد على عباده: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

وللعباد عهد على الله، وهو: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا؛ فَبِذَا عَهِدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (٤)، وهذا عهدهم على الله.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (٥)، وللنبي ﷺ عهد على الأمة، وهو أن يتبعوه فى شريعته ولا يتدعوا فيها، وللأمة عليه عهد وهو أن يبلغهم ولا يكتهم شيئاً.

وقد أخبر النبي ﷺ أنه ما من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على ما هو خير والمراد بالعهد هنا: ما يكون بين المتعاقدين فى العهود كما كان بين النبي ﷺ وأهل مكة فى صلح الحديبية اهـ.



قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾

● مناسبة الآية للترجمة:

(٢) الجامع الفريد ٢١٧

(٤) المائدة: ١٢

(١) النحل: ٩١

(٣) القول المفيد ٣/ ٢٩٨، ٢٩٩

(٥) البقرة: ٤٠

قال عبد الله بن جابر الله^(١): مناسبة الآية للباب أنها دلت على وجوب الوفاء بالعهد وتحريم نقضها أ.هـ.

قال ابن عثيمين^(٢) ومناسبة الآية للترجمة واضحة جداً، لأن الله قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾، وقال: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾.

قال القرعاوى^(٣): دلت الآية الكريمة على وجوب الوفاء بالعهد أ.هـ.

● مناسبة الآية للتوحيد:

قال القرعاوى^(٤): حيث دلت الآية على تحريم نقض العهد لأن نقض العهد دليل على عدم تعظيم الله وذلك منافي للتوحيد قاده به أ.هـ.

قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾.

الإعراب^(٥): ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ الواو عاطفة وأوفوا فعل أمر وفاعل ويعهد الله جار مجرور متعلقان بأوفوا وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة عاهدتم مضاف إليها الظرف.

قال ابن عثيمين^(٦): قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا﴾.

أمر من الرباعى من أوفى يوفى.

● سبب نزول هذه الآية وفيمن نزلت:

القول الأول فى سبب النزول:

عن بريدة بن جابر فى قوله ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ قال: نزلت هذه الآية فى بيعة النبى ﷺ كان من أسلم بايع على الإسلام، فقال ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام^(٧).

(١) الجامع الفريد ٢١٧.

(٢) القول المفيد (٢/٢٩٩).

(٣ - ٤) الجديد ٤٦١.

(٥) الإعراب/ ٣٥٨.

(٦) القول المفيد ٣/٢٩٩ - ٣٠٠.

(٧) تفسير ابن أبى حاتم (٧/٢٢٩٩) وابن جرير الطبرى (٧/١٤/١١٠).

[القول الثاني]:

عن مجاهد: ﴿وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ قال: تغليظها في الحلف.

وقال قتادة: يقول بعد تشديدها وتغليظها.

وقال ابن زيد: هؤلاء كانوا حلفاء لقوم تحالفوا، وأعطى بعضهم العهد فجاءهم قوم، فقالوا: نحن أكثر وأعز وأمنع فانقضوا عهد هؤلاء، وارجعوا إلينا، ففعلوا، فذلك قول الله تعالى ﴿وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ هي أربى: أكثر، من أجل أن كانوا هؤلاء أكثر من أولئك نقضتم العهد فيما بينكم وبين هؤلاء فكان هذا في هذا. أ.هـ.

قال الطبري^(١): والصواب من القول في ذلك أن يقال الله تعالى أمر في هذه الآية عباده بالوفاء بعهوده التي يجعلونها على أنفسهم ونهاهم عن نقض الإيمان بعد توكيدها على أنفسهم لآخرين بعهود تكون بينهم بحق مما لا يكرهه الله وجائز أن تكون نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ بنهيهم عن نقض بيعتهم حذراً من قلة عدد المسلمين وكثرة عدد المشركين وأن تكون نزلت في الذين أرادوا الانتقال بحلفهم عن حلفائهم لقلّة عددهم في آخرين لكثرة عددهم وجائز أن تكون في غير ذلك ولاخبر ثبت به الحجة أنها نزلت في شيء من ذلك دون شيء ولا دلالة في كتاب ولا حجة عقل أي ذلك عنى بها ولاقول في ذلك أولى بالحق مما قلنا لدلالة ظاهرة عليه وإن الآية كانت قد نزلت لسبب من الأسباب ويكون الحكم بها عاما في كل ماكان بمعنى السبب الذي نزلت فيه. أ.هـ.

وقال البغوي: قيل نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ، أمرهم الله بالوفاء بها، وقال مجاهد وقتادة: نزلت في حلف أهل الجاهلية. أ.هـ.

قال ابن الجوزي^(٢): اختلفوا فيمن نزلت على قولين:

أحدهما: أنها نزلت في حلف أهل الجاهلية، قاله مجاهد، وقتادة.

الثاني: أنها نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ. أ.هـ.

(١) تفسير الطبري (٧/١٤ / ١١٠).

(٢) زاد المسير ٣٦٩/٤.

وفصل الطبرى^(١) من قبله القول فقال:

على اختلاف بينهم فمن عنى بهذه الآية وفيما أنزلت فقال بعضهم عنى بها الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام وفيهم أنزلت فمن بريدة قوله: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ» قال أنزلت هذه الآية فى بيعة النبى ﷺ فذكر الحديث السابق.

وقال آخرون: نزلت فى الحلف الذى كان أهل الشرك تحالفوا فى الجاهلية فأمرهم الله عزوجل فى الإسلام أن يوفوا به ولا ينقضوه .

● تفسير الآية بما جاء عن التابعين.

فمن مجاهد^(٢) فى قول الله تعالى: «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِدِهَا» قال تغليظها فى الحلف^(٣).

عن قتادة قوله: «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِدِهَا» يقول بعد تشديدها وتغليظها^(٤).

قال ابن زيد هؤلاء قوم كانوا حلفاء لقوم تحالفوا وأعطى بعضهم العهد فجاءه قوم فقالوا نحن أكثر وأعز وأمنع فأنقضوا عهد هؤلاء وارجعوا إلينا ففعلوا فذلك قول الله تعالى «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِدِهَا» وقد جعلتم الله عليكم «كَفِيلًا» أن تكون أمة هى أربى من أمة هى أربى أكثر من أجل أن كان هؤلاء أكثر من أولئك نقضتم العهد فيما بينكم وبين هؤلاء فكان هذا فى هذا^(٥).

وعن نافع ابن يزيد قال سألت يحيى بن سعيد عن قول الله «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِدِهَا» قال العهد^(٦).

(١) تفسير الطبرى (١١١/١٤٠/٧).

(٢) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١١١، ١١٠/١٤)، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٦٣٨) وانظر «الدر» (٢٤٢/٤).

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق، وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (٢٦٣٩) وذكره السيوطى فى «الدر» (٢٤٢، ٤) وزاد نسبه لابن المنذر وانظر تفسير ابن أبى حاتم بتحريجنا.

(٤) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٢٤٢/٤) وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٥) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق

(٦) نفس المصدر السابق.

● ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن:

وبين فى مواضع أخرى: أن نقض الميثاق يستوجب اللعن، وذلك فى قوله ﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ (*).

قال الشنقيطى^(١): قوله تعالى أمر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة عباده أن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا . وظاهر الآية أنه شامل لجميع العهود فيما بين العبد وربّه وفيما بينه وبين الناس، وكرر هذا فى مواضع وقوله فى (الإسراء) ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(٢): وبين فى مواضع أخرى: أن من نقض العهد إنما يضر بذلك نفسه، وأن من أوفى به يؤتته الله الأجر العظيم على ذلك وذلك فى قوله: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾

● أقوال المفسرين:

قال البغوى: قوله تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ والعهد ههنا هو اليمين. قال الشعبى: العهد يمين، وكفارته كفارة اليمين. أ.هـ.

قال الرّمخسرى: سيأتى فى كلام الرازى أ.هـ.

قال ابن الجوزى^(٣): قال المفسرون: العهد الذى يجب الوفاء به، هو الذى يحسن فعله، فإذا عاهد العبد عليه، وجب الوفاء به، والوعد من العهد.

﴿وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أى: بعد تغليظها وتشديدها بالعزم والعقد على اليمين، بخلاف لغو اليمين، ووكدت الشيء توكيداً، لغة أهل الحجاز. فأما أهل نجد، فيقولون: أكدته تأكيداً.

وقال الزجاج: يقال: وكدت الأمر، وأكدت لغتان جيدتان، والأصل الواو، والهمزة بدل منها.

قال الرازى^(٤): ذكروا فى تفسير قوله ﴿بعهد الله﴾ وجوها.

(*) المائدة: ١٣.

(١) أضواء البيان ٣/ ٢٦٢.

(٢) الإسراء: ٣٤٠.

(٣) زاد المسير ٤/ ٣٦٩.

(٤) التفسير الكبير ١٠/ ٥/ ١٠٩-١١٠.

الأول: قال صاحب «الكشاف»: عهد الله هي البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى ولاتنقضوا إيمان البيعة بعد توكيدها، أى بعد توثيقها باسم الله.

الثاني: أن المراد منه كل عهد يلتزمه الإنسان باختياره، قال ابن عباس: والوعد من العهد، وقال ميمون بن مهران: من عاهدته أوف بعهده مسلماً كان أو كافراً فإنما العهد لله تعالى.

الثالث: قال الأصم: المراد منه الجهاد وما فرض الله فى الأموال من حق.

الرابع: عهد الله هو اليمين بالله.

وقال هذا القائل: إنما يجب الوفاء باليمين إذا لم يكن الصلاح فى خلافه، لأنه عليه السلام قال «من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير ثم ليكفر» (١).

الخامس: قال القاضى العهد يتناول كل أمر يجب الوفاء بمقتضاه، ومعلوم أن أدلة العقل والسمع أوكد فى لزوم الوفاء بما لا يدلان على وجوبه من اليمين. ولذلك لا يصح فى هذين الدليلين التغير والاختلاف، ويصح ذلك فى اليمين وربما ندب فيه خلاف الوفاء.

ولقائل أن يقول: إنه تعالى قال ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ فهذا يجب أن يكون مختصاً بالعهود التى يلتزمها الإنسان باختيار نفسه لأن قوله ﴿إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ يدل على هذا المعنى وحيثئذ لا يبقى المعنى الذى ذكره القاضى معتبراً. ولأنه تعالى قال فى آخر الآية ﴿وَقَدْ جَعَلْتُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ وهذا يدل على أن الآية واردة فىمن آمن بالله والرسول، وأيضاً يجب أن لا يحمل هذا العهد على اليمين لأننا لو حملناه عليه لكان قوله بعد ذلك ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ تكراراً لأن الوفاء بالعهد والمنع من النقض متقاربان، لأن الأمر بالفعل يستلزم النهى عن الترك ألا إذا قيل إن الوفاء بالعهد عام فدخل تحته اليمين، ثم إنه تعالى خص اليمين بالذكر تنبيهاً على أنه أولى أنواع العهد بوجوب الرعاية، وعند هذا نقول الأولى أن يحمل هذا العهد على ما يلزمه الإنسان

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٦٢١). ومسلم فى الأيمان (١١/١١٦ - النووى) عن عبد الرحمن بن سمرة به وانظر «رياض الصالحين» (١٧١٨ - بتخريجنا)

باختياره ويدخل فيه المبايعة على الإيمان بالله وبرسوله ويدخل فيه عهد الجهاد، وعهد
الوفاء بالملتزمات من المنذورات أ.هـ.

قال القرطبي (١): قوله ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه
الإنسان من بيع أو صلة أو موافقة في أمر موافق للديانة. وهذه الآية مضمن قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ لأن المعنى فيها: افعلوا كذا، وانتهوا عن كذا؛ فعطف على ذلك
التقدير. وقد قيل: إنها نزلت في بيعة النبي ﷺ على الإسلام. وقيل: نزلت في
التزام الحلف الذي كان في الجاهلية وجاء الإسلام بالوفاء به؛ قاله قتادة ومجاهد وابن
زيد. وروى الصحيح عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله ﷺ، «لا حلف في
الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزه الإسلام إلا شدة» (٢) يعني في نصرة الحق
والقيام به والمواساة. وهذا كنحو حلف الفضول الذي ذكره ابن إسحاق قال: اجتمعت
قبائل من قريش في دار عبد الله بن جدعان لشرفه ونسبه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا
يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى ترد عليه مظلمته؛ فسمت
قريش ذلك الحلف حلف الفضول (٣)، أي حلف الفضائل. والفضول هنا جمع فضل
للكثرة كفلس وفلوس. روى ابن إسحاق عن ابن شهاب قال قال رسول الله ﷺ «لقد
شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم لو أدعى به في
الإسلام لأجبت» (٤). وقال ابن إسحاق: تحامل الوليد بن عتبة على حسين بن علي في
مال له، لسلطان الوليد فإنه كان أميرا على المدينة؛ فقال له حسين بن علي: أحلف بالله
لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعون
بحلف الفضول. قال عبدالله بن الزبير: وأنا أحلف والله لئن دعانا لآخذن سيفي ثم
لأقومن معه حتى ينتصف من حقه أو غوت جميعاً. وبلغت المسور بن مخرمة فقال مثل
ذلك. وبلغت عبدالرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك. فلما بلغ ذلك
الوليد أنصفه (٥).

(١) تفسير القرطبي ٦/٣٧٨٥، ٣٧٨٦.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الفضائل (٨/٣٢٢ / ٣٠٦) عن جبير بن مطعم به وانظر رسالتي
«كيف الامر إذا لم تكن جماعة» فصل لا حلف في الإسلام فهناك. نقول وتوجيهات لأهل العلم قل أن
تجدها مجموعة إلا في هذا الموضع.

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة (١/١٤٥).

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

قال العلماء: فهذا الحلف الذى كان فى الجاهلية هو الذى شده الإسلام وخصه النبى عليه الصلاة والسلام من عموم قوله «لاحلف فى الإسلام» (*) ؟. والحكمة فى ذلك بأصل الشريعة إيجاباً عاماً على من قدر من المكلفين، وجعل لهم السبيل على الظالمين فقال تعالى: «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». وفى الصحيح: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا: يارسول الله، هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تأخذ على يديه» - فى رواية تمنعه من الظلم - فإن ذلك نصره» (١) وقد تقدم قوله عليه السلام: «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده» (٢).

وإنما قال: «بعد توكيدها» فرقا بين اليمين المؤكدة بالعزم وبين لغو اليمين. وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك: التوكيد هو حلف الإنسان فى الشيء الواحد مراراً، يردد فيه الأيمان ثلاثاً أو أكثر من ذلك؛ كقوله: والله لأنقصه من كذا، والله لأنقصه من كذا، والله لأنقصه من كذا. قال: فكفارة ذلك واحدة مثل كفارة اليمين. وقال يحيى ابن سعيد: هى العهود، والعهد يمين، ولكن الفرق بينهما أن العهد لا يكفر. قال النبى ﷺ: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته يقال هذه غدره فلان» (٣) وأما اليمين بالله فقد شرع الله سبحانه فيها الكفارة بخصلة واحدة، وحل ما انعقدت عليه اليمين. وقال ابن عمر: التوكيد هو أن يحلف مرتين، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه. وقد تقدم فى المائدة أ.هـ.

قال ابن كثير (٤): هذا مما يأمر الله تعالى به الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة ولهذا قال «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا» أ.هـ.

(*) تقدم تخريجه.

(١) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٩٥٢) عن أنس به.

وانظر «رياض الصالحين» (٢٣٩ - بتخريجه).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨) عن أبى بكر بهذا اللفظ.

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجهاد والسير (٤٤/١٢) - السنوى) عن أبى سعيد به وانظر «رياض

الصالحين» (١٥٨٩ - بتخريجه).

(٤) تفسير ابن كثير ٥٦٦، ٥٦٥/٢.

قال السعدى^(١): قوله «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ».

وهذا يشمل جميع ماعاهد العبد عليه ربه، من العبادات والنذور، والأيمان التى عقدها إذا كان بها برأ ويشتمل أيضاً، ماتعاقد عليه هو غيره كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذى يعده العبد لغيره، ويؤكد على نفسه.

قال صاحب «الظلال»^(٢) لقد جاء هذا الكتاب لينشئ أمة وينظم مجتمعاً، ثم لينشئ عالماً ويقيم نظاماً. جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس؛ إنما العقيدة وحدها هى الآصرة والرابطة والقومية والعصية.

ومن ثم جاء بالمبادئ التى تكفل تماسك الجماعة والجماعات، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود.

والوفاء بعهد الله يشمل بيعة المسلمين للرسول ﷺ ويشمل كل عهد على معروف يأمر به الله. والوفاء بالعهود هو الضمان لبقاء عنصر الثقة فى التعامل بين الناس، وبدون هذه الثقة لا يقوم مجتمع، ولا تقوم إنسانية. والنص يخجل المتعاهدين أن يتقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلوا الله كفيلاً عليهم، وأشهدوه عهدهم، وجعلوه كافلاً للوفاء بها. ثم يهددهم تهديداً خفياً «إن الله يعلم ماتفعلون».

وقد تشدد الإسلام فى مسألة الوفاء بالعهود فلم يتسامح فيها أبداً، لأنها قاعدة الثقة التى يفترط بدونها عقد الجماعة ويتهدم أ.هـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال ابن باز: قوله تعالى «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ» فمن عاهد بذمة الله أو ذمة رسوله فعليه أن يوفى، وإن كان قد أخطأ فى الهد بذمة الله ورسوله، لكن عليه أن يوفى بذلك، وعليه أن لا يخفر بذلك أ.هـ.

والإيفاء إعطاء الشيء تاماً، ومنه إيفاء المكيال والميزان.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٥٢، ٥١.

(٢) بتصرف ٤/ ٢١٩٠، ٢١٩١.

قوله: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾.

قال ابن عثيمين^(١): يصلح أن يكون من باب إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله؛ أي: بعهدكم الله، أو بعهد الله إياكم؛ لأن الفعل إذا كان على وزن فاعل اقتضى المشاركة من الجانبين غالباً، مثل: قاتل ودافع.

قوله: ﴿إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾.

فائدتها التوكيد والتنبية على وجوب الوفاء؛ أي: إذا صدر منكم العهد؛ فإنه لا يليق منكم أن تدعوا الوفاء.

قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾

الإعراب^(٢): ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها الواو عاطفة ولا ناهية وتنقضوا مضارع مجزوم بلا والواو فاعل والأيمان مفعول به وبعد ظرف متعلق بتنقضوا وتوكيدها مضاف إليه والواو حالية والجملة حال من فاعل تنقضوا أ.هـ.
اللغة:

قال ابن عثيمين^(٣): نقض الشيء هو حل إحكامه، وشبه العهد بالعقدة؛ لأنه عقد المتعاهدين أ.هـ.

قال محيي الدين درويش^(٤): توكيدها: توثيقها والتوكيد مصدر وكد يوكد بالواو وفيه لغة أخرى أكد يؤكد بالهمز ومعناه التقوية وهذا كقولهم ورخت الكتاب وأرخته وليست الهمزة بدلاً من واو كما زعم بعضهم لأن الاستعمالين في المادتين متساويان فليس ادعاء كون أحدهما أصلاً أولى من الآخر أ.هـ.

● التفسير بالمأثور:

قال ابن كثير^(٥):

ولا تنقضوا الأيمان. لا يحملنكم قلة محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام.

(١) القول المفيد ٣/ ٢٩٩-٣٠٠

(٢) إعراب القرآن ٥/ ٣٥٨، ٣٥٩

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٠٠

(٤) إعراب القرآن ٥/ ٣٥٧.

(٥) تفسير ابن كثير (٥٦٦)

وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا صخر بن جويرية عن نافع قال لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنه وأهله ثم تشهد ثم قال: أما بعد فإننا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله وإنى سمعت رسول الله يقول: «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال هذه غدره فلان، وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبايع رجل رجلاً على بيعة الله ورسوله ثم ينكث ببيعته، فلا يخلعن أحد منكم يداً ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر فيكون فصل بينى وبينه»^(١) المرفوع منه فى الصحيحين^(٢).

وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا حجاج عن عبد الرحمن بن عابس عن أبيه عن حذيفة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرط لأخيه شرطاً لا يريد أن يفى له به فهو كالمدلى جاره إلى غير منفعة»^(٣).

● التفسير بأقوال السلف:

عن سعيد بن جبير فى قوله: «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا» يعنى، بعد تغليظها وتشديدها^(٤).

● أقوال المفسرين

قال الطبرى^(٥): لا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها يقول ولا تخالفوا الأمر الذى تعاقدتم فيه الأيمان يعنى بعدما شددتم الأيمان على أنفسكم فتحثوا فى أيمانكم وتكذبوا فيها وتنقضوها بعد إبرامها يقال منه وكذ فلان يمينه يوكدها توكيداً إذا شدها وهى لغة أهل الحجاز وأما أهل نجد فإنهم يقولون أكدتها أو كدها تأكيداً. أ.هـ.

قال البغوى^(٦): «بَعْدَ تَوْكِيدِهَا» تشديدها، فتحثوا فيها. أ.هـ.

قال الزمخشري^(٧): «وَلَا تَنْقُضُوا» أيمان البيعة «بَعْدَ تَوْكِيدِهَا» أى توثيقها باسم الله، وأكد ووكد، لغتان فصيحتان والأصل الواو، والهمزة بدل أ.هـ.

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٨/٢).

(٢) أخرجه البخارى (٦١٧٧)، ومسلم فى الجهاد (٩/٢٨٥/٦) عن ابن عمر به.

(٣) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٠٤/٥) عن حذيفة به.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٢٦٤٠) وانظر «الدر» (٢٤٢/٤).

(٥) تفسير الطبرى ١١٠/١٤/٧.

(٦) معالم التنزيل (٤٤٦/٣). (٧) الكشف (٣٤٢/٢).

قال ابن الجوزي^(١): ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها أى: بعد تغليظها وتشديدها بالعزم والعقد على اليمين، بخلاف لغو اليمين.

قال الرازي^(٢): قال أصحاب أبي حنيفة - رحمه الله - يمين اللغو هي يمين الغموس، والدليل عليه أنه تعالى قال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ فنهى فى هذه الآية عن نقض الأيمان، فوجب أن يكون كل يمين قابلاً للبر والحنث، ويمين الغموس غير قابلة للبر والحنث فوجب أن لا تكون من الأيمان. واحتج الواحدى بهذه الآية على أن يمين اللغو هي قول العرب: لا والله، وبلى والله. قال إنما قال تعالى ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ للفرق بين الأيمان المؤكدة بالعزم وبالعقد وبين لغو اليمين.

قوله ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ عام دخله التخصيص، لأننا بينا أن الخبر دل على أنه متى كان الصلاح فى نقض الأيمان جاز نقضها أ.هـ.

قال القرطبي^(٣): يقول بعد تشديدها، وتغليظها، يقال: توكيد، وتأكييد ووكد وأكد، لغتان أ.هـ.

ولانعارض بين هذا وبين قوله ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ الآية وبين قوله تعالى ﴿ذَلِكَ كَفَارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أى لا تتركوها بلا كفارة وبين قوله عليه السلام فيما ثبت عنه فى الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها - وفى رواية - وكفرت عن يمينى»^(٤) لانعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة ههنا وهى قوله ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة فى العهود والمواثيق لا الأيمان التى هى واردة على حث أو منع ولهذا قال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعنى الحلف أى حلف الجاهلية^(٥)، ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسوله الله ﷺ «لا حلف فى الإسلام وأيما حلف كان فى الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة»^(٦). وكذا رواه مسلم عن ابن أبى شيبة به. ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه

(١) زاد المسير ٣٦٩/٤.

(٢) التفسير الكبير ١٠/٢٠/١١٠، ١١١.

(٣) تفسير القرطبي (٣٧٨٦/٦).

(٤) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٦٧٩)، ومسلم فى الأيمان (١٠٨/١١ - النووى) عن أبى موسى

به. وانظر «رياض اصالحين» (١٧٢٠ - بتخريجنا).

(٥) تقدم تخريجه (٦) تقدم تخريجه.

فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه . وأما ماورد في الصحيحين عن عاصم الأحوال عن أنس رضى الله عنه أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دورنا^(١) . فمعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك والله أعلم أ.هـ.

قال الشوكاني^(٢): «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا» أى بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها . وليس المراد اختصاص النهى عن النقض بالإيمان المؤكدة لا غيرها مما لا تأكيد فيه ، فإن تحريم النقض يتناول الجميع ، ولكن فى نقض اليمين المؤكدة من الإثم فوق الإثم الذى فى نقض ما لم يؤكد منها .

- ثم ذكر مخصصات هذا العموم ومنها: قوله تعالى «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ» ويمكن أن يكون التقييد بالتوكيد هنا لإخراج أيمان اللغو أ.هـ.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد:

قال ابن باز^(٣): «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا» أى: لا تنقضوا العهود بعد أن أكدتموها بالإيمان الشديدة والمعاهدة بل أوفوا كما قال سبحانه «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ» وقال ﷺ: «يرفع لكل غادر يوم القيامة لواء عند إسته ينادى عليه: هذه غدره فلان بن فلان» وهذا فيه وعيد عظيم ، ويدل على وجوب الوفاء بالعهد أ.هـ.

قوله : «وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً»

الإعراب^(٤): وقد حرف تحقيق وجعلتم الله فعل وفاعل ومفعول به وعليكم متعلقان بكفيلاً وكفيلاً مفعول به ثان لجعلتم أ.هـ.

قال ابن عثيمين : الجملة حالية فائدتها قوة التوبيخ على نقض العهد واليمين أ.هـ.

● التفسير بما أثر عن الصحابة والتابعين.

عن سعيد بن جبير . . «وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا» يعنى فى العهد شهيداً،^(٥) والله أعلم بالصواب .

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٢٩٤)، ومسلم فى فضائل الصحابة (٣٢١٨/ ٢٠٤) عن أنس به .

(٢) فتح القدير ٣٠/ ١٩٤.

(٣) التعليق المفيد (٢٧١).

(٤) إعراب القرآن ٥/ ٣٥٩.

(٥) تقدم تخريجه .

عن مجاهد وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً قال وكَيْلاً^(١).

● أقوال المفسرين:

قال الطبري^(٢): وقوله ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾.

وقوله قد جعلتم الله عليكم كفيلاً يقول وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه على أنفسكم راعياً يعرئ الموفى منكم بعهد الله الذي عاهد على الوفاء به والناقض أ.هـ.

قال ابن الجوزي^(٣): قوله تعالى: «وقد جعلتم».

أى: بالوفاء، وذلك أن من حلف بالله، فكأنه اكفل الله بالوفاء بما حلف عليه أ.هـ.

قال الرازي^(٤): ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾.

ثم قال جعلتم الله عليكم كفيلاً هذه واو الحال، أى لاتنقضوها قد جعلتم الله كفيلاً عليكم بالوفاء، وذلك أن من حلف بالله تعالى فكأنه قد جعل الله كفيلاً بالوفاء بسبب ذلك الحلف أ.هـ.

قال ابن الجوزي^(٥): وللمفسرين فى معنى «كفيلاً» ثلاثة أقوال:

أحدها: شهيداً، قاله سعيد بن جبير.

الثانى: وكَيْلاً، قاله مجاهد.

الثالث: حفيظاً مراعياً لعقدكم، قاله أبو سليمان الدمشقى أ.هـ.

قال السعدى^(٦): وقد جعلتم الله عليكم أيها المتعاقدون كفيلاً فلا يحل لكم أن

لاتحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلاً، فيكون فى ذلك ترك تعظيم الله، وإستهانة به وقد رضى الآخر منك باليمين، وللتوكيد الذى جعلت الله فيه كفيلاً فكما إئتمنك وأحسن ظنه فيك، فلْتَفِ له بما قلته وأكدته أ.هـ.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تفسير الطبرى ١١١/١٤/٧.

(٣) زاد المسير ٣٦٩/٤.

(٤) التفسير الكبير ١١١/٢٠/١٠.

(٥) زاد المسير ٣٦٩/٤.

(٦) السعدى ٥٢٠/٥/١/٣.

عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ . وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا.

فَقَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا، وَلَا تَغْلُوا،

● أقوال شراح كتاب التوحيد

قال ابن عثيمين^(١): وجه جعل الله كفيلاً: أن الإنسان إذا عاهد غيره قال: اعاهدك بالله، أى أنه جعل الله عليه كفيلاً أ. هـ.

قوله «إن الله يعلم ماتفعلون».

● أقوال المفسرين وشراح التوحيد:

قال الطبرى^(٢): يقول تعالى ذكره إن الله أيها الناس يعلم ماتفعلون فى العهد الذى تعاهدون الله من الوفاء بها والأحلاف والأيمان التى تؤكدنها على أنفسكم أتبرون فيها أم تنقضونها وغير ذلك من أفعالكم محص ذلك كله عليكم وهو مسائلكم عنها وعما عملتم فيها يقول فاحذروا. أن تلقوه وقد خالفتم فيها أمره ونهيه فتستوجبوا بتلك منه مالا قبل لكم به من أليم عقابه أ. هـ.

قال الرازى^(٣): فيه ترغيب وترهيب، والمراد فيجازيكم على ما تفعلون إن خيراً فخير وإن شراً فشر. ثم إنه تعالى أكد وجوب الوفاء، وتحريم النقض وقال: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلُهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا».

قال ابن عثيمين^(٤): ختم الله الآية بالعلم تهديداً عن نقض العهد؛ لأن الإنسان إذا علم بأن الله يعلم كل مايفعل؛ فإنه لايتنقض العهد أ. هـ.



قوله عن يريده قال: «كان رسول الله ﷺ - إذا أمراً ميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله . . الحديث

(١) القول المفيد ٣/ ٣٠٠

(٢) تفسير الطبرى ٧/ ١٤/ ١١١.

(٣) التفسير الكبير ١٠/ ٢٠/ ١١١، ١١٠.

(٤) القول المفيد ٣/ ٣٠٠.

وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خَصَالٍ (أَوْ: خِلَالٍ)، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ، فَأَقْبِلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ: ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَأَقْبِلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرَى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى. وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَاسْأَلْهُمْ الْجَزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ، فَأَقْبِلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ.

● مناسبة الحديث للباب.

قال القرعاوى (١): دل الحديث على وجوب حفظ ذمة الله وذمة نبيه عن النقض

● مناسبة الحديث للتوحيد.

قال القرعاوى (٢): دل الحديث على وجوب حفظ ذمة الله وذمة رسوله عن النقض،

لأن نقض ذمة الله إستخفاف به وذلك منافی للتوحيد أ.هـ.

قوله (عن بريدة) قال عبدالرحمن آل الشيخ:- (٣): هو ابن الحصيب الأسلمى .

وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه . قاله فى «المفهم» .

قلت والحديث أخرجه مسلم فى الجهاد وبور عليه الشراح باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث .

قوله «قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً»

أى جعله أميراً، والأمير فى صدر الإسلام يتولى التنفيذ والحكم والفتوى والإمامة(٤).

وفيه من الفقه : تأمير الأمراء، ووصيتهم.

(١- ٢) الجديد ٤٦٥

(٣) فتح المجيد (٢/ ٦٩٤) و تيسير العزيز الحميد ٥٤٦

(٤) النووى شرح مسلم ٢٨١/ ٦

وَإِذَا حَاصِرْتَ أَهْلَ حَصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تَخْفَرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفَرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصِرْتَ أَهْلَ حَصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللَّهِ أَمْ لَا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

قوله: (على جيش أوسرية)

قال النووي:

السرية: هي قطعة من الجيش تخرج منه تغير وترجع إليه، قال إبراهيم الحربي: هي الخيل تبلغ أربعمئة ونحوها، قالوا: سميت سرية لأنها تسرى في الليل، ويخفي ذهابها، وهي فعيلة بمعنى فاعلة، يقال: سرى وأسرى، إذا ذهب ليلاً.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٢): قال الحربي السرية الخيل تبلغ أربعمئة ونحوها. والجيش: ما كان أكثر من ذلك.

وقال الشوكاني في «النيل»^(٣): هي القطعة من الجيش تنفصل عنه ثم تعود إليه، وقيل: هي قطعة من الخيل زهاء أربعمئة كذا قال إبراهيم الحربي - وتقدم -.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله «أوسرية».

هذه ليست للشك، بل للتنوع؛ فإن الجيش مازاد على أربع مئة رجل والسرية مادون ذلك.

والسرايا ثلاثة أقسام:

أ - قسم ينفذ من البلد، وهذا ظاهر، ويقسم ماغنمه قسمة ماغنم الجيش

ب - قسم يُنفذ في ابتداء سفر الجهاد، وذلك بأن يخرج الجيش بكامله ثم يبعث سرية تكون أمامهم.

(١) [صحيح] أخرجه مسلم في الجهاد - باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث (١٢/٢٣٨/١٧٣١). من طريق سليمان بن يريدة عن أبيه به.

وانظر كتابنا «فتح ذي الجلال في تخريج أحاديث الظلال» ح (٧٢).

(٢) فتح المجيد (٢/٦٩٥) وتيسير العزيز الحميد ٥٤٦ (٣) نيل الأوطار (٧/٢٧٧).

(٤) القول المفيد ٣/٣٠١، ٣٠٢.

ج - قسم ينفذ في الرجعة، وذلك بعد رجوع الجيش.

وقد فرق العلماء بينهما من حيث الغنيمة؛ فلسرية الابتداء الربع بعد الخمس؛ لأن الجيش وراءها، فهو رده لها وسيلحق بها، ولسرية الرجعة الثلث بعد الخمس؛ لأن الجيش قد ذهب عنها؛ فالخطر عليها أشد.

وهذا الذى تعطاه السريتان راجع إلى اجتهد الإمام إن شاء أعطى وإن شاء منع حسبما تقتضيه المصلحة.

قوله «أوصاه».

الوصية : العهد بالشئ إلى غيره على وجه الاهتمام به أ.هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): قال الحربى .

قوله (بتقوى الله) وتقوى الله التحرز بطاعته من عقوبته.

قلت: أى عبدالرحمن آل الشيخ: وذلك بالعمل بما أمر الله به والإنتهاء عما نهى عنه أ.هـ.

قال ابن عثيمين^(٢): التقوى : هى امثال أوامر الله واجتناب نواهيه على علم وبصيرة، وهى مأخوذة من الوقاية، وهى اتخاذ وقاية من عذاب الله، وذلك لا يكون إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وقال بعضهم.

التقوى : أن تعمل بطاعة الله على نور الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى عنه الله على نور من الله تخشى عقاب الله.

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقوى

واعمل كماش فوق أر ض الشوك يحذر مايرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

قلت: وينسب إلى على بن أبى طالب فى تعريف التقوى: إنها الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل أ.هـ.

وهذه التعريفات كلها تؤدى معنى واحداً.

وكانت الوصية بالتقوى لأمر الجيش؛ لأن الغالب أن الأمير يكون معه ترفع يخشى

منه أن يجانب الصواب من أجله، ولأن تقواه سبب لتقوى من تحت ولايته. اهـ.

(١) فتح المجيد (٦٩٦/٢) و تيسير العزيز الحميد ٥٤٦

(٢) القول المفيد ٣/ ٣٠٢

قوله (ومن معه من المسلمين خيراً).

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): أى ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيراً؛ من الرفق بهم، والإحسان إليهم، وخفض الجناح لهم، وترك التعاضم عليهم. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): أى: أوصاه أن يعمل بمن معه من المسلمين خيراً فى أمور الدنيا والآخرة؛ فيسلك بهم الأسهل، ويطلب لهم الأخصب إذا كانوا على إبل أو خيل، ويمنع عنهم الظلم، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وغير ذلك مما فيه خيرهم فى الدنيا والآخرة.

ويستفاد من هذا الحديث: أنه يجب على من تولى أمراً من أمور المسلمين أن يسلك بهم الأخير، بخلاف عمل الإنسان بنفسه؛ فإنه لايلزم إلا بالواجب. اهـ.

قوله : فقال : اغزوا باسم الله

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣): أى أشرعوا فى فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له، فتكون الباء فى «بسم الله» هنا للإستعانة، والتوكل على الله. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): يحتمل أنه أراد أن يعلمهم أن يكونوا دائماً مستعينين بالله، ويحتمل أنه أراد أن يفتح الغزو باسم الله.

والأول أظهر، والثانى أيضاً محتمل ؛ لأن بعث الجيوش من الأمور ذات البال، وكل أمر لايدأ فيه باسم الله؛ فهو أبتـر. اهـ.

قلت: وتقدم فى أول الكتاب أن هذا الحديث مضطرب فيترجح الأول والله أعلم.

قوله : (فى سبيل الله).

قال ابن عثيمين^(٤): متعلق بـ «اغزوا»، وهو تنبيه من الرسول ﷺ على حسن النية والقصد؛ لأن الغزاة لهم أغراض، ولكن الغزو النافع الذى تحصل به إحدى الحسنين ماكان خالصاً لله، وذلك بأن يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا لا لحمية أو شجاعة أو ليرى مكانه أو لطلب دنيا.

فإن قاتل لأجل الوطن : فمن قاتل لأنه وطن إسلامى تجب حمايته وحماية المسلمين

(١) فتح المجيد (٢/٦٩٦) وتيسير العزيز الحميد ٥٤٦

— (٢) القول المفيد ٣/٣٠٢، ٣٠٣

(٣) فتح المجيد (٢/٦٩٦) وتيسير العزيز الحميد ٥٤٦

(٤) القول المفيد ٣/٣٠٣، ٣٠٤

فيه، فهذه نية إسلامية صحيحة، وإن كان للقومية أو الوطنية فقط؛ فهو حمية وليس في سبيل الله.

وقوله: «في سبيل الله»

تشمل النية والعمل؛ فالنية سبقت.

والعمل: أن يكون الغزو في إطار دينه وشريعته، فيكون حسبما رسمه الشارع. اهـ.

قوله (قاتلوا من كفر بالله).

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين وغيرهم، وقد خصص منهم من له عهد، والرهبان والنسوان ومن لم يبلغ الحلم، وقد قال متصلاً به ولا تقتلوا وليداً وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان، لأنه لا يكون منها قتال غالباً، وإن كان منهم قتال أو تدبر قتلوا، وكذلك الذراري والأولاد. اهـ.

قال ابن عثيمين: «قوله قاتلوا»^(٢):

«قاتلوا» فعل أمر وهو للوجوب؛ أى: يجب علينا أن نقاتل من كفر بالله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾، فإذا قاتلنا الذين يلوننا، فأسلموا؛ نقاتل من وراءهم، وهكذا إلى أن نخلص إلى مشارق الأرض ومغاربها.

و«من»: اسم موصول، وصلته «كفر»، واسم الموصول وصلته يفيد العلية؛ أى: لكفره، فنحن لانقاتل الناس عصبية أو قومية أو وطنية، نقاتلهم لكفرهم لمصلحتهم وهي إنقاذهم من النار.

والكفر مداره على أمرين: الجحود، والإستكبار.

أى: الإستكبار عن طاعته، أو الجحود لما يجب قبوله وتصديقه.

وقوله: اغزوا

قال ابن عثيمين^(٣): تأكيد، وأتى بها ثانية كأنه يقول: لانتقموا الغزو واغزوا بجدة.

قوله: «ولانغزوا»

(١) فتح المجيد (٦٩٦/٢) وتيسير العزيز الحميد ٥٤٦.

(٢) القول المفيد ٣/٣٠٤.

(٣) القول المفيد ٣/٣٠٨٣٠٥.

قال الشوكاني في «النيل»^(١): «لاتغلو» بضم الغين. أى لاتخونوا إذا غنمتم شيئاً. اهـ.

قال ابن عثيمين: الغلول: أن يكتسب شيئاً من الغنيمة فيختص به، وهو من كبار الذنوب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أى: معذبا به؛ فهو يعذب بما غل يوم القيامة فى الدنيا، قال أهل العلم: يعزر الغال بإحراق رحله كله؛ إلا المصحف لحرمته، والسلاح لفائدته، ومافيه روح؛ لأنه لا يجوز تعذيبه بالنار.

قلت: امتنع الرسول ﷺ من الصلاة على الغال كما فى حديث زيد بن خالد الجهنى «أن رجلاً من أصحاب النبى ﷺ توفى يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «صلوا على صاحبكم» فتغيرت وجوه الناس لذلك، فقال: «إن صاحبكم غل فى سبيل الله» ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز اليهود لا يساوى درهمين»^(٢). قوله «ولاتغدروا».

قال الشوكاني^(٣): بكسر الدال وضمها، وهو ضد الرفاء. اهـ.

قال ابن عثيمين: الغدر: الخيانة، وهذا هو الشاهد من الحديث، وهذا إذا عاهدنا؛ فإنه يحرم الغدر، أما الغدر بلا عهد؛ فلنا ذلك لأن الحرب خدعة، وقد ذكر أن على بن أبى طالب رضى الله عنه خرج إليه رجل من المشركين ليبارزه، فلما أقبل الرجل على على صاح به على: ماخرجت لأبارز رجلين. فالتفت المشرك يظن أنه جاء أحد من أصحابه ليساعده، فقتله على رضى الله عنه.

وليعلم أن لنا مع المشركين ثلاث حالات.

الحال الأولى: أن لا يكون بيننا وبينهم عهد؛ فيجب قتالهم بعد دعوتهم إلى الإسلام وإبائهم عنه وعن بذل الجزية، بشرط قدرتنا على ذلك.

الحال الثانية: أن يكون بيننا وبينهم عهد محفوظ يستقيمون فيه؛ فهنا يجب الرفاء لهم بعهدهم؛ لقوله تعالى ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٤).

وقوله: ﴿فَاتَّبِعُوا إِلَهُمَّ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ﴾^(٥).

الحال الثالثة: أن يكون بيننا وبينهم عهد نخاف خيانتهم فيه؛ فهنا يجب أن ننذ إليهم العهد ونخبرهم أنه لا عهد بيننا وبينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾^(٦).

(١) «نيل الأوطار» (٧/ ٢٧٢).

(٢) [صحيح] أخرجه مالك فى «موطئه»، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، والحاكم وأحمد، بإسناد صحيح. انظر «أحكام الجنائز» للشيخ الألبانى.

(٣) «نيل الأوطار» (٧/ ٢٧٢). (٤) التوبة: ٧. (٥) التوبة: ٢. (٦) الأنفال: ٥٨.

قوله: «ولا تمثلوا».

التمثيل: التشويه بقطع بعض الأعضاء؛ كالأنف واللسان وغيرهما، وذلك عند أسرهم؛ لأنه لاحاجة إليه؛ لأنه انتقام في غير محله، واختلف العلماء فيما لو كانوا يفعلون بنا ذلك.

ف قيل: لا يمثل بهم للعموم، والنبي ﷺ لم يستثن شيئاً، ولأننا إذا مثلنا بواحد منهم؛ فقد يكون لا يرضى بما فعل قومه؛ فكيف تمثل به؟!

وقيل: تمثل بهم كما مثلوا بنا؛ لأن هذا العموم مقابل بعموم آخر، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ (١).

وإذا لم تمثل بهم مع أنهم يمثلون بنا؛ فقد يفسر هذا بأنه ضعف، وإذا مثلنا بهم في هذه الحال؛ عرفوا أن عندنا قوة ولم يعودوا للتمثيل بنا ثانية.

والظاهر القول الثاني.

فإن قيل: قد تمثل بواحد لم يمثل بنا ولا يرضى بالتمثيل؟

فيقال: إن الأمة الواحدة فعل الواحد منها كفعل الجميع، ولهذا كان الله - عز وجل - يخاطب اليهود في عهد الرسول ﷺ بأمر جرت في عهد موسى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ (٣)، وما أشبه ذلك.

قوله: «ولا تقتلوا وليدًا».

قال الشوكاني (٤): هو الصبي. اهـ.

أى: لا تقتلوا صغيراً؛ لأنه لا يقاتل، ولأنه ربما يسلم.

وورد في أحاديث أخرى: أنه لا يقتل راهب ولا شيخ فان ولا امرأة إلا أن يقاتلوا، أو يحرضوا على القتال، أو يكون لهم رأى في الحرب، كما قتل دريد بن الصمة في غزوة ثقيف مع كبره وعماء.

واستدل بهذا الحديث أن القتال ليس لأجل أن يسلموا، ولكنه لحماية الإسلام، بدليل أننا لا نقتل هؤلاء، ولو كان من أجل ذلك لقتلناهم إذا لم يسلموا، ورجح شيخ الإسلام هذا القول، وله رسالة في ذلك اسمها «قتال الكفار». اهـ.

(١) البقرة: ١٩٤.

(٣) البقرة: ٩٣.

(٢) البقرة: ٧٢.

(٤) «نيل الأوطار» (٧/ ٢٧٢).

قال النووي^(١): وفي هذه الكلمات من الحديث فوائد مجمع عليها، وهى : تحريم الغدر، وتحريم الغلول، وتحريم قتل الصبيان إذا لم يقاتلوا، وكراهة المثلة، واستحباب وصية الإمام أمراءه وجيوشه بتقوى الله تعالى والرفق باتباعهم وتعريفهم ما يحتاجون فى غزورهم وما يجب عليهم، وما يحل لهم، ما يحرم عليهم. وما يكره وما يستحب. اهـ.

قوله «وإذا لقيت عدوك».

قال ابن عثيمين^(٢): أى: قابلته أو وجدته، وبدأ بذكر العداوة تهيجاً لقتالهم؛ لأنك إذا علمت أنهم أعداء لك؛ فإن ذلك يدعوك إلى قتالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، وهذا أبلغ وأعم من قوله فى آية أخرى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾، لكن حُص فى هذه الآية باليهود والنصارى؛ لأن المقام يقتضيه.

والعدو ضد الولى، والولى من يتولى أمورك ويعتنى بك بالنصر والدفاع وغير ذلك، والعدو يخذلك ويبتعد عنك ويعتدى عليك ما أمكنه.

قوله: «من المشركين».

يدخل فيه كل الكفار، حتى اليهود والنصارى.

قوله: [ثم ادعهم إلى الإسلام].

قال الشوكانى فى «النيل»^(*): وقع فى نسخ مسلم (ثم ادعهم) قال عياض: الصواب: إسقاط «ثم»، وقد أسقطها أبو عبيد فى كتابه، وأبو داود فى «سننه»، وغيرها؛ بأن تفسير للخصال الثلاث.

وقال المازرى: إن «ثم» دخلت لاستفتاح الكلام.

وفى هذا دليل على أنه يشرع للإمام إذا أرسل قومه إلى قتال الكفار ونحوهم أن يوصيهم بتقوى الله، وينههم عن المعاصى المتعلقة بالقتال، كالغلول والغدر والمثلة وقتل الصبيان.

وفيه دليل على وجوب تقديم دعاء الكفار إلى الإسلام قبل المقاتلة.

(١) النووى شرح مسلم ٦/ ٢٨١.

(٢) القول المفيد ٣/ ٨٠٣-٩٣٠.

(*) نيل الأوطار (٧/ ٢٧٢).

وفى المسألة ثلاثة مذاهب :-

الأول: أنه يجب تقديم الدعاء للكفار إلى الإسلام من غير فرق بين من بلغته الدعوة منهم ومن لم تبلغه، وبه قال مالك والهادوية وغيرهم، وظاهر الحديث معهم.

والمذهب الثانى: أنه لا يجب مطلقاً.

والمذهب الثالث: أنه يجب لمن لم تبلغهم الدعوة، ولا يجب إن بلغتهم، لكن يستحب.

قال ابن المنذر: وهو قول جمهور أهل العلم، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة على معناه. وبه يجمع بين ما ظاهره الاختلاف من الأحاديث.

وقد زعم الإمام المهدي أن وجوب تقديم دعوة من لم تبلغه الدعوة مجمع عليه، ويرد ذلك ما ذكرنا من المذاهب الثلاثة. وقد حكاه كذلك المازرى وأبو بكر بن العربي. اهـ.

قوله: «خصال أو خلال».

بمعنى واحد، وعليه ؛ فـ «أو» للشك فى اللفظ، والمعنى لا يتغير.

قوله : «فأيتهن ما أجابوك».

«أيتهن» : اسم شرط مبتدأ، «ما» : زائدة، وهى تزداد بالشرط تأكيداً للعموم؛ كقوله تعالى ﴿أَيُّهَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، والكاف مفعول به، والعائد إلى اسم الشرط محذوف، والتقدير، فأيتهن ما أجابوك إليه؛ فاقبل منهم وكف عنهم، فلا تقاتلهم. اهـ.

قوله: (فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم).

قال سليمان آل الشيخ^(٣): قيدناه عما يورث بعلمه وتقيدته بنصب «أيتهن» على أن يعمل فيها «أجابو» لا على إسقاط حرف الجر. و«ما» زائدة. ويكون تقدير الكلام : فألى أيتهن أجابوك فاقبل منهم. كما تقول : جئتكَ إلى كذا وفى كذا. فيعدى إلى الثانى بحرف الجر.

قلت :- يعنى سليمان آل الشيخ فيكون فى ناصب «أيتهن» وجهان: ذكرهما الشارح. الأول: منصوب على الاشتغال. والثانى: على نزع الخافض. اهـ.

(١) فتح المجيد (٢/٦٩٦) وتيسير العزيز الحميد ٥٤٦، ٥٤٧.

قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فأقبل منهم».

قال النووي^(١): هكذا هو فى جميع نسخ صحيح مسلم (ثم ادعهم) قال القاضى عياض - رضى الله تعالى عنه - صواب الرواية (ادعهم) بإسقاط (ثم) وقد جاء بإسقاطها على الصواب فى كتاب أبى عبيد، وفى سنن أبى داود وغيرهما؛ لأنه تفسير للخصال الثلاثة، وليست غيرها.

وقال المازرى: ليست (ثم) هنا زائدة، بل دخلت لاستفتاح الكلام والأخذ - وقدمنا ذكر ذلك. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): «ثم»: زائدة؛ كما فى رواية أبى داود، ولأنه ليس لها معنى، ويمكن أن يقال: إنها ليست من كلام الرسول ﷺ، بل من كلام الراوى على تقدير ثم قال ادعهم.

وقوله: «إلى الإسلام».

أى: المتضمن للإيمان؛ لأنه إذا أفرد شمل الإيمان، وإذا اجتمعا؛ افترقا، كما فرق النبى ﷺ بينهما فى حديث جبريل (*).

والإيمان عند أهل السنة تدخل فيه الأعمال، قال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»^(٣)، فإن أجابوا للإسلام؛ فهذا ما يريده المسلمون، فلا يحل لنا أن نقاتلهم، ولهذا قال النبى ﷺ: «فأقبل منهم». اهـ.

قوله: «ثم ادعهم إلى التحول».

قال الشوكانى: فيه ترغيب الكفار بعد إجابتهم وإسلامهم إلى الهجرة إلى ديار المسلمين لأن الوقوف بالبادية ربما كان سبباً لعدم معرفة الشريعة لقلّة من فيها من أهل العلم. اهـ (**).

قوله: «ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا

(١) النووى شرح مسلم ٦/ ٢٨١. (٢) القول المفيد/ ٣/ ٣١٠.

(*) تقدم تخريجه.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٩)، ومسلم فى الإيمان (٢/ ٣ - النووى) عن أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٢٧ - بتخریجنا).

(**) نيل الأوطار (٧/ ٢٧٣).

ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم فى الغنمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين».

قال النووى^(١): معنى هذا الحديث: أنهم إذا أسلموا استحب لهم أن يهاجروا إلى المدينة، فإن فعلوا ذلك كانوا كالمهاجرين قبلهم فى استحقاق الفىء والغنمة وغير ذلك، وإلا فهم أعراب كسائر أعراب المسلمين الساكنين فى البادية من غير هجرة ولا غزو، فتجرى عليهم أحكام الإسلام، ولا حق لهم فى الغنمة والفىء، وإنما يكون لهم نصيب من الزكاة إن كانوا بصفة استحقاقها.

قال الشافعى: الصدقات للمساكين ونحوهم ممن لاحق له فى الفىء.

قال: ولا يعطى أهل الفىء من الصدقات، ولا أهل الصدقات من الفىء، واحتج بهذا الحديث.

وقال مالك وأبو حنيفة: المالان سواء ويجوز صرف كل واحد منهما إلى النوعين، وقال أبو عبيد: هذا الحديث منسوخ، قال: وإنما كان هذا الحكم فى أول الإسلام لمن لم يهاجر ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ وهذا الذى ادعاه أبو عبيد لا يسلم له. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١):

«ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين».

هذه الجملة تشير إلى أن الذين قوتلوا أهل بادية، فإذا أسلموا؛ طلب منهم أن يتحولوا إلى ديار المهاجرين ليتعلموا دين الله؛ لأن الإنسان فى باديته بعيد عن العلم؛ كما قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾، وهذا أصل فى توطين البوادي.

وقوله: ﴿فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين﴾.

يحتمل أن المراد بها العين؛ أى: المدينة النبوية، ويحتمل أن المراد بها الجنس؛ أى: الدار التى تصلح أن يُهاجر إليها لكونها بلد إسلام، سواء كانت المدينة أو غيرها.

(١) النووى شرح مسلم ٦/ ٢٨١ و ٢٨٢.

(٢) القول المفيد ٣/ ٣١٠ - ٣١٢.

ويقوى الاحتمال الثانى - وهو أن المراد بها الجنس -: أنه لو كان المراد المدينة؛ لكان الرسول ﷺ يعبر عنها باسمها ولا يأتى بالوصف العام، ويقوى الاحتمال الأول: أن دار المهاجرين الأولى هى المدينة، والظاهر الاحتمال الثانى.

قوله: «فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين».

وهذا تمام العدل، ولا يقال: إن الحق لصاحب البلد الأصلي؛ فلهم ما للمهاجرين من الغنيمة والفىء، وعليهم ما عليهم من الجهاد والنصرة.

قوله: «ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين».

يعنى: إذا لم يتحولوا إلى دار المهاجرين فليس لهم فى الغنيمة والفىء شىء. والغنيمة: ما أخذ من أموال الكفار بقتال أو ما ألحق به.

والفىء: ما يصرف لبيت المال؛ كخمس خمس الغنيمة، والجزية والخراج، وغيرها.

وقوله: «إلا أن يجاهدوا مع المسلمين».

يفيد أنهم إن جاهدوا مع المسلمين استحقوا من الغنيمة ما يستحقه غيرهم.

وأما الفىء؛ فاختلف أهل العلم فى ذلك.

فعند الإمام أحمد: لهم حق فى الفىء مطلقاً، ولهم حق فى الغنيمة إن جاهدوا.

وقيل: لا حق لهم فى الفىء، إنما الفىء يكون لأهل البلدان بدليل الاستثناء، فهو عائد على الغنيمة؛ إذ ليس مَنْ فى البلد مستعداً للجهاد ويتعلم الدين وينشره كأعرابي عند إبله.

فإذا أسلموا فلهم ثلاث مراتب: -

١- التحول إلى دار المهاجرين، وحينئذ يكون لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين.

٢- البقاء فى أماكنهم مع الجهاد؛ فلهم ما للمجاهدين من الغنيمة، وفى الفىء الخلاف.

٣- البقاء فى أماكنهم مع ترك الجهاد؛ فليس لهم من الغنيمة والفىء شىء. اهـ.

قوله «فإن لهم أبو»

قال ابن عثيمين^(١): «هم» عند البصريين: تركيد للفاعل المحذوف مع فعل الشرط، والتقدير: فإن أبوا هم، وعند الكوفيين: مبتدأ خبره الجملة بعده.

(١) القول المفيد ٣/٣١٢ و ٣١٣ و ٣١٤.

والقاعدة عندنا إذا اختلف النحويون فى مسألة: أن نتبع الأسهل، والأسهل هنا إعراب الكوفيين.

قوله: «فاسألهم الجزية».

قوله ﷺ: (فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم).
قال النووى^(١): هذا مما يستدل به مالك والأوزاعى وموافقهما فى جواز أخذ الجزية من كل كافر عريباً كان أو عجمياً كتابياً أو مجوسياً أو غيرهما.

وقال أبو حنيفة - رضى الله تعالى عنه -: تؤخذ الجزية من جميع الكفار إلا مشركى العرب ومجوسهم.

وقال الشافعى: لا يقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس عرباً كانوا أو عجماً، ويحتج بمفهوم آية الجزية، وبحديث: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» ويتأول هذا الحديث على أن المراد بأخذ الجزية أهل الكتاب؛ لأن اسم المشرك يطلق على أهل الكتاب وغيرهم، وكان تخصيصهم معلوماً عند الصحابة.

واختلفوا فى قدر الجزية.

فقال الشافعى: أقلها دينار على الغنى ودينار على الفقير أيضاً فى كل سنة، وأكثرها ما يقع به التراضى.

وقال مالك: هى أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الفضة.
وقال أبو حنيفة - رضى الله تعالى عنه - وغيره من الكوفيين وأحمد - رضى الله تعالى عنه: على الغنى ثمانية وأربعون درهماً، والمتوسط أربعة وعشرون، والفقير اثنا عشر.

قال الشوكانى: ظاهره عدم الفرق بين الكافر والعجمى والعربى وغير الكتابى، وإلى ذلك ذهب مالك والأوزاعى، وجماعة من أهل العلم، وخالفهم الشافعى. وتقدم كلام النووى فى ذلك.

قوله [فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم]

قال ابن عثيمين^(٢): بدأ النبى بطلب العون من الله؛ لأنه إذا لم يعنك فى جهاد أعدائه فانك مخذول والجملة جواب الشرط. اهـ.

(١) النووى شرح مسلم ٦/٢٨٢.

(٢) القول المفيد ٣/٣١٤.

قال عبدالرحمن^(١): قوله: «فإن هم أبوا فاسألهم الجزية» فيه حجة لمالك وأصحابه، والأوزاعي فى أخذ الجزية من كل كافر، عربياً كان أو غيره، كتابياً كان أو غيره.

وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنها تؤخذ من الجميع، إلا من مشركى العرب ومجوسهم.

وقال الشافعى: لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب، عرباً كانوا أو عجماً. وهو قول الإمام أحمد فى ظاهر مذهبه، وتؤخذ من المجوس.

قلت: - يعنى عبد الرحمن آل الشيخ - لأن النبى ﷺ أخذها، وقال «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»^(٢).

وقد اختلفوا فى القدر المفروض من الجزية. اهـ وتقدم ذكر ذلك من كلام النووى المتقدم.

قال عبدالرحمن آل الشيخ: قال يحيى بن يوسف الصرصرى الحنبلى رحمه الله:

وقاتل يهوداً والنصارى وعصبة الـ	مجوس، فإن هم سلموا الجزية اصدد
على الأدون اثنى عشر درهماً افرضن	وأربعة من بعد عشرين زد
لأوسطهم حالاً، ومن كان موسراً	ثمانية مع أربعين لتنقد
وتسقط عن صبيانهم ونسائهم	وشيخ لهم فان وأعمى ومقعد
وذى الفقر والمجنون أو عبد مسلم	ومن وجبت منهم عليه فيهتدى

وعند مالك وكافة العلماء؛ على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين، لا ممن نأى بداره ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حريهم. اهـ.

قال بن باز^(٢): «فإن أبوا فاسألهم الجزية» (أى أبو الدخول فى الإسلام والهجرة

(١) فتح المجيد (٦٩٧/٢) وتيسير العزيز الحميد ٥٤٧ و ٥٤٨.

(٢) [ضعيف] أخرجه مالك فى «الموطأ» (٤/٢٣٣)، والشافعى فى «مسنده» (٢٠٩).

وانظر «منار السبيل» (١٣٤٤ - بتخريجنا).

(١) التعليق المفيد ٢٧٢ و ٢٧٣.

فاسئلهم الجزية وأقبل منهم وهذا فى اليهود والنصارى والمجوس كما قال تعالى ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ فالسنة أطلقت من يؤخذ منهم الجزية والقرآن قيد بأهل الكتاب وألحقت السنة بأهل الكتاب المجوس فى أخذ الجزية لا فى حل الطعام والنساء وغيره.

فاستعن بالله وقاتلهم فيه وجوب الإستعانة بالله وأن المؤمن يستعين بالله فى قتال أعدائه ولا يعتمد على قوته فقط.

قوله ﷺ: (وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذمكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ﷺ)^(١).

قال النووي: قال العلماء: الذمة هنا: العهد، (تخفروا): بضم التاء، يقال: أخفرت الرجل إذا نقضت عهده، وخفرتة أمنتته وحميته، قالوا: وهذا نهى تنزيه أى: لا تجعل لهم ذمة الله فإنه قد ينقضها من لا يعرف حقها، ويتنكح حرمتها بعض الأعراب وسواد الجيش. اهـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): تبعاً للنووى قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه» الحديث.

الذمة: العهد، وتخفر: تنقض، ومعناه: أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء للعهد، كجملة الأعراب، فكأنه يقول: إن وقع نقض من متعد معتد، كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى. والله أعلم.

قوله: «وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال» ذكر فيه: أن مذهب مالك يجمع بين الأحاديث فى الدعوة قبل القتال. قال: وهو أن مالكا قال: لا يقاتل الكفار قبل أن يُدعوا، ولا تلتمس غرتهم إلا يكونوا قد بلغتهم الدعوة، فيجوز أن تلتمس غرتهم. وهذا الذى صار إليه مالك هو الصحيح؛ لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصية، وإنما يقاتلون للدين، فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك

(١) النووى شرح مسلم ٦/٢٨٢.

(٢) فتح المجيد (٢/٦٩٧) وتيسير العزيز الحميد ٥٤٨ و ٥٤٩.

سبباً ميلاً لهم إلى الانقياد إلى الحق، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين. فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزيدون عتواً وبغضاً. والله أعلم.

قال ابن عثيمين: سؤال عطاء لا سؤال استفهام، والفرق بين سؤال الاستفهام وسؤال العطاء: أن سؤال الاستفهام يتعدى إلى المفعول الثاني بـ «عن»، قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾.

وقد يكون المفعول الثاني جملة استفهامية؛ كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحْلَىٰ لَهُمْ﴾.

وأما سؤال الإعطاء؛ فيتعدى إليه بنفسه؛ كقولك: سألت زيدا كتاباً. والجزية: فَعْلَةٌ من جَزَى يَجْزِي، وظاهر فيها أنها مكافأة على شيء، وهى عبارة عن مال مدفوع من غير المسلم عوضاً عن حمايته وإقامته بدارنا. والذمى معصوم ماله ودمه وذريته مقابل الجزية، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾؛ أى: يسلموها بأيديهم، لا يقبل أن يرسل بها خادمه أو ابنه، بل لابد أن يأتي بها هو.

وقيل: ﴿عَنْ يَدٍ﴾: عن قوة منكم، والصحيح أنها شاملة للمعنيين. وقيل: ﴿عَنْ يَدٍ﴾: أن يعطيك إياها فتأخذها بقوة بأن تجر يده حتى يتبين له قوتك، وهذا لا حاجة إليه.

وقوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

أى: يجب أن يتصفوا بالذل والهوان عند إعطائها، فلا يعطوها بأبهة وترفع مع خدم وموكب ونحو ذلك، وجعل بعض العلماء من صغارهم أن يطال وقوفهم عند تسلمها منهم.

قال ابن عثيمين^(١): قوله «وإذا حاصرت»

الحصر: التضييق؛ أى: طوقتهم وضيق عليهم بحيث لا يخرجون من حصنهم ولا يدخل عليهم أحد.

قلت: الحصر التضييق من قوله تعالى: ﴿حَصَرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أى ضاقت. اهـ.

(١) القول المفيد ٣/ ٣١٤ - ٣١٧.

والحصن: كل ما يُتَحَصَّنُ به من قصور أو أحواش وغيرها.
قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾.
قوله: «أرادوك».

أى: طلبوك، وضمَّن الإِرادة معنى الطلب، وإلا؛ فإن الأصل أن تستعدى به «مِنْ»؛
فيقال: أرادوا منك.

قوله: «فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه».

الذمة: العهد، فإذا قال أهل الحصن المحاصرون: نريد أن ننزل على عهد الله
ورسوله؛ فإنه لا يجوز أن ينزلهم على عهد الله ورسوله، وعَلَّلَ النبي ﷺ ذلك بقوله:
«فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون...».
قوله: «أن تخفروا».

«أن»؛ بفتح الهمزة بدليل رفع «أهون» على أنها خبر، وأن وما دخلت عليه محلها
من الإِعراب النصب على أنها بدل اشتمال من اسم «إن»، والتقدير: فإن خفركم
ذممكم، والبدل يصح أن يحل محل المُبدَل منه، ولهذا قَدَرْتَهَا بما سبق.
قوله: «أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه».

لأن الغدر بذمة الله وذمة نبيه أعظم، وقوله: «أهون» من باب اسم التفضيل الذى
ليس فى المُفَضَّل ولا فى المُفَضَّل عليه شيء من هذا المعنى؛ لأن قوله: «أهون» يقتضى
اشتراك المفضل والمفضل عليه بالهون، والأمر ليس كذلك؛ لأن إخفار الذمم سواء كان
لذمة الله وذمة رسوله أو ذمة المجاهدين؛ كله ليس يَهَيِّن، بل هو صعب، لكن الهون
هنا نسبى وليس على حقيقته فهنا أرادوا أن ينزلوا على العهد بدون أن يحكم عليهم
بشيء، بل يعاهدون على حماية أموالهم وأنفسهم ونسائهم وذريتهم فنعطيههم ذلك.
قوله: «وإذا حاصرت».

أى: ضربت حصاراً يمنعهم من الخروج من مكانهم.

«أهل حصن»: أهل بلد أو مكان يَتَحَصَّنُونَ به.

«فأرادوك»: طلبوا منك.

«حكم الله»؛ أى: شرع الله.

قوله: «ولكن أنزلهم على حكمك».

قوله «فلاتنزلهم على حكم الله».

قال الشوكاني(*) : هذا النهى محمول على التنزيه والاحتياط ، وكذلك الذى قبله ولذلك قال ﷺ : «فإنك لاتدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا». وفيه دليل لمن قال أن الحق مع واحد ، وأن ليس كل مجتهد مصيباً ، والخلاف فى المسألة مبسوط فى موضعه .
والحق : أن كل مجتهد مصيب من الصواب ، لا من الإصابة .

وقد قيل أن هذا الحديث لا يستهض للاستدلال به على أن ليس كل مجتهد مصيباً ، لأن ذلك كان فى زمان النبى . والأحكام الشرعية إذ ذاك لاتزال تنزل وينسخ بعضها بعضاً ويخصص بعضها بعضاً ، فلا يؤمن من أن ينزل على النبى ﷺ حكم خلاف الحكم الذى قد عرفه الناس . اهـ وسيأتى ذلك من كلام ابن عثيمين .

قال حامد بن محمد بن حسن^(١) : وفى هذا دليل على جواز الاجتهاد لمن له قوة على ذلك ، وأيضاً فيه دليل على أن المجتهد يخطئ ويصيب ، والخطأ إذا كان باجتهاد وعلم مغفور بل له على ذلك أجر إذا كانت النية صالحة ناصحة لله تعالى ولدينه ولرسوله .

قال ابن حجر : إن المصير إلى رأى إنما يكون عند فقد النص وإلى هذا يومئ قول الشافعى فيما أخرجه البيهقى بسند صحيح إلى أحمد بن حنبل ، سمعت الشافعى يقول : القياس عند الضرورة . ومع ذلك فليس القائل برأيه على ثقة من أنه وقع على المراد من الحكم فى نفس الأمر وإنما عليه بذل الوسع فى الاجتهاد ليؤجر ، فمتى قصر المجتهد فى اجتهاده أثم وفاقاً لتركه الواجب عليه من بذل وسعه فيه .

قلت يعنى حامد بن محمد بن حسن بن محسن : القياس بيانه وتفسيره على ما فسرہ البخارى قال : باب من شبه أصلاً معلوماً بأصل مبین .

قلت - يعنى حامد بن محمد بن حسن بن محسن : وذلك كما قال النبى ﷺ للمرأة لما أخبرته أن أباه لم يحج : «أرأيت لو كان على أهلك دين أكنت تقضيه؟ قالت : نعم ، قال : فالله أحق بالقضاء»^(٢) . فهذا هو عين القياس بطريق الأولوية .

قال فى فتح البارى : إنما سكنت النبى ﷺ فى أشياء مفصلة ليس لها أصل فى

(*) نيل الأوطار (٧/ ٢٧٤ ، ٢٧٥) .

(١) فتح الحميد للمجيد ٤٦٧ و ٤٦٨ و ٤٦٩ .

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٦٩٩) عن ابن عباس . وانظر «منار السبيل» بتخریجنا .

الشرعية فلا بد فيها من الاطلاع إلى الوحى ، وإلا فقد شرع ﷺ لأمته القياس وأعلمهم كيفية الاستنباط فى مسائل لها أصول ومعان، فيريهم كيف يصنعون فيما لا نص فيه، والقياس هو تشبيه ما لا حكم فيه بما فيه حكم فى المعنى، وقد شبه ﷺ الحمر بالخليل فقال: «ما أنزل الله شيئاً إلا هذه الآية الجامعة، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾»^(١) وقال للمرأة التى أخبرته أن أباه لم يحج: «لو كان على أهلك دين أكنت قاضيته فإله أحق بالقضاء»^(٢). انتهى كلامه فى البخارى. عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»^(٣). انتهى.

قلت - يعنى حامد بن محمد بن حسن بن محسن: الأصول أربعة: الكتاب، والسنة، والقياس عند فقد النص على ما مضى أى بطريق الأولوية، والإجماع.

قال ابن حجر العسقلانى فى شرح البخارى: الإجماع اتفاق المجتهدين من أمة محمد ﷺ على أمر من الأمور الدينية بشرط أن يكون بعد وفاته ﷺ فخرج بالمجتهدين العوام فإنه لا عبرة باتفاقهم. اهـ.

قال ابن باز^(٤): فالواجب على المسلمين ألا ينقضوا العهد والميثاق ويخفروا وليس لهم أن يجعلوا ذمة الله وذمة رسوله لأنه إذا وقعوا فى الإخفار صار أسهل فى حقهم من الإخفار فى ذمة الله وذمة نبيه مع أن كلاهما لا يجوز لكن بعض الشر أهون من بعض وبعض الكبائر أشد من بعض.

وكذلك إذا طلبوا منهم أن ينزلهم على حكم الله فإنه لا يقبل بل يقول: أنزلكم على حكم أصحابي. ولا بأس أن يقول: سوف أجتهد فى إنزالكم على موافقة الشرع ولكن لا أستطيع أن أنزلكم على حكم الله لأنى قد أخطئ فيعرض عليهم إجتهاة حسب ما يوافق الشرع لأنه إذا أخطأ يكون قد كذب على الله فهذا من باب الحيلة. ومن باب الأداب الشرعية فى أعطاء العهود والمواثيق وأنزال العدو إلى حكم يرضاه الله تعالى. اهـ.

(١) الزلزلة: ٧. أخرجه البخارى (٤٩٦٣)، ومسلم فى الزكاة (٤/ ٧١ / ٢٤) عن أبى هريرة به.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٣٥٢) ومسلم فى الأقضية (١٢/ ١٣ - النووى) عن عمرو بن العاص به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٨٥٩ - بتخريجنا)

(٤) التعليق المفيد ٢٧٣.

قال ابن عثيمين: فإذا أرادوا أن ينزلوا على حكم الله؛ فإنهم لا يجابون؛ فإننا لا ندري أنصيب فيهم حكم الله أم لا؟

ولهذا قال: «أنزلهم على حكمك»، ولم يقل: وحكم أصحابك كما قال في الذمة؛ لأن الحكم في الجيش أو السرية للأمير، وأما الذمة والعهد؛ فهي من الجميع، فلا يحل لواحد من الجيش أن ينقض العهد.
وقوله: «لا تدرى».

أى: لا تعلم «أنصيب فيهم حكم الله أم لا»، وذلك لأن الإنسان قد يخطئ حكم الله تعالى.

وهذه المسألة اختلف فيها العلماء:

فقيل إن أهل الحصن لا يُنزلون على حكم الله؛ لأن قائد الجيش وإن اجتهد؛ فإنه لا يدري أنصيب فيهم حكم الله أم لا؟ فليس كل مجتهد مصيباً.

وقيل: بل يُنزلون على حكم الله، والنهي عن ذلك خاص في عهد النبي ﷺ فقط؛ لأنه العهد الذى يمكن أن يتغير فيه الحكم؛ إذ من الجائز بعد مضي هذا الجيش أن يُغير الله هذا الحكم، وإذا كان كذلك فلا تنزلهم على حكم الله؛ لأنك لا تدرى أنصيب الحكم الجديد أو لا تصيبه؟

أما بعد انقطاع الوحي؛ فيُنزلون على حكم الله، واجتهادنا فى إصابة حكم الله يعتبر صواباً إذا لم يتبين خطؤه؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وقد قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وهذا أصح؛ لأنه يحكم للمجتهد بإصابته الحكم ظاهراً شرعاً وإن كان قد يخطئ، وإن حصل الاحتراز بأن يقول: ننزلك على ما نفهم من حكم الله ورسوله؛ فهو أولى؛ لأنك إذا قلت على ما نفهم صار الأمر واضحاً أن هذا حكم الله بحسب فهمنا، لا بحسب الواقع فيما لو اتضح خلافه.

واخترنا هذه العبارة؛ لأنه قد يتغير الاجتهاد، ويأتى أمير آخر فيحارب هؤلاء أو غيرهم ثم يتغير الحكم؛ فيقول الكفار: إن أحكام المسلمين متناقضة.

● فوائد الحديث:

قال ابن عثيمين^(١): ويستفاد من هذا الحديث ما يلي:

١- تحريم التمثيل، والغلول، والغدر، وقتل الوليد، وقد سبق الكلام عليه.

(١) القول المفيد ٣/٣١٨ - ٣٢٢.

٢- يشرع للإمام بعث الجيوش والسرايا.

٣- لا يجوز القتال قبل الدعوة؛ لأنه جعل القتال آخر مرحلة.

وأما ما ورد في «الصحيح» أن النبي ﷺ أغار على بنى المصطلق وهم غارون^(١)؛ فقد أجيب: أن هؤلاء قد بلغتهم الدعوة، ودعوة من بلغتهم الدعوة سنة لا واجبة، ويرجع فيه للمصلحة.

قلت: تقدم كلام الشوكاني في ذلك.

٤- جواز أخذ الجزية من غير اليهود والنصارى والمجوس؛ لأن أهل الكتاب نص القرآن على أخذها منهم، والمجوس وردت به السنة، وأما ما عدا هؤلاء؛ فاختلف أهل العلم:

ف قيل: لا تأخذ من غير هؤلاء، وقيل: لا تؤخذ من مشركى العرب؛ لأن فيها إذلالاً.

والصحيح أنها تؤخذ من جميع الكفار؛ لعموم قوله ﷺ: «من كفر بالله»، ولم يقل: اليهود والنصارى. - وتقدم ذكر ذلك من كلان النووى والشوكاني، وسليمان آل الشيخ.

٥- الإشارة إلى أن القتال ليس لإكراه الناس على أن يدخلوا فى الإسلام، ولو كان كذلك ما شرعت الجزية؛ لأنه على هذا التقدير يجب أن يدخلوا فى الدين أو يقاتلوا، وهذا هو الراجح الذى يؤيده القرآن والسنة، وأما قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس...»^(٢) الحديث؛ فهو عام مخصوص بأدلة الجزية.

٦- عظم العهود، ولا سيما إذا كانت عهداً لله ورسوله.

٧- جواز نزول أهل الحصن على حكم أمير الجيش.

٨- أنه لا يجوز أن ينزلهم على حكم الله؛ إما فى عهد الرسول ﷺ، أو مطلقاً حسب الخلاف السابق.

٩- أن المجتهد قد يصيب وقد يخطئ؛ لقوله: «فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟»، وقال النبي ﷺ: «إذا حكم الحاكم، فاجتهد، فأصاب؛ فله أجران، وإن

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢٥٤١) ومسلم فى الجهاد (١/٢٧٨/٦) عن ابن عمر به.

(٢) تقدم تخريجه.

أخطأ؛ فله أجر واحد^(١)، وعليه؛ فهل نقول: إن المجتهد مصيب ولو أخطأ؟

الجواب: قيل: كل مجتهد مصيب.

وقيل: ليس كل مجتهد مصيباً.

وقيل: كل مجتهد مصيب فى الفروع دون الأصول؛ تحذراً من أن نُصَوَّبَ أهل البدع فى باب الأصل.

والصحيح أن كل مجتهد مصيب من حيث اجتهاده، أما من حيث موافقته للحق؛ فإنه يخطئ ويصيب، ويدل له قوله ﷺ: «فاجتهد فأصاب، واجتهد فأخطأ»(*)؛ فهذا واضح فى تقسيم المجتهدين إلى مخطئ ومصيب، وظاهر الحديث والنصوص أنه شامل للفروع والأصول، حيث دلت تلك النصوص على أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، لكن الخطأ المخالف لإجماع السلف خطأ ولو كان من المجتهدين؛ لأنه لا يمكن أن يكون مصيباً والسلف غير مصيبين، سواء فى علم الأصول والفروع.

على أن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم أنكرا تقسيم الدين إلى أصول وفروع، وقالوا: إن هذا التقسيم محدث بعد عصر الصحابة، ولهذا نجد القائلين بهذا التقسيم يلحقون شيئاً من أكبر أصول الدين بالفروع، مثل الصلاة، وهى ركن من أركان الإسلام، ويخرجون أشياء فى العقيدة اختلف فيها السلف، يقولون: إنها من الفروع؛ لأنها ليست من العقيدة، ولكن فرع من فروعها، ونحن نقول: إن أردتم بالأصول ما كان عقيدة؛ فكل الدين أصول؛ لأن العبادات المالية أو البدنية لا يمكن أن تتعبد لله بها إلا أن تعتقد أنها مشروعة؛ فهذه عقيدة سابقة على العمل، ولو لم تعتقد ذلك لم يصح تعبدك لله بها.

والصحيح أن باب الاجتهاد مفتوح فيما سُمى بالأصول أو الفروع، لكن ما خرج عن منهج السلف؛ فليس بمقبول مطلقاً.

١٠- أن باب الاجتهاد باق؛ لقوله: «لا تدرى أنصيب فيهم حكم الله أم لا؟»، وبهذا يتبين ضعف قول من قال: إن باب الاجتهاد قد انسد، والواجب التقليد للأئمة، وهذا يترتب عليه الإعراض عن الكتاب والسنة إلى آراء الرجال، وهذا خطأ، بل الواجب على من تمكن من أخذ الحكم من الكتاب والسنة أن يأخذ منهما، لكن لكثرة السنن وتفرقها

(١) تقدم قريباً.

(*) يرجع فى ذلك إلى «حاشيتى على الورقات» ط نزار الباز.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: الفرقُ بَيْنَ ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ، وَذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

لا ينبغي للإنسان أن يحكم بشيء بمجرد أن يسمع حديثاً في هذا الحكم حتى يتثبت؛ لأن هذا الحكم قد يكون منسوخاً أو مقيداً أو عاماً وأنت تظنه بخلاف ذلك.

وأما أن نقول: لا تنظر في القرآن والسنة لأنك لست أهلاً للاجتهاد؛ فهذا غير صحيح، ثم إنه على قولنا: إن باب الاجتهاد مفتوح؛ لا يجوز أبداً أن تحتقر آراء العلماء السابقين، أو أن تنزل من قدرهم؛ لأن أولئك تعبوا واجتهدوا وليسوا بمعصومين، فكونك تقدح فيهم أو تأخذ المسائل التي يلقونها على أنها نكت تعرضها أمام الناس ليسخروا بهم؛ فهذا أيضاً لا يجوز، وإذا كانت غيبة الإنسان العادي محرمة؛ فكيف بغيبة أهل العلم الذين أفنوا أعمارهم في استخراج المسائل من أدلتها، ثم يأتي في آخر الزمان من يقول: إن هؤلاء لا يعرفون، وهؤلاء يفرضون المحال ويقولون: كذا وكذا، مع أن أهل العلم فيما يفرضونه من المسائل النادرة قد لا يقصدون الوقوع، ولكن يقصدون تمرين الطالب على تطبيق المسائل على قواعدها وأصولها؟!

١١- فيه إثبات الحكم لله - عز وجل -، وحكم الله ينقسم إلى قسمين:

أ- حكم كوني، وهو ما يتعلق بالكون، ولا يمكن لأحد أن يخالفه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ (١).

ب- حكم شرعي، وهو ما يتعلق بالشرع والعبادة، وهذا من الناس من يأخذ به ومنهم من لا يأخذ به، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ (٢). اهـ.

قلت: وقد سبق ذلك مراراً عن الشيخ حفظه الله.

قال ابن عثيمين (٣):

قوله: «فيه مسائل».

● الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين.

لو قال: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وبين ذمة المسلمين؛ لكان أوضح؛ لأنك عندما

(١) يوسف ٨٠.

(٢) المتحنة: ١٠.

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٢٢ - ٣٢٥.

الثانية: الإرشادُ إلى أَقَلِّ الأمرينِ خطراً.

الثالثة: قوله: «اغزُوا بِسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

الرابعة: قوله: «قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ».

تقرأ كلامه تظن أن الفروق بين الثلاثة كلها، وليس كذلك؛ فإن ذمة الله وذمة نبيه واحدة، وإنما الفرق بينهما وبين ذمة المسلمين.

والفرق أن جعل ذمة الله وذمة نبيه للمحاصرين محرمة، وجعل ذمة المحاصرين ذمة- بكسر الصاد- جائزة.

● الثانية: الإرشاد إلى أَقَلِّ الأمرينِ خطراً.

لقلوه: «ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك... الخ، وهذه قاعدة مهمة، وتقال على وجه آخر وهو: ارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما إذا كان لا بد من ارتكاب إحداهما، وقد دل عليها الشرع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ فسب آلهة المشركين مطلوب، لكن إذا تضمن سب الله- عز وجل- صار منهياً عنه؛ لأن مفسدة سب الله أعظم من مفسدة السكوت عن سب آلهتهم، وإن كان في هذا السكوت شيء من المفسدة، ولكن نسكت لثلاث نفع في مفسدة أعظم، وأيضاً العقل دل عليها.

وفيه قاعدة مقابلة، وهى: ترك أولى المصلحتين لنيل أعلاهما، إذا كان لا بد من ترك إحداهما، فإذا اجتمعت مصلحتان لا يمكن الأخذ بهما جميعاً؛ فخذ بأعلاهما، وإذا اجتمعت مفسدتان لا يمكن تركهما؛ فخذ بأدناهما.

● الثالثة: قوله: «اغزُوا بِسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

يستفاد منها وجوب الغزو مع الاستعانة بالله والإخلاص والتمشى على شرعه.

● الرابعة: قوله: «قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ».

يستفاد منها وجوب قتال الكفار، وأن علة قتالهم الكفر، وليس المعنى أنه لا يقتال إلا من كفر، بل الكفر سبب للقتال؛ فمن منع الزكاة يقتال، وإذا ترك أهل بلد صلاة العيد قوتلوا، وكذا الأذان والإقامة، مع أنهم لا يكفرون بذلك.

وإذا اقتتل طائفتان وأبت إحداهما أن تفيء إلى أمر الله؛ قوتلت، فالقتال له أسباب متعددة غير الكفر.

الخامسة: قَوْلُهُ: «اسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ».

السادسة: الْفَرْقُ بَيْنَ حُكْمِ اللَّهِ وَحُكْمِ الْعُلَمَاءِ.

السابعة: فِي كَوْنِ الصَّحَابِيِّ يَحْكُمُ وَعِنْدَ الْحَاجَةِ بِحُكْمٍ لَا يَذَرِي أَيُؤَافِقُ حُكْمَ اللَّهِ أَمْ لَا؟

● الخامسة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم».

يفيد وجوب الاستعانة بالله، وأن لا يعتمد الإنسان على حوله وقوته.

● السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.

وفيه فرقان:

١- أن حكم الله مصيب بلا شك، وحكم العلماء قد يصيب وقد لا يصيب.

٢- تنزيل أهل الحصن على حكم الله ممنوع؛ إما في عهد الرسول ﷺ فقط أو مطلقاً، وأما على حكم العلماء ونحوه؛ فهو جائز.

فائدة:

لا ينبغي أن يقال لمفت: ما حكم الإسلام في كذا، أو ما رأى الإسلام في كذا؛ فإنه قد يخطئ فلا يصيب حكم الإسلام، ولا يقول مفت: حكم الإسلام كذا؛ لأنه قد يخطئ، ولكن يُقَيَّدُ؛ فيقول: حكم الإسلام فيما أرى كذا وكذا إلا فيما هو نص واضح صريح؛ فلا بأس.

مثل أن يقال: ما حكم الإسلام في أكل الميتة؟

فيقول: حكم الإسلام في أكل الميتة أنه حرام.

● السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدرى أيوافق حكم الله أم لا؟

وهذا ليس خاصاً بالصحابة، بل حتى مَنْ بعدهم؛ فإن له أن يحكم بما يرى أنه حكم عند الحاجة.



● مناسبة الباب لما قبله:

قال الفقير: المناسبة ظاهرة حيث أن ما قبله في ذمة الله وعهده والذي قبله كان فيما جاء في الحلف، فناسب أن يأتي بالحلف على الله بعده؛ لتشابه الموضوعات الثلاثة ولو قدم هذا الباب على الذي قبله لكان أنسق لأنه به أليق، والله الموفق.

● مناسبة الترجمة لكتاب التوحيد:

قال ناصر السعدى^(١): أما الإقسام على الله فهو في الغالب من باب العُجب بالنفس والدلال على الله، وسوء الأدب معه، ولا يتم الإيمان حتى يسلم من ذلك كله. اهـ.

قال عبد الله بن جابر: الإقسام على الله هو الحلف أن يفعل كذا أو لا يفعل كذا، حكمه التحريم إذا كان على جهة الحجر على الله والقطع بحصول المقسم على حصوله، وهذا النوع مناف للتوحيد؛ لأنه سوء أدب مع الله، وأما إذا كان على جهة حسن الظن بالله فهو جائز لقوله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره».

قال ابن باز: لما كان الإقسام على الله جرأة على الله ونقص في التوحيد وضعف في الإيمان ذكره المصنف هنا. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): أن من تَأَلَّى على الله - عز وجل -؛ فقد أساء الأدب معه وتحجر فضله وأساء الظن به، وكل هذا ينافي كمال التوحيد، وربما ينافي أصل التوحيد؛ فالتألى على من هو عظيم يعتبر تَنَقُّصاً في حقه. اهـ.

● شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال حامد بن محمد^(٣): (باب ما جاء) في بيان (الإقسام على الله) وإثمة وعقوبته. أما بيانه: فعن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله - ﷺ - «قال رجل: والله... الحديث^(٤)». فذكره.

(١) القول السديد ١٣٦.

(٢) القول المفيد ٣/٣٢٩.

(٣) فتح الله الحميد المجيد ٤٧١.

(٤) سيأتي تخريجه.

وأما إنثمه وعقوبته قوله: «وأحببت عملك» كفى به إنثماً وعقوبة، فالمؤمن ما يفعل فعلاً ولا يقول قولاً إلا وينظر هل هو شرعى أم لا، وإن لم ينظر فلا بد أن يغفل ويقع فى هذا الخطر وأمثاله كما قال - ﷺ - «إن الرجل يتكلم بكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله بها سخطه إلى يوم يلقاه»^(١) رواه الترمذى. وصححه. اهـ.

قال ابن باز^(٢): أى (باب ما جاء) فيه من الوعيد فإنه لما كان الإقسام على الله جراً على الله وتقص فى التوحيد وضعف فى الإيمان ذكره المؤلف هنا. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): الإقسام: مصدر أقسم يُقسم إذا حلف.

والحلف له عدة أسماء، هى: يمين، وألّية، وحلف، وقسم، وكلها بمعنى واحد، قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾^(٤).

وقال: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾^(٥)؛ أى: يحلفون.

وقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾^(٦).

وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾^(٧).

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾^(٨).

واختلف أهل العلم فى «لا» فى قوله: ﴿لا أقسم﴾؛ فقليل:

إنها نافية على الأصل، وإن معنى الكلام: لا أقسم بهذا الشيء على المُقسم به؛ لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، وهذا فيه تكلف؛ لأن من قرأ الآية عرف أن مدلولها الإثبات لا النفى.

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٤٦٩/٣)، والترمذى (٢٣١٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩) عن بلال بن الحارث به. وانظر «رياض الصالحين» (١٥١٩ - بتخريجنا).

(٢) التعليق المفيد ٢٧٥.

(٣) القول المفيد ٣/٣٣٦ - ٣٢٩.

(٤) الواقعة: ٧٥.

(٥) البقرة: ٢٢٦.

(٦) البقرة: ٢٢٥.

(٧) التوبة: ٦٢.

(٨) النور: ٥٣.

وقيل: إن ﴿لَا﴾ زائدة، والتقدير أقسم.

وقيل: إن ﴿لَا﴾ للتنبيه، وهذا بمعنى الثانى؛ لأنها من حيث الإعراب زائدة.

وقيل: إنها نافية لشيء مُقدَّر؛ أى: لا صحة لما تزعمون من انتفاء البعث، وهذا فى قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^(١) فيه شيء من التكلف، والصواب أنها زائدة للتنبيه.

والإقسام على الله: أن تحلف على الله أن يفعل، أو تحلف عليه أن لايفعل، مثل: والله؛ ليفعلن الله كذا، أو والله؛ لايفعل الله كذا.

والقسم على الله ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يقسم على ما أخبر الله به ورسوله من نفى أو إثبات؛ فهذا لا بأس به، وهذا دليل على يقينه بما أخبر الله به ورسوله، مثل: والله؛ ليشققن الله نبيه فى الخلق يوم القيامة، ومثل: والله؛ لا يغفر الله لمن أشرك به.

الثانى: أن يقسم على ربه لقوة رجائه وحسن الظن بربه؛ فهذا جائز لإقرار النبى ﷺ ذلك فى قصة الربيع بنت النضر عمة أنس بن مالك رضى الله عنهما، «حينما كسرت ثنية جارية من الأنصار، فاحتكموا إلى النبى ﷺ، فأمر النبى ﷺ بالقصاص، فعرضوا عليهم الصلح، فأبوا، فقام أنس بن النضر، فقال: أتُكسر ثنية الربيع؟ والله يارسول الله لا تكسر ثنية الربيع. وهو لا يريد به رد الحكم الشرعى؛ فقال الرسول ﷺ: «يا أنس! كتاب الله القصاص»؛ يعنى: السن بالسن. قال: والله؛ لا تكسر ثنية الربيع؛ وغرضه بذلك أنه لقوة ما عنده من التصميم على أن لا تكسر ولو بذل كل غال ورخيص أقسم على ذلك.

قلت: كذا قال الشيخ - حفظه الله.

وقال ابن حجر: فى رواية الأنصارى - أى فى الصحيح «فرضى القوم وعفوا» وظاهره أنهم تركوا القصاص والأرض مطلقاً، فأشار البخارى إلى الجمع بينهما - أى بين رواية الأنصارى ورواية الفزارى - بأن قوله عفو محمول على أنهم عفوا عن القصاص على قبول الأرض جمعاً بين الروایتين.

(١) القيامة: ١

ثم قال ابن حجر في موضع آخر: وفي رواية الإسماعيلي «فرضى أهل المرأة بأرش
أخذوه فعفوا» فعرف أن قوله «فعفوا» أى على الدية. اهـ (*) .

ثم قال ابن عثيمين: فلما عرفوا أنه مصمم ألقى الله فى قلوب الأنصار العفو فعفوا؛
فقال النبي ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»^(١)، فهو لقوة رجائه بالله
وحسن ظنه أقسم على الله أن لا تكسر ثنية الربيع؛ فألقي الله العفو فى قلوب هؤلاء
الذين صمموا أمام الرسول ﷺ على القصاص، فعفوا وأخذوا الأرش.

قال ابن حجر: وزاد معتمر «فعجب النبي ﷺ وقال: «إن من عباد الله من لو أقسم
على الله لأبره» أى لأبر قسمه، وعند ابن أبى عاصم «كم من رجل لو أقسم على الله
لأبره».

ووجه تعجبه أن أنس بن النضر أقسم على نفي فعل غيره مع إصرار ذلك الغير على
إيقاع ذلك الفعل فكان قضية ذلك فى العادة أن يحنت فى يمينه، فالهم الله الغير العفو،
فبر قسم أنس.

وأشار بقوله «إن من عباد الله» إلى أن هذا الاتفاق إنما وقع إكراماً من الله لأنس لير
يمينه، وأنه من جملة عباد الله الذين يجب دعاءهم ويعطيهم أربهم. اهـ.

قال ابن عثيمين: فثناء الرسول ﷺ عليه شهادة بأن الرجل من عباد الله، وأن الله
أبر قسمه ولئن له هذه القلوب، وكيف لا وهو الذى قال: بأنه يجد ريح الجنة دون أحد،
ولما استشهد وجد به بضع^٢ وثمانون ما يبين ضربة سيف أو طعنة برمح، ولم يعرفه إلا
أخته ببنانه^(٢)، وهى الربيع هذه، رضى الله عن الجميع وعنا معهم.

ويدل أيضاً لهذا القسم قوله ﷺ: «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله
لأبره»^(٣).

(*) فتح البارى (٥/ ٣٦٠، ٣٦١) (٢٣٤/١٢).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٢/ ٢٧٠٣). ومسلم فى الحدود (١١/ ١٦٢ - النووى) ؛ عن أنس
به، وأنظر «منار السبيل» (٢٤١٧ - بتخریجنا).

(٢) [صحيح] أخرجه: مسلم فى الإمامة (٧/ ١٤٨/٥٣) عن أنس به.

(٣) [صحيح] أخرجه: مسلم فى البر والصلة (١٦/ ١٧٤ - النووى) عن أبى هريرة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٢٥٩ - بتخریجنا).

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ:
وَاللَّهِ - لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أُغْفِرَ
لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(١).

القسم الثالث: أن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنفس، وتحجّر فضل الله - عز وجل - وسوء الظن به تعالى؛ فهذا محرم، وهو وشيك بأن يحبط الله عمل هذا المقسم وهذا القسم هو الذى ساق المؤلف الحديث من أجله.



● مناسبة الحديث للباب:

قال القرعاوى^(٢): دل الحديث على تحريم الإقسام على الله . اهـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى^(٣): دل الحديث على تحريم الإقسام على الله لأن فى ذلك هضم لحقوق الربوبية والإلهية وذلك منافٍ للتوحيد . اهـ.
قوله: [قال رجل].

قال ابن عثيمين^(٤): يحتمل أن يكون الرجل الذى ذكر فى حديث أبى هريرة الآتى أو غيره .

قوله: «والله لا يغفر الله لفلان».

قال ابن عثيمين^(٥): هذا يدل على اليأس من روح الله ، واحتقار عباد الله عند هذا القائل .

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة/ باب النهى عن تقنيط الإنسان من رحمة الله (١٦/١٧٤)، وابن جبان فى «صحيحه» (٧/٤٨٦ / ٥٦٨١)، والطبرانى فى «الكبير» (٢/١٦٥/١٦٧٩)، والبيهقى فى «الشعب» (٦٦٨٨).
من طريق عكرمة بن عمار، عن ضمضم بن جوس، عن أبى عمران الجونى عن جندب . . . الحديث.

وانظر «فتح المجيد» (٨٩٩ - بتخریجنا).

(٢ - ٣) الجديد ٤٦٧ .

(٤ - ٥) القول المفيد ٣/ ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر الذى يُعْطَى به الرأس عند الحرب، وفيه وقاية وستر. اهـ.

قوله: «فقال الله عز وجل - من ذا الذى يتألى على».

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): يتألى: أى يحلف، والآلية بالتشديد: الحلف. وصح من حديث أبى هريرة قال: البغوى فى شرح السنة بسنده وساقه - وسيأتى -.

قال ابن باز^(٢): التألى: هو الحلف، والآلية اليمين، والحديث فيه التحذير من المتألى على الله والإقسام عليه بأنه لا يفعل كذا ولا يفعل كذا والله لا يغفر الله لفلان ونحوها، فكل هذا ظلم وجور لأنه ليس للإنسان علم من الله ولا عندك حق عليه ولو كان هذا الرجل فاعل كبيرة أو صاحب معصية بل عليك أن تدعو له بالهداية لأن الله قد يغفر له وأنت لاتدرى وهذا فيه خطورة اللسان فيجب حفظه والحذر منه وهو نقص فى التوحيد والإيمان. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): «من»: اسم استفهام مبتدأ، «ذا»: ملغاة، «الذى»: اسم موصل خبر مبتدأ.

معنى يتألى يحلف والآلية اليمين^(٤).

«يتألى»: يحلف؛ أى: من ذا الذى يتحجر فضلى ونعمتى أن لا أغفر لمن أساء من عبادى، والاستفهام للإنكار.

والحديث ورد مبسوطاً فى حديث أبى هريرة أن هذا الرجل كان عابداً وله صاحب مسرف على نفسه، وكان يراه على المعصية، فيقول: أقصر فوجده يوماً على ذنب، فقال: أقصر. فقال: خلنى وربى؛ أبعثت على رقيباً؟ فقال: والله؛ لا يغفر الله لك^(٥).

وهذا يدل على أن المسرف عنده حسن ظن بالله ورجاء له، ولعله كان يفعل الذنب ويتوب فيما بينه وبين ربه؛ لأنه قال: خلنى وربى، والإنسان إذا فعل الذنب ثم تاب توبة نصوحاً ثم غلبته عليه نفسه مرة أخرى؛ فإن توبته الأولى صحيحة، فإذا تاب ثانية

(١) فتح المجيد (٧٠٣/٢)، ٧٠٤.

(٢) التعليق المفيد (٢٧٥).

(٣) القول المفيد ٣ / ٣٣٠ - ٣٣٢.

(٤) النووى شرح مسلم.

(٥) سيأتى تخريجه.

فتوبته صحيحة؛ لأن من شروط التوبة أن يعزم أن لا يعود، وليس من شروط التوبة أن لا يعود.

وهذا الرجل الذى قد غفر الله له؛ إما أن يكون قد وجدت منه أسباب المغفرة بالتوبة، أو أن ذنبه هذا كان دون الشرك فَتَفَضَّلَ اللهُ عليه فغفر له، أما لو كان شركاً ومات بدون توبة؛ فإنه لا يغفر له؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾. قوله: «وأحبطت عملك».

قال ابن عثيمين: ظاهر الإضافة فى الحديث: أن الله أحبط عمله كله؛ لأن المفرد المضاف الأصل فيه أن يكون عاماً.

ووجه إحباط الله عمله على سبيل العموم - حسب فهمنا والعلم عند الله: أن هذا الرجل كان يتعبد لله وفى نفسه إعجاب بعمله، وإدلال بما عمل على الله كأنه يُمْنٌ على الله بعمله، وحيث يفتقد ركنًا عظيمًا من أركان العبادة، لأن العبادة مبنية على الذل والخضوع، فلا بد أن تكون عبداً لله - عز وجل - بما تعبدك به وبما بَلَغَكَ من كلامه، وكثير من الذين يتعبدون لله بما تعبدهم به قد لا يتعبدون بوحية، قد يصعب عليهم أن يرجعوا عن رأيهم إذا تبيّن لهم الخطأ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويُحَرِّفُونَ النصوص من أجله، والواجب أن تكون لله عبداً فيما بلغك من وحيه، بحيث تخضع له خضوعاً كاملاً حتى تحقق العبودية.

ويحتمل معنى «أحبطت عملك» أى: عملك الذى كنت تفتخر به على هذا الرجل، وهذا أهون، لأن العمل إذا حصلت فيه إساءة بطل وحده دون غيره، لكن ظاهر حديث أبى هريرة يمنع هذا الاحتمال، حيث جاء فيه أن الله تعالى قال: اذهبوا به إلى النار.

ونظير هذا مما يحتمل العموم والخصوص قوله ﷺ فى حديث بهز بن حكيم عن جده فيمن منع الزكاة: «فإنّا أخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا»^(١).

فقوله: «وشطر ماله»، هل المراد جميع ماله، أو ماله الذى منع زكاته؟ يحتمل الأمرين، فمثلاً: إذا كان عنده عشرون من الإبل، فزكاتها أربع شياه، فمنع الزكاة، فهل نأخذ عشراً من الإبل فقط مع الزكاة، أو إذا كان عنده أموال أخرى من بقر وغنم ونقود نأخذ نصف جميع ذلك مع الزكاة؟

(١) تقدم تخريجه.

اختلف في ذلك :

ف قيل : نأخذ نصف ماله الذي وقعت فيه المخالفة .

وقيل : نأخذ نصف جميع المال .

والراجع أنه راجع إلى رأى الإمام حسب المصلحة ، فإذا كان أخذُ نصف ماله كله أبلغ في الردع ، أخذَ نصف المال كله ، وإلا ، أخذ نصف المال الذي حصلت فيه المخالفة .

وذكر نحو هذا الشرح الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ وذكرت شرح الشيخ ابن عثيمين لوضوحه وسهولته .

من فوائد الحديث :

قال النووي : وفيه دلالة لمذهب أهل السنة في غفران الذنوب بلا توبة إذا شاء الله غفرها واحتجت المعتزلة به في إحباط الأعمال بالمعاصي الكبائر ومذهب أهل السنة أنها لا تحبط إلا بالكفر ويتأول حبوط عمل هذا على أنه أسقطت حسناته في مقابل سيئاته وسمى إحباطاً مجازاً ، ويحتمل أنه جرى منه أمر آخر أوجب الكفر ، ويحتمل أن هذا كان في شرع من قبلنا ، وكان هذا حكمهم^(١) .



قوله : وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد... الخ .

قلت : أخرجه أبو داود في «سننه في الأدب في باب النهي عن البغي بلفظ : حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان ، أخبرنا علي بن ثابت عن عكرمة بن عمار ، قال : حدثني ضمضم بن جوس ، قال : قال أبو هريرة ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كان رجلان في بنى إسرائيل متآخيين فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة ، فكان لا يزل المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول : أقصر ، فوجده يوماً على ذنب فقال له : أقصر ، فقال : خلني وربى أبعثت على رقيباً؟ فقال : والله لا يغفر الله لك ، أولاً يدخلك الله الجنة فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد : كنت بى عالماً ، أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر ، اذهبوا به إلى النار» . قال أبو هريرة : والذي نفسى بيده لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته . اهـ .

(١) «النووى شرح مسلم» (٨/ ٤٢٢) .

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ،
أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ^(١).

مناسبة الحديث للباب والتوحيد تقدمت في الحديث السابق .

قوله: «وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد»

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): يشير إلى قوله في هذا الحديث: «أحدهما مجتهد في العبادة» وفي هذه الأحاديث بيان خطر اللسان، وذلك يفيد التحرز في الكلام كما في حديث معاذ.

قلت: يارسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخيرهم إلا حصائد ألسنتهم.

قوله: «وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد».

قال ابن باز^(٣): أى أن الذى حمله على هذا غيرته وعبارته التى يتعبد بها على أن قال هذا الكلام السيئ وفى هذا أن الإنسان قد يغار غيرة خاطئة خاسرة، فيجتريء بها على الله، وقد يكون غيورا فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر على غير بصيرة، وقد ينكر منكرا على غير بصيرة، ولذلك يجب التقيد بالقيود والشرعية فى إنكار المنكر والنظر إلى الحدود التى حدها الله .

«أوبقت ديناه وآخرتة» أى أهلكتها، لأنها كلمة خطيرة، وفى الحديث «إن العبد ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب» رواه مسلم وفى لفظ «إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يتبين فيها يكتب الله بها سخطه إلى يوم يلقاه» أى لا يثبت فيها . اهـ .

قوله: [تكلم بكلمة].

قال ابن عثيمين^(٤): يعنى قوله: والله لا يغفر الله لك .

(١) أخرجه أبو داود فى الأدب/ باب فى النهى عن البغى (٤/ ٢٧٧ / ٤٩٠١).

قال: حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان، أخبرنا على بن ثابت، عن عكرمة بن عمار قال: حدثنى ضمضم بن جوس، قال: قال أبو هريرة . . الحديث وفيه قصة . وانظر فتح المجيد (٩٠٠ - بتخريجنا).

(٢) فتح المجيد و تيسير العزيز الحميد (٥٥١/ ٥٥٠).

(٣) التعليق المفيد (٢٧٥، ٢٧٦). (٤) القول المفيد ٣/ ٣٣٣ - ٣٣٧.

قوله: (أوبقت).

أى: أهلكك، ومنه حديث: «اجتنبوا السبع الموبقات» أى: المهلكات.

قوله: «دنياه وآخرته».

لأن من حبط عمله، فقد خسر الدنيا والآخرة.

أما كونها أوبقت آخرته، فالأمر ظاهر، لأنه من أهل النار والعياذ بالله، وأما كونها أوبقت دنياه، فلأن دنيا الإنسان حقيقة هى ما اكتسب فيها عملاً صالحاً، وإلا، فهى خسارة، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ (١) وقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (٢). فمن لم يوفق للإيمان والعمل الصالح، فقد خسر دنياه حقيقة، لأن مآلها للفناء، وكل شئ فان فكأنه لم يوجد، واعتبر هذا بما حصل لك مما سبق من عمرك تجده مرَّ عليك وكأنه لم يكن، وهذا من حكمة الله - عز وجل - لئلا يركن إلى الدنيا. اهـ.

وقوله: «قال أبو هريرة».

قال ابن عثيمين: يعنى فى الحديث الذى أشار إليه المؤلف رحمه الله.

ما يستفاد من الحديث:

قال القرعاوى (٣):

- ١- تحريم الحلف على الله .
- ٢- تحريم التالى على الله .
- ٣- إثبات صفة القول لله على وجه يليق بجلاله .
- ٤- وجوب التأدب مع الله فى الأقوال والأحوال .
- ٥- بيان سعة فضل الله ورحمته .
- ٦- الأعمال بالخواتيم .
- ٧- قد يغفر للشخص بسبب غيره .
- ٨- قد يحبط العمل من أجل كلمة .
- ٩- تحريم تحجر فضل الله ورحمته .

(١) العصر: ١: ٣.

(٢) الزمر: ١٥.

(٣) الجديد/ ٤٦٧.

فِيهِ مَسَائِلُ

- الأولى: التَّحْذِيرُ مِنَ التَّالِي عَلَى اللَّهِ.
- الثانية: كَوْنُ النَّارِ أَقْرَبَ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ.
- الثالثة: أَنَّ الْجَنَّةَ مِثْلُ ذَلِكَ.
- الرابعة: فِيهِ شَاهِدٌ لِقَوْلِهِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ...» إِلَى آخِرِهِ.

فيه مسائل:

- الأولى: التحذير من التالى على الله.
 - قال ابن عثيمين^(١):
 - لقوله: «من ذا الذى يتألى على أن لا أغفر لفلان». وكونه أحبب عملَه بذلك.
 - الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شركاء نعلِهِ.
 - الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.
- هاتان المسألتان اللتان ذكرهما المؤلف تؤخذان من حبوط عمل المتألى والمغفرة للمسرف على نفسه، ثم أشار إلى حديث رواه البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه: أن النبى ﷺ قال: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شركاء نعلِهِ، والنار مثل ذلك»^(٢)، ويقصد بهما تقريب الجنة أو النار، والشركاء: سير النعل الذى يكون فيه الإبهام والأصابع.
- الرابعة: فيه شاهد لقوله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة...» إلى آخره.
- يشير المؤلف إلى حديث: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يرى أن تبلغ حيث بلغت يهوى بها فى النار سبعين خريفاً»^(٣) أو «أبعد مما بين المشرق والمغرب»^(٤) وهذا فيه

(١) القول المفيد (٣/ ٣٣٤/ ٣٣١).

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٤٨٨) عن ابن مسعود به .

وانظر «رياض الصالحين» (١٠٦ - بتخريجنا).

(٣) أخرجه: أحمد فى «مسنده» (٣٥٥/ ٢)، وابن ماجه (٣٩٧٠) عن أبى هريرة به.

(٤) [متفق عليه] أخرجه: البخارى (٦٤٧٧) ومسلم فى الزهد (٨/ ٣٤٣/ ٤٩).

الخامسة: أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يُغْفَرُ لَهُ بِسَبَبٍ هُوَ مِنْ أَكْرَهِ الْأُمُورِ إِلَيْهِ.

الحذر من مزلة اللسان ، فقد يسبب الهلاك ، ولهذا قال النبي ﷺ : «ومن يضمن لى ما بين لحيه وما بين رجله أضمن له الجنة»^(١) وقال لمعاذ : «كف عليك هذا - يعنى لسانه» قلت : يا رسول الله ! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال : «تكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس فى النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم؟!»^(٢)

ولا سيما إذا كانت هذه الزلة ممن يقتدى به ، كما يحدث من دعاة الضلال والعياذ بالله فإن عليه وزره ووزر من تبعه إلى يوم القيامة .

● الخامسة: أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يُغْفَرُ لَهُ بِسَبَبٍ هُوَ مِنْ أَكْرَهِ الْأُمُورِ إِلَيْهِ.

فإنه قد غفر له بسبب هذا التأنيب ، وهذه لم تظهر لى من الحديث ولعلها تؤخذ من قوله : «قد غفرت له» .

ولا شك أَنَّ الإنسان قد يغفر له شئ هو من أكره الأمور إليه ، مثل الجهاد فى سبيل الله ، قال تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾^(٣) . اهـ .

وزاد عبد الرحمن آل الشيخ^(٤) : وفى هذه الأحاديث : بيان خطر اللسان وذلك يفيد التحرز من الكلام ، كما فى حديث معاذ .

وزاد عبد الله بن جار الله^(٥) على فوائد الباب :

(١) تحريم العجب بالنفس ووجوب التأدب مع الله فى الأقوال والأفعال .

(٢) بيان خطر اللسان والتحرز من الكلام كما قال ﷺ : «وهل يكب الناس فى النار

(١) [صحيح] أخرجه : البخارى (٦٤٧٤) عن سهل بن سعد به .

(٢) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٣١/٥) ، والترمذى (٢٦١٦) ، والنسائى فى «الكبرى» (١١٣٩٤) ،

وابن ماجه (٣٩٧٣) عن معاذ به .

وانظر «رياض الصالحين» (١٥٢٥ - بتخریجنا) .

(٣) البقرة / ٢١٦ .

(٤) فتح المجيد (٧٠٣/٢) و تيسير العزيز الحميد .

(٥) الجامع الفريد (٢٢١ ، ٢٢٢) .

على وجوههم أو قال على مناخيرهم إلا حصائد ألسنتهم»^(١) . وقال ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها - أى: ما يفكر فيها - يزل بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»^(٢) - متفق عليه . اهـ .

وقال القرعاوى^(٣):

- (١) تحريم الحلف على الله
- (٢) تحريم التآلى على الله .
- (٣) إثبات صفة القول لله على وجه يليق بجلاله .
- (٤) وجوب التأدب مع الله فى الأقوال والأحوال .
- (٥) بيان سعة فضل الله ورحمته .
- (٦) الأعمال بالخواتيم .
- (٧) قد يغفر للشخص بسبب غيره .
- (٨) قد يحبط العمل من أجل كلمة .
- (٩) تحريم حجر فضل الله ورحمته . اهـ .

قلت:

- وفيه عبادة الله بالخوف والرجاء .
- وفيه جبوط عمل المنان الذى يمن على الله بعمله ، لأن هذا الرجل كان يمن على الله بالطاعة وماهى إلا من فضل الله عليه ، ولذا قال الله لنبيه «ولا تكن تستكثر» .
- وفيه فضيلة العالم على العابد ، حيث أن القائل «والله لا يغفر الله لفلان» كان رجلاً عابداً ولو كان عالماً ما تجرأ على هذا .
- وفيه عظمة الله فى أنه لا يُحلف عليه ، إلا على سبيل الرجاء وحسن الظن بالله كما تقدم .
- وفيه أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إن لم يكن على بصيرة ، فإنه يضر أكثر مما ينفع . وربما أضر بنفسه .



(١) [ضعيف] أخرجه الترمذى (٢٦١٦) انظر تمام تخريجنا عليه «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٤٧١/٢) من حديث معاذ .

(٢) [صحيح] أخرجه البخارى (٦٤٧٧) ومسلم (١١٧/١٨/٦) .

(٣) الجديد (٤٦٧) .

لَا يَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ

● مناسبة الباب لما قبله.

قال الفقير: ولما كان الذى أقسم على الله لم يعظمه حيث تَدَخَّلَ فى سلطانه بِحَجَرِ رحمته ومغفرته عن بعض عبيده وكان من استشفع بالله على خلقه أيضاً غير معظم له لأنه عكس الآية وجعل الخلق فى منزلة فوق الخالق؛ لما كان الأمر كذلك ناسب أن يعقب بهذا الباب بعده والله أعلم.

● مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

قال حامد بن محمد^(١): ومن يستشفع بالله على خلقه فإنه ما عظم الله، وما درى ما شأن الله تعالى بل جهل عظمته، وكبرياءه، وجلال قدره.

ومعلوم بالضرورة العقلية والنقلية لو أن لَمَعَ له لَمْعَةٌ من ذلك لما استشفع بالله الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، الكامل من كل الوجوه، المنزه عن النقائص والعيوب المتصلة والمنفصلة، الذى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير - على أحد من خلقه المقهور المدير. اهـ.

قال السعدى^(٢): الاستشفاع بالله على خلقه فهو تعالى أعظم شأنًا من أن يتوسل إلى خلقه، لأن رتبة المتوسل به غالباً دون رتبة المتوسل إليه. وذلك من سوء الأدب مع الله، فيتعين تركه، فإن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه، وكلهم يخافونه فكيف يعكس الأمر فيجعل هو الشافع، وهو الكبير العظيم الذى خضعت له الرقاب وذلت له الكائنات بأسرها. اهـ.

قال عبدالله بن جابر الله^(٣): مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هى أن الاستشفاع بالله على خلقه مناف للتوحيد لأن فيه تنقص لرب العالمين. اهـ.

قال ابن باز^(٤): ذكر المؤلف هذا الباب لأنه من كمال التوحيد والإيمان ولأن هذا

(١) فتح الله الحميد المجيد ٤٧٣.

(٢) القول السديد ١٣٦ و ١٣٧.

(٣) الجامع الفريد ٢٢٣.

(٤) التعليق المفيد ٢٧٧.

من وسائل الشرك وهو الاستشفاع بالله على خلقه، فشان الله أعظم من ذلك فلا يُستشفع بالله على خلقه بأن يقول لأحد: أنى استشفع بالله عليك، فهذا لا بأس به أما على الله فلا تجوز لأن شان الله أعظم من ذلك ومن شان المشفوع به أن المشفوع إليه يكون أعظم وهذا لا يليق بالله لأن الله فوق الجميع بل يسأل الله بأسمائه وصفاته. اهـ.

قال ابن عثيمين^(١): أن الاستشفاع بالله على خلقه تنقص لله - عز وجل -؛ لأنه جعل مرتبة الله أدنى من مرتبة المشفوع إليه؛ إذ لو كان أعلى مرتبة ما احتاج أن يشفع عنده، بل يأمره أمراً والله - عز وجل - لا يشفع لأحد من خلقه إلى أحد؛ لأنه أجل وأعظم من أن يكون شافعاً، ولهذا أنكر النبي ﷺ ذلك على الأعرابي، وهذا وجه وضع هذا الباب في كتاب التوحيد. اهـ.

● شرح الترجمة:

قال حامد بن محمد^(٢): باب ما جاء فى بيان أنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه. اهـ.

قال عبد الله بن جار الله^(*): الاستشفاع هو طلب الشفاعة، والاستشفاع بالله على خلقه حرام، لأنه تعالى أعظم شأناً من أن يتوسل به إلى خلقه، لأن رتبة المتوسل به غالباً دون رتبة المتوسل إليه، وذلك سوء أدب مع الله فيستعين تركه، فإن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه وكلهم يخافونه، فكيف يعكس الأمر فيجعل هو الشافع، وهو الكبير العظيم الذى خضعت له الرقاب وذلت له الكائنات جميعها. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٣): استشفع بالشيء؛ أى: جعله شافعاً له، والشفاعة فى الأصل: جعل الفرد شفعاً، وهى التوسط للغير بجلب منفعة له أو دفع مضرة عنه. اهـ.

قلت: وتقدم معنا تفصيل الشفاعة ومسائلها فى الباب السادس عشر، فانظره ان شئت.



(١) القول المفيد ٣/ ٣٣٨.

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٤٧٣.

(*) الجامع الفريد (٢٢٣).

(٣) القول المفيد ٣/ ٣٣٨.

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! نُهَكَتِ الْأَنْفُسُ وَجَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ! سُبْحَانَ اللهِ!» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ أَصْحَابِهِ. ثُمَّ قَالَ: وَيَحَكَ! أَتَذَرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ... وَذَكَرَ الْحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (١).

قوله: «عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله... الحديث.

قال عبدالرحمن آل الشيخ (٢): وسياق أبي داود في «سننه» أتم مما ذكره المصنف - رحمه الله - ولفظه: عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: «أتى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، جُهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهَكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللهُ لَنَا، فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللهِ، وَنَسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيَحَكَ أَتَذَرِي مَا تَقُولُ؟ وَسَبِّحْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَيَحَكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَحَكَ، أَتَذَرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَوَاتِهِ لَهَكَذَا وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقَبَةِ عَلَيْهِ - وَإِنَّهُ لَيَطُطُّ بِهِ أَطِيطُ الرَّحْلِ بِالرَّكَبِ».

قال عبد الرحمن آل الشيخ: قال ابن بشار: في حديثه: «إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سمواته».

(١) [ضعيف] أخرجه أبو داود في «السنة»/ باب: في الجهمية (٤/ ٢٣١/ ح ٤٧٢٦) وابن خزيمة في «التوحيد» (ص ١٠٣، ١٠٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (ح ٥٧٥، ٥٧٦)، والطبراني في «الكبير» (١/ ٢٢٨/ ح ١٥٤٧).

جميعاً من طريق محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده... فذكره.

قال الألباني: إسناده ضعيف.

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٥١ و ٥٥٢، و«فتح المجيد» (٢/ ٧٠٥).

قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن عنده في «الرد على الجهمية» من حديث محمد بن إسحاق بن يسار. اهـ.

قال صاحب عون المعبود^(١): وقال البيهقي في «كتاب الأسماء والصفات»: هذا حديث ينفرد به محمد بن إسحاق بن يسار عن يعقوب بن عتبة...

وأحمد بن حنبل يقول: يكتب عنه هذه الأحاديث يعنى المغازى ونحوها فإذا جاء الحلال والحرام أردنا قوماً هكذا يريد أقوى منه فإذا كان لا يحتج به فى الحلال والحرام فأولى أن لا يحتج به فى صفات الله سبحانه وتعالى. اهـ.

● مناسبة الحديث للباب:

قال عبد الله بن جاره^(٢): مناسبة الحديث للباب أن النبى ﷺ أنكر فيه الاستشفاع بالله على خلقه واستعظمه ونهى عنه. اهـ.

قال القرعاوى^(٣): حيث دل الحديث على تحريم الاستشفاع بالله على أحد من خلقه. اهـ.

● مناسبة الحديث للتوحيد:

قال القرعاوى^(٤): حيث دل الحديث على تحريم الاستشفاع بالله على أحد من خلقه لأن الاستشفاع به تنقص لجلاله وعظمته وحط من مكانته وذلك مناف للتوحيد. اهـ.

قوله: [جبير بن مطعم] قدم على النبى ﷺ فى فداء أسارى بدر، ثم أسلم بعد ذلك عام خير، وقيل يوم الفتح، وتوفى سنة (٥٩هـ).

وحكى ابن عبد البر أنه أول من لبس الطيلسان بالمدينة، وقال العسكرى: كان أحد من يتحاكم إليه، وقد تحاكم إليه عثمان وطلحة فى قضية أه^(٥).

قوله: [جاء أعرابى إلى النبى ﷺ]

[قلت]: وفى صحيح البخارى من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه «أن رجلاً

(١) نقلًا عن «عون المعبود» (١٣/٧، ١٤، ١٥).

(٢) الجامع الفريد ٢٢٤.

(٣) (٤ - ٣) الجديد ٤٧٠.

(٥) تهذيب التهذيب (٣١/٢).

.....
دخل يوم الجمعة^(١) ففى حديث جبير بن مطعم (الأعرابي) مبهم، وكذلك فى حديث أنس (رجلاً).

- وقال ابن حجر^(٢): لم أقف على تسميته. أهـ وذكر الحافظ الرد على من قال أنه كعب بن مرة، ومن قال أنه: خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى، ومن قال أبو سفيان.
ثم بين أن هذه الواقعة تكررت.

وفى رواية لحديث أنس «أتى رجل أعرابى من البدو» أهـ.
وقال ابن عثيمين^(٣): (الأعرابي) واحد الأعراب، وهم سكان البادية، والغالب على الأعراب الجفاء؛ لأنهم أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله أهـ.
قوله: «نهكت الأنفس».

قال صاحب عون المعبود: بصيغة المبنى للمجهول، أى نقصت^(٤). أهـ.

وقال ابن عثيمين^(٥): أى ضعفت أهـ.

قوله: [وجع العيال، وهلك الأموال].

وفى رواية البخارى عن أنس «هلكت المواشى، وانقطعت السبل»^(٦) وفى لفظ له «هلك الكراع» - أى الخيل -، وله أيضا: «هلكت الماشية، هلك العيال، هلك الكراع». وهو من ذكر العام بعد الخاص، والمراد بهلاكهم عدم وجود ما يعيشون به من الأقوات المفقودة بحسب المطر أهـ^(٧).

وقال ابن عثيمين^(٨): «وجع العيال، وهلك الأموال»؛ أى: من قلة المطر والخصب، فَضَعَفُ الأنفس بسبب ضعف القوة النفسية والمعنوية التى تحصل فيما إذا لم

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (١٠١٣)، ومسلم فى الاستسقاء (٨/٤٥٩/٣) عن أنس بلفظ آخر.

(٢) فتح البارى (٥٨٢/٢)، ٥٨٣.

(٣) القول المقيد (٣/٣٣٨).

(٤) عون المعبود (٨/١٣/٧).

(٥) القول المقيد (٣/٣٣٨).

(٦) تقدم قريباً.

(٧) فتح البارى (٥٨٣/٢).

(٨) القول المقيد (٣/٣٣٨).

يكن هناك خصب، وجاع العيال لقلة العيش، وهلكت الأموال؛ لأنها لم تجد ما ترعاه
أهـ.

قوله: [فاستسق لنا ربك] ولفظ أبى داود (فاستسق الله لنا).

وفى رواية البخارى فى حديث أنس قال الأعرابى: «فادع الله يُغيثنا» والإغاثة إذا
كانت بالضم، والغيث إذا كانت بالفتح، ويرجع الأول.

وللبخارى فى الأدب «فاستسق ربك» والمعروف فى كلام العرب (غشنا) لأنه من
الغوث، وقال ابن القطاع: غاث الله عباده غيثاً وغيثاً، سقاهم المطر، وأغاثهم أجاب
دعائهم^(١). اهـ.

وقال صاحب عون المعبود^(٢): اطلب لنا السقيا من الله تعالى أهـ.

وقال ابن عثيمين^(٣): أى اطلب من الله أن يسقينا، وهذا لا بأس به، لأن طلب
الدعاء ممن ترجى إجابته من وسائل إجابة الدعاء أهـ.

قوله: [فإننا نستشفع بالله عليك].

قال صاحب عون المعبود^(٤): فإننا نستشفع أى نطلب الشفاعة (بك) أى بوجودك
وحرمتك وبعظمتك.

قال ابن عثيمين^(٥): أى: نجعله واسطة بيننا وبينك لتدعو الله لنا، وهذا يقتضى أنه
جعل مرتبة الله فى مرتبة أدنى من مرتبة الرسول ﷺ.

قوله: [ونستشفع بك على الله].

قال ابن عثيمين^(٦): أى: نطلب منك أن تكون شافعاً لنا عند الله، فتدعو الله لنا،
وهذا صحيح.

قوله: [فقال النبى ﷺ سبحان الله! سبحان الله!].

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٧): قوله: «وسبح كثيراً وعظمه» لأن هذا القول لا يليق
بالخالق سبحانه وبحمده وإن شأن الله أعظم من ذلك. اهـ.

(١) فتح البارى (٢/ ٥٨٤).

(٢) عون المعبود (٧/ ٨/ ١٣).

(٣) القول المفيد (٣/ ٣٣٨).

(٤) عون المعبود (٧/ ٨/ ١٣).

(٥) القول المفيد ٣/ ٣٤٠ و ٣٤١.

(٦) القول المفيد ٣/ ٣٤٠.

(٧) فتح المجيد (٢/ ٧٠٦) تيسير العزيز الحميد (٥٥٢).

وقال ابن باز^(١): قال النبي ﷺ «سبحانه الله» هذا يقوله ﷺ في الأمور العظيمة المحبوب فيها، والمكروه في الأشياء التي تعظم أو يتعجب منها أو ينكرها.

ولها أمثلة كثيرة كحديث الأنواط، وحديث أن الأمة شطر الجنة وغيرها. اهـ.
قال ابن عثيمين^(٢): قوله: «سبحان الله! سبحان الله!». قال ﷺ استعظاماً لهذا القول، وإنكاراً له، وتزيهاً لله عز وجل عما لا يليق به من جعله شافعاً بين الخلق وبين الرسول ﷺ.

و«سبحان»: اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق من سبح يسبح تسبيحاً، وإذا جاءت الكلمة بمعنى المصدر وليس فيها حروفه؛ فهي اسم مصدر، مثل: كلام اسم مصدر كَلَّمَ والمصدر تكليم، ومثل: سلام اسم مصدر سَلَّمَ والمصدر تسليم.

و«سبحان»: مفعول مطلق، وهو لازم النصب وحذف العامل أيضاً، فلا يأتي مع الفعل، فلاتقول: سبحت الله سبحاناً إلا نادراً في الشعر ونحوه.

والتسبيح: تنزيه الله عما لا يليق به من نقص، أو عيب، أو مماثلة للمخلوق، أو ما أشبه ذلك.

وإن شئت أدخل مماثلة المخلوق مع النقص والعيب؛ لأن مماثلة الناقص نقص، بل مقارنة الكامل بالناقص تجعله ناقصاً؛ كما قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا

قوله: «فما زال».

إذا دخلت «ما» على زال الذي مضارعها يزال؛ صار النفي إثباتاً مفيداً للاستمرار؛

كقوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾^(٣) الآية، وكقوله تعالى في المضارع: ﴿وَلَا

يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(٤) (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾^(٤).

وجملة «يسبح»: خبر زال.

(١) التعليق المفيد (٢٧٧).

(٢) القول المفيد ٣/ ٣٤٠ و٣٤١.

(٣) الأنبياء: ١٥.

(٤) هود: ١١٨/١١٩.

قوله: «حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه».

أى: عرف أثره فى وجوه أصحابه، وأنهم تأثروا بذلك؛ لأنهم عرفوا أنه ﷺ لا يسبح فى مثل هذا الموضع ولا يكرره إلا لأمر عظيم، ووجه التسييح هنا أن الرجل ذكر جملة فيها شيء من التَّنْقِصِ لله تعالى؛ فَسَّحَ النبي ﷺ ربه تنزيهاً له عما تُوهِّمُه هذه الكلمة، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه فى السفر إذا هبطوا وادياً سبحوا؛ تنزيهاً لله تعالى عن السفول الذى كان من صفاتهم، وإذا علوا نَشَزُوا كبروا؛ تعظيماً لله عزوجل^(١)، وأن الله تعالى هو الذى له الكبرياء فى السموات والأرض.

قوله: [ثم قال: ويحك].

قال صاحب عون المعبود^(٢): «ويحك» بمعنى ويلك إلا أن الأول فيه معنى الشفقة عن المزلَّة والمزلقة والثانى دعاء عليه بالهلكة والعقوبة قاله القارى.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «ويحك». ويح: منصوب بعامل محذوف، تقديره: ألزمتك الله ويحك.

وتارة تضاف؛ فيقال: ويحك، وتارة تقطع عن الإضافة؛ فيقال: ويحاً لك، وتارة ترفع على أنها مبتدأ؛ فيقال: ويحه أو ويحٌ له.

وهى وويل وويس كلها متقاربة فى المعنى.

ولكن بعض علماء اللغة قال: إن ويح كلمة ترحم، وويل كلمة وعيد.

فمعنى ويحك: إنى أترحم لك وأحن عليك.

ومنهم من قال: كل هذه الكلمات تدل على التحذير.

فعلى معنى أن ويح بمعنى الترحم يكون قوله ﷺ لهذا الرجل تَرْحُماً لهذا الرجل الذى تكلم بهذا الكلام، كأنه لم يعرف قدر الله.

قوله: [أتدري ما الله].

(١) [صحيح] أخرجه: البخارى (٢٩٩٣) عن جابر بن عبد الله به.

(٢) عون المعبود ٩/١٣/٧.

(٣) القول المفيد ٣/٣٤٢.

قال الخطابي^(١): فمعنى قوله أتدرى ما الله معناه: أتدرى ما عظمة الله وجلاله، وأشار إلى أن ظاهر الحديث فيه نوع من الكيفية والكيفية عن الله وعن صفاته منفية وإنما هو كلام تقريب أريد به تقريب عظمة الله وجلاله سبحانه.

وقال البغوى فى شرح السنة^(٢): معناه أتدرى ما عظمة الله وجلاله.

قال ابن عثيمين^(٣): قوله: «أتدرى ما الله». المراد بالاستفهام التعظيم؛ أى: شأن الله عظيم، ويحتمل أن المعنى: لا تدرى ما الله، بل أنت جاهل؛ به فيكون المراد بالاستفهام النفى.

وقوله: «ما الله».

جملة استفهامية معلقة لـ «تدرى» عن العمل؛ لأن درى تنصب مفعولين، لكنها تعلق بالاستفهام عن العمل وتكون الجملة فى محل نصب سدّت مفعولى تدرى.

قوله: [إنَّ شأن الله أعظم من ذلك].

قال صاحب عون المعبود^(٤): «شأن الله أعظم من ذلك» أى: من أن يستشفع به على أحد.

قال الطيبي: استشفعت بفلان على فلان ليشفع لى إليه فشفعه أجاب شفاعته ولما قيل إن الشفاعه هى الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه إلى ذى سلطان عظيم منع ﷺ أن يستشفع بالله على أحد.

وقوله ذلك إشارة إلى أثر هيبه أو خوف استشعر من قوله سبحانه الله تنزيهاً عما نسب إلى الله تعالى من الاستشفاع به على أحد وتكراره مراراً. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٥): «إنَّ شأن الله أعظم من ذلك» أى إنَّ أمر الله وعظمته أعظم مما تصوّرت حيث جئت بهذا اللفظ.

قوله: [إنه لا يستشفع بالله على أحد].

(١) نقلاً عن عون المعبود ٧/١٣/١٤ و ١٥.

(٢) شرح السنة ١/١٧٦.

(٣) القول المفيد ٣/٣٤٢.

(٤) عون المعبود ٧/١٣/٩، ١٠.

(٥) القول المفيد ٣/٣٤٣.

قال ابن تيمية^(١): فأقره النبي ﷺ على قوله «إنا نستشفع بك على الله وأنكر عليه نستشفع بالله عليك، لأن الشافع يسأل المشفوع إليه، والعبد يسأل ربه ويستشفع إليه، والرب سبحانه وتعالى لا يسأل العبد ولا يستشفع به أحد.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(*): قوله «ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه» فإنه تعالى رب كل شيء ومليكه، والخير كله بيده، لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، ولا راد لما قضى، وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، والخلق وما في أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء، وهو الذي يشفع الشافع إليه، ولهذا أنكر على الأعرابي. اهـ.

وقال ابن عثيمين^(٢): أى: لا يطلب منه أن يكون شافعاً إلى أحد، وذلك لكمال عظمتهم وكبريائهم وهذا الحديث فيه ضعف، ولكن معناه صحيح، وأنه لا يجوز لأحد أن يقول: نستشفع بالله عليك.

فإن قيل: أليس قد قال النبي ﷺ: «من سألكم بالله فأعطوه»^(٣)، وهذا دليل على جواز السؤال بالله؛ إذ لو لم يكن السؤال بالله جائزاً لن يكن إعطاء السائل واجباً؟ والجواب أن يقال: إن السؤال بالله لا يقتضى أن تكون مرتبة المسؤول به أدنى من مرتبة المسؤول بخلاف الاستشفاع، بل يدل على أن مرتبة المسؤول به عظيمة، بحيث إذا سئل به أعطى.

على أن بعض العلماء قال: «من سألكم بالله»؛ أى: من سألكم سؤالاً بمقتضى شريعة الله فأعطوه، وليس المعنى من قال: أسألك بالله.

والمعنى الأول أصح، وقد ورد مثله فى قوله الملك: «أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن»^(٤).

قال البغوي^(٥): وعلى العبد أن يعتقد أن الله سبحانه وتعالى عظيم له عظمة، كبير له كبرياء، عزيز له عزة، حى له حياة، باق له بقاء، عالم وله علم، ومكلم وله كلام، قوى له قوة، وقادر وله قدرة، وسميع وله سمع، بصير له بصر.

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٧٠).

(٢) القول المفيد (٣/ ٣٤٣).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم فى حديث الأبرص والأقرع.

(٥) شرح السنة ١/ ١٧٧ و ١٨٠.

(*) فتح المجيد ٢/ ٧٠٦.

قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (١).
 وقال الله عزوجل: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٢).
 وقال الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣).
 وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٤).
 وقال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (٥).
 وقال النبي ﷺ عن الله عزوجل: «وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَانِي وَعَظَمَتِي لَا أَخْرِجَنَّ مِنْهَا
 مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» (٦).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (٧)، ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ (٨).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَقْنِي وَجْهَ رَبِّكَ﴾ (٩).
 وقال الله عزوجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (١٠).
 وقال الله عزوجل: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ (١١).
 وقال عزوجل: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٢).
 وقال تبارك وتعالى: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ (١٣).
 وقال عزوجل: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ (١٤).
 وقال عزوجل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (١٥).

(١) الواقعة: ٧٤.

(٢) الحج: ٦٢.

(٣) الجاثية: ٣٧.

(٤) الفتح: ٧.

(٥) فاطر: ١٠.

(٦) تقدم في باب الشفاعة

(٧) غافر: ٦٥.

(٨) طه: ١١١.

(٩) الرحمن: ٢٧.

(١٠) القصص: ٨٨.

(١١) سبأ: ٣.

(١٢) النساء: ١٧.

(١٣) النساء: ١٦٦.

(١٤) فاطر: ١١.

(١٥) البقرة: ٢٥٥.

وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١).

وقال عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ (٢).

وقال جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٣).

وقال عز وجل: ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ (٤).

وقال عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ (٥).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦).

وقال عز وجل: ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٧).

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٨).

وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ (٩).

وقال عز وجل: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (١٠).

وقال النبي ﷺ: «حِجَابُهُ التُّورُ لَوْ كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُ مَنْ خَلَقَهُ» (١١).

ويجب أن يعتقد أن الله عزَّ اسمه قديم بجميع أسمائه وصفاته، لا يجوز له اسمٌ حادثٌ، ولا صفةٌ حادثةٌ، كان الله خالقاً ولا مخلوق، ورباً ولا مَرْبُوب، ومالِكاً ولا مملوك، كما هو الآخرُ قبل فناء العالم، والوارثُ قبل فناء الخلق، والباعثُ قبل مجيء البعث، ومالكُ يوم الدين قبل مجيء يوم القيامة.

وأسماء الله تعالى لا تُشبهُ أسماء العباد، لأن أفعال الله تعالى مشتقة من أسمائه، وأسماء العباد مشتقة من أفعالهم، قال النبي ﷺ: «يقول الله سبحانه وتعالى: أنا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحْمَ وَشَقَقْتُ لَهَا مِنْ اسْمِي» (١٢).

- | | |
|--|-------------------|
| (١) النساء: ١٦٤. | (٢) الفتح: ١٥. |
| (٣) الحج: ٤٠. | (٤) الذاريات: ٥٨. |
| (٥) الأنعام: ٦٥. | (٦) البقرة: ٢٠. |
| (٧) القمر: ٥٥. | (٨) النساء: ١٣٤. |
| (٩) المجادلة: ١. | (١٠) طه: ٤٦. |
| (١١) سبق تخريجه بلفظ «إن الله لا ينাম». | |
| (١٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩١/١)، والحاكم في «المستدرک» (١٥٧/٤). | |

فَبَيَّنَ أَنَّ أَفْعَالَهُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ أَسْمَائِهِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُحَدَّثَ لَهُ اسْمٌ بِحُدُوثِ فَعْلِهِ، وَلَا يُعْتَقَدُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهَا هُوَ وَلَا غَيْرُهُ، بَلْ هِيَ صِفَاتٌ لَهُ أَزَلِيَّةٌ، لَمْ يَزَلْ جَلَّ ذِكْرُهُ، وَلَا يَزَالُ مُوصَوْفًا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَا يَبْلُغُ الْوَاصِفُونَ كُنْهَ عَظَمَتِهِ، هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. اهـ.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(١): وفي هذا الحديث: إثبات علو الله على خلقه، وأن عرشه فوق سمواته. وفيه: تفسير الإستواء بالعلو كما فسره الصحابة والتابعون والأئمة، خلافاً للمعطلة والجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم، كالاشاعرة ونحوهم من أخذ في أسماء الله وصفاته، وصرفها عن المعنى الذي وضعت له ودلت عليه، من إثبات صفات الله تعالى التي دلت على كماله جَلَّ وَعَلَا، كما عليه السلف الصالح والأئمة ومن تبعهم ممن تمسك بالسنة، فإنهم أثبتوا ما أثبتته الله لنفسه وأثبتته له رسوله من صفات كماله، على ما يليق بجلاله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في «مفتاح دار السعادة» - بعد كلام سبق فيما يعرف العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته - قال بعد ذلك.

والثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة، فتفتح له أبواب السماء، فيجول في أقطارها وملكوته وبين ملائكتها، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن، فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة، ويرى الملائكة حافين من حول العرش لهم زجل بالتسبيح والتحميد، والتقديس والتكبير، والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها، فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين، وإعزاز قوم وإذلال آخرين، وإنشاء ملك وسلب ملك، وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتبيانها وكثرتها؛ من جبر كبير؛ وإغناء فقير، وشفاء مريض؛ وتفريج كرب، ومغفرة ذنب، وكشف ضرر، ونصر مظلوم، وهداية حيران، وتعليم جاهل، ورد آبق، وأمان خائف، وإجارة مستجير، ومدد لضعيف وإغاثة لللهوف؛ وإعانة لعاجز، وانتقام من ظالم، وكف لعدوان، فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة، تنفذ في أقطار العوالم، لا يشغله سمع شيء منها عن سمع

(١) فتح المجيد ٧٠٦/٢ وتيسير العزيز الحميد ٥٥٢ و ٥٥٤.

غيره، ولا تغلظه كثرة المسائل والحوائج على اختلاف لغاتها وتبيانها واتحاد وقتها، ولا يتبرم بالبحاح الملحين، ولا تنقص ذرة من خزائنه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقاً لهيبته خاشعاً لعظمته عالياً لعزته، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين، سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيدي، فهذا سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه، وهذا من أعظم ثمرته وربحه وأجل منفعته وأحسن عاقبته، سفر هو حياة الأرواح، ومفتاح السعادة، وغنيمة العقول والألباب لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب اهـ. كلامه رحمه الله.

وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ في حياته فالمراد به، استجلاب دعائه وليس خاصاً به ﷺ، بل كل حي صالح يرجي أن يستجاب له، فلا بأس أن يطلب منه أنه يدعو للمسائل بالمطالب الخاصة والعامة.

كما قال النبي ﷺ لِعُمَرَ أَرَادَ أَنْ يَعْتَمِرَ مِنَ الْمَدِينَةِ "لَا تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ صَالِحِ دُعَائِكَ" (١) وأما الميت: فإنما يشرع في حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفي غير ذلك. وهذا هو يشرع في حق الميت. وأما دعاؤه: فلم يشرع، بل قد دل الكتاب والسنة على النهي عنه والوعيد عليه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ فبين الله تعالى أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة: أي ينكره ويعادي من فعله، كما في آية الأحقاف: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر. والصحابة رضی الله عنهم، لاسيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم: أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبي ﷺ بعد وفاته، حتى في أوقات الجذب.

كما وقع لعمر رضي الله عنه لما خرج ليستسقى بالناس خرج بالعباس عم النبي ﷺ، فأمره أن يستسقى (٢) لأنه حي حاضر يدعو ربه، فلو جاز أن يستسقى بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر رضي الله عنه والسابقون الأولون بالنبي ﷺ.

(١) [ضعيف] أخرجه أبو داود (١٤٩٨)، والترمذي (٣٥٦٢)، وابن ماجه (٢٨٩٤) عن عمر به، والحديث فيه عاصم بن عبيد وهو ضعيف.

وأنظر «رياض الصالحين» (٣٧٤ - بتخریجنا) وتقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: إنكاره على من قال: «نستشفع بالله عليك».

وبهذا يظهر الفرق بين الحى والميت؛ لأن المقصود من الحى دعاؤه إذا كان حاضراً، فإنهم فى الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب دعاء من يدعوه ويتضرع إليه، وهم كذلك يدعون ربهم، فمن تعدى المشروع إلا ما لا يشرع ضل وأضل. ولو كان دعاء الميت خيراً لكان الصحابة إليه أسبق وعليه أحرص، وبهم أليق، وبحقه أعلم وأقوم. فمن تمسك بكتاب الله نجاً، ومن تركه واعتمد على عقله هلك. وبالله التوفيق. اهـ.

المستفاد من الحديث:

قال ابن عثيمين^(١): ومن فوائد الحديث:

١- أنه ينبغي أن يقدم الإنسان عند الطلب الأوصاف التى تستلزم العطف عليه؛ لقوله: «نهكت الأنفس».

٢- الترحم على المذنب إذا قلنا: إن «ويح» للترحم.

قال القرعاوى^(٢):

١- جواز طلب الدعاء من الأحياء.

٢- تحريم طلب السقيا من غير الله.

٣- مشروعية الدعاء وإثبات نفعه.

٤- بيان مضار الجهل.

٥- وجوب إنكار المنكر.

٦- وجوب تنزيه الله عما لا يليق بجلاله.

٧- تحريم الاستشفاع بالله على أحد من خلقه.



قوله: (فيه مسائل):

● الأولى: إنكاره على من قال: «نستشفع بالله عليك».

(١) القول المفيد ٣/ ٣٤٦.

(٢) الجديد ٤٧٠.

الثانية: تَغْيَرُهُ تَغْيَرًا عُرِفَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

الثالثة: أَنَّهُ لَمْ يَنْكَرْ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ».

الرابعة: التَّنْبِيهُ عَلَى تَفْسِيرِ «سُبْحَانَ اللَّهِ!».

الخامسة: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَسْأَلُونَهُ ﷺ الْاسْتِسْقَاءَ.

قال ابن عثيمين^(١): تؤخذ من قوله: «سبحان الله! أتدري ما الله»، وقوله: «إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه».

● الثانية: تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

تؤخذ من قوله: «فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه»، وكونه يكرر سبحان الله هذا يدل على أنه تغير حتى عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة، وهذا دليل على أن هذه الكلمة كلمة عظيمة منكرة.

● الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله».

لأنه قال: لا يستشفع بالله على أحد؛ فأنكر عليه ذلك، وسكت عن قوله: «نستشفع بك على الله»، وهذا يدل على جواز ذلك، وهنا قاعدة وهي: إذا جاء في النصوص ذكر أشياء، فأنكر بعضها وسكت عن بعض؛ دل على أن ما لم ينكر فهو حق، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾؛ فأنكر قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا﴾، وسكت عن قولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾؛ فدل على أنها حق، ومثلها عدد أصحاب الكهف، حيث قال عن قولهم: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْبُهُمْ كُلُّهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُلُّهُمْ رَجَمًا بِالْغَيْبِ﴾، وسكت عن قول: ﴿سَبْعَةٌ وَتَامَنَهُمْ كُلُّهُمْ﴾.

● الرابعة: التنبيه على تفسير «سبحان الله!».

لأن قوله: «إن شأن الله أعظم» دليل على أنه مُتَرَدِّدٌ عما ينافي تلك العظمة.

● الخامسة: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء.

وهذا في حال حياته، أما بعد وفاته فلم يكونوا يفعلونه؛ لأنه ﷺ انقطع عمله بنفسه

(١) القول المفيد ٣/ ٣٤٤ و ٣٤٦.

وعبادته، ولهذا لما حصل الجَدْبُ في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه استسقى بالعباس، فقال: «اللهم! إنا كنا نتوسل إليك بنينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا». وتوسلهم بالنبي ﷺ كان بطلبهم الدعاء منه، ولهذا جاء في بعض الروايات: أن عمر كان يأمر العباس فيقوم فيدعو^(١).

وبهذا نعرف أن القصة المروية عن الرجل العتبي الذي كان جالساً عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي، فقال: السلام عليكم يا رسول الله! سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾، وإنى قد جئت مستغفراً لذنبى مستشفعاً بك إلى ربى، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم
ثم انصرف، قال العتبي: فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقال: يا عتبي! بشر الأعرابي أن الله قد غفر له.

فهذه الرواية باطلة لا صحة لها؛ لأن صاحبها مجهول، وكذلك من رواها عنه مجهولون، ولا يمكن أن تصح؛ لأن الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا﴾ ولم يقل: إذا ظلموا، و«إذا» لما مضى بخلاف «إذا»، والصحابة رضى الله عنهم لما لحقهم الجذب في زمن عمر لم يستسقوا بالرسول ﷺ، وإنما استسقوا بالعباس بن عبدالمطلب بدعائه وهو حياضر فيهم. اهـ.

قلت: وتقدم ما جاء في «هذا الحديث من كلام شرح كتاب التوحيد، وغيرهم.

قال سليمان آل الشيخ: فما حظ من ظلم نفسه بعد موت النبي ﷺ، من هذه الآية؟ وهل كلام بعض الناس في دعوى المجئ إلى قبرة ﷺ، والاستغفار عنده، والاستشفاع به والاستدلال بهذه الآية على ذلك صحيح أم لا؟

الجواب: أما حظ من ظلم نفسه بعد موت النبي ﷺ من هذه الآية فالاستغفار، وأن بتوب إلى الله توبة نصوحاً في كل زمان ومكان، ولا يشترط في صحة التوبة المجئ إلى قبره، والاستغفار عنده بالإجماع، وأما المجئ إلى قبره، والاستغفار عنده والاستشفاع به

(١) تقدم تخريجه.

والاستدلال بالآية على ذلك، فهو استدلال على مالا تدل الآية عليه بوجه من وجوه الدلالات، لأنه ليس في الآية إلا المجئ إليه ﷺ لا المجئ إلى قبره واستغفاره لهم لاستشفاعهم به بعد موت، فعلم أن ذلك باطل يوضح ذلك أن الصحابة الذين هم أعلم الناس بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ما فهموا هذا من الآية فعلم أن ذلك بدعة، وأكثر ما استدل به من أجاز ذلك رواية العتبي عن أعرابي مجهول على أن القصة لا نعلم لها إسناداً، ومثل هذا لو كان حديثاً أو أثراً عن صحابي لم يحز الاحتجاج به، ولم يلزمنا حكمه، لعدم صحته، فكيف يجوز الاحتجاج في هذا بقصة لاتصح عن بدوي لا يعرف. اهـ.

قال ناصر السعدي^(١): أن هذا المجئ إلى الرسول ﷺ مختص بحياته، لأن السياق يدل على «ذلك لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك. اهـ.

وقال الشيخ مقبل في تعليقه على تفسير ابن كثير^(٢): قصة العتبي منكرة لا تثبت. قال الحافظ ابن عبد الهادي: في «الصارم المنكي»^(٣) بعد ذكره ما في سندها من الاختلاف وأنه مظلم مختلف أيضاً. ولو كانت ثابتة لم يكن فيها حجة على مطلوب المعترض - يعني السبكي - ولا يصلح الاحتجاج بمثل هذه الحكاية ولا الاعتماد على مثلها عند أهل العلم. بالله التوفيق(*).



(*) انظر كتابنا «إيضاح الإيضاح بكلام الحنابلة الملاح» (٢/ ١١٧٠).

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٥٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٦).

(٣) (٢١٢).

مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدُّ طَرُقِ الشِّرْكِ

● مناسبة هذا الباب لما قبله:

قال ابن عثيمين^(١): لما تكلم المؤلف - رحمه الله - فيما مضى من كتابه على إثبات التوحيد، وعلى ذكر ما ينافيه أو ينافي كماله؛ ذكر ما يحمى هذا التوحيد، وأن الواجب سد طرق الشرك.

● علاقة هذا الباب بالباب الحادى والعشرين: حماية المصطفى جناب التوحيد (وعنوانهما متشابهان):-

قال ناصر السعدى^(٢): تقدّم نظير هذه الترجمة وأعادها المصنف اهتماماً بالمقام، فإن التوحيد لا يتم ولا يحفظ ويحصن إلا باجتناب جميع الطرق المفضية إلى الشرك والفرق بين البابين أن الأول فيه حماية التوحيد بسد الطرق الفعلية وهذا الباب فيه حمايته وسده بالتأديب والتحفظ بالأقوال. اهـ.

قال ابن باز^(٣): هنا تكلم على حماية التوحيد من جهة الأقوال، وقد تقدم (طرق) (*) وباب حماية التوحيد من جهة الأفعال وجناب التوحيد، والجناب هو الجزء منه، وهذا الباب فى حمى التوحيد والحمى غير الذات، وخارج عن الذات فهذه الترجمة أبلغ فيما يتعلق بالتوحيد وفيما يتعلق بالأقوال.

فالرسول ﷺ حمى جناب التوحيد وحمى حماه من جهة القول والعمل حتى لا يقرب الناس من الشرك ويقعوا فيه وحذر من وسائله وذرائعه الموصلة إليه وهذا من كمال البلاغ. اهـ.

● تنبيه:

[قلت]: تقدم فى باب حماية المصطفى جناب التوحيد أنه عبر هناك بالمصطفى لمناسبة

(١) القول المفيد ٣/٣٤٧.

(٢) القول السديد ١٣٧ و ١٣٨.

(٣) التعليق المفيد (٢٧٩).

(*) كذا فى المطبوع.

الآية الكريمة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ولأن الحماية فى باب الأفعال أشق منها فى باب الأقوال فناسب التبويب هناك بالمصطفى وهنا بالنبي، والله أعلم.

● مناسبة الباب للتوحيد:-

قال ناصر^(١): فكل قول يفضي إلى الغلو الذى يخشى منه الوقوع فى الشرك فإنه يتعين اجتنابه ولا يتم التوحيد إلا بتركه.

والحاصل أن تمام التوحيد بالقيام بشروطه، وأركانه، ومكملاته ومحققاته وباجتناب نواقضه ومنقصاته ظاهراً وباطناً، قولاً وفعلًا وإرادة وإعتقاداً. اهـ.

قال ابن عثيمين: ^(٢) أن التوحيد يجب أن يحمى من كل وجه حتى فى الألفاظ؛ ليكون خالصاً من كل شائبة ا.هـ.

● شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب:

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(٣): حمايته ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التى يضمحل معها التوحيد أو ينقص، وهذا كثير فى السنة الثابتة عنه ﷺ.

كقوله: «لَا تُظَرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(٤).

وتقدم قوله: «إِنَّهُ لَا يُسْتَعَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَعَاثُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٥) ونحو ذلك. ونهى عن التمداح وشدد القول فيه، كقوله لمن مدح إنساناً «وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ»^(٦) الحديث.

أخرجه أبو داود عن عبدالرحمن بن أبى بكره عن أبيه أن رجلاً أثنى على رجل عند النبي ﷺ فقال له: «قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ ثَلَاثًا»^(٧).

(١) القول السديد ١٣٨.

(٢) القول المفيد ٣/ ٣٥٧.

(٣) فتح المجيد ٢/ ٧١٠، ٧١١.

(٤ - ٥) تقدم تخريجه.

(٦) [متفق عليه] أخرجه البخارى ومسلم فى الزهد (١٨/ ١٢٦ - النورى) عن أبى بكره به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧٩٢ - بتخريجنا).

(٧) تقدم قبله.

وقال «إِذَا لَقِيتُمُ الْمَدَاحِينَ فَاحْشُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ»^(١) أخرجه مسلم والترمذى وابن
ماجة عن المقدار بن الأسود. اهـ.

قال حامد بن حسن^(٢): باب ما جاء فى بيان حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد.
وكشفه غمائم الشبه عن أفق أذهان أهل التجريد (وسده) كل طريق يوصل إلى
(الشرك) وكل ما يؤول إليه امتثالاً لأمر ربه القادر المقتدر ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ *
وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾^(٣). فهو ﷺ شأنه وطريقته الدعوة إلى
الله بالجد والجهد وما كان يبالى بما يأتيه من الأذى ممثلاً لقول ربه تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا
صَبَرَ أُولَؤُلَا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(٤).

ثم ذكر أمثلة على ذلك لكن فى الأقوال والأفعال بخلاف ما قصده المصنف فى هذا
الباب فقال^(٥): ومن حمايته ﷺ حمى التوحيد قوله لجويرية لما قالت: [وفينا رسول الله
يعلم ما فى غد] قال ﷺ: «دعى هذا وقولى ما كنت تقولين»^(٦). أى لا تقولى لى ما
لست له بأهل، فإن علم الغيب حق الله لا يعلمه إلا هو كما قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ
لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾^(٧).

وقوله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٨).

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾^(٩).

ومنها: ما ثبت فى المسند وغيره عن معاذ بن جبل لما رجع من الشام سجد للنبي ﷺ
فقال: «ما هذه يا معاذ؟»، فقال: يا رسول الله رأيتهم يسجدون لأساقفتهم ويذكر ذلك

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى الزهد والرقائق (١٨/١٢٨) عن المقدار به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٧٩٣ - بتخريجنا).

(٢) فتح الله الحميد المجيد ٤٧٥.

(٣) المدثر: ١ - ٥.

(٤) الأحقاف: ٣٥.

(٥) فتح الله الحميد المجيد ٤٧٦.

(٦) [صحيح] أخرجه البخارى (٥١٤٧) عن الربيع بنت معوذ به.

(٧) الأنعام: ٥٩.

(٨) النمل: ٦٥.

(٩) الأعراف: ١٨٨.

عن أنبيائهم فقال ﷺ: «كذبوا يا معاذ ولو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، يا معاذ أرأيت إن مررت بقبري أكنت تسجد؟» قال: لا، قال: «فلا تفعل»^(١).

ومنها: ما ثبت في الصحيح من حديث جابر أن رسول الله ﷺ صلى بأصحابه قاعداً لمرض كان به، فصلوا قياماً فأمرهم بالجلوس وقال: «لا تعظموني كما تعظم النصارى بعضهم بعضاً»^(٢).

وقال «من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار»^(٣).

ومنها: ما ثبت في الصحيح عن زيد بن خالد قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء من الليل فقال: «أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: قال تعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ومن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»^(٤).

ومنها: ما ورد في السنن أن أعرابياً قال للنبي ﷺ: جهدت الأنفس وجاع العيال وهلك المال فادع لنا فإننا نستشفع بك على الله وبالله عليك، فسيح رسول الله حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه فقال ﷺ: «ويحك أتدري ما الله، إن شأن الله أعظم من ذلك إنه لا يستشفع بالله على أحد»^(٥). رواه أبو داود.

ومنها: ما خرج البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبداً لله ورسوله»^(٦).

ومنها: قوله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد من دون الله، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٧).

ومنها: في صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله البجلي قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله قد

(١) أخرجه وأحمد في «مسنده» (٣٨١/٤) ابن ماجه (١٨٥٣) عن عبدالله بن أوفى به.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم في الصلاة (٢/٣٦٨/٨٤) بنحوه.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩/٤) وأبو داود (٥٢٢٩) والترمذي (٢٧٥٥) عن معاوية بن أبي

سفيان به.

(٤ - ٧) تقدم تخريجه.

اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً منكم خليلاً لا اتخذت أبا بكر خليلاً إلا وإن من كان قبلكم يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»^(١).

ومنها: ما ثبت عن عائشة وعبدالله بن عباس - رضى الله عنهم - قالوا: لما نزل برسول الله طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا^(٢). متفق عليه.

ومنها: ما روى الإمام أحمد فى مسنده بإسناد جيد عن عبدالله بن مسعود أن النبى ﷺ قال: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد»^(٣).

ومنها: ما ثبت عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج^(٤). رواه أحمد وأهل السنن.

ومنها: ما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى مرثد الغنوى أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها»^(٥).

ومنها: ما روى مسلم فى صحيحه عن أبى الهياج الأسدى قال: قال لى على: ألا أبعثك على ما بعثنى رسول الله ﷺ، ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مشرفاً إلا سويته^(٦).

ومنها: ما روى مسلم فى صحيحه عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ عن تحصيل القبور وأن يقعد عليه أو يبنى عليه بناء^(٧).

ومنها: ما روى أبو داود فى سننه عن جابر أن رسول الله ﷺ نهى أن تحصى القبور وأن يكتب عليها، قال الترمذى^(٨): حديث حسن صحيح.

وفى سنن أبى داود من حديث جابر أن رسول الله ﷺ نهى أن تحصى القبور أو يزاد عليها^(٩).

هذا حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد، وقد آل الأمر حتى جصصوا القبور، وبنوا عليها، وجعلوا لها سدة، فيندرون لها ويذبحون عندها، ويستشفون، ويخضعون، ويركعون، ويسجدون عندها، ثم آل الأمر بهؤلاء المشركين أن شرعوا للقبور حجاً،

ووضعوا مناسك حتى صَنَّفَ بعضهم من غلاتهم فى ذلك كتاباً وسماه (مناسك حج المشاهد) مضاهاة منه بالقبور لبيت الله الحرام، ولا يخفى أن هذا مقارفة لدين الإسلام ودخول فى دين عباد الأصنام.

قال ابن تيمية - رحمه الله: «اعلم أن العبادة مبناها على الاتباع لا على الابتداع فليس لأحد أن يشرع من الدين ما لم يأذن به الله ألا ترى أنه ليس لأحد أن يصلى إلى قبر الرسول ﷺ ويقول: هو أحق بالصلاة إليه من الكعبة وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها»^(١). مع أن طائفة من غلاة العباد يصلون إلى قبور شيوخهم بل يستديرون القبلة ويصلون إلى قبر الشيخ ويقولون هذه قبلة الخاصة والكعبة قبلة العامة، وآخرون أمثل من هؤلاء يرون الصلاة عند قبور شيوخهم أفضل من الصلاة فى المساجد حتى المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وكثير من الناس يرى أن الدعاء عند قبور الأنبياء والصالحين أفضل من الدعاء فى المساجد ويرى الصلاة فى المساجد المبنية على القبور أفضل من الصلاة فى المساجد التى لا قبور فيها، وهذا كله مما علم جميع أهل العلم بدين الإسلام أنه مناف لشريعة الإسلام، وأنه لم ينقله أحد من علماء الأمة بل هم متفقون على أنه لا فضيلة للصلاة عند القبور، ولا فى المساجد التى على القبور التى تسمى المشهد بل ذلك مخالف لله ولرسوله ولشرعه كما مضى فى الأحاديث المتقدمة مع أن طائفة من الغالية من الشيعة ومن المنتسبين إلى السنة يرون السفر إلى القبور حجاً، وقد صنف ابن النعمان المفيد شيخ الرافضة كتاباً سماه «مناسك حج المشاهد» وجعلوا فيها من العبادات ما هو أعظم من العبادات المشروعة فى المسجد الحرام، ومن هؤلاء من يقول: إن الحج إلى القبور أفضل ويعظمها أعظم من حج البيت العتيق إلى أمثال هذه الأمور التى ابتدعها أهل الضلال وكثير من وقع فيها من الرجال، وقد صنف طائفة من المتفلسفة فى هذا، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه الرسول ﷺ وبين ما شرعه هؤلاء المقتدون بالمشركون والمتمسكون بهدى الشياطين وقصدوه من اتخاذ القبور مساجد وبناء المساجد عليها، وإيقافهم الوقوف على إيقاد السرج والقناديل عليها، وجعلهم القبور عيداً وتخصيص القبور والبناء عليها من الأحجار والأجر والجص والكتابة عليها وغير ذلك مما شاهد عياناً وسماعاً، هذا فعل هؤلاء، والذى ثبت عنه ﷺ فى زيارة القبور ما ذكره مسلم فى صحيحه عن عائشة - رضى الله عنها - أن جبريل

(١) تقدم تخرجه.

أتى رسول الله ﷺ فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم، قالت: قلت: كيف أمرك يا رسول الله؟ قال: «قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»^(١). وفى الصحيح أيضاً عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: «السلام على أهل الديار، وفى لفظ: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية»^(٢). اهـ.

قال عبدالله بن جابر الله^(٣): المقصود بحمايته - ﷺ - حمى التوحيد.

صونه عما يشوبه من الأقوال والأفعال التى يضمحل معها التوحيد أو ينقص.

● مناسبة الحديث للباب والتوحيد.

قال عبدالرحمن الشيخ^(٤): أخبر ﷺ أن مواجهة المادح للمدوح بمدحه - ولو بما هو فيه - من عمل الشيطان لما تفضى محبة المدح إليه من تعظيم المدح فى نفسه، وذلك ينافى كما التوحيد. اهـ.

قال ابن باز^(٥): هذا من باب سد الذرائع التى توصل الناس إلى التساهل إلى الشرك فإنهم إن قالوا له ياسيدنا وغير ذلك من الألفاظ التى يأتى بها الناس الآن من الغلو فقد يجرهم إلى أن يعدوه من دون الله ويدعوه ويستغيثوا به ويزعموا أنه يعلم الغيب وغير ذلك. اهـ.

قال القرعاوى^(٦): حيث دل الحديث على تحريم الغلو فى النبى - ﷺ - وغيره، لان ذلك طريق موصل إلى الشرك.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى الجناز (٤٥/٧ - النووى) عن بريدة به.

وانظر «رياض الصالحين» (٥٨٤ - بتخريجنا).

(٣) جامع الفريد ٢٢٥.

(٤) وانظر فتح المجيد (٧١٢/٢).

(٥) التعليق المفيد (٢٧٩).

(٦) الجديد ٤٧٣.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَقْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا. فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجِرِّيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ (١).

قوله: (عبد الله بن الشخير - رضى الله عنه) (٢).

قال ابن الأثير: هو عبد الله بن الشخير بن عوف بن كعب بن وقدان بن الحريش - واسمه معاوية بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ثم الكعبي، ثم من بني الحريش - وهو بطن من بني عامر بن صعصعة. له صحبة، سكن البصرة.

قوله «انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله - ﷺ».

قال ابن عثيمين (٣): الظاهر أن هذا الوفد قدم على النبي ﷺ في العام التاسع؛ لأن الوفود كثرت في ذلك العام، ولذلك يُسمَّى عام الوفود. اهـ.
قوله: (أنت سيدنا).

قال عبد الرحمن الشيخ: قال ابن عباس «قل أغير الله أبغى ربا» أى: إلهاً وسيداً، وقال فى «الله الصمد» السيد الذى كمل فى جميع أنواع السؤدد. وقال أبو وائل: هو السيد الذى انتهى فى سؤدده. اهـ. وسيأتى ذكر ذلك فى مسألة تسمية العبد سيده ومولاه بالسيد.

قال ابن عثيمين (٤): السيد: ذو السؤدد والشرف، والسؤدد معناه: العظمة والفخر وما أشبهه

وسيد: صفة مشبهة على وزن فَيْعَلٍ؛ لأن الياء الأولى زائدة.

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (٢٤/٤، ٢٥) وأبو داود فى «الأدب» باب: فى كراهية التماذج (٢٥٥/٤ ح ٤٨٠٦) والنسائى فى «الكبرى» فى «عمل اليوم والليلة» باب: النهى عن أن يقال للمنافق سيدنا (٧٠/٦ ح ١٠٧٥، ١٠٧٦) جميعاً من حديث مطرف بن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه - فذكره.

وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا.

(٢) أسد الغابه (٣/٣٤٧).

(٣) القول المفيد ٣/٣٤٧.

(٤) المصدر السابق.

قوله (السيد الله).

قال صاحب عون المعبود^(١): أى هو الحقيق بهذا الاسم.

قال القارى: أى الذى يملك نواصى الخلق ويتولاهم هو الله سبحانه وهذا لا ينافى سيادته المجازية الإضافية المخصوصة بالأفراد الإنسانية حيث قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»^(٢) أى لا أقول افتخاراً بل تحدثاً بنعمة الله وإلا فقد روى البخارى عن جابر أن عمر كان يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعنى بلالاً^(٣) انتهى وهو بالنسبة إلى بلال تواضع. انتهى كلام القارى.

قال السيوطى^(٤) قال الخطابى: قوله ﷺ: «السيد الله» أى السؤدد كله حقيقة لله عز وجل وأن الخلق كلهم عبيد الله وإنما منهم أن يدعوهم سيداً مع قوله أنا سيد ولد آدم لأنهم قوم حديث عهد بالإسلام، وكانوا يحسبون أن السيادة بالنبوة كهى بأسباب الدنيا. وكان لهم رؤساء يعظمونهم ويتقادون لأمرهم وقوله قولوا بقولكم أى قولوا بقول أهل دينكم وملتكم وادعوني نبياً ورسولاً كما سمانى الله تعالى فى كتابه ولا تسموني سيداً كما تسمون رؤساءكم وعظماءكم، ولا تجعلوني مثلهم فإنى لست كأحدكم إذ كانوا ليسودونكم فى أسباب الدنيا وأنا أسودكم بالنبوة والرسالة فسموني نبياً ورسولاً. اهـ.

قال ابن باز^(٥): قوله «السيد الله» هذا من باب التواضع خوفاً عليهم من الغلو وإلا فإنه سيد ولد آدم - عليه الصلاة والسلام - فقال ذلك تواضعاً، ولثلاً يقعوا فى الغلو، فهو دليل أنه إذا قيل للإنسان أنت سيدنا، ينبغى أن يقول السيد الله، حتى لا يقع فى قلبه شىء من التعظيم. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٦): قوله «السيد الله»

لم يقل ﷺ: سيدكم كما هو المتوقع، حيث إنه رد على قولهم سيدنا لوجهين: الوجه الأول: إرادة العموم المستفاد من (أل)؛ لأن (أل) للعموم، والمعنى: أن الذى له

(١) عون المعبود ١١٢/١٣/٧.

(٢) تقدم تخريجه فى باب الشفاعة.

(٣) [صحيح] أخرجه البخارى (٣٧٥٤) عن جابر به.

(٤) المصدر السابق ١١٢/١٣/٧.

(٥) التعليق المفيد (٢٧٩).

(٦) القول المفيد ٣/٣٤٨ و ٣٤٩.

السيادة المطلقة هو الله - عز وجل -، ولكن السيد المضاف يكون سيداً باعتبار المضاف إليه، مثل: سيد بنى فلان، سيد البشر، وما أشبه ذلك.

الوجه الثاني: لثلاثيهم أنه من جنس المضاف إليه؛ لأن سيد كل شيء من جنسه. والسيد من أسماء الله تعالى، وهى من معانى الصمد؛ كما فسر ابن عباس الصمد بأنه الكامل فى علمه وحلمه وسؤدده^(١) - وتقدم من كلام عبدالرحمن - وما أشبه ذلك. ولم ينههم عليه السلام عن قولهم: «أنت سيدنا»، بل أذن لهم بذلك؛ فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان فيترقوا من السيادة الخاصة إلى السيادة العامة المطلقة؛ لأن سيدنا سيادة خاصة مضافة، «والسيد» سيادة عامة مطلقة غير مضافة.

قوله: (تبارك)

قال ابن عثيمين^(٢): قال العلماء: معنى تبارك؛ أى: كثرت بركاته وخيراته، ولهذا يقولون: إن هذا الفعل لا يوصف به إلا الله؛ فلا يقال: تبارك فلان؛ لأن هذا الوصف خاص بالله.

قلت: وتقدم في باب من تترك بشجر أو حجر بأوسع من ذلك من كلام ابن القيم في جلاء الافهام.

ثم قال ابن عثيمين: وقول العامة: (أنت تباركت علينا) لا يريدون بهذا ما يريدونه بالنسبة إلى الله - عز وجل، وإنما يريدون أصابنا بركة من مجيئك، والبركة يصح إضافتها إلى الإنسان إذا كان أهلاً لذلك، قال أسيد بن حضير حين نزلت آية التيمم بسبب عقد عائشة الذى ضاع منها: «ما هذه بأول بركتكم يا آل أبى بكر»^(٣). ١. هـ.

قوله (قلنا وأفضلنا فضلاً)^(٤) قال صاحب «عون المعبود»: أى مزية ومزية ونصبه على التمييز.

(١) أخرجه: ابن جرير (٧٤٤/٣٠).

(٢) القول المفيد ٣/٣٤٩.

(٣) [متفق عليه] أخرجه: البخارى (٣٣٤)، ومسلم في التيمم (١٠٨/٢٩٢/٢) عن عائشة

وانظر «منار السبيل» بتخریجنا.

(٤) عون المعبود ٧/١٣/١١١.

قال ابن عثيمين^(١): أى فضلك أفضل من فضلنا أهـ

قوله (وأعظمنا طولاً) قال صاحب عون المعبود: أى عطاء للأحباء وعلوياً على الأعداء .

قال عبدالله بن جار الله: أى أعظمنا شرفاً وفضلاً وجوداً. والطول هو الغنى والقدرة والإنتعام الواسع أهـ.

قال ابن عثيمين^(٢): أى: أعظمنا شرفاً وغنى، والطَّوْلُ: الغنى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾. ويكون بمعنى العظمة، قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ أى: ذى العظمة والغنى. أهـ.

قلت: والطول كثرة الإنفاق، وهو الكرم ففي الحديث: «أنه قال لأزواجه أولكنَّ لحوقاً بي أطولكن يداً فاجتمعن يطاوِلن، فطالتهن سودة فماتت زينب أولهن». أراد أمدكن يداً بالعطاء من الطول فظنَّته من الطول وكانت زينب تعمل بيدها وتتصدق به كذا قال ابن الأثير. أهـ. (*)

قوله (فقال: قولوا بقولكم، أو بعض قولكم)

قال صاحب «عون المعبود»^(٣): (فقال قولوا بقولكم) أى مجموع ما قلتُم أو هذا القول ونحوه (أو بعض قولكم) أى اقتصروا على إحدى الكلمتين من غير حاجة إلى المبالغة بهما. ويمكن أن تكون أو بمعنى بل أى بل قولوا بعض ما قلتُم مبالغة فى التواضع، وقيل «قولوا قولكم» الذى جئتم لأجله ودعوا غيركم عما لا يعينكم.

ثم قال^(٤): وقوله أو بعض قولكم فيه حذف واختصار، ومعناه دعوا بعض قولكم واتركوه واقتصدوا فيه بلا إفراط أو دعوا سيّداً وقولوا نبياً ورسولاً.

قال ابن عثيمين^(٥): قوله: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم».

الأمر للإباحة والإِذْن كما سبق.

(١) القول المفيد ٣/ ٣٤٩.

(٢) القول المفيد ٣/ ٣٤٩ - ٣٥٠.

(*) النهاية لابن الأثير (٣/ ١٤٥).

(٣) عون المعبود ٧/ ١٣/ ١١١.

(٤) عون المعبود ٧/ ١٣/ ١١٢.

(٥) القول المفيد ٣/ ٣٥٠.

وقوله: «قولوا قولكم»: يعنى: قولهم: أنت سيدنا أو أنت أفضلنا، وما أشبه ذلك.
وقوله: «أو بعض قولكم».

يحتمل أن يكون شكاً من الراوى، وأن يكون من لفظ الحديث؛ أى: اقتصروا على بعضه.

قوله «ولا يستجرينكم الشيطان»

قال صاحب عون المعبود^(١): أى لا يتخذنكم جرياً بفتح الجيم وكسر الراء وتشديد التحتية أى كثير الجرى فى طريقه ومتابعة خطواته. وقيل هو. من الجراءة بالهمزة أى لا يجعلنكم ذوى شجاعة على التكلم بما لا يجوز.

وفي «النهاية»: أى لا يغلبنكم فيتخذنكم جرياً، أى رسولاً ووكيلاً، وذلك أنهم كانوا مدحوه فكره له المبالغة في المدح فنهاهم عنه وسيأتي في شرح ابن عثيمين.
والمعنى: تكلموا بما يحضركم من القول، ولا تتكلفوه كأنكم وكلاء الشيطان ورسله تنطقون على لسانه كذا في «المراقبة» ١. هـ.

وقال السيوطي: وقوله: (لا يستجرينكم الشيطان) والجرى الوكيل، ويقال الأجير انتهى كلام السيوطي. أهـ

وقال السندي: أى لا يستعملنكم الشيطان فيما يريد من التعظيم للمخلوق بمقدار لا يجوز انتهى.

● مسألة في حكم المدح^(٢):

قال النووي: اعلم أن مدح الإنسان عليه بجميل صفاته قد يكون في وجه المدوح، وقد يكون بغير حضوره.

فأما الذي في غير حضوره فلا منع منه إلا أن يجازف المادح ويدخل في الكذب فيحرم عليه بسبب الكذب، لالكونه مدحاً.

ويستحب هذا المدح الذي لا كذب فيه إذا ترتب عليه مصلحة ولم يجر إلي مفسدة، بأن يبلغ المدوح فيفتن به أو غير ذلك.

(١) عون المعبود ٧/١٣/١١١.

(٢) «الأذكار» للنووي بتخريجنا (١/٣١٨).

وأما المدح في وجه المدحوق فقد جاءت فيه أحاديث تقتضي إباحته أو استحبابه، وأحاديث تقتضي المنع منه .

قال العلماء: وطريق الجمع بين الأحاديث أن يقال: إن كان المدحوق عنده كمال إيمان وحسن يقين ورياضة نفس ومعرفة تامة بحيث لا يفتتن ولا يغتر بذلك ولا تلعب به نفسه فليس بحرام ولا مكروه، وإن خيف عليه شيء من هذه الأمور كره مدحه كراهة شديدة . أهـ

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح فيفضى بهم إلى الغلو، وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه - ولو بما هو فيه - من عمل الشيطان؛ لما تقتضى محبة المدح إليه من تعاضم المدحوق في نفسه، وذلك ينافى كمال التوحيد؛ فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذى لا تدور إلا عليه، وذلك غاية الذل فى غاية المحبة، وكمال الذل يقتضى الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى، وأن لا يرى نفسه إلا فى مقام الذم لها، والمعابة لها فى حق ربه، وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات، ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه، والمادح يغره من نفسه فيكون آنماً، فمقام العبودية يقتضى كراهة المدح رأساً، والنهى عنه صيانة لهذا المقام، فمتى أخلص العبد الذل لله والمحبة له؛ خلصت أعماله وصحت، ومتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب؛ دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد، وإذا أداه المدح إلى التعاضم فى نفسه والإعجاب بها؛ وقع فى أمر عظيم ينافى العبودية الخاصة .

كما فى الحديث «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»^(٢).

وفى الحديث: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»^(٣) وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سبباً لها وسلماً إليها، والعَجَبُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ

(١) «فتح المجيد» (٢/٧١٣، ٧١٤)

(٢) [صحيح] أخرجه مسلم فى البر والصلة (٨/٤٢١/٣٦) عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما به .

وانظر «رياض الصالحين» (٦١٩ - بتخريجنا)

(٣) [صحيح] أخرجه مسلم فى الإيمان (٢/٨٩) التوري) عن ابن مسعود به

وانظر «رياض الصالحين» (٦١٣ - بتخريجنا)

الخطب، وأما المادح فقد يفضى به المدح إلى أن ينزل المدوح منزلة لا يستحقها، كما يوجد كثيراً في أشعارهم من الغلو الذي نهى عنه الرسول ﷺ وحذر أمته أن يقع منهم، فقد وقع الكثير منه حتى صرحوا فيه بالشرك في الربوبية والإلهية والملك، كما تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك. والنبى ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح، صيانة لهذا المقام، وأرشد إلى ترك ذلك نصحاً لهم، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده أو يضعفه، من الشرك ووسائله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ ورأوا أن فعل ما نهاهم ﷺ عن فعله قرابة من أفضل القربات، وحسنة من أعظم الحسنات.

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «ولا يستجربنكم الشيطان».

استجراه بمعنى: جذبته وجعله يجرى معه؛ أى: لا يستميلنكم الشيطان ويَجْذِبْكُمْ إلى أن تقولوا قولاً منكراً؛ فأرشدهم ﷺ إلى ما ينبغى أن يفعل، ونهاهم عن الأمر الذى لا ينبغى أن يفعل؛ حمايةً للتوحيد من النقص أو النقض.

وقال فى النهاية: «لا يستجربنكم الشيطان»؛ أى: لا يستغلبنكم فيتخذكم جرياً؛ أى: رسولاً ووكيلاً.

وعلى التفسيرين؛ فمراد النبى ﷺ حماية التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك، والحماية من المنكر تعظم كلما كان المنكر أعظم وأكبر أو كان الداعى إليه فى النفوس أشد.

ولهذا تجد أن باب الشرك حماه النبى عليه الصلاة والسلام حماية بالغة حتى سد كل طريق يمكن أن يكون ذريعة إليه؛ لأنه أعظم الذنوب، وأيضاً باب الزنا حمى حماية عظيمة، حتى منعت المرأة من التبرج وكشف الوجه وخلوتها بالرجل بلا محرم وما أشبه ذلك؛ لئلا يكون ذلك ذريعة إلى الزنا؛ لأن النفوس تطلبه، وفى باب الربا أيضاً حمى الربا بحماية عظيمة، حتى إن الرجل ليعطى الرجل صاعاً طيباً من البر بصاعين قيمتهما واحدة، ويكون ذلك رباً محرماً، مع أنه ليس فيه ظلم.

فالشرك قد يكون من الأمور التى لا تدعو إليه النفوس كثيراً لكنه أعظم الظلم؛ فالشيطان يحرص على أن يوصل ابن آدم إلى الشرك بكل وسيلة؛ فحماه النبى ﷺ

(١) القول المفيد ٣/ ٣٥٠ و ٣٥١.

حماية تامة محكمة حتى لا يدخل الإنسان فيه من حيث لا يشعر، وهذا هو معنى الباب الذى ذكره المؤلف.

● إشكال وجوابه:

قال عبدالرحمن آل الشيخ^(١): وأما تسمية العبد بالسيد: فاختلف العلماء فى ذلك.

قال العلامة ابن القيم فى «بدائع الفوائد»: اختلف الناس فى جواز إطلاق السيد على البشر. فمنعه قوم، ونقل عن مالك، واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له: يا سيدنا قال «السيد الله تبارك وتعالى» وجوزوه قوم.

واحتجوا بقول النبي ﷺ «لأنصار «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ»^(٢) وهذا أصح من الحديث الأول. قال هؤلاء: السيد أحد ما يضاف إليه، فلا يقال للتميمي: سيد كندة، ولا يقال: الملك سيد البشر. قال: وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم. وفى هذا نظر، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو فى منزلة المالك، والمولى، والرب، لا بمعنى الذى يطلق على المخلوق. انتهى.

● طريقة الجمع بين النهي عن قول «السيد» وبين حديث: «قوموا إلى سيدكم».

قلت: ومن طريق علقمة بن وقاص عنها فى أثناء حديث طويل قال أبو سعيد: فلما طلع يعنى سعد بن معاذ - قال النبي ﷺ: «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه» فقال عمر: السيد هو الله قال ابن القيم فى تحفة المودود: ولا ينافى هذا قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم» فإن هذا إخبار منه عما أعطاه الله من سيادة النوع الإنسانى وفضله وشرفه عليهم، وأما وصف الرب تعالى بـإنه السيد، فذلك وصف لربه على الإطلاق، فإنه سيد الخلق هو مالك أمرهم الذى إليه يرجعون، وبأمره يعملون، وعن قوله يصدرن فإذا كانت الملائكة والإنس والجن، خلقاً وكل حوائجهم إليه، كان هو سبحانه وتعالى السيد على الحقيقة... أه. وما قاله ابن القيم. قاله ابن تيمية فى الرسالة الأكملية. أه.

قال ابن حجر: ويمكن الجمع بأن يحمل النهي عن ذلك على إطلاقه على غير

(١) فتح المجيد (٢/٧١٣، ٧١٤)

(٢) تقدم تخريجه.

المالك، والإذن بإطلاقه على المالك وقد كان بعض أكابر العلماء يأخذ بهذا ويكره أن يخاطب أحداً بلفظه أو كتابته بالسيد، ويتأكد هذا إذا كان المخاطب غير تقى فعند أبي داود والبخاري في «الأدب» من حديث بريدة مرفوعاً: «لا تقولوا للمنافق سيدياً»^(١) الحديث ونحوه عند الحاكم.

قال ابن عثيمين^(٢):

جري شراح هذا الحديث على أن النبي ﷺ نهاهم عن قول سيدنا. فحاولوا الجمع بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم»^(٣)، وقوله: «قوموا إلى سيدكم»^(٤)، وقوله في الرقيق: «وليقل سيدي ومولاي»^(٥) بواحد من ثلاثة أوجه:

الأول: أن النهي على سبيل الكراهة والأدب، والإباحة على سبيل الجواز.

الثاني: أن النهي حيث يخشى منه المفسدة، وهي التدرج إلى الغلو والإباحة إذا لم يكن هناك محذور.

الثالث: أن النهي بالخطاب؛ أي: أن تخاطب الغير بقولك: أنت سيدي أو سيدنا، بخلاف الغائب؛ لأن المخاطب ربما يكون في نفسه عجب وغلو وترفع، ثم إن فيه شيئاً آخر، وهو خضوع هذا المُتَسَيِّد له وإذلال نفسه له بخلاف ما إذا جاء من الغير، مثل: «قوموا إلى سيدكم»، أو على سبيل الغيبة؛ كقول العبد: قال سيدي ونحو ذلك، لكن هذا يرد عليه إباحته ﷺ للرقيق أن يقول لمالكة: سيدي.

والذي يظهر لى أن لا تعارض أصلاً؛ لأن النبي ﷺ أذن لهم أن يقولوا بقولهم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان بالغلو مثل (السيد)؛ لأن السيد المطلق هو الله تعالى، وعلى هذا؛ فيجوز أن يقال: سيدنا وسيد بنى فلان ونحوه، ولكن بشرط أن يكون

(١) القول المفيد ٣ / ٣٥١ - ٣٥٣.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٤٦ /)، وأبو داود (٤٩٧٧)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٠٧٣) عن

بريدة به .

وانظر «ورיאض الصالحين» (١٧٢٨) بتخريجنا

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) تقدم تخريجه

المُوجَّه إليه السيادة أهلاً لذلك، أما إذا لم يكن أهلاً كما لو كان فاسقاً أو زنديقاً؛ فلا يقال له ذلك حتى ولو فرض أنه أعلى منه مرتبة أو جاهاً، وقد جاء في الحديث: «ولا تقولوا للمنافق سيد؛ فإنكم إذا قلتم ذلك أغضبتم الله»^(١) فإذا كان أهلاً لذلك وليس هناك محذور؛ فلا بأس به، وأما إن خشي المحذور أو كان غير أهل؛ فلا يجوز. والمحذور: هو الخشية من الغلو فيه.

قلت: وينبغي أن يضاف إلي هذه القيود قيد آخر وهو أن يقال: لا بد من مصلحة شرعية راجحة كما كانت في قوله لسعد «قوموا إلي سيدكم» لأنه جاء ليصلح ويحكم في اليهود فلا بد أن يعظم في هذه الحالة عندنا حتى يعظم اليهود حكمه فهذه المصلحة قال النبي ﷺ «قوموا إلي سيدكم» أما قوله «وليقبل سيدي ومولاي» فتحمل علي الإخبار لا الإنشاء والله أعلم.

فوائد الحديث:

قال عبد الله بن جابر الله (*):

(١) تحذير الناس من الغلو.

(٢) كراهة المدح والتحذير منه.

(٣) شفقته ﷺ علي أمته ورأفته ورحمته بهم.

(٤) ما ينبغي أن يقول من قيل له أنت سيدنا. اهـ.

قال القرعاوي^(٢):

١- عظم قدر النبي ﷺ في نفوس أصحابه واحترامهم له.

٢- جواز إطلاق لفظ السيد على الله.

٣- الغلو مطية الشيطان.



(١) تقدم تخيرجه.

(*) الجامع الفريد ٢٢٧.

(٢) الجديد ٤٧٣.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا! فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنَزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ^(١).

● مناسبة الحديث للباب والتوحيد:

قال القرعاوى^(٢): حيث دل الحديث على تحريم رفع النبي - ﷺ - فوق منزلته لأن ذلك علو يؤدي إلى الشرك
قوله: «قالوا: يا رسول الله!».

قال ابن عثيمين^(٣): هذا النداء موافق لقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾؛ أى لا تنادوه كما ينادى بعضهم بعضاً؛ فتقولوا: يا محمد! ولكن قولوا: يا رسول الله! أو: يا نبي الله!

وفى الآية معنى آخر: أى إذا دعاكم الرسول؛ فلا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضهم بعضاً إن شتمتم أجبتهم وإن شتمتم أبيتم؛ فهم كقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ»، وعلى المعنى الأول تكون «دعاء» مضافة إلى المفعول، وعلى الثانى تكون مضافة إلى الفاعل.

قوله: «ياخيرنا».

هذا صحيح؛ فهو خيرهم نسباً ومقاماً وحالاً.

قوله: «وابن خيرنا».

أى: فى النسب لا فى المقام والحال.

(١) أخرجه أحمد فى «مسنده» (١٥٣/٣). والنسائى فى «الكبرى» فى عمل اليوم والليلة/ باب النهي عن القول للمنافق سيدينا (٧١/٦ ح ١٠٠٧٨)، وابن حبان فى «صحيحه» (٤٦/٨ ح ٦٢٠٧ - الإحسان)، وأبو نعيم فى «الحلية» (٢٥٢/٦).

جميعاً من طريق حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن أنس... فذكره.

(٢) الجليد ٤٧٥.

(٣) القول المفيد ٣٥٣-٣٥٧.

وكذلك يقال في قوله: «وابن سيدنا».

قوله: «قولوا بقولكم».

سبق القول فيه.

قوله: «ولا يستهوينكم الشيطان».

أى: لا يَسْتَمِيلَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ فَتَهْوَوْهُ وَتَتَّبِعُوا طَرِيقَهُ حَتَّى تَبْلُغُوا الْغُلُوبَ، ونظيره قوله تعالى: ﴿كَأَلَيْدِ اسْتِهْوَاتِ الشَّيَاطِينِ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾.

قوله: «أنا محمد عبدالله ورسوله».

محمد اسمه العلم، وعبدالله ورسوله وصفان له.

وهذان الوصفان أحسن وأبلغ وصف يتصف به الرسول ﷺ، ولذلك وصفه الله تعالى بالعبودية في أعظم المقامات؛ فوصفه بها في مقام إنزال القرآن عليه، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، ووصفه بها في مقام الإسراء، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾، ووصفه بها في مقام المعراج، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾، ووصفه في مقام الدفاع عنه والتحدى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.

وكذلك بالنسبة للأنبياء؛ كقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، وهذه العبودية خاصة، وهي أعلى أنواع الخاصة.

والعبودية لله من أجل أوصاف الإنسان؛ وهي أعلى أنواع الخاصة.

والعبودية لله من أجل أوصاف الإنسان؛ لأن الإنسان إما أن يعبد الله أو الشيطان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، قال ابن القيم:

هربوا من الرق الذي خلقوا له فلبُّوا برق النفس والشيطان

وقال الشاعر:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

أى: الْمُرْسَل من عنده إلى جميع الناس؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

ورسول الله ﷺ فى قمة الطبقات الصالحة، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾، والنبيون فيهم الرسول ﷺ، بل هو أفضلهم، ومن عبارة المؤلف: رحمه الله فى الرسول ﷺ: «عبد لا يُعبد، ورسول لا يُكذَّب».

وقد تَطَرَّفَ فى الرسول ﷺ طائفتان:

- طائفة غلت فيه حتى عبدته، وأعدته للسراء والضراء، وصارت تعبده وتدعوه من دون الله.

- وطائفة كذبتة، وزعمت أنه كذاب، ساحر، شاعر، مجنون، كاهن، ونحو ذلك.

وفى قوله: «عبد الله ورسوله» رد على الطائفتين.

قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتى».

«ما»: نافية، و«أن» وما دخلت عليه فى تأويل مصدر مفعول أحب؛ أى: ما أحب رَفَعْتُكُمْ إِيَّايَ فوق منزلتى؛ لا فى الألفاظ، ولا فى الألقاب، ولا فى الأحوال.

قوله: «التي أنزلنى الله».

يستفاد منه أن الله تعالى هو الذى يجعل الفضل فى عباده، ويتزلهم منازلهم.

قال ابن باز^(١): والمقصود من هذا سد الذرائع التى توصل الناس إلى التساهل إلى الشرك فإنهم إن قالوا له يا سيدنا وغير ذلك من الألفاظ التى يأتى بها الناس الآن من الغلو فقد يجرحهم إلى أن يعبدوه من دون الله ويدعوه ويستغيثوا به ويزعموا أنه يعلم الغيب وغير ذلك. وقد فعلوا كما قال صاحب البردة يا أكرم الخلق مالى... فوقع فى الغلو حتى قال عن النبى أنه ينج يوم القيامة وأن من لا ينجيه النبى - ﷺ - فإنه لا ينجو وهذا من أعظم الغلو وقال أن عنده علم اللوح والقلم، وأنه مطلع على كل شىء،

(١) التعليق المفيد ٢٨٠.

فِيهِ مَسَائِلُ

الأولى: تَحْذِيرُ النَّاسِ مِنَ الْغُلُوِّ.

الثانية: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ مَنْ قِيلَ لَهُ: «أَنْتَ سَيِّدُنَا».

الثالثة: قَوْلُهُ: «لَا يَسْتَجِرِّيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ» مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِلَّا الْحَقَّ.

فالواجب على المسلم أن يحفظ لسانه وأن يقتصد في قوله سواء مع الرسول ﷺ - أو مع غيره وعليه التأدب بالآداب الشرعية في أقواله وأعماله مع الرسل، والصالحين والعلماء حتى لا يقع في الغلو الذي وقع فيه اليهود والنصارى وأوصلهم إلى أن عبدوا أوليائهم واستغاثوا بأنبيائهم وصلحائهم وعلمائهم ووقعوا في الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر.

قوله (فيه مسائل)

قال ابن عثيمين: فيه مسائل:

● الأولى: تحذير الناس من الغلو.

تؤخذ من قوله: «ولا يستجريَنَّكم الشيطان» ووجهه: أن الرسول ﷺ جعل هذا من استجراء الشيطان، والإنسان يجب عليه أن يحذر كل ما كان من طرق الشيطان

الثانية: قوله «لا يستجريَنَّكم...»

تؤخذ من قوله: «السيد الله»؛ فينبغي أن يقول من قيل له ذلك: «السيد الله».

قال ابن عثيمين^(١):

الثالثة: قوله: «لا يستجريَنَّكم الشيطان» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

ظاهر كلام المؤلف أن هذا من استجراء الشيطان؛ فهذه الكلمة يحتمل أن معناها أن ما قلتم من استجراء الشيطان.

ويحتمل أن المعنى: قولوا بهذا القول، ولكن إياكم أن تغلوا، فإن هذا من استجراء الشيطان، وهذا ظاهر الحديث كما سبق.

(١) القول المفيد ٣/٣٥٨ و ٣٥٩.

الرابعة: قَوْلُهُ: «مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي».

الرابعة: قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي».

أى: إني أكره أن ترفعوني فوق منزلتي، وهى العبودية والرسالة؛ ففيها تواضعه ﷺ. أهـ

قلت: وفيه حفظ اللسان وصونه عن الألفاظ الغير شرعية.

قال ابن باز^(١): فالواجب على المسلم أن يحفظ لسانه، وأن يقتصد في قوله سواء مع الرسول ﷺ أو مع غيره، وعليه التأدب بالآداب الشرعية في أقواله وأعماله مع الرسل والصالحين والعلماء حتي لا يقع في الغلو الذي وقع فيه اليهود والنصارى وأوصلهم إلي أن عبدوا أولياءهم، استغاثوا بأنبيائهم وصلحائهم وعلماءهم ووقعوا في الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر. أهـ.



(١) التعليق المفيد (١٢٨٠)

مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (١). الآية.

● مناسبة هذا الباب لما قبله من أبواب ومناسبته لكتاب التوحيد ووجه ختام المصنّف به.

قال عبد الرحمن آل الشيخ (٢): وقد ابتدأ المصنّف رحمه الله تعالى هذا المصنّف العظيم ببيان توحيد الإلهية، لأن أكثر الأمة ممن تأخر قد جعلوا هذا هو التوحيد، وأتوا بما ينافيه من الشرك والتنديد، فقام الشيخ ببيان التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونهاهم عما كانوا عليه من الشرك المنافي لهذا التوحيد فالدعوة إلى ذلك هي أهم الأمور وأوجبها لمن وفقه الله لفهمه. وأعطاه القدرة على الدعوة إليه، والجهد لمن خالفه ممن أشرك بالله في عبادته، فقرر هذا التوحيد كما ترى في هذه الأبواب، ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات لأن أكثر العامة ليس لهم التفات إلى هذا العلم الذي خاض فيه من لم يتسب إلى العلم.

وأما من يتسب إلى العلم فهم أخذوا عمن خاض في هذه العلوم، وأحسنوا الظن بأهل الكلام، وظنوا أنهم على شيء، فقبلوا ما وجدوه عنهم، فقرروا مذهب الجهمية وألحدوا في توحيد الأسماء والصفات، وخالفوا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة وأئمة الحديث والتفسير من المتقدمين. وما زال أهل السنة متمسكين بذلك لكنهم قلّوا. فهدى الله هذا الإمام إلى معرفة أنواع التوحيد فقررها بأدلتها. فله الحمد على توفيقه وهدايته إلى الحق حين اشتدت غربة الإسلام، فضل عنه من ضل من أهل القرى والأمصار وغيرهم وبالله التوفيق.

فقد اجتمع في هذا المصنّف أنواع التوحيد الثلاثة التي أشار إليها العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - بقوله:

والعلم أقسام ثلاث، مالها	من رابع، والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله	وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه	وجزاؤه يوم المعاد الثاني أهـ

قال ناصر السعدى^(١): ختم المصنف - رحمه الله تعالى - كتابه بهذه الترجمة وذكر النصوص الدالة على عظمة الرب العظيم وكبريائه ومجده وجلاله وخضوع المخلوقات بأسرها لعزه، لأن هذه النعوت العظيمة والأوصاف الكاملة أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود وحده. المحمود وحده الذى يجب أن يبذل له غاية الذل والتعظيم، وغاية الحب والتأله وأنه الحق وما سواه باطل، وهذه حقيقة التوحيد ولبه وروحه سر الإخلاص فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه إنه جواد كريم.

قلت: لما كان الكتاب جامعاً لكل أنواع الشرك والمشركين والرد عليهم كان من أبلغ ما يرد به على جميع هؤلاء قوله تعالى «ما قدروا الله حق قدره» الآية فهذا حال كل مشرك ومبتدع لذلك ناسب أن يختتم المصنف به هذا السفر النفيس والله أعلم.

قال ابن باز^(٢): هذا الباب الأخير فى الكتاب جمع أنواع التوحيد الثلاثة.

● شرح التبويب وماذا أراد المصنف بهذا الباب.

قال حامد بن محمد^(٣): باب ما جاء فى بيان أن الناس من ظلمهم وجهلهم ما قدروا الله حق قدره.

الذى هو أهله ويستحقه بل إنهم فعلوا به تعالى بنقيض ما هو لازم عليهم، عقلاً، ونقلًا، أصلاً، وفرعاً، كما فى الحديث الإلهى: «أنا والثقلين فى نأ عظيم أخلق ويعبد غيرى، أرزق ويشكر غيرى، خيرى إليهم نازل وشرهم إلى صاعد»^(٤). الحديث.

فمن ظلمهم وجهلهم تفرقوا واختلفوا وفرقوا دينهم وكانوا شيعاً على غير هدى كل حزب بما لديهم فرحون، ولم يلتفتوا إلى ما هو أولى وألزم عليهم من اتباع أمر سيدهم وعدم مخالفته ومشاققته، بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم، فمنهم من أذعن بالصانع الخلاق بالجنان وجحده باللسان ظلماً وعلواً كفرعون وغرود، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾.

(١) القول السديد ١٣٨ و١٤١

(٢) التعليق المفيد ٢٨١.

(٣) فتح الله الحميد المجيد ٤٨٧ — ٤٩٠.

(٤) تقدم تخريجه

ومنهم من أذعن بالجنان وأقر باللسان وشهد بالربوبية وأشرك فى الألوهية كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

ومنهم من يجعل الله خالق الخير ويجعل خالق الشر أهرمن يعنى الشيطان منزهاً الله عن الشر بزعمهم، ووقعوا فى شر من ذلك وهو جعل خالقين فى الكون سبحانه وتعالى، فهم كانوا كالمستجير من الرمضاء إلى النار كالمجوس وأشباههم.

ومنهم من أنكروا قضاء الله وقدره كالقدرية الذين يقولون لا دخل لقدرة الله فى أفعال العباد وتبعمهم الجهمية على ذلك.

ومنهم من نسب الطاعة والمعصية والكفر والتوحيد والإيمان والنفاق إلى الله تعالى وتقدس، وقال: إن الإنسان مجبور على أفعاله ولا قدرة للعبد أصلاً كالجبرية.

ومنهم من وصفه بالنقص والعيب وقال: إنه الوجود المطلق مجرداً عن الأوصاف جميعها لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر ولا يختار ولا يشاء وهو ابن سينا ومن نسب إلى أرسطو اليونانى ووافقتهم الجهمية على ذلك إلا أن الجهمية يصفونه بأنه الذات المجردة عن الصفات.

ومنهم من يستخفى من الناس ولا يستخفى من الله فكأن الله تعالى عنده أهون الناظرين كالمناققين كما قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ (١).

ومنهم من ظن أن الله لا يعلم كثيراً مما يعمل كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢).

ومنهم من ظن بالله ظن السوء أن الله لا ينصر رسوله ولا يظهر دينه على سائر الأديان، وأن ما جرى ليس بقضائه وقدره، وأن قدره ليس لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد.

ومنهم من يحب غير الله كحب الله الذى خلقه ورزقه ولا يستغنى عنه طرفة عين، قال

(١) النساء : ١٠٨

(٢) فصلت : ٢٢، ٢٣

تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾. ويخشون غير الله كخشية الله الذى بيده ملكوت كل شيء وهو القاهر فوق عباده وله الملك وله الحمد والأمر قال تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ (١).

ومنهم من أنكر البعث ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبُّونَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢).

ومنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يطيعونهم فيما يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله. قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ (٣).

ومنهم من يبارز الله بالمحاربة يعادى أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون الشرك والمعاصى كما فى الحديث الإلهى: «من عاد لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة» (٤).

ومنهم من يوالى أعداءه بطاعته للشيطان قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِىَ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٥).

ومنهم من يعدل بربه غيره فى العبادة قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (٦).

ومنهم من يرضى الناس بسخط الله.

ومنهم من يتقدم بين يدى الله ورسوله فى القول والحكم.

ومنهم من يجعل الله أهون الناظرين إليه.

ومنهم من يجاهر بالمعاصى ولم يرتدع.

ومنهم من يصبر على المعاصى ولم يتب.

ومنهم من يأمن مكر الله. قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٧).

(٢) التغاين : ٧

(١) النساء : ٧٧

(٣) التوبة : ٣١

(٥) الكهف : ٥٠

(٤) تقدم تخريجه

(٧) الأعراف : ٩٩

(٦) الأنعام : ١

ومنهم من يقنط من رحمة الله قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (١).

ومنهم ومنهم والكل ما قدر الله حق قدره كما يدل قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢).

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

- مناسبة الآية لكتاب التوحيد:

قال عبد الله بن جابر الله (٣): دلت على أن عبادة غير الله شرك ينافى توحيده وتعظيمه والإيمان به.

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾

- الإعراب (٤):

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ كلام مستأنف مسوق لتصوير قدرته تعالى و(ما) نافية وقدروا الله فعل وفاعل ومفعول به أى ما علموا كنهه وما عرفوه حق معرفته، و(حق) قدره) نصب على المفعولية المطلقة. اهـ.

● ماجاء فى تفسير الآية بالقرآن :

كقوله فى الأنعام ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ وكقوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

● ماجاء فى تفسير الآية من آثار:

عن ابن عباس قوله (وما قدروا حق قدره) قال هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره (٥).

(٢) الزمر : ٦٧

(١) الحجر : ٥٦

(٤) إعراب القرآن ٨/ ٤٤٥.

(٣) الجامع الفريد ٢٢٨.

(٥) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» (١٧/٢٤) وذكره السيوطى فى «الدر» (٥٣/٣) وزاد نسبه لابن

المنذر، وابن أبى حاتم ، وأبى الشيخ، وابن مردويه.

وانظر «تفسير ابن أبى حاتم» بتخريننا»

وعن السدى وما قدروا الله حق قدره ما عظموا الله حق عظمته^(١).

● ماجاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين:

قال الطبرى^(٢): يقول تعالى ذكره وما عظم الله حق قدره ويقول تعالى ذكره وما عظم الله حق عظمته هؤلاء المشركون بالله الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان. قال ابن الجوزى^(٣): وفى معنى ما قدروا الله حق قدرة ثلاثة أقوال: أحدها: ما عظموا الله حق عظمته. ذكره الرازى وغيره.

قاله ابن عباس والحسن والقراء وثعلب والزجاج. والثانى: ما وصفوه حق وصفه قاله أبو العالية، واختاره الخليل. والثالث: ما عرفوه حق معرفته، قاله أبو عبيدة.

قال الرازى^(٤): وهذه الآية مذكورة فى سور ثلاث، فى سورة الأنعام^(٥) وفى سورة الحج^(٦) وفى هذه السورة^(٧). . . قال القفال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كقول القائل وما قدرنى حق قدرى وأنا الذى فعلت كذا وكذا، أى لما عرفت أن حالى وصفتى هذا الذى ذكرت، فوجب أن لا تحطنى عن قدرى ومنزلتى، ونظيره قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْوَآتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ أى كيف تكفرون بمن هذا وصفه وحال هلكه فكذا ههنا، وبالمعنى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إذ زعموا أن له شركاء وأنه لا يقدر على إحياء الموتى مع أن الأرض والسموات فى قبضته وقدرته.

قال الرازى^(٨): واعلم أنه تعالى لما حكى عن المشركين أنهم أمروا الرسول بعبادة الأصنام. ثم إنه تعالى أقام لدلائل على فساد قولهم وأمر الرسول بأن يعبد الله ولا يعبد شيئاً آخر سواه، بين أنهم لو عرفوا الله حق معرفته لما جعلوا هذه الأشياء الخسيسة مشاكلة له المعبودية، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

قال القرطبى^(٩): قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

قال المبرد: قوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ما عظموه حق عظمته من قولك فلان عظيم القدر: قال النحاس: والمعنى على هذا وما عظموه حق عظمته إذ عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها.

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٢) المصدر السابق

(٣) زاد المسير ٦٤/٣.

(٤) التفسير الكبير ١٥/٢٧/١٤

(٦) ٧٤

(٧) ٦٧.

(٥) ٩١

(٩) تفسير القرطبى ٥٧٢١/٨.

(٨) التفسير الكبير ١٥/٢٧/١٤

قال ابن كثير^(١): يقول تبارك وتعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أى ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم الذى لا أعظم منه القادر على كل شيء المالك لكل شيء وكل شيء تحت قهره وقدرته. اهـ.

قال الشنقيطى^(٢): قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أى: ما عظموه حق عظمتهم حين عبدوا معه من لا يقدر على خلق ذباب وهو عاجز أن يسترد من الذباب ما سلبه الذباب منه كالطبيب الذى يجعلونه على أصنامهم إن سلبها الذباب منه شيئاً لا تقدر على استنقاذه منه، وكونهم لم يعظموا الله حق عظمتهم، ولم يعرفوه حق معرفته، حيث عبدوا معه من لا يقدر على جلب نفع ولا دفع ضرر ذكره تعالى فى غير هذا الموضع

قال صاحب الظلال^(٣): يعرض حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذى خلق كل شيء، المالك المتصرف فى كل شيء. فتبدو دعوة المشركين للنبى ﷺ إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم فى مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه! تبدو هذه الدعوة مستغربة، والله خالق كل شيء، وهو المتصرف فى ملكوت السماوات والأرض بلا شريك. فأنى يعبد معه غيره، وله وحده مقاليد السموات والأرض؟!!

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وهم يشركون به وهو وحده المعبود القاهر ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ نعم: ما قدروا الله حق قدره، وهم يشركون به بعض خلقه، وهم لا يعبدونه حق عبادته. وهم لا يدركون وحدانيته وعظمتهم. وهم لا يستشعرون جلاله وقوته.

قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

الإعراب^(٤): ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ الواو للحال و(الأرض) مبتدأ و(جميعاً) حال و(قبضته) خبره والجملة حال من الله و(يوم القيامة) ظرف متعلق بمحذوف حال من قبضته أو هى متعلقة بها على تضمينها معنى مقبوضة و(السموات) مبتدأ و(مطويات) خبر و(بيمينه) متعلقان بمطويات وعبارة أبى البقاء: «والأرض مبتدأ وقبضته الخبر وجميعاً حال من الأرض والتقدير إذا كانت مجتمعة قبضته أى مقبوضة فالعامل فى إذا المصدر لأنه بمعنى المفعول، وقد ذكر أبو على فى الحجة: التقدير ذات قبضته وقد رد عليه ذلك وأن المضاف إليه لا يعمل فيما قبله وهذا

(١) تفسير ابن كثير ٦٠ / ٤.

(٢) أضواء البيان ٥١١ / ٥.

(٣) ٣٠٦٠ و ٣٠٦١.

(٤) إعراب القرآن ٤٤٥ و ٤٤٦.

لا يصح لأنه الآن غير مضاف إليه وبعد حذف المضاف لا يبقى حكمه ويقرأ قبضته بالنصب على معنى فى قبضته وهو ضعيف لأن هذا الظرف محدود فهو كقولك زيد الدار، والسموات مطويات مبتدأ وخبر وبيمينه متعلقان بالخبر ويجوز أن يكون حالاً من الضمير فى الخبر وأن يكون خبراً ثانياً وقرئ مطويات بالكسر على الحال وبيمينه الخبر وقيل الخبر محذوف أى والسموات قبضته».

● ما جاء فى تفسير الآية من أحاديث وآثار.

● أولاً: التفسير بالمرفوع.

عن ابن عمر أنه رأى رسول الله ﷺ على المنبر يخطب الناس فمر بهذه الآية ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فقال رسول الله ﷺ يأخذ السموات والأرضين السبع فيجعلها فى كفة ثم يقول بهما كما يقول الغلام بالكرة أنا الله الواحد أنا الله العزيز حتى لقد رأينا المنبر وأنه ليكاد أن يسقط^(١) به.

وعن عبدالله قال جاء يهودى إلى النبى ﷺ فقال يا محمد إن الله يمسك السموات على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والخلائق على أصبع ثم يقول: أنا الملك. قال فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: وما قدروا الله حق قدره^(٢).

وعن عبدالله قال فضحك النبى ﷺ تعجباً وتصديقاً^(٣).

وعن عبدالله بن مسعود قال كنا عند رسول الله ﷺ حين جاءه خبر من أحبار اليهود فجلس إليه فقال له النبى ﷺ حدثنا قال إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة جعل السموات على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والماء والشجر على أصبع وجميع الخلائق على أصبع ثم يهزهن ثم يقول أنا الملك قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لما قال، ثم قرأ هذه الآية ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية^(٤).

عن ابن عباس قال مر يهودى بالنبى ﷺ وهو جالس فقال: يا يهودى حدثنا فقال كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السماء على ذه والأرض على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه فأنزل الله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية^(٥).

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٧٤١٢)، ومسلم فى صفة القيامة (٩/١٤٤/٢٤) عن ابن عمر به واللفظ لابن جرير فى «تفسيره» (١٧/٢٤)، (١٨).

وانظر «تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا».

(٢) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٤٨١١)، ومسلم فى صفة القيامة (٩/١٤٢/١٩)، وابن جرير فى «تفسيره» عن ابن مسعود وانظر «فتح القدير» بتخريجنا.

(٣) انظر ما قبله. (٥، ٤) المصدر السابق.

عن عبدالله قال أتى النبی ﷺ رجل من أهل الكتاب فقال يا أبا القاسم أبلغك أن الله يحمل الخلائق على أصبع والسموات على أصبع والأرضين على أصبع والشجر على أصبع والشرى على أصبع قال فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه فأنزل الله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ إلى آخر الآية (١).

● ثانياً: التفسير بالموقوف.

وعن ابن عباس قوله ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ يقول قد قبض الأرضين والسموات جميعاً بيمينه ألم تسمع أنه قال مطويات بيمينه يعنى الأرض والسموات بيمينه جميعاً قال ابن عباس: وإنما يستعين بشماله لمشغولة بيمينه (٢).

وعنه قال: ما السموات السبع والأرضون السبع فى يد الله الا كخردلة فى يد أحدكم (٣).

● ثالثاً: التفسير بأقوال التابعين ومن بعدهم.

وعن ربيعة الجرشي قال: والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه قال: ويده الأخرى خلو ليس فيها شئ (٤).

وعن الحسن فى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال كأنها جوزة بقضها وقضيضها (٦).

وعن الضحاك كان يقول فى قوله ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يقول السموات والأرض مطويات بيمينه جميعاً وكان ابن عباس يقول: إنما يستعين بشماله لمشغولة بيمينه وإنما الأرض والسموات كلها بيمينه وليس فى شماله شئ (٦).

● ما جاء فى الآية من كلام المفسرين:

قال الطبرى فيها قولان:

الأول: الأرض كلها قبضته فى يوم القيامة، والسموات كلها مطويات بمنه فالخبر عن الأرض متناه عند قوله (يوم القيامة) والأرض مرفوعة بقوله قبضته، ثم استأنف الخبر عن السموات فقال: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وهى مرفوعة بمطويات. اهـ. ثم ذكر من

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه ابن جرير فى «الدر» (٦٢٩/٥).

(٣) أخرجه ابن جرير فى «الدر» (٦٢٩/٥).

(٤) أخرجه ابن جرير فى «الدر» (٦٢٩/٥).

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) أخرجه ابن جرير فى «الدر» (٦٢٩/٥).

قال بهذا كما قد مناه من الآثار عن ابن عباس وربيعة الجرشي والحسن والضحاك وغيرهم.

القول الثاني:

● أولاً: المرفوع من التفسير:

قال ابن جرير^(١): وقال آخرون: بل السماوات في يمينه والأرضون في شماله. اهـ. ثم ذكر من قال بذلك.

فعن عبدالله بن مقسم أنه سمع عبدالله بن عمر يقول رأيت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: يأخذ الجبار سمواته وأرضه بيديه وقبض رسول الله ﷺ يديه وجعل يقبضهما ويسطهما قال ثم يقول: أنا الرحمن، أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ وتمايل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إنني لأقول أساقط هو برسول الله ﷺ؟^(٢).

عن أبي هريرة أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «يقبض الله عز وجل الأرض يوم القيامة ويطوى السموات بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟»^(٣).

عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: إن الله يقبض الأرض يوم القيامة بيده ويطوى السموات بيمينه ويقول أنا الملك^(٤).

عن أبي أيوب الأنصاري قال: أتى رسول الله ﷺ خبر من اليهود، قال: أرأيت إذ يقول الله في كتابه «وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» فأين الخلق عند ذلك قال: «هم فيها كرقم الكتاب»^(٥).

عن سالم عن أبيه أنه أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «يطوى الله السموات فيأخذهن بيمينه ويطوى الأرض فيأخذها بشماله ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟»^(٦).

قال ابن جرير^(٧): وقيل إن هذه الآية نزلت من أجل يهودي سأل رسول الله ﷺ عن صفة الرب.

(١) تفسير الطبري ١١/٢٤/١٧.

(٢) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق وقد تقدم.

(٣) [متفق عليه] أخرجه البخاري (٧٣٨٢)، ومسلم في صفة القيامة (٩/١٤٤/٢٣) عن أبي هريرة به.

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٨/٢٤، ١٩) وتقدم.

(٥) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق وانظر «الدر» (٥/٦٢٩).

(٦) أخرجه ابن جرير في الموضع السابق وتقدم.

(٧) ابن جرير في الموضع الأخير.

عن سعيد قال أتى رهط من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلقه فغضب النبي ﷺ حتى انتقع لونه ثم ساورهم غضباً لربه فجاءه جبريل فسكنه، وقال «اخفض عليك جناحك يا محمد» وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه قال: «يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾» فلما تلاها عليهم النبي ﷺ قالوا صف لنا ربك؟ كيف خلقه؟ وكيف عضده؟ وكيف ذراعه؟ فغضب رسول الله ﷺ أشد من غضبه الأول، ثم ساورهم فأناء جبريل، قال: مثل مقالته وأناه بجواب ما سألوه عنه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١).

عن أبي ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدري ما الكرسي؟» قلت: لا. قال: ما فى السموات وما فى الأرض وما فيهن فى الكرسي إلا كحلقة ألقتها ملق فى الأرض، وما الكرسي فى العرش إلا كحلقة ألقتها ملق فى الأرض وما الماء فى الريح إلا كحلقة ألقتها ملق فى أرض.. فلاة، وما جميع ذلك فى قبضة الله عز وجل إلا كحبة وأصغر من الحبة فى كف أحدكم. وذلك قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٢).

ثانياً: ما جاء فى تفسير الآية من أقوال السلف.

عن سعيد قال: تكلمت اليهود فى صفة الرب فقالوا: ما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ثم بين للناس عظمته فقال ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فجعل صفتهم التى وصفوا الله بها شركاً (٣).

وعن شيان النحوى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال: لم يفسرها قتادة (٤).

(١) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق.

(٢) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لأبى الشيخ فى «العظمة».

(٣) أخرجه ابن جرير فى الموضع السابق وذكره السيوطى فى «الدر» (٦٢٧/٥) وزاد نسبته لابن المنذر،

وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ فى «العظمة». وانظر تفسير ابن أبى حاتم بتخريجنا.

(٤) ذكره السيوطى فى «الدر» (٦٢٩/٥) ونسبه للبيهقى فى «الأسماء والصفات».

وعن سفيان بن عيينة قال: كل ما وصف الله من نفسه فى كتابه . فتفسيره تلاوته
والسكوت عليه^(١).

قال ابن عباس^(٢): والسموات كلها بمينة.

وقال سعيد بن جبير^(٣): السماوات قبضة والأرضون قبضة.

● ما جاء فى الآية من كلام المفسرين:

قال الطبرى^(٤): يقول تعالى ذكره والأرض كلها قبضته فى يوم القيامة والسموات
كلها مطويات بيمينه، فالخبر عن الأرض متا^(*) عند قوله يوم القيامة والأرض مرفوعة
بقوله قبضته، ثم استأنف الخبر عن السموات، فقال: والسموات مطويات بيمينه وهى
مرفوعة بمطويات. اهـ.

قال الرازى^(٥): فى تفسير ألفاظ الآية قوله (والأرض) المراد منه الأرضون السبع
ويدل عليه وجوه

(الأول) قوله (جميعاً) فإن هذا التأكيد لايحسن إدخاله إلا على الجمع ونظيره قوله
﴿كل الطعام﴾.

وقوله تعالى ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفِئٌ خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإن هذه
الألفاظ الملحة باللفظ المفرد تدل على أن المراد منه الجمع فكذا ههنا.
(الثانى): أنه قال بعده ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ﴾ فوجب أن يكون المراد بالأرض
الأرضون.

(الثالث) أن الموضع موضع تعظيم وتفخيم فهذا مقتضى المبالغة.

● شبهة والرد عليها:

أولاً الشبهة:

قال الرازى^(٦): قال صاحب «الكشاف» الغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو

(١) ذكره السيوطى فى الموضع السابق ونسبه لليهقى

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير (٦٣/٧). (٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير الطبرى ١١/٢٤/١٧. (*) هكذا فى الأصل وأظن أن الصواب: مته.

(٥) التفسير الكبير ١٤/٢٧/١٧. (٦) التفسير الكبير (١٤/٢٧/١٥، ١٦، ١٧).

بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز، وكذلك ماروى أن يهودياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول أنا الملك! فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال.

قال صاحب «الكشاف» وإنما ضحك أفصح العرب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شيء. من ذلك، ولكن فهمه وقع أول كل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة، التي هي الدلالة على القدرة الباهرة، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأوهام ولا تكتنفها الأذهان هينة عليه. قال ولا نرى باباً في علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب. فيقال له هل تسلم أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة، وأنه إنما يعدل عن الحقيقة إلى المجاز عند قيام الدلالة على أن حمله على حقيقته ممتنع، فحينئذ يجب حمله على المجاز، فإن أنكر هذا الأصل فحينئذ يخرج القرآن بالكلية عن أن يكون حجة، فإن لكل أحد أن يقول المقصود من الآية الفلانية كذا وكذا فأنا أحمل الآية على ذلك المقصود، ولا ألتفت إلى الظواهر، مثاله من تمسك بالآيات الواردة في ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار، قال المقصود بيان سعادات المطيعين وشقاوة المذنبين، وأنا أحمل هذه الآيات على هذا المقصود ولا أثبت الأكل والشرب ولا سائر الأحوال الجسمانية، ومن تمسك بالآيات الواردة في إثبات وجوب الصلاة فقال المقصود منه إيجاب تنوير القلب بذكر الله، فأنا أكتفى بهذا القدر ولا أوجب هذه الأعمال المخصوصة، وإذا عرفت الكلام في هذين المثالين فقس عليه سائر المسائل الأصولية والفروعية وذلك باطل قطعاً، وأما إن سلم أن الأصل في علم القرآن أن يعتقد أن الأصل في الكلام حمله على حقيقته، فإن قام دليل منفصل على أنه يتعذر حمله على حقيقته، فحينئذ يتعين صرفه إلى مجازه فإن حصلت هناك مجازات لم يتعين صرفه إلى مجاز معين إلا إذا كان الدليل يوجب ذلك التعيين، فنقول ههنا لفظ القبضة ولفظ اليمين حقيقة في الجارحة المخصوصة، ولا يمكن أن تصرف ظاهر الكلام عن هذا المعنى إلا إذا أقيمت الدلالة على أن حمل هذه الألفاظ على ظواهرها ممتنع فحينئذ يجب حملها على المجازات، ثم تبين بالدليل أن المعنى الفلاني يصح جعله مجازاً عن تلك الحقيقة، ثم تبين بالدليل أن هذا المجاز أولى من غيره، وإذا ثبتت هذه المقدمات وترتيبها

على هذا الوجه فهذا هو الطريق الصحيح الذى عليه تعويل أهل التحقيق فأنت ما أتيت فى هذا الباب بطريقة جديدة وكلام غريب، بل هو عين ما ذكره أهل التحقيق، فثبت أن الفرح الذى أظهره من أنه اهتدى إلى الطريق الذى لم يعرفه غيره طريق فاسد، دال على قلة وقوفه على المعانى، ولنرجع إلى الطريق الحقيقى.

فنقول لاشك أن لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الأعضاء والجوارح، إلا أن الدلائل العقلية قامت على امتناع ثبوت الأعضاء والجوارح لله تعالى فوجب حمل هذه الأعضاء على وجوه المجاز، فنقول إنه يقال فلان فى قبضة فلان إذا كان تحت تدبيره وتسخيره. قال تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ والمراد منه كونه مملوكاً له، ويقال هذه الدار فى يد فلان، وفلان صاحب اليد، والمراد من الكل القدرة، والفقهاء يقولون فى الشروط وقبض فلان كذا وصار فى قبضته، ولا يريدون إلا خلوص ملكه، وإذا ثبت تعذر حمل هذه الألفاظ على حقائقها وجب حملها على مجازاتها صوناً لهذه النصوص عن التعطيل، فهذا هو الكلام الحقيقى فى هذا الباب، ولنا كتاب مفرد فى إثبات تنزيه الله تعالى عن الجسمية والمكان، سميناه «بتأسيس التقديس». من أراد الإطناب فى هذا الباب فليرجع إليه. اهـ.

● الرد على الشبهة:

رد الطبرى وغيره على مذهب من انتحل مثل مذهب الزمخشري والرازي وغيرهما فقال^(١): وقال بعض أهل العربية من أهل البصرة «وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» يقول: فى قدرته نحو قوله «وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» أى وما كانت لكم عليه قدرة وليس الملك لليمين دون سائر الجسد قال وقوله قبضته نحو قولك للرجل هذا فى يدك وفى قبضتك والأخبار التى ذكرناها عن رسول الله وعن أصحابه وغيرهم يشهد على بطول هذه القول. اهـ.

قال ابن كثير^(٢): وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تحريف.

(١) الطبرى ١١/٢٤/١٧.

(٢) ابن كثير ٦٠ - ٦١.

قال ابن عثيمين^(١): والقبضة

والقبضة: هي ما يقبض باليد، وليس المراد بها الملك كما قيل، نعم، لو قال: والأرض في قبضته؛ لكان تفسيرها بالملك محتملاً.

قوله: «جميعاً».

حال من الأرض؛ فيشمل بحارها وأنهارها وأشجارها وكل ما فيها، الأرض كلها جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات على عظمها وسعتها مطويات بيمينه، قال الله - عز وجل -: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾. اهـ.

قلت: وسيأتى أيضاً رد شراح كتاب التوحيد، على متحلى هذا المذهب المنحرف، في حديث الباب الآتى.

● ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد.

قال عبد الرحمن آل الشيخ^(٢): وهذه الأحاديث وما فى معناها تدل على عظمة الله، وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته، وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته، وعجائب مخلوقاته، كلها تدل على كماله، وأنه هو المعبود وحده، لا شريك له فى ربوبيته وإلهيته، وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل، وهذا هو الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان.

وتأمل ما فى هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبى ﷺ ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التى تدل على عظمته، وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه، ولم يقل النبى ﷺ فى شيء منها: إن ظاهرها غير مراد، وإنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه، فلو كان هذا حقاً بلغه أمينه أمته، فإن الله أكمل به الدين وأتم به النعمة فبلغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين. وتلقى الصحابة رضى الله عنهم عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله، فأمنوا به، وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جل وعلا، كما قال

(١) القول المفيد ٣/ ٣٦١.

(٢) فتح المجيد ٥٦٤ - ٥٦٩.

تعالى ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، ولم يجحدوا شيئاً من الصفات، ولا قال أحد منهم: إن ظاهرها غير مراد، ولا إنه يلزم من إثباتها التشبيه، بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار، فصنفوا في رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة.

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - رحمه الله تعالى -: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسول الله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر أن الله تعالى فوق كل شيء وأنه فوق العرش فوق السموات مستوٍ على عرشه مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْقُطْ إِلَيَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ لِلَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾.

وقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾.

وقوله تعالى ﴿إِنْ رَيْتُمْ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ رَيْتُمْ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ الآية . فذكر التوحيد في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ۝﴾

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعموم رؤيته.

وقوله تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾.

وقوله تعالى ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ انتهى كلامه رحمه الله.

قلت - أي عبد الرحمن آل الشيخ - وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيما صنفوه في الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة الأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين فمن ذلك .

مارواه الحافظ الذهبي في كتاب «العلو» وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ: أنها قالت في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ قالت الاستواء

غير مجهول ، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر. رواه ابن المنذر واللالكائي وغيرهما بأسانيد صحاح.

قال: وثبت عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: أنه قال لما سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق. وقال ابن وهب: كنا عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟ فأتى مالك رحمه الله وأخذته الرضاء. وقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف؟ وكيف - عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة. أخرجه. رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً. ولفظه قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. قال الذهبي: فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير، ونفوا عنه الكيفية.

قال البخاري في «صحيحه»: قال مجاهد: ﴿اسْتَوَى﴾ علا على العرش.

وقال إسحاق بن راهويه: سمعت غير واحد من المفسرين يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أى: ارتفع. وقال محمد بن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أى: علا وارتفع.

وشواهد في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم. فمن ذلك.

قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

شهدت بأن وعد الله حق	وأن النار مشوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف	وفوق العرش رب العالمينا
وتحملة ملائكة شداد	ملائكة الإله مسومينا

وروى الدارمي والحاكم والبيهقي بأصح إسناده إلى علي بن الحسين بن شقيق قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته على العرش استوى، بائن من خلقه، ولانقول كما قالت الجهمية.

قال الدارمي: حدثنا حسن بن الصباح البزار حدثنا علي بن الحسين بن شقيق عن ابن

المبارك: قيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه .

وقد تقدم قول الأوزاعي: كنا - والتابعون متوافرون - نقول: إن الله تعالى ذكره، بائن عن خلقه، ونؤمن بماوردت به السنة .

وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب «الأصول»: أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على العرش بذاته . وقال في هذا الكتاب أيضاً: أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لاعلى المجاز، ثم ساق بسنده عن مالك قوله: الله فى السماء وعلمه فى كل مكان .

ثم قال فى هذا الكتاب: أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ ونحو ذلك من القرآن: أن ذلك علمه وأن الله فوق السموات بذاته مستوٍ على عرشه كيف شاء وهذا لفظه فى كتابه .

وهذا كثير فى كلام الصحابة والتابعين والأئمة، أثبتو ماأثبتته الله فى كتابه على لسان رسوله على الحقيقة على مايليق بجلال الله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين، ولم يمثلوا ولم يكيفوا كما ذكرنا ذلك عنهم فى هذا الباب .

وقال الحافظ الذهبي: وأول من أنكر أن الله فوق عرشه: هو الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات، وقتله خالد بن عبدالله القسرى وقصته مشهورة، فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية، فأظهرها واحتج لها بالشبهات وكان ذلك فى آخر عصر التابعين، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل الأوزاعي، وأبى حنيفة ومالك، والليث بن سعد، والثورى، وحamad بن زيد، وحamad بن سلمة، وابن المبارك، ومن بعدهم من أئمة الهدى .

فقال الأوزاعي إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة: ماأخبرنا عبد الواسع الأبهري بسنده إلى أبى بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبدالله الحافظ أخيرنى محمد بن على الجوهري - ببغداد - حدثنا إبراهيم بن الهيثم حدثنا محمد بن كثير المصيصى سمعت الأوزاعي يقول: كنا - والتابعون متوافرون - نقول: أن الله فوق عرشه ونؤمن بماوردت به السنة من صفاته . أخرجه البيهقي فى «الصفات» ورواه أئمة ثقات .

وقال الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى -: لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها؛ ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل، وثبت هذه الصفات ونفى عنه التشبيه، كما نفى عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ اهـ. من «فتح الباري».

قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الإعراب^(١): ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سبحانه مفعول مطلق لفعل محذوف وتعالى فعل ماض وفاعله مستتر يعود على الله تعالى وعمما متعلقان بتعالى وجملة يشركون صلة ما.

● ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين والشرّاح:

قال الطبري^(٢): يقول تعالى ذكره تنزيهاً وتبرئة لله وعلواً وارتفاعاً عما يشرك به هؤلاء المشركون من قومك يا محمد القائلون لك اعبد الأوثان من دون الله واسجد لآلهتنا.

قال الرازي^(٣): وأعلم أنه تعالى لما بين عظمته من الوجه الذي تقدم قال ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني أن هذا القادر القاهر العظيم الذي حارت العقول والألباب في وصف عظمته تنزه وتقدس عن أن تجعل الأصنام شركاء له في المعبودية. اهـ.

قال ابن عثيمين^(٤): قوله ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

هذا تنزيه له عن كل نقص وعيب، وما ينزه عنه هذه الأنداد، ولهذا قال:

﴿وَتَعَالَى﴾؛ أي: ترفع.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

أي: عن كل شرك يشركونه به، سواء جعلوا الخالق كال مخلوق أو العكس.



(١) إعراب القرآن ٤٤٦/٨

(٢) تفسير الطبري ١٩/٢٤/١١

(٣) التفسير الكبير ١٨/٢٧/١٢٤

(٤) القول المفيد ٣٦١/٣

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إصْبَعٍ ، وَالشَّجَرَ عَلَى إصْبَعٍ ، وَالْمَاءَ عَلَى إصْبَعٍ ، وَالثَّرَى عَلَى إصْبَعٍ ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إصْبَعٍ ، فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .
الآية» .

وَفِي رَوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ : «وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ عَلَى إصْبَعٍ ، ثُمَّ يَهْزُؤُنَّ فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ ، أَنَا اللَّهُ» .

وَفِي رَوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ : «يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إصْبَعٍ ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إصْبَعٍ» أَخْرَجَاهُ^(١) .

وقوله : «أخرجاه» : تقدم مراراً أنه البخاري ومسلم

فقد ذكره البخاري في أربع مواضع

الأول في : باب «ماقدروا الله حق قدره»

وأُسند عن عبد الله^(٢) قال «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع ، فيقول : أنا الملك ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

والثاني في : باب قول الله تعالى ﴿لما خلقت بيدي﴾

(١) [متفق عليه] أخرجه البخاري في التفسير / باب : «وما قدروا الله حق قدره» . (٤٨١١ ، ٧٤١٤ ،

٧٤١٥ ، ٧٤٥١ ، ٤٥١٣) ومسلم في «صفة القيامة والجنة والنار» باب : منه (١٩/١٤٢/٩)

من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ، وانظر «فتح المجيد بتخريجنا» .

(٢) البخاري ح ٤٨١١

ولفظه (١): أن يهوديا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد إن الله يمسك السموات على إصبع والأرضين على إصبع والجبال على إصبع والشجر على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ - حتى بدت نواجذه ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. قال يحيى بن سعيد وزاد فيه فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً له.

قلت: وفي هذه اللفظة الأخيرة دليل على أن ضحك الرسول كان تصديقاً له وليس تصديقاً من بعض الرواة بل هو فهم الصحابي، وهو أعلم بمراد النبي ﷺ. ثم ذكره بإسناد آخر في نفس الباب ولفظه (٢).

«جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب فقال يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر والثرى على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول أنا الملك أنا الملك فأريت النبي ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه . ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

والثالث: ذكره في باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾.

ولفظه (٣): «جاء خبر إلى رسول الله ﷺ - فقال يا محمد إن الله يضع السماء على إصبع، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر والأنهار على إصبع ثم يقول بيده أنا الملك . فضحك رسول الله ﷺ وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

والرابع: ذكره في باب كلام الرب - عز وجل - يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. ولفظه (٤): وجاء حيرة من اليهود فقال: إنه إذا كان يوم القيامة جعل الله السموات على إصبع والأرضين على إصبع والماء والثرى على إصبع والخلائق على إصبع ثم يهزهن ثم يقول: أنا الملك أنا الملك، فلقد رأيت النبي ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه تعجباً وتصديقاً لقوله ثم قال النبي ﷺ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إلى قوله ﴿يُشْرِكُونَ﴾.

(١) ح ٧٤١٤.

(٢) ح ٧٤١٥.

(٣) ح ٧٤٥١.

(٤) ح ٧٥.

قال ابن عثيمين^(١): قوله «أصبع»

واحدة الأصابع، وهى مثلثة الأول والثالث؛ ففيها تسع لغات، والعاشر أُصْبُوع، وفى هذا يقول الناظم:

وَهَمَزُ أُمْلَةٍ ثَلَاثٌ وَثَلَاثَةُ التَّسْعِ فِي أُصْبُعٍ وَاخْتُمَ بِأَصْبُوعٍ

قوله: [فيقول: أنا الملك]

قال ابن حجر^(٢): كررها علقمة فى روايته وزاد فضيل فى روايته «قبلها ثم يهزهن»

قال ابن عثيمين^(٣): قوله «أنا الملك» هذه جملة تفيد الحصرة لأنها اسمية معرفة الجزئين؛ ففى ذلك اليوم لا ملك لأحد، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، وكل الناس الملوك منهم والمملوكون على حد سواء يحشرون حفاة عراة غرلاً، وبهذا يظهر ملكوت الله - عز وجل - فى ذلك اليوم ظهوراً بَيِّناً؛ لأنه - سبحانه - ينادى: لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وقوله: «الملك».

أى: ذو السلطان، وليس مجرد المتصرف، بل هو المتصرف فيما يملك على وجه السلطة والعلو، وأما «المالك» فدون ذلك، ولهذا يمتدح نفسه تعالى بأنه الملك، وقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيها قراءتان: «ملك، ومالك»؛ ليتبين بذلك أنه ملك مالك. فَمُلْكُ الله تعالى متضمن لكمال السلطان والتدبير والملك، بخلاف غيره؛ فإن من ملوك الدنيا من يكون ملكاً لا يملك التصرف، ومنهم المالك وليس بملك.

قوله: [فضحك النبى ﷺ - حتى بدت نواجذه].

قال ابن حجر^(٤): فى رواية علقمة «فرايت النبى ﷺ - ضحك ومثله فى رواية

جرير ولفظه «ولقد رأيت».

قوله [حتى بدت نواجذه]

(١) القول المفيد ٣/ ٣٦٣.

(٢) الفتح ١٣/ ٤٠٩.

(٣) القول المفيد/ ٣٦٤.

(٤) الفتح ١٣/ ٤٠٩.

تنبيه: عرض ابن حجر والقرطبي كلاماً ونقولاً لأهل التأويل في صفة (الإصبع) لصرفها عن حقيقتها، سيأتى رد ابن عثيمين عليها رداً شافياً كافياً فلا يلتفت لكلام المؤولين بعده.

قال ابن حجر:^(١) جمع ناجذ بنون وجيم مكسورة ثم ذال معجمة وهو ما يظهر عند الضحك من الأسنان وقيل هى الأنياب وقيل الأضراس وقيل الدواخل من الأضراس التى فى أقصى الحلق، زاد شيان بن عبد الرحمن «تصديقاً لقول الخبر» وفى رواية فضيل المذكورة هنا «تعجباً وتصديقاً له».

وعند مسلم «تعجباً مما قال الخبر تصديقاً له».

وفى رواية جرير عنده «وتصديقاً له» بزيادة واو.

وأخرجه ابن خزيمة من رواية إسرائيل عن منصور «حتى بدت نواجذه تصديقاً لقوله».

وقال ابن بطلال: لا يحمل ذكر الإصبع على الجارحة بل يحمل على أنه صفة من صفات الذات لا تكيف ولا تحدد «وهذا ينسب للأشعري».

وعن ابن فورك يجوز أن يكون الإصبع خلقاً يخلقه الله فيحمله الله ما يحمل الإصبع، ويحتمل أن يراد به القدرة والسلطان، كقول القائل ما فلان إلا بين إصبعي إذا أراد الإخبار عن قدرته عليه، وأيد ابن التين الأول بأنه قال على إصبع ولم يقل على إصبعيه.

قال ابن بطلال: وحاصل الخبر أنه ذكر المخلوقات وأخبر عن قدرة الله على جميعها فضحك النبي ﷺ تصديقاً له وتعجباً من كونه يستعظم ذلك في قدرة الله تعالى، وأن ذلك ليس فى جنب ما يقدر عليه بعظيم، ولذلك قرأ قوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية أى ليس قدره فى القدرة على ما يخلق على الحد الذى ينتهى إليه الوهم، ويحيط به الحصر لأنه تعالى يقدر على إمساك مخلوقاته على غير شيء كما هي اليوم، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ وقال ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

وقال الخطابي لم يقع ذكر الإصبع فى القرآن ولا فى حديث مقطوع به، وقد تقرر أن اليد ليست بجارحة حتى توهم من ثبوتها ثبوت الأصابع بل هو توقيف أطلقه الشارع فلا

(١) الفتح ١٣/٤٠٩ و ٤١٠.

يكيف ولا يشبه، ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهودى، فإن اليهود مشبهة وفيما يدعونه من التوراة ألفاظ تدخل فى باب التشبيه ولا تدخل فى مذاهب المسلمين، وأما ضحكه صلى الله عليه وسلم من قول الخبر فيحتمل الرضا والإنكار.

وأما قول الراوى «تصديقاً» له فظن منه وحسبان، وقد جاء الحديث من عدة طرق ليس فيها هذه الزيادة، وعلى تقدير صحتها فقد يستدل بحمرة الوجه على الخجل، وبصفرة على الوجع، ويكون الأمر بخلاف ذلك، فقد تكون الحمرة لأمر حدث فى البدن كثوران الدم، والصفرة لثوران خلط من مرار وغيره، وعلى تقدير أن يكون ذلك محفوظاً فهو محمول على تأويل قوله تعالى ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أى قدرته على طيها، وسهولة الأمر عليه فى جمعها بمنزلة من جمع شيئاً فى كفه واستقل بحمله من غير أن يجمع كفه عليه بل يقله ببعض أصابعه، وقد جرى فى أمثالهم فلان يقل - كذا - بإصبعه ويعمله بخنصره انتهى ملخصاً،

وقد تعقب بعضهم إنكار ورود الأصابع لوروده فى عدة أحاديث كالحديث الذى أخرجه مسلم «إن قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن»^(١) ولا يرد عليه لأنه إنما نفى القطع.

وقال القرطبى فى «المفهم» قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ﴾ إلى آخر الحديث، هذا كله قول اليهودى وهم يعتقدون التجسيم وأن الله شخص ذو جوارح كما يعتقد غلاة المشبهة من هذه الأمة، وضحك النبى ﷺ إنما هو للتعجب من جهل اليهودى، ولهذا قرأ عند ذلك ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أى ما عرفوه حق معرفته ولا عظموه حق تعظيمه فهذه الرواية هى الصحيحة المحققة. وأما من زاد «وتصديقاً له» فليست بشىء فإنها من قول الراوى وهى باطلة لأن النبى ﷺ لا يصدق المحال وهذه الأوصاف فى حق الله محال؛ إذ لو كان ذا يد وأصابع وجوارح كان كواحد منا فكان يجب له من الافتقار والحدوث والنقص والعجز ما يجب لنا، ولو كان كذلك لاستحال أن يكون إلهاً إذ لو جازت الإلهية لمن هذه صفته لصحت للدجال وهو محال، فاللفضى إليه كذب فقول اليهودى كذب ومحال، ولذلك أنزل الله فى الرد عليه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وإنما تعجب النبى ﷺ من جهله فظن الراوى أن ذلك التعجب تصديق وليس كذلك، فإن قيل قد صح حديث «إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن».

(١) تقدم تخريجه.

فالجواب: أنه إذا جاءنا مثل هذا في الكلام الصادق تأولناه أو توقفنا فيه إلى أن يتبين وجهه مع القطع باستحالة ظاهره لضرورة صدق من دلت المعجزة على صدقه، وأما إذا جاء على لسان من يجوز عليه الكذب بل على لسان من أخبر الصادق عن نوعه بالكذب والتحريف كذبنه وقبحناه، ثم لو سلمنا أن النبي ﷺ صرح بتصديقه لم يكن ذلك تصديقاً له في المعنى بل في اللفظ الذي نقله من كتابه عن نبيه، ونقطع بأن ظاهره غير مراد انتهى ملخصاً. وهذا الذي نحا إليه أخيراً أولى مما ابتدأ به لما فيه من الطعن على ثقات الرواة ورد الأخبار الثابتة، ولو كان الأمر على خلاف ما فهمه الرواي بالظن للزم منه تقرير النبي ﷺ على الباطل وسكوته على الإنكار وحاشا لله من ذلك، وقد اشد إنكار ابن خزيمة على من ادعى أن الضحك المذكور كان على سبيل الإنكار، فقال بعد أن أورد هذا الحديث في «كتاب التوحيد» من صحيحه بطريقة، قد أجل الله تعالى نبيه ﷺ عن أن يوصف ربه بحضرته بما ليس هو من صفاته فيجعل بدل الإنكار والغضب على الواصف ضحكاً، بل لا يوصف النبي ﷺ بهذا الوصف من يؤمن بنبوته، وقد وقع الحديث في الرقاق عن أبي سعيد - رفعه «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته» الحديث، وفيه أن يهودياً دخل فأخبر بمثل ذلك فنظر النبي ﷺ إلى أصحابه ثم ضحك. اهـ.

● الراجح في تعليل ضحك النبي ﷺ من كلام اليهودي.

قال ابن عثيمين^(١): قوله: «فضحك النبي ﷺ».

ولولا ما بعدها لاحتملت أن تكون إنكاراً؛ لأن من حَدَّثَكَ بحديث لا تظمنن إليه ضحكت منه، لكنه قال: «تصديقاً لقول الحبر»؛ فكانت إقراراً لا غير، ويدل لذلك قوله: ثم قرأ: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...» الآية؛ فهذا يدل على أنه ﷺ أقره واستشهد لقوله بآية من كتاب الله، فضحكه واستشهاده تقرير لقول الحبر، وسبب الضحك هو سروره، حيث جاء في القرآن ما يُصدق ما وجده هذا الحبر في كتبه؛ لأنه لا شك أنه إذا جاء ما يصدق القرآن؛ فإن الرسول ﷺ سوف يُسرَّ به، وإن كان الرسول يعلم علم اليقين أن القرآن من عند الله، لكن تضافر البيئات مما يُقوى الشيء، أرايت أسامة بن زيد وأبوه زيد بن حارثة؟ هل كان عند النبي ﷺ شك في أن أسامة ابن لزيد؟

(١) القول المفيد ٣/ ٣٦٢ و ٣٦٣.

الجواب: ليس عنده فى ذلك شك، ولما مرّ بهما مُجَزَّزُ المَدْلَجِى - وهو من أهل القيافة - وقد تغطيا بقطيفة لم يبد منهما إلا أقدامهما، فنظر إلى أقدامهما، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فسرّ النبى ﷺ سروراً عظيماً حتى دخل على عائشة مسروراً تبرق أسارير وجهه، وقال: «ألم تري إلى مجزى المدلجى نظر إلى أسامة بن زيد وإلى زيد فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض»^(١)؛ فإلهم أن الرسول ﷺ دخل تبرق أسارير وجهه؛ لأن فى ذلك تأييداً للحق، وكان المشركون يقدحون فى أسامة بن زيد وأبيه لاختلاف ألوانهما، فكان أسامة أسود شديد السواد وأبوه زيد أبيض من القطن، لكن الأمر ليس كما قالوا، بل هم كاذبون فى ذلك، واختلاف اللون لا يجوب شبهة إلا لذى هوى؛ فلعل المخالف فى اللون نزع عرق.

ثم قال^(٢): قوله «حتى بدت نواجذه»

أى: ظهرت، ونواجذ: جمع ناجذ، وهو أقصى الأضراس.

وهذا الضحك من النبى ﷺ تقرير لقول الخبر، ولهذا قال ابن مسعود: «تصديقاً لقول الخبر»، ولو كان منكراً ما ضحك الرسول ﷺ ولا استشهد بالآية، ولقال له: كذبت كما كذب الذين ادعوا أن الذى يزنى لا يرجم، ولكنه ضحك تصديقاً لقول الخبر وسروراً بأن ما ذكره موافق لما جاء به القرآن الذى أوحى إلى محمد ﷺ.

● شبهات المؤولين وأجوبة شافية عليها:

قوله [ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ﴾].

قال ابن عثيمين^(٣): هذا معنى الآية التى لا تحتل غيره، وأن السماوات مطويات كطى السجل للكتب بيمينه؛ أى: يده تبارك وتعالى؛ لأن ذلك تفسيره ﷺ، وتفسيره فى الدرجة الثانية من حيث الترتيب، لكنه كالقرآن فى الدرجة الأولى من حيث القبول والحجة.

وأما تفسير أهل التحريف؛ فيقول بعضهم: ﴿قَبْضَتُهُ﴾؛ أى: فى قبضته وملكه وتصرفه، وهو خطأ؛ لأن الملك والتصرف كائن يوم القيامة وقبله.

(١) [متفق عليه] أخرجه البخارى (٦٧٧)، ومسلم فى الرضاع (٤٠ / ١٠) - النووى عن عائشة به.

(٢) القول المفيد ٣ / ٣٦٤ و ٣٦٥.

(٣) القول المفيد ٣ / ٣٦٥ - ٣٧٢.

وقول بعضهم: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ﴾؛ أى: تالفة وهالكة؛ كما تقول: انطوى ذكر فلان؛ أى: زال ذكره.

﴿بِإِمْنِهِ﴾؛ أى: بقسمه؛ لأنه قال تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْ عَلَيْهَا فَإِنْ * وَيَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ﴾؛ فجعلوا المراد باليمين القسم... إلى غير ذلك من الخرافات التى يلجأ إليها أهل التحريف، وهذا لظنهم الفاسد بالله، حيث زعموا أن إثبات مثل هذه الصفات يستلزم التمثيل، فصاروا ينكرون ما أثبتته الله لنفسه، وما أثبتته رسوله وسلف الأمة بشبهات يدعونها حججاً.

فيقال لهم: هل أنتم أعلم بالله من الله؟
إن قالوا: نعم؛ كفروا، وإن قالوا: لا؛ قلنا: هل أنتم أفصح فى التعبير عن المعانى من الله؟

إن قالوا: نعم؛ كفروا، وإن قالوا: لا؛ خُصِّمُوا، وقلنا لهم: إن الله بَيَّنَّ ذلك أبلغ بيان بأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والرسول ﷺ أقر الخبر على ما ذكر فيما يطابق الآية، وهل أنتم أنصح من الرسول ﷺ لعباد الله؟ فيقولون: لا.

فإذا كان كلامه تعالى أفصح الكلام، وأصدق، وأبين، وأعلم بما يقول؛ لزم علينا أن نقول مثل ما قال عن نفسه، ولسنا بمذنبين، بل الذنب على من صرف كلامه عن حقيقته التى أرادها الله بها.

ومن فوائد الحديث:

إثبات الأصابع لله - عز وجل - لإقراره ﷺ هذا الخبر على ما قال.
والإصبع إصبع حقيقى يليق بالله - عز وجل -؛ كاليد، وليس المراد بقوله: «على إصبع» سهولة التصرف فى السماوات والأرض؛ كما يقوله أهل التحريف، بل هذا خطأ مخالف لظاهر اللفظ والتقسيم، ولأنه ﷺ أثبت ذلك بإقراره، ولقوله ﷺ، «إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»^(١).

وقوله: «بين أصبعين» لا يلزم من البَيِّنَةِ المُمَاسَّةِ، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، والسحاب لا يمس الأرض ولا السماء وهو بينهما، وتقول: عنيزة بين الزلفى والرس، ولا يلزم أن تكون متصلة بهما، وتقول: شعبان بين ذى القعدة وجمادى، ولا يلزم أن يكون موالياً له؛ فَتَبَيَّنَ أن البينية لا تستلزم الاتصال

(١) تقدم تخريجه.

فى الزمان أو المكان، وكما ثبت عنه ﷺ: أن الله - سبحانه وتعالى - يكون قبل وجه المصلى^(١)، ولا يلزم من المقابلة أن يكون بينه وبين الجدار أو السترة التى يصلّى إليها؛ فهو قبل وجهه وإن كان على عرشه، ومثال ذلك: الشمس حين تكون فى الأفق عند الشروق أو الغروب؛ فإن من الممكن أن تكون قبل وجهك وهى فى العلو. فتبين بهذا أن هؤلاء المحرفين على ضلال، وأن من قال: إن طريقتهم أعلم وأحكم؛ فقد ضل.

● شبهة [طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم] والجواب عليها:

قلت: تقدم الرد على من زعم ذلك من كلام ابن حجر فى الباب الرابع: الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال ابن عثيمين: ومن المشهور عندهم قولهم: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، وهذا القول على ما فيه من التناقض قد يوصل إلى الكفر؛ فهو: أولاً: فيه تناقض؛ لأنهم قالوا: طريقة السلف أسلم، ولا يعقل أن تكون الطريقة أسلم وغيرها أعلم وأحكم؛ لأن الأسلم يستلزم أن يكون أعلم وأحكم؛ فلا سلامة إلا بعلم بأسباب السلامة وحكمة فى سلوك هذه الأسباب.

ثانياً: أين العلم والحكمة من التحريف والتعطيل؟

ثالثاً: يلزم منه أن يكون هؤلاء الخالفون أعلم بالله من رسوله ﷺ وأصحابه؛ لأن طريقة السلف هى طريقة النبى ﷺ وأصحابه.

رابعاً: أنها قد تصل إلى الكفر؛ لأنها تستلزم تجهيل النبى ﷺ وتسفيهه؛ فتجهيله ضد العلم، وتسفيهه ضد الحكمة، وهذا خطر عظيم.

فهذه العبارة باطلة حتى وإن أرادوا بها معنى صحيحاً؛ لأن هؤلاء بحثوا وتعمقوا وخاضوا فى أشياء كان السلف لم يتكلموا فيها؛ فإن خوضهم فى هذه الأشياء هو الذى ضرهم وأوصلهم إلى الحيرة والشك، وصدق النبى ﷺ حين قال: «هلك المنتظعون»^(٢)، فلو أنهم بقوا على ما كان عليه السلف الصالح ولم ينتظعوا؛ لما وصلوا إلى هذا الشك والحيرة والتحريف، حتى إن بعض أئمة أهل الكلام كان يتمنى أن يموت على عقيدة عجائز نيسابور.

(١) [صحيح] تقدم تخريجه.

(٢) [صحيح] أخرجه: مسلم فى العلم (١٦/ ٢٢٠ - النووى) عن ابن مسعود به.

وانظر «رياض الصالحين» (١٤٦ - بتخريجنا) وتقدم.

وهذا من شدة ما وجدوا من الشك والقلق والحيرة، ولا تظن أن العقيدة الفاسدة يمكن أن يعيش الإنسان عليها أبداً، لا يمكن أن يعيش الإنسان إلا على عقيدة سليمة، وإلا ابتلى بالشك والقلق والحيرة، وقد قال بعضهم: أكثر الناس شكاً عند الموت أهل الكلام، ومبالك والعياذ بالله بالشك عند الموت، يختم للإنسان بضد الإيمان.

● نصيحة للمتأولين وغيرهم:

قال ابن عثيمين: لكن لو أخذنا العقيدة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ بسهولة وبما جرى عليه السلف، ونقول كما قال الرازي وهو من علمائهم ورؤسائهم: رأيت أقرب الطرق طريقة القرآن: أقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾؛ يعنى: فأنبت، وأقرأ في النفى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ ﴿ولا يحيطون به علماً﴾، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي؛ لأنه أقر قبل هذا الكلام، فقال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية؛ فما رأيته تروى غليلاً ولا تشفى غليلاً، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن.

والحاصل: أن هؤلاء المنكرين لما جاء في الكتاب والسنة من صفات الله - عز وجل - اعتماداً على هذا الظن الفاسد أنها تقتضى التمثيل قد ضلوا ضلالاً مبيناً؛ فالصحابه رضى الله عنهم هل ناقشوا الرسول ﷺ فى هذا؟ والذى نكاد نشهد به إن لم نشهد به أنه حين يمر عليهم مثل هذا الحديث يقبلونه على حقيقته، لكن يعلمون أن الله لا مثل له؛ فيجمعون بين الإثبات وبين النفى.

إذاً موقفنا من هذا الحديث الذى فيه إثبات الأصابع لله - عز وجل - أن نقر به ونقبله، وأن لا تقتصر على مجرد إمراره بدون معنى فنكون بمنزلة الأعمى الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، بل نقروه ونقول: المراد به أصبع حقيقى يجعل الله عليه هذه الأشياء الكيسرة، ولكن لا يجوز أبداً أن نتخيل بأفهامنا أو أن نقول بالسنتنا: إنه مثل أصابعنا، بل نقول: الله أعلم بكيفية هذه الأصابع؛ فكما أننا لا نعلم ذاته المقدسة؛ فكذلك لا نعلم كيفية صفاته، بل نكل علمها إلى الله - سبحانه وتعالى.

● شبهات وردود عليها:

قوله: ﴿ثم يهزه﴾.

قال ابن ابن عثيمين: أى: هزاً خفيفاً؛ ليبين للعباد فى ذلك الموقف العظيم عظمتهم وقدرته وكان الرسول ﷺ يقرأ هذه الآية ويقبض يده ويبسطها يقول: «يهزه» فصار المنبر يتحرك ويهتز لأنه ﷺ كان يتكلم بهذا الكلام وقلبه مملوء بتعظيم الله تعالى.

● هل يجوز أن نهز أيدينا كما فعل ﷺ:

فإن قلت: هل نهز أيدينا كما فعل النبي ﷺ ؟

فالجواب: إن هذا يختلف بحسب ما يترتب عليه، فليس كل من شاهد ، أو سمع يتقبل ذهنه ذلك بغير أن يشعر بالتمثيل، فينبغي أن تكف لأن هذا ليس بواجب حتى نقول: يجب علينا أن نبليغ كما بليغ الرسول ﷺ بالقول والفعل أما إذا كنا نتكلم مع طلبة علم أو مع إنسان مكابر ينفي هذا ويريد أن يحول المعنى إلى غير الحقيقة، فحينئذ نفعل كما فعل الرسول ﷺ.

فلو قال قائل: إن الله سميع بصير، لكن قال: سميع بلا سمع وبصير بلا بصر، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام حين قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه وأبو هريرة حين حدث به كذلك^(١)، فهذا الإنسان الذي يقول: إن الله سميع بلا سمع وبصير بلا بصر نقول له هكذا.

وكذلك الذي ينكر حقيقة اليد ويقول: إن الله لا يقبض السموات بيمينه، وأن معنى قبضته، أى: فى تصرفه، فهذا نقول له كما فعل الرسول ﷺ.

فالمقام ليس بالأمر السهل، بل هو أمر صعب ودقيق للغاية، فإنه يخشى من أن يقع أحد فى محذور كان بإمكانك أن تمسك عنه، وهذا هو فعل الرسول، فى جميع تصرفاته إذا تأملتها، حتى الأمور العملية قد يؤجلها إذا خاف من فتنة أو من شيء أشد ضرراً، كما أخر بناء الكعبة على قواعد إبراهيم خوفاً من أن يكون فتنة لقريش الذين أسلموا حديثاً^(٢).

قوله: «الماء والثرى على إصبع»

هذا ينافى قوله: «الأرضين على إصبع»، لأنه يقال: «الماء والثرى على إصبع»، أى: الأرض كلها على إصبع، ويراد بالإصبع الجنس، وإلا لتناقض مع معنى الحديث الذى قبله: «الشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع»، إذ النكرة إذا كررت بلفظ النكرة، فالثانى غير الأول غالباً، وإذا كررت بلفظ المعرفة، فالثانى هو الأول غالباً، فيقال: الماء والثرى كناية عن الأرض كلها، أو إن الماء والثرى على إصبع وسكت عن الباقي، إما اختصاراً أو اقتصاراً.



(١) أخرجه (أبو داود) (٤٧٢٨) عن أبى هريرة به.

(٢) البخارى تقدم تخريجه.

وَلَمُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا: (يَطْوِي اللَّهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُھُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَتَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَتَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُھُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَتَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَتَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟) (١).

● مناسبة الحديث للباب والتوحيد:

قال القرعاوى (٢): حيث دل الحديث على وجوب تعظيم الله - عز وجل - وتعظيمه هو توحيده وتنزيهه عن الشرك.

قوله: «ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: يطوى الله السموات....».

قال ابن عثيمين (٣): سبق معنى هذا الحديث وأن المراد بالطى الطى الحقيقى.

قوله: (ثم يقول: أنا الملك) (٤)

يقول ذلك ثناء على نفسه - سبحانه - وتنبيهاً على عظمته الكاملة وعلى ملكه الكامل، وهو السلطان، فهو مالك ذو سلطان، وهذه الجملة كلا جزأيهما معرفة، وإذا كان المبتدأ والخبر كلاهما معرفة، فإن ذلك من طرق الحصر، أى: أنا الذى لى الملكية المطلقة والسلطان التام لا ينازعنى فيهما أحد.

قوله: «أتين الجبارون؟»

الاستفهام للتحدى، فيقول: أين الملوك الذين كانوا فى الدنيا لهم السلطة والتجبر والتكبر على عباد الله؟ وفى ذلك الوقت يحشرون أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم.

قوله: «يطوى الأرضين السبع».

قال النووى (**): قال القاضى وفى هذا الحديث ثلاثة ألفاظ: يقبض، ويطوى، ويأخذ، كله بمعنى الجمع؛ لأن السموات مبسوطة والأرض مدحوة وممدودة. هـ وتقدم الرد على المأولين.

أشار الله فى القرآن إلى أن الأرضين سبع، ولم يرد العدد صريحاً فى القرآن، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ والمماثلة هنا لا تصح إلا فى

(١) [صحيح] أخرجه مسلم فى صفة القيامة (٩/١٤٤/٢٤) عن ابن عمر به.

وانظر فتح المجيد (٩٣٨ - بتخريجنا).

(٢) الجديد ٤٨٠. (٣) القول المفيد ٣/٣٧٣.

(٤) المصدر السابق ٣/٣٧٣ - ٣٧٦. (***) شرح مسلم (٩/١٤٦).

العدد، لأن الكيفية تستعذر المماثلة فيها، وأما السنة، فقد صرّحت بعدة أحاديث بأنها سبع.

قوله: «ثم يأخذهن بشماله».

تقدم أن المسألة فيها قولان ذكرهما الطبري في الآية، (الأول): الأرض كلها قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه.

(والثاني) السموات في يمينه والأرضون في شماله.

وتقدم مسلك أهل السنة في المنهج الصحيح في الأسماء والصفات.

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٧/٢٤) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/٣٢٥٦ ح ١٨٤١٠ بتخريجنا).

من حديث ابن عباس، وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا.

(٢) قال ابن حجر قال البيهقي في «الأسماء والصفات».

«ذكر الشمال فيه تفرد به عمر بن حمزة عن سالم، وقد روى هذا الحديث نافع وعبيد الله بن مقسم عن ابن عمر، ولم يذكر في الشمال، ورواه أبو هريرة رضي الله عنه وغيره عن النبي ﷺ، فلم يذكر أحد منهم الشمال، وروي ذكر الشمال في حديث آخر غير هذه القصة إلا أنه ضعيف بمرة، تفرد بأحدهما جعفر بن الزبير، وبالأخر يزيد الرقاشي، وهما متروكان، وكيف يصح ذلك وصحّ عن النبي ﷺ أنه سمي كلتا يديه يمين؟! وكان من قال ذلك أرسله من لفظه على ما وقع له، أو على عادة العرب في ذكر الشمال في مقابلة اليمين» (*).

كلمة (شمال) اختلف فيها الرواة، فمنهم من أثبتها، ومنهم من أسقطها، وقد حكموا على من أثبتها بالشذوذ، لأنه خالف ثقتين في روايتها عن ابن عمر.

ومنهم من قال: إن ناقلها ثقة، ولكنه قالها من تصرفه (١).

وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت في «صحيح مسلم»: أن الرسول ﷺ قال: «المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين» (٢) وهذا يقتضى أنه ليس هناك يد يمين ويد شمال.

ولكن إذا كانت لفظة «شمال» محفوظة، فهي عندى لا تنافى «كلتا يديه يمين»، لأن المعنى أن اليد الأخرى ليست كيد الشمال بالنسبة للمخلوق ناقصة عن اليد اليمنى،

(*) وانظر أيضًا: «التذكرة» للقرطبي (ص ٢١٦)، «فتح الباري» (١٣/٤٠٨)، «الأنوار البهية».

(١)

(٢) أخرجه مسلم في الإمامة (٦/١٨٤٥١) عن عبد الله بن عمرو به.

وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ
الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدٍ أَحَدِكُمْ^(١).

فقال: «كلتا يديه يمين» ، أى: ليس فيها نقص ، ويؤيد هذا قوله فى حديث آدم:
«اخترت يمين ربى وكلتا يديه يمين مباركة» ، فلما كان الوهم يذهب إلى أن إثبات
الشمال، يعنى: النقص فى هذه اليد دون الأخرى، قال: «كلتا يديه يمين» ويؤيده
أيضاً قوله: «المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن» فإن المقصود بيان فضلهم
ومرتبتهم، وأنهم على يمين الرحمن - سبحانه .

وعلى كل فإن يديه - سبحانه - اثنتان بلا شك، وكل واحدة غير الأخرى ، وإذا
وصفنا اليد الأخرى بالشمال، فليس المراد أنها أقل قوة من اليد اليمنى، بل كلتا يديه
يمين.

والواجب علينا أن نقول: إن ثبتت عن رسول الله ﷺ فنحن نؤمن بها، ولا منافاة
بينها وبين قوله: «كلتا يديه يمين» كما سبق، وإن لم تثبت، فلن نقول بها.



قوله: [وروى عن ابن عباس قال: بالسموات السبع والأرضون السبع فى كَفِّ
الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم].

● مناسبة الحديث للباب والتوحيد^(٢):

حيث دلَّ على وجوب تعظيم الله وتعظيمه هو توحيده وتنزيهه عن الشرك.
قوله: «فى كف الرحمن»^(٣).
فيه إثبات الكف لله تعالى.
قوله: «إلا كخردلة».

قال فى «اللسان»: خردل، الواحدة خردلة، وفى التنزيل العزيز: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ
حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ وقال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّكَ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ
أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (١٧/٢٤) وابن أبى حاتم فى «تفسيره» (١٠/٣٢٥٦ ح ١٨٤١٠) بتخریجنا).

من حديث ابن عباس، وانظر «فتح المجيد بتخریجنا».

(٢) الجديد ٤٨٢ . (٣) القول المفيد ٣/٣٧٦.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ : « حَدَّثَنِي يُونُسُ ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ ، قَالَ : قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : حَدَّثَنِي أَبِي ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةِ أَلْفَيْتٍ فِي تَرَسٍ » (١) .

قال أبو ذر رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض » (٢) .

قال ابن عثيمين : هي حبة نبات صغيرة جداً ، يضرب بها المثل في الصغر والقلة ، وهذا يدل على عظمتها - سبحانه - وأنه - سبحانه - لا يحيط به شيء ، والأمر أعظم من هذا التمثيل التقريبي ، لأنه تعالى لا تدركه الأبصار ، ولا تحيط به الأفهام .



● قوله [وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب.]
مناسبة الحديث للباب والتوحيد (٣):

حيث دل كل من الحديثين على وجوب تعظيم الله وتعظيمه هو توحيده وتنزيهه عن الشرك .

قوله: قال ابن جرير:

قال ابن عثيمين (٤): هو المفسر المشهور رحمه الله ، وله تفسير أثرى يعتمد فيه على الآثار لكن آفته أنه لم يمحض هذه الآثار ، وأتى بالصحيح والضعيف وما دون الضعيف أيضاً ، وكأنه رحمه الله أراد أن يقيد هذا وجعل الحكم بالصحة والضعف موكولاً إلى القارئ ، وربما كان يريد أن يرجع إليه مرة ثانية ويمحصه ، ولكن لم يتيسر ذلك .

قوله [قال أبو رضى الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما الكرسي في العرش..]

قوله: «ما الكرسي في العرش» .

أى : بالنسبة إليه ، والعرش هو المخلوق العظيم الذى استوى عليه الرحمن ، ولا

(١) أخرجه ابن جرير فى «تفسيره» ٣٠ / ٨٢٧ ، وأبو الشيخ فى «العظمة» (١ / ١١٢ / ح ٢٢٢) من حديث زيد بن أسلم عن أبيه .. فذكره .

وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا .

(٢) أخرجه أبو الشيخ فى «العظمة» (٢٥٤) عن أبي ذر به .

وانظر «فتح المجيد» بتخريجنا .

(٤) القول المفيد ٣ / ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(٣) الجديد / ٤٨٢ .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: (بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَّمَاءٍ وَسَّمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زُرٍّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَرَوَاهُ بَنَخُوهُ الْمَسْعُودِيُّ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَهُ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: قَالَ: (وَلَهُ طُرُقٌ) (١).

يقدر قدره إلا الله - عز وجل - والمراد بالحلقة حلقة الدرع، وهى صغيرة وليست بشيء بالنسبة إلى فلاة الأرض.

وهذا الحديث يدل على عظمته عز وجل، فيكون مناسباً لتفسير الآية التى جعلها المؤلف ترجمة للباب.



قوله: «وعن ابن مسعود».

قال ابن باز (٢): حديث ابن مسعود حديث صحيح جيد. ا.هـ.

قال ابن عثيمين (٣): هذا الحديث موقوف على ابن مسعود، لكنه من الأشياء التى لا مجال للرأى فيها، فيكون له حكم الرفع، لأن ابن مسعود رضى الله عنه لم يُعرف بالأخذ عن الإسرائيليات.

مناسبة الحديث للباب والتوحيد (٤):

حيث دل الحديث على وجوب تعظيم الله وتعظيمه هو توحيده وتنزيهه عن الشرك.

قوله: «بين السماء الدنيا والى تليها خمس مائة عام».

وعلى هذا تكون المسافة بين السماء الدنيا والماء أربعة آلاف سنة، وفى حديث آخر: «إن كثف كل سماء خمسمائة عام» وعلى هذا يكون بين السماء الدنيا والماء سبعة آلاف وخمسمائة، وإن صح الحديث، فمعناه أن علو الله - عز وجل - بعيد جداً.

فإن قيل: يرد على هذا ما ذكره المعاصرون اليوم من أن بيننا وبين بعض النجوم والمجرات مسافات عظيمة ؟

(١) أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٧/٢٢٨/ح ٨٩٨٧).

من طريق حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن ابن مسعود .. فذكره .

وذكره الهيثمى فى «المجمع» (١/٨٦) وقال رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

(٢) التعليق المفيد (٢٨٤). (٣) القول المفيد ٣٧٩ - ٣٨٣. (٤) الجديد ٤٨٣.

يقال فى الجواب: إنه إذا صحت الأحاديث عن رسول الله ﷺ ، فإننا نضرب بما عارضها عرض الحائط ، لكن إذا قُدر أننا رأينا الشيء بأعيننا ، وأدركنا بأبصارنا وحواسنا ، ففي هذه الحال يجب أن نسلك أحد أمرين:

الأول: محاولة الجمع بين النص والواقع إن أمكن الجمع بينهما بأى طريق عن طرق الجمع.

الثانى: إن لم يمكن الجمع تبين ضعف الحديث ، لأنه لا يمكن للأحاديث الصحيحة أن تخالف شيئاً حسيّاً واقعاً أبداً ، كما قال شيخ الإسلام فى كتابه «العقل والنقل»: «لا يمكن للدليلين القطعيين أن يتعارضا أبداً ، لأن تعارضهما يقتضى إما رفع النقيضين أو جمع النقيضين ، وهذا مستحيل ، فإن ظنَّ التعارض بينهما ، فإما أن لا يكون تعارض ويكون الخطأ من الفهم ، وإما أن يكون أحدهما ظنيّاً والآخر قطعياً». فإن جاء الأمر الواقع الذى لا إشكال فيه مخالفاً لظاهر شيء من الكتاب أو السنة ، فإن ظاهر الكتاب يُورَّل حتى يكون مطابقاً للواقع ، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أى: فى السموات.

والآية الثانية أشد إشكالاً من الآية الأولى ، لأن الآية الأولى يمكن أن نقول: المراد بالسماء العلو ، ولكن الآية الثانية هى المشكلة جداً ، والمعلوم بالحس المشاهد أن القمر ليس فى السماء نفسها ، بل هو فى فلك بين السماء والأرض.

والجواب أن يقال: إن كان القرآن يدل على أن القمر مُرْصَع فى السماء كما يرصع المسار فى الخشبة دلالة قطعية ، فإن قولهم: إننا وصلنا القمر ليس صحيحاً ، بل وصلوا جرماً فى الجو ظنوه القمر.

لكن القرآن ليس صريحاً فى ذلك ، وليست دلالاته قطعية فى أن القمر مرصع فى السماء ، فآية الفرقان قال الله فيها: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ، فيمكن أن يكون المراد بالسماء العلو ، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والماء ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض ، كما قال الله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذا التأويل للآية قريب.

وأما قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ فيمكن فيها التأويل أيضاً بأن يقال: المراد لقوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ فى جهتهن ، وجهة السماوات العلو ، وحينئذ يمكن الجمع بين الآيات والواقع.

وَعَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَلْ تَذَرُونَ كَمَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ « قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَثِفَ كُلُّ

قوله: «والله فوق العرش»:

هذا نص صريح بإثبات علو الله تعالى علوًا ذاتيًا، وعلو الله ينقسم إلى قسمين:
أ- علو الصفة، وهذا لا ينكره أحد ينتسب للإسلام، والمراد به كمال صفات الله، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ب- علو الذات، وهذا أنكره بعض المتسبين للإسلام، فيقولون: كل العلو الوارد المضاف إلى الله المراد به علو الصفة، فيقولون في قوله ﷺ: «والله فوق العرش» أى: فى القوة والسيطرة والسلطان، وليس فوقه بذاته.
ولا شك أن هذا تحريف فى النصوص وتعطيل فى الصفات.
والذين أنكروا علو الله بذاته انقسموا إلى قسمين:

أ- من قال: إن الله بذاته فى كل مكان، وهذا لا شك ضلال مقتض للكفر.
ب- من قال: إنه لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا متصل بالخلق ولا منفصل عن الخلق، وهذا إنكار محض لوجود الله والعباد بالله ولهذا قال بعض العلماء: لو قيل لنا: صفوا العدم، ما وجدنا أبلغ من هذا الوصف.
ففروا من شئ دلت عليه النصوص والعقول والفطر إلى شئ تنكره النصوص والعقول والفطر.

قوله: «لا يخفى عليه شئ من أعمالكم».

يشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح المرثى منها والمسموع وذلك لعموم علمه وسعته، وإنما أتى بذلك بعد ذكر علوه ليبين أن علوه لا يمنع علمه بأعمالنا، وهو إشارة واضحة إلى علو ذاته تبارك وتعالى.



قوله [وعن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: هل تدرؤن كم بين السماء والأرض...].

مناسبة الحديث للباب والتوحيد:

قال القراوى^(١): حيث دل الحديث على وجوب تعظيم الله وتعظيمه هو توحيده وتنزيهه عن الشرك به ا.هـ.

قال عبدالرحمن آل الشيخ: والذي فى سنن أبى داود عن العباس عبدالمطلب قال: كنت فى البطحاء فى عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟» قالوا: السحاب. قال «المزن؟» قالوا: والمزن قال: «والعنان؟» قالوا: والعنان.

قال أبو داود: لم أتقن العنان جيداً.

قال: «هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض؟» قالوا: لا ندرى. قال: «إن بُعد ما بينهما إما واحدة أو ثتان أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك» حتى عدّ سبع سموات «ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعله مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أو عال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش، بين أسفله وأعله مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك».

قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن، وروى الترمذى نحوه من حديث أبى هريرة، وفيه: «بعد ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام» قال ولا منافاة بينهما؛ لأن تقدير ذلك بخمسائه عام هو على سير القافلة مثلاً، ونيف وسبعون سنة على سير البريد.

قلت: (أى عبدالرحمن): وهذا الحديث له شواهد فى الصحيحين وغيرهما مع ما يدل عليه صريح القرآن، فلا عبرة بقول من ضعفه. ا.هـ.

[قلت]: بل حديث العباس ضعيف له أكثر من علة كتفرد سماك وكان يقبل التلقين، وعدم سماع عبدالله بن عميرة من الأحنف مع جهالة حاله، مع نكارة ذكر الأوعال وتشبيه الملائكة بذلك وإن كان المصنف - محمد بن عبدالوهاب - حذفها من متن الحديث إلا أن سنده لا يقوم للاحتجاج به. وأيضاً قال الترمذى: وروى عن سماك نحوه موقوفاً.

ولهذا وغيره لا ينتهز الإسناد بالحديث، ولا المتن للاحتجاج، وهذا فيه رد على من تصححه كالإمام ابن القيم، أو حسنه كالذهبي والله أعلم وانظر كلام الألبانى وغيره فى تخريجنا لفتح المجيد والقواعد المثلى.

سَمَاءَ مَسِيرَةَ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرَيْنِ أَسْفَلَهُ
وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى
عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ^(١).

قال ابن باز^(٢): حديث العباس وإن كان في سنده انقطاع لكنه بنجبر، وله روايات
أخرى أن بين السماء الدنيا مسيرة إحدى وسبعين أو اثنتان وسبعون سنة أو ثلاث
وسبعون سنة. هـ. وسيأتى الجمع بينها.

قوله: «العباس»^(٣):

يقال: العباس، وعباس، و«أل» هنا لا تفيد التعريف، لأن عباس معرفة لكونه علماً،
لكنها للملح الأصل، كما يقال: الفضل لفضله، والعباس لعبوسه على الأعداء، قال ابن
مالك:

وبعض الأعلام عليه دخلاً للملح ما قد كان عنه نقلاً

(١) [ضعيف] أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٦/١، ٢٠٧)، وأبو داود في «السنة» /باب: في
الجهمية (٤/٢٣١/ح ٤٧٢٣) والترمذي في «التفسير» /باب: ومن سورة الحاقة (٥/٤٢٤/ح ٣٣٢)، وابن
ماجه في «المقدمة» (ح ١٩٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (ح ٥٧٧)، والحاكم في «المستدرک» (٢/٢٨٨).
وأبو الشيخ في العظمة (ح ٢٠٦).

من حديث العباس بن عبد المطلب.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

قال الحاكم: صحيح.

[قلت]: جميعاً من طريق (عمرو بن أبي قيس - شعيب بن خالد - الوليد بن أبي ثور - عمرو بن أبي
قيس) ثنى سماك بن حرب، عن عبدالله بن عميرة، عن الأحنف، عن العباس.

وعبدالله بن عميرة: مجهول. وقال البخاري: لا يعرف له سماع من الأحنف. وانظر تخريجنا «فتح
المجيد» بتفصيل القول على الحديث. والله أعلم.

وأخرجه أحمد في «مسنده» (٢/٣٧٠) والترمذي في «التفسير» /باب: ومن سورة الحديد
(٥/٤٠٣/ح ٣٢٩٨) وابن أبي عاصم في «السنة» (ح ٥٧٨).

من حديث أبي هريرة.

قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٢)

(٣) القول المفيد ٣/٣٨٣ - ٣٩٥.

قوله: «هل تدرون».

«هل»: استفهامية يراد بها أمران:

أ- التشويق لما سيذكر.

ب- التنبيه على ما سيلقيه عليهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ هذا تنبيه وتشويق إلى شيء من آيات الله الكونية.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ هذا تنبيه وتشويق على شيء من آيات الله الشرعية وهو الإيمان والعمل الصالح.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ تنبيه وتحذير.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ تنبيه وتحذير.

واختلاف هذه المعاني بحسب القرائن والسياق، وإلا، فالأصل في الاستفهام أنه طلب العلم بالشيء.

قوله: «كم».

استفهامية.

قوله: «قلنا: الله ورسوله أعلم».

جاء العطف بالواو، لأن علم الرسول من علم الله، فهو الذي يُعلمه بما لا يدركه البشر.

وكذلك في المسائل الشرعية يقال: الله ورسوله أعلم، لأنه ﷺ أعلم الخلق بشرع الله، وعلمه به من علم الله، وما قاله ﷺ في الشرع فهو كقول الله، وليس هذا كقوله: «ما شاء الله وشئت» لأن هذا في باب القدر والمشيئة، ولا يمكن أن يجعل الرسول، مشاركاً لله في ذلك، بل يقال: ما شاء الله، ثم يعطف بـ (ثم) والضابط في ذلك أن الأمور الشرعية، يصح فيها العطف بالواو، وأما الكونية، فلا.

ومن هنا نعرف خطأ وجهل من يكتب على بعض الأعمال: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ بعد موت الرسول ﷺ وتعذر رؤيته فإله يرى، ولكن رسوله لا يرى، فلا تجوز كتابته لأنه كذب عليه ﷺ. ا.هـ.

قوله: «خمسائة سنة».

قال ابن باز^(١): وله روايات أخرى أن بين السماء الدنيا مسيرة إحدى وسبعين سنة، أو اثنتان وسبعون سنة، أو ثلاث وسبعون سنة، وجمع بعض أهل العلم بينهم بأن السير يختلف، وأن خمسمائة عام بالنظر إلى سير الأحمال وسير الأقدام والسير العادي وثلاث وسبعون سنة بالنظر إلى السير الخفيف القوى، فإن مقداره يكون بمقدار السدس بالنسبة إلى سير الأحمال الثقلة ونحو ذلك. أ.هـ.

الميم الثانية في خمس مائة مكسورة والألف لا ينطق بها.

قوله: «وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض».

وذلك خمسمائة سنة.

قوله: «والله تعالى فوق ذلك».

هذا دليل على العلو العظيم لله - عز وجل - وأنه - سبحانه - فوق كل شيء ولا يحيط به شيء من مخلوقاته، لا السماوات ولا غيرها، وعليه، فإنه - سبحانه - لا يوصف بأنه في جهة تحيط به، لأن ما فوق السموات والعرش عدم، ليس هناك شيء حتى يقال كإن الله أحاط به شيء من مخلوقاته.

ولهذا جاء في بعض كتب أهل الكلام يقولون: لا يجوز أن يوصف الله بأنه في جهة مطلقة، وينكرون العلو ظناً منهم أن إثبات الجهة يستلزم الحصر وليس كذلك، لأننا نعلم أن ما فوق العرش عدم لا مخلوقات فيه، ما ثم إلا الله ولا يحيط به شيء من مخلوقاته أبداً.

فالجهة إثباتها لله فية تفصيل، أما إطلاق لفظها نفياً وإثباتاً فلا نقول به، لأنه لم يرد أن الله في جهة، ولا أنه ليس في جهة، ولكن نفصل، فنقول: إن الله في جهة العلو، لأن الرسول ﷺ قال للجارية: «أين الله؟».

وأين يُستفهم بها عن المكان، فقالت: في السماء.

فأثبت ذلك، فأقرها النبي ﷺ عليه، وقال: «أعتقها فإنها مؤمنة»^(٢).

وأهل التحريف يقولونك «أين» بمعنى «من» أي: من الله؟ قالت: في السماء، أي: هو من في السماء، وينكرون العلو.

(١) التعليق المفيد (٢٨٤).

(٢) تقدم تخريجه.

وقد رد عليهم ابن القيم رحمه الله في كتبه ومنها «النونية» وقال لهم: اللغة العربية لا تأتي فيها «أين» بمعنى «من» و«أين» و«من».

فالجهة لله ليست جهة سفلى، وذلك لوجوب العلو له فطرة وعقلاً وسمعاً، وليست جهة علو تحيط به، لأنه تعالى وسع كرسيه السماوات والأرض وهو موضع قدميه فكيف يحيط به تعالى شيء من مخلوقاته؟!

فهو فى جهة علو لا تحيط به، ولا يمكن أن يقال: إن شيئاً يحيط به، لأننا نقول: إننا ما فوق العرش عدم ليس ثم إلا الله - سبحانه- ولهذا قال: «والله تعالى فوق ذلك».

قوله: «وليس يخفى عليه شيء من أعمال بنى آدم».

قال ابن باز^(١): وعلى كل تقدير فهذا يبين عظمة الله وعلوه وأنه لا يخفى عليه شيء من أعمال بنى آدم. ١. هـ.

قال ابن عثيمين: وقوله: «أعمال» إن قرنت بالأقوال صار المراد بها: أعمال الجوارح ، والأقوال للسان، وإن أفردت شملت أعمال الجوارح وأقوال اللسان وأعمال القلوب ، وهى هنا مفردة، فتشمل كل ما يتعلق باللسان أو القلب أو الجوارح، بل أبلغ من ذلك أنه لا يخفى عليه شيء من أعمال بنى آدم فى المستقبل.

فهو يعلم ما يكون فضلاً عما كان، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أى: ما يستقبلونه وما مضى عليهم، ولما قال فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ أى: ما شأنها؟ قال: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ﴾ أى: محفوظة، ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّى﴾ لا يجهل، ﴿وَلَا يَنْسَى﴾: لا يذهل عما مضى - سبحانه وتعالى.

والنبي ﷺ صدر هذا الأمر بهل الدالة على التشويق والتنبية من أجل أن ثبت عقيدة عظيمة، وهو أنه تعالى فوق كل شيء بذاته، وأنه محيط بكل شيء علماً، لقوله: «وليس يخفى عليه شيء من أعمال بنى آدم» فإذا علمنا ذلك، أوجب لنا تعظيمه والحذر من مخالفته، لأنه فوقنا، فهو عالٍ علينا، وأمره محيط بنا.

وفى الحديث صفتان لله: ثبوتية، وهى العلو المستفاد من قوله: والله فوق ذلك .

وسلبية المستفادة من قوله: «ليس يخفى عليه شيء من أعمال بنى آدم»، ولا يوجد فى

(١) التعليق المفيد (٢٨٥).

صفات الله - عز وجل - صفة سلبية محضة، بل صفاته السلبية التي هي النفي متضمنة لثبوت ضدها على وجه الكمال، فينفي عنه الخفاء لكمال علمه، وينفي عنه اللغوب لكمال قوته، وينفي عنه العجز لكمال قدرته، وما أشبه ذلك .

فإذا نفى عن نفسه شيئاً من الصفات، فالمراد انتفاء تلك الصفة عنه لكمال ضدها، كما قال تعالى ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ السنة النعاس، والنوم: الإغفاء العميق ، وذلك لكمال حياته وقيوميته، إذ لو كان ناقص الحياة لاحتاج إلى النوم ، ولو نام ما كان قيوماً على خلقه، لأنه حين ينام لا يكون هناك من يقوم عليهم، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون لكمال حياتهم، ولأن النوم فى الجنة يذهب عليهم وقت بلا فرح ولا سرور ولا لذة لأن السرور فيها دائم ، ولأن النوم هو الوفاة الصغرى، والجنة لا موت فيها.

وليس فى صفات الله نفي محض ، لأن النفي المحض عدم لا ثناء فيه ولا كمال ، بل هو لا شيء ، ولأن النفي أحياناً يرد لكون المحل غير قابل له، مثل قولك: الجدار لا يظلم.

قد يكون نفي الذم ذمًا ، كما فى قول:

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فنفى الغدر والظلم ليس مدحاً، بل هو ذم ينبئ عن عجزهم وضعفهم.
وقال آخر:

لكن قومي وإن كانوا ذوى حسب ليسوا من الشر فى شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحساناً

● فوائد الحديث:

قال عبدالله بن جابر الله (١): ١- أن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام.

٢ - أن ما بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام.

٣ - أن كثف (سمك) كل سماء خمسمائة عام.

٤- أن بين السماء السابعة والكرسى خمسمائة عام

(١) الجامع الفريد (٢٣٠).

فيه مسائل

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ ولم ينكروها ولم يتأولوها.

-
- ٥ - أن بين الكرسي والماء خمسمائة عام.
 - ٦ - أن البحر الذي فوق السموات بين أسفله وأعلاه خمسمائة عام.
 - ٧ - أن العرش فوق الماء.
 - ٨ - أن الله تعالى فوق العرش.
 - ٩ - أنه تعالى مطلع على عبادته، يعلم ما هم عاملون ولا يخفى عليه شيء من ذلك.
- هـ.ا.

قال ابن باز^(٢): فيه الدلالة على ارتفاع هذه المخلوقات وسعة ما بينها من المسافات العظيمة، وربك الخلاق جلا وعلا فهو أعظم منها وأكبر - سبحانه وتعالى - هـ.ا.

قال القرعاوي^(٣): ١ - إثبات المسافة المذكورة في الحديث.

٢ - أن السموات منفصل بعضها عن بعض.

٣ - إثبات أن السموات أجرام لها سمك.

٤ - بيان مكان الماء.

٥ - إثبات مكان الماء.

٦ - إثبات صفة العلو لله سبحانه وتعالى.

٧ - إحاطة علم الله بكل شيء. هـ.ا.

قوله^(٣): فيه مسائل

● الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

قال ابن عثيمين:

وقد تقدمت من حديث ابن مسعود ، حيث أقر النبي ﷺ الخبر على أن الله يجعل السموات على إصبع... إلخ.

● الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها.

(١) التعليق المفيد (٢٨٥). (٢) الجديد (٤٨٤، ٤٨٥). (٣) القول المفيد (٣/ ٣٩٠ - ٣٩٥).

الثالثة: أَنَّ الْحَبْرَ لَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ صَدَقَهُ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِتَقْرِيرِ ذَلِكَ.

الرابعة: وَقُوعُ الضَّحْكِ مِنْهُ ﷺ لَمَّا ذَكَرَ الْحَبْرُ هَذَا الْعِلْمَ الْعَظِيمَ.

الخامسة: التَّصْرِيحُ بِذِكْرِ الْيَدَيْنِ، وَأَنَّ السَّمَوَاتِ فِي الْيَدِ الْيُمْنَى وَالْأَرْضَيْنِ فِي الْيَدِ الْأُخْرَى.

السادسة: التَّصْرِيحُ بِتَسْمِيَّتِهَا الشَّمَالَ.

السابعة: ذِكْرُ الْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ عِنْدَ ذَلِكَ.

كأنه يقول: إن اليهود خير من أولئك المحرفين لها، لأنهم لم يكذبوها ولم يتأولوها، وجاء قوم من هذه الأمة ، فقالوا: ليس لله أصابع، وإن المراد بها القدرة، فكأنه يقول: اليهود خير منهم في هذا وأعرف بالله.

● الثالثة: أَنَّ الْحَبْرَ لَمَّا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ صَدَقَهُ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِتَقْرِيرِ ذَلِكَ.

ظاهر كلام المؤلف بقوله: «ونزل القرآن» أنه بعد كلام الحبر، وليس كذلك، لأنه في حديث ابن مسعود قال: ثم قرأ قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وهذا يدل على أن الآية نزلت من قبل، لكن مراد المؤلف أن القرآن قد نزل بتقرير ذلك.

● الرابعة: وَقُوعُ الضَّحْكِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ لَمَّا ذَكَرَ الْحَبْرُ هَذَا الْعِلْمَ الْعَظِيمَ.

ففيه دليل على جواز الضحك في تقرير الأشياء، لأن الضحك يدل على الرضا وعدم الكراهية.

● الخامسة: التَّصْرِيحُ بِذِكْرِ الْيَدَيْنِ، وَأَنَّ السَّمَوَاتِ فِي الْيَدِ الْيُمْنَى وَالْأَرْضَيْنِ فِي الْأُخْرَى.

وقد ثبتت اليدان لله تعالى بالكتاب والسنة وإجماع السلف.

وقوله: «في الأخرى» لا يعني أنه ينفي ذكر الشمال لما ذكره في المسألة التالية وهي:

● السادسة: التَّصْرِيحُ بِتَسْمِيَّتِهَا الشَّمَالَ.

وقد سبق الكلام على ذلك.

● السابعة: ذِكْرُ الْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ عِنْدَ ذَلِكَ.

ووجه ذكرهم أه إذا كان لهم تجبر وتكبر الآن. فليقوموا بذلك.

- الثامنة: قَوْلُهُ «كَخَرْدَلَةٌ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ».
- التاسعة: عِظْمُ الْكُرْسِيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّمَوَاتِ.
- العاشرية: عِظْمُ الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ لِلْكُرْسِيِّ.
- الحادية عشرة: أَنَّ الْعَرْشَ غَيْرُ الْكُرْسِيِّ، وَالْمَاءِ.
- الثانية عشرة: كَمْ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ.
- الثالثة عشرة: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ.

- الثامنة: قوله: «كخردلة في كف أحدكم».
- يعنى بذلك قوله: ﴿مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ السَّبْعُ كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ﴾ وفيه صحة إطلاق الكف على يد الله عز وجل - ويبان صغر المخلوقات بالنسبة للخالق.
- التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء.
- حيث ذكر أنها بالنسبة للكرسي كدراهم مبيعة أُلقيت في ترس.
- العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي.
- لأنه جعل الكرسي كحلقة أُلقيت في فلاة من الأرض بالنسبة للعرش.
- الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.
- ولم أر من قال: إن العرش هو الماء، لكن هناك من قال: إن العرش هو الكرسي ، لحديث: «إن الله يضع كرسيه يوم القيامة» وظنوا أن هذا الكرسي هو العرش.
- وكذلك زعم بعض الناس أن الكرسي هو العلم ، فقالوا في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى: علمه.
- والصواب: أن الكرسي موضع القدمين، والعرش هو الذى استوى عليه الرحمن - سبحانه - والعلم صفة فى العالم يدرك بها المعلوم.
- الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء.
- وهو خمسمائة عام.
- الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي.
- وهو خمسمائة عام.

الرابعة عشرة: كَمْ بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ.
الخامسة عشرة: أَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ.
السادسة عشرة: أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ.
السابعة عشرة: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.
الثامنة عشرة: كَثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ.
التاسعة عشرة: أَنَّ الْبَحْرَ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ مَسِيرَةُ
خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

- الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء.
وهو خمسمائة عام.
 - الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.
وهي ظاهرة.
 - السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.
وهي ظاهرة.
 - السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض.
وهو خمسمائة عام.
 - الثامنة عشرة : كثف كل سماء خمسمائة سنة.
 - التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السماوات بين أسفله وأعلى خمسمائة سنة.
- وقد سبق الكلام على جميع هذه المسائل بأدلتها، ويستفاد من أحاديث الباب :
- ١- أن الله لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم.
 - ٢- التحذير من مخالفة الله - عز وجل.

والله أعلم، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد،
وأسأل الله أن يختم لنا ولكم بالتوحيد، آمين. اهـ.



خاتمة

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم فاغفر لى، سبحانك اللهم ربنا، وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، من كل ما وقع منى فى هذا العمل من ذلل، صغيراً كان أو جلل، فإن غفرت وستررت فذلك الأمل، وأن ألقاك غداً ربنا وأجده عندك قد قبل، فتسكنى به الظلل، وتلبسنى به الحلل، سبحانك فهذا فضلك تصيب به من تشاء من عبادك، ممن صاروا إليك بين خوف ورجاء، وإن كانت الأخرى فبعدلك، فاستغفرك وأتوب إليك مما قدمت وأخرت وأسررت وأعلنت، ومما أنت أعلم به منى، فأنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت وأبوء بنعمتك على، وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

سبحانك ربنا رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

عبد المنعم إبراهيم

القاهرة/فى ربيع الأول ١٤٢٠هـ

١٩٩٩/٧/٨م

جريدة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: كتب التفسير

- تفسير ابن أبي حاتم - المكتبة التجارية والعصرية - ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.
- تفسير الطبري - دار المعرفة والمطبعة الكبرى ببغداد - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- أحكام القرآن للجصاص - المكتبة التجارية بدون تاريخ.
- معالم التنزيل للبغوي - دار الفكر - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- الكشاف للزمخشري - دار المعرفة بدون تاريخ.
- زاد المسير لابن الجوزي - دار الكتب العلمية - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- تفسير الفخر الرازي - المكتبة التجارية - ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م.
- تفسير القرطبي - الريان بدون تاريخ.
- تفسير ابن كثير - الشعب - الإيمان - وغيرها بدون تاريخ.
- الدر المنثور للسيوطي - دار الكتب العلمية - دار الفكر - ١٩٩٣ م / ١٤١٤ هـ.
- فتح القدير للشوكاني - دار الوفاء - ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
- تيسير الكريم الرحمن للسعدي - نزار الباز.
- في ظلال القرآن لسيد قطب - دار الشروق - ١٩٨٧ م - ١٤٠٧ هـ.
- أضواء البيان للشثيبي - دار الكتب العلمية.
- إعراب القرآن لمحيي الدين درويش.
- تفسير عبدالرزاق - دار المعرفة - ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
- تفسير النسائي - مكتبة السنة - ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.
- «النكت» المتممة على مقدمة التفسير لابن تيمية للمؤلف.
- «علوم القرآن» / محمد سالم وصلاح الصاوي - الجامعة الأمريكية المفتوحة.

- «الإتقان» للسيوطي - بتخريجنا - طبعة نزار الباز ١٤١٧هـ.
- «البرهان» للزركشي - طبعة دار التراث بدون تاريخ.
- «عمدة التفسير» لمحمود شاكر.
- حاشية محمد العليان الشافعي على الكشاف.

ثالثاً: كتب الحديث وشروحها

- الموطأ لمالك بن أنس - دار الحديث ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- مسند الحميدي - دار الكتب العلمية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
- مسند أحمد بن حنبل - دار الفكر بدون تاريخ.
- مسند ابن حميد - مكتبة ابن حجر مكة المكرمة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- سنن الدارمي - دار الكتب العلمية بدون تاريخ.
- صحيح البخاري مع الفتح - الريان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- الأدب المفرد للبخاري - دار الصديق ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- خلق أفعال العباد للبخاري - مكتبة التراث الإسلامي بدون تاريخ.
- صحيح مسلم بالنووي - الحديث ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، وطبعة الريان.
- سنن أبي داود مع عون المعبود - دار الكتب العلمية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م دار الفكر ١٣٣٨هـ - ١٩٦٨م.
- سنن الترمذي مع تحفة الأحوزي - دار الكتب العلمية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- الشمائل للترمذي - مؤسسة الكتب الثقافية ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- الزوائد لعبدالله بن أحمد بن حنبل - دار الفكر بدون تاريخ.
- سنن النسائي - دار الكتب العلمية ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- صحيح ابن خزيمة - المكتب الإسلامي ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- دلائل النبوة للبيهقي - دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- شرح السنة للبخاري - المكتب الإسلامي ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- الترغيب والترهيب للمنذري - دار الريان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- المستدرك للحاكم - دار الكتب العلمية ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- مجمع الزوائد للهيتمي - دار الكتاب العربي ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- المعجم الكبير للطبراني والأوسط - دار الحرمين ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- الموضوعات لابن الجوزي - دار الفكر ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- الفقيه والمنفقه للخطيب البغدادي - دار ابن الجوزي ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر - دار الفتح بدون تاريخ.
- صحيح ابن حبان - مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- مسند أبي يعلى - دار القبلة للثقافة - مؤسسة علوم القرآن ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- شعب الإيمان لليهقي - دار الكتب العلمية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- مصنف عبدالرزاق - المكتب الإسلامي ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- الحلية لأبي نعيم - دار الكتب العلمية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
- ضعيف الجامع الصغير للالباني - المكتب الإسلامي ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- مصنف ابن أبي شيبة - دار الفكر ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- المطالب العالية - لابن حجر - طبعة دار المعرفة.
- معالم السنن/ للخطابي - طبعة دار الكتب العلمية (١٤١١هـ).
- «شرح معاني الآثار» للطحاوي - طبعة دار الكتب العلمية (١٤٠٧هـ).
- نزهة النظر - لابن حجر - طبعة دار ابن الجوزي، وبتخريجنا أيضاً.
- عمل اليوم والليلة - لابن السني - دار البيان (١٤٠٧هـ).
- «المتقى» لابن الجارود - طبعة دار القلم (١٤٠٧هـ).
- «الهداية شرح الغاية» للسخاوي - مخطوطة، يسر الله طبعه بتخريجنا.
- «سنن الدارقطني» - طبعة السيد عبدالله هاشم ١٣٨٦هـ.
- «شرح العلل» لابن رجب - عالم الكتب (١٤٠٥هـ).
- «أخلاق النبي» لأبي الشيخ - الدار المصرية اللبنانية ١٤١١هـ.
- «السنة» لابن أبي عاصم - طبعة المكتب الإسلامي ١٤٠٠هـ.

- «المقاصد الحسنة» للسخاوى - طبعة دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ.
- «تلخيص الجبير» لابن حجر - طبعة السيد عبدالله هاشم ١٣٨٤هـ.
- «السلسلة الصحيحة» - للألبانى . طبعة المكتب الإسلامى - والمعارف.
- «السلسلة الضعيفة» - للألبانى طبعة المكتب الإسلامى - والمعارف ١٤٠٨هـ.
- «قواعد التحديث» للقاسمى - طبعة دار الكتب العلمية بدون تاريخ.
- «شرح البيهقونية» - بتحقيقنا - طبعة نزار الباز.
- «فردوس الأخبار» للديلمى - طبعة الريان.
- «التأصيل لأصول التخريج لبكر أبى زيد.

رابعاً: كتب العقيدة

- تيسير العزيز الحميد سليمان آل الشيخ - دارالفكر ١٤١٢هـ.
- فتح المجيد عبدالرحمن آل الشيخ - مؤسسة قرطبة ١٤١٢هـ وطبعات أخرى.
- فتح الله الحميد المجيد حامد بن حسن - الرسالة ١٤١٧هـ.
- قرة عيون الموحدين - عبدالرحمن آل الشيخ - الأسدى بدون تاريخ.
- القول السديد - ناصر السعدى - الجامعة الإسلامية.
- القول المفيد - ابن عثيمين - دار ابن الجوزى ١٤١٨.
- فضل الغنى الحميد - ياسر برهامى - دار الإيمان.
- الجامع الفريد - عبدالله بن جار الله - مؤسسة قرطبة ١٤٠٨هـ.
- الجديد - القرعاوى - السوادى ١٤١٧هـ.
- كتاب التوحيد - محمد بن عبدالوهاب
- كتاب التوحيد لابن خزيمة
- الصارم المسلول - ابن تيمية - طبعة محى الدين عبدالحميد ١٤٠٠هـ.
- أصول الإيمان - صلاح الصاوى الجامعة الأمريكية.
- شرح العقيدة الطحاوية - ابن أبى العز الحنفى ط الرسالة ١٤١٨هـ.
- العقيدة الواسطية - ابن تيمية.

- مجموع الفتاوى - ابن عثيمين - دار الثريا - ١٤١٤هـ.
- القواعد المثلى - ابن عثيمين نزار الباز بتحقيقنا.
- الإيمان - ابن تيمية - مكتبة النهضة الإسلامية بتحقيق هراس.
- معارج القبول - حافظ حكمي - دار الكتب العلمية بدون تاريخ.
- شفاء العليل - ابن القيم
- التعليق المفيد - ابن باز - مكتبة التراث الإسلامي.
- الدعوة إلى الله - ابن باز - وقف الله تعالى.
- التمام والرقى - على بن نفيح العلياني طبعة أنصار السنة.
- التبرك المشروع والتبرك الممنوع - على بن نفيح العلياني طبعة أنصار السنة.
- الشفاعة - محمد بن مقبل الوادعي - الحرمين.
- التوسل والوسيلة - الألباني - المكتب الإسلامي.
- تحذير الساجد - للألباني - المكتب الإسلامي الطبعة الرابعة - ١٤٠٣هـ.
- مجموعة التوحيد - لمحمد بن عبد الوهاب.
- اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية.
- تطهير الاعتقاد/ للصنعاني.
- كشف الشبهات - بتخريجنا.
- تهذيب مدارج السالكين.
- الولاء والبراء.

خامساً: كتب الفقه، وأصوله

- «موطأ مالك» - دار الحديث ١٤١٣هـ.
- «الأم» للشافعي - طبعة الشعب بدون تاريخ.
- «المغنى» لابن قدامة - طبعة دار الفكر بدون تاريخ.
- «إيضاح الإيضاح ب كلام الحنابلة الملاح»/ للمؤلف - طبعة نزار الباز ١٤١٩هـ.
- «المحلى» لابن حزم - طبعة دار التراث بدون تاريخ.

- «نيل الأوطار» للشوكاني - دار الحديث ١٤١٣هـ.
- «المبدع» لابن مفلح - طبعة المكتب الإسلامي ١٤٠٠هـ.
- «العمدة» لابن قدامة - ط مكتبة الإيمان ١٤٠٨هـ.
- «منار السبيل» بتخريجنا - طبعة نزار الباز المكتبة التجارية ١٤١٦هـ.
- «السلسيل» بتخريجنا - طبعة نزار الباز المكتبة التجارية ١٤١٧هـ.
- «قفو الأثر شرح بلوغ المرام» لابن حجر، تأليفنا نزار الباز المكتبة التجارية ١٤٢٠هـ.
- «تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد» للعرفي، بتخريجنا نزار الباز المكتبة التجارية ١٤١٩هـ.

- «زاد المعاد» جمعية إحياء التراث الإسلامي - بدون تاريخ.
- «الشرح المتع» لابن عثيمين/ طبعة مؤسسة آسام ١٤١٦هـ.
- «إرشاد الفحول» للشوكاني/ طبعة دار الكتب ١٤١٢هـ.
- «الإحكام للأمدى بتخريجنا - ولابن حزم أيضاً - دار الحديث بدون تاريخ.
- «المستصفى» للغزالي - طبعة دار التاريخ العربي الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.
- «حاشية على شرح الورقات» للمؤلف - طبعة نزار الباز (المكتبة التجارية) ١٤١٧هـ.

سادساً: كتب التراجم والرجال

- «تهذيب الكمال» للمزى - طبعة الرسالة (١٤١٣هـ).
- «تهذيب التهذيب» لابن حجر - طبعة دار الفكر (١٤١٥هـ).
- «الكامل» لابن عدى - طبعة دار الفكر (١٤٠٩هـ).
- «الإصابة» لابن حجر - طبعة دار الكتاب العربي بدون تاريخ.
- «أسد الغابة» لابن الأثير - طبعة الشعب بدون تاريخ.
- «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم - طبعة دار إحياء التراث العربي.
- «الميزان» للذهبي - طبعة المعرفة بدون تاريخ.
- «الضعفاء الكبير» للعقيلي - طبعة دار الكتب العلمية.

- «التاريخ الكبير» للبخارى - طبعة دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ.

- «تاريخ دمشق» لابن عساكر - طبعة دار الفكر ١٤٠٥هـ.

سابعاً: كتب متنوعة

- فقه الخطابة وزاد الخطيب - مكتبة الإيمان.

- جلاء الأفهام - المتنبي بدون تاريخ.

- النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح للطاهر عاشور نقلاً عن

التأصيل لبكر أبي زيد.

- النهاية في غريب الحديث - لابن الأثير - دار إحياء الكتب العربية بدون تاريخ.

- حجة السنة للحسين شواط - ط الجامعة الأمريكية المفتوحة.

- مفاهيم ينبغي أن تصحح - الشروق.

- الثواب والمتغيرات.

مفتاح دار السعادة ابن القيم مكتبة حميدو - الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ.

- الطب النبوي للذهبي بتحقيقنا - نزار الباز ١٤١٧هـ.

- إحياء علوم الدين الغزالي ط المكتبة التجارية - الطبعة الثانية ١٤١٣هـ.

- الشفا بتعريف حقوق المصطفى/ عياض - دار التراث المطبعة القديمة.

- الكبائر - رياض الحديث - ١٢٩١هـ.

- لطائف المعارف - نزار الباز بتحقيقنا ١٤١٨هـ.

- إغاثة اللهفان لابن القيم.

- الزهد لابن المبارك ط دار ابن خلدون.

- السيرة لابن هشام - دار التراث بدون تاريخ.

- الوصية الكبرى لابن تيمية.

- فتاوى ابن باز.

- مجلة البحوث الإسلامية العدد ٢٥ عام ١٤٠٩هـ ص ٤٠.

- الجواب الكافي لابن القيم.

- أصول الدعوة لعبدالكريم زيدان.
- الأذكار للنوى - مكتبة نزار الباز بتحقيقنا ١٤١٧هـ.
- عصمة الأنبياء لمحمد الخضر بن الناجي.
- جامع العلوم والحكم لابن رجب/ نزار الباز بتحقيقنا ١٤١٨هـ.
- إعلام الموقعين - لابن القيم ط دار الفكر ١٣٧٣هـ.
- مدارج السالكين - ابن القيم - دار الحديث بدون تاريخ.
- رسالة تحكيم القوانين - محمد بن إبراهيم.
- تيسير التحرير
- مختصر ابن الحاجب مع شر العضد.
- رفع الملام عن الأئمة الأعلام - لابن تيمية مكتبة التراث ١٩٨٨هـ.
- مسائل الجاهلية بشرح محمود شكرى الألوسى.
- منهاج السنة لابن تيمية.

فهرس

المجلد الأول

من كتاب مغنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الباب
٣ المقدمة ■	
٩ خطة عملنا فى / مغنى المريد شرح كتاب التوحيد ■	
١٢ مقدمات لكتاب «مغنى المريد شرح كتاب التوحيد» ■	
١٣ مبادئ علم التوحيد ■	
١٣ - المبدأ الأول: حده	
١٤ - المبدأ الثانى: موضوعه	
 - المبدأ الثالث: أهمية علم التوحيد والهدف من تعلمه	
١٤ وشرحه	
 - فصل فى وجه التدرج إلى الإرشاد وترتيب درجات	
٢٢ الاعتقاد	
٢٨ - المبدأ الرابع: نسبته إلى غيره	
٢٨ - المبدأ الخامس: فضله	
٢٩ - المبدأ السادس: واضعه	
٢٩ - المبدأ السابع: اسمه	
٢٩ - المبدأ الثامن: استمداده	
٢٩ - المبدأ التاسع: حكمه	
٣١ - المبدأ العاشر: مسائله	
٣١ المبدأ الحادى عشر: شرفه	
 ■ أهمية كتاب التوحيد - لشيخ الإسلام - محمد بن	
٣٢ عبد الوهاب وذكر منهجه فى الكتاب	
٣٤ - التعريف بالكتاب وأبوابه	
٣٨ - ملامح من منهج المصنف فى الكتاب	
٣٩ ■ ترجمة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب	
٣٩ - نسبه وميلاده	

٣٩	- أسرته ونشأته	
٤٠	- شيوخه	
٤٠	- رحلاته العلمية	
	- حال المسلمين عند ظهور دعوة الشيخ محمد بن	
٤٢	عبد الوهاب	
٤٤	- عقيدة الشيخ محمد بن الوهاب رحمه الله	
٤٧	- بدء دعوة الشيخ محمد رحمه الله	
٤٧	- أصول دعوة الشيخ محمد رحمه الله	
	- المراحل التي مرت بها دعوة الشيخ محمد بن	
٤٩	عبد الوهاب	
	- ثمرات دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله	
٥٠	وآثارها	
٥١	- الشبه التي أثرت حول دعوة الشيخ	
٥٦	- طلابه ومصنفاته	
٥٦	- أهم مؤلفاته	
٥٧	- وفاته	
٥٧	■ شروح كتاب التوحيد	
٦٠	■ بعض تراجم مشاهير الشراح	
٦٠	- ترجمة الشيخ سليمان آل الشيخ	
٦٠	(١) نسبه ونشأته	
٦٠	(٢) شيوخه	
٦٠	(٣) أعماله وتصانيفه	
٦١	(٤) وفاته	
٦١	- ترجمة الشيخ: عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ	
٦١	(١) نسبه وميلاده	
٦٢	(٢) نشأته	
٦٢	(٣) أعماله	

٦٣ (٤) مصنفاته	
٦٣ (٥) أبنائه وطلابه	
٦٤ (٦) أخلاقه وسجاياه	
٦٥ (٧) وفاته	
٦٥ (٨) ثناء العلماء عليه	
٦٦	- ترجمة الشيخ ابن باز	
٦٩	- ترجمة الشيخ محمد بن صالح العثيمين	
٦٩ (١) اسمه ونسبه	
٧٠ (٢) مولده ونشأته	
٧١ (٣) مشايخه	
٧١ (٤) تلاميذه	
٧٢ (٥) منهجه العلمي	
٧٣ (٦) طبيعة الدرس عند الشيخ	
٧٣ (٧) ومن آثاره العلمية	
٧٧	■ متن كتاب التوحيد	
١٧٣	■ معنى البسمة	
١٧٦	■ معنى الحمدلة	
١٧٨	■ قوله «وصلّى الله على محمد وعلى آله وسلم»	
١٨٣	- مسألة هل يصلّى على غير النبي ﷺ	
١٨٧	■ قوله «كتاب التوحيد»	
١٨٧	- أقسام التوحيد وسبب تقسيم العلماء له على هذا النحو	
١٩١	■ قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾	
١٩١	- ما جاء في مناسبة الآية للتوحيد	
١٩١	- الإعراب	
١٩١	- ما جاء في تفسير الآية من السنة	
١٩١	أولاً: من الأحاديث المرفوعة	
١٩٢	ثانياً: من الموقوف	

١٩٢	ثالثاً: من أقوال التابعين ومن بعدهم
١٩٣	- ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين
٢١٦	- تعريف العبادة
٢١٨	- صور من العبادة التى صرفت لغير الله
٢١٨	(١) عبادة الهوى
٢١٩	(٢) عبادة العلماء العباد
٢٢٠	(٣) عبادة الشيطان
٢٢٠	(٤) عبادة الحكام
٢٢١	(٥) عبادة الدنيا والزوجة والدرهم والدينار وغيرهم
٢٢٦	- مسألة: ما وجه تقديم الجن على الإنس فى الآية
	■ الآية الثانية، قوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن
٢٣٢	اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾
٢٣٢	- مناسبة الآية للتوحيد
٢٣٣	- الإعراب
٢٣٤	- معنى الطاغوت
٢٣٦	- فصل فى كيفية الكفر بالطاغوت
	- فصل هل تكفير الطواغيت من أصل الدين أم الكفر بهم
٢٣٨	فقط؟
٢٣٩	- فصل فى تقرير ما سبق من كلام السلف
٢٣٩	- فصل فى من سمى من عبد من الأصنام طواغيت
٢٤١	- فصل فى صور من عبادة الطاغوت من القرآن
٢٤١	(١) التحاكم إليه
٢٤٢	(٢) القتال فى سبيله
٢٤٢	(٣) العبادة له من دون الله
٢٤٣	(٤) الموالاة والحب والنصرة والقرب
٢٤٣	- من فوائد الآية

- الآية الثالثة، قوله: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا، إلا إياه وبإِسلامٍ﴾ ٢٤٦
- مناسبة الآية للتوحيد ٢٤٦
- الإعراب ٢٤٦
- ما جاء فى تفسير الآية من الآثار ٢٤٦
- ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين ٢٤٧
- معنى القضاء ٢٤٨
- ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد ٢٤٨
- أقسام القضاء وأنواعه ٢٤٨
- ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد ٢٥٣
- أقسام العبودية ٢٥٣
- ما جاء فى تفسير الآية من السنة ٢٥٤
- حكمة اقتران بر الوالدين بعبادة الله - عز وجل - ٢٥٦
- الآية الرابعة: قوله: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ ٢٦٨
- من أقوال شراح كتاب التوحيد ٢٦٨
- الإعراب ٢٦٨
- ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين ٢٦٩
- ما جاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد ٢٧٣
- الآية الرابعة: ﴿قل تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً﴾ ٢٧٤
- مناسبة الآية للتوحيد ٢٧٤
- الإعراب ٢٧٤
- ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث ٢٧٤
- ما جاء فى تفسير الآية من الآثار ٢٧٥
- ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين ٢٧٦
- قوله: ﴿قل﴾ ٢٧٦
- ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين ٢٧٦

- قوله: ﴿تعالوا﴾ ٢٧٦
- الإعراب ٢٧٦
- ما جاء فى الآية من كلام المفسرين ٢٧٦
- قوله: ﴿أتل ما﴾ ٢٧٦
- ما جاء فى الآية من كلام المفسرين ٢٧٧
- قوله: ﴿حرم ربكم عليكم﴾ ٢٧٧
- ما جاء فى الآية من كلام المفسرين ٢٧٧
- قوله: ﴿ربكم﴾ ٢٧٨
- قوله: ﴿ألا تشركوا﴾ ٢٧٨
- الإعراب ٢٧٨
- ما جاء فى الآية من كلام المفسرين ٢٧٨
- قوله: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ ٢٨٠
- الإعراب ٢٨٠
- ما جاء فى الآية من كلام المفسرين ٢٨٠
- ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد ٢٨١
- قوله: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾ ٢٨١
- الإعراب ٢٨١
- ما جاء فى تفسير الآية من القرآن والسنة ٢٨١
- ما جاء فى تفسير الآية من الآثار ٢٨٢
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين ٢٨٢
- قوله: ﴿ولا تقرّبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن...﴾ ٢٨٤
- ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد ٢٨٤
- الإعراب ٢٨٤
- ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث ٢٨٤
- ما جاء فى تفسير الآية من الآثار ٢٨٥
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين ٢٨٥
- قوله: ﴿ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق﴾ ٢٨٨

- ٢٨٨ - الإعراب
- ٢٨٨ - ما جاء فى تفسير الآية من آثار
- ٢٨٨ - ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين
- ٢٩١ ■ قوله: ﴿ذلکم وصاکم به لعلکم تعقلون﴾
- ٢٩١ - الإعراب
- ٢٩١ - ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين
- ٢٩٢ - ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد
- ٢٩٣ ■ قوله: ﴿ولاتقربوا مال الیتیم﴾
- ٢٩٣ - الإعراب
- ٢٩٣ - ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث
- ٢٩٣ - ما جاء فى تفسيرها من الآثار
- ٢٩٤ - ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين
- ٢٩٥ ■ قوله: ﴿إلا بالتى هى أحسن﴾
- ٢٩٥ - الإعراب
- ٢٩٥ - ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين
- ٢٩٦ - ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد
- ٢٩٦ ■ قوله: ﴿حتى يبلغ أشده﴾
- ٢٩٧ - الإعراب
- ٢٩٧ - ما جاء فى تفسير الآية من الآثار
- ٢٩٧ - ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين
- ٢٩٩ ■ قوله: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾
- ٢٩٩ - الإعراب
- ٣٠٠ - ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن
- ٣٠٠ - ما جاء فى تفسير الآية بالسنة
- ٣٠٠ - ما جاء فى تفسيرها من أقوال التابعين
- ٣٠٠ - ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين
- ٣٠١ - ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد

- قوله: ﴿لَا نَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ٣٠٢
- الإعراب ٣٠٢
- ما جاء فى تفسير الآية من السنة ٣٠٢
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين ٣٠٢
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد ٣٠٣
- قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ ٣٠٤
- الإعراب ٣٠٤
- ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن ٣٠٤
- ما جاء فى تفسير الآية من الآثار ٣٠٤
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين ٣٠٥
- قوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ ٣٠٦
- الإعراب ٣٠٦
- ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن والسنة ٣٠٦
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين ٣٠٧
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد ٣٠٨
- قوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ٣٠٨
- الإعراب ٣٠٨
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين ٣٠٨
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد ٣٠٩
- قوله: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ ٣٠٩
- الإعراب ٣٠٩
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين ٣١٠
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد ٣١٠
- قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمُ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ٣١١
- الإعراب ٣١١
- ما جاء فى تفسير الآية من السنة والآثار ٣١١
- ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين ٣١٦

- ٣١٧ - ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد
- ٣١٨ ■ قوله: ﴿ذلکم وصاکم به لعلکم تتقون﴾
- ٣١٨ - ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين
- ٣١٩ - ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد
- ■ فصل فى بیان كيفية الاستقامة على عبادة الله والكفر
- ٣١٩ بالطاغوت من خلال هذه الآيات
- ٣٢٠ - بیان الأخلاق ومكانتها بالنسبة للعقيدة
- ٣٢١ - معالجة الأخلاق الجاهلية بالعقيدة الصحيحة
- ٣٢١ - السنة تربط بين الأخلاق والعقيدة أيضاً
- ■ الأثر الأول: قال ابن مسعود: «من أراد أن ينظر إلى وصية
- ٣٢٤ محمد ﷺ...»
- ٣٢٤ - مناسبة الأثر للترجمة
- - شرح الأثر
- ■ الحديث الأول: وعن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال:
- ٣٢٦ «كنت رديف...»
- ٣٢٦ - مناسبة الحديث لكتاب التوحيد
- - شرح الحديث
- ٣٣٤ - فوائد الحديث
- ٣٣٦ ■ المسائل
- ٣٤٥ ■ ■ باب: فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب
- ٣٤٥ - مناسبة هذا الباب لما قبله
- ٣٤٥ - مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد
- ٣٤٥ - ماذا أراد المصنف بهذا الباب
- ٣٤٦ - شرح الترجمة والتبويب
- ٣٤٦ ■ الآية الأولى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾
- ٣٤٧ - مناسبة الآية للباب
- ٣٤٧ - مناسبة الآية للتوحيد

- ٣٤٨ الإعراب
- ٣٤٨ ما جاء فى تفسيرها من القرآن والسنة
- ٣٤٩ ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين
- ٣٤٩ ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد
- ٣٥٠ ■ قوله: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾
- ٣٥٠ ما جاء فى سبب النزول
- ٣٥١ ما جاء فى تفسير الآية من السنة
- ٣٥١ أولاً: بالمرفع
- ٣٥٢ ثانياً: التفسير بالآثار الموقوفة
- ٣٥٣ سبب آخر للنزول
- ٣٥٣ ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين
- ٣٥٥ ما جاء فى الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد
- ٣٥٨ ■ أنواع الظلم أولئك
- ٣٥٩ ■ قوله: ﴿أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾
- ٣٥٩ الإعراب
- ٣٥٩ ما جاء فى تفسير الآية من الأحاديث
- ٣٥٩ ما جاء فى تفسيرها من كلام المفسرين
- ٣٦٠ ما جاء فى تفسير الآية من كلام شراح كتاب التوحيد
- ٣٦٠ ■ الحديث الأول: عن عبادة بن الصامت (رضى الله عنه)، قال: قال رسول الله ﷺ «من شهد أن لا إله إلا الله...»
- ٣٦٥ مناسبة الحديث للباب
- ٣٦٨ شرح الحديث
- ٣٧٦ ذكر نصوص العلماء فى معنى الإله
- ٣٧٩ شروط لا إله إلا الله حتى تنفع صاحبها يوم القيامة
- ٣٧٩ تنبيهات هامة
- الفرق بين الإسلام الحكيم والإسلام المنجى عند الله
- ٣٨٠ تعالى

- الحديث الثاني: قوله: «ولهما من حديث عتبان: «فإن الله
- حرم على النار... إلخ» ٣٩٥
- مناسبة الحديث للباب ٣٩٥
- شرح الحديث ٣٩٥
- الحديث الثالث: قوله: وعن أبي سعيد الخدري عن رسول
- الله ﷺ «قال: قال موسى» الحديث ٤٠١
- مناسبة الحديث للباب ٤٠١
- شرح الحديث
- الحديث الرابع: قوله: عن أنس سمعت رسول الله ﷺ
- يقول: «قال الله تعالى يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض» ٤٠٧
- مناسبة الحديث للباب ٤٠٧
- شرح الحديث
- كلمة في خاتمة أحاديث الباب ٤١٢
- فضائل التوحيد غير ما تقدم ٤١٣
- المسائل ٤١٥

فهرس

المجلد الثانى

من كتاب مغنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الباب
٤٢٠	■ باب: من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب	٢
٤٢٠	- شرح الترجمة والتبويب ومناسبه للتوحيد	
٤٢٠	- مناسبة هذا الباب لما قبله	
	■ الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿إِن إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ	
٤٢٢	حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	
٤٢٢	- مناسبة الآية للترجمة	
٤٢٣	- الإعراب	
٤٢٣	- ما جاء فى تفسير الآية من السنة	
٤٢٤	أولاً: بالرفوع	
٤٢٤	ثانياً: بالموقوف	
٤٢٥	ثالثاً: أقوال التابعين ومن بعدهم	
٤٢٥	- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين	
٤٢٧	- الفرق بين الأمة والإمام	
٤٣٠	- ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد	
٤٣٠	■ قوله: ﴿قَانِتًا﴾	
٤٣١	- ما جاء فى تفسيرها من القرآن والسنة	
٤٣٢	- ما جاء فى تفسيرها من الآثار	
٤٣٣	- ما جاء فى تفسيرها من كلام المفسرين	
٤٣٣	- ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد	
٤٣٣	■ قوله: ﴿حَنِيفًا﴾	
٤٣٣	- ما جاء فى تفسيرها بالقرآن	
٤٣٣	- ما جاء فى تفسيرها من السنة	
٤٣٣	- ما جاء فى تفسيرها من أقوال المفسرين	

- قوله: ﴿ولم يك من المشركين﴾ ٤٣٤
- الإعراب ٤٣٤
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين ٤٣٤
- ما جاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد ٤٣٥
- فصل فى جزاء الأئمة والمحسنين فى الدنيا ٤٣٨
- الفرق بين النصر والتمكين ٤٤٢
- هل المطلوب النصر أن التمكين ٤٤٢
- كيف تمكن وما السبيل إلى التمكين ٤٤٣
- لماذا نريد الأمن ٤٤٤
- هل طلب الأمن غاية أم وسيلة ٤٤٤
- هل نحن على أعتاب الإمامة وهل حققنا منها شرع ٤٤٥
- ما جاء فى التقليد المذموم ٤٤٧
- الآية الثانية قوله: ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ ٤٤٧
- مناسبة الآية للترجمة ٤٤٧
- ما جاء فى الآية من السنة ٤٥٠
- ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين ٤٥٠
- ما جاء فى تفسير الآية من أقوال شراح كتاب التوحيد ٤٥١
- الحديث الأول: عن حصين بن عبدالرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: «أيكم رأى الكوكب» الحديث ٤٥٢
- مناسبة الحديث للباب ٤٥٣
- لطيفة ٤٥٤
- شرح الحديث ٤٥٥
- ما جاء فى الرقية ٤٥٨
- فائدة دعوية فى أدب الاختلاف ٤٦٠
- فائدة دعوية من قوله «والنبي وليس معه أحد» ٤٦٤
- إشكال وجوابه ٤٦٦
- اختلاف الصحابة فى السبعين ٤٦٩

- ٤٧٠ - ذكر الاختلاف في قوله لا يسترقون والراجح من ذلك ...
- كيف نجمع بين دليل حصين «لارقية إلا من عين» وبين
- ٤٧٥ قول النبي ﷺ «لا يسترقون»
- ٤٧٦ - متى لا يتنافى الاسترقاء مع كمال التوكل
- ٤٧٦ - قوله: «لا يكتون»
- ٤٨٣ - علاقة الكى والرقى بالطيرة
- ٤٨٤ - قوله: «ولا يتطيرون»
- ٤٨٨ - قوله: «وعلى ربهم يتوكلون»
- ٤٨٨ - درجات التوكل
- ٤٩٢ - فائدة في ذكر التوكل بعد الصفات المتقدمة
- ٤٩٣ - إشكال وجوابه
- ٤٩٣ - قوله: «سبعون ألف» هل هذه بشارة أم نذارة
- مسألة: لماذا لم يذكر الرسول ﷺ هذه الزيادة ابتداءً،
- وذكر هذه البشارة بعد هذا التدرج وهذه المرحلية؟
- ٤٩٩ - شبهات تشبه بالتوكل
- ٥٠٤ - الحكمة في قوله ﷺ سبقك بها عكاشة
- ٥٠٥ - المسائل
- ٣ ■ ■ باب: الخوف من الشرهك ٥١٣
- ٥١٣ - مناسبة هذا الباب للباين قبله
- ٥١٣ - لماذا أتى المصنف بهذا الباب بعد الأبواب السابقة؟
- ٥١٤ - مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد
- ٥١٦ - شرح الترجمة
- الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ
- وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ ٥١٧
- ٥١٧ - مناسبة الآية للباب
- ٥١٨ - الإعراب
- ٥١٨ - تفسير الآية بالقرآن

- ٥١٩ - ما جاء فى سبب النزول
- ٥٢١ - ما جاء فى تفسير الآية من السنة
- ٥٢١ - أولاً: بالمرفوع
- ٥٢٣ - ثانياً: تفسير الآية بالموقوف
- ٥٢٤ - ثالثاً: تفسير الآية بأقوال التابعين ومن بعدهم
- ٥٢٤ - ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين
- ٥٢٥ - ما جاء فى حكمة تكرار هذه الآية مرتين فى نفس السورة
- ٥٢٦ - حكم مرتكب الكبيرة
- ٥٢٨ - فائدة فى تسمية اليهودى والنصارى مشرك
- ٥٢٩ - فائدة أيهما أرجى هذه الآية أم آية الزمزم
- ٥٣٠ - ذكر أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية
- ٥٣٢ ■ مسألة: هل المراد بالشرك هنا الأكبر أم مطلق الشرك؟
- ٥٣٤ ■ الآية الثانية: ﴿واجنبى وبني أن نعبد الأصنام﴾
- ٥٣٤ - مناسبة الآية للباب وللتوحيد
- ٥٣٥ - الإعراب
- ٥٣٥ - ما جاء فى تفسير الآية بالقرآن
- ٥٣٦ - ما جاء فى تفسير الآية بالسنة
- ٥٣٦ أولاً: بالمرفوع
- ٥٣٦ ثانياً: بأقوال السلف
- ٥٣٦ - ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين
- ٥٣٩ - ما جاء فيها من كلام شراح كتاب التوحيد
- ٥٤٠ ■ قوله: ﴿الأصنام﴾
- ٥٤١ - ما جاء فيها من كلام المفسرين
- ٥٤٢ - ما جاء فيها من أقوال شراح كتاب التوحيد
- ٥٤٣ - إشكالات فى الآية وأجوبتها
- ٥٤٤ - فائدة فى الرد على المعتزلة
- ■ الحديث الأول: قوله: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر...»
- ٥٤٦

- ٥٤٧ - مناسبة الحديث للباب
- ٥٤٧ - كلام شراح كتاب التوحيد في الحديث
- ٥٤٩ - ما جاء في الرياء والسمعة
- الحديث الثاني: قوله: وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله...» ٥٥٤
- ٥٥٤ - مناسبة الحديث للباب
- ٥٥٤ - الجمع بين ألفاظ الحديث
- ٥٥٦ - كلام شراح كتاب التوحيد في الحديث
- الحديث الثالث: قوله: ولمسلم عن حابر أن رسول الله ﷺ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً...» ٥٥٩
- ٥٥٩ - مناسبة الحديث للباب
- ٥٦٠ - كلام شراح كتاب التوحيد في الحديث
- ٥٦٠ - مسألة هل يلزم من دخول النار الخلود لمن أشرك؟
- المسائل ٥٦١
- ■ باب: الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله ٥٦٤
- ٥٦٥ - مناسبة الباب لما قبله من الأبواب ولكتاب التوحيد
- ٥٦٧ - شرح الترجمة
- الآية الأولى: قول الله تعالى ﴿قل هذا سبيلي﴾ مناسبتها للباب، وتفسيرها، وكلام شراح كتاب التوحيد عليها ٥٦٨
- قوله: ﴿على بصيرة﴾ وذكر تفسيرها ٥٧٣
- شروط ومواصفات الداعي - الذى يدعو على بصيرة ٥٧٦
- الحديث الأول حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن ... الحديث ٥٨٨
- مناسبتة للباب ٥٨٨
- متى بعث معاذاً إلى اليمن ٥٩١
- هل كان معاذاً والياً أم قاضياً ٥٩١
- فائدة تنبيه النبي ﷺ على أنهم من أهل الكتاب ٥٩٣

- فائدة قوله «فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله» من كلام شيخ الإسلام ٥٩٤
- شبهات لبعض الجماعات والرد عليها من كلام الحافظ ٥٩٧
- مسألة/ لماذا ذكر المصنف هذه الروايات (شهادة أن لا إله إلا الله) وفي رواية «إلى أن يوحدوا الله» ٦٠٨
- فائدة/ حكم الدعوة إلى الله، وأدلة ذلك ٦٠٩
- إشكال/ عدم ذكر الصوم والحج في حديث بعث معاذ، وجواب ذلك ٦١٥
- فوائد حديث بعث معاذ ٦١٧
- والحديث الثانى: حديث سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً... الحديث» ٦٢٠
- مناسبة الحديث للباب ٦٢٠
- شرح ألفاظه ٦٢١
- ما جاء فى لواء النبى ﷺ ٦٢٢
- ما جاء فى الفرق بين الراية واللواء والعلم ٦٢٣
- فائدة/ اختصاص على - رضى الله عنه - بهذه البشارة ٥٢٤
- انقسام الناس فى علىّ على ثلاث طوائف ٦٣٠
- فائدة دعوية/ من قوله «انفذ على رسلك» ٦٣٤
- شمولية الإسلام ٦٤٣
- خلاصة هذه الوسطية ٦٤٤
- مواقف من شجاعة على بن أبى طالب وأسباب فتح الله على يديه ٦٤٥
- فائدة دعوية/ من قوله «خير لك من حمر النعم» ٦٤٧
- زائدة على رواية المصنف ٦٥٠
- المسائل ٦٥١
- ■ باب: تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ٦٦٢
- مناسبة الباب لما قبله من الأبواب، ولكتاب التوحيد ٦٦٥

- ٦٦٨ - شرح الترجمة
- ٦٦٩ - مناسبة آيات الباب بعضها ببعض
- ٦٧٣ ■ الآية الأولى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾
- ٦٧٣ - مناسبة الآية للباب
- ٦٧٣ - الإعراب
- ٦٧٤ - سبب نزول الآية
- ٦٧٦ - أقوال المفسرين في الآية
- ٦٨٤ - أقوال شراح كتاب التوحيد في الآية
- ٦٨٦ - فصل في الوسيلة، وأحكامها
- ٦٨٧ - معنى الوسيلة لغة واصطلاحاً
- ٦٨٧ - أقسام الوسيلة [مشروعة- ممنوعة] وتفصيل ذلك
- ٦٩٦ - شبهة: التوسل بجاه النبي ﷺ، والرد عليها
- ٦٩٨ ■ الآية الثانية: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون﴾
- ٦٩٨ - مناسبة الآية للباب
- ٦٩٨ - الإعراب
- ٦٩٩ - أقوال المفسرين في الآية
- ٧٠١ ■ علاقة الآية بما قبلها، وبيان المقصود الأصلي منها
- ٧٠٧ - أقوال شراح كتاب التوحيد في الآية
- ٧١٠ - فصل في عدم البراء من الشرك وأهله
- ٧١٤ - وفيه مسألة حكم الحب الجبلى للكافر
- ٧١٥ ■ معنى الولاء، لغة وشرعاً
- ٧١٥ - صورة الموالاة
- ٧١٥ - أسباب موالاة الكافرين
- ٧١٦ - أدلة الولاء من الكتاب والسنة
- ٧٢١ - أحكام الموالاة [مكفرة- غير مكفرة]

.....	■ التشبه، وفيه مسألة الإكراه على الكفر والتقية
.....	* الحب والمودة للدين، لا للحزب ولا للفرقة
٧٢٧	* النصرة
٧٣٣	* الطاعة والمتابعة
٧٣٩	* المعاونة والقيام بالأمر والنصح
٧٤٠	* المداينة على حساب الدين
٧٤٠	* تولية الكفار أمور المسلمين
٧٤١	* السكنى معهم في ديارهم وتكثير سوادهم
٧٤٣	* فصل: موانع التكفير بالموالاة والتقى والإكراه والمداراة
٧٤٩	- تعريف البراء لغة وشرعاً
٧٥٠	* فصل: في الفرق بين القسط والمودة والموالاة
٧٥٢	- صور ليست من الموالاة
٧٥٢	* الاستعانة بغير المسلم لغرض حماية الداعي
٧٥٣	* المؤاجرة والمبايعة مع المشركين
٧٥٤	* البيع والشراء
٧٥٤	* قبول الهدايا منهم والإهداء إليهم
٧٥٥	* رد السلام عليهم
٧٥٥	* الإنتفاع بما عندهم
٧٥٦	* الزواج من الكتائية
.....	■ الآية الثالثة: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾
٧٥٧	- مناسبة الآية للباب والمراد منها
٧٥٧	- الإعراب
٧٥٨	- معنى الأحبار والرهبان
٧٥٨	- ما جاء في الآية من أقوال المفسرين
٧٦٠	- أقوال شراح كتاب التوحيد في الآية
٧٦٥	- الشرك في الحكم
٧٧٦	- الحكم بغير ما أنزل الله

- ٧٨٠ - فوائد أخرى- لصاحب «مغنى المريد»
- الآية الرابعة: «ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا
- ٧٨٩ يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله»
- ٧٨٩ - مناسبة الآية للباب
- ٧٩٠ - مناسبة الآية لكتاب التوحيد
- ٧٩٠ - الإعراب
- ٧٩١ - أقوال المفسرين فى الآية
- ٨٠٠ - أقوال شراح كتاب التوحيد فى الآية
- ٨٠٢ - المحبة وأنواعها
- ٨٠٢ - كلام ابن القيم فى المحبة والعشق وعلاجه
- ٨٠٥ - أسباب المحبة
- الحديث: «من قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله»
- ٨٢٢ - مناسبة الحديث للباب
- ٨٢٧ - تقسيم الإسلام إلى: إسلام حكى وإسلام حقيقى
- ٨٢٧ - مأخذ على من خلط بينهما
- ٨٣٦ - شبه لشرح كتاب التوحيد والرد عليها
- ٨٣٨ - فوائد من قوله «وحسابه على الله»
- ٨٤١ ■ المسائل

فهرس

المجلد الثالث

من كتاب مغنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الباب
	■ ■ باب: من الشريك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع	٦
٨٤٧	البلاء أو دفعه	
٨٤٧	- مناسبة الباب لما قبله	
٨٤٧	- شرح الترجمة	
٤٤٨	- رد ابن القيم على القدرية فى إسقاط الأسباب	
٨٤٩	- الالتفات إلى الأسباب قسما	
٨٥٠	- العلل التى تتقى فى الأسباب	
٨٥١	- المقصود بالشرك فى الترجمة	
	■ الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون	
٨٥٥	الله إن أرادنى الله بضر...﴾	
٨٥٥	- مناسبة الآية للباب ودلالاتها عليه	
٨٥٦	- الإعراب	
٨٥٦	- ما جاء فى تفسير الآية من القرآن والسنة	
٨٥٧	- أقوال التابعين	
٨٥٨	- أقوال المفسرين	
٨٥٨	■ قوله: ﴿إن أرادنى الله بضر هل هن ممسكات﴾	
٨٥٨	- ما جاء فى الآية من أقوال التابعين	
٨٥٨	- ما جاء فى الآية من أقوال المفسرين	
	■ مسألة: لم قيل: كاشفات وممسكات على التأنيث بعد قوله:	
٨٥٩	﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾	
٨٦٠	- ما جاء فى الآية من كلام شراح كتاب التوحيد	
	■ الحديث الأول: عن عمران بن حصين رضى الله عنه أن	
٨٦٤	النبي ﷺ «رأى رجلاً فى يده حلقة...»	
٨٦٥	- مناسبة الحديث للباب	

- ٨٦٦ - كلام شراح كتاب التوحيد وغيرهم على الحديث
- الحديث الثاني: وله عن عقبة بن عامر مرفوعاً: «من تعلق
٨٧٤ تميمة فلا أتم...»
- ٨٧٥ - مناسبة الحديث للباب
- ٨٧٥ - كلام شراح كتاب التوحيد على الحديث
- الأثر الأول: قوله: ولابن أبي حاتم عن حذيفة: «أنه رأى
رجلاً في يده خيط من الحمى فقطعه...»
- ٨٧٨ - كلام شراح كتاب التوحيد على الأثر
- ٨٧٨ ■ المسائل

- ■ باب: ما جاء في الرقى والتمايم ٨٨٦
- ٨٨٨ - شرح الترجمة ومناسبتها للتوحيد
- ٨٨٩ - علاقة الرقية بالاعتقاد
- ٨٩٠ - تعريف الرقى والتمايم
- ٨٩١ - الرقية معروفة قبل الإسلام
- ٨٩٢ - تعليق التمايم بين الماضي والحاضر
- ٨٩٤ - حكم الرقى والتمايم
- ٨٩٦ - أدلة تحريم التمايم، وعلاقتها بالتوكل
- ٨٩٧ - هل تنافي الرقية بالتوكل؟
- ٨٩٩ - أقسام التوكل
- ٩٠٢ - تعليق التمايم شرك أكبر أم أصغر؟
- ٩٠٥ - هل الرقى توقيفية
- ٩٠٦ - الرقية الشرعية والقدرية
- ٩٠٨ - ضوابط الشرك الأكبر والأصغر
- ٩١١ - دلائل لمعرفة الشرك الأصغر
- ٩١٠ - سؤال: هل الطيرة تدخل في شرك الأسباب
- ٩١٢ - خلاصة القول
- ٩١٣ - تنبيه على فائدة من د/ العلياني

- ٩١٥ - الشرك الأصغر أكبر الذنوب
- - حكم تعليق التماثيل من القرآن والأدعية النبوية، وترجيح
- ٩١٥ - الراجع في ذلك
- ٩٢٤ - خلاصة القول في المسألة السابقة
- ٩٢٥ - هل الرقى بجميع القرآن أم بما فيه نص فقط؟
- ٩٢٧ - حكم التفريغ لأجل القراءة على الناس واتخاذها حرفة
- ٩٣٢ - ضوابط الرقى
- ٩٣٦ - ■ الحديث الأول/ حديث أبي بشير الأنصاري
- ٩٣٦ - مناسبه للباب
- ٩٣٦ - مناسبة الحديث لكتاب التوحيد
- ٩٣٦ - شرح الحديث
- ٩٤٢ - ■ الحديث الثاني/ حديث ابن مسعود
- ٩٤٣ - مناسبة الحديث للباب ولكتاب التوحيد
- - الشرح، وفيه أنواع الرقية من حيث وقوع البلاء قبل وبعد
- ٩٤٥ - وقوعه
- ٩٤٦ - فائدة: الرد على من قال بمنع تطعيم الأطفال من هذا الباب
- ٩٤٩ - حكم ديلة الخطوبة
- ٩٤٩ - تعريف التولة
- ٩٥١ - ■ الحديث الثالث/ حديث عبدالله بن عكيم
- ٩٥٢ - سبب الحديث
- - علاقة القلب بما يعلقه العبد من تماثيل وخلافه/ أو علاقة
- ٩٥٣ - الظاهر بالباطن
- ٩٥٤ - أقسام التعليق
- ٩٥٥ - قول المصنف/ التماثيل: شيء يعلق إلخ
- - ذكر الخلاف في تعليق تماثيل من القرآن والأدعية النبوية،
- ٩٥٦ - وقد تقدم، وذكرنا شيئاً منه هنا للمناسبة
- ٩٥٦ - شروط جواز الرقية، وقد تقدم، وذكرناها هنا للمناسبة

- ٩٥٧ ■ الحديث الرابع/ حديث رويغ
- ٩٥٨ - مناسبة الحديث للباب
- ٩٥٨ - مناسبة الحديث لكتاب التوحيد
- ٩٥٩ - شرح الحديث
- - العلاقة بين عقد اللحية وتقليد الأوتار والاستنجاء بالرجع والعظم
- ٩٦١ ■ الأثر الأول: أثر سعيد بن جبير
- ٩٦٣ ■ الأثر الثاني: أثر إبراهيم النخعي
- ٩٦٣ ■ ذكر مسائل الباب
- ٩٦٤ ■ ■ باب: من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما ٨
- ٩٦٨ - شرح التبويب
- ٩٧٠ - معنى البركة لغة واصطلاحاً
- ٩٧١ - بركة موهومة
- ٩٧٣ - كيفية معرفة البركة الباطلة والصحيحة
- ٩٧٣ - قوله (شجر)
- ٩٧٤ - قوله (ونحوهما)
- ٩٧٤ - مقدمات بين يدي الباب
- ٩٧٥ - شرك الأسباب
- ٩٧٦ (١) البركة من الله فلا تطلب إلا منه وأدلة ذلك
- ٩٧٦ (٢) لا تثبت إلا بدليل شرعي لأن الأصل النفي، وهي توقيفية
- ٩٧٧ (٣) كل ما جاز التبرك به [من الأعيان والأقوال والأفعال والأزمان وغيره كما سيأتي] بطريق الشرع فإِنما هي سبب للبركة، وليست هي واهية البركة
- ٩٧٧ (٤) أن التبرك بالأشياء يكون غالباً بما كان سبب البركة فيه ليس من الأسباب المعهودة للناس
- ٩٧٨ (٥) التماس البركة لا بد لها من دليل شرعي
- ٩٧٨ (٥) التماس البركة لا بد لها من دليل شرعي

٩٧٩	(٦) تقسيم التبرك لمشروع وغير مشروع	
٩٧٩	أولاً المشروع:	
٩٧٩	(١) ذات النبي ﷺ	
٩٧٩	(٢) بالأقوال والأفعال	
٩٧٩	(أ) بالأقوال كقراءة سورة البقرة	
	(ب) بالأفعال - الاجتماع للطعام الأكل من أطراف	
٩٧٩	الصفحة	
	(٣) التبرك بالأمكنة - كالمسجد ومكة والمدينة ووادي	
٩٨٠	العقيق	
٩٨١	(٤) التبرك بالأزمنة	
٩٨٢	(٥) التبرك بالمطعمات	
٩٨٣	ثانياً الممنوع:	
٩٨٣	(١) الأمكنة والجمادات	
٩٨٥	(٢) الأزمنة	
٩٨٦	(٣) شبهتان والجواب عليهما	
٩٨٨	٩- الشروع في شروح آيات الباب وحديث الباب	
٩٨٨	■ قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾	
٩٨٨	- مناسبة الآية للباب	
٩٨٩	- الإعراب	
٩٨٩	- ما ورد في تفسير الآية	
٩٩١	- كلام شراح كتاب التوحيد	
٩٩١	- صفة الأوثان	
	■ الحديث: عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله	
١٠٠٠	ﷺ إلى حنين	
١٠٠١	- مناسبة الحديث للباب	
١٠٠٣	- ذات أنواط	
١٠٠٦	- لتتبعن سنن من كان قبلكم	

- ١٠٠٧ - فوائد من الحديث
- ١٠٠٨ - فوائد دعوية من الحديث
- ١٠١٢ ■ مسائل الباب
- ١٠٢١ ■ ■ باب: ما جاء في الذبح لغير الله ٩
- ■ شرح الترجمة ومناسبة الباب لكتاب التوحيد، وبيان حكم الذبح
- ١٠٢١ - مسألة في حد الكفر الأكبر وتقسيمه
- ١٠٢٤ ■ الآية الأولى: وقول الله تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي...﴾
- ١٠٢٦ - ما جاء في تفسير الآية بالقرآن
- ١٠٢٧ - ما جاء في تفسير الآية بالسنة
- ١٠٢٧ - الإعراب
- ١٠٢٧ - كلام شراح كتاب التوحيد
- ١٠٢٨ ■ قوله: ﴿ونسكي﴾
- ١٠٢٨ - كلام المفسرين في الآية
- ١٠٢٩ - كلام شراح كتاب التوحيد
- ١٠٣١ ■ قوله: ﴿محياي ومماتي لله رب العالمين﴾
- ١٠٣١ - ما جاء في الآية من السنة والآثار
- ١٠٣٢ - كلام المفسرين في الآية
- ١٠٣٢ - كلام شراح كتاب التوحيد
- ١٠٣٣ ■ قوله: ﴿لاشريك له﴾
- ١٠٣٣ - فائدة في إثبات خلق أفعال العباد والرد على الجهمية
- ١٠٣٣ - الإعراب
- ١٠٣٤ ■ قوله: ﴿وأنا أول المسلمين﴾
- ١٠٣٤ - ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين
- ١٠٣٦ ■ الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فصل لربك وانحر﴾
- ١٠٣٦ - كلام المفسرين في الآية

- ١٠٣٨ - كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية
- ١٠٣٩ ■ فصل الصلاة وعلاقتها بالنحر
- ■ الحديث الثالث: قوله: عن على رضى الله عنه أنه قال:
- ١٠٤١ «حدثنى رسول الله ﷺ ...»
- ١٠٤٢ - معنى الكلمة
- ١٠٤٢ ■ قوله: «لعن الله»
- ١٠٤٢ - ما جاء فى معنى اللعنة
- ١٠٤٢ - أقسام اللعن
- - أدلة ما جاء فى القسم الثانى من اللعنة بمعنى الرحمة
- ١٠٤٣ والزكاة
- ■ باب من لعنه النبى ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً
- ١٠٤٦ لذلك كان له زكاة وأجرأ ورحمة
- ١٠٤٨ ■ فصل فى اللعن على المعين واللعن على العموم
- ١٠٤٩ ■ فصل متى يجوز لعن المعين
- ١٠٥٠ ■ فصل فى النهى عن لعن المعين
- ١٠٥٧ ■ قوله: «لعن الله من لعن والديه»
- ١٠٥٧ - كلام شراح كتاب التوحيد
- ١٠٥٧ ■ قوله: «لعن الله من آوى محدثاً»
- ١٠٥٧ - كلام شراح كتاب التوحيد
- ١٠٥٩ ■ قوله: «لعن الله من غير، وفى رواية سرق منار الأرض ...»
- ١٠٥٩ - كلام شراح كتاب التوحيد وغيرهم
- ■ الحديث الرابع: قوله: عن طارق بن شهاب أن رسول الله
- ١٠٦٠ ﷺ قال: «دخل الجنة رجل فى ذباب ...»
- ١٠٦٠ - كلام شراح كتاب التوحيد
- ١٠٦٢ «قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله»
- ١٠٦٢ - كلام شراح كتاب التوحيد
- ١٠٦٣ ■ قوله: «لا يجاوز»

- ١٠٦٣ - كلام شراح كتاب التوحيد
- ١٠٦٤ ■ قوله: «قال ليس عندى شىء أقرب»
- ١٠٦٤ - كلام شراح كتاب التوحيد
- ١٠٦٦ - مسألة الإكراه
- ١٠٦٧ - من ذهب إلى أن الإكراه فى القول دون الفعل
- ١٠٦٨ - الخلاصة فى أن للإكراه فى القول والفعل سواء
- ١٠٦٩ - حد للإكراه
- - هل الأولى للإنسان إذا أكره على الكفر أن يضبر ولو
- ١٠٧٠ قتل أو يوافق ظاهراً أو يتأول
- ١٠٧٣ ■ المسائل
- ١٠٧٨ ■ ■ باب: لا يذبج لله بمكان يذبج فيه لخير الله
- ١٠٧٨ - مناسبة الباب لما قبله
- ١٠٧٩ - شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب
- ١٠٨٠ ■ الآية الأولى: قول الله تعالى: ﴿لا تقم فيه أبدا﴾
- ١٠٨٠ - مناسبة الآية للترجمة
- - ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب
- ١٠٨٠ التوحيد
- ١٠٨٠ - ما جاء فى مسجد الضرار
- ١٠٨٦ - ما جاء فى مسجد التقوى
- ■ الحديث الأول: عن ثابت بن الضحاك رضى الله عنه قال:
- ١٠٩٦ «نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة...»
- ١٠٩٦ - مناسبة الحديث للباب
- ١٠٩٧ - مناسبة الحديث لكتاب التوحيد
- - مسألة هل ينعقد نذر المعصية، وهل تجب فيه الكفارة،
- ١١٠٣ والراجع من ذلك
- ١١٠٩ - النذر فيما لا يملك ابن آدم
- ١١١٣ - ما استفاد من الحديث

١١١٤	■ المسائل	
١١١٧	■ ■ باب: من الشرهك النذر لخير الله	١١
١١١٧	- مناسبة الباب بما قبله	
١١١٧	- مناسبة الباب لكتاب التوحيد	
١١١٧	- تعريف النذر	
١١١٩	- حكم النذر لغير الله	
١١٢٠	- حكم النذر والتأذير	
١١٢١	■ الآية الأولى: وقول الله تعالى: ﴿يوفون بالنذر﴾	
١١٢١	- مناسبة الآية للباب وللتوحيد	
١١٢٣	- تفسير الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب التوحيد	
	■ الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من	
١١٢٥	نذر فإن الله يعلمه﴾	
١١٢٥	- مناسبة الآية للباب	
١١٣٠	- تفسير الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب التوحيد	
	■ الحديث الأول: وفي الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أن	
	رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه...»	
١١٣٨	الحديث	
١١٣٨	- مناسبة الحديث للباب	
١١٤٣	- فصل فى حكم الإقدام على النذر	
١١٤٤	- فصل فى أقسام النذور	
١١٤٨	- فصل شروط النذر لله	
١١٥١	- فصل من نذر شيئاً من الطاعة لا يقدر عليه	
١١٥١	- فى حكم من مات وعليه نذر	
١١٥٤	- فصل فيمن نذر جميع ماله لله، ليصرف فى سبيل الله	
١١٥٥	- فصل فيمن نذر أن يسافر إلى مسجد ليصلى فيه	
١١٥٦	■ المسائل	
١١٥٦	■ ■ باب: من الشرهك الاستعانة بخير الله	١٢

- ١١٥٦ - مناسبة الباب لما قبله
- ١١٥٦ - شرح الترجمة، ومناسبتها لكتاب التوحيد
- ١١٥٦ - تعريف الاستعاذة
- ١١٥٩ - فصل أقسام الاستعاذة
- ١١٦٢ - شبه وردود في الاستعاذة بالجن
- الآية الأولى: وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ
- ١١٦٤ يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً﴾
- ١١٦٤ - مناسبة الآية للترجمة
- ١١٦٧ - تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد
- الحديث الأول: وعن خولة بنت حكيم قالت سمعت رسول
- الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله
- التامات...» ١١٧٤
- ١١٧٤ - مناسبة الحديث للباب
- ١١٧٨ - فصل تقسيم خلق الله من حيث الخير والشر
- ١١٨٠ - فصل في أحاديث آخر في الاستعاذة بالله وصفاته
- المسائل ١١٨٤
- ■ باب: من الشبهة أن يستغيث بغير الله أو يدعو
- غيره ١١٨٦
- ١١٨٦ - مناسبة الباب لكتاب التوحيد
- ١١٨٦ - تعريف الاستغاثة
- ١١٨٨ - فصل في أنواع وأحكام الاستغاثة
- ١١٨٩ - فصل في أقسام الدعاء
- ١١٩١ - فصل في الفرق بين المستغيث والداعي
- ١١٩٢ - حكم الاستغاثة بغير الله، والدعاء، وتلبس إبليس على
- المستغيث ومن يستغيث به
- الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا
- ١١٩٧ ينفعك ولا يضرك﴾

- ١١٩٧ - مناسبة الآية للباب وللتوحيد.....
- ١٢٠٣ - تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد.....
- الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ...﴾.....
- ١٢٢٢ - مناسبة الآية للباب.....
- ١٢٢٢ - تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد.....
- ١٢٢٤ - فائدة دعوية من الآية.....
- ١٢٢٥ - الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ...﴾.....
- ١٢٣٠ - مناسبة الآية للباب.....
- ١٢٣٠ - تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد.....
- ١٢٣٢ - فوائد ومساائل من تفسير الآية.....
- ١٢٣٥ - الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَمِنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ...﴾.....
- ١٢٤١ - مناسبة الآية للباب.....
- ١٢٤١ - الإعراب.....
- ١٢٤٢ - تفسير الآية بكلام المفسرين.....
- ١٢٥٠ - مسائل متعلقة بالآية.....
- ١٢٥٢ - أقوال شراح التوحيد في الآية.....
- ١٢٥٣ - فوائد الآية.....
- الحديث الأول: قوله روى الطبراني بإسناده: «أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ...».....
- ١٢٥٤ - مناسبة الحديث للباب.....
- ١٢٥٧ - شبهات والرد عليها.....
- ١٢٦٣ - المسائل.....
- ■ باب: قول الله تعالى: ﴿أَيُّ شُرْكَائِكُمْ لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يَخْلُقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ﴾.....

- ١٢٦٨ - الثناء على الترجمة، والمراد من الباب ومناسبتة لما قبله ...
- الآية الأولى: قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا...﴾ الآية ١٢٦٩
- ١٢٦٩ - الإعراب
- ١٢٦٩ - تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد
- الآية الثانية: قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ...﴾ ١٢٧٩
- ١٢٧٩ - مناسبة الآية للباب وللتوحيد
- ١٢٧٩ - الإعراب
- ١٢٧٩ - ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد
- ١٢٨٠ - مسألة: هل يسمع الأموات السلام ويردونه على من سلم عليهم؟ ١٢٨٩
- الحديث الأول: وفي الصحيح عن أنس، قال: «شج النبي ﷺ يوم أحد وكسرت ربايعته، فقال: «كيف يلفح قوم....» ١٢٩٠
- ١٢٩٢ - مناسبة الحديث للباب، ولكتاب التوحيد
- ١٢٩٣ - شرح الحديث
- الحديث الثاني: وفيه عن ابن عمر رضى الله عنهما: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا رفع الإمام رأسه من الركوع؛» ١٣٠٢
- ١٣٠٢ - مناسبة الآية التي في الحديث للباب وللتوحيد
- ١٣٠٣ - شرح الحديث
- الحديث الثالث: وفيه عن أبي هريرة رضى الله عنه، قال: قام فينا رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الحديث ١٣٠٩
- ١٣٠٩ - مناسبة الحديث للباب وللتوحيد
- ١٣١٠ - شرح الحديث
- المسائل ١٣١٧

فهرس

المجلد الرابع

من كتاب مفنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة
	■ مسائل	١٢٦٣
١٤	■ ■ باب: قول الله تعالى: ﴿أَيُّشْرَكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ	
	يَخْلُقُونَ﴾	١٢٦٨
	- الثناء على الترجمة	١٢٦٨
	- والمراد من الباب ومناسبته لما قبله	١٢٦٨
	- الآية الأولى	١٢٦٩
	- مناسبة الآية للتوحيد	١٢٦٩
	- الإعراب	١٢٦٩
	- أقوال المفسرين	١٢٦٩
	- كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية	١٢٧٢
	- إشكال وجوابه	١٢٧٤
	- فوائد من الآية	١٢٧٨
	- الآية الثانية	١٢٧٩
	- مناسبة الآية للباب والتوحيد	١٢٧٩
	- تفسير الآية	١٢٧٩
	- أقوال المفسرين	١٢٨٠
	- لطيفة	١٢٨٠
	- أقوال شراح كتاب التوحيد	١٢٨٤
	■ الحديث الأول فى الباب (.....)	١٢٩٠
	- مناسبة الحديث للباب	١٢٩٠
	- فائدة	١٢٩١
	- مناسبة الحديث للتوحيد	١٢٩٢
	- شرح الحديث	١٢٩٢
	- لماذا سمى أحد بهذا الاسم	١٢٩٤
	- فى الآية مسائل	١٢٩٧

- الحديث الثاني: (وفيه عن ابن عمر رضى الله عنهما) ١٣٠٢
- مناسبة الآية التي في الحديث للباب ١٣٠٢
- مناسبة الآية التي في الحديث للتوحيد ١٣٠٢
- الحديث الثالث: عن أبي هريرة رضى الله عنه ١٣٠٩
- مناسبة الحديث للباب ١٣٠٩
- مناسبة الحديث للتوحيد ١٣٠٩
- شرح الحديث ١٣١٠
- * إشكال في التسمي بـ (عبد المطلب) ١٣١٤
- فائدة ١٣١٥
- مسائل الباب ١٣١٧
- باب: قول الله تعالى: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا
- ماذا قال ربكم...﴾ الآية ١٣٢٣
- علاقة الباب بما قبله وما بعده ١٣٢٣
- ماذا أراد المصنف بهذا الباب، ومناسبته لكتاب التوحيد ١٣٢٤
- الآية الأولى: قول تعالى: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم
- قالوا...﴾ ١٣٢٥
- مناسبة الآية للباب وللتوحيد ١٣٢٥
- تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد ١٣٢٦
- فائدة في الرد من قال بخلق القرآن ١٣٣٣
- فوائد الآية ١٣٣٤
- الحديث الأول: وفي الصحيح عن أبي هريرة رضى
- الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «إذا قضى الله الأمر
- في السماء...» ١٣٣٦
- مناسبة الحديث للباب وللتوحيد ١٣٣٧، ١٣٣٦
- فوائد من الحديث ١٣٤٣
- أنواع الكهانة ١٣٤٥
- مسألة: كيف يتوصل الجنى إلى اختطاف الكلمة واستراق
- السمع؟ ١٣٤٨

- ١٣٤٨ - شرح الحديث
- ١٣٤٨ - فوائد الحديث
- الحديث الثاني: وعن النواس بن سمعان رضى الله عنه
قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أراد الله تعالى أن يوحى
بالأمر...» ١٣٤٩
- ١٣٥٠ - مناسبة الحديث للباب وللتوحيد
- - شرح الحديث
- ١٣٥٢ - مسألة: كيف يمكن أن يصعق الملائكة ويخروا سجداً؟.....
- ١٣٥٥ - من فوائد الحديث
- ١٣٥٧ ■ المسائل
- ١٣٦٣ ■ ■ باب: الشفاعة ١٦
- ١٣٦٦ - مناسبة الباب لما قبله وماذا أراد المصنف بهذا الباب
- ١٣٧١ - شبه الشفاعة والجواب عليها
- ١٣٧٢ - مدخل للباب
- ١٣٧٧ - تعريف الشفاعة
- الآية الأولى: في الباب «وأُنذِر به الذين يخافون أن
يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع» الآية ١٣٧٨
- ١٣٧٨ - مناسبة الآية للباب
- ١٣٧٩ - مناسبة الآية للتوحيد
- ١٣٧٩ - إعراب الآية
- ١٣٧٩ - ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين
- ١٣٧٩ - سبب نزول الآية
- ١٣٨٥ - ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد للآية
- الآية الثانية: في الباب «قل لله الشفاعة جميعاً» الآية ١٣٨٧
- ١٣٨٧ - مناسبة الآية للباب
- ١٣٨٧ - مناسبة الآية للتوحيد
- ١٣٨٧ - إعراب الآية
- ١٣٨٨ - ما جاء في كلام المفسرين في تفسيرها
- ١٣٩٠ - ما جاء من كلام الشراح لكتاب التوحيد في الآية

- ١٣٩٢ - أقسام الشفاعة
- ١٣٩٢ أ - شفاعة الخالق للمخلوق
- ١٣٩٣ ب - مواطن شفاعة الله
- ١٣٩٥ ج - شفاعة كلام رب العالمين
- ١٣٩٦ - أنواع شفاعة المخلوقين للمخلوقين بإذن رب العالمين
- ١٣٩٦ - شفاعة الملائكة
- ١٣٩٦ - شفاعة النبيين
- ١٣٩٦ - شفاعة النبي ﷺ وهى قسمان:
- - القسم الأول: شفاعة فى الدنيا فيما يقدر عليه قدرأ
- ١٣٩٦ وشرعاً
- ١٣٩٧ - مواطن شفاعة الرسول ﷺ
- ١٣٩٨ - القسم الثانى: شفاعة النبى ﷺ فى الآخرة وهى أنواع:.....
- ١٣٩٩ - الشفاعة الكبرى
- ١٤٠٥ - شفاعته ﷺ لأهل الجنة فى دخولها
- - شفاعته ﷺ لقوم من العصاة من أمته قد
- ١٤٠٥ استوجبوا النار
- - شفاعته ﷺ فى العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون
- ١٤٠٦ النار بذنوبهم
- - شفاعته ﷺ لقوم من أهل الجنة فى زيادة ثوابهم ورفعته
- ١٤٠٦ درجاتهم
- ١٤٠٦ - شفاعته ﷺ لأهل الكبائر
- - شفاعته ﷺ فى بعض أهله الكفار من أهل النار حتى
- ١٤٠٧ يخفف عذابه
- ١٤٠٨ - أسباب شفاعة الرسول ﷺ
- ١٤٠٨ (أ) الدعاء له بالمقام المحمود بعد الأذان
- ١٤٠٨ (ب) الصلاة عليه ﷺ ثم طلب الوسيلة له بعد الأذان
- ١٤٠٨ (ج) سكنتى المدينة والموت فيها
- ١٤٠٩ (د) كثرة السجود

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الباب
١٤٠٩	- عدم ثبوت الشفاعة لزائر قبر الرسول ﷺ	
١٤١٠	- شفاعة المؤمنين وهى نوعان:-	
	- فى الدنيا فيما يقدر عليه المخلوق قدراً وشرعاً وهو الدعاء	
١٤١٠	للأموات والأحياء	
١٤١١	- شفاعة فى الآخرة فيما يأذن لهم الله عزوجل فيه	
١٤١٢	■ شفاعة المؤمنين الشهداء	
	■ الآية الثالثة: فى الباب ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه﴾	
١٤١٣	الآية	
١٤١٣	- مناسبة الآية للباب	
١٤١٣	- مناسبة الآية للتوحيد	
١٤١٣	- إعراب الآية	
١٤١٤	- ما جاء من كلام المفسرين فى الآية	
١٤١٥	- ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد	
١٤١٥	- إشكال وجوابه	
	■ الآية الرابعة: ﴿وكم من ملك فى السوات لا تغنى شفاعتهم	
١٤١٦	شيئاً...﴾ الآية	
١٤١٦	- مناسبة الآية للباب	
١٤١٦	- مناسبة الآية للتوحيد	
١٤١٦	- إعراب الآية	
١٤١٦	- ما جاء فى الآية من كلام المفسرين	
١٤٢٢	- ما جاء من كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية	
١٤٢٣	- موانع الشفاعة	
١٤٢٣	(أ) عدم الرضى عن الشافع	
١٤٢٤	(ب) عدم الإذن له	
١٤٢٤	- موانع الشفاعة العامة	
١٤٢٤	(أ) التكذيب بالشفاعة	
١٢١٤	(ب) عدم الإذن	
١٤٢٤	- الموانع الخاصة للشفاعة	
١٤٢٤	(أ) ترك الأسباب الخاصة للشفاعة الخاصة	

■ الآية الخامسة: في الباب ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون

- الله... الآية ١٤٢٤
- مناسبة الآية للباب ١٤٢٤
- مناسبة الآية للتوحيد ١٤٢٤
- إعراب الآية ١٤٢٤
- ما جاء من كلام المفسرين للآية ١٤٢٦
- كلام شيخ الإسلام في الباب وحديث أبي هريرة من أسعد
- الناس بشفاعتك ١٤٢٩
- الحكمة من الشفاعة ١٤٣٦
- مسائل الباب ١٤٣٨
- باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مِنْ أَحْبَبْتَ...﴾ ١٤٤٠ ١٧
- مناسبة الباب لما قبله، وماذا أراد المصنف بهذا الباب؟ ١٤٤٠
- مناسبة الآية للباب وللتوحيد ١٤٤١
- الإعراب ١٤٤١
- ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب
- التوحيد ١٤٤٢
- مسألة: كيف يحب النبي ﷺ عمه وهو كافر؟ ١٤٤٢
- فصل: مراتب الهداية ١٤٤٤
- الحديث الأول: وفي الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه،
- قال: «لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ...» ١٤٥٢
- مناسبة الحديث للباب وللتوحيد ١٤٥٣
- الإشكالات الواردة في الحديث والرد عليها ١٤٦٤
- المسائل ١٤٦٦
- باب: ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم
- دينهم هو الخلو في الصالحين ١٤٧٥ ١٨
- مناسبة هذا الباب لما قبله ١٤٧٥
- شرح الترجمة، وماذا أراد المصنف بهذا الباب ١٤٧٥
- اعلم أن الحقوق ثلاثة ١٤٧٧

- الآية الأولى: وقول الله - عز وجل - ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم...﴾ ١٤٨١
- مناسبة الآية للباب وللتوحيد ١٤٨١
- الإعراب ١٤٨١
- ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب التوحيد ١٤٨٣
- الحديث الأول: وفي الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله تعالى: ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم...﴾
- قال: «هذه أسماء رجال صالحين...» ١٥٠٥
- مناسبة الآية للباب وللتوحيد ١٥٠٥
- الحديث الثانى: قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو فإنما هلك من كان...» ١٥١٣
- أقسام الناس فى العبادة ١٥١٧
- الحديث الثالث: ولمسلم عن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون...» ١٥١٩
- المسائل ١٥٢١
- باب: ما جاء فى التخليط فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟ ١٥٣٣
- مناسبة هذا الباب للذى قبله، وللتوحيد ١٥٣٣
- شرح الترجمة ١٥٣٤
- الحديث الأول: وفى الصحيح عن عائشة، أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات...» ١٥٣٦
- مناسبة الحديث للباب وللتوحيد ١٥٣٧
- شرح الحديث ١٥٣٧
- الحديث الثانى: ولهما عنها، قالت: «لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة...» ١٥٤٥
- إشكالات والرد عليها ١٥٤٨
- معنى اتخاذ القبور مساجد ١٥٤٩

- ١٥٤٩ - أقوال العلماء فى معنى الاتخاذ المذكور
- - ترجيح شمول الأحاديث للمعانى كلها وقول الشافعى
- ١٥٥١ بذلك
- ١٥٥٢ - حكم اتخاذ القبور مساجد، وبيان أن ذلك من الكبائر
- ١٥٥٧ - شبه وردود
- ١٥٥٧ - شبه: دخول قبر الرسول ﷺ داخل المسجد
- الحديث الثالث: ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال:
«سمعت النبى ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول «إنى
أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليلاً...» ١٥٧٦
- - الفرق بين الخلّة والمحبة ١٥٧٧
- - قوله ﷺ فى الحديث «ألا فلا تتخذوا القبور مساجد» ١٥٨٤
- - حكم الصلاة فى المساجد المبنية على القبور ١٥٨٧
- - علاقة أول الحديث بآخره ١٥٩٦
- الحديث الرابع: ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضى
الله عنه، إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم
أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد ١٥٩٨
- - الجمع بين حديثى «لاتقوم الساعة إلا على شرار
الناس»، و«لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق» ١٥٩٩
- - المفاسد المترتبة على بناء المساجد على القبور ١٦٠٢
- ■ المسائل ١٦٠٥

فهرس

المجلد الخامس

من كتاب مفنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة
٢٠	■ باب: ما جاء فى الغلو قبور الرجالين يصيرها أوثاناً	
	- مناسبة الباب لما قبله	١٦١٥
	- مناسبة الباب للتوحيد	١٦١٧
	- شرح الترجمة	١٦١٧
	■ الحديث الأول: روى مالك فى الموطأ أن رسول الله ﷺ	
	قال: «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد»	١٦١٩
	- مناسبة الحديث للباب وللتوحيد	١٦١٩
	- شرح الحديث	١٦٢٠
	- كراهية إطلاق اسم الزيارة حتى على الزيارة الشرعية	١٦٢٧
	- سؤال: عمن يشد الرحال إلى المزارات فى مكة والمدينة ..	١٦٣٠
	■ الأثر الأول وابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن	١٦٣١
	مجاهد «أفرايتم اللات والعزى» قال: كان يلت لهم	
	السويق	١٦٣١
	- مناسبة الأثر للباب وللتوحيد	١٦٣٢
	- شرح الأثر	
	■ الحديث الثانى: عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «لعن	
	رسول الله ﷺ زائرات القبور...»	١٦٣٩
	- مناسبة الحديث للباب ومراد المصنف	١٦٤٠
	- حكم زيارة القبور للنساء	١٦٤٢
	- فصل فى الرد على من منع النساء من زيارة القبور مطلقاً	١٦٥١
	■ المسائل	١٦٦٠
٢١	■ باب: ما جاء فى حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد	
	وسجده كل طريق	١٦٦٢
	- مناسبة هذا الباب لما قبله من الأبواب	١٦٦٢
	- مناسبة الباب لكتاب التوحيد	١٦٦٣

- شرح الترجمة والتبويب ١٦٦٣
- الآية الأولى: وقول الله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم...﴾ ١٦٦٧
- مناسبة الآية للباب وللتوحيد ١٦٦٧
- فصل/ العلاقة بين السورة وختمها بهذه الآية، وعلاقة ذلك بالباب ١٦٦٨
- فائدة: لماذا قال: ﴿عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ ١٦٦٩
- ولم يصف اسمه إلى شيء من مخلوقاته سوى العرش
- ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين، وشرح كتاب التوحيد ١٦٧٠
- وفي الآية مسائل ١٦٨٧
- الحديث الأول: عن أبي هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً...» ١٦٨٧
- مناسبة الحديث للباب وللتوحيد ١٦٨٨
- الفوائد من الحديث ١٦٩٠
- شبهة، والرد عليها ١٦٩٢
- كيف تبلغه الصلاة عليه ١٦٩٦
- الحديث الثاني: وعن علي بن الحسين رضى الله عنه أنه رأى رجلاً يجرى إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ ١٦٩٧
- مناسبة الحديث للباب وللتوحيد ١٦٩٨
- المسائل ١٧٠٦
- باب: ما جاء أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان ١٧٠٨
- مناسبة الباب لما قبله ١٧٠٨
- مناسبة الباب للتوحيد ١٧٠٨
- ماذا أراد المصنف بهذا الباب ١٧٠٨
- الآية الأولى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ الآية ١٧١٠
- مناسبة الآية للباب وللتوحيد ١٧١٠
- أقوال المفسرين وشرح كتاب التوحيد في الآية ١٧١١

- فوائد الآية ١٧٢٠
- الآية الثانية: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله﴾ الآية ١٧٢٢
- مناسبة الآية للباب وللتوحيد ١٧٢٢
- أقوال المفسرين وشرح كتاب التوحيد في الآية ١٧٢٣
- الآية الثالثة: وقوله تعالى: ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم...﴾ ١٧٣٤
- مناسبة الآية للباب وللتوحيد ١٧٣٤
- أقوال المفسرين وشرح كتاب التوحيد في الآية ١٧٣٥
- شبهة وجوابها ١٧٣٧
- الحديث الأول: عن أبي سعيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «لتبعن سنن من كان قبلكم» ١٧٤٠
- ما جاء في عدم جواز يوم الجمعة للراحة من العمل ١٧٤٢
- صور من متابعة المسلمين لليهود ١٧٤٤
- فوائد من الحديث ١٧٤٨
- الحديث الثانى: ومسلم عن ثوبان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لى الأرض» ١٧٥٠
- مناسبة الحديث للباب ١٧٥٠
- شرح الحديث ١٧٥١
- اعتراض وجوابه ١٧٥٢
- ما جاء فى الأئمة المضلين ١٧٦١
- ما جاء فىمن هم الطائفة المنصورة ١٧٧٠
- الجمع بين حديثى «حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون» و«لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس» ١٧٧٢
- المسائل ١٧٧٥
- ■ باب: ما جاء فى السحر ١٧٨١
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ١٧٨١
- شرح الترجمة والتبويب ١٧٨١
- تعريف السحر لغة ١٧٨١

- ١٧٨٢ - أقسام السحر
- - هل للسحر حقيقة أم لا ، وهل هذه الحقيقة تقلب الأعيان
- ١٧٨٧ - أم هي تأثير في المزاج فقط
- ١٧٨٩ - هل يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله في كتابه؟
- ١٧٨٩ - متى كان بدأ السحر؟
- ١٧٩٠ - حكم تعلم السحر
- ١٧٩١ - حكم تعلم السحر واستعماله
- ١٧٩٢ - حكم تعلم السحر والساحر
- ١٧٩٣ - تقسيم السحر من حيث الحكم
- ■ الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق﴾
- ١٧٩٤ - مناسبة الآية للباب
- ١٧٩٤ - مناسبة الآية للتوحيد
- ١٧٩٤ - الإعراب
- - ما جاء في تفسير الآية من أقوال المفسرين وشراح كتاب التوحيد
- ١٧٩٥ -
- ١٧٩٧ ■ الآية الثانية: قوله: ﴿يؤمنون بالجبّات والطاغوت﴾
- ١٧٩٧ - مناسبة الآية للباب
- ١٧٩٨ ■ الأثر الأول: قال عمر «الجبّات السحر، والطاغوت الشيطان»
- ١٧٩٨ - شرح الأثر
- ■ الأثر الثاني: قال جابر: «الطواغيت كهان، كان ينزل عليهم الشيطان»
- ١٧٩٩ -
- ١٧٩٩ - شرح الأثر
- ■ الحديث الأول: وعن أبي هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات...»
- ١٨٠٠ - مناسبة الحديث للباب
- ١٨٠١ - مناسبة الحديث للتوحيد
- ١٨٠٢ - ذكر ما ورد في عدد الكبائر والراجح من ذلك
- ١٨٠٥ - الحكمة من الاقتصار على السبعة

- ١٨٠٦ - حد الكبيرة: واختلاف العلماء فى ذلك والترجيح
- ١٨٠٩ - الشرح
- الحديث الثانى: وعن جندب مرفوعاً: «حد الساحر ضربة
- ١٨١٨ بالسيف»
- ١٨٢٠ - هل يقتل الساحر بمجرد فعله واستعماله؟
- ١٨٢٠ - هل حكم الرجل الساحر والمرأة سواء؟
- ١٨٢٠ - هل يعفى عن الذمى إذا سحر
- ١٨٢١ - هل للساحر توبة
- الأثر الثالث: وفى صحيح البخارى عن بجالة بن عبدة،
- قال: «كتب عمر رضى الله عنه: «أن اقتلوا كل ساحر
- ١٨٢٢ وساحرة»
- ١٨٢٢ - شرح الأثر
- الأثر الرابع: وصح عن حفصة رضى الله عنها: «أنها
- أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت، وكذلك صح
- ١٨٢٤ عن جندب
- ١٨٢٤ - شرح الأثر
- المسائل
- ١٨٢٥ ■ باب: بياض شئ من أنواع السحر
- ١٨٢٨ ■ ٢٤
- ١٨٢٨ - ثناء العلماء على الترجمة
- ١٨٢٨ - ماذا أراد المؤلف بهذا الباب
- ١٨٢٨ - مناسبة الباب لما قبله
- ١٨٢٩ - مناسبة الباب لكتاب التوحيد
- ١٨٢٩ - شرح التبويب
- ١٨٢٩ - تمهيد فى الفرق بين السحر والمعجزة والكرامة
- الحديث الأول: قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا
- عوف، عن حيان بن العلاء حدثنا قطن بن قبيصة عن
- أبيه، أنه سمع النبى ﷺ قال: «إن العياقة والطرق
- ١٨٣٣ والطيرة...»
- ١٨٣٣ - مناسبة الحديث للباب

١٨٣٤	- مناسبة الحديث للتوحيد	
١٨٣٤	- شرح الحديث	
	■ الحديث الثاني: عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال	✓
١٨٤٣	رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم...»	
١٨٤٣	- مناسبة الحديث للباب	
١٨٤٣	- وجه مناسبة الحديث لترجمة المؤلف	
١٨٤٣	- مناسبة الحديث للتوحيد	
١٨٤٦	- علم النجوم ينقسم إلى قسمين	
١٨٤٧	- مسألة فى حكم صناعة التنجيم، والأجرة عليها. ؟.....	
١٨٤٩	■ الحديث الثالث: وللنساء من حديث أبى هريرة: «من	
١٨٤٩	عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر...»	
١٨٤٩	- مناسبة الحديث للباب	
١٨٤٩	- مناسبة الحديث لكتاب التوحيد	
١٨٤٩	- شرح الحديث	
	■ الحديث الرابع: قال: وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ	
١٨٥٢	قال: «ألا هل أنبئكم ما العضه؟...»	
١٨٥٢	- مناسبة الحديث للباب	
١٨٥٣	- شرح الحديث	
	■ الحديث الخامس: ولهما عن ابن عمر رضى الله عنهما أن	
١٨٥٥	رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحراً»	
١٨٥٥	- مناسبة الحديث للباب	
١٨٥٥	- شرح الحديث	
١٨٥٨	■ المسائل	
١٨٦٠	■ باب: ما جاء فى الكهان ونحوهم	
١٨٦٠	- مناسبة هذا الباب لما قبله	٢٥
١٨٦٠	- مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد	
١٨٦١	- تعريف الكهانة، والكهان، والكاهن	
	- مسألة هل من الكهانة ما يخبر به الآن من أحوال	
١٨٦٢	الطقس؟	

- الفرق بين العراف والكاهن والمنجم والرمال ١٨٦٣
- أنواع الكهانة وحكمها ١٨٦٤
- ما جاء فى ذم الكهانة غير ما ذكر المصنف فى الباب ١٨٦٤
- الفرق بين ما تقدم وبين الدجال ١٨٦٦
- الفارق بين الفراسة والكهانة ١٨٦٦
- أسباب انتشار الكهانة والسحر ١٨٦٩
- الحديث الأول: روى مسلم فى «صحيحه» عن بعض أزواج
النبي ﷺ قال: «من أتى عرافاً...» ١٨٧٠
- مناسبة الحديث للباب ١٨٧٠
- مناسبة الحديث للتوحيد ١٨٧٠
- شرح الحديث ١٨٧٠
- مسألة لماذا خص الصلاة دون باقى العبادات؟ ١٨٧٧
- الحديث الثانى: وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى
ﷺ قال: «من أتى كاهناً فصدقه...» ١٨٧٧
- مناسبة الحديث للباب ١٨٧٨
- مناسبة الحديث للتوحيد ١٨٧٨
- شرح الحديث ١٨٧٨
- الأثر الأول: وللأربعة والحاكم - وقال: «صحيح علي
شرطهما» عن أبى هريرة: «من أتى عرافاً...» ١٨٨١
- شرح الأثر ١٨٨٢
- الأثر الثانى: ولأبى يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله
موقوفاً ١٨٨٤
- شرح الأثر ١٨٨٤
- الحديث الثالث: وعن عمران بن حصين مرفوعاً «ليس منا
من تطير أو تطير له...» ١٨٨٥
- مناسبة الحديث للباب ١٨٨٥
- مناسبة الحديث للتوحيد ١٨٨٥
- شرح الحديث ١٨٨٦

- قال البغوى العراف: الذى يدعى معرفة الأمور
بمقدمات... ١٨٨٨
- الأثر الثالث: وقال ابن عباس فى قوم يكتبون (أبا جاد)
وينظرون فى النجوم: ما أرى من فعل ذلك له عند الله
من خلاق... ١٨٩٤
- فصل ما جاء فى أجر الكاهن والرمال والعراف والمتنجم
والضارب بالحصى... ١٨٩٨
- المسائل... ١٨٩٨
- باب: ما جاء فى النشرة ٢٦ ١٩٠٠
- مناسبة هذا الباب لما قبله... ١٩٠٠
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد... ١٩٠٠
- شرح الترجمة والتبويب... ١٩٠١
- تعريف النشرة... ١٩٠١
- الحديث الأول: عن جابر ، أن رسول الله ﷺ سئل عن
النشرة ، فقال: (هي من عمل الشيطان)
١٩٠٢
- مناسبة الحديث للباب... ١٩٠٣
- مناسبة الحديث للتوحيد... ١٩٠٣
- شرح الحديث... ١٩٠٣
- إشكال: إذا كان الإمام أحمد هو راوي الحديث نفسه
أن النشرة من عمل الشيطان ، فكيف لم يكن عنده
دليل؟ ١٩٠٧
- الأثر الأول: وفي «البخاري» عن قتادة: «قلت لابن المسيب
رجل به طب» ١٩٠٨
- مناسبة الأثر للباب... ١٩٠٩
- شرح الأثر... ١٩٠٩
- صفة النشرة... ١٩١٣
- الأثر الثانى: وروى عن الحسن أنه قال: «لا يحل السحر
إلا ساحر» ١٩١٥

١٩١٥	- شرح الأثر	
١٩١٦	■ قال ابن القيم: «النشرة: حل السحر عن المسحور»	
١٩١٨	- فصل في النشرة الشرعية	
١٩١٩	- التحصن والحماية من السحر	
١٩٢٠	- علاج السحر بالدعاء والقرآن والأذكار	
١٩٢١	(١) علاج السحر بالدعاء	
١٩٢٢	(٢) علاج السحر بقراءة سورة الفاتحة	
١٩٢٢	(٣) علاج السحر بآخر آيتين من سورة البقرة	
١٩٢٢	(٤) علاج السحر بالرقية	
١٩٢٥	(٥) علاج السحر بالمعوذتين	
١٩٢٦	(٦) قراءة البقرة والفاتحة، والمعوذتين والإخلاص	
١٩٢٧	(٧) علاج السحر باستخراجه	
١٩٢٨	(٨) علاج السحر باستفراغه من المكان الذي وصل إليه	
١٩٢٩	(٩) الدواء بالعجوة للسحر	
١٩٣٢	(١٠) علاج السحر بالعسل الأبيض	
١٩٣٣	(١١) العلاج بالحبة السوداء	
١٩٣٤	(١٢) الانغماس في الفران أو النيل	
١٩٣٤	■ المسائل	
١٩٣٦	■ ■ باب: ما جاء في التطير	٢٧
١٩٣٦	- تمهيد	
١٩٣٧	- مناسبة الباب لما قبله	
١٩٣٧	- مناسبة الباب للتوحيد	
١٩٣٨	- شرح الترجمة (ما جاء في الطيرة)	
١٩٤٠	- الترهيب من الطيرة وطرق علاجها	
١٩٤٤	- حكاية التطير غالباً عن أعداء الرسل	
١٩٤٩	- التطير من الأمراض النفسية	
١٩٥٠	- فصل ما جاء في الفرق بين الطيرة والفأل	
١٩٥٢	- من فرق بين الطيرة والتشاؤم	

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الباب
١٩٥٣	■ الآية الأولى وقول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾	
١٩٥٣	- مناسبة الآية للباب	
١٩٥٣	- مناسبة الآية للتوحيد	
١٩٥٤	- الإعراب	
	- ما جاء في الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب	
١٩٥٥	التوحيد	
١٩٦٣	■ الآية الثانية: قوله تعالى ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾	
١٩٦٣	- مناسبة الآية للباب وللتوحيد	
١٩٦٣	- الإعراب	
	- ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب	
١٩٦٣	التوحيد	
	■ الحديث الأول: عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول	
١٩٧١	الله ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»	
١٩٧١	- مناسبة الحديث للباب	
١٩٧١	- مناسبة الحديث للتوحيد	
١٩٧٢	- شرح الحديث	
	- مسألة: مسالك أهل العلم في الجمع بين حديثي «لا	
١٩٧٢	عدوى» وحديث «فر من المجذوم»	
١٩٨١	- خلاصة القول في المسألة	
١٩٨١	- فائدة من حديث «فر من المجذوم»	
١٩٨٢	- تعريف الطيرة	
١٩٨٣	- باب ما يذكر من شؤم الفرس	
	■ الحديث الثاني: ولهما عن أنس، قال: قال رسول الله	
١٩٩٥	ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة»	
١٩٩٥	- مناسبة الحديث للباب	
١٩٩٦	- مناسبة الحديث للتوحيد	
١٩٩٦	- شرح الحديث	
	■ الحديث الثالث: عن عقبة بن عامر قال ذكرت الطيرة عند	
٢٠٠٠	النبي ﷺ	

■ الأثر الأول: وعن ابن مسعود مرفوعاً «الطيرة شرك، الطيرة	
شرك»	٢٠٠٥
- مناسبة الأثر الأول للباب وللتوحيد	٢٠٠٥
- شرح الأثر الأول	٢٠٠٥
■ الأثر الثاني: ولأحمد من حديث ابن عمرو: «من ردته	
الطيرة عن حاجته، فقد أشرك»	٢٠٠٨
- مناسبة الأثر الثالث للباب وللتوحيد	٢٠٠٨
- شرح الأثر	٢٠٠٨
- ما يستفاد من الأثر	٢٠١٠
■ الأثر الثاني: قوله: من حديث الفضل بن العباس:	
«إنما الطيرة ما أمضاك أوردك»	٢٠١١
- شرح الأثر	٢٠١١
■ المسائل	٢٠١٣

فهرس

المجلد السادس

من كتاب مفنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الباب
٢٠١٥	■ ■ باب: ما جاء فى التنجيم	٢٨
٢٠١٥	- مناسبة هذا الباب لما قبله	
٢٠١٥	- مناسبة الباب لكتاب التوحيد	
٢٠١٥	- شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بها	
٢٠١٦	- أقسام التنجيم ، وحكم كل قسم	
٢٠٢٠	- حكم من يعتقد أن النجوم مؤثرة فى سعيه ونحسه	
٢٠٢٣	- علم النجوم قسمين :	
	■ الأثر الأول: قال البخارى فى «صحيحه»: قال قتادة: خلق	
٢٠٢٥	الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء	
٢٠٢٦	- مناسبة الأثر للباب	
٢٠٢٦	- مناسبة الأثر للتوحيد	
٢٠٢٦	- شرح الأثر	
٢٠٣٦	■ الأثر الثانى: قال: وكره قتادة تعلم منازل القمر	
٢٠٣٦	- مناسبة الأثر للباب	
٢٠٣٧	- شرح الأثر	
	■ الحديث الأول: وعن أبى موسى، قال: قال رسول	
	الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر ، وقاطع	
٢٠٣٩	الرحم، ومصديق بالسحر»	
٢٠٣٩	- مناسبة الحديث للباب	
٢٠٣٩	- مناسبة الحديث للتوحيد	
٢٠٤٠	- شرح الحديث	
٢٠٤٤	■ المسائل	
٢٠٤٥	■ ■ باب: ما جاء فى الاستسقاء بالأنواء	٢٩
٢٠٤٥	- مناسبة الباب لما قبله	
٢٠٤٥	- مناسبة الباب للتوحيد	

- شرح الترجمة والتبويب، وماذا أراد المصنف بهذا الباب ٢٠٤٥
- حكم الاستسقاء بالأنواء ٢٠٤٦
- الآية الأولى: قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ ٢٠٤٧
- مناسبة الآية للباب ٢٠٤٧
- مناسبة الآية للتوحيد ٢٠٤٧
- الإعراب ٢٠٤٨
- سبب نزول الآية ٢٠٤٨
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب التوحيد ٢٠٥١
- الحديث الأول: عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «أربع فى أمتى من أمر الجاهلية» ٢٠٥٣
- مناسبة الحديث للباب ٢٠٥٣
- مناسبة الحديث للتوحيد ٢٠٥٤
- شرح الحديث ٢٠٥٤
- الحديث الثانى: ولهما عن زيد بن خالد - رضى الله عنه - قال: «صلى لنا رسول الله ﷺ الصبح بالحديبية...» ٢٠٦٣
- مناسبة الحديث للباب ٢٠٦٣
- مناسبة الحديث للتوحيد ٢٠٦٣
- شرح الحديث ٢٠٦٤
- فوائد الحديث ٢٠٧٦
- الأثر الأول: ولهما من حديث ابن عباس معناه، وفيه: «قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ٢٠٧٧
- ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ ٢٠٧٧
- مناسبة الآية للباب ٢٠٧٧
- مناسبة الآية للتوحيد ٢٠٧٧
- كلام شراح كتاب التوحيد فى الآية ٢٠٧٨
- المستفاد من الآية ٢٠٨٧، ٢٠٨٦
- المسائل ٢٠٨٩

٣. ■ باب: قول الله تعالى ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله

- أنداداً﴾ ٢٠٩٢
- مناسبة هذا الباب لما قبله ٢٠٩٢
- ماذا أراد المصنف بهذا الباب ٢٠٩٢
- مناسبة الباب للتوحيد ٢٠٩٣
- إخلاص المحبة أصل التوحيد ٢٠٩٣
- قدر منزلة المحبة ٢٠٩٤
- أقسام المحبة وحكم كل قسم ٢٠٩٥
- أقسام الناس من حيث المحبة والإرادة ٢٠٩٩
- الآية الأولى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً﴾ .. ٢٠٩٩
- مناسبة الآية للباب وللتوحيد ٢٠٩٩
- الإعراب ٢٠٩٩
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح التوحيد ٢١٠٨-٢١٠١
- إشكال وجوابه ٢١٠٣
- فائدة فى معنى الشوق ودرجاته والفرق بينه وبين المحبة .. ٢١٠٩
- الآية الثانية: قوله: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم﴾ ٢١١٠
- مناسبة الآية للباب ٢١١٠
- مناسبة الآية للتوحيد ٢١١٠
- سبب النزول ٢١١٠
- الإعراب ٢١١١
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد ٢١١٨-٢١١٢
- فوائد جلية ٢١١٧
- الأسباب الجالبة لمحبة الله ٢١٢٠
- الحديث الأول: عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه» ٢١٢٢
- مناسبة الحديث للباب ٢١٢٢
- مناسبة الحديث للتوحيد ٢١٢٢

- شرح الحديث ٢١٢٢
- من فوائد الحديث ٢١٢٦
- ما يستفاد من الحديث ٢١٢٧
- الحديث الثاني: ولهما عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ:
- «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان» ٢١٢٩
- مناسبة الحديث للباب ٢١٣٠
- مناسبة الحديث للتوحيد ٢١٣٠
- شرح الحديث ٢١٣٠
- معنى حلاوة الإيمان ٢١٣١
- فائدة ٢١٣٣
- إشكال وجوابه ٢١٣٤
- فوائد الحديث ٢١٣٩
- الأثر الأول: وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «من أحب في الله وأبغض في الله» ٢١٤٠
- مناسبة هذا الأثر للباب وللتوحيد ٢١٤٠
- شرح الأثر ٢١٤٠
- فوائد الأثر ٢١٤٦
- الأثر الثاني: وقال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ قال المودة ٢١٤٧
- مناسبة تفسير ابن عباس للباب وللتوحيد ٢١٤٧
- شرح الأثر ٢١٤٨
- المسائل ٢١٤٩
- ■ باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ
- أولياءه﴾ ٢١٥٣
- مناسبة الباب لما قبله ٢١٥٣
- مناسبة الباب للتوحيد ٢١٥٣
- ماذا أراد المصنف بهذا الباب ٢١٥٣
- بيان منزلة الخوف وأنه من أعظم مقامات الدين ٢١٥٤
- أقسام الخوف ودرجاته ٢١٥٥

- ٢١٦١ - مناسبة الآية للباب
- ٢١٦١ - مناسبة الآية للتوحيد
- ٢١٦١ - الإعراب
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح التوحيد ٢١٦٣-٢١٦٥
- الآية الثانية: وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ﴾ ٢١٦٩
- ٢١٦٩ - مناسبة الآية للباب
- ٢١٦٩ - الإعراب
- ٢١٧٠ - سبب النزول
- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين وشارك كتاب التوحيد ٢١٧١-٢١٧٣
- الآية الثالثة: وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ ٢١٧٨
- ٢١٧٨ - مناسبة الآية للباب
- ٢١٧٨ - مناسبة الآية للتوحيد
- ٢١٧٨ - الإعراب
- ٢١٧٨ - سبب نزولها
- ما جاء فى الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد ٢١٨١-٢١٨٦
- الحديث الأول: عن أبى سعيد رضى الله عنه مرفوعاً: «إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله» ٢١٨٩
- ٢١٨٩ - مناسبة الحديث للباب
- ٢١٨٩ - مناسبة الحديث للتوحيد
- ٢١٨٩ - شرح الحديث
- الحديث الثانى: عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضى الله بسخط الناس» ٢١٩٤
- ٢١٩٤ - مناسبة الحديث للباب
- ٢١٩٥ - مناسبة الحديث للتوحيد
- ٢١٩٥ - شرح الحديث

- ٢١٩٧ - ما يستفاد من الحديث
- ٢١٩٨ ■ المسائل
- ٣٢ ■ ■ باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ
- ٢٢٠١ مؤمنين﴾
- ٢٢٠١ - تمهيد
- ٢٢٠١ - مناسبة هذا الباب لما قبله
- ٢٢٠٢ - ماذا أراد المصنف بهذا الباب
- ٢٢٠٢ - مناسبة الباب لكتاب التوحيد
- ٢٢٠٢ - مناسبة الآية لكتاب التوحيد
- ٢٢٠٣ - معنى التوكل لغة
- ٢٢٠٣ - حقيقة التوكل اصطلاحًا
- ٢٢٠٥ - درجات التوكل
- ٢٢٠٨ - التوكل أصل لجميع مقامات الإسلام والإيمان والإحسان
- ٢٢٠٩ - التوكل من أعم المقامات تعلقًا بالأسماء بالحسنى
- ٢٢٠٩ - التوكل من أعظم واجبات التوحيد والإيمان
- ٢٢١٠ - دعاوى تشبه بالتوكل والرد عليها
- ٢٢١١ - أقسام التوكل على غير الله
- - ضوابط الأسباب المشروعة والممنوعة وعلاقة ذلك
- ٢٢١٧ بالتوكل
- الآية الأولى: قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ
- ٢٢١٨ مؤمنين﴾
- ٢٢١٨ - الإعراب
- ٢٢١٨ - ما جاء فى تفسير الآية من أقوال المفسرين
- الآية الثانية: قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ
- ٢٢٢٠ الله وجلت﴾
- ٢٢٢٠ - مناسبة الآية للباب
- ٢٢٢٠ - مناسبة الآية للتوحيد
- ٢٢٢٠ - الإعراب
- ٢٢٢٣ - ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين

٢٢٢٦	■ الآية الثالثة: قوله ﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾	
٢٢٢٦	- مناسبة الآية للباب	
٢٢٢٦	- مناسبة الآية للتوحيد	
٢٢٢٦	- الإعراب	
٢٢٢٦	- الفوائد	
٢٢٣٤-٢٢٢٩	- تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد	
٢٢٣٥	■ الآية الرابعة: قوله ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾	
٢٢٣٥	- مناسبة الآية للباب	
٢٢٣٥	- مناسبة الآية للتوحيد	
٢٢٣٥	- الإعراب	
	- ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد	
٢٢٣٨-٢٢٣٦	التوحيد	
	■ الأثر الأول: وعن ابن عباس قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام	
٢٢٣٩	- فائدة في التوكل	
٢٢٤٠	- شرح الأثر	
٢٢٤٤	■ المسائل	
٢٢٤٧	■ باب: قول الله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾	٣٣
٢٢٤٧	- مناسبة الباب لما قبله	
٢٢٤٧	- ماذا أراد المصنف بهذا الباب، ومناسبته لكتاب التوحيد	
٢٢٥٠	- أسباب القنوط من رحمة الله	
٢٢٥٠	- أسباب الأمن من مكر الله	
٢٢٥١	- تعريف المكر	
٢٢٥٢	الآية الأولى: قوله ﴿أفأمنوا مكر الله﴾	
٢٢٥٢	- مناسبة الآية للباب	
٢٢٥٢	- مناسبة الآية للتوحيد	
٢٢٥٢	- الإعراب	
	- ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد	
٢٢٥٥-٢٢٥٣	التوحيد	

- ما يستفاد من الآية ٢٢٥٧
- الآية الثانية: قوله: ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ ٢٢٥٧
- مناسبة الآية للباب ٢٢٥٧
- مناسبة الآية للتوحيد ٢٢٥٨
- ما جاء في تفسير الآية من وجوه القرآن ٢٢٥٨
- الإعراب ٢٢٥٨
- ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب التوحيد ٢٢٦١-٢٢٥٩
- الحديث الأول: وعن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله» ٢٢٦٢
- مناسبة الحديث للباب ٢٢٦٢
- مناسبة الحديث للتوحيد ٢٢٦٢
- اختلف العلماء هل هي معدودة أو محدودة؟ ٢٢٦٣
- شرح الحديث ٢٢٦٣-٢٢٦٥
- الأثر الأول: وعن ابن مسعود قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله» ٢٢٦٥
- مناسبة الأثر للباب ٢٢٦٥
- مناسبة الأثر للتوحيد ٢٢٦٥
- شرح الأثر ٢٢٦٥
- المسائل ٢٢٦٧
- ■ باب: من الإيمان بالله الصبر على إقدار الله ٢٢٦٨ ٣٤
- مناسبة هذا الباب لما قبله ٢٢٦٨
- مناسبة الباب للتوحيد ٢٢٦٨
- ماذا أراد المصنف بهذا الباب ٢٢٦٨
- شرح التبويب ٢٢٦٩
- تعريف الصبر ٢٢٦٩
- أنواعه ٢٢٦٩
- منزلة الصبر ٢٢٧٠
- الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ ٢٢٧٢

٢٢٧٢	- مناسبة الآية للباب
٢٢٧٢	- الإعراب
		- ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب
٢٢٧٦، ٢٢٧٥، ٢٢٧٤، ٢٢٧٣، ٢٢٧٢	التوحيد
		■ الأثر الأول: قال علقمة «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم
٢٢٧٧	أنها من عند الله»
٢٢٧٧	- مناسبة الأثر للباب
٢٢٧٧	- شرح الأثر
		■ الحديث الأول: وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن
٢٢٧٨	رسول الله ﷺ قال: «اثنان فى الناس هما بهما كفر»
٢٢٧٨	- مناسبة الحديث للباب
٢٢٧٨	- شرح الحديث
٢٢٨٠	- الناس حال المصيبة على مراتب أربع
		■ الحديث الثانى: ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً: «ليس منا
٢٢٨١	من ضرب الخدود»
٢٢٨١	- مناسبة الحديث للباب
٢٢٨٤، ٢٢٨٣، ٢٢٨٢، ٢٢٨١	- شرح الحديث
		■ الحديث الثالث: عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا
٢٢٨٥	أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا»
٢٢٨٦	- مناسبة الحديث للباب
٢٢٩٢، ٢٢٩١، ٢٢٩٠، ٢٢٨٩، ٢٢٨٧، ٢٢٨٦	- شرح الحديث
		■ الحديث الرابع: وقال النبى ﷺ «إن عظم الجزاء مع عظم
٢٢٩٤، ٢٢٩٣، ٢٢٩٢	البلاء»
٢٢٩٥	- مناسبة الحديث للباب
٢٢٩٥	- شرح الحديث
٢٢٩٥	- ما الفرق بين الرضا والصبر؟
٢٢٩٦	- ما يستفاد من الحديث
٢٢٩٨، ٢٢٩٧	■ المسائل

٢٢٩٩	باب: ما جاء في الرياء	٣٥
٢٢٩٩	- مناسبة الباب لما قبله	
٢٢٩٩	- مناسبة الباب للتوحيد	
٢٢٩٩	- شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب	
٢٣٠٠	- تعريف الرياء	
٢٣٠٠	- حكم الرياء والعمل المخالط له	
٢٣٠٣	- الفرق بين الرياء والسمعة	
٢٣٠٨, ٢٣٠٧, ٢٣٠٦, ٢٣٠٥, ٢٣٠٤	- فصل ما جاء في ذم الرياء والترهيب منه	
٢٣٠٩	■ الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾	
٢٣٠٩	- مناسبة الآية للباب وللتوحيد	
٢٣٠٩	- الإعراب	
	- ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب	
٢٣١٠, ٢٣٠٩	التوحيد	
٢٣١٢	- فوائد من الآية	
٢٣١٣	- تعريف الوحي	
	■ الحديث الأول: عن أبي هريرة - رضى الله عنه - مرفوعاً:	
٢٣٢١	قال الله تعالى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ»	
٢٣٢١	- مناسبة الحديث للباب	
٢٣٢١	- مناسبة الحديث للباب وللتوحيد	
٢٣٢٦	- المستفاد من الحديث	
	■ الحديث الثاني: عن أبي سعيد مرفوعاً: «أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِمَا	
٢٣٢٧	هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟»	
٢٣٢٧	- مناسبة الحديث للباب وللتوحيد	
٢٣٣٠, ٢٣٢٩, ٢٣٢٨, ٢٣٢٧	- شرح الحديث	
٢٣٣٢	- ما يستفاد من الحديث	
٢٣٣٢	■ المسائل	
٢٣٣٥	■ باب: من الشره إرادة الإنسان بعمله الدنيا	٣٦
	- الفرق بين هذه الترجمة والتي قبلها، ومناسبتها للباب	
٢٣٣٥	السابق	

- مناسبة الباب للتوحيد ٢٣٣٦
- ماذا أراد المصنف بهذه الترجمة ٢٣٣٦
- شرح الترجمة ٢٣٣٦
- الفرق بين الرياء والعبادة والتشريك فيها ٢٣٣٨
- أمثلة تبين كيفية إرادة الإنسان بعمله الدنيا ٢٣٣٩
- مسألة: هل يدخل فيه من يتعلمون فى الكليات أو غيرها يريدون شهادة؟ ٢٣٣٩
- الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم﴾ ٢٣٤٠
- مناسبة الآيتين للباب ٢٣٤٠
- الإعراب ٢٣٤١
- سبب نزول الآية ٢٣٤١
- ماجاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد ٢٣٤٤
- مسألة/ هل المؤمن المرید بعمله الدنيا مخلد فى النار ٢٣٥٧
- قول شيخ الإسلام فى أنواع من أعمال الناس اليوم ولا يعرفون معناها ٢٣٥٨
- فوائد من الآية ٢٣٥٩
- الحديث الأول: وفى الصحيح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم ٢٣٦٠
- مناسبة الحديث للباب ٢٣٦٠
- ماذا أراد المصنف بهذا الحديث ٢٣٦٠
- شرح الحديث ٢٣٦١
- ما يستفاد من الحديث ٢٣٧١
- المسائل ٢٣٧٣
- ■ باب: من أطاع العلماء والأمراء فى تحريم ما أجل لله أو تحليل ما حرمه فقد أتخذهم أرباباً ٢٣٧٥
- يحتوى هذا الباب على المسائل الآتية:
- ترجمة الباب:

- مناسبة الباب لما قبله ولكتاب التوحيد ٢٣٧٧
- ماذا أراد المصنف بهذه الترجمة ٢٣٧٨
- مسألة/ تعارض الترجمة مع قوله تعالى ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ والجواب عليه ٢٣٧٩
- شرح الترجمة ٢٣٧٩
- السمع والطاعة للإمام ما تكن معصية ٢٣٨١
- حرمة طاعة الإمام والأمير في المعصية ٢٣٨٢
- أثر ابن عباس/ يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء: ٢٣٨٥
- مناسبة الأثر للباب وللتوحيد ٢٣٨٥
- مناسبة ورود هذا الأثر ٢٣٨٦
- شرح الأثر ٢٣٨٥
- فوائد الأثر ٢٣٨٩
- وقوف السلف عند حكم رسول الله ﷺ والرجوع عن حكمهم إن خالف ٢٣٩١
- قول الإمام أحمد/ عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأى سفيان ٢٣٩١
- شرح قول الإمام أحمد ٢٣٩١
- تفسير قوله تعالى ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ التي ذكرها الإمام أحمد في قوله ٢٣٩٣
- سبب نزول الآية ٢٣٩٤
- تفسير الآية من كلام المفسرين ٢٣٩٧
- قول شراح التوحيد في شرح الأثر في التقليد والاتباع ٢٤٠٢
- فصل في التقليد ٢٤٠٩
- تعريف التقليد لغة واصطلاحاً ٢٤٠٩
- حكم التقليد ٢٤١١
- فساد التقليد ونفيه، والفرق بين التقليد والاتباع ٢٤١٣
- الفرق بين التقليد والاتباع ٢٤١٩
- قبول قول الرسول والعمل به ليس تقليداً ٢٤٢١
- تقليد العامة للعلماء ٢٤٢٢

- ٢٤٢٣ حجج المقلدين والجواب عليها من كلام ابن القيم
- ٢٤٣٥ ■ تنبيهات مهمة تتعلق بالتقليد
- ٢٤٣٦ - بعض أسباب رد الشرع لقول الشيخ ممن يقلده
- ٢٤٣٨ - هل للمقلد عذر في الخطأ كما للمجتهد
- ٢٤٣٩ - لايجوز للمقلد أن يفتي بما أفتاه به شيخه
- ٢٤٤٣ - شبهة المقلدين، والرد عليها
- ٢٤٤٥ - الضرورة عذر في التقليد للمضطر
- ٢٤٤٧ - نحب الأئمة جميعاً، وحبنا للحق أشد
- ٢٤٤٨ - الأعداء لمخالفة رسول الله ﷺ
- ٢٤٤٨ - لا بد لمن يرى التقليد أن يفرق بين كلام إمامه وكلام ما
- ٢٤٤٨ - ألحق بعده على قواعد مذهبه
- ٢٤٤٩ - الرد على من قال بإغلاق الاجتهاد
- ٢٤٥٠ - خطورة الإعراض عن الكتاب والسنة بكتب الفروع
- ٢٤٥١ ■ حديث عدى بن حاتم أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ
- ٢٤٥١ هذه الآية ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم﴾
- ٢٤٥٢ - مناسبة الحديث للباب وللتوحيد
- ٢٤٥٢ - شرح الحديث
- ٢٤٥٧ - ما استفاد من الحديث
- ٢٤٥٧ - تقسيم من أطاع العلماء والأمراء فيما حرم الله أو
- ٢٤٥٧ العكس إلى ثلاثة أقسام
- ٢٤٥٨ - أنواع كفر الاعتقاد
- ٢٤٥٨ - النوع الأول: الكفر الحاكم الذي به يخرج عم الملة
- ٢٤٥٩ - النوع الثاني: كفر الحاكم الذي به لا يخرج عن الملة
- ٢٤٥٩ - فائدة (ومن لم يحكم بمن أنزل الله فأولئك هم
- ٢٤٥٩ الكافرون) والظالمون) والفساقون)
- ٢٤٥٩ - خلاصة القول في شبهة التسوية بين العلمانية وبين
- ٢٤٦٣ انحرافات التطبيق الجزئية
- ٢٤٦٧ - شبهة وجوبها
- ٢٤٦٩ - فتاوى أئمة المسلمين في علمانية التشريع
- ٢٤٧٨ ■ مسائل الباب

فهرس

المجلد السابع

من كتاب مفنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة
٣٨	■ باب: قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك﴾	٢٤٨١
	- مناسبة الحديث لما قبله	٢٤٨١
	- مناسبة الباب لكتاب التوحيد	٢٤٨٢
	■ الآية الأولى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا﴾	
	- مناسبة الآية للباب	٢٤٨٢
	- مناسب الآية للتوحيد	٢٤٨٣
	-- ماذا أراد المصنف بهذا الباب	٢٤٨٣
	- الإعراب	٢٤٨٤
	- علاقة الآية بالآية التى قبلها	٢٤٨٤
	- أسباب النزول	٢٤٨٤
	- خلاصة القول	٢٤٨٨
	- ما جاء فى الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب التوحيد	٢٥٣٤-٢٤٨٨
	- معنى الطاغوت	٢٤٨٩
	- علاقة الآية بما قبلها	٢٤٩٦
	- كفر من آمن ببعض الآيات وكفر ببعض	٢٤٩٩
	- ماهية المصيبة التى تصيب الكافرين	٢٥٠٦
	- القول البليغ	٢٥٠٩
	- عصمة الأنبياء	٢٥١٥
	- ثلاث فرائد فى قوله تعالى: ﴿جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾	٢٥٢٠ - ٢٥١٩
	■ الآية الثانية: قوله: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا﴾	٢٥٣٤
	- مناسبة الآية للباب	٢٥٣٤

- مناسبة الآية للتوحيد ٢٥٣٥
- الإعراب ٢٥٣٥
- علاقة الآية بالآية التي قبلها ٢٥٣٥
- ماجاء فى الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب
التوحيد ٢٥٣٦
- معنى الفساد ٢٥٣٨
- معنى الإصلاح ٢٥٤٢
- الآية الثالثة: قوله «ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها» ٢٥٤٦
- مناسبة الآية للباب ٢٥٤٦
- مناسبة الآية للتوحيد ٢٥٤٦
- الإعراب ٢٥٤٦
- ماجاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب
التوحيد ٢٥٤٧
- مسألة: الأصل فى المضار الحرمه ٢٥٤٩
- فوائد ٢٥٥١
- سؤال: هل تدل هذه الآية على أن الداعى لا بد وأن
يحصل فى قلبه الخوف والطمع ٢٥٥٣
- الآية الرابعة، قوله «أفحكم الجاهلية يبغون» ٢٥٦٠
- تنبيه ٢٥٦٠
- مناسبة الآية للباب ٢٥٦٠
- مناسبة الآية للتوحيد ٢٥٦٠
- الإعراب ٢٥٦٠
- سبب النزول ٢٥٦٠
- ماجاء فى الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب
التوحيد ٢٥٦٢
- تعريف حكم الجاهلية ٢٥٦٦
- الحديث الأول: عن أبى محمد عبد الله بن عمرو بن العاص
قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون
هوآ تبعاً لما جئت به» ٢٥٧١

- ٢٥٧٣ مناسبة الحديث للباب -
- ٢٥٧٤ مناسبة الحديث للتوحيد -
- ٢٥٧٤ شرح الحديث -
- ٢٥٧٧ كلام شراح كتاب التوحيد -
- الأثر الأول: قال الشعبي: «كان بين رجل من المنافقين
- ٢٥٧٨ ورجل من اليهود خصومة»
- ٢٥٨٠ مناسبة الأثر للباب -
- ٢٥٨٠ مناسبة الأثر للتوحيد -
- ٢٥٨٠ شرح الأثر -
- وقيل: «نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: «
- ٢٥٨٣ شرح الأثر -
- المسائل
- ٢٥٨٥ ■ ■ باب: من جحد شيئاً من الأسماء والصفات ٣٩
- ٢٥٨٧ مناسبة الباب لما قبله -
- ٢٥٨٧ مناسبة الباب للتوحيد -
- ٢٥٨٨ شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب -
- ٢٥٨٩ حكم من جحد شيئاً من الأسماء والصفات -
- ٢٥٩٠ البحث في أسماء الله -
- ٢٥٩٢ البحث في صفات الله -
- الآية الأولى: قوله «وهم يكفرون بالرحمن»
- ٢٥٩٤ مناسبة الآية للترجمة وللتوحيد -
- ٢٥٩٥ الإعراب -
- ٢٥٩٥ ما جاء في سبب نزول الآية -
- ما جاء في الآية من أقوال المفسرين وشراح كتاب
- ٢٥٩٦ التوحيد
- الأثر الأول: وفي «صحيح البخاري»: قال علي «حدثوا
- ٢٦٠٣ الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟»
- ٢٦٠٣ مناسبة الأثر للباب وللتوحيد -
- ٢٦٠٤ مناسبة هذا الأثر لباب الصفات -

- ٢٦٠٤ - شرح الأثر
- الأثر الثاني: وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس
عن أبيه عن ابن عباس: «أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع
حديثاً عن النبي ﷺ» ٢٦٠٨
- ٢٦٠٨ - مناسبة الأثر للباب وللتوحيد
- ٢٦٠٨ - شرح الأثر
- ٢٦١٧ - ذكر ما ورد عن علماء السلف في التشابه
- الأثر الثالث: ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ ذكر
الرحمة أنكروا ذلك ٢٦١٩
- ٢٦١٩ - مناسبة الأثر للباب وللتوحيد
- ٢٦٢٠ ■ المسائل
- ٢٦٢٢ ■ باب: قوله تعالى «يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها»
- ٢٦٢٢ - مناسبة الباب لما قبله
- ٢٦٢٢ - مناسبة هذا الباب للتوحيد
- ٢٦٢٣ - شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب
- ٢٦٢٣ ■ الآية الأولى: قوله «يعرفون نعمت الله»
- ٢٦٢٤ - مناسبة الآية للباب
- ٢٦٢٤ - مناسبة الآية للتوحيد
- ٢٦٢٤ - الإعراب
- ٢٦٢٤ - ماجاء في الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب
- ٢٦٢٦ التوحيد
- الأثر الأول: قال مجاهد ما معناه: «هو قول الرجل: هذا
مالي» ٢٦٢٩
- ٢٦٢٩ - مناسبة الأثر للباب
- ٢٦٢٩ - مناسبة الأثر للتوحيد
- ٢٦٢٩ - شرح الأثر
- الأثر الثاني: وقال عون بن عبد الله «يقولون: لولا فلان،
لم يكن كذا» ٢٦٣١
- ٢٦٣١ - مناسبة الأثر للباب

- ٢٦٣٢ - شرح الأثر
- الأثر الثالث: وقال ابن قتيبة: «يقولون: هذا بشفاعة
 ٢٦٣٣ ألهتنا»
- ٢٦٣٣ - مناسبة الأثر للباب
- ٢٦٣٣ - شرح الأثر
- الأثر الرابع: قوله: وقال أبو العباسي ٢٦٣٤
- ٢٦٣٤ - مناسبة الأثر للباب والتوحيد
- ٢٦٣٤ - شرح الأثر
- المسائل ٢٦٣٦
- ٢٦٣٧ ■ ■ ٤١ باب: «فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون»
- ٢٦٣٧ - مناسبة الباب لما قبله
- ٢٦٣٧ - مناسبة الباب لكتاب التوحيد
- ٢٦٣٩ - ماذا أراد المصنف بهذا الباب
- ٢٦٤٠ - الإعراب
- - ماجاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب
 ٢٦٤٢ التوحيد
- ٢٦٤٤ - فائدة لغوية
- ٢٦٤٨ - إشكال وجوابه
- ٢٦٤٨ - فائدة جلية
- الأثر الأول: وقال ابن عباس فى الآية «الأنداد هو الشرك،
 ٢٦٤٩ أخفى من ديبب النمل...»
- ٢٦٤٩ - مناسبة الأثر للباب وللتوحيد
- ٢٦٥٠ - شرح الأثر
- الحديث الأول: عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن
 رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو
 أشرك...» ٢٦٥٤
- ٢٦٥٧ - مناسبة ورود الحديث
- ٢٦٥٧ - أنواع الأيمان، وحكم الحلف بغير الله
- ٢٦٥٨ - شرح الحديث

- الأثر الثاني: وقال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذباً
- أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً» ٢٦٦٠
- شرح الأثر ٢٦٦٠
- فائدة متعلقة بالأثر ٢٦٦٣
- أولاً الحلف بالنبي ﷺ ٢٦٦٤
- ثانياً الحلف بالآباء ٢٦٦٥
- إشكالات والرد عليها ٢٦٦٨
- الأول: ما أقسم الله به في القرآن من مخلوقاته ٢٦٦٨
- الثاني: نهى ﷺ عن الحلف بغير الله، وقوله ﷺ: «أفلح وأبيه إن صدق»؟ ٢٦٦٨
- الحلف بالكعبة ٢٦٧٣
- الحلف بالأمانة ٢٦٧٣
- الحلف بتربة فلان، أو حياة والدي فلان، أو حرمة شيخك ٢٦٧٤
- رابعاً الحلف بغير ملة الإسلام ٢٦٧٤
- خامساً الحلف باللات والعزى ٢٦٧٧
- هل من حلف باللات أو غيرها عليه كفارة؟ ٢٦٧٨
- هل ينعقد يمين من حلف بالآباء وهل عليه كفارة ٢٦٧٩
- الحديث الثاني: وعن حذيفة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما شاء الله وشاء فلان....» ٢٦٨١
- شرح الحديث ٢٦٨١
- ما يستفاد من هذا الحديث ٢٦٨٢
- الأثر الثالث: وجاء عن إبراهيم النخعي: «أنه يكره: أعود بالله وبك...» ٢٦٨٣
- شرح الأثر ٢٦٨٣
- المسائل ٢٦٨٦
- ■ باب: ما جاء فيمن لم يقنح بالجلوف بالله ٢٦٨٨
- مناسبة هذا الباب لما قبله ٢٦٨٨
- مناسبة الباب للتوحيد ٢٦٨٨

- ٢٦٨٨ - شرح الترجمة، وماذا أراد المصنف بها
- الحديث الأول: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال:
- ٢٦٩٠ «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بغير الله...»
- ٢٦٩٠ - مناسبة الحديث للباب
- ٢٦٩١ - مناسبة الحديث للتوحيد
- ٢٦٩١ - شرح الحديث
- ٢٦٩٥ - ما يستفاد من الحديث
- ٢٦٩٦ ■ المسائل
- ٢٦٩٨ ■ ■ باب: قول: ما شاء الله وشئت
- ٢٦٩٨ - مناسبة الباب لما قبله
- ٢٦٩٨ - مناسبة الباب لكتاب التوحيد
- ٢٦٩٨ - ماذا أراد المصنف بالباب
- الحديث الأول: عن قتيلة: (أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، وتقولن: ما شاء الله وشئت...»
- ٢٦٩٩ - مناسبة هذا الحديث للباب وكتاب التوحيد
- ٢٧٠١ - إشكال وجوابه
- ٢٧٠٢ - شرح الحديث
- ٢٧٠٤ - فوائد الحديث
- ٢٧٠٦ - إشكال وجوابه
- الحديث الثاني: وله أيضاً عن ابن عباس، أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت...»
- ٢٧٠٦ - مناسبة الحديث للباب وللتوحيد
- ٢٧٠٧ - شرح الحديث
- ٢٧٠٩ - ما يستفاد من الحديث
- الحديث الثالث: ولابن ماجه عن الطفيل أخى عائشة لأمها...»
- ٢٧١٠ - مناسبة الحديث للباب وللتوحيد
- ٢٧١١ - شرح الحديث
- ٢٧١٦ - فوائد من الحديث

- ٢٧١٧ المسائل ■
- ٢٧٢٠ ■ ■ باب: من سب الدهر، فقد آذى الله ٤٤
- ٢٧٢٠ - مناسبة هذا الباب لما قبله
- ٢٧٢٠ - مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد
- ٢٧٢٠ - شرح الترجمة
- ٢٧٢١ - ماذا أراد المصنف بهذا الباب
- ٢٧٢٢ ■ الآية الأولى: قوله «وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا...»
- ٢٧٢٢ - مطابقة الآية للترجمة
- ٢٧٢٣ - مناسبة الآية للباب
- ٢٧٢٣ - مناسبة الآية للتوحيد
- ٢٧٢٣ - الإعراب
- ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد ٢٧٢٧، ٢٧٢٦، ٢٧٢٥
- ٢٧٣١ ■ الحديث الأول: وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى يؤذني ابن آدم...»
- ٢٧٣١ - مناسبة الحديث للباب
- ٢٧٣١ - مناسبة الحديث للتوحيد
- ٢٧٣٢ - شرح الحديث
- الرد على من زعم - من هذا الحديث - أن من أسماء الله الحسنى الدهر
- ٢٧٣٩ -- ما يلتحق بالدهر في النهي عن سبه
- ٢٧٤٣ المسائل ■
- ٢٧٤٤ ■ ■ باب: التسمي بقاضي القضاة ونجوه ٤٥
- ٢٧٤٤ - مناسبة هذا الباب لما قبله
- ٢٧٤٤ - مناسبة الباب لكتاب التوحيد
- ٢٧٤٧ - شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بها
- ٢٧٤٨ ■ الحديث الأول: في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن أضعف اسم عند الله...»
- ٢٧٤٨ - مناسبة الحديث للباب

- ٢٧٤٨ مناسبة الحديث للتوحيد
- ٢٧٤٨ شرح الحديث
- ٢٧٥١ ■ الأثر الأول: قال سفيان: «مثل شاهان شاه»
- ٢٧٥١ - تحريم التسمية بملك الملوك وما أدى معناه بأى لسان كان
- ٢٧٥١ - شرح الأثر
- - تحريم التسمية بملك الملوك وما فى معناه مثل أحكم الحاكمين
- ٢٧٥٢ - نوادر سلفية ومواقف مع من تسمى بهذا الاسم
- ٢٧٥٣ ■ المسائل
- ٢٧٥٥ ■ ■ باب احترام أسماء الله تعالى، وتغيير الاسم لأجل ذلك
- ٢٧٥٧ - مناسبة هذا الباب لما قبله
- ٢٧٥٧ - مناسبة الباب للتوحيد
- ٢٧٥٧ - ماذا أراد المصنف بهذا الباب
- ٢٧٥٧ - تمهيد
- ٢٧٦٠ - شرح الترجمة
- ■ الحديث الأول: عن أبى شريح أنه كان يكنى أبا الحكم فقال له النبى ﷺ «إن الله هو الحكم...»
- ٢٧٦٣ - مناسبة الحديث للباب
- ٢٧٦٤ - مناسبة الحديث للتوحيد
- ٢٧٦٤ - شرح الحديث
- ٢٧٦٨ - فوائد الحديث
- ٢٧٦٩ - تنبيه
- ٢٧٧٠ ■ المسائل
- ■ ■ باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول
- ٢٧٧١ - مناسبة هذا الباب لما قبله
- ٢٧٧١ - شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد
- ٢٧٧١

- ٢٧٧١ - حكمة من أقوال أهل العلم وشرح كتاب التوحيد
- ٢٧٧٤ - هل تقبل توبة من سب الله أو الرسول أو الدين؟
- الآية الأولى: قوله: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ ٢٧٧٦
- ٢٧٧٦ - مناسبة الآية للباب
- ٢٧٧٦ - الإعراب
- ٢٧٧٦ - ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد
- ٢٧٨٤ - ما يستفاد من الآيتين
- الحديث الأول: عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن بن أسلم وقتادة..... ٢٧٨٥
- ٢٧٨٦ - مناسبة الحديث للباب
- ٢٧٨٦ - شرح الحديث
- ٢٧٩٠ - مسألة فى سب الصحابة رضى الله عنهم
- ٢٧٩٣ ■ المسائل
- ■ باب قول الله تعالى: ﴿ولئن أفناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى﴾ ٢٧٩٥
- ٢٧٩٥ - مناسبة هذا الباب لما قبله
- ٢٧٩٥ - ماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبته لكتاب التوحيد
- ٢٧٩٦ - مناسبة الآية لكتاب التوحيد
- ٢٧٩٦ - مناسبة الآية للباب
- ٢٧٩٦ - ما جاء فى تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد
- الحديث الأول: وعن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بنى إسرائيل...» ٢٨٠٣
- ٢٨٠٣ - مناسبة الحديث للباب
- ٢٨٠٤ - مناسبة الحديث للتوحيد
- ٢٨٠٤ - شرح الحديث
- ٢٨١٦ - العبر من الحديث

- ٢٨٢٠ ■ المسائل
- ٤٩ ■ ■ باب: قول الله تعالى: ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾
- ٢٨٢١ شركاء فيما آتاهما
- ٢٨٢١ - مناسبة هذا الباب لما قبله
- ٢٨٢١ - ماذا أراد المصنف بهذا الباب؟ ومناسبته لكتاب التوحيد
- ٢٨٢٢ - مناسبة الآية للباب وللتوحيد
- ٢٨٢٢ - شرح الآية
- ٢٨٢٢ - الإعراب
- - ما جاء في تفسير الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد
- ٢٨٢٣ التوحيد
- ٢٨٣٩ - وجوه القراءات في قوله تعالى: ﴿شركاء﴾
- ■ قول ابن حزم: «اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله...»
- ٢٨٦٠ الله...
- ٢٨٦٠ - شرح كلام ابن حزم
- ■ الأثر الأول: وعن ابن عباس في الآية قال: لما تغشاها آدم حملت...
- ٢٨٦٤ حملت...
- ٢٨٦٥ - مناسبة الأثر للباب وللتوحيد
- ٢٨٦٥ - شرح الأثر
- ■ الأثر الثاني: وله بسند صحيح عن قتادة، قال: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته
- ٢٨٦٦ طاعته، ولم يكن في عبادته
- ٢٨٦٦ - مناسبة الأثر للباب وللتوحيد
- ٢٨٦٦ - شرح الأثر
- ■ الأثر الثالث: وله بسند صحيح في قوله: ﴿لئن أتيتنا صالحاً﴾ قال: أشفقاً أن لا يكون إنساناً
- ٢٨٦٧ صالحاً
- ٢٨٦٧ - شرح الأثر
- ٢٨٦٩ ■ المسائل
- ■ باب: قول الله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾
- ٢٨٧٢ بها
- ٢٨٧٢ - مناسبة الباب لما قبله

٢٨٧٢	- مناسبة الباب لكتاب التوحيد
٢٨٧٤	- ماذا أراد المصنف بهذا الباب
٢٨٧٤	- مناسبة الآية للباب
٢٨٧٤	- مناسبة الآية للتوحيد
٢٨٧٤	- سبب نزول الآية
٢٨٧٥	- الإعراب
		- ما جاء في الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب
٢٨٧٥	التوحيد
		- مسألة فصل الخطاب في أسماء الله الحسنى هل هي
٢٨٩٢	توقيفية أم لا
٢٨٩٧	- فصل فيما جاء في أسم الله الاعظم
		■ الأثر الأول: ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس «يلحدون
٢٩١٥	في أسمائه»: «يشركون»
٢٩١٥	- مناسبة الأثر للباب وللتوحيد
٢٩١٦	- شرح الأثر
٢٩١٦	■ الأثر الثانى: سمو اللات من الإله، والعزى من العزيز»
٢٩١٦	- مناسبة الأثر للباب وللتوحيد
٢٩١٧	- شرح الأثر
٢٩٢٧	■ الأثر الثالث: عن الأعمش «يدخلون فيها ما ليس فيها»
٢٩١٧	- مناسبة الأثر للباب وللتوحيد
٢٩١٨	- تنمة
٢٩١٨	- آيات الله تنقسم إلى قسمين
٢٩١٩	■ المسائل

فهرس

المجلد الثامن

من كتاب مفنى المريد شرح كتاب التوحيد

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الباب
٢٩٢١	■ باب: لا يقال: السلام على الله	٥١
٢٩٢١	- مناسبة الباب لما قبله	
٢٩٢١	- مناسبة الباب للتوحيد	
٢٩٢٢	- شرح الترجمة	
٢٩٢٣	- السلام له عدة معان	
	■ الحديث الأول: وفى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه، قال: كنا إذا كنا مع النبى ﷺ فى الصلاة، قلنا:	
٢٩٢٤	السلام على الله من عباده.	
٢٩٢٦	- مناسبة الحديث للباب	
٢٩٢٦	- مناسبة الحديث للتوحيد	
٢٩٢٦	- شرح الحديث	
٢٩٣٢	- فائدة	
٢٩٣٣	■ المسائل	
٢٩٣٦	■ باب قول: اللهم اغفرلى إن شئت	٥٢
٢٩٣٦	- مناسبة الباب لما قبله	
٢٩٣٦	- مناسبة الباب للتوحيد	
٢٩٣٧	- شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب	
	■ الحديث الأول: وفى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفرلى إن شئت...»	
٢٩٣٩	- مناسبة الحديث للباب	
٢٩٣٩	- مناسبة الحديث للتوحيد	
٢٩٤٠	- شرح الحديث	
	■ الحديث الثانى: «وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه	
٢٩٤٦	شىء أعطاه»	
٢٩٤٦	- شرح الحديث	

- ٢٩٤٨ ■ المسائل
- ٢٩٥٠ ■ ■ ٥٣ ■ باب لإيقول: عبدي وأمتي
- ٢٩٥٠ - مناسبة هذا الباب لما قبله.....
- ٢٩٥٠ - مناسبة الباب لكتاب التوحيد.....
- ٢٩٥١ - شرح الترجمة.....
- الحديث الأول: في الصحيح عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم أطعم ربك، وضىء ربك».....
- ٢٩٥١ - مناسبة الحديث للباب.....
- ٢٩٥٢ - مناسبة الحديث للتوحيد.....
- ٢٩٥٢ - شرح الحديث.....
- ٢٩٥٣ - سبب النهي وعلاقته بالتوحيد.....
- ما جاء في حكم قول الرجل (عبدي، وأمتي
- ٢٩٥٣ (وسيدي...)
- ٢٩٦٤ - فوائد الحديث.....
- ٢٩٦٥ ■ المسائل
- ٢٩٦٧ ■ ■ ٥٤ ■ باب لإيبرء من سأل بالله
- ٢٩٦٧ - مناسبة الباب لما قبله.....
- ٢٩٦٧ - مناسبة الباب للتوحيد.....
- ٢٩٦٧ - شرح الترجمة.....
- ٢٩٦٩ - فعلى هذا التبويب عدة مسائل.....
- الحديث الأول: عن ابن عمر رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ «من سأل بالله، فأعطوه...»
- ٢٩٧١ ■
- ٢٩٧١ - مناسبة الحديث للباب.....
- ٢٩٧١ - مناسبة الحديث للتوحيد.....
- ٢٩٧١ - شرح الحديث.....
- ٢٩٧٦ - حكم إجابة الدعوه.....
- ٢٩٧٧ - الاعذار التى يسقط بها وجوب اجابه الدعوه اونها.....
- ٢٩٧٨ - حكم اجابة الدعوة فى غير العرس.....
- ٢٩٧٩ - مسألة: وهل تجب إجابة دعوة للمصائم؟.....

- ٢٩٨١ هل يستحب له ان يفطر ان كان صومه طوعاً
- ٢٩٨٤ مسألة: هل إجابة الدعوة حق لله أوللآدمى؟
- ٢٩٨٤ مسألة: هل بطاقات الدعوة التى توزع كالدعوة بالمشافهة؟
- ٢٩٨٨ ■ المسائل
- ٢٩٩٠ ■ ■ باب: لايسأل بوجه الله إلا الجنة ٥٥
- ٢٩٩٠ - مناسبة الباب لما قبله
- ٢٩٩٠ - مناسبة الباب للتوحيد
- ٢٩٩١ - شرح الترجمة
- الحديث الأول: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ:
- ٢٩٩١ «لايسأل بوجه الله إلا الجنة...»
- ٢٩٩١ - مناسبة الحديث للباب
- ٢٩٩١ - مناسبة الحديث للتوحيد
- ٢٩٩١ - شرح الحديث
- ٢٩٩٨ ■ المسائل
- ٢٩٩٩ ■ ■ باب: ما جاء فى اللو ٥٦
- ٢٩٩٩ - مناسبة هذا الباب لما قبله
- ٢٩٩٩ - مناسبة الباب للتوحيد
- ٣٠٠٠ - شرح الترجمة والتبويب، وماذا أراد المصنف بها
- ٣٠٠٢ - حكم استعمال كلمة لو
- ٣٠٠٣ ■ الآية الأولى: قوله: «يقولون لو كان لنا من الأمر...»
- ٣٠٠٣ - مناسبة الآية للباب
- ٣٠٠٤ - مناسبة الآية للتوحيد
- ٣٠٠٤ - الإعراب
- ٣٠٠٥ - ما جاء فى سبب النزول
- - ما جاء فى الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب
- ٣٠٠٦ التوحيد
- الآية الثانية: قوله: «الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو
- ٣٠١١ أطاعونا...»
- ٣٠١١ - مناسبة الآية للباب

رقم الباب	الموضوع	رقم الصفحة
	- مناسبة الآية للتوحيد	٣٠١٢
	- الإعراب	٣٠١٢
	- أسباب نزول الآية	٣٠١٢
	- ما جاء فى الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب التوحيد	٣٠١٣
	■ الحديث الأول: فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أحرص على ما ينفعك...»	٣٠٢٠
	- مناسبة الحديث للباب	٣٠٢٠
	- مناسبة الحديث للتوحيد	٣٠٢٠
	- شرح الحديث	٣٠٢٠
	- هل يدخل فى ذلك قوة البدن؟	٣٠٢١
	- ما يستفاد من الحديث	٣٠٣٧
	■ المسائل	٣٠٣٩
٥٧	■ ■ باب: النهى عن سب الرياح	٣٠٤١
	- مناسبة الباب لما قبله	٣٠٤١
	- مناسبة الباب للتوحيد	٣٠٤١
	- شرح الترجمة والتبويب	٣٠٤٢
	■ الحديث الأول: عن أبى بن كعب رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الرياح...»	٢٠٤٣
	- مناسبة الحديث للباب	٣٠٤٣
	- مناسبة الحديث للتوحيد	٣٠٤٣
	- شرح الحديث	٣٠٤٤
	- فصل ما ينبغى قوله وفعله عند هبوب الرياح غير ما تقدم	٣٠٤٨
	■ المسائل	٣٠٤٩
٥٨	■ ■ باب: قول لله تعالى: ﴿يُظَنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...﴾	٣٠٥٠
	- مناسبة الباب لما قبله	٣٠٥٠
	- ماذا أراد المصنف بهذا الباب، ومناسبته لكتاب التوحيد	٣٠٥٠

- الآية الأولى: قوله: ﴿يظنون بالله غير الحق...﴾ ٣٠٥٢
- مناسبة الآية للباب ٣٠٥٢
- مناسبة الآية للتوحيد ٣٠٥٢
- ما جاء في الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد ٣٠٥٣
- الإعراب ٣٠٥٣
- أنواع الظن بالله ٣٠٥٥
- الآية الثانية: قوله: ﴿الظانين بالله ظن السوء...﴾ ٣٠٧١
- مناسبة الآية للباب ٣٠٧١
- مناسبة الآية للتوحيد ٣٠٧١
- الإعراب ٣٠٧٢
- ما جاء في الآية من كلام المفسرين وشرح كتاب التوحيد ٣٠٧٢
- فوائد الآية ٣٠٧٧
- كلام ابن القيم في الآية الأولى ٣٠٧٧
- شرح كلام ابن القيم ٣٠٧٨
- المسائل ٣٠٩٠
- ■ باب: ما جاء في منكروى القدر ٣٠٩٢ ٥٩
- مناسبة الباب لما قبله ٣٠٩٢
- مناسبة الباب للتوحيد ٣٠٩٢
- شرح الترجمة وماذا أراد المصنف ٣٠٩٣
- تعريف القضاء والقدر ٣٠٩٣
- درجات الإيمان بالقدر ٣٠٩٤
- والناس في القدر ثلاثة طوائف ٣٠٩٧
- مراتب القدر ٣١٠١
- وللايمان بالقدر فوائد عظيمة ٣١٠٧
- الأثر الأول: قال ابن عمر: والذي نفسى ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه فى سبيل الله ما قبله الله منه... » ٣١٠٧

- مناسبة الأثر للباب ٣١٠٨
- مناسبة الأثر للتوحيد ٣١٠٨
- شرح الأثر ٣١٠٨
- الأثر الثاني: وعن عبادة بن الصامت: أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك . . . » ٣١١٨
- مناسبة الحديث للباب ٣١١٨
- مناسبة الحديث للتوحيد ٣١١٨
- شرح الحديث ٣١١٩
- هل المراد أول المخلقات كلها هو القلم ٣١٢٣
- مسألة: هل القلم يعلم الغيب؟ ٣١٢٤
- ما يستفاد من الحديث ٣١٢٦
- الحديث الثاني: وفي رواية لأحمد «إن أول ما خلق الله تعالى القلم . . . » ٣١٢٦
- شرح الحديث ٣١٢٦
- الحديث الثالث: وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره...» ٣١٢٧
- شرح الحديث ٣١٢٧
- الأثر الثالث: وفي «المستند والسنن» عن أبي الديلمي، قال: أتيت أبا بن كعب، فقلت له: في نفسى شيء من القدر . . . » ٣١٢٩
- شرح الأثر ٣١٣٠
- مسألة: الإيمان بالقدر هل هو متعلق بتوحيد الربوبية، أو بالألوهية، أو بالأسماء والصفات؟ ٣١٣٢
- المسائل ٣١٣٣
- ■ باب: ما جاء في المحصورين ٣١٣٧
- مناسبة الباب لما قبله من الأبواب ٣١٣٧
- شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبته لكتاب التوحيد ٣١٣٧

- الحديث الأول: عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى...» ٣١٣٨
- مناسبة الحديث للباب ٣١٤٠
- مناسبة الحديث للتوحيد ٣١٤٠
- مسألة كيف يجمع بين هذا الحديث، وبين قوله تعالى: «ومن أظلم ممن منع مساجد الله...؟» ٣١٤٠
- شرح الحديث ٣١٤٠
- الحديث الثانى: ولهما عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله» ٣١٤٨
- مناسبة الحديث للباب ٣١٤٩
- مناسبة الحديث للتوحيد ٣١٤٩
- شرح الحديث ٣١٤٩
- إشكال وجوابه ٣١٥٠
- ما يستفاد من الحديث ٣١٥٣
- الحديث الثالث: ولهما عن ابن عباس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور فى النار...» ٣١٥٤
- مناسبة الحديث للباب ٣١٥٤
- مناسبة الحديث للتوحيد ٣١٥٥
- شرح الحديث ٣١٥٥
- الحديث الرابع: ولهما مرفوعاً «من صور صورة فى الدنيا...» ٣١٥٦
- شرح الحديث ٣١٥٩
- الحديث الخامس: ولمسلم عن أبى الهياج، قال: قال لى على: ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ...» ٣١٥٩
- مناسبة الحديث للباب ٣١٥٩
- مناسبة الحديث للتوحيد ٣١٥٩
- شرح الحديث ٣١٦٠

- ٣١٦٢ - المفاسد المترتبة على اتخاذ المساجد على القبور
- ٣١٦٧ - مناسبة ذكر القبر المشرف مع الصورة
- ٣١٦٧ - عقوبة المصور
- ٣١٦٨ - فائدتان
- ٣١٦٩ ■ المسائل
- ٣١٧١ ■ ■ باب: ما فى كثرة الحلف
- ٣١٧١ - مناسبة هذا الباب لما قبله
- ٣١٧١ - شرح الترجمة
- ٣١٧١ - ماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبته لكتاب التوحيد
- ٣١٧٢ ■ الآية الأولى: قوله: ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾
- ٣١٧٢ - مناسبة الآية للباب وللتوحيد
- ٣١٧٢ - الإعراب
- - ما جاء فى الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب
- ٣١٧٢ التوحيد
- ■ الحديث الأول: عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال:
- ٣١٧٧ سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحلف متعة للسلة... »
- ٣١٧٧ - مناسبة الحديث للباب
- ٣١٧٨ - مناسبة الحديث للتوحيد
- ٣١٧٨ - شرح الحديث
- ■ الحديث الثانى: وعن سلمان، أن رسول الله قال: «ثلاثة
- لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، أشيـمـط
- ٣١٧٩ زان...»
- ٣١٨٠ - مناسبة الحديث للباب
- ٣١٨٠ - مناسبة الحديث للتوحيد
- ٣١٨٠ - شرح الحديث
- ■ الحديث الثالث: وفى الصحيح عن عمران بن حصين
- رضى الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتى
- ٣١٨٧ قرنى، ثم الذين يلونهم...»
- ٣١٨٧ - شرح الحديث

٣٢٠٠	- فوائد من الحديث	
	■ الحديث الرابع: وفيه عن ابن مسعود، أن النبي ﷺ قال:	
٣٢٠٠	«خير الناس قرني...»	
٣٢٠١	- مناسبة الحديث للباب	
٣٢٠١	- مناسبة الحديث للتوحيد	
٣٢٠١	- شرح الحديث	
٣٢٠٤	■ المسائل	
٣٢٧٧	■ ■ باب: ما جاء في خدمة الله وخدمة نبيه	٦٢
٣٢٠٧	- مناسبة الباب لما قبله	
٣٢٠٧	- ماذا أراد المصنف بهذا الباب ومناسبته لكتاب التوحيد	
٣٢٠٩	- شرح الترجمة	
٣٢٠٩	■ الآية الأولى: قوله: «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم...»	
٣٢٠٩	- مناسبة الآية للترجمة	
٣٢١٠	- مناسبة الآية للتوحيد	
٣٢١٠	- سبب النزول	
٣٢١٠	- الإعراب	
	- ما جاء في الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب	
٣٢١٠	التوحيد	
	■ الحديث الأول: عن بريدة قال: «كان رسول الله ﷺ إذا	
٣٢٢٣	أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله...»	
٣٢٢٤	- مناسبة الحديث للباب	
٣٢٢٤	- مناسبة الحديث للتوحيد	
٣٢٢٥	- فإذا أسلموا فلهم ثلاث مراتب	
٣٢٢٥	- شرح الحديث	
٣٢٤٣	- ما يستفاد من الحديث	
٣٢٤٦	■ المسائل	
٣٢٤٩	■ ■ باب: ما جاء في الإقسام على الله	٦٣
٣٢٤٩	- مناسبة الباب لما قبله	
٣٢٤٩	- مناسبة الترجمة لكتاب التوحيد	

- شرح الترجمة وماذا أراد المصنف بهذا الباب ٣٢٤٩
- الحديث الأول: عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل والله لا يغفر الله لفلان...» ٣٢٥٣
- مناسبة الحديث للباب ٣٢٥٣
- مناسبة الحديث للتوحيد ٣٢٥٣
- شرح الحديث ٣٢٥٣
- من فوائد الحديث ٣٢٥٦
- الحديث الثاني: عن أبي هريرة أن القائل رجل عابد... » ٣٢٥٦
- مناسبة الحديث للباب وللتوحيد ٣٢٥٧
- شرح الحديث ٣٢٥٧
- ما يستفاد من الحديث ٣٢٥٨
- المسائل ٣٢٥٩
- باب: لا يستشفع بالله على خلقه ٣٢٦٢
- مناسبة الباب لما قبله ٣٢٦٢
- مناسبة الباب لكتاب التوحيد ٣٢٦٢
- شرح الترجمة ٣٢٦٣
- الحديث الأول: عن جبير بن مطعم رضى الله عنه، قال:
- جاء إعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله... » ٣٢٦٤
- مناسبة الحديث للباب ٣٢٦٥
- مناسبة الحديث للتوحيد ٣٢٦٥
- شرح الحديث ٣٢٦٥
- فوائد الحديث ٣٢٧٦
- المسائل ٣٢٧٦
- باب: ما جاء في حماية النبي ﷺ جمعي التوحيد
- وسجده طرق الشريعة ٣٢٨٠
- علاقة هذا الباب بالباب الحادى والعشرين (وعنوانها متشابهان) ٣٢٨٠
- مناسبة الباب للتوحيد ٣٢٨٠
- شرح الترجمة، وماذا أراد المصنف بهذا الباب ٣٢٨١

■ الحديث الأول: عن عبدالله بن الشخير رضى الله عنه

قال: انطلقت في وفد بنى عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا

أنت سيدنا... » ٣٢٨٦

- مناسبة الحديث للباب والتوحيد ٣٢٨٦

- شرح الحديث ٣٢٩٠

- مسألة: حكم المدح ٣٢٠١

- فوائد الحديث ٣٢٩٦

■ الحديث الثانى: وعن أنس رضى الله عنه «أن ناساً قالوا:

يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا... » ٣٢٩٧

- مناسبة الحديث للباب والتوحيد ٣٢٩٧

- شرح الحديث ٣٢٩٧

■ المسائل ٣٣٠٠

■ ■ باب: ما جاء فى قول الله تعالى ﴿وما قدرُوا الله حق

٦٦

قدره﴾ ٣٣٠٢

- مناسبة هذا الباب لما قبله من أبواب ومناسبته لكتاب

التوحيد، ووجه ختام المصنف به ٣٣٠٢

- شرح التبويب وماذا أراد المصنف بهذا الباب ٣٣٠٢

- مناسبة الآية لكتاب التوحيد ٣٣٠٦

- الإعراب ٣٣٠٦

- ما جاء فى الآية من كلام المفسرين وشراح كتاب التوحيد ٣٣٠٦

- شبهة والرد عليها ٣٣١٣

■ الحديث الأول: عن ابن مسعود رضى الله عنه، قال: جاء

حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا

محمد... » ٣٣٢٢

- مناسبة الحديث للباب وللتوحيد ٣٣٢٤

- شرح الحديث ٣٣٢٤

- الراجح فى تعليل ضحك النبى ﷺ من كلام اليهودي ٣٣٢٨

- شبهات المؤولين وأجوبة شافية ٣٣٢٩

- فوائد الحديث ٣٣٣٠

- ٣٣٣٢ نصيحة للمتأولين وغيرهم
- ٣٣٣٣ هل يجوز أن نهزأ بأيدينا كما فعل النبي ﷺ؟
- الحديث الثاني: ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوى الله
- ٣٣٣٤ السمات يوم القيامة...»
- ٣٣٣٤ مناسبة الحديث للباب وللتوحيد
- ٣٣٣٤ شرح الحديث
- الحديث الثالث: وروى عن ابن عباس، قال: ما السماوات
- ٣٣٣٦ السبع والأرضون السبع في كف...»
- ٣٣٣٦ مناسبة الحديث للباب وللتوحيد
- ٣٣٣٦ شرح الحديث
- الحديث الرابع: وقال ابن جرير «حدثني يونس، أخبرنا
- ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال
- ٣٣٣٧ رسول الله «ما السموات السبع...»
- ٣٣٣٧ مناسبة الحديث للباب وللتوحيد
- ٣٣٣٧ شرح الحديث
- الحديث الخامس: عن ابن مسعود قال: بين السماء الدنيا
- ٣٣٣٨ والتي تليها...»
- ٣٣٣٨ مناسبة الحديث للباب والتوحيد
- ٣٣٣٨ شرح الحديث
- الحديث السادس: وعن العباس بن عبدالمطلب قال: قال
- ٣٣٤٠ رسول الله ﷺ: «هل تدرّون كم بين السماء والأرض»
- ٣٣٤٠ مناسبة الحديث للباب والتوحيد
- ٣٣٤١ شرح التوحيد
- ٣٣٤٧ المسائل ■